صفحات من تاريخ مصر ١/٤٨

الكافى

فى
تاريخ مصر القديم والحديث

لمؤلفه
ميخائيل شاروبيم بك
رئيس النيابة العمومية بمحكمة المنصورة الأهلية
والمفتش بنظارة المالية الجليلة
عفى الله عنه

الجزء الأول

عن الفترة من
٤٠٥٠ ق. م إلى سنة ٦٤٠م
٥٦٢٦ ق. هـ إلى سنة ١٩ هـ

الناشر
مكتبة مدبولى
٦ ميدان طلعت حرب. القاهرة

هذه السلسلة تضم :

١ – فتح العرب لمصر
٢ – تاريخ مصر إلى الفتح العثماني
٣ – الجيش المصري البري والبحري في عهد محمد علي
٤ – تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي
٥ – تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل
٦ – تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر
٧ – ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا
٨ – تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا (مجلد أول)
٩ – تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا (مجلد ثاني)
١٠ – فتوح مصر وأخبارها
١١ – تاريخ مصر الحديث مع فذلكة في تاريخ مصر القديم
١٢ – قوانين الدواوين
١٣ – تاريخ مصر من محمد علي إلى العصر الحديث
١٤ – الحكم المصري في الشام
١٥ – تاريخ الخديوي محمد باشا توفيق
١٦ – آثار الزعيم سعد زغلول
١٧ – مذكراتي
١٨ – الجيش المصري في الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم
١٩ – وادي النطرون ورهبانه وأديرته ومختصر البطاركة
٢٠ – الجمعية الأثرية المصرية في صحراء العرب والأديرة الشرقية
٢١ – الرحلة الأولى للبحث عن ينابيع البحر الأبيض (النيل الأبيض)
٢٢ – السلطان قلاوون (تاريخه – أحوال مصر في عهده – منشآته المعمارية)
٢٣ – صفوة العصر
٢٤ – المماليك في مصر
٢٥ – تاريخ دولة المماليك في مصر
٢٦ – سلاطين بني عثمان
٢٧ – محمود فهمي النقراشي
٢٨ – دور القصر في الحياة السياسية
٢٩ – مذكرات اللورد كيللرن
٣٠ – عادات المصريين
٣١ – خنقاوات الصوفية ج ١
٣٢ – خنقاوات الصوفية ج ٢
٣٣ – تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الملوك والسلاطين
٣٤ – تاريخ عمرو بن العاص
٣٥ – دور القبائل العربية في صعيد مصر
٣٦ – علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب
٣٧ – عبد الرحمن الجبرتي ٥ أجزاء
٣٨ – مصر في العصر العثماني في القرن ١٦
٣٩ – خطط المقريزى ٣ أجزاء (محققة منقحة في ٢٧٥٠ صفحة)
٤٠ – صفحات من تاريخ مصر (صليب باشا سامى)
٤١ – صفحات من تاريخ مصر (سيد مرعى)
٤٢ – سلار الأمير التتري المسلم
٤٣ – مالية مصر
٤٤ – الموسيقى الشرقية
٤٥ – الدليل في موارد أعالي النيل
٤٦ – الموسيقى الشرقي
٤٧ـ النخبة المصرية الحاكمة ١٩٥٢ـ٠٠
٤٨ـ الكافي في تاريخ مصر ـ ٤ أجزاء

مكتبة مدبولى
٦ ميدان طلعت حرب – القاهرة – ت : ٥٧٥٦٤٢١

MADBOULI BOOKSHOP
6 Talat Harb SQ. Tel.: 5756421

الكافى

فى تاريخ مصر القديم

من سنة 4050 ق. م. إلى سنة 640م
5626 ق. هـ إلى سنة 19 هـ

الكتاب: الكافى
الكاتب: ميخائيل شاروبيم بك
الناشر: مكتبة مدبولى
ت: ٥٧٥٦٤٢١
الطبعة: الأولى: ١٨٩٨م ـ ١٣١٥هـ
الثانية: ٢٠٠٤م ـ ١٤٢٥هـ
رقم الإيداع:

مراجعة لغوية: عبد النبى محمد

١/٤٨ صفحات من تاريخ مصر

الكافى

فى

تاريخ مصر القديم والحديث

لمؤلفه
ميخائيل شاروبيم بك
رئيس النيابة العمومية بمحكمة المنصورة الأهلية
والمفتش بنظارة المالية الجليلة
عفى الله عنه

الجزء الأول

عن الفترة من
٤٠٥٠ ق. م إلى سنة ٦٤٠م
٥٦٢٦ ق. هـ إلى سنة ١٩ هـ

الناشر
مكتبة مدبولى
٦ ميدان طلعت حرب. القاهرة

المحتويات

المحتوى الصفحة
خطبة الكتاب ١١

المقدمة وفيها فصلان

الفصل الأول: فى دخول نوح عليه السلام السفينة وفيمن نزل مصر من ذريته ٢١
الفصل الثانى: فى تاريخ مصر القديم وفيما يعتبره المصريون قاعدة لتأسيس مملكتهم ٢٤

الكتاب الأول فى ملوك الطبقات الثلاث وفيه أبواب

الباب الأول: فى الطبقة الأولى أو الطبقة العليا وفيه فصول ٤١
الفصل الأول: فى العائلة الأولى الطينية
فى الكلام على الملك منا ٤١
فى الكلام على الملك أثوتيس ومن ملك بعد من هذه العائلة ٤٢
الفصل الثانى: فى العائلة الثانية المعروفة بالطينية ٤٣
الفصل الثالث: فى العائلة الثالثة المعروفة بالمنفية ٤٦
الفصل الرابع: فى العائلة الرابعة المنفية ٤٩
فى الملك خوفو ٤٩
فى الملك رع ددف ٥٠
فى الملك خفرع ٥١
فى الملك منكورع المسمى أيضا منخرس ٥١
فى الملك شبسكاف المسمى أيضا سبرخرس ٥٣
الفصل الخامس: فى العائلة الخامسة التى كان تحت حكمها جزيرة أسوان ٥٣
فى الملك إسكاف الذى يقال له اسركاف ٥٤
فى الملك ددكارع الذى يقال له تنخرس ٥٥
فى الملك أوتاس الذى يقال له أيضًا آتوس ٥٦
الفصل السادس: فى العائلة السادسة التى قاعدتها جزيرة أسوان ٥٧
فى الملك آتى والملك تتا شريكه ٥٨
فى الملك مريرع الذى يسمى أيضًا فيوس ٥٨
فى الملك مرنرع أو مثه سوفس الأول ٦٠
فى الملك نفر كارع ويسمى أيضًا فيوبس ٦٠
فى الملك مرنرع الثانى ويسمى أيضًا مثه سوفس الثانى ٦١
فى الملكة نيتوقريس ٦١
الفصل السابع: فى العائلة السابعة والثامنة المنفية والتاسعة والعاشرة الأهناسية ٦١
الفصل الثامن: فى العائلة الحادية عشرة الطيبية ٦٤
فى الملك أنتف الأول الذى يقال له أيضًا أنتف عا الأول ٦٤

الباب الثاني: في الطبقة الثانية ٦٩
الفصل الأول: في العائلة الثانية عشرة الطيبية ٦٩
في الملك أمنمحعت الأول ٦٩
في الملك أوسرتسن الأول ٧١
في الملك أمنمحعت الثاني ٧٢
في الملك أوسرتسن الثاني ٧٣
في الملك أوسرتسن الثالث ٧٤
في الملك أمنمحعت الثالث ٧٥
في الملك أمنمحعت الرابع وأخته الملكة سبك نفرورع ٧٨
الفصل الثاني: في العائلة الثالثة عشرة الطيبية ٧٩
الفصل الثالث: في العائلة الرابعة عشرة السخاوية ٨١
الفصل الرابع: في العائلة الخامسة عشرة ٨٢
في الملك سلاطيس المعروف عند العرب بالوليد بن روقع ٨٢
الفصل الخامس: في العائلة السادسة عشرة الصانية ٨٤
في الملك آبابي أوأبوفيس الملقب رعاكن الذي تسميه العرب الريان بن الوليد ٨٤
الفصل السادس: في العائلة السابعة عشرة ٨٦
في الملك تاعا الأول الملقب رعسكنن الأول ٨٧
الباب الثالث: في الطبقة الثالثة ٨٩
الفصل الأول: في العائلة الثامنة عشرة الطيبية ٨٩
في الملك أموسيس الأول الذي يقال له أحعمس الأول ٨٩
في الملك امنحوتب الأول ٩١
في الملك تحوتمس الأول ويسمى أيضا توتومس الأول ٩٢
في الملك توتوميس الثاني ٩٣
في الملكة حعتشبسو وتسمى أيضا رمكا ٩٤
في الملك توتوميس الثالث ٩٦
في الملك أمنوفيس الثاني ٩٨
في الملك توتوميس الرابع ٩٩
في الملك أمنوفيس الثالث ١٠٠
في الملك أمنوفيس الرابع ١٠١
في الملك آيي ١٠٢
في الملك توت عنخ أمون ١٠٣
في الملك حوريي أو حور محب ويسمى أيضاً رع سرخبر واستين رع ١٠٣
الفصل الثاني: في العائلة التاسعة عشرة ١٠٤
في الملك رمسيس الأول ١٠٤
في الملك سيطوس الأول الملقب رعمامن ١٠٥
في الملك رمسيس الثاني المعروف بسيزوستريس ١٠٦
في الملك منفطا الثاني ابن رمسيس الأكبر ١١٥
في الملكة طوسير بنت منفطة الثاني وأخيها الملك منفطة الثالث ١٢٦
في الملك سبتاح ١٢٨
في الملك سيتنخت ١٢٩
الفصل الثالث: في ملوك الدولة المتممة للعشرين الطيبونة ١٣٠
في الملك رمسيس الثالث الملقب رع أو سرماميامون ١٣١
في الملك رمسيس الرابع ١٣٦

فى الملك رمسيس الخامس ١٣٦
فى الملك رمسيس السادس الملقب بنباميامون ١٣٧
فى الملك رمسيس العاشر الملقب بنفر كاوورع استبن رع ١٣٩
فى الملك رمسيس الحادى عشر ١٤١
فى الملك رمسيس الثانى عشر ١٤٣
فى الملك رمسيس الثالث عشر ١٤٣
الفصل الرابع: فى ملوك الدولة الحادية والعشرين التنيسية ١٤٤
فى الكلام على الكاهن حرحور ١٤٥
فى الكاهن بعنخى ١٤٥
فى الكاهن بينوزم الأول ١٤٦
الفصل الخامس: فى ملوك الدولة الثانية والعشرين ١٤٩
فى الملك ششنق الأول ١٤٩
فى الملك ارسرخان الأول ١٥٠
فى الملك تاكلوت الأول ١٥٠
فى الملك ارسرخان الثانى ١٥٠
فى الملك ششنق الثانى ١٥١
فى الملك تاكلوت الثانى ١٥١
الفصل السادس: فى ملوك الدولة الثالثة والعشرين التنيسية ١٥٢
الفصل السابع: فى ملوك الدولة الرابعة والعشرين الصاوية ١٥٣
فى الملك تفنخت الذى يسمى أيضاً تخناتس ١٥٤
فى الملك باكوريس ١٦٥
الفصل الثامن: فى الدولة الخامسة والعشرين السودانية ١٦٦
فى الملك سباقون ١٦٦
فى الملك سيبخون ويقال له أيضا شباناق ١٦٧
فى الملك طهراق ويقال له أيضا تاراقوس ١٦٨
فى الملك نوات ميامون الملقب بى كارع ١٧١
الفصل التاسع: فى الدولة السادسة والعشرين الصاوية ١٧٤
فى الملك بسامتيك الأول ١٧٦
فى الملك نيخاوس الثانى المعروف بفرعون الأعرج ١٧٩
فى الملك بسامتيك الثانى ١٨١
فى الملك وح أبرع ويقال له أيضاً فرعون حفرع ١٨٢
فى الملك أموزيس ويسمى أيضاً أحمس الثانى ١٨٤
فى الملك بسامتيك الثالث ١٨٧
فصل فى ترتيب مملكة مصر فى القدم وفى أقسامها ومعبوداتها ١٨٩
فى الكلام على أقسام الوجه البحرى المسمى قديما يتومحيت ١٩٣
فصل فيما كانت عليه سياسة البلاد وفى إقامة القضاء وفى الدعاوى والأحكام ١٩٦
فصل فى كيفية الحدود والعقوبات عندهم ١٩٩
فصل فى تمدن المصريين وفى صنائعهم وعقائدهم وبعض عوائدهم ٢٠١
فصل فى أعيادهم ومواسمهم ٢١١

الكتاب الثانى فيمن تغلب على مصر بعد الطبقات الثلاث المتقدمة

الباب الأول: وفيه فصول ٢١٧
الفصل الأول: فى العائلة السابعة والعشرين الفارسية الأولى
وفى الملك كمبز بن كورش رأس هذه العائلة ٢١٧
فى الملك دارا الأول ٢٢٣
فى الملك شيارش بن دارا ٢٢٦
فى الملك ارتخشارشا الأول ويقال له أيضا ارتسخار ٢٢٧
فى الملك شيارش الثانى والملك سوغديانوس والملك دارا الثانى ٢٢٩
الفصل الثانى: فى الدولة الثامنة والعشرين الصاوية ٢٣٠
الفصل الثالث: فى الدولة التاسعة والعشرين الأشمونية ٢٣٠
فى الملك نفريتس الأول ٢٣١
فى الملك أخوريس ٢٣١
فى الملك بساموتيس ٢٣٢
فى الملك نفريتس الثانى ٢٣٢
الفصل الرابع: فى الدولة المتممة للثلاثين السمنودية ٢٣٢
فى الملك نقطانب الأول ٢٣٣
فى الملك طاخوس ويقال له أيضاً زيت حر ٢٣٤
فى الملك نقطانب الثانى ٢٣٥
الفصل الخامس: فى الدولة الحادية والثلاثين وهى دولة الفرس الثانية المنقرضة بإغارة الإسكندر المقدونى على ديار مصر ٢٣٦
فى الملك دارا أخوش الفارسى ٢٣٧
فى الملك أرسيس بن دارا أخوش ٢٣٧
فى الملك دارا الثالث ٢٣٧
الباب الثانى: فى الدولة المقدونية الأولى التى ظهرت بظهور الإسكندر وفيه فصول ٢٤١
الفصل الأول: فى العائلة الثانية والثلاثين إحدى العائلات الثلاث الباقية من الجاهلية ٢٤١
فى الملك إسكندر الأكبر المقدونى ٢٤١
فى الملك اريديس فيلبس ويسمى أيضا ارهيدة فيلبش ٢٤٤
فى الملك إسكندر الثانى ٢٤٥
الباب الثالث: فى الدولة البطليموسية اليونانية وفيه فصول ٢٤٧
الفصل الأول: فى العائلة الثالثة والثلاثين ٢٤٧
فى الملك بطليموس الأول ٢٤٧
فى الملك بطليموس الثانى الملقب بفيلادلفوس ٢٤٩
فى الملك بطليموس الثالث الملقب بالكريم ٢٥١
فى الملك بطليموس الرابع الملقب محب أبيه ٢٥٢
فى الملك بطليموس الخامس الملقب بالماجد ٢٥٤
فى الملك بطليموس السادس الملقب بمحب أمه ٢٥٨
فى الملك بطليموس السابع الملقب بأوياطور ٢٦٢
فى الملك بطليموس الثامن الملقب أوير جيطه الثانى ٢٦٣

فى الملك بطليموس التاسع الملقب سوطير الثالث ٢٦٥
فى الملك بطليموس العاشر وبطليموس الحادى عشر وهما إسكندر الثانى وأوليطيس ٢٦٨
فى الملك بطليموس الثانى عشر الملقب بدنيس يعنى الخمار ٢٧٤
فى الملك بطليموس الثالث عشر ٢٧٧
الباب الرابع: فى الدولة الرومانية وهى الدولة اللاتينية وفيه فصول ٢٨٥
الفصل الأول: فى الدولة الرابعة والثلاثين ٢٨٥
فى الملك أغسطس قيصر ٢٨٦
فى الملك طباريوس قيصر الأول ٢٩٣
فى الملك قاليغولا قيصر ٢٩٥
فى الإمبراطور قلودس الأول ٢٩٧
فى الملك نيرون قيصر ٢٩٨
فى الملك إسليقيوس غلبا قيصر ٣٠٧
فى الملك مرقوس أوطون قيصر ٣٠٨
فى الملك إيطالس قيصر ٣٠٩
فى الملك وسباسيانوس قيصر ٣٠٩
فى الملك طيطوس قيصر ٣١٢
فى الملك دوميطيانوس قيصر ٣١٣
فى الملك نيرو قيصر ٣١٤
فى الملك أولبيوس طريانوس قيصر ٣١٥
فى الملك إدريانوس قيصر ٣١٨
فى الملك طيطوس أنطينينوس قيصر ٣٢١
فى الملك مرقوريلس قيصر ٣٢٢
فى الملك قومودس قيصر ٣٢٥
فى الملك برطيناش قيصر أو غرديانوس قيصر ٣٢٧
فى الملك ديديوس يوليانوس قيصر ٣٢٨
فى الملك سبطيمس سويرس قيصر ٣٢٩
فى الملك بسيانوس قراقله قيصر ٣٣٢
فى الملك أوبليوس مقرينوس قيصر ٣٣٤
فى الملك بسيانوس هيلوغباله قيصر ٣٣٥
فى الملك الإسكندر سويرس قيصر الثانى ٣٣٧
فى الملك مقسيمينوس قيصر الأول ويسمى أيضاً مخشيميان قيصر ٣٤١
فى الملك غرديانوس الأب والملك غرديانوس الابن ٣٤٢
فى الملك غورديانوس قيصر الثالث ٣٤٤
فى الملك فليبش قيصر ٣٤٥
فى الملك دوقيوس قيصر ٣٤٥
فى الملك غالوس قيصر ويقال له أيضاً والوس ٣٤٨
فى الملك أمليانوس قيصر ٣٤٩
فى الملك والريانوس قيصر ٣٤٩
فى الملك غليانوس قيصر ٣٥١
فى الملك قلودس قيصر الثانى ٣٥٢
فى الملك أورليانوس قيصر ٣٥٣

فى الملك طاقيطوس قيصر ٣٥٥

فى الملك بروبوس قيصر ٣٥٦

فى الملك قاروس قيصر ٣٥٨

فى الملك قارينوس قيصر..... ٣٥٨

والملك نومريانوس قيصر ٣٥٨

فى الملك دقليانوس قيصر ٣٥٩

فى الملك غاليرس قيصر والملك قسطنقيوس خيورس قيصر ٣٦٤

فى الملك مقسيمينوس الثانى وقسطنطين الأكبر ومقسنقوس وليقينوس ٣٦٦

وصل فى انفراد الملك قسطنطين الأكبر بملك الدولة الرومانية ٣٦٨

فى الملك قسطنطين الثانى والملك قسطنطوس الاول والملك قسطنقوس ٣٧٤

فى الملك يوليانوس قيصر المرتد ٣٧٦

فى الملك يويانوس قيصر ٣٧٧

فى الملك ولنطنيانوس الأول والملك ولنسوس أخيه.. ٣٧٨

فى الملك غرثيانوس والملك ولنطنيانوس الثانى والملك طيودوسيس الأكبر والملك مقسيموس ٣٧٩

وصل فيما كانت عليه مصر أيام الدولة الرومانية ٣٨٣

الباب السادس: فى دولة الروم المسيحية التى قامت بالإسكندرية وفيه فصول ٣٨٥

الفصل الأول: فى العائلة الخامسة والثلاثين ٣٨٥

فى الملك طيودوسيس قيصر الثانى ٣٩٢

فى الملكة بولخارية والملك مرقانوس زوجها ٤٠٦

فى الملك ليون قيصر الأكبر ويسمى أيضًا: الأقدم ٤١٢

فى الملك ليون الثانى الملقب بالسلوقى ٤١٣

فى الملك زينون والملك باسيقلوس ٤١٣

فى الملك أنسطاش الأول ٤١٤

فى الملك يوسطنيوس الأكبر ويسمى أيضًا جوسطنيوس الأول ٤١٦

فى الملك يوسطنيانوس - قيصر الأول ٤١٧

فى الملك يوسطينوس - قيصر الثانى ٤٢٥

فى الملك طيبروش قسطنطين (قيصر) ٤٢٦

فى الملك موريقوس ٤٢٧

فى الملك فوقاس قيصر ويقال له أيضًا فوقا ٤٣٠

فى الملك هرقل قيصر ٤٣٢

خاتمة: فى ملاحظات تتعلق بديار مصر فى أيام دولة الروم المسيحية ٤٣٧

فاتحة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

بحمدك اللهم تستفتح المطالب، وتستمنح الرغائب، وبشكرك تستزاد النعم، وتستذاد النقم، تفرّدت سبحانك بالعزة والجبروت، وتوحدت بالملك والملكوت، وتنزهت فى التدبير عن الشريك والمعين، وتقدّست فى التقدير عن الحدس والتخمين، فصرّفت خلقك بين رفع وخفض، وبسط وقبض، وإبرام ونقض، وإماتة وإحياء، وإيجاد وإفناء، وهداية وإضلال، وإعزاز وإذلال، أنزلت الكتب السماوية مخبرة بأخبار الأخيار، مسفرة عن محاسن أخيار الأخبار، فكانت لقوم تذكره، ولآخرين تبصره، يدرك بها المتأخرون ما للأوائل، ويكونون معهم على حدّ قول القائل:

من فاته نظر الديار بعينه فعليه أن يصغى إلى الأخبار
ليشاهد الآثار ممن قد مضى والمرء ليس له سوى الآثار

ونسألك اللهم أن تصلى وتسلم على أنبيائك الذين ضربوا لنا الأمثال، بوقائع الأمم والأجيال، وسردوا أخبار الأولين، تبصرة وذكرى للمتأخرين، وعلى آلهم وأصحابهم، الذين نسجوا على منوالهم، فجاءوا بأصدق الروايات، وأمروا باجتناب الأنباء الكاذبة ونبذ الخرافات، ونهوا عن الأخذ بما تولع به الإخباريون والقُصّاص من الأباطيل والترهات.

(وبعد) فيقول الفقير إلى مولاه الكريم ، ميخائيل بن شاروبيم بن ميخائيل بن شاروبيم، لما كان بين تاريخى مصر القديم والحديث نسب مجهول، وسبب فى الظاهر مقطوع غير موصول، حيث مضت على أولهما أجيال وأحقاب، وأعين الكتاب تنظر إليه من وراء حجاب، كانت الحاجة داعية لأن ينتظما فى عقد نضيد، ويجتمعا بعد شتات الشمل فى بيت القصيد، ولا يكون ذلك إلا بالإسهاب

والتطويل، ولا يستغنى فيه قط بالإجمال عن التفصيل، إذ كم تولّى مصر من دولة، وكم حكمها من سلطان ذى بأس وصولة، وكم من ممالك هى كذلك أخضعتها، وأمم ساستها، وعهود أبرمتها، ومدائن أحدثتها، وهياكل ومساجد شادتها وكل ذلك كما لا يخفى يستلزم بياناً ويستتبع النص عليه عصراً فعصراً وزماناً فزماناً، على توالى الأيام، وتتابع الفراعنة والبطالسة والقياصرة والملوك والسلاطين والحكام، وبالنظر إلى ما وقع لكل منهم من يوم أنشئت مصر، إلى عهدها الأخير من هذا العصر، ففكرت كثيراً فى الحصول على هذا الغرض المهم، والوصول إلى المقصود فى هذا الطريق المدلهم.

لعلي أن أنال بها مرادي   وأحظى بالمنى بين البرية
فانظر من خلال سطور قوم   مآثرهم فأكتسب القضية
ويحكم لي بأني مستحق   حقوقاً لي دلائلها قوية

غير إنى كنت أرى أن السابقين إلى طلبها كانوا أطول باعا، بل أوفر علماً وأكثر بحثاً واطلاعاً، وأولى بصناعة الكتابة، وأحق بسمة البراعة والنجابة، وهم لم يفوزوا بالمنال، مع ما سهروه فى تحصيل ذلك من الليالى الطوال

وكل يدّعى وصلا بليلي   وليلى لا تقرّ لهم بذاكا

وكان من أتى منهم بشىء جديد، بعد عناء وجهد جهيد، فإنما أتى برسائل مجملة، أو فصول غير مفصلة، لا تشفى لمحبى التاريخ غليلاً، ولا تغنى عن الرجوع إلى الكثير من المعلقات التاريخية فتيلاً، ومنهم من تعرض لتاريخها جملة واكتفى بالإجمال، وأعرض عن التفصيل فى مقام البيان الذى هو مقتضى الحال، فلما سار بى الفكر يتردّد فى فيافى الأمل، ويستطلع ماعساه أن يكون من وسائل العمل، كدت أن أنبذ هذا الأمر ظهريا، وأطرحه عنى قصياً، وأجعله منى نسياً منسياً، فلا أكون متعسفاً جهالات، ولا خابط عشوات سيما وقد كان لى من المناصب الديوانية فى خدمة وطنى شاغل يحدو بى حدو الزاجر المقيم ويذرى سويعات نهارى إذراء الريح الهشيم، مع ما يضاف إلى ذلك من قلة البضاعة ووجوب الوقوف عند حدّ عدم الاستطاعة، فقيض الله لى من جعل يقول، ياهذا لا يقعدك الخمول، ولا يبعدك عن بلوغ هذه الأمنية ونيل الأمل، ما أراك فيه من التردد والوجل، بل سر فمن سار على الدرب وصل، ومن يعرف المطلوب يستزر ما بذل،

ولله در من قال :

ومن يصطبر للعلم يظفر بنيله   ومن يخطب الحسناء يصبر على البذل
ومن لم يذلّ النفس في طلب العلا   قليلاً يعش دهراً طويلاً أخا ذلّ

وقال :

لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى   فما انقادت الآمال إلا لصابر

واعلم أنه لا يترك منار فى مغار، ولا تدرك أوطار إلا بركوب الأخطار، ومالك لا تجدّ حتى تعتصر مأربك، وتنتصر فى هذه الآونة الصالحة مطلبك، والله تعالى يحل عقدة من لسانك، ويجرى فى ميدان البراعة يراع بنانك، فقلت يارعاك الله إنى أسير وساوس كثير ظنون وهواجس، وهذا لا يخفاك من عوائق النجاح، وموانع الفوز والفلاح والعاقل من لا يأتى أمراً حتى يخبر مشروعه، ولا يقدم على عمل حتى يدرك بمرآة التبصر موضوعه، وهذا الذى تشير علىّ بطلابه، وتستفزنى إلى الإقدام على طرق بابه، لهو غاية مرامى، ولكنه وايم الله من أبعد المرامى، لأن من يعدّ نفسه فى عداد المؤرخين ويدّعى أنه من الرواة والمحدثين، يجب عليه أن يطابق بين الواقع وواقع الأمر، ولا يحول عن الحقائق ولو تقلب على الجمر، ومن لى بالعصمة عن الغواية، وإصابة الحقيقة فى الرواية والتاريخ كما تعلم صحيفة الزمان، وصورة من الماضى تمثلها أقلام الكتاب بأتم حجة وأقوى برهان، وفى المثل من ألف فقد استهدف.

وهذا هو الداعي لتأخير بغيتي   ومنع يراعي من قراع الكتائب
فأنت ترى لي العذر ياخير ناصح   لئلا أرى في الناس مضغة عائب
وحفظي عرضي واجب ومحتم   وتنزيهه عن ترّهات المثالب

فقال: بلى ولكن لا يجمل بخاطب المعالى، أن يتهيب سهر الليالى، ولله در القائل:

ليس الفتى بفتى لا يستضاء به   ولا تكون له في الأرض آثار

وما زال بى حتى سرّى عن سرّى، واشتدّ بالعزم أزرى، وتحققت أن الكدّ أحسن معين على تحصيل الأمل، والجدّ أيمن قرين لتيسير العمل، فنشطت من عقال، وقلت على الله سبحانه الاتكال، وأجريت القلم فى حلبة البراعة، وأخرجت

نفسى من أرض الخمول إلى روضة اليراعة، وأطلقتها من عقال الفهاهة واللكنة، إلى أعمال الفكرة والفطنة، ولكن بين تقديم وتأخير، وصفاء وتكدير، حتى تصرم أجل تلك الخدمة وقدّر الله بانفصام عروة تلك الحزمة، فاعتزلت منصبى راضياً عما كان، شاكراً تصاريف الزمان، لما سكنت بعزلتى نفثات بعض الصدور، وتم نفوذ ذلك القدر المقدور، رحلت عن الكنانة إلى مسقط رأس الوالدين، وقد كنت لم أره منذ نشأتى إلى ذلك الحين وأنخت به مطية الرضا والتسليم، وسجدت لله شكراً على ما أولاه من فضله العميم، ثم ما لبثت أن اتخذت القرطاس سميرى، والجدّ معينى على الكدّ ونصيرى، ومضيت فى الذى نهجه لى الأمل، قمت ناشطاً بماعصبه بى العمل، فسهل الله ما كنت ألاقيه قبل من المتاعب، وزال عنى بمنه وكرمه ما كان ملازماً لعملى من المصاعب.

وما زلت حتى ظفرت بالذى كنت أتمناه، وأتيت بمايحبه محب التاريخ ويرضاه، فجاء كتابى بحمد الله خير كتّاب، وعمدة ما صنف فى هذا الباب، حقيقا بما قال فيه القائل

كتاب إن نظرت إليه تلقى   يتيم الدرّ في لبات حور
ترى الروض النديّ به نضيراً   وباسم زهره بين السطور
ترى الخود الحسان مخدّرات   تبدّى حسنها خلف الستور

وها هو بين أيديكم اليوم يتلو عليكم عبراً من آثار الماضين، وسيرا من أخبار آبائكم الأولين، فاحفظوا منها حكماً ظواهر، واتخذوا لكم من أحاديث أيامهم مواعظ وزواجر فقد طالما كانت البلاد غرضاً لكل نابل، وأكلة لكل آكل، وفريسة لكل صائل، حتى اختلط فيها الحابل بالنابل، وهذا كله من عبث الغرباء وإفسادهم، وتطاول أطماعهم إلى معالى الحكم وعنادهم، وما برحت هذه السطوة الأجنبية تزرع الروع فى القلوب، وتثير القطوب والخطوب والكروب، حتى لم تبق من آثار المجد الأثيل إلا بقايا جدران، ولم تترك من معالم الفخر الذى لم يكن له مثيل إلا رسوم مدنية وعمران، وقد ذلت هاتيك السلطة وذهبت تلك الهيبة، وتفرّق شمل الهيئة باستفحال داء هاته العلة، وانصرف هذا العنصر الطيب بتوالى الأيام، وكرور الشهور والأعوام، عن وجهته بعض الانصراف وأصبح منكباً عن منهاجه فاقداً كثيراً من مزاياه بحكم ذلك الجور والاعتساف، غير أنه لم تزل فيه بقايا هى السائدة على

أهليه، الحافظة لما بقى من رفيع شرفه ومجد ذويه، ينبيك عنها ما تراه من الهدوء وثبات الجنان، والدعة واللطف والحنان، وخفض الجناح للقريب، وتوطين النزيل والغريب، فكأن الذى قضى على بقايا تلك الآثار القديمة بالبقاء، لتكون مرشداً وهادياً لسائر الأمم فى تمدنهم الحديث إلى سلم الارتقاء، هو الذى حفظ فيهم هذه الباقيات الصالحات لتكون عنواناً على هاتيك الشمائل، وبرهاناً على تفردهم بأحاسن هذه المحاسن والفضائل.

وقد بدأته بنوح أبى البشر الثانى عليه السلام، ثم حام ومن جاء من ولد حام، ثم من قام بعدهم من الفراعنة والبطالسة والقياصرة والسلاطين والحكام، ثم ذكرت قسماً كبيراً من تاريخ جاهلية العرب، وتدرّجت إلى ذكر تاريخ صاحب الشريعة الإسلامية (صلعم) وكيف ساد وغلب، وقد تتبعت سنى الخلافة سنة بعد سنة، على أسلوب مفيد وخطة مستحسنة، إلى انقراض الخلافة العباسية، سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة هجرية، ثم أتيت على ذكر من قام بالأمر بعدها من ملوك آل عثمان، وهو السلطان سليم ابن السلطان الغازى بايزيدخان، ولكنى استطردت فأتيت على سائر من سبق من السلاطين توفية للمقام وبياناً لمن شاء الاستقراء من الباحثين، وذكرت فى سنى ملكهم أخبار من تولى من الولاة والعمال، وسيرة من أحسن منهم ومن أساء فى الأعمال، وأضفت إلى أخبار من ملك من القياصرة والخلفاء والملوك والسلاطين، عدد من تولى البطريكية من المتأصلين والملْكيين، وذكرت طرفا من الانشقاقات الدينية، والمناظرات الحزبية، والكوارث التى ترتب عليها تفرّق كلمة الدين، والفتن التى قامت بين الأحزاب فانجزم بها حبل اليقين .

ثم إنى اعتمدت فى تأليفى هذا على بعض الكتب الشهيرة الأجنبية، وكثير من كتب التاريخ القديمة والحديثة العربية، وأفرغته فى قالب لا يشوبه خلل، ولا يعترى القارئ منه إن شاء الله أدنى ملل، وجزأته إلى أربعة أجزاء الأوّل منها ينتهى إلى سنة تسع عشرة هجرية، أعنى قبل أن تحتل البلاد الجيوش الإسلامية، وبعد تقلص ظل ملك الدولة الرومانية، وابتدأت الجزء الثانى منه بتاريخ العرب الجاهلية، وانتهيت منه إلى سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة هلالية، وهى السنة التى دخل فيها السلطان سليم البلاد بجيوشه التركية، والجزء الثالث يبتدأ بتاريخ ملوك آل عثمان، وينتهى إلى سنة عشرين ومائتين وألف وهى سنة الامتنان، التى علا فيها شرف نجم الأمير الشهير،

الحاج محمد على باشا الكبير، والجزء الرابع منه ابتداؤه تاريخه رحمه الله وانتهاؤه إلى سنة ثمان وثلاثمائة وألف على التحقيق، وهى السنة التى انتقل فيها إلى رحمة مولاه الخديوى محمد باشا توفيق وقد ارتقت بعده الأريكة المصرية بجناب شبله الأعظم، ذى المجد الأثيل الداورئ الأفخم، مالك أزمة المعالى، وطود مجدها الشامخ العالى، مولانا الخديوى الأكرم (عباس حلمى باشا الثانى) بلغه الله من كل ما يحبه غاية الأمانى، وإنما وقفت عند هذا الحد ليكون عصره مبدأ تاريخ جديد، وأوّل زمن طالعه سعيد، وسأفرد لعصره الزاهر كتاباً زاهراً، وأخصص له فيما بعد تاريخاً باهراً، ليكون مفرداً بمقال، كما تفرّد صاحبه حرسه الله بمحاسن الخلال.

وقد سميت كتابى هذا {الكافى} فى تاريخ مصر القديم والحديث وإنى أحمد الله على ما وفق له عبده، فبلغ بمنه وجوده منيته وقصده، وأسأله سبحانه بنعمته حفظاً من الخطل وبمعونته إخلاصاً فى العمل، وبقدرته بعداً عن الزلل، فهو خير مسئول، وأكرم مرجوّ ومأمول.

* * *

(تنبيه)

سئل أحد العلماء عن التاريخ فقال: هو المعاد المعنوى لأنه يعيد الإعصار التى سلفت ويبعث أهلها من القبور، كأنهم فى عالم الظهور، بعد أن يكونوا قد تلاشت أخبارهم وعفت آثارهم، قال والتاريخ حافظ للأنساب، ضابط للأحساب، لولاه لخفيت أخبار الأول، وعفت آثار الممالك والدول، ولم تعرف حقوق ولا حفظت عهود، ولا برز ما فى عالم الغيب إلى عالم الشهود . اهـ.

قلت: والتاريخ خطيب قائم يقرر الحوادث الماضية على تعدّد أنواعها، ويتلو عجائب الوقائع الغابرة على تباين أوضاعها، فإن كان ما دوّنه على أسلوب بسيط مفيد، خال من الحشو والتعقيد إنساق السامعون إلى حفظ عباراته، وفهم إشاراته، وإن كانت عباراته وحشية المبانى معقدة، لم ينل سامعها منها المأمول، ويعسر عليه فى سلوك طريقها إلى مقصود الوصول، وليس من تمام الفائدة فى شىء أن يكتب صاحب التاريخ ما يعتنى بجمعه من الحوادث والأخبار مقفى منسقاً منسوجاً على

منوال مقامات البديع أو رسائل الصابى، أو يجعله كله رموزاً لا يتسنى لكل إنسان أن يفكها فإن هذا كله ممتنع فى مذهب أهل التاريخ وشرعة أصحاب الانتقاد، هذا تاريخ العلامة عماد الدين أبى عبد الله محمد بن محمد الأصفهانى المسمى بالفتح القسى فى الفتح القدسى قد حوى من ضروب البلاغة وكمال المحافظة على النفائس اللغوية فى مفرداتها وتراكيبها مع تزيين الكلام وتحسينه بالتنميق والسجع والتنسيق والترصيع والتورية والجناس وغير ذلك ما لا يقدر عليه إلا القليل من الكتاب وأهل الإنشاء، ولكنه ليس من السهل المتيسر لسائر مطالعى التاريخ إدراك ما فى عباراته من تلك المعانى العالية والاستعارات البعيدة فيلزم على كل من شاء قصداً من قصوده أن لا يقرأه إلا وبين يديه معجم اللغة يقلب صفحاته عند كل سجعة فينصدع لذلك فكره، لعمر الله أن فى ذلك لمنتهى الجور وغاية التثقيل على محبى التاريخ بل ربما كان داعياً إلى إذهاب ولوعهم به، ومثل ذلك تاريخ الإمام محمد بن عبد الجبار المدعو بأبى النصر العتبى المؤلف فى وقائع السلطان يمين الدولة محمود بن سبكتكين فإنه مع صغر حجمه ووقوف تدوينه عند انتهاء سنى ملك ابن سبكتكين المذكور قد تضمن من حسن التنسيق وإشباع الكلام من رقائق لغة العرب ما قام بشرحه الإمام أحمد بن على بن عمر المنينى فى مجلدين ضخمين لا ينقصان عن نيف وثمانمائة صحيفة وكلها شواهد على ما فيه من حُسن صناعة الإنشاء وعلى أن صاحبه من أكابر البلغاء متمكنة فيه ملكة تلك الصناعة التى قد استلزمت ذلك الشرح الطويل الذى لولاه لاستعصى على الكثير فهم مقاصده ومناحيه.

وكأن طالب التاريخ لا ينال منه شيئاً إلا إذا كان متمكناً من فنون اللغة العربية كما أشرنا إلى ذلك وهذا على ما أظن ضرب من العسف، نعم لا يسوغ التوسع فى القول حتى يقال إنه ينبغى أن يكون التأليف باللغة العامية لا سيما تدوين الأخبار التاريخية بدلاً عن اللغة الصحيحة الفصحى وذلك لأن لغة هذا المصر العامية مفعمة بالحشو الأعجمى الذى لا يمكن معه التحرير ولا يصح معه التأليف مع أن الألسنة قد انطبعت عليها أعنى على هاته اللغة الجافية واستوى فى التخاطب بها العالم والجاهل حتى فى مجامع الإفادة والاستفادة والتعليم والتعلم وعمّ ضررها بحيث إذا سمعك عالم أيا كان عمله تنطق ببعض كليمات فى التخاطب صحيحة غير عامية امتعض ورماك بالتكلف ووسمك بالتعسف وربما خاطبك بهدر الكلام بأن يقول لك ياسبحان الله كأنك وسيبويه رأسان فى قلنسوة فإن حاججته تأفف ولم ينصفك وبالغ

فى مناقضة قولك ونازعك حقك الذى بيدك آمنا غير خائف لعلمه أن الناس طراً تقوم لنصرته ويمثّل ذلك أنى كنت أخاطب رجلاً يوماً فى أمر يعنيه وفى الذى صح فى يدى منه فطال بيننا الأخذ والرد حتى غلبت حجتى حجته وكدت أزهق ما يدعيه فقال إنى أقول لك الحق إنى رجل لا أحب التشدق بعبارات النحاة واستعارات أهل البيان فقلت وما الذى أنكرته من ذلك فقال إنك تنطق بألفاظ ضخمة معظمة وهذه خطة مذمومة فى عرف التخاطب العام وماذا عليك لو نطقت بها كما ينطق بها كتابنا وأصحاب الذوق السليم منا وكأنى بك لم تسمع قول القائل:

وللناس عادات وهم يألفونها   لها سنن يرعونها وفروض
فمن لم يوافقهم على العرف بينهم   فذاك ثقيل عندهم وبغيض

فقلت: يا هذا ليس فى الشرّ أسوة ولا فى اتباع الخطأ قدوة فإن كان هذا كله مبلغ إنكارك ومنتهى انتقادك فيالخيبة الرجاء وأين ما كنت تدعيه الآن من الإحاطة بكل شىء ثم كيف تدعونى إلى غير الهدى الذى أنت مقيم عليه ولغتك التى عمت فأطفأت نور اللغة الصحيحة بما أدخلته عليها من الفساد والتحريف قد كانت ولن تزال علة انحطاط الأمة وحرمان السواد الأعظم وأعنى بهم العامة من فوائد العلوم والآداب والاشتراك فى جنى ثمار الحضارة والمدنية فأمسوا وهم لا يحسبون فى عداد الهيئة الاجتماعية والجامعة القومية إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً إذ لا حركة عندهم مرتبة ولا قصد صحيح ولا تفريق بين ما يضرهم وما ينفعهم، ولعمر الحق إنك ياهذا قد أخطأت من حيث أخطأت وتهافت على غير مساغ للقول فإنك إن أنكرت أنت فالناس طراً لا ينكرون أن اللغة كاملة غنية فى ذاتها عن حشو ودخيل وكما أن فيها من التدوينات العالية العربية المجملة بالمحسنات البديعية ورقائق الألفاظ ما لايكاد يدخل تحت الحصر فكذلك فيها الاصطلاحات السهلة البسيطة الجامعة بين صحيح اللغة وصحيح عرف التخاطب العامّ وعندى أن النوع الثانى أهم وفائدته أكمل وأعمّ إذ يستوى فى فهمه العلماء ومن دونهم من سائر طبقات الناس ولذلك نسقت كتابى هذا الكافى على هذا النسق ليعم إن شاء الله تعالى نفعه وتجزل فائدته غير ناظر إلى ما يقوله العائبون العاتبون ولا حافل بما سيرموننى به إذ ليس فى أيديهم من الحجة ما ليس فى يدى، هذه مقدمة تاريخ العلامة ابن خلدون المغربى قد حوت من العربية الخالصة فضلاً عن صحة الانتقاد وقوة الحجة وفصاحة التعبير ما عم بشهرته مشرق الأرض ومغربها حتى روى عنه الرواة ونقل الكتاب وترجم المترجمون واحتجوا بحجته وأخذوا بقوله ومع كل ذلك فقد عاب بعض ما فيها

بعض أهل الانتقاد من المتقدمين والمتأخرين وسفهوا رأى صاحبها ونازعوه حقه الذى بيده.

ومن ذلك ما سمعته من بعض الناس قال لى يوما: إنى غير كاتم عنك ما أنا معتقده ولا وجل من أن أقوله لك إنى أرى تاريخ ابن خلدون خلواً من البلاغة والفصاحة التى جمعتها فصول مقدمته ولا أظننى مخطئاً إذا قلت إن كانت هذه المقدمة لذلك المغربى كان ما فى الكتاب لغيره وإن كان ما فى الكتاب من عندياته كانت فصاحة المقدمة وطلاوة عباراتها من عنديات غيره فقلت يا رعاك الله أما المقدمة فإنى أرى أنها وضعت لقوم، وأما الكتاب فلآخرين وذلك أن هذا الفاضل رحمه الله قد التزم فى تنسيق مقدمة كتابه التى هى عنوان فضله ودليل عاليته واحاطته بكل فنّ ما يجمل بكل باحث فى فضل عالم التاريخ وفى حقيقة النبوة والكهانة وفى اختلاط الأنساب كيف يقع وفى أخلاق البشر وتأثير العناصر وغير ذلك من ضروب الفلسفة التى قصد من تنسيقها على هذا النحو من البلاغة وحسن الترصيف عرضها على ذوى المكانة العالية إظهاراً لفضله ومبلغ قدرته على التأليف والاستنباط الذى لم يسبقه إليه أحد من المشارقة والمغاربة ولذلك نراه قد كتب بقدر علمه والذى صح فى يده منه وما قامت به الحجة عنده آمناً مطمئناً غير مقصر ولا كاتم لما فى نفسه فجاءت عبارته غاية فى الطلاوة وحسن السبك حتى عدّت من المصنفات الفريدة فى بابها، وأما الكتاب فقد استعمل فيه السهولة فى التعبير ليطلع عليه العلماء ومن دونهم ابتغاء التعميم والمشاركة فى فوائده العملية وهذه أصلح الله حالك خطة محمودة لا يهتدى إليها إلا من كشف العلم عن بصيرته وبصره وهداه إلى سواء السبيل.

وبالله كأن سرعة الانتقاد عند المتقدمين والمتأخرين واحدة والأمر بينهما فيها مشاع غير مقسوم إلا أنها عند المتقدمين خير منها عند المتأخرين لأنك إذا ناظرتهم ناظروك طلباً للحق وأسقطوا بينك وبينهم اللجاج والمراء والمكابرة وأوسعوك تلطفاً بأن تقوم بحجتك غير مؤاخذيك فى شىء ولا متعنتين عليك فى شىء والانتقاد إذا كان القصد به الإفادة والاستفادة وتحقيق الحق والإتيان على ما صح من أصول الشىء المنتقد وفروعه كانت نتيجته حسنه، وفائدته عامة مستحسنه، وحمد الناس أمر صاحبه ومدحوه، أما إذا كان القصد به المهاترة والمكابرة على غير حق كان مثل صاحبه كمثل الفراشة التى إذا رأت نور السراج فرحت به ورقصت حوله ثم لا تلبث أن تحترق وتموت.

وأما التعييب: فخطة مذمومة ولطخة فى وجه الأدب لاسيما إذا كان المراد منه التشنيع والتقريع فإنه بدون المناظرة الحقة التى هى مجال للاستفادة ومحط للإفادة ممتنع وكان صاحبه مدفوعاً إليه بعامل الغيرة ودافع الحسد وكان إذا تلطفت معه فى القول وحاججته حجبك وقطعك عن بلوغ الحجة بشىء من المكابرة وهذر الكلام فتحتاج أن تقبض لسانك ولا تبسطه له ببيان حجتك لأنك لا تقدر على تقويم الظل مع اعوجاج العود، وكانّ التعييب ملكة إذا رسخت واستحكمت فى النفس لا يجيد صاحبها المناظرة الصحيحة.

قال أصحاب الكلام: لأن الملكات صفات للنفس فلا تتزاحم دفعة ولا تلتقى فى واد واحد إلا فى القليل النادر من الأحوال، والعائب إذا شب على هذا الخلق غلب على طبعه التنطع فى القول والتشدق والمماحكة وهى من أعراض هذا الخلق فلا يبقى من ورائها إلا ذهاب المروءة والنقص فى النظر القلبى والإدراك؛ فيرى حينئذ السليم معيباً والصحيح سقيماً والمستقيم معوجاً، وهكذا تنقلب الأشكال فى عينيه إلى أضدادها والصور إلى عكس ما هى عليه، والعائبون فضلاً عن أنهم يقتحمون مواطن التعييب من غير أبوابها لا يأتونها إلا إرضاء لشيطان الحسد ثم هم يحقدون على من يعارضهم أو يخالف رأيهم وربما أدخلوا على أنفسهم الهموم والأحزان من قيام أهل النصفة فى وجوههم واستمروا فى عناء عظيم من أجل إيجاب الحق لأنفسهم فيحصل لهم المقت من الناس لما فى الطباع البشرية من حب الترفع عن الصغار والهوان إذ قل أن تسلم نفس لنفس بالكمال والترفع عليها إلا أن يكون ذلك بنوع من القهر والغلبة أو بعصمة من الله وهداية منه، وهذا أوان الشروع فى المقصود بعون الملك المعبود.

* * *

المقدمة

(وفيها فصلان)

(الفصل الأول)

(فى دخول نوح ـ عليه السلام ـ السفينة وفيمن نزل مصر من ذريته)

هبط آدم وحوّاء ـ عليهما السلام ـ من جنات النعيم، كماجاءت به الكتب المنزلة وكثرت ذريتهما فسعوا فى الأرض فساداً، فبعث الله سبحانه وتعالى إليهم نوحاً عليه السلام فنهى وأنذر فلم يرعووا ولم تأخذهم آخذة من الخوف فشاء الله تعالى أن يبيدهم بطوفان فأوحى إلى نوح أن يصنع لنفسه ولذريته فلكاً وأن يدخله هو وبنوه وامرأته ففعل فلما صار نوح ومن معه فى الفلك أمر الله تعالى فانفتحت أبواب السماء وانفجرت ينابيع الغمر وعلت المياه على وجه الأرض فمات كل ذى روح على وجه الأرض وكان فلك نوح عليه السلام طافياً على وجه الماء فلم يبق سوى نوح وبنيه ومن معهم وكان ذلك بعد الخليقة بألف وستمائة وست وخمسين سنة على ما أخبر به المؤرخون.

ولما غيض الماء استوى الفلك على الجودىّ ففرح نوح وعائلته وتفرقت الحيوانات التى كانت فى الفلك فى أنحاء الأرض فلم تمض عليها الأحقبة من الدهر حتى تناسلت وملأت الأرض وانطلق بنو نوح مع عيالهم إلى أرض شنعار الواقعة جنوبى الجبل المذكور على مقربة من دجلة والفرات فاستوطنوا هناك وتوالدوا وأخذوا فى النماء حتى صاروا فى خلال جيل بعد الطوفان شعباً عظيماً، وكان أكثر حديثهم فى ذاك الحين عن الطوفان وما ترتب عليه من انقراض العالم فأوجسوا خيفة من أن يعود مرة أخرى ورأوا أن يبنوا صرحاً عظيماً يلجؤن إليه عند الحاجة ويتخلصون من غائلة الطوفان فأقاموه على شاطىء الفرات إلى جهة الشرق وبالغوا جدّاً فى إعلائه حتى قيل إنهم كانوا يريدون أن يصلوا به إلى عنان السماء فراراً من الموت.

وبينما هم على هذا الحال من الاجتهاد إذ ابتلاهم الله تعالى بأمر منه فبلبل ألسنتهم فتفرقت كلمتهم ووقع بينهم الخلاف وصاروا لا يعرفون كلام بعضهم فكفوا عن العمل وخاب منهم الرجاء والأمل وهاموا على وجوههم شرقاً وغرباً فاستوطن كل فريق منهم قسماً من الأرض كما جاءت به الكتب، وسمى ذلك الصرح ببرج بابل، وكان أولاد نوح الذين عمرت بهم الأرض بعد الطوفان كما تقدم ثلاثة سام وحام ويافث، وكان ليافث سبعة أولاد أولهم دجومر وهو الذى هاجر إلى الشاطىء الشمالى من البحر الأسود وتفرق نسله غرباً وسكنوا فى الجنوب الغربى من أوروبا وفى جزائر بريطانيا وأكثر الأوربيين من نسله على المشهور من قول جماعة من المؤرخين، وكان لدجومر ثلاثة أولاد الأول اشكينار وقد نزل بالشاطىء الجنوبى من البحر الأسود، والثانى ريفات وقد نزل شرقى اشكينار، والثالث تجرمة وقد نزل بالجانب الشرقى من ريفات، الثانى مأجوج ومقره ببلاد التتر أى الشاطىء الشمالى من بحر الخزر وأكثر سكان أواسط آسية من نسله كالمغول وغيرهم، الثالث مادى وموطنه شمالى بلاد العجم، الرابع ياوان وقد سكن بلاد اليونان وباسمه سمى دانيال النبىّ أهالى هذه البلاد وكان لياوان هذا أربعة أولاد الأوّل منهم الشتة استوطن هيلاس وهى الولاية الجنوبية الغربية من بلاد اليونان، الثانى ترشيش ومقرّه كليكيا فى آسية الصغرى وباسمه سميت مدينة ترسيس وذهب بعضهم إلى أن طائفة من نسله سكنت أيضاً بلاد أسبانيا، الثالث كتيم ومكانه عند شواطىء بحر إيطاليا وبلاد اليونان، الرابع رودانيم ومكانه ألبانيا التى هى بلاد الأرناؤد على جنوبى مدينة تريسته ويظن أيضاً أنه سكن فى نواحى مرسيليا جنوبى بلاد الفرنسيس، الخامس نويال ومحله بجوار مأجوج وما بين البحر الأسود وبحر الخزر، السادس ماشك ومسكنه فى جوار نويال ومأجوج وقد سكن بعض نسله فى شواطىء بحر البلتيك ومنه تسلسل بعض المسكوبيين، السابع نيراس ولم يعلم المؤرخون أين سكن قالوا والمظنون أن نصف أهل الأرض من نسل يافث.

وأما حام: فكان له أربعة أبناء أوّلهم كوش وكان له ستة ذكور ومحله غربى بلاد العرب وقد سكن أكثر نسله إفريقية قيل ومنهم من سكن عند الشواطىء الشمالية من خليج العجم وامتدّ شمالاً إلى ما بين النهرين ويظنّ أن أكثر أهالى إفريقية من نسله لأنهم كانوا ينسبون إليه وإن بنيه جميعاً سكنوا بلاد العرب وإفريقية ماعدا نمرود فإنه سكن على سواحل الفرات وهو الذى أسس مدينة بابل، الثانى (مصرايم) وقدنزل بمصر فسميت بهذا الاسم نسبة إليه وقد تفرع منه سبع قبائل الأولى لوديم ومحلها غربى مصر الثانية غايم وهى من القبائل الرّحالة الثالثة لهاييم

سكنت جنوبى لوديم الرابعة نفتوحيم ومحلها على الشاطىء البحرى أى على شاطىء البحر فى الجهة الغربية من مصر، قالوا ويظن أن اسم نبتون إله البحر عند الأقدمين مأخوذ منها، الخامسة فتروسيم ومحلها مصر العليا السادسة كلوحيم ومحلها بين مصر وأرض كنعان على شاطىء البحر ومنها الفلسطينيون السابعة كفتوريم ومحلها جزيرة قبرص، وأما الثالث من أولاد حام واسمه فوط فقد سكن شمالى إفريقية ونسله مذكور مع كوش ولود والرابع كنعان ومحله الأرض المنسوبة إليه وكان لكنعان هذا ابنان الأول صيدون وهو الذى بنى المدينة المعروفة الآن باسمه وهى صيدا ويقال إنها أقدم مدن العالم والثانى حث وقد عقب غير هذين تسع قبائل سكنت أرض كنعان فى أيام يوشع بن نون، وأما سام فكان له خمسة بنين الأوّل عليوم ومحله جنوبى بلاد العجم الثانى آشور ومنه الآشوريون الذين استعبدهم النمرود وكوش الثالث ارفكشاد وقد توطن بين النهرين ومن نسله إبراهيم الخليل عليه السلام وكان لارفكشاد هذا ولدان هما فالخ ويفطان وكان ليفطان ثلاثة عشر ولداً منهم قبائل بلاد العرب وقد سكن الإسماعيليون بينهم الرابع لود ومن نسله اللوديون ومقامه الأناطولى الخامس أرام ومقامه بين النهرين ولذلك سميت هذه الأرض سهل أرام وكان لأرام أربعة بنين الأوّل عوص ومقامه عند رأس خليج العجم الثانى حول ومقامه منبع نهر الأردن حيث يدعى باسمه الثالث لم يذكر له المؤرّخون اسماً ولا محلاً الرابع ماش وقد سكن الأناطولى أيضاً، فمما تقدّم يتضح أن أكثر سكان إفريقية ومنها ديار مصرهم من نسل حام ولد نوح عليه السلام.

واعلم أن مصر التي بناها مصرايم ولد حام وتوطنها بنوه من بعده [إذا صح هذا القول] يحدّها من الشمال البحر الأبيض المتوسط ومن الشرق البحر الأحمر وخليج السويس ومن الجنوب بلاد النوبة ومن الغرب الصحراء وبلاد برقة وهى واد يكتنفه جبلان شرقاً وغرباً يتخللهما النيل من الجنوب إلى الشمال ويصب فى البحر الأبيض المتوسط عند مدينتى رشيد ودمياط بمصبيهما، وكان المصريون يعتقدون أنهم أوّل من سكن هذه الديار وعمرها ولذا سموا أنفسهم لوت ونقشوه على الآثار ومعناه أصل البشر ظناً منهم أنهم آباء البشر، قال ده روجيه فى كتابه الذى ألفه فى تاريخ الست عائلات الأول: أن الذى تحقق له من الآثار أن أصلهم وتمدّنهم إنما هو من آسية لا من الجهة الجنوبية.

* * *

الفصل الثانى

(فى تاريخ مصر القديم وفيما يعتبره المصريون قاعـدة لتأسيس مملكتهم)

اختلف أهل التاريخ على اختلاف طبقاتهم فى تحديد مبدأ تأسيس المملكة المصرية وتاريخ نشأتها وكيفية ارتقائها مراقى ذلك التمدن العجيب فمن قائل إنها قديمة العهد جداً ومن قائل إنها ابنة اثنين وخمسين قرناً ومن قائل خمسة وثلاثين ولكل على قوله حجة وبرهان فالقائلون بأنها قديمة العهد جداً جعلوا مستندهم على أنه لما لم يهتد قدماء المصريين إلى معرفة مبدأ تأسيس مملكتهم وتاريخ نشأتها فرضوا لظهورها ثلاث عائلات أولية على وجه الاحتمال والتقريب وسموا العائلة الأولى منها بعائلة المعبودات التى يقال لها العائلة المقدّسة والثانية العائلة الشبيهة بالمقدّسة والثالثة عائلة آبائهم الأوّلين وهم الحورشو وقد ذكر كلٌ من كهنة منف وطيبة عائلة المعبودات المذكورة على الترتيب الآتى :

عدد	جدول أسماءالمعبودات بمنف		عدد	جدول أسماءالمعبودات بطيبة	
١	بتاح		١	أمون	المشتري
٢	رع		٢	منتو	المرّيخ
٣	شو	وأخته نفتوت	٣	توم	
٤	سب	وزوجته نوت	٤	شو	وأخته نفتوت
٥	أزوريس	وزوجته إزيس	٥	سب	وزوجته نوت (زحل)
٦	ست	وزوجته نفتيس	٦	أزوريس	وزوجته إزيس
٧	حور	وزوجته حاتحور	٧	ست	الشيطان وزوجته نفتيس
		الشعري اليمانية	٨	حور	وزوجته حاتحور

قالوا: ومعنى بتاح الفتاح وهو رمز للقدرة الإلهية التى أوجدت الكون ومعنى رع عنصر النار وشو عنصر الهواء وسب عنصر التراب وأزوريس عنصر الماء، قال صاحب العقد الثمين أما حور فإنه يدل على الزمن المستقبل ولذا كان المصريون

يلقبون به ولى العهد كما أنهم يلقبون الملك الحاكم برع أى الشمس والأموات بأزوريس وكانوا يعتبرون هذه المعبودات ملوكاً حقيقية وجعلوا لها أسماء وألقاباً رسمية. قال: وأما العائلة الشبيهة بالمقدسة وعائلة أجداد المصريين فلم يوجد لها على الآثار القديمة شيء يذكر غير ما رأيناه فى ورقة تورينو يعنى المحفوظة فى خزانة التحف بمدينة تورينو إحدى عمالات إيطاليا المبينة لترتيب الملوك ومدة ملكهم من أن الذين حكموا مصر قبل الملك (مينا) وسبقوه فى الترتيب كانوا يدعون حورشسو ومعناه خدمة المعبود حور ولعلهم كهنة . اهـ. قال لبسيوس: إن قدماء المصريين ينسبون لمعبوداتهم أو لأجدادهم حورشسوسنّ القوانين المدنية، وإبداع الفنون، والصنائع، واختراع الورق، والكتابة، وإيجاد الأسماء المقدسة، وترتيب الديانة والمذاهب، ولذلك كان قدماء المؤرّخين من اليونان يقولون إن البركان حكمها (أى مصر)، كذا من السنين ومعناه أن كاهن هيكل النار التى كانت إحدى المعبودات قد حكمها كذا سنة، ويقال إن أوّل هؤلاء الملوك يعنى الكهنة كان من مدينة طيبة كما يقال إن أوّل من أسس مدينة طيوه التى هى الآن بلدة الأقصر وما حولها هو الشمس يعنى كاهن الشمس، ثم خرجت بعد ذلك العائلة الملوكية من هاتين المدينتين، وأما من قال بأنها ابنة اثنين وخمسين قرنا فجماعة من كبار أصحاب التاريخ المتقدمين وتبعهم جماعة من المتأخرين منهم مانيتون المؤرخ قال إن العائلات التى ملكت مصر إحدى وثلاثون عائلة تنقسم إلى ثلاث طبقات وقد جعل لكل منها بابًا مخصوصاً، فالباب الأول فى الطبقة الجاهلية أو الطبقة القديمة ومدة ملكها ألفان ومائة سنة وخمس سنين وتشتمل على إحدى عشرة عائلة من العائلة الأولى إلى الحادية عشرة والثانى فى الطبقة الوسطى ومدة ملكها ألف وثلاثمائة وإحدى وسبعون سنة وتشتمل على ست عائلات من الثانية عشرة إلى السابعة عشرة، والثالث فى الطبقة الأخيرة ومدة ملكها ألف وثلاثمائة وإحدى وسبعون سنة وتشتمل على أربع عشرة عائلة من الثامنة عشرة إلى الحادية والثلاثين فيكون مجموع سنى ملك هذه العائلات زهاء خمسة آلاف سنة، وقد عد هذه العائلات جماعة من المؤرخين نحو ثلاثين عائلة وعدها آخرون ستاً وثلاثين، وقارن جماعة من المتأخرين بين مبدأ ظهور كل طبقة من الطبقات الثلاث المذكورة وبين التاريخ الميلادى والهجرى فكان مبدأ ظهور الطبقة الأولى منها أى الطبقة الجاهلية موافقاً لسنة أربعة آلاف وخمسين قبل الميلاد المسيحى وسنة ست وعشرين وستمائة وخمسة آلاف قبل الهجرة المحمدية، والطبقة الوسطى منها لسنة أربع وستين وثلاثة آلاف قبل الميلاد، وسنة ست وثمانين وستمائة وثلاثة آلاف قبل الهجرة، والطبقة الأخيرة منها لسنة اثنتين وسبعمائة وألف

قبل الميلاد أى سنة خمس وعشرين وثلاثمائة وألف قبل الهجرة. قال مانيطون وكانت كل عائلة من هذه العائلات تلقب بمركز حكومتها فإذا كانت العائلة فى مدينة طيبة مثلاً سميت بالطيبية وإن كانت فى مدينة منف سميت بالمنفية ورتب مانيطون هذه الطبقات الثلاث وحقق سنى ملك كل منها فى كتابه على الترتيب الآتى : -

ترتيب العائلات	تخت المملكة لكل عائلة فى القدم	سنو ملك كل عائلة	
		سنة	
العائلة الأولى	تنيس	٢٥٣	الطبقة الجاهلية كما رواه مانيطون
» الثانية	منفيس	٣٠٢	
» الثالثة	»	٢١٤	
» الرابعة	»	٢٨٤	
» الخامسة	»	٢٤٨	
» السادسة	إيليفنتين	٢٠٣	
» السابعة	»	٧٠	
» الثامنة	منفيس	٢٤٢	
» التاسعة	هرفيليوبوليس	١٠٩	
» العاشرة	»	١٨٥	
» الحادية عشرة	طينية	٠٠	
العائلة الثانية عشرة	طينية	٢١٣	الطبقة الوسطى كما رواه مانيطون
» الثالثة عشرة	»	٤٥٣	
» الرابعة عشرة	اكسويس	١٨٤	
» الخامسة عشرة	الرعاة	٠٠	
» السادسة عشرة	»	٥١١	
» السابعة عشرة	»	٠٠٠	

ترتيب العائلات	تخت المملكة لكل عائلة فى القدم	سنو ملك كل عائلة	
العائلة الثامنة عشرة	طيبة	٢٤١	الطبقة الأخيرة كما رواه مانيطون
» التاسعة عشرة	»	١٧٤	
» العشرون	»	١٧٨	
» الحادية والعشرون	تانيس	١٣٠	
» الثانية والعشرون	بوباست	١٧٠	
» الثالثة والعشرون	تانيس	١٨٩	
» الرابعة والعشرون	سيس	٦٦	
» الخامسة والعشرون	اتيوبيه	٥٠	
» السادسة والعشرون	سيس	٠٧	
» السابعة والعشرون	الفرس	١٢١	
» الثامنة والعشرون	سيس	٠٧	
» التاسعة والعشرون	منريس	٢١	
» الثلاثون	سيبانيس	٣٨	
» الحادية والثلاثون	الفرس	٠٨	

وممن حذا حذو مانيطون هذا فى حسابه وتحقيقه العلامة الفلكى محمود باشا المصرى فقد قرأت فى رسالته التى حررها بالافرنسية فى سنة اثنتين وستين وثمانمائة وألف ميلادية تحت عنوان (عمر الأهرام والغرض من بنائها) ما ملخصه قال، رحمه الله.

كنت تعوّدت أن أزور هذه الآثار الشريفة، يعنى الأهرام، فى أوّل فصل الربيع أحد الاعتدالين حينما يكون الليل والنهار متساويين ويقع ذلك مرتين فى السنة فى نحو الحادى والعشرين من كل من مارس وسبتمبر فلما جاء اعتدال مارس من سنة اثنتين وستين وثمانمائة وألف ميلادية استقدمنى الجناب الخديوى، يعنى به إسماعيل

باشا، إلى سرايه بالجيزة ورسم لى بالذهاب إلى الأهرام وتعيين اتجاهاتها واستنتاج كل ما يمكن استنتاجه منها من القواعد العلمية فقمت بالأمر طائعاً وضربت لى مضربا فى جوار الهرم الكبير ولبثت أربعة أيام كاملة كنت أرى فى لياليها النيرة نجومها اللامعة تتلألأ كأنها تحيي بابتسام تلك الآثار العظيمة الدالة على ذلك المجد الإنسانى فلما أمعنت الطرف فى حركات تلك النجوم والكواكب وسيرها استوقف نظرى ضياء ذلك الكوكب المعروف بسيريوس يعنى الشعرى اليمانية الذى هو أعظم كواكب برج الكلب الأكبر وأشرقها ضياء فكنت أرى أن أشعته تنبعث عمودية إلى الوجهة القبلية من الهرم بلا انحراف فجعلت أفكر فى ذلك وأدقق النظر والتأمل حتى ثبت عندى أن هذا الأثر العظيم لابد وأن يكون مقاماً لأحد الآلهة الفلكية وأصحاب المقامات العلوية وهذا الإله على معتقدهم إنما هو نجم الشعرى اليمانية، إلى أن قال، وليس الهرمان الكبيران هما المتجهين فقط تمام الاتجاه للأربع نقط الأصلية بل إن كافة الأهرام الصغيرة وسائر الآثار الجنازية هى كذلك أيضاً مما يدل على أن إنشاءها كان لغرض دينى أشبه بالذى حدا بالأمم الحاضرة إلى بناء مقابر موتاهم على وضع وشكل مخصوص، فإنك ترى عند معاشر المسلمين مثلاً أن وضع اللحد عمودى على اتجاه مكة المكرمة التى فيها بيت الله الحرام بحيث إذا وضعت الجثة على جانبها الأيمن كان وجه الميت متجهاً نحو الكعبة، قال ومما يؤيد أن بناء الأهرام كان لغرض دينى ما يراه الرائى من ميل سائر جهاتها على سطح الأفق بزاوية لا تزيد ولا تنقص عن اثنتين وخمسين درجة ونصف تقريباً وهذا لا يمكن وقوعه أبداً بطريقة الصدفة والاتفاق ولابد أن يكون لهم فيه مآرب ويكون لهذا الوضع العجيب علاقة بأحد الكواكب التى كانت آلهة لقدماء المصريين، إلى أن قال: وأما معرفة سنى الأهرام وما مضى عليها من الأعوام فينحصر فى البحث بين سنة (٢٢٥٠) وسنة (٣٢٥٠) وهو زمن يكون فيه الميل موافقاً ٢٢ درجة و٣٠ دقيقة وبعمل الحساب على مقتضى هذا يتضح أن بناء الأهرام كان سنة اثنتين وثلاثمائة وثلاثة آلاف قبل الميلاد المسيحى وهذا التاريخ وإن كان على وجه التقريب نظراً لما يحصل عادة من الفرق فى حساب الأميال لكنه موافق لما ذكره معظم مؤرخى العرب مثل الفوضائى وابن عبد الحكم والمسعودى والمقريزى وغيرهم وهم القائلون بأن حدوث الطوفان كان فى القرن الحادى عشر قبل تجسد السيد المسيح وإن الأهرام كان بناؤها قبل الطوفان بثلاثة أو أربعة أجيال.

قال: وربما استند هؤلاء المؤرخون وابن يونس الفلكى فى هذا القول على القصة

المشهورة التى جاء فيها أن بعض المصريين عثروا على ورقة من البابيروس الذى كان قدماؤهم يكتبون عليه فدفعوها إلى راهب قبطى من رهبان دير قلامون ليفك رموزها وكان ذلك حوالى سنة خمس وعشرين ومائتين هجرية فقال لهم: إن سنتكم هذه توافق سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة وأربعة آلاف من بناء الهرم وسنة إحدى وأربعين وتسعمائة وثلاثة آلاف من الطوفان، إلى أن قال، وقد ذكر كل من بونسن والجنرال ويزا أن الزمن الواقع بين منيس ونبكتانيوس هو عبارة عن ثلاثة آلاف وخمسمائة وخمس وخمسين سنة وأن مدة تسلط الأربع عائلات الأول من ملوك الفراعنة كانت خمسمائة وسبعين سنة وإن انقراض ملك العائلة الرابعة منها كان فى سنة خمس وثمانين وتسعمائة وألفين للإسكندر وسنة عشر وثلاثمائة وثلاثة آلاف قبل الميلاد المسيحى، قال ولما كان بناء الهرمين الكبيرين فى أيام الملك كيوبس والملك كفريم وكلاهما من ملوك هذه العائلة يعنى الرابعة التى حكمت مائة وخمساً وخمسين سنة كان بناؤها على مقتضى هذا الحساب فى القرن الرابع والثلاثين قبل الميلاد المسيحى أو فى الخامس والثلاثين على رواية بروكش، قال: وعندى أنه من المحقق الذى لا مراء فيه أن لبناء الأهرام علاقة دينية بنجم الشعرى اليمانية وأنه قد مضى عليها اثنان وخمسون قرنا . اهـ.

وممن قال إنها ابنة خمسة وثلاثين قرناً جماعة من المتقدّمين والمتأخرين أيضاً ممن اجتمعت كلمتهم على أن (منا) الذى هو أوّل ملوك الطبقة الجاهلية هو (مصرايم) المذكور فى التوراة.

ولما كان من الثابت المقرر فى التوراة أن مصرايم هذا هو ولد حام وحام ولد نوح عليه السلام كان من الثابت المقرر أيضاً أن المدّة الواقعة ما بين الخليقة من آدم عليه السلام والطوفان هى ألفان ومائتان وست وخمسون سنة أى قبل مولد المسيح بثلاثة آلاف ومائتين وأربع وأربعين سنة، وقبل هجرة صاحب الشريعة المحمدية بثلاثة آلاف وثمانمائة وست وستين سنة، وكانت الحقيقة هى غير ما ذكره مانيطون ومن حذا حذوه من المتأخرين ومع أن مانيطون عاد فاستدرك فقال: إن ملوك مصر فى سنى الطبقتين الأولى والثانية لم يكونوا جميعاً متتابعين ملكاً بعد آخر بل كانوا كثيرين متعاصرين مع بعضهم فمنهم من كان مستقلاً بحكم إقليم ومنهم من كان منفرداً بمقاطعة ومنهم من كان يحكم بالاشتراك وغير ذلك فإن المتأخرين من أهل التاريخ لما حاروا فى كيفية وأسباب هذا الفرق الجسيم، ولم يجدوا وجهاً للطعن فى صحة ما رواه مانيطون وقوّة سنده أوّله بعضهم بأن ديار مصر كانت منقسمة إلى عدة

ممالك، يملكها أمراء متعاصرون من ملوك الطوائف فى كثير من المدد المذكورة وغالط بعضهم أيضاً فقال وإن مانيطون وهم فعدّد كثير من العائلات الملوكية على أنها متتالية بعضها عقب البعض مع إنها كانت متعاصرة، وزعم أصحاب هذا المذهب أنه بينما كانت العائلة الخامسة قابضة على زمام الملك فى جزيرة ايليفنتيين مثلاً كانت العائلة السادسة مستولية فى هذه المدة على سرير الملك بمدينة منفيس.

قلت: وليس عبارة مانيطون المؤرّخ هذه وحدها التى كانت ولم تزل موضعاً للنقد بل هكذا حال التوراة أيضاً إذ قام فى هذا العصر جماعة من علماء التاريخ وآخرون من الكتاب يخطئون ماجاء فيها من أن المدّة الواقعة بين الخليقة والطوفان هى ألفان ومائتان وست وخمسون سنة وأثبتوا أنها أكثر من ذلك كثيراً وقد سلم جماعة من علماء اللاهوت صحة هذا المذهب حتى وفق بعضهم بين هذا القول وبين عبارة التوراة بأن سلسلة الآباء المذكورة فى التوراة غير متصلة وقالوا أنه لم يذكر فيها إلا خاصة الناس دون عامتهم ولم يقفوا عند هذا الحد بل تطرّف جماعة إلى القول أيضاً بأن أسفار موسى عليه السلام كتبت بعده بأعوام كثيرة بل بعد سبى بابل وأن ما جاء فى التوراة من الحوادث التاريخية الخاصة ببنى إسرائيل أو المنقولة عنهم لا يعوّل عليها كثيراً، ولكن هذا كله لم يغير من صحة التوراة ولم يمس عصمتها التى هى عقيدة أهل الكتابين من إسرائيليين ومسيحيين، على أننا لو وفقنا بين الحوادث التاريخية المذكورة فيها وبين حوادث أيام تلك الطبقات الثلاث التى ذكرها مانيطون وذلك بأن نضم أيام ملك الطبقتين الأولى والثانية التى هى أكثر إشكالاً وتعقيداً بعضها إلى بعض مع اعتبار أن مبدأ ملك الدولة الأولى منها كان بعد الطوفان لصح التوفيق وزال بعض اللبس وكأن هذا المذهب على ما فيه من التعليل أقرب سائر تلك المذاهب إلى الصواب وأبعدها عن الشطط وعليه فإنى مورد هنا ما صح عندى من أسلوب هذا التوفيق غير مشاغب ولا مفضل مذهباً على مذهب فإنى أعلم أنها كلها أحاجىّ ومعميات وإنها لا تزال كذلك حتى تنكشف خبايا تلك الآثار ويظهر لأصحاب العلوم الأثرية ما فيها من الرموز والأسرار، وليس هذا بالأمر العسير فى هذا القرن الذى كاد يبلغ فيه كل علم منتهاه.

أما طريقة الوصول إلى هذا التوفيق فهى أن نضم أيام ملك الطبقتين الأولى والثانية وهى عبارة عن سبع عشرة عائلة كما رتبها مانيطون بعضها إلى بعض ونحسب أن أيام ملكها جميعها تبتدىء من الطوفان وتنتهى إلى ما قبل نزول يعقوب وبنيه على أرض مصر فى أوائل حكم الدولة الثامنة عشرة المتأصلة، فإذا صح لديك

ذلك كانت مدّة ملك الطبقتين المذكورتين عبارة عن ألف وثلاثمائة وستين سنة لا غير وكان مبدأ ملكها قبل مولد السيد المسيح بثلاثة آلاف ومائتين وأربع وأربعين سنة وقبل هجرة صاحب الشريعة المحمدية بثلاثة آلاف وثمانمائة وست وستين سنة كما يتبين لك ذلك من الترتيب الآتى على ما جاء فى التوراة.

سنة	
١٠٧٠	من الطوفان إلى ميلاد إبراهيم الخليل عليه السلام بطريق تسلسل الأجيال
١٠٠	من إبراهيم إلى إسحق ولده عليهما السلام
٠٦٠	من إسحق إلى يعقوب عليهما السلام
١٣٠	من يعقوب إلى مجيء بني إسرائيل إلى مصر
١٣٦٠	

وقد جاء ما رواه مانيطون مطابقاً لما نصت عليه التوراة من أن نزول يعقوب وبنيه على أرض مصر كان فى أيام الدولة الثامنة عشرة المذكورة وهى الثانية المتأصلة التى قامت من مدينة طيبة بعد سقوط الدولة السابعة عشرة المعروفة بدولة الهكسوس أو دولة الرعاة وجلائهم عن البلاد فدل ذلك دلالة واضحة على أن مدّة ملك الطبقتين المذكورتين لم تتجاوز قط ألفا وثلاثمائة وستين سنة وليست ألفين وسبعمائة وثلاثاً وعشرين سنة كما رواه بعض أصحاب التاريخ.

أما الطبقة الثالثة وأعنى بها الطبقة الأخيرة التى تبتدىء من العائلة الثامنة عشرة وتنتهى بالعائلة الحادية والثلاثين على رواية مانيطون المؤرخ فهذه لما كانت أخبار أيام ملوكها ظاهرة جلية صح أن نقسمها إلى أدوار ستة بشرط انطباق ما وقع فى كل دور منها من الحوادث والأنباء على ما جاء فى التوراة وعلى هذا الترتيب يكون الدور الأول من هذه الأدوار شاملاً لأربع عائلات من الثامنة عشرة إلى الحادية والعشرين، ويصح أيضاً تقسيم هذا الدور إلى قسمين:

الأول منها يشتمل على عائلتين اثنتين هما الثامنة عشرة والتاسعة عشرة أما أيام ملك هاتين العائلتين فكلها تقارن مدة سكنى بنى إسرائيل أرض مصر تمام المقارنة، قال مانيطون المؤرخ فى كتابه بعد كلام فأقام يوسف بمدينة منف وتسلط على سائر البلاد فى أيام أعظم وأقدر فراعنة المملكة الجديدة . اهـ . قلت يريد بفرعون هذا الملك طوطوميس الثالث أو طوطيمس الذى تولى الملك بعد نفى الملوك الرعاة وإخراجهم من أرض مصر وجاء فى التوراة ما نصه: وقال فرعون ليوسف انظر قد جعلتك على أرض مصر، وخلع فرعون خاتمه وجعله فى يد يوسف وألبسه ثوب

أرجوان ووضع طوق ذهب فى عنقه وأركبه فى مركبته الثانية ونادوا أمامه «اركعوا» وجعله على كل أرض مصر، وقال فرعون ليوسف أنا فرعون فبدونك لا يرفع إنسان يده ولا رجله فى كل أرض مصر . اهـ.

ومماجاء أيضاً مؤيداً لصحة ظهور هذه العائلة المتأصلة بعد نفى الرعاة وإخراجهم من البلاد بغض المصريين لسائر رعاة الغنم وكراهتهم لاسم الرعاة واعتبارهم أن كل راع للغنم نجس. وقد جاء فى التوراة من قول يوسف عليه السلام لأهله عند قدومهم إليه بأرض مصر، فيكون إذا دعاكم فرعون وقال ما صناعتكم أن تقولوا عبيدك من أصحاب الماشية منذ صبأنا إلى الآن نحن وآباؤنا جميعاً كى تسكنوا أرض جاسان لأن كل راعى غنم رجس عند المصريين . اهـ. وكان خروج بنى إسرائيل من أرض مصر أيضاً فى أيام الملك منفطا الثانى أحد ملوك الدولة التاسعة عشرة التى هى إحدى الدولتين المذكورتين ومنفطا هذا هو ابن سيزوستريس صاحب الحروب المشهورة والفتوحات المأثورة. قال مانيطون المؤرخ: مات منفطا هذا عن ابنة اسمها طوسيرو ابن قاصر اسمه منفطا الثالث ويلقب بأوسير خبرورع ميامون فتزوجت هذه الابنة بعظيم من المصريين اسمه حفطا منفطا فكان يقال له أيضاً فرعون تبعا لها وكان يحكم بالنيابة عنها . اهـ.

ففسر أهل التاريخ أن زواج طوسير المذكورة بذلك العظيم الذى لم يكن من بيت الملك مع أن جدها سيزوستريس كان قد خلّف عدة بنين يدل على حدوث حادث عظيم جداً نجم عنه انقراض سائر أعضاء تلك العائلة الملوكية، قالوا: وهذا الحادث إنما هو غرق فرعون وجنوده فى البحر قلت فإذا صح ذلك كانت مدّة مقام بنى إسرائيل فى أرض مصر مائتين وثلاثين سنة وهى مدّة ملك العائلتين المذكورتين وتسلطهما على السواء.

والقسم الثانى منهما يشتمل على عائلتين اثنتين أيضاً وهما العائلة العشرون والحادية والعشرون فهاتان العائلتان وإن لم يقع فى أيامهما من الحوادث شيء يذكر إلا أنه يصح اعتبار مبدأ أيامهما من خروج بنى إسرائيل من مصر إلى حدوث ما حدث من الكوارث فى أيام العائلة الثانية والعشرين التى قامت بعدها هذه العائلة وبناء على ذلك تكون عبارة عن ستمائة وسبعين سنة بالمقارنة على ماجاء فى التوراة حسب الترتيب الآتى:

سنة	
٤٠	مدّة مقام بني إسرائيل في البرية
٣٠	رياسة يوشع بن نون على بني إسرائيل
٤٥٠	مدّة قضاة بني إسرائيل على ما في سفر أعمال الحواريين
٠٣٠	مدّة رياسة صموئيل النبي على بني إسرائيل بعد عالي الكاهن إلى ولاية شاول
١٢٠	من ولاية شاول إلى ملك سليمان بن داود عليهما السلام
٦٧٠	

والى هذا الحين أى إلى أيام ملك سليمان بن داود عليهما السلام انقسمت السلطنة الإسرائيلية إلى مملكتين أولاهما مملكة إسرائيل ورأسها ياربعام عبد سليمان وهذه لم تلبث أن تلاشت وعفت آثارها وثانيتهما مملكة يهوذا ورأسها راحبعام بن سليمان وهذه قد بقيت تتنازعها الآحن وتتوالى عليها الخطوب والمحن إلى مجىء المسيح ثم تلاشت أيضاً فأصبحت أثراً بعد عين كما أنبأ بذلك يعقوب عليه السلام ولده يهوذا.

إذا علمت ذلك كان مجمل سنى ملك الدور الأول من الطبقة الثالثة على هذا الترتيب تسعمائة سنة لا غير.

وأما الدور الثاني: فيشتمل على ثلاث عائلات من الثانية والعشرين إلى الرابعة والعشرين ومدّة ملكها مائتان وثمان وثلاثون سنة بالتطبيق على مدّة من ملك من ملوك يهوذا من أيام رحبعام إلى موت بوثام كما سترى ذلك مفصلاً فى محله، وقد طابق ما ذكره جماعة المؤرخين من الحوادث والأنباء التى وقعت أيام هذه العائلات الثلاث ما جاء فى التوارة أتم مطابقة من ذلك أن الملك شنشق الأول رأس العائلة الثانية والعشرين التى هى إحدى هذه العائلات وقاعدة ملكها بوبسط بالشرقية المعروفة بتلّ بسطة الواقعة الآن على قيد بعض فراسخ من مدينة الزقازيق قد أجار ياربعام أحد عبيد سليمان بن داود عليه السلام عندما نزل فى جواره هارباً من وجه سيده، وشنشق هذا مذكور فى التوراة باسم شيشق قال بعض أهل التاريخ ونزل ياربعام عبد سليمان بن داود على شيشق ملك مصر مستجيراً فأكرم شيشق مثواه واتفق أن مات سليمان عليه السلام بعد ذلك بقليل فتولي الملك بعده ابنه رحبعام فلم يستو على سرير الملك حتى خرج عن طاعته عشرة أسباط من بنى إسرائيل لأسباب لا محل لإيرادها هنا وسيروا فى طلب ياربعام عبد سليمان عليه السلام فسار إليهم فأحسنوا لقاءه وولوه الملك وسموه ملك إسرائيل فتجرد رحبعام عند ذلك لقتاله

وركب عليه فى جيش عظيم من سبطى يهوذا وبنيامين فأرسل ياربعام إلى شيشق ملك مصر يستنجده على قتال رحبعام فسار شيشق لنجدته فى جيش ضخم وألف ومائة مركبة حربية وقاتل رحبعام قتالاً عنيفاً للغاية وفتح مدن يهوذا ونهب خزائن بيت المقدس وبيت الملك وأخذ تروس الذهب التى كان عملها سليمان عليه السلام وعاد إلى مصر ظافراً غانماً ونقش تاريخ هذه الغزوة على جدران هيكل الكرنك وكتب عليه يهوذا ملكى، يعنى أن مملكة يهوذا صارت فى قبضة يده، أما بيان سنى ملك هذه العائلات الثلاث التى هى عبارة عن مائتين وثمان وثلاثين سنة كما تقدّم لك ذكره فهى على الترتيب الآتى ممن ملك على يهوذا كما هو مذكور فى التوراة

سنة	
١٧	مدّة ملك راحبعام
٠٣	مدّة ملك إبيا
٤١	مدّة ملك آسيا
٢٥	مدّة ملك يوشافاط
٠٨	مدّة ملك يورام
٠١	مدّة ملك احزيا
٦	مدّة ملك عليا
٤٠	مدّة ملك يواش
٢٩	مدّة ملك أموصيا
٥٢	مدّة ملك عذريا
١٦	مدّة ملك يوثام
٢٣٨	

وأما الدور الثالث: فينحصر كله فى العائلة الخامسة والعشرين السودانية ولا يتعداها ومدة سنى هذا الدور إحدى وعشرون سنة لا غير وهى عبارة عن المدة الواقعة من ملك أحاذ الذى تولى على يهوذا بعد يوثام إلى ملك حزقيا حسب البيان الآتى:

سنة	
١٢	مدّة تملك أحاذ على اليهودية قبل تملك هوشع على مملكة إسرائيل
٠٤	مدّة تملك أحاذ على اليهودية بعد تملك هوشع على مملكة إسرائيل
٠٥	مدّة تملك حزقيا الذي تولى بعده أحاذ المذكور
٢١	

ومن الحوادث التاريخية التى وقعت فى أيام هذه العائلة وجاءت مذكورة فى التوراة أيضاً أنه لما قام شلمناصر ملك آشور على هوشع ملك إسرائيل المذكور وكان هوشع معاصراً للملك سيواس فرعون المذكور فى التوراة باسم سواء وهو أخو الملك سباقوس الحبشى الذى دوّخ ديار مصر وتولى ملك الفراعنة قسراً بعد حروب وخطوب أتينا على شرحها فى ترجمته أرسل هوشع ملك إسرائيل إلى سواء ملك مصر يستنجده ويستحثه فأبطأت النجدة وركب شلمناصر على هوشع فى عسكر جرار وقاتله وظفر به وقبض عليه وسجنه فجعل هوشع يستغيث بسواء الملك فلم يغثه لعدم تمكنه من ذلك وقالت التوراة فى هذا المقام ما نصه، وفى الثانية عشرة لاحاذ ملك يهوذا تولى هوشع بن أيلة على السامرة على إسرائيل تسع سنين وعمل الشر أمام الرب ولكن ليس كملوك إسرائيل الذين كانوا قبله وصعد عليه شلمناصر ملك أشور فصار له هوشع عبداً ودفع له جزية ووجد ملك أشور فى هوشع خيانة لأنه أرسل رسلاً إلى سواء ملك مصر ولم يؤد جزية إلى ملك أشور حسب كل سنة فقبض عليه ملك أشور وأوثقه فى السجن وصعد ملك أشور على كل الأرض وصعد إلى السامرة وحاصرها ثلاث سنين وسبى شعب إسرائيل إلى أشور . اهـ.

قلت: وكان خراب مملكة إسرائيل وزوالها تماماً بعد هذا التاريخ.

وأما الدور الرابع: فمبدؤه العائلة السادسة والعشرون التى قام على رأسها بسماتيكوس الأول المشهور بحب العلوم وتوسيع نطاق المعارف والآداب وهو الذى فى أيامه اتسع نطاق استعمال الكتابة بالحروف الأبجدية ومدة سنى هذا الدور مائة وثلاث وعشرون سنة وأشهر على ترتيب سنى من عاصرها من ملوك يهوذا الآتى بيانهم بعد:

شهور	سنين	
٠٠	٢٤	مدّة ملك حزقيا خلاف الخمس سنوات التي كان يعاصر فيها الدور الثالث
٠٠	٥٥	مدّة حكم منسا بن حزقيا
٠٠	٠٢	مدّة حكم آمون بن منسا
٠٠	٣١	مدّة حكم يوشيا بن آمون الذي قتله فرعون نخو
٠٣	٠٠	مدّة حكم يهويا حاذ بن يوشيا الذي خلعه فرعون نخو
٠٠	١١	مدّة حكم الياقيم بن يوشيا الذي ولاه فرعون نخو
٣	١٢٣	

ومن الحوادث التاريخية التى جاءت فى التوراة مثبتة مطابقة هذه المدة على الوجه المشروح لمدة الدور الرابع المذكور: حادثة نخاوس بن بسماتيكوس رأس هذا الدور، ومحصلها إنه لما كان نخاوس هذا ميالا كأبيه إلى تحسين أحوال الرعية بتوسيع نطاق التجارة عمد إلى فتح البلاد وركب فى عسكر جرار وزحف على يهوذا وقاتل يوشيا ملكها وضيق عليه وما زال حتى قتله وفتح مدائنه وتملك عليها من البر والبحر فبايع بنو يهوذا يهوياحاز ولد يوشيا بالملك واجتمعوا تحت رايته فأغضب ذلك نخاوس فرعون المذكور وركب من فوره فى عسكره على يوشيا وحاربه وظفر به وخلعه وذلك عند رجوعه من غزوة بابل وولى مكانه أخاه الياقيم وضرب الخراج على شعب يهوذا فى كل عام مائة وزنة من الفضة ووزنة من الذهب واستصحب يهوياحاذ إلى مصر أسيراً فبقى بها حتى مات قالت التوراة، وفى أيامه يعنى فى أيام يوشيا هذا، صعد فرعون نحو ملك مصر على ملك آشور إلى نهر الفرات فصعد الملك يوشيا للقائه فقتله فى مجدو حين رآه وأركبه عبيده ميتاً من مجدو وجاءوا به إلى أورشليم ودفنوه فى قبره فأخذ شعب أرض يهوذا يهوياحاذ ابن يوشيا ومسحوه وملكوه عوضاً عن أبيه وكان يهوياحاذ ابن ثلاث وعشرين سنة حين ملك وملك ثلاثة أشهر فى أورشليم واسم أمه حموطل بنت أرميا بن لبنة . اهـ.

وأما الدور الخامس: فمبدؤه أواخر سنى العائلة السادسة والعشرين أى أوائل ملك بسماتيكوس الثانى الذى حارب النوبة وأبلى فى قتالها بلاء حسناً، ومات فقام بالأمر بعده ابنه فرعون خفرع الذى يقال له أيضاً وح أبرع.

قال أصحاب التاريخ: وكان فرعون هذا معاصراً لصدقيا ملك يهوذا الذى وقع خراب أورشليم وسبيها إلى بابل فى أيامه بإغارة بختنصر ملك بابل وإن صدقيا أرسل إلى فرعون خفرع المذكور يستنجده على قتال بختنصر فلم يفلح وسقط صدقيا فى يد بختنصر، قال الله تعالى على لسان نبيه أرمياء الذى كان على عهد سبى بابل هكذا قال الرب ها أنا ذا أدفع فرعون خفرع ملك مصر ليد أعدائه وليد طالب نفسه كما دفعت صدقيا ملك يهوذا ليد بنوخز نصر ملك بابل عدوّه وطالب نفسه. اهـ.

قال أهل التاريخ: وقد تم ما أنبأ به نبى الله أرمياء حيث انتقض على (فرعون خفرع) عسكره وشقوا عصا طاعته عند عودته من حروبه مع القيروان ثم خلعوه وملكوا عليهم جندياً اسمه أماسيس ويقال له أيضاً أحعمس فسار أحعمس هذا مع هؤلاء الخوارج لقتال وح أبرع ولم يكن مع وح أبرع فى ذلك الحين سوى بعض الجنود الأجنبية التى كانت فى خدمته وهى زهاء ثلاثين ألفاً فلما التقى الجمعان عند

مدينة صا الحجر اقتتلا قتالاً عنيفاً فكانت الدائرة على جنود وح أبرع ووقع فى قبضة أحمعس فحبسه فى قصره قال هيرودوتس فلم تلبث الجنود بعد ذلك أن طلبته من أحمعس وشدّدت فى طلبه فدفعه إليهم فقتلوه فى الحال واستقل أحمعس بالملك واتسعت كلمته وخضع لحكمه أهالى جزيرة قبرص ثم مات فتولى الملك بعده بسماتيك الثالث فلم يستقرّ به المنصب حتى زحف ملك فارس على أرض مصر فى عسكر جرار فخرج بسماتيك لقتاله فى عدة وافرة من الجنود المصرية واليونانية الذين كانوا فى خدمته فلما التقى الجمعان واشتد القتال هجمت جيوش بسماتيك على جيوش كمبيز ملك فارس وكان كمبيز قد وضع فى مقدمة جيوشه كثيراً من السنانير والبزاة وغيرها من الحيوانات التى كان يعبدها المصريون فلم يجسروا على القتال ولم يرموا بسهامهم على عدوّهم مخافة أن تصيب تلك الحيوانات المقدسة فجفلوا ورجعوا القهقرى وسقط بسماتيك فى قبضة كمبيز فقتله بعد أمور قد أتينا على ذكرها مفصلة فى ترجمته وبسقوط بسماتيك هذا زالت دولة الفراعنة وانثلّ عرشها وتقلص ظل ملكها من هذه الديار فأصبحت من هذا الحين ولاية تابعة لمملكة كمبيز ابن كورش ملك فارس (قلت) وقد ورد فى التوراة أن الله أوحى إلى حزقيال النبى عند سبى بابل وخراب أورشليم أنه لا يكون بعد اليوم رئيس من أرض مصر وألقى الرعب فى أرض مصر ﴿ **ومن أصدق من الله قيلا** ﴾ فإنه لم يقم من ذلك الحين رئيس على مصر من أهلها إلى يومنا هذا.

وقد عدّ أهل التاريخ هذه الدولة الفاتحة الغاصبة فى عداد الدول المالكة باعتبار أنها السابعة والعشرون بعد السادسة والعشرين المصرية المتأصلة فإذا صح لديك ذلك كان إدخالها أيضاً فى دائرة الدور الخامس على مقتضى الترتيب المتقدم بيانه لازماً مع ما يدخل معها فى هذا الدور أيضاً من بقية الدول الأخرى المتممة له كالدولة الثامنة والعشرين الصاوية والدولة التاسعة والعشرين الأشمونية والثلاثين السمنودية والحادية والثلاثين الفارسية التى انقرضت بإغارة الإسكندر المقدونى على البلاد أما سنو ملك هذه العائلات فمائتان وثلاث وثلاثون سنة على مقتضى التنسيب الآتى للحوادث التاريخية المذكورة فى التوراة.

سنة	
١١	مدّة تملك صدقياء على يهوذا وهو الذي وقع خراب أورشليم وسبي بابل في أيامه
٢٧٢	المدة من سبي بابل إلى ظهور الإسكندر المقدوني
٢٨٣	

بقى علينا الآن أن نأتى على ذكر الدور السادس الذى هو آخر ما رتبناه من هاتيك الأدوار وبيان عدد ما يدخل فيه من الدول التى تولت الملك وسنى ملك كل منها تتميما لحساب هذه القاعدة التى اخترناها للتوفيق بين ما جاء فى التوراة وما جاء فى التاريخ، فنقول إذا صح ما تقدم بيانه وكان هذا الترتيب غير معيب فى شىء كان إذن مبدأ الدور السادس المذكور ظهور الإسكندر المقدونى وكان هذا الدور مشتملاً على دولتين لاغير أولاهما: الدولة البطليموسية وثانيتهما: الدولة الرومانية أو اللاطينية المعروفة فى حساب أهل التاريخ بالدولة الرابعة والثلاثين وهى الدولة التى ولد فى أيامها السيد المسيح وكانت مدة ملك هاتين الدولتين ثلثمائة وتسع عشرة سنة على الترتيب الآتى:

سنة	
٠١٢	مدّة ملك الإسكندر المقدوني
٢٧٥	مدّة ملك الدولة البطليموسية
٠٣٢	مدّة ملك الدولة الرومانية أو اللاطينية
٣١٩	

فإذا جمعت سنى ملك كل طبقة من هذه الطبقات الثلاث إلى بعضها على ما رتبناه من الأدوار ظهر لك أن المدة الواقعة من عهد الملك (منا) رأس العائلة الملوكية الأولى الذى يسميه بعض أهل التاريخ مصرايم بن حام بن نوح عليه السلام أو من الطوفان إلى مولد السيد المسيح ثلاثة آلاف ومائتان وأربع وأربعون سنة ولم تتجاوز الأربعة آلاف سنة كما قاله جماعة من المؤرخين المتقدّمين والمتأخرين وإن أنكروا أن مصرايم هو (منا) وإذا علمت ذلك فالوقوف عند حد بعض هذه الاحتمالات والفروض الثلاثة التى ذكرناها أو تفضيل بعضها على بعض والأخذ به دون الآخر ترجيح بلا مرجح ولذلك لم أورد ما أوردته من المقارنة والتطبيق بين ما جاء فى التوراة وما جاء فى كتب التاريخ القديمة على ماتقدّم بيانه انتصارا لمقالة على أخرى ولا حذف حجة للترغيب فى تفضيل مذهب على آخر لأنى أعلم أنها كلها آراء لم يثبت منها لغاية الآن شىء ولا صحت بها دعوى ولكنى حرصت على أن لا تفوت محبى التاريخ معرفة هذه النبذة أيضاً فذكرتها غير كاتم ما فى نفسى منها ولا ساتر رأيى فيها فلا أنا داع إليها ولا ناه عن الأخذ بها.

واعلم أن المصريين كانوا قبل عهد الملك بسماتيك يزعمون أنهم أقدم شعب على وجه البسيطة قال هيرودوتس: لما تولّى بسماتيك الملك عمد إلى معرفة حقيقة هذا الزعم وكان يظن أن الفريجيين أقدم شعب ويتلوهم المصريون قال: وكانت

أبحاثه إلى ذلك الحين لم تكف لمعرفة الحقيقة فأخذ طفلين رضيعين وسلمهما إلى راع يربيهما مع عنز ورسم له أن يضعهما فى بيت لا يدخل أحد عليهما إلا العنز لترضعهما فى وقت معلوم وأن يتفرغ عن كل أشغاله وقت إرضاعهما وقصد بذلك أن يعرف ما هى أوّل كلمة ينطقان بها متى صارا قادرين على الكلام فلما مضى عليهما سنتان دخل الراعى يوماً وقد فتح باب البيت فزحف الولدان نحوه وصرخا بيكوس ومدا إليه أيديهما فاستكان عند ذلك ليرى ما يكون بعد هذه اللفظة فصار كلما دخل عليهما يصرخان بيكوس فاعلم الملك بالقصة فرسم باستحضارهما فلما حضرا وسمع منهما تلك اللفظة استخبر عن الشعب الذى يستعمل كلمة بيكوس وما معناها فقيل له أن الفريجيين يسمون الخبز بهذا الاسم قال هيرودوتس فلذلك تنازل المصريون للفريجيين عن إدعاء الأسبقية (قلت) ولعلها خرافة رووها عن هيرودتس بعادات المصريين وأخلاقهم وأعيادهم وقدرة آلهتهم وكهنتهم وسحرتهم وغير ذلك مما اعتاد هذا المؤرخ العظيم الإسهاب وبسط الكلام فيه ومع ذلك فإن هذه الرواية على ما فيها من الخلط تؤيد ما قلناه من أنه لم يتيسر لقدماء المصريين أن يعرفوا من أين جاء آباؤهم ولا مبدأ تأسيس مملكتهم ولا من أين وصلت إليهم مادة هذا التمدّن العجيب ولذلك لم يجزموا بشىء من هذا كله بل بنوا كل ما قالوه فى هذا الباب على فروض واحتمالات اجتمعت كلمتهم على بعضها واختلفت فى البعض فتبعهم فى ذلك أصحاب التاريخ من المتقدمين والمتأخرين غير مبالغين فى النقد لضعف سندهم وعجزهم عن تفنيد البرهان بالبرهان ودحض الحجة بأقوى منها وكان ما اجتمعت عليه كلمتهم ولم يختلف فيه منهم اثنان قولهم إن (منا) هو أوّل مؤسس للمملكة المصرية وأنه رأس العائلة الأولى من الطبقة الأولى إحدى الطبقات الثلاث التى رتبها مانيطون فى جدوله فعلى مقتضى هذا الترتيب نأتى هنا بذكركل دولة من الطبقات الثلاث المذكورة وذكر أخبار كل ملك منها على التعاقب وبالله سبحانه وتعالى البداية ومنه تبارك وتعالى الهداية.

* * *

الكتاب الأوّل

(فى ملوك الطبقات الثلاث وفيه أبواب)

الباب الأول

(فى الطبقة الأولى أو الطبقة العليا)

كان مبدأ هذه الطبقة على ما رواه جماعة المؤرخين سنة خمسة آلاف وأربعة قبل الميلاد المسيحى أى سنة ست وعشرين وستمائة وخمسة آلاف قبل الهجرة المحمدية وهى تبتدي بالملك (منا)، وتنتهى إلى الدولة الحادية عشرة الطينية وسنو ملكها ألف وتسعمائة وأربعون سنة.

الفصل الأول

(فى العائلة الأولى الطينية)

كان مبدأ حكم هذه العائلة سنة خمسة آلاف وأربعة قبل الميلاد المسيحى أى سنة ست وعشرين وستمائة وخمسة آلاف قبل الهجرة المحمدية وسنو ملكها ثلثمائة سنة وخمس سنين وعدة ملوكها تسعة أولهم الملك(منا) أومناوس الذى قالوا باحتمال أنه (مصرايم) المذكور فى التوراة.

فى الكلام على الملك منا

هو أوّل ملوك مصر وأوّل مؤسس للمملكة المصرية بعد دولة الحورشسو وأصله من مدينة طينة وهى بلدة كانت على مقربة من العراية المدفونة بجوار جرجا ولما استخلص (منا) المذكور الملك من أيدى الكهنة واستقل بحكم البلاد هاجر من مدينة طينة المذكورة لميل أهلها إلى الكهنة وأقر رؤساء القبائل على ما هم عليه من قبل وأسس مدينة منف التى موقعها الآن البدرشين وميت رهينة وهما من أعمال مديرية

الجيزة وجعلها تخت ملكه وحوّل إليها النيل إلى مجراه الذى هو عليه الآن. قال ديودور الصقلى: وكان النيل يجرى بصحراء ليبيا وأصلح أحوال الرعية بتحسين أحوال الزراعة. قال هيرودوتس: كانت الإصلاحات التى أحدثها بمدينة منف سبباً فى عمارتها وتخطيط المدن بأرجائها وشيد فيها هيكلاً لمعبودها (بتاح) أى الفتاح فصارت منف مركز المدنية والتمدن والعلوم والمعارف إلى عصر اليونان ثم أدخل سكان ليبيا تحت الطاعة بعد أن غزاهم قال مانيطون: وبعد موته اتهم أنه غير عادة أسلافه من الزهد بميله إلى الترف ووضع الطعام على الموائد وتناوله الطعام مضطجعاً على سرير. قال ديودور: واقتدت به الملوك من بعده فلما تولى الملك نفتحت أحد ملوك الدولة الرابعة والعشرين أنكر عليه هذه العادة الذميمة والبدعة السيئة إذ هى موجبة للجبن والخمول وأمر بنقش كلام عنها فى حجر هجا فيه (منا) ووضعه فى معبد آمون بطيبة. وقال مانيطون: أنه لما تغلب الملك (منا) على طائفة الكهنة ونزع الحكم من أيديهم بالقهر والغلبة نسبوا إليه سوء العاقبة، وقالوا إنه ابتلعه تمساح البحر بعد أن حكم ستين وقيل اثنتين وستين سنة وكان الملك (منا) المذكور معظما فى قومه مهيباً عندهم حتى إنهم عبدوه وقدّموا له الذبائح والبخور واستمروا على عبادته فلما مات خلفه ابنه أثوتيس.

فى الكلام على الملك أثوتيس

(ومن ملك بعده من هذه العائلة)

تولى هذا الملك بعد أبيه ويقال إنه لبث عاملاً على مصر العليا والصعيد ثلاثين سنة فى حياة أبيه وهو الذى زين مدينة منف وحسنها وبنى فيها الهياكل والقصور المشيدة واشتغل بعلم التشريح وألف فيه رسالة استمدّ منها أطباء قدماء المصريين، قال صاحب العقد الثمين وهى التى تجددت كتابتها فى عهد رمسيس الثانى وعنوانها مكتوب فى الصحيفة الخامسة عشرة فى كتاب الأموات ونصه.

هذا أوّل مجموع فى التذاكر الطبية النافعة لمعالجة البرص قد نقل من صحيفة قديمة وجدت داخل محبرة تحت تمثال أنوب فى مدينة ليتوبوليس.

قال: وكان وجودها فى عصر الملك سيتى الذى هو الخامس من هذه العائلة حسب ترتيب الآثار وحيث إن بينه وبين الملك تتا (يعنى أثوتيس) ملكين فهذا يثبت للملك تتا المذكور معرفة علم الطب والتشريح ولعظم فائدة هذه الرسالة نقلت إلى الملك (سندا) المندرج اسمه فى جدول العائلة الثانية.

ومات الملك أثوتيس فقام بالأمر بعده كنكنيس ولم يعلم المؤرخون من أخباره شيئاً يذكر، ومات بعد أن حكم إحدى وثلاثين سنة، فقام بالأمر بعده (ونيفس) الأوّل. وفى أيام هذا الملك حصلت بمصر مجاعة عظيمة جداً ومن أعماله الهرم الموجود على شمالى الهرم المدرّج بسقارة وهو المعدّ قديماً لدفن ما كان يعبد من الثيران فى أيامه، قال صاحب العقد الثمين وقد استكشف هذا الهرم البارون فون مينونولى سنة إحدى وعشرين وثلثمائة وألف ميلادية فوجده موضوعاً على خلاف وضع الأهرام لعدم اتجاه أركانه إلى النقط الأربع الأصلية وله أربعة أبواب وبداخله حجرات. قال فإن صح ذلك كان هذا الهرم أوّل هرم بنى فى مصر. اهـ.

ومات ونيفس المذكور بعد أن حكم ثلاثاً وعشرين سنة، فقام بالأمر بعده ونيفس الثانى ولم يذكر المؤرخون من أخباره شيئاً ومات بعد أن حكم اثنتين وأربعين سنة، ثم قام بالأمر بعده (سيتى) وهو الذى وجدت فى أيامه الرسالة الطبية التى ألفها الملك أثوتيس المكتوبة فى الباب الرابع والستين من كتاب الأموات، وهى من ضمن الرسائل الطبية المشتملة عليها الصحيفة القديمة الموجودة فى برلين كما رواه صاحب العقد الثمين ولم يذكر المؤرخون لهذا الملك شيئاً من الأخبار ومات بعد أن حكم عشرين سنة، فقام بالأمر بعده مية بيدوس ولم يعلم أيضاً من أخباره شىء ومات بعد أن حكم ستاً وعشرين سنة، فقام بالأمر بعده مميسس وهو حفيد الملك سيتى وفشا فى أيام هذا الملك فى البلاد الوباء ففتك بالخلق فتكا ذريعاً ثم قامت فتنة عظيمة فاختلّ نظام البلاد وعكف الناس على ارتكاب المعاصى واستفحل أمر الفتنة فمات فى أثنائها الملك مميسس بعد أن حكم ثمانى عشرة سنة، فقام بالأمر بعده (ببه نتحس) وقد تولى الملك فى خلال الفتنة وانتشار الخلل فزاد الهيجان بتوليته واشتدت الفتنة وعظمت ولم تنطفىء نارها إلا بزوال العائلة الأولى هذه وبموت ببه نتحس المذكور الذى هو تاسع ملوكها وآخرهم فقامت بعدها العائلة الثانية المعروفة بالطينية.

الفصل الثانى

(فى العائلة الثانية المعروفة بالطينية)

كان ابتداء حكم هذه العائلة فى سنة أربعة آلاف وسبعمائة وإحدى وخمسين قبل الميلاد أى سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة وخمسة آلاف قبل الهجرة وسنو ملكها ثلاثمائة وستون سنة وعدة ملوكها تسعة وهم الآتى ذكرهم بعد، قال جماعة الكتاب ويقال: إن بين هذه العائلة وبين الملك (منا) أول مؤسس للمملكة المصرية قرابة

متواصلة ولكنه لم يقم من الأدلة ما يثبتها ولم يوجد فى النقوش الأثرية لهؤلاء الملوك شيء سوى أسمائهم وكان أول ملوك هذه الدولة (الملك بوثوس)، قال مانيطون المؤرخ المصرى لما استولى الملك بوثوس على ملك مصر نزل رجز من السماء على مدينة بوبست المعروفة الآن بتل بسطه خسف بها الأرض وأهلك فيها خلقاً كثيراً. اهـ.

ولم تذكر جماعة الكتاب من أخباره أو آثاره شيئاً ومات بعد أن حكم ثمانياً وثلاثين سنة، فقام بالأمر بعده (كايه خوس) وفى أيامه عكف الناس على عبادة الحيوانات فعبدوا الثور أبيس بمدينة منف والثور منيفس بالمطرية والحمل المقدس بمدينة تمى الأمديد. قال صاحب العقد الثمين وذلك ما دلت عليه النقوش التى وجدت داخل مقابر منف بسقاره . اهـ.

ومات (كايه خوس) المذكور بعد أن حكم تسعاً وثلاثين سنة (فقام) بالأمر بعده بنيوثريس ومن أعماله أنه سن قانوناً أجاز به للنساء الحكم وورّثهن فى الملك كيلا يخرج الملك من بيته (قال ده روچيه) وحاصل ما فى هذا القانون أن الملك إذا مات وكان له أولاد ذكور كانوا أحق بالملك وإن لم يكن له ذكوراً أو كانوا وانقرضوا كان الحق فى الملك لبناته. اهـ.

(وقال ماسبرو) فى ذلك ما مؤداه أن كل ملك توفى عن زوجة ولم يعقب ولداً أو كان ولده قاصرا تولّت الملك من بعده زوجته بشرط أن لا تتزوّج فإن تزوّجت بغيره ممن ليس له الحق فى الملك لا يجوز لزوجها هذا أن يكون ملكاً وإنما يجوز لذريته منها أن يعطى لهم منصب الملك ولقب الفراعنة. اهـ.

وقد أجاز الملك بنيوثريس فى قانونه المذكور أن سلطة الملوك على الرعية حق مفروض عليهم أداؤه بالنيابة عن المعبودات؛ وبالغ فى هذا الأمر جداً حتى زعم أن دمه الذى فى عروقه من دماء المعبودات ولذلك جعل لنفسه السلطة على جميع صنوف الرعية ولقب نفسه بابن الشمس التى هى أعظم المعبودات ليثبت القرابة لنفسه ولمن يأت بعده بالمعبودات فسرى هذا الزعم منه إلى جميع الملوك المصريين إلى أيام الرومان ومن هذا الحين صارت الرعية لا تستخف بالملوك ولو ضعفت شوكتهم وذلك لخصائصهم القدسية وقرابتهم من المعبودات فإنه إن زالت عنهم دولة الحكم بقيت لهم حرمة التقديس، وأخذ المصريون من هذا القانون أن كل من أراد تأسيس عائلة غير ملوكية ووصلها بالعائلة الملوكية التى قبلها فليتزوّج من بنات الملوك أو يأخذ منهن لأولاده فيتم له وصف القرابة بينهما كما دلت على ذلك الآثار (ومات

الملك بنيوثريس) المذكور بعد أن حكم سبعاً وأربعين سنة(فقام)الأمر بعده (طلاس) ولم تذكر جماعة الكتاب من أخباره شيئاً (ومات) بعد أن حكم سبع عشرة سنة (فقام) بالأمر بعده الملك ستنس (قال مانيطون) المؤرخ المصرى كان الملك الخامس من هذه العائلة المدعو ستنس واسع العلم، كبير المعرفة، فكان لذلك محترمًا إلى عهد اليونان، وقد أتم الرسالة الطبية التى وجدت فى مدينة سخم المعروفة عند اليونان باسم ليتوبوليس (ومات) بعد أن حكم إحدى وأربعين سنة، ومعنى ستنس باللغة القديمة المهول (ثم قام) بالأمر بعده خايرس ولم تذكر عنه جماعة الكتاب شيئًا (ومات) بعد أن حكم سبع عشرة سنة (فقام) بالأمر من بعده الملك نفرخرس وهو السابع من ملوك هذه الدولة. قال مانيطون: وقد حلا فى عصر هذا الملك ماء النيل حتى صار عذباً كالعسل وبقى على هذا الحال أحد عشر يوماً ومات نفرخرس المذكور بعد أن حكم خمساً وعشرين سنة، فقام بالأمر بعده الملك سيسوخريس وهو ثامنهم. قال مانيطون وكان هذا الملك طويل القامة جداً، ونقل صاحب العقد الثمين عن علماء القلم المصرى القديم أن مقبرة (توت حُتب) الموجودة بمنف وتمثال (سبا) المحفوظ بمتحف باريس هما من آثار هذه العائلة لأنه يظهر من نقوشهما وصناعتهما وتصاويرهما أنهما من صناعة الحالة الأولى لكونهما أقل اتقاناً من صنائع المتأخرين (ومات) سيسوخريس المذكور بعد أن حكم ثمانياً وأربعين سنة (فقام) بالأمر بعده خينه رس وهو آخر ملوك هذه الدولة ولم تذكر أصحاب التاريخ من مآثره شيئاً (ومات) بعد أن حكم ثلاثين سنة وبموته انقرضت هذه الدولة التى هى من نسل الملك (منا) على ما رواه بعض أصحاب التاريخ الذين قالوا أيضاً أن الملك منا المذكور وإن كان قد أخضع لحكمه جميع القبائل القاطنة فى وادى النيل وأدخل تحت طاعته جميع رؤساء الأقسام بشرط أن يكون الحكم متوارثاً بينهم وبين ذريتهم إلا أنه لم يتمكن من جعل أهل مصر أمة واحدة وما زالت كذلك إلى أن تغلبت عليها ذريته فاختلطت القبائل بعضها ببعض وتألفت وصارت أمة واحدة واشتهرت بالأمة المصرية، قيل وقد كان فى عصر هاتين العائلتين عائلات أخرى معاصرة ومشاغبة لهما ولبثوا كذلك إلى أن أطاعوا ودخلوا تحت حكم ملوك الدولتين (قال) صاحب العقد الثمين ولذا نجد أسماء بعض الملوك منقوشة على ألواح حجرية لم يذكرها مانيطون فى جدوله فلابد وأن تكون من تلك العائلات المضادّة لذرية منا . اهـ .
وبانقراض العائلة الثانية المذكورة على وجه ما تقدم قامت بعدها العائلة الثالثة المنفية.

الفصل الثالث

(فى العائلة الثالثة المعروفة بالمنفية)

كان ابتداء حكم هذه العائلة سنة تسع وأربعين وأربعمائة وأربعة آلاف قبل الميلاد أى سنة إحدى وسبعين وخمسة آلاف قبل الهجرة وسنو ملكها مائتان وأربع عشرة سنة وعدة ملوكها تسعة أولهم الملك نخروفس. (قال) أصحاب التاريخ كان منشأ هذا الملك بمدينة منف وهو رأس العائلة الثالثة ولم يستقرّ به المنصب حتى قامت الفتنة فى البلاد واتصلت بسكان صحراء ليبية الداخلة تحت طاعة ملوك مصر من عهد الملك (منا) فسير لقتالهم عسكرا فالتقى الجمعان فى ليلة مقمرة فخيل لسكان الصحراء أن دائرة القمر تغير شكلها المعهود فخافوا وظنوا أن الله غضب عليهم لخروجهم على الملك نخروفس فبادروا بالطاعة له وانحسمت الفتنة واستتبّ الأمن وتوطد وأخذت البلاد فى الترقى فانتشرت العلوم واتسع نطاق الصنائع والفنون وما زالت تترقى فى أيامه حتى مات بعد أن حكم ثمانى وعشرين سنة كما رواه مانيطون المؤرخ فقام بالأمر بعده توسورثرس فحذا حذوه فى بث العلوم والصنائع فأحسن فن الكتابة وأتقن صناعة قطع الحجر ونحته وكان ماهراً فى علم الطب كالملك (تتا) وألف فيه كتبا تداولها الناس فى القرن الأول من التاريخ المسيحى ثم مات بعد أن حكم تسعاً وعشرين سنة فقام بالأمر بعده الملك تره يس ولم تذكر له جماعة الكتاب شيئاً ومات بعد أن حكم سبع سنين، فقام بالأمر بعده الملك سسوخريس ولم تعلم جماعة الكتاب من أخباره شيئاً ومات بعد أن حكم سبع عشرة سنة (فقام) بالأمر بعده الملك سوفيس ولم يعلم من أخباره شىء ومات بعد أن حكم ست عشرة سنة، فقام بالأمر بعده الملك تسرتاريس ولم يعلم من أخباره شىء ومات بعد أن حكم تسع عشرة سنة، فقام بالأمر بعده الملك أخس ولم يعلم من أخباره شىء ومات بعد أن حكم اثنتين وأربعين سنة (فقام) بالأمر بعده الملك سفوريس ولم يعلم من أخباره شىء يذكر ومات بعد أن حكم ثلاثين سنة (فقام) بالأمر بعده الملك كرفريس وهو آخر ملوك هذه العائلة. قال مانيطون المؤرخ وفى أيام ملك هذه العائلة زادت ثروة المملكة وكثرت عماراتها (قال) صاحب العقد الثمين فمن تلك المبانى أبو الهول الموجود الآن بين الهرمين بالجيزة ويسمونه حورمخى أى شمس الأفقين يعنون بذلك الشمس وقت شروقها وغروبها وهما الوقتان اللذان كانوا يعبدونه فيهما وصورته على شكل سبع له رأس آدمى إشارة إلى القوة والعقل وبهذه المثابة جاز لهم أن يرمزوا به لكل ملك ذى قوة وتدبير حكم مصر ولذا ترى فى المتاحف والبرابى والهياكل وغيرها كثيراً من الملوك المصورة أجسامهم على هيئة سبع مع إتقان

وجوههم ودقة هيآتهم الأصلية ومن هذه التماثيل ما هو كبير وصغير وأكبرها أبو الهول الموجود بين أهرام الجيزة ومنها الهيكل الموجود بالجهة القبلية من أهرام الجيزة ويعرف الآن بالكنيسة وهو من بدائع عصرهم ومحاسن صنعهم لكونه مبنياً بالحجر الصوّان المنحوت والجبس العظيم ومنها أيضاً جملة محاريب ومقابر بتلك الجهة كان سكان منف يدفنون فيها موتاهم خشية الغرق وكانت تلك المقابر تبعد عن منف بخمسة آلاف متر من الجانب الغربى، وكان أغلب فقرائهم يدفنون موتاهم فى لحود على عمق متر واحد والمتوسطون يدفنون فى ضريح مربع مبنى بطوب أصفر غير متقن ولا يضعون معهم شيئاً سوى أوان من الفخار بجانب الجثة فيها طعام معد لغذاء الميت وقت بعثته يوم القيامة حسب اعتقادهم، وأما الأغنياء فكانت مقابرهم تتركب من ثلاثة أجزاء أولها حجرة ظاهرة منقوشة بأنواع النقوش والتصاوير المتقنة إما قليلاً أو كثيراً على قدر ميسرة أربابها وكانت هذه الحجرة معدّة لاجتماع أقارب الميت فيها وقت زيارة القبور. وثانيها حجرة صغيرة رأسية مفتوحة الفوهة فى حجرة أخرى من حجرات المقبرة. وثالثها حجرة أو عدة حجرات أخر فى أسفل الحجرة الصغيرة وهى المعدة لوضع جثة الميت فيها ولا يجوز لأحد أن يدخلها، وبعض الناس يصنعون مقابرهم بكيفية أخرى فينحتون فى الجبل آباراً عميقة فيها منامة أو جملة منامات معدة لمواراة الموتى وأهل هذه الطبقة يضعون موتاهم فى توابيت على هيئة الإنسان عارية عن الرسوم ومصنوعة من جملة قطع ويثبتونها بمسامير من خشب ويكتبون فوقها ما معناه (أنت فلان ابن السماء وخلقة الأرض)، وفى عصر العائلة الحادية عشرة جعلوا يدهنون وجه التابوت باللون الأصفر أو الأبيض أو الأسود ويصوّرون فوقه المعبودتين (أزيس ونفتيس) راكعتين وأجنحتهما على التابوت وفى عصر العائلة الثامنة عشرة كانوا يلونون التوابيت من باطنها وظاهرها بالسواد ويجعلون الوجه أحمر ذهبياً ويرسمون على الصدر صورة عقاب وفى عصر العائلة التاسعة عشرة إلى الحادية والعشرين كانوا يدهنون توابيتهم بالطلاء المعروف بالورنيش الذى فى لونه صفرة ويبالغون فى إتقان التصاوير دون النقوش وكانوا يضعون الموميا الصغيرة أى الجثة المصبرة إما فى تابوت أو اثنين أو ثلاثة أو أربعة يدخلون بعضها فى بعض، وفى عصر العائلة الثانية والعشرين إلى الثالثة والعشرين كانوا يلوّنون التوابيت من باطنها بلون أسود أو بلون الخشب ويجعلون وجهها أحمر وعلى رأسها عصائب مزخرفة ويلفون موتاهم بلفائف من القماش ثم اصطلحوا بعد ذلك على تلوين باطن التوابيت بالأبيض وتقسيم أغطيتها بالألوان إلى أقسام عديدة ويكتبون فوقها كتابة بمداد أخضر وفى زمن البطالسة اتخذوا توابيتهم من الصوان والمرمر الأزرق فكانوا ينقشون عليها نقوشاً متقنة الصناعة (قال الراوى) فلو تأملنا جميع هذه التوابيت وما

عليها من النقوش والحلية علمنا ما كان يلزم للميت من النفقات والمصاريف الجسيمة التى كانت تزداد قيمتها بما يتبعها من كثرة النقوش والمبالغة فى التصاوير اهـ. وقد وجد مكتوباً على ورقة قديمة فى متحف فرنسا سميت باسم (بريس) الذى وجدها ما تعريبه أنه لما توفى الملك حوتى وهو (سفوريس) ثامن ملوك هذه العائلة تولى بعده الملك سنفرو وهو (كرفريس) تاسع هذه العائلة وكان محسناً لأهل مملكته. وفى مدته ثار عليه سكان جبل الطور وقعدوا على حدود مصر فقاتلهم وقهرهم واستولى على أرضهم وشيد فيها قلاعاً وحصوناً ودياراً وحفر آباراً وأقام بتلك الأرض رجالاً تستخرج له المعادن من النحاس والحجارة الكريمة كالفيروزج وعساكر تخفرهم ثم رسم نفسه هناك على صخرة (بوادى مغارة) فى هيئة مقاتل يقمع أعداءه ونقش بجانب صورته ذكر غزوته (قال ده روچيه) ووضع اسمه داخل خانة ملوكية ولقب نفسه فى تلك الصخرة بخمسة ألقاب وهى (حور) ومعناه الكاهن و(موت نب) (عرع نب) ومعناه صاحب التاجين وهما تاج العقاب وتاج الثعبان و(حور نب) ومعناه المنصور الظافر بأعدائه و(سوتن سخت) ومعناه ملك الوجه القبلى والوجه البحرى و(سارع) ومعناه ابن الشمس وهو الاسم المقدس المختص بالعائلة الملوكية وختم ذلك بجملة دعائية له وهى (عنخ ازاسنب) ومعناها دام بصحة وعافية قال فاقتدى به الملوك بعده فى جميع ذلك، ولما عاد إلى مصر بعد هذه الغزوة بنى فى حدود الدلتا قلاعاً وحصوناً بقيت إلى عصر العائلة الثانية عشرة وابتنى له هرماً سماه (خع) أى العيد ولم يعلم محله وإنما يقال أنه هو الموجود بميدوم بدليل وجود اسم هذا الملك منقوشاً على بعض جدران مقابر قديمة فى تلك الجهة كما رواه ده روچيه فى كتابه فى الست عائلات الأولى ولمدافعته عن بلاده أحبته الرعية وبالغت فى تعظيمه وعكفت على عبادته بعد وفاته واستمروا على عبادته واحترامه إلى عصر البطالسة وكان متزوجاً بالملكة مرتيتفس واصطلح ملوك هذه الطبقة على نقش أسماء أهرامهم فى الآثار بجانب أسمائهم فكان ذلك سبباً لسهولة معرفة أسماء الأهرام فى مدتهم كما رواه ده روچيه فى كتابه المذكور، ومن مآثر ملوك هذه العائلة التمثالان الموجودان الآن بمتحف بولاق أحدهما تمثال (رع حتب) وثانيهما تمثال (نفرت) زوجته المتخذان من حجر واحد وعليهما نقوش تدل على أن رع حتب كان الكاهن الأكبر فى المطرية وقائداً للجيوش المصرية وأن زوجته نفرت أعنى الجميلة كانت حفيدة ملك لم يعلم اسمه بعد اهـ. ومات الملك كرفريس بعد أن حكم ستاً وعشرين سنة وبانقراض الدولة الثالثة المذكورة على وجه ما سبق بيانه قامت بعدها الدولة الرابعة المنفية.

الفصل الرابع

(فى العائلة الرابعة المنفية)

كان ابتداء حكم هذه العائلة سنة خمس وثلاثين ومائتين وأربعة آلاف قبل الميلاد أى سنة سبع وخمسين وثمانمائة وأربعة آلاف قبل الهجرة وسنو ملكها مائتان وأربع وثمانون سنة وعدّة ملوكها أربعة عشر ملكاً (قال) أصحاب التاريخ ولم يعلم من أسمائهم غير ثمانية وسنذكر ستة منهم بعد وأولهم الملك خوفو وبظهور هذه العائلة ظهرت مصر بمظهر الارتقاء وحسن البناء والعمائر التاريخية.

فى الملك خوفو

كان هذا الملك غازياً شديد البأس عظيم المهابة قاتل طائفة من بنى عون وهم قبيلة من عرب البوادى الذين كانوا مستوطنين بناحية وادى مغارة وكانوا كثيرى التعدى على حدود مملكة مصر الشرقية من الجهة البحرية فأذلهم وأخضعهم وكان يحب تشييد العمارات والمبانى العظيمة فمن مآثره الهرم الأكبر الموجود بالجيزة واسمه (خوث) يعنى البهاء وكان العمال المشتغلون ببنائه مع المناوبة فى كل ثلاثة أشهر مائة ألف عامل واستمرت عمارته ثلاثين سنة منها عشرة فى توطيد أرضه وتأسيس حجارته السفلى وبناء الجسر الموصل إليه من شاطىء النيل بالحجارة لنقل الأحجار التى بنى بها هذا الهرم ومنها عشرون سنة فى تشييد ذات الهرم كما رواه هيرودوتس ونقل أيضاً عن بعض المؤرّخين أن قدماء المصريين إنما أرادوا ببناء تلك الأهرام منع المعتدين الذين ينتهكون الحرمات وينبشون القبور من سلب ما يكون فيها للموتى من التوابيت الجميلة والأوانى الفاخرة بالدخول فيها ووافقهم آخرون على ذلك وقالوا أن قدماء المصريين كانوا أشد الناس حرصاً على موتاهم ولذا صنعوا هذه المبانى الضخمة لإعجاز أهل الغايات عن التوصل إلى كنهها اهـ. كما رواه ماريت.

وقال صاحب العقد الثمين وهذا الهرم لم يحصل له خلل مع ثقله وطول مدته البالغة ستين قرناً وليس فى طوق البشر الآن أعمال بناء فيه حجرات وطرق وارتفاع بثقل يمكث زمناً كزمته (قال) وقد اطلعت على حجر بدار التحف المصرية عليه نقوش بجانبه الأيمن والأيسر فالتى على جانبه الأيمن تفيد أن الملك (خوفو) بنى هرمه المذكور والمقابر التى محيت آثارها الآن بجانب هيكل المعبودة إزيس المجاور ذلك الهيكل لمعبد أبى الهول من الجانب الغربى البحرى وأنه أنشأ أيضاً لابنته الأميرة

(حونت سن) هرماً بجوار هيكل إزيس المذكور ومن هذا يعلم أن أبا الهول ومعبده وهيكل إزيس كانت موجودة قبل بناء هرم خوفو ويستفاد من النقوش التى على جانبه الأيسر أن الملك المذكور كان أهدى هدايا للمعبودة إزيس المسماة أيضاً حاتحور واتخذها والدة له وأصلح معبدها ووضع بداخله التماثيل التى وجدها فيه من قبل وهى سفينة إزيس وتمثال (سلك) وتحوت وبتاح وحور وازيس ونفتيس وسخت وأزوريس وحيى وبجانب كل تمثال منها مكتوب اسم المادّة المتخذ منا فسفينة إزيس وتمثال حور وتحوت كانت من الخشب المطلى بالذهب وكان تمثال إزيس من الذهب والفضة وتمثال نفتيس من التنج (قال) وأثبت ذميخن أن الملك خوفو أصلح أيضاً هيكل حاتحور الذى بدندره ومن هنا يتضح لك أن دعوى اليونان على الملك خوفو بأنه كان ظالماً لرعيته فى تسخيرهم لبناء هرمه وغلق أبواب الهياكل وإهانة المعبودات المصرية كذب لا أصل لها لما علمت من تشييده الهياكل السابقة ولعل قولهم أنه ظالم لرعيته فى بناء هرمه مبنى على أنه لما قاتل بنى عون وأسر رجالهم سخرهم فى بناء هرمه كما هى عادة قدماء الملوك فى معاملة الأسرى وهذا وحده لا يفيد أنه ظالم لرعيته (والأهرام) مقابر كانت تهتم فى بنائها الفراعنة من تاريخ استيلائهم على الملك فيشيدون أولاً حجرة يدفنون فيها الملك بعد وفاته ثم يبنون عليها هرماً صغيراً ويعلونه طبقة فطبقة بالتدريج على حسب مدة حكم الملك فإن طالت مدته كان هرمه كبيراً شامخاً والافتراء صغيراً وعلى ذلك يكون عدد طبقات كل هرم دليلاً على عدد سنى حكم صاحب ذلك الهرم وعدد الأهرام الموجودة فى ديار مصر ينيف على المائة والمشهور منها سبعون هرماً اهـ. وفى عصر هذا الملك عثر أحد الكهنة على رسالة طبية بالقرب من محراب معبد مدينة ديموت ببلاد النوبة فنقلها إلى الملك خوفو وكتب على هذه الرسالة كيفية عثوره عليها بالألفاظ المعرّبة بما مؤدّاة (كانت الأرض محدقة بالظلام والقمر يضىء من كل جهة على هذه الرسالة) فأحضرتها أعجوبة لجلالة الملك خوفو اهـ. ثم مات (الملك خوفو) بعد أن حكم تسعاً وعشرين سنة فتولى الملك بعده سوفيس الأوّل وهو الملك رعد ددف.

(الملك رع ددف)

كان هذا الملك كثير العبادة شديد التدين فأحبته الرعية واحترمته وقدّسته وجعلته فى مصاف المعبودات (قال أصحاب التاريخ) وقد وجد نقش على حجر لرجل مصرى اسمه ابساموتيك بن أصاحور يفيد أن ابساموتيك المذكور كان كاهناً للمعبود (تانن) وللمعبودة (إزيس) ملكة الأهرام وكاهناً للملك خوفو وللملك خفرع الذى

هو سوفيس الثانى وللمقدّس رع ددف الذى هو سوفيس الأول وللمعبود حورمخى الذى هو أبو الهول ويظن أنه ابن الملك خوفو والأخ الأكبر لخفرع أى سوفيس الثانى قال بعض الكتاب فإن صح ذلك صدقت الرواية اليونانية بأن خفرع كان خليفة أخيه فى الحكم بدون ملك بينهما وكانت مدّة الملك سوفيس الأول المذكور ثلاثاً وستين سنة ثم مات وقام بالأمر بعده سوفيس الثانى ويسمى أيضاً خفرع.

(فى الملك خفرع)

قال أصحاب التاريخ من اليونان لما تولى الملك خفرع بعد موت أخيه رع ددف الذى هو سوفيس الأوّل شرع فى بناء الهرم الثانى بجانب هرم خوفو وجعله على وضعه وسماه (آر) يعنى الكبير قال صاحب العقد الثمين ويرى بجانبه محل قطع الأحجار التى كانت تستعمل فى بنائه وكلا الهرمين موضوع على جبل ارتفاعه مائة قدم (وروى هيرودوتس) عن المصريين أنهم نسبوا لهذا الملك الظلم والاعتساف بالرعية وقالوا أنه سار على سيرة الملك خوفو فى جميع أعماله وقد سخرهم فى بناء هرمه وأغلق الهياكل وشدّد عليهم فأبغضوه بغضاً شديداً كبغضهم للملك خوفو وكانوا يودّون لو أنهم لا ينطقون باسم أحدهما ولذلك سموا هرميهما براعى المواشى تهكماً واستهزاء وذكر ديودور الصقلى أن كلا الملكين حرم من بقائه مدفوناً فى هرمه وذلك لأن الرعية كانت تبغضهما بغضاً شديداً وقد عمدت إلى جثتهما فأخرجتهما من الهرمين وكسرت تابوتيهما وألقتهما على الأرض إهانة لهما قال ولم يستدل إلى الآن من الآثار على شىء من سيرة خفرع المذكور غير أنه عثر على سبعة تماثيل من حجر الصوّان على رسم صورته كانت ببئر فى المعبد المشهور الآن بالكنيسة التى قبلى أبى الهول فنقلت إلى دار التحف المصرى وحفظت فيها اهـ.

ومات خفرع المذكور بعد أن حكم ستاً وستين سنة على ما رواه مانيطون المؤرّخ فقام بالأمر بعده منكورع الذى يسمى أيضاً منخرس.

(فى الملك منكورع)

(المسمى أيضاً)

منخرس

(قال) جماعة الكتاب لما استقرّ بمنكورع المنصب عمد إلى إنشاء الهرم الثالث الموجود خلف الهرمين وبالغ فى إنجازه وسماه (حور) يعنى الأعلى قالوا وكان

منكورع هذا عادلاً محباً للرعية شفيقاً عليهم واسع الحلم كثير الرحمة فكان إذا تظلم أحد الناس من حكم يكون صدر عليه حنّ إليه وعمه بإحسانه ولاطفه ليهوّن عليه الأمر وقد دلت النقوش الأثرية على اهتمامه بأمر المعابد وإلهياً كل حيث أمر ولده (حورددف) أن يطوف على جميع المحاريب والمعابد فيصلح ما تخرّب منها وينشىء غيرها فى الكثير من المدن فقام بالأمر قالوا ولما كان يدبر العمل فى محاريب مدينة(ليتوپوليس) المعروفة الآن باسم (وسيم) عثر على كتابة مزبورة بلون أزرق على لوح من رخام فأحضرها إلى أبيه فرحاً مسروراً وقدّم اللوح إليه قال ماسپرو وهى الكتابة المدرجة ضمن المواعظ والحكم القديمة التى جمعها علماء اللغة الهرمسية فى الباب الرابع والستين من كتاب الأموات فصعب عليهم حلها لأنها أعجزت أهلها كماجاء فى قول كاتب من عصر الرمسيسية إلى رفيقة له وهو (تأتيني بأسرار كبيرة) أى بمواعظ وحكم عن الأمير حور ددف وتقول لى أنك ما علمت منها طيباً ولا رديئًا وكأنها سور منيع لا يمكن تجاوزه وكيف تقول ذلك مع إنك كاتب ماهر فائق على أقرانك فطن ولك فكر رائق وكلام موزون إذا قلت كلمة كانت أعظم من ثلاث كلمات صدرت عن غيرك ولقد تركتنى أصم بما حصل لى من فزع قولك. قال: وبهذا يتضح لك أن المواعظ والحكم القديمة كانت صعبة على أهلها ولذا يتعسر الآن على علماء القلم المصرى القديم حل معضلاتها اهـ.

وكان الملك منكورع حليماً ومآثره كثيرة منها عدّة مؤلفات فى علم الدين وكان شديد الرغبة فى تقدّم وطنه والارتقاء به إلى درجات التمدّن والتقدم ولذلك كفل الملك شبسكاف الذى تولى الملك بعده فجعله فى بيته وأحسن تربيته بين عائلته وزوّجه بابنته المسماة (معت خع) ليؤهله لارتقاء منصة الملك من بعده.

(قال صاحب العقد الثمين) وقد وجدت جثة الملك منكورع هذا فى تابوت من حجر الصوّان داخل هرمه فأرادت دولة الإنجليز نقله إلى متحفها فغرقت السفينة به فى ساحل البرتغال ولم تتحصل على شىء منه سوى الجثة وغطاء التابوت المحفوظين إلى الآن فى متحفها وهذا الغطاء مصنوع من خشب الجميز على شكل آدمى وعليه نقوش تتضمن دعوات طيبة له وتدل على أنه كان ملكاً على جميع أرض مصر اهـ.

ومات بعد أن حكم أربعاً وعشرين سنة كما شوهد ذلك على الآثار القديمة وفى رواية مانيطون ثلاثاً وستين سنة فقام بالأمر بعده شبسكاف وهو خامس ملوك هذه الدولة ويسميه مانيطون فى جدوله باسم سبرخرس.

(فى الملك شبسكاف)
(المسمى أيضاً)
سبرخرس

هو خامس ملوك هذه الدولة ولما استقر به الملك أمر ببناء الإيوان الغربى الموجود بمعبد بتاح بمنف قالوا وهو أعظم إيوان مزين بالصور والرسوم الغريبة ليمتاز بذلك عن أسلافه وبنى له هرماً يعرف باسم (شبسكافكب). قال هيرودوتس ونقش عليه يعنى على الهرم المذكور نقوشاً معناها.

لا تحقر هرمى بين الأهرام المبنية بالحجارة لإنى أفضله عليها تفضيل المشترى على جميع الكواكب إذ كان بناؤه بطوب متخذ من خشب مبلول فى مستنقع ماء امتص ذلك الخشب طفل المستنقع. وقال أيضاً أن هذا الملك كان أحد الخمسة المشرعين بالديار المصرية وأنه رتب الديانة وأبدع فن الهندسة ورصد الكواكب وسن قانونا للقرض يجوّز للمرء أن يرهن جثة والده عند الغير ويأذن للدائن أن يتصرف فى مقبرة المدين حتى يوفيه دينه فإن لم يوفه حرم المدين هو وذريته من الدفن فيه بعد وفاتهم.

ومات بعد أن حكم سبع سنين كما جاء فى جدول مانيطون المؤرخ فقام بالأمر بعده (ثامقيش) ولم تذكر جماعة الكتاب من أخباره شيئاً ومات بعد أن حكم تسع سنين وبه انتهت العائلة الرابعة ولم يعلم من أخبارها غير ما ذكر وقامت بعدها العائلة الخامسة التى كان تخت حكمها جزيرة أسوان.

الفصل الخامس

(فى العائلة الخامسة التى كان تخت حكمها جزيرة أسوان)

كان ابتداء حكم هذه العائلة سنة إحدى وستين وتسعمائة وثلاثة آلاف قبل الميلاد أى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة وأربعة آلاف قبل الهجرة وسنو ملكها مائتان وثمان وأربعون سنة وعدة ملوكها تسعة، قال ده روجه: ولم يظهر لنا من تاريخ هذه العائلة بعد البحث والتنقيب من الآثار وغيرها إلا ما سنذكره لبعض ملوكها وكان أوّل هذه العائلة الملك إسكاف ويقال له أيضاً اسركاف.

(فى الملك إسكاف)
(الذى يقال له)
(اسركاف)

قال أصحاب التاريخ كان هذا الملك محباً للرعية عادلاً دينا موقراً فكانت الرعية تحبه وتحترمه وتجله الكهنة إجلالاً عظيماً ولذلك جعلوا له وقتاً معيناً للعبادة وسماه مانيطون فى جدوله باسم اسرخرس وابتنى اسركاف هذا لنفسه هرماً سماه عب ستو يعني (المكان الطاهر) ولم يعلم من أخباره شىء غير ما ذكر ومات بعد أن حكم ثمان سنين وقال مانيطون ثمانياً وعشرين سنة.

فقام بالأمر بعده الملك سحورع الذى يسميه مانيطون سفرس ولهذا الملك هرم على شمال قرية بوصير واسمه خعبا ومعناه بعثة الروح قالوا وله فى وادى مغارة لوحة أثرية موجودة للآن ومنقوش عليها رسم صورته على هيئة المنصور على أعدائه وأمام صورته نقوش يستفاد منها أنه قهر جميع أعدائه وتغلب عليهم قالوا ولبث المصريون يعبدون هذا الملك بعد موته زمناً طويلاً وقد وجد فى عصر اليونان هيكل معدّ لعبادته وبداخله أسماء الكهنة الذين كانوا معينين لخدمته وكان لهذا الملك مدينة شهيرة على مقربة من إسنا سماها پاسحورع وقد محيت آثارها الآن ومات بعد أن حكم أربع سنين وقال مانيطون ثلاث عشرة سنة.

فقام بالأمر بعده الملك ككا ولم تذكر جماعة الكتاب من أخباره شيئاً ومات بعد أن حكم سنتين.

فقام بالأمر بعده الملك نفرار كارع ويسميه مانيطون نفرخرس ولهذا الملك هرم سماه (با) ومعناه الروح وفى أيام هذا الملك ازداد تمدن البلاد واشتغل أهلها بالعلوم والآداب. قالوا وقدوجد بين قبور هذا العصر أسماء لكثير من الأدباء مثل(أورخوو) و(ينحوك) قالوا وكلاهما كان حائزا للشرف العالى بين قومه.

ومات نفرار كارع بعد أن حكم عشرين سنة فقام بالأمر بعده الملك شبسكارع ولم تذكر عنه جماعة الكتاب شيئاً ومات بعد أن حكم عشرين سنة كما رواه مانيطون المؤرخ.

فقام بالأمر بعده الملك خع نفررع ولم يوجد له شىء يذكر سوى اسمه ومات ولعل مدة حكمه كانت مع مدة شبسكارع فيكون الاثنان حكماً معاً. وقال مانيطون

أنه حكم سبع سنين ويسميه باسم سيسيرس ثم قام بالأمر بعدهما الملك وعنوسر ويسميه مانيطون المؤرخ ريوّرس قالوا وهو أول من أضاف اسم (آن) وهو اسم عائلته إلى اسمه فكان يقال له بعد ذلك رعنوسر آن وكان ملكاً محارباً كثير الغزوات غزا سكان جبل الطور وانتصر عليهم وبنى له هرماً ببوصير سماه (من ستو) ومعناه المحل المتين فلما مات دفن فى الهرم المذكور بعد أن حكم إحدى عشرة سنة وقال مانيطون بل أربعاً وأربعين سنة.

فقام بالأمر بعده الملك منكاحور ويسميه مانيطون المؤرخ فى جدوله منخرس وله هرم يعرف باسم نترستو ومعناه المحل المقدس قالوا والغالب أن موضع هذا الهرم بجهة سقارة ومات بعد أن حكم ثمان سنين وقال مانيطون تسع سنين فتولى الملك بعده الملك دد كارع.

(فى الملك دد كارع)
(الذى يقال له أيضاً)
(تتحرس)

كان دد كارع المذكور كثير العناية بالعلوم والصنائع وقد استكشف فى أيامه معادن بوادى مغارة وابتنى له هرماً كأسلافه الفراعنة وسماه نفر ومعناه الجميل. قالوا ولم يعلم مكانه إلى الآن وكان له ولد من العلوم والفلسفة بمكان عظيم اسمه بتاح حتب وقد شاخ ومات ودفن بجانب مقبرة (تى) واشتهر بالعلوم والمعارف التى نقلت عنه وكذلك المواعظ والحكم التى منها إذا كبرت بعد الصغر أو حزت مالا بعد الفقر وصرت به الأوّل فى مدينتك وازدادت به شهرتك فلا تعظم نفسك بسببه لأن الله منّ عليك به ولا تحقر امرأ كان كما كنت فقيراً أو كان ذا مال مثلك ميسوراً ومنها كن وجيهاً ما دمت حياً ومنها متى صار للمرء اعتبار وساح فى الأرض وتأهل بامرأة فإن كان عاقلاً جهز بيته وأحب زوجته ولم يتنازع معها وأطعمها وزينها بتحسين أعضائها وعطرها وجعلها مسرورة مدة حياته ولا يكون عليها متوحشاً قاسياً، ومنها أيها الهنهان (اسم لمعبود) صاحب العمر الكبير متى أتى للمرء الهرم وحصل له الضعف والعجز وأتاه النذير ورقد متألماً صغرت عيناه وثقلت أذناه واضمحلت قوته وتلجلج لسانه وأظلم قلبه ووهن العظم منه حتى لا يفكر فى أمس ويلازمه النسيان لضرّ ألم به فيتبدل معه الطيب بالخبيث الذميم ويذهب عنه الطعم والذوق السليم كيف لا وهو الهرم الذى يصير الإنسان فى أسوأ حال وأقبح هيئة ومآل فيعطل حواس شمه

حتى لا يستنشق رائحة العود ويكلّ من الوقوف والقعود فماذا يفعل الإنسان إذا وصل لحالتى وسمع مقالتى. فقال الهنهان تعلم نصيحة من سلف التى يستغربها الصغار ويستعملها كبار الخلف وهى (ادفع عنك أذى العقلاء ولا تسيء أحدا ولو من الأعداء) اهـ. كما نقله ماسپرو.

(ومات الملك) دد كارع المذكور بعد أن حكم ثمانياً وعشرين سنة وقال مانيطون بل أربعاً وأربعين سنة فقام بالأمر بعده الملك أوتاس وهو آخر ملوك هذه العائلة على ما رواه جماعة المؤرخين.

(فى الملك أوتاس)
(الذى يقال له أيضاً)
(آتوس)

لما ارتقى أوتاس المذكور عرش الملك ابتنى له هرماً بسقارة وسماه نفرستو ومعناه الجميل قال صاحب العقد الثمين فتح يعنى الهرم سنة إحدى وثمانين وثمانمائة وألف للميلاد وهو الموضوع فى الجنوب الغربى من الهرم المدرج ويرى حوله كثيب من الرمال والحصباء ناشىء من عمليات الفتح التى حصلت فيه قبل الآن ومن تساقط كسوته الظاهرة التى كانت مصنوعة من حجارة طرا ويرى على ظاهره هيئة الدمار وسقوط الصخور والأحجار وكان عرض قاعدته مائتين وعشرين قدماً وارتفاعه اثنتين وستين قدماً فتناقصت الآن مقاييسه لما حصل فيه من الهدم والدمار من أهل الغوايات الذين سعوا فى فتحه لأخذ ما كان مكنوزاً فيه حسب اعتقادهم فلما أزالوا الكسوة الظاهرة وتوصلوا إلى مدخله وجدوه مسدوداً بالصخور التى لا يمكنهم إزالتها فاضطروا إلى فتح كوة معطفة طولها تقريباً سبعة أمتار توصلوا بها إلى المدخل الأصلى وهو عبارة عن طرقة طويلة عرضها متر وستة وثلاثون سنتيمتر مكتوب عليها بالمداد الأحمر أحمد النجار. قال: ولعله هو الذى أيضاً فتح هرم الملك خوفو الموجود بالجيزة مدة المأمون لرسم اسمه فيه فإن صح ذلك كان فتح هذا الهرم سنة عشرين وثمانمائة هجرية. ومن تلك الطرقة يتوصل إلى قاعة معدة لاستراحة الزائرين وكان طولها ثلاثة أمتار وتسعة وثمانين سنتيمتر وعرضها مترين وستة وخمسين سنتيمتر ثم تمتد من تلك القاعة طرقة أخرى يوجد فى وسطها ثلاثة حواجز ارتفاع كل واحد منها الآن متر واحد وكانت من قبل مجعولة لسد مدخل الهرم ثم تنتهي بقاعة وسطى طولها ثلاثة أمتار وخمسة وسبعون سنتيمترا وعرضها ثلاثة أمتار

وثمانية سنتيمتر وفيها طرقتان إحداهما على اليمين والأخرى على اليسار فالتى على يمين الداخل طولها متر وخمسون سنتيمتراً وعرضها متر وستة وثلاثون سنتيمتراً وتفضي إلى حجرة طولها سبعة أمتار وتسعة وعشرون سنتيمتراً وعرضها ثلاثة أمتار وخمسة عشر سنتيمتراً. قال ولما فتح الهرم لم يوجد به شيء سوى تابوت الملك المتخذ من المرمر الأسود وغطاؤه ملقى بعيداً عنه وذراع الملك الأيمن وعظم ساقه وبعض قطع من أكفانه ويرى فى وسط هذه الحجرة حفرة كبيرة كان حفرها اللصوص للبحث عن دفائن كنوزية والتى على يسار الداخل مقاسها كالطرقة السابقة وتوصل إلى طرقة أخرى فتقطعها فى وسطها وطولها ستة أمتار وثلاثة وتسعون سنتيمتراً وعرضها متران وخمسة وثمانون سنتيمترا وجانبها الشرقى مقسم بفاصلين إلى ثلاثة أقسام كل فاصل بارز فى الطرقة بمقدار متر وخمسة وعشرين سنتيمتراً ويرى على حجرات هذا الهرم نقوش هيروغليفية محفورة فى حيطانه ترجمها جناب ماسپرو مدير الانتيكخانة الآن فى كتاب مخصوص وهى عبارة عن أدعية اعتاد قدماء المصريين كتابتها فى القبور. قال: وقد أعرضنا عن درج ترجمتها هنا لعدم أهميتها وهذا الهرم معد الآن للفرجة اهـ. بنصه ومات الملك أوتاس بعد أن حكم ثلاثاً وثلاثين سنة (قال بعض الكتاب) وقد اتضح من الصحيفة المصرية القديمة المحفوظة الآن فى متحف تورينو بإيطاليا أن الملك أوتاس المذكور كان المتمم للقسم الأول من طائفة الفراعنة وأن ملوك هذا القسم الذين حكموا مصر على عمود التعاقب من عهد (منا) إلى أوتاس المذكور كانوا من نسل (منا) وبعد موت الملك أوتاس انقرضت ذرية (منا) ونسله كما حققه بعض المؤرخين. وقال آخرون بل إن الملك (تتا) أحد ملوك العائلة السادسة هو آخر نسل الملك (منا) ولكل حجة وبانقراض هذه العائلة أى الخامسة قامت بعدها العائلة السادسة التى كانت قاعدة ملكها جزيرة أسوان.

الفصل السادس

(فى العائلة السادسة التى قاعدتها جزيرة أسوان)

كان ابتداء ملك هذه العائلة سنة ثلاث وسبعمائة وثلاثة آلاف قبل الميلاد أى سنة خمس وعشرين وثلثمائة وأربعة آلاف قبل الهجرة وسنو ملكها مائتا سنة وثلاث سنوات وعدد ملوكها ستة أولهم الملك آتى الذى يقال له أتوس وشريكه الملك تتا.

(فى الملك آتى والملك تتا شريكه)

كان الملك (آتى) المذكور قبل ولايته حاكماً على الإقليم القبلي. ويقال أنه كان من جزيرة أسوان وقيل أنه من العرابة المدفونة، وأما الملك (تتا) فكان حاكماً على الأقاليم البحرية فعدّهما أصحاب التاريخ لذلك كملك واحد لحكمهما فى وقت واحد. وقد كان (تتا) المذكور آخر من ولد من الملوك بمدينة منف كما قاله بعض المؤرخين. وقال آخرون أن الملك (آتى) هو رأس العائلة السادسة المذكورة وأول ملك منها حكم البلاد وقد بنى له هرماً سماه (بايو) ومعناه هرم الأرواح وجلب إليه الأحجار من وادى الحمامات فى السنة الأولى من حكمه وعين لهذا العمل رئيساً اسمه (احى خفا) والأمير (تحوت ارينى) وملاحظين اسم الأول منهما (أبى) والثانى (بتاح انكيو) ومائتين من العساكر ومائتين من العمال ومثلهم من أهل الصناعة وشيده على نحو ما أراد وأما الملك (تتا) فقد بنى له هرماً آخر وسماه (ددستو) ومعناه أمتن المحال صلابة ولقبه بابن الشمس. قال أصحاب التاريخ ولم يسبقه بهذه التسمية أحد فى هرمه. قال مانيطون المؤرخ: ومات بعد أن حكم ثلاثين سنة قتله عساكره فتولى بعد موته وموت (تتا) شريكه المذكور (مريرع) الذى يسميه مانيطون باسم فيوس.

(فى الملك مريرع)
(الذى يسمى أيضاً
فيوس)

تولى مريرع المنصب الملوكى فجعل تحت حكمه جزيرة أسوان كما فعل الملك (آتى) سلفه فانحط لذلك قدر مدينة منف وأخذت بهجتها فى الزوال وظهرت عليها جزيرة أسوان وكان مريرع المذكور عاقلاً محباً لتقدم البلاد وعمرانها فاستوزر رجلاً اسمه (اونا). قال العلامة د. روچيه. وكان (اونا) هذا فى أول أمره رئيس كهنة الملك (تتا) وكان مسموع الكلمة عنده فقلبه فى أكبر الوظائف وأعلاها وقد كان رباه فى بيته فلما تولى الملك مريرع استوزره وسلمه مقاليد الأمور ورسم له بالذهاب إلى طرا ليبحث له هناك على صخرة بيضاء يصنع منها تابوتاً لجثته فتوجه (أونا) المذكور وأتى إليه بالصخرة فزاد عنده قبولاً وأخذ من هذا الحين يزيد فى ترقيه حتى ولاه نظارة أشغاله فأحسن التدبير وفرح المصريون به لحسن سياسته ووجه الملك مريرع عنايته إلى استكشاف المعادن فرتب لها الملاحظين والعمال حتى كثرت محصولاتها

وزادت عما كانت عليه قبل أيامه وفتح طريقاً مخصوصاً فى الصحراء من قفط إلى البحرالأحمر تسهيلاً للمسافرين وفتح طريقاً أخرى فيها للتجارة واختط مدينة جديدة فى مصر الوسطى وأصلح معبد (حاتحور) الذى بدندره حتى أعاده إلى ما كان عليه وكانت الحوادث قد دمرته فى العصر القديم ولقب نفسه بابن (حاتحور) وأدرج هذا اللقب مع اسمه فى خانة ملوكية وخرج عليه أهالى النوبة وقبائل الشام المسماة (عمو) وقبائل هيروشا القاطنون أيضاً فى جنوب بلاد الشام وكانوا أهل قوة ومنعة فركب إليهم وغزاهم وتغلب عليهم وأرجعهم إلى الطاعة قال صاحب العقد الثمين وتفصيل ذلك منقوش على لوحة (اونا) الحجرية وهو وزيره وتعريبها ملخصاً من كتاب العلامة ده روجيه.

(إن جلالة الملك بيبى) وهو لقب الملك مريرع جيش جيشاً عظيماً من كافة أرجاء مصر ومن بلاد أرمنت ومن بلاد العبيد وهى أمام (واوات) (وكاوو) (وتمام) وأرسل (اونا) على هذا الجيش بعد أن رتبه وعلمه بمشاهير رجال دولته فتوجه به (اونا) إلى قتال الحروشعيين وغزاهم وهدم حصونهم وقطع أشجارهم ودواليهم وحرق زرعهم وقتل من عساكرهم ألوفاً عديدة وأسر جما غفيراً من رجالهم ونسائهم وأطفالهم ورجع بجيشه سالما منصورا من غير ضرر ففرح به الملك فرحاً كبيراً واستعمل الأسارى فى أشغاله وباع العبيد منهم. وقال (اونا) إنى توجهت خمس مرات بهذا الجيش المجند إلى قتال بلاد (حروشع) وقهرت عصاتهم ثم عصاة بلاد (تجع) التى هى على شمال حروشع فسرت إليهم بهذا الجيش، وقاتلتهم قتالاً شديداً حتى أهلكت جميع عصاتهم وبهم انتهت الحرب وانقادت لأوامر الملك جميع البلاد. قال ولما تمت هذه الغزوات نلت عند الملك مزيد الشرف والقبول وتكرم على بعدم خلع نعالى عند دخولى فى القصر عليه وتمثلى بين يديه اهـ.

وعادت بعد ذلك الراحة إلى عموم البلاد وخضعت أهالى النوبة والليبيا وجهات آسية المتاخمة للدلتا وبلاد الحبشة واسترجع هذا الملك إلى ملكه جبل الطور وقد كانت ضمته إليها بلاد آسية على عهد من سلفه من الملوك وملأ ديار مصر بالآثار العظيمة فكان أعظم ملوك هذه العائلة وبه نالت مصر شهرة عظيمة وراحة كبيرة ومات بعد أن حكم أربع عشرة سنة وقال مانيطون بل ثلاثاً وخمسين فقام بالأمر بعده الملك مرنرع الأول الملقب (سوكرمساف) ويسميه مانيطون باسم مثه سوفس الأول.

(فى الملك مرنرع)
(أو)
(مثه سوفس الأول)

هو ابن الملك مريرع وكانت أيامه كلها راحة واطمئناناً فقد مهد له أبوه العقبات وأرهب جميع الأمم المخالفة المتاخمة لديار مصر فى أيامه فبقيت على الطاعة والسكينة واستوزر مرنرع المذكور وزير أبيه المسمى (اونا) وفوض إليه تدبير المملكة والنظر فى مصالح الرعية وسلم إليه عدة وظائف أخرى مهمة منها ولاية الحكم على الإقليم القبلى بأجمعه وهذا المنصب لم ينله أحد من قبل. قالوا ورسم له بأن يصنع له هرماً وناووسا، فأخذ (اونا) السفن ومراكب الحمل مع سفينة حربية، وهى أول سفينة حربية صنعت فى ديار مصر وسار إلى بلاد (أپيها) وإلى جزيرة أسوان لجلب الحجارة اللازمة لبناء الهرم والناووس ومنها إلى بلاد حانوب المشهورة بجودة الأحجار لإحضار مائدة عظيمة للمعاقرة وأتى بجميع ذلك على ظهر النيل وقت فيضانه ولم يسبق لهذا العمل مثيل من عهد الملك (منا) ثم أخذ فى بناء الهرم فما أتم بناءه حتى مات فحضر الملك جنازته ومشى أمامه حتى واروه التراب.

(ومات الملك مرنرع) أيضاً بعد أن حكم سبع سنين فقام بالأمر بعده الملك نفر كارع الذى يسميه مانيطون فيوبس.

(فى الملك نفر كارع)
(ويسمى أيضاً
فيوپس)

(تولى الملك نفر كارع) ولم تذكر جماعة الكتاب من أخباره ما يعادل سنى ملكه فقد حكم قرنا كاملاً كما رواه مانيطون المؤرخ وتسعين سنة كما دلت عليه الآثار غاية ما قالوه عنه أنه رسم باستخراج المعادن من جبل الطور فى السنة الحادية عشرة من ملكه وأنه طرد من كان فيه من القبائل المتوحشة وبنى له هرماً سماه (من عنخ) ومعناه دار الحياة فبلغت مصر فى أيامه من الشهرة واتساع الكلمة وبعد الصيت مبلغاً عظيماً وبقيت محافظة على حدودها وملحقاتها زماناً طويلاً وقد لقبه اليونان (ببيى) قال بعض الكتاب وعلى هذه التسمية يكون هو (ببيى الثانى) ومات فقام بالأمر بعده الملك مرنرع الثانى الذى يسميه مانيطون مثه سوفس الثانى.

(فى الملك مرنرع الثانى)
(ويسمى أيضاً
مته سوفس الثانى)

(تولى مرنرع الثانى) الملك ولقب سوكرمساف الثانى ولم يستقرّ به المنصب حتى قامت الفتنة بين أهل البلاد واضطرمت نارها وارتفع لهبها فقاموا عليه وعصوه وقتلوه فكان خامس ملوك هذه العائلة وكانت مدة حكمه سنة واحدة فقامت بالأمر بعده أخته وزوجته الملكة نيتوقريس التى تسمى أيضاً ليوتوقريس.

فى الملكة نيتوقريس

كانت هذه الملكة من أجمل نساء عصرها وأشهرهن فضلاً وكمالاً وهى أخت وزوجة الملك مرنرع الثانى ولقبها مانيطون المؤرخ فى تاريخه بموردّة الخدين قالوا ولما استقرّ بها المنصب عمدت إلى الأخذ بثأر أخيها الذى هو زوجها من قاتليه وقد كانوا بعض رجال الدولة فاحتالت عليهم وجذبتهم إلى قصر لها تحت الأرض بقرب النيل بدعوى وليمة أعدتها لهم فلما جلسوا للطعام أمرت بانسياب النيل عليهم فغرقوا جميعاً وماتوا ويقال أنها ألقت نفسها بعد ذلك فى محل ممتلىء برماد فماتت فيه حتى لا تكون عرضة للعقاب وكانت مدة حكمها اثنتى عشرة سنة قالوا وفى أيامها أتمت الهرم الثالث الذى تركه الملك منكورع ناقص البناء وعظمت بناءه وكسته من الخارج بحجر الصوان واتخذت لها منامة فى وسطه بأعلى الحجرة التى دفن فيها الملك منكورع من قبلها بثمانمائة سنة.

وفى عهد هذه العائلة تقدمت صنعة التصوير والنقش واتسعت وأتقنت غاية الاتقان وكانت قبلها فى حالة واحدة متشابهة وانتشرت عبادة المعبود أزوريس وعمت جميع الأنحاء وقد كانت قبلها قليلة إلا فى بعض المدن وانتهت سنو ملك العائلة المذكورة بموت الملكة نيتوقريس التى كانت آخر ملوكها وقامت بعدها العائلة السابعة والثامنة المنفية والتاسعة والعاشرة الأهناسية على الترتيب الآتى بعد.

الفصل السابع

(فى العائلة السابعة والثامنة المنفية
(والتاسعة والعاشرة الأهناسية)

(قال أصحاب التاريخ) لم يتأت لأحد من جماعة الكتاب الاهتداء إلى معرفة

أخبار ملوك هذه العائلات ولا معرفة شيء من أخبارها فأن هذا الدور وهو الممتد من آخر الدولة السادسة إلى أوائل الدولة الحادية عشرة يعدّ من أشكل أزمان تاريخ مصر وملوكها ويقدّر بنحو أربعمائة وثلاثين سنة حتى إن مانيطون المؤرخ المصرى لم يتعرض لذكر أسمائهم ولم يأت على شيء من أخبارهم قالوا والغالب أنه إلى ذلك الحين لم تكن لتهتدى جماعة الكتاب على الجهات التى توجد فيها آثار هذه العائلات الأربع المذكورة (قال صاحب العقد الثمين) وهذا القول هو الأرجح ويؤيده ما ذكره مريت باشا فى تاريخه من أنه يوجد بوجه الظن لهذه العائلات آثار فى نواحى ميدوم والفنت وإهناس المدينة، وفى سائر المنطقة الأرضية التى فى مدخل وادى الفيوم قال غير أننا إلى الآن لم نطلع عليها ولم نقف على حقيقتها وما ورد عن مانيطون فى هذه العائلات الأربع هو أن العائلة السابعة كانت قاعدة حكمها مدينة منف وملوكها خمسة من غير أن يعين أسماءهم وكانت مدة حكمهم خمسة وسبعين يوماًوفى رواية سبعين يوماً وفى أخرى سبعين سنة. وقد ذكر بعض الكتاب ابتداء ملكهم فقال ملكوا سنة خمسمائة وثلاثة آلاف قبل الميلاد أى سنة اثنتين وعشرين ومائة وأربعة آلاف قبل الهجرة والذى وجد من أسمائهم فى ورقة تورينو أربعة وهم نفر كارع. وقد حكم سنتين وشهراً ويوماً ونفروس وقد حكم أربع سنين وشهرين ويوماً وآخر ومحل اسمه مقطوع من تلك الورقة وقد حكم سنة واحدة وثمانية أيام.

وأن العائلة الثامنة كانت قاعدتها مدينة منف وملوكها سبعة وعشرون ملكاً وفى رواية تسعة عشر وقيل تسعة وقيل خمسة ملوك ومدة حكمهم مائتان واثنتان وأربعون سنة وفى رواية مائة سنة وأن ابتداء ملكهم كان سنة خمسمائة وثلاثة آلاف قبل الميلاد أى سنة اثنتين وعشرين ومائة وأربعة آلاف قبل الهجرة وأن العائلة التاسعة كانت قاعدة ملكها إهناس المدينة المتآخمة لمدينة بنى سويف على شاطىء بحر يوسف وملوكها تسعة عشر وفى رواية أربعة لم يعلم منهم سوى ملك واحد واسمه (اكتوس) وكانت سنو ملك هذه الدولة مائة سنة وتسع سنين وقيل مائة سنة وكان ابتداء ملكهم سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة وثلاثة آلاف قبل الميلاد أى سنة ثمانين وتسعمائة وثلاثة آلاف قبل الهجرة وأن العائلة العاشرة كانت قاعدتها إهناس المدينة أيضاً وعدة ملوكها تسعة عشر وسنو ملكهم مائة وخمس وثمانون سنة وكان ابتداء حكمهم سنة تسع وأربعين ومائتين وثلاثة آلاف قبل الميلاد أى سنة إحدى وسبعين وثمانمائة وثلاثة آلاف قبل الهجرة قالوا وقد وجد بعض أسماء ملوك هذه العائلات الأربع منقوشاً على لوحة حجرية فى هيكل سيتى الأول بالعرابة المدفونة (قال صاحب العقد الثمين) ومرتب فى هذا الجدول على الصورة الآتية:

نمرة اللوحة	أسماء	ألقاب	نمرة اللوحة	أسماء	ألقاب
٤٠	نتركارع		٤٩	نفركارع	ترل
٤١	منكارع		٥٠	نفر كاحور	بيبي سنب
٤٢	نفركارع		٥١	نفركارع	
٤٣	نفركارع	نبي	٥٢	نفر كارع	عنو
٤٤	دد كارع	شما	٥٣	كورع	
٤٥	نفر كارع	خوندو	٥٤	نفر كورع	
٤٦	مرنحور		٥٥	نفركو حور	
٤٧	سنفركا		٥٦	نفرار كارع	
٤٨	رعنكا				

قال وهذا أصح ترتيب وجد لأسماء ملوك هذه العائلات وكان سبب انقراض العائلة السابعة والثامنة هيجانا داخلياً استمر نحو مائة وخمسين سنة ثم بعدها ظهرت العائلة التاسعة والعاشرة من إهناس المدينة التى كانت تسمى قديماً (خينتسو) وتسميها اليونان (هيرقليوپوليس) وهى على قيد ثلاثين فرسخا من منف وكان موقعها جهة الغرب فى جزيرة عظيمة أحدثها فرع النيل الذى كان جارياً إذ ذاك تحت سفح جبل ليبيا ولم تكن إهناس المذكورة دار سياسة والذى أشهرها ملك يدعى (أخيثوس) مذكور اسمه فى كتب اليونان أنه من هذه العائلات وكان رجلاً جباراً متمرداً ظلوماً فأصيب فى آخر أيامه بالجنون ثم ابتلعه تمساح كما رواه هيرودوتس المؤرخ وكانت مدة حكم هاتين العائلتين ستمائة وقيل ثلثمائة سنة ولم يذكر أصحاب التاريخ أن كان حكمها عم ديار مصر جميعها أو تناول بعضها. قالوا وإنما قد تحقق من الآثار أنه حصل بين الملكين المتممين للعائلة العاشرة وبين أمراء طيبة بالإقليم القبلى محاربات انتصر فيها الأمراء على الملكين المذكورين ثم تعاهدوا على ترك الأقاليم القبلية للأمراء المذكورين بشرط أن يحكموا بالتبعية لملوك إهناس المدينة ولكن لم يلبث الأمراء طويلاً حتى خرجوا وجعلوا لهم عائلة أى دولة مخصوصة هى الدولة الحادية عشرة وأقاموا عليهم انتف الأول والياً يحكم بالتبعية لملوك إهناس المدينة وانتف هذا هو رأس هذه العائلة انتهى ببعض تصرف.

الفصل الثامن

(فى العائلة الحادية عشرة الطيبية)

كان ابتداء حكم هذه العائلة سنة ثلاثين ومائة وثلاثة آلاف قبل الميلاد أى سنة خمسين وسبعمائة وثلاثة آلاف قبل الهجرة وكان عدة ملوكها ستة عشر ملكا لم يشتهر منهم بالأخبار سوى تسعة وكانت مدة حكمهم ثلاثاً وأربعين سنة ولكنهم كانوا تابعين لملوك إهناس المدينة ولذلك لم تتوسع جماعة الكتاب فى ذكر مآثر كل واحد منهم إلا الملك (منتوحب) الرابع (ومعنخ كارع). قال صاحب العقد الثمين قد كانا ملكين يحكمان بالأصالة اهـ. وأول من ملك من هذه العائلة الملك انتف الأول.

(فى الملك انتف الأوّل)
(الذى يقال له أيضاً
انتف عا الأول)

هو رأس ملوك الدولة الحادية عشرة وقد حكم البلاد بالتبعية لملوك إهناس المدينة، ولذلك لم يدرج اسمه داخل خانة ملوكية كالفراعنة لأنه لم يكن أصيلاً بل كان والياً على الإقليم القبلى، وكان ملكاً مهيباً جليل القدر ذا شوكة عظيمة وله هرم على ضفة الصحراء فى الجهة المعروفة الآن بذراع أبى النجا بمديرية قنا مبنى بالطوب اللبن وجعل فى وسطه ضريحاً كساه بالحجر الأبيض وأتقنه غاية الإتقان قالوا: ووجد أهل تلك الناحية جثته داخل هذا الضريح موضوعة فى تابوت غطاؤه مطلى بالذهب وعليه اسمه ولكنه فقد.

قال صاحب العقد الثمين وكذا وجد فى داخل الضريح حجر مؤرخ فى السنة المتممة للخمسين من حكمه وعليه رسم صورته وعلى رأسه تاج الثعبان وبجانبه أربعة كلاب كان يحبها مدة حياته وكان له ولد يدعى (منتوحتب الأول) لقب فى أيام أبيه بولى العهد وحكم البلاد القبلية تحت سلطة ملوك إهناس المدينة فلما مات أبوه تولى الحكم بعده ووضع اسمه فى خانة ملوكية اهـ. ولم تصل جماعة الكتاب إلى معرفة شىء من أخباره ثم مات فقام بالأمر بعده (انتف عا الثانى) ولم يوجد له أثر يذكر غير تابوته الذى صار العثور عليه فى جهة الأصاصيف بقرب ذراع أبى النجا ثم مات.

فقام بالأمر بعده منتوحتب الثانى، ومات ولم يقف أحد من الكتاب على شىء من أخباره.

فقام بالأمر بعده انتف الثالث ولم يوجد له أثر يذكر ومات.

فقام بالأمر بعده منتوحتب الثالث وله صورة منقوشة على أثر فى جزيرة الكنوز القريبة من قصر أنس الوجود على شكل مقاتل منصور على ثلاث عشرة أمة أجنبية متوحشة وبجانبها نقوش معناها أنه يعترف بالمعبودة (لخم) معبودة قفط التى كانت يومئذ محصنة بالحصون والقلاع للدفاع عن وادى الحمامات وكانت مستودع الذهب والحجارة النفيسة التى كانت تستخرج من ذلك الوادى وكان بينها وبين بلاد العرب علاقة تجارية وقد زادت هذه العائلة بهجتها ورونقها بما أحدثته فيها من المبانى والعمائر العظيمة قالوا: (ولمنتوحتب) هذا نقوش فى وادى الحمامات منها ذكر والدته المسماة (أمّ) ومنها حثه الناس على الاهتمام باستخراج المعادن النفيسة من هذا الوادى، ومنها أنه حفر بئراً فى وسطه عمقها عشرة أذرع مصرية سبيلاً للواردين.

(قال صاحب العقد الثمين) ووجد له أيضاً فى هذا الوادى نقوش مؤرخة فى اليوم الخامس عشر من شهر بابه سنة اثنتين من حكمه يذكر فى أولها توسلات للمعبود (خم) ثم يقول فيها لرجل اسمه (أمنمحعت) انقل تابوتى وغطاءه من هذا الوادى إلى طيبة فتقرب هذا الرجل أولاً بقربان إلى معبوداته ثم جمع ثلاثة آلاف رجل على هذا التابوت وأنزلوه فى سفينة على ظهر النيل حتى أوصلوه إلى طيبة اهـ. فلما مات قام بالأمر بعده (انتف الرابع) وكان ذا تدبير حسن وسياسة حازمة فما زال حتى نزع الإقليم القبلى من ملوك إهناس المدينة واستقل بالحكم عليه وأخضع أيضاً أهل آسية الشمالية (قال ماسپرو). وقال إنى استوليت على الوجه البحرى أيضاً ولكن لا صحة لقوله لوجود ملوك إهناس المدينة المتأصلين فى الوجه البحرى اهـ. وله آثار أخرى ومات فدفن فى ذراع أبى النجا.

وقام بالأمر بعده (منتوحتب الرابع) ولقبه (نبخررع) فلم يستقر به المنصب حتى ركب على ملوك إهناس وأخذ يقاتلهم ليستخلص منهم الوجه البحرى وما زال على قدم الحرب والقتال حتى ظفر ونزعه منهم واستبد بملك مصر وادعى أنه المؤسس لهذه العائلة وابتنى له هرماً سماه (خوستو) ومعناه أبهى الأماكن لم يعلم محله وإنما استدل على اسمه من حجر وجد فى العرابة المدفونة لكاهن كان خادماً فيه ثم مات (منتوحتب) هذا.

فقام بالأمر بعده (سعنخ كارع) فلما استقر به المنصب سهل المواصلات ومهد

العقبات التى كانت بين بلاد العرب وديار مصر ونقش على حجر فى وادى مغارة نقشا ذكر فيه ما ترجمته عن شاباس.

(ويقول حنو) أرسلنى الملك لأوصل السفن إلى بلاد العرب ولأحضر له الصمغ ذا الرائحة الذكية. يعنى البخور الذى جمعه رؤساء الصحراء للملك خوفاً منه لأن رعبه عم جميع الأمم فتوجهت من قفط ومعى جنود من جنوب طية يخفرون التجريدة المرسلة لمقاتلة الأعداء فى بلاد العرب وعددها ثلاثة آلاف رجل وكان معى أيضاً نحاتون وعمال وضباط فمررت بالكفر الأحمر ثم بأرض مزروعة وأعددت معى قرباً وآلات لحمل زلع الماء، وكانت عشرين زلعة فصارت تحملها الرجال مع التناوب وحفرت أربعة أحواض أحدها كان فى غابة متسعة ومقاسه اثنتا عشرة قصبة واثنان فى محل يدعى (اتاحتت) مقاس أحدهما قصبة واحدة وعشرون ذراعاً ومقاس الآخر قصبة وثلاثون ذراعا ورابعها كان فى جهة تدعى (آتب) طوله عشر قصبات فى مثلها وعمقه ذراع واحد ثم وصلت إلى سبا وأنشأت هنا سفنا لنقل المحصولات من مين البقيع ورجعت من سبا إلى (واك) و(رهان) فأحضرت منهما الحجارة النفيسة لتماثيل المعابد ولم يحصل مثل ذلك من قبل وكذا لم يعهد أن أحدا من أقارب الملوك أرسل إلى تلك الجهات غيرى وإنما فعلت ذلك لفرط محبة الملك لى اهـ. (قال شاباس) المترجم لهذه الحكاية أن (حنو) هو أول من فتح الطريق الموصل من قفط إلى بلاد العرب بأمر الملك (سعنخ كارع) وجعل فيها خمس محطات وعيونا للماء فكانت سببا لترتيب المواصلات فيها وسلوكها بالقوافل التى كانت تأتى بالبضائع والسلع من بلاد الهند والعرب إلى مصر واستمر هذا الطريق كذلك إلى عصر اليونان والرومان.

وكان المصريون يطلقون على حضرموت واليمن اسم (بون) فاستعار العرب هذا الاسم ووضعوه للقهوة المعروفة بالبن وصار علما لها إلى يومنا هذا (قال مريت باشا) وقد وجد فى ذراع أبى النجا جملة من آثار هذه العائلة يرى عليها علامات الغلظ وهى عدة ألواح حجرية مستديرة من أعلاها وبعض أمتعة وأوان وفاكهة وخبز وملبوسات وشىء من أثاث البيوت والأسلحة وآلات الصناعة وكل ذلك محفوظ بخزانة التحف ببولاق. قال: وقد اصطلح أهل هذا العصر على أنهم يرسمون فوق توابيت موتاهم أشكالاً بأجنحة على هيئة الطيور ويلوّنونها بألون مختلفة باهرة إشارة إلى ما كان من جملة عقائدهم الدينية من أن إحدى معبوداتهم المسماة (إزيس) كانت تحنو على أخيها (أزوريس) بالتجنيح عليه بذراعيها فشبهوا الميت بآزوريس ووضعوا

صورته على توابيت الموتى. قال وإلى الآن لم يستوعب جميع آثار هذه العائلة اهـ.

(قال مانيطون المؤرخ) وضعفت شوكة من قاموا بالأمر بعد الملك(منتوحب الرابع) وزال بأسهم وتقهقروا فكان ذلك سبباً فى انتقال الملك منهم إلى العائلة الثانية عشرة بعد أن ظلوا قابضين على زمام حكم البلاد نحو ثلاث وأربعين سنة اهـ. قلت فانتهت الطبقة الأولى بانتهاء هذه العائلة وظهرت الطبقة الثانية بدور جديد ومظهر مفيد فزادت البلاد فى أيامها بهجة وعمراناً والعلوم والصنائع تقدماً وإتقاناً كما سيذكر فى محله.

* * *

الباب الثانى
(فى الطبقة الثانية)

(قال أصحاب التاريخ): كان ظهور الطبقة الثانية من ملوك مصر فى سنة أربع وستين وثلاثة آلاف قبل الميلاد أى سنة ست وثمانين وستمائة وثلاثة آلاف قبل الهجرة وعدة من تملك منها ست عائلات من العائلة الثانية عشرة إلى آخر العائلة السابعة عشرة وفى رواية من الحادية عشرة إلى الثامنة عشرة والأولى أرجح ، وكانت سنو ملكها ألف سنة وثلثمائة وإحدى وستين سنة.

الفصل الأول
(فى العائلة الثانية عشرة الطيبية)

كان مبدأ حكم هذه العائلة سنة أربع وستين وثلاثة آلاف قبل الميلاد أى سنة ست وثمانين وستمائة وثلاثة آلاف قبل الهجرة وسنو ملكها مائتان وثلاث عشرة سنة ، وقد اتخذت قاعدة مملكتها مدينة طيبة فلما استتب لها الأمر عملت على توحيد حكومة البلاد وجعلها مملكة واحدة تحت حكم ملك واحد وقد كانت إلى هذا الحين منقسمة إلى حكومات مختلفة حاكمة فى وقت واحد فنجحت وفازت وصارت البلاد كلها فى أيامها مملكة واحدة وكان عدة ملوكها ثمانية أولهم الملك امنمحعت الأول الملقب سحب أبرع وهو الآتى ذكر أخباره بعد.

فى الملك امنمحعت الأول

لما ارتقى امنمحعت الأول سرير الملك نهض إلى قتال الأعداء الذين كانوا يشنون الغارة على البلاد وقد كانوا أحزاباً من سكان ليبيا والنوبة وآسية اجتمعوا على قتاله فقاتلهم حول قلعة تاتوى التى كانت غربى مدينة منف وما زال بهم حتى انتصر عليهم وتغلب وأخذ منهم منف وتعقبهم حتى طردهم عن البلاد ، وعاد غانماً قال صاحب العقد الثمين: ولما طرد هؤلاء الأحزاب واستتبت الراحة فى عموم مصر قال مقالة مكتوبة فى ورقة سالير تعريبها:

فرجت عن الحزين حزنه فلم يسمع أنين صوته وانطفأت بهمتى نار الحروب وزالت الثورات والكروب وكان الناس من قبلى كثور يضرب وهو لا يشعر بماض ولا

آت ولم يكن للجاهل والعالم راحة فى جميع الحالات ووسعت الفلاحة إلى جزيرة أسوان ونشرت علائم الأفراح إلى روضة يحيط بها البحران واقترحت فى ملكى ثلاثة أصناف من الحبوب وأجبيت (تبرا) أعنى إله الحب المحبوب كيف لا وقد فاض النيل من جدواى على جميع الأرض فلم ير من جائع فى مدتى ولا من ظمآن تحت سلطتى وما هذا إلا لامتثال الرعية أوامرى واستماعهم كلمتى وتمسكهم بأفكارى فلهذا قهرت السبع وقطعت دابر التمساح وظفرت بأقوام (واواى) فنعم هذا الفلاح وأخذت (المتاشيو) أسارى وألزمت أهل آسية السير بجانبى كالأرانب حيارى اهـ.

قال: وكان لهذا الملك العاقل ولد ذكى فلما آنس منه رشدا صار يخبره بأحواله وطباعه فى الحروب وغيرها وهذه ترجمة ما قاله لابنه فى ورقة سالير: متى جن الليل، استغرقت ساعة فى السرور ثم تمددت على فرش لينة بقصرى وتهيأت للراحة لتأخذنى سنة النوم وهكذا عادتى فإذا عصتنى جماعة وتظاهرت علىّ بالعدوان أظهرت لهم أولاً الضعف كالثعبان البرى ومتى تهيأت لقتالهم لم أجد أحدًا منهم يقاومنى فى القتال وبذا لم تنبنى نائبة طول عمرى، وإذا انتشر الجراد وأضر بالعالم أو أضمر أحد إحداث الشقاق فى قصرى أو كانت زيادة النيل غير كافية أو نضب الماء من الصهاريج كنت أجتهد فى إصلاح ذلك اهـ.

وقد اعتنى امنمحعت المذكور فى استخراج الذهب من النوبة، وكان قد أهمل أمره من عهد الملك (بيبى) وقاتل بعض طوائف الزنوج وأدخلهم تحت الطاعة وغزا بنى (واواى) وقد كانوا من ألد أعداء المصريين من قديم الزمان ولكنهم لم يلبثوا أن فارقوا أوطانهم ونزحوا عنها تخلصاً من خضوعهم إليه قال بركش: إن سواحل المنزلة الشرقية التى كانت معمورة بأخلاط من المصريين ومن قبائل آسية كانت كما قيل خارجة عن حكمه، وقد شيد لنفسه هرماً سماه (كانفر) أى الهرم العالى الجميل وبنى هيكلاً عظيماً لمعبودات منف فتنافس من أتى بعده من الملوك فى توسيعه وتحسينه وبالغوا فى ذلك، ثم بعد استقلاله بالملك عشرين سنة أشرك معه فى الحكم ابنه المدعو أوسرتسن الأول وكتب ذلك فى صحيفة وجدها سالير وتعريب ما فيها:

رفعتك يابنى من بين الرعية وأطلقت لك التصرف كى يخافوك ويهابوك أما أنا الآن فأتزين برفيع الأقمشة لأظهر للعيون كنبتة من نبت بستانى وأعطر نفسى بالعطريات الكثيرة كأنما أنثر علىّ ماء من صهاريجى اهـ.

وكانت مدة مشاركة ابنه له فى الملك عشر سنين من غير منازعة بينهما فظهر ابنه بين الرعية بمظهر أطفأ مظهر أبيه واتسعت كلمته وعلت شهرته، وكان للملك

امنمحعت كتاب بين فيه قصة حياته وكان نفيساً جداً حسن العبارة فتداول تعليمه أهل المدارس القديمة وتنافسوا فى ذلك وكان مانيطون يسميه باسم أفنمس ومات بعد أن حكم ست عشرة سنة وفى رواية ثلاثين سنة فانفرد بالأمر بعده ابنه أوسرتسن الأول الملقب خپر كارع.

(فى الملك أوسرتسن الأول)

لما مات الملك امنمحعت استبدّ ولده أوسرتسن بالملك فكان ملكاً جليل القدر عالى الهمة محبوباً استمال إليه قلوب الرعية بمظهره العظيم وهو صاحب المسلة الكبيرة المنصوبة بالمطرية، وقد كانت أمام هيكل الشمس المدعو أتوم تعظيماً لهذا الهيكل لما كان له من الشهرة الواسعة وكانت تؤمه الناس فى كل وقت لأداء شعائر دينهم وصنع بجانبها مسلة أخرى ولكنها تكسرت ولم يبق لها أثر أما الأولى فباقية إلى يومنا الذى نحن فيه وعليها نقوش بالقلم الهرمسى. قال صاحب العقد الثمين: وملخصها أن الملك المنصور حياة كل موجود سلطان الوجه القبلى والبحرى خپر كارع صاحب التاجين وسلالة الشمس أوسرتسن المحب لمعبودات المطرية دام بقاؤه صنع هذا الأثر فى مبدأ العيد الرسمى لتخليد ذكره وإحياء لهذا العيد اهـ. قال ماسپرو: وكان هذا اليوم يعنى يوم العيد الرسمى محترماً عند المصريين حتى أن الملك أوسرتسن الأوّل نصب فيه المسلتين المذكورتين فى مدينة المطرية، وكانت هذه المدينة محدقة بصور وفيها أصنام هائلة بين قائم على قواعد وقاعد على نصبات عجيبة طول كل صنم منها ثلاثون ذراعاً وأعضاؤه على تلك النسبة ووجد أيضاً بجوار قرية بجبيج جهة الفيوم لهذا الملك مسلة ثالثة عليها نقوش تتضمن أنه نصبها تعظيما لمعبودات الفيوم أمام باب هيكل قد دمر الآن. قال وكان فى عصره رجل اسمه (امنى) قد بنى له مقبرة فى بنى حسان مكتوباً عليها مناقبه وملخصها. أن (امنى) هذا مات اليوم الرابع عشر من بؤنة سنة ثلاث وأربعين من حكم الملك أوسرتسن الأوّل وقد كان سافر مع الملك فى البحر والبر لقيادة الجيش المرسل لقتال الأعداء فى جهتى (كنت) (وأتو) ببلاد الايتيوبيا فتغلب عليهم وظفر بهم وعاد معه سالماً، ثم أرسله الملك ثانياً بأربعمائة رجل لجلب سبائك الذهب من تلك الجهة فلما أحضرها غمره بإحسانه ثم عينه ثالثاً لتوريد البقر الحلوب للقصر الملوكى فقام فى تحصيل ذلك خير قيام ثم جعله ناظراً على قسم (سعح) الذى كان شرقى المنية فلم يظلم فى حكمه فقيرا ولا أرملة ولا صيادا ولم يطرد راعيا ولم يسخر فى أعماله

أحداً بل سقى العطشان وأطعم الجوعان ولما حصلت فى زمنه السنون المجدبة اجتهد فى زرع جميع أرض قسمه وأطعم سكانه وجلب لهم المأكولات فلم يجع أحد منهم، وكان يسوى فى العطاء بين الأرملة والمتزوجة وبين الكبير والصغير ولما وفت زيادة النيل أخذ كل زارع مخصول أرضه من غير أن يأخذ منه (امنى) شيئاً اهـ.

(ورأى أهل التاريخ) أن هذه الرواية قريبة من قصة يوسف عليه السلام فظنوا أن أوسرتسن الأوّل هذا هو فرعون يوسف الذى وقع القحط فى أيامه لأهل مصر وعندى أن هذا الظن بعيد عن الصواب لأن مدّة يوسف بن يعقوب لا توافق هذا العصر واعتنى هذا الملك أيضاً باستخراج الأحجار النفيسة من جبل الطور وكان جليل القدر مسموع الكلمة فى تلك الأصقاع، وكان من مشاهير عصره أمير اسمه (منتوحتب) قال صاحب العقد الثمين: وله قصة منقوشة على حجر في متحف بولاق حاصلها أنه كان ناظر الداخلية والحقانية والأشغال العمومية والديانة، وكان عادلاً مشرعاً عالياً فمهد كل أمر فى ديار مصر وأقام شعائر الدين وحامى عن الفقير والعاجز وأعطى الأمان لمن شاء وقاتل أعداء الملك وتغلب على أهل آسية وسكن هيجان الوادى والعبيد وكان له الأمر والنهى فى الوجه القبلى والتصرف فى وضع الضرائب على الوجه البحرى وصنع له محراباً ملاصقاً لمعبد أزوريس بالعرابة المدفونة وحفر فيه بئراً اهـ.

وقبل موت أوسرتسن هذا رسم لمهندسه المسمى مرى أن يبنى له مقبرة فبناها وجعل بداخلها أودا بطرقات مقامة على أعمدة وجعل فيها حوضاً متصلاً بالنيل وعمل لها أبواباً ومسلات ووجهة من حجر طرا الأبيض ثم مات بعد أن حكم خمساً وأربعين سنة وفى رواية مانيطون ستاً وأربعين وكان مانيطون يسميه سيسونخوسيس. فقام بالأمر بعده امنمحعت الثانى الملقب تب كورع.

(فى الملك امنمحعت الثانى)

لم تذكر جماعة الكتاب عن الملك امنمخعت هذا شيئاً من الأخبار سوى ما قاله بعضهم من أن المصرين كانوا فى أيامه في قتال وحروب هائلة مع طوائف الأيتيوبيين بغية توسيع مملكتهم وتقوية خدودها فى تلك الأنحاء وأن الملك امنمحعت المذكور كان متزوّجاً بالملكة نفرت ومعناها الجميلة وكان مانيطون المؤرخ يسمى هذا الملك باسم أمانمس وقد حكم ثمانياً وثلاثين سنة ومات فقام بالأمر بعده الملك أوسرتسن الثانى.

(في الملك أوسرتسن الثاني)

تولى الملك أوسرتسن الثانى فأحسن التدبير وحافظ على حدود المملكة واجتهد فى بقاء شهرتها التى أوجدها أسلافه وقد كانت الحدود يومئذ تمتد إلى بلاد الايتيوبيا ومن آثار عصر أوسرتسن الثانى المذكورة مقبرة (خنوم حتب) الموجودة فى بنى حسان وعليها أجمل نقوش. قال صاحب العقد الثمين: وهى مبينة لبعض أحكام الوراثة فى ذلك العصر إذ يفهم منها أن خنوم حتب بن (نحر) وأمه (بوقت) كان قريب الملك وصنع هذا الأثر لتخليد ذكره وذكر مستخدميه الذين عملوا الخيرات، وذكر من امتاز من فلاحيه بالدرجة العالية وبين كل صنعة ووظيفة تحت رسم صورته وأخبر أن الملك امنمحعت الثانى أورثه الحكم الذى كان لجده من أمه على البلاد الشرقية بجهة المنية وأورثه أيضاً وظيفة الكهانة للمعبودين (حور) (وبخت) التي كانت لجده أيضاً بعد أن وضع له الحدود بنفسه في كل جهة ووزع على الأراضي مياه النيل كما كان جارياً لجده من قبله وسبب توريث الحكم إليه من جده هو أن الملك امنمحعت الأول أمر بتعيين جده رئيساً على البلاد الشرقية جهة المنية وبعد أن مهدها له وأخمد عصيان أهلها وأصلح ما دمر منها وبين حدودها بنفسه ووضع عليها الضرائب على حسب المحصولات ووزع عليها المياه كما كان مقرراً في السجل جعل هذا الجد ناظرا على قسم (سعح) بعد أن بين له حدود ومياه ذلك القسم وأنعم على ابنه المرحوم (نخت) برتبة حاكم على مدينة المنية إذ كان له حق الوراثة فيها.

قال: ولما تولى الملك أوسرتسن الأول أصدر قرارا مؤيدا للأرشد من ذرية الجد برتبة الرئاسة فكانت والدتي (بوقت) هي السابقة في الترؤس على مدينة امنمحعت الأوّل المسماة سحتب أبرع في قسم سعح فساغ لها بذلك أن تتزوّج بحاكم فتزوّجها الحاكم (نحر) والدي وعلى ذلك أورثني امنمحعت الثاني رتبة الرئاسة على مدينة المنية التي كانت لجدي وذلك سنة تسع عشرة من حكمه فعملت ما فيه الإصلاح لهذه المدينة وأحييت اسم والدي (نحر) وشيدت المعابد ووضعت تماثيلي فيها ورتبت لها ما يلزم للقرابين وعينت لها قسيساً أقطعته أراضي وأخدمته فلاحين ورتبت للأموات الصدقات في جميع أعيادهم الآتية وهي:

عيد السنة الجديدة وعيد رأس السنة وعيد السنة الكبيرة وعيد السنة الصغيرة وعيد آخر السنة والعيد الكبير وعيد الحر الأكبر وعيد الحر الأصغر وعيد خمسة أيام النسيء وموسم ورود المحصولات ومواسم أنصاف الشهور الاثنى عشر وفي كافة أعياد الأحياء ومواسم الأموات وشرطت أنه إن بدل كاهن شيئاً من هذه الرسوم فهو معزول عن الخدمة ولا ينوب ابنه عنه. انتهى.

وكان خنوم حتب هذا من كبار المصريين وعظمائهم وكان يؤمه كثير من الناس لكرمه فمن أتى إليه قاصدا بابه عائلته من بني عمو القاطنين بآسية وكانوا سبعة وثلاثين فرسمهم في مقبرته بصورة أنهم قيام بين يديه خاضعون يشيرون إليه بالتحية ويسألونه أن يأذن لهم بالإقامة في جواره ورسم كاتبه المسمى نفر حتب كأنه يعرض عليه ورقة. قال صاحب العقد الثمين: مضمونها يعني مضمون الورقة المذكورة، في السنة السادسة من حكم الملك أوسرتسن الثاني قدم سبعة وثلاثون نفسا من بني عمو وأحضروا معهم من جهة (بتسو) معدنا يسمى (مستموت) هدية منهم للملك وكان هذا المعدن مرغوباً جداً عند المصريين ولذا كانت عرب البقيع المسماة عمو تأتي به إلى أهل مصر. اهـ.

قال ويرى على قبر خنوم حتب رسوم دالة على كيفية الفلاحة وأعمال الجهادية وطرق الموسيقى وتربية المواشي ومبينة لصور الملوك والأعيان وملاعيب اللهو وبعض قواعد الأحكام وتدبير المنازل وأثاثاتها وفيها أيضاً أعمال دينية وآثار تاريخية وفن الملاحة وعلم الحيوانات. قال: فمن أراد الوقوف عليها فليتوجه إلى بني حسان وينظر رسمها في قبر خنوم حتب هذا.

وقد استنتج بركش من حكاية خنوم حتب أن الرتب والوظائف والرئاسة في الأقسام والمدن كانت تورثها الملوك الذكور عن آبائهم وأجدادهم وأن الأجنبي كان لاحق له في الحكم إلا إذا تزوج امرأة لها حق الوراثة فيه وأن الملوك كانت تباشر توزيع المياه على الأراضي وتسجيلها في الدفاتر وضبط مساحتها ووضع الضرائب اللائقة بها وبهذه العادة الحميدة كان يمتنع الظلم والخصومة بين الأهالي. اهـ.

ومات الملك أوسرتسن الثاني بعد أن حكم تسع عشرة سنة. وقال مانيطون بل ثمانياً وأربعين سنة وسماه باسم سيسوستريس فقام بالأمر بعده الملك أوسرتسن الثالث الملقب خع كارع.

(في الملك أوسرتسن الثالث)

تولى الملك أوسرتسن الثالث فكان شهماً مهيباً صاحب عزم وحزم فاتسعت لذلك شهرته وكبرت شوكته وبلغت مبلغاً عظيماً جدًا حتى عبدته الناس بعد موته وقد غزا مرارا طوائف العبيد المقيمين في جنوب مصر رغبة في توسيع حدود المملكة وأنشأ في وادي حلفا بالقرب من الشلال الثاني القلاع والحصون وقد بقي منها قلعتان للآن يعرفان بقمنه وسمنه لمنع دخول الأعداء جوف البلاد وفيهما يرى آثار

الأسوار الشامخة والبروج العالية والخنادق والنزلات وغير ذلك. قال صاحب العقد الثمين: وكان بداخلها معبد وعدة مساكن دمرت الآن وقد عثر على حجرين كانا مجعولين حدا فاصلا لبلاد مصر من جهة الجنوب مكتوب على أحدهما ما نصه:

هذا حد مصر الجنوبي وضع في السنة الثامنة من حكم الملك أوسرتسن الثالث مخلد الذكر لا يجوز لأيّ أسود أن يتجاوز هذا الحد في أثناء سفره إلا سفنا فيها حيوانات من بقر ومعز وحمير من قبل بني الأسود. اهـ.

وفي آخر هذه الكتابة عبارة مضمونها لا يجوز لأي سفينة تابعة لبني الأسود خالية من الحيوانات المذكورة الدخول أثناء سيرها في بلاد مصر الجنوبية. والكتابة الموجودة على الحجر الثاني يفهم منها أن هذا الملك وضع سنة ست عشرة من حكمه هذا الحجر حدًّا فاصلا لبلاد مصر الجنوبية وأنه أمر بنصب تماثيله في تلك الجهة فلهذا ابتهل أهل النوبة بصالح الدعوات إلى أوسرتسن هذا بعد وفاته ومدحوه بأنه كان حامي حمى مصر، وكان رجلاً مقداماً ثم بعد مضى خمسة عشر قرناً أعني في عصر العائلة الثامنة عشرة شيد له تحوتمس الثالث معبداً في سمنه وكتب عليه ابتهالات كان يتلوها المصريون في ذلك الوقت وهذا تعريبها ملخصاً، أيها الأمراء الذين يحترمون معبودات جهاتهم إذا قربتم من هذا الأثر فاتلوا هذا الابتهال إلى معبود النوبة (توتون) وإلى الملك المرحوم أوسرتسن الثالث عسى أن يرحما فلاناً. اهـ.

وكان أوسرتسن الثالث المذكور كثير التعبد يحترم المعبودات ويشيد لهم الأبنية العظيمة وقد وجد على الآثار من قوله أنه في اليوم الثامن عشر من كيهك سنة أربع عشرة من حكم الملك أوسرتسن الثالث مخلد الذكر ومحب (خم حز) معبود مدينة قفط صدر أمر منه بصنع أثر في وادي الحمامات (لحرشف) معبود أهناس المدينة. اهـ. وله هرم في دهشور ثم مات بعد أن حكم ستا وعشرين سنة فقام بالأمر بعده الملك امنمحعت الثالث الملقب عنامعت.

(في الملك امنمحعت الثالث)

تولى الملك امنمحعت الثالث فأحسن التدبير وخلد له ذكراً لا يمحي بما شيده في الفيوم من المباني الجسيمة والعمائر النافعة، وذلك أنه لما كانت ديار مصر وزروعات أرضها بين عاملين هائلين هما الغرق والشرق وكان إذا وقع أحدهما في إحدى السنين كانت الطامة الكبرى على البلاد وأهلها وكان الملك امنمحعت المذكور

كبير العناية بأمر مملكته شديد الرغبة في إسعادها وإيرادها موارد الغني والتقدّم نهض إلى تلافي هذه الأضرار وجعل البلاد في مأمن منها وكان في الصحراء الغربية من مصر بادية عظيمة تصلح للزراعة وهي التي تعرف الآن بوادي الفيوم وكانت كما قاله بعض الكتاب تتصل بوادي النيل الأصلي بقطعة من الأرض كالبرزخ وفي وسطها قطعة أرض مستوية سطحها يضاهي سطح مزارع مصر وفي جانبها الغربي أرض منخفضة متسعة جداً تغمرها مياه بحيرة طبيعية هي التي تعرف الآن ببركة قارون تبلغ من الطول أكثر من عشرة فراسخ فرسم بحفر بركة في وسط تلك القطعة الأرض المستوية وجعلها مستودعاً للماء عرفت ببركة موريس فإن كانت زيادة النيل ضعيفة فتحت البركة المذكورة فيخرج من المياه المخزونة فيها ما يكفي لري مزارع بادية الفيوم بل سائر أراضي الجانب الأيسر من النيل إلى البحر الأبيض، وإن كان النيل كثيراً جداً بحيث يخشى منه تكسير الجسور صرف القدر الزائد عن المنافع إلى تلك البركة الجديدة فإن طفحت فيها المياه انصرف ما زاد عنها إلى بحيرة قارون بواسطة قنطرة تسد وتفتح بحسب الحاجة.

وكان الملك يرسل في كل سنة قبل ارتفاع النيل جماعة إلى النوبة يستكشفون زيادة النيل جهة سمنه وقمنه ولذا يرى في تلك الجهة نقوش بالقلم البربائي معناها على ما رواه جماعة من الكتاب هكذا، إلى هنا وصل ارتفاع النيل في السنة الرابعة عشرة من حكم الملك امنمحعت الثالث خلد ذكره . اهـ.

قال العلامة لبسيوس وكان فيضان النيل في عصر العائلة الثانية عشرة يزيد عن أكثر فيضانه الآن جهة سمنه وقمنه ثمانية أمتار وسبعة عشر سنتميتراً وأن زيادته المتوسطة في عصر امنمحعت الثالث تزيد على فيضانه الحالي سبعة أمتار . اهـ.

قال صاحب العقد الثمين: فيتضح لك مما تقدم أن بركة قارون كانت طبيعية وبركة موريس صناعية وكانت الأولى كثيرة الأسماك والثانية يصب فيها ماء النيل من ترعتين وقت زيادته ثم يحجز فيها بواسطة سد فإذا كان وقت الشرق فتح هذا السد فيسقى الأراضي المجاورة لبركة موريس، وكانت إحدى هاتين الترعتين تتفرع من النيل بجانبه الغربي ثم تجري تجاه بحر يوسف الحالي وكان باب السد موضوعا في مجمع الترعتين والترعة الثانية كانت تجري جهة الشمال وكانت معدة لتوزيع المياه على الأرض عند الشرق وكان في وسط بركة موريس المذكورة هرمان في كل منهما تمثال جالس فالهرم الأول كان فيه تمثال زوجته المسماة سبك نفرورع وقد وجد رسم هذه الملكة في صحيفة موجودة بمتحف بولاق وسماها اليونانيون باسم موريس يعني

تلك البحيرة وأصلها (مرى) ومعناها (بحيرة) اذ من عادتهم أن يضعوا حرف السين آخر أسماء الأعلام عندهم فلذا حولوا كلمة مرى إلى موريس. وقالوا (بحيرة موريس) زاعمين أن موريس هذا اسم لأحد الفراعنة المصريين والحقيقة ليس بشيء قال بعض الكتاب:

وأما الفيوم فأصلها بايوم أوفايوم ومعناه بالهرمسية بلد البحر ثم عربها العرب فقالوا: الفيوم وأطلقوه على نفس الإقليم تسمية للأرض باسم الماء الذي أخصبها باقتراح الملك امنمحعت الثالث ومن أعمال هذا الملك السراى الشهيرة باسم لابيرانتا وتسمى بالقلم الهرمسي لابوراحونت ومعناها معبد فم البحيرة وكان ينعقد فيها مجلس الأعيان من كهنة المصريين للمداولة في أمور السياسة وكان بداخله اثنتا عشرة رحبة متقابلة الأبواب ستة على الشمال وستة على اليمين، وهذه العمارة محدقة من الخارج بسور كبير وفيها ثلاثة آلاف أودة منها ألف وخمسمائة في الدور الأول وألف وخمسمائة فوقها وفيها أيضاً إيوانات ورحبات وجميعها مسقوفة بالحجارة ومقامة على أعمدة من الحجر الأبيض منتظمة الصفوف وفي آخر هذه العمارة هرم مزين بالرسومات العجيبة والأشكال الغريبة يتوصل إليه بسرداب تحت الأرض وفيه قبر امنمحعت الثالث الذي دفن فيه.

(وذكر استرابون) أن الأماكن التي داخل تلك العمارة كانت بعدد أقسام ديار مصر القديمة فكان لمندوب كل قسم محل مخصوص فيجتمعون فيها إما بأمر من الملك أو على مقتضى قانون البلد لكي يتداولوا في أحوال بلادهم كوضع الرسوم والأموال وتغيير الملك أو العائلة وهذه العمارة موضوعة في الجهة الشرقية من بحيرة موريس على ربوة واسعة مربعة طولها مائتا متر وعرضها مائة وستون متراً، وكانت وجهتها المطلة على بحيرة موريس مصنوعة من الحجر الأبيض فإن دخلها إنسان ضل عن الطريق، ولم يهتد للخروج منها لكثرة أماكنها وأحجارها مجلوبة من وادي الحمامات بدليل ما وجد على صخور الوادي المذكور من النقوش الدالة على أنه في السنة التاسعة من حكم الملك امنمحعت الثالث سار هذا الملك بنفسه إلى هذا الوادي لجلب الحجارة للعمارة الجاري العمل فيها بمدينة الفيوم، وصنع تمثالاً لنفسه على شكل جالس ارتفاعه خمسة أذرع وهو المذكور آنفاً، ويرى أيضاً في وادي الحمامات نقوش أخرى تفيد أن الملك أرسل هناك جماعة من المهندسين لمباشرة قطع ونحت الأحجار ولعمل التماثيل المطلوبة له ووجد فيه أيضاً نقوش من أعمال بعض رجال دولته يفهم منها أن لهذا الملك مآثر كثيرة منها استخراج بعض المعادن من بحيث

جزيرة جبل الطور وأخصها معدن الفيروزج ومنها أنه قاتل الزنج وفتح بلادا كثيرة. اهـ.

ومات الملك امنمحعت الثالث المذكور بعد أن حكم اثنتين وأربعين سنة. وقال مانيطون بل حكم ثمان سنين وكان يسميه باسم أمرس فقام بالأمر بعده الملك امنمحعت الرابع الملقب معت خرورع وأخته سبك نفرورع.

(في الملك امنمحعت الرابع
وأخته
(الملكة سبك نفرورع)

تولى الملك امنمحعت الرابع وأخته الملك سبك نفرورع معاً وحكما بالاشتراك وكانت ولاية أخته بحق الوراثة كالملكة (نيتوقريس) من العائلة السادسة ولم يعلم من أخبارهما شيء يذكر غاية ما كتبه أصحاب التاريخ أنه قد استدل من الآثار على أن حدود المملكة المصرية كانت تمتد في عصر هذه العائلة إلى بلاد النوبة، وكانت ملوكها متسلطة على بحيث جزيرة الطور وكان بين المصريين وبين سكان ليبيا الشمالية وأهل آسية أشغال ومعاملات تجارية كان مركزها بين مدينتي بني سويف واهناس المدينة ولهذه الأسباب اختلط المصريون بالليبيين فتعلم المصريون عن الليبيين ألعاب المصارعة، وكان الزنوج في أيام هذا الملك يأتون إلى بلاد مصر أفواجاً لخدمة أهلها، وكانت العلوم والصنائع في أيام هذه العائلة بالغة حد الكمال والمدارس في نجاح وتقدّم وحدود البلاد وأقسامها وحركة نيلها في انتظام غريب وأتقن فن البناء وصناعة الأحجار ولذلك قال أصحاب التاريخ إن أغلب ما يوجد في الأقاليم القبلية من الأعمدة الحلزونية الشكل هو من أعمال هذه العائلة دون غيرها.

ومات الملك امنمحعت الرابع المذكور وأخته الملكة نفر ورع ولم يذكر أصحاب التاريخ أيهما مات أولاً وإنما يستنتج من جدول أسماء هذه العائلة المنقول عن الآثار وجدول مانيطون المؤرخ أن مدة حكم الملك امنمحعت الرابع المذكور كانت تسع سنين وثلاثة أشهر وسبعة أيام حسب الآثار وثمان سنين حسب ما قاله مانيطون وكانت مدّة حكم الملكة نفر ورع سنة واحدة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوماً كما دلت عليه الآثار وأربع سنين كما رواه مانيطون وبموتهما انقرضت الدولة الثانية عشرة المذكورة وقامت بعدها الدولة الثالثة عشرة الطيبية.

(الفصل الثاني)

(فى العائلة الثالثة عشرة الطيبية)

كان مبدأ حكم هذه العائلة سنة إحدى وخمسين وثمانمائة وألفين قبل الميلاد المسيحي أي سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة وثلاثة آلاف قبل الهجرة وسنو ملكها أربعمائة وثلاث وخمسون سنة وقيل غير ذلك وعدّة ملوكها سبعة وثمانون وقيل غير ذلك.

وقد خفي على أهل التاريخ معرفة أسماء ملوك هذه العائلة وما لهم من المآثر وغاية ما قالوه عنهم أن أكثرهم كان يلقب بلقب (سبك حتب) (ونفرحتب) قالوا وبالبحث في الآثار القديمة وجد كل من لقب سبك حتب ونفر حتب منقوشاً على الأحجار القديمة ولكن لم يعلم من أي عائلة هو ولما عثر أصحاب العلوم الأثرية على نقوش على الصخور التي بجهة سمنة مضمونها أن الملك (سبك حتب الأول). كان حياً على عهد الملك (أوسرتسن) الثالث استنتجوا من ذلك أن ظهور هؤلاء الملوك الملقبين باللقبين المذكورين كان عقب العائلة الملوكية الثانية عشرة وقد وجدت أسماؤهم مرتبة في جدولين على صحيفة من البردي ممزقة وهي موجودة بمتحف تورينو بإيطاليا. قالوا: وعدّتهم سبعة وثمانون ملكاً كما تقدّم.

ولم تعلم أسماؤهم كلهم إلا القليل منهم وهم كما ذكرهم صاحب العقد الثمين رع خوتاوي الملقب سبك حتب الأوّل. وسخم كارع. ورع امنمحعت الأول. وسحتب أبرع الأوّل. وأوفني. وسعنخ أبرع الملقب أمني أنتف امنمحعت. وسمن كارع. وسحتب أبرع الثاني. و... كارع. والعاشر لم يعلم اسمه. والحادي عشر اسمه نزم أبرع. ثم رع سبك حتب الثاني. وران سنب. وأتو أبرع الأوّل. وسزف. . رع . ورع سخم خوتاوي الملقب سبك حتب الثالث. ورع أوسر. . وسمنخ كارع الملقب مرمشا. و... كارع. و...أوسرسر. ورع سخم سوزتاوي الملقب سبك حتب الرابع. وخع سيشش رع الملقب نفر حتب بن حاعنخف. ورع ساحاتور. وخع نفررع الملقب سبك حتب الخامس. وخع كارع. وخع عنخ رع الملقب سبك حتب السادس. وخع حتب رع الملقب سبك حتب السابع. وح أبرع الملقب يعب. ومر نفررع الملقب أبي. ومر حتب رع. وسعخنسرع الملقب أوتو. ومر سخمرع الملقب أنرن. وسوز كارع. . أورع. وأنمم... رو. ومن الخامس والثلاثين إلى الثالث والأربعين ساقط من الأصل. والرابع والأربعون هو مرخپر رع. ثم مر كارع. ثم من السادس والأربعين إلى الخمسين ساقط. ثم... مس. ورع معت. . الملقب أبا. و. . رع أوين الأوّل. و... كا. ورع. . تن. ورع... وسابع خمسيهم

لم يعلم له اسم. وثامن خمسيهم اسمه نحسي رع. ثم خع خرورع . ثم نبف عا أتورع. وسحبرع. ومرز فارع. وسوز كارع. ونبز فارع. ورع أوبن الثاني ومن سادس ستيهم إلى سابع ستيهم ساقط. واسم ثامن ستيهم... زف عرا. ثم... رع أوبن الثالث. ثم... أتو أبرع الثاني. وحرابرع. ونب سن رع. ومن ثالث سبعيهم إلى سادس سبيعهم ساقط. ثم سابع سبعيهم سخبرن رع. ثم دد خرورع. وسعنخ كارع. ونفرتوم. . رع. وسخم... رع. وكا... رع. ونفرا برع. ورع... ورع خع... ونزكارع. وسمن... رع. وهو سابع ثمانيهم.

وكانت المملكة المصرية في عهد هذه العائلة حافظة لمجدها باقية على حالها من بعد الصيت واتساع الكلمة بل كبرت حدودها عما كانت عليه واتسعت وكان الملك الثالث منها وهو المسمى (سعنخ أبرع) له لقب محتو على ثلاثة أسماء ملوكية وهي امني. وانتف. من العائلة الحادية عشرة (وامنمحعت) من العائلة الثانية عشرة وابتنى له هرماً سماه (أمني خورب) قالوا ولم يعلم له محل للآن.

وللملك السادس عشر من هذه العائلة المسمى (سبك حتب) الثالث نقوش بقرب سمنة على صخور بشاطىء النيل رأسية الوضع صعبة المرقى مكتوبة على ارتفاع سبعة أمتار فوق ما تبلغه زيادة النيل الآن ومعناها أن ماء النيل وصل ارتفاعه إلى هنا في السنة الثالثة من حكم جلالة الملك (سبك حتب) الثالث خلد ذكره.

وأما الملوك الأربعة الذين هم (سبك حتب الرابع) (ونفرحتب) (ورع ساحاتور) (وسبك حتب الخامس) فقد تركوا من الآثار ما دل على أنهم كانوا حقيقة في عداد ملوك هذه العائلة قال صاحب العقد الثمين: وقد عثر على تمثال الملك سبك حتب المذكور المتخذ من حجر الصوّان في صان فدل وجوده هناك على أنه كان حاكماً على الوجه البحري كما ثبت ذلك أيضاً للملك سبك حتب الخامس لوجود تمثاله المحفوظ الآن بمتحف باريز في تل بسطة وكذلك استدل على وجود تمثال وأسماء بعض ملوك هذه العائلة في جزيرة (ارجو) وفي جهة الكاب بمقبرة (سبك نخت) على أنهم كانوا حاكمين على الوجه القبلي والنوبة وكان لهم عليها الصولة والقوّة حتى وضعوا فيها تماثيلهم إثباتاً لحكمهم وتذكرة بسلطتهم عليها وقد ذهب بعض أصحاب التاريخ إلى أن العمالقة الذين هم الرعاة قد دخلوا ديار مصر في أيام هذه العائلة ولكن الآثار الدالة على تملك هذه العائلة على جميع ديار مصر والنوبة تكذب هذا المذهب . اهـ.

وانقرضت هذه العائلة وبانقراضها قامت بعدها العائلة الرابعة عشرة السخاوية المنسوبة إلى مدينة سخا التي هي من بلاد مديرية الغربية الآن.

الفصل الثالث

(فى العائلة الرابعة عشرة السخاوية)

كان مبدأ ملك هذه العائلة سنة ثمان وتسعين وثلثمائة وألفين قبل الميلاد أي سنة عشرين وثلاثة آلاف قبل الهجرة وسنو ملكها مائة وأربع وثمانون سنة وفي رواية أربعمائة وأربع وثمانون سنة والأوّل أقرب إلى الصواب وعدة ملوكها ستة وسبعون ملكاً ولم يذكر مانيطون الكاهن شيئاً من أخبارهم ولا تعرض لذكر أسمائهم فحذا حذوه بقية الكتاب. قال صاحب العقد الثمين وكذا لم يبلغنا من غيره يعني غير مانيطون ولا من الآثار رواية عنهم ولكن بالاطلاع على صحيفة تورينو وجد مذكوراً فيها بعد ملوك العائلة السابعة جملة ملوك تنسب لهذه العائلة يعني الرابعة عشرة المذكورة وجميعها محصورة في الجدولين الأخيرين منها وأكثرها متلاش وهم رع سحب رع. ورع مرزفا. ورع سفتكا. ورع زفارع خب. ورع أوبن. وسادسهم وسابعهم سقطا من الأصل ثم جاء بعدهما رع نب زفا. ورع أوبن. ورع سفوتوحت. ورع حرحت. ورع نب سنو. وثالث عشرهم ورابع عشرهم ساقطان من الأصل. ثم جاء خامس عشرهم وهو رع ب... ثم سخبر نرع. ورع ددخرو. وسعنخكارع. ورع نفر بابي. ورع سخم. ورع كا... ورع نفرحت. ورع آ... ورع خعو. ورع نفركا. ورع سمن. وسابع عشريهم وثامن عشريهم سقطا من الأصل. ثم جاء تاسع عشريهم وهو رع أوسر. ثم رع... ورع سخم... ورع سخم س... ورع سسن. ورع نب أرى. ورع نب أتن. ورع سمن أوسر... ورع سا أوسرأت. ورع سخم حرو. ومن تاسع ثلاثيهم إلى خامس ستيهم ساقط من الأصل. وكذلك سادس ستيهم غير مرقوم. ثم جاء سابع ستيهم وهو رع سنفر كا. ثم رع منخوو. ومن تاسع ستيهم إلى ثاني سبعيهم ساقط من الأصل. وكذا ثالث سبعيهم غير مرقوم. ثم جاء رابع سبعيهم وهو حاناتحا. ثم (بينوو) خامس سبعيهم وهو آخرهم.

قال ماسپرو وكان انقراض هذه العائلة مسببا عن عصيان الرعية وشقهم عصا طاعة آخر ملوكها فذهبت على يد من ظهروا من ملوكها خاملي الذكر. اهـ. قال صاحب العقد الثمين ولعل الملك رعمنحعو الملقب (غن أب) هو من ملوك هذه العائلة وله أثر في دار التحف المصرية يدلنا بوجه التقريب على درجة الصناعة في ذلك العصر. اهـ. وقال ماريت إن آثار هذه العائلة توجد بأسيوط. اهـ. وبانقراض هذه العائلة قامت بعدها العائلة الخامسة عشرة وارتقت منصة الأحكام.

الفصل الرابع

(فى العائلة الخامسة عشرة)

لم يعلم أحد من أهل التاريخ مبدأ ظهور هذه العائلة ولا سنى ملكها ولا عدّة من ملك منها بالتحقيق غاية ما جاءوا به أن ملوكها ينقسمون إلى قسمين وطنيين وأجانب فالوطنيون لم يعلم عنهم شيء سوى أنهم كانوا قابضين على زمام الأحكام بالأقاليم القبلية وكانت قاعدة مملكتهم مدينة طيوه. والأجانب كانوا يعرفون بالرعاة وبالعمالقة وعدّتهم ستة ملوك وقد حكموا البلاد وساسوها زهاء مائتي سنة وتسع وأربعين سنة وكانت قاعدة مملكتهم مدينة أواريس بالإقليم البحري وأوّل من ملك منهم الملك سلاطيس وهو الذي تسميه العرب الوليد بن روقع.

(في الملك سلاطيس المعروف عند العرب بالوليد بن روقع)

هو أول ملوك هذه العائلة، وقد ارتقى منصة الملك بعد إغارة قومه على الأقاليم البحرية من ديار مصر وأخذها من الملوك المتأصلين، وتحرير الخبر أنه في نهاية أيام آخر ملوك الدولة الرابعة عشرة السخاوية جاء إلى ديار مصر طوائف مختلفة الأجناس تحت راية الوليد بن روقع وهو المسمى عند اليونان باسم سلاطيس ونزلوا مصر السفلى والوسطى وحاربوا من فيهما وتغلبوا عليهم بعد هجمات متتابعة وحروب هائلة وقيل بل بدون كبير معارضة لأن أهل البلاد كانوا يومئذ في ثورة وخروج وكان هؤلاء الأقوام كثيرين جدًا فانبثوا في البلاد وعاثوا وأفسدوا وأحرقوا المعابد والهياكل ودمروا الكثير منها ورسم سلاطيس المذكور ببناء القلاع والحصون بدلها وأكثر من سفك الدماء والقتل والسلب فنزح أكثر الأهالي وساروا مع من بقى من بيت الملك المتأصلين إلى الإقليم القبلي واستقروا بمدينة طيوه، واتخذوها تختا لملكهم فشحن سلاطيس المذكور الإقليم البحري بالجند والأسلحة ومعدات الحرب تحرزا من هجمات المصريين وجعل مدينة منف تختا لمملكته ورتب نظام الأحكام وضرب الجزية على من بقى من المصريين بالإقليم البحري، وانتقل من هذا الحين ملك البلاد إلى الرعاة ما عدا الأقاليم القبلية فإنها بقيت مستقلة تحت حكم العائلة المتأصلة المصرية في مدينة طيوة التي هي دار الفراعنة وصار من هذا اليوم في ديار مصر مملكتان، مملكة الفراعنة، ومملكة الرعاة المتغلبين على منفيس. قال مانيطون ولما غضب الله على مصر أرسل إليها من المشرق أمة خبيثة قوية شديدة البأس فاستولت عليها بلا حرب ولا قتال واستعبدت أهلها ورؤساءها وهدمت معابدها وهياكلها

وسبت الأولاد والنساء وملكت عليها ملكاً جديداً من هذه القبيلة الهكسوسية أقام في مدينة منف وهو الملك سلاطيس ومن فرّ منها من أفخاذ العائلة الملوكية ذهب إلى الصعيد وإلى ساحل البحر الأحمر وتحصنت هذه القبيلة بالقلاع والمعاقل والحصون وتمكنت من الأقاليم البحرية والوسطى وفعلوا بأهلها ما لا خير فيه ولم يبق للدولة المصرية المتأصلة إلا ملك الصعيد وكانت دار ملكه مدينة طيوه انتهى...

ووفد على الملك سلاطيس هذا جموع كثيرة من أهل آسية فاتخذ له منهم عسكرا ليأمن شر الكنعانيين القائمين في بلاد الشام ومن بقى من سلالة الملوك المصريين المتأصلين ومن العراقيين فابتنى القلاع والحصون في المواقع النافعة، وحشد أكثر جنده جهة مدينة السويس الآن وبنى في مدينة أواريس معسكراً عظيماً. وأنشأ حولها الخنادق والحصون وبالغ في ذلك جدّاً فهابه المصريون واتسعت كلمته وطارت شهرته وظل يدبر الأمور تسع عشرة سنة ثم مات.

فقام بالأمر بعده الملك (بنون) وقد قضى أكثر سني ملكه في قتال ملوك طيوه وإخضاعهم وجعلهم تحت طاعته فلم يفلح ثم مات بعد أن حكم أربعاً وأربعين سنة.

فقام بالأمر بعده الملك (انحناس) فتجرد كذلك لقتال ملوك طيوه وغيرهم من الملوك المتاخمين ومات بعد أن حكم ستا وعشرين سنة وسبعة أشهر.

(فقام بالأمر بعده الملك (آبابي الأول) وكان مغازياً كثير الحروب والقتال مع الملوك المصريين ومات بعد أن حكم إحدى وستين سنة).

فقام بالأمر بعده الملك (يانا) ومات بعد أن حكم خمسين سنة وشهرا ولم تذكر جماعة الكتاب من أخباره شيئاً.

فقام بالأمر بعده الملك (أسس) وهو سادسهم وآخرهم ومات بعد أن حكم تسعاً وأربعين سنة وشهرين وانقرضت بموته هذه العائلة كما قاله أهل التاريخ وكانوا كلهم قساة غلاظ القلوب فأبغضهم المصريون بغضاً عظيماً وكرهوهم كرهاً زائداً. قالوا: وأصل هؤلاء الملوك مجهول فمن قائل أنهم من العبرانيين، ومن قائل بل هم تتار وتركمان وبعضهم يجعلهم صوريين وكنعانيين والأقرب إلى الحقيقة أنهم من جهة الحجاز وبلاد الشام المتاخمة لديار مصر. قال علماء الآثار فقد شوهد من هيئة أشكالهم المرسومة على كثير من الآثار القديمة أن صورهم كلها مرسومة بالوشم الأزرق وهم متشحون بجلود الغنم وهذه الإشارات من الأدلة الناطقة بأنهم من العرب لا من العبرانيين ولا من غيرهم، ولا سيما أن دولتهم في بلاد مصر كانت

تعرف بهيك سوس يعني الملوك الرعاة. قالوا: لأن لفظة هيك عند قدماء المصريين معناها الملك وسوس معناها الرعاة فإذا زيد عليها واو وقيل سوسو كانت بمعنى العرب وبتطبيق هذا الرسم على ما يوافقه بالقلم البربائي، وجدت كلمة(حق شاسو) موافقة له لأن معنى حق ملك، ومعنى شاسو أيضاً البوادي. وقال ماسپرو إن معنى شاسو اللصوص من عرب البرادي فسماهم المصريون بهذا الاسم لدناءة أصلهم.

وذكر ماريت أن قبائل الهيكسوس كانو أخلاطاً من العرب وأهل الشام، وكانت أكبر قبيلة حاكمة عليهم تسمى بالقلم الهرمسي (خيتا) وفي التوراة الحيثين وفي كتب العرب العمالقة وبعد أن أقاموا في ديار مصر مدّة طويلة مالوا إلى حضارة أهلها فتأسوا بهم وغلبت عليهم طباعهم فتركوا الفظاظة والغلظة ومالوا إلى محبة الرعية وإحياء ما اندرس من معالم التمدن والعمارية واستخدموا الكثير من كتاب المصريين وتلقبوا بألقاب الفراعنة ودانوا بدينهم وفتحوا المدارس لتهذيب أولادهم واعتنوا بالأمن والراحة واختاروا لمصالح دولتهم رجالاً محنكين من أولى المناصب والرتب العالية، واتخذوا مدينة صان تختالهم وفتحوا معابدها وأكثروا من العمائر فيها حتى صارت من أعظم المدن شهرة وتغلبوا على الوجه القبلي ونزعوه من أيدي الملوك المتأصلين واستولوا على كافة أنحاء مصر القبلية والبحرية وطالت أيامهم وتعاقبت ملوكهم وعم نفوذهم مشرق البلاد ومغربها وبانقراض هذه العائلة انتقل الملك إلى العائلة الثانية منهم وهي العائلة السادسة عشرة المعروفة بالصانية.

الفصل الخامس

في العائلة السادسة عشرة (الصانية)

كان مبدأ ملك هذه العائلة سنة أربع عشرة ومائتين وألفين قبل الميلاد أي سنة ست وثلاثين وثمانمائة وألفين قبل الهجرة وسنو ملكها خمسمائة وإحدى عشرة سنة وعدد من ملك منها اثنين وثلاثين ملكاً كلهم من الرعاة الذين هم الهيكسوس كما رواه مانيطون ولم يذكر من أسمائهم سوى اسم ملك واحد وهو (آبابي) وسماه (أبوفيس) وتسميه العرب الريان بن الوليد الملقب (رعاكنن).

(في الملك آبابي أو أبوفيس الملقب رعاكنن)

(الذي تسميه العرب الريان بن الوليد)

قال بعض الكتاب: الغالب أن مانيطون المؤرخ لم يأت بذكر الملك (أبوفيس)

هذا دون من ملك من هذه العائلة إلا لشهرة أيامه وأهمية ما وقع فيها من الحوادث والأنباء إذ هو الريان بن الوليد الملقب رعاكثن وهو فرعون يوسف عليه السلام، وفي أيامه وفدت السيارة التي اشترت يوسف من إخوته بعد إخراجه من الجب فباعه مالك كبير هؤلاء السيارة إلى وزير مصر قفطير. ويسمى بالقلم القديم (بدوفز) ومعناه هدية الشمس فلما اشتراه قفطير أتى به إلى بيته. وقال لامرأته رعاييل بنت رعابيل أكرمي مثواه فلما رأت حسنه عشقته وأحبته حبا كبيراً وراودته فامتنع. وقال لها كيف وزوجك سيدي وقد أكرم مثواي فلا يصح لي أن أخونه فكان من أمر سجنه ما جاءت به الكتب. وكانت الحبوس يومئذ في الجانب البحري من سقارة. قال صاحب العقد الثمين، ومكانه معروف للآن عند أهل تلك الجهة. اهـ. وكان معه في السجن فتيان هما ساقي الملك وخبازه. وكان من أمر رؤياهما وما قاله لهما يوسف ما جاء في الكتب المنزلة وبعد مكثه في السجن بضع سنين رأى فرعون رؤيا هي أن سبع بقرات سمان وسبع بقرات عجاف خرجن من نهر يابس فابتلعت العجاف السمان، ورأي سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وأفركت وسبعاً أخرى يابسات قد استحصدت فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبتها فجمع السحرة والكهنة وطلب منهم تفسير هذه الرؤيا فقالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين فعند ذلك أخبر الساقي عن يوسف فأرسله الملك إليه في السجن (ففسر له يوسف هذه الرؤيا كما جاءت به الكتب المنزلة فكان ذلك سببا في خروج يوسف من السجن) وجعله الملك (زافنات بنياخ) ومعناه أمين على خزائن الأرض فأشار على الملك حينئذ بأعمال الخزائن لجعل الطعام فيها بقصله وسنبله وأن يرفع الخمس من طعام الناس مدة سبع السنين المخصبة فأمر الملك ففعلوا ما أشار به يوسف فكفى يوسف أهل مصر ومن تاخمها مدة السبع سنين المجدبة وفي خلال ذلك جاء بنو يعقوب في مصر وتعرفوا بأخيهم يوسف وأقاموا نحو أربعين سنة بمدينة تعرف الآن بالسهريج بمديرية الشرقية وقصتهم مذكورة في التوراة.

قالوا: وقد استدل جماعة الكتاب على حصول القحط في أيام يوسف عليه السلام بما عثروا عليه من النقوش على أحد مقابر قرية الكاب لرجل من المصريين اسمه (بابا) ويلقب (آباتا) وهو من أقارب ملوك العائلة الثالثة عشرة وكان معاصرا ليوسف. قال صاحب العقد الثمين وتعريبها كنت ذا قلب رؤوف لا آلف الغضب ولذا أكرمتني المعبودات بالخير الجزيل في دار الدنيا وكان أهل بلدي وهي الكاب تهنئني بالصحة والسلامة. وكنت أقتص من المسيئين ورزقت من الأولاد مدة حياتي

باثنين وخمسين ولدا صغيراً وكبيراً بين ذكور وإناث وكان لكل واحد منهم سرير وكرسي وسفرة وكانوا يأكلون في كل يوم مائة وعشرين مدًا من القمح والحبوب، وكان لهم ثلاث بقرات حلوبة واثنان وخمسون بقرة وثمانية حمير وكانوا يحرقون من البخور ماينيف عن الهين[1] ويصرفون من الزيت ملء زجاجتين فإن ناقضني أحد في قولي وظن أنه أضحوكة فأشهد المعبود (مونت) على ما قلته من الحق وإني أحضرت جميع ذلك في بيتي وكنت أعطي اللبن الرائب في قدر والبوظة في قدر طويل ضيق الرأس يعرف بالدلق بمقدار يزيد عن الهين وجمعت قمحاً كثيراً محبة للمعبود الطيب أي الملك وكنت متيقظاً وقت الزراعة في السنين المخصبة.

قال: ولما حصل القحط في كثير من السنين كنت أعطي القمح لأهل المدينة في كل مجاعة وبهذا يعلم أن تنبهه زمن الزراعة وصرفه الغلال للناس وقت المجاعة هو إشارة بلا شبهة إلى سني يوسف المخصبة والمجدبة . اهـ. (كما رواه بركش).

وقامت في أيام هذه العائلة فتنة دينية بين الملوك وأمراء الأقاليم القبلية وكبرت واستفحل أمرها وما زالت حتى انسلخ الوجه القبلي عن حكم الرعاة المذكورين وعاد إلى حكم ملوكه المتأصلين وكان أوّل من ظهر منهم الملك (تاعا الأوّل) وأسس في الإقليم القبلي العائلة السابعة عشرة وهي العائلة المتأصلة، وكان ذلك في أيام الملك (ايابي) الملقب رعاكنن الذي هو آخر الملوك الرعاة من العائلة السادسة عشرة المذكورة.

الفصل السادس

(في العائلة السابعة عشرة)

لم يعلم أحد من أهل التاريخ مبدأ ظهور هذه العائلة ولا سني ملكها غاية ماجاءوا به عنها أن عدد من ملك منها ستة ولم يأتوا بشيء من أخبارهم لا بالإجمال ولا بالتفصيل. قالوا: وفي عصر هذه العائلة كانت مصر بين حكومتين الأولى في الإقليم البحري وجزء من الإقليم القبلي، وهذه كانت ملوكها من الرعاة وعددهم ثلاثة وأربعون ملكاً لم يعلم اسم أحد منهم سوى الملك ايابي. رعاكنن. وكانت قاعدة ملكهم مدينة صان، والثانية في الصعيد الأعلى وملوكها من الوطنيين المتأصلين وقاعدة ملكها مدينة طيوه وعددهم ثلاثة وأربعون ولم يعلم منهم سوى

---

[1] الهين: بكسر الهاء وسكون النون كيل معروف عندهم.

ستة لا غير وهم تاعا الأول الملقب رعسكنن الأول وتاعا الثاني الملقب رعسكنن الثاني وأليسفر غموثوريس وتشموزيس وتاعاكن الملقب رعسكنن الثالث وكامس الملقب رعوز خبر ، ولنتكلم على كل ملك منهم بالتعاقب واحداً فواحداً وأولهم الملك تاعا الأول.

(في الملك تاعا الأول الملقب)

(رعسكنن الأول)

قال جماعة الكتاب: لما ارتقى تاعا الأول منصة الملك نهض إلى استخلاص البلاد من أيدي العمالقة والاستبداد بالملك وجيش لذلك جيشاً ضخماً للغاية وقاتل الرعاة المذكورين وقام لنصرته الأمراء من أهل البلاد الذين هم من أفخاذ العائلات الملوكية المتأصلة وأمدوه بالذخيرة والرجال وما زالوا يطاردون الرعاة والحرب بينهم سجال حتى أجلوهم عن مصر الوسطى ودفعوهم إلى مدينة منف فأقاموا فيها ما استطاعوا.

ولما رأى تاعا الأول من قيام هؤلاء الأمراء لنجدته واستخلاص الوطن من الأغراب عينهم نظاراً على أقسام مملكته وأباح لهم التلقب بلقب (سوتن) ومعناها ملوكي تعظيماً لشأنهم حيث هم من نسل الملوك. وفي أيام الملك أليسفرغموثوريس ركب عليهم أيضاً وقاتلهم ليطردهم من البلاد وما زالوا حتى أجلوهم عن منف أيضاً فانحازوا بجنودهم إلى مدينة أواريس التي بها معسكرهم واستقروا بها حقبة من الدهر آمنين ثم قام عليهم الملك رعسكنن الثالث وقاتلهم وكذلك الملك كامس وغيرهما من ملوك هذه العائلة الذين لم تعلم أسماؤهم لجماعة الكتاب فلم يستطيعوا إخراجهم من أواريس لمنعتها وظلوا حاكمين على أواريس المذكورة وما جاورها من المدن والبلاد حتى تغلب عليهم الملك (أموسيس الأول) رأس العائلة الثامنة عشرة التي قامت بعد هذه العائلة. قال بعض الكتاب: ولم يبلغ كره المصريين للرعاة حدّ ما ذكره بعض أهل التاريخ، فقد كانوا في آخر أيامهم هم والمصريين على وفاق ووئام حيث شيدوا لهم المباني العظيمة وابتنوا المعابد الكثيرة كما تقدم. فمالوا إليهم وأحبوهم وسمى بعض المصريين أولادهم بأسماء الرعاة تفاؤلاً وبانقراض هذه العائلة تم انقراض الطبقة الثانية بأسرها فظهرت بعدها الطبقة الثالثة التي هي الطبقة الأخيرة.

* * *

الباب الثالث

(في الطبقة الثالثة)

كان ظهور هذه الطبقة سنة ثلاث وسبعمائة وألف قبل الميلاد أي سنة خمس وعشرين وثلثمائة وألفين قبل الهجرة وتبتدئ بالعائلة الثامنة عشرة وتنتهي بالعائلة الحادية والثلاثين التي هي العائلة الفارسية عبارة عن أربع عشرة عائلة وسنو ملكها ألف وثلثمائة وإحدى وثلاثون سنة وفي رواية ألف وثمانمائة وست وستون.

الفصل الأول

(في العائلة الثامنة عشرة الطيبية)

كان مبدأ حكم هذه العائلة سنة ثلاث وسبعمائة وألف قبل الميلاد أي سنة خمس وعشرين وثلثمائة وألفين قبل الهجرة وهو مبدأ ظهور الطبقة الثالثة وكان عدد من ملك من هذه العائلة أربعة عشر ملكاً وسنو ملكهم مائتي سنة وإحدى وأربعين سنة وأولهم الملك أموسيس الأول وتسمى هذه العائلة بالطيبية.

(في الملك أموسيس الأول)

(الذي يقال له)

(أحعمس الأول)

كان مبدأ ظهور الملك أموسيس الأول مظهراً لطبقة جديدة وعائلة حازت السؤدد والفخار وعلو الكلمة فقد انفردت بالشوكة الملكية والسطوة الأهلية وامتدت حدود مملكتها امتداداً سريعاً وزادت ثروتها وتكاثرت عماراتها وكان أموسيس المذكور مصاهراً لملك الايتيوبيا بزواج ابنته المسماة (أحعمس نفرت آري) فتعاهد معه على إخراج العمالقة من أرض مصر والنهج على منوال أسلافه من الفراعنة المتأصلين وأخذ في التأهب والاستعداد وتجييش الجند فلما كانت السنة الخامسة من ملكه سار بجيش عظيم وانضم إليه الأمراء المصريون الذين هم من سلالة الملوك المتأصلين حتى نزلوا حول قلعة أواريس وحاصروها برا وبحراً وضيقوا عليها وشدّدوا حتى فتحوها عنوة وطردوا من كان بها من العمالقة وتبعهم الملك أموسيس بعسكره حتى أدخلهم

قلعة (سروحن) في حدود أرض كنعان، وكانت هذه القلعة غاية في المنعة والضخامة وقد أنشأها العمالقة ليتحصنوا فيها عند الحاجة فحاصرها ثم هجم بجيشه عليها وأخذها وأسر من العمالقة خلقاً كثيراً ففر من بقى فتبعهم بعسكره حتى عبروا الفرات فتركهم وعاد منصوراً وقد تخلصت البلاد من أيديهم وانفكت من قيود العبودية والأسر بعد أن تسلطوا عليها ستمائة سنة وفي رواية أربعمائة سنة.

وبقى من العمالقة قوم في جوف البلاد فأظهروا الطاعة والخضوع لملك البلاد فأنزلهم على سواحل المنزلة وأقطعهم الأراضي التي كانت بيد أسلافهم ليتعيشوا من غلاتها ولم تستقر به الراحة بعد قتال العمالقة وإخراجهم (حتى خرج عليه أهل النوبة وعصوا أمره وشقوا عصا طاعته فسار لقتالهم وظهر عليهم وأرجعهم) إلى الطاعة ولما رأي الايتيوبيون من منزلة زوجة الملك أموسيس عند المصريين واعتبارهم لها وهي من جنس الايتيوبيين خضعوا له وأطاعوه بغير قتال احتراماً لقدس زوجته فاتسعت عند ذلك كلمته وعلت على جميع الديار المصرية من الشلالات إلى البحر الأبيض المتوسط لا يعارضه في حكمه أحد. قال بعض الكتاب وقد استمرت نار الحرب والقتال مضطرمة بين ملوك الرعاة والملوك المتأصلين زهاء مائة وخمسين سنة حتى عاد لمصر استقلالها، ورجعت مملكتها التي أنشأها أول ملوكها (منا) وكانت في خلال هذه المدّة الطويلة أخذت عماراتها وآثاراتها العظيمة في التداعي إلى السقوط بل تخرب منها الكثير واضمحل حال الرعية فنهض الملك أموسيس المذكور إلى ترميم العمارات وتنظيم الأحكام وترتيب الإدارة وعين الأمراء الذين ساعدوه على إخراج العمالقة نظارا على أقسام مملكته وأباح لهم التلقب بلقب (سوتن) يعني ملوكي كما تقدّم. وفي السنة الثانية والعشرين من حكمه أمر بتشغيل محاجر طرا وفرض على أساري العمالقة نقل الحجارة منها، ووكل بهم رجالاً لترميم معبد (بتاح) بمدينة منف ومعبد (أمون) بالكرنك ولإنشاء معابد أخرى جديدة فعاد إلى البلاد رونقها القديم وبهجتها الأصلية وأحبته الرعية حبا كبيراً وبالغوا في تعظيمه وقد أمر بمعسكر أواريس الذي كان للعمالقة فهدم وأنشأ محله قلعة تسمى (تاسال) لتكون حائلاً بين إغارات أهل آسية وبين بلاد مصر وهجر مدينة صان حيث كانت تخت حكم العمالقة وتركها على حالة ما أصبحت عليه بعد الحرب الأخيرة حتى كاد اسمها يمحى من كتب التاريخ، ثم مات أموسيس المذكور بعد أن حكم خمساً وعشرين سنة وهو المعروف في جدول الآثار القديمة (بأحمس الأول) فقام بالأمر بعده الملك أمنحوتب الملقب رعركا.

(فى الملك أمنحوتب الأول)

تولى الملك بعد موت أبيه ولعدم بلوغه سن الرشد قامت أمه (أحعمس نفرت آري) بدلاً عنه بمهام المملكة وما زالت حتى بلغ رشده فقام بالأمر ونهض إلى تعزيز مصر من الجانب القبلي، وكذلك فعل بالجانب البحري حتى صار حصيناً لا يمكن وصول العدوّ منه إلى ديار مصر وكانت له عدّة وقائع حربية في الصعيد الأعلى تشهد بها النقوش المنقوشة على أحجار الكاب المنسوبة إلى أحعمس رئيس الملاحين. قال صاحب العقد الثمين منها ما معناه إني أحضرت سفينة الملك أمنحوتب حين جهز تجريدة لقتال الايتيوبيين لتوسيع حدود مصر هناك فانتشب بينهم الحرب وأسر الملك رئيس سكان جبل النوبة من بين رجاله وكنت أنا في مقدّمة فرساننا، وقاتلت قتالاً شديداً حتى شاهد مني الملك البسالة والشجاعة. وقتلت رجلين من العدوّ وقطعت أيديهما وقدّمتهما لجلالته ثم أسرت رجلاً وأحضرته له وصرت أبحث عن أهله ومواشيه وبعد هذه الغزوة صحبت جلالته راجعين إلى مصر في يومين، وكان قيامنا من جهة البئر الأعلى فأحسن إليّ بعقد من ذهب وكنت غنمت جاريتين غير الجواري اللاتي أحضرتهن له ولذلك لقبت بفارس الملك. اهـ.

ووجد أيضاً بجهة الكاب نقوش لرجل مصري يدعي (أحعمس بن سوتب) تفيد أن هذا الملك تقاتل مع أهل الايتيوبيا ومع الجهة المسماة (امكاحاك) التي في الجانب الشرقي من مصر، وقد أصلح ما تهدم من قسم طيبة وهيكل أمون ولذا يرى اسمه منقوشاً على طوبها وحجارتها وملك مصر مع جميع ملحقاتها ولما وطد دعائم الراحة تزوّج بالملكة (أحع حتب) وأقام معها في أرغد عيش وأتم راحة واتخذه أهل مصر بعد موته مقدساً وجعلوا له كهنة مخصوصين لعبادته لما شاهدوه من الراحة في زمن حكمه.

قال صاحب العقد الثمين وجثته بدار التحف المصرية طولها متر واحد وخمسة عشر سنتيمتراً وهي محفوظة في تابوتها ومدرجة في أقمشة بنبية اللون وفوقها أكاليل من أزهار البشنين والبردي وغيرهما. اهـ.

ومات أمنحوتب المذكور بعد أن حكم ثلاث عشرة سنة فقام بالأمر بعده الملك تحوتمس الأول الملقب رعا خبركا.

(في الملك تحوتمس الأول)
(ويسمى أيضاً)
(توتومس الأول)

قال صاحب العقد الثمين: هذا الاسم مركب من كلمتين إحداهما تحوت ومعناها هرمس؛ والثانية مس ومعناها ابن ثم صارا علماً على هذا الملك.

وقال غيره من الكتاب: أن اسمه مركب من كلمتين إحداهما توت ومعناها هارب وميس أوموسيس ومعناها ابن ثم صارا علماً وكان ملكاً عظيم البأس كثير الحروب قاتل الايتيوبيا جنوباً وانتصر عليهم ونقش نصراته على بعض الألواح الحجرية في مدينة كرمان إزاء جزيرة أونبو وأعظم نقش فيها ما نقشه بالجزيرة المذكورة في السنة الخامسة من حكمه حيث يذكر فيه وقائعه الحربية وأسماء الأمم التي دخلت تحت طاعته ووضعت له الجزية وامتدت حكومته إلى محاجر مدينة أونبو من النوبة وقد وجد اسمه منقوشاً على حجر هناك ووجد أيضاً نقوش أخرى بجهة أسوان مؤرخة في السنة الأولى من ملكه تدل على نصرته على بلاد النوبة وتغلبه على أهلها واتسعت في أيامه حدود مصر وامتدت من الجنوب إلى جبل (أبتا) بأرض الحبشة ومن الشمال إلى آخر أماكن أهل آسية وكانت بلاد الايتيوبيا منبع ثروة ديار مصر حيث كانت تأتي منها البضائع والأرزاق على المراكب بالنيل من الحبوب والجلود والعاج والأخشاب والحجارة النفيسة والحيوانات والمعادن من الذهب وكان المصريون يستخرجونه من تلك الأصقاع بواسطة الأسرى والعبيد، وكان هذا المعدن يسمى عندهم (نب). قال صاحب العقد الثمين: فاشتق من هذا الاسم كلمة النوبة المعلومة الآن.

وقاتل هذا الملك النوبيين وأدخلهم تحت طاعته ثم أقام عليهم أمراء ليحسنوا تدبير البلاد وسياسة أمورها وكان يلقب كل أمير منهم بلقب (الأمير الملوكي لبلاد الايتيوبيا) ولما تم له الأمر بجهة الجنوب واتسعت مملكته وعلت كلمته سار بجيش عظيم نحو الشمال وقاتل سكان وراء فلسطين وأرض كنعان بالسهول الواقعة بين دجلة والفرات وهم الطوائف المعروفون في النقوش القديمة باسم (روتنو) وكانت هذه الطوائف لا حاكم لها ولا سلطان يرجعون في أمورهم إليه وكان يقطنون بلاد الجزيرة التي بين دجلة والفرات ومنها مدينة بابل ومدينة نينوي وبلاد الكرد وكانت تأتي إليها التجارة من مصر إلى (رافيا) التي كانت مأهولة يومئذ بالعمالقة ثم إلى

فلسطين ومنها يعبر نهر الفرات فينتهي إلى الجزيرة المذكورة وكان هذا الملك عظيم القدر عالي الهمة موفقاً في جميع أعماله.

قال بعض الكتاب: وهو الذي بيع يوسف بن يعقوب عليهما السلام إلى وزير مصر في أيامه على ما قيل واشتهر وفسر له أحلامه المذكورة في الكتب (قلت) وقد اختلف أصحاب التاريخ من جهة شخص فرعون يوسف من هو من الفراعنة فزعم البعض أنه من ملوك العائلة الثانية عشرة وهذا بعيد وزعم البعض الآخر أنه كان من الملوك الرعاة الذين تغلبوا على مصر واسمه الوليد المعروف عند اليونان باسم (أبي فاس) وقد تقدَّم بيان ذلك في محله. وقال أحد المتأخرين من أهل التاريخ المحققين إن هذا الزعم غير صحيح لتقادم عهد تلك المدّة (قلت) والأصح أن دخول يوسف إلى مصر كان بعد انقراض دولة الرعاة كما قال مانيطون المؤرخ المصري فإنه لما تكلم على مدينة منف التي هي منفيس، قال: وعاش بها يوسف وتسلط على جميع البلاد في زمن أقدر وأعظم فراعنة المملكة الجديدة التي قامت بعد نفي الرعاة وخروجهم من أرض مصر إلى أرض كنعان وهي الدولة الثامنة عشرة المتأصلة التي قامت بمدينة طيبة ويؤيد صحة هذا القول ماجاء في التوراة من قول يوسف لإخوته عند نزولهم عليه بأرض مصر ، يكون إذا دعاكم فرعون. وقال ما صناعتكم أن تقولوا عبيدك من أصحاب الماشية منذ صبانا إلى الآن نحن وأباؤنا جميعاً حتى تسكوا أرض جاسان لأن كل راعي غنم رجس عند المصريين. ويستدل من الآثار أن تحوتمس هذا تزوّج بأخته المسماة أحعمس. ويقال إنها ملكت مصر بعده ولذا يظن أن اسم أميسيس الوارد في جدول مانيطون المؤرخ بعد اسم الملك المذكور هو اسم هذه الملكة.

ومات تحوتمس الأول المذكور بعد أن حكم عشرين سنة وحسبها بعضهم إحدى وعشرين سنة وقد عبده المصريون وعبدوا أخته بعد موتهما وجعلوهما في مصاف المقدسين وبموته قام بالأمر بعده تحوتمس أو توتوميس الثاني.

(في الملك توتوميس الثاني)

لما ارتقى توتوميس الثاني سرير الملك عمد إلى تعمير الهياكل والمعابد ثم أرسل جيوشه إلى الشام والايتيوبيا ليأخذوا له البيعة من أهلها فبايعوه، وكانت السودان قائمة على قدم القتال من عهد الملك توتوميس الأول فحاربهم توتوميس الثاني هذا وقاتلهم قتالاً شديداً حتى أدخلهم تحت نير الطاعة وصير بلادهم جميعاً إلى حدود

الحبشة ولاية تحت حكمه بعد أن كانت مستقلة وأقام عليها العمال من قومه من ذوي الرتب العالية وسماهم (ولاة الديار الجنوبية من قبل المملكة المصرية) كما فعل أسلافه من قبل ثم اعتبر هذا اللقب رتبة عالية فكان ينعم به على من يستحق حكم تلك البلاد ولو كان قاصر القصد الشرف والاعتبار وكان إذا أحسن به على من لم يبلغ رشده أقام له رئيساً يحكم بالنيابة عنه إلى أن يتم رشده فيتولى الحكم بنفسه: ومات هذا الملك بعد أن حكم ثلاثين سنة وبضعة أشهر ولم يعقب نسلاً فتولى الملك بعده أخوه توتوميس الثالث ولاية اسمية حيث كان قاصرا فقامت أخته بالأمر بالنيابة عنه حتى يبلغ الرشد وهي الملكة حعتشبسو الملقبة رمكا.

(في الملكة حعتشبسو)
(وتسمى أيضاً
رمكا)

هي ابنة توتوميس الأوّل وأخت توتوميس الثاني المتقدّم الذكر. قال أصحاب التاريخ ولما كان لها حق الحكم على البلاد بالوراثة عن أمها (أحعمس) وجدّتها (أحعمس نفرت آري) أشركها أبوها توتوميس الأوّل معه في آخر أيامه في حكم البلاد فلما مات والدها ظهرت وعلت كلمتها، وعظمت شوكتها أيضاً في أيام أخيها توتوميس الثاني وزادت بتوليتها النيابة عن أخيها توتوميس الثالث واعتبرها المصريون الوارثة الحقيقية لكرسي الملك فلما دانت لها الأمور تزوّجت بزوج اسمه توتوميس ومات فتزوجت بآخر اسمه (امتطه) وولدت من الأوّل ولدها المسمى توتوميس وكانت عالية الهمة فنهضت لتشييد المباني العظيمة والهياكل الكبيرة وسمتها باسمها ورتبت لها القرابين وأحسنت التدبير جداً وحافظت على البلاد وأخذت الجزية من طوائف (الروتنو) سكان سوريا الشمالية وكانت عظيمة القدر مهيبة فرسمت نفسها في الآثار على هيئة رجل له لحية ملوكية وكانت متسلطة على بلاد الشام والايتيوبيا وعزمت على أخذ بلاد (بون) وبلاد (توترو). قال صاحب العقد الثمين. ومعنى أسماء هذه البلاد الأراضي المقدسة وموضعها في جنوب بلاد العرب من جهة الهند وهي متاخمة بلاد البون وكانت مركز التجارة للشرق عموماً ولمصر خصوصاً وكانت بضائعها ترد إلى مصر على طريق قفط. اهـ. وكانت تريد بذلك توسعة ملكها بتلك البلاد الشهيرة بالأخشاب النفيسة والصمغ والعطريات والذهب والفضة واللازورد والحجارة النفيسة وجميع التجارات العظيمة التي تحتاجها مصر لأشغال الهياكل

والمعبودات وغيرها وأنشأت في البحر الأحمر عمارة حربية وسافرت فيها بنفسها لتقود عسكرها وتقاتل بلاد (البون) المذكورة فلما نزلت عليها طلب أهلها الأمان فأمنتهم فسلموا بلا حرب ولا قتال وعدلت عن المسير لقتال أهالي الأراضي المقدسة بعد أن رأت من استسلام أهالي (البون) ما رأته ثم رجعت إلى مصر وأمرت برسم صورة تلك الواقعة وتحريرها على جدران حجرتين في الدير البحري وفي أحد جوانب هاتين الحجرتين ما يدل على أن قائد جيوش الأعداء يتمثل بجيشه مع التضرع والخشوع أمام قائد جيوش هذه الملكة المتوج بالنصر والغلبة وترى صفة قائد جيوش الأعداء أنه أغبر اللون له ضفائر من الشعر مستطيلة على ظهره مجرداً من السلاح ومن خلفه زوجته وابنته في صورة شنيعة وحالة فظيعة ينفر منها الناظر. قال صاحب العقد الثمين: ورسمها موجود في متحف بولاق فإذا نظرت إليهما وجدت نوع استرخاء في أعضائهما وورما في أفخاذهما يدل ذلك على أن في جسمهما مرضا وتشاهد في الجانب الآخر من الحجرتين المذكورتين رسومات ثانية بها أشكال السفن الحربية المصرية يشحنها رجال من الأعداء المنقادين بالحيوانات الغريبة كالزرافات والقردة والنمور. وفي جهة أخرى ترى أنواع الأسلحة وسبائك النحاس وحلق الذهب وفي أخرى حمل الصناديق من أصناف الأشجار العطرية المضمخ أسفلها بالطين وقدرها اثنتان وثلاثون شجرة لغرسها في بساتينها بطيبة وصورة السفن ضخمة يظهر عليها متانة التركيب ذات شراع ومجاديف وعلى سطحها طوائف البحرية ويوجد تماثيل أخر عليها أشكال العساكر المصرية راجعة من الغزو كأنها تسرع في المشي وتدخل مدينة طيبة بدلائل النصرة مسلحة برماح أو بلط في الميامن وفي المياسر قابضة سعف النخل علامة النصر والغلبة وأمامهم الطبول والمزامير وكأنهم يضربون النوبة الحربية وبجانبهم الضباط حاملين على أكتافهم الأعلام والرايات الوطنية مكتوباً عليها اسم الملكة (حعتشبسو) الوصية على الملك (توتوميس الثالث). اهـ.

وقد فعلت هذه الملكة من جليل المآثر وعظيم المفاخرة ما أعلى قدرها وحفظ بين هذه العائلة ذكرها واستبدت بالتصرف مدة سبع عشرة سنة ومع بلوغ أخيها سن الرشاد وتصرفه في الأمور كانت هي صاحبة الحل والعقد إلى أن ماتت فاستبد أخوها توتوميس الثالث المذكور بالملك.

(في الملك توتوميس الثالث)

لما استقر بالمنصب واستبد بالحكم بعد موت أخته حعتشبسو عمد إلى إبادة ذكر أخته بمحو اسمها الذي كانت نقشته على ما شيدته من المباني العظيمة والعمائر الجسيمة المرسوم عليها صور وقائعها الحربية ونقش اسمه عليها بدل اسمها ليمحي خبرها ويطفىء سراج مجدها الذي دلت عليه فعالها انتقاماً منها على ما صنعته به من اغتصاب الملك والتصرف في الأمور بعد بلوغه سن الرشد ولم يمض على استقلاله بالملك إلا القليل حتى خرجت عليه طوائف (الروتنو) وامتنعت من دفع الجزية واقتدى بها سكان جميع الجهات المجاورة لها ثم خرجت كذلك جميع الايالات التي كانت لمصر في آسية ولم يبق منها سوى غزة وما تاخمها من البلدان فركب الملك توتوميس عليهم بجيوش عظيمة وهزمهم شر هزيمة ونقش وقائع حروبه معهم على جدران هيكل الكرنك.

قال صاحب العقد الثمين ما حاصله: في شهر برمودة سنة اثنتين وعشرين من حكم الملك تحوتمس الثالث يعني توتوميس توجه هذا الملك إلى مدينة غزة وعمل فيها عيد ولايته ثم أخذ في المسير منها إلى مدينة (يوحم) فوصل إلى ضواحيها في عشرة أيام، ونزل بعسكره هناك وانتظر استكشاف طلائعه لينظم جيشه على حسب أخبارهم ففي اليوم السادس عشر من الشهر المذكور أخبرته طلائعه أن الأقوام المتحالفين تحت قيادة أمير كدش قد عسكروا بالقرب من قلعة مجدو في مضيق كرمل وانتشرت قوتهم في طريق ليبان فعند ذلك أشار عليه بعض قواد جنوده بالتوجه إليهم من طريق أثونا ليكون الهجوم على الأعداء من خلفهم وكانت هذه الطريق موصلة إلى سهل (يزرل) الواقع بين مدينة مجدو وجبل ثابور فلم يقبل الملك منهم ذلك خوفاً من عدم نجاح هذا المشروع وسار بجيشه مسرعاً إلى (آلون) فوصل إلى ضواحيها في ثلاثة أيام وكانت تلك الجهات خالية من الأعداء ومن الحصون لعدم الاعتناء بها فشغلها الملك بجزء من عسكره وفي صبيحة عشرين من الشهر اجتاز المضيق الآنف الذكر من دون معارضة وانتظر في سفح الجبل من جهة الشمال مؤخر جيشه فلما اجتمع جيشه في الساعة السابعة من اليوم المذكور نشره في السهل على شاطىء نهر (كينا) تجاه معسكر الأعداء من غير أن يبرز للقتال وفي صبيحة الحادي والعشرين من الشهر نظم جيشه للقتال والهجوم وجعل الميمنة في حصن حصين هناك بوادي (كينا) والميسرة ممتدة في السهل إلى الشمال الغربي من مجدو وأقام هو في القلب ثم هجمت الجيوش المصرية على أهل الشام هجوماً فظيعاً أوقع الرعب

الشديد في قلوبهم فتشتتوا وتركوا عرباتهم وخيولهم وولوا الأدبار مسرعين في فرارهم إلى مجدو فلما رآهم حراس هذه المدينة أغلقوا الأبواب دونهم خوفاً من دخول الجيوش المصرية في أثرهم ولذلك لم يتمكن أحدهم من دخول المدينة سوى من تسور الجدران من القواد على الأحجار.

وأما باقي الجيش فإنه تشتت داخل الجبل وتخلص من سفك الدم والذي قتل منهم ثلاثة وثمانون مقاتلاً وأسر نحو ثلثمائة وأربعين رجلاً وغنم المصريون في ساحة القتال مائتي ألف واثنين وثلاثين حصاناً (كذا) وتسعمائة وأربعاً وتسعين عربة وغير ذلك من الأشياء التي تركها أهل الشام وقت هزيمتهم ثم توجه الجيش المصري منصوراً إلى مجدو وهي وقتئذ أعظم من ألف مدينة فلم تثبت في صف القتال إلا أياماً ثم سلمت للمصريين وبفتحها انتهت الحرب وأطاعه رؤساء الشام والجزيرة والكرد وبادر الجميع بدفع الجزية وإظهار الانقياد والتعظيم للملك المنصور تحوتمس الثالث . اهـ.

ثم عاد أمير الشام إلى العصيان ثانية وخرج عن طاعة الملك توتوميس الثالث المذكور وهيج عليه سكان شمال سوريا فركب عليهم توتوميس وحاربهم وتغلب على مدينة تونب وحلب وارواد وذلك في السنة التاسعة والعشرين من ملكه وهجم في السنة المتممة للثلاثين على مدينة كدش فتملكها وأخذ جميع ما فيها من الأموال ودمر الأسوار ودكها دكاً وسار منها إلى مدينتي صميرة وارواد فظفر بهما أيضاً وانتصر على الخوارج ثم عفا عن زعماء العصاة وأبقاهم في مناصبهم وأخذ أولادهم وإخوتهم إلى مصر رهينة فكان إذا توفى أحد من هؤلاء الرؤساء أرسل واحداً من المرهونين ليتولى بدله.

وفي السنة الثالثة والثلاثين من ملكه عبر الفرات وسار إلى الجزيرة التي بين دجلة والفرات في الجهة التي نصب فيه توتوميس الأوّل الحجر الشاهد على نصرته وتغلبه على بلاد الأرمن وإدخالهم تحت طاعته ثم عبر نهر الخابور إلى دجلة وسار حتى وصل إلى نينوي بالعراق فخرج إليه رئيس العراق وتلقاه بالبشر والقبول وسلم إليه وأطاعه فأقره على منصبه وأباح لعسكره صيد ما في تلك الأصقاع من وحوش البر فاصطادوا منها مائة وعشرين فيلاً وأتوا له بجلودها وما غنموه من تلك الغزوات ثم سار إلى مصر فكان إذا مر بمدينة أو قرية خرج له أهلها بالجزية والهدايا النفيسة وتلقوه بالفرح والقبول فظن أن قد تم له الأمر وخضعت جميع آسية إليه ولم يبق له من يعارضه في ذلك.

فلما كانت سنة أربع وثلاثين من ملكه عادت بلاد آسية إلى شق عصا الطاعة وخرج كذلك في سنة خمس سكان الجزيرة وفعل كذلك أهل كدش وغيرها من البلاد المجاورة لها فركب عليهم وقاتلهم جميعاً، وما زال حتى أخضعهم وانتصر عليهم نصراً مؤزراً ولم يكد يرجع من غزوة آسية وإخضاع أهلها حتى قام عليه الزنوج والعبيد القاطنون على شاطيء النيل الأعلى فسار إليهم فلما أحسوا بقدومه تركوا أوطانهم وهربوا إلى الجبال فأمر فنهبت مواشيهم وجميع أموالهم من الذهب والأواني المعدنية والريش وغير ذلك وهدموا مساكنهم وأحرقوها ثم عاد بجيشه والنصر يتقدّمه فكانت أيامه كلها حروباً وشدائد.

ومات توتوميس الثالث المذكور في الثلاثين من شهر برمهات سنة أربع وخمسين من حكمه بعد أن قهر بلاد الحبشة والنوبة والسودان والشام والجزيرة وبلاد العراق الغربي وكردستان وجزيرة قبرص وأخذ منها جميعها الجزية صاغرة، وهو من أشهر ملوك هذه الدولة الثامنة عشرة التي هي رأس الطبقة الثالثة من طبقات ملوك مصر كما تقدّم حسب ترتيب جماعة المؤرخين من المتقدمين والمتأخرين وكانت مدّة حكمه خمساً وعشرين سنة وبعض أشهر وفي رواية ثماناً وأربعين سنة فانتقل الملك بعده إلى حفيده أمنوفيس الثاني الملقب رعا خبرو ويسمى أيضاً أمنحتب الثاني.

(في الملك أمنوفيس الثاني)

ارتقى أمنوفيس الثاني هذا سرير الملك والبلاد آمنة مطمئنة لا مهدد لسطوتها ولا موقف من الأمم لنفوذ كلمتها فزاد في نفوذها وإعلاء كلمتها وتقوية شوكتها وأخذ في تتميم ما نوى سلفه على فعله من بناء العمائر العظيمة والمباني المشيدة في النوبة وبلاد الكنوز وإبريم ولم يتمها وكانت في أيامه الراحة ضاربة أطنابها في جميع أنحاء البلاد والرعية في خوف من شدّة بأسه وجبروته لم تجسر على الخروج ولا شق عصا الطاعة مدّة ثم هب الآشوريون بعد ذلك من سنة الخمول وعمدوا إلى شق عصا طاعته والاستقلال بحكم أنفسهم فلما آنس منهم ذلك وأحس بما وراءه من الخوف على بقية الايالات الداخلة تحت سلطانه جيش جيشاً عظيماً وركب لقتالهم فاجتاز الفرات ونهر ارسات وأرسل طليعة من عساكر الشام يستكشفون أحوال الآشوريين في مدينة (انات) ثم سار لقتالهم وضيق عليهم حتى انتصرت عساكره ثم سار منها إلى الجزيرة، ووقعت الهدنة بينه وبين أهلها إلى شهر أبيب، فقضى الشتاء فيها وذلك في السنة الثانية من حكمه، فلما كان العاشر من شهر أبيب سار إلى نينوي

فلاقاه أهلها واستسلموا له بغير قتال فنزل بدجلة وسار إلى مدينة (اكاد) وتملك عليها وكانت هذه الغزوة آخر الحرب مع الآشوريين ثم عاد في السنة الثالثة من حكمه بطريق البحر وكان في مقدّم سفينته سبعة قتلى من رؤساء مدينة (تاخيس) قد قتلهم بيده في معمعة الحرب فلما دخل مصر أمر فعلقوا ستة منهم على سور مدينة ثيبة وقد قطعوا أيديهم وعلقوها أيضاً بجانبهم ونقلوا سابعهم إلى النوبة فعلقوه في مدينة (ثبتا) ليكون عبرة لأهالي تلك الأصقاع. وحكم هذا الملك خمساً وعشرين سنة، وقيل لم يحكم إلا عشر سنين وعشرة أشهر وكان جليل القدر فلما مات تولى بعده الملك توتوميس الرابع الملقب رعمنخبرو وهو ابن أمنوفيس الثاني.

(في الملك توتوميس الرابع)

تولى هذا الملك بعد أبيه أمنوفيس الثاني وعكف على بناء الهياكل وتشييد المباني العظيمة وحافظ على بقاء مصر على ما وجدها عليه من رفعة الشأن واتساع الكلمة وحارب الايتيوبيين في السنة السابعة من حكمه وأخضع الشام لخروج أهلها عن طاعته وحصن مصر وجعلها في منعة على القبائل العاصية جهة لوبية وبلاد برقة. قال صاحب العقد الثمين: ثم عكف على عبادة الشمس كما ورد في الأسانيد الأثرية على جدران معبد أمدا بالنوبة واحترم أبا الهول القائم بين الهرمين بالجيزة حيث كان السر في وضعه الأصلي رمزاً عن الشمس المشرقة التي كان يتصف بها كل حاكم حائز لكافة الأوصاف الفرعونية لكونه بهذه الأوصاف يكون نائباً في الأرض عن الشمس المعبودة لهم. قال: ويشاهد في صدر أبي الهول حجر ارتفاعه أربعة عشر قدما إنكليزية قد علته الرمال وبأعلاه صورة الملك تحوتمس الرابع مرسومة جهة اليمين على هيئة أنها تعبد أبا الهول وعلى يسارها رسم الشمس ثم يلي ذلك نقوش مؤرخة في اليوم التاسع عشر من شهر هاتور من السنة الأولى من حكم هذا الملك تفيد أنه لم يوفر أشياء لتحسين مدينتي منف والمطرية ولإعطاء المرتبات المقررة للمعابد ولإنشاء الهياكل وأعمال التماثيل للمعبودات وإنما تصفه بالقوّة والشوكة بين الدول. قال: ومن أجمل عبارات هذا الحجر خطاب منصوص في آخره عن لسان أبي الهول يخاطب به الملك ويقول له:

أكلمك بنفسي كما يكلم الأب ابنه فانظرني وسرّح الطرف نحوى ياتحوتمس ياولدي أنا أبوك(حورمخي خبرع توم) أي الشمس المشرقة الموجودة الكاملة. أعدك بأن تملك سائر الأرض في طولها والعرض وأن تعطيك الأمم جزياتها العديدة ويطول عمرك سنين مديدة. اهـ.

وحكم هذا الملك تسع سنين وثمانية أشهر ومات فتولى الملك بعده ابنه أمنوفيس الثالث الذي رزق بـه من زوجته مـوت أموا ويسمـى أيضاً أمنحتب الثـالث ويلقب رعماتب.

(فى الملك أمنوفيس الثالث)

لما تولى هذا الملك واستـقر به المنصب بسط يده على جمـيع حدود المملكة التي كانت تمتد يومئذ شمالاً إلى نهر الفرات وجنوباً إلى دجلة وكان جليل القدر له شهرة عظيمة في الأقطار الغـربية وكان اليونان يسمـونه (الممنون). وقيل: إنه لم يكن من جنس المصـريين ولكنه اغتـصب المملكة وتسلط عليـها بمداخلتـه مع أحد الفـراعنة بالزيجة ويسـتدل على صحـة ذلك بانفراد قبره الذي في مـدينة ثيبة عن قـبور باقي الفراعنة ويحكي أن ولادته وتربيـته وشئونه كـانت عجيبـة ومرسومة في آثار مـباني لقصرو، تحرير الخبر أن رئيس الكهنة بشر أمه بحمله فأحست بذلك عن قرب فلما وضعته بشرها أيضاً بعظم شأنه واتساع كلمته وأن يكون له ملك عظيم لم يسبق لمثله ويملك ما بين الخافـقين شرقاً وغرباً وشمـالاً وجنوباً فتم جميع مـا قاله الكاهن وقد شيـد المباني العظيمـة والهياكل بلقـصر وبيبـان الملوك وغزا الغزوات الكثـيرة بالنوبة والسودان وانتصـر فيها فادّعـى لنفسه الألوهية ولقب نفسـه (هودوس) يعني شمس الربيع وكذلك سـمى نفسه ملك القطرين وصـاحب المصرين ومولى الخافـقين وكان يعني بالقطرين الإقليمـين البحري والقبلي وبالمصـرين منف وثيبة وبالخافـقين المشرق والمغرب يعني آسية وإفريقية وكان مهيباً حسن السياسة بعيد النظر في الأمور فامتدّت مملكته مـن الجزيرة إلى قلب الحبـشة وملأ جـوانب النيل بالآثار العجـيبـة والرسوم الغريبة والهيـاكل والمعابد فمنها هيكل جبل البركل وهيكل الشلال الثـالث وغيرهما من الآثار الأخرى بجـزيرة أسوان وجبل السلسلة وطرا ومنف وجـزيرة الطور. قال صاحب العقد الثمين ونقش تاريخ غزواته على تاج هيكل لقصر الذي جدد فيه جزءا عظيماً فقال ما معناه:

أنا الملك المنصـور الأكبـر والليث الشـديد الغضنـفر أنا الذي دوّخت بالسـيف طوائف المتوحشين وملكت بلادهم وفرقت شملهم وأبدتهم أنا ملك القطرين، وولى أمر المصرين والسيد المالك المطلق التـصرف وابن الشمس ضارب رقاب الولاة الكبار ورؤساء الأقوام في الأقطار لا بلدة من البلدان تقاومني ولا دولة من الدول تصادمني بل سرت في سائر الأقطار جامعاً شمل الانتصار كالمعبود حوريس ابن المعبودة إزيس

وكالشمس في كبد السماء أضرب قلاعهم وأدمر حصونهم كيف لا وقد قهرت جميع الملل وألزمت كافة الدول بتأدية الجزية لديار مصر ألست بسلطان البرين وأمير العالمين ومن سلالة الشمس. اهـ.

ويقال إنه هو الذي أنشأ على ميسرة النيل تجاه ناحية لقصر معبدا من أعظم الآثار المصرية القديمة، وقد تخرب الآن ولم يبق منه إلا الصورتان الموجودتان به المسماتان الآن بالصنمات وهما صورة الملك أمنوفيس الثالث المذكور. ويقال لهما أيضاً: شامة وطامة وكان في الزمن الأول لم يلتفت إلى هذه الصورة أحد فحصلت زلزلة في سنة سبع وعشرين قبل الميلاد المسيحي فأسقطت جزء أحد التمثالين المذكورين وبقيت قاعدته قائمة في محلها وقد شوهد أن هذه القاعدة متى سقط عليها الندى وقت الصباح سمع منها صوت مستطيل عند شروق الشمس فكان يعجب من ذلك أرباب السياحة من اليونان والرومان واعتقدوا أن صورة الملك أمنوفيس الثالث المذكور هي صورة شمسون أحد أرباب الايتيوبيين ابن نيتون وأمه (أورور). وهو الذي أعان (بريام) على إرغام أنوف اليونان وأنه يشير بالتحية عند طلوع الشمس إلى أمه (أورور) أي الفجر ويودعه. قال بعض المتأخرين: إن هذا الصوت كان من أثر الندى وتأثير الشمس على الحجر فهي خاصية طبيعية وكان هذا الملك متزوجاً بامرأة أجنبية من بيت الملك تدعي (تابي) ورزق منها بولد اسمه أمنوفيس الرابع. ويقال إنه خلف عدة أولاد تولى منهم بعده ملك مصر ابنه هودوس. وقد كان تناوب كرسي المملكة المصرية من غير بيت الملك عدة ملوك قد حسبوهم في عداد ملوك الدولة الثامنة عشرة ولكنهم كانوا خاملي الذكر ليس لهم من الآثار ما يذكر قالوا: فلما تولى هودوس بن أمنوفيس الثالث المذكور رجع به المنصب الملوكي إلى أهله من بيت الدولة الثامنة عشرة وكانت مدة حكم أمنوفيس الثالث المذكور ستاً وثلاثين سنة وخمسة أشهر، فقام بالأمر بعده الملك أمنوفيس الرابع الملقب رع نفروخون آتن.

(في الملك أمنوفيس الرابع)

كان هذا الملك قبل تولية الملك كاهناً للشمس فلما آل إليه الملك بالوراثة عن أبيه أمنوفيس الثالث أمر الناس بعبادتها ونهاهم عن عبادة بقية المعبودات وغير اسمه لما فيه من ذكر أمون لبغضه له وسمى نفسه (خون آتن) يعني نور قرص الشمس وأمر فمحوا جميع أسماء أجداده وأقاربه التي وجد فيها اسم أمون وحافظ كثيراً على كل

ما كان فيه اسم الشمس محبة فيها واحتراماً لها. قال صاحب العقد الثمين وقد أمر بتخطيط مدينة جديدة بمحل تل العمارنة قرب منية الصعيد لتكون تختاً جديداً للدولة المصرية بدل مدينة طيبة التي هي مقر المعبود آمون ونقل في مدينته المستحدثة تمثال قرص الشمس وسماه (آتن) موافقة لاسم معبود اليهود أدونوس أو أدوناي وبكشف أرض تلك المدينة ظهر أنها كانت كثيرة الأماكن والشوارع المنتظمة منها آثار معبد الشمس المشتمل على دهليزين وعلى ستة عمد مدرجة الوضع كانت منصوبة في وسط هذ المعبد وشوهد أيضاً على جدرانه رسم الشمس مشرقة فوق الملك ورجاله وهم وقوف يقدمون القرابين إليها ولها أشعة ذات أيد كأنها تنثر الحياة على المخلوقات. وحول ذلك أدعية وقصائد يتلوها المرتلون مصحوبة بنغمات الأوتار ومعهم غانية تدعى (سنرو) تقول مدحة لقرص الشمس مطلعها:

لك الثنا ياصاحب الأعوام   ياموجد الشهور والأيام
يامعدد الساعات   في سائر الأوقات

وقد كان شديد المحافظة على حدود مملكته كثير العناية بأمرها فكان الايتيوبيون وأهل الشام والولايات الشرقية وجزائر البحر الأبيض يدفعون له الجزية صاغرين وكان ملكاً مهيباً موفقاً في الحروب والغزوات ومات عن سبع بنات ولم يعقب ذكرا يتولى الملك بعده. قال صاحب العقد الثمين ولذا انتقل الملك بعد وفاته إلى خمسة رجال من المصريين حكموا على التناوب بينهم بدون حق في الوراثة وسنذكر من علم منهم على ترتيبهم في جدول ملوك هذه العائلة قال:

(في الملك آيي)

هذا الملك هو أوّل الملوك الخمسة، وكان قبل استيلائه على سرير الملك يدعى (نتراتف آيي حق نتراوس) ومعناه الكاهن آيي الحاكم المقدس في طيبة وكان متوليا عند الملك أمنوفيس الرابع وظيفة سائس ركاب الميسرة ثم ترقى إلى ناظر خيول الملك ثم إلى كاتب سره وكان أخاه من الرضاعة. وزوج ابنته الكبيرة(آتي) فلما آل إليه الملك على ديار مصر غير اسمه آيي وسمى نفسه (رع خبر خبر وأرما) وقد علم من الآثار أنه أبقى ديانة الشمس واحترم أيضاً أمون والمعبودات المصرية التي أبطلها أمنوفيس الرابع، وكانت مدّة حكمه تزيد عن أربع سنين، وفي أثناء ذلك عين باور والياً على الأقطار السودانية وصنع لنفسه مقبرة في بيبان الملوك بطيبة نقش اسمه عليها فمحاه من حكم بعده من الملوك لكونه خارجاً عن بيت الملك ولم يبق اسمه

إلا على بعض مواضع من تابوته ولقصر مدّته ترك مقبرته المذكورة ناقصة البناء . اهـ. وبموته قام بالأمر بعده الملك توت عنخ أمون.

(في الملك توت عنخ أمون)

تولى توت الملك بعد الملك آبي وهو ثاني الملوك الخمسة وكان قبل توليته المنصب الملوكي حاكماً على مدينة أرمنت، وقد بقيت جميع المدن والبلدان خاضعة لحكمه وكان ملكاً مهيباً جليل القدر نافذ الكلمة أتى إليه رؤساء قبائل الآشوريين والروتنو والجزائر وبلاد السودان بالجزية والهدايا النفيسة من الذهب والفضة والأواني من المعدن المتقنة الصناعة ومن الخيول والسباع وجلود النمور وغير ذلك مما كان يصنع ويوجد بالجزيرة التي بين دجلة والفرات وكانت أيامه غاية في الراحة والعز والطمأنينة فلما مات تولى الملك بعده الملك (رسعا كاخبرو) ثم ملكان آخران مجهولاً الاسم كما رواه صاحب العقد الثمين ولكن لم يعلم لهؤلاء الثلاثة شيء من الأخبار أو المآثر، ولم يصل جماعة المؤرخين إلى الوقوف على شيء من أعمالهم، وبموتهم عاد الملك ثانية إلى من بقى من العائلة الثامنة عشرة المتأصلة، وهو الملك(حوربي) وقيل هو الملك هوريس بن أمونفيس الثالث وبنته المسماة طماهو موت.

(في الملك حوربي أو حور محب)
(ويسمى أيضاً)
(رع سر خبرواستبن رع)

لم يستقر الملك حوربي المذكور بالمنصب حتى قامت الفتنة في جوف البلاد واشتدّت وأخذت في الانتشار بسبب ما حصل من تغيير ديانة البلاد على عهد الملك أمنوفيس الرابع وقام الأهالي على قدم وساق ومحيت آثار الملوك الذين ساعدوا على تغييرها من جميع الهياكل والمعابد فنهض الملك (حور محب) إلى إطفاء نار الفتنة ورسم بإرجاع عبادة المعبودات المصرية القديمة فقام عند ذلك الأهالي على هيكل الشمس ودكوه دكاً ومحوا آثار المدينة العظيمة التي أسسها هؤلاء الملوك على مقربة من تل العمارنة وكانت تخت مملكتهم بدلاً عن مدينة طيبة كرسي الملوك المصريين وما زال الملك حور محب حتى مهد الأمور وأسكن الفتنة وتم له الأمر فنهض إلى إنشاء العمائر وبناء الآثار العظيمة فبنى الواجهة الرابعة من معبد الكرنك وأصلح

الغار الكبير الذي بجبل السلسلة وكان قبل ذلك مقطعاً تستخرج منه الحجارة ونقش على جانبه الغربي نقوشاً تدل على نصرته على أهل الايتيوبيا وكان ملكاً حسن السياسة فعادت المملكة في أيامه إلى ما كانت عليه أوّلاً وبلغت من العز والمجد مبلغاً عظيماً وحافظت على ما لها من الحدود البعيدة على عهد الملك توتوميس الثالث وحور محب هذا هو آخر من أبلغ الديار المصرية من ملوك الدولة الثامنة عشرة أقصى درجات العمار وأكبر مراتب الفخار ومات عن بنته طماهوموت وابنه رمسيس الأوّل ولما كانت طماهوموت أرشد من أخيها وكان أخوها قاصرا تولت الملك بدلاً عنه وقامت بتدبير أمور المملكة خير قيام فكانت مدّة حكم الملك حور محب وابنته معاً ثماناً وثلاثين سنة وخمسة أشهر وهو آخر ملوك الدولة الثامنة عشرة على قول جماعة من الكتاب وقد أقامت هذه الدولة على كرسي المملكة إحدى وأربعين ومائتي سنة ثم قامت بعدها الدولة التاسعة عشرة، وعلى رأسها الملك رمسيس الأول الذي هو ابن حور محب المذكور.

الفصل الثاني

(في العائلة التاسعة عشرة)

كان ابتداء ملك هذه العائلة سنة اثنتين وستين وأربعمائة وألف قبل الميلاد أي سنة أربع وثمانين وألفين قبل الهجرة وعدة ملوكها ثمانية ومدّة ملكهم مائة وأربع وسبعون سنة وأول ملوكها الملك رمسيس الأوّل وهو ابن حور محب وأخو الملكة طماهوموت آخر ملوك الدولة الثامنة عشرة وهو الآتي ذكر مآثره بعد.

(في الملك رمسيس الأول)

تولى رمسيس الأول الملك والبلاد في ضعف وشوكتها في ذبول وكلمتها في انحطاط بسبب الفتن المترتبة على تغيير الديانة القديمة من آخر ملوك الدولة الثامنة عشرة وقد طمع فيها الغريب، وخرج أهل آسية عن طاعتها وانضموا إلى الحيثيين وصاروا يشنون عليها الغارة، ولما كان رمسيس هذا ابن الملك (حور محب) وأخا الملكة (طماهوموت) تولّى الملك خلفاً لأخته وأبيه خلافاً لما قاله بعض الكتاب من أنه لم يعلم إن كان من عصبة الملوك المصريين، أو ظهر من أهل آسية. قال: وغاية من علم أن زوج ابنته (سيتي) هو من ملوك العائلة الثامنة عشرة ثم تبوأ كرسي الملك كبيراً فأحسن السياسة في رعيته وأوردها موارد الراحة، وكان مهيباً جليل القدر قاتل

في السنة الثانية من حكمه أهالي شمال الشام من طريق الفرات وجبل كورين والبحر الأبيض وهي البلاد التي يسكنها الخيتاس ويعرفون في التوراة بالحيثيين وهاجم الجم الغفير من حلفاء هذه الطائفة من سكان آسية وقاتلهم قيل وهو أول من أقدم على مقاتلة الحيثيين والتغلغل في بلادهم حتى وصل نهر العاصي ثم عاهدهم وكانت مدّة حكمه تسع سنين وخلفه ابنه منفطه الأوّل المسمى عند اليونان (سيتي) أو سيطوس الأوّل.

(في الملك سيطوس الأوّل)

(الملقب)

رعما من

لما ارتقى سيطوس الأوّل كرسي المملكة خف إلى الأعمال النافعة وتعزيز جانب المملكة واتبع آثار جدّه الملك (توتوميس الثالث) في إعلاء شأن البلاد والوصول بالمملكة إلى أوج العز والفخار وله من الآثار الغريبة والعمائر العظيمة بالإقليمين القبلي والبحري وعلى سواحل البحر الأحمر وبلاد النوبة ما يدل على علو همته وجليل قدره وقد أكمل بناء هيكل القمر الذي كان قد أنشأه الملك (توتوميس الرابع) بناحية بني حسن القديمة وبنى بجانبه معابد أخرى ومقابر مرسوماً عليها اسمه وأنشأ بالصعيد الأعلى عند جبل السلسلة على الشاطيء الغربي من النيل معبداً منحوتاً في الجبل لم تزل منه بقايا جيدة الصناعة كاملة الزينة تدل على تقدّم فن العمارة والنقش في أيامه، وله القاعة ذات الأعمدة الموجودة بجهة الكرنك التي هي من أبدع العمائر المصرية القديمة وتسمى بالقصر المنفطي نسبة إليه قيل ولم يتمم (سيطوس) المذكور بناء هذا القصر وإنما الذي تممه ابنه (رمسيس الثاني) وأنشأ هيكلاً آخر للشمس في الوادي المعروف بوادي الموية على بعد يومين من النيل في البرية التي في طريق القصير، ومن أعماله أيضاً إصلاح الغار الموجود في بني حسان للمعبودة (بشت) وهو المعروف الآن بغار (تمسيدوس) وكان من قبل مقطعاً تستخرج منه الحجارة للعمارات وينسب إليه أيضاً مقطع أحجار الرصيف المصنوع الآن في جزيرة أسوان وهو من آثار الأحجار التي نقلها للعمارات التي بناها في هذه الجزيرة ومن آثاره المسلة العظيمة التي نقلت من مصر إلى مدينة رومة، والهيكل الكبير الذي استكشف حديثاً بالعرابة المدفونة، وما يحتوي عليه من التصاوير العجيبة والنقوش الغريبة، وهو أول من حفر الخليج الموصل ماء النيل إلى بحر القلزم الذي هو البحر الأحمر

وأول من فتح طريقاً لـلقوافل من إسنا إلى معدن الذهب بجبل (اتوكي) وحفر في الجبل هناك عيناً ينبع منها الماء وله جملة غزوات وحروب مع السودان والشام وكثير من بلاد آسية وانتصر على قبيلتي (الخيتاس) (والروتونو) وهما أعتى القبائل وأشدّها بأساً وغزا مدينتي نينوي وبابل وسار بجنوده إلى أقصى بلاد أرمينية، وانتصر على أهلها، وكانت جميع بلاد آسية إلى عهد الملك سيطوس الأول ثاني ملوك الدولة التاسعة عشرة قد خرجت عن طاعة المملكة المصرية وصارت تشن عليها الغارات وتتقوى وتتحرز حتى صارت من أكبر أعدائها وكان بينها وبين مصر من الوقائع والحروب ما سيذكر في محله ثم مات الملك سيطوس الأول المذكور فكانت مدة ملكه اثنتين وثلاثين سنة وثلاثة أشهر وفي رواية مانيتون إحدى وخمسين سنة ودفن في مدفنه الذي ابتناه لنفسه في بيبان الملوك عند مدينة طيبة تحت الأرض يعجب منه كل من يراه لما فيه من الهيئات الفلكية كالشمس تسبح بسفينتها في السماء وكأن السماء لجة ماء وتجتاز ما يعارضها من عقبات الثعبان أبب وكالنجوم الثوابت والسيارة وغير ذلك، وتولى بعده بكر ولديه وولي عهده رمسيس الثاني.

(في الملك رمسيس الثاني)
(المعروف)
(بسيزوستريس)
(الملقب)
رع أوسر ما استبن رع

اشتهر هذا الملك برمسيس الأكبر، حيث كان أعظم ملوك مصر قوّة وأكبرهم سلطة واقتدارا وكان ظافرا كثير الحروب والغزوات ملأ مشارق الأرض بصيت فتوحاته وأرهب مغاربها بهيبته وبأسه وسطواته ولم يكن أحد قبله من ملوك مصر عبر البحر الأحمر فجهز هو عمارة عظيمة قيل أنها كانت أربعمائة سفينة حربية وتغلب على سواحل البحر المذكور وعلى جزائر بحر الهند فامتد ملكه من نهر الكنك بآسية إلى نهر الدانوب الذي هو نهر الطونة، وكان كلما فتح قطرا واستولى على مملكة من الممالك شيد فيها هيكلاً وآثارا تدل على نصراته وفتوحاته وأنزل فيها طائفة من جنده المصري ليستوطنوها وينشروا ديانتهم وعوائدهم فيها ليكون ذلك دلالة ظاهرة على تخليد ذكره وزاد في ثروة أهل وطنه وأوردهم موارد السعادة والرفاهية ونعم بالهم وسن لهم القوانين والأحكام ونظم أمورهم على أكمل ترتيب

وأحسن نظام وضرب الجزية على عشرين أمة استرعاها. ويقال: إن كاهن الشمس بشر أباه بأن ولده هذا يملك سائر بلاد العالم ولذلك لما آلت إليه المملكة المصرية اعتنى بهياكل مدينة منف المكرسة للشمس فشيدها ووسعها توسيعاً خارجاً عن حد العادة. وقد طال عمره وامتدت مدّة ملكه وتنوقلت مآثره وتواترت مفاخره وتكلم عنه كثيراً أصحاب التاريخ. وقالوا: إنه لم يسبق هذا الملك أحد من ملوك العائلتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة أعظم من توتوميس الثالث الذي كان بينه وبين رمسيس الثاني هذا ستة ملوك وكان رمسيس من زمن شبوبيته فاضلاً بارعاً متضلعاً من العلم والحكمة حتى قيل أنه تلقى جميع العلوم وسائر الفنون عن (هرمس المثلث) الذي هو إيليا النبيّ أي إدريس عليه السلام زعم البعض أنه تلقاها عنه مشافهة. (قلت): وهذا غير صحيح لتأخر زمن رمسيس ورفع إيليا إلى السماء قبل زمن رمسيس كما جاءت به الكتب ولعله تعلمها بالتلقي عن أحد الهرامسة المصريين وقد دلت كتب اليونان على أن هرمس الهرامسة المثلث هو إيليا النبيّ وهو مصري المولد، وأنه أول من وضع العلوم والفنون والسياسات والتدابير والحروب والصنائع، وله رموز عجيبة وأسرار غريبة ومعارف غزيرة واسعة قد أودعها بطون الأسفار والكتب، وهو أول من عرف الله سبحانه وتعالى وعبده. قالوا: ولماجاء الطوفان وأغرق الأرض وأهلك سائر النوع البشري ثم عمرت الأرض بأولاد نوح عليه السلام كان الناس كافة على الفطرة الأولى لا يعرفون شيئاً من ضروريات المعيشة فبعث الله لهم هرمس هذا في صورة إنسان، وقد كان رفع إلى السماء قبل الطوفان فعلمهم ما يحتاجون إليه وثقفهم فتبدلت أخلاقهم الوحشية بإنسانية وطباعهم الحيوانية بآدمية إذ كانوا هائمين على وجوههم كالوحوش لا يفهم بعضهم بعضاً إلا بصياح ساذج متقطع مختلطاً ووضع لهم أسماء المسميات وعلمهم طرق التعارف فيما بينهم. قالوا: وله اثنان وأربعون كتاباً سلمها إلى طائفة الكهنة وأمنهم عليها وأودعهم أسراراً غامضة وأمرهم بمعرفة ما في تلك الكتب كل على قدر حاجته ومرتبته في الهيئة الاجتماعية. وقال چامبليك: إن كتب هرمس الهرامسة بلغت بمصر عشرين ألف كتاب. وقال مانيطون: بل أكثر من ذلك كثيراً. اهـ. ولغزارة علمه كانت جميع عباراته سهلة المآخذ مقبولة مألوفة للنفوس وكانت عادة المصريين أنهم إذا اخترعوا شيئاً من المعارف النفيسة والحكم نسبوه إلى هرمس المثلث ليسهل تلقيه من عامة الناس ويكون حسنا لديهم مقبولاً وكان (رمسيس الثاني) المذكور بطلاً شجاعاً ميالاً للغزو والقتال فأرسله أبوه لغزو بلاد العرب فنزل عليهم وقاتلهم وأرجعهم إلى الطاعة ولم تكن العرب

قبله انقادت لملك من الملوك الأولين وكان معه في هذه الغزوة كثير من أبناء المصريين الذين كانوا تربوا معه ثم سيره إلى جهات المغرب فاستولى على برقة وغيرها من بلاد إفريقية وصيرها من ملحقات المملكة المصرية ثم مات أبوه عقب ذلك فتولى الملك بعده فلم يستقر به المنصب حتى جيش الجيوش وأكثر من معدات القتال وسار لقتال الأقطار السودانية وما زال بها حتى أخضعها وضرب على أهلها الجزية مقدارا يدفعونه في كل سنة من الآبنوس وسن الفيل والذهب، ولما كان في مبدأ السنة الخامسة من حكمه قامت عليه سكان آسية الشمالية وهم قبائل الخيتاس وكاتي وكركميش وكدش وأراد، وكانوا أقواماً أصحاب قوة وبأس فتألبوا على محاربته وانضم إليهم أقوام أخر لم يكن لهم سابق قتال مع المصريين فعمت بذلك الفتنة وامتدت في أرجاء آسية الشمالية كلها وانحدروا جميعاً على عجل إلى أن وصلوا إلى وادي الارنؤد على مقربة من حدود مصر، فلما بلغ رمسيس خبر وصولهم ركب في جيش عظيم وسار لقتالهم فعبر أرض كنعان التي كانت يومئذ خاضعة لديار مصر وانعطف إلى الجهات الشمالية ونزل بشبتون القريبة من كدش، وبث العيون والجواسيس لتأتي له بأخبار العدو وما هو عليه من المنعة أو الضعف وكذلك فعل العدو فلما كان في بعض الأيام خرج رمسيس في طائفة من حراسه وسار صوب مدينة كدش فلقيه رجلان من الأعداء وأخبراه بأن رؤساء القبائل الذين كانوا اجتمعوا لنجدة رئيس الحيثيين انفصلوا عنه وسيروا بهما لخدمته والعمل بمقتضى إشارته وأنهما تركا رئيس الحيثيين في حلب شرقي مدينة تونب يتقهقر بعسكره فراراً من رهبتك وخوفاً من جبروتك فاغتر رمسيس بهذا الكلام وتمكنت منه الخيلاء فزحف على الأعداء بمن كان معه من طوائف الحرس في ذلك اليوم؛ وقد كان بينه وبين معسكره بُعد بعيد. وكان قد رتب من معه من الجند وقسمهم إلى أربع فرق. الأولى منها فرقة أمون رع، والثانية فرقة رع، والثالثة فرقة بتاح، والرابعة فرقة سوتنح وعين لكل موقفاً أمام العدو، فلما سار بمن معه من الحرس نحو كدش يريد مفاجأة العدو وأخذه أخذ عزيز مقتدر، برز إليه رجلان بعث بهما رئيس الحيثيين ليقبضا عليه ويأخذاه أسيرا وكانت جيوش العدو مجتمعة في الشمال الشرقي من كدش وهي على أهبة الهجوم على كل من يمر بهم من عساكر رمسيس فآنس رمسيس من الرجلين أنهما إنما أتيا ليقبضا عليه ويأخذاه أسيرا فأمر جنوده بالقبض عليهما وأوسعوهما ضرباً حتى اعترفا بسر بعثتهما وخفيّ مأموريتهما وأنهما إنما حضرا لكشف أخبار الجيوش المصرية والقبض على رمسيس، فعقد رمسيس لذلك مجلساً

من كبار جنده وعنفهم وبالغ في تعنيفهم. وقال: كيف تأتون بنا من طريق لا خبرة لنا بها ولا معرفة لنا بما فيها وكيف بسوء تدبيركم نضل عن طريق السلامة ونقع مع ما نحن فيه من القلة في أيدي الأعداء الذين هم لنا بالمرصاد فجعلوا يعتذرون ويهوّنون عليه الأمر ويقولون إنما ذلك كله من فساد قلوب حكام هذه البلاد التي نزل بها العدو فلم يخبروا بخبره ولم يكشفوا لنا عن عوراته. والرأي أن نرسل الساعة من يأتي لنا بالجيوش فنركب على الأعداء ونقاتلهم حتى نظفر بهم، فبينما هم يتدبرون إذ ظهر العدو في عُدَدِه وَعَدَدِه يريد قتال رمسيس ومن معه؛ وكان رمسيس في هذا الحين نازلاً بمن معه من جند الحَرس على شمال كدش قريباً من نهر العاصي فهجم عساكر الحيثيين عليه هجمة رجل واحد وصدموا جنود القلب وأوقعوا فيهم القتل ففشل المصريون وانقسموا وولوا الأدبار وبقي رمسيس بين الأعداء منفرداً فتأهب للقتال. قال صاحب العقد الثمين: وقد جاء في النقوش الأثرية أن الشاعر المصري (بنتاأور) كان حاضراً مع رمسيس في هذه الموقعة. فقال في ذلك ما نصه:

إن حضرة الملك نهض وهو في غاية الصحة واعتدال المزاج ونهاية القوة والابتهاج كأنه المعبود مونت آخذا عدة الحرب في الحال، ومتهيأ للضرب والقتال فأرسل عربته في صفوف الجموع، وهجم على بني خيتاس منفرداً بنفسه لم يتقدم معه أحد من أبناء جنسه، واقتحم المعركة وحده أيّ اقتحام بمشهد من جميع الأتباع والخدام؛ وقد أحاط به ألفان وخمسمائة عربة حربية من شجعان الخيتاس والعصبية والقبائل المتكاثرة والعشائر المتظاهرة وهم (آرادوس) (ومازو)، (وبتاسا)، (وكشكاش)، (واليون)، (وجازوناتان)، (وشيروب)، (واكتور)، وغيرهم وكان على كل عربة من عرباتهم ثلاثة من المحاربين؛ ولم يكن مع حضرة الملك أحد من عشيرته ولا من أمراء دولته ولا من قواد جنوده ولا من العساكر الرماة ولا من عساكر العربات فتوجه إلى معبوده واستغاث بمولاه قائلاً:

تركني وحدي جند الرماة والفرسان ولم يبق معي من يشد أزري. أو يعضد ظهري. فماذا يريد مولاي أمون؟ فهل أنا عاص أستحق العقاب مع إني لمولاي سميع مطيع أعمل بما أعلم من الأمر بقدر ما أستطيع. وأقوم بحقوق المشاعر وإظهار الشعائر. وأملأ بيوت العبادة من غنائم الأعداء وأتقرب للمعبود بالقرابين التي لا تحصى عدا. وقد أكثرت من المعابد والهياكل وذبحت ألف ثور قرباناً مزينة بالزهور الطيبة الرائحة وشيدت الهياكل الجسيمة. واقتطعت لها الأحجار العظيمة. وغرست في المعابد الأشجار المخلدة. ونذرتها لتكون مآثر مؤبدة. وأحضرت من جزيرة

أسوان للمولى المعبود أحجار المسلات الشامخة. وأجريت السفن في البحار الزاخرة لجلب غنائم الملل إلى الهياكل الباذخة. فها أنا يامولاي أدعوك وأنا بين أقوام كثيرين لا أعرفهم. وأنا في حضرتك وحدي. فاقدا لجندي. تركني عساكر الرماة وفرّ عني الفرسان الكماة. وقد دعوتهم فما أجابوبي. واستغثت بهم فما أغاثوني. وأنت أولى بي من الجنود الرماة والفرسان. وأحق بنصرتي من الأبطال والفتيان. فانصرني على العدد الكثير والجم الغفير. قال: ثم أجاب الشاعر في قصيدته بكلام عن مولاه أنه لبى دعاءه؛ وقبل رجاءه. (قلت): وقد ضربنا صفحا عن إيراده هنا خوف ملل القارئ.

وبعد قتال وحروب هائلة بين رمسيس والحيثين والكنعانيين مدة خمس عشرة سنة كادت تفنى فيها جيوش الفريقين تقدم ختاسار رئيس الحيثيين في طلب الصلح والكف عن القتال حقنا للدماء واستبقاء لما بقي من تلك النفوس فجنح رمسيس إلى ذلك. قال صاحب العقد الثمين: وأبرم أمره سنة إحدى وعشرين من حكم رمسيس، وحرروا معاهدة كتبت صورتها أولاً بلغة الحيثيين ثم نقشت على لوح من فضة وقدمت إلى ملك مصر في مدينة رمسيس وكانت مبنية على الشروط والأحكام المدوّنة في المعاهدة التي وقعت بين أمير الخيتاس ورمسيس الأوّل وسيتي الأوّل وهذا نص تعريبها.

المقدمة

في اليوم الحادي والعشرين من شهر طوبة سنة إحدى وعشرين من حكم رمسيس ميامون محبوب (أمون رع)، (وحورمخي)، (وبتاح) سيد قسم (أنختو) بمنف (وموت) سيدة قسمي (أثر)، (وخونفرت حتب) بطيبة وهو القائم على كرسي ملك العباد كأبيه (حورمخي) تخلد ذكره بينما كان هذا اليوم في مدينة بارمسيس ميامون يؤدّي فيها الشعائر للمعبود أمون رع ولحورمخي ولتوم سيد مدينة المطرية ولأمون الساكن بمدينة بارمسيس ولبتاح بالمدينة المذكورة وللشجاع (ست بن تحوت) لأنهم منوا عليه بدوام عيده الرسمي وبدوام أعوام السلم له، وبخضوع الأهالي والأمم تحت نعليه على الدوام، إذا برسل من طرف أمير الحيثيين ختاسار أقبلت إليه وتقدمت بين يديه ليطلبوا الصلح منه. وكانت صورته منسوخة على لوح من فضة

مرسل من طرف أمير الحيثيين إلى ملك مصر مع رسولين هما: (تارتيسبو)، (ورمسيس) يطلب الصلح من رمسيس ميامون ثور الملوك الذي وضع حدوده في كافة الأرض حيثما أراد وهذه المعاهدة كتبها ختاسار أمير الحيثيين المفخم ابن موراسار أمير الحيثيين المفخم، وحفيد سابلل أمير الحيثيين المفخم على لوح من فضة وذلك بينه وبين رمسيس ميامون ملك مصر الأكبر المفخم ابن سيتي الأول ملك مصر الأكبر المفخم، وحفيد رمسيس الأوّل ملك مصر الأكبر المفخم، وهي معاهدة وطيدة على الصلح والمحالفة والوفاق مؤكدة للسلم، والاتفاق دائمة على الدوام.

كان فيما مضى من عهد بعيد حصل بين ملك مصر، وأمير الحيثيين عليهما رضوان الرب اتفاق إلا أن أخي موتور أمير الحيثيين نقضه وتحارب في زمنه مع سيتي الأول ملك مصر الأكبر لكن من الآن فصاعدا أعني من هذا اليوم تعهد ختاسار أمير الحيثيين بمراعاة هذه الشروط سائلاً (أمون رع)، (وست) أن يمنا بدوام اتباعها في ديار مصر وفي بلاد الحيثيين وأن يزيلا الشقاق أبداً من بين المتشارطين. قال:

(المعاهدة)

اتفقت أنا ختاسار أمير الحيثين، ورمسيس ميامون ملك مصر الأكبر من هذا اليوم على مراعاة الصلح والمعاهدة بيننا أبد الآبدين وعلى أن يكون حليفي ومنطوياً على السلم معي، وعلى أن أكون حليفه ومنطوياً على السلم معه دهر الداهرين، كما كان ذلك في عصر أخي موتور أمير الحيثيين الأكبر الذي خلفته في الحكم بعد موته وجلست على تخت والدي وها أنا ختاسار أظهرالمودة الصادقة لرمسيس ميامون ملك مصر الأكبر وبناء على معاهدتنا ومسالمتنا هذه تكون ديار مصر وبلاد الحيثيين في سلم ومحالفة تامة دائمة دون أن يقع بينهما أدنى شقاق مدى الدهر بشرط أن أمير الحيثيين لا يشن أدنى غارة على مصر لسلب شيء منها كما أن رمسيس ميامون ملك مصر الأكبر لا يشن غارة على بلاد الحيثيين لسلب شيء منها وأن أتبع اتفاق العدل الذي حصل في مدّة سابلل رئيس الحيثيين الأكبر واتفاق العدل الذي حصل في مدة أبي مورا سار رئيس الحيثيين الأكبر وأن يتبع ذلك أيضاً رمسيس ميامون ملك مصر الأكبر ونعترف بيننا سوية بأن نتبع هذا الاتفاق، ونجري أعمال العدل من هذا اليوم بشرط أنه إن أغارت أعداء على بلاد رمسيس ميامون ملك مصر الأكبر لزمه أن يرسل إلى أمير الحيثيين ليخبره بالحضور فينضم إلى قوّته عليهم، ويجب على أمير

الحيثيين حينئذ أن يجيب سؤال ملك مصر الأكبر، ويقاتل أعداءه وإن لم يرد أمير الحيثيين الحضور بنفسه لزمه أن يرسل جنوده المشاة وعرباته ليقاتلوا أعداء ملك مصر، وإن غضب رمسيس ميامون على جماعة من أتباعه يكونون قد سرقوا شيئاً منه وأراد أن يقتلهم، فعلى أمير الحيثيين مساعدته على ذلك وإن أغار عدوٌ على بلاد خيتا لزم أمير الحيثيين أن يرسل إلى ملك مصر ويخبره بأن يحضر بقوته ليقاتل أعداءه، فإن أراد رمسيس ميامون ملك مصر الحضور بنفسه، قاتل أعداء أمير خيتا، وإن امتنع عن الحضور بنفسه لزمه أن يرسل مشاته وعرباته ليقاتل أعداء أمير خيتا وأن يعين الوقت ويخاطبهم بذلك، وإن كانت جماعة من خدم أمير الحيثيين تسيئه في خدمته فعلى رمسيس ميامون أن يساعده في تأديبهم، وإذا هاجر بعض السكان من بلاد رمسيس ميامون إلى أمير خيتا. فعلى هذا الأمير أن لا يقبلهم بل يرسلهم إلى رمسيس ملك مصر الأكبر، وإذا ذهب بعض العملة الماهرين إلى أمير خيتا لعمل ما فلا يتوطنون أرض خيتا بل يرسلون إلى رمسيس ميامون ملك مصر الأكبر، وإذا كان بعض الهاربين يحضرون من بلاد خيتا ليتوجهوا إلى رمسيس ميامون ملك مصر الأكبر فلا يقبلهم عنده بل يرسلهم إلى أمير خيتا، وإذا ذهب بعض العمال الماهرين من أرض خيتا إلى ديار مصر لعمل ما فعلى رمسيس ميامون ملك مصر أن لا يوطنهم مصر بل يأمر بإرسالهم إلى أمير خيتا. هذا الكلام الذي على لوح الفضة مقول على لسان ألف معبود من معبودات ومعبودي الجهاد منهم معبودات بلاد خيتا وعلى لسان ألف معبود من معبودات ومعبودي الجهاد منهم معبودات مصر، وهو أيضاً يعتبر حقاً وذمة علينا ويشهد بذلك ست معبود تونب، وست معبود خيتا، وست معبود مدينة أرنا، وست معبود مدينة توسور، ونتاوست معبود مدينة بركاوست معبود مدينة خساب، وست معبود مدينة سارسو، وست معبود مدينة حلب، وست معبود... وست معبود مدينة سربينا، وأسترتا معبود بلاد خيتا وجزيرة تاضرار وكدش، ومعبود مدينة أخن، ومعبود مدينة تساي، وجبال وأنهار بلاد خيتا، ومعبودات بلاد كادز وأتانا وأمون ورع وست والأرباب الحربية والمعبودات وجبال وأنهار ديار مصر وكافة من بدائرة البحر الأكبر والهواء والسحب وهذا الكلام الذي على لوح الفضة منسوب لبلاد خيتا وبلاد مصر، فكل من لم يتبع مضمونه تصرف ألف معبود من بلاد خيتا، وألف معبود من بلاد مصر في مسكنه وأملاكه وخدمه ومن يتبع الكلام الذي على هذا اللوح سواء كان من بلاد خيتا أو من بلاد مصر

أحبه ألف معبود من بلاد خيتا وألف معبود من بلاد مصر وأحيت بيته وأملاكه وأتباعه أيضاً. وإذا هرب رجل أو اثنان أو ثلاثة من مصر وذهبوا إلى أمير خيتا فعلى أمير خيتا أن لا يقبلهم بل يأمر بإرسالهم إلى رمسيس ميامون ملك مصر الأكبر، وكل من أرسل إلى رمسيس ميامون لا يعاقب بذنبه ولا يبيد بيته ولا امرأته ولا أولاده ولا تقتل أمه ولا يضرب على عينه ولا على فمه ولا على رجليه ولا تقام عليه أية تهمة جناية وإذا هرب من بلاد خيتا رجل أو اثنان أو ثلاثة وذهبوا إلى رمسيس ميامون ملك مصر الأكبر فعليه أن يأمر بإرسالهم إلى أمير خيتا، وكل من أرسل إليه لا يعاقب بذنبه ولا يبيد بيته ولا امرأته ولا أولاده ولا تقتل أمه ولا يضرب على عينه ولا على فمه ولا على رجليه ولا تقام عليه تهمة جناية انتهى بنصه.

فلما تمت هذه المعاهدة بين الفريقين، بقي كل منهما محافظًا عليها ستاً وأربعين سنة، وفي هذه المدة حصلت الراحة التامة للرعية، ووقع فيها المصاهرة بين رمسيس وأمير الحيثيين، وذلك أن رمسيس تزوّج بابنة هذا الأمير وبعد المصاهرة بمدة دعا رمسيس صهره إلى الحضور في ديار مصر كما دلت على ذلك الكتابة الموجودة في ورقة انسطاسي وحاصلها:

أن رئيس الحيثيين الأكبر أرسل إلى أمير (كاتي) أحد أمراء دولته قائلاً له: هيىء نفسك كي تذهب إلى مصر حيث دعانا ملكها رمسيس لذلك ولا يسعنا مخالفته إذ لا فرق بينه وبيننا وقد أحبته الناس لكونه يمنح الحياة لمن يشاء. اهـ.

وكان حضور أمير الحيثيين لزيارة رمسيس في مدينته بعد مضي ثلاث وثلاثين سنة من حكمه ولتذكار سياحته نقش حاصل رحلته في حجر ورسم عليه صورة نفسه وصورة ابنته التي تزوّجها رمسيس وصورة رمسيس فتعجب المصريون من ذلك. وقالوا: إنما أهل مصر صاروا قلباً واحداً مع أمير الحيثيين؛ وهذا من الأمور التي لم يسبق لها مثيل من عهد المعبود (رع) انتهى.

قال أهل التاريخ: ولم يكن له من غاية في هذه الفتوحات العظيمة سوى حب الظفر والغنيمة وتذليل الأعداء وانقياد الأمم لسطوته وخضوعهم لعزته وجبروته، ولكن قد خانته الأيام فإنه ما رجع إلى تخت مملكته حتى هبت جميع تلك الممالك إلى الخروج عليه، ونهضت إلى شق عصا الطاعة، فلم يبق له منها إلا بعض المدائن

والبلاد القريبة، وهذه أيضاً لم تبق على الطاعة لملوك مصر بعد موت رمسيس الثاني المذكور إلا زهاء أربعة قرون، ثم عصت وخرجت كغيرها ولما كف عن الغزوات والحروب وجه عنايته إلى تزيين الهياكل وإتحافها بنفائس الغنائم ثم صرف همته إلى تشييد المباني العجيبة. وكان في بنائه الهياكل يراعى معتقد الأهالي في كل بلدة ومدينة. وكان الذين أسرهم في غزواته يقطعون الأحجار ويشيدون تلك الآثار. وكان جل اهتمامه منصرفاً إلى تحسين المدينتين العظيمتين وهما منف دار الملك، وطيبة دار الدين والعلوم، وقد أنشأ الجسور والقناطر والترع والخلجان، وسخر الأسرى في ردم الأراضي المنخفضة التي كان يفسدها النيل، وفي رواية أنه حوّل النيل إلى مجراه الحالي ليصلح بذلك ما تلف من الأراضي المنخفضة. قال بعض الكتاب: ويقال أنه لما رجع رمسيس الثاني المذكور من آخر غزواته إلى ديار مصر خرج أخوه للقائه، ومعه جماعة من خواصه وأظهر الفرح والسرور؛ وقابله بمدينة تنيس فأحسن الملك فيه ظنه وأخلص له في المودة، فلما استقر بالملك المقام مع عائلته في قصره الملوكي بمدينة تنيس أضرم أخوه النار في القصر يريد إهلاك الملك وعائلته حرقا وأخو الملك هذا هو المسمى عند اليونان (دانوس المصري) فلما أحس الملك بالحريق فرّ هارباً ونجا هو وعائلته من هذه المكيدة، فخاف دانوس وهاجر إلى بلاد اليونان. ويقال إنه أسس فيها القبائل المصرية وقد حكى بعض المؤرخين أن دانوس هذا هو نفس أرمايس أخو رمسيس الثاني وأنه ركب سفينة من مصر مع طائفة من المصريين وهاجر إلى موره وعمر بلاد اليونان ومدنها وخالف ذلك بعض المؤرخين. فقال: إن دانوس هذا ليس من أبناء ملوك الدولة التاسعة عشرة ولا من إخوة رمسيس الثاني، وإنما هو من عائلة الملوك الرعاة المشاغبين للعائلة المصرية المتأصلة، وأنهم لما حاربوا أمراء الملوك الرعاة وأخرجوهم ومزقوا شملهم هاجروا تحت رئاسة دانوس المذكور. وقيل إنه من أبناء بنت ايتاخوس المصري الذي كان قد فرّ من مصر إلى مدينة حور ومعه طائفة من عرب العمالقة فنزل وتزوّج منها وأعقب بنتا ولدت دانوس المذكور؛ ثم هاجر ايتاخوس إلى بلاد اليونان، وتولى ملك إقليم ارغوس في بلاد مورة فلما انتقلت المملكة إلى أولاده وأولاد أولاده وكان دانوس من ذرية بنته ارتحل إلى مملكة ارغوس ليأخذ حقوقه ووراثته في ممالك جده. قالوا: وهذا كله يدل دلالة واضحة على أن تمدن اليونان انتقل مع من هاجر إليها من ديار مصر في تلك الأزمان وأن اليونان إنما هي بنت مصر لا محالة.

وطالت أيام ملك رمسيس فكانت ثلاثاً وثلاثين سنة، وقال آخرون: بل سبعاً وستين سنة. وقيل ثماناً وستين سنة وأشهرا واستدلوا على ذلك بأنه لما تغلبت دولة فارس على بلاد مصر، وخرجت الحكومة من يد ملوك مصر الأهلية، وكان في رواق الصور الملوكية بمدينة طيبة بالصعيد صورة رمسيس الثاني المذكور، أراد داريوس ملك فارس أن يضع صورته في هذا الرواق فوق صورة رمسيس الأكبر، فغضب رئيس الكهنة المحافظ على تلك الصور من ذلك، وقال للملك بغلظة: لا يجوز لأحد من الملوك أن يعلو على رمسيس الأكبر إلا من حذا حذوه في أعماله العظيمة فلم يغضب داريوس من كلامه، وقال له: لأجتهدن وأفعلنّ لمصر من المنافع ما فعله هذا الملك العظيم إن عمرت عمر رمسيس حتى لا أكون دونه في الشهرة ورفعة المقام.

ورمسيس هذا هو الذي قسم مملكة مصر إلى ست وثلاثين إيالة، وأقام على كل إيالة نوابًا لجمع العساكر وتجنيد الأجناد وهو الذي رسم صورة الخريطة وصوّر فيها صورة المدن التي افتتحها ليبين لأهل مصر عظم ملكه وكنه جبروته وكان فيه تيه وتعاظم فإنه كان إذا ركب في موكبه لزيارة المعابد أو التنزه يأتي ببعض الملوك والأمراء والعظماء الذين أسرهم ويلبسهم ثيابهم الملوكية، ثم يربطهم كالخيل أربعة أربعة ليجروا عربته، وكان بعد رجوعه من هذا الموكب يجلسهم ويحسن إليهم. وكان قد كف بصره في آخر أيام حياته فجزّع نفسه بعد ذلك بيده كأس الحمام وجسده اليوم محفوظ بدار الآثار المصرية. وبموته تولى بعده ابنه المسمى منفطاً الثاني. (ويقال له أيضاً: منفتاح الأوّل).

(في الملك منفطا الثاني)
(ابن رمسيس الأكبر)

تولى الملك بعد موت أبيه رمسيس الأكبر سنة خمسمائة وألف قبل الميلاد. ويقال له أيضاً فاران أو فرعان وفرعون وإنما سمى منفطا لكون جده كان يسمى بذلك، وكانت عادة ملوك مصر القدماء أن يلقب الملك منهم بلقب جده وله أبنية ومآثر عظيمة تدل على علوّ همته، وفي أيامه خرج بنو إسرائيل من مصر مع موسى وهارون سنة أربع وخمسين وستمائة وألف قبل الميلاد بعد وقوع ما وقع من المعجزات على يد موسى كما جاء في التوراة فهو على هذا فرعون الذي أغرقه الله

سبحانه وتعالى في بحر القلزم. وقال بعض المؤرخين من أهل أوروبا: إن خروج بني إسرائيل وغرق فرعون كانا في زمن رمسيس الثاني، وزعم بعضهم أن هاتين الحادثتين كانتا في زمن ابنه منفطا الأول والذي وعليه معظم المؤرخين أنهما في زمن فرعون بن رمسيس الأكبر المسمى عندهم فرعان أو (أبو خوريس) وهو منفطا الثاني هذا. قال مانيطون المؤرخ: مات منفطا يعني منفطا الثاني هذا عن ابنة اسمها (طوسير) وابن قاصر اسمه منفطا الثالث ويلقب (أوسير خپرورع ميامون) فتزوّجت هذه الابنة بعظيم من المصريين اسمه حفطا منفطا، فكان يقال له أيضاً فرعون تبعا لها وكان يحكم بالنيابة عنها. اهـ. ففسر أهل التاريخ أن زواج طوسير المذكورة بذلك العظيم الذي لم يكن من الدم الملوكي مع أن جدها سيزوستريس كان قد خلف عدة بنين يدل على حدوث حادث عظيم للغاية نجم عنه انقراض سائر أعضاء تلك العائلة الملوكية. قالوا: وذلك الحادث إنما هو غرق فرعون وسائر جنوده في البحر ، ولا بأس من أن نذكر هنا تفصيلاً لقدوم بني إسرائيل إلى مصر وما جرى عليهم إلى يوم خروجهم منها على ما جاء في التوراة، وما قاله المفسرون في ذلك تتميما للفائدة وإن كان فيه بعض الإسهاب والتطويل.

أعلم أن أولاد يعقوب الذين جاءوا إلى يوسف بمصر مع يعقوب أبيهم هم راؤبين وشمعون ولاوي ويهوذا ويساخر وزبولون وبنيامين ودان ونفتالي وجاد وأشير. وقد تناسل من هؤلاء الأحد عشر وممن خرج من أصلابهم سبعون نفساً غير يوسف عليه السلام فلبثوا مع أبيهم بمصر ما شاء الله. ثم مات يوسف وجميع إخوته وسائر ذلك الجيل. وبقى من خرج من أصلابهم فتوالدوا ونموا وكثروا كثرة بالغة جدا وامتلأت أرض مصر منهم شرقاً وغرباً، فلما رأى فرعون كثرتهم ونماءهم (وهو رمسيس) خاف شر العاقبة. وقال لقومه: انظروا كيف نما بنو إسرائيل وكثروا وصاروا شعباً أعظم منا هلم نحتل لهم لئلا يكثروا فيخشى أنه إذا حدثت حرب ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويكونون لهم عوناً علينا، فجعلوا عليهم رؤساء تثقل عليهم وتسومهم الخسف، ثم جعلوا يسخرونهم في البناء ونقل الأحجار وحمل اللبن فابتنوا مدينتي (فيتوم) (ورعمسيس) وفيتوم هذه هي المسماة في الآثار باسم بيتوم (ورعمسيس مدينة حصينة واقعة بين مصر وفلسطين). وكان أولئك الرؤساء لا يألون جهداً في تعذيبهم وإيذائهم فقد وجد منقوشاً على جدران هيكل طيبة الصغير من قول أولئك الرؤساء للعمال من بني إسرائيل وذلك في عصر توتوميس الثالث

(ها هي العصا بيدنا فلا تكونوا متوانين). قال أصحاب التاريخ: وقد اشتدت عليهم وطأة العذاب في أيام رمسيس الثاني إذ لم يكن ثمة ما يشغله عنهم بسبب المعاهدة التي تمت بينه وبين أمير الحيثيين بالكف عن الحرب والقتال، فوجه عنايته إلى بناء المعابد وإنشاء العمارات الجسيمة والأبنية الضخمة بعمال من الإسرائيليين فكان فريق منهم للبناء وفريق للحرث وفريق للأعمال الدنيئة، ومن لم يقدر على عمل شيء فعليه الجزية، وقد وجد مكتوباً على ورقة البردي الموجودة الآن بمتحف لوندرة عاصمة الإنجليز ما ترجمته:

إن جلالة الملك رمسيس شيد لنفسه مدينة تدعى رعمسيس حصينة الموقع بين مصر وفلسطين مملوءة بالخيرات العظيمة ورسمها كرسم (أون) يعني أرمنت وستبقى أكثر من منف وتشرق الشمس في أفقها وتغرب فيها وتهجر الناس مواطنها لتسكنها فهيكل (أمون) غربيها وهيكل (سوتنح) جنوبيها وهيكل (استرته) شرقيها والآلهة (بوتو) في شمالها والمدينة بينهم كأنها أفق السماء وفيها (رمسيس) كأنه معبودها فهو ملك كالشمس بين الأمراء لم تكن لمصر لذة إلا به وهو مثل (توم) من حيث حُسن الإدارة، كيف لا وقد خضعت له الأرض. اهـ.

قالوا: ولما أتم عمال الإسرائيليين بناء المدينة المذكورة فرح بها رمسيس فرحاً عظيماً وأولم فيها وليمة حضرها كاتب من المصريين اسمه (بنيتا) فكتب في ذلك إلى رئيس له اسمه (أمنم أبت) يقول ، قد دخلت مدينة رعمسيس فوجدتها في أحسن حال وهي جميلة ليس لها في الحقيقة مثيل في عمارات طيبة ولا في جبل السلسلة الذي هو محل النعيم حيث ترى حقولها مملوءة في كل آن بالمغروس والمأكول وحيضانها مشحونة بالأسماك وغدرانها ترفرف عليها سائر أشكال الطيور المائية ومروجها مخضرة بالحشائش الأنيقة إلى أن قال: وميناها غاصة بالسفن والشواني المشحونة بالخيرات الكثيرة من المأكولات على اختلاف أنواعها تأتي إليها في كل يوم، وإذا نزل بها مقيم سره وانشرح صدره إذ لا رقيب فيها ولا معارض بل يستوي فيها الصغير والكبير إلى أن قال: وفيها جواري الملك الحسان واقفات على أبوابها والفرح يعم سائر أرجائها بلا مكدر لصفوه، عشت يارمسيس في صحة وعافية، ومع ما كان فيه بنو إسرائيل من الذل والحيف كانوا في نماء وازدياد عظيمين حتى خاف فرعون عاقبة أمرهم وحسب لهم ألف حساب، وكان لنساء الإسرائيليين قابلتان إحداهما اسمها شفرة وثانيتهما اسمها فوه، فأرسل فرعون في طلبهما فلما تمثلتا بين

يديه. قال لهما: انظرا إذا جاء المخاض لإحدى العبرانيات ودعيت إحداكما إليها فإن ولدت ذكراً فلتقتله في الحال بلا مهل، وإن ولدت بنتا فلتبقها فلم تفعل القابلتان ذلك وخالفتا فرعون فيما أمر وأحس فرعون بذلك فأرسل في طلبهما وسألهما فقالا: إنا لم نخالف لمولانا أمراً ولكن العبرانيات أشدّ وأقوى من المصريات ولذلك يلدن قبل أن تصل إحدانا إليهنّ فتركهما فرعون ونادى في قومه أن اطرحوا كل ذكر ولدته عبرانية في النهر، فإن ولدت بنتا فاستبقوها فتطاولت أيدي الناس إلى العبرانيات وبالغوا في إيذائهن وتنكيلهن، واحتاطت بهن العيون والأرصاد فكانت شدّة عظيمة للغاية ، واتفق في هذا الحين أن تزوّج رجل من بيت لاوى بابنة من سلالة لاوي فحملت ثم ولدت ذكراً فنظرت إليه فرأته جميلاً حسن الصورة فخبأته ثلاثة أشهر، ثم خافت أن ينفضح أمرها فأخذت له سفطاً من البردي وطلته بالقار والحمرة ووضعت الصبي فيه وألقته في النهر بين الحلفاء النابتة على حافة النيل وأوقفت أخته من بعيد لترى ماذا يحل به وبينما هي على هذه الحال إذ أقبلت ابنة فرعون في وسط جواريها ووصيفاتها لتغتسل في النهر وكان بعض جواريها على مقربة من النهر فنظرن السفط في ذلك المكان فأخبرن سيدتهن بخبره فأمرت باستحضاره فأحضرنه ففتحته فرأت فيه الصبي يبكي فتأملت في وجهه وقالت: (هيه هو من أولاد العبرانيين). وخالج حبه فؤادها وعند ذلك تقدمت أخته إلى ابنة فرعون. وقالت: هل تسمح سيدتي بأن أذهب وآتي لها بمرضعة ترضعه، فقالت لها: اذهبي فذهبت أخته وعادت ومعها أم الصبي فدفعت لها ابنة فرعون الصبي. وقالت: أرضعيه ولك أجرتك فأخذته وانطلقت فرحة مسرورة بنجاته ولبثت ترضعه حتى كبر وترعرع فأتت به إلى ابنة فرعون فاتخذته لها ولداً وسمته (أوزار سيف) ومعناه كما فسره أهل العلم من المتأخرين (موسى) وجاء في التوراة أنها سمته (موسى). وقالت: إني انتشلته من الماء وعنيت بتربيته وتهذيبه وتعليمه العلوم والفلسفة المصرية حتى نبغ.

واتفق أن خرج موسى يوماً إلى حيث بنو إسرائيل يشتغلون، فرآهم وهم يقاسون العذاب ألواناً والرؤساء تسوقهم إلى العمل كالأنعام المسخرة ونظر فإذا مصري يضرب عبرانياً ضرباً شديداً فشق عليه هذا لأمر جدًا وأغضبه ونظر يمنة ويسرة. فلم ير أحدًا يخشاه فوكزه موسى فقضى عليه وواراه في الرمل وهو لا يظن أن أحدًا رآه قط وأصبح فخرج وإذا باثنين يختصمان وكان أحدهما شديداً قوياً فكاد

يبطش بالثاني فتقدّم إليه موسى. وقال له: لماذ تضرب صاحبك؟ كف عنه يرحمك الله. فقال له الرجل: ومن جعلك رئيساً وقاضياً علينا أتصرّ على قتلي كما قتلت المصري بالأمس وشاع خبر قتل المصري ونقلوه إلى فرعون فغضب وطلب موسى فلم يجده حيث خرج هارباً من ذلك اليوم إلى أرض (مدين) ولما اشتد به التعب جلس عند بئر هناك ليستريح، وكان لرجل مدين المدعو رعوئيل سبع بنات فأتين واستقين وملأن الأجران ليسقين غنم أبيهن فبينما هي على هذه الحال إذ جاء بعض الرعاة وطردوهن وأخذوا ما في الأجران من الماء فكبر هذا الأمر على موسى واستعظمه. وقام وطرد الرعاة واستردّ الأجران وسقى غنم أبيهن فلما عادت البنات إلى أبيهن. قال: ما بالكن قد رجعتن اليوم مسرعات؛ فقلن: رجل مصري عاوننا اليوم وأنقذنا من أيدي الرعاة وسقى لنا الغنم، فقال رعوئيل: ويلكن ياقاسيات اذهبن واستدعين الرجل لنشكر له صنيعه فأتين به، فأكرم رعوئيل وفادته وأنزله مكاناً رحبا وبالغ في إكرامه وقربه منه، ولبث موسى على هذه الحال أياماً كثيرة فزوّجه رعوئيل إحدى بناته المسماة حفورة فرزقه الله منها بولد فسماه (جرشوم). قال لأني ولدته وأنا في بلاد غريبة.

وما زال موسى وزوجته عند أبيها رعوئيل حتى مات فرعون الذي هو رمسيس الثاني، وقد أخذت الشدّة من بني إسرائيل مأخذها، وارتفع صراخهم إلى عنان السماء واتفق أن خرج موسى يوماً يرعى غنم حميه على عادته فسار بهم على غير التفات إلى ما وراء جبل (حوريب) وجلس هناك قليلاً، وكان على مقربة منه عليقة فنظر إليها وإذا هي تتوقد ناراً ولم تحترق، فدنا من العليقة والخوف ملء فؤاده فسمع صوتاً يناديه (موسى موسى). فقال: لبيك. فقال: لا تقترب من هنا واخلع نعليك لأن الموضع الذي أنت واقف به مقدّس، واعلم أني إله أبيك وإله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب فاشتد الخوف بموسى وستر وجهه بيديه. فقال الصوت: إني عالم بمذلة شعبي الذي بمصر وعالم بأوجاعهم وسأنقذهم من تلك العبودية وأخرجهم من تلك الأرض إلى أرض واسعة تفيض لبناً وعسلاً وسأسكنهم حيث يسكن الكنعانيون والحيثيون والأموريون والغرزيون والحوّيون واليبوسيون فاذهب إلى فرعون وأخرج شعبي من بلاده. فقال موسى: من أنا حتى أذهب إلى فرعون، ومن أنا حتى أخرج شعبك من أرض مصر؟ قال، فإذا خرجت بشعبي من أرض مصر تعبدون الله على هذا الجبل. وهذه تكون لك علامة أني مرسلك، فقال موسى:

السمع والطاعة. فإذا أتيتهم وقلت لهم إله آبائكم أرسلني إليكم. وقالوا: ما اسمه. فماذا أقول؟ فأجابه الصوت قل لهم هو (أهية شر أهية) وقد أرسلني إليكم فإذا سمعوا قولك فادخل أنت وشيوخ بني إسرائيل على فرعون وقولوا له إن الله انتقانا وأمرنا بالدخول عليك لتطلق شعبه بني إسرائيل وإني أعلم أن فرعون لا يطلق شعبي ولا يسرحه فلذلك سأضرب مصر بكل عجائبي حتى تخرجوا، فقال موسى: وكيف يصدّقني شعبك ويعمل بقولي؟ فقال له الصوت: وما تلك بيمينك؟ قال هي عصاي. قال: ألقها فألقاها؛ فإذا هي حية تسعى، فخاف موسى. فقال له الصوت: مدّ يدك وأمسك بذنبها فمدّ يده وأمسك به فعادت عصا، فنادى الصوت ياموسى: أدخل يدك في جيبك. فأدخلها ثم أخرجها. فإذا هي بيضاء مثل الثلج. فقال له: أدخلها ثانية. فأدخلها، ثم أخرجها، فعادت كما كانت. قال الصوت: فإن لم يصدّقوك بعد هاتين الآيتين فخذ ماء من النهر وصبه على الأرض فيصير في الحال دماً وسأشد أزرك بأخيك هارون وأكون لكما عوناً ونصيراً.

وانحدر موسى إلى مصر ومعه زوجته وأولاده وهارون أخوه وكان عمر موسى ثمانين سنة وعمر هارون ثلاثاً وثمانين، فلاقاهم بعض العبرانيين وفرحوا بمقدمهم وسجدوا لله شكراً حيث نظر إلى ضعفهم وما هم عليه من الذل والمسكنة وشاع الخبر بذلك فعم الفرح. وبات موسى ومن معه وأصبحوا وقد دخل هو وأخوه هارون على فرعون. وقالا له: يقول لك إله إسرائيل: أطلق شعبي ليعبدوني في البرية. فتعجب فرعون من كلامهما، وقال من أنتما ومن هو إلهكما الذي يطلب أن أطلق له بني إسرائيل عبيدي وعبيد شعبي اخسآ، ورسم للرؤساء والمسخرين بأن يشددوا على سائر العبرانيين ويضيقوا عليهم ما استطاعوا فشدّدوا وهدّدوا وساموهم الخسف فلما ضاق منهم الخناق اجتمع كبارهم ومدبرو أمرهم ووقفوا لفرعون في طريقه فلما دنا منهم صاحوا في وجهه. وقالوا: ارحم عبيدك ولا تحرقهم بنار غضبك، فلم يتلفت إليهم فعادوا وهم في أسوأ حال وإذا بموسى وهارون ينتظرانهم فكلموهما في الأمر وبكوا وانتحبوا، وقالوا لهما تضرعاً إلى الله كي يستجيب نداءنا ويرحم صراخنا فدخل موسى وهارون على فرعون، وقالا له: يقول الله إله إبراهيم وإسحق ويعقوب: إن أنت لم تطلق شعبه بني إسرائيل حاق بك وبجميع شعبك غضبه فزجرهما، وقال: ما الذي جئتما به من العجائب حتى أطلق عبيدي القائمين ببناء معابد آلهة شعبي وهياكلهم. فقال موسى لهارون: خذ عصاي وألقها أمام

فرعون ومن حوله من كبار دولته فألقاها فصارت حية تسعى فلم يحفل فرعون بما صنع موسى وهارون وأمر بالسحرة والعرّافين فحضروا. فقال: دونكم وما فعل هذا العبراني فطرح كل واحد عصاه فصارت حية تسعى فانقضت عليهن حية موسى وابتلعتهن جميعاً فغضب فرعون وأمر بإخراج موسى وهارون فأخرجوهما فعاد إليه موسى وأخوه ثانية. وقالا: يقول الرب إن لم تطلق بني إسرائيل نضرب الأرض والنهر فيتحوّل ماؤه وسائر مياه سواقيكم وآجامكم وكل مجتمعات مياهكم دما فيكون الدم في جميع أرض مصر حتى في الأخشاب والأحجار. قالا ذلك وفعلاه بحضرة فرعون وكبار دولته وجماعة السحرة والعرافين فالتفت فرعون إلى السحرة. وقال: وأنتم ماذا تقولون؟ قالوا: نفعل هاته الآية بعينها وفعلوها في الحال فاشتد عناد فرعون. وقال: لا أطلق قط ذلك الشعب النجس وكبر الأمر عليه جدّاً وجاء الناس ليستقوا من النهر فلم يقدروا لشدة نتنه فحفروا حوالي النهر وأخذوا الماء فوجدوه دماً فكانت شدة عظيمة وبعد سبعة أيام دخل موسى وهارون على فرعون وكلماه في إطلاق بني إسرائيل فلم يلتفت إليهما. فقالا له: يقول إله إسرائيل إن لم تطلق شعبي ليعبدني في البرية وأبيت ذلك فها أنا أضرب جميع قومك بالضفادع فيفيض النيل ضفادع وتنبت في الأرض وتدخل بيتك ومخدع فراشك وتصعد إلى سريرك وتدخل سائر بيوت شعبك وإلى مخابزك ومعاجنك. فقال فرعون: لا سبيل إلى ذلك فأمر موسى هارون فمدّ يده إلى النيل-ففاض في الحال ضفادع وانبثت على وجه الأرض فجاء العرافون وفعلوا كذلك واشتد إيذاء الضفادع بالناس، فاستدعى فرعون موسى وهارون. وقال لهما: اطلبا إلى إلهكما أن يرفع عنا ضفادعه فرفع موسى عينه إلى السماء ونادى الله تعالى فماتت جميعها بإذن الله فجمعوها، فكانت أكواماً كثيرة لا تكاد تدخل تحت حصر وأنتنت وظن فرعون أنه لم يبق من موجب لإطلاق بني إسرائيل، فجعل يحاول موسى وهارون ويطاولهما فمدّ هارون يده بعصا موسى وضرب بها تراب الأرض فصار كله بعوضاً، وعم كل أرض مصر فجاء العرافون ليخرجوه بسحرهم فلم يقدروا واشتد البعوض بالناس والبهائم فكانت شدته عظيمة جدّاً فلم ينكف فرعون عن عناده ولم يسرح بني إسرائيل فغضب الله على فرعون وضربه هو وقومه بضربات أخرى متتابعة؛ هي الذباب وموت الماشية والقمل، والبرد، والجراد، والظلام الدامس مدّة ثلاثة أيام، ثم موت الأبكار من ولد فرعون الجالس على كرسي عظمته حتى بكر الجارية التي تطحن على الرحى حتى

بكر البهائم أيضاً فكانت هذه الضربة خاتمة ضربات مصر؛ فقام حينئذ المصريون قومة رجل واحد على فرعون ملكهم. وقالوا له: أطلق بني إسرائيل الساعة فأطلقهم، فساروا مع موسى وهارون من مدينة رعميس نحو مدينة (سكوت). وهم زهاء ستمائة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد ومعهم شيء كثير جدًّا من الضأن والمعز والبقر فكانت مدة مقامهم بمصر مائتين وثلاثين سنة ، وقال موسى لبني إسرائيل: اذكروا أنكم خارجون من أرض مصر من بيت الذل والعبودية في شهر أبيب. وأخذ موسى وهارون جثة يوسف عليه السلام معهما ليدفناها في أرض الموعد، وسارا ببني إسرائيل وهم جيش عرمرم من سكوت إلى (ايتام) ونزلوا في طرف البرية أياماً ثم رجع بهم موسى ونزلوا أمام فم الجيروث بين مجدل والبحر أمام بعل صهيون ، وندم فرعون على ما فعل من إطلاق بني إسرائيل فنادى في جنده وكبار قومه بالمسير خلفهم وإرجاعهم وأمر فشدوا مركبته وجهزوا ستمائة مركبة حربية وعدّة وافرة من مركبات النقل وسار بها سيراً حثيثاً جداً خلف بني إسرائيل حتى أدركهم عند فم الجيروث أمام بعل صهيون عند البحر، فلما رآهم بنو إسرائيل مقبلين بخيلهم وعرباتهم فزعوا جدًّا وصرخوا إلى الله تعالى وصاحوا في وجه موسى وهارون. وقالوا: ويلكما هلا يكون في أرض مصر قبور ندفن فيها حتى أتيتما بنا إلى هنا لنموت في هذه البرية، فرفع موسى عينه إلى السماء فسمع صوتاً يقول: قل لبني إسرائيل أن يرحلوا وارفع أنت عصاك وامدد يدك بها إلى البحر وشقه فتنكشف اليابسة فاعبر البحر أنت وهم ، ففعل وباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا وكانت ريح شرقية طول الليل فيبس البحر وظهرت اليابسة فعبر بنو إسرائيل والماء سور لهم ذات اليمين وذات الشمال فتبعهم المصريون ودخلوا وراءهم بسائر مركباتهم وخيلهم فلما تم عبور الإسرائيليين مدّ موسى عصاه إلى البحر، فانهال الماء على فرعون ومن معه من كبار قومه وجنوده ومركباته، وأغرقهم جميعاً وشاهد بنو إسرائيل أجسادهم طافية على وجه الماء فصاحوا جميعاً صيحة الفرح، وجعلوا يترنمون بهذه الكلمات ، أرتل لله تعالى فإنه قد تعظم. وقد طرح الفرس وراكبه في اليم. الله ربي قوني ونشيدي قد صار خلاصي هو إلهي سبحانه فأمجده إله أبي فأرفعه وجعلوا يكثرون من مثل هذه الأغاني حتى ملأت أصواتهم البرية وأخذت مريم أخت هارون الدف بيدها، وخرجت جميع النساء وراءها يضربن بالدفوف والكاسات ويرقصن ومريم تنشدهن شيئاً من الحماسيات، ثم ارتحل موسى ببني إسرائيل من بحر سوف،

وخرجوا إلى برية شور فساروا ثلاثة أيام ولم يجدوا ماء فانقلبوا على موسى وأخيه. وقالوا: قد جئتما بنا إلى هنا فمن أين ياترى نستقي وليس أمامنا إلا تلك العين المرة، فنظر موسى إلى شجرة كانت على مقربة منهم. وقال: اطرحوا هذه الشجرة في العين. فطرحوها فصار ماؤها عذباً زلالا ففرحوا واستقوا وساروا في طريقهم حتى نزولا على (إيليم) وكان بها اثنتا عشرة عينا وسبعون نخلة فاستقوا واستراحوا أياماً ثم ارتحلوا من (إيليم) فوصلوا إلى برية (سين) الواقعة بين (إيليم) المذكورة (وسينا) في اليوم الخامس عشر من الشهر الثاني من خروجهم من أرض مصر فشق عليهم ذلك جداً وتذمروا على موسى وهارون وخاطبوهما بفحش القول وهذر الكلام. وقالوا هل جئتما بنا إلى هذا القفر لتقتلانا بالجوع، والله قد كان خيرا لنا أن نخدم المصريين ونستعبد لهم ونحن جالسون عند معاجن الخبز وقدور اللحم، فكبر هذا الأمر على موسى ونادى ربه وبكى فقيل له إني منزل عليهم في الصباح خبزا من السماء فيخرجون ويلتقطون حاجة اليوم وفي المساء لحماً فيأكلون ويستغفرون، فكان ذلك وساروا من هناك إلي (إرفيديم) فأعوزهم الماء فصاحوا في وجه موسى وهارون وقالوا: ارجعا بنا إلى أرض مصر فإنه خير لنا أن نموت عبيداً لأهلها من أن نموت في هذه البرية عطشاً فغضب موسى. وقال: ويلكم إلى كم تغلظون في القول. وإلى متى تعنفونني؟ ونظر إلى السماء وبكى فناداه الصوت أن خذ عصاك التي ضربت بها البحر وخذ معك جماعة من شيوخ بني إسرائيل وسر بهم إلى حوريب واضرب الصخرة التي هناك بعصاك تلك فينفجر منها الماء فسار موسى ومعه الشيوخ إلى حوريب وضرب الصخرة بعصاه فانفجر منها الماء فاستقى بنو إسرائيل وسائر دوابهم وشكروا ودعوا ذلك المكان باسم (مسة ومريسة) ثم سار بهم موسى وهارون حتى جاءوا برية سينا وحطوا رحالهم أمام الجبل، ونادى الصوت موسى وهارون أن اصعدا إلى الجبل واقتحماه فصعدا فأنزل الله تعالى على موسى العشر كلمات شريعة يقضي بها. ولبث موسى يصعد إلى سينا وينحدر منه إلى بني إسرائيل بوصايا الله تعالى وشريعته التي سنها لهم حتى ناداه الصوت يوماً: أن اصعد ياموسى إلى الجبل فأعطيك لوحي الحجارة والشريعة والوصية التي كتبتها لشعبي بني إسرائيل، فقام موسى لساعته وودع شيوخ بني إسرائيل. وقال لهم: إني مستخلف فيكم هارون (وحور). فمن كانت له ظلامة فليتقدم إليهما، وصعد إلى الجبل فغشيه السحاب وكانت نار آكلة تتأجج في وسط الجبل وبنو إسرائيل ينظرون

إلى ذلك وهم وجلون فأقام موسى فوق الجبل أربعين يوماً وأربعين ليلة.

ولما أبطأ موسى ولم ينزل هاج بنو إسرائيل وماجوا وملوا من المقام في البرية فقاموا على هارون وصاحوا في وجهه. وقالوا: قم واصنع لنا إلهاً يسير أمامنا؛ فإننا مللنا المقام في هذا المكان القفر أما موسى الذي أخرجنا من أرض مصر وجاء بنا إلى هنا فلا ندري ما فعل الله به فوعدهم فملوا من الوعد وذهبوا إلى السامري، فقال: ائتوني بالذي عند نسائكم وبناتكم من الحلي فأصنع لكم منه إلهاً. فأتوه بجميع ما عند نسائهم وبناتهم من الذهب فصنع لهم عجلاً على أحسن ما يكون فلما نظروه صاحوا. وقالوا: (هذا إلهكم يابني إسرائيل الذي أخرجكم من أرض مصر). وبنى لهم مذبحاً ونادى فيهم بأن تقربوا إلى إلهكم في الغد بما شئتم، ففرحوا وأكلوا وشربوا ليلتهم تلك وأصبحوا وقد اجتمعوا حول العجل يرقصون ويطربون ويغنون الأناشيد. وإذا بموسى قد انحدر من الجبل وألواح الشهادة في يده فلما اقترب من المحلة وأبصر العجل والناس من حوله يرقصون ويغنون اشتد به الغيظ والحنق وألقى ألواح الشهادة إلى الأرض فانكسرت، وانقض على العجل فنزعه وأوقد ناراً عظيمة وطرح فيها العجل ثم حرقه ثم نسفه في اليم نسفاً وكان بنو إسرائيل يستقون منه وأكرههم على شربه جزاء مخالفتهم فشربوه وهم صاغرون وغضب الله على بني إسرائيل، ونادى الصوت: ياموسى. قل لهذا الشعب قاسي القلب إنهم لا يدخلون الأرض المقدسة بل يلبثون أربعين سنة في هذه البرية ويموتون جميعاً فلا يدخلها إلا أولادهم وأحفادهم. فبكى موسى وتضرع إلى الله تعالى أن يرحم شعبه بني إسرائيل وأن لا يجازيه حسب عمله فناداه الصوت ثانية قائلاً: وأنت ياموسى لا تدخلها أيضاً أي لا تدخل تلك الأرض بل تراها من بعيد ثم تموت فاشتد بكاء موسى وشاع الخبر بين القوم فبكوا بكاء مرا ، لكن قد نفذ القدر المقدور ، وأقام بنو إسرائيل في تلك البرية أربعين عاماً حتى مات سائر من خرجوا مع موسى وهارون من أرض مصر. ولم يبق منهم أحد. وما أصابهم مما هو مذكور في التوراة لا حاجة إلى إيراده هنا.

أما مؤرخو اليونان فإنهم لم يأتوا على ذكر شيء مما جاءت به الكتب السماوية بشأن هذا الحادث وجميعهم يؤوّلُ انفلاق البحر لعبور بني إسرائيل بحادثتي المد والجزر وينكرون غرق فرعون موسى ويقولون إنه لم يكن من موجب لذلك أي لاضطهاد بني إسرائيل إلا انضمامهم مع من بقى من طوائف الملوك الرعاة وخلودهم

إلى شق عصا الطاعة فضرب ملوك مصر عليهم الاسترقاق والاستعباد كي لا يستطيعوا مد يد المساعدة إلى أهل الحجاز والشام الذين كانوا كثيري الإغارة على ديار مصر (قلت): وهذا القول بعيد لأن نزول بني إسرائيل على أرض مصر كان بعد طرد طوائف الملوك الرعاة من البلاد وجلائهم عنها وظهور العائلة الثامنة عشرة المتأصلة. قال مانيطون المؤرخ في كتابه بعد كلام، وعاش يوسف بمدينة منف وتسلط على سائر البلاد في أيام أعظم وأقدر فراعنة المملكة الجديدة يعنى طوطمس الذي تولى الملك بعد نفي الرعاة، ومما يدل على صحة ذلك ما جاء في التوراة أيضاً من قول يوسف لإخوته عند حضورهم إليه بمصر ، يكون إذا دعا كم فرعون وقال ما صناعتكم أن تقولوا عبيدك أهل مواش منذ صبانا إلى الآن نحن وآباؤنا جميعاً لتسكنوا في أرض جاسان لأن كل راعي غنم رجس عند المصريين . اهـ. وقال بعض الكتاب أيضاً ، قد دلت الآثار على أن السعاة وحملة الرسائل كانوا من الكنعانيين فاستغاثوا وابتهلوا إلى الله تعالى، فأرسل إليهم موسى وأخاه هارون فذهب موسى إلى فرعون بآيات مذكورة في التوراة فخاف فرعون وأطلق بني إسرائيل فساروا من مدينة(رعمسيس) حتى أتوا مدينة (سوكوت). وكانوا ستمائة ألف رجل غير الأطفال وسار معهم أيضاً عدّة كثيرة جدًا من الطوائف الأخر الذين كانوا في أسر المصريين ومنهم الفينيقيون وقد نزلوا (بارام) التي في آخر الصحراء وأمر الله تعالى موسى أن ينزل بهم أمام فم خروث التي بين مجدل والبحر أمام بعل صفون وأن يسير موسى أمامهم قريباً من البحر الأحمر وينزل هناك ففعل ، وندم فرعون على إطلاق بني إسرائيل فجمع فرسانه وجنوده وتبعهم ليرجعهم إلى أرض مصر، فأمر الله موسى أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق وعبروا جميعاً على اليابسة حتى صعدوا إلى الشاطىء الثاني فأتبعهم فرعون وجنوده فغطاهم الماء وغرقوا جميعاً ، ولما عبر موسى البحر سار بأسباطه من طريق الصحراء بين مجدل والبحر. فكان طريقهم على أطراف بلاد العرب شرقي بلاد مصر والبحر الأحمر ولم يمروا بأرض فلسطين شرقاً خوفاً من جنود الحيثيين أن تردّهم إلى أرض مصر قياماً بالعهد الذي كان بين ختاسار ملك الحيثيين (ورسيس) الأكبر ملك مصر وهو ردّ كل من أتى من رعايا أحدهما إلى بلاد الآخر ، وتاه بنو إسرائيل في البرية أربعين سنة عقاباً لهم على مخالفة وصايا الله تعالى كما جاءت به الكتب المقدسة ولم يدخل أرض كنعان أحد منهم سوى يوشع بن نون كما أمره الله مع أن مسافة الطريق فى البرية إلى أرض كنعان ليست إلا اثنتى عشرة مرحلة ودخلها بعدهم أولادهم أما موسى فقد أراه الله سبحانه إياها من جبل (تبو) ثم مات، ولم يعلم للآن مكان قبره.

وقال يوسوفوس المؤرخ غير ذلك. وقال آخرون: إن خروج بني إسرائيل كان في أيام الملكة طوسير بنت الملك منفطة الثاني كما سيأتي بيانه في محله.

(في الملكة طوسير بنت منفطة الثاني)

(وأخيها الملك منفطة الثالث)

(الملقب أيضاً)

(أوسر خبرورع ميامون)

تولت هذه الملكة حكم البلاد بعد أبيها منفطة الثاني، وكانت متزوّجة بعظيم يسمى حفطا منفطة. ويقال له أيضاً فرعون تبعاً لها وكانت ولايتها قبل أخيها لصغره ولذلك كان زوجها المذكور يدبر الملك بالنيابة عنها، وطالت مدتها مع أخيها منفطة الثالث فكانت تسع عشرة سنة، قال بعض أصحاب التاريخ، وفي أيام الملكة طوسير كان خروج بني إسرائيل من أرض مصر، وقال يوسوفوس عن مانيتون الكاهن المصري في خروج بني إسرائيل أنه لما كان الملك أمنوفيس، قال صاحب العقد الثمين ولعله منفطس، يحب أن يرى المعبودات تتجلى له كما كانت تتجلى على الملك (حوريس) أحد أجداده سأل في ذلك أحد المكاشفين ورغب إليه أن يعلمه كيف يصل إلى هذه المرتبة. فقال له: إنك لن ترى إلهك عياناً حتى تطهر الديار من جميع المجذومين وأصحاب الدناسة، فجمع (أمنوفيس) الملك من هؤلاء ثمانين ألفاً وهم من الإسرائيليين ووضعهم في محاجر طرا وبينهم طائفة من الكهنة فأثار هؤلاء القوم غيظ المعبودات فخاف ذلك المكاشف شر العاقبة وكتب نبأ في صك يقول فيه: إن هؤلاء القوم، يريد اليهود، سيتعاهدون مع قوم آخرين ويملكون مصر مدة ثلاث عشرة سنة وبعد أن كتب ذلك قتل نفسه فلما علم الملك (أمنوفيس) بمقالة ذلك المكاشف لم يلتفت إليها ونقل أصحاب الدناسة إلى مدينة (أواريس) ليقيموا بها وكانت قد تخربت وتداعت إلى السقوط من أيام العمالقة فلما سكنوها واستقر بهم المقام تألفت منهم طائفة فكان على رأسها مقدم ديانتهم المسمى أوزار سيف المقيم بالمطرية. قال صاحب العقد الثمين، وقد فسره أهل العلم من الأوروباويين بموسى، فجعل لهم قوانين مخالفة للعوائد المصرية وأعدهم للحرب وتعاقد مع من بقى من العمالقة المتوطنين من أجيال بالشام فهاجموا مصر سوية وملكوها بغير قتال فعند ذلك تذكر الملك (أمنوفيس) ما قاله ذلك المكاشف وخاف وجمع الأصنام وهرب بها إلى بلاد الايتيوبيا ومعه جيشه وكثير من المصريين فعاث العمالقة واليهود في البلاد

وأفسدوا في الأرض وأساءوا إلى أهلها وشددوا عليهم وضيقوا وحرّقوا المدن والقرى ونهبوا المعابد وكسروا الأصنام وأكلوا الحيوانات التي كان المصريون يعبدونها وألزموا الكهنة من المصريين بذبحها وتقطيعها وإلقائها في الطرق وبينما هم على هذه الحال إذ عاد (أمنوفيس) من بلاد الايتيوبيا بجيش عظيم ورجع أيضاً ابنه (رمسيس) بجيش آخر وهجموا على العمالقة واليهود فانتصروا عليهم وقتلوا منهم عدة كبيرة، واقتفوا أثرهم حتى أدخلوهم أرض الشام . اهـ.

أما مؤرخو العرب فقد قالوا: إن خروج بني إسرائيل وغرق فرعون مصر كانا في أيام هذه الملكة وقد سموها باسم (دلوكة بنت ذبا) وقد ذكر المقريزي في خططه ما نصه ، قال ابن عبد الحكم: لما أغرق الله آل فرعون بقيت مصر بعد غرقهم ليس فيها من أشراف أهلها أحد ولم يبق بها إلا العبيد والأحرار والنساء فاتفق من بمصر من النساء أن يولين منهن واحدة وأجمع رأيهن أن يولين امرأة منهن يقال لها (دلوكة بنت ذبا) وكان لها عقل ومعرفة وتجارب وكانت في شرف منهن وموضع وهي يومئذ بنت مائة وستين سنة فخافت أن يتناولها الملوك فجمعت نساء الأشراف. وقالت لهن: إن بلادنا لم يكن قبلاً يطمع فيها أحد ولا يمد عينه إليها وقد هلك أكابرنا وأشرافنا وقد ذهب السحرة الذين كنا نقوى بهم وقد رأيت أن أبني حصناً أحدق به جميع بلادنا فاضع عليه المحارس من كل ناحية فإنا لا نأمن أن يطمع فينا الناس فبنت جداراً أحاطت به على جميع أرض مصر كلها المزارع والمدائن والقرى وجعلت دونه خليجاً يجري فيه الماء وأقامت القناطر والترع وجعلت فيه محارس على كل ثلاثة أميال محرس ومسلحة فيما بين ذلك محارس صغار على كل ميل وجعلت على كل محرس رجالاً وأجرت عليهم الأرزاق وأمرتهم أن يحرسوا بالأجراس فإذا أتاهم آت يخافونه ضرب بعضهم إلى بعض الأجراس فيأتيهم الخبر من أي وجه كان في ساعة واحدة، فنظروا في ذلك فمنعت بذلك مصر ممن أرادها وفرغت من بنائه في ستة أشهر وهو الجدار الذي يقال له جدار العجوز بمصر وقد بقيت بالصعيد منه بقايا كثيرة فملكتهم ثلاثين سنة. اهـ. قلت فليتأمل «أما أخوها الملك منفطة الثالث فقد كان كثير التعبد للأصنام المصرية شديد الخضوع إليهم وله إغداقات كثيرة على الهياكل والمعابد وأهدى إليها تحفاً كثيرة جدّاً وقد أنشأ هيكلاً خصوصيا لمعبوده (أمون) في هيكل الكرنك وعمل له قسيسو مدينة طيبة في هذا الهيكل القاعدة الصغيرة التي هي بالحوش الأول تذكارا لاسمه. قال صاحب العقد الثمين: وكتبوا عليها أن (لوى) رئيس كهنة معبد (أمون) كان هو وابنه وخليفته محبين للملك ولكهنة (أمون) . اهـ.

وبنى لنفسه مقبرة عظيمة في بيبان الملـوك كتب عليها القسيسون أنه حكم جميع بلاد مصر وساسها، وقد حصل في أيامه الخلل وكثرت الاختلافات الداخلية وفشت الأغراض وخـرج عليه بعض الرعيـة وادعى بعضهم الرئاسة وانـتحل لنفسه حـقوق الكهونية والوراثة لملك مصر، وكـان ممن خرج رجل اسمه (أمنحبس) وادعى أنه ابن (رمسيس) الأكـبر وكان مولده في مدينة (خب) وأخذ يـنازع منفطة الثالث في الأمر وما زال حتى مـات منفطة الثالث فكانت مدة حكمـه بالاشتراك مع أختـه (طوسير) مدة واحدة قـدرها على ما قاله أهل التاريخ تسع عـشرة سنة وستة أشهـر فلما مات تولى بعده (أمـنحبس) المذكور وتسلق عـرش الملك اختـلاساً فحكم مـصر وجـميع ملحقاتها وأشاع أن المعبودة (إزيس) قـد اختارته من مدينته (خب) التي هي من قسم (أفرو وميتـوبوليس) وجعلته حاكماً على الأرض وكان مـتزوّجاً بامرأة تدعي (باكت أورنور) فلم يستقر بـه المنصب حتى عم الخلل جميع البلاد وأقامت فـيها الفوضى، واشتدت ووردها الأجـانب وتمكنوا منها ورسخت قدمـهم في جوفها فعـاملوا أهلها بالقسوة والجـفاء والغلظة حتى كادت ترحل أهل البلاد وتنزح إلى غـيرها من البلاد الأخرى. وما زال الحال هكذا حتى مات (أمنحبس) المذكور، ومحي بموته اسمه من جميع الهـياكل والآثار لكونه ليس من بيت الملك وفي أيامه ظهر (سـبتاح) من بيت الملك القديم ونازع (أمنحبس) الملك أياماً كثيـرة وما زال ينازعه حتى هم إلى معاونة (سبتاح) المذكور الوزير (بابي) وانضمت إليه زوجة (سبتاح) المسماة (توسرت) فتم له ذلك وارتقى المنصب بعنايتهما.

(في الملك سبتاح)

لما كثـرت الفتن والإرهاصات الداخليـة وعم الاختـلال وانتشرت الـفوضى في البلاد واستقـل كل رئيس بحكم جهة مخصوصـة نهض الوزير المسمى (بابي) واتحد مع (توسرت) زوجة (سبتاح) المذكور على تولية (سبتاح) ملكاً على مصر فعملا وما زالا يعمـلان حتى تم (لسبـتاح) الأمر، واسـتقل لملك مصـر. قال صاحب العـقد الثمين: ولذا قال هذا الوزير إني أزلت البـاطل وأظهرت الحق لكوني أجلست الملك (سبـتاح) على تخت والده. اهـ. ولما استقـر به المنصب أقام وزيره المسمى (سـيتي) حاكماً على بلاد (كوش) وقلده أيضاً مناصب أخرى عالية. وأجله وقربه عنده زلفى ولم يقدر (سبـتاح) المذكور على إعادة الراحـة في داخلية البلاد (إلى سـابق مجراها ولا ردع أهل البغي والفساد والخوارج الذين ظـهروا في داخلية البلاد) بل ظل الحال على ما هو عليه من الخلل والارتبـاك حتى مات فبقيت مـصر في يد هؤلاء الخوارج

زمناً طويلاً لم يتكلم أصحاب التاريخ عنه بشيء إلى أن نهض من أمراء هذه العائلة (اريزو الفنديقي) واستقل بالملك فعاث وأفسد وقهر أهل البلاد وأذلهم وأساءهم وطالت أيامه حتى ظهر آخر اسمه (سيتنخت) فقام على اريزو الفنديقي المذكور وخلعه وطرده من البلاد واستقل هو بالملك. قال صاحب العقد الثمين: ويرى اسم الملك (رعمسوسبتاح) منقوشاً مرتين في خانة ملوكية داخل الهيكل الذي شيدته زوجته (توسرت) فالمرة الأولى تجده في باب الهيكل والثانية في داخل الهيكل المذكور منزوياً في المكان الذي نقشت فيه زوجته اسمها وقد شيد لنفسه قبراً في ببيان الملوك كتب عليه أسماءه ولكنها محيت منه . اهـ.

(في الملك سيتنخت)

لما استقر بالملك (سيتنخت) المنصب نهض إلى قتال الأغراب الذين عاثوا في البلاد وأفسدوها ومزقوا هيبتها فردعهم وأرغم من قام من أهل البلاد ينازعه الملك وأخضعه وسعى جهد الاستطاعة في إرجاع الأمور إلى ما كانت عليه بعد أن اختل نظامها في أيام الملك (أمنحبس) إلى أيام (سيتنخت) هذا. قال صاحب العقد الثمين: ومما يؤيد صحة ما كان حاصلاً من الاختلال والاضطراب في مدة الملوك الثلاثة السابقين وهم (امنحبس)، (وسبتاح)، (وسيتنخت) ما ورد في ورقة (هارميس) من النصوص المقولة على لسان رمسيس الثالث في مبدأ حكمه حيث بين فيها حال تلك المدة الوخيمة بالألفاظ المعربة الآتية:

(قال الملك رمسيس الثالث) المقدس الأكبر لأمراء ورؤساء البلاد والجنود والمشاة وجنود العربات الحربية والسردانيين ولكثير من العساكر الأجنبية وغيرهم من السكان المقيمين في ديار مصر اسمعوا مقالتي فإني سأعلمكم بحسن سيرتي ، لما صرت ملكاً على البلاد وكانت أهل مصر منفية بالجهات الخارجة ولم يكن للمقيم فيها اعتبار ومضى على ذلك زمن طويل وتداولت الأيام ومصر في أيدي رؤساء أجنبية، وكان أحدهم يقتل الآخر بدون مراعاة الشريف والحقير ثم بعد هذا الاختلال بمدة ظهر (الفنديقي اريزو) أحد هؤلاء الرؤساء واختلس الملك لنفسه وألزم جميع الأمم بدفع الجزية له وكانت رفقاؤه تنهب كل ما أدّخره الناس لأنفسهم وهكذا كانوا يفعلون وعاملوا المعبودات كالناس ومنعوا عنهم قرابينهم المعتادة ولكن المعبودات أصلحوا الأمور وأوجدوا العدل في المملكة وتكرموا بتحسين الحال وإزالة الأهوال وجعلوا (سيتنخت مرمايون) ملكاً على جميع المملكة (وأجلسوه فوق التخت المنيف

فكان إذا غضب يشبه (ست) واعتنى بكافة المملكة) وقتل كل من ثبت عليه قتل نفس أو ذنب وبذلك ظهر تخت مصر المنيف من أهل الجرائم وحكم أهلها فوق تخت الشمس (توم) المعبودة لهم واستقبلها بوجهه وكان يبني الحائط على كل من لم يظهر لصاحبه الصحبة والأخوّة ونظم المعابد وأعطى المعبودات مرتباتهم من القرابين حسب مربوط قوانينهم وأورثني الحكم في أرض مصر وجعلني حاكماً على جميع ملحقاتها لأقوم بأمر الأمة التي التأمت ثانياً ثم توفي وظهر من دائرة نوره كالأجسام السماوية فعملوا له الرسوم المعتادة لدفن الأموات وشيعت جنازته في النهر على سفينة ملوكية ثم وضعوه في جدثه الأزلي غربي طيبة وبعد ذلك جعلني أبي (أمون) وأعظم المعبودات (رع)، (وبتاح) ذوي السماحة ملكاً على تخت والدي فتقلدت رتبته مع غاية المسرة وفرحت الناس وانشرحت مما حصل لهم من مزيد سرورهم وقروا عينا لما تطروني ملكاً على مصر حيث إني أشابه (حور) ملكها حين كان فوق تخت (أزوريس) وتتوجت بتاج (أتف) وبتاج الثعبان وتزينت بالريشتين كالمعبود (تاتانن) وهكذا كان ارتقائي على تخت (حورمخي) وتزييني بملابس الفخار مثل (توم) . اهـ. بنصه.

وبموت الملك (سيتنخت) هذا انقطعت مدة حكم الدولة التاسعة عشرة على ما قاله جماعة من الكتاب فإنهم عدّوه آخر ملوكها، وبعضهم يقول غير ذلك، فكانت مدة حكم هذه الدولة على المشهور من أقوال أصحاب التاريخ مائة وأربعاً وسبعين سنة وقامت بعدها الدولة المكملة للعشرين وأولها الملك رمسيس الثالث ابن (سيتنخت) المذكور.

(الفصل الثالث)

(في ملوك الدولة المتممة للعشرين الطيبوية)

كان مبدأ ظهور هذه العائلة سنة ثمان وثمانين ومائتين وألف قبل الميلاد أي سنة عشر وتسعمائة وألف قبل الهجرة، وعدد ملوكها اثنا عشر ملكاً وسنو ملكهم مائة وثمان وسبعون سنة وقيل غير ذلك. وأول ملوكها من نسل ملوك العائلة التي قبلها. قال أهل التاريخ وقد كان لفظ الدولة عند قدماء المصريين غير المعنى المعهود منها في اصطلاح المتأخرين وإنما كانت عندهم بمعنى آخر كالعصابة أو الفرع مثلاً قالوا: والعائلة هي التي تحكم مدة خاصة في بلد خاصة حكومة متميزة وإن لم تختلف السلالة ولأخرجت الحكومة عن السلسلة الملوكية وأول من ملك منهم رمسيس الثالث الآتي الكلام عليه.

(في الملك رمسيس الثالث)

(الملقب)

(رع أوسر ماميامون)

كان أول ملوك هذه الدولة الملك رمسيس الثالث ويسمى رمسيس الميمون يعني عبد شمس ويقال له أيضاً سيطوس الأول وإنما سمى باسم رمسيس الثالث تفاؤلاً بهذا الاسم وافتخارا إذ أن رمسيس الأكبر جعل لهذا الاسم كبير اعتبار ومزيد افتخار، وقد تلقب به من أتى بعده من الملوك حتى أن هذه الدولة أي المكملة للعشرين سميت بالدولة الرمسيسية ورمسيس الثالث هذا آخر مشاهير ملوك مصر وكان قبل موت والده (سيتنخت) شريكاً له في حكم البلاد وتدبير أمورها فلما آل إليه الملك كبر اهتمامه بأمور المملكة وحفظ حدودها وملحقاتها واعتنى بتنظيم داخليتها، وكان شجاعاً عالي الهمة محارباً ولم يستقر به المنصب حتى قامت عليه قائمة الحروب والفتن وخرج أهل البادية فهددوا معاقل إقليم مصر المعروف بالدلتا وأذلوا العملة الذين كانوا بطور سينا لاستخراج المعادن، وزحف على ديار مصر طائفة عظيمة من الليبيين من جهة الشرق برئاسه أربعة وهم (ديد ومشاكن وصمار وصا وتمار) وانضم إليهم طوائف (التهانو)، (وتماحو)، (وكحاك) وقبائل أخرى ممن يجاورهم وقد ساروا من سهول صحراء ليبيا وما زالوا حتى احتلوا قسم مريوط وقسم صان ومصابّ النيل إلى فرعه الأكبر وانتشروا وشغلوا جزء الدلتا الغربي من مدينة (كريانا) إلى آخر حدود مصر الشرقية، ومنها إلى ضواحي منف من الجهة القبلية، فقام عليهم الملك رمسيس. وقاتلهم قتالاً شديداً مبتدئا بأهل البادية فهزمهم وانتصر عليهم نصرا مبيناً حتى أبادهم ولم يبق منهم إلا القليل ثم طارد الليبيين الذين هم أهل برقة ومن معهم من بقية الطوائف في السنة الخامسة من حكمه فهزمهم شر هزيمة فانحاز بعضهم إليه فأدخلهم في جيوشه المعدّة للإمداد وتتابعت نصراته عليهم حتى أدخلهم تحت الطاعة وأذلهم وكسر شوكتهم وأزال بأسهم.

قال صاحب العقد الثمين: وهذه الواقعة منقوشة في خمسين سطراً على جدران مدينة (آبو) بطيبة تركنا من أولها ستة عشر سطراً لعدم فائدتها لنا ولنذكر ههنا من السطر السابع عشر إلى آخرها نقلاً عن (شباس) وهذا نصها.

(الملك رمسيس الثالث) ذبح سكان بلاد السهول والجبال وأبادهم وأخذهم إلى مصر أساري متواضعين أمام معبوداتها وأشبع الجائع بالمؤنة الوافرة التي غمر بها

إقليمي الصعيد والبحيرة وبث الفرح في أهل مملكته على الدوام كيف لا وهو الذي أجلسه المعبود (أمون) على تخت مصر وجعل غالب ما تطلع عليه الشمس في قبضة يده. ثم إن أهل آسية وبلاد (تهانو) اللصوص أهل الدناءة عصوا وفعلوا أفعالاً قبيحة في مصر وشنوا غارة العصيان عليها مدّة الملوك السالفة: ونهبوا أمتعة المعبودات وأموال الناس، ولم يردعهم أحد منذ عصيانهم. فلما ظهر هذا الشاب الهمام وثب عليهم كالأسد ذي المخلب القاتل وهجم عليهم كالمعبود (نهى) أعني (هرمس) حتى أبطل كلامهم الذي هددوا به أهل مصر وأثبت كلامه عليهم وسرت إلى جنوده قوّة حميته، فظهروا كالثيران المستعدة للهجوم على المعز وكانت خيالته تهجم عليهم كالصقر إذا انقض على الطيور الصغيرة ولهم زئير كالسباع الهائمة من الغيظ، وكانت ضباطه شديدة البطش لا تقاوم كأنهم المعبود (رسپ) ينظرون الألوف من الناس صغيرة كحدقة العين، ولقد كانوا في قوتهم مثل (مونت) الذي اسمه ميزان العدل يخافه جميع بلاد السهول والجبال، وبعد ذلك اجتمع أيضاً لقتاله (الليبيون ... والمشواشيون) المعروفون قديماً (بتماحو) واعتمد جنودهم على رأي رؤسائهم المهيج لقلوبهم ووافق أفكارهم هذا الرأي فقالوا هلم بنا نسكر ونشبع من خمر الحمية إلا أنهم خابت آمالهم ولم ينالوا مقاصدهم لعدم استحسان هذا الرأي لدى المعبود (أمون) حيث لم يستجب دعاء رئيسهم لكونه معبوداً محسناً عالماً بالهدى والضلال سلطان المعبودات الذي أقام رمسيس رئيساً على مصر وجعل بيده القوّة والنصر حتى صار بدعوات الأمم له ملكاً ذا دولة عظيمة بفطنة وذكاء كالمعبود (هرمس) ولما ظهر لهذا الملك ما كمن في قلوب (تماحو) ذوي القلوب الصغيرة من سوء مقاصدهم تغلب عليهم فخضعوا لسيفه وتفصيل ذلك (انهم اجتمعوا) عند رئيسهم وأصروا على سلب بعض أراض من مصر فتعجب المصريون. وقالوا: كيف ينالونها مع كونهم لم يسمعوا قولاً يشبه ذلك في مدّة الملوك السالفة فلما سمع الملك رمسيس كلام الأعداء هاج قلبه واضطرب وهمّ باستئصالهم بسيفه المنصور، فرعبوا منه كالمعز إذا هجم عليها ثور ووطئها برجليه وضربها بقرنيه وزعزع الجبال واقتفى أثر من قرب إليه. كيف لا وقد منحته المعبودات في حضرتهم ما يليق به من القوّة فكان إذا اخترقت جماعة حدوده هجم عليهم كالنار المحرقة إذا انتشرت في الحشائش فيصيرون كالأوز المأخوذ من شبكة للتقطيع والشيّ، ولذلك تساقط منه أولئك الأعداء عند هجومه عليهم رمما مضرجة بدمائها تساقطا هائلاً ولم يمكنهم من شيء سوى مشاهدة ذنوبهم كبيرة بينهم كالجبال الشامخة بل جردوا في الميدان من أسلحتهم

وتراكمت على الأرض أمواتهم بشهامة الملك المنصور صاحب السيف والقوّة (رعمسيس الثالث) المماثل (لمونت) وأحضر معه من هذه الواقعة لمصر أيديا وأحاليل مقطوعة وأسرى لا تحصى مسلسلة في الأغلال منقادة، واجتمع في هذا الوقت رؤساء هؤلاء الأمم المأسورة لينظروا فضيحتهم، أما الملك فقد سارت معه أعيان دولته الذين هم من درجة الثلاثين نحو المعبود (أمون رع) باسطين أيديهم إلى السماء منادين نداء السرور مع امتلاء قلوبهم بمحبة الملك قائلين: أيها المعبود قد وجب علينا مدح شهامة الملك رمسيس الذي حضرت لديه جميع رؤساء الدنيا وقلوبهم مرتجفة ومختطفة وغير مستقرة في صدورهم شاخصين إلى هذا الملك الشبيه (بتوم) ملك كسر في حكمه أصلاب (تماحو) الذين زحفوا على حدود مصره ودمروا الأرض وجعل قواد فرسانهم فرقاً تحت تصرفه ولقبهم باسمه هذا ما حصل مع (تماحو) الذين بدءوا بالعدوان على مصر من غير أن يقفوا على حالها وجلبوا معهم المشواشين كالسيل ورحلوا من وطنهم فهلكت مزارعهم وتلفت وشلت أعضاؤهم من الفزع وعجزت وصاروا يقولون لقد انقصمت في بلاد مصر ظهورنا وأذل إلى الأبد ملكها نفوسنا والمصريون يقولون ياحسرة عليهم إنهم يرون رقصهم تبدّل بذبح والمعبودة (سخت) المصرية في أثرهم والفزع لاحق بهم فازداد عند ذلك تأسف الأعداء. وقالوا: هزمنا من غير مقاتلة فرسانهم لنا في ميدان القتال فلا نمشي في الطريق التي يمشي الناس فيها بل نخوض الماء حياء منهم، ولقد ألمّ بنا الخراب من ملكهم إذ كان كالنار علينا كل مرة أراد قتالنا واختطفتنا رجاله حين قربنا إليهم ولم نجد لنا سبيلاً إلى النجاة منهم، ولما أراد رئيسهم رمسيس الشبيه (بست) الهجوم علينا كالسبع ذي المخلب واتبعنا ليقتلنا اضطرنا إلى القهقري دائماً والبعد عن مصره فأوجاعنا أعظم من الموت وسرت فينا النار فلا نزرع أبداً ولقد أراد رؤساؤنا (ديد ـ ومشاكن ـ ومرايو ـ وصماور ـ وصاوتمار) الذين كانوا أكبر المهيجين لنا مع الليبيين إضرام اللهيب في مصر من أولها إلى آخرها، ولكن سخطت علينا المعبودات لأننا نهبنا هياكلهم وأراضيهم فالتزمنا بالخضوع لسيف مصر ذي البسالة العظمى أليس هو الذي أعطته الشمس قوة النصر فشابهها وقت ظهوره واستنارت به البشر، فهلم بنا نسد إليه احترامنا ونقبل الأرض أمام حسام مصر المنصور. (قال): وبهذا يتضح لك أن الليبيين انهزموا هم ومن معهم شر هزيمة وضربت عليهم بسبب عصيانهم الذلة والمسكنة وهذا حاصل ما تم في الواقعة الأولى ، وقد وقعت له واقعة ثانية كانت أكبر من الأولى وهي أنه لما سمع أهل آسية الصغرى والجزائر اليونانية بهذه الحرب

الأخيرة هموا بالخروج عن طاعة رمسيس الثالث، فشنوا الغارة عليه وهم (الدنائيون ـ والترسانيون ـ والشكالاشيون ـ والتكرسيون) الذي خلفوا (الدزدانيين) في البطش والمنعة بين الأمم التروانية، وتعاهدوا على قتال هذا الملك وانضم إليهم (الليسيون ـ والفلستيون) وساروا حتى نزلوا ببلاد (خيتا ـ وكركميش ـ وكاتي ـ وآراد ـ وكدش) فنهبوها وأخذوا رجالها معهم ليستعينوا بهم على قتال المصريين ثم ساروا حتى نزلوا ببلاد الأموريين وأقاموا بها مدة. ثم نزلوا على مصر كسيل العرم من طريق الدلتا فتقابلت جيوشهم وسفنهم الحربية بالمراكب والجيوش المصرية وكانت تنتظرهم بين مدينتي (رافيا ـ والطينة) بجانب برج رمسيس الثالث وامتلأت مصابّ النيل بالسفن الحربية والمراكب المشحونة بعساكرالأعداء فشرع الفريقان في القتال والطعان فكانت المشاة من المصريين تزأر كالسباع وعساكر عرباتهم تقاتل تحت قيادة رؤساء محنكين وضباط مدّربين وخيولهم تضطرب أعضاؤها وتدوس الأمم بسنابكها أما رمسيس فكان واقفاً أمام جيشه كأنه معبود الحرب (مونت) يقتل في الأعداء ويجندلهم ويغرق سفنهم وأموالهم حتى هزمهم هو ورجاله شر هزيمة وانتصر عليهم نصرة تامة وعادت الراحة بعد ذلك واستتبت وعمت الطمأنينة أنحاء البلاد مدة طويلة، فلما كانت السنة الحادية عشرة من هذه الواقعة عاد (الليبيون) إلى شق عصا الطاعة مرة ثانية وزحفوا على ديار مصر ومعهم قبيلة (المشواشيين) وطوائف (سباته ـ وكبكاش) وبعض طوائف أخر وجيش من الجنود (الترسينية ـ والليسية) وأغاروا على مصر من جانبها الغربي، وذلك في شهر مسرى من السنة المذكورة، وكان مقدم هذه الحملة(كابور) وابنه (مشاشال) فلما التقى الفريقان أعمل فيهم المصريون القتل وأبلوا فيهم بلاء حسناً وانتصروا عليهم انتصاراً مبيناً.

وأرسل رمسيس الثالث طائفة من جنوده المظفرة إلى جبل الطور لقتال أهل البادية الذين كانوا يغيرون على الحدود ومحلات المعادن فضربهم وأخضعهم وأدخلهم تحت الطاعة فعلت بعد ذلك كلمته وطار صيته واتسعت مهابته وانجلى عن أرض مصر جميع من كان بها من (السردانيين ـ والترسينيين ـ والليسيين ـ والفلسطينيين) بعد أن كانوا يأتون إليها مهاجرين من أوطانهم منذ خمسة أجيال ورحلوا إلى قارة أوروبا (قال شباس) فاستوطن (الترسينيون) شماليّ مصبّ نهر (الطبر) ونزل السردانيون بجزيرة سردينيا فسميت باسمهم ورحل الفلسطينيون إلى الشام وأقاموا بساحل البحر بين يافا وسهول مصر بأرض كنعان وعاثوا فيها وحاكمها ملك مصر واستقرت طائفة المشواشيين الذين يسميهم مانيطون الحبر المصري

(ماكسير) في الناحية الأخرى من الدلتا وأقطعهم رمسيس هناك أرضاً وصارت رجالهم في ليبيا وسواحل النيل جنودا تحت قيادة المصريين وامتازوا بالبسالة والإقدام والمثابرة على الحروب.

قال بعض المؤرّخين ولما خرج الملك رمسيس الثالث لقتال الأعداء أقام أخاه المسمى (أرمايس أو بتناور) حاكماً متصرفاً على مصر بالنيابة عنه بشرط أن لا يلبس التاج الملوكي وأن يراعى حقوق زوجة أخيه رمسيس أمّ أولاده فبينما هو يقاتل، إذ وردت إليه الأخبار من رئيس كهنة المصريين بأن أخاه (أرمايس) لم يعمل بوصيته وأنه أقام راية العصيان واستبدّ بالملك فكرّ رمسيس راجعاً إلى مصر ودخل مدينة تنيس واستولى على سرير الملك ولبس التاج الملوكي فهرب (أرمايس) وهاجر إلى بلاد اليونان، واليونان يسمونه باسم (دانوس). وقال هيرودوتوس المؤرخ أنه حين زجوعه أي رجوع رمسيس من غزوته جاء إليه أخوه (أرمايس) الذي كان حاكماً على مصر بالنيابة عنه ودعاه هو وزوجته وأولاده إلى الحضور في وليمة أعدها له في قصره بمدينة صان وتظاهر بتهنئته وأبدى له البشاشة والفرح فأحسن الملك فيه ظنه ولم يعتقد أن أخاه يظهر خلاف ما يبطن والحقيقة أن أخاه أضمر له السوء والهلاك فلما استقرّ بالملك المقام أضرم أخوه النار في القصر ولم يشعر الملك بذلك فلما أحس هو وعائلته بالحريق فرّوا هاربين ونجوا من هذه المكيدة.

ولما صفا للملك رمسيس الحال نهض إلى إصلاح العمارات فوسع معبد الكرنك وأصلح هيكل لقصر وغيره من عمارات الأقاليم البحرية وزاد في قرابين المعبودات وفي الاحتفالات الدينية والمواسم والأعياد. (قال صاحب العقد الثمين): ويرى على حيطان هيكل مدينة. (آبو) أن الملك رمسيس هذا كان متزوّجاً بامرأة أجنبية من آسية أو من بلاد الحيثيين تدعى (هيمارو صاث) وأبوها يدعى (هيبواتر وصاث) رزقت من رمسيس باثنين وثلاثين ولدا منهم ثمانية عشر ذكرا وأربع عشرة أنثى وأكثر أسمائهم تلاشت ولم يبق منهم سوى العشرة الأول، وهم الأمير رمسيس الأوّل، وكان قائد المشاة. فلما تولى الملك لقب برمسيس الرابع ثم الأمير رمسيس الثاني، ولما تولى الملك لقب برمسيس السادس، والأمير رمسيس الثالث ناظر الاصطبلات ، ولما تولى الملك لقب برمسيس السابع، والأمير رمسيس الرابع ناظر الاصطبلات، ولما تولى الملك لقب برمسيس الثامن والأمير يراهيو ناميف أول قائد للعربات الحربية والأمير منتحوحي خوبشف قائد الجيوش والأمير رمسيس الخامس الملقب (بمريتوم) كان رئيس الكهنة في المطرية ثم صار ملكاً، والأمير رمسيس السادس الملقب (بخاموس)

رئيس كهنة معبد (بتاح سوكـار) في منف والأمير رمسيس السابع الملقب (بأمون حي خوبشف) والأمير رمسيس الثامن ولقبه (ميامون). اهـ.

ومما تقدّم يستدل على أن الدولة الملوكية المتمـمة للعشرين كانت سعيدة الطالع، وأن هذا الملك قد أعلى شأن المملكة المصرية ورقاها مراقى الـعز والرفاهية كما كانت في القدم. ولما كانت السنة الثانية والثلاثون من حكمه اعتزل الأشغال، وأشرك معه ابنه رمســيس الرابع في الحكم إلى أن مات بعد ذلك بقليل ودفن في قـبره الذي بناه في بيبان الملوك فاستقل ابنه رمسيس الرابع بالملك وهو بكر أولاده وولي عهده وقائد جيوشه المشاة.

(فـي الملك رمسيس الرابع)

لما استـقرّ به المنصب الملوكي وأخذ في تدبيـر أمور الرعية. قـام عليه في السنة الثانية من حكمه أهل آسية وخرجوا عن طاعته فركب عليهم، وقاتلهم وأعادهم إلى الطاعة صاغرين ثم عنى بالتـجارة فسهل أسبابها وفتح لها طـريقاً ما بين مصر وبلاد العرب من ناحـية (قفط) وأصلح شؤون الرعـية بسن القوانين، وإيجـاد النظام ومال إلى محبتـهم فأحبوه كثيـراً وأثرت البلاد في أيامه وأخصبت، وكان واسـع السياسة ميالاً إلى توسيع حدود المملكة مولعاً بإبداع مـا يؤثر عنه، وقد وسع معبد (خونسو) بطيبة وعمل رسوماً بالحفر على حيطان وأعمدة معبد الكرنك. ويقال إن مدّة حكمه كانت طويلة جداً، ولم يذكـرها أحد من الكتاب وقد مات فتـولى الملك بعده أخوه رمسيس الخامس وهو الملقب (برع أوسرماس خبرزع).

(فـي الملك رمسيس الخامس)

قد اختلف أصحاب التاريخ في رمسيس الخامس هذا إلى رمسيس الثالث. فقال بعضهم: إنه لم يكن من ذرية رمـسيس الثالث (وقال بعضهم غـير ذلك أما من قال أنه لم يكن من ذرية رمسيس الثالث) فقد نسب ارتقاءه سرير الملك وقبضه على زمام حكم البلاد بعد موت رمسيس الرابع ابن رمـسيس الثالث إلى الخديعة والغش وذلك أنه لما ظهر الاختلال في داخلية البلاد وكـثرت الدسائس في آخر أيام الملك رمسيس الرابع المذكور ظهر هذا الملك بمظهر الخديعة، واختلس الملك لنفسه ونقش اسمه على الآثار بعد اسم سلفه رمسيس الرابع، وانتحل النسبة إلى العصابة الملوكية، فلما تولّى بعده الملك رمـسيس السادس مـحا اسمه المكتـوب بينه وبين أخيه رمـسيس الرابع، ونقش اسمه مكانه لاتصال سلـسلة العائلة بدون فاصل أجنبي عن بيت الملك، وبني

رمسيس الخامس المذكور له قبراً في بيبان الملوك ظاهرا على ربوة في آخر الوادي وعليه نقوش تدل على وقائع فلكية ورموز دينية مثل رسم فلك الشمس وما تقطعه في اليوم والليلة، ورسم عدد ساعات اليوم والليلة أيضاً وجداول مطالع الكواكب وحلولها في البروج وأحكام النجوم وتناسخ الأرواح والنص على ثواب المحسن وعقاب المسيء، وذكر الحروب التي وقعت في أيامه. ويقول بعض المؤرّخين أن مدّة حكم هذا الملك كانت عشرين سنة فلما مات تولى بعده رمسيس السادس.

(في الملك رمسيس السادس)

(الملقب)

(بنباميامون)

(وفي الملك رمسيس السابع، ورمسيس الثامن ومیامون مرتيوم، ورمسيس التاسع)

لما استقرّ برمسيس السادس هذا المنصب الملوكي اهتم ببناء بيوت العبادة والهياكل العظيمة، وكانت له عناية تامة بالمعبودات وعاداتها المقرّرة واستكشف في أيامه المنجمون من المصريين نجم الشعري اليمانية، وبنوا على استكشافه حسابهم الفلكي، فأمر برسم هذا النجم على مقبرته التي أنشأها في بيبان الملوك، وذلك في سنة أربعين ومائتين وألف قبل الميلاد المسيحي كما قاله (بيوت) الفلكي الفرنساوي في حسابه. قال بعض أصحاب التاريخ من اليونان: وقد كان المصريون يحسبون سنتهم التوتية ثلثمائة وخمسة وستين يوماً واستمروا على هذا الحساب الأزمان الطوال ثم تبين لهم برصد الشعري اليمانية اختلاف حسابهم ونقص سنتهم ربع يوم فبتكميل ربع يوم في الحساب تكون السنة التوتية ثابتة على حالة واحدة ووجدوا الفرق بين السنة المختلفة، والسنة الصحيحة في كل مائة وعشرين سنة شهراً كاملاً وبضم هذا الشهر وزيادته يتكوّن منه في كل ألف وأربعمائة وستين سنة زيادة ثلثمائة وستين يوماً سنة كاملة وهي الفرق بين السنين المختلفة والسنين الصحيحة فبكبس هذه السنة في تلك المدة يوافق في آخر الدور أول السنة الصحيحة لأوّل السنة المختلفة، ويوافق طلوع الشعري اليمانية فصار تصحيح السنة التوتية على هذا الوجه يسمى عند القدماء (بالدور الشعروي). قالوا: ووجه هذا التصحيح أن الألف والأربعمائة والستين سنة المختلفة بإضافة سنة الفرق عليها للتصحيح تكون ألفاً وأربعمائة وستين سنة صحيحة وحينئذ يكون عدد دورهما بهذه الإضافة واحدا لأن مقدار أيام كل

منهما مساو لمقدار الآخر في العدد فلذا صح التحرير والتصحيح لتوفيق السنين، وكان تاريخ هذا التصحيح في أواخر القرن العشرين قبل الميلاد المسيحي . اهـ.

قال صاحب العقد الثمين: وقد وجد على صخرة ببلاد (النوبة) بجبل (أنيب) الذي على شاطىء النيل الأيمن حذاء إبريم على بُعد خمسين كيلو مترا من أبي سنبل نقوش لرجل مصري يدعى (بني بن خرونفر) كان في عصر هذا الملك يعني رمسيس السادس رئيساً على إقليم (واوا) وحاصلها أن هذا الرجل أوقف لتمثال الملك رمسيس السادس أربع قطع من الأرض الزراعية المجاور بعضها لمدينة هيكل الشمس بالدير وبعضها لمدينة (أما) المعروفة أيضاً بإبريم البالغة مساحتها ألفا وخمسمائة ذراع من ضرب خمسة عشر في مائة وقطعة أخرى من الأرض الطفلية غير مدرجة في سجل الزراعة تبلغ مساحتها ألفا ومائتي ذراع حاصلة من ضرب أربعة في مائتين واثنين في مائتين وأنه أوقف غيطا في أرض عالية تدعى (رفتي) وجعل زرعها معداً لأكل الثور الذي يذبح كل سنة قرباناً لتمثال الملك المذكور، ويرى في آخر هذه النقوش وصية معناها كل من تعدّى على حدود هذه الأراضي التي أعرضنا عن ذكرها هنا لعدم فائدتها جازاه (أمون) جزاء مضاعفاً وجازت المعبودة (موت) امرأته والمعبودة (خوتو) أولاده ولحقه الجوع والظمأ والذل إلى أن يهلك في تلك الأرض اهـ. ملخصاً من تاريخ بروكش.

وكان رمسيس السادس المذكور عظيم الشوكة كبير المهابة، وقد تغلب على كثير من البلدان وعلى إقليم (آهي) وعلى بلاد الذهب المسماة (إكينا) وأخذ منها الجزية وبسط حكمه على بلاد الزنوج، وأقام عليها الولاة والحكام لجباية الأموال، ومات، فتولى الملك بعده الملك رمسيس السابع الملقب بـ (رع أوسر ماميامون استبن رع) قال أهل التاريخ وهو أخو الملك رمسيس السادس ولم يعلم من تاريخ حياته وأعماله شيء يذكر ولا المدة التي حكمها ومات فتولى الملك بعده رمسيس الثامن الملقب بـ (رع أوسرماخون امن) قالوا وهو أخو رمسيس السادس أيضاً ويظن أنه حكم مع أخيه رمسيس السابع فكانت مدة حكمهما واحدة ولم يعلم لهما شيء من أخبارهما ولا آثارهما أيضاً، وبموت هذا أيضاً حكم بعدهما الملك (ميامون مرتيوم) ثم رمسيس التاسع وهو (سبتاح) الملقب بـ (سنحعن ميامون). قال أهل التاريخ: ولم يعلم من سيرتهما شيء يذكر وماتا فتولى الملك بعدهما الملك رمسيس العاشر الملقب بـ (نفر كاوورع استبن رع) الذي سيأتي ذكر أخباره بعد.

(في الملك رمسيس العاشر)

(الملقب)

بـ (نفر كاوورع استبن رع)

كان لهذا الملك آثار كثيرة بالقرنة والكاب وقد وجد له دفتران محفوظان بمدينة لندن عاصمة الإنكليز أحدهما فيه حساب السنة الثانية من حكمه، والثاني فيه حساب سبع عشرة سنة من أوّل ستة عشر أمشير سنة واحد إلى أحد عشر أمشير سنة سبع عشرة من حكمه، وله بعض عمارات أخرى مهمة ونقوش من هذا القبيل، قال صاحب العقد الثمين: ومنها النقوش التي على حيطان هيكل (أمون رع) بطيبة الدالة على علو شأن الكهنة في عصره وعلى بعض ملحوظات تاريخية ومحصلها أن رؤساء كهنة أمون بطيبة أخذوا من عهد رمسيس الثالث في الظهور ونفوذ الكلمة شيئاً فشيئاً مع كل ملك إلى أن آل ملك مصر بعد انقراض هذه العائلة يعني الرمسيسية إلى (حرحور) الذي هو سادس الكهنة المذكورين الذين هم (روى - وروما - ومرى بتت - ورمسيس نخت - وأمون حتب - وحرحور) المذكور.

ومما اشتهروا به في أيام هذا الملك أن (أمون حتب) لما تولى رياسة الكهانة على معبد (أمون رع) الموجود بطيبة بعد موت أبيه (رمسونخت) تحبب كثيراً إلى الملك وتداخل في أمور الحكومة حتى وكل الملك لعهدته تجديد عمارة الهياكل وغيرها من الأشغال الجليلة التي كانت من وظائف الملوك ومدحه بخطبة عظيمة بعد أن كان المدح من الكهنة للملوك فكان ذلك باعثاً على تقدّم هؤلاء الكهنة وتداخلهم في أمور الحكومة وتقرّبهم إلى السدّة الملوكية كما يشهد بذلك صريح النقوش المكتوبة على الحائط الشرقي من هيكل طيبة ونصها:

أن (أمون حتب) ولي العهد قام بدل أبيه (رمسونخت) رئيساً على كهنة (أمون رع) سلطان المعبودات بطيبة . اهـ.

فكان انتحال لقب ولي العهد لنفسه تمهيداً لتنفيذ ما قد وطن النفس على عمله وهو أخذ الحكم لنفسه أو لمن يأتي من الكهنة بعده، ولذا تعدى على عمل الملوك فقال:

إني لما وجدت هذا البيت المقدّس المعدّ من قديم الزمان لكهنة (أمون رع) آل إلى الدمار. أردت أن أصلح ما فيه كما فعل (أوسرتسن الأوّل) في أيامه فشرعت في بنائه وجدّدته بعمل جيد وصناعة متقنة وقوّيت حيطانه من جميع جهاتها وأتممت

بناءه وصنعت أعمدته وأمسكتها بحجارة كبيرة من أسفلها وأعلاها بعمل متقن وصنعت له باباً كبيراً بمصراعين من خشب السنط بقفل محكم وأتممت سوره الكبير المطل على جهة (محي) من الحجر وبنيت فيه بيتاً جديداً عالياً ليكون مسكناً لكل رئيس على كهنته ونضدت هذا الباب الكبير بخشب السنط وجعلت مفاتيحه من النحاس الأحمر، وطليت التماثيل بالذهب النقي والفضة، وبنيت فيه باباً كبيراً بالحجر يفتح إلى بحيرة المعبد من الجهة القبلية لأخذ الماء منها لغسل المعبد وأحطت جميع المعبد بسور، ثم نصبت الأحجار الشامخة المنقوشة على بابه الكبير، وركبت مصاريع الأبواب المتخذة من خشب السنط، ونصبت أمامها تمثالاً من حجر النحت الكبير، ودهنت دائرة النقوش باللون الأحمر وكتبت عليها اسم الملك وبنيت خزانة للأموال في الأرض داخل القاعة الكبيرة، أما الأعمدة الكبيرة فصنعتها من الحجر والأبواب من خشب السنط الملوّن وبنيت أيضاً حجرة للملك، وأنشأت خلف الكيلار محلاً من حجر لوضع أدوات المعبد فيه، وجعلت أبوابه ومصاريعها من خشب السنط ونصبت في الحوش الأول الكبير تماثيل لكل رئيس من كهنة (أمون رع) وأنشأت بساتين كالبساتين التي على بحيرة معبد (اشر) في الكرنك، وغرست فيها الأشجار إلى أن قال أفضل سيدي (أمون رع) سلطان المعبودات وأعترف له بالعظمة والحكمة والقوّة وأطلب منه للملك ولنفسي الحياة والصحة والعافية وطول البقاء. اهـ.

فلما تم بناء الهيكل المذكور على ما وصفه رسم الملك لمن حوله من الأمراء والوزراء بأن يعطوه العطايا العظيمة جزاء ما فعله من الذهب والفضة. فلما كان اليوم التاسع عشر من هاتور من السنة العاشرة من حكم رمسيس العاشر المذكور حضر (أمون حتب) فى الحوش الأول من معبد (أمون رع) وحضر أمراء الملك وهم (أمون حتب) مستشار الملك وأمين خزانته (ونس أمون) مستشار الملك (ونفركا أم بيامون) كاتب الملك وترجمانه ومستشاره. فلما انتظم محفلهم حضر الملك وألقى مقالة مدح فيها (أمون حتب) وهي: دعوت (مونتو) معبود الحرب و(أمون رع)، و(تحوت) صاحب الكلام القدسي ومعبودات السماء والأرض أن يكونوا شهداء عليّ وأشهدت نفسي وأنا رمسيس العاشر ملك مصر الأكبر، وأشهدت أولاد وأحباب المعبودات على أن يكون التوزيع والتمتع بمنافع أشغال الأهالي فيما يختص بمعبد (أمون رع) سلطان المعبودات تحت نظارتك وتعطي لك الإيرادات كافة وأن تستلم الضرائب وتتكفل بإدارة خزائن الأموال ومخازن المأكولات وشون الغلال التابعة لمعبد

(أمون رع) سلطان المعبودات لتكون على أحسن حالة وعلى ذلك أكافئك أيها التابع العظيم الممتاز وأكلفك بهذه الوظائف لتقوى بها على ما فيه الإصلاح ولما شاهدت فعلك تعجبت منه وأصدرت أمري بالإنعام عليك بالذهب والفضة وغيرهما مكافأة لك وأنطت بذلك أمين خزانتي والمستشارين (نس أمون ـ ونفركا أم بيامون).

فعند ذلك قام المستشاران ووضعا في عنق (أمون حتب) عقدا من ذهب وحلياه بأنواع الحلي كما يشاهد ذلك على صورته المرسومة في الحجر بمعبد أمون في الكرنك . اهـ.

ومن هذا الحين أخذت شوكة (أمون حتب) رئيس الكهنة المذكور في العظم واتسعت كلمته وعلت وتمكن من الملك وأرباب دولته وتداخل في جميع أمور المملكة حتى آلت حكومة البلاد وانتقلت إلى عقبه كما سيأتي بيانه في محله إن شاء الله تعالى.

ولما مات الملك رمسيس العاشر المذكور، تولى بعده الملك رمسيس الحادي عشر وهو الملقب برع أوسرما (اسبين رع).

(في الملك رمسيس الحادي عشر)

كان هذا الملك عظيم الكلمة واسع المهابة امتد حكمه على بلاد الايتيوبيا وجميع بلاد سوريا، ولم يستدل له على شيء من الآثار سوى ما وجد منقوشاً على حجر مستخرج من هيكل (خونسو) وهو موجود بالخزانة الملوكية بمدينة باريس عاصمة الفرنسيس. وحاصل ما على الحجر المذكور أنه بينما كان هذا الملك في الجزيرة بين دجلة والفرات التي كانت من ملحقات الديار المصرية في ذلك الحين، وفد عليه جميع ملوك الأمم الخاضعة لسلطانه وقدموا له الجزية المضروبة عليهم من الذهب والحجارة الكريمة والعطريات اللطيفة من محصول بلاد العرب، وكان ممن أرسل الجزية إليه ملك (بختانا) أرسلها مع ابنته وكانت جميلة، فلما رآها الملك أحبها ومال قلبه إليها فتزوجها وسماها من هذا الحين (نفرورع) ورجع بها إلى ديار مصر وعمل لها الولائم والأفراح، ولما كان اليوم الثاني والعشرون من أبيب سنة خمس عشرة من حكمه سار إلى مدينة طيبة التي هي تخت الملك يومئذ لزيارة (أمون رع) يوم عيده البهي بطيبة الجنوبية، فبينما هو هناك إذ دخل عليه أحد حجابه وأخبره بأن بالباب رسولاً وفد من قبل صهره ملك (بختانا) ومعه هدية عظيمة برسم الملكة فأمر به فتمثل بين يديه. وقال: السلام عليك ياشمس الأمم، نسألك العيش في كنفك ثم

تذلل. وقال: إني أتيت إليك أيها الملك العظيم لأخبرك عن (بنت رشت) شقيقة الملكة (نفرورع) فإنه قد أصابها مرض في جسمها فأتيت أسألك إرسال طبيب ينظر في شأنها. فلما سمع الملك مقاله أمر بالأطباء والروحانيين فتمثلوا بين يديه فقال لهم: قد دعوتكم لتختاروا من بينكم رجلاً ماهراً حاذقاً فأتوه بكاتب الملك واسمه (تحوت أم حب) فرسم له بالمسير مع الرسول إلى بلاد (بختانا) فلما وصل إلى المدينة التي فيها (بنت رشت) وجدها ممسوسة بجني ورأى نفسه غير كفء لدفعه عنها وأخبر ملك بختانا بذلك فأرسل الملك المذكور إلى ملك مصر يقول: أيها الملك العظيم والسيد المفخم تكرم علينا ثانياً بإرسال معبود مع كاهنه إلى بلادنا لإخراج ذلك الجني ، وكان وصول هذا الطلب إلى مصر في غرة بؤنة سنة ست وعشرين الموافق يوم عيد (أمون) وكان الملك يومئذ في مدينة طيبة فقام من ساعته ودخل على (خونسو) معبود طيبة الثابت في كماله. وقال له: أيها السيد العظيم قد جئت إليك من أجل بنت أمير بختانا، ثم أمر الملك فأنزلوا المعبود (خونسو) وكاهنه في سفينة كبيرة وهيأ لهما خمساً من السفن وكثيراً من الخيول والعربات لتسير على يمينه ويساره عند مروره في بلاد بختانا، فلما وصل ذلك المعبود إلى المدينة التي فيها (بنت رشت) من تلك البلاد بعد مضي سنة وخمسة أشهر جاء ملك بختانا لمقابلته ومعه قومه وامرأته وألقى نفسه على الأرض وتقدم إليه. وقال: لقد جئت إلى بلادنا وأفرحتنا بأمر صهرنا ميامون رمسيس ملك مصر، ثم أتوا بالمعبود إلى المكان الذي كانت فيه (بنت رشت) فسرت كرامة المعبود فيها حتى برئت من مرضها ونطق الجني الذي كان عليها أمامه قائلاً: أهلاً وسهلاً بالمعبود الكبير مزيل الأذى عن بلاد بختانا هي لك وأهلها جميعاً عبيدك وأنا أيضاً عبدك فسأعود من حيث أتيت لينشرح صدرك بإتمام الغرض الذي دعيت إليه، غير أني أرجو منك أن تأمر بأن يعملوا لي في يوم واحد مهرجاناً من قبل ملك بختانا فأشار كاهن المعبودات إلى ملك بختانا أن اعمل قرباناً عظيماً لهذا الجني وعند تلاوة العزيمة على الجني المذكور، كان ملك بختانا واقفاً مع قومه وجلا فعمل الملك القربان وأولم (لخونسو) وللجني وليمة عظيمة، ثم ذهب الجني إلى حيث أمره المعبود (خونسو) الحاذق، ففرح ملك بختانا وقومه فرحاً شديداً. وقال في نفسه يجب أن أبقى هذا المعبود في بلادي وأعوقه عن الرجوع إلى ديار مصر فمكث في بلاد بختانا ثلاث سنين وتسعة أشهر، وبينما الملك نائم في سريره إذ رأي أن المعبود قد خرج من ناووسه العظيم كأنه باشق من ذهب قد بسط أجنحته وطار إلى مصر فاستيقظ فوجد نفسه مريضاً. فقال لكاهن (خونسو)

إن المعبود يريد أن يفارقنا ويذهب إلى مصر وأمر فوضعوه على عربته وأطلق سبيله وأعطاه كثيراً من أنواع الهدايا العظيمة فلما وصل سالماً إلى طيبة توجه إلى معبد (خونسو) ورفع إليه أنواع الهدايا الثمينة التي أهداها إليه ملك بختانا فلم يأخذ منها شيئاً وبعد ذلك رجع (خونسو) الحاذق إلى معبده في اليوم الثالث عشر من أمشير سنة ثلاث وثلاثين من حكم الملك رمسيس ميامون مانح الحياة ومخلد الذكر. انتهى باختصار.

ولما مات رمسيس الحادي عشر هذا تولى الملك بعده رمسيس الثاني عشر وهو الملقب (رع من ما استبن بتاح).

(في الملك رمسيس الثاني عشر)

لما تولى الملك رمسيس الثاني عشر هذا زين مدينة طيبة بالمباني العظيمة في بيوت المعابد وغيرها من بقية الآثار وزين معبد (خونسو) في المدينة المذكورة بكثير من التماثيل الصغيرة كما زين مقابر العائلة الرمسيسية. وقد وجد مريت باشا مدير دار التحف المصرية في سنة ست وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية حجرا في شونة الزبيب بالعرابة المدفونة، فحوى ما هو منقوش عليه أن رمسيس هذا طال حكمه سبعاً وعشرين سنة. قالوا: وخط هذه النقوش يضاهي تقريباً الخط المكتوب على الورقة القديمة المحفوظة الآن في متحف تورينو بإيطاليا المؤرخة في اليوم الخامس والعشرين من كيهك من حكم الملك المذكور وحاصل ما نقله منها بروكش في فهرست تاريخه، أن هذا الملك أصدر أمراً إلى (بيانخاس) حاكم الايتيوبيا ورئيس الأمم الأجنبية التابعة للدولة المصرية يقول فيه سيصل إليك مرسومي المتضمن لما في الجواب المعطي للرئيس (ياني) مستشاري الذي سافر بأوامري فبوصول هذا الأمر إليك اشترك معه في إنجازها بالحسنى لأنه هو المكلف في الأصل بأدائها وعليك أن تلاحظ توابيت المعبودة وتضعها في سفينة وأن تأتي بها معه إلى المكان الذي أعد لنصب التماثيل فيه مع إحضار الأحجار النفيسة لتسليمها للصناع واحذر من التأخير في إنجاز هذه المطلوبات وإلا خلعتك وعاملتك على مقتضى ما يصل إلينا من أخبارك. قالوا: فإن صح أن هذه الورقة محررة في عصر هذا الملك كان حكمه ممتدا إلى بلاد الحبشة غير أنه كان ضعيف القوة قليل البطش، ولم يزل كذلك حتى توفى وتولى بعده الملك رمسيس الثالث عشر الملقب (برع خبر ما استبن رع).

(في الملك رمسيس الثالث عشر)

قد كان هذا الملك خامد الهمة ضعيف العزيمة ذابل الشوكة، وكان المتولي في

أيامه على رئاسة كهنة (أمون رع) سلطان المعبودات الكاهن (حرحور) وهو سادس العائلة التي تقدّم ذكر اسم كل منهم في محله، فلما رأى (حرحور) المذكور من ضعف عزيمة رمسيس الثالث عشر تطاول إلى الأعمال السياسية وتداخل في أمور البلاد وأحكامها، وضم إليه قومه وأخذ في مخاصمة الملك وعائلته، وتظاهر بالعداء فاختل نظام الدولة وتفرقت كلمة أهل البلاد وزالت سطوة الحكومة وانحطت شوكتها وخرجت جملة بلاد عن حيازتها فضاقت حدودها وأحاطها من جميع الجهات أعداء أشدّ قوّة منها واقتدارا وما زالت تنسير القهقري حتى انتزعها (حرحور) رئيس الكهنة المذكور من رمسيس الثالث عشر وزال الملك عن الدولة المتممة للعشرين التي آخرها رمسيس الثالث عشر المذكور، وقامت بعدها الدولة الحادية والعشرون وأولها (حرحور) رئيس الكهنة وهو من مدينة طيبة.

(الفصل الرابع)

(في ملوك الدولة الحادية والعشرين التنيسية)

كان ابتداء ظهور هذه العائلة سنة عشر ومائة وألف قبل الميلاد أي سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة وألف قبل الهجرة وعدد ملوكها أربعة. وقال العلامة ماسبرو بل هم سبعة نقلاً عن الآثار، ورتبهم على الترتيب الآتي الكاهن (حرحور) والكاهن (بعنخي)، والكاهن (بينوزم) الأول والملك (بينوزم الثاني)، والكاهن (مزاحرتي)، والملك (منخوبر يرى)، والكاهن (بينوزم الثالث). ولكنه لم يجزم بصحة هذا الترتيب حتى تنكشف له حقائق ما في الآثار ومع أن هذا الترتيب المنقول عن الآثار يكاد يكون في حكم الثابت المحقق، فلم يأتنا أصحاب التاريخ إلا بأخبار ثلاثة منهم ليس إلا وذكر بعضهم أسماء الأربعة الأخر دون ذكر أخبارهم. وقال أن مدة ملكهم جميعاً كانت مائة وثلاثين سنة. وأن أصل هذه العائلة من مدينة تنيس التي هي صان شرقية؛ وكانت هذه المدينة من أعظم مدن الديار المصرية هواء وتربة وأتقنها نظاماً وترتيباً وفيها كثير من البساتين، والكروم، والنخيل، والمزارع الواسعة، والأشجار العظيمة، والخلجان الكثيرة، والترع التي يجري فيها الماء صيفاً وشتاء ثم يصب في البحر الملح من جميع جهاتها. وكانت هذه العائلة في عصر سيدنا سليمان وأبيه داود عليهما السلام. ويقال إن سيدنا سليمان تزوّج بنت أحد فراعنتها وأمهرها مدينة غزة، وأول ملوك هذه العائلة الكاهن حرحور وهو أحد الثلاثة الذين جاء أهل التاريخ على ذكر أخبارهم تفصيلاً.

(في الكلام على الكاهن حرحور)

قد كان هذا الكاهن في أول أمره خاضعاً معترفاً بالتابعية للملك رمسيس الثاني عشر فلما تولى الملك رمسيس الثالث عشر وأحس بضعف شوكته خرج عن طاعته واتخذ لنفسه الألقاب الملوكية، فسمى نفسه أول كاهن (لامون)، وولى العهد، وحامل المروحة على يمين الملك، وقائد الجيش في الأقاليم القبلية والبحرية، وأمين خزائن الأرض كيوسف بن يعقوب عليهما السلام ، وكان رمسيس الثالث عشر لا يلتفت إلى ذلك ولا يفكر في المآل فكبرت كلمة (حرحور) وانضم إليه جميع الكهنة، وخرج على رمسيس الثالث عشر ونزع منه ملك البلاد واستولى على الأقاليم القبلية والبحرية وتصرف في جميع الأمور ورسم نفسه على جدران هيكل (خونسو)، (وسيتي) معبودة (انبو) تقدم له التاج الأحمر الخاص بالإقليم القبلي، والمعبود (حور) يقدّم له التاج الأبيض الخاص بملك الإقليم البحري ، قال صاحب العقد الثمين: وكتب على هذا الهيكل يعني هيكل (خونسو) ما معناه إني وسعت مصر وأتت إليّ رؤساء (روتنو) خاشعين لسطوتي إلى غير ذلك من عبارات المدح. اهـ.

قال المؤرخون: ولم يكن شيء من ذلك البتة فقد كانت البلاد في غاية الاختلال والضعف، ولم تقو على رد ما خرج من البلاد الأجنبية وقد منعتها الشام من الوصول إلى حدودها، ولم يبق في وسعها غيرالدفاع لا الفتوح كما كان في الأيام السابقة. وقد جمع حرحور الكاهن المذكور من بقى من العائلة الرمسيسية ونفاهم إلى الواحات الكبرى تشفياً وانتقاماً وهم رمسيس الرابع عشر، ورمسيس الخامس عشر، ورمسيس السادس عشر، قالوا: وكان رمسيس السادس عشر المذكور متزوّجاً بابنة ملك آسية المدعو (بلاشارنس) فرزق منها بولدين وبنت وهم الأمير (صيحور أوف عنخ) والأميرة(صي أن نوب أوص عنخ)، (والنمروذ) الذي تولى قيادة الجيوش المصرية على عهد حرحور وهو المعروف (بنمروذ الخليل إبراهيم عليه السلام). ولما مات حرحور المذكور تولى الملك بعده ابنه (پعنخي).

(في الكاهن پعنخي)

قد كان بعنخي الكاهن المذكور ضعيف الشوكة قليل التدبير والسياسة فلما رأى أهل البلاد منه ذلك نهضوا إلى الثورة وهب من بقى من العائلة الرمسيسية إلى إثارة الخواطر وتحريض الأهالي على الخروج فاختل نظام الحكومة وساء تدبير بعنخي الكاهن فلم يتمكن من نقش اسمه بين أسماء الملوك، وظهر رمسيس السادس عشر

في أيامه واستعان بصهره ملك آسية، المدعو (بلاشارنس) فسير إلى مصر طائفة من أهل الشام وكان من أمرهم في ذلك العهد ما سيذكر في محله، ومات بعنخي المذكور قبل أن تصل إليه النجدة من صهره ولم يأت عملاً يذكر، فلما مات تولى بعده ابنه (بينوزم) الأول الملقب (خع خبرع استبن أمن).

(في الكاهن پينوزم الأول)
(الملقب)
(بخع خبرع استبن أمن)

تولى بينوزم الملك بعد أبيه في خلال القلاقل والاضطرابات وظلت الدسائس قائمة إلى السنة الخامسة والعشرين من حكمه، اشتدت الفتنة وقامت على ساق بين الإقليمين القبلي والبحري بسبب إبعاد العائلة الرمسيسية إلى الواحات وعلا لهيبها فلم يقدر (بينوزم) الكاهن على إطفائها لاشتغاله بدفع إغارة أهل الشام الذين كانوا أتوا لنجدة رمسيس السادس عشر صهر ملكهم فأرسل ابنه المدعو منخبر رع إلى مدينة طيبة لإرجاع الأمور إلى سابق مجراها وإطفاء نيران الفتنة فسار إليها وما زال بها حتى سكنت الفتنة وزالت فلبث بطيبة وأقام نفسه رئيساً على كهنة (أمون رع) معبودها بدل أبيه (بينوزم) واستقدم من بقى من الرمسيسيين من الواحات، قال صاحب العقد الثمين: وهذه القصة هي المنقوشة على حيطان هيكل (خونسو) بطيبة وحاصلها:

أنه في السنة الخامسة والعشرين أتى (منخبر رع) ابن الملك بينوزم رئيس الكهنة، وقائد الجيش بقوة عظيمة إلى الوجه القبلي ووطد الراحة في البلاد، وقمع البغاة واقتص منهم بما يناسبهم، وأعاد النظام إلى حالته الأصلية ثم توجه إلى مدينة طيبة فرح الفؤاد فاستقبله أهلها بمدائح التهاني، وبعد ذلك أخرجوا تمثال (أمون رع) في محفل عظيم لمكافأة (منخبر رع) على صنعه بحضرته فأمر أمون بجلوس (منخبر رع) على كرسي والده (بينوزم) وجعله رئيس كهنته وقائد جيوش الوجه القبلي والبحري، فصنع (منخبر رع) في نظير ذلك خيرات عظيمة، وفي أول يوم من سنة ست وعشرين الموافق لمولد (إزيس) وموسم (أمون رع) أخرجوا أمون هذا في موكب عظيم ووضعوه أمام باب القاعة الكبرى من معبده فدخل عليه (منخبر رع) وتضرع إليه بأدعية كثيرة وقرب إليه قرباناً عظيماً. ثم قال له: أيها السيد العظيم لقد كثرت الشكوى من غضبك على الناس المنفيين في الواحات فأبتهل إليك أيها المعبود المصور

لكل موجود ويا مخرج الغذاء للمعبودات والموجودات ويا نور الشمس فى النهار وضياء القمر فى الليل، يا من يسرى فى السماء بسلام دون وقوف وإهمال. انظر إلى أولئك الذين نفيتهم بأمرك واشف مرضاهم وارأف بهم لأنهم أممك العديدة فهل يستطيع أحد أن يسكن غضبك لو غضبت على شىء أنت الشعاع المنير استجب دعوتى واعف فى هذا اليوم عن الخدم الذين نفيتهم فى الواحات ليعودوا إلى مصر.

فاستجاب دعاءه، ثم طلب منه ثانياً أن لا ينفى أحد من أهل مصر إلى تلك الجهات البعيدة. فأجاب سؤاله أيضاً. ثم طلب منه ثالثاً أن يصرح بكتابة أمره هذا على حجر لنشره فى البلاد فقبل المعبود طلبه وبعد ذلك قال (منخبر رع): لقد فرحت كثيراً بتمام قصدى الذى ستحسن به بين الخلق سيرتى. فأنا عبدك النائب عنك فى مدينتك من صغرى أنت صورتنى وأظهرتنى فى الوجود لسرور خلقك فأعطنى عيشة هنية فى خدمتك وقدساً ووقاية من عذابك وأرشدنى إلى طريقك واهدنى سبيلك وحبب قلبى فى بيتك العظيم ولا تحرمنى من فضلك، إلى غير ذلك من العبارات المألوفة لديهم . ثم طلب فى آخر هذه النقوش من معبوده أمون أن يبيد ويميت كل ذى سعى فى الفساد، فأجابه المعبود إلى ذلك. اهـ.

وأما الملك (بينوزم) فإنه بينما كان مرابطاً فى الحدود لدفع العدوّ عن البلاد إذ قدم نمروذ ملك أشور بجيش عظيم جدًا يريد التملك على ديار مصر وضمها إلى مملكته لا إلى معاونة الرمسيسيين أصهاره فقاتل الملك (بينوزم) وعساكره وانتصر عليه نصراً مبيناً ونزع الملك منه، وأدخل مصر تحت حكمه وتصرف فى البلاد تصرف الفاتح، وما زال بينوزم منزوياً حتى مات فدفنته أمه المسماة (مهتن أوسخ) فى مقبرة بالعرابة المدفونة ورتبت لقبره المرتبات المعتادة فى أعياد الأموات والخدم والحشم، وزال الملك من كهنة طيبة بزوال الكاهن (بينوزم) وتولى نمروذ على البلاد ، قال بعض المؤرخين: وكان عدد ملوك هذه الدولة أعنى دولة الكهنة الحادية والعشرين سبعة ملوك وكانت مدّة حكمهم جميعاً مائة وثلاثين سنة وأصلهم من مدينة تنيس التى يسميها بعضهم أيضاً (صان) وهى أعظم مدن مصر وكانت ذات جنات ونخيل وبها المجارى العظيمة لرى أرضها صيفاً وشتاء كما تقدّم لك القول ، قال صاحب العقد الثمين: قد حصل خلاف بين بروكش وماسپرو فى شأن هذه العائلة، فذهب بروكش اتباعاً لنص بعض الآثار إلى أن رؤساء الكهنة نزعوا الملك من الرمسيسية ونفوهم إلى الواحات، ثم حصلت مصاهرة بين الرمسيسية وملوك الدولة الآشورية فأدى جميع ذلك إلى تفرق الكلمة الأهلية ووقوع مصر فى يد ملوك الدولة

الآشورية، وذهب ماسپرو إلى أنه لما أراد رؤساء الكهنة حصر الملك فيهم عارضهم سكان الوجه البحرى وأقاموا (سمنتو) ملكا عليهم فنفى الكهنة إلى بلاد الأيتيوپيا إلا أنه بالنظر لضعفه وتفرق الكلمة الأهلية لجأ هو ومن كان معه من الملوك إلى جيرانهم فكان ذلك سببا لزوال الملك منهم وسقوط مصر فى أيدى ملوك الدولة الآشورية.

قال وأما ما يتعلق بالتنيسيين وهم أهل صان فقال ماسپرو أنه لما أراد (حرحور) حصر الملك فيه وفى عائلته عارضه فى ذلك سكان الوجه البحرى مع أهل صان وأقاموا (سمتوميامون) ملكاً عليهم فجعل مركز حكمه بمدينة صان وتبعه فى ذلك خلفاؤه الذين اعتبرهم مانيتون ملوكاً أصليين لهذه العائلة إلى أن قال: ولضعف هؤلاء الملوك، أعنى بهم ملوك الدولة الحادية والعشرين المذكورة ، كان أهل طيبة يطيعونهم وقتاً دون وقت وكذلك الايتيوبيون خرجوا عن طاعتهم واستقلوا تحت حكم كاهن من رؤساء كهنة أمون وعصتهم أيضاً بعض بلادهم فالتجئوا إلى بعض الملوك المجاورة لهم واحتموا فيهم واختلطوا بهم فزوّجوا أولادهم بنات ملوك الإسرائيليين وأخذوا من بناتهم لأولادهم فكان هذا سببا لنزع مصر من أيديهم واستيلاء النمروذ المتقدّم ذكره عليها ، قال صاحب العقد الثمين: بين بروكش كيفية تداخل الأجانب فى بلاد مصر الذى أدّى إلى نزعها من ملوكها. فقال: إن ملوك مصر اعتادت من قديم الزمان على تكملة ما ينقص من جيوشهم من أسارى الحرب وتغالوا فى ذلك حتى زعم ملوك العائلة الثانية عشرة أنهم نقلوا أهل الشمال إلى الجنوب وأهل الجنوب إلى الشمال، وأنهم أسسوا لهم فى وادى النيل طوائف عديدة ، ولما خرجت ملوك العمالقة من أرض مصر فى عصر العائلة الثانية عشرة ، **قلت**: لعلها الثامنة عشرة كما يؤيد ذلك ما جاء فى التورات بقى غالب قومهم فى شرق الدلتا وحازوا بعض امتيازات ميزتهم عن المصريين وأطلق عليهم اسم (بى أمو) أى (بياميت) وتحصلوا أيضاً من المصريين على وظائف مهمة كالكهانة ونحوها فأدّى ذلك إلى إدخال معبوداتهم فى الديانة المصرية فاحترمها المصريون وبنوا لها معابد فى منف.

قال: ولما تعاهد رمسيس الثانى مع الحيثيين كان ذلك سبباً أيضاً لسريان اللغة السامية فى بلاد مصر فتعلمها غالب المصريين والليبيين وحصل من ذلك تغيير وتحريف فى اللغة المصرية القديمة فاستعملوا (كريات) بدل (نوت) أى مدينة (وترعا) بدل (را) أى باب وحرفوا كثيراً من الكلمات فقالوا: (خبوشا) وشانبشا ووبدل (خبش)، (وشنس) أى باب ومصباح وفضلاً عن تغيير اللغة وتداخل الأجانب فى بلادهم شيئاً فشيئاً استقلت قبيلة من الليبيين بنفسها غربىّ الدلتا فى أرض هناك استحوذت عليها

من المصريين فأدى جميع ذلك إلى أن صارت مصر غنيمة للأجانب فى آخر هذه العائلة . اهـ.

هذا وقد كان النمروذ من نسل (بياى). ويقال له (بواى) أو (بوبوايى) الشامى الأصل الشهير الذى قدم إلى مصر أثناء ملك العائلة المتممة للعشرين، وأقام ببسطة أو بضواحيها ونمت ذريته بها فزوّج ابنه الخامس (ششنق) بأميرة من بيت الملك تدعى (مهتن أوسخ) فولدت له هذا النمروذ الذى تلقب رئيس الكهنة وقائد المشواشيين، ثم ولد النمروذ ولد سماه ششنق على اسم أبيه فتولى ششنق هذا ملك مصر بعد موت ميامون سبيونخع الثانى آخر ملوك التنيسية من هذه العائلة فكان هو المؤسس للعائلة الثانية والعشرين.

(الفصل الخامس)

(فى ملوك الدولة الثانية والعشرين)

قال أصحاب التاريخ: كان سرير ملك هذه الدولة مدينة بسطة بإقليم الشرقية ومحلها الآن تل بسطة القريب من مدينة الزقازيق على بُعد بعض فراسخ وعدد ملوكها تسعة وسنو ملكهم مائة وسبعون سنة. قالوا: والغالب أن ملوكها لم يكن منهم من الغزاة وأصحاب الفتوحات إلا القليل، ويظهر أيضاً أنه كان لهم مصاهرة أو قرابة أو حب واختلاط بالأجانب لتقارب أسمائهم بأسماء ملوك الأكراد والعراقيين. ولم تكن جنودهم الخاصة بحراسة أجسادهم من المصريين المتأصلين ولا من المستوطنين بل كانوا من المغاربة. وكان أول ملوك هذه العائلة البسطية حسب ترتيب الآثار الملك ششنق الذى سيأتى الكلام عليه، وكان مبدأ ظهور هذه العائلة سنة ثمانين وتسعمائة قبل الميلاد أى سنة اثنتين وستمائة وألف قبل الهجرة.

(فى الملك ششنق الأول)

هو رأس هذه الدولة الثانية والعشرين. وتسمى أيضاً بالدولة البسطية نسبة إلى مدينة بسطة التى كانت تحت حكمها ويلقب هذا الملك (برع ونرخبراستبن رع) تملك نحو سنة تسعين وتسعمائة قبل الميلاد على ما رواه جماعة المؤرخين وثمانين وتسعمائة على رواية مانيطون. والثانى أقرب إلى الصواب ويسمى فى التوراة شيشاق. وهو الذى لجأ إليه يوربعام ملك إسرائيل مستغيثا به فنهض إلى نجدته وقصد أورشليم بألف ومائتى مركبة وستين ألف فارس وقاتل رحبعام بن سليمان

ملك يهوذا وكان فى جيوشه قوم من السود والحبشان فافتتح مدن يهوذا عنوة ونهب خزائن بيت المقدس وخزائن بيت الملك، وأخذ تروس الذهب التى عملها سليمان عليه السلام ثم عاد إلى مصر ظافرا غانماً ونقش تاريخ هذه الواقعة على جدران هيكل الكرنك العظيم وكتب عليه (يهوذا ملكى) يعنى مملكة يهوذا فى قبضة يده، وقد عنى كثيراً ببناء المعابد وقطع الأحجار من جبل السلسلة لعمارة هيكل الشمس وكان أكبر أولاده المسمى (آووبوت) رئيساً لكهنة (أمون رع) وقائد جيوش الصعيد، فوكل لعهدته جلب الأحجار للعمارات الكثيرة فقام بذلك خير قيام، وأقام الملك ششنق إلى أن مات فى أحد فصول الصيف وتولى بعده ثانى أولاده المدعو (ارسرخان) وهو الملقب (برع خم خبر استبن رع) فكانت مدة حكم ششنق المذكور اثنتين وعشرين سنة وفى رواية إحدى وعشرين سنة.

(فى الملك ارسرخان الأول)

تولى ارسرخان الملك بعد أبيه ششنق رغماً عن معارضات أخيه (آووبوت) إذ قام ينازعه ويزعم أنه أحق بالملك لأنه أكبر أولاد ششنق واشتد النزاع بينهما وطال الجدال ثم استتب الأمر (لارسرخان) فارتقى سرير الملك، وقبض على زمام البلاد وعلت كلمته وهو المذكور فى التوراة باسم زاراح الحبشى وقد حارب مملكة يهوذا بعشرات آلاف من النفوس وثلثمائة عربة حربية فسار ملك يهوذا لملاقاته واصطفت جنود الفريقين فى وادى (صعد) فوقع الرعب فى قلوب جند مصر، فولوا الأدبار جميعاً وانتصرت عليهم جند يهوذا نصراً مبيناً، فلم يعد ارسرخان إلى محاربتهم ثانية ومات وتولى الملك بعده ابنه (تاكلوت) الأول الملقب (برع خبراستبن أمن نترحق أون) فكانت مدة ملك ارسرخان خمس عشرة سنة.

(فى الملك تاكلوت الأوّل)

لم يقف أصحاب التاريخ لهذا الملك على شيء من الأخبار أو الآثار ولم يعلموا شيئاً عنه وغاية ما أمكنهم الوصول إلى معرفته من أخباره أنه كان متزوّجاً بامرأة تدعى (كابوس) فولدت له صبياً سماه (أرسرخان الثانى) فلما مات (تاكلوت) المذكور قام بالأمر بعده ابنه (أرسرخان) الثانى ولقب (برع أوسر ما استبن أمن).

(فى الملك ارسرخان الثانى)

تولى ارسرخان الملك بعد أبيه تاكلوت، ولم يعلم له من المآثر التاريخية سوى أنه فى السنة الثالثة والعشرين من حكمه مات العجل المسمى (أبيس) وهو معبود

المصريين الأعظم. قال المؤرخون: وكان هذا الملك متزوّجاً بامرأتين إحداهما تدعى (كراما) والثانية تدعى (موت آووت عنخس) فولدت له الأولى ولدا سماه (ششنق) باسم جدّه فلما بلغ أشده ولاه رئاسة كهنة(بتاح) معبود مدينة منف وورث عنه إخوته من أمه هذه الوظيفة من بعده، وولدت له الثانية ولداً سماه (نمروذ ششنق) باسم جدّه، أيضاً ولما بلغ أشده ولاه رئاسة الجيش ونظارة كهنة المعبود (خنوم) فى مدينة اهناس وخلفه إخوته لأمه فى وظيفة الكهانة ثم انتقل من اهناس وصار حاكماً على الوجه القبلى ورئيساً على كهنة أمون بطيبة ولما مات (ارسرخان) الثانى المذكور تولى الملك بعده ابنه ششنق الثانى الملقب (برع بسنحم خبراستبن امن).

(فى الملك ششنق الثانى)

قال علماء التاريخ: لم يوجد لهذا الملك من المآثر شىء يذكر، وقد انقطعت بعده سلسلة العصبة الوارثة من بيت الملك: ولذلك لما مات ارتقى على سرير الملك بعده رجل اسمه (تاكلوت) وتاكلوت هذا كان زوج الأميرة (ميموت كروما ما أمن موت أم حعت) أخت النمروذ بن ارسرخان الثانى وكان رئيساً على كهنة أمون طيبة وقائد الجيوش المصرية، وقد رزق من زوجته هذه بولد سماه (أوسورخون) وجعله رئيساً على كهنة (أمون رع).

(فى الملك تاكلوت الثانى)

(الملقب)

(برع خرخبراستبن رع)

لم يكن تاكلوت هذا من سلالة بيت الملك. وكأنه لم يتقرب إلى هذا المنصب إلا بسبب تزوّجه بالأميرة (ميموت كروما ما أمن موت أم حعت) أخت النمروذ بن اوسورخون الثانى. وفى أيامه زحف على مصر الايتيوبيون من الجنوب والآشوريون من الشمال وهددوها، فخرج أهل الشام وغيرها من ملحقات مصر عن حكمها وانكمش ملوكها الأصليون فى مدائن الأقاليم البحرية وصاروا كالولاة وهم ثلاثة ملوك (شيشاق الثالث وبيمايى وشيشاق الرابع). قالوا: وفى أيامهم جزئت مصر إلى ولايات صغيرة، وكان على كل ولاية رئيس من الليبيين تحت حكمهم واشتغل هؤلاء الملوك بجمع الخراج وإدارة الأمور الداخلية ولم يلتفتوا إلى ما كان الرؤساء المذكورون يفعلونه من الاستبداد بالأحكام والتشديد على الرعية، ولم يأخذوا

حذرهم منهم ولا من الأجانب الذين استوطنوا البلاد بسبب ضعف الحكومة وانحطاط قدرها فعظمت شوكة أولئك الحكام وتجاوزت فعالهم الحدود، وكانت تساعدهم على ذلك طوائف الجند من الليبيين الذين دخلوا في خدمة الحكومة المصرية وطمحوا بأنظارهم إلى الوظائف العالية واختلسوا الألقاب الملوكية، فخاف الملوك الأصليون وانزووا أولا فى مدينة بسطة ثم هاجروا منها فرارا من أعدائهم إلى مدينة منف واتخذوها مقرا لهم، وقامت الفوضى فى البلاد وتكاثر الخروج والعصيان فكانوا فى شاغل مستمر بدفاع الأعداء من الآشوريين والايتيوبيين وما زالوا على هذه الحال من الضعف والانحطاط حتى مات (شيشاق الرابع) الذى هو آخرهم وانتزعت الملك من بعده طائفة أخرى من التنيسيين وهم المعروفون بالعائلة الثالثة والعشرين، فكانت مدة حكم العائلة الثانية والعشرين المذكورة ستاً وستين سنة وقيل أكثر من ذلك.

(الفصل السادس)

(فى ملوك الدولة الثالثة والعشرين التنيسية)

كان مبدأ ظهور هذه العائلة سنة عشر وثمانمائة قبل الميلاد أى سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة وألف قبل الهجرة. وعدد ملوكها أربعة ومدّة ملكهم تسع وثمانون سنة. وكان مركزها فى تنيس وهى المعروفة الآن بصان فى إقليم الشرقية، وهؤلاء الملوك الأربعة هم (بدوسابست)، (وأوسورخون الثالث)، (ويساموت)، (ودت) ولم يكن من سبب لدخول مصر فى حكم هذه العائلة سوى ضعف شوكة شيشاق الرابع الذى هو آخر ملوك الدولة الثانية والعشرين وخروج الإقليم القبلى عن طاعته وانسلاخ الكثير من ملحقات مصر كالشام وغيرها عن حكومته وانزوائه فى مدينة منف واستقلاله بحكم الإقليم البحرى إلى أن مات وظهر بعد موته التنيسيون، فاستولوا على الإقليم البحرى أوّلاً وأوّل ملوكهم (بدوسابست) الذى يسميه مانيطون المؤرخ (بتوباستيس) فجعل هذا الملك قاعدة مملكته مدينة بسطة، ولما استقر به الملك أخذ فى تقوية مملكته وما زال حتى نزع طيبة من أيدى الايتيوبيين وضمها إلى ملكه فعظمت شوكته وهابه أبناء جنسه وغيرهم، وطالت أيامه فحكم أربعين سنة لم يغفل فيها عن أعدائه ولم يخفض لهم جناحاً ثم مات فقام بالأمر بعده (أوسورخون الثالث) فجعل مقره طيبة وتنيس وحافظ على مملكته من الأعداء، وبالغ فى ذلك ومات بعد أن

حكم تسع سنين فقام بالأمر بعده (بسامـوت) الملقب (أوسر رع استبن بتاح بيموت) وجعل تخت مملكته مدينة منف واتبع طريق أسلافه فى اليقظة والمحافظة على مملكته ومات بعـد أن حكم عشـر سنين. ثم قام بالأمـر بعده (دت) وهو آخـر ملوك هذه العائلة، فحكم إحدى وثلاثين سنة حـسب ما قاله مانيطون، قال بعض المـؤرخين: وكان عـصر هذه الدولة عصر مـحن وإحن وانقسمت فى أيامـها مصر إلى عـشرين ولاية فكانت كل ولاية تشتمل على عدة بلاد وجملة أقسام وعليها أمير مخصوص، واستمرت على هذه الحـال مدة إلى أن ظهر جماعة من صا الحـجر بالإقليم البحرى فنهـضوا إلى نزع الحكومـة من أيدى هؤلاء الرؤسـاء، وقد كـانوا أضعـفوها بسـوء تدبيـرهم، وما زالوا حـتى تم لهم الأمر ثم أرادوا أن يؤسـسوا عـائلة جديدة تـقوم بحكم البلاد وتدبير سياستها فعاكسهم الدهر أياماً وقام لمعارضتهم أولئك الرؤساء ثم لم يلبثـوا أن عجزوا عن مـقاومة الصـاويين وأعيـتهم الحيلة فى أمـرهم فاستـعانوا بالايتيوبيين فطمع الايتيوبيون فى حكومـة البلاد واستولوا على الإقليم القبلى وقاموا على الصـاويين يريدون إرجاعـهم عن عـزمهم فلم يقـدروا واستـمرت الحـال بين الفريقـين على ما هى عليـه إلى أن ظهر رجل اسـمه (تفنخت) فركب عـلى طائفة الايتيوبيين وردعهم وأسكن الفتنة، ولم يلبث أن ظهروا عليه وهزموه شر هزيمة فعاد إلى مصالحتـهم والاتفاق معهم على توليته حكم البـلاد تحت إمرتهم فولوه، فأسس الملك للعائلة الرابعـة والعشرين وكان هو رأسـها وعدد ملوكها خـمسة كمـا سيأتى بيانهم.

(الفصل السابع)

(فى ملوك الدولة الرابعة والعشرين الصاوية)

كان مبدأ ظهـور هذه الدولة سنة إحدى وعشرين وسبعـمائة قبل الميلاد أى سنة ثلاث وأربعين وثلثمائة وألـف قبل الهجرة، وكانت تخت حكمها مـدينة صا الحجر التى كـانت من أشـهر مـدن الديار المصـرية فى ذلك الحين. ولـذلك كانت تعـرف بالدولة الصاوية. وقـيل: ولم يملك منها سوى ملك واحد أو اثنين أو خـمسة وهو أصح على ما رواه مانيطون المؤرخ وسنو ملكهم ست. وقـيل إحدى وعشرون سنة، وقيل أربع وأربعون ولم يذكر أصحاب التاريخ سوى مآثر اثنين منهم وهما (تفنخت) الذى يقال له أيضاً (تخناتس) رأس هذه العـائلة وابنه الملك (باكوريس) الملقب (بوح كـارع) وتركوا أخـبـار الثـلاثة الأخر لاتفـاق وقـائعـهم مع وقائع وأخـبـار الملوك

الايتيوبيين، وهم ملوك الدولة الخامسة والعشرين السودانية الذين تغلبوا على بلاد مصر ونزعوا حكمها من يد الدولة الصاوية هذه.

(فى الملك تفنخت)
(الذى يسمى أيضاً)
(تخناتس)

ذكرنا فيما تقدم أن مصر إلى ذلك الحين كانت منقسمة إلى عشرين ولاية صغيرة وكان على كل ولاية منها ملك أو أمير مستقل بحكمها، ولكنه يخشى إغارة جاره على ولايته ولذلك كان بعضهم لبعض عدواً فحصن كل أمير ولايته وأكثر فيها من القلاع والحصون والرجال ومعدات القتال، وكان أكثر جندهم من المشواشيين وغيرهم من الأجانب. وقد ملؤوا أرض مصر من الحصون والمعاقل على الآكام وضفاف النيل والجزر والبحيرات وغير ذلك وكان الملك (تفنخت) هذا حاكماً على مدينة (نتر) التى يقال لها باللغة القبطية (منوتى) المجاورة لمدينة (كانوب) على بحر رشيد فتاقت نفسه إلى الملك وطمعت فيه فركب بقومه لقتال أقرب الولايات إليه وما زال حتى انتصر على ملكها فى عدة مواقع، ولما كثرت جموعه واشتد أزره بهم. قام لقتال بقية الملوك وقاموا لقتاله فاشتدت الحرب بينهم وكادوا يوقفونه عند حده، ثم صارت بينهم سجالاً إلى أن قويت شوكته فتغلب عليهم وظفر بهم وأخذ منهم قسم صا الحجر وقسم اتريب وقسم ليبيا وقسم منف ولم يتعرض للتنيسيين الذين هم بقية عائلة الملوك التنيسية الحاكمين على جميع البلاد شرقى الدلتا ثم سار بجيوشه إلى الصعيد فأذعن له بعض أمرائه بالرضا والتسليم وبعضهم بالقهر والغلبة، وما زال حتى وصل قسم أرمنت واستولى عليه وضرب الضرائب على قسم اهناس الجنوبية، وكانت هذه الأصقاع تابعة (لبعنخى) ملك الايتيوبيا فلما بلغ (بعنخى) خبر زحف (تفنخت) المذكور ركب لقتاله واقتتل الفريقان قتالاً شديداً للغاية فانتصر (بعنخى) ملك الأيتيوبيا على (تفنخت) نصراً مبيناً ، قال صاحب العقد الثمين: ونقش ذلك على حجر وجد بجبل برقل ونقل منه إلى متحف بولاق وهذا نص نقوشه التى ترجمها ده روجيه.

(فى غرة توت) سنة إحدى وعشرين من حكم ملك الوجه القبلى والبحرى (بعنخى) ميامون خلد ذكره صدر أمر منه بما نصه: اسمعوا ما فعلته زيادة عن أجدادى أنا الملك المخرج من سلالة مقدسة النائب عن المعبود (توم) اشتهرت بأنى

ملك منذ خروجى من ظلمة الأحشاء واحترمنى الأمراء... وميزتنى والدتى بسيما الملك من صغرى أنا المقدس الطيب محبوب المعبودات ابن الشمس (بعنخى ميامون) لما بلغنى أن (تفنخت) أمير الجنوب الحاكم الأكبر فى مدينة(نتر) تملك على... (قسم اكسوئيتس) وعلى مدينة (حعب...) وعلى مدينة (عين) وعلى مدينة (بنوب) المسماة باليونانية (مومنفيتس) وعلى مدينة (منف) واستولى على جهة الغرب من أول بلاد البحيرات أعنى (بوتو) إلى الحدود الفاصلة بين الصعيد والبحيرة، وسار نحو الجنوب بجيش جرار واجتمع معه سكان الإقليمين، وأطاعته الأمراء وأعيان البلاد، وصاروا تحت رجليه أذلة كالكلاب ولم يغلق دونه حصن فى الأقسام الجنوبية وسلمت له مدينة (ميدوم)، (وبيسخم خبر رع)، (والبهنسة)، و(نكاناش) وباقى المدن التى فى الجهة الغربية خوفاً منه ورجع إلى أقسام الجهة الشرقية ففتحت له البلاد وهى: (حابنو)، (وتايوحاى)، (وأطفيح) وزحف متقدّمًا إلى أن حاصر مدينة اهناس الجنوبية حصاراً تاماً من كل جهة ومنع الناس عن الدخول فيها والخروج منها واستمر فى قتالها حتى غلبها، وأبقى الأمراء الذين اعترفوا له بالسيادة فى أقسامهم وأباح لهم الحكم على البلاد كما كانوا عظموه بما يستحقه لذكاء عقله، فانشرح فؤاده.

قال: (بعنخى) وكانت تأتينى الرسل كل يوم من قبل الأمراء وقواد الجيوش سائلة عن سبب سكوتى وعدم مدافعتى عن بلاد وأقسام الوجه القبلى ومخبرة لى بأن (تفنخت) أخذها ولم يعارضه أحد وأن النمروذ رئيس الأشمونين وأمير (حاور) أى (مجالوبوليس) هدم حصون (نفروس) ودمر المدينة مخافة أن يأخذها (تفنخت) ثم التجأ إلى مدينة أخرى فاقتفى (تفنخت) أثره، فاضطر إلى الخروج عن حزبى والانضمام إليه وصار من جملة رعاياه، وأعطاه قسم اهناس الجنوبية وكافأه وغمره بجميع ما تمناه من الخيرات. فعند ذلك أرسلت إلى قوادى وضباط عساكرى الذين كانوا فى مصر بطيبة وهم (بورم)، (ولامر سكانى). وغيرهم من بقية ضباطى المقيمين بالجهات المصرية أن يستعدوا لقتاله ويسلبوا رجاله ومواشيه وسفنه التى فى النيل. ويمنعوا العمال عن الخروج إلى الغيطان والزراع عن الزرع ويحاصروا مدينة أرمنت ويهجموا عليها هجوماً متوالياً فذهبوا إلى حيث أمرتهم وأمددتهم بجنود أرسلتها إليهم ونصحتهم بنصائح عديدة قبل توجههم إلى القتال بقولى لا تهجموا أثناء الليل هجوم المتلاعبين بل اهجموا متى رأيتم أنه أعد جيوشه وخيوله للمسير إليكم، وإذا قيل لكم أنه جمع مشاته وخيالته فى مدينة أخرى فاثبتوا فى مكانكم إلى أن تأتى إليكم جنوده وقاتلوهم واهجموا عليه متى قيل لكم أنه نزل بجيوشه فى

أية مدينة وانضم إليه الرجال الذين أحضرهم لإعانته من رؤساء التهانيين وعساكر الوجه البحرى، أو متى نظم هيئة القتال على النمط القديم لأننا لا نعلم ما يريده من تشكيل عساكره المشاة وفرسانه الكماة وإذا اشتبكت الحرب فاعلموا أن (أمون) هو المعبود الذى أرسلنا إليهم، وإذا وصلتم إلى قسم (أوس) أمام مدينة طيبة فانزلوا فى النيل وطهروا أنفسكم منه وألبسوا ملابس الأعياد فى ساحل (تب) وضعوا عنكم القسى والسهم ولا يتعرض رئيس منكم إلى (أمون) صاحب الشجاعة. إذ بدونه لا يكون لفارسكم قوة لأنه يجبر الذراع الكسير ويفنى العدد الكثير وينصر الواحد على الألوف واغتسلوا فى مياه معابده واسجدوا له وقولوا ثبت أفئدتنا على الحق لنحارب فى ظل سيفك لأن المقاتلين الذين ترسلهم يبددون الألوف، فعند ذلك تواضعوا أمامى قائلين اسمك سيفنا وعملك مرشد لجيوشنا وخبزك فى جسمنا حيثما نذهب ومشروباتك تطفىء ظمأنا وشجاعتك سلاحنا والنصر مقرون باسمك، وحاشا أن يثبت جيش رئيسه معتد باغ فمن يشابهك أيها الملك المنصور الفعال بنفسك الآمر بالحرب وبعد ذلك انحدروا فى النيل إلى أن وصلوا طيبة، ففعلوا كل ما أوصاهم به ملكهم، ثم زحفوا منها منحدرين أيضاً فى النيل فقابلتهم سفن حربية سائرة إلى الجنوب مشحونة من الوجه البحرى بالملاحين والجنود والضباط الماهرين المدربين وكان مجيئهم لمحاربة جيش الملك (بعنخى) فحاربهم رجال الملك المذكور وقتلوا منهم جمًا غفيراً وأسروا باقى عساكرهم وسفنهم وأرسلوهم أحياء إلى محل إقامة الملك (بعنخى) ثم ساروا قاصدين مدينة اهناس الجنوبية لمحاربة أهلها فبلغ أمرهم إلى أمراء مركز الصعيد وهم النمروذ والملك (وابوت)، (وششنق) ملك المشواشيين بمدينة أبى صير (وتتا مناوف عنخ) ملك المشواشيين الأكبر بمدينة تمى الأمديد وابنه البكرى قائد الجيوش فى (باتوت ابرحو)، (وبوكوتفى) ولى العهد وجنوده وابنه البكرى (نس نقدى) رئيس المشواشيين فى قسم اتريب وجميع الأمراء المتوجين بريشة الوجه البحرى (وأوسوركون) أمير مدينة بسطة ومدينة (رع نفر) وجميع أعيان ورؤساء وحكام الأقسام الغربية والشرقية والبلاد الوسطى، وكانوا كلهم متفقين على رأى واحد وهو اتباع (تفنخت) رئيس الوجه القبلى الأكبر الحاكم على أقسام الوجه البحرى كاهن المعبودة (نيت) سيدة صا الحجر وكاهن (بتاح) فقدمت عليهم رجال (بعنخى) وأوقعوا بهم القتل الشديد، وأخذوا سفنهم من النيل ومن بقى منهم عبر النهر، وأقام جهة الغرب فى محل يدعى (بابيك) وفى صباح اليوم الثانى من تلك الواقعة اجتاز جيش (بعنخى) النيل مقتفياً أثرهم فأدركهم واختلطت الجنود بالجنود

وقتلوا كثيراً من رجالهم وخيولهم وحصل للباقين منهم رعب شديد فهربوا إلى الوجه البحرى منهزمين شر هزيمة. قال المترجم: ولم نقف على خسائرهم لكسر حصل فى الحجر. قال: ولما سمع النمروذ جنود الملك (بعنخى) شارعة فى أخذ بلدة أرمنت جمع من كان معه من رجاله وخيوله ورجع إليها وتحصن بها وكانت وقتئذ جيوش (بعنخى) مصطفة على النهر بساحل قسم أرمنت، فبلغهم رجوع النمروذ إلى بلده فحاصروها من جهاتها الأربع، ومنعوا الناس من الدخول إليها والخروج منها، وأرسلوا مكتوباً إلى الملك (بعنخى ميامون) يحتوى على أسماء من قتلوه من الأعداء فعند تلاوته اغتاظ وتلون كالنمر. وقال: لئن تركوا باقى جيوش الوجه البحرى أحياء أو مكنوا أحداً منهم من الهرب لمقابلة فرقته ولم يقتلوهم جميعاً وقت هزيمتهم فبحياتى وبحق المعبود (رع) وبحق أبى (أمون) لأقاتلن بنفسى وأهدمنّ جميع ما حصنه أهل الوجه البحرى وأحرمنهم نزول القتال ولكن يلزمنى قبل ذلك أن أعمل موسم رأس السنة بتجبل برقل وأقدم القربان لأبى (أمون) يوم موسمه العظيم الذى يتجلى فيه بالظهور عند حلول السنة الجديدة وأتوجه إلى طيبة لمشاهدته هناك فى موسمه العظيم وأخرج صورته فيها ليلة موسمه الجليل الطيبى الذى قرره له المعبود (رع) من قديم الزمان ثم أرجعه إلى معبده وأجلسه على تخته ثانى يوم هاتور المعد لدخوله فى المعبد. وبعد ذلك أذيق الوجه البحرى طعم سطواتى. ولما بلغ عساكره الذين كانوا بمصر أنه غضب عليهم توجهوا لقتال مدينة(واب) فى قسم (أوكسرنحوس) فأخذوها كموجة الماء المتطايرة وأرسلوا يخبرون ملكهم بذلك، فلم يسكن غضبه، ثم هجموا على (تهنى) وكانت مدينة حصينة فوجدوها غاصة برجال الوجه البحرى فعملوا متاريس حولها وهدموا أسوارها وأوقعوا القتل فى أهلها، ولم يعلم مقدار من قتل منهم إلا أنه كان فى زمرة القتلى ابن (تفنخت) أمير المشواشيين فأرسلوا يخبرون الملك بذلك فلم يسكن غضبه، فهجموا على (حيينو) وفتحوا أبوابها ودخلوا فيها وأرسلوا يبشرونه بذلك، فلم يسكن غضبه أيضاً فلما كان اليوم التاسع من شهر توت أتى (بعنخى) من بلاده إلى طيبة وعمل فيها موسم (أمون) السنوى المعتاد ثم توجه منها إلى أرمنت وخرج من مقعد سفينته ووضع النير على خيوله وركب عرباته فانتشر الفزع منه فى قلوب الناس إلى أقصى بلاد آسية. ثم برز للقتال وهجم على الأعداء وزأر عليهم كالأسد. وقال لهم: إذا ثابرتم على القتال أخرتم أوامرى بالعفو عنكم، وإن عزمتم على العصيان أذقت الوجه البحرى فزعاتى، فلم يسمعوا قوله فهزمتهم فرسانه شر

هزيمة ووضع معسكره فى الجهة القبلية الغربية من أرمنت وأخذ فى الهجوم عليها كل يوم وعمل متاريس من تراب لتحجب عنهم ما يأتى من أسوارها ووضع سلالم للارتقاء إليها ففوقت عليها الرماة سهامهم وألقى فيها الملقون أحجارهم واستمروا على قتال أهلها مدة ثلاثة أيام حتى فسد هواؤها وحرم أهلها استنشاق الهواء، فسلمت أرمنت عند ذلك مستغيثة بالملك وخرج منها رسل النمروذ حاملين من الأشياء العظيمة ما يسر الناظر كالذهب والحجارة النفيسة وأقمشة البسوس قائلين: لقد ظهر الملك وتاج الثعبان على رأسه وغيظه مكظوم، ولم نلبث إلا أياماً حتى أطعنا تاجه، فأرسل النمروذ امرأته بنت الملك (مستنت مح) لترجو زوجات الملك (بعنخى) وجواريه وبناته وأخواته (فى العفو عنهم) فسجدت أمام زوجات الملك فى القصر قائلة: أيتها الزوجات وبنات الملك وأخواته أغثننى وسكنّ غضب الملك صاحب القصر فما أكبر سطوته وما أعظم عدالته.

* سقط من الأصل خمسة عشر سطراً لكسر حصل فى الحجر

قال الراوى: فقال (بعنخى) للنمروذ: لقد سددت طريق الحياة على نفسك. فقال النمروذ: لو كنت صعدت نحو السماء كالسهم لأدركتنى، وكيف لا وقد غلبت بلاد الجنوب وأطاعتك بلاد الشمال فهل لنا أن نستظل بظلك فقد أفنى بأسك جميع رجالى فلا أب يرى مع ابنه حتى امتلأت البلاد بالأطفال ثم تواضع أمام جلالة الملك. وقال: لقد جعلتنى سطوتك فى هذا الحال فأنا أحد عبيدك الذين يدفعون الجزية لخزينتك فاحسب جزياتهم وأنا أعطيك أكثر منهم، ثم بادر بتقديم الفضة والذهب واللازورد والزبرجد والحديد والأحجار النفيسة المتنوعة بمقدار وافر حتى ملأ خزينة الملك بجزيته وأحضر حصاناً بيده اليمنى وآلة موسيقية مصوغة من الذهب واللازورد بيده اليسرى، فخرج الملك عند ذلك من قصره وتوجه إلى معبد (هرمس) سيد أرمنت وإلى هيكل المعبودات الثمانية المسمى باسمهم فأظهر له جنود قسم أرمنت الفرح. وقال له الكهنة: ما أعظم الملك (بعنخى) سلالة الشمس لقد جئت فى مدينتك فنرجوك ياحامى حوزة أرمنت أن تعمل لنا عيداً احتفاء بقدومك، فتوجه عند ذلك إلى المدينة ودخل قصر النمروذ وطاف على جميع حجراته وعاين الخزينة والمخازن وأمر بإحضار زوجات وبنات النمروذ، فأتين متواضعات لجلالته حسبما تعلم النساء من شئون التواضع، إلا أن الملك أعرض بوجهه عنهن ثم توجه إلى اصطبل الخيول وبيت المهارى فرأى أنهم كانوا تاركيها من غير أكل فأقسم بحياته وحق (رع) الذى يمنحه أنفاس الحياة الجديدة قائلاً: إن مجاعة خيولى أقبح ذنب فى

الذنوب التى فعلتها أيها النمروذ. فقال النمروذ: لا تغير قلبك بالغضب، سأخبر أيها السيد الخدم بغيظك المتسبب عن مجاعة خيولك. فقال (بعنخى): هل كنت تظن أنك تنسى ظل وجهى المقدس وأنهم يفرون من قوتى ولو كان إنسان غير معلوم عندى وفعل مثل ذلك لما سامحته أما يعلمون إنى مذ ظلمة الأحشاء خرجت من بيضة مقدسة ومنحنى المعبود جوهره فكان جسمى من جسمه فلا أفعل شيئاً دونه فهو الذى يرشد أعمالى، ثم وهب أموال أرمنت وما فى مخازنها لخزينة وأملاك (أمون رع) ساكن طيبة ثم جاءه ملك اهناس المدعو (بنابسط) بهدايا من ذهب وفضة وأحجار نفيسة ونجائب من خيول اصطبله وسجد أمامه قائلاً: السلام عليك أيها الملك الحاكم المنصور الثور الذى يبطش بالثيران. لقد كنت فى مكان سحيق تغشانى الظلمة وقد أضاء لى النور بعد الظلمات ولم أجد يوم الشدّة من يساعدنى فى القتال سواك أنت المنصور الذى أبدّت الظلمات عنى أنا عبدك ولك جميع ما أملكه وتدفع أهل اهناس الجزية لك فانظر كيف وضعنا تمثال (حورمخى) فوق تماثيل الكواكب. وكانت منزلتك عندنا كمنزلته، وكما لم ننقص قدره كذا لم ننقص قدرك أنت الملك (بعنخى) مخلد الذكر ثم توجه إلى (أين) إلى مكان يسمى (روهن) فوجد مدينة (براخم خبرع) أسوارها مرتفعة وأبوابها مغلقة وكانت ممتلئة بأبطال الوجه البحرى فأرسل يقول لهم: أيها المقيمون فى الموت الضعفاء المحقرون أنتم أيها المقيمون فى الموت لئن تأخرتم عن فتح المدينة لترون مايحل بكم من القتل ولو كان يشق على فلا تغلقوا عليكم الأبواب التى افتحها لنجاتكم من ضيق هذا اليوم، ولا تفضلوا الموت وتكرهوا الحياة بين الناس...

فأرسلوا يقولون له: حيث إن ظل المعبود على رأسك وأن ابن (نوت) أعانك بيده وكل ما رغبته كان مقضياً لك فى وقته ما كأنه إلا صادر من فم معبود وكيف لا وأنت ابن معبود كما نرى ذلك من أفعالك فالمدينة وأسوارها طوع يدك وأذن لنا بالدخول والخروج فأذن لهم بما تمنوه فخرجوا ومعهم ابن (تفنخت) رئيس المشواشيين ودخلت جنود (بعنخى) المدينة ولم يقتلوا أحدا من الناس الذين كانوا بها، وأرسل فى الحال (بعنخى) أمناء خزائنه ليختموا خزائن صكوك تلك المدينة، ثم أحصى بنفسه ما فى خزائنها وأشوانها وتطوع به لقرابين أبيه (أمون) ثم توجه إلى مدينة (ماريتوم) مسكن (سوكارى) صاحب النور فوجدها مغلقة الأبواب، ولما وصل إليها اضطربت قلوب أهلها مما حصل لهم من الرعب والفزع الذى أخرس ألسنتهم فأرسل يقول لهم: اختاروا أحد أمرين. إما أن تفتحوا الأبواب فتنجوا بحياتكم وإلا فتموتون لأنى لا أمر بمدينة مقفلة ففتحوا له أبواب المدينة فى الحال ودخلها وقدم

قرباناً إلى (منهى) فى مدينة (شات) وحصر الخزينة والأشوان وأعدها لقرابين (أمون) ثم توجه إلى مدينة (تاتوى) فوجد أسوارها مقفلة وحصونها مملوءة بأبطال الصعيد ولكنهم فتحوا أبوابها له وتواضعوا أمامه قائلين: أن أباك أورثك السيادة على الإقليمين فستملكهما وتكون السيد الحاكم على الدنيا ولما مر الملك بالمدينة قدم لمعبوداتها قرباناً عظيماً من ثيران وعجول وإوز ومن جميع الأشياء العظيمة وحصر خزائنها وأضافها إلى خزائنه ووهب ما فيها لقرابين (أمون) ولما قرب من منف أرسل يقول لسكانها لا تغلقوا أبوابكم ولا تحاربوا أيها الناس القاطنون فى المدينة لأنى سأدخل وأخرج بدون إساءة أحد كالمعبود (شو) الذى كان موجوداً فى القرون الأولى، وإن لم تتعرضوا لى فإنى أتقرب بقربان (لبتاح) ولمعبودات منف وأؤدى فى معبد (شيتى) الصلاة (لسكارى) وأشاهد (بتاح) وأذهب بسلام وأرأف بمنف وتنجوا من كل غائلة تبكى أولادكم واعتبروا بسكان الوجه القبلى فإنه لم يقتل منهم أحد سوى الذين أغضبوا المعبود ولم يصب العقاب إلا من طغى، فلم يسمعوا لقوله وأغلقوا أبوابهم دونه وأخرجوا منهم عساكر تقاتل فرقة من رجاله مؤلفة من شغالة ورؤساء عمارة وملاحين وكان ذلك على ساحل منف ، أما ما كان من أمر (تفنخت) أمير صا الحجر فإنه أتى إلى منف أثناء الليل. وقال مرارا لجنوده وملاحيه وجميع قواده وكانوا ثمانمائة ألف رجل إن منف صارت مستقر أعظم جنود الوجه البحرى والأشوان غاصة بالشعير والقمح وأنواع الحبوب وجميع عدد الأشغال... والسور مبنى والطابية الكبيرة محكمة حسب قوانين الحرب، والنهر محيط بشرقى المدينة ولا يجد العدوّ نقطة للهجوم منها عليكم، وأنتم تعلمون أن مراعينا مملوءة بالمواشى وخزانتى غاصة بأنواع الفضة والذهب والنحاس والملبوسات والعطريات والعسل فسأذهب وأعطى جميع ذلك لأمراء الوجه البحرى وأفتح لهم أقسامهم، فدافعوا عن أنفسكم إلى أن أعود إليكم فلما تم قوله ركب جواده لكونه أسرع من عربته. وذهب إلى الوجه البحرى خائفاً من الملك (بعنخى) ولما كان اليوم الثانى صباحاً قرب الملك (بعنخى) من منف ورسا على جهتها الشمالية فوجد الماء مرتفعاً إلى أسوارها والسفن راسية على سواحلها وتأملها فرآها محصنة منيعة لها سور مرتفع قد بنى جديداً واستحكامات قوية، ولم يجد فيها منفذا للهجوم عليها فتداولت فى شأنها رجاله بما تقتضيه أصول الحرب. وقالوا: إن الهجوم عليها أولى... ولكن نرى جنودها مستعدة فاستحسنوا رأياً آخر. وقالوا: نجمع كثباناً مساوية لارتفاع سورها ونضع عليها سلالم وننصب حولها السوارى وعروق الخشب

الطويلة ونضع فى محيطها متاريس من تراب للتمكن منها، وبعد رفع الأرض بارتفاع سورها نجد لنا سبيلاً للاستيلاء عليها، ولكن تلون ملكهم (بعنخى) تلون النمر. وقال وحياتى وحق المعبود (رع) وأبى (أمون) أنا أعلم أن ما حصل فى هذه المدينة من تحصين وغيره هو بأمر (أمون) أما سمعتم كلام سكان الوجه القبلى الذين فتحوا (لأمون) الطريق رغم أنفهم لكونهم لم يذكروه فى قلوبهم ولم يعرفوا قدر أوامره فخذلهم ليبين لهم قوته ويريهم هيبته فسآخذ هذه المدينة كريح عاصف بأمر (أمون) وفى الحال أمر قواده بتقريب سفنه ومراكبه وجنوده ليهجم على منف من جهة الساحل فأحضروا امتثالاً لأوامره جميع السفن والرواميس ومراكب النقل التى يمكنها المرسى على سواحل منف، وربطوا مقدمات السفن فى بيوت المدينة، ولم يشعر أحد بهم ولم ينزعج طفل من أطفالهم ثم أتى الملك ليسير السفن بنفسه وأمر رجاله بالهجوم على المدينة والإحداق بسورها والدخول فى بيوتها من النهر. وقال لهم: إذا تسور أحدكم سورها فلا يقف فى محله ولا تقاتلوا الرؤساء الذين يستسلمون لكم لأن هذا مذموم لا سيما وقد حاصرنا الآن الوجه القبلى، وقربنا من الوجه البحرى وصرنا فى وسط الإقليمين وبهذا التدبير أخذ منف كريح عاصف وقتل منها خلقاً كثيراً وأحضر بين يديه أسراها، ولما كان اليوم الثانى من هذه الواقعة أرسل جماعة يحافظون على المعابد ثم توجه بنفسه إلى هيكل معبودات منف، وقدم لهم قرباناً من المشروبات، وطهر المدينة بالنطرون والبخور وأرجع الكهنة إلى أماكنهم ثم توجه إلى معبد (بتاح) وتطهر ببابه وعمل مهرجان المملكة، ولما دخل فى المعبد قدم لأبيه (بتاح رسبتيف) قرباناً عظيماً من ثيران وعجول وأوز وغير ذلك من الأشياء النفيسة ثم دخل قصرها الملوكى وبلغه أن جميع البلاد التى فى ضواحى منف وهى (حريديمى)، (وبنينافوعع)، (وببوخن نبيو)، (وتاوحيبى) فتحت أبوابها وهربت رجالها ولم يعلموا أين المفر. ثم إن الملك (وابوت) وأمير المشواشيين (موكانشو) والأمير (بتيسيس) وجميع رؤساء الوجه البحرى أتوا بجزيتهم راجين أن يؤذن لهم باجتلاء أنوار الملك (بعنخى) وبعد ذلك تطوّع الملك (بعنخى) بخزينة وأشوان منف لقربانات (أمون)، (وبتاح) وباقى معبودات (حكابتاح). وفى اليوم الثانى توجه إلى الجهة الشرقية، وتقرب إلى (توم) فى مدينة (حزاو) وإلى معبوداتها فى هياكلهم وإلى معبودات مدينة (اماح) بقربان من ثيران وعجول وأوز راجياً أن يمنحوه السعادة، ثم توجه نحو المطرية من جهة (خر) وقصد طريق المعبود (سب) من جهة (خر) ومر بالمعسكر الذى كان فى جنوبى مدينة (مرتى) وقدّم قرباناً

لمعبوداتها، وتطهر فى المنبع الرطب وغسل وجهه من ماء (نو) حيثما تغسل الشمس وجهها ثم مر نحو (شيوكامان) وتقرب الشمس وقت شروقها بقربان من ثيران بيض ولبن وعطريات وبخور. وغير ذلك من أنواع الأخشاب ذات الرائحة الذكية ثم قصد معبد الشمس ودخله، وصلى فيه مرتين وطلب له الكاهن الأكبر من المعبود أن يهزم أعداءه، وبعد ذلك صلى الملك صلاة الباب ، قال المترجم: وهى صلاة مخصوصة عندهم ، وكسا الضريح وتبخر بالبخور، وتقرب للمعبود بمشروب، وأحضر له أزهار (الحبنبن) وهى المزروعة فى المعبد ليستخرج له منها العطر ثم ارتقى على الدرجات نحو الشباك الكبير لينظر الشمس فى ضريحها واختلى وحده ورفع المتراس وفتح الأبواب ونظر الشمس فى ضريحها وعظم السفينة المقدسة المعلقة فى مقام (رع وتوم) ثم أقفل الأبواب ووضع عليها طين ابليز وختم فوقه بالختم الملوكى. وقال للكاهن إنى وضعت ختماً فلا يجوز لأى ملك من الملوك أتى هنا أن يدخل فى هذا المحل فتواضع أمامه الكهنة قائلين: سيبقى هذا الختم محفوظاً مباركاً ولا يحصل له أدنى ضرر أيها الملك الحاكم محب المطرية، ثم استعد بعد ذلك للدخول فى معبد (توم) أدى فيه صلوات (انتا) لأبيه (توم خبرع) سيد المطرية وفى أثناء ذلك أتى (اسربون) إلى المطرية ليجتلى أنوار الملك (بعنخى) ولما كان اليوم الثانى توجه الملك (بعنخى) إلى الساحل الذى فيه سفنه، وسار منه إلى ساحل قسم اتريب وضرب خيمته فى جنوب مدينة (كهانى) التى كانت فى الجهة الشرقية من هذا القسم، فأتاه ملوك ورؤساء الوجه البحرى وجميع الأمراء والأعيان الممتازين بوضع الريش والظلل على رؤوسهم ومعهم أمراء وأولاد ملوك الوجه القبلى والبحرى والجهات الوسطى ليشاهدوا أنوار جلالته وبعد مثولهم بين يديه، تواضع الأمير (بتيسيس) لعظمته . وقال شرف أيها الملك قسم اتريب حفظتك المعبودة (خونت) لترى المعبود (خنتى خاتى) أى (حور) وقدم له فى معبده قرباناً من ثيران وعجول وأوز وادخل قصرى وافتح خزانتى وتصرف فى جميع ما يكون لأبى وسأعطيك من النفائس فوق ما ترغب من الذهب والزبرجد ومن الخيول أعظم ما فى اصطبلاتى فتوجه الملك أولاً إلى معبد (خنتى خاتى) سيد مدينة(كامور) وتقرب إليه بثيران وعجول وأوز، ثم توجه إلى قصر الأمير (بتيسيس) فقدم إليه هذا الأمير فضة وذهباً ولازوردا وزبرجدا. وغير ذلك من الملابس الملوكية والسرر المغطاة بالأقمشة الرفيعة ومقدارا عظيماً من عطر (انتا) وزيتا طيباً فى أوعية وخيلاً وأفراساً من أعظم خيول اصطبلاته، وحلف الأمير (بتيسيس) أمام ملوك ورؤساء الوجه البحرى. قائلاً: إن كل من خبأ خيوله وأخفى شيئاً مما يملكه فلابد من موته وإلحاقه بأبيه. وقد حذرتكم

لتمتنعوا من إخفاء شيء من أموالكم وإن كنتم تعلمون أني لم أظهر شيئاً مما أملكه فأخبروا الملك بما أخفيته في بيتي إن كان ذهباً أو فضة أو أحجاراً نفيسة أو أواني أو أساور أو عقود ذهب أو عقودا مرصعة بالحجارة النفيسة أو حلياً أو تيجاناً أو حلقاناً أو زينة ملوكية أو من أوان من ذهب للغسل أو حجارة نفيسة سوى ما قدمته إليه من الأقمشة والملابس والنفائس التي في قصري وعلمت أنها تعجبه وأرجوك أيها الملك أن تمر باصطبلي وتختار ما يوافقك من الخيول فقبل ذلك الملك منه وأمضاه الملوك والرؤساء وقالوا نحن أيضاً نذهب إلى مدننا ونفتح خزائننا ونتتخب منها ما يعجبك من أعظم ما في اصطبلاتنا من نجائب الخيل فأجابهم إلى ذلك وانصرفوا وكان هؤلاء الملوك هم (اساركون) ملك مدينتي (بسطة ورع نفر)، (ووابوت)، (تنترينو وتاعان)، (وتاتا من اف عنخ) رئيس مدينتي (تمى الامديد وتارع)، (وعنخ حور) رئيس العساكر في (باتوت ابيرجح)، (وموكانشو) بنوتس)، (وباحبي)، (وسمهور)، (وبتنف) رئيس المشواشيين الأكبر (بسوبتي)، (وابن سوبتي حز)، (وبحو) رئيس المشواشيين الأكبر في نير (وناسنا كاتي) رئيس المشواشيين الأكبر في قسم (حسب) ولعله قسم (نس)، (ونخت جورناسنو) رئيس المشواشيين الأكبر في قسم (باور) رئيس المشواشيه (وبنتابوخن) رئيس المشواشين وكاهن (حور) بمدينة (سخم ستوحارستمو)، (وحوربسا) رئيس قسمي (باسخت بنت سا)، (اسخت نسبرا حساوى)، (وتخيو) رئيس (ختينفر)، (وبابس) رئيس (وبحايي). قال الراوي ثم أتو بهداياهم العظيمة وكانت... من ذهب وفضة وسرر بالأقمشة الرفيعة وعطر في أوعية وغير ذلك من الهدايا العظيمة كالخيول ونحوها ولما قالوا للملك (بعنخي) أن رئيس مدينة (مسى) أغلق سورها خوفاً منك وأحرق بيته وتهيأ للقتال على النهر وملأ مدينته بالجنود... فعند ذلك أرسل الملك فرسانه لينظروا ماذا حصل من عدو الأمير (بتيسيس) فرجعوا إليه قائلين: نحن قتلنا جميع الرجال الذين وجدناهم في تلك المدينة فأعطى الملك أرضها للأمير (بتيسيس) ولما بلغ هذا الخبر (تفنخت) رئيس المشواشيين أرسل (لبعنخي) رسولاً يقول له: اكظم غيظك. فإني وجل من رؤيتك لعدم مقاومتي نار حربك وامتلأ قلبي بفزعك لأنك كمعبود الجنوب (نبتي) وكمعبود الشمال (مونت) الموصوف بالثور المنصور إن أردت شيئاً لم يعارضك أحد فيه أنا الآن وصلت جزائر البحر خشية من سطوتك ومن توبيخك المؤلم وتعنيفك الموجع. أما يسكن خاطرك بما حصل لي منك؟ ألا ترى أني صرت الآن حقيراً؟ فلا توقعني في شرك ذنبي لأن دقة الميزان تظهر الفروق الصغيرة فأسألك أن تضاعفها لي بالعفو منك واعلم أنك إن بذرت بذورا حصدت محصولها عند حلول

وقتها ولا تخلع الساق حينما يكون مكللاً بالأزهار، ولقد أوقعت الرعب فى قلبى وسرى فزعك فى سائر أعضائى حتى صرت لا أستقر لحظة فى حانة المشروبات ولا أتناول سوى الخبز إذا اشتد جوعى والماء إذا اشتد ظمئى ومذ بلغك اسمى بالعصيان ألم بجسمى الفزع وتصدع رأسى وخلقت ثيابى، وقد التجأت الآن لحمى المعبودة (نيت) فأتنى وانظر بوجهك نحوى وإن جحدت ذنبى أفلا يعفو السيد عن خادمه وخذ لخزانتك جميع ما أملكه من ذهب وحجارة نفيسة وأجود ما فى خيلى المعدّة بعددها وأتمنى عليك قدوم رسول من عندك ليزيل الرعب من قلبى وأذهب معه عند المعبود وأحلف يميناً أمامه بعدم العود فأرسل الملك إليه (بتامنستو) الكاهن الأكبر ومعه (بوارما) رئيس الجيوش فأعطاهما (تفنخت) فضة وذهباً وملابس وحجارة نفيسة متنوعة ثم توّجه معهما عند المعبود وتاب إليه وحلف يميناً مقدسة بأنه لا يخالف أوامر الملك ولا يتعدى أقواله ولا يسىء رئيساً من غير رضاه وأن يفعل طبق كلامه ويمتثل أمره فرضى الملك بذلك منه، وفى الحال جاءه البشير يقول له: إن مدنية (نترحاانبو) فتحت أبوابها ومدينة(أفروديتوبوليس) أذعنت لطاعتك ولا يوجد قسم من أقسام الجنوب والشمال والغرب والشرق مغلقاً دون جلالتك؛ وأن الأقاليم الوسطى تواضعت خوفاً منك وأتاك أهلها بأموالهم، واعترفوا أنهم رعيتك، ولما كان اليوم الثانى صباحاً أتى ملكا الوجه القبلى وملكا الوجه البحرى وتاج الثعبان مضىء على جباههم ومعهم رؤساء الوجه البحرى ليقدموا تحيتهم للملك (بعنخى) ويتشرفوا بلقائه وكانت فرائصهم ترتعد كفرائص النساء، فلم يؤذن لهم بالدخول لدى الملك لأنهم كانوا مدنسين بأكل السمك المحرم أكله فى محل الملوك، وإنما أذن فقط للنمروذ بالدخول فى قصر الملك لكونه طاهراً لم يأكل السمك المنهى عنه. وأما الباقون فإنهم لبثوا وقوفاً على الأقدام من غير أن يؤذن لهم بالدخول وبعد ذلك أزاد الملك (بعنخى) الرحيل إلى بلاده فشحن سفنه بما أهدى إليه من الذهب والنحاس والملابس والخيرات الواردة إليه من الوجه البحرى ومن الشام، ومن بلاد العرب، وسار فى النيل وقلبه مسرور وأهل مملكته مستبشرون به من الغرب إلى الشرق، فكانوا يستقبلونه مظهرين السرور، وكان كلما حل فى جهة رفع أهلها أصواتهم بالفرح قائلين: أيها الملك المنصور (بعنخى) لقد أتيت وحكمت الوجه البحرى وصيرت رجاله أذلة كالنساء وحل الفرح فى قلب أمك التى ولدتك فصرت شهمًا وأعطاك (أمون) جوهره فبشرى لك أيتها البقرة التى ولدت ثوراً كان له على مر الدهور ذكر مخلد وملك مؤبد. ألا وهو الملك المحب لقسم طيبة. انتهى.

وجعل الملك (بعنخى) مصـر تابعة لمملكته وأبقى لرؤسائها ما لـهم من الامتياز وجعل (تـفنخت) ملكاً عليهم بالأصـالة بعد أن كـان رئيسـاً على الجيوش المـصرية فاستقـر (تفنخت) بمدينة صا الحجر مقر حكومتـه الأصلية ورجع (بعنخى) إلى مقره بمدينة (نبتا) ونقل إليها تخت الملك من طيـبة ومنف بعد أن أرجع الأحوال فى مصر إلى سابق مجراها ولم يمض عليه بعد رجـوعه إلى (نبتا) إلا قليل حتى أدركه الموت فورثه فى الملك أميـر اسمه (كاتشا) لم يكن من بيت الملك، وإنما كان مـتزوجاً بابنة كاهن مصرى من العائلة الملوكية، قيل ولما انتقل إلى (كاتشا) المذكور الملك من عائلة (بعنخى) قام عليه أهل مصر وخرجوا عن طاعته فسحب جيوشه من الإقليم البحرى ومن مـصر الوسـطى وانحاز إلى بلاد الـسودان وفى هذه الأثناء مـات أيضـاً الملك (تفنخت) فقام بالأمر بعده ابنه المسمى (باكوريس) الملقب (بوح كارع).

(فى الملك باكوريس)

ولما استـقر (باكوريس) على كـرسى الملك حذا حـذو والده (تفنخت) وحارب أمراء الوجه البـحرى وولاة الأحكام فيه ونزع منهم مصر الوسطى والأقـاليم البحرية وجعل مـصر كلها تحت حكمـه واستقل بملكهـا ، وكان عاقـلاً مدربا ذا رأى ثاقب وخبرة بالأمور قاضـياً متشرعاً. وفى خلال هذه المدّة مات (كـاتشا) الذى قام بالأمر بعد (بعنخى) عن ولدين أحدهمـا اسمه (سباقـون) وثانيهما اسمه (امـريتس) فتولى سباقون بعد أبيه ولما علم بما فعله (باكوريس) ملك مصر سار لقتاله وكان (باكوريس) المذكور مبـغضاً من جميع الأمـراء المصريين لتغلبه عليـهم ونزع حكم البلاد منهم، فلما علموا بقـدوم (سباقون) انضمـوا إليه وعاونوه على قتاله كـما عاونوا (بعنخى) على قتال (تفنخت) فوقع (باكوريس) فى قبضة (سـباقون) فى مدينة صا الحجر فأمر بإلقـائه حيًّـا فى لهيب النار فـمات. وكـانت مدة حكمـه سبع سنين علـى ما رواه مانيطون المؤرخ وزال بموتـه الملك من العائلة الصاوية وانتـقل إلى الدولة الايتيـوبية، ونزح من بقى من العائلة الصاوية المذكورة إلى إقليم الدلتا وتفـرقوا فيها وقد أخذت أملاكهم ولبثوا بإقليم الدلتـا يتربصون خروج الايتيوبيين من مصر خـمسين سنة كما رواه هيرودوتس المؤرخ اليونانى. (قـال بعضهم) وقد كان السبب فى اسـتيلاء ملوك السودان على مـصر تغييـر الأحوال واختـلاف كلمة ملوك الدولة الرابعة والعـشرين وبغض بعضهم لـبعض، واشتداد المنازعات، وقـيام الفتنة فى داخلية البـلاد فعمت الرزايا والمحن وكـثرت الخطوب والإحن وزادت الانقـلابات والدسائس فى الأقـاليم

القبلية والبحرية. وقالت التوراة فى هذا الصدد ما نصه أن ملوك تنيس صاروا لا عقول لهم، وملوك منف ضلوا وأضلوا قومهم فقضينا أن نعطى مصر لملك جبار يتولى أمرها ويدبر شأنها، ففسر الأحبار الملك الجبار بالملك (سباقون) السودانى وهو رأس الدولة السودانية التى تولت ملك مصر وهو الملقب نفر كارع الآتى ذكره بعد.

(الفصل الثامن)

(فى الدولة الخامسة والعشرين السودانية)

كان مبدأ ظهور هذه الدولة سنة خمس عشرة وسبعمائة قبل الميلاد أى سنة سبع وثلاثين وثلثمائة وألف قبل الهجرة وعدد من ملك منها أربعة وسنو ملكهم خمسون سنة وقيل ثلاث وخمسون وأوّل ملوكها الملك سباقون.

(فى الملك سباقون)

قد كان ابتداء ملك سباقون هذا نحو سنة خمس عشرة وسبعمائة قبل الميلاد أى سنة سبع وثلاثين وألف قبل الهجرة بعد تغلبه على الملك باكوريس وإحراقه إياه وظفر بمملكة مصر فاتسع نطاق سلطته إلى البحر الأبيض وتكنى بكنى الملوك المصرية وتلقب بألقابهم الفرعونية وسار فى الرعية سيراً حسناً فدبر أمور البلاد أحسن تدبير وبث روح العدل بين أهلها وأبقى كل أمير والياً على إقليمه تحت سلطانه وملاحظة أمناء من أبناء جنسه وقد نظم الجسور وأصلح القناطر والترع والخلجان ورمم المبانى النافعة واصطنع المصانع العظيمة وبذل الجهد فى تعمير مدينة بسطة ورمم ما تهدم من مدينة منف وأعاد نقوشها إلى رونقها القديم وأصلح مدينة طيبة عاصمة الوجه القبلى وكان (سباقون) المذكور إذ ذاك تحت تصرف شقيقته الملكة (أمن ريتس) وأصلح بعض المعابد والهياكل. ويقال إنه أول من أبطل العقوبة بالقتل من قوانين البلاد فأحبه الناس ومالت إليه قلوب الرعية وعلت كلمته وبعد صيته فاستتبت الراحة فى داخلية البلاد ورفل أهلها فى حلل الرفاهية وثار فى أيامه ملك أشور على الفنيقيين والإسرائيليين وأهل فلسطين وأقلقهم بغزواته المتتابعة وكان الآشوريون أهل شدّة وبأس وصبر على الحروب فاتحدت الممالك الثلاث على أن تتعاهد مع ملك مصر وتحالفه على الذب والدفاع ليخلصوا من جور الأشوريين وتقدّم إليه هوشع ملك إسرائيل فى ذلك وأرسل إليه هدايا ورغب إليه فى معاقدتهم على قتال شلمناصر

ملك أشور فعاقدهم سباقون على ذلك طمعاً فى ضم بلادهم إلى مملكته كما فعل أسلافه وأخذ الهدايا فى مقام الجزية ، فلما علم شلمناصر ملك آشور بذلك احتال على هوشع ملك إسرائيل وما زال به حتى أسره وفاجأ قومه وركب عليهم فأخذهم جميعاً أسرى وألزمهم الطاعة فاعترفوا له بها ثم سار شلمناصر إلى مدينة سامرية وحاصرها وضيق حصارها ولكنه مات قبل فتحها وهو آخر بيت السلطنة الآشورية ، فلما مات اجتمع أعيان دولته واتفقوا على إقامة (سرخون) كبير قواد الجند ملكاً عليهم وبايعوه بالملك فلما استقر به المنصب شدد فى حصار سامرية حتى فتحها وزحف بجيشه على بلاد فلسطين وحارب ملكها (يهوبيد) وقتله فلما علم سباقون بذلك خاف وسار بعسكره إلى الشام وانضم إلى (حانون) ملك غزة وكان حليفه فالتقى هناك بجنود ملك آشور فى مدينة (رافيا) فانتشبت الحرب بين الفريقين فانهزمت الجنود المصرية والجنود الشامية ووقع (حانون) ملك غزة فى قبضة (سرخون) ملك آشور وهرب سباقون ملك مصر وهام فى القفار فضل عن الطريق فلقيه أحد الرعاة فدله على الطريق وسار معه من فلسطين إلى أرض مصر فزالت بهزيمته فى هذه المرة هيبته وعصاه أهل الوجه البحرى وخرج أمراؤه عن طاعته وطردوا من كانوا فيه من السودانيين وأخرجوهم إلى طيبة واستقلت حينئذ مدن صان وبسطة واهناس، وكان ممن بقى من أقارب الملك (باكوريس) آخر ملوك الدولة الرابعة والعشرين الصاوية رجل اسمه (اسطيفانيتس) فلما رأى خروج هذه المدن واستقلالها عمد لإرجاعها إلى ما كانت عليه ونادى لنفسه بالملك فتم له ذلك وتكنى بكنى الفراعنة وأرسل إلى (سرخون) ملك آشور يبشره بهزيمة عدوّه (سباقون) وفراره إلى الصعيد ويخبره برجوع حكم الأقاليم البحرية إلى أصحابه من المصريين أما (سباقون) فإنه لما استعصى عليه إخضاع الوجه البحرى فرّ إلى الصعيد ثم مات بعد قليل فقام بالأمر بعده ابنه (سبيخون) الملقب (بذد كورع) وتولى ملك الإيتيوبيا والأقاليم القبلية.

(فى الملك سبيخون)
(ويقال له أيضاً)
(شباناق)

(قال أويرت المؤرخ) بعد كلام ولقد كانت العائلة الصاوية قبل جلوس هذا الملك فى نزاع واختلاف مع العائلة الصانية بأسباب ملك الأقاليم البحرية ورغبة كل منهما

فى الاستيلاء عليه فلما آل إليه الملك عقد النية على الانتقام منهما جزاء ما فعلاه بأبيه سباقون فجيش الجيوش وأعد معدّات الحرب وأكثر منها وازداد همة وإقداماً بتفرق الكلمة بين المصريين ثم ركب عليهم وقاتلهم وأنشب نار الحرب فيهم فظهر عليهم وبسط يده على جميع الديار المصرية وحكمها ولكنه لم يلبث بعد هذه النصرة حتى ظهر عليه (طهراق) الملقب (نفرتوم خورع) وقتله وتولى الملك بعده.

(فى الملك طهراق)
(ويقال له أيضاً)
(تاراقوس)

هو ثالث ملوك الدولة السودانية الخامسة والعشرين، وكان رجلاً محارباً ظافراً ذا شوكة وبأس ولما استقر به المنصب ركب على العصاة والخوارج فبدد شملهم ونزع مدينة منف (من اسطيفانيتس) ملكها وكبير العائلة الصاوية، قالوا: واستقدم أمه من السودان فقدمت فلقبها بالحاكمة أم الإقليمين القبلى والبحرى وسيدة الأمم. كقول العلامة ده روچيه. وتحرك ملك آشور لقتاله فزحف بالآشوريين على مصر من ناحية الطينة. وقاتل طهراق قتالاً عنيفاً حتى هزمه فتقهقر بعسكره إلى مدينة (نبتا) تخت الإيتيوبيا فتبعه ملك آشور بجيوشه وأخذ منه منف وطيبة ونهب ما فى هياكلها من الأمتعة وأسر كهنتها وبعث بما ناله منها إلى بلاد آشور وأمر بوضع بعضها فى هياكلها لتكون شاهدة على نصرته على ملك مصر واستقر فى بلاد مصر وجعل ينظر فى إصلاح ما فسد من أحوالها وما اختل من أعمالها وأعاد أمراءها العشرين إلى مراكزهم وأرجع إليهم امتيازاتهم وضرب عليهم الجزية وجعلهم يتصرفون فى ولاياتهم، كانوا وأقام من بينهم الأمير (نخاو الأوّل) رئيساً عليهم وكان (اسطيفانيتس) فى هذا الحين قد مات وترك ابنا اسمه (نخبشو) فتولى حكم إقليم صا الحجر بعد أبيه تحت راية ملوك السودان وكان (نخبشو) المذكور ساحراً وفلكياً كبيراً على ما رواه (غاليان) ولكنه كان قليل الهيبة فأقام حاكماً على الإقليم المذكور حتى مات وخلفه (نخاو) الأول فترأس على أمراء البلاد وحكم تحت سلطة الملوك السودانيين مدة من الزمان حتى تغلب ملك آشور على (طهراق) فانحلت تابعية (نخاو) واستبد بالأمر وكان (نخاو) المذكور ذا غيرة ونشاط وحمية فلما انفرد بالحكم أخذ فى تتميم ما كان قد شرع فيه أسلافه منذ مائة سنة من إصلاح شئون البلاد وتوحيد حكومتها وتحالف مع ملك آشور ليحفظ لنفسه الرئاسة على أمراء مصر

واسترجع لحكمه مدينة منفق ولما تم لملك آشور الأمر ومهد الأحوال فى الديار المصرية أراد الرجوع إلى وطنه فحصن مصر ووضع فى قلاعها نفرا من عسكره للذب عن البلاد من غائلة السودانيين إذ كان فى عزمه الرجوع لقتالهم وإدخالهم تحت الطاعة ثم سار إلى نينوى ليعيد لها رونقها وفخرها القديم وكان قد دوخ مصر وأذلها وأهان عاصمتها طيبة الشهيرة كما فعل (توتوميس) الثالث (وامنوفيس) الثانى بمدينة نينوى منذ تسعة قرون.

ونقل صاحب العقد الثمين عن أويرت المؤرخ. فقال إنه لما وصل ملك آشور إلى نهر الكلب نقش على صخرة هناك بالقرب من الحجر الذى نصبه رمسيس الثانى شاهداً على نصرته نقوشاً كثيرة بين فيها فتكه بالمصريين والسودانيين ونسب لنفسه السلطنة عليهما، ولما كانت سنة تسع وستين وستمائة قبل الميلاد أصيب بمرض شديد منعه عن الدفاع فعاد حينئذ (طهراق) إلى مصر وهزم أهل آشور فى منف وخلص المدينة منهم بعد أن حاصرها حصاراً شديداً فبلغ أمره آشور أخا الدين، وكان قد أحس بالعجز عن القيام بواجب مملكته فتنازل عن الملك لابنه البكرى آشور بانبال ثم سكن بابل ومات فيها بعد ذلك بقليل فقام آشور بانبال بإحياء الملك وسار إلى مصر لمحاربة الإيتيوبيين، وضم إليه عساكر الآشوريين الذين كانوا بمصر ودخل فى الوجه البحرى فلم يعارضه أحد وجال فى البلاد إلى أن تقابل بالجيوش السودانية بجوار مدينة (كاربانيت) وتغلب على ملكهم (طهراق) وأخرج جيوشه من منف وطيبة فحلت بهما عساكره ومكثت فيهما مدة من الزمان وبعد انتهاء الحرب أرجع الحكم إلى الأمراء العشرين ثانياً وأصلح الأحوال كما كانت عليه منذ خمس سنين فى زمن آشور أخى الدين وظن بعد ذلك أن لا يعود الآشوريون إلى الحرب فعاد إلى وطنه إلا أنه لم يصادف ظنه محله إذ بوصوله إلى نينوى نشر (طهراق) لواء العصيان وعزم هذه المرة على الانتقام من المصريين لمساعدتهم أهل آشور عليه فهابه المصريون وأرسلوا له رسلا ليعقدوا معه معاهدة سرية مقتضاها مساعدتهم له على رجوع ملك مصر إليه فبلغ أمر هذه المعاهدة ولاة آشور الحاكمين فى مصر فبادروا بالقبض على رؤساء العصاة وهم (سادلودارى) رئيس إقليم تنيس (وباكرور) رئيس إقليم (باسوريتى)، (وتخلو) رئيس إقليم صا الحجر وأرسلوهم فى الأغلال إلى نينوى وحيث كان أول من عصى من الأقاليم البحرية هو إقليم صا الحجر (ومندس)، (وتنيس) نهبهم ولاة آشور ليكونوا عبرة لغيرهم ولكن لم يستطع هؤلاء الولاة صد

الملك (طهراق) حيث لم يكن لهم قبل بجنوده فرجعوا القهقرى أمامه واسترجع طهراق لملكه مدينة طيبة ومنف وأبطل منهما عبادة العجل (أبيس) الذى عكف المصريون على عبادته حديثاً ثم أخذ فى تهديد الوجه البحرى فلما بلغ ذلك ملك آشور أراد أن يحسن المعاملة مع أمراء مصر المأسورين عنده ليكونوا أعواناً له على عدوّه (طهراق) فطلب (نيخاو) وخلع عليه خلعة الشرف وأعطاه سيفا غمده من ذهب وعربة وخيولاً وبغالا ولكن لم يستصوب أن يرئسه على إقليم صا الحجر بل جعل ابنه (بسامتيك) الكبير حاكماً على قسم اتريب ورخص له فى الرحيل إلى مصر فعاد (نيخاو) ولم يجد فيها (طهراق)، حيث كان قد هاجرها وتوجه إلى بلاده لرؤيا رآها فى المنام كما رواه هيرودوتس، وكان قد حكم مصر عشرين سنة والإيتيوبيا خمسين سنة وبإخلائه الوجه البحرى احتله أهل آشور ودخلوا منف بدون قتال ولكنهم لم يتجاسروا على الجولان فى الجهات القبلية خشية من الإيتيوبيين وولى على مصر ثانى مرة أمراءها الأصليين فخلفه صهره (أورد أمن) وأعلن لنفسه بالسلطنة فيها على طيبة وجمع قوة وشرع فى مهاجمة أهل آشور حتى ظهر عليهم أمام منف فدخلوا فيها وأغلقوا عليهم أبوابها فلما طال عليهم الحصار سلموا أنفسهم إليه ووقع (نيخاو) فى قبضته فقتله ونجا منه (بسامتيك) بن (نيخاو) حيث فرّ هارباً إلى الشام كما رواه هيرودوتس ولما طال الأمر بهذه الحالة على ملك آشور عزم على قطع دابر الإيتيوبيين من مصر وأمر رجاله بالانتقام منهم فظهروا على (أوردأمن) وهرب إلى طيبة مؤملاً أن يجيش فيها جيشاً ويأخذ منهم بثأره فخاب منه الأمل إذ كانوا فى أثره ولم يمكنوه من طيبة ولا من تجنيد الجنود فيها فانحاز فى (كبكيت) بالإيتيوبيا ونهب الآشوريون طيبة وكانت آخذة فى إصلاح ما دمر منها مدّة الملك آشور أخى الدين سنة اثنتين وسبعين وستمائة قبل الميلاد وأسروا رجالها ونساءها وسلبوا أموالها من ذهب وفضة وحجارة نفيسة وجميع ما كان ادخره (منتوحع) فى معابدها من أقمشة فاخرة ونحوها وأخذوا أيضاً مسلتين نصبوهما فى نينوى حسب ما رواه (أنين مرسلين) وأرجعوا مصر إلى الحالة الآشورية التى كانت عليها فحكمها العشرون أميراً ثالث مرة وهم الذين كانوا متولين أمرها منذ ست أو سبع سنين وترأس عليهم هذه المرة (بسامتيك) ولكنه لم يصل إلى درجة والده (بخناو).

وأما (أورد أمن) فإنه لجأ إلى بلاد الإيتيوبيا ولم يرجع وبقيت مصر تابعة لمملكة آشور مدة من الدهر كما رواه أويرت إلى أن رأى آشور بانبال أن التملك عليها

يحتاج لكبير مشقة فتركها وتنازل عن سيادته فيها فآلت من بعده إلى (نوات ميامون) ملك الإيتيوبيا بعد أن استقلت بنفسها حينا من الدهر.

(فى الملك نوات ميامون)

(الملقب)

(بيكارع)

(قال أصحاب التاريخ) لم يتنازل ملك آشور عن سيادته على مصر إلا لاضمحلال دولته وضعف شوكته وخروج مصر عن طاعته فحكمت نفسها مدة فلما رأى ملك الإيتيوبيا خروج مصر عن طاعته واستقلالها فاجأها وأغار عليها وأدخل المصريين تحت حكمه وتحرير الخبر أنه لما مات (أورد أمن) ملك الإيتيوبيا قام بالأمر بعده ابنه (نوات ميامون) المذكور وكان حازماً قوى البطش فرأى فى منامه أنه سيملك إقليمى مصر القبلى والبحرى ففرح بهذه الرؤيا واستبشر بها وأخذ فى إعداد الجند ومعدات القتال وهاجم الوجه القبلى بجيش ضخم فلم ير من أهله مخالفة وكانت طائفة من الإيتيوبيين قد أقامت بطيبة وأسست فيها حزباً قوياً جداً وكذلك فى ضواحيها وحازت لنفسها رتبة الكهانة فى معبد (أمون) فأمدوا الملك (نوات) المذكور عندما هم بالإغارة على مصر وساعدوه ومهدوا له الموانع والعقبات فكان لذلك استيلاؤه على الوجه القبلى بغير مقاومة ولا منازعة وبعد أن رسخت قدمه فى الوجه القبلى سار لقتال الوجه البحرى فركب أمراؤه لقتاله أيضاً. فحاربهم وردهم خاسئين فانحازوا إلى القلاع والحصون ولم يبرزوا لقتاله وقد طال انتظاره فملّ وعاد إلى منف على غير هدى من أمره واجتمع الأمراء المذكورون وتشاوروا فى الأمر فأشار كبيرهم وصاحب الرأى فيهم المدعو (بكرور) بوجوب الطاعة إلى (نوات) وأن لا يخالفوا له امراً فوافقوه وساروا إلى لقاء (نوات) بمدينة منف وقدموا له الطاعة ففرح بذلك فرحاً عظيماً وتم له الأمر.

قال صاحب العقد الثمين ونقش هذه القصة على حجر وجده مريت باشا فى أطلال مدينة (نيتا) بجبل برقل سنة ثلاث وستين وثمانمائة وألف ميلادية وهو محفوظ الآن بمتحف بولاق وهذا تعريبه بديباجته.

(الديباجة)

ظهر الملك العظيم (نوات ميامون) يوم ولايته كالمعبود (توم) وحكم العالم فكان

ملكاً عظيماً حائزاً للسيادة على الدنيا بأسرها ذا ذراع منصور وعزم مشهور أوّل مبارز فى القتال ومحارب ذى قوّة كالمعبود(مونت) فى الصيال، وكان شجاعاً كالأسد المهول فطناً (كهيمشرت) أى هرمس المشهور ذا أبهة فى سياحته بالبحر لنوال المقصود سائداً على كل أرض وحدود، كيف لا وقد ملك مصر بدون قتال، ولا معارضة له من أمراء وأبطال ملك الوجه القبلى والبحرى (بيكارع) سلالة الشمس (نوات ميامون) محبوب (أمون) ساكن (نبتا)

(القصة)

(فى السنة الأولى من حكمه) رأى فى المنام أثناء الليل ثعبانين أحدهما على يمينه والآخر على يساره فلما استيقظ ولم يجدهما طلب من المعبرين تأويل هذه الرؤيا فقالوا له إنك ستملك الوجه القبلى والوجه البحرى ويضىء على رأسك تاجاهما وتدخل مصر تحت يدك طولاً وعرضاً ويكون (أمون) مساعداً لك دون غيره فى هذا الأمر فارتقى هذه السنة على كرسى الملك ثم خرج من محله كالأسد إذا انطلق من أجمته وصحبه كثير من الخلق. فقال لهم أحق رؤياى فأنال المرام أم هى أضغاث أحلام رأيتها فى المنام . ثم توجه إلى (نبتا) عاصمة الإيتيوبيا وقتئذ فلم يعارضه أحد عند دخوله فيها وتمتع بمشاهدة معبودها (أمون) فوق جبله المقدس وأحضر له الأزهار وأخرجه من محله وتقرب إليه بقربان يليق به وهو ستة وثلاثون ثورا وأربعون كأساً من المشروبات وتطوع له بمائة حمار ثم سار إلى مصر فى النيل بعد أن تضرع كثيراً لهذا المعبود ذى الاسم المكنون زيادة عن غيره من المعبودات ولما قرب من جزيرة أسوان عبر النيل وتوجه إليها ودخل هيكل (خنوم رع) معبود الشلالات وأخرج تمثاله وتقرب إليه بقربان كما تقرب بالخبز والمشروبات لمعبودات منبعى النيل ثم انحدر من عطفة النيل هناك وتوجه إلى مدينة (خفت جنبس) بقسم طيبة التابعة (لامون) وتوجه منها إلى مدينة طيبة ودخل هيكل معبودها (أمون رع) فقابله الكهنة والخدم وكللوه بأزهار هذا المعبود ذى الاسم المكنون فانشرح صدره لا سيما لدى مشاهدته المعبد ثم أخرج تمثال (أمون رع) وعمل له موسماً كبيراً فى جميع أرجاء البلد وبعد ذلك سافر فى النيل إلى الوجه البحرى فقابله سكان الشاطىء الشرقى والغربى مظهرين الفرح والسرور قائلين توجه مصحوباً بالسلامة فى ذاتك الأمن وفى جوهرك حياة الإقليمين توجه لتصلح الهياكل التى دمرت وتقيم تماثيل المعبودات كما كانت وتصرف لهم المرتبات وتبعث الرحمات إلى الأموات وترجع كل كاهن إلى محله لإحياء شعائر الدين. هذا ما كان من أمر الحزب المطيع

له وأما حزب العصاة الذين كانوا يريدون قتاله فتبدل بعضهم له خوفاً منه وخرجوا عليه بمجرد ما قرب من منف وحاربوه فأحدث فيهم مذبحة كبيرة لا يعلم فيها عدد القتلى واستولى على منف ثم زار معبد (بتاح رستيف) وتقرب إلى (بتاح سوكر) بقربان وتعبد إلى المعبودة (سوخت) الشهيرة بالمحبة وانشرح صدره مما فعلته المعبودات من مساعدته رعاية لمعبوده (أمون) ساكن (نبتا) وأمر بتوسيع معبد (بتاح) وأنشأ فيه إيواناً جديداً ولم يكن قبل فيه إيوان فبناه بحجر غشاه بالذهب وكساه بخشب الصنط وملأه بالبخور المحضر من بلاد العرب واتخذ أبوابه من النحاس الأحمر اللامع وطرازه من الحديد وبنى خلفه محلاً لحلب حيوانات المعبد، وكانت مائة وستة عشر رأساً من الماعز وكثيراً من العجول المطلقة خلف أمهاتها، وبعد أن أتم ذلك توجه لمحاربة أمراء الوجه البحرى فالتجئوا إلى أسوارهم وتركوا له الجهات فانتظر مبارزتهم مدة من الأيام فلم يبرز أحد لقتاله فعاد إلى منف واستقر بقصره هناك، وعزم على أن يرسل فرسانه فى طلبهم إلا أنه قبل توجه فرسانه أخبره حجابه بأنهم أتوا إلى الجهة التى كان ينتظرهم فيها فسأل ماذا يطلبون هل أتونى محاربين أم طائعين رجاء نجاتهم فسألهم الحجاب. فقالوا بل أتينا طائعين لمولانا الملك. فقال الملك: وجب على شكر (أمون) معبود طيبة العظيم فى جبله الكريم على كل من آمن به الحفيظ لكل من أحبه معطى القوة لكل من اتبع سبيله وأطاع أمره المرشد لكل من سلك طريقه. وهو الذى أرانى فى الليل ما نظرته فى النهار. ثم قال - إن ما يريده الأمراء لا يمكن إنجازه الآن فقالوا له إنهم وقوف بالباب فخرج من قصره وكانوا مؤمنين بالشمس المنيرة فى أفقها فلما رأوه خروا على جباهم احتراما لهيئته. فقال: لقد تحقق ما أخبرنى به المعبود وتأكد نفاذ أمره الموعود فسأفعل ما يأمرنى به ولى عبرة فى ذلك بما حصل لى الآن حيث تحقق لى وقوع ما أمر به وتأكد عندى أن الشمس المعبودة تحبنى وأن (أمون) جعلنى مباركاً وكيف لا وإنى تربصت هذا الأمر حتى تحقق لى وقوعه فأنا كخادم يسعى في مصالح سيده وعلى الخادم أن يعلم ما يليق بمولاه وليس لى أن أتعرض لطلب ما يعدنى به بل ينبغى أن أتربص لما سيقع لعل عنايته تسعدنى وتسعفنى. فقال الأمراء: نسأل هذا المعبود الذى نصحك أول الأمر أن يكون مرشداً لك ودليلاً وأن يجرى الخير على يدك وأن لا يكذبك فيما تقوله فأنت ملكنا وسيدنا وبعد ذلك قام (بكرور) ولى العهد وأمير مدينة (بسانبو) مخاطباً للملك بقوله:

إنك تميت وتحيى من تريد بدون أن يلومك أحد فتبعه الرؤساء جميعاً قائلين هل لنا أن نستنشق منك أيها الملك نسيم الحياة إذ لا معيشة لأحد من دونه فنحن نروم أن

نخدم (أمون) كتوابعك حسبما تمنيت يوم تسلطنك فلما سمع الملك كلامهم انشرح فؤاده وأعطاهم خبزاً ومشروبات وخيرات كثيرة وأبقاهم عنده عدة أيام وهو يغمرهم بالعطايا والإحسان مع كثرتهم ثم قالوا فيم الإقامة هنا ألم تتم مقاصد سيدنا وحاكمنا، فقال لهم الملك: لماذا تعجلون بالرحيل فقالوا يلزمنا الرجوع إلى بلادنا لنقوم بواجبات رعايانا وعبيدنا فأذن لهم بالذهاب إلى بلادهم والتمتع بمعيشتهم ثم أتاه سكان البلاد القبلية والبحرية مقدمين له الجزية والخيرات من الصعيد والبحيرة وبذا اطمأن قلب الملك (بيكارع) سلالة الشمس (نوات ميامون) سلطان الوجه القبلى والبحرى دام بصحة وعافية وحياة مرضية ودام ملكه إلى الأبد . اهـ.

ومات الملك (نوات ميامون) بعد أن حكم ثلاث سنين وبموته زالت الدولة الخامسة والعشرون وقامت بعدها الدولة السادسة والعشرون.

(الفصل التاسع)

(فى الدولة السادسة والعشرين الصاوية)

(قال أصحاب التاريخ) قد حصلت فترة بين مدة ملك الدولة الخامسة والعشرين وهذه الدولة التى هى السادسة والعشرون عبارة عن خمس عشرة سنة كانت فيها حكومة البلاد حكومة جمهورية التزامية. قالوا: وبيان ذلك أنه لما أحس أمراء البلاد المصرية بما ألم بالبلاد من الذل والعار والانحطاط والبوار بسبب بسط يد الأغراب عليها واستعظامهم البقاء تحت سلطنة الدولة السودانية مع ما بذلته هذه الدولة من مزيد العناية بأحوال الرعية وتحسين حالة البلاد بالعمائر العظيمة والمنافع الجليلة. قاموا وعقدوا معاهدة بينهم على إنقاذ البلاد من أيدى هؤلاء الطامعين واتحدوا قلباً وقالباً وقاتلوا الدولة السودانية قتالاً عنيفاً أياماً كثيرة حتى أجلوها عن البلاد ثم تقاسموا بينهم الملك فصارت بين اثنى عشر حاكماً من أمراء المدن المتعاهدين كل أمير يحكم مدينة إقليم ويحكم ذلك الإقليم بتمامه فسميت هذه الحكومة بالمقاسمة الاثنى عشرية فكانت عبارة عن جمهورية التزامية كما تقدم القول وكان من هؤلاء الأمراء أمير اسمه (بسامتيك) صاحب مدينة صا الحجر فتاقت نفسه إلى الاستقلال بالملك والاستبداد بالعظمة فقام وقاتل الأمراء وطال القتال بينهم كثيراً حتى خلص البلاد من أيديهم واستولى عليها واستبد بحكمها فصارت بعد ذلك مملكة واحدة. قالوا: وقد استعان بسماتيك هذا على نزع الحكومة من أيدى هؤلاء الأمراء بطائفة من جنود

اليونان المتطوعة فقد حكى هيرودوتس المؤرخ واقعة تملك بسامتيك على مصر واستبداده بحكمها على وجه غريب فقال إن بعض الكهنة كان قد أنبأ هؤلاء الأمراء المتعاهدين أنه سيأتى يوم يتقربون فيه جميعاً بالشراب إلى المعبود (بتاح) فيشرب أحدهم شرابه فى قدح من حديد فمن شرب فى هذه الكاس تولى ملك البلاد المصرية بأسره. قال: وكانوا يشربون شرابهم فى أقداح من ذهب فبينما كان هؤلاء الأمراء الاثنا عشر مجتمعين للتنادم على الشراب تقرباً إلى المعبود (بتاح) ولم تكن أقداح الذهب الموضوعة بينهم إلا أحد عشر قدحا لسهو حصل من الكاهن الموكل بتقديمها فبقى أحدهم وهو الأمير (بسامتيك) بدون قدح فنزع مغفره من رأسه وكان من حديد فشرب به الشراب فتذكر رفقاؤه ما أنبأ به الكاهن وتنبهوا لذلك فأكرهوه على أن يهاجر إلى بعض اجمات الوجه البحرى خشية أن يستبد بالملك دونهم فأقام بتلك الأصقاع منفيا وبينما هو كذلك استقدم إليه أحد الكهان وسأله عما سيقع له فبشره بأنه سيأتى يوم يستبد فيه وحده بحكم البلاد وأن ينصره على أعدائه رجال من حديد يقدمون عليه من جهات البحر الأبيض فاتفق أنه رسا على سواحل مصر جماعة أصحاب صيال من ملاحى اليونان مسلحين بأسلحة من حديد وطلعوا إلى البر على مقربة من منازل (بسامتيك) يريدون النهب والسلب فلما علم (بسامتيك) بنزولهم فطن لأمرهم وتذكر بشرى الكاهن له فبادر إليهم ورحب بهم وأكرم نزلهم ووعدهم بالأنعام فعاهدوه وحالفهم على أن ينصروه فحالفوه ودخلوا فى خدمته فقام بهم على الأمراء وشن الغارة عليهم وانحاز إليه أيضاًحزبه من أهل البلاد فتلاقى جند الفريقين واقتتلوا فظفر (بسامتيك) بهم وخلعهم من مناصبهم واستبد بالملك وحده فكان هو مبدأ العائلة الصاوية السادسة والعشرين وبه عاد إلى مصر مجدها الأول وشوكتها القديمة وطمحت إلى الغزوات والفتوحات الجسيمة فنالت من توسيع دائرة ملكها بعد الضعف ما شاءت وقد حقق بعض أهل الاستكشافات الجديدة أن الدولة الاثنى عشرية أقامت متحالفة خمس عشرة سنة ويظهر لبعض المؤرخين أن ملوك الدولة السادسة والعشرين المذكورة بل والأمراء الاثنى عشرية أيضاً هم من نسل الأمراء الأغراب وأنهم من مغاربة برقة وأنه قدجعلهم كثير من المؤرخين من أبناء أمراء مصر المتأصلين ولكنهم مع ذلك كانوا من الشهرة وعلو الهمة بمكان إذ أورثوا البلاد السعادة والرفاهية مدّة مائة سنة وثمان وثمانين سنة بما فعلوه من إحياء العلوم والفنون والصنائع وبناء الهياكل القديمة بعد اندراسها وتجديد المعابد العظيمة، وغير ذلك من الأعمال الجسيمة التى أحدثوها بمدينة صاالحجر تخت ملكهم (قال بعض كتاب الأخبار) ولم تزل بقايا تلك الأعمال إلى الآن تدل على عظم تلك

المدينة التى كان حولها ما لا يحصى من الحدائق والبساتين والطيور المغرّدة والوحوش المستأنسة والأنهار المطردة والرياض المونقة والقصور المرتفعة ما لا يدخل تحت الوصف وبظهور (بسامتيك) المذكور ظهرت الدولة السادسة والعشرون فكان مبدأ ظهورها سنة خمس وستين وستمائة قبل الميلاد أى سنة سبع وثمانين ومائتين وألف قبل الهجرة ومدّة حكمها مائة سنة وثمان وثلاثون سنة وعدد ملوكها تسعة وقيل ستة وسيأتى ذكر مآثر كل منهم بعد.

(فى الملك بسامتيك الأول)

(تولى بسامتيك المذكور) الملك مستقلاً سنة خمس وستين وستمائة قبل الميلاد المسيحى أى سنة سبع وثمانين ومائتين وألف قبل الهجرة المحمدية، وكان رجلاً حازماً محمود السيرة محباً للعلوم والفنون والصنائع فلما استقر به المنصب وسع ملكه بالفتوحات ففتح الأقاليم القبلية بدون قتال واتصل بالشلال الأول وتزوّج بالأميرة (شابنت تب) بنت الملكة (أمن ريتس) التى كانت حاكمة على الأقاليم القبلية ليحفظ لنفسه ولذريته من بعده الملك حسب الرسوم القديمة إذ كان لا يعتبر الملك ملكاً حقيقياً إلا إذا كان متأصلاً أو متزوجاً من بيت الملك كما تقدم الكلام على ذلك فى محله، وكانت مصر فى سلطنته قد مات أكثر رجالها وتولاها الخراب بأسباب حروبها المتتابعة مع الآشوريين والإيتيوبيين فقد حاصر الآشوريون مدينة منف ونهبوها ودمروا مدينة طيبة وأحرقوها مرتين وخربوا أكثر المدن والبلاد العظيمة فاشتغل المصريون بقتال الأعداء والدفاع عن الوطن وتركوا النظر فى المنافع العمومية فطمت الترع وسدت الطرق التى عنى سباقون الملك بفتحها واندرست معالم تلك الأعمال النافعة أو كادت وزالت بهجتها فعمد (بسامتيك) الملك إلى إحياء البلاد وإعادة رونقها القديم فأصلح الترع وسهل الطرق وأعاد الأمن والراحة إلى سابق مجراهما وبث العلوم والصنائع بين الرعية وعمر بيوت العبادة وبنى واجهات معبد (بتاح) فى مدينة منف من الجهتين الشرقية والقبلية وأنشأ فيها طرّقات على عمد عديدة وبنى القاعة الكبرى التى كان يعلف فيها الثور (أبيس) وأصلح ما تهدم فى معبد الكرنك وحث الناس على اكتساب العلوم والمعارف وشدد عزائم أمرائه وكبار دولته على ذلك فاتقنت فى أيامه صناعة النقش والتصوير والرسم والتمثيل وجمعت التماثيل بين التناسب والاعتدال وتساوت فيها الأعضاء من حيث التناسب، وقد كانت فى عصر ملوك منف والملك رمسيس الثانى تصنع إما عريضة وإما كبيرة غير متناسبة الأعضاء وأحسن سياسته مع بقية الممالك وشيد حصون البلاد وحصن

قلاعها وأنشأ المعاقل فى مضايق طريق الشام من الجهة الشرقية وفى ضواحى بحيرة المنزلة من الجهة الغربية وفى الشلال الأول من الجهة القبلية إذ كان للمصريين أعداء ثلاثة لا ينكفون عن شن الغارة عليهم واختلاس الفرص المناسبة للظفر بهم وهم الآشوريون من شمالها والإيتيوبيون من جنوبها ومملكة القيروان التى استحدثها اليونان على شمالها أيضاً، وقد نزلت بها طوائف من مغاربة ليبيا وحصن مدينة (دفنه) القريبة من قلعة (تسال) لمنع إغارة الآشوريين ووضع فى جزيرة (أسوان) ، (ومريا) مرابطين لمنع إغارة مغاربة برقة والسودان كما رواه هيرودوتس (قال ليبسيوس) فلما أتم هذه الحصون والمعاقل انتقل من حالة الدفاع إلى حالة الهجوم فغزا النوبة واستظهر عليها ولم يعلم تفصيل هذه الواقعة غير أن جنود اليونان الذين استأجرهم لهذه الغزوة نقشوا اسمه وأسماء قواد جنوده على جدران التماثيل الموجودة فى معبد (أبى سنبل) . اهـ. ويقول المصريون إنهم دخلوا (قرقميش) التى على مقربة من الشلال الثانى وأدخلوها تحت حكم مصر وسماها اليونان بعد ذلك (دوديكاشين) أى اثنى عشر شيئاً وذلك لأن المسافة الواقعة بينها من الجهة الجنوبية وبين جزيرة أسوان هى اثنا عشر شيئاً يعنى ثلاثين مرحلة ثم سار بجنوده أيضاً يريد فتح الشام فقاتل أهل فلسطين وملكها وأخذ مدينة (اشدود) إحدى مدائن الكنعانيين ولم يتوغل فى داخلية البلاد بعد هذه الغزوات.

قال هيرودوتس المؤرخ وبعد هذه الفتوحات حلت بمصر مصيبة عظيمة وداهية جسيمة وذلك أن (بسامتيك) المذكور سلك مسالك أسلافه الفراعنة من تقريب الغرباء إليه وتوطينهم فى بلاده فرغب فى مصر الأغراب وأتوها من كل صوب وحدب ووفد إليه كثير من اليونان والكاريين فأكرم نزلهم وأقطعهم أرضاً على سواحل بحر الطينة (قال استرابون) وفى ذلك الوقت جاء إلى مصر أيضاً أقوام من الميليزيين فى ثلاثين سفينة فرسوا بها على سواحل رشيد ونزلوا هناك وأنشأوا فى ذلك الموقع العظيم معسكراً كبيراً للغاية وأقاموا لهم أحكاماً مخصوصة سموها بالمعسكرى (الميليزى) وانحاز إليهم أيضاً آخرون من الأغراب النزلاء فكثروا ونموا وقويت شوكتهم وأرسل لهم (بسامتيك) الملك بعض الغلمان من المصريين ليعلموهم اللغة اليونانية ليترجموا منها ما يحتاج إليه الحال باللغة المصرية فتخرج الكثير من هؤلاء الغلمان واتسع بسبب ذلك نطاق التجارة فنهضوا إلى تأسيس مدرسة فى الإقليم البحرى لتعليم الشبان فن الترجمة وظن بسامتيك الملك أنه باختلاط قومه بأمة برعت فى الصناعة تنبث فيهم بأسباب هذا الاختلاط روح البراعة فيصيرون مع تمادى

الوقت بارعين كرجال تلك الأمة، ولكنه لم يصب ظنه المرمى الصحيح إذ كان الغرباء يسعون منذ قرنين فى تكدير راحة البلاد وإيرادها موارد البوار وقد كره المصريون لذلك مخالطتهم ولا سيما مخالطة اليونان الذين أتوا إلى مصر فى ذلك الحين وما قبله بقليل ، قال بعض المؤرخين: وربما كان للمصريين بعض الميل إلى الأمم التى كانوا يعرفونها قديماً كالفنيقيين والإسرائيليين والآشوريين ولكنهم لا يحبون من حدث عليهم من نزلاء اليونان.

ولما استقر اليونان بمصر شاهدوا من المصريين التمدن والفلاح فأولعوا بمصر ومالوا إلى ديانتها وعلومها فأرادوا أن يذهبوا بعبادتهم مذهب عبادة مصر وأن يخلطوا عائلاتهم الشهيرة بالعائلات الملوكية المصرية فشبهوا معبودهم (أثينه) بمعبود المصريين (نيت) الذى بصاالحجر كما رواه ديودور الصقلى. قال هيرودوتس المؤرخ وأكثروا من تلك التشبيهات حتى ملئوا كتبهم منها وأدخلوا أطفالهم المدارس المصرية ليتعلموا فيها العلوم والحكمة فمن تخرج عليها من مشاهير اليونان (سولون)، (وفيساغورس)، (وأدوكس)، (وأفلاطون) ومع ذلك فقد كان المصريون ينظرون إليهم بعين المقت ويعتبرونهم أمة نجسة فكانوا يجتنبون معاشرتهم كى لا ينجسوا منهم بل كانت العامة من المصريين لا تأكل ولا تشرب مع اليونان ولا تستعمل سكاكينهم ولا طناجرهم وكان أصحاب المظاهر يعتبرونهم كطفل جاهل شب بين عائلة أصلها متوحش فكانوا يخفون هذه الكراهة ثم ظهرت بعد ذلك للعيان إذ كثر ميل الملك (بسامتيك) إليهم أى إلى اليونان وإلى الكاريين إحدى طوائفهم فكان يعطيهم الرتب العالية ويقربهم منه لمساعدتهم إياه على قهر أعدائه كما تقدّم القول واتخذ له منهم حراساً وألف منهم جناح الجيش الأيمن الذى هو علامة الشرف والنصرة وأقام منهم المرابطين بعد أن كان المحافظون على البلاد من المصريين والمشواشيين وقد اختصوا بها من قديم الزمان فلما رأوا هذا كله ولا سيما نزع المحافظة على البلاد من أيديهم وبقاء عساكر اليونان المحافظين على (مريا) ، (ودفنه) وجزيرة أسوان بدون تغيير ولا انتقال من مراكزهم مدة ثلاث سنين خلافاً للنظام المتبع فى ذلك هاجوا وماجوا وعزموا على ترك الأوطان فاجتمعوا وتشاوروا فى الأمر فاستقر رأيهم على أن الرحيل وترك الأهل والوطن خير من الخروج وشق عصا الطاعة فاجتمع منهم نحو المائتين وأربعين ألفا وكلهم شاكو السلاح وساروا قاصدين بلاد الإيتيوبيا ولم يصل خبرهم إلى (بسامتيك) الملك إلا بعد خروجهم من مصر فسار فى إثرهم فى عدة كثيرة من قومه حتى لحقهم وأخذ يلاطفهم ويستعطفهم

أن لا يتركوا معبودات بلادهم ولا يفارقوا أهلهم وولدهم فقال له أحدهم لا حاجة لنا بك الآن فإننا نرزق بنساء وأولاد فى أى أرض كنا وساروا فى طريقهم فرجع بسامتيك على عقبه ومازالوا حتى دخلوا بلاد الإيتيوبيا فتلقاهم ملكها بالترحيب وأكرم نزلهم واتخذهم له جنداً ثم أنزلهم بين النيل الأبيض والنيل الأزرق فنشأت منهم أمة عظيمة شديدة البأس اشتهرت بطائفة (الاسماخ) أى حجاب ميسرة الملك كما رواه هيرودوتس ثم سماهم السياحون من اليونان (أتومولیس وسمبرتيس) فبقى هذا الاسم مشهوراً بهم إلى القرن الأول من الميلاد.

وقد عاد بسامتيك الملك فندم على فعله حيث رأى أن المحافظة على بلاده أمست فى قبضة الأجانب من اليونان بعد أن كانت فى أيدى أهلها وشق عليه الأمر جداً ولكن هيهات أن يرد ما فات فجعل يشتغل بتنظيم جيش جديد من أبناءالبلاد وأنشأ سفنا للحرب وغير ذلك من وسائل الدفاع إلى أن مات كما رواه هيرودوتس سنة إحدى عشرة وستمائة قبل الميلاد ودفن فى مدينة صاالحجر فقام بالأمر بعده ابنه (نيخاوس) الثانى المعروف بفرعون الأعرج وكانت مدة حكم بسامتيك نحو أربع وخمسين سنة.

(فى الملك نيخاوس الثانى)
(المعروف)
(بفرعون الأعرج)

تولى الملك بعد موت أبيه (بسامتيك) وكان كأبيه له عناية واهتمام بتحسين أحوال الرعية وتوسيع دائرة التجارة وكان ميالاً إلى الغزو والفتوح واتساع المملكة ونفوذ الكلمة فاهتم بالعساكر والأجناد الذين نظمهم أبوه وأكثر من إنشاء السفن الحربية وفتح على الشام أبواب الحرب وما زالت جنوده تقاتل حتى هزمت جنود الشام وتغلبت على كثير من المدائن وتملك عليها من البر والبحر وقتل ملكها (يوشيا) فى مجدل المذكورة فى التوراة باسم مجدو فبايع أهل الشام ولده يهويا حاز فقاتله (نيخاوس) وظفر به وخلعه وذلك عند رجوعه من غزوة بابل وولى مكانه أخاه (الياقيم) وضرب الخراج على شعب يهوذا فى كل عام مائة وزنة من الفضة ووزنة من الذهب وجاء بيهويا حاز إلى مصر أسيراً وبقى بها إلى أن مات وفى أيام (الياقيم) هذا تولى بختنصر الأول ملكاً على بابل فجهز الجيوش وأكثر من معدات الحرب وزحف على أورشليم وملكها واسترد ما كان قد أخذه (نيخاوس) فرعون

مصر من بلاده فانقطع بذلك حكم فرعون عن أورشليم وخسر ما كان اكتسبه من الممالك والمدن فى آسية وعقد مهادنة مع (بختنصر). وقد كان (بختنصر) على عزم مهاجمة مصر وأخذها عنوة وعاد فى نفر قليل إلى بابل من طريق صحراء العرب كما رواه بيروس.

قال بعض المؤرخين ولما عاد الملك (نيخاوس) إلى مصر لم يسكن غضبه على ملك بابل وقومه الآشوريين ولم يهدأ له بال فجيش جيشاً عظيماً وأعد كثيراً من سفن الحرب وعمد إلى إثارة الفتن بين الآشوريين ودس إلى (الياقيم) ملك يهوذا أن يخرج على ملك الآشوريين. وكان (الياقيم) يبغض ملك آشور وينقم عليه لتسلطه على مملكة يهوذا فأطاع لذلك (نيخاوس) وعصى (بختنصر) وخرج عن طاعته فسار إليه (بختنصر) فى جيش عظيم وحاربه حتى أستظهر عليه وضرب عليه الجزية فعاد (نيخاوس) وحرضه على الخروج ثانية فعصى ونكث عهده مع (بختنصر) فأرسل إليه (بختنصر) قائداً من قواده ومعه عساكر بنى (أمون)، (ومواب) فحاصروا أورشليم وشددوا عليها الحصار وفى أثناء ذلك مات (الياقيم) فقام بالأمر بعده ابنه وحضر (بختنصر) إلى أورشليم وأمر فشددوا عليها الحصار حتى استسلمت فخرب بيت المقدس وأخذ ما فيه من الخزائن والتحف وكذلك ما فى خزائن ملك يهوذا ، قال مانيطون ، ومع ذلك فقد مات (نيخاوس) المذكور بعد هذه الغزوات بستين ولم يبلغ المراد بأخذ بلاد الشام وكان (نيخاوس) المذكور ذا عناية شديدة بتدبير داخلية مملكته وتحسين أحوال رعيته وتوسيع نطاق التجارة فتواتر فى أيامه الاختلاط بالأجانب واتسعت فروع المعاملات كما تقدم القول فخطر على باله أن يصل بحر القلزم بالبحر الأبيض الرومى بواسطة قطع برزخ السويس بترعة موصلة إلى النيل على امتداد أربع مراحل بحرية عرضها يسع سفينتين متحاذيتين ومبدأ هذه الترعة من مدينة بسطة وآخرها بركة التمساح التى كانت تسمى قديماً بالبحيرة المرة حيث كان بحر القلزم يومئذ فشرع فى هذا العمل الجسيم وجدّ فيه وبالغ فى الاجتهاد فمات فيه من العمال مائة وعشرون ألفاً على ما حكاه هيرودوتس المؤرخ فأوقف (نيخاوس) العمل نظراً لما أخبره به بعض الكهان من أن حظ الانتفاع بهذا المشروع الخطير لا يكون إلا لدولة أجنبية قال (ارسطاطاليس) إنما ترك (نيخاوس) وغيره من الفراعنة هذا العمل بعد أن ابتدؤا فيه لما أعلمهم المهندسون بأن سطح البحر الأحمر أعلى من أرض مصر فلذلك لم ينته العمل إلا إلى بركة التمساح. قال بعض المؤرخين: وقد شرع دارا الأكبر ملك فارس فى فتح هذا البرزخ ولكنه عاد فأوقف العمل خوفاً من غرق البلاد

بسبب ارتفاع سطح البحر الأحمر عن أرض مصر ثم أتى الملوك البطالسة من بعد فتمموه وأوصلوه إلى بحر القلزم واستعانوا على حفظ الأراضى المصرية من التلف بأبواب وأقفال ورياحات فسهلت بأحداثه أسباب النقل وراجت التجارة، ولكنه لم يلبث أن طمّ وبقى كذلك إلى دخول عمرو بن العاص مصر بجيوش المسلمين فأمر أميرالمؤمنين عمر بن الخطاب بفتحه ثم سد فى زمن المنصور الدوانقى العباسى.

قلت: وقد فتحه ديلسبس الفرنساوى على عهد الخديو إسماعيل وصار خط الانتفاع به لدولة أجنبية هى دولة الإنجليز - كما قاله الكاهن المصرى.

ولم يقعد الكف عن فتح البرزخ المذكور للملك (نيخاوس) همة ولا أضعف له عزيمة بل تاقت نفسه إلى معرفة محيط قطعة إفريقية؛ والوقوف على مسالكها البحرية، وكان أهل صور وقرطاجة قد استكشفوا سواحلها ورأوا فى بعض بلدانها كثيراً من الذهب والعاج والأخشاب النفيسة والخيرات العظيمة ولكنهم لم يأتوا منها بشىء لما بين الأمتين من البغضاء والشحناء، وقد حرموها على أنفسهم ومنعوا غيرهم من الوصول إليها فأرسل (نيخاوس) طائفة من ملاحى (الفنيقيين) بسفنهم إلى تلك البلدان فطافوا حول إفريقية فى ثلاث سنين وكان مسيرهم من البحر الأحمر ومنه إلى المحيط الهندى ثم إلى المحيط الأطلانطيقى حتى بلغوا بوغاز جبل طارق فعبروا منه إلى البحر الأبيض وساروا حتى وصلوا إلى مصر وحرروا بالدقة ما ظهر لهم من الأماكن والمسافات فعلمت سواحل إفريقية وما حولها من البحار على وجه صحيح، ولكن لم يلبث علمها حتى غاب عن العقول وتناساه الناس وكأنه لم يكن شيئاً مذكوراً.

(ومات نيخاوس) الملك بعد أن حكم سبع عشرة سنة كما رواه مانيطون الكاهن. وقال هيرودوتس بل ست عشرة سنة والأوّل أصح وأشهر. فقام بالأمر بعده ابنه (بسامتيك) الثانى الملقب بـ (سنفرأبرع).

(فى الملك بسامتيك الثانى)

(تولى الملك بعد أبيه) ولم يستقر به المنصب حتى قام عليه ملك الإيتيوبيا فسار لقتاله فى سنة إحدى وتسعين وخمسمائة قبل الميلاد وغزاه وظفر به ومات عند رجوعه من الغزو فى نحو السنة السادسة لملكه، ولم يعلم من سيرته شىء سوى أنه وجد حجر فى مقبرة العجل (أبيس) بسقارة يستفاد منه أن هذا العجل ولد فى السابع من بؤنة سنة ست عشرة من حكم الملك (نيخاوس). الثانى ودخل معبد (بتاح) فى التاسع من أبيب من السنة الأولى من حكم الملك (بسامتيك) الثانى ومات فى الثانى

عشر من برمودة سنة اثنتى عشرة من حكم هذا الملك. قال صاحب العقد الثمين: ومن هذا يتبين أن مدة حياة العجل المذكور كانت سبع عشرة سنة وستة أشهر وخمسة أيام ويستدل منه أيضاً بوجه التحقيق على مدة حكم نيخاوس الثانى وبوجه التقريب على مدّة حكم بسامتيك الثانى. اهـ.

ولما مات بسامتيك الثانى قام بالأمر بعده ابنه (وح أبرع) الملقب (بحعع أبرع).

(فى الملك وح أبرع)
(ويقال له أيضاً)
(فرعون حفرع)

قد ذكر هذا الملك فى التوراة باسم حفرى وان (صدقيا) ملك يهوذا استنجد به على بختنصر ملك فارس، وكان أرمياء النبىّ فى هذا الحين حياً وقد أنذر صدقياً بخراب مملكة فلسطين ووقوع إسرائيل فى الأسر إن لم يطع ملك بابل ويخضع إليه فلم يلتفت صدقياً لقول أرمياء النبىّ، وقد عميت بصيرته وخرج عن طاعة ملك فارس وجاهره بالعصيان وامتنع من أداء الجزية وتحالف مع (وح أبرع) هذا على قتال ملك فارس فسار (وح أبرع) لنجدة صدقياً بالشام فى جيش عظيم، وقامت الحرب بينهما وبين ملك فارس فلما التقى الجمعان وبرزت جنود فارس وقع الرعب فى قلوب العساكر المصرية وفشلوا فاستظهرت عليهم عساكر بابل وهزمتهم شر هزيمة ثم ركب (بختنصر) بجيوشه على إسرائيل وغزا بلادهم وقبض على صدقيا ملكهم وأولاده وأمر بهم فقتلوا بين يدى أبيهم صدقياً وفقأ عينى صدقياً فهاجر كثير من اليهود إلى أرض مصر فاستقبلهم (وح أبرع) وأقطعهم أرضاً بقرب (دفنه) فانتشروا فى (مجدل)، (ومنف) وسكن بعضهم بصعيد مصر فلما ظفر (بختنصر) باليهود وخلص من حروبه بآسية سار نحو مصر يريد الانتقام من ملكها لمحالفته صدقيا ملك إسرائيل، وقد كان يطمع فى الاستيلاء عليها حيث أخبره أرمياء النبىّ بالغلبة عليها وإدخالها تحت حكمه.

قال المؤرخ يوسفوس وقد أغار (بختنصر) على مصر وقاتل الملك (وح أبرع) وقتله وخرب مصر، وأقام عليها والياً من قبله ثم عاد إلى وطنه وأخذ معه جميع اليهود الذين استوطنوا بمصر. قلت: ولم يعول أصحاب التاريخ على ما قاله هذا المؤرخ إذ هو مخالف لما نقله هيرودوتس. فقد قال: إن المصريين يقولون بأن الهزيمة وقعت على عساكر بابل وأن سفن الملك (وح أبرع) كانت مدت بملاحين من اليونان

فضربت السفن التى كانت فى خدمة البابليين فى تلك الغزوة وأن العساكر المصرية رفعت الحصار عن مدينة صيدا والتجأ أهل الشام إلى التسليم بغير قتال فدخلت حينئذ سواحل الشام تحت سلطتهم رغم أنف (بختنصر) واحتلت الجنود المصرية جهة يقال لها (جبل) وشيدوا فيها معبداً استكشفت آثاره حديثاً كما رواه (رينان) فلما تم النصر للملك (وح أبرع) داخله الغرور وتعاظم وتكبر وادعى أنه أكبر أسلافه سطوة وأوسعهم كلمة. قال هيرودوتس ولكنه لم يلبث فى الراحة طويلاً حتى استنجده سكان سواحل ليبيا على قبائل اليونانيين القاطنين فى القيروان فخاف أن يرسل لنجدتهم جنوداً يونانية من الذين كانوا فى خدمته لأنهم من أبناء جلدتهم فأرسل لهم فريقاً من المصريين، فلما التقى الفريقان عند (إيرانه) اقتتلا فكانت الغلبة على المصريين وانهزموا شر هزيمة ومن بقى منهم كرّ راجعاً إلى مصر فقامت الفتنة عند ذلك على الملك (وح أبرع) وخرجت عليه جنوده المصرية، وقامت أيضاً طوائف الكهنة على الملك إذ ظنوا أنه إنما أرسلهم إلى ليبيا لهلاك من لا يحبه واتسع نطاق الفتنة وعمت جميع البلاد وارتفع لهيبها، وكان ممن قلده الملك (وح أبرع) قيادة بعض الجنود المصرية رجل من العامة اسمه (أحعمس) وكان فطنا لبيًا مدبرا وأصله من مدينة (سيوف) قرية بجوار صاالحجر فأرسله الملك (وح أبرع) إلى العصاة ليردهم عن عصيانهم فسار إليهم ووقف بينهم خطيباً، وأطال النصح وشدد فى القول فبينما هو كذلك إذ تقدم نحوه أحد الجند العصاة ووضع على رأسه مغفراً وصاح بأعلى صوته (قد رضيناك لنا ملكاً)، فلم يمتنع (احعمس) من قبول ذلك واجتمعوا تحت كلمته فسار بهم لقتال الملك (وح أبرع) ولم يكن مع الملك المذكور إلا الجنود الأجنبية التى كانت فى خدمته وهى زهاء ثلاثين ألفاً، فالتقى الفريقان عند مدينة صا الحجر واقتتلا فانهزمت جنود الملك (وح أبرع) ووقع هو فى قبضة احعمس فحبسه احعمس فى مقره الذى كان يسكنه قبل وقوعه فى الأسر وأحسن معاملته وأظهر له غاية الملاطفة وحفظ ناموسه (قال هيرودوتس) فتشفى جنود مصر بما حصل لهذا الملك من الضيم والذل بالعزل والحبس لما كانوا عليه من الحنق والغيظ فأكرهوا الملك (أموزيس) الذى هو احعمس خصمه على أن يسلمه إليهم فسلمه فقتلوه خنقاً فى الحال. اهـ.

وبموته خلا المنصب الملوكى (لاحعمس) المذكور فاستقر به وسمى باسم (أموزيس) ولقب نفسه بـ (خنوم أبرع) وهو الآتى ذكره بعد.

(فى الملك أموزيس)
(ويسمى أيضاً)
(احعمس الثانى)

لما جلس هذا الملك على سرير الملك لم تحفل به الرعية ولم تحترمه العساكر والأحبار لأنه لم يكن ذا حسب رفيع ولا نسب عريق. قيل ولما علم بما خطر فى بعض النفوس من احتقار صفته وخسة أصله وأحس بما وراء ذلك جمع محفلاً كبيراً، وتمثل فيه بإناء من ذهب كان يستعمل فى كثير من الأمور العادية بين أيدى السادة والعبيد ثم صار تمثالاً معبوداً موقراً مهيباً فعظم من هذا اليوم محله فى النفوس؛ وصار مرعى الحرمة والناموس. قال هيرودوتس وتزوّج (أموزيس) بحفيدة الملك (بسامتيك) الأوّل المسماة (عنخ ناس نفرت حت) وكان قد اصطفاها من العائلة الملوكية ليؤسس لنسله منها عائلة ذات حق فى تاج الملك فولدت له ولدا سماه (بسامتيك الثالث) باسم جده وقام بتدبير المملكة خير قيام فحافظ على نفوذ مصر وسلطتها على فنيقيا وأخضع لحكمه جزيرة قبرص وأحسن السياسة مع الدول المعادية لمملكة مصر وأزال عنهم الوحشة فانكفوا عن الإغارة وكان يخشى كثيراً من ملك فارس فلما قامت الحرب بين الملك المذكور وبين الليديين استعمل الحيادة ولم يظهر ميلا لأحد الفريقين ولكنه مع ذلك لم يسلم من شرهما فقد أخذوا منه فنيقيا، فلم يعارض خوفاً مما وراء ذلك بل زاد فى حُسن السياسة مع (كيروش) ملك فارس والتزم جانب المسالمة ليحافظ على بلاد من غائلته فصفا له بذلك الوقت وتمتع بالراحة خمساً وعشرين سنة نظر فيها إلى أوجه الإصلاح وموارد الثروة فوسع الترع وأصلح الخلجان وأنشأ الجسور واعتنى بأمر الزراعة والتجارة فاتسع نطاقهما وأثرت البلاد، وعادت إلى مجدها القديم فبالغ المؤرخون فى أيام هذا الملك حتى هيرودوتس حيث جعلها أعظم من أيام سواه من الملوك وأن مصر لم تخصب فى أيام غيره كخصبها فى أيامه الهنية، ولم يفض النيل على مصر بالخيرات فى مثل أيامه ولا صارت قبله كما فى عهده مريعة غنيةحتى قيل أن مدتها بلغت فى عهده عشرين ألف مدينة عامرة والغالب أن الكفور والقرى كانت معدودة منها، وكانت هذه زاهية زاهرة كالمدن ، وقد أخبره بذلك الكهنة الذين كانوا يحبون المغالاة والإطراء فى المدح خصوصاً فى أيام تظاهر الفرس.

وقد زاد البلاد إثراء فى أيام هذا الملك اختلاط الأجانب بأهلها للاتجار لا سيما

طوائف اليونان فإنهم كانوا فى ذلك الوقت أصحاب جدّ واجتهاد فى التجارة فضلاً عن الصناعة مما نقلوه عن المصريين بالاختلاط. فمال إليهم الملك (أموزيس) وأحبهم وزاد فى مساعدتهم وتزوّج بنت رجل يونانى اسمه (اركيز يلاوس) وأهدى إلى مدنهم الهدايا النفيسة من التحف المصرية، فأرسل إلى مدينة القيروان تمثال زوجته (لاديكة) ابنة (اركيز يلاوس) وتمثال المعبودة (نيت) مغشيين بالذهب غشاء جميلا وبعث أيضاً إلى طائفة الفنيقيين المعروفة باسم (ليندوس) تمثالين من حجر وزردية من كتان والى (يونون سامين) تمثالين من خشب رآهما هيرودوتس بنفسه، وأكثر من الإحسان إلى اليونان وبالغ فى الترحيب بهم حتى نموا وكثروا وبلغوا مائتى ألف نسمة على ما رواه (ليترون) فأنزلهم جميعاً فى مدينة (نقراطيس) التى قيل أن محلها الآن بندر فوّة. وقيل أنه كوم نكراش وقد جعل محلها محمود باشا الفلكى بالاستظهار (نقرهة) بالقرب من دمنهور البحيرة لقرائن أثرية دلته على ذلك، وقد أباح الملك لهؤلاء الأجانب أن يتمسكوا بأصول ديانتهم وأقطعهم أراضى مخصوصة ليبنوا فيها معابدهم وهياكلهم ومذابحهم على اختلاف طوائفهم وأديانهم فلما كثروا فى مدينة نقراطيس اختطوا حولها مدنا وكفورا ودوّنوا لهم قانوناً مخصوصاً، كان من أحكامه أن كل من يستوطن بينهم من التجار أو غيرهم يجب عليه الانقياد لأحكام قانونهم، فإن لم يقبل ذلك أكرهوه على الرحيل عنهم فيرخص له أموزيس الملك بالاستيطان فى أية بلد شاء من مملكته. قال هيرودوتس ولما اتسعت دائرة التجارة اتخذ تجار اليونان لهم وكلاء من أبناء جلدتهم وبعثوا بهم إلى الجهات التى تمر منها القوافل ، فكان بعض الميليزيين فى العرابة المدفونة وبعض الساميين فى الواحات الكبرى، وكان وجود هؤلاء الأجانب لا يخل بشرفهم ولا يقلل من اعتبارهم إذ كانوا تجاراً وعليهم مدار حركة البلد.

وعاقد (أموزيس) مملكة أثينا وعاهدها ووطد عروة المودّة معها، وكان فى أيامه (كيروش) ملك فارس لا ينكف عن التجهيزات الحربية والاستعداد للقتال عند سنوح الفرص، فلما مات (كيروش) وخلفه ابنه (كمبيز) على كرسى المملكة وعلم بما هو عليه (أموزيس) من الضعف والانكماش صار يترقب وقوعه فى الزلل وينتحل لاضرام نار الحرب معه أسباباً ويعظم صغائر الأمور واختلفت روايات أصحاب التاريخ عن تعللات (كمبيز) المذكور وألبسوها أشكالاً وألواناً. فقال هيرودوتس أن (كمبيز) المذكور طلب أن يتزوّج بابنة (أحعمس) ظناً منه أن أباها لا يقبل ذلك فيحاربه فأحس أحعمس بهذه الحيلة وأرسل له ابنة الملك (وح أبرع) فلما دخل بها

كمبيز ناداها بابنة (أحعمس) فقالت أنا لست بابنته فحقد (كمبيز) عليه ذلك وغزا مصر. وقال هيرودوتس أيضاً: إن سبب غزو العجم مصر طمعهم فى ثروتها وما فيها من الخيرات، وقد كان للمصريين فى ذلك الوقت أسوار وحصون ومعاقل فى الصحراء والأباطح، وكان بين حدود الشام وخان يونس وبحيرة (سربونيس) الضاربة فيها مقدّمات الجيوش المصرية فى ذلك الحين مسافة شاسعة قلما يقطعها الجيش فى ثلاثة أيام ومع أن صحراء العرب لم تكن يومئذ فى اتساعها الآن المترتب على تخريب الآشوريين والكلدانيين لبلادها وتركها للعرب الرحالة فنهبوها حتى دمرت، وصارت بلقعا غير أن كمبيز كان يخاف على عساكره من التيه فيها فتحير فى أمره فقبض الله له رجلاً يونانياً اسمه (فانيس). وفد عليه من ديار مصر وكان قائد جيش فيها فأعلمه (فانيس) المذكور بحقيقة تلك البلاد ودله على الطريق فاشتدّت عزيمة (قمبيز) وتقوّت أطماعه وعقد عهدا مع مشايخ قبائل العرب الذين كانت لهم اليد على الطريق الموصلة إلى مصر ليرخصوا له بالمرور منها، ويأتوا لجيوشه بالماء على ظهور نوقهم ثم سار بجيوشه وما زالت حتى حلت أمام الطينة فبلغهم إن (أحعمس) قد مات وأن ولده (بسامتيك) الثالث خلفه على سرير الملك. اهـ.

وكان لهذا الملك أعمال مهمة فقد أصلح الكرنك جميعه وقطع الأحجار من محاجر طرا وأسوان ورمم غير الكرنك من المبانى العظيمة بطيبة التى كانت زوجته مقيمة فيها ، وكانت الحوادث والأحن قد خربت الأقاليم البحرية فوجه عنايته إلى تعميرها فأصلح منف وبنى فيها معبداً (لأزيس) اندرست آثاره الآن وقد شاهده هيرودوتس المؤرخ. فقال: إنه لم ير أكبر ولا أعظم منه فى ديار مصر ونصب (أموزيس) المذكور أيضاً أمام معبد (بتاح) بمنف عمودا طوله خمس وسبعون قدماً وبنى فى صا الحجر مداخل لمعبد (نيت) يقدمها صفوف من تماثيل أبى الهول على هيئة منتظمة، ونصب أمام تلك المداخل مسلتين كبيرتين وصنع لذلك المعبد خلوة من الصوان الأحمر المقتطع من محاجر أسوان فنقلها ألفا ملاح من أسوان إلى صاالحجر فى ثلاث سنين وطول الخلوة المذكورة من الخارج أحد عشر مترا وعرضها سبعة أمتار وثمانية وثلاثون سنتيمترا وارتفاعها أربعة عشر مترا ووزنها وهى خالية خمسمائة ألف كيلوجرام وقد وضعها خارج المعبد لضخامتها . ويقال إن سبب وضعها هناك هو أن المهندس المكلف بنقلها حين وضعها خارج المعبد أخذ يئن مما عاناه من المشاق فى نقلها فسمعه (أموزيس) وهو على هذا الحال فأمر بإبقائها فى محلها، وقال هيرودتس إن عدم وضعها فى المعبد ناشىء عن هلاك أحد العمال تحتها،

وقد كان (لأموزيس) المذكور مراسلات مع الملوك الأجانب، وقد روى لنا التاريخ مراسلة منه مع ملك جزيرة (صيصام) التى يقال لها (سيموس) ينصحه فيها بنصيحة خيرية اقتضاها الحال ويقول له لا تأمن صروف الزمان بل استعد لنوائب الحدثان واقمع النفس بالزهد فى الدنيا عن اتباع هواها واعصها ولا تبلغها بالتشهى مناها، قيل فبمجرد وصول هذه النصيحة إلى الملك المذكور وكان بأصبعه خاتم جوهر نفيس لا يؤثر عليه شيئاً من زينة الحياة الدنيا ألقاه فى اليم وعزم على الزهد فابتلع الخاتم حوت ثم اتفق أن هذا الحوت وقع فى يد أحد الصيادين، وكان حوتاً عظيماً فقدمه لطباخ الملك المذكور فوجد الطباخ فى جوف الحوت خاتم سيده فأعطاه إليه فعلم الملك عند ذلك أن الأشياء سعود وبخوت ، وكان له أيضاً مراسلات مع (سولون) حكيم اليونان ومع ذلك فقد كان لا يحرم نفسه من حظوظها ويوفيها ملاذها. وقال ذات يوم لبعض أخصائه أما علمتم أن القوس لا تؤثر إلا عند الحاجة وترخى متى فرغ القصد منها وهكذا الإنسان إذا اشتغل بجدّ فى أمر مّا فعليه أن يعطى نفسه الراحة ويبلغها من الحظ ما تستروح به وتستريح إليه لأنها إن استدامت على الجدّ داخلتها الحماقة والغفلة واستعدّت للوساوس والجنون، وصارت غير قابلة لإدراك الأمور. اهـ. ومات (أموزيس) بعد أن حكم خمساً وثلاثين سنة على ما رواه بعض أصحاب التاريخ. وقال مانيطون: بل أربعاً وأربعين وخلفه ابنه (پسامتيك) الثالث الملقب بـ (رع عنخ كان).

(فى الملك پسامتيك الثالث)

لم يستقر المنصب بابسامتيك هذا حتى جاءت جيوش ملك فارس إلى أرض مصر ووقفت أمام الطينة تريد القتال فسار إليهم بسامتيك فى عدّة كثيرة من الجيوش المصرية واليونانية الذين فى خدمته وعسكروا أمام العدو وكان (فانيس) اليونانى الذى فرّ من مصر وذهب إلى ملك فارس وهوّن عليه قتال المصريين قد ترك أولاده بمصر فأحضرهم المصريون إلى معسكرهم وذبحوهم بين الصفين وأبوهم ينظر إليهم ويتقطع قلبه حسرة عليهم ووضعوا دمهم فى إناء ثم مزجوه بخمر وشربوه تشفياً وانتقاماً من (فانيس) المذكور على ما فعله وهجموا بعد ذلك هجوماً شديداً على جيوش (كمبيز) فحملت عليهم الفرس أيضاً والتقى الصفان والتحم الجيشان، وكان الملك (كمبيز) قد وضع فى مقدمة جيوشه كثيراً من السنانير والبزاة وغيرها من الحيوانات التى يجلها المصريون فلم يجسروا على القتال ولم يرموا سهامهم على عدوّهم خوفاً من أن تصيب تلك الحيوانات المقدّسة عندهم فرجعوا القهقرى، ولم

يثبت منهم فى صفوف القتال سوى العساكر اليونانية والكارية واشتد القتال بينهم وحمى الوطيس فقتل من الفريقين عدد كثير ثم ظفرت الفرس باليونان والكاريين وتمت لهم الغلبة فانهزموا إلى منف فأرسل لهم (كمبيز) رجلاً من قومه يطلب منهم أن يستسلموا فركب الرسول سفينة يونانية من سفن (مدلين) وسار إلى منف فلما وصل إليها ورآه أهلها خرجوا إليه من القلاع زمراً وقبضوا عليه وكسروا السفينة قطعاً وذبحوا من كان بها مع الرسول أيضاً. فلما علم (كمبيز) بما فعله المصريون غضب جداً وجاء إلى منف وأحاط بها وحاصرها وضيق عليها حتى أخذها عنوة وقبض على ولد الملك (بسامتيك) وقتله وقتل معه عدّة من أكابر المصريين فخضعت البلاد بعد هذه الواقعة لملك فارس (قال بعض أهل التاريخ) ولما استسلمت منف أمر الملك (كمبيز) بإحضار أولاد (بسامتيك) وبنته ومرورهم أمامه بثياب الرق والعبودية ثم طلب أيضاً أولاد أكابر المصريين الذين حكم عليهم بالقتل ليمروا أمامه قبل قتلهم، وكان الملك بسامتيك واقفاً ينظر إلى الجميع مع الثبات والصبر ولم يشفق بهم (كمبيز) وفى هذه الأثناء مر بـ (بسامتيك) أحد ندمائه بلباس الرّق فلما رآه (بسامتيك) على هذا الحال تضجر تضجر الآسف الحزين وضرب بيده على جبهته فتعجب (كمبيز) من ذلك وسأله عن سبب ثباته أوّلاً مع نظره إلى بنيه ثم تضجره وضربه على جبهته عند نظره إلى نديمه. فقال إن البكاء فى جنب مصائبى قليل واعلم ياابن (كيروش) أنه إذا تجرّد الرجل عن مفاخرة وحلت به الخطوب وأحاطت به الكروب ولحقه الجوع والهرم استحق الحزن والبكاء عليه. قالوا: فلما سمع (كيريزوس) أحد قوّاد العجم هذا الكلام بكى وبكى أيضاً (كمبيز) الملك ، وكثير من العجم وحن قلب كمبيز وأخذته الشفقة عليه فعامله معاملة الملوك وكاد يرجع إليه تخت الملك ويجعله تابعاً لحكومته ولكن علم بعد ذلك أن (بسامتيك) المذكور يغرى الناس على الخروج عليه فأمر به فقتلوه فزالت بموته الدولة السادسة والعشرون وانقرضت دولة الفراعنة وزال ملكها، وكانت مدة حكمه كما رواه مانيطون المؤرخ ستة أشهر بحيث لا يكاد يعرف له فيها أمر ولا نهى، وكانت مدة حكم الدولة السادسة والعشرين المذكورة (مائة سنة وثمانياً وثلاثين سنة).

ولما تم الأمر للملك كمبيز ومهدت له الأحوال سلم إدارة البلاد بعد قتله بسامتيك إلى (ايرندس) الفارسى فصارت من هذا الحين تابعة لدولة فارس خاضعة لأحكامها وخيمت عليها شيئاً فشيئاً عناكب الذل والهوان وقام السفه والجهل بين أهلها مقام الرشد والتمدّن وذبلت نضارة علومها ومعارفها وكادت تبور صنائعها

لتوالى المظالم والمحن، وتراكم الخطوب والفتن، وتصرف الهيئة الحاكمة فى الرعية تصرف السيد فى عبيده أو التاجر فى سلعته وتم ما أوحى الله تعالى به إلى حزقيل النبىّ عند سبى بابل وخراب أورشليم حيث قال: (قال الله تعالى لا يكون بعد رئيس من أرض مصر والقى الرعب فى أرض مصر). قلت ومن أصدق من الله قيلاً وسيأتى بيان هذا فى محله إن شاء الله ، وقد رأينا قبل الكلام على دولة الفرس، وما كان فى أيامها أن نذكر هنا شيئاً من ترتيب مملكة مصر فى القدم وفى أقسامها ومعبوداتها وفى سياستها وأخلاق أهلها وعوائدهم وفى كيفية إقامة الحدود والعقوبات عندهم وفى تمدّنهم وصنائعهم وأعيادهم ومواسمهم وأحكامهم وشرائعهم تتميماً للفائدة، وقد جعلنا ذلك فصولاً على الترتيب الآتى بعد.

(فصل)

(فى ترتيب مملكة مصر فى القدم وفى أقسامها ومعبوداتها)

كانت تنقسم ديارمصر على عهد الفراعنة إلى قسمين عظيمين اشتهرت بهما وهما الأقاليم القبلية، والأقاليم البحرية وكانت الحدود الفاصلة بين هذين القسمين مدينة دهشور. قال أصحاب التاريخ ثم إنهم قسموا الأقاليم القبلية إلى اثنين وعشرين قسما والبحرية إلى عشرين قسما، وكان القسم يعرف فى لغتهم باسم (حتب) وكان لكل قسم من هذه الأقسام حاكم وإدارة مخصوصة وحدود فاصلة من الحجارة المطرّزة بالكتابة وتخت للحكم وهو مقر الجند والكهنة والديانة المتبعة فى ذلك القسم.

قال صاحب العقد الثمين وأقسام الوجه القبلى المعروف باسم (بتورميس) هى أوّلا ـ (تاخونت الفنتين) وقاعدته مدينة (أب) وتعرف الآن بجزيرة أسوان وأشهر مدنه جزيرة أنس الوجود ومعنى (أب) الفيل وسميت بذلك لأنه كان يباع فيها سن الفيل وكان فيها معسكر وسور ومقياس للنيل وهو الموجود الآن بها. ولهذا القسم معبودان ـ أحدهما (خنوم) ويرسم بصورة كبش ومعناه مصوّر الكائنات ـ والآخر (سبت) أى النجمة المعروفة بالشعرى اليمانية، وكان فى جزيرة أسوان عدة معابد وهياكل فاخرة انطمست آثارها ولم يبق منها سوى بعض حجارة مكتوب عليها ما فيه تذكرة بهذه المعابد والبيوت المقدسة وبجوار مدينة أسوان جبل الصوّان الأحمر المسمى قديماً (دودوشر).

والثاني ـ (ادبوا پولينو پوليتس مغنا) وقاعـدته مدينة (دب) وتعرف الآن بادفو وكان فيها معبد عظيم لمعبـود هذا القسم المسمى (حور) أى العظيم ورسمه على هيئة الباشق وهو الذى تسميه اليونان (ابولون) ويوجـد تجاه مدينة ادفو فى الجانب الغربى من النيل بئر ماء حـفرها الملك (سيتى الأوّل) وتسمى عندهم (تاخنوم) ومـعناه البئر ولـم تزل باقية إلى الآن بقرية تدعى (ردسيـا) وهى أوّل محطة للقوافل التجارية التى كانت تمر على الصحـراء إلى البحر الأحمر وأشهر مـدن هذا القسم (خنو) أى جبل السلسلة، وكان مركزا للعلوم والمعارف فى تلك الأزمان.

والثالث ـ (تن لاتو پوليتس) وقاعدته مـدينة (نخب) أعنى القرية المعروفة الآن (بالكاب) الموضـوعة على الجـانب الغربى من النيل وهـى أحد الحصـون القديـمة، وكانت الأرض المجاورة لها شهيرة بمعادن الملح، وموضع هذا القسم الشاطىء الغربى من النيل، وكان كل من حكم هذا القسم يلقب بابن الملك (نخب) ولا يكون إلا من عائلة ملوكية وأشهرمدنه (حابك) أعنـى الكوم الأحمر، وكانت سكانه تحترم المعبودة (نحب) ورسمـها على شكل عقـاب له وجه آدمى وعلى رأسه تاج يسـمونه (اتف) وهى معبودة خصوصية لهذا القسم وعمومية للأقاليم الجنوبية، وكان أكل السمك فى هذا القسم منهيًا عنه وفيه مدن شهيرة منـها (سينى) أى اسنا، وكان فيها معبد عظيم لم تزل تشاهد آثاره إلى الآن.

الرابع ـ (أس ديو سبوليتس) وقاعدته مـدينة(نو) أو (نوامون) أى مدينة طيبة. ويقال لها ثيبة وطيوة وكانت أكبر مدائن الديار المصرية وأشهرها ولم يزل يشاهد فيها إلى الآن من المعابد، والآثار ما يوجب تعجب الناظرين واستغراب المتفرجين ويستدل على حدودها القديمة بالكرنك، ولوقصر والقرنة ومدينة (ابو) الشهيرة قديماً بالمبانى الفاخرة، وكانت دار إقامة لعدّة ملوك متناوبة بـعد مدينة منف واستمرت تختا للديار المصرية نحو ألفى سنة، ولهذا القسم مـعبودان الأوّل (أمون رع) وسمى بهذا الاسم فى عصر العـائلة الحادية عشرة، وهو معبـود خصوصى لهذا القسم وعـمومى لكافة مصر ومـعنى (أمون رع) الشمس الخفية التـى لا تدركها الأبصار عند مغيـبها، وهو رمز للمـعبـود المنظم للكون ومرتبـته فى المعبـودات بعد (بتـاح) منشىء الكائنات، والثانى (مـونت). ويقال له (مونتـو)، أو (منت) وهو معبـود عمومى لهـذا القسم وخصوصي لأشهر مدنه المسماة الآن أرمنت وصورته على شكل إنسان له رأس باشق عليهـا قرص الشمس وريشـتان مسـتقيـمتان قابض بـيده اليمنى على المدية المسـماة (خوبش) إشارة إلى كونه إله الحرب ورب الشجاعـة ويوجد غربىّ مدينة القرنة مقابر

للفراعنة المعروفة الآن ببيبان الملوك وهذا المكان مشهور بأعظم القبور الأثرية التى يهرع لمشاهدتها السياحون فى كل سنة.

الخامس ـ (قوبطى قوبطيتس) وقاعدته مدينة (قبطى) أى قفط وموضعها على جانب النيل الشرقى ومعبودها (خم) ورسمه على هيئة رجل واقف رافع ذراعه الأيمن إشارة إلى كونه يبذر التقاوى ويده اليسرى مستترة مع جسمه بأقمشة ملتف بها وعلى رأسه ريشتان طويلتان وقضيبه منتصب دلالة على القوّة الموجودة للتناسل والزروع ، وكان يعمل له عند وفور المحصولات الزراعية وجودتها موسم عظيم بالكيفية المرسومة على آثار مدينة (ابو)، وكانت تمتد من تلك المدينة طريق للقوافل التجارية فتمر بالصحراء من جهة القصير إلى أن تتصل بالبحر الأحمر، وكان فى جنوب قفط مدينتان تعرفان الآن بشنهور وقوص الشهيرة قديماً باسم (كوسى).

السادس ـ (تام تنتريتس) وقاعدته مدينة (تنترر) وتعرف الآن بدندره وموضعها على شاطىء النيل الغربى، وكان أهل هذا القسم يحترمون الكوكب المسمى (حاتحوم) أى الشعرى اليمانية ويحرّمون على أنفسهم أكل العسل والسمك كما كان أهل القسم الثالث يحرمون على أنفسهم أكل السمك.

السابع ـ (سوسخم ديوسبوليتس) وقاعدته (حا) وهى مدينة (هوّ) الآن ومعبودها (نبتا ونفرحتب) وموضعها على جانب النيل الغربى، وقد اشتهرت قديماً هى والقسم التابع لها بخصوبة الأرض ونضارة البساتين.

الثامن ـ (ابزوثينيتس) وكانت قاعدته فى الأوّل مدينة (تينى) أعنى طينة وهى مسقط رأس الملك (منا) ثم صارت قاعدته بعد دمارها مدينة (أبدو) أى العرابة المدفونة، وكان أهل تلك الجهة يحترمون المعبود (انحور) ومعناه الذى بيده مقاليد السماء والأرض ورسمه على هيئة صبى متوّج بتاج فوقه أربع ريشات وبيده حبل، وكانت مدينة العرابة المدفونة ذات شهرة عظيمة بسبب المقبرة التى كانوا يعتقدون أن معبودهم (أزوريس) مدفون فيها، ولذا كانوا يأتون إليها فى كل عام زائرين ويتمنون الدفن فى تلك البقعة المقدسة عندهم، ولم يزل يشاهد فيها إلى يومنا هذا بأطراف الصحراء عدة مقابر فاخرة.

التاسع ـ (خم پانوپوليتس)وقاعدته مدينة (بنجم) أى أخميم وهى موضوعة على جانب النيل الشرقى ومعبودها (خم) السابق ذكره الذى من صفاته أيضاً أنه منزه عما توصف به سائر الذوات وكان لأهل أخميم شهرة عظيمة بالمهارة فى فن صناعة الأقمشة ونحت الحجارة.

العاشر - (وص افروديتو بوليتس) وقاعدته الأولى (دبو) أعنى مدينة النعال، وهى المعروفة الآن بقرية (ادفه) على الجانب الغربى من النيل بحرى سوهاج، وكان أهلها يعبدون (حور) أى العلى. وقاعدته الثانية (دوكا) أى (قاو) ومعبودها (ست) أى الشيطان، وكان لهذا القسم شهرة عظيمة بمعادن الحجارة النفيسة التى كانت تستخرج من الجبال المجاورة له بالجانب الشرقى من نهر النيل.

الحادي عشر - (سماهبسليتس) وقاعدته مدينة (شس حتب) ويستدل عليها بالقرية المعروفة الآن باسم (شطف) وكانت مستودع الأسرار الدينية ومعبودها (خنوم) أى منشىء الكائنات وبارئها.

الثاني عشر - (دوف أنتيوبوليتس الشمالى) وقاعدته مدينة (نونت بك) ويستدل على محلها بقاو الكبيرة ومعبوداتها (حور ومتى أى أزيس).

الثالث عشر - (أتف خونت ليكوبوليتس) وقاعدته مدينة (سيوط) أى أسيوط ومعبودها (أبماتن) أى الحافظ على جميع ما فى الجهة الجنوبية من الأموات والسبل، وهو على شكل ابن آوى وجثته مدفونة فى الجهة الغربية من أسيوط، وكان أهل هذا القسم يحترمون أيضاً المعبود (حاتحور) يعنى الشعرى اليمانية.

الرابع عشر - (انف بحو الفروديتوبوليتس) وقاعدته مدينة قوص ومعناها مدينة الرخام الأبيض، ويستدل عليها الآن بقرية قوصنيه، وكان للرخام الذى يستخرج من مقاطع تلك المدينة شهرة عظيمة عند الأقدمين، وكان أهل تلك الجهة يحترمون المعبودة (معا) ويرسمونها جالسة ملتفة بأقمشة، وعلى رأسها علامة بالهيروغليفية تدل على العدالة ونطق هذه العلامة (معا) ويعتقدون أن هذه المعبودة تقدم الأموات إلى محضر الحكم يوم القيامة.

الخامس عشر - (آن هرموبوليتس) وقاعدته (سنو) يعنى الأشمونين ومعبوده (تحوت) يعنى (هرمس) ومعناه رب الحكمة.

السادس عشر - (مح هبونن) وقاعدته مدينة (هبون) ويستدل عليها الآن بقرية انصنا ومعبودها (حور) يعنى العظيم، وكانت بلدة شهيرة ويشهد لذلك آثار المعابد والخلوات التى كانت معدة للجنائز فى الجبال القريبة منها وأشهر مدنها (سات) يعنى بنى حسان (وثانويل) يعنى الكوم الأحمر.

السابع عشر - (انومسينوبوليتس) وقاعدته مدينة (كاسا) وتعرف الآن باسم قلوصنه ومعبودها (أنوب) وهو ابن آوى وأشهر مدنها سملوط.

الثامن عشر ـ (سبوت اكسير تحيتوس الشمالى) وقاعدته مدينة (حاسوتن) ومعبوده (أنوب).

التاسع عشر ـ (وسب اكسير تحيتوس الجنوبى) وقاعدته (بماص) يعنى البهنسة ومعبوده (ست) يعنى الشيطان.

العشرون ـ (أم ادخونت هيراقليوبوليس) وقاعدته (خينتو) يعنى اهناس المدينة، وله معبودان هما (خانوم) و(حورشف) أى القادر وأشهر مدنه مدينة بوص.

الحادي والعشرون ـ (أبحوا رسينونيتش) وقاعدته مدينة (صخور) ومعبودها (خنوم) يعنى مصور الكائنات وأشهر مدنه (بى سبك) يعنى الفيوم، وكانت تعرف أيضاً باسم (بسيومع) يعنى مدينة اليم.

الثاني والعشرون ـ (تباحوا مزوديتوپوليتس) وقاعدته (تياح) يعنى أطفيح ومعبوده (حاتحور) أى الشعرى اليمانية، وآخر حدوده من الجهة البحرية مدينة دهشور وهى الفاصلة بين الوجه القبلى والبحرى كما تقدم.

(فى الكلام على أقسام الوجه البحرى)

(المسمى قديماً)

(يتومحيت)

أول هذه الأقسام (انبوحز منفيتس) وقاعدته مدينة (منفر) يعنى المكان العظيم أو المينا العظيمة، وتعرف عند مؤرخى العرب باسم منف وهى منحصرة فيما بين البدرشين وميت رهينة ومديرية الجيزة ولها معبودان **الأول** (بتاح) يعنى الفتاح ويلقبه القدماء بالمبرىء منظم الكون ويرسمونه على الآثار تارة متوجاً بتاج الجعران واطئا بأرجله تمساحاً إشارة إلى الانقلاب والتغيير وتارة على شكل موميا مطلقة اليدين يشيرون بذلك إلى استحالة الروح بعد خروجها من الجسد إلى نور يصعد إلى السماء ينضم إلى نور الشمس **والثاني** المعبودة (سخت) يعنى حرارة الشمس المهلكة. ويقال إنها منوطة بعقاب الخاطئين فى النار ورسمها على شكل آدمى له وجه سبع وعلى رأسه الشمس، وكان يوجد أمام الكرنك يعنى أمام المعبد جملة من تماثيل هذه المعبودات موضوعة صفين بانتظام ونقل بعضها الآن إلى متحف فرنسا ويوجد وراء منف أهرام لعدة ملوك من الطبقة الأولى، وكانت منف قاعدة للملك مدة سبعين قرناً وحدها القبلى شنباب، والغربى بحر يوسف والشرقى النيل والبحرى الجيزة، وكان فيها قصور ومبان فاخرة بقيت عامرة إلى عصر اليونان ويوجد بقربها على

الشاطىء الشرقى من النيل محاجر طرا وتعرف قديماً باسم (طرويا) وكان يستخرج منها الحجارة لبناء الهياكل وغيرها.

الثاني - (اعاليتو پوليتس) وقاعدته مدينة (سخم) المسماة الآن وسيم وهى على الجانب الأيسر من فرع رشيد ومعنى (سخم) المكان المنزه عن شوائب التدنيس ومعبود هذا القسم (حور) أى الأعلى الفخيم.

الثالث - (امنت) ويقال لها (ليبيا) أو (ماريدس) أو (مومنفيتس) وقاعدته مدينة (نى نوننت حى) يعنى مدينة الثور (ابيس)وموضعه جهة مريوط ومعبوده (ستى).

الرابع - (سبيريس منيتانتس) وقاعدته مدينة (صقع) يعنى (كاتوب) وموضعها بجوار أبى قير على الجانب الأيمن من فرع رشيد، وكان أهل هذا القسم يحترمون المعبود (آمون رع) والمعبودة (نيت).

الخامس - (سابى محت سايبتس) وقاعدته مدينة (صا) يعنى صا الحجر، وكانت مدينة شهيرة فيها هيكل فاخر مؤسس لعبادة المعبود (تحوت) يعنى رب الحكمة ولهذا القسم معبودة تسمى (بست).

السادس - (كاسيت اكسوتيس) وله قاعدتان الأولى (سخاوة) ومعناها سخاوهى الموجودة بمديرية الغربية، وكانت مدينة عظيمة اجتهدت فى عمارتها العائلة الرابعة عشرة واتخذتها تختا لها مدة من الزمن ومعبودها (أمون). والثانية (عنت عرى حوس) يعنى مدينة السبع الكاسر كناية عن (أمون).

السابع - (امنت متليتس) وموضعه بين مديريتى الغربية والبحيرة، وله قاعدتان الأولى مدينة (سنتينفر) يعنى مدينة مسيل. والثانية مدينة العطف المسماة قديماً (دبيت). وكان أهل هذا القسم يحترمون المعبود (حور) والمعبودة (إزيس) ويرسمونها على شكل امرأة جالسة فوق رأسها كرسى.

الثامن - (ابوت سنروتيس) وموضعه فى مديرية الدقهلية بجوار بركة المنزلة وقاعدته مدينة (سوكوت) المذكورة فى التوراة بهذا الاسم ومعبودها (توم) ومعناه الشمس وقت غروبها ورسمه على شكل آدمى متوج بتاج يسمى (بشنت) وكان فيها قصر للملك (منفتاح) وقلعة حصينة بالقرب من مدينة (رمسيس) المعروفة قديماً باسم (بيتوم) وكانت هذه القلعة مفتاح الديار المصرية فى العصر القديم.

التاسع - (آتى بوصيريتس) يعنى قسم أبى صير وقاعدته مدينة (بى اسرتب دو) يعنى مدينة أبى صير ومعبوده (ازوريس) وهو المقدس الذى يحكم فى أحوال

الأرواح ويصحب الإنسان بعد موته فيهديه إلى أقدام الرب الأعلى ويوصف بفاعل الخير.

العاشر - (كاكم اتريبتس) يعنى اتريب فى مديرية القليوبية على الشاطىء الشرقى من فرع دمياط ويستدل عليه بتل اتريب وقاعدته مدينة (حاتحوراب) يعنى مدينة الأرض الوسطى ومعبودها (حور) يعنى العلى ولقبه (ختنى حتى) وكان له معبد عظيم فى مدينة (حتى) القديمة.

الحادى عشر - (كاحبس كباسيتس) وقاعدته مدينة (كاحبس) يعنى شباس، وكان سكان هذا القسم يعبدون الشيطان (ست).

الثانى عشر - (كاتب تيتوس) وقاعدته (سب نوتر) يعنى مدينة سمنود ومعبوده (انحور) المسمى عند اليونان (مارس).

الثالث عشر - (حق آن هيلوپوليس) وقاعدته مدينة (آن) يعنى المطرية، وكانت دار علوم ومعارف وفيها معبد للشمس ومسلتان إحداهما مسلة الملك (أوسرتسن الأوّل) القائمة الآن هناك على ساقها، وهى تدل على باب المعبد المذكور، ولم يزل يشاهد فى تلك المدينة ما فيه تذكرة بمبانيها الفاخرة، ولهذا القسم معبودان الأوّل (حورمخو) يعنى الشمس وقت الشروق والغروب. والثانى المعبودة (يوزاس).

الرابع عشر - (خونت ابدت تانيس) وقاعدته مدينة (صعن) يعنى صان وكانت مدينة شهيرة لا سيما فى عصر (رمسيس الثانى) الذى شيدها وسماها باسمه وفيها أظهر موسى عليه السلام المعجزات لفرعون (منفتاح) الأول لإطلاق بنى إسرائيل من مصر فأذن لهم بالرحيل، فخرجوا من تلك المدينة بعد اجتماعهم فيها وساروا إلى (سوكوت) حيث أمرهم الله، وكان لهذا القسم معبودان الأوّل (حور) يعنى العظيم الفخيم والثانى المعبودة (حونت أبوت).

الخامس عشر - (بحع هرموپوليتس) وقاعدته (بى تحوت) وتسميها اليونان (هرموپوليس) يعنى أشمون الرمان، ومعبوده (تحوت) يعنى كوكب المريخ.

السادس عشر - (خامندسيوس) وقاعدته (بى بى نب دد) ومعناه (مندس) يعنى قرية تمى الأمديد وله معبودان الأوّل (بى نب دد) وتسميه اليونان (مندس) والثانية المعبودة (حامحيت).

السابع عشر - (سمهود پوسپوليتس) وقاعدته مدينة (باخن أمون) المعروفة عند اليونان باسم (باخنامونيس) ومعبوده (أمون رع) والآلهة موت.

الثامن عشر ـ (أم خونت بوبوتيتس) وقاعدته مدينة (بى بست) أعنى مدينة بسطة ويستدل على محلها الآن بتل بسطة ومعبودها الآلهة (بست) المعروفة عند اليونان باسم (ديانا) ولعلها دميانا التى تزورها الأقباط فى كل عام.

التاسع عشر ـ (امحت بوتيكوس بثنوتس) وقاعدته مدينة (بيوتو) أى كوم الرمان ويعرف عند اليونان باسم (بوتو) وهو اسم لمعبود هذا القسم أيضاً.

العشرون ـ (سبت عربيا) وقاعدته مدينة (باقوسيم) المعروفة عند اليونان باسم (فقوسة) ويستدل على موضعها بالقرية المسماة الآن فقوس ومعبوده (ست) أى الشعرى اليمانية . قال: وهذه الأقسام متفق عليها فى عصر الفراعنة والبطالسة.

(فصل)

(فيما كانت عليه سياسة البلاد وفى إقامة القضاة وفى الدعاوى والأحكام)

ولما عرفت الأمة المصرية أن لابد من رابطة وثقى لا انفصام لها بين الراعى والرعية والرئيس والمرؤوس، وتحققت أن الحكومة الملكية التى تكون على مثال ما كانت هى عليه إلى ذلك الحين لا تقوى أركانها ولا ينجح لها عمل إلا بالشورى، قامت بتعضيد ملكها وأمدته بالمال والرجال وضمت إلى ديوانه جماعة العلماء والحكماء وأصحاب الرأى فكان أمناء الدين فى ذلك الحين فى صدر الهيئة الحاكمة يرتبون ديوان الملك داخلاً وخارجاً ويشاركونه فى جميع أموره وعليهم معتمده وإليهم المرجع فى فض المشكلات، فإذا مات حكموا عليه بأنه كان فى أيامه من أهل السعادة أو الشقاء وأنفذوا عليه الحكم، وتحرير الخبر أنه إذا مات الملك وانتشر خبر نعيه مزق الناس ثيابهم وأغلق الكهنة أبواب المعابد والهياكل ومنعوا من تقريب القربان وامتنعوا من عمل المواسم والأعياد واستمروا على هذا الحال من الحزن اثنين وسبعين يوماً إجلالاً لمنصبه، وكانت فى خلال هذه المدة تنتشر جموع الناس من الذكور والإناث مرتين فى كل يوم فى الشوارع والحارات للندب وإنشاء المراثى فكانت هذه المدة عندهم مأتماً حافلاً يحزن فيه الخاص والعام فإذا انقضت هذه الأيام وضعت جثة الملك محنطة مصبرة فى دهليز المقبرة ثم بحثوا عن جميع ما فعله من خير أو شر بحضرة الألوف المؤلفة من الناس على اختلاف درجاتهم وأخذ كل يعدد محاسن الملك ومساويه ويذكر ما حسن من سيرته وما قبح ثم يطلب حكم الجمهور

فإن حكم بدفنه دفن بهذا الاحترام على مقتضى مقامه الملوكى وإلا حرم وجرد عما يجب له من واجب التعظيم.

ولم يكن للأهالى ولا لعامة الناس قط تداخل مع الملك فى حكم البلاد إلا فى هذا الأمر ومع أن هذه المداخلة ليست إلا بالأمر الهين لا سيما بعد الموت، قد كانت نتيجتها من أهم النتائج وأكبرها وأشدها تأثيراً على بيت الملك، وقد حرم من الدفن كثير من الفراعنة لقبح سيرتهم فخاف خلفاؤهم العاقبة وأجهدوا النفس فى إصلاح العمل وسلوك مسالك العدل فراراً من هول هذا العقاب، وكان المصريون فيما عدا هذه الحالة يخدمون ملوكهم ويقدمون لهم واجب الطاعة بقدر الاستطاعة حتى كانوا يعبدونهم كعبادتهم الآلهة إذ كانوا يعتقدون أن من قدر له فى عالم الغيب منصب الملوكية، ووفق للعدل بين صنوف الرعية فهو بشرفى مظهر الألوهية.

وكانت ملوك المصريين تختار من بين أمناء الدين والكهنة فى محفل من المبعوثين من كل إقليم نوابا وعليهم فى المداولات الاعتماد فكانوا يجتمعون فى البرية التى بين ميت رهينة والفيوم فتشكل منهم جمعية عمومية تنعقد فى الحوادث المهمة كالصلح والحرب وتجديد التراتيب وتغيير الدولة عند خلو المنصب الملوكى وغير ذلك من الأمور الخطيرة، ولم يكن من شأن الملوك يومئذ مباشرة دعاوى الخلق ولا الحكم بأنفسهم فى الوقائع بل كانت المحاكم محلاً للأقضية والأحكام فكان القضاة والحكام يخرجون من مدينة منف وعين شمس بالأقاليم البحرية، ومدينة أبو بالأقاليم القبلية، وكانت كل مدينة من هذه المدن ترسل عشرة من القضاة لإجراء الأحكام فيجتمع من المدن الثلاث ثلاثون قاضياً لمجلس القضاء، وكان للقضاة الثلاثين المذكورين الحق فى نصب قاض منهم رئيساً عليهم وبعد نصبه يكملون عدة الثلاثين من مدينة القضاة العشرة الذين اختير منهم ذلك الواحد، وكانت نفقاتهم من خزينة الحكومة ومرتبات رئيسهم من بيت المال، وكانت لا تقام الدعاوى فى مجلس القضاء إلا بالكتابة ولا يسمع التداعى أو التخاصم بالمشافهة والمخاطبة مخافة أن تنجذب قلوب القضاة من سماع كلام أحد الخصمين وتستميل قلوبهم فصاحته أو عذوبة ألفاظه إذ ربما ترتب على ذلك الانحراف فى الأحكام فلذلك كان يكتب المدعى شكواه أولاً ويبين مقدار ما يلتمس الاعتياض به فى نظير ما خسره أو ما حصل له من الإساءة فيعطى للمدعى عليه صورة ما كتبه خصمه ليعلم ما قاله فيرى كلام خصمه ويناقضه بما شاء ثم يجوز أن يعطى جواب المدعى عليه للمدعى عساه أن يجيب عنه وكذلك يجوز أن يعطى للمدعى عليه بعد ذلك فإذا فرغت المناقشات

وجب على مجلس القضاة بعد البحث فى القضية أن يحكم فيها بما يظهر له فيكتب الحكم أيضاً ويختمه رئيس القضاة على وجه عجيب وذلك أن الرئيس له سلسلة من ذهب معلق فى عنقه فيه صورة من الجوهر عليها تمثال الحق فعند افتتاح المذاكرة لابد من تعليق الصورة فى عنقه فإذا صدر الحكم من المجلس صدق عليه الرئيس بختمه بصورة الحق ووجهها صوب أحد الخصمين الحاضرين بالمجلس حين الختم علامة على أنه ظهر له الحق فعمل به وأنفذه وبقيت الحال على ذلك إلى زمن البطالسة أيضاً، وقد عثر أهل العلوم الأثرية على شقة من البردى وهى موجودة بمتحف مدينة تورينو من أعمال إيطاليا مكتوب عليها باللغة اليونانية ملخص دعوى نظرت بالمحكمة الكبرى بمدينة طيبة، وكانت بين أحد المصريين وأحد اليونانيين وتعريب ما فيها ، تقدمت هذه الدعوى إلى محكمة طيبة عاصمة المملكة المشمولة برئاسة (هيركليد) حكمدار الخفر السلطانى وحاكم قسم الضواحى ورئيس جباة الأموال بالقسم ومعه كل من (بوليمون هركليد) الجمباز و(ابونيوس هرموجين) صديق الملك بمعيته و(بانكرات) ضابط من الدرجة الثانية و (بانسكوس) من أهالى مصر إلخ قضاة بالمحكمة المذكورة.

(الموضوع)

إنه فى الثانى والعشرين من شهر أتير يعنى (هاتور) سنة أربع وعشرين من حكم بطليموس أو يرجيطه أى (الرحيم) طلب (هرماس) بن بطليموس حمكدار نقطة امبو الحربية خصمه المدعو (هورروس) بن (أرسيازى) المصرى ومعه فلان ، وفلان ، إلخ الجميع صناعتهم مباشرة تحنيط الأموات للحضور أمام هذه المحكمة لأن المذكور اغتصب منزله الكائن بمدينة طيبة المحدود من بحرى، إلخ، وبعد ما سكنه فى غيبته وأخذ يباشر صنعته به وأبى الخروج منه وأن (هرماس) المدعى طلب المدعى عليه وهو (هورروس) جملة مرات للحضور أمام المحاكم الأخرى لأجل حصوله على حقه لم يفد ذلك شيئاً وأن المدعى عليه كان يستعمل المراوغة والحيل كما أن المدعى كان مجبوراً على عدم مباشرة الدعوى لإقامتها بمحل وظيفته إلى أن نظرت أخيراً بهذه المحكمة للحكم فيها نهائياً.

قال الراوى لهذه الحكاية أما وجه التمليك للمنزل فمذكور في عمودين ونصف من الورقة المشار إليها ، وذكر بعد ذلك أقوال المحامين عن الخصمين وهما (فيلوكليس) النائب عن المدّعى و(دنسيون) النائب عن المدّعى عليه ، قال وملخص

ذلك، أن كل واحد منهما كان يبرهن بالأوراق والحجج والعقود والتواريخ المثبتة لصحة تمليكه المنزل متمسكاً بنصوص بنود القانون العامى والمدنى وأخذ (فيلوكليس) يزدرى بجمعية المحنطين للأموات مستظهراً بالقوانين والأوامر السلطانية الصريحة المانعة لمباشرة هذه الصنعة بقرب المساجد أما (دينون) فكان يدافع عن جمعية المحنطين ويذكر حالتها الطبيعية وشدة الحاجة إليها وأنها بمكان عظيم فى الهيئة الاجتماعية وشرح نصوصها القانونية وبالغ فى الشرح والتعبير وفند مدعيات خصمه وشد النكير على (فيلوكيس) اليونانى لانتهاكه حرمة القواعد المقدسة المرعية عند جميع المحاكم على اختلاف درجاتها ، وكان فى خلال هذا الدفاع يقول إن موكله يمتلك تلك الدار من أعوام كثيرة وجعل يعددها ثم عطف فى أثناء المرافعة على بعض مواضيع أثنى فيها على حُسن الإدارة وعلى الكثير من القضاة وما لهم من شرف الوظيفة، وعلى الترتيبات النظامية الجارية بالقطرالمصرى وذكر أحوالاً أخري لا تخلو عن الفائدة التاريخية ، قال الراوى ثم صدر الحكم فى العمود التاسع من الورقة المذكورة برفض دعوى المدّعى اليونانى واحقية (هورروس) المصرى بتلك الدار لثبوت وضع يده. اهـ. **قلت** وطريقة هذه المرافعة لا تختلف فى شيء عما هو جار بالمحاكم الآن فرحم الله تلك الأيام ما أعدلها.

(فصل)

(فى كيفية الحدود والعقوبات عندهم)

كانت للمصريين أحكام غريبة دونت فى كتب شرائعهم وذلك كعقاب الحانث فى يمينه بقتله، قالوا: وسر ذلك أن الحانث يرتكب كبيرتين أولاهما كونه حلف كاذباً وخان معبوده بسبب حلفه به كذبا. وثانيتهما لأنه غش الناس وخدعهم بيمينه الفاجرة ليصدقوه فأوقعهم فى تصديق الكذب ، ومن أحكامهم أن من رأى فى طريقه من يقتل إنساناً أو يصول عليه ولم يغثه من القتل أو الصيال مع قدرته على ذلك فجزاؤه القتل. فإذا كان لا يقدرعلى إغاثته بنفسه وإنما يتمكن من طلب الإغاثة بغيره وجب عليه أن يطلب إغاثته من القادر عليها فإذا قصر فى ذلك قتل أيضاً. وكذلك إذا علم أحد بقتل آخر وجب عليه التبليغ لأولى الأمر فإن لم يفعل فجزاؤه القتل، قالوا لأن وجوده كعدمه، ومنها أن الخائن الذى يبلغ الأعداء أسرار الحكومة ويطلعهم على عوراتها جزاؤه قطع لسانه وكذلك من يصطنع النقود الزيف أو يطفف المكاييل والموازين أو يزور فى الأختام والمكاتيب والحجج فجزاؤه قطع يده.

قلت: ولعل قول الراوى (وكذلك من يصطنع النقود الزيف إلخ) فيه زيادة عن الأصل حيث اجتمعت كلمة أهل التاريخ على أن النقود لم تستعمل بديار مصر إلا فى أيام الدولة السابعة والعشرين الفارسية ويدل على صحة ذلك ما قاله هرودوتس المؤرخ من أن دار ابن (هستاسب) هو أول من ضرب نقود الذهب وبالغ فى تصفيتها وأن دارا المذكور حكم بالقتل (على اريانديس) عامله بمصر حين علم بأنه ضرب نقوداً من الفضة . اهـ.

قال أهل التاريخ وقد كانت النقود المتداولة قبل دارا المذكور اصطلاحية على أشكال مختلفة كالضفادع والحلقات والثيران والعجول الصغيرة المصنوعة من الذهب والفضة والمعادن الأخرى مرقوماً عليها قيمتها ووزنها وعيارها فكانوا يقومون بها السلع والبضائع ويقال هذا يعادل حلقتين من الذهب أو من الفضة وهذا بثلاث ضفادع أو أربعة ثيران مثلاً. وكانت جزية الأمم الخاضعة لمصر كلها من حلقات الذهب أو الفضة تقبضها منهم بالوزن.

وكات الأحكام على النساء أيضاً غاية فى الشدّة وبالنسبة لهن كذلك فإن من ثبت عليه أنه اغتصب امرأة حرّة غير رقيقة بالزنا فجزاؤه قطع آلته. قالوا لأن فى هذا الذنب ثلاث كبائر الأولى: التعدى على امرأة بهتك عرضها، الثانية: السعى خلف إفساد الأخلاق السليمة والعوائد فى الهيئة الاجتماعية، الثالثة: ما يترتب على ذلك من اختلاط الأنساب فإذا زنى بها برضاها فجزاؤه جلده ألف جلدة وجزاء المرأة قطع أنفها لتشويه خلقتها حتى ينقطع ميل الرجال إليها، ولا ينفذ الحكم على الحبالى منهن إلا بعد الوضع ومن أحكامهم أن الدين المدّعى به لا يثبت على المدين إذا حلف على رؤوس الأشهاد أن ذمته بريئة من ذلك الدين وأن الدائن لا يستحق فى ذمته شيئاً ووجه ذلك أن اليمين أقوى ما لم يثبت الدائن عليه دينه بسندات ومن أحكامهم أيضاً أن الربح عندهم فى أى شىء كان فى البيع والشراء لا يتجاوز رأس المال وإلا عدّ من الغبن الفاحش، وأن من كان عليه دين فأملاكه كافلة لذلك الدين وضامنة له وأما ذات المدين يعني شخصه فليس لمدينه عليه ولاية قالوا وسر ذلك أن ذات المدين مملوكة للهيئة الحاكمة بحيث تطلبها فى كل وقت وفى كل حال سواء كان ذلك فى زمن الصلح أو زمن الحرب. فلذلك كان لا يجوز القبض على أحد من الأهالى ولا حبسه فى الأمورالخصوصية كالدين ونحوه ويحكم بقطع يمين مطفف الكيل والميزان ومقلد ختم السلطان أو ختم أحد الناس ومزور الخطوط ومغير مواضيع الدعاوى الرسمية، ويحكم بالعذاب ثم بالحرق، ومن قتل أحد أبويه عمداً

أحرق حيا ومن قتل ابنه أو ابنته يحكم عليه بأن يعانق جثة المقتول أيام بلياليها. قال هيرودتس: وبقى الحكم بالقتل معمولا به إلى عهد الملك سباقون أحد ملوك العائلة الخامسة والعشرين فأبطله واستبداله بالأشغال الشاقة فى حفر الجسور ونحو ذلك من المنافع العمومية. قال: ومن مآثر الملك (مايس) أحد ملوك العائلة السادسة والعشرين أنه فرض على كل مصرى أن يثبت اسمه بالكتابة فى آخر الجهة الداخل فى دائرة اختصاصها ويبين مهنته ووسائل معيشته وتكسبه فإن أكل أو ظهر أنه يأكل من طريق الحرام والسحت حكم عليه بالقتل.

(فصل)

(فى تمدن المصريين فى صنائعهم وعقائدهم وبعض عوائدهم)

اعلم أن دلائل الآثار وما جاء به التاريخ المصرى القديم والحديث أثبت ما كان عليه أجدادنا المصريون من المعارف وما وصلوا إليه من درجات المدنية وما حازوه من الفنون العقلية والفلسفية والطبية والكيماوية، وكيف تقدّموا وبرعوا ونالوا الأسبقية فى علم الهيئة والنجوم والهندسة لا سيما فن الطب الذى اتقنوه إتقاناً غريبًا جداً إذ كان الطبيب عندهم لا يتفرغ إلا لمعالجة مرض واحد من الأمراض فيتقنه غاية الإتقان. قال بعض الكتاب: وقد وجد كتاب محرر فى فن الطب من عهد الملك (خوفو) وكتابان آخران أحدهما من عصر الملك (منكورع) كله تذاكر طبية، وثانيهما كان قد وجد فى عصر الملك (سيتى) فتممه الملك (سندا) ثم نقلت هذه النسخ فى مدة العائلة الثانية عشرة والتاسعة عشرة ولنفاستها تداولتها مدارسهم وحفظت فى مكتبة (امبحتب) التى بقيت إلى عهد اليونان، وكان حكماء اليونان يستنبطون منها العلاج، قال هيرودوتس المؤرخ: وكان قدماء المصريين يعتنون بصحة أجسامهم زيادة عن غيرهم من الناس فكانوا كل شهر وثلاثة أيام يتعاطون مقيئات وشربا لتنظيف أجوافهم لأنهم كانوا يعتقدون أن أمراض الإنسان تنشأ عن المأكولات، قال: وإن الطب كان مقسماً عندهم إلى أقسام متباينة بمعنى أن كل طبيب كان يشتغل بنوع مخصوص من الأمراض ولهذا كان حكماؤهم كثيرين . اهـ.

وقد برعوا فى عمليات التصبر ووصلوا فيه إلى درجة لم يتأت لأحد من بعدهم الوصول إليها ومع ذلك. فقد كانوا لا يميلون إلى البحث فى علم التشريح ولا

التفنن فيه لاعتقادهم أن الجسم إذا شرح يكون مشوه الخلقة عند بعثه. ولذا كانوا يبغضون كل من كان سبباً فى تشريح جثة موتاهم حتى إن المصبر الذى كان من وظيفته عمل الفتحات اللازمة لعملية التحنيط كان عرضة للعن والكراهة، وكان إذا عمل الفتحات المذكورة فى الجثة خرج مسرعاً فيلحقه الحاضرون ويرجمونه بالحجارة، وكان الأطباء لهذا السبب يعالجون المرضى حسبما كانت تقضى به الشريعة عندهم فإن خالفوا ذلك أخطئوا وخاطروا بأنفسهم ، وإذا مات المريض حال معالجته حكم على طبيبه بحكم القتل، وقد ورد فى الرسالة القديمة المحفوظة بخزانة التحف ببرلين عدّة مسائل مهمة تتعلق بحياة الجسم الإنسانى عندهم وتعريب بعض ما فى تلك الرسالة.

أن للرأس اثنين وثلاثين وعاء توصل النفس إلى داخله ثم يسرى منه هذا النفس إلى جميع أعضاء الجسم، ويوجد أيضاً فى الصدر وعاءان يوصلان الحرارة إلى الشرج ووعاءان فى القمحدوة واثنان فى قمة الرأس واثنان فى القفا واثنان فى الأجفان واثنان فى الأذن اليمنى ومثلهما فى اليسرى لحصول التنفس واثنان فى الخياشيم. اهـ. والنفس هو ما يستنشقه الإنسان من الأهوية فيدخل فى الأوردة والشرايين ويمتزج بجميع الدم الذى به حركة الإنسان وعند موته ينقطع النفس بخروج الروح وتبطل حركة الدم فيموت الإنسان. وذكر أيضاً فى الرسائل الطبية القديمة أسماء بعض الأمراض كالرمد والدوالى والقرح والحمرة والديدان والصرع. ونحو ذلك وفيها أيضاً باب مخصوص لبعض معالجات نافعة للحمل والولادة وورد فى رسالة قديمة محفوظة بانتكخانة برلين بعض علامات لتشخيص الأمراض التى هى أهم كل شيء للحكيم من ذلك تشخيص نوع من الالتهاب تعريبه:

أن يحس الإنسان بألم فى البطن وبضعف فى الأبهر وبالتهاب فى القلب ويشتد ضرب النبض وتثقل الملابس عليه بحيث لا يدفئه كثيرها وتلتهب بطنه عند قضاء الحاجة، ويشتد ظمؤه فى الليل، ويتغير معه طعم المآكل فيكون كرجل أكل جميزاً ويخدل جسمه كما يخدل جسم الإنسان المريض . اهـ.

وعلاج ذلك منصوص فيها على أربعة أنواع إما أن يعالج بالمراهم أو باللبخ أو بالجرع أو بالحقن حسب الطباع فمن هذه الأربعة ما يتركب من خمسين نوعاً منها ما هو من النباتات والأشجار كالعوسج والذرة ومنها ما هو من المواد المعدنية مثل كبريتات النحاس والملح وملح البارود. اهـ.

وكان بعض علماء الطب يدخلون فى تركيب المراهم المزيلة للالتهاب اللحم

والقلب والكبد والمرارة والدم السائل والجاف لبعض الحيوانات لا سيما الشعر وقرن الإيل فكانوا كثيراً ما يستعملونهما فى تركيب بعض المراهم النافعة لمعالجة الالتهاب وكانت أجزاء كل دواء تسحق على حدتها ثم تغلى وتصفى بخرقة وتمزج بعد ذلك بالماء القراح النقى أو بسوائل كمغلى الشعير ولبن البقر والمعز وزيت الزيتون النقى. وغير ذلك كبول الإنسان والحيوان ثم تحلى بالعسل ويتعاطى منها المريض وهى ساخنة فى الصباح والمساء ، أما الصرع المعروف عند العوام بالعفريت فكانت معالجته على نوعين إما بالرقية أو بالطب والأولى عبارة عن عزائم كانوا يقرؤنها على المريض فيخرج منه الصرع وسنذكر هنا نص العزيمة المكتوبة فى الرسالة المحفوظة بالانتكخانة الإنكليزية بمدينة الليد وتعريبها:

(أيها الجنى الساكن فى فلان بن فلان المسمى أبوك بضراب الرؤوس قد محى ولعن اسمك إلى الأبد لأنه جالب للموت . اهـ.

وتكرر هذه المقالة أربع مرات فإن كانت هذه العزيمة لا تزيل الصرع أتى الطبيب بعزيمة أخرى لإزالته. فإذا زال من المريض اجتهد الطبيب فى معالجة الجسم بالأدوية لدفع ما حصل للمريض من الهزال بذلك الصرع وبهذا تعلم أن الرقية اشتهرت عند قدماء المصريين بإزالة المرض الخفى كما أن الطب اشتهر عندهم أيضاً بإزالة المرض الظاهرى.

وكانت درجة العلوم عندهم عظيمة جداً وذات أهمية كبرى. قال لبسيوس وجدت نقوشاً قديمة على جدار مقبرة من مقابر قدماء المصريين بجوار أهرام الجيزة مضمونها أن صاحب هذه المقبرة كان ناظرا على الكتبخانة الملوكية فى مبدأ العائلة الثانية . اهـ.

وما ذلك إلا لعنايتهم الكثيرة بكتب العلوم حتى جعلوا لها خزانة وناظرا. قال بعضهم ومن هذه الكتب ما كان محررا فى مدّة العائلات الثلاث الأولى ومنها ما كان مؤلفا فى عهد الملك (منا) ومنها ما كان قبله مما يتعلق بالديانات خاصة وما يتعلق بالهندسة والطب وعلم الفلك وعلم التاريخ المشتمل على قصص الملوك وما حصل فى مدتهم من الوقائع والحوادث المهمة وعلى مدة كل ملك وتاريخ حياته، وكان فى الخزانة المذكورة كتب فلسفية وأدب وبعض كتب خرافات وغير ذلك ولم يتيسر للناس من ذلك إلا شيء قليل من علم الفلسفة والتاريخ.

وكان ما استكشفوه من علم الفلك كما رواه العلامة لبسيوس عبارة عن بعض النجوم السيارة التى هى المشترى والمريخ وزحل والزهرة وعطارد وبعض نجوم

ثوابت. قال ده روچية وكانوا يشبهون الأرض بالكواكب ويقولون انها تنتقل كالمريخ والمشترى وذهب شاباس إلى أن الشمس مركز الجميع وأنها تسير سيراً عمومياً وتسبح فى السماء مع النجوم السيارة وأن السماء لجة ماء تحيط بالأرض من جميع جهاتها وتركز على الجو فهو لها كالأساس المتين كما جاء ذلك أيضاً فى ورقة برلين الأثرية ويدل على ذلك أيضاً ما يشاهد على الآثار من رسم السماء على هيئة الماء وفيها تسبح الكواكب والنجوم على أشكال بشرية وحيوانية كل منها فى سفينة خلف الشمس وتشاهد فيها أيضاً النجوم الثوابت على هيئة مصابيح منتشرة فى القبة السماوية، وكانّ القدرة الإلهية توقدها كل مساء لتضىء الأرض أثناء الليل وجعلوا فى مبدأ هذه الهيئة النجوم التى كانوا يعبدونها وغيرها مما لا يمكن مقارنة أسمائها القديمة بالأسماء الحالية، كما تشاهد مرسومة فى الرصدخانات القديمة الموجودة بدندرة وصان ومنف والمطرية.

وكانوا يهتمون كل سنة بعمل تقاويم سنوية يبينون فيها ظهور وغروب الكواكب ولم تزل آثارها باقية وأشهر هذه الكواكب الشعرى اليمانية حيث كان ظهورها علامة على مبدأ فيضان النيل وعلى رأس السنة المصرية ولذا اتخذوها أساساً للتقويم. قالوا: وكيفية تقويمهم أنهم قسموا السنة إلى اثنى عشر شهراً كالجارى عند القبط إلى الآن وقسموا الشهر إلى ثلاثين يوماً فتكون السنة ثلثمائة وستين يوماً. ثم قسموا هذه الشهور إلى ثلاثة فصول كل فصل منها أربعة شهور. فالأول فصل فيضان النيل. والثانى فصل التخضير. والثالث فصل الحصيد. ثم قسموا أيضاً كل شهر إلى ثلاثة أقسام وجعلوا كل قسم عشرة أيام وقسموا الليل والنهار إلى اثنتى عشرة ساعة وعلى هذا الحساب زادت سنتهم خمسة أيام وربعا فنشأ عن ذلك عدم موافقة الفصول لمنازل القمر فاضطروا إلى رصد الشمس ثانياً واستقر رأيهم على إضافة خمسة أيام لكل سنة سموها بأيام النسىء. ومع ذلك لا يزال يرى فرق بين السنة البسيطة والكبيسة. لأن عدد السنة البسيطة ثلثمائة وخمسة وستون يوماً. وعدد الكبيسة ثلثمائة وخمسة وستون يوماً وربع يوم فصارت السنة الكبيسة تزيد كل أربع سنين يوماً واحداً سماه الكهنة بيوم الشعرى اليمانية. وكانوا يجعلون لها مواسم وأعيادا فى معبد (شيسوحور) بمدينة منف. وأما علم الرياضة فلم يهتد إلى شىء من كتبه وإنما دل بناء الأهرام الشامخة وتشييد العمارات المتسعة والمقابر المتقنة على أن فن الهندسة كان متقدماًجداً وأن المصريين كانوا يعرفون مقاييس الأجسام وجر الأثقال حتى أمكن المهندسين منهم أن يبتنوا تلك الأهرام الجسيمة والبرابى العظيمة الموجودة بسقارة وغيرها على شكل غريب وصنع عجيب وقد وجدت بعد بناء الأهرام بألفى

سنة رسالة فى الهندسة أظهرت حقيقة ما كان عليه هذا الفن فى عصر العائلة التاسعة عشرة.

وكانت لهم اليد الطولى فى صناعة الذهب والفضة وأعمال أشكال الحلى النفيسة وهم الذين اخترعوا آلات الحرث وصنعوا الزجاج بألوان مختلفة، وكان لهم اتصال مع بلاد الهند والصين بواسطة بلاد العرب فكانوا يرسلون إلى تلك الجهات ما راج عندهم من الحبوب والمواشى والفخار والزجاج ويستبدلونها بالعطر والبهار والياقوت. وغير ذلك من النفائس والأصناف العزيزة عندهم.

ومن عوائدهم أنه إذا أراد إنسان اقتراض مبلغ من المال يجوز له أن يقترض ويرهن فى نظير ذلك - أى فى نظير دينه - جثة أبيه المدفونة فيكون قبر أبى المدين تحت يد الدائن إلى وقت استحقاق الدين فإذا لم يوفى المدين دينه ومات حرم من دفنه فى مقابر والديه وتحرم أولاده أيضاً ما لم يوفوا دين والدهم.

ومن عوائدهم أن الولائم التى يتخذها الأغنياء يحضرون فيها بعد الطعام فى غير المكان المعدّ له نعشاً مرسوماً عليه صورة من الخشب جيدة الصنعة على هيئة جثة الميت ينظر إليها جميع الندماء عند الشراب والطعام ويفرج بعضهم بعضاً عليها بالمناوبة فيقول بعضهم للبعض انظر إلى هذه الجثة التى سنكون مثلها بعد الموت فاشربوا ياهؤلاء هنيئًا وتمتعوا بدنياكم قليلاً.

ومن عوائدهم احترام الفتيان للشيوخ فإذا قابل الفتى شيخاً فى طريقه تأخر عنه فى السير وإذا قدم شيخ على مجلس فيه فتيان قاموا إجلالاً لشيخوخته وإذا تقابل المصرى مع إخوانه فى موضع ولزم التسليم على من لقيه انحنى للآخر وجثا على ركبتيه وقبل كل منهما يد صاحبه.

ومن عوائدهم أنهم كانوا لا يجالسون الأجانب ولا يأكلون معهم شيئاً ويبغضونهم بغضاً شديداً وكانوا إذا مات أحد أشرافهم مرغ نساء بيته وأولات قرباه الوجوه بالوحل وقرعن صدورهن وطفن بالمدينة صارخات باكيات. **قلت**: وهذه العادة باقية كما هى إلى يومنا هذا، وهكذا يفعل الرجال أيضاً ثم يأتون بالجثة إلى المحنطين وبعد التحنيط ينعقد مجلس القضاء على الميت فيأتون بالجثة أمام عرش القضاة فإن كان الميت من أهل الصلاح والتقوى ووجد من شهد بذلك صدرالحكم بدفنه مكرماً وإن كان ذميماً دفن على خلاف اللائق ولو كان من أعظم الأشراف أو ملكاً من الملوك وقد تقدّم الكلام على ذلك فى محله.

وكانوا إذا حنطوا الجثة أخرجوا دماغ القحف من المنخرين وأخرجوا الأمعاء إلا

القلب والكليتين من ثقب فى الخاصرة ثم يغسلونها بخمر الخل ويردونها إلى أجوافها ويملئون الرأس وأجواف الأمعاء بالمر والقرفة وكل نوع من الأطياب والعطور ويدهنون الجسد بالزيوت العطرية مدة ثلاثين يوماً ثم يوضع فى ماء النطرون مدة أربعين يوماً ثم يلف بلفائف مغموسة بالمر مدهونة من الخارج بماء الصمغ للوقاية من الهواء ثم يوضع فى تابوت من الخشب أو الحجر ويسلم لأهله فإما إن يبقوه فى بيوتهم وإما أن يدفنوه وكان أجدادنا يلبثون الثياب من الكتان ولها طراز وفوقها برانس من الصوف الأبيض ولكنهم كانوا لا يلبسون تلك البرانس فى المعابد والهياكل ولا يكفنون بها موتاهم بل يقتصرون على الملابس الكتان لأن ديانتهم كانت تحرم عليهم ذلك.

ومع أنهم كانوا كثيرى الآلهة والمعبودات فقد كانوا أمة موحدة تعرف الله سبحانه وتعالى وتعبده حق عبادته كما يؤخذ من كلام (بورفير) المؤرخ وغيره من المتأخرين . وقال هيرودوتس أن أهل طيبة كانوا لا يعبدون إلا الله وكانوا يقولون أنه هو الأول والآخر الحى الأبدى الذى لا يزول ولا يحول وروى (جامبليك) أنه سمع باذنيه من كهنة المصريين أنفسهم أنهم يعبدون إلها واحداً وهو خالق السموات والأرض رب كل شىء المالك لكل شىء والخالق لكل شىء الأزلى الذى لا موجد له المنزه عن المباضعة الذى لا تراه العيون يعلم ما تكن السرائر وتخفيه الصدور وهو الفعال لما يريد الموجد لكل شىء والموجود فى كل شىء. قال: أما ما نراه من كثرة المعبودات وتعدد الآلهة فكلها رمز يرجع إلى وحدانيته وذاته العلية. قال المؤرخ (شمبليون): وقد استنتجنا مما هو منقوش على الآثار صحة ما رواه المؤرخ (جامبليك) وما ذكره غيره من المتأخرين من أن الأمة المصرية كانت أمة موحدة فى عبادتها لله سبحانه وتعالى غير أنهم كانوا يظهرون صفاته العلية مشخصة فى بعض المحسوسات وأنهم لما تغلغلوا فى سبل التوحيد وقطعوا آخر مرحلة علموا أن الروح أبدية واعتقدوا بصحة الحساب والعقاب. قال: وعندى أنه لا يعتد بما قاله بعض أهل التاريخ من الأغراب الذين تطفلوا على محافل المصريين فنقلوا من أخبار عباداتهم ومعبوداتهم كلاماً اكتفوا فى نقله بالظاهر دون الحقيقة لجهلهم بعادات المصريين ولغتهم ومبلغ علمهم بالديانة الصحيحة.

ومن المقرر على ما رواه بعض المحققين أن موسى عليه السلام لما أخذته ابنة فرعون أبقته فى دار أبيها حتى ترعرع ثم أدخلته إحدى مدارس الكهنة ويغلب أنها مدرسة عين شمس فتعلم الحكمة وتخرج على كبار كهنة المصريين وتعلم منهم اسم

الله المكنون الذى كانوا يصونونه عن غيرهم من العامة. ولذلك قال بعض الكتاب أن لفظة (أدوناى) العبرانية التى قالها موسى عليه السلام ومعناها (الله) هى مشتقة من لفظة (ادن) أو (آتن) المصرية ومعناها عند عامة المصريين الشمس. وأما عند الكهنة والخواص فمعناها (الله القادر). قالوا وقد وجد على بعض الأوراق ما يدل على أنهم موحدون من ذلك أن الله واحد لا شريك له وهو خالق كل شىء ، ومنها الله فرد أزلى كان قبل كل شىء ويبقى بعد كل شىء لا بداية له ولا نهاية وقس على هذه العبارة ما يماثلها.

وقال العلامة سپرو نقلاً عن بعض المحققين من أهل التاريخ إن من يتأمل فيما بقى من الآثار القديمة بديار مصر وينظر إلى ما هو منقوش على اللوحات الدينية الموجودة بالهياكل وما هو مسطور أيضاً على البردى هالته كثرة تلك الآلهة المصوّرة عليها وأدهشه أمرها جدا لأن الإنسان لا يقع نظره إلا على صور تماثيل مختلفة الهياكل والأشكال قد طاطأت لها رؤوس كبار ملوكهم وأحبار كهنتهم فيخيل له أن ديار مصر إنما كانت مأهولة بهذه الآلهة وأن المصريين إنما خلقوا لعبادتها، وقد كان السبب فى ذلك أن المصريين أمة مخلصة فى العبادة إما بالفطرة وإما بالاكتساب فكانوا يرون أن الله تعالى فى كل مكان فهامت لذلك قلوبهم فى محبته واشتغلت أفكارهم به ولهجت ألسنتهم بذكره وملئوا كتبهم بمحاسن أفعاله وكانوا يقولون أنه واحد لا شريك له كامل فى ذاته وأفعاله موصوف بالعلم والفهم لا تحيط به الظنون ولا يدخل تحت الكيف والكم قائم بالوحدانية فى ذاته لا تغيره الأزمان فهو الذى ملأت قدرته جميع العوالم وهو الأصل والفرع لكل شىء وكلاهما واحد ثم عددوا صفاته العلية وميزوها بالأسماء واشتقوا منها نعوتا شخصوها فى المحسوسات وفى كل شىء نافع وجميعها يرجع إليه ولأجل التمييز بينها جعلوا لكل اسم تمثالا فانتشرت هى وما اشتق منها حتى ملأت المدن والبلاد فجعلوا لكل ناحية معبودات وميزوها بها لعدم الالتباس فنشأ من ذلك جملة معبودات متباينة فى الشكل مختلفة فى الهيئة منها الحيوان والطير والأسماك والحشرات وجعلوا لكل واحدة وظيفة خاصة ترجع إلى صفاته. قال: من ذلك معبودهم (أمون) وهذا عندهم هو الله الذى ينبعث منه كل شىء ويعطى للعقل نور القوّة لإدراك الخفايا، ومنها (بتاح) وهو فى معتقدهم الذى أتقن كل شىء ومنها (أوزيريس) وهو الله الرحيم فاعل الخير، وعلى ذلك يكون (أمون)، و(بتاح)، (وأوزيريس) أسماء لصفات مترادفة ترجع إليه تعالى. اهـ.

قال بركش باشا: وقد حصروا صفات الله تعالى العلية فى سائر الأشياء النافعة

كالثور والشمس مثلاً وغيرهما وعبدوه أى عبدوا هذه المنفعة لأنه مصدرها وأصلها وكانت الكهنة تعرف حقيقة ذلك جيداً ولا تقصد فى عباداتها إلا وجه الله تعالى.

أما العامة فقد كانوا على خلاف ذلك فإنهم مع توالى الأعصار صاروا يعبدون تلك الأشياء لذاتها ولجهلهم بالحقيقة كانوا يتقربون إليها زلفى وفشت فيهم هذه الزندقة. قال: وقد دل على ذلك ما رواه بعض أهل التاريخ عن بعض الأسفار المصرية القديمة المنسوبة إلى هرمس الهرامسة يعنى هرمس المثلث ما صورته ، يا مصر يا مصر يأتى عليك يوم يتغير فيه دينك القديم ويتبدل منهاجك القويم فتعم ربوعك الضلالات وتنبث فى أرجائك الخرافات وتحل عبادة الأوثان محل عبادة الواحد الديان وتطفىء نار الشرك والإلحاد نور الهدى والرشاد وتنحصر أخبارك فى بعض أحجارك . اهـ. وقال مريت باشا: اتفقت كلمة الجم الغفير من متقدمى أهل التاريخ على أن المصريين كانوا يعبدون الله وحده ولكننا مع الأسف لم نجد لذلك شاهداً على الآثار حتى كنا ننزل قولهم منزلة اليقين إذ الشك فى قولهم هذا آخذ كل يوم فى الازدياد. اهـ.

وكان لملوكهم عناية كبرى ببناء المساجد والهياكل وبذل النفيس فى تزيينها بالنقوش الفاخرة والرسوم الظاهرة والألوان المختلفة وكانوا يقطعونها الإقطاعات الواسعة ويرصدون عليها الإرصادات الكثيرة تقرباً للآلهة وتخليداً لذكرهم وذكر أيام ملكهم وكانوا جميعاً على اختلاف طبقاتهم شديدى العناية بتربية سائر أنواع الماشية والطيور إذ كان عليها مدار ثروتهم وخصوصاً أرباب الزراعة منهم فكانوا يهتمون بشأنها ويحسنون تربيتها ويستخدمون لعلاجها الأطباء والبياطرة والخدم وكانوا يقيمون لكل نوع منها كالمعز والأوز والضأن رعاة مخصوصين ولكل طائفة من أولئك الرعاة رئيس مسئول عنها وكانوا يبالغون فى حسن تربيتها لا سيما الثيران فإن عنايتهم بها كانت أشد بكثير نظرًا لتفاخرهم بنطاحها وتحسين نوعها، وكان رئيس الرعاة هو المكلف بتمرينها على النطاح، وكان من عادة أولئك الرعاة وكبارهم أنهم إذا جاؤا إلى ساداتهم ليخاطبوهم فى أمر مّا وقفوا أمامهم بخضوع وخشوع وهم واضعون يدهم اليمنى على كتفهم الأيسر علامة على الطاعة وكمال الامتثال أما يدهم اليسرى فمرسلة تشير باحترام وكانت تربية هذه السوائم المختلفة فى الأقاليم البحرية أكثر منها فى الأقاليم القبلية لاتساع أرضهم وكثرة الكلأ عندهم ، قال صاحب الأثر الجليل: وقد وجدت لوحة فى إحدى المقابر بجوار الأهرام عليها رسم صورة صاحب القبر كأنه على قيد الحياة واقفاً يتفقد أحوال ماشيته وهو متمنطق ومتقلد بشريط عريض ينزل من كتفه الأيسر إلى خاصرته اليمنى وبيده عكاز طويل

وفوق رأسه راية من القماش المزدوج يحملها خادم ليقيه حر الشمس وبجواره بعض صغار أبناء آوى. وفى عنقه قلادة أو عقد وأمامه خدم أو رعاة تسوق أنواع الحيوانات وفوق كل فريق منها رقم واضح به كميته وفى مقدمة الجميع قطيع من الحمير يتقدمها جحش وعددها ثمانمائة وستون وعلى كتف الراعى عكاز عليه جلد حمار مات فى الغيط ليطلع سيده على صحة موته ثم يتلو ذلك قطيع من الغنم بقدر تسعمائة وأربعة وسبعين رأساً وخلفه راع يحمل فى يده سلة بها رأس حيوان بلا قرون يظهر من حالها أنها رأس ذئب ثم يتلوه سرب من البقر وعدده ثمانمائة وأربعة وثلاثون ثوراً ثم مائتان وعشرون ما بين عجل وبقرة ثم يتبعه قطيع من المعز وعدده ألفان ومائتان وأربعة وثلاثون. قال ووجد على حجر فى مقبرة أخرى لأحد أغنياء مصر الوسطى أن عدد حميره كان يبلغ ألفا وثلثمائة وأربعة وبقره ثمانمائة وثلاثين، والغالب أن بقر الملك كان من أجود الأنواع واكتشف بعضهم فى مقبرة لأحد وجوه مدينة منف صورة خدم وحشم يقدمون قرباناً إلى الميت (وهو سيدهم) من محصول أرضه ونتاج ماشيته مثل التمر والتين والعجول والأوز والغزال والفاكهة والأزهار ومنهم من يقود ثيراناً عظيمة الجرم منها الأبيض والأحمر والأسود وفى أعناقها قلائد بها زينة على شكل نبات البشنين ومنها اثنان من لونين مختلفين موسومان على فخذهما الأيسر بسمتين مربعتين سوداوين مكتوب فى إحداهما (المنزل الملوكى نمرة ٤٣) وفى الآخر (المنزل الملوكى نمرة ٨٦) قال الراوى وربما كان هذا الرقم يدل على عدد الثيران التى كانت من نوع كل ثور عليه هذه الوسمة. اهـ.

وكان من عاداتهم أنهم يرسمون رب العائلة واقفاً متكئاً على عصا طويلة علامة على الحكم والتصرف فى منزله وعائلته، وكانوا يحبون اللعب بالشطرنج والكرة والضامة والمصارعة وكانت المصارعة عندهم مفروضة على سائر الجنود من المشاة وأصحاب العربات وهى عندهم عبارة عن تمرينات ومنازلة مختلفة النوع والشكل فترى المصارعين منهم تارة فى هيئة الهجوم أو الدفاع وتارة فى هيئة الكر والفر يتناوبان ذلك بالدور والترتيب فينهزم المغلوب ثم يعود غالباً ويستعمل كل منهما ضروب المخاتلة والمراوغة وهما عاريان ليس على بدنهما إلا منطقة عريضة تستر سوأتهما.

وكانت تربية العساكر عندهم تستلزم الأيام الطوال، وكان يدخل فى تمريناتهم أيضاً سائر القواد وكبار الجند فكانوا يتعلمون قواعد الحرب وأركانه وأسباب الهجوم والدفاع ومقارعة العدو وكان سائر أولاد العسكر يتعلمون كآبائهم ويتمرنون فى حداثة سنهم على الحركات العسكرية والسبب فى ذلك أنهم هم الوارثون لآبائهم

القائمون بحماية الوطن من بعدهم وكان لا يجوز لأى إنسان منهم أن يشتغل بحرفة أخرى ما دامت فيه قوة على حمل السلاح.

وكانت الأسلحة المستعملة عندهم القسى والرماح والمزاريق والنشاب والحراب والحسام والخنجر والسيف والنصل والدبوس والشاطور والبالطة والسكين والدرق والزرد والدروع والمغفر، وكان نظام معسكرهم لا يختلف كثيراً عن النظام المتبع فى دول هذا الزمان فكان متقنا منظماً مرتباً ترتيباً عسكرياً ، وفيه مضارب الجند ومواقف العربات وبيوت المرضى والممرضين والأطباء ومحضرى العقاقير وأمرائهم والنقالات والأسرة وأصحاب الحملة ودواب النقل من الخيل والحمير والمكلفين بحمل جرار الماء، وكانت جندهم تنقسم إلى فيالق مسماة بأسماء معبوداتهم فكان منها فيلق (بتاح) وفيلق (آمون) وفيلق (أزوريس) ونحو ذلك فإذا باشروا الحرب براً كأن يكون العدو قد جاءهم من طريق البر قاتل الملك فى وسط الجيش وهو على ظهر عربته كآحاد القواد وإن باشروا الحرب بحراً اصطفت سفن المصريين أمام سفن العدو بقرب الساحل فتجرى وتتحرك بواسطة الشراع والمجاذيف وتصطف عساكر الرماة على الساحل مدداً للسفن ويرمى الجميع بالنبل والنشاب على سفن وشوانى العدو والملك واقف على قدميه فى وسط العساكر البرية يدبر حركة القتال ويقوى عزائم الجنود حتى يتم لهم الظفر بالعدو وربما اقتفوا أثره وحرقوا حصونه وقلاعه وهدموا أسوار مدنه أو عاقدوه على الهدنة أو الصلح وغير ذلك مما هو جار الآن على السواء ثم يعودون بعد النصر إلى الوطن فيسيرون فرقا فرقا والملك فوق عربته يقود خيلها بنفسه وهى مطقمة بأجمل زينة لها مجللة بأحسن ما يكون والأسرى أمامه وهم مكبلون بالحديد والضباط تحمل المظلات على رأسه فإذا دخل المدينة واقترب من المسجد ترجل ودخل وأثنى على معبوداته ثم يتوجه إلى مقره ويعين يوماً للتبريك فتأتى إليه الوفود من أرجاء المملكة فيجتمعون فى قصره ثم يخرج بهم إلى المعبد وأمامهم أصحاب البوق والنفير والشبابة والطبول والمغنون والمرتلون ويتلوهم أهل الملك وأقاربه ثم الكهنة وكبار الدولة وعظماؤها ثم ولى عهد الملك ويمشى أمام الملك وهو حامل للبخور ثم الملك فى هودجه المحلى بأنواع الزينة يحمله اثنا عشر ضابطا من كبار القواد وعلى رأس كل واحد ريشة من ريش النعام وتمشى أولاد الكهنة حول الهودج وهم حاملون قضيب الملك وقوسه وجميع سلاحه والشارات والرنك الملوكى ثم يتلوهم باقى الأمراء والكهنة وكبار الجند وحول الجميع فرقة من المشاة تمشى على شكل حلقة لتمنع الناس من العبث بنظام المشهد فإذا دنا من المسجد ترجل فتقابله الكهنة على شكل مخصوص من التجلة والتكريم فيدخل ويتعبد ما

شاء ثم يعود إلى مقره فى موكبه كما حضر وكان لكل عائلة فى مثل هذه المحافل العمومية نظام وترتيب على ما يناسب الزمان والمكان.

وقد اجتمعت كلمة بعض أصحاب التاريخ على أن الجيش المصرى لم يكن به عساكر من الفرسان وبنوا قولهم هذا على أنهم لم يعثروا على شىء من ذلك البتة لا فى الآثار ولا فى اللوحات الحربية ومع أنهم كانوا من الفروسية ومعرفة ركوب الخيل بمكان عظيم لكنهم لم يدخلوا ذلك فى جيوشهم، قال صاحب الأثر الجليل: والدليل على ذلك يعنى على معرفة المصريين للفروسية أنه وجد فى كثير من النصوص الأثرية صورة فارس يركض جواده ونجاب يعدو مسرعاً بفرسه وهو قابض على قراطيس من ورق أو مكاتيب ليسلمها فى محل لزومها ووجد أيضاً صورة أجنبى يعدو بفرسه وهو بلا سرج فراراً من الموت . اهـ.

وأيد هذا المذهب العلامة شيمليون فيجاك حيث قال: ما علمنا أنه كان لمصر فرسان وأن الغرض من الفرسان المذكورة فى التوراة هم راكبو العربات لا راكبو الخيل وأن التوراة ذكرت فى موضع آخر أن فرعون غرق فى البحر بخيله وعرباته وفرسانه أى المقاتلة الذين كانوا عليها. قال: ويؤيد صحة ما قلناه من خلو الجيش المصرى من الجند الفرسان كيفية تربية العساكر وتمرينها المنقوش على الآثار وجميعها مشاة ولم نر للفرسان فيها أثرا . اهـ.

وكانت الجندية عندهم معدودة فى الطبقة الثانية بعد الكهنة وكان الملك هو قائد قواد الجند وعليه تعيين الرؤساء لسائر الفرق من أولاده وأقاربه أو من أولاد ذوى البيوتات وأعاظم العائلات بشرط مراعاة الكفاءة والأهلية وكان الغزاة من ملوكهم الميالون إلى الفتح يقودون الجيوش بأنفسهم إلى حيث يطوحهم القتال وعليهم تدبيرها فى الحال والترحال وكان الملك منهم يقف فى ساحة الحرب على ظهر عربته كآحاد الجند وهو شاك سلاحه وحوله جند الحرس الخاص وكبار الضباط وهم يقذفون سهامهم على العدوّ ويضربون بأسلحتهم ما استطاعوا وقد شوهد على الآثار أن كثيراً من هؤلاء الملوك كان يقتنص الأسود وهى صغيرة ويربيها حتى تصير داجنة فكانوا يسيرونها أمام عربة الملك عند الخروج للحرب فكانت تقاتل وتبلى فى العدو بلاء حسناً.

(فصل)

(فى أعيادهم ومواسمهم)

وكان المصريون من ذوى البراعة فى علم التقويم ولهم أعياد ومواسم معدودة يقدمون فيها للآلهة من الذبائح والقرابين شيئاً كثيراً، قال صاحب العقد الثمين:

وكانت مواسمهم منقسمة إلى أربعة أقسام، القسم الأول ـ فى أعياد السنة وفيه ثلاثة أعياد العيد الأوّل عيد رأس السنة والثانى عيد السنة الكبيرة أى الكبيسة والثالث عيد السنة الصغيرة أى البسيطة، والقسم الثانى فى أعياد الشهور، وفيه عيدان الأوّل عيد الحر الكبير، وكان يعمل فى غرة أمشير. الثانى عيد الحر الأصغر وكان يعمل فى غرة برمهات، والقسم الثالث فى أعياد الأيام وفيه عشرة أعياد عيد غرة الشهر وثانيه ورابعه وخامسه وثامنه وخامس عشره وسابع عشره وتاسع عشريه وثلاثيه من كل شهر وعيد أيام النسىء الخمسة، والقسم الرابع وفيه تسعة أعياد خصوصية، الأول عيد ظهور الشعرى اليمانية فى غرة توت، الثانى عيد (واك) وكان يعمل فى السابع عشر والثامن عشر من كل شهر، الثالث عيد المعبود (تحوت) أى هرمس وكان يعمل فى التاسع عشر من توت ، الرابع عيد السفر فى النيل ، الخامس عيد أوّل زيادة النيل وهو الشهير الآن بموسم النقطة ، السادس عيد السفينة (ثبت) السابع العيد الكبير ، الثامن العيد الطيب وكان يعمل فوق الجبل ، التاسع عيد (عماشع) أى عيد الرمل الكبير . اهـ.

قال هيرودوتس المؤرخ وكانت أعياد ومواسم المصريين تعمل فى مدن متفرقة بالبلاد البحرية والقبلية من مصر مثل مدينة بسطة وصاالحجر والمطرية (وبوتو) التى من آثارها الآن تلال موجودة فى ساحل البحر المالح مما يلى بحيرة البرلس ومدينة (بايرميس) التى لم يعلم الآن لها محل وكانت تلك المواسم والأعياد دينية وسياسية يحضرها الملك أو من ينوب عنه من عائلته والملكة وخلق كثير من الناس وأكبرها يعمل على رأس كل ثلاثين سنة مرة وكان لمن تقع هذه الأعياد فى زمنه من الفراعنة الفخر العظيم والصيت البعيد.

قيل وكان يصدر من المصريين فى هذه الأعياد كثير من الفحش والفجور وكانت الأعياد المذكورة مرتبطة بأوقات الزراعة فى كل سنة وأوّل أعيادهم كان عند شروق كوكب الشعرى اليمانية فى أشعة الشمس وميقاته غرة توت وهو أول شهورهم وكانوا يذبحون فيه واحدة من السمان قرباناً لمعبوداتهم (إزيس) ويخرج الكاهن من معبد مدينة (أبو) فى هياكل مقدسة محمولة على هوادج على أعناق جماعة من الكهنة يختلف عددهم من اثنى عشر إلى ستة عشر بالنسبة إلى ثقل الهيكل وهكذا فى باقى المواسم وبعد مضى أيام من هذا الشهر كان يعمل موسم (تحوت) الشهير (بهرمس) ولذلك كان يسمى هذا الشهر باسمه وكان من عوائدهم فى هذا الموسم أكل التين وشرب العسل ويقال بعد أكله (ما أحلى الحق).

ومن أعيادهم عيد كان يعمل فى السادس من بابه وهو عيد حمل (إزيس) بمولودها (هاربوخرات) يشيرون بذلك إلى وضع بذور الزرع فى الأرض بعد انحدار ماء النيل عنها وفى هذا الموسم كان يعمل طلسم فى عنق تمثال (إزيس) يسمونه (كلمة الحق) وفى الثامن عشر من هذا الشهر موسم (أمون رع) فى مدينة بايريس وكان من عادتهم فيه أن الكاهن فى الليلة المتقدمة عليه يأخذ الهيكل أى هيكل قدّيسهم ويضعه فى برزخ مذهب بموضع مقدّس لهم قريب من المعبد وفى الغد يقربون القرابين وبعد الفراغ منها عند زوال الشمس يقوم بعض الكهنة عند الهيكل ويقف الباقون عند باب المعبد وبأيديهم العصىّ والمساوق لمنع دخول الهيكل فى المعبد فإذا جاء حاملو الهيكل وجدوا باب المعبد مقفلا فيقع بينهم وبين من به من الكهنة وغيرهم مضاربة وقتال كبير ويجرح فيه كثير من الناس ويسيل دمهم ولا ينكفون عن القتال حتى يدخل الهيكل فى المعبد ويستقر فى مكانه وزعم الكهنة أنه لم يكن يحصل ضرر لأحد من تلك الجروح وكان المصريون يشيرون بهذه الأحوال إلى أن (حور) بن (إزيس) أراد الدخول على أمه ليزنى بها فمنعه حراسها من مرامه فجمع أحبابه وأصحابه وقاتل حتى غلبهم ونال مرامه وسرّ ذلك هو أن حرارة الشمس المعبر عنها (بإزيس) دخلت فى جوف الأرض لتخصبها وفى الثامن والعشرين من هذا الشهر كانوا يعملون أيضاً موسم عصا الشمس ويعنون بها تقدمها فى العمر ونقص حرارتها وضعف قوتها ولذلك جعلوها كأنها احتاجت إلى عصا تتوكأ عليها ويعدّون فى هذا الموسم موكباً تحمل فيه صورة عجلة صغيرة يطوفون بها حول المعبد سبع مرات إشارة إلى أن (إزيس) تبحث عن جثة زوجها (أزوريس) بعد أن قتلته (تيفون) وهى الريح الجنوبية.

وفى السابع والعشرين من هاتور كان يعمل فى المدن المعروفة الآن باسم بوصير عيد وقوع (أزوريس) فى قبضة (تيفون) عدوّه وإلقاء الثانى الأوّل فى النهر. ولذا كان هذا اليوم عندهم معدودا من أيام النحوس وفيه يكون ماء النيل قد انحسر عن أرض الزراعة وانحصر فى مجراه بين ضفتيه.

وكانت مدة هذا الموسم أربعة أيام يدور فيها المصريون بثور قرونه مذهبة وعلى ظهره قطعة قماش من القطن أو الكتان مصبوغة باللون الأسود مشيرين بالثور إلى (إزيس) وبقطعة القماش إلى مصر لأن لونها بعد انحسار النيل عنها يكون أسود وكانوا بعد هذا الموسم يظهرون الحزن والكدر لنقص النيل ولغلبة الرياح الجنوبية المكنى عنها (بتيفون) على الرياح الشمالية فى ذلك الوقت ولقصر النهار بطول الليل

ولتجرد الأرض عن الخضرة وكان الحزن فى هذا الموسم عمومياً عند النساء والرجال لحزن (إزيس) على زوجها (أزوريس) وكانوا يكثرون فيه من الصلاة والصيام وتقريب القرابين من فحول البقر وكان من عادتهم أن لا يؤخذ من هذه القرابين بعد ذبحها إلا الجلد والأمعاء والفخذان والكتفان والرقبة ولحم الكفل وما عدا ذلك من الجثة يملأ بالدقيق والعسل والتين والعقاقير الطيبة الرائحة ويحرق بالنار ويزيدونه اشتعالاً بصب كثير من الزيت عليه، وفى ذلك الوقت تكثر النساء من الصياح والنوح والبكاء والعويل ويلطمن وجوههن وصدورهن ويقطعن شعورهن وبعد ذلك يأكل الناس ما أخذوا من لحوم القرابين. وكانوا يعملون فى هذا الموسم وغيره من بقية المواسم أعمالاً منكرة منها أن يجرح الرجال بعضهم بعضاً جروحاً بالغة وتشدخ النساء أفخاذهن بحجارة حادة حتى يسيل الدم من هذه الجروح إظهاراً لشدة الحزن والجزع . قال بعض الكتاب وقد أبطلت جميع هذه العادات قبل خروج بنى إسرائيل من أرض مصر.

وفى الثالث والعشرين كان موسم دفن (أزوريس) يشيرون بذلك إلى انحباس النيل فى مجراه مبدأ زراعة الخريف. وفى اليوم الأول من شهر كيهك كان يعمل موسم عظيم فى مدينة إسنا لقدّيسهم بها ومن رسومهم فى هذا الموسم أن يظهروا جميع أوانى المعبد والحلى ويتقربوا بالخبز والنبيذ وغيره من المشروبات وبالأوز وفحول البقر وبسائر المزروعات على اختلافها. وفى اليوم التاسع من شهر طوبة كان موسم رجوع (إزيس) من بلاد فلسطين وكانت القرابين فيه من فطير فوقه صورة فرس البحر مسلسلة فى القيود وفى هذا اليوم خاصة كان يرخص لأهل مدينة عين شمس التى هى المطرية بأكل لحم التمساح وبعد هذا الموسم بأيام كان يعمل موسم تعويض مذاكير (أزوريس) بمثلها من الخشب والغالب أنهم كانوا يشيرون بذلك إلى غرس الأشجار فإنه يكون بعد هبوط النيل.

وفى التاسع عشر من هذا الشهر كانوا يتخذون بمدينة صا الحجر عيداً كبيراً مشهوراً بالوقدة التى كانت تعمل فيه، وكانوا يشيرون بها إلى زوال الظلمة التى عمت الأرض بموت (أزوريس) فكانت الكهنة يذهبون بحراً فى الليل صوب النيل فى موكب عظيم به خلق كثير حاملين هيكل (أزوريس) مزيناً بأنواع الزينة والحلى وفيه قدح صغير من الذهب يملئونه من النيل فى وقت معين وعند ذلك يقول الكاهن وجميع الحاضرين بصوت عال ها هو جسد (أزوريس) قد عثرنا به فكأنهم كانوا يشيرون بذلك إلى رجوع الشمس وكان يتخذ كل واحد منهم صورة هلال

يصنعها من الطين المعجون بماء النيل المعطر ببعض الأشياء الذكية وفى شهر أمشير كان عيد مشاهدة (إزيس)، (لأزوريس) يشيرون بذلك إلى ظهور المحصولات الصيفية على وجه الأرض، وكان لهم فى شهر برمودة أعياد أخرى ، أولها عيد تطهير (إزيس) قبل البذر ثانيها عيد الخصب ووقته سادس عشر هذا الشهر، وكانت تجعل فيه بهيكل (أزوريس) مذاكير مصنوعة من الخشب أو غيره على صورة أعضاء التناسل للإنسان وفى الغد من اليوم المذكور عيد دخول (أزوريس) فى القمر يعنون بذلك اجتماع الشمس والقمر عند الاعتدال ، ثالثها موسم ولادة (حور) فى الثامن عشر من هذا الشهر ، رابعها موسم قدّيستهم (نيت) فى مدينة (بويست) وهو موسم شهير ولعله هو الذى يعمل الآن فى جهة البرية للقديسة دميانة، وكان لهم فى شهر بؤنة عيد يتقربون فيه بفطير مرسوم عليه صورة حمار مسلسل يشيرون بذلك إلى تغلب (أزوريس) على (تيفون) أى إلى ابتداء النيل فى الزيادة ويزعمون أن تلك الزيادة ناشئة عما سكبته (إزيس) من الدموع وقت بكائها على (أزوريس) زوجها.

قال هيرودوتس: وهذا الموسم هو موسم مولد الشمس الذى كان يعمل فى مدينة عين شمس لأن الانقلاب الصيفى يحصل فى هذا الآن وهو عبارة عن ابتداء الشمس فى النزول بعد انتهائها فى الصعود، وقد حافظ قبط مصر على عادة الاحتفال بليلة النقطة التى تكون فى الليلة الثانية عشرة من هذا الشهر ، وكان لهم موسم فى شهر مسرى لمولد (هربوخرات) ويعرف عندهم بموسم السكوت وإشارته حلقة صغيرة كانت توضع على الفم ولعل هذا العيد هو عيد وفاء النيل، وكانوا يتقربون فيه بكلاب شقر كما كان الرومان واليونان يتقربون بها ثانى يوم مسرى إلى كوكب الشعرى . اهـ.

ولنرجع إلى الكلام على ملوك الدولة السابعة والعشرين وهى دولة الفرس التى قامت بعد انقراض دولة الفراعنة كما تقدم التنبيه على ذلك ونأتى على أخبار كل ملك منها ومن قام بعدها على الترتيب فنقول.

* * *

(الكتاب الثانى)

(فيمن تغلب على مصر بعد الطبقات الثلاث المتقدمة)

(الباب الأول)

(وفيه فصول)

(الفصل الأول)

(فى العائلة السابعة والعشرين الفارسية الأولى وفى الملك كمبز بن كورش رأس هذه العائلة)

قد أجمع أصحاب التاريخ على أن كمبيز هذا هو ابن كورش وكورش رجل خرج والتفت عليه جموع من أخلاط آسية الغربية لا ظهور لهم ولا ديانة فاجتاز بهم نهر (الرس) هائماً على وجهه فكان لا يدرى أين يتوجه ثم انضمت إليهم قبائل من أمثالهم من البلاد المجاورة لحدود بلادهم وساروا جهة الشمال الغربى من آسيا تحت قيادة كورش المذكور وهو كسرى الأوّل من ملوك الفرس لا يصدّهم فى طريقهم أحد ولا يعارضهم معارض، وكان مع كورش أيضاً طوائف من المجوس وضابط من أمراء الفرس يدبر أمر تلك الجموع وكانت الطائفة المقدّمة على غيرها من هذه الجموع طائفة الفرس فعبر كورش بهذا الجيش العظيم نهرى الفرات ودجلة وجعل معسكره فى إقليمي خوزستان والعراق واستولى على خورست وبابل المدينتين العظيمتين ثم تغلب على بلاد الشام بغير ممانع وضرب الجزية على ملكها وجعل على أهل الشام الفرض والمغارم فى نظير الترخيص لهم باستدامة التجارة مع بلاد الجزيرة بين دجلة والفرات وصارت الشام بذلك إيالة تابعة لمملكة كورش المذكور ثم بعث بجنوده لغزو بلاد مصر فلم يتم له الأمر، ومات يوم كانت جنوده مشرفة على الاستيلاء على مصر، فتولى الملك بعده ابنه قمبشاش المسمى أيضاً كمبيز وسار على سيرة أبيه فى الحكم والإغارة والفتوحات التى كان أبوه مبدأ بها قبل موته فركب على بلاد مصر فى جموعه وحاربها وفتحها عنوة كما تقدّم بيان ذلك فى أيام الملك (ابسامتيك الثالث) وسمى نفسه (بختنصر الثانى) قال بعض الكتاب: ولعل هذا معنى قول المؤرخين أن (بختنصر) خرب ديار مصر مع أن بختنصر الجبار الذى هو ملك الموصل لم يحكم مصر ولا أتى إليها.

أما السبب الذى دفع بجنود الفرس إلى الإغارة على مصر فهو أنه لما كانت هذه الأمة قد اتخذت فى أيام كورش الحروب والإغارات ديدنا لها كانت تجوب البلاد شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً فى طلب الغنائم والمكاسب شأن الأمم المتبربرة والشعوب المتوحشة وكانت ديار مصر فى ذلك الحين مشهورة بالغنى والثروة التى لا مزيد عليها قصد كمبيز المذكور أن يتغلب عليها وساق جيوش أبيه الجرارة الذين هم من أخلاط اليونان وغيرهم ممن كان يتبع أباه فى الحل والترحال ولكنه لما كان يخشى من معاكسة قبائل العرب النازلين فى الطريق الموصلة إلى مصر عمد إلى محالفتهم وسار إلى مصر من جهة الفرما حيث كان ملك مصر نازلاً بعساكره لصدّه عن الوصول إلى داخلية البلاد فلما التقى الجمعان هجم كمبيز على ملك مصر وجنوده فهزمه وهرب ملك مصر حتى لحق مدينة منف فأرسل له كمبيز سفراء يخاطبونه فى شأن تسليم البلاد وكف القتال فقتلهم فسار كمبيز لقتاله، وطالت الحرب أياماً ثم سلم ملك مصر لخصمه بعد أن فارقه أتباعه ومن هذا الحين انتقل ملك مصر من أيدى أهلها إلى قبضة الفرس وقام السفه والجهل مقام الرشد والتمدن، وكان هذا مبدأ الدولة السابعة والعشرين.

ولما استقرّ بكمبيز منصب ملك مصر عمد إلى مسايرة أكابرها وأعيانها وميزهم بعلامات الامتياز استجلاباً لهم واتخذ لنفسه الألقاب الفرعونية ليوهم الناس أنه من نسل العائلات المصرية، وبالغ فى التزلف وسار إلى صاالحجر التى دفن فيها (أموزيس) ونبش قبره وأخرج جثته ومثل بها تمثيلا قبيحا بأن ضربها بالمناخيس حتى تمزقت وتفرقت أجزاؤها ثم أحرقها بالنار وأوهم الناس أنه إنما فعل ذلك لاغتصاب (أموزيس) المذكور الملك حالة كونه ليس من بيت الملك. قال هيرودوتس: وهذا سبب ظاهرى. أما الحقيقة فإن (أموزيس) كان قد أساء كمبيز فى حروبه فتشفى بما فعله فى جثته ولعدم اطلاع الناس عليه فى ذلك أكرم (لاديكه) زوجة (أموزيس) المذكور وأحسن معاملتها وبعث بها إلى أهلها ثم أمر بعد ذلك ببناء معبد (نيت) الذى بمدينة صاالحجر لتعسكر جنوده فيه وأصلح جميع ما دمره وخربه فى حروبه وقرّب منه أمناء الدين المصرى ليتعلم منهم ما اشتهروا به من العلوم والحكمة وتلقى من الكاهن (أوزاخوسن) الأسرار اللاهوتية الخاصة (بأزوريس) كما رواه ده روچيه وعزم على أن يجعل مصر حصنا يستعين به على غزو إفريقية وأكثر فيها من الاستعدادات فهابه المصريون واستوصلت جرثومة التعصب والتحزب من البلاد واستتبت فيها الراحة وكان لغزوه مصر وفتحها عنوة أثر مخيف عند سائر الأمم

المجاورين لها فجاء الليبيون وقدّموا له الطاعة ودفعوا له الجزية وأهدوا إليه الهدايا والتحف العظيمة لتوطيد علائق السلم والمحبة بينه وبينهم واقتدى بهم فى ذلك القورينيون (سكان مدينة قورين ببلاد العرب) وصفا له الزمان وعلت كلمته وذاع صيته فعزم على غزو القرطاجيين سكان مدينة قرطاجة والأمونيين سكان واحات أمون بالجبال القريبة من ديار مصر والإيتيوبيين وهم الكوش. قال هيرودوتس: فأرسل إلى قرطاجة عمارة بحرية عظيمة فلم تنجح وعادت خاسرة وذلك لأن رجال تلك العمارة، كانوا من الفنيقيين فوقع بينهم الخلاف لأن الصوريين هم الذين عمرو مدائن قرطاجة فكان بين القرطاجيين والصوريين علاقة القرابة فامتنعوا من محاربتهم وعادت العمارة بغير طائل ثم أرسل فى الغزوة الثانية التى هى مع سكان واحات سيوى خمسين ألفاً من جنوده لفتح تلك الأصقاع واستعباد أهلها وتمهيد الطريق لجيوشه وهدم هيكل المشترى القائم بها وهو هيكل (أمون) الذى كانت تحج إليه الناس وسار مع جيشه هذا الأدلاء يرشدونه فخانوه وأضلوه عن الطريق حتى نفدت منه الميرة ونفقت الخيل والجمال وضل الجيش فى الصحارى وهبت عليه رياح السموم فأهلكت الجنود عن آخرهم ولم ينج منهم أحد، وكانت هذه الغزوة قبل غزوة السودان ثم سار ببقية جيشه إلى النوبة، فلما وصل إلى خمس الطريق نزل بجيشه القحط والمخمصة إذ لم يكن عندهم من الزاد ما يكفى فكانوا يأكلون دوابّ الحمل فلما فرغت كانوا يتغذون بما يصادفهم فى طريقهم من الأعشاب والحشائش الرديئة فلما توغلوا فى القفار صار يأكل بعضهم بعضاً بالاقتراع من كل عشرة واحدا ممن تقع عليه القرعة فكان هذا الأمر أشدّ عليهم هولا من الجوع ولم تكن هذه الأهوال لتردع كمبيز عن غيه ولكنه خاف على نفسه وارتد على عقبيه خاسئاً، ومع ما كانت عليه عساكره من الجوع والمخمصة وأكل بعضهم بعضاً كان هو يتلذذ على مائدته بما تحبه نفسه من أنواع المآكل والمشارب وما زالوا على هذا الحال حتى قفلوا راجعين إلى مدينة طيبة فى أسوء حال فلما دخل المدينة المذكورة أمر بهياكلها فسلبت العساكر ما فيها من الزينة والأمتعة والذخائر من الذهب والفضة وغير ذلك. وقد كانت مملوءة بالنفائس والأشياء الثمينة.

قال صاحب العقد الثمين: والغزوة الثالثة كانت مع أهل الإيتيوبيا. وقبل الكلام عليها يلزمنا أوّلاً أن نصف حال الإيتيوبيا، وما كانت عليه بلادها فى تلك المدّة وذلك أنه منذ هزيمة الملك (نوات ميامون) كانت مملكة الإيتيوبيا قد قطعت العلاقات بينها وبين ممالك آسيا فلما حاربها بسماتيك الأوّل والثانى قطعت أيضاً علاقاتها مع

مصر وحافظت على استقلالها وكانت ولاياتها التى بين الشلال الأوّل والثانى الشهيرة قديماً بكثرة العدد والعمران قد لحقها الخراب والدمار وصارت أشبه شىء بالصحارى والقفار وصارت مدنها التى شيدها ملوك العائلة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة أطلالا وأى أطلال وأوشكت هياكلها أن تعلوها الرمال. وأما الجهة التى بعد الشلال الثانى فكانت أخذت فى الظهور والارتقاء وكانت منقسمة إلى إقليمين كمصر وكانت مدينة (بينونى)، (ودنقلة) فى الجهات العليا منها ومدينة (نبتا) فوق جبل بركل ومدينة (تكاسى) فى مجمع النيل عند الخرطوم وكان فيها أيضاً نهر (استابوراس) الشهير الآن باسم (تكاسى) ثم مدينة (مروه) المسماة قديماً (بروه) وبعد مروه هذه مملكة (الواح) تمتدّ على سواحل البحرين الأزرق والأبيض حتى تصل إلى سهل سنار الأكبر، وكان فى جدودها الجنوبية طائفة (الأسماخ) وأصلهم من المصريين الذين هاجروا إليها فى عصر بسامتيك الأوّل، وكان بين درفور وجبال الحبشة والبحرالأحمر قبائل ما بين متمدّنة ومتبربرة بعضها من بنى الأسود وبعضها من إفريقية وبعضها من (بنى سام) بآسية، وكانت طائفة (الرهريشا) قاطنة جنوبى (مروه) بين البحر الأزرق ونهر (تكاسى) وطائفة (المادى) بين نهر (تكاسى) وسلسلة الجبال المارة بسواحل البحر الأحمر، وكانت مطامع ملوك الإيتيوبيا تسوقهم إلى محاربة تلك الجهات لوجهين الأوّل عدم وجود صعوبات فيها مانعة لهم الثانى كثرة غنائمها حتى قيل أن اثنين من ملوك الإيتيوبيا المعاصرين لكمبيز وهما (حورسياتف)، و(نستوسنن) أخضعا غالب هذه القبائل وأقمعا كل من أظهر المقاومة والثبات أمامهما. قال مريت باشا وكانت بلاد الإيتيوبيا مملكة شوروية. فإذا أراد أهلها انتخاب ملك يعملون فى معبد (أمون) بمدينة (نبتا) مجلسا يجتمع فيه الكهنة والنوّاب الذين تنتخبهم القضاة وبعض العلماء والعساكر والضباط. فإذا انعقد المجلس دخلت الإخوة الذين هم من العائلة الملوكية فى معبد (أمون) المذكور ووقفوا أمام هذا المعبود المشير بأصبعه إشارة اتفاقية إلى الإنسان الذى يريد الكهنة انتخابه من العائلة الملوكية لتوليه الملك ومتى تم الانتخاب واستقرّ الرأى على واحد جعلوه ملكاً عليهم وبقى مدّة حياته تحت سلطة الكهنة بحيث لا يمكنه إعلان حرب أو إجراء شىء مهمّ فى حكومته إلا إذا استأذن المعبود (أمون) وكهنته فإن عصى أو أراد الاستبداد أمرت الكهنة بقتله ولا مناص من إنفاذ ما أمروا به، وكما كان هذا القانون مشدّداً على الملك كان أيضاً مشدّدا على الرعية فلو خالف أحد الرعية رأى الكهنة أو غير أدنى شىء من الشعائر الدينية اعتبروا هذا التغيير بدعة سيئة وحكموا على صاحبه بالقتل، وقد اتفق فى آخر القرن السابع أن بعض الكهنة أبدع فى شعائر

الدين المصرية القديمة بدعا سيئة منها إباحة أكل لحم القربان نيئًا وهى عادة بنى الأسود فتوجه الملك الحاكم حينئذ إلى معبد (أمون) ، (بنبتا) وحكم بطرد من أبدع شيئاً فى الديانة وأحرق ما وجد من آثار تلك البدع السيئة فعلى هذا الأمر خرج أصحاب المذهب الجديد من بلادهم إلى جهات متباعدة واتخذوا لهم فيها مساكن وتمكنوا من نشر هذا المذهب كل التمكن لأن رؤساء الديانة المصرية، كانوا وقتئذ فى غاية الضعف بحيث لا يمكنهم ردعهم ولذلك استمروا ناهجين هذا المنهج حتى ظهر السيد المسيح وبقيت هذه العادة إلى الآن عند بعض الحبشان فهم يأكلون اللحم النيء ويسمونه (برينده).

ولما انقطعت العلاقات بين الإيتيوبيا ومصر واستبدّت الإيتيوبيا بأعمالها توفرت فيها أسباب الثروة وصار لها اسم شهير وصيت كبير بين أمم البحر الأبيض المتوسط فامتدت مطامع الملك كمبيز إلى فتحها فأرسل إليها سفراء من وادى الكنوز يحسنون لغة الإيتيوبيا، وكان رجال الايتيوبيا حسان الخلقة طوال القامة غلاظا شدادا أذكياء معروفين بعلو الهمة والشجاعة، وكان مما يزيدهم بسطة فى الجسم تدبيرهم للمطاعم والمشارب فلهذا كانوا أطول الناس أعمارا وكثيراً ما كان يعيش الإنسان منهم مائة وعشرين سنة. قال هيرودوتس: وكانت فى بلادهم عين ماء يرتوون منها تنعش أبدانهم ومروج مخضرة يانعة فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين وكان الذهب فى بلادهم كثيراً جداً حتى أنهم كانوا يستعملونه فى الأشياء الدنيئة كالسلاسل التى يسحبون بها الأسرى، وكان النحاس نادراً ومرغوباً عندهم فدخل سفراء كمبيز بلادهم بصفة عيون وجواسيس ليرودوا البلاد ويستكشفوا أحوالها فعرف أهل الإيتيوبيا منهم ذلك ولكنهم رحبوا بهم وعاملوهم أحسن المعاملة ولم يظهروا الحذر منهم ولا الاحتراس، وكان مع هؤلاء الرسل هدايا لملك الإيتيوبيا من المصنوعات الذهبية والحلل الأرجوانية وكثير من العطريات وأنبذة التمر فأعجبهم من هذه الهدية الشراب وسرّ به الملك وأمر فاحضروا له قوسه فأوترها بحضرة سفراء كمبيز. ثم قال للسفراء أودّ أن لا يأتى ملككم لحربنا إلا وهو على بينة من عدد جندنا وأحب أن لا يقدم عليها قبل أن يرى نفسه أو أحدا من قومه قادراً على أن يوتر هذه القوس بالسرعة التى رأيتموها منى الآن. فإذا أعياه الأمر ومال إلى علاج ذلك حينا من الدهر فليحمد معبوده حيث لم يرزق الإيتيوبيين الطمع فى الزحف على بلاد فارس وأخذ ملكهم.

فلما نقل السفراء لكمبيز هذا الكلام غضب وسار إلى بلاد الإيتيوبيا (وهى

النوبة) ليغزوها فأصاب جنده ما أصابهم كما تقدم فعاد إلى مدينة طيبة فلما دخل المدينة أمر العساكر بانتهاب ما فيها من الهياكل كما تقدم ثم سار إلى مدينة منف فاتفق وصوله إليها فى وقت كانوا يعملون فى هياكلها موسماً مشهوراً لوجود العجل (أبيس) فظن أنهم شامتون بهزيمته فقتل جميع من كان فى تلك الهياكل من الكهنة وأمراءالأديان وأرباب الحل والعقد. وقد أطنب المؤرخون فى وقائع جبروته وبالغوا. ومما يحكى عنه أنه سأل يوماً أحد وزرائه المسمى (أبربساسية) بقوله ما الذى يقوله الرعايا فى شأنى وما الذى يذكرونه من مناقبى وأخبار عدلى فى هذه الأيام. فقال: هم يصفونك أيها الملك بكل وصف حميد. ورأى سديد. ويرون أنه لا مثلبة فيك إلا الانهماك على الشراب ولولاها لكنت منزهاً عن جميع العيوب. فقال كمبيز هم يعتقدون إذن أنى أغيب عن الصواب وقت تعاطى الشراب. قال: نعم فنقم عليه كمبيز ذلك وأمر بإحضار الشراب بين يديه ووقف السقاة أمامه وكبيرهم ابن (أبربساسية) فأخذ كمبيز يشرب حتى صار كالزق المنفوخ ثم التفت إلى ابن (أبربساسية). وقال له قف ياغلام منتصباً وضع يسارك على رأسك فوقف الغلام، وكان صبياً جميلاً جدًا فالتفت كمبيز إلى (أبربساسية) أبى الغلام. وقال أتذكر ما قلته. قال: نعم. قال: سآتى لك بالبرهان الآن على أن الخمرة لا تفعل بى ما نقلته عن الرعية وها أنا مفوّق سهمى لأصيب فؤاد ولدك هذا فإن أصبت المرمى فلا سلطان للخمرة على عقلى مهما أكثرت منها وإن أخطأته صح ما يقول الناس عنى ثم سدّد سهمه صوب فؤاد الغلام فصاده بأحد السهام وأمر به فشقوا بطنه ليرى أبوه محل السهم من فؤاد ولده. ثم قال لأبيه هل وفق أحد قبلى لمثل هذه الإصابة. فقال لا وهى من دلائل البراعة والنجابة. ويحكى عن هذا الملك شيء كثير جداً من أمثال ذلك حتى يقال أنه كان يتسلى بقتل رعاياه من العجم ذبحا كذبح الغنم. وقيل إنه غضب على بعض أعيان مملكة فارس فأمر باثنى عشر منهم فدفنهم أحياء وأهالوا عليهم التراب ولما طال مكثه بديار مصر خرج عامله على فارس عن طاعته وأثار الفتنة وولى أخاه ملكاً على العجم ادعاء منه بأنه (اسمرديوس) أخو كمبيز. وقد كان أشبه الناس به فأطاعه الفرس وملكوه عليهم اعتقاداً منهم بأنه ابن كورش وأرسلوا الدعاة للمبايعة فى جميع الجهات وسمى فى كتب التاريخ (باسمردوس) المجوسى وقيل إنه إنما سمى بالمجوسى لظهور المدعو (زدرشت) بدين المجوسية فى أيامه. وقد كان المجوس يعتقدون نبوة (زدرشت) المذكور وبعضهم يجعل ظهور (زدرشت) قبل كورش.

وكان كمبيز فى وقت ظهور الفتنة ببلاد فارس قد خرج من أرض مصر ونزل على الشام فبينما هو هنالك إذ حضر داعى العجم يدعو أهلها لمبايعة (اسمرديوس) ملكاً على فارس فلما سمع كمبيز بذلك اغتم غماً شديداً ونادى فى عسكره بالرحيل إلى بلاد فارس وأسرع هو إلى جواده فبينما هو يركب اندلق سيفه من غمده فجرحه فى فخذه وألزمه الفراش فمات بعد أيام قلائل وهذه رواية هيرودوتس. وقال: (بهيستون) بل قتل نفسه عمدا ولم يترك أولادا ولا أوصى لأحد بالملك من بعده ولم يذكرجماعة المؤرخين لهذا الملك شيئاً من المناقب سوى أنهم قالوا أن أحد قضاته المسمى (سيزمناس) ارتشى فى بعض الوقائع ليحكم بغير الحق فعلم كمبيز بذلك فقتله سلخاً وأمر بجلده ففرشوه على منبر القضاء وولى ابنه مكانه وذكر ما حاق بأبيه ونهاه عن الرشوة. وقيل إن ما حكى عنه من مثل هذه الأمور غير صحيح وإنما هو من نقل هيرودوتس المؤرخ عن كهنة المصريين وهم أعداء له فكانوا يختلقون عليه ما لا يخفى من الأكاذيب فنقلها هيرودوتس عنهم كما تلقاها.

وكان كمبيز لدى مسيره من مصر إلى الشام أناب عنه فى حكم البلاد رجلاً اسمه (أرياندس) فلما استقرت به العمالة أخذ يعمل على تعزيز كلمته وتاقت نفسه إلى الاستبداد بالحكم والخروج عن طاعة مملكة فارس فلم يفلح وذلك أنه بعد أن قام (اسمرديوس) ملكا على فارس ثلاث سنين انكشف أمره واتضح لأهل البلاد كذبه واغتصابه للملك فقاموا عليه وقتلوه وولوا مكانه (دارا) فلما استقر بدارا المنصب وعلم بما يفعله (أرياندس) المذكور بمصر خلعه وأبعده عن البلاد.

(فى الملك دارا الأول)

تولى الملك فى سنة تسع عشرة وخمسمائة قبل الميلاد أى سنة إحدى وأربعين ومائة وألف قبل الهجرة ونودى له باسم دارا الأوّل فلما استقر به المنصب أخذ فى تدبير أمور المملكة وترتيبها على أحسن نظام وقد كانت بلغت فى أيام كورش وكمبيز مبلغاً عظيماً من الشهرة والاتساع ولم تكن أيامهما كافية للغزو وترتيب أمور المملكة فجاء (دارا) هذا بأحسن التدبير وأتم التنظيم وقسم المملكة جميعاً إلى عشرين إيالة وقيل ثلاث وعشرين ثم تزايد عدد هذه الأيالات بتزايد الفتوحات حتى بلغت إحدى وثلاثين فضرب عليها الخراج من مال وعروض فكان ما ضربه من المال بالعملة الحالية ستة وعشرين ألف ألف وخمسمائة وأربعين ألف جنيه وضرب لذلك سكة سماها الدارية. وأما العروض التى قررها على تلك الأيالات فقد كانت كثيرة جداً

فكانت مصر تعطى منهـا غلالاً تكفى لمؤنة الاثنى عشر ألف جندى المرابطين فـيها، وكان الميديون يقدّمـون فى كل سنة مائة ألف خروف وأربعة آلاف بغلة وثلاثة آلاف حصان ويقدم الأرمن ثلاثين ألف مهر والبابليون خمسمائة غلام من الخصيان وسكان سيسليا ثلثمائة وستة وستين حـصاناً قيل ولذلك كانت تسميه الفرس بالنقاد لأنه كان يعرف من أين يأتى الكسب كما كانوا يلقبون كـمبيز بالمتملك وكورش بالأب وكانت مصر السادسة من أيالاته. وقال بعضـهم بل الثالثة وقد جعلها (دارا) مع قسم النوبة وإقليم القيروان وإقليم برقـة أيالة واحدة وعمالة واحدة وصيـرها فى الرتبة بعد بابل والموصل اللتين هما الأيالة التـاسعة من أيالات فارس وأكثر جـميع الأيالات خراجاً وقد ذهب بعض أصحاب التاريخ إلى أن النوبة لم تكن فى هذا الـعهد ملحقة بمصر ولم تدفع خراجاً لمملكة فارس بل كانت انفصلت عنها عند تغلب الفرس على مصر وأنه لا يعلم من تاريخ الفرس شىء يدل على أنهم كانوا يملكون شيئاً من البلاد بعد جزيرة أسوان مما يلى الجنوب وإنما كـانت مملكة الإيتيوبيا المصافيـة لمصر تبعث بشىء من المال إلى الفرس إعانة لمصر وتبرعا لـيس إلا وكانت هذه الإعانة عبارة عن مدين من الذهب الخـالص ومـائة قضـيب من الآبنوس وخـمس جـوار نوبيات وإحـدى وعشـرين سن فيل فى كل سنة. قـالوا: وقد دلت الآثار على أن الإيتـيوبيـين كانوا يدفعون مثل هذا القدر فى كل عام إلى الملك رمسيس الأكبر ولسلفه وخلفه ، وكان دارا المذكور شديد البـأس صعب المراس. فمنع جميع الفرس الذين كـانوا معه بديار مصـر أن يدينوا بديانة المصريين وأمرهم أن يحـافظوا على عبادة النار وحـرم عليهم الكتابة بالقلم المصـرى القديم ونهاهم عن أن يتداول بـينهم هذا اللسـان وطلب منهم أن يحافظوا على لغتهم حتى أوشكت أن تكون الشائعة الاستعمال فى مصر، وكانت كـتابة الفـرس المجوسـيـة المقدسـة عندهم مـأخوذة من لغـة الكلدانيـين الذين هم السريانيون وهم أهل بابل ثم تلقاها عنهم أهل أذربيـجان ثم انتقلت إلى فارس فلما تغلب الفرس على مصر بقيت فى مصر آثار من هذه اللغة يعنى من كتابتها.

قال ده روجيه ولما دخلت مصر فى حوزة دارا أحسن معاملة أهلها ليذهب عنهم ما كمن فى صدورهم من الحنق والـغيظ المتسبب عن سوء تصرف كمـبيز واضطهاده إياهم وعسـفه بهم فاحـترم الديانة وأصلح المعابد الخـربة وعفا عن القـسوس الذين أساءهم كمبيز. اهـ.

وقال هيرودوتس: وقبل أن يبارح دارا مصر زار معبد (بتاح) ومهد طرق التجارة وشرع فى إيصال النيل بالبحرالأحمر بواسطة ترعة احتفرها . ولذلك يوجد فى كثير

من المواضع ببرزخ السويس القديم كثير من الأحجار القديمة المكتوبة باسم الملك (دارا) ولما اتصل البحران وردت التجارة من الهند إلى الثغور المصرية بالبحر الأبيض المتوسط وفتح أيضاً طريق قفط الموصل إلى البحر الأحمر وطريق أسيوط الممتد إلى العرابة المدفونة، ومنها إلى أسوان فعاد إلى مصر رونقها القديم وغناها الواسع وراجت تجارتها رواجاً عظيماً واتسع نطاق معاملاتها.

وكانت دولة فارس لينة الجانب فى حكم الواحات وغيرها مما جاور مصر رجاء اتساع نطاق التجارة وتعميمها فى سائر الأقاليم الخاضعة لحكمها، فكانت تجبى المحصولات من الغلال المفروضة على الأقاليم المسكونة بعساكرها مع غاية اللين والرفق بقدر كفاية عسكرها ولا تتعرض لبيت مال الأمة بضر ولا تأخذ منه إلا ما لزم لتعميم المنافع وتسهيل الطرق الواقعة ما بين مصر والحجاز والقصير وغيرها. قالوا: وقد وجد ما يدل على ذلك منقوشاً على الصخور ومع ذلك فقد كان المصريون لا يرضون بحكم الأجانب لهم وكانوا يراقبون الفرص للخروج عن طاعة دولة فارس إلى أن قامت الفتنة فى العراق وخرج أهلها على (دارا) وقومه واشتغل (دارا) بقتالهم فخرج أهل مصر وشقوا عصا الطاعة وطردوا عساكر الفرس المرابطين وولوا عليهم (خبيش) ملكاً وذلك سنة ست وثمانين وأربعمائة قبل الميلاد. وفى السنة الخامسة والثلاثين من حكم (دارا) أى قبل موته بسنة واحدة هم بإرجاعهم إلى طاعته فحالت بينه وبين ذلك زيادة النيل وفيضانه ومات (دارا) قبل أن يبلغ منها وطرا، وذلك سنة خمس وثمانين وأربعمائة قبل الميلاد أى سنة سبع ومائة وألف قبل الهجرة وله من العمر ثلاث وسبعون سنة وكان له قبل جلوسه على سرير الملك ثلاثة بنين من زوجته المسماة (ارتابازانس) بنت (غوبرياس) وكان على عزم جعل أكبرهم ملكاً من بعده فعلمه فنون الحرب ودرّبه على القتال معه فى غزوة التتار، ولكن لما عصت مصر وأراد دارا أن يعين من يرث الملك بعده من أولاده أشارت عليه زوجته الثانية أن يولّى (شيارش) أكبر أولادها ففعل ذلك وصار ولى عهده ، أما (خبيش) الذى ولاه المصريون عليهم مكان دارا فيقال أنه من ذرية (بسامتيك) الملك، وكان استواؤه على عرش الملك باتفاق كلمة الأمة ، قال ماريت ولما استقر به المنصب حصن مصر بالقلاع المتينة حتى استعدت لدفع هجوم الفرس عليها، وكان قد مكث ثلاث سنين فى تقوية الوجه البحرى وتحصين الأباطح وأشاتيم النيل حيث كان يظن أن الفرس لا تهاجمه إلا من البحر فجعل أقوى استحكاماته على السواحل فلما فاجأه (شيارش) ملك فارس بالهجوم لم يثبت أهل الوجه البحرى فى صف القتال

إلا قليلاً حتى استسلموا لعساكر الفرس فعاملهم الفرس معاملة القسوة والجبروت وضربوا على كهنتهم المغارم ونهبوا ما كان فى معبد (بوتو) من الأمتعة والنفائس وفى خلال تلك الواقعة اختفى (خبيش) ولم يعلم له مقر إلى الآن . اهـ.

وعادت مصر بعد ذلك خاضعة إلى الملك (شيارش) بن (دارا) وكان من مآثره ما سيذكر بعد.

(فى الملك شيارش بن دارا)

تولى الملك بعد أبيه فى سنة خمس وثمانين وأربعمائة قبل الميلاد أى سنة سبع ومائة وألف قبل الهجرة وله من العمر يومئذ أربع وثلاثون سنة. وقد كان فاتر الهمة لا يكترث بالقوانين ولا بالسياسة فترك تدبير أمور الأيالات التابعة لمملكته للأمراء المورثين يتصرفون فيها كما يشاؤن وولى أخاه اخيميتس على مصر فأحكم أمورها وعاقب الخوارج من أهلها وما زال حتى انقادت لحكمه وخضعت لكلمته فأقام فيها بعد أربع سنين قوّة عسكرية ثم أعدّ هذه القوّة للغزو فى السنة الخامسة وسيرها للقتال وطلب من مصر المدد فأرسلت إليه مائتى سفينة مكملة العدة والرجال على رأس كل رجل من رجالها خوذة من الحديد ومعه درقة ورمح وكان لهؤلاء الجنود من آلات الحرب أيضاً دروع وسيوف.

قال أصحاب التاريخ: وكان المصريون يكرهون دوام ملك فارس عليهم ويتمنون الخلاص من ربقة عبوديتهم ولو أنه وجد منقوشاً على بعض آثار القصير ما يعبر عنه بأن الملك شيارش المذكور كان المولى المحسن سيد الجميع. قالوا: فهذه الكتابة إنما كانت صورية لا حقيقية قد جرى بها العرف والتأدب فى حق الملوك فلا يستدل منها على سعادة الرعية ولا شقائها ومع ذلك فقد كان المصريون لا ينفكون أبداً عن طلب استقلالهم وإنقاذ ملكهم من أيدى الأجانب. إذ كانوا مجبولين على الشجاعة والإقدام وحب الوطن فضلاً عن التمسك بشرائعهم وعوائدهم والذب عن دينهم ومفاداة حريتهم بالأموال والأرواح وكانوا لا ينسون قط مرارة ما ذاقوه من ظلم الأجانب وعدوانهم وما سلبهم ملوك الأغراب من المنافع الجمة وما فعلوه بهياكلهم ومعابدهم من النهب والحريق وهتك حرمات الدين عند زحف الفاتحين للبلاد فعادوا لذلك إلى الخروج والعصيان ولكنهم لم يقدحوا زناده ولم يجاهروا به وجعلوا يترقبون ظروف الأحوال.

ولما كانت سنة ثمان وسبعين وأربعمائة قبل الميلاد انحطت شوكة مملكة فارس وتضعضعت فعصى عليها الكرد واليونان وقاموا على شيارش وقاتلوه وأحرقوا سفنه

وخرجت كذلك تساليا ومقدونيا وغيرهما من الأيالات التى فى قارة أوروبا واشتدت الأزمة على شيارش وتحير فى أمره. قال هيرودوتس فأخذ يستعمل الدهاء واللين إلى سنة ست وستين وأربعمائة قبل الميلاد حتى أتت سفن أثينا إلى سواحل القيروان وليكيا وطردت الفرس من هناك ثم قام بعد ذلك بقليل الأغا (اسباميثرس) والقائد (ارتابانوس) وقتلا شيارش وسارا إلى ولده (ارتخشارشا) وموها عليه الحقيقة وقالا إن أخاك (دريوس) قتل أباك فلا بد لنا من قتله والأخذ بثأر أبيك فأجابهم إلى قتله فقاما عليه وقتلاه وبعد أن قتلاه حاولا قتل (ارتخشارشا) أيضاً فخانهما أحد أقرانهما وقتلهما غدراً فآل الملك بعد موت (شيارش) إلى ولده (ارتخشارشا) فكانت مدّة حكم شيارش تسع سنين لا غير.

(فى الملك ارتخشارشا الأول)
(ويقال له أيضاً)
(ارتسخار)

تولى (ارتخشارشا) الملك بعد موت أبيه فى نحو سنة خمس وأربعين وأربعمائة قبل الميلاد أى نحوسنة سبع وستين وألف قبل الهجرة قال: (تى سديد) وفى خلال قيام الفتنة ببلاد الكرد والقيروان. وخروج أهلها عن طاعة الفرس وضعضعة سلطنة فارس فى تلك الأصقاع وقيام اسبا ميثرس الطواشى ورفيقه على شيارش وقتله استبد المصريون بحكمهم وأقاموا (إيناروس) بن (بسامتيك) ملكاً عليهم وكان اذ ذاك أمير مدينة ماريا فانضم إليه رؤساء الوجه البحرى ولكنه رأى عدم استطاعته على مغالبة الفرس بهذا الجيش الصغير فاستعان بمملكة اليونان وكان عند اليونان سفن حربية أنشأوها فى جزيرة قبرس فأعانوه وأرسلوا إليه مائتى سفينة فسارت حتى جاءت إلى مصر ومعها جنود يونانية من الممالك المعاهدة لأثينة وانضموا إلى جنود مصر فتقوت بهم عزائم المصريين وقاتلوا جنود فارس قتالاً عنيفاً جدّاً وما زالوا حتى انتصروا على جنود (ارتخشارشا) وقتل (إيناروس) ملك مصر بيده فى وسط المعركة (اخيمينس) نائب مملكة فارس الذى كان بمصر وأرسل جثته إلى شقيقه ملك فارس وهجمت السفن اليونانية بقيادة أميرها (خاريتميدس) على السفن الفينيقية التى كانت مع جنود الفرس، وكان فى هذه السفن بعض العجم وبعض الجنود من الأهالى الذين حافظوا على طاعة فارس فحاربهم حتى أسروا منهم ثلاثين سفينة وأغرقوا عشرين وانتصر اليونان والمصريون نصرة عظيمة ثم ساروا على النيل حتى وصلوا إلى مدينة منفيس

وكان بها بعض العجم وبعض الجيوش الوطنية فحاربوهم حتى استسلمت المدينة لهم ولكن بعد قتال طويل تمكن فى خلاله ملك فارس من حشد جيش جديد. وقيل أنه لما رأى (ارتخشارشا) أنه لابد من هجوم اليونان والمصريين ومن معهم على عساكره بمنفيس عمل على سلخ عساكر اليونان عن عساكر مصر وفصم عرى الاتحاد من بينهم فنجح وفاز حتى رشا بواسطة رسله أهل اسبارطة من اليونانيين ليمتنعوا عن الاشتراك فى الحرب فامتنعوا فأرسل على الفور القائد (مجابيسوس) بجيش جرار إلى مصر فقابلته العساكر المصرية وحاربته فحاربها وطاردها إلى جزيرة (بروسوبيتس) وكانت هذه الجزيرة فى غاية المنعة لما فيها من القلاع والحصون فلما انحازوا فيها سد (مجابيسوس) فرع النيل الذى كانت فيه السفن اليونانية، وهو المحيط بالجزيرة المذكورة فغاض منه الماء ونضب ثم هجم على المصريين، ومن كانوا معهم من اليونانيين فأسر (إيناروس) وأمر بقتله صلبا وهلك أكثر اليونان قال: (تى سيديد) وكان من تمام مصيبة المغلوبين أن جاءت نحو الخمسين سفينة من سفن اليونان لإمداد المصريين ورست فى مصب البحر المنديسى فهجمت عليها السفن الفينيقية ودمرت نصفها بل أكثر. قال هيرودوتس فدخل عند ذلك (ثانيراس) ابن (إيناروس) تحت طاعة العجم وأظهر الخضوع فقلدته دولة فارس ملك مصر مكان أبيه مكافأة له على طاعته وكان من حزب (إيناروس) المذكور رجل اسمه (أميرتيوس) قد هرب عندما وقع (إيناروس) فى قبضة (مجابيسوس) والتجأ إلى أباطح الساحل بإقليم الشرقية الذى انحاز فيه الملوك الصاويون غير مرة ودافع هو ومن كان معه من حزبه حينا مع الظفر والاستظهار ولكنه لم يفلح وعادت مصر إلى ما كانت عليه من الوقوع فى قبضة ملك فارس وأقام عليها عمه (أخيمينس) نائبا فاستعبد أهلها وأذلهم وبالغ فى تنكيلهم وأذاقهم مرّ العذاب وكانت هذه الوقائع المشؤمة على عهد كثير من مؤرخى اليونان المشهورين أى فى أيامهم فحكوها فى عبارتهم على ما ينبغى والأصح منها ما رواه مانيطون المؤرخ المصرى وقد تأيد بما وجد على المبانى القديمة والنقوش ومما جاء فى كلامه أن (ارتخشارشا) الملك بعد أن مكن دولته وثبت أركانها حكم مصر ثمانا وثلاثين سنة بعد عصيان المصريين على نائبه مدّة سنتين فتكون مدّة حكمه جميعها على فارس أربعين سنة وبقى المصريون خاضعين لنائبه (أخيمينس) المذكور إلى أن مات (ارتخشارشا) سنة خمس وعشرين وأربعمائة قبل الميلاد أى سنة سبع وأربعين وألف قبل الهجرة فخلفه (شيارش) الثانى.

(فى الملك شيارش الثانى)
(والملك سوغديانوس)
(والملك دارا الثانى)

تولى (شيارش) الثانى الملك سنة خمس وعشرين وأربعمائة قبل الميلاد أى نحو سنة سبع وأربعين وألف قبل الهجرة فلم يستقر به المنصب سوى خمسة وأربعين يوماً وقيل ستين يوماً حتى قام عليه ابنه (سوغديانوس) فقتله.

فولوا (سوغديانوس) المذكور بعده فحكم ستة أشهر ونصفا وقيل سبعة وقام عليه دارا الثانى فخلعه وقتله.

فولوا دارا بعده فى نحو سنة أربع وعشرين وأربعمائة قبل الميلاد أى نحو سنة ست وأربعين وألف قبل الهجرة ولقب بلقب (رع ميامون) ولم يذكر المؤرخون السابقون وعلماء الفلك فى فهرست ملوك فارس اسم (شيارش) الثانى المذكور ولا اسم (سوغديانوس). قال بعضهم: وكذلك فى جدول سلسلة تاريخ الملوك الذين ذكرهم بطليموس الفلكى فى طالعة كتابه المحيطى التى بنى عليها زيجه لم يذكروا (كورش) وكمبيز (ودارا) الأوّل (وشيارش) ودارا الثانى ولا غيرهم. قالوا فتكون العمدة إذن على ما قاله مانيطون وكان دارا المذكور متزوّجاً بخالته المسماة (باربساتيس) قال (كيتزيانس) وكانت امرأة قاسية فاسدة غليظة الطباع وقد اختلت فى أيامه دولة فارس ولحق بأهلها الضيم والهوان فلما أحس المصريون بذلك هبوا إلى العصيان واستقدموا (أميرتيس) من الأباطح التى كان قد لجأ إليها بعد قتال العجم الأخير ليخلص الوطن من العدوّ ثم أقاموه رئيساً عليهم فقام بمن معه من العساكر على نائب دارا وعساكره المحتلة بالديار المصرية وأخذ يطاردهم فمات فى هذه الأثناء دارا وملك المصريون وطنهم واستقل (أميرتيس) بالملك وأعاد الأصول والأحكام القديمة السياسية والدينية على حكم أسلافه من الفراعنة وانقرضت بملكه دولة فارس من مصر التى هى عبارة عن الدولة المصرية السابعة والعشرين فكانت مدة ملك دارا تسع عشرة سنة وكانت مدّة حكم هذه الدولة على مصر مائة وإحدى وعشرين سنة كما رواه كثير من جماعة المؤرخين وجاءت بعدها الدولة الثامنة والعشرين الصاوية المنسوبة إلى مدينة صاالحجر ولم تتعدد ملوكها بل كانت كلها عبارة عن أيام ملك واحد هو الملك (أميرتيس) الذى تقدّم الكلام عليه فى آخر أيام الدولة السابعة والعشرين.

(الفصل الثانى)

(فى الدولة الثامنة والعشرين الصاوية)

كان رأس هذه الدولة الملك (أميرتيس) الذى يقال له أيضاً (أمرته) وقد تولى الملك بعد قتال كبير مع جند فارس الذين كانوا بمصر ويقال إنه من نسل بعض العائلات الملوكية المصرية وكان بطلاً مهيباً وقائداً مدرباً فى الحروب وهو المؤسس للدولة الثامنة والعشرين وقد تكنى بكنى الفراعنة فلما استقر به المنصب اجتهد فى إصلاح ما أفسدته دولة فارس وفى إعادة المراسم والمواسم الدينية القديمة وفى إرجاع ما كان للهياكل من الرونق والبهجة وفى إصلاح ما أفسده العجم أيضاً من المعابد والصنائع. قال جماعة المؤرخين: ولو أمد الله فى حياته لتمكن من إصلاح جميع ما أفسدته أيدى الغرباء إلا أنه أدركه الموت عاجلاً وذلك فى سنة ست وأربعمائة قبل الميلاد أى سنة ثمان وعشرين وألف قبل الهجرة فكانت مدّة حكمه على ديار مصر سبع سنين وهى عبارة عن مدّة حكم هذه العائلة. وقد أبقى بقايا أصلحها من أتى بعده من ملوك الدولة التاسعة والعشرين التى أعقبت دولته وبموته زالت الدولة الثامنة والعشرون وقامت بعدها الدولة التاسعة والعشرون التى تعرف بالدولة الأشمونية.

(الفصل الثالث)

(فى الدولة التاسعة والعشرين الأشمونية)

قال أصحاب التاريخ: لا ندرى ما سبب ارتقاء هذه الدولة إلى منصة الأحكام بعد زوال الدولة الصاوية التى هى الدولة الثامنة والعشرون رغماً عن كل بحث وقد كان ابتداء حكمها فى سنة ست وأربعمائة قبل الميلاد أى نحو سنة ثمان وعشرين وألف قبل الهجرة، وكانت تسمى بالدولة الأشمونية. ويقال لها أيضاً الدولة الأشمونية نسبة إلى مدينة أشمون الرمان التى محلها الآن المدينة القديمة المسماة (منديس) فيقال لهذه الدولة أيضاً المنديسية، وكان فى أيامها مصب فرع من النيل يسمى الفرع المنديسى ولكنه قد غطته الآن الرمال وكان عدد ملوك هذه الدولة خمسة أولهم الملك (نفريتس) الأوّل المسمى عند اليونان (نفروطيس) ويلقب (بن رع نترو) وفى رواية أن عدد ملوكها أربعة وهو الأصح نقلاً عما جاءت به الآثار وسنو ملوكهم إحدى وعشرون سنة.

(فى الملك نفريتس الأول)

تولى الملك (نفريتس) الأوّل فى نحو سنة تسع وأربعمائة قبل الميلاد أى نحو سنة ثمان وعشرين وألف قبل الهجرة وكان ملكاً مهيباً جليل القدر فجعل ملك فارس منذ استوائه على سرير الملك يهدده ويخيفه بإرسال الجنود الكثيرة لمحاربته ومع ذلك لم تفتر له همة ولا ضعفت له عزيمة فى سلامة وطنه وإيراده موارد العز والرفاهية فعقد مع جمهورية اسبارطة اليونانية المعروفة باسم (لقدومنه) معاهدة للذب والدفاع ومهاجمة فارس فزادت بهذه المعاهدة مهابته وارتفعت كلمته وخافه الفرس وحشد جيوشه فى حدود الشام لقتال فارس وأكثر من آلات الحرب ومعدات القتال غير أنه قد حدث للفرس حروب فى جهات أخرى فحالت بينهم وبين قتال المصريين. قال بعض أصحاب التاريخ: ولما كانت سنة إحدى وتسعين وثلثمائة قبل الميلاد طلب يونان جزيرة قبرس أن يعاهدوا الأثينيين (والهيكاتومنوس) ملك القيروان والمصريين وسعوا وراء ذلك سعياً مجيداً فتعاهدوا وارتبطوا برباط الاتحاد وتألبوا على الذب والقتال وحسب الفرس لهم ألف حساب ،ولكن لم تطل بعد ذلك أيام الملك نفريتس حيث أدركه الموت فى نحو سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة قبل الميلاد أى سنة خمس عشرة وألف قبل الهجرة فخلفه (أخوريس) وكانت مدّة حكم نفريتس ست سنوات وأشهرا.

(فى الملك أخوريس)

تولى الملك أخوريس المذكور فى نحو سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة قبل الميلاد أى سنة خمس عشرة وألف قبل الهجرة ويسمى باسم (هوقود) فلما استقر به المنصب حذا حذو (نفريتس) فى إعلاء شأن البلاد وتعزيز جانبها وجدد المعاهدات مع الأمم والملوك مثل أهل قبرس والعرب وأهل الغرب وبرقة وتعاهد مع اليونان على قتال الفرس فأمده اليونان بجيش جرار تحت قيادة (خابرياس) القائد الأثينى فلما جاءت عساكر فارس لقتال المصريين رأوا من شدّة بأسهم ما لم يبلغوا معه أربا وكان للملك (أخوريس) المذكور عناية تامة بإصلاح ما أفسده جور حكومة فارس مما لم يصلحه سلفه والدليل على عنايته هذه الإصلاحات التى أجراها بالأعمدة الموجود بالإيوان الكبير فى مدينة (أبو) فى طيبة بالصعيد وفى مقاطع الحجر بطرا ولكنه مات فى خلال اهتمامه بإصلاح شؤن البلاد وترتيب أمورها وذلك فى سنة إحدى وثمانين وثلثمائة قبل الميلاد أى نحو سنة ثلاث وألف قبل الهجرة فكانت مدة حكمه ثلاث

عشرة سنة كما جاء فى رواية مانيطون ، وفى أيام هذا الملك قدم أفلاطون وغيره من حكماء اليونان ليتخرجوا على حكماء عين شمس ومنف وطيبة وينشروا علومهم فى بلاد اليونان وبعد موته خلفه بساموتيس.

(فى الملك بساموتيس)

تولى بساموتيس فى نحو سنة إحدى وثمانين وثلثمائة قبل الميلاد أى نحو سنة ثلاث وألف قبل الهجرة ولم يحكم غير سنة واحدة ولم يذكر أصحاب التاريخ شيئاً من مآثره وأعماله غاية ما قالوه إنه وجد اسمه منقوشاً بجانب اسم سلفه الملك (أخوريس) فى قصر الكرنك ومات فى سنة ثمانين وثلثمائة قبل الميلاد أى سنة اثنتين وألف قبل الهجرة وخلفه الملك (نفرتيس الثانى).

(فى الملك نفرتيس الثانى)

تولى نفرتيس الثانى الملك فى سنة ثمانين وثلثمائة قبل الميلاد أى سنة اثنتين وألف قبل الهجرة ولم يحكم سوى أربعة أشهر وقيل سنة واحدة ولم يعلم من آثاره إلا صنم أبو الهول المحفوظ بخزانة التحف فى عاصمة الفرنسيس ونفرتيس هذا هو آخر ملوك هذه الدولة فكانت مدّة حكمها إحدى وعشرين سنة ثم انقرضت وزالت وجاءت بعدها الدولة المتممة للثلاثين وهى الدولة السمنودية المنسوبة لمدينة سمنود القديمة بالإقليم البحرى وهى كبقية الدول المنسوبة إلى الأقاليم البحرية إذ كانت قد محيت من مدن الأقاليم القبلية آثار شهرتها العظيمة وانحط صيتها البعيد بعد أن سارت به الركبان وزالت عنها مزية ما كان يعدد فيها من الملوك فإن مدينة طيبة التى خرج منها جميع ملوك دولة الفراعنة زمناً طويلاً أخنت عليها صروف الزمان وأصبحت شهرتها فى خبر كان.

قال بعض المؤرخين وانقطعت طيبة للكهنوتية فإنها لما طال بها الاستعباد وثقل عليها الهوان واضمحل شرفها القديم انطفأت أنوار بهجتها وضاعت منها مزية أنها مركز الملك لسرير الفراعنة وانتقلت منها الرئاسة إلى مدن الإقليم البحرى فسبحان من يغير ولا يتغير.

(الفصل الرابع)

(فى الدولة المتممة للثلاثين السمنودية)

كان مبدأ ملك هذه الدولة سنة ثمان وسبعين وثلثمائة قبل الميلاد أى سنة ألف

قبل الهجرة. وقد سميت هذه الدولة بالسمنودية نسبة إلى مدينة سمنود تخت ملكها بالوجه البحرى كنسبة من سبقها من الدول الأخرى إلى الإقليم البحرى فإن مدن الإقليم القبلى كانت زالت شهرتها العظيمة وانقطع ذكرها وانمحى صيتها البعيد الذى كان يذكر عند ذكر كل مدينة منها وأصبحت مدينة طيوه وهى طيبة التى هى أم ملوك أكثر الدول المصرية مجردة عن هذا الشرف والمجد العظيم وانقطعت للكهنوتية وانتقلت منها الرئاسة إلى الإقليم البحرى فنالت كل مدينة من مدنه حظها من ذلك حتى مدينة سمنود القديمة وكانت مدّة هذه الدولة التى هى السمنودية ثمانياً وثلاثين سنة وعدد ملوكها ثلاثة وأولهم الملك (ننحت حورحب) الملقب (يرع سنوزم حت استن أنحور) ويقال له (نقطانب الأول).

(فى الملك نقطانب الأول)

تولى نقطانب الأوّل الملك سنة ثمان وسبعين وثلثمائة قبل الميلاد أى سنة ألف قبل الهجرة وهو رأس هذه الدولة ولم يكن جلوسه على سرير الملك إلا فى خلال الفتن واشتداد أزمة الخطوب والإحن، وكانت دولة فارس لم تزل قلقة البال بأسباب خروج مصر من قبضة يدها طامعة فى استرجاعها وكان (نقطانب) يعلم منها ذلك فجهز عسكرا كبيراً وأكثر من معدات الحرب وتأهب لرد الفرس عن مملكته فلما كانت السنة الثانية من ملكه جاءت إليه عساكرهم برا وبحرا تحت قيادة (فرناياز) الفارسى (وافيكراتيس) الأثينى ونزلوا باشتوم أم فرج عند البحر المنديسى فلاقتهم هناك الجنود المصرية المحافظة على السواحل وقاتلتهم فهزموها وانتصروا عليها وأشار (افيكراتيس) الأثينى بالزحف على مدينة منف قبل أن تصل إليها جنود المصريين فعارضه فى ذلك (فرناياز) الفارسى وأبى إلا التربص حتى يأتى إليه المصريون فسار إليهم الملك (نقطانب) فى جيشه وحاربهم وانتصر عليهم نصرة عظيمة وذلك على مقربة من منديس فولوا الأدبار إلى بلادهم وقيل انهم ركبوا السفن بالنيل وتمنعوا ببعض الجهات فحصن هو مدينة منف وزحف لقتالهم واقتفى أثر (فرناياز) قائدهم الأكبر وحاصره وكان ذلك عند حلول أيام فيضان النيل فوقع الفرس فى أيدى المصريين حيث ضاقت عليهم الأرض بمياه النيل. وقد مات منهم خلق كثير جدًّا وتخلصت البلاد من شرهم وعلت كلمة الملك (نقطانب) وظهر نبله وأرتاحت البلاد بنهضته بعد أن ذاقت من الفرس مر العذاب مدّة خمس وعشرين سنة كما رواه (يودور).

وظهرت فى هذه الأثناء طائفة من اليونان تسمى طيبة اليونانية على أهالى (لقدمونة) من أعمال مملكة اسبارطة وعظمت شوكتها فنزل الملك (اجزيلاس) اليونانى إلى الملك نقطانب مستغيثا به على أهل طيبة اليونانية فأغاثه وجهز له جيشاً كبيراً فسار الجيش المذكور وظفر بأهل طيبة وتفرغ (نقطانب) بعد حروبه وغزواته فى آخر أيامه إلى أمور المملكة فأعاد إليها الراحة وأكسبها الطمأنينة بعد الخوف وبنى الآثار الجليلة من الهياكل والمعابد وأحسن إدارة البلاد ورتب أمورها على أحسن ترتيب وأكمل نظام ومات فى سنة أربع وستين وثلثمائة قبل الميلاد أى نحو سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة قبل الهجرة وقد اختلف فى مدّة حكمه فقيل عشر سنوات. وقيل وهو الأصح أنه حكم ثمان عشرة سنة فخلفه الملك طاخوس الآتى ذكر مآثره بعد.

(فى الملك طاخوس)
(ويقال له أيضاً)
(زيت حر)

تولى طاخوس الملك سنة أربع وستين وثلثمائة قبل الميلاد أى نحو سنة ست وثمانين وتسعمائة قبل الهجرة فلما استقر به الملك أخذ فى تدبير أمور المملكة ودفع غارات الفرس عنها ومكن المعاهدة مع أهل (لقدمونية) من أمم اليونان واستمدهم فبعثوا إليه جيشاً كبيراً تحت قيادة كبير من قواد عسكرهم اسمه (اجزيلاس) ففرح (طاخوس) بقدومه وأعجبه منظره قبل أن يقف على حقيقة مخبره فعزم على أن يسلمه قيادة جميع الجيوش المصرية البرية والبحرية ثم رابه من أمره ريبة فلم يسلمه إلا قيادة العساكر البرية وسلم قيادة العساكر البحرية لآخر اسمه (خبرياس) ولقبه بلقب أمير عموم الجيوش المصرية وهمّ (طاخوس) بمهاجمة فارس وقتالهم فأشار عليه (اجزيلاس) أن لا يهاجمهم إلا إذا حضروا إلى ديار مصر ويجتنبهم ما اجتنبوه فأبى إلا قتالهم بملاقاتهم فى سواد الشام وقام بجيوشه نحو الشام للقتال فلما سار وابتعد عن مصر قامت عليه العساكر فعزلته وولت مكانه ابن أخيه المسمى (نقطانب) الثانى فهرب (طاخوس) من وجه قومه إلى ملك فارس فقابله وهو بطريقه عند بلاد العرب فأكرم مثواه وأحسن لقاءه وحمله إلى بلاده فكانت مدّة حكمه إلى هربه سنتين اثنتين لا غير وخلفه (نقطانب) الثانى الذى يقال له أيضاً نخت نبف.

(فى الملك نقطانب الثانى)

تولى نقطانب الثانى الملك نحو سنة اثنتين وستين وثلثمائة قبل الميلاد أى نحو سنة أربع وثمانين وتسعمائة قبل الهجرة فلم يستقر به المنصب حتى قام من ينازعه فى الملك وهو أمير من أولاد وجوه مدينة أشمون قد خرج ومعه كثير من العساكر المتحزبة له فأجاب دعوته أيضاً الجم الغفير من الأحزاب واستفحل أمره وعلت كلمته وكان (أجزيلاس) قائد الجيوش البرية متحزبا للملك (نقطانب) فأشار على الملك بسرعة الهجوم على هؤلاء الخوارج وتمزيق شملهم كى لا يتمكنوا من التألب ولا يكثروا من جلب الإمدادات إليهم فلم يفعل وارتاب فى صدق النصيحة فلم يكن بأسرع من أن ساجله عصاة العساكر وغالبوه فامتنع فى إحدى المدائن فحاصروه وأحاطوا به ولم يمد إليه (أجزيلاس) يد المساعدة بل خذله وتركه أياماً فبعث إليه يستغيث فأشار عليه بأن يفتح أبواب المدينة ويخرج لمطاردة العدوّ ويحمل عليهم حملة شديدة ففعل فظهر عليهم وأبعدهم عن المدينة واقتفى (أجزيلاس) أثرهم وما زال حتى أخذ أميرهم أسيرا وخلا الجو لـ (نقطانب) فاستقر فى منصبه بلا منازع ولا معارض له فى شئونه.

وعقد فى السنة الثانية من حكمه معاهدة مع أهل صيدا وصور وقد كانوا كأهل مصر على خوف من غارات الفرس عليهم والتملك على بلادهم فكان الدفاع قدراً مشتركا بينهم فلما سارت الجيوش الفارسية لقتال المصريين لم يروا بداً من محاربة الصوريين أولاً فعاقهم قتالهم عن المسير إلى مصر واشتدت الحرب بين الفريقين فبعث (نقطانب) ملك مصر أربعة آلاف مقاتل من اليونانيين على نفقته مددا للصوريين وجعل (منطور) الروسى رئيساً عليهم وكانت قد دخلت فى هذه المعاهدة أيضاً عساكر قبرس فسار فريق منهم لنجدة الصوريين فلما التقى الجمعان اقتتلا قتالا شديدا فانهزمت جيوش فارس شر هزيمة فلما وصل الخبر لملك فارس اغتم غماً شديدا وجيش جيشاً ثانياً وانطلق به إلى مصر ففزع الأمير (منطور) الروسى من عظم هذه الغزوة وهاله كثرة عساكرها وخشى عاقبة هزيمته فانضم بمن كان معه للعدو واستسلم إلى (دارا أخوش) ملك فارس المذكور فرحب به دارا وأحسن نزله ولاطفه ليدله على البلاد ويكشف له عن عوراتها فيسهل عليه غزوها.

فلما علم فرعون (نقطانب) بما فعله (منطور) جهز من العساكر والأجناد ما يكفى لحماية البلاد فقاد جندا مؤلفاً من نحو خمس وعشرين ألفاً من اليونان وعشرين ألفا من المغاربة وستين ألفا من المصريين. وأقام المرابطين فى جميع الثغور

والحصون المهمة فكان فى مدينة (الفرمة) منهم خمسة آلاف وكان مع كل من ملكى مصر وفارس رؤساء وقواد من اليونان من حزبه يستشيرهم ويستعين ببسالتهم فى الحروب ويثق بأمانتهم فالتحمت الحرب بين الفريقين وكانت سجالاً وما زالت إلى أن ظهرت الفرس على المصريين فسلم المصريون واليونانيون أنفسهم فلما رأى ملك مصر انهزام جنده وتمزيق شملهم وقرب زوال ملكه ضاقت به الحيل وداخله اليأس والقنوط فلم يسعه إلا أن جمع أموالاً وفر إلى بلاد النوبة وانقطع خبره فكان هو آخر ملوك الدولة المصرية المكملة للثلاثين وكانت مدة حكمه ثمان عشرة سنة وزال بزواله ملك مصر من يد أهلها وسقطت فى أيدى الفرس مرة ثالثة وكان انتهاءهذه الدولة فى سنة أربع وأربعين وثلثمائة قبل الميلاد أى نحو سنة ست وستين وتسعمائة قبل الهجرة بعد أن حكمت ثمانياً وثلاثين سنة كما جاء فى أقوال جماعة من المؤرخين وصارت مصر من هذا الحين مضغة فى أفواه الغرباء يتولاها ملك منهم بعد الآخر إلى يومنا الذى نحن فيه ولم يملكها ملك من أهل البلاد بعد أن تخلصت من استعباد الفرس وحفظت استقلالها وأعادت ما اندرس من معالم مجدها وحكمت نفسها زهاء ست وستين سنة وقد عدت دولة فارس فى تملكها على مصر فى هذه المرة الدولة الحادية والثلاثين وهى الدولة الثانية الفارسية المنقرضة بإغارة إسكندر المقدونى على مصر وأخذها منهم.

(الفصل الخامس)

(فى الدولة الحادية والثلاثين)

(وهى دولة الفرس الثانية المنقرضة بإغارة الإسكندر المقدونى على ديار مصر)

قال أصحاب التاريخ: بعد أن تخلصت مصر من حكم الفرس وفكت قيود استعبادها ولبثت زهاء ست وستين سنة وهى مدة حكم الدول الثلاث السابقة متمتعة بالاستقلال وقد أعادت فى خلال هذه المدة ما كانت خسرته فى أيام دولة فارس من المدنية والعمران وأصلحت ما أفسدته طوارق الحدثان ولمت شعثها بقدر ما فى الإمكان عادت فسقطت فى أيدى الفرس مرة ثانية فى أيام دولة الملك دارا أخوش الذى هو رأس الدولة الحادية والثلاثين المذكورة وذلك فى سنة أربع وأربعين وثلثمائة قبل الميلاد أى نحو سنة ست وستين وتسعمائة قبل الهجرة ولكن لم تطل مدتها فلم

تتجاوز ثمان سنين وكان عدد من تولى الملك منها ثلاثة أولهم الملك أخوش الذى سيأتى الكلام عليه.

(فى الملك دارا أخوش الفارسى)

تولى دارا أخوش الملك فى سنة أربع وأربعين وثلثمائة قبل الميلاد أى نحو سنة ست وستين وتسعمائة قبل الهجرة بعد انتصاره على (نقطانب) الثانى فلما استقر به المنصب سمى نفسه (ارتخشارشا) الثالث وكان فظا غليظ الطبع متكبرًا فأمر بقتل جميع أبناء وبنات الملوك الذين قبله ليمحو أثر أسلافه فقتلوا جميعاً وسلب من مصر جميع أموالها واغتنم ما فيها وعاث فى الأرض فسادا وأقام علي مصر نائبا من قبله اسمه (فرنده) وهو أحد أمراء دولة فارس وبنى القصر المعروف بقصر الشمع وجعل فيه هيكلاً وهو موضع الكنيسة المعلقة للقبط المتأصلين الآن فإن صح ذلك كان القصر المذكور من آثار دولة الفرس لا من آثار المصريين ، وكان دارا المذكور قبل تغلبه على ديار مصر قابضا على زمام حكم الفرس نحو العشرين سنة وفى عصره أخذت مقدونية فى الظهور بين الدول ووجهت أطماعها إلى التملك على آسية وأخذها من الدولة الفارسية وجعلت تراقب الفرص الملائمة لذلك وما زال الملك دارا المذكور يتصرف فى الأمور ويظلم ويجور ويسوم الرعية الخسف حتى أبغضته وكادت تشق عصا طاعته وبدت علامات الفتنة وقلقت لذلك خواطر الولاة والعمال ودارا لا ينكف ولا يقف عند حد حتى دس له (باغواس) الطواشى السم فى طعامه وقتله فتولى الملك بعده ابنه (ارسيس) فكانت مدة حكم دارا المذكور على مصر سنتين اثنتين لا غير.

(فى الملك ارسيس بن دارا أخوش)

تولى ارسيس الملك سنة اثنتين وأربعين وثلثمائة قبل الميلاد أى نحو أربع وستين وتسعمائة قبل الهجرة فلم تكن مدة حكمه إلا سنتين كأبيه ولم يذكر عنه جماعة المؤرخين شيئاً، وإنما ذكره مانيطون المؤرخ فى فهرسته ومات فى سنة أربعين وثلثمائة قبل الميلاد أى سنة اثنتين وستين وتسعمائة قبل الهجرة فخلفه دارا الثالث الذى هو آخر ملوك هذه الدولة.

(فى الملك دارا الثالث)

تولى دارا الثالث الملك سنة أربعين وثلثمائة قبل الميلاد أى سنة اثنتين وستين

وتسعمائة قبل الهجرة، وكان اسمه قبل الولاية (كودومانوس) وكان ارتقاؤه سرير الملك فى نفس السنة التى تولى فيها إسكندر الأكبر المقدونى وكان دارا هذا مشؤم الطالع على مملكة فارس فإنه ما ارتقى سرير ملكها حتى أخذت فى الضعف والانحطاط فزالت شوكتها وتلاشى أمرها بظهور المقدونيين عليها وذلك لأن الأمة الصادقة فى حب وطنها المتحمسة فى الذب عن ذمارها متى كانت حائزة على بعض المعرفة بالسياسة حازمة مدبرة تحسب العواقب، ولو كان عدد أهلها قليلاً فإنها تغلب العدد الكثير وتظفر بالجم الغفير من أعدائها هذه مقدونية التى نبغت من بين أمم اليونان فى عهد قريب قد وصلت فى دورها إلى درجة عالية من التمدن وتمسكت بعروة الشجاعة وحب الوطن فظهرت على غيرها من الأمم وطار صيتها إلى أقاصى البلدان وسارت بشهرة مفاخرها الركبان فحكمت اليونان واستولت على جميع أملاكها ودبرت أمورها وأحسنت سياستها وأحكمتها وما زالت تترقى إلى أوج المعالى حتى تولاها إسكندر بن فلبس المقدونى فوسع ممالكها بسيف فتوحه ولم يعقه عائق عن توسيع دائرة فتحه للبلاد وتسخيره للعباد بل طاف قارة آسية فدخل الهند وبدد شمل قومها وهزم ملكها (بوروس) وكان بوروس المذكور قد حارب الإسكندر راكبا على فيل عظيم فأظهر هذا الفيل من الشجاعة والفروسية ما ادهش الإسكندر فلما وقع ملك الهند فى قبضة يد الإسكندر أخذ فيله المذكور وميزه ونذره لكوكب الشمس معبود المقدونيين وسماه باسم (اجاكس) الذى هو أحد فحول اليونان ثم حرم ركوب ظهره ما عاش وقد ذكرنا هذه الحكاية هنا على سبيل الاستطراد. وبعد أن تمت للإسكندر غزوة الهند عرج إلى فارس وقاتلها ومزقها وورث ملكها وقد ساعده على ذلك بعض أهالى الولايات الفارسية لبغضهم لحكم فارس وميلهم إلى الخروج عن ربق عبوديتهم لا سيما مصر فإنها كانت قد سئمت نفسها الذل وتاقت إلى التخلص من قيود ذلك الأسر. فلما كانت سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة قبل الميلاد سيرت إلى الإسكندر تستحثه على الحضور إلى ديار مصر ونزعها من أيدى أولئك الظلمة القساة فأتى إليها وأجلى الفرس عنها بعد قتال عنيف وأزال ملكهم منها وأباد جميع من كان بها من قوم فارس فأصبحوا كأنهم لم يكونوا شيئاً مذكوراً فكانت مدّة حكم الفرس على مصر فى هذه المرة بقدر المدّة الواقعة ما بين قمبشاش الذى هو كمبيز إلى موت دارا الثالث وهى عبارة عن ثمان سنوات فقط. قال بعض الكتاب فكان ما بينهما أى بين كمبيز ودارا الثالث من الدول المصرية غير معتبر. إذ كانت دولة فارس لهم بالمرصاد فى المدة المتخللة بين حكمها فى المدتين السابقتين.

قال صاحب العقد الثمين: ويشهد على هزيمة الإسكندر المقدونى لدولة فارس بمصر نقوش وجدت على حجر محفوظ الآن بمتحف نابولى بإيطاليا لكاهن مصرى من عصر دارا الثالث يقال له (سمتاوى تفنخت) حيث يدلنا بنقوشه على حرب الفرس مع المقدونيين فى ديار مصر وعلى سقوط الدولة المصرية واضمحلالها وهذا تعريبه على ما ترجمه بروكش ، الأمير الوارث الممجد والحبيب الأعز الأوحد كاهن المعبود حور سيد (هيبونن) وكاهن معبودات قسم (هيبونو) وكاهن معبودات (سمتاوى) بمدينة (أحجو) وناظر أملاك المعبودات ورئيس قسوس المعبودة (سنحت) فى كافة المملكة أعنى به (سمتاوى تفنخت) ابن المكرم (نس سمتاوى أوف عنخ) كاهن المعبود أمون بمدينة (بيشا) وابن المكرمة (عنخت) قال ما معناه ياسيد المعبودات (خنوم) أنت سلطان الوجه القبلي والبحرى وكبير المملكة أنت الذى تنير الدنيا بظهورك وتنير الشمس بعينك اليمنى والقمر بعينك اليسرى والشعاع مقتبس من نور عقلك والريح الطيبة من خياشيمك فهى تنعش حياة كل موجود أنا كنت خادمك وأفعل بإرادتك وقلبى ممتلىء بحبك وودادك ولم أزخرف مدينة كمدينتك ولم أقصر أبدا فى تبليغ سرك للبشر مع كثرتهم وفى إظهار معجزاتك للورى بين منازلهم فضاعفت لى ذلك مرارا بالخيرات الجزيلة حتى اشتهرت فى كافة الأرض وتقلدت إدارة بيت الملك وما ذاك أيها الملك المحسن إلا لتعطف قلبك على وإجابة سؤالى حتى رقيت إلى أعلى الدرجات من بين كثيرين ولما غضضت نظرك عن المملكة المصرية وجنح قلبك بالمحبة إلى ملك آسية أحبنى أصدقاؤك العشرة وقلدتنى أنت الرياسة على كهان المعبودة (سنحت) بدل أخى من أمى (سرحونب) الذى كان رئيساً على كهان تلك المعبودة فى عموم الوجه القبلي والبحرى أنت الذى حميتنى فى حرب المقدونيين حين طردوا أهل آسية من الديار المصرية وقتلوا بجانبى ألوفاً عديدة ولم يرفع أحد يده على ولما استتبت الراحة بعد وقوع هذه الحادثة أمرتنى بالتوجه إلى إهناس ووعدتنى أن تشملنى بانظارك وتلحظنى بعين عنايتك إذ كنت وحيداً فاقد الأهل فريدا فتوجهت إليها فى النيل المبارك ولم يحصل لى خوف لأنى كنت متفكراً فيك غير مجاوز لوصيتك حتى وصلت إلى مدينة إهناس بدون أن تقشعر شعرة من بدنى وكما كنت مهنأ بأمرك فى المحل الأوّل كنت كذلك فى المحل الثانى لأنك منحتنى الحياة مع راحة القلب فيا أيها الكهنة الذين يخدمون المعبود الجليل (خنوم) ملك الإقليمين والمعبود (حورمخى) العظيم بين معبودات مدينة إهناس والمعبود (توم) ساكن صان وكبير الكباش المقدسة المتصف بقوّة الرجال. ويأيها الناس والأرباب ويامالك مصر الأخير اعلموا أن الأمير الذى كان يحب ملك الوجه القبلى والبحرى قد صعدت روحه إلى السماء لتشاهد هناك المعبود (خنوم) ملك الوجه

القبلى والبحرى فى إيوانه والمعبود (توم) فى تختـه والمعبود (أونفـر) واعلموا أنهم يتكرمون بتخليد ذكركم فى دار الدنيا وأنكم تنالون المكافأة من (خنوم) ملك الدارين لوداومتم على المدح والشكر لمعبودات مدينة إهناس وعلى المدح أيضاً لتمثال (سمتا)، (وتفنخت) المقدس المحترم فى قسمه ليكون لكم أعظم رفيق ويمدحكم غيره على مر السنين بالمدح العريق. اهـ.

قال ومن نقوش هذا الحجر أنه لما انتشبت الحرب بين المقدونيين والمصريين كانت الدائرة على العجم فانهزم دارا وقتل كثير من رجاله ثم قتله أحد نوابه فانتقل بعده حكم مصر إلى دولة اليونان. اهـ.

وقد أحدث الفرس بديار مصر من أسباب الخراب شيئاً كثيراً جداً وأزالوا بهجة المبانى والآثار العظيمة لا سيما ما كان منها بين مدينة طيبة من صعيد مصر ومحلة الدكة من بلاد النوبة على مسافة خط يزيد عن الستين فرسخا فقد تركوها خاوية على عروشها لم يبق منها إلا رسوم وأطلال وكانت أحكامهم فى مصر أحكاماً مطلقة فأذاق عمالهم وولاتهم أهل البلاد كأس الذل والهوان وجرعوهم الغصص ومنعوهم من التظاهر بعبادة معبوداتهم وضبطوا أملاك طوائف الكهنة وضربوا المغارم على آلهة المصريين فى نظير إباحة التعبد بها تدفعها لأصنام فارس ولم تكن الفرس تميل بالطبع إلى المصريين ولا تحب الاختلاط بهم ولا التقرب منهم شأن الأمة الفاتحة الغاصبة بل كانوا بمعزل عن جميع عوائدهم وزيهم وملبسهم وكذلك كان المصريون غير أن الفرس كانوا قد نقلوا عن المصريين الحكومة المستكملة وتعلم ملوكهم طرق الرئاسة وأساليب السياسة وقد كانت قبل تغلبهم على مصر مجهولة عندهم لا يرون للوصول إليها سبيلا ، قال بعض المؤرخين وبانقراض حكم دولة الفرس من مصر دخلت مصر فى تاريخ جديد على نسق جديد فى الوقائع الزمانية أعاد إليها رونقها القديم وفخرها القويم. قالوا فإن استيلاء الإسكندر ومن أتى بعده على مصر بعد دولة فارس يعد فوزا للمصريين ونصرة وذلك لما كان بينهم وبين اليونان من روابط المحبة وشرائط المودة باشتراكهم فى العلوم والمعارف الحكمية فضلاً عن العهود السابقة والمحالفات التى جعلت الأمتين يدا واحدة على الفرس فأبادوا حكمهم وضعضعوا شوكتهم فخرجوا من البلاد بعد أن أساءوا السيرة فى أهلها ، فسبحان من بيده الملك يؤتيه من يشاء.

وبانقراض حكم الدولة الفارسية قامت بعدها الدولة المقدونية الأولى وهى المعروفة بالدولة الثانية والثلاثين فى ترتيب أصحاب التاريخ وعلى هذا الترتيب لم يبق من عدد دول الجاهلية إلا ثلاث وهى الأخيرة منها الآتى الكلام عليها واحدة فواحدة على النسق الآتى:

(الباب الثانى)

(فى الدولة المقدونية الأولى التى ظهرت بظهور الإسكندر وفيه فصول)

(الفصل الأول)

(فى العائلة الثانية والثلاثين إحدى العائلات الثلاث الباقية من الجاهلية)

كان مبدأ ظهور هذه الدولة سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة قبل الميلاد أى سنة أربع وخمسين وتسعمائة قبل الهجرة، وكانت مدة حكمها سبعا وعشرين سنة وعدد ملوكها ثلاثة ورأس هذه الدولة الإسكندر الأول الملقب بالأكبر ، قال بعض المؤرخين وبظهور هذه الدولة انقرضت تماماً دول العائلات المصرية التى جاء على ذكرها المؤرخ مانيطون. قالوا: ولا يفهم من أحوال هذه الدولة وما جاء بعدها من الدول الأخرى إلى فتوح الإسلام شيء غير ما هو مكتوب على الآثار القديمة ومفهوم منها مع ما يضم إلى ذلك مما يستفاد من كتب اليونان والرومان المتداولة.

وكان رأس هذه الدولة بمصر الإسكندر الأكبر حيث دخلها بعد أخذه مدينة صور وصيدا وفلسطين وغزة من دار ملك فارس واستولى على ديار مصر جميعها وكان من مآثره ما سيذكر.

(فى الملك إسكندر الأكبر المقدونى)

ولما تغلب الإسكندر على دار ملك فارس تلقاه المصريون بالترحاب وأعانوه على قتال الفرس فرارا من جورهم واستعبادهم فاستولى الإسكندر على جميع ديار مصر وأخرج منها الفرس وعامل المصريين بالرفق واللين وأعاد إدارة البلاد وسياستها القديمة إلى ما كانت عليه ولم يغير شيئاً من عوائد الأهالى الدينية والمدنية وأطلق لهم حرية العبادة والقيام بشعائرها والجهر بها فى هياكلهم وبيوت عبادتهم ورفع عنهم المغارم والمكوس الثقيلة التى كانوا يؤدونها للدولة الفارسية.

واختار من أرض مصر القطعة الواقعة فى البرزخ الكائن بين بحيرة مريوط والبحر المتوسط فى غرب النيل ليبنى فيها مدينة جديدة على نسق المبانى المقدونية وكانت هذه القطعة يومئذ قرية قديمة تسمى (راقودة) فاختطها الإسكندر بمعاونة

(ريناوخس) المهندس اليونانى ورسم أماكن المبانى العمومية والهياكل والمعابد لليونان والمصريين على السواء فكان محيط هذه المدينة لا ينقص عن ثمانين غلوة سهم ودخلت قرية (راقودة) المذكورة فى سور تلك المدينة وسماها (الإسكندرية) ويقى اسم (راقودة) لخطة بالإسكندرية بنيت على آثارها وقد زين الإسكندرية بأحسن الزينة وعمرها بالجم الغفير من أهالى المدائن المصرية فصارت عامرة آهلة ورتب فيها مرابطين من المقدونيين وأباح لجماعة اليونان وغيرهم من البلاد المشرقية الاستيطان بها وفتح أبوابها لأهل الملل وأعدها مركزا جديدا لتجارة المشرق والمغرب ، ثم قلد ولاية مصر للأمير (أقليومنوس) وسلمه زمام البلاد وسار هو بجيشه المظفر إلى آسيا وتوغل فى جوفها وقهر فى طريقه دارا ملك فارس وانتصر عليه النصرة الأخيرة بقرب مدينة (اربل) عند الموصل سنة إحدى وثلاثين وثلثمائة قبل الميلاد أى سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة قبل الهجرة ثم سار قاصدا مدينة بابل ولم يزل حتى لم يبق بينه وبينها إلا فرسخ ونصف فرسخ فخرج إليه مشايخ أهل العراق العارفون برصد النجوم وتمثلوا بين يديه وأعلموه أنه قد ظهر لهم من التنجيم ما دلهم على أن دخوله لبابل لا يعود عليه إلا بالفشل ويموت بها وألحوا عليه فى الرجوع عنها إلى غيرها من المدائن فتطير من ذلك وتشاءم فبعث ببعض أمرائه إليها وعاد هو إلى معسكره فوصله بعد مسيرة عشرة أيام وكان فى المعسكر جماعة من حكماء اليونان فقدموا عليه للسلام والتبريك وعلموا ما فى نفسه من الوسوسة والتطير وأنه عدل لذلك عن دخول بابل فما زالوا به حتى أزالوا عنه ذلك الخوف والارتياب وطمع فى المسير إلى بابل مع جميع عساكره وأجناده وكان قد بلغه قدوم الوفود من جميع البلاد المسكونة إليها وأنهم ينتظرونه فجد السير واستبشر وما زال حتى دخلها فى أبهة وكبكبة زائدة للغاية ثم اقتبل سفراء الملوك وأفسح لهم صدر الترحاب ولبث فى بابل نحو السنة يجدد فيها الأعياد والمواسم والمآدب والولائم وعكف على اللذات وانهمك فى الشراب فبينما هو ذات ليلة فى مجلس الشراب وقد أسرف كل الإسراف وأفرط فى تعاطى الخمرة حتى أخذت منه مأخذها نظر إلى ندمائه فتقدّموا إليه فى أن يشرب جاما على صحة كل واحد منهم وكانت عدتهم عشرين نديما ففعل ثم استدعى بقدح كبير كان يسميه (هرقطوس) الجبار فشرب به اثنين وقام يظهر من الضعف قوة فلم يقدر وانكب على محياه وأصيب فى الحال بحمى شديدة ولازمته نوبة بعد أخرى فكانت إذا فارقته أمرو نهى وأرسل الجيوش للغزو وفتح المدائن ظانا أن زمن مرضه قصير فلما رأى أن حياته على شفاجرف وأنه قد ضعفت حواسه خلع خاتمه من أصبعه وسلمه إلى الأمير (برديقا) وأوصاه أن ينفل جثته إلى هيكل المشترى

بواحات سيوه ليدفن هناك بين الآلهة ، وكان قد سار متنكرا عند دخوله مصر إلى كاهن المشترى فى واحات سيوه واستجوب الكهانة فعرفه الكهنة. وقالوا: له إنك ابن المشترى صاحب هيكل طيبة اليونانية وأن سرك سرى إلى معبد سيوه ، قال أصحاب الآثار ومع ما حكاه المؤرخون من سير الإسكندر إلى تلك الأصقاع فإنه لم يوجد من الآثار القديمة ما يدل على ذلك سوى أنه رؤى اسم الإسكندر منقوشا على مصراعى باب مصنوع من الحجر الصوان عثر عليه من عهد قريب بجزيرة أسوان . اهـ.

وكان يظهر التجلد والثبات وقد أسند ظهره يوماً إلى وسادة وجلس على عادته ويده ممدوة تقبلها الجند فسأله بعض كبار دولته عمن يخلفه. فقال خليفتى عليكم أصلحكم بحفظ ناموس الملك ، ثم قال إنى لأرى أنه لابد أن يقع بينكم الفشل والشقاق فتنصرم حبال عهدكم وسأله أحد كبار قومه متى نعدك فى عداد الآلهة المعظمين فقال: لا أستحق هذا الاعتبار إلا إذا سعدتم بعدى ولم تنفصم عروة اتحادكم.

ومات وله من العمر اثنتان وثلاثون سنة وثمانية أشهر وذلك نحو سنة ست وأربعين وتسعمائة قبل الهجرة أى نحو سنة أربع وعشرين وثلثمائة قبل الميلاد فكانت مدّة حكمه اثنتى عشرة سنة ولم يعقب وارثا لسرير الملك إذ لم يكن له من الإخوة إلا أخ لأب يدعى فليبس أريديس وكانت أم هذا الولد رديئة الأصل ليست من ذوى البيوتات العالية وقد تسرى بها فليبس أبو الإسكندر فرزق منها بذلك الغلام وكان للإسكندر أيضاً. ولد من زوجته (باريسينه) بنت دارا الملك اسمه (هرقولس) وكانت زوجته التى مات عنها وهى (روشنك) بنت ملك همذان حبلى ومشرفة على الوضع فكان يرجى أن تضع ذكرا ولذلك أمست ولاية عهد الإسكندر منحصرة فى اثنين وثالث موهوم ظهوره فأما الاثنان فأحدهما فليبس أريديس أخو الإسكندر كان ضعيف الرأى لا يقدر على حمل أعباء هذا الملك الجسيم فلذلك كان لا يصلح للخلافة وكان ثانيهما ابنه (هرقولس) لا تجربة عنده ولا خبرة بسياسة الممالك فكان كذلك لا يصلح لتولى الملك بعد أبيه فاشتدّ الخطب لذلك على أمراء جنود الإسكندر وخاف أعيان دولته من ذهاب الملك وتمزيق ما جمعه الإسكندر واختلفوا فيمن يتولى هذا الملك العظيم بعده وكان ممن امتاز من قواد وأمراء الإسكندر بالمجد والنسب العريق والامتيازات الجندية والملكية ثمانية أمراء وهم (برديقا)، (واليوناط)، (وانطباطير)، (ولوزيماك)، (وبوطون)، (ويوطسطس)، (ومينارخس)،

(وبطليموس) فكان من هؤلاء الثمانية أن اجتمعوا فى غداة موت الإسكندر حول سريره ووضعوا عليه علامات الملك الخصوصية وسلاحه وتشاوروا فيمن يخلفه فرأى أحدهم (بردیقا) أن يولى مولوده من زوجته (روشنك) حيث كان قد أزف وقت ميلاده ورأى (مينارخس) أن الذى يصلح لذلك هو ابنه (هرقولس) فدفع (بطليموس) القولين. وقال إنهما من أسباط ملوك العجم فلا يصلحان للملك على أنا لو سلمنا الملك لأحدهما لترتب على ذلك تسليم ملك مقدونيا لملوك فارس والرأى عندى أن نجعل إدارة جميع مملكة الإسكندر شورى بين قواد الجيوش وأمراء الأجناد وبينما هم يتكلمون فى هذا الأمر إذا بصوت فى وسطهم يقول إنا نبايع أخا الإسكندر خليفة على كرسى أخيه ونلقبه بفيلبس وكان هذا الاسم محبوباً عند المقدونيين ثم انتدب رئيس جنود الإسكندر ونادى بالبيعة فعارضوه واستعانوا عليه بأمراء الفرسان فظهر فى الحال بينهم (فيلبس أريدس) أخو الإسكندر وعليه الحلة الملوكية بزى ملوك فارس فبايعه عند ذلك السواد الأعظم والجمهور من الأهالى والجنود ثم أمر بتحنيط جثة الإسكندر وكانت قد ألقيت بلا دفن مدة سبعة أيام وأخذ فى تدبير الأمور على ما يشاء وكان من أمره ما سيذكر بعد.

(فى الملك اريديس فيلبس)
(ويسمى أيضاً)
(ارهيدة فيلبش)

بويع أريديس فلبس بالملك بعد موت أخيه الإسكندر بسبعة أيام وذلك سنة أربع وعشرين وثلثمائة قبل الميلاد أى سنة ست وأربعين وتسعمائة قبل الهجرة فلما استقر به المنصب وزع الأيالات والمناصب الملكية على طوائف أمراء الأجناد والعساكر ومشاهير الرجال وقلد (بطليموس) النيابة على مملكة مصر وشاركه فى ملك مقدونية ابن أخيه الإسكندر الثانى فكان مغلوباً على أمره وليس له من الملك سوى الاسم فقط، وكان الأمير (برديقا) وصى الإسكندر على ممالكه وهو الذى سلمه خاتمه عندما أحس بأن حياته على شفا وهو صاحب الكلمة على جميع ممالك مقدونية، وقيل بل إن الإسكندر لما احتضر استدعى أربعة من أمراء جنده الذين هم من ملوك الطوائف وجعل بيدهم أمر تقليد ملكه لمن يستحقه فكان من الأمير برديقا المذكور أن تغلب على خاتم الإسكندر عند موته وسعى فى أن يستولى على جميع الممالك وطمع فى سلطنته وكان للإسكندر الأكبر أخت تسمى (كليوباترا) فتزوّج بها الأمير

برديقا المذكور لظهور أمره فانكر عليه ذلك أربعة من ملوك الطوائف ومنعوه فخاف برديقا على نفسه وسار إلى مصر فرارا من أعدائه طمعاً فى أخذها من بطليموس نائبها فخرج بطليموس للقائه فالتقى الجمعان عند مدينة منف واقتتلا قتالا شديداً فانهزم برديقا هناك شر هزيمة وغرق فى نيل مصر وتبدد من كان معه من الخوارج.

ولم تصف الأيام لاريديس فلبس بتملكه البلاد والتصرف فى أمورها بعد موت برديقا حتى قامت عليه (لينبادة) زوجة الإسكندر الأكبر فقتلته فى سنة تسع وثلاثين وتسعمائة قبل الهجرة لسبع سنين من حكمه فخلفه الإسكندر الثانى ابن الإسكندر الأوّل من لينبادة المذكورة.

(فى الملك إسكندر الثانى)

تولى إسكندر الثانى ابن إسكندر الأوّل الملك نحو سنة سبع عشرة وثلثمائة قبل الميلاد أى سنة تسع وثلاثين وتسعمائة قبل الهجرة، وكان قد لقب ملكا فى طفوليته أيام اريديس فلبس فلما مات اريديس المذكور انفرد بالحكم وتمت له البيعة الكبرى ولكنه كان مغلوبا على أمره وكانت الكلمة إذ ذاك للأمير (انطيباطير) أحد الأوصياء الأربعة وبقى على هذا الحال حتى مات انطيباطير المذكور فأوصى به الأمير (بيطون) أحد الأوصياء بإغراء بطليموس نائب مصر وكان للأمير انطيباطير ابن اسمه (كسذره) فلما رأى من تغلب بيطون على مسند أبيه بغير حق لضعف الملك وعدم قدرته على تدبير أمور المملكة قام على (كسذره) المذكور فقتله وتغلب على مملكة مقدونية وقتل لينباده أم الإسكندر الثانى وحمل الناس على المبايعة له وذلك سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة فكانت مدة حكم الإسكندر الثانى منفردا ست سنين لا غير.

وكانت مصر فى أيام كل من اريديس فلبس والإسكندر الثانى المذكورين تابعة لمملكة مقدونية كما كانت فى أيام الإسكندر الأكبر إذ دلت على ذلك آثارهما فى ديار مصر، وقد وجدت لفيلبس مقصورة جميلة الصنعة من حجر الصوان بناها فى هيكل الكرنك وسط مقصورة أخرى من بناء الملك (توتوميس) الثالث أمام محراب هذا الهيكل وكذلك وجدت بعض نقوش بهيكل الكرنك ولقصر مرسوم عليها اسم الإسكندر الثانى.

وبموت الإسكندر الثانى هذا انقرضت الدولة الثانية والثلاثون فكانت سنو ملكها سبعا وعشرين سنة كما تقدّم وقامت من بعدها الدولة الثالثة والثلاثون أعنى بها الدولة اليونانية الملقبة بالدولة البطليموسية وهى رأس الدور الثانى بعد الجاهلية أى دور النصرانية والتدين بالدين المسيحى كما سبق الكلام على ذلك فى محله.

(الباب الثالث)

(فى الدولة البطليموسية اليونانية وفيه فصول)

(الفصل الأول)

فى العائلة الثالثة والثلاثين

تسمى هذه الدولة باليونانية وتلقب بالبطليموسية أو البطالسة وكان مبدأ ظهورها فى نحو سنة خمس وثلثمائة قبل الميلاد أى سنة سبع وعشرين وتسعمائة قبل الهجرة وسبب ظهورها هو أنه لما تغلب (كسذرة) بن انطيباطير على الإسكندر الثانى ملك مقدونية وقتله وحمل الناس على المبايعة له لبث نحو ست سنوات يدبر أمور جميع مملكة مقدونية وملحقاتها مستبدا بحكمها لا يعارضه فيها معارض ولا يشاركه مشارك ثم لم يلبث أن جنح إلى المشاركة فاقتسم الملك بينه وبين بطليموس نائب مصر فى تلك السنة فصارت مصر من هذا الحين فى حوزة بطليموس المذكور وعقبه من بعده مملكة مستقلة لا يشاركهم فى حكمها أحد ثم انضمت إليها مملكة قبرس والقيروان بعد حروب طويلة هائلة ثم انفصلت عنها ثم اتصلت بها وعادت فانفصلت عنها وهلم جرى وذلك بعد حروب وغزوات متتابعة.

وبقى ملك مصر فى أيدى هؤلاء البطالسة ثلاثة قرون متتابعة لا يقوى عليهم فيها محارب وصارت فى هذه المدّة الطويلة منفصلة عن مملكة مقدونية انفصالا تاما، وكان ملوك هذه الدولة التى هى دولة البطالسة أربعة عشر منها ثلاثة عشر ذكرا وواحدة أنثى وهى الملكة قلوبطره وكان رأسها الملك بطليموس الأول الملقب بسوطير يعنى المخلص وتعرف هذه الدولة أيضاً بالدولة المقدونية الثانية وسنأتى هنا على ذكر أخبار ملوكها على التعاقب واحدا فواحدا وأوّلهم بطليموس الأول.

(فى الملك بطليموس الأول)

هو أول ملوك البطالسة ورأس دولتهم وقد أصاب مصر نصيباً له حين اقتسم بينهم ملوك الطوائف ممالك الإسكندر الأكبر بعد موته وبطليموس هذا ابن لاغوص أحد قواد جيوش فيلبس أبى الإسكندر الأكبر فكان بطليموس المذكور مشاركا فى أيام شبيبته للإسكندر فى الحروب واقتسام الخطوب ولذلك رفع الإسكندر قدره حتى صار رئيس فرسانه فأحسن الرئاسة فى جميع غزواته وما زال عالى القدر مرموقاً

بعين الاعتبار حتى تولى ملك مصر فلما استقر به المنصب أحسن التدبير والسياسة واستمال لمحبته المصريين وأتى إليه أعيان القيروان مستنجدين مما حل بهم من جمهور الرعية لخروجهم عليهم وطردهم من البلاد فأجارهم وقام بنصرتهم بجيش عظيم وعدة من سفن الحرب فهزم أهل القيروان واستولى على بلادهم وعاد إلى مصر ظافرا غانما ثم جهز لغزو الشام جيشا وبعث به إليها فاستولى على أصول السواحل الشامية وبقيت فى قبضته مدة ثم أغار عليها إنطيفونس أحد ملوك الطوائف فاستلبها وسار دمتريوس بن انطيفونس المذكور قاصدا مصر يريد الإغارة عليها فأحس بطليموس بذلك وسار بجنوده لملاقاة دمتريوس المذكور فالتقى الفريقان عند غزة واقتتلا فيها قتالاً شديداً انكشف عن هزيمة دمتريوس شر هزيمة فرق بطليموس لحاله وأعاد إليه جميع الأسرى وسير إليه سفيرا يقول له لم يكن قصدى من محاربة انطيفونس وولده دمتريوس تحصيل الغنائم والسبايا وإنما قامت الحرب بيننا لمخالفتهما العهود وتعديهما على العراق وأخذها من ملكها ، وتملك بطليموس عقب هذه الموقعة على مدينتى صور وصيدا ولكنهما لم يبقيا تحت حكمه طويلاً حتى قام انطيفونس وابنه دمتريوس وجردا جيشاً ضخماً جداً وقاتلا بطليموس عليهما حتى أخذاهما وقد دك بطليموس جميع حصونهما ثم لما رأى بطليموس من توالى الحروب والغزوات وسوء النتائج المترتبة على ذلك عمد إلى ترك الحروب والخلود إلى السلم وتفرغ بقية أيام حياته لتنظيم أمور المملكة ونهض إلى تتميم الهياكل والقصور والمبانى والمعامل التى أنشأها بمدينة الإسكندرية وبنى للإسكندر الأكبر ضريحاً عظيماً جدًا وقد خفى الآن عن عيون الباحثين وأنشأ منارة الإسكندرية على شاطىء البحر الملح لمنافع الملاحة وهى من العجائب وبنى مدرسة الإسكندرية المعروفة باسم الرواق وجمع فيها جميع علوم تلك الأزمان من فلسفة ورياضيات وطب وحكمة وآداب وهيئة، وكانت هذه المدرسة موصلة للقصر الملوكى وقد جلب إليها طائفة من علماء اليونان وغيرهم من سائر البلدان فأصبحت مدينة الإسكندرية دارا للعلوم ومركزا لسائر الفنون وكانت هذه المدرسة تحتوى على إيوانات عظيمة ورواقات حسنة البناء والشكل وأنشأ فيها خزانة للكتب جمع فيها أقدم الكتب وأجلها فكثرت عنده الكتب النافعة وبلغت فى الكثرة مبلغاً جسيماً جدًا.

وكثرت فى أيامه التجارة وراجت أسبابها بمدينة الإسكندرية وأتى إليها الناس من البلاد القاصية والدانية مثل بلخ وهمذان والسودان والهند والحبشة وغيرها وبلغت البلاد أقصى درجات التقدم والعمران فضاقت مدينة الإسكندرية بالسكان ونزح إليها

الناس من جميع الأقطار وكان لا يتعرض للأهالى فى أمر دينهم ولا يحجر عليهم التمسك بعباداتهم القديمة ولا يتعرض للكهنة والأحبار ولما بلغ الثمانين من العمر عهد بولاية الملك من بعده لأكبر أولاده من إحدى زوجتيه واسمه بطليموس محب أخيه ثم ولاه أمور المملكة بعد أن تنازل له عنها وذلك سنة خمس وثمانين ومائتين قبل الميلاد أى نحو سنة سبع وتسعمائة قبل الهجرة وعمل لابنه المذكور موكباً حافلاً جدًا فكانت مدّة حكم بطليموس الأول المذكور ثمانياً وثلاثين سنة منها سبع عشرة سنة فى منصب النيابة وإحدى وعشرون سنة فى منصب الملوكية ومات بعد مضى سنتين من ملك ابنه بطليموس الثانى وهو فى الثمانين من عمره.

(فى الملك بطليموس الثانى)

(الملقب)

(بفيلادلفوس)

ثم قام بالأمر بعده ابنه بطليموس الثانى الملقب بفيلاد لفوس أى محب أخيه تهكما لأنه كان يبغض إخوته بويع له بالملك فى حياة أبيه كما تقدّم ، وذلك سنة خمس وثمانين ومائتين قبل الميلاد أى سنة سبع وتسعمائة قبل الهجرة وله من العمر أربع وعشرون سنة فلما استقر به المنصب سايرة أبيه، وكان ميالاً للصلح محباً للسلم ولذلك صرف جل عنايته فى توسيع دائرة العلوم والفنون وتعميم الصنائع والإكثار من تحصيل الكتب فجمع منها عددا عظيماً أضافه إلى مكتبة الإسكندرية واستمال مانيطون الكاهن المصرى إلى تأليف تاريخ مصر باليونانية فمال إلى ذلك وجمع تاريخه من الدفاتر والسجلات الرسمية والأوراق القديمة المحفوظة فى الهياكل والمعابد، ولكنه لم يبق منها لجماعة المتأخرين إلا شذرات قليلة ووسع بطليموس المذكور نطاق التجارة فى ديار مصر فنمت واتسعت أبوابها وراجت أسبابها وبلغت ديار مصر من العمران درجة لم يسبق لها مثال فقد حكى سيوقريطس أن مدن مصر بلغت عدتها فى أيام الملك بطليموس الثانى المذكور ثلاثاً وثلاثين ألف مدينة (**قلت:** ربما كان فى قول هذا المؤرخ تغال كما هو دأب جميع أصحاب التاريخ إلا الذين تنزهوا عن الهوى وقليل ما هم وربما كان مراده بذلك ما يعم القرى والكفور ونحوها).

وجدّ بطليموس المذكور فى معرفة حقائق البلاد واستكشاف طرق البحار بالأسفار فأرسل البعوث لاستكشاف داخلية بلاد أفريقية وبلاد سواحل بحر فارس

وبعث القبودان المسمى طيوسيطنس إلى قلب النوبة من طريق مصعد النيل لاستكشاف حقيقة مجراه ومنبعه ولكى يسخر بلاد السودان لطاعته فوصل طيوسيطنس بعد مسيرة ستين يوماً إلى جزيرة مروى بقرب شندى وبعث أحد قواده المسمى ارسطفريون إلى تلك الأصقاع أيضاً فجال فيها وانعطف من هناك إلى جهة المغرب فنجم عن ذلك اتساع نطاق التجارة بين مصر وتلك الأطراف وانتظم عقدها مع النوبة وظهر علم جغرافية الأرض بمظهر جديد لم يكن يعرف من قبل فسهل معرفة البلاد وعوائد أهلها وما فيها من نبات وحيوان. قال ديودور الصقلى لم يسبق لأحد التوغل فى بلاد النوبة من أهالى الأعصر الخالية إلى عهد بطليموس ولم تصل معرفة أهل تلك الأعصار إلا إلى حدود ديار مصر جهة الجنوب لأن أهل أواسط بلاد النوبة كانوا لا يحبون مجىء الأجانب إلى بلادهم فكان فى الوصول إليها غاية الخطر ومنتهى الضرر ولذلك بقيت حقائقها مستورة إلى أن سافر هذا الملك ودخل بها مع جيوشه . اهـ.

وعقد العهود بين مصر والممالك الهندية والمشرقية بما يترتب عليه توسيع أبواب التجارة وبدأ بحفر خليج السويس الذى كان قد شرع فى حفره (نخاوس) الملك أحد الفراعنة ودارا ملك فارس وجعل فم هذا الخليج من الجهة المعروفة بفرع طينة القريب من تل بسطة وأوصله إلى بحر السويس فى الجهة الشمالية وأرسل أيضاً من يستكشف له سواحل جزيرة العرب إلى بلاد الهند وسفنا لاستكشاف سواحل الحبشة وبلاد السودان الداخلية .

وكانت اللغة اليونانية فى أيامه قد امتدت إلى أقاصى ممالك الأرض فأمر بترجمة التوراة من العبرانية إلى اليونانية لمنفعة اليهود القاطنين بأرض مصر الذين أنساهم الأسر والاسترقاق لغتهم وكان عددهم كثيراً جداً فترجمت وسميت هذه الترجمة من ذلك الحين بالترجمة السبعينية لأن مترجميها كانوا سبعين عالما وزوّج ابنته المسماة برنيقه لانطيوكوس ملك الشام واشترط عليه أن يكون للذكور من أولادها وراثة ملك الشام بعده ثم جهزها وحملها إلى الشام وعمل لها فى مدينة أنطاكية أفراحاً عظيمة للغاية ثم عاد إلى مصر مريضاً وما زال حتى مات سنة ست وأربعين ومائتين قبل الميلاد أى سنة ثمان وستين وثمانمائة قبل الهجرة فكانت مدّة حكمه ثمانياً وثلاثين سنة وخلفه ابنه بطليموس الثالث الملقب بالكريم.

(فى الملك بطليموس الثالث)
(الملقب)
(بالكريم)

ثم قام بالأمر بعده ابنه بطليموس الثالث بويع له بالملك فى نحو سنة ست وأربعين ومائتين قبل الميلاد أى سنة ثمان وستين وثمانمائة قبل الهجرة وكان يلقب بالكريم تهكماً وسخرية، وقد لقبه العامة أيضاً بلقب اطريفون ومعناه المهزول والأول أشهر ولم يكد يستقرّ به المنصب حتى قامت الحرب بينه وبين ملك الشام فسار فى جيش عظيم من المشاة والركبان والفيلة وجهز سفناً حربية وأغار على البلاد التى قبل نهر الفرات واستولى على مملكة أدنه وما جاورها وعلى سواحل سيواس وعلى أيالة عكا وسواحل أناطولى وجال فى بلاد أعدائه وصال وظفر وأبلى بلاء حسناً للغاية ثم اجتاز الفرات واستولى أيضاً على الجزيرة والعراق وخورستان وأذربيجان وعزم على غزو قارستان وجميع بلادها إلى بلخ وهمذان فوردت عليه الأخبار بقيام الفتنة فى ديار مصر فكر راجعاً وترك بتلك البلدان طوائف عسكره وأجناده ودخل مصر مثقلاً بالغنائم ومعه تماثيل الأصنام المصرية التى كان استلبها قمبيشاش ملك فارس من مصر ثم عاد سليوقوس ملك الشام لغزو مصر والأخذ بالثأر فانهزم وخاب أمله فاقتفى أثره بطليموس ودخل الشام وأخذ دمشق وميا فارقين وفر رؤساء السليوقية من وجهه إلى أنطاكية وانزووا فيها ولما كان فى حروبه مع انطنيوخوس ملك الشام نذرت زوجته برنيقه أنه إن عاد إليها سالماً من غزوته تكرس شعر رأسها للزهرة فلما رجع ظافراً غانماً وفَّت نذرها فقصت شعرها ووضعته فى هيكل الزهرة فلم يبق زمنا حتى سرق من الهيكل فخاف الحراس من الملك واستعظموا هذا الأمر فلما علم الملك بالخبر التهب قلبه غيظاً وأمر بالحراس أن يقتلوا فدخل عليه بعض المنجمين وكان متقدماً فى بابه. وقال قد سمعت بخبر فقد شعر الملكة من الهيكل فأتيت أخبر بما علمته من أن الزهرة هى التى نقلت شعر الملكة إلى السماء ووضعته بين النجوم فلما سمع الملك كلامه سربه وصفح عن الحراس، ومن ثم سمى شعر الملكة برنيقه بين الناس من جملة مجاميع النجوم.

ومات بطليموس الثالث المذكور فى سنة اثنتين وعشرين ومائتين قبل الميلاد أى نحو سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة قبل الهجرة فكانت مدّة حكمه خمساً وعشرين سنة وقيل أربعاً وعشرين وخلفه ابنه بطليموس الرابع محب أبيه.

(فى الملك بطليموس الرابع)

(الملقب)

(محب أبيه)

ثم قام بالأمر بعده ابنه بطليموس الرابع الملقب فيلوبا ترأى محب أبيه بويع بالملك سنة اثنتين وعشرين ومائتين قبل الميلاد أى سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة قبل الهجرة، وكان صبياً فكان نفوذ الحكم لوزيره سوسبيوس، وكان سوسبيوس هذا طاغية فى السياسة فأرخى للملك عنان السرف فى اللذات، وتركه يهيم فى بحبوحة الحظوظ والمسرات، وذلك لكى لا يكون له شريك فى الملك واحتجب بطليموس عن أرباب ديوانه وصار لا يراهم إلا نادراً وصرف وجهه عن الملك والممالك والبلدان التابعة لمصر فكان لا يعلم شيئاً عن أحكامها وعمالها ولا عن جندها، وكانت مصر إلى هذا الحين قد ملكت جميع الأراضى الشامية الكائنة ما بين طرابلس ودمشق ولها عدة مدن خاضعة لها على سواحل بلاد آسية وعلى الجزائر ، وكانت الثغور والأربطة فى أيدى ملوك مصر من عكا إلى الدردانيل وبوغاز كاليبولى وفيها من العساكر والأجناد شيء كثير جداً، وكان وزيره سوسبيوس المذكور يبالغ فى إبعاد الملك عن النصحاء وأهل المعارف لئلا يقف منهم على حقيقة حاله وفساد رأيه وخيانته فكان يوسوس إليه بالأراجيف والأخبار الباطلة التى لا حقيقة لها حتى صار يأخذ حذره خوفاً على نفسه وعلى تخته واشتد به الخوف والتطير إلى أن صار يأخذ الناس بالشبهات فإذا رابه من أحد ريبة أمر بقتله ، وكان قد حضر إلى مصر فى عهد بطليموس الثالث إقليومونس ملك أسبارطة مستجيرا ببطليموس فى إعادة ما ورثه عن أبيه من الملك، وقد نزعه منه ملك مقدونية فمات بطليموس الثالث قبل أن يقوم بنصرته وبقى عهد بطليموس إليه بذلك نسيا منسياً فلما استقر ببطليموس الملك راجعه اقليومونس فى الأمر ورغب إليه فى تنفيذ العهد الذى كان بينه وبين أبيه فلم يجبه إلى ذلك لاسيما وقد كان انطيفونس ملك مقدونية فى هذا الحين قد مات وقام بالملك بعده ابنه وكان صغيراً يبلغ الخامسة عشرة من العمر فألح اقليومونس على بطليموس واستحثه فلم يرض خوفاً من العاقبة وأبى أن يعينه مخافة أن يستولى على جميع بلاد اليونان فيعود ذلك بالضرر على مصر فغضب اقليومونس من ذلك ووسم بطليموس الرابع بضعف العزيمة وعدم الاكتراث بالعهود. وقال لا أهلية لبطليموس إلا فى الاتحاد مع الشبان الذين يلعبون بالمزامير فوصل هذا الكلام إلى

مسامع سوسبيوس الوزير فزعم أن ملك اسبارطه المذكور إنما أراد بقوله هذا إثارة الفتنة فى بلاد مصر فقبض عليه وسجنه وجعله تحت الحرس والمراقبة فالتهب اقليومونس غيظاً وأقسم أن لا يموت فى حبس الظلم موت الجبان وأخذ يتربص الفرص حتى علم يوماً بسفر بطليموس الملك إلى أبى قير فجمع أحبابه وأتباعه فى وليمة فحضروا فلما تكامل عددهم خرج بهم نهارا من سجنه شاهرا سيفه من غمده وهو ينادى فى الناس بالخروج وشق عصا طاعة بطليموس فلم يجبه أحد إلى ذلك فصعد إلى قلعة الإسكندرية وكسر أبوابها وأخرج من كان فى حبوسها وسلحهم بالأسلحة ليستعين بهم فلم يفلح حيث قام عليه كبار جند القلعة وهزموه فخشى هو وأصحابه من الوقوع فى أيدى خصومهم فتقاتلوا وجاء الخبر إلى بطليموس بما وقع وهو بأبى قير فكر راجعاً بمن كان معه من كبار قومه ورجال دولته إلى الإسكندرية لإخماد نار هذه الفتنة فلما علم بما جرى لأقليومونس وأصحابه أمر بصلبه ميتا وذبح زوجته تحته وأم أولاده حيث كان يتوجس منها شرا وذلك سنة عشرين ومائتين قبل الميلاد أى سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة قبل الهجرة، وقام على بطليموس بعد ذلك انطيوكوس أخو سليوقوس صاحب الشام يريد قتاله انتقاما منه جزاء ما فعله أبوه بطليموس الثالث بالديار الشامية من القتل والنهب وغير ذلك وسار بخيله ورجله إلى انطاكية التى هى مدينة السليوقية وكان بها جند مصر يخفرها بعد نصرة بطليموس الثالث عليها فأخذها ثم سار إلى الشام وكان قائد العساكر والأجناد المصرية بها الأمير سيور وطوس اليونانى فلما قرب انطيوكوس منها سلمه سيور وطوس المذكور ما كان فى خفارته من القلاع والحصون والمدائن كصور وعكا وغيرهما كراهة بطليموس الرابع وانتقاماً منه فهال بطليموس هذا الأمر جداً وأزعجه وأرسل إليه قائداً من قواد جنده الكبار بجيش ضخم للغاية فلما دخل الشام نزل ببيروت وهاجم انطيوكوس فى جبالها فهزمه انطيوكوس شر هزيمة ووقعت جميع بلاد الشام فى يده إلى حدود مصر فألح وزراء بطليموس عليه فى أن يذهب بنفسه لقتال انطيوكوس وكشف عار هذه الهزيمة فسار من الفرما إلى الشام فى سبعين ألفا من المشاة وخمسة آلاف من الفرسان، وثلاثة وسبعين فيلاً، وكانت جنود أنطيوكوس اثنين وسبعين ألفًا من المشاة وستة آلاف من الفرسان ومائة واثنين من الفيلة فالتقى الجمعان تحت أسوار مدينة رافيا بين العريش وغزة واقتتلا قتالا عنيفاً فاستظهر انطيوكوس على بطليموس ملك مصر من الجناح الذى كان يدبره انطيوكوس ولم يلتفت إلى الجناح الثانى من جيشه، وكانت عساكر الجناح الثانى قد انهزمت وعادت

القهقرى وهو لا يشعر بهزيمتهم فلما أحس بها أخذ فى تلافى الأمر فلم يفلح ودارت عليه رحى الهزيمة ومات من عسكره خلق كثير وولى من بقى منهم فاستولى المصريون على مدينة رافيا ومدن سواحل الشام وفلسطين وطرابلس ودمشق فلم ير انطيوكوس بعد ذلك بدا من عقد متاركة وهدنة مع بطليموس ملك مصر مدة سنة واحدة.

ودخل بطليموس يافا وسار إلى بيت المقدس وسأل كاهن اليهود أن يريه ما فى البيت فأبى عليه ذلك فحقد بطليموس على اليهود والتهب قلبه غيظاً وعد ذلك إهانة وتحقيرا ورسم باستئصال شأفة يهود الإسكندرية وكتب لعامله بذلك فأوقع فيهم القتل والذبح حتى أفنوهم إلا من طال عمره فاختفى وعاد بطليموس إلى الإسكندرية ورايات النصر تخفق على رأسه وعاد إلى الانهماك فى اللذات والشهوات وأسرف فى اللهو وبالغ حتى انتهكت قواه وضعف بدنه فمات فى بحبوحة شبابه سنة خمس ومائتين قبل الميلاد أى نحو سنة سبع وعشرين وثمانمائة قبل الهجرة فكانت مدة ملكه سبع عشرة سنة وخلفه ابنه بطليموس الخامس الملقب بالماجد.

(فى الملك بطليموس الخامس)

(الملقب)

(بالماجد)

ثم قام بالأمر بعده ابنه بطليموس الخامس الملقب بالماجد بويع بالملك بعد أبيه سنة خمس ومائتين قبل الميلاد أى نحو سنة سبع وعشرين وثمانمائة قبل الهجرة، وكان وقتئذ غير بالغ سن الرشد فأقاموا عليه الأمير أغا سقليس وصيا وهو أحد وزراء أبيه وبقى سوسبيوس وزير المملكة ومدبر أمورها، وكان أغا سقليس المذكور طاغيا سيىء التصرف فلما صفا له الجو ازداد فى ارتكاب الجرائم ومجاوزة الحدود وبالغ وأسرف حتى نفرت منه طباع الأهالى وسئمت نفوسهم وحقد الجند عليه حقدا شديدا فأوجس فى نفسه خيفة لئلا يشقوا عصا الطاعة عليه فراسل أهل مقدونية ليعاهدهم عسى أن يكونوا عونا له على المصريين فلم يفلح ولم يمض بعد ذلك إلا أيام حتى قامت الفتنة على ساقها وخرج الأهالى والجند عن طاعة أغاسقليس، وكان رأس هذه الفتنة طلابوليميس كبير الجند فلم يجد أغا سقليس له نصيرا ولا ظهيرا واشتد الخطب واستفحل أمر الفتنة. (قال يوليس المؤرخ) وانقسم أصحاب الفتنة إلى

طوائف وجماعات واجتمع بعضهم فى ميدان السباق وهم يضجون ويصيحون ويطوف منهم جماعة بين الناس ليهيجوا الخواطر ويحضوا الخلق على الثبات ومعاونة بعضهم لبعض بالخطب والمقالات المهيجة وانزوى بعضهم فى الدور والحصون عند اشتداد الأزمة، وكان أغا سقليس فى أثناء ظهور الفتنة وتجمع أولئك الجموع نائماً فى قصره فأيقظوه فلم يشعر إلا وقد امتلأ ما حول القصر الملوكى وميدان التعليم والرحبات والملاعب من جموع الثائرين والأحزاب على اختلاف درجاتهم فسار عندئذ فى أتباعه وأحزابه إلى حيث الملك بطليموس وأمر فسد بابان من أبواب القصر بالأحجار والمتاريس وحصن الباب الثالث بالقوة العسكرية وتترس من خلفه هو والملك بطليموس وسائر أتباعهما فازداد اجتماع الناس وكثرت الضوضاء وعلت الأصوات وتقاطر الناس من جميع أنحاء المدينة حتى سدوا الطرق وملئوا الميادين وضجوا وعجوا ونادوا بأعلى الأصوات كأنما اعتراهم الجنون، وبقى هذا الحال إلى ضحوة النهار وطلبوا أغاسقليس ونادوا بخروج الملك وتركه ليسقوا أغاسقليس كأس الهوان واشتد الحماس بالجند المقدونيين وحاصروا دهليز بيت الملك وبحثوا عن المكان الذى كان الملك مختفياً فيه فعثروا عليه فاقتحموا الأبواب وطلبوا الملك ليأخذوه فاشتد خوف أغاسقليس واستجار ببعض أعوانه وحراسه ورغب إليهم أن يستميلوا إليه فريق الأهالى، وبعض طوائف الجند المقدونيين فى نظير تنازله عن منصب الكفالة والوصاية فلم يجبه أحد لذلك فلما أيس من شفاعة الشفيع والملجأ فى هذا الخطب المريع مدّ يد السلام إلى العساكر المقدونية وسلم وأشار بذلك إلى الاستئمان وكذلك تقدمت أخته أغا سقلية التى هى أم بطليموس الرابع وكشفت عن ثديها .

وقالت لطوائف العسكر: هذا الثدى هو الذى أرضع بطليموس واغتذى بلبنه فلا يصح إهانته وإذلاله وأكثرت من الاستغاثة والتضرع فلم يرث أحد لحالهما ولم يلتفت إليهما وأخرجوا الملك من مكانه وأركبه الجند على جواد وذهبوا به إلى الميدان وساروا به فى وسط الجموع فلما رأوه فرحوا به وضجوا بأصوات التهليل وأقبلوا إليه وأجلسوه على سرير الملك وتقدم إليه من أمراء الدولة جماعة يسألونه عما يفعلونه بأغاسقليس ومن معه فأباح إراقة دمهم فرسموا إلى بعض الجند أن ينادوا بذلك بين الناس وصفوف العسكر فرفع أحدهم صوته بالمناداة ففرح العامة وضجوا ضجيج الاستحسان والفرح وتفرقت طوائف الجند وبقيت العامة وبينما هم على هذا الحال إذ برز فى وسطهم رجل من أخصاء أغاسقليس اسمه فيلون. وقال (كيف بكم أيها الناس لو رأيتم أغاسقليس واقفاً فى وسطكم لا جناح عليه وأنتم تجاهرونه بهذا العصيان وتقابلون نعمته بالكفران فافقهوا ياقوم ولا تكونوا من الضالين) فلما سمعوا

كلامه هجموا عليه فقاومهم أشد مقاومة فمزقوا ثيابه وطعنوه بالرماح وسرى من هذه الساعة الموت والقتل فى حزب أغاسقليس وقومه وأهل بيته والقوا جثة ذلك الرجل فى الميدان بعد قتله وهاجوا وماجوا وعلت أصواتهم فظهر أغاسقليس مكبلا بالسلاسل والأغلال فلم يمهلوه حتى أكبوه على وجهه وقتلوه ثم أتوا بأخته اغاسقلية مع بناتها وأقاربها فقتلوها وإياهم شر قتلة ثم قتلوا زوجته المسماة إينانة. وقد كانوا أركبوها عريانة على جواد وقتلوا كذلك أتباعها والمتقربين إليها، وكان المتولى القتل جمهور العامة والغوغاء فأفحشوا فيه، وكانوا يقتلون البعض بِعضّ الأنياب، والبعض بطعن الحراب وبعضهم كان يفقأ العيون وكانوا كلما قتلوا واحدا مزقوه وقطعوا أعضاءه وألقوها فى الطرقات ولما عم القتل وعلمت النسوة اللائى كن يخدمن الملكة أرسنوية أم بطليموس بحضور فيلامون الذى قتلها إلى مدينة الإسكندرية قمن على ساق وقدم وأحطن ببيته وأردن الفتك به وقبضن عليه وأثخنه ضرباً بالعصى والأحجار وقتلن زوجته فى الميدان العام، وكان له طفل على يديها فتناولته أيدى العامة وأماتوه خنقاً ثم سكنت الفتنة وهدأت العامة وأقاموا الأمير اطلابوليموس قيما على بطليموس بدل أغاسقليس واستبشر الناس بالظفر ولكن لم يمض إلا القليل من الزمن حتى ظهر الأمر على خلاف ما كان يظن وذلك لأنه لما كان اطلابوليموس المذكور جندياً بحتاً لا خبرة له بفنون السياسة التى عليها حفظ شرف الدولة ومركزها خبط وخلط فترتب على ذلك انحطاط المملكة وضعف سطوتها وقد ساء تدبيره أيضاً وانهمك وانكب على الألعاب بالصولجان والترس مع جماعة الشبان وأكثر من المآدب والولائم وأسرف وبالغ فى مثل هذه النفقات وبذر فى العطايا والمنح لسفراء ممالك اليونان تزلفا واستحبابا ووصل بنعمائه أرباب الملاهى والملاعب وأمراء العساكر والأجناد وكل من تردد على أبوابه واشتغل بجميع هذه الأمور عن النظر فى شئون المملكة وقضاء مصالح الخلق واحتجب عن الناس ليتفرغ لملاذه وشهواته فلما زاد إسرافه على نفسه سلم عنان الحكومة ليد أرسطومينين الرومى وأطلق له عنان الحرية ومتعه بالسلطة والنفوذ التام فلما أحس ملك الشام بضعف أحوال المملكة المصرية وعدم قدرتها على دفع من يقصدها بسوء قويت عزيمته للأخذ بالثأر جزاء ما فعله المصريون فى حرب رافيا فعقد مع فيلبس ملك مقدونية معاهدة دفاع فقام فيلبس بعساكره وأجناده وهجم على بوغاز الدردانيل وبوغاز كاليبولى وعلى بلادروم إيلى التى كان بها المرابطون من عساكر مصر من عهد فتوح فيلادلف . وقام كذلك ملك الشام وهجم على أملاك مصر فى أرض الشام وعلى جهات الأناضول، وكان بتلك الجهات من قبل مصر القائد اسقوباس

فلقيه اسقوباس بعسكره وقاتله فانتصرت العساكر المصرية على ملك الشام نصرة عظيمة فى سواحل الشام وبلاد فلسطين ولكنها لم تلبث أن انهزمت على منابع نهر الأردن وأخذ صاحب الشام مدينة سامرة وغيرها من المدائن كالقدس وما زال حتى أخذ أيضاً فى خلال سنة جميع المدن التابعة لمملكة مصر بولاية أدنة وغيرها من ولايات الأناضول.

وفرح انطيكوس صاحب الشام بنصراته المتتابعة وأخذه جميع أملاك مصر فى بلاد الشام وتاقت نفسه إلى قتال الرومانيين وغزو إيطاليا، ولكنه عاد فخاف عاقبة ذلك وجعل نصب عينيه ما بين مصر والشام من أسباب المشاحنة وخشى أنه إن سافر إلى إيطاليا قام عليه بطليموس صاحب مصر وظفر به فأخذ من هذا الحين فى التقرب من صاحب مصر وصالحه مصالحة نافعة تقوى روابط المحبة وتؤكد دوام الصلح بينهما، وكان لأنطيكوس بنت تسمى (كليوباترا) فكان من شروط الصلح أن يزوّجها لصاحب مصر ويمهرها سائر أرض الشام حيث كانت هذه الأراضى محل النزاع بين مصر والشام فجعلها انطيكوس من نصيب ابنته كليوباترا.

ولبثت كليوباترا فى بيت أبيها تنتظر استدعاء بطليموس لها حيث هو لم يدخل بها لعدم بلوغه سن الرشد إلى ذاك الحين وبينما هى فى بيت أبيها إذا قامت بمصر فتنة أخرى بأسباب البغضاء الواقعة ما بين أرسطونيوس الوصى على بطليموس ملكها واسقوباس كبير الجند وتمكن اسقوباس من مقاتلة أرسطونيوس بالإسكندرية. وقد انضم إليه جميع العساكر والأجناد الرومية الذين كانوا فى خدمة مصر واشتدت الفتنة وقامت على ساقها وتكاثرت أحزاب اسقوباس وخرجوا عن طاعة بطليموس الملك ووصيه وقام المصريون مع الملك وزاد بهم الغضب على اسقوباس وأحزابه، وأبناء جنسه وقبضوا عليه وساقوه إلى موقف التحقيق فثبتت خيانته فحكم بقتله مع أحزابه وحرمان جميع أبناء جلدته من الخدمة العسكرية وفاز أرسطونيوس وظفر بعدوّه ، ومن كان معه من الأحزاب فأولم واحتفل احتفالاً عظيماً وألبس بطليموس الملك التاج فى محفل عام وسلمه صولجان الملك، وهو يومئذ فى الثالثة عشرة من عمره وذلك سنة ست وتسعين ومائة قبل الميلاد أى نحو سنة ثمانى عشرة وثمانمائة قبل الهجرة هذا ومع أن الفتنة كانت قد سكنت وأمست نارها رمادا وانكشفت عن جلوس بطليموس على سرير مملكته فإنه شاع خبر موته وانتشر واتصل بانطيكوس أبى زوجته كليوباترا فتاقت نفس انطيكوس إلى أخذ قبرس والتخلص من رابطة العهد الذى كان بينه وبين بطليموس، وكانت قبرس إذ ذاك تابعة لمصر فسير إليها

سفنا حربية فعصفت بها الريح وألقتها على سواحل الأناضول. ووردت إليه الأخبار بأن بطليموس لم يزل على قيد الحياة فانثنى عن عزمه وصمم على عدم حل عقدة التحالف، وكان قد مضى على عقد زواج بطليموس كليوباترا ست سنوات فسار انطيكوس أبوها إلى مدينة رافيابين غزة والعريش ومعه ابنته كليوباترا، وكان بطليموس الملك نازلا بها فالتقى الفريقان وبنى بطليموس بزوجته واستلم زمام الشام مهرًا لها.

ولما استقر ببطليموس المنصب وتخلص من نير الوصاية ساء تدبيره وكثر ظلمه للرعية وتجبر فكان وصيه ينصحه ويحذره عاقبة أفعاله فكان لا يلتفت لقوله ولا يسمع لنصحه ويحقد عليه فى تهديده وتخويفه. ثم عمد إلى قتله فدس له السم فمات فلما ظفر بقتل وزيره المذكور واستبد برأيه ارتكب من المآثم والسيآت ما لم تستطع أن تحمله الأهالى فقاموا على قدم وساق وأثاروا الفتنة حتى كادت تعم جميع المدن ونادوا بخلع بيعة بطليموس من أعناقهم فانتدب بطليموس لقتال أصحاب الفتنة الجنود اليونانية الذين كانوا فى خدمة الحكومة فسار بهم قائدهم بولقراطس وضيق على الثائرين حتى استسلموا وكان بطليموس ممتنعا بمدينة صاالحجر فسار رؤساء الأحزاب إليه يطلبون الأمان فقبض عليهم جميعاً وقتلهم شر قتلة ومثل بهم وذلك سنة خمس وثمانين ومائة قبل الميلاد أى نحو سنة سبع وثمانمائة قبل الهجرة ولما سكنت الفتنة واستتب له الأمر عاد إلى عسفه وظلمه للرعية وأخذ يجهز جيشاً كبيراً لقتال سيلقوس الرابع بن انطيكوس فاخترمته المنية قبل أن يتم هذه الغزوة وذلك فى سنة إحدى وثمانين ومائة قبل الميلاد أى سنة ثلاث وثمانمائة قبل الهجرة سمه بعض الأعيان فمات والسبب فى ذلك أنه لما أكثر من تجنيد الجنود الأجنبية لغزو سيلقوس وبالغ فى الإكثار منهم سئل يوماً من أين ندفع جوامك هؤلاء العساكر ونفقات هذا الجيش. فقال ما سبب هذا السؤال أما تعلمون أن أموال أحبابنا هى أموالنا فدخلت من ذلك الحين الوساوس والأراجيف فى قلوب أحبابه ودسوا له السم فى الدسم فقضى عليه فكانت مدّة حكمه أربعاً وعشرين سنة وخلفه بطليموس السادس الملقب بمحب أمه على سبيل التهكم.

(فى الملك بطليموس السادس)

(الملقب)

(بمحب أمه)

ثم قام بالأمر بعده بطليموس السادس أكبر بنى بطليموس الماجد بويع له بالملك

سنة إحدى وثمانين ومائة قبل الميلاد أى نحو سنة ثلاث وثمانمائة قبل الهجرة ولقب فيلوماطور ومعناه محب أمه تهكما وسخرية لأنه كان يبغضها بغضاً شديداً تولى الملك قاصرا، وكانت مدّة قصوره أقل اضطراباً من مدّة قصور أبيه لأن أمه كليوباترا كانت قد أصلحت حال المملكة ورتبت أمورها ووطدت أركانها بعناية وحزم، ولما مات أبوه واتصل الخبر بذلك إلى سيليقوس الرابع صاحب الشام تاقت نفسه إلى الاستيلاء على ولايات مصر إلى سواحل الشام ولم يراع حرمة أخته كليوباترا ولا طفولية ولدها بطليموس فجهز العساكر وجند الجنود وعزم على الزحف أولاً على وادى دمشق ثم على السواحل فبينما هو على أهبة القيام للقتال إذ اخترمته المنون وحالت بينه وبين ما كان ينويه. وقام بالأمر بعده انطيوكوس فلم يلبث أن سار على خطة سيليقوس فجيش الجيوش وجند الأجناد وعزم على تتميم هذه الغزوة فلما أحست كليوباترا بما نواه انطيوكوس راسلت جمهورية الرومان وطلبت منها حماية مملكة مصر وأن تكون تحت عنايتها وأن يكون ولدها بطليموس تحت كفالتها فبعثت الجمهورية المذكورة أميراً اسمه إيميليوس لايدوس وجعلته كفيلاً على بطليموس الملك وهو من طائفة الكهنة.

ولم تعش كليوباترا بعد حضور ايميليوس إلا قليلاً وماتت فقام عند ذلك أهالى الإسكندرية على ايميليوس المذكور وخلعوه وولوا الكفالة اثنين من المصريين هما أوليوس الطواشى ولونيوس أحد أعيان الدولة، وكان قد استولى ملك الشام فى هذا الحين على سواحل دمشق التابعة لمصر فراسله الوصيان وطلبا منه رد ما أخذه من البلاد بالتى هى أحسن فاحتج عليهما وطلب كفالة ابن عمته بماله من الأولوية من الأجانب فحدث أن اشتغل الوصيان المذكوران بأمور أخرى عن فض الخلاف الواقع بين مصر والشام فاستفحل أمره بينهما واشتدّ بينهم الأخذ والرد وقامت الحرب على ساقها، ولما كان الرومانيون إذ ذاك مشغولين بالحرب مع برشاوش ملك مقدونية تعذر عليهم إعانة ملك مصر على صاحب الشام فتغلب صاحب الشام على ولاية دمشق ويهوذا وسواحل الشام إلى حدود مصر واستولى على قبرس بخيانة القائم بحراستها فتقوى وتشددت عزائمه ورغب فى الإغارة على مصر فقام ملك مصر بعساكره ونزل عند الفرما وقاتل صاحب الشام قتالاً شديداً فانهزم عسكر مصر فى هذه الواقعة شر هزيمة ودخل انطيونوس صاحب الشام إلى مصر مؤيداً منصوراً وأحسن معاملة بطليموس ملكها. وقيل إنه اعتذر إليه عما كان من قتاله إياه فلما رأى أهل ديوان الإسكندرية وجندها ما حل بملكهم وقومه من أسر انطيونوس صاحب الشام إياه

قاموا وبايعوا أخاه ولقبوه باويرجيطه الثانى ومعناه الرحيم وتأهبوا للقتال وأكثروا من جمع السلاح ومعدات الحرب وكان اويرجيطه هذا صبيًا قاصرًا فأحس أنطيونوس بذلك وسار بجيشه إلى الأسكندرية لقتال من بها من الأحزاب فتجهزوا للدفاع وشمروا عن ساعد الجد وبعث أويرجيطه الملك وأخته كليوباترا سفراء إلى الرومانيين يستنجدون بهم فوصل صاحب الشام إلى الإسكندرية وحاصرها وضيق عليها وأطال مدة حصارها فكان من يهود الشام أن أشاعوا موته تحت أسوار الإسكندرية فقامت بسبب هذه الإشاعة الفتنة فى داخل البلاد واشتدت وعظمت ووصل خبرها إلى أنطونيوس وهو تحت أسوار الإسكندرية فعزم على العود وترك الحصار فقام عند ذلك بطليموس السادس الذى كان فى أسر أنطونيوس وسار إلى مدينة منف رجاء أن اختلافه مع أخيه بطليموس أويرجيطه يكون داعياً لاستيلائه على تخت السلطنة ثانية، وكان أنطونيوس قد تخلى عن المحافظة على مدينة الفرما ولم ينجح فى إثارة الفتنة بين الأخوين وقد تعمدها وسار إلى بيت المقدس فاستولى عليه وسلب ونهب وأراق الدماء وفى أثناء محاربته مع يهود الشام والانتقام منهم جزاء ما أشاعوه من خبر موته تحت أسوار الإسكندرية اصطلح بطليموس السادس محب أمه مع أخيه اويرجيطه بوساطة أختهما كليوباترا وعقدا الخناصر على دفع العدو عن بلادهما ما استطاعا إذا عاد إلى شن الغارة عليها وطلبا من الرومانيين أن يبعثوا إليهما يومئذ مختارا لإصلاح ذات البين بين مصر والشام ثم بعثا بقواد الجنود المصرية لقتال سفن أنطونيوس على سواحل قبرس إلى أن يأتى الوفد الرومانى.

وفى فصل الربيع من سنة ثلاث وسبعين ومائة قبل الميلاد أى سنة خمس وتسعين وسبعمائة قبل الهجرة أتت جيوش صاحب الشام إلى حدود مصر وهجمت على البلاد واستولت على جميع ما كان فى طريقهم منها لحد مدينة منف ونصبوا معسكرهم على مقربة من الإسكندرية، وكان قد حضر فى هذه الأثناء سفير من قبل الرومانيين اسمه بوبليون ليناس فأوقف عسكر صاحب الشام عند الإسكندرية وعمل على إخراجهم من جميع أرض مصر فخرجوا منها على أحسن وجه ولكن لم تتحصل مع ذلك البلاد على ما كانت تتوق إليه من الراحة بعد خروجهم إذ وقع بين بطليموس وأخيه أويرجيطه من الوحشة والخصومة ما ترتب عليه غاية الفشل وتولدت عنه الحروب الداخلية التى لم يصل أصحاب التاريخ إلى معرفة تفاصيلها غاية ما قالوه عنها أنها كانت سببا فى ذهاب أويرجيطه إلى رومة مستغيثا بجمهوريتها فأرسلت معه سفارة وطلبت السفارة المذكورة من بطليموس أن يتنازل لأخيه

أويرجيطه عن مملكة القيروان وبرقة فلم يقنع اويرجيطه بذلك وطلب من مجلس رومة أن يضم إليه أيضاً قسما آخر من الأيالات التابعة لمملكة مصر فقبل منه ذلك وأضاف إليه جزيرة قبرس أيضاً فأبى بطليموس أن يعطى جزيرة قبرس فأغضب امتناعه الرومانيين إذ كانت لهم فى ذلك الحين الكلمة النافذة فى جميع الدول المشرقية، وكان لا يتأتى لأحد من ملوك زمانهم أن يعارض لهم فى كلمة أويزيف لهم رأياً فرسم مجلس رومة لسائر الممالك اليونانية وممالك آسية التى كانت يومئذ معاهدة لرومة أن يمدوا اويرجيطه بجميع الإمدادات التى يحتاجها وأن ينصروه على أخيه بطليموس ما استطاعوا فاستعان اويرجيطه بهم وجهز عسكرا لقتال أخيه وهاجمه بجيش ضخم وقاتله قتالاً عنيفاً انكشف عن هزيمة اويرجيطه ووقوعه فى يد أخيه بطليموس فعامله بطليموس خير معاملة وصفح عنه الصفح الجميل واشترط عليه أن لا يتطلع لمملكة قيروان وبرقة وبعض المدائن من جزيرة قبرس وأحكم بينه عرا المحبة والاتحاد بوعده له بزواج ابنته كعادة البطالسة فى ذلك الحين اقتداء بملوك فارس فزالت من بينهما الشحناء واستتبت الراحة فى داخلية البلاد وبقيت آمنة مطمئنة حيناً من الدهر.

وكان فى جزيرة قبرس من قبل ملك مصر عامل اسمه أرخياس فراسله صاحب الشام ومناه بالأمانى الطويلة إذ سلم إليه قبرس فأحس بطليموس بذلك وهاج المصريون وماجوا وكادت نار الحرب تضطرم بين مصر والشام وانكشفت خيانة أرخياس المذكور وخاب سعيه واتضح أمره فقتل نفسه وداخل صاحب مصر الحقد على ديمتريوس صاحب الشام بسبب إغوائه أرخياس وعقد النية على الانتقام منه، وكان لبطليموس الملك صهر اسمه إسكندر فدبر له أن يدعى أنه ابن أنطونيوس صاحب الشام فادعى ذلك وطلب الجلوس على تخت مملكة أبيه فأجلسه على تخت سلطنتها وخلع ديمتريوس سوطير ملكها وسيره إلى حرب ديمتريوس وأمده بالعساكر والجنود وقواه بمعدات القتال وآلات الحرب، وما زال حتى ظفر بالملك وقبض على زمام الأحكام فلما استتب له الأمر طلب من بطليموس ملك مصر أن يزوجه كليوباترا ابنته فزوجها له وجهزها وسار بها إلى الشام وعمل لها هناك الأفراح والولائم العظيمة ولم يمض على الإسكندر المذكور فى منصبه سوى ست سنوات حتى نهض ديمتريوس سوطير يطالب بتاج أبيه وانحاز إلى بطليموس صاحب مصر واستعانه فأعانه وجيش له جيشاً عظيماً وسيره إليه من البر والبحر وسار هو معه فساعدته الأقدار وانتصر على صاحب الشام انتصارا عظيماً، وأخذ الشام من

فلسطين إلى عكا وكان كلما ظفر بمدينة أو بلدة رتب فيها المحافظين من الأجناد المصرية وأحكم المحافظة عليها فارتاب من فعله هذا أمنيوس وزير صاحب الشام، وعقد النية على أن يقتله غيلة حرصا على ملك صاحبه إسكندر فأحس بطليموس بذلك واستشعر بما نواه عدوّه فرغب إلى إسكندر فى معاقبة وزيره أمنيوس فلم يقبل فاتخذ بطليموس إباءه ذريعة للحرب وركب على الإسكندر وقاتله وتغلب على مدن سواحل الشام إلى أنطاكية وفرق بينه وبين ابنته كليوباترا وساعد ديمتريوس بن سوطير على استرجاع مملكة أبيه وأعادها إليه ثم زوجه ابنته كليوباترا فاتحدت بهذه المصاهرة مصر والشام وصارتا قوة واحدة.

وقام بطليموس صاحب مصر على أنطاكية فاستقبله أهلها وألبسوه تاجين أحدهما تاج مصر والثانى تاج الشام فأبى أن يلبس تاج الديار الشامية بل آثر به ديمتريوس صاحبها وكان يومئذ شاباً فألبسوه إياه فكان ما فعله بطليموس مع ديمتريوس ما فعله قبله انطيوكوس فى مدينة منف مع ملك مصر سواء بسواء حيث كان صاحب الشام أعطى مملكة مصر لأورجيطه وهذا من الاتفاقات الغريبة.

أما إسكندر فإنه سار بمن بقى معه من قومه إلى بلاد اليونان وكأنه قد تقوى قليلاً فعاد لقتال أعدائه فانهزم إسكندر ثانياً وهرب عند شيخ حى من أحياء العرب والتجأ إليه فخانه ذلك الشيخ وقتله وذلك سنة ست ومائة قبل الميلاد أى سنة ثمان وستين وسبعمائة قبل الهجرة وبعث برأسه إلى بطليموس صاحب مصر فلم يصل إليه إلا وكان قد مات هو أيضاً حيث سقط عن ظهر جواده عقب انتصاره فاندق عنقه فكانت مدة ملكه خمساً وثلاثين سنة قضاها بين حروب وغزوات وفى أيامه هرب أونياس الإسرائيلى إلى مدينة الإسكندرية وتقدم إلى بطليموس فى بناء هيكل لليهود على آثار معبد فى مدينة تل بسطه لإشهار شعائر اليهود فى مصر مثال هيكل بيت المقدس فأذن له بذلك.

ولما مات بطليموس المذكور خلفه ابنه بطليموس السابع الملقب بأوباطور ومعناه الماجد الأب.

(فى الملك بطليموس السابع)
(الملقب)
(بأوباطور)

ثم قام بالأمر بعده ابنه بطليموس السابع الملقب بأوباطور أى الماجد الأب بويع بالملك بعد موت أبيه سنة ست وأربعين ومائة قبل الميلاد أى سنة ثمان وستين

وسبعمائة قبل الهجرة، وكانت أيام حكمه قصيرة جداً حتى أنه لم يذكره بعض المؤرخين فى عداد البطالسة الذين ملكوا مصر وإنما نص بعضهم على أنه كان من البطالسة ثم ظهر للمتأخرين منهم استكشاف وثيقة معاهدة يونانية مكتوبة من ديوان مصر يعلم منها أنه ابن بطليموس محب أمه وأنه تملك على مصر ولقب بالماجد الأب وأنه تولى قاصرا وكفلته أمه كليوباترا وحكمت البلاد بالنيابة عنه مدّة يسيرة جداً لا تعد مدّة مستقلة بل متحدة داخلة فى مدّة أخيه بطليموس الثامن الملقب اويرجيطه الثانى يعنى الرحيم.

(فى الملك بطليموس الثامن)

(الملقب)

(اويرجيطه الثانى)

ثم قام بالأمر بعده أخوه بطليموس الثامن ولقب بأويرجيطه الثانى ومعناها الرحيم وبيان ذلك أن بطليموس هذا كان فى أيام أخيه بطليموس الماجد الأب ملكا على القيروان فبلغه خبر موت أخيه المذكور قبل حصوله، وكان شديد الرغبة فى العود إلى مصر وارتقاء سرير ملكها فصدق الإشاعة وعقد النية على الرحيل إلى مصر والقبض على زمام ملكها فجهز لذلك جندا كثيراً وهمّ بالمسير فوردت إليه الأخبار بصحة موت أخيه وقد مات حقيقة فى أثناء هذه المدّة عن زوجته كليوباترا التى هى أخته وعن ولدها القاصر منه المسمى بطليموس الماجد الأب فبادرت كليوباترا بالمبايعة لابنها المذكور ونادت بجلوسه على كرسى مملكة أبيه فلما قدم بطليموس الثامن إلى مصر ووجد أخاه قد مات كما وردت إليه الأخبار وأن ابن أخيه قد تولى ملك مصر لم يظهر ميلاً إلى الرئاسة ولم يتطلب الملك بنفسه بل طلب الوصاية على ابن أخيه فأبت كليوباترا أن تمكنه منها فلم يطق ذلك وهجم بعسكره على مدينة الإسكندرية وفتحها عنوة وتزوّج كليوباترا التى هى أخته قهرا عنها وذبح فى يوم عقده عليها ولدها بطليموس على حجرها بيده وأمر بقتل أحزاب ابن أخيه عن آخرهم ثم تزوج على أخته كليوباترا المذكورة بنتها من أخيه وبقى مع الزوجين الأم وابنتها وأبقى لكلتيهما عنوان ملكة مصر فأوجبت هذه الفعال الشنيعة فضلاً عن ظلمه وعسفه وجبروته نفور جميع الرعية منه وبغضهم إياه فخشى عاقبة ذلك واتخذ له جندا أجنبياً لحمايته ورتب لهم الجماكى والمرتبات وولاهم المحافظة على مملكته فاشتدت بذلك كراهية الرعية له ونفورهم منه وكان كثير الانهماك فى اللذات

والشهوات منعكفا على المعاصى فقبحت فى أعين الرعية صورته وكرهوا منظره وكان ضخم البطن قصير القامة لا يكاد يقدر على المشى لهذه العلة فلقبه لذلك أهل الإسكندرية بالبطين.

وطال حكمه وتعست أيامه وأكثر من الجور والظلم، ولم يكن لطول ملكه من سبب سوى أن وزيره هوهياراش كان حازماً محبوباً مهيباً عند الرعية نافذ الكلمة فيهم حسن التدبير والسياسة فكانت مدّة وزارته مانعة لعطب المملكة حافظة لها من الاختلال واقية لها من الزوال ومع ذلك فإنه لما اشتدت على الرعية وطأة الظلم والاستعباد قاموا فى سنة ثلاثين ومائة قبل الميلاد أى سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة قبل الهجرة وأثاروا الفتنة وخرجوا عليه وحرقوا قصره فهرب وسار إلى جزيرة قبرس وأخذ معه كليوباترا الصغيرة، وكان الذى أعان على إثارة هذه الفتنة واضطرام نارها كليوباترا الكبيرة فقد استدل على صحة ذلك أصحاب التاريخ بأنه لما كسر الأهالى تماثيل الملك زوجها إيذاناً بعزله وتنزيله عن منصب الملك سلموها زمام الحكومة وولوها أمور المملكة فلم تتأخر وارتقت سرير الملك آمنة وأخذت فى تدبير الأمور فرحة جزلة.

ولما بلغ اويرجيطه الملك ما فعلته كليوباترا زوجته كاد يتميز من الغيظ وخشى أن تبايع ولدها منه على ملك البلاد فأرسل من قبرس من يأخذه منها فبعثت به إليه. فلما وصل قام عليه وذبحه ووضع أجزاءه فى زنبيل وبعث به إلى أمه بالإسكندرية وبينما هى تحتفل بوليمة لمولدها إذ جاءوا إليها بجثة ولدها مذبوحاً ممزقا فكادت تموت حزنا وتجهزت لحرب اويرجيطه زوجها وتجهز هو أيضاً لقتالها وأكثر كل فريق منهما من الجند ومعدات الحرب وسلم اويرجيطه قيادة جيشه إلى هجالوخس القائد وسلمت كليوباترا كذلك قيادة جيوشها إلى مرسياس والتقى الجمعان فى ميدان مصر واقتتلا قتالا عنيفاً فانهزم جيش كليوباترا ووقع قائده مرسياس أسيرا فى يد خصمه فبعث به إلى اويرجيطه الملك فى جزيرة قبرس فأحسن اويرجيطه معاملته وصفح عنه ليستميل بذلك إليه قلوب المصريين وتحزبت كليوباترا بعد هزيمة جيوشها فى مدينة الإسكندرية وخلعت تاج الملك على صهرها ديمتريوس نيقاطور ملك الشام. وسارت هى إلى الشام هاربة فجاء ديمتريوس إلى الإسكندرية سريعاً وحاصر الفرما وضيق عليها حتى صارت على وشك التسليم فقامت بالشام فتنة فخاف ديمتريوس استفحالها فسلم الإسكندرية صلحا لاويرجيطه فركب اويرجيطه سرير سلفه ثانية وعقد النية على الانتقام من ديمتريوس جزاء ما فعل فأغرى رجلا اسمه سيداطس

على أن يدعى أنه ابن انطيوكوس ملك الشام، وأن له حق التملك عليها فقام وادعى ذلك ولقب نفسه بإسكندر رزابيناس فبايعه خلق كثير ثم قام لقتال ديمتريوس فانهزم ديمتريوس وهرب إلى صور فقتلته زوجته فيها فانتقل إليها ملك الشام، وكانت تعلم ما بين رزابيناس واويرجيطه من البغض والشحناء فتقربت من اويرجيطه صاحب مصر واستمرت على الحرب مع رزابيناس فانتصرت عليه بعناية اويرجيطه ومعاهدتها له وتزويج بنته طروفانه لابنها انطيوكوس اغروبوس ومن هذا الحين سكنت الفتن والقلاقل واطمأن اويرجيطه الملك واشتغل بزيادة كتب خزانة الإسكندرية على نحو ما فعله أسلافه من ملوك البطالسة زيادة كثيرة، وكان له مشاركة فى العلوم الحكمية والفنون الأدبية إذ كان قد تلقاها عن المعلم ارستارخس الشهير بالمعارف الأدبية فانكب عليها وألف بعض الكتب والرسائل المفيدة فى تلك العلوم.

وفى أيامه سارت الرحلة العلمية لاستكشاف بحر الهند، وكانت هذه أول رحلة ألفت من المصريين وسافرت لاستطلاع أحوال البحر المحيط الهندى تحت رئاسة القائد هودشيش القوزيقى وكان هذا القائد شجاعاً قادراً على الأسفار جسورا على اقتحام البحار يحسن الأرصاد الفلكية ويتبين مواقع تخطيط الأرض فطاف حول إفريقية وتمم بالأرصاد معرفة ما فى البحر الهندى من الجزائر والبلدان فى أيام بطليموس اويرجيطة المذكور ثم مات ايورجيطه فى سنة سبع عشرة ومائة قبل الميلاد أى سنة تسع وثلاثين وسبعمائة قبل الهجرة فكانت مدة ملكه تسعاً وعشرين سنة وخلفه بطليموس التاسع الملقب بسوطير الثالث.

(فى الملك بطليموس التاسع)
(الملقب)
(سوطير الثالث)

ثم قام بالأمر بعده الملك بطليموس التاسع الملقب بسوطير بويع بالملك سنة سبع عشرة ومائة قبل الميلاد أى سنة تسع وثلاثين وسبعمائة قبل الهجرة ولقب بسوطير الثالث ومعناه المخلص ولقب أيضاً بوطونوس يعنى المحبوب ولاطوروس يعنى الأرقط لأنه كان له علامة فى وجهه وهو أكبر ولدى بطليموس البطين من كليوباترا الصغيرة، وكانت أمه تبغضه وتحب أخاه الصغير المسمى إسكندر وتؤثره عليه، وكانت متسلطة على قلب زوجها بطليموس البطين فحملته على أن يبعث بولدها الأكبر المذكور إلى جزيرة قبرس ليكون حاكماً عليها وقصدت بتغريبه وإبعاده حرمانه

من ولاية العهد وانتقال حق الملك لولدها إسكندر غير أنه قد خاب منها الظن وأخطأها الأمل فإنه لما مات بطليموس زوجها قام أهل الدولة ورجالها وألزموها بأن تستدعى ولدها لتخت أبيه فلم تر بدًا من استحضاره وألبسته تاج الملك واشترطت طلاق زوجته كليوباترا أخته وأن يتزوّج إحدى أخواته المسماة سيلانه لطاعتها لأمها وعدم عقوقها فطلق كليوباترا وتركها فى جزيرة قبرس فلم يهدأ لها حال وصارت تتداخل فى أمور دولة الشام ومصالحها فقتلت بأمر أختها طروفانة صاحبة الشام وتخلص بطليموس منها وتزوّج بأخته سيلانة وصار فى جميع أموره خاضعاً لأمه ولم يخالفها فى شىء ولكنها كانت مع ذلك حاقدة عليه مضمرة له العداوة مريدة له التلف فلما ماتت بنتها كليوباترا صاحبة قبرس ولت بدلها ابنها الصغير إسكندر ملكا لترشحه للجلوس على مملكة مصر، وكانت دائماً على نية خلع ولدها بطليموس وتنزيله ولا تنكف عن العمل على ذلك وبقى بطليموس المذكور وأمه زمنا طويلاً على إدمان العداوة والإصرار على الدسائس الخفية وكل منهما يكل أمره إلى حزب من أهل الشام يعضد أغراضه ثم كان من أم الملك المذكورة أن اتهمت ابنها بطليموس بأنه هم بقتلها بالسم وحزبت عليه جميع الإسكندرية ليفتكوا به ففر بطليموس إلى قبرس فاستقدمت ابنها إسكندر إلى مصر وبايعته فبايعه المصريون كافة وجعلوه ملكا على مصر كما سيذكر فى محله ولم تقف كليوباترا عند هذا الحد مع ولدها بطليموس بل جيشت لقتاله جيشاً كبيراً وسيرت به ليخرجه من جزيرة قبرس ويجليه عنها فخرج بطليموس إلى سواحل الشام ومعه ثلاثون ألف مقاتل وهجم بهم على سواحل الأردن وهزم اليهود الذين كانوا على خلاف مع انطيوكوس القوزيقى ملك الشام واستولى أيضاً على عكا، وكانت يومئذ تابعة لمصر فلما علمت كليوباترا أمه بخبر هذه الغزوة ونصرات بطليموس المتابعة جهزت جيشاً ثانياً عظيماً وسيرته برا وبحر إلى الشام وقاتلته على عكا فأخذتها منه وسار عسكرها لأخذ مدينة قيصر فلم يقدر واستمرت الحرب سجالا إلى أن اصطلح الفريقان وانكفا عن القتال وقد طالت أيام هذه الحرب إلى حدّ قامت معه الفتن فى داخل البلاد المصرية وكثرت فيها الدسائس وكاد يعمها الخلل وتنتشر فيها القلاقل والاضطرابات وكثرت الأحزاب فوجهت كليوباترا عنايتها إلى حسمها بالتى هى أحسن فلم تفلح ورأت أن ولدها إسكندر الذى ولته ملك مصر ولقبته ببطليموس قد خرج عن طاعتها أيضاً فحقدت عليه وأضمرت له السوء وقصدت قتله والخلاص منه وأخذت تتربص به السوء فأحس بذلك وخاف سوء العاقبة فتدارك الأمر وأسرع هو بقتلها واستبدّ بحكم البلاد بلا منازع.

ولما خلا له الجوّ وبات مطلق اليدين طغى وتجبر وظهر ظلمه وعسفه وقيل إنه نبش قبر الإسكندر الأكبر وسلب تابوته المصوغ من الذهب واستبدله بتابوت من البلور فلم تطل مدّته بعد ذلك إذ غضبت عليه الرعية وأبغضه العساكر وشدّدوا عليه الوطأة ففرّ هارباً إلى خارج مصر فقرر ديوان الإسكندرية حضور أخيه بطليموس سوطير ثانياً فاستقدموه من قبرس فقدم ففرح الناس بمقدمه. وقد شوهد فيه من حميد الطباع وحُسن الأخلاق ما حبب الناس فيه واستمالهم إليه. وكان الإسكندر بعد أن خرج من مصر سار إلى بلاد برقة فاستولى عليها وقصد الاستيلاء على مدينة قبرس فلم يقدر ووقعت بينه وبين الجند المرابطين فيها حروب بحرية هائلة مات فيها وامحى ذكره وذلك سنة تسع وثمانين قبل الميلاد أى سنة إحدى عشرة وسبعمائة قبل الهجرة ولما استقر المنصب ببطليموس سوطير المذكور دانت له البلاد إلا مدينة طيبة أم الصعيد فإنها لم تبايعه ثانية وامتنع أهلها عليه وشقوا عصا الطاعة فسار إليها فى جنده وقاتل أهلها وهزمهم واستولى على المدينة وقتل وسبى ونهب وسفك الدماء حتى أباد أهلها أو كاد ومحا آثارها وكانت من أعظم مدن مصر وأكثرها عمارة فأصبحت بعد ذلك وكأن لم تغن بالأمس.

وعادت مصر فى أيام بطليموس سوطير هذا إلى شأنها الأوّل كما كانت وصار لها اليد العليا والكلمة النافذة على ممالك بلاد المشرق إذ أعاد لها شوكتها البحرية بتعمير السفن الحربية والتجارية والإقبال على فن الملاحة فرغبت الدول فى معاهدتها وطلب سطريداطس ملك قابودوقياوار منستان عقد عهود المودة والولاء معها وكذلك الرومانيون فدل هذا كله على ما نالته من الشهرة والرفعة فى ذلك الحين وما وصلت إليه من عزة الجانب.

وكان بين ملك قابودوقيا وجمهورية الرومانيين شقاق وخلاف فكان كل منهما يرغب فى معاهدة مصر رجاء الفوز على عدوّه ومع إلحاحهما بطلب معاهدتها فإن بطليموس لم يرض أن يتعاهد مع الفريقين وعقد النية على أن لا يتظاهر بالمداخلة فى حروب الدولتين لأنه كان يخشى اتساع نطاق صولة الرومانيين وقوّة دولتهم لاسيما وقد كانت آخذة فى النماء والزيادة شيئاً فشيئاً فكان لذلك يعاون ملك قابودوقيا على عدوّه سرا.

ومات بطليموس حتف أنفه وترك مملكة مصر فى عز ورفعة عظيمتين جدًا وكان موته سنة خمس وثمانين قبل الميلاد أى نحو سنة سبع وسبعمائة قبل الهجرة فكانت مدّة ملكه وحده ومع أمه كليوباترا ستا وثلاثين سنة فخلفته ابنته كليوباترا برنيقه على

سرير الملك ولكنها لم تحكم إلا ستة أشهر فتولى الملك بعدها بطليموس العاشر وبطليموس الحادى عشر.

(فى الملك بطليموس العاشر
وبطليموس الحادى عشر)
وهما إسكندر الثانى وأوليطيس

توليا الملك بعد برنيقة التى لم تحكم إلا ستة أشهر لا غير سنة خمس وثمانين قبل الميلاد أى سنة سبع وسبعمائة قبل الهجرة، وكان يعبر عن الأوّل منهما بإسكندر الثانى وعن الثانى بعنوان أوليطيس ومعناه الزامر وتحرير خبر توليتهما أنه لما مات بطليموس التاسع كان الرئيس على جمهورية الرومانيين أميرا اسمه (سولا) وكان لإسكندر الأول البطليموسى ابن يسمى إسكندر الثانى وكان مقيماً فى ديوان متريداطس نزيلا فلما جاء الأمير (سولا) المذكور إلى قابودوقيا قائدًا لعسكر الرومانيين الذين أتوا لقتال ملكها متريداطس وتنزيله عن سرير الملك مال إسكندر المذكور إلى الأمير (سولا) وانضم إليه عسى أن يكون له عونا يوماً مّا على ارتقاء كرسى مملكة مصر فسار إلى (سولا) فأكرم (سولا) نزله وأخذه معه إلى رومة بعد انقضاءحرب قابودوقيا فلما شاع الخبر بموت سوطير الثانى أخى الإسكندر المذكور وهو بطليموس التاسع ملك مصر أرسل (سولا) رئيس جمهورية الرومانيين إسكندر المذكور لتولى ملك مصر بدل أخيه فلما وصل إسكندر خشى الفتنة فعمد إلى حسم أسبابها ومنع كل خلاف بينه وبين الملكة كليوباترا برنيقة فتزوج بها وشاركها فى الملك ولم يلبث معها إلا ستة أشهر حتى قام عليها وقتلها واستبدّ بالملك ولقب نفسه ببطليموس العاشر.

ولما رأى كبار العساكر المصرية أن بطليموس المذكور معوّل على دولة اليونان ومعتمد عليها. وقد كان المصريون يعتبرونها أجنبية عنهم ولا حق لها فى التداخل فى مصالح بلادهم عقدوا النية على قتله والتخلص منه ودبروا الأمر وأحسنوا تدبيره فقتلوه ذبحاً فى ملعب بمدينة الإسكندرية بعد تسعة عشر يوماً من استقلاله بالملك.

ولم يكن إذ ذاك للبطالسة اللاغوسية أولاد ذكور من نكاح صحيح وإنما كان لسوطير الثانى ولد من السفاح اسمه بطليموس أوليطيس يعنى الزامر لولوعه بسماع المزمار فولاه المصريون ملكاً عليهم ولقبوه ببطليموس الحادى عشر وتولى الملك وهو موسوم بأمرين يعدّان من أقبح الصفات (كما قال بعض الكتاب) وأكبرهما عند

المصريين أولهما كونه من السفاح وثانيهما ارتقاؤه المنصب الملوكى رغماً عن رغبة الجمهورية الرومانية بدل الذى كانت الجمهورية انتخبته وانتظم فى عداد معاهديها وكان يتوقع من الجمهورية المذكورة أن لا تعترف بملوكية بطليموس المذكور فلم تلبث أن أعلنت بعدم اعتبارها لولايته وأن سرير ملك مصر لم يزل خالياً من الذات الملوكية التى تستحق التولية المعتبرة وأن المنصب الملوكى قد خلا عن وارث له من السلسلة الملوكية فوجب لذلك أن يكون تحت كفالة جمهورية رومة بمقتضى وصية إسكندر الثانى ملكها. قالت وسواء كانت هذه الوصية صحيحة أو ادعائية فهى على كلتا الحالتين واجبة التنفيذ طوعا أو كرها.

وكان فى هذا الحين بأرض الشام من ذرية بطالسة مصر بعض بنات قد خلفن ذكورا وإناثاً من ملوك الشام فكن يطالبن أيضاً بحقوقهن فى المنصب ويرغبن فى تقديم أولادهن على بطليموس الزامر فأكثرن من الشكوى مما فعله المصريون، وكان ممن يطالب أيضاً بمثل هذا أخت بطليموس سوطير المسماة سيلانة التى كانت زوجة بطليموس القوزيقى صاحب الشام. وكان قد بقى لها من تعلقات ديار مصر بعض مدن على سواحل الشام كمدينة عكا وكان لها ولدان من ملك الشام المذكور أحدهما يسمى أنطيوكوس، والثانى يسمى سيليقوس فبعثت إلى إيطاليا ابنيها لتطلب من جمهورية رومة أن تسعى فى ارتقائهما المنصب الملوكى بدعوى أن المملكة المصرية قد انتقلت إليهما بطريق الميراث من جهة أمهما فأحس بطليموس الزامر بذلك وبعث إلى رومية من قبله سرا عدّة سفراء ليعارضوا فى مطالب الملكة سيلانة ويمنعوا أنطيوكوس وسيليقوس من دعوى ذلك لأنهما من أمراء الشام لا من أمراء مصر وليستميلوا بالرشا والبراطيل بعض أمراء الجمهورية الرومانية ليكونوا له عونا على تنفيذ أغراضه فترتب على ذلك أن وقعت المذكرات والمداولات فى مجلس رومة وتكرّرت بشأن ما يجب فعله فى مملكة مصر. وفيما إذا كان يصح أن ترسل الجمهورية إليها جنودا رومانية ليقيموا فيها إقامة مؤقتة لمنع الاختلال وحفظ قوام المملكة وتثبيت أقدام بطليموس الزامر وكان الحامل على هذه المذاكرات وتوالى الاجتماعات هو ما كان سفراء بطليموس المذكور يدفعونه من الرشوة والهدايا النفيسة فلم تنحل هذه العقدة لهذا السبب ولسبب آخر وهو اشتغال الدولة الرومانية بالحرب التى كانت قائمة بينها وبين متريداطس ملك قبادوقيا فكانت هذه الحرب عائقة عن التفاتها لأمور المملكة المصرية وتنجيز أغراضها فيها وما زال الحال بين أخذ وردّ والسفراء تغدو وتروح بين رومة ومصر حتى تمت هزيمة ملك قبادوقيا وفرغ

الرومانيون من قتاله فصرفوا الهمة لمصلحة مصر ووجهوا نحوها سهام أغراضهم وطلب اقراسوس ويولوس قيصر رئيسا رومة يومئذ من مجلس الجمهورية أن يبعثهما من قبله إلى ديار مصر لإجراء ما تقتضيه مصلحتها فلم يقبل المجلس ذلك وفى سنة أربع وستين قبل الميلاد أى سنة ٦٨٦ قبل الهجرة طلب المستشار (دولوس) من المجلس المذكور أن تضاف مملكة مصر للمملكة الرومانية. وتكون إيالة ملحقة بإيالة رومة، وكان فى المجلس وقتئذ (قيقرون) الخطيب الذى يقال له أيضاً (شيشرون) وهوخطيب مصقع مشهور بالفصاحة وحسن الخطابة فقام وخطب وأكثر من البراهين القاطعة على عدم موافقة إضافتها لما فى ذلك من مخالفة أحوال الملل والدول واحتج على وجوب استقلاليتها وأن تكون قائمة بنفسها مستبدة بأحكامها كما يقتضيه موقعها الجغرافى فحكم المجلس بناء على ذلك بتخليص مصر من ورطة التبعية لرومة وقضى بإبقاء استقلالها بنفسها على حاله وعدم التعرض لها بشىء ألبتة.

وبينما كانت الجمهورية المذكورة تتوعد مصر بإدخالها فى عداد إيالاتها وتهدّدها بتبعيتها لها كان من بطليموس ملك مصر أن صرف وجهه عن موالاة الجمهورية المذكورة ومصادقتها فى الباطن ولبث يراقب الحوادث فلما قامت الحرب بين متريداطس وبينها كما تقدم القول عمد بطليموس إلى ملازمة الحيادة وعدم التعرض للفريقين ولم يمدّ يد المساعدة للرومانيين بشىء ما ألبتة. ولم يساعد دمتريداطس أيضاً مساعدة ظاهرة ولكنه كان يكاتبه سراً ويطلعه على بعض الأمور فلما عاد جيش الرومانيين من هذه الحرب وكان الرئيس على الرومانيين يومئذ الأمير بومبيوس وكان قد نزل بالشام فبلغه فى طريقه موت متريداطس عدوّ الرومانيين فعرّج على حدود الديار المصرية فعلم بطليموس ملكها بوصوله وتخوّف منه فأرسل إليه هدايا فاخرة وواساه كل المواساة ورغب إليه أن يعينه على رعيته، وكانوا قد قاموا عليه فى هذا الحين وأضرموا نار الفتنة فى جوف البلاد فلم يقبل بومبيوس دخوله مصر وامتنع من إغاثة بطليموس فألح عليه وطلب منه العون والمحاماة فعاد لإجابة طلبه وأسكن تلك الفتنة فلما سار بومبيوس لحصار بيت المقدس أعانه بطليموس ملك مصر بالمال وأمده بذخائر الحرب فلما عاد بومبيوس إلى رومة وكان قيصر ملكها لم يزل فى منصبه الملوكى وكان بينه وبين بومبيوس محبة أوصاه على بطليموس ملك مصر واستماله إلى جانبه فجعله القيصر تحت حمايته وطلب من مجلس رومة أن يقره على ملوكية مصر بعد أن كان قد قضى قبل ذلك بنزع الملك من يده وذلك سنة تسع وخمسين قبل الميلاد أى سنة إحدى وثمانين وستمائة قبل الهجرة.

وأنفقت السلالة اللاغوسية الأموال الكثيرة فى الحصول على حماية رومة حيث قرر بعض أرباب المجلس الرومانى بعد ذلك بمدّة يسيرة إجابة لأغراض بعض أعضاء مجلس الأمة نزع ملكية جزيرة قبرس من يد ملكها الذى هو أخو بطليموس الزامر وإضافتها إلى أملاك رومة فأجيب إلى ذلك وابتلعت رومة جزيرة قبرس مضغة لينة فأغضب ذلك ديوان الإسكندرية وأهلها لأنهم كانوا إلى ذلك الحين شديدى الحرص على المحافظة على ناموس وطنهم وصيانة أملاكهم أكثر من تمسك ملوكهم بذلك فطلب أهل الإسكندرية من بطليموس الزامر أن يبذل الجهد فى نقض معاهدة الرومانيين وأن يهبّ إلى نزع قبرس بالقهر والغلبة ويعيد أخاه ملكا عليها كما كان وقد كان بطليموس فى هذا الحين لا يقوى على هذا الفعل ولا تؤمل منه القدرة على حماية البلاد فلم يوافقهم على ذلك فقاموا عليه وأثاروا الفتنة فهرب من مصر خفية إلى رومة يطلب الإعانة والمدد.

وكان الرومانيون قد أقاموا الأمير (قاطون) حاكما على جزيرة قبرس وسار حتى وصل إلى جزيرة رودس فلحق به بطليموس الملك بعد خروجه من مصر ليزوره فلم يحتفل به ولم يكرم وفادته ولامه على تركه مملكته وخروجه منها وأشار عليه أن يركب معه فى سفنه ليوصله إلى مصر ويتوسط له فى الصلح مع الرعية وأكد عليه فى ذلك فأبى بطليموس الرجوع. وقال: إن مدّ يد السؤال على مساعدة رومة لأهون علىّ من عودى إلى مصر وطلب الصلح مع الرعية.

واتفق أنه فى خلال هذه المدة انقطعت أخبار بطليموس الزامر عن مسامع أهل مصر ولم يقفوا له على أثر فظنوا موته وكان له بنتان كبيرتان وهما (قلوبطره طروفانه) و(برنيقة) فاتفق أهل البلاد على توليتهما الملك وبعثوا سفراء إلى الشام يطلبون من أنطيوكوس صاحبها الذى هو خال (كليوباترا)، و(برنيقه) المذكورتين أن يحضر إلى مصر ويشارك برنيقة وأختها فى أحوال المملكة، وكان أنطيوكوس فى هذا الحين قد خلع من ملك الشام وكان الذى خلعه بومبيوس رئيس رومة بعد طرد الرومانيين ملك الأرمن فلما ذهب السفراء لطلبه لم يجدوه على قيد الحياة وفاته المنصب الملوكى كما فات أهل الإسكندرية غرضهم من التعاون به فعرض السفراء هذا المنصب على فيلبس أحد أقاربه للياقته للتملك على البلاد ورد الأجانب عنها فمنعه غابنيوس كبير العسكر الرومانى عن المسير إلى الأسكندرية وحال بينه وبين هذه الأمنية فتكلم السفراء مع الأمير سيليقوس أخى أنطيوكوس صاحب الشام فقبل المنصب وسار إلى مصر فوجد كليوباترا طروفانه إحدى الملكتين قد ماتت بعد أن

حكمت مع أختهـا برنيقه سنة كاملة وبرنيقـه منفردة بحكم البلاد فتزوّجهـا واشترك معـها فى المنصب ولكنه لم يعش مـعها إلا قـليلاً حتى قـتلته خنقـاً وتزوّجت بعده أرخيلاوس كاهن هيكل البستان ببـلاد الأرمن وبقيت معه. ويقال أن أرخيلاوس هذا هو ابن متريداطس الأكبر ملك الأرمن.

أما بطليموس الزامر فكان قد انتقل من جزيرة رودس ووصل إلى رومة وتداخل مع أرباب الحل والعقـد ورجال الجمـهورية ودبر جمـيع ما قدر عليـه من الدسائس والحيل وتوسل إلى الرومـانيين ليرجـعوه إلى منصبه ملـكاً على مصر فأرسلوا مـعه الأمير أنطونيوس الشهير الذى تقلد بعد هذا الحـين قونصلية رومة. وكان وقت بعثته فى هذه السفـارة قد تقلد إمارة قبـادوقيا . وبلاد الأرمن فتـعهد للرومانيـين بإدخال بطليموس إلى مصر وردّ تاج الملك إليه رغم أنف كل مكابر.

واتفق أن حصل فى ذلك الوقت خلاف وشـقاق بين أعضاء جمعـيّة رومة أدى إلى المشاجرة والمهـاترة فتولد من ذلك قيام الـفتنة فى داخل البلاد واستفـحال أمرها فغـضب بومبيوس رئيـسها وخـرج من مدينة رومة فعـاقت هذه الإحن تنجيز سـفر بطليموس الزامر إلى مصر. وقد كان بومبيوس مظاهرا لبطليموس ومناصرا لأغراضه فبقى بطليموس فى رومـة لا يحرك ساكناً أما أهل الإسكندرية فإنه لما اتصل بهم أن بطليمـوس على قيد الحياة وأنه يسـعى سعيه فى رومـة أرسلوا إليها سفـراء لإحباط مسـاعيه والعمل على نـقيض مراده وأجازوا لهم أن يعـدّدوا معايبـه ويترافعوا مـعه بالنيابة عن أهل البلاد فى مجلس فاحتال بطليموس الزامر على قتل أكثرهم واستمال رئيسهم المـسمى (ديون) وباعد بينه وبين مأمـوريته بالرشا والبراطيل فلم يفـعل منها شىء وأبطأت رغـائب بطليـموس من رجـوعـه إلى منصب الملك إلى سنة خـمس وخمسين قبل الميلاد أى سنة سبع وسبعين وستمائة قبل الهجرة حتى تولى بومبيوس الحكم على جمـيع الرومانيـين وتلقب بلقب قونصل عليهـم فلما استـقر به المنصب كتب إلى غابنوس قائد العسكر الرومانى المأمور بغزو بلاد الفرس أن يسير ببطليموس إلى ديار مصر ويعيـد إليه تاج الملك وسير إليه بطليمـوس المذكور بالشام فلما وصل وجد غابنوس على عـزم عبور الفرات ليـعيد متريداطس الثـالث على إحدى ممالك فارس. وقـد كان طرده أخوه منها فـخشى بطليمـوس العاقبة وتقـرب إلى غابنوس بالرشا والبراطيل ووعده بالأموال فلما طن فى أذنيه صوت الدرهم والدينار مال إلى قضاء مـصلحة بطليموس وترك مـأمورية متريداطس فـصارت نسيًا منسـيًا ومع كون قانون الرومـانيين لا يجيـز للولاة الخروج عن إيالاتهم بل يجـيز لهم أن يرسلوا من

يقوم مقامهم فى مثل هذه المهمات فإن غابنوس قام مع بطليموس الزامر إلى مصر وترك لولده تدبير البلاد فى غيبته وأخذ من اليهود المدد فأمدوه بأصناف الإمدادات وسلم قيادة جيشه إلى مرقوس انطنيوس محب بطليموس (الذى سيأتى بيان اشتراكه مع كليوباترا ملكة مصر فى التسلط على المملكة فى محله) فوصل مرقوس المذكور أما مدينة الفرما وقاتلها وتغلب عليها وقيل أنه أخذها بدون قتال بخيانة من بها من اليهود فقدم أرخيلاوس زوج الملكة مسرعا إلى ساحة القتال، وكان شجاعا فى الحروب صنديدا فى الشدائد والخطوب، وهجم على جند غابنوس على مقربة من الفرما فانهزم عسكره ودخلت عساكر الرومانيين أرض مصر من البر ودخلت سفنهم قهرا من البحر ومخرت فى النيل وسارت وهى صاعدة بلا ممانع ومع كراهة أهل الإسكندرية لبطليموس الزامر فى الظاهر والباطن وعدم توقعهم منه إلا السوء فإنهم بمجرد ما رأوه وقد وفد عليهم وصار بين ظهرانيهم ورأوا من أرخيلاوس زوج الملكة تصميماً على دفع جيوش الرومانيين وممانعتهم على قدر الاستطاعة وأنه على عزم أن يجهز مدينة الإسكندرية للمحاصرة والدفاع خشوا العاقبة وكرهوا المدافعة لظنهم أنها لا تأتى بالأثر المطلوب وكثر تحدثهم فى هذا الأمر لا سيما لما رأوا أرخيلاوس المذكور يرسم خطوط الاستحكام ويخطط أخاديد هندسية ويحفر الخنادق للممانعة فأحس أرخيلاوس منهم بذلك ولوى عنان جهده عن هذه الخطة وركن إلى المهاجمة رجاء الظفر والتأييد ولكنه خاب فى عزيمته. وانهزم وقتل فى هزيمته فلما علم أنطونيوس قائد العسكر الرومانى بقتل أرخيلاوس رثى لحاله وتأسف عليه وشيع جنازته بأعظم أبهة واحتفال لأنه كان أضافه قبل ذلك بمصر فأكرم ضيافته واحتفل به غاية الاحتفال فلم ينس له هذا الجميل.

وبموت أرخيلاوس استقرّ الحال لبطليموس الزامر وجلس على سرير الملك ثانياً. وقبض على زمام الحكم بعناية الرومانيين ثم لم يلبث أن سلك فى الانتقام أشنع المسالك وقتل بنته برنيقة وكثيراً من الأغنياء والأعيان وضبط أموالهم وسلمها للرومانيين العاملين معه فعاد غابنوس وقائد عسكره أنطنيوس إلى أوطانهما مثقلين بالذخائر والتحف والأموال الكثيرة وقد ترك غابنوس لبطليموس من يحرسه من أبطال الغالبين الذين هم قدماء الفرنسيس ولم يفعل بطليموس المذكور شيئاً لخير البلاد ولا لفائدتها فى مدة حكمه الأولى والثانية ومات فى عنفوان شبابه سنة ثمان وأربعين قبل الميلاد أى نحو سنة سبعين وستمائة قبل الهجرة فكانت مدة ملكه مع مدة من حكم قبله وبعد حكمه الأول نحو تسع وثلاثين سنة.

وكان قد أرسل قبل موته إلى مدينة رومة سفراء ومعهم وصية لمجلس الرومانيين ليحفظها بومبيوس تحت يده تتضمن وصايته بمملكة مصر لأكبر أولاده وبكر بناته بشرط عقد الزواج بينهما عند بلوغهما سن الزواج وأن يشتركا معا فى الملك شيوعاً، وأن يكون الوصى عليهما الأمة الرومانية، وأن تعاملهما بمنطوق المعاهدة المبرمة بين الجمهورية والدولة المصرية فقام بومبيوس بتنفيذ هذه الوصية وعمل بحكم ما فيها على الوجه الآتى.

(فى الملك بطليموس الثانى عشر)

(الملقب)

(بدنيس يعنى الخمار)

ثم قام بالأمر بعده ابنه بطليموس الثانى عشر الملقب بدنيس ومعناه الخمار كما أوصى أبوه وذلك سنة ثمان وأربعين قبل الميلاد أى سنة سبعين وستمائة قبل الهجرة، ولم يكن عمره يومئذ إلا ثلاث عشرة سنة فكان قاصرا وكان عمر كليوباترا الشهيرة الموصى لها بالملك بالمشاركة مع أخيها سبع عشرة سنة، فكانت متأهلة للسياسة وتدبير الأمور منحصر فيها دون أخيها لعدم أهليته ورشده فأقيم عليه ثلاثة أوصياء من أعيان المملكة المصرية وهم (بوطين الطواشى)، و(طيودوطس) وزير الداخلية و(إخيلاس) رئيس الجند، وكان هؤلاء الثلاثة أعداء كليوباترا يكرهونها ولا يرغبون فى اشتراكها مع أخيها فى الملك ولما صدق مجلس رومة على تنفيذ وصية بطليموس الزامر واستقرّ الملك ببطليموس الثانى عشر وأخته كليوباترا انتظما فى سلك الملوك المعاهدين للرومان، وكانت رياسة الدولة الرومانية فى هذا الحين فى يد أميرين وهما (يولس) قيصر و(بومبيوس) وكانت قد ظهرت بينهما العداوة ووقع الفشل والاختلال فانقسم لذلك الرومانيون إلى حزبين متخاصمين وانفرد كل من الرئيسين بحزبه فكان من وراء ذلك اشتداد الخصام ووقوع القتال بين الفريقين وإراقة الدماء هدرا فعزم بومبيوس عند ذلك على أن يهاجر من رومة إلى بلاد اليونان، وكانت يومئذ معدودة من الإيالات الرومانية وتهيأ للارتحال فأرسل أكبر أولاده مع قائد من حزبه اسمه (قورنليوس سبيوس) إلى مصر ليجمع منها عسكراً يستعين بهم على خصمه قيصر فأمدّته كليوباترا بالزاد والراحلة وأعانته بستين سفينة حربية وبالأبطال الغاليين الذين كان انتقاهم غابنيوس لحراسة الملوك البطالسة عندما أرجع

بطليموس الزامر إلى منصبه، وكان عددهم خمسمائة مقاتل فسار ابن بومبيوس إلى أبيه بهذا المدد ولم يكن على غرض الأوصياء فحقدوا لذلك على كليوباترا هذا الصنيع وحرضوا أهل الإسكندرية على الخروج عليها فثارت فتنة عظيمة واتسع نطاقها وكادت تعم البلاد فخافت كليوباترا على نفسها وفرّت إلى الشام مع أختها الصغيرة المسماة ارسنويه.

أما يولس قيصر فإنه قاتل بومبيوس وثابر على قتاله حتى هزمه عند مدينة فرسة بولاية ترحالة ففر بومبيوس هارباً إلى مصر وكان بطليموس الثانى عشر قد بلغ أشدّه فعزم على السفر من الإسكندرية ليقفو أثر أخته كليوباترا ويقاتلها فرأى سفن بومبيوس مقبلة وعلم أنه جاء مستنجدا لما له عليه من الأيادى البيضاء فلم يحسن بطليموس نزله ولم تستفزه النخوة لأن يأخذ بيد بومبيوس ولا تحرك خاطره لاستصراخه بل قبض عليه وقتله ولم يراع حقوق الذمة.

وكان قيصر متتبعا أثر خصمه بومبيوس فى كثير من سفن الحرب فحضر إلى الإسكندرية يبحث عنه ليقبض عليه، وكان بطليموس إذ ذاك بقرب الفرما يريد المسير إلى الشام فرجع على الفور إلى الإسكندرية. فلما أرسى قيصر بسفنه نزل إليه طيودوس وزير بطليموس ووضع بين يديه رأس بومبيوس فلما رآها قيصر فاضت عيناه بالدموع ورثى لحاله وظهرت عليه علامات الحزن والأسف وجهزه بكمال الأبهة والاحتفال وغضب مما فعله بطليموس وعزم على الانتقام منه جزاء ما فعل ببومبيوس وسيأتى بيان سجنه له ثم إطلاقه بشروط ثم إغراقه مع جنده فى النيل فكان ما فعله قيصر فى حق بومبيوس بعد موته نظير ما فعله الإسكندر الأكبر فى حق دارا ملك فارس خصمه بعد موته بقتل أتباعه له حيث أسف عليه جداً وقتل قاتله.

ولما لم يكن لقيصر رغبة سوى الحصول على غريمه بومبيوس. وقد قتل سار عن مصر إلى مدينة أفريقية حيث كان قد اجتمع فيها من بقى من أحزاب بومبيوس ليشتت شملهم فعاقه عن المسير اختلاف الرياح فاضطر إلى الإقامة بالإسكندرية زمنا ليس بقصير. وقال بعض أهل التاريخ بل لتعلقه بحب كليوباترا التى كان قد أحضرها معه من الشام وأعادها إلى منصب الملوكية مع أخيها وقد أخذت بمجامع قلبه لفرط جمالها فأقعده حبها عن الرحيل، وكان أهل الإسكندرية مولعين بحب الاستقلال يبالغون فى محبة حريتهم ويكرهون جدًا تحرش الرومانيين لأمور بلادهم فلما حضر قيصر المذكور إلى ديار مصر وأصلح بين كليوباترا وبطليموس أخيها المذكور أغضب ذلك المصريين فشكى (بوطين) الطواشى للوجوه والأعيان من ذلك

وبالغ فى الشكوى وعظم البلوى. وقال أن فعل قيصر هذا يعد هتكا لناموس البلاد وشرفها ورسم للأمير ارخيلاس قائد الجيوش المصرية بأن يزحف على مدينة الإسكندرية بجنده ويقاتل بطليموس الملك فقام ارخيلاس بجيشه وهجم على بطليموس وهو فى قصره فهرب بطليموس ولحق بمعسكر قيصر، وكان قيصر فى هذا الحين قد صرف جنده فرحلوا عن الإسكندرية ولم يبق منهم إلا ثلاثة آلاف. فلما دخل عليه بطليموس ورأى من كثرة عدد جند ارخيلاس ارتبك فى أمره وخاف على المدينة وما فيها من الأرواح والأموال فنشط إلى تسكين الفتنة وقرأ على أهل الإسكندرية وصية آخر ملوكهم ووعظهم الموعظة الحسنة ليدفعهم بالتى هى أحسن ورغب إليهم فى أن يعطوا ذرية بطليموس الزامر جزيرة قبرس وهم أرسونية وبطليموس القاصر ليشتركا فى مملكتها وألزمهم بذلك بصفة كونه رئيس الرومانيين والقائم بتنفيذ وصية ملك مصر وأكثر من مسايرة الرعية وتسكين الخواطر حتى انقطعت الفتنة وزالت أسبابها ولكنها لم تلبث أن عادت واضطرمت نارها بتحريض جماعة الوزراء حرصا على منصب وصايتهم وكرها فى انتقاله إلى الرومانيين وزادوا نار الفتنة إضراما واتحد (بوطين) الطواشى الوزير مع أرخيلاس قائد الجيوش على إهلاك قيصر ومن معه من الرومان فزحف أرخيلاس بجيشه. وكان عدده اثنين وعشرين ألفا إلى الإسكندرية ونصب معسكره أمامها وأعلم قيصر بأن إطفاء نار الفتنة لا يكون إلا بتسليم كليوباترا للشعب لينتقم منها كما يشاء فلم يرض قيصر بذلك واختار الإقامة تحت الحصار والتضييق واحتمل ما لا يحتمل ولم يرض بتسليمها للشعب يستبيحون دمها فهجم أهل الإسكندرية ليأخذوا سفن حربه فلم يمكنهم من ذلك وأضرم فيها النار فأكلتها وتطاير اللهيب منها إلى القصر الملوكى فأحرق دار كتب البطالسة الموصلة إلى هذا القصر وقد كانوا جمعوا فيها من نفيس الكتب من جميع الدنيا شيئاً كثيراً مع ما تجدد عندهم من التآليف المفيدة، قلت ولم يقم على صحة هاته الرواية دليل ولا برهان. قال بعض الكتاب ومن هنا يتضح أن نسبة إحراقها إلى عمرو بن العاص بأمر عمر بن الخطاب محض اختلاق والله سبحانه أعلم بالحقائق.

وبينما كانت جند قيصر مع قلة عددهم على شفا الهزيمة إذ جاءهم الفرج بغتة بقدوم فريق من الجنود الرومانية وذخائر مع أشياء كثيرة فتلقاها قيصر بنفسه فرحاً مسروراً وركب وقاتل قتالا عنيفاً جدا حتى تمت له النصرة وهزم أهل الإسكندرية شر هزيمة حتى التجئوا إلى طلب الصلح وأرسلوا إلى قيصر رسلا مفوضين فى ذلك

فقابلهم وطلبوا منه إطلاق بطليموس الثانى عشر وكان قد اعتقله على شروط معلومة فاتفقوا ثم أطلقه وهو عالم بغدره وخيانته فلما خلص بطليموس من الأسر تأهب لقتال قيصر وأعدّ لذلك جيشاً عظيماً، فساعد الحظ قيصر إذ قدم عليه دمترا يداطس صاحب (برغام) ومعه جميع الجنود الرومانية الذين كانوا فى هذا الحين فى الأناطول والشام وفلسطين فقويت عزيمة قيصر واشتد أزره، وكان قد سار بمن معه من الجنود قاصدا الديار الشامية فلحقه بطليموس الثانى عشر فى طريقه وهجم عليه بعسكره المصرى فقامت على بطليموس عساكر اليهود على ساحل النيل واحتدم القتال بين الفريقين فانهزمت جنود مصر شر هزيمة، وفرّ بطليموس مع فريق من قومه فأدركهم فرسان قيصر على الساحل فغرقوا جميعاً فى النيل وهلك بطليموس فى جملة من غرق وقذفهم اليم بالساحل فعرفت جثته بما وجد عليها من الدروع المصوغة من ذهب. وذلك سنة سبع وأربعين قبل الميلاد أى سنة تسع وستين وستمائة قبل الهجرة فكانت مدة حكمه خمس سنوات وخلفه أخوه بطليموس الثالث عشر.

(فى الملك بطليموس الثالث عشر)

ثم قام بالأمر بعده أخوه بطليموس الثالث عشر سنة سبع وأربعين قبل الميلاد أى سنة تسع وستين وستمائة قبل الهجرة بأمر قيصر وذلك لأنه بعد أن فاجأت جنوده قوم بطليموس الثانى عشر على ساحل النيل وأغرقتهم رجع قيصر إلى الإسكندرية وتغلب عليها بمن معه من الرومانيين وسار إلى مصر فأخذها وصارت البلاد فى قبضة يده ولو شاء يومئذ لضمها لأملاك رومة وجعلها مملكة واحدة. قال أصحاب التاريخ ولكنه راعى الذمم وحافظ على العهود. وقام بتنفيذ وصية بطليموس الزامر وآثر تنفيذها على أطماعه فولى بطليموس الثالث عشر المذكور، وكان قاصرا فأشرك معه أخته كليوباترا فى حكم البلاد وأبقى لحرس كليوباترا وصيانة مملكتها فريقاً من الجند الغالبين الذين هم قدماء الفرنسيس واستصحب معه إلى رومة أختها ارسنوية إذ لو تركت بمصر لقامت بتركها الفتنة فدخلت إلى رومة أسيرة كأنها من غنائم قيصر التى غنمها من مصر وسارت فى الموكب الذى انعقد لقيصر عند دخوله مدينة رومة فخلا الجو لكليوباترا وتصرفت فى ملك مصر التصرف المطلق، وكان زوجها الذى هو أخوها ليس له فى الملك إلا الاسم فقط.

وبعد جلوس بطليموس الثالث عشر المذكور على سرير الملك بسنة واحدة سارت كليوباترا وزوجها لزيارة رومة فتلقاهما الرومانيون بالبشر والإيناس وأكرموا

وفادتهما ولبثا فيها ما شآ ثم رجعا إلى مصر فمات بطليموس بعد رجوعه بسنتين فكانت مدة حكمه ثلاث سنين. وقال جماعة: إن أخته كليوباترا هى التى دست له السم فى الدسم وبقيت قلوبطره بعد موته ملكة على مصر بحماية قيصر حينا من الدهر . وفى خلال ذلك قويت شوكة قيصر وعظم بأسه وظهر منه قصد التعدى على حقوق الجمهورية الرومانية وبدت منه بعض الأمور الدالة على ذلك وكان حزب الجمهورية شديد البأس مسموع الكلمة وبينهم شجاع اسمه (يرطوس) دعى مجهول الأب إلا أنه كان من الشهرة بمكان ميالا للجمهورية محباً لمبادئها، وكانت أحزاب الجمهورية لما رأت ما رأته من قيصر المذكور أضمرت التخلص منه وعزمت على قتله فتقدموا إلى (يرطوس) فى ذلك. وقالوا له لو كنت بطلا كما تزعم الناس لما بقينا فى العبودية على هذه الحالة فتمكن الإغراء من قلبه. وقال للأحزاب لا تقنطوا ثم لم يكن بأسرع من أن جرد خنجره وأقبل على قيصر وهو فى المحفل العام فطعنه طعنة قاتلة فرفع قيصر عينه إليه. وصاح (قد طعنت أباك ياهذا) قيل وقد كان (يرطوس) هذا ابن قيصر المشار إليه من السفاح وإلى وقت قتله لقيصر كان لا يعلم أنه أبوه فندم ندماً شديداً.

وبموت قيصر أصبحت مملكة مصر فاقدة النصير، وكانت كليوباترا تخشى من هجوم قسيوس الرومانى صاحب الشام فخاطرت بنفسها والتجأت إلى المجلس الرومانى وتوصلت بعد موت أخيها بطليموس إلى تمليك أصغر أولادها الذى زعمت أنها ولدته من قيصر ولقبته بطليموس قيصرون يعنى القيصر الصغير (قلت) ويلقبه بعض المؤرخين ببطليموس الرابع عشر، وكان انطنيوس أحد الشركاء فى دولة الرومانيين قد رأى كليوباترا فعشقها ووقع فى شرك غرامها بعد موت قيصر فجعلها تحت حمايته ودافع عنها ثم تزوج بها وارتبط تخته بتختها وذلك أنه لما أدخلها تحت حمايته أراد غزو مملكة من ممالك العجم فعزم على المسير إليها ولكنه ارتاب فى رئاسة قلوبطره المذكورة واشتبه فى أمرها وخشى أن لا تكون صادقة فى محبتها وربما أعانت أخصامه عليه فأراد أن يتحقق أمرها ويعلم خفى سرها فشدد عليها فى الامتحان وطلب منها شيئاً كثيراً من المال فبذلته ولم تقصر فعزم عليها أن تسير من مصر بعد وصوله إلى مدينة طرسوس وتلحق به هناك، وكانت هى لا تعلم منزلتها عنده وما لها فى قلبه من شدة المحبة وأنها متسلطة على فؤاده فسلكت مسلك الدلال والخفر ولم تبادر كطلبه إلى السفر ثم لم تلبث أن حملها الهوى على المسير فسارت حتى وصلت إلى أيالة سلفكه فركبت نهر قراصو الذى هو نهر طرسوس وسارت فى

سفينة مذهبة الأطراف والأكناف أرجوانية القلاع والستائر، وكانت مياه البحر تضطرب بالنسمات على نغمات العيدان والمزامير وروائح البخور يعبق شذاها فى سائر الأرجاء فتكتسب الروائح المسكية ويفوح منها إلى سائر النواحى روائح الطيب الذكية حتى امتلأت شواطىء النهر من رياها. قال بعض الكتاب فلما لمح أهل طرسوس أن قد هل عليهم كوكب الزهرة المصرية هرعوا جميعاً إلى هذا النهر لمشاهدتها وحيوها بأعظم تحية ولم يتخلف عن الحضور سوى أنطنيوكوس إذ بقى فى مجلسه مظهرا التجلد وعزة النفس واستدعاها لتحضر أمامه فلم ترض إلا بحضوره إليها وإقباله عليها فأجاب إلى مطلوبها ولبى دعوتها كمرغوبها فلما قدم عليها ونظر حسنها وبهاءها تعجب من ذلك وأخذ حبها بمجامع قلبه فأدخلها فى مجلسه الملوكى وهيأ لها الولائم وزين لها المجلس بأفخر زينة وأصبح طوع يدها وأسير هواها وقضت معه أياماً ثم جاءت به معها إلى الإسكندرية وانعقد بينهما عقد القران بالوجه الرسمى فبقى معها وقد ذهل بجمالها عن كمالها حتى إنه غادر الوظيفة وأقام مع هذه الأليفة وما فصله عن مواصلة هذه اللذات ولا أخرجه من التمتع بجمال هذه الذات إلا تهديده من مجلس رومه بتجريده من منصب الحكومة وخوفه من انفراد اقطاوس قرينه بالرئاسة فخرج من مصر مكرها وسار إلى إيطاليا ثم سار منها إلى بلاد الشام ليجهز فيها معدات الحرب لغزو الأعجام فقابلته كليوباترا فى تلك الأقطار لتقضى ما فى النفس من الأوطار وطلبت منه أن يضيف إلى المملكة المصرية جميع مدن السواحل الشرقية الواقعة على بحر سفيد وأن تضاف إليها أيضاً جزيرة قبرس وجزء من أناطول وبلاد يهوذا الموصوفة بالبلسم فى تلك الأزمان وطلبت أيضاً أن يعطى لها بلاد العرب والحجاز إلى بحر الهند كى تكون هذه البلاد مضافة لدولة الإسكندرية لأن أهلها أرباب صناعة وتجارة قاصدة بذلك أن تعود المعاملات بينها وبين مدينة الإسكندرية كما كانت فى الأزمان القديمة وتعوض ما فات إذ كانت فى هذا الحين قد تضعضعت معاملة الإسكندرية وتلاشت تجارتها أو كادت من عهد تدمير مدينة صور وخرابها التى هى شقيقة الإسكندرية على أنه من يوم انقراض دولة العجم لم يبق لمدينتى صور والإسكندرية إلا مجرد الاسم وتجهز أنطنيوس لقتال العجم وسار بجيشه ولكنه عرج على مصر ليقوم بما طلبته منه قلوبطره وأطال المكث معها وهو لا يستطيع الخلاص من أسر جمالها بل نسى مقام وظيفته وأخذ فى أسباب إضعاف الجمهورية الرومانية فأعطى عنوان الملك لولديه من كليوباترا المذكورة وقسم الممالك التى عزم على غزوها بينهما دون سواهما وجرد رومة من جميع هذه

الممالك ولم يراع حقوق بلاده وأعماه العشق والغرام فخالف عوائدها وجعل ابنه إسكندر ملكا على أرمينية وأذربيجان وفارس وقلد ابنه الثانى بطليموس ملك سواحل الشام ودمشق وأناطول ثم أحضرهما أمام جمهور الأهالى بالمظهر الملوكى المعتاد فى مثل هذه الولائم فألبس الأكبر التاج والحلة الملوكية فى زى ملوك الأرمن وأذربيجان وألبس الثانى التاج والحلة الملوكية فى زى ملوك الطوائف الذين خلفوا الإسكندر على الممالك اليونانية فصارت كليوباترا منذ ذلك العهد لا تخرج من قصرها إلا بالملابس الملوكية.

وكان فى عصمة انطنيوس زوجة أخرى رفيعة الحسب وهى (أوقطاوية) أخت أقطاوس شريك انطنيوس فى رئاسة الجمهورية الرومانية، وكان اقطاوس المذكور يحقد على انطنيوس فعله ويقبح معاملته لزوجته أوقطاوية وينهاه حتى اشتدت الخصومة بينهما بسبب ذلك ففارق انطنيوس زوجته أوقطاوية وقاطعها وبقى مع كليوباترا فشكاه أوقطاوس لمجلس الجمهورية واتهمه بأنه مزق شمل الدولة الرومانية وأنه أدخل قيصرون ولده فى وراثة قيصر مع أنه ابن سفاح فحكم المجلس بناء على ذلك بعزل انطنيوس من منصبه وحكم بإشهار الحرب على كليوباترا صاحبة مصر فلما سمع أوقطاوس ما حكم به المجلس. قال متهكما لا يصح لنا أن نقاتل انطنيوس لأن الخمرة المصرية قد أسكرته فذهبت بعقله فلا يكون حربنا إذن إلا مع قوم كليوباترا وأمراء جندها يريد بهذا القول أن انطنيوس المذكوركان دائماً مخمورا لا يكاد يفيق.

وتأهب بعد هذا الحكم كل من الفريقين للقتال فخرجت كليوباترا بنفسها للحرب واصحبت معها انطنيوس إلى ساحة القتال فى مدينة (اكسيوم) التى هى مدينة(ازيو) بساحل الروم ايلى وأمدت كليوباترا انطنيوس وقومه بمائتى سفينة حربية فبالغ فى الاستعداد وعمل على إحياء همة الجنود وتنشيطهم رجاء الانتصار وجعلت كليوباترا مدار الحرب على جنودها البحرية لتظفر بخصمها فانتشبت الحرب بينهم وكانت سجالا فلم ينتصر أحدهم على الآخر وبينما هم على هذه الحال إذ اندفعت ستون سفينة من سفن كليوباترا بقوّة المجاذيف وانفصلت عن بقية الأسطول وسارت تمخر صوب جزيرة المورة وفيها الملكة كليوباترا هاربة من القتال، قال بعض الكتاب: ولم يعلم إن كان هروبها هذا لفزعها من الحرب والهزيمة أم لاتفاق وقع بينهاوبين اقطاوس فغدرت بقرينها حيث وجدته قرين سوء فلما رآها انطنيوس قد أدبرت ولى مدبرا وراءها فاقتفى أوقطاوس أثرهما وتتبعهما فلم تر كليوباترا بدًا من تسليمه مدينة

الفرما التى هى مفتاح الديار المصرية. قالوا: وأرادت بهذه الخيانة التحبب إليه إلى أن تتنصل من انطنيوس، وكان انطنيوس لنكد حظه وسوء طالعه يعتمد على أمانتها ولم يخطر على باله قط ما قصدته من تسليم مدينة الفرما والعمل على الخلاص منه.

ومن غريب الاتفاق أنه فى اليوم الذى وصل فيه اقطاوس إلى مدينة الفرما ووقف أمام أبوابها وصل أيضاً انطنيوس إلى مدينة الإسكندرية ليطلع كليوباترا على دفتر أسماء الأبطال الذين جاهدوا معه فى حومة القتال وامتازوا بالبسالة والإقدام فلم ير منها إلا عيناً غامضة وأذنا صماء فبات ليلته تلك وأصبح وقد خانه سائر الغربان الذين كانوا يقاتلون معه وتحزبوا عليه مع اقطاوس وانفصل عن الجند المشاة وانضمت سفن الحرب المصرية إلى سفن قيصر وهذا كله كان بإشارة قلوبطرة ولم يشعر انطنيوس بشىء من ذلك ثم عادت كليوباترا فأحست بسوء فعلتها وحاك اثمها فى صدرها فخافت من انتقام انطنيوس إذا وقف على حقيقة سرها.

ومهما يكن عند امريء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

فتوارت مع أموالها وكنوزها فى مدفن حصين كانت قد شيدته لتدفن فيه ثم أشاعت أنها تريد قتل نفسها وتواتر الخبر بذلك حتى بلغ انطنيوس فعزم هو أيضاً على قتل نفسه لكى لا يعيش بعدها فأشار إلى مملوك له بان يقتله فسل المملوك سيفه وتظاهر بأنه يريد قتل سيده وطعن نفسه بالسيف ولم تسمح نفسه بقتل مولاه فخجل انطنيوس من ذلك وطعن نفسه بخنجره فلم يمت فى الحال ثم علم قبل إزهاق روحه أنّ كليوباترا لم تزل على قيد الحياة فطلب من خدامه أن ينقلوه إلى مقرها ليجتمع بها قبل موته فلم تأذن بفتح الباب له بل ادنته من شباك المحل وأنزلته فى جهة من المدفن فمات فيه شر ميتة، وكان قد بلغ اقطاوس أن كليوباترا تريد قتل نفسها فأرسل إليها من جنده من يمنعها من ذلك فدخلوا من ذلك الشباك فوجدوا فى حزامها خنجرا كأنها كانت تقربه من بطنها ورأوها على هيئة من يعمد إلى طعن نفسه والأمر غير ذلك وإنما كانت تقصد أن تفتن أوقطاوس كما فتنت عمه قيصر فخاب ظنها ولم يلتفت إلى جمالها ولا مال قلبه إليها فلما آنست منه ذلك صممت على قتل نفسها فأمسكت عن الشراب والطعام وواصلت الصيام خوفا من الوقوع فى أسر اقطاوس وذهابها إلى رومة أسيرة فقتلت نفسها شر قتلة، وكان اقطاوس يكرر عليها القول بعدم قتل نفسها ويتوعدها بقتل أولادها إن هى فعلت فلم ترتدع وقد وجدت ميتة بين بعض النسوة وجميعهن نيام فكانت هى نائمة على فرش من الذهب الإبريز وعلى جبينها تاج الملك وكأنها متجملة بجميع زينتها الملوكية فى يوم عيد.

واختلف الكتاب وأصحاب التاريخ فى كيفية قتلها لنفسها. فقال جماعة إنها تعاطت السم الناقع. وقال آخرون بل أحضرت ثعباناً عظيماً وأخفته فى وعاء مملوء من التين مدّة طويلة فلما خرج ذلك الثعبان من الوعاء. قالت له قد حان وقتك وقد حضرت إليك فاقض علىّ فانساب عليها وعجل بوفاتها وشاع هذا الخبر يومئذ وتكلم به الناس كثيراً واعتقد أوقطاوس صحته فلما عاد إلى رومة عمل تمثال قلوبطره المذكورة وجعل فى جانبه ثعباناً ينهشها وكان موتها فى سنة ثلاثين قبل الميلاد أى نحو سنة اثنتين وخمسين وستمائة قبل الهجرة.

وانتهى بموتها حكم البطالسة فى مصر وصارت من بعدهم إيالة تابعة إلى رومة وقتل أوقطاوس أيضاً ابنها بطليموس قيصرون بعد موتها، وكان قد لقب فى أيامها بلقب ملك الملوك فكانت هى آخر ذرية البطالسة بديار مصر وهى سبب زوال مجدها وسقوط عرشها بمعاهدتها مع قياصرة رومة وقد سعت فى أيامها مع انطنيوس حتى توجت ابنها قيصرون بتاج ملك الملوك يعنى ملك مصر وبلاد العجم مثل أرمنسان وأذربيجان وغير ذلك من بلاد العجم فلهذا اعتبره المؤرخون فى عداد البطالسة. قال بعضهم فإذا صح ذلك كان هو بطليموس الرابع عشر، وكان إدخاله فى ميراث بعض الأقاليم الرومانية سببا فى حرب أوقطاوس مع انطنيوس وهلاك انطنيوس وقتل كليوباترا لنفسها وزوال دولة البطالسة وقطع دابرها واستئصال نسلها بقتل قيصرون المذكور واستيلاء الدولة الرومانية على جميع ديار مصر. قالوا ومع أن مصر عادت فى أيام هذه الدولة القهقرى النسبية ومالت من درجتها العليا إلى درجة ثانوية حيث فقدت ما كان لها من رسوخ القدم وعلو الكلمة على سائر الأمم إلا أنها مع ذلك كانت كثيرة المآثر غزيرة المفاخر. وقد زادها شرفًا ومجدًا تبصرها فى الأمور وحسابها للعواقب وإطلاقها عنان الحرية لجميع صنوف الرعية وجعلهم جميعاً متساوين أمام الشريعة والقانون وقد اتحد المصريون واليونان بعناية بطليموس لاغوس رأس ملوك هذه الدولة فى التمدن العام والتسوية فى الأحكام. وفى إحياء المعارف والعلوم فترجموا التوراة من العبرانية إلى اليونانية وفى أيامهم كتب مانيطون الحبر المصرى تاريخه المشهور وجمع الكتب بالإسكندرية. وأنشأ بعضهم خزانة للتحف والغرائب أحضرها من سائر الأقطار ووضعها برواق فى الإسكندرية يسمى رواق الحكمة حتى قيل إنه لم يبق تنظيم مثل هذا الرواق فى سائر الأقطار وزادوا فى العمائر العظيمة والمبانى الجسيمة وأتموا ما لم يتمه أسلافهم من سائر الأهلية والمعابد الكبيرة وأضافوا إليه معابد أخرى جديدة فى بلاد النوبة والتاكة وغيرهما وبجزيرة البربا التى هى

جزيرة أنس الوجود ومن بنائهم أيضاً مدينة أرمنت وبالغوا فى تحسين مدينة طيبة ولم يهملوها وبنوا فيها أيضاً هيكلا يعرف الآن بدار المدينة ومعبدًا على بركة (آبو) وشيدوا على الجانب الأيمن منها الباب الكبير المنفرد فى شمال الكرنك والباب الآخر المناظر له وبنت الملكة كليوباترا بدندره هيكلا عظيماً أهدته لآلهة المصريين باسم ولدها قيصرون المولود لها من بولس قيصر الروم سفاحا وبنت أيضاً مدينة ادفو القديمة. قال بعض الكتاب ولهم غير ذلك من الآثار العظيمة بمنشأة النيدة التى بناها بطليموس فيلادلفس وكذلك بناحية بهبيت بجوار المحلة الكبرى ويغلب على ظن الباحثين عن الآثار القديمة أن من جملة آثار البطالسة المبانى الجميلة القريبة من مقابر العجول الأبيسية التى بناحية سقارة وما يوجد فى هذه المقابر من النواويس والتوابيت العجيبة الصنعة.

وقد جعلوا تخت حكمهم مدينة الإسكندرية كما تقدّم فصارت بذلك موردا للخاص والعام ، ووفد عليها من البلاد الأجنبية أرباب العلوم والمعارف والعلماء وجماعات الحكماء والأدباء وأصحاب العقول الكاملة فعمرت بهم وبقيت آثار ذلك العمار إلى أيام الرومانيين وكان لعلمائها وحكمائها اليد الطولى فى معاكسة النصرانية بعد ظهور المسيح وانتشار الديانة المسيحية فى مشارق الأرض ومغاربها.

وكانت هذه الدولة ذات كلمة نافذة لدى الأمم الأجنبية ولم تزل كذلك إلى عهد الإسكندر بطليموس الزامر ثم إنه لم يعقب كفؤا لولاية عهده وأوصى بالمملكة كفالة وتمليكا إلى الدولة الرومانية من بعده فأخذت فى الذبول والاضمحلال وكانت مدة حكم الملوك البطالسة المذكورين مائتى سنة وخمسا وسبعين سنة كما قاله جماعة المؤرخين لأن ابتداء دولتهم كان فى سنة خمس وثلثمائة قبل الميلاد أى سنة سبع وعشرين وتسعمائة قبل الهجرة وانتهاؤها سنة ثلاثين قبل الميلاد أى سنة اثنتين وخمسين وستمائة قبل الهجرة.

وبانقراض دولة البطالسة على ما تقدم بيانه وهى الدولة الثالثة والثلاثون جاءت الدولة الرومانية المعروفة بالدولة الرابعة والثلاثين.

* * *

(الباب الرابع)

(فى الدولة الرومانية وهى الدولة اللاتينية وفيه فصول)

(الفصل الأول)

(فى الدولة الرابعة والثلاثين)

قال جماعة الكتاب: قد اشتهرت هذه الدولة باسم الدولة اللاتينية وعرفت أيضاً باسم الدولة الرومانية نسبة إلى مدينة رومة التى هى تختها وقد سميت هذه المدينة بهذا الاسم نسبة إلى بانيها (رومولوس) بالاشتراك مع أخيه (روموس) وقد أنشأها فى سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة وثلاثة آلاف قبل الميلاد أى سنة خمس وسبعين وثلثمائة وأربعة آلاف قبل الهجرة وببنائها يؤرخ الرومانيون تاريخهم، وقد كانت فى مبدأ أمرها دولة ملكية مطلقة يتولاها ملك بعد آخر إلى زمن العائلة المعروفة بالعائلة (التريكنية) فنزعت منها وظهرت الحكومة الجمهورية، وكان الذى يرأسها يلقب بالقنصل ومعناه منفذ الأحكام واستمرت الحكومة الجمهورية على هذا الوجه مدّة خمسة قرون كاملة نالت فيها الغاية من العزة والظهور وتغلبت على جميع أمم إيطاليا أودخلتهم تحت الطاعة وحاربت قرطاجة، وقد كانت دولة عظيمة للغاية وطالت بينهما أيام القتال وكانت هائلة جدا سموها بالحروب (البونيقية) ثم انجلت عن نصرة رومة على قرطاجه فدمرتها تدميرا واستولت على مملكتها وظهرت كذلك على مملكة مقدونية وبقية أمم الرومان وجميع الأمم المعروفة فى تلك الأزمان ما عدا أمة الجرمان ودولة فارس القديمة وكانت مصر فى هذا الحين من أعظم الدول قوّة وأكبرهم شوكة فمدت دولة الرومان إليها أنظارها وتاقت إلى التغلب عليها فتداخلت فى تنصيب ملوكها البطالسة حين داخلهم الضعف ولازمهم الانحطاط بالحروب الداخلية وما زالت حتى تسلطت عليها وجعلتها إيالة تابعة لها فى عهد أغسطس كما سيأتى وأغسطس هذا هو مبدأ دولة القياصرة الآتى ذكرهم واحدا بعد واحد. قال أصحاب التاريخ: وبظهور قياصرتها المذكورين عظمت دولة الرومانيين وعلت كلمتها وتملكت على الدنيا بأجمعها ثم لم تلبث أن اضطرمت فى

داخلها نار الحروب الأهلية فأفسدت حالها وسلك القياصرة بعد ذلك مسالك الترف والانهماك فى اللذات والشهوات وفساد الأخلاق وطغوا وبغوا فكان هذا موجبا لضعفها وانحطاطها ، وكان ظهور الدولة القيصرية فيها بعد الجمهورية فى سنة ثلاثين قبل الميلاد أى سنة اثنتين وخمسين وستمائة قبل الهجرة، وكان أول ملوكها الملك أغسطس الذى سيأتى الكلام عليه. ثم انقسمت فى سنة إحدى وأربعين ومائتين قبل الهجرة إلى قيصريتين إحداهما بالمغرب وتختها مدينة رومة والثانية بالمشرق وتختها مدينة القسطنطينية وبقيت قيصرية المغرب إلى أن زحفت عليها بعض الأمم المتبربرة كأمة (الغوطة) وغيرها وتغلبت عليها وأزالت بهجتها ولم تزل بها حتى زال ملكها بالكلية وبقيت قيصرية المشرق إلى أن فتحها الإسلام فغزا القسطنطينية بنو أمية وضربوا عليها الخراج ولم تزل كذلك حتى ركب عليها السلطان محمد خان الفاتح وأخذها كما سيأتى بيانه فى محله إن شاء الله تعالى.

وأما الديار المصرية فإنها دخلت فيحكم الرومانيين وصارت تابعة لها فى سنة ثلاثين قبل الميلاد أى سنة اثنتين وخمسين وستمائة قبل الهجرة كما تقدّم وبقيت كذلك إلى سنة أربعين وستمائة للميلاد أى سنة تسع عشرة للهجرة وهى السنة التى افتتحها فيها المسلمون على يد عمرو بن العاص فكانت مدّة حكم الرومانيين عليها ستمائة سنة وإحدى وسبعين سنة منها أربعمائة وإحدى عشرة سنة فى الجاهلية ثم صدر أمر الملك (طيودوسيس) بوجوب التمسك بالديانة المسيحية فى جميع الإيالات الرومانية وسنذكر هنا مآثر كل قيصر على حدته وبيان ما جرى على مصر فى أيامه مبتدئين بالملك أغسطس الذى هو رأس القياصرة المذكورين.

(فى الملك أغسطس قيصر)

تولى الملك أغسطس على كرسى المملكة الرومانية سنة تسع وعشرين قبل الميلاد أى سنة إحدى وخمسين وستمائة قبل الهجرة ثم استولى على مصر فكان يقيم عليها نوابا من قبله، وكان أغسطس المذكور يلقب بإمبراطور الرومانيين ومعناه فى الأصل رئيس الجيوش واشتهر كغيره باسم قيصر ولقب بلقب أغسطس ومعناه الرئيس الأعلى ولما ارتقى منصة الملك واستقر به المنصب وفد عليه رسل ملوك المشرق يرغبون فى موالاته ويضرعون إليه فى السلم فأسعفهم ودانت له الأرض بأسرها وضرب الخراج على أهل الآفاق وكان عامله على اليهود فى الشام يقال له (هيرودوس) ولما تغلب على مصر وقتل ولدى كليوباترا بعد قتلها لنفسها كما تقدم

بيان ذلك ولى عليها نائبا من قبله اسمه قورنليوس غالوس فكان أول نائب على مصر من نواب الرومانيين ولما استقر منصب النيابة قورنليوس المذكور قام بإصلاح ما أفسدته الفتن والحروب الأخيرة وبذل الجهد فى توطيد أركان الراحة بين الرعية وأصلح أراضى الزراعة بالعمليات كتطهير الترع والخلجان وإقامة القناطر والجسور ومع ذلك فلم يرض عنه الكثير من أهل البلاد ولم يلبثوا أن قاموا عليه وشقوا عصا طاعته وكان من المدن التى أضرم أهلها نار الفتنة مدينة طيبة بصعيد مصر فركب غالوس المذكور على أهالى تلك البلاد وأرجعها إلى الطاعة وضيق على مدينة طيبة ونهبها واستوعب ما فيها من الأموال وضبطها لدولة رومة وأخذ لنفسه كثيراً من الأمتعة النفيسة كما ذكر ذلك بعض المؤرخين، وكان هذا الانتصار سببا فى طغيانه وتجبره وفساد أخلاقه فنظم نفسه فى سلك الملوك الفراعنة وقلدهم فى جميع أفعالهم الجوهرية. فأمر أن تنحت تماثيل على صورته وتوضع فى الميادين العمومية بمصر وأن ترسم وقائع حروبه على المبانى والهياكل كما كانت تفعل الفراعنة ولكن لم تطل مدته إذ خلعه القيصر ونفاه لأسباب لم يذكرها أصحاب التاريخ ولعلها الخوف من استبداده بملك البلاد وخروجه عن طاعة القيصر فقتل نفسه فى منفاه وقيل إن سبب ذلك أن أغسطس الملك غضب على أحد علماء الآداب وطرده من مدينة رومة فأواه قورنليس الوالى المذكور بمصر فغضب عليه أغسطس لهذا السبب وأمر بخلعه ونفيه.

فتولى بعده بطرنيوس فلم تكد تستقر به النيابة حتى قام عليه أهل الإسكندرية وخرجوا عن طاعته لأسباب لم يذكرها المؤرخون فركب عليهم وقاتلهم إلى أن ردهم إلى الطاعة صاغرين وفى ولاية بطرنيوس هذا هم أغسطس قيصر المذكور بغزو بلاد العرب والتملك عليها وكلف بطرنيوس نائبه على مصر بهذه الحرب فجمع بطرنيوس جيشا لذلك وسلمه إلى اليوس غالوس أحد كبار الجنود الرومانية وسيره إلى بلاد العرب وقيل إن أغسطس ذهب لهذه الغزوة بنفسه فانتصرت العساكر المصرية على العرب ثم انهزمت وتلاشت أو كادت لصعوبة مزاج الأقطار الحجازية ودامت الحرب قائمة على ساقها سنة كاملة كابدت فيها الجنود المصرية من التعب وفقد الزاد والراحلة ما لا مزيد عليه ثم رجع من بقى منهم إلى مصر ولم يفز أغسطس بأمنيته من الاستيلاء على تلك الأصقاع ولا على بلاد اليمن التى كانت يومئذ مركزا لواردات الهند الشهيرة.

وبينما كانت هذه الحروب قائمة بين المصريين والعرب اغتنم أهل السودان فرصة تغيب الجنود عن إقليم الصعيد وكروا على حدود مصر الجنوبية بجيش جرار تحت

قيادة (قنداقة) ملكة جبال بركل بإقليم دنقلة فاستولى قومها على مدينة أسوان وما حولها من الجزائر المصرية كجزيرة الصنم وغيرها ودخلت بلاد الصعيد الأعلى وأهلكت الحرث والنسل وغنمت الغنائم العظيمة فركب عليها بطرنيوس وقاتلها حتى أخرجها من بلاده إلى السودان واقتفى أثرها فغلبها على دار ملكها ولم يعقد معها الصلح إلا على شرط أن تدفع خراجا سنويا لدولة الرومان وأن تبعث من عندها بسفراء للقيصر أغسطس لتتميم قاعدة الصلح، وكان قد بلغ ديوان رومة خبر هذه الوقائع وهجوم الملكة (قنداقة) على الديار المصرية فانفعل أغسطس من ذلك وأخذ منه الغضب مأخذه وسار بنفسه إلى مصر لينتقم منها فلم بلغ جزيرة صيصام علم بانتصار بطرنيوس على قنداقة وماعقده معها من الصلح وتفويض تتميمه إلى ذات أغسطس وأن بطرنيوس حمل (قنداقة) على أن تبعث بسفراء من قبلها إلى أغسطس فلبث أغسطس فى جزيرة صيصام ينتظر السفراء فلما وفدوا عليه تمم شروط الصلح معهم على ما قرره بطرنيوس وعافى (قنداقة) من دفع الجزية إلى رومة.

وعاد بطرنيوس من غزوة السودان ورايات النصر تخفق على رأسه وعكف على ما كان عليه من حُسن الإدارة وتدبير أمور البلاد وتحسين الأراضى واتساع الزراعة بما تقتضيه احتياجات البلاد وكان كثير الميل إلى تحسين مجارى النيل وإصلاح مصاريفه وخلجانه وترعه فبذل الجهد فى ذلك حتى تم له ما أراد فكان إذا بلغ النيل اثنى عشر ذراعا كفى لرى جميع الأراضى وكان قبل ذلك لا يفى بهذه الغاية إلا إذا بلغ أربعة عشر ذراعا وقيل ستة عشر ذراعا.

وبقى بطرنيوس واليا على مصر ثمان سنوات ثم خلفه عليها اليوس غالوس الذى كان قائدا على غزوة العرب فى نيابة بطرنيوس فلما استقرت به النيابة سار إلى الصعيد الأعلى واستصحب معه اسطرابونس الجغرافى لاستكشاف مواقع البلاد ومعرفة حقائقها وطالت مدّة ولايته حتى مات فى خلالها أغسطس الملك. قال أهل التاريخ: وكان دخول ديار مصر تحت حكم الرومانيين ضربة قاضية على العلوم والمعارف التى كانت يزاولها فضلاء مصر بدار العلوم فى مدينة الإسكندرية إذ تضعضعت أحوالها وزالت بهجتها وانحطت درجة المكاتب الأهلية فلم تكن هذه المضار دون ما سبق من حريقة مكتبتها فى آخر أيام الملوك البطالسة. وذلك لأن كبار المعلمين الذين كانوا فى هذه الديار ساروا من الإسكندرية إلى رومة ليتقربوا من قياصرتها وينالوا منهم الحظوة فخلت منهم ربوع العلوم والمعارف ومع ذلك فإن القياصرة لم يتأخروا عن إنشاء بعض المدارس والمكاتب وعينوا لها من الرؤساء

والرجال من له السبق فى مضمار الفضائل غير أن أهل البلاد لم تحتفل بتلك المكاتب ولم تقبل على ما فيها من العلوم حيث كان قد ألمّ بهم الفتور والكسل واستولى على خواطرهم الخمول والملل فتأخرت العلوم وتقهقرت الفنون وانحطت درجات الصنائع. وقد ساعد على هذا أيضاً أن الرومانيين ليسوا فى درجة اهتمام الفراعنة أو البطالسة بتقويم العلوم وتعضيد الفنون بل كانت همتهم منصرفة إلى الحروب والغزوات وتوسيع دائرة الفتوحات ولم تكن مصر عندهما من عهد أن بسطت يدها عليها إلا بمثابة مخزن للدولة تستخرج منه ما تحتاج إليه من محاصيل الزراعة وجعلت الإسكندرية مركزاً للتجارة وتكثير البضاعة فكانت لذلك العلوم والمعارف لا تعد عندها إلا من الأمور الثانوية. وقد اقتدى أغسطس بالملك الإسكندر الأكبر حيث أجاز للمصريين التمسك بديانتهم وأباح لهم التعبد بمقتضى أصولهم ولم يتداخل فى شئون عقائدهم وعوائدهم فجددوا الهياكل فى جميع أنحاء مصر والنوبة وأصلحوا ما تهدم منها وكتبوا على مبانيهم اسم أغسطس قيصر تخليدا لذكره.

وفى نحو السنة العشرين من ملك أغسطس ولد السيد المسيح من مريم العذراء فكان ميلاده قبل الهجرة المحمدية بستمائة سنة واثنتين وعشرين سنة وبعد ولادة يوحنا المعمدان ، وهو ابن زكريا ، بستة أشهر على المشهور.

وجاء صريحاً فى الكتب السماوية ما محصله: وكان فى أيام هيرودوس ملك اليهودية شيخ اسمه زكريا وله زوجة من بنات هارون واسمها اليصابات، وكان كلاهما من التقوى والصلاح بمكان عظيم فبينما هو يوما يؤدى ما عليه من الخدمة فى بيت المقدس أصابته القرعة أن يدخل هيكل الله تعالى ويبخر أمام المذبح فدخل وبيده الجام وإذا به يرى ملكا من عند الله واقفا على يمين مذبح البخور فاضطرب وأخذ منه الخوف مأخذه . فقال له الملك يازكريا لا تخف لقد استجاب الله دعاءك وستلد اليصابات امرأتك ذكرا يدعى يوحنا وتفرح بولادته فرحا لا يوصف. فقال زكريا: سبحان ربى القدير كيف يكون ذلك وأنا شيخ وقد وهن عظمى وانحنى ظهرى وامرأتى كذلك فقال الملك يازكريا إنى أنا جبريل الواقف أمام العرش وقد أرسلنى الله تعالى لأبشرك بهذا وحيث إنك لم تصدق بما أمرنى الله بتبليغك إياه فإنك تخرس بإذن الله ولا تتكلم منذ اليوم إلى اليوم الذى تلد فيه امرأتك فخرج زكريا من ساعته وهو لا يتكلم.

ولما كملت أيام خدمته سار إلى بيته فحملت اليصابات زوجته وأخفت أمرها وهى لا تصدق أنها حامل، فلما كان الشهر السادس من حملها أرسل الله سبحانه

جبريل عليه السلام إلى مدينة من الجليل اسمها الناصرة إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف واسم تلك العذراء (مريم) فظهر لها جبريل وناداها بقوله سلام عليك يامريم سلام عليك أيتها المنعم عليها الله معك مباركة أنت فى النساء يامريم لا تخافى ولا تخشى فقد وجدت نعمة عند الله وستحبلين وتلدين ابنا يسمى (يسوع) ويكون عظيماً ويعطيه الله كرسى داود أبيه ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد ولا يكون لملكه نهاية. فقالت مريم: إنى أمة لربى سبحانه وأنّى يكون لى ذلك ولم يمسسنى بشر؟ فقال يامريم: الروح القدس يحل فيك وقوة العلى تظلك وها هى اليصابات نسيبتك حبلى أيضاً بابن فى شيخوختها وهذا هو الشهر السادس لتلك العاقر وليس على الله شىء عسير فسجدت مريم لله تعالى شكراً. وقالت إنى أمة الله والله سبحانه فعال لما يريد.

وسارت مريم يوماً إلى مدينة يهوذا ودخلت بيت زكريا ونادت على اليصابات وسلمت عليها فما وقع صوت سلام مريم فى أذنى اليصابات حتى صاحت. وقالت مباركة أنت فى النساء يامريم فإنه ما وقع صوت سلامك فى أذنى حتى تحرك الجنين بابتهاج فى أحشائى ، وتمت أيام اليصابات فوضعت ولدها وسمته يوحنا كما بشر أباه جبريل عليه السلام ولما رآه أبوه زكريا حمله على ذراعيه وبكى من فرحه فانطلق لسانه. وقال تبارك الله الذى خلق فسوى، واتفق فى ذلك الوقت أن صدر أمر أغسطس قيصر إلى سائر الولاة والعمال بإحصاء جميع من فى إيالاتهم وعمالاتهم من الرجال والنساء والأطفال ورسم بأن يكون إحصاء كل فى بلده ومسقط رأسه، وكان عامل أغسطس قيصر على الشام يومئذ كيرينيوس فنادى بذلك فى جميع المدن والبلدان والقرى وشدد فى الطلب ولما كانت مدينة بيت لحم بلد يوسف خطيب مريم سار يوسف من الجليل من مدينة الناصرة إلى اليهودية إلى مدينة داود التى هى بيت لحم لأنه من بيت داود ومن عشيرته ليكتتب مع مريم خطيبته وأقاما ببيت لحم أياماً تمت فى خلالها أشهر حمل مريم فجاءها المخاض فى يوم الأربعاء خامس عشرى كانون الأول وتاسع عشرى كيهك سنة تسع عشرة وثلثمائة للإسكندر فانزوت فى معلف للبقر ووضعت ولدها وقطعت له السر بيدها ثم قمطته وأضجعته فى المعلف وجلست بجانبه.

وكان على مقربة من بيت لحم جماعة من الرعاة يحرسون غنما فى ليلتهم تلك فلم يشعروا إلا وقد لمع لامع من السماء وكثر الضوء واشتد من حولهم حتى كاد يغشى أبصارهم فانزعجوا وستروا وجوههم بأيديهم وإذا بصوت يقول لا تخافوا

فانى مبشركم الليلة بأن قد ولد لكم فى مدينة داود مخلص هو (المسيح) وهذه لكم علامة تجدون طفلا مقمطا مضجعا فى معلف للبقر ولم ينته الصوت حتى هبط من كبد السماء جمع من الملائكة وهم يسبحون الله تعالى ويقولون بصوت جهورى المجد لله فى الأعالى وعلى الأرض السلام وفى الناس المسرة وجعلوا يكررون ذلك مرات كثيرة ثم ارتفعوا واختفوا عن أبصار الرعاة ولما تراجعت إلى الرعاة نفوسهم وزال عنهم ذلك الخوف الذى كان قد اشتد بهم. قال بعضهم لبعض ماذا علينا إذا سرنا إلى بيت لحم للنظر ذلك الأمر الواقع وقاموا من ساعتهم وجاءوا إلى بيت لحم ودخلوا على مريم ويوسف وهما فى معلف البقر مع الصبى فرأوه وفرحوا به فرحا عظيما وحدثوا مريم ويوسف بما رأوه وسمعوه فتعجب يوسف من ذلك ونظر إلى مريم فلم ترد عليه جوابا لأنها كانت تعلم من أمر ولدها ما لا يعلمه سواها ، وجاء مجوس من المشرق إلى أورشليم وطفقوا يسألون أين المولود الجديد ملك اليهود فإننا رأينا نجمه فى المشرق وأتينا لنقدم الطاعة له وشاع خبرهم فى أورشليم وعلم به هيرودوس فانزعج وجمع كل رؤساء الكهنة والكتبة وسألهم أين يا ترى يولد المسيح. فقالوا يولد فى بيت لحم اليهودية فسير هيرودوس فى طلب المجوس فأتوا إليه. فقال لهم متى كان ظهور ذلك النجم يعنى نجم ذلك المولود فقصوا عليه ما عرفوه من أمره فقال اذهبوا إلى بيت لحم وفتشوا عليه فإن وجدتموه فارجعوا إلىّ فخرجوا من عنده وساروا وإذا بالنجم يتقدمهم ففرحوا به فرحا عظيماً جداً وأتوا إلى بيت لحم ورأوا الصبى مع أمه فسجدوا لله تعالى شكراً ثم قدموا إلى الصبى هدية من الذهب واللبان والمر وباتوا ليلتهم تلك فرأوا فى منامهم من يقول لا ترجعوا إلى هيرودوس وسيروا من طريق أخرى ففعلوا.

واشتد القلق بهيرودس وأخذته الطيرة فرسم بقتل جميع الصبيان الذين فى بيت لحم وما يتاخمها من ابن سنتين فما دون ذلك وشدد وهدد فرأى يوسف فى منامه جبريل يقول له قم وخذ الصبى وأمه واذهب إلى أرض مصر لأن هيرودوس يريد نفسه فقام يوسف غلسا وأخذ مريم وولدها وأركبهما على حمار وانحدر بهما إلى مصر ولبثوا بها حتى ظهر جبريل ليوسف فى رؤيا. وقال له قم وخذ الصبى وأمه وارجع إلى أرض إسرائيل فقد مات هيرودوس.

قال بعض أصحاب التاريخ: ونزلت مريم بولدها إلى مدينة بوبسط التى هى بسطة فى إقليم الشرقية فى رابع عشرى بشنس فلم يقبلهم أهلها فنزلوا بظاهرها أياماً

ثم ساروا منها إلى مدينة سمنود وعبروا النيل إلى إقليم الغربية وساروا إلى مدينة الأشمونين فدخلت به وهى لا تعلم لها مأوى ، قالوا وظهرت على يده فى الأشمونين آية وهى أن خمسة رجال زاحمتهم فى مرورهم فصرخ فيهم المسيح فصاروا حجارة ثم أنهم ساروا من الأشمونيين وأقاموا بقرية تسمى منليس أياماً ثم مضوا إلى القوصية فطردهم أهلها فمضوا إلى ناحية ميرة غربى القوصية ونزلوا بالمكان الذى يعرف اليوم بدير المحرق وأقاموا به ستة أشهر وأياما فرأى يوسف فى منامه قائلاً يقول له: قم وخذ الصبى وأمه وأخرج من أرض مصر فقد مات هيردوس فقام ومعه الصبى وأمه من ميرة حتى نزلوا حيث الموضع الذى يعرف الآن بكنيسة أبو سرجه ثم خرجوا منها إلى عين شمس فاستراحوا هناك من مشقة السفر بجانب ماء. قالوا وقد غسلت مريم من ذلك الماء ثياب المسيح، وكانت قد اتسخت وصبت غسالتها بتلك الأراضى فأنبتت بلسانا، وكان إذ ذاك لا ينبت البلسان إلا بأرض الأردن فانقطع من هناك وبقى بهذا المكان وكثر الماء بالبئر التى هناك حيث سال عليها الماء الذى غسلت منه مريم.

وقال بعض الكتاب: إن من خواص مصر عمل النيدة وهى عسل القمح ولا يمكن اصطناعها إلا بديار مصر وقد ذكر بعض الحكماء أن السيدة مريم عليها أشرف السلام صنعت النيدة للمسيح حين قل لبنها فألهمها الله تعالى عملها وأكثر اتخاذ النيدة فى منشأة أخميم. ولذلك يقال لها أيضاً منشأة النيدة ولم يزل عملها باقيا إلى الآن ولم يذكر جماعة المؤرخين أن السيدة مريم عليها السلام ذهبت بالمسيح إلى تلك الجهة من الصعيد وإنما قال بعضهم إنها نزلت أيضاً بأهناس المدينة حتى قالوا أيضاً انها ولدت المسيح بها وأن فيها النخلة التى ذكرت فى القرآن فى آية: ﴿ **وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا** ﴾، وأن هذه النخلة تسمى نخلة مريم وأنها لم تزل باقية باهناس المدينة إلى آخر أيام بنى أمية. **قلت**: وهذا ما لا يعتقد صحته جميع النصارى لمخالفته لما جاء به الإنجيل والتوراة والذى جاءت به الكتب المنزلة أن المسيح ولد فى بيت لحم اليهودية وسارت به أمه إلى مصر وعمره سنتان اثنتان وأنه أقام فى مصر أربع سنين ثم عادت به ومعها يوسف فنزلت به قرية الناصرة من جبل الجليل واستوطنها ونشأ بها حتى بلغ ثلاثين سنة وقيل اثنتين وثلاثين ثم سار مع يوحنا المعمدان إلى نهر الأردن فاعتمد وحلت عليه روح القدس فمضى إلى البرية وأقام بها أربعين يوما لا يتناول طعاما ولا شرابا ثم طاف وأبرأ الأكمه والأبرص والمقعد وأحيا الموتى وغير ذلك من العجائب والآيات البينة مما لا موضع هنا لإيراده بالتفصيل.

ومات أغسطس فى السنة الرابعة عشرة من ميلاد المسيح الموافقة لسنة ثمان وستمائة قبل الهجرة وعمره ست وسبعون سنة فكانت مدة حكمه مستقلاً ثلاثاً وأربعين سنة غير مدّة رئاسته للجمهورية فتولى بعده الملك طباريوس الأوّل.

(فى الملك طباريوس قيصر الأول)

ثم قام بالأمر بعده الملك طباريوس قيصر الأول فى سنة أربع عشرة للميلاد أى سنة ثمان وستمائة قبل الهجرة وهو ثانى امبراطرة الرومانيين ولما استقر به المنصب اسعتمل على مصر عاملا اسمه أميليوس اولوس فزاد أميليوس المذكور فى خراج البلاد زيادة كثيرة عما كان قرره أغسطس وبعث يستأذن طباريوس قيصر فى ذلك فكتب إليه يقول أما بعد فإنى لا أشتهى من الراعى إلا تسمين ما يرعاه ولا أرضى منه أن يذبحه فتأمل فعدل أميليوس عن ذلك وقد خلف أميليوس المذكور عدة ولاة تعاقبت على مصر فى أيام طباريوس الملك منهم اليوس سيان الذى طغى وتجبر وتعاظم وتكبر وسلك مسالك العسف والجور فى الرعية، وكان طباريوس الملك كذلك فإنه كان جبارا عنيدا ماكرا مخادعا يظهر خلاف ما يبطن فلما أن تولى المنصب الملوكى واستقام له الأمر أراد أن يخلع نفسه بدعوى أنه لا فضل له فى السياسة ولا هو يقوى على تدبير أمور المملكة مثل أغسطس قيصر وأظهر غاية العجز مع التواضع والانكسار فألح عليه رجال الدولة وشددوا فلم يقبل إلا كرها ثم سألهم أن لا يلقبوه بلقب امبراطور تواضعا وانكسارا ثم تم له الأمر فقبض على زمام الأحكام وسلك مسالك العنف والكبرياء وأورد الرعية موارد الذل والهلكة واستوزر على مصر اليوس سيان المذكور الذى هو على شاكلته فكان اليوس بطانة سوء فأشار على طباريوس قيصر بقتل جميع عائلة أغسطس سلفه فقتلهم واحدا بعد واحد ولم يبق منهم إلا طويل العمر وهولاء قليلون جدا وما زال اليوس يحسن له القبيح ويغريه على ارتكاب المعاصى وسفك الدماء حتى أحس طباريوس بأن اليوس يريد التغلب على الملك وسلب المنصب منه فقبض عليه وقتله وأمر بإلقاء جثته فى الميدان العام ففرح الناس بذلك فرحا لا يوصف وانقضوا على جثته فمزقوها كل ممزق ومثلوا بها.

واشتد عبث طباريوس بأمور الرعية وبغضه لأكابر الدولة وأعيانها فكرهته الرعية وازداد بغضها له وتمنوا هلاكه فاعتكف فى جزيرة قريبة من مدينة رومة وانزوى فيها

منكبا على المعاصى واللذات منغمسا فى الفسق والفجور مع بطانته ملوثا بالخبائث فأوى إليه أرباب الرذائل وأسافل الناس وجعل هذه الجزيرة ميدان قتل وانتهاك محارم فكان إذا أراد قتل أحد أحضره من رومة إلى هذا المكان وقتله وأغرق جثته فى ناحية أعد فيها آلة تكبس على الغرقى فتكسر عظامهم ولا تجعلها تطفو على وجه الماء، وكان له بهذه الجزيرة قصور فإذا أراد أن يتمشى حولها للنزهة سأل الساعى عن حال الطريق هل هى خالية من الناس أو لا فإن كانت خالية مشى وإلا رجع على عقبه وكان مع بطشه وشدة فتكه جبانا عظيم الارتياب كثير الخوف مترددا موسوسا ضعيف الرأى فاسد الذمة وكان كثير التمسك بالعرافة والكهانة كبير الاعتقاد بزجر الطير مشغوفاً بمعرفة عاقبة أمره وما بقى من أيام عمره.

ولما ظهرت عليه علامات الضعف وأخذت قوّته فى الانحطاط كان يظهر التجلد ويخفى الضعف وبينما هو ذات يوم خارج من وليمة كان أعدها إذ نظر إليه طبيبه فرأى من تغيير حاله ما دل على دنو حينه فأبلغ أهل الديوان ذلك. وقال لهم: إن القيصر يموت بعد يومين فأرسلوا على الفور سعاة لكبار الجند ليحضروا على عجل فكان أول قادم منهم الأمير فاليقود بن جرمانيقوس فأخذ بزمام الحكومة واستولى عليها وشرع فى تدبير الأمور فلم يشعروا إلا وقد رجعت للقيصر حواسه وعادت إليه بعض العافية فخاف الناس وهرب من حضر من الأمراء فرارا من بطشه فقام فى الحال كبير من الأبطال اسمه الأمير مقرون ودخل على القيصر بقلب قوى وأمسكه ولفه فى بروجة وثقل عليه بها حتى خرجت روحه وذلك فى سنة سبع وثلاثين بعد الميلاد أى نحو سنة خمس وثمانين وخمسمائة قبل الهجرة وله من العمر نحو الثمانين فكانت مدّة حكمه ثلاثاً وعشرين سنة وقد اشتهر هذا القيصر بأنه هيكل المظالم وتمثال الجبروت ، قال بعض الكتاب: ومع ذلك فقد كانت له مزايا أخرى وهى معرفة أساليب السياسة وتدبير الأمور فكانت أيامه كلها صلحا وسلاما مع الأجانب ولم يحصل فى مملكته أدنى اختلال وكان بأسه وجبروته رادعا لتعدى الولاة على الرعية فكانت المساواة والعدالة عامة فى جميع الأقاليم والعمالات وكانت أموال الخزينة موفرة مدبرة فوجد فى بيت المال بعد موته خمسمائة وخمسون ألف ألف من الفرنكات وكان شديد الميل إلى العلوم والآداب فألف وصنف ونظم باليونانية واللاطينية إلا أنه قد اغتالت تآليفه يد الضياع بعد وفاته وإليه تنسب طبرية التى بأرض الشام فهى مأخوذة من اسمه وفى أيامه كان صلب السيد المسيح وقيامته كما جاء فى الكتب المنزلة وتولى بعده ابن عمه قاليغولا قيصر.

(فى الملك قاليغولا قيصر)

ثم قام بالأمر بعده ابن عمه الملك قاليغولا قيصر ولى الملك سنة تسع وثلاثين للميلاد أى سنة ست وثمانين وخمسمائة قبل الهجرة فاستبشر الرومانيون بولايته فى طالعة أمره بعد الذى قاسوه من طغيان طيبروس عمه. وقاليغولا هذا هو ابن جرمانيقوس الذى كان من فحول الرجال المحبوبين عند الرومانيين وله على البلاد الأيادى البيضاء فلقبوه بقاليغولا لحبهم إياه تبعا لحبهم لأبيه جرمانيقوس المذكور، وكان فى مبدأ حكمه حسن السيرة كامل الاعتبار حازما كيسا ولبث على هذه الحال مدة ثم مرض مرضا شديد أشرف منه على التلف فلما عوفى تغيرت طباعه وانقلبت أحواله وتبدلت إلى عكس ما كانت عليه فتولت عليه الحماقة ومال إلى ارتكاب الكبائر والمآثم وسفك الدماء والغدر والاتصاف بسائر أنواع القبائح وجمع إليه أهل اللهو وأرباب اللعب والسخرية فكانوا يلعبون فى المحافل جهارا، وكان يدعو لذلك أرباب المجلس الرومانى فإذا حضروا ولم يظهر أحد منهم استحسانه لهذه الألعاب والإعجاب بها قتله حالا ومن رفع صوته فى ميدان اللعب أمر بأن يجلد جلداً عنيفاً وهلم جراً.

واتفق يوما وهم فى مجلس الألعاب أن قاليغولا المذكور كان يفاخر بالفضائل الرومانية ويفاضل بينها وبين المحاسن اليونانية ويجادل فى التفضيل بينهما فترك عامة الرومانيين مجلس اللعب وخرجوا مغضبين فصاح عليهم قائلاً ليته لم يكن للأمة الرومانية إلا رأس واحد ، يشير إلى أنه كان يسهل عليه حزه مرة واحدة ، وكان كثيراً ما يلقى بمن يقصر من اللاعبين إلى السباع فتمزقه بين المتفرجين وكان يقطع لسانه قبل أن يفعل به ذلك كى لا يصيح ولا يشوش على الحاضرين.

وارتكب غاية التبذير ونهاية الإسراف وأنفق جميع ما تركه طباريوس قيصر من الأموال الجزيلة فكان يأمر بإعمال الجسور والقناطر على المحيط فكان يأمر بالمحال مما تصوره له حالة الاختلال، ويعمل الحراقات والزوارق المرصعة بالأحجار الكريمة وصنوف الجواهر ويجعل فيها الحمامات الغريبة والغرف المزينة بأنواع الزينة والأشجار والأزهار وعمل اصطبلا بناه من المرمر لفرس كانت عليه عزيزة وعمل لها فى ذلك الاصطبل حوضا من العاج ورصع طقومها باللؤلؤ والمرجان. وقيد اسمها فى سجل القسيسين والأحبار ، وقال إن الفرس المذكورة ستصير يوما من الأيام حاكمة على الرومانيين ويكون لها عليهم الأمر والنهى وكان يسقيها الخمر فى أكواب من الذهب

الأحمر وغير ذلك من الأمور التى لا يقبلها العقل وأمر فصنعت صورته واتخذ منها تماثيل عدة فوضعت فى مصاف الأوثان والأصنام فى جميع الهياكل والمعابد الموجودة فى المدن الرومانية كافة ليكون من جملة الآلهة والأرباب وجعل لنفسه كهنة خصوصين يتقربون إلى تمثاله الذهب بذبائح الطواويس والسمانى وكل طير نادر الوجود وكان عظيم الجبروت على قدر جسامة حمقه فكان إذا أمر بقتل إنسان استحضر والديه وأقاربه ليشهدوا مقتله. فإذا اعتذر أحدهم عن الحضور لمرض مثلاً بعث بنعش وحمالين ليأتوا به كى يشهد قتله وكان لا يحلو له القتل أو التعذيب إلا وهو على مائدة الطعام.

واتفق أنه جلس يوماً فى وليمة حافلة، وكان فيها أرباب مجلس رومة متكاملين فلم يشعروا إلا والملك يغور فى الضحك وينجد بغير موجب ولا سبب فسأله من كان بجانبه من أرباب المجلس عن سبب ذلك. فقال إنما هو لأنى إذا أردت قتلكم عن آخركم الساعة قتلتكم ومع أنه كان طاغية جبارًا وداهية غدّارا فلم يكن شجاعاً ولا همامًا بل كان جبانًا ضعيف القلب يكره الوقوف فى صفوف القتال . وقد سافر فى أيامه كلها فى غزوتين إحداهما إلى بلاد جرمانية. والثانية إلى بلاد بريطانية فلم يشتهر فيهما إلا بالجبن وضعف العزيمة ولم تر عينه يوما صفوف العدو ومع ذلك فقد كتب يوماً إلى أعضاء مجلس رومة يقول لهم بينما أنتم عاكفون على اللذات منبسطون على بساط الشهوات فأنا معرض نفسى للأخطار واقتحام العقبات.

وكان أشدّ جميع من سلفه ظلما بل أشد جميع قياصرة الرومانيين غدرا وعدواناً. وقد ألزم اليهود نصب تمثاله فى بيت المقدس فلم يقبلوا فضيق عليهم، وكذلك ضيق على النصارى الذين ببيت المقدس وزاد فى التشديد إلى حدّ الموت حتى ظهرت من بيته امرأة متمسكة بالديانة النصرانية فدافعت عنهم وردت أذاه فبقى اليهود يقاسون مضض البلوى . وقد كان رسم إلى والى مصر فى السنة الأولى من ملكه بغزوهم فغزاهم واستبعدهم سبع سنين وفى الرابعة من ملكه أمر عامله أيضاً على اليهود بفلسطين أن ينصب الأصنام بمحاريبهم فى بيت المقدس ففعل وكانت هذه الفعلة من أشد الضربات على اليهود فلما عظم فى الإساءة حاله وثقلت على جميع قلوب الرعية فعاله. قام عليه الأمير خرياس وقتله فى قصره فى سنة إحدى وأربعين للميلاد أى سنة إحدى وثمانين وخمسمائة قبل الهجرة.

وكان عامله على مصر اوليوس قلاقوس فأساء السيرة وظلم الرعية فكانت أيام ولايته كلها فتناً وبلايا وإحنا وعلى الخصوص فى مدينة الإسكندرية إذ ضيق عليها

وبالغ فى تذليل أهلها وشدّد على من كان بها من اليهود فخرجوا عليه وشقوا عصا الطاعة وثابروا على قتاله حتى خلعوه وقتلوه فسكنت بقتله الفتنة واستقرت الأحوال.

ولما مات قاليغولا تولى الملك بعده قلودس الأوّل وسيأتى الكلام عليه.

(فى الإمبراطور قلودس الأول)

ثم قام بالأمر الإمبراطور قلودس سنة إحدى وأربعين للميلاد أى سنة إحدى وثمانين وخمسمائة قبل الهجرة ولقب بلقب إمبراطور وكان أمر توليته المنصب الملوكى من الأمور العجيبة والصدف الغريبة وذلك أنه لما قتل خرياس قاليغولا هاجت العساكر والأجناد ودخلوا قصر الملك لينهبوا ما فيه من الأثاث والأمتعة فبينما كان أحدهم يفتش على شيء يأخذه إذ عثر على شخص طويل القامة أصلع الناصية مختف وراء الفراش مرتج الجوارح فاقد الحواس فأمسك به الجندى وصاح من الرجل فقال أنا قلودس من آل بيت جرما نيقوس فصاح الجندى على أصحابه هلم إلى قلودس فأحاطوا به وسلموا عليه بالقيصرية ولقبوه فى الحال بامبراطور الرومانيين وحملوه على هودج وساروا به إلى معسكرهم فوضعوه هناك فلما استقر به المكان أفاق وعادت إليه حواسه فبايعه الحرس الملوكى فأنعم على كل واحد منهم بخمسة وعشرين دينارا ليستميلهم إليه ووعد بقية الجنود بأحسن العطايا فصارت هذه الفعلة من ذلك الحين عادة مستمرة ورسماً من رسوم ابتداء التولية للخلافات وصارت سنة متبعة وكان قلودس المذكور مجرداً من المكر والحيلة منزها عن الغدر والأذى ولكنه كان فى غاية الحمق والغفلة ولذلك كانت تلقبه أمه فى طفوليته بأضحوكة العالم وبالصورة الخيالية فإنه كان وهو فى مهده أيضاً مبتلى بداء الهزال فأورثه نحافة الجسم وسخافة العقل ومع ذلك فقد كان ذا باع فى الإنشاء والتآليف فألف تاريخ رومة وقرطاجة وأحسن ضبطه وإحكامه ولما كان عاجزاً عن حمل أعباء الملك وتدبير الأمور سلم إدارة البلاد إلى المعاتيق والموالى وقلدهم أموره كلها مع ما هم عليه من الشرور والقبائح فنبغ منهم اثنان أحدهما اسمه بلاص والثانى اسمه نرجا فكانا أعز وزرائه وأعظم أمرائه وقد تملكا على عقله فكانا يغريانه على ارتكاب الفجور والعدوان وعلى قتل خيار الناس من الوجوه والأعيان وكان له زوجة خبيثة الطوية تسمى (مسالينه) وكانت ممن ينكرن العشير ويكفرن بالكثير واليسير وكانت تبغضه بغضاً شديداً وتميل إلى زواج شاب من الأمراء تحبه فعقدت يوما النيه على قتل زوجها لتولى محبوبها المنصب الملوكى فآنس منها ذلك فقام عليها وقتلها وتخلص

من شرها ومن هذا الحين صحا من سكرات غفلته وداخلته بعض الحماسة والفتوة وعدل عن طباعه الأصلية وتزوج بزوجة أخرى اسمها (اغربينه) وهى بنت جرما نيقوس من نسل أغسطس قيصر فلم تكن فى الخيانة دون الأولى بل تزيد عنها وكان لها من زوجها الأول ولد اسمه نيرون الجبار وكان للقيصر ولد آخر من ضرتها التى ماتت فكانت تغار منه جداً وتحقد عليه وتطمع فى تولية ولدها الملك فعقدت النية على أن تسم زوجها قلودس ودبرت له سماً بطيأ فشربه فلم يمت فى الحال فخافت من ظهور أمرها واستدعت طبيباً اسمه زنفون وكاشفته بسرها فوافقها على ذلك وتقدم للملك فى أنه يسقيه علاجاً لاستفراغ ما فى جوفه وأدخل ريشة مسمومة فى حلقة فكانت سبباً فى تعجيل موته فمات لوقته وذلك سنة أربع وخمسين للميلاد أى سنة ثمان وستين وخمسمائة قبل الهجرة فكانت مدة حكمه ثلاث عشرة سنة كلها محن وشدائد.

وفى أيامه قامت فى مصر فتنة بين أهل الإسكندرية واليهود الذين بها وكانت عظيمة جداً اقتتل فيها الفريقان قتالاً عنيفاً فبادر إلى تسكين الفتنة بالتى هى أحسن ومنح لليهود أن ينتخبوا لهم نقيباً منهم يحكمهم على حسب مالهم من العهود والمواثيق فاستتب بذلك الأمن وحصلت الراحة ، وفى أيامه أيضاً كتب متى أحد حوارى المسيح إنجيله فى بيت المقدس بالعبرانية ونقله يوحنا بن زبدى إلى الرومية وكذلك كتب بطرس رأس الحواريين إنجيله بالرومية ونسبه إلى تلميذه مرقص وكتب لوقا إنجيله بالرومية وبعث به إلى بعض الأكابر من الروم تذكرة.

ولسبع خلت من ملك قلودس المذكور دخلت امرأة من كبيرات الروم فى الديانة المسيحية على يدى شمعون الصفاء فجاءت إلى بيت المقدس لتعزيز جانب الدين ثم عادت إلى رومة وكذلك اتسعت فى أيامه بمصر دائرة العلوم والمعارف وأنشئت فى مدينة الإسكندرية دار للعلوم وتحسنت بها حالة المدارس والمكاتب وعادت إلى ما كانت عليه من علو الشأن: قال بعض الكتاب: ولكن لم يكن اجتهاد العلماء والفضلاء فيها فى هذا الحين بقدر ما كانت الهيئة الحاكمة تجلهم وتحترمهم وبموت قلودس تولى الملك بعده نيرون قيصر.

(فى الملك نيرون قيصر)

ثم قام بالأمر نيرون قيصر تولى الملك سنة أربع وخمسين للميلاد أى سنة ثمان وستين وخمسمائة قبل الهجرة وهو ربيب قلودس الملك فتبناه وزوجه بنته المسماة

اقطاوه وكان أمر تولية نيرون المذكور المنصب الملوكى عجيبا فى بابه وذلك أنه لما احتضر قلودس وكان الطبيب يعالجه فى حالة النزاع أظهرت زوجته اغربينة أم نيرون غاية الجزع وبالغت فى حزنها وتقدمت إلى ابنه من ضرتها المسمى ابريطانيقوس وأخذت تعانقه وتضمه إلى صدرها وتقول وعيناها تذرف الدموع إنك يا بنى على صورة أبيك قلودس الذى لا صبر لى على فراقه ولا سلوان لى عنه إلا بك فلا تفارقنى أبداً ولا تتركنى وحيدة لهذه الهموم وأكثرت من عبارات الأسف والحزن فظن ابريطانيقوس أن الأمر صحيح فلما آنست منه ذلك منعته من الخروج من القصر وأمرت فأغلق الحراس جميع الأبواب والمنافذ وأشاعت بأن الملك قلودس متجه إلى الصحة فلما مات أخفت خبر موته أياما واست فيها الجنود بالهدايا وأتحفتهم بالتحف العظيمة وعملت على تولية ابنها نيرون تخت الملك ومازالت حتى تم له الأمر على ما أرادت ثم أمرت بفتح الأبواب بغتة وخرج نيرون فى وسط جند الحرس القيصرى فتلقوه بالترحيب وسلموا عليه بالقيصرية وبايعوه فى الحال فذهب إلى المعسكر الرومانى وتلا عليهم خطبة تتضمن تشويقهم وإحياء قلوبهم ووعدهم بالإنعامات العظيمة فسلموا عليه بالقيصرية والإمبراطورية الرومانية فلم ير أرباب المجلس بدا بعد هذا كله من مبايعته وكذلك فعل أهل الحل والعقد ثم جهزوا الملك قلودس وشيعوا جثته مع غاية الاحتفال والإكرام.

ولم يكن عمر نيرون إذ ذاك إلا خمس عشرة سنة فحكمت أمه بالنيابة عنه وكانت تظهر عليه علامات النجابة وعلو الهمة وكان لا يأتى أمراً فى صباه إلا بعد استشارة معلميه بوغوس وسناخس وقد استوزرهما فكان الأول منهما ممتازاً بالمعارف والفنون العسكرية مع الشهامة وحسن الاستقامة وكان الثانى يمتاز بذكاء القريحة وقوة الفطنة وحسن السير مع الرعية ومما يحكى عن نجابة نيرون المذكور أنهم عرضوا عليه يوما قضية حكموا فيها على أناس بالموت وطلبوا منه أن يوقع على الحكم فاغرورقت عيناه بالدموع وقال (ليتنى كنت أميا) ومدحه أرباب المجلس يوما فقال لهم (امسكوا عن المدح حتى أستحقه) وكان يظهر من حاله أنه يألف الحلم والعدل ولكنه لم يلبث أن تغيرت أحواله وانعكست أعماله وتبدلت أخلاقه إلى عكس ما كانت عليه فطغى وظلم وتجبر وتغشمر ولم يتدين بدين ما واضطهد النصرانية غاية الاضطهاد وصار يقتل كل من تمذهب بها ورسم بقتلهم فى جميع الإيالات التابعة لرومة فقتل منهم خلقاً كثيراً وقتل بطرس رأس الحواريين وقد كان يومئذ بطرك رومة ومضى على بطريكيته مدة خمس وعشرين سنة وأسباب قتله معلومة فلا داعى لذكرها هنا فقام بعده أريوس بطركا على رومة.

وفى الخامسة من ملك نيرون هذا يعنى فى التاسعة والخمسين للميلاد كانت بعثة مرقس الحوارى أحد السبعين للدعوة بالإسكندرية ومصر وبرقة وبلاد العرب فطاف فى هذه المدن ونادى بالإنجيل وحث وخطب ووعظ فتبعه خلق كثير وكانت ديانة المصريين يومئذ الوثنية وعبادتهم للنجوم والحيوانات كما تقدم بيان ذلك فى محله فدخلت النصرانية فى مصر وأرضها مشحونة بالأهالى عامرة بالسكان يبلغ عدد من فيها اثنى عشر ألف ألف عدا مختلطى الأنساب مابين قبطى بحت وحبشى ونوبى وإسرائيلى الأصل وغيره واتخذ مرقس الإسكندرية مقراً وأقام يدعو الناس فذاق من الشدائد أشكالا وألوانا ومازال يحض الناس ويعلمهم ويقربهم إلى الله تعالى وكان فصيح اللهجة وديعاً متواضعاً فنجحت تعاليمه وكثرت النصارى واتسع نطاق المسيحية وكادت تعم الديار المصرية والنوبة وكان له رفيق اسمه حنانيا ويقال له أيضا (اينايو) فأقامه بطركا بالإسكندرية وهو أول البطاركة بها وجعل معه اثنى عشر قسيسا وأمرهم أنه إذا مات حنانيا البطرك أن يجعلوا عوضه واحداً منهم ويقيموا بدل ذلك القسيس واحداً من الشعب المسيحى يختارونه حتى يكونو أبداً اثنى عشر قسيسا فنمت المسيحية وظهرت وتمذهب بها الكثير من أرباب المناصب العالية والأكابر والأعيان وبعض رجال الدولة فساء هذا كهنة المصريين وأهل العلم بمدينة الإسكندرية ووقعت بين الفريقين مناظرات ومجادلات دينية أياماً طويلة كان الظفر فيها لمرقس وأصحابه فلما كانت السنة الثانية عشرة من ملك نيرون قامت الكهنة وخدام الهياكل والمعابد المصرية وأهل الإسكندرية وأثاروا الفتنة على النصارى وأضرموا نارها وقبضوا على مرقس الحوارى وقتلوه وكان موته غاية فى الشناعة وطافوا بجثته فى جميع الطرق مسحوبة على الأرض ومثلوا بها أشنع تمثيل وتتبعوا النصارى وأفحشوا فى قتلهم والتنكيل بهم فملئوا بجثثهم أكثر الطرقات وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً.

وقتل أيضا نيرون قيصر رئيس كهونية اليهود ببيت المقدس فثار لذلك اليهود على من كان من النصارى ببيت المقدس وقتلوا أسقفهم هناك وهو يعقوب النجار وهدموا البيعة وأخذوا الصليب الذى صلب عليه المسيح والخشبتين اللتين كانتا معه ودفنوهما فى مزبلة إلى أن جاءت هيلانة أم قسطنطين الملك وأخرجتهما كما سيذكر فى محله فولى مكان يعقوب النجار ابن عمه شمعون ثم ثار عليهم اليهود ثانية وأخرجوهم من بيت المقدس لعشرين خلت من ملك نيرون فاجتازوا الأردن وأقاموا هناك فبعث نيرون قائده المسمى وسباسيانوس إلى بيت المقدس وأمره بقتل اليهود الذين كانوا هناك كافة وتخريب البيت فأوى اليهود إلى ثلاثة حصون بنوها

فحاصرهم وسباسيانوس وخرب حصونهم وأحرقها وأقام عليهم سنة كاملة يقاتلهم حتى أذلهم وكاد يفنيهم.

ونزع نيرون أمه من النيابة عنه وخالف مشورة وزيريه واتبع هوى نفسه فاستكبرا الأمر ولكنهما لم يريا بداً من موافقته على ما وطن نفسه على عمله وكانت أمه اغريبينة تحب أن تكون نافذة الكلمة مطاعة الأمر والنهى فى جميع الأحكام الجنائية وغيرها وكانت تخشى جداً أن يبقى ابريطانيقوس ابن ضرتها حيا فينزع الملك من ولدها نيرون فشكت أمرها إلى رؤساء الجند وبالغت فى سوء تصرف ولدها وعجزه عن حفظ صولجان الملك فى يده مادام ابريطانيقوس حيا فوافقوها على ما رأت وصمموا من ذلك الحين على قتل ابريطانيقوس فبينما هو على المائدة يأكل مع نيرون وبعض الأقارب والحشم إذ سقط مغشيا عليه وذلك لأن نيرون وضع له السم فى كأس الشراب وسقاها له فلما رأى الحاضرون سقوطه تفرقوا مذعورين ومن بقى منهم صار مبهوتا ينظر إلى نيرون شزراً أما نيرون فإنه لم يبال بذلك بل اضطجع على فراشه ومد رجليه كأنه لا يعلم سبب موت أخيه وقال لا تعجبوا فإنه مريض من زمن وأن لاشيء فى موته ثم أمر فجهزوه ودفنوه ليلا بغير احتفال وقسم أمواله وأملاكه على الذى اتفقوا معه على قتله ومن هذا الحين أحاط بنيرون أرباب الفسق والعصيان وأصحاب اللهو واللعب والإلحان وقطاع الطريق وخوان الرفيق فكان يلبس فى الليل متنكرا فى زى المماليك ويطوف بأطراف المدينة صحبة هذه الزمرة الشريرة ينهبون الحوانيت ويؤذون المارة وأبناء السبيل فكانوا إذا أحس بهم أصحاب البيوت أو تلك الحوانيت قاموا عليهم وضربوهم فيقع الضرب بينهم ويصيب القيصر منه شيء كثير وربما شجوا رأسه أو أثخنوه جراحا ثم لم يلبث حتى انكشف حاله وعلم الناس بأنه هو الذى يطوف متنكراً ومعه أولئك الأشقياء فاقتدوا به وعملوا على شاكلته فكثر التعدى والسلب والنهب وصارت مدينة رومة فى الليل كأنما هى مدينة قد أخذت عنوة بعد قتال لا يمر فيها أحد إلا ويرجع إلى بيته عريانًا وقد جرح نيرون المذكور فى ليلة جراحاً كبيرة فى قتال اشتبك بينه وبين الأهالى فاحتاط من ذلك الوقت وصار لايطوف إلا ومعه بعض الجند المتنكرة وبعض المصارعين ولم يزل على هذه الحال زماناً طويلاً حتى ضاقت نفوس الرعية منه وتمنوا هلاكه.

ولم تطق أمه الصبر على ذلك ولا على سقوط نفوذها وذهاب كلمتها فأخذت تعمل على ارجاع ما كان لها من السلطة والنفوذ وتسعى خلف إيقاف ولدها نيرون عند حد الطاعة والرضوخ لكلمتها فلما آنس منها ذلك اشتد بغضه لها وصمم على

قتلها وكان من أشد أمرائه فتنة وفسادا الأمير انيقاطوس أمير البحر فكاشف انيقاطوس المذكور على ما فى خاطره من قتل أمه فوافقه ودبر له الأمر بأن أنشأ لها سفينة على شكل عجيب ينفصل منها جزء عن أجزائها الحقيقية ويتصل فى الظاهر بها بحيث لو سقط فى البحر تبقى السفينة بتمامها كاملة لا يخشى عليها من الغرق فلما تم بناء السفينة المذكورة على هذا الشكل أظهر القيصر رغبة زائدة فى عمل عيد هيكل عطارد بمدينة (بايس) التى هى ساحل نابولى وكان له فى هذه المدينة قصر وحمامات ومتنزهات فدعا أمه وأعلمها بذلك وطلب منها أن تصفح وتعفو عما فات فحضرت إليه راكبة على سفينة فاستقبلها فى كبكبة وزينة وأخذ بيدها وعانقها وضمها إلى صدره وبالغ فى ملاطفتها حتى رقت إليه وحنت عواطفها عليه ولبثت عنده اليوم بطوله فلما قصدت الرجوع إلى مستقرها قام معها إلى الساحل وكانت السفينة التى أعدها لركوبها هى التى صنعها انيقاطوس مزينة بأحسن الزينة فأنزلها فيها وعانقها فقبلته وودعته وسارت بها السفينة وهى لا تدرى ما نصبه لها من الشرك وكان المسير فى ليلة مقمرة تحسن فيها الملاحة فلما توغلت السفينة فى البحر انخسف فى الحال مجلسها وانفصل عن السفينة وسقطت الملكة ومن معها من أتباعها والتهمتهم الأمواج وظهرت على وجه الماء إحدى النساء المصاحبات للملكة فصاحت خذوا بيدى أنا اغربينة أم الملك رجاء أن تتخلص من الغرق فضربها أحد الملاحين بمجذاف على أم ناصيتها فقتلها أما اغربينة أم الملك فإنه لم يحصل لها من سقوطها فى البحر إلا جرح خفيف وكانت تحسن السباحة والعوم فسبحت وجاهدت حتى وصلت إلى بعض سفن للتجارة كانت راسية على مقربة واستغاثت فعرفوها وأخرجوها وذهبوا بها إلى قصرها سالمة وقد علمت بما كان دبره لها ولدها من الهلاك ووجدت أن كتمها لهذا السر أولى وأحسن وتدبرت فى أمرها وكتبت لولدها تقول كن مطمئنا يا بنى فقد نجوت بالألطاف الإلهية من الغرق وتخلصت من الموت فلا يشغلنك شاغل من جهتى فخاف نيرون من ذلك جداً وعلم أنه قد خاب أمله وخشى أنها إن عاشت أثارت عليه الفتن وأقامت الإحن وأغرت الجنود واستمالت القواد وأرباب الحلل والعقد فسعى فى طلب قتلها على أى حال كان وألح فى ذلك على كثير من أرباب الفساد فبرز له صاحب الحيلة الأولى وتعهد بقتلها فأقسم له الملك إنه إن فعل ذلك ليكافئنه أحسن مكافأة فقام انيقاطوس وغاب ليلة وعاد إلى نيرون فى الصباح وقد قتلها فلما بلغ نيرون خبر قتلها فرح فرحاً ما عليه من مزيد وأشاع أنها قتلت نفسها ومن ذلك الحين صفا الوقت لنيرون وخلا له الجو ففعل بالبلاد وأهلها ما لم يفعله غيره من قبل.

وكان له زوجة عفيفة حسنة الأخلاق حميدة السيرة اسمها (أوقطاوية) قل أن يوجد مثلها فى الخلق والخُلق فلم ينظر نيرون إليها ولم يراع لها حقا وتعلق بامرأة اسمها بوبه كانت من العاهرات وشغف بحبها فعقد عليها وقصد الخلاص من أوقطاويه وأمر بقتلها فسيقت إلى القتل وماتت شهيدة الغدر والخيانة وكان فى ساعة قتلها عاكفاً على اللهو مشغولاً بما فى محافل اللعب والقصف وقد اتخذ له ملعباً عظيما ضرب عليه من جميع الجهات الأسوار فكان يأوى إليه بالليل والنهار ويجرب نفسه فى اللعب والغناء والرقص وسوق العجلات ويجمع إليه خدمه وحشمه فيلعب أمامهم بلا حياء ولا خجل حتى برع وتفنن فى جميع هذه الألعاب وكان يركب الإبل ويعدو عليها ويجمع الحيوانات للهراش ويعمل الولائم ويدعو إليها الخواص والعوام وينفق الأموال بلا حساب فأوى إلى ميدانه الغوغاء وسفلة الناس الذى لا هم لهم سوى الكسل وكانت جدران هذا اللعب مطلية بالذهب الإبريز مكسوة بحلل السندس المطرز وعمل الأشراك والشباك التى كان يصطاد بها من القصب المصنوع من الذهب والفضة وكان إذا ذهب إلى اللعب سار بألف عربة تجرها البغال المطبقة باللجين (الفضة) وكان يصحبه ساسة الخيل والسعاة متحلين بالملابس مزدانين بأنواع القماش وكان إذ لعب أطلق فى ميدان اللعب أصناف البخور الثمينة كالمسك والعنبر وغير ذلك من أنواع السرف والتبذير.

وبينما هو عاكف على اللهو فى ذات يوم إذ وقع بمدينة رومة حريق هائل أخذ يدمر المدينة وسرى فى أطرافها أسرع من البرق فأهلك خلقاً كثيراً جداً فضج الناس وخرجوا على وجوههم هائمين وكان كل من اقترب لإطفاء شيء من تلك النيران عاد خائفاً مذعوراً إذ كان يسمع صوتاً هائلاً مرجفا يتهدده ولايرى شخصه وكان الناس يبصرون شعل النيران الملتهبة ترمى فى المدينة وبها أصوات تصيح نحن مأمورون بذلك قيل وكان نيرون فى هذا الحين ينظر الحريق على بعد ويتفرج عليه مستحسناً ذلك المنظر الهائل وهو إذ ذاك بزى اللاعبين عند نشد الأشعار التى قيلت فى رسوم ترواده ومعالمها وأطلالها بعد خرابها وهو يتغنى بها متمثلا فلما رأى أن الحريق قد دمر البيوت وأهلك الأمتعة وأذهب الأموال وقد خرج الناس على وجوههم هائمين لا مأوى لهم ولا زاد جمع فى ميادين تعليم الجند وفى غيرها من المحال الأخرى جميع الناس وأباح لهم سكنى بساتينه وبنى لهم الدور والمساكن بأسرع ما يمكن وفرشها لهم وفرق عليهم بعض الأثاثات والأدوات المنزلية وأرخص أثمان الحبوب والأقوات كل هذا ليستميلهم إليه فلم يجد نفعاً إذ اتهموه بفعل الحريق

وتدمير البلد حيث شرع فى بناء قصر مزين بالذهب والأشجار النفيسة وكان قد رسمه متسعاً وأدخل فيه البساتين والحدائق والمزارع والبرك والأنهر والغابات والرياض والحياض فلذلك اتهموه بفعل هذا الحريق فلما آنس منهم ذلك وكان يكره النصرانية وأهلها كما تقدم القول أشاع أن هذا الحريق إنما هو صادر من النصارى الذين تظاهروا بدين المسيح فى رومة وتتبعهم بالأذى وأنواع التعذيب وبالغ فى ذلك جدا فكان يأمر بهم فيلبسون جلود البهائم ويطرحون للكلاب فتنهشهم وكان يأمر بصلب بعضهم ويأمر بدهن جلود بعضهم الآخر بالدهون والزيوت والنفط والقطران حتى إذا أظلم الليل أطلقوا فيهم النيران وأوقدوهم كالمشاعيل ليستصبحوا بهم والعياذ بالله.

وكانت هذه الفعال الشنيعة تفعل فى حدائق نيرون وبساتينه وقت الألعاب الميدانية وكان يشاهدها بعينى رأسه ويتدرج بين الناس فى زى سائس أو فى صورة أخرى ليعلم ما يقولون وشدد الوطأة على النصارى ومات فى خلال هذه الفتنة العظيمة بطرس رأس حوارى المسيح وبولس الحوارى قتلا بعد أن جاهدا فى دين الله ودعيا الناس وصنعا العجائب والآيات العظيمة وقد استشهد بطرس مصلوبًا منكس الرأس كما طلب كى لا يتشبه بالمسيح وكان استشهاد بولس بضرب عنقه وقد تلطفوا فى قتله لكونه رومانيا ولم يزيدوا فى تعذيبه كما فعلوا ببطرس.

ولما عادت رومة إلى رونقها وبهجتها بعد الحريق الذى دمرها قامت نار الفتنة فى داخليتها وخرجت الرعية على نيرون وطلبت إبطال الألعاب والملاهى وهدم الميادين العمومية وقام أرباب المجلس والأمراء والأعيان بل والنساء وتواثقوا على ذلك وتحالفوا على كتمان الخبر حتى يقوموا عليه قومة واحدة فلم يلبثوا أن ظهر سرهم وانحل عقدهم فقام نيرون وقبض على الأحزاب وبالغ فى تعذيبهم بأنواع العذاب وكان من أعيانهم رجل اسمه (سوبريوس) فلما أتى به أمام نيرون قال له بقلب ساكن ترى أيها الملك من يصدق فى خدمتك من هؤلاء الجنود إلا بقدر ما تريه من المحبة وما تفعله معه من المعروف أما أنا فقد وطنت النفس على بغضك من اليوم الذى قتلت فيه أمك ومن وقت قتلك زوجتك ومن يوم أن صرت عربجيا ومصارعا ومغنيا ومحرقا لمدينة رومة العظمى فقال نيرون خذوه عنى واقتلوه فقتلوه فى الحال بلا مهل.

وقد عذب بعض من اتهمهم بالفتنة من أهل الفضل والآداب تعذيباً شديداً فقطع عروقهم وفتح أوعية دمهم ولازال يستفرغه حتى ماتوا واتخذ الغناء وضرب الألحان واللعب فى الأفراح العامة حرفة فإنه لما بدأ بإنشاء الأشعار الحماسية وعزم

على الظهور بمظاهر أصحاب هذا الفن قام عليه أهل هذه الصناعة وطلبوا منه الامتحان فتقدم فى الميدان العام بزى لاعب وعلى هيئة مصارع وفى صورة مغن ووقف موقف الخاشع ثم جثا على ركبته بعد أن غنى وتنقل من طبقة إلى أخرى فهلل له المتفرجون وفرحوا به وتقيد اسمه فى دفتر أهل هذا الفن وكان كما تقدم القول شديد الحرص على أن يرى ميدان اللعب فى أوقات اللعب ساكنا مرتبا لا لغط فيه ولا تشويش فاتفق أن الأمير وسباسيانوس الذى ولى بعده حينا منصب الملك كان فى ميدان اللعب فتغلب عليه النعاس وظهر منه غطيط فغضب نيرون وأمر بقتله ولولا شفاعة من لا ترد شفاعته لقتل وكذلك (بوبه) زوجته التى كان يحبها كثيرا قالت له يوما على سبيل التهكم إنك لاعب من أمهر اللاعبين فغضب وضربها فى بطنها برجله ضربة أزهقت روحها وماتت فى الحال وهو لايتحرك من موقفه ولم يتأثر.

وقصد نيرون المذكور المسير إلى بلاد اليونان فسار من رومة يريد بلادها فخطر على باله أن يرى هل لرجالها وأرباب الفن بها براعة فى فن الألحان فنزل بمدينة قورنتية ومع أعوانه يحملون المزامير والعيدان وكان يونان هذه المدينة وضواحيها لهم شهرة عظيمة بهذه الفنون فانتصر عليهم نيرون نصرة عظيمة وأنزل تماثيل فحول رجالهم الذين كانوا اشتهروا فى سالف الأعصار بالسبق فى هذه الألعاب الأولامبيقية، والألعاب الأولامبيقية نسبة إلى أولامبيقة ، وهى بلدة ببلاد اليونان كان بها موسم يجتمع إليه الناس فى كل أربع سنين كسوق عكاظ عند العرب وفيه تكتسب الامتيازات اليونانية وبهذه المواسم المتكررة فى كل أربع سنوات يؤرخ اليونانيون وقائعهم فيقولون حادثة كذا وكذا وقعت فى الأولامبيق الأول عبارة عن أربع سنوات فكان تنزيل نيرون لتماثيل فحول اليونان تحقيراً لهم ولكنهم صانعوه وصفقوا له نفاقا وكانت هذه الواقعة بمدينة قورنثية بإقليم اخاما وكانت هذه المدينة إذ ذاك تحت استعباد الرومانيين ورقهم فأعتق لذلك إقليمهم وأعاد اليه حريته القديمة وذلك سنة سبع وستين للميلاد أى سنة خمس وخمسين وخمسمائة قبل الهجرة ثم عاد إلى رومة وقد أخذ منه الطيش والإعجاب مأخذه فلما دنا من أسوارها أمر فهدموا له جانبا من الأسوار فدخلها من هذا النقب راكبا عجلة تجرها خيول بيض وهو متشح بحلة أرجوانية ملوكية وخوذة مرصعة بنجوم فضية وذهبية وعلى رأسه تاج النصرة اليونانية المصنوع من أغصان الزيتون البرى وفى يده إكليل آخر من شجر الغار وكل هذه علامات على الانتصار وأمامه جماعات حاملون ألف إكليل وثمانمائة

إكليل مكتوب عليها أسماء القدماء الذين نالوا هذه الأكاليل وامتازوا بها وحول عجلته المغنون وهم يشيدون بمدحه وأمامه المباخر والعطريات يعبق شذاها وأناس كثيرون ينثرون الأزهار واللآلئ فى هذا الموكب وأمر أن يصنعوا تماثيله ويصوروه على هيئة أرباب الطرب والألعاب وأن توضع هذه التماثيل فى الميادين العمومية وأن يرسم بهذا الوجه على النقود والسكة واشتد به الهوس إلى درجة أنه أمسك عن كثرة الكلام والتزم الصمت خوفاً على صوته من البحة وقلل الكلام مع جنده وخدامه وعبيده.

فلما كثرت شروره واشتدّت على الرعية مظالمه صمموا على قتله وكان من جملة الأقاليم الرومانية إقليم فرنسا القديم الذى كانت أهله تسمى الغالية وكان على هذا الإقليم نائب يسمى (ونديش) من ذرية ملوك الفرنسيس فحقد على نيرون وأبغضه بغضاً شديداً وناواه وقصده بالحرب وعرض تقليد مملكة رومة على نائبها أسبانيا المدعو (غلبا) فلما أحسن نيرون بذلك استعان بقائد جنود جرمانيا وركب على ونديش المذكور وقتله وتجهز بعد قتله إلى الركوب على غلبا نائب أسبانيا والبطش به أيضا فعاقه ما بلغه من مبايعة مجلس رومه لغلبا المذكور وتسلمه صولجان الملك فأحجم قائد جند جرمانيا المذكور عن معاونة نيرون وعن القيام إلى أسبانيا أما نيرون فإنه لما أيقن أنه لا محيص له عن الهلاك تقاعس عن الحظوظ وانكف عن الشهوات وهرب من رومة مع أربعة من عتقائه ونزل بقصر له فى الخلاء يبعد عن رومة بعض فراسخ فأشار عليه بعض أصحابه أن يقتل نفسه قبل أن تدهمه الأعداء فيقتلوه فلم يجسر على ذلك لأنه كان يكره الموت وكان لا يكف عن البكاء والنواح ويقول كيف يصح قتلى والعالم بأسره فى حاجة إلى.

وبينما هو على هذا الحال من البكاء والنواح إذ سمع صهيل الخيل وصرير سنابكها وقد حضر الفرسان وأحاطوا بالقصر وضيقوا عليه فقال لأصحابه هيا بنا فقد أوجبت الشجاعة على أن أقتل نفسى حين لا حيلة لى فيما دون ذلك وهم بقتل نفسه وشجعها فلم يقدر وكان كلما رفع يده بالخنجر ارتعشت وعادت إلى جانبه فكان من بعض أصحابه أن أمسك يده وهى قابضة على الخنجر ووضعها على منحره ليشجعه فتجلد لذلك وطعن نفسه فأزهقها فكان موته فى سنة ثمان وستين للميلاد أى نحو سنة أربع وخمسين وخمسمائة قبل الهجرة وبموته وانقطاع حكمه انقطعت عائلة أوغسطس قيصر وتم الأمر للقيصر غلبا كما سيذكر فى محله.

قال بعض أهل التاريخ: ومع ما كان عليه نيرون من الفسق والطغيان وانغماسه

فى دناءة اللهو واللعب وغير ذلك من قبيح الفعال كان لا يختار نوابه وعماله فى البلاد التابعة لمملكته إلا من أهل الفضائل والكمالات فكانوا جميعاً يحسنون سياسة البلاد وتدبير الجمهور وكان حريصا على معرفة الحقائق وكشف تفاصيل الصغائر والكبائر وقد كان استعمل على مصر الأمير بلبيلوس فأحسن فيها الصنيع وأصلح أراضيها وأخصبها بتدبير النيل ووسع نطاقها فعمرت وزادت رونقاً وبهجة وعمت الراحة ربوعها وانكف أهلها عن المشاغبة وعلى الخصوص منهم يهود الإسكندرية وكان لنيرون المذكور اعتناء زائد بتحسين أحوال مملكة مصر ورغبة كبيرة فى طلب معرفة منبع النيل فبعث من الرومانيين جماعة لاستكشافه فساروا وخرقوا جوف السودان وعادوا بما عرفوه من أحوال تلك الأصقاع وموقعها الطبيعى ـ وحكى أن أحد نبلاء الرومانيين اجتمع باثنين من رجال هذه البعثة بعد رجوعهم فحدّثاه بهذه العبارة وصلنا بعد سياحة طويلة إلى ملك السودان فأعطانا الزاد والراحلة وأمدنا بالذخائر وأعاننا على هذا السفر الطويل بأن أوصى علينا الملوك المجاورة لبلاده فأباحوا له الجولان فى بلادهم فسرنا حتى انتهى بنا المسير إلى محل ذى بحيرات وبطائح وبرك يصعب السير فيها حيث هى مجهولة المعالم مملوءة بالأشجار المتكاثفة، قالا: وقد وجدنا هناك صخرتين عظيمتين تخرج عندهما المياه بغاية القوّة فما علمنا هل هما منابع النيل أو أن منابعه بعدهما أو أن هذين المنبعين هما فى طريقه ومنبعه الحقيقى بعيد عنا ا هـ.

وكان نيرون يحب مملكة مصر محبة عظيمة فقصد الحضور إليها وتجهز لذلك وكان إذ ذاك عامله عليها طقسوس أخاه من الرضاع فأرسل إليه يعلمه بقدومه وأرسل رسلا يجهزون ما يليق باستقباله فجهزوا ما لزم وعملوا له حمامات خصوصية لغسله فدخلها طقسوس ليتفرج عليها فأعجبته فاغتسل بها فلما علم نيرون بذلك أمر بقتله ولم يراع أخوة الرضاع ولا حقوق النيابة وحين أشرف نيرون على حد الارتحال إلى مصر حلت فى مدينة رومة الفتنة الداخلية وقامت على ساقها فقتل فيها كما تقدم القول فكانت مدة ملكه نحو ثلاث عشرة سنة وخلفه إسليقيوس غلبا المتقدّم ذكره.

(فى الملك إسليقيوس غلبا قيصر)

ثم قام بالأمر إسليقيوس غلبا قيصر بويع بالملك سنة ثمان وستين للميلاد أى سنة أربع وخمسين وخمسمائة قبل الهجرة عقب موت نيرون وانقراض عائلة أوغسطس قيصر وكان غلبا المذكور من عائلة شهيرة بالحسب والنسب بين عائلات

إيطاليا وكان شيخاً كبيراً معمراً نحو ثلاث وسبعين سنة وكان سبب ارتقائه هذا المنصب أن جميع الجنود الرومانية اجتمعوا وتشاوروا بينهم فى أمر تولية ملك عليهم من غير مدينة رومة فأجمعوا أمرهم سرا على انتخاب غلبا هذا وكان موسرا بالمال بخيلاً صعب الأخلاق مدققا فى الإدارة والتدبير مشدّداً فى الصرف والإنفاق لا يلائم طبعه طبع الرومانيين فى الكرم ولم تكن رغبة العساكر فى توليته إلا ليعطيهم من العطايا والمرتبات عوائدهم التى عودهم عليها من سلف من ملوكهم فصارت عندهم رزقا لا مقطوعا ولا ممنوعا فلما ارتقى المسند واستقر به أمسك عن الإنعامات المعتادة للعساكر المنتخبة وغيرهم فطالبوه بذلك فقال إنى أختار عسكرى أحسن اختيار ولا يجمل بى أن أشترى خدمتهم بدرهم ولا دينار فأسكتهم ثم قبض على وزراء نيرون الملك وعاقبهم وخلعهم واستوزر غيرهم وشدّد عليهم بالاقتصاد والتزام طرق الحزم وعدم الإسراف فى الأموال فاعملوا فضيقوا على العساكر وقتروا عليهم غاية التقتير فشكوا من ذلك فلم يلتفت إليهم فركبوا عليه وقتلوه وقبضوا على وزيره المدعو بسقون وقتلوه أيضاً وطافوا به فى شوارع المدينة ومثلوا به تمثيلا.

وكان بمدينة رومة رجل من عائلة قديمة ماجدة يبسط للكرم يده ويمد للشجاعة ساعده صاحب اسمه مرقوس أوطون وكان مشهوراً بسعة الإنفاق مثقلاً بالديون للبذل فى مواساة الرفاق فاتفق الأمراء والعساكر على توليته المنصب واتحدت كلمتهم على ذلك فولوه فكانت مدّة ملك غلبا المذكور سنة واحدة فقط.

(فى الملك مرقوس أوطون قيصر)

ثم قام بالأمر مرقوس أوطون قيصر بويع بالملك سنة تسع وستين للميلاد أى سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة قبل الهجرة وريثما استقر به المنصب وبايعته رومة والديار المصرية كانت جنود الرومانيين فى بلاد جرمانيا قد بايعت أيضا ويطليوس وهو إيطالس الذى هو قائدهم فانقسمت لذلك الدولة وفشل أمرها وقامت بين الفريقين حرب هائلة واجتمع الجمعان واصطف الفريقان فانهزم جماعة أوطون وانتصر أصحاب إيطالس فلما علم أوطون بانهزام أصحابه دخل مخدعه وقتل نفسه فكانت مدة حكمه ثلاثة أشهر لاغير واستقر المنصب للقائد إيطالس المذكور وفى أيام أوطون على قصرها ضربت السكة باسمه فى ديار مصر إذ كانت هى أول من بايعه ونقشت اسمه على بعض المبانى العمومية قال بعض الكتاب وهو باق إلى الآن دون سلفه غلبا قيصر وخلفه إيطالس إذ لم يوجد لهما اسم بها ولا رسم وقد استعمل على مصر طبريوس إسكندر اليهودى فطالت مدّته وسيأتى الكلام على وسباسيانوس قيصر الذى مات فى أيامه اينانو ثانى بطاركة الإسكندرية.

(فى الملك إيطالس قيصر)

ثم قام بالأمر إيطالس قيصر ارتقى المنصب الملوكى فى اليوم الذى قتل فيه أوطون الملك فى سنة تسع وستين للميلاد أى أواخر سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة قبل الهجرة فلما استقر به المنصب ذهب إلى مقتل أوطون الذى قتل فيه وأظهر الشماتة والفرح وقال لقواد عساكره إن جثة العدو المقتول هنا لا يزال يشم منها على طول الأزمان وتداول الأيام رائحة طيبة فدل ذلك على خسته وقلة مروءته ولؤم طبيعته إذ قصد بذلك أن هزيمة أوطون ستكون سببا فى تنعيمه وتلذذه بالمطعم والمشرب والانهماك فى اللذات والشهوات الحيوانية وكان إيطالس المذكور نحيف البدن ضاوى الجسم شره النفس يقضى أكثر أوقاته فى الجلوس على الطعام وباقى ساعات يومه فى الاشتغال بجلب الأطعمة النادرة العزيزة الوجود من الأقطار الشاسعة والبلاد البعيدة وقد أحضر له أخوه فى يوم واحد ألفى سمكة وسبعة آلاف طائر من أغرب الطيور وأندرها وجودا وطبخها له وأحضرها على مائدته ليشكره على ذلك فاستخف بها إيطالس وبالغ فى السعى حتى تسنى له أن جلب أكثر من ذلك وأعظم إظهارا لاقتداره وعلو نفسه.

ولما لم يكن له هم سوى بطنه وقد ترك أمور البلاد وشئون المملكة غير ناظر إلا لإشباع جوفه قامت عليه الرعية والوجهاء والأعيان ونادوا بخلعه فوافقتهم العساكر الرومانية والإيالات المشرقية والديار المصرية وأجمعوا على مبايعة الأمير وسباسيانوس القائد الشهير فلما أحس إيطالس بذلك أمر قواده بقتال وسباسيانوس والأحزاب فالتقى الفريقان واقتتلا قتالاً عنيفاً فانهزم أصحاب إيطالس وولوا مدبرين وأتى له الخبر بانكسار أصحابه وهزيمتهم وكان نائماً تحت ظلال الأشجار كالبهيمة السائمة فلم يتحرك ولم تأخذه آخذة من الغم فلم يشعر إلا وجنود وسباسيانوس قد احتلت رومة فهرب عند ذلك واختفى فى بيت لأحد حجابه فهجموا عليه وأخذوه ثم ساقوه إلى أحد الميادين العامة وضربوا عنقه فى ليل ذلك اليوم فكانت مدة حكمه ثمانية أشهر أنفق فيها فى مطبخه ما قيمته نحو مائتى ألف ألف درهم ولم يأت فى هذه المدة بشىء غير التغالى فى جلب المآكل النادرة الوجود من البلاد البعيدة فسبحان من أودع فى كل قلب ما شغله.

(فى الملك وسباسيانوس قيصر)

ثم قام بالأمر الملك وسباسيانوس قيصر بويع بالملك فى اليوم الذى قتل فيه

إيطالس قيصر سنة تسع وستين للميلاد أى نحو سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة قبل الهجرة وكان سبب توليتـه هذا المنصب هو أن السلطة الرومانية منذ أن صارت ملكية إلى هذا الحين كان قد مـضى عليها خمسون سنة وهى محـافظة على ما كان لها من العز والفخر وبعد الكلمة ثم مالت بعد ذلك بتعاقب القياصرة الذين لا رأى لهم ولا حزم عندهم إلى الانحطاط والضعف وتنازلت عن درجتهـا القديمة وعن رفعة الشأن فتلاعب بها أخصامها داخلاً وخارجاً فكانت دولة فارس تغير على ملحقاتها المشرقية الكرة بعد الكرة وكان اليهود من رعـاياها فى فلسطين يعتقدون أن حكم دين المسيح قد آن وقته وأن لابد من زعزعة أركـان الدولة الرومانية عاجلاً أو آجلا فكانوا لذلك لا ينكفون عن القيام وإثارة الفتن ويرفعون راية العـصيان ويقاتلون ولاة الإمارة قصد التخلص وكانت الإيالات الأخـرى تحاول مثل ذلك وترغب فى الاستقـلال وقد قام الأمير قيووبليس الفلمنكى وتحزب مع إيالة جرمانيا وطالب الدولة الرومانية بانفصال الإيالة الغالية ومايتبعها وكـذلك قام غيره من بقية الإيالات حتى كادت الدولة تنحل وتتمزق وكان فيـها عائلتان شهيرتان بالمجد والبأس والكلمـة إحداهما تسمى العائلة الغلوية والثانية تسمى العائلة الأنطونونية فاجتهدتا فى رفع شأن الدولة وإحياء كلمتها وأعادتا ما كاد يذهب من رونقها وعقـدتا الخناصر على ذلك وكان وسباسيانوس هذا رأس العائلة الغـلاوية وكبيرها ولكنه لـم يكن صاحب مظهر بل كان يألف الخـمول ولذلك لم تكن شهرته واسعة ولا صيته بعيداً إذ كان جده من أحد ضباط الجنود فى خدمة بومبـيوس وكان أبوه صيرفيا وأمـا وسباسيانوس المذكور فـقد كان بطلا باسلا ومقداما فـاضلا له الحظ العظيم فى الفضائل العسكرية والنصـيب الوافر فى المعارف الملكية وكان عـصامياً لا عظاميـا ولكن كان فيه بعض الشح والبـخل وكان له مودة كبـيرة ومداخلة مع طبيـاروس الإسرائيلى نائب مصـر فلهذه الأسبـاب كلها وبغض الرعية فى إيطالس قيصر توسط طبياروس نائب مصر فى مبايعته وخلع بيعة إيطالس وحمل ديوان الإسكندرية على الاعتـراف بولاية وسباسيانوس المذكور وسـبق جميع دواوين الإيالات الرومانية فى ذلك فبايعه وتم لوسـباسيانوس الأمر ولكنه لم يحفظ هذه الفعلة لطبيـاروس بل أنكرها وجازاه عليها بقتله إذ لـم يمض على توليته الملك إلا سنتان حتى أمـر بقتله وولى مكانه على مصر لويوس وذلك سنة سبعـين للميلاد أى سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة قبل الهجرة.

ولما آل الأمر لوسباسيانوس المذكور ضاعف الخراج وزاد العوائد وجاوز الحد فى ضرائب الأمـوال وإحداث المكوس التى لم تكن قبل عـهده وبلغ من طمعـه أنه كان

لايستحى أن يقاسم خدمه وحشمه وأتباعه فى الأموال المستفادة لهم من الشفاعات وكان لا يقيم عماله إلا من المشهورين بالطمع والبخل والشح فإذا استغنى أحدهم مال عليه وصادره واستصفى ما عنده وكان يشبه عماله بالأسفنج ويقول أن الأسفنج إذا عصر خرج ما فيه من الماء فكذلك الولاة والعمال وكان مع ذلك حسن التدبير عظيم الرأى مسموع الكلمة قوى السلطان شديد البأس فى القبض على زمام الحكومة وسد أبواب خللها فأحبه الرومانيون كثيرا ومالوا إليه وفرحوا به فزاد همة وإقداما وأكثر من الإصلاحات النافعة والأعمال الجسيمة فازدانت به أيامه وافتخرت به أحكامه ثم نظر إلى الفتوحات والغزوات فغزا بيت المقدس وفتحه واستولى عليه بعد قتال مع اليهود عنيف جداً وكان أقام ولده طيطوس على حصاره وعاد هو إلى إيطاليا فضيق عليه وشدد حتى أخذه عنوة وهلك فى هذه الواقعة من اليهود مائة ألف نفس بالقحط والأسر فكانت هذه الحرب تمام تخريب بيت المقدس ونهايتها كما أنذر المسيح رسله حيث قال لايبقى من هذه المدينة حجر على حجر فهكذا كان ومن هذا المكان تفرق شمل اليهود فى الآفاق وتمزقوا كل ممزق وانتشروا فى الأقطار وتفرقوا أيدى سبأ شرقاً وغرباً وانقرض ملكهم ولم يقم لهم بعدها قائمة فى شام ولا مصر ولا عراق.

ولما افتتح طيطوس بيت المقدس وظفر باليهود وقهرهم عاد إليه جميع النصارى الذين كانوا عبروا الأردن وبنوا كنيسة به واستوطنوا فيه آمنين مطمئنين فكان الأسقف فيهم يومئذ سمعان ابن عم يوسف النجار خطيب مريم أم يسوع المسيح وهو الثانى من أساقفة القدس.

ومع ما اتصف به وسباسيانوس الملك من حسن السياسة واشتهر به من العدل فإن مصر لم تسلم فى أيامه من الجور والعسف بما جدده فيها من المغارم والمكوس التى لم تكن من قبل ووكل بجمعها أرباب الخيانة من أعوانه فكانوا لا يرعون للمصريين إلا ولا ذمة ولا يرحمون فيها ضعيفا فشكوا أمرهم لوسباسيانوس وتظلموا فلم يقبل منهم صرفا ولا عدلا فكانت شدة عظيمة للغاية.

ومرض وسباسيانوس مرضاً شديداً جداً فكان يتجلد ولا يتأوه من علته وطال مرضه مدة فلما احتضر دخل عليه كاهنه فقال له وسباسيانوس معرضا بمعتقد الرومانيين قد آن وقت تقديس نفسى بالروحانية ونظمى فى سلك الأرواح العلوية وكانت عادة الرومانيين أنهم إذا مات ملكهم روحنوه ونظموه فى سلك العلويات وعدّوه فى عداد الروحانيات فلما شعر بخروج روحه من ضلوعه تجلد وتوكأ على

يدى زوجته واستند وقام من فراشه على أقدامه وقال ويحك يازمان يجمل بالقيصر أن لا يموت إلا قائماً فخرجت روحه لوقته وله من العمر تسع وستون سنة وذلك سنة تسع وسبعين للميلاد أى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة قبل الهجرة فكانت مدة حكمه عشر سنين وتولى بعده ابنه طيطوس وكان فى أيامه المتولى أمر البطريكة بمدينة الإسكندرية حنانيا ثانى بطاركتها بعد مرقس الحوارى كما تقدم الكلام عليه فى محله ولم يحصل فى أيامه للنصرانية أمر يذكر.

(فى الملك طيطوس قيصر)

ثم قام بالأمر ابنه طيطوس قيصر بويع بالملك سنة تسع وسبعين للميلاد أى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة قبل الهجرة وكان قبل توليته لايعهد فيه إلا القسوة والجبروت والسفاهة والإسراف ووضع الأمور فى غير موضعها لاسيما ما بدا منه عند حصار بيت المقدس وما فعله من كثرة القتل وإراقة الدماء والأسر والنهب حتى قيل أنه عقل جميع الخوارج الذى كانوا فى نواحى بيت المقدس مع الأسرى وكان يلقى منهم كل يوم للسباع فريسة إلى أن أفناهم فلما صعد على سرير الملك سلك مسالك العدل والرشد وحسنت حاله وحمدت خصاله وحكم بالعدل والإحسان وقرب منه أهل الفضل وصلحاء الناس وكان عالماً عاملا فهامة عارفاً باليونانية واللاطينية وكان ملازماً دائما للخير مخالطاً للناس غير محتجب عن أصحاب الحوائج وطرد من ديوانه بطانة السوء وأهل السخرية وتنزه إلا عن معاشرة أرباب الفضائل فأحبته الرعية حباً شديداً ولقبوه بنعيم الدنيا.

ويحكى أنه مضى عليه يوم ولم يعمل فيه عملاً صالحاً لرعيته فصاح فى الليل قد مضى يومى هذا سدى فوا أسفى واحزنى، ووقعت فى أيامه حادثة انفجار بركان إيطاليا أى جبل النار المسمى (وزوف) وكان انفجاره عقب زلزال عظيم جداً وانفتحت منه فرجته فصارت تقذف المواد الملتهبة والرماد الغزير حتى غير الفضاء واغبر شكله وكان على مقربة منه مدينتان عظيمتان إحداهما تسمى (هرقولانوم) والثانية تسمى (بومبايس) فوصل إليهما ما قذفه هذا البركان من المواد الجمرية والرماد وتراكمت عليهما هذه المواد حتى أغرقتهما وغطتهما وكان فى هذا العهد (بليابس) الأكبر الحكيم الطبيعى حيا فذهب ليستكشف حقيقة هذه المواد وأسباب هذا الحادث الغريب ودنا من البركان فهلك ولم يبق له من أثر قلت ومازال هذا البركان يهيج إلى يومنا الذى نحن فيه ويقذف ما فى جوفه من المواد النارية.

وبعد حدوث هذا الحادث بنحو السنتين مرض طيطوس الملك بالحمى فدخل

الحمام فمات فيه فجأة وذلك سنة إحدى وثمانين للميلاد أى سنة إحدى وأربعين وخمسمائة قبل الهجرة فكانت مدة ملكه سنتين اثنتين وشهرين وكأنما كان ظهوره فى الدولة الرومانية ليتم ما أنذر به المسيح من خراب بيت المقدس وليكون قدوة للملوك الرومانيين فى التحبب إلى الرعية فقد كان عاقلاً متواضعاً لا يحب العظمة ولا يميل إلى التفاخر يذهب بنفسه بدون خدم ولا حشم إلى حيث أرباب المجلس ليستشيرهم فى أمور الدولة واحتياجات الرعية والبلاد ويذهب وحده إلى الميادين العامة بين الأهالى على اختلاف طبقاتهم لسماع المواعظ والخطب الأدبية وكان يحب رعيته جداً وهم يحبونه حباً شديداً فلما مات خلفه أخوه دوميطيانوس.

(فى الملك دوميطيانوس قيصر)

ثم قام بالأمر أخوه دوميطيانوس قيصر بويع بالملك يوم موت أخيه طيطوس سنة إحدى وثمانين للميلاد أى سنة إحدى وأربعين وخمسمائة قبل الهجرة ولم يستقر به المنصب حتى ظهر للناس انه هو الذى قتل أخاه طيطوس بالسم مع أنه كان قبل توليته يظهر الأدب ويتظاهر بطيب الأخلاق وحسن السيرة والرفق ولين الجانب وغير ذلك من المظاهر الكاذبة فلما قبض على زمام الملك عاث وظلم وطغى وتجبر فكان أشبه بنيرون الطاغية فى الميل إلى اللهو واللعب والمصارعة والتولع بسفك الدماء والجراءة على قتل النفوس البريئة. قال بعض أهل التاريخ: وكان إذا لم يجد من يقتله من الناس اشتغل بنخس الذباب حتى لايخلو طرفة عين من إذاقة خلق الله طعم العذاب وكان شديد الجبروت يخترع للعقوبات طرائق متنوعة لم تخطر على قلب بشر وكان إذا أراد قتل إنسان فى غده أحضره عنده ليتناول معه الطعام وبالغ فى إكرامه، وكان له قائد ماهر فى الحروب اسمه إغريقولا فسيره لغزو الإبريطانيين الذين هم الإنكليز فحمل عليهم وغزاهم بعسكره وانتصر عليهم انتصاراً كبيراً وسخرهم للرومانيين وعاد إلى رومة ومعه ما لا يقدر من الغنائم وخلق كثير من الأسرى فلما دخل رومة وهو على هذا الحال من الأبهة والانتصار غار منه الملك وحقد عليه وخشى من عاقبة أمره فاستدعاه عنده يوما وسقاه كأساً مسموما فمات لوقته فحقد على الملك لذلك جميع الأمراء وأهل البلاد وأبغضوه بغضاً كبيراً وتمنوا موته وتحرك بعد هذه الغزوة إلى قتال ملك الفلاق والبغدان وجهز له الجند وساقهم لقتاله فلاقاه ملك الفلاق فلما احتدم بينهما القتال ترك دوميطيانوس عساكره وأهمل أمرهم ولم يمدهم بالميرة ولا الزاد ولم يسعفهم بشىء من معدات الحرب فانخذلوا وانكسروا وانتصرت عساكر الفلاق عليهم وأسرت الكثير منهم وتعقبتهم حتى كادت تصل إلى

أسوار رومة فشق هذا الأمر على الرومانيين وهاجوا ولم تتخلص المدينة من مضض التضييق إلا بدفع الخراج لملك الفلاق والبغدان فأغرى الأهالى أميراً اسمه إصطفانوس بقتل دوميطيانوس والتخلص منه فقام إصطفانوس المذكور ودخل على الملك بوسيلة كتاب حضر به لديه وناوله الكتاب ففضه وبينما هو يقرؤه انقض عليه وطعنه بخنجر فأزهق روحه وكان ذلك سنة ست وتسعين للميلاد أى سنة ست وعشرين وخمسمائة قبل الهجرة فكانت مدة حكمه نحو ثلاث عشرة سنة وبموته انقرضت العائلة الغلاوية وقامت بعدها العائلة الإنطونونية وسنأتى على ذكر ملوكها واحدا فواحدا.

وفى أيام دوميطيانوس هذا مات حنانيا بطرك الإسكندرية بعد أن أقام فى وظيفته اثنتين وعشرين سنة وكان موته فى العاشر من هاتور سنة سبع وثمانين لظهور المسيح.

وأقيم بعده ميليو وهو ثالث بطاركة الإسكندرية وقد كثر النصارى فى أيام ميليو المذكور ونموا وعاد الكثير منهم إلى بيت المقدس بعد خرابه على يدى طيطوس بن وسباسيانوس كما تقدم بيانه فى محله واستوطنوه وعمروا ربوعه التى كانت اندرست معالمها وانمحت آثارها قال بعض أهل التاريخ وكان يقال بأن دوميطيانوس هذا هو ابن أخت نيرون قيصر ولذلك كان غشوما كافرا مثله وقد كان أمر بقتل جميع النصارى كما فعل خاله نيرون وحبس يوحنا الرسول مكبلا بالحديد وأمر بقتل جميع اليهود الذين من نسل داود حذرا من أن يقوم منهم ملك وكان يشدد عليهم الوطأة وقتل أبناء ملوكهم كافة ولم يبق منهم أحد وكان يتعقب النصارى ويفتك بهم لأنه علم بأنهم يقولون أن المسيح يأتى ثانية فيملك جميع العالم وبحث عن أولاد يهوذا ابن يوسف أحد الحواريين وحملهم إلى رومة مقيدين بالأغلال وسألهم عن مجئ المسيح فقالوا إنما يأتى عند انقضاء العالم فخلى عنهم وفى الثالثة من ملكه طرد ميليو بطرك الإسكندرية وأقام غيره. قلت: وهذه الرواية لم يقم على صحتها دليل ولم تتناقلها أقلام الكتاب ونفى من رومة جميع الفلاسفة والمنجمين وأمر أن لايغرس بها كرم ولما مات تولى بعده الملك (نيرو) قيصر وهو رأس العائلة الانطونونية.

(فى الملك نيرو قيصر)

ثم قام بالأمر بعده نيرو قيصر وهو رأس العائلة الإنطونونية بويع له بالملك فى اليوم الذى قتل فيه دوميطيانوس سنة ست وتسعين للميلاد أى سنة ست وعشرين

وخمسمائة قبل الهجرة وتحرير الخبر أنه لما تحزب جمهور الرومانين على قتل دوميطيانوس انضم المجلس الرومانى إلى المتحزبين بعد هلاكه ليولوا غيره فاجتمعت كلمتهم على تولية نيرو هذا وكان شيخاً إيطالى المولد كريدى الأصل والجنس يبلغ من العمر سبعين سنة وكان فى السياسة جليل المذهب حميد الرأى يميز الغث من السمين ولكنه كان ضعيف القلب فاتر الهمة لايقوى على تنفيذ الأعمال فلم يستقر به المنصب حتى قامت عليه الرعية وكادت تخلعه حيث لم يكن من بيت الملك فتدبر أمره واستمال إليه (أولبيوس طريانوس) حاكم بلاد جرمانيا السفلى ثم تبناه وأشركه معه فى الملك فركب الأمير أولبيوس طريانوس المذكور على الأحزاب ومزق شملهم وقتل كبارهم ومحا أثرهم فتمكنت شوكة نيرو وعلت كلمته وهابه الناس فأحسن السيرة وعدل وأمر برد من كان منفيا من المسيحيين وأباح لهم التمسك بدينهم وأرجع يوحنا الإنجيلى إلى مدينة أفسوس بعد سجنه ست سنين ومحا نيرو آية الظلم والجور وسلك سبل العدل والسداد فكان يصفح عن الجانى وعفا عن قتل الذين اتهموا بالعصيان والخروج عن الطاعة وعاقبهم بالنفى وأجلاهم عن البلاد لدفع الريبة ثم قتل العبيد والعتقاء الذى وشوا بساداتهم إضرارا بهم جزاء ارتكابهم النميمة فى حق مواليهم.

ولما تمكن من الملك واستقر به المنصب ودانت له الأمور وعلت كلمته لم يمض عليه بعد ذلك أكثر من ثلاثة أشهر حتى مات حتف أنفه فى سنة ثمان وتسعين للميلاد أى سنة أربع وعشرين وخمسمائة قبل الهجرة فكانت مدة ملكه سنتين اثنتين وتولى بعده شريكه أوليوس طريانوس.

(فى الملك أولبيوس طريانوس قيصر)

ثم قام بالأمر بعده أولبيوس طريانوس قيصر سنة ثمان وتسعين للميلاد أى سنة أربع وعشرين وخمسمائة قبل الهجرة وكان يوم وفاة (نيرو) فيصر متغيباً فى الأقاليم الفرنجية التى على نهر الرين فأخذ له البيعة أرباب مجلس رومة وبعثوا إليه فتأخر عن الحضور وبالنسبة لما كان له فى قلوب الرعية من الهيبة والوقار وعظم الصولة لم تقم فى غيبته عن تخت الملك فتنة ولا حصل خلاف فى بيعته.

وكان مولد طريانوس المذكور بمدينة مالقه ببلاد الأندلس وقد اشتهر بترفع النفس والأفضلية على جميع أمراء الدولة الرومانية وكانت جميع الرعية تشهد بعلو درجته في المزايا العسكرية فلما قدم إلى مدينة رومة عقدوا له موكباً مجرداً من الأبهة

والطنطنة فدخل المدينة غير مختال ولا معجب بمنصب السلطنة بل ماشيا على الأقدام وكان يبش فى وجه كل من يراه مقبلاً للتهنئة باسطا يده لمن أراد تقبيلها شاكراً لأرباب الأدعية والأثنية ومازال حتى استقر به الجلوس فأقبل إلى الحاضرين بوجه باش وقال أحب أن أصنع مع جميع الناس ما كنت أحب أن يصنعه معى قيصر رومة لو بقيت فى أيامه معدوداً من آحاد الناس فما أحبه لنفسى أحبه لأهل وطنى وأبناء جنسى.

ولما استقر به المنصب بذل الهمة والجهد فى إصلاح شئون البلاد حتى أعاد لها فخرها القديم وأرجع ما فقدته من المزايا والحقوق التى كانت لها على عهد الجمهورية وأباح لمجلس الأحكام التصرف بما تقتضيه مصلحة البلاد ورخص للقضاة والحكام السلطة غير المحدودة كل بحسب وظيفته ونهى عن أن يحكم القضاة على الغائب فى المواد الجنائية لأن القضاء على الغائب الذى لايدفع عن نفسه يعتبر فصل نزاع بدون إثبات ولذلك قال طريانوس فى هذا الشأن أن أصول الاحتياط ترجح جانب البراءة على جانب الجناية فلا يصح أن يحكم بعقوبة على متهم غائب لأن الأصل عدم الجناية يعنى أن الغائب المتهم الذى يراد الحكم عليه بالجزاء يحتمل أن يكون مذنبا كما يحتمل أن يكون بريئاً ولكن المرجح جانب البراءة لأنها الأصل.

وكان طريانوس المذكور حسن التدبير والإدارة متبصراً فى عواقب الأمور فخفف المكوس والعوائد وأنشأ القناطر والجسور ومهد الطرق والعقبات وجدد المين وأحسن مواقعها ومنها مينا انكونة على جون البنادقة بإيطاليا لتكثير التجارات والمعاملات وأنجز هذا العمل الجسيم فى سنة لا غير فقام له أرباب ديوان رومة والأهالى ببناء هيكل بمدينة أنكونة لتخليد ذكره وبقاء اسمه وجدد طريانوس كثيراً من المبانى النافعة وأنشأ مكتبة عظيمة للغاية وأقام فى مدينة رومة العمود المشهور المسمى (الطريانوس) وهو من الرخام الأبيض ورسم عليه الحروب التى وقعت بين الرومانيين والفلاق والبغدان وجميع ما جرى من نصرة الرومانيين عليهم فى تلك الأزمان.

وكان لايخالط إلا أهل الأدب وذوى الفضائل ولايحضر مجلسه إلا مشاهير الرجال وأكابر أهل الفضل والامتياز من الأبطال وكان لأرباب القضاء عنده منزلة عظيمة كما أنه كان يجل كثيراً أرباب الحكمة والفلسفة ومن المقربين إليه الحكيم بليناس الأصغر وكان هذا الحكيم من فحول الكتاب فجمع مناقب طريانوس قيصر هذا تذكرة للمتأخرين.

وغزا طريانوس بلاد الفلاق والبغدان وتغلب عليها وضمها إلى الممالك الرومانية

فاشتهر أمره وبعد ذكره فى الآفاق فبعث إليه ملوك الهند سفراء يهنئونه بهذا الانتصار ثم استعمل على الأفلاق والبغدان بلنياس الحكيم المذكور فأحسن تدبيرها ووردت إلى طريانوس الأخبار بخروج عرب الحجاز لشن الغارة على أملاك رومة المشرقية لقصد النهب وسبى النساء والأطفال وأنهم قد تحركوا لذلك فسار إلى آسية فى كثير من عساكره وركب عليهم وقاتلهم فوقع بين الفريقين قتال عنيف وبذل العرب الجهد وأظهروا الشجاعة فهزمهم طريانوس شر هزيمة وملك الأقطار الحجازية وضمها إلى أملاك رومة وذلك سنة عشر ومائة للميلاد أى سنة اثنتى عشرة وخمسمائة قبل الهجرة وقام بعساكره بعد هذه الغزوة بسنة إلى بلاد فارس وغالبهم على ملكهم وأخذ أرمينة والجزيرة وبلاد الأكراد والعراق واليمن فزادت شهرته وعلت كلمته وهابته الملوك واجتمعت قلوب رعيته على محبته فسموه (إفطينوس) ومعناه القيصر الكامل ولم تتحد كلمة جماعة المؤرخين على ذمه فى شىء ما إلا باضطهاده للمسيحيين وتبديد شملهم فى الآفاق وقتله لسمعان بن كلاويا أسقف بيت المقدس وأغناطيوس بطرك أنطاكية فلقى المسيحيون فى أيامه شدة عظيمة للغاية وتتبع أحبارهم بالقتل واستعبد عامتهم وسامهم الخسف وأذاقهم مر العذاب وكان كثير الفتوحات والغزوات فجاء فى فتوحاته بالمشرق حتى دنا من البحر المحيط الهندى فلما قفل راجعاً إلى رومة أدركته المنية فى طريقه فمات حتف أنفه سنة سبع عشرة ومائة للميلاد أى سنة خمس وخمسمائة قبل الهجرة فكانت مدة حكمه تسع عشرة سنة وكان له آثار عظيمة جداً بالديار المصرية فحزن عليه جميع الرومانيين وغيرهم ممن سخر بلادهم كما حزنوا على طيطس من قبله.

وفى عهده كتب يوحنا إنجيله ببعض الجزائر فى السنة السادسة من حكمه، وكان قد رجع اليهود إلى بيت المقدس وكثروا فيه وصمموا على الانتقاض على طريانوس والخروج عن طاعته فبعث عساكره لحربهم فطالت الحرب بينهم وقاموا على كثير من المدن التابعة لرومة وحاربوها أيضاً وزحفوا على مصر والإسكندرية وحاربوا من فيهما من العساكر الرومانية وقهروهم وأخرجوا من الإسكندرية لويوس نائب مصر فأرسل إليهم طريانوس بدله مرطيوس مع جيش عظيم جداً فاشتدت الحرب بين الفريقين لاستمرار الفتن الداخلية المترتبة على المنازعات الواقعة بين يونان ويهود الإسكندرية وذلك لما بين الفريقين من العداوة واستمرت الحرب سجالا إلى أن ملك أدريانوس قيصر وفى أيامه مات ميليو ثالث بطاركة الإسكندرية بعد أن أقام بطركا اثنتى عشرة سنة وتسعة أشهر على المشهور وهذا يدل على عدم تغييره فأقيم بعده

كريتانو وهو رابعهم وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله وبموت طريانوس قيصر المذكور خلفه ابن عمه إدريانوس قيصر.

(فى الملك إدريانوس قيصر)

ثم قام بالأمر ابن عمه إدريانوس قيصر بويع بالملك بعد موت طريانوس سنة سبع عشرة ومائة للميلاد أى سنة خمس وخمسمائة قبل الهجرة، وتحرير الخبر أنه لما مات طريانوس ولم يعقب ولدا استخلف العسكر بعده ابن عمه إدريانوس المذكور وبايعوه بالملك وكان يومئذ قائد جيوش الديار الشامية فلما بايعته العساكر بايعه أيضا أرباب المجلس والوجهاء والأعيان واستقر به المنصب فكان متباين الأحوال متناقض الخصال إذ تارة يكون حليما وأخرى غضوبا وطورا يميل إلى الفضائل وآونة إلى القبائح والرذائل وكان لايحب الحروب ولا يميل إلى الغزو وتوسيع نطاق البلاد بل يؤثر السلم والدعة والمحافظة على حدود بلاده وكان فى أكثر أيام ولايته جوابا يتنقل من ناحية إلى أخرى وأكثر من الزيادة فى الضرائب والمكوس وضرب على جميع الأشياء مغارم أخرى فادحة ولم يساوه أحد من أسلافه فى الإكثار من تشييد العمارات والمبانى الجسيمة وكان يحب المعارف والآداب وله فيها مشاركة كبرى وكانت عيشته فى قصره عيشة هنيئة جداً وأشرك معه فى حكم البلاد رجلا يقال له قومودوس ويروس من أسافل الخلق فوسمه لذلك الناس بخلل العقل والطيش وغضبوا عليه وقالوا إنما أشركه معه لأنه اخترع له صنفا من الفطير لذيذ الطعم يستطيبه الفم ونوعا من الفراش يمتد على بساط من الورد فى وسط الروائح المعطرة فوقع هذا الاختراع لديه موقعاً عظيماً فكافأه بهذا الإحسان الجسيم.

وكان ويروس المذكور أشبه بالنساء فى المحادثة وقد اخترمته المنية قبل إدريانوس الملك بقليل من الزمن فأشرك بعده طيطوس إنطونين وقد فرح الناس بموت ويروس المذكور وخلاص البلاد منه.

وكانت أيام إدريانوس كثيرة الخير والبركة على الديار المصرية إلا أنه قد وقع فى خلالها بالإسكندرية فتنة عظيمة جداً بعد إخماد نار فتنة اليهود بها وذلك أنه ظهر فى ذلك الحين بديار مصر عجل جديد على شكل العجل (ابيس) معبود المصريين وكان المصريون إذا مات عجلهم اجتمع الكهنة منهم وغير الكهنة وتداولوا بينهم فى أمر المكان الذى يوضع فيه هذا العجل لتربيته ورضاعته حتى يتحققوا من ألوهيته وماهيته فكثر لذلك الجدال والخلاف فى تعيين المدينة أو القرية التى يقيم بها العجل

المذكور وقامت لذلك الحرب بينهم على ساق واشتد ضرام الفتنة وعلا لهيبها فى جميع البلاد لأهمية هذا الأمر لديهم.

فلما طرقت مسامع إدريانوس هذه الأخبار وكان يومئذ بإقليم فرنسا سار مسرعاً إلى مصر ودخلها بعسكره وأخمد نار الفتنة وأزال الجفوة من بين المصريين واليونان واتخذ مدينة الفرما مقره وأصلح بناء تربة بومبيوس وزينها بأجمل زينة ثم ساح فى أرجاء مصر ففرح الأهالى به وضربوا السكة باسمه تخليدا لذكره وكانت هذه السكة من الحديد والرصاص فنقشوا عليها تاريخ سفره وصورة مدينة الإسكندرية على شكل إنسان يستقبل الملك وهو قادم فى سفينة وصوروا القيصر يستقبل الزائرين من أهالى الإسكندرية كأنه يمد يده للإسكندرية وتمد يدها إليه على سبيل المصافحة وصوروا على تلك النقود موكب القيصر وتقريبه للقربان وكذلك رسموا عليها من الجهة الأخرى سير القيصر على النيل وهو فى سفينة مقدمها على شكل قرن الخصب واليمن وضربوا سكة أخرى عليها صورته وصورة زوجته (سابينه) وعليها تاريخ ابتداء ملكه على المملكة الرومانية.

ويحكى أنه أثناء سفره فى النيل ميمما الصعيد مات ولده أنطنيوس فحزن عليه حزناً شديداً جداً ودفنه هناك، وقد ساعد مملكة مصر على توسيع نطاق المعارف وتكثير العلوم وأنشأ فيها بعض العمائر إيذانا بقدومه إلى مصر وكتب وهو يتجول فى أنحاء البلاد رسالة إلى صاحب له اسمه سريانوس من عظماء الرومانيين يقول قد استقصيت أحوال مصر واستقريت عوائدها واطلعت عليها اطلاعاً كلياً وكنت فى بادئ أمرى أخصها بالمدح وأتحاشى ذمها فتبين لى بعد التأمل والنظر أنها عبرة لمن اعتبر فهى طائشة لاتدوم على حال ولاتنكف عن المشاغبة والمنافرة لاسيما فى أمور الدين ومايتولد منها على أن من لم يعبد منهم الشمس والعجل أبيس عدّ نصرانياً مع أنه ليس كذلك بل الذين يزعمون منهم أنهم أساقفة على دين المسيح هم كغيرهم من المصريين الذين يحترمون الشمس والعجل ولا فرق في ذلك بين الأسقف وحاخام اليهود وكل قسيس أو راهب أو عامى له في الشمس والعجل احترام كبير قال وقد يغلب على فكرى أنه لو أتى بطرك من بطاركة النصارى الخارجين عن ديار مصر ودخل مصر ليشارك أهلها فى التمسك بهذه الاحترامات الدينية وربما اعتقدوا أن العجل والشمس (والمسيح) إنما هم أسماء مترادفة وأنها فى الحقيقة شىء واحد.

واعلم أن أهل مصر دون غيرهم يميلون إلى اختلاف الكلمة ويسرعون إلى الغضب لأقل سبب أما مدينة الإسكندرية التى هى دار الحكومة ومقرها فهى بلدة

مثرية غنية كثيرة الخير والبركات وليس أهلها أهل بطالة وكسل وأغلبهم حاكة الكتان وهم ميالون إلى الصناعة لايستثنى منهم الأعرج والأعمى ولا المصاب بأشد الأمراض فلا يهملون الصناعة ولا يضيعون أوقاتهم إلا فى الكسب وكلهم عارفون بوحدانية المعبود حتى العامة منهم والحرافيش ولو كانت مدينة رفيعة الدرجة فى التربية والمدنية زيادة عما هى الآن لسادت على جميع المدن ومع ذلك فهى بكثرة أهلها وزيادة مبانيها واتساع أراضيها تستحق بأن تكون كما هى عاصمة الديار المصرية ولذا لم أمنعها شيئًا من حقوقها بل منحتها جميع مزاياها القديمة وزيادة لتكون آمنة مطمئنة ولم أخرج منها إلا وقد صار أهلها يسخرون بابنى ويروس ولا يخفاك ما يصدر عنهم من المقال لمناسبة موت ابنى أنطينوس فأنا لا أتمنى لهم إلا التخمة بما عندهم من الدجاج ليكسبهم كثرة الباه الموجب لقوة التوليد قال والإفصاح عن ذلك بأكثر مما قلته يخل بالأدب والحياء والواصل لكم بعض كئوس وأكواب مختلفة الألوان قد أهدانيها كهان الهياكل فوهبتها لك ولأختى ليطوف بها السقاة فى المواسم والمحافل وإنما يجب على صاحبنا افريقانوس أن يحترس من أن يكثر من الشراب بها فيعربد فلا يدع هوى نفسه يستولى عليه ويستعبده. انتهى.

وقد اضطهد إدريانوس اليهود وأباد منهم خلقاً كثيرا جداً وبنى بيت المقدس وسماه مدينة إيليا وكان شديداً على المسيحيين فقتل منهم خلقاً كثيراً وأمر بعبادة الأوثان وألزم أهل مصر على ما يقال بحفر خليج من مجرى النيل إلى مجرى القلزم أجرى فيه الماء الحلو ثم ارتدم بعد ذلك وهذا الخليج هو الذى ألزمهم عمرو بن العاص أيضاً بحفره حتى جرى فيه الماء ثم ارتدم ثانية فلما بنى مدينة القدس رجع إليها اليهود واستوطنوها فبلغه أنهم على عزم الانتقاض وأنهم أقاموا عليهم زكريا أحد ذرية ملوكهم فبعث إليهم جيشاً وتتبعهم بالقتل وخرب المدينة حتى عادت صحراء وأمر أن لايسكنها يهودى وأسكن اليونان ببيت المقدس فكان هذا الخراب لثلاث وخمسين سنة من خراب طيطوس وهو الجلوة الكبرى وامتلأ بيت المقدس من اليونان فكان المسيحيون يترددون إلى موضع القبر والصليب يصلون فيه فكان اليهود يرمون على هذا الموضع الزبل والكناسة ومنعهم اليونان أيضًا من الصلاة فيه وبنوا هناك هيكلاً على اسم الزهرة.

ثم مات إدريانوس الملك فى سنة ثمان وثلاثين ومائة للميلاد أى سنة أربع وثمانين وأربعمائة قبل الهجرة حتف أنفه.

ومات فى أيامه كردونوس بطرك الإسكندرية فى حادى عشر برموده بعد ما دبر

الكرسى عشر سنين وكان حميد السيرة صافى السريرة ورعا تقيا ناسكا متعبداً محبا للفقراء والغرباء فخلا الكرسى بعده ثلاث سنين وقدم بعده ابريمو وهو خامسهم فأقام اثنتى عشرة سنة ومات فى ثالث مسرى وفى أيامه اشتد الأمر على النصارى وضيق عليهم إدريانوس قيصر تضييقا عظيما وبالغ فى التنكيل بهم وقتل منهم خلقاً كثيراً وقدم إلى مصر وأفنى من بها من النصارى كما تقدم بيانه فى محله ولما مات إبريمو أقيم بعده يسطس وهو سادسهم وكان حكيماً فاضلاً محبا للخير وفعل البر وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله إن شاء الله تعالى

ولما مات إدريانوس الملك خلفه فى الملك شريكه طيطوس أنطينينوس قيصر.

(فى الملك طيطوس أنطينينوس قيصر)

ثم قام بالأمر القيصر طيطوس أنطينينوس شريكه بويع له بالملك فى اليوم الذى مات فيه إدريانوس سنة ثمان وثلاثين ومائة قبل الميلاد أي سنة أربع وثمانين وأربعمائة قبل الهجرة وكانت العائلة الإنطونونية التى منها طيطوس هذا من أمة الغالية الذين هم أسلاف الفرنسيس من أهالى مدينة نيمة وكانت هذه العائلة مصاهرة لأعيان إيطاليا وكان طيطوس مشهورا بكرم النفس وحسن التربية ذكيا حاذقا مطبوعا على مكارم الأخلاق محافظا على أسباب الراحة فى البلاد وإذاعة الأمن بين صنوف الرعية فلما استقر به المنصب بذل النفيس فى تقدم أسباب التجارة والصناعة والأعمال المهمة وكان يدقق النظر فى حسن الإدارة والاقتصاد فى مصروفات المملكة فكانت فى أيامه الأموال مدبرة على وجه لم يسبق له مثيل وكان يسلك فى تدبير المملكة طريقة بسيطة خالية من كل زينة وبلغ الاقتصاد منه مبلغاً عظيماً حتى قيل أنه لو تكفل بالإنفاق على جميع الرعية على وجه السعة وعدم التقتير لأمكنه ذلك ثم أنه أنشأ العمارات العظيمة والأبنية الجسيمة النافعة للبلاد فكانت له هيبة عظيمة فى أعين جميع ملوك الأمم ولم يكن فى وقته منهم من يساويه فى حسن السياسة والتدبير وظهر فى أيامه ببلاد الصين ملك اشتهر بالسياسة وحسن التدبير والحكمة اسمه (هياكنغ تى) فكان هذا الملك يضارع طيطوس فى حب الرعية والميل إلى عمارة البلاد فكان كثير الاهتمام بأمور الرعية وتحسين أحوالهم حتى حفظ له التاريخ ذكراً حسناً وظهر فى أيامه أيضا بديار مصر بطليموس المنجم صاحب الفلك.

قلت: وبعضهم يجعل ظهوره فى أيام البطالسة كما سبقت الإشارة إلى ذلك عند الكلام عليهم، وكانت أيام طيطوس قيصر هينة لينة لاسيما فى ديار مصر إذ

نالها منه ما لا مزيد عليه من العدل فكثرت بها فى أيامه العمارات الأهلية والمعابد إلا أن يونان الإسكندرية كانوا كثيرى الفتن والعصيان والخروج على الولاة والعمال وقد خرجوا على نائب القيصر يوما فقتلوه وبالغوا فى الفتنة إلى حدّ لم يسبق له مثيل فقدم عليهم طيطوس فى جيش جرار جداً ودخل الإسكندرية منصوراً مؤيداً فقمع العصاة وقتل الأحزاب وأعاد الأمور إلى سابق مجراها فهابه الناس وخافوا من بأسه وجبروته.

ثم مات طيطوس حتف أنفه سنة إحدى وستين ومائة للميلاد أى سنة إحدى وستين وأربعمائة قبل الهجرة فأسف على موته جميع الرعية لما له عليهم من الأيادى البيضاء لاسيما أقاربه من بلاد الفرنسيس لأنها كانت مسقط رأسه فخلفه صهره مرقوريلس قيصر.

وفى أيامه مات يسطس بطرك الإسكندرية فى ثانى عشرى بؤنة بعد أن أقام عشر سنين ولم يحدث من الحوادث الدينية ما يستحق الذكر فخلفه (أوميانو) وهو سابعهم وكان عطوفاً ونصيراً للفقراء وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

(فى الملك مرقوريلس قيصر)

ثم قام بالأمر مرقوريلس قيصر بويع له بالملك فى اليوم الذى مات فيه طيطوس أى سنة إحدى وستين ومائة للميلاد الموافقة لسنة إحدى وستين وأربعمائة قبل الهجرة وكان متمسكاً بمذهب زينون الحكيم الفيلسوف المتقشف فكان من شبيبته زاهداً ورعاً متقشفاً لا ينام إلا على الفراش الخشن مداوما على الأعمال الشاقة وكان قبل توليته قد اشتغل بالآداب والعلوم الفلسفية فاتسعت دائرة عمله واشتهر بالمعارف شهرة عظيمة فلما أتم علومه وتمكن منها دعى للملك ولما استقر به المنصب بنى على ما أسسه أسلافه الثلاثة من حسن السياسة والتدبير وتمم ما شرعوا فيه من المقاصد النافعة وزاد عنهم فى اتباع القوانين والتمسك بها وشدّد فى إجرائها وأكد على العمل بموجبها.

وأشرك معه بغير فكر ولا تأمل فى إدارة أمور المملكة (لوقيوس ويروس) بن (ويروس) الذى كان شريكا مع (إدريانوس) فنجم عن ذلك أمور كثيرة سنأتى على ذكرها فى محلها.

وكانت أيام مرقوريلس المذكور وأحكامه حسنة ولولا ما وقع فى خلالها من الحوادث القضائية لعدّت كلها من أسعد الأيام على البلاد وأحلاها فقد وقع فى أيامه

وباء عظيم جداً هلك به ما لايحصى من الخلق فكان لايوجد من الأحياء من يدفن جثث الموتى وفاض فى أيامه نهر رومة فأغرق جميع الأقاليم الوسطى بإيطاليا وأقحط الناس سنتين كاملتين واستسقى لهم المسيحيون يومئذ فاستجاب الله سبحانه لهم وأنقذهم وكذلك تضرعوا وصلوا وصاموا فاستجاب لهم وارتفع الوباء والقحط وكان المسيحيون فى هذا الحين فى شدة زائدة جداً من مرقوريلس إذ كان قد تتبعهم بالقتل وأفنى منهم خلقا وهى الشدة الرابعة التى حلت بهم بعد نيرون الملك كما سيأتى الكلام عليها فى محله، وحصل أيضاً فى أيامه زلزلة شديدة جداً اضطرب منها العالم بأسره وكادت تدمر المسكونة وأغار ملك العجم على أملاك رومة المشرقية وكذلك أغار الجرمانيون الساكنون بسواحل طونة على الأملاك المغربية وأكثروا من الكرّ والهجوم المتتابع حتى كادا يقتسمان المملكة ويأخذانها، وكانت مدينة رومة فى هذا الحين يحكمها حاكمان مختلفان فى الأمر والنهى فى سائر أملاك رومة وتحرير الخبر أنه لما كان مرقوريلس الملك قليل الحزم حريصا بقدر الاستطاعة على شئون البلاد أشرك معه فى تدبير أمور المملكة لوقيوس ويروس بن شريك الملك إدريانوس فكان لوقيوس المذكور في خسة أبيه ويروس ودناءته مجردة من كل صبغة حميدة وخصلة طيبة حيث قضى عمره فى الحانات ومحال اللهو واللعب فكان قلما يخلو من السكر والعربدة ومخالطة الأوباش فلما أغار العجم على ما جاورهم من أملاك رومة المشرقية فوّض إليه الملك أمر دفعهم وطردهم وأناط به إيقافهم عند حدهم فقام ومعه قائد من القواد اسمه أويدوس قسيوس وكان من أشجع القواد وأكبرهم معرفة بفنون الحرب فسلم لوقيوس الأمر إليه فركب أويدوس على الأعداء بجيوشه وهزمهم وطردهم وتتبعهم بالقتل حتى لجئوا إلى حدودهم وحاز فخر الانتصار وشرف الغلبة وقد كان لوقيوس فى أثناء القتال يلعب مع أرباب الهزء والسخرية لايفكر فيما عسى أن يحل بالجيوش ولم يقترب قط من ساحة الحرب ولا علم بما جرى حتى أتاه أويدوس القائد وبشره بالنصر على الأعداء وكان أويدوس المذكور أميراً ماهراً حازماً مشدداً على جنوده قوىّ البطش متمسكا بالأصول العسكرية وكانت جنود المشرق المقيمون من قبل رومة فى الأقاليم قد ألفوا العوائد المشرقية من الخمول وفتور الهمة والكسل فكان قدوم أويدوس عليهم غاية فى الأهمية حيث أحكم سياستهم ودبر أمورهم وشدّد عليهم فحسنت حالهم جداً.

وكما أن لوقيوس ويروس قد أنيطت به حماية البلاد المشرقية ودفع العدوّ عنها فكذلك قام مرقوريلس شريكه لحماية البلاد المغربية والذب عنها من غارات القبائل

الشمالية فوصل إليهم فى وقت الحاجة وذلك أن قبيلة (المرقومان) التى هى إحدى القبائل المتبربرة كانت قد اجتازت جبال (ألبة) كأنها حمر مستنفرة تريد الإغارة على بلاد إيطاليا فسار إليها مرقوريلس وطردها وبدد شملها ومزقها كل ممزق فاستتب الأمن وتوطدت الراحة غير أنه لم يمض على ذلك إلا ثلاث سنوات حتى قامت ثانية أمة الجرمان وانضمت إلى قبائل أخرى متوحشة كقبائل (البدوان) وهم قبائل الأندلسيين والسريرة واللان وسارت إلى إيطاليا للفتك بجيوش الرومانيين والتغلب على البلاد فبادر الملك مرقوريلس إلى جمع الإرقاء والمصارعين وجميع أهل الكسل والبطالة ونظمهم فى سلك العسكرية وباع جميع الأمتعة التى فى دار الملك لنفقة الجنود وسار إلى الأعداء بجيش جرار والتقى الجمعان فحاصرته القبائل هو وعساكره وأحدقوا به من كل جانب وقطعوا عنه الإمداد والميرة وسدوا عليه المسالك وكاد يهلك هو وجيوشه عطشاً وحراً وبينما هم على هذا الحال من الضيق والموت إذ هبطت الأمطار وانهمل الغيث وأغاثهم المولى سبحانه فشربوا وارتووا وزال عنهم البأس وقاموا على الأعداء قومة رجل واحد فانتصروا عليهم وفازوا فوزاً عظيماً وأعملوا فيهم القتل حتى مزقوا شملهم وكان المسيحيون منهم قد استسقوا لهم بصفاء نية فاعتقدوا جميعا أنه لم تحصل لهم السقيا إلا بدعاء القسوس والأحبار وقد آمن القيصر بذلك واعتقد صدقه وعدّه من كرامات الديانة المسيحية وقد كانت هذه الديانة عنده من أكبر الكبائر فكتب فى الحال إلى مجلس رومة يوصيه خيرا بالملة المسيحية وأن لا يحصل للنصارى من الآن شيء من التعدى والأذى وندم على ما فرط منه فى حقهم وأباح دخول الدين النصرانى فى جيشه فكثرت النصارى فى معسكره وانكف الأذى عنهم زمناً.

ثم عاد الولاة والعمال فتعرضوا لهم فى غيبة الملك ومدت لهم يد العدوان وعلى الخصوص فى بلاد الغلية وكان المسيحيون قد كثروا فيها كثرة بالغة فأضعفوا قوّة ظهورهم ودكوا شوكتهم غيرة وحسداً.

وقد نقش المصريون على كثير من المبانى اسم مرقوريلس ولوقيوس تخليدا لذكرهما على ممر الأيام وقام منهم فى أيام مرقوريلس ولوقيوس المذكورين عدة أحزاب قد شقوا عصا الطاعة وخرجوا على النائب يومئذ وكان يرأسهم رجل اسمه (أزيدور) بإغراء أحد الكهان المصريين فقاتل (أزيدور) وأصحابه عساكر الرومانيين فى جميع البلاد المصرية وهجم على مدينة الإسكندرية وقاتلها قتالاً عنيفاً جداً فركب النائب وهو أوديوس قسيوس وقاتلهم وأجلاهم عن المدينة وسار خلفهم حتى ظفر

بهم وبدد شملهم تبديداً وتتبعهم بالقتل أينما حلوا حتى أوشكوا أن يفنوا عن آخرهم ولما رجع إلى الإسكندرية مظفراً منصوراً أخذته خمرة الانتصار وتاقت نفسه إلى الخروج والاستقلال بملك البلاد فسعى في طلب الملك واستمال إليه الجنود فبايعه العسكر المصرى قيل وأعانته على ذلك زوجة مرقوريلس الملك حيث كانت تميل إلى زوجها لغرض من الأغراض.

وكان لأوديوس قسيوس النائب المذكور ولد اسمه ميطانوس وكان نائباً على الإسكندرية فسعى فى أخذ البيعة لأبيه فأخذها ولم يتمكن أوديوس من المنصب الملوكى حتى قامت عليه العساكر وقتلته هو وولده ميطانوس فكفى الله مرقوريلس الملك شر القتال واستتب له الأمر.

وكان مرقوريلس كريم النفس رفيع الهمة يعفو عن المذنب ويصفح عن الجانى وقام إلى ديار مصر ليصلح ما أفسدته الفتنة من أحوالها فوصلها وقبض على رئيسى الخوارج الاثنين ونفاهما وعفا عن بقية الأحزاب واستجلب قلوب الأهالى واستمال نفوس الرعية وعامل الجميع بحسن المعاملة فارتكز فى قلوبهم أمر مجده وعلو همته وأحبوه محبة عظيمة جداً ثم رجع إلى غزو القبائل الشمالية ثالثة إذ كان قد غزاهم غزوتين فلم تتم له الثالثة حتى مات بالوباء فى سنة ثمانين ومائة للميلاد أى سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة قبل الهجرة فكانت مدة حكمه نحو تسع عشرة سنة.

وكانت أيامه كأيام بقية العائلة الأنطونية أزمان صلح وسعادة على الأمة المصرية ولكنها لم تتمع بهذه السعادة صافية بلا كدر بأسباب الفتنة العظيمة التى قامت فيها وطالت أيامها فأريق فيها من الدماء شيء كثير جداً وفى أيامه مات (أومانيو) بطرك الإسكندرية بعد أن أقام عشر سنين فأقيم بعده (مركيانو) وهو ثامنهم فلبث تسع سنين وستة أشهر ومات فى السادس من طوبة سنة خمس وخمسين ومائة للميلاد وكان عالما حبراً فهامة ورعاً تقياً محباً للخير وأهله فأقيم بعده (كالاتيانو) وهو تاسع بطاركة الإسكندرية وكان من أمره ما سيذكر فى محله.

ولما مات مرقوريلس الملك كما تقدم تولى الملك بعده ابنه قومودس.

(فى الملك قومودس قيصر)

ثم قام بالأمر ابنه قومودس قيصر بويع له بالملك فى اليوم الذى توفى فيه والده سنة ثمانين ومائة للميلاد أى سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة قبل الهجرة فكان لا يؤمل من ظاهر حاله فعل شيء من الحسنات ولا يرجى خيره لما ظهر منه من أيام

صباه من الخشونة والجفاء وذلك أنه طلب فى يوم من رئيس الحمام أن يهيئه له ففعل فدخل فوجد الماء بالغا من الحرارة حدّ الزيادة فغضب وأمر بإلقاء رئيس الحمام فى نار المستوقد ويضاف إلى هذا الفعل الشنيع أيضا كراهة الأهالى له واعتقادهم فيه العقوق والخشونة فإنه لما كان مع أبيه فى غزوة النمسا ومات أبوه هناك اتهموه بقتله وقالوا إنه دس له السم فى الدسم فكان لذلك ولغير ذلك من الأسباب مغضوبا عليه وقد بويع له بالملك بمدينة فينا ببلاد النمسا فى وسط معسكر أبيه حيث كانت الحرب قائمة يومئذ هناك كما تقدم وكان أبوه قد بنى بتلك الجهات قلاعا وحصونا وأعدّها للتترس والدفاع فترك قومودس تلك القلاع وعاد من تلك البلاد وعاد إلى رومة يختال بنفسه وبيده مرآة ينظر فيها إلى حسنه ودخل المدينة بموكب عسكرى على هذه الحالة وهو فى وسط الموكب كأنه المؤيد المنصور وكانت أيامه محفوفة بالمكاره فإنه لعظم قامته وجليل هامته تعلق بصنعة البهلوانية ومال إلى مصارعة أصحاب القوة والبأس فبرع فى هذا الفن وحارب يوما فيلاً عظيماً فضربه فألقاه على الأرض قتيلاً وقتل أيضا فى يوم واحد خمسة أفراس بحربة وفى هذا اليوم بعينه طعن أيضاً مائة أسد بمائة سهم فقتلهم فزادت نفسه كبرا وعتوا وسمى نفسه (هرقول الرومانيين) تشبها بهرقول اليونان الذى تحكى عنه العجائب والغرائب فى قتل الغيلان وتنظيف البقاع من الأسود ولذلك شوهد اسمه معنونا فى بعض التواريخ بعنوان (هرقليانوس).

وكانت لا تهمه مصالح البلاد ولا حاجات خلق الله ولا يأنس إلا بمجانسة المصارعين وأهل المحاطبة والمغالبة وكان يظهر معهم بمظهرهم فى المحافل بلا احتشام ولا كلفة وينازلهم ويصارعهم وهو مترى بزيهم، وكان فى مدينة رومة تمثال للشمس على صورة جسيمة للغاية فرفع قومودس رأس هذا التمثال ووضع مكان الرأس صورة شخصه وكتب على أسفل التمثال ما معناه :

(قد انتصر قومودس على ألف مصارع ليخلد ذكر مهارته فى المصارعة)

ولم يعتكف أحد على هذه المثالب اعتكافه وكان إذا خلا بنفسه فى قصره قتل الناس بغير ذنب وأراق الدماء وكان مغرى بسلب الأموال والأرواح مغرما بأطماع نفسه واتباع هواه وكان يسلى نفسه ويروّحها بتعذيب من يريد قتله من خلق الله فيخترع فى كل يوم نوعا من العذاب جديدًا فلما ضاق الأهالى منه ذرعًا قاموا عليه وخرجت العساكر عن طاعته ودسوا إلى معشوقته (مرقيا) فسقته سمًا فلم يؤثر فيه فلما شاع الخبر بذلك قام عليه أحد المصارعين وهو من أشدّهم واسمه (نزجس)

وطرح نفسه عليه وضمه بين ذراعيه وقدميه فتصارعا حتى صرعه وخنقه وتم مصرعه ففرح الناس بموته وبموته انقطعت العائلة الأنطونية وذلك فى سنة ثلاث وتسعين ومائة للميلاد أى سنة تسع وعشرين وأربعمائة قبل الهجرة فكانت مدة حكمه نحو ثلاث عشرة سنة وتولى بعده برطيناش قيصر الذى يقال له أيضاً غرديانوس، ولم تكن ديار مصر فى أيام هذه العائلة فى حالة هناء وسعادة كما كانت من قبل فقد قامت فيها الفتن وتتابعت وغمت الإحن وخرجت الرعية على الولاة والعمال فقتلتهم وقتلت الكثير من الجند وفعلت ما لايدخل تحت حصر، وكانت الديانة المسيحية فى أيام هذه الدولة آخذة فى النموّ والانتشار وكان ملوكها يبيحون التمسك بها بغير تهديد ولا تشديد ومع ذلك فقد كان الدين المصرى القديم لم يزل مستعصماً به وهو الكثير والغالب فكانت عبادة الشمس والقمر منتشرة فى البلاد يتبعها اليونان والروم والغرباء المتوطنون بلا فرق ولا خلاف.

وفى أيامه مات (كادتينو) بطرك الإسكندرية فى التاسع من أبيب بعد أن أقام أربع عشرة سنة وكانت أيامه هادئة مطمئنة لم يحصل فيها للنصرانية ما يكدر صفو راحتها فقدم بعده (اغريبو) وهو عاشرهم وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

(فى الملك برطيناش قيصر)
أو (غرديانوس قيصر)

ثم قام بالأمر برطيناش قيصر سنة ثلاث وتسعين ومائة للميلاد أى سنة تسع وعشرين وأربعمائة قبل الهجرة وكانت مدته قصيرة جداً وتحرير الخبر أنه لما مات قودموس الملك اجتمع الأحزاب وبايعوا برطيناش هذا بالملك وله من العمر يومئذ ستون سنة وكان أبوه تجاراً رومانياً من الموالى فرباه وأحسن تربيته فصار فى أول الأمر معلما للغة اللاطينية وكان ذا همة عالية فلم يقنع بهذا العيش وانتظم فى جند أنطنيوس قيصر واستخدم فى عسكر الشام ثم خدم ويروس الملك ففاق أقرانه واشتهر فى حروب العجم وغيرها من بقية الغزوات فلما تولى مرقوديس الملك كان يبغضه فى أول أمره ثم لم يلبث أن مال إليه وأحبه وجعله من أخصائه وأدخله فى أعضاء مجلس رومة ثم قلده قيادة فرقة من الجنود فهابه أعداء الرومانيين وصار له شهرة كبيرة بحسن السياسة فلقبه مرقوديس بلقب قنصل الرومانيين فلما استقرّ به المنصب ظهرت عليه علائم الحلم والدعة والتحبب للناس والميل إلى العدل ولم يلبث أن أخذ

يصلح شأن الدولة ويرتب أمور المملكة مع الحزم والتدبير فى الأموال وشيد أركان المعارف والعلوم بقدر ماتقتضيه مصلحة البلاد وقلل المصاريف إلا بقدر الحاجة فكان ذلك باعثا لإثارة خواطر الأمراء عليه وعقدهم النية على قتله حيث سدّ عليهم أبواب الصرف والإنفاق فاجتمع من الأحزاب المقاتلين ثلثمائة تحت رياسة أمير اسمه لوطوس واصطفوا صفوفاً منتظمة وأحاطوا بقصره من جميع الجهات وقبضوا عليه وذبحوه فكانت مدة حكمه ثلاثة شهور ليس إلا وتولى بعده ديديوس يوليانوس فى نفس هذه السنة فكان حظه من الملك كحظ سلفه كما سيأتى.

(فى الملك ديديوس يوليانوس قيصر)

ثم قام بالأمر ديديوس يوليانوس بويع له بالملك فى اليوم الذى قتل فيه برطيناش سنة ثلاث وتسعين ومائة للميلاد أى سنة تسع وعشرين وأربعمائة قبل الهجرة وتحرير الخبر أنه لما قتل الأحزاب برطيناش الملك وخلا المنصب من ملك وولى عهد اجتمعت كلمة الأمراء والأعيان وقوّاد الجنود على أن يضعوا المنصب الملوكى فى المزايدة وأن يلتزم به من يشتريه فيكون نوعا من المقاطعات الالتزامية يستفيده من يكثر فى العطاء ولما استقرت القاعدة بينهم على ذلك صعد على أسوار الرباطات العسكرية فى الشوارع والمسالك عدّة أشخاص وأخذوا يصيحون على العامة وأبناء السبيل بالنداء أن المملكة الرومانية فى المزاد لمن يسوم فمن تغالى فى الأموال تولى منصبها فحضر اثنان من السوّام فى محفل المزايدة أحدهما سوليقيانوس صهر برطيناش الملك والثانى ديوديوس يوليانوس فسام الأوّل المنصب بخمسة آلاف من الدراهم على كل رأس رومانية وجعل العمدة فى ذلك على الفرز والإحصاء وأبلغه الثانى على كل رأس ستة آلاف ومائتين وخمسين فاستقر البيع للثانى فبايعوه فى الحال على التزام هذا الثمن وبايعه كذلك مجلس الأعيان رغما عما يعلمه من فساد هذا الأمر ومغايرته للآداب والناموس.

فلما استقر المنصب بديوديوس على هذا الوجه عقدوا له موكبا وساروا به إلى قصر الملك فقام عليه العامة واجتمعوا وصاروا يسبونه ويرجمونه ثم بعد قليل من الأيام اجتمع العسكر المرابطون فى الحدود وانتقضوا على أمراء رومة وأعيانها وقوادها وبايع عسكر كل إقليم ملكا اختاره من قوادهم وكادت تتمزق السلطة كل ممزق فقد بايع العسكر الشامى قائده بالملك وبايع العسكر الإبريطانى قائده كذلك وبايع العسكر الإيطالى أميرهم سبطيمس سويرس ملكا على سائر الرومان وتفرقت الكلمة وتباينت

الأغراض وكثرت المطامع وباتت أمور البلاد فى خلل وارتباك عظيمين وكان ديوديوس الملك فى هذا الوقت مستقراً برومة يتمتع بزهوة المنصب ويتصرف فى أمر الحكومة غير مبال بما يتهدده من الفتنة، وبينما هو على هذا الحال قام عليه أعضاء المجلس الرومانى واتهموه بالخيانة وبفساد الأمر وعجلوا بالحكم عليه بالقتل فقتلوه فكانت مدة حكمه شهرين اثنين وقد اجتمعت الكلمة فى خلال هذه الحوادث على تولية سبطيمس سويرس أمير العسكر الإيطالى وقد ساعده الحظ بقرب معسكره لمدينة رومة وكان موصوفاً بحسن التدبير وسداد الرأى فسار صوب رومة ليتم له الأمر فبايعوه.

(في الملك سبطيمس سويرس قيصر)

ثم قام بالأمر سبطيمس سويرس قيصر بويع له بالملك عقب موت ديوديوس الملك سنة ثلاث وتسعين ومائة للميلاد أى سنة تسع وعشرين وأربعمائة قبل الهجرة وكان من بلاد المغرب من مدينة (لمبوده) إحدى مدن إفريقية وكان قد تزوج بزوجة شامية قد اشتهر بها، ولذلك قال جماعة المؤرخين: إنه أول سلسلة القياصرة الشامية وكان طاغية من طواغى ملوك الروم وكان فى أيام صباه يحب اللعب بمحاكاة حركات القضاة والحكام ويقلدهم فى ألعابه وهزلياته فكان يجمع أنداده من الصبيان ويجعل نفسه رئيساً عليهم ثم يوزع عليهم مصالح المحكمة ووظائفها ويصفهم على هيئة مجلس قضائى ويصعد على منبر القضاء ويصفهم أيضاً حوله ويتذاكر معهم فى قضية يخترعها ثم يقول حكمت بذلك فلما تولى المنصب وكان يومئذ خارج مدينة رومة بادر بالمسير إليها ومعه جيش جرار يبلغ الستين ألف مقاتل فلما أشرف على المدينة خافه أعضاء المجلس وأرسلوا إليه من قبلهم رسلاً ليهنئوه بالمنصب فلما وصلوا إليه وهم منهم وخشى أن يكونوا جاءوا لمكيدة وارتاب فى إخلاصهم نظرا لأخذه المنصب بغير استحقاق فأمر بهم ففتشوهم فلم يجدوا معهم شيئًا فأمر بمثولهم بين يديه وأجزل إنعامهم وبالغ فى إكرامهم فقبلوا أنعامه خوفا منه ودخل المدينة بجيوشه غير مبال بما للمجلس من الحرمة والوقار وتكلم فى وسط أرباب المجلس بأنه لا يحكم إلا بالعدل ولا يسلك إلا سبل الإنصاف فقبلوا كلامه ولكن على غير إخلاص وهيئوا له موكبا فسار حتى دخل القصر فى كبكبة وأصبح فجلس للنظر فى القضايا فكان أول شيء بدا منه هو إبطال جند الحرس الذى قتلوا برطيناش الملك وصرفهم إلى أوطانهم وعاقب رؤساء تلك الفتنة ومهد أسباب الراحة ثم أخذ فى

تنظيم أمور البلاد وترتيب أحوال الرعية وشدد على خروج جند الحرس وأمر بقتل من يتخلف منهم فى المدينة وانتخب خمسين ألفا من الأبطال لحراسة تخته ورتب لهم أصولاً جديدة.

ولما كان لابد له من الخروج لقتال بسقنيوس نيجر قائد عساكر الشام ومصر والبلاد المشرقية (وقلوديوس البينوس) قائد العسكر الإبريطانى اللذين كانا خرجا طلبا للملك ولم يتم لأحدهما أمر وكان لا يتأتى له مقاتلة الاثنين فى وقت واحد مع استدعاء الحال لذلك رأى ضرورة مشاركة أحدهما له فى سياسة البلاد فأشرك معه (قلوديوس البينوس) قائد العسكر الإبريطانى ولم يشرك بسقنيوس نيجر حيث كان عدوا ألد وخصما لايرد وجدّه وكيل على الإيوان القيصرى برومة وكان بسقنيوس المذكور قد تربى فى العسكرية فى أيام الملك مرقوريلس فكان الجنود يحبونه جدا مع شدّته وحدّته وكانت جميع الديار المصرية قائمة معه على ساق وقدم وقد بايعته بالملك عليها وعلى جميع المشرق وكتب ديوان الإسكندرية على باب مدينة الإسكندرية (نيجر سيد هذه المدينة وصاحبها) فسار سبطيمس لقتاله سيرا حثيثا ليأخذه غيلة فلما قدم إلى مصر بجيوشه تمثل بين يديه أهل الإسكندرية وازدحم على بابه عامة الناس ورعاعهم وأظهروا مزيد الفرح بإقباله وصاحوا (نيجر سيد هذه المدينة وأنت ياملك سيد نيجر) فاستعمل على مصر عاملاً من أرباب مجلس رومة وكذلك على مدينة الإسكندرية نائباً من أعضاء المجلس المشار إليه وخالف فى ذلك قانون أغسطس قيصر الذى لايبيح أن يكون أرباب هذا المجلس نواباً فى الولايات أبداً.

وكان نيجر لما أحس بقدوم سويرس إلى الإسكندرية فرّ هارباً فتبعه سويرس وصار يهاجمه أينما لحقه وهو يصدّ عن نفسه وعن البلدة التى يحتلها فلم تساعده الأقدار وقد أظهر من البسالة والإقدام فنونا وأساليب وقامت عليه أنواء شديدة ترتب عليها انهزام جيشه عند رأس بالبحر فأخذ نيجر فى الفرار إلى بلاد العجم فقبض عليه فى الطريق وقتل وذلك فى سنة خمس ومائتين للميلاد أى سنة سبع عشرة وأربعمائة قبل الهجرة وصفا لسويرس ملك البلاد المشرقية بعد قتل نيجر ولم يبق لسويرس بعد ذلك إلا خصم واحد وهو قلوديوس البنيوس الذى سبق الكلام عليه وكان مجلس رومة يميل فى الباطن إلى تقليد قلوديوس المذكور المنصب الملوكى والى نصرته على سويرس وقد كان معدوداً من فحول الرجال وكان جنوده من أبسل الجنود وأشدها إقداما على اقتحام المهالك وكان فى خلال هذه الفطرة قد لقب نفسه

بأغسطس فسار سويرس لقتاله والتخلص منه بعد أن كان قد أشركه معه فى حكم البلاد وإدارتها كما تقدم القول فلما تلاقى الجمعان عند مدينة (ليون) من بلاد الفرنسيس تقاتلا قتالا عنيفاً فانهزمت جيوش البنيوس شر هزيمة فمال البنيوس عن فرسه وقتل نفسه خوفا من الوقوع بين يدى عدوّه فأمر سويرس بحز رأسه وأرسله إلى أرباب مجلس رومة مع خطاب يعنفهم فيه على ممالأتهم لألبينوس وتعصبهم له فى السر ويعلمهم بشديد غضبه عليهم وما سيحل بهم عند رجوعه إلى رومة ثم عاد إلى رومة فقتل وفتك وأجرى فيها الدماء كالسيول ونفى منها من نفى من أكابرها وأعيانها وضرب أعناق مشاهيرها وأصحاب المظاهر فيها فعم الخوف وانكمش الناس ومهدت الأمور وصفا له الوقت ونام على وسادة الاطمئنان ثم سار بجيوشه إلى قتال العجم والإنكليز ليدخلهم تحت الطاعة وبعث بجيش جرار إلى الجهات المشرقية فحاربها وحاصر مدينة (بوزنيطا) التى هى القسطنطينية وجعل على حصارها أمهر قوّاده فدافعت ثلاث سنين متوالية ثم فتحوها عنوة ونهبوا ما فيها من الأموال ودمروها تدميراً.

وبعد أن تغلب على الغجم والبلاد المشرقية جاءته الأخبار بأن الإنجليز غالبون على جنوده فقدم عليهم من حيث لا يشعرون وغزاهم غزوتين خسر فيهما خمسين ألف مقاتل وكان قد أشرك ولديه معه فى الملك وبعث أكبرهما وهو (بسيانوس) مع الجنود المحاربة للإنجليز فلما انهزمت جنود أبيه ووقعت الفتنة فى الجند وحصل الفشل بين الرؤساء وتعصب كبارهم ضدّ الملك قام بسيانوس المذكور على أبيه سويرس واخترط سيفه وهمّ به على أبيه فلم يتمكن من قتله فخنق سويرس والتهب قلبه بنار الغيظ واشتد به الأمر اشتداداً عظيماً فمات لساعته وذلك سنة إحدى عشرة ومائتين للميلاد أى سنة إحدى عشرة وأربعمائة قبل الهجرة فكانت مدة حكمه ثمان عشرة سنة.

وفى أيامه مات (إغريبو) بطرك الإسكندرية بعد أن أقام إحدى عشرة سنة وفى أيام (إغريبو) المذكور اتفق رأى بطاركة جميع الأمصار على حساب عيد الفصح للنصارى وصومهم ورتبوا كيف يستخرج ووضعوا حساب الإبقطى وبه يستخرجون معرفة وقت الصوم والفصح واستمر الأمر على مارتبوه إلى يومنا الذى نحن فيه وكانوا قبل ذلك يصومون بعد الغطاس أربعين يوما كما صام المسيح ويفطرون وفى عيد الفصح يعملون الفصح مع اليهود فنقل هؤلاء البطاركة الصوم وأجلوه بعد الفصح لأن عيد الفصح كانت فيه قيامة المسيح من الأموات وكان الحواريون قد أمروا

أن لا يغير عن وقته وأن يعملوه فى كل سنة فى ذلك الوقت ولما مات (إغريبو) قدم بعده (يوليانوس) وهو حادى عشرهم وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

وخلف سويرس على سرير الملك بعد موته ابنه بسيانوس فتوسم فيه الناس الخير وأملوا فيه العدل والرفق بالرعيه بعد الذى قاسوه من أبيه.

(فى الملك بسيانوس قراقله قيصر)

ثم قام بالأمر ابنه بسيانوس قراقله بعهد من أبيه فبويع له بالملك هو وأخوه (سبطيموس جيكا) معا حيث كان أبوهما قد عهد لهما به فى حياته فاشتركا فى الملك بعده وذلك سنة إحدى عشرة ومائتين للميلاد أى سنة إحدى عشرة وأربعمائة قبل الهجرة وكان الناس يعتقدون فى بسيانوس المذكور الشفقة والرفق بالرعية والاعتدال فى السياسة إذ كان كثيرا ما يقبح فعال أبيه بلا تحاش ولا اكتراث عندما كان يعاقب الناس بإلقائهم للحيوانات الضارية وكان يبكى لذلك بكاء شديداً فلما تولى واستقر به المنصب تغيرت طباعه وانقلبت أحواله وهم أن يقتل أخاه بالسم واحتال على ذلك بكل ما وصلت إليه قدرته فلما لم يتمكن منه أغرى به أعوانه فقتلوه بين ذراعى أمه وتجهل العلم بما جرى وهرب من قصره تمويها بأنه يخاف على نفسه من قاتلى أخيه أيضا وذهب إلى حيث جند الحرس وأعلمهم بقتل أخيه فأنكر الجند عليه ذلك وأسفوا وحزنوا على ذلك الطفل فسايرهم وأجزل إنعامهم تخلصا ولما كان لأخيه المذكور حزب قوي قام ذلك الحزب وأثار على بسيانوس الفتنة وكاد يخرج عليه خروجا تاما فأشار عليه كبار جند الحرس أن يضع لأخيه تمثالا وينظمه فى سلك المعبودات على عادة الرومانيين ليقمع الفتنة بالتى هى أحسن ففعل وطلب من وزير أبيه المسمى (باينياس) مقالة يتلوها على الناس يعتذر فيها عما جرى لأخيه فقال باينياس قد كان عدم قتل أخيك خيرا من الاعتذار عنه فغضب من ذلك وأمر بقتله من ساعته وكان قتل باينياس الوزير حاملا لبسيانوس الملك على ركوب متن العتوّ والطغيان والإكثار من سفك الدماء وضرب الرقاب والفتك بالأكابر والأعيان فكان عدد من قتلهم من هؤلاء نيفا وعشرين ألف نفس ثم تخوّف ولازمه الوهم فكان يخيل له دائماً فى عالم المنام أن أباه وأخاه يجردان عليه حسام الانتقام فيقوم خائفاً منزعجاً فلم يستقم له بعد ذلك حال ولم ينعم له بال فكان يسلى نفسه بالذهاب إلى الولائم والألعاب ويلعب مع اللاعبين ويلبس ملابسهم أو يتزيا بزى

العربجية وفى عنقه ياقة زرقاء كالزنار وهى علامة أهل هذا الفن وكان كثير المداهنة والتدليس فكان غشه مستوعبا لجميع أحواله وأطواره حتى كانت السكة المضروبة باسمه من دراهم ودنانير مغشوشة وقد قال بعض رعيته ما نصه: كان القيصر يعطينا النقود المتخذة من الرصاص مطلية بالفضة على أنها فضة خالصة والنقود المتخذة من النحاس مطلية بالذهب على أنها ذهب خالص اهـ.

وكان يحتكر النقود الخالصة ويكنزها لنفسه ولا يخرج منها إلا ما كان يدفعه للقبائل الأجنبية المتبربرة في عقود الصلح معهم لكى يتجنبوا حربه ويكونوا له عونا على الرعية. واشتدّ به الهوس حتى ولع بتقليد الإسكندر الأكبر المقدونى والتشبه به فى جميع أحواله فكان يقلده فى أموره وأطواره وينسج على منواله فى الملبس والمطعم وكان يتكلف التخلق بأخلافه فى جميع ما يحكى له عنه وجعل جند حرسه الخاص ستة آلاف كلهم مقدونيون تقليدا لجند الإسكندر وعلق تمثال الإسكندر على جميع الميادين والهياكل والمعابد وسمى نفسه الإسكندر لتكون هذه التماثيل رموزا له معنونة بعنوانه ومال إلى الغزو على منوال ما فعله الإسكندر فنزل على بلاد الغالية وأهلك فيها الحرث والنسل وأفنى فى محاربتها الجنود وسار فى البرارى حتى نزل على بلاد جرمانيا فلم يقدر على الجرمانيين إذ تأهبوا لصده وعبروا نهر الرين ليهزموه شر هزيمة ويخلعوه من الملك فلما أحس منهم بذلك واساهم ورشاهم بالمال فرجعوا عنه فدخل بلاد المجر والفلاق وبلاد الإردل المجاورة لبلاد الجرمان فوجدها جميعها خاضعة للغوطية وكادوا يبطشون به فرجع عنهم ولم يظفر إلا بمملكتين صغيرتين لا يفيان بما أهلكه من الرجال ونزل على بلاد فارس فخاب منه الأمل وركن إلى الصلح بعد الهزيمة ثم وثب على ديار مصر وأعمل السيف فى أهل الإسكندرية بلا موجب ولا سبب سوى ما بلغه من أنهم يسمونه بالهوس ويصفونه بالخفة والطيش وقد أباحهم للعسكر فأعملوا فيهم الذبح يوما وليلة لم يرحموا طفلا ولم يحنوا على عاجز وانتهت غزواته بالخيبة والفشل والعجز عن العمل وقام عليه العجم يريدون أخذ الثأر فلما رأى جنوده ما سيلحق بهم من العار وما يزايل ملكهم من الخيبة والبوار أجمعوا الكلمة على قتله فقتلوه وهو راجع من هذه الغزوة وذلك سنة تسع عشرة ومائتين للميلاد أى سنة خمس وأربعمائة قبل الهجرة فكان مدة حكمه ست سنوات ليس فيها غير المذلة والانحطاط للدولة.

وكان يلبس على رأسه فى جميع غزواته مغفرًا على زى بلاد الفرنسيس من النوع المسمى قراقله فاشتهر بهذا الاسم فى كتب التاريخ وكان حين اشترك مع أخيه

جيكا فى الملك رسم العلامات الملوكية والطغراء فى جميع البلاد باسمه واسم أخيه معا ورسمها أيضا على المبانى فى سائر الجهات فلما مات أخوه قتيلا على ما تقدم ذكره أمر بمحو اسمه من سائر الأنحاء وإنما بقى فى مصر دون غيرها آثار محو على بعض الأحجار يمكن المتأمل قراءتها وكان بسيانوس آخر قيصر بقيت آثاره على مبانى الديار المصرية ولم يكن لقيصر بعده فيها اسم ولا رسم ولما مات تولى الملك بعده (مقرينوس) رئيس جند الحرس الملوكى.

(فى الملك أوبليوس مقرينوس قيصر)

ثم قام بالأمر أوبليوس مقرينوس بويع له بالملك فى ساحة الحرب فى نفس اليوم الذى قتل فيه بسيانوس بايعه الجند ونادوا بملكه سنة سبع عشرة ومائتين للميلاد أى سنة خمس وأربعمائة قبل الهجرة قيل وهو الذى أغرى الجنود وجعل لهم جعلاً جسيما فقتلوا الملك وكان الحامل له على ذلك أن كاهنا من أهل العرافة أخبر أوبليوس المذكور أنه سيكون يوما ملكا على جميع الرومانيين ففعل ما فعل استمساكا بقول ذلك الكاهن.

وكان مولد أوبليوس المذكور بمدينة الجزائر بالغرب وكانت تسمى قصيرة وكان مثقوب الأذن فلذلك سموه (مقرينوس) وسمى أيضا (مقرين) ومعنى مقرين فى لغة برابرة المغاربة مثقوب الأذن وكان سعيد الطالع ميمون الطلعة فارتقى المناصب العالية فى زمن يسير جدا وكان صاحب علوم ومعارف متضلعاً من الفنون العالية فقد خدم خطيباً فى المجالس فكان له فى الخطابة الباع الطويل وانتدب عدلا فى المحاكم ورئيس محكمة وغير ذلك من المناصب العالية والرتب السامية.

وكان أوبليوس فى أيام (قراقله) الملك قاضيا فأخذه وسلمه منصب إمارة الجنود ورياسة الجيوش واستخدمه فى بطانته ثم رقاه إلى أعلى المناصب وجعله أميراً على جند الحرس الخصوصى فتمكن بذلك من فعل ما فعله بقراقله.

وقد كان فريق من جند الحرس نكص عن مبايعته فاستعمل معه الحيلة فلم ينجح فتركه واشتغل بأمور المملكة فبدت منه دلائل الجفاء والشدّة على الرعية فشكى جميع الناس منه وتمكنت من قلوبهم الوحشة فلم يلتفت إليهم وسار لمحاربة (إردوان) ملك فارس إذ كان قد هجم على الحدود وكاد يدوّخها فلما التقى الجمعان انهزم أوبليوس هزيمتين متواليتين مات فيهما كثير من جنده فطلب الصلح مع (إردوان) ملك فارس فاستقرت قاعدته بينهما على أن يدفع أوبليوس ثمانين ألف

ألف من دراهم الفضــة فحملها إلى (إردوان) من يومــه فنقمت عليه الرعيــة وكرهه لذلك أهل البلاد ووســموه بالجبن والخيانة وتـقوّى عليه الفريق الذى كـان قد نكص عن مبايعتــه، ومحا وأثبت فى قوانين المملكة وقواعد العسكرية واسـتعمل الشدة فى انتخاب شـبان الجندية المستجدّة وأهمل تسريـح العساكر المتمرّنة على القـتال ونبذهم فحقد عليه الجنود وأبغضوه وصمموا على الانتقام منه ولبثوا يراقبون الفرص.

واتفق أن نزل بقرب مـدينة حمص فـريق من الجنود الرومانيــة رباطا وكان أهل حمص يومئـذ صابئين يعبـدون الشمس وكان لهم كهان لخـدمة هيكلهم ومن هؤلاء الكهان شماس له من العمر ثلاث عشرة سنـة اسمه (بسيانوس) جميل الشكل حسن الصورة إذا لبس مـلابس الكنهوتيـة المكللة باللؤلؤ والمرجان شـخصت إليـه الأبصار ومالت إليــه القلوب فكانوا يشبهــونه بالقمر المنـير ويحفلون به وقت تقـديم القربان ويرقصــون حوله ويغنون بالألحان وكـان لهذا الغلام جدّة اســمها (يوليــه موزه) هى أخت (يوليه رومنا) زوجة سويرس قراقله قيصر وكانت جدته من العجائز ربات المكر والدهاء فكانت تدّعى أن هذا الغلام ابن قـراقله الملك كى تستميل إليـه الجنود الحالة هناك وقد كـان مجهــول الأب فكان يسمى بسيـانوس هيلوغياله يـعنى الشمس وهو مشهــور فى كتب التاريخ بهـذا الاسم فلما تمكن حبه من قلوب الجنود أخـذته يوما وذهبت به إلى المعسكر وكلمت الجـنود فى أمر أبيه قراقله الملك وأن يبـايعوه بالملك فأجـابها الجنود إلى ذلك وبايعوه ولقبـوه (أغسطس) فلما وردت الأخـبار بذلك إلى مقرينوس الملك جمع أحزابه وسار بهم عاجلاً لمقاتلة أغسطس المذكور على مقربة من انطاكية فكان الحرب بينهما سجالاً وبقى الحال هكذا مدة حتى كلت عزيمة مقرينوس واستولى عى جـيوشه الجبن فهرب هو وأصحـابه ولم يقف إلا عند قاضى كوى فى إيالة بروسه حيث لحقـته جيوش أغسطس وفتكوا بأصحـابه فتكا وقتلوه فى وسطهم وذلك فى سنة ثمان عـشرة وأربعمـائة للميلاد أى سنة أربع وأربعـمائة قبل الهـجرة وخلا الجوّ لأغسطس بسـيانوس هيلوغياله فتمكن من المنـصب وكانت مدة أوبليوس مقرينوس المذكور سنة واحدة وأياما.

(فى الملك بسيانوس هيلوغياله قيصر)

ثم قام بالأمر بسيـانوس هيلوغياله بويع له بالملك بين عساكـر حمص ثم بايعته بقيـة العساكـر وصدّق على ذلك مـجلس رومة وذلك سنة ثمـان عشرة وأربعــمائة للميلاد أى سنة أربـع وأربعمائـة قبـل الهجـرة فلمـا استقـر به المنصـب أمـر بأقـارب

مقرينوس الملك فقتلوا جميعاً وتتبع أحزابه وكثيرا من الأمراء والأعيان بالقتل حتى انقرضوا ولم يتنازل عن رياسة هيكل الشمس وأبقاها لنفسه كالخلافة فكان جامعا بين الملك والكنهوتية وقد صنع لولايته على الملك مواسم وأعيادا بقيت ستة أشهر وأمر بأن يكون أجلّ المعبودات وأكبرها فى جميع البلاد صنم الشمس ورتب ذلك بروية ومصر فكان هذا الصنم عبارة عن حجر أسود لا صورة به ولا شكل وبنى له بروية هيكلاً عظيماً وجعله سيد الأصنام وكبيرهم ثم زوّجه لصنمة الزهرة التى هى أكبر معبودات بلاد إفريقية ورتب لها عرساً عظيماً ومواسم وأعيادا سنوية وجعل مصرف هذه الأفراح على جميع الأهالى يوزع عليهم وكان هذا الصنم فى بلاد الشام أصل الزيغ والبدع فنقله إلى رومة.

ودخل بسيانوس المذكور إلى رومة وهو فى سن الرابعة عشرة لابسا حلة كهنوتية من الحرير المقصب المنقوش بأفخر النقوش فكان أوّل من لبس الحرير من الملوك فى رومة وكان فى يده أساور من ذهب وفى عنقه أطواق من ذهب أيضاً وكان مزجج الحواجب مكحول العينين يتزيا بزى العذارى تارة وبزى المردان اخرى وليس فيه من صفات الرجولية شيء وكان ينشر فى قصره دائماً أنواع الزهور والرياحين وينثر تحت رجليه الذهب والفضة فكان فى التكسر أقرب شبها إلى النساء منه بالرجال ولم توجد أخلاقه الذميمة فى أحد من القياصرة الذين قبله فكان إذا أراد النزاهة وترويح النفس دعا إلى مائدته ثمانية أشخاص من العور ومثلهم من العرج ومثلهم من الصم ويسخر بهم ما شاء وكان فى كثير من الأحيان فى وقت انتظام الديوان واحتفال الجلساء يطلق بغتة الأسود والنمور وقد كانت مقلمة الأظفار مخلوعة الأنياب فيضطرب الحاضرون من منظرها الهائل وينسرّ هو وكان يزعج خواصه وأتباعه على الدوام بهدايا وتحف مملوءة من الهوام والحشرات حتى إذا فرحوا بها وفتحوها أرهبتهم وأورثتهم المضار وكان إذا اجتمع الأهالى فى ميادين الألعاب أمر أعوانه فيطلقون الثعابين فتضطرب الناس وتتفرق ، وقد تقدم القول على أن بسيانوس المذكور ابن دعيّ منسوب إلى سويرس قراقله نسبة كاذبة وأن قراقله كان زوج خالته وكان لخالته بنت لها ولد يسمى الإكسندرسويرس فلما كثرت قبائح بسيانوس وعم ظلمه جميع الرعية وزاد طغيانه طلبوا منه أن يشرك معه الإكسندرسويرس فى حكم البلاد وتدبير أمورها فقبل ذلك كرها فرأى من الإكسندر خصمًا عنيدًا فدبر لقتله فانكشف سره وفشا أمره فقام الأهالى على ساق وقد وهموا بقتل بسيانوس فاختفى فى مكان خفى ففتشوا عليه وأمسكوه وذبحوه وألقوا جثته بعد تثقيلها بحجر فى نهر رومة وذلك

سنة اثنتين وعشرين ومائتين للميلاد أى سنة أربعمائة قبل الهجرة، فتولى بعده ابن خالته الإسكندرسويرس الثانى وكانت مدة بسيانوس أربع سنين تقريبًا.

(فى الملك الإسكندر سويرس)

(قيصر الثانى)

ثم قام بالأمر ابن خالته الإسكندر سويرس الثانى بويع له بالملك فى اليوم الذى مات فيه بسيانوس وكان أول من بايعه أرباب مجلس رومة لا طوائف الجنود كأسلافه وذلك سنة اثنتين وعشرين ومائتين للميلاد أى سنة أربعمائة قبل الهجرة وكان حسن السيرة والسياسة كامل التدبير موفقا فى جميع أقواله وأفعاله وكانت أمه نصرانية اسمها (مامه) فكان يستشيرها فى جميع أطواره وأحواله ويستنصحها فى جميع مشروعاته وأفعاله ويعمل برأيها فأبطل جميع الأمور المغايرة للآداب التى كان بسيانوس قد أحدثها وأعاد صنم الشمس إلى حمص وأخرج جميع الأصنام الأجنبية من رومة ومنع إباحة التعبد بها فى غير محالها ولم يرض أن تتمسك رومة من الأديان الأجنبية عنها بغير دين المسيحية يعنى أنه يباح لهم التمسك بدين جاهليتهم القديم ولا يباح لهم غيره من الأديان إلا الديانة المسيحية وأصدر بذلك أمراً رغما عن معارضة كهنة الأوثان الرومانية.

ثم سنّ القوانين النافعة بالنسبة للأخلاق والعوائد ونظم أحوال بيت المال وسياسة البلاد على أحسن ترتيب وسلك فى أحسن المسالك مستمسكا بالأحكام المتينة مراعياً لجانب القوانين فاقتدى به رعاياه وسلكوا سبل العدل والإنصاف وطرد من ديوانه أهل السخرية وأرباب اللهو والمغنين ولم يقرب من مجلسه إلا أهل المعارف وأصحاب الحكمة وكان لايضيع أوقاته إلا فى مطالعة كتب الآداب أو التمرينات الحربية وكان لا يجسر أحد على التكلم فى مجلسه بشىء من العوائد القديمة ولا إحداث شىء من البدع الذميمة وكان يعظ الناس جهاراً بالخطابات والمقالات كما كان يفعل عظماء الدولة الرومانية أيام انتظام دولتهم وكان يستشير مجلس رومة فى كافة أمور البلاد ويسترشده فى جميع مصالح الرعية وخفف عن الأهالى العوائد والمكوس والجبايات وكان يحيى قلوب أهل الصنائع والفنون بالجوائز تشويقاً لهم وترغيبا وكان يقظاً نشطاً ساهراً على تدارك ما ينجم عن أعمال العمال والولاة كثير الاعتناء بأمور الجند والعساكر وصرف جوامكهم وعلوفاتهم فى أوقاتها وكان يزور المرضى منهم فى خيامهم وكان يقول:

يجب على الجندى كمال الطاعة بقدر الاستطاعة ويجب له أيضا على الدولة أن يكون حسن اللباس جيد السلاح مستور القدم حاصلا على قوته على الوجه الأتم وأن يكون فى جيبه شىء من الدراهم لحاجة نفسه، فكانت العساكر فى أيامه مستحوذة على جميع ما قاله وكان لذلك إذا صدر من أحدهم هفوة شدد فى جزائه وعقابه بما يقتضيه جرمه من جلد أو قتل.

وبينما كان الإسكندر سويرس مشتغلاً بأمور البلاد وتهذيب أخلاق الرعية وترويج سوق التجارة وتحسين أحوال الصناعة وتقديم القوانين وتوطيد أركان الشريعة إذ وقع من الانقلاب السريع فى البلاد المشرقية ما لم يكن فى حساب وذلك أن أزدشير بن بابك رأس الدولة الساسانية قام على أمة (البرث) وهى أمة قديمة العهد تنسب إلى فارس أو هى الفرس الأول واستولى عليها وأزال دولتها وأخضعها إليه وكان أزدشير هذا قبل وثوبه عاملاً على إقليم من أقاليم اصطخر وكان قد أخبره بعض المنجمين أن ملك فارس سيصير إليه يوما فاستمسك بهذا النبأ ووثب على ملوك الطوائف وأخذ منهم بلادهم فملك اصطخر وهمذان والجيل وأذربيجان وأرمينية والموصل والسواد وبنى مدينة على شاطئ دجلة شرقى المدائن ثم رجع إلى اصطخر ففتح سجستان ثم جرجان ثم مرو وبلخ وخوارزم إلى تخوم خراسان ثم رجع إلى فارس ونزل صول وأطاعه ملك كوستان ومكران ثم ملك مدينة البحرين بعد حصار طويل ألقى فيه ملكها بنفسه فى البحر ولم يزل مظفراً قاهراً لجميع الملوك الذين حوله ، وقد مدّن المدن واستكثر من العمارة وقتل أردوان الإشفانى وغيره من الأردوانيين واستولى على جميع ملك الأردوانيين الذين هم أنباط السواد يعنى السريانيين وكان على طوائف الأرمن ملك اسمه (بابا) والأرمن هم أنباط من نبط الشام وكان بين أردوان وبابا حروب مستمرة فاتحدا على قتال أزدشير المذكور فحارباه مناوبة فكانت الحرب بينهم سجالا فبعث أزدشير إلى بابا فى طلب الصلح على أن يدعه فى الملك ويخلى بابا المذكور بينه وبين أردوان واستقرّت القاعدة بينهما على ذلك ثم جرد أزدشير على اردوان فقتله واستولى على السواد فأطاعه بابا بالشام وانقاد له بعد أن كان تحت طاعة الرومانيين ودان له سائر الملوك وقهرهم قهرًا. قال أهل التاريخ: ثم انقلب على أمراء العرب وكانت بيوتهم على ريف العراق إلى الحيرة وكانوا ينقسمون فى هذا الحين إلى ثلاث فرق متمايزة الأولى قبائل ترأسهم قضاعة وكانوا يسكنون بيوت الشعر والوبر ويضعونها غربى الفرات بين الأنبار والحيرة وما فوقها وكانوا واسعى الحرّية جداً فلما ملك أزدشير هذه الأصقاع أنفوا من الإقامة

تحت قبضته فخرجوا من البرية هائمين، الثانية العباد وكانوا يسكنون الحيرة متوطنين فيها، الثالثة الأحلاف الذين نزلوا بهم من غير نسبهم ولم يكونوا من تنوخ الناكصين عن طاعة الفرس ولا من العباد الذين دانوا لهم فملك الأحلاف المذكورون الحيرة والأنبار وكان منهم عمرو بن عدى وقومه فنزلوا بها وخربوها وكانت من بناء العرب من عهد بختنصر ثم عمرها بنو عمرو بن عدى لما صيروها دارا لملكهم إلى أن صبحهم الإسلام واختط الخلفاء مدينة الكوفة فدثرت الحيرة كما سيأتى الكلام على ذلك فى محله.

ولما زحف أزدشير على ممالك الرومانيين كمملكة الأرمن وغيرها وعظم أمره وساعدته الأقدار على اتساع ملكه وأسس دولة الفرس الساسانية الجديدة ولقب نفسه (بالملك الأكبر) وعظمت صولته فى البلاد المشرقية وهابه جميع مجاوريه وخشى الإسكندر سويرس بأسه وخاف أن يتسلط على ملكه فسار إلى بلاد المشرق مسرعاً لإيقاف أزدشير عند حده فلم يستقر به المقام حتى أرسل إليه أزدشير سفراء يطلبون منه إعادة جميع بلاد فارس التى كانت ملحقة بها إلى زمن كورش وهى الممتدة إلى جزائر الروم فتعجب سويرس من قحة أزدشير وجراءته وجدّ فى السير لقتاله واتفق وهو فى الطريق أن بعض العساكر خالفوا الأصول والنظامات الجندية فعقد سويرس لذلك مجلساً للحكم عليهم وأحضرهم أمام المجلس فى السلاسل والقيود وقام فى وسط المجلس وقال إن السكوت عن إهمال الجنود وواجباتهم يزرى بشرف المملكة ويهدم ناموس الأمة وكان العامة فى ذلك اليوم قد اجتمعوا ليروا ما سيكون من أمر المخالفين فلما سمع الناس ما قاله الملك ارتفعت أصواتهم بالصياح وعلت الضوضاء وقالوا لاتحل لك هذه الفعال فأشار أرباب المجلس إلى الجنود أن اضبطوا هؤلاء الصائحين ووجهوا بهم صوب الأعداء لقتالهم عوضاً عن أن يعارضوا الملك ويقاوموه فاشتد غضب الأهالى وتمادوا على غيهم واستطالوا على الملك وأقاموا فى وجهه السلاح فبرز لهم ووقف فى وسط الضوضاء وقال اغمدوا سلاحكم فإنى لا أرهب التهديد ولا أخشى الوعيد فلما رأوه على هذا الحال ألقوا سلاحهم وسكنت الفتنة وحصل الهدوء والراحة واستقرت هيبته فى قلوبهم ثم سار بعيد ذلك بجيوشه إلى العجم يريد قتالهم فتلاقى معهم وانتصر عليهم نصرة عظيمة وهرب أزدشير ونكص على أعقابه ولبث لايحرّك ساكنا ولا يطلب ثأراً ورجع الإسكندر سويرس إلى رومة مؤيداً منصوراً فتلقاه أهلها بالأفراح ودخل المجلس الأعلى بغتة ووقف بين رجاله خطيباً فقال يا أعضاء مجلس رومة قد هزمت لكم الفرس شر

هزيمة ولا حاجة لبسط الكلام فى هذا المعنى بل أقتصر على أن أذكر لكم قوة العدوّ وجنوده وما ظفرنا به عند ما أتاح الله لنا النصر عليه والظفر به فقد كان للفرس فى هذه الوقعة سبعمائة من الأفيال يقاتلوننا بها فقتلنا منهم مائتى فيل وسلبنا ثلثمائة وقد أحضرنا منهم إلى رومة ثمانية عشر وكان معهم ألف عربة مسلحة بالمناجل مطقمة بالعساكر المقاتلين بهذه الآلات فهزمناهم وأخذنا منهم مائتين ولم أحضرهم إلى هنا إذ لا فائدة فى ذلك وقد هزمنا أيضا فرسانهم وكانوا مائة وعشرين ألفا فبددنا جموعهم وقتلنا منهم عشرة آلاف مدرعين وسلبنا منهم دروعهم وجعلناها عدّة لعساكرنا وأسرنا من عسكرهم رجالاً كثيرين بعناهم عبيداً وقد أعدنا ولله الحمد لدولتنا بلاد الجزيرة الفراتية التى أخذت على عهد القيصر سلفنا وقد بددنا شمل أزدشير مع ما اشتهر به فى المشرق باسم (الملك الأكبر) وقد ولى الأدبار ذليلاً حقيراً وقد رفعنا أعلامنا وبنودنا على جميع البلاد التى كانت تحت سلطاننا واستولينا على جميع أعلام أزدشير فهذه بضاعتنا ردّت إلينا وقد أنسى عسكرنا المظفر هذا الانتصار ما كابده من المشاق والأخطار فعلى المجلس أن يأمر فى المعابد والمشاهد بنشر أنواع الشكر والمحامد فى مقابلة هذه النعمة التى لا ينكرها إلا جاحد معاند. فأجاب أرباب المجلس عن هذه المقالة بقولهم أيها القيصر قد استحقيت الامتياز بلقب الفارس الأول والاختصاص بهذه المزية حيث انتصرت على الفرس نصرة حقيقية والفضل فى ذلك لحسن تدبيرك.

ثم خرج من قاعة المجلس وذهب إلى الميدان العام وارتقى منبر الخطابة فاحتفل به الناس وصاحوا صيحة الفرح وعلت الأصوات فقال : يا أيها الناس، قد هزمنا جند فارس ورجعنا بقومنا سالمين، فنعدكم بالإنعام والإكرام وستشاهدون غدا الأفراح بهذه النصرة العظيمة فصاح الناس قائلين يالسعادة رومة بطول عمر ملكها المنصور.

ثم بعد هذه الغزوة جرد عساكره أيضاً لغزو جرمانيا وسيرهم إليها جنداً بعد جند وكانت قد شقت عليه عصا الطاعة مرة واحدة فلم ينل منهم مراما بل كانت الدائرة عليه وعلى جنوده وذلك أنه لما وصل إلى مدينة ميانة من بلاد الفرنسيس وقعت الفتنة بين جنوده فى المعسكر وقام بعضهم على بعض وهاجوا وعصوا ودخلوا على الملك فى خيمته وذبحوه ذبح الشاة وكان مقتله فى سنة تسع وأربعين ومائتين للميلاد أى سنة سبع وثمانين وثلثمائة قبل الهجرة فكانت مدة حكمه نحو ثلاث عشرة سنة وبموته انقرضت سلسلة القياصرة الشامية الذين هم فى الحقيقة من بلاد

أفريقية لا من الديار الشامية كما اشتهروا بذلك.

وفى أيامه حصلت مصر على نوع من العمارية والتقدّم فى المعارف والعلوم من أدبيات وفلسفة وغيرها واكتسبت من النجاح والتمدن أكثر مما اكتسبته رومة وغيرها من المدن الداخلة فى حكم الدولة الرومانية وكذلك حصل فى بقية البلاد التى كانت تابعة لها.

وفى أيامه مات يوليانوس بطرك الإسكندرية فى ثامن شهر برمهات فكانت مدته عشر سنين فأقيم بعده ديمتريوس وهو ثانى عشرهم وكان فلاحاً أميًا وله زوجة ذكر أنه لم يقترب منها قط وهو الذى رتب حساب الكرمة وقد وقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله.

ولما قتل الملك الإسكندر سويرس تولى بعده مقسيمينوس قيصر الأول.

(فى الملك مقسيمينوس قيصر الأول
ويسمى أيضاً
(مخشيميان قيصر)

ثم قام بالأمر مقسيمينوس الأول بويع له بالملك سنة تسع وأربعين ومائتين للميلاد أى سنة سبع وثمانين وثلثمائة قبل الهجرة فكان عاتياً فظاً غليظاً خارجاً فى ضخامة الجسم عن حد العادة جافى الطبع والعقل والجسم فكان إذا تختم فى إصبعه تختم بأساور زوجته وإذا ضرب فرساً بقبضة يده أطار أسنانها وكان يسحق بيده الأحجار ويفلق الشجرة فلقتين بيديه وكان يسحب العربة الكثيرة الأحمال بيد واحدة وكان يأكل فى اليوم أربعين رطلاً من اللحم ويشرب جرة من الخمر زنتها خمس وعشرون أقة.

قال بعض أهل التاريخ: فهذه الأوصاف وإن كانت تشم منها رائحة الإطراء والمبالغة ولكنها لا تخلو من الصحة.

وكان أبوه من الغوطيين وأمه من اللانيين وكان عمليقى الهيئة وارتقى منصب الملك بنادرة عجيبة جداً وذلك أن سويرس الملك كان قد أقام عيداً مشهوراً على ساحل الطونة لولادة ابنه جيطا وكان مقسيمينوس هذا يرعى الماشية بهذا الساحل فحضر يوما إلى معسكر الملك وطلب قبوله فى عداد اللاعبين فى تلك الولائم فلما رآه الملك عجب جداً من ضخامة بنيته ومنظره الهائل ورأى أن مثله يليق للمنازلات

والحروب فأمر أن يتصارع مع أقوياء الجند ليجربّه فطرح ممن بارزهم على الأرض ستة عشر صنديداً واحدا بعد واحد وغلبهم من غير تخلل زمن للاستراحة فأعجب الملك ذلك جداً وأمر بقيد اسمه فى سجل الجنود فبقى فى أفراد العسكرية إلى أيام الإسكندر سويرس فسلمه الإسكندر المذكور رياسة أحد الجيوش ليعلمه وينظمه ويربيه التربية العسكرية فرباه أحسن تربية ونظمه أحسن نظام وضبطه ضبطاً كاملاً وعلم رجاله الحركات العسكرية وتدبيرات الحيل الحربية وكان يناضل الشبان منهم بنفسه فلما مات القيصر الإسكندر سويرس المذكور بايع مقسيمينوس هذا جنوده فى اليوم الذى مات فيه سويرس عند شطوط نهر الرين ثم بايعه الجنود والأعيان وأرباب المجلس طرا.

فلما استقر به المنصب عبر نهر الراين وأمر بإحراق القرى والبلدان فى طريقه إلى إيطاليا وجعل معسكره في النمسا وأمر أن يرسلوا إليه على جناح السرعة جميع أعيان ووجهاء إيطاليا فحضروا إليه فى المعسكر فأمر بصلب البعض وإلقاء البعض الآخر للوحوش المفترسة بغير موجب ولا سبب ظاهر ثم اقتفى أثر النصرانية فقتل خلقاً كثيراً جداً وكان معظم القتلى من القسيسين والأساقفة فقد كان يلقى بهم للوحوش المفترسة وكان يحتقر النوع البشرى ولا يقدره قدره فكان الإنسان عنده كالبعوضة أو أدنى وكان ظلوماً غشوماً بغيضاً للعدل فهو أشد القياصرة لؤما وخسة وأقلهم مروءة فقد قال يوماً لبعض الأعيان (إنى أحب أن لا أحكم إلا على رعية مستعبدة ذليلة أسومها الخسف).

فلما اشتدت وطأته على الرعية قاموا عليه ومعهم الجنود وطلبوا خلعه فخلعوه وذلك سنة خمس وأربعين ومائتين للميلاد أى سنة أربع وثمانين وثلثمائة قبل الهجرة فكانت مدة حكمه أربع سنين لا غير وولوا مكانه اثنين وهما غرديانوس الأكبر وغرديانوس الأصغر.

(فى الملك غرديانوس الأب)
(والملك غرديانوس الابن)

ثم قام بالأمر غرديانوس الأب وابنه غرديانوس الأصغر بويع لهما بالملك عقب خلع مقسيمينوس الأول سنة خمس وأربعين ومائتين للميلاد أى سنة أربع وثمانين وثلثمائة قبل الهجرة وتحرير الخبر أنه كان فى أفريقية بمملكة قرطاجة من قبل الرومانيين شيخ هرم من وجوه العائلات وأعيانها اسمه غرديانوس وكان له ابن اسمه

غرديانوس الأصغر وكانا حسنى السيرة بين أهل رومة .فاستقر رأى مجلس رومة عقب خلع مقسيمينوس الأول على توليتهما معاً المنصب الملوكى وإشراكهما فى حكم البلاد فوليا وبويعا معا وسميت مدتهما بالمدة الغرديانوسية وكان على قرطاجة نائب للرومانيين اسمه قابليانوس وكان هذا النائب طاغية من دهاة الرجال فخرج عليهما وشق عصا الطاعة فسار لقتاله فقاتلهما وهزمهما شر هزيمة ثم أوقع الافتتان بينهما حتى اقتتلا وقامت بينهما الفتنة على ساق وقدم واشتد الخلاف واستحكم البغض فقتل كل منهما صاحبه وكانت أيامهما كلها حروبا وكروباً وخطوبا وكان لمقسيمينوس الأول اليد الطولى فى إضرام نار هذه الفتنة ليعود هو إلى منصب الملك فلما قتل غرديانوس وابنه خلا المنصب اتفقت كلمة أرباب مجلس رومة على مبايعة بوبيانوس وقلودس بلبينوس بالملك وتشريكهما معا فى حكم البلاد فوليا المنصب وبايعهما الوجهاء والأعيان وكلاهما من عائلة خاملة دنيئة الأصل فقد كان والد بوبيانوس إقفاليا يصنع أقفال الأبواب ونحوها وكان والد بلبينوس من أولاد الموالى قال بعض أهل التاريخ فلما بلغ مقسيمينوس خبر مبايعتهما وخيبة آماله صاح ومزق ثيابه ولطم وجهه حتى اختبل عقله ثم أفاق وجدّ فى السير مع من بقى معه من العساكر لقتال بوبيانوس وبلبينوس فافتتن فى الطريق جيشه وعظمت الفتنة بين الجند فقاموا على مقسيمينوس وقتلوه وألقوا جثته فى الطريق وذلك سنة اثنتين وخمسين ومائتين للميلاد أى سنة أربع وثمانين وثلثمائة قبل الهجرة فتم الأمر لبوبيانوس وبلبنيوس.

ولما استقر بهما المنصب وشرعا فى نظر مصالح البلاد تحركت العساكر وطلبوا خلعهما حيث لم يتوليا الملك إلا بمبايعة أرباب المجلس وأعيان البلاد ولم تبايعهما العساكر ولذلك أبوا إقرارهما وطلبوا خلعهما ووسموا المجلس بالاستبداد والخروج عن الحدود واتفق فى هذه الأثناء أن دخل أميران من أمراء الجنود على أعضاء المجلس بغير إذن فغضب أرباب المجلس لذلك وعدّوه إهانة وتحقيرا وحكموا على الأميرين المذكورين بالقتل فوصل الخبر لجميع أمراء الجيوش فقامت الفتنة فى الحرس الملوكى ودخل بعض العساكر على بوبيانوس وبلبنيوس وقتلوهما وذلك فى سنة اثنتين وخمسين ومائتين للميلاد أى سنة أربع وثمانين وثلثمائة قبل الهجرة ونادوا فى الحال بولاية غورديانوس الثالث ابن حفيد غرديانوس الأكبر فكانت مدة بوبيانوس وبلبنيوس أياما لم تذكر ولم تعتبرها جماعة المؤرخين مدة صحيحة.

(فى الملك غورديانوس قيصر الثالث)

ثم قام بالأمر غوردديانوس الثالث ابن حفيد غورديانوس الأكبر وله من العمر خمس عشرة سنة بايعه الجند فى اليوم الذى قتل فيه بوبيانوس وبلبنيوس سنة اثنتين وخمسين ومائتين للميلاد أى سنة أربع وثمانين وثلثمائة قبل الهجرة فبايعه بعد ذلك أرباب المجلس وأعيان الأهالى ولما كان شاباً قاصراً لم يبلغ رشده استوزر له فى المجلس وزيراً حسن التدبير فصيح اللسان كامل المعارف اسمه ميسوطش ليعينه على تدبير الملك وسياسة البلاد فسار هذا الوزير سيرة حسنة وانتظم فى أيامه حال المملكة وارتفع شأنها وقويت شوكتها وهابها العدو وعادت إلى ما كانت عليه من بعد الصيت وفى أيامه قامت الفرنجة وهم الأمم المتبربرة التى جاءت من البلاد البعيدة وأغارت على بلاد الفرنسيس ونزلت بها فهجموا على إقليم جرمانيا الرومى وقصدوا التغلب عليه فسير لهم غورديانوس جيشا تحت قيادة الأمير أورليانوس فهزمهم شر هزيمة وردّوا على أعقابهم خاسرين ثم تجهز أيضاً بنفسه لغزو سابور بن أزدشير كسرى فارس وسار فى جيش عظيم جداً فانتصر على سابور المذكور نصرة عظيمة وحارب كذلك أمم السرماطية والغوطية الذين قاموا على بلاد الروم إيلى مع قبيلة اللان فقهرهم وظفر بهم وبدد شملهم ثم سار إلى الشام وأخذها من الفرس وطرد عمال الفرس عنها واقتفى أثرهم فاسترد منهم أيضا الجزيرة وعدة مدن أخرى عظيمة وعاد إلى رومة يجر أذيال الفخر ففرحت به الرعية وقابلوه بغاية السرور وكان قد تزوج بابنة ميسوطش وزيره فبقى نفوذ الوزير المذكور على ما هو عليه بل زادت عند غورديانوس منزلته وكان من أمراء الجيوش الذين شهدوا مع الملك جميع هذه الغزوات أمير اسمه فليبش أصله من العرب فكان هذا الأمير يبغض الوزير جداً ويعمل على موته وخلع الملك واختلاس المنصب الملوكى لنفسه وكان هذا الأمل يتقوى فيه يوما عن يوم ومازال كذلك حتى دس للوزير السم فى الدسم وكان ذلك فى مأدبة فمات ثم أخذ يعمل على خلع غورديانوس وبالغ فى الدأب والاجتهاد فى ذلك حتى أوقع الفتنة بين عساكره ومازال يقوّى ضرامها حتى افتتنوا فتنة عظيمة فأغراهم على قتل الملك فقاموا عليه وقتلوه وذلك سنة ثمان وخمسين ومائتين للميلاد أى سنة ثمان وسبعين وثلثمائة قبل الهجرة فكانت مدة حكم غورديانوس الثالث المذكور ست سنوات.

فلما مات حمل فليبش الجنود على أن يبايعوه قهرا وتولى المنصب فى نفس اليوم الذى قتل فيه غورديانوس.

(فى الملك فليبش قيصر)

ثم قام بالأمر فليبش بويع له من الجنود فى اليوم الذى مات فيه غورديانوس سنة ثمان وخمسين ومائتين للميلاد أى سنة ثمان وسبعين وثلثمائة قبل الهجرة وكان فليبش المذكور عربى الأصل وكانت ولايته ضربة من ضربات الدهر وداعية إلى تثبيت أركان الاختلال وسنة سيئة لكل من أراد اغتصاب المنصب الملوكى من ذوى الاقتدار حيث صار المنصب الملوكى منذ ذلك العهد غنيمة يستلبها رؤساء الجنود وقواد العساكر بلا حق ولا اكتراث بحقوق الأمة وأهل البلاد فكان يتولى المنصب منهم من غلب ويتصرف فى الملك من قدر على التصرف ولم يستقر بفليبش المنصب حتى ظهر له خصمان معاندان ينازعانه وهما بطيبانوس ودوقيوس أما الأول فإنه لم تطل مدته ولم يتم ظهور أمره إذ قام عليه جنده وقتلوه لأسباب لم يذكرها أصحاب التاريخ وأما الثانى وهو دوقيوس وقد كان من أعضاء مجلس رومة فإنه استظهر على فليبش بجنود الرومانيين المرابطين فى بلاد البوشناق والصرب والبلغار وكانوا ميالين إليه متحزبين له فقامت الحرب بين الفريقين على قدم وساق وطالت أيامها فعمت الفتنة وسرى عرق الخلل فى أحوال البلاد واستفحل الخطب ومازالت الحرب بينهم حتى مات فليبش فى واقعة على مقربة من مدينة ويرونه من مملكة البنادقة وسقط تحت سنابك الخيل وذلك سنة ثلاث وستين ومائتين للميلاد أى سنة ثلاث وسبعين وثلثمائة قبل الهجرة.

وكان قبل موته قد عقد الصلح مع سابور بن أزدشير ببلاد الفرس وعاد بعد عقد الصلح إلى رومة وسلك سبل التحبب مع كبارها وأعيانها رجاء ميلهم إليه وقد أعطى فى أيامه المناصب العالية لأقاربه وأصحابه ليعضدوه ويكونوا له عوناً فلم يفز ولم ينجح له عمل ومات قبل أن يستقر به المنصب فكانت مدة حكمه خمس سنين غير كوامل وتولى بعده دوقيوس المذكور.

(فى الملك دوقيوس قيصر)

ثم قام بالأمر دوقيوس بويع له بالملك فى نفس اليوم الذى قتل فيه فليبش سنة ثلاث وستين ومائتين للميلاد أى سنة ثلاث وسبعين وثلثمائة قبل الهجرة وأصله من بلاد أوستريا من أعمال النمسا وكان من عائلة خاملة الظهور فتولى منصب القنصلية يعنى الحاكم الأكبر بمعارفه وآدابه لا بحسبه وكان سفاكا للدم غادراً خائناً غشوماً لا يبالى بشىء ولا يرعوى من شىء وكثرت فى أيامه الحوادث وعظم أمر الخوارج حتى

كادت تتخلخل أركان الدولة وقامت أمم الغوطية والهيرولية والبرغولية وخرجوا من بلادهم ناحية الشمال واجتازوا نهر الطونة مع مقدمهم اقليوه فأهلكوا الحرث والنسل فسار دوقيوس بجيشه لقتالهم وردهم عن البلاد فالتقى الفريقان عند روم إيلى واشتبك بينهما القتال فانتصرت جنود دوقيوس عليهم نصرة عظيمة وهزمتهم وظهرت عليهم كمال الظهور فطلبوا الصلح فلم يرض دوقيوس وأصحابه وأبو إلا قتالهم فاقتتلوا فعادت الهزيمة على أصحاب دوقيوس وكانت شر هزيمة هلك فيها دوقيوس ومعظم جيوشه وتشتت من بقى منهم وتفرق أيدى سبأ وكانت أيامه كلها محنا ورزايا وفتنا واضطرابات وشقاقا أراق فيها من الدماء شيئًا كثيراً واشتد على النصرانية شدة عظيمة جداً فأعمل فى جميع النصارى القتل والصلب وتقطيع الأعضاء والسلب حيث رأى منهم ميلا لذكر فليبش وحفظاً لاسمه بعد موته فقد ذاقوا فى أيامه من الرحمة والعدالة ما أنساهم الشدة التى كانوا فيها قبله وكان قد منحهم الحرية المطلقة فى إقامة شعائر دينهم وسهل لهم الأمور وخفف عنهم الأثقال فكانت أيام دوقيوس على عكس ذلك فلم يذق النصارى من النكبات شدة أعظم مما ذاقوه فى أيامه ولا ضيقاً أشد مما عانوه فى سلطانه حتى كادوا يفنون لولا رحمة الله بهم.

وكان المصريون فى هذا الحين شديدى التمسك بعقائدهم القديمة وعوائدهم الدينية لايبغون بها بديلا وكان دعاة الدين المسيحى يعملون على استمالة المصريين إلى التمسك بالديانة المسيحية وكان لهم فى مصر أحزاب يدعون إلى الإنجيل وكانت أعمالهم ناجحة نامية فظهر فى هذه الأثناء من بين ظهرانى المصريين داع لإحياء الدين القديم فسعى وأجهد النفس وبالغ فى الدأب واستمال الكثير من أهالى البلاد على ترك الديانة المسيحية ودعاهم إلى الردة فاستفحل أمره واستحكم بسببه الخلاف بين النصارى والوثنيين وقامت قائمة الفتنة فخرج الوثنيون على النصارى ونهبوا بيوتهم وكثر النهب بمدينة الإسكندرية حيث كانت يومئذ مأوى المتنصرين وكان نظام الإسكندرية قد اختل قبل عهد دوقيوس المذكور وعظمت الفتنة إلى أن صار أمر إراقة دماء المسيحيين من الواجبات الدينية وتتبعوا أمرهم وكثر الفحص عنهم فخرجوا على وجوههم فى صحارى الصعيد الأعلى وانزووا فى أقطارها وانكمشوا أياماً.

ويقال إن الذين أثاروا الفتنة وأوقدوا نارها على المسيحيين هم اليهود والمصريون عباد الأوثان وكانت الحكومة الرومانية بديار مصر تسرّ جداً باستمرار الشقاق بين صنوف الأهالى بمصر وتأكيد العداوة بين أهل الأديان لتدوم شوكتها وتتأيد دولتها

فتقبض على سياسة البلاد بيد من حديد وكان هذا دأبها فى كل بلد ومملكة دوّختها وفى خلال هذه الشدائد والمحن ظهر الراهب أنطانيوس المصرى وهو أول من ابتدأ بلبس الصوف وعمارة الديارات بالبرارى وابتدع زى الرهبنة وأنزل بدياراته الفرق الهاربة من أهالى مصر ولم تكن الرهبانية إذ ذاك مشروعة ولا معروفة ، واشتد البلاء على النصارى اشتداداً لم يسبق له مثال قال بعض أهل التاريخ وفرّ فى هذه الأيام الفتية أصحاب الكهف من مدينة افسس واختفوا فى مغارة شرقى المدينة وناموا فضرب الله على آذانهم فلم يزالوا نائمين ثلثمائة سنة وازدادوا تسعاً ، قلت ولم أر فى كتب النصرانية لهذا الحادث الغريب ذكر ألبتة.

وفى أيامه أبدل صورة الحكومة المصرية بصورة أخرى فأقام أميرا على العساكر يكون من وظيفته تدبير الجيوش والقيام بأمورهم بدون تداخل فى أمور البلاد السياسية وأقام أميرا آخر مصرى الأصل فى منصب الملوكية يأمر وينهى فى الشئون الملكية بدون تحرش لما يختص بأمور العساكر وهذان الأميران كانا علاوة على النائب العمومى عن ذات القيصر فى بلاد مصر ولكنه أصبح مع إقامة هذين الأميرين ضعيف الكلمة خامل الشهرة والذكر ليس له من النيابة إلا الاسم.

وقد كانت عبادة الشمس والقمر بديار مصر إلى هذا الحين شديدة الانتشار لم يعترها ضعف ولا وهن لاسيما في عهد غورديانوس الثالث وفليبش ومن بعدهما أيضاً وكان التمسك بها لم يذهب من هياكل مصر والنوبة فكانت هذه العادة من أكبر الأسباب الدافعة بأمم المصريين إلى إثارة الفتن وتعميم المحن والباعثة لهم على القيام على كل من خالف دينهم وشق عصا طاعة الهيئة الحاكمة والخروج عليها من وقت إلى آخر وكانوا لا يألون جهداً فى تعضيد كل من خرج على الحكومة من أمراء البلاد أو الأغراب ويعاونون كل من أراد اغتصاب المنصب الملوكى وينصرونه على ذلك بالنفس والنفيس قيل والغالب أن أصحاب هذا الأفتيات إنما هم الأغراب المستوطنون للبلاد فكانت لذلك لا تنقطع من ديار مصر الحروب الداخلية والاضطرابات العمومية ولا ما يترتب على ذلك من القحط والوباء حتى أهلك أهلها وقلل عددهم وكان الباعث على ذلك أيضاً خسة الملوك ودناءة أصولهم واغتصابهم المنصب بغير أهلية ولا استحقاق وسيرد عليك من قبح سيرة مثل هؤلاء الملوك شىء كثير عند الكلام على زنوبية ملكة تدمر عند ذكر أوليانوس قيصر.

وكان موت دوقيوس الملك سنة خمس وستين ومائتين للميلاد أى سنة إحدى وسبعين وثلثمائة قبل الهجرة فكانت مدة ملكه نحو السنتين وخلفه فى الملك غالوس.

(فى الملك غالوس قيصر)
ويقال له أيضا (والوس)

ثم قام بالأمر غالوس واسمه أيضاً والوس بويع بالملك فى اليوم الذى قتل فيه دوقيوس سنة خمس وستين ومائتين للميلاد أى سنة إحدى وسبعين وثلثمائة قبل الهجرة. وتحرير الخبر أنه لما انتصر اقليوه مقدم القبائل الشمالية على دوقيوس وأصحابه وهلك دوقيوس على ما تقدم بيانه خجلت العساكر مما لحقها من العار ولم تسرع بمبايعة أحد من قوادها وانتظرت ما سيكون من أرباب مجلس رومة وكان غالوس هذا معدودا من قواد الجنود الرومانية وقد ارتقى بغيرته واجتهاده إلى درجة سامية فى المملكة فحمل من معه من العساكر على مبايعته فبايعوه فأشرك معه هوسطليانوس بن دوقيوس فى إدارة أمور المملكة وعهد لابنه ولسيانوس بالملك من بعده وحلفت له العساكر بذلك وقد تم هذا كله فى معسكر بلاد النمسا ثم سار من هناك واستصحب معه شريكه هوسطليانوس إلى رومة ليأخذ البيعة لنفسه من أرباب مجلسها.

وكان إذ ذاك فى البلاد الرومانية وباء عظيم جداً فبينما غالوس وشريكه هوسطليانوس سائران إذ وسوس الشيطان فى صدر غالوس بقتل هوسطليانوس فقام عليه وخنقه وأشاع خبر موته بين الناس بالوباء ثم دخل مدينة رومة فبايعه أرباب المجلس بيعة صحيحة وكانوا يؤملون فيه إنقاذ البلاد من أيدى الأعداء فخاب فيه الأمل.

ولما استقر به المنصب أمر بقتل البابا (مارقورنيليوس) ولم تذكر جماعة المؤرخين لذلك سبباً مع أن قتل البابا فى تلك الظروف لم يكن بالأمر اليسير وعقد مع الغوطية صلحا ذهب بشرف الأمة أدراج الرياح حيث ضرب للغوطية على الرومانيين خراجاً يحمل إليهم فى كل عام كيلا تحصل منهم الإغارة على بلاد رومة ورجع غالوس بعد عقده هذا الصلح إلى رومة مذموماً مدحوراً فكان فى هذا الصلح كمال الصغار للرومانيين وحصل لهم كمال الخزى والعار وقد قصد غالوس بتعجيله الصلح مع الغوطية على هذا الوجه التفرغ لحظوظه وشهواته ولم يراع حاجات الوطن والأمة ومع ذلك فإن الغوطيين لم يحفظوا لهذا الصلح شأنا ولم يحترموا له حرمة بل نقضوه وأغاروا على بلاد البوشناق والصرب والبلغار وكان أمير الجيوش بتلك الجهات يومئذ الأمير (أمليانوس) المغربى فذب ودافع عنها خير دفاع وضرب

الغوطيين فهزمهم شر هزيمة وفرحت جنوده بالنصر واستبشروا بطالع قائدهم أمليانوس المذكور فبايعوه بالملك فى ميدان الحرب الذى انتصر فيه على أعدائه ونادوا بملكه فلما وردت الأخبار بذلك إلى غالوس الملك سار إليه بجيوشه ليؤدبه على اعتدائه وتهافته على المنصب بغير استحقاق وبينما هو فى الطريق وقعت الفتنة بين جيوشه فافتتنوا وقاموا على غالوس وابنه فقتلوهما بطعن الخناجر وذلك سنة ثمان وستين ومائتين للميلاد أى سنة ثمان وستين وثلثمائة قبل الهجرة فكانت مدة حكمه سنتين لا غير وتولى بعده الأمير أمليانوس المذكور.

(فى الملك أمليانوس قيصر)

ثم قام بالأمر أمليانوس سنة ثمان وستين ومائتين للميلاد أى سنة ثمان وستين وثلثمائة قبل الهجرة ولم يبايعه سوى جنوده الذين كانوا معه فى غزوة الغوطيين فلم يستقر به المنصب حتى سار لقتاله (والريانوس) قائد العساكر الرومانية ببلاد الغلية بجيشه المرابط فى تلك البلاد فخرج أمليانوس لقتاله ومعه جنوده وابنه فلما التقى الفريقان واقتتلا انتصر عليه والريانوس القائد نصرة عظيمة وقتله هو وولده فى ميدان القتال وداست جثتهما سنابك الخيل فى السنة التى تولى فيها فكانت مدة حكمه أربعة أشهر فقط وتولى بعده القائد والريانوس المذكور.

(فى الملك والريانوس قيصر)

ثم قام بالأمر والريانوس بايعه عساكره بالملك فى اليوم الذى قتل فيه أمليانوس وابنه سنة ثمان وستين ومائتين للميلاد أى سنة ثمان وستين وثلثمائة قبل الهجرة وبيان ذلك أنه لما قتل أمليانوس ورأت جيوش والريانوس منه بطلاً شجاعاً فى الحروب واقتحام المعارك والخطوب فضلاً عن أنه شيخ معمر حنكته التجارب توسموا فيه المقدرة على توطيد دعائم المملكة وتمكين شوكتها وتخليصها من غوائل الفتن المتراكمة والخطوب المتوالية فأقاموا له البيعة ونادوا بملكه وسار من ميدان الحرب إلى رومة بجيشه فبايعه الأهالى وأرباب المجلس وتم له الأمر وارتقى سرير الملك بين مظاهر التعظيم.

فلما استقر به المنصب جهز جيشاً عظيماً وسار لغزوة سابور ملك فارس ابن أردشير فكانت هذه الغزوة من شر الغزوات وأتعسها على الدولة الرومانية ، وتحرير الخبر أنه لما تقلد سابور الملك بعد أبيه اردشير ورأى اختلاف كلمة الدولة الرومانية وتسلط قواد الجيوش على منصبها الملوكى وزعزعة أركان سياستها الداخلية والخارجية

سار بجيوشه إلى بلاد أناطلى على مهل وكان كلما مر ببلد أو مدينة قتل ونهب وأحرق وأهلك الحرث والنسل حتى نزل بأنطاكية فدمرها وسار منها إلى حمص ليخربها أيضاً فلما وردت الأخبار بذلك إلى رومة قام الملك والريانوس بجيشه مسرعاً إلى حمص ليدفع سابور عنها فأظهر سابور الخوف والقهقرى ووالريانوس يتبعه بجيوشه حتى دخل والريانوس بجنوده فى موضع حرج للغاية فهجم عليه سابور بعسكره وهزمه شر هزيمة وأخذه أسيرا فعامله معاملة سيئة للغاية وضرب عليه ضروب الذل والصغار فكان يصحبه أينما حل وحيثما ارتحل وكان يلبسه أفخر ثيابه الملوكية وكان إذا أراد ركوب عربته أو جواده استحضره وطرحه على الأرض وجعله سلم ركوب فكان يدوسه عند الركوب بقدمه ولا ينظر إلى شيخوخته ولبث على هذه الحال من الإهانة والتعذيب ثمان سنين كاملة وكان أسره ووقوعه فى يدى سابور فى سنة أربع وسبعين ومائتين للميلاد أى سنة اثنتين وستين وثلثمائة قبل الهجرة.

قال بعض أهل التاريخ: ومن غرائب الاتفاق أن والريانوس كان أمر بتتبع النصارى وتعذيبهم وإذلالهم فقتل منهم خلق كثير وذلك فى السنة الرابعة من ملكه ولم يمض على هذا الفعل إلا القليل حتى سار لحرب سابور ووقع فى الأسر والتعذيب فكان صبورا على تحمل هذه البلوى لا يتململ ولما مات أمر به سابور فسلخ ودبغ جلده وصبغ باللون الأحمر الأرجوانى الذى هو لون لباس الملوك وحشوه بالتبن ليكون دائماً على شكله لايتغير تمثيلاً به وعبرة لمن يأتى بعده من ملوك الرومان.

وفى أيامه ظهرت قبائل الفرنجة وسارت لغزو وتخريب البلاد فوصلوا بعد أسره إلى بلاد الغلية وأسبانيا وأفريقية وانقسموا إلى عدّة طوائف لكل طائفة منهم ملك وكان كل ملك من ملوكهم يمتاز عن رعيته وقومه بهنداسة فى يده يقبض عليها دائماً وكانت وظيفته أن يمشى بهذه الهنداسة أمام جنوده وأن يقضى بين الأخصام على دكة وبيده هذه الهنداسة فيشير بها إلى صاحب الحق عند الحكم له.

وكان لوالريانوس ولد اسمه (غليانوس) واليا على بلاد الغلية فلما يئس الرومان من خلاص والريانوس من أسر سابور ملك فارس سيروا فى طلب غليانوس المذكور ليولوه بدل أبيه فجاء مسرعاً إلى رومة ودخلها فى موكب حافل للغاية فكانت مدة حكم والريانوس إلى يوم أسره خمس سنوات.

(فى الملك غليانوس قيصر)

ثم قام بالأمر ابنه غليانوس بويع له بالملك سنة خمس وسبعين ومائتين للميلاد أى سنة إحدى وستين وثلثمائة قبل الهجرة وقد كان قبل ولايته عاملا للرومانيين على بلاد الغلية فسار منها إلى رومة فى موكب حافل جداً فلما دخلها بايعه أرباب المجلس والوجهاء وأهل البلاد واستقر به المنصب فعكف على ما لا خير فيه وألهته خمرة المنصب عن غيرها قال بعض أصحاب التاريخ :

وبينما كان والريانوس الشيخ الكبير أبو غليانوس هذا يكابد ما يكابد من ذل الأسر ومضض الإهانة والضيق ببلاد فارس كان غليانوس ابنه منهمكاً فى الألعاب مولعاً بالولائم والاحتفالات يدعو إليها جميع ندمائه وجلسائه لاقتسام اللذات والشهوات وكان يقضى يومه وليلته فى السكر والعربدة ويتسلى ببناء القصور من باقات الزهور والرياحين ويزرع البطيخ فى الشتاء حيث تشتهيه نفسه فى ذلك الفصل وقد كانت فى هذه الأثناء تنصب على هامة المملكة أنواع المصائب والنكبات من كل صوب وحدب حتى كادت تشرف على الدمار فقد انتشر بها القحط وطغيان الأنهار والوباء والفتن الداخلية فكان يهلك بالطاعون فى مدينة رومة وحدها كل يوم خمسة آلاف نفس ومع هذه الخطوب والكروب والمصائب العظيمة كان غليانوس الملك لا ينفك عن ملاذه وشهواته متغاضيا عن إغارة الأعداء على بلاده حتى مزقوا المملكة وكادوا يبتلعونها فكان إذا كلمه أرباب الدولة وكبار الجند فى ذلك وحببوا إليه كبح جماح الأعداء وردّهم عن البلاد قال لهم لاتكثروا العتب واللوم فإنى لا أهتم إلا بإقليم إيطاليا دون غيره فكانت أيامه شديدة الأزمة على البلاد الرومانية بأسرها كثيرة الرزايا والإحن وسار غليانوس للحرب مع أفرنج الغلية لشنهم الغارة على حدود المملكة الرومانية فانتهز أمليانوس أمير الجنود الرومانية المرابطة بمصر هذه الفرصة فخرج على غليانوس وشق عصا طاعة الدولة فكاتبه غليانوس فى الرجوع إلى الطاعة فلم يرجع وأصر على العناد فأرسل إليه طيودوطس القائد فى جيش عظيم فهزمه وقبض عليه وأرسله إلى رومة فسجن فيها ثم قتله غليانوس وهو بالحبس صبراً، ومنح ادنياطوس ملك تدمر لقب أغسطس حيث كان محالفا للرومانيين وهو الذى هزم العجم الذين كانوا قد أغاروا على أملاك الدولة الرومانية وطردهم حتى أرجعهم إلى بلادهم وكفى الرومانيين شرهم فانتقل هذا اللقب أيضا إلى زوجته (زنوبية) وأولاده إذ كان متوارثا فيهم بعد موت ادنياطوس فصار كل من يتولى ملك

تدمر يلقب بلقب أغسطس فبدأت من هذا الحين مدينة تدمر فى التقدم ورفعة الشأن واتساع نطاق التجارة ولاسيما فى عهد زنوبيه كما سيأتى الكلام عليها مفصلا.

وقام عليه فى خلال ملكه كثير من أمراء الجنود الرومانية واغتصبوا منه الملك فكان منهم من قبض عليه وقتل ومنهم من قتله جنوده قبل أن يصل إلى رومة ولما اشتد بالرومانيين الخطب وتولاهم الذل والعار بسبب فعال غليانوس المذكور وسوء تدبيره وفساد رأيه أغروا طوائف الجند على الخروج عليه وقتله فقاموا عليه وقتلوه وألقوا بجثته أمام قصره وذلك سنة اثنتين وتسعين ومائتين للميلاد أى سنة أربع وخمسين وثلثمائة قبل الهجرة فكانت مدته سبع سنين.

وفى أيامه مات ديمتريوس بطرك الإسكندرية بعد أن أقام اثنتين وثلاثين سنة وفى أيامه طارت الأخبار بقتل جميع النصارى الذين فى ممالك رومة فوقعت فيهم مذبحة عظيمة جداً وكانت هى الشدة الخامسة وقد ابتدأت أولا من بلاد مصر حيث قتل جميع من فيها من النصارى حتى لم يبق إلا من لجأ إلى الجبال واختفى فى المقابر والكهوف ثم سرت إلى بلاد الغلية وإلى أفريقية فقتل فى تلك البلاد ما لا يحصى عدداً ولاسيما فى مدينة ليون إحدى بلاد الفرنسيس وفى قرطاجة ببلاد المغرب فكانت شدة عظيمة للغاية فلما مات ديمتريوس أقيم بعده (بادكالوس) أو (بادكالاس) وهو ثالث عشرهم وأصله من مدينة الإسكندرية وهو أول من سمى بابا على المشهور وكان ورعاً تقياً ووقع من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

ولما مات غليانوس الملك كما تقدم تولى بعده قلودس الثانى.

(فى الملك قلودس قيصر الثانى)

ثم قام بالأمر قلودس الثانى بويع بالملك بعد قتل غليانوس سنة أربع وثمانين ومائتين للميلاد أى سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة قبل الهجرة فكان أول سلسلة القياصرة (الليرية) يعنى القياصرة السواحلية وكان أصله من إقليم دلماشيا وكان معدوداً من فحول رؤساء الجيوش الرومانية وهو الذى حارب الغوطية وقهرهم وبدد شملهم فكان أول من بايعه بالملك العساكر ثم حضر إلى رومة فى عسكره فأقرّه أرباب المجلس وبايعوه وفرحوا به واستبشروا بولايته ولم يستقرّ به المنصب حتى جمع الغوطيون جيشاً جراراً عند نهر آق كرمان ونزلوا عند سواحل البحر الأسود وأغاروا على المدن الرومانية القريبة منها وزحفوا على بلاد اليونان التابعة لرومة وأغاروا عليها أيضاً فسار قلودس الملك مسرعاً لقتالهم فانتصر عليهم نصرة عظيمة

سميت نصرة (نسيا) وهى مدينة ببلاد الصرب وقد كثر فيها إراقة الدم عند اشتباك القتال بين الفريقين إلى حد تولد عنه وباء عظيم جداً فأصاب قلودس الملك فمرض ومات به فى مدينة سرمش جهة بلاد الصقالبة وذلك سنة اثنتين وثمانين ومائتين للميلاد أى سنة خمسين وثلثمائة قبل الهجرة فكانت مدّته سنتين وتولى بعده أورليانوس قيصر.

(فى الملك أورليانوس قيصر)

ثم قام بالأمر أورليانوس بايعه العسكر فى اليوم الذى مات فيه قلودس سنة اثنتين وثمانين ومائتين للميلاد أى سنة خمسين وثلثمائة قبل الهجرة. وتحرير خبره أنه لما كان قائدًا من قوّاد الجنود العارفين بأساليب الحروب وكان مقاتلا مهيباً تخشى سطوته ويخاف بأسه طار صيته فى الآفاق فتعلقت به الآمال واجتمعت الكلمة على مبايعته فبايعوه وكان شديد المراس على طوائف الجنود يخافه القريب منه والبعيد.

فلما استقر به المنصب أغارت طوائف الألمان على إيطاليا وظفروا بجيش عظيم من جيوش الرومانيين وبددوا شمله وأعملوا النهب والسلب فى جميع مدن إيطاليا فانتهز أورليانوس اشتغالهم بالنهب وجمع ما تفرق من عساكره وانقض عليهم ولا انقضاض الباز الأشهب وبدد شملهم وأعمل فيهم السيف حتى ركنوا إلى الفرار وعادوا يعبرون نهر طونة كما حضروا فسلمت البلاد من شرهم.

وكان غليانوس قبل موته بنحو سنة اتفق غليانوس مع زنوبيه ملكة تدمر وتحابا حيث كان زوجها محالفا للرومانيين ومظاهراً لهم على الفرس فظهر زنوبية المذكورة بعد موت زوجها ظهوراً عجيباً فى البلاد المشرقية وقويت شوكتها واستفحل أمرها وانتظم ملكها وصارت مدينتها التى هى تخت ملكها فى صحارى الشام الرومانية عامرة آهلة زاهرة بهية، حتى كأنها جنة من جنان الدنيا، واتسعت دائرة ملكها من ساحل بلاد صور والشام إلى نهر الفرات والعراق براً وبحراً واهتمت بإعانة التجارات واتساع دائرة المعاملات فأحرزت بلادها ما لا مزيد عليه من الرونق والبهجة واكتسبت مدينة تدمر فى أيامها من الفخر والزينة ما لم تكتسبه فى أيام سليمان عليه السلام وكانت زنوبية قد تزوجت بالملك ادنياطوس الذى هزم سابور ملك فارس وانتصر عليه فى عهد الملك غليانوس كما سبقت الإشارة إلى ذلك فى محله. فلما مات زوجها سلكت مسالك الجد وتقوت عزيمتها واتصفت بصفات الرجولية، وحلت محل زوجها فى الحماسة والشجاعة والبأس والشوكة، حتى أحرزت بلادها

كمال الشهرة وبعد الصيت، وثبتت دعائم ملكها بتلقيبها بلقب قيصرة . وكانت تزعم أنها ما تولت الملك إلا باستحقاق وأنها صاحبة أصل ينتهى إلى فراعنة مصر وملوكها، فكانت فى زمانها نادرة تخطب فى العساكر بأبلغ خطابة وأفصح لسان وتحثهم على اقتحام الخطوب وتضمن لهم الفوز والغلبة شأن القائد الحازم، وكانت تضع على رأسها خوذة الحرب كالأبطال حاسرة عن ذراعيها كالفتيان من الرجال وكانت قوية الجأش ثابتة الجنان لها فى السياسة اليد الطولى وكانت شديدة الأمل كثيرة الطمع فى أن تحكم يوما ما جميع الممالك الرومية وكانت بلاد مصر فى هذا الحين تحاول الخروج عن طاعة الرومانيين وتزاول الاستقلال بنفسها فلما علمت زنوبية بذلك وجهت أطماعها نحو ديار مصر وأخذت تبذل الأموال الكثيرة والرشا التى لا تدخل تحت حصر رجاء أخذها بالتى هى أحسن فلم تنجح فاستعملت القوة وسيرت جيشاً جرارا لغزوها فانتصرت عساكرها على العساكر المصرية واستولت على سرير الإسكندرية فلم يستقر بها المقام حتى عادت الجنود المصرية إلى مقام الاقتتال وطردتها من مدينة الإسكندرية وزحزحتها عنها فعادت إليها بعد قليل حيث جاءها من تدمر المدد من الرجال والذخيرة ومعدات القتال وتغلبت عليها واستولت على تخت الملك وذلك كله فى عهد أورليانوس الملك فقام أورليانوس من رومة وسار إلى الشام وحارب زنوبية واقتتلا قتالاً شديداً جداً فانتصر أورليانوس عليها نصرة عظيمة فهربت من حمص إلى تدمر وتترست عساكرها وراء حصونها فضيق أورليانوس حصارها ومنع عنها الميرة فنفد ما فى المدينة من الزاد وأيست من الذخيرة والإمداد فحاولت الخروج والفرار فأحس بها وقبض عليها وهى هاربة فلما مثلت بين يديه قالت له قد ساعدتك بالنصر علينا الأقدار أيها الملك فها أنا معترفة لك بالولاء ولقد كان الخروج على أسلافك من الأمور اللازمة إذ هم لم يبلغوا ما وصلت أنت إليه من النجابة والبسالة وكانت فى هذه الأثناء تحدق بها العسكر من كل جانب فصاحوا جميعاً اقتلوها اقتلوها، فما هى إلا ساحرة ماكرة. فأشار أورليانوس أن اسكتوا وقال إنى لا أحب إلا بقائها فاستبقاها ولكنه أذلها وأدخلها رومة فى موكبه ضمن الغنائم ثم أنزلها فى قصر فى رومة ولبثت هناك إلى أن ماتت وبقيت ذريتها من بعدها إلى أن أوشك الإسلام أن يفتتح الشام.

وكان أسر زنوبيه وزوال ملكها جميعه فى سنة أربع وثمانين ومائتين للميلاد أى سنة خمسين وثلثمائة قبل الهجرة.

وبعد هذا الحادث بقليل ظهر تاجر من تجار الإسكندرية وقصد الاستبداد بحكم البلاد وكان صاحب ظهور وخروج عالى الكلمة فنادى لنفسه بالرياسة وعمل على

حكم البلاد فانتهى إليه من ديوان مصر الأمر والنهى فى جميع الأمور وخضع له من أهل البلاد السواد الأعظم وقام يدفع جوامك جميع الجنود وزعم أنه يتكفل بجميع ذلك من ربح صناعة ورق الكتابة المتخذ يومئذ من البردى فلبى دعوته جميع المصريين وعقد المعاهدات مع المجاورين من ملوك العرب وضرب السكة باسمه واستعان بروم الإسكندرية فأطاعوه وانتصروا له تخلصاً من حكم الدولة الرومانية فحارب الدولة وتلاقى مع جندها فى ثلاث مواقع فظهر عليهم فى نصرة ثم انهزم شر هزيمة ووقع فى يد قائد الجيوش الرومانية فقتله وعادت مصر إلى قبضة الرومانيين وتقلد نيابتها أمير من قبل أورليانوس اسمه (أورليوس بروبوس) فأصلح ما أفسدته الحروب والوقائع وعمر المبانى بالتجديد والترميم وأصلح النيل بالعمليات الهندسية وشغل فيها الجنود فسارت السفن وانتظمت أحوال الملاحة بعد أن تعطلت أو كادت زمنا ليس بقليل وكانت سيرة أورليانوس الملك أحسن سيرة وقد دبر البلاد أحسن تدبير فحازت فى أيامه الصيت وكمال الشهرة وسار فى آخر أيامه لغزوة الفرس بعد انتصاره على عصاة مصر والشام فبينما هو يسير بجيوشه إذ أثار عليه منسيطس كاتب سره فتنة من جنوده فقام الجند على أورليانوس وقتلوه وذلك سنة ثمان وثمانين ومائتين للميلاد أى سنة ثمان وأربعين وثلثمائة قبل الهجرة فكانت مدة حكمه أربع سنين لاغير.

وفى السنة الأخيرة من ملكه كان تعذيب النصارى بالشدة السابعة التى سفكت فيها الدماء الهائلة وقتل فيها ساندنيس رئيس أساقفة باريز وكانت من أعظم الشدائد وأنكاها بالنصرانية.

ولما مات أورليانوس على ما تقدم بيانه تولى بعده طاقيطوس أحد أرباب مجلس رومة بعد أن لبثت البلاد بلا ملك مدة ثمانية أشهر.

(فى الملك طاقيطوس قيصر)

ثم قام بالأمر طاقيطوس بويع له بالملك بعد فترة ثمانية أشهر فكان ذلك فى سنة سبع وثمانين ومائتين للميلاد أى سنة سبع وأربعين وثلثمائة قبل الهجرة. وتحرير الخبر أنه لما قتل الجنود أورليانوس عند ذهابه لغزوة فارس وردّهم عن الأملاك المشرقية التى كانوا قد أغاروا عليها لم يستطع أحد مبايعة أحد بالملك خوفاً وخجلاً فبقى سرير رومة خالياً وهذه أول مرة خلا فيها سرير الملك ممن يشغله وكان مدة خلوه ثمانية أشهر فاعتبرت عند جماعة المؤرخين فترة.

وقد حدث فى خلال هذه الفترة أن ظهرت طوائف الفرنج وعبروا نهر الرين للتغلب على بلاد إيطاليا واغتيالها فلما أحس أعضاء مجلس رومة بهم اجتمعوا برؤساء الجنود وتشاوروا فى الأمر فاتحدت كلمتهم على مبايعة طاقيطوس بالملك وقد كان من أعضاء المجلس فبايعوه وكان حكيماً عاقلاً كيساً حسن المقاصد سليم النية خالص الطوية يفخر على غيره من جهة أنه من ذرية طاقيطوس المؤرخ وكان هرماً بلغ من العمر خمساً وسبعين سنة ولم يكن مجرباً للحروب ولا مارس الخطوب وكان له معرفة تامة بالإنشاء والمحاضرات والأدبيات والخطابات فكانت لذلك نفوس العساكر غير مائلة إليه ولم يلبث أن وقعت بينه وبينهم الوحشة والنفور فكانوا لا يهابونه ولا ينظرون إليه إلا بعين المقت والاحتقار ثم لم يمض إلا قليلاً من ولايته حتى أضرموا نار الفتنة وبسطوا راية العصيان فوقف رئيسهم بينهم موقف الخطيب وصار يحضهم على السكون ويستميلهم إلى الطاعة ويقول كيف ترضون طاقيطوس ملكاً عليكم بالأمس واليوم تطلبون خلعه وهو يعدكم بالعطايا والنعم الجزيلة فلم تؤثر فيهم خطابته ولم يقدر على تسكين الفتنة ثم دخل على طاقيطوس فريق منهم وقتله بالقصر وألقوا جثته على باب حجرته فنقل ودفن وذلك سنة ست وثمانين ومائتين للميلاد أى سنة سبع وأربعين وثلثمائة قبل الهجرة فكانت أيام ملكه سنة غير كاملة وتولى بعده بروبوس.

(فى الملك بروبوس قيصر)

ثم قام بالأمر بروبوس بويع له بالملك فى اليوم الذى قتل فيه طاقيطوس سنة ست وثمانين ومائتين للميلاد أى سنة سبع وأربعين وثلثمائة قبل الهجرة وقد كان أبوه بستانيا فدخل فى خدمة الجندية الرومانية وأقبل على تلقى فنونها وضروبها فارتقى درجاتها واحدة بعد واحدة وسمى فيها باسم بروبوس يعنى الصالح وكان مستقيم الحال حسن الفعال جديراً بذلك العنوان وقد تحققت شجاعته لدى جميع الجنود بحصاره المدائن والثغور وحروبه وفتوحاته العظيمة فكان مهيباً محترماً محبوباً.

ولما أحضروا له الحلة الملوكية ليلبسها يوم بويع بالملك امتنع وقال هى أكبر منى فألحوا عليه فى ذلك فأخذها وقال لعلكم قلدتمونى المنصب قبل أن تعرفوا أحوالى وتختبرونى وقد أرى أنكم ستندمون على ذلك فأنى لا أراعى أحداً منكم فى الأحكام ولا تأخذنى فى الله لومة لائم.

فلما استقر به المنصب شرع فى تحصين الحدود وحماية الثغور والعناية بها ودفع الأعداء ومنعهم من الإغارة عليها ثم تجهز بعد ذلك لحرب الغوطية والصقالبة والإفرنجة والألمان وزحف بجيوشه عليهم مرة واحدة فانتصر على الجميع وأرسل كثيراً من القبائل الرومانية إلى ما وراء نهر الرين ليتوطنوا بالبلاد التى وراء ذلك وأرسل قبائل أخرى ألمانية إلى الأقاليم الشرقية الرومانية وأذل الفرس وقهرهم وأهانهم إهانة عظيمة وقاتل أهالى صعيد مصر حتى أدخلهم تحت الطاعة وقد كان خروجهم من عهد أورلياس قيصر وعاقبهم أشد العقاب ولاسيما أهل مدينة قفط وأخميم ومنشأة أخميم ثم عاد إلى رومة مؤيدا منصورا ودخلها فى موكب عظيم للغاية سار فيه أمام عربته أسرى الأمم وغنائم الدول التى هزمها بسيفه وكان بعد انتصاره على أهل مصر قد ولى عليهم واليا اسمه الأمير (ساطرنيوس) فاستعان ساطرنيوس المذكور بمن استماله لنفسه من أروام الإسكندرية على الخروج عن طاعة الملك والاستقلال بملك البلاد ولكنه لم يلبث أن قامت عليه فتنة عاجلة فقتل فيها وعادت الكلمة فى البلاد للقيصر فاستعمل مكانه أميراً آخر اسمه (أخليس) فلم يستقر بأخليس هذا أيضاً المنصب حتى حدثته نفسه بطلب الاستقلال والخروج عن الطاعة وعمل على ذلك واستمال إليه أرباب المظاهر فى البلاد فبايعوه على ذلك بمصر ثم قامت عليه فتنة فقتل فيها أيضاً وعادت كلمة القيصر إلى مقامها الأول فهابته الدول وخافه سائر الرعية وعلت كلمته وانبسطت يده على جميع أمور الدولة فاستتب الأمن فى داخل البلاد الرومانية واستولت الطمأنينة على جميع الآهلين وانتظم حال التجارة والصناعة والفلاحة وكثر غرس الكروم لاسيما فى بلاد الغلية والجرمانية والبلاد الأندلسية وزادت محاصيل العنب زيادة عظيمة للغاية وكان لايترك الجنود فى البطالة والكسل بل كان يستعملهم فى الخدم العمومية كتنشيف البرك وردم المستنقعات وعمارة القناطر والجسور وفتح الترع والخلجان وتطهير الأنهر وتحسين مجاريها وكان لايدعهم للاستراحة طرفة عين وقد كان أنذرهم قبل مبايعته بجميع ذلك إذ قال لهم: ولعلكم قلدتمونى المنصب بدون روية. فسئم الجند من استدامة الخدمة وأغضبهم استمرارهم على هذا الحال وامتلأت صدورهم حقداً عليه وكرها له فذهب يوماً ليرى عملية تطهير بعض البحيرات فقام عليه الجند وقتلوه. قيل: وكان مما حمل الجند على قتله أنه قال لقوّادهم فى محفل (سيأتى علىّ يوم لا أحتاج فيه إلى جندى منكم ولا جنود) يريد بذلك أنه بالعدل تقل حاجة الملك إلى العساكر مصداقاً لقول القائل :

«لو أنصف الناس استراح القاضى .·. وبات كل عن أخيه راضى»

وكان قتله فى سنة ست وتسعين ومائتين للميلاد أى سنة أربعين وثلثمائة قبل الهجرة وهو من الحوادث المشئومة على الدولة الرومانية وكانت مدة ملكه سبع سنين وتولى بعده قاروس.

(فى الملك قاروس قيصر)

ثم قام بالأمر قاروس بايعه جند الحرس الملوكى عقب قتل بروبوس سنة ست وتسعين ومائتين للميلاد أى سنة أربعين وثلثمائة قبل الهجرة وقد كان رئيس جند الحرس المذكور فسار إلى رومة بعسكره وطلب من أرباب المجلس البيعة له فبايعوه عن إخلاص وقد كان مولده فى مدينة أربونة بمملكة الغلية ولم يكن ذا بيت عريق فى المجد وكان له ولدان أحدهما اسمه قارينوس والثانى اسمه نومريانوس فلما استقر به المنصب قلد ولديه منصب الأغسطوسية ونادى لهما بذلك.

وعاد الفرس والصقالبة فى السنة الأولى من ملكه إلى الإغارات على البلاد الرومانية فسار بنفسه إلى بلاد آسية وقاتلهم قتالاً عنيفاً فهزمهم وأخذ بعض مدنهم وعاد إلى رومة فقام عليه بعض الجنود فى الطريق وأخذوه غيلة وقتلوه وذلك سنة سبع وتسعين ومائتين للميلاد أى سنة تسع وثلاثين وثلثمائة قبل الهجرة فكانت مدة ملكه سبعة عشر شهراً فتولى الملك بعده ولداه قارينوس ونومريانوس.

(فى الملك قارينوس قيصر)

(والملك نومريانوس قيصر)

ثم قام بالأمر ولداه قارينوس ونومريانوس بويع لهما بالملك عقب قتل أبيهما فى أثناء سنة سبع وتسعين ومائتين للميلاد أى سنة تسع وثلاثين وثلثمائة قبل الهجرة وقد كان نومريانوس معتدل المزاج لين العريكة سهل الأخلاق فصيح المنطق بليغ المقال الى حد أكسبه شهادة مجلس رومة بأنه خطيب عصره ونادرة مصره وقد كانت الخطابة عند اليونان والرومان فى ذاك الحين أصلاً عظيماً من أصول الدولة يعين على التحسين والتمكين وقد خلد التاريخ فصاحة نومريانوس وبيانه وجعل شهادة المجلس له بذلك دليله وبرهانه.

وأما قارينوس فقد كانت أوصافه على خلاف أوصاف أخيه فكان منهمكاً على القبيح فاسد الأخلاق مخالطا لأهل السخرية والأغانى لايصحب إلا من لا خلاق له وكان يتزيا بزى النساء فيلبس اللآلئ النفيسة والجواهر الكريمة ولا ينام إلا على بساط

الزهور والرياحين وكان يتحبب إلى الجند وأهل البلاد بالإكثار من الولائم والضيافات فكانوا لذلك يتغاضون أحيانا عن معايبه.

ولما استقر المنصب بنومريانوس سار الى بلاد فارس حيث كان أهلها قد قاموا على البلاد الرومانية وأخذ معه آبروس أبا زوجته فلما رأى آبروس المذكور ما عليه نومريانوس من أبهة السلطنة وعزة الملك تاقت نفسه الى ذلك وسولت له الفتك بنومريانوس فقام عليه وهو فى طريقه الى فارس وفتك به وكان مع نومريانوس فى هذه الغزوة دقليانوس رئيس غلمانه فلما علم بما فعله آبروس قام عليه وقطع عنقه انتقاماً منه وأخذاً بثأر سيده وفى رواية أنه لم يكن ضربه عنق آبروس محض انتقام لسيده بل إن الأصل فى ذلك أن كاهنة من بلاد الغلية بشرته بأنه سيملك على بلاد عظيمة جداً إذا يسر له القدر قتل الخنزير فكانت كلمة آبروس باللغة اللاتينية معناها خنزير ونقلت إلى العلمية من معناها الأصلى فكان قتله لآبروس المذكور تحقيقاً لما قالته وبشرته به الكاهنة وقد تولى الملك بعيد ذلك ولكن على بلاد الغلية فقط قيل ولم يقصد الاستيلاء على رومة ولا بسط يده على جميع البلاد الرومانية كما كان الناس يظنون.

ولما تمكن دقليانوس من الجند وكبارهم سار بهم الى قارينوس ودنا من مقره وأصر له السوء فأحس قارينوس وصحا من سكر الغفلة وأقلع عما كان عليه من الخسة واللهو والاشتغال بالدنايا وبرز لمحاربة دقليانوس واستعمل البأس والشدّة فكانت الحرب بين الفريقين سجالاً ثم ظهر على دقليانوس وهزمه وكسر عساكره، وبينما هو يطارد دقليانوس وعساكره قامت فتنة بين جنوده فقتلوه فى الطريق وذلك سنة سبع وتسعين ومائتين للميلاد أى سنة تسع وثلاثين وثلثمائة قبل الهجرة فكانت مدة ملكهما أشهر قلائل وتولى بعدهما دقليانوس واستقل بحكم البلاد

(فى الملك دقليانوس قيصر)

ويقال له أيضا

(دقلطيانوس ودقله والملك مقسيميانوس هرقل أغسطس)

ثم قام بالأمر دقلطيانوس بويع له البيعة العامة بعد قتل قارينوس سنة سبع وتسعين ومائتين للميلاد أى سنة تسع وثلاثين وثلثمائة قبل الهجرة وكان مولده بمدينة دقليادلماجيا ببلاد النمسا من عائلة خاملة الذكر عاطلة من حلية المجد والحسب فدخل فى خدمة العسكرية من زمن صباه واشتهر بالبراعة فى الفنون الحربية والسياسة

الملكية ولكنه لم يشتهر بالشجاعة فى المواقع المهمة ولا عرف فضله بالفتك بالأعداء فكانت سياسته كسياسة أغسطس أول قياصرة الروم يميل إلى حسن التنظيم وإحكام الأمور والتمسك بالحزم والتبصر فى العواقب وكان ميالاً إلى السلم والصلح وتنسيق الأحوال فكان معدوداً لذلك من أكابر مدبرى الدولة الرومانية ولم يسبق له مثيل بين رجالها وكان عمره حين تولى الملك أربعين سنة وقد أحس باحتياجه مع ذلك إلى عضد يقوى ساعده وظهر يقتسم معه حمل أعباء المملكة وكان من أمراء شجعان المعسكر الرومانى أمير اسمه مقسيميانوس هرقل من أبناء بلد دقلطيانوس ولكنه كان فظاً غليظاً دنئ الأصل لأن أباه كان من رعاة الماشية فتربى مقسيميانوس المذكور فى الجندية ومازال حتى انتظم فى سلك الشجعان فأدناه دقلطيانوس منه وقاسمه الملك قسمة مهايأة وتراض فأبقى دقلطيانوس لنفسه الأقطار المشرقية وترك لمقسيميانوس تدبير الأقطار المغربية وجعل مقر حكومة مقسيميانوس مدينة ميلان من أعمال إيطاليا.

وامتاز دقلطيانوس عن مقسيميانوس بملاحظة عموم المصالح وأمور كافة البلاد الرومانية مشرقية كانت أو مغربية وجعل دار إقامته مدينة أزمير من أعمال برسه فهجرت عندئذ مدينة رومة وانسلخ عنها كونها دار الملك ومقر السلطنة الرومانية فى عهد هذه المقاسمة وكان ذلك فى سنة ثلاث وثلثمائة للميلاد أى سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة قبل الهجرة وكان كل من دقلطيانوس ومقسيميانوس فى تدبير أمور المملكة وقضاء مصالح خلق الله على وفاق عام وتواطؤ فى الرأى تام فكان دقلطيانوس يومئذ رأس الدولة ومقسيميانوس عضدها.

ولما ذهب مقسيميانوس الى مقر حكومته بالأقطار المغربية رأى من خروج فلاحى بلاد الغلية وعصيانهم وإثارتهم للفتن ما ألجأه إلى تجهيز الجيوش وإعداد معدّات الحرب لقتالهم فضربهم وانتصر عليهم وأدخلهم تحت الطاعة ثم سار إلى قتال فارسيوس الخارجى ببلاد الإنجليز حيث استفحل أمره واجتمع معه عصب الأشقياء من أهل الصيال وقطاع الطرق وتعدى معهم للإيذاء والسلب رجاء أن يكثر قومه ويستقل بملك البلاد وفصلها من حكم الرومانيين فحاربه مقسيميانوس وأجهد النفس فى قتاله فلم يقدر على إدخاله ومن معه من الفرنج تحت الطاعة فاضطر أن يشرك معه فى الملك شريكين آخرين أحدهما قسطنقيوس خيورس من أهالى سواحل إيطاليا من بيت مجد وشرف وثانيهما اسمه واليرس الراعى ويقال له أيضاً غاليرس وألبسهما حلة الملك ليكونا عوناً على الأعداء وكانت هذه المقاسمة والتشريك فى

سنة ست وثلثمائة للميلاد أى سنة ثلاثين وثلثمائة قبل الهجرة فاجتمع على حكومة الدولة الرومانية فى هذا الحين أربعة ملوك ملكان كبيران يلقب كل منهما بلقب أغسطس وهما مقسيميانوس ودقلطيانوس وملكان دونهما فى الرتبة يلقب كل منهما قيصرا وهما قسطنقينوس وغاليرس وكانت تسمى هذه الحكومة إذ ذاك بالدولة الرباعية فكان هذا الترتيب المشتمل على قسمة المهايأة تمهيداً لانفصال رومة وقسطنطينة وامتياز كل منهما بعد ذلك بملك مستقل قائم بنفسه كما سنرى ذلك فى محله.

وكان لهذه الشركة الرباعية أثر مهم جداً إذ تقوّت بها الدولة وعظم شأنها وامتدت كلمتها وهابها العدو وصارت فى مأمن من الغارات الخارجية فقهر قسطنقيوس الفرنج وهزمهم ودفع غاليرس الفرس وغلبهم وبدد شملهم وأعاد للدولة مجدها ورونقها القديم وقد كان دقلطيانوس فى هذه الأثناء يعمل على تحسين أحوال الإدارة الملكية وإدخال الجند تحت القوانين الرابطة ونشر بنود الضبط والعمارية وعمل أيضاً على تحسين أحوال مدينة أزمير وأنطاكية وحمص وقرطاجة وأدخل فى الديوان الرسوم والآداب المشرقية وأبهة الملك على عادة سلاطين المشرق من الفرس وغيرهم ولم تكن هذه الآداب معهودة من قبل فى دواوينهم.

ووقعت مصر فى هذه المقاسمة الرباعية من نصيب دقلطيانوس حيث صارت من ضمن بلاد المشرق وكان العامل عليها يومئذ رجل اسمه أخليوس ويقال له أيضاً آجله وكان فى خلال هذه الحوادث قد تغلب عليها لنفسه واستبد بحكمها فسار دقلطيانوس لقتاله وحاصر مدينة الإسكندرية وضيق عليها تضييقاً شديداً فقطع خلجان النيل لتصريف مياه النيل التى تجرى فيها السفن ليمنع المياه والذخيرة عن المدينة واستولى عليها بعد حصار ثمانية أشهر فلما فتحها استعمل الظلم والعسف وتجاوز الحدود فى ذلك وارتكب ما لا يخطر لأحد على بال من المآثم والمظالم وأحرق المدينة وسبى أهلها سبياً وأباحها لجنوده ليفعلوا ما يشاءون فعاثوا فى الأرض وأهلكوا الحرث والنسل وقتلوا وفتكوا وسبوا ونهبوا وأراقوا الدماء أنهراً واشتدوا شدّة لم يسبق لها مثيل، وحكى بعض أحبار مسيحى مصر أن دقلطيانوس ركب ظهر فرسه وأمر جنده أن لا يتركوا القتل حتى تسيل الدماء على الأرض وتعلو حتى تصل إلى ركبة فرسة. قال بعض المؤرخين: فكان من الألطاف الإلهية أن سقط به فرسه على الأرض فتلوثت ركبتاه بالدم فتم قوله معنى وأبطلوا القتل.

واعتبر قبط مصر حكم دقلطيانوس على الدولة الرومانية تاريخاً تؤرخ به الوقائع

ويسمونه تاريخ الشهداء لكثرة ما سفك فيه من الدماء ولاسيما دماء المسيحيين وهذا التاريخ يوافق تسعاً وثلاثين وثلثمائة قبل الهجرة وتسعا وثلاثين يوما. قال بعض الكتاب: وكانت نصرة دقلطيانوس على آجله عامل مصر فتوحاً جديدة للبلاد ومفتاحاً لخير أهلها فإنه بعد أن أجرى ما أجراه من الجور والعسف عاد إلى سبل الاستقامة والرفق بالرعية فعمل لهم قوانين خصوصية وصالح أهل الصعيد وترك لهم من جنوب أسوان جهة الشلالات يستبدّون بحكمه ويرابطون فى الثغور والحدود يحفظونها ورتب لهم الجوامك والعلوفات فى مقابلة ذلك.

وأما والبروس فقد كان فظاً غليظاً جهورىّ الصوت مزعجاً فى حركاته وسكناته وكان يحسد دقلطيانوس على ما أحرزه من لقب أغسطس فسعى ليحرز هذا اللقب أيضاً وقد كان هو علة تعذيب النصارى وتنكيلهم فى الشدة العاشرة التى هى أعظم الشدائد وأفظعها وآخرها فعذبهم بأنواع العذاب ما لم يسبق له قط مثال وكان يحملهم على الردة عن دين المسيح والرجوع لعبادة الأصنام وأحرق القصر الملوكى مرتين وأتهم أهل الديوان بتحريض أهالى البلاد على قتاله وأكثر من سفك الدماء فى سائر الأقاليم ثم إن الشدّة على النصارى بديار مصر فى أيام دقلطيانوس وإن كانت لنكبة المسيحيين دون غيرهم وتمزيق شملهم غير أنه قد عم جورها جميع أهل البلاد وحلت بسائر أرباب العقائد النكبات ونزلت النقمة بالجميع بلا استثناء فكان ذلك باعثاً على تقارب المسيحيين والوثنيين من بعضهم وتودد بعضهم لبعض وعدواتهم للحكومة الرومانية وقد طالت شدتهم زهاء عشر سنين فدل هذا الحادث على شدّة ارتباط الفريقين وإخلاصهما لبعض فقد أنقذ الوثنيون يومئذ طائفة المسيحيين الذين ركنوا إليهم ولجئوا إلى حماهم ولم يمكروا قط بهم كما كان يؤمل ولم تكن هذه الشدائد مانعة لانتشار دين المسيحية فى الأقطار بل بالعكس فقد كان كلما اشتد الضيق وعم الويل وتطاولت على النصارى يد الإيذاء كان الدِّين ينتشر انتشاراً عظيماً جداً ولم يكن الدين موجباً لضعف الدولة الرومانية ورجوعها إلى الوراء إلا تبعاً وإنما الذى أضعف بالأصالة هذه الدولة على التدريج هو تقسيم المملكة بين ملوكها الأربعة كإشارة دقلطيانوس ثم إن تقسيمها على ذلك الوجه وإن كان سبباً فى رفعة شأنها واتساع نطاق كلمتها وإزاحة العدو عنها إلا أنه قد ترتب عليه طمع رؤساء الأقاليم وعمال البلاد فى الاستقلال والخروج عن طاعة الدولة وقد حدث عنه أيضاً ما لا يطاق من الحروب الداخلية والخارجية فضلاً عما كان فيه من المصائب الخصوصية فكان ارتقاء هؤلاء الملوك الأربعة على سرير الملك ضرباً من

ضروب المصائب على الحكومة وبقى الأمر على هذا الحال من أيام دقلطيانوس إلى أيام قسطنطين الملك.

ولما كان دقلطيانوس الملك حين حقد غاليرس عليه وناوشه الخصام قد كبر سنه ووهن عظمه وكان لا يمكنه مقاومته ولا صدّه عن مقاصده ولا أن يجيبه إلى مطالبه الطويلة العريضة ولا يستطيع مخالفته خلع نفسه من الملك طوعاً فى سنة خمس عشرة وثلثمائة للميلاد أى سنة إحدى وعشرين وثلثمائة قبل الهجرة وانزوى فى إقطاعاته واشتغل بالزراعة والفلاحة فاقتدى به شريكه الثانى مقسيميانوس وخلع نفسه وانزوى فى أملاكه أيضاً فلم يبق بعدهما من الشركة الرباعية إلا غاليرس وقسطنقيوس خيورس فصفا الوقت لغاليرس وتصرف فى الأمور واستبد كما شاء.

قلت: وقد قال المقريزى فى خططه عن دقلطيانوس المشار إليه ما محصله: إن دقلطيانوس أحد ملوك الروم كان من غير بيت الملك فلما مات ملك تجبر وامتد ملكه إلى مدائن الأكاسرة ومدينة بابل واتخذ تخت ملكه مدينة أنطاكية واستخلف على مدينة رومة وجعل لنفسه بلاد الشام ومصر إلى أقصى المغرب وخالف عليه أهل مصر والإسكندرية فبعث إليهم جيشاً جراراً وقتل منهم خلقاً كثيراً جداً وأوقع بالنصارى فأسال دماءهم وغلق كنائسهم ومنع من دين النصارى وحمل الناس على الردة وعبادة الأصنام وأسرف جداً فى قتل النصارى وهو آخر من عبد الأصنام من ملوك الروم ويقال: إن رجلا اسمه آجله ثار بمصر وخرج عن طاعة الروم فسار إليه دقلطيانوس وحاصر الإسكندرية ثمانية أشهر حتى أخذ آجله وقتله وعم أرض مصر كلها بالسبى والقتل، وكانت أيامه كلها شنيعة للغاية قتل فيها من أصناف الأمم وهدم من بيوت العبادة ما لا يدخل تحت حصر وكانت واقعته بالنصارى هى الشدة العاشرة وهى أشنع شدائدهم وأطولها لأنها دامت عليهم مدة عشر سنين لا يفتر يومًا واحدًا يحرق فيها كنائسهم ويعذب رجالهم ويطلب من استتر منهم أو هرب ليقتله يريد بذلك قطع دابرهم وإبطال دين النصرانية من الأرض فارتد خلائق كثيرة جداً وصار قتل دقلطيانوس لنصارى مصر تاريخاً تؤرخ به قبط مصر إلى يومنا الذى نحن فيه. وبين تاريخ دقلطيانوس يعنى أول يوم منه وبين يوم الخميس أول يوم من سنة الهجرة ثلثمائة وثمان وثلاثون سنة قمرية وتسعة وثلاثون يوما. أ. هـ.

وبعد خلع دقلطيانوس لنفسه وانصرافه عن الملك وتركه الحكومة لغاليرس خصمه كما تقدّم وانعكافه على الفلاحة والزراعة أعاده مجلس رومة ودعاه إلى العود للمنصب فتنصل وتنزه وأظهر الأنفة عنه والعزة وأبان أنه لم يكن ترك المنصب

وفى نفسه حاجة إليه وأنه ما هجره إلا حليماً لا سفيها فحسبت له هذه الفعلة من المفاخر عند جماعة المؤرخين وكانت مدة حكمه ثمان عشرة سنة. وفى أيامه مات بادكلاس بطرك الاسكندرية بعد أن أقام ست عشرة سنة فخلا الكرسى بعده سنة وأقيم ديونيسيوس وهو رابع عشرهم وكان وثنيًا ثم اعتنق الديانة المسيحية وتعبد وتزهد وعمل صالحاً حتى اختاروه لهذا المنصب وكان فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى حينه.

قلت: وعلى ما رواه صاحب الخطط عند تتبعه سير بطاركه الإسكندرية يكون البطرك الذى مات فى أيام دقلطيانوس هو بطرس خاتم الشهداء وهو ثامن عشرهم لا بادكلاس مع أننا إذا تتبعنا سنى كل ملك أى مدة حكمه من تاريخ دخول مرقس الحوارى مدينة الإسكندرية ومناداته بالديانة المسيحية إلى جلوس دقلطيانوس على سرير الملك يتضح أن موت بادكلاس كان فى أيام دقلطيانوس لا فى أيام أورليانوس كما جاء فى كتب الكنيسة القبطية والله سبحانه أعلم بالحقائق.

(فى الملك غاليرس قيصر)

(والملك قسطنقيوس خيورس قيصر)

استقل هذان الملكان بالمنصب عقب خلع دقلطيانوس ومقسيميانوس لأنفسهما من الملك وذلك فى سنة خمس عشرة وثلثمائة قبل الميلاد أى سنة إحدى وعشرين وثلثمائة قبل الهجرة ولما استقر بغاليرس المنصب ورأى من أعباء الملك ومشاق المنصب ما لا يمكن معه الاستقلال بالرياسة أشرك معه قسطنقيوس خيورس الذى كان يومئذ ملكاً على بلاد الغلية شركة تامة له ماله وعليه ماعليه فى حكم البلاد ثم انتخب أيضاً شريكين آخرين أحدهما اسمه سويرس أوسوريانوس وكان جنديًا ولكنه مجرد من الفضل والشجاعة، والثانى مقسيمينوس وكان من رعاة الغنم انقطع عن الرعاية منذ عهد ليس ببعيد وانتظم فى سلك العسكرية بلا فضل ولا مزية فعادت إذ ذاك الدولة الرومانية رباعية كما كانت وكان غاليرس كبيرها ورأسها المشار إليه فى مهامّ الأمور.

ولما تم لغاليرس الأمر على ما أراد أحصى أهالى البلاد كلاً باسمه وصفاته وضرب عليهم المغارم وصادر فى أموالهم فكانت هذه البدعة فى البلاد تعدّ من الغرائب وتحسب من أشد المصائب ومسح جميع الأراضى والمزارع وضرب عليها المغارم الجسيمة وقاس كرم العنب وضرب عليها كذلك المغارم وأحصى الأشجار

والمواشى وغير ذلك ورسم بأن كل رب عائلة وكبير بيت يحرر سجلاً بعدد أولاده وعبيده وخدمه وتقييد ما يمتلكه من العقار والمتاع فى سجلات بيت مال الدولة وكان يستنطق الأولاد والخدم والعبيد على ما يمتلكه آباؤهم وساداتهم عسى أن يخالف قولهم قولهم، ويظهر المخبأ بل ربما أغراهم المغرون على عدم المطابقة لعلهم يصيبون أكثر وقد عين لذلك كله محال معدودة يحضرون فيها المرضى وأرباب الأمراض المزمنة والعواجيز لتقييدهم فى دفتر العوائد وتمويلهم وكانت المغارم مضروبة على المولودين والأموات فلم يكن أحد فى تلك الأيام مستثنى من المغارم والمصادرات وكان إذا مات أحد من المسجلين بسجل هاته المغارم أو نفق حيوان من الحيوانات التى عليها عوائد وزع ما يخصه على الأحياء بدون ترك شىء من المتأخر منها فلم يخل انسان ولا حيوان من ظلمه وعسفه حتى شمل جوره جميع طوائف الشحاذين والمعوزين والفقراء والمساكين وكان إذا عجز أحد عن أداء المطالب وأظهر الفقر والمسكنة وسأل الناس ما فى أيديهم أمر بجمعه وجمع أمثاله وأنزلهم فى سفن وأغرقهم فى البحر ليجتنب الناس التخلق بالمسكنة والفقر لكيلا يتخلص أحد من المغارم ودفع ما ضرب عليه واشتد بالناس عسفه وجوره إلى حدّ لايطاق ولا يحتمل قال أهل التاريخ: أما قسطنقيوس خيورس شريكه فقد كان على عكس ذلك فإنه كان عادلاً يحب رعيته ويرفق بهم ويشفق عليهم ويوردهم موارد السعادة فى الرفاهية ومازال على هذا الحال من الرفق برعيته حتى مات فى مدينة بورك من أعمال بلاد الإنجليز بعد أن عاش عيشة مرضية فخلفه ابنه قسطنطين الملقب بالأكبر.

واتفق فى هذا الحين أن ثارت فتنة عظيمة فى إيطاليا قتل فيها سويرس أحد الشركاء فى المنصب الملوكى فتولى بعده مقسنقوس بن مقسيميانوس الذى كان شريكًا لدقلطيانوس فاغتاظ غاليرس من ذلك غيظاً عظيماً واستغاث بدقلطيانوس وكان دقلطيانوس مقيماً فى مدينة سالونه منزوياً مشتغلاً بالحرث والغرس وهو فى عيش هنىّ فكتب إليه يستقدمه ويعرض عليه المنصب الملوكى بالمشاركة فردّ عليه يقول: أحب أن تحضر إلىّ أيها الملك لترى الخس المورق المخضر الذى غرسته بمدينة سالونه فلعلك لو سرّحت الطرف فى هذا الغرس النضير لا تخاطبنى أبداً فى شأن الملك. فلما رأى منه الامتناع والإصرار على الإباء اختار شخصاً اسمه ليقينوس ولقبه بعنوان أغسطس فوافته المنية بعد ذلك حيث مرض مرضاً شديداً على حين غفلة واندمل جسمه وتقرح وقاسى ما قاسى من شدة الألم الذى اشتد به ومات ولم ينل من اختياره لليقينوس المذكور أرباً ولا مغنماً وذلك فى سنة خمس عشرة وثلثمائة للميلاد

أى سنة إحدى وعشرين وثلثمائة قبل الهجرة وتولى بعده مقسيمينوس الثانى شريكه واستولى على الرياسة العليا فكانت مدة حكمه نحو ثلاث وعشرين سنة.

وفى أيامه مات ديونيسيوس بطرك الإسكندرية وكان موته فى الثالث من توت بعد أن أقام تسع عشرة سنة كابد فيها من الأهوال والشدائد ما لا يدخل تحت حصر وظهر فى أيامه بولا الخارج فكتب ديونيسيوس إلى مجمع أنطاكية رسالة يدحض فيها اعتقاد بولا ويفنده ويبطله فكان لهذه الرسالة وقع حسن جداً فأقيم بعده مكسيموس وهو خامس عشرهم وظهر فى أيامه رجل قال عن نفسه: إنه الروح البارقليط أى الروح المعزى فتبعه خلق كثير وكادت بدعته تعم وتعاليمه تؤثر فى الكثير من المعترضين ولكنه لم يلبث أن هلك وامحت آثاره بالكلية.

(فى الملك مقسيمينوس الثانى وقسطنطين الأكبر ومقسنقوس وليقينوس)

ثم قام بالأمر أربعة هم مقسيمينوس الثانى وقسطنطين الأكبر ومقسنقوس وليقينوس فكانوا شركاء فى حكم البلاد وسياسة الجمهور وكان ابتداء حكمهم فى سنة خمس عشرة وثلثمائة للميلاد أى سنة إحدى وعشرين وثلثمائة قبل الهجرة ولكنهم لم يثبتوا على حسن الموالاة طويلاً حتى اتحد أحدهم قسطنطين مع ثانيهم ليقينوس واتحد ثالثهم مقسنقوس مع رابعهم مقسيمينوس فحدث من هذا الاتحاد أن صاروا حزبين متخالفين قلبا وقالباً وكان مقسنقوس قابضاً على زمام إيطاليا فسلك فى الإيطاليين مسلك الجور والظلم واشتد عليهم وأنشب فيهم أظفار نكاياته فاستغاثوا بقسطنطين ليخلصهم من ظلمه وكان قسطنطين مشهوراً بالرأفة وكمال الشفقة وغاية الشجاعة والبسالة وكان محباً للملة النصرانية محامياً عنها ولكن جيوشه كانت قليلة فلم يكن عنده يومئذ سوى أربعين ألف مقاتل وكان عدد جند مقسنقوس نيفاً ومائة وستين ألف جندى، فلما رأى من كثرة عدد جنود خصمه تردد فى الأمر وخشى عاقبة إغاثة الإيطاليين ولكنه عاد بعد ذلك وصمم على الأخذ بناصرهم. قال بعض الكتاب: ومما حبب إليه القتال أنه رأى يومئذ هو وكثير من عساكره شكل صليب على دائرة كوكب الشمس مكتوباً عليه بالرومية (أنت تغلب عداك) ثم رأى فى المنام أيضاً حبرًا من أحبار المسيحيين يأمره بأن يتخذ صورة الصليب شعار الملك على سلاح جنوده وعلى أعلامه وبنوده فتقوّت عزيمته واشتدّ أمله بالنصر والغلبة وأمر فجعلوا شعائر الصليب على جميع الأسلحة والرايات فى

المملكة الرومانية وقد كان قبل هذا شعار القياصرة عبارة عن صورة صنمية فاتخذ قسطنطين لنفسه بيرقاً مطرزاً بالقصب ومكللاً بالجواهر على شكل صليبي ورقم عليه اسم المسيح بالحروف الرومية وصوّر المسيح متوّجاً بتاج من الذهب وأمر جميع جنوده أن يرسم كل منهم صورة المسيح على كنانته وسلاحه ففعلوا جميعاً وسار بهم حتى اجتازوا جبال ألبة بإيطاليا فالتقى بجيوش عدوه فاقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم جيش مقسنقوس شر هزيمة فساق قسطنطين خلفه يطارده ويعمل القتل حتى وصل جبلاً تحت أسوار مدينة رومة اسمه جبل ميلوس وكان مقسنقوس قد صف هناك جميع عساكره وأجناده ليتقوى بهم على عساكر قسطنطين فحمل عليه قسطنطين حملة واحدة فهزمهم وانتصرت عساكره عليهم نصرة عظيمة فلما كان صبح اليوم الثانى شوهد مقسنقوس غريقاً مع كثير من جنوده وكان ذلك سنة خمس وعشرين وثلثمائة للميلاد أى سنة إحدى عشرة وثلثمائة قبل الهجرة.

قال أصحاب التاريخ: وبعد مضى نحو السنة من هذا الحادث المهم قام مقسيمينوس يريد البطش بليقينوس رفيق قسطنطين انتقاماً وأخذاً بثأر رفيقه مقسنقوس فسار إليه ليقينوس وقاتله وقبض عليه وسجنه وشدد عليه فقتل نفسه فارتفع من هذا الحين شأن قسطنطين واستفحل أمره وقويت شوكته وعظم قدره فغار منه رفيقه ليقينوس وحسده وحقد عليه وناواه الشر وقصد صدّه ومنعه من الغزو والفتوح فقامت الحرب بينهما واشتدّ القتال فانهزم ليقينوس وقتل بين جنوده فى ساحة الحرب فبقى قسطنطين منفرداً بالملك وذلك سنة سبع وثلاثين وثلثمائة للميلاد أى سنة تسع وتسعين ومائتين قبل الهجرة فجمع عند ذلك جنوده ودخل مدينة رومة فى موكب عظيم جداً وجعل الصليب زينة موكبه وعلامة طالع كوكبه حيث انتصر به على أعدائه وفاز وعقد النية من هذا الحين على اتخاذ النصرانية دينا له فصوّر صورة نفسه فى شكل تمثال قابضاً بيده على صليب فعدّ أهل رومة ذلك من أعجب العجائب إذ كانت العادة عندهم أنه إذا دخل الملك رومة منصوراً لايقبض بيده إلا على رمح فلم تبطل هذه العادة عندهم إلى أن أحدث قسطنطين عادة استعمال الصليب مع أنه إلى ذاك الحين لم يكن قد تنصر.

وفى هذه الايام مات مكسيموس بطرك الإسكندرية بعد أن أقام اثنتى عشرة سنة فأقيم بعده ثاونا وهو سادس عشرهم وكان ورعاً صائب الرأى محبوباً مطاع الكلمة وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

(وصل فى انفراد الملك قسطنطين الأكبر بملك الدولة الرومانية)

وانفرد قسطنطين بملك الدولة الرومانية بعد قتال وحروب تقدم بيانها وذلك سنة سبع وثلاثين وثلثمائة للميلاد أى سنة تسع وتسعين ومائتين قبل الهجرة ودخل مدينة رومة بجيوشه فلم يلق من أهلها بشاشة ولا ترحابًا بل كانوا يسخرون منه ويقدحون فيه ويطعنون فى عرضه بلا موجب ولا سبب سوى ما رأوه من محاماته عن النصرانية فغضب من وقوعهم فيه ورغبت نفسه عن رومة وصمم على أن يبنى مدينة أخرى عظيمة ويجعلها مقر حكومته ودار ملكه فطمح نظره على مدينة بيزنطا لحسن موقعها بين قارتى أوروبا وآسيا ولكونها فى منتزه عظيم البقعة واسع الأنحاء مطلة على أبحر ثلاثة فرسمها وأسرع فى بناء أسوارها وهياكلها وقصورها وحماماتها وسقاياتها وقصباتها وأتمها على أحسن ما يوصف فرغب الأهالى فى سكناها وهرع إليها الناس من جميع الأقطار واشتهرت باسم القسطنطينية وكان إتمامها سنة أربع وخمسين وثلثمائة للميلاد أى سنة اثنتين وثمانين قبل الهجرة فتحوّل إليها تخت الدولة الرومانية وعظمت عمارتها واتسعت حتى صارت من أعظم مدن العالم رونقاً وبهجة.

وكان قسطنطين الملك فى هذه الأثناء يعمل على إصلاح شأن الحكومة وترتيب أمور البلاد التابعة له فاعتنى بإصلاح شأن مصر وهذب حكومتها وأحسن حالها وبذل الجهد فى إصلاح أخلاق أهلها وكذلك أخلاق الرومانيين وأقام للبلاد المشرقية كافة رئيساً عاما يسوسها وينظر فى جميع مصالحها فكانت مصر بمقتضى هذه الحدود المرعية يومئذ داخلة تحت كلمة الرئيس المذكور وحكمه إلا عسكرها فإنهم كانوا تحت تصرف قائد مخصوص تابع مباشرة لرئيس عموم الدولة الرومانية لا علاقة له بغيره قال بعض الكتاب: وذلك لأن بلاد مصر كانت مأخوذة من البطالسة كما تقدّم فعدّها الرومانيون من الحدود والثغور التابعة لممالك رومة وكان للحدود والثغور والرباطات يومئذ أمير مخصوص مرابط من جانب رومة وكان منوط بتحصيل العوائد وجباية الأموال من الحدود والثغور ليتوزع بعضها على الخزينة الرومانية يعنى بيت مال المملكة وعلى خزينة الملك الخصوصية.

وكان لمصر فى هذا الحين أيضاً نائب ملكى كالملك على البلاد وعليه جل أشغال العمليات الهندسية مما فيه إصلاح أحوال النيل وعليه ملاحظة ريّ الأراضى والزراعة

والأسفار فى النيل ونقل الغلال من مصر إلى القسطنطينية فكان رؤساء الأقاليم المصرية وحكامها وعمالها لاينقادون لهذا النائب فى كثير من الأحيان بل كانوا مولعين بمخالفته وكان حاكم الصعيد يرى نفسه أعظم قدراً وأجل شأنا من النائب المذكور فكان هذا الحال داعيا لخلل نظام البلاد وعدم استقرار أمورها على قاعدة منتظمة فكانت الدولة الرومانية لذلك تعمل دائماً على تغيير أسماء الأقاليم المصرية وتقسيمها إلى أقسام صغيرة وتكثير العمالات لتتمكن دولتها وتتسع كلمتها ويسهل عليها ضبطها وحكمها كما تشاء فترتب على تكثير العمالات والعمال كثرة الظلم فى الرعية وانتشار الجور والعسف بهم فضلاً عن كره المصريين للحكومة الرومانية وما يضاف إلى ذلك أيضاً من اختلاف المذاهب النصرانية وتشعبها الى شعب كثيرة متعادية متخالفة كما سيأتى الكلام عليها.

وكان قسطنطين الملك ولعاً بتتميم ما كان قد شرع فيه دقلطيانوس قبل موته من جعل المملكة الرومانية دولة ملوكية يستوى فى قوانينها وأحكامها جميع الرعايا فلا يكون هناك حكومة أشراف ولا قضاة ولا ملتزمون وإنما تكون الحكام أمراء من طرف القيصر يوليهم ويعزلهم إن شاء فقسم المملكة أقساماً إدارية بين أولاده الثلاثة وهم قسطنطين وقسطنطوس وقسطنطقوس وابن عمه دلماقوس وجعل لنفسه الرياسة الكبرى على هؤلاء الأربعة فانصلح حال الدولة وانتظمت أمورها على قاعدة مقررة ثم أصلح حال الجيوش والعساكر بأن قسمها الى فرق وجعل كل فرقة منها ألفا وخمسمائة عسكرى وجعل على كل فرقة أمير فصار كل أمير فرقة على حدته لا يخشى منه على الملك لانحصار امارته فى هذا القدر من العساكر خلافا لما كانت عليه قبلا فكان هذا الترتيب داعيا لادخال كثير من الغرباء فى مصاف العساكر فقد تناقص عدد أهالى البلاد بالحروب الداخلية والخارجية ووصل إلى حدّ لم يمكن معه تجنيد الجنود اللازمة للدفاع والحرب عند الحاجة. قال أهل التاريخ: وكان إدخال هؤلاء الغرباء فى صفوف العسكرية الرومانية غاية الضرر على البلاد وأهلها.

وفى آخر أيام قسطنطين تحرّكت دولة فارس لغزو الإيالات المشرقية فتهيأ قسطنطين لقتالها فجيش الجيوش وجمع الجموع ومعدّات القتال وقبل أن يسير بهم الى العدوّ سار الى قرب مدينة أزمير واستقدم أسقفها وتدين بالديانة النصرانية على يديه فعمده بماء المعمودية وقد كان أصدر قبل عماده وهو فى مدينة ميلان سنة سبع وعشرين وثلثمائة للميلاد أى سنة تسع وثلثمائة قبل الهجرة مرسوماً يبيح التدين بالدين المسيحى وبأن النصارى جميعاً يكونون تحت حمايته الذاتية فانتشر من هذا

الحين دين المسيح وصار دين الحكومة والهيئة الحاكمة ومعتقد أهل الحل والعقد وقد كانوا جميعاً قبل ذلك عبدة أوثان ولازال الحال على ذلك إلى أن جمع فى سنة تسع وأربعين وثلثمائة للميلاد أى سنة سبع وثمانين ومائتين قبل الهجرة فى مدينة نيقة بإيالة بروسه المجمع الأول الذى تهذبت فيه علامة الامة المسيحية الباقية إلى يومنا الذى نحن فيه ولم ير فى القياصرة أشدّ من قسطنطين حمية على النصرانية لاسيما بعد دخوله فى مصاف أبنائها فكان يعظم الأساقفة ويجلهم ويجمعهم على خوانه ورسم بصلاة يوم الأحد فى جميع أطراف المملكة وجعل هذا اليوم عيداً فى الأسبوع تتعطل فيه جميع الأشغال فصار العمل على ذلك سنة متبعة إلى يومنا هذا عند سائر المسيحيين. وأبطل المصارعة وعيد الزهرة وهدم هياكلها لما فى ذلك من العوائد الذميمة فجعل عباد الأوثان يتزاحمون على الدخول فى النصرانية وأقام فى جميع أنحاء المملكة المرابطين والمحافظين من الأمراء وأقطعهم الأراضى نظير ذلك وجعلها وراثة لمن بعدهم فى أعقابهم، ومنع جميع ما فيه مفاسد الأخلاق وخفف العوائد والأموال وعدّلها ولطف أمور المصادرات والاسر والاسترقاق وأبطل الربا، وكان محباً جداً للعلوم والفنون فكان يعمل على تقدمها وترقيها وعافى أهلها من جميع الرسوم والعوائد وخصهم بالمزايا العسكرية وأن يسكنوا فى خطط العسكر ومنازلهم وجعل هذه المزية لنسائهم وأولادهم أيضاً وأخرج اليهود من بيت المقدس وأكرههم على التدين بالديانة المسيحية وقتل من امتنع منهم فأبى أكثرهم وقتل قيل: ومن تنصر منهم لم يخل من النكبة أيضاً حيث جمعهم وحشرهم فى كنيسة فى يوم عيد الفصح وأمرهم بأكل لحم الخنزير فامتنع أكثرهم فأمر بقتلهم فقتل الجم الغفير منهم فى هذه المحنة. **قلت**: وهذه فرية من أهل الافتيات لأن شدة تدينه بالنصرانية تحول بينه وبين هذه الفعال.

قال بعض الكتاب عند الكلام على قسطنطين المشار إليه: وكانت أم قسطنطين هيلانه من أهل قرى مدينة الرها قد تنصرت على يد أسقف الرها وتعلمت الكتب فلما مر بقريتها أغسطس صاحب شرطة دقلطيانوس رآها فأعجبته فتزوج بها وحملها إلى بيزنطا مدينته فولدت له قسطنطين وكان جميلاً فأنذر دقلطيانوس منجموه بأن هذا الغلام قسطنطين سيملك الروم ويبدّل دينهم فأراد قتله ففرّ منه إلى الرها وتعلم بها الحكمة اليونانية حتى مات دقلطيانوس فعاد إلى بيزنطة فسلمها له أبوه أغسطس ومات فقام بأمرها بعد أبيه إلى أن استدعاه أهل رومة فأخذ يدبر فى مسيره فرأى فى منامه كوكبًا فى السماء على هيئة صليب وصوت من السماء يقول: احمل هذه

العلامة تنتصر على عدوك فقص رؤياه على أعوانه وعمل شكل الصليب على أعلامه وجنوده وسار لحرب مقسيميانوس برومة فبرز إليه وحاربه فانتصر قسطنطين عليه وملك رومة وتحوّل منها فجعل دار ملكه القسطنطينية فكان هذا ابتداء رفع الصليب وظهوره فى الناس فاتخذه النصارى من حينئذ وعظموه.

وأكرم قسطنطين النصارى ودخل فى دينهم بمدينة نيقوميديا فى السنة الثانية عشرة من ملكه على الروم وأمر ببناء الكنائس فى جميع ممالكه وكسر الأصنام وهدم بيوتها وعمل المجمع بمدينة نيقيه وسببه أن الإكسندورس بطرك الإسكندرية منع أريوس من دخول الكنيسة وحرمه لمقالته ونقل عن بطرس الشهيد بطرك الإسكندرية أنه قال عن أريوس إن إيمانه فاسد وكتب بذلك إلى جميع البطاركة فمضى أريوس إلى الملك قسطنطين ومعه أسقفان واستغاث به وشكى الإكسندروس فأمر بإحضاره من الإسكندرية فحضر هو وأريوس وجمع له الأعيان من النصارى ليناظروه فقال أريوس: كان الأب إذا لم يكن الابن ثم حدث الابن فصارت كلمة له فهو محدث مخلوق ففوّض إليه الأب كل شيء فخلق الابن المسمى بالكلمة كل شيء من السموات والأرض وما فيهما فكان هو الخالق بما أعطاه الأب ثم إن تلك الكلمة تجسدت من مريم وروح القدس فصار ذلك (مسيحا) فإذن المسيح معنيان كلمة وجسد وهما جميعا مخلوقان.

فقال الاكسندروس أيما أوجب أعبادة من خلقنا أو عبادة من لم يخلقنا فقال أريوس بل عبادة من خلقنا أوجب فقال الاكسندروس فإن كان الابن خلقنا كما وصفت وهو مخلوق فعبادته أوجب من عبادة الأب الذى ليس بمخلوق بل تكون عبادة الخالق كفراً وعبادة المخلوق إيماناً وهذا أقبح القبيح.

فاستحسن الملك قسطنطين كلام الاكسندروس وأمره أن يحرم أريوس فحرمه وسأل الاكسندروس الملك أن يحضر الاساقفة فأمر بهم فأتوه من جميع ممالكه واجتمعوا بعد ستة أشهر بمدينة نيقية وعدّتهم ألفان وثلثمائة وأربعون أسقفاً يختلفون فى المسيح فمنهم من يقول الابن من الأب بمنزلة شعلة نار تعلقت من شعلة أخرى فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية عنها وهذه مقالة سليوس الصعيدى ومن تبعه. ومنهم من قال: إن مريم لم تحمل بالمسيح تسعة أشهر بل مر بأحشائها كمرور الماء بالميزاب وهذا قول إليان ومنه تبعه. ومنهم من قال إن المسيح بشر مخلوق وأن ابتداء الابن من مريم ثم إنه اصطفى فصحبته النعمة الإلهية بالمحبة والمشيئة ولذلك سمى ابن الله قال ومع ذلك فالله واحد قيوم وأنكر هؤلاء الكلمة الروح فلم يؤمنوا بهما

وهذا قول بولس السيماطئ بطرك أنطاكية وأصحابه. ومنهم من قال: الآلهة ثلاثة صالح وطالح وعدل بينهما وهذا قول مرقيون وأتباعه ومنهم من قال: المسيح وأمه إلهان من دون الله وهذا قول المرايمة من فرق النصارى. (قلت) لا ندرى أين هذه الفرقة من فرق النصارى وأين موطنها. ومنهم من قال: بل الله خلق الابن وهو الكلمة فى الأزل كما خلق الملائكة روحاً طاهرة مقدسة بسيطة مجردة عن المادة ثم خلق المسيح فى آخر الزمان من أحشاء مريم البتول الطاهرة فاتحد الابن المخلوق فى الأزل بإنسان المسيح فصارا واحدا. ومنهم من قال: الابن مولود من الأب قبل كل الدهور غير مخلوق وهو جوهر من جوهره ونور من نوره وأن الابن اتحد بالإنسان المأخوذ من مريم فصارا واحداً وهو المسيح وهو قول الثلثمائة وثمانية وعشر. قال الراوى: فتحير قسطنطين من اختلافهم وكثر تعجبه من ذلك وأمر بهم فأنزلوا فى أماكن وأجرى لهم الأرزاق وأمرهم أن ينتظروا حتى يتبين لهم صوابهم من خطئهم فثبت الثلثمائة وثمانية عشر على قولهم المذكور واختلف باقيهم قال قسطنطين إلى قول الأكثرين وأعرض عما سواه وأقبل على الثلثمائة وثمانية عشر وأمر لهم بكراسى وأجلسهم عليها وسلم إليهم سيفه وخاتمه وبسط أيديهم فى جميع مملكته فباركوا عليه ووضعوا كتاب قوانين الملوك وقوانين الكنيسة وفيه ما يتعلق بالمحاكمات والمعاملات والمناكحات وكتبوا بذلك الى سائر الممالك وكان رئيس هذا المجمع الإكسندروس بطرك الإسكندرية وأسطاوس بطرك أنطاكية ومقاريوس أسقف القدس فوجه ساطوس بطرك رومة بقسيسين اتفق معهما على حرمان أريوس فحرموه ونفوه ووضع الثلثمائة وثمانية عشرة الأمانة المشهورة وأوصوا أن يكون الصوم متصلاً بعيد الفصح على ما رتبه البطاركة فى أيام الملك أورليانوس قيصر ومنعوا أن يكون للأسقف زوجة وكانت الأساقفة قبل ذلك إذا كان مع أحدهم زوجة لا يمنع منها إذا جعل أسقفا بخلاف البطرك فإنه لا يكون له امرأة ألبتة وانصرفوا من مجلس قسطنطين بكرامة جليلة.

ويقال: إن الإكسندروس هذا هو الذى كسر الصنم النحاس الذى كان فى هيكل زحل بالاسكندرية وكانوا يعبدونه ويجعلون له عيداً فى ثانى عشر هاتور ويذبحون له الذبائح الكثيرة فأراد الاكسندروس كسر هذا الصنم فمنعه أهل الإسكندرية فاحتال عليهم وتلطف فى الحيلة إلى أن قرب العيد فجمع الناس ووعظهم وقبح عندهم عبادة الصنم وحثهم على تركه وأن يعمل هذا لميكائيل رئيس الملائكة فإن هذا خير من عمل العيد للصنم فلا يتغير عمل العيد الذى جرت عادة أهل البلاد على عمله

ولا تبطل ذبائحهم فيه فرضى الناس بهذا ووافقوه على كسر الصنم فكسروه وأحرقه وعمل بيته كنيسة على اسم ميخائيل الملك فلم تزل هذه الكنيسة بالإسكندرية إلى أن أحرقتها جيوش المعز لدين الله أبى تميم معدّ لما قدموا فى سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة للهجرة واستمر عيد ميخائيل عند النصارى بديار مصر باقيًا يعمل فى كل سنة إلى يومنا هذا.

وفى السنة الثانية والعشرين من ملك قسطنطين سارت أمه هيلانة إلى بيت المقدس وبنت به عدة كنائس فدلها مقاريوس الأسقف على الصليب وعرفها ما عملته اليهود به فعاقبت كهنة اليهود حتى دلوها على الموضع فحفرته فإذا به ثلاث خشبات فلم يعرفوا الصليب قبل فوضعت الثلاث خشبات كل واحدة على ميت قد بلى فقام أحدهم حيًا عندما وضعت عليه إحداها فعملوا لذلك عيدًا مدة ثلاثة أيام عرف بعيد الصليب وهو يعمل إلى يومنا هذا وعملت له هيلانة غلافًا من الذهب الخالص وبنت كنيسة القيامة التى تعرف بكنيسة قامة وأقامت مقاريوس الأسقف على بناء بقية الكنائس وعادت إلى مملكتها فكانت مدة ما بين ولادة المسيح وظهور الصليب ثلثمائة وثمانية وعشرين سنة على المشهور ا هـ.

ومات فى أيام قسطنطين الملك ثاونا بطرك الإسكندرية بعد أن أقام تسع سنين بطركًا وفى رواية سبع سنين وهو أول من بنى الكنائس بمدينة الإسكندرية وكانت النصارى قبله تصلى بالإسكندرية فى المغارات والسرادب خوفًا من القتل وسفك الدماء فلاطف ثاونا المذكور جماعة الروم وبالغ فى ملاطفتهم وأهدى لهم تحفًا جليلة حتى بنى كنيسة السيدة مريم بالاسكندرية فصلى فيها القبط جهارًا. وقد ذكر عنه أنه كان يصنع بعض العجائب وكان صاحب عزم وتدبير وحسن سياسة ومعرفة بالامور وطرد فى أيامه أهل الزيغ وأصحاب البدع وله مناقب كثيرة. فأقيم بعده بطرس المعروف بالأول خاتم الشهداء وهو سابع عشرهم فأقام عشر سنين ومات قتيلًا وكانت أيامه كلها شدائد وكروبًا وفتنًا وخطوبًا مات فيها من النصارى خلق كثير على قول بعض المؤرخين.

فأقيم بعده ارخلاوس وهو ثامن عشرهم وقيل: إنه كان تلميذ بطرس فأقام ستة أشهر ومات وكان ورعًا تقيًا محبًا للفقراء.

فأقيم بعده الاكسندروس وهو تاسع عشرهم وكان تلميذ بطرس أيضًا على المشهور وكان من الحوادث فى أيامه ما قد مرّ بك عند الكلام على قسطنطين الأول وأمه هيلانة.

فى الملك قسطنطين الثانى والملك قسطنطوس الاول والملك قسطنقوس

ثم قام بالأمر أولاده الثلاثة قسطنطين الثانى، وقسطنطوس الأول، وقسطنقوس بعهد من أبيهم وذلك سنة إحدى وخمسين وثلثمائة للميلاد أى سنة خمس وثمانين ومائتين قبل الهجرة. وتحرير الخبر أنه لما مات قسطنطين تقاسم أولاده المذكورون الممالك الرومانية بينهم مساهمة ومحاصة وصار كل منهم ملكاً على جهة مستقلاً بها فأصاب قسطنطوس الإيالات المغربية وخص قسطنقوس الإيالات المشرقية وأقيم قسطنطين رئيساً على الأقطار المشرقية والمغربية معاً فصار بذلك صاحب الكلمة على أخويه قسطنطوس وقسطنقوس.

ولما استقرّ بكل منهم المنصب على هذا الوجه خافوا من بقية عائلة قسطنطين أبيهم وخروجهم فى طلب الملك فقتلوهم جميعاً حتى لم يبق منهم إلا إثنان من الأقارب هما والوس ويوليانوس الملقب المرتد إذ تشفع مرقص أحد الأساقفة فى ابقائهما وخلاصهما من القتل، وتلقب بعد ذلك كل من هؤلاء الأخوة بلقب أغسطس ولكنهم ولم يلبثوا طويلاً حتى وقع بينهم الخلاف وتفاقم حيث لم يرض قسطنطين بنصيبه من المملكة وتأهب لقتال أخيه قسطنطوس وجرّد عليه وسار إليه بخيله ورجله وقاتله قتالاً هائلاً فمات قسطنطين فى حومة القتال وتم التمكين لقسطنطوس ولكن لم يخل له الجوّ حتى خرج عليه خارجى من إيالته المغربية اسمه منيقوس وأصله من الأسارى من سبى جرمانيا وتربى عند الرومانيين وترقى فى العسكرية وتقلب فى درجاتها العلية وادّعى لنفسه بملك البلاد المغربية فتبعه خلق كثير فسار إليه قسطنطوس وحاربه واقتتل الفريقان قتالاً عنيفاً فمات قسطنطوس فى الحرب سنة أربع وستين وثلثمائة للميلاد أى سنة اثنتين وسبعين ومائتين للهجرة.

فلما أحس أخوه قسطنقوس بذلك تأهب للأخذ بثأر أخيه وبلاده بقتل منيقوس فسار إليه فى عسكر جرار وركب عليه حتى قتله وانفرد بالملك بعد حرب هائلة ولكنه عاد فاشرك معه أحد أقاربه وهو والوس ولقبه بلقب قيصر وسلمه المحافظة على المشرق جميعه وأبقى لنفسه المغرب وسياسة البلاد كافة وتدبير أمور الدولة بتمامها فلم يفلح والوس المذكور حيث كان حديث نعمة فاسد الأخلاق وكان شره النفس سيىء التدبير فقام عليه قسطنقوس وقتله وذلك سنة ثمان وستين وثلثمائة للميلاد أى سنة ثمان وستين ومائتين قبل الهجرة. قال بعض أهل التاريخ: وصارت

الدولة فى هذا الحين على خطر عظيم يخشى عليها من التلف والانحلال بتحويل هذه الأحوال وكانت أمة الإفرنجة تكرّ عليها من المغرب وأكاسرة الفرس تتهددها من المشرق وكان الملك قسطنقوس وحده لايستطيع الذب عنها فرأى أنه لابد له من شريك فى الملك يشد به أزره ويصلح به أمره وكان قد بقى من أقارب قسطنطين الأول يوليانوس أخو والوس وكان فى مدرسة مدينة أزمير يتلقى العلوم وكان شاباً متديناً بالدين المسيحى مشتغلاً بالفلسفة والحكمة وقد حصل على ما يمتاز به أبناء الاكابر من العلوم والمعارف والآداب فاستقدمه قسطنقوس وجعله قائداً لجنوده المنتخبة لقتال الفرنجة ورسم له بقتالهم فسار اليهم وقاتلهم قتالاً شديداً وظهر عليهم ظهوراً عجيباً وظفر بهم وأعمل فيهم القتل والسلب والنهب فحسده قسطنقوس على ذلك وحقد عليه وناواه وقصد أن يقلل جنده ليضعف بذلك شوكته وكان إذ ذاك سابور ذو الأكتاف قد زحف فى ممالك الرومانيين بآسيه وأخذ مدينة (آمد) بالجزيرة وكان قسطنقوس يمانع عن هذه البلاد ويحميها فاغتنم هذه الفرصة مناسبة لما فى نيته وطلب من يوليانوس أن يبعث اليه بفريق من عساكره فلم تقبل العساكر ذلك ولم ترض الانفصال عن رئيسهم يوليانوس لمكانته من قلوبهم وخالفوا الملك وأحدقوا برئيسهم وعانقوه ولقبوه بلقب أغسطس وبايعوه على ذلك فتمنع من قبول هذا المنصب وتضرع إليهم أن يعفوه وبكى وناح فلم يقبلوا منه وجبروه على الرضا وحملوه عى أن يسير بهم إلى المشرق عاجلاً لقتال خصمه قسطنقوس والانتقام منه فسار إليه على كره والتقى الفريقان ووقع بينهما قتال عنيف للغاية فمات قسطنقوس بمدينة المصيصة وذلك سنة خمس وسبعين وثلثمائة للميلاد أى سنة إحدى وستين وثلثمائة قبل الهجرة فتم الأمر ليوليانوس واستقل بالملك فى هذه السنة وقد كان يوليانوس حين غزوة الإفرنجة فى بلاد الغلية وما جاورها جعل مقر إقامته وتخت مملكته فى مدينة لوطيقة التى هى الآن مدينة باريس واشتغل مدة الغزو بتحسين حال هذه المدينة وإصلاحها وتوسيع العمارة فيها فهى من مآثرة الباقية إلى يومنا الذى نحن فيه فكانت أحب البلاد إليه وقد بسط يده على ملك المشرق والمغرب وتصرف فى الحكم بلا معارض ولا منازع فكانت مدة حكم أولاد قسطنطين الأول إلى انفراد يوليانوس بها نحو أربع وعشرين سنة.

وفى أيامهم مات الإكسندروس بطرك الإسكندرية بعد أن أقام اثنين وعشرين سنة فأقيم بعده اثناسيوس وهو عشريهم وأصله من مدينة الإسكندرية وكان وثنياً متنطعاً فى الدين الوثنى ثم تنصر وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

(فى الملك يوليانوس قيصر المرتد)

ثم قام بالأمر يوليانوس المرتد بايعه العساكر ونادوا بملكه فانفرد بعد موت قسطنقوس بحكم الدولة الرومانية سنة سبع وسبعين ومائتين للميلاد أى سنة تسع وخمسين ومائتين قبل الهجرة وقد فرح به جميع الناس واستبشروا بولايته لرسوخ قدمه فى الفضل وتمسكه بشعار العدل فلما استقر به المنصب أبعد عن ديوانه أهل السخرية وبطانة السوء وأدنى منه أهل الفصاحة وأرباب البلاغة وأصحاب الفلسفة والحكمة فصارت تأوى إليه أرباب المعارف ويتقرب منه أهل الفضل ويأتون إليه من كل فج فكان يؤاكلهم ويبالغ فى تقريبهم منه والحفاوة بهم وكان قبل ارتقائه سدّة الملك مظهراً للتمسك بالدين النصرانى فلما ملك استبدّ بالأحكام ارتد ورفض الدين المسيحى وعاد إلى الوثنية ففرح عباد الأوثان بارتداده وانحاز إليه منهم من لاخلاق له فامتلأ ديوانه إذ ذاك من المنجمين وأرباب العيافة والعرافين حتى تقلد بنفسه الكهانة وصار رئيس هذا الدِّين وكان يفتخر بهذا المنصب ويحن إليه جداً ثم مال عن النصرانية وبالغ فى عداوته لها وبغضه لأهلها ولكنه لم يبطل شيئاً من عوائدها وطقوسها وبذل الهمة فى إعلاء دِين الأصنام وتعميمه فلم يبلغ مقصوده ولم يتمكن من نيل مراده لأسباب كثيرة.

وسار لقتال فارس لشنهم الغارة على الأملاك الرومانية وجهز لذلك جيشاً عظيماً فرأى فى طريقه بمدينة قيصرية من أقليم قبادوقية هيكلاً للأصنام خربا ورأى من أهالى أنطاكية احتقاراً للديانة الوثنية فهاله هذا الأمر وأغضبه جداً وحقد على النصارى فأمر بهم فتتبعوهم بالأذى والقتل والسلب واشتدّوا عليهم شدّة بالغة ثم دخل أرض فارس وجال فيها وأوغل كل الإيغال فلاقته جيوش فارس وصدمته فانهزم ورجع القهقرى فتبعه ساور ذو الأكتاف فتشجع يوليانوس وأرجعه على أعقابه ببسالة وإقدام فشهدت له الأعداء وقد كان جرح جرحاً بليغاً وعلم بذلك سابور فأعاد الكرّة على جيوش يوليانوس واشتبك القتال بين الفريقين وحمى الوطيس والتقت السيوف بالسيوف فقتل يوليانوس فى ساحة الحرب وانفشل جيشه وكان ذلك سنة تسع وثلاثين وثلثمائة للميلاد أى سنة سبع وخمسين ومائتين قبل الهجرة. فكانت مدة حكمه واستبداده بالولاية العمومية سنتين لاغير.

وكان مدته فيها رحمة على من لم يكن تنصر من المصريين ممن بقى على دين آبائه فاستمر المصريون الذين لم يتنصروا على عبادة الأوثان بلا معارض ولا منازع وكان يوليانوس يحترم العجل أبيس الذى هو معبود المصريين احتراماً عظيماً للغاية

فإنه لما كـان على أهبة الركوب لقتـال سابور ملك فارس وبعث إليه أوقـديقس نائبه على مصر يخبـره بأن المصريين عثروا على شكل العجل أبيس مـعبودهم الذى مات وأنه تبين لهم أنه معبودهم بعينه فرح بذلك فرحاً شديداً واستبشر بالنصر على سابور إذ كان يحب العجل المذكور حباً كثيـراً، وقد دل على ذلك ما كتبه إلى نائبه المذكور فى شأن اثناسيوس بطرك الإسكندرية الذى كان نُفى منهـا وعاد إليها ما نصه: وحق العـجل أبيس إن لم يخـرج هذا البطرك من المديـنة عـاجـلاً لأضربن على عـسكرك مائـة رطل من الذهب غرامة وعقابا لهم أ. هـ.

وكان فى عهده قد رجع دين النصرانية القهقرى وبقى على هذا الحال إلى عصر طيودوسـيس قيصـر كما سـيأتى بيـانه فى موضعـه ولما مات يوليـانوس تولى بعده يويانوس.

(فى الملك يويانوس قيصر)

ثم قام بالأمر يويانوس بايعه أولاً الجنود الرومـانية كافة وذلك سنة تسع وثلاثين وثلثمائة للميلاد أى سنة سبع وخمـسين ومائتين قبل الهجرة. وتحـرير الخبـر أنه لما مات يوليانوس فى ساحة الحرب حصل بموته فزع لجميع العساكر وكرب شديد للغاية وكانت العـساكـر المنصورة على جيـوش سابور ذى الأكـتاب يومئـذ فى منقطع من الأرض ليس عـندهم شىء من الميـرة ولا الزاد ولم يـبق من العـائلة الملـوكيـة القوسـطنقوسيـة فى هذا الحين وارث يتـولى الملك فاخـتاروا سلطوس والـى البلاد المشرقية للمنصب الملوكى فامتنع ولم يقبل فألحوا عليه فشدد فى الامتناع فوقع اختيار الجنود على يويانوس المذكـور وقد كـان يومئـذ رئيس الحرس الملوكى وبايعـوه على اتفاق تام وأخلصـوا له فى البيعة فلما اسـتقر به المنصب أسرع فى عـقد الصلح مع سابور ملك فارس ولكن علـى شروط مخلة بناموس الدولة وشرف الأمـة الرومانية ومحا جميع أوامر يوليانوس فى كل ما يتعلق بعبادة الأصنام وفيما يتعلق بإضرار دين النصرانيـة ونهى اليهـود عن أن يشهـروا شعائر دينهم وكـان ضعـيف العزم والرأى فقامت فى أيامه قبائل المغاربة فى بلاد برقـة ونهبوا مدن طرابلس الغرب فلم يتمكن من منع إغارة هذه القبـائل ولا ردهم عن البلاد ولا بدا من يويانوس الملك أيضاً فى هذا الأمر مـا تطمئن به قلوب أهالى تلـك الأنحاء فأبغـضوه ونقمـوا عليه واشـتدّ بالأهالى الغيظ منه إلى حـد عظيم جداً فلما كـان فى أحد الأيام دخل عليه خـدمه فوجدوه قتيلاً على فراشـه وخفى أمر قاتله ولم يوقف له على أثر وذلك سنة أربعين وثلثمائة للميلاد أى سنة ست وخمسين ومائتين قبل الهجرة وقيل: إن سبب قتله هو

عقده الصلح مع سابور كسرى فارس فكانت مدة حكمه سنة واحدة لاغير وتولى بعده ولنطنيانوس وأخوه (ولنسوس).

(فى الملك ولنطنيانوس الأول
والملك ولنسوس أخيه)

ثم قام بالأمر ولنطنيانوس الأول وأخوه ولنسوس بويع الأول بالملك سنة أربعين وثلثمائة للميلاد أى سنة ست وخمسين ومائتين قبل الهجرة وبيان ذلك أنه لما قتل يويانوس الملك على ما تقدم بيانه اجتمع أعيان الرومانيين فى مدينة نيقه وبايعوا ولنطنيانوس المذكور بالملك وهو من الأمراء وقد كان مولده ببلاد المجار وليس له من الصفات من يحمد فإنه كان فظاً غليظاً شديداً طويل القامة عجيب الخلقة فلما استقر به المنصب ورأى عدم قدرته على حمل أعباء الملك أشرك معه أخاه ولنسوس وخصه بملك البلاد المشرقية وأبقى لنفسه ملك البلاد المغربية وأتخذ مقر حكومته وتختها مدينة لوطيقه التى هى الأن مدينة باريس وبعث من هذه المدينة أمراء وقواد لحفظ حدود المملكة من غارات قبائل الفرنجة والإنجليز والمغاربة وكان ممن بعث بهم الأمير طيودوسيس فقاتل هذا الأمير قتال الأبطال واكتسب فى قتاله مع هؤلاء الأمم منزلة رفيعة واتفق أن صدرت فى هذا الحين من ديوان باريس الأوامر مشددة بأن كل من اتهم بخيانة وطنه وقاتل مع الأعداء يعاقب أشد عقاب فصار التشديد فى الحث عن ذلك وكثر التجسس وبث العيون وتزاحمت أقدام أهل السعاية على أبواب ولنطنيانوس وعمت البلوى البرئ والمتهم وبالغ ولنطنيانوس فى عقاب كل من رمى بالخيانة بلا إثبات بما لا مزيد عليه من العقاب مما لم يخطر على بال بشر فمن ذلك أنه حبس دبين عظيمين مفترسين فى قفص وأجاعهما حتى إذا أراد قتل أحد من المتهمين أطلقهما عليه لافتراسه فيمزقانه تمزيقاً وكان ظلوماً غشوماً ميالاً لسفك الدماء شديداً على الرعية سريع الغضب حاد الخلق وقد غضب يوماً واشتدت به حدة الغضب فمات فى الحال وذلك فى سنة تسع وثمانين وثلثمائة للميلاد أى سنة سبع وأربعين ومائتين قبل الهجرة.

وأما أخوه ولنسوس فقد كان على خلاف ذلك يحب رعيته ميالاً إلى خيرها وإيرادها موارد السعادة والرفاهية يسوسها بحسن السياسة حتى كان يقال أنه لم يتول الشرق قيصر خير منه وقد خفف عن رعاياه المكوس والعوائد والخراج وأنقصه قدر الربع شفقة منه فتعلقت به قلوب الرعية وأحبته حباً شديداً.

ولما كانت سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة للميلاد أى سنة أربع وأربعين ومائتين قبل الهجرة ظهرت أمة جديدة لم تكن الرومانيون تعرفها قبل الآن وهى أمة تتارية تسمى أمة الهونية خرجت من آسية خروج الجراد المنتشر فنزلت على قبائل الغوطية بسواحل نهر طونة وطردتهم فهرب الغوطيون منها واجتازوا الطونة وأتوا إلى بلاد المشرق وزحفوا إلى أملاك الرومانيين وأراضيهم وطلبوا منهم أن يقطعوهم أرضاً ليعيشوا فيها لم يقبلوا فساء الغوطية ذلك فقام رئيسهم المدعو افريطيجرن وسار بهم إلى جهة أدرنه وأوقع بعسكر الرومانيين فسار ولنسوس الملك لقتاله ورده فأوقع افريطيجرن بولنسوس عند أسوار أدرنه وانتصر عليه نصرة عظيمة هلكت فيها العساكر الرومانية وجرح ولنسوس جراحا بليغة فنقله عساكره من ساحة القتال الى وكر وضعوه فيه فعلم بخبره الغوطية فقاتلوا حتى وصلوا الى ذلك الوكر وأضرموا فيه النار فهلك ولنسوس حرقاً وذلك سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة للميلاد أى سنة أربع وأربعين ومائتين قبل الهجرة فكان مدة حكم الأخوين المذكورين نحو أربع عشرة سنة وعادت بموتهما الدولة الرومانية إلى شركة رباعية كما كانت من قبل.

(فى الملك غرثيانوس والملك ولنطنيانوس الثانى والملك طيودوسيس الاكبر والملك مقسيموس)

ثم قام بالأمر غرثيانوس بن ولنطنيانوس الأول، وولنطنيانوس الثانى، وطيودوسيس الأكبر ومقسيموس، وذلك سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة للميلاد أى سنة أربع وأربعين ومائتين قبل الهجرة وبيان ذلك أنه لما مات ولنطنيانوس الأول سنة سبع وأربعين ومائتين قبل الهجرة خلفه ولده غرثيانوس المذكور على ملك الأقاليم المغربية وقد كان عمره يومئذ سبع عشرة سنة فكان أخوه المدعو ولنطنيانوس الثانى ينازعه الملك فتنازل له عن إيطاليا وبلاد السواحل الإيطالية المخصبة ولم يستقر بغرثيانوس المنصب بعد أبيه حتى سار لقتال الغوطية إذ كانت الحرب لاتزال قائمة معهم على ساقها فكانوا دائماً ظاهرين عليه لم يتنصر قط يوما فلما أحس بضعفه عن قتالهم اختار معه طيودوسيس ابن الأمير طيودوسيس ولقبه بأغسطس المشرق وقلده الجهات المشرقية سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة للميلاد أى سنة ثلاث وأربعين ومائتين قبل الهجرة. قال بعض الكتاب: فكان هذا الاختيار من حسنات الدهر على الرومانيين عموماً وعلى المسيحيين منهم خصوصاً إذ كان طيودوسيس هذا كأبيه طيودوسيس الأول هماماً مقداماً فى الخطوب على أن أباه كان من أمهر قواد الرومانيين وأشجعهم وله غزوات كثيرة فى بلاد إفريقية وحروب هائلة حيث أدخل

عصاة إفريقية فى الطاعة وقتل غيلة فى مدينة قرطاجة وكان ولده طيودوسيس هذا قد ولد فى بلاد الأندلس وتربى فيها وخدم تحت راية والده وحارب معه وحضر المشاهد العظيمة فى الحروب والوقائع فلما مات والده عاد هو إلى موطنه بالأندلس حتى استقدمه غرثيانوس ليشركه معه فى الملك.

وكان طيودوسيس المشار إليه على جانب عظيم من البسالة والشجاعة فى الحروب واقتحام الخطوب وكان يحب الدين المسيحى ويغار عليه ويجله حتى لقب (بالأكبر) فلما استقر به المنصب سار لقتال الغوطية فهزمهم شر هزيمة فى وقت يسير جداً وأجلاهم عن المملكة وعكس آمالهم وأفسد ما كانوا يدبرونه فعادوا إلى المسايرة وانكفوا عن الغارات ورغبوا فى معاهدة الدولة الرومانية وعقدوا عقد المحبة والوصلة معها ليكونوا يداً واحدة مع الجماعة.

أما غرثيانوس فإنه سار أيضاً للقتال بعسكره فى مدينة ليون من بلاد الفرنسيس فقتل فيها وذلك سنة سبع وتسعين وثلثمائة للميلاد أى سنة تسع وثلاثين ومائتين قبل الهجرة فقام طيودوسيس باعباء الملك وكاد أن يستبد بالملك هو وولنطنيانوس الثانى وكان القائد لـلعساكر الرومانية المرابطة فى بلاد الإنكليز فى هذا الحين الأمير مقسيموس فلما وصل إليه خبر موت غرثيانوس وأنه لم يبق سوى طيودوسيس وولنطنيانوس تاقت نفسه إلى الملك فبايعه العساكر بدلاً من غرثيانوس ونادوا به ملكا فشارك طيودوسيس وولنطنيانوس فى حكم البلاد وتدبير الدولة. قال بعض أهل التاريخ: وبقى على هذا الحال أكثر من خمسين سنة ثم سار إليه طيودسيس بجيش جرار وقاتله فانهزم مقسيموس فتبعه طيودوسيس حتى قتله وكان ذلك فى سنة اثنتين وأربعمائة للميلاد أى سنة أربع وثلاثين ومائتين قبل الهجرة فلم يبق من شركاء طيودوسيس إلاّ ولنطنيانوس الثانى وحده مالكاً لبلاد المغرب الرومانية ومازال ولنطنيانوس يدبر الملك ويتصرف فى الأمور ويغزو ويحارب ويصده الأعداء حتى قام عليه فى سنة أوربع وأربعمائة للميلاد أى سنة اثنتين وثلاثين ومائتين قبل الهجرة رجل اسمه اربوغست الإفرنجى وقتله بخنجره فتولى بعده أوجينوس كاتب سر الديوان القيصرى على غير رضا من طيودوسيس فنوى طيودوسيس الانتقام من أوجينوس لتهافته على المنصب فجمع جيوشه وسار إليه وتلاقى به فى بلاد النمسا فقاتله وانتصر عليه نصرة عظيمة وأخذه أسيراً فتم له الانفراد بالملك سنة ثمان وأربعمائة للميلاد أى سنة ثمان وعشرين ومائتين قبل الهجرة. قال أهل التاريخ: وهو آخر قيصر تملك على الدولة الرومانية شرقاً وغرباً.

وكان طيودوسيس المذكور محباً للعدل شديد التمسك بالدين النصرانى محبوباً عند أحباره وقد اتحد بالبابا سنت سيريقوس على إبطال عبادة الأوثان فى جميع الأقطار الرومانية ورغب إلى مجلس رومة أن يصدر مرسوماً فى هذا الشأن فأبى عليه ذلك فأبطل طيودوسيس المجلس وألغاه وخلع أربابه ورسم بهدم جميع معابد الأوثان وهياكلهم ونهى عن تقريب القربان لهم فى البيوت وعن أن تقام فيها شعائر دينية وأن تكون الديانة المسيحية الديانة الرسمية فى سائر الأقطار الرومانية ونهى عن التفرق فى الدين وسلوك مذهب الاعتزال ونصب جواسيس وعيوناً تنقل له الأخبار فمن وجوده متصفا بالتشيع والهرطقة أخرجوه من رومة وصادروه فى أمواله وعقاره ونهى البابا أيضاً جميع القسوس أن يتزوجوا وجعل شعارهم الرهبنة على طريقة انطونيوس المصرى.

ورسم طيودوسيس فى سنة خمس وتسعين وثلثمائة للميلاد أيضاً أى سنة أحدى وأربعين ومائتين قبل الهجرة بمحو الديانة المصرية وأن لايباح فى بلاد مصر إلا التمسك بالدين النصرانى فأغلقت الهياكل والمعابد المصرية وانعدمت شعائر الجاهلية وانمحت آثارها. قال بعض الكتاب: وكان للمصريين يومئذ أربعون ألف صنم للعبادة فحل محلها دين المسيح الآمر بالتوحيد ومع ذلك فقد بقى من العاكفين على دين الجاهلية كثير بصعيد مصر ولم يمح هذا الدين إلا بتوالى الأيام وكرور الأعوام وكان طيودوسيس عادلاً محباً للرعية حائزاً لجميع الصفات الفاضلة والخصال الكاملة فتقدمت فى أيامه الديار المصرية وحسن حالها إلى حد زالت معه الفتن واستتبت الراحة وعمت الطمأنينة واتسع نطاق العمار وعاد لها رونقها القديم وراجت تجارتها وعظمت ثروتها، ولم يتم على انفراد طيودوسيس بالملك سوى سنة واحدة حتى فاجأته المنية فمات حتف أنفه سنة تسع وأربعمائة للميلاد أى سنة سبع وعشرين ومائتين قبل الهجرة فكانت مدة حكم هؤلاء الملوك الأربعة نحو سبع وعشرين سنة.

وأعقب طيودوسيس ولدين أحدهما اسمه أرقاديوس والآخر اسمه (نوريوس) فأورثهما ملك الدنيا بأسرها أى بملك الدولة الرومانية شرقاً وغرباً ومن هذا العهد لم يتول على المملكة الرومانية ملك واحد ولم تصر فيها وحدة الحكومة بل صارت مملكتين مستقلتين إحدهما قيصرية المشرق وتختها القسطنطينية والثانية قيصرية المغرب وتختها رومة كما كانت وقد تم التقسيم على هذا الوجه فى السنة التى مات فيها طيودوسيس فكانت هاته السنة ختام حياة الدولة الرومانية الحقيقية. قال بعض أهل التاريخ: وقد قسمت الدولة التى كانت على رأس القرون الوسطى بعد صدور مرسوم طيودوسيس بإبطال الديانة الوثنية ومحو آثارها بالدولة الطيودوسيسية وأول قياصرتها

فى المغرب هو لوريوس بن طيودوسيس. **قلت**: ولا حاجة لنا بالكلام عليه فإنه ليس ممن ملك الديار المصرية ولا هى مما دخل فى حكمه من الممالك. أما أول ملوكها فى المشرق فهو الملك أرقاديوس بن طيودوسيس فصارت مصر فى قبضة قياصرة المشرق الذين عرفوا بقياصرة الروم وسميت دولتهم بالدولة الطيودوسيسية المشرقية وهى بالنسبة لمصر عبارة عن الدولة الخامسة والثلاثين وسيأتى الكلام عليها مفصلاً.

وفى نحو السنة السابعة من حكم هؤلاء الملوك الأربعة مات اثناسيوس بطرك الإسكندرية بعد أن أقام ستا وأربعين سنة وفى أيامه جرت مناظرات طويلة مع ارسيانوس الأسقف أفضت إلى ضربه وفراره جزاء تعصبه وقال إنه لم يقل إن المسيح خلق الأشياء وإنما قال به خلق كل شىء لأنه كلمة الله التى بها خلق السموات والأرض وإنما خلق الله تعالى جميع الأشياء بكلمته فالأشياء به كوّنت لا أنه كونّها وأما الثلثمائة وثمانية عشر فقد تعدّوا عليه.

وتنصر فى أيامه جماعة من اليهود وطعن بعضهم فى التوراة المتداولة بينهم وقال إنهم نقصوا منها وأن الصحيحة هى التى نشرها السبعون عالماً فأمر الملك بإحضارها والملك يومئذ قسطنطين وعاقبهم على ذلك حتى دلوه على موضعها بمصر فرسم بإحضارها فحملت إليه فإذا بينها وبين توراة اليهود نقص ألف سنة وثلثمائة وتسع وستين سنة زعموا أنهم نقصوها من مواليد من ذكر فيها لأجل المسيح.

وغلبت فى أيامه مقالة أريوس على القسطنطينية والأنطاكية والإسكندرية وصار أهل الإسكندرية وأهل مصر أريوسيين ومنانيين واستولوا على ما بها من الكنائس ومال الملك لرأيهم والملك يومئذ قسطنطين الأول وحمل الناس عليه ثم رجعوا عنه وكتب ابرسيس أسقف بيت المقدس أنه ظهر من السماء على القبر الذى بكنيسة القيامة شبه صليب من نور يوم عيد القبر لعشرة أيام خلت من أيار فى الساعة الثالثة من النهار حتى غلب نور الشمس ورآه جميع أهل بيت المقدس عيانا فأقام فوق القبر عدة ساعات والناس تشاهده فآمن يومئذ من اليهود وغيرهم ألوف من الناس.

ولما ملك يوليانوس ابن عم قسطنطين اشتد اضطهاده للنصارى وقتل منهم خلقاً كثيراً جداً ومنعهم من النظر فى الكتب وأخذ أوانى الكنائس والديارات ونصب مائدة كبيرة عليها أطعمة مما ذبحه لأصنامه ونادى من أراد المال فليضع البخور على النار ويأكل من ذبائح الحنفاء ويأخذ ما يريد من المال فامتنع كثير من الروم وقالوا: نحن مسيحيون فقتل منهم خلائق ومحا الصليب من أعلامه وبنوده.

وفى أيامه أيضاً خرج القديس إياونوس الى برية الأردن وسكن فيها وبنى بها الديارات وهو أول من سكن برية الأردن من النصارى فلما ملك طيودوسيس وكان

نصرانياً عاد كل من كان قد فرّ من الأسقافة وكتب إلى اثناسيوس بطرك الإسكندرية أن يشرح له الأمانة الصحيحة فجمع جميع الأساقفة وكتب له أن يلزم أمانة الثلثمائة وثمانية عشر فثار لذلك أهل الإسكندرية على اثناسيوس ليقتلوه ففرّ فأقاموا بدله لوقيوس وهو أريوسى أى على مذهب أريوس فأقام خمسة أشهر ثم اجتمع جميع الأساقفة وقاموا على لوقيوس المذكور وحرموه ونفوه وأعادوا اثناسيوس فأقام إلى أن مات فخلفه بطرس الثانى وهو حادى عشريهم فوثب الأريوسيون عليه بعد سنتين ففر منهم فردّوا بطرس فى نحو العشرين من أمشير فأقام سنة.

وقدم أريوس أسقف أنطاكية إلى الإسكندرية بمرسوم من الملك فأخرج منها جماعة من الروم وحبس بطرس بطركها ونصب بدله أريوس المعروف بالسيمسياطى ففرّ بطرس البطرك من الحبس إلى رومة واستجار ببطركها ثم مات فكانت مدته خمس سنين قضاها فى كيد وشدة.

فأقيم بعده ثيموناوس وهو ثانى عشريهم وكان من الحوادث فى أيام ما سيذكر فى محله.

(وصل فيما كانت على مصر أيام الدولة الرومانية)

لما صارت ديار مصر فى قبضة الدولة الرومانية على ما تقدم بيانه بذل الرومانيون الجهد فى بقائها تابعة لهم ونظروا إلى أنجح الوسائل الممكنة من ذلك فلم يروا خيراً من أن لا يتعرضوا لأمورها الدينية وأن يتركوها على عوائدها القديمة وفنونها وصنائعها وطريقة كتابتها ولغتها وأن لا يعاملوها بما عاملتها به الفرس من الحظر والمنع والتضييق عليها فى أمورها وعلى ذلك بنوا قاعدة سياستهم فأصلحوا ما كان اندرس من معالم الديانات وهياكل العبادات وزادوا عددها ومحوا ما كان من مشروعات الدولة البطليموسية ولم يقتصروا على العمائر بمصر فقط بل جددوا عمائر أخرى مهمة فى ديار النوبة من بلاد السودان رجاء استمالة المصريين إليهم وبسط ألوية السلطان عليهم وعلى النوبة فتم لهم بذلك الأمر ورسخت قدم الدولة الرومانية بمصر رسوخ الأطواد وانبسطت يدها شرقاً وغرباً وقبضت على زمام الأمور داخلاً وخارجاً وتصرفت تصرف المالك المطلق.

وكان جنود مصر وأمراؤها هم القائمين بحراسة قلاعها وحصونها وثغورها وزمام المملكة بين أيدى جمهورها فلما أمنت الدولة الرومانية من أهل مصر غوائل العصيان بمسايرتهم على مذاهبهم وعقائدهم ولم يبق للمصريين من سبب لإثارة الفتن رسمت بجعل محافظى القلاع والثغور من عساكرها وأن لا يتولى حكم البلاد إلا نائب رومانى ينتخبه مجلس رومة وأن يكون النائب المذكور متصرفاً فى حكم

البلاد تصرف القيصر مرخصًا له فى الملكية والعسكرية ليكون شأنه بين المصريين شأن ملكهم القديم فكان كل من ارتكب من هؤلاء الولاة هفوة عاقبه مجلس رومة بالعزل فلأجل ذلك لم تطل مدة ولاية الولاة المذكورين وكان النصب والعزل فيهم سريعاً جداً لأقل سبب استرضاء للمصريين وكان من قواعد الدولة الرومانية المقررة عندها أن لا يتولى على مصر أحد من أعضاء مجلس رومة ولا من عائلات المجد الأولية خشية أن يستبد بملكها ويطمع فى الاستقلال بها فلذلك لم تكن البلاد فى أيام هذه الدولة ذات رونق سياسى ولم تكن متمتعة بالثمرات الوطنية ولا حائزة على شيء من الحرية بل كانت على حالة من الاسترقاق والاستعباد فلم تلبث أن اندرست مفاخرها القديمة ونسيت أنها كانت سيدة جميع المدن والبلاد. قال بعض الكتاب: ولم يبق لها من رمق الحياة الأهلية إلا بعض لمحات روحانية إذ كان لمدارس الإسكندرية فى هذه المدة شهرة لاسيما فى المذاهب الفلسفية وكان لها على رومة ومملكة اليونان سلطة القوة العلمية وسطوة الحكمة على حين كانت حالتها الداخلية فى اختلال واعتلال ملازمين وخراب لا مثيل له إذ كنت لا ترى فى هذا الحين مدينة طيوة والعرابة المدفونة ولا منف ولا عين شمس إلا آثاراً خربة وأطلالاً بالية ولم يبق من هاتيك العمائر العظيمة إلا الرسوم من جميع المدن حتى من مدينة الإسكندرية التى كانت تخت السلطنة وصار لا عناية لأهل البلاد إلا بالفلاحة والزراعة تخدم وتشقى لمدينة رومة فتميرها بالميرة وتعينها بالذخيرة كأنها مخازن للغلال ومستودع للأقوات، ولم تفز مصر فى أيام هذه الدولة قط بفائدة تذكر غير أنها فى آخر الأمر دانت بالديانة النصرانية وقاست بأسبابها من الشدائد ما لا يدخل تحت حصر كما سيتلى عليك فى محله.

وكان أول ملوك هذه الدولة أغسطس قيصر وآخرهم طيودوسيس وعددهم ست وستون قيصراً منهم من حكم على انفراد مستبداً بالملك ومنهم من كان له شريك ومنهم من كان له شركاء وكانت سنو ملكهم نحو أربعمائة وإحدى عشرة سنة تقريباً باعتبار أن مصر إيالة تابعة مثل بقية الإيالات المشرقية الداخلة فى حكم دولة الرومان. وإلى هذا الحين زالت الجاهلية وقامت بدلها المسيحية بصدور أمر الملك طيودوسيس قيصر بالتمذهب بهذا الدين وتعميمه فى جميع أنحاء مملكته فعم من ذلك اليوم وانتشر انتشاراً سريعاً للغاية واشتهر أهلُ مصر من هذا التاريخ باسم (قبطة مصر) فطائفة الأقباط من أهالى مصر الآن هم المتنصرون من ذرية الأمة المصرية القديمة وهم بقية ذلك الشعب الذى قدر واقتدر وفاز واشتهر واستمر الدين المسيحى متسلطناً بمصر مدة المائتين وتسع وخمسين سنة التى هى عبارة عن سنى ملك دولة الروم المسيحية المعروفة عند أصحاب التاريخ العائلة الخامسة والثلاثون.

(الباب السادس)
(فى دولة الروم المسيحية التى قامت بالإسكندرية وفيه فصول)

(الفصل الأول)

(فى العائلة الخامسة والثلاثين)

كان ابتداء هذه الدولة التى هى دولة الروم المسيحية فى سنة خمس وتسعين وثلثمائة للميلاد أى سنة إحدى وأربعين ومائتين قبل الهجرة وكان انتهاؤها بفتوح الإسلام لديار مصر سنة تسع وثلاثين وستمائة للميلاد أى سنة ثمان عشرة للهجرة فكانت مدة سلطنتها مائتى سنة وتسعا وخمسين سنة كما قاله جماعة المؤرخين وأول ملوكها الملك أرقاديوس بن الملك طيودوسيس قيصر مؤسسها.

(فى الملك أرقاديوس قيصر)

تولى أرقاديوس قيصر الملك بعهد من أبيه طيودوسيس سنة تسع وأربعمائة للميلاد أى سنة سبع وعشرين ومائتين قبل الهجرة وقد اعتبره أهل التاريخ رأس هذه الدولة واعتبره آخرون ثانى ملوكها بعد أبيه طيودوسيس الذى شيد أركانها ووطد دعائم بنيانها وكان أرقاديوس هذا ضعيف العقل خامل الفكر فكانت المملكة فى أيامه ضعيفة كأنما ارتسمت فيها مرآة طبعه وقد فوض سياستها وتدبير أمورها إلى أحبابه وأمراء عسكره وقواده وكانوا من غير الرومانيين فوقعت بينهم لذلك الفتنة وكان بعضهم عدواً للبعض الآخر فاختل النظام وعز الوئام ثم تسلم زمام الدولة بعد ذلك حلا وعقداً رجلان أحدهما اسمه (روفين) ويلقب برئيس الدولة وثانيهما اسمه (أطرويس) صاحب ديوان الملك ولم يكن يعلو عليهما فى نفوذ الكلمة إلا أروقسية زوجة أرقاديوس الملك وكان لاروقسية هذه شهرة كبيرة فى القسوة وغلظة القلب وهى التى عذبت القديس خروصوصطومس الذى سيأتى الكلام عليه.

ولما عهد طيودوسيس لولده أرقاديوس المذكور بالملك كتب له وصية يقول فيها: لو كنت يابنى من أبناء ملوك فارس وعهد إليك بملكها وآلت إليك دولتها لكان

عنوانك الكسروى كافيا فى حفظ سرير ملكك وصيانة تاج دولتك ولكن منبتك أرض الروم وحال أهلها يابنى معلوم فكن حازما فالحزم ينفع فاعله وإن كنت ممن يجهل الأمر فاسأل فإذا أردت أن تكون أهلا لأن تحكم الأمة وتسوسها فابدأ بنفسك واحكمها وأحسن سياستها قبل ذلك لتعلم كيف تغلبها فالعاقل من هذب نفسه وغلب عقله على هواه.

والناس يا بنى صنفان، سوقة وملوك، فالسوقة لا هم لهم إلا إسعاد أنفسهم وأما الملوك أمثالك فهمهم إسعاد الرعايا فإن سعادة الرعايا هى سعادة الملك فإذا تغلبت عليك يابنى الذنوب وجرّت بك إلى ارتكاب العيوب فأنت عبد هوى ولو تحليت بتاج القياصرة فاحترس من تغلب الشهوات النفسانية وخلها للرعاع من الرعية فإن الشهوات الدنيوية تعرض للأمراء والملوك وتكون فى كل حال نصب أعينهم فتغلبهم فإذا أردت أن تتخلق بأخلاق ملك الملوك وسلطان السلاطين فتخلق برحمته وحلمه واتبع دائماً طرق العدل والإحسان ولا تلتفت إلى فعل الخير لمجرّد المدح أو القدح من إنسان فإن العامة لايتحاشون من مدح الملوك أو القدح فيهم فكن باستكمال الفضائل ومكارم الأخلاق صورة للعدل والإحسان وتخلق بأخلاق الملك الخلاق لكى تكون ذا سلطان على قلوب الرعية تستغنى به عن الإرهاب بالسيف وشدّة البأس فقد جرت عادة الرومانيين أنهم لا ينقادون لذى كبرياء فخل أبهة الملك لملوك آسية والبلاد المشرقية وتحل بحلية عظماء القياصرة الرومانية وأوصيك إذا عاديت ملكاً من الملوك فأحكم قيادة جنودك وأحسن فى الأمرة والسلوك لتطاع منهم وينفذ أمرك فيهم واقتسم اقتحام الأخطار مع الجند فإنهم بك يقتدون ويستسهلون المهالك ولا يبالون باقتحامها.

ومما تتأكد به الوصية وتجب فيه النصيحة أن تواظب على قراءة تاريخ من سبقك من القياصرة لتعرف ما أصابهم من النصرة والهزيمة وتقف على أسباب العزة والهوان لتفقه من ذلك ما يجب فعله وتتفطن لما ينبغى عليك اجتنابه أ هـ.

فلم يعمل أرقاديوس بهذه الوصية لسخافة عقله فكان مبغوضاً عند سائر الرعية ممقوتاً مذموماً لايذكر اسمه إلا باللعنات والتقبيح، وقد سبق الكلام على أن الذى كان قابضاً على زمام الدولة هو الوزير روفين وأن الحل والعقد كان باستشارة الملكة أورقسية فكان الوزير المذكور يخشاها ويخاف منها جداً وكانت نفسه تحدثه دائماً بأن يسلب الملك من زوجها أرقاديوس فكان يمنعه من ذلك شدة بأسها وحرصها ولكنه مع ذلك أخذ يمهد لهذا الأمر الأسباب ويعمل سراً على إخراجه من حيز الخفاء إلى

عالم الظهور فصاغ النياشين باسمه ونقش عليها رسمه كأنه لابس التاج القيصرى وأعدها لوقت استقلاله بعد ظفره بخلع أرقاديوس والكفران بنعمته.

وكان لطيودوسيس والد أرقاديوس الملك قائد عسكر اسمه اسطيليقوس أقامه فى حياته كفيلاً على ولديه عندما قسم الملك بينهما شرقاً وغرباً فلما توليا الملك بعد أبيهما كان أسطيليقوس مشغولاً بقسمة الأموال والعساكر بينهما وكان يسمع بما يفعله روفين الوزير من الاستبداد والجور والعسف بالرعية ويحقد عليه كثيراً ويراقب الفرص للوقيعة به والانتقام منه.

واتفق فى هذا الحين أن طائفة الغوطية اجتازت نهر طونة لحرب أرقاديوس وقتاله وسارت قاصدة بلاد القسطنطينية واقتربت منها ولم يمنعها فى الطريق مانع فرأى الأمير أسطيليقوس هذه الفرصة موافقة لما فى نفسه من الانتقام من روفين الوزير فقام من إيطاليا فى جيش عظيم وسار إلى مدينة القسطنطينية للانتقام منه فدفع الغوطيين عن البلاد وأذاع أنه قادم لرد الغوطيين وما زال سائراً حتى وصل إلى مدينة سلانيك ثم انعطف بسرعة غريبة وهجم بحركة عجيبة على الغوطيين وحصرهم ومازال بهم حتى هزمهم شر هزيمة فلما تم له النصر أشاع الناس بأنه يريد القسطنطينية بجيوشه فأحس الوزير روفين بأنه إنما يريد الحضور لقتله واغتياله وعلم ما فى نيته فخاف وتقدم إلى أرقاديوس الملك فى أن يرسم إلى أسطيليقوس بسرعة إرسال الجنود إلى القسطنطينية وأن لا يحضر هو معهم فرسم له الملك بذلك فامتثل أسطيليقوس أمره وبعث بجميع العساكر الذين كانوا معه إلى القسطنطينية ولكنه كاشف كبارهم بما فى نفسه من نحو روفين الوزير وأسر إلى غيناس قائدهم أن يقتل الوزير المذكور فعاهدوه على ذلك وعلى كتمان الخبر حتى يتم له الأمر ويبطشوا به عاجلاً وكتموا ما عاهدوه عليه بحزم شديد ولم يوحوا به لأحد حتى دخلوا القسطنطينية فحضر الوزير إليهم فاظهروا له غاية الطاعة وقابلوه بغاية الحفاوة والولاء فاغتر بظاهرهم واعتمد عليهم واتخذهم عوناً على درك مقاصده من قتل زوجة الملك ومبايعته بالملك وكاشف كبارهم بذلك فوافقوه وأظهروا أنهم أعوانه على جميع ما يرغب وكتموا هذا الخبر أيضا عن أرقاديوس الملك لما علموه من خفته وطيشه فلما استقر بالعساكر المقام دخل قائدهم الأمير غليان على الوزير المذكور وتمثل بين يديه وطلب منه أن يرسم بعرض العساكر على الملك وأن يسير بهم أمامه ليرى فى نظامهم فسر الوزير من ذلك ودخل على الملك وكلمه فى عرض الجنود فقام الملك وحضر إلى الميدان ومعه الوزير وسلم كالعادة على جميع البيرقدارية ثم صار يمر بين

صفوف العساكر وينظر فى نظافة آلاتهم ونظام معداتهم والوزير ينظر لهم بعين التعاظم كأنهم صاروا أعوانه المقيدين بأمره فلما توغلوا إلى قلب الصفوف أحاطت بهم العساكر إحاطة السوار بالمعصم وبرز من بينهم فتى وانقض على الوزير فطعنه فى صدره فوقع صريعاً تحت أقدام الملك ، وشاع خبر قتله ففرح الناس فرحاً عظيماً وعلت الضوضاء فى ذلك الميدان ثم انعطف الأمير غيناس ومعه طائفة من الجند إلى أعوان الوزير فأوقع بهم وأعمل فيهم القتل والسلب وقامت الغوغاء على من بقى منهم ففتكوا بهم عن آخرهم وأخذوا جثة الوزير وطافوا بها سحباً على الأرض فى الأسواق والشوارع ورفعوا رأسه على سنان رمح وطافوا بها وقطعوا يده اليمنى ليمثلوا به وجعلوا كفه ممدودة مبسوطة كأنه يسأل الناس المغارم والمطالب كما كان يفعل قبل موته ، وهربت زوجته وابنه إلى دير بيت المقدس فراراً من القتل فضبطت أمواله وأحصيت مقتنياته فكانت شيئاً كثيراً وبعد قتله ولى الملك مكانه أطروبس الطواشى وكان قبل ذلك حاجب الدولة وكان أسطيليقوس زعيم الدولتين يرى أن له حق كفالة قيصر المشرق ويدعيها مستنداً على وصاية طيودوسيس والده ثم رأى بعد ذلك أن فى تمسكه بهذا العزم ما يوقع العداوة بين الأخوين ويثير نار الحرب بين الدولتين فترك أرقاديوس وشأنه مع وزرائه وزوجته ولم يتحرش قط للسياسة ولا للتدبير فكانت كل دولة من الدولتين ليس لها على الأخرى أمر ولا نهى فلم يكن لذلك بينهما جامعة قوية ولا رابطة تذكر، وكان آلاريق ملك الغوطية يترقب الفرص للانتقام من الدولة المغربية فلما رأى من ابتعاد أرقاديوس عن أخيه تحبب إلى أرقاديوس واصطلح معه وانتظم فى سلك جنوده وحسب نفسه من أتباعه فجعله أرقاديوس رئيس عموم عساكره الرومانية المرابطة بسواحل إيطاليا المشرقية وكانت يومئذ تابعة للقسطنطينية قال بعض أهل التاريخ: فأظهر الفرح بذلك وكمال المحبة لأرقاديوس وهو فى الحقيقة عدو للطرفين حاقد عليهما ماكر مخادع ومازال حتى تقوى أمره وتمكن من قلوب عساكره وقوى جأشه على القتال فسار إلى رومة فى جيش عظيم لقتال قيصرها وظهر عليه وهزمه شر هزيمة وكاد يأخذ ملكه فشق هذا الأمر على الأمير أسطيليقوس وخشى ضياع الملك من يد القيصر وسقوطه فى يدى آلاريق فقام ومعه بعض الجنود وركب على آلاريق ومن معه وصدمه صدمة قوية وهزمه فى واقعة شر هزيمة وأخذ زوجته أسيرة وفر آلاريق ونجا بنفسه وتفرق من كان معه من الجنود أيدى سبأ وزال البأس عن القيصر.

قال أهل التاريخ: وكانت أيام أرقاديوس كلها متاعب ومصاعب وفساد أخلاق وظلماً فى الرعية وكان العمال فى جميع جهات المملكة أرباب ظلم وخيانة منهمكين على اللذات والشهوات غافلين عن أمور البلاد وشئون الرعية وكان الأمر كله فى يد أطروبس الطواشى الوزير فكان هو رئيس المجالس والمحاكم وأمير الجيوش كافة وكان يكره الغوطية جداً ففرح الناس بتقلده منصب الوزارة ليأمنوا بتدبيره شر أعدائهم إذ كانوا لا يرون من أرقاديوس قدرة على ذلك ومع فرحهم به فقد تكدّر خيار الناس وأهل الاستقامة من طوائف الجنود والعساكر والرعية من تقليده هذا المنصب لما يعلمونه فيه من أخذه للرشاوى والبراطيل وضياع حقوق الأمة والوطن بل حقوق المملكة نفسها بان يبيع للأعداء من البلاد كل ما يقدر على بيعه وكان من خصاله الإصغاء لوشى الوشاة وأهل السعاية بالنميمة ميالاً إلى أخذ المغارم غنيمة لنفسه وكان كثير السعى خلف الايقاع بكل من امتاز من أمراء الجنود فى أيام طيودوسيس بالاستقامة وشرف النفس والتمسك بالأصول والفتك بهم خوفاً على نفسه منهم.

وكان يعلم ما فى صدور العامة وأهل البلاد من بغضه والحقد عليه ويخشى القدح فى عرضه كما هو مذهب الكثير من الحكام فاسدى الأخلاق فكان لذلك يجاوز فى غدره ويحترس من الملامة ونشر مرسوما يقول فيه إن كل من طعن فى ذات الملك أو فى أهل ديوانه فجزاؤه القتل وأن من سعى بالشفاعة فى مذنب فجزاؤه الفضيحة وأذاع هذا المنشور وشدد على الحكام فى العمل بموجبه فلما علم الناس بما فيه غضبوا كثيراً وقاموا قومة واحدة وأضرموا نار الفتنة فسرى لهيبها فى جميع العمالات والأقاليم الرومانية وانحاز رؤساء الأحزاب إلى زوجة الملك وطلبوا من القيصر أن يرسم بضرب عنق الوزير المذكور وأن لا تسكن نار الفتنة إلا بقتله فلم يقبل فانكبت زوجته على أقدامه وبكت وشكت أيضاً من أنه أى الوزير المذكور أساءها وخاض فى عرضها فحنق الملك لها ورسم بقتله.

وما ظهر الأمر بقتله حتى أظهر له الشماتة كل من كان يتزلف إليه من أهل البلاد وأهل الديوان ولم يبق أحد إلا وكان يوسعه سباً وطعناً وضرباً وخرجوا به إلى الميدان ليقتلوه وعلت الضوضاء وتزاحم الناس وأتوا للتفرج عليه من كل صوب وحدب فبينما هم على هذا الحال والوزير بين أيديهم إذ برز القديس خروصوصطومس وانكب عليه وحال بينه وبين الجموع المتزاحمة على قتله ونادى قائلاً تنحوا عنه أيها الناس فإن الدنيا لاتدوم على حال وأن الطبيعة البشرية ليست معصومة من النقائص الدنيوية وسوء المقاصد إلى آخر ما قاله من المواعظ فى هذا

المغنى فانكف الناس عنه وبرز الأمر بعد ذلك بتغريبه وإبعاده إلى جزيرة قبرص ولكنه لم يلبث فيها إلا قليلاً حتى قام عليه واليها وأهدر دمه وأراح العباد منه.

فاستوزر الملك بعده الوزراء من الأجانب والأغراب وسلمهم قيادة المملكة كما كان يفعل مع غيرهم من قبل ثم أفضى الحال بعد ذلك إلى أن سلم زمام المملكة لزوجته فحكمت واستبدت وأمرت ونهت وتصرفت فى جميع الأمور وكانت تكره الأسقف خروصوصطومس وتعاديه فرسمت يوماً بنفيه وتغريبه فنفوه وكان معظماً محبوباً من الناس موقراً عندهم فقاموا لذلك جميعاً واجتمعت الأهالى أحزاباً وأشهروا السلاح وأحاطوا بقصر الملك وعلت الضوضاء فخافت الملكة من ذلك وخشيت عاقبة هذه الفتنة وتمثلت بين يدي الملك وأشهدت على نفسها أنها أخطأت فيما فعلت وندمت وأمرت بعودته عاجلاً إلى القسطنطينية فرجع فزين الأهالى لقدومه سواحل القسطنطينية شرقاً وغرباً فلما دخل المدينة ارتقى منبر الخطابة وخطب يعظ الناس بالصلح والسلم ، قال بعض الكتاب: ولكن أنساه تعاظمه الدنيوى ذل حرفته وأذهله عن حقوق خرقته ولم يعمل بما جاء فى الإنجيل حيث عرض بذم النساء كافة وذكر معايبهن وتطرف للخوض فى عرض الملكة وقذفها فقال إنها محبوبة لبعض اللئام وإن عشاقها عبدوها عبادة الأصنام قالوا ومع أن ذكر هذا لا يليق من مثل هذا الأسقف فقد أصغى الناس إليه بآذان واعية ولكنهم عادوا بعد ذلك فجمعوا مجمعاً آخر وحكموا عليه بالنفى وساعد على نفيه جماعة الأريوسية التابعون لمذهب أريوس إذ كانوا من حزب الملكة ومن أعوانها فاتفق بعد نفيه أن انتابت على البلاد المصائب وأتلف الجراد المزروعات وكثرت بها الزلازل فاعتقد الناس أنها إنما حلت بالبلاد بسبب نفى هذا الأسقف.

وقد ذكرنا فيما تقدم أن طيودوسيس الملك كان قد خفف فى أيامه عن مصر المحن وقطع أسباب الإحن وأعاد لها رونقها القديم بما منحها من المزايا وما جدده فيها من العمائر فلما تولى أرقاديوس منصب أبيه سار على سيرته وأمر بأن تغلق جميع هياكل الأصنام فى ديار مصر ومنع من التدين إلا بالدين المسيحى فاستدعى أهل البلاد أن يتولى عليهم ملك من قبل الرومانيين يسوسهم بما فيه المصلحة وحسم الفتن فبعث لهم الملك قانوناً شديداً وحث الأهالى على الطاعة تحت حكم عماله ونوابه وأباح لهم بعض إباحات دينية لابد منها ورخص لهم أن يتخذوا كهاناً لعبادة الشمس والبقر وأقام على المسيحيين منهم (ثوفيلس) بطركا بالاسكندرية قال بعض أصحاب التاريخ فكان ثوفيلس هذا كثير الحمية الدينية قليل الفضل والمعرفة فأظهر

العداوة لأصحاب الدين الوثنى وتعرض لرخصتهم فى دينهم وتحصل على مرسوم آخر من الملك بكسر الأصنام وهدم المعابد والهياكل فعادت الشدة على الوثنيين من المصريين وكان البطريرك ثوفيلس هو المأمور بذلك وكان تحت أمره متوليها وأميرها فبلغ ثوفيلس ما تمناه وبالغ فى هدم الهياكل وتخريب المعابد وتبعه فى ذلك كافة أساقفة مصر وقراها فحصل لدين الجاهلية بمصر مذلة وشدة وصار الفخر للبطريرك والأساقفة وفوّض لهم الحكم فى الرعية وقد كانوا قبل ذلك من أيام قسطنطين الأول مفوّضين فى التعليم والتربية وتهذيب الأخلاق وتحسين العوائد دون تنفيذ الأحكام وكان القضاة مأمورين أن ينفذوا ما تحكم به طائفة القسيسين فتم لهم النفوذ فى حكومة البلاد وكمل لهم التداخل فى المصالح كافة وصار الأمر منهم وإليهم ولم تبق فوق يدهم يد.

قال بعض الكتاب وباضمحلال الديانة الوثنية على التدريج صار يلمح بطرف خفى قرب زوال التمدن القديم وهو تمدن أزمان الجاهلية وقد عم ذلك جميع البلاد الرومانية وأخذت الأمة القديمة على التدريج فى استبدال دينها القديم وقد زادها ضرراً كثرة تداخل الأجانب فى أهلها لاسيما المتبربرون وتقلدهم المناصب الملكية والوظائف العسكرية فضلاً عمن احتل البلاد من الفرنجة والغوطية وانتشارهم فيها من نهر الرين إلى حد الفرات بالمشرق وشنهم الغارة على جميع إيالات المملكة من وقت إلى آخر وتتبعهم النهب والسلب فيها حتى عمها الخلل ولازمها الارتباك وسرى فيها عرق الفساد إلى حد أن تطاولت أيدى الرعية إلى معاقبة الملوك والقياصرة تخلصاً من تعديهم وظلمهم للأهالى ثم طردهم واستقدامهم للأغراب ليدخلوا بلادهم فإنهم اختاروا أن يكونوا مستعبدين للإفرنجة والغوطية ورضوا بذلك وآثروه على أن يكونوا أحراراً تحت أحكام ملوكهم الجائرين لاسيما وقد أثقلتهم الضرائب والمغارم بما لايطاق فضلاً عن تعرضهم لمذلة عبادة الأوثان وقتل من يتمسك بهذا الدين وقد كسر أحد العساكر يوماً صنم الشمس وكانوا يعتقدون أنه إله الدنيا بأسرها وأخرج منه جملة من الفيران مع ما رسب فيه من فضلاتها فلم يترتب على كسره يومئذ فتنة لضعف أهل هذا الدين وفشلهم وقد أسودّ هيكل رومة العظيم المحلى بالذهب الخالص وعلاه التراب وصار مهجوراً لا يدخله عابد ولا يواليه بالإشارة راكع ولا ساجد وكذلك بقية هياكل الأصنام وتأيد دين المسيح بقدر ما قاساه من الشدة والمذلة وصار الناس يدخلون فيه أفواجاً لاسيما فى أيام أرقاديوس على مافيها من العسف والجور.

ومات أرقاديوس الملك حتف أنفه فى سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة للميلاد أى سنة أربع عشرة ومائتين قبل الهجـرة وكانت مدته ثلاث عشرة سنة ويضاف إلى هذه المدة أيضاً مدة الأربع عشرة سنة التى هى من تاريخ مرسوم طيودوسيس الملك باتباع الملة النصرانية وهى المدة التـى حكمها طيودوسيس أبوه فى القـسطنطينية وقد أوصى قبل موته أن يكون يزدجـرد بن بهرام المعروف بالأثيم كفيـلا على ولده طيودوسيس الثانى ولعله قصد بذلك تداخل أهل فارس فى مصالح الروم والقسطنطينية تشفيا غير أن بعض المؤرخين أنكر هذه الوصية وقال أنـها لم تصدر منه واستدل على ذلك بأن كسرى فارس المذكـور لم يطالب بالكفالة ولم يتداخل فى مصلحة الـبلاد مع ما كان عليه من الفـظاظة والغلظة ولؤم الأخلاق قال: ولو كـان لهذه الوصـية أثر لما تنازل عنها كسرى المذكور ولدافع عنها ببذل النفس والنفيس.

ومات فى أيام أرقـاديوس (ثموثاوس) بطريرك الاسكندرية بعد أن أقـام خمس سنين أو سبعـاً وفى أيام ثموثاوس المذكور كان المجمع الثانى بـالقسطنطينية فى سنة اثنتى عشرة ومائة لدقلطيانوس فـاجتمع فيه مائة وخمسون أسقفـاً وحرموا مقدونيون عـدوّ روح القدس وكل من قـال بقولـه وكان سـبب ذلك أنه قال أن روح القـدس مخلوق وحرموا مـعه أيضاً أناساً آخرين لعقائد أخرى شنيـعة تظاهروا بها فى المسيح وكان رئيس هذا المجمع ثموثاوس بطريرك الاسكندرية.

وزاد الأساقفة يومئذ فى الأمانة التى رتبها الثلثمائة وثمانية عشر، ونؤمن بالروح القدس الرب المحيى المنبثق من الأب، وحرموا أن يزاد فيها شىء بعد ذلك أو ينقص منها شىء وكان هذا المجمع بعد مجمع (نقية) بثمان وخمسين سنة وبعد مولد المسيح بمائة وثلاث وسبعين سنة.

وفى أيام ثموثاوس بنيت عدة كنائس بالاسـكندرية واستيب جماعـة كثيرة من مقـالة أريوس وأطلق للأساقفـة والرهبان أكل اللحم يوم الفـصح ليخالفـوا الطائفة المنانيـة فإنهم كـانوا يحرمـون أكل اللحم مطلقـاً وردّ أرقاديوس كل من نفـاه الملك وأليس من الأساقـفة وأمر أن يلزم كل واحد منهـم دينه ما خلا المنانية ثم أقـيم بعد ثموثاوس ثاوفـيلوس وهو ثالث عشـريهم وأخو بطرس الثانى ويـعرف بابن الخطاب وكان فى أيامه من الحوادث ما سيذكر بعد.

(فـى الملك طيـودوسـيس ـ قـيصر الثانـى)

ثم قام بالأمر ابنه طيودوسيس الثانى بعـهد من أبيه أرقاديوس وذلك سنة اثنتين

وعشرين وأربعمائة للميلاد أى سنة أربع عشرة ومائتين قبل الهجرة بويع وله من العمر تسع سنين وقد كان بحسب الشريعة الرومانية لعمه أرنوريوس قيصر المغرب حق الكفالة عليه فلم يرض أعيان مملكة القسطنطينية بذلك ، وكان من الأغنياء الملتزمين أصحاب الجاه والبأس بمدينة القسطنطينية رجل اسمه أنطيمس وكان ذا معرفة وخبرة بالأمور واستقامة وشهرة بالمعارف وكان قد تقلد نيابة المشرق ثم تخلى عنها فولاه وجوه القسطنطينية كفالة طيودوسيس ولكن لم تطل مدته حيث مال إلى العزلة واختار الراحة والاشتغال بأموره الخصوصية وآثر ذلك على نيابة الدولة فتنازل لبولخارية أخت الملك عنها حيث رغبت فى ذلك فاستولت بولخارية على سرير الملك ولم يكن عمرها إذ ذاك إلا ست عشرة سنة فقامت بأعبائه خير قيام مع الشهامة والحماسة ولازمت جادة العدل وساست الأمور ودبرتها فأحسنت تدبيرها فلقبها المجلس بلقب (أغسطسة) وحكمت بالنيابة عن أخيها مع الوزراء نحو الأربعين سنة قال بعض المؤرخين: فكأنها ورثت فضائل جدها طيودوسيس الأكبر ونالت من مكارم أخلاقه الحظ الأوفر كما ورثت عنه الشجاعة والبسالة فبلغت فى حسن التدبير درجة البراعة.

وكان الناس يتوسمون فى طيودوسيس الملك سمة النجابة والخير للبلاد فلما بلغ رشده رأوا أن حاله كحال أبيه فى عدم الثبات وضعف العقل وقلة الإدراك والتمييز فكانت بولخارية تجهد نفسها فى تهذيب أخلاقه وإصلاح شأنه وتقويم أوده لعله يقوم بأمر الملك ويحسن تدبير الدولة فلم تنجح وكانت ذات عدل تكره الجور والعسف فأسكنت بعزمها جميع الفتن وأزالت كافة المحن فاطمأنت بها نفوس الرعية وانتظم حال الملك وانقطعت المنازعات واستقامت الأمور فتعلقت بها قلوب الرعية وأحبوها حباً جماً ، ولم يشغلها عن الحوادث الخارجية إلا إغارة طائفة الهونية من قبائل التتار وزحفهم من بلاد المجار على ممالك القسطنطينية تحت راية ملكهم آطيلا فصالحتهم بولخارية بتقرير خراج حتى تمكنت من ردهم وأبعادهم عن البلاد، وكان من همها تقدم العلوم والفنون والصنائع وكانت تحسن اللغة اليونانية واللاطينية فشغلت أخاها بتلقى العلوم والمعارف والفنون لتكون الحاكمة عليه زمناً طويلاً وجلبت إليه كبار العلماء ومشاهير الحكماء ممن لهم شهرة فى العلوم وكان أرقاديوس مع قلة فطنته مهيباً سالكاً سبل الجد بعيداً عن المزاح حافظاً لناموسه قابلاً للتعليم وإن لم يكن مستجمعاً لصفات الرجال الراسخين فى صفات الكمال فكان ممدوحاً بالعفة والقناعة والرفق والرأفة والحلم غير أن هذه الصفات لم تكن فيه غريزية بل اكتسابية فكان فى

حياته كالطفل تحيط به الطواشية والخادمات من كل جانب وكان شغله فى كل يوم النقش والرسم والصيد وماشابه كل ذلك وقد لقب بالخطاط لحسن خطه ولطافته وكان فاتر الهمة فى قضاء المصالح العمومية ميالاً للكسل والدعة حتى كانوا إذا أحضروا إليه الأوراق ليوقع علبها أهمل قراءتها ووقع عليها بدون التفات ولا اكتراث فدست له أخته بولخارية يوماً خطاباً عن لسانه وأظهرت أن فيه مصلحة للبلاد مضمونة، أنى خلعت نفسى عن المملكة وخلعت بيعتى من أعناق أهل البلاد ، فوقع عليه ولم يقرأه ثم أطلعته عليه ومزقته أمامه ليقف على عيبه ويحاذر فى أموره ، وكان ابتداء ملكه يبشر بنصر الروم ونجاحهم فإنه غلب الهونية فى بلاد الروم ايلى وقهر ملكهم هولدين وضيق عليهم تضييقاً كثيراً وحصرهم وقد كان هولدين المذكور أقسم أن لايدع الفتوحات ولا يكف عن الغزو إلا إذا بلغت فتوحاته مغرب الشمس فحنثه القيصر فى يمينه إذ أوقفه وطرده من الروم إيلى فجاز نهرطونة وهرب راجعاً لبلاده وقد هلك جميع عسكره ومزق فى هذه الواقعة كل ممزق.

فلما رأت بولخارية أن أخاها قد نجح فى أموره واستحق الزواج بحثت له عن زوجة مشهورة بالفضل لا بالنسب وكان فى مدينة أثينا فيلسوف اسمه ديونقوس وله ابنة من أجمل بنات اليونان اسمها آطنايس ذات علم وفصاحة كأبيها وتمتاز فى الخطابة بقوة البرهان وكان لابيها من الذكور ولدان فتبرع لهما بجميع أمواله ولم يورثها شيئاً اكتفاء بجمالها ولكنها بعد موت أبيها المذكور وضيق ذات يدها طالبت أخويها بحقوقها وشكت للملكة بولخارية فلما رأتها تعجبت من لطفها وحسنها ووفور عقلها ووجدتها أهلاً لأن تكون زوجة لأخيها فلما بلغ الملك أمرها ولع برؤيتها فأتى متنكراً عند أخته فما وقع بصره عليها وسمع خطابها حتى أخذت بمجامع قلبه فعقد عليها وعمدها وسميت من هذا اليوم (أودقسيه) فلما علم أخواها بأنها صارت زوجة الملك خشيا صولتها فاختفيا فبحثت عنهما وأرسلت من كشف عن حالهما فوجدا وتمثلا بين يديها فلاقتهما بالبشاشة والطلاقة وقلدتهما المناصب العالية وكانت عاقلة واسعة الفكر مواظبة على ما تعودت عليه أيام فراغها من مطالعة ودراسة فنظمت ما فى التوراة وألفت تآليف جديدة مفيدة جداً وسارت إلى بيت المقدس فحجت وذهبت إلى انطاكية وخطبت بمجلسها خطبة بليغة أثرت مواعظها ونصائحها فى القلوب والنفوس حتى أعجب كبار الأساقفة بمقالها وأصحبت معها من بيت المقدس إلى القسطنطينية ما يتبرك به من آثار الصلحاء والقديسين.

وتاقت نفس أودقسيه بعيد ذلك أن يكون لها الأمر والنهى على زوجها وعلى

الدولة بتمامها وقد كان الحل والعقد وتدبير الأمور فى يد الملكة بولخارية كما تقدم القول فلم ترض بالتنازل لادوقسية وظلت ممسكة زمام الحكومة فوقع بأسباب ذلك الفشل والخلف بين الاثنتين وترتب على اختلافهما اختلاف الأمراء والأحزاب فانقسم الديوان الملوكى إلى حزبين أحدهما متعصب لزوجة الملك والآخر منتصر لأخته فغلب حزب الأخت على حزب الزوجة وتم لها النصر وصار لها تمام النفوذ فاتهمت الملكة مع أخصائها المتعصبين معها من أهل الديوان بالعشق والميل عن العفة وأغرت الملك بنفيهم وتغريبهم إلى أقصى البلاد فنفوا وغضب على زوجته وأساء الظن بها فاستأذنت بأن تخرج من قصر الملك وتعتكف فى بيت المقدس فأذن لها فذهبت واعتكفت هناك فلم يتركها أخصامها وشأنها بل كانوا لها بالمرصاد فاتهموها أيضاً بالزنا مع اثنين من القسيسين فرسم الملك بقتلهما فقتلا فغضبت وسعت فى قتل قاتلهما حيث كانت بريئة من هذه التهمة فقويت التهمة بذلك وبلغت مبلغ التحقيق، ومكثت ست عشرة سنة معتكفة منزوية فى زوايا الإهمال وهى تشكو مما دهمها من الظلم والجور بلا ذنب ولا خطيئة.

وقامت على طيودوسيس فى هذا الحين قائمة الحرب من كل الجهات منها الحرب مع بهرام جور بن يزدجرد الأثيم والحرب من آطيلا ملك قبائل الهونية. قال بعض أهل التاريخ: وقد كان من أمر بهرام جور المذكور أن أباه سلمه إلى النعمان ابن امرئ القيس أحد ملوك اليمن من العرب وهو صاحب الخورنق ليربيه ويعلمه الفروسية فلما مات أبوه وكان هو غائباً تولى الملك كسرى خسرويه من ولد أرزدشير فلما بلغ ذلك بهرام جور انتصر بالنعمان ووقع بين بهرام وخصمه مراسلات كثيرة ثم اصطلحوا على أن يجعل تاج الملك بين أسدين شبلين فمن تناوله منهما فهو الملك فوثب بهرام على الشبلين فقتلهما ولبس التاج واستقر على سرير الملك وكان عاقلاً شديد البطش على أعدائه وكان يتقن نظم الشعر بالعربية.

وكانت مدينة القسطنطينية فى تهديد دائم من قبائل الهونية فكانوا لا ينكفون عن الإغارة على بلادها وتكدير صفو راحتها وقيامهم على قدم الإرهاب وكان رئيس هذه القبائل يومئذ أميراً اسمه روجلاس وكان مقره ببلاد الألمان وكان يبغض طيودوسيس ويتوعده بالإغارة وتخريب ممالكه فخافه طيودوسيس جداً وبعث إليه سفراء يسترضونه ويصدونه عن شن الغارة فلما وصل السفراء وجدوه قد مات وورث الرياسة بعده اثنان من بنى عمه هما آطيلا وايليد فلبثت السفارة أياماً تطلب الأذن بمقابلتهما فقابلاهم وهما على ظهور الخيل كعادة ملوك هذه القبائل فلما تمثل

السفراء بين أيديهما اشترطا عليهم زيادة الجزية المقررة التى كانت تدفعها القسطنطينية من قبل للهونية وأن يتنازل لهما القيصر عن أحد المينات الواقعة على نهر طونة لتكون خالصة حرة لا سيادة للرومانيين عليها وأن لا تعقد دولة القسطنطينية أى معاهدة مع أحد من أعداء الهونية فرضى القيصر بهذه الشروط مع ما هى عليه من المذلة والحيف بناموس الدولة قالوا فكانت هذه أول مرة رأى فيها الرومانيون آطيلا المذكور وقد كان بلغهم قبل الاجتماع به أنه فظ غليظ جبار عنيد مولع بالحروب يحسن سياسة الجنود ورياستهم فلما تأملوه وجدوه على صورة أهالى القلموق الذين يقال لهم الكيماكية عريض الرأس أصفر اللون أفطس الأنف قصير القامة مربع القدّ يكاد الشرر يقدح من عينيه ولم يمض على آطيلا وأخيه فى تدبير أمور قبائل الهونية إلا زمن يسير حتى قام آطيلا على أخيه وقتله واستبدّ بالحكم فانقادت له جميع قبائل الهونية وغيرها من القبائل التترية ثم تغلب بعد ذلك على سائر القبائل الچرمانية المعروفين بالألمان واستولى على كافة الأمم الشمالية كالاسوج والتروج والدينمارقة وتهيبت منه أمم الغلية والرغونية القاطنون فى بلاد الفرنسيس وزحف على هذه البلاد بجيش جرار وتوغل فيها حتى وصل إلى مدينة أورليان فاتحد أبطيوس قائد عساكر رومة ومرويه ملك الفرنسيس وطيودويراق ملك الغوطية معاً وحملوا عليه حملة رجل واحد فقهروه وأخرجوه عنوة وأوقعوا به بقرب شالون من بلاد شامبانيا مات فيها ربع جنوده ورجع القهقرى إلى بلاد إيطاليا ومع ذلك فقد انبسطت يده على جميع الأمم المتبربرة حتى تملك جهة نهرى الأتل وطونة وبحر الشمال ونهر الرين وجبال إلبه بإيطاليا وزادت هيبته فى جميع الممالك وكانوا يعتقدون أنه صاحب خروج وأن له معرفة بالسحر والشعبذة وأنه متى قصد مملكة لا يصدّه عن التغلب عليها أحد، قال أصحاب التاريخ: وكان إذا قدم مملكة من الممالك شرقاً أو غرباً سجدت ملوكها بين يديه حتى تصل تيجانهم إلى الأرض وكانوا يفتخرون بحضورهم فى مجلس مشورته ويحسبون أنفسهم من وزرائه وأمرائه فكان الرؤساء والأمراء من جميع القبائل يحدقون بقصره ويتباهون بالمحافظة على ذاته الملوكية وكانت قبائلهم وطوائفهم منظومة فى سلك جنوده داخلة تحت أعلامه وبنوده وكانت عساكره نحو ثلثمائة ألف مقاتل وغزا فارس وأغار على بلادهم فامتدّت غزواته فى المشرق حتى وصلت إلى الشام ولكنها كانت مجرد إغارات لا فتوحات وكان قد وقع بينه وبين طيودوسيس الملك عقد مصالحة على قاعدة تقررت بينهما كما تقدم فعاد وادّعى أن العهد انتفى بعدم وفاء القسطنطينية بشروطه وزعم الهونية أن الروم سرقوا

منهم فى إحدى موانى طونة الحرة خزينة أحد امرائهم وطالبوا القيصر بهذا القدر من المال وأن يسلم لهم أحد أساقفة النصارى ليصنعوا فيه كيف شاؤا فامتنع ديوان القسطنطينية من الاجابة إلى شيء من ذلك فأشهروا الحرب وأغاروا على بلاد الروم ودخلوا المدن القريبة من القسطنطينية وسلبوا فى طريقهم ونهبوا وقتلوا وأسروا وهدموا القلاع والقصور وسبوا النساء والأولاد ودمروا المدن التى بين البحر الأسود وخليج البنادقة فكانت جميع هذه النكبات لا تبعث همة طيودوسيس الملك على التحرك من ديوانه والخروج مع عساكره للذب والدفاع لخوفه وجبنه بل اناط أمراءه وقواده بذلك فكانوا إذ ذاك لا يستطيعون جمع العساكر ولا يحسنون تنظيم الجنود ولا ترتيب الصفوف للقتال فكانت هزيمتهم متتابعة وقد انهزموا فى واقعة بقرب نهر طونة وفى أخرى بسفح جبال البلقان وفى أخرى بسواحل روم ايلى وكانت هزيمة عظيمة جداً دمرت عساكرهم تدميراً فلم تبق منهم بقية.

وعاث آطيلا فى أرض مقدونيا وأهلك الحرث والنسل وأحرق نحو سبعين مدينة وجال فى أرض روم ايلى حتى وصل إلى رساتيق القسطنطينية وضواحيها فلم يمنعه عن دخول المدينة إلا أسوارها لأنه كان لايحسن الحرب إلا فى السهول والفضاء وكان يجهل محاصرة المدن والقلاع وكانت محاربته تعدّ من العجائب عادة يعقبها خراب البلاد وهلاك العباد ولذلك تهيبت منه جميع أمم أوروبا وآسية وكان إذا انتصر على قبيلة أو أمة أخرى أباح لقومه أسر أهلها وأدخل فى عسكره كل من كان يصلح للخدمة العسكرية وضرب الرق على الشيوخ والنساء إذا لم يقتلوهم بلا شفقة ولا رحمة وكان الهونية إذا كثرت عندهم الأسرى وزاحموهم على الزاد والراحلة ذبحوا القدر الزائد ومع ذلك كله فقد اتحد بعسكر الهونية كثير من الرومانيين وامتزجوا بهم امتزاج الراح بالماء.

وبعد توالى انهزام أصحاب طيودوسيس الملك بات ولم يبق عنده من العساكر ما يدفع به عدوه وكان أضعف من أن يحيى قلوب رعيته وينعش نفوسهم ويقوى عزمهم ويحرضهم على قتال الأعداء ويجعلهم جميعاً عسكراً يحامى عن الوطن فلما لم يستطع أن يفعل ذلك اعتكف فى قصره كالراهب ولم يخرج منه إلا للكنيسة ثم عقد بعد ذلك مع آطيلا صلحاً يشين بشرفه وشرف دولته وترك لدولة الهونية الأرض التى فى جنوب نهر الطونة من مدينة بلغراد إلى داخل ترخالة من بلاد روم ايلى وتعهد بأن يدفع في كل سنة ألفين ومائتى رطل من الذهب وستة آلاف معجلة وذلك غير نفقات الحرب وكان قد ذهب ما فى أيدى الأهالى واشتدت بهم الفاقة

لاسيما من فعال جباة الأموال والعوائد والمكوس فلذلك تأخر دفع هذه المغارم عن مواعيدها وتعذر على طيودوسيس دفعها.

وكان ما بقى من العساكر الرومانية أيضاً قد داخله الجبن ولازمه الفتور وارتبك الحال على أهل الديوان فانعكست أحوال الدولة وفشلت أمورها وذهب رونقها ولم تقم لهم من هذا الحين قائمة إلا أن أهالى مدينة (اسومدوس) من أعمال روم ايلى دبت فيهم النخوة الجاهلية وتمسكوا بعروة الاتحاد الوثقى ولم يرضوا بالدخول تحت شروط هذا الصلح وأبوا أن يسلموا للهونية إلا بحرب ثم خرجوا ووقف جمعهم خارج الأسوار وطلبوا النزال فاجتمع عليهم كثير من العساكر الرومانية الفارّين من ساحة الحرب ومن الأسرى الهاربين فعظم جمعهم وضخم جيشهم والتقى بالهونية وأوقع بهم فى واقعة هائلة ولا هول القيامة فهزمهم شر هزيمة وطردهم عن البلاد فشكا آطيلا ملك الهونية للقيصر من خروج أهالى هذه المدينة وطلب منه إكراههم على الانقياد وتسليم المدينة على أصول ما هو فى العقد فأمرهم القيصر بالوفاء فلم ينقادوا وأظهروا الجفاء وعصوه وأجابوا أن الصلح المبنى على الذل والعار والتحقير والصغار لا يعدّ من القوانين الواجبة الامتثال فتركوهم ولم يتعرضوا لهم بعد ذلك بمكروه.

وكان من شروط هذا الصلح أن طيودوسيس التزم لآطيلا ملك الهونية أن يسلم له كل من فر عنده من الألمان والغوطية والطوائف التترية وكل من هرب من جيشه ودخل فى خدمة جيش طيودوسيس فلم يستطع الروم أن ينجزوا هذا الشرط لأنه يترتب عليه هلاك كثير من ضباط الهونية الكبار الذين أبلوا بلاء حسناً فى حروب الروم وساعدوهم على النصرة على الهونية وامتازوا فى ميادين الحرب بالبسالة والإقدام فألح آطيلا يطلبهم قياماً بالعهد فأرسل إليه طيودوسيس سفراء يستعطفونه ويستميلونه إلى الأغضاء ودس لبعض وزراء آطيلا ورشاهم بالمال ليقتلوا آطيلا المذكور فلما وصل السفراء إلى آطيلا قابلهم بغاية الإزدراء والتحقير وأذلهم غاية الإذلال ووضع مقامهم كما كانت الروم تفعل بسفراء الملوك الأجنبية أيام عزهم وأبقاهم أياماً خارجاً عن مقر الحكومة قبل أن يمتثلوا بين يديه حتى أدركوا دلائل الإهانة وداعى هذا التذليل وبعد عدة أيام دعاهم فساروا إليه يشقون صفوف العساكر حتى وصلوا ديوانه فوجدوه لابسا ملابس الآحاد من التتر ولم يكن سريره الملكى إلاكرسيا بسيطاً فسجدوا أمامه وخضعوا له وقبلوا الأرض وعرضوا عليه رسالتهم وخاطبوه بألفاظ العظمة والكبرياء على العادة الرومية القديمة فلم يجبهم إلا بألفاظ

الوعيد والتهديد وقال لهم وهو مغضب أتظنون إذا أردت النكاية هل أبقى لكم مدينة من مدنكم على وجه البسيطة فإذا أردتم لمدنكم التدمير ولسلطانكم السقوط فافعلوا ما تريدون فألانوا له القول وتلطفوا معه فى الخطاب فانطبع ورق فتعشموا الخير ودعاهم إلى مائدته فاستبشروا بذلك قيل ومن صدف الاتفاق أنه كان بديوانه أيضاً يومئذ سفراء من رومة فأجلس سفراء الدولتين فى المجلس بعد أمراء الهونية تحقيراً لهم وتصغيراً وكان الندماء مدة تناول الطعام يطوفون بالشراب على عادة ملوك البلاد الشمالية وكان أصناف اللاعبين وأرباب الهزل والمزاح يكثرون من ألعابهم وحضر أيضاً أسرى البلاد المغربية أمام أهل المائدة للمصارعة وعساكر التتار تعمل شكل محاربة والأغانى تتغنى بحروب طوائف الهونية وانتصار ملكهم آطيلا وتغلبه على سائر البلاد وكانت نساء الهونية جالسات على المائدة أيضاً مع الرجال يتكلمن مع أهل المشرق بدون استحياء ولا احتفال واختلطن معهم ولا اختلاط الرجال مع الرجال.

ثم أجاز لسفراء طيودوسيس بالانصراف وبعث من قبله سفراء إلى القسطنطينية كلهم مميزون بعلو المناصب والمراتب وعليهم رئيس اسمه أيديقون وكان فى هذا الحين قد انكسرت شوكة الملكة بولخارية أخت طيودوسيس وضعف نفوذها فى الديوان وصار الأمر والنهى بيد خروساف الخصى وكان الملك فى قبضة يده فاتحد خروساف المذكور مع بعض رجال الديوان والمقدم وبجلوس على أن يرشوا أيديقون رئيس السفارة المذكورة بالمال كى يثير فتنة على آطيلا الملك ويقتله ويخلص الروم من شره وأخبر طيودوسيس بما اتفقوا عليه فوافقهم رغما عما جبلت عليه طباعة من المسالمة وبغض الباطل وأهله فعلم آطيلا الملك بمكرهم ولكنه كان أكرم نفساً حيث وقعوا فى يده وعفا عنهم وأعادهم إلى القسطنطينية وصفح عن طيودوسيس ليريه أنه أشرف نفساً وأعلى همة وذلك أنه لما انكشف سر الطواشى وقومه واتضح أمرهم بعث طيودوسيس المقدم ديجلون إلى آطيلا ومعه ثلثمائة رطل ذهب فدية المتعصبين على قتل الملك ولما كان ديجلون المذكور ممن اتفق مع الطواشى على هذه الفعلة قبض عليه آطيلا وسأله فى شأن ذلك وقرره فاعترف فعفا عنه وبعث سفارة أخرى إلى القسطنطينية كان فيها الأمير إسلار وآخر اسمه أغسطة فلما تمثلا بين يدى طيودوسيس تكلم إسلار يقول إنى مأمور من طرف ملك الهونية أن أقول لكم أن القيصر طيودوسيس والملك آطيلا كلاهما من سلالة ماجدة ذات نسب رفيع وحسب منيع غير أن آطيلا قد أظهر مقام أجداده فى حروبه وغزواته وأبان مجدهم فى صولاته وغاراته وأثبت فخره بدليل العمل أما طيودوسيس فإنه لطيشه وعدم تبصره

فى عواقب الأمور قد أبان أنه ليس أهلا لحيازة شرفه ونيله وإنه لم يخلف آباءه الكرام بل بخس بنفسه وأخل بناموسه وناموس أهل مملكته حيث رضى بالذل والهوان وأن يدفع لملك الهونية جزية توجب الصغار فكأنه بدفعها قد أشهد على نفسه أنه عبد رق لملك الهونية الذى رفع الدهر مقداره وأيد مجده وفخاره فكان يجب على القيصر حينئذ أن يسلك أمام أعين سيدنا مسالك آحاد الناس من الرعية ويتمسك بالصداقة وحق العبودية ويظهر لسيده (آطيلا) كمال الطاعة والاحترام ولا يليق به الكفران بنعمة وليه ويعمل على قتله فإنه سار بهذا الفعل الذميم سير عبد السوء اللئيم.

وكان طيودوسيس عند سماعه هذا الكلام جالساً على سرير جده طيودوسيس الأكبر المصوغ من الذهب صامتاً ولم يكن قبل ذلك قد طرق أذنيه غير المدح والإطراء من قومه فلما أسمعه إسلار كبير السفارة هذا الكلام ثبت نفسه وقوّى جاشه وأفرغ أذنه للسماع مع ما كان فيه من الخجل ومزيد الوجل ولم يظهر سآمة ولا ملالة ثم رسم بتسليم وزيره خروساف الطواشى لأرباب السفارة وانتخب عدة من أمراء ديوانه منهم ليونيوس خازندار المملكة وأنطنيوس رئيس جند الحرس القيصرى وأرسلهم سفارة من عنده إلى الملك آطيلا لتسكين غضبه واستجلاب رضاه قيل وكان لم يزل فى الدولة المشرقية رمق الفخار وبقية من المجد القديم فكان لبعثة هذه السفارة وقع حسن عند ملك الهونية إذ رأى فى ذلك غاية التعظيم له فسعى إليهم وسامح القيصر وعفا عنه وعن الطواشى والمقدم وجميع من اشترك فى هذه الفعلة وأحسن على طيودوسيس برد عدة مدن مما كان قد أخذه منه وفك كثيرا من الأسرى الرومانيين عدا ما كان قد طلبه من الهاربين من عساكره إلى العسكر القيصرى وجدد عقد الصلح ولكنه طلب كثيراً من المال فدية عن قتل الطواشى لا تقدر الدولة على دفعه يومئذ ، واتفق بعد عقد شروط هذا الصلح أن خرج طيودوسيس على جواد للنزهة فكبا به الجواد فسقط على الأرض فانكسرت فقار ظهره وفارق الدنيا وذلك سنة أربع وستين وأربعمائة للميلاد أى سنة اثنتين وسبعين ومائة قبل الهجرة وله من العمر ثلاث وخمسون سنة فكانت مدة حكمه نحو ست وأربعين سنة قال بعض الكتاب وفى السنة الخامسة عشرة من ملكه كان ايقاظ أصحاب الكهف من رقدتهم واختلف فى حكايتهم المفسرون وأرباب السير والأخبار وتلخيص ذلك ، أن بعض القياصرة الرومانيين شدّد وطأة الجور على رعاياه واضطرهم إلى عبادة الأوثان والذبح للطواغيت وكان فى الروم كثير من الناس على

دين المسيح ومن أولئك القياصرة دوقيوس الملك وهو المسمى أيضاً دقليانوس زاد فى العتوّ والشدّة على النصارى وأمر بعبادة الأوثان وقتل كل من خالفه وكان ينزل بلاد الروم ليكره الناس على ذلك فنزل على مدينة أفسس التى هى الآن أياصولوق أو مدينة منبج ببلاد أناطلى بقصد إكراه أهلها على ذلك فكبر هذا الأمر على أهل الإيمان فهربوا منه فى كل جهة فجعل الوثنيون من أهل المدينة يبحثون عن المختفين ليدلوا عليهم دقليانوس فيخيرهم بين القتل والذبح للطواغيت فمن اختار عبادة الله قتله ومن أطاعه فى ذلك تركه.

فلما رأى ذلك الفتية الثمانية وكانوا من أبناء أشراف الروم وعظماؤهم حزنوا حزناً شديداً واشتغلوا بالعبادة والتضرع إلى الله تعالى فبينما هم يصلون فى مكان لهم إذ دخل عليهم أعوان الملك فوجدوهم سجداً يتضرعون فرفعوا أمرهم إلى دقليانوس فأمر باحضارهم فحضروا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً فقال لهم ما بالكم لا تقتدون بغيركم من حيث الذبح للآلهة فإما أن تذبحوا لآلهتنا كما يذبح الناس وإما أن أقتلكم فقال له كبيرهم مكسليمنا أما الطواغيت فلا نعبدها فاصنع ما بدالك وقال بقية الفتية مثل ذلك فجردهم من ملابسهم ومن حلى الذهب والفضة وقال: إنى أراكم شبابا فلا أحب أن أهلككم قبل أن أجعل لكم أجلاً تراجعون فيه عقولكم.

وانطلق دقليانوس بعد ذلك إلى مدينة أخرى قريبة لبعض أمور فلما علم الفتية بخروجه وأنه إن رجع يذكرهم فأتمروا بينهم أن يأخذ كل رجل منهم نفقة من بيت أبيه يتصدق منها ثم يتزود بالباقى ثم ينطلقون إلى كهف قريب بالمدينة يقال له منخلوس يعتكفون فيه لعبادة الله حتى إذا جاء دقليانوس الملك أتوه ليصنع بهم ما شاء ففعلوا ذلك وانطلقوا بنفقتهم واتبعهم كلب كان لهم حتى أتوا ذلك الكهف فلبثوا فيه ليس لهم عمل إلا العبادة وجعلوا نفقتهم إلى فتى منهم اسمه تمليخا كان من أجملهم وأجلدهم فكان يبتاع لهم أرزاقهم من المدينة سراً ويذهب متنكراً ويتجسس لهم الخبر فلبثوا على ذلك مدة.

وقدم دقليانوس الملك المدينة فأمر بالمسيحيين فذبحوا للطواغيت وكان تمليخا يومئذ فى المدينة فرجع مسرعاً إلى أصحابه وهو يبكى وأخبرهم بالخبر فحصل لهم الفزع من ذلك ووقعوا سجداً يتضرعون ويتعوذون بالله من الفتنة وكان تمليخا قد جاءهم بيسير من الطعام فقال لهم ارفعوا رؤسكم وكلوا وتوكلوا على الله تعالى ففعلوا وكان ذلك عند غروب الشمس ثم جلسوا يتحدثون فبينما هم على هذه الحال

إذ ضرب الله على آذانهم فى الكهف وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد وهو باب الكهف فأصابه ما أصابهم.

فلما كان من الغد تفقدهم دقليانوس والتمسهم فلم يجدهم فقال لبعض أصحابه قد ساءنى هؤلاء الفتية الذين ذهبوا ولو جاءوا فى الأجل المسمى وعبدوا إلهى ما كنت لأجهل على أحد منهم ثم أرسل إلى آبائهم وتوعدهم بالقتل فأخبروه بأنهم انطلقوا إلى الكهف فخلى سبيلهم فألقى الله تعالى فى نفس هذا القيصر أن يأمر بسد الكهف عليهم ليموتوا جوعاً وأراد الله أن يجعلهم آية لمن بعدهم وأن يبين للناس أن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور، وكان فى بيت الملك دقليانوس رجلان مؤمنان اسم أحدهما مندروس والثانى دوماس فأتمرا أن يكتبا أسماء الفتية وأنسابهم وخبرهم فى لوح من رصاص ويجعلاه فى تابوت من نحاس ثم يجعلا التابوت فى البنيان قالا لعل الله يظهر على هؤلاء الفتية قوما مؤمنين فيعلم من يفتح عليهم خبرهم.

وبقى دقليانوس ما بقى ثم مات هو وقومه ومضت عدة أجيال وخلفه عدة من القياصرة إلى أن ملك على أهل تلك المدينة ملك صالح اسمه طيودوسيس قيصر الثانى وكان متمسكاً بدين المسيح ففى أيامه ألقى الله فى نفس رجل من أهل ذلك الجبل الذى فيه الكهف أن يبنى فيه حظيرة لغنمه فاستأجر عاملين فجعلا ينزعان الأحجار التى على باب الكهف ويبنيان بها تلك الحظيرة حتى فرغ ما على فم الكهف من السدّ وفتح عليهم باب الكهف أذن الله أن يستيقظوا من رقدتهم ويجلسوا فى الكهف فجلسوا فرحين مستبشرة وجوههم طيبة أنفسهم فسلم بعضهم على بعض كأنهم استيقظوا من ساعتهم التى يستقيظون فيها على عادتهم إذا أصبحوا من ليلتهم التى يبيتون فيها ثم صلوا صلاتهم على عادتهم ولم يروا على وجوههم ولا ألوانهم شيئاً يكرهونه بل هم كهيئتهم حين رقدوا وهم يظنون أن ملكهم هو دقليانوس.

فلما فرغوا من صلاتهم قالوا لتمليخا صاحب نفقتهم ائتنا يا أخى بالذى قاله الناس فى شأننا عشية أمس عند الجبار دقليانوس ظناً منهم أنهم رقدوا كعادتهم وإنما خيل لهم أنهم طالت مدة نومهم عن العادة ثم قال مكسلمينا لتمليخا انطلق إلى المدينة لتسمع ما يقال فى شأننا بها هذا اليوم وما الذى نذكر به عند دقليانوس وتلطف ولا تشعر بنا أحدا وابتع لنا طعاماً وائتنا به فإنه قد نالنا الجوع وزدنا على الطعام الذى جئتنا به على العادة فإنه كان قليلاً وقد أصبحنا جياعاً فأخذ تمليخا ورقًا من نفقتهم التى كانت معهم مما ضرب بطابع دقليانوس الملك وانطلق خارج باب

الكهف فلما مر بالباب رأى الحجارة بعيدة عنه فعجب منها ولم يبال بها حتى أتى باب المدينة متنكراً لئلاً يراه أحد من أهلها فيعرفه فلما رأى تمليخا باب المدينة رفع رأسه فرأى فوق ظهر الباب علامة الصليب فجعل ينظر إليها متعجباً ونظر يمينا وشمالاً فلم ير أحدًا ممن يعرفه فترك ذلك الباب وتحوّل إلى باب آخر فرأى مثل ذلك فخيل له أن المدينة ليست بالتى كان يعرفها ثم رجع إلى الباب الذى أتى منه فجعل يتعجب منه ومن نفسه ويقول ياليت شعرى أما هذه عشية أمس وقد كان المؤمنون بالمسيح يخفون هذه العلامة ويستخفون بها ثم دخل المدينة فجعل يمشى فى سوقها فيسمع كثيراً يحلفون بالله ثم بالمسيح فزاده ذلك عجباً ورأى كأنه حيران ولقى فتى من أهل المدينة فقال ما اسم هذه المدينة فقال أفسس فدنا من الذين يبيعون الطعام فأخرج الورق التى كانت معه فأعطاها رجلا منهم وقال له يا عبد الله بعنى بهذه الورق طعاماً فأخذها الرجل ونظر إلى نقشها وعجب منها ثم طرحها إلى آخر فنظر إليها وهكذا فجعلوا يتطارحونها بينهم من رجل إلى رجل وهم يعجبون منها ثم جعلوا يتسارون ويقول بعضهم لبعض إن هذا الرجل قد أصاب كنزا فلما رآهم يتسارون من أجله ظن أنهم فطنوا به وعرفوه وأنهم يريدون أن يحملوه إلى دقليانوس الجبار فارتعدت مفاصله وقال لهم أقضونى حاجتى فقد أخذتم ورقى وإلا فأمسكوا طعامكم فلا حاجة لى به فقالوا من أنت يافتى وما شأنك والله لقد وجدت كنزاً من كنوز الأولين وتريد أن تخفيه عنا فانطلق معنا وشاركنا فيه وإلا أتينا بك إلى السلطان فنسلمك إليه فلما سمع قولهم عجب فى نفسه وصار لايدرى ما يقول فلما رأوه لا يتكلم طوقوه بكسائه فى عنقه وجعلوا يقودونه فى سكك المدينة مكبلاً فاجتمع عليه أهل المدينة صغيرهم وكبيرهم وهم محدقون به ثم اختطفوه وانطلقوا به إلى رؤساء المدينة ، وكان للمدينة رئيسان صالحان يدبران أمرها اسم أحدهما أرسوس والثانى اصطفوس فلما انطلق به إليهما ظن تمليخا أنهم إنما انطلقوا به إلى دقليانوس فجعل يلتفت يميناً وشمالاً والناس يسخرون به فلما تمثل بين يدى أرسوس واصطفوس ورأى أنه لم يذهب به إلى دقليانوس كما كان يظن أفاق لنفسه فأخذ كل من أرسوس واصطفوس الورق ونظرا إليها وعجبا منها ثم قال له أحدهما أين يا فتى الكنز الذى وجدته إن هذا الورق يشهد عليك أنك قد وجدت كنزاً فقال تمليخا ما وجدت كنزا ولكن هذا ورق آبائى من نفس هذه المدينة ووالله ما أدرى ما شأنى ولا ماذا أقول لكم فقال أحدهما من أنت فقال تمليخا أنا من أهل هذه المدينة فقال له من أبوك ومن

يعرفك بها فأنبأهم باسم أبيه فلم يجد أحدا يعرفه ولا أباه فقال له أحدهما أنت رجل مفتر لا تخبر بالحق فنكس تمليخا رأسه إلى الأرض فمنهم من قال أنه رجل مجنون ومنهم من قال أنه يتغابى ليخلص منكم فنظر إليه أحد الرئيسين نظراً شديداً وقال أتظن أننا نرسلك ونصدقك فى قولك أن هذا مال أبيك ونقش هذا الورق قديم وأنت غلام شاب تظن أنك تسخر بنا ونحن ولاة المدينة وخزائنها بأيدينا وليس عندنا من هذا الضرب درهم ولا دينار فلابد من أن تعذب عذاباً شديداً أو توثق حتى تقر بالكنز الذى وجدته ، فقال تمليخا أنبئونى عن شىء أسألكم عنه فإن فعلتم صدقتكم ما عندى فقالوا سل لا نكتمك شيئاً قال ما فعل الملك دقليانوس فقالوا لا نعرف اليوم على وجه الأرض ملكاً بهذا الاسم وإنما كان وهلك من دهر طويل فقال تمليخا فوالله لم يصدقنى أحد من الناس بما أقول لقد كنا فتية الملك دقليانوس وأكرهنا على عبادة الأوثان والذبح للطواغيت فهربنا من عشية أمس فى الكهف فنمنا فلما انتبهنا خرجت لاشترى لأصحابى طعاماً واتحسس لهم الخبر فإذا أنا كما ترون فانطلقوا معى إلى الكهف أريكم أصحابى ، فلما سمع أرسوس وأصطفوس قوله قالا يا قوم لعل هذه آية من آيات الله سبحانه جلعها لكم على يدى هذا الفتى فانطلقوا بنا معه ليرينا أصحابه فانطلق معه أرسوس وأصطفوس وانطلق معهما أهل المدينة نحو أصحاب الكهف لينظروهم ، ولما رأى أصحاب الكهف أن تمليخا احتبس عنهم بطعامهم وشرابهم عن الوقت الذى كان يأتيهم فيه ظنوا أنه قد أخذ وذهب به إلى دقليانوس فبينما هم يظنون ذلك ويتخوفونه إذ سمعوا الأصوات وصهيل الخيل فظنوا أن القادمين هم رسل دقليانوس بعثهم إليهم ليأتوا بهم فقاموا حين سمعوا ذلك وقالوا انطلقوا بنا إلى أخينا تمليخا فإنه الآن بين يدى الجبار دقليانوس ينتظر حتى نأتيه مع الرسل فبينما هم على هذه الحال إذ وفد عليهم ارسوس وأصحابه ووقفوا على باب الكهف وقد سبقهم تمليخا ليطمنهم فدخل عليهم وهو يبكى فلما رأوه يبكى بكوا معه ثم سألوه عن شأنه فأخبرهم بخبره فعرفوا عند ذلك أنهم كانوا نياماً بإذن الله ذلك الزمن وإنما أوقظوا ليكونوا آية للناس وتصديقاً للبعث وليعلموا أن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور.

ثم دخل على أثر تمليخا أرسوس فرأى عندهم تابوتاً من نحاس مختوماً بخاتم فضة فقام بباب الكهف ودعا رجلا من عظماء أهل المدينة وفتح التابوت فوجدوا فيه لوحين من رصاص مكتوباً عليهما أسماء الفتية وأنهم هربوا من ملكهم دقليانوس الجبار مخافة أن يفتنهم عن دينهم فدخلوا فى هذا الكهف وأن دقليانوس لما أخبر

بمكانهم أمر بسد الكهف عليهم بالحجارة وأنا كتبنا شأنهم ليعلمه من بعدهم أن عثر عليهم ، فلما قرأوه عجبوا جداً ثم دخلوا على الفتية الكهف فوجدوهم جلوساً ووجوههم مشرقة ولم تبل ثيابهم فخر ارسوس ومن معه سجداً لله تعالى فأنبأهم الفتية عن الذى لقوه من ملكهم دقليانوس فبعث ارسوس وأصحابه بريداً إلى الملك طيودوسيس أن عجل بالحضور لعلك تنظر آية فتية بعثهم الله تعالى وكان قد توفاهم منذ دهر طويل فلما اتصل الخبر بالملك قام لساعته ومعه أهل المدينة حتى صعدوا نحو الكهف وأتوه فلما رأى الفتية طيودوسيس الملك فرحوا به وخروا سجداً على وجهوهم وقام طيودوسيس أمامهم ثم اعتنقهم وبكى وهم جلوس بين يديه على الأرض ثم قالوا له نستودعك الله ونقرئك السلام حفظك الله وأمدّ فى أيام ملكك وبينما الملك قائم إذ رجعوا إلى مضاجعهم فناموا وتوفى الله أرواحهم فقام الملك وجعل ثيابه عليهم وأمر أن يجعل لكل واحد تابوت من ذهب فلما أمسى المساء ونام أتوه فى المنام وقالوا له لم نخلق من ذهب ولا من فضة ولكن خلقنا من التراب وإلى التراب نعود فاتركنا فى الكهف على التراب حتى يبعثنا الله فأمر الملك حينئذ بتابوت من ساج فجعلوا فيه وأمر أن يجعل على باب الكهف مسجد يصلى فيه وجعل لهم عيداً كل سنة فهذا حديث أهل الكهف على تعدد رواياته وذلك من نومتهم الأولى فى أيام الملك دقليانوس إلى يقظتهم فى أيام الملك طيودوسيس وهو المسمى تاودوسيس أيضاً وقد اشتهرت أيام طيودوسيوس هذه بهذا الحادثة التى هى عبرة من العبر.

وفى أيامه مات ثاوفيلوس بطرك الإسكندرية فى ثامن عشر بابه وقد أقام سبعا وعشرين سنة وكان صاحب حمية وشدة فى الدين قد خرجت به عن جادة الاعتدال فخرب هياكل الوثنيين بديار مصر وكسر أصنامهم كما تقدم بيانه ونفى فى أيامه يوحنا فم الذهب واشتد الملك أرقاديوس على الأريوسيين وضيق عليهم وأمر بأخذ الكنائس بعد أن حكموها نحو أربعين سنة وأسقط من جيشه من كان اريوسيا وطرد من كان فى ديوانه وخدمه منهم وقتل من الحنفاء خلقاً كثيراً وهدم بيوت الأصنام فى كل موضع ، وفى أيامه بنيت كنيسة مريم ببيت المقدس وبنى أرقاديوس الملك دير القصر الذى سمى بعد ذلك بدير البغل فى جبل المقطم شرقى طرا خارج مدينة فسطاط مصر وقد عفت آثاره الآن فلما مات أقيم بعده كيرلس وهو رابع عشريهم وهو أول من أقام القومة فى كنائس الاسكندرية وأرض مصر وكان فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى حينه.

ولما مات طيودوسيس الملك على ما تقدم بيانه تولت الملك بعده أخته بولخارية وزوجها مرقانوس.

(فى الملكة بولخارية والملك مرقانوس زوجها)

ثم قامت بالأمر الملكة بولخارية بويع لها بالملك بعد موت أخيها طيودوسيس وذلك سنة أربع وستين وأربعمائة للميلاد أى سنة اثنتين وسبعين ومائة قبل الهجرة فلما استقر بها المنصب تزوجت بالأمير مرقانوس وأشركته معها فى الملك وذلك سنة سبع وستين وأربعمائة للميلاد أى سنة تسع وستين ومائة قبل الهجرة، وتحرير الخبر أنه لما كانت دولة القسطنطينية قد تقهقرت وانحط شأنها على عهد الملك طيودوسيس أخى بولخارية وكان قد طمع فيها العدو وصارت على شفا جرف كما تقدم اتحدت كلمة وجوهها وأعيانها وأمراء عساكرها وأرباب مجلسها وكافة الرعية على مبايعة بولخارية عسى أن تقوى بسياستها شوكة البلاد ويعود لها رونقها ومجدها القديم وقد كانت بولخارية من الحزم وحسن السياسة على جانب عظيم وفى تدبير الأمور وضبط مصالح الرعية آية فكانت أول أنثى جلست على سرير ملك الرومانيين فلما قبضت على زمام الملك نظرت فى أمور أعداء الدولة العاملين على تخريبها فأمرت فضرب عنق خروساف الوزير على باب الديوان بدون إقامة دعوى ولا عمل تحقيق ونظرت فى أمور غيره منهم فانطبعت لذلك هيبتها فى قلوب الرعية وخافها أصحاب الغايات وسارت كلمتها فى أرجاء الحكومة ونفذت ومالت إليها قلوب الرعية واستبشروا بإيامها وعظموا قدرها وظلت على هذا مدة، قال بعض أهل التاريخ: ولكن لما كانت تعلم أن حكم الأنثى على الروم هو على خلاف الأصول والعوائد وكانت تخشى أنه ربما يترتب على استمرار حكمها انفصام عروة الاتحاد التى بين الرعية وانحلال رابطة كلمتهم وكانت لا تنظر إلا لخير البلاد وسعادتها تزوجت بأحد أكابر المجلس وأعظمهم قدرا وهو الأمير مرقيانوس وكان عمره إذ ذاك ستين سنة وألبسته الحلة الملوكية وعاهدته على أن يحترم على الدوام ناموس نفوذها وأن يحافظ على حقوقها الاشتراكية ولا يعمل إلا على تأيدها فى السياسة والتدبير وأن يتجاوز لها عن حقوق المباضعة التى تقتضيها الزوجية لأنها كانت نذرت أن لا تمكن أحداً من أن يفتضها وأن تترهب مدة عمرها فعاهدها مرقيانوس على ذلك ووعدها أن لا يمسها ووفى بوعده.

وكان لبولخارية أختان وهما مرينة وأرقادية فكانتا مثلها فى الرهبانية وقد كتبن صورة تنذر بحفظ توليتهن على لوح مصفح بالجوهر وبعثن به إلى كنيسة أيا صوفية

كأنه قربان لمريم العذراء أم المسيح عليهما السلام وكن لا يحضرن مجلس الرجال أبداً وكان قصرهن أقرب شبها بالدير وديوانهن عبارة عن معبد المترهبات وهن على غاية من النسك والتعبد مع العفة والتواضع ، فلما استقر بمرقيانوس المنصب أجرى السياسة فى البلاد على ما تشتهى بولخارية من الحزم وحسن السلوك ورتب من القوانين ما محا به الظلم وصرف به وجه العدوان عن الرعية وتحبب إليهم ونظر إليهم نظر الأب الحنون على ولده فعلقت به قلوبهم وأحبوه حباً جماً.

وبعث إليه آطيلا ملك الهونية يطالبه بالخراج المقرر الذى كان يدفعه الملك طيودوسيس وشدد فى الطلب مع العظمة والكبرياء فرد عليه يقول قد انجلى الزمن الذى كانت تنتهك فيه حرمة الدولة الرومانية وخلا الدهر الذى كان بخل بناموس المملكة القيصرية وأما فى عهدى هذا فاعلم أنى لا أعطى شيئاً إلا بالطوع والاختيار وأن لا يكون إلا إمداداً وإعانة على صيانة بلادك كما هى القاعدة بين الملوك المتعاهدين معى الخادمين لحكومتى وليس عندى لغيرهم ممن يهددنى من الأعداء جواب إلا أن أرسل عليهم جنوداً من الصناديد قلوبهم كالجلاميد وأجسامهم من حديد وأى حديد ، وبعث له أيضاً سفراء يشافهونه بهذا الكلام فاغتاظ آطيلا وكاد يتميز غضباً وأقسمت قبائل الهونية وتعاهدت على تدمير الدولة الرومانية وتخريبها ومحو اسمها ورسمها من الدنيا، قال أهل التاريخ وكتب آطيلا لملك القسطنطينية وملك رومة يقول :

إن آطيلا مولاك وسيدك يأمرك أن تجهز له قصرك عاجلاً لتلقاه فيه فهو حاضر ليأمرك بما تقتضيه المصلحة.

ثم بعد أن بعث الجواب أتته الأخبار بما عليه ملك القسطنطينية من المنعة وما صارت عليه جنوده من الشدة والبأس فخافه وعاد إلى مسايرته وأبقى معه شروط الصلح على ما كانت عليه وعقد النية على أن لا يغير على دولة المشرق إلا بعد الاستيلاء على مملكة المغرب فسار صوب المغرب وتبعه كثير من ملوك الأمم المتبربرة وأمرائهم ورؤسائهم يريدون الحرب مع رومة وجرمانيا فقامت بينهم الحرب على ساق وحمى وطيسها فى ميدان شالون من أعمال بلاد الفرنسيس وبعد واقعة هائلة جداً بذلك الميدان وقف جند الملك آطيلا وجند أعدائه متقابلين فخرج آطيلا من مكانه وبرز فى وسط الصفوف وعليه الهيبة والوقار وخاطب رؤساء عساكره وقد كانوا مختلفى الأجناس فقال لهم لا تخافوا شيئاً فإنى رئيسكم وقائدكم وصنم الحرب حاميكم وقد تعودت النصر فيما مضى فلا أحرم النصر فيما بقى وقد كفل لكم أيضاً

النصر والتأييد جبن الروم وفتور همتهم فهزيمتهم لدينا محققة فمن يصادمنا من الأعداء فى حومة الميدان أو يطاردنا فى حلبة الرهان فإن كانت الخشية من طائفة الإفرنجة فبينهم الشقاق والاختلاس وسترون عن قريب أكثرهم منتظماً فى سلك جنودنا داخلاً تحت ظل أعلامنا وبنودنا وإن خشيتم الغوطية والبرغونية فإن شوكتهم قد ضعفت وطالما هربوا خوفاً من أصحابنا عند الالتحام فإن قلتم أنهم نزلوا هنا وهم مصممون على قتالنا فلا وما نزولهم إلا محض الاستراحة من التعب وليس لهم قصد من حرب وقد اضطرمت بينهم نيران الفتن وظهرت علامات الخلل والمحن ولم يبادروا بإطفاء ذلك ولم يعولوا على ما هنالك فسيروا أيها الشجعان على أعدائكم ثقة بالنصر والظفر واعتماداً على التأييد ولامفر فليس فوق قوتكم قوة بشرية إلى أن قال وقد أنطقنى من أنطق كل شيء أن أقول هذه الكلمة إنى أطعن العدو برمحى قبل أن تقاتلوه وأقتل كل جبان شر قتلة.

فلما فرغ من مقالته اتقدت نار الحمية فى صدور الأبطال والتحم الصفان فهجم الرومانيون على الهونية من كل جانب فأذاقوهم عذاب الهون وصبوا عليهم صيب المصائب ومزقوهم كل ممزق فخرج آطيلا الملك وسط الجنود وصار يزأر كالأسد وينادى على عسكره بأن يحملوا على العدو حملة رجل واحد فلم يفعلوا وعصوه ولم يصغوا لصوت ندائه وخاب منه الأمل وكلت منه العزائم فكانت هذه أول مرة حرم فيها الطاعة من قومه ثم ولوا مدبرين فتبعهم العدو وأعمل فيهم القتل حتى خرجوا عن البلاد وعادوا من حيث أتوا وجعل الروم يقتلون ويأسرون ويذبحون الأسرى صغارا وكباراً ذكوراً وإناثا ويسلبون ما شاءوا حتى قتلوا من النساء مائة صبية تحت سنابك الخيل وهذا كله من جهة بلاد الفرنسيس وما جاورها من الأقاليم، ولم تضعف الهزيمة عزم آطيلا بل سار إلى إيطاليا قاصداً حربها واجتاز الألب وركب على المدينة المنجنيقات وكانت هذه أول مرة أغار فيها الهونية على إيطاليا بقصد فناء الرومانيين وكان قيصر رومة إذ ذاك ضعيف الشوكة والبأس لفتور همة الرومانيين وخمولهم بعد العز حتى صاروا لا يستطيعون أن يقاتلوا الهونية بغير الاستعانة بعساكر أجنبية، فاستغاثوا بالملك آلاريق الغوطى ملك الغوطية واستنجدوا بجنوده فأمدهم فقويت عساكر الرومانيين واشتدت عزائمهم وهاجموا الهونية مهاجمة الأبطال ولازالت الحرب سجالاً ثلاثة أشهر لم يحصل منها للهونية فائدة فقام العساكر على آطيلا وطلبوا منه أن يرفع الحصار عن المدينة ويرجعوا إلى أوطانهم فراجعهم فلم يقبلوا وبينما هم على أهبة الرحيل إذ لمح آطيلا طائراً أهليا يحوم على

أبراج المدينة ويبعد عنها ثم يعود فقال لكبار عساكره انظروا إن طيران هذا الطير هو فأل السعادة والخير يبشرنا بقرب النصر والنجاح ويعدنا باليمن والفلاح فكأنه ألهم أن هذه البلاد قريبة الدمار سريعة البوار فلتقو عزائمنا ونحمل عليها حملة رجل واحد والنصر يحادينا ، فصدق الجند مقالة واعتقدوا يمن الطائر وفاله وقوى عزمهم وهجموا على مدينة آكيلة وكان الملك محصورا بها فأخذوها عنوة ونهبوا وسلبوا وأسروا أهل المدينة ودمروها بالنيران فسهل بذلك الأمر على آطيلا وصار يتغلب على جميع مدن إيطاليا ويفتحها قوة واقتداراً حتى وصل بعسكره إلى مدينة ميلان فألقت إليه مقاليدها ولم ترفع فى وجه قومه سلاحاً ، قال بعض أهل التاريخ ، فلما دخلها وجد فيها لوحاً منقوشاً عليه صورة القيصر على سريره وأمامه ملوك التتار يسجدون له فغضب وأحرق هذه الصورة وأمر أن يضعوا مكانها صورته على كرسيه حين يستقبل وفادة القيصريين عند دفعهم الجزية التى تقررت عليهم ، ولم تكتف الهونية ومن صحبهم من القبائل المتبربرة بالسلب والنهب والقتل بل أهلكوا الحرث والنسل وخربوا الديار وقطعوا الأشجار وأحرقوا القرى والأمصار وكان ملكهم آطيلا يحرضهم على العتو والفساد ويقول لهم أنه لاينبت زرع فى مكان وضع فيه جوادى قدمه فكان أهل إيطاليا يهاجرون من بلادهم وهاجر كذلك أهل البنادقة إلى جزائر خليجهم وأسسوا بها مدينة البندقية التى يقال لها وندنق وبنوا مساكنهم على سدود وقناطر وعمروا البحر بالمدائن والعمائر واجتمع عليهم من ألجأته الضرورة فصاروا شعباً وتألفت حكومة بلادهم من جمهورية مؤلفة من عشرين جزيرة متحدة وكل جزيرة محكومة بحاكم وكثرت عندهم الصنائع والزراعة واتسع نطاقها ثم قويت تلك الجمهورية وصارت غنية مثرية تسير بذكرها الركبان.

وبعد انتصار الهونية هذه النصرة العظيمة على بلاد الرومانيين بعث قيصر رومة إلى آطيلا ملك الهونية سفراء يلتمسون منه الصلح على قاعدة تتقرر بينهما فأجابه إلى ذلك وعقد صلحاً كان من شروطه أن يتزوج آطيلا ببنت من بنات قيصر رومة اسمها الأميرة هونورية وكان قد سبق له أن خطبها من أبيها ورده فتزوجها فى هذه الدفعة ومادرى أن السم فى الدسم ، قال أهل التاريخ :إذ كانت علة موته وسبب هلاكه ، فلما حملت إليه عمل لها الأفراح يوما وليلة وأكثر فيها من الشراب ولم يزل يشرب ويتفكه حتى سكر وأخذت منه الخمرة مأخذها ثم قام وأخذ بيدها إلى محل فراشه وقد كانت تبغضه جداً وتنفر منه فبات ليلته تلك معها وفى الصباح قام الخدم ينتظرونه فلم يخرج على عادته فلما أبطأ وعلم قومه بإبطائه دخل بعضهم

خيمتـه فوجدوه مضرجاً بدمـائه فقالت عشيرته أنه مـات بالسكته، وقال الروم: أنه مات قتيلاً . قال بعض أهل التاريخ: ولو بقيت دولته لكانت أشبه بدولة الإسكندر فى الغزوات والفتـوحات ولكنها شابهتهـا فى الانقراض المترتب على مقاسمـتها بين أولاده وأمرائه إذ ضاع بينهم الملك وذهبت شـهرته فارتاحت لذلك خواطر الروم فى المشرق والمغرب وزال عنهم البأس بموته وزوال ملكه.

وقد كانت دولة القـسطنطينية فى أيام مرقيانوس غاية فى الأمـن والراحة وصفو العيش وكانت الديانة المسيحية منصورة مـؤيدة فلما كانت سنة سبع وستين وأربعمائة للميـلاد أى سنة تسع وستين ومـائة قبل الهجـرة ماتت بولخارية فكانت مـدة ملكها منفردة ومتحدة مع مرقيانوس زوجـها ثلاث سنين فانفرد مرقيانوس بالملك سنة سبع وستـين وأربعمائة للميـلاد أى سنة تسع وستين ومـائة قبل الهجـرة إلى سنة خمس وستين ومائة ثم مات فى هذه السنة فكانت مدة حكمه منفرداً أربع سنين وكانت مدة حكمه وحكم زوجته نـحو سبع سنين وكان موته بعد زوجتـه بثلاث سنين وهو آخر قيـاصرة عائلة المشرق الأولى التى أولهـا أرقاديوس، وفى أيامـه وأيام زوجته ظـهر مذهب أوطاخى أحد القنوميين بمدينة القسطنطينـية وزعم أن جسد المسيح لطيف غير مساو لاجسادنا وأن الابن لم يأخـذ من مريم شيئاً فاجتمع عليـه مائة وثلاثون أسقفا وحرموه وزيفوا مقالته.

واجتـمع فى هذه الأيام بالاسكندرية كثـير من اليـهود فى يوم الفـصح وصلبوا جسما على مـثال المسيح وعبثوا به فـثار عليهم النصارى واقتتلوا فقـتل بين الفريقين خلق كثير فـبعث مرقيانوس الملك جيـشاً عظيماً فقتل أكثـر يهود الاسكندرية ومزق شملهم وأذاقهم مر العذاب فانكمشوا وخافوا، وفى أيامهما أيضاً كان المجمع الرابع من مجامع المسيـحيين بمدينة خلدونية وسببـه أن دسقورس بطرك الإسكندرية قال إن المسيح جـوهر من جوهرين وأقنوم من أقنومـين وطبيعة مـن طبيعتـين ومشيـئة من مشيـئتين وكان رأى مـرقيانوس الملك أنه جسـد وأهل مملكته أنه جوهران وطبيـعتان ومشيـئتان وأقنوم واحد فلما رأى سائـر الأساقفة أن هذا رأى الملك خافوه فـوافقوه على رأيه ماخـلا دسقورس وستـة أساقفة فـإنهم لم يوافقوه وكـتب من عداهم من الأساقفة خطوطهم بما اتفـقوا عليه فبعث دسقورس يطلب منـهم الكتاب ليكتب فيه فلما وصـل إليه كتـابهم كتب فـيه أمانتـه هو وحرمـهم وحرم كل من يخـرج عنها فغضب مرقيانـوس وهم بقتله فاشير عليه بإحضاره ومناظرته فأمر بـه فحضر وحضر ستمائة وأربعة وثـلاثون أسقفا فأشارت الأساقفة والبطاركـة على دسقورس بالإذعان

إلى رأى الملك واستمراره على رياسته فقال إن الملك لا يلزمه البحث فى هذه الأمور الدقيقة بل ينبغى له أن يشتغل بأمور مملكته وتدبيرها ويدع الكهنة يبحثون عن الأمانة المستقيمة فإنهم يعرفون الكتب وخير له أن لايميل مع الهوى ولايتبع غير الحق فقالت بولخارية زوجة الملك وكانت جالسة بازائه يادسقورس قد كان فى زمان أبى إنسان قوى الرأس مثلك فحرم ونفى من كرسيه (تعنى به يوحنا فم الذهب بطرك القسطنطينية) فقال لها نعم وقد علمت ما جرى لأمك وكيف ابتليت بالمرض الذى تعرفينه إلى أن مضت إلى جسد يوحنا فم الذهب واستغفرت فعوفيت ، فحنقت بولخارية من قوله ولكمته فانقلع له ضرسان وتناولته أيدى الرجال فنتفوا أكثر لحيته وأمر به مرقيانوس الملك فاجتمعوا عليه وحرموه ونفوه وأقيم عوضه برطاوس وهو من القائلين بمقالة الملك.

ومن ذلك اليوم افترق المسيحيون وصاروا ملكية على مذهب مرقيانوس الملك ومتأصلين على رأى دسقورس ، وكان ذلك فى سنة ثلاث وتسعين ومائتين لدقلطيانوس، وكتب مرقيانوس إلى جميع مملكته أن كل من لا يقول بقوله يقتل وكان بين المجمع الثالث وبين هذا المجمع إحدى وعشرين سنة على ما قاله بعض الكتاب، وأما دسقورس فإنه أخذ ضرسيه وشعر لحيته وأرسلهما إلى الإسكندرية وكتب يقول للأحزاب بعد كلام هذه هى يا أخوتى نتيجة تعبى على الأمانة فتبعه أهل الاسكندرية ومصر وتوجه إلى محل نفيه فعبر من بيت المقدس وفلسطين وعرفهم مقالته فتبعوه وقالوا بقوله وقدم عدة أساقفة على أمانته ومات وهو منفى فى الرابع من توت فكانت مدته أربع عشرة سنة وبقى كرسيه بغير بطرك بقية أيام مرقيانوس وقيل بل تولاه برطاوس ، ولما اختلف دسقورس فى مقالته ولم يقل بمقالة مرقيانوس الملك دعا أصحاب مرقيانوس أصحاب دسقورس باسم اليعاقبة أو اليعقوبية وأطلقوا عليهم جميعاً هذا الاسم واختلف فى تسميتهم بذلك فقيل أن دسقورس كان يسمى قبل بطركيته باسم يعقوب وأنه كان يكتب وهو منفى إلى أصحابه بأن يثبتوا على أمانة المسكين المنفى يعقوب ، وقيل بل كان له تلميذ اسمه يعقوب وكان يرسله وهو منفى إلى أصحابه فنسبوا إليه، وقيل بل كان يعقوب تلميذ ساويرس بطرك أنطاكية وكان على رأى دسقورس فكان ساويرس يبعث يعقوب إلى سائر المسيحيين ويثبتهم على أمانة دسقورس فنسبوا إليه، وقيل بل كان يعقوب هذا كثير العبادة والزهد يلبس خرق البراذع فسمى يعقوب البراذعى من أجل ذلك وأنه كان يطوف البلاد ويرد الناس إلى مقالة دسقورس فنسب من اتبع رأيه إليه وسموا

يعقوبية ، ويقال ليعقوب أيضا يعقوب السروجى والله أعلم بالحقيقة ، وفى أيام مرقيانوس الملك كان سمعان الحبيس صاحب العامود وهو أول راهب سكن صومعه وكان مقامه بمغارة فى جبل أنطاكية، ولما مات مرقيانوس وثب أهل الاسكندرية على برطاوس البطريرك وقتلوه فى الكنيسة وحملوا جثته إلى الملعب الذى بناه بطليموس وأحرقوه بالنار لأنه ملكى الاعتقاد فكانت مدة بطركيته ست سنين وأقاموا عوضه ثيموثاوس الثانى وهو سادس عشريهم وكان متأصلا أى من القائلين بمقالة دسقورس بطرك الاسكندرية ووقع من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

وقد خلف مرقيانوس الملك بعد موته ليون الأكبر المعروف بالأقدم.

(فى الملك ليون قيصر الأكبر)

(ويسمى أيضاً : الأقدم)

ثم قام بالأمر ليون الأكبر بويع له بالملك سنة إحدى وستين وأربعمائة للميلاد أى سنة خمس وستين ومائة قبل الهجرة وقد نشأ ليون المذكور ببلاد روم إيلى وكان الذى ساعده على ارتقاء هذا المنصب البطرك الأمير أسبار الغوطى الذى كان فى خدمة الروم وكان معدوداً من أماجدهم وأبطال قوادهم وهو رئيس الأساقفة وكان مسموع الكلمة نافذ الإشارة مهيباً فعمل على مبايعة ليون المذكور واستمال إليه الناس والأمراء فبايعوه بعد عناء كثير.

ولما استقر بليون المنصب أعاد الصلح من أمراء الغوطية المشرقية إكراماً لبطركهم الأمير أسبار الذى أعانه على ارتقاء سرير الملك واستوثق على دوام الصلح معهم بأخذ طيودوريق بن طيودومير أحد ملوكهم رهنا فى القسطنطينية وأدخلهم تحت الطاعة وكان عمر طيودوريق إذ ذاك ثمان سنوات ولم يفك أسره إلا فى زمن الملك زينون ثم سار لقتال طائفة الوندال الذين هم أصول الأندلسيين واشتدت الحرب بينهم وكانت سجالاً فبينما هم على هذا الحال من الطعن والنزال واشتداد القتال إذ علم ليون بخيانة الأمير أسبار البطرك وعمله على تذليله وتنكيل قومه فسار إليه من فوره وقتله وقتل جميع عائلته ولم يراع له حرمة ولا معروفاً فكان لما فعله أسوأ وقع فى قلوب الرعية ثم لم يلبث بعد ذلك أن مات فى سنة خمس وثمانين وأربعمائة للميلاد أى سنة إحدى وخمسين ومائة قبل الهجرة فكانت مدة حكمة أربع عشرة سنة وخلفه ليون الثانى الملقب بالسلوقى.

(فى الملك ليون الثانى)

(الملقب : بالسلوقى)

ثم قام بالأمر ليون الثانى الملقب بالسلوقى بويع له بالملك سنة خمس وثمانين وأربعمائة للميلاد أى سنة إحدى وخمسين ومائة قبل الهجرة، قال أهل التاريخ وهو سبط ليون الأكبر ابن زينون السلوقى نسبة إلى سلوقية ببلاد أناطولى كان أمير العسكر المرابط فى إحدى ولايات أناطولى وقد أشركه جده لأمه معه فى الملك مدة حياته ثم خلف جده وكان عمره إذ ذاك أربع سنين فكفله أبوه زينون وكان يحكم بالنيابة عنه ولم تطل أيام ليون المذكور حيث مات فى السنة التى ولى فيها فى حياة أبيه فانتقلت المملكة إلى أبيه بالوراثة من ابنه ضد المعتاد فى الممالك فقد، يسمو بطيب الفرع طيب العنصر، فكانت مدة ليون الثانى المذكور عشرة أشهر لاغير.

وبعض المؤرخين يسقط ليون الثانى هذا من عداد القياصرة فيجعل مدة التولية لأبيه زينون قيصر أصيلة.

(فى الملك زينون والملك باسيلقوس)

ثم قام بالأمر زينون بويع له بالملك فى نحوسنة خمس وثمانين وأربعمائة للميلاد أى فى آواخر سنة إحدى وخمسين ومائتين قبل الهجرة وقد كان زينون هذا أمير العسكر المرابط فى إقليم يسوريا من أعمال أناطولى وكان صهراً لليون الأكبر فلما مات ليون المذكور وانتقل الملك بالوراثة إلى ليون الثانى ولده الذى هو سبط ليون الأكبر ولى المملكة بالكفالة عن ابنه فلما مات ابنه فى حياته بعد عشرة أشهر كما تقدم وتولى هو الملك واستقر به المنصب قامت فتنة عظيمة فى المملكة وتطاير شررها فى جميع العمالات وكان الذى قد أثارها على زينون زوجة ليون الأكبر فقام رؤساء الأحزاب على زينون واتهموه بضعف العزيمة وفساد الرأى وعدم قدرته على حماية الوطن وتدابير الدولة وطردوه وذلك سنة تسع وثمانين وأربعمائة للميلاد أى سنة سبع وأربعين ومائة قبل الهجرة فهرب من القسطنطينية ورجع إلى أناطولى ولبث بها سنتين فقلد أرباب الفتنة بعد هروبه باسيلقوس الخارجى المنصب فكان ما عمله زينون المذكور فى بحر ولايته الأولى التى حسبها له أهل التاريخ مدة أولى أنه أيد الدين المسيحى وعضده ونصره وأثبت وحدته بمرسومه المسمى (جمع الكاثوليكية واتحادهم) وعند أهل التاريخ أنه لم ينشأ عن هذا المرسوم سوى الاختلاف فى الدين

وكثرة الفتن وتوالى المحن بما لم يسبق له مثيل ، وبعد لبث زينون عدة سنين بأناطولى هب إلى استرجاع الملك واستنجد بالغوطية فأنجدوه وأمدّوه بالمال والرجال فسار إلى القسطنطينية وقاتل رؤساء الأحزاب فقامت الحرب بين الفريقين وانتصر زينون بعساكر الغوطية عدة نصرات ومازال حتى دخل المدينة وأعمل فيها السيف فقتل خلقاً كثيراً جداً وجلس على سرير الملك ثانية وذلك سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة للميلاد أى سنة أربع وأربعين ومائة قبل الهجرة ، ولم يستقر به المنصب حتى طغى واستعمل الظلم والجور وتجبر وزاد الحدود فى الطغيان ونسى ما صنعه معه الغوطية من الجميل فجرد عليهم وحاربهم واشتد فى قتالهم ورجع فقهر جميع أصحاب الفتنة من أمرائه وبدد شملهم تبديداً فلما تمت له الأمور على ما أراد أنهمك على اللذات وانغمس فى الشهوات فابغضته الرعية وحقدت عليه وعملت على هلاكه، فبينما هو يوما مضطجع على فراشه سكران لا يعى إذ دخل عليه بعض قومه فحملوه ودفنوه حياً وذلك سنة خمس وخمسمائة للميلاد أى سنة إحدى وثلاثين ومائة قبل الهجرة فكانت مدة ملكه عشرين سنة منها سنتان لباسيلقوس وحده ، وقد أعز زينون فى أيامه المتأصلين أصحاب مقالة دسقورس ورفع شأنهم لأنه كان على مذهب دسقورس وكان يحمل إلى دير يوقنا كل سنة ما يحتاج إليه من القمح والزيت وغير ذلك فهرب ساويرس بطريرك الاسكندرية الملكى فى أيامه إلى وادى هبيب ورجع ثيموثاوس بطريرك المتأصلين من نفسه إلى كرسيه بالاسكندرية فأقام سنتين ومات فكانت مدة بطريركيته كلها اثنتين وعشرين سنة على المشهور فأقيم بعده بطرس الثالث وهو سابع عشريهم وأصله من الاسكندرية وكان ورعاً تقياً كابد من الشدائد أكبرها ونفى ثم عاد ثانية فأقام ثمان سنين ثم مات فى رابع هاتور وفى رواية سبع سنين وسبعة أشهر وستة أيام، فأقيم بعده اثناسيوس الثانى وهو ثامن عشريهم فأقام ست سنين وفى رواية سبع سنين ومات فى العشرين من توت ولم يحدث فى أيامه من الحوادث شيء يذكر، فأقيم بعده يوحنا وكان متأصلاً وهو تاسع عشريهم وأصله من الاسكندرية وكان تقياً جداً وحدث من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى حينه ، ولما مات زينون الملك خلفه أنسطاش الأول.

(فى الملك أنسطاش الأول)

ثم قام بالأمر أنسطاش الأول بويع له بالملك سنة خمس وخمسمائة للميلاد أى سنة إحدى وثلاثين ومائة قبل الهجرة وقد كان نشأ بمدينة ايليريا من مدن سواحل إيطاليا وهو من عائلة خاملة ثم دخل فى خدمة العسكرية وتقلب فيها إلى أن صار

من جملة ضباط القصر الملوكى المنوطين بمناظرة عدم رفع الأصوات والغوغاء وتسكين العامة حول القصر وإلزامهم الصمت فلذلك كان يلقب بالمسكت ومازال إلى أن تزوّج بالقيصرة أريانة أم القيصر زينون فسعت فى إظهاره وإعلاء شأنه وعملت على تقليده المنصب الملوكى واستمالت إلى ذلك أرباب المجلس فنادوا بملكه وبايعوه فى السنة المذكورة فكان فى مبدأ أمره محترما لدينه وعدله ميالا للعمارية ولما استقر به المنصب سلك مسالك الجور وتغيرت طباعه وانعكست أحواله فظلم الرعية وضيق عليها واستعمل الحرص فى أموره فكرهته الرعية ومقتته وحقدت عليه وتمنت الخلاص منه .

وقد كان قبل ولايته حاقدا على بطريرك أنطاكية وكان يريد الايقاع به فصد عن عزمه بالولاية فلما تمكن من المنصب وسار سيرته الرديئة من الظلم والعسف أجهد نفسه فى الإيقاع بالكاثوليكية وانتصر للارثوذوكسية فعزل مقدونيوس بطريرك الكاتوليكية وضيق على هذه الطائفة وبالغ فى التنكيل بها فخرج فى هذه الأثناء خارجي اسمه ويطاليانوس متعللا بأخذ الثأر للكثلكة وهو فى الحقيقة إنما يطلب الملك فجمع الجموع الكثيرة وأوقع الفتن وأثار المحن وحضر بقومه وعساكره تحت أسوار القسطنطينية وأقام على هذه الحال مدة من الزمان حتى كادت تفشل عصابة أنسطاش ثم أحس بقرب خروج الرعية عليه وشق عصا طاعته فجعل يستميلها بالرفق وحسن المعاملة وأزال عنها بعض المكوس والمغارم وأنواعاً أخر من المظالم كبيع المناصب والرتب فغضوا عنه ولكنهم مع ذلك حاقدون عليه ومازالت أيامه فى اضطراب حتى مات سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة للميلاد أى سنة أربع ومائة قبل الهجرة فكانت مدة ملكه سبعاً وعشرين سنة كلها أكدار وأحزان.

وفى أيامه مات يوحنا بطريرك الاسكندرية فخلا الكرسى بعده سنة لتفاقم الخلاف وكانت مدته تسع أو ثمان سنين وكان موته فى رابع بشنس فخلفه يوحنا الثانى المعروف بالحبيس وهو المتمم للثلاثين وأصله من الاسكندرية ولم يعلم من حوادثه شيء يذكر ومات فى سابع عشرى بشنس فكانت مدته إحدى عشرة سنة وكان تقياً ورعاً محباً للجميع فخلفه ديسقوروس وهو حادى ثلاثيهم وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى حينه.

ولما مات أنسطاش خلفه فى الملك يوسطنيوس الأكبر ويقال له أيضا جوسطنيوس الأول.

(فى الملك يوسطنيوس الأكبر)
(ويسمى أيضاً : جوسطنيوس الأول)

ثم قام بالأمر يوسطنيوس الأكبر بويع بالملك خدعة فى سنة اثنتين وثلاثين ومائة للميلاد أى سنة أربع ومائة قبل الهجرة وهو رأس الدولة المشرقية المسماة باسم الدولة (الجوسطيانوسية) وقد كان مولده فى بلاد روم ايلى وكان فى أول أمره راعيا للماشية ثم انتظم فى سلك العسكرية وارتقى المناصب العالية فى خدمة ليون قيصر الأكبر ثم ارتقى سرير الملك بالتحيل والخداع والرشاوى والبراطيل فلما استقر به المنصب سلك فى الرعية سبيل العدل والرفق وأسكن الفتنة الدينية التى مات عنها أنسطاش الملك وعمل على استتباب الأمن وتوطيد دعائم الراحة وأشرك معه فى الملك ابن أخيه المدعو يوسطنيانوس وسار سيراً حسناً للغاية فأحبته الرعية ومالت إليه القلوب ووقعت فى أيامه فتنة عظيمة جداً بين فرقتين من المسيحيين إحدهما تسمى الملة الخضراء والثانية الملة الزرقاء وهما من الفرق الزائغة التى لا خلاق لها وكانتا على طرفى نقيض فيما لايستلزمه الدين المسيحى ولا التدين به فإشتدت يومئذ تلك الفتنة وعلا لهيبها وكادت تعم البلاد ويتفاقم أمرها فعمل على تسكينها وقطع دابر الأحزاب وقتل ويطاليانوس الذى كان رأس هذه الفتن فعاد الأمن وسكنت الخواطر وأطمأنت القلوب وبطلت تلك البدعة أو كادت.

وكانت طوائف اللاظ إلى هذا الحين يدفعون الخراج لكسرى فارس وكان لقيصر الروم حق الرعاية عليهم فكانت الروم تطلب ذلك فجعلت تسعى وتعمل حتى أدخلتهم فى حكم القسطنطينية فكان ذلك سبباً لانتقاض الصلح بين فارس والروم وأعقب ذلك وفاة يوسطنيوس الملك وتولى ابن أخيه يوسطنيانوس بعده فهم الفرس عند ذلك بقتال الروم وركبوا عليهم فشبت الحرب بين الفريقين على ما سيذكر فى محله وكان موت يوسطنيوس سنة إحدى وأربعين وخمسمائة للميلاد أى سنة خمس وتسعين قبل الهجرة فكانت مدة حكمه تسع سنين فاستقبل ابن أخيه يوسطنيانوس بالملك ولم تنل ديار مصر فى أيامه شيئاً من المزايا المادية ولا الأدبية غاية الأمر أنها كانت حاصلة على بعض الراحة والطمأنينة بعد إزالة ما كان قائماً بها من الفتن من الأحزاب، وفى أيامه مات ديسقوروس بطرك الإسكندرية بعد أن أقام سنتين وقيل سنتين وخمسة أشهر وكان موته فى سابع عشر بابه وفى أيامه كتب إيليا بطرك بيت المقدس إلى يوسطنيانوس الملك بأن يرجع عن مقالة ديسقوروس إلى مقالة الملكية

وبعث إليه جماعة من الرهبان بهدية سنية فقبل هديته وأجاز الرهبان بجوائز جليلة وجهز له مالاً جزيلاً لعمارة الكنائس والديارات والصدقات وأوشك أن يقول بمقالة الملكية ويترك مقالة ديسقوروس فلما شاع الخبر بذلك جاءه ساويرس الذى كان بطركا للملكية واجتمع به وأعلمه أن الحق هو اعتقاد القائلين بمقالة ديسقورس لا الملكيين فرسم بأن يكتب إلى جميع مملكته بقبول قول ديسقوروس وترك المجمع الخلقدونى فبعث إليه بطرك أنطاكية بأن هذا الذى فعلته غير واجب وأن المجمع الخلقدونى هو الحق فكبر هذا الأمر على الملك ونفاه وأقام بدله.

فأمر إيليا بطرك بيت المقدس بجمع الرهبان ورؤساء الديارات فاجتمع له منهم عشرة آلاف وحرموا الملك ومن يقول بقوله فأمر الملك بنفى إيليا إلى مدينة (آيلة) فاجتمع عندئذ بطاركة الملكية وأساقفتهم وحرموا الملك ومن يقول بقوله فلم يبال وظل على ما هو عليه من الشدة، وبموت ديسقوروس قام بعده تيموتاوس وهو ثانى ثلاثيهم وكان من المتأصلين ووقع من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى حينه.

(فى الملك يوسطنيانوس ـ قيصر الأول)

استبد يوسطنيانوس الأول بالحكم بعد موت يوسطنيوس سنة إحدى وأربعين وخمسمائة للميلاد أى سنة خمس وتسعين قبل الهجرة وكان مولده فى مدينة طرسيس ولم يستقر به المنصب منفرداً حتى قامت الفتنة بين الأحزاب وعظمت وظهر أصحاب الملة الخضراء والملة الزرقاء ثانية وقاموا يناظرون ويجادلون فى الدين فانعقدت المجامع واشتدت المناظرة ومازالوا على هذا الحال حتى نال أصحاب هذين اللونين بعض الامتيازات ومنحوا من الملك شيئاً من الحقوق ولم تكد فتنتهم تزول حتى ظهر بعض المشاكل السياسية وتجرد الملك للغزو والقتال فأرسل قائد جيوشه بليسيرس والطواشى نريس للغزو فغزوا قوطية إيطاليا ووندالية إفريقية وانتصر عليهما نصرة عظيمة وسار هو لقتال فارس وظفر بهم فاشتهرت سطوته وعلت كلمته ثم وجه عنايته إلى ترتيب الأحكام السياسية وتهذيب القوانين الملكية فرتبها أحسن ترتيب واشتغل بإصلاح الأمور الدينية وتنقيح العقائد المسيحية وكان متعصباً فى دينه صاحب حمية وغيرة عظيمة، قال بعض الكتاب: كانت حميته أقوى من معارفه، وتزوج بزوجة بديعة الجمال اسمها تيودوره فكان لها على قلبه كمال السلطة والولاء لا يكاد يخالف لها أمراً لاستيلائها على فؤاده فكانت سبباً فى تدنيس عهد ولايته وأعمالها كالنقطة السوداء فى تاريخه.

وقد أغار كسرى قباذ ملك فارس على عساكر الرومانيين وهم يبنون حصناً فى طريق مدينة دارا على مقربة منها وقصد الفتك بالرومانيين وتخريب ذلك الحصن فسار إليه بليسيرس قائد جيوش المشرق ونائبه لرده وتخليص الحصن منه فوقعت الحرب بين الفريقين فانتصر أمير الروم على فارس نصرة عظيمة اشتهر بها بين الأقران وما تمت هزيمة الفرس حتى وجهوا عساكرهم صوب أرمينية وكانت يومئذ منقسمة بين الروم والفرس ولما كانت أرمينية قريبة من الديار الشامية خاف الروم على الشام من أهل فارس فحوّل بيليسيرس عساكره صوب أنطاكية لقتالهم هناك وحاصروا المدينة فلم ينتصر بيليسيرس فى هذه الوقعة ولم يظهر على خصمه ولكنه خلص الديار الشامية ومع ذلك لم تنكف فارس عن محاصرة أنطاكية وهى يومئذ تحت الديار الشامية فلما رأى القيصر اشتداد الحال وتضييق فارس الحصار بعث قائده سبطاس بدلاً من بيليسيرس فسار إلى أنطاكية فلم يستطع أن يرفع الحصار عنها فى أيام قوباز بن فيروز مع ما كان عليه قوباز المذكور من المذلة والاحتقار بين قومه لعدم استقامته دينا ودنيا وبقى قوباز محاصراً لأنطاكية أياماً كثيرة إلى أن قتله العرب فى مدينة الرى فخلفه ابنه كسرى أنوشران العادل فى نحو حدود سنة تسعين قبل الهجرة قال بعض أهل التاريخ: فتغيرت بتوليته أحوال ديوان فارس بالمدائن ، وذلك أنه لما جلس على سرير الملك وكان صغيراً قال لأصحابه: أعلموا أنى عاهدت الله على أنه إن آل الملك إلى أعيد آل المنذر إلى الحيرة وأقتل طائفة المزدكية الذين أفسدوا أحوال الناس وهم أصحاب مزدك الذى خرج على عهد أبيه قوباز فتبعه أبوه وكان خليفة المزدكية قائماً إلى جانب السرير فقال هل تقتل الناس جميعاً هذا فساد فى الأرض والله قد ولاك لتصلح لا لتفسد فذكر أنوشروان للخليفة المذكور معايبه وأمر بقتله فقتل بين يديه وأخرج وأحرقت جثته وأمر بقتل شيعته فقتل منهم خلق كثير وأثبت ملة المجوسية القديمة وكتب بذلك إلى عماله وقوى جنده بالأسلحة وعمر البلاد وقسم أموال الزنادقة على الفقراء وردّ الأموال إلى أصحابها وأرجع المنذر إلى الحيرة وطرد الحرث بين حجر جدّ امرئ القيس عنها ، قال بعض أهل التاريخ: وكان الحرث كنديا فترتب على ذلك قتل حجر المذكور وزوال دولة الكنديين وما جرى لامرئ القيس بعد قتل أبيه كان فى عهد يوسطنيانوس قيصر الأول المذكور ، وسنذكر قصة امرئ القيس على سبيل الاستطراد ومحصلها أن أباه حجراً كان قد طرده لما هوى ابنة عمه فاطمة الملقبة بعنيزة وكان له معها يوم بدارة جلجل فنظم معلقته التى مطلعها، قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل، فلما بلغ ذلك حجرا أباه دعا مولى يقال

له ربيعة فقال له اقتل امرأ القيس وأتنى بعينه فأخذه ربيعة وانصرف ثم ذبح جؤذراً وأتى بعينه إلى أبيه فندم حجر على ذلك فقال ربيعة أبيت اللعن إنى لم أقتله قال فأتنى به فانطلق فإذا هو فى رأس جبل وهو يقول:

فلا تتركنى ياربيع لهذه .·. وكنت ترانى قبلها بك واثقا

فرده إلى أبيه ثم قال قصيدته المشهورة التى مطلعها :

ألا عم صباحاً أيها الطلل البالى .·. وهلى يعمن من كان فى العصر الخالى
وهل يعمن إلا سعيد مخلد .·. قليل الهموم ما يبيت بأوحال

وفيها يقول :

ولو أن ما أسعى لادنى معيشة .·. كفانى ولم أطلب قليل من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤثل .·. وقد يدرك المجد المؤثل أمثالى

وكان أبوه قد نهاه عن قول الشعر والتشبيب بالنساء فلما بلغه أنه لم ينقد لكلامه طرده وبقى مطروداً حتى قتل بنو أسد أباه فبلغه ذلك وهو بجبل دمون فى أرض اليمن فشق ثيابه وحزن عليه وحلف أن لايشرب خمراً ولا يغسل رأسه حتى يأخذ بثأره ثم أنه استنجد ببكر وتغلب على بنى أسد فأنجدوه ثم هرب بنو أسد وتبعهم فلم يظفر بهم فوضع السلاح فى كنانة وهم بنو عمهم حيث لجأ اليهم بنو أسد ونادى امرؤ القيس يالثارات الملك فقالت له عجوز لسنا لك بثأر فاطلب ثأرك فاستمر على وضع السلاح فى كنانة ففاتوه وقيل أنه أدركهم وقد تقطعت خيله وكثرت القتلى والجرحى وحجز الليل بينهم وهرب بنو أسد فأبى بنو بكر وتغلب أن يتبعوهم وقالوا قد أصبت ثأرك فقال ما أصبت من كاهل ولا أسد أحداً وكاهل من كنانة قال بعض الكتاب وهذا معنى قوله فى قصيدة بائية :

ألا يا لهف هند إثر قوم .·. همو كانوا الشفاء فلم يصابوا

يعنى يحق لهند أخته أن تتلهف على عدم إدراك بنى أسد وأخذ الثأر منهم وقوله من قصيدة أخرى :

والله لا يذهب شيخى باطلا .·. حتى أبيد مالكا وكاهلا

ومع تخاذل بكر وتغلب عنه فقد طلبه المنذر بن ماء السماء فتفرقت جموع امرىء القيس خوفاً من المنذر فلما رأى ضعف أمره وطلب القوم له ذهب يستنصر بقبائل العرب قبيلة قبيلة فلم ينصروه وقصد السموأل بن عاديا اليهودى فأكرمه وأقام

عنده مدة ثم سار إلى يوسطنيانوس قيصر الروم وأودع دروعه عند السموأل وأنشد فى مسيرة قصيدته المشهورة التى منها:

بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه ∴ وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك إنما ∴ نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

ومات امرؤ القيس فى عوده من عند قيصر فى بلاد الروم عند جبل يقال له عسيب بقرب مدينة أنقرة بالروم وأنشد عند ما أيقن بالموت بجانب قبر أخبر بدفن امرأة غريبة فيه:

أجارتنا أن الخطوب تنوب ∴ وأنى مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا إنا غريبان ههنا ∴ وكل غريب للغريب نسيب

قال بعض أهل التاريخ: أن يوسطنيانوس عجل عليه بحلة مسمومة بالزئبق وهو بعيد وأبعد منه قولهم إن السبب فى ذلك اكتشاف يوسطنيانوس عشقه لابنته ونظمه قصيدته التى مطلعها [ألا عم صباحا أيها الطلل البالى] وقد سبق أنه قالها بعد اجتماعه بأبيه قال بعض الكتاب: ولعل من قال أنه أنشدها عند قيصر بنى ذلك على قوله فيها ولو أن ما أسعى البيتين السالفين ولا دلالة فيهما على ذلك لاحتمال أنه بعد زوال ملك أبيه عن الحيرة كان يتطلب الملك ويسعى فى الحصول عليه اهـ.

من بعض المؤلفات.

ولنعد إلى ما كنا فيه ، فلما تولى كسرى أنوشروان الملك بعد أبيه خابره يوسطانيوس الملك فى أمر الصلح ورفع الحصار عن أنطاكية فأجابه كسرى لذلك حيث كان يومئذ فى شاغل بأمور ملكه الداخلية وعقد مع القيصر شروط المحبة الدائمة والسلم المستمر قالوا والحقيقة أنه لم يكن إلا مجرد مهادنة ومتاركة وقد هاب الملوك أنوشروان وهادوه بالهدايا السنية وكان مما ورد عليه رسول ملك الروم يوسطانيوس بهدايا وتحف فنظر إلى إيوانه وحسن بنيانه فرأى اعوجاجاً فى ميزانه فسأل عن سبب ذلك فقيل أن عجوزاً لها منزل فى جانب الاعوجاج وان الملك رغبها فى الثمن فأبت ولم يكرهها وبقى الاعوجاج من ذلك على ما ترى قيل فقال الرومى هذا الاعوجاج أحسن من الاستواء ، قال أهل التاريخ: ولأربع وعشرين خلت من ملك أنوشروان المذكور ولد عبد الله بن عبد المطلب أبو صاحب الشريعة الإسلامية فكانت ولادته فى عهد يوسطانيوس الملك وكذلك ولد صاحب الشريعة فى السنة الثانية والأربعين من ملك أنوشروان كسرى فارس المذكور وفى عهد يوسطانيوس الثانى قيصر الروم.

ولما تقررت قاعدة الصلح بين أنوشروان فارس ويوسطانيوس القيصر تجهز يوسطانيوس لقتال الوندال فى إفريقية وهم قبائل الأندلسية وسار لذلك فى سنة سبع وأربعين وخمسمائة للميلاد أى سنة تسع وثمانين قبل الهجرة فلبثت الحرب سنة ويوسطانيوس لا ينفك عنهم حيث صمم على استرجاع جميع البلاد التى كانوا استولوا عليها وكانت فى هذا الحين قد استحالت شجاعة الوندال إلى الجبن والفتور حيث داخلهم الميل إلى الزينة الشرقية والتخلق بالترف والارتخاء وقد فقدوا النخوة والشهامة وركب بيليسيرس القائد السفن مع عساكره وسار إلى قرطاجة فانتصر عليهم واستولى على المدينة وأخذ ملك الوندال أسيراً ثم طلبه ديوان القسطنطينية فسار إليها ودخل بموكب النصر الحافل فكان ملك الوندال فى زفاف هذا الموكب تحفة من تحف الموكب يقاد بين الأسرى الوندالية فى وسط الغنائم عرضة للمتفرجين ثم سار بعد ذلك الأمير بيليسيرس القائد المذكور إلى جزيرة سردانيا لينزعها من قبضة الوندال فظهر عليهم هناك أيضاً واستولى على الجزيرة وصيرها من ملحقات قرطاجة فلم يقبل المتأصلون من أهل الجزيرة الدخول فى زمرة الرومانيين ولم يرضوا أن يكونوا رعية الروم وأبوا أن يدخلوا فى دين المسيحية وأصروا على العصيان وبقوا على جاهليتهم مدة من الزمان إلى أيام موريقوس الملك الذى تولى فى سنة ست وتسعين وخمسمائة للميلاد أى سنة أربعين قبل الهجرة.

وتهيأ يوسطانيوس الملك بعد فراغ عساكره من حرب الوندال وظهورهم عليهم لقتال الغوطية فرسم إلى الأمير بيليسيرس بفتح إيطاليا وأخذها من أيدى الغوطية وذلك سنة ثمان وأربعين وخمسمائة للميلاد أى سنة ثمان وثمانين قبل الهجرة فسار الأمير بيليسيرس وبذل الجهد وشدد فى القتال فلم يتم الفتح على يديه فبعث يوسطانيوس الأمير نرسيس ففتح الله عليه وظفر بالغوطية وقهرهم وكانت شوكة الغوطية قبل هذا الحين قوية جداً فى إيطاليا وكان يخشى منهما كثيراً ولكن ما لبثت أن تقهقرت وانحطت وأخذت فى التناقص فلم تقو على محاربة الرومانيين فى هذه الحرب الأخيرة، وكان مركز قوة الغوطية فى هذا الحين مملكة أسبانيا وكان لهم فيها ملوك أصحاب تدبير وحزم فتولى عليهم بأسبانيا بعد ذلك ملك اسمه اطانا جلدوس كان قليل الحزم وملك آخر فى إيطاليا اسمه آجيلا فكان خصماً عنيداً لملك أسبانيا فتجهز كذلك آجيلا المذكور فى سنة ست وستين وخمسمائة للميلاد أى سنة سبعين قبل الهجرة لقتال جلدوس فاستعان جلدوس بعساكر الروم على آجيلا ففرح يوسطانيوس بذلك وسير البطرك لبريوس إلى إيطاليا فهزم آجيلا شر هزيمة وعاد

منصوراً فسير به يوسطانيوس إلى أسبانيا فسار إليها وقاتل الغوطية فانتصر عليهم وأخذ منهم مدينة بلنيسة وقرطبة وسائر مدن إقليم الأندلس الشرقية وأضيفت إلى القسطنطينية وبقى قسم عظيم من الأندلس تابعاً لدولة القسطنطينية إلى سنة عشرين وستمائة قبل الميلاد أى سنة اثنتين قبل الهجرة، ونقض كسرى أنوشروان صلحه مع الروم بإغراء الأرمن والغوطية فقامت الحرب بينهم سنة ثمان وستين وخمسمائة للميلاد أى سنة اثنتين وسبعين قبل الهجرة وزحفت عساكر فارس على الديار الشامية وهاجمتها فردهم الأمير بيليسيرس قائد جنود الروم وطردهم عن البلاد ، قال بعض أهل التاريخ: فانتهزت قبائل اللاظ هذه الفرصة وألقت بنفسها فى أيدى كسرى أنوشروان هى ومن حولها من بلاد البحر الأسود وخرجت من تبعة الروم فتقوت بهم عزيمة كسرى وأنشأ مراكب الحرب بالبحر الأسود وعقد النية على تسخيرهم فى تسييرها فلما أحسوا منه بذلك ندموا على دخلوهم فى قبضة يده وصمموا على العود إلى طاعة الروم فنجحوا وتم لهم الأمر وتألبوا جميعاً على طرد الفرس من بلادهم ففازوا وذلك سنة تسع وستين وخمسمائة للميلاد أى سنة سبع وستين قبل الهجرة ، واستمرت الحرب بين فارس والروم وطال أمدها وقتل فيها ما لايحصى عدداً من الأبطال ثم انتهت فى سنة ست وسبعين وخمسمائة للميلاد أى سنة ستين قبل الهجرة بعقد الصلح بين الطرفين واستقرت قاعدته بينهما على رجوع المملكتين إلى حدودهما القديمة وإرجاع كل شىء إلى أصله.

واتفق فى سنة تسع وسبعين وخمسمائة للميلاد أى سنة ثلاث وستين قبل الهجرة أن اتحد البلغار بالصقالبة من أهل الجنوب واجتازوا نهر طونة فى الشتاء وهو متجمد مثلج وأغاروا على ولاية روم إيلى التابعة لدولة الروم وكان قائد هذه الجموع يومئذ الأمير زابرخان وكان فى ذلك العهد قد غضب يوسطانيوس الملك على قائد جيوشه الأمير بيليسيرس وصرفه من خدمته فلازم العزلة والانكماش فلما كثر فساد تلك الجموع وتوالت إغاراتهم على البلاد وعاثوا فيها حتى أهلكوا الحرث والنسل ضاقت صدور أهل البلاد واستولى عليهم الخوف والوجل واستغاثوا ولا مغيث وعلم الأمير بيليسيرس بما حل بالمملكة وأنها فى خطب شديد فقام واستمال لنفسه جند الحرس الملوكى وكثيراً من الأهالى ممن حملهم على حمل السلاح وسار بهم لقتال تلك الجموع فظفر بهم وطردهم صوب نهر طونة ففرح به الأهالى فرحاً عظيماً وأحبوه حباً ما عليه من مزيد وفاز بالفخر والشهرة بعد الخمول ولكنه لم يلبث أن اتهمه أعداؤه بأنه يعمل على إثارة الفتن ضد القيصر وأنه يحرض أهالى البلاد فقبض

عليه يوسطانيوس واعتقله وصادره وسلب أمواله فمات محزوناً مقهوراً وترك له فى قلوب أهل البلاد أثراً لا يمحى.

ثم مات يوسطانيوس حتف أنفه سنة تسع وسبعين وخمسمائة للميلاد أى سنة سبع وخمسين قبل الهجرة وكان موته بعد موت الأمير بيليسيرس بأشهر قلائل فكانت مدة ملكه ثمانية وثلاثين سنة قيل وفى أيامه أناط بعض العارفين من أهل العلوم بتقنين القوانين وتنظيم اللوائح واستنباط القضايا المتنوعة والأحكام المتأصلة والمتفرقة واستخراجها من الكتب الرومانية وتنقيحها وتهذيبها فأجازت تلك القوانين لمن يتولى ملك الروم التصرف المطلق بحيث لا يكون مقيداً يفعل فى سياسته ما يشاء ويختار ، وحدث فى أيامه طاعون هلك فيه كثير من الخلق ووقعت الزلازل الهائلة فكان منها زلزلة سنة خمس وستين التى هدمت أكثر المدن العظيمة ودمرتها تدميراً وقد حازت دولة القسطنطينية فى أيامه شهرة كبيرة جداً ، وكان حبه لمصر عظيماً ويحب نجاحها وتقدمها ولذلك تعاهد مع نجاشى الحبشة بقصد جلب التجارة إلى مدينة الإسكندرية غير أن نائبه عليها كان عاتياً ظالماً قد كلف أهل الإسكندرية ما لا يطيقونه وأثقلهم بالمغارم وشدد عليهم فى أمورهم فكان ينفى من لا يقوم بوفاء تلك المغارم الثقيلة ويبعده وقد كان أقام عليهم بطركاً اسمه طيودوسيس فقام جميع أهل الحرف والصنائع والأعيان ولم يقبلوه وتهددوا الوالى بالخروج إن هو أصر على ذلك فأمر قائد جنوده المدعو نرسيس فأحرق مدينة الإسكندرية وأقام طيودوسيس عليهم بطركاً جبراً ولكنهم عزلوه وطردوه بعد موت يوسطانيوس الملك.

ومات فى أيامه ثيموثاوس بطرك الاسكندرية ونفى فكانت مدته سبع عشرة سنة منها ثلاث سنين فى النفى وقاسى شدائد عظيمة جداً فخلفه أيولياديوس وكان ملكيا فجد واجتهد فى رجوع المسيحيين بأجمعهم إلى رأى الملكية وبذل جهده فى ذلك وألزم نصارى مصر بقبول الأمانة المحدثة فوافقوه ووافقه رهبان ديارات بومقاد بوادى هبيب هذا ويعقوب البراذعى يدور فى كل موضع ويثبت أصحابه على الأمانة المستقيمة والقول بمقالة دسقورس ، وأمر الملك جميع الأساقفة بعمل الميلاد فى خامس عشرى كانون الأول وبعمل الغطاس فى ست تخلو من كانون الثانى، وكان كثير منهم يعمل الميلاد والغطاس فى يوم واحد وهو سادس كانون الثانى قلت: وعلى هذا الرأى طائفة الأرمن إلى يومنا هذا.

وفى هذه الأيام أيضاً ظهر يوحنا النحوى بالاسكندرية وزعم أن الأب والابن والروح القدس ثلاثة آلهة وثلاث طبائع وجوهر واحد وظهر يوليان وزعم أن جسد

المسيح نزل من السماء وأنه لطيف روحانى لا يقبل الألم إلا عند مقاومة الخطيئة والمسيح لم يقترف خطيئة فلذلك لم يصلب حقيقة ولم يتألم ولم يمت وإنما ذلك كله خيال فأمر يوسطانيوس الملك ثيموثاوس البطرك يومئذ أن يرجع إلى مذهب الملكية فلم يفعل فأمر بقتله ثم شفع فيه فنفى كما تقدم القول ومازال إيوليايديوس يدبر شؤن البطريكية حتى مات فأقيم بعده بولس وكان ملكيا فأقام سنتين فلم يرضه المتأصلون وقيل أنهم قتلوه وصيروا عوضاً عنه ديلوس بطريركا وكان ملكيا أيضاً فأقام خمس سنين ومات فبلغ يوسطانيوس أن المتأصلين غلبوا على الإسكندرية ومصر وأنهم لايقبلون بطاركة فبعث إلى الإسكندرية أثولنياديوس أحد قوّاد جنوده وضم إليه عسكراً كثيراً فلما قدمها ودخل الكنيسة نزع ثياب الجند ولبس ثياب البطاركة وقدس فهم الناس برجمه فانصرف وجمع عسكره وأظهر أنه قد أتاه كتاب الملك ليقرأه على الناس وضرب الناقوس فى الاسكندرية يوم الأحد فاجتمع الناس إلى الصلاة حتى لم يبق أحد فصعد المنبر وقال :

يا أهل الاسكندرية إن لم تتركوا مقالة اليعقوبية وإلا أخاف أن يرسل الملك من يقتلكم ويبيح أموالكم ونساءكم فهموا برجمه وهو على المنبر فأشار إلى العسكر فوضعوا السيف فيهم فقتل من الناس يومئذ مائة ألف نفس وفرّ منهم خلق إلى الديارات بوادى هبيب وأخذ الملكية كنائس المتأصلين ومن يومئذ صار كرسى المتأصلين فى دير يومقاد بوادى هبيب ، وفى هذه الأيام أيضا ثار السامريون على أرض فلسطين وهدموا كنائس النصارى وأحرقوا ما فيها وقتلوا جماعة من النصارى فبعث يوسطانيوس جيشاً فقتلوا من السامريين خلقاً كثيراً ووضع من خراج فلسطين جملة وجدد بناء الكنائس وأنشأ مارستانا ببيت المقدس للمرضى ووسع فى بناء كنيسة بيت لحم وبنى ديراً بطور سيناء وعمل عليه حصناً حوله عدة قلاع ، **قلت:** وهو باق إلى يومنا هذا وكذلك رتب فيها حرساً لحفظ الرهبان.

وفى أيامه كان المجمع الخامس من مجامع المسيحيين ، قال بعض أهل التاريخ وسببه أن أريحانس أسقف مدينة نيج قال بتناسخ الأرواح وقال كل من أسقف أنقره وأسقف المصيصة وأسقف الرها أن جسد المسيح خيال لا حقيقى فحملوا إلى الاسكندرية وجمع بينهم وبين بطريركها أوطس وناظرهم وأوقع عليهم الحرمان فأمر يوسطانيوس أن يجمع لهم مجمعاً ورسم باحضار البطاركة والأساقفة فاجتمع مائة وأربعون أسقفا وحرموا هؤلاء الأساقفة ومن يقول بقولهم فكان بين المجمع الرابع الخلقدونى وهذا المجمع مائة وثلاث وستون سنة وأقام القائد أثولنياديوس بطريركا

مدة سبع عشرة سنة على المشهور ومات فقام بعده يوحنا وكان منانيا فأقام ثلاث سنين فتقوى المتأصلون بعد ذلك وأقاموا عليه بطريركا اسمه تاودوسيوس وهو ثالث ثلاثيهم فلم يقف الملكية عند حدهم بل أقاموا أيضاً بطريركا ثانيا اسمه أثيوس وشكوا المتأصلين فكتب الملك إلى متولى الاسكندرية أن يعرض على بطريرك اليعاقبة أمانة المجمع الخلدقدونى فإن لم يقبلها أخرجه وأقام بدله أثيوس فعرض عليه ذلك فلم يقبل فأخرجه وأبعده وأقام بعده يوليس التنيسى فلم يقبله أهل الاسكندرية ومات فقفلت كنائس المتأصلين وأصابهم من الملكية ما لايوصف من الأذى والشدة مما لا محل لايراده هنا ، ولما مات يوسطانيوس الملك خلفه على سرير الملك يوسطينوس الثانى.

(فى الملك يوسطينوس ـ قيصر الثانى)

ثم قام بالأمر يوسطينوس الثانى بويع بالملك فى سنة تسع وسبعين وخمسمائة للميلاد أى سنة سبع وخمسين قبل الهجرة وكان حسن السيرة حميد الخصال مستقيماً عادلاً منصفاً أنسى باستقامة أحواله إعوجاج أسلافه ففرح به الناس وأخلصوا له فى المحبة وحسبوه منة من الله سبحانه على عباده بعد تلك الشدائد والخطوب ولكن لم يلبث أن تغيرت أحواله وتبدلت أطواره فانعكف على اللذات وأسرف فى الشهوات وجار وظلم وترك تدبير الدولة لزوجته صوفية فترتب على ذلك فساد حال الأمة واضمحلال أحوال الدولة وذلك أنه لما كان ركن الدولة الرومية والمدبر لأمورها والقائم بإعلاء كلمتها إنما هو الأمير نرسيس الطواشى وكان هذا الأمير ارتقى المراتب العلية فى أيام يوسطنيانوس قيصر وكان حازماً مدبراً لأمور الدولة ساعياً فى الصلح والحرب ميالاً لرفعة شأنها وإعلاء كلمتها فلما تولى الملك يوسطينوس وسلم زمام الدولة لزوجته صوفية غارت منه وحقدت عليه وسعت به عند الملك ومازالت حتى غضب عليه وخلعه من منصبه فتقوى بخلعه أعداء المملكة وصاروا يراقبون الفرص للايقاع بها ، وقدمت فى هذه الأثناء رسل من طرف خان التتار الهبارة على القسطنطينية يرغبون فى معاهدة يوسطينوس فأظهر التعاظم والأبهة ولم يرض بمعاهدتهم وعقد مع خان التركمان معاهدة وتحالف معه على مناصرته على كسرى فارس وكانت هذه المعاهدة توذن أيضاً بفتح باب التجارة والمعاملة فى وسط بلاد المشرق مع الدولة الرومية وكانت المنافسات بين الروم وفارس مازالت قائمة على بعض الأمور فانتشبت الحرب بين يوسطينوس وأنوشروان كسرى فارس لتنازعهما

على بلاد أرمينية الفارسية فأغار أهل فارس على أراضى الروم وعاثوا وقتلوا ونهبوا وأسروا ثم انقطع الحرب بموت كسرى وقيصر إلى حين فلما مات كسرى أنوشروان تولى الملك بعده ابنه هرمز الذى سيأتى الكلام على ما وقع منه فى محله إن شاء الله تعالى غير أنا نقول هنا حرصاً على الفائدة أنه يوم ملك هرمز المذكور نطق بالحكم فى مقالة مطلعها، الحكم عماد الملك، والعقل عماد الدين، والرفق ملاك الأمور، والفطنة ملاك الفكرة، أيها الناس إن الله خصنا بالملك وعمكم بالعبودية وكرم مملكتنا فأعتقكم بها من عبوديتنا وأعزنا وأعزكم بعزنا وقلدنا الحكومة فيكم وقلدكم الانقياد لأمرنا ، إلى أن قال ولا تسموا النسك رياء ولا الرياء مراقبة ولا الشر شجاعة ولا الظلم عزما ولا الرحمة نقمة ولا الصنع عفافا ولا الأخذ بالفضل ذلا ولا العناية غفلة ولا الغدر ضرورة ولا الورع اجتهادا ولا الخيانة غنماً ولا القصد تقتيراً ولا البخل اقتصادا ولا الزهد مروءة ولا التوانى تؤدة ولا الحياء مهانة ولا السفة صرامة ولاالعجب كمالاً ولا ما لا يكون كائناً ولا المعاتبة مفاسدة أيها الناس اجتنبوا المرذول من هذه الأمور المتشابهات وثابروا على ما تحظون به عندنا إلى آخر ما قاله من الحكم البليغة والنصائح المؤثرة فى النفوس التى لم يسبقه إليها قائل.

أما يوسطينوس، فقال أهل التاريخ: أنه سار فى الرعية سيرة رديئة جداً فجار وظلم وسامها الخسف وألحت عليه زوجته صوفية فتبنى طبيروس قسطنطين أمير جند الحرس الملوكى ثم مرض وأصابه الخبال فى عقله ولبث على هذه الحال إلى أن مات حتف أنفه فى سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة أى سنة أربع وأربعين قبل الهجرة فكانت مدة ملكه ثلاث عشرة سنة فخلفه فى الملك طبيروس قسطنطين متبناه.

(فى الملك طبيروس قسطنطين)

(قيصر)

ثم قام بالأمر طبيروس قسطنطين قيصر بويع له بالملك فى اليوم الذى مات فيه يوسطينوس سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة للميلاد أى سنة أربع وأربعين قبل الهجرة وكان يوسطينوس قدعهد إليه بالملك من بعده بإغراء من صوفية زوجته كما تقدم القول وكان الحامل لها على ذلك حبها له وتعلقها به ورغبتها فى التزوّج به بعد موت يوسطينوس زوجها فلما استقر بطبيروس المنصب أعرض عن التزوّج بها وتمادى على إعراضه فطاولته واستمالته وتحببت إليه فلم يقبل فلما أيست أثارت عليه الفتن والشرور وعملت على تذليله وحرضت العساكر على خلعه فلم تظفر بمرامها ولم

تنجح فى مسعاها ومع ذلك فإنه لم يعاملها إلا بالرفق واللين ولم يسلك معها إلا سبل الحلم والصفح وكان حازماً كريما متمسكاً بالدين المسيحى أشد تمسك وكان يحب الديار المصرية كثيراً فلما علم أن أهلها شديدو التمسك بمذهب ديسقورس بذل الجهد فى تثبيت أركان هذا المذهب فيها وهمّ بأن يجعله معتقد جميع نصارى مصر وأيد كنيستهم وعضدها وجعلها راسخة القدم كما هى إلى يومنا هذا.

وقد قلنا فيما سبق أن الملك يوسطينوس كان قد ناوى فارس على الحرب وأن الحرب تأخرت بموته وبموت أنوشروان فلما تولى طيبروس الملك جرّد جنوده على فارس وسار لقتال هرمز بن أنوشروان فقامت الحرب بينهما وكانت سجالا ، قال بعض أهل التاريخ: وكان هرمز المذكور عادلا عاقلا كأبيه ينتصف للمظلوم من الظالم وقد بالغ فى ذلك جدا حتى أبغضه خواصه ومن مآثره أنه اصطنع صندوقا ليلقى المتظلم قصته فيه وكان يختم الصندوق بخاتمه لئلا تصل إليه أيدى بطانته وأمر باتخاذ سلسلة من الطريق نافذة إلى مكانه وجعل بها أجراسا فكان المتظلم يجىء فيحرك السلسة فيعلم به ويتقدّم باحضاره وإزالة مظلمته وكان مهيبا محسنا للسياسة جوادا أمضى من ملكه عشر سنين ولم يتحرك أحد من ولاته ولا خرج خارج من رعيته حيث كان أبوه قد مهد له الملك وسخر له الرعية ورتب له أمور الدولة ولم يخرج عليه إلاأطيبروس ملك الروم وآخرون من ملوك الخوارج، وكان خروج طيبروس فى ثمانين ألف فارس فانتصر على هرمز نصرات متعددة وجند فارس، لم تزل مثابرة على الحرب والروم تسعى فى عقد الصلح فلم تتمكن من ذلك وما زالت الحرب قائمة على ساقها إلى زمن موريقوس قيصر كما سيأتى ذكر ذلك فى محله ، وطرد طيبروس قيصر التتار الهبارة الايغورية عن بلاده أيضاً وأبعدهم إلى بلاد المجار والإفلاق والبغدان وكانت أيامه مسعودة وغزواته موفقة فكانت الرعية تود لو تدوم عليها أيامه ويمتد سلطانه عسى أن يعيد للبلاد روونقها القديم وبهجتها الأولى إلا أن المنية اخترمته فى أقرب وقت فمات حتف أنفه سنة ست وتسعين وخمسمائة للميلاد أى سنة أربعين قبل الهجرة فكانت مدة ملكه أربع سنوات. وقد عهد قبل موته بالملك لزوج ابنته الأمير موريقوس القائد الشهير فخلفه على سرير الملك.

(فى الملك موريقوس وهو موريقس)
(ويقال له أيضاً)
(مورثيوس طيبروس)

ثم قام بالأمر موريقوس زوج ابنة طيبروس بعهد منه فى سنة ست وتسعين

وخمسمائة للميلاد أي سنة أربعين قبل الهجرة، وكان قائدا لفريق من الجيوش الرومية فاشتهر بالبسالة والإقدام وكان موفقا في حروبه فانتصر على فارس عدة نصرات فأحبه طيبروس الملك حبا شديدا وزوجه ابنته وعهد إليه بالملك من بعده.

فلما استقر به المنصب دبر فأحسن التدبير ورتب الأمور وقد حاز غاية الفخر والشهرة لأنه أعاد إلى كرسي سلطنة فارس أبرويز خسرو بن هرمز بعد أن كان قد فرّمنها عقب فتنة عظيمة لا بأس بإيراد خبرها هنا لأن لها علاقة بتاريخ بعض القياصرة المتأخرين، وبيان ذلك أنه لما خرج على هرمز ملك الروم وملك الخزر والترك وكانوا كلهم أعداء له ويخشى منهم على مملكة فارس أحضر إليه قائدا من قواده صائب الرأي مسموع الكلمة اسمه بهرام جوبين، ومعنى جوبين اليابس الصلب، وكان بهرام جوبين المذكور شجاعاً مبارزا طويلاً أعجف كأنه العود اليابس فأعده لقتال أعدائه فسار لقتال قبائل التركمان فاشتدّ عليهم وهزمهم ونهب وسلب وأسر وأجلى الجم الغفير منهم عن البلاد واستولى على مدن كثيرة وأرسل بذلك إلى هرمز كسرى فخاف عند ذلك هرمز على ملكه من بهرام جوبين المذكور وحقد عليه فقامت بينهما فتنة واشتدت حتى أدت إلى القتال فانحاز أكثر العساكر إلى جانب بهرام وصاروا له عونا على هرمز وكان أبرويز بن هرمز مطرودا من أبيه مقيماً بأذربيجان فبلغه ما كان عليه أبوه من حالة الضعف وخشي من استيلاء بهرام جوبين على الملك فقصد أبرويز أباه وأمسكه وسمل عينيه ولبس التاج وجلس على سرير الملك فكان من ابتداء ملك هرمز إلى استقرار ابنه أبرويز في الملك نحو ثلاث عشرة سنة ونصف سنة قال أصحاب التاريخ: وصار ملك فارس إلى أبرويز في السنة التاسعة عشرة من مولد صاحب الشريعة الإسلامية وطال ملكه إلى أن خلفه ابنه شيرويه في السنة السادسة من الهجرة كما سيأتي ذكر ذلك في محله، وكان قد بعث إليه صاحب الشريعة الإسلامية كتابه مع دحية الكلبي يدعوه إلى الإسلام فمزقه أبرويز شذرمذر فدعا عليه صاحب الشريعة بأن يمزق الله ملكه كما مزق هو الكتاب فأرسل أبرويز إلى عامله بازان ملك اليمن أن يقتل صاحب الشريعة فعين بازان إلى المدينة قاصدا لينظر في انفاذ هذا الأمر بطريق الحيلة فلما جاء القاصد إلى صاحب الشريعة أخبره صاحب الشريعة أن كسرى أبرويز قتله أولاده اليوم فعاد القصاد إلى بازان خاسرا خائبا وحدثه بالخبر فلما صح قيل: إن بازان أسلم وحسن إسلامه وخالف بهرام أبرويز كسرى المذكور وخرج عليه مظهرا أنه يريد الانتقام منه نظير ما فعله بأبيه هرمز فجرت بينهما حروب هائلة كانت نهايتها تغلب بهرام على مملكة

فارس وأخذه تاج الملك فخشى أبرويز من بهرام أن يقيم والده الأعمى ملكا بالاسم ويتصرف هو في الملك ويستفحل أمره فاتفق مع خواصه على قتل أبيه هرمز فخنقه ولحق بموريقس ملك الروم مستنجدا به على بهرام جوبين فلامه موريقس على ما فعله بأبيه أوّلا وثانياً ومع أن أبرويز كان من أشد أعداء موريقس فقد أخذ يناصره ولم يرده خائبا وأرسل معه جيشا جرارا مقدمه الأمير قومنديولس فانتشب القتال بينه وبين بهرام جوبين ولبثت الحرب ثلاث سنين متابعة حصل فيها ثلاث وقائع هائلة غير الحروب الصغيرة وتم الأمر بانتصار خسرو بن أبرويز على بهرام فهرب بهرام إلى خراسان عند ملكها شاريه شاه وكان جد أبرويز لأمه فدس لبهرام من يقتله بالسم فهلك بهرام بخراسان وعاد ملك فارس إلى أبرويز ففرق في عساكر الروم أموالاً جليلة ثم أعادهم إلى موريقس بعد أن أقاموا أربع سنين.

وكان موريقس قد اشترط على كسرى أن يعيد إليه ما كان قد استلبه بهرام من البلاد الرومية وعاهده على ذلك سنة خمس عشرة وستمائة للميلاد أي سنة إحدى وثلاثين قبل الهجرة وبذل موريقس الجهد في إخفاق تتار الهيارة وتمزيق شملهم فبعث إليهم قائد جيوشه فظفر بهم على سواحل نهر طونة في خمس وقائع غير أنه أسر فيها من عساكر الروم اثنى عشر ألف نفس وطلب خان الهيارة من موريقس الفداء وجعل على كل رأس منهم دينارا وكان موريقس شديد البخل فلم يرض بذلك فطلب نصف دينار فأبى أن يعطيه شيئاً قال بعض أصحاب التاريخ: فغضب خان التتار من فعال موريقس فأمر بالأسرى فذبحوا عن آخرهم فقام الروم وصار يطلب الوالد ولده فلم يجده والولد أباه والزوجة زوجها والأخ أخاه فعلموا أن ما أصابهم من قبل التتار وأن السبب في ذلك موريقس فقاموا عليه وكان الأمير فوقاس القرماني أحد قواد العساكر الرومية خارجا عن القسطنطينية في هذا الحين فلما علم بخبر الفتنة وتحقق كراهة الرعية للملك وقيامها عليه سعى في استمالة الجنود الخارجة عن طاعة الملك. فمالوا إليه وبايعوه بالملك فزحف بهم على القسطنطينية وناوش من فيها ثم تملكها بعد حروب خفيفة جدا فلما دخلها قبض على موريقس الملك وأولاده وضرب أعناقهم جهارا وجلس على سرير الملك، وكان أولاد موريقس الذين قتلوا معه يومئذ ستة كلهم ذكور.

وفي أيام موريقس مات تودوسيوس بطرك الاسكندرية بعد أن أقام اثنتين وثلاثين سنة وقيل إحدى وثلاثين قضى منها ثمانيا وعشرين سنة منفيا مبعدا عن الاسكندرية في صعيد مصر وفي رواية أن مدّة نفيه كانت أربع سنين لا غير وكان

موته في ثامن عشري بؤنة وفي أيامه جـدد المتأصلون كنيستين في سنة ثمان وأربعين ومائتين لدقلطيـانوس وخلف تودوسيوس المذكـور بطرس الرابع وهو رابع ثلاثيهم، وكان متأصلاً فأقاموه في خفـية بدير الزجاج بالاسكندرية قدمه ثلاثة أساقفة، وكان من الحوادث في أيامـه ما سيذكـر في محله، وظهـر في أيام موريقس الملك أيضـاً راهب اسمه مارون زعم أن للمسيح طبيعتين ومشيئة واحدة وأقنوما واحدا فتبعه أهل حماة وقنسرين والعـواصم وجماعة من الروم ودانوا بقوله فعرفـوا بين المسيحيين إلى يومنا هذا بالمارونية أو الموارنة فلما مات مارون هذا بنوا على اسمه دير مارون بحماة وهو قائم إلى يومنا هذا.

(في الملك فوقاس)
(قيصر)
(ويقال له أيضاً)
(فوقا)

ثم قام بالأمـر فوقاس قـيصر جلس على سـرير الملك في اليوم الذي قتل فـيه موريقس وجمـيع أولاده سنة ست وعشرين وستـمائة للميلاد أي سنة عـشرين قبل الهجرة وكـان فوقاس هذا عتلا زنيمـا منهمكا على اللذات والشهوات كثـير الحرص والطمع قليل الحساب جبانا، وكان يكره المصريين ويميل إلى نكايتهم فرسم بان يحظر عليهم التـقليد بالمناصب الملكيـة والرتب والوظائف وكافة الخـدامات الميرية فـقامت لذلك فتنة في مدينة الإسكندرية.

قال بعض الكتاب وكان معظم القائمين من يهود هذه المدينة فقام عليهم فوقاس وقهـرهم وألزمهم الدخول في الديانة النصـرانية فدخلوها صـاغرين وسكنت بذلك الفتنة وعادت الأمور إلى ما كانت عليه من قبل.

وكان أبرويز خسرو بن هرمز ملك فارس قـد رسخت قدمه في ملك البلاد بعد انتصاره بجيوش الروم على عدوّه فطغى وبغى واحـتقر الأكابر وظلم الأصاغر وأهان الرعية وسامها الخسف، وكان قـد عقد مع موريقس صلحا كاذبا ولكنه لما علم بقتل فوقاس لصاحبه موريقس أظهر الأسف والحزن عليه وأنه يريد الأخذ بثاره من فوقاس فجرد على فـوقاس عسكرا جرارا واسترد من بلاد فـارس التي كانت بيد الروم إقليم أرقـة والجزيرة وأرمـينة والشـام وقطنة من أعـمـال أناضلي فنال الفـرس من الروم

وغلبوهم أشد الغلبة على بلادهم فصار أبرويز أعدى عدو لفوقاس ومع ضعف فوقاس عن مقاومته وعدم قدرته سير جيشا عظيماً لقتاله، وكانت جنود هذه الحملة جميعها تكره فوقاس وتتمنى انخذاله فساروا للقتال على كره فانتصر عليهم أبرويز وبدد شملهم فهربوا وتشتتوا وتقدم أبرويز بجنوده حتى صار على مقربة من قسطنطينية وكان بها رجل من ذوي الوجاهة والاعتبار اسمه فوثيوس وكان له زوجة بديعة في الجمال عفيفة قد تعلق بها فوقاس الملك وفضحها لانهماكه على الفسق وانغماسه في القبائح فلما حاصر أبرويز المدينة وضيق عليها وشدد على فوقاس قام فوثيوس المذكور مع بعض الروم وراسلوا الأمير هرقل وإلى بلاد إفريقية سرابان يقدم إلى القسطنطينية ويخلصها من يدي العدو المحدق بها من كان جانب ويخلع فوقاس ويتولى الملك بدله وشددوا في طلبه وحذروه من عاقبة التأخير كيلا تسقط البلاد في أيدي الأعداء فلما وصل الكتاب لهرقل جهز عمارة سفن قرطاجة وسيرها مع ابنه من أفريقية فرسا في بوغازها وجاء الخبر إلى فوثيوس بمقدم هرقل فاندفع فوثيوس ومن معه من الروم إلى إضرام نار الفتنة في جوف البلاد ضد فوقاس وما زالوا حتى اشتدت وعمت سائر الأنحاء وقامت الرعية تطلب خلع فوقاس وتنصيب هرقل مكانه.

ووصل هرقل وجعل يحتال على فتح البوغاز ودخول المدينة بينما كان فوثيوس يحاول مع أصحابه حصر فوقاس في قصره فما تم لهرقل الدخول من بوغاز المدينة حتى تم لفوثيوس القبض على فوقاس فأتى به إلى هرقل في سفينة وأوقفه بين يديه فنظر فوقاس إلى هرقل شزرا وأغلظ في القول وكانت العامة على الشاطيء تطلب قتل فوقاس فعلت أصواتهم عند ذلك وصاحوا يقتل يقتل الساعة فأمر هرقل أن يسلم لهم فضربوا عنقه في الحال وعنق جميع إخوته وأصحابه كما فعل هو بموريقس سلفه وبايعوا هرقل على ظهر سفينته بالملك وذلك سنة اثنتي عشرة قبل الهجرة أي سنة أربع وعشرين وستمائة للميلاد فكانت مدّة ملك فوقاس ثمان سنين.

وفي أيام فوقاس المذكور سير كسرى ملك فارس جيوشه إلى الشام ومصر فخربوا الكنائس ببيت المقدس وفلسطين وكافة بلاد الشام وقتلوا المسيحيين بأجمعهم وأتوا إلى مصر فأعانهم يهود مصر على قتال المسيحيين بها وتخريب كنائسهم فقتلوا ونهبوا وعاثوا وفعلوا ما لا خير فيه وأقبلوا نحو القدس من طبرية وجبل الجليل وقرية الناصرة ومدينة صور وبلاد القدس بأسرها فنالوا يومئذ من النصارى كل منال وأعظموا النكاية فيهم وخربوا لهم كنيستين ببيت المقدس وحرقوا أماكنهم وأخذوا

قطعة من عود الصليب وأسروا بطرك بيت المقدس وكثيرأمن أصحابه ثم سار كسرى بنفسه من العراق لغزو القسطنطينية كما أشرنا إلى ذلك فيما تقدم فحاصرها وضيق عليها أربع عشرة سنة ولم ينل منها.

ومات في أيام فوقاس بطرس بطرك الاسكندرية فكانت مدته سنتين اثنتين لم يدخل فيهما الاسكندرية لتغلب الملكية وضعف المتأصلين فأقام الملكية يوحنا المعروف بالرحيم بطريركا عليهم وانخذل المتأصلون فلم يقدروا على إقامة بطريرك منهم فدبر يوحنا هذا أرض مصر كلها عشر سنين ومات بقبرس وهو فار من وجه الفرس بعد دخولهم بلاد مصر فخلا كرسي الاسكندرية سبع سنين لخلو أرض مصر والشام من الروم بأسباب الحروب وتوارى من بقى بها من المسيحيين خوفاً من الفرس فحدث بسبب ذلك شدة عظيمة جدا.

(في الملك هرقل)

(قيصر)

ثم قام بالأمر بعد فوقاس الملك هرقل بايعه الأهالي وأعيان المدينة والعسكرعلى ظهر سفينة ببوغاز القسطنطينية في اليوم الذي قتل فيه فوقاس الملك سنة اثنتي عشرة قبل الهجرة أي سنة أربع وعشرين وستمائة للميلاد.

قال بعض أهل التاريخ: فكان مشؤم الطالع وقع في أيامه من العجائب والحروب ما يذهل العقول ويحير الألباب وقد ذكرنا فيما سبق أن أبرويز بن هرمز ملك فارس كان قد حضر على مقربة من القسطنطينية لقتال فوقاس والانتقام منه جزاء ما فعله بصاحبه موريقس فلما علم بموت فوقاس وتولية هرقل تقوّت عزيمته ولم ينكف عن إثارة الحرب وتقدم إلى قتال هرقل فخابره هرقل في عقد صلح فلم يقبل وتطاولت عساكره إلى الإغارة على الشام حيث كانت بلاد الموصل إذ ذاك في قبضة ملكهم ثم أغاروا كذلك على ديار مصر وهاجموا الشام وأحرقوا أنطاكية ودمشق ومدينة بيت المقدس حتى وصلوا إلى طريق الحجاز وكان في عزمه أن يمجس جميع المسيحيين في هذه الجهات أي يجعلهم عبادا للنار ويمحو آثارهم ويقطع شأفتهم ثم أرسل قائدا من قواده بجيش جرار إلى ديار مصر وبلاد المغرب فنال من ذلك ما نال وانتصر عليهم نصرات عظيمة ثم صالح مصر على أن تدفع له مالا معلوما كما كانت تدفع إلى الروم وأعاد الكرة على بلاد الأناضول فاستولى على بلاد بروسه الواقعة في بوغاز قسطنطينية سنة ثمان وعشرين وستمائة للميلاد أي قبل

الهجرة بثمان سنوات واستعان أبرويز على تدويخ الروم بقبائل التتار الهيارة الذين هم الأوارة وتعاهد معهم على أن يشنوا الغارة على إقليم روم ايلي فأغاروا عليه حتى وصلوا إلى أسوار القسطنطينية وذلك قبل الهجرة بنحو ثلاث سنين فتمت الهزيمة على الروم في بلادهم بآسيا وأوربا وحوصروا براً وبحراً فأيس هرقل من النصرة وإرجاع البلاد وعقد النية على المهاجرة إلى تونس ببلاد المغرب إذ كانت يومئذ من أملاك الروم وأن ينقل سريره إليها فصده عن هذه النية بطرك القسطنطينية وما زال به حتى كف عنها.

ولما منع بطرك القسطنطينية هرقل عن التخلي عن المملكة وعن الذهاب إلى المغرب جمع البطريرك المذكور أموال الكنيسة وأمتعتها الثمينة وأمدّ بها هرقل على حفظ ما بقي من دولة الروم من الزوال وكان هرقل قد استيقظ من غفلته فقوّى جيشه وجأشه ونقل ميدان الحرب خلف جبل طورس وقاتل الفرس فانتصر عليهم في الموضع الذي انتصر فيه الاسكندر على دارا فكانت هذه أول غزوة انتصر فيها الروم على الفرس بعد التغلب في السنة الثانية من الهجرة ثم سير جنده بحرا حتى أرسى على طرابزان وتعاهد مع الخزر وأغار على خسرو أبرويز حتى كاد يتغلب على حدود مملكته وبدد شمل التتار المعاهدين لفارس وهزمهم على مقربة من القسطنطينية وكان قد تقوى بأربعين ألفا من الخزر فغزا فارس وأعاد جميع المدن والولايات التي كانت ملوكهم قد أخذوها وسار جنوده بعد ذلك إلى المدائن بعد هزيمة الفرس عند الموصل، قال بعض الكتاب: وكان بعض المنجمين قد أنذر أبرويز بأن بعض ولده يغتاله فتشاءم أبرويز من جميع أولاده فحبسهم وكان في سجونه ستة وثلاثون ألفا موثقين بالحديد فأمر لعتوّه بقتلهم جميعاً فنقم ذلك عليه أهل الدولة وأطلقوا جميع المسجونين مع أولاده ولم يقتلوا أحدا منهم وجمعوهم إلى شيرويه أحد أولاده فجرى بين شيروية وبين أبيه مراسلات وتقريع وقد قال شيرويه لأبيه في ختام المراسلة لا تعجب إن أنا قتلتك فإني إنما أفعل كما فعلت أنت وأرسل شيرويه بعض أولاد الأساورة الذين قتلهم أبرويز وأمرهم بقتله فقتلوه في السنة السادسة من الهجرة وكان قد خلف أبرويز ثمانية عشر ولدا غير شيرويه المذكور فقتلهم شيرويه كلهم وجلس على سرير الملك فلما استقر به المنصب عقد الصلح مع الروم على الشروط التي اقترحها هرقل كما شاء بلا خلاف فانحسم النزاع بين الفريقين وبطلت الحرب في هذا العهد.

ولم تكن أم شيرويه بنت موريقس قيصر الروم كما زعم كثيرون من مؤرخي

الفرس وغيرهم حيث قالوا: إن اسمها مارية وأنه زوجها لخسرو أبرويز حين استنجد به على أعدائه فان هذا بعيد، ولم تطل مدة شيرويه ولم يتمتع بالملك إلا قليلاً من الأشهر فإنه لما سكنت الفتنة وانقطعت الحروب واستقرّ به المنصب الملوكي وكان قد علق بحب شيرين زوجة أبيه فراودها عن نفسها فامتنعت فضيق عليها ورماها بالزنا وأراد قتلها إن لم تفعل فقالت أفعل على ثلاث خصال قال: وما هي قالت: تسلم لي قتلة زوجي فأقتلهم وتصعد المنبر فتبرئني مما قذفتني به وتفتح لي ناوس أبيك فإن له عندي وديعة عاهدني إن تزوجت بعده أن أردّها إليه فدفع لها قتلة زوجها فقتلتهم وبرأها مما قاله لها وفتح ناوس أبيه وبعث معها الخدم فجاءت إلى أبرويز فعانقته ومصت فصا مسموما كان معها فماتت من وقتها وأبطأت على الخدم فصاحوا فلم تردّ عليهم فدخلوا فوجدوها معانقة لأبرويز ميتة رحمها الله.

وكان شيرويه المذكور سيء المزاج كثير الأمراض وكانت إخوته على خلاف ذلك قد كملوا في الخَلْقِ والخُلُق والأدب قيل فندم على ما فرط منه من قتلهم وجزع عليهم جزعا شديداً واتفق أنه دخل لينظر ما في خزينة أبيه فرأى فيها برنية مكتوباً عليها (نافع مجرب لتقوية الباه) وكان شيرويه المذكور مغرما بالنساء مولعا بحبهن فتناولها، وكان الذي فيها سما وضعه أبوه أبرويز فلما ذاق منها مات لساعته فكانت مدة حكمه ثمانية أشهر لا غير ومات وعمره اثنتان وعشرون سنة فخلفه ابنه اردشير، قلت وعلى ذكرما فعله شيرويه المذكور بأبيه أبرويز وما جرى له بعد قتله لأبيه نذكر هنا حادثة ما جرى لمحمد المنتصر العباسي بعد قتله لأبيه المتوكل وهي أنه لما قتل محمد المنتصر المذكور أباه المتوكل ليتولى الملك بعده تحدث الناس بأنه لا يطول عمره بعده وشبهوه بشيرويه بن أبرويز حين قتل أباه ولم يتمتع بالملك بعده فقيل أنه بعد أن جلس المنتصر على سرير الخلافة بعد أبيه فرش له بساط لم ير مثله وعليه كتابة عجيبة بالفارسية فنظر إليها المنتصر نظر الاستحسان فاستحضر من يعرف الفارسية وأمره بقراءتها فأحجم عن ترجمتها فقال له المنتصر قل وما عليك من بأس فقال مكتوب على هذا البساط أنا شيرويه بن كسرى قتلت أبي فلم أتمتع بالملك بعده فتطير المنتصر من ذلك ونهض من مجلسه غضبان فلم تتم له مدة شيرويه حتى مات اهـ. فإن صح ذلك كان من غريب الاتفاق.

هذا ولما اطمأن الروم من إغارات الفرس وارتاح هرقل الملك من العناء تفرغ لتحقيق العقائد الدينية التي كانت في أيامه محلا للنزاع وأخذ يجمع الجموع من العلماء ويعقد المحافل وغير ذلك وظهر المتأصلون بديار مصر بعد الانكماش فأقاموا

لهم بطريركا منهم بعد خلو كرسي الاسكندرية مدة وهو داميانوس خامس ثلاثيهم وكان راهبا بدير أبي مقار فلم يدخل الاسكندرية لقيام الملكيين وأخذهم جميع كنائسها فما زال يعمل مع قومه حتى دخلها واستردّ ما استولت عليه الملكية من كنائس المتأصلين ورمّ منها ما تشعث في أيام الفرس وجعل من ذلك العهد إقامته بالاسكندرية وأرسل إليه انياسيوس بطريرك انطاكية هدية صحبة جماعة من الأساقفة ثم قدم عليه زائرا فتلقاه وسرّ جدا بقدومه وصارت أرض مصر في أيامه جميعها للمتأصلين لخلوها من الروم.

وثار اليهود في أثناء ذلك بمدينة صور وراسلوا الباقين منهم وتواعدوا على الإيقاع بالمسيحيين وقتلهم فكانت بينهم حرب اجتمع فيها من اليهود زهاء عشرين ألفا وهدموا كنائس النصارى خارج صور فتقوّى النصارى عليهم وكاثروهم فانهزم اليهود شر هزيمة وقتل منهم خلق كثير، وكان هرقل الملك قد خرج من قسطنطينية ليمهد الشام ومصر ويجدد ما خربه الفرس بعد تلك الحروب الهائلة فخرج إليه اليهود من طبرية وغيرها وقدموا له الهدايا الجليلة وطلبوا منه أن يؤمنهم ويحلف لهم على ذلك فأمنهم وحلف لهم ثم دخل بيت المقدس وقد تلقاه المسيحيون بالصلبان والبخور والشموع المشعلة فوجد المدينة وكنائسها وقيامتها خرابا فساءه ذلك وتوجع له فأعلمه المسيحيون بماكان من ثورة اليهود مع الفرس وإيقاعهم بالمسيحيين وتخريبهم الكنائس وأنهم كانوا أشد نكاية عليهم من الفرس وقاموا قياماً كبيرا في قتلهم عن آخرهم وحثوا هرقل على الوقيعة بهم وحسنوا له ذلك فاحتج بما كان من تأمينه لهم وحلفه فأفتاه القسوس بأن لا حرج عليه في ذلك فإنهم عملوا عليه حيلة حتى أمنهم من غير أن يعلم بماكان منهم وأنهم يقومون عنه بكفارة يمينه بأن يلتزموا ويلزموا المسيحيين كافة بصوم جمعة في كل سنة عنه على ممر الأزمان والدهور. فمال إلى قولهم وأوقع باليهود وقيعة شنعاء جدا حتى أبادهم جميعاً ولم يبق في ممالك الروم بمصر والشام منهم إلا من فرّ واختفى فكتب البطاركة والأساقفة إلى الآفاق بإلزام المسيحيين بصوم أسبوع في السنة فالتزموا بصومه إلى يومنا الذي نحن فيه وعرف عندهم بجمعة هرقل وتقدم هرقل بعد ذلك بعمارة الكنائس والديارات وأنفق عليها مالا جزيلاً حتى أعاد الكثير منها إلى ما كان عليه من الرونق والبهجة ثم مات حتف أنفه سنة تسع عشرة للهجرة أي سنة أربعين وستمائة للميلاد فكانت مدة ملكه إحدى وثلاثين سنة وهو آخر من ملك مصر من ملوك القسطنطينية وكان في أيامه فتح جيوش المسلمين لديار مصر كما سيأتي بيانه في محله إن شاء الله.

(خاتمة)

(في ملاحظات تتعلق بديار مصر في أيام هذه الدولة) (التي هي دولة الروم المسيحية) (وفيما كان سببا لسهولة فتحها على يدي عمرو بن العاص وخذله الروم)

اعلم أنه وإن كانت ديار مصر لم تنل فى أيام دولة الروم تمام حظها من الراحة والعمار والتمدن وذلك لتوالى المصائب وعدم استقرار الأمور على حال من الأحوال غير أنها قد نالت مزية أخرى وفائدة كبرى ألا وهى إنسلاخها من دين الجاهلية وتدينها بالدين المسيحى فعم جميع مدنها وقراها واشتهر من هذا العهد أهلها باسم القبط فكانت الديانة الرسمية فيها الديانة المسيحية وكانت ابتداء ذلك من اليوم الذى أصدر فيه الملك طيودوسيس الأول مراسيمه بوجوب اعتناق ذلك الدين وجعله الدين الرسمى كما تقدم الكلام فبقيت بها الحكومة مسيحية إلى السنة الثامنة عشرة من الهجرة أى سنة تسع وثلاثين وستمائة للميلاد عبارة عن مائتين وتسع وخمسين سنة وكانت مصر إلى هذا الحين معدودة من الأيالات التابعة لدولة الروم بمدينة القسطنطينية وكانت فى جميع هذه المدة محافظة على لغتها القديمة لا تتكلم إلا بها ولكنها أهملت طريقة الكتابة بالقلم البربائى واعتاضت عنه بالكتابة اليونانية على الطريقة المستعملة بمدينة الإسكندرية فكانت لغتها قبطية قديمة وطريقة كتابتها يونانية ولازالت على هذا الحال إلى يومنا هذا وقد تأخرت جداً إلى أن صار لايستعمل منها إلا العبارات الدينية عند المتأصلين من الآمة القبطية، قال بعض الكتاب: واعترى بعض ألفاظها تغيير يسير بحكم التلقى وبقى الباقى منها على ما كان عليه.

فلما انتشرت الديانة المسيحية واتسع نطاقها وعمتها الراحة واستتبت الطمأنينة حينا عادت فصارت علة للحروب والمنافسات وسبباً فى اشتداد الخطوب والمجادلات وتفاقم المحن الداخلية وميداناً للخلاف بين أساقفة القسطنطينية وأساقفة الإسكندرية إلى حدّ افترقت معه الفرق وخرجت بسبب الخوارج واعتزلت معه المعتزلة وصرفت

الأموال الطائلة من شيعة الأحزاب وأصحاب الحل والعقد، وكان لفريق الأساقفة فى هذا الحين غاية النفوذ والاعتبار فى الدولة فكان ملوك الروم يعضدونهم على أغراضهم ويقومون بتنفيذ سائر رغائبهم ويبالغون فى تعظيمهم وإجلالهم ويخضعون لهم الخضوع التام بصفة كونهم أمناء الدين وكانوا يجنحون إلى صاحب الشوكة والاعتبار منهم ويميلون إلى حزبه ويساعدونه على تأييده ونصره فنجم عن ذلك ضعف نفوذ الحكام وتعطيل سير الأحكام وعجزهم عن العمل إلا بمشورة أولئك القوم حتى أنهم كانوا إذا استقلوا برأيهم فى شىء وعملوا بما تقتضيه مصلحة البلاد والشعب مثلاً كان ذلك الطامة الكبرى على أولئك الحكام فيعزلون أو يقتلون أو يبعدون إلى أقصى البلاد ولم يزل الحال على هذا الوصف حتى قامت الغيرة الدينية والحمية المذهبية بين الفرق على اختلافها وانتصر لكل مذهب من تلك المذاهب ملك من الملوك فى أيام سلطانه وحقد على باقى المذاهب وخالفها وعمل على تذليلها أو محو آثارها فكانت الفتنة لا تكف إلا أياماً ثم تهب بأشد مما كانت عليه حتى افتتنت العائلات وحقد الأب على ولده والزوجة على زوجها والأخ على أخيه والابنة على أمها، هذا ما كان فى القسطنطينية وقد امتد عرقه إلى ديار مصر وسرى فى أهلها وأمناء الدين بها فاختلفت فيها أيضاً المذاهب وتشعبت المشارب وتفرقت الفرق وتحزبت الأحزاب وكان كل حزب منها له كمال النفوذ والسلطة على الحاكم السياسى فقامت من وراء ذلك الفتن وعمت الخطوب والإحن وأريقت الدماء هدراً فى الشوارع والأزقة لاسيما بمدينة الإسكندرية وليس ذلك بين أمناء الدين والمتجادلين من المسيحيين فقط بل بين اليهود والمسيحيين أيضاً لما بين الفريقين من البغضاء والشحناء الكامنة فى الصدور وتربص كل فريق منهم الفرص للإيقاع بالآخر، قال بعض الكتاب: وبلغت سلطة أمناء الدين ونفوذهم يومئذ إلى حد أن جماعة الأساقفة أو واحد منهم افتات على نائب مصر من قبل الروم وجمع جموعاً كثيرةً جدًا من رهبان دير البرّية فصاروا جيشاً ضخماً وسار بهم لقتال يهود الإسكندرية فهمّ النائب بمنع ذلك فلم يقدر إذ قام على أصحابه أولئك الرهبان وضربوا وجرحوا منهم خلقاً كثيراً وقبضوا على خدامه ففر هارباً ومن كان معه إلى مصر واستصرخ أهلها واستنصرهم فقاموا لنصرته وقبضوا على رئيس الفتنة فحوكم وحكم عليه بالجلد ومازالوا يجلدونه حتى قضوا عليه.

وقد عظم الهول فى ديار مصر واشتد عليها الكرب فى القرن الذى قبل الهجرة اشتداداً عظيماً رغماً عن كل ما بذله بعض ملوك الروم من العناية بمنع الشقاق

والخصام وتوحيد رابطة الدين فى جميع البلاد المشرقية حتى إنهم كانوا كلما شددوا فى ذلك زادت الشحناء وقويت حميتهم المذهبية وتزايد عنادهم وتفرقت كلمتهم لاسيما وقد كانوا لا يعترفون لملوك الروم بحق التعرض للأمور الدينية بوجه ما، قال بعض الكتاب: وقد بلغ التعصب إلى حد أن فرقة المتأصلين بكنيسة الإسكندرية تفرقت إلى عشر مذاهب مختلفة كان يسميها الملكيون قسوس الهراطقة كما كان المتأصلون يسمون أيضا الملكيين هراطقة ومعناها خوارج وكان القسيسون العشرة المذكورون فى كنيسة الإسكندرية فى أيام الملك زينون قيصر فلما علم بأمرهم وما هم عليه من الخلاف غضب وزاد المال المقرر على مصر فبلغ خمسمائة رطل ذهب فلما ملك انسطاش قيصر بعد زينون نظم دفتر العوائد تنظيماً حتى أكثر الإيراد كثرة بالغة واشتدّت وطأة هذه العوائد على أهل البلاد فأصبحوا فى قلق دائم وكمد ملازم ثم نهضوا إلى شق عصا الطاعة فاشتدت نار الفتنة وحدث من الحوادث ذات الشأن ما لا يكاد يسمع بنظيره فى غابر الزمان فعمت بذلك الفوضوية وتوالى قيام الأهالى فى الأزقة والحارات وكثر الخوف بقطع الطرقات وتتابع الحريق والتخريب ونتج من ذلك كله ما ترتب على حصول الفتن الداخلية من البلايا والرزايا والخراب ودرس معالم العمران والمدنية وما هذا إلا لاختلاف المذاهب وتفرق الشيع وتحزب الأحزاب وتعصب ولاة الأمور لفريق دون الآخر وقد اجتمعت كلمة أصحاب التاريخ على أنه لم يدب عرق هذا الفساد فى ديار مصر إلا بعد أن فتحها ملوك القسطنطينية حيث كثر فيها الخلل وعمت القلاقل وفشا فيها الانهماك على الكبائر من الأعيان والأكابر والعربدة من الجنود والأصاغر ولم يكن لديها باعث آخر لإثارة نار هذه الفتن غير ما أوجبه الدين فكان هذا من أسباب فتوح الإسلام للبلاد ودخولها فى دور آخر غريب لم يكن لعامتها فى حساب وفى خلال هذه الخطوب المهمة والكروب المدلهمة وطئ العرب أرض الشام وطرقوها وقصد المغاربة ديار مصر وكادوا يحتلونها فقام عليهم عامل الروم ودهمهم بالعساكر المصرية وأبعدهم فكانوا يعاودون الكرة عليها حيناً بعد حين ولا ينفكون عنها طمعاً فيما باتت فيه من الضعف وتفريق الكلمة.

ولما اشتدت المنازعات الدينية وعلا لهيبها بين فريقى المتأصلين والملكية وطالت أيام الفتنة وضاق خناق أهل البلاد وأعيتهم الحيل من الأخذ والرد نهضوا إلى الاستنجاد بالعرب على التخلص من الروم كما استنجد شاور وزير العاضد العلوى على الترك بالروم فحببوا إلى المقوقس عظيمهم أن يراسل صاحب الشريعة الإسلامية ويخاطبه فى الأمر ففعل وبقى السر مكتوماً لا يعلم به أحد حتى استخلف عمر بن

الخطاب فكان من قدوم العرب إلى مصر ونزولهم على بلادها ومعاونة القبط لهم على قتال الروم وتمهيدهم السبل والعقبات أمام جيوش المسلمين وإمدادهم بالمال والميرة وجميع الاحتياجات الجندية ما سيذكر فى محله.

وكان آخر ملوك القسطنطينية على ديار مصر قبل الفتح الإسلامى الملك هرقل وكان نائبه عليها المقوقس عظيم القبط فكان عدد ملوك القسطنطينية خمسة عشر ملكاً أولهم طيودوسيس وآخرهم هرقل المذكور وكانت مدة ملكهم مائتين وتسعا وخمسين سنة كما رواه أكثر أهل التاريخ.

* * *

(تم الجزء الأول ويليه الجزء الثانى)

مبتدئاً بفذلكة من تاريخ العرب فى الجاهلية إلى ظهور صاحب الشريعة الإسلامية. ثم تاريخهم فى الإسلام إلى مجىء السلطان سليم بجيوشه وأخذه البلاد عنوة ولبسه شعار الخلافة فى سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة هجرية أى سنة سبع عشرة وخمسمائة وألف ميلادية

والله سبحانه المستعان.

صفحات من تاريخ مصر

٢/٤٨

الكافى

فى
تاريخ مصر القديم والحديث

لمؤلفه
ميخائيل شاروبيم بك
رئيس النيابة العمومية بمحكمة المنصورة الأهلية
والمفتش بنظارة المالية الجليلة
عفى الله عنه

الجزء الثانى

عن الفترة من
٦٤٠ م إلى سنة ١٥١٢م
٢٠ هـ إلى سنة ٩٢٢ هـ

الناشر
مكتبة مدبولى
٦ ميدان طلعت حرب . القاهرة

هذه السلسلة تضم :

١ – فتح العرب لمصر
٢ – تاريخ مصر إلى الفتح العثماني
٣ – الجيش المصري البري والبحري في عهد محمد علي
٤ – تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي
٥ – تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل
٦ – تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر
٧ – ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا
٨ – تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا (مجلد أول)
٩ – تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا (مجلد ثاني)
١٠ – فتوح مصر وأخبارها
١١ – تاريخ مصر الحديث مع فزلكة في تاريخ مصر القديم
١٢ – قوانين الدواوين
١٣ – تاريخ مصر من محمد علي إلى العصر الحديث
١٤ – الحكم المصري في الشام
١٥ – تاريخ الخديوي محمد باشا توفيق
١٦ – آثار الزعيم سعد زغلول
١٧ – مذكراتي
١٨ – الجيش المصري في الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم
١٩ – وادي النطرون ورهبانه وأديرته ومختصر البطاركة
٢٠ – الجمعية الأثرية المصرية في صحراء العرب والأديرة الشرقية
٢١ – الرحلة الأولى للبحث عن ينابيع البحر الأبيض (النيل الأبيض)
٢٢ – السلطان قلاوون (تاريخه – أحوال مصر في عهده – منشآته المعمارية)
٢٣ – صفوة العصر
٢٤ – المماليك في مصر
٢٥ – تاريخ دولة المماليك في مصر
٢٦ – سلاطين بني عثمان
٢٧ – محمود فهمي النقراشي
٢٨ – دور القصر في الحياة السياسية
٢٩ – مذكرات اللورد كيللرن
٣٠ – عادات المصريين
٣١ – خنقاوات الصوفية ج ١
٣٢ – خنقاوات الصوفية ج ٢
٣٣ – تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الملوك والسلاطين
٣٤ – تاريخ عمرو بن العاص
٣٥ – دور القبائل العربية في صعيد مصر
٣٦ – علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب
٣٧ – عبد الرحمن الجبرتي ٥ أجزاء
٣٨ – مصر في العصر العثماني في القرن ٦
٣٩ – خطط المقريزى ٣ أجزاء (محققة منقحة في ٢٧٥٠ صفحة)
٤٠ – صفحات من تاريخ مصر (صليب باشا سامى)
٤١ – صفحات من تاريخ مصر (سيد مرعى)
٤٢ – سلار الأمير التتري المسلم
٤٣ – مالية مصر
٤٤ – الموسيقى الشرقية
٤٥ – الدليل في موارد أعالي النيل
٤٦ – الموسيقى الشرقي
٤٧ - النخبة المصرية الحاكمة ١٩٥٢-٠
٤٨ - الكافي في تاريخ مصر- ٤ أجزاء

مكتبة مدبولى
٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة - ت : ٥٧٥٦٤٢١

MADBOULI BOOKSHOP
6 Talat Harb SQ. Tel.: 5756421

الكافى

فى تاريخ مصر القديم والحديث

من سنة 640 م. إلى سنة 1512م

20 هـ إلى سنة 922 هـ

الكتاب: **الكافى**
الكاتب: **ميخائيل شاروبيم بك**
الناشر: **مكتبة مدبولى**
الطبعة: **ت: ٥٧٥٦٤٢١**
الأولى: ١٨٩٨م ـ ١٣١٥هـ
الثانية: ٢٠٠٤م ـ ١٤٢٥هـ
رقم الإيداع:

مراجعة لغوية: **عبد النبى محمد**

صفحات من تاريخ مصر ٢/٤٨

الكافى

فى

تاريخ مصر القديم والحديث

لمؤلفه
ميخائيل شاروبيم بك
رئيس النيابة العمومية بمحكمة المنصورة الأهلية
والمفتش بنظارة المالية الجليلة
عفى الله عنه

الجزء الثانى

عن الفترة من
٦٤٠ م إلى سنة ١٥١٢م
٢٠ هـ إلى سنة ٩٢٢ هـ

الناشر
مكتبة مدبولى
٦ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة

المحتويات

المحتوى الصفحة

(المقالة الأولى)

فى أخبار العرب فى الجاهلية وفيها فصول: ١٣
الفصل الأول: فى نسب العرب وطوائفهم. ١٣
الفصل الثانى: فى أديان العرب فى الجاهلية. ٣٠
الفصل الثالث: فى علوم العرب وآدابهم. ٣٣
الفصل الرابع: فيما كانت عليه قريش قبل الإسلام. ٣٨

(المقالة الثانية)

فيما كان بظهور الإسلام وفيه فصول

الفصل الأول: فى ظهور صاحب الشريعة الإسلامية ٤١
الفصل الثانى: فى حمزة صاحب الشريعة وفى غزواته وما وقع بعد ذلك. ٤٧
الفصل الثالث: فى فتح مكة. ٥٤
الفصل الرابع: فى ذكر مرض صاحب الشريعة ووفاته. ٥٦

المحتوى الصفحة

(المقالة الثالثة)

فى الخلفاء الراشدين وفيها فصول:

الفصل الأول: خلافة أبى بكر الصديق ٦٣
الفصل الثانى: فى خلافة عمر بن الخطاب. ٦٥

مطلب

فى الخلاف بين العلماء فى مصر هل فتحت صلحاً أو عنوة؟ ٧٤
الفصل الثالث: فى خلافة عثمان بن عفان ٨٤
الفصل الرابع: فى خلافة أمير المؤمنين على بن أبى طالب ٩٢
الفصل الخامس: فى خلافة أمير المؤمنين حسن بن على ١١٣

(المقالة الرابعة)

الفصل الأول: فى خلافة معاوية بن أبى سفيان ١١٧
الفصل الثانى: فى خلافة يزيد بن معاوية ١٢٤
الفصل الثالث: فى خلافة معاوية بن

يزيد بن معاوية بن أبى سفيان ١٣٢

الفصل الرابع: فى خلافة مروان بن الحكم المعروف بالطريد ١٣٣

الفصل الخامس: فى خلافة عبد الملك ابن مروان ١٣٥

الفصل السادس: فى خلافة الوليد بن عبد الملك ١٤٢

الفصل السابع: فى خلافة سليمان بن عبد الملك ١٤٤

الفصل الثامن: فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ١٤٧

الفصل التاسع: فى خلافة يزيد بن عبد الملك ١٥٣

الفصل العاشر: فى خلافة هشام بن عبد الملك ١٥٧

الفصل الحادى عشر: فى خلافة الوليد ابن يزيد بن عبد الملك ١٦٢

الفصل الثانى عشر: فى خلافة يزيد بن الوليد بن عبد الملك ١٦٦

الفصل الثالث عشر: فى خلافة إبراهيم ابن الوليد ١٦٧

الفصل الرابع عشر: فى خلافة مرون ابن محمد ١٦٨

(فصل)
فى كيفية الدعوة لبنى العباس
وفى ظهور دولتهم ١٧٢

(المقالة الخامسة)

فى الخلفاء العباسيين وفيها فصول:

الفصل الأول: فى خلافة أبى العباس السفاح ١٨١

الفصل الثانى: فى خلافة أبى جعفر المنصور ١٨٧

الفصل الثالث: فى خلافة محمد المهدى ٢٠٣

الفصل الرابع: فى خلافة موسى الهادى ٢٠٨

الفصل الخامس: فى خلافة هارون الرشيد ٢١٣

الفصل السادس: فى خلافة محمد الأمين بن هارون الرشيد ٢٢٣

الفصل السابع: فى خلافة عبد الله المأمون بن هارون الرشيد ٢٢٩

الفصل الثامن: فى خلافة أبى إسحاق إبراهيم بن هارون الرشيد ٢٣٧

الفصل التاسع: فى خلافة هارون الواثق بالله ٢٤٢

الفصل العاشر: فى خلافة جعفر المتوكل على الله ٢٤٥

الفصل الحادى عشر: فى خلافة محمد المنتصر بالله ٢٥٤

الفصل الثانى عشر: فى خلافة أحمد المستعين بالله ٢٦٠

الفصل الثالث عشر: فى خلافة المعتز بالله من جعفر المتوكل ٢٦٥

فى ترجمة أحمد بن طولون، وفى ظهور دولته بديار مصر ٢٦٨

الفصل الرابع عشر: فى خلافة جعفر المهتدى بالله هارون ٢٧٢

الفصل الخامس عشر: فى خلافة أبى القاسم أحمد المعتمد على الله بن المتوكل ٢٧٦

الفصل السادس عشر: فى خلافة أبى العباس أحمد المعتضد بالله بن الموفق ٢٩١

الفصل السابع عشر: فى خلافة أبى محمد على المكتفى بالله بن المعتضد ٣٠٠

الفصل الثامن عشر: فى خلافة أبى الفضل جعفر المقتدر بالله ٣٠٧

الفصل التاسع عشر: فى خلافة القاهر بالله محمد بن أحمد المعتضد ٣١٦

الفصل العشرون: فى خلافة أبى العباس أحمد الراضى بالله بن المقتدر ٣٢٣

وصل

(فى مبدأ الدولة الإخشيدية وفى كيفية ظهورها) ٣٢٨

الفصل الحادى والعشرون: فى خلافة أبى إسحاق إبراهيم المتقى لله بن المقتدر ٣٣٠

الفصل الثانى والعشرون: فى خلافة المستكفى بالله بن المكتفى ٣٣٤

الفصل الثالث والعشرون: فى خلافة أبى الفضل المطيع لله ابن المقتدر ٣٣٨

«وصل»

فيما قاله أصحاب التاريخ فى أصل الفاطميين وفى ظهور دولتهم بديار مصر ٣٤٤

الفصل الرابع والعشرون: فى خلافة أبى بكر بن عبد لكريم الطائع لله ٣٥٥

الفصل الخامس والعشرون: فى خلافة أبى العباس أحمد القادر بالله بن إسحق ٣٦٥

الفصل السادس والعشرون: فى خلافة أبى جعفر عبد الله القائم بأمر الله بن القادر بالله ٣٩٣

الفصل السابع والعشرون: فى خلافة أبى القاسم المقتدى بأمر الله محمد بن القائم بأمر الله ٣٩٦

الفصل الثامن والعشرون: فى خلافة المستظهر بالله أبى العباس أحمد ٤٠٦
الفصل التاسع والعشرون: فى خلافة أبى منصور الفضل المسترشد بالله بن المستظهر بالله ٤١٨
الفصل الثلاثون: فى خلافة أبى منصور جعفر الراشد بالله ٤٢٦
الفصل الحادى والثلاثون: فى خلافة أبى عبدالله محمد المقتفى لأمر الله ٤٢٨
الفصل الثانى والثلاثون: فى خلافة أبى المظفر يوسف المستنجد بالله بن المقتفى لأمر الله ٤٣٤
الفصل الثالث والثلاثون: فى خلافة المستضئ بنور الله بن المستنجد ٤٤٨
الفصل الرابع والثلاثون: فى خلافة أبى العباس أحمد الناصرلدين الله ٤٦٩
الفصل الخامس والثلاثون: فى خلافة الظاهر بأمر الله بن الناصر لدين الله ٥٠٦
الفصل السادس والثلاثون: فى خلافة المستنصر بالله إلى جعفر المنصور بن الظاهر بأمر الله ٥٠٧
الفصل السابع والثلاثون: فى خلافة المعتصم بالله بن المستنصر بالله ٥١٢

(المقالة السادسة)

فى كيفية ظهور الخلافة العباسية بالقاهرة بعد موت الخليفة المستعصم بالله وفيها فصول:

الفصل الأول: فى خلافة المستنصر بالله أحمد بن الخليفة الظاهر بالله ٥٢٦
الفصل الثانى: فى خلافة الحاكم بأمر الله بن المستظهر بالله العباسى ٥٢٨
الفصل الثالث: فى خلافة المستكفى بالله أبو الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله ٥٤٥
الفصل الرابع: فى خلافة إبراهيم الواثق بالله ولى العهد المستمسك بالله ٥٦٠
الفصل الخامس: فى خلافة الحاكم بأمر الله أحمد بن المستكفى بالله ٥٦٣

الفصل السادس: فى خلافة المعتضد بالله أبى الفتح بن أبى بكر المستكفى بالله ٥٧١
الفصل السابع: فى خلافة المتوكل على الله أبى عبد الله محمد ٥٧٦

(وصل)

فى أصل الجراكسة وفى طباعهم وأديانهم وفى منشأ دولتهم الثانية بديار مصر ٥٨٠

(لاحقة)

(فى أخلاق الجراكسة وعاداتهم) ٥٨٤

فصل

(فى الكلام على ما وقع فى أيام هذه الدولة أعنى دولة الجراكسة الثانية إلى انقراضها وزوال ملكها) ٥٨٨
الفصل الثامن: فى خلافة أبى الفضل المستعين بالله ابن المتوكل ٥٩٧
الفصل التاسع: فى خلافة أبى الفتح داود المعتضد ٦٠٠
الفصل العاشر: فى خلافة أبى الربيع سليمان المستكفى بالله ٦٠٤
الفصل الحادى عشر: فى خلافة أبى البقاء حمزة القائم بأمر الله ٦٠٥
الفصل الثانى عشر: فى خلافة أبى المحاسن يوسف المستنجد بالله ٦٠٧
الفصل الثالث عشر: فى خلافة عبد العزيز أبى المعز يعقوب بن المتوكل ٦١١
الفصل الرابع عشر: فى خلافة أبى صابر يعقوب المستمسك بالله ٦١٣
الفصل الخامس عشر: فى خلافة محمد المتوكل على الله ابن المستمسك ٦١٧

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

لما كان من الواجب معرفة بعض شىء من أخبار العرب فى الجاهلية وطباعهم وعوائدهم ونسبهم وسكناهم وغير ذلك مما يتعلق بتاريخ أيامهم قبل الإسلام تتميما للفائدة المقصودة من التاريخ ولكى لا يكون إتياننا على تاريخ دولهم بعد الإسلام قليل الفائدة فسنذكر هنا فذلكة من تاريخهم القديم نقلا عما جاءت به كبار أصحاب التاريخ من الشرقيين والغربيين لتكون مقدمة يتوصل بها القارئ إلى معرفة حوادث أيامهم فى مصر بعد الفتح.

وقد قسمنا هذا الجزء إلى ست مقالات وفى كل منها عدة فصول وبالله سبحانه الاستعانة وهو نعم المولى ونعم النصير.

المؤلف

(المقالة الأولى)

(فى أخبار العرب فى الجاهلية)

وفيها فصول

الفصل الأول

(فى نسب العرب وطوائفهم)

قال المقريزى: اختلف الكتاب فى نسب العرب وأصل تسميتهم فقال جماعة: إن اسمهم اشتق من الإعراب بمعنى الإبانة لقولهم أعرب الرجل عما فى ضميره إذا أبان عنه والأصح أنهم نسبوا إلى عربة وهى من تهامة ودعى جيلهم جيل الجاهلية لما كان عليه العرب من الجهل بالله وشرائع الدين والكبر والتجبر ا. هـ.

وقد قسم المؤرخون العرب إلى ثلاثة أقسام: عاربة ومتعربة ومستعربة ، أما العاربة فهم العرب الأول الذين ذهبت عنا تفاصيل أخبارهم لتقادم عهدهم وفى رواية أنهم قوم أتوا فى غابر الأزمان من الحبشة وعبروا إلى اليمن من بحر القلزم بالقرب من الموضع الذى فيه الآن عدن فاستوطنوا تلك الناحية ثم صار لهم بها مملكة ولم تزل دار ملكهم إلى أن خربت بسيل العرم، وأما العرب المتعربة فهم عرب اليمن من ولد قحطان، وأما العرب المستعربة فهم ولد إسماعيل، وفى رواية أنهم من إفريقية أيضاً ولكنهم عبروا إلى الحجاز من خليج العقبة وانتشروا فى البلاد حتى تاخموا العراق من جهة والشام من أخرى وخالطوا السريان والفرس واليهود ولذا كانت لغتهم إلى السريانية أقرب واختلط بها شىء من ألفاظ الفرس والعبريين أيضاً، وكان العرب العاربة شعوبا كثيرة وهم عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم الأولى وقد سمى أصحاب التاريخ هذا الجيل أيضاً بالعرب البائدة يعنى الهالكة لأنه لم يبق

على وجه الأرض أحد من نسلهم قالوا وربما سموا بالعرب العاربة إما بمعنى الراسخة فى العروبية كما يقال ليل أليل وصوم صائم أو بمعنى الفاعلة للعروبية والمبتدعة لها بما كانت فى أول أجيالها وقد استدل بعض المحققين على أصلهم الحبشى بشكل جماجمهم وما فى لغتهم من ألفاظ الحبشة كتبع من أسماء ملوكهم ومعناه القوى وحمير ومعناه الأحمر.

وأما بنو عاد فقد كانت مواطنهم الأولى بأحقاف الرمل بين اليمن وعمان إلى حضرموت والشحر وكان أبوهم عاد أول ملك من العرب وذكر المسعودى أن الذى ملك منهم بعد عاد شداد وهو الذى سار فى المهالك واستولى على كثير من بلاد الشام والهند والعراق ولما اتصل ملك عاد وعظم طغيانهم وعتوهم وانتحلوا عبادة الأصنام والأوثان أبادهم الله وهلكوا عن آخرهم .

وأما ثمود فكانت ديارهم بالحجر ووادى القرى فيما بين الحجاز والشام وكانوا ينحتون بيوتهم فى الجبال فكانوا أهل كفر وبغى فأنذرهم بعض الأنبياء فلم يصيخوا إلى دعائه فهلكوا جميعا حيث كانوا من الأرض ودرجوا فى الغابرين .

وأما جديس وطسم فكانت ديارهم اليمامة وهى إذ ذاك من أخصب البلاد وأعمرها وأكثرها ثمارا وحدائق وقصورا وكان ملك طسم غشوما مصابرا لجديس مستذلا لهم حتى قام الأسود وقتله غيلة.

وأما جرهم الأولى فكانت ديارهم باليمن وكانوا يتكلمون بالعربية فكانوا على عهد عاد ولتقادم انقراضهم ذهبت حقائق أخبارهم وانقطعت أسباب العلم بآثارهم قال بعض المحققين: وأما جرهم الثانية فليسوا من البائدة بل هم من ولد قحطان وبهم اتصل إسماعيل بن إبراهيم .

وانما سمى بنو قحطان الذين هم القسم الثانى بالمتعربة لنزولهم بالبادية مع العرب العاربة وتخلقهم بأخلاقهم وهم بنو قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام قال بعض أهل التاريخ: وقحطان هذا معرب يقطان وهو أول من ملك أرض اليمن ولبس التاج قبل الميلاد المسيحى بألفين وثلاثين سنة وكان بنو قحطان معاصرين لإخوانهم من العرب العاربة ومظاهرين لهم على أمورهم ولم يزالوا مجتمعين فى مجالات البادية مبعدين عن رتبة الملك وترفهه الذى كان لأولئك فأصبحوا بمنجاة من الهرم الذى يلزمه الترف والنضارة فتشعبت فى أرض الفضاء فصائلهم وتعددت فى جوّ القفر أفخاذهم وعشائرهم ونمى عددهم وكثر إخوانهم من العمالقة فى آخر جيلهم وزاحموهم بمناكبهم واستجدّوا خلق الدولة بما استأنفوه من عزهم وكانت

الدولة لبنى قحطان متصلة فيهم، قالوا: وكان يعرب بن قحطان من أعاظم ملوك العرب ويسمى أيضًا يمنا وبه سميت اليمن وهو أوّل من حياه ولده بقولهم (أبيت اللعن) و (أنعم صباحا) وقيل: إنه أول من نطق بالعربية وملك بعد يعرب ابنه يشجب وكان واهى العزيمة فاستبدّ أعمامه بما فى أيديهم من الممالك وملك من بعده ابنه عبد شمس وأكثر الغزو فى أقطار البلاد فسمى سبأ لكثرة ما سبى وكانت قاعدة ملكه مدينة صنعاء ومن مدنه مأرب على ثلاث مراحل منها.

وعظم أمر سبأ المذكور وعلت كلمته فبنى فى مأرب سدّا ما بين جبلين بالصخر والقار حقن به ماء العيون والأمطار وساق إليه سبعين واديا وترك فيه خروقا على قدر ما يحتاجون إليه فى سقيهم وهو الذى يسمى العرم ومات قبل أن يتمه فأتمه ملوك حمير من بعده وأقاموا فى جناته عن اليمين وعن الشمال ودولتهم يومئذ أوفر مما كانت وأترف وأبذخ وأعلى يدا وأظهر فلما طغوا وأعرضوا أجحفهم السيل وأغرق جناتهم وخربت أرضهم وتمزق ملكهم وصاروا أحاديث وكان هؤلاء التبابعة ملوكا عدة فى عصور متعاقبة وأحقاب متطاولة لم يضبطهم الحصر ولا تقيدت منهم الشوارد وربما كانوا يتجاوزون ملك اليمن إلى ما بعد عنهم من العراق والهند والمغرب فاختلفت لذلك أحوالهم ووقع اللبس فى نقل أخبار أيامهم ومع ذلك فسنأتى بإيراد ما صح منها على قدر الاستطاعة لعدم الوقوف على أخبارهم مدوّنة فى مؤلف واحد.

وكان لسبأ المذكور كثير من الأولاد وأشهرهم حمير وعمرو وكهلان فكانت التبابعة تعزى إلى حمير والمناذرة إلى عمرو وتنتهى الغسانية إلى كهلان، قال المسعودى: قيل لملوك اليمن تبابعة لأنه يتبع بعضهم بعضا كلما هلك واحد قام آخر ولم يسموا الملك منهم بتبع حتى يملك اليمن والشحر وحضرموت ومن لم يكن له شئ من هذا يسمى ملكاً ولا يقال له تبع ا. هـ.

قلت: وهذا خلاف ما يقوله غيره فى معنى تبع التى هى من الكلمات الحبشية وأما حمير فقد يعرف أيضا بالعرنجج وكان ظهوره قبل الميلاد المسيحى بألف وأربعمائة وثلاثين سنة وقيل هو أول من تتوّج بالذهب وأخرج ثمود من اليمن إلى الحجاز ثم ملك بعده ابنه وائل ولم يزل ملكهم على اليمن حتى مضت قرون وآل الأمر إلى شداد فغزا البلاد إلى أن بلغ أقصى المغرب وبنى المدائن والمصانع وأبقى الآثار العظيمة ثم اضطربت أحوال حمير وصار ملكهم فى طوائف إلى أن استقر فى الحارث وهو تبع الأوّل ثم فى بقية التبابعة وقد لقب الحارث بالرائش لأنه راش

الناس بالعطاء مما كان أصابه فى غزواته من السلب والغنائم .

ثم ملك أبرهة ذو المنار ثم افريقش وذلك قبل الميلاد بألف وثمان وتسعين سنة وذهب بقبائل العرب إلى إفريقية وبه سميت وساق البرابرة إليها ولما افتتح المغرب وسمع رطانتهم قال ما أكثر بربرتهم فسموا البرابرة ثم ملك بعد إفريقش أخوه عمرو ذو الأذعار ولم يحسن السيرة فى الرعية ولم يعبأ بوصاية أبيه أبرهة وكان أنشده عند وفاته .

يا عمرو إنك ما جهلت وصيتى إياك فاحفظها فإنك ترشد
يا عمرو لا والله ما ساد الورى فيما مضى إلا المعين المرفد
يا عمرو من يشرى العلا بنوا له كرما يقال له الجواد السيد
كل امرئ يا عمرو حاصد زرعه والزرع شيء لا محالة يحصد

ولما ذعرت حمير من جوره خلعت طاعته وقلدت الملك شرحبيل فجرى بين شرحبيل وذى الأذعار قتال شديد قتل فيه خلق كثير واستقل شرحبيل بالملك حتى مات ثم ملك بعده ابنه الهدهاد وذلك سنة خمس وستين وألف قبل الميلاد المسيحى ثم ملكت بلقيس ابنة الهدهاد وكانت على عهد سليمان عليه السلام ووفدت عليه بنفيس الهدايا وبقيت فى ملك اليمن عشرين سنة وماتت ثم قام بعدها بالملك مالك ناشر النعم لأنه قلد أعناق رعيته أطواق النعم والمنن وسار غازيا إلى المغرب فبلغ وادي الرمل فلم يجد فيه مجازا لكثرة الرمل وعبر بعض أصحابه فلم يرجعوا فأمر بصنم من نحاس نصب على شفير الوادى وكتب فى صدره بالخط المسند هذا الصنم لناشر النعم الحميرى ليس وراءه مذهب فلا يتكلف أحد ذلك فيعطب. **قلت:** ومن رام معرفة ما هو الوادى المذكور فليراجع ما قاله ابن خلدون فى مبدأ مقدمة تاريخه، ثم ملك بعد ناشر هذا ابنه أبو كرب شمر مرعش سمى بذلك لارتعاش كان به وهذا هو تبع الآخر وهو المشهور من ملوك التبابعة ذوى المغازي والآثار البعيدة وكان من أشد ملوك العرب نكاية بالأعداء وأبعدهم مغارا وقد حكم قبل الميلاد بمائتين وخمسين سنة. قال بعض أصحاب التاريخ: ووطئ أرض العراق وفارس وخراسان وافتتح مدائنهم وخرب مدينة الصغد وراء جيحون فقالت العجم شمركند (أى شمر خرب) يعني خرب البلاد وبنى مدينة هنالك فسميت باسمه هذا وعرّبته العرب فصار سمرقند وشخص من اليمن غازيا ومر بالحيرة فتحير عسكره ثم رجع إلى اليمن وهابه الملوك وهادنوه وأخذ بدين اليهودية بإغراء بعض أحبار اليهود من بنى قريظة

ثم عاد إلى غزو بلاد فارس فوطأ المسالك وذللها وعمد إلى الصين. قال النويرى: وكان لملك الصين فى ذلك الزمان وزير شديد البأس سامى الهمة فلما بلغه مسير ملك اليمن جدع أنفه ولحق بأبى كرب وسعى إليه بأمره وشكى من ملك الصين وتظاهر أنه يدل أبا كرب على خلل يمكنه من الفرصة فى إلقاء بلادهم بالقياد وفتحها فسر به تبع وبالغ فى إكرامه وأصاخ لقوله فنهض الوزير بجيشه وهو يقدمهم حتى انتهى بهم إلى أرض مسبخة فتوغلوا فى فلوات سحيقة لا ماء فيها فأجهدهم العطش فماتوا. ا. هـ.

ثم قام بعده ابنه أبو مالك وهلك فى بعض غزواته وتعاقبت الملوك على اليمن دهرا طويلاً حتى ملك عمرو بن عامر الأزدى وقيل له مزيقيا لأنه كان يلبس كل يوم حلة فإذا أراد الدخول إلى مجلسه رمى بها فمزقت لئلا يجد أحد فيها ما يلبسه وقيل: إنه على عهده كان سيل العرم أى بعد الميلاد بثلثمائة سنة وستين اثنتين فانفجرت مياه سدّ مأرب فاحتمل السيل أنعامهم وخرّب ديارهم فتفرقت القبائل المجاورة له أيدى سبأ.

ولم تزل تتوالى الملوك على حمير حتى آل الملك فى سنة ثمانين وأربعمائة ميلادية إلى ذى نواس واتفق أهل الأخبار كلهم على أن ذا نواس هو ابن تبان أسعد واسمه زرعة وأنه لما تغلب على ملك آبائه التبابعة سمي يوسف وتعصب لدين اليهودية وحمل عليه قبائل اليمن فاستجمعت معه حمير على ذلك وأراد أن يكون أهل نجران عليها أيضاً وكانوا من بين العرب يدينون بالنصرانية ولهم فضل فى الدين واستقامة ولهم رأس يقال له عبد الله بن تامر، وكان هذا الدين وقع إليهم قديماً من بقية أصحاب الحواريين من رجل سقط لهم من ملك التبابعة يقال له (فيمون) وكان رجلاً صالحاً ورعاً مجتهداً فى العبادة مجاب الدعوة وظهرت على يديه الكرامات فى شفاء المرضى، وكان يطلب الخفاء عن الناس جهده، وكان لا يأكل إلا من كسب يده ويعظم يوم الأحد فلا يعمل فيه شيئاً ففطن لشأنه رجل من أهل الشام اسمه صالح فلزمه وخرجا فارين بأنفسهما حتى وصلا بلاد العرب فاختطفتهما سيارة فباعوهما بنجران وأهل نجران يومئذ على دين العرب يعبدون نخلة لهم طويلة ويعلقون عليها فى الأعياد من حليهم وملابسهم ويعكفون عليها أياماً وكان قد ابتاع (فيمون) رجل من أشرافهم وابتاع صالحاً آخر فكان فيمون إذا قام فى الليل فى بيت له أسكنه إياه سيده استسرج له البيت فوراً وهو فى غير مصباح حتى يصبح الصباح فأعجب سيده ما رأى منه فسأله عن دينه فأخبره به. وقال له: إنما أنتم على باطل وهذه الشجرة لا

تضر ولا تنفع ولو دعوت عليها إلهى الذى أعبده لأهلكها وهو وحده لا ند له. فقال له سيده: افعل فإنك إذا فعلت هذا دخلنا فى دينك وتركنا ما نحن عليه. قال الراوى: فدعا فيمون فأرسل الله ريحاً فقلعت النخلة من أصلها وأطبق أهل نجران على أتباع دين المسيح، فانتشرت من ذلك العهد النصرانية بنجران. وأما عبد الله بن تامر فكان يجلس إلى فيمون كل يوم ويسمع منه شيئاً عن المسيح حتى فقه وظهرت على يده الخوارق والمعجزات ودان الكل بدينه فسار إليهم ذو نواس بجنوده واستدعى رأسهم عبد الله بن تامر. وقال له: أفسدت علىّ أهل بلدى وخالفت دينى ودين آبائى ثم أمر به فقتل وعرض على أهل نجران القتل فلم يزدهم إلا ثباتا فى النصرانية فخدّد لهم الأخاديد وأوقد لهم نارا ثم امتحنهم فجعل يقول للرجل والمرأة، إما أن تترك دينك وإما أن نقذفك فى النار فيقول ما أنا تارك دينى لشىء فيقذف فيها فيحرق فبقيت امرأة ومعها صبى رضيع عمره سبعة أشهر فجزعت وتهيبت فقال لها الغلام يا أماه لا تنافقى فإنك على الحق ولم يتكلم من ذى قبل فاحترقت. قالوا: وقتل وأحرق ذو نواس حتى أهلك منهم فيما قال ابن إسحق عشرين ألفا أو يزيدون وأفلت منهم رجل اسمه درس، وكان من سبأ ويقال له أيضاً درس ذو ثعلبان فسلك الرمل على فرسه فأعجزهم فقدم على قيصر صاحب الروم يستنصره على ذى نواس، فلما علم القيصر حقيقة الخبر أخذ من ساعته فى التأهب لقتال ذى نواس وبعث إلى ملك الحبشة يأمره بنصره فجاءته السفن وأجاز فيها العساكر من الحبشة وأمر عليهم رجلا منهم اسمه أرياط وعهد إليه بقتلهم وسبيهم وخراب بلادهم فركبوا البحر ونزلوا ساحة اليمن فلقيهم ذو نواس فيمن معه فانهزم فلما رأى ذو نواس ما نزل به وبقومه وجه بفرسه إلى البحر وخاض ضحضاحه ثم أفضى به إلى غمرة فأغرقه فيها فكان آخر العهد به وانقرض بموته أمر التبابعة وذلك سنة تسع وعشرين وخمسمائة للميلاد، ووطىء من ثم أرياط اليمن بالحبشة وأذل رجالات حمير وهدم حصون الملك ثم انتقض على أرياط أبرهة أحد رؤساء جيشه وجذب معه رعاع الحبشة وغطاريفهم فاقتتلوا فحمل أرياط على أبرهة وعلا وجهه بالحربة فشرم أنفه وبذلك لقب بالأشرم وحمل أبرهة على أرياط بالسيف وعلا به رأسه فأسرع السيف فى دماغه وسقط عن جواده فمالوا حينئذ جميعاً وصاروا مع أبرهة وأقاموه ملكا. قال أهل التاريخ: وكان أبرهة رجلا قصيرا حادرا لحيما ومداحا ذا دين فى النصرانية فبنى بصنعاء إلى جانب غمدان كنيسة محكمة العمل وسماها القليس. قال ابن إسحق: وكان القليس مربعا مستوى التربيع وجعل طوله فى السماء ستين ذراعاً وجعل بين ذلك كله حجارة تسميها أهل اليمن الجردب منقوشة مطبقة لا يدخل بين

أطباقها الإبرة، وكان له باب من نحاس يفضى إلى بيت فى جوفه طوله ثمانون ذراعا فى أربعين ذراعا معلق العمل بالساج المنقوش ومسامير الذهب والفضة وعقوده مضروبة بالفسيفساء (شجرة بين أصنافها كواكب الذهب ظاهرة) ثم يدخل من البيت إلى قبة جدرها بالفسيفساء وفيها جلب منقوشة بالذهب والفضة وفيها رخامة مما يلى مطلع الشمس من البلق مربعة تعشى عين من نظر إليها من بطن القبة تؤدّى ضوء الشمس والقمر إلى داخل القبة وكان تحت الرخامة منبر من خشب اللبخ وهو الآبنوس مفصل بالعاج ودرج المنبر من خشب الساج ملبسة ذهبا وفضة . اهـ.

وانتشر خبر بناء هذا البيت فى العرب فلما كانت سنة ثمان وسبعين وخمسمائة للميلاد مات أبرهة فملك بعده ابنه يكسوم وبه كان يكنى واستفحل ملكه وعلت كلمته وأذل حمير وقبائل اليمن فقتل رجالهم واستخدم أبناءهم، ثم مات يكسوم فملك مكانه أخوه مسروق وكان طاغية جبارا ساءت سيرته وكثر عسفه، قال ابن خلدون: ولما طال البلاء من الحبشة على أهل اليمن خرج سيف ذى يزن الحميرى من الأذواء بقية ذلك السلف وعقب أولئك الملوك وذيال الدولة المفوض بالخمرد وقدم على قيصر يوستينس يستنجده على الحبشة فأبى. وقال: الحبشة على دين النصارى فرجع إلى كسرى وقدم الحيرة على النعمان بن المنذر عامل فارس على الحيرة وما يليها من أرض العرب فشكا إليه واستمهله الضمان إلى حين وفادته على كسرى ووفد معه وسأله النصر على الحبشة وشاور أهل دولته فقالوا: فى سجونك رجال حبستهم للقتل ابعثهم معهم فإن هلكوا كان الذى أردت بهم وإن ملكوا كان ملكاً ازددته على ملكك فأحصوا بثمانمائة وقدم عليهم أفضلهم وأعظمهم بيتا وأكبرهم نسباً واسمه وهزر الديلى فتواقفوا للحرب وأمر وهزر ابنه أن يناوشهم القتال فقتلوه وأحفظه ذلك. فقال أرونى ملكهم فأروه إياه على فيل عليه تاجه وبين عينيه ياقوتة حمراء فرماه بسهم فصك الياقوتة بين عينيه وتغلغل فى دماغه وتنكس عن دابته وداروا به فحمل القوم عليهم وانهزمت الحبشة فى كل وجه وفنى ملكهم فى اليمن بعد أن توارثه أربعة فى ثنتين وسبعين سنة وانصرف وهزر إلى كسرى بعد أن خلف سبأ على اليمن فى جماعة من الفرس ضمهم إليه على فريضة يؤدّيها كل عام وجعله لنظر ابن ذى يزن وأنزله بصنعاء وانفرد ابن ذى يزن بسلطانه ونزل قصر الملك وهو رأس غمدان. يقال: أن الضحاك بناه على اسم الزهرة وهو أحد البيوت السبعة الموضوعة على أسماء الكواكب وروحانيتها (وقد خرب فى خلافة عثمان) ولما استوثق لذى يزن الملك جعل يعتسف الحبشة ويقتلهم حتى إذا لم يبق إلا القليل

جعلهم خولا واتخذ منهم طوابير يسعون بين يديه بالحراب فخرج يوماً وهم يسعون بين يديه فلما انفردوا به عن الناس رموه بالحراب فقتلوه فأرسل كسرى عاملاً على اليمن واستمرت عماله إلى أن كان آخرهم باذان فأسلم وصارت اليمن للإسلام بعد ذلك.

قال الأصفهاني: أما أخبار العرب بالعراق في الجيل الأول فلم تصل إلينا تفاصيلها وشرح حالها إلا أنه لما حدث سيل العرم تمزقت عرب اليمن من مدينة مأرب إلى العراق والشام فكانت تنوخ وقضاعة وهما حيان من أحياء الأزد من بنى كهلان ممن تمزق إلى العراق. فقال مالك بن فهم الأزدى لمالك بن القضاعى: نقيم بالبحرين ونتحالف على من ناوأنا فتحالفوا فسموا تنوخ وذلك فى أيام ملوك الطوائف فنظروا إلى العراق وعليها طائفة من ملوكها وهى شاغرة فخرجوا من البحرين وسارت الأزد إلى العراق مع مالك بن فهم الأزدى وسارت قضاعة إلى الشام مع مالك القضاعى.

وأول من تملك على تنوخ فى العراق مالك بن فهم وذلك سنة خمس وتسعين ومائة للميلاد، وكان منزله بالأنبار فبقى بها إلى أن رماه سليمة بن مالك رمية بالليل وهو لا يعرفه فلما علم أن سليمة راميه قال:

جزاني لا جزاه الله خيراً ... سليمة إنه شراً جزاني
أعلمه الرماية كل يوم ... فلما اشتدّ ساعده رماني

فلما قال هذين البيتين فاظ (أى مات) وهرب سليمة ثم ملك من بعد مالك جذيمة الأبرش سنة إحدى وخمسين ومائتين للميلاد، وكان ثاقب الرأى بعيد المغار شديد النكاية ظاهر الحزم وهو أوّل من غزا بالجيوش وشنّ الغارات على قبائل العرب، وكان به برص فأكبرته العرب على أن تنعته به إعظاماً له فسمته جذيمة الأبرش وجذيمة الوضاح واستولى على السواد ما بين الحيرة والأنبار وسائر القرى المجاورة لبادية العرب وكان يجبى أموالها وغزا طسما وجديسا فى منازلهما من اليمامة وفيه قال الشاعر:

أضحى جذيمة فى أشراف منزله ... قد حاز ما جمعت فى عصرها عاد

وطال ملكه إلى أن أدرك ملك سابور بن أشك وكان جذيمة قد ملك معدا وبعض اليمن وغزا فى آخر عمره الشام وقتل عمر بن حسان بن أذينة والد الزباء

ملكة الطوائف فانطوت له الزباء على طلب الثأر حتى قتلته، وكان ملك جذيمة نحو ستين سنة بالتقريب . اهـ.

ولما مات جذيمة المذكور ورث الملك بعده ابن أخته عمرو بن عدى وذلك سنة ثمان وستين ومائتين للميلاد وأمه رقاش، وهو الذى اتخذ الحيرة منزلاً من ملوك العرب، وأول ملك يعده الحيريون فى كتبهم من ملوك عرب العراق وملوك العراق ينتسبون إليه: فلما استقرّت به السلطنة همّ بطلب الثأر من الزباء بخاله جذيمة فلما أحست الزباء بنيته تحصنت فى معقل فصارت أمنع من عقاب فعمد عمرو إلى قصير وزيره فجدع أنفه بمواطأة منه على ذلك وألحقه بالزباء يشكو ما أصابه من عمرو وأنه اتهمه بمداخلة الزباء فى أمر خاله جذيمة وقال لها: وما رأيت بعد ما فعل بى أنكى له من أن أكون معك فأكرمته وقرّبته فلما تحقق منها الوثوق به غرّها وأسلم حصنها إلى عمرو فلاحمها بالسيف وأصاب ما أصاب من المدينة وانكفأ راجعا فبقى عمرو ملكا مدة عمره منفردا بملكه مستبدّا بأمره يغزو المغازى ويفوز بالغنائم وتجبى إليه الأموال وتفد عليه الوفود ولا يدين لملوك الطوائف بالعراق حتى قدم أزدشير بن بابك فى أهل فارس أرض العراق فضبطها وقهر من كان له بها مناويا حتى حملهم على ما أراد مما يوافقهم ومما لا يوافقهم فكره كثير من تنوخ مجاورة العراق على الصغار فخرج من كان منهم من قبائل قضاعة الذين كانوا أقبلوا على مالك فى أيام ملكه فلحقوا بالشام وانضموا إلى من هناك من قضاعة فكان إذا أحدث ناس من العرب أحداثاً فى قومهم أو ضاقت معيشتهم يخرجون إلى ريف العراق وينزلون الحيرة. قال أهل التاريخ: فكان ذلك على أكثرهم هجنة وصار أهل الحيرة ثلاثة أثلاث. الثلث الأوّل تنوخ وهم من كان يسكن المظال وبيوت الشعر والوبر فى غربى الفرات ما بين الحيرة إلى الأنبار فما فوقها والثلث الثانى العباد وهم الذين سكنوا رقعة الحيرة فابتنوا بها والثلث الثالث الأحلاف، وعمرت الحيرة أيام ملك عمرو بن عدى باتخاذه إياها منزلا وعظم شأنها إلى أن وضع فى الكوفة ونزلها عرب الإسلام.

ولما مات عمرو ملك بعده امرؤ القيس البدء وهو الأول فى كلامهم وهو أول من تنصر من ملوك آل نصر وعمال الفرس. ثم ولى مكانه ابنه عمرو سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة للميلاد ثم أعقبه أوس بن قلام العمليقى خمس سنين ثم ثار به محجب أحد بنى فزان فقتله سنة ثمان وستين وثلثمائة وولى مكانه مدة ثم ولى من بعده امرؤ القيس الثانى سنة ثمان وستين وثلثمائة للميلاد ويعرف امرؤ القيس هذا

بالمنذر والمحرّق لأنه أول من عاقب بالنار وهو الذى ذكره الأسود بن يعفر فى قوله: ماذا أؤمل بعد آل محرق. ثم ملك بعده ابنه النعمان الأعور السائح صاحب الخورنق والسدير، وكان النعمان هذا فى أيام يزدجرد فدفع إليه ابنه بهرام ليربيه وأمر ببناء الخورنق مسكنا لابنه فأسكنه إياه وأحسن تربيته وتأديبه وجاء بمن يلقنه الخلال من العلوم والآداب والفروسية حتى نبغ وفاز بما رضيه، وكان النعمان من أشد ملوك العرب نكاية فى الأعداء وأبعدهم مغارا قد أتى الشام مرارا كثيرة وأكثر المصائب فى أهلها وسبى وغنم، وكان ملك فارس ينفذ معه كتيبتين من المقاتلين الشهباء وأهل الفرس ودوس وأهلها تنوخ فكان يغزو بهما من لا يدين له من العرب وكان صارماً حازماً ضابطاً لملكه قد اجتمع له من الأموال والخول والرقيق ما لم يملكه أحد من ملوك الحيرة والحيرة يومئذ ساحل الفرات، ولما أتى على النعمان ثلاثون سنة تنصر على يد بعض وزرائه ثم زهد وترك الملك ولبس المسوح وخرج على وجهه فلم يوقف له على أثر، حكى عن سبب زهده أنه لما بنى الخورنق والسدير أشرف عليهما يوما فأعجبه ما أوتى من الملك والسعة ونفوذ الأمر وإقبال الوجوه عليه فقال لأصحابه: هل أوتى أحد مثل ما أوتيت أنا؟ فقال له حكيم من حكماء أصحابه: أهذا الذى أوتيت شيء لم يزل ولا يزول أو شيء كان لمن قبلك وزال عنه وصار إليك. قال: بل شيء كان لمن قبلى زال عنه وصار إلىّ وسيزول عنى فقال الحكيم: فسررت بشيء تذهب عنك لذته وتبقى تبعته؟ قال فأين المهرب؟ قال: إما أن تقيم وتعمل بطاعة الله أو تلبس أمساحاً وتلحق بجبل تعبد ربك فيه وتفرّ من الناس حتى يأتيك أجلك. قال: فإذا فعلت ذلك فمالى؟ قال حياة لا تموت وشباب لا يهرم وصحة لا تسقم وملك جديد لا يبلى. قال: فأى خير فيما يفنى؟ والله لأطلبن عيشا لا يزول أبداً فانخلع من ملكه ولبس الأمساج وساح فى الأرض وتبعه الحكيم وصارا يسيحان ويعبدان الله تعالى حتى ماتا وفيه يقول عدىّ بن زيد:

وتفكر رب الخورنق إذا أشرف يوما والهدى تفكير
سره ماله وكثرة ما يملك والبحر معرضا والسدير
فارعوى قلبه وقال فما غبطة حيّ إلى الممات يصير
ثم بعد الفلاح والملك والنعمة وارتهم هناك القبور
ثم صاروا كأنهم ورق جف فألوت به الصبا والدبور

ولما تزهد النعمان تولى الأمر بعده ابنه المنذر الأول سنة عشرين وأربعمائة

للميلاد وكان أهل فارس ولوا عليهم شخصا من ولد أزدشير وعدلوا عن بهرام لنشئه بين العرب وخلوّه من آداب العجم فاستنجد بهرام بالعرب فجهز المنذر لبهرام المذكور وقام يطلب له ملكه وحاصر تخت الملك فأذعن له فارس وأطاعوه واستوهب المنذر ذنوبهم من بهرام فعفا عنهم واجتمع أمره ورجع المنذر إلى بلاده واشتغل باللهو إلى أن مات سنة اثنتين وستين وأربعمائة ميلادية، فقام بالأمر بعده النعمان الثانى وكان وزيره عدّى بن زيد النصرانى وكان عدّى المذكور ورعاً فتزهد ولبس المسوح سنة تسع وستين وأربعمائة للميلاد ويروى عن سبب تزهده أنه خرج متصيدا ومعه عدّى بن زيد وزيره المذكور فمرا بشجرة فقال عدّى: أيها الملك أتدرى ما تقول هذه الشجرة؟ قال لا. قال: إنها تقول:

من رآنا فليحدّث نفسه   أنه موف على قرب زوال
فصروف الدهر لا تبقى لها   ولما تأتي به صم الجبال
رب ركب قد أناخوا حولنا   يشربون الخمر بالماء الزلال
والأباريق عليها فدم   وجياد الخيل تجري بالجلال
عمروا الدهر بعيش حسن   ثم أفنى دهرهم غير عجال
عصف الدهر بهم فانقرضوا   ولذاك الدهر حال بعد حال

ثم جاوزا الشجرة فمرا بمقبرة فقال له عدى: أتدرى ما تقول هذه المقبرة؟ قال لا. قال: فإنها تقول:

أيها الركب المنجونا   على الأرض المجدّونا
كما أنتم كذا كنا   كما نحن تكونونا

فقال النعمان: قد علمت أن الشجرة والمقبرة لا يتكلمان وقد علمت أنك إنما أردت عظتى فجزاك الله عنى خيرا فما السبيل الذى تدرك به النجاة. قال: تدع عبادة الأوثان وتتنصر وتعبد الله تعالى وحده. قال وفى هذا النجاة؟ قال: نعم. قال: فترك عبادة الأوثان وتنصر حينئذ وأخذ فى العبادة والاجتهاد ثم تزهد كما تقدم فملك مكانه أخوه الأسود وهو الذى انتصر على عرب الشام وأسر عدة من ملوكهم ثم مات سنة إحدى وتسعين وأربعمائة، فملك بعده أخوه المنذر الثانى سبع سنين ثم ابن أخيه فى سنة ثمان وتسعين وهو النعمان الثالث ثم استخلف أبو يعفر بن علقمة الزميلى سنة ثلاث وخمسمائة. قال أهل التاريخ: وزميل بطن من لخم ثم ملك امرؤ

القيس الثالث سنة ست وخمسمائة وامرؤ القيس هذا هو الذى غزا بكرا يوم دارة فى دارها فكانت بكر قبله تقيم أود ملوك الحيرة وتعضدهم وهو أيضاً بانى الغريب والضبر وفيهما يقول جبير بن بلوغ:

ليت شعري متى تخب بنا النا   قة نحو الغريب والضبر

ولما مات امرؤ القيس الثالث قام بعده المنذر الثالث ابنه وهو ذو القرنين لضفيرتين كانتا له من شعره وأمه ماء السماء. قال الجنابى: وكان هذا لقبا لأبى عامر الأزدى لأنه كان يقيم ماله مقام القطر أى عطاء وجودا فغلب على بنيه لأنهم خلف منه وذكر أن مرة بن كلثوم قتله لخمسين سنة من ملكه وذلك سنة اثنتين وستين وخمسمائة ثم ملك من بعده الحارث بن عمرو الكندى الملقب بآكل المرار وكان شديد السلطان غزا تميما فى دارها فقتل مائة من بنى دارم يوم دارة الثانى بأخيه أسعد بن المنذر وكان ملكه ست عشرة سنة أى إلى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة للميلاد ثم ولى شقيقه قابوس أربع سنين فى زمن أنوشروان وكان فيه لين وكان ضعيفاً مهينا قتله ابن يشكر وسلبه سنة ثنتين وثمانين ثم ملك المنذر الرابع أخوه ثلاث سنين ثم النعمان الرابع أبو قابوس سنة ثنتين وثمانين وهو صاحب النابغة الذبيانى الذى بنى الغريين وتنصر أى اعتنق الديانة النصرانية.

وكان المنذر بن ماء السماء الملقب بأبى قابوس هذا قد نادمه رجلان من بنى أسد أحدهما خالد بن المضلل والآخر عمرو بن مسعود فأغضباه فى بعض المنطق فأمر بأن يحفر لكل واحد حفرة بظهر الحيرة ثم يجعلا فى تابوتين ويدفنا فى الحفرتين ففعل ذلك بهما حتى إذا أصبح سأل عنهما فأخبروه بهلاكهما فندم على ذلك وغمه جداً. وفى عمرو بن مسعود وخالد بن المضلل المذكورين يقول شاعر بنى أسد:

ياقبر بين بيوت آل محرّق   جادت عليك رواعد وبروق
أما البكاء فقل عنك كثيره   ولئن بكيت فللبكاء خليق

وركب المنذر حتى نظر إلى قبرهما فأمر ببناء الغريين عليهما فبنيا وجعل لنفسه يومين فى السنة يجلس فيهما عند الغريين يسمى أحدهما يوم نعيم والآخر يوم بؤس فأول من يطلع عليه يوم نعيمه يعطيه مائة من الإبل شوما أى سودا وأول من يطلع عليه يوم بؤسه يعطيه رأس ظربان أسود ثم يأمر به فيذبح ويغرى بدمه الغريين فلبث على هذا الحال برهة من دهره حتى مر به رجل من طيء يقال له حنظلة بن أبى عفراء كان آوى النعمان فى خبائه يوم خرج إلى الصيد وانفرد عن أصحابه بسبب

المطر فرحب به حنظلة وهو لا يعرفه وذبح له شاة فأطعمه من لحمها وسقاه لبنا فلما نظر إليه النعمان وافدا إليه ساءه ذلك جداً. وقال له: يا حنظلة هلا أتيت فى غير هذا اليوم؟ فقال: أبيت اللعن لم يكن لى علم بما أنت فيه. فقال له: أبشر بقتلك. فقال له: والله لقد أتيتك زائراً ولأهلى من خيرك مائرا فلا تكن ميرتهم قتلى. فقال لابد من ذلك فاسأل حاجة أقضها لك. فقال تؤجلنى سنة أرجع فيها إلى أهلى وأحكم من أمرهم ما أريد ثم أصير إليك فأنفذ فىّ حكمك. فقال: ومن يتكفل بك حتى تعود؟ فنظر فى وجوه جلسائه فعرف منهم شريك بن عمرو فأنشد:

ياشريك يا بن عمرو يا أخا من لا أخا له
ياأخا شيبان فك الـ ـيوم رهنا قد أناله
يا أخا كل مصاب وحيا من لا حيا له
إن شيبان قبيل أكرم الله رجاله
وأبوك الخير عمرو وشراحيل الحماله
رقياك اليوم فى المجـ ـد وفى حسن المقاله

فوثب شريك. وقال: أبيت اللعن يدى بيده ودمى بدمه وأمر للطائى بخمسمائة ناقة. وقد جعل الأجل عاما كاملا من ذلك اليوم إلى مثله من القابل فلما حال الحول وقد بقى من الأجل يوم واحد. قال النعمان لشريك: ما أراك إلا هالكا غدا فداء لحنظلة فقال شريك:

فإن يك صدر هذا اليوم ولى فإن غدا لناظره قريب

فذهب قوله مثلاً ولما أصبح النعمان وقف بين قبرى نديميه وأمر بقتل شريك. فقال له وزراؤه: ليس لك أن تقتله حتى يستوفى يومه فتركه النعمان. وكان يشتهى أن يقتله لينجو الطائى فلما آذنت الشمس بالمغيب قام شريك مجردا فى إزاره على النطع والسياف بجانبه. وكان النعمان قد أمر بقتله فلم يشعر إلا وراكب قد ظهر فإذا هو حنظلة الطائى تكفن وتحنط وجاء بنادبته فلما رآه النعمان. قال ما الذى جاء بك وقد أفلت من القتل؟ قال الوفاء: قال: وما دعاك إلى الوفاء؟ قال: إن لى دينا يمنعنى من الغدر. قال: وما دينك؟ قال النصرانية. قال: فأعرضها علىّ فعرضها عليه فتنصر النعمان وترك تلك السنة من ذلك اليوم وعفا عن شريك والطائى. وقال: ما أدرى أيكما أكرم وأوفى أهذا الذى نجا من السيف فعاد إليه أم هذا الذى

ضمنه وأنا لا أكون ألأم الثلاثة؟ قال الميدانى: وتنصر مع النعمان أهل الحيرة أجمعون، وبنى النعمان فى حاضرة ملكه الكنائس العظيمة ثم قتله كسرى بن هرمز أبرويز سنة أربع وستمائة للميلاد وانقطع الملك عن لخم ولم يلبث أن ظهر الإسلام بعد زمان، وكان آل جفنة عمال القياصرة على عرب الشام، كما كان المناذرة آل نصر فى آخر أمرهم عمالا للأكاسرة على عرب العراق وأصلهم من اليمن من الأزد بنى كهلان. قال أهل التاريخ: لأن الأزد لما أحست بمأرب انتقاض العرم وخشيت السيل تفرقت فتشاءم قوم فنزلوا على ماء يقال له غسان فصيروه شربهم فسموا غسان ثم أنزلهم ثعلبة بن عمرو الغسانى ببادية الشام والملوك بها من قبل القياصرة، وكانوا يدينون بالنصرانية فلما نزلت غسان بأرض الشام. كان لها قوم من سليح فضربوا على الغساسنة الإتاوة وكان الذى يلى جبايتها رجلا منهم اسمه سبيط فسار لجبايتها فاستبطؤه فقصد ثعلب كبيرهم. وقال له: لتعجلن لى الإتاوة أو لآخذن أهلك وكان ثعلب حليما. فقال: هل لك فيمن يربح عليك بالإتاوة؟ قال: نعم. قال: عليك بأخى جذع بن عمرو وكان جذع فاتكا فأتاه سبيط وخاطبه بما خاطب به ثعلبة فخرج عليه ومعه سيف مذهب. وقال: فيه عوض من حقك إلى أن أجمع لك الإتاوة. قال: نعم. قال. فخذه فتناول سبيط جفن السيف واستل جذع نصله وضربه به فقيل خذ من جذع ما أعطاك فذهبت مثلاً فوقعت الحرب بين سليح وغسان فأخرجت غسان سليحا من الشام وصاروا ملوكا واستقرّ ملك الغساسنة أربعمائة سنة ونيفا وكان أول ملوكهم جفنة بن عمرو المذكور وآخرهم جبلة بن الأيهم وهو الذى بنى مدينة جبلة بين طرابلس واللاذقية وسماها باسمه وكان قد أسلم فى زمن عمر بن الخطاب عند افتتاح الشام فسار إلى مكة يريد الحج بمائتين وخمسين نفرا من أصحابه فلما قرب من المدينة قلد أعناق خيله بقلائد الفضة والذهب ووضع تاجا على رأسه فلما بلغ عمر بن الخطاب قدومه تلقاه بموكب عظيم ورفع مقامه حتى كان يوم الطواف فبينما جبلة يطوف بالبيت إذ وطىء رجل من بنى فزارة طرف إزاره فانحل عنه الإزار فغضب جبلة من ذلك ولطم الفزارى لطمة هشم بها أنفه فتعلق به الرجل وانطلق إلى عمر ودمه يسيل على وجهه وشكا إليه حاله. فقال عمر لجبلة: أنت فى خيرة إما أن يلطمك هذا الرجل كما لطمته أو تفتدى اللطمة منه بالمال. فقال جبلة لعمر: أفلا يفضل عندكم ملك على سوقة؟ قال: كلا بل كلاهما فى الحق سيان فغضب جبلة من ذلك وصبر إلى الليل فاجتمع بغلمانه وخرج بهم حتى لحق بالشام وارتد إلى دينه ثم سار من هناك إلى قيصر وأقام عنده فتشعبت أولاده فى تلك البلاد

وتسموا بالأرنؤد. قلت: وقد عدّ أهل النقد ما وقع من عمر فى هذه الحادثة من الأسباب التى ترتب عليها شىء فى الإسلام.

ومن ملوك العرب ملوك بنى كندة الذين منهم امرؤ القيس الشاعر وهم من بنى زيد بن كهلان. قال أصحاب التاريخ: كانت كندة قبل أن يملك حجر عليهم بغير ملك فأكل القوى منهم الضعيف حتى ملك حجر. وكان تبع حين أقبل سائرا إلى العراق استعمله عليهم فسدّد أمورهم وساسهم أحسن سياسة وانتزع من اللخميين أرضهم وبقى وحده فى مملكته مطاعا لحسن سيرته إلى سنة ثلاث وخمسمائة للميلاد. ثم ملك بعده ابنه المقصور لأنه اقتصر على ملك أبيه ثم استخلفه الحارث وهذا عظم أمره وكبر شأنه حتى طرده أنوشروان وتبعته تغلب وعدة قبائل فظفروا بأمواله وبأربعين نفسا من بنى حجر فقتلهم المنذر عن آخرهم وكان منهم ابنان من ولد الحارث وفى ذلك يقول امرؤ القيس:

بنو أسد قتلوا ربهم ألا كل شىء سواه جلل

ثم استنجد امرؤ القيس ببكر وتغلب على بنى أسد فأنجدوه وهرب بنو أسد منهم فتبعهم فلم يظفر بهم ثم تخاذلت عنه بكر وتغلب وتطلبه المنذر بن ماء السماء فتفرقت جموع امرئ القيس خوفاً من المنذر وخاف امرؤ القيس من المنذر وصار يدخل على قبائل العرب وينتقل من أناس إلى أناس حتى قصد السموآل بن عادياء اليهودى فأكرمه وأنزله وأقام امرؤ القيس عند السموآل ما شاء الله ثم سار امرؤ القيس إلى قيصر ملك الروم مستنجدا به وأودع دروعه عند السموآل بن عادياء المذكور ومر على حماة وشيزر وقال فى مسيره قصيدته المشهورة:

بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه والحق أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك إنما نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

ومات امرؤ القيس بعد عوده من عند قيصر عند جبل يقال له عسيب ولما علم بموته هناك قال:

أجارتنا إن الخطوب تنوب وإنى مقيم ما أقام عسيب

ولما مات امرؤ القيس سار الحارث بن أبى شمر الغسانى إلى السموأل وطالبه بدروع امرئ القيس وماله عنده وكانت تلك الدروع مائة. وكان الحارث قد أسر ابن السموآل فلما امتنع السموأل عن تسليم ذلك إلى الحارث. قال الحارث: إما أن تسلم

الدروع وإما قتلت ابنك. فقال السموآل: لست أخفر ذمتى فافعل ما شئت فذبح ابنه والسموأل ينظر إليه وانصرف الملك على يأس فضرب العرب به المثل فى الوفاء.

أما العرب المستعربة الذين هم القسم الثالث وهم بنو عدنان بن إسماعيل فكانوا قد نزلوا بالحجاز وتولوا سدانة الكعبة وكانت الحجاز والكنان ديار العمالقة وكان لهم ملك هناك وكانت جرهم من تلك الطبقة، وكانت ديارهم اليمن مع إخوانهم من حضرموت وأصاب اليمن قحط ففروا نحو تهامة يطلبون الماء والمرعى. قال أصحاب التاريخ: وعثروا فى طريقهم بإسماعيل مع أمه هاجر فاحتلوا أسفل مكة واقتتلوا مع العمالقة فأبادوهم ونشأ إسماعيل بين جرهم وتكلم بلغتهم وتزوّج منهم.

قلت: وهذا القول غير معوّل عليه عند جماعة من المتأخرين وتوفى لمائة وثلاثين سنة من عمره ولم يزل أمرجرهم يعظم بمكة ويستفحل حتى ولوا البيت الحرام وكانوا ولاته وحجابه وولاة الأحكام بمكة. ولما طالت ولاية جرهم استحلوا من الحرم أموراً عظاماً واستخفوا بحرمة البيت العتيق فأبادهم الله. قالوا: لأنه لما خرب سدّ مأرب سار عمرو بن عامر وقومه من بلد إلى بلد لا يطأون بلدا إلا غلبوا عليها فلما قاربوا مكة أبت جرهم أن تفسح لهم واستكبروا فى أنفسهم. وقالوا: ما نحب أن تنزلوا فتضيقوا علينا مراتعنا ومواردنا فارحلوا عنا حيث أحببتم فلا حاجة لنا بجواركم فاقتتلوا ثلاثة أيام وانهزم جرهم فلم يفلت منهم إلا الشريد فيهدر دمه وذلك سنة سبع ومائتين للميلاد، ثم تفرقت قبائل اليمن وانخزعت خزاعة بمكة فولوا أمر مكة وحجابة الكعبة وسألهم بنو إسماعيل السكنى معهم فأذنوا لهم وأقاموا عليهم لحيا وهو ربيعة بن حارثة ملكا. وكان فيهم شريفاً سيدا مطاعا وبلغ بمكة من الشرف ما لم يبلغ عربى قبله وذهب اسمه فى العرب كل مذهب وقوله فيهم دينا متبعا. قال أصحاب التاريخ: وكان أول من أطعم الحاج بمكة سنائف الإبل ولحمانها على الثريد وكسا فى تلك السنة جميع حاج العرب كل واحد بثلاثة أثواب من برود اليمن. وهو الذى بحر البحيرة، ووصل الوصيلة، وحمى الحامى، وسيب السائبة، ونصب الأصنام حول الكعبة فكانت قريش والعرب تستقسم عنده بالأزلام وهو أول من غير الحنيفية دين إبراهيم.

وأقامت خزاعة ثلثمائة سنة فى سدانة البيت حتى قام قصىّ القرشىّ من بنى إسماعيل وعظم شرفه فرأى أنه أحق بالكعبة وبأمر مكة. وكانت ولاية الكعبة لأبى غبشان الخزاعى فباعها من قصى بزق خمر فقيل فيه أخسر من صفقة أبى غبشان ثم دعا قصىّ إليه رجالات قريش وأجمع لحرب خزاعة فتناجزوا وكثر القتل ثم صالحوه

على أن يحكموه الكعبة. وكان ذلك سنة سبع وخمسمائة للميلاد فصار لقصيّ لواء الحرب وحجابة البيت وتيمنت قريش برأيه وصرفوا مشورتهم إليه في قليل الأمور وكثيرها واتخذوا دار الندوة إزاء الكعبة فكانت مجتمع الملأ من قريش فى مشاوراتهم ومعاقدهم ثم تصدّى لإطعام الحاج وفرض على قريش خراجاً يؤدونه وما زال على هذا الحال حتى مات وقام بالأمر بعده بنوه بالقيادة فى كل موسم حتى جاء الإسلام.

وكان فى الجاهلية من كبارهم وأشرافهم بيوت معلومة يشار إليها. ويقال: إن أكبرهم وأشرفهم عبد مناف من ولد قصى بن كلاب القرشى وبنوه عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل ثم كانوا كذلك فى الإسلام. وكان عبد مناف يدعى عندهم أيضاً القمر والسيد والفهد واسمه المغيرة وإخوته عبد الدار وعبد العزى وكان اسمه أوّلاً عبد مناة بن كنانة بن خزيمة فأحيل إلى عبد مناف ومن أشرافهم أيضاً عبد المدان بن الريان بن قطن بن زياد بن الحارث بن مالك بن ربيعة الحارثى رهط من بنى الحرث بن زياد وأهل بيته بنو قتان وأولاده أخوال بنى العباس. قالوا: وهم من أشراف العالم وأكابر الدنيا وبه يضرب المثل للرجل العظيم. فيقال أشرف من ابن عبد المدان. قال لقيط بن زرارة:

شربت الخمر حتى خلت أني   أبو قابوس أو عبد المدان
أسير في بني عبس بن زيد   رخيّ البال منطلق اللسان

وكان العرب يعدون البيوتات المشهورة الكبيرة المعروفة بالشرف من القبائل بعد بيت هاشم الذى تقدم ذكره فى قريش ثلاثة بيوت. وقيل سبعة أولها بيت حذيفة بن بدر الفزارى وبيت قيس وبيت آل زرارة بن عدّى الداريين وبيت تميم وبيت آل ذى الجدّين بن عبد الله بن همام وبيت شيبان وبيت بنى الديان من بنى الحرث بن كعب بيت اليمن، وأما كندة فلا يعدّون من أهل البيوتات. وإنما كانوا ملوكاً كما تقدم أما علو شأن القرشيين فقد كان مترتباً على أن خزانة الكعبة كانت بيدهم فأثروا ثم نمت ثروتهم بالتجارة وكانوا من الدهاقين فيها فأصبح لهم بذلك ضرب من السؤدد وعلو الكلمة على باقى القبائل وزادهم مكانة أن سوق عكاظ كانت تقام ببلدهم مكة وكانت العرب تأتيها من كل صوب وحدب لا للتجارة فقط بل للمفاخرة وإثارة الحرب وإبرام الصلح وفعل ما يشجر بينها كما سيذكر ذلك مفصلا فى محله.

(الفصل الثانى)

(فى أديان العرب فى الجاهلية)

كانت العرب فى أول أمرها على غير دين مقرر حتى قدم عمرو بن لحى بصنم يقال له هبل فعكفوا على عبادته وبالغوا فى ذلك. وكان من أعظم أصنام قريش عندها فكان الرجل إذا قدم من سفر بدأ به على أهله بعد طوافه بالبيت وحلق رأسه عنده. وكان هبل هذا من خرز العقيق على صورة إنسان وكانت يده اليمنى مكسورة فأدركته قريش فجعلت له يدا من ذهب وكانت له خزانة للقربان وسبعة قداح يضربون بها إذا مستهم الحاجة ويقولون:

إنا اختلفنا فهب السراحا　　إن لم تقله فمر القداحا

وزعم قوم أن هبل هذا إنما هو صورة إبراهيم الخليل التى كسرها صاحب الشريعة الإسلامية عندما دخل الكعبة مع ما كسره من بقية الأصنام. قالوا: وكان حولها عدد كثير من صور الملائكة والأنبياء وفيهم إسماعيل نفسه وفى يده الأزلام.

ولما دخل صاحب الشريعة الإسلامية الكعبة يوم فتح مكة كان بها ثلثمائة وستون صنما. قالوا: فجعل يطوف على راحلته ويطعنها ويقول: جاء الحق وزهق الباطل فجمعت ثم أحرقت بالنار. وكان بالكعبة على يمينها حجر أسود وما زال هذا الحجر معظما فى الجاهلية والإسلام يتبرك به الناس ويقبلونه إجلالا، وقد كانت الكعبة قبل ظهور صاحب الشريعة الإسلامية بقرون بيت عبادة للعرب يعظمونه غاية التعظيم ويجلونه وفيه مصاف أصنامهم فلما ظهر الإسلام زاد هذا البيت تعظيما واعتقد جمهور المسلمين أنه قديم العهد جداً ويقال: إنه لما أهبط آدم من الجنة دعا ربه أن يأذن له فى بناء بيت يكون قبلة لصلاته ومطافا لعبادته كما كان قد عهد فى السماء من البيت المعمور الذى يقال له الضراح أيضاً. وهو مطاف الملائكة فأنزل الله عليه مثال ذلك البيت على شكل سرادق من نور وضعه فى مكة تحت البيت المعمور حذو القذة بالقذة والنعل بالنعل كما جاء فى الإصطخرىّ وأمر آدم أن يطوف به ويتوجه إليه فلما مات آدم تولى ابنه ووصيه شيث بناءه من حجر وطين على ذلك الرسم ثم انطمس فى الطوفان كما هو مذكور فى كتاب الملل والنحل. فأمر الله تعالى إبراهيم وإسماعيل فجددا بناءه فى موضعه وعلى رسمه ثم ما زال يشعث

فيرمم إلى أن جددت قريش بناءه على الأسس القديمة بعد ميلاد صاحب الشريعة ببضع سنين، وكان قد نصب بأسفل مكة صنم يعرف بالخلصة فكانوا يلبسونه القلائد ويعدّون له الشعير والحنطة ويصبون عليه اللبن ويذبحون له ويعلقون عليه بيض النعام وكانت لهم أصنام أخر نصبوها على السيارات من الكواكب وهى المشترى قيل إن أصل اسمه ذوشرا أى ساطع النور والزهرة وزحل والمريخ وغيرها من الثوابت.

ومن معبوداتهم أيضاً مناة واللات والعزى وكانت مناة على ساحل البحر مما يلى قديد وكانت صخرة تراق عليها دماء الذبائح ويلتمسون منها المطر فى الجدب وكانت اللات أيضاً صنما للشمس إذا مر عليها الحاج لوّثها بالسويق وقيل أصلها من (لاه) أى علا وعظم ومنه اسم الجلالة، وكان الذى اختص من العرب بعبادة اللات ثقيف. وكان بيت عبادتها فى نخلة فوجه صاحب الشريعة فى السنة التاسعة من هجرته المغيرة وأبا سفيان إلى نخلة فكسروا الصنم فحزن الثقفيون أهل الطائف لاسيما نساؤهم أشد الحزن عليه وسألوا صاحب الشريعة عند عقد الصلح أن يدع لهم اللات ولا يهدمها إلى ثلاث سنين فأبى عليهم ذلك فنزلوا إلى شهر فلم يجبهم، ويقال إن تاء اللات ليست أصلية بل هى هاء تأنيث وإنما كره البدل فيها لئلا تشبه اسم الله تعالى كما ذكر ابن درستويه، وأما مناة فكانت تعبدها هذيل وخزاعة ومنازلهما بين مكة والمدينة وقيل عبدتها الأوس والخزرج وثقيف. قاله الشهرستانى وأبو الفداء وغيرهما، وكانت صخرة عظيمة فكسرها رجل اسمه سعد فى السنة الثامنة من الهجرة وهى سنة شؤم على أصنام العرب. ويقال: إن اسم مناة مشتق من أمنى أى أراق لكثرة ما كان يراق عندها من دماء الأضاحى ومن هذا الأصل اشتق أيضاً اسم وادى منى على مقربة من مكة حيث ينحر الحجاج هديهم فى يومنا هذا، وأما العزى فكانت شجرة تعظمها قريش وبنو كنانة ويطوفون بها بعد طوافهم بالكعبة ويعكفون عندها يوماً، قال الكلبى: وكان فى كل واحدة من اللات والعزى شيطان يتكلم ويترآى للسدنة وهم الحجبة وذلك من صنيع إبليس وكيده وكان بنو حنيفة فى الجاهلية قد اتخذوا إلهاً عبدوه دهراً طويلاً ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه فقيل فى ذلك:

أكلت حنيفة ربها ... زمن التقحم والمجاعة
لم يحذروا من ربهم ... سوء العقوبة والتباعة

ومن أديانهم المجوسية والصابئية وقد نصب الصابئية بحسب تلك الآراء أصنام الذهب للشمس وأصنام الفضة للقمر ونسبوا المعادن والأقاليم للكواكب وزعموا أن

قوى الكواكب تفيض على تلك الأصنام فتتكلم وتفهم وتوحى للناس وتعلم الناس منافعهم. وكذلك قالوا فى الأشجار التى هى من قسمة تلك الكواكب إذا أفردت تلك الشجرة لذلك الكوكب وغرست له وفعل لها كذا فاضت روحانية ذلك الكوكب على تلك الشجرة فتوحى للناس وتكلمهم فى النوم، ومن مزاعمهم فى هذا المذهب أى الصابئية أن نفس الفاسق تعذب تسعة آلاف دور ثم تصير إلى رحمة الإله الأعلى وقد فرض عليهم فى اعتقادهم ثلاث صلوات أولها قبل طلوع الشمس بنصف ساعة أو أقل من ذلك بحيث ينقضى مع الطلوع ثمان ركعات فى كل ركعة ثلاث سجدات والثانية صلاة الظهر وهى خمس مثل تلك الركعات وسجداتها وتنقضى مع الزوال. والثالثة كالثانية وتنقضى مع الغروب وكان لهم أيضاً ثلاث صيامات فى السنة أولها ثلاثون يوماً . والثانى تسعة أيام. والثالث سبعة. وكانوا يكثرون من تقديم القرابين لآلهتهم ولكنهم لا يأكلون منها شيئاً. بل كانوا يحرقونها وكذلك كانوا لا يأكلون الباقلاء والثوم وبعض البقول والقطانى. قاله أبو الفرج الملطى المعروف بابن العربى وجاء أيضاً فى كتاب الملل والنحل للشهرستانى. وقد اختلف أهل التاريخ فى تعيين قبلتهم التى كانوا يؤمّونها يومئذ فقال ابن العربى: إنها القطب الشمالى. وقال غيره: إنها القطب الجنوبى. وقال آخر: بل هى مكة. وقال رابع: بل كانوا يستقبلون النجم الذى إليه يصلون، قلت: ولعل الصحيح فى ذلك أنهم لم يكونوا فى أمر القبلة على سنن واحد، وكانوا يحجون على مقربة من حوران بالجزيرة وهى ما بين النهرين ويعظمون الكعبة وأهرام منف زاعمين أن الأهرام مقابر شيث وابنيه إدريس وصابئ ويزعمون أن هؤلاء وضعوا دين الصابئية فكانوا يتقربون عند تلك الأهرام بعجل أسود وديك ويحرقون شيئاً من البخور وكانوا يقولون: إنهم إنما سموا بالصابئة نسبة إلى صابئ ولد شيث المذكور والمرجح عند بعض أهل التاريخ أنهم سموا بهذا الاسم من لفظ صبأت أو صباءوت يعنى الجنود السماوية لعبادتهم إياها ويسميهم أيضاً أهل السياحة بنصارى مارى يوحنا المعمدان وهم يدّعون ذلك أيضاً ولهم ضرب من المعمودية تشبه معمودية النصارى ولذلك كان العرب الآخرون يسمونها المغتسلة. ويقال: إن هذا الدين هو أحد الأديان التى تغاضى عنها صاحب الشريعة الإسلامية بشرط أداء الجزية، ومن أديانهم اليهودية أيضاً فى حمير وكنانة وبنى الحارث بن كعب وكندة. وأما النصرانية فكانت قد انتشرت فيهم وتمكنت تمكنا. قال الفيروزابادى واجتمعت على النصرانية قبائل شتى من بطون العرب بالحيرة وهم العباد وتنصر كثير من ملوك اليمن والحيرة وكذا كان

ملوك غسان كلهم نصارى، وكانت النصرانية فى ربيعة وقضاعة وبهر وتنوخ وتغلب وبعض طيىء وكانت قريش نصبت فى جملة أصنامها فى الكعبة تمثال مريم العذراء أم عيسى المسيح مزوّقا وابنها عيسى فى حجرها قاعداً وذلك فى العمود الذى يلى باب الكعبة ولم تطمس صورتهما لما دخل صاحب الشريعة الكعبة بل بقينا إلى عهد ابن الزبير فاحترقتا فى الحريق. ذكره النويرى والأزرقى، ومن أصنامهم أيضاً إساف فى صورة رجل ونائلة فى صورة امرأة جىء بهما من الشام ووضع أحدهما فى الصفا والآخر فى المروة وزعم العرب أنهما جرهميان وأن إسافا هو ابن عمرو ونائلة بنت سهل ففجرا فى الكعبة فمسخهما الله تعالى حجرين. ذكره ابن الجنابى.

(الفصل الثالث)

(فى علوم العرب وآدابهم)

وكان العرب يفاخرون بعلم لسانهم وأحكام لغتهم ونظم الأشعار وتأليف الخطب وكانوا موصوفين بين الأمم بالبيان فى الكلام والفصاحة فى المنطق والذلاقة فى اللسان وكانت لهم مع ذلك معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم إلى معرفة ذلك فى أسباب المعيشة لا على طريق تعلم الحقائق. وأما علم الفلسفة فلم يمنحهم الله سبحانه شيئاً منه ولا هيأ طباعهم للعناية به. وكان الشعر ديوان خاصة العرب ومنتهى حكمتها والمنظوم من كلاهما والمقيد لأيامها والشاهد على حكامها به يأخذون وإليه يصيرون وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد أو شاعر ينبغ فيهم أوفرس تنتج. قال الصفدى: بل ما كان للعرب ما تفتخر به إلا السيف والضيف والبلاغة، وكانوا كل حول يتقاطرون إلى سوق عكاظ ويتبايعون ويتناشدون ويتفاخرون ويتعاكظون ولقد بلغ من كلف العرب بالشعر وتفضيلها له أن عمدت إلى سبع قصائد من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب فى القباطى المدرجة فقيل لها مذهبات. ويقال لها أيضاً معلقات لأنها علقت فى أستار الكعبة، وكان أسلوبهم فى الخطابة مخالفا لخطباء الروم واليونان والفرس. فكانت فقراتهم مثل الجواهر المنثورة لا ارتباط لبعضها ببعض ولذا كانت أكثر ما تروّع مستمعيها بتبريزهم على غيرهم فى هذا الأسلوب فكانوا يزعمون أنه ليس فى الأمم كلها من يعرف فن الخطابة حق معرفته سوى العرب ويتلوهم الفرس.

وكانت عكاظ التى يتفاخرون بأشعارهم فى سوقها قرية بصحراء بين نخلة والطائف على ثلاث مراحل من مكة وكان لها سوق أسبوعية يوم الأحد وسوق سنوية كانت تقوم هلال ذى القعدة ويستمر موسمها عشرين يوماً تجتمع فيها قبائل العرب فيتعاكظون أى يتفاخرون ويتناشدون. قالوا: وكان من فوائدها أن العرب يتعارفون فى هذه الأسواق ويتحاربون وكانت فرسانهم إذا كانت سوق عكاظ فى الشهر الحرام وأمن بعضهم بعضا أن يتقنعوا حتى لا يعرفوا وإن كانت هذه السوق يؤذن فيها بالتعامل والأخذ والعطاء إلا أنه كان الغرض الأهم منها اجتماع فحول الشعراء والفصحاء والبلغاء من أهل العربية لإبداء نتائج أفكارهم وإظهار محاسن فصاحتهم وبلاغتهم ومثل عكاظ فى ذلك مثل سوق ذى المجاز خلف عرفات ولهم أسواق أخر غير هذه ولكنها كانت غاية فى المهابة والاحترام يزورهم فيها الشعراء من كل صوب وحدب فيقوم الشاعر منهم ويبرز فى الميدان وأرباب المجلس ثابتون فى أماكنهم فينشد الأشعار من قريضه وهم يصغون إلى سماعها منه ويحرصون على التقاطها من فمه بمجرد النطق بها فيحفظونها عن ظهر قلب.

وكان أول ما يبرز الشاعر يظهر بمظهر الشجاعة والحماس ويتماشى قبل أن ينشد الشعر مشية التيه والإعجاب ليتحقق من حماس بنات فكره ثم يصعد إلى مرتفع فينشد بصوت جهورى قصيدته بتمامها بدون أن يقطعها عليه أحد فتارة تكون مرتجلة بالبديهة وتارة يكون قد نظمها بالروية قبل ذلك وهيأها لينشدها فى المجمع ولكن كان الغالب على فحول شعرائهم أنهم كانوا يرتجلون الشعر بدون روية فيأتون فيه بما لا يقتدر غيرهم على الإتيان به ومنهم من كان بخلاف ذلك كما روى عن زهير بن أبى سلمى أنه كان ينظم القصيدة فى أربعة أشهر ويهذبها بنفسه فى أربعة أشهر أخرى ويعرضها على الشعراء من أصحابه فى أربعة أشهر ثالثة فلا يشهرها حتى يأتى عليها حول كامل ولذلك كانت تسمى قصائده بالحوليات ومع هذا فقد قيل إنه كان أشعر الجميع، وكان إذا فرغ الشاعر من الإنشاد أمعن الحاضرون النظر فى شعره فإما أن يستحسنوه وإما أن يعيبوه.

وكان الشاعر يجلس جلسة خطيب للاستراحة ثم يعود إلى إتمام إنشاده بهمة ونشاط ويجلى عن بنات أفكاره فرائد فيكتب فى ذلك المحفل ما يستحسن من القصائد بحروف الذهب على منسوج الحرير ولهذا بقيت شهرة المعلقات السبع محفوظة إلى هذا الحين وقد مضى عليها أجيال طويلة. وكان يجتمع بسوق عكاظ أيضاً سادات العرب وملوكهم ورؤساء قبائلهم وعرفاؤهم. وكان لمدح الشعراء

وقدحهم تأثير فى النفوس يترتب عليه كثير من الأمور الخطيرة كالخفض والرفع والإعزاز والإذلال وغير ذلك. قيل: إن الأعشى كان يأتى عكاظ فى كل سنة فمر على بنى كلاب. وكان المحلق الكلابى فقيرا خامل الذكر وله بنات لم يخطبهن أحد من الأزواج رغبة عن أبيهن لفقره. فقالت له امرأته ما يمنعك يا ابن كلاب من التعرض لهذا الشاعر والتعرف به وإكرامه فما رأيت أحدا آواه إليه وجذبه إلا وأكسبه خيرا. فقال: ويحك ما عندى إلا ناقتى. فقالت: الله يخلفها عليك فتلقاه قبل أن يسبق إليه أحد من الناس. وكان الأعشى بصيراً وله ابن يقوده فأخذ المحلق بخطام ناقة الأعشى. فقال الأعشى: من هذا الذى غلبنا على خطامنا؟ فقيل المحلق: فقال شريف كريم ثم سلمه ابنه إليه فأنزله ونحر له المحلق ناقته وأحاطت به بناته يخدمنه. فقال ما هذه الجوارى حولى؟ قال: بنات أخيك وهنّ ثمان نصيبهنّ قليل. فقال الأعشى: هل لك حاجة؟ قال المحلق: تشيد بذكرى فلعلى أشهر فتخطب بناتى فنهض الأعشى من عنده ولم يقل فيه شيئاً. فلما وافى سوق عكاظ إذ هو بمكان قد اجتمع الناس عليه فأنشد قصيدته القافية التى منها:

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة   إلى ضوء نار باليفاع تحرّق
تشب لمقرورين يصطليانها   وبَات على النار الندى والمحلق

فاشتهرت هذه الأبيات فى العرب وما أتت على المحلق سنة حتى زوج البنات. وكانت تضرب للنابغة الذبيانى قبة حمراء من أدم بسوق عكاظ وتأتيه الشعراء فتنشده أشعارها وأوّل من أنشده الأعشى ثم أنشدته الخنساء فكان للنابغة التقدم على جميع شعراء عصره وهو من فحول الطبقة الأولى المقدمين على سائر الشعراء. قال ربعى ابن خراش: قال لنا عمر ﷺ يامعشر غطفان من الذى يقول:

أتيتك عاريا خلقا ثيابي   على خوف تظن بي الظنونا

قلنا النابغة. قال: ذلك أشعر شعرائكم. وقال عمر بن المنتشر المرادى وفدنا على عبد الملك بن مروان فدخلنا عليه فقام رجل فاعتذر إليه من أمر وحلف عليه. فقال له عبد الملك: أما كنت حريا أن تفعل ولا تعتذر؟ ثم أقبل على أهل الشام. فقال: أيكم يروى من اعتذار النابغة إلى النعمان

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة   وليس وراء الله للمرء مذهب

فلم يجد فيهم من يرويه فأقبل علىّ فقال أترويه؟ قلت: نعم فأنشدته القصيدة كلها. فقال: هذا أشعر العرب. وكان الشاعر المجيد يحسب فخراً لقبيلته وكانت

القبيلة إذا نبغ فيها شاعر صنعت الأطعمة وأتت القبائل فهنأتها بذلك واجتمعت النساء يضربن بالمزاهر كما يصنعن فى الأعراس وتتباشر الرجال والولدان لأنه يكون حماية لأعراضهم وذودا عن أحسابهم وتخليدا لمآثرهم وصيانة لنسائهم وإشادة بذكرهم. ذكره ابن رشيق فى العمدة. وكان العرب إذا أتوا الموسم يضعون سلاحهم عند أهل السدانة من قريش قبل دخولهم فى السوق ومن لم يضع سلاحه عندهم عرض نفسه للقتل وكانت هذه السوق أيضاً مجمع مكارم الأخلاق كما كانت مجمع الفصاحة والفروسية فقد حكى أن عامر بن الطفيل العامرى النجدى أحد أشراف الشعراء كان ينادى مناديه فى هذه السوق هل من راحل فنحمله أو جائع فنطعمه أو خائف فنؤمنه؟ ومن شعره:

فإني وإن كنت ابن فارس عامر وسيدها المشهور في كل موكب
فما سودتني عامر عن وراثة أبى الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكنني أحمي حماها وأتقى أذاها وأرمى من رماها بمنكب

وكانت أيضاً هذه السوق فى أيام هذا الموسم كديوان ملوك العرب. فقد كان بعض ملوكهم يأخذ مالهم من الإتاوة والمرتبات على القبائل كل سنة بالموسم مثل جذيمة العبسى فإنه كان يأخذ الإتاوة من هوازن فى هذه السوق فإذا تأخروا هدّدهم بالحرب وكانت العرب تقيم بهذه السوق شهر شوال جميعه أو عشرين يوماً منه ثم تنتقل من تلك السوق بعد انفضاضها إلى سوق مجنة فتقيم فيها عشرين يوماً من ذى القعدة ثم تنتقل منها إلى سوق ذى المجاز فتقيم فيها إلى أيام الحج وكانت هذه السوق أيضاً من مسببات القتال بين العرب كما وقع ذلك فى الفجار الأول والفجار الثانى. روى أن سبب الفجار الأول أن بدر بن معشر الغفارى كان له مجلس يجلس فيه فى سوق عكاظ ويفتخر على الناس فبسط يوماً رجله. وقال: أنا أعز العرب فمن زعم أنه أعز منى فليضربها بالسيف فوثب عليه رجل من أشراف العرب فضربه بالسيف على ركبته فأدماها فاقتتلوا. وسبب الفجار الثانى أن امرأة من بنى عامر كانت جالسة بسوق عكاظ فأطاف بها شاب من قريش من بنى كنانة فسألها أن تكشف عن وجهها فأبت فجلس خلفها وهى لا تشعر وعقد ذيلها بشوكة فلما قامت وانحسر ذيلها من خلفها ضحك الناس وقيل لها: قد بخلت بكشف وجهك فبان غيره فنادت يا آل عامر فثاروا بالسلاح ونادى الشاب يابنى كنانة فثاروا كذلك فقامت الحرب بين الفريقين على ساقها. ثم فجار ثالث ثم رابع قيل إن صاحب الشريعة

الإسلامية شهد هذا الفجار وهو فى الرابعة عشرة من عمره. وقد خرج مع عمومته ورمى فيه بالنبل. رواه ابن سعد.

وأما الكتابة فقد حكوا أن ثلاثة نفر من طيئ وكانوا على دين المسيح وضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية فنظمه قوم من الأنبار وجاء الإسلام وليس أحد يكتب بالعربية غير بضعة عشر إنساناً ولقلة القراطيس عندهم عمدوا إلى كتف الحيوان فكتبوا عليها. وكان الناس فرقتين أهل كتابة وأميون والأمى من لا يعرف الكتابة فكان اليهود والمسيحيون بالمدينة والأمّيون وهم الوثنيون بمكة.

وأما الطب عندهم فقد كانت معارفهم فيه قليلة جداً وكانت تغلب عليهم التجربة والاستقراء أو التقليد أحياناً. وكان المشهور من أطبائهم رجل يقال له لقمان ابن عاد يزعمون أن أباه عاد بن لجين بن عاد بن عوص بن اران بن سام بن نوح. وأن لقمان المذكور عاش ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة وذلك عمر سبعة أنسر. ثم آخر من تيم الرباب اسمه ابن حزيم ويضربون به المثل بالحذاقة فى الطب فيقولون لمن أرادوا وصفه بذلك أطب من ابن حزيم وهو أطب العرب عندهم ويفضلونه على الحرث. قال أوس بن حجر:

فهل لكم فيها إلىّ فانني بصير بما أعيا النطاسىّ حزيما

أما الحرث المذكور فهو الحرث بن كلدة من بنى ثقيف من أهل الطائف رحل إلى أرض فارس وأخذ الطب عن أهله بجند يسابور وغيرها فى الجاهلية وطبب فى أهل فارس وحصل مالا ثم تاقت نفسه إلى الرجوع إلى بلده فرجع وقيل إنه مات سنة ثلاث عشرة للهجرة وقيل سنة عشرين مسموما، ومن أطبائهم أيضاً ابن أبى رومية التميمى. وكان معاصراً للحرث المذكور ونصر بن الحرث بن علقمة بن كلدة ابن عبد مناف بن عبد الدار بن قصىّ. كان من الجاهلية أخذ أسيرا يوم بدر فقتل وهؤلاء كانوا أشهر أطباء العرب فى الجاهلية. وقد بقى من كلامهم فى الطب ما قاله لقمان بن عاد المتقدّم: كل داء حسم بالكى ولذلك قالوا فى أمثالهم: آخر الطب الكى، وما قاله الحرث بن كندة أيضاً: من سره البقاء ولا بقاء فليباكر الغداء وليخفف الرداء وليقل من غشيان النساء. قال بعضهم: يريد بخفة الرداء أن لا يكون عليه دين ومن أنواع معالجتهم أيضاً معالجة الأحول بإدامة النظر إلى حجر الرحى فى حال دورانها يزعمون أن العين تستقيم به ويعالجون الخدر وهو التشنج الذى يعترى الأعضاء فلا تطيق الحركة بأن يدعو صاحبه أحب الناس إليه. قال بعضهم: وعليه قول بعضهم يخاطب محبوبته:

رآنى الله ياسلمى حياتي   وفي يوم الحساب كما أراك
إلى كم تهجرين فتىً معنّى   إذا خدرت له رجل دعاك

فلما جاء الإسلام اتسع نطاق الطب وعلت منزلته وتعلمه الكثير من العرب عن علماء النصرانية واليهودية والفارسية ونبغوا فيه وتفشى بينهم.

وأما السيف والفروسية فقد كانوا غاية فى التمرن عليهما والندب إليهما وذلك لكثرة ما كان يشجر بينهم وكانوا يقولون: إن الله ميزهم بأربعة أبدلهم العمائم من التيجان والخيام من الدور والجدران والسيوف من الخنادق والشعر من كتب الشرائع ولم يكن لهم فى الجاهلية لعلم العروض قانون يضبط قواعده ويقرر أحواله وإنما تم لهم ذلك بعد ظهور صاحب الشريعة الإسلامية ببضع سنين أى حينما ظهر الخليل بن أحمد الفراهيدى فى خلافة الرشيد العباسى ودوّن أصول العروض. روى الصفدى أن عروضياً بمصر يدعى أبا جعفر جلس يوماً عند مقياس النيل فى سنة لم يرتفع الماء فيها كعادته وكان لذلك يخشى القحط فيها فأخذ ذلك العروضى يقطع بيت شعر على تفاعيله فمر به رجل لم يفهم قصده من هذا التقطيع فظن أنه يتلو سحرا على الماء حتى لا يرتفع فقذفه فى النيل فغرق.

(الفصل الرابع)

(فيما كانت عليه قريش قبل الإسلام)

اجتمعت كلمة جماعة من أصحاب التاريخ على أن قريشاً فى الجاهلية اختصوا بكثير من المزايا منها أن اللسان العربى العذب الفصيح الذى نطقت به فحول الخطباء والشعراء هو لسان قريش ومنها أنهم كانوا سكان بيت الله الحرام. ولذلك كانوا دائماً آمنين فى امتيارهم وتنقلاتهم فى رحلتى الشتاء والصيف والناس يتخطفون من حولهم فإذا عرض لهم عارض. قالوا: نحن أهل حرم الله فلا يتعرض لهم أحد. وكان هاشم يؤلف إلى الشام وعبد شمس إلى الحبشة والمطلب إلى اليمن. ونوفل إلى فارس فكان تجار قريش يختلفون إلى هذه الأمصار بحبال هؤلاء الأربعة الإخوة ولا يتعرّض لهم أحد. وكان كل أخ منهم قد أخذ حبلاً من ملك ناحية سفره أماناً له كالإجارة. وكانت قبائل قريش قبل ظهور قصى بن كلاب متفرقة فى البوادى فجمعها وأسكنها الحرم وكانت تدعى قبل هذا التجميع النضر بن كنانة فلما جمعهم وأسكنهم فى البيت سموا قريشا من التقريش وهو التجميع، وقال بعضهم: إنما

سميت قريش قريشا لدابة فى البحر هى أعظم دواب البحر خطرا لا تظفر بشىء من دواب البحر إلا أكلته فسميت قريش قريشاً لأنها أعظم العرب فعالا وأعزهم جانبا.

قال بعض أصحاب التاريخ: وأوّل دار بنيت بمكة دار الندوة وتسمى دار المنتدى بناها قصى لتكون مجلس القوم نهارا يجلسون فيها للمشاورة فى الأمور المهمة فلم يكن لهم أمر منهم إلا اجتمعوا فيها وقصى هو الذى بنى المسجد الحرام بأشراف المزدلفة وكان يسرج عليه أيام الحج فسمى مشعرا وأمروا بالوقوف عنده وتم لقريش فى ذلك العهد أن صارت لهم الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء والقيادة.

قالوا: فالحجابة هى سدانة البيت الحرام أى تولية مفتاح بيت الله، والسقاية سقى الحاج كلهم الماء العذب. وكان نادراً بمكة يجلب إليها من الخارج لسقاية الحاج بل وينتبذ لهم التمر والزبيب للشراب أيضاً، وأما الرفادة فهى إطعام الطعام لسائر الحجاج فكانت تمدّ لهم الأسمطة فى أيام الحج، وأما الندوة فهى المشورة فكان يجتمع فيها من قريش وغيرهم من العرب من أهل الرياسة من بلغ فى العمر أربعين سنة ولا يعقد عقد نكاح لقرشى إلا فيها، وأما اللواء فراية معقودة على رمح ينصبونه علامة على اجتماع الجيش لحرب الأعداء فيجتمعون تحت هذه الراية ويقاتلون عندها، والقيادة إمارة الجيش ورياسة الحرب، قيل كانت هذه المناصب كلها لقريش وانتهت إلى عشرة أبطن منها وبقيت لهم فى الإسلام أيضاً. والعشرة الأبطن هم هاشم وأمية ونوفل وعبد الدار وأسد وتيم ومخزوم وعدى وجمح وسهم قالوا: فكان من بنى هاشم العباسيون وعبد المطلب يسقى الحجيج وبقى له ذلك فى الإسلام ومن بنى أمية أبو سفيان بن حرب كانت عنده العقاب راية قريش وكانت إذا حفظت عند رجل أخرجها إذا حميت الحرب فإن اجتمعت قريش على أحد أعطوه العقاب.

وإن لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدّموه، ومن بنى نوفل الحرث بن عامر وكانت إليه الرفادة وهى ما كانت تخرجه من أموالها وترفد به منقطع الحاج، ومن بنى عبد الدار عثمان بن طلحة له اللواء والسدانة أى خدمة الكعبة مع الحجابة.

ويقال: والندوة أيضاً فى بنى عبد الدار، ومن بنى أسد يزيد بن زمعة بن الأسود وكانت إليه المشورة وذلك أن رؤساء قريش كانوا لا يجتمعون على أمر حتى يعرضوه عليه. فإن وافقه ولاهم عليه وإلا تخيروا وكانوا له أعواناً واستشهد يزيد المذكور وهو مع صاحب الشريعة بالطائف، وكان من بنى تيم أبو بكر الصديق، وكانت إليه فى الجاهلية الأشناق. وهى الديات والمغرم وكان إذا احتمل شيئاً فسأل فيه قريشا صدّقوه وأمضوا حمالة من نهض معه وإن احتملها غيره خذلوه، ومن بنى مخزوم

خالد بن الوليد وكانت له القبة والأعنة. فأما القبة فإنهم كانوا يضربونها ثم يجمعون إليها ما يجهزون به الجيش وأما الأعنة فإنه كان على خيل قريش فى الحرب، ومن بنى عدى عمر بن الخطاب وكانت إليه السفارة فى الجاهلية وذلك أنهم كانوا إذا وقعت بينهم حرب بعثوه سفيراً وإن نافرهم فى المفاخرة جعلوه منافراً ورضوا به، ومن بنى جمح صفوان بن أمية وكانت إليه الأيسار والأزلام فكان لا يسبق بأمر عام حتى يكون هو الذى تيسيره على يديه، ومن بنى سهم الحرث بن قيس . وكانت إليه الحكومة والأموال المحجرة التى سموها لأصنامهم. قالوا: فهذه الوظائف كلها كانت فى قريش على النحو المذكور.

وكان لبنى هاشم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام وحلوان النفر فأما حلوان النفر فلكون العرب لم يكونوا ليرضوا فى الجاهلية أن يتملك عليهم ملك فإذا حدثت لهم حرب مع أحد أقرعوا بين أهل الرياسة فمن خرجت عليه القرعة أحضروه صغيراً كان أو كبيراً وأمروه بالنفر للحرب، وكان للعرب جميعاً فى الجاهلية كثير من العوائد والأوابد. وكانوا ينزلونها منزلة عظمى ويتنافسون فى تعظيمها فمنها البحيرة والسائبة والوصيلة والحام والخمر والميسر والأنصاب والأزلام ووأد البنات والرفادة فى الحج (أما البحيرة) فهى ناقة كانت إذا نتجت خمسة أبطن، وكان الأخير ذكرا بحروا أذنها أى شقوها وامتنعوا عن ذكاتها ولا تمنع من ماء ولا مرعى (وأما السائبة) فهى أن الرجل إذا أعتق عبدا. قال: هو سائبة فلا يبقى بينهما عقد ولا ميراث (وأما الوصيلة) فتكون فى الغنم فإذا ولدت الشاة أنثى فهى لهم وإن ولدت ذكراً جعلوه لأصنامهم فإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا: وصلت أخاها فلا يذبحون الذكر لآلهتهم (وأما الحام) فهو الذكر من الإبل كان إذا نتج من صلب الفحل عشرة أبطن. قالوا: حمى ظهره فلا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى (وأما الخمر) فهو ما خامر العقل ومنه سميت الخمر خمراً. وكان باعة الخمر فى الجاهلية ينصبون رايات ليعرف مكانهم بها ويسمونها الغاية. وكان العرب يفتخرون بشربها وبالمقامرة أيضاً لأنها من دلائل الجود عندهم وقد بلغ تنافسهم فى شرب الخمر درجة يستدل عليها بما فعله أبو غبشان من بيع مفاتيح الكعبة بزق خمر كما تقدّم بيان ذلك فى محله وما زالت هذه العوائد مرعية بينهم مألوفة فى مذهبهم حتى ظهر صاحب الشريعة الإسلامية محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب القرشى. وكان من أمر تحريمها والنهى عنها ما لا موضع لذكره هنا الآن.

* * *

(المقالة الثانية)

(فيما كان بظهور الإسلام وفيه فصول)

(الفصل الأول)

(فى ظهور صاحب الشريعة الإسلامية)

قال أهل التاريخ وابن اسحق عن قيس بن مخرمة وقفاث بن أثيم وابن عباس: إن صاحب الشريعة الإسلامية ولد عام الفيل . وقال ابن الكلبى ولد عبد الله بن عبد المطلب أبو رسول الله ﷺ لاربع وعشرين سنة مضت من سلطان كسرى أنو شروان وولد رسول الله ﷺ سنة اثنين وأربعين من سلطانه وأرسله الله لمضى اثنين وعشرين من ملك كسرى ابرويز بن كسرى هرمز بن كسرى أنو شروان وهاجر لاثنتين وثلاثين مضت من ملك ابرويز، وقال ابن إسحق: ولد رسول الله ﷺ فى يوم الاثنين لاثنى عشر ليلة مضت من ربيع الأول وكان مولده بالدار التى تعرف بدار ابن يوسف، قيل: إن رسول الله ﷺ وهبها عقيل بن أبى طالب فلم تزل فى يده حتى توفى فباعها ولده من محمد بن يوسف أخى الحجاج فبنى داره التى يقال لها دار ابن يوسف وأدخل ذلك البيت فى الدار حتى أخرجته الخيزران فجعلته مسجداً يصلي فيه. وقيل: ولد لعشر خلون منه وقيل لليلتين خلتا منا.

وأول من أرضع صاحب الشريعة ثوبية مولاة أبى لهب بلبن ابن يقال له مسروح وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومى فكانت ثوبية تأتى صاحب الشريعة بمكة قبل أن يهاجر فيكرمها

وتكرمها خديجة فأرسلت إلى أبى لهب أن يبيعها إياها لتعتقها فأبى فلما هاجر صاحب الشريعة إلى المدينة أعتقها أبو لهب. قال: ثم أرضعت صاحب الشريعة بعد ثويبة المذكورة حليمة بنت أبى ذؤيب واسمه عبد الله بن الحرث بن شجنة من بنى سعد بن بكر بن هوزان واسم زوجها الحرث بن عبد العزى واسم إخوته ﷺ من الرضاعة عبد الله وأنيسة وخذامة وهى الشيماء عرفت بذلك وكانت الشيماء تحضنه مع أمه حليمة وردته حليمة إلى أمه وجده عبد المطلب وعمره خمس سنين فى قول اهـ.

قال ابن إسحق هلك عبد الله بن عبد المطلب أبو رسول الله ﷺ وأم رسول الله ﷺ آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة حامل به. وقال ابن هشام توفى عبد الله أبو رسول الله بعد ما أتى على رسول الله ثمانية وعشرون يوماً. وقال الواقدى: ثبت عندنا أن عبد الله بن عبد المطلب أقبل من الشام فى عير لقريش ونزل بالمدينة وهو مريض فأقام بها حتى توفى ودفن فى دار النابغة الصغرى. وقال ابن إسحق وتوفيت آمنة وله ﷺ ست سنين بالأبواء بين مكة والمدينة وكانت قدمت به المدينة على أخواله من بنى النجار تزورهم فماتت وهى راجعة، وقيل: إن عبد المطلب زار أخواله من بنى النجار وحمل معه آمنة وصاحب الشريعة فلما رجع توفيت بمكة ودفنت فى شعب أبى ذر قيل والأول أصح. ولما سارت قريش إلى أحد يعنى إلى حرب أحد وقلوبهم تلتهب غيظاً من صاحب الشريعة وهم فى أشد ما يكون من النكاية به هموا باستخراج آمنة من قبرها يعنى بنبشه فقال بعضهم ان النساء عورة وربما أصاب محمد من نسائكم فكفوا بهذا القول وقال ابن إسحق وتوفى عبد المطلب ورسول الله ﷺ ابن ثمان سنين وقيل: ابن عشر سنين اهـ. ولما مات عبد المطلب صار صاحب الشريعة فى حجر عمه أبى طالب بوصية من عبد المطلب إليه بذلك لما كان يرى من بره به وشفقته وحنوه عليه.

وأما نسبه وأخبار آبائه وأجداده فهو محمد بن عبد الله ويكنى عبد الله أبو قثم وقيل محمد وقيل أحمد بن عبد المطلب وكان عبد الله أصغر ولد أبيه فكان عبد الله وأبو طالب واسمه عبد مناف والزبير وعبد الكعبة وعاتكة وأميمة وبرة ولد عبد المطلب أمهم جميعاً فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمرو بن مخزوم بن يقظة وكان عبد المطلب نذر حين لقى من قريش العنت فى حفر زمزم أنه إن ولد له عشرة نفر

وبلغوا معه حتى يمنعوه لينحرن أحدهم عند الكعبة لله تعالى فلما بلغوا عشرة وعرف أنهم يمنعونه أخبرهم بنذره فأطاعوه وقالوا: كيف نصنع قال يأخذ كل رجل منكم قدحاً ثم يكتب فيه اسمه ففعلوا وأتوه بالقداح فدخلوا على هبل فى جوف الكعبة وكان أعظم أصنامهم وهو على بئر يجمع فيه ما يهدى إلى الكعبة وكان عند هبل سبعة قداح فى كل قدح كتاب فقدح فيه العقل إذا اختلفوا فى العقل من يحمله منهم ضربوا بالقداح السبعة وقدح فيه نعم للأمر إذا أرادوه يضرب به فإن خرج نعم عملوا به وقدح فيه لا فإذا أرادوا أمرا ضربوا به فإذا خرج لا لم يفعلوا ذلك الأمر وقدح بيه منكم وقدح ملصق وقدح فيه من غيركم وقدح فيه المياه إذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا بالقداح وفيها ذلك القدح فحيثما خرج عملوا به. وكانوا إذا أرادوا أن يختنوا غلاماً أو ينكحوا جارية أو يدفنوا جثة أو شكوا فى نسب أحد منهم ذهبوا به إلى هبل وبمائة درهم وجزور فأعطوها صاحب القداح الذى يضربها ثم قربوا صاحبهم الذى يريدون به ما يريدون ثم قالوا ياالهنا هذا فلان بن فلان قد أردنا به كذا وكذا فأخرج الحق فيه ثم يقولون لصاحب القداح: اضرب فيضرب فإن خرج عليه منكم كان وسيطا وإن خرج عليه من غيركم كان حليفاً وإن خرج عليه ملصق كان على منزلته منهم لا نسب له ولا حلف وإن خرج عليه شىء سوى هذا مما يعملون به فإن خرج نعم عملوا به وان خرج لا أخروه عامهم ذلك حتى يأتوه به مرة أخرى ينتهون فى أمورهم إلى ذلك مما خرجت به القداح.

وقال عبد المطلب لصاحب القداح اضرب على بنىّ هؤلاء بقداحهم هذه وأخبره بنذره الذى نذر وكان عبد الله أصغر بنى أبيه وأحبهم إليه فلما أخذ صاحب القداح يضرب قام عبد المطلب يدعو الله تعالى ثم ضرب صاحب القداح فخرج قدح على عبد الله فأخذ عبد المطلب بيده ثم أقبل إلى إساف ونائلة وهما الصنمان اللذان ينحر الناس عندهما فقامت قريش من أنديتها فقالوا: ما تريد؟ قال أذبحه فقالت قريش وبنوه: والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه لئن فعلت هذا لا يزال الرجل منا يأتى بابنه حتى يذبحه فقال له المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم والله لا تذبحه حتى تعذر فيه فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه وقالت له قريش وبنوه: لا تفعل وانطلق إلى كاهنة بالحجر فسلها فإن أمرتك بذبحه ذبحته وإن أمرتك بمالك وله فيه فرج قبلته فانطلقوا إليها وهى بخيبر فقص عليها عبد المطلب خبره فقالت ارجعوا اليوم حتى يأتينى تابعى فأسأله فرجعوا عنها ثم غدوا عليها فقالت نعم قد جاءنى الخبر فكم

الدية فيكم؟ قالوا: عشر من الإبل وكانت كذلك قالت ارجعوا إلى بلادكم وقرّبوا عشرا من الإبل واضربوا عليها وعليه بالقداح فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا عشراً حتى يرضى ربكم وإن خرجت على الإبل فانحروها فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم فخرجوا حتى أتوا مكة فلما اجتمعوا لذلك قام عبد المطلب يدعو الله ثم قرّبوا عبد الله وعشراً من الإبل فخرجت القداح على عبد الله حتى بلغت الإبل مائة ثم ضربوا فخرجت القداح على الإبل فنحرت ثم تركت لا يصدّ عنها إنسان ولاسبع.

وأما تزويج عبد الله بن عبد المطلب بآمنة ابنة وهب أم صاحب الشريعة فإنه لما فرغ عبدالمطلب من الإبل انصرف بابنه عبد الله وهو آخذ بيده وخرج به حتى أتى وهب بن عبد مناف بن زهرة وهو سيد بنى زهرة فزوّجه ابنته آمنة بنت وهب وهى لبرة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى وبرة لأم حبيب بنت أسد بن عبد العزى بن قصى وأم حبيب لبرة بنت عوف بن عبيد بن عريج بن عدى بن كعب فدخل عبد الله عليها حين أملكها مكانها فحملت بمحمد صاحب الشريعة الإسلامية، وقال الزهرى: أرسل عبد المطلب ابنه عبد الله إلى المدينة يمتار لهم تمرا فمات بالمدينة وقيل بل كان بالشام فأقبل فى عير قريش فنزل بالمدينة وهو مريض فتوفى بها ودفن فى دار النابغة الجعدى وله خمس وعشرون سنة وقيل ثمان وعشرون سنة وتوفى قبل أن يولد له محمد ﷺ وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن غالب بن فهر بن مالك ابن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان اهـ.

وكانت وفاة عبد المطلب بعد الفيل بثمان سنين أعنى بعد حرب الفيل بثمان سنين وأوصى أبا طالب بمحمد فكان أبو طالب هو الذى قام بأمره بعد جدّه ثم إن أبا طالب خرج إلى الشام فلما أراد المسير لزمه صاحب الشريعة فرق له وأخذه معه وله يومئذ تسع سنين ثم عادا معا إلى مكة فلما بلغ الخامسة والعشرين تزوج خديجة بنت خويلد وهى يومئذ ابنة أربعين سنة وكانت أوسط نساء قريش نسبا وأكثرهن مالا وشرفا فولدت له أولاده كلهم إلا إبراهيم وهم زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة والقاسم وبه كان يكنى وعبد الله والطاهر والطيب فلما بلغ الأربعين من عمره دعا الناس إلى الإسلام وأخذ ينذرهم بعذاب الله وينهاهم عما هم فيه من عبادة الأوثان. قال ابن إسحق: وكان يذكر ذلك سرا إلى من يطمئن إليه من أهله فكان أول من

آمن به وصدقه من خلق الله تعالى خديجة بنت خويلد زوجته اهـ فتبعه نفر وكانوا إذا أرادوا الصلاة ذهبوا إلى الشعاب فاستخفوا فبينما سعد بن أبى وقاص وعمار وابن مسعود وخباب وسعد بن زيد يصلون فى شعب إذ اطلع عليهم نفر من المشركين منهم أبو سفيان بن حرب والأخنس بن شريق وغيرهما فسبوهم وعابوهم حتى قاتلوهم فضرب سعد رجلاً من المشركين بلحى جمل فشجه قيل فكان أول دم أريق فى الإسلام.

وقال جعفر بن عبد الله بن أبى الحكم: لما أنزل الله على رسوله ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ اشتد ذلك عليه وضاق به ذرعاً فجلس فى بيته كالمريض فأتته عماته يعدنه فقال: ما اشتكيت شيئاً ولكن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين فقلن له: فادعهم ولا تدع أبا لهب فيهم فإنه غير مجيبك فدعاهم ﷺ فحضروا ومعهم نفر من بنى المطلب بن عبد مناف فكانوا خمسة وأربعين رجلاً فبادره أبو لهب وقال: هؤلاء هم عمومتك وبنو عمك فتكلم ودع الصباءة يعنى الخروج عن عبادة الأصنام، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة وإن أحق من أخذك فحبسك بنو أبيك وإن أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش وتمدّهم العرب فما رأيت أحداً جاء على بنى أبيه بشر مما جئتهم به. قال: فسكت رسول الله ﷺ ولم يتكلم فى ذلك المجلس اهـ .

ولبث يدعو الناس سراً ثلاث سنين ثم ظهر ونادى قومه بالإسلام. قيل فلم يبعدوا منه ولم يردوا عليه إلا بعض الرد حتى ذكر آلهتهم وعابها فلما فعل ذلك أجمعوا على خلافه وحدب عليه عمه أبو طالب ومنعه وقام دونه ومضى صاحب الشريعة على ما هو عليه فلما رأت قريش أنه لا يعنيهم من شئ يكرهونه وأن أبا طالب قد قام دونه ولم يسلمه لهم مشى رجال من أشرافهم إلى أبى طالب عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو سفيان صخر بن حرب وأبو البخترى بن هشام والأسود بن المطلب والوليد بن المغيرة وأبو جهل بن هشام والعاص بن وائل ونبيه ومنبه ابنا الحجاج أو من مشى منهم فقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلى بيننا وبينه فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فقال لهم أبو طالب قولاً جميلاً وردّهم رداً رفيقاً فانصرفوا عنه ومضى محمد لما هو عليه ثم سرى الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال فتضاغنوا وأكثرت قريش من ذكر محمد وما يأتيه فى كل يوم وقد تآمروا فيه ومشوا إلى أبى طالب مرة أخرى وطلبوا أن يخلى لهم عنه وإلا قاتلوا حتى يهلك

أحد الفريقين فعظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم له فبعث إلى صاحب الشريعة فأعلمه ما قالت قريش وقال له: أبق على نفسك وعلىّ ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق ثم إن قريشًا اشتدت على من فى القبائل من الصحابة الذين أسلموا فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم وقام أبو طالب فى بنى هاشم فدعاهم إلى منع محمد فأجابوا إلى ذلك واجتمعوا إليه إلا ما كان من أبى لهب عم صاحب الشريعة واشتدّ القوم على من أسلم فجعلوا يحبسونهم ويضربونهم ويعذبونهم بالجوع والعطش ورمضاء مكة والنار ليفتنوهم واشتد أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب على صاحب الشريعة شدة بالغة وكذلك اشتد على المسلمين وكان عظيم التكذيب لصاحب الشريعة دائم الأذى فكان يطرح العذرة والنتن على باب محمد وكان جاره فكان محمد يقول أىّ جوار هذا يا بنى عبد المطلب .

ولما رأى صاحب الشريعة ما يصيب أصحابه من البلاء وما هو فيه من الشدة وإنه لا قبل له بمنع خصومه وقد كثروا جمع إليه المسلمين وقال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن فيها ملكاً لا يظلم أحد عنده حتى يجعل الله لكم فرجاً فخرجوا جميعاً مهاجرين فكانت أول هجرة فى الإسلام فخرج عثمان وزوجته رقية ابنة صاحب الشريعة معه وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وامرأته معه سهلة بنت سهيل والزبير بن العوام وغيرهم ثمانية عشر رجلاً وقيل أحد عشر رجلاً وأربع نسوة. قيل: وكان سيرهم فى رجب سنة خمس من نبوّة صاحب الشريعة قالوا وهى السنة الثانية من إظهار الدعوة فأقاموا شعبان وشهر رمضان وقدموا فى شوال سنة خمس المذكورة ولكن لم يدخل أحد منهم إلى مكة إلا بجوار أو مستخفياً فدخل عثمان فى جوار أبى أحيحة سعيد بن العاص بن أمية فأمن بذلك ودخل أبو حذيفة بن عتبة فى جوار أبيه ودخل عثمان بن مظعون بجوار الوليد بن المغيرة وأقام المسلمون بعد ذلك بمكة يؤذون فلما اشتد بهم الحال رجعوا مهاجرين إلى الحبشة ثانية فخرج جعفر بن أبى طالب وتتابع المسلمون إلى الحبشة فكمل بها تمام اثنين وثمانين رجلاً وصاحب الشريعة مقيم بمكة على ما هو عليه من دعوة الناس إلى الإسلام ولم يقو الإسلام قليلاً إلا بدخول حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب فيه وقد اختلف الرواة فى سبب إسلامهما ولا سيما عمر فقال بعضهم: قال عمر لما أسلمت أتيت باب أبى جهل بن هشام فضربت عليه بابه فخرج إلىّ وقال: مرحبا بابن أخى ما جاء بك؟ قلت: جئت لأخبرك أنى قد أسلمت وآمنت بمحمد ﷺ وصدقت بما جاء به قال:

فضرب الباب فى وجهى وقال قبحك الله وقبح ما جئت به.

ولما رأت قريش الإسلام يفشو ويزيد ائتمروا فى أن يكتبوا بينهم كتاباً يتعاقدون فيه على أن لا ينكحوا بنى هاشم وبنى المطلب ولا ينكحوا إليهم ولا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم شيئاً فكتبوا بذلك صحيفة وتعاهدوا على ذلك ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيداً لذلك الأمر على أنفسهم فلما فعلت قريش ذلك انحاز بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب فدخلوا معه في شعبه واجتمعوا وخرج من بني هاشم أبو لهب بن عبد المطلب إلى قريش فلقى هندًا بنت عتبة فقال: كيف رأيت نصرى اللات والعزى؟ قالت: لقد أحسنت فأقاموا على ذلك سنتين وقيل ثلاثاً حتى جهد المسلمون فكان لا يصل إلى أحد منهم شئ إلا سرا وكانوا نازلين بالشعب مع صاحب الشريعة ثم قام بعد ذلك نفر من قريش فى نقض الصحيفة وشقوها فخرج المسلمون من الشعب وبعد خروجهم بقليل مات أبو طالب فعظمت مصيبته على صاحب الشريعة واشتدت قريش بعد موته على صاحب الشريعة شدة بالغة ونالت منه حتى كان ينثر بعضهم التراب على رأسه وبعضهم كان يطرح عليه رحم الشاة وهو يصلي وغير ذلك من الإيذاء فلما اشتد عليه الأمر خرج ومعه زيد بن حارثة إلى ثقيف يلتمس منهم النصر فلما انتهى إليهم عمد إلى ثلاثة نفر منهم هم يومئذ سادة ثقيف وهم عبد ياليل ومسعود وحبيب بنو عمرو بن عمير فدعاهم إلى الإسلام وكلمهم فى نصرته والقيام معه على من خالفه فلم ينصروه وقد سخروا به وأغروا به سفهاءهم فاجتمعوا عليه وألجئوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابنى ربيعة وهما فيه ثم رجع السفهاء عنه وعاد هو إلى مكة فجعل يعرض نفسه فى المواسم على قبائل العرب فلم يقم منهم أحد لنصرته .

(الفصل الثانى)

(فى هجرة صاحب الشريعة
وفى غزواته وما وقع له بعد ذلك)

واشتد القوم بمكة على صاحب الشريعة وكان معه علىّ بن أبى طالب وأبو بكر الصديق وخافت قريش خروجه من مكة وما يكون من وراء ذلك فاجتمعوا فى دار

الندوة وهى دار قصىّ بن كلاب وتشاوروا فيها فتقررت القاعدة بينهم على قتله وقد علم صاحب الشريعة بذلك فخرج من مكة ولم يشعر به أحد وخرج معه أبو بكر من خوخة فى بيت أبى بكر ثم عمدا إلى غارثور فدخلاه وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يستمع لهما بمكة نهاره ثم يأتيهما ليلاً فكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما بطعامهما مساء فأقاما فى الغار ثلاثاً وجعلت قريش مائة ناقة لمن يرده عليهم فلما مضت الثلاث وسكن الناس أتاهما دليلهما وهو وثنى اسمه عبد الله بن أرقط كانوا قد استأجروه ليدلهم على الطريق ببعيريهما فركبا وأردف أبو بكر مولاه عامر بن فهيرة ليخدمهما فى الطريق وساروا قاصدين المدينة فنزلوا بها وكان على قد تخلف عنهم بمكة ليؤدى الودائع لأربابها فلما أداها وافاهم إلى المدينة بعد ثلاث ولحق بهم من أسلم فلما كان بعد سبعة أشهر عقد صاحب الشريعة لعمه حمزة لواء أبيض فى ثلاثين رجلاً من المهاجرين ليتعرضوا لعير قريش فلقى أبا جهل فى ثلثمائة رجل فحجز بينهم مجدى بن عمرو الجهنى وكان يحمل اللواء أبو مرثد وهو أول لواء عقده ثم عاد فعقد لواء لعبيدة بن الحرث بن المطلب وكان أبيض يحمله مسطح بن أثاثة فالتقى هو والمشركون فكان بينهم الرمى دون المسابقة فجرح من الفريقين ثم عقد لواءً ثالثاً لسعد بن أبى وقاص وسيره إلى الأبواء. وكان يحمل اللواء المقداد بن الأسود وكان مسيره فى ذى القعدة وجميع من معه من المهاجرين فلم يلق حربا (جعل الواقدى هذه السرايا جميعها فى السنة الأولى من الهجرة) وجعلها ابن إسحق فى السنة الثانية فقالا على رأس اثنى عشر شهراً من مقدم رسول الله ﷺ المدينة خرج غازيا واستخلف على المدينة سعد بن عبادة فبلغ ودّان يريد قريشاً وبنى ضمرة من كنانة وهى غزاة الأبواء بينهما ستة أميال فوادعتهم فيها بنو ضمرة ورئيسهم مخشى بن عمرو ثم رجع إلى المدينة. ولم يلق حرباً . اهـ.

وذكرابن إسحق بعد هذه الغزوة غزوة عبيدة بن الحرث ثم غزوة حمزة بن عبد المطلب وابتنى فى هذه المدينة مسجداً وداراً لسكناه فى قطعة أرض كانت قبل ذلك مربدا وقيل مقبرة وكانت فى ملك يتيمين يقال لهما: سهل وسهيل ابنا عمرو فاشتراها ﷺ منهما ثم إن المدينة كانت تسمى يثرب قبل استيطان صاحب الشريعة بها ثم سميت بالمدينة بعد استيطانه إياها.

وخرج صاحب الشريعة بعد ذلك يريد غزاة بواط فى مائتين من أصحابه فى

شهر ربيع الآخر يعنى سنة اثنتين يريد. قريشاً حتى بلغ بواط من ناحية رضوى. وكان فى عير قريش أمية بن خلف الجمحى فى مائة ومعهم ألفان وخمسمائة بعير فرجع ولم ينل منهم. وكان حامل اللواء فى هذه الغزوة سعد بن أبى وقاص. وقد كان استخلف على المدينة قبل خروجه منها سعد بن معاذ ثم غزا غزوة العشيرة من ينبع فى جمادى الأولى يريد قريشاً حين ساروا إلى الشام فلما وصل العشيرة وادع بنى مدلج وحلفاءهم من بنى ضمرة ورجع ثم غزا غزوة أخرى ليست من الأهمية بشىء، وزوج علىّ بن أبى طالب فاطمة فى صفر من السنة الثانية، وفى هذه السنة فى شهر رمضان منها فى سابع عشره وقيل تاسع عشره كانت غزوة بدر الكبرى وسببها قتل عمرو بن الحضرمى وإقبال أبى سفيان بن حرب فى عير لقريش عظيمة من الشام وفيها أموال كثيرة ومعها ثلاثون رجلاً أو أربعون. وقيل: قريب من سبعين رجلاً من قريش منهم مخرمة بن نوفل الزهرى وعمرو بن العاص فمات فيها كثير من قريش وانهزمت قريش شر هزيمة.

ولما كان لهذه الغزوة ذكر مشهور فى التاريخ رأيت أن ألخص خبرها هنا، خرج أبو سفيان متاجراً إلى الشام فى ألف من عير قريش فسمع به صاحب الشريعة ومن معه من الأنصار والمهاجرين ومن لاذ بهم من العرب فهموا بالخروج إليه فتحرّز وتأهب للقتال فلم ينالوا منه فانتظروا إلى أن عاد قافلا يريد مكة فكمنوا له فأعلم بذلك قريشاً واستنفرهم إلى أموالهم فأسرعوا إليه بخيلهم ورجلهم وكانوا فى نحو مائة فارس وثمانمائة راجل. وكان صاحب الشريعة فى ثلثمائة وثلاثة عشر راجلا سبعة وسبعون من المهاجرين والباقون من الأنصار فلما بلغ صاحب الشريعة وادى بدر جاءه الخبر أن العير مقبلة من جهة وقريشا مقبلة من جهة أخرى فشاور أصحابه فى أى الطائفتين يتعدى لها أوّلاً فأجمع رأيهم على ترك العير ومقابلة قريش أوّلاً فنزلوا على أدنى ماء من القوم وصف رجاله وشدّد عزائمهم ووعدهم بالنصر إن صدقوا فى القتال ثم بنى له عريش فصار عليه مع أبى بكر وجعل يناشد ربه فى النصر. فقال اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد واشتدّ المشركون على أصحاب صاحب الشريعة حتى كادوا ينالون منهم قيل فنزل صاحب الشريعة عن العريش وأخذ حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشاً ثم رماهم بها. وقال: شاهت الوجوه، قيل: فسمعوا صوته فانخلعت قلوبهم وخيل لهم أن الملائكة تقاتلهم فانهزموا وقتل من صناديدهم سبعون فأهينت جثثهم وأسر سبعون فافتدوا أنفسهم

بأربعة آلاف درهم إلا أبا معيط والنضر بن الحارث وكانا شديدى الأذى لصاحب الشريعة فأمر بهما فقتلا صبراً ثم أدرك أصحابه عير قريش فانتهبوها وكان خمس صاحب الشريعة منها عشرين ألف درهم فقفل إلى المدينة غانماً.

ثم كانت بعد ذلك غزوة قينقاع ثم غزوة الكدر ثم غزوة السويق ثم غزوة أُحد وكانت من أشد الغزوات. مات فيها من الفريقين خلق كثير. وكانت نساء قريش يحرّضن الرجال على اصطلاء نار الوغى ويضربن خلفهم بالدفوف وبينهنّ امرأة تقول هذه الأبيات:

نحن بنات طارق نمشي على النمارق
مشى القطا البوارق والمسك في المفارق
والدرّ في المخانق إن تقبلوا نعانق
ونفرش النمارق أو تدبروا نفارق
فراق غير وامق

وكانت تقول أيضاً:

ويها بنى عبد الدار * ويها حماة الديار * ضربا بكل بتار

فكانت تندفع أبطال قريش فى ميدان القتال اندفاع الأسود الضوارى غير هيابين ولا حاسبين للموت حسابا، ثم كانت غزوة الرجيع. وقد قتل فيها كثير من المسلمين وبينهم خبيب أخذ أسيرا فبقى أياماً ثم قتلوه صبراً. ثم كانت غزوة ذات الرقاع وسميت بذلك لجبل كانت الواقعة فيه ثم غزوة بدر الثانية وتعرف أيضاً بغزوة السويق ثم غزوة الخندق وهى غزوة الأحزاب كانت فى شوّال. وكانت من الغزوات الكبيرة وذلك أن يهود بنى قريظة كان بينهم وبين صاحب الشريعة عهد أن لا يعينوا عليه أحداً ولا يشيروا عليه حرباً ويتركهم وشأنهم فخالفوا ونقضوا وحزبوا العرب لاستئصال المسلمين فاجتمع منهم خلق كثير جداً وساروا إلى المدينة فخندق المسلمون حولهم وتترسوا بالمدينة وقاتلوا. فبينما هم كذلك إذ قامت ريح عاصفة فاقتلعت خيام الأعداء فاتخذلوا ثم اختلفوا وتفرّقوا وساروا عن المدينة وتركوا متاعهم. وكان من وراء ذلك غزوة يهود بنى قريظة وموت الكثير منهم ثم غزوة بنى المصطلق من خزاعة. قال بعض أهل التاريخ: كانت هذه الغزوة بعد غزوة ذى قرد وكانت فى

شعبان من سنة ست فلما كانت سنة سبع وقد تقوّت عزيمة صاحب الشريعة وعلت كلمته بعث رسلاً من عنده إلى ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام. فأرسل حاطب ابن أبى بلتعة إلى المقوقس بمصر وأرسل شجاع بن وهب الأسدى إلى الحرث بن أبى شمر الغسانى. وأرسل دحية إلى قيصر وأرسل سليط بن عمرو العامرىّ إلى هوذة ابن على الحنفى وبعث عبد الله بن حذافة إلى كسرى وأرسل عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى. وأرسل العلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن ساوا أخى عبد القيس. وكان لكل من هؤلاء الملوك مع الرسل المذكورين شأن لا محل له هنا. فأما المقوقس عظيم القبط بمصر فقيل أنه قبل الكتاب وأهدى إليه مع الرسول أربع جوار منهنّ مارية أمّ إبراهيم ولد صاحب الشريعة. ثم كانت غزوة خيبر سار إليها صاحب الشريعة فى ألف وأربعمائة رجل معهم مائتا فارس. وكان مسيره إليها فى المحرّم سنة سبع واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة الغفارى فمضى حتى نزل بالرجيع ليحول بين أهل خيبر وغطفان لأنهم كانوا مظاهرين لهم. وكانت هذه الغزوة من الغزوات الكبرى وفتحت البلدة فى صفر من هذه السنة فلما استقرّ بها أهدت إليه زينب بنت الحرث امرأة سلام بن مشكم شاة مصلية مسمومة فوضعتها بين يديه فأخذ منها مضغة قيل فلم يسغها ومعه بشر بن البراء بن معرور فأكل منها، قال الراوى: فقال رسول الله ﷺ إن هذه الشاة تخبرنى أنها مسمومة ثم دعا المرأة فاعترفت. فقال ما حملك على ذلك. قالت بلغت من قومى ما لم يخف عليك. فقلت إن كان نبياً فسيخبر وإن كان ملكاً استرحنا منه. قال: فتجاوز عنها. اهـ.

ومات بشر من تلك الأكلة وكان صاحب الشريعة يقول فى مرضه الذى مات به لقد وجدت الآن انقطاع أبهرى من أكلة خيبر فكان المسلمون يرون أنه مات شهيداً مع كرامة النبوة، ولم يمض على صاحب الشريعة إلا بضع سنين حتى ظهرت كلمته وعلت شهرته ونال الظفر فى أكثر مغازيه، ومنها غزوة أُحد فلما كانت السنة الثانية من هجرته خرج معتمراً إلى مكة فى ألف وأربعمائة رجل وكان مسالماً لا يريد حرباً فلما بلغ الحديبية وهى موضع بعضه فى الحل وبعضه فى الحرم أرسل إليه قريش يعلمونه أنهم لا يأذنون له فى دخول مكة أو يدخلها عنوة فجمع رجاله وأخذ عليهم يمين الطاعة وبايعوه بيعة الرضوان وعزم على مناجزة القوم بمكة فجاءه من قبلهم عروة بن مسعود كبير الثقفيين يسأله الصلح، وفى رواية أن الذى جاءه فى ذلك

سهيل بن عمرو. وأن عـروة إنما ذهب إليه أولاً يقول أنهم لا يدعونه يدخل مكة إلا عنوة أى بعد قتال، فاتفقا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين وكتبا بذلك عهدا وكان مما جاء فى العهد أن من أحب أن يدخل فى عقـد محمد دخل فيه ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش دخل فيه، ولما عاد عروة بن مسعود إلى قريش. قال لهم إنى جئت كسـرى وقيصر فى ملكهم فوالله مـا رأيت ملكا فى قومه مثل مـحمد فى أصحابه كان لا يتـوضأ إلا ابتدروا وضوءه ولا يبصق إلا ابتدروا بـصاقه ولا يسقط من شعره شىء إلا أخـذوه تبركا. ذكره ابن الأثير وأبو الفـداء وابن هشام والقاضى عياض.

وفى ذى الحجة من السـنة أى سنة سبع اعتمر صـاحب الشريعة عمـرة القضاء وساق معه سبـعين بدنة وخرج معه المسلمون ممن كان معـه فى عمرته الأولى. فلما سمع به أهل مكة خرجوا عنه وتحدثت قريش أنه وأصحابه فى عسر وجهد فاصطفوا له عند دار الندوة فلما دخلهـا اضطبع بردائه فأخرج عضده الـيمنى. ثم قال: رحم الله امرأ أراهم اليوم قـوة ثم استلم الركن وخرج يهرول ويهرول أصـحابه وكان بين يديه لما دخل مكة عبد الله بن رواحة آخذاً بخطام ناقته ويقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله … خلوا فكل الخير في رسوله
يارب إني مؤمن بقيله … أعرف حق الله في مقوله
نحن قتلناكم على تأويله … كما قتلناكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله … ويذهب الخليل عن خليله

ولما كانت سنة ثمان غزا غزوة ذات السلاسل ثم غـزوة الخبط وغيرهما ثم غزوة مؤتة وكانت فى جمادى الأولى من هذه السنة وهى من الغزوات الكبرى ومؤتة قرية انحاز إليها المسلمون يوم القتـال ثم إن بنى بكر بن عبد مناة غدت على خزاعة وهم على ماء لهم بأسـفل مكة يقال له الوتير وكانت خـزاعة فى عهد صاحـب الشريعة وبكر فى عهد قريش فى صلح الحديبية وكان سبب ذلك أن رجلاً من بنى الحضرمى اسمه مالك بن عباد كان حليفاً للأسود بن رزن الديلى ثم البكرى فى الجاهلية خرج تاجراً فلمـا كان بأرض خزاعة قـتلوه فعدت خزاعـة على بنى الأسود بن رزن وهم

سلمى وكلثوم وذؤيب فقتلوهم بعرفة وكانوا من أشراف بنى بكر فبينما خزاعة وبكر على ذلك إذ جاء الإسلام واشتغل الناس به فلما كان صلح الحديبية ودخلت خزاعة فى عهد صاحب الشريعة ودخلت بكر فى عهد قريش اغتنم بنو بكر تلك الهدنة وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة ثأرهم بقتل بنى الأسود فخرج نوفل بن معاوية الديلى بمن تبعه من بكر حتى بيت خزاعة على ماء الوتير. وقيل: كان سبب ذلك أن رجلاً من خزاعة سمع رجلاً من بكر ينشد هجاء صاحب له فشجه فهاج الشر بينهم وثارت بكر بخزاعة حتى بيتوهم بالوتير وأعانت قريش بنى بكر على خزاعة بشىء من السلاح والدواب وقاتل معهم جماعة من قريش أيضاً مختفين قيل منهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل وسهل بن عمرو فانحازت خزاعة إلى الحرم. فقال بنو بكر: يانوفل إنا قد دخلنا الحرم إلهك إلهك. فقال لا إله له اليوم يابنى بكر أصيبوا ثأركم فلعمرى إنكم لتسرفون فى الحرم أفلا تصيبون ثأركم فيه فلما نقضت بكر وقريش العهد الذى بينهم وبين صاحب الشريعة خرج عمرو بن سالم الخزاعى ثم الكعبى حتى قدم على صاحب الشريعة المدينة فوقف عليه ثم أنشد:

يارب إني ناشد محمدا   حلف أبينا وأبيه الأتلدا
فوالداً كنا وكنت الولدا   ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر رسول الله نصراً أعتدا   وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا   أبيض مثل اليد تنمي صعدا
إن سيم خسفا وجهه تربدا   في فيلق كالبحر يجري مزبدا
إن قريشاً أخلفوك الموعدا   ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وجعلوا لي في كداء رصدا   وزعموا أن لست أدعو أحدا
وهم أذل وأقل عددا   هم بيتونا بالوتير هجدا

وقتلونا ركعاً وسجداً

فقال صاحب الشريعة لقد نصرت ياعمرو بن سالم.

(الفصل الثالث)

(فى فتح مكة)

تأهب صاحب الشريعة وأمر الناس بالتأهب لفتح مكة فلما شاع الخبر كتب حاطب بن أبى بلتعة كتاباً إلى قريش يعلمهم الخبر وسيره مع أمرأة من مزينة اسمها كنود. وقيل مع سارة مولاة لبنى المطلب تعلمهم الخبر وسيره معها فعلم صاحب الشريعة بذلك فأرسل عليا والزبير فأدركاها وأخذا منها الكتاب وجاء به إليه فأحضر حاطبا. وقال ما حملك على هذا فقال: والله إنى مؤمن ما بدّلت ولا غيرّت ولكن لى بين أظهرهم أهل وولد وليس لى عشيرة فصانعتهم عليهم. فقال عمر دعنى أضرب عنقه فإنه قد نافق. وجاء الخبر بتأهب صاحب الشريعة لقتالهم على مكة فخافوا وخشوا العاقبة وسيروا أبا سفيان إلى صاحب الشريعة لتلافى الأمر وتجديد العهد. فلم يأذن له صاحب الشريعة فى الدخول عليه فقصد أبا بكر وعلياً فلم يلبياه فرجع إلى مكة خائبا وتجهز صاحب الشريعة يريد أخذ قريش قبل أن يتأهبوا وخرج لعشر مضين من رمضان واستخلف على المدينة أبارهم كلثوم بن حصين الغفارى فلم يصل مكة حتى بلغ جيشه عشرة آلاف. ولما رأى أهل مكة أن لاقبل لهم بمثل هذا الجيش العظيم نزلوا على حكم صاحب الشريعة ودانوا بدينه وأسلم كذلك أبو سفيان وقتل من المشركين ثمانية وعشرون رجلاً قتلهم خالد وأسلم أهل مكة كافة إلا ستة رجال وأربع نسوة كانوا أشد جرماً عند صاحب الشريعة من غيرهم وكان بعضهم قد ارتد عن الإسلام ثم قتلوا منهم ثلاثة رجال وأمرأة واحدة وأسلم الباقون وفازت واحدة من النسوة بالهرب فلم يوقف لها على أثر إلا بعد حين فكان فتح مكة لعشر بقين من رمضان.

ولما فتحت مكة بعث صاحب الشريعة الزبير وأمره أن يدخل ببعض الناس من كدى قال سعد حين وجهه، اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل فيه الكعبة، قال: فسمعها رجل من المهاجرين فأعلم صاحب الشريعة. فقال لعلىّ بن أبى طالب: أدركه فخذ الراية وكن أنت الذى تدخل بها وأمرخالد بن الوليد أن يدخل من أسفل مكة من الليط فى بعض الناس. وكان معه أسلم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من العرب. فلما وصل صاحب الشريعة إلى ذى طوى وقف على راحلته وهو معتجر بشقة برد حبرة أحمر ثم تقدّم ودخل من أذاخر بأعلاها وضربت قبته هناك.

ووقف صاحب الشريعة على باب الكعبة، وقال: يامعشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم. قالوا: خير أخ كريم وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء فعفا عنهم فلذلك سمى أهل مكة (الطلقاء) وطاف صاحب الشريعة بالكعبة سبعاً ودخلها وصلى فيها ثم جلس للبيعة فى الصفا وعمر بن الخطاب تحته واجتمع الناس لبيعته فكان يبايعهم على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا فكانت هذه بيعة الرجال. ثم أخذ يبايع النساء فأتاه منهنّ نساء من قريش منهنّ أم هانىء بنت أبى طالب وأم حبيبة بنت العاص بن أمية وكانت عند عمرو بن عبد ودّ العامرى. وأروى بنت أبى العيص عمة عتاب بنت أسيد وأختها عاتكة بنت أبى العيص وكانت عند المطلب بن أبى وداعة السهمي وأمية بنت عفان بن أبى العاص أخت عثمان، وكانت عند سعد حليف بنى مخزوم وهند بنت عتبة، وكانت عند أبى سفيان ويسيرة بنت صفوان بن نوفل بن أسد بن عبد العزى وأم حكيم بنت الحرث بن هشام، وكانت عند عكرمة بن أبى جهل وفاختة بنت الوليد بن المغيرة أخت خالد، وكانت عند صفوان بن أمية بن خلف، وريطة بنت الحجاج وكانت عند عمرو بن العاص وغيرهن وكانت هند متنكرة لصنيعها بحمزة فهى تخاف أن تؤخذ به. وقال لهنّ تبايعننى على أن لا تشركن بالله شيئاً. قالت: هند إنك والله لتأخذ علينا ما لا تأخذه على الرجال فسنؤتيكه. قال: ولا تسرقن. قالت: والله ما كنت أصيب من مال أبى سفيان إلاّ الهنة بعد الهنة. فقال أبو سفيان، وكان حاضراً أما ما مضى فأنت منه فى حل. فقال صاحب الشريعة أهند. قالت أنا هند فاعف عما سلف عفا الله عنك. قال ولا تزنين. قالت:وهل تزنى الحرّة. قال: ولا تقتلن أولادكنّ. قالت: ربيناهم صغارا وقتلتهم يوم بدر كباراً فأنت وهم أعلم فضحك عمر. قال: ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن. قالت: والله إن إتيان البهتان لقبيح. وما تأمرنا إلاّ بالرشد ومكارم الأخلاق. قال: ولا تعصيننى فى معروف. قالت: ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك. فقال صاحب الشريعة لعمر بايعهنّ ففعل، قال أهل التاريخ: ولما جاء وقت الظهر أمر صاحب الشريعة بلالاً أن يؤذن على ظهر الكعبة وقريش فوق الجبال. فلما أذن. وقال: أشهد أن محمداً رسول الله. قالت جويرية بنت أبى جهل: لقد أكرم الله أبى حين لم يشهد نهيق بلال فوق الكعبة. وقال خالد بن أسعد: لقد أكرم الله أبى فلم ير هذا اليوم. وقال الحارث بن هشام: ليتنى مت قبل هذا اليوم. وقال جماعة نحو هذا القول تحاملاً واستخفافاً.

(الفصل الرابع)

(فى ذكر مرض صاحب الشريعة ووفاته)

ابتدأ المرض بصاحب الشريعة فى أواخر صفر فى بيت زينب بنت جحش وكان يدور على نسائه حتى اشتد مرضه فى بيت ميمونة فجمع نساءه فأستأذنهن أن يمرّض فى بيت عائشة وبينما هو فى مرضه إذ وصلت الأخبار بظهور الأسود العنسى باليمن ومسيلمة باليمامة وطليحة فى بنى أسد وعسكر بسميراء فتأخر مسير أسامة. وكان قد عقد له لواء وأمره بالغزو قبل أن يثقل به مرضه وكذلك تأخر لخبر الأسود العنسى ومسيلمة فخرج صاحب الشريعة عاصباً رأسه من الصداع وأمر بإنفاذ جيش أسامة ولعن الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد وخرج أسامة فضرب بالجرف المعسكر وتمهل الناس وثقل صاحب الشريعة ولم يشغله شدة مرضه عن إنفاذ الغزوة فأرسل إلى نفر من الأنصار فى أمر الأسود فأصيب الأسود فى حياة صاحب الشريعة قبل وفاته بيوم فأرسل إلى جماعة من الناس يحثهم على جهاد من عندهم من المرتدين. وقد اشتد به المرض شدة بالغة وازداد ألمه، قال ابن مسعود: نعى إلينا نبينا وحبيبنا نفسه قبل موته بشهر فلما دنا الفراق جمعنا فى بيت عائشة فنظر إلينا فشدد ودمعت عيناه. وقال: مرحبا بكم حياكم الله رحمكم الله آواكم الله حفظكم الله رفعكم الله وفقكم الله سلمكم الله قبلكم الله أوصيكم بتقوى الله وأوصى الله بكم واستخلفه عليكم حذركم الله إنى لكم منه نذير وبشير أن لا تعلوا على الله فى عباده وبلاده فإنه قال لى ولكم: ﴿**تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين**﴾ قلنا: فمتى أجلك. قال: دنا الفراق والمنقلب إلى الله وسدرة المنتهى والرفيق الأعلى وجنة المأوى فقلنا من يغسلك. قال: أهلى قلنا فيم نكفنك . قال: فى ثيابى أو فى بياض قلنا فمن يصلى عليك. قال مهلاً غفر الله لكم وجزاكم عن نبيكم خيراً فبكينا وبكى. ثم قال: دعونى على سريرى على شفير قبرى ثم اخرجوا عنى ساعة ليصلى علىّ جبريل وإسرافيل وميكائيل وملك الموت مع الملائكة ثم ادخلوا علىّ فوجًا فوجًا فصلوا علىّ ولا تؤذونى بتزكية ولا رنة أقرؤا أنفسكم منى السلام ومن غاب من أصحابى فأقرؤه منى السلام ومن تابعكم على دينى فاقرؤه منى السلام. اهـ.

قال ابن عباس: يوم الخميس وما يوم الخميس؟ ثم جرت دموعه على خديه،

اشتد برسول الله ﷺ مرضه ووجعه. فقال ائتونى بدواة وبيضاء أكتب لكم كتاباً لا تضلون بعدى أبداً فتنازعوا ولا ينبغى عند نبى تنازع. فقالوا: إن رسول الله ﷺ يهجر فجعلوا يعيدون عليه. فقال: دعونى فما أنا فيه خير مما تدعونى إليه فأوصى أن يخرج المشركون من جزيرة العرب وأن يجاز الوفد بنحو مما كان يجيزهم وسكت عن الثالثة عمداً أو قال: نسيتها . اهـ.

وخرج على بن أبى طالب من عند صاحب الشريعة فى مرضه. فقال الناس كيف أصبح رسول الله فقال: أصبح بحمد الله بارئاً فأخذ بيده العباس. فقال أنت بعد ثلاث عبد العصا وأن رسول الله ﷺ سيتوفى فى مرضه هذا وإنى لأعرف الموت فى وجوه بنى عبد المطلب فاذهب إلى رسول الله ﷺ فاسأله فيمن يكون هذا الأمر فإن كان فينا علمناه. وإن كان فى غيرنا أمره فأوصى بنا. فقال على: لئن سألناها رسول الله ﷺ فمنعناها فلا يعطيناها الناس أبداً. والله لا أسألها رسول الله ﷺ . قال: فما اشتد الضحى حتى توفى رسول الله ﷺ ، وكان موته يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول، ولما توفى كان أبو بكر بمنزله بالسنح لأنه كان قد تخلف عن الخروج فى جيش أسامة لما تحقق من شدة مرض صاحب الشريعة وقرب وفاته وعمر حاضر فلما شاع خبر موته كثر توارد العرب من كل صوب وحدب وعلت الضوضاء وارتفعت الجلبة واشتد الهرج والمرج وظهرت دلائل الردة وقام كل ذى مرض فى الصدر وافتتنوا أو كادوا. فقام عمر بينهم، فقال: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ توفى وإنه والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران والله ليرجعن رسول الله ﷺ فيقطع أيدى وأرجل رجال زعموا أنه مات وأقبل أبو بكر وعمر يكلم الناس وهم فى ضجة فدخل على صاحب الشريعة وهو مسجى فى ناحية البيت فكشف عن وجهه ثم قبّله، وقال: بأبى أنت وأمى طبت حياً وميتاً أما الموتة التى كتب الله عليك فقد متها ثم ردّ الثوب على وجهه ثم خرج وعمر يكلم الناس فأمره بالسكون فأبى وعلا صوته وشدد القول فأقبل أبو بكر على الناس فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال: أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ثم تلا هذه الآية: ﴿**وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين**﴾ قال الراوى: فوالله لكأن الناس ما سمعوها إلا

منه. وقال عمـر: فوالله ما هو إلا إذ سمعتـها فعقرت حـتى وقعت على الأرض ما تحملنى رجلاى وقد علمت أن رسول الله ﷺ قد مات. اهـ.

ولما مات صاحب الشريعـة ووصل خبره إلى مكة وعامله عليها عـتاب بن أسيد ابن أبى العاص بن أمية اسـتخفى عتاب وارتجت مكة وكاد أهلها يرتدون واجـتمعوا حول الكعبـة وكثر ضجيـجهم فقام سـهيل بن عمرو على باب الكعـبة وصاح بهم فاجتمعوا إليه. فـقال ياأهل مكة لا تكونوا آخر من أسلم وأول من ارتد والله ليتمنّ الله هذا الأمر كما ذكر رسول الله ﷺ فقد رأيته قائماً مقامى هذا وحده وهو يقول قولوا معى لا إله إلا الله كلمة تدين لكم بهـا العرب وتؤدّى لكم العجم الجزية والله لتنفقنّ كنوزكسرى وقيصر فى سبيـل الله فمن بين مستهزىء ومصدق فكانّ ما رأيتم والله ليكونن البـاقى فامتنع الناس من الـردة وقل الهرج وتطامنت القلوب واجـتمع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة ليبايعوا سعد بن عبادة فبلغ ذلك أبا بكر فأتاهم ومعه عمر وأبو عبيـدة بن الجراح. فقال: ما هذا فقالوا: منا أميـر ومنكم أمير. فقال أبو بكر: منا الأمـراء ومنكم الوزراء. ثم قـال أبو بكر: قـد رضـيت لكم أحـد هذين الرجلين عمـر وأبا عبيدة أمـين هذه الأمة، فقال عمـر أيكم يطيب نفسا أن يخلف قدمين قـدمهما النبىّ ﷺ فـبايعه عمـر وبايعه الناس. فقالت الأنصـار: لا نبايع إلاعلياً وتخلف علىّ وبنو هاشم والزبيـر وطلحة عن البيعة. وقال الزبيـر: لا أغمد سيـفا حتى يبـايع على فقال عـمر خذوا سـيفه واضـربوا به الحجر ثم أتاهم عـمر فأخذهم للبيعة وقيل لما سمع على ببـيعة أبى بكر خرج فى قميص ما عليه إزار ولا رداء عجلا حـتى بايعه ثم استدعى إزاره ورداءه فـتجلله، قـال بعض أهل التـاريخ والصحيح أن علياً ما بايع إلا بعد ستة أشهر وقيل لما اجتمع الناس على بيعة أبى بكر أقبل أبو سفيـان وهو يقول إنى لأرى عجاجة لا يطفئهـا إلا دم يا آل عبد مناف فيم أبو بكر من أموركم أين المستضعفـان أين الأذلان على والعباس ما بال هذا الأمر فى أقل حى من قريش. ثم قال لعلى: ابسط يدك أبايعك فوالله لئن شئت لأملأنها عليه خيلا ورجلا فأبى على عليه فتمثل بشعر المتلمس

ولن يقـيم على خـسـف يراد به   إلا الأذلان عـيـــر الحي والـوتد
هذا على الخـسف مـربوط برمـتـه   وذا يشـج فـــلا يـرثي له أحـــد

قيـل فزجـره على وقـال: والله إنك مـا أردت بهذا إلا الفـتنة وإنك والله طالما

بغيت للإسلام شراً لا حاجة لنا فى نصيحتك، وقال ابن عباس: كنت أقرىء عبد الرحمن بن عوف القرآن فحج عمر وحججنا معه. فقال لى عبد الرحمن: شهدت أمير المؤمنين اليوم بمنى. وقال له رجل سمعت فلاناً. يقول لو مات عمر لبايعت فلاناً. فقال عمر إنى لقائم العشية فى الناس أحذرهم هؤلاء الرهط الذين يريدون أن يغتصبوا الناس أمرهم. قال: فقلت ياأمير المؤمنين إن الموسم يجمع رعاع الناس وغوغاءهم وهم الذين يغلبون على مجلسك وأخاف أن تقول مقالة لا يعوها ولا يحفظوها ويطيروا بها، ولكن أمهل حتى تقدم المدينة وتخلص بأصحاب رسول الله ﷺ فتقول ما قلت فيعوا مقالتك. فقال: والله لأقومن بها أول مقام أقومه بالمدينة. قال: فلما قدمت المدينة هجرت يوم الجمعة لحديث عبد الرحمن. فلما جلس عمر على المنبر حمد الله وأثنى عليه. ثم قال: بعد أن ذكر الرجم وما نسخ من القرآن فيه، أنه بلغنى أن قائلا منكم يقول لو مات أمير المؤمنين بايعت فلاناً فلا يغرن امرأ أن يقول أن بيعة أبى بكر كانت فلتة فقد كانت كذلك ولكن الله وقى شرها وليس منكم من تقطع إليه الأعناق مثل أبى بكر وأنه كان خيرنا حين توفى رسول الله ﷺ وأن علياً والزبير ومن معهما تخلفوا عنا فى بيت فاطمة وتخلف عنا الأنصار واجتمع المهاجرون إلى أبى بكر فقلت له انطلق بنا إلى إخواننا من الأنصار فانطلقنا نحوهم فلقينا رجلان صالحان من الأنصار أحدهما عويم بن ساعدة والثانى معن بن عدى. فقالا لنا: ارجعوا اقضوا أمركم بينكم. قال: فأتينا الأنصار وهم مجتمعون فى سقيفة بنى ساعدة وبين أظهرهم رجل مزمل قلت من هذا قالوا سعد بن عبادة وجمع فقام رجل منهم فحمد الله وأثنى عليه. وقال: أما بعد فنحن الأنصار وكتيبة الإسلام وأنتم يامعشر قريش رهط بيننا وقد دفت إلينا دافة من قومكم فإذا هم يريدون أن يغصبونا الأمر فلما سكت وكنت قد زورت فى نفسى مقالة أقولها بين يدى أبى بكر فلما أردت أن أتكلم. قال أبو بكر: على رسلك فقام فحمد الله وما ترك شيئاً كنت زورت فى نفسى الإجابة أو بأحسن منه. وقال: يامعشر الأنصار إنكم لا تذكرون فضلاً إلا وأنتم له أهل وأن العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لقريش وهم أوسط العرب داراً ونسباً وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين وأخذ بيدى وبيد أبى عبيدة بن الجراح وإنى والله ما كرهت من كلامه كلمة غيرها إن كنت أقدم فتضرب عنقى فيما لا يقربنى إلى إثم أحب إلىّ من أن أؤمر على قوم فيهم أبو بكر، فلما قضى أبو بكر كلامه. قام منهم رجل . فقال: أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب منا أمير ومنكم أمير وارتفعت الأصوات واللغط فلما خفت

الاختلاف قلت لأبى بكر: ابسط يدك أبايعك. فبسط يده فبايعته وبايعه الناس ثم نزونا على سعد بن عبادة. فقال قائلهم: قتلتم سعدا فقلت قتل الله سعدا وإنا والله ما وجدنا أمراً هو أقوى من بيعة أبي بكر خشيت إن فارقت القوم ولم تكن بيعة أن يحدثوا بعدنا بيعة فإما أن نتابعهم على ما لا نرضى وإما أن نخالفهم فيكون فساداً . اهـ.

وقال أبو عمرة الأنصارى: لما قبض النبىّ ﷺ اجتمعت الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة وأخرجوا سعد بن عبادة ليولوه الأمر. وكان مريضاً. فقال: بعد أن حمد الله، يامعشر الأنصار لكم سابقة وفضيلة ليست لأحد من العرب أن محمد ﷺ لبث فى قومه بضع عشرة سنة يدعوهم فما آمن به إلا القليل ما كانوا يقدرون على منعه ولا على إعزاز دينه ولا على دفع ضيم حتى إذا أراد الله بكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة ورزقكم الإيمان به وبرسوله والمنع له ولأصحابه والإعزاز له ولدينه والجهاد لأعدائه فكنتم أشد الناس على عدوّه حتى استقامت العرب لأمر الله طوعاً وكرهاً وأعطى البعيد المقادة صاغراً فدانت لرسوله بأسيافكم العرب وتوفاه الله وهو عنكم راض قرير العين استبدوا بهذا الأمر دون الناس فإنه لكم دونهم، فأجابوه بأجمعهم قد وفقت وأصبت الرأى ونحن نوليك هذا الأمر فإنك مقنع ورضاء للمؤمنين ثم إنهم ترادوا الكلام وأبى المهاجرون من قريش. وقالوا: نحن المهاجرون وأصحابه الأولون وعشيرته وأولياؤه. فقالت طائفة منهم: فإنا نقول: منا أمير ومنكم أمير ولن نرضى بدون هذا أبداً. فقال سعد: هذا أوّل الوهن وسمع عمر الخبر فأتى منزل صاحب الشريعة وأبو بكر فيه فأرسل إليه أن اخرج إلىّ فأرسل إليه إنى مشتغل فقال عمر: قد حدث أمر لابد لك من حضوره فخرج إليه فأعلمه الخبر فمضيا مسرعين نحوهم ومعهما أبو عبيدة. قال عمر: فأتيناهم وقد كنت زوّرت كلاماً أقوله لهم فلما دنوت أقول أسكتنى أبو بكر وتكلم بكل ما أردته فحمد الله وقال: إن الله قد بعث فينا رسولاً شهيداً على أمته ليعبدوه ويوحدوه وهم يعبدون من دونه آلهة شتى من حجر وخشب فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والمواساة له والصبر معه على شدة أذى قومه وتكذيبهم إياه وكل الناس لهم مخالف زائر عليهم فلم يستوحشوا لقلة عددهم وشنف الناس لهم فهم أول من عبد الله فى هذه الأرض وآمن بالله وبالرسول وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعد لا ينازعهم إلا ظالم، وأنتم يامعشر الأنصار من لا ينكر فضلهم فى الدين ولا سابقتهم فى الإسلام رضيكم الله أنصاراً

لدينه ورسوله وجعل إليكم هجرته فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تفاوتون بمشورة ولا تقضى دونكم الأمور، فقام الحباب بن المنذر بن الجموح فقال: يامعشر الأنصار أملكوا عليكم أمركم فإن الناس فى ظلكم ولن يجترىء مجترىء على خلافكم ولا يصدروا إلا عن رأيكم أنتم أهل العز وأولوا العدد والمنعة وذوو البأس وإنما ينظر الناس ما تصنعون ولا تختلفوا فيفسد عليكم أمركم أبى هؤلاء إلا ما سمعتم فمنا أمير ومنكم أمير. فقال عمر: هيهات لا يجتمع اثنان والله لا ترضى العرب أن تؤمركم ونبينا من غيركم ولا تمتنع العرب أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم ولنا بذلك الحجة الظاهرة من ينازعنا سلطان محمد ونحن أولياؤه وعشيرته فقال الحباب بن المنذر يامعشر الأنصار املكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر فإن أبوا عليكم فاجلوهم عن هذه البلاد وتولوا عليهم هذا الأمر فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم فإنه بأسيافكم دان الناس لهذا الدين أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب أنا أبو شبل فى عرينة الأسد والله لئن شئتم لنعيدنها جذعة . فقال عمر: إذن ليقتلك الله فقال: بل إياك يقتل، فقال أبو عبيدة: يامعشر الأنصار إنكم أول من نصر فلا تكونوا أول من بدل وغير، فقام بشير بن سعد أبو النعمان بن بشير فقال: يامعشر الأنصار إنا والله وإن كنا أولى فضيلة فى جهاد المشركين وسابقة فى الدين ما أردنا به إلا رضاء ربنا وطاعة نبينا والكدح لأنفسنا فما ينبغى أن نستطيل على الناس بذلك ولا نبتغى به الدنيا إلا أن محمداً ﷺ من قريش وقومه أولى به وأيم الله لا يرانى الله أنازعهم هذا الأمر فاتقوا الله ولا تخالفوهم، فقال أبو بكر: هذا عمر وأبو عبيدة فإن شئتم فبايعوا فقالا: والله لا نتولى هذا الأمر عليك وأنت أفضل المهاجرين وخليفة رسول الله ﷺ فى الصلاة وهى أفضل دين المسلمين أبسط يدك نبايعك فلما ذهبا يبايعانه سبقهما بشير بن سعد فبايعه فناداه الحباب بن المنذر عققت عقاقاً أنفست على ابن عمك الإمارة. فقال: لا والله ولكنى كرهت أن أنازع القوم حقهم، ولما رأت الأوس ما صنع بشير وما تطلب الخزرج من تأمير سعد. قال بعضهم لبعض وفيهم أسيد بن حضير وكان نقيباً: والله لئن وليتها الخزرج مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولاجعلوا لكم فيها نصيباً أبداً فقوموا فبايعوا أبا بكر فبايعوه فانكسر على سعد والخزرج ما أجمعوا عليه وأقبل الناس يبايعون أبا بكر من كل جانب ثم تحوّل سعد بن عبادة إلى داره فبقى أياماً وأرسل إليه ليبايع فإن الناس قد بايعوا فقال لا والله حتى أرميكم بما فى كنانتى وأخضب سنان رمحى وأضرب بسيفى وأقاتلكم بأهل بيتى ومن أطاعنى ولو اجتمع معكم الجن والإنس ما بايعتكم

حتى أعرض على ربى. فقال عمر: لا تدعه حتى يبايع. فقال بشير بن سعد: أنه قد لج وأبى ولا يبايعكم حتى يقتل وليس بمقتول حتى يقتل معه أهله وطائفة من عشيرته ولا يضركم تركه وإنما هور رجل واحد فتركوه، وجاءت أسلم فبايعت فقوى أبو بكر بهم وبايع الناس بعد، قيل أن عمرو بن حريث قال لسعيد بن زيد: متى بويع أبو بكر؟ قال: يوم مات رسول الله ﷺ كرهوا أن يبكوا بعض يوم وليسوا فى جماعة، قال الزهرى: بقى علىّ وبنو هاشم والزبير ستة أشهر لم يبايعوا أبا بكر حتى ماتت فاطمة رضى الله عنها فبايعوه فلما كان الغد من بيعة أبى بكر جلس على المنبر وبايعه الناس بيعة عامة ثم تكلم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقوّمونى الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له حقه. والقوى ضعيف عندى حتى آخذ منه الحق - إن شاء الله تعالى - لا يدع أحد منكم الجهاد فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم قوموا إلى صلاتكم رحمكم الله .اهـ.

ولما بويع أبو بكر أقبل الناس على جهاز صاحب الشريعة ودفن يوم الثلاثاء وقيل يوم الأربعاء . وقيل بقى ثلاثة أيام لم يدفن، وكانت مدة مرضه أربعة عشر يوماً. وقيل سبعة أيام بذات الجنب فلما كان اليوم السابع من مرضه مات، قال ضمران: مات وتحته فى مرضه شملة حمراء وعليها مات وفيها أدرج بعد موته وورى التراب بغير غُسل ولا أكفان، وروى عمران بن حضير الخزاعى أنه غسل وأدرج فى ثلاثة أثواب سحولية أى بيض يمانية وأن الذى تولى ذلك معه علىّ بن أبى طالب والفضل بن العباس بن عبد المطلب عمه واختلفوا أين يدفنونه. فقال أبو بكر: سمعت رسول الله ﷺ: يقول ما قبض نبى إلا دفن حيث قبض فرفع فراشه ودفن موضعه حفر له أبو طلحة الأنصارى لحدا ودخل الناس يصلون عليه أرسالاً الرجال ثم النساء ثم الصبيان ثم العبيد. ودفن ليلة الأربعاء وقيل ليلة الخميس واختلفوا فى عمره يوم مات. فقال ابن عباس وعائشة ومعاوية وابن المسيب: كان عمره ثلاثاً وستين سنة. وقال ابن عباس أيضاً ودغفل بن حنظلة: كان عمره خمساً وستين سنة. وقال عروة بن الزبير: كان عمره ستين سنة والله أعلم بالحقيقة.

* * *

(المقالة الثالثة)
(فى الخلفاء الراشدين وفيها فصول)

(الفصل الأول)
(فى خلافة أبى بكر الصديق)

لما تولى أبو بكر الأمر بعد وفاة صاحب الشريعة كان قد استفحل أمر الخلاف بين العرب وظهر النفاق وتأخر سير جيش أسامة بن زيد إلى الشام بأسباب وفاة صاحب الشريعة وظهور الفتنة فى العرب وارتداد الخاصة والعامة من كل قبيلة وبقى المسلمون كالغنم فى الليلة المطيرة لفقد صاحبهم وقلتهم وكثرة عدوهم. وكان أبو بكر قد نادى فى جيش أسامة بالخروج إلى الشام كما أمر صاحب الشريعة وكرر أبو بكر النداء بالتعجيل . فقال الناس لأبى بكر: إن هؤلاء (يعنون جيش أسامة) جند المسلمين والعرب على ما ترى فقد انتقضت بك فلا ينبغى أن تفرق جماعة المسلمين عنك. فقال أبو بكر: والذى نفسى بيده لو ظننت أن السباع تخطفنى لأنفذت جيش أسامة كما أمر النبىّ ﷺ فخاطب الناس وأمرهم بالتجهز للغزو وأن يخرج كل من هو من جيش أسامة إلى معسكره بالجرف فخرجوا كما أمرهم وحبس أبو بكر من بقى من تلك القبائل التى كانت لهم الهجرة فى ديارهم فصاروا مسائح حول قبائلهم وهم قليل فلما خرج الجيش إلى معسكرهم بالجرف وتكاملوا أرسل أسامة عمر بن الخطاب وكان معه فى جيشه إلى أبى بكر يستأذنه أن يرجع بالناس. وقال: إن معى وجوه الناس وجلتهم ولا آمن على خليفه رسول الله وحرم رسول الله والمسلمين أن يتخطفهم المشركون. وقال: من مع أسامة من الأنصار لعمر بن الخطاب إن أبا بكر خليفة رسول الله ألا فامض فأبلغه عنا وأطلب إليه أن يولى أمرنا أقدم سنا من أسامة فخرج عمر بأمر أسامة إلى أبى بكر فأخبره بما قال أسامة فقال: لو خطفتنى الكلاب

والذئاب لأنفذته كما أمر به رسول الله ﷺ ولا أرد قضاء قضى به رسول الله ﷺ ولو لم يبق فى القرى غيرى لأنفذته، قال عمر: فإن الأنصار تطلب رجلاً أقدم سناً من أسامة، فوثبت أبو بكر وكان جالساً وأخذ بلحية عمر. وقال: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله ﷺ وتأمرنى أن أعزله، ثم خرج أبو بكرحتى أتاهم وأشخصهم وشيعهم وهو ماش وأسامة راكب. فقال له أسامة: ياخليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن . فقال: والله لانزلت ولا أركب وما علىّ أن أغبر قدمى ساعة فى سبيل الله فلما أراد أن يرجع. قال لأسامة إن رأيت أن تعيننى بعمر فافعل فأذن له ثم وصاهم فقال لهم: لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تقعروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له وسوف تمرون بأقوام قد فحصوا أواسط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فأخفقوهم بالسيف خفقاً اندفعوا باسم الله، وأوصى أسامة أن يفعل ما أمره به صاحب الشريعة فساروا وأوقع بقبائل من ناس قضاعة التى ارتدت وغنم وعاد وكانت غيبته أربعين يوماً وقيل سبعين يوماً.

قال أصحاب التاريخ: وكان إنفاذ جيش أسامة أعظم الأمور نفعاً للمسلمين فإن العرب قالوا: لو لم يكن بهم قوّة لما أرسلوا هذا الجيش فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه . وقال بعضهم: لما مات صاحب الشريعة ارتدت العرب ومنعت الزكاة فجمع أبو بكر الصحابة وشاورهم فى الأمر وفى قتال العرب فاختلفوا عليه. وقال له عمر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قالها فقد عصم منى دمه وماله إلا بحقه وحسابه على الله عزّ وجلّ. فقال أبو بكر والله لأقاتلنّ من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال والله لو منعونى عناقاً كانوا يؤدّونها رسول الله لقاتلتهم على منعها. قال عمر: فوالله ما هو إلا أن شرح الله صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق، وفى رواية. قال عمر: فقلت تألف الناس وارفق بهم فقال: أجبارا فى الجاهلية وخوّارا فى الإسلام ياعمر إنه قد انقطع الوحى وتم الدين أينقص وأنا حىّ ثم خرج لقتالهم.

وقال ابن قتيبة ارتدت العرب إلا القليل منهم فجاهدهم الصدّيق حتى استقاموا وفتح اليمامة وقتل مسيلمة الكذاب بها والأسود العنسى الكذاب بصنعاء وبعث الجيوش إلى الشام والعراق، وأخرج ابن عبد الحكم عن على بن رباح اللخمى.

قال: بعث أبو بكر الصدّيق ﷺ بعد وفاة رسول الله ﷺ حاطباً إلى المقوقس بمصر فمر على ناحية قرى الشرقية فعاهدهم وأعطوه فلم يزالوا على ذلك حتى دخلها عمرو بن العاص فقاتلوه وانتقض ذلك العهد، وقال عبد الملك بن مسلمة وهى أول هدنة كانت بمصر (قلت) ولم أر فى قول أحد من أهل التاريخ شيئاً من نحو ذلك البتة، وأقام أبو بكر يدبر الأمر ويبعث البعوث والسرايا إلى الآفاق ويشدّد على من ارتد من القبائل ويعمل فى رقاب أصحاب الفتنة بالسيف حتى استقام له الأمر وعلت كلمة الإسلام ولاحت طوالعه فى سماء السعادة وما زال حتى مرض وثقل به المرض ومات وله ثلاث وستون سنة قيل: ولما مرض ترك التطبب تسليماً للأمر فعاده الصحابة وقالوا: ألاندعو لك طبيباً ينظر إليك فقال نظر إلىّ فقالوا: وما قال لك؟ قال: قال لى إنى فعال لما أريد، وتوفى ليلة الثلاثاء بين المغرب والعشاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة ودفن فى حجرة عائشة مع صاحب الشريعة وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وثمانية أيام.

(الفصل الثانى)

(فى خلافة عمر بن الخطاب)

ثم قام بالأمر بعده عمر بن الخطاب بويع له بالخلافة فى اليوم الذى مات فيه أبو بكر بوصية من أبى بكر إليه، فهو عمر الفاروق وهو أول من سمى بأمير المؤمنين وهو أول المهاجرين الأولين قيل صلى إلى القبلتين وشهد بدراً وبيعة الرضوان وجميع المشاهد مع صاحب الشريعة ولما أسلم تعزز به الإسلام، واختلف الكتاب فى إسلام عمر فمن قائل: أسلم بعد تسعة وثلاثين رجلاً وثلاث وعشرين أمرأة ومن قائل بعد أربعين رجلاً وإحدى عشرة امرأة. ومن قائل بل أسلم بعد خمسة وأربعين رجلاً وإحدى وعشرين أمرأة، وكان رجلاًجلداً منيعاً شديد البأس جباراً. وكان إسلامه بعد هجرة من هاجر من أصحاب صاحب الشريعة إلى الحبشة قيل وكان أصحاب صاحب الشريعة لا يقدرون أن يصلوا عند الكعبة حتى أسلم عمر. فلما أسلم قاتل قريشا حتى صلى صاحب الشريعة عندها وصلى معه أصحابه وكان قد أسلم قبل عمر حمزة بن عبد المطلب فقوّى بهما الإسلام وتحقق المسلمون أنهما سيمنعان صاحب الشريعة والمسلمين واختلفوا أيضاً فى سبب إسلامه بعد الذى كانوا يرونه من شدّته وجبروته على المسلمين، قالت أم عبد الله بنت أبى حثمة: وكانت

زوج عامر بن ربيعة إنا لنرحل إلى أرض الحبشة . وقد ذهب عامر لبعض حاجته إذ أقبل عمر وهو على شركه حتى وقف عليّ وكنا نلقى منه البلاء أذى وشدّة. فقال: أتنطلقون ياأم عبد الله. قالت: قلت: نعم. والله لنخرجنّ فى أرض الله فقد آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا فرجا. قالت: فقال صحبكم الله ورأيت له رقة وحزناً فلما عاد عامر أخبرته وقلت له لو رأيت عمر ورقته وحزنه علينا. قال أطمعت فى إسلامه قلت. نعم. فقال لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب لما كان يرى من غلظته وشدّته على المسلمين قالت: فهداه الله تعالى فأسلم فصار على الكفار أشد منه على المسلمين.

وقال جماعة: أن سبب إسلامه أن أخته فاطمة بنت الخطاب كانت تحت سعيد ابن زيد بن عمرو العدوى وكانا مسلمين يخفيان إسلامهما من عمر، وكان نعيم بن عبد الله النحام العدوى قد أسلم أيضاً وهو يخفى إسلامه خوفاً من قومه وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة يقرئها القرآن فخرج عمر يوماً ومعه سيفه يريد قتل صاحب الشريعة وأصحابه وهم مجتمعون فى دار الأرقم عند الصفا وعنده من لم يهاجر من المسلمين فى نحو أربعين رجلاً فلقيه نعيم بن عبد الله. فقال: أين تريد ياعمر فقال: أريد محمداً الذى فرّق أمر قريش وعاب دينها فأقتله. فقال نعيم: والله لقد غرتك نفسك أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً أفلا ترجع إلى أهلك فتقيم أمرهم. فقال: وأى أهلى. فقال: ختنك وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة فقد والله أسلما فرجع عمر إليهما وعندهما خباب بن الأرت يقرئهما القرآن فلما سمعوا حس عمر تغيب خباب وأخذت فاطمة الصحيفة فألقتها تحت فخذها وقد سمع عمر قراءة خباب فلما دخل قال ما هذه الهينمة قالا ما سمعت شيئاً. قال: إنكما تابعتما محمداً وبطش بختنه سعيد بن زيد فقامت إليه أخته تكفه فضربها فشجها فلما فعل ذلك. قالت له أخته قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما شئت فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم . وقال لها أعطينى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرؤن فيها الآن حتى أنظر إلى ما جاء به محمد فقالت إنا نخشاك عليها فحلف أنه يعيدها. قالت: وقد طمعت فى إسلامه إنك نجس على شركك ولا يمسها إلا المطهرون فقام فاغتسل فأعطته الصحيفة وقرأها وفيها طه وكان كاتباً فلما قرأ بعضها. قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه فلما سمع خباب خرج إليه. وقال ياعمر: إنى والله لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه فإنى سمعته أمس وهو يقول اللهم أيد الإسلام بعمر بن الخطاب أو بأبى الحكم بن

هشام فالله الله ياعمر فقال عمر: عند ذلك فدلنى ياخباب على محمد حتى آتيه فأسلم فدله خباب فأخذ بسيفه وجاء إلى صاحب الشريعة وأصحابه وضرب عليهم الباب فقام رجل منهم ينظرمن بالباب فرآه متوشحا بسيفه فأخبر صاحب الشريعة. فقال حمزة: ائذن له فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له وإن أراد شراً قتلناه بسيفه فأذن له فنهض إليه صاحب الشريعة حتى لقيه فأخذ بمجامع ردائه ثم جذبه جذبة شديدة. وقال: ما جاء بك ما أراك تنتهى حتى ينزل الله عليك قارعة. فقال عمر: يارسول الله قد جئت لأومن بالله وبرسوله فكبر صاحب الشريعة تكبيرة شديدة، قال عمر: ولما أسلمت أتيت باب أبى جهل بن هشام فضربت عليه بابه فخرج إلىّ وقال: مرحبا بابن أخى ما جاء بك قلت جئن لأخبرك أنى قد أسلمت وآمنت بمحمد ﷺ وصدّقت ما جاء به. قال: فضرب الباب فى وجهى. وقال: قبحك الله وقبح ما جئت به. اهـ. وقيل فى إسلامه غير ذلك، وكانت العرب لا تحب تولية عمر الخلافة بعد أبى بكر لغلظته وشدّته فلما نزل بأبى بكر الموت دعا عبد الرحمن بن عوف. فقال: أخبرنى عن عمر فقال أنه أفضل من رأيت إلا أن فيه غلظة. فقال أبو بكر: ذلك لأنه يرانى رفيقاً ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما هو عليه وقد رمقته فكنت إذا غضبت على رجل أرانى الرضا عنه وإذا لنت إلى رجل أرانى الشدّة عليه. ثم دعا عثمان بن عفان. وقال له أخبرنى عن عمر فقال سريرته خير من علانيته وليس فينا مثله. فقال أبو بكر: لهما لا تذكرا مما قلت لكما شيئاً ولو تركته ما عدوت عثمان والخيرة له الآن أن يلى من أموركم شيئاً ولوددت أنى كنت من أموركم خلوا وكنت فيمن مضى من سلفكم، ودخل طلحة بن عبيد الله على أبى بكر فقال: استخلفت على الناس عمر. وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه وكيف به إذا خلا بهم وأنت لاق ربك فسائلك عن رعيتك، فقال أبو بكر أجلسونى فأجلسوه فقال أبالله تخوّفنى إذا لقيت ربى فسألنى قلت استخلفت على أهلك خير أهلك ثم إن أبا بكر أحضر عثمان بن عفان خالياً ليكتب عهد عمر. فقال له اكتب، بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد أبو بكر بن أبى قحافة إلى المسلمين أما بعد ثم أغمى عليه فكتب عثمان أما بعد فإنى قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً ثم أفاق أبو بكر فقال أقرأ علىّ فقرأ عليه. قال الراوى: فكبر أبو بكر. وقال: أراك خفت أن يختلف الناس إن مت فى غشيتى. قال: نعم. قال: جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله. فلما كتب العهد أمره أن يقرأه على الناس فجمعهم وأرسل الكتاب مع رسول له ومعه عمر فكان عمر يقول للناس أنصتوا واسمعوا

لخليفة رسول الله ﷺ فإنه لم يألكم نصحاً فسكن الناس فلما قرىء عليهم الكتاب سمعوا وأطاعوا وكان أبو بكر أشرف على الناس. وقال أترضون بمن استخلفت عليكم فإنى ما استخلفت عليكم ذا قرابة وإنى قد استخلفت عليكم عمر فاسمعوا له وأطيعوا فإنى والله ما ألوت من عهد الرأى. فقالوا: سمعنا وأطعنا ثم أحضر أبو بكر عمر. وقال له إنى قد استخلفتك على أصحاب رسول الله ﷺ وأوصاه بتقوى الله. ثم قال له: ياعمر إن لله حقاً بالليل لا يقبله فى النهار وحقاً فى النهار لا يقبله فى الليل وأنه لا يقبل نافلة حتى تؤدّى الفريضة ألم تر ياعمر أنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق وثقله عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه غدا إلا حق أن يكون ثقيلاً، ألم تر ياعمر إنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم وحق لميزان أن لا يوضع فيه إلا باطل أن يكون خفيفاً، ألم تر ياعمر إنما نزلت آية الرخاء مع آية الشدّة وآية الشدّة مع آية الرخاء ليكون المؤمن راغباً راهباً لا يرغب رغبة يتمنى فيها على الله ما ليس له ولا يرهب رهبة يلقى فيها بيديه، ألم تر ياعمر أن الله ذكر أهل النار بأسوإ أعمالهم فإذا ذكرتهم قلت إنى لأرجو أن لا أكون منهم وأنه إنما ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم لأنه تجاوز لهم عما كان من سىء فإذا ذكرتهم قلت أين عملى من أعمالهم فإن حفظت وصيتى فلا يكونن غائب أحب إليك من حاضر من الموت ولست بمعجزه . اهـ. وتوفى أبو بكر فلما دفن صعد عمر بن الخطاب فخطب الناس. ثم قال: إنما مثل العرب مثل جمل أنف اتبع قائده لينظر قائده حيث يقوده وأما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق. قال بعض الكتاب وهو أوّل من عس فى عمله أى كان يمشى ليلاً لحفظ الدين والناس فهابه الناس هيبة عظيمة حتى تركوا الجلوس بالأفنية فلما بلغه هيبة الناس له جمعهم ثم قام على المنبر حيث كان أبو بكر يضع قدميه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: قد بلغنى أن الناس قد هابوا شدّتى وخافوا غلظتى. وقالوا: قد كان عمر يشتدّ علينا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا ثم اشتدّ علينا وأبو بكر رضي الله عنه والينا دونه فكيف الآن وقد صارت الأمور إليه ولعمري إن من قال ذلك فقد صدق كنت مع رسول الله ﷺ فكنت عبده وخادمه حتى قبضه الله عزّ وجلّ وهو عنى راض والحمد لله وأنا أسعد الناس بذلك ثم ولى أمر الناس أبو بكر رضي الله عنه فكنت خادمه وعونه أخلط شدّتى بلينه فأكون سيفا مسلولاً حتى يغمدنى أو يدعنى فما زلت معه كذلك حتى قبضه الله تعالى وهو عنى راض والحمد لله وأنا أسعد الناس بذلك ثم إنى وليت أموركم فأعلموا أن تلك الشدّة قد تضاعفت ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدّى على المسلمين وأما أهل السلامة والدين

والقصد فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض ولست أدع أحداً يظلم أحداً ويتعدّى عليه حتى أضع خدّه على الأرض وأضع قدمى على خده حتى يذعن للحق ولكم علىّ أيها الناس أن لا أخبأ عنكم شيئاً من خراجكم وإذا وقع عندى أن لا يخرج إلا بحقه ولكم علىّ أن لا ألقيكم فى المهالك وإذا غبتم فى البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا أقول قولى هذا وأستغفر الله العظيم لى ولكم . اهـ. قال سعيد بن المسيب: وفىّ والله عمر وزاد فى الشدّة فى مواضعها واللين فى مواضعه، قيل ولما رجع من الشام إلى المدينة انفرد عن الناس ليتعرّف أخبار رعيته فمرّ بعجوز فى خبائها فقصدها. فقالت: ياهذا ما فعل عمر. قال: قد أقبل من الشام سالماً فقالت: لا جزاه الله عنى خيراً. قال: ولِمَ قالت: لأنه والله ما نالنى من عطائه منذ ولى أمر المؤمنين دينار ولا درهم فقال: وما يدرى عمر بحالك وأنت فى هذا الموضع. فقالت: سبحان الله والله ما ظننت أن أحدا يلى على الناس ولا يدرى ما بين مشرقها ومغربها فبكى عمر . وقال: واعمراه كل أحد أفقه منك حتى العجائز ياعمر. ثم قال لها: ياأمة الله بكم تبيعينى ظلامتك من عمر فإنى أرحمه من النار فقالت: لا تهزأ بنا يرحمك الله فقال: لست بهازىء فلم يزل بها حتى اشترى ظلامتها بخمسة وعشرين ديناراً فبينما هو كذلك إذ أقبل على بن أبى طالب وابن مسعود فقالا السلام عليك ياأمير المؤمنين فوضعت العجوز يدها على رأسها. وقالت: واسوأتاه شتمت أمير المؤمنين فى وجهه. فقال لها عمر: لا بأس عليك رحمك الله ثم طلب رقعة يكتب فيها فلم يجد فقطع قطعة من مرقعته وكتب فيها، بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اشترى عمر من فلانة ظلامتها مذ ولى إلى يوم كذا وكذا بخمسة وعشرين ديناراً مما تدعى عند وقوفها فى المحشر بين يدى الله تعالى فعمر منه برىء وشهد على ذلك على بن أبى طالب وابن مسعود، ثم دفع الكتاب إلى ولده. وقال: إذا أنا مت فأجعله فى كفنى ألقى به ربى، قال بعض الكتاب: وهو أوّل من أرّخ التاريخ وذلك فى سنة ست عشرة وفيها كان فتح بيت المقدس صلحا وفيه نزل سعد بن أبى وقاص على الكوفة وحصرها وهو أول من دوّن الدواوين ومصر الأمصار وفتح الفتوحات الكثيرة ففتح دمشق ثم الروم ثم فارس ثم انتهى الفتح إلى حمص وحلوان والرقة والرها وحران ورأس العين وخابور ونصيبين وعسقلان وطرابلس وما يليها من الساحل وبيسان واليرموك والأهواز وقيسارية.

قال ابن عبد الحكم: حدثنا عثمان بن صالح أنبأنا ابن لهيعة عن عبد الله بن أبى جعفر وعياش بن عباس العتابى وغيرهما يزيد بعضهم على بعض. قالوا: ولما

كانت سنة ثمان عشرة وفد عمر بن الخطاب الجابية قام إليه عمرو بن العاص فخلا به. فقال: ياأمير المؤمنين إئذن لى أن أسافر إلى مصر وحرّضه عليها. وقال: إنك إن فتحتها كانت قوّة للمسلمين وعوناً لهم وهى أكثر الأرض أموالاً وأعجزهم على القتال والحرب فتخوّف عمر بن الخطاب على المسلمين وكره ذلك فلم يزل عمرو يعظم أمرها عند عمر ويخبره بحالها يوهون عليه فتحها حتى ركن لذلك عمر فعقد له على أربعة آلاف رجل كلهم من عك. ويقال: على ثلاثة آلاف وخمسمائة فقال عمر: سر وأنا متخير الله فى مسيرك وسيأتى إليك كتابى مسرعاً إن شاء الله تعالى. فإن أدركك كتابى وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره فسار عمرو بن العاص من جوف الليل ولم يشعر به أحد من الناس واستخار عمر الله فكأنه تخوّف على المسلمين فى وجههم ذلك فكتب إلى عمرو بن العاص أن ينصرف بمن معه من المسلمين فأدرك الكتاب عمراً وهو برفح فتخوّف عمرو بن العاص إن هو أخذ الكتاب وفتحه أن يجد فيه الانصراف كما عهد إليه عمر فلم يأخذ الكتاب من الرسول ودافعه وسار كما هو حتى نزل قرية فيما بين فج والعريش فسأل عنها فقيل إنها من مصر فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين فقال عمرو ألستم تعلمون أن هذه القرية من مصر قالوا: بلى. فقال: إن أمير المؤمنين عهد إلىّ وأمرنى إن لحقنى كتابه ولم أدخل مصر أن أرجع ولم يلحقنى كتابه حتى دخلنا مصر فسيروا وأمضوا على بركة الله فتقدم عمرو بن العاص. فلما بلغ المقوقس قدوم عمرو توجه إلى الفسطاط، وكان أول موضع قوتل فيه الفرما قاتلته الروم قتالاً شديداً نحو شهر حتى فتح الله على يديه وكان بالإسكندرية أسقف للقبط اسمه بنيامين فلما بلغه قدوم عمرو بن العاص كتب إلى القبط يعلمهم أنه لا يكون للروم دولة وأن ملكهم قد انقطع ويأمرهم بتلقى عمرو ومعاونته على الروم فصار القبط الذين فى الفرما يومئذ لعمرو أعواناً ثم توجه عمرو لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى نزل القواصر فنزل ومن معه ثم تقدم وهو لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى بلبيس فقاتلوه بها نحواً من شهرحتى فتحها ثم مضى لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى أم دنين فقاتلوه بها قتالاً شديداً وأبطأ عليه الفتح فكتب إلى عمر يستمده فأمده بأربعة آلاف رجل تمام ثمانية آلاف فسار عمرو بمن معه حتى نزل على الحصن فحاصرهم بالقصر الذى يقال له باب ليون حيناً وقاتلهم فلما أبطأ عليه الفتح كتب إلى عمر بن الخطاب يستمده فأمده عمر بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجل منهم

رجل وكتب إليه إنى قد أمددتك بأربعة آلاف رجل منهم رجال مقام الألف الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد واعلم أن معك اثنى عشر ألفا ولن تغلب اثنا عشر ألفا من قلة، وكان الروم قد خندقوا حول حصنهم وجعلوا للخندق أبوابا وجعلوا سسك الحديد موتدة بأبنية الأبواب فلما قدم المدد إلى عمرو بن العاص أتى إلى القصر ووضع عليه المنجنيق وكان على القصر رجل من الروم يقال له الأعيرج والياً عليه وهو مندقور فرمى عمرو بالمنجنيق على الروم وطال القتال بين الفريقين أياماً كثيرة والقبط يعاونون العرب على القتال سراً كرهاً فى الروم فلما أبطأ الفتح. قال الزبير إنى أهب نفسى لله أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين فوضع سلماً إلى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام وأمرهم إن سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعاً فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف وتجامع الناس على السلم حتى نهاهم عمرو خوفاً من أن ينكسر فلما اقتحم الزبير وتبعه من تبعه وكبر وكبر من معه وأجابهم المسلمون من خارج لم يشك أهل الحصن أن العرب قد اقتحموا جميعاً فهزموا فعمد الزبير وأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه واقتحم المسلمون الحصن فحينئذ سأل المقوقس عمرو بن العاص الصلح ودعاه إليه على أن يفرض للعرب على القبط دينارين على كل رجل منهم فأجابه عمرو إلى ذلك قيل وكان مكثهم على باب القصر حتى فتحوه سبعة أشهر وكان قد تنحى المقوقس وجماعة من أكابر القبط وخرجوا من باب القصر القبلى فلحقوا بالجزيرة وأمروا بقطع الجسر وذلك فى جرى النيل وتخلف الأعيرج فى الحصن ثم ركب هو وأهل القوّة والشرف بعد قليل وكانت سفنهم ملصقة بالحصن ولحقوا بالمقوقس فى الجزيرة فأرسل المقوقس إلى عمرو بن العاص يقول: إنكم قوم قد ولجتم فى بلادنا وألححتم فى قتالنا وطال مقامكم فى أرضنا وإنما أنتم عصبة يسيرة وقد أظلتكم الروم وجهزوا عليكم ومعهم من العدة والسلاح وقد أحاط بكم هذا النيل وإنما أنتم أسارى فى أيدينا فأرسلوا لنا رجالاً منكم نسمع من كلامهم فلعله أن يأتى الأمر فيما بيننا على ما تحبون ونحب ونقطع عنا وعنكم هذا القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه، فرد عليهم عمرو مع رسله أن ليس بينى وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال أما إن دخلتم فى الإسلام فكنتم لنا إخواناً. وكان لكم ما لنا وإن أبيتم أعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون وأما إن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين فرد إليه المقوقس رسله وقال: ابعثوا إلينا رسلا منكم نعاملهم ونتداعى نحن وهم على ما عسى أن يكون فيه صالح لنا ولكم فبعث عمرو بن العاص عشرة نفر أحدهم عبادة بن الصامت وهو أقدم من أدرك

الإسلام من العرب وطوله عشرة أشبار وأمره عمرو أن يكون متكلم القوم فلما ركبوا السفن إلى المقوقس ودخلوا عليه تقدم عبادة وتكلم معه. وقال انظر الذى تريد فبينه لنا فليس بيننا وبينكم خصلة نقبلها منكم ولا نجيبكم إليها إلا خصلة من ثلاث فاختر أيها شئت بذلك أمرنى الأمير وبها أمره أمير المؤمنين وهو عهد رسول الله ﷺ من قبل إلينا فلم يقبل أصحاب المقوقس ذلك وأمروا بقطع الجسر بين الفسطاط والجزيرة فعاد الفريقان بعد ذلك للقتال وانحازت السفن كلها إلى الجزيرة وصار المسلمون قد أحدق بهم الماء من كل وجه لا يقدرون على أن ينفذوا أو يتقدموا نحو الصعيد ولا إلى غير ذلك من المدائن والقرى وراسل عمرو بن العاص المقوقس ولج فأجابه المقوقس. وقال نجتمع أنا وأنت فى نفر من أصحابى ونفر من أصحابك فإن استقام الأمر بيننا تم لنا ذلك وإن لم يتم رجعنا إلى ما كنا عليه فاستشار عمرو أصحابه فى ذلك. وقال قد علمتم ما عهد إلىّ أمير المؤمنين فى عهده فإن أجابوا إلى خصلة من الخصال الثلاث التى عهد إلىّ بها أجبتهم إليها. وقبلت منهم مع ما قد حال بيننا وبين ما نريد من قتالهم فأذعنوا واجتمعوا على عهد بينهم وتقررت القاعدة على أن يفرضوا على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط دينارين عن كل نفس شريفهم ووضيعهم ومن بلغ الحلم منهم ليس على الشيخ الفانى ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم ولا على النساء شىء وعلى أن للمسلمين عليهم النزل لجماعتهم حيث نزلوا ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام وأن لهم أرضهم وأموالهم لا يتعرض لهم فى شىء منها قط ووافق المقوقس على ذلك وفرض عمرو بن العاص على نفسه القيام بكرامة المقوقس وأن لا يشاغبه على ما فى يده ولا يسلبه حقه وأحصوا عدد القبط يومئذ خاصة من بلغ منهم الجزية وفرض عليهم الديناران فكان جميع من أحصى يومئذ بمصر فيما أحصوا وكتبوا أكثر من ستة آلاف ألف نفس فكانت فريضتهم اثنى عشر ألف ألف دينار كل سنة. وقيل بلغت غلتهم ثمانية آلاف ألف.

وشرط المقوقس للروم أن يتخيروا فمن أحب منهم أن يقيم على هذا الشرط أقام على هذا الأمر الذى هو مفترض عليه ممن أقام بالإسكندرية وما حولها من أرض مصر كلها ومن أراد الخروج منها إلى أرض الروم خرج على أن للمقوقس الخيار فى الروم خاصة حتى يكتب إلى ملك الروم يعلمه ما فعل فإن قبل ذلك ورضيه جاز عليهم وإلا كانوا جميعاً على ما كانوا عليه وكتبوا به كتاباً وكتب المقوقس إلى ملك الروم يعلمه على وجه الأمر كله، قال الراوى: فكتب إليه ملك الروم يقبح رأيه ويعجزه ويرد عليه ما فعل ويقول فى كتابه: إنما أتاك من العرب اثنا عشر ألفاً وبمصر

من بها من كثرة عدد القبط ما لا يحصى. فإن كان القبط كرهوا القتال وأحبوا أداء الجزية إلى العرب واختاروهم عنا ولا أراهم إلا فاعلون ذلك فإن عندك بمصر من الروم وبالإسكندرية ومن معك أكثر من مائة ألف معهم العدة والقوّة والعرب وحالهم وضعفهم على ما قد رأيت فعجزت عن قتالهم ورضيت أن تكون أنت ومن معك من الروم فى حال القبط فقاتلهم أنت ومن معك من الروم حتى تموت أو تظهر عليهم فإنهم فيكم على قدر كثرتكم وقوتكم على قدر قلتهم وضعفهم كاكلة فناهضهم القتال ولا يكون لك رأى غير ذلك، وكتب ملك الروم بمثل ذلك كتاباً لجماعته واتفق المقوقس وعمرو بن العاص على أن يكون القبط له أعواناً ويقيموا له الإنزال والضيافة والأسواق والجسور ما بين الفسطاط إلى الإسكندرية ففعلوا واستعدت الروم وجاشت وقدم عليهم من أرض الروم جمع عظيم ثم التقوا ببلدة سلطيّس فاقتتلوا بها قتالاً شديداً ثم انهزموا ثم التقوا بالكريون فاقتتلوا بها بضعة عشر يوماً. وكان عبد الله بن عمرو على المقدمة وحامل اللواء يومئذ وردان مولى عمرو واشتد الروم فى قتال المسلمين شدّة بالغة وأبلى المسلمون بلاء حسناً وما زال القتال حتى بلغ الروم الإسكندرية فتحصنوا بها وكانت عليهم حصون مبنية لا ترام حصن دون حصن فنزل المسلمون ما بين حلوة إلى قصر فارس إلى ما وراء ذلك ومعهم رؤساء القبط يمدّونهم بما احتاجوا إليه من الأطعمة والعلوفة وغير ذلك ورسل ملك الروم تختلف إلى الإسكندرية فى المراكب بمادّة الروم وتجهز هرقل ملك الروم لقتال المسلمين بمدينة الإسكندرية فأدركته المنية قبل قيامه ومات سنة خمس وأربعين وستمائة للميلاد أى سنة ثلاث وعشرين للهجرة، وما زالوا على قدم القتال حتى فتحت الإسكندرية وهرب الروم فى البر والبحر فخلف عمرو بن العاص بالإسكندرية من أصحابه ومضى بمن معه فى طلب من هرب من الروم فى البر فرجع من كان هرب من الروم فى البحر إلى الإسكندرية فقتلوا من كان بها من المسلمين إلا من هرب منهم وبلغ ذلك عمرو بن العاص فكر راجعاً ففتحها وأقام بها وكتب إلى عمر بن الخطاب أن الله قد فتح علينا بالإسكندرية عنوة بغير عقد ولا عهد فكتب إليه عمر بن الخطاب يقبح رأيه ويأمره أن لا يجاوزها، قال ابن عبد الحكم وحدثنا عثمان بن صالح عن أبى لهيعة. قال: بعث عمرو بن العاص معاوية بن خديج وافداً إلى عمر بن الخطاب ﷺ بشيراً له بالفتح فقال له معاوية ألا تكتب معى كتاباً. قال له عمرو: وما تصنع بالكتاب ألست رجلاً أعرابياً تبلغ الرسالة وما رأيت وما حضرت فلما قدم على عمر وأخبره بفتح الإسكندرية خر عمر ساجداً. وقال الحمد لله. قال: وحدثنا إبراهيم بن سعد البلوى. قال: كتب عمرو بن العاص

إلى عمر بن الخطاب ﷺ أما بعد فإنى فتحت مدينة لا أصف ما فيها غير أنى أصبت فيها أربعة آلاف بنية بأربعة آلاف حمام وأربعين ألف يهودى وأربعمائة ملهى للملوك، وأخرج عن إبراهيم بن سعد البلوى المذكور أن سبب فتح الإسكندرية أن رجلاً كان يقال له ابن بسامة كان بوّاباً فسأل عمرو بن العاص أن يؤمنه على نفسه وأرضه وأهل بيته ويفتح له الباب فأجابه عمرو إلى ذلك ففتح له الباب فدخل.

(مطلب)

(فى الخلاف بين العلماء فى مصر
هل فتحت صلحاً أو عنوة؟)

فمن قائل أنها فتحت صلحاً. قال ابن عبد الحكم حدثنى عثمان بن صالح أخبرنا الليث. قال: كان يزيد بن أبى حبيب يقول: مصر كلها صلح إلا الإسكندرية فإنها فتحت عنوة.

وأخرج عن يحيى بن أيوب وخالد بن حميد، قال: فتح الله أرض مصر بصلح غير الإسكندرية وثلاث قريات ظاهروا الروم على المسلمين سلطيس ومصيل وبلهيت، وأخرج ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبى حبيب. قال: كانت قرى من قرى مصر قاتلت ونقضوا العهد فسبوا منها قرية يقال لها بلهيت وقرية يقال لها الخيس وقرية يقال لها سلطيس وقرطا وفرّق سباياهم بالمدينة وغيرها فردّهم عمر بن الخطاب ﷺ إلى قراهم وصيرهم وجماعة القبط أهل ذمة. وأخرج يحيى بن أيوب أن أهل سلطيس ومصيل وبلهيت ظاهروا الروم على المسلمين فى جمع كان لهم فلما ظهر عليهم المسلمون استحلوهم. وقالوا: هؤلاء لنا فىء مع الإسكندرية فكتب عمرو بن العاص بذلك إلى عمر بن الخطاب ﷺ عنه وكتب إليه عمر أن يجعل الإسكندرية وهؤلاء الثلاث قريات ذمة للمسلمين ويضربون عليهم الخراج ويكون خراجهم وما صالح عليه القبط قوة للمسلمين على عدوّهم ولا يجعلون فيئا ولا عبيداً ففعل ذلك.

ومن قائل أنها فتحت عنوة ، قال ابن عبد الحكم: حدّثنا عبد الملك بن مسلمة وعثمان بن صالح، قال: أخبرنا ابن لهيعة عن ابن هبيرة أن مصر فتحت عنوة، وقال: أخبرنا عبد الملك بن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم. قال: سمعت أشياخنا يقولون: إن مصر فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد، وقال: أنبأنا عبد الملك بن مسلمة

عن ابن وهب عن داود بن عبد الله الحضرمى أن أبا حيان أيوب بن أبى العالية حدثه عن أبيه أنه سمع عمرو بن العاص يقول لقد قعدت مقعدى هذا وما لأحد من قبط مصر علىّ عهد ولا عقد إلا أهل أنطابلس؛ فإن لهم عهدا يوفى لهم به، حدثنا عبد الملك حدثنا ابن لهيعة عن أبى قبان به وزاد إن شئت قتلت وإن شئت خمست وإن شئت بعت، وأخرج عن ربيعة بن عبد الرحمن بن عمرو بن العاص. قال: فتحت مصر بغير عهد ولا عقد وأن عمر بن الخطاب حبس درها وصرها أن يخرج منه شيء نظراً للإسلام وأهله، وأخرج عن زيد بن أسلم، قال: كان تابوت لعمر بن الخطاب فيه كل ما كان بينه وبين أحد ممن عاهده فلم يوجد فيه لأهل مصر عهد، وأخرج عن الصلت بن أبى عاصم أنه قرأ كتاب عمر بن عبد العزيز إلى حيان بن شريح أن مصر فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد.

ومن قال: إن بعضها صلح وبعضها عنوة، قال ابن عبد الحكم: حدّثنا يحيى ابن خالد عن راشد بن سعد، عن عقيل بن خالد، عن ابن شهاب قال: كان فتح مصر بعضها بعهد وذمة وبعضها عنوة فجعلها عمر بن الخطاب جميعاً ذمة وحملهم على ذلك فمضى فيهم ذلك إلى اليوم (قلت) وقد أثبت أصحاب التاريخ من غير العرب من المتقدمين والمتأخرين أن مصر فتحت كلها صلحاً باتفاق مع المقوقس عظيم القبط يومئذ تخلصاً من ربقة ظلم الروم وعسفهم وقد لخص القضاعى فى كتابه الخطط قصة فتح مصر تلخيصاً وجيزاً هو أقرب للصواب، قال: لما قدم عمرو ابن العاص ﷺ من عند عمر ﷺ كان أوّل موضع قاتل فيه الفرما قتالاً شديداً نحواً من شهر قال: قال أبو عمرو الكندى: وكان أوّل من شد على باب الحصن حتى اقتحمه أسميقع بن وعلة السبائى وأتبعه المسلمون فكان الفتح وتقدم عمرو لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى أم دنين وهى المقس فقاتلوه بها قتالاً شديداً وكتب إلى عمر يستمده فأمده باثنى عشر ألف نفر فوصلوا إليه أرسالاً يتبع بعضهم بعضاً، وكان فيهم أربعة آلاف عليهم أربعة وهم الزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد، وقيل أن الرابع خارجة بن حذافة دون مسلمة ثم أحاط المسلمون بالحصن وأمير الحصن يومئذ المندقور الذى يقال له الأعيرج من قبل المقوقس بن قرقت اليونانى، وكان المقوقس ينزل الإسكندرية وهو فى سلطان هرقل غير أنه كان حاضراً الحصن حين حاصره المسلمون ونصب عمرو فسطاطه فى موضع الدار المعروفة بإسرائيل التى على باب زقاق الزهرى، ويقال فى دار أبى

الوزام التى فى أوّل زقاق الزهرى ملاصقة لدار إسرائيل وأقام المسلمون على باب الحصن محاصرين للروم سبعة أشهر، ورأى الزبير خللاً مما يلى دار أبى صالح الحورانى الملاصقة لحمام ابن نصر السراج عند سوق الحمام فنصب سُلَّمًا وأسنده إلى الحصن. وقال: إنى أهب نفسى لله عزّ وجلّ فمن شاء أن يتبعنى فليتبعنى فتبعه جماعة حتى أوفى على الحصن فكبر وكبروا ونصب شرحبيل بن حسنة المرادى سلماً آخر مما يلى زقاق الزمامرة. ويقال أن السلم الذى صعد عليه الزبير كان موجوداً فى داره التى بسوق وردان إلى أن وقع جريق فاحترق. ولما رأى المقوقس أن العرب قد ظفروا بالحصن جلس فى سفنه هو وأهل الرفعة من القوم وكانت ملصقة بباب الحصن الغربى فلحقوا بالجزيرة وقطعوا الجسر وتحصنوا هناك والنيل حينئذ فى مدّه وتكلموا فى أمر الصلح فبعث عمرو بعبادة بن الصامت إلى المقوقس فصالحه المقوقس على القبط والروم على أن للروم الخيار فى الصلح إلى أن يوافى كتاب ملكهم فإن رضى تم ذلك وإن سخط انتقض ما بينه وبين الروم وأما القبط فبغير خيار. قال: وكان الذى انعقد عليه الصلح أن فرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط دينارين عن كل نفس فى كل سنة من البالغين شريفهم ووضيعهم دون الشيوخ والأطفال والنساء على أن للمسلمين عليهم النزل والضيافة حيث نزلوا وضيافة ثلاثة أيام لكل من ينزل منهم وأن لهم أرضهم وبلادهم لا يتعرضون فى شىء منها أبداً. اهـ.

(قلت) فمن قال: إن مصر فتحت صلحاً تعلق بهذا الصلح. وقال: الأمر لم يتم إلا بما جرى بين عبادة بن الصامت وبين المقوقس وعلى ذلك أكثر العلماء من أهل مصر منهم عقبة بن عامر ويزيد بن أبى حبيب والليث بن سعد وغيرهم وذهب الذين قالوا إن مصر فتحت عنوة إلى أن الحصن فتح عنوة فكان جميع الأرض كذلك وكان فتحها يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين وذكر يزيد بن أبى حبيب أن عدد الجيش الذى كان مع عمرو بن العاص خمسة عشر ألفا وخمسمائة، وقال عبد الرحمن بن سعد بن مقدام: إن الذين جرت سهامهم فى الحصن من المسلمين اثنا عشر ألفا وثلثمائة بعد من أصيب منهم فى الحصار من القتل والموت. ويقال: إن الذين قتلوا فى مدّة هذا الحصار من المسلمين دفنوا فى أصل الحصن ثم سار عمرو إلى الإسكندرية فى شهر ربيع الأوّل سنة عشرين وقيل فى جمادى الآخرة فأمر بفسطاطه أن ينزع فإذا بيمامة قد باضت فى أعلاه. فقال: قد تحرمت فى جوارنا أقروا الفسطاط حتى تطير فراخها فأقروا الفسطاط فى موضعه فلذلك سميت

الفسطاط، وقال ابن قتيبة: وإنما العرب تقول لكل مدينة فسطاط ولذلك قيل لمصر فسطاط . اهـ.

ونقل عمرو بن العاص إلى الإسكندرية بعد افتتاحها والمقام بها فى ذى القعدة سنة عشرين. قال الليث: أقام عمرو بالإسكندرية فى حصارها وفتحها ستة أشهر ثم انتقل إلى الفسطاط فاتخذها دارًا . اهـ.

وأخرج ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبى حبيب أن عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية ورأى بيوتها وبناءها مفروغاً منها همّ أن يسكنها، وقال: مساكن قد كفيناها فكتب إلى عمر بن الخطاب ﷺ يستأذن فى ذلك فسأل عمر الرسول هل يحول بينى وبين المسلمين ماء. قال: نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل فكتب عمر إلى عمرو بن العاص إنى لا أحب نزول المسلمين منزلاً يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف فتحوّل عمرو بن العاص من الإسكندرية إلى الفسطاط، ولما رجع عمرو بن العاص من الإسكندرية ونزل موضع الفسطاط انضمت القبائل بعضها إلى بعض وتقاسموا فى المواضع فولى عمرو على الخطط معاوية بن حديج النجيبى وشريك بن سمى الغيطفى بن مراد وعمرو بن قحزم الخولانى وحيويل بن ناشرة المعافرى فكانوا هم الذين أنزلوا الناس وفصلوا بين القبائل وذلك فى سنة إحدى وعشرين، ذكره الكندى، وقد كان المسلمون حين اختطوا تركوا بينهم وبين البحر والحصن فضاء لتفريق دوابهم وتأديبهم فلم يزل الأمر على ذلك حتى ولى معاوية بن أبى سفيان فأقطع فى الفضاء وبنيت به الدور، وأما الإسكندرية فلم يكن بها تخطيط وإنما كانت أخائذ من أخذ منزلاً نزل فيه هو وبنوه وبنو بنيه. وفى قول ليزيد بن أبى حبيب أن الزبير بن العوام اختط الإسكندرية، وفتح عمر بن الخطاب فى خلافته أيضاً عدا ما تقدم ذكره تستر ونهاوند والرى وما يليها وأصبهان وبلاد فارس وإصطخر وهمذان والنوبة والبرلس والبربر وغير ذلك قيل: وكانت درّته أهيب من سيف الحجاج ومع ذلك كله بقى على حاله كما كان قبل الولاية فى لباسه وزيه وأفعاله وتواضعه يسير منفرداً فى حضره وسفره من غير حرس ولا حجاب لم تغيره إلا مرة ولم يستطل على مسلم بلسانه ولا حابى أحدًا فى الحق.

وقتل عمر بن الخطاب سنة ثلاث وعشرين للهجرة قتله أبو لؤلؤة غلام المغيرة ابن شعبة واسمه فيروز، وكان المغيرة يستغله كل يوم أربعة دراهم لأنه كان يصنع الأرحاء فلقى عمر يوماً فقال ياأمير المؤمنين: إن المغيرة قد أثقل علىّ غلتى فكلمه لى ليخفف عنى فقال له عمر: اتق الله وأحسن إلى مولاك فغضب أبو لؤلؤة، وقال

ياعجباه قد وسع الناس عدله غيرى وأصر على قتله واصطنع له خنجراً له رأسان وسمه وتحين به عمر. فجاء عمر إلى صلاة الغداة، قال عمرو بن ميمون: إنى لقائم فى الصلاة وما بينى وبين عمر إلا ابن عباس ﷺ فما هو إلا أن كبر فسمعته يقول قتلنى الكلب حين طعنه وطار العلج بسكين كانت ذات طرفين لا يمر على أحد يمينا وشمالاً إلا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً مات سبعة وقيل تسعة فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنسا فلما علم أنه مأخوذ نحر نفسه، فقال عمر قاتله الله: لقد أمرت به معروفاً، ثم قال: الحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل يدعى الإسلام، وكان أبو لؤلؤة مجوسياً توفى فى ذى الحجة لأربع عشرة ليلة مضت منه فى السنة المذكورة بعد طعنه بيوم وليلة عن ثلاثة وستين سنة ودفن مع صاحبه فى حجرة النبىّ ﷺ اهـ.

قال صاحب حياة الحيوان فى باب الدال المهملة: روى مسلم وغيره أن عمر ﷺ خطب الناس يوماً فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إنى رأيت رؤيا لم أرها إلا لحضور أجلى وهى أن ديكاً نقرنى ثلاث نقرات، وفى لفظ رأيت كأن ديكاً أحمر نقرنى نقرة أو نقرتين فحدّثتها أسماء بنت عميس فحدّثتنى بأنه يقتلنى رجل من الأعاجم، وكان هذا القول منه يوم الجمعة فطعن يوم الأربعاء ﷺ . اهـ.

قال: وروى الحاكم عن سالم بن أبى الجعد عن معدان بن أبى طلحة عن عمر ﷺ أنه قال على المنبر: رأيت فى المنام كأن ديكا نقرنى ثلاث نقرات فقلت أعجمى يقتلنى وإنى جعلت أمرى لهؤلاء الستة الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض وهم: عثمان وعلى وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص فمن استخلفوه فهو الخليفة، وذكرا بن خلكان وغيره أن عمر لما طعن اختار من الصحابة ستة نفر وهم المتقدم ذكرهم، وكان سعد بن أبى وقاص غائباً وجعل عبد الله ابنه مشيراً وليس له من الأمر شيء وأقام المسور بن مخرمة وثلاثين نفساً من الأنصار وقال: إن اتفقوا على واحد إلى ثلاثة أيام وإلا فاضربوا رقاب الكل فلا خير للمسلمين فيهم، وإن افترقوا فرقتين فالفرقة التى فيها عبدالرحمن بن عوف، وأوصى أن يصلى صهيب بالناس ثلاثة أيام فأخرج عبد الرحمن بن عوف نفسه من الشورى واختار عثمان فبايعه الناس (قلت) وقد نسب أهل التاريخ هذه الفعلة لعمر من أشنع الفعال وأشدها ضرراً بالإسلام وأهله، ونقل ابن العباس بن عبدالمطلب أنه قال لعلى ياابن أخى لا تدخل نفسك فى الشورى مع القوم فإنى أخاف أن يخرجوك منها فتبقى وصمة فيك فلم يقبل منه، قال: ولما طعن عمر سئل ما أحب الأشربة

إليك ياأمير المؤمنين؟ قال: النبيذ فسقوه نبيذاً فخرج من جرحه فقال قوم نبيذ، وقال قوم دم فسقوه لبناً فخرج من جرحه فقيل له أوص ياأمير المؤمنين فأوصى بالشورى. قال: ويقال: أن عبيدالله بن عمر وثب على الهرمزان فقتله وقتل معه رجلاً نصرانياً من أهل نجران كانا قد اتهما بإغراء أبى لؤلؤة بعمر رضي الله عنه وقتل بنتا طفلة لأبى لؤلؤة ووارهم عثمان رضي الله عنه ولحق عبيد الله بمعاوية فى خلافة على رضي الله عنه، قال: وكان فى أيام عمر الفتوحات العظام وهو الذى سمى الغزوات الشواتى والصوائف، وهو أوّل من أرّخ التاريخ بعام الهجرة وأوّل من دعى أمير المؤمنين وأوّل من ختم الكتب. وكان فى يده خاتم رسول الله ﷺ وأوّل من ضرب بالدرة وحملها، وأوّل من قال أطال الله بقاءك قالها لعلى رضي الله عنه وهو الذى أخر المقام إلى موضعه اليوم. وكان ملصقاً بالباب وهو أوّل من جمع الناس على إمام واحد فى التراويح وحج بالناس عشر سنين متوالية آخرها سنة ثلاث وعشرين ومعه نساء رسول الله ﷺ فى الهوادج ورجع إلى المدينة فرأى الرؤيا المتقدّمة . اهـ.

واستعمل عمر بن الخطاب فى خلافته على مصر بعد فتحها فى سنة تسع عشرة لهجرة عمرو بن العاص فضرب عمرو على أهلها الجزية كما تقدّم بك بيانه وبالغ فى إرهاب الناس وإذلالهم وجمع ما عندهم من الأموال والكنوز واختط مصر قبل والإسكندرية والجيزة، وكان إلى هذا الحين قد تم له فتح سائر البلاد إلا دمياط وكان العامل عليها يومئذ من قبل الروم (الهاموك) أحد أقارب المقوقس فراسله عمرو فى الإذعان والتسليم فامتنع وقال: لا سبيل إلى ذلك فطاوله فلم يذعن وأصر على ما هو عليه فأنفذ له عمرو المقداد بن الأسود فى جماعة من المسلمين فلاقاه (الهاموك) فى عسكر واقتتل الفريقان قتالاً شديداً فكانت بينهم سجالاً ومات ابن الهاموك فى ساحة القتال فارتد الهاموك إلى دمياط وجمع إليه أصحاب الرأى وكلمهم فى الأمر، قيل: وكان بينهم رجل حكيم مسموع الكلمة فقال أيها الأمير إنا لم نسمع عن هؤلاء القوم منذ جاءوا إلى هذه الديار ووطئوا أرضها إلا ما يدل على تأييدهم ونصرهم وها هم قد فتحوا البلاد وقهروا العباد، وبسطوا يدهم على تلك الممالك الواسعة فالرأى عندى أن تعقد مع القوم صلحاً تحقن به الدماء وتحفظ الأعراض والأموال وانظر إلى ما جرى مع المقوقس وأصحابه فقد صالحوا القوم وكفاهم الله شرهم، قيل: فلم يقبل الهاموك كلامه وباتوا ليلتهم تلك وأصبح الهاموك فنادى فى عسكره بالخروج لقتال المسلمين فلم يتكامل خروجهم حتى سمعوا تكبير المسلمين على أسوار المدينة فسقط الهاموك فى يده وتسلم المسلمون المدينة وجاء الخبر إلى

عمرو بن العاص بالفتح ففرح فرحاً لا يوصف، وسار المقداد بن الأسود بمن بقى معه من المسلمين إلى فتح تانس فقاتله أهلها قتالاً شديداً وما زال يقاتلها أياماً حتى تم له فتحها فلم يبق بعد ذلك شىء بغير فتح وأشتد عمرو بن العاص فى إحصاء أهل البلاد وتقدير الجزية عليهم فكان يحبس منها ما يحتاج إليه ويبعث إلى عمر بن الخطاب بما بقى منها، قال ابن عبد الحكم: وكان عمرو بن العاص لما استوثق له الأمر أقر قبطها على جباية الروم فكانت جبايتهم بالتعديل إذا عمرت القرية وكثر أهلها زيد عليهم وإن قل أهلها وخربت نقصوا فيجتمع عرفاء كل قرية ورؤساؤها فيتناظرون فى العمارة والخراب حتى إذا أقرّوا من القسم بالزيادة انصرفوا بتلك القسمة إلى الكور ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى فوزعوا ذلك على احتمال القرى وسعة المزارع، ثم ترجع كل قرية إلى قسمتهم فيجمعونها وخراج كل قرية وما فيها من الأرض العامرة فيبدأون فيخرجون من الأرض فدادين لكنائسهم وحماماتهم ومعدياتهم من جملة الأرض ثم يخرج منها عدد الضيافة للمسلمين ونزول السلطان فإذا فرغوا نظروا إلى ما فى كل قرية من الصناع والأجراء فقسموا عليهم بقدر احتمالهم، فإن كانت فيهم جالية قسموا عليها بقدر احتمالها وقلما كانت إلا للرجل الشاب أو المتزوّج ثم نظروا فيما بقى من الخراج فيقسمونه بينهم على عدد الأرض ثم يقسمون ذلك بين من يريد الزرع منهم على قدر طاقتهم فإن عجز أحد منهم وشكى ضعفا عن زرع أرضه وزعوا ما عجز عنه على ذوى الاحتمال، وإن كان منهم من يريد الزيادة أعطى ما عجز عنه أهل الضعف فإن تشاحنوا قسموا ذلك على عدتهم وكانت قسمتهم على قراريط الدينار أربعة وعشرين قيراطا يقسمون الأرض على ذلك وجعل عليهم عمرو بن العاص لكل فدان نصف أردب قمح وويبتين من شعير إلا القرظ فلم يكن عليه ضريبة، قال عبد الملك بن الليث بن سعد: كانت ويبة عمر بن الخطاب فى ولاية عمرو بن العاص ستة أمداد.

واستقامت الأمور لعمرو فعمد إلى إصلاح ما أفسدته الحروب وعبثت به أيدى الجور والعسف من العمائر والترع والخلجان والجسور فمهد الطرق وسهل المسالك وحفر الخلجان لرى الأراضى وأصلح مقياس النيل وأعاده إلى ما كان عليه من قبل وأقام العرفاء والمشايخ للقرى والبلاد من أبناءها فاستقامت الأحوال وأطمأنت قلوب الرعية وخلدوا إلى السكون والطاعة ورتب المحاكم للفصل فى الخصومات بين أهل البلاد فلم يكن لعمرو ولا لغيره من أصحاب الفتح دخل فى ذلك البتة ولا كلمة مقولة وأوسع صدره للعظماء والكبراء من أهل البلاد فأحبوه ومالوا إليه وأخلصوا له

النية فعلت كلمته وعظمت شهرته ودانت له عظائم الأمور وعمرت القرى وازدهت البلاد واتسعت مادّة ثروتها وعادت إلى رونقها القديم وضاقت بأهلها أو كادت، حدثنا عثمان بن صالح وعبد الله بن صالح قالا: حدثنا الليث بن سعد، قال: لما ولى ابن رفاعة مصر خرج ليحصى عدة أهلها وينظر فى تعديل الخراج عليهم فقام فى ذلك ستة أشهر بالصعيد حتى بلغ أسوان ومعه جماعة من الأعوان والكتاب يكفونه ذلك بجدّ وتشمير وثلاثة أشهر بأسفل الأرض فأحصوا من القرى أكثر من عشرة آلاف قرية فلم يحص فيها فى أصغر قرية منها أقل من خمسمائة جمجمة من الرجال الذين يفرض عليهم الجزية. قال: وحدثنا عبد الله بن صالح عن الليث بن سعد أن عمرا جبى مصر اثنى عشر ألف ألف وجباهم المقوقس قبله ستة وعشرين ألف ألف فعند ذلك كتب إليه عمر بن الخطاب، بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص، سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد فإنى فكرت فى أمرك والذى أنت عليه فإذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيعة وقد أعطى الله أهلها عدداً وجلداً وقوّة فى بر وبحرت وأنها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملاً محكماً مع شدة عتوّهم وكفرهم فعجبت من ذلك وأعجب مما عجبت أنها لا تؤدّى نصف ما كانت تؤدّيه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولا جدب ولقد أكثرت فى مكاتبتك فى الذى على أرضك من الخراج وظننت أن ذلك سيأتينا على غير تراث ورجوت أن تفيق فترفع إلىّ ذلك فإذا أنت تأتينى بمعاريض تعبأ بها لا توافق الذى فى نفسي ولست قابلاً منك دون الذى كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك ولست أدرى مع ذلك ما الذى نفرك من كتابى وقبضك فلئن كنت مجرباً كافياً صحيحاً أن البراءة لنافعة وإن كنت مضيعاً نطعا أن الأمر لعلى غير ما تحدث به نفسك وقد تركت أن أبتلى ذلك منك فى العام الماضى رجاء أن تفيق فترفع إلىّ ذلك وقد علمت أنه لم يمنعك من ذلك إلا أن عمالك عمال السوء وما توالس عليك وتلفف اتخذوك كهفاً وعندى بإذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك فيه فلا تجزع أبا عبد الله أن يؤخذ منك الحق وتعطاه فإن النهر يخرج الدر والحق أبلج، ودعنى وما عنه تتلجلج فإنه قد برح الخفاء والسلام فكتب إليه عمرو بن العاص، بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو ابن العاص سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو أما بعد فقد بلغنى كتاب أمير المؤمنين فى الذى استبطأنى فيه من الخراج والذى ذكر فيها من عمل الفراعنة قبلى وإعجابه من خراجها على أيديهم ونقص ذلك منها مذ كان الإسلام

ولعمرى الخراج يومئذ أوفر وأكثر والأرض أعمر لأنهم كانوا على كفرهم وعتوهم أرغب فى عمارة أرضهم منا مذ كان الإسلام وذكرت أن النهر يخرج الدر فحلبتها حلباً قطع درها وأكثرت فى كتابك وأنبت وعرّضت وثربت وعلمت أن ذلك عن شىء تخفيه على غير خبر فجئت لعمرى بالمقطعات المقذعات. ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رصين صارم بليغ صادق ولقد عملنا لرسول الله ﷺ ولمن بعده فكنا بحمد الله مؤدين لأماناتنا حافظين لما عظم الله من حق ائمتنا نرى غير ذلك قبيحاً والعمل به شينا فتعرف ذلك لنا ونصدق فيه قلبنا معاذ الله من تلك الطعم ومن شر الشيم والاجتراء على كل مأثم فامض عملك فإن الله قد نزهنى عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها بعد كتابك الذى لم تستبق فيه عرضاً ولم تكرم فيه أخاً والله يا بن الخطاب لأنا حين يراد ذلك منى أشد غضباً لنفسى ولها إنزاها وإكراماً وما عملت من عمل أرى علىّ فيه تعللا ولكنى حفظت ما لم تحفظه ولو كنت من يهود يثرب مازدت يغفر الله لك ولنا وسكت عن أشياء كنت بها عالماً وكان اللسان بها منى ذلولاً ولكن الله عظم من حقك ما لا يجهل والسلام.

فكتب إليه عمر بن الخطاب من عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد فإنى قد تعجبت من كثرة كتبى إليك فى إبطائك بالخراج وكتابك إلىّ بثنيات الطرق وقد علمت أنى لست أرضى منك إلا بالحق البين ولم أقدمك إلى مصر أجلعها لك طعمة ولا لقومك ولكنى وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك فإذا أتاك كتابى هذا فاحمل الخراج فإنما هو فىء المسلمين وعندى من قد تعلم قوم محصورون والسلام.

فكتب إليه عمرو بن العاص، بسم الله الرحمن الرحيم، لعمر بن الخطاب من عمرو بن العاص سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد فقد أتانى كتاب أمير المؤمنين يستبطئنى فى الخراج ويزعم إنى أحيد عن الحق وأنكب عن الطريق وإنى والله ما أرغب عن صالح ما تعلم ولكن أهل الأرض استنظرونى إلى أن تدرك غلتهم فنظرت للمسلمين فكان الرفق بهم خيراً من أن نخرق بهم فيصيروا إلى بيع ما لا غنى بهم عنه والسلام.

فلما استبطأ عمر بن الخطاب الخراج كتب إليه أن أبعث إلىّ رجلاً من أهل مصر فأرسل إليه رجلاً قديماً من القبط فاستخبره عمر عن مصر وخراجها قبل الإسلام. فقال ياأمير المؤمنين: كان لا يؤخذ منها شيئاً إلا بعد عمارتها وعاملك لا ينظر إلى العمارة وإنما يأخذ ما ظهر له كأنه لا يريدها إلا لعام واحد فعرف عمر مقالة وقبل

من عمرو بن العاص ما كان يعتذر به، وقال ابن عبد الحكم: حدثنا هشام بن إسحق العامرى. قال: كتب عمر بن الخطاب ﵁ إلى عمرو بن العاص أن يسأل المقوقس عن مصر من أين تأتى عمارتها وخرابها فسأله عمرو فقال له المقوقس تأتى عمارتها وخرابها من خمسة وجوه أن يستخرج الخراج فى إبان واحد عند فراغ أهلها من زرعها ويدفع خراجها فى إبان واحد عند فراغ أهلها من عصر كرومها وتحفر فى كل سنة خلجها وتسد ترعها وجسورها ولا يقبل مطل أهلها يريد البغى فإذا فعل هذا فيها عمرت وإن عمل فيها بخلافه خربت، قال ابن عبد الحكم: حدثنا عثمان بن صالح، عن ابن لهيعة، عن يزيد بن أبى حبيب، قال: كانت فريضة مصر لحفر خلجها وإقامة جسورها وبناء قناطرها وقطع جزائرها مائة ألف وعشرين ألفا معهم الطوريات والمساحى والأداة يعتقبون ذلك لا يدعونه شتاءً ولا صيفاً. اهـ.

وكان فى خلال المدة من مجىء هرقل ملك الروم إلى مصر واشتداده على المتأصلين من أهل البلاد كما تقدم الكلام على ذلك فى محله إلى فتوح مصر على يدى عمرو بن العاص قد مات أطناسيوس بطرك الإسكندرية بعد أن قام اثنتى عشرة سنة، وقد اختلف الكتاب فيما إذا كان هو الذى هاداه أطناسيوس بطرك أنطاكية وقدم عليه زائراً أو هو داميانوس خامس ثلاثى بطاركة الإسكندرية، فلما مات أقاموا بعده أندرونيقون وهو سابع ثلاثيهم فلبث ست سنين ومات فى ثامن طوبة، وفى أيامه خربت جميع الديارات واشتد الأمر على النصارى شدة عظيمة للغاية وأبق الكثير من الرهبان والراهبات إلى بعض الجبال فراراً، ثم أقاموا بعده بنيامين وهو ثامن ثلاثيهم وكان متأصلاً وهو من مريوط وكان ورعاً تقياً فعمر فى أيامه دير أبو بشاى ودير سيدة أبو بشاى وهما فى وادى هبيب، فلما جاءت الفرس ديار مصر كما تقدم بيان ذلك فى محله واشتدوا على النصارى فرّ هارباً منهم وبقى مختفياً حتى زالت دولة الفرس على يدى هرقل، وذلك أن هرقل المذكور لما نزل على مصر وحارب الفرس وطردهم من أرضها أقام بطركا من الملكيين بالإسكندرية اسمه نيرش، وكان منانيا مع أن هرقل كان مارونيا وطلب بنيامين البطرك المذكور وسعى خلفه ليقتله فلم يتمكن منه فظفر بأخيه مينا فقبض عليه وأحرقه بالنار تشفياً وانتقاماً، وبنيامين هذا هو الذى راسل المقوقس وعظماء القبط فى أمر المسلمين ومعاونتهم على قتال الروم وإمدادهم بالذخيرة والميرة فلما استتب الأمر لعمرو بن العاص أرسل إليه فى سنة عشرين هجرية فقدم على عمرو بالقاهرة فأكرمه وأجله وبالغ فى تعظيمه لأنه كان عونه على الروم فجلس فى منصب البطريكية بعد غيابه عنه ثلاثة عشرة سنة منها عشر سنين فى ملك فارس على مصر، وباقيها بعد ذلك

وأخذ يتصرف فى الأمور فأحسن التدبير وكاد يعيد للقبط ما أزالته عنهم الحروب والخطوب المتراكمة من العز والسؤدد وظل مهيباً معظماً موقراً مسموع الكلمة حتى مات كما سيأتى ذكر ذلك فى محله.

وكانت خلافة عمر بن الخطاب عشر سنين وستة أشهر وخمس ليال وفى رواية وثلاثة عشر يوماً، فقام بالأمر بعد موته عثمان بن عفان.

(الفصل الثالث)

(فى خلافة عثمان بن عفان)

ثم قام بالأمر بعده عثمان بن عفان تشاور أهل الحل والعقد بعد دفن عمر بثلاثة أيام واتفقوا على مبايعته وهو ابن عم صاحب الشريعة الأعلى بويع له بالخلافة فى أول يوم من سنة أربع وعشرين للهجرة أى سنة أربع وأربعين وستمائة للميلاد، قال أصحاب التاريخ: أنه لم يزل اسمه فى الجاهلية والإسلام عثمان ويكنى بأبى عمرو وأبى عبد الله والأول أشهر وينسب إلى أمية بن عبد شمس، فيقال الأموى يجتمع مع صاحب الشريعة الإسلامية فى عبد مناف ويدعى بذى النورين، قيل لأنه تزوج بابنتى صاحب الشريعة رقية وأم كلثوم وهو أول من هاجر إلى الحبشة فاراً بدينه ومعه زوجته رقية وعدّ من البدريين ومن أهل بيعة الرضوان ولم يحضرهما وكان غنياً كثير المال، وكانت له شفقة ولما تولى زاد تواضعه وشفقته برعيته وكان يطعم الناس طعام الإمارة ويأكل الخل والزيت وجهز جيش العسرة بتسعمائة وخمسين بعيراً بأحلاسها وأقتابها وأتم الألف بخمسين فرسا، قال ابن قتيبة: وافتتح فى أيامه الإسكندرية (قلت لخروجها فى خلافته) وسابور وأفريقية وقبرص وسواحل الروم وإصطخر الأخرى وفارس الأولى وخورستان وفارس الأخرى وطبرستان وكرمان وسجستان والأساورة وأفريقية من حصون قبرص وساحل الأردن ومرو، ولما عمرت المدينة وصارت وافرة من الأنام وكثرت فيها الخيرات والأموال وجىء إليها بالخراج من الممالك وبطرت الرعية من كثرة الأموال والخير والنعم وفتحوا أقاليم الدنيا واطمأنوا وتفرغوا جعلوا ينقمون على خليفتهم عثمان لأنه كان له الأموال العظيمة وكان له ألف مملوك، ولأنه كان يعطى المال لأقاربه ويوليهم الإيالات الجليلة فأحس عثمان بذلك وسير فى طلب عماله وكتب إلى أهل الأمصار إنى آخذ عمالى بموافاتى كل موسم، وقد رفع إلىّ أهل المدينة أن أقواماً يشتمون ويضربون فمن ادّعى شيئاً من ذلك فليواف الموسم يأخذ حقه حيث كان منى أو من عمالى أو تصدقوا فإن الله

يجزى المتصدقين، قيل فلما قرىء ذلك بالأمصار بكى الناس ودعوا لعثمان وقدم عليه فى الموسم بعض عمله وهم عبد الله بن عامر، وعبد الله بن سعد، ومعاوية وأدخل معهم أيضاً سعيد بن العاص وعمرا فقال: ويحكم ما هذه الشكاية والإذاعة إنى والله خائف أن تكونوا مصدوقاً عليكم وما يصعب هذا إلا بى، فقالوا: ألم تبعث ألم يرجع إليك الخبر عن العوّام ألم يرجع رسلك ولم يشافههم أحد بشىء والله ما صدقوا ولا بروا ولم نعلم لهذا الأمر أصلاً ولا يحل الأخذ بهذه الإشاعة، فقال عند ذلك أشيروا علىّ: فقال سعيد: هذا أمر مصنوع يلقى فى السر فيتحدث به الناس ودواء ذلك طلب هؤلاء وقتل الذين خرج هذا من عندهم، وقال عبد الله بن سعد: خذ من الناس الذى عليهم إذا أعطيتهم الذى لهم فإنه خير من أن تدعهم، وقال معاوية: قد وليتنى فوليت قوماً فلا يأتيكم عنهم إلا الخير والرجلان أعلم بناحيتهما والرأى حسن الأدب، وقال عمرو: أرى أنك قد لنت لهم ورخيت عليهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر فأرى أن تلزم طريقة صاحبيك فتشتدّ فى موضع الشدة وتلين فى موضع اللين، قال عثمان: قد سمعت كل ما أشرتم به على ولكل أمر باب يؤتى منه أن هذا الأمر الذى يخاف منه على هذه الأمة كائن وأن بابه الذى يغلق عليه ليفتحن فنكفكفه باللين والمواناة إلا فى حدود الله فإن فتح فلا يكون لأحد علىّ حجة وقد علم الله أنى لم آل الناس خيراً وأن رحى الفتنة لدائرة فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها سكنوا الناس وهبوا لهم حقوقهم فإذا تعوطيت حقوق الله فلا تداهنوا فيها، ثم افترقوا على ذلك واتفق المنحرفون على عثمان على يوم يخرجون فيه بالأمصار جميعها إذا سارعتها الأمراء وخلت منهم فلم يتهيأ لهم ذلك، وكان بمصر محمد بن أبى بكر ومحمد بن أبى حذيفة يحرضان على عثمان فلما خرج المصريون خرج فيهم عبد الرحمن بن عديس البلوى فى خمسمائة وقيل فى ألف وفيهم كنانة بن مبشر الليثى وسودان بن حمران السكونى وقنبرة بن فلان السكونى وتقدمهم جميعاً الغافقى بن حرب العكى، وخرج أيضاً أهل الكوفة وهم فى عداد أهل مصر أو ما يقرب منه وخرج أهل البصرة وهم بعداد أهل مصر وأميرهم حرقوص بن زهير السعدى وكان خروجهم جميعاً فى شوّال وأظهروا أنهم إنما يريدون الحج فلما كانوا بالمدينة على ثلاث مراحل تقدم ناس من أهل البصرة فنزلوا ذا خشب وكانوا يميلون إلى طلحة وتقدم ناس من أهل الكوفة وكان هواهم مع الزبير ونزلوا الأعوص وجاءهم ناس من أهل مصر وكانوا يميلون إلى علىّ ونزل جميعهم بذى المروة ومشى فيما بين أهل مصر وأهل البصرة زياد بن النضر وعبد الله ابن الأصم. وقالا لهم: لا تعجلوا حتى ندخل المدينة ونرتاد لكم فقد بلغنا أنهم

عسكروا لنا فوالله إن كان هذا حقاً واستحلوا قتالنا بعد علم حالنا إن أمرنا لباطل وإن كان الذى بلغنا باطلاً رجعنا إليكم بالخبر فذهبا ودخلا المدينة فلقيا ازواج صاحب الشريعة وطلحة والزبير فكلمهما أبىّ ونهاهما فرجعا إلى أصحابهما وكتب عثمان إلى أهل الأمصار يستنجدهم ويأمرهم بالبحث للمنع عنه ويتعرف ما الناس فيه من الهرج والتألب على خلع بيعته وإقامة خليفة غيره، قال بعض أهل التاريخ: فخرج أهل الأمصار على الصعب والذلول وسير كل عامل جماعة من عنده إلى المدينة فلما كانت الجمعة التى على أثر دخولهم المدينة خرج عثمان فصلى بالناس ثم قام على المنبر فقال: ياهؤلاء الله الله فوالله أن أهل المدينة ليعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد ﷺ فامحوا الخطأ بالصواب، فقام عند ذلك محمد بن مسلمة فقال أنا أشهد بذلك فأقعده حكيم بن جبلة فقام زيد بن ثابت فأقعده محمد بن أبى كثيرة وثار القوم بأجمعهم وقامت الضوضاء واشتد اللجاج فحصبوا الناس حتى أخرجوهم من المسجد عنوة وحصبوا عثمان حتى صرع من المنبر مغشيًا عليه فأدخل داره، واستقتل جماعة من أهل المدينة مع عثمان منهم سعد بن أبى وقاص والحسين ابن على وزيد بن ثابت وأبو هريرة فأرسل إليهم عثمان فى الانصراف فانصرفوا وأقبل علىّ وطلحة والزبير فذهبوا إلى عثمان يعودونه من صرعته ويشكون إليه ما يجدون وكان عند عثمان نفر من بنى أمية فيهم مروان بن الحكم فقاموا كلهم فى وجه علىّ وقالوا: أهلكتنا وصنعت هذا الصنيع والله لئن بلغت الذى تريد لنمررن عليك الدنيا فقام مغضبا وعاد وهو ومن كان معه إلى منازلهم، قال أهل التاريخ: وصلى عثمان بالناس بعد ذلك ثلاثين يوماً ثم منعوه الصلاة وصلى بالناس أميرهم الغافقى واشتد بعض الناس لعثمان وكثرت أعداؤه وطالبوه ونزلوا ذا خشب كما تقدم القول يريدون قتله إن لم يقلع عما يكرهون منه فاشتد قلق عثمان وجاء إلى علىّ بن أبى طالب فدخل عليه بيته فقال له ياابن عم إن قرابتى قريبة ولى عليك حق عظيم وقد جاء ما ترى من هؤلاء القوم وهم مصبحىّ ولك عند الناس قدر وهم يسمعون منك وأحب أن تركب إليهم فتردهم عنى فإن فى دخولهم علىّ توّهينا لأمرى وجراءة علىّ فقال علىّ: على أى شىء أردهم عنك، قال: على أن أصير إلى ما أشرت إليه ورأيته لى، فقال علىّ: إنى قد كلمتك مرة بعد أخرى فكل ذلك نخرج فنقول ثم ترجع عنه وهذا من فعل مروان وابن عامر ومعاوية وعبد الله بن سعد فإنك أطعتهم وعصيتنى، قال عثمان فأنا أعصيهم وأطيعك فى أمر الناس قيل فركب علىّ ومعه من المهاجرين والأنصار ثلاثون رجلاً فأتوا المصريين فكلموهم وكان الذى يخاطبهم علىّ ومحمد ابن مسلمة فسمعوا مقالتهما ورجعوا إلى مصر

ورجع علىّ إلى المدينة وأخبر عثمان برجوعهم وكلمه بما فى نفسه فلما كان اليوم الثانى دخل مروان على عثمان فقال له تكلم وأعلم الناس أن أهل مصر قد رجعوا وأنهم تحققوا بطلان ما بلغهم عن إمامهم (يعنى عثمان) فأطاعه عثمان فى ذلك فلما خطب الناس قال له عمرو بن العاص اتق الله ياعثمان فإنك قد ركبت أموراً وركبناها معك فتب إلى الله تب فناداه عثمان وإنك هناك ياابن النابغة قلت والله جبتك منذ عزلتك عن العمل فصاح صائح من جهة أخرى تب ياعثمان إلى الله فرفع يديه، وقال: اللهم إنى أول تائب فخرج عمرو بن العاص إلى الشام وجعل يحرض الناس على خلع بيعة عثمان، قال عمرو: والله إنى كنت لألقى الراعى فأحرضه على عثمان، ولم يكن بأسرع من أن عاد المصريون إلى المدينة فانطلق إليهم محمد بن مسلمة يسألهم عن سبب عودهم فأخرجوا صحيفة فى أنبوبة رصاص، وقالوا: وجدنا غلام عثمان بالبويب على بعير من إبل الصدقة ففتشنا متاعه فوجدنا فيه هذه الصحيفة يأمر فيها بجلد عبد الرحمن بن عديس وعمرو بن الحمق وعروة بن المبياع وحبسهم وحلق رؤسهم ولحاهم وصلب بعضهم، وفى رواية أخرى أن الذى كان يحمل الصحيفة الأعور السلمى، فلما رأوه سألوه عن مسيره وهل معه كتاب، فقال: لا تسألونى فى أى شىء هو ففتشوه وأخذوا الكتاب منه وعادوا وعاد الكوفيون والمصريون فلما عاد أهل مصر أخبروا بذلك محمد بن مسلمة فدخل علىّ ومحمد بن مسلمة على عثمان وأخبراه بما قاله أهل مصر فأقسم بالله ما كتبته ولا علم لى به، فقال محمد: صدق هذا من عمل مروان ودخل عليه المصريون فلم يسلموا عليه بالخلافة فعرفوا الشر فيهم وتكلموا فذكر ابن عديس ما فعل عبد الله ابن سعد بالمسلمين فى مصر وبأهل البلاد فيها أيضاً والاستئثار فى الغنائم فإذا قيل له فى ذلك قال هذا كتاب أمير المؤمنين وذكروا شيئاً مما وقع بالمدينة أيضاً، ثم قال له وخرجنا من مصر ونحن نريد قتلك فردنا علىّ ومحمد بن مسلمة وضمنا لنا النزوع عن كل ما تكلمنا فيه فرجعنا إلى بلادنا فرأينا غلامك وكتابك وعليه خاتمك تأمر عبد الله بجلدنا والمثلة بنا وطول الحبس فعند ذلك حلف عثمان أنه ما كتب ولا أمر ولا علم، قال أصحاب التاريخ: فقال على ومحمد: صدق عثمان فقال المصريون فمن كتبه، قال: لا أدرى قالوا فيجترأ عليك ويبعث غلامك وجمل من الصدقة (يعنى من جمال عثمان المعدة للصدقة) وينقش على خاتمك ويبعث إلى عاملك بهذه الأمور العظيمة وأنت لا تعلم، قال: نعم. فقال: ما أنت إلا صادق أو كاذب فإن كنت كاذباً فقد استحققت الخلع لما أمرت به من قتلنا بغير حق، وإن كنت صادقاً

فقد استحققت أن تخلع نفسك لضعفك عن هذا الأمر وغفلتك وخبث بطانتك ولا ينبغى لنا أن نترك هذا الأمر بيد من تقطع الأمور دونه لضعفه وغفلته فاخلع نفسك منه كما خلعك الله، فقال عثمان: لا أنزع قميصاً ألبسنيه الله ولكنى أتوب وأنزع قالوا: لو كان هذا أول ذنب تبت منه قبلنا ولكنا رأيناك تتوب ثم تعود ولسنا منصرفين حتى نخلعك أو نقتلك أو تلحق أرواحنا بالله تعالى، وإن منعك أصحابك وأهلك قاتلناهم حتى نخلص إليك. فقال: أما أن أتبرأ من خلافة الله فالقتل أحب إلىّ من ذلك وأما قولكم تقاتلون من منعنى فإنى لا آمر أحدا يقاتلكم فمن قاتلكم فبغير أمرى قاتل ولو أردت قتالكم لكتبت إلى الأجناد فقدموا علىّ أو لحقت ببعض أطرافى، وكثرت الأصوات واللغط وعلت الضوضاء فقام علىّ فخرج وأخرج المصريين ومضى علىّ إلى منزله فحاصر المصريون عثمان واشتدّ الحصار عليه قيل فأرسل إلى علىّ وطلحة والزبير فحضروا فأشرف عليهم عثمان، وقال: أيها الناس أجلسوا فجلسوا المحارب والمسالم فقال لهم ياأهل المدينة أستودعكم الله وأسأله أن يحسن عليكم الخلافة من بعدى، ثم قال: أنشدكم بالله هل تعلمون أنكم دعوتم الله عند مصاب عمر أن يختار لكم ويجمعكم على خيركم أتقولون أن الله لم يستجب لكم وهنتم عليه وأنتم أهل حقه أم تقولون هان على الله دينه فلم يبال من ولى والدين لم يتفرّق أهله يومئذ أم تقولون لم يكن أخذ عن مشورة إنما كان مكابرة فوكل الله الأمة إذ عصته ولم يشاوروا فى الإمامة أم تقولون إن الله لم يعلم عاقبة أمرى، وأنشدكم بالله أتعلمون لى من سابقة خير وقدم خير قدّمه الله لى، يحق على كل من جاء بعدى أن يعرفوا لى فضلها فمهلاً لا تقتلونى فإنه لا يحل إلا قتل ثلاثة: رجل زنى بعد إحصانه أو كفر بعد إيمانه أو قتل نفساً بغير حق فإنكم إذا قتلتمونى وضعتم السيف على رقابكم ثم لم يرفع الله عنكم الاختلاف أبداً فقالوا: أما ما ذكرت من استخارة الناس بعد عمر ثم ولوك فإن كل ما صنع الله خيرة ولكن الله جعلك بلية ابتلى بها عباده وأما ما ذكرت من قدمك وسلفك مع رسول الله ﷺ فقد كنت كذلك وكنت أهلاً للولاية ولكن أحدثت ما علمته ولا نترك إقامة الحق عليك مخافة الفتنة عاما قابلا. وأما قولك أنه لا يحل إلا قتل ثلاثة فإنا نجد فى كتاب الله قتل غير الثلاثة الذين سميت، قتل من سعى فى الأرض فساداً وقتل من بغى ثم قاتل على بغيه وقتل من حال دون شىء من الحق ومنعه وقاتل دونه وقد بغيت ومنعت وحلت دونه وكابرت عليه ولم تقد من نفسك من ظلمت وقد تمسكت بالإمارة علينا، فإن زعمت أنك لم تكابرنا عليها فإن الذين قاموا دونك ومنعوك منا

إنما يقاتلون لتمسكك بالإمارة فلو خلعت نفسك لانصرفوا عن القتال معك، قيل فسكت عثمان ولزم الدار وأمر أهل المدينة بالرجوع وأقسم عليهم فرجعوا إلا الحسن ابن عليّ وابن عباس ومحمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير وأشباههم واجتمع إليه ناس كثير فكانت مدة الحصار أربعين يوماً وقد اشتدوا فى الحصار بعد ثمان عشرة ليلة مضت شدة بالغة ومنعوا كل شىء حتى الماء، قيل أن طلحة هو الذى أمر بذلك وثاروا إلى باب دار عثمان يريدون الدخول عليه وقتله فلم يمنعهم أحد منه والباب مغلق لا يقدرون على الدخول منه فجاءوا بنار فأحرقوه والسقيفة التى على الباب وثار أهل الدار وعثمان يصلى فلما فرغ جلس إلى المصحف يقرأ فيه وقرأ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً. وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل فقال لمن عنده بالدار إن رسول الله ﷺ قد عهد إلىّ عهدا فأنا صابر عليه ولم يحرقوا الباب إلا وهم يطلبون ما هو أعظم منه فاقتحم الناس الدار من الدور التى حولها ودخلوا من دار عمرو بن حزم إلى دار عثمان حتى ملؤها ولم يشعر من بالباب وغلب الناس على عثمان وندبوا رجلاً يقتله فانتدب له رجل يدخل عليه فدخل عليه البيت فما سمع كلامه حتى عاد مدحوراً وولى عن أصحابه ثم دخل آخر وآخر وكان آخر من دخل عليه ممن رجع محمد بن أبى بكر فقال له عثمان: ويلك أعلىّ لله تغضب هل علىّ لك جرم أو حق أخذته منك فأخذ محمد بلحيته أى لحية عثمان، وقال: قد أخزاك الله ياعتل، فقال: لست بعتل ولكنى عثمان وأمير المؤمنين . فقال محمد: ما أغنى عنك معاوية وفلان وفلان فقال عثمان: يابن أخى فما كان أبوك ليقبض عليها يعنى على لحيته فقال محمد: لو رآك أبى تعمل هذه الأعمال أنكرها عليك والذى أريد بك أشد من قبضى عليها فقال عثمان أستنصر الله عليك وأستعين به فتركه وخرج وقيل بل طعن جبينه بمشقص كان فى يده فلما خرج محمد وعرفوا إنكساره ثار قتيرة وسودان بن حمران والغافقى فضربه الغافقى بحديدة معه وضرب المصحف برجله فاستدار المصحف واستقرّ بين يدى عثمان وسالت عليه الدماء وجاء سودان ليضربه فانكبت عليه امرأته واتقت السيف بيدها فقطع أصابعها فولت وضرب عثمان فقتله، وقيل: إن الذى قتله كنانة ابن بشر النجيبى ودخل غلمة لعثمان لينصروه على القوم فانقضوا على سودان فضربوا عنقه ووثب قتيرة على الغلام الذى قتل سودان فقتله وانتهبوا ما فى البيت وخرجوا ثم أغلقوه على ثلاثة قتلى فلما خرجوا وثب غلام لعثمان على قتيرة فقتله

وثار القوم فأخذوا ما وجدوا حتى أخذوا ما على النساء وأخذ كلثوم النجيبى ملاءة على نائلة فضربه غلام لعثمان فقتله وأتوا بيت المال فانتهبوه وماج الناس وكثر الضجيج والصياح، قيل ووثب عمرو بن الحمق على صدر عثمان وبه رمق فطعنه تسع طعنات قال: فأما ثلاث منها فإنى طعنتهنّ إياه لله تعالى وأما الستة فلما كان فى صدرى عليه، وأرادوا قطع رأسه فوقعت نائلة زوجته عليه وأم البنين فصحن وضربن الوجوه. فقال ابن عديس: اتركوه وأقبل عمير بن ضابيء فوثب عليه فكسر ضلعا من أضلاعه. وقال سجنت أبى حتى مات فى السجن، أخرج ابن عساكر عن أبى خلدة قال: سمعت علياً ﵁ يقول إن بنى أمية يزعمون أنى قتلت عثمان لا والله الذى لا إله إلا هو ما قتلت ولا مالأت وقد نهيت فعصونى، وعن سمرة قال: إن الإسلام كان فى حصن حصين وأنهم ثلموا فى الإسلام ثلمة بقتلهم عثمان لا تسدّ إلى يوم القيامة وأن أهل المدينة كانت تتم الخلافة فيهم فأخرجوها ولم تعد إليهم .اهـ. وقال المدائنى: قتل ﵁، يعنى عثمان، يوم الأربعاء بعد العصر ودفن يوم السبت قبل الظهر وقيل يوم الجمعة لثمان عشرة خلت من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين، وقال المهدوى: قتل فى وسط أيام التشريق وأقام ثلاثة أيام لم يدفن ولم يصل عليه ﵁ وقيل صلى عليه جبير بن مطعم ودفن ليلاً واختلف فى مدة الحصار فقيل أكثر من عشرين يوماً وقيل تسعة وأربعون يوماً، وكانت خلافته اثنتى عشرة سنة إلا اثنتى عشر يوماً وقُتل وهو ابن ثمانين سنة قاله ابن إسحق، وقال عميرة كانت خلافته إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهراً وأربعة عشر يوماً وقتل وعمره ثمان وثمانون سنة، وقيل كانت خلافته اثنتى عشرة سنة وقُتل وهو ابن اثنتين وثمانين سنة وقيل ابن ثلاث وثمانين سنة وقيل تسعين وقيل غير ذلك.

وفى أيامه انتقض عهد الإسكندرية، قال ابن عبد الحكم: حدثنا ابن صالح عن الليث بن سعد، قال: عاش عمر بن الخطاب بعد فتح مصر ثلاث سنين قدم فيها عليه عمرو قدمتين استخلف فى إحداهما زكرياء بن جهم العبدى على الجند ومجاهد بن جبير مولى بنى نوفل على الخراج فسأله عمر عمن استخلف فذكرله مجاهد بن عبيد فقال عمر مولى بنى غزوان. قال: نعم إنه كاتب، فقال عمر: إن العلم ليرفع صاحبه واستخلف فى القدمة الثانية عبد الله بن عمر. قال: حدثنا ثوبان ابن أبى رقية عن حيوة بن شريح عن الحسن بن ثوبان عن أبى رقية، قال: كان سبب نقض الإسكندرية العهد أن صاحب أخنا قدم على عمرو بن العاص فقال

أخبرنا ما على أحدنا من الجزية فقال عمرو لو أعطيتنى من الركن إلى السقف ما أخبرتك إنما أنتم خزانة لنا إن كثر علينا كثرنا عليكم وإن خفف عنا خففنا عنكم فغضب صاحب أخنا فخرج إلى الروم فقدم بهم فهزمهم الله وأسر القبطى فأتى به إلى عمرو فقال له الناس اقتله. قال: لا بل انطلق فجئنا بجيش آخر . اهـ.

وقال عبد الله بن صالح كانت الإسكندرية انتقضت وجاءت الروم وعليهم منويل الخصى فى المراكب حتى أرسى بالإسكندرية فأجابهم من بها من الروم ولم يكن المقوقس تحرك ولا نكث وكان عثمان بن عفان ﷺ قد عزل عمرو بن العاص وولى عبد الله بن سعد فلما نزلت الروم بالإسكندرية سأل أهل مصر عثمان أن يقر عمرا حتى يفرغ من قتال الروم فإن له معرفة بالحرب وهيبة فى قلب العدوّ ففعل وكان على الإسكندرية سورها فحلف عمرو بن العاص لئن أظفره الله عليهم ليهدمن سورها حتى يكون مثل بيت الزانية يؤتى من كل مكان فخرج عمرو فى البر والبحر وضموا إلى المقوقس من أطاعه من القبط فأما الروم فلم يطعه منهم أحد فقال خارجة بن خزاعة لعمرو ناهضهم القتال قبل أن يكثر عددهم ولا آمن أن تنتقض مصر كلها فقال عمرو لا ولكن أدعهم حتى يسيروا إلىّ فإنهم يصيبون من مروا به فيخزى الله بعضهم ببعض فخرجوا من الإسكندرية ومعهم من نقض من أهل القرى فجعلوا ينزلون القرى فيشربون خمورها ويأكلون أطعمتها وينهبون ما مروا به فلم يتعرض لهم عمرو حتى بلغوا نيقوس فلاقوهم فى البر والبحر فبدأت الروم فرموا بالنشاب فى الماء رمياً حتى أصاب النشاب يومئذ فرس عمرو فى لبته وهو فى البر فعقر فنزل عنه عمرو، ثم خرجوا من البحر فاجتمعوا هم والذين فى البر فنضحوا المسلمين بالنشاب فاستأخر المسلمون عنهم فحملوا على المسلمين حملة شديدة فولى المسلمون منها وانهزم شريك بن سمى فى خيله وكانت الروم قد جعلت صفوفاً خلف صفوف ثم شد المسلمون عليهم فكانت هزيمتهم فطردهم المسلمون حتى ألحقوهم بالإسكندرية ففتح الله عليهم وقتل منويل الخصى وهدم سور الإسكندرية كله، فلما هزمت الروم أراد عثمان عمرا أن يكون على الحرب وعبد الله ابن سعد على الخراج فقال عمرو أنا إذن كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها فأبى عمرو، ولما قتل عثمان بن عفان تولى الخلافة بعده على بن أبى طالب وكان من أمر ولاية مصر ما سيذكر فى محله.

(الفصل الرابع)

(في خلافة أمير المؤمنين على بن أبى طالب)

ثم قام بالأمر بعد قتل عثمان بن عفان أمير المؤمنين على بن أبى طالب وقد اختلف أهل التاريخ فى كيفية بيعته فذهب بعضهم إلى أنه لما قتل عثمان اجتمع أصحاب صاحب الشريعة من المهاجرين والأنصار وفيهم طلحة والزبير فأتوا علياً وضربوا عليه الباب ودخلوا وقالوا: إن هذا الرجل قد قتل ولابد للناس من إمام ولا نعلم أحداً أحق بها منك. قال: لا حاجة لى فى أمركم فمن اخترتم رضيت به فقالوا ما نختار غيرك فردهم عن ذلك فأبوا، فقال: إن أبيتم إلا بيعتى فإن بيعتى لا تكون سراً ولا تكون إلا فى المسجد وكان فى بيته وقيل فى حائط لبنى عمرو بن مبذول.

ولما أصبحوا يوم البيعة وهو يوم الجمعة حضر الناس المسجد وجاء علىّ وعليه أزار وطاق وعمامة خز ونعلاه فى يده متوكئا على قوس فصعد المنبر وقال: أيها الناس عن ملا وأذن أن هذا أمركم ليس لأحد فيه حق إلا من أمرّتم وقد افترقنا بالأمس على أمر وكنت كارها لأمركم فأبيتم إلا أن أكون عليكم ألا وأنه ليس لى دونكم إلا مفاتيح مالكم معى وليس لى أن آخذ درهما دونكم فإن شئتم قعدت لكم وإلا فلا آخذ على أحد، فقالوا: نحن على ما فارقناك عليه بالأمس، فقال: اللهم أشهد ولما جاءوا بطلحة ليبايع فقال إنما أبايع كرهاً فبايع وكان به شلل فقال رجل يعتاف وقيل حبيب بن ذؤيب إنا لله وإنا إليه راجعون أول يد بايعت يد شلاء لا يتم هذا الأمر ثم جيء بالزبير فقال مثل ذلك وبايع وفى الزبير اختلاف وقيل أن علياً قال لطلحة والزبير إن أحببتما أن تبايعانى، وإن أحببتما بايعتكما فقالا بل نبايعك، قال بعض أهل التاريخ: وقد قالا بعد ذلك إنما فعلنا ذلك خشية على نفوسنا وعرفنا أنه لا يبايعنا ثم هربا إلى مكة بعد قتل عثمان بأربعة أشهر ولم يبايعه كثير من أهل مكة والمدينة وكان ممن لم يبايعه النعمان بن بشير وكان قد أخذ أصابع نائلة امرأة عثمان التى قطعت فى دفاعها عن عثمان يوم قتله وقميص عثمان الذى قتل فيه وهرب به فلحق بمعاوية فى الشام فكان من وراء ذلك ما سيذكر فى محله، وقيل أن صهيباً وسلمة بن سلامة بن وقش وأسامة بن زيد لم يبايعوا علياً ولم يمدوا له يداً، ثم جيء بعده بقوم كانوا قد تخلفوا فقالوا نبايع على إقامة كتاب الله فى القريب والبعيد والعزيز والذليل فبايعهم ثم قام العامة فبايعوا وصار الأمر أمر أهل المدينة وكأنهم كما

كانوا فيه وتفرقوا إلى منازلهم وبويع يوم الجمعة لخمس بقين من ذى الحجة والناس يحسبون بيعته من قبل عثمان وأول خطبة خطبها حين استخلف حمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله أنزل كتاباً هادياً يبين فيه الخير والشر فخذوا بالخير ودعوا الشر، الفرائض الفرائض أدّوها إلى الله تعالى يؤدكم إلى الجنة أن الله حرم حرمات غير مجهولة وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها وشدّ بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق لا يحل دم أمرىء مسلم إلا بما يجب، بادروا أمر العامة وخاصة أحدكم الموت فإن الناس أمامكم وأن ما خلفكم الساعة تحدوكم فخففوا تلحقوا فإنما ينتظر بالناس أخراهم، اتقوا الله عباد الله فى بلاده وعباده إنكم مسؤلون حتى عن البقاع والبهائم، أطيعوا الله فلا تعصوه وإذا رأيتم الخير فخذوا به وإذا رأيتم الشر فدعوه واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض ولما فرغ من الخطبة وهو على المنبر قالت السبئية:

خذها إليك واحذرن أبا حسن … أنا غرّ الأمر أمرار الرسن
صولة أقوام كأشداد السفن … بمشرفيات كغدران اللبن
وتطعن الملك بلين كالشطن … حتى يمرّون على غير عتن

فقال علي:

إني عجزت عجزة لا أعتذر … سوف أكيس بعدها وأستمر
أرفع من ذيلي ما كنت أجر … وأجمع الأمر الشتيت المنتشر
إن لم يشاغبني العجول المنتصر … إن تتركوني والسلاح يبتدر

ثم نزل ورجع إلى بيته وجعل يفرق عماله على الأمصار فبعث عثمان بن حنيف على البصرة وعمارة بن شهاب على الكوفة وعبيد الله بن عباس على اليمن وقيس بن سعد على مصر وسهل بن حنيف على الشام فلم يفلحوا وظهر معاوية بمن معه ليفسد الأمر على عليّ وأرسل رجلاً من بنى عبس يدعى قبيصة إلى عليّ ومعه طومار مختوم عنوانه من معاوية إلى عليّ، وقال له: إذا دخلت المدينة فاقبض على أسفل الطومار ثم أوصاه بما يقول فقدم الرجل إلى المدينة فى ربيع الأول فدخلها وقد رفع الطومار فتبعه الناس ينظرون إليه وعلموا أن معاوية معترض، قال ابن عباس أتيت علياً بعد قتل عثمان عند عودى من مكة فوجدت المغيرة بن شعبة مستخلياً به فخرج من عنده فقلت له ما قال لك هذا: فقال: قال لى بعد مرته هذه أن لك حق الطاعة والنصيحة وأنت بقية الناس وأن الرأى اليوم تحرز به ما فى غد

وأن الضياع اليوم يضيع به ما فى غد أقرر معاوية وابن عامر وعمال عثمان على أعمالهم حتى تأتيك بيعتهم ويسكن الناس ثم أعزل من شئت فأبيت عليه ذلك وقلت: لا أداهن فى دينى ولا أعطى الدنية فى أمرى قال: فإن كنت أبيت علىّ فانزع من شئت واترك معاوية فإن فى معاوية جزاءة وهو فى أهل الشام يستمع منه ولك حجة فى إثباته كان عمر بن الخطاب قد ولاه الشام، فقلت: لا والله لا أستعمل معاوية يومين ثم انصرف من عندى وأنا أعرف فيه أنه يودّ أنى مخطىء ثم عاد إلىّ الآن فقال إنى أشرت عليك أوّل مرة بالذى أشرت وخالفتنى فيه ثم رأيت بعد ذلك أن تصنع الذى رأيت فتعزلهم وتستعين بمن تثق به فقد كفى الله وهم أهون شوكة مما كان، قال ابن عباس: فقلت لعلى أما المرة الأولى فقد نصحك وأما المرة الثانية فقد غشك، قال: ولم نصحنى قلت لأن معاوية وأصحابه أهل دنيا فمتى ثبتهم لا يبالون من ولى هذا الأمر ومتى تعزلهم يقولون أخذ هذا الأمر بغير شورى وهو قتل صاحبنا ويؤلبون عليك فتنتقض عليك الشام وأهل العراق مع إنى لا آمن طلحة والزبير أن يكرا عليك وأنا أشير عليك أن تثبت معاوية فإن بايع لك فعلىّ أن أقلعه من منزله فقال على والله لا أعطيه إلا السيف ثم تمثل:

وما ميتة إن متها غير عاجز   بعار إذا ما غالت النفس غولها

فقلت ياأمير المؤمنين أنت رجل شجاع لست صاحب رأى فى الحرب أما سمعت رسول الله ﷺ يقول الحرب خدعة، فقال: بلى فقلت أما والله لئن أطعتنى لأصدرنهم بعد ورد ولا تركنهم ينظرون فى دبر الأمور ولا يعرفون ما كان وجهها فى غير نقصان عليك ولا إثم لك، فقال: ياابن عباس لست من هناتك ولا من هنات معاوية فى شىء، قال ابن عباس: فقلت له أطعنى والحق بمالك ينبع وأغلق بابك عليك فإن العرب تجول جولة وتضطرب ولا تجد غيرك فإنك والله لئن نهضت مع هؤلاء اليوم ليحملنك الناس دم عثمان غدا فأبى علىّ، فقال: تشير علىّ وأرى فإذا عصيتك فأطعنى. قال: فقلت أفعل أن أيسر مالك عندى الطاعة فقال له علىّ: تسير إلى الشام فقد وليتكها فقال ابن عباس ما هذا برأى معاوية رجل من بنى أمية وهو ابن عم عثمان وعامله ولست آمن أن يضرب عنقى بعثمان وأن أدنى ما هو صانع أن يحبسنى فيتحكم علىّ لقرابتى منك وإن كل ما حمل عليك حمل علىّ ولكن أكتب إلى معاوية فمنه وعده فقال: لا والله لا كان هذا أبداً، وكان المغيرة يقول نصحته فلم يقبل فغششته وخرج فلحق بمكة وجعل علىّ يتجهز لأهل الشام ويكثر من جمع الرجال إذ جاءه الخبر عن طلحة والزبير وعائشة وأهل مكة بنحو

آخر وأنهم على الخلاف فأعلم عليّ الناس ذلك وأن عائشة وطلحة والزبير قد سخطوا إمارته ودعوا الناس إلى الإصلاح، وكان سبب اجتماع طلحة والزبير وعائشة بمكة أن عائشة كانت خرجت إليها وعثمان محصور ثم خرجت من مكة تريد المدينة فلما كانت بسرف لقيها رجل من أخوالها من بنى ليث يقال له عبيد بن أبى سلمى وهو ابن أم كلاب فقالت له عائشة مهيم، قال: قتل عثمان وبقوا ثمانياً، قالت: ثم صنعوا ماذا، قال: اجتمعوا على بيعة عليّ فقالت ليت هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك ردونى فانصرفت إلى مكة وهى تقول قتل والله عثمان مظلوماً والله لأطلبن بدمه فقال لها: ولم والله ان أول من أمال جرفه لأنت ولقد كنت تقولين اقتلوا نعثلاً فقد كفر، قالت: إنهم استتابوه ثم قتلوه وقد قلت وقالوا وقولى الأخير خير من قولى الأول فقال لها ابن أم كلاب:

فمنك البداء ومنك الغير ... ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإمام ... وقلت لنا أنه قد كفر
فهبنا أطعناك في قتله ... وقاتله عندنا من أمر
ولم يسقط السقف من فوقنا ... ولم ينكسف شمسنا والقمر
وقد بايع الناس ذا تدرا ... يزيل الشبا ويقيم الصعر
ويلبس للحرب أثوابها ... وما من وفى مثل من قد غدر

فانصرفت إلى مكة فقصدت الحجر فسترت فيه فاجتمع الناس حولها فقالت: أيها الناس إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلما بالأمس ونقموا عليه استعمال من حدثت سنه وقد استعمل أمثالهم قبله ومواضع من الحمى حماها لهم فتابعهم ونزع لهم عنها فلما لم يجدوا حجة ولا عذرا بادروا بالعدوان فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام والشهر الحرام وأخذوا المال الحرام والله لا صبع من عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم والله لو أن الذى اعتدوا به عليه كان ذنباً لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه أو الثوب من درنه إذ ماصوه، فقال عبد الله بن عامر الحضرمى: وكان عامل عثمان على مكة ها أنا أوّل طالب فكان أول مجيب وتبعه بنو أمية على ذلك وكانوا هربوا من المدينة بعد قتل عثمان إلى مكة ورفعوا رءوسهم وكان أول ما تكلم بالحجاز وتبعهم سعيد بن العاص والوليد بن عقبة وسائر بنى أمية، وقدم عليهم عبد الله بن عامر من البصرة بمال كثير ويعلى بن أمية وهو ابن منية من اليمن ومعه ستمائة بعير

وستمائة ألف درهم فأناخ بالأبطح وقدم طلحة والزبير من المدينة فلقيا عائشة واتفقوا على الشخوص إلى البصرة فجهزهم يعلى بن منية بستمائة بعير وستمائة ألف درهم وجهزهم ابن عامر بمال كثير ونادى مناديها إن أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة فمن أراد إعزاز الإسلام وقتال المحلين والطلب بثأر عثمان وليس له مركب وجهاز فليأت فحملوا ستمائة على ستمائة بعير وساروا فى ألف وقيل فى تسعمائة من أهل المدينة ومكة ولحقهم الناس فكانوا فى ثلاثة آلاف رجل فبعثت أم الفضل بنت الحرث أم عبد الله بن عباس رجلاً من جهينة يدعى ظفرا فأستأجرته على أن يأتى عليا بالخبر فقدام على علىّ بكتابها فلما جاءه الخبر سار فى تعبيته التى تعباها لأهل الشام آخر شهر ربيع الآخر سنة ست وثلاثين وخرج معه من نشط من الكوفيين والبصريين متخففين فى تسعمائة وهو يرجو أن يدرك أصحاب عائشة فيحول بينهم وبين الخروج أو يأخذهم وساروا حتى انتهوا إلى الربذة فلما انتهوا إليها أتاهم خبر سَبق عائشة ومن معها فأقام بها يأتمر ما يفعله وأتاه أبنه الحسن فى الطريق فقال له: لقد أمرتك فعصيتنى فتقتل غدا بمعصية لا ناصر لك فقال له علىّ إنك لا تزال تخن خنين الجارية وما الذى أمرتنى فعصيتك، قال: أمرتك يوم أحيط بعثمان أن تخرج من المدينة فيقتل ولست بها ثم أمرتك يوم قتل أن لا تبايع حتى تأتيك وفود العرب وبيعة أهل كل مصر فإنهم لن يقطعوا أمراً دونك فأبيت على وأمرتك حين خرجت هذه المرأة وهذان الرجلان أن تجلس فى بيتك حتى يصطلحوا فإن كان الفساد كان على يد غيرك فعصيتنى فى ذلك كله، فقال أى بنى قد بايعونى طائعين غير مكرهين فأنا مقاتل من خالفنى بمن أطاعنى حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين فكف عنك يابنى، وأرسل إلى المدينة فأتاه ما يريده من دابة وسلاح وأمر أمره وقام فى الناس فخطبهم وسار من الربذة وعلى مقدمته أبو ليلى بن عمر بن الجراح والراية مع محمد بن الحنفية وعلىّ على ناقة حمراء يقود فرسا كميتا فلما التقى الجمعان تردّدت الرسل بينهما وطال الكلام فى أمر الصلح ووضع الحرب فأبى قوم عائشة إلا القتال وأقبل كعب بن سور فأتى عائشة فقال أدركى فقد أبى القوم إلا القتال لعل الله أن يصلح بك فركبت وألبسوا هودجها الأدراع فلما برزت من البيوت وهى على الجمل بحيث تسمع الغوغاء وقفت واقتتل الناس قتالاً عظيماً جداً.

وقاتل الزبير فحمل عليه عمار بن ياسر فجعل يحوزه بالرمح والزبير كاف عنه ويقول أتقتلنى ياأبا اليقظان فيقول لا يا أبا عبد الله، قال أهل التاريخ: وإنما كف الزبير عنه لقول صاحب الشريعة تقتل عمارا الفئة الباغية قالوا ولولا ذلك لقتله،

وبينما عائشة واقفة إذ سمعت ضجة شديدة، فقالت: ما هذا قالوا ضجة العسكر، قالت: بخير أو بشر قالوا بشر فما فجاءها إلا الهزيمة فمضى الزبير من وجهه إلى وادى السباع وأما طلحة فأتاه سهم فأصابه فشك رجله بصفحة الفرس وهو ينادى إلىّ إلىّ عباد الله الصبر الصبر، ثم دخل البيوت ودمه يسيل وهو يقول اللهم خذ لعثمان منى حتى ترضى، فلما امتلأ خفه دما وثقل قال لغلامه: أردفنى وأمسكنى وأبلغنى مكانا أنزل فيه فدخل البصرة فأنزله فى دار خربة فمات فيها، وقيل أنه اجتاز به رجل من أصحاب علىّ، فقال له: أنت من أصحاب أمير المؤمنين، قال: نعم، فقال: امدد يدك أبايعك له فبايعه فخاف أن يموت وليس فى عنقه بيعة ولما قضى دفن فى بنى سعد وكان الذى رمى طلحة مروان بن الحكم وقيل غيره وأما الزبير فانه مر بعسكر الأحنف بن قيس فلما رآه الأحنف قال: من يأتينى بخبر هذا وأشار إليه فقال رجل اسمه عمرو بن جرموز أنا ثم تبعه فلما لحقه نظر إليه الزبير قال: ما وراءك، قال: إنما أريد أن أسألك فقال غلام للزبير: كان معه أنه معدّ قال الزبير ما يهولك من رجل وحضرت الصلاة فقال ابن جرموز الصلاة الصلاة، فقال الزبير الصلاة ونزل ليصلى فأستدبره ابن جرموز وطعنه فقتله وأخذ فرسه وسلاحه وخاتمه وخلى عن الغلام فدفنه بوادى السباع ورجع إلى الناس بالخبر ثم سار إلى علىّ ودفع إليه سيف الزبير فنظر إليه وقال طالما جلى به الكرب عن وجه رسول الله ﷺ .

وقالت عائشة: لما انجلت الوقعة وانهزم الناس لكعب بن سور خل عن الجمل وتقدم بالمصحف فادعهم إليه وناولته مصحفا فاستقبل القوم فرموه بالسهام فقتلوه ورموا عائشة فى هودجها فجعلت تنادى البقية البقية يابنىّ ويعلو صوتها الله الله اذكروا الله والحساب فلم يمتنعوا عنها فجعلت تحرض الناس فحملت مضر البصرة حتى قصفت مضر الكوفة حتى زحم على وكانت راية على مع ابنه محمد فنخس على قفا ابنه محمد. وقال له أحمل فتقدم وأخذ علىّ الراية من يده. وقال يابنى بين يدى واشتدت الحرب وكثر الهول والكرب وتساقطت النبال تباعاً وأبى أهل الكوفة إلا القتال ولم يريدوا إلا عائشة وتزاحف الناس بعضهم على بعض ونظرت عائشة من يسارها فقالت من القوم عن يسارى فقال لها صبرة بن شيمان بنوك الأزد فصاحت يا آل غسان حافظوا اليوم فجلادكم الذى كنا نسمع به وتمثلت:

وجالد من غسان أهل حفاظها   وكعب وأوس جالدت وشبيب

فكان الأزد يأخذون بعر الجمل يشمونه ويقولون بعر جمل أمّنا ريحه ريح المسك. وقالت لمن عن يمينها من القوم عن يمينى قال بكر بن وائل قالت لكم بقول القائل

وجاءوا إلينا في الحديد كأنهم   من الغرّة القعساء بكر بن وائل

واشتدّ الفريقان فى القتال شدة بالغة فكثرت الجرحى والقتلى فى العسكر جميعاً فقال قوم لا تزال الحرب أو يصرع الجمل وكره القوم بعضهم بعضاً وأخذ عميرة بن يثربى برأس الجمل فكان لا يتقدّم إليه أحد إلا قتله حتى قتل هو دون زمام الجمل ولم يزل الأمر كذلك حتى قتل على خطام الجمل أربعون رجلاً، قالت عائشة: ما زال جملى معتدلاً حتى فقدت أصوات بنى ضبة، قيل وأخذ الخطام سبعون رجلاً من قريش وكلهم يقتل وأحدق أهل النجدات والشجاعة بعائشة فكان لا يأخذ الخطام أحد إلا قتل وما زال حتى ضاع الخطام ونادى علىّ أعقروا الجمل فإنه إن عقر تفرقوا فضربه رجل فسقط واجتمع القعقاع وزفر على قطع بطان البعير وحملا الهودج فوضعاه وفر من كان وراءه من الناس وتمت هزيمة أصحاب عائشة فلما انهزموا أمر علىّ منادياً فنادى ألا لا تتبعوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ولا تدخلوا الدور ثم رسم إلى نفر أن يحملوا الهودج بين القتلى فوضعوه وليس قربه أحد وأتى علىّ إلى عائشة فقال كيف أنت يأمه قالت بخير . قال: يغفر الله لك قالت ولك فلما كان الليل أدخلها أخوها محمد بن أبى بكر البصرة فأنزلها فى دار عبد الله بن خلف الخزاعى وتسلل الجرحى من بين القتلى ليلاً ودخلوا البصرة فأقام علىّ بظاهر البصرة ثلاثاً وأذن للناس فى دفن موتاهم قيل وكانت القتلى زهاء عشرة آلاف نصفهم من أصحاب علىّ ونصفهم الآخر من أصحاب عائشة وقيل ثلاثة عشر ألفاً وقيل غير ذلك.

ودخل علىّ البصرة يوم الاثنين فبايعه أهلها على راياتهم حتى الجرحى والمستأمنة ثم جهز على عائشة بكل ما ينبغى لها من مركب وزاد ومتاع وغير ذلك وبعث معها كل من نجا ممن خرج معها إلا من أحب المقام واختار لها أربعين امرأة من نساء البصرة والمعروفات وسير معها أخاها محمد بن أبى بكر وخرجت يوم السبت غرة رجب فشيعها علىّ أميالاً وسرح بنيه معها يوماً فكان وجهها إلى مكة ووقف علىّ مودعا لها وحضر الناس فودعتهم، فقالت: وهى خارجة يابنّى لا يعتب بعضنا على بعض أنه والله ما كان بينى وبين علىّ فى القديم إلا ما يكون بين المرأة

وبين أحمائها وأنه على معتبتى لمن الأخيار، فقال علىّ: صدقت والله ما كان بينى وبينها إلا ذاك وأنها لزوجة نبيكم فى الدنيا والآخرة.

قلت : واختلف الكتاب وأهل التاريخ فيما دعا عائشة وعليا إلى هذه الحرب المشئومة وركوب هذا المركب الخشن فمنهم من قال إن الحرب إنما كانت منها أخذا بثأر عثمان لأنها كانت ترمى عليا بقتله أو بالتألب عليه، ومنهم من قال بل لكراهتها فيه وحقدها عليه منذ كانت تحت صاحب الشريعة خصوصاً ما كان علىّ بعد خروجها مع صاحب الشريعة إلى غزوة بنى المصطلق وتشديده على صاحب الشريعة فى طلاقها بعد الذى قاله أهل الإفك فيها، وتحرير الخبر كما روته عائشة، أن صاحب الشريعة كان إذا أراد السفر أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه فلما كانت غزوة بنى المصطلق أقرع بين نسائه فخرج سهم عائشة فخرجت معه فلما قفل صاحب الشريعة من سفره ذلك وكان قريباً من المدينة بات بمنزل بعض الليل ثم ارتحل بالناس وكانت عائشة قد خرجت لحاجتها وفى عنقها عقد من جزع أظفار أنسل من عنقها ولا تدرى فلما رجعت التمست العقد فلم تجده فخرجت إلى المكانَ الذى كانت فيه تلتمسه فوجدته وجاء القوم الذين يرحلون بعيرها فأخذوا الهودج وهم يظنون أنها فيه وانطلقوا ورجعت هى إلى المعسكر وما فيه داع ولا مجيب فالتفت بجلبابها واضطجعت وهى تنتظر إحدى خلال ثلاث إما هلاكها جوعاً وعطشاً أو أن يفترسها سبع من سباع البر أو يرجع إليها منشد، وبينما هى على هذا الحال إذ أقبل عليها صفوان بن المعطل السلمى وكان قد عرّس وراء العسكر لحاجته فلم يبت مع الناس فوقف عليها وكان يعرفها جيداً قبل أن يضرب الحجاب فقال لها ماخلفك ههنا ثم قرّب بعيره، وقال: اركبى فركبت وأخذ برأس البعير وسارا حتى أتيا الجيش وبينما كان يقودها إذ مر ببعض المنافقين وبينهم عبد الله بن أبىّ الذى كان يدعوه صاحب الشريعة رأس النفاق. فقال: من هذه فقيل له عائشة زوّج النبىّ مع صفوان، فقال: والله ما نجت منه ولا نجا منها. وقال: امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقودها، وقال هو وغيره ما قالوه إفكاً وخاضوا فى الحديث، وعلم بالأمر صاحب الشريعة فأقلقه فقام فى الناس فخطبهم ثم قال، أيها الناس ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ويقولون عليهنّ غير الحق ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت عليه إلا خيراً وما دخل بيتاً من بيوتى إلا معى . اهـ.

وكان قد كبر ذلك عند عبد الله بن أبى ابن سلول فى رجال من الخزرج مع الذى قاله مسطح وحمنة بنت جحش وهما من أهل الإفك، وذلك أن زينب أختها

كانت عند صاحب الشريعة فأشاعت حمنة من ذلك كلاماً كثيراً، فلما قال صاحب الشريعة تلك المقالة وقع الهرج وعلت الضوضاء بين الناس وتشاوروا حتى كاد يكون بينهم شر فنزل صاحب الشريعة ودعا علىّ بن أبى طالب وأسامة بن زيد فاستشارهما فأما أسامة فأثنى خيراً وأما علىٌّ فقال: إن النساء لكثير وسل الخادمة تصدقك فدعا صاحب الشريعة بريرة الخادمة يسألها فقام إليها علىّ فضربها ضرباً مبرحاً وهو يقول اصدقى رسول الله فقالت والله ما أعلم إلا خيراً ثم قالت ما قالت، وهبط جبريل بثمان عشرة آية من سورة النور فى براءة عائشة، قال الزمخشرى فى تفسير هذه الآيات: لو قلبت القرآن كله وفتشت عما أوعد به العصاة لم تر الله تعالى قد غلظ فى شىء تغليظه فى إفك عائشة ولا أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد والعقاب البليغ والزجر العنيف ما أنزل فى إفك عائشة على طرق مختلفة وأساليب مفتنة فأوجز فى ذلك وأشبع وفصل وأجمل وأكد وكرر وجاء بما لم يقع فى وعيد المشركين عبدة الأوثان إلا ما هو دونه فى الفظاعة . اهـ.

وأقامت عائشة على بغضها لعلى والتألب عليه فى خلافته فكانت لا تنكف عن التشنيع عليه بالقول إنه حذف من القرآن وأسقط وبدّل وحرّف فمن ذلك آية المتعة، قالت إنه أسقطها بتة وكان يجلد من يقرؤها وينهى عنها، وكانت عوناً لمن خرج على علىّ من الأحزاب حتى مات.

وبعث علىّ قيس بن سعد أميراً على مصر وقيس هذا كان صاحب راية الأنصار على عهد صاحب الشريعة وكان من ذوى الرأى والبأس فقال له على سر إلى مصر فقد وليتكها وأخرج إلى رحلك واجمع ثقاتك ومن أحببت أن يصحبك حتى تأتيها وأحسن إلى المحسن واشدد على المريب وارفق بالعامة والخاصة فإن الرفق يمن، فخرج قيس حتى دخل مصر فى سبعة من أصحابه ودخل المسجد وصعد المنبر فجلس عليه وأمر بكتاب علىّ فقرىء على أهل مصر بإمارته ويأمرهم بمبايعته ومساعدته وإعانته على الحق، ثم قام قيس خطيباً فقال: الحمد الله الذى جاء بالحق وأمات الباطل وكبت الظالمين، أيها الناس إنا قد بايعنا خير من نعلم بعد نبينا فقوموا أيها الناس فبايعوا على كتاب الله وسنته ورسوله فإن نحن لم نعمل لكم بذلك فلا بيعة لنا عليكم، فقام الناس فبايعوا واستقامت مصر واطمأنت القلوب وبعث عليها عماله إلا قريه أسمها خربتا هذه فيها ناس قد أعظموا قتل عثمان واستكبروه وكاتبوا قيساً يدعونه إلى الطلب بدم عثمان وطال بينهم وبينه الأخذ والردّ ثم تهادنوا وكان قيس ذا تدبير وحيلة فلما فاض الخبر بما وقع بين عائشة وعلىّ ونهض معاوية بن أبى

سفيان إلى شق عصا الطاعة كان معاوية يخشى كثيراً من قيس المذكور مخافة أن يقبل عليّ فى أهل العراق وقيس فى أهل مصر فيقع بينهما معاوية فكتب معاوية إلى قيس كتابا يقول فيه سلام عليك، أما بعد فإنكم نقمتم على عثمان ضربة بصوت أو شتيمة رجل أو تسيير آخر واستعمال فتى وقد علمتم أن دمه لا يحل لكم فقد ركبتم عظيماً وجئتم أمراً إدّا فتب إلى الله ياقيس فإنك من المجلبين على عثمان فأما صاحبك فإنا استيقنا أنه الذى أغرى الناس وحملهم حتى قتلوه وأنه لم يسلم من دمه عظيم قومك فإن استطعت ياقيس أن تكون ممن يطالب بدم عثمان فافعل وتابعنا على أمرنا ولك سلطان العراقين إذا ظهرت ما بقيت ولمن أحببت من أهلك سلطان الحجاز ما دام لى سلطان وسلنى ما شئت فإنى أعطيك واكتب إلىّ برأيك . اهـ.

فلما جاءه الكتاب أحب أن يدافعه ولا يبدى له أمراً ولا يتعجل إلى حربه، قال أصحاب التاريخ: فكتب إليه يقول: أما بعد فقد فهمت ما ذكرته من قتلة عثمان فذلك شيء لم أقاربه وذكرت أن صاحبى هو الذى أغرى به حتى قتلوه وهذا مما لم أطلع عليه وذكرت أن عظم عشيرتى لم تسلم فأوّل الناس كان فيه قياماً عشيرتى وأما ما عرضته من متابعتك فهذا أمر لى فيه نظر وفكرة وليس هذا مما يسرع إليه وأنا كاف عنك وليس يأتيك من قبلى شيء تكرهه حتى ترى ونرى إن شاء الله تعالى، قالوا فلما قرأ معاوية كتاب قيس رآه مقارباً مباعداً فكتب إليه، أما بعد فقد قرأت كتابك فلم أرك تدنو فأعدك سلما ولا متباعدا فأعدك حربا وليس مثلى يصانع المخادع وينخدع للمكايد ومعه عدد الرجال وأعنة الخيل والسلام، قالوا فلما قرأ قيس كتابه ورأى أنه لا تفيد معه المدافعة والمماطلة أظهر له ما فى نفسه فكتب إليه، أما بعد فالعجب من اغترارك بى وطمعك فىّ واستسقاطك إياى أتسومنى الخروج عن طاعة أولى الناس بالإمارة وأقولهم بالحق وأهداهم سبيلاً وأقرب بهم من رسول الله ﷺ وسيلة وتأمرنى بالدخول فى طاعتك طاعة أبعد الناس من هذا الأمر وأقولهم بالزور وأضلهم سبيلاً وأبعدهم من رسول الله ﷺ وسيلة ولد ضالين مضلين طاغوت من طواغيت إبليس. وأما قولك إنى مالىء عليك مصر خيلاً ورجالا فوالله إن لم أشغلك بنفسك حتى تكون أهم إليك إنك لذو جد والسلام، فلما رأى معاوية كتابه أيس منه وثقل عليه مكانه فجعل يكيد له وافتعل كتاباً عن قيس إليه بالطلب بدم عثمان والدخول معه فى ذلك وقرأه على أهل الشام وطير خبره إلى الآفاق فبلغ ذلك علياً أبلغه إياه محمد بن أبى بكر ومحمد بن جعفر بن أبى طالب وأعلمته عيونه بالشام فكبر عليه هذا الأمر جدا وأعظمه فدعا ابنيه وعبد الله بن جعفر

فأخبرهم بالخبر، فقال ابن جعفر: ياأمير المؤمنين دع ما يريبك إلى ما لا يريبك اعزل قيسا عن مصر. فقال علىّ: إنى والله ما أصدّق بهذا عنه، فقال عبد الله: أعزله ياأمير المؤمنين فإن كان هذا حقاً لا يعتزل لك فبينما هم على هذا الحال إذ جاءهم كتاب من قيس يخبر أمير المؤمنين بأمر المتحزبين الطالبين بدم عثمان وأنه كف عن مشاغبتهم وقتالهم، فقال ابن جعفر: ما أخوفنى أن يكون ذلك ممالأة منه فمره بقتالهم فكتب إليه علىّ يأمره بقتالهم فلما قرأ الكتاب كتب جوابه، أما بعد فقد عجبت لأمرك تأمرنى بقتال قوم كافين عنك مفرغيك لعدوك ومتى حاددناهم ساعدوا عليك عدوّك فأطعنى ياأمير المؤمنين واكفف عنهم فان الرأى تركهم والسلام، قيل فلما قرأ علىّ الكتاب، قال ابن جعفر: ياأمير المؤمنين ابعث محمد بن أبى بكر على مصر واعزل قيسا فقد بلغنى أن قيسا يقول إن سلطانا لا يستقيم إلا بقتل مسلمة بن مخلد لسلطان سوء فأطاعه علىّ وبعث محمد بن أبى بكر لمصر وقيل بعث قبله الاشتر النخعى فمات بالطريق فبعث محمداً فلما قدم على قيس بمصر قال له قيس ما بال أمير المؤمنين ما غيره أدخل أحد بينى وبينه قال لا وهذا السلطان سلطانك فقال لا والله لا أقيم وخرج منها مقبلاً إلى المدينة وهو غضبان لعزله فجاءه حسان بن ثابت وكان عثمانيا يشمت به، فقال له: قتلت عثمان ونزعك علىّ فبقى عليك الإثم ولم يحسن لك الشكر، فقال له: قيس ياأعمى القلب والبصر والله لو القى بين رهطى ورهطك حربا لضربت عنقك اخرج عنى ثم خاف من مروان بن الحكم بالمدينة فرحل عنها.

ولما قدم محمد بن أبى بكر مصر قرأ كتاب علىّ على أهل مصر ثم قام فخطب فقال: الحمد لله الذى هدانا وإياكم لما اختلف فيه من الحق وبصرنا وإياكم كثيراً مما كان عمى عنه الجاهلون، ألا إن أميرالمؤمنين ولأنى أمركم وعهد إلى ما سمعتم وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب فإن يكن ما ترون من إمارتى وأعمالى طاعة لله فاحمدو الله على ما كان من ذلك فإنه هو الهادى له وإن رأيتم عاملاً لى عمل بغير الحق فارفعوه إلىّ وعاتبونى فيه فإنى بذلك أسعد وأنتم جديرون، وفقنا الله وإياكم لصالح الأعمال برحمته، ثم نزل ولبث شهراً كاملاً حتى بعث إلى أولئك المعتزلين من الطالبين بدم عثمان، وقال لهم: إما أن تدخلوا فى طاعتنا وإما أن تخرجوا من بلادنا فأجابوه إننا لا نفعل هذه ولا هذه وامتنعوا وأخذوا حذرهم فسير إليهم الحرث بن جمهان الجعفى فى جمع كبير قاتلهم فقاتلوه وقتلوه فبعث إليهم

أيضاً ابن مضاهم الكلبى فقتلوه ووصل الخبر بذلك إلى معاوية فكتب إليه يسبه ويقبح فعاله ويتوعده.

وكتب علىّ إلى معاوية يعلمه باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته ونكث طلحة والزبير وحربه إياهما ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه المهاجرون والأنصار من طاعته فاستشار معاوية عمرو بن العاص فى ذلك. وكان قد لحق بمعاوية قبل قتل عثمان بقليل كى لا يقتل عثمان وهو فى المدينة. فقال عمرو اجمع أهل الشام وقاتله أخذا بثأر عثمان حتى تظفر ففعل معاوية ذلك وكان أهل الشام لما قدم عليهم النعمان ابن بشير بقميص عثمان الذى قتل فيه مخضوباً بالدم بأصابع زوجته نائلة إصبعان منها وشىء من الكف وإصبعان مقطوعتان من أصولهما ونصف الإبهام وضع معاوية القميص على المنبر وجمع الأجناد إليه وكلمهم فى أمر القتال والخروج على علىّ وإلزامه بدم عثمان فبكوا جميعاً مدّة وهو على المنبر والأصابع معلقة فيه وأقسم رجال من أهل الشام أن لا يمسهم الماء إلا للغسل من الجنابة وأن لا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان ومن قام دونهم قتلوه وكان هذا كله بحضرة رسول علىّ فرجع الرسول إليه وأخبره بالخبر وأن أهل الشام اجتمعوا على قتاله فكبر الأمر على علىّ ونادى فى عسكره بالخروج فخرجوا وعسكروا بالنخيلة ففرق فيهم الأعطية وجهز معاوية وتجهز الناس وحضهم عمرو بن العاص على القتال، وقال لمعاوية: سر إلى علىّ بنفسك ولا تغب عنه برأيك ومكيدتك فبالغ معاوية فى التأهب والاستعداد ووقف عمرو وسط القوم وناداهم إنما سار إليكم علىّ فى شرذمة قليلة وقد قتل خليفتكم فالله الله فى حقكم أن تضيعوه وفى دمكم أن تطلوه، فعقد له معاوية لواءولواء لا بنيه عبد الله ومحمد ولواء لغلامه وردان وجاءهم الخبر بأن عليا عقد لواء لغلامه المدعو قنبر فأنشد عمرو بن العاص فى ذلك:

هل يغنين وردان عني قنبرا أو تغني السكون عني حميرا

إذا الكماة لبسوا السنوّرا

وساروا حتى التقوا جميعاً وسيرّ علىّ جماعة من كبار قومه إلى معاوية ليحتجوا عليه ويدعوه إلى الطاعة فدخلوا عليه وكلموه فى الأمر طويلاً، فقال: ليس بينى وبين علىّ إلا السيف فعادوا وأخبروا عليا بما جرى وباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا وقد اصطف الفريقان ودارت الحرب بينهما على السهل الخفيف إذ كرهوا أن يجمعوا أهل العراق بأهل الشام فى قتال خوفاً من الاستئصال والهلاك فكانوا يخرجونهم

جماعات قليلة فاقتتلوا على هذا الحال أيام ذى الحجة كلها من سنة ست وثلاثين وربما اقتتلوا فى اليوم الواحد مرتين، ثم عادوا بعد المحرم فى سنة سبع وثلاثين إلى القتال فرتب علىّ أصحابه وحضهم على القتال حتى يموتوا أو يمكنهم الله من عدوهم، وضرب معاوية له قبة عظيمة وألقى عليها الثياب فبايعه أكثر أهل الشام على الموت وأحاط بقبته خيل دمشق ودارت الحرب بين الفريقين فاقتتلا قتالاً عنيفاً وكان معاوية يعلق قميص عثمان وفيه أصابع نائلة زوجته فإذا رأى ذلك أهل الشام ازدادوا غيظاً وحدّة فى أمرهم فإذا أحس منهم بفتور يقول له عمرو بن العاص حرك لها حوارها تحن فيعلق القميص، واشتد أهل الشام فى قتالهم لأصحاب علىّ وأجهزوا عليهم وأطبقوا من كل صوب وحدب وما زالوا كلما انهزمت طائفة من أصحاب علىّ وانكشفت عنه سار إلى استنهاض الأخرى، وكان الأشتر أحد كبار أصحاب علىّ ينادى فى الناس ويقول انصروا أمير المؤمنين وأصدقوا عدوكم اللقاء إن الله مع الصادقين، وكثر القتل فى أصحاب علىّ وكذلك فى أصحاب معاوية واشتد علىّ بمن معه فى القتال فلما رأى عمرو بن العاص ما صاروا إليه، قال لمعاوية هل لك فى أمر أعرضه عليك لا يزيدنا إلا اجتماعاً ولا يزيدهم إلا فرقة قال: نعم، قال: نرفع المصاحف ثم نقول لما فيها هذا حكم بيننا وبينكم فإن أبى بعضهم أن يقبلها وجدت فيهم من يقول ينبغى لنا أن نقبل فتكون فرقة بينهم، وإن قبلوا ما فيها رفعنا القتال عنا إلى أجل فأجابه معاوية إلى ما طلب وأمر فرفعوا المصاحف بالرماح وقالوا هذا حكم كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم فلما رآها الناس قالوا: نجيب إلى كتاب الله فقال لهم علىّ إن معاوية وعمرا ومن معهما ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن أنا أعرف بهم منكم قد صحبتهم أطفالاً ثم رجالاً فكانوا شر أطفال وشر رجال ويحكم والله ما رفعوها إلا خديعة ووهنا ومكيدة، فقالوا له: لا يسعنا أن ندعى إلى كتاب الله فنأبى أن نقبله، وقال جماعة: أجب إلى كتاب الله عز وجل إذ دعيت إليه وإلا دفعناك برمتك إلى القوم أو نفعل بك ما فعلنا بابن عفان، فقال لهم: احفظوا عنى نهيى إياكم واحفظوا مقالتكم لى فإن تطيعونى فقاتلوا وإن تعصونى فاصنعوا ما بدا لكم، واختلفوا فيما بينهم حتى كادوا يفترقون وسب أهل الكوفة الأشتر وضربوا وجه دابته بسياطهم لأنه كان يحض عليا على القتال وعدم وضع الحرب، ويقول لهم إن رفع المصاحف إنما هى حيلة ومشورة من ابن النابغة يعنى به عمرو بن العاص، فلما رأى علىّ اشتداد الخلاف وتفريق الكلمة سير الأشعث بن قيس إلى معاوية يسأله عما يريد، فقال معاوية: إنما أريد أن نرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله به فى

كتابه تبعثون رجلاً ترضون به ونبعث نحن رجلاً نرضى به نأخذ عليهما أن يعملا بما فى كتاب الله لا يعدوانه ثم نتبع ما اتفقنا عليه، فرجع الأشعث إلى علىّ وأخبره بما قاله معاوية وفاض الخبر بذلك بين أصحاب علىّ فقالوا: قد رضينا وقبلنا وقال أهل الشام قد رضينا عمرا، وقال أصحاب علىّ: ونحن قد رضينا بأبى موسى الأشعرى فمانعهم على فى ذلك فأصروا على تحكيم أبى موسى، وجاء أبو موسى حتى دخل المعسكر وحضر عمرو بن العاص عند علىّ ليكتبوا القضية بحضوره فكتبوا، بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين فقال عمرو هو أميركم وأما أميرنا فلا، فقال الأحنف لا تمح اسم أمير المؤمنين فإنى أخاف إن محوتها أن لا ترجع إليك أبداً لا تمحها، وإن قتل الناس بعضهم بعضًا قيل فأبى ذلك علىّ ملياً من النهار ثم إن الأشعث بن قيس قال: امح هذا الاسم فمحاه، فقال علىّ: الله أكبر سنة بسنة والله إنى لكاتب رسول الله ﷺ يوم الحديبية فكتبت محمد رسول الله، وقالوا لست برسول الله ولكن أكتب اسمك واسم أبيك فأمرنى رسول الله ﷺ بمحوه فقلت لا أستطيع فقال أرنيه فأريته فمحاه بيده، وقال: إنك ستدعى إلى مثلها فتجيب، فقال عمرو بن العاص: سبحان الله أنشبه بالكفار ونحن مؤمنون ووقع بينه وبين أمير المؤمنين على كلام كثير ثم كتب الكتاب، هذا ما تقاضى عليه علىّ بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان قاضى على على أهل الكوفة ومن معهم، وقاضى معاوية على أهل الشام ومن معهم إننا ننزل عند حكم الله وكتابه وأن لا يجمع بيننا غيره، وإن كتاب الله بيننا من فاتحته إلى خاتمته نحيى ما أحيا ونميت ما أمات فما وجد الحكمان فى كتاب الله وهما أبو موسى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عملا به وما لم يجداه فى كتاب الله فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة . اهـ.

ثم أخذ الحكمان من علىّ ومعاوية ومن العسكرين من العهود والمواثيق أنهما آمنان على أنفسهما وأهليهما والأمة لهما أنصار على الذى يتقاضيان عليه واتفقوا على أن يكون الحكم فى رمضان أو بعده وشهد بذلك جماعة من أصحاب على وآخرون من أصحاب معاوية وكتب الكتاب يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت من صفر سنة سبع وثلاثين واتفقوا على أن يوافى علىّ على موضع الحكمين بدومة الجندل أو بأذرح فى شهر رمضان وتفرقت جموع كثيرة من أصحاب علىّ وسار بمن بقى معه عن صفين إلى الكوفة ونزل بها.

ولما جاء وقت اجتماع الحكمين أرسل علىّ أربعمائة رجل عليهم شريح بن هانىء الحارثى وأوصاه أن يقول لعمرو بن العاص إن علياً يقول لك إن أفضل الناس

عند الله عزّ وجلّ من كان العمل بالحق أحب إليه وإن نقصه من الباطل وإن زاده ويحك لا تكن للخائنين خصيماً وللظالمين ظهيراً، وأرسل معاوية عمرو بن العاص فى أربعمائة من أهل الشام حتى توافقوا جميعاً على دومة الجندل باذرح فلما اجتمع عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعرى. قال عمرو لأبى موسى يا أبا موسى ألا تعلم أن عثمان قتل مظلوماً، قال: أشهد، قال: ألست تعلم أن معاوية وآل معاوية أولياؤه قال: بلى، قال فما يمنعك منه وبيته فى قريش كما قد علمت فإن خفت أن يقول الناس ليست له سابقة وجدته ولىّ عثمان المظلوم والطالب بدمه الحسن السياسة والتدبير وهو أخو أم حبيبة زوج رسول الله ﷺ وكاتبه وقد صحبه وعرض له بسلطان، فقال أبو موسى ياعمرو اتق الله فأما ما ذكرت من شرف معاوية فإن هذا ليس على الشرف تولاه أهله، ولو كان على الشرف لكان لآل أبرهة بن الصباح إنما هو لأهل الدين والفضل مع إنى لو كنت معطيه أفضل قريش شرفاً أعطيته على بن أبى طالب، وأما قولك إن معاوية ولىّ دم عثمان فوله هذا الأمر فلم أكن لأوليه وادع المهاجرين الأولين، وأما تعريضك لى بالسلطان فوالله لو خرج معاوية لى من سلطانه كله لما وليته وما كنت لأرتشى فى حكم الله ولكنك إن شئت أن تحيى اسم عمر بن الخطاب رحمه الله، قال له عمرو وما يمنعك من ابنى وأنت تعلم فضله وصلاحه فقال: ابنك رجل صدق ولكنك قد غمسته فى هذه الفتنة، فقال عمرو: إن هذا الأمر لا يصلح إلا لرجل يأكل ويطعم وكانت فى ابن عمر غفلة فقال له ابن الزبير أفطن فانتبه، فقال والله لا أرشو عليها شيئاً أبداً، وقال ياابن العاص إن العرب قد أسندت إليك أمرها بعد ما تقارعوا بالسيوف فلا تردّهم فى فتنة فلما اختلفوا فيمن يتولاها. قال عمرو بن العاص لأبى موسى خبرنى ما رأيك، قال أبو موسى: أرى أن نخلع هذين الرجلين ونجعل الأمر شورى فيختار المسلمون لأنفسهم من أحبوا، فقال عمرو الرأى ما رأيت فقاما وأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون وكان عمرو قد عود أبا موسى أن يقدمه فى الكلام ويقول أنت صاحب رسول الله ﷺ وأسن منى، فقال: حينئذ يا أبا موسى أعلم الناس أن رأينا قد اتفق فتكلم أبو موسى، فقال: إن رأينا قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله به أمر هذه الأمة فقال عمرو صدق وبرّ تقدم يا أبا موسى فقال له ابن عباس ويحك والله إنى لأظنه قد خدعك إن كنتما اتفقتما على أمر فقدمه فليتكلم به قبلك ثم تكلم به بعده فإنه رجل غادر ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا بينكما فإذا قمت فى الناس خالفك، قال بعض الكتاب وكان أبو موسى مغفلاً فقال إنا قد اتفقنا والتفت إلى الناس وقال: أيها

الناس إنا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها ولا ألم لشعثها من أمر قد أجمع رأيى ورأى عمرو عليه وهو أن نخلع عليا ومعاوية ويولى الناس أمرهم من أجبوا، وإنى قد خلعت عليا ومعاوية ثم تنحى وأقبل عمرو، وقال: إن هذا قد قال ما سمعتموه وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه واثبت صاحبى معاوية فأنه ولىّ ابن عفان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه، فعند ذلك وقع الهرج بين الناس وعلت الضوضاء وتشاتم أبو موسى وعمرو بن العاص وتسابا وضرب شريح بن هانىء عمرو بن العاص بسوط كان فى يده فقام عليه ابن لعمرو فضربه كذلك وكثر الصياح من الفريقين وطلب أهل الشام أبا موسى فهرب إلى مكة وعاد عمرو بن العاص بأهل الشام إلى معاوية فسلموا عليه بالخلافة ورجع ابن عباس وشريح إلى علىّ وأخبره بما كان فاغتم غماً شديداً وصار إذا صلى الغداة يقنت فيقول اللهم العن معاوية وعمرا وأبا الأعور وحبيبا وعبد الرحمن بن خالد والضحاك بن قيس والوليد فبلغ ذلك معاوية فكان إذا قنت أيضاً سب عليا وابن عباس والحسن والحسين والأشتر، وتألب أصحاب علىّ على قتال معاوية وأصحابه وأتوا عليا فبايعوه . وقالوا: نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت، وكتب علىّ إلى أهل النهر، بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى زيد بن حصين وعبد الله بن وهب ومن معهما من الناس، أما بعد فإن هذين الرجلين اللذين ارتضيناهما حكمين قد خالفا كتاب الله واتبعا هواهما بغير هدى من الله فلم يعملا بالسنة ولم ينفذا القرآن حكما فبرىء الله منهما ورسوله والمؤمنون فإذا بلغكم كتابى هذا فأقبلوا إلينا فإنا سائرون إلى عدوّنا وعدوّكم ونحن على الأمر الأول الذى كنا فيه فكتبوا إليه، أما بعد فإنك لم تغضب لربك وإنما غضبت لنفسك فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك وإلا فقد نبذناك على سواء إن الله لا يحب الخائنين، فلما قرأ الجواب أيس منهم وسار بمن مال معه حتى نزل على أهل الكوفة واستنصرهم فاجتمع له منهم زهاء ثلاثة آلاف مقاتل، وقيل: ثلاثة آلاف ومائتين وخرج معه من أهل الكوفة أربعون ألف مقاتل وسبعة عشر ألفا من الأبناء ممن أدرك، وثمانية آلاف من الموالى والعبيد فكان جميع أهل الكوفة خمسة وستين ألفاً، فسار بهم علىّ لقتال من خرج عن دعوته من أهل النهر وغيرهم فقاتلهم واستظهر عليهم ثم نادى فيمن معه بالخروج لقتال معاوية فراجعه فى ذلك الأشعث بن قيس، وقال: ياأمير المؤمنين لقد نفدت نبالنا وكلت سيوفنا ونصلت أسنة رماحنا وعاد أكثرها قصدا فارجع إلى مصرنا نستعد ولعل أمير المؤمنين يزيد فى عدتنا فإن عدونا

أقوى منا، فأجابه عليّ إلى ذلك وما زالوا حتى نزلوا بالنخيلة فأمر الناس بأن يلزموا المعسكر ويتأهبوا للزحف على العدو وأن يقلوا من زيارة أبنائهم ونسائهم حتى يسيروا إلى عدوّهم فلبثوا على هذا الحال أياماً ثم تسللوا من معسكرهم فدخلوا البيوت إلا نفرا من وجوه الناس، وأصبح عليّ وقد رأى المعسكر خالياً فحزن واشتد به الحزن ودخل الكوفة وقد انكسر عليه رأيه في المسير ولكنه قد كبر عليه الأمر واستعظمه فجعل يستنفرهم ويحثهم على الخروج فلم يطيعوا وبقوا على هذا الحال أياماً فجمع رؤساءهم وكبارهم وقام فيهم، فقال: عباد الله ما بالكم إذا أمرتكم أن تنفروا تثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة وبالذل والهوان من العز خلفا وكلما ناديتكم إلى الجهاد دارت أعينكم كأنكم من الموت في سكرة وكأن قلوبكم مألوسة وأنتم لا تعقلون فكأن أبصاركم كمه وأنتم لا تبصرون لله، أنتم ما أنتم إلا أسد الشرى في الدعة وثعالب روّاغة حين تدعون إلى البأس إنكم تكادون ولا تكيدون وينتقص أطرافكم وأنتم لا تتحاشون ولا تنام أعينكم وأنتم في غفلة ساهون إلى أن قال، فلم يلتفتوا إلى مقالته وكادوا يخذلونه.

وبينما كان عليّ على هذا الحال من الضعف والوهن وتفريق كلمة أصحابه إذ جاءه الخبر بفساد أهل مصر على محمد بن أبي بكر عامله بها وخروج معاوية بن خديج السكوني بها يطالب بدم عثمان واجتماع الكثير إليه فكبرالأمر على عليّ، قال بعض الكتاب: فكتب إلى الأشتر وهو بنصيبين يستدعيه فلما حضر أخبره خبر أهل مصر، وقال له: ليس لها غيرك فأخرج إليها فإني قد وليتك إياها واستعن بالله فخرج الأشتر يتجهز إلى مصر وأتت معاوية عيونه بذلك فعظم عليه الأمر وخشي عاقبته لأنه علم أن الأشتر إن قدمها كان أشد عليه من محمد بن أبي بكر فأرسل معاوية إلى المقدم على أصحاب الخراج بالقلزم يقول: إن الأشتر قد ولي مصر فإن كفيتنيه لم آخذ منك خراجا ما بقيت وبقيت، فقام الرجل من ساعته وسار حتى أتى القلزم وأقام به وخرج الأشتر من العراق يريد مصر فلما انتهى القلزم استقبله ذلك الرجل فعرض عليه الضيافة فنزل عنده فأتاه بطعام فأكل فأتاه بشربة من عسل قد وضع له فيها سما فشرب فمات لساعته وجاء الخبر بموته إلى معاوية ففرح فرحاً لا يوصف وقام في الناس خطيباً فقال بعد كلام: قد كانت لعليّ يمينان فقطعت إحداهما بصفين يعني بموت عمار بن ياسر وقطعت الأخرى اليوم يعني بموت الأشتر، وعلم محمد بن أبي بكر بما فعله عليّ من إرساله الأشتر مكانه فكبر عليه الأمر جدا وأرسل إلى عليّ في ذلك فكتب إليه عليّ يقول: أما بعد فقد بلغني

موجدتك من تسريحى الأشتر إلى عملك وإنى لم أفعل ذلك إلا استبطاء لك فى الجهاد ولا ازديادا منى لك فى الجد ولو نزعت ما تحت يدك لوليتك ما هو أيسر عليك مؤنة منه وأعجب إليك ولاية، إن الرجل الذى كنت وليته أمر مصر كان لنا نصيحاً وعلى عدوّنا شديداً وقد استكمل أيامه ولاقى حمامه ونحن عنه راضون فرضى الله عنه وضاعف له الثواب أصبر لعدوّك وشد للحرب، وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وأكثر ذكر الله والاستعانة به والخوف منه يكفك ما أهمك ويعنك على ما ولاك، فكتب إليه محمد أما بعد فقد انتهى إلىّ كتابك وفهمته وليس أحد من الناس أرضى برأى أميرالمؤمنين ولا أجهد على عدوه ولا أرأف بوليه منى وقد خرجت فعسكرت وأمنت الناس إلا من نصب لنا حربا وأظهر لنا خلافاً وأنا متبع أمير المؤمنين وحافظه والسلام، وقيل: إنما تولى الأشتر مصر بعد قتل محمد ابن أبى بكر، وقيل: غير ذلك، وكان معاوية شديد الخوف من أهل مصر يهابهم جداً لقربهم منه وشدّتهم على من قام يطالب بدم عثمان ولم يكن يخشى غيرهم لا سيما بعد اختلاف الناس على علىّ بالعراق فجعل يدبر الحيلة فى ذلك ثم دعا عمرو ابن العاص وحبيب بن مسلمة وبسر بن أرطاة وآخرين وشاورهم فى أمر مصر ومن بها من أصحاب علىّ فأشار عليه عمرو بن العاص بفتحها والركوب على من بها من الأحزاب حتى يتم النصر فكاتب معاوية إلى بعض من خالف عليا بمصر فى أمر ذلك فمنوه بالنصر واستنهضوه فأمر عمرو بن العاص ليتجهز إليها وسير معه ستة آلاف رجل فنزلوا على مقربة من أرض مصر فاجتمع إليه من قام يطالب بدم عثمان فتقوّت بهم عزيمته وكتب إلى محمد بن أبى بكر أما بعد فتنح عنى بدمك يا ابن أبى بكر فإنى لا أحب أن يصيبك منى ظفر إن الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك وهم مسلموك فاخرج منها إنى لك من الناصحين وبعث معه كتابا من معاوية أيضاً فأرسل محمد الكتابين إلى علىّ وأخبره بنزول عمرو بن العاص على حدود مصر وطلب منه المدد لتثاقل الناس وتقاعدهم فوعده علىّ بإرسال نجدة عاجلة وحضه على أن يضم شيعته إليه.

واشتبك القتال بين محمد بن أبى بكر وعمرو بن العاص ومن بمصر من أصحاب عثمان واشتد شدّة بالغة واجتمع أهل الشام حول محمد وأصحابه وأخذوهم بالرماح والسيوف من كل صوب وكان كنانة بن بشر على مقدمة أصحاب محمد فلما رأى ذلك كنانة نزل عن فرسه ونزل معه أصحابه فضارب أهل الشام بسيفه حتى قتل، وبلغ محمد بن أبى بكر خبر موته فانزعر وتفرق عنه أصحابه

وأطبق عليه عمرو بمن معه ففر محمد على وجهه حتى انتهى إلى خربة فى الطريق فأوى إليها وساق عمرو بن العاص بمن معه يريد الفسطاط وخرج معاوية بن حديج فى طلب محمد بن أبى بكر فدل عليه رجل فأخرجوه من الخربة وقد كاد يهلك عطشا فقال: يا ابن حديج أسقنى، فقال له. لاسقانى الله إن سقيتك قطرة أبداً إنكم منعتم عثمان شرب الماء والله لأقتلنك حتى يسقيك الله من الحميم والغساق فقتله ابن حديج ثم ألقاه فى جيفة حمار ثم أحرقه بالنار وجاء الخبر إلى علىّ بفتح مصر وقتل محمد بن أبى بكر فحزن كثيراً وحزنت عائشة وجزعت عليه جزعاً شديداً وجعل عمرو يدبر الأمور بمصر وقد أخذ البيعة لمعاوية بن أبى سفيان وجمع إليه كلمة الأحزاب فقويت بهم شوكته واتسعت كلمته وهابه علىّ فأحجم عن تسيير الجند لقتاله بعد أن نادى فيهم بالرحيل، واختلفت كلمة أصحاب علىّ وتفرقوا عنه أو كادوا ومعاوية يبعث البعوث إلى الآفاق لتعم دعوته وتعلو كلمته، فلما دخلت سنة ست وثلاثين للهجرة فرق معاوية جيوشه فى العراق ورسم لهم بقتال كل من لم يذعن لسلطانه فعاثوا وقتلوا ونهبوا وسبوا وفعلوا مالا خير فيه وكذلك فعلوا بأهل البوادى وبلغوا مكة والمدينة وفعلوا بها ما فعلوا وكبر الأمر على علىّ وكاد يسقط فى يده فكانت الأخبار تأتيه فى كل يوم بتثاقل الناس عن الخروج لقتال عدوّه فكان يخطب ويحض ويعذر ويؤنب ويقول ياأيها الناس انصروا من هو على الحق ويحكم المغرور من غررتموه ومن فاز بكم فاز بالسهم الأخيب إنا لله وإنا إليه راجعون والناس مع ذلك فى تثاقل وسلطانه فى إدبار، فلما اشتد الحال وعظم الخلاف بين المتحازبين اجتمع عبد الرحمن بن ملجم المرادى، والبرك بن عبد الله التميمى الصريمى، وقيل: اسم البرك الحجاج، وعمرو بن بكر التميمى السعدى وهم من الخوارج فتذاكروا أمر الناس وعابوا عمل ولايتهم ثم ذكروا قتلى النهر فترحموا عليهم. وقالوا ما نصنع بالبقاء بعدهم فلو شرينا أنفسنا وقتلنا أئمة الضلالة وأرحنا منهم البلاد لكان فى ذلك المصلحة فقال ابن ملجم ويحكم أنا أكفيكم عليًا وكان ابن ملجم هذا من أهل مصر وقال البرك بن عبد الله وأنا أكفيكم معاوية. وقال عمرو بن بكر وأنا أكفيكم عمرو ابن العاص فتعاهدوا أن لا ينكص أحدهم عن صاحبه الذى توجه إليه حتى يقتله أو يموت فأخذوا سيوفهم فسموها واتعدوا لسبع عشرة من رمضان وقصد كل منهم الجهة التى يريد فأتى ابن ملجم الكوفة فلقى أصحابه بالكوفة وكتمهم أمره ورأى يوماً أصحاباً له من تيم الرباب، وكان علىّ قد قتل منهم يوم النهر عدة فتذاكروا قتلى النهر، ورأى معهم امرأة من تيم الرباب

اسمها: قعام، وقد قتل أبوها وأخوها يوم النهر وكانت فائقة الجمال فلما رآها أخذت قلبه فخطبها فقالت: لا أتزوّجك حتى تشتفى لى، فقال: وما تريدين، قالت: ثلاثة آلاف وعبداً وقينة وقتل علىّ، فقال: أما قتل علىّ فما أراك ذكرتيه وأنت تريديننى، قالت: بلى، التمس غرّته فإن أصبته شفيت نفسك ونفسى ونفعك العيش معى، وإن قتلت فما عند الله خير من الدنيا وما فيها، قال: والله ما جاء بى إلا قتل علىّ فلك ما سألت. قالت: سأطلب لك من يشد ظهرك ويساعدك وبعثت إلى رجل من قومها اسمه وردان وكلمته فأجابها وأتى ابن ملجم رجلاً من أشجع اسمه شبيب بن بجرة فقال له: هل لك فى شرف الدنيا والآخرة؟ قال: وماذا، قال: قتل علىّ، قال شبيب: ثكلتك أمك لقد جئت شيئاً إدّا كيف تقدرعلى قتله، قال: أكمن له فى المسجد فإذا خرج إلى صلاة الغداة شددنا عليه فقتلناه، فإن نجونا فقد شفينا أنفسنا وإن قتلنا فما عند الله خير من الدنيا وما فيها، قال: ويحك لو كان غير علىّ كان أهون، فلما كانت ليلة الجمعة سابع عشرة رمضان سنة أربعين استيقظ علىّ سحراً وقال: لابنه الحسن رأيت الليلة النبىّ ﷺ فقلت: يارسول الله ماذا لقيت من أمتك من الأود واللدد؟ فقال: لى أدع الله تعالى عليهم، فقلت: اللهم أبدلنى بهم خيراً لى منهم وأبدلهم بى شراً لهم منى، ودخل المؤذن فقال: الصلاة فخرج علىّ من الباب ينادى أيها الناس الصلاة الصلاة فاعترضه ابن ملجم فضربه بالسيف فأصاب جبهته ووصل إلى دماغه فشد عليه الناس من كل جانب فأمسك وأوثق وأقام علىّ الجمعة والسبت وتوفى ليلة الأحد وغسله الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر ومحمد بن الحنفية وصلى عليه الحسن ودفن بدار الإمارة بالكوفة ليلاً وأخفى قبره لئلا ينبشه الخوارج وأما البرك فإنه ضرب معاوية فأصاب أوراكه وكان معاوية عظيم الأوراك فقطع منه عرق النكاح فلم يولد له بعد ذلك ولد فأمر معاوية باتخاذ المقصورة فى الجوامع من ذلك الوقت، وأما عمرو بن بكر فإنه رصد عمرو بن العاص بمصر فاشتكى عمرو بطنه فلم يخرج إلى الصلاة، فصلى بالناس رجل من بنى عامر يقال له خارجة فضربه ابن بكر فقتله وإليه أشار ابن عبدون فى قصيدته الرائية:

فليتها إذ فدت عمرا بخارجة فدت عليا بمن شاءت من البشر

وقيل ان عليا كان إذا رأى ابن ملجم يتمثل بهذا البيت

أريد حياته ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مرادي

وأخذوا ابن ملجم فعذبوه وقطعوه إربا بعد موت علىّ، قال غير واحد، أنه لما

ضربه ابن ملجم أوصى الحسن والحسين وصية طويلة وفى آخرها، يابنى عبد المطلب لا تخوضوا دماء المسلمين خوضاً تقولون قتل أمير المؤمنين ألا لا يقتلن بى غير قاتلى أضربوه ضربة بضربة ولا تمثلوا به فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إياكم والمثلى»، ولما مات علىّ قتل الحسين ولده عبد الرحمن بن ملجم المذكور فقطع يديه ورجليه وكحل عينيه بمسمار محمى فى النار، قيل: كل ذلك ولم يتأوه ولم يجزع فلما أرادوا قطع لسانه تأوه وجزع فسئل عن ذلك، فقال: والله ما أتأوّه فزعاً ولا جزعاً من الموت وإنما أتأوّه لأن تمر علىّ ساعة من ساعات الدنيا لا أذكر الله تعالى فيها فقطعوا لسانه فمات بعد ذلك، ومات علىّ وعمره سبع وقيل: ثمان وخمسون، وقيل: ثلاث ،وقيل: ثمان وستون سنة وكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر ويوماً واحداً وكانت مدة إقامته بالمدينة أربعة أشهر ثم سار إلى العراق وقتل بالكوفة. قيل: وكان قبل موته قد بايعه أربعون ألفاً من عسكره على الموت فقتل قبل أن يخرج بهم لقتال عدوّه، وكان يجتمع علىّ مع صاحب الشريعة فى عبد المطلب الجد الأدنى وينسب إلى هاشم فيقال: القرشى الهاشمى ولم يزل اسمه فى الجاهلية والإسلام عليا ويكنى أبا الحسن أسلم وهو ابن سبع سنين، وقيل: ابن تسع، وقيل: ابن عشر، وقيل: ابن خمس عشرة، وقيل غير ذلك والصحيح الأول، وشهد المشاهد كلها إلا تبوك فإن صاحب الشريعة خلفه فى أهله، وكان غزير العلم ولما هاجر صاحب الشريعة أقام بعده ثلاث ليال وأيامها حتى أدى عنه الودائع، وكان لعلىّ شفقة على رعيته فكان متواضعاً ورعاً ذا قوّة فى الدين وكان قوته من دقيق الشعير يأخذ منه قبضة فيضعها فى القدح ثم يصب عليه ماء فيشربه، وقد تفرق عليه الخوارج واعتقد فيه الناس الألوهية، قيل: ولما بلغ عائشة قتل علىّ قالت:

فألقت عصاها واستقرّ بها النوى كما قرّ عينا بالإياب المسافر

قالت من قتله: فقيل رجل من مراد فقالت:

فإن يك نائيا فلقد نعاه نعىّ ليس في فيه التراب

فقالت زينب بنت أبي سلمة: أتقولين هذا لعلىّ، فقالت: إننى أنسى فإذا نسيت فذكرونى، ومات فى أيامه بنيامين بطرك الإسكندرية بعد أن أقام تسعاً وثلاثين سنة على المشهور وكان فيها من الحوادث والمحن ما مر بك ذكره، فأقيم بعده أغاثو وهو تاسع ثلاثيهم وكان فى أيامه من الحوادث ما سيذكر بعد، ولما مات أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب خلفه ابنه الحسن.

(الفصل الخامس)

(فى خلافة أمير المؤمنين حسن بن علىّ)

ثم قام بالأمر بعد أمير المؤمنين علىّ الحسن ابنه، وكنيته أبو محمد، ولقبه الذكى وأمه فاطمة الزهراء بويع له بالخلافة بعد موت أبيه فى شهر رمضان سنة أربعين للهجرة أى سنة إحدى وستين وستمائة ميلادية فكان الناس فى ريب من بيعته لأنه كان يقول لهم أشترط عليكم فى بيعتى إنكم مطيعون تسالمون من سالمت وتحاربون من حاربت، فقالوا: ماهذا لكم بصاحب وما يريد هذا إلا القتال ثم سار إلى المدائن واستقر بها فبينما هو بالمدائن إذ نادى مناد أن قيساً قتل، وكان الحسن قد جعله على مقدمة الجيش وهو قيس بن سعد بن عبادة فخرج الحسن لذلك وخرج معه الكثير من الناس وانفشلوا وقد نهبوا متاع الحسن حتى نازعوه بساطاً كان تحته فأزداد لهم بغضاً وكاد يسقط فى يده، وكان بينهم الجراح الأسدى فهزأ الجراح على الحسن وهو يسير معه ووجاه بالخنجر فى فخذه، فقال الحسن: قتلتم أبى بالأمس ووثبتم علىّ اليوم تريدون قتلى زهداً فى العادلين ورغبة فى القاسطين ووالله (لتعلمن نبأه بعد حين) وسار وهو يريد تسليم الأمر إلى معاوية بغضاً فى القوم لخذلهم إياه، ثم كتب إلى معاوية بتسليم الأمر إليه واشترط عليه شروطاً فأجابه معاوية إلى ما التمسه منه وسير له ما اشترط عليه، فسلم الأمر إلى معاوية وبايع له لخمس بقين من ربيع الأوّل قال بعض الكتاب: لأنه رأى المصلحة فى جمع الكلمة وترك القتال، ويقال أنه أخذ من معاوية ألف ألف درهم. وقال قوم: إنه صالحه باذرح فى جمادى الأولى وأخذ منه مائة ألف دينار، ويقال أربعمائة ألف درهم، وقيل أنه شرط عليه أن يمكنه من بيت المال يأخذ منه حاجته وأن يكون ولى العهد من بعده ففرح معاوية بذلك فخلع الحسن نفسه وسلم الأمر إلى معاوية وصالحه ودخل هو وإياه الكوفة فسمى هذا العام عام الجامعة لاجتماع الأمة بعد الفرقة على خليفة واحد، وقيل: أنه لما راسل معاوية فى تسليم الخلافة إليه خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه، وقال: إنا والله ما يثنينا عن أهل الشام شك ولا ندم وإنما كنا نقاتل أهل الشام بالسلامة والصبر فشيبت السلامة بالعداوة والصبر بالجزع وكنتم فى سيركم إلى صفين ودينكم أمام دنياكم وأصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم ألا وقد أصبحتم

بين قتيلين قتيل بصفين تبكون له وقتيل بالنهر وأن تطلبون بثأره، وأما الباقى فخاذل وأما الباكى فثائر ألا وإن معاوية دعانا لأمر ليس فيه عز ولا نصفة فإن أردتم الموت رددناه عليه وحاكمناه إلى الله عزّ وجلّ بظبا السيوف، وإن أردتم الحياة قبلناه وأخذنا لكم الرضا، فعند ذلك ناداه الناس من كل جانب البقية البقية فأمضى الصلح، قال الليث: شهدت خطبة الحسن ﷺ حين صالح معاوية وخلع نفسه من الخلافة فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد فإن أكيس الكيس التقى وأحمق الحمق الفجور، وإن هذا الأمر الذى اختلفت أنا ومعاوية فيه إن كان له فهو أحق به منى، وإن كان لى فقد تركته له إرادة لإصلاح الأمة وحقن الدماء عن سفكها والعار على النار.

قال بعض أصحاب التاريخ: لما مرض الحسن ﷺ كتب مروان بن الحكم إلى معاوية بذلك فكتب إليه معاوية أن أقبل المطى إلىّ بخبر الحسن فلما بلغ معاوية موته سمع تكبيره من الخضراء فكبر أهل الشام لذلك التكبير، فقالت فاختة بنت قريظة لمعاوية، أقر الله عينك ما الذى كبرت لأجله، فقال: مات الحسن، فقالت أعلى موت الحسن بن فاطمة تكبر، فقال: والله ما كبرت شماتة فى موته ولكن استراح قلبى، ودخل عليه ابن عباس فقال له يا بن عباس: هل تدرى ما حدث فى أهل بيتك ؟فقال لا أدرى ما حدث إلا إنى أراك مستبشراً وقد بلغنى تكبيرك فقال مات الحسن. فقال ابن عباس: يرحم الله أبا محمد ثلاثاً، والله يامعاوية لا تسدّ حفرته حفرتك ولا يزيد عمره فى عمرك ولئن كنا قد أصبنا بالحسن فلقد أصبنا بإمام المتقين وخاتم النبيين فجبر الله تلك الصدعة وسكن تلك العبرة وكان الله الخلف علينا من بعده.

وكان الحسن قد سمته أمرأته جعدة بنت الأشعث فمكث شهرين يرفع من تحته فى اليوم كذا وكذا مرة طست من الدم وكان يقول سقيت السم مراراً وما أصابنى فيها ما أصابنى فى هذه المرة، وكان قد أوصى لأخيه الحسين وقال: إذا أنا مت فادفنى مع جدى رسول الله ﷺ إن وجدت إلى ذلك سبيلاً وإن منعوك فادفنى فى بقيع الغرقد، فلما مات لبس الحسين ومواليه السلاح وخرجوا ليدفنوه مع جده فخرج مروان بن الحكم فى موالى بنى أمية وهو يومئذ عامل على المدينة فمنع الحسين من ذلك، وكانت وفاته فى شهر ربيع الأول سنة تسع وأربعين، وقيل: سنة خمسين وصلى عليه سعيد بن العاص ودفن مع أمه فاطمة، وقيل: دفن بالبقيع فى

قبر بقبة العباس ودفن فى هذا القبر أيضاً على زين العابدين وابنه محمد الباقر وابن ابنه جعفر بن محمد الصادق فهم أربعة فى قبر واحد، فكانت خلافة الحسن ستة أشهر وخمسة أيام، وقيل: ستة أشهر إلا أيامًا، ومات وعمره سبع وأربعون سنة فتم بموته الأمر لمعاوية وانقطع بموته حبل الخلفاء الراشدين وقامت بعدهم الخلافة الأموية فكانت مدة خلافة الراشدين عبارة عن ثلاثين سنة هجرية وبعض أشهر وكان عددهم خمسة خلفاء أولهم أبو بكر وآخرهم الحسن بن علىّ بن أبى طالب.

* * *

(المقالة الرابعة)

(فى الخلفاء الأمويين وفيها فصول)

(الفصل الأول)

(فى خلافة معاوية بن أبى سفيان)

لما خلع الحسن نفسه من الخلافة على الشروط التى تقدم الكلام عليها تم الأمر لمعاوية واستقام له الملك وصفت له الخلافة وعلت كلمته وطارت شهرته وكان قد بويع له بالخلافة يوم التحكيم، بايعه أهل الشام واختلف عليه أهل العراق إلى أن صالحه الحسن بن على فأجمع الناس على بيعته فى جمادى الأولى سنة اثنتين وأربعين هجرية أى سنة اثنتين وستين وستمائة ميلادية.

وكان مولد معاوية بالخيف من منى، أسلم قبل أبيه أبى سفيان وصحب صاحب الشريعة وكتب له وكان فى عسكر أخيه يزيد بن أبى سفيان وكان عاملاً لعمر بن الخطاب فى سنة عشرين هجرية على الشام فلم يزل متولياً عليه عشرين سنة، وذلك بقية خلافة عمر بن الخطاب وخلافة عثمان وفى خلافة علىّ متغلباً عليها إلى أن أسلم إليه الحسن الخلافة فاجتمع له الأمر وبعث نوابه إلى البلاد وذلك فى سنة إحدى وأربعين للهجرة أى سنة إحدى وستين وستمائة للميلاد فسمى هذا العام عام الجماعة، قالوا: لأن الأمة اجتمعت فيه بعد الفرقة على إمام واحد.

قال بعض الكتاب: وكانت امرأة استشارت صاحب الشريعة فى أن تتزوّج بمعاوية فقال لها: صعلوك لا مال له ثم بعد هذا القول بإحدى عشرة سنة صار نائب دمشق ثم بعد الأربعين صار ملك الدنيا، فلما استقرت به الخلافة وتصرف فى الأمور خرج عليه فروة بن نوفل الأشجعى الحرورى وورد الكوفة وهو أول الخوارج،

فكتب معاوية إلى أهل الكوفة لاذمة لكم عندى حتى تكفونى أمره فقاتلوه وقتلوه بشهرزور، وقيل ببعض السواد، ثم خرج بعده معن الخارجى وهو، معن بن عبدالله رجل من محارب فقبض عليه المغيرة وحبسه وبعث إلى معاوية يخبره أمره فكتب إليه إن شهد أنى خليفة فخل سبيله فأحضره المغيرة. وقال له: أتشهد أن معاوية خليفة وأنه أمير المؤمنين، فقال: أشهد أن الله عزّ وجلّ حق **﴿وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور﴾** أمر به فقتل ثم خرج أبو مريم مولى بنى الحرث بن كعب ومعه امرأتان قطام وكحيلة فكان أوّل من خرج معه النساء على الخليفة فعاب ذلك عليه بعض قومه، فقال: قد قاتل النساء مع رسول الله ﷺ ومع المسلمين بالشام، قال: وسأردّهما فردّهما فوجه إليه المغيرة رجالاً فقاتلوه وقتلوه.

ولما كانت سنة اثنتين وأربعين سير معاوية جنداً ضخماً لبلاد الروم للغزو فاقتتلوا قتالاً شديداً ثم دخل بسر بن أرطأة أرضهم سنة ثلاث وأربعين، قيل: وبلغ القسطنطينية ثم دخل عبد الله بن خالد وكان على حمص فشتى بهم وغزاهم بسر تلك السنة بحراً ثم دخل إليها عبد الرحمن السبيعى سنة ست وأربعين فشتى بها وشتى أبوه على أنطاكية، ثم دخلوا سنة ثمان وأربعين فشتى عبد الرحمن بأنطاكية ودخل عبد الله بن قيس فى تلك السنة بالصائفة وغزاهم مالك بن هبيرة سنة تسع وأربعين فشتى بأرض الروم ودخل عبد الله بن كرز الجبلى بالصائفة وشتى يزيد بن ثمرة الرهاوى فى بلاد الروم بأهل الشام فى البحر وعقبة بن نافع بأهل مصر كذلك، وسير أيضاً فى سنة ثمان وأربعين للهجرة إلى سنة خمسين أى سنة ثمان وستين وستمائة للميلاد جيشاً كثيفاً إلى قسطنطينية مع سفيان بن عوف فأوغلوا فى بلاد الروم وألقوا الحصارعلى المدينة وكان فى الجيش يومئذ ابن عباس وعمرو بن الزبير وأبو أيوب الأنصارى الذى شهد بدراً وأحدا وحرب صفين فمات أيام الحصار ودفن بقرب سور القسطنطينية، وبعد أن هاجموا المدينة هجمات كثيرة وشددوا عليها من كل جانب هزمهم الروم شر هزيمة وعرقلت النار الإغريقية حركاتهم فكانت تحرق وتبيد وتهلك من فوق ومن تحت الماء وكان معاوية قد أمر أبنه يزيد بالغزو معهم فتثاقل واعتل فأمسك عنه أبوه وأصاب الناس فى غزوتهم هذه جوع ومرض شديد وفاض الخبر بذلك وتحدّث الناس فيه فأنشأ يزيد يقول:

ما إن أبالي بما لاقت جموعهم بالفرقدونة من حمى ومن شوم
إذا اتكأت على الأنماط مرتفعاً بدير مرّان عندي أم كلثوم

وأم كلثوم هى امرأته ابنة عبد الله بن عامر فبلغ معاوية شعره فأقسم عليه ليلحقن بسيفان من أرض الروم ليصيبه ما أصاب الناس فسار ومعه جمع كثير أضافهم إليه أبوه ثم رجع يزيد والجيش إلى الشام، قال أصحاب التاريخ: فكانت هذه أوّل مرة لقيت فيها عساكر المسلمين صداً، وكان معاوية قد عقد لعمرو بن العاص النيابة على مصر فى مدة اختلافه مع أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب كما تقدم القول، وكتب إلى مسلمة بن مخلد ومعاوية بن حديج وهما كبراء العاملين على أخذ ثار عثمان بن عفان بمصر يخبرهم بقدوم عمرو بن العاص ومن معه من الجند لأخذ مصر فأجابوه فجهز معاوية عمرو بن العاص فى ستة آلاف فسار إليها واجتمعت عليه العثمانية وهم عشرة آلاف، فكتب عمرو إلى محمد بن أبى بكر ما كتب وكان ما كان من أمر قتل محمد بن أبى بكر وإحراق جثته مما مر بيانه فى محله، فلما تم الأمر إلى عمرو بن العاص ودانت له الأمور كتب إلى معاوية يخبره بما كان من الأمر وأن الله قد فتح عليه بلاد مصر فأقام عمرو أميراً عليها إلى أن مات بها ليلة عيد الفطر سنة ثلاث وأربعين على المشهور ودفن بالمقطم من ناحية الفيح، وكان طريق الناس يومئذ إلى الحجاز فأحب أن يدعو له من مرّ به وهو أول أمير مات بمصر وفى ذلك يقول عبد الله بن الزبير:

ألم تر أن الدهر أخنى بربوة　　على عمرو السهمي تجبي له مصر
فأضحى نبيذاً بالعراء وضللت　　مكايده عنه وأمواله الدثر
ولم يغن عنه جمعه المال برهة　　ولا كيده حتى أتيح له الدهر

ولما مات عمرو بن العاص ولى معاوية على مصر ولده عبد الله بن عمرو المذكور، قال الواقدى: فعمل له عليها سنتين. وقال غيره: بل أشهرا ثم عزله وولى عقبة بن عامر سنة أربع وأربعين فأقام إلى سنة سبع وأربعين فعزله وولى معاوية بن حديج فأقام إلى سنة خمسين فعزله وولى مسلمة بن مخلد وجمعت له مصر والغرب وهو أول وال جمع له ذلك، قال ابن عبد الحكم: حدثنا عبد الملك بن مسلمة عن ابن لهيعة، عن بعض شيوخ أهل مصر، قال: أول كنيسة بنيت بفسطاط مصر الكنيسة التى خلف القنطرة أيام مسلمة بن مخلد المذكور فأنكر ذلك الجند على مسلمة. وقالوا له: أتقرّ لهم أن يبنوا الكنيسة حتى كاد يقع بينهم وبينه شر فاحتج عليهم يومئذ مسلمة فقال: إنها ليست فى قيروانكم وإنما هى خارجة فى أرضهم فسكتوا عن ذلك فأقام مسلمة أميرا إلى سنة تسع وخمسين، وكان عبد الرحمن بن

عبد الله بن عثمان بن ربيعة الثقفى المشهور بابن أم حكيم وهى أخت معاوية أميراً على الكوفة فأساء السيرة فى أهلها فأخرجوه من بين أظهرهم طريداً فرجع إلى خاله معاوية. فقال: لأولّينك مصر خيراً منها فولاه مصر. فلما سار إليها تلقاه معاوية بن حديج على مرحلتين من مصر فقال ارجع إلى خالك فلعمرى لا تسير فينا سيرتك فى أهل الكوفة فرجع ابن أم حكيم ولحقه معاوية بن حديج وافداً على معاوية فلما دخل عليه وجد عنده أخته أم حكيم وهى أم عبدالرحمن الذى طرده من مصر فلما رآه معاوية قال: بخ بخ هذا معاوية بن حديج فقالت أم حكيم: لا مرحباً تسمع بالمعيدى خير من أن تراه فقال معاوية بن حديج: على رسلك ياأم حكيم أما والله لقد تزوّجت فما أكرمت وولدت فما أنجبت أردت أن يلى ابنك الفاسق علينا فيسير فينا كما سار فى أهل الكوفة فما كان الله ليريد ذلك ولو فعل لضربنا ابنك ضرباً يطأطىء منه وإن كره هذا الجالس فالتفت إليها معاوية فقال: كفى فاستمر مسلمة على إمرة مصر إلى أن مات فى خلافة يزيد فى ذى الحجة سنة اثنتين وستين.

ولما كانت سنة ست وخمسين بايع الناس يزيد بن معاوية بولاية عهد أبيه، وكان الذى أشار على معاوية بذلك المغيرة بن شعبة، وذلك لأن معاوية أراد أن يعزله عن الكوفة ويستعمل عوضه سعيد بن العاص فبلغه ذلك فقال الرأى أن أشخص إلى معاوية فأستعفيه ليظهر للناس كراهتى للولاية فسار إلى معاوية، وقال لأصحابه حين وصل إليه إن لم أكسبكم الآن ولاية وإمارة لا أفعل ذلك أبداً ومضى حتى دخل على يزيد، وقال له :أنه قد ذهب أعيان أصحاب النبىّ ﷺ وآله وكبراء قريش وذوو أنسابهم وإنما بقى أبناؤهم وأنت من أفضلهم وأحسنهم رأياً وأعلمهم بالسنة والسياسة ولا أدرى ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة. قال: أو ترى ذلك يتم قال: نعم فدخل يزيد على أبيه وأخبره بما قال المغيرة فأحضر المغيرة، وقال له: ما يقول يزيد، فقال: ياأمير المؤمنين قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان وفى يزيد منك خلف فاعقد له فإن حدث بك حادث كان كهفا للناس وخلفا منك ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة، قال: ومن لى بهذا، قال: أكفيك أهل الكوفة ويكفيك زياد أهل البصرة وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك، قال: فارجع إلى عملك وتحدّث مع من تثق إليه فى ذلك وترى ونرى فودعه ورجع إلى أصحابه فقالوا: مه، قال: لقد وضعت رجل معاوية فى غرز بعيد الغاية على أمة محمد وفتقت عليهم فتقا لا يرتق أبداً وتمثل:

بمثلي شاهدي النجوى وغالى بي الأعداء والخصم الغضابا

وسار المغيرة حتى قدم الكوفة وذاكر من يثق إليه ومن يعلم أنه شيعه لبنى أمية أمر يزيد فأجابوا إلى بيعته، فأوفد منهم عشرة، ويقال أكثر من عشرة وأعطاهم ثلاثين ألف درهم وجعل عليهم ابنه موسى بن المغيرة وقدموا على معاوية فزينوا له بيعة يزيد ودعوه إلى عقدها فقال معاوية: لا تعجلوا بإظهار هذا وكونوا على رأيكم، وجعل معاوية يعطى المقارب ويدارى المباعد ويلطف به حتى استوثق له أكثر الناس وبايعه فلما بايعه أهل العراق والشام سار إلى الحجاز فى ألف فارس فلما دنا من المدينة لقيه الحسين بن على أول الناس فلما نظر إليه معاوية، قال: لا مرحباً ولا أهلا بدنة يترقرق دمها والله مهريقه. قال: مهلاً فإنى والله لست بأهل لهذه المقالة قال: بلى وأشر منها ولقيه ابن الزبير فقال: لا مرحباً ولا أهلاً خب ضب تلعة يخرج رأسه ويضرب بذنبه ويوشك والله أن يؤخذ بذنبه ويدق ظهره نحياه عنى فضرب وجه راحلته، ثم لقيه عبد الرحمن بن أبى بكر فقال له معاوية، لا أهلاً ولا مرحباً شيخ قد خرف وذهب عقله ثم أمر فضرب وجه راحلته ثم فعل بابن عمرو نحو ذلك فأقبلوا معه لا يلتفت إليهم حتى دخل المدينة فحضروا بابه فلم يؤذن لهم على منازلهم ولم يروا منه ما يحبون فخرجوا إلى مكة فأقاموا بها، وخطب معاوية بالمدينة فذكر يزيد فمدحه وقال: من أحق منه بالخلافة فى فضله وعقله وموضعه وما أظن قوماً بمنتهين حتى تصيبهم بوائق تجتث أصولهم وقد أنذرت أن أغنت النذر ثم أنشده متمثلاً:

قد كنت حذرتك آل المصطلق وقلت ياعمرو أطعني وانطلق
إنك إن كلفتني ما لم أطق ساءك ما سرك مني من خلق
دونك ما استقيته فأحس وذق

ثم دخل على عائشة وقد بلغها أنه ذكر الحسين وأصحابه فقال: لأقتلنهم إن لم يبايعوا فشكاهم إليها فوعظته. وقالت له: بلغنى أنك تتهددهم بالقتل. فقال: يأم المؤمنين هم أعز من ذلك ولكنى بايعت ليزيد وبايعه غيرهم أفترين أن أنقض بيعة قد تمت، قالت: فأرفق بهم فإنهم يصيرون إلى ماتحب إن شاء الله، قال: افعل ومكث بالمدينة ما شاء الله ثم خرج إلى مكة فلقيه الناس. قال بعض الكتاب: فقال أولئك النفر نتلقاه فلعله قد ندم على ما كان منه فلقوه ببطن مر فكان أول من لقيه الحسين فقال له معاوية: مرحباً وأهلا يا بن رسول الله وسيد شباب المسلمين وأمر له بدابة فركب وسايره ثم فعل بالباقين مثل ذلك وأقبل يسايرهم لا يسير معه غيرهم حتى دخل مكة فكانوا أول داخل وآخر خارج ولا يمضى يوم إلا ولهم صلة ولا

يذكر لهم شيئاً حتى قضى نسكه وحمل أثقاله وقرب مسيره، فقال بعض أولئك النفر لبعض: لا تخدعوا فما صنع بكم هذا لحبكم ما صنعه إلا لما يريد فأعدّوا له جوابا فاتفقوا على أن يكون المخاطب له ابن الزبير فأحضرهم معاوية وقال: قد علمتم سيرتى فيكم وصلتى لأرحامكم وحملى ماكان منكم ويزيد أخوكم وابن عمكم وأردت أن تقدموه باسم الخلافة وتكونوا أنتم تعزلون وتؤمرون وتجبون المال وتقسمونه لا يعارضكم فى شىء من ذلك فسكتوا فقال: ألا تجيبون مرتين، ثم أقبل على ابن الزبير فقال: هات لعمرى إنك خطيبهم، فقال: نعم، نخيرك بين ثلاث خصال قال: أعرضهن، قال: تصنع كما صنع رسول الله ﷺ أو كما صنع أبو بكر أو كما صنع عمر. قال معاوية: ما صنعوا؟ قال: قبض رسول الله ﷺ ولم يستخلف أحدا فارتضى الناس أبا بكر. قال: ليس فيكم مثل أبى بكر وأخاف الاختلاف. قالوا: صدقت فاصنع كما صنع أبو بكر فإنه عهد إلى رجل من قاصية قريش ليس من بنى أبيه فاستخلفه، وإن شئت فاصنع كما صنع عمر جعل الأمر شورى فى ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا من بنى أبيه، قال معاوية: هل عندك غير هذا؟ قال: لا، ثم التفت إلى من لم يتكلموا. وقال: فأنتم قالوا: قولنا قوله قال: فإنى قد أحببت أن أتقدم إليكم أنه قد أعذر من أنذر إنى كنت أخطب منكم فيقوم إلىّ القائم منكم فيكذبنى على رؤوس الناس فأحمل ذلك واصفح وإنى قائم بمقالة فاقسم بالله لئن ردّ علىّ أحدكم كلمة فى مقامى هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه فلا يبقين رجل إلا على نفسه، ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم، فقال: أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ومع كل واحد سيف فإن ذهب رجل منهم يرد علىّ كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفهما ثم خرجا وخرجوا معه حتى رقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال. إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبتز أمر دونهم ولا يقضى إلا عن مشورتهم وأنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد فبايعوا على اسم الله، فبايع الناس وكانوا يتربصون بيعة هؤلاء النفر ثم ركب رواحله وانصرف إلى المدينة فبايعه أهل المدينة ثم انصرف إلى الشام وقد تم له ما أراد وقضى الأمر ولم يختلف فيه اثنان.

وخطب معاوية قبل مرضه فقال: إنى كزرع مستحصد وقد طالت إمرتى عليكم حتى مللتكم ومللتمونى وتمنيت فراقكم وتمنيتم فراقى ولن يأتيكم بعدى إلا من أنا خير منه، كما أن من قبلى كان خيراً منى، وقد قيل من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه. اللهم إنى قد أحببت لقاءك فأحبب لقائى وبارك لى فيه فلم يمض غير قليل

حتى ابتدأ به مرضه فلما مرض المرض الذى مات فيه دعا ابنه يزيد فقال يابنى إنى قد كفيتك الشد والترحال ووطأت لك الأمور وذللت لك الأعداء وأخضعت لك رقاب العرب وجمعت لك ما لم يجمعه أحد فانظر أهل الحجاز فإنهم أصلك وأكرم من قدم عليك منهم وتعاهد من غاب وانظر أهل العراق فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل فإن عزل عامل أيسر من أن يشهر عليك مائة ألف سيف وأنظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك فإن رابك من عدوك شيء فانتصر بهم، فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم تغيرت أخلاقهم وإنى لست أخاف عليك أن ينازعك فى هذا الأمر إلا أربعة نفر من قريش الحسين ابن عليّ وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبى بكر فأما ابن عمر فأنه رجل قد وقدته العبادة. فإذا لم يبق أحد غيره بايعك . وأما الحسين ابن عليّ فهو رجل خفيف ولن يتركه أهل العراق حتى يخرجوه فإن خرج وظفرت به فأصفح عنه فإن له رحما ماسة وحقا عظيماً وقرابة مع محمد ﷺ وأما ابن أبى بكر فإن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثله ليس له همة إلا فى النساء واللهو وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب، فإن أمكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبير فإن هو فعلها بك فظفرت به فقطعه إربا إربا واحقن دماء قومك ما استطعت . اهـ.

قال ابن الأثير الجزرى: ذكر فى هذه الرواية عبد الرحمن بن أبى بكر وليس ذلك بصحيح، فإن عبد الرحمن بن أبى بكركان قد مات قبل معاوية . اهـ.

وقال بعض أهل التاريخ: إن يزيد كان غائباً فى مرض أبيه وموته وأن معاوية أحضر الضحاك بن قيس ومسلم بن عقبة المرى فأمرهما أن يؤدّيا عنه هذه الرسالة إلى يزيد ابنه.

قلت: وهذا هو المشهور، ولما حضرته الوفاة جمع أهله. فقال ألستم أهلى؟ قالوا: بلى فداك الله بنا فقال: وعليكم حزنى ولكم كدى وكسبى. فقالوا: بلى فداك الله بنا ؟

قال: فهذه نفسى قد خرجت من قدمى فردوها عليّ إن استطعتم فبكوا وقالوا: والله ما لنا إلى هذا سبيل فرفع صوته بالبكاء ثم قال: فمن تغرّه الدنيا بعدى، قال بعض أهل التاريخ: ولما ثقل به الضعف وتحدث الناس أنه الموت. قال لأهله احشوا عينى اثمدا وأسبغوا رأسى دهنا ففعلوا وبرقوا وجهه بالدهن. ثم مهدوا له مجلساً وأسندوه وأذنوا للناس فدخلوا وسلموا عليه قياماً ولم يجلس أحد فلما خرجوا عنه

قالوا: هو أصح الناس فقال معاوية عند خروجهم:

وتجلدي للشامتين أريهم   أني لريب الدهر لا أتضعضع

فسمعه رجل من العلويين فأجابه:

وإذا المنية أنشبت أظفارها   ألفيت كل تميمة لا تنفع

قيل إنه أوصى أن تدق قلامة أظافر صاحب الشريعة وكانت عنده وتجعل فى منافذ وجهه وأن يكفن فى ثوب صاحب الشريعة، ومات بدمشق فى نصف رجب وقيل فى مستهل رجب سنة ستين هجرية أى سنة ستين وثمانمائة ميلادية وصلى عليه الضحاك بن قيس لغيبة الخليفة يزيد ابنه ببيت المقدس، واختلف فى عمره فقيل ثمانون، وقيل: خمس وسبعون سنة، وقيل: خمس وثمانون، وقيل: ثمان وثمانون، وقيل تسعون سنة، وكانت خلافته منذ خلص له الأمر تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر وخمسة أيام، وكان أميراً وخليفة أربعين سنة منها أربع سنين فى خلافة عمر بن الخطاب، وكان مليح الشكل عظيم الهيبة وافر الحشمة يلبس الثياب الفاخرة والعدّة الكاملة ويركب الخيل المسوّمة وكان كثير البذل والعطاء محسناً إلى رعيته كبير الشأن له فى العلم أخبار كثيرة وهو أول من اتخذ المقاصير وأقام الحرس والحجاب، وأوّل من مشى بين يديه صاحب الشرطة بالحربة، وأوّل من تنعم فى مأكله ومشربه وملبسه وكان حليماً يجتمع مع صاحب الشريعة فى عبد مناف بن قصى وينسب إلى أمية بن عبد شمس فيقال الأموى.

(الفصل الثانى)

(فى خلافة يزيد بن معاوية)

ثم قام بالأمر بعد معاوية ابنه يزيد بويع له بالخلافة يوم موت أبيه فى رجب سنة إحدى وستين هجرية أى سنة ثمانين وستمائة ميلادية، وقيل: سنة ستين هجرية وقد كان بحمص فقدم منها وبادر إلى قبر أبيه ثم دخل دمشق إلى الخضراء وكانت دارا للسلطنة فخطب الناس بها وبايعوه بالخلافة وكتب إلى الآفاق بذلك فبايعوه ولم يبايعه الحسين بن على ولا عبد الله بن الزبير واختفيا من عامله الوليد بن عقبة بن أبى سفيان، وأقاما مصرين على الامتناع وبيان ذلك، أنه لما امتنع الحسين وابن الزبير من البيعة ليزيد خرج الحسين إلى مكة فلقيه عبد الله بن مطيع. فقال له: جعلت فداك أين تريد قال: أما الآن فمكة وأما بعد فإنى أستخير الله، قال: خار الله لك

وجعلنا فداك فإذا أتيت مكـة فإياك أن تقرب الكوفة فإنها بلدة مشـؤمة بها قتل أبوك وخذل أخوك إلزم الحرم فـإنك سيد العرب لا تعذل بك أهل الحجـاز أحدا ويتداعى إليك الناس من كل جانب ولا تفارق الحرم، فسار الحسين إلى مكة ونزل بها فكان أهلها يختلفـون إليه ويأتونه وعبد الله بن الزبير بها لا يريد إلا خـروج الحسين عنها لأن أهل الحجاز لا يبايعون الزبير مـا دام الحسين باقياً بالبلد، ولما بلغ أهل الكوفـة امتناع الحسين ومن امتنع عن مبايعة يزيد، وأنه سار إلى مكة ونزل بها اجتمع جماعة من كبارهم وكتبـوا إلى الحسين يقولون: بسم الله الرحمن الرحـيم، سلام عليك، فإننا نحمد إليك الله الذى لا إله سواه، أما بعد فالحمد لله الذى قصم عدوّك الجبار العنيد الذى انتزى على هذه الأمة فابتزها أمرها وغصبها دنياها وتأمر عليها بغير رضا منها، ثم قتل خيارها واستبقى شرارها وأنه ليس علينا إمام فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الحق والنعمان بن بشير فى قصر الإمارة لسنا نجتمع معه فى جمعة ولا عيد ولو بلغنا إقبالك إلينا أخـرجناه حتى نلحقه بالشام إن شـاء الله تعالى والسلام عليك ورحمة الله وبركاته، وسيروه إليه ثم كتبوا كتاباً آخر وسيروه بعد ليلتين فكتب الناس معه نحواً من مائة وخـمسين صحيفة ثم أرسلوا إليه رسولاً ثالثـاً يحثونه على المسير إليهم فتـاقت نفس الحسين عند ذلك إلى الإمـارة وسير مسلم بن عقـيل إلى الكوفة وأمره بكتمان أمره واللطف فإن رأى الناس مجتمعين له عجل إليه بذلك فسار مسلم حتى أدرك الكوفة وأقبلت الشيعة تختلف إليه فبلغ ذلك النعمان بن بشير وهو يومئذ أمير الكوفة فـخطب فى الناس وحذرهم من العاقبة، وكتب عـبد الله بن مسلم من سعيد الحضـرمى حليف بنى أمية إلى يزيد يعلمه بخبر قدوم مـسلم بن عقيل الكوفة ومبايعة الناس له ويقول له إن كان لك فى الكوفة حاجة فابعث إليك رجلاً قوياً ينفذ أمرك ويعمل مثل عملك فى عدوّك فإن النعـمان ضعيف أو هو يتضعف فخلع يزيد النعمان وولى عبيدالله بن مرجانة فسـار إليها وتمكن من مسلم بن عقيل فقتله وأعلم يزيد بالخبر فـسرّ به جداً وكتب إليه يقـول: بلغنى أن الحسين قد توجـه نحو العراق فضع المراصد والمسالح واجترىء واحبس على التهمة وخذ على الظنة غير أن لا تقتل إلا من قاتلك، ولما أراد الحسين المسير إلى الكوفة حسب كتب أهل العراق أتاه الكثير من أشياعه يسألونه العدول عن المسير ويحذرونه العاقبة فلم يقبل وسار وهو لا يعلم ماجرى بمسلم بن عـقيل وبينما هو فى طريقه إلى الـصفاح إذ لقيه الفـرزدق الشاعر فقال له: أعطاك الله سؤلك وأملك فيما تحب، فقال له الحسين: بين لى خبر الناس خلفك، فقال الخبير: سألت قلوب الناس معك وسيوفهم مع بنى أمية والقضاء ينزل

من السماء والله يفعل ما يشاء، فقال الحسين: صدقت لله الأمر يفعل ما يشاء وكل يوم ربنا فى شأن إن نزل القضاء بما نحب فنحمد الله على نعمائه وهو المستعان على أداء الشكر وإن حال القضاء دون الرجاء فلم يعتد من كان الحق نيته والتقوى سريرته.

وجعل الحسين يرسل الرسل وهو فى الطريق إلى أهل الكوفة يعرفهم بقدومه ويأمرهم بالجد فى أمرهم فكان أصحاب يزيد يقبضون عليهم فيقتلونهم وجاء الخبر إلى الحسين بمقتل ابن عقيل بالثعلبية فتكدر جداً ووثب بنو عقيل مع الحسين يطلبون بثأر عقيل، وأتاه أيضاً خبر مقتل أخيه من الرضاعة عبد الله بن بقطر وكان سرحه إلى مسلم بن عقيل من الطريق وهو لا يعلم بقتله فأخذته خيل الحصين وأعلم الحسين الناس بخبر قتل أخيه من الرضاعة ومسلم بن عقيل. وقال: قد خذلنا شيعتنا فمن أحب أن ينصرف فلينصرف ليس عليه منا زمام فتفرقوا يميناً وشمالاً حتى بقى فى أصحابه الذين جاؤا معه من مكة، فلما سار من شراف وانتصف النهار كبر رجل من أصحابه فقال له: مم كبرت، قال: رأيت النخل، يريد نخل العلفة وأنهم قريبون فيها، فقال رجل من بنى أسد: ما بهذه الأرض نخلة قط، فقال الحسين: فما هو قال: هى هوادى الخيل فقال الحسين: وأنا أيضاً أراه ذلك أما لنا ملجأ نلجأ إليه نجعله فى ظهورنا ونستقبل القوم من وجه واحد ثم مال بمن معه إلى ذو حشم وهو جبل هناك فلم يكن بأسرع من أن ظهر أصحاب يزيد وهم ألف فارس فوقفوا مقابل الحسين وأصحابه فى نحر الظهيرة، وكان مقدّم قوم يزيد الحر بن يزيد التميمى فوقع بينه وبين الحسين كلام مما هم فيه ثم سار الفريقان كل فى ناحية حتى أتى الحسين قرية اسمها العقر فنزل بها هو ومن معه وذلك يوم الخميس الثانى من المحرم سنة إحدى وستين فلما كان الغد قدم عليهم عمر بن سعد بن أبى وقاص من الكوفة فى أربعة آلاف وجاء عمرو بن الحجاج على خمسمائة فارس من قبل اليزيد من مرو فنزلوا على الشريعة وحالوا بين الحسين وبين الماء وذلك قبل قتل الحسين بثلاثة أيام فلما اشتد العطش على الحسين وأصحابه أمر أخاه العباس بن علىّ فسار فى عشرين راجلاً يحملون القرب وثلاثين فارساً فدنوا من الماء فقاتلوا عليه وملؤا القرب وعادوا، ثم بعث الحسين إلى عمر بن سعد عمرو بن قرظة بن كعب الأنصارى أن ألقنى الليلة بين عسكرى وعسكرك فخرج إليه عمرو فاجتمعا وتحادثا طويلاً ثم انصرف كل واحد منهما إلى عسكره فتحدث الناس فى ذلك. وقالوا: إن الحسين قال لعمر اختاروا منى واحدة من ثلاث إما أن أرجع إلى المكان الذى أقبلت منه أو

أضع يدى فى يد يزيد بن معاوية فيرى فيما بينى وبينه رأيه وإما أن تسيروا بى إلى أىّ ثغر من ثغور المسلمين شئتم فأكون رجلاً من أهله لى ما لهم وعلىّ ما عليهم، فكتب عمر إلى ابن زياد عامل يزيد يعلمه بالخبر ويسأله أن يجاوب الحسين إلى خصلة من هذه الثلاث فلما علم ابن زياد ما فى كتاب عمر وقد وحرضه شمر بن ذى الجوشن على أن لا يمكّن الحسين من شىء مما سأل كتب ابن زياد إلى عمر يقبح فعله ويقول له: إنى لم أبعثك إلى الحسين لتكف عنه ولا لتمنيه ولا لتطاول ولا لتقعد له عندى شافعا انظر فإن نزل هو وأصحابه على الحكم واستسلموا فابعثه إلىّ سالماً، وإن أبوا فارحف إليهم واقتلهم ومثل بهم فإن قتل الحسين فأوطىء الخيل صدره فإنه عاق شاق قاطع ظلوم أو تعتزل ويكون الأمر لذى شمر وسلم الكتاب لشمر المذكور فلما جاء عمر الكتاب ركب والناس معه بعد العصر وساروا إلى الحسين فأرسل لهم الحسين العباس فى عشرين فارساً فتقررت القاعدة بينهم على أن يلتقوا فى غداة غد فافترقوا على ذلك وباتوا ليلتهم تلك فلما كانت عشية الليلة سمعته أخته زينب وهو فى خباء له يقول وعنده حوىّ مولى أبى ذر الغفارى يعالج سيفه:

يادهر أف لك من خليل كم لك بالإشراق والأصيل
من صاحب أو طالب قتيل والدهر لا يقنع بالبديل
وإنما الأمر إلى الجليل وكل حيّ سالك السبيل

فأعادها مرتين أو ثلاثاً فلما سمعته لم تملك نفسها أن وثبت تجر ثوبها حتى انتهت إليه وصاحت واثكلاه ليت الموت أعدمنى الحياة اليوم ماتت فاطمة أمى وعلى أبى والحسين أخى ياخليفة الماضى وثمال الباقى، فلما سمعها قام إليها وقال ياأخية لا يذهبن حلمك الشيطان فقالت: بأبى أنت وأمى استقتلت نفسى لنفسك الفداء فترقرقت عيناه. وقال: لو ترك القطا لنام فلطمت وجهها. وقالت: واويلتاه أفتغصبك نفسك اغتصاباً فذلك أقرح لقلبى وأشد على نفسى ثم لطمت وجهها وشقت جيبها وخرت مغشية عليها فقام الحسين فصب الماء على وجهها، وقال: اتق الله وتعزى بعزاء الله واعلمى أن أهل الأرض يموتون وأهل السماء لا يبقون وإن كل شىء هالك إلا وجه الله أبى خير منى وأمى خير منى وأخى خير منى ولى ولهم ولكل مسلم برسول الله ﷺ أسوة ثم قال لها ياأخية إنى أقسم عليك لا تشقى علىّ جيبًا ولا تخمشى علىّ وجها ولا تدعى علىّ بالويل والثبور وإن أنا هلكت، وأصبح الحسين وقد أمر أصحابه أن يقربوا بعض بيوتهم من بعض وأن يدخلوا

الأطناب بعضها فى بعض ويكونوا بين أيدى البيوت فيستقبلون القوم من وجه واحد والبيوت على أيمانهم وعن شمائلهم ومن ورائهم وباتوا ليلتهم تلك وفى غداة السبت وقيل الجمعة يوم عاشوراء خرج عمر بن سعد فيمن معه من الناس وعبى الحسين أصحابه وهم اثنان وثلاثون فارساً وأربعون راجلاً فجعل زهير بن القيس فى ميمنة أصحابه وحبيب بن مطهر فى ميسرتهم وأعطى رايته العباس أخاه وجعلوا البيوت فى ظهورهم ثم ركب دابته ودعا بمصحف فوضعه أمامه ونادى الحسين عمر وأصحابه ونهاهم عن قتاله وبالغ فى النهى. وقال: دعونى أنصرف إلى مأمنى من الأرض فقال له قيس بن الأشعث: أو لا تنزل على حكم ابن عمك يعنى ابن زياد فإنك لن ترى إلاما تحب فقال له الحسين: أنت أخو أخيك أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل لا والله ولا أعطيهم بيدى عطاء الذليل ولا أقر إقرار العبد ثم التفت إلى القوم وقال عباد الله **﴿إنى عذت بربى وربكم أن ترجمون﴾** أعوذ بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ثم أناخ راحلته ونزل عنها وخرج زهير بن القين أحد أصحابه على فرس له فى السلاح فقال مقالة طويلة ونهى أصحاب يزيد عن القتال وجعل يعرّض بذكر ابن زياد ويسبه فغضب القوم ومالوا على زهير بالسب والشتم وقالوا والله لا نبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه ونبعث به وبأصحابه إلى الأمير عبيد الله بن زياد.

ورتب عمر أصحابه وأحكم ترتيبهم ثم اشتبك القتال بين الفريقين وحمى الوطيس وكثر الرمى بالنبال والحجارة وسالت الدماء وحملت رجال عمر بن سعد على أصحاب الحسين فأعملوا فيهم السيف حتى أفنوهم وأشتد العطش بالحسين فدنا من الفرات ليشرب فرماه حصين بن نمير بسهم فوقع فى فمه فجعل يتلقى الدم بيده ورمى به إلى السماء. وقال اللهم إنى أشكو إليك ما يصنع بابن بنت نبيك، اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بددا ولا تبق منهم أحداً. ثم إن شمر بن ذى الجوشن أقبل فى نفر نحو العشرة من رجالهم نحو منزل الحسين فحالوا بينه وبين رحله وأحاطوا بالحسين وهو يطاردهم ويدفعهم عنه فنادى شمر فى الناس ويحكم ماذا تنتظرون بالرجل اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم فحملوا عليه من كل جانب وطعنه سنان بن أنس النخعى برمح فوقع يخبط فى دمه ونزل إليه فذبحه وأخذ رأسه فرفعه إلى خولى وسلب الحسين ما كان عليه ومال الناس على الفرش والحلل والإبل فانتهبوها ونهبوا ثقله ومتاعه وما على النساء حتى إن كانت المرأة لتنزع ثوبها من ظهرها فيؤخذ منها ووجد بالحسين ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة غير الرمية ثم انتهوا إلى

عليّ بن الحسين زين العابدين فأراد شمر قتله فمنع عمر بن سعد قتله ومنع الناس من الدخول إلى بيوت النساء وانتدب عمر بن سعد المذكور عشرة من أصحابه فداسوا الحسين بخيولهم حتى رضوا ظهره وصدره وكان عدة من قتل مع الحسين من أصحابه اثنين وسبعين رجلاً منهم من أولاد عليّ أربعة العباس وجعفر ومحمد وأبو بكر ومن أولاد الحسين أربعة ثم إن عبيد الله بن زياد جهز عليّ بن الحسين ومن كان مع الحسين من النساء إلى يزيد بن معاوية وهو يومئذ بدمشق مع شمر بن ذى الجوشن فى جماعة من أصحابه فساروا حتى قدموا دمشق ودخلوا على يزيد ابن معاوية ومعهم رأس الحسين فرمى به بين يدى يزيد ثم تكلم شمر بن ذى الجوشن فقال ياأميرالؤمنين: ورد علينا هذا يعنى الحسين فى ثمانية عشر رجلاً من أهل بيته وستين من شيعته فسرنا إليهم وسألناهم النزول على حكم أميرنا عبيد الله ابن زياد أو القتال، فاختاروا القتال فغدونا عليهم عند شروق الشمس وأحطنا بهم من كل جانب فلما أخذت السيوف مأخذها جعلوا يلوذون كما يلوذ الحمام من الصقور فما كان إلامقدار جزر جزور أو نومة قائل حتى أتينا على آخرهم فهاتيك أجسادهم مجردة وثيابهم مزملة وخدودهم معفرة تسقى عليهم الرياح زوّارهم العقبان ووفودهم الرخم.

فلما سمع يزيد ذلك دمعت عيناه وقال: ويحكم قد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين لعن الله ابن مرجانة، أما والله لو كنت صاحبه لعفوت عنه. ثم قال يرحم الله أبا عبد الله وتمثل بقول الشاعر:

يفلقن هاما من رجال أعزة   علينا وهم كانوا أعق وأظلما

ثم أمر بالذرية فأدخلوا دار نسائه. وكان يزيد إذا حضر غداؤه دعا عليّ بن الحسين وأخاه عمر بن الحسين فأكلا معه ثم وجه الذرية صحبة عليّ بن الحسين إلى المدينة ووجه رجلاً فى ثلاثين فارسا يسير أمامهم حتى انتهوا إلى المدينة، قال أصحاب التاريخ: وكان بين وفاة صاحب الشريعة وبين اليوم الذى قتل فيه الحسين خمسون عاما. وقيل: أن الحسين لما وصل كربلاء سأل عن اسم المكان فقيل له كربلاء فقال: ذات كرب وبلاء لقد مر أبى بهذا المكان عند سيره إلى صفين وأنا معه فوقف وسأل عنه فأخبروه باسمه فقال ههنا محط رحالهم وههنا مهراق دمائهم فسئل عن ذلك فقال نفرمن آل محمد: ينزلون ههنا ثم أمر بأثقاله فحطت فى ذلك المكان،

وكان قتل الحسين يوم عاشوراء سنة ستين للهجرة. وقيل إحدى وستين أى نحو سنة ثمانين وستمائة ميلادية ذكره أبو حنيفة فى الأخبار الطوال وقتل مع الحسين فى هذه الواقعة سبعون رجلاً وقتل معه العباس بن علىّ وأمه أم البنين بنت حزام وقتل جعفر ابن على وأمه أم البنين أيضاً وقتل عبد الله بن على وأمه أم البنين أيضاً وقتل عثمان ابن علىّ وأمه أم البنين أيضاً وقتل محمد بن علىّ وأمه أم ولد وقتل أبو بكر بن علىّ وأمه ليلى بنت مسعود الدارمية وقتل علىّ بن الحسين بن علىّ وأمه ليلى ابنة أبى مرة بن عروة الثقفى وقتل عبد الله بن الحسين بن علىّ وأمه الرباب ابنة امرىء القيس الكلبى وقتل أبو بكر ابن أخيه الحسن وقتل القاسم بن الحسن وقتل عون ابن أبى جعفر بن أبى طالب وقتل محمد بن عبد الله بن جعفر وقتل جعفر بن عقيل ابن أبى طالب وقتل عبد الرحمن بن عقيل وقتل عبد الله بن عقيل وقتل مسلم بن عقيل بالكوفة كما تقدم القول وقتل عبد الله بن مسلم بن عقيل وقتل محمد بن أبى سعيد بن عقيل، وفى هذه السنة أى سنة ستين دعا ابن الزبير إلى نفسه بالخلافة بمكة وعاب يزيد بشرب الخمر واللعب بالكلاب والتهاون بالدين وأظهر ثلبه وتنقصه فبايعه أهل تهامة والحجاز، فلما بلغ يزيد ذلك ندب له الحصين بن نمير السكونى وروح ابن زنباع الجذامى، وضم إلى كل واحد جيشاً واستعمل على الجميع مسلم بن عقبة المزى وجعله أمير الأمراء ولما ودعهم. قال: يا مسلم لاتردّون أهل الشام من شىء يريدونه بعدوهم وأجعل الطريق على المدينة فإن حاربوك فحاربهم فإن ظفرت بهم فأبحها ثلاثاً فسار مسلم بن عقبة حتى نزل الحرّة فخرج أهل المدينة وعسكروا بها وأميرهم عبد الله بن حنظلة وهو غسيل الملائكة فدعاهم مسلمة ثلاثاً فلم يجيبوه فقاتلهم فغلب أهل الشام وقتلوا أمير المدينة عبد الله بن حنظلة وسبعمائة من المهاجرين والأنصار ودخل مسلم المدينة وأباحها ثلاثة أيام ثم شخص بالجيش إلى مكة وكتب إلى يزيد بما صنع بالمدينة فلما بلغ مسلم (هرشى) اعتل ومات فتولى أمرة الجيش الحصين بن نمير السكونى فسار حتى وافى مكة فتحصن منه ابن الزبير فى المسجد الحرام بجميع من كان معه فنصب الحصين المنجنيق على أبى قبيس ورمى به الكعبة فبينما هم كذلك إذ ورد الخبر للحصين بموت يزيد بن معاوية، فأرسل إلى ابن الزبير يسأله الموادعة فأجابه إلى ذلك وفتح الأبواب. واختلط العسكران يطوفان بالبيت فبينما الحصين يطوف ليلة بعد العشاء إذ استقبله ابن الزبير فأخذ الحصين

بيده. وقال له سرّاً: هل لك فى الخروج معى إلى الشام فأدعو الناس إلى بيعتك فإن أمرهم قد فرج ولا أدرى أحداً أحق بها اليوم منك ولست أعصى هناك فاجتذب ابن الزبير يده وقال وهو يجهر بقوله دون أن أقتل بكل واحد من أهل الحجاز عشرة من أهل الشام فقال الحصين: لقد كذب الذى يزعم أنك من دهاة العرب أكلمك سراً فتكلمنى علانية وأدعوك إلى الخلافة وتدعونى إلى الحرب ثم انصرف بمن معه إلى الشام.

ومات يزيد بن معاوية فى ربيع الأول سنة أربع وستين أى سنة ثلاث وثمانين وستمائة للميلاد ودفن بمقبرة باب الصغير، وكانت ولايته ثلاث سنين وستة أشهر وقيل: وثمانية أشهر، وترك من البنين أحد عشر ذكراً لأمهات شتى، ومما يحكى عن نجابته وشدة حذقه ما قاله محمد بن عبيد الله بن عمرو العتبى قال: نظر معاوية ومعه امرأته ابنة قرظة إلى يزيد وأمه ترجله فلما فرغت منه قبلته فقالت ابنة قرظة لعن الله سواد ساقى أمك، فقال معاوية: أما والله لما تفرجت عنه وركاها خير مما تفرّجت عنه وركاك، وكان لمعاوية من ابنة قرظة عبد الله وكان أحمق فقالت له لا والله ولكنك تؤثر هذا، فقال: سوف أبين لك ذلك فأمر فدعى له عبد الله فلما حضر قال: أى بنىّ إنى أردت أن أعطيك ما أنت أهله ولست بسائل شيئاً إلا أجبتك إليه فقال: حاجتى أن تشترى كلبا فارهاً وحماراً، فقال: أى بنىّ أنت حمار وأشترى لك حمار قم فاخرج، ثم أحضر يزيد وقال له مثل قوله لأخيه فخر ساجداً، ثم قال: حين رفع رأسه الحمد لله الذى بلغ أمير المؤمنين هذه المدة وأراه فى هذا الرأى حاجتى أن تعتقنى من النار لأن من ولى أمر الأمة ثلاثة أيام أعتقه الله من النار فتعقد لى العهد بعدك وتولينى العام الصائفة وتأذن لى فى الحج إذا رجعت وتولينى الموسم وتزيد لأهل الشام كل رجل عشرة دنانير وتفرض لأيتام بن جميح وبنى سهم وبنى عدى لأنهم حلفائى، فقال معاوية: قد فعلت وقبل وجهه، ثم نظر إلى امرأته ابنة قرظة وقال كيف رأيتى، فقالت: أوصه به ياأمير المؤمنين قيل ففعل، وله لطائف أخرى واستعمل فى أيامه على مصر فى أواخر سنة اثنتين وستين سعيد بن يزيد بن علقمة الأزدى فبقى إلى خلافة الزبير وعزل.

ومات فى أيامه أغاثو بطرك الإسكندرية تاسع ثلاثيهم بعد أن أقام سبع عشرة سنة ولم يحدث فى أيامه شىء يذكر فأقيم بعده يوحنا وهو الأربعون من بطاركتهم وأصله من مدينة سمنود وفى أيامه صارت الشدة على النصارى وعظم عليهم الخطب

واشتد الكرب وكثر البلاء وتتبعهم أهل الفساد بالقتل والنهب والسلب فكان حازماً وقوراً صبوراً لا يتزعزع، حسن السياسة كثير التفكر ولما مات يزيد تولى الخلافة بعده ابنة معاوية.

(الفصل الثالث)

(فى خلافة معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان)

ثم قام بالأمر بعد يزيد معاوية ابنه بويع له بالخلافة يوم موت أبيه سنة أربع وستين هجرية أى نحو ثلاث وثمانين وستمائة ميلادية فأقام فيها أربعين يوماً، وكان خيراً من أبيه فيه دين وعقل، وقيل: أقام خمسة أشهر وأياماً ثم خلع نفسه عن رضا ورغبة، قال أصحاب التاريخ: إن معاوية بن يزيد هذا لما خلع نفسه صعد المنبر فجلس طويلاً ثم حمد الله وأثنى عليه بأبلغ ما يكون من الحمد والثناء ثم ذكر النبىّ بأحسن ما يذكر به ثم قال: أيها الناس ما أنا بالراغب فى الائتمار عليكم لعظيم ما أكرهه منكم وإنى لأعلم أنكم تكرهوننا أيضاً لإنا بلينا بكم وبليتم بنا إلا أن جدى معاوية ﷺ قد نازع فى هذا الأمر من كان أولى به منه ومن غيره لقرابته من رسول الله ﷺ وعظم فضله وسابقته أعظم المهاجرين قدراً وأشجعهم قلباً وأكثرهم علماً وأولهم إيماناً وأشرفهم منزلة وأقدمهم صحبة ابن عم رسول الله ﷺ وصهره وأخوه زوّجه ﷺ ابنته فاطمة وجعله لها بعلاً باختياره لها وجعلها له زوّجة باختيارها له أبو سبطيه وسيدى شباب أهل الجنة وأفضل هذه الأمة تربية الرسول وابنى فاطمة البتول من الشجرة الطيبة الطاهرة الزكية فركب جدى معه ما تعلمون وركبتم معه ما لا تجهلون حتى انتظمت لجدى الأمور فلما جاءه القدر المحتوم واخترمته أيد المنون بقى مرتهنا بعمله فريداً فى قبره ووجد ما قدمت يداه ورأى ما ارتكبه واعتداه ثم انتقلت الخلافة إلى يزيد أبى فتقلد أمركم لهوى كان أبوه فيه ولقد كان أبى يزيد بسوء فعله وإسرافه على نفسه غير خليق بالخلافة على أمة محمد فركب هواه واستحسن خطاه وأقدم على ما أقدم من جراءته على الله وبغيه على من استحل حرمته من أولاد رسول الله ﷺ فقلّت مدته وانقطع أثره وراجع عمله وصارحليف حفرته رهين خطيئته وبقيت أوزاره ومعايبه وحصل على سدم وندم

حيث لا ينفعه الندم وشغلنا الحزن له عن الحزن عليه فليت شعرى ماذا قال: وماذا قيل له: هل عوقب بإساءته؟ وجوزى بعمله وذلك ظنى، ثم اختنقته العبرة فبكى طويلاً وعلا نحيبه، ثم قال: وصرت أنا ثالث القوم والساخط علىّ أكثر من الراضى وما كنت لا تحمل آثامكم ولا يرانى الله جلّت قدرته متقلدا أوزاركم وألقاه بتبعاتكم فشأنكم أمركم فخذوه ومن رضيتم به عليكم فولوه فلقد خلعت بيعتى من أعناقكم والسلام، فقال له مروان بن الحكم: وكان تحت المنبر أسنة عمرية ياأبا ليلى، فقال أعزب عنى أعن دينى تخدعنى فوالله ما ذقت حلاوة خلافتكم حتى أتجرع مرارتها ايتنى برجل مثل رجال عمر ﷺ على أنه ما كان من حين جعلها شورى وصرف بها عمن لا يشك فى عدالته ظلوماً والله لئن كانت الخلافة مغنما لقد نال أبى منها مغرما ومأثماً ولئن كانت سوءاً فحسبه منا ما أصابه، ثم نزل فدخل عليه أقاربه وأمه فوجدوه يبكى فقالت له أمه: ليتك كنت حيضة ولم أسمع بخبرك، فقال: وددت والله ذلك، ثم قال: ويلى إن لم يرحمنى الله، ثم إن بنى أمية قالوا لمؤدّبه عمر المقصوص أنت علمته هذا ولقنته إياه وصرفته عن الخلافة وزينت له حب علىّ وأولاده وحملته على ما وسمنا به من الظلم وحسنت له البدع حتى نطق بما نطق. وقال بما قال، فقال: والله ما فعلته ولكنه مجبول ومطبوع على حب علىّ فلم يقبلوا منه ذلك وأخذوه ودفنوه حياً حتى مات.

وتوفى معاوية بن يزيد بعد خلعه نفسه بأربعين ليلة وقيل: بتسعين وكان عمره ثلاثاً وعشرين سنة، وقيل: إحدى وعشرين سنة، وقيل: ثمان عشرة ولم يعقب واجتمع بنو أمية وانتخبوا مروان بن الحكم ليقوم بالأمر بعده وكان ذلك فى سنة أربع وستين للهجرة.

(الفصل الرابع)

(فى خلافة مروان بن الحكم المعروف بالطريد)

ثم قام بالأمر بعد معاوية مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بويع له بالخلافة بالحاسبية سنة أربع وستين للهجرة أى سنة ثلاث وثمانين وستمائة للميلاد ثم دخل الشام فأذعن أهلها له بالطاعة. وكان يقال له بن الطريد لأن صاحب الشريعة كان قد طرد أباه إلى الطائف وردّه عثمان حين ولى وكان مروان قد لحق صاحب الشريعة وهو صبى وولى نيابة المدينة مرات، وهو

قاتل طلحة أحد العشرة، وكان كاتب السر لعثمان وبسببه جرى عليه ماجرى كما تقدم الكلام عنه، ولما بويع لمروان بالشام قام أهل مكة بمبايعة عبدالله بن الزبير وكان مروان وقتئذ بالمدينة فقصد السير إلى عبد الله ومما نعته ثم سار مع من سار من بنى أمية إلى الشام، وبايع لابن الزبير أهل البصرة واجتمعت له أهل الحجاز واليمن وبعث إلى بلاد العراق فبايعه أهلها وبايع له فى الشام سرا الضحاك بن قيس وبحمص النعمان بن بشير الأنصارى وبقير بن زمر بن الحارث: قال بعض أهل التاريخ: ولو صانع الزبير بنى أمية قليلاً لاستقر له الأمر، وكان ابن الزبير شجاعاً كثير العبادة هذا ما كان من أمر ابن الزبير، أما ما كان من أمر بنى أمية فإنهم لم يقبلوا به وكان مروان كما تقدم القول بالشام فاجتمع بنو أمية وافترق أهل الشام إلى يمانية مع مروان وإلى قيسية مع الضحاك بن قيس وجرت بينهما أمور يطول شرحها ثم اقتتلوا بمرج راهط قتالاً شديداً فانهزم الضحاك وأصحابه شر هزيمة وقتل كثيرمن فرسان قيس، وقتل الضحاك وقتل معه أيضاً ثمانون رجلاً من أشراف أهل الشام وذلك فى المحرم سنة خمس وستين وقيل: فى أواخر سنة أربع وستين، ودخل مروان دمشق وذهب إلى دار الخلافة واجتمع إليه الناس وانحاز له زفر بن الحرث وكان بقنسرين يبايع لابن الزبير واستوثق الشام لمروان، والحجاز والعراق واليمن لابن الزبير فلما استقر مروان بالشام ودانت له أمورها سار إلى مصر فقدمها وعليها عبد الرحمن بن جحدم القرشى يدعو إلى ابن الزبير فخرج إلى مروان فيمن معه فبعث مروان عمرو بن سعيد من وراء عبد الرحمن حتى دخل مصر فأمسى عبد الرحمن وكأنه بين منتطح عنزين فلما أحس بذلك رجع خائباً فبايع الناس مروان ودانت له الأمور بمصر أيضاً كما دانت له بالشام.

وفى هذه الأيام هدم ابن الزبير الكعبة وحفر أساسها وأدخل الحجر الأسود فيها وأعادها إلى ماكانت عليه، فأمر مروان قومه بأن لا يحجوا إلى هناك بل إلى جامع عمر بالقدس وانقسم عرب الشام مع مروان وبنى فاطمة فقام مروان ومزق الفاطميين وأبادهم وتفرغ لحرب الشيعة من العجم فبددهم أيضاً من سهول عين وما زال حتى استتب له الأمر ودانت له المصاعب، فلما كانت سنة خمس وستين هجرية رسم بالبيعة لابنيه عبد الملك وعبد العزيز، وكان السبب فى ذلك أن عمرو بن سعيد بن العاص لما هزم مصعب بن الزبير عندما وجهه أخوه عبد الله إلى الشام لقتال معاوية ومن معه من الأحزاب ورجع عمرو إلى دمشق ظافراً غانماً بلغ مروان أن عمرا يقول أن الأمر لى من بعد مروان فأكبر ذلك جدا وأرسل فى طلب حسان بن مالك بن

بحدل فلما حضر إليه أخبره بخبر عمرو وما يقوله، وقال: إنى أريد أن أبايع ولدى عبد الملك وعبد العزيز، فقال له حسان: أنا أكفيك عمرا فلما اجتمع الناس عند مروان عشيا قال: أنه قد بلغنا أن رجالا يتمنون أمانىّ، قوموا فبايعوا لعبد الملك وعبد العزيز من بعده فقاموا جميعاً لساعتهم وبايعوا عن آخرهم وكان مروان قبلا قد حلف أنه يعهد لخالد بن يزيد فعتب عليه خالد فغضب وسماه ابن زانية، وكان مروان متزوّجا بأم خالد بن يزيد المذكور فقام خالد ودخل على أمه فأخبرها بما كان من مروان فقالت له: لا يعلمن ذلك منك إلا أنا أكفيكه فدخل عليها مروان فقال لها هل قال لك خالد فىّ شيئا؟ فقالت: لا إنه أشد لك تعظيما من أن يقول فيك شيئاً فصدقها ولبث أياما، ثم إنه نام عندها ليلة فقامت عليه ووضعت على وجهه رداء مشرباً بالسم وفوق الرداء وسادة ثم جلست فوقها حتى مات فكانت خلافته عشرة أشهر، وقيل: تسعة أشهر وعمره ثلاثة وستون سنة، وقيل: إحدى وستون سنة، روى الحاكم فى كتاب الفتن والملاحم من المستدرك عن عبد الرحمن بن عوف قال: كان لا يولد لأحد مولود إلا أتى به رسول الله ﷺ فيدعو له فأدخل عليه مروان بن الحكم فقال: هو الوزغ ابن الوزغ الملعون ابن الملعون . اهـ.

وكان مروان قصيراً أحمر أوقص يكنى أبا الحكم وأبا عبد الملك، قيل: وأعتق فى يوم واحد مائة رقبة وهو أوّل من قدّم الخطبة فى صلاة العيد قبل الصلاة ولما مات بويع لولده عبد الملك فى اليوم الذى مات فيه.

(الفصل الخامس)

(فى خلافة عبد الملك بن مروان)

ثم قام بالأمر بعد مروان ابنه عبد الملك بويع له بالخلافة يوم موت أبيه سنة ست وستين للهجرة أى سنة خمس وثمانين وستمائة للميلاد وهو أوّل من سمى بعبد الملك فى الإسلام وأوّل من ضرب الدراهم والدنانير بسكة الإسلام، وكان على الدنانير قبل ذلك نقش بالرومية وعلى الدراهم نقش بالفارسية، قيل: أنه لما أتته الخلافة كان قاعداً والمصحف فى حجره فأطبقه وقال هذا آخر العهد بك، وكان عامله بمصر أخوه عبد العزيز بطاعة عبد الملك ولم يكد يستتب له الأمر بالشام ومصر حتى خرج فى سنة ست وستين المختار من العلوية بالكوفة وأراد الأخذ بثأر الحسين فبايعه الناس واجتمع إليه خلق كثير واستولى على الكوفة وأراد الأخذ بدم

أهل البيت وطلب شمر بن ذى الجوشن فظفر به وقتله وأحاط بدار خولى الأصبحى صاحب رأس الحسين وقتله وأحرقه بالنار، ثم قتل عمرو بن سعد بن أبى وقاص صاحب الجيش الذى قتل الحسين وقتل جعفر بن عمرو المذكور وبعث برأسيهما إلى محمد بن الحنفية بالحجاز واتخذ له كرسيا وادّعى أن فيه من السر ماكان فى تابوت عهد بنى إسرائيل ومن خبر هذا الكرسى ما هو غريب، قال الطفيل بن جعدة بن هبيرة: أضقنا إضاقة شديدة، يعنى أنه كان فى حاجة للقوت، فخرجت يوماً فإذا جار لى زيات عنده كرسى ركبه الوسخ فقلت فى نفسى لو قلت للمختار فى هذا شيئاً فأخذته من الزيات وغسلته فخرج عود نضار قد شرب الدهن وهو يبض، قال الراوى: فقلت للمختار إنى كنت أكتمك شيئاً وقد بدا لى أن أذكره لك، إن أبى جعدة كان يجلس على كرسى عندنا ويروى أن فيه أثراً من علىّ قال: سبحان الله أخرته إلى هذا الوقت ابعث به فأحضرته عنده وقد غشى فأمر لى باثنى عشر ألفا ثم دعا الصلاة جامعة فاجتمع الناس، فقال المختار: إنه لم يكن فى الأمم الخالية أمر إلا وهو كائن فى هذه الأمة مثله وأنه كان فى بنى إسرائيل التابوت وأن هذا فينا مثل التابوت فكشفوا عنه وقامت السبئية فكبروا ثم لم يلبثوا أن أرسل المختار الجند لقتال ابن زياد وخرج بالكرسى على بغل وقد غشى فقتل أهل الشام مقتلة عظيمة فزادهم ذلك فتنة وكبر اعتقادهم فى ذلك الكرسىّ وارتفعوا حتى تعاطوا الكفر. قال ابن جعدة: فندمت على ما صنعت . اهـ.

ثم أرسل المختار عسكرا لقتال عبيد الله بن زياد بن أبى سفيان وكان عبيد الله والياً على البصرة فولاه يزيد على الكوفة فقدم عليها ليرى ما كان الناس عليه وهو الذى قتل مسلم بن عقيل بن أبى طالب الذى كان الحسين قد أرسله إلى الكوفة ليأخذ له البيعة كما تقدّم بيان هذا كله فى محله وكان المختار قد استولى على الموصل لما أرسل لقتال عبيد الله وقدّم على الجيش إبراهيم بن الأشتر فاقتتلوا قتالاً شديداً وانهزم أصحاب ابن زياد وقتل وكان القاتل له إبراهيم المذكور وأخذ رأسه ثم أحرقوا جثته بالنار ورميت بالتراب.

وولى ابن الزبير أخاه مصعبا على البصرة فاستدعى مصعب المهلب بن أبى صفرة من خراسان فأتاه بمال ورجال كثيرة وسارا إلى قتال المختار وحصراه فى قصر الإمارة بالكوفة. وما زالا يقاتلانه حتى قتل المختار وأصحابه وكانوا سبعة آلاف، وكان عبد الملك بن مروان يراقب الفرص ويتحين انتفاعها فلما علم بظفر مصعب وقتله للمختار خشى استفحال أمر مصعب واتساع كلمته فتجهز وسار فى جيش

عظيم إلى العراق فالتقى الجمعان واقتتلا وكان أهل العراق قد كاتبوا عبد الملك سراً فتخلفوا عن مصعب، وقتل مصعب وأبنه بدير الجاثليق عند نهر دجيل وله من العمر ست وثلاثون سنة وكان مصعب هذا صديق عبد الملك قبل خلافته فدخل عبد الملك الكوفة وبايعه الناس واستوثق ملك العراق واستناب عليها أخاه بشر بن مروان وكر راجعاً إلى دمشق ثم جهز الحجاج بن يوسف الثقفى فى جيش لحرب ابن الزبير وكان السبب فى تسيير الحجاج المذكور دون غيره أن الحجاج قال لعبد الملك: قد رأيت فى المنام أنى أخذت عبد الله بن الزبير فسلخته فابعثنى إليه وولنى قتاله فبعثه فى ثلاثة آلاف من أهل الشام وكتب معه أماناً لابن الزبير ومن معه إن أطاعوا فسار فى جمادى الأولى سنة اثنتين وسبعين ولم يتعرض للمدينة ونزل الطائف فكان يبعث الخيل إلى عرفة ويبعث ابن الزبير أيضاً فيقتتلون بعرفة فتنهزم خيل ابن الزبير فى كل ذلك وتعود خيل الحجاج بالظفر، ثم كتب الحجاج إلى عبد الملك يستأذنه فى دخول الحرم وحصر ابن الزبير ويخبره بضعفه وتفرّق أصحابه ويستمدّه فكتب عبد الملك إلى طارق يأمره باللحاق بالحجاج فقدم المدينة فى ذى القعدة سنة اثنتين وسبعين وأخرج عامر بن الزبير عنها وجعل عليها رجلاً من أهل الشام اسمه ثعلبة فكان ثعلبة يخرج المخ وهو على منبر صاحب الشريعة ثم يأكله ويأكل عليه التمر ليغيظ أهل المدينة، وكان مع ذلك شديدا على أهل الزبير، وقدم طارق على الحجاج بمكة فى سلخ ذى الحجة فى خمسة آلاف فحاصر الحجاج ومن معه ابن الزبير ونصب المنجنيق على أبى قبيس وهو جبل هناك ورمى به الكعبة وحج ابن عمر تلك السنة فأرسل إلى الحجاج يقول اتق الله واكفف هذه الحجارة عن الناس فإنك فى شهر حرام وبلد حرام وقد منعت الناس عن الطواف فبطل الرمى حتى عاد الناس من عرفات وطافوا وسعوا فنادى منادى الحجاج انصرفوا إلى بلادكم فإنا نعود بالحجارة على ابن الزبير الملحد فكانت الحجارة تقع بين يدى ابن الزبير وهو يصلى فلا ينصرف وكان أهل الشام يقولون عند الرمى بالمنجنيق هذه العبارة.

«يابن الزبير طالما عصيكا * وطالما عنيتنا اليكا * لتجزين بالذى أتيكا»

يعنون عصيت وأتيت، وطال القتال بين الفريقين واشتد الشاميون أصحاب الحجاج على ابن الزبير وأصحابه فغلت الأسعار عنده وأصاب الناس مجاعة شديدة حتى ذبح فرسه وقسم لحمها فى أصحابه وبيعت الدجاجة بعشرة دراهم والمدّ الذرة بعشرين درهما، وكانت بيوت ابن الزبير مملوءة قمحاً وشعيراً وذرة وتمرا، وكان أهل الشام ينتظرون فناء ما عنده وكان يحفظ ذلك ولا ينفق منه إلا بما يمسك الرمق

ويقول نفوس أصحابى قوية ما لم يفن، فلما كان قبيل مقتله تفرّق الناس عنه وخرجوا إلى الحجاج بالأمان فكانوا نحو عشرة آلاف فلما تفرّق أصحابه عنه خطب الحجاج الناس وقال: قد ترون قلة من مع ابن الزبير وما هم عليه من الجهد والضيق ففرح أصحاب الحجاج واستبشروا وتقدّموا فملؤا ما بين الحجون إلى الإبواء فهال ابن الزبير الأمر ودخل على أمه فقال يا أماه قد خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى ولم يبق معى إلا اليسير ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة والقوم يعطوننى ما أردت من الدنيا فما رأيك فقالت أنت أعلم بنفسك إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له، فقد قتل عليه أصحابك ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بنى أمية وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك ومن قاتل معك وإن قتلت كنت على حق، فلما وهن أصحابك ضعفت فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين كم خلودك فى الدنيا القتل أحسن، فقال: ياأماه أخاف إن قتلنى أهل الشام أن يمثلوا بى ويصلبونى، قالت: يابنى إن الشاة لا تتألم بالسلخ فامض على بصيرتك واستعن بالله فقبل رأسها وخرج يقاتل الحجاج وطارقاً وأصحابهما فكانت مدّة القتال أربعة أشهر وقيل: سبعة، وبينما هو يحمل عليهم سقطت عليه شرافة من شراريف المسجد فخرّ منها فبادروا إليه واحتزوا رأسه وذلك يوم الثلاثاء من جمادى الآخرة من السنة المذكورة وله ثلاث وسبعون سنة، وسير الحجاج رجلين إلى عبد الملك بالخبر فلما شاع الخبر بين أهل الشام كبروا وفرحوا بقتله وأمر الحجاج بجثته فصلبوها على الثنية اليمنى بالحجون، قيل: وكان ابن الزبير قبل موته بقى أياماً يستعمل الصبر والمسك لئلا ينتن فلما صلب ظهرت منه رائحة المسك فقيل: إن الحجاج صلب معه كلباً ميتاً فغلب على ريح المسك، وقيل: بل صلب معه سنورا، قال بعض أصحاب التاريخ: ولما قتل عبد الله ركب أخوه عروة ناقة ليس لها مثيل فسار إلى عبد الملك فقدم الشام قبل وصول رسل الحجاج بخبر قتل عبد الله فأتى باب عبد الملك فاستأذن فأذن له فلما دخل سلم عليه بالخلافة فردّ عليه عبد الملك السلام ورحب به وعانقه وأجلسه على السرير فقال عروة:

متت بأرحام إليك قريبة ولا قرب للأرحام ما لم تقرّب

ثم تحدّثا حتى جرى ذكر عبد الله، فقال عروة: إنه كان، فقال عبد الملك وما فعل قال: قتل فخر ساجداً، فقال عروة: إن الحجاج صلبه فهب جثته لأمه، فقال: نعم، وكتب إلى الحجاج يعظم صلب عبد الله وكان الحجاج لما غاب عروة كتب إلى عبد الملك يقول له أن عروة كان مع أخيه فلما قتل عبد الله أخذ مالا من

مال الله فهرب فكتب إليه عبد الملك أنه لم يهرب ولكنه أتانى مبايعاً وقد أمنته وحللته مما كان وهو قادم عليك فإياك وعروة، وعاد عروة إلى مكة وسلم إلى الحجاج كتاب عبد الملك فأنزل الحجاج جثة عبد الله ودفعها إلى أمه فغسلته ودفنته، وقيل: ألقيت جثته فى مقابر اليهود ثم دخل الحجاج مكة فأخذ البيعة من أهلها لعبد الملك بن مروان وأمر بكنس المسجد الحرام من الحجارة والدم وسار إلى المدينة، وكان عبد الملك قد استعمله على مكة والمدينة، فكانت خلافة ابن الزبير بالحجاز واليمن تسع سنين لا غير.

ودانت لعبد الملك الأمور فعلت كلمته وكبرت هيبته وقاتل الخوارج من أصحاب العباسيين وأقام المستشفيات للمرضى والخانات للغرباء بدمشق فامتدت فى عهده وكثرت بعد ذلك فى جميع بلاد المسلمين وقد كانت لا تعرف قبله، ولما كانت سنة اثنتين وثمانين هم عبد الملك بخلع أخيه عبد العزيز من ولاية العهد ومبايعة ابنه الوليد. وكان عبد العزيز يومئذ عاملاً على مصر فكلم قبيصة بن ذؤيب فى ذلك، وكان قبيصة المذكور صاحب الخاتم فنهاه قبيصة عن ذلك. وقال: لا تفعل فإنك تبعث على نفسك صوت عاد ولعل الموت يأتيه فكف عبد الملك عن أخيه وفى نفسه ما فيها وبينما هو على هذا الحال إذ دخل عليه روح بن زنباع وكان روح هذا أجل الناس عند عبد الملك فكلمه عبد الملك فى ذلك، فقال: ياأمير المؤمنين لو خلعته ما انتطح فيه عنزان وأنا أول من يجيبك إلى ذلك ففرح عبد الملك. وقال: نصبح إن شاء الله وبات روح عند عبد الملك ليلته تلك فدخل عليهما قبيصة بن ذؤيب وقد جاءه الخبر بموت عبد العزيز فلما دخل سلم عليهما. فقال عبد الملك: ما وراءك ياقبيصة. قال: آجرك الله فى عبد العزيز أخيك. قال: هل توفى؟ قال: نعم. فاسترجع ثم أقبل على روح. وقال: كفانا الله ما كنا نريد. فقال قبيصة: ياأمير المؤمنين إن الرأى كله فى الأناة. فقال عبد الملك: وربما كان فى العجلة خير، وكانت وفاة عبد العزيز فى جمادى الأولى فى مصر سنة خمس وثمانين فضم عبد الملك عمله إلى ابنه عبد الله وولاه مصر، وكان حين ولى على مصر حدثاً فكان أهل مصر يسمونه تكيس. قاله ابن خلكان. وقيل: أن الحجاج كتب إلى عبد الملك يزين له بيعة الوليد وسير إليه فى ذلك وفداً فلما أراد عبد الملك خلع عبد العزيز والبيعة للوليد كتب إلى عبد العزيز يقول: رأيت أن يصير هذا الأمر لابن أخيك فأبى فكتب إليه ليجعل الأمر له ويجعله له أيضاً من بعده، فكتب إليه عبد العزيز إنى أرى فى ابنى أبى بكر ما ترى فى الوليد، فكتب إليه عبد الملك ليحمل له خراج

مصر فأجابه عبد العزيز، إنى وإياك ياأمير المؤمنين قد بلغنا سنا لم يبلغها أحد من أهل بيتك إلا كان بقاؤه قليلاً وإنا لا ندرى أينا يأتيه الموت أوّلا فإن رأيت أن لا تفسد علىّ بقية عمرى فافعل فرق له عبد الملك وتركه، وكان عبد الملك قبل الخلافة متعبداً ناسكاً عالماً تقياً واسع العلم حازماً لا يكل أمره إلى سواه محباً للفخر مقداماً على سفك الدماء ولذلك كان عماله الحجاج بالعراق ومحمد بن يوسف أخو الحجاج باليمن ومحمد بن مروان بالجزيرة وكل من هؤلاء ظلوم غشوم جبار، قال الليث بن سعد، وعبد الله ابن عبد الملك أول من نقل فى عمالته على مصر الدواوين إلى العربية وإنما كانت بالقبطية. (قلت): وقد قال بعض أصحاب التاريخ: أنها بقيت بالقبطية والعربية معاً زمناً طويلاً حتى زالت القبطية من جميع الدواوين وبقيت العربية فاشية إلى يومنا الذى نحن فيه، وهو أول من نهى الناس عن لباس البرانس وشدّد فى المنع وأقام إلى سنة تسعين هجرية أى سنة عشر وسبعمائة ميلادية حتى عزله أخوه الوليد.

ومن غريب ما سمع فيما حكاه ابن خلكان أن علىّ بن عبد الله بن عباس ومحمدا ابنه دخلا على عبد الملك بن مروان وعنده قائف فأجلسهما ثم قال للقائف: أتعرف هذا؟ قال: لا، ولكن أعرف من أمره أن هذا الذى معه ابنه وأنه يخرج من عقبة فراعنة يملكون الأرض لا يناويهم مناو إلا قتلوه فتغير لون عبد الملك. ثم قال: زعم راهب إيليا وكان قد رآه عندى أنه يخرج من صلبه ثلاثة عشر ملكاً ووصفهم بصفاتهم، وذكر أبو حنيفة فى الأخبار الطوال أن عبد الملك أوصى ابنه الوليد لما ثقل فى مرضه فقال: ياوليد لا ألفينك إذا وضعتنى فى حفرتى تعصر عينيك كالأمة الولهاء بل اتزر وشمر والبس جلد النمر وادع الناس إلى البيعة فمن قال برأسه كذا أى لا فقل بالسيف كذا أى اضرب عنقه . اهـ.

وكان عبد الملك طويل العنق رقيق الوجه مشدود الأسنان بالذهب شديد البخل يلقب برشح الحجر لبخله ويلقب أيضاً بأبى ذباب لبخره. وكان يلقب بحمامة المسجد لقبه به ابن عمر، قيل لابن عمر: أرأيت لو تفانى أصحاب صاحب الشريعة فمن نسأل بعدهم. فقال سلوا هذا الفتى يعنى عبد الملك، وحج بالناس عبد الملك فخطب الناس بالمدينة فقال بعد حمد الله والثناء عليه، أما بعد فإنى لست بالخليفة المستضعف يعنى عثمان ولا بالخليفة المداهن يعنى معاوية ولا بالخليفة المأفون يعنى يزيد ألا وإنى لا أداوى هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم لى قناتكم وإنكم تحفظون أعمال المهاجرين الأولين ولا تعملون مثل أعمالهم وأنكم تأمروننا بتقوى الله وتنسون

ذلك من أنفسكم والله لا يأمرنى أحد بتقوى الله بعد مقامى هذا إلا ضربت عنقه ثم نزل فأكبر الناس أمره، ومات عبد الملك فى شوّال سنة ست وثمانين وقيل سنة خمس وثمانين هجرية أى سنة أربع وسبعمائة ميلادية وله ثلاث وستون سنة وقيل ستون سنة وخلف سبعة عشر ولدا ولى الخلافة منهم أربعة وكانت خلافته إحدى وعشرين سنة وخمسة عشر يوماً منها ثمان سنين مزاحماً لابن الزبير ثم انفرد بالملك إلى أن مات وكان عاقلاً حازماً أديبا لبيبا عالما. قال عمران بن موسى المؤدّب: كان يروى أن عبد الملك المذكور لما اشتد مرضه. قال: ارفعونى على شرف ففعلوا ذلك فتنسم الروح ثم قال: يادنيا ما أطيبك إن طويلك لقصير وإن كبيرك لحقير وإن كنا منك لفى غرور وتمثل بهذين البيتين:

إن تناقش يكن نقاشك يارب عذاباً لا طوق لي بالعذاب
أو تجاوز فأنت رب صفوح عن مسيء ذنوبه كالتراب

ويروى أن هذه الأبيات تمثل بها معاوية.

وفى أيامه مات يوحنا بطرك الإسكندرية فكانت مدته ثمان سنين وفى أيامه صارت الشدّة على النصارى وكبر عليهم الأمر وعظم الخطب. وكانت أيام هذه الشدائد طويلة فأقيم بعده إيساك وهو إسحق وكان متأصلاً وهو حادى أربعيهم وأصله من إقليم الغربية فأقام سنتين وأحد عشر شهراً. وفى رواية سنتين فقط ومات وكان تقياً وهو الذى أعاد الصلح بين ملك الحبشة وملك النوبة وعمل على إعزاز الدين وجمع المتشردين من المسيحيين، فأقيم بعده سيمون وهو سمعان وكان متأصلاً من إقليم الشرقية ويلقب بالسريانى وهو ثانى أربعيهم فأقام بطركا سبع سنين وقيل سبع سنين وستة أشهر ومات وفى أيامه قدم رسول أهل الهند فى طلب أسقف يقيمه لهم فامتنع من ذلك حتى أذن له الخليفة ففعل وكان ورعاً تقياً جداً صالحاً متعبداً ذكر أنه دعا الله سبحانه وتضرع إليه فأحيا على يديه قسيسا كان ميتاً وخلا الكرسى بعده ثلاث سنين بغير بطرك، ثم قدّم المتأصلون بعده الأكسندروس من أهالى نبامواسير وهو ثالث أربعيهم وكان راهباً فى دير الزجاج مرت به متاعب وشدائد عظيمة للغاية وقد صودر فيها مرتين أخذ منه فيهما ستة آلاف دينار نقرة فكانت أوّل جزية أخذت من الرهبان خلافاً للعهد، قال أصحاب التاريخ: واشتد عبد الله بن عبد الملك بن مروان على القبط بمصر وضيق عليهم واقتدى به قرة بن شريك أيضاً فى ولايته على مصر فقتلا وأحرقا وخربا وأراقا الدماء بجوار وأنزلا بالنصارى شدائد لم يبتلوا بمثلها فكانت أيامهما كلها بلايا وإحنا ورزايا ومحنا.

ولما مات عبد الملك بن مروان تولى الخلافة بعده ولده الوليد.

(الفصل السادس)

(فى خلافة الوليد بن عبد الملك)

ثم قام بالأمر بعد عبد الملك ابنه الوليد بعهد منه بويع له بالخلافة يوم مات والده فى شوّال سنة ست وثمانين للهجرة أى سنة خمس وسبعمائة للميلاد ولم يدخل دار الخلافة حتى صعد المنبر فقال: الحمد لله إنالله وإنا إليه راجعون والله المستعان على مصيبتنا بأمير المؤمنين والحمد لله على ما أنعم به علينا من الخلافة قوموا فبايعوا فكان أول من عزى نفسه وهناها وقيل أنه لما صعد المنبر حمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس لا مقدّم لما أخر الله ولا مؤخر لما قدّم وهذا كان من قضاء الله وسابق علمه وما كتب على أنبيائه وحملة عرشه، وهو الموت وقد صار إلى منازل الأبرار ولى هذه الأمة بالذى يحق لله عليه فى الشدة على المريب واللين لأهل الحق والفضل وإقامة ما أقام الله من منار الإسلام وأعلامه من حج البيت وغزو الثغور وشن الغارة على أعداء الله فلم يكن عاجزاً ولا مفرطاً، أيها الناس عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة فإن الشيطان مع الفرد أيها الناس من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذى فيه عيناه ومن سكت مات بدائه، ثم نزل وجعل يتصرف فى الأمور وفتح الفتوحات العظام مثل الهند والأندلس واتسع ملكه فى الأندلس وإفريقية اتساعاً عظيماً بما منحه لأهلها من الحرية والمساواة حتى ضعفت النصرانية فيها وانحسمت أو كادت تنحسم منها وانمحت آثارها من إفريقية كلها وصار نصارى أسبانيا يختتنون ويمتنعون من شرب الخمر وأكل الخنزير ونحو ذلك من المحرمات الإسلامية حتى كان يقال لهم ميزارابى ومعناها (أنصاف عرب) وحارب الروم وغزاهم عدة غزوات وامتد حكمه فى مسافة مائة يوم من المشرق إلى المغرب من التارية الهندية إلى الأقيانوس وقد وصلت فتوحات العرب يومئذ إلى العجم والشام وإفريقية وسردينيا وأسبانيا ونحوها وامتدوا إلى نواحى الصين وكان أهل سروقة وقرطبة وغيرهما يتكلمون بالعربية وهى فاشية بينهم.

ورسم الوليد بالإقلاع عن استعمال اليونانية وأرقامها فى الحساب فامتدت لذلك الأرقام الهندية التى تلقتها العرب عن الهنود وراجت بذلك الأمور الحسابية واتسع نطاق الرياضة ونحوها. وكان الوليد يركب المركوب الحسن الجيد ويتقى الركوب

والسفر فى الحرب فى أيام معلومة فى كل شهر وينهى عن ذلك. قال الحافظ ابن عساكر وكان الوليد عند أهل الشام من أفضل خلفائهم بنى مساجد بدمشق وأعطى الناس وفرض للمجذومين. وقال: لا تسألوا الناس وأعطى كل مقعد خادماً وكل أعمى قائداً. وكان يبر حملة الكتاب ويقضى عنهم ديونهم وبنى الجامع الأموى وهدم كنيسة مارى يوحنا وزادها فى الجامع المذكور وذلك سنة ست وثمانين فى ذى القعدة وذكر أنه كان فى الجامع وهو يبنى اثنا عشر ألف مرخم وتوفى الوليد ولم يتمه فأتمه سليمان أخوه فكان جملة ما أنفق على بنائه أربعمائة صندوق فى كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار. وكان فيه ستمائة سلسلة ذهبا للقناديل. وما زالت إلى أيام عمر بن عبد العزيز فجعلها فى بيت المال واتخذ عوضها صفرا وحديداً وبنى قبة الصخرة ببيت المقدس وبنى المسجد النبوى ووسعه حتى دخلت حجرة صاحب الشريعة فيه قيل وله آثار حسنة كثيرة جداً، قلت: وقوله أن الوليد بنى قبة الصخرة فيه نظر وإنما بنى قبة الصخرة عبد الملك بن مروان فى أيام فتنة ابن الزبير لما منع عبد الملك أهل الشام من الحج خوفاً من أن يأخذ منهم ابن الزبير البيعة له فكان الناس يقفون يوم عرفة بقبة الصخرة إلى أن قتل ابن الزبير وكان الوليد أراد أن يخلع أخاه سليمان ويبايع لولده عبد العزيز فأبى سليمان فكتب إلى عماله ودعا الناس إلى ذلك فلم يجبه إلا الحجاج وقتيبة وخواص من الناس فكتب الوليد إلى سليمان يأمره بالقدوم عليه فأبطأ فعزم الوليد على المسير إليه ليخلعه وأخرج خيمه ففاجأته المنية قبل أن يسير إليه. وكان موته فى خامس عشر جمادى الآخرة سنة ست وتسعين للهجرة أى سنة أربع عشرة وسبعمائة للميلاد عن ست وأربعين سنة وقيل ثمان وأربعين وقيل خمسين سنة وترك أربعة عشر ولداً وحمل على أعناق الرجال ودفن فى مقابر باب الصغير وتولى دفنه عمر بن عبد العزيز فكانت خلافته تسع سنين وثمانية أشهر وقيل عشر سنين وروى أن عمر بن عبد العزيز قال: لما لحدت الوليد ارتكض فى أكفانه وغلت يداه إلى عنقه نسأل الله العافية.

واستعمل على مصر فى خلافته بعد عزله لأخيه عبد الله كما تقدم قرة بن شريك العبسى فقدمها يوم الاثنين ثالث عشر ربيع الأول فقال فى ذلك أحد الشعراء:

عجب ما عجبت حين أتانا … أن قد أمرت قرة بن شريك
وعزلت الفتى المبارك عنا … ثم ضللت فيه رأي أبيك

وكان قرة ظلوماً غشوماً عسوفا قيل كان يدعو بالخمر والملاهى فى جامع مصر، أخرج أبو نعيم فى الحلية. قال: قال عمر بن عبد العزيز الوليد بالشام والحجاج بالعراق وقرة بمصر وعثمان بن حيان بالحجاز امتلأت والله الأرض جورا. وقال ابن عبد الحكم أنبأنا سعد بن عفير أن عمال الوليد بن عبد الملك كتبوا إليه أن بيوت الأموال قد ضاقت من مال الخمس فكتب إليهم أن ابنوا المساجد فأول مسجد بنى بفسطاط مصر المسجد الذى فى أصل حصن الروم عند باب الريحان قبالة الموضع الذى يعرف بالقالوس يعرف بمسجد العيلة، وأقام قرة والياً بمصر إلى أن مات سنة ست وتسعين فولى بعده عبد الملك بن رفاعة القينى فأقام إلى سنة تسع وتسعين فى خلافة سليمان بن عبد الملك ومات ولما مات الوليد خلفه أخوه سليمان بن عبد الملك.

(الفصل السابع)

(فى خلافة سليمان بن عبد الملك)

ثم قام بالأمر بعد الوليد أخوه سليمان وذلك لأن أباهما عقد لهما جميعاً بالأمر من بعده فبويع له بالخلافة يوم موت أخيه الوليد فى خامس عشر جمادى الآخرة سنة ست وتسعين هجرية أى سنة أربع عشرة وسبعمائة ميلادية. وكان سليمان بالرملة فلما جاءته الخلافة عزم على الإقامة بها ثم توجه إلى دمشق وكمل عمارة الجامع الأموى وجهز أخاه مسلمة بن عبد الملك فى سنة سبع وتسعين إلى غزو الروم فانتهى إلى القسطنطينية فنازلها على عهد انسطاسيوس قيصر. وكان عدد أصحاب مسلمة مائة وعشرين ألفا من العرب والعجم وحارب فى طريقه طيان وعمورية وفرغانة من آسية الصغرى ودخل بوغاز كليبولى وتجاوز البحر من المكان المدعو مم العرب ودخل أوروبا وقطع على سواحل بحر مرمرة إلى أن قابل القسطنطينية من الجنوب وأقام مضارب جنوده وأعلن الحرب على الروم وألقى على المدينة الحصار وكان انسطاسيوس قيصر قد علم قيام العرب عليه فاستعدّ لقتالهم وأمر الروم بالتأهب لحصار ثلاث سنين وأن يترك الذين لا قدرة لهم بالقسطنطينية وملأ الساحات والأهراء بالذخائر وأصلح الأسوار وحصنها وجعل عليها المنجنيقات والدوافر لرشق النار الرومية والسهام والأحجار ونحوها ثم لم يلبثوا أن بعثوا بقوم ليحرقوا عمارة العرب ويناوشوا العدو قبل أن يناوشهم هو فلم يفلحوا إذ افتتنوا

وقتلوا رئيسهم وتركوا راياتهم فى رودس وتفرّقوا فى تلك الأطراف أشتاتاً إلى أن قام الملك ثودوسيوس ولم يكن أهلاً لهذا المنصب إذ كان من آحاد الحرّاس على بيت المال وكان ساذجاً غير مدرّب فعفا عن أولئك القوم ولم يؤاخذهم بما فعلوه فلم يستقر به المنصب إلا شهرا وخلع وقام بعده ليون اسوريكوس وكان مهيباً مقداماً عريقًا بالملك فلما قدمت عساكر مسلمة ونظرهم الروم بالقسطنطينية داخلهم الخوف واستولى عليهم الجبن فعرضوا على المسلمين الصلح بأن يؤدّوا لهم الجزية فى كل سنة عن كل نفس دينارا فلم يقبل مسلمة وداخله الطمع وتقوّى حيث قدمت عليه عمارته البحرية من الشام وكانت قد مرت بعمارة المصريين التى كانت يومئذ على ثغور بلاد الفرنسيس وأتت بها فكانت جميعها نحو ألف وثمانمائة سفينة أكبرها كانت تحمل مائة رجل بجهازهم.

أما الروم فإنهم لما شاهدوا تلك السفن الكثيرة أمروا فرفعت السلسلة الحامية للمينا لكى تدخل السفن المذكورة وتستأمن من داخل البوغاز وأمر مسلمة قومه بالتأهب لمصادمة الروم فى تلك الليلة براً وبحراً فتقدمت السفن إلى جانب السلسلة ووقفت متردّدة بين أن تدخل المينا وبين أن تقضى ليلتها فى مكانها خوفاً من الحيلة فبينما هم على هذا الحال إذ اشتعلت النار الإغريقية من كل جانب وتساقطت عليها تساقط المطر فأحرقتها كلها ولم تنج منها واحدة وهلك من فيها من الجند ثم أتى بعد ذلك النبأ بموت سليمان بن عبد الملك وذلك فى سنة تسع عشرة وسبعمائة للميلاد أى سنة تسع وتسعين للهجرة فانفشل من بقى منهم وفترت هممهم وانجلوا عن مواقفهم وكادوا يتمزقون أشتاتًا، وكان سليمان عادلاً حكيماً طويلاً جميلاً به عرج مولعاً بالنساء شديد الغيرة وفى عهده خصى أبو بكر محمد بن عمرو الأنصارى المخنثين بالمدينة قيل وكان العامل على المدينة أبا بكر عمر بن حزم فكتب إليه سليمان يقول أحص من عندك من المخنثين واتفق أن نقطة من السطر الأول وقعت على الحاء فصارت خاء فخصاهم ، ومما يحكى من محاسنه أن رجلاً دخل عليه فقال يا أمير المؤمنين أنشدك الله والأذان فقال له سليمان أما أنشدك الله فقد عرفناها ـ فما الأذان قال قوله تعالى **﴿فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين﴾** فقال له سليمان ما ظلامتك فقال ضيعتى الفلانية غلبنى عليها عاملك فلان فنزل سليمان عن سريره ورفع البساط ووضع خده على الأرض وقال والله لا رفعت خدّى من الأرض حتى يكتب له بردّ بيعته فكتب الكتاب وهو واضع خدّه وقيل إنه أطلق من سجن الحجاج ثلثمائة ألف ما بين رجل وامرأة وصادر آل الحجاج وأعمل فيهم القتل والتشريد

واتخذ ابن عمه عمر بن عبد العزيز وزيراً ومشيراً وأراد أن يستكتب يزيد بن أبى مسلم وزير الحجاج فقال له عمر بن عبد العزيز سألتك الله يا أمير المؤمنين لا تحى ذكر الحجاج باستكتابك يزيد فقال يا عمر إنى لم أجد عنده خيانة فى درهم ولا دينار فقال يا أمير المؤمنين إن إبليس أعف منه فى الدرهم والدينار وقد أغوى الخلق كلهم جميعاً فأضرب سليمان عما عزم عليه.

وفى كامل المبرد وغيره أن يزيد هذا دخل على سليمان بن عبد الملك وكان يزيد دميماً قبيحاً فقال له سليمان قبح الله رجلاً أجَّرك رسنه وأشركك فى أمانته فقال يا أمير المؤمنين لا تقل هذا قال ولم قال لأنك رأيتنى والأمر عنى مدبر ولو رأيتنى والأمر علىّ مقبل لاستحسنت ما استقبحت منى ولاستعظمت ما استصغرت منى فقال له سليمان ويحك أو قد استقر الحجاج فى قعر جهنم بعد أم لا فقال يا أمير المؤمنين لا تقل ذلك فى الحجاج قال ولم قال لأن الحجاج وطأ لكم المنابر وأذل لكم الجبابرة وأنه يأتى يوم القيامة عن يمين أبيك ويسار أخيك فحيثما كانا كان.

وكان سليمان فصيحاً بليغاً أديباً مخسنا لعلم العربية مترفعا عن سفك الدماء. قال ابن خلكان فى ترجمته أنه كان يأكل فى كل يوم نحو مائة رطل شامى، ولما ولى رد الصلاة إلى ميقاتها الأول، وكان من قبله من خلفاء بنى أمية يؤخرونها إلى آخر وقتها ولذلك قال محمد بن سيرين أن سليمان افتتح خلافته بخير افتتحها بإقامة الصلاة لميقاتها واختتمها باستخلافه لعمر بن عبد العزيز وذكر المفضل وغيره أن سليمان بن عبد الملك خرج من الحمام فى يوم الجمعة فلبس حلة خضراء واعتم بعمامة خضراء وجلس على فراش أخضر وبسط ما حوله بالخضرة ثم نظر فى المرآة وكان جميلاً فأعجبه جماله فشمر عن ذراعيه. وقال: كان فينا نبينا محمد ﷺ نبياً ورسولاً وكان أبو بكر ﷺ صدّيقاً. وكان عمر ﷺ فاروقاً. وكان عثمان ﷺ حييا. وكان على ﷺ شجاعاً وكان معاوية ﷺ حليماً. وكان يزيد صبوراً. وكان عبد الملك سائساً. وكان الوليد جباراً وأنا الملك الشاب ثم خرج لصلاة الجمعة فوجد حظية له فى صحن الدار فأنشدته هذه الأبيات:

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى غير أن لا بقاء للإنسان
ليس فيما بدا لنا منك عيب عابه الناس غير أنك فاني

فلما فرغ من الصلاة ودخل داره. قال لتلك الحظية ما قلت لى فى صحن الدار وأنا خارج؟ قالت: ما قلت لك شيئاً ولا رأيتك وأنى لى بالخروج إلى صحن الدار.

فقال إنا لله وإنا إليه راجعون نعيت إلىّ نفسى فما دارت عليه جمعة أخرى حتى مات وقيل إنه صعد المنبر وخطب وأن صوته ليسمع فى أقصى المسجد فأخذته الحمى فما زال صوته يختفى حتى لم يسمعه من تحته. وقال ابن خلكان أنه حم ومات من ليلته وقيل: إنه مات بذات الجنب. وقيل إنه قبل موته أكل زنبيلين من التين والبيض ألطفه بهما بعض المسيحيين فأمر بأن يقشر البيض وجعل يأكل بيضة وتينة حتى أتى على الزنبيلين ثم أتوه بمح وسكر فأكل فاحتم ومرض ومات، مات فى عاشر صفر سنة ثمان وتسعين هجرية. وقيل سنة تسع وتسعين بمرج دابق من أرض قنسرين وله تسع وثلاثون سنة وقيل خمس وأربعون سنة وكانت خلافته سنتين وثمانية أشهر واستعمل فى أيامه على مصر عبد الملك بن رفاعة القينى إلى سنة تسع وتسعين التى مات فيها سليمان.

(الفصل الثامن)

(فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز)

ثم قام بالأمر بعد سليمان الخليفة الراشد أبو حفص عمر بن عبد العزيز بويع له بالخلافة يوم مات سليمان بن عبد الملك سنة تسع وتسعين هجرية أى سنة سبع عشرة وسبعمائة ميلادية وكانت خلافته بعهد من سليمان له وذلك أنه لما كان سليمان بدابق ومرض مرضه الذى مات فيه عهد فى كتاب كتبه لأحد أولاده وهو غلام لم يبلغ أشدّه فعلم رجاء بن حيوة بالخبر فدخل عليه وقال له ما تصنع يا أمير المؤمنين إن مما يحفظ الخليفة فى قبره أن يستخلف على الناس الرجل الصالح. فقال سليمان يا رجاء إنى مستخير الله وسأنظر ولم أعزم ولبث سليمان يوماً أو يومين ثم مزق الكتاب ودعا رجاء فقال له يا رجاء ما ترى فى ولدى داود. فقال رجاء هو غائب عند القسطنطينية ولا ندرى أحىّ أم لا. قال: فمن ترى؟ قال: رجاء رأيك ياأمير المؤمنين قال: فكيف ترى فى عمر بن عبد العزيز. قال: رجاء فقلت: أعلمه والله خيراً فاضلاً سليماً. فقال سليمان: هو على ذلك ولئن وليته ولم أول أحدا سواه لتكونن فتنة ولا يتركونه أبداً يلى عليهم إلا أن يجعل أحدهم بعده. قال وكان عبد الملك قد عهد إلى الوليد وسليمان أن يجعلا أخاهما يزيد ولى عهد فأمر سليمان أن يجعل يزيد بن عبد الملك بعد عمر وكان يزيد غائباً فى الموسم. قال رجاء فقلت رأيك فكتب سليمان، بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير

المؤمنين لعمر بن عبد العزيز إنى قد وليتك الخلافة بعدى ومن بعدك يزيد بن عبد الملك فاسمعوا له وأطيعوا واتقوا الله ولا تختلفوا فيطمع فيكم، قال: وختم الكتاب ثم أرسل إلى كعب بن جابر العبسى صاحب شرطته. فقال: ادع أهل بيتى فجمعهم كعب فلما اجتمعوا . قال سليمان لرجاء اذهب إليهم بكتابى وأخبرهم بما فيه ومرهم فليبايعوا من وليت فيه ففعل رجاء فلما علموا ما فى الكتاب. قالوا: ندخل فنسلم على أمير المؤمنين ثم دخلوا فقال لهم سليمان فى هذا الكتاب الذى فى يد رجاء بن حيوة عهدى فاسمعوا وأطيعوا لمن سميت فيه فبايعوا عمر رجلاً رجلاً ثم تفرقوا وثقل المرض بسليمان فمات. قال رجاء بن حيوة فغمضته وسجيته وأغلقت الباب وأجلست على الباب من أثق به ثم خرجت فأرسلت إلى كعب بن جابر فجمع أهل بيت سليمان فى مسجد دابق فقلت بايعوا فقالوا: قد بايعنا مرة قلت وأخرى هذا عهد أمير المؤمنين فبايعوا الثانية. قال فلما بايعوا بعد موته رأيت أن قد أحكمت الأمر فقلت قوموا إلى صاحبكم فقد مات.

ذكر غير واحد عن محمد المروزى. قال: أخبرت أن عمر بن عبد العزيز ﷺ لما دفن سليمان بن عبد الملك وخرج من قبره سمع للأرض هدّة أو رجة. فقال ما هذه؟ فقيل هذه مراكب الخلافة قرّبت إليك ياأمير المؤمنين لتركبها. فقال مالى ولها نحوها عنى وقربوا إلىّ دابتى فقرّبت إليه فركبها فجاء صاحب الشرطة ليسير بين يديه بالحربة على عادة الخلفاء قبله فقال له تنح عنى مالى ولك إنما أنا رجل من المسلمين ثم سار مختلطا بين الناس حتى دخل المسجد فصعد المنبر فاجتمع إليه الناس فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه. ثم قال: أيها الناس إنى ابتليت بهذا الأمر بغير رأى منى فيه ولا طلبة ولا مشورة من المسلمين وإنى قد خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى فاختاروا لأنفسكم غيرى فصاح المسلمون صيحة عظيمة قد اخترناك ياأمير المؤمنين ورضيناك أميرنا باليمن والبركة فلما سكتوا حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه. ثم قال، أوصيكم بتقوى الله فإن تقوى الله تعالى خلف من كل شيء وليس من تقوى الله خلف واعملوا لآخرتكم فإن من عمل لآخرته كفاه أمر دنياه وآخرته وأصلحوا سرائركم يصلح الله علانيتكم وأكثروا ذكر الموت وأحسنوا له الاستعداد قبل أن ينزل بكم فإنه هاذم اللذات وإنى والله لا أعطى أحدا باطلاً ولا أمنع أحداً حقا، يا أيها الناس من أطاع الله وجبت طاعته ومن عصى الله فلا طاعة له، أطيعونى ما أطعت الله فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم، ثم نزل ودخل دار

الخلافة فأمر بالستور فهتكت وبالبسط فرفعت وأمر ببيع ذلك وإدخال ثمنه فى بيت مال المسلمين. ثم ذهب يتبوأ مقيلاً فأتاه ابنه عبد الملك فقال ما تريد أن تصنع ياأبت؟ قال يابنى أقيل قال تقيل ولا تردّ المظالم. قال: أى بنى إنى قد سهرت البارحة فى أمر عمك سليمان فإذا صليت الظهر رددت المظالم. فقال ياأمير المؤمنين من أين لك أن تعيش إلى الظهر فقال ادن منى يابنى فدنا منه فقبله بين عينيه. وقال الحمد لله الذى أخرج من ظهرى من يعيننى على دينى فخرج ولم يقل وأمر مناديه أن ينادى ألا كل من كانت له ظلامة فليرفعها قيل فتقدم إليه ذمى من أهل حمص فقال ياأمير المؤمنين أسألك كتاب الله. قال: وما ذاك. قال: إن العباس بن الوليد اغتصبنى أرضى والعباس جالس فقال عمر ما تقول ياعباس. فقال إن أمير المؤمنين الوليد أقطعنى إياها وهذا كتابه فقال عمر ما تقول ياذمى. قال ياأمير المؤمنين أسألك كتاب الله تعالى. فقال عمر كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد أردد إليه أرضه ياعباس فردها إليه ثم جعل لا يدع شيئاً مما كان فى يد أهل بيته من المظالم إلا رده مظلمة مظلمة فلما بلغ الخوارج سيرته وما رد من المظالم اجتمعوا. وقالوا: ما ينبغى لنا أن نقاتل هذا الرجل وبلغ عمر بن الوليد خبر رد الضيعة التى كانت للذمى كتب إلى عمر بن عبد العزيز، إنك قد زريت على من كان قبلك من الخلفاء وعبت عليهم وسرت بغير سيرتهم بغضا لهم وشيناً لمن بعدهم من أولادهم وقطعت ما أمر الله به أن يوصل إذ عمدت إلى أموال قريش ومواريثهم فأدخلتها بيت المال جوراً وعدواناً ولن تترك على هذا الحال والسلام، فلما قرأ كتابه كتب إليه (بسم الله الرحمن الرحيم) من عبد الله عمر بن عبد العزيز إلى عمر بن الوليد السلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، أما بعد فقد بلغنى كتابك أما أوّل شأنك ياابن الوليد فأمك بنانة أم السكون كانت تطوف فى سوق حمص وتدخل فى حوانيتها ثم الله أعلم بها ثم اشتراها زيان من بيت مال المسلمين فأهداها لأبيك فحملت بك فبئس المولود ثم نشأت فكنت جباراً عنيداً تزعم أنى من الظالمين إذ حرمتك وأهل بيتك مال الله الذى فيه حق القرابة والمساكين والأرامل وأن أظلم منى وأترك لعهد الله من استعملك صبياً سفيها على جند المسلمين تحكم فيهم برأيك ولم يكن له فى ذلك نية إلا حب الوالد لولده فويل لأبيك ما أكثر خصماءه يوم القيامة وكيف ينجو أبوك من خصمائه وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من جعل لغالية البربرية فى خمس العرب نصيباً فرويدا ياابن بنانة فلو التقت حلقتا البطان وردّ الفىء لأهله لتفرّغت لك

ولأهل بيتك فوضعتهم على المحجة البيضاء فطالما تركتم الحق وأخذتم فى الباطل ومن وراء ذلك ما أرجو أن أكون رأيته من بيع رقبتك وقسم ثمنك بين اليتامى والمساكين والأرامل فإن لكل فيك حقاً والسلام على من اتبع الهدى ولا ينال سلام الله القوم الظالمين.

قيل: إنه وقع فى زمانه غلاء عظيم فقدم عليه وفد من العرب فاختاروا رجلاً منهم لخطابه فتقدم إليه وقال: يا أمير المؤمنين إنا وفدنا إليك من ضرورة عظيمة وراحتنا فى بيت المال وماله لا يخلو إما أن يكون لله أو لعباده أولئك فإن كان لله فالله غنى عنه وإن كان لعباده فآتهم إياه. وإن كان لك فتصدّق به علينا إن الله يجزى المتصدّقين، قيل فتغرغرت عينا عمر بالدموع. وقال هو كما ذكرت وأمر بحوائجهم فقضيت فهمّ الأعرابى بالانصراف فقال عمر كما أوصلت أيها الرجل حوائج عباد الله إلىّ فأوصل حاجتى وفاقتى إلى الله فقال الأعرابى إلهى اصنع بعمر بن عبد العزيز كصنيعه فى عبادك قيل فما استتم كلامه حتى ارتفع غيم عظيم وأمطرت السماء مطراً كثيراً فجاء فى المطر بردة كبيرة فوقعت على جرة فانكسرت فخرج منها كاغد مكتوب فيه، هذه براءة من الله العزيز الغفار لعمر بن عبد العزيز من النار، قلت ولعل هذا من مبالغات الكتاب تذكرة وعبرة.

ولما استقامت لعمر الأمور ودانت له الخلافة لم يوجه عنايته إلى تتميم الغزوات التى بدأ بها سليمان وترك مسلمة بمن معه من المسلمين فى حصار قسطنطينية طول الشتاء كراهة فى مسلمة وكان ذلك الشتاء قارساً جداً شديداً دامت فيه الثلوج مغطية للأرض مائة يوم فمات خلق كثير من المسلمين ولبثوا على هذا الحال يقاسون العناء حتى دخل الربيع وورد على من بقى منهم الخبر بقدوم عمارتين فيهما من الرجال والذخائر شىء كثير لنجدتهم إحداهما أربعمائة سفينة مشحونة قمحاً من الإسكندرية وثانيهما ثلثمائة وستون سفينة من إفريقية ولكنه لم يتم فرحهم بمقدم تلك العمارة حتى شاع الخبر ثانية بأنه حل بهما ماحل بالعمارة الأولى فلم يحصلوا منهما إلا على ما قل ففشا الجوع والمرض فى جند المسلمين وعادوا يأكلون ما يجدونه من الميتة وغيرها واستنصر ليون قيصر الروم على من بقى منهم بالبلغاريين واستأجرهم لذلك فجاءه منهم عدد كثير واقتتلوا مع المسلمين قتالاً عنيفاً فقتلوا منهم زهاء عشرين ألفاً وطيروا الأخبار بتجهيز الفرنجة براً وبحراً للنجدة فتشددت بذلك عزائم الروم وخافت العرب جداً ولبثوا يتوقعون الشر من كل جانب فوردت إلى مسلمة الأخبار بأن يرجع

بمن معه من المسلمين فقام على الفور وسار بمن بقى معه وهم قليلون فمر بمضيق كليبولى من حيث أتى فلم يعارضه معارض فلما وصل بتينة قام عليه أهلها وقتلوا ممن كان معه خلقاً كثيراً ولم يصل من جميع تلك العمارة الكبيرة إلا خمسة فقط جاءت بالأخبار إلى الإسكندرية فكانت مدة حصار مسلمة لقسطنطينية فى هذه الغزوة ثلاثة عشر شهراً. قال أهل التاريخ: وكان إخفاق مسلمة فى غزوته هذه سبباً فى منع العرب من تخطى أوروبا من جهة المشرق ولكنهم لم يلبثوا أن عادوا فشنوا الغارة على بلاد الفرنسيس من جهة المغرب بمعاونة عرب الأندلس وجعلوا يتهدّدونها فى كل آونة ولا ينكفون عن مناوشتها كلما تمكنوا من ذلك، وكان عمر يكره الحرب جداً ولا يهتم بالفتوحات فلم يضم إلى دولته فى خلافته إلا جرجان وطبرستان وكتب فى سنة مائة هجرية إلى ملوك السند يدعوهم إلى الإسلام على أن يملكهم بلادهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين وقد كانت سيرته وأجناده وصلت إليهم فأسلم حيشبة بن زاهر وتسمى بعض ملوكهم من هذا الحين بأسماء العرب. وكان عمر قد استعمل على ذلك الثغر عمرو بن مسلم أخا قتيبة بن مسلم فغزا بعض الهند فظفر وبقى ملوك السند مسلمين على بلادهم أيام عمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك. فلما كان أيام هشام ارتدوا عن الإسلام وكان سببه ما سيذكر فى محله إن شاء الله.

وتحالف بنو أمية لأسباب عدّة على بغض عمر بن عبد العزيز فرشوا عبداً أسود فسقاه السم. وروى أنه دعا بخادمه الذى سقاه السم فقال له ويحك ما حملك على أن سقيتنى السم قال: ألف دينار أعطيتها قال هاتها فجاء بها فأمر بطرحها فى بيت المال وقال لخادمه أخرج بحيث لا يراك أحد ولما ثقل به مرضه قالوا له لو تداويت. قال لو كان دوائى فى مسح أذنى ما مسحتها نعم المذهوب إليه ربى، قال مسلمة بن عبد الملك دخلت على أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ﷺ أعوده فى مرضه الذى مات فيه فإذا عليه قميص وسخ فقلت لفاطمة بنت عبد الملك يافاطمة اغسلى قميص أمير المؤمنين فقالت نفعل إن شاء الله تعالى ثم عدت فإذا القميص على حالته فقلت يافاطمة ألم آمرك أن تغسلى قميص أميرالمؤمنين فإن الناس يعودونه فقالت والله ما له قميص غيره. قال: وكان عمر ﷺ كثيراً يتمثل بهذه الأبيات

نهارك يامغرور سهو وغفلة وليلك نوم والردى لك لازم
يغرّك ما يفنى وتفرح بالمنى كما غرّ باللذات في النوم حالم
وشغلك فيما اليوم تكره غبه كذلك في الدنيا تعيش البهائم

وكان مرضه بدير سمعان بأرض حمص، وكانت شكواه عشرين يوماً فلما احتضر قال أجلسونى فأجلسوه فقال، إلهى أنا الذى أمرتنى فقصرت ونهيتنى فعصيت ولكن لا إله إلا الله وتوفى لخمس وقيل لست مضين وقيل لعشرة بقين من رجب الفرد سنة إحدى ومائة للهجرة وهو ابن تسع وثلاثين سنة وأشهر. وقيل وهو ابن أربعين سنة وقبره بدير سمعان ظاهر يزار فكانت مدّة خلافته سنتين وخمسة أشهر وكان يقال له أشج بنى أمية وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب فعمر جدّه من قبل أمه وهو تابعى روى الحديث عن أنس بن مالك والسائب بن يزيد وروى عنه جماعة ومولده بمصر سنة إحدى وستين، قال الإمام أحمد ليس أحد من التابعين قوله حجة إلا عمر بن عبد الغزيز . اهـ.

وكان عمر عفيفاً زاهداً ناسكاً عابداً مؤمناً تقياً صادقاً وهو أوّل من اتخذ دار الضيافة وأول من فرض لأبناء السبيل وأزال ما كانت بنو أمية تذكر به عليا على المنابر من اللعن وجعل مكان ذلك: **﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون﴾** فقال فيه كثير عزة لذلك:

وليت ولم تسبب عليا ولم تخف — بريا ولم تقبل مقالة مجرم
وصادقت بالقول الفعال مع الذي — أتيت فأمسى راضياً كل مسلم
فما بين شرق الأرض والغرب كلها — مناد ينادي من فصيح وأعجمي
يقول أمير المؤمنين ظلمتني — بأخذك ديناري وأخذك درهمي
فاربح بها من صفقة لمبائع — وأكرم بها من بيعة ثم أكرم

قال ميمون بن مهران قال عمر بن عبد العزيز لما وضعت الوليد فى حفرته نظرت فإذا وجهه قد اسوّد فإذا مت ودفنت فاكشف عن وجهى. قال ميمون ففعلت فرأيته أحسن مما كان أيام تنعمه ورثاه الشعراء فأكثروا فى رثائه وبالغوا جداً.

واستعمل على مصر فى خلافته أيوب بن شرحبيل الأصبحى فأقام بها عاملاً إلى سنة إحدى ومائة وعزل فى خلافة يزيد بن عبد الملك، وبعد موت عمر ابن عبد العزيز خلفه فى الملك يزيد بن عبد الملك بن مروان.

(الفصل التاسع)

(فى خلافة يزيد بن عبد الملك)

ثم قام بالأمر بعد عمر بن عبد العزيز يزيد بن عبد الملك بن مروان بويع له بالخلافة يوم مات ابن عمه عمر سنة إحدى ومائة للهجرة أى سنة تسع عشرة وسبعمائة للميلاد بعهد له من أخيه سليمان فى ذلك فلما ولى قال خذوا بسيرة عمر ابن عبد العزيز فساروا بسيرته أربعين يوماً فدخل عليه أربعون رجلاً من مشايخ دمشق وحلفوا له أنه ليس على الخلفاء حساب ولا عقاب فى الآخرة وخدعوه بذلك فانخدع لهم وكان طائفة من جهال الشاميين يعتقدون ذلك، قال بعض أهل التاريخ: إن يزيد هذا هو المعروف بالفاسق وهو غلط وإنما الفاسق ولده الوليد كما اشتهر . اهـ.

وقيل أنه لما احتضر عمر بن عبد العزيز قال له اكتب إلى يزيد فأوصه بالأمة. قال: بماذا أوصيه إنه من بنى عبد الملك ثم كتب إليه، أما بعد فاتق يايزيد الصرعة بعد الغفلة حين لا تقال العثرة ولا تقدر على الرجعة إنك تترك ما نترك لمن لا يحمدك وتصير إلى من لا يعذرك والسلام، ولما استقرت بيزيد الخلافة عمد إلى كل ما عمده عمر بن عبد العزيز مما لم يوافق هواه فردّه ورد المكوس التى أزالها عمر ابن عبد العزيز عن أهل اليمن وغير ذلك وجهز جيشاً عظيماً لقتال يزيد بن المهلب ابن أبى صفرة وسيره مع أخيه مسلمة والعباس ابن أخيه. وكان ابن المهلب قد كثرت لومه واجتمع إليه من أهل الكوفة والبصرة والثغور وغيرها فالتقى مسلمة بأهل الشام وابن المهلب فى لومه وعسكره الجرار فاقتتلوا قليلاً وكان يزيد بن عبد الملك قد أمر بإحراق جسر كان على الفرات ليأخذوا الطريق على ابن المهلب وأصحابه فلما علا دخان الحريق سأل أصحاب ابن المهلب عنه فقيل لهم حرق الجسر فانهزموا فقيل لابن المهلب انهزم الناس فقال لم انهزموا هل كان قتال ينهزم من مثله فقيل له قالوا أحرق الجسر فلم يلبث أحد فقال قبحهم الله بق دخن عليه فطار ثم خرج ومعه أصحابه. وقال أضربوا وجوه المنهزمين ففعلوا ذلك بهم وبينما هو على هذا الحال إذ جاءه الخبر بموت أخيه حبيب فاغتم غما شديداً واستقل وتقاعس عن الحرب فتسلل عنه من يكره القتال وبقى معه جماعة من جنسه فانقض عليه أهل الشام وعلى أصحابه فقتلوه وقتلوا أخاه محمد بن المهلب وآخرين معه واختلفوا فيمن قتله

واحتزوا رأس يزيد بن المهلب وأتوا بها إلى مسلمة فسيرها إلى يزيد بن عبد الملك وأسر أهل الشام من أصحاب يزيد بن المهلب خلقا فسيرهم مسلمة إلى الكوفة فجاء كتاب يزيد بن عبد الملك إلى محمد بن عمرو بن الوليد يأمره بضرب رقابهم فأمر صاحب شرطته أن يخرجهم عشرين عشرين وثلاثين ثلاثين فقام نحو ثلاثين رجلاً من تميم فقالوا نحن انهزمنا بالناس فابدؤا بنا قبل الناس فضرب رقابهم ثم جاء محمد بن عمرو كتاب من عند مسلمة يأمره بترك قتل الأسرى وأقبل مسلمة حتى نزل الحيرة واجتمع أهل المهلب بالبصرة فأعدّوا السفن وتجهزوا للركوب فى البحر وحملوا أموالهم وعيالاتهم حتى وصلوا إلى حيال وساروا فى البر فسير مسلمة فى أثرهم مدرك بن ضب الكلبى فأدركهم فى عقبة فعطفوا عليه وقاتلوه واشتد قتالهم فقتل أكثر أصحاب ابن المهلب وقتل أولاد المهلب عن آخرهم وحملت رؤوسهم والأسرى إلى مسلمة بالحيرة فبعثهم إلى يزيد بن عبد الملك فسيرهم يزيد إلى العباس ابن الوليد وهو على حلب فنصب الرؤوس وفرح يزيد بقتل آل المهلب فرحا عظيمًا وقد كان يتمنى قتلهم وقطع شأفتهم لعداوة سابقة بينه وبين يزيد بن المهلب قبل تولى يزيد بن عبد الملك الخلافة، قال صاحب الكامل إن ابن المهلب خرج من الحمام أيام سليمان بن عبد الملك وقد تضمخ بالغالية فاجتاز بيزيد بن عبد الملك وهو إلى جانب عمر بن عبد العزيز. فقال يزيد قبح الله الدنيا لوددت أن مثقال غالية بألف دينار فلا ينالها إلا كل شريف فسمع ابن المهلب فقال له بل وددت أن الغالية لو كانت فى جبهة الأسد فلا ينالها إلا مثلى. فقال له يزيد بن عبد الملك لئن وليت يوماً لأقتلنك فقال له ابن المهلب والله لئن وليت هذا الأمر وأنا حيّ لأضربن وجهك بخمسين ألف سيف فهذا كان سبب البغض بينهما وقيل غير ذلك . اهـ.

وكان قد جيء إلى يزيد بن عبد الملك بثلاثة عشر رجلاً من الأسرى فلما أدخلوهم عليه وعنده كثير عزة أنشد:

حليم إذا ما نال عاقب مجملا أشد العقاب أو عفا لم يثرّب
فعفو أمير المؤمنين وحسبه فما تأته من صالح لك يكتب
أساءوا فإن تصفح فإنك قادر وأفضل حلم حسبة حلم مغضب

فقال يزيد بن عبد الملك هيهات يا أبا صخر طف بك الرحم لا سبيل إلى ذلك إن الله عزّ وجلّ أقاد بنيهم بأعمالهم الخبيثة ثم أمر بهم فقتلوا وبقىَ غلام صغير فقال اقتلونى فما أنا بصغير فأمر به يزيد فقتل أيضاً، وكان أهل المهلب مشهورين بالكرم والجود والفتوّة ولهم أخبار طويلة لا محل لذكرها هنا.

وبينما كان مسلمة بن عبد الملك أخو يزيد والعباس بن أخيه يقاتلان آل المهلب إذ دخل على يزيد بن عبد الملك جماعة من المتقربين إليه. وقالوا: ياأمير المؤمنين إن أهل العراق أهل غدر وإرجاف وقد توجهنا محاربين والحوادث تحدث ولا نأمن من أن يرجف أهل العراق فيقولون مات أميرالمؤمنين فيفت ذلك فى أعضائنا فلو عهدت إلى عبد العزيز بن الوليد لكان رأياً صواباً فبلغ ذلك مسلمة بن عبد الملك فأتى أخاه يزيد فقال ياأمير المؤمنين أيما أحب إليك أخوك أم ابن أخيك فقال بل أخى فقال فأخوك أحق بالخلافة فقال يزيد إذا لم تكن فى ولدى فأخى أحق بها من ابن أخى كما ذكرت قال فابنك لم يبلغ فبايع لهشام بن عبد الملك ثم بعده لابنك الوليد. وكان الوليد يومئذ ابن إحدى عشرة سنة فبايع بولاية العهد لهشام بن عبد الملك أخيه وبعده لابنه الوليد بن يزيد وعاش اليزيد حتى بلغ ابنه الوليد أشدّه فكان إذا رآه يقول الله بينى وبين من جعل هشاماً بينى وبينك وظلت ولاية العهد لهشام حتى ولى الخلافة، وفى أيام يزيد بن عبد الملك ولد أبو العباس عبد الله بن محمد بن على بن محمد بن على فى ربيع الآخر وهو السفاح وقدم على أبيه محمد بن على أبو محمد الصادق من خراسان وجماعة من أصحابه فأخرج إليهم أبا العباس مقمطا بقماط ولفائف وله خمسة عشر يوماً وقال لهم هذا صاحبكم الذى يتم الأمر على يده فقبلوا أطرافه. وقال لهم والله ليتمن الله هذا الأمر حتى تدركوا ثأركم من عدوّكم.

وخرج فى أيام يزيد كثير من طوائف الترك وقاتلوا المسلمين وأجلوا من كان منهم بأرمينية والجزيرة والمتولى عليهما يومئذ ابن هبيرة فجهز يزيد الجراح لقتالهم وردّهم إلى الطاعة فقاتلهم قتالاً شديداً وأفحش فى قتلهم وسبى ذراريهم وقاتل سائر الخوارج حتى أرجعهم إلى الطاعة وكاتب يزيد بالفتح وطلب المدد فوعده ولكن المنية عاجلته وكانت وفاة يزيد بإربل من أرض البلقاء وقيل بالجولان وحمل على أعناق الرجال إلى دمشق ودفن بين باب الجابية وباب الصغير لخمس بقين من شعبان سنة خمس ومائة وله أربعون سنة وقيل خمس وثلاثون سنة وكانت خلافته أربع سنين وشهراً وأياماً، ذكر الحافظ ابن عساكر أن سبب موت يزيد بن عبد الملك هذا أنه كان اشترى فى أيام أخيه سليمان جارية من عثمان بن سهل بن حنيف بأربعة آلاف دينار وكان اسمها حبابة وأحبها حباً شديداً فبلغ أخاه سليمان ذلك فقال هممت أن أحجر على يزيد فبلغ ذلك يزيد فباعها خوفاً من أخيه سليمان فلما أفضت الخلافة إليه قالت له زوجته ياأمير المؤمنين هل بقى فى نفسك من الدنيا شىء؟ قال نعم فقالت وما هو؟ قال حبابة فاشترتها له وهو لا يعلم وزينتها

وأجلستها من وراء ستر لها ثم قالت ياأمير المؤمنين هل بقى فى نفسك من الدنيا شيء؟ قال أو ما أعلمتك أنها حبابة فرفعت الستر وقالت هاأنت وحبابة وتركته وإياها فحظيت عنده وغلبت على عقله ولم ينتفع به فى الخلافة وأنه قال يوماً إن بعض الناس يقولون إنه لن يصفو لأحد من الملوك يوم كامل من الدهر وإنى لأكذبنهم فى ذلك ثم أقبل على لذاته واختلى بحبابة وأمر أن يحجب عن سمعه وبصره كل ما يكره فبينما هو على تلك الحالة فى صفو عيشه وزيادة فرحه وسروره إذ تناولت حبابة حبة رمان وهى تضحك فغصت بها فماتت فاختل عقل يزيد وتكدّر عيشه وذهب سروره ووجد عليها وجداً شديداً وتركها أياماً لا يدفنها وهو يقبلها ويسترشفها حتى أنتنت وفاحت فأمر بدفنها ثم نبشها من قبرها وله معها أخبار طوال أضربنا عن إيرادها وغنته يوماً

وبين التراقي واللهاة حرارة وما طفئت يوماً بسوغ فتبردا

فأهوى عند سماعه قولها ليطير فقالت ياأمير المؤمنين إن لنا فيك حاجة فقال والله لأطيرن فقالت على من تخلف الأمة والملك. قال عليك والله وقبل يدها فخرج بعض خدمه وهو يقول سخنت عينك ما أسخفك.

ولما عاد من دفنها سمع جارية له تتمثل بعدها

كفى حزناً بالهائم الصب أن يرى منازل من يهوى معطلة قفرا

فبكى بكاء مرا واشتدّ به النحيب ولم يعش بعدها إلا خمسة عشر يوماً وكان مرضه بالسل وقال فيها:

فإن تسل عنك النفس أو تدع الهوى فباليأس تسلو عنك لا بالتجلد
وكل خليل زارني فهو قائل من آجلك هذا هالك اليوم أو غد

قال صاحب الكامل: ولم يعلم بموت يزيد أحد حتى ناحت سلاّمة حظيته، هى حظية أخرى غير حبابة كان يحبها فقالت:

لا تلمنا إن خشعنا أو هممنا بخشوع
قد لعمري بت ليلى كأخي الداء الوجيع
ثم بات الهمّ مني دون من لي بضجيع
للذي حل بنا اليو م من الأمر الفظيع
كلما أبصرت ربعا خالياً فاضت دموعي
قد خلا من سيد كا ن لنا غير مضيع

ثم نادت وا أميـر المؤمنيناه فعلمـوا بموته قال والشـعر لبـعض الأنصار . اهـ. واستـأمر يزيد على مصر فـى خلافته بشـر بن صفوان الكلبى فـأقام إلى سنة ثلاث ومائة ثم خلعه وولى أخاه حنظلة فأقـام إلى سنة خمس ومائة وهى السنة التى مات فيها يزيد بن عبد الملك ثم عزل ولما مات يزيد خلفه فى الملك هشام بن عبد الملك.

(الفصل العاشر)

(فى خلافة هشام بن عبد الملك)

ثم قام بالأمر بعد يزيد أخوه هشام بن عبد الملك بن مروان بويع له بالخلافة يوم مات أخوه يزيد سنة خمس ومـائة هجرية أى سنة ثلاث وعشرين وسبعـمائة ميلادية بعهد منه إليه ولما أتته الخلافة كان بالرصافة فـسجد وسجد أصحابه لما بشر بها وسار إلى دمشق، قال مصعب الزبيرى زعموا أن عبد الملك بن مروان رأى فى منامه أنه بال فى المحراب أربع مرات فدس من يسأل سعيـد بن المسيب وكان يعبر الرؤيا فقال يملك من صلبه أربعة فكان آخرهم هشاماً. اهـ.

فلما كانت السنة الأولى من خلافته سير مسلم بن سـعيد لغزو الترك فعبر النهر وعاث فى بلادهم وخرب وأتلف وأراق الدماء وقفل فتأثره الترك فعبرالنهر ولم ينالوا منه أرباً ثم غزا افشـين فلم يروا بدأ من مصالحته على ستـة آلاف رأس وسلموا إليه القلعـة ثم غزا غـزوة أخرى فى سنة ست ومـائة فأبطأ عنه الناس. وكـان ممن أبطأ البخترى بـن درهم فأرسل مسلم نصر بن سيار إلى بلخ وأمـره أن يخرج الناس إليه وكان العـامل على بلخ يومئذ عـمرو بن مسلم فذهـب نصر وأحرق باب البخـترى وزياد بن طريف الباهلـى ومنعهمـا عمرو من دخول بـلخ فقامت بسـبب ذلك فتنة عظيمة فانهـزم نصر المذكور وأمرهم بأن يلحقوا بمـسلم بن سعيد، ولما قطع مـسلم النهر ولحـقه من لحقه من أصـحابه سار إلى بخارى فـجاء كتاب خالـد بن عبد الله القسرى بولايته ويأمره بإتمام الغزوة فسار إلى فـرغانة وبلغه أن خاقان كان قادماً عليه بخيله ورجله فارتحل فلحقه خاقان بعد ثلاث مراحل وأحاط بالمسلمين ونازلهم وقتل المسيب بن بشر الرياحى والبراء من فرسان المـهلب وغيرهما من الأبطال وسار مسلم بالناس ثمـانية أيام والتـرك مطيفون بهـم وكان مسلم قـد أحرق مـا ثقل من أمتـعة المسلمين ما قيمته ألف ألف وأصبحوا فى اليوم التاسع قريب النهر ودونه أهل فرغانة والشاش فأمر مسلم أصحابه أن يخترطوا سيوفهم ويحملوا على الأعداء فأفرج أهل فرغانة والشاش عن النهر فـعبر مسلم وأصحابه وأتبعهم ابن خـاقان فكان حميد بن

عبد الله على الساقة من وراء النهر مثخنا بالجراح فبعث إلى مسلم بالتربص وعطف على جموع الترك وقاتلهم قتالاً شديداً وأسر قائدهم وقائد الصغد وبينما هو يدبر أمر أصحابه إذ أصابه سهم فمات ثم أتى مسلم وقومه خجندة وقد أهلكهم الجوع.

ولما كانت سنة اثنتين وعشرين ومائة ظهر زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب يريد منصب الخلافة وأقبل إلى الكوفة ولبث بها مستخفياً يتنقل فى المنازل وأقبلت الشيعة تختلف إليه تبايعه فبايعه أناس من وجوه أهل الكوفة. قال أهل التاريخ، وكانت بيعته إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وجهاد الظالمين ونصر أهل البيت أتبايعون على ذلك فإذا قالوا نعم وضع يده على أيديهم ويقول، عليك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله ﷺ لتفين ببيعتى ولتقاتلن عدوى ولتنصحن لى فى السر والعلانية فإذا قال نعم مسح يده على يده ثم قال، اللهم اشهد، فبايعه خمسة عشر ألفاً وقيل أربعون ألفاً فأمرهم بالاستعداد ولما شاع خبر خروجه أتاه سلمة بن كهيل فذكر له قرابته من صاحب الشريعة الإسلامية وحقه فأحسن وبالغ ثم قال له أنشدك الله كم بايعوك؟ قال أربعون ألفاً قال فكم بايع جدك، قال ثمانون ألفاً. قال: فكم قفل معه؟ قال ثلثمائة. قال: أنشدتك الله أنت خير أم جدك؟ قال جدى قال فهذا القرن؟ خير أم ذلك القرن قال ذلك القرن قال أفتطمع أن يفى لك هؤلاء وقد غدر أولئك بجدك؟ قال قد بايعونى ووجبت البيعة فى عنقى وأعناقهم قال أفتأذن لى أن أخرج من هذا البلد فلا آمن أن يحدث حدث فلا أملك نفسى؟ فأذن له فخرج إلى اليمامة وأكثر زيد من دعاء الناس إلى بيعته فبايعه ناس كثير منها ورسم لأصحابه فيها بالخروج فخرج معه من كان يريد الوفاء له بالبيعة فعلم يوسف بن عمر بخبره وهو على الحيرة يومئذ وبعث فى طلبه وكان على الكوفة الحكم بن الصلت فخاف جماعة ممن خرج مع زيد واجتمع كبارهم وتكلموا مع زيد فيما هو فيه ثم فارقوه ونكثوا بيعته وقالوا سبق الإمام، يعنون محمد الباقر، وكان قد مات وقالوا جعفر ابنه إمامنا اليوم بعد أبيه فسماهم زيد بن على لذلك الرافضة، قال صاحب الكامل، وهم يزعمون أن المغيرة سماهم الرافضة. اهـ.

وكانت طائفة أتت جعفر بن محمد الصادق قبل خروج زيد فأخبروه ببيعة زيد فقال بايعوه فهو والله أفضلنا وسيدنا فعادوا وكتموا ذلك وخرج زيد فيمن بقى معه من أهل الكوفة واقتتل مع أصحاب يوسف والريان وأهل الشام فتخلى عنه نفر ممن بقى معه فلما رأى زيد خذلان الناس إياه قال لنصر بن خزيمة وقد كان يقاتل مع

زيد أنا أخاف أن يكونوا قد فعلوها حسينية، يعنى كما فعلوا بالحسين، فقال نصر بن خزيمة أما والله لأقاتلن معك حتى أموت وأن الناس فى المسجد فامض بنا نحوهم فساروا حتى انتهوا إلى باب المسجد بعد قتال فجعل أصحابه يدخلون راياتهم من فوق الأبواب ويقولون ياأهل المسجد اخرجوا من الذل إلى العز اخرجوا إلى الدين والدنيا فإنكم لستم فى دين ولا دنيا فرماهم أهل الشام بحجارة من فوق المسجد فانصرفوا ثم عادوا بعد ذلك إلى القتال فاشتد أصحاب يوسف بن عمر على أصحاب زيد بن علىّ واشتد كذلك أصحاب زيد واقتتلوا قتالاً عنيفاً فقتل نصر بن خزيمة ومعاوية بن إسحق الأنصارى بين يدى زيد ورمى زيد بسهم فأصاب جانب جبهته اليسرى فثبت فى دماغه وأحضر أصحابه طبيبا فانتزع النصل فضج زيد ومات لساعته واختلف أصحابه فى أين يدفنونه فقال بعضهم نطرحه فى الماء وقال بعضهم بل نحتز رأسه ونلقيه بين القتلى فمانع ابنه يحيى وقال والله لا يأكل لحم أبى الكلاب فقال بعضهم ندفنه فى الحفرة التى يؤخذ منها الطين ونجعل عليه الماء ففعلوا فلما دفنوه أجروا عليه الماء وقيل إنه دفن بنهر يعقوب سكر أصحابه الماء ودفنوه ثم أجروا الماء وكان معهم مولى لزيد بن علىّ من أهل السند قيل إنه رآهم فلما تفرق الناس وتتبع يوسف بن عمر الجرحى دله السندى المذكور على موضع زيد فنبشه وقطع رأسه وسيرها إلى الحيرة وأمر فصلبوا جثته بالكناسة ومعه نصر بن خزيمة ومعاوية بن إسحق وزياد النهدى وسيروا رأس زيد إلى هشام بن عبد الملك فأمر بها فصلبت على باب دمشق ثم أرسلها إلى المدينة وبقيت الجثة مصلوبة إلى أن مات هشام وولى الوليد فأمر بإنزالها وإحراقها.

وكثرت فى أيام هشام الخوارج والدعاة وكان لهم مع عماله وقائع مشهورة يطول شرحها وكان هشام حازماً عاقلاً صاحب سياسة حسنة ورأى ودهاء وحزم وفيه حلم فكان لذلك موفقاً وكان يوصف بالبخل والحرص ويقال إنه جمع من الأموال ما لم يجمعه خليفة قبله، قال عقال بن شبة دخلت على هشام وعليه قباء فنك أخضر فوجهنى إلى خراسان وجعل يوصينى وأنا أنظر إلى القباء ففطن فقال مالك فقلت رأيت عليك قبل أن تلى الخلافة قباء مثل هذا فجعلت أتأمل أهو هذا أم غيره. فقال هو والله ذلك وأما ما ترون من جمعى المال وصونه فهو لكم، قال وكان محشوا عقلا . اهـ.

وكان حسن الخلق قال مجمع بن يعقوب الأنصارى شتم هشام رجلاً من الأشراف فوبخه ذلك الرجل وقال أما تستحى أن تشتمنى وأنت خليفة الله فى أرضه فاستحى منه . وقال اقتص منى فقال إذا أنا سفيه مثلك. قال: فخذ منى عوضاً من المال قال ما كنت لأفعل قال فهبها لله قال هى لله ثم نكس هشام رأسه واستحى وقال والله لا أعود إلى مثلها أبداً، ذكر صاحب الكامل أن الجعد بن درهم أظهر مقالته بخلق القرآن أيام هشام فأخذه هشام وسير به إلى خالد القسرى وهو يومئذ على العراق وأمره بقتله فحبسه خالد ولم يقتله فبلغ الخبر هشاماً فكتب إلى خالد يلومه ويعزم عليه أن يقتله فأخرجه خالد من الحبس فى وثاقه فلما صلى العيد يوم الأضحى. قال فى آخر خطبته انصرفوا وضحوا يقبل الله منكم فإنى أريد أن أضحى اليوم بالجعد بن درهم فإنه يقول ما كلم الله موسى ولااتخذ إبراهيم خليلاً تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً ثم نزل وذبحه . اهـ.

وكان هشام شديد التمسك بدينه قيل إنه تفقد بعض ولده فلم يحضر الجمعة. فقال ما منعك من الصلاة قال نفقت دابتى قال أفعجزت عن المشى وأمر فمنعوه الدابة سنة ومات هشام بالرصافة لست خلون من شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة وكان مرضه الذبحة وعمره خمس وخمسون سنة وقيل ست وخمسون فكانت خلافته تسع عشرة سنة وتسعة أشهر وأحدا وعشرين يوماً.

واستعمل على مصر فى خلافته أخاه محمد بن عبد الملك وعزله وولى بعده الحر بن يوسف ثم ولى حفص بن الوليد فأقام إلى آخر سنة ثمان ومائة وولى بعده فى سنة تسع ومائة عبد الملك بن رفاعة ثم صرفه فى سنته وولى أخاه الوليد فأقام إلى أن توفى سنة تسع عشرة فولى بعده عبد الرحمن بن خالد الفهمى فأقام سبعة أشهر وصرف وأعيد حنظلة بن صفوان فى سنة عشرين ثم صرفه وأعاد حفص بن الوليد فأقام ثلاث سنين ثم عزل وكان عبد الله بن الحجاب متولى الخراج بمصر فى سنة سبع ومائة للهجرة أى سنة سبع وعشرين وسبعمائة للميلاد فاشتد على القبط فى تحصيل الخراج شدة بالغة وزاد قيراطاً فى كل دينار فاسترحموه فلم يقبل فانتقض عليه عامة الحوف الشرقى من القبط فحاربهم وقتل وسبى ونهب وخرب وأراق الدماء أبحرا وقد كان قبله فى سنة أربع ومائة للهجرة اشتد أسامة بن زيد التنوخى متولى الخراج عليهم وأوقع بهم وأخذ أموالهم ووسم أيدى الرهبان بحلقة حديد منقوش عليها اسم الراهب وديره وتاريخه فكان إذا وجد أحدهم بغير وسم قطع يده

وشهره وكتب إلى جميع العمال بأن من وجد من النصارى وليس معه منشور يؤخذ منه عشرة دنانير ثم كان منه بعد ذلك أن كبس دياراتهم وقبض على كثير من الرهبان بغير وسم فضرب أعناقهم وضرب باقيهم بالسياط حتى ماتوا تحت الضرب ثم أمر فهدموا الكنائس ونهبوا ما فيها فكانت شدة عظيمة للغاية ووصل الخبر بذلك إلى هشام بن عبد الملك فكتب هشام إلى مصر بأن يجرى النصارى على عوائدهم وما بأيديهم من العهد فلم يعمل حنظلة بن صفوان بما رسم به هشام بل شدد عليهم فى ولايته الثانية وزاد فى الخراج وأحصى الناس والبهائم وجعل على كل رجل منهم وسما صورة أسد وتتبعهم فمن وجد يده بغير وسم قطع يده فازدادت الشدة وعظم أمرها أياماً كثيرة وكادت تهب الفتنة وتعم سائر البلاد فخاف العمال وانكفوا وسكنت الأحوال.

ومات فى خلافة هشام الأكسندروس بطرك الإسكندرية فكانت مدته أربعاً وعشرين سنة قاسى فيها من البلايا والمحن ما مرّ بك بيانه فخلا الكرسى بعده أربع سنين فأقيم بعده قسيما أو هو قزمان وهو رابع أربعيهم وأصله من نبا موسير فأقام سنة ومات ولم يعرف من أخباره شيء فقام بعده تاودورو وهو خامس أربعيهم وكان فى دير أبو يحنس وفى أيامه أحدثت كنيسة يوقنا بخط الحمرة ظاهر مدينة مصر فقام جماعة من المسلمين فى سنة سبع عشرة ومائة للهجرة أى نحو سنة سبع وثلاثين وسبعمائة للميلاد على الوليد بن رفاعة أمير مصر يومئذ بسببها وشددوا فى طلب هدمها وكادت الفتنة تنتشر ويعظم ضرامها وبقى الحال هكذا أياماً كثيرة ثم سكنت، وفى سنة سبع ومائة أى فى خلافة هشام بن عبد الملك تمكن ملك الروم يومئذ من إقامة بطرك للملكية بالإسكندرية فمضى ومعه هدية سنية للغاية إلى هشام فكتب له برد كنائس الملكية إليهم فأخذوا يومئذ من المتأصلين كنيسة البشارة وكان الملكيون أقاموا سبعاً وسبعين سنة بغير بطرك فى أرض مصر من عهد عمر بن الخطاب إلى خلافة هشام بن عبد الملك فغلب المتأصلون فى هذه المدة على كنائس مصر كافة وأقاموا منهم بها أساقفة وبعث إليهم أهل بلاد النوبة فى طلب أساقفة فسيروا إليهم جماعة فصارت النوبة من ذلك العهد على مذهب دسقورس وبقيت كذلك إلى أن تفشت فيها الديانة الإسلامية وعمت سائر أرجائها فدانت بها إلى هذا الحين، ولما مات هشام بن عبد الملك تولى الخلافة بعده ابن أخيه الوليد بن يزيد المعروف بالفاسق.

(الفصل الحادى عشر)

(فى خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك)

ثم قام بالأمر بعد هشام ابن أخيه الوليد بن يزيد المعروف بالفاسق بويع له بالخلافة فى شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة للهجرة أى نحو سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة للميلاد يوم موت عمه هشام بالرصافة. وقد كان أبوه حين احتضر عهد بالأمر إلى هشام أخيه بأن يكون العهد من بعده لولده الوليد. فلما مات هشام بويع له وهو إذ ذاك بالبريه فارا من عمه هشام لأنه كان بينه وبين عمه منافسة بسبب استخفافه بالدين وشربه الخمر واشتهاره بالفسق فهم هشام بقتله ففر منه وصار لا يقيم بأرض خوفاً من هشام فلما كانت الليلة التى قدم عليه البريد فى صبيحتها بالخلافة قلق تلك الليلة قلقاً شديداً. فقال لبعض أصحابه ويحك إنه قد أخذنى الليلة قلق فاركب بنا حتى نتنفس فسارا مقدار ميلين وهما يتحدثان فى أمر هشام وما يتعلق به مما كتبه إليه بالتهديد والوعيد ثم نظرا فرأيا من بعد رهجا وصوتا ثم انكشف ذلك عن بريد يطلبونه فقال لصاحبه ويحك إن هذه رسل هشام اللهم أعطنا خيرهم. فلما قرب البريد منهما وأثبتوا الوليد معرفة ترجلوا وجاؤا فسلموا عليه بالخلافة فبهت . وقال ويحكم أمات هشام؟ قالوا: نعم ثم أعطوه الكتب فقرأها وسار من فوره إلى دمشق وكتب إلى الآفاق بأخذ البيعة فجاءته بيعتهم وكتب إليه مروان بن محمد ببيعته وأستأذنه فى القدوم عليه فلما استقرت به الخلافة أجرى على زمنى أهل الشام وعميهم وكساهم وأمر لكل إنسان منهم بخادم وأخرج لعيالات الناس الطيب والكسوة وزاد فى العطاء وزاد الوفود . قال صاحب الكامل ولم يسئل فى شىء إلا وقال:

ضمنت لكم إن لم يعقني عائق   بأن سماء الضر عنكم ستقلع
سيوشك إلحاق بعن زيادة   وأعطيه مني عليكم تبرع
فيجمعكم ديوانكم وعطاؤكم   به تكتب الكتاب شهرا وتطبع

وقال حلم الوادى المغنى كنا مع الوليد وأتاه خبر موت هشام وهنىء بولاية الخلافة وأتاه القضيب والخاتم ثم قال فأمسكنا ساعة ونظرنا إليه بعين الخلافة فقال غنونى:

طاب يومي ولذ شرب السلافة   وأتانا نعيّ من بالرصافه
وأتانا البريد ينعي هشاما   وأتانا بخاتم للخلافه
فاصطبحنا من خمر عانة صرفا   ولهونا بقينة عرافه

قال وحلف لا يبرح من موضعه حتى يغنى فى هذا الشعر وشرب عليه ففعلنا ذلك ولم نزل نغنى إلى الليل .اهـ.

وعقد فى هذه السنة يعنى السنة التى تولى الخلافة فيها لولديه الحكم وعثمان البيعة من بعده وجعلهما وليى عهده أحدهما بعد الآخر وجعل الحكم مقدماً وكتب بذلك إلى الآفاق وجعل يتنسم خبر أولاد الحسين بعد خروج زيد بن علىّ وقتله فى خلافة هشام عمه، فلما كانت سنة خمس وعشرين جاء الخبر إلى الوليد بالقبض على يحيى بن زيد بن على بن الحسين بخراسان وقد كان هرب إليها بعد موت أبيه زيد وسار منها إلى بلخ مختفياً فأقام بها عند الحريش بن عمرو بن داود فكتب الوليد يأمره أن يؤمنوه ويخلوا سبيله وسبيل أصحابه فأطلقوهم فساروا إلى نيسابور وبها عمرو بن زرارة وكان مع يحيى سبعون رجلاً فرأى يحيى تجاراً وجماعة من أبناء السبيل فسلبهم متاعهم وأخذ هو وأصحابه دوابهم ولحق بالجوزجان فسار فى أثره سالم بن أحوز فلحقه بها فقاتله قتالاً شديداً فقتل أصحاب يحيى عن آخرهم وأصاب يحيى بسهم فى جبهته فاحتزوا رأسه وسلبوه قميصه وصلبوا جثته بالجوزجان، قال صاحب الكامل فلم يزل مصلوباً حتى ظهر أبو مسلم الخراسانى واستولى على خراسان فأنزله وصلى عليه ودفنه وأمر بالنياحة عليه فى خراسان وأخذ أبو مسلم ديوان بنى أمية وعرف منه أسماء من حضر قتل يحيى فمن كان حياً قتله ومن كان ميتاً خلفه فى أهله بسوء وكانت أم يحيى ريطة بنت أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنيفة.

وكان الوليد يتظاهر بالكفر والزندقة منهمكا على شرب الخمر واللذات والقصف واللهو قليل الاهتمام بأمور الرعية، قال الحافظ ابن عساكر وغيره انهمك الوليد فى شرب الخمر ولذاته ورفض الآخرة وراء ظهره وأقبل على القصف واللهو والتلذذ مع الندماء والمغنين وكان يضرب بالعود ويوقع بالطبل ويمشى بالدف وكان قد انتهك محارم الله تعالى حتى قيل له الفاسق وكان مع ذلك أكمل بنى أمية أدباً وفصاحة وظرفا وأعرفهم بالنحو واللغة والحديث وكان جوادا مفضالا ولم يكن فى بنى أمية أكثر إدماناً للشراب والسماع ولا أشد مجونا وتهتكا واستخفافا لأمر الأمة من الوليد المذكور، ويقال إنه واقع جارية له وهو سكران وجاءه المؤذنون يؤذنون بالصلاة

فحلف أنه لا يصلى بالناس إلا هى فلبست ثيابه وتنكرت وصلت بالمسلمين وهى جنب سكرى. قال ويقال إنه اصطنع بركة من خمر فكان إذا طرب ألقى بنفسه فيها وشرب منها حتى يبين النقص فى أطرافها . اهـ.

ولما كثر مجونه وزاد حبه وولوعه للمعاقرة وشرب الخمر وإتيان المنكرات والاستخفاف بأمور الرعية قام عليه أهل دمشق واجتمعوا على خلعه وبايعوا ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك الملقب بالناقص فخرج عليه يزيد وتغلب على دمشق وكان الوليد يومئذ بناحية تدمر فى الصيد فجهز يزيد عسكرا وسار بهم نحوه فحاربوه إلى أن أحاطوا به بحصن البحرة من أرض تدمر وشددوا فى القتال وأخذوا عليه جميع الطرق وتسوّروا عليه وذبحوه وأتوا برأسه على رمح فأمر به يزيد فنصبوه على صور دمشق، وقيل لما حصره أصحاب يزيد همّ أصحابه بالقتال فنهاهم عن ذلك فأفلتوا من حوله فدخل عليه أصحاب يزيد فى قصره فقال يوم كيوم عثمان فقيل له ولا سواء فقطع رأسه وطيف به فى دمشق ثم نصب على قصره ثم على أعلى سور دمشق، وكان أكثر الناس بغضا إليه وأكبرهم حقدًا عليه أهل اليمن فسعوا فى قتله وأغروا به يزيد حتى ركب عليه وقتله، وقال حمزة بن بيض فى الوليد:

وصلت سماء الضر بالضر بعدما   زعمت سماء الضر عنا ستقلع
فليت هشاماً كان حياً يسومنا   وكنا كما كنا نرجي ونطمع

وقال أيضا:

يا وليد الخنا تركت الطريقا   واضحا وارتكبت فجا عميقا
وتماديت واعتديت وأسرف   ت وأغويت وانبعثت فسوقا
أبدا هات ثم هات وهاتي   ثم هاتي حتى تخرّ صعيقا
أنت سكران ما تفيق فماتر   تق فتقا وقد فتقت فتوقا

وحكى الماوردى فى كتاب أدب الدين والدنيا عن الوليد بن يزيد المذكور أنه تفاءل يوماً فى المصحف فخرج له قوله تعالى واستفتحوا وخاب كل جبارعنيد فمزق المصحف وأنشأ يقول:

أتوعد كل جبار عنيد   فها أنا ذاك جبار عنيد
إذا ما جئت ربك يوم حشر   فقل يارب مزقني الوليد

قال: فلم يلبث إلا أياماً قليلة حتى قتل شر قتلة وصلب رأسه على قصره ثم على أعلى سور بلده . اهـ.

قتل فى جمادى الأولى سنة ست وعشرين ومائة وكانت خلافته سنة واحدة وقيل سنة وشهرين وبموته اضطربت الأمور واختل نظام البلاد واضطرمت نار الفتنة واستنصر على بنى أمية أعداؤهم فزالت هيبتهم وذبلت شوكتهم فلم تقم لهم قائمة بعده كما سيذكر فى محله، ومع ما اشتهر به الوليد من الزندقة والتظاهر بالمنكرات فقد كان له محاسن أخرى فما نقل عنه من حسن الكلام ما قاله لما مات مسلمة بن عبد الملك لهشام وهوجالس للعزاء فقد أتاه الوليد المذكور وهو نشوان يجرّ مطرف خز عليه فوقف على هشام فقال ياأمير المؤمنين إن عقبى من بقى لحوق من مضى، وقد أقفر بعد مسلمة الصيد لمن رمى، واختل الثغر فهوى وعلى أثر من سلف، يمضى من خلف، فتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى .اهـ.

فأعرض هشام ولم يحر جواباً وسكت القوم فلم ينطقوا، قيل وقد نزه قوم الوليد مما قيل فيه وأنكروه ونفوه عنه وقالوا إنه قيل عنه وألصق به وليس بصحيح، وكان من فتيان بنى أمية وظرفائهم وشجعانهم وأجوادهم وأشدائهم وله شعر جيد للغاية لا سيما فى الخمر والغزل والعتاب وقد أخذ كثير من الشعراء معانيه فى وصف الخمر فسرقوها وأدخلوها فى أشعارهم وخاصة أبا نواس فإنه أكثرهم أخذا لها، قال المدائنى دخل ابن للغمر بن يزيد أخى الوليد على الرشيد فقال له ممن أنت؟ فقال من قريش قال من أيها؟ فأمسك فقال قل وأنت آمن ولو أنك مروان فقال أنا ابن الغمر بن يزيد فقال رحم الله عمك الوليد ولعن يزيد الناقص فإنه قتل خليفة مجمعا عليه ارفع حوائجك فرفعها فقضاها.

وفى أيامه انتقض القبط بصعيد مصر من جور العمال وشقوا عصا الطاعة فوقعت الحرب بينهم وبين الجند المرابط بمصر واقتتلوا أياماً كثيرة فقتل خلق ثم خرج يحنس القبطى وكان من فحول زمانه وكبار القوم وعظمائهم فى مدينة سمنود فحارب العمال وقاتلهم قتالاً عنيفاً ودامت الفتنة أياماً كثيرة اشتد فيها المسلمون على النصارى شدّة بالغة وطال الأخذ والردّ وعمت الصعيدين ثم انجلت بموت يحنس المذكور وخلق معه فكانت فتنة عظيمة للغاية على جميع النصارى وبموت الوليد بن يزيد تولى الخلافة بعده يزيد بن الوليد بن عبد الملك.

(الفصل الثانى عشر)

(فى خلافة يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان)

ثم قام بالأمر بعد الوليد يزيد بن الوليد بن عبد الملك بويع له بالخلافة يوم قتل ابن عمه الوليد سنة ست وعشرين ومائة هجرية أى سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة ميلادية وهو أول خليفة كانت أمه أمة وكان بنو أمية يتحرزون ذلك تعظيماً للخلافة ولما سقط إليهم أن ملكهم يزول على يد خليفة أمه أمة كانوا يتخوّفون من ذلك إلى أن ولى الخلافة الوليد بن يزيد فعلموا أن ملكهم قد انقضى، وكان يزيد المذكور يسمى الناقص وإنما سمى بذلك لأنه نقص أعطيات الناس وردّهم إلى ماكانوا عليه أيام هشام وقيل لنقصان كان فى أصابع رجليه وأول من سماه بهذا الاسم مروان بن محمد، ولما تولى الخلافة خطب الناس فذم الوليد وذكر الحاده وأنه إنما قتله لفعله الخبيث ثم قال: أيها الناس إن لكم علىّ أن لا أضع حجرا على حجر ولا لبنة ولا أكترى نهرا ولا أكثر مالا ولا أعطيه زوجة وولدا ولا أنقل مالا عن بلد حتى أسد ثغره وخصاصة أهله بما يغنيهم فما فضل نقلته إلى البلد الذى يليه ولا أجمركم فى ثغوركم فأفتنكم ولا أغلق بابى دونكم ولا أحمل على أهل جزيتكم ولكم أعطياتكم كل سنة وأرزاقكم فى كل شهر حتى يكون أقصاكم كأدناكم فإن وفيت لكم بما قلت فعليكم السمع والطاعة وحسن الوزارة وإن لم أف فلكم أن تخلعونى إلا أن أتوب وإن علمتم أحد ممن يعرف بالصلاح يعطيكم من نفسه مثل ما أعطيكم وأردتم أن تبايعوه فأنا أول من يبايعه أيها الناس لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . اهـ.

وأقام يزيد فى الخلافة والأمور مضطربة عليه إذ قامت الفتنة على ساقها وهاجت وخرج أهل حمص واختلف أهل فلسطين ووثبوا على عمالهم ووثب سليمان بن هشام بن عبد الملك بعمان وكان قد حبسه الوليد بها فخرج من الحبس وأخذ ما كان بها من الأموال وأقبل إلى دمشق وجعل يلعن الوليد ويسبه وخرج أهل اليمامة أيضاً على عاملهم يوسف ابن عمر واقتتلوا واشتد الاضطراب وعم الخلل ولم تكن لتستقر به الخلافة حتى مرض فى سنة ست وعشرين ومائة هجرية فلما علم جماعة القدرية وهم شيعته بمرضه دخلوا عليه وما زالوا به حتى رسم بالبيعة لأخيه إبراهيم ومن بعده لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك ومات لعشر بقين من ذى الحجة وقيل فى ثانى عشر جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة هجريةوهو ابن أربعين سنة وقيل: ست وأربعين وقيل: سبع وثلاثين سنة فكانت خلافته ستة

أشهر وليليتين وقيل ستة أشهر واثنى عشر يوماً وقيل خمسة أشهر واثنى عشر يوماً وكان موته بدمشق وكان يظهر التنسك وقراءة القرآن وأخلاق عمر بن عبد العزيز وكان ذا دين وورع قال الشافعى: ولى يزيد بن الوليد فدعا الناس إلى القدر . اهـ. وهو أول من خرج بالسلاح يوم العيد خرج بين صفين يحملون السلاح وكان آخر ما تكلم لما احتضر واحسرتاه واأسفاه ولما مات تولى الخلافة بعده أخوه إبراهيم بن الوليد.

(الفصل الثالث عشر)

(فى خلافة إبراهيم بن الوليد)

ثم قام بالأمر بعد يزيد أخوه إبراهيم بعهد من يزيد بويع له بالخلافة فى اليوم الذى مات فيه أخوه سنة ست وعشرين ومائة هجرية أى سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة للميلاد ولم يثبت له الأمر لاضطراب الأمور ووقوع الخلاف فكان جمعة يسلم عليه بالخلافة وجمعة بالإمارة وجمعة لا يسلم عليه لا بالخلافة ولا بالإمارة. وما زالت الأمور مضطربة والفتنة يمتد لهيبها من بلد إلى آخر إلى أن قتله مروان بن محمد وصلبه وكان مروان المذكور والياً على الجزيرة وأرمينية والموصل وأذربيجان ولاه عليها الوليد خوفاً من خروجه عليه فقد كان حضر فى جيش عظيم لقتال الوليد وردّه عن الملك ولم يبايعه حتى ولاه ما ذكر فخرج فى ثمانين ألفا من أهل الجزيرة وأهل قنسرين وأهل حمص فسير لقتالهم إبراهيم بن الوليد جنداً من دمشق مع سليمان بن هشام فنزل عين الجرف فى مائة وعشرين ألفا ونزلها أيضاً مروان فى ثمانين ألفا ودعاهم مروان إلى الكف عن قتاله وإطلاق ابنى الوليد الحكم وعثمان من السجن وضمن لهم أنه لا يطلب أحداً من قتلة الوليد فلم يجيبوه إلى شىء من ذلك وجدّوا فى قتال بعضهم وكثر القتل بينهم واشتد فانهزم أصحاب سليمان بن هشام ووضع أهل حمص السلاح فيهم فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وأتوا مروان من أسرائهم بمثل القتلى فأخذ مروان عليهم البيعة لولدى الوليد الحكم وعثمان وكانا معتقلين وهرب سليمان بن هشام مع من بقى واجتمعوا مع إبراهيم وعبد العزيز بن الحجاج فقال بعضهم لبعض: إن بقى ولدا الوليد حتى يخرجهما مروان ويصير الأمر إليهما لم يستبقيا أحداً من قتلة أبيهما فأمروا بقتلهما وأخرج يوسف بن عمر فضربت عنقه وأرادوا قتل أبى محمد السفيانى فدخل بيتاً من بيوت السجن وأغلقه فلم

يقدروا على فتحه فأرادوا إحراقه فلم يؤتوا بالنار لإحراقه حتى قيل قد دخلت خيل مروان المدينة فهربوا واختفى إبراهيم وانتهب مروان ما فى بيت المال فكان شيئاً كثيراً.

وكانت خلافة إبراهيم شهرين وعشرة أيام فبايع الناس مروان على ما سيذكر فى محله واستوثق له الأمر قبل ظهور إبراهيم بن الوليد ودخل عليه ونزل له عن الخلافة وذلك سنة سبع وعشرين ومائة هجرية أى سنة أربع وأربعين وسبعمائة ميلادية، واستعمل على مصر فى خلافته حسان بن عتاهية الخبيبى ثم عزله وأعاد حفص بن الوليد فبقى إلى أن عزل فى سنة ثمان وعشرين ومائة هجرية.

(الفصل الرابع عشر)

(فى خلافة مروان بن محمد)

لما قتل إبراهيم بن الوليد بويع لمروان بن محمد المنبوز بالحمار بالخلافة سنة ست وعشرين ومائة هجرية أى سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة ميلادية، وتحرير الخبر أنه لما دخل مروان دمشق وهرب إبراهيم بن الوليد ومن معه كما تقدّم القول ثار مَن بدمشق من موالى الوليد إلى دار عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك فقتلوا الحجاج ونبشوا قبر يزيد بن الوليد وأخرجوا جثته وصلبوها على باب الجابية وكبرت الفتنة وأتى مروان بولدى الوليد الحكم وعثمان مقتولين وبيوسف بن عمر فدفنهم وأخرج محمد السفيانى من محبسه يجرّ فى قيوده فلما وقف السفيانى بين يديه سلم عليه بالخلافة وقد كان يسلم على مروان إلى ذلك اليوم بالإمرة فأسكته مروان فقال محمد السفيانى: إنهما جعلاها لك بعدهما، قال صاحب الكامل وأنشده شعرا قاله الحكم:

ألا من مبلغ مروان عنّي ... وعمي الغمر طال به حنينا
بأني قد ظلمت وصار قومي ... على قتل الوليد مشايعينا
أيذهب كلهم بدمي ومالي ... فلا غثاً أصبت ولا سمينا
ومروان بأرض بني نزار ... كليث الغاب مفترس عرينا
أتنكث بيعتي من أجل أمي ... فقد بايعتم قبلي هجينا
فإن أهلك أنا وولي عهدي ... فمروان أمير المؤمنينا

ثم قال لمروان: ابسط يدك أبايعك وسمعه جميع من حضر فكان أول من بايع معاوية بن يزيد بن حصين بن نمير وعظماء أهل حمص والناس بعدهم فلما استقر له الأمر رجع إلى أهله بحوران فتقدم إليه جماعة فى طلب الأمان لإبراهيم بن الوليد وسليمان بن هشام فأمنهما فقدما عليه وبايعاه كما تقدم القول، ولم تستقر به الخلافة حتى ظهر الاضطراب وظهر عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب بالكوفة ودعا الناس إلى نفسه وتغلب على حلوان والجبال وهمدان وأصبهان والرى وكثرت لمومه وخرج إليه عبيد أهل الكوفة وانتقض أهل حمص فقاتلهم مروان ودخل حمص وأعمل فى أهلها السيف وهدم من سورها نحو غلوة وخالف أهل الغوطة فحصروا دمشق ومقدمهم يومئذ يزيد بن خالد فسير إليهم مروان عشرة آلاف من حمص فقاتلوهم قتالاً شديداً وأخذوا مقدمهم يزيد بن خالد المذكور فاحتزوا رأسه وبعثوا به إلى مروان بحمص، واختلف أيضاً أهل فلسطين وانتقضوا فسير لهم مروان عسكراً ومقدمهم أبو الورد فقاتلوهم وشدد أبو الورد فى قتالهم حتى هزمهم وجاء مروان الخبر وهو يومئذ بدير أيوب ففرح بذلك وبايع لابنيه عبيد الله وعبد الله وزوجهما ابنتى هشام بن عبد الملك. قال أصحاب التاريخ: فجمع لذلك بنى أمية واستقام له الشام ماخلا تدمر فسار إليها وأرسل من يقاتلها فاستأمن من بها بعد القتال وهدم سورها، وأرسل مروان إلى الشام بعد ذلك فى طلب الجند لقتال الضحاك بالعراق وقد كان خرج عن طاعة مروان وتقدم مروان إلى قرقيسيا فبينما هو بها إذ رجع عشرة آلاف ممن كان أخذهم من أهل الشام لقتال الضحاك فنزلوا بالرصافة وحبوا إلى سليمان بن هشام بن عبد الملك خلع مروان بن محمد ومنوه بالخلافة إن هو فعل ذلك فأجابهم وسار بإخوته ومواليه معهم فعسكر بقنسرين وكاتب أهل الشام فأتوه من كل وجه وبلغ الخبر مروان فرجع إليه من قرقيسيا واجتمع إلى سليمان بن هشام نحو من سبعين ألفا من أهل الشام وغيرهم وعسكر بقرية خساف من أرض قنسرين فجاءه مروان عند وصوله واقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم سليمان ومن معه واتبعتهم خيل مروان تقتل وتأسر واستباحوا عسكرهم فبلغ قتلى أصحاب سليمان زهاء ثلاثين ألفا وقتل إبراهيم بن سليمان وأكثر ولده ومضى سليمان حتى دخل حمص وانضم إليه من بقى من عسكره فتحصن بها ورمم ما تخرّب من أسوارها فتبعه مروان وقاتله فهزمه فخرج سليمان ومضى إلى تدمر فأقام بها ونزل مروان على حمص فحاصر أهلها عشرة أشهر. قال أصحاب التاريخ:

ونصب عليهم نيفاً وثمانين منجنيقا يرمى بها الليل والنهار فلما تتابع عليهم البلاء طلبوا الأمان فأمّنهم.

وفى خلال هذه الخطوب والحروب ظهر أبو مسلم الخراسانى وهو عبد الرحمن صاحب الدعوة العباسية بخراسان وظهر السفاح بالكوفة فلما استقر للسفاح الأمر وظهرت آثار الدعوة لبنى العباس على ما سنذكره فى محله إن شاء الله جهز السفاح عمه عبد الله بن على بن عبد الله بن عباس لقتال مروان بن محمد فالتقى الجمعان بالزاب زاب الموصل وجعل كل فريق يرتب عسكره ويبالغ فى ترتيبها فقال مروان لعبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز: ياعبد العزيز إن زالت اليوم الشمس ولم يقاتلونا كنا الذين ندفعها إلى المسيح عليه السلام وإن قاتلونا فأقبل الزوال فإنا لله وإنا إليه راجعون، وأرسل مروان إلى عبد الله بن على مقدّم عسكر السفاح يسأله الموادعة. فقال عبد الله كذب ابن رزيق لا تزول الشمس حتى أوطئه الخيل إن شاء الله فقال مروان لأهل الشام: قفوا لا تبدؤهم بالقتال وجعل ينظر إلى الشمس فحمل الوليد ابن معاوية بن مروان بن الحكم وهو ختن مروان بن محمد على ابنته فغضب مروان من ذلك وشتمه وأمر عبد الله الناس بأن ينزلوا عن خيلهم فنزلوا وأشرعوا الرماح وجثوا على الركب ولم يظهروا عزمًا على القتال فاندفع عليهم أصحاب مروان وقاتلوهم فجعل أهل الشام يتأخرون كأنهم يدفعون فنادى عند ذلك عبد الله بن علىّ ياأهل خراسان يالثارات إبراهيم يامحمد يامنصور واشتد بينهم القتال وحمى الوطيس وضعفت همم أصحاب مروان وتثاقلوا عن القتال فكان مروان ذلك اليوم لا يدبر شيئاً إلا كان فيه الخلل وانفشل عسكره فشلاً عظيماً وانهزموا وانهزم مروان وقطع الجسر فكان من غرق يومئذ عند عبور ذلك الجسر أكثر ممن قتل، وكتب عبد الله بن علىّ إلى السفاح بالفتح وحوى عسكر مروان بما فيه فكان فيه من السلاح والكراع والأموال شيئاً كثيراً للغاية فلما وصل الكتاب إلى السفاح فرح فرحاً لا يوصف وخر ساجداً لله تعالى وأمر لمن شهد الواقعة بخمسمائة دينار ورفع أرزاقهم إلى ثمانين، ولما تمت هزيمة مروان تبعه عبد الله إلى أن وصل نهر الأردن فلقى جماعة من بنى أمية وكانوا نيفًا وثمانين رجلاً فقتلهم عن آخرهم ثم أمر عبد الله بسحبهم فسحبوا وبسط عليهم بساط وجلس هو وأصحابه فوقهم واستدعى بالطعام فأكلوا وهم يسمعون أنينهم من تحتهم فقال عبد الله: يوم كيوم الحسين ولا سواء ولما رأى مروان اشتداد الفتنة واستفحال الخطب وأن الأعداء كادوا يطبقون عليه من كل جانب وكان قد نزل بحوران قام منها قاصداً أبا عون عبد الملك بن يزيد الأسدى الذى ولاه

السفاح على شهر زور فلاقاه جند عبد الله بن علىّ العباسى فمر فى أشهر أمّة بالموصل فرأى الرايات سودًا وهى رايات العباسيين فذهب إلى حوران وأقام نيفا عن عشرين يوماً حتى دنا منه عسكر السفاح فسار إلى حمص ثم إلى دمشق ثم إلى فلسطين وكان السفاح قد كتب إلى عمه عبد الله فتبعه عبد الله إلى دمشق وجهز السفاح أيضاً عمه صالح بن علىّ على طريق السماوة فلحق بأخيه عبد الله وقد نزل دمشق وفتحها عنوة وأباحها ثلاثة أيام ونقض عبد الله سورها فلم يبق فيه حجراً على حجر وهرب مروان إلى مصر فتبعه صالح بن علىّ ومروان ينهزم أمامه حتى أدركه أبو عون وجماعة أصحاب صالح بعد حين فى كنيسة بأبى صير من صعيد مصر وقد تبددت أصحابه ولم يبق معه إلا القليل جداً فقاتلوه ليلاً وكان أصحاب صالح قليلين فخافوا إن هم أصبحوا ورأوا أصحاب مروان قلتهم أهلكوهم فتحالفوا على القتال ليلاً وكسروا أجفان سيوفهم وحملوا على أصحاب مروان فانهزموا وحمل رجل على مروان فطعنه وهو لا يعرفه وصاح صائح صرع أميرالمؤمنين فابتدروه واحتزوا رأسه وبعثوا به إلى صالح فلما وصل إليه أمر أن يقص لسانه فقطعوا لسانه وتركوه لحظة لطيفة فأتت هرة فأخذته فقال صالح: ماذا ترينا الأيام من العجائب والعبر هذا لسان مروان قد أخذته هرة وذلك فى ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائة هجرية وقيل ثلاث وثلاثين ومائة أى نحو سنة خمسين وسبعمائة ميلادية وهو ابن ست وخمسين سنة فكانت خلافته خمس سنين وشهرين وعشرة أيام وهو آخرخلفاء بنى أمية فكانوا أربعة عشر خليفة أولهم معاوية بن أبى سفيان وآخرهم مروان الجعدى المنبوز بالحمار وكانت مدّة خلافتهم نيفا وثمانين سنة وهى ألف شهر، ورجع صالح إلى الشام ومعه رأس مروان وخلف أبا عون بمصر فلما رفع صالح رأس مروان إلى السفاح سجد لله شكراً. وذكر أنه بينما كان مروان يحارب على الزاب ترجل عن فرسه لحاجة طبيعية فرجع الفرس إلى الوراء فظن عسكره أنه قتل فوقع فيهم الخوف وانفشلوا وهربوا فصار ذهاب ملكهم مثلاً فقيل: «انتهى ملك بنى أمية ببولة» ولما قتل مروان هرب ولداه عبيد الله وعبد الله إلى أرض الحبشة فقتل عبيد الله قتله الحبشان ونجا عبد الله فى عدد من أصحابه وبقى إلى خلافة المهدى حتى قبض عليه نصر بن محمد بن الأشعث عامل فلسطين وبعث به إلى المهدى، وكان مروان المذكور بطلاً شديدًا شجاعاً ذا هيبة أبيض ربعة أشهل

ضخما كث اللحية وكان حازمًا سياسيًا واستعمل على مصر فى خلافته الحوثرة بن سهيل الباهلى ثم ولى بعده المغيرة بن عبيد الفزارى سنة إحدى وثلاثين ومائة ثم ولى عبد الملك بن مروان مولى لخم سنة ثنتين وثلاثين ومائة فلما قامت الدولة العباسية واستقام الأمر للسفاح على ما سيذكر فى محله وانهزم مروان الحمار وهرب إلى مصر ولى السفاح نيابة الشام ومصر صالح بن علىّ بن عبد الله بن عباس فسار صالح بعد قتل مروان إلى الشام واستخلف على مصر أبا عون عبد الملك بن يزيد الأسدى كما تقدم القول.

(فصل)

(فى كيفية الدعوة لبنى العباس وفى ظهور دولتهم)

لما كان ظهور الدولة العباسية من الأهمية التاريخية بمكان لا سيما وفى ذكر حوادث ذلك الظهور وأصل الدعوة لبنى العباس وما ترتب عليها تذكرة وعبرة رأيت أن لا بأس بإيراد تفصيلها هنا إظهاراً لأصل الدعوة وكيف كان كتمانها بين الأحزاب أعواماً مع كثرة الدعاة وتخلفهم على الناس. قال أصحاب التاريخ: لما كان محمد ابن علىّ بن عبد الله بن عباس نازلاً بأرض الشراة من أعمال البلقاء بالشام خرج أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية إلى الشام يريد لقاء سليمان بن عبد الملك فاجتمع به محمد بن علىّ بن عبد الله بن عباس المذكور فأحسن صحبته واجتمع أبو هاشم بسليمان فأكرمه وقضى حوائجه ورأى من علمه وفصاحته ما حسده عليه وخافه فوضع عليه من وقف على طريقه فسمه فى لبن فلما أحس أبو هاشم بذلك قصد الحميمة وبها محمد بن علىّ بن عبدالله المذكور فنزل عليه فأخبره بخبره وأعلمه أن أمر الخلافة صائر إلى ولد محمد بن علىّ بن عباس المذكور وعرفه ما يعمل وأوصاه بكتمان الأمر وكان أبو هاشم قد أعلم شيعته من أهل خراسان والعراق عند ترددهم إليه أن أمر الخلافة صائر إلى ولد محمد بن علىّ وأوصاهم بقصده بعده. فلما مات أبو هاشم قصدت شيعته محمد بن علىّ وبايعوه وعادوا فدعوا الناس إليه فأجابوهم وسير محمد بن عبد الله إلى الآفاق جماعة فوجه ميسرة إلى العراق ووجه محمد بن خنيس وأبا عكرمة السراج وهو أبو محمد الصادق وحيان العطار وخال إبراهيم بن سلمة إلى خراسان وعليها الجراح الحكمى وأمرهم بالدعاء إليه وإلى أهل بيته فلقوا من لقوا ثم انصرفوا بكتب من استجاب لهم إلى محمد بن علىّ فدفعوها

إلى ميسرة فبعث بها ميسرة إلى محمد بن عليّ ففرح بها واختار أبو محمد الصادق لمحمد بن عليّ اثنى عشر نقيباً وسبعين رجلاً أخر فكتب لهم محمد بن على كتاباً ليكون لهم مثالاً وسيرة يسيرون بها وذلك سنة مائة للهجرة فعملوا به وجعلوا يدعون الناس فظهر أمرهم بخراسان فجاء رجل إلى سعيد بن خزيمة عامل خراسان فقال له: إن ههنا قوماً قد ظهر منهم كلام قبيح وأعلمه حالهم فبعث سعيد إليهم فأتى بهم فقال: من أنتم؟ قالوا ناس من التجار. قال فما هذا الذى يحكى عنكم قالوا :لا ندرى قال :جئتم دعاة قالوا: إن لنا فى أنفسنا وتجارتنا شغلا عن هذا فقال: من يعرف هؤلاء فجاء ناس من أهل خراسان أكثرهم من أهل ربيعة واليمن فقالوا: نحن نعرفهم وهم علينا إن أتاك منهم شيء تكرهه فخلى سبيلهم فظلوا على ما كانوا عليه من الدعوة إلى محمد بن عليّ وابن خزيمة لاه عنهم.

فلما كانت سنة أربع ومائة هجرية ولد (أبو العباس عبد الله) بن محمد بن عليّ ابن محمد بن على فى ربيع الآخر وهو السفاح وجاء إلى أبيه محمد بن عليّ (أبو محمد الصادق) من خراسان فى عدة من أصحابه فأخرج إليهم محمد بن على ولده أبا العباس المذكور فى خرقة وله خمسة عشر يوماً وقال لهم: هذا صاحبكم الذى يتم الأمر على يده ففرحوا به وقبلوا أطرافه. وقال لهم والله ليتمن الله هذا الأمر حتى تدركوا ثأركم من عدوكم، قالوا: وكان أول من قدم خراسان من دعاة بنى العباس زياد أبو محمد مولى همدان فى ولاية أسيد بعث به محمد بن على بن عبدالله بن عباس. وقال له انزل فى اليمن والطف بمضر ونهاه عن رجل بنيسابور يقال له غالب لأنه كان مفرطا فى حب بنى فاطمة. ويقال أول من أتى خراسان بكتاب محمد بن على حرب بن عثمان مولى بنى قيس بن ثعلبة من أهل بلخ فلما قدم زياد دعا إلى بنى العباس وذكر سيرة بنى أمية وظلمهم وأطعم الناس الطعام فقدم عليه غالب من نيسابور فتناظرا فى تفضيل آل عليّ وآل العباس ثم افترقا وأقام زياد بمرو شتوة فكان يتخلف إليه من أهلها جماعة فعلم أسيد بخبره فدعاه وقال: ما هذا الذى بلغنى عنك؟ قال الباطل: إنما قدمت إلى تجارة وقد فرقت مالى على الناس فإذا اجتمع خرجت فقال له أسيد أخرج عن بلادى فانصرف من عنده وعاد إلى ما كان عليه من دعوة الناس فرفعوا أمره إلى أسيد ثانية وخوّفوه من جانبه فأحضره وقتله وقتل معه عشرة من أهل الكوفة ولم ينج منهم إلا صغيران وقيل بل أمر بزياد أن يوسط بالسيف أى يقطع نصفين فضربوه بالسيف فلم يعمل فيه فكبر الناس فقال أسيد ما هذا قيل نبا السيف عنه ثم ضرب أخرى فنبا السيف عنه ثم

ضربه الثالثة فقطعه اثنين وعرض البراءة على أصحابه فمن تبرأ خلى عنه وذلك قبل الأضحى بأربعة أيام، فقام بالأمر بعدهم رجل من أهل الكوفة يسمى كثيراً فنزل على أبى النجم فكان يأتى إليه كل من تبع مقالة زياد وبقى على هذا الحال سنة أو سنتين، واشتد ابن أسيد والى خراسان على من بها من الأحزاب فقتل وجلد وحبس منهم خلقا ووجه بكير بن ماهان فى نحو سنة ثمان عشرة ومائة هجرية عمار بن يزيد والياً على شيعة بنى العباس فنزل مرو وغيّر اسمه وتسمى بخداش ودعا إلى محمد بن علىّ فتسارع إليه الناس وأطاعوه فلما ظهرت كلمته غير ما دعاهم إليه وأظهر دين الخرّمية ورخّص لبعضهم فى نساء بعض. وقال لهم: إنه لا صوم ولا صلاة ولا حج وأن تأويل الصوم أن يصام على ذكر الإمام فلا يباح باسمه والصلاة الدعاء له والحج القصد إليه وكان يتأوّل بعض آيات القرآن وكان ممن اتبعه على مقالته مالك بن الهيثم والحريش بن سليم الأعجمى وغيرهما فأخبرهم أن محمد بن على بن عبد الله بن العباس أمر بذلك فبلغ خبره أسيد بن عبد الله والى خراسان فظفر به فأغلظ القول لأسيد فقطع لسانه وسمل عينيه ثم صلبه، وكان لما ظهر أمر خداش المذكور وأطاعه من أطاعه من الأحزاب بخراسان أهمل محمد بن على بن عبد الله أمرهم وترك مكاتبتهم ومراسلاتهم فلما قتل خداش وجهوا إليه سليمان ابن كثير ليعلمه أمرهم وما هم عليه فعنفه محمد فى ذلك ثم صرفه إلى خراسان ومعه كتاب مختوم فلما فضوه لم يروا فيه إلا بسم الله الرحمن الرحيم فعظم ذلك عليهم وعلموا مخالفة خداش لأمره ثم وجه إليهم بكير بن ماهان بعد ذلك وكتب معه إليهم يعلمهم كذب خداش فلم يصدقوه واستخفوا به فعاد بكير إلى محمد فبعث معه بعصى مضبية بعضها بحديد وبعضها بنحاس فجمع بكير النقباء والشيعة ودفع إلى كل واحد منهم عصا فعلموا أنهم مخالفون لسيرته فتابوا ورجعوا.

وما زال السر مكتوماً والدعوة إلى ولد العباس جارية والنقباء يعملون على جمع القلوب واستمالة الناس حتى كانت سنة تسع وعشرين ومائة هجرية ظهر أبو مسلم الخراسانى فكان تمام الأمر على يديه. قال جماعة الكتاب: وأبو مسلم هذا هو إبراهيم بن عثمان بن بشار بن سدوس بن جودزده من ولد بزرجمهر الفارسى ويكنى أبا إسحق ولد بأصبهان ونشأ بالكوفة وكان أبوه أوصى إلى عيسى بن موسى السراج فحمله إلى الكوفة وهو ابن سبع سنين. وقال بعضهم: إنه من أهل ضياع بنى معقل العجلية بأصبهان أو غيرها من الجبل وكان اسمه إبراهيم ويلقب حيكان وكان مع أبى موسى السراج صاحبه يخرز الأعنة ويعمل السروج وله معرفة بصناعة الأدم

والسروج فكان يحملها إلى أصبهان والجبال والجزيرة والموصل ونصيبين وآمد وغيرها يتجر فيها فاتصل بإبراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس الإمام أحد الأئمة الاثنى عشر من ولد العباس فتخيل فيه النجابة والفتوّة وتحقق أن الأمر يتم على يديه لبنى العباس فقال له: غيّر اسمك فإنه لا يتم لنا الأمر إلا بتغيير اسمك فسمى نفسه عبد الرحمن بن مسلم ويكنى أبا مسلم وكان له من العمر يومئذ تسع عشرة سنة ثم زوّجه إبراهيم الإمام ابنة عمران بن إسماعيل الطائى المعروف بأبى النجم وهى بخراسان مع أبيها فبنى بها أبو مسلم بخراسان وولدت له ابنتين فاطمة وأسماء وفاطمة هى التى تذكرها الخرمية فى مذهبهم الذى دعاهم إليه خداش، قال ابن خلكان: ونشأ أبو مسلم عند عيسى بن معقل بن عمير أخى إدريس بن معقل جد لأبى دلف العجلى برستاق فايق فلما ترعرع اختلف مع ولده إلى المكتب فخرج أديبًا لبيبًا يشار إليه فى صغره ثم إنه اجتمع على عيسى بن معقل وأخيه إدريس بقايا من الخراج تقاعدا من أجلها عن حضور مؤدّى الخراج بأصبهان فأنهى عامل أصبهان خبرهما إلى خالد بن عبد الله القسرى والى العراقين فأنفذ خالد من الكوفة من حملهما إليه بعد قبضه عليهما فتركهما خالد فى السجن فصادفا فيه عاصم بن يوسف العجلى محبوساً بسبب من أسباب الفساد وقد كان عيسى بن معقل قبل أن يقبض عليه أنفذ أبا مسلم إلى قرية من رستاق فايق لاحتمال غلتها فلما اتصل به خبر عيسى بن معقل باع ماكان احتمله من الغلة وأخذ ما كان اجتمع عنده من ثمنها ولحق بعيسى بن معقل فأنزله عيسى بداره فى بنى عجل وكان يختلف إلى السجن ويتعهد عيسى وإدريس ابنى معقل وكان قد قدم الكوفة جماعة من نقباء الإمام محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب مع عدّة من الشيعة الخراسانية فدخلوا على العجليين السجن مسلمين فصادفوا أبا مسلم عندهم فأعجبهم عقله ومعرفته وكلامه وأدبه ومال هو إليهم ثم عرف أمرهم وأنهم دعاة واتفق مع ذلك أن هرب عيسى وإدريس من السجن فعدل أبو مسلم من دور بنى عجل إلى هؤلاء النقباء ثم خرج معهم إلى مكة حرسها الله تعالى فأورد النقباء على إبراهيم بن محمد الإمام وكان قد تولى الإمامة بعد وفاة أبيه عشرين ألف دينار ومائتى ألف درهم وأهدوا إليه أبا مسلم فأعجب به وبمنطقه وعقله وأدبه وقال لهم هذا عضلة من العضل وأقام أبو مسلم عند الإمام يخدمه حضراً وسفراً ثم إن النقباء عادوا إلى الإمام وسألوه رجلاً يقوم بأمر خراسان فقال: إنى جرّبت هذا الأصبهانى وعرفت ظاهره وباطنه فوجدته حجرًا لا يرض ثم دعا أبا مسلم وقلده الأمر وأرسله إلى

خراسان فكان من أمره ما كان وكان إبراهيم الإمام قد أرسل إلى أهل خراسان سليمان بن كثير بن الحرانى يدعوهم إلى أهل البيت فلما بعث أبا مسلم أمر من هناك بالسمع والطاعة وأمره أن لا يخالف سليمان بن كثير فكان أبو مسلم يختلف ما بين إبراهيم وسليمان. اهـ.

ويقال: إن أبا مسلم المذكور ولد بمدينة جي الأصبهانية وكان أول ظهوره بمرو يوم الجمعة لتسع بقين من رمضان سنة تسع وعشرين ومائة والوالى بخراسان يومئذ نصر بن سيار الليثى من قبل مروان بن محمد المنبوز بالحمار آخر خلفاء بنى أمية فكتب نصر يومئذ إلى مروان يقول:

أرى جذعا ان يثن لم يقو ريض عليه فبادر قبل أن يثني الجذع

وكان مروان يومئذ مشغولاً عن أبى مسلم بغيره ممن خرج بالجزيرة وغيرها فلم يجبه عن كتاب نصر بن سيار ولم يكن أبو مسلم يومئذ إلا فى خمسين رجلا فكتب نصر ثانية إلى مروان يقول:

أرى خلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن النار بالزندين تورى وإن الحرب أولها كلام
لئن لم يطفها عقلاء قوم يكون وقودها جثث وهام
أقول من التعجب ليت شعري أأيقاظ أمية أم نيام
فإن كانوا لحينهم نيامًا فقل قوموا فقد حان القيام

فلم يرد عليه الجواب ولما علم مروان بخبر إبراهيم الإمام وتخلف الناس إليه وتقربهم منه سير رجلاً للقبض عليه ووصف له صفته وهى صفة أبى العباس لأنه كان يسمع أن فى الكتب أن من كانت هذه صفته يفنيهم ويسلبهم ملكهم، قال ابن أشعث: قال خالد بن يزيد بن معاوية لعبد الملك بن مروان أما إذا كان الفتق من سجستان فليس عليك منه بأس إنما كنا نتخوّف لو كان من خراسان يعنى حيث غلب أبو مسلم. وقال محمد بن على بن عبد الله لنا ثلاثة أوقات موت الطاغية يزيد بن معاوية ورأس المائة وفتق إفريقية فعند ذلك يدعو لنا دعاة ثم تقبل أنصارنا من المشرق حتى ترد خيلهم ويستخرجون ما كنز الجبارون . اهـ.

وقال مروان لرسوله إن اسم الذى تقبض عليه إبراهيم بن محمد فلما وصل الرسول أخذ أبا العباس بالصفة التى قال له عنها مروان. وقد كان إبراهيم مختفيًا

فظهر وأمن جانب الرسول فقال جماعة لرسول مروان انك إنما أمرت بالقبض على إبراهيم وهذا الذى قبضت عليه عبد الله فأخذ الرسول بقولهم وخلى عن أبى العباس وقبض على إبراهيم فانطلق به إلى مروان وتحقق إبراهيم أنه مقتول فنعى نفسه إلى أهل بيته وأمرهم بالمسير إلى الكوفة مع أخيه أبى العباس عبد الله وبالسمع له والطاعة وأوصى إلى أبى العباس وجعله الخليفة بعده فسار أبو العباس بمن معه من أهل بيته حتى قدموا الكوفة فى صفر وشيعتهم من أهل خراسان بظاهرالكوفة.
ولما وصل رسول مروان ومعه إبراهيم دخل به على مروان فقال مروان: ليست هذه الصفة التى وصفت لك فقال هذا إبراهيم الذى سميته فأمر به مروان فحبسوه وأعاد جماعة أخر فى طلب أبى العباس.

وكان من تمام حظ أبى مسلم وقوع الخلاف بين الكرمانى ونصر عاملى مروان على مرو فسير أبو مسلم النقباء إلى طخارستان فما دون بلخ ومرو الروذ والطالقان وخوارزم يدعون الناس إلى طاعة بنى العباس. وقال لهم إن أعجلكم عدوّكم دون الوقت بالأذى والمكروه فقد حل لكم أن تدفعوا عن أنفسكم وتجرّدوا السيوف وتجاهدوا أعداء الله ومن شغله منكم عدوّه عن الوقت فلا حرج عليكم أن تظهروا بعد الوقت، وكان قد اشتدّ الخلاف بين الكرمانى ونصر عاملى مروان وقامت الحرب بينهما وحمى وطيسها فاشتدّت عزيمة أبو مسلم وبث دعاته بين الناس وأظهر أمره بلا تحاش فأتاه فى ليلة واحدة أهل ستين قرية فلما كانت ليلة الخميس لخمس بقين من رمضان من السنة أى سنة تسع وعشرين ومائة عقد اللواء الذى كان الإمام بعث به الذى يسمونه الظل على رمح طوله ثلاثة عشر ذراعا وهو يتلو: ﴿**أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير**﴾ ولبسوا السواد هو وسليمان ابن كثير وأخوة سليمان ومواليه ومن كان أجاب الدعوة من أهل سفيذنج وأوقدوا النيران ليلتهم تلك لشيعتهم وكانت علامتهم فتجمع إليه الناس حين أصبحوا معدّين فقال لهم إنى مؤوّل لكم الظل والسحاب. أن السحاب يطبق الأرض وأن الأرض كما لا تخلو من الظل كذلك لا تخلو من خليفة عباسى إلى آخر الدهر ففرحوا بمقالته واشتدت عزائمهم.

وقدم على أبى مسلم الدعاة بمن أجاب الدعوة فكان أوّل من قدم عليه أهل التقادم مع أبى الوضاح فى تسعمائة راجل وأربعة فرسان ومن أهل هرمز فرّه جماعة وقدم مع أبى القاسم محرز بن إبراهيم الجوبانى ألف وثلاثمائة راجل وستة عشر فارسًا ودخلوا جميعاً إلى معسكر أبى مسلم وهم يصيحون بأصوات التهليل والتكبير

وكان أبو مسلم قد عسكر بسفيذنج فلما رأى هذه الجموع فرح بها وحصن حصن سفيذنج ورمه وسد دروب سفيذنج ولبث على هذا الحال إلى يوم عيد الفطر فأمر أبو مسلم فى ذلك اليوم سليمان بن كثير أن يصلى به وبالشيعة صلاة العيد ونصب له منبرا بالعسكر ورسم له أن يبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة. قال بعض الكتاب: وكان بنو أمية يبدأون بالخطبة قبل الصلاة وبالآذان والإقامة، ورسم له أيضاً بست تكبيرات تباعاً ثم يقرأ ويركع بالسابعة ويكبر فى الركعة الثانية خمس تكبيرات تباعًا ثم يقرأ ويركع بالسادسة ويفتح الخطبة بالتكبير ثم يختمها بالقرآن وكان بنو أمية يكبرون فى الأولى أربع تكبيرات يوم العيد وفى الثانية ثلاث تكبيرات فلما قضى سليمان الصلاة نهض أبو مسلم والشيعة إلى طعام قد أعده لهم فأكلوا فرحين مسرورين، ولم يمض إلا القليل حتى خرج الكرمانى ونصر إلى القتال فى واقعة يقال لها واقعة الخندقين فاقتتلوا قتالاً شديداً فلما استيقن أبو مسلم أن كلا الفريقين قد أثخن صاحبه وأنه لا مدد لهم جعل يكتب إلى أصحاب الكرمانى يذم أصحاب نصر وإلى أصحاب نصر يذم أصحاب الكرمانى حتى صار هوى الفريقين معه وأقبل حتى نزل بين خندق الكرمانى وخندق نصر فهابه الفريقان وبعث إلى الكرمانى يقول له: إنى معك ففرح الكرمانى بذلك فانضم أبو مسلم إليه فلما علم نصر بذلك أكبره جدا وأرسل إلى الكرمانى يقول ويحك لا تغتر فوالله إنى لخائف عليك وعلى أصحابك منه وطال بين الفريقين الأخذ والرد فمال الكرمانى إلى مقالة نصر وخرج ليكتب كتاب الصلح بينه وبين نصر فأبصر نصر منه غرّة فوجه إليه نحوا من ثلاثمائة فارس فالتقوا بها واشتد القتال بينهما فطعن الكرمانى فى خاصرته فخر عن دابته فأخذوه وقتلوه وأمر نصر فصلبوا جثته وصلبوا معها سمكة فانضم حينئذ علىّ بن الكرمانى بمن كان مع أبيه إلى عسكر أبى مسلم وقاتلوا نصرا قتالا شديداً وطالت الحرب بين أبى مسلم ونصر بن سيار فكانت سجالا والدعوة قائمة والأحزاب تكثر واختلفت كلمة العرب وتفرقوا عن قتال أبى مسلم وأصحابه بعد أن كانوا يدا واحدة عليه ثم دخل أبو مسلم إلى مرو والقتال قائم فيها بين علىّ بن الكرمانى وأصحابه ونصر بن سيار ومضى أبو مسلم إلى قصر الإمارة وأرسل إلى الفريقين أن كفوا ولينصرف كل فريق إلى عسكره فلم يروا بدًّا من الكف عن القتال وصفت مرو لأبى مسلم فأمر بأخذ البيعة من الجند وكان الذى يأخذها أبو منصور طلحة بن رزيق أحد النقباء عالماً بحجج الهاشمية ومعايب الأموية وكان النقباء أثنى عشر رجلاً عدد حوارى المسيح اختارهم محمد بن على من السبعين الذين كانوا استجابوا له حين بعث رسوله إلى خراسان سنة ثلاث ومائة وأربع ومائة، وكانت البيعة: أبايعكم على كتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ والطاعة للرضا من أهل بيت رسول الله ﷺ

وعليكم بذلك عهد الله وميثاقه والطلاق والعتاق والمشى إلى بيت الله الحرام وعلى أن لا تسألوا رزقا ولا طعما حتى يبتدئكم به ولاتكم.

ووردت الأخبار إلى أبى العباس بما صار إليه أمر أبى مسلم وكان يومئذ بالحميمة فهم بالمسير منها إلى الكوفة فأعلم أهل بيته بعزمه فوافقوه وخرجوا معه وكانوا أخوه أبو جعفر المنصور وعبد الوهاب ومحمد أبناء إبراهيم الإمام وأعمامه داود وعيسى وصالح وإسماعيل وعبد الله وعبد الصمد بنو علىّ بن عبد الله بن عباس وما زالوا حتى قدموا الكوفة فلقيهم أبو سلمة الخلال أحد مقدمى شيعتهم فأنزلهم دار الوليد بن سعد مولى بنى هاشم وكتم أمرهم عن الناس نحوا من أربعين ليلة فلم يعلم بهم أحد لا من القواد ولا من الشيعة وكان إذا سئل عن الإمام أبى العباس يقول: لا تعجلوا وكان أبو سلمة يميل إلى جعل أمر الخلافة فى آل أبى طالب ولكنه كان يرى دون ذلك صعوبات وجعل جماعة من الشيعة يترددون على الإمام فى مخباه ويأتمرون بأمره حتى اتفق جماعة من القواد على أن يلقوا الإمام ويتفقوا معه على ما فيه المصلحة والظهور بعد هذا الانكماش فساروا إليه ودخلوا عليه وسلموا عليه بالخلافة وعزوه فى أخيه إبراهيم الإمام ورجعوا فباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا يوم الجمعة لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول فلبسوا السلاح واصطفوا لخروج أبى العباس وأتوا بالدواب فركب أبو العباس وركب من معه من أهل بيته ودخلوا دار الإمارة فلبث بها برهة لطيفة ثم خرج إلى المسجد فخطب وصلى بالناس ثم صعد المنبر فقال مقالته التى سيأتى ذكرها فى محلها، قيل التقى داود بن على وابنه موسى بأبى العباس وأهل بيته وهم فى طريقهم إلى الكوفة فسألهم داود عن خبرهم فقص عليه أبو العباس قصتهم وأنهم يريدون الكوفة ليظهروا بها ويظهروا أمرهم فقال له داود: يا أبا العباس تأتى الكوفة وشيخ بنى أمية مروان بن محمد بحرّان مطل على العراق فى أهل الشام والجزيرة وشيخ العرب يزيد ابن هبيرة بالعراق فى جند العرب فقال: ياعمى من أحب الحياة ذل ثم تمثل بقول الأعشى:

فما ميتة إن متها غير عاجز بعار إذا ما غالت النفس غولها

فالتفت داود إلى ابنه موسى. وقال: صدق والله ابن عمك فارجع بنا معه نعش أعزاء ونموت كرماء فرجعوا جميعاً فكان عيسى بن موسى يقول إذا ذكر خروجهم من الجهمية يريدون الكوفة، أن نفرا أربعة عشر رجلاً خرجوا من دارهم وأهلهم يطلبون ما طلبنا لعظيمة همتهم كبيرة أنفسهم شديدة قلوبهم . اهـ. وتمت البيعة بعد ذلك لأبى العباس على ما سيذكر فى محله.

* * *

(المقالة الخامسة)

(فى الخلفاء العباسيين وفيها فصول)

(الفصل الأول)

(فى خلافة أبى العباس السفاح)

كان أول خلفاء الدولة العباسية السفاح وهو أبو العباس عبد الله بن محمد بن علىّ بن عبد الله بن عباس الهاشمى بويع له بالخلافة فى سنة اثنتين وثلاثين ومائة يوم الجمعة ثالث عشرى ربيع الأول أى سنة تسع وأربعين وأربعمائة ميلادية وصعد المنبر حين بويع له فقام فى أعلاه وصعد محمد بن داود بن علىّ فقام دونه فتكلم أبو العباس فقال: الحمد لله الذى اصطفى الإسلام لنفسه وكرمه وشرفه وعظمه واختاره لنا فأيده بنا وجعلنا أهله وكهفه وحصنه والقوّام به والذابين عنه والناصرين له فألزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحق بها وأهلها وخصنا برحم رسول الله ﷺ وقرابته وأنشأنا من آبائنا وأنبتنا من شجرته واشتقنا من نبعته جعله من أنفسنا عزيزا عليه ما عنتنا وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتابا يتلى عليهم فقال تبارك وتعالى فيما أنزل من محكم كتابه ﴿**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا**﴾. وقال تعالى: ﴿**قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى**﴾. وقال: ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾. وقال: ﴿**وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى**﴾. وقال: ﴿**واعلموا إنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى**﴾ فأعلمهم جل ثناؤه فضلنا وأوجب عليهم حقنا ومودتنا وأجزل من الفىء والغنيمة نصيبنا تكرمة لنا وفضلاً علينا والله ذو الفضل العظيم، وزعمت الشامية الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا فشاهت وجوههم ولم أيها الناس وبنا هدى الله الناس بعد ضلالاتهم وبصرهم بعد جهالتهم وأنقذهم بعد

هلكتهم وأظهر بنا الحق ودحض الباطل وأصلح بنا منهم ما كان فاسداً ورفع بنا الخسيسة وتمم بنا النقيصة وجمع الفرقة حتى عاد الناس بعد العداوة أهل التعاطف والبر والمواساة فى دنياهم وإخواناً على سرر متقابلين فى آخرتهم فتح الله ذلك منة وبهجة لمحمد ﷺ . فلما قبضه الله إليه وقام بالأمر من بعده أصحابه وأمرهم شورى بينهم حووا مواريث الأمم فعدلوا فيها ووضعوها مواضعها وأعطوها أهلها وخرجوا خماصا منها ثم وثب بنو حرب وبنو مروان فابتزوها وتداولوها فجاروا فيها واستأثروا بها وظلموا أهلها بما ملأ الله لهم حينا حتى أسقوه فلما أسقوه انتقم منهم بأيدينا وردّ علينا حقنا وتدارك بنا أمتنا وولى نصرنا والقيام بأمرنا ليمنّ بنا على الذين استضعفوا فى الأرض وختم بنا كما افتتح بنا وإنى لأرجو أن لا يأتيكم الجور من حيث جاءكم الخير ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله ياأهل الكوفة أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زماننا وأتاكم الله بدولتنا فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا وقد زدتكم فى أعطياتكم مائة درهم فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المنيح . اهـ.

وكان موعوكا فاشتد عليه الوعك فجلس على المنبر وقام عمه داود على مراقى المنبر فقال: الحمد لله شكرا الذى أهلك عدوّنا وأصار إلينا ميراثنا من نبينا محمد ﷺ ، أيها الناس الآن أقشعت حنادس الدنيا وانكشف غطاؤها وأشرقت أرضها وسماؤها وطلعت الشمس من مطلعها وبزغ القمر من مبزغه وأخذ القوس باريها وعاد السهم إلى منزعه ورجع الحق فى نصابه فى أهل بيت نبيكم أهل الرأفة والرحمة بكم والعطف عليكم، أيها الناس إنا والله ما خرجنا فى طلب هذا الأمر لنكثر لجينا ولا عقيانا ولا نحفر نهرا ولا نبنى قصرا وإنما أخرجتنا الأنفة من ابتزازهم حقنا والغضب لبنى عمنا وما كرهنا من أموركم فلقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا ويشتد علينا سوء سيرة بنى أمية فيكم واستنزالهم لكم واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم لكم ذمة الله تبارك وتعالى وذمة رسول الله ﷺ وذمة العباس رحمه الله علينا أن نحكم فيكم بما أنزل الله ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير فى العامة والخاصة بسيرة رسول الله ﷺ تبا تبا لبنى حرب بن أمية وبنى مروان آثروا فى مدتهم العاجلة على الآجلة والدار الفانية على الدار الباقية فركبوا الآثام وظلموا الآنام وانتهكوا المحارم وغشوا بالجرائم وجاروا فى سيرتهم فى العباد وسنتهم فى البلاد وخرجوا فى أعنة المعاصى وركضوا فى ميدان الغى جهلا باستدراج الله وأمنا لمكر الله فأتاهم بأس الله بياتا وهم نائمون فأصبحوا أحاديث ومزقوا كل ممزق

فبعدا للقوم الظالمين وأدالنا الله من مروان وقد غره بالله الغرور أرسل لعدو الله فى عنانه حتى عثر فى فضل خطامه أظن عدو الله أن لن نقدر عليه فنادى حزبه وجمع مكايده ورمى بكتائبه فوجد أمامه ووراءه وعن يمينه وشماله من مكر الله وبأسه ونقمته ما أمات باطله ومحا ضلاله وجعل دائرة السوء به وأحيا شرفنا وعزنا ورد إلينا حقنا وإرثنا، أيها الناس أن أمير المؤمنين نصره الله نصرا عزيزا إنما عاد إلى المنبر بعد الصلاة لأنه كاره أن يخلط بكلام الجمعة غيره وإنما قطعه عن استتمام الكلام شدة الوعك فادعوا الله لأمير المؤمنين بالعافية فقد بدلكم الله مروان عدوّ الرحمن وخليفة الشيطان المتبع السفلة الذين أفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها بإبدال الدين وانتهاك حريم المسلمين بالشاب المكتهل المتمهل المقتدى بسلفه الأبرار الأخيار الذين أصلحوا الأرض بعد فسادها بمعالم الهدى ومناهج التقوى، فعج الناس له بالدعاء ثم قال: ياأهل الكوفة إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أتاح الله شيعتنا أهل خراسان فأحيا بهم حقنا وأبلج بهم حجتنا وأظهر بهم دولتنا وأراكم الله بهم ما لستم تنتظرون فأظهر فيكم الخليفة من هاشم وبيض به وجوهكم وأدالكم على أهل الشام ونقل إليكم السلطان وأعز الإسلام ومنّ عليكم بإمام منحه العدالةَ وأعطاه حسن الإيالة فخذوا ما آتاكم الله بشكر والزموا طاعتنا ولا تخدعوا عن أنفسكم فإن الأمر أمركم وأن لكل أهل بيت مصرا وإنكم مصرنا ألا وأنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله ﷺ إلا أمير المؤمنين على بن أبى طالب وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد، وأشار بيده إلى أبى العباس السفاح، واعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم عليه السلام والحمد لله على ما أبلانا وأولانا.

ثم نزل أبو العباس ومشى داود بن على أمامه حتى دخل القصر وأجلس أخاه أبا جعفر المنصور ليأخذ البيعة على الناس فى المسجد فلم يزل يأخذها عليهم حتى صلى بهم العصر ثم المغرب وجنهم الليل فدخل القصر ولما تمت له البيعة على وجه ما ذكر أنفذ أخاه المنصور والياً على الجزيرة وأذربيجان وأرمينيا وولى عمه داود المدينة ومكة واليمن واليمامة وولى ابن أخيه عيسى الكوفة وسوادها وكان على الشام عمه عبد الله وعلى مصر أبو عون بن يزيد وعلى خراسان والجبال أبو مسلم وجعل عمه سليمان على البصرة وكور دجلة والبحرين وعمان واستعمل عمه إسماعيل بن علىّ على الأهواز واشتد فى الانتقام من بنى أمية وبالغ فى تنكيل من بقى من الذرارى ومحا آثارهم وقتل سليمان بن هشام وغيره من كبار القوم الذين كانوا مع الأمويين بإغراء الشريف وكان خصيصاً به حيث أنشده يوماً هذه الأبيات:

لا يغرنك ما ترى من رجال　　إن تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى　　لا ترى فوق وجهها أمويا

وقد كان السفاح أمّن سليمان بن هشام المذكور، وتطاولت أيدى العباسيين إلى نبش قبور جميع بنى أمية بدمشق وهتكوا حرمة الأموات فلما أتوا إلى قبر هشام وجدوا جسمه صحيحاً فأمر بصلبه ثم حرقه بالنار فحرق وأفلت من الأمويين عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل حيث فرّ هارباً إلى الأندلس فقبلوه وأسس الخلافة الأموية فى قرطبة سنة تسع وثلاثين ومائة هجرية أى نحو سنة ست وخمسين وسبعمائة ميلادية. وكان من أمره وأمر من ملك بعده ما لا علاقة لنا به هنا ، وقتل سليمان بن علىّ بن عبد الله بن عباس جماعة من بنى أمية وألقاهم فى الطرق فأكلتهم الكلاب وصارت تطوف بمشاش عظامهم فى الأزقة وأخذ بثأر إبراهيم ابن محمد والحسين بن علىّ بن أبى طالب من قاتليهما بالكيل الوافى.

ولما قتل مروان بأبى صير بمصر كما تقدم بقيت نساؤه وذراريه بالكنيسة وكان قد وكل بهنّ خادماً وأمره أن يقتلهنّ جميعاً إذا هو قتل. فلما قتل مروان كبس أصحاب صالح بن علىّ بن عبد الله بن العباس على من بالكنيسة وأخذوا نساء مروان وبناته وسيروهن إلى صالح بن علىّ فلما دخلن عليه تقدمت ابنة مروان الكبرى فقالت: ياعم أمير المؤمنين حفظ الله لك من أمرك ما تحب حفظه نحن بناتك وبنات أخيك وابن عمك فليسعنا من عفوكم ما وسعكم من جورنا فقال والله لا أستبقى منكم واحداً ألم يقتل أبوك ابن أخى إبراهيم الإمام؟ ألم يقتل هشام بن عبد الملك زيد بن علىّ بن الحسين وصلبه فى الكوفة؟ ألم يقتل الوليد بن يزيد يحيى بن زيد وصلبه بخراسان؟ ألم يقتل ابن زياد الدعى مسلم بن عقيل؟ ألم يقتل يزيد بن معاوية الحسين بن علىّ وأهل بيته؟ ألم يخرج إليه بحرم رسول الله ﷺ سبايا فأوقفهنّ موقف السبى؟ ألم يحمل رأس الحسين وقد قرع دماغه فما الذى يحملنى على الإبقاء عليكن؟ قالت فليسعنا عفوكم فقال أما هذا فنعم وإن أحببت زوّجتك ابنى الفضل فقالت : وأىّ عز خير من هذا بل تلحقنا بحرّان فحملهنّ إليها فلما دخلنها ورأين منازل مروان رفعن أصواتهنّ بالبكاء و أكثرن من العويل ، وخاف العمال الذين كانوا على عهد بنى أمية فمنهم من استأمن وتخلى عن العمالة ومنهم من تحصن وقاتل مع أهل عمالته كأبى الورد مجزة بن الكوثر بن زفر بن الحرث الكلابى وكان من أصحاب مروان وقواد عسكره فلما شاع خبر خروجه انضم إليه جماعة كثيرة من أهل قنسرين وأهل حمص وتدمر ومعهم أبو محمد بن عبد الله بن يزيد بن

معاوية فدعوا إليه وقالوا هذا السفياني الذى كان يذكر وهم فى نحو من أربعين ألفا فعسكروا بمرج الأخرم فسار عبد الله بن علىّ لقتالهم وكان يقاتل حبيب بن مرة المرى بالبثنية وحوران فاقتتلوا قتالا شديدا وثبت أبو الورد وأصحابه وقتل من أصحاب عبد الله خلق كثير فاشتد عبد الله فى قتال أبى الورد وثبت حتى انهزم أصحاب أبى الورد وانكشف ولم يبق معه إلا خمسمائة من فرسانه فقتلوا جميعهم وهرب أبو محمد ومن معه حتى جاءوا تدمر فأمّن عبد الله أهل قنسرين ودخلوا تحت الطاعة وبايعوه فرحل عنهم إلى دمشق وقد خرج أهلها فلما علموا بحضوره إليهم خافوا وعادوا إلى الطاعة فأمّنهم ولم يؤاخذهم بما كان منهم . قال أصحاب التاريخ: وكان حرب عبد الله وأبى الورد فى سلخ ذى الحجة سنة ثلاث وثلاثين ومائة.

ولما رأى قسطنطين ملك الروم من اختلال الأمور وسقوط الدولة الأموية وقيام العباسيين وعدم استقرار أمرهم نشط إلى رد ما أخذه المسلمون من أملاك الروم فجهز جيشا على ملطية وكمخ فنازل كمخ أولا وقاتلها قتالاً عنيفا فهزم من بها من المسلمين شر هزيمة وانقلب على ملطية وراسل أهلها فى الاستسلام والخروج من البلد إلى أى بلد أخرى من بلاد المسلمين فلم يقبلوا فنصب المنجنيقات وعزم على الرمي على البلد فأذعنوا وسلموا البلد على الأمان وانتقلوا إلى بلاد الإسلام وحملوا ما قدروا على حمله من متاعهم وألقوا ما لم يقدروا على حمله بالآبار والمجارى وتفرقوا فى الجزائر ثم سار ملك الروم إلى قاليقلا وحاصرها وفتحها عنوة على يد قائد جيوشه كوشان الأرمنى وغنم وسبى منها ثم رحل عنها واسترجع صقلية وعمر فيها الحصون والمعاقل وعززها بمراكب الحرب تطوف بالجزيرة وتذب عنها وتغزو ما تصادفه من مراكب المسلمين التى تحمل التجارة ، ومع هذا كله فقد دانت للسفاح الأمور وعلت كلمته واستوزر أبا مسلمة حفصا الخلال وهو أول من لقب بالوزير واستمر اللقب لمن بعده إلى زمن الصاحب واستمر الوزراء من بعده على هذا الحال ولما كانت سنة ست وثلاثين ومائة عقد السفاح لأخيه أبى جعفر عبد الله بن محمد بالخلافة من بعده وجعله ولى عهد المسلمين ومن بعد أبى جعفر ولد أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن على وجعل العهد قريب وختمه بخاتمه وخواتيم أهل بيته ودفعه إلى عيسى بن موسى فلم يتم عليه هذا الحرب حتى مات بالأنبار لثلاث عشرة ليلة مضت من ذى الحجة وقيل لاثنتى عشرة مضت منه بالجدرى وعمره ثلاث وثلاثون سنة وقيل ست وثلاثون وقيل ثمان وعشرون فكانت ولايته من وقت قتل مروان إلى أن مات أربع سنين ومن يوم أن بويع بالخلافة إلى أن مات أربع سنين وثمانية أشهر

وقيل وتسعة أشهر وقد كان قبل موته تحوّل من الحيرة إلى الأنبار. قال ابن خلكان فى ترجمة السفاح إن السفاح نظر يوماً فى المرآة وكان من أجمل الناس وجها فقال: اللهم إنى لا أقول كما قال سليمان بن عبد الملك ولكنى أقول اللهم عمرنى طويلا فى طاعتك متمتعا بالعافية قال فما استتم كلامه حتى سمع غلاما يقول لغلام آخر الأجل بينى وبينك شهران وخمسة أيام فتطير من كلامه. وقال حسبى الله ولا حول ولا قوّة إلا بالله عليه توكلت وبه استعنت فما مضت الأيام المذكورة حتى أخذته حمى فمرض ومات بعد شهرين وخمسة أيام بالجدرى بالأنبار بالمدينة التى بناها وسماها الهاشمية وكان أبيض مليحا جميلاً حسن اللحية والهيئة. قال الإمام أبو الفرج بن الجوزى وغيره إن السفاح خطب يوماً فسقطت العصا من يده فتطير من ذلك فقام رجل من أصحابه ومسح العصا وناوله إياها وأنشد:

فألقت عصاها واستقرّ بها النوى كما قرّ عينا بالإياب المسافر

فسرى عنه ووسر بذلك.

ومات فى أيام السفاح تاودوروس بطرك الإسكندرية بعد أن أقام إحدى عشرة سنة فأقيم بعده ميخائيل وهو سادس أربعيهم وأصله من دير بومقار وفى أيام تاودوروس المذكور خالفت القبط من مدينة رشيد من جور العمال وتسلطهم فقاتلهم عبد الملك بن موسى بن نصير عامل مصر يومئذ وقاتلوه قتالاً عظيماً وما زالوا حتى هزمهم وقبض على ميخائيل البطرك فاعتقله وألزمه بمال كثير فسار بأساقفته فى أعمال مصر يسأل أهلها فوجدهم فى شدة عظيمة وعبودية لا تطاق فعاد إلى الفسطاط حيث عبد الملك ودفع له ما حصل عليه فأفرج عنه ثم لم يلبث أن قبض عليه بعد أيام قلائل وأنزل به بلاء كبيراً وبطش بالنصارى وأعمل فيهم السيف وأحرقت فى هذه الأثناء مصر وجميع غلاتها وأسر كثيراً من النساء الراهبات ببعض الديارات ونهب ما فيها وخربها تخريباً وراود عبد الملك إحدى النساء الراهبات عن نفسها فاحتالت عليه ودفعته عنها بأن رغبته فى دهن معها إذا دهن به الإنسان جسده لا يعمل فيه السيف ووثقته بأن مكنته من التجربة فى نفسها فتمت حيلتها عليه وأخرجت زيتا ودهنت به نفسها ثم مدت عنقها فضربها عبد الملك بسيفه أطار رأسها فعلم أنها اختارت الموت على الزنا. رحمها الله وما زال البطرك وكبار القبط فى الاعتقال مقيدين بالحديد يتجرعون مضض الشدّة وألم الضيق حتى أفرج عنهم فى

خلافة السفاح أى بعد زوال دولة بنى أمية وذهاب ملكهم وظهور الدولة العباسية ، وقد خلع السفاح أبا عون عبد الملك المذكور وولى بدله صالح بن علىّ ثم صرفه وأعاد أبا عون المذكور سنة سبع وثلاثين ومائة للهجرة حيث مات السفاح وبموت السفاح قام بالأمر بعده أخوه أبو جعفر المنصور.

(الفصل الثانى)

(فى خلافة أبى جعفر المنصور)

ثم قام بالأمر بعد السفاح أخوه أبوجعفر المنصور وهو عبد الله بن محمد المنصور بويع له بالخلافة يوم وفاة أخيه سنة ست وثلاثين ومائة هجرية أى سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة ميلادية بعهد منه وكان السفاح قد ولاه إمرة الحاج فأتته الخلافة بمنزل صفية فقال: صفت لنا إن شاء الله ، وكتب إلى أبى مسلم الخراسانى يستدعيه فأقبل أبو مسلم عليه فأخبر أبو جعفر بخبر موت السفاح ثم بكى وجزع جزعًا شديدًا فقال له أبو مسلم: ولم هذا الجزع وقد أتتك الخلافة؟ قال: أتخوّف شر عمى عبد الله بن علىّ وشغبه علىّ فقال: لا تخفه فأنا أكفيكه إن شاء الله فسرى عنه وبايع له أبو مسلم والناس وأقبلا حتى أتيا الكوفة وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق وأرسلوا فى طلب البيعة إلى المنصور فلما جاء الخبر بذلك إلى عبد الله بن علىّ وكان عبد الله يومئذ بدلوك وهى بأفواه الدروب فى عسكر الصائفة أمر مناديه أن ينادى الصلاة جامعة فاجتمعوا عليه فقرأ عليهم الكتاب بوفاة السفاح ثم دعا الناس إلى بيعته وقال لهم: اعلموا أنه لما أراد السفاح أن يوجه الجنود لقتال مروان بن محمد دعا بنى أبيه فأرادهم على المسير إليه فقال من انتدب منكم فسار إليه فهو ولىّ عهدى فلم ينتدب غيرى وعلى هذا خرجت من عنده وقتلت من قتلت ، وشهد له بعض قوّاده بذلك فبايعوه ثم سار عبد الله حتى نزل حران وقاتل من بها وضيق عليها وكان أبو جعفر المنصور قد عاد من مكة ومعه أبو مسلم الخراسانى فسيره لقتال عبد الله فسار أبو مسلم فى جنوده فقاتل عبد الله عند نصيبين خمسة أشهر وحمل أهل الشام حملة رجل واحد على عسكر أبى مسلم فأزالوا صفهم وجالوا جولة فانهزم عسكر أبى مسلم فأمر أبو مسلم مناديا فنادى ياأهل خراسان ارجعوا فإن العاقبة لمن اتقى فتراجع الناس وارتجز أبو مسلم يومئذ فقال:

من كان ينوي أهله فلا رجع   فرّ من الموت وفي الموت وقع

فلما كان يوم الثلاثاء أو الأربعاء لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين ومائة التقوا فاقتتلوا فمكر بهم أبو مسلم وأمر أحد قوّاده أن يعبى الميمنة أكثرها إلى الميسرة ويترك فى الميمنة أشد الجند بأسا فلما رأى ذلك أهل الشام كشفوا ميسرتهم وانضموا إلى ميمنتهم بإزاء ميسرة أبى مسلم فأمر أبو مسلم أهل القلب فحملوا على من بقى فى ميمنته على ميسرة أهل الشام فحطموهم فانهزم أصحاب عبد الله وتركوا عسكرهم فأخذ أصحاب أبو مسلم ما فيه وأرسل أبو مسلم الخبر بذلك إلى المنصور وهرب عبد الله إلى البصرة ونزل عند أخيه سليمان بن علىّ فأقام زمانا مختفيا وأمّن أبو مسلم الناس بعد هزيمة عبد الله وكف عنهم فلما علم المنصور بما جرى لعبد الله أرسل أبا الخصيب إلى أبى مسلم ليكتب ما أصاب من أموال عبد الله فأراد أبو مسلم قتله وقال: أنا أمين على الدماء خائن فى الأموال وشتم المنصور فرجع أبو الخصيب إلى المنصور فأخبره بما جرى له فخاف المنصور من رجوع أبى مسلم إلى خراسان لئلا يفسد عليه الأمر فكتب إليه يقول: إنى قد وليتك مصر والشام فهى خير لك من خراسان فوجه إلى مصر من أحببت وأقم بالشام فتكون بقرب أميرالمؤمنين فإنى أحب لقاءك ، فلما أتاه الكتاب غضب وقال يولينى الشام ومصر وخراسان لى ، فكتب الرسول إلى أبى جعفر المنصور بذلك وأقبل أبو مسلم من الجزيرة مجمعا على الخلاف وسار يريد خراسان فانتقل المنصور من الأنبار إلى المدائن، قال صاحب الكامل: وكتب إلى أبى مسلم فى المسير إليه فكتب إليه أبو مسلم وهو بالزاب: إنه لم يبق لأمير المؤمنين أكرمه الله عدوّ إلا أمكنه الله منه وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان إن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء فنحن نافرون عن قربك حريصون على الوفاء لك ما وفيت حريون بالسمع والطاعة غير أنها من بعيد حيث يقارنها السلامة فإن أرضاك ذلك فأنا كأحسن عبيدك وإن أبيت إلا أن تعطى نفسك إرادتها نقضت مما أبرمت من عهدك ضنا بنفسى ، فلما وصل الكتاب إلى المنصور كتب إلى أبى مسلم قد فهمت كتابك وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغشيشة ملوكهم الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم فإنما راحتهم فى انتشار نظام الجماعة فلو سوّيت نفسك بهم فأنت فى طاعتك ومناصحتك واطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به وليس مع الشريطة التى أوجبت منك سمعا ولا طاعة وحمل إليك أمير المؤمنين عيسى بن

موسى رسالة لتسكن إليها إن أصغيت. وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزغاته وبينك فإنه لم يجد بابا يفسد به نيتك أوكد عنده وأقرب من الباب الذى فتحه عليك.

فخرج أبو مسلم مراغما وأخذ طريق حلوان فقال المنصور لعمه عيسى بن علىّ ومن حضر من بنى هاشم: اكتبوا إلى أبى مسلم فكتبوا إليه يعظمون أمره ويشكرونه ويسألونه أن يتم على ما كان منه وعليه من الطاعة ويحذرونه عاقبة البغى ويأمرونه بالرجوع إلى المنصور وبعث المنصور الكتاب مع أبى حميد المرورودى وقال له: كلم أبا مسلم بألين ما تكلم به أحدا منه وأعلمه أنى رافعه وصانع به ما لم يصنعه به أحد إن هو صلح وراجع ما أحب فإن أبى أن يرجع فقل له: يقول لك أمير المؤمنين لست من العباس وإنى برىء من محمد إن مضيت مشاقا ولم تأتنى إن وكلت أمرك إلى أحد سواى وإن لم آل طلبك وقتالك بنفسى ولو خضت البحر لخضته ولو اقتحمت النار لاقتحمتها حتى أقتلك أو أموت قبل ذلك ولا تقولن هذا الكلام حتى تيأس من رجوعه ولا تطمع منه فى خير ، قال: فسار أبوحميد فقدم على أبى مسلم بحلوان فدفع إليه الكتاب. وقال له الناس يبلغونك عن أمير المؤمنين ما لم يقله وخلاف ما عليه منك حسدا وبغيا يريدون إزالة النعمة وتغييرها فلا تفسد ماكان منك وكلمه وقال: يا أبا مسلم إنك لم تزل أمير آل محمد يعرفك بذلك الناس وما ذخر الله لك من الأجر عنده فى ذلك أعظم مما أنت فيه من دنياك فلا تحبط أجرك ولا يستهوينك الشيطان ، فقال له أبو مسلم متى كنت تكلمنى بهذا الكلام فقال: إنك دعوتنا إلى هذا الأمر وإلى طاعة أهل بيت النبىّ ﷺ بنى العباس وأمرتنا بقتال من خالف ذلك فدعوتنا من أرضين متفرقة وأسباب مختلفة فجمعنا الله على طاعتهم وألف ما بين قلوبنا وأعزنا بنصرنا لهم ولم نلق منهم رجلاً إلا بما قذف الله فى قلوبنا حتى أتيناهم فى بلادهم ببصائر نافذة وطاعة خالصة أفتريد حين بلغنا غاية منانا ومنتهى أملنا أن تفسد أمرنا وتفرق كلمتنا وقد قلت لنا من خالفكم فاقتلوه وإن خالفتكم فاقتلونى فأقبل أبو مسلم على أبى نصر مالك بن الهيثم. فقال: أما تسمع ما يقول لى هذا ما كان بكلامه يامالك قال: لا تسمع قوله ولا يهولنك هذا منه لعمرى ما هذا كلامه ولما بعد هذا أشدّ منه فامض لأمرك ولا ترجع فوالله لئن أتيته ليقتلنك ولقد وقع فى نفسه منك شىء لا يأمنك أبدا ثم شاور أبو مسلم غيره من أصحابه فأشاروا عليه بأن لا يذهب إلى أبى جعفر المنصور وأن ينزل الرى ويقيم بها فإن استقام له المنصور استقام هو له أيضاً وإن أبى المنصور كان أبومسلم فى جنده

بالرى فدعا أبا حميد فقال له: ارجع إلى صاحبك فليس من رأيى أن آتيه وقد عزمت أن لا أعود إليه أبداً فلما يئس من رجوعه معه قال له ما أمره به أبوجعفر المنصور فوجم طويلاً ثم قال قم وقد أخذه الخوف وأوجس من المنصور الشر ، وكان المنصور قد كتب إلى أبى داود خليفة أبى مسلم بخراسان يقول له إن لك إمرة خراسان ما دمت على قيد الحياة فكتب أبو داود المذكور إلى أبى مسلم يقول ما هذا إنا لم نخرج لمعصية خلفاء الله فى أرضه وأهل بيت النبى ﷺ فلا تخالفن إمامك ولاترجعن إلا بإذنه ، واتفق وصول كتاب أبى داود ليد أبى مسلم وهو على تلك الحال مع رسول أبى جعفر المنصور فزاده خوفا وهما فأرسل إلى أبى حميد فقال له: اعلم إنى كنت عازما على المسير إلى خراسان ولكنى عدلت عن ذلك حتى أوجه أبا إسحق إلى أمير المؤمنين فيأتيني برأيه فإن أبا إسحاق ممن أثق به فلما تمثل بين يدى المنصور أجله وقال له اصرف أبا مسلم عن وجهه ولك منى ولاية خراسان وأجازه فانصرف أبو إسحق وقال لأبى مسلم: ما أنكرت قط شيئاً وما رأيت بنى هاشم إلا معظمين لحقك يرون لك ما يرون لأنفسهم وما زال به حتى حبب إليه الشخوص إلى حيث أمير المؤمنين والاعتذار إليه مما كان منه فلما قصد المسير قال له نيزك أحد قواده: هل أجمعت على الشخوص إلى أمير المؤمنين قال نعم وتمثل:

ما للرجال مع القضاء محالة ذهب القضاء بحيلة الأقوام

فقال له نيزك: هذا ما اختاره الله تعالى لك واحفظ عنى واحدة إذا دخلت عليه فاقتله وبايع من شئت فإن الناس لا يخالفونك، وسار أبو مسلم قاصدا الخليفة فى ثلاثة آلاف رجل واستخلف أبا نصر فى عسكره. وقال له: أقم حتى يأتيك كتابى فإن كان مختوماً بنصف ختم فأنا الذى كتبته وإن أتاك بخاتم كامل فلم أكتبه فلما علم أبو أيوب وزير المنصور بقدوم أبى مسلم خاف منه ومن أصحابه وخشى أنهم يقتلون المنصور ثم يقتلونه هو أيضاً فدبر الحيلة على اغتيال أبى مسلم قبل أن يتمكن من الفتك بالخليفة وبه فدعا سلمة بن سعيد بن جابر وقال له تأتى أبا مسلم فتلقاه وتكلمه فى أن يعطيك كسكر إقطاعاً إذا ولاه أمير المؤمنين عند قدومه جميع ما وراء بابه فإن أمير المؤمنين على عزم أن يوليه ذلك ويريح نفسه فقال حتى يأذن لى أميرالمؤمنين فأذن له المنصور وأمره أن يبلغ سلامه وشوقه إلى أبى مسلم فسار إليه سلمة ولقيه فى الطريق وأخبره الخبر فطابت نفس أبى مسلم وزال عنه الخوف والغم فلما وصل تلقاه بنو هاشم والناس ثم قدم فدخل على المنصور فقبل يده وأمره أن ينصرف ويروّح نفسه لثلاثة فانصرف فلما كان الغد دعا المنصور عثمان بن نهيك

وأربعة من الحرس منهم شبيب بن واج وأبوحنيفة حرب بن قيس. قال صاحب الكامل: فرسم لهم بقتل أبى مسلم إذا صفق بيده وتركهم خلف الرواق وأرسل إلى أبى مسلم يستدعيه وكان عنده عيسى بن موسى يتغدّى فدخل على المنصور فقال له المنصور: أخبرنى عن نصلين أصبتهما مع عبد الله بن علىّ فقال أبو مسلم هذا أحدهما قال أرنيه فأنضاه وناوله إياه فوضعه المنصور تحت فراشه وأقبل عليه يعاتبه وقال له أخبرنى عن كتابك إلى السفاح تنهاه عن الموات أردت أن تعلمنا الدين فقال ظننت أن أخذه لا يحل فلما أتانى كتابه علمت أنه أهل بيت معدن العلم. قال فأخبرنى عن تقدمك إياى بطريق مكة قال كرهت اجتماعنا على الماء فيضر ذلك بالناس فتقدمتك للرفق قال: فقولك لمن أشار إليك بالانصراف إلىّ بطريق مكة حين أتاك موت أبى العباس إلى أن تقدم فنرى رأينا ومضيت فلا أنت أقمت حتى ألحقك ولا أنت رجعت إلىّ قال منعنى من ذلك ما أخبرتك من طلب الرفق بالناس وقلت تقدم الكوفة وليس عليك من خلاف قال فجارية عبد الله أردت أن تأخذها فقال لا ولكننى خفت أن تضيع فحملتها فى قبة ووكلت بها من يحفظها. قال فمن أرفقك وخروجك إلى خراسان. قال خفت أن يكون قد دخلك منى شيء فقلت آتى إلى خراسان فأكتب إليك بعذرى فأذهب ما فى نفسك قال فالمال الذى جمعته بخراسان قال أنفقته بالجند تقوية لهم واستصلاحا قال ألست الكاتب التى تبدأ بنفسك وتخطب عمتى آمنة ابنة علىّ وتزعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن عباس لقد ارتقيت لا أم لك مرتقى صعبا ثم قال: وما الذى دعاك إلى قتل سليمان بن كثير مع أثره فى دعوتنا وهو أحد فتياننا قبل أن يدخلك فى هذا الأمر؟ قال أراد الخلاف وعصانى فقتلته.

فلما طال عتاب المنصور قال أبو مسلم لا يقال هذا إلىّ بعد بلائى وما كان منى فقال له المنصور يابن الخبيثة والله لو كانت أمة مكانك لأجزأت إنما عملت فى دولتنا وبريحنا فلو كان ذلك إليك ما قطعت فتيلا ، فعند ذلك أخذ أبو مسلم بيد المنصور وجعل يقبلها ويعركها ويعتذر إليه فقال له المنصور ما رأيت كاليوم والله ما زدتنى إلا غضبا فقال أبو مسلم دع هذا فقد أصبحت ما أخاف إلا الله تعالى فغضب المنصور وقال له قتلنى الله إن لم اقتلك ثم صفق بإحدى يديه على الأخرى فخرج إليه القوم وخبطوه بسيوفهم والمنصور يصيح أضربوه قطع الله أيديكم ، وكان أبو مسلم قد قال عند أول ضربة استبقنى ياأمير المؤمنين لعدوك قال لا أبقانى الله أبداً إن أبقيتك وأىّ عدو أعدى منك ، وكان قتله يوم الخميس لخمس بقين من شعبان سنة سبع وثلاثين

ومائة هجرية أى سنة أربع وخمسين وسبعمائة ميلادية ، ولما قتل أبو مسلم أمر المنصور فأدرجوه فى بساط فدخل على المنصور جعفر بن حنظلة فقال له ما تقول فى أمر أبى مسلم؟ فقال: ياأمير المؤمنين إن كنت أخذت من رأسه شعرة فاقتل ثم اقتل ثم اقتل فقال المنصور: وفقك الله ها هو فى البساط فلما نظر إليه قتيلاً قال ياأمير المؤمنين عدّ هذا اليوم أول خلافتك فأنشد المنصور:

فألقت عصاها واستقرّ بها النوى كما قر عينا بالإياب المسافر

ثم أقبل المنصور على من حضره وأبو مسلم طريح بين يده وأنشد:

زعمت أن الدين لا ينقضي فاستوف بالكيل أبا مجرم
أشرب بكأس من كنت تسقي بها أمرّ في الحلق من العلقم

ثم كتب أبو جعفر المنصور بعد قتل أبى مسلم إلى أبى نصر مالك بن الهيثم الذى استخلفه أبو مسلم فى عسكره كما تقدم يأمره على لسان أبى مسلم بنقل الأثقال وما خلف عنده وأن يقدم وختم الكتاب بخاتم أبى مسلم فلما رأى الخاتم تاما علم أن أبا مسلم لم يكتب فقال: فعلتموها ثم انحدر إلى همذان يريد خراسان فكتب المنصور لأبى نصر عهده على شهر زور وكتب إلى زهير بن التركى وهو على همذان أن مر بك أبو نصر فاحبسه فسبق الكتاب إلى زهير وأبو نصر فى همذان فلما وصل أبو نصر قال له زهير: قد صنعت لك طعاماً فلو أكرمتنى بدخول منزلى فأجابه إلى ذلك فقبض عليه زهير وحبسه ثم خلى عنه لما رأى عهد أمير المؤمنين معه ، ولما قتل المنصور أبا مسلم خطب الناس فقال: أيها الناس لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية ولا تمشوا فى ظلمة الباطل بعد سعيكم فى ضياء الحق إن أبا مسلم أحسن مبتدأ وأساء معقبا وأخذ من الناس نبأ أكثر مما أعطانا ورجح قبيح باطنه على حسن ظاهره وعلمنا من خبث سريرته وفساد نيته ما لو علمه اللائم لنا فيه لعذرنا فى قتله وعنفنا فى إمهالنا وما زال ينقض بيعته ويخفر ذمته حتى أحل لنا عقوبته وأباحنا دمه فحكمنا فيه حكمه لنا فى غيره ولم يمنعنا الحق له من إمضاء الحق فيه وما أحسن ما قال النابغة الذبيانى للنعمان:

فمن أطاعك فانفعه بطاعته كما أطاعك وأدلله على الرشد
ومن عصاك فعاقبه معاقبة تنهي الظلوم ولا تقعد على ضمد

وقد تقدم الكلام على أبى مسلم المذكور بما فيه الكفاية ونقول هنا أيضاً إنه كان طاغية داهية جبارا ذا رأى وعقل وتدبير ، قيل إنه خطب يوماً فقام إليه رجل فقال ما

هذا السواد الذى أرى عليك؟ فقال على الفور حدثنى أبو الزبير عن جابر بن عبد الله أن النبىّ ﷺ دخل مكة يوم الفتح وعلى رأسه عمامة سوداء وهذه ثياب الهيبة وثياب الدولة ياغلام اضرب عنقه فضرب عنقه فأطاحها ، قتل فى أيامه ستمائة ألف نفس صبرا ما عدا من قتل فى الحروب ، ولم يمض على قتل أبى مسلم إلا القليل حتى خرج رجل اسمه سنباد من خراسان يريد الأخذ بثأر أبى مسلم فكثرت جموعه وكان عامتهم من أهل الجبال فسار بهم إلى نيسابور فغلب عليها وعلى قومس والرى وقتل وسبا وتسمى فيروز اصبهند وأخذ خزائن أبى مسلم من الرى وكان قد تركها بها عند ذهابه إلى المنصور فسير إليه المنصور عسكرا كبيرا مع جمهور بن مرار العجلى فالتقوا بين همذان والرى وعزم جمهور على مطاولته لكثرة لمومه فأمر سنباد فحملوا السبايا من النساء المسلمات على الجمال فلما رأين عسكر المسلمين صحن وقمن فى المحامل ونادين وامحمداه ذهب الإسلام وبينما هما على هذا الصياح والعويل والنداء على عسكر المسلمين إذ ارتفعت ريح ووقعت فى أثوابهن فنفرت الإبل وعادت على أعقابها إلى عسكر سنباد فانفشلوا وتفرقوا وكان ذلك سبب الهزيمة وتبع المسلمون الإبل ووضعوا السيوف فى أصحاب سنباد فقتلوا منهم خلقا كثيراً وأسروا كذلك وسبوا نساءهم وذراريهم ثم قتل سنباد بين طبرستان وقومس.

ولما كانت سنة أربع وأربعين ومائة ظهر أمر محمد وإبراهيم ابنى عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب بالمدينة فاهتم المنصور بأمر محمد حيث أعلموه بأن محمدا كان يزعم أن المنصور ممن بايعه بالخلافة يوم تشاور بنو هاشم بمكة فيمن يعقدون له الخلافة حين اضطرب أمر مروان بن محمد فخافه المنصور وخشى عاقبة ظهوره وشدد فى طلبه ووكل أمر البحث عنه لجماعة من رقيق الأعراب فخرجوا فى طلبه فى ظهر المدينة واستعمل المنصور كل حيلة ودهاء فى طلب ابنى عبد الله فأدرك عبد الله فحبسه وضيق عليه ونزل محمد فى بنى راسب بالبصرة فعلم المنصور بخبره فسار إليه فرحل محمد عن البصرة قبل وصول المنصور إليها فرجع المنصور واشتد خوف محمد وإبراهيم ابنى عبد الله وضاقت الدنيا عليهما فخرجا حتى أتيا عدن ثم سارا إلى السند ثم إلى الكوفة ثم إلى المدينة فكان إذا ظهر محمد بين الناس صاحوا وهللوا وقالوا ها هو المهدى وكان إذا أرسل المنصور فى طلبه اختفى فكتب المنصور إلى محمد بن خالد بن عبد الله القسرى وقد ولاه المدينة أن اكشف المدينة وأعراصها فى طلب محمد فطاف بيوت الناس وكبس على من بها فلم يجد محمداً فخلعه المنصور واستعمل رياح بن عثمان بن حيان المرى مكانه وألزمه

بالقبض على ابنى عبد الله فجدّ رياح فى طلبهما وشدد فأخبر أن محمدا فى شعب من شعاب رضوى جبل جهينة من أعمال ينبع فرسم إلى عامله هناك بطلب محمد فلما أحس محمد بذلك هرب على الأقدام وكان معه ولد صغير ولد له وهو فى الهرب وجارية له أيضاً فسقط ولده المذكور من الجبل عندما هم بالهرب فتقطع فبكى عليه وأنشد:

منخرق السربال يشكو الوجى   مسكنه أطراف مرّ وحداد
شرّده الخوف فأزرى به   كذاك من يكره حرّ الجلاد
قد كان في الموت له راحة   والموت حتم في رقاب العباد

وما زال رياح يجدّ فى الطلب وينفق الأموال الطائلة للعيون والإرصاد حتى قبض على جميع بنى الحسين وقيدهم بالحديد وكان محمد قد بعث بابنه علىّ إلى مصر يدعو إليه الناس فقبض عليه عامل مصر وشيعه إلى المنصور فاعترف له وأخبره بأسماء أصحاب أبيه فأمر به فحبسوه وبقى محبوساً إلى أن مات المنصور ، وقتل المنصور أكثر بنى الحسن صبرا ولم يظفر بمحمد فلما كانت سنة خمس وأربعين ومائة ظهر محمد بالمدينة فى جمع من أصحابه فكسر أبواب السجن وأخرج من به وقبض على رياح وأخيه عباس وابن مسلم بن عقبة المرى فحبسهم فى دار الإمارة ثم خرج إلى المسجد فصعد على المنبر فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ، قال صاحب الكامل: ثم قال أما بعد فإنه قد كان من أمر هذا الطاغية عدوّ الله أبى جعفر ما لم يخف عليكم من بنائه القبة الخضراء التى بناها معاندا لله فى ملكه وتصغيرا للكعبة الحرام وإنما أخذ الله فرعون حين قال أنا ربكم الأعلى، وإن أحق الناس بالقيام فى هذا الدين أبناء المهاجرين والأنصار المرأسين اللهم إنهم لأحلوا حرامك وحرموا حلالك وأمّنوا من أخفت وأخافوا من أمّنت اللهم فأحصهم عددا واقتلهم بددا ولا تغادر منهم أحدا ، أيها الناس إنى والله ما خرجت بين أظهركم وأنتم عندى أهل قوة ولا شدة ولكن اخترتكم لنفسى والله ما جئت هذه وفى الأرض مصر يعبد الله فيه إلا وقد أخذ لى فيه البيعة .اهـ.

واستولى محمد على المدينة واستعمل عليها عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير ومال إليه الناس واستفتوا مالك بن أنس فى الخروج مع محمد وقالوا إن فى أعناقنا بيعة لأبى جعفر المنصور فقال: إنما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين فأسرع الناس إلى محمد ثم تفرق بعضهم لما سمعوا عن إسماعيل بن عبد الله بن جعفر ابن أبى طالب وكان شيخاً كبيراً أنه يقول إن محمدا مقتول لا محالة قيل فدس له

محمد من قتله، فلما ظهرت كلمة محمد بالمدينة أخذ المنصور فى التأهب لقتاله وشاور أصحاب الرأى فى أمره فحسنوا له التعجيل فى الخروج إليه وأخذه فكتب إليه المنصور يقول: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿**إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض**﴾ الآيتين ولك عهد الله وميثاقه وذمة رسوله أن أؤمنك وجميع ولدك وإخوتك وأهل بيتك ومن اتبعكم على دمائكم وأموالكم وأسوّغك ما أصبت من دم أو مال وأعطيك ألف ألف درهم وما سألت من الحوائج وأنزلك من البلاد حيث شئت وأن أطلق من فى حبسى من أهل بيتك وأن أؤمن كل من جاءك وبايعك وأتبعك أو دخل فى شىء من أمرك ثم لا أتبع أحدا منهم بشىء كان منه أبداً فإن أردت أن تتوثق لنفسك فوجه إلىّ من أحببت يأخذ لك منى الأمان والعهد والميثاق وما تتوثق به والسلام. فلما وصل الكتاب إلى محمد كتب إليه يقول: ﴿**طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون**﴾ ، إلى ﴿**يحذرون**﴾ ، وأنا أعرض عليك من الأمان مثل ما عرضت علىّ فإن الحق حقنا وإنما ادّعيتم هذا الأمر بنا وخرجتم له بشيعتنا وحظيتم بفضله فإن أبانا عليا كان الوصى وكان الإمام فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء ثم قد علمت أنه لم يطلب الأمر أحد مثل نسبنا وشرفنا وحالنا وشرف آبائنا لسنا من أبناء اللعناء ولا الطرداء ولا الطلقاء وليس يمتّ أحد من بنى هاشم بمثل الذى نمتّ به من القرابة والسابقة والفضل وإنا بنو أم رسول الله ﷺ فاطمة بنت عمرو فى الجاهلية وبنو بنته فاطمة فى الإسلام دونكم إن الله اختارنا واختار لنا فوالدنا من النبيين محمد أفضلهم ومن السلف أوّلهم إسلاماً علىّ ومن الأزواج أفضلهن خديجة الطاهرة وأول من صلى إلى القبلة ومن البنات خيرهن فاطمة سيدة نساء العالمين وأهل الجنة ومن المولودين فى الإسلام حسن وحسين سيدا شباب أهل الجنة وأن هاشماً ولد عليا مرتين وأن عبد المطلب ولد حسنا مرتين وأن رسول الله ﷺ ولدنى مرتين من قبل حسن وحسين وإنى أوسط بنى هاشم نسبا وأصرحهم أبا لم نعرف فى العجمة ولم ننازع فى أمهات الأولاد فما زال يختار لى الآباء والأمهات فى الجاهلية والإسلام حتى يختار لى فى الأشرار فأنا ابن أرفع الناس درجة فى الجنة وأهونهم عذابا فى النار ولك الله علىّ إن دخلت فى طاعتى وأجبت دعوتى أن أؤمنك على نفسك ومالك وعلى كل أمر أحدثته إلا حدا من حدود الله أوحقا لمسلم أو معاهد فقد علمت ما يلزمنى من ذلك وأنا أولى بالأمر منك وأوفى بالعهد لأنك أعطيتنى من الأمان والعهد ما أعطيته رجالا قبلى فأى الأمانات تعطينى أمان ابن هبيرة أم أمان عمك

عبد الله بن علىّ أم أمان أبى مسلم؟ قال صاحب الكامل: فلما ورد كتابه يعنى كتاب محمد على المنصور قال له أبو أيوب الورنانى دعنى أجبه عليه قال لا إذا تقارعنا على الأحساب فدعنى وإياه ثم كتب إليه المنصور، بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فقد بلغنى كلامك وقرأت كتابك فإذا جلّ فخرك بقرابة النساء لتضل به الجفاة والغوغاء ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء ولا كالعصبة والأولياء لأن الله جعل العم أبا بدأ به فى كتابه على الوالدة الدنيا ولو كان اختار الله لهنّ على قدر قرابتهنّ كانت آمنة أقربهنّ رحما وأعظمهنّ حقا وأولى من يدخل الجنة ولكن اختار الله لخلقه على علمه فيما مضى منهم واصطفائه لهم وأما ما ذكرت من فاطمة أم أبى طالب وولادتها فإن الله لم يرزق أحدا من ولدها الإسلام لابنتا ولا ابنا ولو أن رجلاً رزق الإسلام بالقرابة لرزقه عبد الله ولكان أولاهم بكل خير من الدنيا والآخرة ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ولقد بعث الله محمدا ﷺ وله عمومة أربعة فأنزل الله عز وجل ، **﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾** فأنذرهم ودعاهم فأجاب اثنان أحدهما أبى وأبى اثنان أحدهما أبوك فقطع الله ولايتهما منه ولم يجعل بينه وبينهما إلاًّ ولا ذمه ولا ميراثاً ، وزعمت أنك ابن أخف أهل النار عذابا وابن خير الأشرار وليس فى الكفر بالله صغير ولا فى عذاب الله خفيف ولا يسير وليس فى الشر خيار ولا ينبغى لمؤمن يؤمن بالله أن يفتخر بالنار وسترد فتعلم وسيعلم الذين ظلموا أىّ منقلب ينقلبون، وأما أمر حسن وأن عبد المطلب ولده مرتين وأن النبىّ ﷺ ولدك مرتين فخير الأوّلين والآخرين رسول الله ﷺ لم يلده هاشم إلا مرة ولا عبد المطلب إلا مرة، وزعمت أنك أوسط بنى هاشم وأصرحهم أما وأبا وإنه لم يلدك العجم ولم تعرف فيك أمهات الأولاد فقد رأيتك فخرت على بنى هاشم طرا فانظر ويحك أين أنت من الله غدا فإنك قد تعدّيت طورك وفخرت على من هو خير منك نفسا وأبا وأولادا وأخا إبراهيم ابن رسول الله ﷺ وما خيار بنى أبيك خاصة وأهل الفضل منهم إلا بنو أمهات الأولاد ما ولد فيكم بعد وفاة رسول الله ﷺ أفضل من على ابن الحسين وهو لام ولد ولهو خير من جدك حسن بن حسين وما كان فيكم بعده مثل محمد بن علىّ وجدته أم ولد ولهو خير من أبيك ولا مثل ابنه جعفر وجدّته أم ولد وهو خير منك ، وأما قولك إنكم بنو رسول الله ﷺ فإن الله تعالى يقول فى كتابه **﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم﴾** ولكنكم بنو بنته وإنها لقرابة قريبة ولكنها لا يجوز لها الميراث ولا ترث الولاية ولا يجوز لها الإمامة فكيف تورث بها ولقد طلبها أبوك بكل وجه فأخرج

فاطمة نهارا ومرضها سرا ودفنها ليلا فأبى الناس إلا الشيخان ولقد جاءت السنة التى لا اختلاف فيها من المسلمين أن الجد أبا الأم والخال والخالة لا يورّثون ، وأما ما فخرت به من على وسابقته فقد حضرت رسول الله ﷺ الوفاة فأمر غيره بالصلاة ثم أخذ الناس رجلا بعد رجل فلم يأخذوه وكان فى الستة فتركوه كلهم دفعا له عنها ولم يروا له حقا فيها ، وأما عبد الرحمن فقدم عليه عثمان وهو له متهم وقاتله طلحة والزبير وأبى سعد بيعته فأغلق بابه دونه ثم بايع معاوية بعده ثم طلبها بكل وجه وقاتل عليها وتفرّق عنه أصحابه وشك فيه شيعته قبل الحكومة ثم حكم حكمين رضى بهما وأعطاهما عهد الله وميثاقه فاجتمعا على خلعه ثم كان حسن فباعها من معاوية بخرق ودراهم ولحق بالحجاز وأسلم شيعته بيد معاوية ورفع الأمر إلى غير أهله وأخذ مالا من غير ولايته ولا حله فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه وأخذتم ثمنه ثم خرج عمك حسين على ابن مرجانة فكان الناس معه عليه حتى قتلوه وأتوا برأسه إليه ثم خرجتم على بنى أمية فقاتلوكم وصلبوكم على جذوع النخل وأحرقوكم بالنيران ونفوكم من البلدان حتى قتل يحيى بن زيد بخراسان وقتلوا رجالكم وأسروا الصبية والنساء وحملوهم وطاء فى المحامل كالسبى المجلوب إلى الشام حتى خرجنا عليهم فطلبنا بثأركم وأدركنا بدمائكم وأورثناكم أرضهم وديارهم وسنينا سلفكم وفضلناه فاتخذت ذلك علينا حجة وظننت أنا إنما ذكرنا أباك لتقدمة ما له على حمزة والعباس وجعفر وليس ذلك كما ظننت ولكن خرج هؤلاء من الدنيا سالمين متسلما منهم مجتمعا عليهم بالفضل وابتلى أبوك بالقتال والحرب وكانت بنو أمية تلعنه كما تلعن الكفرة فى الصلاة المكتوبة فاحتججنا وذكرناهم فضله وصفاته وظلمناهم بما نالوا منه فلقد علمت أن مكرمتنا فى الجاهلية سقاية الحاج الأعظم وولاية زمزم فصارت للعباس بين إخوته فنازعنا فيها أبوك فقضى لنا عليه عمر فلم نزل نليها فى الجاهلية والإسلام ولقد قحط أهل المدينة فلم يتوسل عمر إلى ربه ولم يتقرّب إليه إلا بأبينا حتى يغيثهم الله فسقاهم الغيث وأبوك حاضر لم يتوسلوا به ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بنى عبد المطلب بعد النبىّ ﷺ غيره فكانت وراثته من عمومته ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بنى هاشم فلم ينله إلا ولده فالسقاية سقايته وميراث النبىّ له والخلافة فى ولده فلم يبق شرف ولا فضل فى جاهلية ولا إسلام فى الدنيا والآخرة إلا والعباس وارثه ومورثه وأما ما ذكرت من بدر فإن الإسلام جاء والعباس يمون أبا طالب وعياله وينفق عليهم للأزمة التى أصابته ولو أن العباس أخرج بدر كارها لمات طالب وعقيل جوعاً وللحسا جفان عتبة وشيبة ولكنه كان من المطعمين فأذهب عنكم العار والسبة وكفاكم النفقة والمؤنة ثم فدى عقيلا يوم بدر فكيف تفخر علينا وقد غلبناكم فى الكفر وفديناكم وحزنا عليكم

مكارم الآباء وورثنا دونكم خاتم الأنبياء وطلبنا بثأركم فأدركنا منه ما عجزتم عنه ولم تدركوا لأنفكسم والسلام عليكم ورحمة الله . اهـ.

فلم يردّ عليه محمد ثم سير أبو جعفر المنصور ابن أخيه عيسى بن موسى لقتال محمد بن عبد الله المذكور بالمدينة واستحثه فى ذلك وشدد عليه فقال عيسى: شاور عمومتك ياأميرالمؤمنين ثم قال فأين قول ابن هرثمة:

نزور امرأ لا يمخض القوم سره ولا ينتجي الأدنين عما يحاول
إذا ما أتى شيئاً مضى كالذي أتى وإن قال إني فاعل فهو فاعل

فقال المنصور: امض أيها الرجل فوالله ما يراد غيرى وغيرك وما هو إلا أن تشخص أنت أو أشخص أنا فسار وسير معه الجنود فلما صار عيسى بن موسى على قيد أربعة أميال من المدينة رتب عسكره وأرسل إلى محمد بن عبد الله بأمان أبى جعفر المنصور إن هو أطاع وانكف عما هو فيه فأبى محمد الطاعة وبرز عيسى بن موسى بعسكره للقتال وكذلك محمد بن عبد الله فاقتتلوا قتالاً عنيفاً للغاية فتفرق أكثر أصحاب محمد بن عبد الله حتى لم يبق معه إلا زهاء ثلثمائة رجل وذهب عيسى بن حضير وهو من أصحاب محمد فأحرق السجل الذى فيه أسماء الذين بايعوا محمدا خوفا من وقوعه فى يد عيسى بن موسى إذا هو دخل المدينة بعسكره وجعل محمد يقاتل بمن بقى معه حتى ضربه أحد أصحاب عيسى بن موسى دون شحمة أذنه اليمنى فبرك لركبته وجعل يذب عن نفسه ويقول ويحكم ابن نبيكم يجرح مظلوم فطعنه ابن قطحبة فى صدره فصرعه ثم نزل إليه فأخذ رأسه وأتى به عيسى وهو لا يعرف من هو لكثرة الدماء فأرسل عيسى الرأس إلى المنصور مع محمد بن أبى الكرام بن عبد الله بن على بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب فأمر المنصور فطيف برأس محمد فى الكوفة وسيره إلى الآفاق وكان قتل محمد المذكور فى يوم الأثنين بعد العصر لأربع عشرة خلت من شهر رمضان وكان محمد هذا يلقب بالمهدى وبالنفس الزكية ورثاه هو وأخاه عبد الله بن مصعب بن ثابت بهذه القصيدة:

ياصاحبيّ دعا الملامة واعلما أن لست في هذا بألوم منكما
وقفا بقبر للنبيّ فسلما لا بأس أن تقفا به وتسلما
قبر تضمن خير أهل زمانه حسبا وطيب سجية وتكرما
رجل يفي بالعدل جور بلادنا وعفا عظيمات الأمور وأنعما
لم يجتنب قصد السبيل ولم يحد عنه ولم يفتح بفاحشة فما
لو أعظم الحدثان شيئاً قبله أحدا لكان قصاره أن يسلما

ضحوا بإبراهيم خير ضحية   فتصرمت أيامه فتصرما
بطلا يخوض بنفسه غمراته   لا طائشا رعشا ولا مستسلما
حتى مضت فيه السيوف وربما   كانت حتوفهم السيوف وربما
أضحى بنو حسن أبيح حريمهم   فينا وأصبح نهبهم متقسما
ونساؤهم في دورهن نوائح   سجع الحمام إذا الحمام ترنما
يتوصلون بقتله ويرونه   شرفا لهم عند الإمام ومغنما
والله لو شهد النبيّ محمد   صلى الإله على النبيّ وسلما
إشراع أمته الأسنة لابنه   حتى تقطر من ظباتهم دما
حقا لأيقن أنهم قد ضيعوا   تلك القرابة واستحلوا المحرما

ولما قتل محمد نصب عيسى بن موسى بعض الألوية بالمدينة ونادى مناديه: من دخل تحت لواء منها فهو آمن ثم أخذ أصحاب محمد فصلبهم ما بين ثنية الوداع إلى دار عمر بن عبد العزيز صفين وبقوا على هذا الحال ثلاثاً فأمر بهم عيسى فألقوهم على مقابر اليهود ثم بعد ذلك فى خندق فى أصل ذباب وزال عن أبى جعفر المنصور ما كان يلاقيه من خروج محمد بن عبد الله.

وخرجت فى خلافة المنصور أيضاً الراوندية وهم قوم من خراسان على مذهب أبى مسلم كانوا يقولون بالتناسخ ويزعمون أن روح آدم حلت فى عثمان بن نهيك وأن ربهم الذى يقيتهم هو الخليفة أبو جعفر المنصور فلما ظهروا وأتوا إلى قصر المنصور فى سنة إحدى وأربعين ومائة للهجرة أى سنة ثمان وخمسين وسبعمائة للميلاد قالوا هذا ربنا فحبس المنصور رؤساءهم وكانوا نحو مائتين فهاجوا وماجوا وأخذوا نعشا وحملوه ومشوا به كأنهم يشيعون جنازة حتى بلغوا باب السجن فرموا بالنعش وكسروا باب السجن وأخرجوا أكابرهم ثم طلبوا المنصور وهم نحو ستمائة رجل فتنادى الناس وأغلقت الأبواب ووقع خوف عظيم وخرج المنصور ماشياً واجتمع عليه خلق كثير وكان معن بن زائدة مستخفيا خوفا لأنه كان حارب مع ابن هبيرة الشيبانى فظهر وحارب الراوندية بين يدى المنصور فعفا عنه وكان ذلك يوم استئصال الراوندية وقطع دابرهم ، وكره المنصور بعد واقعة الراوندية الإقامة بالهاشمية فدلوه على أن تكون إقامته على نهر الفرات ليكون متوسطا ما بين البصرة والكوفة وواسط والموصل والسواد وتكون دجلة والفرات خنادق مدينته فوقع اختياره على مكان اسمه بغداد ومعناه بستان دار واستشار المنجمين فى اختيار وقت البناء فأخبروه فوكل البناء لأربعة من القواد وأمر أن يكون عرض أساس القصر من أسفله

خمسين ذراعاً ومن أعلاه عشرين ذراعا ووضع بيده أول لبنة وهو يقول باسم الله والحمد لله والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، ثم قال: ابنوا على بركة الله وأمر بإيوان كسرى فنقض ونقل إلى المدينة الجديدة ونقضت شرفة من القصر الأبيض فوجد أنه يلزم لنقض ذلك أكثر من كلفة الجديد فعدل عن ذلك فتمت على أحسن مثال وتوارد إليها السكان من العراقين والشام والجزيرة والعجم والعرب ومصر وغيرها وسميت دار السلام ثم تحوّل المنصور عن مدينة أبى هبيرة إلى بغداد مدينته الجديدة ونقل أبواب مدينة واسط إليها وخلع ابن أخيه عيسى بن موسى عن ولاية العهد وبايع لابنه محمد المهدى بعد أمور أضربنا عن إيرادها هنا صفحا.

وظهر فى أيامه رجل ادّعى النبوّة اسمه أستاذسيس فى جهة خراسان فاجتمع إليه نحو ثلثمائة ألف مقاتل من أهل هراة وباذغيس وسجستان فسار إليه الأجشم عامل مروروذ فى عسكر فقاتل الأجشم وأصحابه وتتابع القواد فى هجماته حتى هزمهم شر هزيمة فبعث المنصور وهو بالراذان خازم بن خزيمة إلى المهدى فى اثنى عشر ألفا فولاه المهدى حربه فزحف عليه فى عشرين ألفا وبعد قتال شديد تقوّى المسلمون عليه وقتلوا من عسكره نحو سبعين ألفا وأسروا نحو أربعة عشر ألفا وأسر أستاذسيس المذكور وبنوه وتفرق الباقون من قومه. قيل إن أستاذسيس هذا هو أبو مراجل أم المأمون وابنه غالب خال المأمون وهو الذى قتل الفضل بن سهل ، ثم خرج المنصور قاصدا الحج فى سنة ثمان وخمسين ومائة للهجرة أى سنة أربع وسبعين وسبعمائة للميلاد فخرج ولده المهدى معه ليودّعه فقال له: يابنى إنى أهجس بالموت ولا أدرى إذا كنا نجتمع بعد هذا فإنى ولدت فى ذى الحجة ووليت فى ذى الحجة وأخشى أن أموت فى ذى الحجة من هذه السنة وإنى لذلك عزمت على الحج والآن أوصيك بخصال وما أظنك تفعل واحدة منها ، وكان له سفط قيل إن فيه أوراق عمه وعليه قفل لا يفتحه غيره فقال للمهدى: انظر إلى هذا السفط فاحتفظ به فإن فيه علم آبائك ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة فإن أحزنك أمر فانظر فى الدفتر الكبير فإن أصبت فيه ما تريد وإلا ففى الثانى حتى بلغ سبعة فإن ثقل عليك فالكراسة الصغيرة فإنك واجد فيها ما تريد وما أظنك تفعل ، وانظر هذه المدينة وإياك أن تستبدل بها غيرها وقد جمعت لك فيها من الأموال ما إن انكسر عليك الخراج عشر سنين كفاك لأرزاق الجند والنفقات والذرية ومصلحة البعوث فاحتفظ بها فإنك لا تزال عزيزا ما دام بيت مالك عامرا وما أظنك تفعل، وأوصيك

بأهل خراسان خيرا فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم ودماءهم فى دولتك ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم أن تحسن إليهم وتتجاوز عن مسيئهم وتكافئهم عما كان منهم وتخلف من مات منهم فى أهله وولده وما أظنك تفعل، وإياك أن تبنى مدينة الشرقية فإنك لا تتم بناءها وأظنك ستفعل، وإياك أن تستعين برجل من بنى سليم وأظنك ستفعل ، وإياك أن تدخل النساء فى أمرك وأظنك ستفعل ، فاتق الله فيما أعهد إليك من أمور المسلمين بعدى يجعل الله لك مخرجا فى كربك ويرزقك السلامة وحسن العاقبة من حيث لا تحتسب ، يابنى احفظ محمدا ﷺ فى أمته يحفظك الله ويحفظ عليك أمورك ، وإياك والدم الحرام فإنه حوب عند الله عظيم وعار فى الدنيا لازم مقيم والزم الحدود فإن فيها خلاصك فى الآجل وصلاحك فى العاجل ولا تعتد فيها فتبور فإن الله تعالى لو علم أن شيئاً أصلح منها لدينه وأزجر عن معاصيه لأمر به فى كتابه ، واعلم أن من شدة غضب الله لسلطانه أنه أمر فى كتابه بتضعيف العذاب والعقاب على من سعى فى الأرض فسادا مع ما ذخر له من العذاب العظيم فقال: ﴿**إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا**﴾ الآية. فالسلطان حبل الله المتين وعروته الوثقى ودينه القيم فاحفظه وحصنه وذب عنه وأوقع بالملحدين واقمع المارقين منه وقابل الخارجين عنه بالعقاب ولا تتجاوز ما أمر الله به فى محكم القرآن واحكم بالعدل ولا تشطط فإن ذلك أقطع للشغب وأحسم للعدوّ وأنجع فى الدواء وعف عن الفيء فليس بك إليه حاجة مع ما خلفه لك وافتتح بصلة الرحم وبرّ القرابة وإياك والأثرة والتبذيد لأموال الرعية واشحن الثغور واضبط الأطراف وأمن السبيل وسكن العامة وأدخل المرافق عليهم وادفع المكاره عنهم وأعدّ الأموال وأحرزها فإن النوائب غير مأمونة وهى من شيم الزمان وأعدّ الأكراع والرجال والجند ما استطعت وإياك وتأخير عمل اليوم إلى الغد فتتدارك عليك الأمور وتضيع وجدّ فى إحكام الأمور النازلات فى أوقاتها أوّلاً فأولا واجتهد وشمر فيها وأعدّ رجالا بالليل لمعرفة ما يكون فى النهار ورجالا بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل وباشر الأمور بنفسك ولا تضجر ولا تكسل واستعمل حسن الظن وأسئ الظن بعمالك وكتابك وخذ نفسك بالتيقظ وتفقد من تثبت على بابك وسهل أذنك للناس وانظر فى أمر النزاع إليك وكن بهم عينا غير نائمة ونفسا غير لاهية ولا تنم فإن أباك لم ينم منذ ولى الخلافة ولا دخل عينه الغمض إلا وقلبه مستيقظ. هذه وصيتى إليك والله خليفتى عليك ، ثم ودّعه وبكى وبكى ولده المهدى ، وسار المنصور فاشتدّت به علته وأدركته منيته ببئر ميمونة محرما

بمرضه وهو القيام وذلك فى ذى الحجة وهو ابن ثلاث وستين سنة فكانت خلافته إحدى وعشرين سنة وأحد عشر شهرا وأربعة عشر يوما وأمه بربرية وكان طويلا أسمر نحيفاً خفيف اللحية رحب الجبهة وكأن عينيه لسانان ناطقان صارمان مهيبا ذا جبروت وسطوة وحزم ورأى وشجاعة وكمال عقل ودهاء وعلم وفقه وخبرة بالأمور.

قيل : ولما قرب من مكة فى حجته التى مات فيها رأى على جدار سطرين مكتوبين وهما

أبا جعفر حانت وفاتك وانقضت سنوك وأمر الله لابدّ واقع
أبا جعفر هل كاهن أو منجم لك اليوم من ريب المنية دافع

فلما قرأها تيقن فراغ أجله قيل فمات بعد ثلاثة أيام وقيل غير ذلك والله سبحانه وتعالى أعلم.

ومات فى أيامه خائل بطرك الإسكندرية بعد أن أقام ثلاثاً وعشرين سنة فأقيم بعده مينا وهو سابع أربعيهم وفى أيام مينا هذا اشتدّ الولاة والعمال على القبط وضيقوا عليهم وساموهم الخسف فخرج منهم جماعة بناحية سخا وأخرجوا العمال وطردوا أرباب الجباية وذلك سنة سبعين وسبعمائة للميلاد أى سنة خمسين ومائة للهجرة فبعث إليهم يزيد بن حاتم بن قبيصة أمير مصر إذ ذاك عسكرا عظيماً فأتاهم القبط ليلا وقتلوا منهم عدة كثيرة وهزموا باقيهم شر هزيمة وشردوهم فاشتد البلاء بأسباب ذلك على النصارى فى الأقاليم القبلية والبحرية وزادوا فى التضييق عليهم حتى احتاجوا إلى أكل الميتة والجيف وهدمت جميع الكنائس بمصر فكان منها كنيسة العذراء التى بجوار أبى شنودة بمصر وهدمت أيضاً كنائس محارب قسطنطين فبذل أهل البلاد لسليمان بن علىّ أمير مصر يومئذ فى تركها خمسين ألف دينار فأبى فلما ولى بعده موسى بن عيسى أذن لهم فى بنائها فبنيت كلها بمشورة الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة قاضى مصر يومئذ واحتجا بأن بناءها من عمارة البلاد وبأن الكنائس التى بمصر لم تبن إلا فى الإسلام فى زمن الصحابة والتابعين ، واستعمل جعفر المنصور فى أيامه على مصر موسى بن كعب التميمى بعد ولاية أبى عون التى كانت إلى سنة إحدى وأربعين ومائة فأقام موسى المذكور سبعة أشهر ومات وولى بعده محمد بن الأشعث الخزاعى ثم عزل سنة اثنتين وأربعين وولى نوفل بن الفرات ثم عزل نوفل وولى بعده حميد بن قحطبة الطائى ثم صرف سنة أربع وأربعين وولى يزيد بن حاتم المهلبى فأقام إلى سنة اثنتين وخمسين فعزل وولى محمد بن سعيد

فأقام إلى أن استخلف المهدى فعزله فى سنة تسع وخمسين ومائة ، ولما مات أبو جعفر المنصور ولى الخلافة بعده محمد المهدى ابنه.

(الفصل الثالث)

(فى خلافة محمد المهدى)

ثم قام بالأمر بعد أبى جعفر المنصور ابنه أبو عبد الله محمد المهدى بالله بويع له بالخلافة يوم مات أبوه المنصور بعهد منه وهو يومئذ ببغداد ثم بويع له البيعة العامة بها لإحدى عشرة خلت من ذى الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة للهجرة أى نحو سنة أربع وسبعين وسبعمائة للميلاد ، قال صاحب الكامل: ذكر علىّ بن محمد النوفلى عن أبيه قال: خرجت من البصرة حاجا فاجتمعت بالمنصور بذات عرق فكنت أسلم عليه كلما ركب وقد أشفى على الموت فلما صار ببئر ميمونة نزل به ودخلنا مكة فقضيت عمرتى وكنت أختلف إلى المنصور فلما كان فى الليلة التى مات فيها ولم نعلم صليت الصبح بمكة وركبت أنا ومحمد بن عون بن عبد الله بن الحرث وكان من مشايخ بنى هاشم وساداتهم فلما صرنا بالأبطح لقينا العباس بن محمد ومحمد بن سليمان فى خيل إلى مكة فسلمنا عليهما ومضينا فقلت لمحمد أحسب الرجل قد مات فكان كذلك ثم أتينا العسكر فإذا موسى بن المهدى قد صدر عن عمود السرادق والقاسم بن المنصور فى ناحية السرادق وسمعنا منهما بكاء وخرج أبو العنبر خادم المنصور مشقق الأقبية وعلى رأسه التراب وصاح واأمير المؤمنيناه فما بقى أحد إلا قام ثم تقدموا ليدخلوا عليه فمنعهم الخدم وقال ابن عياش المنتوف: سبحان الله أما شهدتم موت خليفة قط؟ اجلسوا فجلسوا وقام القاسم فشق ثيابه ووضع التراب على رأسه وموسى على حاله ثم خرج الربيع وفى يده قرطاس ففتحه فقرأه فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله المنصور أمير المؤمنين إلى من خلف من بنى هاشم وشيعته من أهل خراسان دعاته المسلمين ثم بكى وبكى الناس. ثم قال: قد أمكنكم البكاء فانصتوا رحمكم الله ثم قرأ: أما بعد فإنى كتبت كتابى هذا وأنا حى فى آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة أقرأ عليكم السلام وأسأل الله أن لا يفتنكم بعدى ولا يلبسكم شيعاً ولا يذيق بعضكم بأس بعض ، ثم أخذ فى وصيتهم بالمهدى وإذكارهم البيعة له وحثهم على الوفاء بعهده ، ثم تناول يد الحسن بن زيد وقال قم فبايع فقام إلى موسى فبايعه الناس الأول فالأول ثم أدخل

بنو هاشم على المنصور وهو فى أكفانه مكشوف الرأس فحملناه حتى أتينا به مكة ثلاثة أميال قال فكأنى أنظر إليه والريح تحرك شعر صدغيه وذلك أنه كان وفر شعره للحلق وقد فصل خضابه حتى أتينا به حفرته وكان أول شيء ارتفع به على بن عيسى بن ماهان أن عيسى بن موسى أبى من البيعة فقال على بن عيسى بن ماهان والله لتبايعن أو لأضربن عنقك فبايع ثم وجه موسى بن المهدى إلى المهدى بخبر وفاة المنصور وبالبيعة له مع منارة مولى المنصور وبعث أيضاً بالقضيب والبردة وبخاتم الخلافة وقدم الخبر مع منارة فى منتصف ذى الحجة فبايعه أهل بغداد. قال بعض أهل التاريخ: إن الربيع كتم موت المنصور وألبسه ثيابه على أحسن ما كان يلبس وأسنده وجعل على وجهه كلة خفيفة يرى شخصه منها ولا يفهم حاله وأدخل أهله عليه وأدناهم منه ثم قرب منه هو (أى الربيع) كأنه يخاطبه ثم رجع إليهم وقال لهم أمير المؤمنين يقول لكم جددوا البيعة إلى المهدى فبايعوه ثم أخرجهم ولم يلبث أن خرج إليهم باكيا مشقق الجيب لاطما رأسه وهو يصيح واأمير المؤمنيناه فعلموا بأن أمير المؤمنين مات. قالوا: فلما بلغ ذلك المهدى أنكره على الربيع وقال أما منعتك جلالة أمير المؤمنين أن تفعل به ما فعلت؟ وضربه. وقال آخرون لم يصح ضربه، ولما استقرّ بالمهدى الخلافة تقرب منه جماعة من بنى هاشم وشدوا أزره وكلموه فى خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد والبيعة لموسى الهادى بن المهدى ووافقته شيعة المهدى على ذلك أيضاً فسر المهدى هذا الأمر وأعجبه جدا وكتب إلى عيسى ابن موسى بالقدوم وهو بقرية الرحبة من أعمال الكوفة فأحس عيسى بالذى يراد منه فامتنع من القدوم فسير المهدى روح بن حاتم إلى الكوفة وولاه عمالتها وأمره أن يتصرف فى عيسى بن موسى ويضره فلم يجد روح سببا للإضرار به لأنه كان لا يأتى من القرية إلى الكوفة إلا نادرا وألح المهدى على عيسى إنك إن لم تجبنى إلى أن تخلع نفسك من ولاية العهد لموسى وهارون استحللت دمك بمعصيتك ما يستحل من أهل المعاصى وإن أجبتنى عوّضتك منها ما هو أجدى عليك وأعجل نفعا، فلم يقدم عليه وخاف انتقامه فوجه إليه المهدى عمه العباس بن محمد برسالة وكتب يستدعيه فلم يحضر معه فلما عاد العباس وجه إليه المهدى أبا هريرة محمد بن فرّوخ القائد فى ألف من أصحاب المهدى المتشيعين له وجعل مع كل واحد منهم طبلا وأمرهم أن يضربوا طبولهم جميعاً عندما يدخلون القرية التى بها عيسى فوصلوا إليها سحرا وضربوا طبولهم فخاف عيسى واضطرب اضطراباً شديداً ودخل عليه أبو هريرة وأمره بالشخوص معه فاعتل بالشكوى فلم يقبل منه وأخذه معه وأنزله دار

ومحمد بن سليمان فى عسكر المهدى فأقام أياماً يأتى فيها إلى المهدى فلا يكلمه بشيء ولا يرى ما يروعه.

واتفق أنه حضر الدار يوماً قبل حضور المهدى فجلس فى مقصورة للربيع وقد اجتمع شيعة رؤساء المهدى على خلعه فثاروا به وهو فى المقصورة فأغلق الباب دونهم فضربوا الباب بالعمد حتى كسروه وشتموا عيسى أقبح الشتم وجاء المهدى إلى مجلسه فأظهر إنكارا لما فعلوه فلم يرجعوا فبقوا على هذا الحال أياماً إلى أن كلمه فى ذلك أهل بيته وألح عليه المهدى فأبى وقال: إن عليه أيماناً فى أهله وماله فأحضر له من القضاة والفقهاء عدة فأتوه بما رأوا فأجاب إلى خلع نفسه فأعطاه المهدى عشرة آلاف ألف درهم وضياعه بالزاب وكسكر فكان خلعه لنفسه لأربع بقين من المحرم بايع للمهدى ولابنه موسى الهادى ثم جلس المهدى من الغد وأحضر أهل بيته وأخذ بيعتهم ثم خرج إلى الجامع وعيسى معه وخطب الناس وأعلمهم بخلع عيسى والبيعة للهادى ودعاهم إلى البيعة فسارع الناس إليها وأشهد على عيسى بالخلع، قال صاحب الكامل: فأنشد فى ذلك بعض الشعراء:

كره الموت أبو موسى وقد كان في الموت نجاة وكرم
خلع الملك وأضحى ملبسا ثوب لؤم ما ترى منه القدم

ولما دانت للمهدى الأمور وتم له ما أراد من البيعة للهادى تفرغ للغزو والجهاد فأرسل فى سنة تسع وخمسين ومائة عبد الملك بن شهاب المسمعى فى جمع كثير من الجند والمتطوّعة إلى بلاد الهند فركبوا البحر من فارس ونزلوا بأرض الهند وفتحوا بايزيد عنوة فلجأ أهلها إلى البلد فأحرقوه عليهم ثم أصاب المسلمين يومئذ وباء عظيم فرجع من بقى منهم وبرجوعهم عصفت بهم الرياح عند ساحل حوران فكسرت جميع سفنهم ولم ينج إلا النزر اليسير.

وتجهز أيضاً لحرب الروم فى سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة للميلاد أى سنة ثلاث وستين ومائة للهجرة وجمع عسكره من خراسان ونحوها وقام إلى البدندون وترك ولده موسى ببغداد وأخذ معه هارون الرشيد ثم سمع وهو فى طريقه أن بحلب من الزنادقة شيء كثير فعرّج إليها وأقام بها أياماً فجمع سائر من بها من هذه الطائفة وقتلهم وأحرق كتبهم ثم نهض إلى جيحان وجيش ولده هارون الرشيد للغزو فتغلغل هارون فى البلد وفتح وأخضع وظفر وغنم وعاد بالغنائم، وظهر فى هذا الحين رجل اسمه يوسف ادّعى الولاية واستغوى خلقاً كثيراً وظهر أيضاً يوشيا وادّعى

النبوّة فبعث إليه المهدى جيشاً عظيماً وأتى به بعد قتال فصلبه ثم ظهر المقنع الخراسانى واسمه عطاء وكان رجلاً غريباً قيل إنه خيل للناس صورة قمر يطلع ويراه الناس عن بعد شاسع نحو شهرين فتبعه خلق كثير جداً فأرسل إليه المهدى جيشا وما زال يقاتله والحرب بينهم سجال حتى قتله وقد أشار ابن سينا إلى ما كان يصنع المذكور فقال:

إليك فما بدر المقنع طالعا　　　بأسحر من ألحاظ بدريّ المعمم

قيل: وتغالى المقنع فادّعى الربوبية واستمال جماعة وكان يقول بالحلول الإلهى فى الأنبياء كلهم إلى أن حل فيه فاتسعت كلمته وطارت شهرته وكبرت هيبته وعمر قلعة تسمى بسيام وقيل تكس بما وراء النهر من رستاق كش وتحصن بها وكان يقول بالتناسخ فاجتمع إليه أصحاب المهدى وحصروه فى قلعته وشدّدوا فى الحصار أياماً كثيرة فلما يئس من نفسه سقى نساءه سما فمتن ثم تناوله لنفسه فمات ودخل العسكر قلعته وقتلوا من بها من أصحابه بحد السيف قال بعض الكتاب وبعد أن تناول السم رمى بنفسه إلى النار خوفاً من أن العدوّ يلقى جسده وتبعه جنده فصارت القلعة خالية خاوية وكانت فعلته هذه سببا فى زيادة افتتان من بقى من شيعته بما وراء النهر حتى قالوا إنه صعد إلى السماء وكان قبل ذلك قد أعلمهم بأن روحه ستتحوّل إلى هيكل رجل أشمط على برذون أشهب وأنه يعود إليهم ويملكهم سائر المعمور من الأرض فكانوا ينتظرونه وهم يعرفون إلى ذلك الحين (بالمبيضة) وكان المقنع المذكور فى بداية أمره قصارا من أهل كاوه من أعمال مرو وكان مشوّه الخلق قصيرا أعور اتخذ له برقعا من الذهب فكان لا يسفر عن وجهه أبدا ولذلك سمى بالمقنع.

وكان المهدى مولعاً باللهو ويأذن بالشرب فى حضرته فنهاه عن ذلك وزيره يعقوب بن داود بن طهمان فألقاه فى السجن فقال فيه بشار بن برد :

بني أمية هبوا طال نومكم　　　إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا　　　خليفة الله بين الناي والعود

وبقى يعقوب مسجوناً إلى خلافة الرشيد فأخرجه وقد عمى فلحق بمكة وقتل المهدى بشارا المذكور لقوله هذين البيتين وهو أوّل من رتب البريد بين مكة والمدينة واليمن من بغال وإبل.

ومات المهدى بقرية من قرى ماسبذان وذلك أنه ساق خلف صيد فدخل خربة

فدق ظهره باب الخربة من قوّة سوق الفرس فتلف لوقته، وقيل بل سمته جاريته حسنة وذلك أنه خرج يريد الهادى بجرجان فلما بلغ ماسبذان عمدت حسنة جاريته إلى كمثرى فأهدتها إلى جارية أخرى كان المهدى يحبها وكانت سمت كمثراة منها وهى الأطيب فمر المهدى وكان يحب الكمثرى فأخذ تلك الكمثراة المسمومة وأكلها فصاح من وقته جوفى جوفى فسمعت حسنة وجاءت تبكى وتلطم وجهها وتقول: قصدت أن أنفرد بك فقتلتك ومات من يومه وقيل فى موته غير ذلك وهو أنه لما خرج إلى ماسبذان كان يريد خلع ابنه موسى الهادى والبيعة للرشيد بولاية العهد وتقديمه على الهادى فبعث إليه وهو بجرجان فى أن يخلع نفسه فأبى فبعث إليه فى القدوم عليه فضرب الرسول وامتنع فسار المهدى يريده فلما بلغ ماسبذان أكل طعاما ثم قال: إنى داخل إلى البهو أنام فلا توقظونى حتى أكون أنا الذى انتبه فدخله فنام ونام أصحابه فاستيقظوا ببكائه فأتوه مسرعين فقال وقف على الباب رجل فقال:

كأني بهذا القصر قد باد أهله وأوحش منه ربعه ومنازله
وصار عميد القوم من بعد بهجه وملك إلى قبر عليه جنادله
فلم يبق إلا ذكره وحديثه تنادى عليه معولات حلائله

فبقى بعد ذلك عشرة أيام ومات، ويحكى أيضاً أنه لما هم المهدى بالخروج إلى ماسبذان قدّم إلى حسنة حظيته أن تخرج معه فأرسلت إلى طوفيل بن توما النصرانى المنجم الرهاوى وكان رئيس المنجمين تقول: أشرت على أمير المؤمنين بهذا السفر فجشمتنا سفرا لم يكن فى الحساب فعجل الله موتك وأراحنا منك فلما بلغته الرسالة. قال للجارية: ارجعى إليها وقولى لها إن هذه الإشارة ليست منى وأما دعاؤك علىّ بتعجيل الموت فهذا الشيء قد قضى الله به وموتى سريع فلا تتوهمى أنه بدعوتك ولكن أعدّى لنفسك تراباً كثيراً فإذا مت أنا فاجعليه على رأسك، قيل فما زالت متوقعة تأويل قوله هذا إلى أن مات المهدى بعد عشرين يوماً، قال أبو الفرج: وكان طوفيل هذا على مذهب الموارنة الذين فى جبل لبنان من مذاهب النصارى وله كتاب فى التاريخ حسن ونقل كتاب أوميروس الشاعر على فتح مدينة إيليون فى قديم الدهر من اليونانية إلى السريانية بأبلغ ما يكون من العبارات .اهـ.

وكان موت المهدى لثمان بقين من المحرم سنة تسع وستين ومائة للهجرة أى نحو سنة خمس وثمانين وسبعمائة للميلاد ولم يوجد له نعش يحمل عليه فحمل على باب ودفن تحت شجرة جوز وله اثنتان وأربعون سنة ونصف وقيل ثلاث

وأربعون سنة وكانت خلافته عشر سنين وشهرا وكان جوادا ممدوحا محببا للرعية حسن الخَلَق والخُلُق يقال أن أباه خلف فى الخزائن مائة ألف ألف درهم وستين ألف ألف ففرقها ويقال إنه أجاز شاعرا بمائة ألف درهم.

واستعمل فى أيامه على مصر بعد عزله محمد بن سعيد فى سنة تسع وخمسين أبا ضمرة محمد بن سليمان كذا فى تاريخ ابن كثير وأما الجزار فقال أنه ولى بعد يزيد بن حاتم عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج التجيبى ثم ولى بعده أخوه فأقام سنة وشهرين ثم ولى بعده موسى بن على اللخمى سنة خمس وخمسين فأقام إلى سنة إحدى وستين ثم ولى عيسى بن اللخمى ثم ولى واضح مولى المنصور سنة اثنتين وستين ثم صرف من عامه وولى منصور بن يزيد الحميرى ثم ولى بعده يحيى بن داود أبو صالح الخراسانى ثم ولى سالم بن سوادة التميمى سنة أربع وستين ثم ولى إبراهيم بن صالح العباسى سنة خمس وستين ثم ولى موسى بن كعب مولى خثعم ثم ولى الفضل بن صالح العباسى سنة تسع وستين وهى السنة التى مات فيها المهدى كما تقدم.

ومات فى خلافة المهدى مينا بطرك المتأصلين بعد أن أقام ثمان سنين فأقاموا بعده يوحنا وهو ثامن أربعيهم وأصله من نبا وأبو صير وكان راهباً بدير أبو مقار، وفى أيامه خرج القبط بناحية بلهيت فبعث إليهم موسى بن على أمير مصر يومئذ جندا فقاتلوهم وطال القتال بينهم أياما ثم سكنت الفتنة وعاد العمال إلى مجاملتهم خوف اشتداد الفتنة فعادوا إلى ما كانوا عليه من الطاعة والسكون وكان فى أيام يوحنا هذا من الحوادث ما سيذكر فى محله.

(الفصل الرابع)

(فى خلافة موسى الهادى)

ثم قام بالأمر بعد محمد المهدى ابنه موسى الهادى بويع له بالخلافة يوم موت أبيه سنة تسع وستين ومائة هجرية أى سنة خمس وثمانين وسبعمائة ميلادية وكان مقيما بجرجان يحارب أهل طبرستان وكان الرشيد مع المهدى بماسبذان فسار منها إلى بغداد بالجند وأرسل أحد القواد إلى الهادى بالخاتم والقضيب والتعزية والتهنئة، فلما

جاء الخبر إلى الهادى نادى فى عسكره بالرحيل وركب هو على البريد مجداً فبلغ بغداد فى عشرين يوماً فتلقاه الناس وبايعوه وكتب إلى الآفاق بوفاة المهدى والبيعة له واستوزر الربيع وجعل يتصرف فى الأمور فلم يمض على خلافته حول كامل حتى ظهر الحسين بن علىّ بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب بالمدينة، قال صاحب الكامل: وكان سبب ذلك أن الهادى استعمل على المدينة عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب فلما وليها أخذ أبا الزفت حسن بن محمد بن عبد الله بن الحسن ومسلم بن جندب الشاعر الهذلى وعمر بن عبد السلام مولى آل عمر على نبيذ لهم فأمر بهم فضربوا جميعاً وجعل فى أعناقهم حبالاً وطيف بهم فى المدينة فجاء الحسين بن علىّ إلى العمرى. وقال له: قد ضربتهم ولم يكن لك أن تضربهم لأن أهل العراق لا يرون به بأساً فلم تطوف بهم فأمر بهم فردوا وحبسهم ثم إن الحسين بن علىّ ويحيى بن عبد الله بن الحسن كفلا الحسن بن محمد فأخرجه العمرى من الحبس وكان قد ضمن بعض آل أبى طالب بعضا وكانوا يعرضون فغاب الحسن بن محمد عن العرض يومين فأحضر العمرى الحسين بن علىّ ويحيى بن عبد الله وسألهما عنه وأغلظ لهما فحلف له يحيى أنه لا ينام حتى يأتيه به أو يدق عليه باب داره حتى يعلم أنه جاءه به فلما خرجا قال له الحسين: سبحان الله ما دعاك إلى هذا ومن أين تجد حسنا تحلف له بشىء لا تقدر عليه؟ فقال والله لانمت حتى أضرب عليه باب داره بالسيف فقال له الحسين إن هذا ينقض ما كان بيننا وبين أصحابنا من الميعاد وكانوا قد تواعدوا على أن يظهروا بمنى وبمكة فى الموسم فقال يحيى قد كان ذلك فانطلقا وعملا فى ذلك من ليلتهم وخرجوا فى آخر الليل وجاء يحيى حتى ضرب على العمرى باب داره فلم يجده وجاءوا فاقتحموا المسجد وقت الصبح فلما صلى الحسين وقت الصبح أتاه الناس فبايعوه على كتاب الله وسنة نبيه للمرتضى من آل محمد وجاء خالد البريدى فى مائتين من الجند وجاء العمرى ووزير بن إسحق الأزرق ومحمد بن واقد الشروى ومعهم ناس كثير فدنا خالد منهم فقام إليه يحيى وإدريس ابنا عبد الله بن الحسن فضربه يحيى على أنفه فقطعه ودار له إدريس من خلفه فضربه فصرعه ثم قتلاه فانهزم أصحابه ودخل العمرى فى المسوّدة فحمل عليهم أصحاب الحسين فهزموهم من المسجد وانتهبوا بيت المال وكان فيه بضعة عشر ألف دينار وقيل سبعون ألفا وتفرق الناس وأغلق أهل المدينة أبوابهم فلما كان الغد اجتمع عليهم شيعة بنى العباس فقاتلوهم وفشت الجراحات فى الفريقين واقتتلوا إلى

الظهر ثم افترقوا ثم إن مباركاً التركى أتى شيعة بنى العباس من الغد وكان قدم حاجا فقاتل معهم فاقتتلوا أشد قتال إلى منتصف النهار ثم تفرقوا ورجع أصحاب الحسين إلى المسجد وواعد مبارك الناس فى الرواح إلى القتال فلما غفلوا عنه ركب رواحله وانطلق وراح الناس فلم يجدوه فقاتلوا شيئاً من قتال إلى المغرب ثم تفرقوا وقيل إن مباركاً أرسل إلى الحسين يقول له: والله لأن أسقط من السماء فتخطفنى الطير أيسر علىّ من أن تشوكنى شوكة أو أقطع من رأسك شعرة ولكن لابد من الأعذار فبيتنى فإنى منهزم عنك فوجه إليه الحسن وخرج إليه فى نفر فلما دنوا من عسكره صاحوا وكبروا فانهزم هو وأصحابه وأقام الحسين وأصحابه أياماً يتجهزون فكان مقامهم بالمدينة أحد عشر يوماً ثم خرجوا لست بقين من ذى القعدة فلما خرجوا عاد الناس إلى المسجد فوجدوا فيه العظام التى كانوا يأكلون وآثارهم فدعوا عليهم ولما فارق المدينة قال: ياأهل المدينة لا أخلف الله عليكم بخير فقالوا بل أنت لا أخلف الله عليك ولا ردك علينا وكان أصحابه يحدثون فى المسجد فغسله أهل المدينة، ولما أتى الحسين مكة أمر فنودى أيما عبد أتانا فهو حر فأتاه العبيد فانتهى الخبر إلى الهادى وكان قد حج تلك السنة رجال من أهل بيته منهم سليمان بن المنصور ومحمد بن سليمان بن علىّ والعباس بن محمد بن علىّ وموسى وإسماعيل ابنا عيسى بن موسى فكتب الهادى إلى محمد بن سليمان بتوليته على الحرب وكان قد سار بجماعة وسلاح من البصرة لخوف الطريق فاجتمعوا بذى طوى وكانوا قد أحرموا بعمرة فلما قدموا مكة طافوا وسعوا وأحلوا من العمرة وعسكروا بذى طوى وانضم إليهم من حج من شيعتهم ومواليهم وقوّادهم ثم إنهم اقتتلوا يوم التروية فانهزم أصحاب الحسين وقتل منهم وجرح وانصرف محمد بن سليمان ومن معه إلى مكة ولا يعلمون ما حال الحسين فلما بلغوا ذا طوى لحقهم رجل من أهل خراسان يقول البشرى البشرى هذا رأس الحسين فأخرجه وبجبهته ضربة طولى وعلى قفاه ضربة أخرى وكانوا قد نادوا الأمان فجاء الحسن بن محمد بن عبد الله أبو الزفت فوقف خلف محمد بن سليمان و العباس بن محمد فأخذه موسى بن عيسى وعبد الله بن العباس بن محمد فقتلاه فغضب محمد بن سليمان غضبا شديداً وأخذ رؤوس القتلى فكانت مائة رأس ونيفا وفيها رأس الحسين بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علىّ وأخذت أخت الحسين فتركت عند زينب بنت سليمان واختلط المنهزمون بالحاج وأتى الهادى بستة أسرى فقتل بعضهم واستبقى بعضهم وغضب

على موسى بن عيسى فى قتل الحسن بن محمد وقبض أمواله فلم تزل بيده حتى مات وغضب على مبارك التركى وأخذ ماله وجعله سائس الدواب فبقى كذلك حتى مات الهادى، وأفلت من المنهزمين إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علىّ فأتى مصر وعلى بريدها واضح مولى صالح بن المنصور وكان شيعيا لعلىّ فحمله على البريد إلى أرض المغرب فوقع بأرض طنجة بمدينة وليلة فاستجاب له من بها من البربر فضرب الهادى عنق واضح وصلبه وقيل إن الرشيد هو الذى قتله وأن الرشيد دس إلى إدريس الشماخ اليمامى مولى المهدى فأتاه وأظهر أنه من شيعتهم وعظمه وآثره على نفسه فمال إليه إدريس وأنزله عنده ثم إن إدريس شكا إليه مرضا فى أسنانه فوصف له دواء وجعل فيه سما وأمره أن يستن به عند طلوع الفجر فأخذه منه وهرب الشماخ ثم استعمل إدريس الدواء فمات منه فولى الرشيد الشماخ بريد مصر. قال أصحاب التاريخ: وولد لإدريس المذكور ولد جاءت منه الدولة الإدريسية ثم المغربية ثم المهدية ثم المراكشية عند بناء مراكش وكان تأسيسها فى سنة ثلاث وستين وأربعمائة هجرية أى نحو سنة سبعين وألف ميلادية.

ولما وضع رأس الحسين بين يدى الهادى قال: كأنكم قد جئتم برأس طاغوت من الطواغيت إن أقل ما أجزيكم أن أحرمكم جوائزكم فلم يعطهم شيئاً، وكان الحسين شجاعاً كريما قدم على المهدى فأعطاه أربعين ألف دينار ففرقها فى الناس ببغداد والكوفة وخرج من الكوفة لا يملك ما يلبسه إلا فرواً ليس تحته قميص، ولما فرغ الهادى من قتال الحسين وأصحابه ودانت له الأمور جدّ فى خلع هارون الرشيد والبيعة لابنه جعفر فوافقه على ذلك جماعة من قوّاده وجعلوا يعيبون الرشيد وينقصونه فى مجالسهم وأمر الهادى أن لا يسار بين يدى الرشيد بالحربة فاجتنبه عند ذلك الناس وتركوا السلام عليه وكان الذى يتولى أمور الرشيد بأمر الهادى يحيى بن خالد بن برمك فخوّفوا الهادى منه وقالوا إن الذى يفسد عليك أمرك إنما هو يحيى لا هارون فبعث إليه الهادى يتهدده ثم استدعاه ليلة فخاف وأوصى وتحنط وتمثل بين يديه فقال له: يايحيى مالى ولك قال مايكون من العبد إلى مولاه إلا طاعته فقال لا تدخل بينى وبين أخى وتفسد علىّ فقال من أنا حتى أدخل بينكما إنما صيرنى المهدى معه ثم أمرتنى أنت بالقيام بأمره فانتهيت إلى أمرك فسكن غضب الهادى وقد كان هارون أذعن لخلع نفسه فمنعه يحيى فلما أحضره الهادى وكلمه فى خلع هارون قال له: ياأمير المؤمنين إنك إن حملت الناس على نكث الأيمان هانت عليهم أيمانهم وإن

تركتهم على بيعة أخيك ثم بايعت لجعفر بعده كان ذلك أوكد للبيعة فقال الهادى صدقت يايحيى وسكت عنه فلم يرض بذلك القوّاد والشيعة الذين بايعوه وعادوا فحملوا الهادى على معاودة الرشيد بالخلع فقبض على يحيى بن خالد وحبسه فأرسل إليه يحيى يقول: عندى نصيحة فأحضره بين يديه فقال له ياأمير المؤمنين أرأيت إن كان الأمر لا تبلغه ونسأل الله أن يعدمنا قبله، يريد بذلك موت الهادى، أتظن الناس يسلمون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الحنث أو يرضون به لصلاتهم وحجهم وغزوهم قال: ما أظن ذلك فقال ياأمير المؤمنين أفتأمن أن يسمو إليها أكابر أهلك مثل فلان ويطمع فيها غيرهم فتخرج من ولد أبيك والله لو أن هذا الأمر لم يعقده المهدى لأخيك لقد كان ينبغى أن تعقده أنت له فكيف بأن تحله عنه وقد عقده المهدى ولكنى أرى أن تقرّ الأمر على أخيك فإذا بلغ جعفر أتيت بالرشيد فخلع نفسه له وبايعه فقبل قوله وقال له: نبهتنى إلى أمر لم أنتبه له وأطلقه ثم إن القواد عاودوا القول فى خلع الرشيد فأرسل الهادى إلى الرشيد فى ذلك وشدد وضيق فقال يحيى للرشيد استأذن أمير المؤمنين فى الخروج إلى الصيد فإذا خرجت فابعد ودافع الأيام ففعل فأذن له فمضى إلى قصر بنى مقاتل فقام أربعين يوماً ثم استدعاه فتعلل فشدّد فى طلبه فحضر ثم خرج الهادى إلى حديقة الموصل فمرض بها واشتدّ مرضه فلما ثقل أجمع جميع القواد الذين كانوا بايعوا جعفرا على قتل يحيى بن خالد ولكنهم عدلوا عن ذلك وخافوا من الهادى إن تراجعت إليه صحته ولم تطل أيام مرض الهادى حتى مات فى ربيع الأول سنة سبعين ومائة هجرية فكانت خلافته سنة وثلاثة أشهر وقيل كانت أربعة عشر شهرا وكان عمره ستا وعشرين سنة وقيل ثلاثا وعشرين سنة ودفن بعيس اباذ الكبرى فى بستانه، قيل إن وفاته كانت من قبل جوار لأمه الخيزران كانت أمرتهن بقتله وكان سبب ذلك أنه لما ولى الخلافة جعلت تستبدّ بالأمر حتى مضى أربعة أشهر فتزاحم الناس على بابها وكانت المواكب تغدو وتروح إلى بابها فكلمته يوما فى حاجة لم يجد إلى إجابتها إليها سبيلاً فقالت لابدّ من إجابتى فقال والله لا قضيتها لك قالت إذن والله لا أسألك حاجة أبداً قال لا أبالى والله فغضبت وقامت فقال مكانك والله وإلا أنا نفى من قرابتى من رسول الله ﷺ لئن بلغنى أنه وقف ببابك أحد من قوادى وخاصتى لأضربن عنقه ولأقبضن ماله ما هذه المواكب التى تغدو وتروح إلى بابك أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو

بيت يصونك إياك وإياك لا تفتحى بابك لمسلم ولا ذمى فانصرفت وهى لا تعقل من الغيظ فوضعت جواريها عليه لما مرض فقتلنه بالغم والجلوس وقيل بل مات بقرحة فى جوفه، وكان طويلاً جسيماً أبيض مشربا بحمرة وكان بشفته العليا نقص وتقلص وكان أبوه قد وكل به خادماً يقول له موسى: أطبق فيضم شفته فلقب لذلك موسى أطبق، وكان شديدا جدّا علي الزنادقة أصحاب مانى فأعمل فيهم القتل والتشريد والصلب بوصية من أبيه المهدى وذلك أنه قال له يوماً: يابنى إذا صار الأمر إليك فتجرّد لهذه العصابة يعنى أصحاب مانى فإنها تدعو الناس إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد فى الدنيا والعمل للآخرة ثم تخرجها من هذا إلى تحريم اللحوم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرجا ثم تخرجها إلى عبادة اثنين أحدهما النور والآخر الظلمة ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق لتنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور فارفع فيها الخشب وجرد السيف فيها وتقرب بأمرها إلى الله فإنى رأيت جدى العباس ﷺ فى المنام قلدنى سيفين لقتل أصحاب الاثنين، فلما ولى الهادى أعمل فيهم القتل وأمر أن يهيأ له ألف جذع ليرفع عليها كل من يأتون به من أصحاب مانى فمات ولم يدرك منشوده.

واستعمل على مصر فى خلافته علىّ بن سليمان العباسى فى سنة تسع وستين بعد عزله للفضل بن صالح العباسى ثم ولى موسى بن عيسى العباسى فبقي إلى أن مات الهادى فى سنة سبعين ومائة كما تقدم القول.

(الفصل الخامس)

(فى خلافة هارون الرشيد)

ثم قام بالأمر بعد الهادى أخوه هارون الرشيد بن محمد المهدى وكان أبوهما قد أخذ لهما ولاية العهد معا كما مر. بويع له بالخلافة فى الليلة التى مات فيها أخوه فى رابع عشر ربيع الأول سنة سبعين ومائة هجرية أى سنة ست وثمانين وسبعمائة ميلادية وله من العمر اثنتان وعشرون سنة وكان مولده بالرى وولد له فى تلك الليلة المأمون فكانت ليلة عجيبة لم ير مثلها فى بنى العباس وذلك لأنه مات فيها خليفة

وولد خليفة وولى خليفة. قيل لما مات الهادى جاء يحيى بن خالد إلى الرشيد وهو نائم فى فراشه فقال له: قم ياأمير المؤمنين فقال: كم تروعنى إعجابا منك بخلافتى فكيف تكون حالتى مع الهادى أن بلغه هذا فأعلمه بموته وأعطاه خاتمه فلبس ثيابه وخرج فصلى على الهادى بعيساباذ، ودخل خزيمة بن خازم فى الليلة التى مات فيها الهادى على جعفر بن الهادى فحمله من فراشه وقال له: لتخلعنها أو لأضربن عنقك فلم ير بداً من الإجابة إلى الخلع وركب من الغد خزيمة وأظهر جعفرا للناس فأشهدهم جعفر بالخلع وأقال الناس من بيعتهم، ولما بويع إلى هارون بالخلافة قلد يحيى بن خالد البرمكى وزارته وقال له: قد قلدتك أمر الرعية فاحكم فيها بما ترى وأعزل من رأيت واستعمل من رأيت ودفع إليه خاتمه فقال إبراهيم الموصلى فى ذلك.

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة   فلما ولى هارون أشرق نورها
بيمن أمين الله هارون ذي الذي   فهارون واليها ويحيى وزيرها

ورسم بعزل الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين وجعلها حيزا واحدا وسماها العواصم وعمر مدينة طرسوس وبذل الجهد فى مد نطاق ملكه وتأييد سلطانه وكان سعيد الطالع موفقا فى جميع أعماله وعزل عمر بن عبد العزيز العمري عن المدينة وولى مكانه إسحق بن سليمان بن عبد الله بن عباس ثم حج الرشيد ودخل مكة محرما وقسم فى الحرمين مالاً كثيراً، وفى سنة خمس وسبعين ومائة للهجرة قامت الفتنة بدمشق بين المضرية واليمانية فى ولاية عبد الصمد بن علىّ فجمع الرؤساء وسعوا فى الصلح فتكلموا مع بنى القين فأجابوا إليه وكلموا اليمانية فحاولوا وساروا إلى بنى القين وقتلوا منهم ستمائة نفر فاستنجد بنو القين قضاعة وسليما فلم ينجدوهم فاستجاشوا قيسا فأجابوهم وقتلوا من اليمانية نحو ثمانمائة واشتد القتال فعزل الرشيد عبد الصمد عن دمشق وولاها إبراهيم بن صالح فأحسن سياستها، وحج فى سنة ست وثمانين ومائة ومعه أولاده الثلاثة محمد الأمين وعبد الله المأمون والقاسم وكان قد ولى الأمين العهد وأعطاه العراق والشام إلى آخر المغرب وولى المأمون العهد بعده وضم إليه همذان إلى آخر المشرق وبايع لابنه القاسم من بعد المأمون ولقبه المعتصم وجعل خلعه وإثباته للمأمون وجعله فى حجر عبد الملك بن صالح وضم إليه الجزيرة والثغور والعواصم ومرّ بالمدينة فأعطى فيها ثلاثة أعطية واحد منه وآخر من الأمين وآخر من المأمون فبلغ ألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار ثم سار إلى مكة فأعطى مثلها وأحضر الفقهاء والقضاة والقواد وكتب كتابى

العهد وأشهد فيهما بالوفاء للأمين والمأمون وعلقهما فى الكعبة، فتطير الناس من ذلك وخافوه جدا وأشهد على أن ما فى عسكره من الأموال والخزائن والسلاح والكراع للمأمون وجدد له البيعة عليهم فى طبرستان وأرسل إلى بغداد فجدد له العهد على الأمين.

قال الكسائى: دخلت على الرشيد يوما فلما قضيت حق التسليم والدعاء وثبت للقيام فقال: اقعد فلم أزل عنده حتى خف عامة من كان فى مجلسه ولم يبق إلا خاصته فقال لى: ياعلىّ ألا تحب أن ترى محمداً وعبد الله قلت ما أشوقنى إليهما ياأمير المؤمنين وأسرّنى بمعاينة نعمة الله على أمير المؤمنين فيهما فأمر بإحضارهما فلم ألبث أن أقبلا ككوكبى أفق يزينهما هدوّ ووقار وقد غضا أبصارهما وقاربا خطوهما حتى وقفا على باب المجلس فسلما على أبيهما بالخلافة ودعوا له بأحسن الدعاء فأمرهما بالدنو منه فسير محمدا عن يمينه وعبد الله عن يساره ثم أمرنى أن أستقرئهما وأسألهما ففعلت فما سألتهما عن شىء إلا أحسنا الجواب فيه والخروج منه فسر بذلك الرشيد حتى تبينته فيه ثم قال لى: ياعلى كيف ترى مذهبهما وجوابهما فقلت ياأميرالمؤمنين كما قال الشاعر:

أري قمري مجد وفرعي خلافة   يزينهما عرق كريم ومحتد

ياأمير المؤمنين هما فرع زكا أصله وطاب مغرسه وتمكنت فى الثرى عروقه وعذبت مشاربه أبوهما أغرّ نافذ الأمر واسع العلم عظيم الحلم يحكمان بحكمه ويستضيئان بنوره وينطقان بلسانه ويتقلبان فى سعادته فأمتع الله أمير المؤمنين بهما وآنس جميع الأمة ببقائه وبقائهما فما رأيت أحدا من أولاد الخلفاء وأغصان هذه الشجرة المباركة أذرب لساناً ولا أحسن ألفاظاً ولا أشدّ اقتدارا على تأدية ما حفظا منهما ودعوت لهما دعاء كثيراً وأمّن الرشيد على دعائى ثم ضمهما إليه وجمع يديه عليهما فلم يبسطهما حتى رأيت الدموع تنحدر على صدره ثم أمرهما بالخروج فلما خرجا أقبل علىّ فقال: كأنك بهما وقد عم القضاء ونزلت مقادير السماء وبلغ الكتاب أجله قد تشتت كلمتهما واختلف أمرهما وظهر تعاديهما ثم لم يبرح ذلك بهما حتى تسفك الدماء وتقتل القتلى وتهتك ستور النساء، ويتمنى كثير من الأحياء أنهم فى عداد الموتى، قلت: أيكون ذلك ياأمير المؤمنين لأمر رؤى فى أصل مولدهما أو لأثر وقع لأمير المؤمنين فى مولدهما فقال: لا والله إلا بأثر واجب حملته العلماء عن الأوصياء عن الأنبياء . اهـ.

ويقال إن العماني الشاعر قام بحضرة الرشيد فلم يزل يحرضه على محمد ويحضه على تجديد العهد له فلما فرغ من كلامه قال له: أبشر ياعماني بولاية العهد له فقال أى والله ياأمير المؤمنين سرور العشب بالغيث والمرأة النزور بالولد والمريض المدنف بالبرء لأنه نسيج وحده وحامى مجده وشبيه جدّه قال: فما تقول فى عبد الله؟ قال مرعى ولا كالسعدان فتبسم الرشيد وقال قاتله الله ما أعرفه بمواضع الرعية أما والله إني لأتعرّف فى عبد الله حزم المنصور ونسك المهدى وعز نفس الهادى والله لو شاء الله أن أنسبه إلى الرابعة لنسبته إليها، وقال الأصمعي: بينما أنا سائر إلى الرشيد ذات ليلة إذ رأيته قد قلق قلقا شديداً فكان يقعد مرة ويضطجع مرة ويبكى ثم أنشأ يقول:

قلد أمور عباد الله ذا ثقة موحد الرأي لا نكس ولا برم
واترك مقالة أقوام ذوي خطل لا يفهمون إذا ما معشر فهموا

فلما سمعت منه ذلك علمت أنه يريد أمرا عظيما ثم قال لمروان الخادم: عليّ بيحييَ فما لبث أن أتاه فقال: يا أبا الفضل إن رسول الله ﷺ مات فى غير وصية والإسلام جذع والإيمان جديد وكلمة العرب مجتمعة قد آمنها الله تعالى بعد الخوف وأعزها بعد الذل فما لبث أن ارتد عامة العرب على أبى بكر وكان من خبره ما قد علمت وأن أبا بكر صير الأمر إلى عمر فسلمت الأمة له ورضيت بخلافته ثم صيرها عمر شورى فكان بعده ما قد بلغك من الفتن حتى صارت إلى غير أهلها وقد عنيت بتصحيح هذا العهد وتصييره إلى من أرضى سيرته وأحمد طريقته وأثق بحسن سياسته وآمن ضعفه ووهنه وهو عبد الله وبنو هاشم مائلون إلى محمد بأهوائهم وفيه ما فيه من الانقياد لهواه والتصرف مع طويته والتبذير لما حوته يده ومشاركته النساء والإماء فى رأيه وعبد الله المرضى الطريقة الأصيل الرأى الموثوق به فى الأمر العظيم فإن ملت إلى عبد الله أسخطت بنى هاشم وإن أفردت محمدا بالأمر لم آمن تخليطه على الرعية فأشر عليّ فى هذا الأمر برأيك مشورة يعم فضلها ونفعها لأنك بحمد الله مبارك الرأى لطيف النظر، فقال: ياأمير المؤمنين إن كل زلة مستقالة وكل رأى يتلافى خلا هذا العهد فإن الخطأ فيه غير مأمون والزلة فيه لا تستدرك وللنظر فيه مجلس غير هذا فعلم الرشيد أنه يريد الخلوة فأمرنى بالتنحى فقمت وقعدت ناحية بحيث أسمع كلامهما فما زالا فى مناجاة ومناظرة طويلة حتى مضى الليل وافترقا على أن عقد الأمر لعبد الله بعد محمد، ودخلت أم جعفر على الرشيد فقالت ما أنصفت ابنك محمدا حيث وليته العراق وأعريته من العدد والقواد وصيرت ذلك إلى

عبد الله دونه فقال لها: وما أنت وتمييز الأعمال وأخبار الرجال؟ إنى وليت ابنك السلم وعبد الله الحرب وصاحب الحرب أحوج إلى الرجال من المسالم ومع ذلك فإنا نتخوّف ابنك على عبد الله ولا نتخوف عبد الله على ابنك إن بويع، ويحكى عن سعيد بن عامر البصرى قال: حججت فى هذه السنة يعنى سنة ست وثمانين ومائة التى حج فيها الرشيد وولداه وقد كتب الشرطين بينهما وعلقهما فى الكعبة وقد استعظم الناس أمر الشرط والإيمان فى الكعبة فرأيت رجلاً من هذيل يقود بعيرا ويقول:

وبيعة قد نكثت أيمانها ‏ ‏ وفتنة قد سعرت نيرانها

فقلت له: ويحك ما تقول ؟قال أقول إن السيوف ستسل والفتنة ستقع والتنازع فى الملك سيظهر قلت وكيف ترى ذلك؟ قال أما ترى البعير واقفاً والرجلان يتنازعان والغربان قد وقعا على الدم والتطخا به؟ والله لا يكون آخر هذا الأمر إلا محاربة وشرا. ويروى أن الأمين لما حلف للرشيد بما حلف له به وأراد الخروج من الكعبة ردّه جعفر بن يحيى وقال له: فإن غدرت بأخيك خذلك الله حتى فعل ذلك ثلاثا كلها يحلف له فامتعضت لذلك أم جعفر وحقدت على جعفر بن يحيى فكانت ممن حرّض الرشيد على أمره وبعثته على ما نزل به، وقد كان من أمر الفتنة بينهما ما سيأتى ذكره فى محله إن شاء الله تعالى.

ولما كانت سنة ست وثمانين ومائة للهجرة أى سنة ست عشرة وثمانمائة للميلاد أوقع الرشيد بالبرامكة وأبادهم وقد اختلف الكتاب فى الأسباب وتباينت أقوالهم والأكثر أنه لإتيان جعفر عباسة أخت الرشيد فإنه كان زوجها من جعفر ليحل له النظر إليها لأن الرشيد لم يكن يصبر على أخته ولا غنى له عن جعفر فباشرها جعفر فحبلت منه وجاءت بغلام وقيل إنها ولدت توأمين وقيل لأن الرشيد كان حبس يحيى بن عبد الله بن الحسن عند يحيى فأسراه وقيل قتل البرامكة خوفاً منهم على ملكه لأنهم كانوا عظموا واشتهروا بالجود والكرم ومال إليهم الناس وأحبوهم، وعندى أن ذلك أقرب إلى الصواب، قال ابن خلدون: وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتيازهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه فغلبوه على أمره وشاركوه فى سلطانه ولم يكن له معهم تصرف فى أمور ملكه فعظمت آثارهم وبعد صيتهم وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم واحتازوها عمن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم يقال إنه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد خمسة

وعشرون رئيساً من بين صاحب سيف وصاحب قلم زاحموا فيها أهل الدولة بالمناكب ودفعوهم عنها بالراح بما لمكان أبيهم يحيى من كفالة هارون ولىّ عهد وخليفة حتى شب فى حجره ودرج من عشه وغلب على أمره وكان يدعوه ياأبتى توجه الإيثار من السلطان إليهم وعظمت الدالة منهم وانبسط الجاه عندهم وانصرفت نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب وقصرت عليهم الآمال وتخطت إليهم من أقصىّ التخوم هدايا الملوك وتحف الأمراء وتسربت إلى خزائنهم فى سبيل التزلف والاستمالة أموال الجباية وأفاضوا فى رجال الشيعة وعظماء القرابة العطاء وطوّقوهم المنن وكسبوا من بيوتات الأشراف المعدم وفكوا العانى ومدحوا بما لم يمدح به خليفتهم وأسنوا لعفاتهم الجوائز والصلات واستولوا على القرى والضياع من الضواحى والأمصار فى سائر الممالك حتى آسفوا البطانة وأحقدوا الخاصة وأغصوا أهل الولاية فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد ودبت إلى مهادهم الوثير من الدولة عقارب السعاية حتى لقد كان بنو قحطبة أخوال جعفر من أعظم الساعين عليهم لم تعطفهم لما وقع فى نفوسهم من الحسد عواطف الرحم ولا ردعتهم أواصر القرابة وقارن ذلك عند مخدومهم نواشىء الغيرة والاستنكاف من الحجر والأنفة وكانت الحقود التى بعثتها منهم صغائر الدالة وانتهى بها الإصرار على شأنهم إلى كبائر المخالفة كقصتهم فى يحيى بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب أخى محمد المهدى الملقب بالنفس الزكية الخارج على المنصور ويحيى هذا هو الذى استنزله الفضل بن يحيى من بلاد الديلم على أمان الرشيد بخطه وبذل لهم فيه ألف ألف درهم على ما ذكره الطبرى ودفعه الرشيد إلى جعفر وجعل اعتداله بداره وإلى نظره فحبسه مدة ثم حملته الدالة على تخلية سبيله والاستبداد بحل عقاله حرما لدماء أهل البيت بزعمه ودالة على السلطان فى حكمه وسأله الرشيد عنه لما وشى به إليه ففطن. وقال أطلقته فأبدى له وجه الاستحسان وأسرها فى نفسه فأوجد السبيل بذلك على نفسه وقومه حتى ثل عرشه وألقيت عليهم سماؤهم وخسفت الأرض بهم وبدارهم وذهبت سلفا ومثلا للآخرين أيامهم إلى أن قال: وانظر ما نقله ابن عبد ربه فى مفاوضة الرشيد عمه داود بن علىّ فى شأن نكبتهم وما ذكره فى باب الشعراء فى كتاب العقد فى محاورة الأصمعى للرشيد وللفضل بن يحيى فى سمارهم تفهم أنهم إنما قتلتهم الغيرة والمنافسة فى الاستبداد من الخليفة فمن دونه وكذلك ما تحيل به أعداؤهم من البطانة فيما دسوه للمغنين من الشعر احتيالا على إسماعه للخليفة وتحريك حفائظه لهم وهو قوله:

ليت هندا أنجزتنا ما تعد   وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدّت مرة واحدة   إنما العاجز من لا يستبدّ

وأن الرشيد لما سمعها قال: إى والله إنى عاجز حتى بعثوا بأمثال هذه كامن غيرته وسلطوا عليهم بأس انتقامه نعوذ بالله من غلبة الرجال وسوء الحال . اهـ.

قال صاحب الكامل: لما رجع الرشيد من الحج نزل العمر الذى عند الأنبار سلخ المحرم وأرسل مسرورا الخادم ومعه جماعة من الجند إلى جعفر ليلاً وعنده ابن بختيشوع الطبيب وأبو زكار المغنى وهو فى لهوه وأبو زكار يغنى:

فلا تبعد فكل فتى سيأتي   عليه الموت يطرق أو يغادي
وكل ذخيرة لابد يوما   وإن كرمت تصير إلى نفاد

قال مسرور فقلت له: ياأبا الفضل الذى جئت له هو والله ذاك قد طرقك أجب أمير المؤمنين فوقع على رجلى يقبلها وقال حتى أدخل فأوصى فقلت أما الدخول فلا سبيل إليه وأما الوصية فاصنع ما شئت فأوصى بما أراد وأعتق مماليكه وأتتنى رسل الرشيد تستحثنى فمضيت به إليه فأعلمته وهو فى فراشه فقال ائتنى برأسه فأتيت جعفرا فأخبرته فقال: الله الله والله ما أمرك إلا وهو سكران فدافع حتى أصبح أو راجعه فىّ ثانية فعدت لأراجعه فلما سمع حسى قال: ياماص بظر أمه ائتنى برأسه فرجعت إليه فأخبرته فقال آمره فرجعت فحذفنى بعمود كان فى يده. وقال نفيت من المهدى إن لم تأتنى برأسه لأقتلنك قال فخرجت فقتلته وحملت رأسه إليه، وكان قتل جعفر بالأنبار فى صفر وبعد قتله أرسل من أحاط بيحيى ولده وجميع أسبابه وأخذ جميع ما وجد للبرامكة من مال ومتاع وضياع وغير ذلك وكتب إلى كافة البلاد بقبض أموالهم وأرسل رأس جعفر وجثته إلى بغداد وأمر بوضع الرأس على جسر وجثته على جسر آخر ولكنه مع ذلك لم يتعرض لمحمد بن خالد بن برمك قالوا لبراءته، وكان عمر جعفر لما قتل سبعا وثلاثين سنة وكانت الوزارة فيهم سبع عشرة سنة والبرامكة عائلة من فارس واسعة السمعة كانت لهم رتبة الأمانة والكهانة قبل الإسلام بمائتى سنة وقد قال يحيى بن خالد عند ما نكب: الدنيا دول والمال عارية ولنا بمن قبلنا أسوة وفينا لمن بعدنا عبرة، وشوهد بعد قتله فى حضنه رقعة مكتوب فيها: المقرف يذهب والمعرق يتبعه قريباً وسينتصب الاثنان أمام قاضٍ عدل حيث لا تغنى الكتابات والأعذار شيئاً، وسار الرشيد إلى الرى ثم رجع إلى العراق ودخل بغداد وأمر بإحراق جثة جعفر ثم مضى إلى الرقة ومات يحيى بن

خالد فى هذا الحين فى السجن فى الرقة وعمره سبعون سنة ومات الفضل بن يحيى بن خالد ابن برمك مسجوناً فى السنة الثانية وعمره خمس وأربعون سنة قيل ولم ير أجمل منه فلم يكن الرشيد بعد قتل البرامكة يطيق المقام ببغداد فبارح السنة المذكورة الرقة إلى خراسان ثم سار طالباً حرب رافع بن الليث بما وراء النهر لخروجه بسمرقند فلما كان فى طوس جىء ببشر بن الليث أسيراً فقال له الرشيد: والله لو لم يبق من أجلى إلا أن أحرك شفتى بكلمة لقلت اقتلوه ثم أمر قصابا ففصل أعضاءه ومثل به تمثيلاً، وكان الرشيد قد غضب على عبد الملك بن صالح بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب فأمر به فألقوه فى السجن مكبلا على غير سبب ظاهر فلما كان فى بعض الأيام استحضره وجعل يعنفه ويوبخه شديداً قال غوث بن المدرع عن الرياشى قال: سمعت الأصمعى يقول كنت عند الرشيد وأتى بعبد الملك بن صالح يرفل فى قيوده فلما نظر إليه قال: هيه ياعبد الملك كأنى أنظر إلى شؤبوبها قد همع وعارضها قد لمع، وكأنى بالوليد قد أقلع عن براجم بلا معاصم ورؤوس بلا غلاصم مهلا مهلا بنى هاشم والله والله سهل لكم الوعر وصفا لكم الكدر وألقت إليكم الأمور أزمّتها فخذوا حذركم منى قبل حلول داهية خبوط باليد لبوط بالرجل، فقال له عبد الملك أفذا أتكلم أوتوأما فقال: بل توأما قال فاتق الله ياأمير المؤمنين فيما ولاك وراقبه فى رعاياك التى استرعاك، قد سهلت والله لك الوعور، وجمعت على طاعتك القلوب فى الصدور، وكنت كما قال أخو بنى جعفر بن كلاب، يعنى لبيدا:

ومقام ضيق فرّجته   ببيان ولسان وجدل
لا يقوم الفيل أو فياله   زل عن مثل مقامي أو رحل

قال: فأراد يحيى بن خالد البرمكى أن يضع من مقام عبد الملك عند الرشيد فقال له ياعبد الملك بلغنى أنك حقود فقال أصلح الله الوزير إن يكن الحقد هو بقاء الخير والشر عندى فإنهما لباقيان فى قلبى فالتفت الرشيد إلى الأصمعى فقال: ياأصمعى حررها فوالله ما احتج أحد للحقد بمثل ما احتج به عبد الملك ثم أمر به فرد إلى محبسه ثم التفت إلى الأصمعى وقال والله ياأصمعى لقد نظرت إلى موضع السيف من عنقه مرارا ويمنعنى من ذلك إبقائى على قومى فى مثله . اهـ.

وكان هارون الرشيد موفق الغزوات ميمون الطالع كتب إليه نيقفور ملك الروم الذى قام بعد خلع إيرمينى الملك كتاباً يقول فيه: من نيقفور ملك الروم إلى هارون الرشيد ملك العرب أما بعد فإن الملكة التى كانت قبلى قد أقامتك رخا وأقامت نفسها بيدقا فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أضعافه إليها وما ذاك إلا

من ضعف النساء وحمقهن فإذا قرأت كتابى فاردد علينا ما سلبته من أموالنا وإلا فالسيف يقضى فيما بيننا، فلما تقدم السفراء بالكتاب أخذه الرشيد وقرأه ولما وصل إلى قوله فالسيف يقضى فيما بيننا ألقى السفراء المذكورون ضمة سيوفهم أمامه فنظر إليها الرشيد وهو يبتسم قيل واستل سيفه وضرب به تلك السيوف الرومية فبراها كما يبرى الكاتب القلم ثم كتب على ظهر الجواب: بسم الله الرحمن الرحيم ، من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نيقفور كلب الروم قد قرأت كتابك يابن الكافرة والجواب ما تراه لا ما تسمعه، وعندى أن هذا من مبالغة الكتاب لأن الرشيد كان أديباً مهيباً حسن السياسة غير مشاغب ولا متسرع إلى فحش القول وهو من الحلم وسعة الصدر بمكان، قالوا: ثم ركب الرشيد على نيقفور من يومه حتى نزل هرقلة ففتح وغنم وخرّب وبعث داود بن عيسى بن موسى فى سبعين ألفا غازياً فى أرضهم وفتح شرحبيل بن معن بن زائدة حصن الصقالبة ودلسة وفتح يزيد بن مخلد حصن الصفصاف ومقلونية وأناخ عبد الله بن مالك على حصن ذى الكلاع واستعمل الرشيد حميد بن معيوف على الأساطيل من سواحل الشام ومصر إلى قبرص فهزم وخرب وسبى من أهلها سبعة عشر ألفاً وجاء بهم إلى الرافقة فبيعوا بها وبلغ فداء أسقف قبرص يومئذ ألفى دينار، وسار الرشيد إلى طوانة فنزل بها وحاربها وحاصرها ثم رحل عنها وخلف عليها عقبة بن جعفر فسأله نيقفور الصلح على خراج يحمله فى كل سنة فصالحه ورجع إلى قصره على الفرات ثم لم تلبث الروم حتى انتقضوا فى الشتاء فركب عليهم ثانية ولم تمنعه ثلوج الجبال وقاتلهم قيل فقتل منهم أربعين ألفا وجرح نيقفور فى ثلاثة محال ثم عصى ثالثة فجيش عليه وأخضعه، وكان الرشيد يركب على مائة وخمسة وثلاثين ألفا من العساكر المرتزقة سوى من لا ديوان له والمتطوعة الجميع نحو ثلثمائة ألف وقد تجاوز بجميع هذه الجنود مدن آسية الصغرى حتى أنقرة وحاصر هرقلة شهرا وخرّبها وأخذ ما فيها من الخيرات والكنوز وما زال يخرب ويسلب ويأسر ويشدّد على نيقوفور إلى أن تصالحا على أن تبقى مدينة هرقلة خربة أمثولة وذكرا لظفر الرشيد وعلى أن يكون المال المدفوع مسكوكا عليه اسمه واسم أولاده الثلاثة فكان ذلك.

ومات الرشيد فى سنة ثلاث وتسعين ومائة لثلاث خلون من جمادى الآخرة فى ليلة السبت بطوس وهو ابن سبع وأربعين سنة وقيل خمس وأربعين وكان به مرض فاشتدّت علته بجرجان فسار إلى طوس ومات فيها وكان قد سير ولده المأمون إلى

مرو وكان قد حفر قبره فى وسط الدار التى كان فيها قيل ولما احتضر خاف وانزعج وغشى عليه ثم أفاق فرأى الفضل بن الربيع فقال يافضل:

أحين دنا ما كنت أخشى دنوّه   رمتني عيون الناس من كل جانب
فأصبحت مرحوما وكنت محسدا   فصبرا على مكروه تلك العواقب
سأبكي على الوصل الذي كان بيننا   وأندب أيام السرور الذواهب

فبكى الفضل عند سماعه هذه الأبيات وترك الرشيد اثنى عشر ابنا وخمس عشرة بنتا وكان جواداً ممدوحاً غازياً مجاهداً شجاعاً مهيباً مليحاً أبيض طويلاً عبل الجسم قد وخطه الشيب ويقال إنه منذ استخلف كان يصلى كل يوم وليلة مائة ركعة ويتصدّق من ماله الخاص بألف درهم وكان له معرفة جيدة بالعلوم وكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة وأشهرا وقيل ثلاثاً وعشرين فقط وكان مولده بالرى.

واستأمر على مصر فى خلافته مسلمة بن يحيى الأزدى بعد خلعه موسى بن عيسى العباسى فى سنة اثنتين وسبعين ثم ولى بعده محمد بن زهير الأزدى سنة ثلاث وسبعين ثم ولى داود بن يزيد المهلبى سنة أربع وسبعين ثم أعاد موسى بن عيسى سنة خمس وسبعين ثم عزله الرشيد سنة ست وسبعين وولى عليها جعفر بن يحيى البرمكى فاستناب عليها عمر بن مهران شيعيًا ردىء الشكل أحول وكان سبب ذلك أن الرشيد بلغه أن موسى بن عيسى عزم على خلعه فقال: والله لأولين عليها أخس الناس فاستدعى عمر بن مهران هذا وولاه عليها نيابة عن جعفر فسار عمر إليها على بغل وغلامه أبو درة على بغل آخر فدخلها كذلك فانتهى إلى مجلس موسى بن عيسى فجلس فى أخريات الناس حتى انفضوا فأقبل عليه موسى وهو لا يعرف هو فقال: ألك حاجة ياشيخ؟ قال نعم أصلح الله الأمير ثم مال بالكتب فدفعها إليه فلما قرأها قال أنت عمر بن مهران قال نعم قال: لعن الله فرعون حين قال أليس لى ملك مصر ثم سلم إليه العمل وارتحل عنها.

ثم فى سنة سبع وسبعين ومائة عزل الرشيد جعفرا عن مصر وولى عليها إسحق ابن سليمان كذا فى تاريخ ابن كثير وغيره وذكر الأديب أبو الحسن الجزار فى أرجوزته فى أمراء مصر خلاف ذلك فإنه قال أعيد موسى بن عيسى سنة خمس وسبعين، ثم أعيد إبراهيم بن صالح العباسى سنة ست وسبعين، ثم ولى عبد الله ابن المسيب الضبى ثم ولى إسحق بن سليمان العباسى سنة سبع وسبعين كذا قال. اهـ.

ثم عزل إسحق سنة ثمان وسبعين وولى هرثمة بن أعين فأقام نحوا من شهر، ثم عزل وولى عبد الملك بن صالح العباسى فأقام إلى سلخ سنة ثمان وسبعين وولى عبد الله بن مهدى العباسى سنة تسع وسبعين، ثم أعيد موسى بن عيسى سنة ثمانين، ثم أعيد عبيد الله المهدى وصرف فى رمضان سنة إحدى وثمانين، ثم صرف وولى الليث بن الفضل البيوردى، ثم ولى أحمد بن إسماعيل العباسى سنة سبع وثمانين، ثم ولى عبيد الله بن محمد العباسى، ثم ولى الحسين بن جميل الأزدى سنة تسعين، ثم ولى مالك بن دلهم الكلبى سنة اثنتين وتسعين ثم ولى الحسن سنة ثلاث وتسعين وهى السنة التى مات فيها الرشيد.

ومات فى أيامه يوحنا بطرك الإسكندرية بعد أن أقام ثلاثاً وعشرين سنة وكان تقيًا محباً للفقراء ولم تصبه شدائد بل كانت أيامه كلها سلاماً فأقيم بعده مرقس المعروف بالجديد وهو تاسع أربعيهم وأصله من مدينة الإسكندرية ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله.

(الفصل السادس)

(فى خلافة محمد الأمين بن هارون الرشيد)

ثم قام بالأمر بعد هارون الرشيد ابنه محمد الأمين بويع له بالخلافة يوم توفى أبوه بطوس سنة ثلاث وتسعين ومائة هجرية أى سنة ثمان وثمانمائة ميلادية واستناب أخاه على ممالك خراسان وهو إذ ذاك ببغداد فورد عليه بها خاتم الخلافة والبردة والقضيب وهما لصاحب الشريعة ثم بويع له بها البيعة التامة فى سائر الآفاق. وكان الرشيد قد جدد البيعة بطوس بولاية العهد لابنه المأمون بعد الأمين كما تقدّم القول وأشهد على نفسه أن جميع ما معه من مال وسلاح وغير ذلك للمأمون وأوصى أن يكون ما معه من الجيوش مضمومين معه بخراسان فلما مات الرشيد نادى الفضل بن الربيع فى عسكر الرشيد بالرحيل إلى بغداد وخالف وصية الرشيد فعظم ذلك على المأمون وكتب إلى الفضل يذكره بالعهود التى أخذها عليه الرشيد ويحذره البغى ويسأله الوفاء فلم يلتفت الفضل إليه فكان هذا الأمر سبب ابتداء الوحشة بين الأمين والمأمون، وكان الأمين عديم السياسة فلم يلبث على كرسى الخلافة طويلاً حتى أمر بإبطال ذكر اسم المأمون من الخطبة واستبدله باسم ابنه موسى ولقبه الناطق بالحق وكان يومئذ طفلاً فأدّى ذلك إلى وقوع الوحشة واشتداد الخلاف بينه وبين المأمون

وطال الأخذ والرد بين الفريقين حينا فكثرت أحزاب المأمون وانضم إليه ناس من كبار الدولة وأمراء الجند بعد أمور قد أضربنا عن إيرادها هنا وتجهز كل منهما لقتال الآخر فأرسل الأمين عليّ بن عيسى بن ماهان بجيش عظيم لقتال المأمون فى خراسان وجهز المأمون كذلك طاهر بن الحسين بعسكر قليل وأرسله إلى الرى فخلع طاهر بيعة الأمين بمن معه من الجند وبايع المأمون فقامت الحرب بينه وبين عليّ بن عيسى وقاتل عليّا قتالاً شديداً وقتل عليّ وأخذت رأسه إلى طاهر وانهزم عسكره فأرسل الأمين عسكرا آخر صحبة أحمد بن مرشد وعبد الله بن حميد بن قحطبة وكان مع كل واحد عشرون ألفا وساروا إلى حلوان لقتال طاهر فلما وصلوا إلى خانقين وقع فيهم الخلاف فرجعوا دون قتال فتقدم طاهر ونزل في حلوان ولحقه هرثمة بجيش آخر من عند المأمون وكتب يأمره بالقيام إلى الأهواز ولما بلغ المأمون قتل ابن ماهان أمر أن يخطب له بإمرة المؤمنين وعقد للفضل بن سهل على المشرق من همذان إلى التبت طولاً ومن بحر فارس إلى بحر الديلم وجرجان عرضا ولقبه بذى الرياستين يعنى رياسة الحرب ورياسة القلم، وولى الحسن بن سهل ديوان الخراج ثم استولى طاهر على الأهواز وواسط والمدائن ونزل صرصر فى سنة ست وتسعين ومائة أى نحو سنة إحدى عشرة وثمانمائة للميلاد وفى التى بعدها ألقى هرثمة وطاهر الحصار على بغداد وأوقعا فيها النهب والحريق ومنعا الميرة فغلا فيها سعر كل شيء ودام الحصار وشدة الحال السنة بطولها وهجم طاهر بعد ذلك على بغداد وبعد قتال شديد انجلى عن تمزيق شمل جند الأمين وتفريقهم أيدى سبأ وخذلهم للخليفة نادى منادى طاهر من لزم بيته فهو آمن وتحصن الأمين فى مدينة المنصور وتفرق عنه عامة جنده وخصيانه فحاصره طاهر وسدّ عليه المنافذ ثم طلب الأمين الأمان من هرثمة وأن يطلع إليه فلم يقبل فروجع طاهر فى ذلك فأبى فلما كانت ليلة الأحد لخمس بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة هجرية أى سنة ثلاث عشرة وثمانمائة للميلاد خرج الأمين وعليه ثياب بيض وطيلسان أسود فأرسل إليه هرثمة يمنعه من ذلك وأن يبقى إلى الليلة القابلة فلم يقبل ودعا الأمين بابنيه وضمهما لصدره وقبلهما وبكى ثم مضى راكباً إلى الشط فوجد حراقة هرثمة فصعد إليها فاحتضنه هرثمة وضمه إليه وقبل يديه ورجليه وقد علم أصحاب طاهر بخبره فشدوا على حراقة هرثمة حتى أغرقوها فأخرج الملاح هرثمة من الماء أما الأمين فإنه لما سقط شق ثيابه وعدا سابحا إلى الجانب الثانى فأمسكوه وأخذوه عريان ووضعوه فى بيت حتى جاء الليل وأرسل إليه طاهر بعض الأعجام فقتلوه وأخذوا رأسه فنصبه

طاهر على برج من أبراج بغداد إلى أن أرسلت إلى المأمون وكتب له بالفتح وأرسل له البردة والقضيب ودخل طاهر المدينة وأقام خطبة المأمون نهار الجمعة واستتبت له الخلافة واستوثق له الأمر مشرقا ومغربا بعد أمور أضربنا عن إيرادها هنا.

قال أبو حنيفة فى الأخبار الطوال وغيره عن الكسائى أنه قال: إن الرشيد ولانى تأديب الأمين والمأمون فكنت أشدّد عليهما فى الأدب وآخذهما به أخذا شديداً وخاصة الأمين فأتتنى ذات يوم خالصة جارية زبيدة وقالت ياكسائى إن السيدة تقرأ عليك السلام وتقول لك حاجتى إليك أن ترفق بابنى محمد فإنه قرة عينى وثمرة فؤادى وإنى أرق عليه رقة شديدة فقلت لخالصة: إن محمدا مترشح للخلافة بعد أبيه ولا يجوز التقصير فى أمره فقالت خالصة إن لرقة هذه السيدة سببا أنا أخبرك إياه إنها فى الليلة التى ولدته فيها رأت فى منامها كأن أربع نسوة أقبلن إليه فاكتنفنه عن يمينه وشماله وأمامه ووراءه فقالت التى بين يديه ملك قليل العمر كثير الكبر ضيق الصدر واهى الأمر كبير الوزر شديد الغدر، وقالت التى من ورائه: ملك قصاف مبذر متلاف قليل الإنصاف كثير الإسراف، وقالت التى عن يمينه: ملك عظيم البذل ثقيل الحمل كثير الإثم قطوع للرحم، وقالت التى عن يساره: ملك غدّار كثير العثار سريع الدمار، قال: ثم بكت خالصة وقالت ياكسائى وهل ينفع الحذر من القدر. اهـ.

ولما همّ محمد بخلع المأمون شاور عبد الله بن حازم فقال له: أنشدك الله ياأمير المؤمنين أن لا تكون أول الخلفاء نكث عهده ونقض ميثاقه واستخف يمينه فقال: أسكت لله أبوك فعبد الملك بن صالح كان أفضل منك رأياً حيث يقول لا يجتمع فحلان فى أجمة ثم جمع القواد وشاورهم فاتبعوه فى مراده إلى أن بلغ إلى هرثمة ابن حازم فقال ياأمير المؤمنين لن ينصحك من كذبك ولن يغشك من صدقك لا تجرّئ القواد على الخلع فيخلعوك ولاتحملهم على نكث العهود فينكثوا عهدك وبيعتك فإن الغادر مخذول والناكث مغلول فأقبل الأمين على علىّ بن عيسى بن ماهان فتبسم محمد وقال: لكن شيخ هذه الدعوة وناب هذه الدولة لا يخالف إمامه ولا يوهن طاعته ثم رفعه إلى موضع ما رفعه إليه فيما مضى فكان على بن عيسى هذا أول من أجاب إلى خلع المأمون فأكبره الأمين وقرّبه وسيره فى جيش عظيم نحو المأمون فلما قرب من الرى قيل له إن طاهر بن الحسين مقيم بها وقد كان يظن أن طاهراً لا يثبت له فقال ما طاهر إلا شوكة من أغصانى وشرارة من نارى وما مثل طاهر يؤمر على جيش وما بينه وبين الأمين إلا أن تقع عينه على سوادكم فإن

السخال لا تقوى على نطاح الكباش والثعالب لا تقدر على لقاء الأسد فقال له ابنه: ابعث طلائع وارتد موضعا لعسكرك فقال: ليس طاهر يستعدّ له بالمكائد والتحفظ إن حال طاهر يؤدى إلى أمرين إما أن يتحصن بالرى فيثب به أهلها ويكفونا مؤنته أو يخليها ويدبر راجعا إذا قربت خيولنا منه فقال له ابنه إن الشرارة ربما صارت ضراما فقال إن طاهرا ليس قرنا فى هذا الموضع وإنما يحترس الرجال من أقرانها، وسار على بن عيسى وبث عساكره من الرى وتبين ما عليه طاهر من الجدّ وأهبة الحرب وضم الأطراف فعدل إلى رستاق من رساتيق الرى متياسرا عن الطريق فنزل وانبسطت عساكره وأقبل طاهر فى نحو من أربعة آلاف فارس فأشرف على عساكر علىّ وتبين كثرتها وعدة ما فيها فعلم أن لا طاقة له بذلك الجيش فقال لخواصه ومن معه: نجعلها خارجية وكردس خيله كراديس وصمد فى نحو القلب فى سبعمائة من الخوارزمية وغيرهم من فرسان خراسان وخرج إليه من القلب العباس بن الليث مولى العهد وكان فارساً فقصده طاهر وضم يديه على سيفه فأتى عليه وكان علىّ على برذون فسقط كميت بين أرجل الرجال فتمالئوا على رأسه وتنازعوا فى خاتمه ورأسه فذبحه رجل يعرف بطاهر بن الراجى وقبض آخر على خصلة من شعر لحيته وآخر على خاتمه وكان سبب هزيمة الجيش ضربة طاهر بيديه جميعاً للعباس بن الليث وبذلك سمى طاهر ذا اليمينين لجمع السيف بيديه، وذكر أحمد بن هشام وكان من وجوه القواد قال: جئت إلى مضرب طاهر وقد توهم أنى قتلت فى المعركة ومعى رأس علىّ فقلت البشرى هذه خصلة من رأس علىّ مع غلامى فى المخلاة فطرحتها قدامه ثم أتى بجثته وقد شدت يداه ورجلاه كما يفعل بالدواب إذا ماتت فأمر به طاهر فألقى فى بئر وكتب إلى ذى الرياستين فكان فى الكتاب: أطال الله بقاءك وكبت أعداءك كتابى إليك ورأس على بن عيسى بين يدي وخاتمه فى أصبعى والحمد لله رب العالمين، فسرّ المأمون بذلك وسلم عليه فى ذلك الوقت بالخلافة، وحدّث إبراهيم بن المهدي قال: بعث إلىّ الأمين وهو محاصر فصرت إليه فإذا هو جالس فى طارمة خشبها من عود وصندل عشرة فى عشرة وإذا سليمان بن أبى جعفر المنصور معه فى الطارمة وهى قبة كان اتخذ لها فراشا مبطنا بأنواع الحرير والديباج المنسوج بالذهب الأحمر وغير ذلك من أنواع الإبريسم فسلمت فإذا قدامه قدح بلور محروز فيه شراب ينفذ مقداره خمسة أرطال وبين يدى سليمان قدح مثله فجلست بإزاء سليمان فأتيت بقدح كالأول والثانى. قال: فقال الأمين إنما بعثت إليكما لما بلغنى قدوم طاهر بن الحسين إلى النهروان وما قد صنع فى أمرنا من المكروه وقابلنا

به من الإساءة فدعوتكما لأفرج بكما وبحديثكما فأقبلنا نحدثه ونؤنسه حتى سلا عما كان يجده وفرح ودعا بجارية من خواص جواريه تسمى ضعفا قال فتطيرت من اسمها ونحن على تلك الحال فقال لها: غنينا فوضعت العود فى حجرها وغنت:

كليب لعمري كان أكثر ناصرا وأكثر جمعا منك ضرّج بالدم

فتطير من قولها ثم قال لها: اسكتي قبحك الله ثم عاد إلى ما كان عليه من الغم والإقطاب فأقبلنا عليه نحادثه ونبسطه إلى أن سلا وضحك ثم أقبل عليها وقال هات ما عندك فغنت

هم قتلوه كي يكونوا مكانه كما غدرت يوما بكسرى مرازبه

فأسكتها وزأرها وعاد إلى الحالة الأولى فسليناه حتى عاد إلى الضحك فأقبل عليها الثالثة فقال غنى فغنت:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العوائر

وقيل بل إنها غنت:

أما ورب السكون والحرك إن المنايا كثيرة الشرك

فقال لها: قومي عنى فعل الله بك وصنع بك فقامت فعثرت بالقدح الذى كان بين يديه فكسرته فاهريق الشراب وكانت ليلة قمراء ونحن على شاطىء دجلة فى قصره المعروف بالخلدة فسمعنا قائلاً يقول: قضى الأمر الذى فيه تستفتيان، قال ابن المهدى فقمت وقد وثب فسمعت منشدا من ناحية القصر ينشد هذين البيتين:

لا تعجبنّ من العجب قد جاء ما يقضي العجب
قد جاء أمر فادح فيه لذي عجب عجب

قال: فما قمنا معه بعدها إلى أن قتل.

ومات محمد الأمين وهو ابن ثمان وعشرين سنة وقيل سبع وعشرين وكان طويلاً أبيض بديع الحسن وكانت خلافته أربع سنين وثمانية شهور وقيل ثلاثة أعوام وأياما لأنه خلع فى رجب سنة ثمان وتسعين ومائة ومن حسب له إلى موته فخلافته خمس سنين خلا أشهرا وكان مبذرا للأموال لعابا لا يصلح للخلافة مشتغلا باللهو والقصف والإقبال على اللذات فقال فيه بعضهم:

إذا غدا ملك باللهو مشتغلا فاحكم على ملكه بالويل والحرب
أما ترى الشمس في الميزان هابطة لما غدا وهو برج اللهو والطرب

قال صاحب الكامل: وأكثر الشعراء فى مراثى الأمين وهجائه فمما قيل فى مراثيه قول الحسين بن الضحاك وكان من ندمائه وكان لا يصدق بقتله ويطمع فى رجوعه.

ياخير أسرته وإن زعموا   إني عليك لمثبت أسف
الله يعلم أن لي كبدا   حرّى عليك ومقلة تكف
ولئن شجيت لما رزئت به   إني لأضمر فوق ما أصف
هلا بقيت لسدّ فاقتنا   أبدا وكان لغيرك التلف
فلقد خلفت خلائفا سلفوا   أو ليس يعوز بعدك الخلف
لا يأت رهطك بعد هونهم   إني لرهطك بعدها شنف
هتكوا لحرمتك التي هتكت   حرم الرسول ودونها السجف
ونبت أقاربك التي خذلت   وجميعها بالذل معترف
تركوا حريم أبيهم نفلا   والمحصنات صوارخ هتف
أبدت مخلخلها على دهش   أبكارهن ورنت النصف
سلبت معاجرهن واختلست   ذات النقاب ونوزع الشنف
فكأنهن خلال منتهب   درّ تكشف دونه الصدف
سلك تخوّف نظمه قدر   فوهى فصرف الدهر مختلف
هيهات بعدك أن يدوم لنا   عز وأن يبقى لنا شرف
أفبعد عهد الله تقتله   والقتل بعد أمانة سرف
فستعرفون غدا بعاقبة   عز الإله فأوردوا وقفوا
يامن يخوّن نومه أرقا   هدت الشجون وقلبه لهف
قد كنت لي أملا غنيت به   فمضى وحلّ محله الأسف
مرج النظام وعاد منكرنا   عرفا وأنكر بعده العرف
والشمل منتشرا لفقدك والـ   ـدنيا سدى والباب منكشف

وأسرف الحسين بن الضحاك فى مراثى الأمين وذم المأمون فلهذا حجبه المأمون عنه ولم يسمع مديحه مدة ثم أحضره وقال له: أخبرنى هل رأيت يوم قتل أخى هاشمية قتلت وهتكت؟ قال: لا قال: فما قولك:

ومما شجى قلبي وكفكف عبرتي   محارم من آل النبي استحلت

الأبيات. فقال: ياأمير المؤمنين لوعة غلبتنى وروعة فاجأتنى ونعمة سلبتها بعد أن غمرتنى وإحسان شكرته فأنطقنى وسيد فقدته فأقلقنى فإن عاقبت فبحقك وإن عفوت فبفضلك فدمعت عين المأمون وقال: قد عفوت عنك وأمرت بإدرار أرزاقك عليك وعطائك ما فاتك متمما وجعلت عقوبة ذنبك امتناعى من استخدامك . اهـ.

واستعمل الأمين على مصر فى خلافته حاتم بن هرثمة بن أعين ثم صرفه فى سنة خمس وتسعين ثم ولى المطلب بن عبد الله الخزاعى سنة ثمان وتسعين ثم صرفه وولى العباس بن موسى فى السنة التى قتل فيها الأمين أى سنة ثمان وتسعين ومائة للهجرة.

(الفصل السابع)

(فى خلافة عبد الله المأمون بن هارون الرشيد)

ثم قام بالأمر بعد الأمين أخوه عبد الله المأمون بويع له بالخلافة البيعة العامة صبيحة الليلة التى قتل فيها الأمين بإجماع من الأمة على ذلك سنة ثمان وتسعين ومائة هجرية أى سنة ثلاث عشرة وثمانمائة ميلادية خلا ما كان من أمير الأندلس

صبيحة الليلة التى قتل فيها الأمين بإجماع من الأمة على ذلك سنة ثمان وتسعين ومائة هجرية أى سنة ثلاث عشرة وثمانمائة ميلادية خلا ما كان من أمير الأندلس

فإنه كان هو والأمراء قبله وبعده لم يتقيدوا بطاعة العباسيين لبعد الديار واستبدادهم بالأمر فيها فلما استوثق الأمر للمأمون تمم ما بدأ به أبو جعفر المنصور جده من تعميم المعارف بين الرعية واستجلب ما تصل إليه قدرته من كتب الفلسفة والرياضيات وغيرها واستأجر لترجمتها من اللغات الأعجمية مهرة المترجمين ونجباء العلماء ورتب المجالس للمناظرة فى الأديان والفلسفة والنجوم وحث الرعية على ترك ما يرغب فيه الصين والترك ومن نحا نحوهم من التنافس فى دقة الصنائع العلمية وغيرها فارتقت العرب فى أيامه إلى ارقى درجات العلوم والمعارف وفارقتهم أو كادت العوائد البدوية القديمة فى عهد قريب جداً لم يكن فى حسبان.

وظهر فى أيامه بالكوفة محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن العلوى المعروف بابن طباطبا ودعا الناس إليه وكان القائم بأمره أبو السرايا فبايعه أهل الكوفة واستوثقوا له فأرسل إليه المأمون الحسن بن سهل الضبى فى عشرة آلاف فهزمهم ابن طباطبا واستباحهم ولكنه لم يلبث أن مات فجأة وقيل سمه أبو السرايا

ليستبدّ بالأمر وأقام غلاما من أولاد عليّ يقال له ابن زيد صورة والكلمة لأبي السرايا ثم قام ففتح البصرة وواسطا وجرى بينه وبين جند المأمون عدة وقائع انجلى الأمر فيها عن فرار أبي السرايا من الكوفة بثمانمائة فارس بعد أن حصره هرثمة ودخل هرثمة الكوفة ونادى بالأمان فسار أبو السرايا إلى جلولاء فتفرق عنه أصحابه وظفر به حماد الكندغوش وقبض عليه وعلى من بقى معه وأتى بهم إلى الحسن بن سهل وهو فى النهروان فقتله وسير برأسه إلى المأمون.

وكان المأمون يميل لآل عليّ ويحب عليا الرضا بن موسى الكاظم فعهد إليه بالخلافة من بعده وأمر جنده بخلع الأسود ولبس الأخضر وكتب بذلك إلى الآفاق فشق الأمر على بنى العباس ووقع الخلاف وهاج الناس وهموا فى بغداد ببيعة إبراهيم بن المهدى وخلع المأمون لهذا السبب ولتقديمه الحسن بن سهل فبايعوا إبراهيم المذكور فى سنة اثنتين ومائتين ولقب بالمبارك وكان القيم على أمور إبراهيم المطلب بن عبد الله بن مالك فاستولى إبراهيم على الكوفة وجمع عسكره إلى المدائن واستعمل على الجانب الغربى من بغداد العباس بن موسى الهادى وعلى الجانب الشرقى إسحق بن الهادى فسار يومئذ المأمون من مرو إلى العراق واستخلف على خراسان غسان بن عباد وعند وصوله إلى برخس وثب أربعة رجال بالفضل بن سهل فقتلوه وعمره يومئذ ستون سنة فغضب المأمون وجعل لمن يقبض عليهم عشرة آلاف دينار فأمسكهم العباس بن الهيتم الدينورى فأمر المأمون بضرب أعناقهم وقام طالبا العراق فبلغ ذلك إبراهيم بن المهدى والمطلب وأصحابه فترك المطلب إبراهيم وتمارض وسار إلى بغداد واشتغل سرا لجانب المأمون وخلع إبراهيم فعلم إبراهيم بذلك وكان فى المدائن فقصد بغداد وأمر بالمطلب فنهبت دور أهله ولم يظفروا به وعظمت الفتنة وكاد يتسع نطاقها وكان المأمون قد زوّج ابنته من على الرضا الذى عهد إليه بالخلافة بعده فلم يلبث حتى مات فى السنة التالية لزواجه فدفن عند قبر الرشيد وكتب المأمون إلى بغداد يعلم أهلها بموته ويقول لهم: إن من نقمتم عليّ بسببه قد مات فارجعوا إلى خليفتكم فرجعوا وخلعوا بيعة إبراهيم بن المهدى ودعوا للمأمون فاختفى إبراهيم وقدم المأمون إلى بغداد وانقطعت بعودته الفتن وكان لابسا الأخضر فدخل عليه الناس وسلموا بالأخضر ثم رجعوا إلى اللباس الأسود كما رسم هو.

وظهر فى أيامه القول بخلق القرآن وقيل ظهر فى أيام الرشيد وكان الناس فيه بين أخذ وترك إلى زمن المأمون فحمل الناس على القول بخلق القرآن وكل من لم

يقل بخلقه عاقبه أشد عقوبة وكان الإمام أحمد إمام أهل السنة من الممتنعين عن القول بخلق القرآن فحمل إلى المأمون مقيداً فمات المأمون قبل وصوله إليه، ودخل المأمون بلاد الجزيرة والشام وأقام بها مدة طويلة ثم غزا الروم وفتح فتوحات عظيمة للغاية وبث العيون بعد ذلك فى طلب إبراهيم بن المهدى فظفر به لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر سنة سبع ومائتين فى الدرب المعروف بالطويل ببغداد فأدخل إلى المأمون وهو فى زى امرأة ومعه امرأتان أخذه حارس أسود فى الدرب المذكور فلما رآه المأمون على هذه الحالة قال له: هيه ياإبراهيم. فقال: أمير المؤمنين ولىّ الثار محكم فى القصاص والعفو أقرب للتقوى ومن تناوله الزمان واستولى عليه الاغترار بما مدّ له من أسباب الشقاق أمكن عادية الدهر من نفسه وقد جعلك الله فوق كل ذى عفو كما جعل كل ذى ذنب دونى فإن تعاقب فبحقك وإن تعف فبفضلك، قال: بل العفو ياإبراهيم فكبّر إبراهيم ثم خر ساجدا ثم أمر المأمون بالاحتفاظ به إلى بكرة فلما كان الغد أقعد إبراهيم فى دار المأمون والمقنعة التى تقنع بها فى عنقه والملحفة على صدره ليرى الناس الحال التى أخذ عليها ثم حوله إلى أحمد بن أبى خالد ثم عفا عنه من بعد أن كان وكل به فقال إبراهيم فى ذلك من كلمة له.

إن الذي قسم الخلافة حازها   من صلب آدم للإمام السابع
جمع القلوب عليك جامع أمرها   وحوى رداؤك كل خير جامع
فبذلت أعظم ما يضيق ببذله   وسع النفوس من الفعال البارع
وعفوت عمن لم يكن عن مثله   عفو ولم يشفع إليك بشافع

وهى طويلة ومطلعها

ياخير من رفلت يمانية به   بعد النبيّ لآيس أو طامع

فذكر أن المأمون قال حين أنشده هذه القصيدة: أقول كما قال يوسف لإخوته **﴿لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾**.

واختلف أهل مصر فى أيام المأمون وخرج عن طاعته عبد الله بن السرى واستقل بحكم البلاد فأكبر المأمون هذا الأمر جداً وسير عبد الله بن طاهر إلى قتال ابن السرى فقدم ابن طاهر فى سنة عشر ومائتين فلما قرب من مصر وصار على مرحلة قدّم قائدا من قوّاده إليها لينظر موضعا يعسكر فيه وكان ابن السرى قد خندق على مصر وبث العيون والأرصاد فجاءه الخبر بوصول قائد ابن طاهر إلى ما قرب

منه فخرج إليه فى أصحابه فالتقى هو والقائد واقتتلوا قتالاً شديداً. وكان القائد فى قلة فسير بريدا إلى عبد الله بن طاهر يخبره بما هو عليه فجعل عبد الله الرجال على البغال وجنبوا الخيل وأسرعوا السير فلحقوا بالقائد وهو يقاتل ابن السرى فلما رأى ابن السرى ذلك خاف ولم يقدر على الصبر فى القتال فانهزم وتساقط أكثر أصحابه فى الخندق فكان من هلك منهم بسقوط بعضهم على بعض أكثر ممن قتله الجند بالسيف ودخل ابن السرى مصر وأغلق الباب عليه وعلى أصحابه وحاصره عبد الله فلم يعد ابن السرى يخرج إليه واشتد على ابن السرى الأمر فأرسل إلى عبد الله ألف وصيف ووصيفة مع كل واحد منهم ألف دينار وكان إرسالهم ليلاً فردّهم عبد الله وكتب إليه: لو قبلت هديتك نهاراً لقبلتها ليلاً بل أنتم بهديتكم تفرحون ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون فعندما وصل الكتاب إلى ابن السرى خاف كثيراً وطلب الأمان.

وبعد أن فرغ عبد الله من قتال ابن السرى وتم له فتح مصر سار بعسكره إلى الإسكندرية لاستخلاصها من أيدى المتغلبين عليها فقد كان خرج جمع من الأندلس فتغلبوا عليها واستتبت قدمهم فيها وأحدثوا بها من الأحدوثات ما راق لهم فلم يكن لأهل الإسكندرية قبل على ردهم لقيام فتنة ابن السرى وغيره ممن خرج وكان يقدم هؤلاء القوم رجل يدعى أبا حفص وكان داهية حسن السياسة فلما رأى أبو حفص كثرة عسكر عبد الله وأن لا قبل له على قتاله أجاب إلى الطاعة وسأله الأمان على أن يرتحل بمن معه عن الإسكندرية إلى حيث أطراف الروم فأعطاهم الأمان على ذلك فرحلوا ونزلوا بجزيرة اقريطش واستوطنوها وأقاموا بها فأعقبوا وتناسلوا وجعل عبد الله يدبر الأمور ويسوس البلاد حتى استوثقت منه الرعية بالطاعة فولاه المأمون الولاية على مصر والشام والجزيرة وأطلق كلمته فكبرت هيبته وحسده الناس وقال للمأمون بعض إخوته إن عبد الله بن طاهر يميل إلى ولد علىّ بن أبى طالب ويتمنى أن تكون الخلافة فيهم وكذا كان أبوه قبله فأنكر المأمون ذلك ولم يصدقه فعاوده أخوه المعتصم وبالغ فى الأمر لكراهته فى عبد الله فوضع المأمون رجلاً. وقال له: امش فى هيئة القراء والنساك إلى مصر فادع جماعة من كبرائها إلى القاسم بن إبراهيم بن طباطبا ثم سر إلى عبد الله بن طاهر فادعه إليه واذكر له مناقبه ورغبه فيه وابحث عن باطنه وائتنى بما تسمع ففعل الرجل ذلك فاستجاب له جماعة من الأعيان فقعد بباب عبد الله بن طاهر فلما خرج عبد الله يريد الركوب نهض إليه الرجل وناوله رقعة فتناولها وسار فلما عاد إلى منزله أرسل يطلب الرجل فلما دخل

عليه الرجل قال له: قد فهمت ما فى رقعتك فهات ما عندك فقال: ولى أمانك؟ قال نعم فدعاه إلى القاسم من ولد علىّ بن أبى طالب وذكر فضله وزهده وعلمه فقال عبد الله أتنصفنى ياهذا؟ قال نعم قال هل يجب شكر الله على العباد؟ قال نعم قال فتجىء إلىّ وأنا فى هذه الحالة من النعم لى خاتم فى المشرق جائز وخاتم فى المغرب جائز وفيما بينهما أمرى مطاع ثم ما ألتفت عن يمينى ولا شمالى وورائى وأمامى إلا رأيت نعمة لرجل (يعنى المأمون) أنعمها علىّ ومنة ختم بها رقبتى ويدا لائحة بيضاء ابتدأنى بها تفضلا وكرما فهل إذن تدعونى إلى أن أكفر بهذه النعم وهذا الإحسان وتقول اغدر بمن كان أولى بهذا وأحرى واسع فى إزالة خيط عنقه وسفك دمه آتراك لو دعوتنى إلى الجنة عياناً أكان الله يجب منى أن اغدر به وأكفر إحسانه وأنكث بيعته؟ فسكت الرجل فقال له عبد الله ما أخاف عليك إلا نفسك فارحل عن هذا البلد فإن السلطان الأعظم إذا بلغه ذلك كنت الجانى على نفسك ونفس غيرك فلما أيس منه جاء إلى المأمون فأخبره فاستبشر وقال: ذلك غرس يدى وألف أدبى وقراب سيفى ثم كتم الأمر على عبد الله حتى مات المأمون.

ولما كانت سنة اثنتى عشرة ومائتين نادى منادى المأمون: برئت الذمة من أحد من الناس ذكر معاوية بخير أو قدمه على أحد من أصحاب الرسول وتكلم فى أشياء من التلاوة أنها مخلوقة وغير ذلك. (قلت): وتنازع الكتاب فى السبب الذى من أجله أمر بالنداء فى أمر معاوية فقيل فى ذلك أقاويل منها أن بعض سماره حدّث بحديث عن مطرف بن المغيرة بن شعبة الثقفى وقد ذكر هذا الخبر ابن بكار فى كتابه فى الأخبار المعروفة بالموفقيات التى وضعها للموفق وهو ابن الزبير، قال: سمعت المدائنى يقول قال مطرف بن المغيرة بن شعبة: وفدت مع أبى المغيرة إلى معاوية فكان أبى يأتيه يتحدث عنده ثم ينصرف إلىّ فيذكر معاوية ويذكر عقله ويعجب مما يرى منه إذ جاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء فرأيته مغتما فانتظرته ساعة وظننت أنه لشىء حدث فينا أو فى عملنا فقلت له: ما لى أراك مغتما منذ الليلة؟ قال يابنى إنى جئت من عند أخبث الناس قلت له وما ذاك؟ قال: قلت له وقد خلوت به إنك قد بلغت منا ياأمير المؤمنين فلو أظهرت عدلا وبسطت خيرا فإنك قد كبرت ولو نظرت إلى إخوتك من بنى هاشم فوصلت أرحامهم فوالله ما عندهم اليوم شىء تخافه فقال لى: هيهات هيهات ملك أخو تيم فعدل وفعل ما فعل فوالله ما غدا أن هلك فهلك ذكره إلا أن يقول قائل أبو بكر ثم هلك أخو عدى فاجتهد وشمر عشر سنين فوالله ما غدا أن هلك فهلك ذكره إلا أن يقول قائل عمر ثم ملك أخونا عثمان فملك

رجل لم يكن أحد فى مثل نسبه فعمل ما عمل وعمل به فوالله ما غدا أن هلك وهلك ذكره وذكر ما فعل به وأن أخا هاشم يصرخ به فى كل يوم خمس مرات (أشهد أن محمدا رسول الله) فأى عمل يبقى مع هذا؟ لا أم لك، والله إلا دفنا دفنا قال: وإن المأمون لما سمع هذا الخبر بعثه ذلك على أن أمر بالنداء على حسب ما وصفنا وانتشرت الكتب فى الآفاق بلعنه على المنابر فأعظم الناس ذلك وأكبروه واضطربت العامة فأشير عليه بترك ذلك فتركه.

قال صاحب مروج الذهب: أخبرنا القاضى أبو محمد عبد الله بن أحمد بن يزيد الدمشقى بدمشق قال: لما توجه المأمون غازياً ونزل البديدون جاءه رسول ملك الروم فقال له إن الملك يخيرك بين أن يردّ عليك نفقتك التى أنفقتها فى طريقك من بلدك إلى هذا الموضع وبين أن يخرج كل أسير من المسلمين فى بلد الروم بغير فداء ولا درهم ولا دينار وبين أن يعمر لك كل بلد للمسلمين مما خربت النصرانية ويرده كما كان وترجع عن غزاتك فقام المأمون ودخل خيمة فصلى ركعتين واستخار الله عزّ وجلّ وخرج فقال للرسول: قل له أما قولك ترد علىّ نفقتى فإنى سمعت الله تعالى يقول فى كتابنا حاكيا عن بلقيس ﴿**وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون فلما جاء سليمان قال أتمدونني بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون**﴾ وأما قولك إنك تخرج كل أسير من المسلمين فى بلد الروم فما فى يدك إلا أحد رجلين إما رجل طلب الله عزّ وجلّ والدار الآخرة فقد صار إلى ما أراد وأما رجل الدنيا فلا فك الله أسره، وأما قولك إنك تعمر كل بلد للمسلمين قد خربته الروم فلو أنى قلعت أقصى حجر فى بلاد الروم ما اعتضت بامرأة عثرت عثرة فى حال أسرها فقالت وامحمداه وامحمداه. عد إلى صاحبك فليس بينى وبينه إلا السيف. ياغلام اضرب الطبل فرحل فلم يثن عن غزاته حتى فتح خمسة عشر حصنا وانصرف فنزل على عين البديدون المعروفة بالقشيرة فأقام هنالك حتى ترجع رسله من الحصون فوقف على العين ومنع الماء فأعجبه ماؤها وبرده وصفاؤه وبياضه وطيب حسن الموضع وكثرة الخضرة فأمر بقطع خشب طوال وأمر به فبسط على العين كالجسر وجعل فوقه كالأزج من الخشب وورق الشجر وجلس تحت الكنيسة التى عقدت له والماء تحته وطرح فى الماء درهم صحيح فقرأ كتابته وهو فى قرار الماء لصفاء الماء ولم يقدر أحد أن يدخل يده فى الماء من شدة برده، فبينما هو كذلك إذ لاحت سمكة نحو الذراع كأنها سبيكة فضة فجعل لمن يخرجها سيفا فبادر بعض الفراشين فأخذها وصعد فلما صارت على حرف العين أو الخشب الذى عليه المأمون

اضطربت وأفلتت من يد الفراش فوقعت فى الماء كالحجر فنضح من الماء على صدر المأمون ونحره وترقوته فبلت ثوبه ثم انحدر الفراش ثانية فأخذها ووضعها بين يدى المأمون فى منديل تضطرب فقال المأمون: تقلى الساعة ثم أخذته رعدة من ساعته فلم يقدر أن يتحرك من مكانه فغطى باللحف والدواويج وهو يرتعد كالسعفة ويصيح البرد البرد ثم حوّل إلى المضرب ودثر وأوقدوا النيران حوله وهو يصيح: البرد البرد ثم أتى بالسمكة وقد فرغ من قليها فلم يقدر على الذوق منها وشغله ما هو فيه عن تناول شيء منها ولما اشتدّ به الأمر سأل المعتصم بختيشوع وابن ماسويه فى ذلك الوقت عن المأمون وهو فى سكرات الموت وما الذى يدل عليه علم الطب من أمره وهل يمكن برؤه وشفاؤه فتقدم ابن ماسويه وأخذ إحدى يديه وأخذ بختيشوع يده الأخرى وأخذا المجسة من كلتا يديه فوجدا نبضه خارجا عن الاعتدال منذرا بالفناء والانحلال والتزقت أيديهما ببشرته لعرق كان يظهر من سائر جسده كالزيت أو كلعاب بعض الأفاعى فأخبرا المعتصم بذلك فسألهما عن ذلك فأنكرا وأنهما لم يجداه فى شيء من الكتب وأنه دال على انحلال الجسد، ثم أفاق المأمون من غشيته وفتح عينيه من رقدته فأمر بإحضار ناس من الروم فسألهم عن اسم الموضع والعين فأحضروا له عدة أسرى وأدلاء وقيل لهم فسروا هذا الاسم (القشيرة) فقيل له تفسيره مد رجليك فلما سمعها اضطرب من هذا الفأل وتطير منه وقال سلوهم ما اسم الموضع بالعربية فقالوا الرقة وكان فيما علم من مولد المأمون أنه يموت بالموضع المعروف بالرقة وكان المأمون كثيراً ما يحيد عن المقام بمدينة الرقة فراراً من الموت فلما سمع هذا من الروم علم أنه الموضع الذى وعد به فيما تقدم من مولده وأن فيه وفاته وقيل إن اسم البديدون تفسيره مدّ رجليك والله أعلم بكيفية ذلك وأحضر المعتصم الأطباء حوله يؤمل خلاصه مما هو فيه فلما ثقل قال: أخرجونى أشرف على عسكرى وانظر إلى رجالى وأتبين ملكى وذلك فى الليل فأخرج فأشرف على الخيام والجيش وانتشاره وكثرته وما أوقدوا من النيران فقال يامن لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه ثم ردّ إلى مرقده، وأجلس المعتصم رجلاً يلقنه الشهادة لما ثقل مرضه فرفع الرجل صوته ليقولها فقال له ابن ماسويه لا تصح فوالله لا يفرق بين ربه وبين مانى فى هذا الوقت ففتح عينيه من ساعته وبهما من العظم والكبر والاحمرار ما لم ير مثله قط وأقبل يحاول البطش بيديه بابن ماسويه ورام مخاطبته فعجز عن الكلام فرمى بطرفه إلى السماء وقد امتلأت عيناه دموعاً فانطلق لسانه وقال: يامن لا يموت ارحم من يموت وقضى من ساعته وذلك يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة بقيت من

رجب سنة ثمان عشرة ومائتين وحمل إلى طرسوس فدفن بها فكانت خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر وقيل فى سبب علته وموته غير ذلك أيضاً. قال ابن خلكان: وكان المأمون عظيم العفو جوادا بالمال عارفا بالنجوم والنحو وغيرهما من أنواع العلوم خصوصاً علم النجوم وكان يقول: لو يعلم الناس ما أجده فى العفو من اللذة لتقربوا إلىّ بالذنوب . وقال غيره إنه لم يكن فى بنى العباس أعلم من المأمون وكان يشتغل بعلم النجوم كثيراً وفى ذلك يقول أبو سعد المخزومى:

هل رأيت النجوم أغنت عن المأ　　مون شيئاً وملكه المأنوس
خلفوه بعرصتي طرسوس　　مثلما خلفوا أباه بطوس

وكان أبيض مليح الوجه مربوعاً طويل اللحية دينا عارفا بالعلم فيه دهاء وسياسة وخبرة بالأمور.

واستأمر على مصر فى خلافته المطلب فى سنة تسع وتسعين ومائة ثم ولى السرى بن الحكم سنة مائتين ثم ولى سليمان بن غالب سنة إحدى ومائتين ثم أعيد السرى بن الحكم فى السنة فما زال إلى أن مات فى سنة خمس ومائتين فولى بعده أبو نصر محمد بن السرى ثم تغلب عليها عبد الله بن السرى فى سنة ست وأقام مستبدا بحكمها إلى سنة عشرة وقد استفحل أمره وكادت تظهر كلمته ويستقل بملكها فوجه إليه المأمون عبد الله بن طاهر فى عسكر عظيم فقاتله وطال القتال بينهما واشتد وما زالا حتى استنقذها منه ابن طاهر بعد حروب يطول ذكرها وقد ذكر الوزير أبو القاسم المغربى أن البطيخ العبدلاوى الذى بمصر منسوب إلى عبد الله بن طاهر هذا قال ابن خلكان إما لأنه كان يستطيبه أو لأنه أول من زرعه بها، ثم ولى بعده عيسى ابن يزيد الجلودى ثم فى سنة ثلاث عشرة ومائتين ثار رجلان بمصر وهما عبد السلام وابن حليس فخلعا طاعة المأمون واستحوذا على الديار المصرية وتبعهما طائفة من القيسية واليمانية القاطنين بمصر وقطعا الخطبة للمأمون واستبدا بالحكم فشق ذلك على المأمون واستعظمه جداً وولى أخاه أبا إسحق بن الرشيد نيابة مصر مضافة إلى الشام فقدمها سنة أربع عشرة ومائتين وقاتل عبد السلام المذكور وابن حليس قتالا عنيفا وما زال حتى فتحها عنوة وقبض على عبد السلام وابن حليس وقتلهما وأقام بمصر ثم ولى عليها عمر بن الوليد التميمى ثم صرف وولى أبو عبيد عيسى بن يزيد الجلودى ثم ولى عبدويه بن جبلة سنة خمس عشرة ومائتين ثم صرف وولى عيسى ابن منصور مولى بنى نصر وفى أيامه قدم المأمون إلى مصر وزار الكثير من مدنها

وقراها وبقى عيسى إلى سنة ثمان عشرة ومائتين وهى السنة التى مات فيها المأمون كما تقدم.

ومات فى خلافة المأمون مرقس بطرك الإسكندرية بعد أن أقام عشرين سنة وقيل عشرين سنة وسبعين يوماً فأقيم بعده يعقوب وهو خمسيهم وأصله من مدينة الإسكندرية وهو راهب من دير أبو مقار وفى أيام مرقس هذا كانت الفتنة بين الأمين وعبد الله المأمون ولدى هارون الرشيد كما تقدم بيانه فى محله فانتهبت النصارى يومئذ بالإسكندرية وأحرقت لهم مواضع كثيرة جداً وأحرقت أيضاً ديارات وادى هبيب ونهبت فلم يبق من رهبانها إلا نفر قليل وكانت شدة عظيمة، وفى أيامه مضى بطرك الملكية إلى بغداد وعالج بعض خطايا أهل الخليفة وقد كان طبيباً ماهراً عارفاً بالطب جيداً حاذقاً فيه فلما عوفيت تقدم إلى الخليفة فى رد كنائس الملكية التى كانت القبط تغلبت عليها وأخذتها منهم فكتب إلى عامله بمصر بردها فاستردها قهرا وتغلب الملكيون وقهروا المتأصلين وعلت كلمتهم وتولى البطرك المذكور بطركية الملكية أربعين سنة ثم مات واشتد الجور على القبط لذلك وسامهم العمال الخسف وضيق عليهم أصحاب جباية الأموال فلما ضاق بهم الخناق انتقضوا فى سنة ست عشرة ومائتين فأوقع بهم الأوفشين وقاتلهم قتالاً عنيفاً حتى نزلوا على حكم عبد الله المأمون ورجعوا إلى الطاعة فحكم فيهم بقتل الرجال وبيع النساء والذرية فبيعوا وسبى أكثرهم ومن هذا الحين ذلت القبط فى أرضهم وغلبهم المسلمون على عامة القرى وشددوا عليهم وضيقوا وبالغوا فى تذليلهم فاتخذوا كتابة الخراج حرفة يستعينون بها على الوقت بعد أن كانوا سادة البلاد وأصحاب حقولها ومزارعها وغياضها وبساتينها وكان لهم بعد ذلك مع المسلمين أخبار كثيرة سيأتى ذكرها فى محلها.

(الفصل الثامن)

(فى خلافة أبى إسحق إبراهيم المعتصم بن هارون الرشيد)

ثم قام بالأمر بعد المأمون أخوه أبو إسحق إبراهيم المتعصم بن هارون الرشيد بويع له بالخلافة يوم موت أخيه سنة ثمان عشرة ومائتين هجرية أى سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة ميلادية بعهد منه فلما استوثق له الأمر قام ملك الروم المسمى طبوفيل قيصر فى جمع عظيم وبلغ زمطة فسبى وقتل وحرق وخرب وسبى من

المسلمين والمسلمات خلقا كثيراً حتى بلغ ملطية وغيرها فقام المعتصم لقتاله وكان مغازيا شجاعاً ليس فى بنى العباس أشجع ولا أقوى قلبا منه وقصد عمورية التى كانت أعظم المدن عند الروم فوصلها وحاصرها خمسة وخمسين يوماً وخرب أسوارها ودخلها عنوة قيل وقتل فيها ثلاثين ألفا وسبى مثلها وفعل أفعالاً قد أضربنا عن إيرادها هنا، وكان المعتصم قد وجه عجيف بن عنبسة إلى بلاد الروم لقتالها ولكنه لم يطلق يده فى النفقات كما أطلق يد الأفشين ولم يمدحه على شىء فعله ألبتة وقد استقصر أمره فأحس عجيف بذلك وأكبره جداً فدخل على العباس بن المأمون يوماً وجعل يوبخه على فعله من مبايعة المعتصم عند وفاة المأمون ثم أخذ يشجعه على خلع بيعة المعتصم وإرجاع الأمر لنفسه فقبل العباس قوله وتاقت نفسه إلى الاستبداد بالأمر فدس رجلاً اسمه الحرث السمرقندى أحد أقارب عبيد الله بن الوضاح وكان العباس يأنس به ويميل إليه. وكان الحرث أديبا له عقل ومداراة فجعله العباس رسوله وسفيره إلى القواد فجعل يدور فى العسكر حتى استمال له جماعة من القواد وبايعوه وجماعة من خواص المعتصم فكان يقول لكل من بايعه: إذا أظهرنا أمرنا فليثب كل منكم بالقائد الذى هو معه وكل من بايعه من خواص المعتصم بقتل المعتصم وكذلك فعل مع غيرهم من بقية الخواص الذين بايعوه فضمنوا له ذلك فلما كان اليوم الذى دخل فيه المعتصم الدرب بعسكره يريد أنقرة وعمورية أشار عجيف إلى العباس أن يثب بالمعتصم فى الدرب ويقتله ويرجع إلى بغداد فإن الناس يفرحون بانصرافهم من الحرب فأبى العباس ذلك. وقال: لا أفسد هذه الغزوة حتى دخلوا بلاد الروم وافتتحوا عمورية فعاود عجيف العباس فى الركوب على المعتصم وقتله ودس إلى العسكر بأن ينتهبوا الغنائم التى غنموها من عمورية كى لا يبقى مع المعتصم أحد فيتمكن العباس من قتله فلم يطاوعه العباس ولم يأذن أحدا ممن بايعوه بالوثوب وعلم المعتصم بما ينويه العباس وبالحال جميعه وبجميع من بايعه من القواد وغيرهم فأحضر العباس ليلة فى مجلس الشراب وجعل يسقيه حتى سكر ثم استحلفه أن لا يكتمه من أمره شيئاً فشرح له أمره كله فأمر به فقيدوه فى الحال وسلمه إلى الأفشين فحبسه وتتبع المعتصم أولئك القواد فلما نزل بمنبج طلب العباس الطعام فقدم إليه طعاماً كثيراً فأكل ومنع الماء وأدرج فى مسح فمات من يومه وفعلوا كذلك بعجيف ومن كان معه ثم قدم راجعاً إلى الثغور.

وتمم المعتصم المدينة التى كان أنشأها الرشيد ولم يستتمها وذلك فى سنة عشرين ومائتين وسماها سر من رأى فرخمها الناس وقالوا سامرا وصارت دارا للملك

العباسيين من خلافة المعتصم، والمعتصم هذا أول من استخدم الترك فى جنده لشدتهم وبأسهم وخبرتهم بالحروب إذ كانت قد قلت حماسة العرب وارتاحوا للمعيشة الرافهة حتى أنهم لم يجسروا على مقابلة الروم عندما قام ملكهم طيوفيل لقتال المعتصم ولم يردّه إلا الترك وكان لذلك يحب الأتراك وشراءهم من أيدى مواليهم فاجتمع له منهم أربعة آلاف فألبسهم أنواع الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة وأبانهم بالزى عن سائر جنوده وقد كان اصطنع قوماً فى حوفى مصر من حوف اليمن وحوف قيس فسماهم المغاربة واستنقذ رجال خراسان من الفراعنة وغيرهم من الأشروسية فكثر جيشه وضخم وكانت الكلمة بين عساكره للترك فتكبروا وجاروا وظلموا وكانوا يؤذون العوام بمدينة بغداد بجريهم الخيول فى الأسواق وما ينال الضعفاء والصبيان من ذلك فكان أهل بغداد ربما ثاروا ببعضهم فقتلوه عند صدمة لامرأة أو شيخ كبير أو صبى أو ضرير فأغضب ذلك المعتصم وعزم على النقلة منهم والجلاء عن بغداد وأن ينزل فى فضاء من الأرض فنزل الراذان على أربع فراسخ من بغداد فلم يستطب هواءها فلم يزل يتنقل وينقر المواضع والأماكن إلى دجلة وغيرها حتى انتهى إلى الموضع المعروف بالقاطول فاستطاب الموضع وكان هناك قرية يسكنها خلق من الجرامقة وناس من النبط على النهر المعروف بالقاطول آخذا من دجلة فبنى هناك قصرا وبنى الناس وانتقلوا عن مدينة السلام وخلت من السكان إلا اليسير وكان فيما قاله بعض العيارين فى ذلك معيرا للمعتصم بانتقاله عنهم:

أيا ساكن القاطول بين الجرامقه ... تركت ببغداد الكباش البطارقة

وكان المعتصم داهية كبير السياسة مقداماً صعب المراس طلب الإمام أحمد قبل غزوته لعمورية وكان الإمام فى سجن المأمون وامتحنه بخلق القرآن بناء على وصية أخيه المأمون وعقد له مجلسا للمناظرة وفيه عبد الرحمن بن إسحق والقاضى أحمد ابن أبى دواد وغيرهما فناظروه ثلاثة أيام ولم يزل معهم فى جدال إلى اليوم الرابع فأمر بضربه فضرب بالسياط قيل ولم يزل عن الصراط إلى أن أغمى عليه ونخسه عجيف بالسيف ورمى عليه بارية وديس عليه ثم حمل وصار إلى منزله وكانت مدّة مكثه فى السجن ثمانية وعشرين شهرا ولم يزل بعد ذلك يحضر الجمعة والجماعات ويفتى ويحدّث إلى أن مات المعتصم وولى الواثق فأظهر ما أظهره المأمون والمعتصم من القول بخلق القرآن. وقال للإمام أحمد: لا تجمعن إليك أحداً ولا تساكنى فى بلد أنا فيه فأقام الإمام أحمد مختفياً لا يخرج إلى صلاة ولا غيرها حتى مات الواثق

وولى المتوكل فرفع المحنة وأمر بإحضار الإمام أحمد وإكرامه وإعزازه واطلق له مالاً كثيراً قيل فلم يقبله وفرّقه وأجرى المتوكل على أهل الإمام وولده فى كل شهر أربعة آلاف درهم. قيل فلم يرض الإمام بذلك، وذكر العراقى فى مجمع الأخبار وغيره أن الإمام أحمد نوظر فى الأيام الثلاثة وأن المعتصم كان يخلو به ويقول له: ويحك ياأحمد أنا والله عليك شفيق وإنى لأشفق عليك مثل شفقتى على ابنى هارون يعنى الواثق فأجبنى فوالله لئن أجبتنى لأطلقن غلك بيدى ولأطأن عتبتك ولأركبن إليك بجندى فيقول: ياأمير المؤمنين أعطونى شيئاً من كتاب الله تعالى أو سنة رسول الله ﷺ فإذا طال به المجلس ضجر وقام وردّ أحمد فى الموضع الذى كان فيه وتتردّد إليه رسل المعتصم يقولون ياأحمد أمير المؤمنين يقول لك ما تقول فى القرآن؟ فيرد عليهم كما ردّ أولاً فلما كان فى اليوم الثالث طلب للمناظرة فأدخل على المعتصم وعنده محمد بن عبد الملك الزيات والقاضى أحمد بن داود فقال المعتصم كلموه وناظروه فلم يزالوا معه فى جدال إلى أن قالوا: ياأمير المؤمنين اقتله ودمه فى أعناقنا فرفع المعتصم يده ولطم بها وجه الإمام أحمد فخر مغشياً عليه فتمعرت وجوه قوّاد خراسان وكان عم أحمد منهم فخاف الخليفة منهم على نفسه فدعا بماء ورش على وجهه فلما أفاق من غشيته رفع رأسه إلى عمه وقال: ياعم لعل هذا الماء الذى رش على وجهى غضب عليه صاحبه فقال المعتصم: ويحكم أما ترون ما يتهجم به علىّ هذا وقرابتى من رسول الله ﷺ؟ لا رفعت السوط حتى يقول القرآن مخلوق ثم التفت إلى أحمد وقال وأعاد عليه القول فرد أحمد كالأول فلم يزل كذلك حتى ضجر وطال المجلس فعند ذلك قال: عليك لعنة الله لقد كنت طمعت فيك غير هذا خذوه اخلعوه اسحبوه فأخذ وسحب وخلع ثم قال المعتصم: السياط قال العراقى وشدوا يديه فخلعت ولم يزل أحمد يتوجع منها حتى مات. ثم قال المعتصم للجلادين تقدموا ونظر إلى السياط فقال ائتوا بغيرها. ثم قال لأحدهم زمه وأوجع قطع الله يدك فتقدم وضربه سوطين ثم تنحى ثم قال لآخر أزمه وشد قطع الله يدك فتقدم وضربه سوطين ثم تنحى ولم يزل يدعو رجلاً رجلاً فيضربه كل واحد سوطين ويتنحى ثم قام المعتصم وجاء وهم محدقون به وقال: ياأحمد تقتل نفسك؟ أجبنى حتى أطلق عنك بيدى وجعل بعضهم يقول له ياأحمد أمامك على رأسك قائم فأجبه وعجيف ينخسه بالسيف ويقول أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم؟ وبعضهم يقول ياأمير المؤمنين اجعل دمه فى عنقى فرجع المعتصم إلى الكرسى. ثم قال للجلاد زمه قطع الله يدك ثم جاء المعتصم إليه ثانياً وقال ياأحمد أجبنى فقال كالأول فرجع

المعتصم وجلس على الكرسى ثم قال للجلاد شدّ عليه قطع الله يدك، قال أحمد فذهب عقلى فما عقلت إلا وأنا فى حجرة مطلق عنى قال الراوى: وكل ذلك وهو صائم لم يفطر ﵁ وضرب ثمانية عشر سوطا، ووجه المعتصم رجلا ينظر الضرب والجراحات ويعالجه فنظر إليه وقال والله لقد رأيت من ضرب ألف سوط فما رأيت أشدّ ضرباً من هذا ثم عالجه وبقى أثر الضرب بينا فى ظهره إلى أن مات والكلام على المحنة بخلق القرآن كثير جداً أضربنا عن إيراده هنا خوف الإطالة.

ومات المعتصم فى سنة سبع وعشرين ومائتين على دجلة فى قصره المعروف بالخاقانى يوم الخميس لثمان عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول وقيل لساعتين من ليلة الخميس وهو ابن ثمان وأربعين سنة وقيل ست وأربعين سنة وكانت خلافته ثمان سنين وثمانية شهور وثمانية أيام وهو الثامن من خلفاء بني العباس قيل وخلف من الذهب ثمانية آلاف دينار ومن الدراهم ثمانية عشر ألف ألف درهم ومن الخيل ثمانية آلاف فرس ومثلها من الجمال والبغال ومن المماليك ثمانية آلاف مملوك وثمانية آلاف جارية. وكان يقال له الثمانى لأجل ذلك وكان أميًا وذلك أنه كان له مملوك صغير يذهب معه إلى الكتاب فمات فقال له الرشيد مات مملوكك ياإبراهيم فقال استراح من الكتاب ياأمير المؤمنين فقال الرشيد: أو بلغ منك الكتاب إلى هذا الحد؟ اتركوا ولدى لا تعلموه فكان أمياً ولذلك، قال زنام الزامر: أفاق المعتصم فى علته التى مات فيها فركب فى الزلال فى دجلة وأنا معه فمر بإزاء منازله فقال يازنام ازمر لى:

يامنزلا لم تبل أطلاله   حاشى لأطلالك أن تبلي
لم أبك أطلالك لكنني   بكيت عيشي فيك اذ ولى
والعيش أولى ما بكاه الفتى   لابدّ للمحزون أن يسلى

قال: فما زلت أزمر له هذا الصوت وأكرره وقد تناول منديلاً بين يديه فما زال يبكى فيه وينتحب حتى رجع إلى منزله . اهـ.

ولما احتضر جعل يقول: ذهبت الحيل ليست حيلة حتى أصمت ثم مات ودفن بسامرّا.

واستعمل المعتصم على مصر فى خلافته نصر بن كيدر السعيدى سنة تسع عشرة ثم ولى المظفر بن كيدر ثم ولى موسى بن أبى العباس الحنفى ثم ولى مالك بن كيدر

سنة أربع وعشرين ومائتين وبقى أميرا عليها فى خلافة الواثق بالله إلى سنة تسع وعشرين ومائتين كما سيأتى ذكره فى محله.

ومات فى خلافة المعتصم يعقوب بطرك الإسكندرية بعد إقامته بطركا عشر سنين وقيل عشر سنين وثمانية أشهر فأقيم بعده سيماون وهو سمعان حادى خمسيهم وفى أيام يعقوب البطرك المذكور خفت الشدّة وزال البأس عن المسيحيين فعمرت ديارات القبط وعاد رهبانهم إلى مواطنهم وعمرت كنيسة بيت المقدس لمن يرد إليها من الحاج من نصارى مصر وقدم على يعقوب المذكور ديونوسيس بطرك أنطاكية زائراً فأكرم وفادته ولبث طويلاً ثم عاد إلى كرسيه ومات أيضاً سمعان البطرك بعد أن أقام سنة وقيل سبعة أشهر وستة عشر يوماً وقيل غير ذلك وكان راهباً من رهبان دير أبو مقار فخلى كرسى البطريكية بعده سنة وسبعة وعشرين يوماً. ثم أقيم بعده يوساب وهو يوسف ثانى خمسيهم وأصله من رهبان دير أبو مقار أيضاً وكان تقديمه فى سنة سبع وعشرين ومائتين بدير أبو مقار بوادى هبيب وهى السنة التى مات فيها الخليفة المعتصم بن هارون الرشيد كما تقدم.

(الفصل التاسع)

(فى خلافة هارون الواثق بالله)

ثم قام بالأمر بعد المعتصم ابنه هارون الواثق بالله بويع له بالخلافة بسرّ من رأى التى هى مدينة السامرة يوم موت أبيه المعتصم سنة سبع وعشرين ومائتين هجرية، أى سنة إحدى وأربعين وثلثمائة ميلادية وتقدمت البيعة إلى بغداد واستقر له الأمر ببغداد وغيرها وكان واسع المعروف متعطفا على أهل بيته محبا للرعية ولكنه سلك مسلك أبيه وعمه فى القول بخلق القرآن على أنه فى سنة ثلاثين ومائتين لما كانت الفدية بين المسلمين والروم على نهر اللامس على مسيرة يومين من طرسوس بعد ما وقع بين الفريقين من الحروب الهائلة أمر الواثق خاقان خادم الرشيد الذى كان الفداء على يديه يومئذ أن يسأل أسرى المسلمين واحداً فواحداً فمن قال منهم بخلق القرآن وأن الله سبحانه وتعالى لا يرى فى الآخرة بالأبصار نودى به وأعطى ديناراً ومن لم يقل ذلك ترك فى أيدى الروم، فلما كان فى يوم عاشوراء أتت الروم ومن معهم من الأسرى وكان الأمر بين الفريقين فكان المسلمون يطلقون أسيراً والروم أسيراً فيلتقيان وسط الجسر وما زالوا حتى فرغوا قيل وكانت عدة أسارى المسلمين أربعة آلاف

وأربعمائة وستين والصبيان ثمانمائة ومائة من أهل الذمة فلما فاض الخبر بما فعله الواثق من إكراه الناس على القول بخلق القرآن أكبروا هذا الأمر وأعظموه جداً فخرج على الواثق لذلك أحمد بن نصر أحد الفقهاء وقام معه آخر اسمه هارون السراج وآخر اسمه طالب وغيرهما ودعوا الناس إلى أحمد بن نصر فبايعه خلق على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وفرقوا الأموال فى الناس دينارا لكل واحد ففشا أمره وعلم فأرسل الواثق من قبض على أحمد بن نصر المذكور وعلى طالب ومن نحا نحوهما وأرسلوا إلى الواثق فى سامرا قيل فجلس لهم مجلساً عامّا حضر فيه أحمد بن أبى داود فلم يسأله الواثق عن خروجه بل سأله عن خلق القرآن فقال: هو كلام الله ثم سأله عن رؤية الله عزّ وجلّ فى الآخرة فقال جاءت بها الأخبار الصحيحة ونصيحتى أن لا يخالف حديث رسول الله ﷺ فسأل الواثق العلماء حوله فقالوا باستباحة دمه فدعا الواثق بالصمصامة وهو سيفه المشهور فانتضاه ومشى إليه وضربه على حبل عاتقه ثم على رأسه ثم وخزه فى بطنه ثم أمر سيما الدمشقى بأن يحز رأسه فحزها ونصبه ببغداد وصلب شلوه عند بابها فزالت الفتنة واختفى أمرها، وكان الواثق محبا للنظر مكرما لأهله مبغضا للتقليد وأهله محبا للأشراف على علوم الناس وآدابهم ممن تقدم وتأخر من الفلاسفة والمتطببين فجرى بحضرته أنواع من العلوم فى الطبيعيات وما بعد ذلك من الإلهيات فقال لهم الواثق: قد أحببت أن أعلم كيفية إدراك معرفة الطبيب ومأخذ أصوله أذلك من الحس أم من القياس والسنة أم يدرك من جهة العقل أم على ذلك وطريقه يعلم عندكم من جهة السمع كما يذهب إليه جماعة من أهل الشريعة وقد كان ابن بختيشوع وابن ماسويه وميخائيل فيمن حضر وقيل إن حنين بن إسحق وسلمويه فيمن حضر فى هذا المجلس فقال منهم قائل: زعم طوائف من الأطباء وكثير من متقدميهم أن الطريق الذى يدرك به الطب هو التجربة فقط وحدّوه بأن يتكرر الحس على محسوس واحد فى أحوال متغايرة فيوجد بالحس فى آخر الأحوال كما يوجد فى أولها والحافظ لذلك المجرب وزعموا أن التجربة ترجع إلى مباد أربعة هن لها أوائل ومقدمات وبها علت وصحت وإليها تنقسم التجربة فصارت بذلك أجزاء لها فزعموا أن قسماً من تلك الأقسام طبيعى وهو ما تفعله الطبيعة فى الصحيح والمريض من العرق والرعاف والإسهال والقىء التى تعقب فى المشاهدة منفعة أو ضرراً وقسما إرادياً وهو ما يقع من قبل النفس الناطقة وذلك كمثل منام يراه الإنسان وهو أن يرى كأنه عالج مريضاً به علة مشاهدة معقولة بشىء من الأشياء معروف فيبرأ ذلك المريض من مرضه أو يخطر مثل ذلك بباله فى حال فكره فيتردد ويغلب ظنه بخطبه فيجريه بأن يفعله كما

يرى فى منامه فيجده كما يرى أو يخالف ذلك فيفعله مراراً فيجده كذلك وقسما هو نقل وهو على ثلاثة أقسام إما أن ينقل الدواء الواحد من مرض إلى مرض يشبهه وذلك كالنقلة من ورم الحمرة إلى الورم المعروف بالنملة وإما من عضو إلى عضو يشبهه وذلك كالنقلة من السفرجل إلى الزعرور فى علاج انطلاق البطن. وكل ذلك لا يعمل به عندهم إلا بالتجربة وذهب طائفة أخرى منهم إلى أن الحيلة فى تقريب أمر صناعة الطب وتسهيلها أن ترد أشخاص من العلل ومولداتها إلى الأصول الحاصرة الجامعة لها إذا كان لا غاية لتولدها وأن يستدل على الدواء من نفس الطبيعة والمرض الحاضر الموجود فى الحال والوقت دون الأسباب الفعالة التى عدمت ودون الأزمان والأوقات والأسباب والعادات ومعرفة طبائع الأعضاء وحدودها إلى آخرما قال مما لا موضع هنا لإيراده. قال المسعودى: وللواثق أخبار حسان مما كان فى أيامه من الأحداث وما كان يجرى من المباحثة فى العقليات والسمعيات فى جميع الفروع والأصول مما لا يسع المقام شرحها.

واعتل الواثق فصلى بالناس يوم النحر أحمد بن أبى داود وكان قاضى القضاة يومئذ فدعا فى خطبته للواثق فقال: اللهم اشفه مما ابتليته قيل وكان الواثق مؤثراً لكثرة الجماع فقال لطبيبه: اصنع لى دواء لذلك فقال الطبيب ياأمير المؤمنين لا تهدم بدنك بهذا الفعل واتق الله فى نفسك فقال: لابد من ذلك فأمر الطبيب أن يؤخذ لحم سبع فيغلى عليه سبع غليات بخل خمر ويتناول منه عند الشراب وزن ثلاثة دراهم ولا يتجاوز هذا القدر فأمر بذبح سبع فذبح وطبخ لحمه وصار يتنقل منه على شرابه فلم يكن إلا قليل حتى استسقى فأجمع رأى الأطباء على أن لا دواء له سوى أن يبزل بطنه ثم يترك فى تنور قد سجر بحطب زيتون حتى يصير جمرا ثم يلج فيه ففعل ذلك ومنع من الماء ثلاث ساعات فجعل يستغيث ويطلب الماء فلم يسقوه فصار فى جسده نفاطات مثل البطيخ ثم أخرجوه فجعل يقول: ردونى فى التنور وإلا مت فردوه فسكن صياحه ثم انفجرت تلك النفاطات وقطر منها ماء فأخرج من التنور وقد أسودّ جلده ومات بعد ساعة قيل ولما احتضر أنشد يقول:

الموت فيه جميع الناس تشترك　　لا سوقة منهم يبقى ولا ملك
ما ضر أهل قليل في مقابرهم　　وليس يغني عن الملاك ما ملكوا

ثم أمر بالبسط فطويت وألصق خده بالأرض وجعل يقول: يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه، فلما مات غطوه بثوب واشتغل الناس بالبيعة للمتوكل فجاء جرذ من البستان فاستل عينيه وذهب بهما ولم يعلموا به حتى غسلوه وهذا من

أغرب ما سمع، قال صاحب حياة الحيوان. حكى أن ذلك له سبب وهو أن أحمد ابن محمد الواثقى. قال كنت أمرض الواثق إذ لحقته غشية فما شككت أنه قد مات فقال بعضنا لبعض: تقدموا فما جسر أحد منا فتقدمت أنا فلما أردت أن أضع إصبعى على أنفه فتح عينه فكدت أن أموت فزعاً وتأخرت إلى خلفى فعلقت قبيعة السيف بالعتبه وذعرت فاندق السيف فكاد أن يدخل فى لحمى فخرجت وطلبت سيفا غيره ثم رجعت فوقفت عنده فوجدته مات بلا شك فشددت لحيته وغمضته وأخذ الفراشون تلك الفرش الثمينة ليردوها إلى الخزانة وترك وحده فى البيت فقال لى أحمد بن أبى داود القاضى: إنا نشتغل بعقد البيعة فاحفظه حتى يدفن فرجعت وجلست عند الباب فسمعت بعد ذلك حركة أرعبتنى فدخلت فإذا بجرذ قد جاء فاستل عينيه فأكلهما فقلت لا إله إلا الله هذه العين التى فتحها من ساعة فعثرت واندق سيفى هيبة لها . اهـ. ، ومات الواثق بسر من رأى فى رجب سنة اثنتين وثلاثين ومائتين هجرية أى سنة تسع وستين وثمانمائة للميلاد وهو ابن ست وثلاثين سنة وأشهر وكانت خلافته خمس سنين وتسعة أشهر وكان أبيض مليحاً يعلوه اصفرار حسن اللحية فى عينه نكتة عالماً أديباً جيد الشعر شجاعاً مهيباً حازماً فيه جبروت كأبيه.

واستعمل على مصر فى خلافته عيسى بن منصور حيث أعاده إليها ثانية بعد خلع مالك بن كيدر فى أخريات سنة تسع وعشرين ومائتين وبقى أميراً عليها إلى خلافة جعفر المتوكل فى سنة ثلاث وثلاثين ومائتين كما سيأتى ذكره فى محله.

(الفصل العاشر)

(فى خلافة جعفر المتوكل على الله)

ثم قام بالأمر بعد الواثق أخوه جعفر المتوكل على الله بويع له بالخلافة بسر من رأى التى هى سامرا يوم موت أخيه الواثق بعهد منه فى ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين للهجرة أى سنة ست وأربعين وثمانمائة للميلاد. وذلك أنهم كانوا أتوا بمحمد ولد الواثق ليبايعوه خلافاً للعهد فألبسوه قلنسوة سوداء وكان حدثاً صغيراً فلما رأوه على هذا الحال عدلوا عن رأيهم وأحضروا جعفرا أخا الواثق بن المعتصم وبايعوه وأخلوا عن ولده محمد المذكور ولقبوا جعفرا بالمتوكل وكان عمره يوم بويع ستا وعشرين سنة وأول من سلم عليه بالخلافة أحمد بن أبى داود وألبسه الطويلة وعممه وقبل بين عينيه وقال له: السلام عليك ياأمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته

فلما استقرت به الخلافة رفع المحنة بخلق القرآن وأظهر السنة وأمر بنشر آثار صاحب الشريعة. قال ابن خلكان فى ترجمته أنه قال: ركبت إلى دار الواثق فى مرضه الذى مات فيه لا عودة فجلست فى الدهليز أنتظر الإذن فبينما أنا جالس إذ سمعت النياحة عليه وإذا بإيداخ ومحمد بن عبد الملك الزيات يأتمران فى أمرى فقال نقتله فى التنور. وقال إيداخ بل ندعه فى الماء البارد حتى يموت ولا يرى عليه أثر القتل فبينما هما على ذلك إذ جاء أحمد بن أبى داود القاضى فدخل وحدّثهما كلاماً لا أعقله لما دخلنى من الخوف وشغل القلب بأعمال الحيلة فى الهرب فبينما أنا كذلك وإذا بالغلمان يتعادون ويقولون: انهض يامولانا فلم أشك إنى داخل لأبايع ولد الواثق ثم ينفذ فىّ ما قدّر فلما دخلت بايعونى فسألت عن الحال فأعلمت أن ابن أبى داود كان السبب فى ذلك ثم إن المتوكل قتل إيداخ بالماء البارد وابن الزيات فى التنور وهذا من أغرب الاتفاق وعجيب الظفر ومن العجب أيضاً أن محمد بن عبد الملك الزيات هو الذى صنع التنور ليعذب فيه الناس فعذبه الله فيه، انتهى.

وكان المتوكل شديد البغض لعلى بن أبى طالب وذريته فأمر فى سنة ست وثلاثين ومائتين بهدم قبر الحسين بن علىّ وهدم ما حوله من المنازل والدور وأن يبذر ويسقى موضع قبره وأن يمنع الناس من إتيانه فنادى بالناس فى تلك الناحية من وجدناه عند قبر الحسين بعد ثلاثة أيام حبسناه فى المطبق فخاف الناس وهربوا وتركوا زيارته وخرب وزرعوا موضعه فلم يبق له أثر وكان للمتوكل نديم اسمه عبادة المخنث فكان إذا حضر عند المتوكل فى مجلس شراب يشد على بطنه تحت ثيابه مخدة ويكشف رأسه وهو أصلع ثم يرقص بين يدى المتوكل والمغنون يغنون قد أقبل الأصلع البطين خليفة المسلمين يريدون بذلك علىّ بن أبى طالب فإنه كان كذلك والمتوكل يشرب ويضحك ففعل ذلك يوماً والمنتصر حاضر فأومأ إلى عبادة يتهدده فسكت عبادة خوفاً منه فقال المتوكل: ما حالك ياعبادة؟ فقام وأخبره فقال المنتصر ياأمير المؤمنين إن الذى يحكيه هذا الكلب ويضحك منه الناس إنما هو ابن عمك وشيخ أهل بيتك وبه فخرك فكل أنت لحمه إذا شئت ولا تطعم هذا الكلب وأمثاله منه فقال المتوكل للمغنين غنوا جميعاً:

غار الفتى لابن عمه رأس الفتى فى حرامه

قيل فكان ذلك من الأسباب التى استحل بها المنتصر قتل المتوكل وقيل إن الذى أغراه على بغض علىّ وأهل بيته إنما هم جماعة ممن اشتهروا بالتعصب والبغض لعلى. قال صاحب الكامل: منهم علىّ بن الجهم الشاعر الشامى من بنى شامة بن

لؤى وعمرو بن الرخجى وأبو السمط من ولد مروان بن أبى حفصة من موالى بنى أمية وعبد الله بن محمد بن الهاشمى المعروف بابن أترجة وكانوا يخوفونه من العلويين ويشيرون عليه بإبعادهم والإعراض عنهم والإساءة إليهم ثم حسنوا له الوقيعة فى أسلافهم الذين يعتقد الناس علو منزلتهم فى الدين ولم يبرجوا به حتى ظهر منه ما كان فغطت هذه السيئة جميع حسناته وكان من أحسن الناس سيرة ومنع الناس من القول بخلق القرآن إلى غير ذلك من المحاسن. اهـ.

وفى خلافة المتوكل جاءت الروم إلى دمياط فى ثلثمائة مركب حربية مع ثلاثة من كبار البحر وأرسوا على مقربة من دمياط واتفق قبل وصولهم أن عنبسة بن إسحق الضبى الذى كان يومئذ على معونة مصر لما حضر العيد أرسل فى طلب جميع الجند الذين بدمياط إلى مصر فساروا منها فجاءها الروم وهى خالية فدخلوها وأعملوا فى أهلها القتل وأحرقوا وسبوا ودمروا جامعها وأخذوا ما بها من سلاح وكراع وغير ذلك وسبوا من النساء المسلمات والمسيحيات زهاء ستمائة امرأة وأوقروا سفنهم من ذلك وكان عنبسة قد حبس بشر بن الأكشف بدمياط لأمر نقمه عليه فلما أحس بشر بدخول الروم إلى البلد كسر قيوده وخرج فقاتلهم وتبعه فى ذلك جماعة وسارت الروم إلى أشتوم (تنيس) وكان عليه سور وبابان من حديد قد بناه المعتصم فى خلافته فنهبوا ما فيه من السلاح والمتاع وأخذوا البابين وأقبلوا راجعين ولم ينل منهم أحدا، وفى خلافته قامت الفتنة بين البجاة أهل النوبة وأهل مصر وقد كان بينهما هدنة من أيام الفتح وكان فى بلاد البجاة معادن الذهب يؤدون منها الخمس إلى مصر فامتنعوا أيام المتوكل وقاموا على من كان من أهل مصر بتلك المعادن فقتلوه فكتب صاحب البريد بذلك إلى المتوكل فاستشار فى غزوهم فقالوا له: إنهم أهل إبل وشاه وأن بين بلادهم وبلاد المسلمين مسيرة شهر ولابد فيها من الزاد وإن فنيت الأزواد هلك الجند فأمسك عنهم وخاف أهل الصعيد من شرهم فولى المتوكل محمد ابن عبد الله القمىّ على أسوان وقفط والأقصر وإسنا وأرمنت وأمره بحرب البجاة وكتب إلى عنبسة بن إسحق الضبى عامل مصر يومئذ بتجهيز العساكر معه فسيره فى عشرين ألفا من الجند والمتطوعة وحملت المراكب من القلزم دقيقاً وتمرا وأدما إلى سواحل بلاد البجاة فلما انتهوا إلى حصونهم وقلاعهم زحف عليهم ملكهم واسمه على بابا فى أضعاف جند القمى على المهارى وطاول على بابا عسكر القمى كى تفنى أزوادهم فيهلكون بلا حرب ولا قتال فلما جاءت المراكب بالمؤنة وفرق القمى فى أصحابه ناجزهم البجاة الحرب. وكانت إبلهم نفورة فأمر القمى جنده باتخاذ

الأجراس بخيلهم ثم حملوا علهيم فانهزموا وأثخن فيهم قتلاً حتى استأمنوا على أداء الخراج عما مضى ولما يأتى.

وكانت أيام المتوكل أحسن الأيام وأنضرها من استقامة الملك وشمول الناس بالأمن والعدل ولم يكن المتوكل يوصف فى عطائه وبذله بالجود ولا بتركه وإمساكه بالبخل ولم يكن أحد ممن سلف من خلفاء بنى العباس ظهر فى مجلسه اللعب والمضاحك والهزل مما قد استفاض فى الناس تركه إلا المتوكل فإنه السابق إلى ذلك والمحدث له وأحدث أشياء من نوع ما ذكر اتبعه فيها الكثير من خواصه وأكثر رعيته فلم يكن فى وزرائه والمتقدمين من كتابه وقوّاده من يوصف بجود أو أفضال أو يتعالى عن مجون وطرب وكان الفتح بن خاقان التركى مولاه أغلب الناس عليه وأقربهم منه وأكثرهم تقدماً عنده ولم يكن الفتح المذكور مع هذه المنزلة من الخلافة ممن يرجى فضله أو يخاف شره ولما كانت سنة خمس وثلاثين ومائتين هجرية عقد المتوكل البيعة لبنيه الثلاثة وهم محمد ولقبه المنتصر بالله وأبو عبد الله محمد وقيل طلحة وقيل الزبير ولقبه المعتز بالله وإبراهيم ولقبه المؤيد بالله وعقد لكل منهم لواءين أحدهما أسود وهو لواء العهد والآخر أبيض وهو لواء العمل وأقطع كلا منهم إقطاعاً محدودا وطير الأخبار بذلك إلى الآفاق فزاد الناس فى تعظيمهم وصارت المواكب تغدو وتروح على أبوابهم.

وخرج الجند فى خلافته وكادوا يشقون عصا الطاعة لولا ما استعمله من الدهاء والحيلة قال سعيد بن نكيس: كنت واقفاً بين يدى المتوكل فى مضربه بدمشق إذ سعت الجند واجتمعوا وضجوا يطلبون الأعطية ثم خرجوا إلى تجريد السلاح والرمى بالنشاب وأقبلت أرى السهام ترتفع فى الرواق فقال لى: ياأبا سعد ادع لى رجاء الحضاريّ فدعوته فقال له: يارجاء أما ترى ما خرج إليه هؤلاء فما الرأى عندك؟ فقال ياأمير المؤمنين قد كنت مشفقاً فى هذا السفر من مثل هذا فأشرت بما أشرت من تأخيره فمال المتوكل إليه وقال: دع ما مضى وقل الآن مما حضر برأيك فقال: ياأمير المؤمنين لتوضع الأعطية. فقال له فهذا ما أرادوا فيه مع ما خرجوا إليه ما يعلم قال: ياأمير المؤمنين مر بهذا فإن الرأى بعده فأمر عبد الله بن يحيى بوضع الأعطية فيهم فلما خرج المال وبدئ بإنفاقه دخل رجاء فقال مر الآن ياأمير المؤمنين بضرب الطبل للرحيل إلى العراق فإنهم لا يأخذون مما أخرج إليهم شيئاً ففعل ذلك فترك الناس الأعطية حتى إن المعطى ليتعلق بالرجل ليعطيه رزقه فلا يأخذه، قال سعيد: وقد كان الأتراك رأوا أنهم يقتلون المتوكل بدمشق وكان حالاً بها فلم يمكنهم فيه حيلة بسبب

بغا الكبير فدبروا فى إبعاده عنه وطرحوا فى مضرب المتوكل وهو بدمشق الرقاع يقولون فيها : إن بغا دبر أن يقتل أمير المؤمنين والعلامة فى ذلك آن يركب فى يوم كذا في خيله ورجله فيأخذ عليه أطراف عسكره ثم يأخذ جماعة من الغلمان العجم يدخلون عليه فيفتكون به فقرأ المتوكل الرقاع فبهت مما تضمنته ودخل فى قلبه من بغا كل مدخل وشكا إلى الفتح ذلك. وقال له فى أمر بغا والإقدام عليه وشاوره فى ذلك فقال: ياأمير المؤمنين إن الذى كتب الرقاع قد جعل للأمر دلائل فى وقت بعينه من ركوب الرجل الأطراف من العسكر وتوكيله بنواحيه فبعد ذلك يتبين الأمر وأنا أرى أن تمسك فإن صح هذا الدليل نظرنا كيف يفعل وإن بطل ما كتب به فالحمد لله وأقبلت بعد ذلك الرقاع تطرح فى كل وقت على جهة النصح والصدق فلما علموا بما علم به الخليفة وتمكن به ما عندهم من الأمر كتبوا رقاعاً فطرحوها فى مضرب بغا يقولون فيها: إن جماعة من الغلمان والأتراك قد عزموا على الفتك بالخليفة فى عسكره ودبروا ذلك واتفقوا عليه وتعاقدوا على أن يأتوه من نواحى كذا ونواحى كذا فالله الله إلا ما احترست لأمير المؤمنين وحرسته فى هذه الليلة من هذه المواضع وحصنتها بنفسك ومن تثق به فإنا قد نصحنا وصدقنا وأكثروا طرح الرقاع بهذا المعنى والتوكيد فى حراسة الخليفة فلما وقف بغا عليها وتتابعت عليه لم يأمن أن يكون ما كتب إليه فيها حقا مع ما كان وقف عليه من الأمر قبل ذلك فلما كانت الليلة التى ذكروها جمع جيوشه وأمرهم بالركوب بالسلاح وركب بهم إلى المواضع التى ذكرت فأخذها على المتوكل وحرسها واتصل الخبر بالمتوكل فلم يشك أن ما كتب له حق فأقبل يتوقع من يوافيه فيفتك به وسهر ليلته وامتنع عن الأكل والشرب فلم يزل على تلك الحال إلى الغداة وبغا يحرسه والأمر عند المتوكل على خلاف ذلك وقد اتهم بغا واستوحش من فعله فلما عزم المتوكل على الانصراف قال له: يا بغا قد أبت نفسى مكانك منى ورأيت أن أقلدك هذا الصقع وأقر عليك ما كان لك من رزق وجاه ونزل ومعونة وكل سبب فقال: أنا عبدك ياأمير المؤمنين فافعل ما شئت وأمرنى بما أحببت فخلفه بالشام وانصرف فأحدث الموالى عليه ما أحدثوا فلم يعلم المتوكل وجه الحيلة ولم يعرف كل واحد منهما الحيلة فى ذلك إلى أن تمت الحيلة وذلك أنه لما عزم بغا الصغير على قتل المتوكل دعا بباغر التركى وكان قد اصطنعه واتخذه وملأ عينه من الصلات وكان مقداما أهوج فقال له: ياباغر أنت تعلم محبتى لك وتقديمى إياك وإيثارى لك وإحسانى عليك وإنى قد صرت عندك فى حد من لا يعصى له أمر ولا يخرج عن محبسه وأريد أن آمرك بشىء فعرفنى كيف قلبك فيه فقال أنت تعلم

كيف أفعل فقل لى كيف شئت حتى أفعله قال: إن ابنى فارساً قد أفسد علىّ عملى وعمل على قتلى وسفك دمى وقد صح عندى ذلك منه قال فتريد منى ماذا؟ قال أريد أن يدخل علىّ غدا فالعلامة بيننا أن أضع قلنسوتى فى الأرض فإذا أنا وضعتها فى الأرض فاقتله قال نعم ولكن أخاف أن يبدو لك أو تجد فى نفسك علىّ قال: قد آمنك الله من ذلك فلما دخل فارس حضر باغر ووقف موقف الضارب فلم يزل يراعى بغا أن يضع قلنسوته فلم يفعل وظن أنه نسى فغمزه بعينه أى افعل قال لا فلما لم ير العلامة وانصرف فارس قال له بغا: اعلم أنى فكرت فى أنه حدث وأنه ولدى وقد رمت أن أستخلصه هذه المرة فقال له باغر: أنا قد سمعت وأطعت وأنت أعلم وما دبرت وقدّرت عليه فيه صلاحه. ثم قال له وههنا أمر أكبر من ذلك وأهم فعرفنى كيف تريد أن تكون فيه قال له قل ما شئت حتى أفعله قال أخى وصيف قد صح عندى أنه يدبر علىّ وعلى رفقائى وأن مكاننا قد ثقل عليه وأنه عوّل على أن يقتلنا ويفنينا وينفرد بالأمر قال فماذا تريد أن يصنع به؟ قال أفعل هذا فإنه يصير إلىّ غدا فالعلامة أن أنزل عن المصلى الذى يكون معى قاعداً عليه فإذا رأيتنى نزلت عنه فضع سيفك عليه واقتله قال نعم فلما صار وصيف إلى بغا حضر باغر وقام مقام المستعدّ فلم ير العلامة حتى قام وصيف وانصرف قال فقال له بغا: ياباغر إنى فكرت فى أنه أخى وإنى قد عاقدته وحلفت له فلم استجرئ أن أفعل ما دبرته ووصله وأعطاه ثم أمسك عنه مدة مديدة ودعا به فقال ياباغر قد حضرت حاجة أكبر من الحاجة التى قدّمتها فكيف قلبك؟ قال قلبى على ما تحب فقل ما شئت حتى أفعله فقال هذا المنتصر قد صح عندى أنه على إيقاع التدبير علىّ وعلى غيرى حتى يقتلنا وأريد أن أقتله فكيف ترى نفسك فى ذلك ففكر باغر فى ذلك ونكس رأسه وقال: هذا لايجيء منه شيء قال وكيف قال يقتل الابن والأب باق إذن لا يستوى لكم شيء ويقتلكم أبوه كلكم به قال فما ترى عندك؟ قال نبدأ بالأب أوّلا فنقتله ثم يكون أمر الصبى أيسر من ذلك فقال له: ويحك ويفعل هذا ويتهيأ قال نعم أفعله وأدخل عليه حتى أقتله فجعل يردد عليه فيقول لا نفعل غير هذا. ثم قال له فادخل أنت فى أثرى فإن قتلته وإلا فاقتلنى وضع سيفك علىّ وقل أراد أن يقتل مولاه فعلم بغا حينئذ أنه قاتله وتوجه له فى التدبير فى قتل المتوكل وكانت الوحشة قائمة بين المتوكل وابنه المنتصر على ما تقدم بيانه فعمل المنتصر مع بغا على قتل أبيه المتوكل والتخلص منه فبينما المتوكل فى قصره يشرب مع ندمائه وقد سكر إذ دخل عليه بغا الصغير وأمر الندماء بالانصراف ولم يبق عنده إلا الفتح بن خاقان فإذا الغلمان الذين

عينهم المنتصر لقتله قد دخلوا عليه وبأيديهم السيوف فهجموا فقال الفتح بن خاقان: ويلكم أمير المؤمنين ثم رمى بنفسه عليه فقتلوهما معا ثم خرجوا إلى المنتصر فسلموا عليه بالخلافة، ذكر عن عليّ بن يحيى المنجم أنه قال كنت أقرأ على المتوكل قبل قتله بأيام كتابا من كتب الملاحم فوقفت على موضع فيه أن الخليفة العاشر يقتل فى مجلسه فتوقفت من قراءته فقال مالك فقلت خير قال: لابد من أن تقرأه فقرأته وحدث عن ذكر الخلفاء فقال: ليت شعرى من هذا الشقى المقتول؟ قال أبو الوارث قاضى نصيبين رأيت فى النوم آتيا وهو يقول:

يا نائم العين في جثمان نعمان   ما بال عينك لا تبكي بتهتان
أما رأيت صروف الدهر ما فعلت   بالهاشميّ وبالفتح بن خاقان

فأتى البريد بعد أيام بقتلهما، وكان قتل المتوكل فى شوال سنة سبع وأربعين ومائتين للهجرة وعمره نحو أربعين سنة وكانت خلافته أربع عشرة سنة وعشرة أشهر وثلاثة أيام وكان أسمر رقيقا مليح العينين خفيف اللحية ليس بالطويل فيه قصف وانهماك على اللهو والمفاكهة ولكنه أحيا السنة وأمات بدعة القول بخلق القرآن وكان قد عزم على خلع ولده المنتصر من ولاية العهد وتقديم ابنه المعتز عليه لفرط محبته لأمه وأخذ يؤذيه ويتهدده إن لم يخلع نفسه واتفق مصادرته لوصيف وبغا فعملا مع المنتصر على قتله كما تقدم. حدّث البحترى قال: اجتمعنا ذات يوم مع الندماء فى مجلس المتوكل فتذاكرنا أمر السيوف فقال بعض من حضر: بلغنى ياأمير المؤمنين أنه وقع عند رجل من أهل البصرة سيف من الهند ليس له مثيل فأمر المتوكل بكتاب إلى عامله بالبصرة يطلبه بشرائه بما يبلغ فنفذت الكتب على البريد وورد جواب عامل البصرة أن السيف اشتراه رجل من أهل اليمن فأمر المتوكل بالبعث إلى اليمن يطلب السيف وابتياعه فنفذت الكتب بذلك قال البحترى: فبينا نحن عند المتوكل إذ دخل عليه عبيد الله والسيف معه وعرّفه أنه ابتيع من صاحبه باليمن بعشرة آلاف درهم فسرّ بوجوده وحمد الله على ما سهل من أمره وانتضاه فاستحسنه وتكلم كل واحد منا بما يحب وجعله تحت ثنى فراشه فلما كان من الغداة قال للفتح اطلب لى غلاماً تثق بشجاعته ونجدته أدفع له هذا السيف ليكون واقفاً به على رأسى لا يفارقنى فى كل يوم ما دمت جالساً قال: فلم يستتم الكلام حتى أقبل باغر التركى فقال الفتح ياأمير المؤمنين هذا باغر التركى قد وصف لى بالشجاعة والبسالة وهو يصلح لما أراده أمير المؤمنين فدعا به المتوكل فدفع إليه السيف وأمره بما أراد وقدّم أن يزاد فى مرتبه وأن يضعف له الرزق. قال البحترى: فوالله ما انتضى ذلك السيف ولا خرج من

غمده من الوقت الذى دفع إليه إلا فى الليلة التى ضربه فيها باغر به قال: ولقد رأيت من المتوكل فى الليلة التى قتل فيها عجبا وذلك أننا تذاكرنا أمر الكبر وما كانت تستعمله الملوك من الجبروت فجعلنا نخوض فى ذلك وهو يتبرأ منه ثم حوّل وجهه إلى القبلة فسجد وعفر وجهه بالتراب خضوعا لله عزّ وجلّ ثم أخذ من ذلك التراب فنثره على لحيته ورأسه وقال: إنما أنا عبد الله وأن من صار إلى التراب لحقيق أن يتواضع ولا يتكبر. قال البحترى: فتطيرت له من ذلك وأنكرت ما فعله من نثر التراب على رأسه ولحيته ثم قعد للشراب فلما عمل فيه غنى من حضره من المغنين صوتاً استحسنه ثم التفت إلى الفتح فقال يافتح ما بقى أحد سمع هذا الصوت من مخارق غيرى وغيرك ثم أقبل على البكاء. قال البحترى: فتطيرت من بكائه وقلت هذه ثانية فأنا فى ذلك إذ أقبل خادم من خدم قبيحة ومعه منديل وفيه خلعة وجهت بها إليه قبيحة فقال له الرسول: ياأمير المؤمنين تقول لك قبيحة إنى استعملت هذه الخلعة لأمير المؤمنين واستحسنتها ووجهت بها لتلبسها قال فإذا فيه دراعة حمراء لم أر مثلها قط ومطرف خز أحمر كأنه دبقى من رقته. قال فلبس الخلعة والتحف المطرف قال: فإنى على ذلك إذ تحرك المتوكل فيه وقد كان التف عليه المطرف فجذبه جذبة فمزقه من طرفه إلى طرفه قال فأخذه ولفه ودفعه إلى خادم قبيحة الذى جاءه بالخلعة وقال: قل لها احتفظى بهذا المطرف عندك ليكون كفنا لى عند وفاتى فقلت فى نفسى إنا لله وإنا إليه راجعون انقضت والله المدة قال: وسكر المتوكل سكرا شديدا وكان من عادته أنه إذا تمايل عند سكره أن يقيمه الخدم الذين عند رأسه فبينما نحن كذلك ومضى من الليل ثلاث ساعات إذ أقبل باغر ومعه عشرة نفر من الأتراك وهم متلثمون والسيوف فى أيديهم تبرق فى ضوء تلك الشموع فهجموا علينا وأقبلوا نحو المتوكل حتى صعد باغر وآخر معه من الأتراك على السرير فصاح بهم الفتح ويلكم مولاكم فلما رآهم الغلمان ومن كان حاضرا من الجلساء والندماء تطايروا على وجوههم فلم يبق أحد فى المجلس غير الفتح وهو يحاربهم ويمانعهم قال البحترى: فسمعت صيحة المتوكل وقد ضربه باغر بالسيف الذى كان المتوكل دفعه إليه على جانبه الأيمن فقدّه إلى خاصرته ثم ثناه على جانبه الأيسر ففعل مثل ذلك وأقبل الفتح يمانعهم عنه فبعجه واحد منهم بالسيف الذى كان معه فى بطنه فأخرجه من متنه وهو صابر لا يتنحى ولا يزول. قال البحترى: فما رأيت أحداً كان أقوى نفسا ولا أكرم منه ثم طرح بنفسه على المتوكل فماتا جميعا فلفا فى البساط الذى قتلا فيه

وطرحا ناحية فلم يزالا على حالتهما فى ليلتهما وعامة نهارهما حتى استقرت الخلافة للمنتصر فأمر بهما فدفنا جميعاً وقيل إن قبيحة كفنته بذلك المطرف الممزق بعينه . اهـ.

وكان أوتامش غلام الواثق مع المنتصر فكان المتوكل يبغضه لذلك وكان بغا الصغير توحش من المتوكل فكان المنتصر يجتذب قلوب الأتراك إليه وأوتامش يساعده على ذلك وكان عبيد الله بن خاقان الوزير والفتح بن خاقان منحرفين عن المنتصر مائلين إلى المعتز بن المتوكل وكانا قد أوغرا قلب المتوكل على ولده المنتصر فكان المتوكل لا يبغد أحداً من الأتراك إلا اجتذبه المنتصر إليه حتى استمال قلوب الأتراك وكثيرًا من الفراعنة والأشروسية إلى أن كان من الأمر ما تقدم وقال البحترى فى غدر المنتصر بأبيه وفتكه به من قصيدة له:

أكان وليّ العهد أضمر غدره   فمن عجب أن ولي العهد غادره
فلا ملك الباقي تراث الذي مضى   ولا حملت ذاك الدعاء منابره

واستعمل المتوكل على مصر فى خلافته هرثمة بن النضر الجبلى سنة ثلاث وثلاثين ومائتين ثم ولى ابنه حاتم فى السنة فأقام شهرا وصرف. ثم ولى على بن يحيى سنة أربع وثلاثين وصرف ثم ولى أخوه إسحق بن يحيى الجبلى سنة خمس وثلاثين. ثم ولى عبد الواحد بن يحيى مولى خزاعة سنة ست وثلاثين ثم ولى عنبسة بن إسحق الضبى سنة ثمان وثلاثين ثم عزله وولى يزيد بن عبد الله من الموالى سنة اثنتين وأربعين وبقى إلى خلافة المعتز بالله فعزله وولى مكانه من سيأتى ذكرهم فى محله إن شاء الله.

ومات فى خلافة المتوكل يوساب بطرك المتأصلين بعد أن أقام ثمان عشرة سنة وقيل سبع عشرة سنة. وفى أيام يوساب هذا قدم إلى مصر يعقوب مطران الحبشة وقد كانت نفته زوجة النجاشى لأمر نقمته عليه وأقاموا عوضه أسقفا آخر فبعث النجاشى يطلب من البطرك إعادته وشدّد فى ذلك فبعث به إليه وبعث أيضاً عدة أساقفة إلى إفريقية. وفى أيامه مات بطرك أنطاكية الذى كان قدم إلى مصر فى السنة الخامسة عشرة من بطريكيته. وفى أيامه أيضاً أى فى سنة خمس وثلاثين ومائتين أمر المتوكل الخليفة أهل الذمة يعنى القبط بلبس الطيالسة العسلية وشد الزنانير وركوب السروج بالركب الخشب وعمل كرتين فى مؤخر السرج وعمل رقعتين على لباس الرجال مخالفة للون الثوب قدر كل واحدة منهما أربع أصابع ولون كل واحدة منهما غير لون الأخرى ومن خرجت من النساء لبست إزاراً عسليًا، ولم يقف المتوكل عند

هذا الحد من الشدة والجبروت حتى منعهم أيضاً من لبس المناطق وهدم البيع المحدثة ورسم بأخذ العشر من المنازل وأن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب ونهى أن يستعان بهم فى أعمال السلطان وأن لا يعلم أحد منهم مسلماً وكانوا يومئذ هم أصحاب المعارف والعلوم على اختلافها وأن لا يظهروا فى عيد الشعانين صليباً ولا أن يشعلوا فى الطريق ناراً وأن تسوّى قبور موتاهم بالأرض حتى لا يظهر لها رسم وكتب بذلك جميعه إلى الآفاق ولما كانت سنة تسع وثلاثين ومائتين هجرية أمر أيضاً بأن يلبس الرجل منهم دراعتين عسليتين على الدراريع والأقبية وبالاقتصار فى مراكبهم على ركوب البغال والحمير دون الخيل والبراذين وغير ذلك من صنوف الشدائد والبلايا مما لا يسعنا إيراده هنا. ولما مات يوساب البطرك فى خلال هذه المحن والبدع الغريبة خلا الكرسى بعده ثلاثين يوماً ثم أقيم قسيس بدير بوحنس اسمه ميخائيل وهو المعروف أيضاً بخائيل ثالث خمسيهم وأصله راهب بالدير المذكور وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

(الفصل الحادى عشر)

(فى خلافة محمد المنتصر بالله)

ثم قام بالأمر بعد المتوكل ابنه محمد المنتصر بويع بالخلافة فى الليلة التى قتل فيها أبوه وبويع له من الغد البيعة العامة وذلك فى شهر شوال سنة سبع وأربعين ومائتين للهجرة أى نحو سنة إحدى وستين وثمانمائة للميلاد فلم تطل مدته ولم يتمتع بالملك وكانت بيعته بالقصر المعروف بالجعفرى الذى أحدث بناءه المتوكل وهو ابن خمس وعشرين سنة وقيل ست وعشرين.

ذكر عن أبى عثمان سعيد الصغير أنه قال: لما كانت الليلة التى قتل فيها المتوكل كنا فى الدار مع المنتصر فكان كلما خرج الفتح خرج معه وإذا رجع قام لقيامه وإذا ركب أخذ بركابه وسوّى عليه ثيابه فى سرجه وكان اتصل بنا الخبر أن عبيد الله بن يحيى قد أعدّ قوماً فى طريق المنتصر ليغتالوه عند انصرافه وكان المتوكل قد أسمعه وأحفظه ووثب عليه فانصرف غضبان وانصرفنا معه إلى داره. وكان واعد الأتراك على قتل المتوكل إذا ثمل من النبيذ. قال: فلم ألبث إذ جاءنى رسوله أن أحضر فقد جاءت رسل أمير المؤمنين إلى الأمير ليركب. قال: فوقع فى نفسى ما كنا سمعنا من اغتيال المنتصر فركبت فى سلاح وعدّة وجئت باب المنتصر فإذا هم يموجون وإذا

واجن قد جاءه فأخبره أنهم قد فرغوا من المتوكل فركب فلحقته فى بعض الطريق وأنا مرعوب فرأى منى ذلك فقال: ليس عليك بأس أمير المؤمنين قد شرق بقدح شربه فمات رحمه الله تعالى فشق علينا ومضينا ومعنا أحمد بن الخصيب وجماعة من القوّاد حتى دخلنا القصر ووكل بالأبواب فقلت له: ياأمير المؤمنين لا ينبغى أن تفارقك مواليك فى هذا الوقت قال أجل وكن أنت خلف ظهرى فأحطنا به وبايعه من حضر وكل من جاء يوقف حتى جاء سعيد الكبير فأرسله خلف المؤيد. وقال: امض أنت إلى المعتز حتى يحضر فأرسلنى فمضيت وأنا آيس من نفس ومعى غلامان لى فلما صرت إلى باب المعتز لم أجد به أحدا من الحرس والبوّابين فصرت إلى الباب الكبير فدققته دقا عنيفاً فأجبت بعد مدة من أنت؟ فقلت: رسول أمير المؤمنين المنتصر فمضى الرسول وأبطأ وخفت وضاقت علىّ الأرض ثم فتح الباب وخرج بيدون الخادم وأغلق الباب ثم سألنى عن الخبر فأخبرته أن المتوكل شرق بكأس شربه فمات لساعته وأن الناس قد اجتمعوا وبايعوا المنتصر وقد أرسلنى لأحضر الأمير المعتز ليبايع فدخل ثم خرج فأدخلنى على المعتز فقال لى: ويلك ما الخبر؟ فأخبرته وعزيته وقلت تحضر وتكون فى أول من يبايع وتأخذ بقلب أخيك فقال حتى نصبح. قال: فما زلت به أنا وبيدون حتى ركب وسرنا وأنا أحدثه فسألنى عن عبيد الله بن يحيى فقلت هو يأخذ البيعة على الناس والفتح قد بايع فأيس وأتينا باب الخير ففتح لنا وصرنا إلى المنتصر فلما رآه قرّبه وعانقه وعزاه وأخذ البيعة عليه ثم وافى سعيد الكبير بالمؤيد ففعل به مثل ذلك فأصبح الناس وأمر المنتصر بدفن المتوكل والفتح ولما أصبح الناس شاع الخبر فى الماخورة وهى مدينة المتوكل وفى أهل سامرا بقتل المتوكل فتوافى الجند والشاكرية بباب العامة والجعفرية وغيرهم من الغوغاء والعامة وكثر الناس وتسامعوا وركب بعضهم بعضا وتكلموا في أمر العامة فخرج إليهم عتاب بن عتاب وقيل زرافة فوعدهم عن أمير المؤمنين المنتصر فأسمعوه فدخل عليه فأعلمهم فخرج المنتصر وبين يديه جماعة من المغاربة فصاح بهم. وقال: خذوهم فدفعوهم فتفرّقوا وقد مات منهم ستة أنفس.

ولما استقام له أمر الخلافة اجتمع أحمد بن الخصيب ووصيف وبغا وهم يومئذ أصحاب الرأى فى دولة المنتصر بالله وتآمروا على خلع المعتز والمؤيد ابنى المتوكل من ولاية العهد خوفاً منهما لأمور كانت بينهم وتعاهدوا على ذلك ووكلوا جماعة الأتراك بالعمل فجدّوا فى ذلك وألحوا على المنتصر وقالوا: لابد من خلعهما من الخلافة ومبايعة ولدك عبد الوهاب. ولم يزالوا به حتى أجابهم وسير إلى المعتز

والمؤيد من أحضرهما بعد أربعين يوماً من خلافته وجعلا فى دار فأحس المعتز بما وراء ذلك وعلم أنهم إنما أتوا بهما للخلع فكلم أخاه المؤيد فى ذلك فقال المؤيد: لا أظن أن أمير المؤمنين يفعل ذلك فبينما هما على هذا الحال إذ دخل عليهما جماعة من قواد المنتصر يطلبون منهما الخلع فقال المؤيد: السمع والطاعة. وقال المعتز: لا اخلع نفسى أبداً فإن أردتم القتل فشأنكم فأعلموا الخليفة بذلك ثم عادوا وهم أشدّ مما كانوا عليه. وقالوا: لابد من الخلع وقبضوا على المعتز بعنف وأدخلوه بيتا وأغلقوا عليه الباب فلما رأى المؤيد ذلك خشى العاقبة وصاح فى وجوههم ويلكم ياكلاب تفعلون بمولاكم هذه الفعال خلوا عنه ودعونى وإياه حتى أكلمه فسكتوا عنه وسألوا المنتصر فى ذلك فأذن له فدخل عليه المؤيد وقال ياجاهل كيف تأبى الخلع وأنت تعلم أنهم نالوا من أبيك وهو هو ما نالوا؟ ويحك لا تراجعهم فقال المعتز وكيف أخلع وقد جرى فى الآفاق؟ فقال هذا الأمر كان سبب قتل أبيك وهو يقتلك لا محالة فإن كان فى سابق علم الله أنك تلى الخلافة يوماً لتلين فقال أفعل فخرج المؤيد. وقال قولوا لأمير المؤمنين إنه أجاب إلى الخلع فذهبوا وعادوا ومعهم كاتب فجلس وقال للمعتز: اكتب بخطك خلعك فامتنع فقال المؤيد للكاتب هات قرطاسك أملل علىّ ما شئت فأملى عليه كتاباً إلى المنتصر يعلمه فيه ضعفه عن هذا الأمر وأنه لا يحل له أن يتقلده وكره أن يأثم المتوكل بسببه إذ لم يكن موضعا له ويسأله الخلع ويعلمه أنه قد خلع نفسه وأحل الناس من بيعته ثم ناول الورقة المعتز وقال له: اكتب فأبى. فقال اكتب ويلك فكتب وخرج الكاتب عنهما فلم يكن بأسرع من أن دعاهما المنتصر فدخلا عليه فأجلسهما. قال هذا كتابكما فقالا نعم يا أمير المؤمنين فقال لهما وطوائف الترك وقوف بين يديه أترانى خلعتكما طمعا فى أن أعيش حتى يكبر ولدى وأبايع له والله ما طمعت فى ذلك ساعة قط وإذا لم يكن لى فى ذلك طمع فوالله لأن يليها بنو أبى أحب إلىّ من أن يليها بنو عمى ولكن هؤلاء الترك وأومأ إليهم بين قائم وقاعد ألحوا علىّ فى خلعكما وشدّدوا فى ذلك فخفت إن لم أفعل أن يعترضكما بعضهم بحديدة فيأتى عليكما فما تريانى صانعاً؟ إذن أقتله فوالله ماتفى دماؤهم كلهم بدم بعضكم فكانت إجابتهم إلى ما سألوا أسهل علىّ وأقرب إلى المصلحة فقبلا يده فضمهما إلى صدره ثم إنهما أشهدا على أنفسهما القضاة وبنى هاشم والقواد ووجوه الناس وغيرهم بالخلع وكتب بذلك المنتصر إلى محمد بن عبد الله بن طاهر وإلى غيره، حكى عن أبى العباس محمد بن سهل. قال: كنت أكتب لعتاب بن عتاب على ديوان جيش الشاكرية فى خلافة المنتصر فدخلت إلى بعض

الأروقة فإذا هو مفروش ببساط سوسجرد ومسند ومصلى ووسائد بالحمرة والزرقة وحول البساط دارات فيها أشخاص ناس وكتابة بالفارسية وكنت أحسن القراءة بالفارسية وإذا عن يمين المصلى صورة ملك وعلى رأسه تاج كأنه ينطق فقرأت الكتابة فإذا هى صورة شيرويه القاتل لأبيه إبرويز الملك ملك ستة أشهر ثم رأيت صور ملوك شتى ثم انتهى بى النظر إلى صورة عن يسار المصلى عليها مكتوب صورة يزيد بن الوليد بن عبد الملك قاتل ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك ملك ستة أشهر فعجبت من ذلك واتفاقه عن يمين مقعد المنتصر وعن شماله فقلت: لا أرى أنه يدوم ملكه أكثر من ستة أشهر فكان والله كذلك فخرجت من الرواق إلى مجلس وصيف وبغا وهما فى الدار الثانية فقلت لوصيف أعجز هذا الفراش أن يفرش تحت أمير المؤمنين إلا هذا البساط الذى عليه صورة يزيد بن الوليد قاتل ابن عمه وصورة شيرويه قاتل أبيه إبرويز وعاشا ستة أشهر بعد ما قتلا فجزع وصيف من ذلك. وقال عليّ: بأيوب بن سليمان النصرانى خازن الفرش فمثل بين يديه فقال له وصيف: لم تجد ما يفرش فى هذا اليوم تحت أمير المؤمنين إلا هذا البساط الذى كان تحت المتوكل ليلة الحادثة وعليه صورة ملك الفرس وغيره؟ وقد كان ناله آثار الدماء قال: سألنى أمير المؤمنين المنتصر عنه وقال ما فعل البساط؟ فقلت عليه آثار دماء فاحشة وقد عزمت أن لا أفرشه من ليلة الحادثة فقال لم لا تغسله وتطويه؟ فقلت خشيت أن يشيع الخبر عند من يرى ذلك البساط من أثر الحادثة فقال: إن الأمر أشهر من ذلك يريد قتل الأتراك لأبيه المتوكل فطويناه وبسطناه تحته فقال وصيف وبغا: إذا قام أمير المؤمنين من مجلسه فخذه وأحرقه بالنار فلما قام أحرق بحضرة وصيف وبغا فلما كان بعد أيام قال المنتصر لأيوب بن سليمان: افرش ذلك البساط فقال وأين ذلك البساط؟ فقال وما الذى كان من أمره؟ قال: إن وصيفا وبغا أمرانى بإحراقه فسكت المنتصر ولم يعد فى أمره شيئاً إلى أن مات، وكان خلع المنتصر لأخويه المعتز وإبراهيم من ولاية العهد بعده فى سنة ثمان وأربعين ومائتين هجرية. وقد كان المتوكل أخذ لهم العهد فى كتب كتبها وشروط اشترطها وأفرز لكل واحد منهم جزءاً من الأعمال رسمه له وجعل ولى عهده والتالى لملكه محمدا المنتصر وتالى المنتصر وولى عهده المعتز وتالى المعتز وولى عهده إبراهيم المؤيد وأخذت البيعة على الناس بذلك وفرق فيها أموالاً وعم الناس بالجوائز والصلات وتكلم فى ذلك الخطباء ونطقت به الشعراء. وكان من الأعمال المشهورة فلم تلبث أن زالت وانطوى خبرها وخرج فى أيام المنتصر بناحية اليمن والبوازيج والموصل أبو العمود الشادى فحكم

واشتدّ أمره فيمن انضاف إليه من المحكمة من ربيعة وغيرهم من الأكراد فسرح إليه المنتصر جيشاً عليهم سما التركى فكانت له مع الشادى حروب فأسر الشادى وأتى به المنتصر فجاد عليه بالعفو وأخذ عليه العهد وخلى سبيله. أخبر أبو بكر محمد بن الحسَن بن دريد. قال: رأى بعض الكتاب فى المنام فى الليلة التى استخلف فى صبيحتها المنتصر كأن قائلاً يقول:

هذا الإمام المنتصر   والملك الحادي عشر
وأمره إذا أمر   كالسيف ما لاقى بتر
وطرفه إذا نظر   كالدهر في خير وشر

وأظهر المنتصر الإنصاف فى الرعية فمالت إليه قلوب الخاصة والعامة مع شدة الهيبة منها له واستوزر أحمد بن الخصيب ثم ندم على ذلك ونفى عبد الله بن خاقان وذلك أن ابن الخصيب ركب ذات يوم فتظلم إليه متظلم بقصة فأخرج رجله من الركاب فزج بها فى صدر المتظلم فقتله فتحدث الناس بذلك. وقال بها بعض الشعراء يومئذ، حكى عن أبى العباس أحمد بن محمد بن موسى بن الفرات قال: كان أحمد بن الخصيب سيىء الرأى فى والده وكان عاملاً له فجاءنى مخبر من خدم الخاصة فقال إن الوزير قد ندب لأعمالكم فلانا وقد أمره فى والدك بكل مكروه وأن يصادره على جملة من المال غليظة ذكرها فقعدت وعندى بعض أصدقائنا من الكتاب أبادر بالكتاب إلى والدى بذلك فاشتغلت عن جليسى الكاتب فاتكأ على الوسادة وغفا فانتبه مرعوبا. وقال :قد رأيت رؤيا عجيبة رأيت أحمد بن الخصيب واقفا فى هذا الموضع وهو يقول يموت الخليفة المنتصر إلى ثلاثة أيام، قال: قلت له الخليفة فى الميدان يلعب بالصوجان وهذه الرؤيا ضرب من البلغم والمرار، وقد قدمنا الطعام فما استتممنا الكلام حتى دخل علينا داخل فقال: رأيت الوزير بدار الخاصة غيرمسفر الوجه وإنى سألت عن سبب ذلك فقيل لى إن الخليفة المنتصر انصرف من الميدان وهو عرق فدخل الحمام ونام فى الباذهنج فضربه الهواء وركبته حمى هائلة فدخل عليه أحمد بن الخصيب فقال: ياسيدى أنت متفلسف وحكيم الزمان تنزل من الركوب تعبا فتدخل الحمام ثم تخرج عرقا فتنام فى الباذهنج فقال له المنتصر أتخاف أن أموت رأيت فى المنام البارحة آتيا أتانى فقال لى تعيش خمسا وعشرين سنة فعلمت أن ذلك بشارة فى المستقبل من عمرى وإنى أبقى فى الخلافة هذه المدة قال فمات فى اليوم الثالث فنظروا فإذا هو قد استوفى خمسا وعشرين سنة، وفى رواية أن المنتصر ضربته الريح يوم الخميس لخمس بقين من شهر ربيع الأول ومات مع

صلاة العصر لخمس ليال خلون من ربيع الآخر وصلى عليه أحمد بن محمد المستعين وكان أول خليفة من بنى العباس أظهر قبره وذلك أن أمه حبشية سألت ذلك فأذن لها وأظهرته بسامرا. وقيل أيضاً إن الطيفورى الطبيب سمه فى مشرط حجمه به وقد كان عزم على تفريق جمع الأتراك فأخرج وصيفا فى جمع كثير إلى غزاة الصائفة بطرسوس ونظر يوماً إلى بغا الصغير وقد أقبل فى القصر وحوله جماعة من الأتراك فأقبل على الفضل بن المأمون فقال: قتلنى الله إن لم أقتلهم وأفرق جمعهم بقتلهم المتوكل على الله فلما نظر الأتراك إلى ما يفعل بهم وما قد عزم عليه وجدوا منه الفرصة وقد شكا ذات يوم حرارة فأراد الحجامة فخرج له من الدم ثلاثمائة درهم لما كان فى المبضع من السم وشرب شربة بعد ذلك فحلت قواه، ويقال إن السم كان فى مبضع الطبيب حين فصده، وذكر ابن أبى الدنيا عن عبد الملك بن سليمان بن أبى جعفر قال: رأيت فى نومى المتوكل والفتح بن خاقان وقد أحاطت بهما نار وقد جاء محمد المنتصر فاستأذن عليهما فمنع الوصول ثم أقبل المتوكل علىّ فقال ياعبد الملك قل لمحمد بالكاس الذى سقيتنا تشرب قال فلما أصبحت غدوت على المنتصر فوجدته محموماً فواظبت على عيادته فسمعته فى آخر علته يقول: عجلنا فعوجلنا فمات من ذلك المرض وذلك فى سنة ثمان وأربعين ومائتين وكانت خلافته ستة أشهر وأياماً وعمره ستا وعشرين سنة وقيل خمساً وعشرين وأمه رومية وكان مربوعا سمينا أعين أقنى الأنف مليحاً مهيباً كامل العقل يحب الخير سخيًا أديبا عفيفا وكان يأخذ نفسه بمكارم الأخلاق وكثرة الإنصاف وحسن المعاشرة بما لم يسبقه خليفة إلى مثله. قيل ولما احتضر أنشد يقول:

وما فرحت نفسي بدنيا أخذتها ولكن إلى الرب الكريم مصيرى

وكان محبًا لعلى بن أبى طالب وأولاده فأمر الناس بزيارة قبر علىّ والحسين وأمّن العلويين وكانوا فى خوف أيام أبيه وأطلق وقوفهم وردّ لهم كثيراً مما أخذ منهم ومن كلامه: والله ما عز ذو باطل ولو طلع القمر من جبينه ولا ذل ذو حق ولو اتفق العالم عليه.

ومات فى أيامه ميخائيل بطرك المتأصلين بعد أن أقام سنة وقيل سنة وخمسة أشهر ودفن بدير أبو مقار وهو أول بطرك دفن بالدير المذكور فخلا الكرسى بعده أحداً وثمانين يوما ثم أقيم بعده شماس بدير أبو مقار اسمه قسيما وهو قزمان رابع خمسيهم وأصله من مدينة سمنود بإقليم الغربية وكان جليل القدر متواضعاً ووقع من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

(الفصل الثانى عشر)

(فى خلافة أحمد المستعين بالله)

ثم قام بالأمر بعد المنتصر ابن عمه أحمد المستعين بالله بن محمد المعتصم بويع له بالخلافة ليلة الاثنين لست خلون من ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ومائتين هجرية أى سنة اثنتين وستين وثمانمائة للميلاد وعمره إذ ذاك ثمان وعشرون سنة. قال أصحاب التاريخ: لما مات المنتصر اجتمع غلمانه ومواليه ومماليكه وبينهم بغا الصغير وبغا الكبير وأوتامش وغيرهم من كبار المماليك واتفقوا على أن لا يولوا الخلافة أحدا من أولاد المتوكل خوفا على أنفسهم من أولاد المتوكل وشدد أحمد بن الخصيب فى ذلك فاستحلفوا قواد الترك والمغاربة والأشروسية على ذلك وأجمعوا على أحمد بن محمد بن المعتصم كى لا تخرج الخلافة من ولد مولاهم المعتصم فبايعوه فى الليلة المذكورة. فلما كان يوم الاثنين سار المستعين إلى دار العامة فى زى الخلافة وسار إبراهيم بن إسحق بين يديه بالحربة واصطف له بعض الجند صفين وحضر الدار أصحاب المراتب العالية من العباسيين والطالبيين وغيرهم فبينما هم على هذا الحال إذ جاءت صيحة من ناحية الشارع والسوق وإذا نحو من خمسين فارسا قالوا إنهم من أصحاب محمد بن عبد الله بن طاهر ومعهم جماعة من أخلاط الناس والغوغاء والسوقة وشهروا السلاح وصاحوا النفير يامنصور وشدوا على من كان هناك من الجند واختلط بعضهم ببعض فحمل عليهم الجند فهزموهم حتى أدخلوهم أحد الدروب وتبعوهم فقتل جماعة من الفريقين ثم تفرقوا وقد كانت البيعة تمت للمستعين وانصرف من حضر من جماعة الأتراك والهاشميين وغيرهم فدخل الغوغاء والمنتهبة دار العامة فانتهبوا ما كان فى خزانتها من الأسلحة والسيوف والتروس وغير ذلك فأدركهم بغا فى طائفة من الترك فقتل منهم خلقاً وأجلاهم عن الخزانة واشتد القتال بين الفريقين ثم تفرقوا وطيروا الخبر بالبيعة إلى الآفاق فبايعوا جميعاً، ولما قامت الفتنة وخرجت الغوغاء وانتهبوا دار العامة همّ الأتراك بقتل المعتز والمؤيد فمنعهم أحمد بن الخصيب من ذلك وأشار بحبسهما فحبسوا فى الجوسق ووكل بهما فلم تتم على ابن الخصيب سنة حتى غضب عليه المستعين واستصفى ماله ومال ولده ونفاه إلى اقريطش ثم كادت الأمور تعتل ونظام الخلافة يختل إذ ظهرت

الفتنة ببغداد وسامرا وقامت الغوغاء وانضم إليهم بعض الجنود ففتحوا المحبوس وأخرجوا من بها فبعثوا فى طلبهم طائفة من الموالى فوثب العامة بهم فهزموهم فرسم الخليفة بركوب بغا وأوتامش ووصيف وعامة الترك فقتلوا من العامة جماعة وصارت العامة تضرب بالأحجار وما زالوا بهم حتى فرقوهم وانقضت الفتنة، واستوزر المستعين بالله أبا موسى أوتامش المذكور فعلت كلمته واتسعت شهرته وأباح له الخليفة التصرف فى بيت المال وأطلق يده فأخذ وادخر والموالى تنظر إلى الأموال تؤخذ وهم فى ضيق وشدة فثاروا على أوتامش وانضم إليهم جماعة من العامة وزحفوا إليه وهو فى الجوسق مع المستعين فأراد الهرب فلم يمكنه فاستجار بالمستعين فلم يجره وأقاموا على ذلك يومين ثم دخلوا الجوسق وأخذوا أوتامش فقتلوه وقتلوا كاتبه ونهبوا داره فأخذوا منه أموالاً كثيرة وتحفا وثياباً فاخرة. فلما قتل أوتامش استوزر المستعين أبا صالح عبد الله بن محمد بن يزداد ثم وقعت بين بغا الصغير وأبى صالح المذكور وحشة فهرب أبو صالح إلى بغداد واستوزر المستعين محمد بن الفضل الجرجرائى بعده.

وظهر بالكوفة أبو الحسن يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن عبد الله بن إسماعيل بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب الطيار فخشى المستعين أمره وسير إليه من قتله وحمل رأسه إلى بغداد فأمر بصلبه فضج الناس من ذلك لما كان فى نفوسهم من المحبة له لأنه استفتح أموره بالكف عن الدماء والتورع عن أخذ شئ من أموال الناس وأظهر العدل والإنصاف قيل وكان خروجه لذل نزل به وشدة لحقته ومحنة نالته من المتوكل وطوائف الترك ودخل الناس إلى محمد بن طاهر يهنئونه بالفتح وهم مع ذلك فى ضجر من مقتل أبى الحسن يحيى ودخل عليهم أبو هاشم الجعفرى وهو داود بن القاسم بن إسحق بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب بينه وبين جعفر الطيار ثلاثة آباء ولم يكن يعرف فى ذلك الوقت أقعد نسبا فى آل أبى طالب وسائر بنى هاشم وقريش منه وكان ذا زهد وورع ونسك وعلم صحيح العقل سليم الحواس منتصب القامة فقال لابن طاهر: أيها يابن طاهر وخرج من داره وهو يقول يابنى طاهر:

فذل الحياة وعز الممات — وكل أراه طعاما وبيلا
فإن كان لابد من واحد — فسيري الى الموت سيرا جميلا

فلما أحس ابن طاهر بما وراء نصب الرأس من قيام الفتنة وخروج الناس أمر بإنزالها. قال بعض الكتاب: وكان قتل يحيى عند الناس من أكبر الكبائر فجزعت

عليه النفوس جزعاً كثيراً ورثاه القريب والبعيد وحزن عليه الصغير والكبير، ولما كانت سنة تسع وأربعين ومائتين هجرية عقد المستعين لإبنه العباس على مكة والمدينة والبصرة والكوفة وعزم على البيعة له ولكن منعه من ذلك صغر سنه فطلب عيسى ابن فرخا نشاه وهو وزير المستعين يومئذ من أبى النصر الشاعر أن يقول فى ذلك شعرا يشير فيه بالبيعة له فقال فى ذلك قصيدة طويلة منها هذه الأبيات:

بك الله حاط الدين وانتاش أهله   من الموقف الدحض الذي مثله يردى
فول ابنك العباس عهدك أنه   له موضع واكتب إلى الناس بالعهد
فقد كان يحيى أوتي العلم قبله   صبيا وعيسى كلم الناس في المهد

وخرج فى سنة خمسين ومائتين بالرى محمد بن جعفر بن الحسن ودعا للحسن ابن زيد صاحب طبرستان وكانت له حروب بالرى مع أهل خراسان من المسوّدة فأسر وحمل إلى نيسابور إلى محمد بن عبد الله بن طاهر فمات فى محبسه قيل حتف أنفه، ثم ظهر بها أيضاً أى بالرى أحمد بن عيسى بن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب ودعا إلى الرضا من آل محمد وحارب محمد بن طاهر بالرى وقام معه ناس كثير ثم انهزم عن الرى وسار عنها إلى مدينة السلام فدخلها، ولم تكد تسكن الفتنة حتى ظهر أيضاً بقزوين الكركى وهو الحسن بن إسماعيل بن أحمد بن عبد الله ابن على بن الحسين بن على بن أبى طالب وهو من ولد الأوسط وقيل إن اسم الكركى الحسن بن أحمد بن محمد بن إسماعيل بن محمد بن عبد الله بن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب فسير المستعين لقتاله جماعة ومعهم موسى وبغا فرحل الكركى إلى الديلم. ثم وقع فى قبضة الحسن بن زيد الحسنى فأهلكه وخرج كذلك بالكوفة الحسين بن محمد بن حمزة بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب فسرح إليه محمد بن عبد الله بن طاهر جيشاً من بغداد فانكشف الحسين واختفى لترك أصحابه له وتخلفهم عنه وذلك سنة إحدى وخمسين ومائتين.

واشتد الخليفة المستعين فى غضون هذه الحوادث على باغر التركى أحد كبار الأتراك الذين فى خدمته لأسباب نقمها عليه لا موضع لإيرادها هنا فانقبضت نفس باغر من الخليفة وأصر على قتله وجعل يدبر الحيلة فى ذلك وكاشف جماعة من الترك الذين كانوا معه فى قتل المتوكل على ما فى خاطره فوافقوه ومنوه فانكشف إلى المستعين أمرهم وما خفى من سرهم فعاجل باغرا وأركب عليه جماعة من خواصه ومواليه فقبضوا عليه وحبسوه فى حمام ثم قتلوه وبلغ الخبر طوائف الترك

فوثبوا على إصطبل الخليفة فانتهبوه وركبوا ما فيه من الخيول وغيرها وحصروا الجوسق وشدّدوا فى الحصار فانحدر المستعين إلى بغداد فى حراقة ومعه بغا ووصيف وشاهك الخادم وأحمد بن صالح بن شيرزاد ودليل فلما علم الترك بانحداره انعطفوا نحو دار دليل ودور أهله وجيرانه فانتهبوا ما فيها ومنعوا الناس من الانحدار إلى بغداد وشدّدوا فى المنع فلم يجسر أحد على الانحدار ثم وصل إلى بغداد جميع القوّاد وكبار الجند وجلة الكتاب والعمال وبنى هاشم وغيرهم فأغضب جماعة الترك فعل المستعين فاختاروا منهم وفدا فدخلوا عليه وألقوا أنفسهم بين يديه وجعلوا مناطقهم فى أعناقهم تذللا وخضوعاً وسألوه الصفح عنهم فأغلظ عليهم فى القول وقال: إنما أنتم أهل بغى وفساد واستقلال للنعم ألم ترفعوا إلىّ فى أولادكم فألحقتهم بكم وهم نحو من ألفى غلام وفى بناتكم فأمرت بتصيرهنّ فى عداد المتزوجات وهنّ نحو من أربعة آلاف وغير ذلك كله أجبتكم إليه وأدررت عليكم الأرزاق فعملتم آنية الذهب والفضة ومنعت نفسى لذتها وشهوتها وأنتم تزدادون شغباً وفساداً؟ فعادوا وتضرعوا وسألوه العفو فقال: قد عفوت فارجعوا إلى سامرا وأنظر أنا فى أمرى فانصرفوا آيسين منه وأخبروا من وراءهم بما جرى وزاد بغضهم له وحرضوا بعضهم على خلعه والبيعة للمعتز ولد أخيه وكان هو والمؤيد فى حبس الجوسق وعليهم من يحرسهم كما تقدم فساروا فى جمع عظيم وأخرجوا المعتز من الحبس وقد طال شعره وتغيرت أحواله فأخذوا من شعره وأصلحوا حاله وبايعوه بالخلافة فأمر للناس برزق عشرة أشهر للبيعة فلم يجدوا من المال ما يكفى فأعطوا شهرين وذلك فى يوم الأربعاء لإحدى عشرة ليلة خلت من المحرّم سنة إحدى وخمسين ومائتين وركب من ذلك اليوم إلى دار العامة فأخذ البيعة على الناس وخلع على أخيه المؤيد وعقد له عقدين أسود وأبيض فكان الأسود لولاية العهد بعده والأبيض لولاية الحرمين وتقلدهما وأتت الكتب فى سامرا بخلافة المعتز بالله من سائر الأمصار وأرّخت باسم جعفر بن محمد الكاتب وأحدر أخاه أبا أحمد مع عدّة من الموالى لحرب المستعين إلى بغداد فكان أول حرب جرت بينهم ببغداد بين أصحاب المعتز والمستعين وهرب محمد بن الواثق إلى المعتز بالله ولم تزل الحروب بينهم وبين أهل بغداد للنصف من صفر من هذه السنة واشتدّت الحرب بينهم فكانت أمور المعتز تقوى وحالة المستعين تضعف والفتنة قائمة فلما رأى محمد بن عبد الله بن طاهر ذلك كاتب المعتز وجنح إليه ومال إلى الصلح على خلع المستعين وعلمت العامة ببغداد بما قد عزم عليه محمد بن عبد الله من خلع المستعين فثارت منكرة لذلك متحيزة إلى المستعين ناصرة

له فما زال محمد بن عبد الله بالمستعين حتى أظهره على أعلى قصره فخاطبته العامة وعليه البردة فأنكر ما بلغهم من خلعه وشكر محمد بن عبد الله بن طاهر ثم التقى محمد بن عبد الله وأبو أحمد الموفق بالشماسية فاتفقا على خلع المستعين على أن له الأمان ولأهله وولده وما حوت أيديهم من أملاكهم وعلى أنه ينزل مكة هو ومن يشاء من أهله وأن يقيم بواسط العراق إلى وقت مسيره إلى مكة فكتب له المعتز على نفسه شروطا أنه متى نقض شيئاً من ذلك فالله ورسوله منه براء والناس فى حل من بيعته وعهودا غير هذه لا يسعها هذا المقام. قيل وقد خذل المعتز بعد ذلك لمخالفتها حين عالج فى نقضها فخلع المستعين نفسه من الخلافة وذلك يوم الخميس لثلاث خلون من المحرّم سنة اثنتين وخمسين ومائتين فكان له مذ وافى مدينة السلام إلى أن خلع سنة كاملة وكانت خلافته مذ تقلد الأمر على ما بيناه آنفا إلى أن زال عنه ثلاث سنين وثمانية أشهر وثمانية وعشرين يوماً فقال بعض الشعراء فى خلعه:

خلع الخليفة أحمد بن محمد   وسيقتل التالي له أو يخلع
ويزول ملك بني أبيه ولا ترى   أحدا بملك منهم يتمتع
أيها بني العباس إن سبيلكم   في قتل أعبدكم سبيل مهيع
رقعتم دنياكم فتمزقت   بكم الحياة تمزقا لا يرقع

وقال البحترى الشاعر ومحمد بن مروان بن أبى الجنوب وغيرهما فى خلعه أبياتاً كثيرة كلها حكم أضربنا عن إيرادها هنا. وأحدر إلى دار حسن بن وهب ببغداد وجمع بينه وبين أهله وولده ثم أحدر إلى واسط وقد وكل به أحمد بن طولون التركى وذلك قبل ولايته مصر وعلم عجز محمد بن عبد الله بن طاهر عن قيامه بأمر المستعين حين استجار به وخذلانه إياه وميله إلى المعتز، ولما كان من الأمر ما تقدّم من خلع المستعين انصرف أبو أحمد الواثق من بغداد إلى سامرا فخلع عليه المعتز وتوّجه ووشحه بوشاحين وخلع على من كان معه من القواد وقدم على المعتز عبيد الله بن عبد الله بن طاهر أخو محمد بن عبد الله بالبردة والقضيب والسيف وبجوهر الخلافة ومعه شاهك الخادم وكتب محمد بن عبد الله إلى المعتز فى شاهك المذكور إن من أتاك بإرث رسول الله ﷺ لجدير أن لا تخفر ذمته، واستتب الأمر إلى المعتز وانطلقت كلمته واتسعت وجعل المعتز يتوقع الغدر بأخيه المستعين والإيقاع به، فلما كان فى شهر رمضان من السنة أى سنة اثنتين وخمسين ومائتين بعث المعتز سعيد بن صالح الحاجب إلى واسط ليغتال المستعين ويوقع به وكان حين خلع من

الخلافة سير به إليها مع جملة من أحزابه فسار إليه سعيد ونزل واسطا وما زال يراقب الفرص حتى مال عليه وقتله واحتز رأسه وحمله إلى المعتز وترك جثته ملقاة على الطريق حتى تولى دفنها جماعة من العامة وقيل فى موته غير ذلك، ووصلت الرأس إلى المعتز وهو يلعب بالشطرنج فقيل له هذا رأس المخلوع فقال: ضعوها حتى أفرغ من الدست فلما فرغ نظر إليه وأمر بدفنه.

(الفصل الثالث عشر)

(فى خلافة المعتز بالله بن جعفر المتوكل)

ثم قام بالأمر بعد المستعين ابن عمه محمد المعتز بالله وهو الزبير بن جعفر المتوكل وأمه أم ولد يقال لها قبيحة ويكنى أبا عبد الله وله من العمر يومئذ ثمان عشرة سنة بويع له بالخلافة لما خلع المستعين نفسه وذلك فى يوم الخميس لليلتين خلتا من المحرم وقيل لثلاث خلون منه سنة اثنتين وخمسين ومائتين هجرية أى سنة ست وستين وثمانمائة ميلادية وبايعه القواد والموالى والشاكرية وأهل بغداد وخطب له فى المسجد الجامع ببغداد فى الجانبين وكان على وزارته جعفر بن محمد ثم صرفه واستوزر جماعة فكانت بعد ذلك تخرج الكتب باسم صالح بن وصيف التركى كأنه مرسوم بالوزارة وما زال على هذا الحال يدبر الأمر حينا فلما كان بعد ذلك بقليل أنهى إلى المعتز أن أخاه المؤيد يدبر عليه وأنه قد احتال على جماعة من الموالى لينصروه فقبض على المؤيد فى الحال وحبسه وحبس معه أخاه أبا أحمد وهما لأب وأم وطولب المؤيد بأن يخلع نفسه من ولاية العهد فلم يقبل فضرب أربعين عصا إلى أن أجاب وأشهد على نفسه بذلك، ثم اتصل بالمعتز أيضاً أن جماعة من الترك اجتمع رأيهم على إخراج المؤيد من حبسه والانتصار له فأكبر المعتز هذا الأمر وخشى عاقبته وجعل يدبر على هلاك المؤيد فلما كان يوم الخميس لثمان بقين من رجب سنة اثنتين وخمسين ومائتين أخرج المؤيد وأحضر القضاة والفقهاء فرأوه ولا أثر فيه ثم أمر بعد ذلك فأدرج فى لحاف مسموم وشد طرفاه حتى مات فيه وضيق فى حبس أبى أحمد فكان بين دخوله سامرا وما لقى بها من الإكرام وبين حبسه ستة أشهر وثلاثة أيام ثم شخص المعتز إلى البصرة لثلاث عشرة ليلة بقيت من رمضان بعد قتل المؤيد بخمسين يوماً ورتب إسماعيل بن قبيحة وهو أخو المعتز لأبيه وأمه مكان المؤيد فى ولاية العهد، واجتمع بعد ذلك بأيام سائر قواد الموالى على المعتز فسألوه الرضا

عن وصيف وبغا وكانا على ما هما عليه من الذل والضيق فأجابهم إلى ذلك كارهاً وكانت هذه حيلة منهم للإيقاع به لما نقموه عليه فلما كان رجب سنة خمس وخمسين ومائتين دخلوا عليه فى عدة وافرة بغير استئذان وجعلوا يقرّعونه بذنوبه ويوبخونه على أعمال الحيلة على إفنائهم وقتل كبارهم واصطناعه للمغاربة والفراعنة دونهم وقد كانوا أحسوا منه بذلك وطالبوه بالأموال وكان المدبر لهذه الفتنة صالح بن وصيف مع قواد الترك فلج المعتز وأنكر أن يكون قبله شيء من المال وقد كانوا يطلبون خمسين ألف دينار وأرسل المعتز إلى أمه أن تعطيه ذلك القدر فأرسلت تقول: ما عندى شيء وقد كان عندها من المال والنفائس والجواهر الثمينة شيء كثير للغاية، فلما رأى الأتراك أنهم لم يحصل لهم من المعتز ولا من أمه شيء وليس فى بيت المال شيء اتفقت كلمتهم وكلمة المغاربة والفراعنة على خلعه فجلس على بابه جماعة منهم بالسلاح وأرسلوا إليه أن اخرج إلينا فامتنع واعتذر بأنه تناول دواء فأمر صالح أن يدخل عليه بعضهم فدخلوا وجروه برجله إلى باب حجرته وضربوه بالدبابيس ومزقوا ثيابه وأوقفوه فى الشمس فى صحن الدار فكان لشدة حرارتها يرفع رجلاً ويضع أخرى وكان بعضهم يلطمه على وجهه ويقول له: اخلعها وهو يتقى بيديه ثم أدخلوه إلى حجرته وأشهدوا عليه جماعة بالخلع وبعثوا إلى مدينة السلام فى طلب محمد بن الواثق الملقب بالمهتدى . وقد كان المعتز نفاه إليها واعتقله فيها فأتى به فى يوم وليلة إلى سامرا فتلقاه الأولياء فى الطريق ودخل الجوسق فأعلموه بأنهم سيبايعونه فى الحال وسألوه الموافقة على ذلك فامتنع. وقال: لا أقبل البيعة حتى أرى المعتز وأسمع كلامه فأتى بالمعتز وعليه قميص مدنس وعلى رأسه منديل. فلما رآه محمد بن الواثق وثب إليه وعانقه وأجلسه بجانبه على السرير. وقال له: ياأخى ما هذا الأمر؟ فقال المعتز: أمر لا أطيقه ولا أقوم به ولا أصلح له فأراد المهتدى أن يتوسط فى أمره ويصلح الحال بينه وبين مقدمى الأتراك فقال المعتز: لا حاجة لى فيها ولا يرضونى لها فقال المهتدى: فأنا فى حل من بيعتك قال أنت فى حل وسعة فلما جعله فى حل من بيعته حوّل وجهه عنه فأقيم من حضرته وردّ إلى محبسه فقتل فى محبسه بعد أن خلع بستة أيام تسلمه صالح بن وصيف ومنعه من الطعام والشراب ثلاثة أيام ثم أنزله فى سرداب وأطبقه عليه حتى مات ثم أخرجه وأشهد عليه أن لا أثر به وقيل أيضاً إنه بعد خلعه بخمسة أيام أدخله الحمام ومنعه الماء حتى عاين التلف ثم أتوه بماء مالح فشربه فسقط ميتا وذلك فى رجب سنة خمس وخمسين ومائتين وكان عمره ثلاثاً وعشرين سنة فكانت خلافته أربع سنين

وستة أشهر وقيل وثلاثة وعشرين يوماً وكان عمره كله أربعاً وعشرين سنة وكان أبيض أسود الشعر كثيفه حسن العينين والوجه أحمر الوجنتين حسن الجسم طويلاً فصيحاً كبير المعرفة واسع الدراية والخبرة له فى الفصاحة وحسن الإلقاء كلام كثير يدل على مبلغ علمه، وهو أول خليفة أظهر الركوب بحلية الذهب وكان من سبقه من الخلفاء من بنى العباس وكذلك جماعة من بنى أمية لا يركبون إلا بالحلية الخفيفة من الفضة والمناطق واتخاذ السيوف والسروج واللجم فلما ركب المعتز بحلية الذهب اتبعه الناس فى ذلك وفشت هذه العادة بينهم ثم تغالى فيها الخلفاء والسلاطين من بعده وبالغوا جداً.

واستعمل المعتز على مصر فى خلافته أحمد بن مزاحم بن خاقان سنة ثلاث وخمسين ومائتين وهو طاغية جباراً عسوفاً فولى الشرطة أرجوز التركى وكان أرجوز هذا أكبر ويلاً منه وأشد عسفاً وجوراً فأكثر من الإرهاب والتشديد على الرعية وبالغ فى إيذاء الناس بطرق وأنواع مختلفة ومنع النساء من الدخول إلى الحمامات ومن زيارة قبور الأموات والولولة فى الجنازات وضيق على المخنثين والنوائح وحبسهم وأكثر من الإحداثات والبدع الغريبة، فلما كانت سنة أربع وخمسين ومائتين منع من الجهر بالبسملة فى الصلاة بالجامع وكان أهل مصر يجهرون بها منذ الإسلام إلى ذلك الحين وأخذ أهل الجامع بتمام الصفوف فكان الموكل بذلك رجل من العجم يقوم وبيده السوط إلى مؤخر المسجد وأمر أهل الحلق بالتحوّل عن القبلة قبل إقامة الصلاة ومنع من المساند التى كان المصلون يستندون إليها ومن الحصر التى كانت للمجالس بالمساجد ورسم بأن تصلى التراويح فى رمضان خمس تراويح وكان أهل مصر يصلونها ستا إلى أن منعهم من ذلك فى تلك السنة ومنع من التشويب ورسم بالأذان يوم الجمعة فى مؤخر المسجد وأن يغلس بصلاة الصبح، ونادى مناديه أن لا يشق ثوب على ميت أو يسوّد وجه أو يحلق شعر أو تصيح امرأة أو تولول فمن فعل شئ من ذلك عوقب وعاقب على ذلك وشدد فيه وكبر عسفه وظلمه فضاق خناق الناس وابتهلوا إلى الله تعالى وما زالوا على هذا الحال معه حتى مات مزاحم وتولى بعده الولاية باكياك التركى وقيل باكيال فالتمس باكيال من يستخلفه بمصر لقيامه هو بخدمة ركاب الخليفة، وقد كانت العادة أن من يتولى ولاية كمصر أو غيرها من العمالات الكبيرة من الأمراء والكبراء فلا يأتيها بل يبقى فى خدمة الركاب ويوليها من يشأ من مواليه أوضائعه أو غيرهم ممن يثق به، فأشير على باكيال المذكور بأحمد بن طولون فولاه إياها فكان من أمره وسعد أحواله وإقبال الدنيا عليه بحذافيرها وظهور دولته ما سيذكر فى ترجمته فى وصل بعد.

(فى ترجمة أحمد بن طولون ، وفى ظهور دولته بديار مصر)

هو أبو العباس أحمد بن طولون كان أبوه من الأتراك الذين أهداهم نوح بن أسد السامانى عامل بخارى إلى المأمون بن هارون الرشيد فى سنة مائتين هجرية ويقال إلى الرشيد فى سنه تسعين ومائة وولد ابنه أحمد هذا فى سنة أربع عشرة وقيل سنة عشرين ومائتين ثم مات طولون فى سنة ثلاثين وقيل سنة أربعين ومائتين هجرية، وحكى ابن عساكر عن بعض مشايخ مصر أن طولون لم يكن أبا أحمد ولكنه تبناه وأمه جارية تركية يقال لها هانم، وكان الترك قد طلبوا منه أن يقتل الخليفة المستعين لما سيروه معه إلى واسط مبعداً فأبى وقال: والله لا تجارأت على قتل أولاد الخليفة فلما جاء مصر قال: لقد وعدنى الترك إن قتلت المستعين أن يولونى واسطًا فخفت الله ولم أفعل فعوضنى ولاية مصر والشام وسعة الأحوال، وكان سبب ولايته على مصر وظهور دولته أنه لما تولى الخلافة المعتز بالله بن جعفر المتوكل استعمل على ديار مصر مزاحم بن خاقان أحد مقدمى الترك فى دولة المعتز وكان مزاحم هذا طاغية جباراً فولى الشرطة أرجوز التركى فكان أرجوز أشد ويلاً وأكبر عسفاً وجوراً فأكثر من الإرهاب والتهديد وبالغ فى إيذاء الناس ومنع النساء من الدخول إلى الحمامات وزيارة قبور الأموات وغير ذلك من البدع والأحداث الغريبة كما مر بيان ذلك فى موضعه فلما مات وتولى مكانه الأمير باكياك وقيل باكيال واتصل به خبر ما يفعله أرجوز من الجور والعسف التمس من يستخلفه بمصر فأشير عليه بأحمد بن طولون لما ظهر عنه من حسن السيرة وطيب السريرة فولاه مصر وسرحه إليها وكان بها ابن المدبر على الخراج وقد تحكم فى البلد وأحدث الإحداثات الغريبة وكان قهرمانا من دهاة الرجال وأبالسة الكتاب فضرب على الناس الضرائب الكثيرة وقرر المغارم الفادحة وابتدع بدعاً صارت سنة من بعده مرعية إلى يومنا هذا منها أنه أحاط بالنطرون ومنع الناس منه بعد أن كان مباحًا، وقرر على الكلأ الذى ترعاه الماشية مالاً سماه المراعى وقرّر على ما يطعمه الله من صيد البحر أيضاً مالا سماه المصائد فانقسم مال مصر من حينئذ إلى قسمين خراجى وهلالى فالخراجى ما يؤخذ فى كل سنة من الأرض التى تزرع حبوباً ونخيلاً وكروماً وفاكهة وما شاكل ذلك، والهلالى قسمه إلى قسمين سماهما المرافق والمعاون وهو ما يؤخذ على الضرائب المحدثة كالمراعى والمصائد ونحوهما فكانت هذه المغارم وقراً ثقيلاً

على الناس فكثر بغضهم لابن المدبر وجعلوا يدبرون له المكائد ويتربصون الفرص للبطش به فلما أحس منهم بذلك جعل فى خاصته نحوا من مائة غلام هندى ممتازين وزججهم بالسلاح فكانوا فى خدمته لا يفارقونه فى حله وترحاله، فلما قدم أحمد ابن طولون إلى مصر واستقر به منصب النيابة كف يد ابن المدبر واستولى على البلد وكان باكيال قد استعمل أحمد على مصر وحدها دون باقى الأعمال كالإسكندرية ورشيد والصعيد الأعلى فلما قتل باكيال وصارت مصر إلى ليارجوج التركى وكان بين ليارجوج وأحمد بن طولون مودة متأكدة استعمله على ديار مصر جميعها وكان المتولى على الإسكندرية يومئذ عيسى بن دينار فأقره ابن طولون على ولايتها ونزلت هى وغيرها من بقية الثغور تحت حكم ابن طولون فلما تم له أمر ذلك قدم عليه ابن المدبر فى حاشيته وغلمانه ومعه شقير الخادم غلام قبيحة أم أمير المؤمنين المعتز وهو يومئذ على البريد فنظر ابن طولون وإذا بين يدى ابن المدبر مائة غلام لهم خلق حسن وطول أجسام وبأس شديد وعليهم أقبية ومناطق ثقال عراض وبأيديهم مقارع غلاظ على طرف كل مقرعة مقمعة من الفضة وهم يقفون بين يديه فى حافتى مجلسه إذا جلس ويركبون بين يديه إذا ركب فيصير له بهم هيبة وجلالة فى صدور الناس فداخل ابن طولون شئ من ذلك وكبرت هذه النعمة فى عينيه وحسد ابن المدبر عليها، وقدّم إليه ابن المدبر الهدايا النفيسة والتعابى الثمينة استجلاباً لرضاه فلم يقبلها وردها على ابن المدبر فنظر ابن المدبر إلى شقير. وقال إن هذه لهمة عظيمة ومن كانت هذه همته لا يؤمن على طرف من الأطراف وخافه ابن المدبر وخشى عاقبة التقرب منه وكره المقام معه فى مصر ثم اجتمع بشقير الخادم وتناجيا فى أمر ابن طولون وكتبا إلى الخليفة المعتز يطلبان خلع ابن طولون عن مصر فلم يكن إلا أيام حتى بعث ابن طولون إلى ابن المدبر يقول له: قد كنت أعزك الله أهديت لنا هدية وقع الغنا عنها ولم يجز أن يغتنم مالك كثره الله فرددناها توفيراً عليك ونحب أن تجعل العوض منها الغلمان الذين رأيناهم بين يديك فأنا إليهم أحوج منك، فقال ابن المدبر لما بلغته الرسالة هذه أخرى أعظم مما تقدم قد ظهرت من هذا الرجل إذ كان يرد الأموال والأعراض ويستهدى الرجال ويثابر عليهم ثم لم يجد ابن المدبر بدّاً من أن يبعث بالغلمان كارهاً فزالت بعد ذلك هيبة ابن المدبر وكبرت هيبة ابن طولون وخافه الناس وجعل ابن المدبر يدبر الحيلة على خلع ابن طولون ويكاتب الخليفة فى ذلك وأحمد يعلم بالأمر ويكتمه عن ابن المدبر حتى انقضت خلافة المعتز بالله.

وظهرت كلمة ابن طولون واتسعت شهرته فأضيفت إليه نيابة الشام والعواصم

والثغور وإفريقية فعمد إلى الفتح ففتح أنطاكية وعدة مدن أخرى وطالت ولايته فرتب الأمور وأحكم السياسة وأمن الطرق ووسع أبواب الخير فكانت ظاهرة بينة وابتنى بالقاهرة جامعه المشهور والبيمارستان والعين التى أنشأها بالمعافر وقد وقعت عند جميع أهله وجيرانه أحسن موقع لأنهم فى حاجة زائدة إلى الماء، قيل وكان السبب فى إنشائه إياها أنه ركب يوما فمر بمسجد الإقدام وحده وتقدّم عسكره وقد كدّه العطش وكان فى المسجد خياط فقال: ياخياط أعندك ماء؟ فقال نعم وأخرج له ركوة صغيرة وقال اشرب ولا تمدّ يعنى لا تشرب كثيراً فتبسم أحمد بن طولون وشرب فمدّ فيه حتى شرب أكثرها ثم ناوله إياها. وقال: يافتى سقيتنا وقلت لا تمد فقال نعم أعزك الله موضعنا هنا منقطع وأنا أخيط بشىء حتى أجمع ثمن راوية فقال له: أو الماء عندكم ههنا معوز؟ فقال نعم قال الراوى: فمضى أحمد بن طولون ولما رجع إلى داره. قال علىّ بالخياط الذى فى مسجد الإقدام فجاءوا به فلما رآه أحمد قال له سر مع المهندسين حتى يخطوا عندك موضع سقاية ويجروا الماء وهذه ألف دينار خذها ثم ابتدأ بالإنفاق وأجرى على الخياط فى كل شهر عشرة دنانير. وقال له بشرنى ساعة يجرى الماء فيها فجدّوا فى العمل فلما جرى الماء أتاه مبشراً فخلع عليه وجمله واشترى له دارا يسكنها وأجرى عليه الرزق السنوى بكثرة. قال بعض أهل التاريخ: وكان قد أشير عليه بأن يجرى الماء من عين أبى خليد المعروفة بالنعش فقال هذه العين لا تعرف إلا بأبى خليد وإنى أريد أن أستنبط بئرا فعدل عن العين إلى الشرق فاستنبط بئره هذه وبنى عليها القناطر وأجرى الماء إلى الفسقية التى بقرب درب سالم وتولى بناء هذه السقاية قبطى من أقباط مصر حسن الهندسة حاذق ماهر قيل إنه دخل على ابن طولون عشية من العشايا فقال له: إذا فرغت مما تحتاج إليه فأعلمنى لنركب إليها فنراها فقال يركب الأمير إليها فى غد فقد فرغت وتقدم المهندس المذكور فرأى موضعاً بها يحتاج إلى قصرية جير وأربع طوبات فبادر إلى عمل ذلك وأقبل ابن طولون يتأمل العين فاستحسن جميع ما شاهده فيها ثم أقبل إلى الموضع الذى فيه قصرية الجير فوقف بالاتفاق عليها فلرطوبة الجير غاصت يد الفرس فيه فكبا بأحمد ولسوء ظنه قدّر أن ذلك لمكروه أراده به المهندس فأمر به فشق عنه ما عليه من الثياب وضربه خمسمائة سوط وأمر به إلى المطبق فوضع فيه وانصرف ابن طولون وأقام المهندس بالمطبق إلى أن أراد ابن طولون بناء جامعه فقدّر له ثلاثمائة عمود فقيل له ما تجدها أو تنفذ إلى الكنائس فى الأرياف والضياع فتحمل ذلك فأنكره ولم يختره وتعذب قلبه بالفكر فى أمره وبلغ المهندس القبطى وهو

بالمطبق الخبر فكتب إلى ابن طولون يقول: أنا أبنيه لك كما تحب وتختار بلا عمد إلا عمودى القبلة فسرّ ابن طولون بذلك وأحضر القبطى وقد طال شعره حتى تدلى على وجهه وقـال له: ويحك ما تقول فى بناء الجـامع؟ فقال أنا أصوره للأميـر حتى يراه عيـاناً بلا عمد إلا عـمودى القبلة فـأمر بأن تحضـر له الجلود فأحضـرت وصوّره له فأعجبـه واستحسنه وأطلق القبطى وخلع عليه وأطلق له للنفـقة عليه مائة ألف دينار وقال له أنفق ومـا احتجت إليـه بعد ذلك أطلقناه لك فـوضع البناء يده فى الموضع الذى هو فيه وهو المعروف بجبل يشكر فكان ينشر من الحجر ويعمل الجير ويبنى إلى أن فرغ من جـميعـه وبيضـه وخلقه وعلق عليـه القناديل بالسلاسل الحـسان الطوال وفرش فيه الحصر وحمل إليه صناديق المصاحف ونقل إليه القراء والفقهاء وصلى فيه وتصدّق بـصدقات عظـيمة وأجـاز المهندس بعشـرة آلاف دينار وأجرى علـيه الرزق الواسع إلى أن مات.

وذهب ابن طولون فى يوم الجـمعة إلى الجـامع فلما رقى الخطيب أبو يعـقوب البلخى المنبر وخطب دعا للخليفة وولده ونسى أن يدعو لأحمد بن طولون ونزل عن المنبر فأشـار أحمد إلى نسيم الخادم أن اضربه خـمسمائة سوط فذكـر الخطيب سهوه وهو على مراقى المنبر فعاد وقـال بعد الحمدلة والديباجة ﴿**ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما**﴾ اللهم وأصلح الأمير أبا العباس أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين وزاد فى الشكر والدعاء له بقدر الخطبة ثم نزل فنظر أحمد إلى نسيم أن اجعلها خمسمائة دينار. قال القضاعى: وذكر أن السبب فى بنائه يعنى فى بناء ذلك الجامع أن أهل مـصر شكوا إليه ضـيق الجامع يوم الجمـعة من جنده وسودانه فـأمر بإنشاء الجامع المـذكور بجبل يشكر بن جديلة من لخم فـابتدأ فى بنائه فى سنة ثلاث وستين ومائتين وفرغ منه سـنة خمس وستين ومائتين، وقيل إن أحـمد بن طولون. قال: إنى أريد أن أبـنى بناء إن احترقـت مصر بقى وإن غـرقت بقى فقـيل له يبنى بالجير والرماد والآجر الأحمر المشوى بالنار إلى السقف ولا يجعل فيه أساطين رخام فإنها لا صبر لها على النار فبناه هذا البناء وكان من أمره وإعادة ترميمه فى أيام دولة خليل بن قلاون ما كان مما لا موضع هنا لذكره.

وبعد أن تم بناء السقاية رسم فكانت تفتح طول النـهار لمن كشف وجهه للأخذ منها ولمن كان له غلام أو جارية والليل للفقراء والمساكين واتخذ لها مستغلاً فيه فضل وكفاية لمصالحها ثم بلغه أن قـوماً لا يستحلون شرب مائها. قال محمـد بن عبد الله

ابن عبد الحكم الفقيه: كنت ليلة فى دارى إذ طرقت بخادم من خدّام أحمد بن طولون. فقال لى الأمير يدعوك فركبت مذعوراً مرعوباً فعدل بى عن الطريق فقلت أين تذهب بى؟ فقال إلى الصحراء فأيقنت بالهلاك وقلت للخادم: الله الله فىّ فإنى شيخ كبير ضعيف مسن فتدرى ما يراد منى فارحمنى فقال احذر أن يكون لك فى السقاية قول وسرت معه وإذا بالمشاعل فى الصحراء وأحمد بن طولون راكب على باب السقاية وبين يديه الشموع فنزلت وسلمت عليه فلم يرد علىّ فقلت: أيها الأمير إن الرسول قد أعيانى وكدّنى وقد عطشت فيأذن لى الأمير فى الشرب فأراد الغلمان أن يسقونى فقلت أنا آخذ لنفسى فاستقيت وهو يرانى وشربت وزدت فى الشرب حتى كدت أنشق ثم قلت: أيها الأمير سقاك الله من أنهار الجنة فلقد أرويت وأغنيت ولا أدرى ما أصف أطيب الماء فى حلاوته وبرده أم صفاءه أم طيب ريح السقاية قال فنظر إلىّ وقال: أريدك لأمر وليس هذا وقته فأصرفوه فصرفت فقال لى الخادم أصبت فقلت أحسن الله جزاءك فلولاك لهلكت وكان مبلغ ما أنفق على هذه العين فى بنائها ومستغلها أربعين ألف دينار ثم كان من أمر ابن طولون ما سيذكر فى محله فى خلافة المهتدى ومن جاء بعده من الخلفاء.

ومات فى خلافة المعتز قسيما بطرك المتأصلين بعد أن أقام سبع سنين وقيل سبع سنين وخمسة أشهر فخلا الكرسى بعده أحدا وخمسين يوما وفى أيام هذا البطرك أمر نوفل قيصر الروم بمحو الصور من الكنائس لأمور فبعث إليه قسيما وناظره حتى أفحمه ورجع به إلى حسن الاعتقاد فرسم بإعادة الصور إلى ما كانت عليه فلما مات قسيما أقيم بعده سانوتيو أو هو شنوده خامس خمسيهم وبلده البتانون وكان راهباً بدير أبى مقار ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله.

(الفصل الرابع عشر)

(فى خلافة جعفر المهتدى بالله هارون)

ثم قام بالأمر بعد المعتز ابن عمه جعفر بن هارون الواثق بن المعتصم ولقب بالمهتدى وقيل إن اسمه محمد ويلقب بأبى إسحق بويع له بالخلافة قبل الظهر من يوم الأربعاء لليلة بقيت من رجب الفرد سنة خمس وخمسين ومائتين هجرية أى سنة ثمان وستين وثمانمائة ميلادية وأمه أم ولد رومية يقال لها قرب ويكنى بأبى عبد الله وله يومئذ سبع وثلاثون سنة وقيل تسع وثلاثون. ولما استقر به المنصب أخرج

الملاهى وحرم سماع الغناء والشراب وأمر بنفى المغنيات وطرد الكلاب والسباع وألزم نفسه الإشراف على الدواوين والجلوس للناس وإزالة المظالم وتغيير المنكرات. وقال إنى أستحى من الله أن لا يكون فى بنى العباس مثل عمر بن عبد العزيز فى بنى أمية وكان صالح بن وصيف بعد خلع المعتز وقتله قد خرج هارباً فلم يهتد له على محل. فلما كان لثلاث بقين من المحرم زعم المهتدى أن امرأة دفعت إلى سيما الشرابى كتابا. وقالت: إن فيه نصيحة وإن منزلها بمكان كذا وطلبت المرأة فلم توجد ودعا المهتدى القواد وسليمان بن وهب فأراهم الكتاب فزعم سليمان أنه خط صالح ابن وصيف فقرأه على القواد فإذا فيه أنه مستخف بسامرا. وإنما استتر طلباً للسلامة وإبقاء الموالى وطلبا لانقطاع الفتن وذكر ما صار إليه من أموال الكتاب ويدل فيه على قوّة نفسه فلما فرغوا من قراءته جعل المهتدى يحث الجماعة على الصلح مع ابن وصيف والاتفاق والنهى عن التباغض والتباين فاتهمه الأتراك بأنه يعلم بمكان ابن وصيف ويميل إليه وطال بينهم وبينه الأخذ والرد فلما كان الغد اجتمعوا بدار موسى ابن بغا واتفقوا على خلع المهتدى وكان بينهم الأمير باكيال فقال لهم: ويحكم إنكم قتلتم ابن المتوكل. وهو فتى حسن الوجه سخى الكف فاضل النفس وتريدون اليوم قتل هذا وهو مسلم تقى يصوم ولا يشرب النبيذ من غير ذنب والله لئن قتلتم هذا لألحقن بخراسان لأشيع أمركم هناك فاتصل خبر ذلك إلى المهتدى فتحوّل من مجلسه وهو متقلد سيفه وقد لبس ثياباً نظافاً وتطيب وأمر بإدخالهم عليه فدخلوا فقال لهم بلغنى ما أنتم عليه ولست كمن تقدمنى مثل المستعين والمعتز والله ما خرجت إليكم إلا وأنا متحنط وقد أوصيت إلى أخى بولدى. وهذا سيفى والله لأضربن به ما استمسك قائمه بيدى والله لئن سقط منى شعرة ليهلكن وليذهبن أكثركم كم هذا الخلاق على الخلفاء والإقدام والجراءة على الله سواء عليكم من قصد الإبقاء عليكم ومن كان إذا بلغه هذا منكم دعا بالنبيذ فشربه مسروراً بمكروهكم حتى تعلمون أنه وصل إلى شىء من دنياكم أما إنكم لتعلمون أن بعض المتصلين بكم أيسر من جماعة من أهلى وولدى سوأة لكم يقولون إنى أعلم بمكان صالح وهل هو إلا رجل من الموالى؟ فكيف الإقامة معه إذا ساررتكم فيه وإذا أبرمتم الصلح فيه كان ذلك ما أنفذه لجميعكم وإن أبيتم فشأنكم واطلبوا صالحاً وأما أنا فما أعلم مكانه فعند ذلك علت ضوضاء القوم وقالوا له: احلف لنا على ذلك فقال أما اليمين فنعم ولكنها تكون بحضرة بنى هاشم والقضاة غدا إذا صليت الجمعة فلم يتم شىء من ذلك. وقد اشتد بغض الترك له وهموا بخلعه فمنعهم من ذلك خوف الاضطراب

وقلة الأموال فأتاهم مال من فارس عشرة آلاف ألف درهم وخمسمائة ألف درهم وانتشر الخبر بين العامة أن القوم قد اتفقوا على خلع المهتدى والفتك به وأنهم قد أرهقوه فجعلوا يكتبون الرقاع ويرمونها فى الطرق والمساجد مكتوباً فيها يامعشر المسلمين ادعوا الله لخليفتكم العدل الرضا المضاهى لعمر بن الخطاب أن ينصره الله على عدوه ويكفيه مؤنة ظالمه وتتم النعمة عليه وعلى هذه الأمة ببقائه فإن الأتراك قد أخذوه بأن يخلع نفسه وهو يعذب منذ أيام وصلى الله على سيدنا محمد، واشتدّ الأتراك على المهتدى وبالغوا فى إهانته حتى يخلع نفسه فلم يفعل وظهر بابك التركى ومن معه بشق عصا الطاعة والخروج على الخليفة فأمر الخليفة بقتله فقتل فهاج الترك ووقع الحرب بينهم وبين المغاربة أنصار الخليفة واشتدّ الحال وطالت أيام القتال فقتل من الفريقين أربعة آلاف على رواية بعض أصحاب التاريخ وخرج المهتدى والمصحف فى عنقه وهو يدعو الناس إلى نصرته على الترك ومعه طوائف المغاربة وبعض العامة فحمل عليهم طيبغا أخو بابك فهزمهم ومضى المهتدى وهو مهزوم والسيف فى يده وقد جرح جرحين حتى دخل دار محمد بن يزداد فتجمع الترك وهجموا على الدار وأخذوه أسيرا وحمله أحمد بن خاقان وجعلوا يصفعونه ويقولون: اخلعها وهو لا يفعل فسلم إلى رجل فوطىء مذاكيره حتى قتله وقيل مات بالخناجر ومنهم من روى أنه جعل بين لوحين عظيمين وشدّ بالحبال إلى أن مات وقيل قتل خنقاً. وقيل كبس عليه بالبسط والوسائد حتى مات فلما مات داروا به ينوحون ويبكون عليه وندموا على ما كان منهم من قتله لما تبينوه من نسكه وقتل وله من الولد سبعة عشر ذكراً وست بنات قيل وكان قد ذهب فى أمره إلى القصد والدين فقرّب العلماء ورفع من منازل الفقهاء وعمهم ببره وكان يقول: يابنى هاشم دعونى حتى أسلك مسلك عمر ابن عبد العزيز فى بنى أمية وقلل من اللباس والفرش والمطعم والمشرب وأمر بإخراج آنية الذهب من الخزائن فكسرت وضربت دنانير ودراهم وعمد إلى الصور التى كانت فى المجالس فمحيت وذبح الكباش التى كان يناطح بها بين يدى الخلفاء والديوك وقتل السباع المحبوسة ورفع بسط الديباج وكل فرش لم ترد الشريعة بإباحته. وكانت الخلفاء قبله تنفق على موائدها فى كل يوم عشرة آلاف درهم فأزال ذلك وجعل لمائدته وسائر مؤنته فى كل يوم نحو مائة درهم. قيل وكان يواصل الليل بالنهار فى التهجد والعبادة وأنه لما قتل أخرج رجل من الموضع الذى كان يأوى إليه فأصيب له سفط مقفل فتوهموا أن فيه مالاً أو جوهراً فلما فتح وجدوا فيه جبة صوف وغل وقيل جبة شعر فسألوا من كان يخدمه فقال: كان إذا جن الليل لبسها وغل نفسه وكان يركع ويسجد إلى أن يدركه الصباح رحمه الله.

وعرضت على المهتدى يوماً دفاتر خزائن الكتب فإذا على ظهر كتاب منها هذه الأبيات قالها المعتز بالله وكتبها بخطه:

إني عرفت علاج الطب من وجعي ... وما عرفت علاج الحب والخدع
جزعت للحب والحمى صبرت لها ... إني لأعجب من صبري ومن جزعي
من كان يشغله عن إلفه وجع ... فليس يشغلني عن حبكم وجعي
وما أملّ حبيبي ليتني أبداً ... مع الحبيب ويا ليت الحبيب معي

فقطب وجه المهتدى بالله. وقال حدث وسلطان الشباب وكان كثيراً ما ينشد البيت الأول من هذا الشعر، وقال عبد الله بن إبراهيم الإسكافى: جلس المهتدى للمظالم فاستعداه رجل على ابن له فأمر بإحضاره فأحضر وأقامه إلى جانب خصمه ليحكم بينهما فقال الرجل للمهتدى والله ياأمير المؤمنين ما أنت إلا كما قيل:

حكمتموه قاضيا بينكم ... أبلج مثل القمر الزاهر
لا يقبل الرشوة في حكمه ... ولا يبالي بغبن الخاسر

فقال المهتدى: أما أنت أيها الرجل فأحسن الله مقالتك وأما أنا فما جلست حتى قرأت ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة﴾ الآية، قال: فما رأيت باكياً أكثر من ذلك اليوم. وقال أبو العباس بن هاشم بن القاسم الهاشمى: كنت عند المهتدى بعض عشايا شهر رمضان فقمت لأنصرف فأمرنى بالجلوس فجلست حتى صلى المهتدى بنا المغرب وأمر بالطعام فأحضر وأحضر طبق خلاف عليه رغيفان وفى إناء ملح. وفى آخر زيت وفى آخر خل فدعانى إلى الأكل فأكلت مقتصراً ظنًا منى أنه يحضر طعاماً جيداً فلما رأى أكلى كذلك قال: أما كنت صائماً فقلت بلى فقال: أفلست تريد الصوم غدا قلت وكيف لا وهو شهر رمضان فقال كل واستوف عشاءك فليس ههنا غير ما ترى فعجبت من قوله وقلت ولم يا أمير المؤمنين؟ قد أسبغ الله عليك النعمة ووسع رزقه فقال: إن الأمر على ما وصفت والحمد لله ولكنى فكرت فى أنه كان من بنى أمية عمر بن عبد العزيز فغرت لبنى هاشم أن لا يكون فى خلفائهم مثله وأخذت نفسى بما رأيت. اهـ.

ومات ولم يستكمل الأربعين سنة وكان موته فى سنة ست وخمسين ومائتين هجرية فكانت خلافته أحد عشر شهراً وخمسة عشر ليلة ودفن بسامرّا وقيل كان مولده فى سنة ثمان عشرة ومائتين للهجرة.

وفى خلافته كانت الأمور قد انتظمت لأحمد بن طولون بمصر واتسعت شهرته وبسط يده على مشرق الأرض ومغربها مع ما انضاف إلى مصر من الديار الشامية وأنطاكية والجزيرة فلما كانت أخريات سنة ست وخمسين ومائتين هجرية خرج على ابن طولون إبراهيم الصوفى عامل إقليم إسنا بالصعيد الأعلى وبالغ فى العصيان وأكثر من الشدّة وبسط يده على سائر بلاد ذلك الصقع وعاث وظلم وقتل من لم يطعه فأنفذ ابن طولون طائفة من العسكر لقتاله فاجتمع الفريقان واقتتلا فكانت الدائرة على أصحاب ابن طولون فانحدروا إلى أخميم مدحورين فسير إليهم ابن طولون نجدة فقاتلت الصوفى وشدّت فى قتاله حتى ظفرت وقهرت لومه ومزقت شملهم كل ممزق ففر ابن الصوفى فى نفر من أصحابه وسار فى عرض البريّة طلبا للنجاة واختفى أمره وانقطع ذكره ولم يكد يخفى خبره ويتناسى الناس فتنته حتى خرج أيضاً ابن شيخ على أعمال فلسطين والأردن واستبدّ بها بعد موت أبيه أحمد ابن عيسى بن شيخ الشيبانى وقد كان أبوه يتقلد جند تلك الأنحاء وطمع ابن شيخ المذكور فى الاستقلال بملك الشامات والتغلب عليها وأكثر أصحابه من الإرجاف ووردت الأخبار إلى ابن طولون بأنه يريد ديار مصر ليأخذها وقد خرج والأمور مضطربة ببغداد والفتنة قائمة بين الأتراك والمغاربة وعامة أهل بغداد فلم يهم ابن طولون ذلك ولا أحله محلا واتفق أن أرسل ابن المدبر صاحب خراج مصر سبعمائة وخمسين ألف دينار حملا من مال مصر إلى بغداد فقبض ابن شيخ عليها وفرقها فى أصحابه فتقوت بها قلوبهم واشتدّت عزيمتهم وطمعوا فى المحال من التغلب والفوز وتاهبوا للنزول على مصر وأخذها من ابن طولون ثم كان من أمر الفريقين بعد ذلك ما كان مما سيذكر إن شاء الله فى خلافة أبى القاسم أحمد المعتمد بن المتوكل حسب ترتيب حوادث كل خلافة وزمن وقوعها.

(الفصل الخامس عشر)

(فى خلافة أبى القاسم أحمد المعتمد على الله بن المتوكل)

ثم قام بالأمر بعد المهتدى ابن عمه أحمد المعتمد على الله بن المتوكل على الله ابن المعتصم بالله بويع له بالخلافة يوم قتل ابن عمه المهتدى بسامرا سنة ست وخمسين ومائتين هجرية أى سنة تسع وستين وثمانمائة ميلادية. فكان له اسم

الخلافة فقط ولأخيه الموفق بن المتوكل تدبير الملك وما زال كذلك إلى أن مات الموفق فقام بتدبير الملك بعده ابنه أحمد المعتضد وغلب على عمه المعتمد كما كان أبوه غالباً عليه قيل فكان المعتمد يطلب الشيء الحقير فلا يناله ولم يكن له سوى الاسم فضاق به الحال واشتد عليه الأمر يوماً فقال فى ذلك متوجعاً:

أليس من العجائب أن مثلي يرى ما قلّ ممتنعا عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شيء في يديه

وكانت أيام المعتمد كلها حروباً هائلة وكروبا مستمرة وخروج الكثير من الخوارج مثل يعقوب بن الليث الصفار وصاحب الزنج وغيرهما وقد بالغ جماعة الكتاب فى عدد من قتل فى هذه الحروب والفتن فكانوا بين مكثر ومقلل فأما المكثر فكان يقول: إنه أفنى من الناس ما لا يدركه العدّ ولا يقع عليه الإحصاء ولا يعلم ذلك إلا علام الغيوب فيما فتح من هذه الأمصار والبلدان والضياع وأباد أهلها والمقلل يقول: أفنى من الناس خمسمائة ألف ألف وكلا الفريقين يقول فى ذلك ظنا وحدسا إذ كان شيئاً لم يدرك ولم يضبط وكان ممن تم خروجه فى أيامه واستفحل أمره بتاتا ابن شيخ فإنه استبد بحكم الشامات وقطع الحمل عن بغداد فسير إليه المعتمد حسينا الخادم فكلمه فى ذلك فاعتذر فأعطاه حسين عهده على أرمينية ليقيم الدعوة للمعتمد وكان قد بالغ فى الامتناع فأجابه إلى ذلك بعد أمور وأخذ العهد وأقام الدعوة ولبس السواد الذى هو زى العباسيين ظنا منه أن الشام تكون بيده فلم يلبث على ذلك طويلا حتى أنفذ المعتمد أماجور التركى وقلده دمشق وأعمالها فسار إليها فى ألف رجل فلما قرب منها أنهض عيسى إليه ولده منصورا فى عشرين ألف مقاتل فلما التقوا انهزم عسكر منصور وقتل منصور فوهن عيسى وسار إلى أرمينية من طريق الساحل فخلا الجوّ لأماجور التركى وولى دمشق وجعل يتصرف فى الأمور على ما يهواه وكان الخليفة المعتمد قد أرسل إلى أحمد بن طولون فى مناجزة ابن شيخ وقتاله حتى يظفر به وسير إلى ابن المدبر أن يطلق النفقة لابن طولون فتجهز ابن طولون وخرج فى عسكر عظيم وجنائب ومواهى وطبول وغير ذلك واستخلف على ديار مصر أخاه موسى فبينما هو فى طريقه إذ جاءه مرسوم الخليفة بالعودة إلى مصر وأن أماجور قد ولى قتال ابن شيخ فعاد أحمد بن طولون ودخل القاهرة فى شعبان من هذه السنة.

وداخل قلب ابن طولون من حب الاستبداد بملك مصر وشق عصا طاعة العباسيين ما أقلقه وعظمت رغبته فى ذلك فجعل يشيد الحصون ويبنى القلاع

وينشىء المعاقل ويكثر من الكراع وآلات القتال وابن المدبر صاحب خراج مصر يحفظ له كل ذلك وكان ابن طولون إلى هذا الحين يسكن خارجاً عن سور الفسطاط فى دار الإمارة التى كانت لمن سلف من الأمراء وهى فى ضاحية العسكر وكانت ضاحية العسكر فيها الأسواق والبنيات العظيمة والطرق الواسعة فلم تكف موالى وغلمان وأتباع ابن طولون وضاقت بأدواته وآلات حربه فصعد يوماً إلى المقطم ونظر إلى ما حوله فرأى بين ضاحية العسكر وبين المقطم فضاء لا شىء فيه من البناء إلا بعض المدافن لليهود والنصارى فاختارها للبناء قيل ورسم بحرث المدافن ونبشها واختط في موضعها قصرا عظيماً وميداناً وتقدم إلى أصحابه وغلمانه وأتباعه أن يختطوا لأنفسهم حوله ففعلوا فاتصل بناؤهم إلى عمائر الفسطاط فلما رأى ابن طولون كثرة البناء أعجبه وأمر بقطع القطائع وسمى كل قطيعة منها باسم من أسكنها فكانت لغلمان النوبة قطيعة مفردة تعرف بهم ولغلمان الروم قطيعة مفردة وللفراشين قطيعة وكذلك لغيرهم من بقية الموالى والأتباع، وابتنى كذلك القواد مواضع متفرّقة فزادت القطائع ضخامة وتشعبت فيها الطرق والمسالك وبنيت المساجد العظيمة والأفران والحمامات والطواحين واختص كل سوق منها باسم مخصوص فكان منها سوق الشوّايين وسوق البقالين وصارت من هذا الحين هذه القطائع مدينة عظيمة آهلة للغاية فكانت غلمان ابن طولون تضرب فى الميدان بالصوالجة ثم عاد بعد حين فسمى القصر والميدان باسم الميدان وعمل له أبواباً لكل باب اسم فكان منها باب الميدان ومن هذا الباب كان يدخل ويخرج معظم الجيش وباب الصوالجة وباب الخاصة ولم يدخل منه إلا خاصة ابن طولون وباب الجبل لأنه مما يلى المقطم وباب الحرم ولا يدخل منه إلا النساء والخصيان وباب الدرمون قال بعض الكتاب: وهذا كان يجلس عنده حاجب أسود ضخم الجثة يتقلد جنايات السود الرجالة فقط ويقال له الدرمون وباب دغاج وكان يجلس عنده حاجب اسمه دغاج وباب الساج لأنه عمل من خشب الساج وباب الصلاة وهو فى الطريق الموصل إلى الجامع ويسمى أيضاً بباب السباع لأنه كان عليه صورة سبعين من الجص. وكانت جميع هذه الأبواب تفتح فى يوم عيد أو يوم عرض الجيش أو يوم صدقة وما عدا هذه الأيام لا تفتح إلا فى أوقات معلومة على ترتيب مقرّر معلوم. وكان للقصر مجلس يشرف منه ابن طولون يوم العرض ويوم الصدقة لينظر من يدخل ومن يخرج وكان الناس يدخلون من باب الصوالجة ويخرجون من باب السباع وكان على باب السباع مجلس يشرف منه ابن طولون ليلة العيد على القطائع لدى حركات الغلمان وتأهبهم

وتصرفهم فى حوائجهم وكان يشرف منه أيضاً على البحر وعلى باب مدينة الفسطاط وما يلى ذلك فكان متنزها حسنا للغاية، ولما تم تأهب ابن طولون واستعداده للاستبداد بملك مصر وشاع خبر ذلك خافه أماجور صاحب الشام وخشى عاقبة جواره. وقيل بل حسده فكانت تأتى إلى أماجور الأخبار تترى بعزم ابن طولون على قتاله وأخذ الشام منه فسير إلى الخليفة المعتمد من يخبره بخبر ابن طولون ويحذره من شره ويقول: إنه إذا ترك وشأنه ولم يعاجله الخليفة استفحل أمره واستعصى إخضاعه وتبعه فى ذلك غيره من الولاة والعمال فأرسل الخليفة إلى ابن طولون يقول: تنح عن مصر عاجلاً إلى سامرا واستخلف عليها من تشاء من أصحابك فهم ابن طولون أن يفعل ذلك وجعل يتأهب للخروج فمنعه من ذلك أحد خواصه وأعلمه بما يبطنه له الخليفة ففطن ابن طولون للأمر وسير إلى سامرا أحمد الواسطى أحد خواصه وكبار ديوانه ومعه من الهدايا النفيسة والتعابى الثمينة لوزير الخليفة ما يجل عن الوصف وأوصاه بأن يبالغ فى استمالة الوزير وفى استرضائه فلما وصل ابن الواسطى إلى سامرا تمثل بين يدى الوزير ودفع إليه الهدايا فأعجبته جدّاً وسرّ بها سروراً عظيماً ومال إلى ابن طولون وأحبه وكلم الخليفة فى أمره واستماله إليه واسترضاه عنه فعفا الخليفة عما سلف من ابن طولون ورسم بتجديد الولاية له على مصر وأجاز له حمل نسائه وأولاده إلى مصر وقد كانوا إلى ذلك الحين فى سامرا وعاد ابن الواسطى ومعه كتب ابن المدبر وشقير الخادم التى كانا يبعثان بها إلى الوزير بالوشاية فى حق ابن طولون فجعل ابن طولون من هذا الحين يدبر على الفتك بهما فلم تكن إلا أشهر حتى هلك شقير الخادم ففرح ابن طولون بموته وجعل يكيد لابن المدبر فأرسل ابن المدبر إلى أخيه وهو على خزائن الخلافة يومئذ يعلمه بما هو عليه من الشدّة والخوف ويسأله أن يوليه خراج الشام والرحيل عن مصر خوفاً من بطش ابن طولون فعلم ابن طولون بذلك وأن ابن المدبر سائر عنه إلى الشام فخفف عنه فجعل ابن المدبر يحسن السيرة معه ويتقرب إليه ويلاطفه وزوّج ابنته لخمارويه بن أحمد ووهب لها جميع ماله فى ديار مصر من دور ومزارع وإقطاعات ثم جاءه مرسوم الخليفة بعد ذلك بقليل بالجلاء عن مصر فرحل عنها إلى الشام وتولى أمور خراجها وخلا الجوّ لابن طولون فبسط يده على مشرق البلاد ومغربها وأبطل بعض المغارم والمكوس واستشار ابن دسومة عبد الله أمين متولى الخراج يومئذ فى إزالة الخراج الهلالى وهو ما كان يؤخذ على المصائد والمراعى ونحوهما مما أحدث ابن المدبر وكانت قيمته يومئذ مائة ألف دينار فقال: أيها الأمير إن الدنيا والآخرة ضرتان

والحازم من لا يخلط بينهما والمفرط من خلط بينهما فتتلف أعماله ويبطل سعيه وأفعال الأمير أيده الله الخير وتوكله توكل الزهاد وليس مثله من ركب خطة لم يحكمها ولو كنا نثق بالنصر دائماً طول العمر لما كان شيء عندنا أكثر من التضييق على أنفسنا فى العاجل معاداة الآجل ولكن الإنسان قصير العمر كثير المصائب مدفوع إلى الآفات وترك الإنسان ما قد أمكنه وصار فى يده تضييع ولعل الذى حماه من نفسه يكون سعادة لمن يأتى من بعده فيعود ذلك توسعة لغيره بما حرمه هو ويجتمع للأمير أيده الله بما قد عزم على إسقاطه من الهلالى فيضبط به الأمير أيده الله أمر دنياه وهذه طريقة أمور الدنيا وإحكام أمور الرياسة والسياسة وكل ما عنّ للأمير من أمر غير هذا فهو مفسد لدنياه وهذا رأيى والأمير أيده الله على ما عساه يراه، وكان ابن دسومة هذا طاغية شيطاناً من شياطين جباة الأموال وكان يكره أن ابن طولون يزيل هذه البدعة فأشغل قلب ابن طولون كلامه. وقال سننظر إن شاء الله تعالى ونام ليلته تلك وهو مشغول البال بمقالة ابن دسومة قيل فرأى فى منامه رجلاً من إخوانه الزهاد فى طرسوس يقول ليس فيما أشار به عليك ابن دسومة مصلحة ومن ترك شيئاً لله عزّ وجلّ عوّضه الله خيراً منه فأمض ما كنت عزمت عليه فأصبح وقد طير الخبر إلى الآفاق بإزالة ذلك الخراج ففرح الناس ومدحوه.

ولما كانت سنة تسع وخمسين ومائتين هجرية عاد ابن الصوفى العلوى وظهر بمصر وقد كان ظهر فى سنة ست وخمسين وهرب إلى الواحات واختفى خبره فدعا الناس لنفسه فتبعه خلق عظيم وسار بهم إلى الأشمونين فاهتم ابن طولون بأمره وسير إليه جيشاً كبيراً ومقدمه ابن أبى الغيث فوجده قد صعد إلى لقاء ابن أبى عبد الرحمن العمرى. وكان العمرى هذا قد ظهر بالنوبة وهو عبد الحميد بن عبد العزيز ابن عبد الله بن عمر بن الخطاب وكان سبب ظهوره بمصر أن البجاة الذين هم أهل النوبة أقبلوا يوم العيد فنهبوا وقتلوا وعادوا غانمين وفعلوا ذلك مرات فخرج هذا العمرى غضباً لله وللمسلمين وكمن لهم فى طريقهم فلما عادوا يشنون الغارة خرج عليهمَ وقتل مقدّمهم وأثخن فيمن كان معه من اللموم ودخل بلادهم فنهبها وأعمل فى أهلها السيف ثم تابع عليهم الغارات وسبى وأفحش فى القتل حتى أدّوا له الجزية ولم يكونوا قبل ذلك أدّوها لأحد ولا دانوا إلى ملك من الملوك فظهرت كلمة العمرى واتسعت شهرته فلما لاقاه العلوى اقتتلا قتالا عنيفاً فانجلت الواقعة عن انهزام العلوى فولى منهزماً إلى أسوان فعاث فيها وقطع كثيراً من نخلها وعلم بأن ابن أبى الغيث قائد عسكر ابن طولون يطلبه أيضاً فولى هارباً إلى عيذاب وعبر

البحر إلى مكة وتفرق أصحابه فى أرض الله الواسعة فلما وصل مكة بلغ خبره إلى واليها فقبض عليه وسجنه ثم سيره إلى ابن طولون فأمر به فطيف به فى البلد ثم سجنه أياماً كثيرة ثم أطلقه فرجع إلى المدينة فأقام بها إلى أن مات، وصعد ابن أبى الغيث بمن معه من العسكر ومن جاء نجدة من ابن طولون لقتال العمرى أيضاً حيث علم بقلة أصحابه بعد قتاله للعلوى فلما التقى الفريقان تقدّم العمرى. وقال لأبى الغيث مقدّم عسكر ابن طولون: إن ابن طولون لا يعرف خبرى على حقيقته فإنى لم أخرج للفساد ولم يتأذ بى مسلم ولا ذمى وإنما خرجت طالباً للجهاد فاكتب إلى الأمير أحمد وعرّفه كيف حالى فإن أمرك بالانصراف فانصرف وإن أمرك بغير ذلك كنت معذوراً فلم يجبه أبو الغيث إلى ذلك وقاتله. وكان العمرى من القوّة وكثرة اللموم على غير ما كان يظنه أبو الغيث فشدّ فى قتال أبى الغيث حتى هزمه شر هزيمة ورجع من بقى من عسكره إلى مصر وأخبروا بحال العمرى فقال ابن طولون: كنتم انهيتم حاله إلىّ فإنه نصر عليكم ببغيكم وتركه فلما كان بعد مدة وثب على العمرى غلامان من غلمانه فقتلاه وحملا رأسه إلى أحمد بن طولون فسألهما عن سبب قتله فقالا: أردنا التقرب من الأمير أيده الله فأمر بقتلهما فقتلا وأمر برأس العمرى فغسل وكفن ودفن، ولم تكد تخمد فتنة ابن الصوفى العلوى والعمرى حتى خرج آخر اسمه أبو نوعة ودعا الناس لنفسه فانضم إليه خلق عظيم فسار بهم فى عرض البلاد فقتل وسبى وأراق الدماء فسير إليه ابن طولون طائفة من الجند فقاتلها وظفر بها وكاد يمزقها تمزيقاً فأنجدها ابن طولون فقهرته وظفرت به وعادت غانمة.

ولما كانت سنة إحدى وستين ومائتين هجرية عصى أيضاً على ابن طولون أهل برقة فأخرجوا أميرهم محمد بن الفرج الفرجانى فسير إليهم ابن طولون جيشا وعليه غلامهُ لؤلؤ وأمره بالرفق بهم وترك الشدّة فإن عادوا إلى الطاعة فبها ونعمت وإلا فالسيف حتى يؤدّوها صاغرين فسار لؤلؤ حتى نزل على برقة وحاصرها وفعل ما أمره به ابن طولون فطمع أهل برقة فى عسكر ابن طولون وخرجوا يوماً على بعض العسكر وهم نازلون على باب البلدة فأوقعوا بهم وقتلوا منهم فأرسل لؤلؤ إلى ابن طولون فى أمرهم فرسم له بالجدّ فى قتالهم فنصب عليهم المجانيق وجدّ فى قتالهم فطلبوا الأمان فأمنهم ففتحوا له أبواب البلد فدخل وقبض على جماعة من رؤسائهم وضربهم بالسياط وقطع أيدى بعضهم وأخذ معه جماعة منهم وعاد إلى مصر واستعمل على برقة عاملا فلما دخل لؤلؤ القاهرة بعسكره خلع عليه ابن طولون خلعة فيها طوقان من ذهب فوضعهما فى عنقه وركب فى موكب حافل وأمامه

الغنائم والأسرى وطاف المدينة فكان يوماً مشهوداً. واتفق أنه مات فى هذه السنة أيضاً أماجور مقطع دمشق فتولى ابنه مكانه وجاء الخبر بذلك إلى ابن طولون فتاقت نفسه إلى أخذ الشام وضمها إلى ديار مصر فكتب إلى ابن أماجور يذكر له أن الخليفة المعتمد على الله قد أقطعه الشام وسائر الثغور ويسأله النزول على حكمه فأجابه ابن أماجور بالسمع والطاعة إذ كان يرى أن لا قبل له على مخالفته فسار ابن طولون فى عسكر عظيم إلى الشام واستخلف بمصر ولده العباس فلقيه ابن أماجور بالرملة فأقره عليها وسار إلى دمشق فملكها وأقر قوّاد أماجور على أقطاعهم وسار إلى حمص فملكها وملك كذلك حماة وحلب وكان المتولى على أنطاكية يومئذ سيما الطويل فراسله ابن طولون يدعوه إلى طاعته ليقره على ولايته فامتنع فعاوده فلم يطعه فسار إليه وحاصر أنطاكية وشدّد فى حصارها وكان سيما المذكور سيىء السيرة مع أهل البلد فكاتبوا ابن طولون ودلوه على عورة البلد فنصب عليه المجانيق وقاتله فملك البلد عنوة والحصن الذى له فركب سيما وقاتل قتالاً شديداً حتى قتل ولم يعلم به أحد فاجتاز بجثته بعض قوّاده فعرفها فحمل رأسه إلى ابن طولون فساءه قتله ورحل عن أنطاكية إلى طرسوس فدخلها وعزم على المقام بها وملازمة الغزاة فلم يتمكن من ذلك لغلاء الأسعار وقلة المأكول بها وقد ضاقت البلد عنه وعن عسكره فركب أهلها إليه بالمخيم. وقالوا له: قد ضيقت بلدنا وأغليت أسعارنا فإما أقمتِ فى عدد يسير وإما رحلت عنا وأغلظوا له فى القول وشغبوا عليه فقال ابن طولون لأصحابه: لتنهزموا من الطرسوسين وترحلوا عن البلد ليظهر للناس وخاصة العدوّ أن ابن طولون على بعد صيته وكثرة عسكره لم يقدر على أهل طرسوس وانهزم عنهم ليكون أهيب لهم فى قلب العدوّ وعاد إلى الشام فأتاه الخبر أن ولده العباس الذى استخلفه بمصر قد شق عصا الطاعة وأخذ الأموال وسار إلى برقة مشاققا لأبيه فلم يهمه ذلك ولم يزعجه وقضى أشغاله وحفظ أطراف بلاده وترك عسكرا بحرّان وكذلك بالرقة مع غلامه لؤلؤ وكانت حرّان يومئذ لمحمد بن أتامش وكان بطلاً شجاعاً مقداماً فأخرجه ابن طولون عنها وهزمه شر هزيمة فاتصل خبر ما جرى له بأخيه موسى بن أتامش وكان بطلاً كذلك شديد المراس فجمع عسكرا عظيماً وسار نحو حرّان وبها عسكر ابن طولون ومقدّمهم أحمد بن جيعويه فلما اتصل به خبر مجيء موسى بن أتامش أقلقه ذلك وأزعجه ففطن له رجل من الأعراب يقال له أبو الأغر فقال: أيها الأمير أراك مفكراً منذ أتاك خبر ابن أتامش وما هذا محله فإنه طياش قلق ولو شاء الأمير أن آتيه به أسيراً لفعلت فغاظه قوله

وقال: قد شئت أن تأتى به أسيراً قال: فاضمم إلىّ عشرين رجلاً أختارهم قال: افعل فاختار عشرين رجلاً وسار بهم إلى عسكر موسى فلما قاربهم كمن بعضهم وجعل بينهم وبينه علامة إذا سمعوها ظهروا ثم دخل المعسكر فى الباقين فى زى الأعراب وقارب مضارب موسى وقصد خيلاً مربوطة فأطلقها هو وأصحابه فيها فنفرت وصاح هو ومن معه من الأعراب وأصحاب موسى غارّون وقد تفرق بعضهم فى حوائجهم فانزعج العسكر وركبوا وركب موسى فانهزم أبو الأغرّ من بين يديه فتبعه حتى أخرجه من المعسكر وجاز به الكمين فنادى أبو الأغر بالعلامة التى بينهم فثاروا من النواحى وعطف أبو الأغر على موسى فأسروه فأخذوه وساروا به إلى ابن جيعويه فسيره إلى ابن طولون فاعتقله وعاد إلى مصر. وجعل يدبر الحيلة للقبض على ولده العباس فعلم أنه إنما خرج عن الطاعة بإغراء جماعة من أصحابه وقد حسنوا له أخذ الأموال والخروج إلى برقة ففعل ذلك ووصل برقة فى ربيع الأول من السنة فأرسل إليه أبوه يلاطفه ويستعطفه فلم يرجع وخاف من كان مع العباس من ابن طولون فأشاروا على العباس بقصد أفريقية فسار إليها وكاتب وجوه البربر فأتاه بعضهم وامتنع بعضهم وكتب إلى إبراهيم بن الأغلب يقول: إن أمير المؤمنين الخليفة المعتمد على الله قد قلدنى أمر أفريقية وأعمالها وسارحتى أتى حصن لبدة ففتحه أهله له فعاملهم أسوأ معاملة ونهبهم فمضى أهل الحصن إلى إلياس بن منصور والناقوسى مقدّم الأباضية واستغاثوا به فكبر هذا الأمر عليه وأعظمه جدا وسار فى لموم عظيمة لقتال العباس. وكان إبراهيم بن الأغلب قد سير إلى عامل طرابلس جيشاً عظيماً ورسم له بقتال العباس أيضاً فالتقى الجمعان واقتتلا قتالاً عنيفاً قاتل فيه العباس بيده فلما كان الغد وافاهم إلياس بن منصور الأباضى فى اثنى عشر ألفا من الأباضية فاجتمع هو وعامل طرابلس على قتال العباس فقتل من أصحاب العباس خلق عظيم وانهزم شر هزيمة وكاد يسقط فى يد إلياس ونهبوا سواده وجميع ما حمله من مصر فعاد إلى برقة وهو فى أسوأ حال، وجاء الخبر إلى مصر بانهزامه فاغتم أبوه غمّا شديداً وسير إليه عسكرا لما علم بسلامته فقاتلوه قتالاً صبر فيه الفريقان فانهزم العباس ومن معه وكثر القتل فى أصحابه وأخذ العباس أسيراً وحمل إلى أبيه فحبسه فى حجرة فى داره إلى أن قدم باقى الأسرى من أصحابه فلما تكاملوا أتى بهم بين يدى ابن طولون وبينهم العباس فأمر ابن طولون ولده العباس أن يقطع أيدى أعيانهم وأرجلهم ففعل ولم يتأخر خوفاً من أبيه فلما فرغ من ذلك نظر إليه أبوه نظرة الأسف ووبخه وذمه وقال: هكذا يكون الرئيس والمقدّم لقد كان

الأجدر بك أن تلقى بنفسك بين يدىّ وتطلب الصفح عنك وعنهم فيكون أعلى لمحلك من القلوب وتكون قد قضيت حقهم فيما أعانوك وفارقوا أوطانهم لأجلك ثم أمر به فضرب مائة مقرعة ودموعه تجرى على خدّه رقة لولده ثم ردّه إلى الحجرة واعتقله.

وأما الخليفة المعتمد على الله فإنه بايع بالخلافة لابنه جعفر وسماه المفوّض إلى الله وكان المعتمد قد آثر اللذة فغلبت عليه وغلب أخوه أبو أحمد الموفق على الأمور كلها كما تقدّم ثم لم يلبث أن حصر المعتمد وحبسه فكان أول خليفة قهر وحجر عليه ووكل به فلما اشتدّ به الحال وزاد به الضيق هرب وسار إلى حديقة الموصل فسير أبو أحمد الموفق صاعداً إلى سامرا وكتب إلى إسحق بن كنداج فردّه من الموصل واستفحل أمر الخلاف بين المعتمد وأخيه الموفق فتطرق الخلل إلى مقام الخلافة وكادت تزول هيبتها وتنفصم عروتها وتحرك عقيب ذلك أيضاً بسواد الكوفة قوم يعرفون بالقرامطة وتمذهبوا بمذهب دعاهم إليه رجل كان قد مرض بقرية من سواد الكوفة فأخذه رجل من أهل القرية اسمه كرميتة ومعناه باللغة النبطية أحمر العين فلما عوفى من مرضه دعا باسمه ثم اختصر إلى أن قالوا قرمط ثم كان من قرمط هذا أنه دعا قوماً من السواد والبادية ممن لا يدينون بشيء إلى دينه فأجابوه إليه. قال بعض الكتاب: والمعروف من مذهبهم وتعليمهم أنه جاء بكتاب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم يقول الفرج بن عثمان وهو من قرية يقال لها نصرانة أنه داعية المسيح وهو عيسى وهو الكلمة وهو المهدى وهو أحمد بن محمد ابن الحنفية وهو جبريل، وذكر أن المسيح تصوّر بجسم إنسان وقال له: إنك الداعية وإنك الحجة وإنك الناقة وإنك الدابة وإنك يحيى بن زكريا وإنك روح القدس وعرفه أن الصلاة أربع ركعات ركعتان قبل طلوع الشمس وركعتان بعد غروبها وأن الأذان فى كل صلاة أن يقول المؤذن الله أكبر ثلاث مرات أشهد أن لا إله إلا الله مرتين أشهد أن آدم رسول الله أشهد أن نوحاً رسول الله أشهد أن إبراهيم رسول الله أشهد أن موسى رسول الله أشهد أن عيسى رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن أحمد بن محمد بن الحنفية رسول الله، كل ذلك مرة وأن القبلة إلى بيت المقدس والجمعة يوم الاثنين لا يعمل فيها شيء وأن يقرأ فى كل ركعة الاستفتاح المنزل على أحمد بن محمد ابن الحنفية وهو: الحمد لله بكلمته وتعالى باسمه المنجد لأوليائه بأوليائه قل إن الأهلة مواقيت للناس ظاهرها ليعلم عدد السنين والحساب والشهور والأيام وباطنها لأوليائى الذين عرّفوا عبادى سبلى اتقونى ياأولى الألباب أنا الذى لا أسأل

عما لفعل وأنا العليم الحكيم وأنا أبلو عبادى وأمتحن خلقى فمن صبر على بلائى ومحنتى واختيارى أدخلته فى جنتى وأخلدته فى نعيمى ومن زال عن أمرى وكذب رسلى أخذته مهاناً فى عذابى وأتممت أجلى وأظهرت أمرى على ألسنة رسلى، أنا الذى لم يعل علىّ جبار إلا وضعته ولا عزيز إلا أذللته وبئس الذى أصرّ على أمره ودام على جهالته وقال لن نبرح عليه عاكفين وبه موقنين أولئك هم الكافرون، ثم يركع، ومن شرائعه أن يصام يومان فى السنة وهما المهرجان والنيروز وحرّم النبيذ وحلل الخمر ومنع أكل ذى ناب وذى مخلب وقال: لا غسل بعد جنابة والوضوء كوضوء الصلاة وغير ذلك من الأحكام والنواهى.

وبلغت سيطرة الموفق وتصرفه فى أمور الخلافة مبلغاً عظيماً جدّاً فعلت شهرته وكبرت هيبته فجعل يدس الدسائس بين عمال ابن طولون فى الشامات وغيرها رجاء أن يفسد عليه الأمر لما علمه من تقربه إلى الخليفة المعتمد وتقرب الخليفة إليه ودس إلى لؤلؤ غلام ابن طولون وفى يده يومئذ حمص وقنسرين وحلب وديار مضر من الجزيرة فخرج عن طاعة مولاه وسار إلى بالس فنهبها وكاتب الموفق فى المسير إليه واشترط شروطاً فأجابه الموفق إليها وكان بالرقة فسار إلى الموفق ونزل قرقيسا وبها ابن صفوان العقليى فحاربه وأخذها منه وسلمها إلى أحمد بن مالك بن طوق وسار إلى الموفق فوصل إليه وهو يقاتل الخبيث العلوى وجاء الخبر بذلك إلى ابن طولون فأهمه جدا وأكبره للغاية وجعل يدبر على الموفق وكاتب المعتمد سراً فى أمر الموفق وما يفعله وكان المعتمد قد ضجر وصغرت نفسه مما يلاقيه من الموفق إذ لم يكن له من الخلافة غير اسمها ولا ينفذ له توقيع لا فى قليل ولا فى كثير وكان الحكم كله للموفق والأموال تجبى إليه فكتب المعتمد إلى ابن طولون يعلمه بمقدمه عليه بمصر فأشار عليه ابن طولون باللحاق به ووعده النصرة وسير عسكرا إلى الرقة ينتظر وصول المعتمد إليهم فاغتنم المعتمد غياب الموفق عنه فسار فى جمادى الأولى ومعه جماعة من القواد فأقام بالكحيل يتصيد فلما صار إلى عمل إسحق بن كنداجيق وكان عامل الموصل وعامة الجزيرة وثب ابن كنداجيق بمن مع المعتمد من القواد فقبض عليهم وهم نيزك وأحمد بن خاقان وخطارمش فقيدهم وأخذ أموالهم ودوابهم وكان قد كتب إليه صاعد بن مخلد وزير الموفق فى ذلك فقبض عليهم وحملهم مع المعتمد حتى أدخلهم سامرا وعلم الموفق بما جرى فاشتد بغضه لابن طولون ووهب لإسحق بن كنداجيق سائر البلاد التى كانت تحت حكم ابن طولون فامتدّ ملك ابن كنداجيق إلى أطراف أفريقية واتسعت كلمته. وعلم ابن طولون

بالأمر فجعل يكيد للموفق وجمع إليه القضاة والعلماء بدمشق وكلمهم فى أمر الخليفة المعتمد وما يقاسيه من الشدائد وكيف يغلب الموفق عليه ويبسط يده على جميع الأمور فلم يترك له من الخلافة إلا الاسم فتقررت القاعدة بينهم على أن يذكر الخطيب كل ذلك عند صلاة كل جمعة ويدعو الله إلى نصرته ويلعن الموفق فعلم الموفق بالخبر فأكبره وأعظمه جداً وتقدم إلى الخليفة المعتمد فى لعن ابن طولون على المنابر فأجابه إلى ذلك كارهاً فصاروا يلعنونه على منابر العراق باللهم العنه لعناً يفل حدّه ويتعس جدّه واجعله مثلاً للغابرين إنك لا تصلح عمل المفسدين، واشتد البغض بين الفريقين وجعل كل يتربص الفرص للإيقاع بصاحبه ثم عادا فتوادذا وتحابا وتناسيا ما فات فعادت الأمور بين مصر ودار الخلافة إلى سابق مجراها وفرح الخليفة المعتمد على الله بذلك لميله إلى ابن طولون وإيثاره على الموفق ولم يكن ليطمئن قلب ابن طولون بعقد الصلح مع الموفق وزوال الوحشة من بينهما حتى جاءه الخبر بخروج بزماز وشقه عصا الطاعة فسار من فوره فى عسكر إلى طرسوس لقتاله وإرجاعه إلى الطاعة فلما بلغ أدنة كاتبه وراسله يستميله فلم يلتفت بزماز إلى ذلك فسار إليه ابن طولون ونازله وحصره فخرق بزناز نهر البلد على معسكر ابن طولون فكادوا يهلكون جميعاً فرحل ابن طولون مغيظا حنقا وكان الزمان شتاء وأرسل إلى بزماز يقول: إننى لم أرحل إلا خوفاً أن تخترق حرمة هذا الثغر فيطمع فيه العدوّ وعاد إلى أنطاكية ولبث بها أياماً وطلب لبناً فأتوه بشىء من لبن الجواميس فأكثر منه فأصابته هيضة فأشار عليه طبيبه سعيد بن شيوفيل النصرانى بالحمية أياماً فلم يمتثل فكبرت الهيضة حتى صارت ذربا وكان الطبيب يعالجه وهو يأكل ما يشاء سراً فلم ينجع الدواء واشتدت علته واستعصت فكر راجعاً إلى مصر حملاً على أعناق الرجال ووصل إلى الفرما فأنزلوه فى حراقة فى النيل فصعدت به إلى الفسطاط وقد اشتدت علته فجعل يتصدق على الفقراء والمساكين وخرج العلماء والمشايخ وبطرك المتأصلين إلى المقطم يدعون الله ويبتهلون إليه فى شفاء ابن طولون فلما كان يوم الأحد عاشر ذى القعدة سنة سبعين ومائتين هجرية توفى فكانت إمارته نحو ست وعشرين سنة وكان حازماً عاقلاً كثير المعروف والصدقة متدينا وعمل كثيراً من أعمال البر ومصالح الخلق وترك من الأموال عشرة آلاف ألف دينار من العبيد المزججين بالسلاح سبعة آلاف وبغير سلاح أربعة وعشرين ألفا وشيئاً كثيراً جداً من الخيل والبغال والجمال ودواب الحمل وكان يجلس للنظر فى مظالم الرعية بنفسه ويتصدق فى كل شهر بشىء كثير من المال وكان من تولى توزيع صدقاته إبراهيم بن قراطغان

فدخل عليه يوماً. وقال: أيد الله الأمير إنى أقف فى المواضع التى تفرق فيها الصدقات فتخرج لى الكف المخضوبة نقشاً والمعصم الرائع فيه الحديدة والكف فيها الخاتم فقال ابن طولون: ويحك كل من مد إليك يده فأعطه فهذه والله هى اللطيفة المستورة التى ذكرها الله سبحانه فى كتابه فقال: ﴿**يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف**﴾ فاحذر أن تردّ يدا امتدت إليك، ومات عن ثلاثين ولدا ذكرا وثلاث عشرة أنثى وحزن عليه الخليفة المعتمد وبكاه، وكان أحمد قد عهد بالولاية من بعده إلى ابنه خمارويه فتولاها فى ثانى يوم موت أبيه فى ذى القعدة وله من العمر يومئذ عشرون سنة ولقب بأبى الجيش خمارويه وجعل يتصرف فى الأمور على أحسن ما يكون من الرفق بالرعية والنظر فى الظلامات ونصرة الضعيف على القوى فأحبته الرعية ومالت إليه القلوب فلم يكن ليستقر به منصب الولاية حتى طمع فى أملاك مصر إسحق بن كنداجيق صاحب الموصل والجزيرة وكلم ابن الساج صاحب الشام فى الخروج معه على خمارويه وأخذ البلاد منه فأجابه ابن الساج إلى ذلك وكاتبا الموفق بالله فى ذلك فرسم لهما بقصد البلاد ووعدهما إنفاذ الجيوش فجمعا وقصدا ما يجاورهما من البلاد فاستوليا عليه وأعانهما نائب خمارويه بدمشق ووعدهما بالانحياز إليهما فرحل من بالشام من نواب خمارويه إلى أنطاكية وحلب وحمص وعصى متولى دمشق المذكور واستولى ابن كنداجيق على تلك الأنحاء وجاء الخبر إلى خمارويه بمصر بما جرى فأكبره جدا ورسم إلى من كان بدمشق من العساكر بالزحف على ابن كنداجيق وإجلائه عن البلاد فطاولهم ابن كنداجيق حتى يأتيه المدد من العراق فهجم الشتاء على الفريقين وأضر بأصحاب خمارويه ضرراً عظيماً فتفرقوا فى المنازل بشيرز ووصل المدد من العراق إلى عسكر ابن كنداجيق وعليهم أبو العباس أحمد بن الموفق وهو المعتضد بالله فسار بهم ابن كنداجيق مجداً إلى عسكر خمارويه بشيرز فلم يشعروا حتى كبسهم بالمنازل ووضع السيف فيهم فقتل منهم خلقاً وفرّ من بقى إلى دمشق فساق ابن الموفق خلفهم بعسكره فجلوا عنها إلى الرملة فملك ابن الموفق دمشق ودخلها فى شعبان سنة إحدى وسبعين ومائتين وأقام عسكر خمارويه بالرملة وسيروا الخبر بما جرى إلى خمارويه فهاله الأمر وأزعجه وخرج من فوره من مصر فى عسكر عظيم للغاية يريد الشام فلم يصل إليها حتى جاءه الخبر بوقوع الخلاف بين محمد بن أبى الساج وإسحق بن كنداجيق وقد كانا على اتفاق فى الخروج عن طاعة خمارويه وكان سبب الاختلاف بينهما أن ابن أبى الساج نافر

إسحق فى الأعمال وأراد أن يتقدم عليه فلم يرض إسحق بذلك وامتنع عليه فأرسل ابن أبى الساج إلى خمارويه فى طلب الطاعة والرجوع إلى خدمة خمارويه فأجابه خمارويه إلى ذلك فخطب له ابن أبى الساج بقنسرين وسير ولده يوداد إلى خمارويه رهينة فمال إليه خمارويه وأرسل إليه مالاً كثيراً له ولقوّاده وطلبه فحضر إليه ببالس ثم عبر ابن أبى الساج الفرات إلى الرقة فلقيه ابن كنداجيق واقتتلا قتالاً عنيفاً فكانت الدائرة على ابن كنداجيق وعبر خمارويه الفرات ونزل الرقة ومضى ابن كنداجيق منهزماً إلى قلعة ماردين فحصره ابن أبى الساج فيها ثم سار عنها، فخرج ابن كنداجيق من ماردين نحو الموصل فلقيه ابن أبى الساج وكان قد كمن له فانهزم وعاد فارا إلى ماردين وقوى ابن أبى الساج وظهر أمره واستولى على الجزيرة والموصل وخطب لخمارويه فيها ثم لنفسه بعده وما زال على هذا الحال إلى أن كانت سنة خمس وسبعين ومائتين خالف ابن أبى الساج وخرج عن طاعة خمارويه واستبدّ بالأمر وقطع الخطبة لخمارويه فى أعماله كلها ووردت الأخبار بذلك إلى خمارويه فسار عن مصر فى عسكر عظيم يريد الشام فلاقاه ابن أبى الساج عند ثنية العقاب بقرب دمشق واقتتلا قتالاً شديداً فانهزمت ميمنة خمارويه وأحاط باقى عسكره بابن أبى الساج ومن معه فمضى منهزما واستبيح معسكره فأخذت دوابه وآلات حربه وجميع ما فيه وكان ابن أبى الساج قد ترك بحمص شيئاً كثيراً من الأموال والكراع وخمارويه يعلم بذلك فسير خمارويه إلى حمص عسكرا فسبقوا ابن أبى الساج إليها ومنعوه من دخول البلد واستولوا على جميع ما له هناك فمضى منهزماً إلى حلب ومنها إلى الرقة فتبعه خمارويه بعسكره ففارق الرقة فعبر خمارويه الفرات فى أثر ابن أبى إسحق الساج فلم يدركه فسير خلفه إسحق بن كنداجيق في عسكر عظيم وكان قد رضى خمارويه عن إسحق المذكور فكان بين إسحق وبين ابن أبى الساج أمور قد أضربنا عن إيرادها هنا خوف الإطالة.

ولما كانت سنة ثمان وسبعين ومائتين هجرية مات الموفق فقام المعتضد بأمور الناس فى التدبير مكان أبيه الناصر وهو الموفق وخلع جعفر المفوّض بن المعتمد من ولاية العهد وقيل بل بايعه الناس بولاية العهد بعد المفوّض بن المعتمد وخطب له يوم الجمعة بعد المفوض وذلك لسبع ليال بقين من صفر واجتمع عليه أصحاب أبيه وتولى ما كان أبوه تولاه وجعل يتصرف كما يحب ويختار فأقام إسماعيل بن بلبل فى الوزارة بعد شغب كثير كان فى مدينة السلام ثم لم يلبث أن قيد إسماعيل بن بلبل ووجه إلى العباس بن أبى عبد الله بن سليمان بن وهب فأحضره وخلع عليه

وردّ إليه أمر كتابته وذلك يوم الثلاثاء لثمان بقين من صفر سنة ثمان وسبعين ومائتين ولم يزل إسماعيل بن بلبل يعذب بأنواع العذاب وجعل فى عنقه غلا فى رمانة جديد والغل والرمانة مائة وعشرون رطلا وألبس جبة صوف قد صيرت فى ودك الأكارع وعلق معه رأس كلب ميت فلم يزل على ذلك حتى مات فى جمادى الأولى سنة ثمان وسبعين ومائتين ودفن بغله وقيوده وأمر المعتضد بضرب جميع الآنية التى كانت فى خزانته فضربت وفرقت فى الجند.

وخرج الخليفة المعتمد على الله يوماً فى المحرم افتتاح سنة تسع وسبعين وجلس للقواد واستدعى القضاة والوجوه وأرباب الدولة فلما تكامل مجلسهم أعلمهم أنه خلع ابنه المفوض إلى الله جعفرا من ولاية العهد وعهد بها للمعتضد بالله أبى العباس أحمد بن الموفق فأكبروا هذا الأمر وأعظموه وشهدوا على المفوض أنه قد تبرأ من العهد وأسقط اسمه من السكة والخطبة والطرز وغير ذلك فلم ينقض شهر رجب من هذه السنة حتى مرض المعتمد ومات ليلة الاثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت منه. وكان سبب موته أنه شرب يوماً على الشط ببغداد شراباً كثيراً وتعشى فأكثر أيضاً فمات ليلاً فأحضر المعتمد القضاة وأعيان الناس فنظروا إليه وحمل إلى سامرا فدفن بها وكان عمره خمسين سنة وكانت خلافته ثلاثًا وعشرين سنة وستة أشهر ذكره ابن الأثير. وقال المسعودى فى كتابه مروج الذهب: وقد كان المعتمد قعد للغداء واصطبح يوم الأثنين لإحدى عشرة بقيت من رجب سنة تسع وسبعين ومائتين فلما كان عند العصر قدم الطعام فقال ياموشكيره للموكل به ما فعلت الرؤوس بأرقابها وقد كان قدّم من الليل أن يقدّم له رأسا جملين وقد فصل فيهما رقابهما فقدمتا وكان معه على المائدة رجل من ندمائه يعرف بقف الملقم ورجل آخر يعرف بخلف المضحك فأول من ضرب بيده إلى الرؤوس الملقم فانتزع أذن واحدة منها وأما المضحك فإنه يقتلع اللهازم والأعين فأكلوا وأكل المعتمد وأتموا يومهم فأما الملقم صاحب اللقمة الأولى فإنه تهرى فى الليل وأما المضحك فإنه مات قبل الصباح وأما المعتمد فإنه أصبح ميتاً وقد لحق بالقوم ودخل إسماعيل بن حماد القاضى على المعتضد وعليه السواد فسلم عليه بالخلافة وكان هو أول من سلم عليه بها وحضر الشهود منهم أبو عوف والحسين بن سالم وغيرهم من العدول حتى أشرفوا على المعتمد ومعهم بدر غلام المعتضد يقول: هل ترون به من بأس أوثر مات فجأة وقتلته مداومته على شرب النبيذ فنظروا إليه فإذا ليس به من أثر فغسل وكفن وحمل فى

تابوت أعدّ له إلى سامرا فدفن بها وذكروا أيضاً أن سبب موته أنه سقى نوعاً من السم فى شرابهم الذى كانوا يشربونه وهو نوع يقال له البيش يحمل من بلاد الهند وجبال الترك والتبت وربما وجد فى ستبل الطيب وهو ألوان ثلاثة.

ومات فى خلافة المعتمد سانيوتيو بطرك الإسكندرية بعد أن أقام إحدى عشرة سنة فأقيم بعده خائيل وهو سادس خمسيهم واشتدّ أحمد بن طولون فى أيامه على خائيل المذكور شدّة بليغة وألزمه بحمل عشرين ألف دينار، وكان سبب ذلك أن أسقفا اسمه سكا كانت بكنيسة الأسكندرية قد زاغ عن الأمانة المستقيمة وظهرت له تعاليم جديدة فاستتابه خائيل البطرك المشار إليه فلم يتب فنهاه فلم ينته فخلعه وأبعده عن الكنيسة فمضى الأسقف المذكور إلى ابن طولون ووشى فى حق البطرك وبالغ فى الوقيعة فيه وقال لابن طولون إن لدى البطرك من الأموال والتحف والنفائس ما لا يدخل تحت الحصر وكان ابن طولون فى ذلك الحين فى حاجة إلى المال للنفقة على العسكر الذاهب إلى الشام لردّ الخوارج فسير ابن طولون فى الحال فى طلب خائيل البطرك فلما تمثل بين يديه طلب منه عشرين ألف دينار نقرة فاعتذر البطرك وقال: من أين يكون لى هذا المال؟ وأنا إنما أعيش من صدقات أهل البر وحسنات ذوى البيوتات فشدّد ابن طولون فى الطلب وبالغ فى التشديد ثم أمر بخائيل البطرك فألقوه فى السجن هو وتلميذه ابن المنذر فمضى عليهما حول وهما معتقلان وكان لابن طولون ديوانى اسمه موسى وله ولدان هما يوحنا وإبراهيم فتقدما إلى ابن طولون فى كفالة البطرك فى وفاء المال المطلوب بشرط الإفراج عنه ليتمكن من جمعه فأجابهما ابن طولون إلى ذلك وأطلق البطرك وتلميذه وضرب للوفاء أجلا فجعل خائيل يبيع جميع متاع الكنائس الموقوفة عليها وباع كذلك أرض الحبش بظاهر الفسطاط والكنيسة الكائنة بجوار المعلقة من قصرالشمع لليهود وهى باقية فى تصرفهم إلى هذا اليوم وقرر الديارية على كل واحد من القبط قيراطا فى السنة فلم يقم مع هذا كله إلا بنصف المقررعليه فانكمش فى كنيسة العذراء بالمعلقة فعاد ابن طولون وقبض عليه وألقاه فى السجن فلم يمض على ابن طولون بعد ذلك إلا أيام قلائل حتى مات، وخلفه ابنه خمارويه وكان خمارويه يعلم بأصل الفتنة وأن خائيل البطرك برىء مما اتهم به فأطلق سبيله وكف عن مطالبته بشىء بعد الذى أدّاه فعدّ عمل خمارويه هذا حسنة من حسناته الكثيرة.

(الفصل السادس عشر)

(فى خلافة أبى العباس أحمد المعتضد بالله بن الموفق)

ثم قام بالأمر بعد المعتمد ابن أخيه أبو العباس أحمد المعتضد بالله بن الموفق بالله بويع له بالخلافة فى اليوم الذى مات فيه عمه المعتمد على الله وهو يوم الثلاثاء لاثنتى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة تسع وسبعين ومائتين للهجرة أى نحو سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة للميلاد، فلما أفضت الخلافة إليه واستوثق له الأمر سكنت الفتنة وصلحت شئون البلاد فارتفعت الحروب ورخصت الأسعار وهدأ الهرج وسالمه كل مخالف ودانت له الأمور وانفتح له الشرق والغرب وأديل إليه أكثر المخالفين له والمنابذين لطاعته وأقرّ عبيد الله بن سليمان على وزارته وما زال عبيد الله وزيراً حتى مات فاستوزر بعده القاسم ابنه وولى غلامه بدراً الشرطة ومحمد بن الشاه بن مالك الحرس.

وفى السنة التى تولى الخلافة فيها المعتضد قدم الحسن بن عبد الله المعروف بابن الجصاص رسولاً من مصر لخمارويه بن أحمد بن طولون ومعه هدايا كثيرة وأموال جليلة فوصل إلى المعتضد فخلع عليه وعلى سبعة نفر معه ثم سعى فى تزويج ابنه خمارويه المسماه قطر الندا من علىّ المكتفى فقال المعتضد إنما أراد أن يتشرف بنا وأنا أريد فى تشريفه أنا أتزوّجها فتزوّجها وتولى ابن الجصاص أمرها وحمل جهازها فيقال أنه حمل معها جواهر لم يجتمع مثلها عند خليفة قط فاقتطع ابن الجصاص بعضه وأعلم قطر الندا أن ما أخذ مودع لها عنده إلى وقت حاجتها إليه فماتت والجوهر عنده فكان ذلك سبب غناه واستغلاله. قيل: وكان ما كان لابن الجصاص من بعد ذلك فى أيام المقتدر من المحن والقبض عليه وما أخذ منه من الأموال بهذا السبب وغيره، وحمل المعتضد صداق قطر الندا وهو بمدينة بلد إلى أبى الجيش وكان الصداق ألف ألف درهم وغير ذلك من المتاع والطيب ولطائف الصين والهند والعراق وكان مما خص به أبا الجيش فى نفسه وحباه به بدرّة من الجوهر الثمين فيها در وياقوت وأنواع من الجوهر ووشاح وتاج وإكليل وقيل قلنسوة وكردف وكان وصولهم إلى مصر فى رجب سنة ثمانين ومائتين وانحدر المعتضد من مدينة بلد والموصل بعد أن عمل ما وصفنا إلى مدينة السلام فى البحر، فلما اطمأن قلب أبى الجيش خمارويه بمصاهرة الخليفة المعتضد عكف على اللهو والترف فبنى القصور

العالية والميادين الفسيحة وأقبل على قصر أبيه فزاد فيه وجعل ميدانه بستاناً وغرس فيه أنواع الرياحين والشجر المطعم العجيب وأنواع الورد والزعفران والنخيل والأعناب وكسا أجسام النخيل بالنحاس المذهب وجعل بين النحاس وأجسام النخيل مزاريب الرصاص وأجرى فيها الماء المدبر وغرس فيه الريحان على نقوش وأشكال غريبة وكتابات مكتوبة يتعاهدها البستاني بالمقراض حتى لا تزيد ورقة على ورقة وبنى في البستان برجا من خشب الساج المنقوش بالنقر النافذ ليقوم مقام الأقفاص وسرح فيه من أنواع القمارى والدباسى والزينات وكل طائر مستحسن حسن الصوت وسرح في البستان من الطير العجيب مثل الطاوس ودجاج الحبش ونحوها وعمل فى داره مجلساً سماه بيت الذهب قد طلى حيطانه كلها بالذهب المجلول باللازورد على أحسن نقش وجعل فى حيطانه صوراً بارزة من خشب مصنوع على صورته وصور خطاياه والمغنيات اللاتى تغنينه بما عليهن من الحلى والزينة والثياب بألوانها ولم يعرف ملك قط تقدم خمارويه فى عمل مثل هذا البستان، واشتكى يوماً إلى طبيبه مما يلاقيه من الأرق فأشار عليه بالتغميز فأنف من ذلك فأشار بعمل بركة من زئبق فعملها خمسين ذراعاً فى خمسين وملأها من الزئبق وجعل فى أركان البركة سككا من الفضة الخالصة وجعل فى السكك زنانير من حرير فى حلق من الفضة وعمل فراشاً من أدم يحشى بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شدّه ويلقى على تلك البركة وتشدّ زنانير الحرير التى فى حلق الفضة بسكك الفضة وينام على هذا الفراش فلا يزال هذا الفراش يرتج ويتحرك بحركة الزئبق ما دام عليه، ولم يمض على مصاهرة أبى الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون للمعتضد سوى نحو عامين حتى ذبح أبو الجيش فى دمشق فى ذى القعدة سنة اثنتين وثمانين وقد كان بنى فى سفح الجبل أسفل من دير مروان قصرا وكان يشرب فيه فى تلك الليلة وعنده طغج التركى، وكان الذى تولى ذبحه غلاماً من خدمه وحمل أبو الجيش فى تابوت إلى مصر فلما وصلها أخرج من التابوت وجعل على السرير وذلك على باب مصر وخرج ولده الأمير جيش وسائر الأمراء والأولياء وتقدم القاضى أبو عبيد الله محمد بن عبدة المعروف بالعبداني وصلى عليه وذلك فى الليل، حكى أبو بشر الدولابى عن أبى عبد الله المنجارى وكان شيخاً من أهل العراق وكان يقرأ فى دور آل طولون ومقابرهم أنه بات فى تلك الليلة مع من يقرأ عند القبر وقد قدّم أبو الجيش ليدلى فى القبر ونحن نقرأ وجماعة من القراء سبعة سورة الدخان فأحدر من السرير ودلى فى القبر وانتهينا من السورة فى هذا الوقت إلى قوله عز وجل: ﴿ **خذوه فاعتلوه إلى سواء**

الجحيم * ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم * ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾ قال: فخفضنا أصواتنا وأذعرنا حياء ممن حضر . اهـ.

وكانت مدة ولاية خمارويه اثنتى عشرة سنة وثمانية عشر يوماً فقام بالأمر بعده ولده جيش تولى الملك ثانى يوم وفاة أبيه فلم تستقم له الأمور وشاغب القوّاد عليه لحداثة سنه واحتقره الجند وكادت تخرج عليه عمال البلاد الشامية وغيرها من بقية العمالات التابعة لمصر وعصاه ابن طغج بن جف والى الشام ولم يبايع له. وكان سبب ذلك أنه لما ولى اجتمع إليه الأحداث والسفل فأخلد إلى استماع أقوالهم فافسدوا بينه وبين قوّاده وأصحابه فجعل يذمهم جهارا ويظهر العزم على استبدالهم ثم قطع أعطية بعضهم وأخذ نعمهم فلما اشتدّ بهم الحال اتفقوا على قتله وأن يقيموا عمه بدله فبلغه خبر ذلك فلم يقدر على كتمانه واطلق لسانه فيهم ففارقه بعضهم وساروا إلى بغداد وتقدموا إلى الخليفة المعتضد فخلع عليهم وأحسن إليهم وبقى الجند على خلافهم لابن خمارويه واحاطوا بقصره يوماً يريدون خلعه وشددوا فى الطلب فسألهم كاتبه علىّ بن أحمد المردانى أن ينصرفوا يومهم ذلك فانصرفوا فأرسل ابن خمارويه فى الحال جماعة فقبضوا على اثنين من عمومته وقتلوهما وأصبح الجند وقد اجتمعوا حول القصر يريدون خلعه فلما تكامل حضورهم رمى بالرأسين إليهم فهاجوا وماجوا وهجموا على القصر ودخلوا على ابن خمارويه فقتلوه ونهبوا داره وعاثوا فى البلد فنهبوا ما قدروا على نهبه ثم أحرقوها فكان المنظر مرعباً والخطب شديدًا للغاية ثم أتوا بأخيه هرون وولوه الأمرة فكانت ولاية جيش تسعة أشهر لا غير، وجعل هرون يتصرف فى الأمور فغلب عليه هواه ولم يمض على ولايته إلا القليل حتى افتتن الناس وظهر بغضهم له فاختل نظام الدولة وانعكست الأمور على هرون وطمع الولاة والعمال فى الاستقلال وبلغ المعتضد خبر هذا كله فتاقت نفسه إلى استرداد سائر المدن والبلدان التى كان ابن طولون قد ضمها إلى ديار مصر وسار فى عسكر عظيم أولاً إلى أجيدة فاطاعه صاحبها محمد بن أحمد بن عيسى بن شيخ وعاهده على الوفاء، ثم سار عنها إلى قنسرين فملكها ووردت الأخبار بذلك إلى هرون فكاد يسقط فى يده وسير إلى المعتضد يستعطفه ويسترضيه بعد أمور وعهود وجعل يعمل على تسكين القلاقل والفتن جهد الاستطاعة فلم يتم له كل ما أراد وكان من أمره ما سيذكر فى خلافة المكتفى بالله ابن المعتضد.

ولما كانت سنة اثنتين وثمانين ومائتين أمر المعتضد بالكتابة إلى جميع الأعمال

والبلاد كلها بترك افتتاح الخراج فى النيروز الفارسى وتأخير جمع الخراج إلى الحادى عشر من حزيران وسماه بالنيروز المعتضدى وأنشئت الكتب بذلك من الموصل والمعتضد يومئذ بها قالوا: وإنما أراد بذلك الترفيه على الناس والرفق بهم وكتب أيضاً إلى جميع البلدان برد الفاضل من سهام المواريث إلى ذوى الأرحام وأبطل ديوان المواريث ففرح الناس بذلك ومدحوه ثم نزل فى سنة ثلاث وثمانين ومائتين إلى تكريت وسار الحسن بن حمدان فى الأولياء لحرب هرون الشارى فكانت بينهم حروب عظيمة كانت للحسن بن حمدان عليه فأتى به إلى المعتضد أسيراً بغير أمان ومعه أخوه فدخل المعتضد بغداد وقد نصبت له القباب وزينت له الطرقات وعبى المعتضد جيوشه بباب الشماسية على أحسن ما يكون من التعبية وأكمل هيئة، ثم خلع على الحسن بن حمدان خلعا شرفه بها وطوّقه بطوق من ذهب وخلع على جماعة من فرسانه ورؤساء أصحابه وأهله وشهرهم فى الناس كرامة لما كان من فعلهم وحسن بلائهم، ثم أمر بالشارى فأركب فيلا وعليه دراعة ديباج وعلى رأسه برنس خز طويل وخلفه أخوه على جمل وعليه دراعة ديباج وبرنس خز وسيرهم فى أثر الحسن بن حمدان وأصحابه ثم دخل المعتضد فى أثره عليه قباء أسود وقلنسوة محدودة على فرس ضاف وعن يساره أخوه عبد الله الموفق وخلفه بدر غلامه وأبو القاسم عبيد الله بن سليمان بن وهب وزيره وابنه القاسم بن عبد الله فأكثر الناس من الدعاء له وتكاثف الناس فى منصرفهم من الجانب الشرقى إلى الجانب الغربى فانخسف بهم كرسى الجسر الأعلى وسقط على زورق مملوء ناسا فغرق فى هذا اليوم نحو من ألف نفس ممن عرف دون من لم يعرف واستخرج الناس من دجلة بالكلاليب والغواصة وارتفع الضجيج وكثر الصراخ من الجانبين فبينما الناس على هذا الحال من الصراخ والعويل إذ أخرج بعض الغواصة صبيا عليه حلى فاخرة من ذهب وجوهر فبصر به شيخ من النظارة طرار فجعل يلطم وجهه حتى دمى أنفه ثم تمرغ على التراب واظهر أنه ابنه وجعل يقول ياسيدى لم تمت إذ اخرجوك صحيحاً سوياً لم يأكلك السمك ولم تمت حبيبى إذ كحلت عينى بك مرة قبل الموت وأخذه فحمله على حمار ثم مضى به فما برح القوم الذين رأوا من الشيخ ما رأوا حتى أقبل رجل معروف باليسار مشهور من التجار حين بلغه الخبر وهو لا يشك إلا أن الصبى فى أيديهم وليس يهمه ما كان عليه من حلى وثياب وإنما أراد أن يكفنه ويصلى عليه ويدفنه فأخبره الناس بالخبر فبقى هو ومن معه من التجار متعجبين مبهوتين وسألوا عنه واستبحثوا فإذا لاعين ولا أثر وعرف توابوا هذا الجسر هذا الشيخ المحتال فأيأسوا أبا الغريق منه وذكروا أنه شيخ قد أعياهم أمره وحيرهم كيده

وأنه بلغ من حيله وخبثه ودهائه أنه أتى يوما من أول الصباح إلى باب بعض العدول الكبار المشهورين بالرياسة واليسار ومعه جرة فارغة على عاتقه وفأس وزنبيل فقام فى ثوب خلق ولم يتكلم حتى وضع الفأس فى الدكاكين التى على باب ذلك العدل فهدمها وجعل ينتقى الآجر ويعزله فسمع ذلك العدل بهدمها ووقع الفأس والهدم فخرج لينظر فإذا الشيخ دائب بهدم دكاكينه التى على باب داره فقال: ياعبد الله أىّ شىء تصنع ومن أمرك بهذا؟ فجعل الشيخ يعمل عمله ولا يلتفت إلى العدل ولا يكلمه فاجتمع الجيران وهما فى المحاورة فأخذوا بيد الشيخ فوكزه هذا ودفعه هذا فالتفت إليهم، فقال: ويلكم أى شىء تريدون منى أما تستحيون تعبثون بى وأنا شيخ كبير، فقالوا: ما لنا والعبث بك ويحك من أمرك بهذا قال: ويحكم أمرنى صاحب الدار فقالوا: هذا صاحب الدار يكلمك. قال: لا والله ما هذا صاحب الدار فلما سمعوا كلامه وغفلته رحموه . وقالوا هذا مجنون أو مخدوع خدعه بعض جيران هذا العدل ممن قد حسده على ما أنعم الله تعالى به عليه وهم الذين حملوا هذا الشيخ على هذا الفعل فلما منعوه من الهدم مضى إلى الجرة التى جاء بها وقد كان وضعها إلى جانب الباب فأدخل يده فيها كأنه قد خبأ ثيابه فيها فصرخ وبكى فلم يشك العدل أن محتالاً خدعه وأخذ ثيابه فقال وأى شىء ذهب لك. قال قميص جديد اشتريته أمس وملحفة لبيتى وسراويل فرقوا له جميعاً ودعاه العدل فكساه ووهب له دراهم كثيرة ووهب له الجيران دراهم كثيرة وانصرف غانماً، وهذا الشيخ كان يعرف بالعقاب ويكنى بأبى الباز وله أخبار عظيمة وحيل عجيبة، قال بعض الكتاب: وهذا الشيخ هو الذى احتال للمتوكل حين بايعه بختيشوع الطبيب أنه أن سرق من داره شىء يعرفه فى ثلاث ليال ذكرت من ذلك الشهر فعليه أن يحمل إلى خزانة أمير المؤمنين عشرة آلاف دينار، وإن خرجت هذه الليالى ولم يتم عليه ما ذكر فله الضيعة المعين ذكرها فى المبايعة فأتى بهذا الشيخ فى عنفوان شبابه إلى المتوكل فضمن للمتوكل أن يأخذ من دار بختيشوع شيئاً لا ينكره وقد كان بختيشوع حرس داره وحصنها فى هذه الليالى فاحتال العقاب المذكور بحيل لطيفة إلى أن سرق بختيشوع نفسه وجعله فى صندوق وأتى به المتوكل فى خبر ظريف وأنه رسول لعيسى بن مريم نزل إلى بختيشوع بشمع أسرجه وتخليط عمله وبنج فى طعام اتخذه وأطعمه الحراس لداره فى تلك الليلة إلى آخر القصة مما لا حاجة لإيرادها هنا.

وكان المعتضد حازماً كيسا كثير الحساب حكى عبد الله بن حمدون وكان من

ندماء المعتضد وخاصته وممن كان يأنس به فى الخلوة أنه أمر أن ينقص من مرتب حشمه ومن كان يجرى عليه من الأتراك من كل رغيف أوقية وأن يبتدأ بأمر خبزه لأن للوصائف عددا من الرغفان فيها ثلاثة وأربعة وأكثر من ذلك. قال ابن حمدون فتعجبت من ذلك فى أول أمره ثم تبينت القصة فإذا أنه يتوفر من ذلك فى كل شهر مال عظيم، وتقدم إلى خازنه أن يختار له من الثياب التسترية والدبيقية أحسنها لتقطيعها لنفسه. وكان مع ذلك قليل الرحمة كثير الإقدام سفاكاً للدماء شديد الرغبة فى أن يمثل بمن يقتله وكان إذا غضب على القائد النبيل والذى يختصه من غلمانه أمر أن تحفر له حفرة ثم يدلى على رأسه فيها ويطرح التراب عليه ونصفه الأسفل ظاهر على التراب ويداس التراب فلا يزال كذلك حتى تخرج روحه من دبره، وذكر من عذابه أنه كان يأخذ الرجل فيكتف ويقيد ويؤخذ القطن فيحشى فى أذنه وخيشومه وفمه وتوضع المنافخ فى دبره حتى ينتفخ ويعظم جسمه ثم تسد دبره بشىء من القطن ثم يفصد وقد صار كالجمل العظيم من العرقين المعروفين فوق الحاجبين فتخرج النفس من ذلك الموضع، وربما كان يوضع الرجل فى أعلى السطح مجردا موثقا ويرمى بالنشاب حتى يموت، واتخذ المطامير وجعل فيها أصناف العذاب وجعل عليها الحرمىّ المتولى لعذاب الناس ولم يكن له رغبة إلا فى النساء والبناء فإنه أنفق على قصره المعروف بالثريا أربعمائة ألف دينار وكان طول قصره المعروف بالثريا ثلاثة فراسخ.

ومما ذكر من حزمه فى الأمور وحيله وصبره أنه أطلق يوماً من بيت المال لبعض الرسوم فى الجند عشر بدر فحملت إلى منزل صاحب عطاء الجيش ليصرفها فيهم فنقب منزله فى تلك الليلة وأخذت العشر بدر فلما أصبح الصباح نظر إلى النقب ولم ير المال فأمر باحضار صاحب الحرس وكان على الحرس يومئذ مؤنس العجلى فلما أتاه قال له: أن هذا المال للسلطان والجند ومتى لم تأت به أو بالذى نقبه وأخذ المال ألزمك أمير المؤمنين غرمه فجدّ فى طلبه وطلب اللص الذي جسر على هذا الفعل فسار إلى مجلسه وأحضر التوّابين والشرط، والتوّابون هم شيوخ من أنواع اللصوص الذين كبروا وتابوا فإذا جرت حادثة علموا من فعلها فدلوا عليه وربما قاسموا اللصوص ما سرقوه، فتقدم إليهم فى الطلب وتهددهم وأوعدهم وطالبهم فتفرق القوم فى الدروب والأسواق والمغرف والمواخير ودكاكين الرواسين ودور القمار فما لبثوا أن احضروا رجلاً نحيفاً ضعيف الجسم رث الملابس هين الحالة فقالوا ياسيدى هذا صاحب الفعلة وهو غريب من غير هذا البلد وأطبق القوم كلهم على

أنه صاحب النقب ولص المال فأقبل عليه مؤنس العجلى فقال: ويلك من كان معك ومن أعانك وأين أصحابك ما أظنك تقدر على عشر بدر وحدك فى ليلة ما كنتم إلا عشرة وأقل ذلك خمسة فأقرّ لى بالمال إن كان مجتمعاً وعلى أصحابك إن كان المال قد قسم فما زاده على الإنكار شيئاً فأقبل يترفق به ويعده أن يثيبه ويرزقه ويعظم جائزته ويعده بكل جميل على رده والإقرار به ويتوعده بكل مكروه على جحوده وإنكاره فلما غاظه ذلك وانكره ويئس من إقراره أخذ فى عقوبته ومساءلته فضربه بالسوط والقلوس والمقارع والدرة على ظهره وبطنه وقفاه ورأسه وأسفل رجليه وكعابه وعضله حتى لم يكن للضرب فيه موضع وبلغ به ذلك إلى حالة لا يعقل فيها ولا ينطق فلم يقر بشىء فبلغ ذلك الخليفة المعتضد فأرسل فأحضر صاحب الجيش فقال له: ما صنعت فى المال فأخبره الخبر، فقال له: ويلك تأخذ لصا قد سرق من بيت المال عشر بدر فتبلغ به الموت والتلف حتى يهلك الرجل ويضيع المال فأين حيل الرجال فأتى به وقد حمل فى جل فوضع بين يديه وقد عقل فسأله فأنكر فقال له: ويلك إن مت لم ينفعك وإن برئت من هذا الضرب لم أدعك تصل إليه فلك الأمان والضمان على ما تصلح به حالتك ويحمد به أمرك فأبى إلا الانكار فقال علىّ بأهل الطب: فاحضروا، فقال: خذوا هذا الرجل إليكم فعالجوه بأرفق العلاج وواظبوا عليه بالمراهم والغذاء والتعاهد واجتهدوا أن تبرئوه فى أسرع وقت فأخذوه إليهم وأخرج مالا مكان المال وأمر بتفريقه على الجند فيقال أنه برىء وصلح فى أيام يسيرة ثم واظبوا عليه بالطعام والشراب والوطاء والطيب حتى صح قوى جسمه وظهر لونه ورجعت إليه نفسه ثم ذكر به فأمر باحضاره فلما حضر بين يديه سأله عن حاله فدعا وشكر. وقال: أنا بخير ما أبقى الله أمير المؤمنين ثم سأله عن المال فعاد إلى الإنكار فقال له: ويلك لست تخلو من أن تكون أخذته وحدك كله أو وصل إليك بعضه فإن كنت أخذته كله فإنك تنفقه فى أكل وشرب ولهو ولا أظنك تفنيه قبل موتك، وإن مت فعليك وزره، وإن كنت أخذت بعضه سمحنا لك به فأقر على أصحابك فإنى اقتلك إن لم تقرّ ولا ينفعك بقاء المال بعدك ولا يبالى أصحابك بقتلك ومتى أقررت دفعت إليك عشرة آلاف درهم وأخذت لك من أصحاب الجسر مثل ذلك ورسمتك من التوّابين وأجريت لك فى كل شهر عشرة دنانير تكفيك لأكلك وشربك وكسوتك وطيبك وتكون عزيزاً وتنجو من القتل وتتخلص من الإثم فأبى إلا الإنكار فاستحلفه بالله واظهر له مصحفا فحلف عليه فقال إنى ساظهر على المال فإن أنا ظهرت عليه بعد هذه اليمين قتلتك ولم استبقك فأبى إلا الإنكار، فقال

له: فضع يدك على رأسى واحلف بحياتى فوضع يده على رأسه وحلف بحياته أنه ما أخذه وأنه مظلوم منهم وأن التوّابين قد تبرؤا به، فقال له المعتضد: فإن كنت قد كذبت قتلتك وأنا برىء من دمك قال: نعم، فأمر بإحضار ثلاثين أسود بحيث يراهم ويرونه وأمرهم أن يتناوبوا فى ملازمته فأتت عليه أيام وهو قاعد لا يتكىء ولا يستلقى ولا يضطجع وكلما خفق خفقة وجىء فكه ووقع رأسه حتى إذا ضعف وقارب التلف أمر بإحضاره فأعاد عليه ما كان خاطبه به واستحلفه بالله وبغير ذلك من الإيمان فحلف على ذلك كله وبما لم يستحلفه به أنه ما أخذ المال ولا يعرف من أخذه، فقال المعتضد لمن حضر قلبى يشهد أنه برىء وأن ما يقول حق وأن التوابين قد عرفوا صاحبه وقد أثمنا فى هذا الرجل وسأله أن يجعله فى حل ففعل ثم أمر بإحضار مائدة عليها طعام وأحضر بارد الشراب وأمره بالجلوس والأكل والشرب فأقبل يأكل ويشرب ويحث على الأكل ويلقم ويعاد الشراب عليه ويكرر حتى لم يبق للأكل والشرب موقع ثم أمر ببخور وطيب فبخر وطيب وأتى له بحشية ريش فوطىء له ومهد فلما استلقى واستراح وغفا أمر بإزعاجه وسرعة إيقاظه فحمل من موضعه حتى أقعد بين يديه وفى عينيه الوسن فقال له حدّثنى كيف صنعت وكيف نقبت ومن أين خرجت وإلى أين ذهبت بالمال ومن كان معك قال ما كنت إلا وحدى وخرجت من النقب الذى دخلت منه وكان مقابل الدار حمام له كوم شوك يوقد به فأخذت المال ورفعت ذلك الشوك والقش والقصب فوضعته تحته وغطيته وهو هناك فأمر برده إلى فراشه فردوه وأضجعوه عليه ثم أمر بإحضار المال فأحضر عن آخره وأحضر مؤنس العجلى وأحضر الوزير والجلساء وقد غطى المال بالبساط ناحية من المجلس ثم أمر بإيقاظ اللص وقد اكتفى من النوم وذهب عنه الوسن فقال له بحضرة الجميع مثل قوله الأول فجحد وانكر فأمر بكشف البساط وقال له ويلك أليس هذا المال ألست فعلت كذا وكذا وأخذ يصف له ما كان حدّثه به ثم أمر فقبض على يديه ورجليه وأوثق ثم أمر بمنفاخ فنفخ فى دبره وأتى بقطن فحشى فى أذنيه وفمه وخيشومه وأقبل ينفخ وخلى عن يديه ورجليه من الوثاق وأمسك بالأيدى وقد صار كأعظم ما يكون من الزقّاق المنفوخة وقد ورم سائر أعضائه وعظم جسمه وعيناه قد امتلأتا وبرزتا فلما كاد أن ينشق أمر بعض الأطباء فضربه فى عرقين فوق الحاجبين وهما فى الجبين فأقبلت الريح تخرج منهما مع الدم ولها صوت وصفير إلى أن خمد وتلف وكان ذلك أعظم ما رؤى فى ذلك اليوم من العذاب.

ولما كثرت مظالم المعتضد وكثر سفكه للدماء قيل أنه ظهر له شخص فى صور

مختلفة فى داره فكان تارة يظهر فى صورة راهب ذى لحية بيضاء وعليه لباس الرهبان، وتارة يظهر شابا حسن الوجه ذا لحية سوداء بغير تلك البزة، وتارة يظهر شيخاً أبيض اللحية ببزة التجار، وتارة يظهر بيده سيف مسلول وضرب بعض الخدم فقتله فكانت الأبواب تؤخذ وتغلق فيظهر له أين كان فى بيت أو صحن أو غيره، وكان يظهر له فى أعلى الدار التى بناها فأكثر الناس القول فى ذلك واستفاض الأمر واشتهر فى خواص الناس وعوامهم والقول فى ذلك على حسب ما كان يقع لكل واحد منهم فمن قائل أن شيطاناً مريداً أصمد له يظهر فيؤذيه، ومنهم من يقول أن بعض مؤمنى الجن رأى ما هو عليه من المنكر وسفك الدماء فظهر له رادعاً وعن المنكرَ زاجراً، ومنهم من رأى أن ذلك من بعض خدمه كان قد هوى بعض جواريه فاحتال بحيلة فلسفية من بعض العقاقير الخاصة يضعها فى فمه فلا يدرك بحاسة البصر وكل ذلك ظن وحسبان، فلما اشتدّ أمر ذلك على المعتضد أحضر المعزمين وقد كبر قلقه واستوحش وحار عليه أمره فقتل وغرق جماعة من خدمه وجواريه وضرب وحبس جماعة منهم وعمل أعمالاً لا يسعنا ذكرها هنا لشناعتها.

ومات المعتضد لأربع ساعات خلت من ليلة الاثنين لثمان بقين من ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين فى قصره المعروف بالحسنى بمدينة السلام، وقيل أن وفاته كانت بسمٍ دسه إليه إسماعيل بن بلبل قبل قتله إياه فكان يسرى فى جسده، ومنهم من ذكر أن جسمه تحلل فى مسيره فى طلب وصيف الخادم، ومنهم من رأى أن بعض جواريه سمته فى منديل أعطته إياه يتنشف به، وقيل غير ذلك مما لم نذكره هنا. وقد كان أوصى أن يدفنَ فى دار محمد بن عبد الله بن طاهر فى الجانب الغربى من الدار المعروفة بدار الرخام فلما اعتراه الغشى ووقع للموت شكوا فى وفاته فتقدم الطبيب إلى بعض أعضائه فجسه فأحس به وهو على ما به من السكرات فأنف من ذلك وركله برجله فقلبه أذرعا فيقال أن الطبيب مات منها ومات المعتضد من ساعته وسمع ضجة وهو على ما به من الحال ففتح عينه وأشار بيديه كالمستفهم فقال له مؤنس الخادم ياسيدى الغلمان قد ضجوا عند القاسم بن عبيد الله فاطلقنا لهم العطاء فقطب وجهه وهمهم فى سكرته فكادت أنفاس الجماعة أن تخرج من هيبته وحمل إلى دار محمد بن عبد الله بن طاهر فدفن بها، قال صاحب مروج الذهب: وللمعتضد أخبار وسير وحروب وسير فى الأرض غير ما ذكر وكانت خلافته تسع سنين وتسعة أشهر ويومين قيل ولما حضرته الوفاة أنشد: -

تمتع من الدنيا فإنك لا تبقى   وخذ صفوها ما إن صفت ودع الرنقا
ولا تأمنن الدهر إني أمنته   فلم يبق لي خِلاً ولم يرع لي حقا
قتلت صناديد الرجال ولم أدع   عدواً ولم أمهل على طغيه خلقا
وأخليت دار الملك من كل نازع   فشردتهم غربا ومزقتهم شرقا
فلما بلغت النجم عزاً ورفعة   وصارت رقاب الخلق أجمع لي رقا
رماني الردى سهما فأخمد جمرتي   فها أن اذا في حفرتي عاجلا ألقى
ولم يغن عني ما جمعت ولم أجد   لذى الملك والأحياء في حسنها رفقا
فياليت شعري بعد موتي ما ألقى   إلى نعم الرحمن أم ناره ألقى

وكان المعتضد أسمر نحيف الجسم معتدل الخلق قد وخطه الشيب وكان شهماً شجاعاً مقداماً ذا عزم وفيه شح مهيباً عند أصحابه يتقون سطوته ويكفون عن الظلم خوفاً منه وبعد موته تولى الخلافة بعده ولده أبو محمد على المكتفى بالله.

(الفصل السابع عشر)

(فى خلافة أبى محمد على المكتفى بالله بن المعتضد)

ثم قام بالأمر بعد المعتضد ابنه أبو محمد على المكتفى بالله بن المعتضد بن الموفق بن المتوكل بن المعتصم بويع له بالخلافة يوم مات أبوه وهو يوم الاثنين لثمان بقين من شهر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين هجرية أى سنة إحدى وتسعمائة للميلاد وأخذ له البيعة القاسم بن عبيد الله والمكتفى يومئذ بالرقة وله من العمر نيف وعشرون سنة فلما وصله الخبر أخذ البيعة على من عنده من الأجناد ووضع لهم العطاء وسار إلى بغداد ووجه إلى النواحي من ديار ربيعة ومضر ونواحى العرب من يحفظها وكان وصوله إلى مدينة السلام يوم الاثنين لسبع ليال بقين من جمادى الأولى سنة تسع وثمانين ومائتين، وكان دخوله إليها فى البحر ونزل قصر الحسنى على دجلة وخلع على القاسم بن عبيد الله ولم يخلع على أحد من القواد وفى اليوم الذى دخل فيه مدينة السلام قتل عمرو بن الليث الصفار قتله صبراً صافى الخرّمى وكان أمر قتله من أغرب الأمور، وذلك أنه لما قبض على عمرو المذكور فى أيام المعتضد وأودع فى السجن مدة مرض المعتضد قد ذكره المعتضد عند امتناعه من الكلام واحتضاره فأشار بيديه يريد صافيا الخرّمى فلما حضر إليه أمره بقتل عمرو

المذكور بالإيماء والإشارة بأن وضع يده على رقبته وعلى عينه يعنى بذلك أذيم الأعور فلم يفعل ذلك صافى لعلمه بقرب وفاة المعتضد وكره قتل عمرو المذكور فلما دخل المكتفى مدينة السلام سأل القاسم بن عبيد الله الوزير عنه فقال هو حىّ يرزق فسرّ بذلك وأراد الإحسان إليه لأنه كان يكثر من الهدية إليه لما كان بالرى فكره الوزير ذلك فبعث إليه من قتله، وعلم المقتدر بما جرى فأكبر الأمر وأعظمه جداً وكان دائماً يذكر هذه الفعلة للقاسم ولا ينساها، ولم تستقر الخلافة بالمكتفى حتى أمر بهدم المطامير التى كان المعتضد اتخذها لعذاب الناس واطلق من كان محبوساً فيها وأمر برد المنازل التى كان المعتضد اتخذها لموضع المطامير إلى أهلها وفرق فيهم أموالاً فمالت قلوب الرعية إليه وكثر الداعى له بهذا السبب وغلب عليه القاسم بن عبيد الله وفاتك مولاه فكان بعد ذلك لا يعمل إلا بمشورتهما، وجاءته الكتب تترى من أهل مصر والشام يشكون ما يلقون من القرمطى من القتل والسبى والتخريب وقد كان عاث هو وأصحابه فى سائر البلاد وأفحش فى القتل وإراقة الدماء بلا رحمة ولا شفقة وحصر دمشق وضيق عليها فجاءت إليها النجدة من مصروبغداد وسير المصريون لقتاله بيدرا القائد وغيره من كبار القواد فقاتلوا شيخاً مقدم القرامطة وشددوا فى قتاله وألحوا فقتل على باب دمشق وأحرق وقتل خلق كثير من القرامطة وتفرق من بقى منهم ثم عادوا فاجتمعوا على الحسين أخى شيخ المذكور فسمى نفسه أحمد وكنى بأبى العباس ودعا الناس فأجابه أكثر أهل البوادى وغيرهم فاشتدّت شوكته وجعل يموّه على الناس وأظهر شامة فى وجهه وزعم أنها آية وسار بجيوشه إلى دمشق فخافه أهلها وصالحوه على خراج دفعوه إليه وانصرف عنهم ثم سار إلى أطراف حمص فأخذها وخطب له على منابرها وتسمى المهدى أمير المؤمنين وأتاه ابن عم له اسمه عيسى المهدى فلقبه المدثر وعهد إليه وزعم أنه المدثر المذكور فى القرآن ولقب غلاماً من أهله المطوّق وقلده قتل أسرى المسلمين، ثم سار إلى حماة ومعرّة النعمان وغيرهما فقتل وسبى وأحرق وخرّب وقتل النساء والصبيان ثم سار إلى بعلبك فقتل عامة أهلها فلم يبق منهم إلا اليسير ثم سار إلى السلمية فمنعه أهلها ثم صالحهم وأعطاهم الأمان ففتحوا له بابها فبدأ بقتل من فيها من الهاشميين وكانوا جماعة، ثم قتل البهائم والصبيان بالمكاتب ثم خرج منها وليس بها عين تطرف وسار فيما حولها من القرى يسبى ويقتل فضج الناس وعجوا إلى الله تعالى وخاف الخليفة المكتفى شر العاقبة فجهز فى رمضان من السنة أى سنة ست وتسعين ومائتين جندا عظيماً وخرج بهم من بغداد فى الشهر بعينه وجعل طريقه على الموصل وقدم بين

يديه أبا الأغرّ فى عشرة آلاف رجل فنزل قريباً من حلب فكبسهم القرمطى صاحب الشامة فقتل منهم خلقاً كثيراً وسلم أبو الأغر فدخل حلب فى ألف رجل فسبقه القرمطى إلى باب حلب فقاتله أبو الأغر بمن بقى معه وأهل البلد فرجع عنهم وما استهل شوّال حتى وصل بدر مولى ابن طولون فى عسكره وانقض على القرمطى وقاتله قتالاً شديداً فانهزم القرمطى وقتل من أصحابه خلق كثير، ومضى من سلم منهم نحو البادية فوجه الخليفة المكتفى فى أثرهم الحسين بن حمدان وجماعة من القواد فلم يدركهم وما زال الحال هكذا إلى مستهل سنة سبع وتسعين، ثم شدد المكتفى فى قتال القرمطى وولى محمد بن سليمان الكاتب أمر حربه ورسم له بمناهضة القرمطى فسار إليه محمد فى عسكرالخليفة فلاقاه على مقربة من حماة فسير إليهم القرمطى جماعة من أصحابه وبقى هو فى جماعة ومعه أمواله وسواد عسكره فالتحمت الحرب بين الفريقين واشتدّت فانهزمت القرامطة وقتل منهم مقتلة عظيمة وتمزق من بقى وفرّ إلى البوادى فتبعهم أصحاب الخليفة، فلما رأى القرمطى ما حل بأصحابه ركب هو وابن عمه المسمى بالمدثر والمطوّق صاحبه وغلام له رومى وسار يريد الكوفة عرضا فى البرية فلما وصل إلى الدالية من أعمال الفرات نفد ما كان معهم من الزاد والعلف فوجه بعض أصحابه إلى الدالية المعروفة بابن طوق ليشترى لهم ما يحتاجون إليه فلما صار فى سوق البلد انكروا حاله فسألوه عن أمره فكتمه فرفعوه إلى متولى تلك الناحية فسأله عن خبره فأعلمه أن القرمطى صاحب الشامة خلف رابية هناك مع ثلاثة نفر فسير إليهم الوالى من قبض عليهم ثم وجه بهم إلى المكتفى بالرقة ورجعت الجيوش بعد أن قتلوا وأسروا، وفى يوم الاثنين لأربع بقين من المحرم أدخل صاحب الشامة الرقة على جمل ظاهر للناس وبين يديه المدثر والمطوّق ثم سار من هناك مع الخليفة المكتفى إلى بغداد فأدخل إليها على فيل وأصحابه على الجمل فأودعوهم السجن حتى قدم محمد بن سليمان الكاتب فى عسكره ومعه جماعة من أعيان القرامطة ورؤسهم فأمر الخليفة بقطع أيديهم وأرجلهم وقطع أعناقهم وضرب صاحب الشامة ألفى سوط وقطعت يداه وكوى فغشى عليه وأخذوا حطبا ووضعوا فيه نارا ووضعوه على خواصره فجعل يفتح عينه ويغمضها فلما خافوا موته ضربوا عنقه ورفعوا رأسه على خشبة فكبر الناس لذلك كثيراً وفرحوا بموته فرحاً عظيماً.

وكان هارون بن خمارويه لما عاقد الخليفة المعتضد وعاهده على الولاء والطاعة أيام خلافته خوفاً من زحفه على أملاك مصر ونزعها منه جعل يراقب الفرص ليتخلص من ربقة تلك العقود فلما ظهر القرمطى صاحب الشامة وكان من أمر

خروج الخليفة المكتفى ومعه محمد بن سليمان الكاتب فى مقدمة عسكره وظهر أمر ابن الكاتب واتسعت كلمته بعد ظفره بالقرمطى عمد هرون بن خماوريه إلى استمالة ابن الكاتب سرا وأوعز إلى بدر الحمامى غلام أحمد بن طولون وفائق أحد أصحابه وهما بدمشق أن يكاتبا ابن الكاتب فى ذلك ويدعوانه إلى قصد البلاد بالعساكر فكتبا إليه ووعداه بالمساعدة على أخذها فكتم ابن الكاتب أمر ذلك، ولما عاد إلى بغداد أنهاه إلى الخليفة المكتفى فكاد الخليفة يتميزغيظا وأمر ابن الكاتب بالعود وسير معه الجنود والأموال ووجه دميانة غلام بأزمار أيضاً وأمره بركوب البحر إلى مصر ودخول النيل وقطع الوارد عنها فسار دميانة ووصل إليها وشدد فى حصار المدينة وضيق على أهلها وزحف إليهم محمد بن سليمان فى عسكره فى البر حتى صار على مقربة من مصر وكاتب من بها من القواد فكان أول من طلب الأمان بدر الحمامى وهو مقدمهم فانحلت عقدتهم وانفشلوا جميعاً وتتابع المستأمنة من القواد فلما رأى ذلك هرون بن خماروية خرج فيمن معه لقتال محمد بن سليمان فكانت بينهم وقائع كثيرة واتفق فى هذه الأثناء أن وقع بين عسكر هرون خلاف وعظم شر هذا الخلاف فاقتتلوا فخرج هرون يسكنهم فرماه بعض المغاربة بمزراق فقتله فلما قتل استقدموا عمه شيبان وولوه مكان هرون فبذل المال للجند فأطاعوه واجتمعوا عند كلمته وحاربوا معه فأتتهم كتب بدر الحمامى يدعوهم إلى الأمان فأجابوه إلى ذلك ووصل الخبر إلى محمد بن سليمان بما جرى فسار إلى مصر فأرسل إليه شيبان يطلب الأمان فأجابه فخرج إليه ليلاً ولم يعلم به أحد من الجند فلما أصبحوا لم يجدوه فى داره فقيل: أن محمد بن سليمان الكاتب قبض عليه وقتله، وقيل بل هرب فى أرض الله واسعة الفضاء ودخل ابن الكاتب مصر واستولى على دور آل طولون وأموالهم وقبض عليهم جميعاً وهم بضعة عشر رجلاً فقيدهم وسجنهم واستقصى أموالهم وكتب بالفتح إلى الخليفة المتوكل فأمره بأشخاص آل طولون وأسبابهم وجميع متاعهم من مصر والشام إلى بغداد وأن لا يترك منهم أحدًا ففعل، وقد عاث أصحابه وأفسدوا وأحرقوا وقتلوا من السودان سكان قطائع ابن طولون خلقاً عظيماً للغاية وولى معونة مصر عيسى النوشرى فبادت من ذلك اليوم دولة بنى طولون وخلت منهم الديار وعفت الآثار وتعطلت منهم المنازل وحل بهم التنكيل والذل فرثاهم الشعراء وبكاهم الناس كثيراً فمن رثاهم من الشعراء المعاصرين أحمد بن إسحق الجفر وإسماعيل بن أبى هاشم ومحمد بن طسويه وسعيد القاص وأحمد بن محمد الحبيشى وأحمد بن يعقوب فما قاله القاص من قصيدة طويلة هذه الأبيات:

جرى دمعه ما بين سحر إلى نحر   ولم يجر حتى أسلمته يد الصبر
وهل يستطيع الصبر من كان ذا أسى   يبيت على جمر ويضحي على جمر
تتابع أحداث يضيعن صبره   وغدر من الأيام والدهر ذو غدر
أصاب على رغم الأنوف وجدعها   ذوي الدين والدنيا بقاصمة الظهر
وفقد بني طولون في كل موطن   أمرّ على الإسلام فقدا من القطر
وكان أبو العباس أحمد ماجدا   جميل المحيا لا يبيت على وتر
كأن ليالي الدهر كانت لحسنها   وإشراقها في عصره ليلة القدر

إلى أن قال:

ترى أثراً لم يبق من يستطيعه   من الناس في بدو البلاد ولا حضر
وقام أبو الجيش ابنه بعد موته   كما قام ليث الغاب في الأسل السمر
أتته المنايا وهو في أمن داره   فأصبح مسلوباً من النهي والأمر

إلى أن قال:

فمن يبك شيئاً ضاع من بعد أهله   لفقدهم فليبك حزناً على مصر
ليبك بني طولون إذ بان عصرهم   فبورك من دهر وبورك من عصر

ثم ظهر بعد ذلك بقليل رجل يعرف بالخلنجى، وهو: من قواد آل طولون وكان تخلف عن محمد بن سليمان فاستمال جماعة من المصريين وقاموا معه وخالفوا على السلطان وكثر جمعه وعلت كلمته وعجز النوشرى عن رده فسار النوشرى إلى الإسكندرية ودخل الخلنجى مصر وجعل يتصرف فى الأمور فكتب النوشرى إلى الخليفة المكتفى بالخبر وطلب منه النجدة فسير إليه الجنود مع فاتك التركى مولى المعتضد وبدر الحمامى فساروا فى شوّال ووصلوا إلى نواحى مصر وتقدم أحمد بن كيغلغ فى جماعة من القواد فلقيهم الخلنجى بالقرب من العريش فى جيش عظيم فاقتتلوا فانتصر عليهم الخلنجى وهزمهم شر هزيمة فطلبوا من الخليفة بعض القواد فسير إليهم جماعة منهم واتصلت الأخبار بقوة الخلنجي فبرز المكتفي إلى باب الشماسية ببغداد ليسير إلى مصر وأهتم لذلك جداً ونادى بالتأهب للمسير، فبينما هو على هذا الحال إذ جاء كتاب من فاتك فى شعبان يذكر أنه هو والقواد جدوا فى قتال الخلنجى فكانت بينهم حروب كثيرة قتل فيها خلق كثير وأن آخر حرب كانت بينهم قتل فيها معظم أصحاب إبراهيم الخلنجى وانهزم الباقون وظفروا بهم وغنموا

عسكرهم وهرب الخلنجى فدخل فسطاط مصر فاستتر بها عند رجل من أهل البلد فدخلوا المدينة فدلوا عليه فأخذوه ومن استتر عنده وألقوهم فى الحبس، فكتب المكتفى إلى فاتك فى حمل الخلنجى ومن معه إلى بغداد وعاد المكتفى فدخل بغداد وأمر برد خزائنه وآلات حربه وكانت قد سارت فبلغت تكريت فوجه فاتك بالخلنجى إلى بغداد فدخلها هو ومن معه فى شهر رمضان من السنة فأمر المكتفى بحبسهم ورجع النوشرى إلى مصر فأقام والياً عليها خمس سنين وشهرين وخمسة عشر يوماً ومات سنة سبع وتسعين ومائتين أى فى خلافة المقتدر بالله كما سيأتى بيانه فى محله.

ولما كانت سنة خمس وتسعين ومائتين هجرية مرض المكتفى بالله وثقل به مرضه إلى شهر ذى القعدة فتوفى فى ثالث عشرة وله من العمر ثلاث وثلاثون سنة. وقيل اثنتان وثلاثون سنة فكانت خلافته ست سنين وستة أشهر وتسعة عشر يوماً وكان ربعة جميلاً رقيق البشرة حسن الشعر وكنيته أبو محمد ودفن بدار محمد ابن طاهر وكان يحب علىّ بن أبى طالب ويميل إلى ذريته، يحكى أن يحيى بن علىّ الشاعر أنشده بالرقة قصيدة يذكر فيها فضل أولاد العباس على أولاد علىّ فقطع المكتفى عليه إنشاده. وقال: يايحيى كأنهم ليسوا بنى عم ما أحب أن يخاطب أهلنا بشىء من ذلك وإن كانوا خلفاء ولم يسمع القصيدة ولا أجازه عليها، قال بعض أصحاب التاريخ: ولكنه لم يمض على خلافته قليل حتى تبدلت طباعه وتغيرت أحواله وركب متن هواه فسلك مسالك أبيه ومالت نفسه إلى الإيذاء والعبث بحقوق الرعية وأمر أن يتخذ له قصر بناحية الشماسية بإزاء قطر بل فأخذ بهذا السبب ضياعاً كثيرة ومزارع كانت فى تلك النواحى بغير ثمن من ملاكها فكثر الداعى عليه فلم يستتم ذلك البناء حتى توفى وكان هذا الفعل مشاكلاً لفعل أبيه المعتضد فى بناء المطامير وكان وزيره القاسم بن عبيد الله عظيم الهيبة شديد الإقدام سفاكاً للدماء. وكان الكبير والصغير على رعب منه لا يعرف أحد منهم لنفسه نعمة معه وكانت وفاة القاسم المذكور عشية الأربعاء لعشر خلون من شهر ربيع الآخر سنة إحدى وتسعين ومائتين وله نيف وثلاثون سنة، قيل: وكان ممن قتله القاسم بن عبيد الله المذكور عبد الواحد بن الخليفة الموفق. وكان معتقلا عند مؤنس فبعث إليه حتى أخذ برأسه فى أيام المكتفى، وقد كان المعتضد يعزه ويميل إليه ميلاً شديداً إذ لم يكن لعبد الواحد المذكور همة فى خلافة ولا طموح إلى رياسة بل كانت همته فى اللعب مع الأحداث. وقد كان المكتفى أخبر عنه أنه أرسل عدة من غلمانه الخاصة فوكل به

من يراعى خبره وما يظهر من قوله إذا أخذ الشراب منه فسمع منه وقد طرب وهو ينشد شعر العتابى حيث يقول:

تلوم على ترك الغناء بأهله طوى الدهر عنها من طريف وتالد
رأت حولها النسوان يمشين حلقة مقلدة أجيادها بالقلائد
يسرّك أني نلت ما نال جعفر من الملك أو ما نال يحيى بن خالد
وأن أمير المؤمنين أغصني مغصهما بالمرهفات البوارد
ذريني تجئني ميتتي مطمئنة ولم أتجشم هول تلك الموارد
فإن نفيسات الأمور مشوبة بمستودعات في بطون الأساود
وإن الذي يسمو إلى درك العلا ملقى بأسباب الردى والمكايد

فقال له بعض ندمائه وقد أخذ منه الشراب ياسيدى أين أنت مما تمثل به يزيد ابن المهلب:

تأخرت استبقى الحياة فلم أجد حياة لنفسي مثل أن أتقدما

فقال له عبد الله: مه لقد أخطأت الغرض وأخطأ ابن المهلب وأخطأ قائل هذا البيت وأصاب أبو فرعون التميمى حيث يقول: قال النديم: حيث يقول: ماذا قال؟ قال:

وما بي شيء في الوغى غير أنني أخاف على فخارتي أن تحطما
فلو كنت مبتاعاً من السوق مثلها لدى الروع ما باليت أن أتقدما

فلما انتهى ذلك إلى المكتفى ضحك وقال: قد قلت للقاسم ليس عمى عبد الواحد ممن تسمو همته إلى الخلافة هذا قول من ليس له همة غير فرجه وجوفه وأمرد يعانقه، وكلاب يهارش بها، وكباش يناطح بها، وديوك يقاتل بها، اطلقوا لعمى كذا وكذا فلم يزل القاسم المذكور بعبد الواحد حتى قتله كما تقدم، وقد كان المكتفى لما أن مات القاسم وتبين قتله لعبد الواحد أراد نبش القاسم من قبره وضربه بالسوط وحرقه بالنار وقيل غير ذلك.

ومات فى أيامه أيضاً خائيل بطرك الإسكندرية فكانت مدته نحو خمس وعشرين سنة ووقع فيها من الحوادث والمحن شيء كثير جداً أضربنا عن إيراده هنا فخلا الكرسى بعده أربع عشرة سنة إلى سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة هجرية أى نحو سنة خمس وسبعين وتسعمائة ميلادية اشتدّ فيها الخطب على المتأصلين وعظمت

نكايتهم، ثم قدّموا غبريال كما سيأتى بيان ذلك فى خلافة المتقى بالله إبراهيم بن المقتدر بن المعتضد. واحترقت فى خلال هذه الفترة أيضاً كنيسة القيامة الكبرى بالإسكندرية فى يوم الاثنين لسادس شوّال سنة ثلاثمائة أى نحو سنة أربع وأربعين وتسعمائة ميلادية وهى التى كانت هيكل زحل قبل المسيحية وكانت من بناء قلوبطره ملكة مصر وهى معظمة عند المسيحيين فلم يبق منها حجر على حجر.

(الفصل الثامن عشر)

(فى خلافة أبى الفضل جعفر المقتدر بالله)

ثم قام بالأمر بعد المكتفى بالله أخوه أبو الفضل جعفر المقتدر بن المعتضد بويع له بالخلافة فى يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من ذى القعدة سنة خمس وتسعين ومائتين هجرية أى نحو سنة سبع وتسعمائة ميلادية. وكان له يوم بويع ثلاث عشرة سنة، قال أصحاب التاريخ: وكان السبب فى ولاية أبى الفضل جعفر المقتدر المذكور أنه لما ثقل المرض بالمكتفى فكر العباس بن الحسن وزير المكتفى يومئذ فيمن يصلح للخلافة بعد المكتفى. وكان الذين يتولون الدواوين أربعة، هم: أبو عبد الله بن محمد وداود بن الجراح وأبو الحسن محمد بن عبدان وأبو الحسن على ابن محمد بن الفرات فكان إذا ركب العباس بن الحسن الوزير المذكور سار فى ركابه أحد الأربعة ليوصله إلى دار الخلافة فسأل الوزير يوماً ابن الجراح فيمن يصلح للخلافة بعد المكتفى؟ فقال: عبد الله بن المعتز وأخذ يصفه بالعقل وأصالة الرأى مع الوقار والحشمة ثم استشار أبا الحسن بن الفرات فى ذلك أيضاً فلم يبد رأياً فألح عليه فقال: فليتق الله الوزير ولا يولى الخلافة إلا من قد عرفه واطلع على جميع أحواله ولا ينصب بخيلا يضيق على الناس ويقطع أرزاقهم ولا طماعاً يشره فى أموالهم فيصادرهم ويأخذ أموالهم وأملاكهم. ولا قليل الدين لا يخاف العقوبة والآثام ولا يرجو الثواب فيما يفعله ولا يولى من عرف نعمة هذا وبستان هذا وضيعة هذا وفرس هذا ومن قد لقى الناس ولقوه وعاملهم وعاملوه ويتخيل ويحسب حساب نعم الناس وعرف وجوه دخلهم وخرجهم، فقال الوزير: صدقت ونصحت فبمن تشير؟ قال: أصلح الموجودين جعفر بن المعتضد قال: ويحك هو صبى، قال ابن الفرات: ولكنه ابن المعتضد ولم نأت برجل كامل يباشر الأمور بنفسه غير محتاج إلينا ثم استشار الوزير أيضاً ابن عيسى فيمن يولى الخلافة، فلم يذكر له أحدا

فأعجب الوزير رأى ابن الفرات ومال إلى تولية أبى الفضل جعفر فلما مات المكتفى بايعوا أبا الفضل ولقبوه المقتدر بالله واستقرّت به الخلافة فاستصغره الوزير وجعل يتصرف هو فى الأمور، ثم عزم على خلعه وتقليد الخلافة لأبى عبد الله محمد بن المعتمد وكان حسن السيرة جميل الوجه والعمل فراسله فى ذلك ويبقى الأمر مستوراً ليتمكن الوزير من التغلب على غلمان المعتضد إن همّ بخلع المقتدر، واتفق أن وقعت منازعة بين أبى عبد الله المذكور وبين ابن عمرويه صاحب الشرطة بسبب ضيعة مشتركة بينهما فاغلظ له ابن عمرويه فغضب ابن المعتمد غضباً شديداً وأغمى عليه وأفلج فى المجلس فحمل إلى بيته فى محفة فمات فى اليوم الثانى فأراد الوزير البيعة لأبى الحسين بن المتوكل فمات أيضاً بعد خمسة أيام وأبى الله إلا أن يتم الأمر للمقتدر، فلما كانت سنة ست وتسعين ومائتين استمال الوزير العباس بن الحسن إلى رأيه جميع القواد والقضاة والكتاب فتعاهدوا على خلع المقتدر والبيعة لابن المعتز وأرسلوا إلى ابن المعتز فى ذلك فأجابهم على أن لا يحصل حرب ولا سفك دم فوافقوه على ذلك وجعلوا يتأهبون وعاد المقتدر فتودد إلى العباس الوزير، ورأى العباس أمره صالحاً مع المقتدر فاحجم عن خلعه وتزلف إليه فلما آنس منه ذلك جماعة القواد قاموا عليه وقتلوه وقتلوا معه فاتكا المعتضدى وأصبحوا وقد خلعوا المقتدر وبايعوا ابن المعتز وساروا إلى المقتدر ليقتلوه فلم يتمكنوا من ذلك فأحضروا ابن المعتز ولقبوه المرتضى بالله وأجلسوه على كرسى الخلافة فاستوزر محمد بن داود ابن الجراح وقلد علىّ بن عيسى الدواوين فكتب الكتب إلى الآفاق من أمير المؤمنين المرتضى بالله أبى العباس عبد الله بن المعتز بالله، وسير إلى المقتدر من يلزمه بالانتقال إلى دار ابن طاهرالتى كان مقيماً فيها لينتقل هو إلى دار الخلافة فطلب الإمهال إلى الليل وعاد الحسين بن حمدان يطلب المقتدر ليقتله وأحاط بدار الخلافة فقاتله الخدم والغلمان والرجالة من وراء الستور عامة النهار فانصرف عنهم ولما دخل الليل أخذ ماله وعياله وانصرف عن بغداد إلى الموصل ولم يبق مع المقتدر من القواد أحد سوى مؤنس الخادم ومؤنس الخازن وغريب الخال وحاشية دار الخلافة وقد صمموا على قتل ابن المعتز قبل قتلهم فجهزهم المقتدر بالأسلحة والدروع وركبوا فى السمريات وأصعدوا فى الماء يريدون مقرّ ابن المعتز فلما رآهم من عند ابن المعتز على هذا الحال هالهم أمرهم وكثرتهم وخافوا وهربوا على وجوههم قبل أن يصلوا إليهم وعلم ابن المعتز بذلك فركب ومعه وزيره محمد بن داود وهربا وغلام له ينادى بين يديه يامعشر العامة أدعوا لخليفتكم السنى البربهارى، قال بعض الكتاب: وإنما نسب

هذه النسبة لأن الحسين بن القاسم بن عبيد الله البربهارى كان مقدم الحنابلة والسنة من العامة ولهم فيه اعتقاد عظيم فأراد استمالتهم بهذا القول، وسار ابن المعتز ومن معه نحو الصحراء وكان يظن أن الجند الذين بايعوه يقومون لنصرته ويتبعونه حيث سار فلم يلحقه منهم أحد فلما خذل ابن المعتز نزل عن دابته ومعه غلام وانحدر إلى دار أبى عبد الله الجصاص مستجيرا به واختفى محمد بن داود فى داره وأختفى كل من بايع ابن المعتز فبرز ابن عمرويه وجمع أصحابه ونادى بشعار المقتدر تدليسا فقام عليه العامة وقاتلوه وسبوه فاختفى وتفرق أصحابه.

وتقوّت عزيمة المقتدر بعد ذلك فقلد الشرطة مؤنساً الخازن فخرج مؤنس بالعسكر وقبض على وصيف بن صوارتكين وغيره من أصحاب الفتنة فقتلهم وقتل القاضى المثنى أحمد بن يعقوب وأرسل المقتدر إلى ابن الفرات وكان مختفياً وقلده الوزارة وخلع عليه وفتشوا على المعتز فدلهم غلام لابن الجصاص أنه عند مولاه ومعه جماعة فكبست دار ابن الجصاص وأخذ ابن المعتز منها وحبس إلى الليل وعصرت خصيتاه حتى مات ولف فى زلى وسلم لأهله ونهبت أموال ابن الجصاص وقتل محمد بن داود وزير ابن المعتز ونفى على بن عيسى إلى واسط وسيرت العساكر من بغداد فى طلب الحسين بن حمدان فلم يظفروا به فعادوا فكتب الوزير إلى أبى الهيجاء أخى الحسين بن حمدان وهو الأمير على الموصل يومئذ يأمره بطلب الحسين والإتيان به إلى بغداد فسار خلفه وتبعه إلى حيث سار فكانت بينهما وقائع وأمور يطول شرحها ثم تقدم أبو الهيجاء إلى الوزير فى طلب العفو عن الحسين بن حمدان فأجابه الوزير إلى ذلك وعفا المقتدر عنه وعن آخرين ودخل الحسين بغداد وقام بها إلى أن ولى قم فسار إليها.

وجعل ابن الفرات الوزير يتصرف فى الأمور فبسط العدل والإحسان وأخرج الأرزاق والأموال للعباسيين والطالبيين وفرق الأموال فى القواد وأرضاهم وصرف عنهم ما يكرهون فمالوا إليه وأحبوه، ومما حكى عن مكارم أخلاق ابن الفرات المذكور، أنه كان بينه وبين سليمان بن الحسن بن مخلد مودة وصحبة قديمة فلما دانت للخليفة المقتدر الأمور بعد قتل ابن المعتز واستوزر ابن الفرات عثر ابن الفرات على كتب البيعةلابن المعتز فتاملها فإذا هى بخط سليمان لقرابة كانت بينه وبين ابن الجراح فلم يظهر عليها المقتدر وكتم أمرها عنه وأحسن إلى سليمان وقلده المناصب العالية فلما تمكن وظهرت كلمته سعى بابن الفرات إلى المقتدر وكتب بخطه مطالعة تتضمن ذكر أملاك الوزير وضياعه ومستغلاته وما يتعلق بأسبابه وأخذ الرقعة

ليوصلها إلى الخليفة المقتدر فلم يتهيأ له ذلك وجاء دار الوزير والرقعة معه فسقطت من كمه فظفر بها بعض الكتاب فأعطاها للوزير فلما قرأها تعجب جداً وقبض على سليمان وجعله فى زورق وأحدره إلى واسط ووكل به هناك وصادره فى جميع أمواله ثم أراد العفو عنه فكتب إليه، نظرت أعزك الله فى حقك علىّ وجرمك إلىّ فرأيتِ الحق موفى على الجرم وتذكرت من سالف خدمتك ما عطفنى عليك وثنانى إليك وأعادنى لك إلى أفضل ما عهدت وأجمل ما ألفت، ثم أطلق له عشرة آلاف درهم وعفا عنه وأكرمه واستعمله ولم تطل وزارة ابن الفرات هذا حتى وشى به الوشاة عند الخليفة المقتدر فقبض عليه واستصفى أمواله وهتك حرمته واعتقله ووكل به ونهبت دور أصحابه ومن يتعلق به ووقعت الفتنة ببغداد لقبضه ولقى الناس شدة عظيمة ثلاثة أيام ثم سكنوا وكانت مدة وزارته هذه ثلاث سنين وثمانية أشهر وثلاثة عشر يوماً وتولى الوزارة بعده أبو على محمد بن يحيى بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان فرتب أصحاب الدواوين وتولى الأمور وجعل يتصرف فيها ولكنه لم يفلح، لأنه كان ضجورا ضيق الصدر مهملاً لقراءة كتب العمال وجباية الأموال وكان يظهر التواضع ويتقرب من العامة والخاصة، وكان إذا رأى جماعة من العامة أو غيرهم يصلون جماعة نزل عن دابته وصلى معهم وإذا سأله أحد حاجة دق صدره. وقال: نعم وكرامة فسماه الناس دق صدره، وقصر فى إطلاق الأموال للجند والقواد فتفرقوا عنه وانحط قدر الوزارة واستصغرها الناس وكان أولاده كثيرو التحكم عليه فكانوا يأخذون الرشاوى ويسألونه قضاء حاجات الراشين لهم فقال فيه بعض الشعراء:

وزير قد تكامل في الرقاعه | يولي ثم يعزل بعد ساعه
إذا أهل الرشا اجتمعوا لديه | فخير القوم أوفرهم بضاعه
وليس يلام في هذا بحال | لأن الشيخ أفلت من مجاعه

ثم زاد الأمر به حتى تحكم أصحابه فكانوا يطلقون الأموال ويفسدون الأحوال فانحلت عقدة الوزارة وضعف أمرها وخرجت الممالك وطمع العمال فى الأطراف فلما زاد الحال أحضر الخليفة الوزير ابن الفرات من محبسه فجعله عنده فى بعض الحجر مكرماً فكان يعرض عليه مطالعات العمال وغير ذلك من الأعمال وأحسن إليه ثم عزل الخاقانى وسلم الوزارة لعلىّ بن عيسى والى مكة فأحسن التصرف وأصلح

الأمور ورتب الأشغال وأطلق الأموال، وعمر المساجد وفرشها ورتب لها المرتبات وأبطل بعض المكوس والمغارم التى أحدثها الخاقانى ثم خلعه وأعاد ابن الفرات ثم خلعه.

ولما كانت سنة ثلاثمائة هجرية جهز المهدى صاحب المغرب عسكرا عظيماً من أفريقية وسيرهم مع ولده أبى القاسم إلى الديار المصرية يريد غزوها وسلخها عن أملاك الخليفة المقتدر، فساروا إلى برقة واستولوا عليها وانحدروا منها إلى مصر فملكوا الإسكندرية ومدينة الفيوم وما بينهما وتصرف أبو القاسم فيما نزل عليه من البلاد وضيق على أهلها وجباهم وزاد فى المغارم والمكوس، فسير إليه الخليفة المقتدر بالله مؤنسا الخادم فى جيش عظيم فحاربهم وطالت الحرب بينهم وما زالت سجالاً حتى أجلاهم مؤنس عن مصر فعادوا إلى المغرب مهزومين فلم تكن إلا سنة سبع وثلاثمائة حتى أعاد المهدى ابنه أبا القاسم إلى مصر فى جيش ضخم للغاية فوصل إلى الإسكندرية فى ربيع الآخر فخرج عامل المقتدر عنها هارباً ودخلها القاسم وأقام بها المرابطين من أصحابه وانحدر إلى مصر فدخل الجيزة وملك الأشمونية ومدنا كثيرة من الصعيد الأوسط، وكتب إلى أهل مكة يدعوهم إلى الدخول فى طاعته فلم يقبلوا منه ووردت بذلك الأخبار إلى بغداد فسير المقتدر مؤنساً الخادم فى جيش لقتال أبى القاسم فوقعت بينهما عدة وقائع وقدم من المغرب ثمانون مركباً لنجدة أبى القاسم بن المهدى فأرست بالإسكندرية وعليها سليمان الخادم ويعقوب الكتامى وهما من أشجع قواد صاحب المغرب وأعرفهم بفنون الحرب، فخشى الخليفة المقتدر العاقبة وأمر فسيرو ا إلى الإسكندرية مراكب طرسوس وعدتها خمسة وعشرون مركباً وفيها النفط والعدد ومقدمها أبو اليمن فالتقت بمراكب صاحب المغرب واقتتلوا على رشيد قتالاً عنيفاً فظفر أصحاب مراكب المقتدر وأحرقوا كثيراً من مراكب صاحب المغرب وهلك أكثر من فيها من الجند وأسر منهم خلق وبينهم سليمان الخادم ويعقوب ومات سليمان بالحبس بمصر وحمل يعقوب إلى دار السلام ثم هرب منها وعاد إلى أفريقية وطالت أيام الحرب بين مؤنس الخادم وأبى القاسم بن المهدى ووقع الوباء فى عسكر أبى القاسم فمات منهم كثير فعاد من سلم إلى أفريقية وتبعهم عسكر مصر حتى أبعدوهم وسكنت الفتنة واطمأنت القلوب.

وكثر عزل الخليفة المقتدر للوزراء وكبار الدولة وقواد الجند. فكان يعزل الواحد منهم ويولى غيره ثم لا يلبث أن يخلعه ويولى غيره وهكذا حتى ضجر أصحابه وكرهوه وقامت الوحشة بينه وبين مؤنس الخادم ونوزك صاحب الشرطة وبعض قواده

فتآمروا على خلعه من الخلافة والبيعة لأخيه القاهر بالله محمد بن المعتضد، فخرج مؤنس فى عسكره وخرج معه بقية المشاغبين وأحاطوا بدار الخلافة فتفرق من كان بها مع المقتدر وهرب جميع الخدم والأتباع والوزير أبو على ابن مقلة، ودخل مؤنس الدار وأخرج المقتدر ووالدته وخالته وخواصه من الجوارى وأولاده من دار الخلافة وحملوا إلى دار مؤنس فاعتقلوا بها وأحضروا محمد بن المعتضد وبايعوه بالخلافة ولقبوه القاهر بالله وأحضروا القاضى أبا عمر عند المقتدر ليشهد عليه بالخلع فأشهد عليه القاضى بالخلع فقام ابن حمدان وقال للمقتدر: ياسيدى يعز علىّ أن أراك على هذه الحال. وقد كنت أخافها عليك وأحذرها وأنصح لك وأحذرك عاقبة تقرّب الخدم والنساء منك فتؤثر أقوالهم على قولى وكأنى كنت أرى هذا، وبعد فنحن عبيدك وخدمك ودمعت عيناه وعينا المقتدر بالله وشهد الجماعة على المقتدر بالخلع وأودعوا الكتاب بذلك عند القاضى أبى عمر فكتمه ولم يظهره لأحد وأخرج مؤنس الخادم علىّ بن عيسى من الحبس ورتب أبا علىّ بن مقلة فى الوزارة وأضاف إلى نازوك مع الشرطة حجبة الخليفة وكتب بذلك إلى الآفاق ونهبت دار الخليفة وأخرجوا من قبر لوالدة المقتدر قد بنته لنفسها ستمائة ألف دينار فحملت إلى دار الخلافة.

وكان خلع المقتدر فى النصف من المحرم ثم سكنت الحال وبطل النهب. وقد كان عم بغداد كلها وتطاولت أيدى العامة إلى فعل ما لا خير فيه، ولما تم لنازوك أمر حجبة الخليفة أمر الرجالة المصافية بخلع خيامهم من دار الخلافة وأمر أصحابه أن يقيموا بمكانهم فعظم ذلك على المصافية وتقدّم نازوك إلى خلفاء الحجاب أن لا يمكنوا أحداً من الدخول إلى دار الخليفة إلا من له مرتبة، فلما كان يوم الاثنين سابع عشر المحرم بكر الناس إلى دار الخلافة ليروا موكب الخليفة الجديد فامتلأت المراحات والرحبات والطرق وشاطىء دجلة بالناس وكثر الزحام واختلط الناس بعضهم ببعض وحضر الرجالة المصافية شاكى السلاح يطالبون بحق البيعة وجوامك سنة، وكان الحامل لهم على ذلك غيظهم مما فعله بهم نازوك صاحب الشرطة والحجابة من خلع خيامهم وإخراجهم من دار الخلافة، ثم صاحوا وارتفعت زعقاتهم فسمع بها نازوك فخاف أن يقع بينهم وبين أصحابه فتنة وقتال فتقدم إلى أصحابه وأمرهم أن لا يتعرضوا لهم ولا يقاتلوهم فزاد شغبهم وهجموا يريدون صحن الدار فلم يمنعهم أصحاب نازوك فدخلوا جميعاً وبأيديهم السلاح ووصلت أصواتهم إلى مجلس القاهر بالله وعنده أبو علىّ بن مقلة الوزير ونازوك: وأبو الهيجاء بن حمدان فقال الخليفة لنازوك أخرج إلى أولئك القوم فسكنهم وطيب قلوبهم فخرج إليهم

وهو مخمور قد شرب طول ليلته فتقدّم إليه الرجالة ليشكوا حالهم ويطلبوا ما لهم من الجوامك فلما رآهم يقصدونه وبأيديهم السيوف خافهم على نفسه فهرب فطمعوا فيه وتبعوه فانتهى به الهرب إلى باب مسدود فأدركوه عنده فقتلوه بالسيوف وقتلوا خادمه وصاحوا يامقتدر، يامنصور، فهرب كل من كان فى الدار من الوزير والحجاب وسائر الطبقات وبقيت الدار فارغة فحملوا نازوك وصلبوه هو وخادمه أمام دجلة ثم ساروا إلى دار مؤنس وهم فى ضجة شديدة وزعقات متتابعة وطالبوه بالمقتدر وغلمانه وأراد أبو الهيجاء بن حمدان أن يخرج من الدار فتعلق به القاهر. وقال أنا فى ذمامك فأخذ بيده وهمّا بالخروج فوجدا الأبواب مغلقة ورأى الظاهر كثرة الجمع فاشتدّ خوفه وحار فى أمره واختفى فى بستان الدار ودخل بعض الخدم فقتلوا أبا الهيجاء واحتزوا رأسه وحملوها واشتدّت زعقات الرجالة المصافية على مؤنس الخادم فقال: وماذا تريدون؟ قالوا: نريد المقتدر بالله الساعة فأمر بتسليمه إليهم فلم يقبل المقتدر الخروج وخاف على نفسه وامتنع فدخلوا عليه وحملوه وأخرجوه فحمله الرجالة على رقابهم حتى أدخلوه دار الخلافة فسأل عن أخيه القاهر وابن حمدان فقيل له هما حيان، فكتب لهم أماناً بخطه وأمر خادما بالسرعة بكتاب الأمان لئلا يحدث على أبى الهيجاء حادث فجىء له برأس أبى الهيجاء فأسف عليه كثيراً وأحضروا إليه القاهر فأدناه منه وأجلسه بجانبه وقبل جبينه وقال له: ياأخى قد علمت أن لا ذنب لك وأنك قهرت ولو لقبوك بالمقهور لكان أولى من القاهر. والقاهر يقول: ياأمير المؤمنين نفسى نفسى أذكر الرحم التى بينى وبينك فقال له المقتدر: لا بأس عليك ولا تخف وأقسم له الإيمان فسكن خوفه وأطمأن قلبه وأخرجوا رأس نازوك ورأس أبى الهيجاء وشهراً ونودى عليهما هذا جزاء من عصى مولاه وأحضر المقتدر أبا علىّ بن مقلة وأعاده إلى وزارته وكتب إلى الآفاق بما تجدد له وسكنت الفتنة وأطلق للجند أرزاقهم وزادهم وأتم أعطياتهم قالوا وأمّن مؤنساً الخادم ولم يفعل به شيئاً لأن إرجاع المقتدر إلى منصب الخلافة بعد خلعه كان بإرشاد مؤنس وتدبيره، وجعل الخليفة المقتدر يتصرف فى الأمور ويعزل ويولى فى الوزراء وأصحاب الرتب العالية ولم يقلع عما كان فيه حتى وقعت الوحشة بينه وبين مؤنس الخادم بسبب ذلك وحقد مؤنس على المقتدر وناواه الشر وجعل يراقب الفرص حتى فرغ بيت المال ولم يبق فيه ما يسدّ طلبات الجند وأرزاقهم فأشار عليهم مؤنس بالخروج وطلب أرزاقهم فخرجوا جميعا وشغبوا وطلبوا من الخليفة المال فخاف وأراد أن ينحدر إلى واسط ويكاتب العساكر من جهة البصرة والأهواز وفارس وكرمان

وغيرها ويترك بغداد لمؤنس وأصحابه إلى أن يجتمع به العسكر ويعود إلى قتاله فردوه عن ذلك وزينوا له البقاء والخروج بمن عنده من الجند لقتال مؤنس وأصحابه، فخرج كارهاً وبين يديه الفقهاء والقراء معهم والمصاحف مشهورة وعليه البردة والناس حوله فوقف على تل عال بعيد عن المعركة فأرسل قواد أصحابه يسألونه التقدم وأكثروا الرسل وهو واقف فلما ألحوا عليه تقدم من موضعه فانهزم أصحابه قبل أن يقترب منهم ولقيه على بن بليق وهو من أصحاب مؤنس فترجل وقبل الأرض، وقال له: إلى أين تمضى ارجع فلعن الله من أشار عليك بالحضور فأراد الرجوع فلقيه قوم من المغاربة والبربر فتركه علىّ معهم وسار عنهم فشهروا عليه سيوفهم فقال ويحكما أنا الخليفة فقالوا قد عرفناك ياسفلة أنت خليفة إبليس تبذل فى كل رأس خمسة دنانير وفى كل أسير عشرة دنانير. وكان قبل هزيمة أصحابه نادى مناديه بذلك ثم ضربه أحد المغاربة بسيفه على عاتقه فسقط على الأرض وذبحه بعضهم، قيل: أن على بن بليق هو الذى غمز عليه فقتلوه ورفعوا رأسه على خشبة وهم يكبرون ويلعنونه وأخذوا جميع ما عليه حتى سراويله وتركوه مكشوف العورة إلى أن مرّ به رجل من الاكرة فستره بحشيش ثم حفر له موضعه ودفن وأخفى قبره. وكان قتله وقت صلاة العصر يوم الأربعاء لثلاث ليال بقين من شوال سنة عشرين وثلاثمائة هجرية أي نحو سنة أربع وستين وتسعمائة ميلادية وكان وزيره يومئذ أبا الفتح الفضل بن جعفر، ذكر أن الفضل المذكور أخذ الطالع فى وقت ركوب المقتدر بالله إلى الواقعة التى قتل فيها فقال له المقتدر: أىّ وقت هو؟ قال: وقت الزوال فقطب المقتدر وأراد أن لا يخرج فلم يقدر على ذلك فكان آخر العهد به من ذلك الوقت، قال بعض الكتاب: وهذا دليل القائلين أن كل سادس من بنى العباس مخلوع مقتول، قلت فكان السادس منهم محمد بن هارون مخلوع والسادس الآخر المستعين والسادس الآخر المقتدر بالله وهو ثامن عشرهم وكانت خلافته أربعا وعشرين سنة وأحد عشر شهراً وستة عشر يوماً وله من العمر ثمان وثلاثون سنة وخمسة عشر يوماً وقيل غير ذلك، وكان كثير الطاعة والانقياد إلى النساء والخدم يأخذ بأقوالهم ويعمل بمشورتهم، قال صاحب النشوان وغيره أن صافيا مولى المقتدر. قال: مشيت يوماً بين يدى المعتضد يعنى أبا المقتدر بالله وهو يريد دار الحرم فلما بلغ باب دار المقتدر وقف وتسمع وتطلع من خلل فى الستر فإذا هو بالمقتدر وله إذ ذاك خمس سنين أو نحوها وهو جالس وحوله قدر عشرة وصائف من أترابه فى

قدر سنه وبين يديه طبق فضة فيه عنقود عنب فى وقت فيه العنب عزيز جداً والصبى يأكل عنبة واحدة ثم يطعم الجماعة عنبة عنبة على الدور حتى إذا بلغ الدور إليه أكل واحدة مثل ما أكلوا حتى فنى العنقود والمعتضد يتميز غيظاً ثم رجع ولم يدخل الدار فرأيته مهموماً فقلت يامولاى ما سبب ما فعلت، فقال: ياصافى والله لولا العار والنار لقتلت هذا الغلام اليوم يعنى المقتدر فإن فى قتله صلاحاً للأمة فقلت يامولاى ما شأنه وأىّ شيء عمل أعيذك بالله يامولاى من هذا، فقال: ويحك أنا أبصربما أقول أنا رجل قدست الأمور وأصلحت الدنيا بعد فساد شديد ولابد من موتى وأنا أعلم بعدى لا يختارون أحداً على ولدى وأنهم سيجلسون ابنى عليا يعنى المكتفى وما أظن عمره يطول للعلة التى به يعنى الخنازير التى كانت فى حلقه فيتلف عن قريب ولا يرى الناس إخراجها عن ولدى ولا يجدون بعده أمثل من جعفر يعنى المقتدر وهو صبى وله من الطبع والسجايا هذا الذى رأيته من أنه أطعم الوصائف مثل ما أكل وساوى بينه وبينهن فى شيء عزيز فى العالم والشح على مثله فى طباع الصبيان غالب فتحتوى عليه النساء لقرب عهده بهن فيقسم ما جمعته من الأموال كما قسم العنب ويذر ارتفاع الدنيا فتضيع الثغور وتعظم الأمور وتخرج الخوارج وتحدث الأسباب التى يكون منها زوال الملك عن بنى العباس رأساً فقلت: يامولاى يبقيك الله حتى ينشأ فى حياتك ويصير كهلا فى أيامك ويتأدب بأدبك ويتخلق بأخلاقك ولا يكون هذا الذى ظننت، فقال: ويحك احفظ عنى ما أقول لك فأنه كما قلت قال ومكث يومه مهموماً مغموماً وضرب الدهر ضرباته ومات المعتضد وولى المكتفى ولم يطل عمره فمات وولى المقتدر فكانت الصورة كما قال مولاى المعتضد بعينها فكنت كلما ذكرت قوله أعجبت منه فوالله لقد وقفت على رأس المقتدر وهو فى مجلس لهو فدعا بالأموال فأخرجت إليه ووضعت البدر بين يديه فجعل يفرقها على الجوارى والنساء ويلعب بها ويمحقها ويهبها ففكرت قول مولاى المعتضد اهـ.

واستعمل المقتدر على مصر فى خلافته أبا منصور تكين الخاص ثم صرفه فى سنة ثلاث وثلاثمائة وولى ذكاء أبا الحسن ثم صرف وأعيد تكين ثم صرف سنة تسع وولى هلال ابن بدر ثم صرف فى سنة إحدى عشرة وولى أحمد بن كيغلغ ثم صرف من عامه وأعيد تكين الخاص فأقام إلى أن مات سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة فى خلافة القاهر بن أحمد المعتضد كما سيذكر فى محله.

(الفصل التاسع عشر)

(فى خلافة القاهر بالله محمد بن أحمد المعتضد)

ثم قام بالأمر بعد المقتدر أخوه أبو منصور محمد بن أحمد المعتضد بالله بويع له بالخلافة ببغدد لليلتين بقيتا من شوال سنة عشرين وثلاثمائة هجرية أى نحو سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة ميلادية ولقب بالقاهر وكان الذى أشار بالبيعة له أبو يعقوب إسحق بن إسماعيل النوبختى وما زال بمؤنس الخادم حتى استماله إلى ذلك فأحضروه وبايعوه وكان مؤنس يخافه ويعرف شره فلما تمت له استحلفه مؤنس لنفسه ولحاجبه بليق ولعلى بن بليق وأخذوا خطه بذلك تحرزا من بطشه وأرسل القاهر إلى فارس فى طلب ابن مقلة فحضر فاستوزره واستحجب على بن بليق وجعل يتصرف فى الأمور فاحضر والدة المقتدر وطالبها بما عندها من الأموال فاعترفت له بما عندها من المصوغ والثياب ولم تعترف بشىء من المال والجوهر فضربها أشد ما يكون من الضرب وعلقها برجلها وضرب المواضع الغامضة من بدنها فحلفت أنها لم تملك غير ما أطلعته عليه، وقالت: لو كان عندى مال لما أسلمت ولدى للقتل ثم صادر جميع حاشية المقتدر وأصحابه وحل جميع أوقاف والدة المقتدر وباعها وقد كانت موقوفة على البر والخير وشدد فى البحث على أولاد المقتدر فكبس أعوانه الدور وفتشوها وأزعجوا الناس وما زالوا حتى عثروا على أبى العباس الراضى وهرون وعلى والعباس وإبراهيم والفضل فحملوهم إلى دار الخلافة فصودروا على مال كثير، ثم وكل بهم من يناظرهم واشتد القاهر بالله على أصحاب المراتب فى دولته وأهل الوظائف فى بابه ولا سيما مؤنس الخادم وابن مقلة وابن بليق فكبر عليهم الأمر وخشوا العاقبة فأوعز مؤنس إلى أصحابه أن يأتوه بأخبار القاهر ووكل ابن بليق على دار القاهر أحمد بن زيرك وأمره بالتضييق على القاهر وتفتيش كل من يدخل إلى الدار ويخرج منها وأن يكشف وجوه النساء المتنقبات وإن وجد مع أحد رقعة دفعها إلى مؤنس الخادم ففعل ذلك وبالغ فى التشديد وأخرجوا من كان محبوساً فى دار الخلافة وبينهم والدة الخليفة المقتدر فأخذها ابن بليق وتركها عند والدته وقد أشتدت بها علتها من ضرب القاهر فماتت فى جمادى الآخرة وكانت مكرمة مرفهة فدفنت فى تربتها بالرصافة فاضطرب القاهر من ذلك وعلم بأن ذلك إنما هو برأى مؤنس وابن مقلة فأخذ فى تدبير الحيلة وقد تمكن من إلقاء الفتنة بين الأحزاب وما زال حتى

افتتنوا وتفرّق عن مؤنس أصحابه من طوائف الجند الذين كان معتمده عليهم ثم قبض على مؤنس وحبسه فى دار الخلافة وأراد القبض على ابن مقلة فاختفى فقلد الخليفة الوزارة أبا جعفر محمد بن القاسم بن عبيد الله وختم على دور مؤنس الخادم وابنه ودور ابن مقلة وأحمد بن زيرك والحسن بن هرون وجميع من كان له يد فى المشاغبة ونقل دوابهم ووكل بنسائهم وأمر بإحراق دار ابن مقلة فأحرقت ونهبت دور أتباعهم ونادى على المستترين منهم وإباحة مال من أخفاهم وهدم داره واجتهد فى طلب أحمد بن المكتفى فظفر به فبنى عليه حائطاً وهو حى فمات وقد كانوا على عزم البيعة له وخلع المقتدر قبل ظهور أمرهم بأيام.

ولما طال على مؤنس الحبس دس إلى أصحابه من يحرضهم على الخروج على الخليفة والنداء بشعار مؤنس فثاروا وتبعهم سائر الجند وشغبوا وأحرقوا روشن دار الوزير أبى جعفر وقالوا: لا نرضى إلا بإطلاق مؤنس فلما عظم شغبهم دخل القاهر على علىّ بن بليق فأمر به فذبح واحتز رأسه فوضعوه فى طشت ثم مضى القاهر والطشت يحمل بين يديه حتى دخل على بليق فوضع الطشت بين يديه وفيه رأس ابنه فلما رآه بكى وأخذ يقبله ويرتشفه فأمر به القاهر فذبح أيضاً وجعل رأسه فى طشت وحمل بين يدى القاهر حتى دخل على مؤنس فوضعهما بين يديه فلما رأى الرأسين تشهد واسترجع ولعن قاتلهما، فقال القاهر: جروا برجل الكلب الملعون فجروه وذبحوه وجعلوا رأسه فى طشت وأمر بالرؤس فطيف بها فى جانبى بغداد ونودى عليها هذا جزاء من يخون الإمام ويسعى فى فساد دولته ثم أعيدت ونظفت وجعلت فى خزانة الرؤس كما هى العادة فى مثل هذه الأحوال عند الخلفاء، وكثر عسف القاهر بالله وسفكه للدماء ونكثه للعهود والإيمان التى حلفها إلى كبار العسكر الساجية وغيرهم من الذين قاموا لنصرته فأبغضوه وعملوا على خلعه وزادت رغبتهم فى ذلك بظهور علىّ بن مقلة بينهم والاجتماع بهم ليلاً تارة فى زى أعمى وتارة فى زى مكدى وتارة فى زى امرأة ويغريهم به ويخوّفهم من شره ويذكر لهم غدره ونكثه وشره وخبثه وبالغ فى تحذير سيما كبير العسكر الساجية وتخويفه حتى بادروا جميعاً وهموا بخلعه فجمع سيما جميع العسكر الساجية وأعطاهم العدّة والسلاح وتحالفوا مع العسكر الحجرية أيضاً على أن يكونوا جميعاً على قلب رجل واحد وقتل من خالف منهم فاتصل ذلك بالقاهر ووزيره الخصيبى فأعملا الحيلة على إفساد أمرهم فلم يفلحا فلما كان يوم الأربعاء لست خلون من جمادى الأولى اجتمع الساجية والحجرية ومقدّمهم سيما وزحفوا إلى دار الخلافة ووكل سيما بأبوابها

من يحفظها وبقى هو على باب العامة وهجموا على الدار من سائر الأبواب وكان القاهر نائماً مخمورا قد شرب أكثر ليلته فلما علا الضجيج وتتابعت زعقات الجند استيقظ مخمورا وطلب بابا يهرب منه فقيل له أن الأبواب جميعها مشحونة بالرجال فهرب إلى سطح حمام ودخل الجند فلم يجدوه فأخذوا الخدم وسألوهم عنه فدلوهم عليه فقصدوه فوجدوه وبيده السيف فاجتهدوا به فلم ينزل لهم فتلاينوا له فلم يقبل منهم. وقال: من صعد إلىّ قتلته فأخذ أحدهم سهما وقال إن نزلت وإلا وضعته فى نحرك فنزل حينئذ إليهم فأخذوا وساروا به إلى الحبس فحبسوه ثم سملوا عينيه وهرب وزيره الخصيبى ولبث القاهر معتقلاً إلى أن تمت البيعة لأبى العباس أحمد بن المقتدر بالله ثم كان من أمره ما سيذكر فى محله إن شاء الله.

وكان القاهر كثير التقلب سريع الغضب شديد البطش سفاكاً للدم فخافه الناس وخشوا سطوته واتخذ حربة عظيمة يحملها فى يده إذا سعى فى الدار ويطرحها بين يديه فى حال جلوسه ويباشر الحرب بها لمن يريد قتله. وكان قليل التثبت فى أمره، قال محمد بن علىّ العبدى الخراسانى الإخبارى: وكان القاهر به آنسا، قال: خلا بى يوماً فقال أصدقنى أو هذه وأشار إلىّ بالحربة فرأيت والله الموت عياناً بينى وبينه فقلت: أصدقك ياأمير المؤمنين، فقال لى: انظر يقولها ثلاثاً فقلت: نعم ياأمير المؤمنين قال: عما أسألك عنه ولا تغيب عنى شيئاً ولا تحسن القصة ولا تسجع فيها ولا تسقط منها شيئاً، قلت: نعم ياأمير المؤمنين، قال: أنت علامة بأخبار بنى العباس من أخلاقهم وشيمهم من أبى العباس فمن دونه، فقلت على أن لى الأمان ياأمير المؤمنين، قال: ذلك لك قال: قلت أما أبو العباس السفاح فكان سريعاً إلى سفك الدماء واتبعه عماله فى المشرق والمغرب فى فعله واستنوا بسيرته مثل محمد بن الأشعث بالغرب وصالح بن علىّ بمصر وحازم بن جذيمة وحميد بن قحطبة، وكان مع ذلك بحرا سمحا وصولاً جوادا بالمال وسلك من ذكرنا ممن كان فى عصره سبيله وذهبوا مذهبه مؤتمين به، قال وأخبرنى عن المنصور، قلت: الصدق ياأمير المؤمنين، قال: الصدق، قلت: كان والله أول من أوقع الفرقة بين ولد العباس بن عبد المطلب وبين آل أبى طالب وقد كان قبل ذلك أمرهم واحداً وكان أوّل خليفة قرّب المنجمين وعمل بأحكام النجوم وكان معه نوبخت المجوسى المنجم وأسلم على يديه وهو أبو هؤلاء النوبختية وإبراهيم الفزارى المنجم صاحب القصيدة فى النجوم وغير ذلك من علوم النجوم وهيئة الفلك وعلىّ بن عيسى الأسطر لأبى المنجم وهو أول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات الأعجمية إلى العربية منها كتاب كليلة ودمنة وكتاب

السندهند وترجمت له كتب أرسطاطاليس من المنطقيات وغيرها وترجم له كتاب المجسطي لبطليموس وكتاب الأرتماطيقى وكتاب إقليدس وسائر الكتب القديمة من اليونانية والرومية والفهلوية والفارسية والسريانية، وخرجت إلى الناس فنظروا فيها وتعلقوا إلى علمها، وفى أيامه وضع محمد بن إسحق كتاب المغازى والسير وأخبار المبتدأ ولم تكن قبل ذلك مجموعة ولا معروفة ولا مصنفة وكان أوّل خليفة استعمل مواليه وغلمانه وصرفهم فى مهماته وقدّمهم على العرب فاتخذت ذلك الخلفاء من بعده من ولده فسقطت وبادت العرب وزال بأسها وذهبت مراتبها وأفضت الخلافة إليه وقد نظر فى العلوم وقرأ المذاهب وارتاض فى الآراء ووقف على النحل وكتب الحديث فكثرت فى أيامه روايات الناس واتسعت عليهم علومهم.

قال القاهر: قد قلت فأحسنت وعبرت فبينت فأخبرنى عن المهدى كيف كانت خلافته، قلت: كان سمحاً سخياً كريماً جواداً فسلك الناس فى عصره سبيله وذهبوا فى أمرهم مذهبه واتسعوا فى مساعيهم وكان من فعله فى ركوبه أن يحمل معه بدر الدنانير والدراهم فلا يسأله أحد إلا أعطاه وإن سكت ابتدأه المفرّق بين يديه وقد تقدّم بذلك إليه وأمعن فى قتل الملحدين والمداهنين عن الدين لظهورهم فى أيامه وإعلانهم باعتقاداتهم فى خلافته لما انتشر من كتب مانى وابن ديصان ومرقيون مما نقله عبد الله بن المقفع وغيره وترجمت من الفارسية والفهلوية إلى العربية وما صنف فى ذلك ابن أبى العرجاء وحماد عجرد ويحيى بن زياد ومطيع بن إياس من تأييد المذاهب المانية والدنسانية والمرقونية فكثرت بذلك الزنادقة وظهرت آراؤهم فى الناس، وكان المهدى أوّل من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب على الملحدين ممن ذكرنا من الجاحدين وغيرهم وأقاموا البراهين على المعاندين وأزالوا شبه الملحدين فأوضحوا الحق للشاكرين، وشرع فى بناء المسجد الحرام ومسجد النبيّ ﷺ على ما هما عليه إلى هذه الغاية وبنى بيت المقدس، وقد كان هدمته الزلازل، قال: فأخبرنى عن الهادى على قصر مدّته كيف كانت أخلاقه وشيمه، قلت: كان جباراً عظيماً وأوّل من مشت الرجال بين يديه بالسيوف المرهفة والأعمدة المشهورة والقسيّ الموترة فسلكت عماله طريقه ويمموا منهجه وكثر السلاح فى عصره، قال: لقد أجدت فى وصفك وبالغت فيما ذكرت من قولك فأخبرنى عن الرشيد كيف كانت طريقته، قلت: كان مواظباً على الحج والغزو واتخاذ المصانع والآبار والبرك والقصور فى طريق مكة وأظهر ذلك بها وبمنى وعرفات ومدينة النبىّ ﷺ فعم الناس إحسانه مع ما قرن به من عدله، ثم بنى الثغور ومدّن المدن

وحصّن فيها الحصون مثل: طرسوس وأدنة وعمر المصيصة ومرعش وأحكم بناء الحرب وغير ذلك من دور السبيل والمواضع للمرابطين واتبعه عماله وسلكوا طريقته وتبعته رعيته مقتدية بعمله مستنة بإمامته فغمط الباطل وأظهر الحق وأنار الإسلام وبرز على سائر الأمم وكان أحسن الناس فى أيامه فعلاً أم جعفر زبيدة بنت جعفر ابن المنصور لما أحدثته من بناء دور السبيل بمكة واتخاذ المصانع والبرك والآبار بمكة وطريقها المعروف إلى هذه الغاية، وما أحدثته من الدور للتسبيل بالثغر الشامى وطرسوس وما أوقفت على ذلك من الوقوف وما ظهر فى أيامه من فعل البرامكة وجودهم وأفضالهم وما اشتهر عنهم من أفعالهم، وكان الرشيد أول خليفة لعب بالصوبجان فى الميدان ورمى بالنشاب فى البرجاس ولعب بالإكرة والطبطاب وقرب الحذاق فى ذلك فعم الناس ذلك الفعل وكان أول من لعب بالشطرنج من خلفاء بنى العباس والنرد وقدم اللعاب وأجرى عليهم الرزق فسمى الناس أيامه لنضارتها وكثرة خيرها وخصبها أيام العروس وله كثير مما يتجاوز النعت ويتفاوت فيه الوصف، قال القاهر: فأراك قد قصرت فى تفصيل أم جعفر فلم ذلك، قلت: ياأمير المؤمنين ميلاً إلى الاختصار وطلباً للإيجاز قال فتناول الحربة وهزها فرأيت الموت الأحمر فى طرفها ثم برق عينه مع ذلك فاستسلمت وقلت: هذا ملك الموت ولم أشك أنه يقبض روحى فأهوى بها نحوى فزغت منه فاسترجع وقد أخطأتنى فقال ويلك أبغضت ما فيه عيناك ومللت الحياة قلت : ما هو ياأمير المؤمنين، قال: أخبار أم جعفر زدنى منها، قلت: نعم ياأمير المؤمنين كان من فعلها وحسن سيرتها فى الجد والهزل ما برّزت فيه عن غيرها فأما الجد والآثار الجميلة التى لم يكن فى الإسلام مثلها مثل حفرها العين المعروفة بعين المشاش بالحجاز فإنها حفرتها ومهدت الطريق لمائها فى كل خفض ورفع وسهل وجبل ووعر حتى أخرجتها من مسافة اثنى عشر ميلاً إلى مكة فكان جملة ما أنفق عليها مما ذكر وأحصى ألف ألف وسبعمائة ألف دينار وما قدمت ذكره من المصانع والدور والبرك والآبار بالثغور والحجاز وإنفاقها الألوف على ذلك دون ما كان فى وقتها من البذل وما عم أهل الفاقة من المعروف والخصب. وأما الوجه الثانى مما تتباهى به الملوك فى أعمالهم وينعمون به فى أيامهم ويصونون به دولهم ويدوّن فى أفعالهم وسيرهم فهو: أنها أول من اتخذ الآلة من الذهب والفضة المكللة بالجوهر وصنع لها الرفيع من الوشى حتى بلغ الثوب من الوشى الذى اتخذ لها خمسين ألف دينار وهى أول من اتخذ الشاكرية من

الخدم والجوارى يختلفون على الدواب فى جهاتها ويذهبون فى حوائجها برسائلها وكتبها وأول من اتخذ القباب الفضة والآبنوس والصندل وكلاليبها من الذهب والفضة ملبسة بالوشى والسمور والديباج وأنواع الحرير من الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق واتخذت الخفاف المرصعة بالجوهر وشمع العنبر وتشبه الناس فى سائر أفعالهم بأم جعفر ولما افضى الأمر إلى ولدها ياأمير المؤمنين قدم الخدم وآثرهم ورفع منازلهم ككوثر وغيره من خدمه فلما رأت أم جعفر شدة شغفه بالخدم واشتغاله بهم اتخذت الجوارى المقدودات الحسان الوجوه وعممت رؤوسهن وجعلت لهن الطرر والأصداغ والأقفية وألبستهن الأقبية والقراطق والمناطق فبانت قدودهن وبرزت أردافهن وبعثت بهن إليه فاختلفن بين يديه فاستحسنهن واجتذبن قلبه إليهن وأبرزهن للناس من الخاص والعام واتخذ الناس من الخاصة والعامة الجوارى المطمومات وألبسوهن الأقبية والمناطق وسموهن الغلاميات، فلما سمع القاهر ذلك الوصف ذهب به الفرح والطرب والسرور ونادى بأعلى صوته ياغلام قدح على وصف الغلاميات فبادر إليه جوار كثيرة قدّهن واحد توهمتهن غلماناً بالقراطق والأقبية والطرر ومناطق الذهب والفضة فأخذ الكأس بيده فأقبلت أتأمل صفاء جوهر الكأس ونورية الشراب وشعاعه وحسن أولئك الجوارى والحربة بين يديه وأسرع فى شربه فقال: هيه، قلت: نعم ياأمير المؤمنين. ثم أفضى الأمر إلى المأمون فكان فى بدء أمره لما غلب عليه الفضل بن سهل وغيره يستعمل النظر فى أحكام النجوم وقضاياها وينقاد إلى موجباتها ويذهب مذاهب من سلف من ملوك ساسان كاردشير ابن بابك واجتهد فى قراءة الكتب القديمة وأمعن فى دراستها وواظب على قراءتها فتفنن فى فهمها وبلغ درايتها فلما كان من الفضل بن سهل ذى الرياستين ما اشتهر وقدم العراق فانصرف عن ذلك كله وأظهر القول بالتوحيد والوعد والوعيد وجالس المتكلمين وقرّب إليه كثيراً من الجدليين والنظارين كأبى الهذيل وأبى إسحق وإبراهيم ابن سيار النظام وغيرهم ممن وافقهم وخالفهم وألزم مجلسه الفقهاء وأهل المعرفة من الأدباء وأقدمهم من الأمصار وأجرى عليهم الأرزاق فرغب الناس فى صنعة النظر وتعلموا البحث والجدل ووضع كل فريق منهم كتبا ينصر فيها مذهبه ويؤيد بها قوله وكان أكثر الناس عفوا وأشدّهم احتمالاً وأحسنهم مقدرة وأجودهم بالمال الرغيب وأبذلهم للعطايا وأبعدهم عن التسافه وأتبعه وزراؤه وأصحابه فى فعله وسلكوا سبيله وذهبوا مذهبه، ثم المعتصم فإنه ياأمير المؤمنين سلك فى النحلة رأى أخيه المأمون

وغلب عليه حب الفروسية والتشبه بالملوك الأعاجم فى الآلة ولبس القلانس والشاشيات فلبسها الناس اقتداء بفعله وائتماما به فسميت المعتصميات وعم الناس أفضاله وأمنت به السبل فى أيامه وشمل إحسانه، ثم هارون بن محمد الواثق فإنه اتبع ديانة أبيه وعمه وعاقب المخالف وامتحن الناس وكثر معروفه وأمر القضاة فى سائر الأمصار أن لا يقبلوا شهادة من خالفه وكان كثير الأكل واسع العطاء سهل الانقياد متحببا إلى رعيته ، ثم المتوكل ياأمير المؤمنين فإنه خالف ما كان عليه المأمون والمعتصم والواثق من الاعتقاد ونهى عن الجدل والمناظرة فى الآراء وعاقب عليه وأمر بالتقليد وأظهر الرواية للحديث فحسنت أيامه وانتظمت دولته ودام ملكه وغير ذلك ياأمير المؤمنين مما اشتهر من أخلاقه، فقال القاهر: قد سمعت كلامك وكأنى مشاهد للقوم على ما وصفت معاين لهم فيما ذكرت ولقد سرنى ما سمعت منك ولقد فتحت أبواب السياسة وأخبرت عن طرق الرياسة قال المحدث: ثم أمر لى بجائزة عجل لى عطاءها فى وقتها، ثم قال لى: إذا شئت فقم فقمت وقام على أثرى بحربته فخيل لى والله أنه يرمينى بها من ورائى ثم عطف نحو دار الخدم فما مضت إلا أيام يسيرة حتى كان من أمره ما ظهر اهـ.

قال ابن البطريق: فى تاريخه وكان القاهر قد ارتكب أموراً قبيحة لا يسمع بمثلها فى الإسلام وذكر منها طرفا طويلاً أضربنا عن إيراده هنا، وحكى أن رجلاً قال صليت فى جامع المنصور ببغداد فإذا أنا بإنسان عليه جبة غابية وقد ذهب وجهها وبقى بعض قطن بطانتها وهو يقول: أيها الناس تصدّقوا علىّ بالأمس كنت أمير المؤمنين وأنا اليوم من فقراء المسلمين فسألت عنه فقيل لى أنه القاهر بالله. اهـ.

قلت: وفى هذه الحكاية تذكرة وعبرة والله ليس بظلام للعبيد.

واستعمل القاهر بالله على ديار مصر فى خلافته بعد موت تكين الخاص سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة محمدا ابنه وصير إليه بتنفيذ الولاية واستقرارها فخرج عليه الجند وشقوا عصا الطاعة فقاتلهم محمد بن تكين واشتدّت الفتنة وكادت تعم البلاد وكثر شغب الغوغاء وتطاولت أيديهم إلى النهب والسلب وذهب الأمن وكثر الخوف وانكمش الناس بمصر أياما حتى ظفر محمد بالخوارج وأرجع الأحزاب إلى الطاعة فلم تستقر به الولاية حتى صرف وولى أبو بكر محمد بن طغج الملقب بالإخشيد ثم صرف من عامه وأعيد أحمد بن كيغلغ إلى أن صرف سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة فى خلافة الراضى بالله كما سيذكر فى محله إن شاء الله.

(الفصل العشرون)

(فى خلافة أبى العباس أحمد الراضى بالله بن المقتدر)

ثم قام بالأمر بعد القاهر ابن أخيه أبو العباس أحمد الراضى بالله بن المقتدر بن المعتضد بويع له بالخلافة يوم خلع عمه القاهر سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة هجرية أى سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة ميلادية فاستوزر علىّ بن مقلة وأطلق كل من كان فى حبس القاهر. وكان قبل توليته محبوساً هو ووالدته فى حبس القاهر فأخرجوه وأجلسوه على سرير الخلافة يوم الأربعاء لست خلون من جمادى الأولى ولقبوه بالراضى بالله وبايعه القواد والناس وجعل يتصرف فى الأمور واستقدم علىّ بن عيسى وأخاه عبد الرحمن وأدناهما منه وأخذ بمشورتهما وهم بإعطاء الوزارة إلى علىّ فامتنع لشيخوخته وأشار بابن مقلة فاستحضر ووليها بعد أن أرسل يؤمنه فأحسن ابن مقلة التدبير وأعاد الأمن إلى ربوع الخلافة وضم إليها المشاغبين والخوارج وزاد فى تمكين صلاتها مع الروم وغيرهم، ولم يمض إلا القليل حتى ظهر ابن رائق وغلب على الراضى وتمكن من مسند الخلافة فصارت الكلمة له فلم يبق للوزير ابن مقلة من الأمر شئ فوقعت الوحشة بينه وبين ابن رائق واستحكم الخلاف فجعل ابن مقلة يدبر على هلاك ابن رائق وهم بإجراء ذلك فمنعه منها ظهور فتنة الحنابلة ببغداذ وذلك أن جماعة الحنابلة قويت شوكتهم وعظمت عصابتهم فجعلوا يبالغون فى إظهار عقيدتهم ويسوقون الناس كرهاً إلى احترام شيعتهم والعمل بقولهم فكانوا يكبسون دور العامة وقواد الجند فإن وجدوا نبيذا أراقوه، وإن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء، واعترضوا الناس فى بيعهم وشرائهم ومنعوا مشى الرجال مع النساء والصبيان فإذا رأوا أحداً من الناس مع امرأة أو صبىّ سألوه عن الذى معه من هو فأخبرهم وإلا ضربوه وخرجوا يوماً على صاحب الشرطة وشهدوا عليه بالفاحشة وكادوا يبطشون به جهاراً فاضطربت بغداذ من فعالهم وضج الناس فركب بدر الخرشنى وهو صاحب الشرطة المذكور ونادى فى جانبى بغداد فى أصحاب أبى محمد البربهارى بأن لا يجتمع من الحنابلة اثنان ولا يناظرون فى مذهبهم ولا يصلى منهم إمام إلا إذا جهر ببسم الله الرحمن الرحيم فى صلاة الصبح والعشاءين فلم يفد فيهم وزاد شرهم وكثر تعرضهم للناس وعظمت فتنتهم واستظهروا بالعميان الذين كانوا يأوون المساجد وكانوا إذا مر بهم شافعى المذهب أغروا به العميان

فيقومون عليه ويضربونه حتى يكاد يموت فخاف الراضى شر العاقبة وأخرج توقيعه بما يقرأ على الحنابلة وهو ينكرّ عليهم فعلهم ويقبح عليهم اعتقاد التشبيه وغيره فكان منه قوله: إنكم معاشر الحنابلة تزعمون أن صورة وجوهكم القبيحة السمجة على مثال رب العالمين وهيئتكم الرذلة على هيئته وتذكرون الكف والأصابع والرجلين والنعلين المذهبين والشعر القطط والصعود إلى السماء والنزول إلى الدنيا تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً ثم طعنكم على خيار الأئمة ونسبتكم شيعة آل محمد ﷺ إلى الكفر والضلال ثم استدعاؤكم المسلمين إلى الدين بالبدع الظاهرة والمذاهب الفاجرة التى لا يشهد بها القرآن وإنكاركم زيارة قبور الأئمة وتشنيعكم على زوارها بالابتداع وأنتم مع ذلك تجتمعون على زيارة قبر رجل من العوام ليس بذى شرف ولا نسب ولا سبب برسول الله ﷺ وتأمرون بزيارته وتدّعون له معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء فلعن الله شيطاناً زين لكم هذه المنكرات وما أغواه وأعلموا أن أمير المؤمنين يقسم بالله قسماً جهداً إليه يلزمه الوفاء به لئن لم تنتهوا عن مذموم مذهبكم ومعوج طريقكم ليوسعنكم ضرباً وتشريداً وقتلاً وتبديداً وليستعملن السيف فى رقابكم والنار فى منازلكم ومحالكم . اهـ.

فخافوا عند ذلك وانكمشوا ولم يحركوا يومئذ ساكناً فلما سكنت الحال عاد ابن مقلة إلى مشاغبة ابن رائق وكاتب الخليفة الراضى فى أمر هلاك ابن رائق وحبب له ذلك فوافقه أوّلاً ثم خالفه وأظهر خطه إلى ابن رائق ثم أمر به فقطعت يده ثم عولج فبرئ فعاد يكاتب الراضى ويطلب الوزارة ويقول: إن قطع يده لم يمنعه من عمله وكان يشد القلم على يده المقطوعة ويكتب واستوزر الراضى بعده عبد الرحمن بن عيسى وسلم إليه ابن مقلة فصادره حتى استصفى ماله وخلع بعد بدر الخرشنى من الشرطة فلم تطل أيام عبدالرحمن وظهر عجزه وعدم فلاحه فضاق عليه أمر الوزارة واستعفى فلما ظهر عجزه إلى الخليفة الراضى ووقوف أمور الخلافة قبض عليه فصادره على مائة ألف دينار وصادر أخاه عليا بسبعين ألف دينار وكان ابن مقلة يدعو على من ظلمه وقطع يده فأوصلوا خبره إلى الراضى وإلى ابن رائق فأمرا بقطع لسانه ثم نقلوه إلى محبس ضيق وألقوه فيه فأصابه ذرب فى الحبس ولم يكن معه من يخدمه فآل به الحال إلى أن كان يستقى الماء من البئر بيده اليسرى ويمسك الحبل بفيه وما زال على هذا الحال من الشدة والضيق حتى مات ودفن بدار الخليفة، ثم أن أهله نبشوه ودفنوه فى داره ثم نبش ونقل إلى دار أخرى، قال بعض الكتاب: ومن العجيب أنه ولى الوزارة ثلاث دفعات ووزر لثلاث خلفاء وسافر ثلاث سفرات اثنتين

منفياً إلى شيراز وواحدة فى وزارته إلى الموصل ودفن بعد موته ثلاث مرات وخص به من خدمه ثلاث وهو من عجيب الاتفاق.

وكان القاهر قد عمد إلى كثير من الأموال عند قتله لمؤنس الخادم وبليق وابنه علىّ وغيرهم فغيبها كما تقدم القول، فلما قبض عليه وسملت عيناه وأفضت الخلافة إلى الراضى وطولب القاهر بالأموال أنكر أن يكون عنده شئ من ذلك فأوذى وعذب بأنواع من التعذيب وكل ذلك لا يزيده إلا إنكاراً فأخذه الراضى وقرّبه وأدناه وطالت مجالسته إياه وإكرامه له وأعطاه حق العمومة والسن والتقدم فى الخلافة ولاطفه وأحسن إليه غاية الإحسان، وكان للقاهر فى بعض الحصون بستان من ريحان وغرس من النارنج قد حمل إليه من البصرة وعمان مما حمل من أرض الهند قد اشتبكت أشجاره ولاحت ثماره كالنجوم من أحمر وأصفر وبين ذلك أنواع الغروس والرياحين والزهر وقد جعل مع ذلك فى الصحن أنواع الأطيار من القمارى والدبابى والشحارير والببغا مما قد جلب إليه من الممالك والأمصار وكان القاهر كثير الشرب كما تقدم فكان يشرب فى ذلك البستان ويجلس كثيراً فى تلك المجالس، فلما أفضت الخلافة إلى الراضى اشتدّ شغفه بذلك الموضع فكان يداوم الجلوس والشرب فيه ثم أن الراضى رفق بالقاهر وأعلمه بما هو فيه من مطالبة الرجال بالأموال والحاجة إليها ولا شئ قبله منها وسأله أن يسعفه بما عنده منها إذ كانت الدولة له وأن يدبر تدبيره ويرجع فى كل الأمور إلى قوله وحلف له بالأيمان الأكيدة أن لا يسعى فى قتله ولا الإضرار به ولا بأحد من ولده فأنعم له القاهر بذلك وقال: ليس لى مال إلا فى بستان النارنج فسار به الراضى إلى البستان وسأله عن الموضع فقال له القاهر: قد حجب بصرى فلست أعرف موضعه ولكن مر بحفره فإنك تظهر على الموضع ولا يخفى عليك فكان ذلك فحفر البستان وقلع تلك الأشجار والغروس والأزهار حتى لم يبق منه موضع إلا حفره وبولغ فى حفره فلم يجد شيئاً، فقال له القاهر: وهل عندى من المال شئ وإنما كانت حسرتى جلوسك فى هذا الموضع وتمتعك به وكان لذتى من الدنيا فتأسفت على أن يتمتع به غيرى فتأسف الراضى على ما توجه عليه من الحيلة فى أمر ذلك البستان وندم على قبوله منه وأبعد القاهر فلم يكن يدنو منه خوفاً على نفسه أن يتناول بعض أطرافه.

وضعفت أمور الراضى واضطربت واختل نظام الخلافة فاستدعى بالأمير محمد ابن رائق فجعله أمير الأمراء وفوّض إليه تدبير المملكة وخلع عليه وأعطاه اللواء فبطل من ذلك اليوم أمر الوزارة ببغداد ولم يبق إلا اسمها فقط والحكم للأمراء

والملوك المتغلبين إذ كان ملك الخلافة جميعه فى أيديهم وهم ملوك الأرض فكان كل من حصل فى يده بلد ملكه ومانع عنه فأصبحت البصيرة وواسط والأهواز فى يد عبدالله البريدى وأخويه وفارس فى يد عماد الدولة ابن بويه والموصل وديار بكر وديار ربيعة وديار مضر فى يد بنى حمدان ومصر والشام فى يد الإخشيد بن طغج والمغرب وأفريقية فى يد المهدى والأندلس فى يد بنى أمية وخراسان وما والاها فى يد نصر بن أحمد الساماني واليمامة وهجر والبحرين فى يد أبى طاهر القرمطى وطبرستان وجرجان فى يد الديلم ولم يبق فى يد الراضى وابن رائق إلا بغداد وما والاها فبطلت دواوين المملكة ونقص قدر الخلافة وضعف ملكها واختلت الأمور كافة وتقهقر مسند الخلافة كما سيذكر فى محله إن شاء الله.

ومات الراضى ليلة السبت خامس عشر ربيع الأول سنة تسع وعشرين وثلاثمائة هجرية بعلة الاستسقاء وهو ابن اثنتين وثلاثين سنة وشهوراً فكانت خلافته ست سنين وعشرة أشهر وكان أديباً شاعراً ظريفاً وله أشعار حسان منها:

يصفرّ وجهى إذا تأمله　　طرفى ويحمرّ وجهه خجلا
حتى كأنّ الذى بوجنته　　من دم جسمى إليه قد نقلا

ومنها أيضاً:

كل صفو إلى كدر، كل أمر إلى حذر　　ومصير الشباب للموت فيه أو الكبر
درّدرّ المشيب من ، واعظ ينذر البشر　　أيها الآمل الذي، تاه في لجة الغرر
أين من كان قبلنا، درس العين والأثر　　سيردّ المعاد من ، عمره كله خطر
رب إني ذخرت عندك أرجوك مدخر　　إنني مؤمن بما ، بين الوحي في السور
واعترافي بترك نفعي وإيثاري الضرر　　رب فاغفر لي الخطيئة ياخير من غفر

وكان حاضر الذاكرة حادّ الذهن لا يغيب عن معرفته شىء من أحوال المملكة بحب المناظرة والبحث فى أخبار القدماء ومن ذلك ما ذكر الصولى قال، قال الراضى، ما كان السبب فى لبس المأمون الخضرة ورفعه السواد ثم لبسه السواد بعد ذلك قلت هو ما أخبرنا به محمد بن زكريا العلائى. قال: حدثنا يعقوب بن جعفر ابن سليمان. قال: لما قدم المأمون بغداد اجتمع الهاشميون إلى زينب بنت سليمان ابن علىّ وكانت أقعد ولد العباس نسباً وأكرمهم بيتاً فسألوها أن تكلم أمير المؤمنين فى تغييره الخضرة فضمنت لهم ذلك وجاءت إلى المأمون، فقالت: ياأمير المؤمنين إنك على برّ أهلك من ولد علىّ بن أبى طالب أقدر منك على برّهم لنا من غير أن

تزيل سنة من مضى من آبائك فدع لباسك الخضرة ولا تطمعن أحدا فيما كان منك فقال لها ياعمتى: ما كلمنى أحد فى هذا المعنى بكلام أوقع من كلامك ولا أقصد لما أردت لكن رسول الله ﷺ توفى فولى الأمر أبو بكر فقد عرفت ما كان من أمره فينا أهل البيت ثم وليها عمر فلم يتعدّ فيها فعل من تقدّمه ثم وليها عثمان فأقبل على بنى أمية وأعرض عن غيرهم ثم آل الأمر إلى علىّ بن أبى طالب من غير صفو كصفوها لغيره بل مشوبة بالأكدار فولى مع ذلك عبد الله بن العباس البصرة وولى عبيد الله بن العباس اليمن وولى قثم البحرين وما أحد منهم إلا ولاه فكانت هذه فى أعناقنا حتى كافأته فى ولده بما فعلت ولا يكون بعد هذا إلا ما تحبون، قال: ثم رجع إلى لبس السواد وللمأمون ياأمير المؤمنين شعر يشاكل معنى ما ذكرت من هذا الخبر وهو قوله:

ألام على شكر الوصي أبي الحسن   وذلك عندي من عجائب ذا الزمن
خليفة خير الناس والأول الذي   أعان رسول الله في السر والعلن
ولولاه ما عدّت لهاشم إمرة   وكانت على الأيام تقضي وتمتهن
فولى بني العباس ما اختص غيرهم   ومن فيه أولى بالتكرم والمنن
فأوضح عبد الله بالبصرة الهدى   وفاض عبيد الله جودا على اليمن
وقسم أعمال الخليفة بينهم   فلا زلت مربوطاً بذا الشكر مرتهن

وكان الراضى كثير الاستعمال للطيب حسن الهيئة سخياً جواداً فلم يكن ينصرف عنه أحد من ندمائه فى كل يوم إلا بصلة أو خلعة أو طيب وكانوا عدّة ندماء منهم محمد بن يحيى الصولى وابن حمدون النديم وغيرهما فعوتب على كثرة أفضاله على من يحضره من الجلساء، فقال أنا: استحسن فعل أمير المؤمنين أبى العباس لأنه كانت فيه فضائل لا تكاد تجتمع فى أحد لا يحضره نديم ولا مغن ولا قينة فينصرف إلا بصلة أو كسوة قلّت أو كثرت وكان لا يؤخر إحسان محسن لغد ويقول العجب من إنسان يفرح إنساناً فيتعجل السرور ويؤخر ثواب من سره تسويفا وعدة فكان أبو العباس فى كل ليلة أو يوم يقعد لشغله ولا ينصرف أحد ممن حضره إلا مسرورا ونحن وإن لم تتأت لنا الأمور كتأتيها لمن سلف فإنا نواسى جلساءنا وإخواننا ببعض ما حضرنا، وكان لا يستكثر على أحد من ندمائه ما يصل إليه على طول الأيام حتى كان بعضهم ربما يتأخر عن الحضور لما يترادف عليه من فضله وختم الخلفاء فى عدّة أمور فمنها أنه آخر خليفة له شعر يدوّن وآخر خليفة خطب كثيراً

على المنبر وآخر خليفة جالس الجلساء ووصل إليه الندماء وآخر خليفة كانت له نفقة وجوائز جمة وكانت عطاياه وجراياته وخزائنه ومطابخه ومجالسه وخدمه وحجابه على ترتيب الخلفاء المتقدّمين.

واستعمل على مصر فى خلافته بعد أحمد بن كيغلغ الذى صرفه فى سنة ثلاث وعشرين محمد بن طغج الأخشيدى، وقد أصبحت ديار مصر فى يد ابن طغج المذكور لتغلب جميع العمال على ما بأيديهم من البلاد كما تقدّم ذكر ذلك فأقام محمد بن طغج فى مصر إلى أن مات فى ذى الحجة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة فى خلافة المستكفى بالله كما سيأتى ذكر ذلك فى محله.

(وصل)

(فى مبدأ الدولة الإخشيدية وفى كيفية ظهورها)

لما عظم حب الخليفة المعتصم بن هارون للأتراك وكثر اعتماده عليهم جعل يأتى بهم من البلاد البعيدة ويبذل فى ذلك الأموال الطائلة فيوليهم المناصب العالية والوظائف السامية ويجند منهم الجند ويولى القواد ويكثر من نعمته عليهم وعلى بنيهم وبناتهم ويفضلهم على سائر الغلمان والأتباع، وقد علم بأن فى فرغانة جماعة من الترك موصوفين بالبأس والشجاعة والتدرب على الحرب والقتال وبينهم شاب اسمه جف من أولاد ملوكهم فسير فى طلبهم فجاؤا وجاء جف المذكور معهم فلما رآه المعتصم مال إليه وأحبه وأدناه من بابه وأقطعه إقطاعاً بسر من رأى وما زال فى نعمة وافرة إلى أن مات ببغداد سنة سبع وأربعين ومائتين هجرية فخرج أولاده فى طلب العيش والاسترزاق واتصل أحدهم وهو طغج بلؤلؤ غلام أحمد بن طولون بمصر فمال إليه لؤلؤ واستخدمه على مصر وأقام على هذا الحال حينا، ثم انحاز إلى أحمد بن كنداج فلم يزل معه إلى أن مات أحمد بن طولون ووقع الصلح بين ابنه خمارويه وبين ابن كنداج وتطر خمارويه إلى طغج فأعجبه فأخذه من ابن كنداج وقربه إليه وقدّمه على سائر من معه ثم قلّده دمشق وطبرية وما زال على نعمة من خمارويه حتى قتل خمارويه فلحق طغج بالخليفة المكتفى فأحبه وخلع عليه خلعة الرضا، وكان وزير الخليفة يومئذ العباس بن الحسن فطلب من طغج أن يجرى معه مجرى التذلل كغيره من أرباب المناصب فأكبر طغج هذا الأمر وأعظمه فأغرى به الخليفة المكتفى فحبسه وحبس معه ابنه أبا بكر محمداً فما زال طغج معتقلاً حتى مات بالسجن وبقى أبو بكر محمد مسجوناً أياماً ثم ذكره الخليفة المكتفى فأطلقه

وخلع عليه فجعل هو وأخوه عبد الله يرصدان العباس بن الحسن الوزير ليأخذا بثأر أبيهما حتى تمكنا من قتله وخرجا إلى الشام فى سنة ست وتسعين ومائتين هجرية، وقيل: هرب طغج إلى الشام وأخوه عبد الله إلى ابن أبى الساج وأقام أبو بكر محمد متغرباً فى البرية حولاً كاملاً ثم اتصل بأبى منصور تكين الجزرى فكان من أعاظم المقربين إليه، ومن كان عليهم معتمده وولاه عمل عمان وجبل الشراة فأحسن السيرة وأخلص لأبى منصور السريرة فسيره سرية إلى قوم قطعوا طريق الحاج فقاتلهم حتى ظفر بهم ومزق شملهم وأسر منهم جماعة وفتح الطريق للحجاج، وكان ممن سار مع الحج فى تلك السنة امرأة من دار الخليفة المقتدر يقال لها العجوز فلما عادت حدّثت المقتدر بما رأت من أبى القاسم محمد فأنفذ إليه خلعا وزاد فى رزقه ولبث أبو بكر محمد فى صحبة تكين إلى أن كانت سنة ست عشرة وثلاثمائة هجرية فارقه لأسباب وسار إلى الرملة فجاءته كتب الخليفة المقتدر بالولاية عليها فتولاها وأقام يتصرف فيها إلى سنة ثمان عشر وثلاثمائة هجرية فكتب إليه المقتدر بولاية دمشق فسار إليها ولم يزل بها إلى أن ولاه القاهر بالله ولاية مصر فى رمضان سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة بعد موت تكين ولى على الصلات ولم يدخلها أميراً عليها إلا فى ولايته الثانية ودعى له فيها على المنابر وهو بدمشق اثنين وثلاثين يوماً، وقيل: ثلاثين يوماً ثم صرف عنها وولى مكانه ابن كيغلغ من قبل الراضى بالله بن المقتدر وصرف عنها، ثم وليها أبو بكر محمد فدخلها أميراً فى رمضان سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة وقد ضم إليه، ما ذكر من البلاد المتقى أخو الراضى وزاد فى نعمته وأضاف إلى ألقابه «الأخشيد» والأخشيد لقب ملوك فرغانة وهو من أولادهم كما تقدم، ومعناه ملك الملوك وكان هذا اللقب عند ملوك فرغانة ككسرى عند فارس وقيصر عند الروم ودعى له بهذا اللقب على المنابر وأشتهر به حتى نسب إليه ورثته المعروفون بالدولة الاخشيدية وتعرف أيضاً بدولة بنى طغج وقد اكتسب شهرة واسعة وعم ذكره الآفاق وهابه الملوك وتقرّبوا منه وهادوه وتواددوا إليه وخرج من صلبه ملوك على ديار مصر عرفوا بالدولة الأخشيدية فهو الأمير أبو بكر محمد بن طغج ابن جف بن بلتكين، وقيل: بلكتكين بن نوران بن نورى بن خاقان الفرغانى الأصل صاحب سرير الذهب، ويقال له فى بعض التواريخ إخشيذ بالذال المعجمة ثم كان من أخباره وحوادث أيامه ما سيذكر فى محله إن شاء الله.

(الفصل الحادى والعشرون)

(فى خلافة أبى إسحاق إبراهيم المتقى لله بن المقتدر)

ثم قام بالأمر بعد الراضي ابن أخيه أبو العباس إبراهيم المتقى لله بن المقتدر بن المعتضد بويع له بالخلافة فى العشرين من ربيع الأول سنة تسع وعشرين وثلاثمائة هجرية أى سنة أربعين وتسعمائة ميلادية وعرضت عليه ألقاب فأختار منها المتقى لله وبايعه الناس كافة فصلى بالناس وصعد على سرير الخلافة وسير الخلع واللواء إلى بجكم بواسط وكان بجكم هذا واسع الكلمة كبير الشهرة فلما ارتقى منصب الصدارة لم يبق للخليفة معه سوى الاسم فقط، وغلب أبو الوفا تورون التركى على ما بقى من الأمر للخليفة وظل حال المتقى هكذا ما بين بجكم وأبى الوفا تورون حتى خرج بجكم يوماً يتصيد فبلغ نهر جور فسمع أن هناك أكراداً لهم مال وثروة فشرهت نفسه إلى أخذ المال فقصدهم فى قلة من أصحابه فهرب الأكراد من بين يديه ورمى هو أحدهم فلم يصبه فرمى آخر فأخطاه أيضاً وكان سهمه لا يخيب فأتاه غلام من الأكراد من خلفه وطعنه فى خاصرته فقتله لأربع بقين من رجب، فلما قتل بجكم تفرقت جنوده وانحدر الديلم منهم إلى أبى عبد الله البريدى وكان قد خرج عن طاعة الخليفة وكانوا منتخبين ليس فيهم حشو ولا دخيل فقوى بهم وعظمت شوكته فترفعوا إلى واسط وعلم الخليفة المتقى بحالهم فأرسل إليهم يأمرهم بأن لا يصعدوا فقالوا: نحن محتاجون إلى مال فإن أنفذ لنا منه شئ تربصنا فأنفذ إليهم مائة ألف وخمسين ألف دينار فلم يقنعوا فخافهم واستمال إليه جماعة الأتراك وبعض أجناد بغداد القدماء وبذل فيهم مالا قدره أربعمائة ألف دينار وجعل عليهم سلامة الطولونى مقدماً فاصلحوا حالهم ودبروا أمرهم وبرزوا مع المتقى إلى نهر ديالى ووصل البريدى من واسط إلى بغداد فاختلف عند وصوله جماعة الأتراك واستأمن بعضهم إليه وسار بعضهم إلى الموصل واختفى سلامة الطولونى وخاف أهل بغداد فهمّ الكثير منهم إلى الخروج خوفاً من البريدى وعسفه وظلمه ودخل إلى بغداد فلقيه الوزير أبو الحسن والقضاة والكتاب وأعيان الناس وكان معه عدة سفن كثيرة فأنفذ إليه المتقى يهنئه بسلامته وأظهر له اللين والتلطف عليه لينكف، وأنفذ إليه طعاماً وغيره عدة ليال وجعل يخاطبه بالوزير، ثم أنفذ البريدى إلى المتقى يطلب خمسمائة ألف دينار ليفرقها فى الجند فامتنع من ذلك فأرسل إليه يتهدده ويذكره ما جرى على

المعتز والمستعين والمهتدى وترددت الرسل فأنفذ إليه تمام خمسمائة ألف دينار ولم يلق البريدى الخليفة المتقى مدة مقامه ببغداد، فلما صار إليه المال انصرفت أطماع الجند عن الخليفة إلى البريدى وناووه الشر وعادت مكيدته عليه فشغبوا وكان الديلم قد قدّموا على أنفسهم كورتكين الديلمى وقدم الأتراك تكينك التركى غلام بجكم فاتفقوا معا على الإيقاع بالبريدى ونهب ما عنده فساروا إلى مقره وتبعتهم العامة فقطع البريدى الجسر ووقعت الحرب فى الماء ووثب العامة بالجانب الغربى من بغداد على أصحاب البريدى فهرب هو وأخوه وابنه أبو القاسم وأصحابه وانحدروا إلى واسط، فنهبت داره ودور قواده فدخل كورتكين على الخليفة المتقى وأخبره بخبر البريدى وما جرى عليه ففرح بذلك وقلده إمارة الأمراء وخلع عليه فتاقت نفس كورتكين إلى التفرد بالأمر فقبض على تكينك التركى وغرّقه وتفرد بالأمر فعلت كلمته وطغت جماعة الديلم وزاد شرهم فأخرجوا الناس من دورهم وسكنوا هم فيها فشكا الناس منهم إلى كورتكين فلم يلتفت إليهم فثارت العامة ومنعت الخطيب من الصلاة ومواطن جماعة الديلم فاقتتلوا قتالاً عنيفاً فقتل من الفريقين جماعة كثيرة ولما كثر شر الديلم واتسعت كلمة كورتكين ضاقت أمور المتقى لله وحار وكتب إلى ابن رائق بدمشق يستقدمه إلى بغداد ليوليه إمارة الأمراء مكان كورتكين فجمع إليه ابن رائق جماعة كثيرة من الأتراك وكان فيهم من القواد توزون وفشتكين وغيرهما وسار بهم من دمشق بعد أن استخلف أبا الحسن أحمد بن علىّ بن مقاتل، فلما علم كورتكين بقدومه خرج من بغداد إلى عكبرا ووصل إليه ابن رائق فوقعت الحرب بينهم واتصلت عدة أيام ثم سار ابن رائق من عكبرا ليلاً مع عسكره فأصبح ببغداد دخلها من الجانب الغربى وعبر من الغد إلى الخليفة المتقى فلقيه وركب معه فى دجلة ثم عاد فلحقه فى ثانى يوم كورتكين بجيوشه من الجانب الشرقى ثم دخل بغداد فأيس ابن رائق من ولايتها وخاف شر العاقبة فأمر بحمل أثقاله والعود إلى الشام وترك الخليفة وكورتكين وشأنهما فلما شاع هذا الخبر أخذ الناس أيضًا فى رفع أثقالهم يريدون الخروج عن بغداد ثم إن ابن رائق عزم أن يناوش كورتكين وأصحابه شيئًا من قتال قبل مسيره، فرسم لطائفة من عسكره أن يعبروا دجلة ويأتوا الأتراك من ورائهم وركب هو سميرية وركب معه جماعة من أصحابه فى عشرين سميرية ووقفوا يرمون الأتراك بالنشاب ووصل أصحابه وصاحوا من خلفهم واجتمعت العامة مع أصحاب ابن رائق يضجون فظن كورتكين أن العسكر كبس عليه من خلف ومن أمام فانهزم هو وأصحابه شر هزيمة واختفى كورتكين ورجم العامة أصحابه بالآجر والأحجار فقوى أمر ابن رائق وأخذ من استأمن إليه من الديلم فقتلهم عن آخرهم

وكانوا زهاء أربعمائة فلم يسلم منهم غير رجل واحد اختفى بين القتلى وحمل معهم وألقى فى دجلة فنجا وعاش طويلاً، وقتل جميع الأسرى من القواد وكانوا بضعة وعشرين رجلاً فخلع عند ذلك المتقى على ابن رائق وجعله أمير الأمراء وبث ابن رائق العيون حول كورتكين حتى قبض عليه واعتقله فى دار الخليفة وكان البريدى فى غضون هذه الحوادث بواسط فاستعظم أمر ابن رائق وحسده فأخر عنه حمل المال فكاتبه ابن رائق فى ذلك فلم يرسل شيئًا فانحدر ابن رائق إلى واسط فهرب بنو البريدى إلى البصرة ثم عادوا وضمنوا بقايا واسط وعاد ابن رائق إلى بغداد فخرجت عليه الجنود وفيهم توزون وغيره من القواد فلم يقدر على ردهم فتركوه ورحلوا إلى ابن البريدى بواسط وتحزبوا إليه ففرح بقدومهم وقوى بهم وعزم على الشخوص إلى دار السلام ثم لم يلبث أن سيّر إلى بغداد جيشاً عظيماً من الأتراك والديلم ومقدمه أخوه أبو الحسين البريدى فلما أحس ابن رائق بقدومهم تحصن بدار الخليفة وزمم سورها ونصب عليه المنجنيقات والعرادات وحصن دجلة وحرك العامة للقتال وجند منهم جماعة فثاروا فى بغداد وأحرقوا ونهبوا وأخذوا الناس ليلاً ونهاراً قبل أن تصل جيوش ابن البريدى وخرج المتقى لله وابن رائق وتبعهما أصحابهما فاقتتلوا مع البريدى وأصحابه فانهزم أهل بغداد واستولى أصحاب البريدى على دار الخليفة وهرب المتقى وابنه الأمير أبو منصور فى نحو عشرين فارساً ولحق بهما ابن رائق فى جيشه فساروا جميعاً نحو الموصل وقتل أصحاب البريدى من وجدوه فى دار الخليفة من الحاشية فنهبوها ونهبوا دور الحرم وكثر النهب وعم بغداد ليلاً ونهاراً وأخذوا كورتكين من حبسه وأنفذه أبو الحسين بن البريدى إلى أخيه عبدالله البريدى بواسط فكان آخر العهد به، واشتد البلاء على أهل بغداد وعظم الأمر ووقع الغلاء وعزت الأقوات وأخذ القوى بالضعيف ووقعت الفتن بين الناس فضجوا وعجوا وابتهلوا إلى الله.

ولما عظم أمر البريدى وأراد الشخوص من واسط إلى دار السلام فى جيوشه وعرف الخليفة المتقى ما وراء ذلك أنفذ إلى ناصر الدولة بن حمدان يستمده على البريدى فأرسل أخاه سيف الدولة علىّ بن عبدالله بن حمدان نجدة له فى جيش عظيم، فلقى المتقى وابن رائق فى تكريت منهزمين فسار معهما إلى الموصل ففارقها صاحبها ناصر الدولة وعبر إلى الجانب الشرقى من دجلة وكان بينه وبين ابن رائق وحشة قديمة وكان كل منهما يضمر للآخر السوء فتردّدت الرسل بينهما على الصلح فاصطلحا وعبر الأمير أبو منصور بن المتقى وابن رائق يسلمان على ناصر الدولة فنثر

الدنانير والدراهم على ولد المتقى فلبثا عنده برهة فلما أراد الانصراف ركب ابن المتقى وأراد ابن رائق الركوب فقال له ناصر الدولة: تقيم اليوم عندى لنتحدث فيما نفعله فاعتذر ابن رائق بابن المتقى فألح عليه ابن حمدان فاستراب ابن رائق من إلحاحه وجرّ بكمه من يده فقطعه وأراد الركوب فشب به الفرس فسقط فصاح ابن حمدان بأصحابه اقتلوه وألقوه فى دجلة، وأرسل ابن حمدان إلى المتقى يقول إنه علم بأن ابن رائق أراد أن يغتاله ففعل به ذلك فرد عليه المتقى رداً جميلاً ورسم إليه بالحضور لديه فسار إليه فخلع عليه المتقى ولقبه ناصر الدولة وجعله أمير الأمراء وخلع على أخيه أبى الحسين علىّ ولقبه سيف الدولة، وجاء الخبر إلى الإخشيد صاحب مصر بموت ابن رائق ففرح وسار من مصر إلى دمشق فى عسكر كثيف يريد أخذها من خليفة ابن رائق فلما وصلها استأمن إليه خليفة ابن رائق وتسلمها الإخشيد فبسط يده على ما جاورها مضافاً ذلك إلى ديار مصر وطال مكث ابن البريدى ولومه ببغداد وزاد عسفه وظلمه وجوره فكرهته العامة وكانت لا تنكف عن مشاغبته ففارقه الجند وانضموا إلى الخليفة المتقى لله وابن حمدان فكثرت جموعهما وقويت عزيمة الخليفة فزحفوا جميعاً إلى بغداد فهرب البريدى واضطرب العامة ببغداد ونهب الناس بعضهم بعضاً ودخل المتقى إلى بغداد ومعه بنو حمدان فى جيوش عظيمة فأقام بها والكلمة لبنى حمدان، ثم لتورون وغيره من كبار الأتراك وعظماءالديلم والخليفة فى أيديهم كالآلة الصماء فلما ضاقت عليه المذاهب خرج من بغداد إلى الموصل وأرسل إلى الإخشيد محمد بن طغج متولى مصر يشكو حاله ويستقدمه فأتاه من مصر ووصل إليه وهو بالرقة فأكرمه المتقى وأجله ووقف الإخشيد وقوف الغلمان ومشى بين يدى المتقى وحمل إليه هدايا عظيمة وكذلك لوزيره أبى الحسين بن مقلة وسائر الأصحاب وتقدم إلى المتقى فى أن يسير معه إلى مصر والشام ويكون بين يديه فلم يفعل فخوّفه من الرجوع إلى بغداد وحذره من توزون التركى وغدره. وقال له يا أمير المؤمنين: أنا عبدك وابن عبدك وقد عرفت الأتراك وغدرهم فلا تأمن على نفسك فلم يقبل، فقال له: فأقم هنا وأنا أمدّك بالمال والرجال فلم يقبل المتقى وصمم على الرجوع إلى دار السلام وكان قد أنفذ رسلاً إلى توزون فى الصلح فتم الصلح وحلف توزون على الطاعة لأمير المؤمنين فانحدر المتقى من الرقة فى الفرات إلى دار السلام لأربع بقين من المحرم سنة ثلاث وثلاثين وعاد الإخشيد إلى مصر فلما وصل المتقى إلى هيت أقام بها وأنفذ من يجدد اليمين على توزون فعاد وحلف وسار عن بغداد ليلتقى مع المتقى، فالتقى معه بالسندية فنزل توزون

وقبل الأرض وقال ها أنا قد وفيت بيميني والطاعة لك ثم وكل به وبالوزير وبالجماعة وأنزلهم فى مضربه مع نساء المتقى وأنفذ رسله إلى دار ابن طاهر ليحضروا المستكفى فلما حصل فى المضرب قبض على المتقى وثمل عينيه فصاح وصاح من عنده من النساء والخدم فأمر توزون بضرب الدبادب حول المضرب لئلا تظهر أصواتهم فخفيت أصواتهم وعمى المتقى لله وانحدر توزون من الغد إلى دار السلام ومعه المتقى ووزيره ابن مقلة وقاضيه أحمد بن عبدالله بن إسحق فكانت خلافة المتقى لله ثلاث سنين وخمسة أشهر وثمانية عشر يوماً وكان خلعه فى يوم السبت لعشر بقين من صفر وبقى إلى أن مات سنة سبع وسبعين وثلثمائة .

ولما امتنع المتقى من المسير مع الأخشيد إلى ديار مصر ومن البقاء فى الرقة تحول عنه الاخشيد إلى دمشق فجرى للخليفة ما جرى ووصل الأخشيد إلى دمشق وولى عليها الحسين بن لؤلؤ ثم صرفه من عامه إلى نيابة حمص وولى على دمشق يانس المؤنسى وعاد إلى مصر فدخلها فى جمادى الأولى سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة، ثم ورد عليه الخبر بخلع المتقى ومبايعة المستكفى فأسف لذلك جداً وكان من أمره بعد ذلك ما سيذكر فى خلافة المستكفى .

وفى سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة أى فى خلافة المتقى المذكور قدّم المتأصلون غبريال بطركا للإسكندرية بعد الفترة التى خلا فيها المنصب البطريكى وقدرها أربع عشرة سنة كما تقدم الكلام على ذلك فكان غبريال هذا سابع خمسيهم وأصله راهب من دير أبى مقار وهو من أهل المنوفية وقد أخذت فى أيامه الديارية على النساء والرجال تخلصاً من طلبات ابن طغج الأخشيد وفراراً من الشدة التى نالتهم جميعاً بسبب ذلك فحصل منها شئ كثير جداً وعم لذلك الضيق وكثرت الكوارث وبلغت الشدّة إلى حد لا يطاق.

(الفصل الثانى والعشرون)

(فى خلافة المستكفى باللّه بن المكتفى)

ثم قام بالأمر بعد المتقى ابن عمه أبو العباس عبدالله المستكفى بالله بن المكتفى بالله على ابن المعتضد بالله بويع له بالخلافة بالسندية يوم خلع المتقى لله سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة هجرية أى سنة أربع وأربعين وتسعمائة ميلادية وهو يوم السبت لثلاث خلون من صفر حكى أبو العباس التميمى الرازى وكان من خواص توزون

قال: كنت أنا السبب فى البيعة للمستكفى وذلك أنه دعانى إبراهيم بن الزوبيندار الديلمى فمضيت إليه فذكر لى أنه تزوج إلى قوم وأن امرأة منهم قالت له إن هذا المتقى قد عاداكم وعاديتموه وكاشفكم ولا يصفو قلبه لكم وههنا رجل من أولاد الخلفاء من ولد المكتفى وذكرت عقله وأدبه ودينه تنصبونه للخلافة فيكون صنيعتكم وغرسكم ويدلكم على أموال جليلة لا يعرفها غيره وتستريحون من الخوف والحراسة، قال: فعلمت أن هذا الأمر لا يتم إلا بك فدعوتك له، فقلت: أريد أن أسمع كلام المرأة فجاءنى بها فرأيت امرأة عاقلة جزلة فذكرت لى نحواً من ذلك فقلت لابد أن ألقى الرجل فقالت: تعود غدا إلى ههنا حتى أجمع بينكما فعدت إليها من الغد فوجدته قد أخرج من دار ابن طاهر فى زى امرأة فعرفنى نفسه وضمن إظهار ثمانمائة ألف دينار منها مائة ألف لتوزون وذكر وجوهها وخاطبنى خطاب رجل فهم عاقل ورأيته يتشيع قال: فأتيت توزون فأخبرته فوقع كلامى بقلبه وقال: أريد أن أبصر الرجل فقلت لك ذلك ولكن اكتم أمرنا من ابن شيرزاد فقال أفعل وعدت إليهم وأخبرتهم بالذى ذكر ووعدتهم حضور توزون من الغد فلما كان ليلة الأحد لأربع عشرة خلت من صفر مشيت مع توزون مستخفين فاجتمعنا به وخاطبه توزون وبايعه تلك الليلة وكتم الأمر فلما وصل المتقى قلت لتوزون: لما لقيه أنت على ذلك العزم قال: نعم، قلت: فافعله الساعة فإنه إن دخل الدار بعد عليك مرامه فوكل به وسمله وجرى ما جرى وبويع المستكفى بالخلافة يوم خلع المتقى وأحضر المتقى فبايعه وأخذ منه البردة والقضيب وصارت تلك المرأة قهرمانة المستكفى وسمت نفسها علم وغلبت على أمره كله واستوزر المستكفى أبا الفرج محمد بن علىّ الشارى فلم يكن له من الوزارة إلا الاسم فقط والكلمة لابن شيرزاد وحبس المتقى وخلع المستكفى بالله على توزون خلعة وتاجا أهـ .

فلما كان يوم الاثنين انحدر المستكفى فى الماء راكباً فى الطراد المسمى الغزالة وعليه قلنسوة طويلة محدودة يقال إنها كانت لأبيه المكتفى بالله وعلى رأسه توزون التركى ومحمد ابن محمد بن يحيى شيرزاد وجماعة من غلمانه وسلم إليه المتقى ضريراً وأحمد بن يحيى القاضى مقبوضًا عليه وحضر بعد ذلك جميع القضاة مع الهاشميين فبايعوا له وجلس للناس وسأل عن القضاة وكشف عن أمور شهود الحضرة فأمر بإسقاط بعضهم وقبول بعضهم لأشياء كان قد علمها منهم قبل الخلافة واستنابة بعضهم من الكذب فامتثل القضاة ما أمر به من ذلك واستقضى على الجانب الشرقى محمد بن عيسى المعروف بابن أبى موسى الحنفى وعلى الجانب الغربى

الحسن بن أبى الشوارب الأموى الحنفى فتطيرت من ذلك العامة، وقالت يومئذ: إلى ههنا انتهى سلطانه وانتهى فى الخلافة أمره ونهيه، وما دخلت سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة حتى مرض توزون التركى وانقطع بداره فى بغداد أياماً ثم مات ففرح الخليفة المستكفى بخبر موته وظن رجوع الأمر والكلمة إليه فكانت مدة إمارة توزون على ما قاله أصحاب التاريخ: سنتين وأربعة أشهر وتسعة عشر يوماً.

ولما مات توزون كان ابن شيرزاد بناحية بهيث لتخليص أموالها فلما جاء الخبر عزم على عقد الإمارة لناصر الدولة ابن حمدان فاضطربت الأجناد لذلك وعقدوا الرياسة عليهم لابن شيرزاد فحضر إلى بغداد ونزل خارجها فخرج إليه جميع الجند واجتمعوا عليه وحلفوا ووجه إلى الخليفة المستكفى بالله ليحلف له فأجابه إلى ذلك وحلف له بحضرة القضاة والعدول ودخل إليه ابن شيرزاد فأكرمه وأجله وخرج فزاد فى مرتبات الجند زيادة عظيمة فضاقت الأموال عليه وعز نوالها فأرسل إلى ناضرالدولة مع أبى عبد الله محمد بن أبى موسى الهاشمى وهو بالموصل يطالبه بالمال ويعده برد الرياسة إليه فأنفذ له خمسمائة ألف درهم وشيئاً من الأقوات الجند وظلم الناس ببغداد وكثرت طلباته فظهر اللصوص وارتفع الأمن وكثر العسف والعربدة فهرب التجار وأصحاب الأموال وجعل يعزل ويولى الولاة والعمال فاستعمل بينال كوشه على واسط واللشكرى على تكريت، فإما ينال فإنه كاتب معز الدولة بن بويه واستقدمه إلى بغداد فى جمع عظيم فلما شاع خبر قدومه اضطرب الناس فى بغداد وأختفى المستكفى بالله وابن شيرزاد أياماً ثم ترددت الرسل بين المسكتفى وبين ابن بويه فظهر عاد إلى دار الخلافة ببغداد ووصل عز الدولة فى جموعه فدخل من باب الشماسية واجتمع بالخليفة المسكتفى وبايعه وحلف له المستكفى وخلع عليه ولقبه فى ذلك اليوم معز الدولة ولقب أخاه علياً عماد الدولة ولقب أخاه الحسن ركن الدولة وأمر أن تضرب ألقابهم وكناهم على الدنانير والدراهم وجعل يتصرف فى الأمور كما يشاء، ورتب للمستكفى بالله كل يوم خمسة آلاف درهم وأمنّ ابن شيرازاد فظهر وحضر إلى بغداد ولقى معز الدولة فولاه الخراج وجباية الأموال. ناصر الدولة مع أبى عبد الله محمد بن أبى موسى الهاشمى وهو بالموصل يطالبه بالمال ويعده برد الرياسة إليه فأنفذ له خمسمائة ألف درهم وشيئاً من الأقوات كثيراً فقرقها فى العسكر فلم تكف فقسط الأموال على العمال والكتاب والتجار وغيرهم لأرزاق الجند وظلم الناس ببغداد وكثرت طلباته فظهر اللصوص وارتفع الأمن وكثر العنف والعربدة فهرب النجار وأصحاب الأموال وجعل يعزل

ويولى الولاة والعمال فاستعمل ينال كوشه على واسط واللشكرى على تكريت فأما بنيال فانه كاتب معز الدولة بن بويه واستقدمه إلى بغداد وحلف له بالطاعة إليه إن هو قدم على بغداد وكان ابن بويه يومئذ بالأهواز فسار منها إلى بغداد فى جمع عظيم فلما شاع خبر قدومه اضطرب الناس فى بغداد وأختفى المستكفى بالله وابن شيرزاد أياماً ثم ترددت الرسل بين المستكفى وبين ابن بويه فظهر وعاد إلى دار الخلافة ببغداد ووصل عز الدولة فى جموعه فدخل من باب الشماسية واجتمع بالخليفة المستكفى وبايعه وحلف له المستكفى وخلع عليه ولقبه فى ذلك اليوم معز الدولة ولقب أخاه عليا عماد الدولة ولقب أخاه الحسن ركن الدولة وأمر أن تضرب ألقابهم وكناهم على الدنانير والدراهم وجعل يتصرف فى الأمور كما يشاء ورتب للمستكفى بالله كل يوم خمسة آلاف درهم وأمن ابن شيرزاد فظهر وحضر إلى بغداد ولقى معز الدولة فولاه الخراج وجباية الأموال.

ولما سكنت الأمور واطمأنت الخواطر أو لمت علم قهرمانة المستكفى وليمة عظيمة دعت إليها جماعة من قواد الديلم والأتراك ولم تعلم معز الدولة بخبرها فاستعظم معز الدولة ذلك منها واتهمها بأنها إنما فعلت ذلك لتأخذ عليهم البيعة للمستكفى فيزيلون معز الدولة عن منصبه وجعل من ذلك اليوم يعمل على خلع المستكفى ويدبر الحيلة على الإيقاع به فلما كان ثانى عشرى جمادى الآخرة حضر معز الدولة والناس عند الخليفة، ثم حضر رجلان من نقباء الديلم يصيحان فتناولا يد المستكفى بالله فظن أنهما يريدوان تقبيلها فمداها إليهما فجذباه عن سريره وجعلا عمامته فى حلقه فنهض عند ذلك معز الدولة وخرج من الدار وساق الرجلان المستكفى بالله ماشياً إلى دار معز الدولة فأعتقل بها واضطرب الناس ونهبت دار الخلافة حتى لم يبق بها شىء وأخذت علم القهرمانة فقطع لسانها فكانت مدّة خلافة المستكفى بالله سنة واحدة وأربعة أشهر كان فيها مغلوباً على أمره مع توزون وابن شيرزاد، حدّث أبو إسحق إبراهيم بن إسحق المعروف بابن الوكيل وهو ممن كان فى خدمة المستكفى، قال: كان المستكفى فى سائر أوقاته فارغاً وجلا من المطيع أن يلى الخلافة ويسلم إليه فيحكم فيه بما يريد فكان صدره يضيق لذلك فيشكو الأمر فى بعض الأوقات إلى من كان يألفه من ندمائه فيشجعونه ويهونّون عليه أمر المطيع، إلى أن قال لهم فى بعض الأيام: قد اشتهيت أن نجتمع فى مكان كذا وكذا فنتذاكر فى أنواع الأطعمة وما قال الناس فى ذلك، منظوماً فاتفق معهم على ذلك، فلما كان فى اليوم الذى حضروا أقبل المستكفى فقال: هاتوا ما أعدّه كل واحد منكم فقال

بعضهم: أبياتاً طوالاً فى وصف سلة سكبادج كوامخ فأمر المستكفى أن تحضر هذه الجونة بعينها على ما وصفها القائل، ثم قال آخر وآخر والمستكفى يأمر بإحضار كل ما يجرى فى وصفه ما يمكن إحضاره، قال أبو إسحاق: فلم أر المستكفى منذ ولى الخلافة أشدّ سرورا منه فى ذلك اليوم وأجاز جميع من حضر من الجلساء والندماء والملهين ثم أحضر ما حضره فى وقته من عين وورق عند ضيق الأمر عليه فوالله ما رأيت له بعد ذلك يوماً مثله حتى قبض عليه أحمد بن بويه الديلمى وسمل عينيه . اهـ.

وبقى المستكفى معتلاً فى دار معز الدولة بن بويه إلى أن مات فى سنة ثلاث وأربعين وثلثمائة وهو ابن ست وأربعين سنة وكان أبيض حسن الوجه قد وخطه الشيب، ولما قبض عليه بويع بعده للمطيع لله.

وكان لما ولى المستكفى الخلافة أرسل إلى محمد بن طغج الاخشيد فأمره على ولاية مصر والشام فلم يحفل بذلك لعلمه أن أركان دولته ثابتة لا تتزعزع فلما كانت سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وقعت بينه وبين سيف الدولة منافرة وأشتدت شدة بالغة ثم اصطلحا على أن يكون لسيف الدولة حلب وأنطاكية وحمص وباقى بلاد الشام للاخشيد ولتوكيد الصلح بينهما تزوج سيف الدولة بنت أخى الأخشيد ولكن لم يلبثا طويلاً على هذا الحال حتى وقع النفور بينهما ثانية، فجهز الاخشيد جيشا عظيما لقتال سيف الدولة وسيره مع خادمه كافور وأبى شجاع فاتك المجنون، ثم خرج الاخشيد خلفهم فى شعبان من السنة واستخلف أخاه أبا المظفر وسار حتى لقى سيف الدولة بقنسرين فحاربه وقهره وفرق جموعه وأخذ منه حلب ثم بلغه خلع المستكفى فعاد إلى دمشق وكان من أمره بعيد ذلك ما سيذكر فى خلافة المطيع.

(الفصل الثالث والعشرون)

(فى خلافة أبى الفضل المطيع لله بن المقتدر)

ثم قام بالأمر بعد المستكفى ابن عمه أبو الفضل المطيع لله بن المقتدر بن المعتضد بويع له بالخلافة لسبع بقين من شعبان سنة أربع وثلاثين وثلثمائة هجرية أى سنة خمس وأربعين وتسعمائة ميلادية وهو يوم خلع ابن عمه المستكفى بالله وله من العمر يومئذ أربع وثلاثون سنة وأحضر المستكفى عنده فسلم عليه بالخلافة وأشهد على نفسه بالخلع وقد سمل معز الدولة عينيه وأعماه كما تقدم فلم يكن للمطيع من الخلافة إلا الاسم فقط فقد ازداد أمر الخلافة إدبارا وزالت حرمتها أو كادت على

يدى معز الدولة بن بويه فلم يبق فى يد المطيع لا أمر ولا نهى ولا خلافة تعرف ولا وزارة تذكر وأختل النظام وأستخف الديلم بمقام الخلافة فكانوا يقولون إن العباسيين قد غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقيها وكانوا يتشيعون ويغالون فى التشيع فلم يبق عندهم وازع دينى يحثهم على الطاعة، قال صاحب الكامل: حتى لقد بلغنى أن معز الدولة استشار جماعة من خواص أصحابه فى إخراج الخلافة من العباسيين والبيعة للمعز لدين الله العلوى أو لغيره من العلويين فكلهم أشار عليه بذلك ما عدا بعض خواصه، فإنه قال: ليس برأى فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته فلو أمرهم بقتلك لقتلوك فأعرض عن ذلك، قال: فهذا كان من أعظم الأسباب فى زوال أمرهم ونهيهم مع حب الدنيا وطلب التفرد بها. اهـ.

ونزع معز الدولة من الخليفة العراق بأسره وما والاه فلم يبق مع الخليفة منه شيء البتة إلا ما أقطعه معز الدولة مما يقوم ببعض حاجة الخلافة فاشتد الحال على المطيع وعظم الخطب ولبث على هذا الحال طويلاً. وكان معز الدولة إذا أراد غزو جهة حمل معه الخليفة المطيع ليوهم الناس أنه إنما يحارب للخليفة ومعه والأمر على عكس ذلك واشتد فى التشيع للعلويين فأمر أصحابه ببغداد فكتبوا على المساجد ما هذه صورته، لعن الله معاوية بن أبى سفيان ولعن من غصب فاطمة ﵂ فدكا ومن منع من أن يدفن الحسن عند قبر جده عليه السلام ومن نفى أبا ذر الغفارى ومن أخرج العباس من الشورى. اهـ.

فأغضب ذلك الخليفة ولكنه كان محكوماً عليه لا يقدرعلى المنع فلما كان الليل محا الكتابة بعض الناس فغضب معز الدولة وأراد إعادة ما محى فأشار عليه الوزير أبو محمد المهلبى بأن يكتب مكان ما محى لعن الله الظالمين لآل رسول الله ﷺ ولا يذكر أحداً فى اللعن إلا معاوية ففعل ذلك، وسار معز الدولة فى سنة ست وخمسين إلى واسط فجهز فيها الجيوش لمحاربة عمران بن شاهين صاحب البطائح فلما هم بالمسير ابتدأ به مرض الإسهال وقوى عليه فأحجم عن الخروج إلى ابن شاهين وسار إلى بغداد وخلف أصحابه ووعدهم أن يعود إليهم فلما وصل إلى بغداد أشتد به مرضه فلما أحس بالموت عهد إلى ابنه عز الدولة بختيار وأظهر التوبة وتصدق بأكثر ماله وأعتق مماليكه ورد شيئاً كثيراً على أصحابه مما كان قد اغتاله ثم مات ودفن بمقابر قريش فكانت إمارته إحدى وعشرين سنة وأحد عشر شهراً ويومين

فجعل ابنه بختيار يتصرف فى الأمور فأساء السيرة وجار وظلم وصرف عنه كبار الترك والديلم وأبغض صغارهم وضيق على الخليفة المطيع وطالبه بمال كثير فاعتذر. وقال من أين لى ذلك ولم يبق لى من حكم البلاد سوى الاسم والخطبة فإن شئتم أن أعتزل فعلت، فلم يقبل منه وتهدده فبذل له المطيع أربعمائة ألف درهم واحتاج إلى بيع ثيابه وأنقاض داره وغير ذلك وبلغ فساد الأمور إلى حدّ لا يطاق فكثر إدلال الجند على بختيار وإطراحهم لجانبه وشغبهم عليه ومطالبتهم له بالأرزاق والجوامك المتأخرة وقد قلت عنده الأموال وتعذر عليه تسكين خواطر الجند ولم يجد ديوانه ووزيره جهة يحتال منها بشىء فسار إلى الموصل بهذا السبب فلم يفتح عليه فسار منها إلى الأهواز ليتعرض إلى متوليها ويأخذ منه مالاً وتخلف عنه سبكتكين التركى أحد كبار الجند الأتراك ولم يسر معه، فلما وصل إلى الأهواز لاقاه متوليها وخدمه وقدّم له الطاعة وحمل له أموالأجليلة المقدار وبختيار يفكر فى طريق يأخذه به فأتفق أنه جرت فتنة بين الأتراك والديلم سببها مضاربة بين غلام تركى وآخر ديلمى فاتصل خبر ذلك بأصحاب كل واحد منهما فقام بعضهم على بعض واقتتلوا فقتل منهم خلق كثير وخرجوا إلى ظاهر البلد فاجتهد بختيار فى تسكين الفتنة فلم يفلح فاستشار جماعة الديلم فى ذلك وفيما يفعله، وكان أذناً يتبع كل قائل فأشاروا عليه بالقبض على كبار الأتراك لتصفو له البلاد فمال إلى ذلك وقبض على جميع كبارهم وقيدهم، وأطلق الديلم فى الأتراك فقتلوا ونهبوا أموالهم وهرب الأتراك ولحقوا بسبكتكين وكان بختيار قد دبر الحيلة للنقض على سبكتكين أيضاً فلم يفلح وظهرت حيلته فركب سبكتكين عند ذلك فيمن جاءه من الأتراك وحصروا دار بختيار يومين ثم أحرقها ودخلها وأخذ ابنى عز الدولة ووالدتهما ومن كان معهما وسيرهم إلى واسط فأنحدر معهم الخليفة المطيع لله فاسترجعه سبكتكين ورده إلى داره وأستولى على ما كان لبختيار جميعه ببغداد، ونزل الأتراك فى دور الديلم وتتبعوا أموالهم وأخذوها وثارت العامة من أهل السنة ينصرون سبكتكين لأنه كان سنياً فخلع عليهم وجعل لهم العرفاء والقواد فتقوّوا وثاروا بالشيعة وحاربوهم فكانت كأنها حرب دينية وسفكت بينهم الدماء وأحرقت الدور وزال الأمن وكثر السلب والنهب فى الليل والنهار وأشتدّ البلاء وعظمت الفتنة وما زالت نارها تتأجج حتى تم الأمر لسبكتكين فجعل يتصرف ثم لم يلبث أن آنس من الخليفة المطيع الكره له وكان المطيع به مرض الفالج وقد ثقل لسانه وتعذرت الحركة عليه فدعاه سبكتكين إلى أن يخلع نفسه من الخلافة ويسلمها إلى ابنه الطائع ففعل وأشهد على نفسه بالخلع ثالث عشر ذى القعدة

سنة ثلاث وستين وثلثمائة فكانت خلافته تسعا وعشرين سنة وخمسة أشهر إلا أياماً وكان وطىء الجانب كثير الصدقات حسن الأخلاق.

ولما سار الأخشيد من حلب إلى دمشق بعد انتصاره على سيف الدولة وورد الخبر إليه بخلع المستكفى وبيعة المطيع كما تقدم لبث بها أياماً فمرض واشتدّت علته ومات يوم الجمعة لثمان بقين من ذى الحجة سنة أربع وثلاثين وثلثمائة فحملوا تابوته إلى بيت المقدس فدفن هناك، وكانت ولادته فى سنة ثمان وستين ومائتين هجرية ببغداد بشارع باب الكوفة، وكان ملكاً حازماً متيقظا حسن التدبير عارفا بالحروب مكرما للجند شديد البطش ذا قوة عظيمة لا يكاد أحد يجرّ قوسه وله هيبة فى قلوب الرعية وكان متجملاً فى مركبه وملبسه فكان موكبه يضارع موكب الخليفة وبلغت عدة مماليكه ثمانية آلاف وعدد جيوشه أربعمائة ألف وكان يكره سفك الدماء شديد التحرز على نفسه فكانت تحرسه مماليكه بالمناوبة وإذا نام حرسه ألف مملوك وعاش ستين سنة، وقيل: ستاً وستين وخلف عدة ذكور ولما مات تولى الملك بعده ابنه أبو القاسم آنوجور الأخشيد فى ثانى يوم وفاة أبيه ولاه الخليفة المطيع على سائر ما كان لأبيه مع حداثة سنه وجعل مدبر مملكته كافورا الخادم الأسود فكان آنوجور مغلوباً على أمره ليس له من الملك سوى الاسم والكلمة لكافور فكان كافور يطلق لآنوجور فى كل سنة أربعمائة ألف دينار ويتصرف بما يبقى واتسعت كلمة كافور وهابه الناس فآنس من أبى بكرمحمد بن علىّ بن مقاتل صاحب خراج مصر وحشة فقبض عليه فى سنة خمس وثلاثين وثلثمائة وخلعه وولى مكانه محمد بن على الماردانى، وسار آنوجور إلى دمشق ولبث بها ما شاء ثم رحل عنها إلى مصر فلم يستقر به المقام حتى جاء الخبر باستيلاء سيف الدولة على دمشق وضمها إلى أملاكه فأكبر هذا الأمر وأعظمه وكر راجعاً إلى دمشق فى عسكر عظيم ومعه عمه الحسن بن طغج وكافور الخادم وقصدهم سيف الدولة فى عسكر وجموع كثيرة فألتقوا بالرملة فى يوم الجمعة ولم يهتم بنو حمدان بلقاء عسكر آنوجور وجعلوا يطغون فى ذلك اليوم فى أرباض البلد فاستغنم كافور الخادم فرصة غيابهم وزحف على معسكرهم بخيله ورجله وكبسهم من كل صوب وحدب وغنم مؤنتهم وذخيرتهم وسائر متاعهم ففرّ سيف الدولة هارباً إلى الشام فتبعه كافور فى عسكره فانهزم إلى حلب ثم إلى الرقة فلما تم النصر لعسكر آنوجور عادوا إلى ديار مصر وبينما هم عائدون جاءهم الخبر بخروج غلبون متولى الريف ونزوله على ديار مصر وتغلبه على الكثير من البلاد فأسرع آنوجور فى المسير ودخل مصر فى قلة فهرب غلبون وعادت

الأمور إلى ما كانت عليه وسير كافور جيشاً خلف أصحاب غلبون فأجلوهم عن سائر بلاد مصر وعادوا ظافرين غانمين وما زال آنوجور على حاله حتى مات فى ذى القعدة سنة تسع وأربعين وثلثمائة فكانت مدة ملكه أربع عشرة سنة وعشرة أيام ودفن ببيت المقدس عند أبيه، فقام الأمر بعده أخوه عليّ الملقب بأبى الحسن فلم يكن له من حظ الملك فى جانب كافور الخادم غير ما كان لأخيه آنوجور وبقى مغلوباً على أمره، وفى أيامه قصر النيل فى زيادته سنتين متواليتين فحصل بسبب ذلك غلاء شديد ثم قحط تسع سنوات فأشتد الحال بالناس شدة بالغة وكثر الخطف والنهب وعاث اللصوص فى مصر وبقية البلاد وأفسدوا فارتفع الأمن وعم الخلل وكاد الناس يفتتنون فتنة كبرى.

ووقع بين أبى الحسن الأخشيد وكافور الخادم منافرة وعظمت فشاغب بعضهما بعضا أياماً كانت أشد هؤلاء على الرعية من الغلاء والقحط وقطع الطرق ثم تصالحا وما زال كافور يتصرف فى الصغير والكبير من الأمور ولا كلمة لأبى الحسن عليّ حتى مات سنة خمس وخمسين وثلثمائة هجرية فاستقر الملك باسم كافور وصار يدعى له على المنابر بالديار المصرية والشامية والحجاز فلم تطل أيامه ومات بمصر فى جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وثلثمائة فكانت مدة تصرفه منفردا سنتين وأربعة أشهر، وكان عاقلاً ذا رأى وتدبير واسع المعرفة كبير السياسة كيسا حازما كثير التبصر فى العواقب، قال الذهبى: كان كافور هذا خصيا حبشياً اشتراه الأخشيد من بعض أهل مصر بثمانية عشر دينارا ثم تقدم عنده لعقله ورأيه إلى أن صار من كبار القواد ثم لما مات أستاذه صار أتابك ولده آنوجور وكان صبياً فغلب كافور على كافة الأمور وصار الاسم للولد والدست لكافور ثم استقل بالأمر ولم يبلغ أحد من الخصيان ما بلغ كافور ومدحه المتنبى بقوله:

قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنا إنسان عين زمانه وخلت بياضا خلفها ومآقيا

وهجاه بقوله:

من علم الأسود المخصي مكرمة أقومه البيض أم آباؤه الصيد
وذاك أن الفحول البيض عاجزة عن الجميل فكيف الخصية السود

قال محمد بن عبد الملك الهمدانى: كان بمصر واعظ يقص على الناس فقال

يوماً فى قصصه أنظروا إلى هوان الدنيا على الله تعالى فإنه أعطاها لمقصوصين ضعيفين ابن بويه ببغداد وهو أشل وكافور عندنا بمصر وهو خصى فرفع إليه قوله وظنوا أنه يعاقبه فتقدّم إليه بخلعة ومائة دينار وقال لم يقرأ هذا إلا الجفائى له فكان الواعظ يقول بعد ذلك فى قصصه ما أنجب من ولد حام إلا ثلاثة لقمان وبلال المؤذن وكافور، قال أبو جعفر مسلم بن عبيد الله بن طاهر العلوى كنت أساير كافورا يوماً وهو فى مركب خفيف فسقطت مقرعته من يده فبادرت بالنزول وأخذتها من الأرض ودفعتها إليه، فقال: أيها الشريف أعوذ بالله من بلوغ الغاية ما ظننت أن الزمان يبلغنى حتى يفعل بى هذا وكان يبكى، فقلت أنا صنيعة الأستاذ ووليه فلما بلغ باب داره ودعته وسرت فإذا أنا بالبغال والجنائب بمراكبها، وقال أصحابه: أمر الأستاذ بحمل هذا إليك وكان ثمنها يزيد عن خمسة عشر ألف دينار . اهـ.

ولكافور أخبار أخرى كثيرة أضربنا عن إيرادها هنا، ولما مات كافور ولى المصريون مكانه أبا الفوارس أحمد بن على بن الأخشيد وهو يومئذ ابن اثنتين وعشرين سنة وكان بالشامات التابعة لمصر حسين بن الأخشيد فلم وصل أهل الشام خبر موت كافور الخادم وولاية أبو الفوارس أحمد لم يرضهم ذلك وولوا عليهم حسينا المذكور ولكنه لم يلبث حتى قام عليه القرامطة وانتزعوا منه البلاد فجاء هارباً إلى مصر وفى نفسه نزعها من يد أبى الفوارس فلم تساعده الأيام على نوال ذلك وخانته الأقدار ولم يتم على ولاية أبى الفوارس حول كامل حتى أتى جوهر القائد لجيوش المعز لدين الله المهدى المغربى صاحب أفريقية فانتزعها منه كما سيذكر تفصيل ذلك فى محله.

ومات فى خلافة المطيع أيضاً غبريال بطرك المتأصلين فكانت مدته إحدى عشرة سنة كابد فيها من البلايا والمحن ما لا يطاق فأقاموا بعده قسيماً أو هو قزمان ثامن خمسيهم فلبث اثنتى عشرة سنة ومات، وفى أيامه أحرق المسلمون كنيسة مريم بدمشق الشام ونهبوا ما فيها من الأوانى وغيرها وكانت قيمتها كثيرة ونهبوا كذلك ديراً للنساء بجوارها وقتلوا وسبوا ونهبوا كنائس النسطورية والمتأصلين ولم يبقوا فيها شيئاً فكانت أيامه كلها شدائد فلما مات أقيم بعده مكاريوس أو هو مقار تاسع خمسيهم وهو راهب من دير أبى مقار وأصله من شبرى ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله.

(وصل)

(فيما قاله أصحاب التاريخ فى أصل الفاطميين وفى ظهور دولتهم بديار مصر وفى اعتبارنا لهم ملوكا عليها لا خلفاء كما يدعون)

قال أصحاب التاريخ: قد كان مبدأ ظهور هذه العائلة ببلاد المغرب سنة ست وتسعين ومائتين هجرية وقد أجمعوا على هذا وعلى أن عدد من ملك منهم أربعة عشر نفرا منهم ثلاثة ظهروا بالمغرب وماتوا أولهم أبو محمد عبيد الله فقيل هو محمد بن عبدالله بن ميمون بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبى طالب، قال بعضهم: ومن ينسب هذا النسب يجعله عبدالله ابن ميمون القدّاح الذى ينسب إليه القدّاحية وقال آخرون: بل هو عبيد الله بن أحمد ابن إسماعيل الثانى بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن عليّ ابن الحسين ابن عليّ بن أبى طالب فيكون أبو محمد عبدالله هذا على مقتضى القول الأول أو عبيد الله على مقتضى القول الثانى رأس هذه العائلة ومؤسسها وقد اختلفوا فى صحة نسبه فقال هو وأصحابه القائلون بإمامته: إن نسبه صحيح على ما ذكر هنا ولم يرتابوا فيه قال صاحب الكامل: وذهب كثير من العلويين العالمين بالأنساب إلى موافقتهم أيضاً ويشهد بصحة هذا القول ما قاله الشريف الرضى:

ما مقامى على الهوان وعندى   مقول صارم وأنف حميّ
أليس الذل فى بلاد الأعادى   وبمصر الخليفة العلويّ
من أبوه أبي ومولاه مولا   ي إذا ضامنى البعيد القصيّ
لف عرقى بعرقه سيد النـ   ـاس جميعاً محمد وعليّ
إن ذلى بذلك الجدّ عز   وأوامى بذلك الربع ريّ

قال: وإنما لم يودعها فى بعض ديوانه خوفاً ولا حجة بما كتبه فى المحضر المتضمن القدح فى أنسابهم فإن الخوف يحمل على أكثر من هذا قال: وسألت جماعة من أعيان العلويين فى نسبه يعنى فى نسب محمد أبى عبيد الله هذا فلم يرتابوا فى صحته أهـ .

وذهب آخرون إلى غير هذا المذهب فقالوا بل إن نسبه مدخول ليس بصحيح وإنه كان يهوديا وكذلك كتبوا فى الأيام القادرية محضراً يتضمن القدح فى نسبه

ونسب أولاده ووقع عليه جماعة من العلويين وغيرهم أن نسبه إلى أمير المؤمنين عليّ ابن أبى طالب غير صحيح وكان ممن كتب فيه من العلويين المرتضى وأخوه الرضى وابن الطحاوى وابن الأزرق العلويون وممن غيرهم ابن الأكفانى وابن الخرزى وأبو العباس الأبيوردى وأبو حامد والكشفلى والقدورى والصميري وأبو الفضل النسوى وأبو جعفر النسفى وأبو عبدالله بن النعمان فقيه الشيعة وزعم القائلون بصحة نسبه أن العلماء ممن كتب فى ذلك المحضر إنما كتبوا خوفاً وتقية وأن نسبه إلى عليّ صحيح لامراء فيه، وأما من رفع نسبه إلى الحسين بن محمد القداح ثم تغالوا حتى قالوا إنه لم يكن من ولد الحسين المذكور ولكنه ابن لامرأة يهودية كان قد أحبها الحسين بن محمد بن أحمد بن عبدالله بن ميمون القداح فقد اعتمدوا فى ذلك على ما رواه أهل التاريخ ونقله الكتاب من أخبار أيام القدّاح جد هذه العائلة وكيفية ظهوره أنه لما ظهرت كلمة أبى عبدالله الشيعى يعنى ابن ميمون القدّاح وكثرت أحزابه وانتشرت حواشيه فى بلاد أفريقية جعل يغرى الناس بأبى مضر ويعيبه ويسفه أحلامه وما زال حتى فشت دعوته بين سائر وزراء زيادة الله صاحب أفريقية فمالوا إليه وأحبوا نصرته فلما كاد يتم له ذلك مات عبدالله ميمون المذكور وظهر ولده فجعلوا يقولون إنهم من ولد عقيل بن أبى طالب ولكنهم لم يجسروا على الظهور بين الناس فكانوا يخفون أشخاصهم ولبثوا على هذا الحال حينا وكان ولده أحمد هو المشار إليه منهم فتوفى وخلف ولده محمداً وكان محمد هذا هو الذى يكاتبه الدعاة فى البلاد فتوفى محمد وخلف أحمد والحسين فسار الحسين إلى سلمية من أرض حمص إذ كان له بها ودائع وأموال من ودائع جده عبدالله القدّاح ووكلاء وغلمان وبقى ببغداد من أولاد القدّاح أبو الشلغلغ وكان الحسين يدّعى أنه الوصى وصاحب الأمر والدعاة باليمن والمغرب يكاتبونه ويراسلونه فى أمور الشيعة كلها، واتفق أنه جرى فى مجلسه يوماً حديث النساء بسلمية وجمال بعضهن فوصفوا له امرأة رجل يهودى حداد مات عنها زوجها وهى فى غاية الحسن والجمال وأن لها ولداً من الحداد يماثلها فى الجمال فمال إلى زواجها فتزوج بها وأحبها وحسن موقعها معه وأحب ولدها وأدّبه وأحسن تعليمه وكان اسمه عبيد الله فتعلم العلم وصارت له نفس عظيمة وهمة كبيرة ثم مات الحسين فقال بعض علماء زمانه من أهل سلمية إنه مات عن غير ولد فعهد إلى ابن اليهودى الحداد وهو عبيد الله هذا وعرّفه أسرار الدعوة من قول وفعل ودله على مواضع الدعاة وأعطاه الأموال والعلامات وتقدّم إلى أصحابه بطاعته وخدمته وإنه الإمام والوصى وزوّجه ابنة عمه أبى الشلغلغ الذى نزل ببغداد

وهذه دعوة أبى القاسم الأبيض العلوى وغيره قالوا: وجعل لنفسه أى عبيد الله المذكور نسباً وهو عبيد الله بن الحسين بن علىّ بن محمد بن علىّ بن موسى بن جعفر بن محمد ابن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب، وبعض العلماء بالأنساب يقولون بل هو أى عبيد الله المهدى من ولد القدّاح جاءه من زوجة اليهودى الحداد وظهرت كلمة عبيد الله المذكور وعرفه الدعاة واجتمعوا حوله فبذل الأموال وأكثر من الأعطية وشاع خبره عند الناس أيام المكتفى العباسى فطلبه فهرب هو وولده أبو القاسم نزار الذى ولى بعده وهو يومئذ غلام وخرج معه خواصه ومواليه يريد المغرب وعليها زيادة الله فلما انتهى إلى مصر لبث بها مستترا بزى التجار وكان العامل على مصر يومئذ عيسى النوشرى فأتته الكتب من الخليفة بصفته وحليته والأمر بالقبض عليه وعلى كلّ من يشبهه وكان بعض المقربين من مجلس عيسى النوشرى متشيعاً فأخبر عبيد الله بخبر القبض عليه وأشار عليه بالانصراف فرحل عن مصر مع أصحابه ومعه من الأموال شئ كثير فأوسع النفقة على من صحبه، وفرق عيسى النوشرى الرسل فى طلب المهدى المذكور وعلم بخروجه فخرج خلفه فى عسكر فلحقه وقد نزل ببستان فلما رآه لم يشك فيه فقبض عليه ووكل به فلما حضر الطعام دعاه ليأكل فأعلمه أنه صائم فرق له وقال له: أعلمنى بحقيقة حالك حتى أطلقك فخوفه بالله تعالى وأنكر حاله وما زال يعظ النوشرى ويخوّفه الله ويتلطفه حتى رق له وأطلقه وخلى سبيله وقيل إنه أعطى النوشرى مالاً جزيلاً حتى أطلقه وعلم أصحاب النوشرى بما جرى فرجعوا على النوشرى باللوم وعنفوه على إطلاقه فندم وسير خلفه سرية من العسكر وكان المهدى لما لحق بأصحابه رأى ابنه أبا القاسم قد ضيع كلباً كان يصيد به وهو يبكى عليه فعرّفه عبيده أنهم تركوه فى البستان الذى كانوا فيه فرجع المهدى فى طلب الكلب حتى دخل البستان ومعه جماعة من غلمانه فرآهم النوشرى فسأل عنهم فقيل فلان قد عاد بسبب كذا وكذا فقال النوشرى لأصحابه: قبحكم الله أردتم أن تحملونى على قتل هذا الرجل حتى آخذه فلو كان يطلب ما يقال أو كان مريباً لكان يطوى المراحل ويخفى نفسه ولا كان رجع فى طلب كلب وتركه.

واتسعت شهرة أبى عبيد الله بعد ذلك وكثرت جموعه فتقوّت بهم عزيمته وكان فى غضون هذه الحوادث قد عاث أبو عبدالله الشيعى بالمغرب وأكبر الدعوة إلى المهدى عبيد الله بن القدّاح وقتل ونهب وفتح عدّة بلاد من إفريقية مثل ميلاً وسطيف وطبنة ومدينة بلزمة ودار ملوك ومدينة تينجس وباغاية وأنكجان ومجانة وتيفاش

ومسكيانة وتبسة ومدبرة ومرمجنة والقصرين وقسطيلة وغير ذلك من المدن والبلدان وأخرج أبو عبيد الله العمال إلى تلك البلاد وطلب أهل الشر والفساد فقتلهم وأمر أن يجمع ما كان لزيادة الله من الأموال والسلاح وغير ذلك وكان زيادة الله قد هرب إلى ديار مصر فاجتمع له شئ كثير وفيه كثير من الجوارى لهن مقدار وحظ من الجمال، فوكل بهن امرأة صالحة كانت لزيادة الله ولم ينظر إلى واحدة منهن ولما استقر بالقيروان وحضرت الجمعة أمر الخطباء بإقامة الخطبة فيها وفى رقادة فخطبوا ولم يذكروا أحداً وأمر بضرب السكة ولم ينقش عليها اسم ولكنه جعل مكان الاسم من وجه: بلغت حجة الله، ومن الوجه الآخر: تفرّق أعداء الله، ونقش على السلاح: عدّة فى سبيل الله ورسم الخيل على أفخاذها: الملك لله، وأقام على ما كان عليه من لبس الدون الخشن والقليل من الطعام الغليظ، وبتغلب أبى عبدالله على هذه المدن والأمصار زال ملك بنى الأغلب وملك بنى مدرار من أفريقية وكان قد مضى على على ملكهم ثلاثون ومائة سنة وهم منفردون بملك سلجماسة وزال كذلك ملك بنى رستم من تاهرت ولهم ستون ومائة سنة تفردوا بتاهرت، وجاء عبيدالله المهدى وولده أبو القاسم بدعوة من أبى عبد الله الشيعى فدخل القيروان بعد أمور أضربنا عن إيرادها هنا وأبو عبد الله الشيعى ورؤساء كتامة مشاة بين يديه وولده خلفه ونزل بقصر من قصور رقادة وأمر يوم الجمعة بذكر اسمه فى الخطبة فى البلاد ولقب بالمهدى أمير المؤمنين وجلس بعد الجمعة رجل يعرف بالشريف ومعه الدعاة وأحضروا الناس بالعنف والشدّة ودعوهم إلى مذهبهم فمن أجاب أحسن إليه ومن أبى حبس فلم يدخل فى مذهبهم إلا القليل وقتل كثير ممن لم يوافقهم على قولهم وقسّم على وجوه كتامة أعمال أفريقية ودوّن الدواوين وجبى الأموال واستقرّت قدمه ودانت له أهل البلاد وقتل أبا عبدالله الشيعى وأخاه أبا العباس لأمور لا موضع لذكرها هنا، وتاقت نفسه إلى فتح الديار المصرية وضمها إلى مملكته الواسعة فاستشار جماعة من قواده فى ذلك فأشاروا عليه بالفتح وهوّنوا عليه الأمر وكشفوا له عما أصاب الخلافة العباسية من الوهن وما هى عليه من قرب الزوال، فلما كانت سنة إحدى وثلثمائة هجرية جهز المهدى جيشاً عظيماً وسيره من أفريقية مع ولده أبى القاسم إلى الديار المصرية فقصد برقة واستولى عليها فى ذى الحجة وسار إلى مصر فملكوا الإسكندرية وساروا منها إلى الفيوم فملكها وصار فى يده أكثر ما جاورها من البلاد فضيق عليها وشدّد على أهلها ووردت الأخبار بذلك إلى الخليفة المقتدر بالله العباسى فأكبرها وأعظمها جدا وسيّر لخلاص البلاد مؤنساً الخادم

فى جيش عظيم فالتقى بأبى القاسم وجيوشه واقتتلوا قتالاً عنيفاً فظفر بهم مؤنس وهزمهم شر هزيمة فعادوا إلى المغرب مهزومين وعلم المهدى بما جرى لهم فجيش جيشاً آخر وسيره مع قائد من قواده يقال له حباسة إلى الإسكندرية فى البحر فنزل عليها وقاتلها وتغلب عليها ثم سار منها إلى مصر ونزل بين مصر والإسكندرية وجاء الخبر بذلك إلى المقتدر فأرسل مؤنساً الخادم فى عسكر إلى مصر لقتال حباسة وأمدّه بالسلاح والمال فسار إليها فالتقى العسكران فى جمادى الأولى فاقتتلوا قتالاً شديداً فقتل من الفريقين خلق كثير وجرح خلق واشتد القتال وتعدّدت الوقائع وجدّ أصحاب مؤنس فى قتال المغاربة حتى هزموهم شر هزيمة وتتبعوهم بالقتل والأسر فكان مبلغ القتلى على ما قاله صاحب الكامل سبعة آلاف مع الأسرى، وهرب الباقون، وكانت هذه الواقعة فى سلخ جمادى الآخرة من السنة أى سنة اثنتين وثلثمائة وعادوا إلى المغرب فلما وصلوا إلى المغرب قتل المهدى حباسة أمير تلك الجيوش ومع ذلك لم تفتر للمهدى عزيمة ولم يتحول عن عزمه من أخذ مصر عنوة واشتد عليه هذا الأمر وأقلقه جدا فلما كانت سنة سبع وثلثمائة جهز المهدى جيشاً عظيماً تحت رئاسة ابنه أبى القاسم وسيّره إلى مصر فوصل إلى الإسكندرية فى ربيع الآخر من السنة فرحل عامل المقتدر عنها لعدم قدرته على القتال فدخلها أبو القاسم وسار إلى مصر فدخل الجيزة وملك الأشمونين وكثيراً من الصعيد ووردت الأخبار بذلك إلى الخليفة المقتدر فبعث مؤنساً الخادم فى شعبان لردّ أبى القاسم وجنوده عن البلاد فحصل بينه وبين أبى القاسم عدّة وقعات ووصل من أفريقية ثمانون مركبا نجدة لأبى القاسم وعليها سليمان الخادم ويعقوب الكتامى وهما أشجع قواد المهدى وجاء الخبر بذلك إلى الخليفة المقتدر بالله فأمر بأن تسير مراكب طرسوس إليهم فسارت خمسة وعشرون مركباً وفيها النفط والعدد ومقدّمها أبو اليمن فالتقت السفن بالسفن واقتتلوا على رشيد فظفر أصحاب مراكب المقتدر وحرقوا كثيراً من مراكب أفريقية وهلك أكثر أهلها وأسر منهم كثير وفى الأسرى سليمان الخادم ويعقوب فقتل من الأسرى كثير وأطلق كثير ومات سليمان فى الحبس بمصر وحمل يعقوب إلى بغداد ثم هرب منها وعاد إلى أفريقية واشتد مؤنس الخادم قائد جيوش المقتدر بالله وألح فى قتال أبى القاسم ومن معه حتى ظفر به وقهره فجاءه مرسوم الخليفة بالتشريف ولقب المظفر ووقع الوباء أيضًا فى عسكر أفريقية وكذلك الغلاء فمات منهم كثير من الخلق والخيل فعاد من سلم إلى أفريقية وسار عسكر مصر فى أثرهم حتى أجلوهم عن البلاد.

فلما كانت سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة هجرية مات أبو محمد عبيد الله المهدى فى ربيع الأول فأخفى ولده أبو القاسم خبر موته سنة لتدبير كان له وكان يخاف أن يختلف الناس عليه إذا علموا بموته وكان عمر المهدى لما توفى ثلاثاً وستين سنة وكانت خلافته منذ دخل رقادة ودعى له بالإمامة إلى أن مات أربعاً وعشرين سنة وشهراً وعشرين يوماً، فقام بالأمر بعده ابنه أبو القاسم محمد وكان أبوه قد عهد إليه ولقب بالقائم بأمر الله، فلما استتب له الأمر ودانت له المملكة هم بفتح ديار مصر فجيش جيشاً عظيماً وسيره إليها مع خادمه زيدان وبالغ فى النفقة عليه فدخلوا الإسكندرية وكان المتولى على ديار مصر فى هذا الحين محمد الإخشيد فأخرج لقتالهم جنوداً فقاتلوهم وهزموا المغاربة وقتلوا فيهم وأسروا خلقاً وعاد المغاربة مغلوبين وبقى الحال فى سكون والقائم لا يبدى حراكًا إلى أن كانت سنة أربع وثلاثين وثلثمائة مات القائم بأمر الله لثلاث عشرة مضت من شوال، فقام بالأمر بعده ابنه إسماعيل وتلقب بالمنصور بالله وكتم خبر موت أبيه لسبب الفتنة القائمة وخروج المدعوّ أبا يزيد وكان المنصور شهماً شجاعاً حسن التدبير فضبط أركان الملك وأحسن تدبير البلاد فبلغت شهرته مبلغاً عظيماً وما زال يتصرف حتى مات سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة للهجرة بالمهدية فكان ثالث من ظهر ومات من هذه العائلة بالمغرب، فقام بالأمر بعده ولده المعز لدين الله أبو تميم معد وهو أول ملوكهم الأحد عشر بديار مصر فلما تمت له البيعة وصفت له الأمور تاقت نفسه إلى فتح ديار مصر والتغلب عليها وقد طمع فيها، وكان لما مات كافور الإخشيدى لم يبق بمصر من تجتمع القلوب عليه فاختلفت عند ذلك كلمة أهل البلاد وتفرّقت أهواؤهم وافتتنوا أو كادوا وأصابهم فى ذلك الحين غلاء شديد ثم قحط ثم وباء أفنى من الخلق ما لا يكاد يدخل تحت الحصر فلما بلغ ذلك المعز أبا تميم طمع فى فتحها وكثرت رغبته فى ذلك فجهز القائد أبا الحسن جوهراً غلام والده المنصور وهو رومىّ فى مائة ألف مقاتل فبرز جوهر إلى رمادة وبين يديه أكثر من ألف صندوق من المال وصار المعز يخرج إليه فى كل يوم وأطلق يده فى بيت ماله. يحكى أن المعز خرج يوماً إلى معسكر جوهر فقام جوهر بين يديه وقد اجتمع القواد وكبار القوم الذين خرجوا مع الجيش فنظر المعز إليهم وقال: والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر ووالله لتدخلن ديار مصر بالوردية من غير حرب ولتنزلن فى خرابات ابن طولون وتبنى مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا وأمر المعز بإفراغ الذهب فى هيئة الأرحية وحملها مع جوهر على الجمال ظاهرة وأمر أولاده وإخوته وولى عهده أن يسيروا فى ركاب

جوهر وهو راكب وكتب إلى سائر عماله يأمرهم إذا قدم عليهم جوهر أن يترجلوا مشاة فى خدمته فانحدر جوهر بجيوشه ونزل برقة فتقدم إليه صاحبها بخمسين ألف دينار ذهباً فداء من ترجله ومشيه فى ركابه فرده جوهر عليه وقال: لابد من العمل بما أمر به أمير المؤمنين فمشى صاغراً وكان خروج جوهر من القيروان فى رابع عشر ربيع الأول سنة ثمان وخمسين وثلثمائة فهنأه الشعراء يوم خروجه وودعه كبار الدولة وبالغوا فى تعظيمه، ومدحه محمد بن هانئ الشاعر بقصيدة منها هذه الأبيات:

رأيت بعينى فوق ما كنت أسمع   وقد راعنى يوم من الحشر أروع
غداة كأنّ الأفق سدّ بمثله   فعاد غروب الشمس من حيث تطلع
فلم أدر إذ ودعت كيف أودّع   ولم أدر إذ شيعت كيف أشيع

إلى أن قال:

إذا حل فى أرض بناها مدائنا   وإن سار عن أرض غدت وهى بلقع
تحل بيوت العز حيث محله   وجم العطايا والرواق المرفع
رحلت إلى الفسطاط أوّل رحلة   بأيمن فأل بالذى أنت تجمع
فإن يك فى مصر ظماء لمورد   فقد جاءهم نيل سوى النيل يهرع

ووصل جوهر بمن معه من الجيوش إلى مصر فلما اتصل خبر وصوله هربت العساكر الإخشيدية على وجوههم فنزل بالجيزة فى سابع عشر شعبان من السنة فخرج الناس للقائه واجتمع سائر الأمراء وبينهم الوزير جعفر فى جماعة من الأعيان وعبروا النيل إلى الجيزة والتقوا بالقائد ونادى مناديه فنزل الناس كلهم إلا الشريف والوزير فترجلوا وسلموا عليه واحداً واحداً والوزير عن شماله والشريف عن يمينه ثم دخل بجيوشه البلد من وقت الزوال بسلاحهم وعددهم وكراعهم وطبولهم وبنودهم ونزلوا فيما هو موضع القاهرة اليوم ثم سار إلى الفسطاط ونزل فيه بعسكره وخطب للمعز يوم الجمعة على منابر مصر وسائر أعمالها وأمر أن يزاد عقيب الخطبة «اللهم صل على محمد المصطفى وعلى علىّ المرتضى وعلى فاطمة البتول وعلى الحسن والحسين سبطى الرسول الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا اللهم صل على الأئمة الطاهرين آباء أمير المؤمنين» وأمر الموذنين بجامع عمرو بن العاص وجامع ابن طولون أن يؤذنوا بحىّ على خير العمل فشق ذلك على الناس ولكنهم ما استطاعوا له ردّاً وشرع فى بناء القاهرة للجند والقصرين والجامع الأزهر وأرسل بشيراً إلى المعز يبشره بفتح مصر وإقامة الدعوة له بها ويطلبه إليها وقد بدأ ببناء

القاهرة فى سنة تسع وخمسين وثلثمائة للهجرة فلم تأت سنة إحدى وستين حتى تم بناؤها، قال بعض الكتاب: وقد كانت البقعة التى ابتنى فيها القاهرة والقصرين والجامع بقعة رملية فيما بين الفسطاط وعين شمس لا شئ فيها إلا بعض البساتين منها بستان الإخشيد شرق الخليج وميدان الإخشيد ودير للنصارى من أهل البلاد كان يسمى دير العظام فيه بئر لا يزال باقياً يعرف ببئر الجامع الأقمر وتسميه العامة بئر العظمة وكان فى تلك البقعة أيضاً موضع يعرف بقصير الشوك ثم عرف بعد بناء القاهرة بقصر الشوك.

ولما استقر بجوهر المقام بمصر وثبتت قدمه سير جعفر بن فلاح الكتامى إلى الشام فى عسكر عظيم فبلغ الرملة وبها أبو محمد الحسن بن عبدالله بن طغج فقاتله فى ذى الحجة من السنة أى سنة ثمان وخمسين وثلثمائة واشتد ابن فلاح فى قتاله وألح، فكانت بين الفريقين حروب كان الظفر فيها لابن فلاح وأسر ابن طغج وغيره من كبار القواد وسيرهم إلى جوهر القائد بمصر فبعث بهم جوهر إلى المعز بإفريقية ودخل ابن فلاح الرملة عنوة فقتل ونهب وسبى ثم أمّن من بقى من أهلها وجبى منهم الخراج وسار إلى طبرية فرأى ابن ملهم قد أقام الدعوة للمعز لدين الله فسار عنها إلى دمشق فامتنع عليه أهلها وقاتلوه فقاتلهم وألح فى قتالهم حتى ظفر بهم وملك البلد ونهب بعضه وأقام الخطبة للمعز يوم الجمعة لأيام خلت من المحرم سنة تسع وخمسين وقطعت الخطبة العباسية. قال صاحب الكامل: وكان بدمشق الشريف أبو القاسم بن أبى يعلى الهاشمى وكان جليل القدر نافذ الحكم فى أهلها فجمع أحداثها ومن يريد الفتنة وثار بهم فى الجمعة الثانية وأبطل الخطبة للمعز لدين الله وأعاد خطبة المطيع لله ولبس السواد وعاد إلى داره فقاتله جعفر بن فلاح ومن معه قتالاً شديداً وصبر أهل دمشق ثم افترقوا آخر النهار فلما كان الغد تزاحف الفريقان واقتتلوا ونشبت الحرب بينهما وكثرت القتلى من الجانبين ودام القتال فعاد عسكر دمشق منهزمين والشريف بن أبى يعلي مقيم على باب البلد يحرّض الناس على القتال ويأمرهم بالصبر وواصل المغاربة الحملات على الدماشقة حتى ألجئوهم إلى باب البلد ووصل المغاربة إلى قصر حجاج ونهبوا ما وجدوا فلما رأى ابن أبى يعلى الهاشمى والأحداث ما لقى الناس من المغاربة خرجوا من البلد ليلاً فأصبح الناس حيارى فدخل الشريف الجعفرى وكان قد خرج من البلد إلى جعفر بن فلاح فى الصلح فأعاده وأمره بتسكين الناس وتطييب قلوبهم ووعدهم الجميل ففعل ما أمره وتقدم إلى الجند والعامة بلزوم منازلهم وأن لا يخرجوا منها إلى أن يدخل جعفر بن

فلاح البلد ويطوف فيه ويعود إلى عسكره ففعلوا ذلك، قال: فلما دخلت المغاربة البلد عاثوا فيه ونهبوا قطراً منه فثار الناس وحملوا عليهم ووضعوا السيف فيهم فقتلوا منهم جماعة وشرعوا فى تحصين البلد وحفر الخنادق وعزموا على اصطلاء الحرب وبذل النفوس فى الحفظ وأحجمت المغاربة عنهم ومشى الناس إلى الشريف أبى القاسم بن أبى يعلى فطلبوا منه أن يسعى فيما يعود بصلاح الحال ففعل ودبّر الحال إلى أن تقرر الصلح يوم الخميس لست عشرة خلت من ذى الحجة سنة تسع وخمسين وثلثمائة، وكان الحريق قد أتى على عدة كثيرة من الدور وقت الحرب، وأدخل صاحب الشرطة جعفر بن فلاح البلد يوم الجمعة فصلى مع الناس وسكّنهم وطيب قلوبهم وقبض على جماعة من الأحداث فى المحرم سنة ستين وثلثمائة وقبض على الشريف أبى القاسم بن أبى يعلى الهاشمى المذكور وسيره إلى مصر واستقر أمر دمشق للمعز لدين الله أهـ.

وجاء الخبر بما وقع بدمشق من القتل والنهب إلى الحسين بن أحمد بن بهرام القرمطى صاحب القرامطة وأن ابن فلاح ملك البلد وقتل ابن طغج فأهمه هذا الخبر وأقلقه هو وأصحابه وأزعجهم جداً وذلك لأنه كان قد تقرر بينهم وبين ابن طغج أن يحمل إليهم أن طغج المذكور ثلثمائة ألف دينار نقرة فى كل سنة فلما ملك ابن فلاح الشام علموا أن المال يفوتهم فعزموا على قصد الشام وأرسل صاحبهم الحسين بن أحمد بن بهرام القرمطى إلى عز الدولة بختيار يطلب منه المساعدة بالسلاح والمال فأجابه إلى ذلك فساروا إلى دمشق فى ذى القعدة من السنة فى عدة عظيمة وبلغ خبرهم إلى جعفر بن فلاح فاستهان بهم ولم يحترز منهم فلم يشعر بهم حتى كبسوه بظاهر دمشق وقتلوه ونهبوا أمواله وسلاحه ودوابه وملكوا دمشق وأمنوا أهلها وساروا إلى الرملة فاستولوا على جميع ما بينها وبين دمشق فلما سمع من بها من المغاربة خبرهم ساروا عنها إلى يافا فتحصنوا بها وملك القرامطة الرملة وساروا إلى مصر وتركوا على يافا من يحصرها فلما وصلوا إلى مصر اجتمع معهم خلق كثير من العرب والجند والإخشيدية والكافورية فاجتمعوا بعين شمس واجتمع عسكر جوهر القائد وخرجوا إليهم فاقتتلوا غير مرة كان الظفر فى كل وقعة للقرامطة وحصروا المغاربة حصراً شديداً وخرج المغاربة يوماً من مصر وحملوا على ميمنة القرامطة فانهزم من بها من العرب وتلك اللموم وقصدوا سواد القرامطة فنهبوه فاضطروا إلى الرحيل وعادوا إلى الشام فنزلوا إلى الرملة وحاصروا يافا وضيقوا على من بها فسير

جوهر من مصر نجدة إلى أصحابه بيافا ومعهم ميرة فى خمسة عشر مركباً فخرجت مراكب القرامطة عليها فأسروا مراكب جوهر كلها ولم ينج منها غير مركبين فغنمهما الروم ثم كان بعد ذلك من أمرهم ما سيذكر فى محله.

ولما وصل البشير إلى المعز لدين الله وبشره بفتح الديار المصرية وإقامة الدعوة له بها وطلبه إليها فرح فرحاً لا يوصف وسار من إفريقية يريد الديار المصرية فكان أول مسيره أواخر شوال من السنة أى سنة إحدى وستين وكان أوّل رحيله من المنصورية فأقام بسردانية وهى قرية قريبة من القيروان ولحقه بها رجاله وعماله وأهل بيته وجميع ما كان له فى قصره من أموال وأمتعة وغير ذلك حتى أن الدنانير سبكت وجعلت كهيئة الطواحين وحمل كل طاحونتين على جمل وسار عن سردانية بعد مقام أربعة أشهر إلى طرابلس ومعه جيوشه وحواشيه ثم رحل عنها إلى مصر ونزل على برقة ومعه محمد بن هانئ الشاعر الأندلسى وكان عندما خرج المعز من القيروان يريد مدحه ابن هانئ المذكور بقصيدة طويلة مطلعها:

تقول بنو العباس هل فتحت مصر　　فقل لبنى العباس قد قضى الأمر

فأصبحوا وقد رأوا ابن هانئ المذكور ملقى على جانب البحر قتيلاً ولم يدروا من قتله وكان قتله أواخر رجب من سنة اثنتين وستين وثلثمائة وكان من الشعراء المجيدين. قال أهل الانتقاد: ولكنه غالى فى مدح المعز حتى كفره العلماء فمن ذلك قوله:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار　　فاحكم فأنت الواحد القهار

وقوله:

ولطالما زاحمت تحت ركابه جبريلاً

قال صاحب الكامل: ومن ذلك ما ينسب إليه ولم أجدها فى ديوانه قوله:

حل برقادة المسيح　　حل بها آدم ونوح

حل بها الله ذو المعالى　　فكل شئ سواه ريح

ورقادة اسم مدينة بالقرب من القيروان إلى غير ذلك قال: وقد تأول ذلك من يتعصب له والله أعلم اهـ.

ووصل المعز لدين الله إلى الإسكندرية أواخر شعبان من السنة وأتاه أهل مصر وأعيانها فلقيهم وأكرمهم وأحسن إليهم وخطب بالإسكندرية خطبة بليغة وكان ممن سار للقائه قاضى مصر أبو طاهر الذهلى فجلس إلى جنبه فسأله المعز هل رأيت خليفة أفضل منى؟ فقال: لم أر أحداً من الخلائق سوى أمير المؤمنين، فقال له:

أحججت؟ قال نعم، قال: وزرت قبر رسول الله ﷺ؟ قال نعم، قال: وقبر أبى بكر وعمر؟ قال القاضى: فتحيرت ماذا أقول ثم نظرت فإذا ابنه قائم مع كبار الأمراء فقلت: شغلنى عنهما رسول الله ﷺ كما شغلنى أمير المؤمنين عن السلام على ولىّ العهد ونهضت إليه وسلمت عليه فأفسح المجلس إلى غيرى، وسار من الإسكندرية إلى مصر فدخلها خامس رمضان سنة اثنتين وستين وثلثمائة وأنزل عساكره مصر والقاهرة فى الديار وبقى كثير منهم فى الخيام ونزل هو بالقصرين فكانت أول حكومة انتهت إليه أن امرأة لكافور الإخشيدى تقدمت إليه فذكرت له أنها كانت أودعت رجلاً من اليهود الصوّاغ قباء من لؤلؤ منسوجاً بالذهب وأنه جحد ذلك فاستحضره وقرره فأنكر اليهودى فأمر أن يفتش فوجدوا القباء قد جعله فى جرة ودفنها فى الأرض فدفعه المعز إليها فتقدمت إليه وعرضته عليه فأبى أن يقبله منها ورده عليها فاستحسن منه الحاضرون ذلك وامتدت مملكة المعز لدين الله من حلب إلى بلاد المغرب إلى مكة كما كانت دولة الخلفاء العباسيين فى أيامه ممتدة أيضًا من بغداد وسائر الممالك الشرقية إلى العراق وأعمالها .

ولما كان أصحاب التاريخ على اختلاف فى أصل نسب هذه العائلة أعنى بها الفاطمية وقد أكثروا القول فى ذلك وأطالوا الكلام واحتج كل فريق بحجة واستمسك بشئ من الأدلة على صحة دعواه ولم تكن لتنقطع أيضًا إلى هذا الحين الخلافة من العباسيين وكان القائم بأمرها أمير المؤمنين الخليفة العباسى المطيع لله أبو الفضل بن الخليفة المقتدر يدعون له على المنابر فى بغداد وسائر الممالك الشرقية والعراقين وأعمالها وقد ورد فى حديث صاحب الشريعة الإسلامية النهى عن التعدد فى الأئمة قوله «إذا بويع لخليفتين فاقتلوا أحدهما» وكانت خلافة الفاطميين لم تظهر لانقراض الخلفاء العباسيين ولا لفقدان صلاحيتهم لحماية البيضة الإسلامية ولا لتعطيل وقع فى الأحكام الشرعية المتعلقة بالإمامة بل كان ظهورها بظهور جوهر الرّومى قائد المعز المغربى المذكور وتغلبه على ديار مصر بعد موت كافور الإخشيدى واختلاف كلمة أهل البلاد يومئذ فضلاً عما قد كان أصابهم من الغلاء والقحط والوباء الشديد الذى لم يبق ولم يذر فلذلك رأيت أن لا أتحول عن تتبع سنى الخلافة العباسية بذكر مدة كل خليفة وما وقع فيها من الحوادث وجعلها مبدأ كل مدة حتى تنقطع تماماً إما بقيام من هو أحق بالخلافة وأولى بالإمامة وهذا بعيد لا سبيل إليه بعد انقراض العباسيين كما قاله المحققون من أهل السنة وإما بتغلب من هو أصلح لحماية البيضة الإسلامية وأقدر على تنفيذ الأحكام الشرعية المتعلقة بالإمامة وهذا

ليس ببعيد إذا كان المراد من الإمامة فى عرف المتأخرين اختيار الأصلح للأمة كما فعل جمهور المهاجرين السابقين من العقبات الثلاث وأصحاب الهجرتين والقبلتين وأهل بدر وبينهم عمر بن الخطاب من اختيارهم لأبى بكر الصديق ومبايعته بالخلافة دون سعد بن عبادة سيد قبيلة الأوس الذى اختاره الأنصار والخزرجيون من الأنصار ودون علىّ بن أبى طالب ابن عم صاحب الشريعة وزوج ابنته فاطمة الزهراء وحينئذ نرجع فى التاريخ إليه ونتبع فى ذكر الحوادث سنى خلافته وهكذا من يأتى بعده من الخلفاء إلى ما شاء الله. وأما المعز لدين الله بن المهدى عبيد الله المغربى رأس هؤلاء الفاطميين بديار مصر فقد حسبناه فى عداد من ملك قبله من الملوك لفتحها على يد جوهر قائد جيوشه وكذلك من يقوم بعده من ولده إلى أن يورثها الله من يشاء من عباده ولذلك فإنى ذاكر هنا حوادث أيامهم واحداً فواحداً فى قلب مدة كل خليفة من الخلفاء العباسيين كمن سبقهم من النواب والملوك إلى أيام كافور الإخشيدى حتى لا يلتبس الأمر على القارئ بتعدد الخلفاء فيفوته الفرض والله الهادى إلى الصواب.

(الفصل الرابع والعشرون)

(فى خلافة أبى بكر بن عبد الكريم الطائع لله)

ثم قام بالأمر بعد المطيع ولده عبدالكريم أبو بكر الطائع لله بويع له بالخلافة يوم خلع أبوه نفسه من الخلافة سنة ثلاث وستين وثلثمائة هجرية أى سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة ميلادية وعمره يومئذ سبع وأربعون سنة فلم يل الخلافة من بنى العباس من هو أكبر منه سنًا. قال صاحب رأس مال النديم: ولم يتقلد الخلافة من أبوه حى سوى الطائع لله والصديق رضى الله عنه وكلاهما اسمه أبو بكر اهـ.

تولى الخلافة وليس له منها سوى الاسم فقط كمن تقدم من العباسيين والأمر يومئذ لابن بويه وغيره من الأتراك وكان ابن بويه هذا واسع الهيبة عالى الكلمة لم يبق للخليفة الطائع من مراسم الخلافة وأبهتها شيئًا إلا وحازه لنفسه فكان الخليفة يخافه جداً ويتحرز من قربه إلى بغداد ويعمل فى السر على إعلاء كلمة بختيار وتحبب الجند إليه وتزوّج بابنة بختيار لتعظم بذلك شوكته وتكبر هيبته فأحس عضد الدولة بن بويه بما وراء ذلك وكتب إلى عز الدولة بختيار المذكور يدعوه إلى طاعته وأن يسير العراق إلى أى جهة أرادها وكان بختيار يومئذ على العراق فاستشار بختيار أصحابه فى ذلك فاختلفوا عليه فكتب إلى عضد الدولة بالإجابة إلى ما يطلب وإنما يريد المساعدة بما يحتاج إليه من مال وسلاح فأجابه عضد الدولة إلى ذلك وأنفذ إليه

خلعة وتجهز بختيار بما أنفذه إليه عضد الدولة وخرج من بغداد عازماً على قصد الشام وسار عضد الدولة فدخل بغداد وخطب له بها. قال أصحاب التاريخ: ولم يكن قبل ذلك يخطب لأحد بها وضرب على بابه ثلاث نوب ولم تجر بذلك عادة من تقدمه وأمر أن يلقى الوزير أبو طاهر بن بقية وزير عز الدولة بختيار بين قوائم الفيلة لتقتله وكان قد طلبه من عز الدولة قبل جلائه عن بغداد فسلمه إليه بعد أن قلع عينيه فداسته الفيلة حتى قتلته ثم صلب على رأس الجسر فرثاه أبوالحسين بن الأنبارى بمرثية لم يسمع فى مصلوب مثلها وهى :

علوّ فى الحياة وفى الممات   لحق أنت إحدى المعجزات
كأن الناس حولك حين قاموا   وفود نداك أيام الصلات
كأنك قائم فيهم خطيبًا   وكلهم قيام للصلاة
مددت يديك نحوهم اقتفاء   كمدهما إليهم بالهبات
ولما ضاق بطن الأرض عن أن   يضم علاك من بعد الممات
أصاروا الجوّ قبرك واستعاضوا   عن الأكفان ثوب السافيات
لعظمك فى النفوس تبيت ترعى   بحرّاس وحفاظ ثقات
وتوقد حولك النيران قوم   كذلك كنت أيام الحياة
ركبت مطية من قبل زيد   علاها فى السنين الماضيات
وتلك قضية فيها تأس   تباعد عنك تعيير العداة
ولم أر قبل جذعك قط جذعا   تمكن من عناق المكرمات
أسأت إلى النوائب فاستثارت   فأنت قتيل ثأر النائبات
وكنت تجيرنا من صرف دهر   فعاد مطالبًا لك بالتّرات
وصير دهرك الإحسان فيه   إلينا من عظيم السيآت
وكنت لمعشر سعدا فلما   مضيت تفرقوا بالمنحسات
غليل باطن لك فى فؤادي   حقيق بالدموع الجاريات
ولو أنى قدرت على قيام   بفرضك والحقوق الواجبات
ملأت الأرض من نظم القوافى   ونحت بها خلاف النائحات
ولكنى أصبّر عنك نفسى   مخافة أن أعدّ من الجناة
ومالك تربة فأقول تسقى   لأنك نصب هطل الهاطلات
عليك تحية الرحمن تترى   برحمات غواد دائمات

قوله: زيد علاها فى البيت التاسع يعنى زيد بن علىّ بن الحسين بن علىّ أبى طالب لما قتل وصلب بأمر هشام بن عبدالملك بن مروان، وبقى ابن بقية المذكور مصلوباً إلى أيام صمصام الدولة فأنزل ودفن وسار بختيار يريد الشام ليتخذها مقرّاً له وسار معه ابن ناصر الدولة بن حمدان أخو أبى تغلب بن حمدان صاحب الموصل فلما صار بمن معهما بعكبرا حسّن ابن حمدان إلى بختيار المسير إلى الموصل لكثرة أموالها وأطمعه فيها وقال: إنها خير من الشام وأسهل مأخذا فمال بختيار إلى ذلك وسار نحوها فلما وصل إلى تكريت أتته رسل أبى تغلب تسأله المصالحة وأن يقبض على أخيه حمدان ويسلمه إليه وإذا فعل سار بنفسه مع عساكره إليه وقاتل معه عضد الدولة وأعاد بغداد إلى ملكه فأجابهم بختيار إلى ذلك وقبض على ابن حمدان وسلمه إلى رسل أبى تغلب فحبسه فى قلعة وسار بختيار إلى الموصل والتقى بأبى تغلب وساروا جميعاً نحو العراق، وكانت جند أبى تغلب زهاء العشرين ألفاً فلما جاء الخبر بذلك إلى عضد الدولة قام من بغداد فى جيش عظيم وسار نحوهما فالتقوا بقصر الحصن على مقربة من تكريت واقتتلوا قتالاً عنيفاً فهزمهما شر هزيمة وأسر بختيار وأحضر عنده وقتل من أصحابه خلق كثير واستقرّ ملك عضد الدولة بعد ذلك ببغداد ثم سار إلى الموصل فملكها وملك ما يليها فهرب أبو تغلب ومعه نساؤه وأولاد بختيار فسير عضد الدولة الجند فى طلبه فلم يدركوه وصار يتنقل من بلد إلى بلد والجند فى أثره حتى أعياهم القبض عليه ثم سار إلى دمشق ومعه نساؤه يريد النزول عند العزيز صاحب مصر فلم يمكنه عامل دمشق من الدخول فوقعت بينه وبين أصحابه العزيز وقائع كثيرة انكشفت عن هزيمته وأسروه فقطعوا رأسه وبعثوا به إلى العزيز بمصر فشهره.

وصفت الأمور لعضد الدولة، فعمد إلى عمارة بغداد وكانت قد تخربت بتوالى الفتن فرمم مساجدها وأسواقها وأدرّ الأموال على الأئمة والعلماء والقراء والغرباء والضعفاء الذين يأوون إلى المساجد وألزم أصحاب الدور الخراب بعمارتها وجدد ما دثر من الأنهار وأعاد حفرها وأطلق مكوس الحجاج وأصلح الطريق من العراق إلى مكة وأطلق الصلات لأهل البيوتات والشرف والضعفاء والمجاورين بمكة والمدينة واطمأنت قلوب الناس بعد تراكم الفتن وتوالى المحن وأجرى الجرايات على الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين والنحاة والشعراء والنسّابين والأطباء والحساب والمهندسين وأذن لوزيره نصر بن هارون وكان نصرانيا ببناء الديارات وعمارة البيع وإطلاق الأموال للفقراء من النصارى فأحبه الناس ومالوا إليه كثيراً واتسعت شهرته

وعظم ملكه فكان له العراق وكرمان وعمان وخوزستان والموصل وديار بكر وحوران وصبيح وهو أوّل من سمى ملكاً فى الإسلام ومال إليه الخليفة الطائع كرهاً وتزوّج ابنته وكان غرض عضد الدولة من تزويج ابنته للطائع أن تلد له ذكراً فيجعله ولى عهده فتكون الخلافة فى ولد لهم فيه نسب وكان الصداق مائة ألف دينار فزفت إليه ومعها من الجواهر والحلىّ شىء لا يحصى وما زال عضد الدولة يتصرف فى الأمور ويفتح الفتوحات العظيمة ويغزو ويقاتل كل من خالفه حتى وافته منيته فى شوال سنة اثنتين وسبعين وثلثمائة وكان به الصرع. مات ببغداد وحمل إلى مشهد أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب فدفن به وكانت ولايته ببغداد خمس سنين ونصفاً قيل ولما احتضر جعل يقول: ما أغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانيه. ولم ينطلق لسانه بغير هذه الآيات، ومما يحكى عنه أنه خرج يوماً إلى بستان له متنزهاً فقال: ما أطيب يومنا هذا لو ساعدنا فيه الغيث فجاء المطر فى الوقت فأنشد يقول:

ليس شرب الراح إلا في المطر ... وغناء من جوار في السحر
ناعمات سالبات للنهى ... ناغمات في تضاعيف الوتر
بارزات الكاس من مطلعها ... ساقيات الراح من فاق البشر
عضد الدولة وابن ركنها ... ملك الأملاك غلاب القدر
سهل الله له بغيته ... في ملوك الأرض ما دار القمر
وأراه الخير في أولاده ... ليساس الملك منهم بالغرر

قيل فلم يفلح بعد هذه الأبيات وعوجل بقوله غلاب القدر، فلما مات قام بالأمر بعده ولده الأمير صمصام الدولة فخلع عليه الخليفة الطائع لله وقلده ما كان بيد أبيه ولم تستقر به الولاية حتى قام عليه أخوه شرف الدولة وقبض عليه واعتقله وأحاط بدوره وأمواله ببغداد وجعل هو يتصرف فى الأمور حتى اعتل وانقطع عن الناس فأشار عليه نحرير الخادم بقتل أخيه صمصام الدولة فكان يعرض عن كلامه فلما اشتدت علته ألح عليه نحرير وقال له: إن الدولة معه على خطر فإن لم تقتله فأسمله فأرسل فى ذلك محمدا الشيرازى الفراش فمات شرف الدولة قبل أن يصل الفراش إلى حيث صمصام الدولة فتأخر الفراش عن سمله واستشار أبا القاسم العلاء بن الحسن الناظر فى ذلك فأشار عليه بسمله فسمله فكان صمصام الدولة يقول: ما أعمانى إلا العلاء لأنه أمضى فىّ حكم سلطان قد مات.

وتوفى شرف الدولة مستهل جمادى الآخرة وحمل إلى مشهد أمير المؤمنين علىّ

ابن أبى طالب فدفن به فكانت إمارته سنتين وثمانية أشهر، وكان عمره ثمانياً وعشرين سنة وخمسة أشهر وكان قد سير ولده أبا عليّ إلى بلاد فارس وأصحبه بالخزائن والعدد والعسكر الكثير من الأتراك فلما اشتدّت علته وأيس أصحابه منه دخل عليه كبارهم يسألونه أن يولى أحداً فقال: أنا فى شاغل عما تدعوننى إليه فقالوا له: مر أخاك بهاء الدولة أبا نصر أن ينوب عنك إلى أن تعافى لئلا تثور فتنة فقال: لكم ذلك فاستدعى أخاه وكلمه فى ذلك فتوقف بهاء الدولة وامتنع عن قبول الوكالة ثم أجاب فلما مات شرف الدولة جلس بهاء الدولة فى المملكة وقعد للعزاء وركب الطائع لله الخليفة إلى العزاء فتلقاه بهاء الدولة وقبل الأرض بين يديه فخلع عليه الطائع خلع السلطنة وجعل يتصرف فى الأمور فكان قليل الحظ سيىء الطالع كثير شغب الجند عليه وقتال بعضهم لبعض وطلبهم للجماكى والمرتبات وما زالت الأحوال فى اختلال والجند فى تمرد وخروج حتى كانت سنة إحدى وثمانين وثلثمائة هجرية فعظم شغب الجند عليه وظهرت الفتنة وطالبوه بالجماكى. وقد قلّت عنده الأموال فقبض على وزيره سابور واستصفى ماله فلم يغن عنه ذلك شيئاً وكان أبو الحسين المعلم قد غلب على بهاء الدولة وحكم فى مملكته فحسن له القبض على الخليفة الطائع لله وأطمعه فى ماله وهوّن عليه ذلك فمال بهاء الدولة إلى ذلك وأرسل إلى الطائع وسأله الإذن فى الحضور فى خدمته ليجدد العهد به فأذن له بذلك وجلس له على عادة الخلفاء فدخل بهاء الدولة ومعه جمع كثير فلما دخل قبل الأرض وجلس على كرسى فدخل بعض الديلم كأنه يريد يقبل يد الخليفة فجذبه فأنزله عن سريره والخليفة يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون وهو يستغيث ولا يلتفت إليه وأخذوه وأخذوا ما فى داره من الذخائر وشاع خبر القبض عليه فافتتن الناس ونهب بعضهم بعضا وكان من جملتهم الشريف الرضيّ فبادر بالخروج فسلم وقال أبياتاً من جملتها:

من بعد ما كان رب الملك مبتسما — إليّ أدنوه في النجوى ويدنيني
أمسيت أرحم من قد كنت أغبطه — لقد تقارب بين العز والهون
ومنظر كان بالسراء يضحكني — ياقرب ما عاد بالضراء يبكيني
هيهات أغتر بالسلطان ثانية — قد ضل ولاج أبواب السلاطين

ولما وصلوا بالطائع إلى دار بهاء الدولة عقد لحضوره مجلساً وأشهد عليه بالخلع فخلع كارهاً فكانت خلافته سبع عشرة سنة وثمانية أشهر وستة أيام وكان أبيض مربوعاً حسن الجسم وكان أنفه كبيراً جدّا وكان شديد القوّة كثير الإقدام.

وامتدت أيام المعز لدين الله العلوى إلى خلافة الطائع لله فلما دانت له الأمور وتمت عليه نعمة الله تحرك القرامطة وتاقت نفس مقدّمهم حسن بن أحمد إلى غزو ديار مصر واستخلاصها من المعز لدين الله فسار فى سنة ثلاث وستين وثلثمائة هجرية من الأحساء فى جموع كثيرة إلى ديار مصر فحصرها ووردت الأخبار بذلك إلى المعز فأكبر هذا الأمر وأعظمه جدّا وكتب إلى حسن بن أحمد القرمطى كتاباً يذكر فيه فضل نفسه وأهل بيته وأن الدعوة واحدة وأن القرامطة إنما كانت دعوتهم إليه وإلى آبائه من قبله ووعظه وبالغ فى تهديده فلما وصل كتاب المعز إلى حسن بن أحمد كتب جوابه: «وصل كتابك الذى قل تحصيله وكثر تفصيله ونحن سائرون إليك على أثره والسلام» وسار حتى نزل على عين شمس بعسكره وأنشب القتال وبث السرايا فى البلاد ينهبونها فكثرت لذلك جموعه وجاءه من طوائف العربان خلق كثير. قال صاحب الكامل: وكان ممن أتاه حسن بن الجراح الطائى أمير العرب بالشام ومعه جمع عظيم فلما رأى المعز كثرة جموعه استعظم ذلك وأهمه وتحير فى أمره ولم يقدم على إخراج عسكره لقتاله فاستشار أهل الرأى من نصحائه فقالوا: ليس حيلة غير السعى فى تفريق كلمتهم وإلقاء الخلف بينهم ولا يتم ذلك إلا بابن الجراح فراسله المعز واستماله وبذل له مائة ألف دينار إن هو خالف على القرمطى فأجابه ابن الجراح إلى ما طلب منه فاستحلفوه فحلف أنه إذا وصل إليه المال المقرر انهزم بالناس فأحضروا المال. قال: فلما رأوه استكثروه فضربوا أكثرها دنانير من صفر وألبسوها الذهب وجعلوها فى أسافل الأكياس وجعلوا الذهب الخالص على رؤوسها وحمل إليه فأرسل إلى المعز أن يخرج فى عسكره يوم كذا ويقاتلونه وهو فى الجهة الفلانية فإنه ينهزم ففعل المعز ذلك فانهزم وتبعه العرب كافة فلما رآه الحسن القرمطى منهزما تحير فى أمره وثبت وقاتل بعسكره إلا أن عسكر المعز طمعوا فيه وتابعوه بالحملات عليه من كان جانب فأرهقوه فولى منهزما واتبعوا أثره وظفروا بعسكره فأخذوا من فيه أسرى وكانوا نحو ألف وخمسمائة أسير فضربت أعناقهم ونهب ما فى المعسكر وجرد المعز القائد أبا محمد إبراهيم بن جعفر فى عشرة آلاف رجل وأمره باتباع القرامطة والإيقاع بهم فأتبعهم وتثاقل فى سيره خوفاً أن ترجع القرامطة إليه قال: وأما هم فإنهم ساروا حتى نزلوا أذرعات وساروا منها إلى بلدهم الأحساء ويظهرون أنهم يعودون. اهـ.

وما زال القائد أبو محمد إبراهيم بن جعفر سائراً بمن معه من العسكر حتى دخل دمشق وكان المعز ولى القائد ظالم بن موهوب العقيلى عليها قبل وصول أبى

محمد إليها بقليل فخرج ظالم للقاء أبى محمد مسرورا بقدومه لأنه كان مستشعرا من عود القرامطة إليه وطلب منه أن ينزل بعسكره بظاهر دمشق فنزل ولم يستقرّ به المقام حتى تطاولت أيدى أصحابه بالعبث والفساد وقطع الطريق فاضطرب الناس وكادوا يفتتنون واتفق أن صاحب الشرطة أخذ إنساناً من أهل البلد فقتله فثار به الغوغاء والأحداث وخرجوا عليه وقتلوا أصحابه وكادت الفتنة تعم البلاد فجعل ظالم يدارى الناس ويهوّن عليهم واتصل عبث أصحاب أبى محمد بالقرى فنزح أهلها وفارقوها ودخلوا البلد وهم يضجون من جور المغاربة، فلما كان منتصف شوال من السنة قامت الفتنة بين أهل دمشق والمغاربة عسكر المعز وعظمت وجرى بين الفريقين قتال شديد ودام الحال على ذلك من القتل والنهب وحرق الدور وتخريب القرى إلى ربيع الآخر سنة أربع وستين وثلثمائة إلى أن جاء مرسوم المعز لدين الله إلى أبى محمد بالعزل والتخلى عن قيادة من كان معه من الجند فاعتزل المنصب وورد مرسوم المعز إلى القائد ريان الخادم والى طرابلس يأمره بالمسير إلى دمشق لمشاهدة حالها وكشف أمور أهلها بعد الذى ذاقوه من هذه الحروب والمحن وأن يصرف القائد أبا محمود عنها فسار ريان إلى دمشق وكشف الأمر فيها وكتب به إلى المعز وتقدم إلى القائد أبى محمود بالانصراف فسار فى جماعة قليلة من العسكر إلى الرملة وبقى الأمر كذلك إلى أن ظهر الفتكين أبو منصور التركى بظاهر دمشق يريد غزوها وأخذها من المعز لدين الله والفتكين هذا من موالى معز الدولة بن بويه قد كان خرج على مولاه بختيار بن معز الدولة وعصاه وقاتل مولاه بختيار فهزمه بختيار ومزق جموعه فهرب فى جماعة قليلة من أصحابه وكلهم أهل نجدة وقوة ودوّخ بعض مدن الشام وما زال وقد هابه العرب وتخوّفوا منه حتى نزل على دمشق يريد غزوها وكان نزوله عليها فى إبان ظهور الفتنة وتغلب الأحداث عليها حتى لم يبق للأعيان معهم حكم ولا للسلطان عليهم طاعة فلما وافاها خرج إليه أشرافها وشيوخها وأظهروا له الفرح بقدومه وسألوه أن ينزل عندهم ويملك بلدهم ويزيل عنهم سمة المصريين فأجابهم إلى ذلك واستحلفهم على الطاعة والمساعدة وحلف لهم على الحماية وكف الأذى عنهم منه ومن غيره ثم دخل البلد بمن معه من الجند وأزال عنه ريان عامل المعز لدين الله وقطع خطبة المعز وخطب للخليفة الطائع لله وقمع أهل العسف والفساد فهابه الناس وخافوه جداً وكانت العرب قد استولت على سواد البلد وما يتصل به فأوقع بهم وقتل كثيراً منهم فأذعنوا له وقد ظهرت لهم شجاعته وعزة نفسه وكتب إلى المعز لدين الله يهديه ويظهر له الطاعة فمدحه المعز

وأرسل يستقدمه عنده ليخلع عليه ويوليه من جانبه فتخوّف الفتكين من ذلك وامتنع من المسير فتجهز المعز وجمع العساكر لقصده فلم يتم له ذلك حيث وافته منيته وهو على قدم المسير فمات فى سابع عشر ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلثمائة وله من العمر خمس وأربعون سنة وستة أشهر تقريباً. قال صاحب الكامل: وكان سبب موته أن ملك الروم بالقسطنطينية أرسل إليه رسولاً كان يتردد إليه بإفريقية فخلا به بعض الأيام فقال له المعز: أتذكر إذا أتيتنى رسولا وأنا بالمهدية فقلت لتدخلن عليَّ وأنا بمصر مالكا لها؟ قال نعم قال: وأنا أقول لك لتدخلن عليَّ بغداد وأنا خليفة فقال له الرسول إن أمنتنى على نفسى ولم تغضب قلت لك ما عندى فقال له المعز: قل وأنت آمن قال: بعثنى إليك الملك ذلك العام فرأيت من عظمتك فى عينى وكثرة أصحابك ما كدت أموت منه ووصلت إلى قصرك فرأيت عليه نوراً عظيماً غطى بصرى ثم دخلت عليك فرأيتك على سريرك فظننتك خالقاً فلو قلت لى أنك تعرج إلى السماء لتحققت ذلك ثم جئت إليك الآن فما رأيت من ذلك شيئاً أشرفت على مدينتك فكانت فى عينى سوداء مظلمة ثم دخلت عليك فما وجدت من المهابة ما وجدته ذلك العام فقلت: إن ذلك كان أمراً مقبلاً وأنه الآن بضد ما كان عليه قال: فأطرق المعز وخرج الرسول من عنده وأخذت المعز الحمى لشدة ما وجد واتصل مرضه حتى مات فكانت ولايته ثلاثاً وعشرين سنة وخمسة أشهر وعشرة أيام منها مقامه بمصر سنتان وتسعة أشهر والباقى بإفريقية وهو رأس العائلة الفاطمية بديار مصر وكان شهماً حازماً مغرى بالنجوم لا يعمل إلا بأقوال المنجمين قال له منجمه إن عليه قطعا فى وقت كذا وأشار عليه بعمل سرداب يختفى فيه إلى أن يجوز ذلك الوقت ففعل ما أمره وأحضر قواده وكبار دولته فقال لهم: إن بينى وبين الله عهدا أنا ماض إليه وقد استخلفت عليكم ولدى نزارا يعنى العزيز فأسمعوا له وأطيعوا ثم نزل السرداب فكان أحد المغاربة إذا رأى سحابا نزل عن دابته وأومأ بالسلام إليه ظنا منه أن المعز فيه فغاب سنة ثم ظهر وبقى مدّة ثم مرض وتوفّى فستر ابنه العزيز خبر موته إلى عيد النحر من السنة فصلى بالناس وخطبهم ودعا لنفسه وعزى بأبيه.

وكان المعز عالماً فاضلاً جواداً شجاعاً حسن التدبير عهد فى أيامه إلى يعقوب بن يوسف بن كاس خراج مصر وجميع وجوه الأموال والحسبة والأعشار وجميع ما يضاف إلى ذلك من سائر الأعمال وقد كان يعقوب هذا يهوديًا من بغداد جاء إلى مصر فى أيام كافور الإخشيدى وأسلم بها فعرفه كافور وقرّبه من مجلسه وولاه بعض المناصب العالية فظهرت كلمته واتسعت شهرته وما زال إلى أن دخل جوهر

مصر فعرف يعقوب المذكور وأقرّه على ما بيده من الأعمال حتى قلده المعز الخراج وضم إليه عسلوج بن الحسن وكتب لهما المعز سجلاً بذلك فجلسا فى جامع ابن طولون واتخذاه دارا للإمارة والنداء على الضياع وسائر وجوه الأموال فحضر الناس للقبالات وطالبا بالبقايا من الأموال على المتقبلين أى الملتزمين والمالكين والعمال واستقصيا الطلب ونظر فى المظالم فكثرت موارد الأموال وزيد فى الضياع وكثر الناس وتكاثفوا وحسنت أحوال البلاد ودّرت الأرزاق وعم الأخذ والعطاء سائر البلاد وبقى يعقوب على هذا الحال من النقض والإبرام فى أمور السلطنة حتى مات المعز.
يحكى عن المعز إنه لما كان قادماً إلى ديار مصر وخرج الناس للقائه اجتمع به أناس من الأشراف وفيهم عبد الله بن طباطبا فتقدّم إليه وقال إلى من ينتسب مولانا؟ فقال: سنعقد مجلساً نجمعكم فيه ونسرد عليكم نسبنا إن شاء الله فلما استقرّ بالمعز المقام فى قصره بالقاهرة جمع الناس فى مجلس عام وجلس بهم وقال هل بقى من رؤسائكم أحد؟ قالوا: لم يبق معتبر فسل نصف سيفه وقال: هذا نسبى، وبدر عليهم شيئاً كثيراً من الذهب وقال وهذا حسبى، فقالوا جميعاً: سمعنا وأطعنا ويقال إنه كان شاعراً من شعره هذه الأبيات:

لله ما صنعت بنا تلك المحاجر بالمعاجر
أمضى وأقضى في النفوس من الخناجر في الحناجر
ولقد تعبت بينكم تعب المهاجر في الهواجر

ولما استقر بالعزيز الملك بعد أبيه المعز أطاعه العسكر واجتمعوا عند كلمته وكان هو يدبر الأمور منذ مات أبوه إلى أن أظهر خبر موته وأقر ابن كاس على ما بيده وفوّض إليه النظر فى سائر الأمور وبالغ فى إطلاق يده فعلت كلمة ابن كاس فأحكم نظام المملكة ورتب الدواوين وجعل منها ما هو للأموال والخراج والمستغلات ومنها ما هو للجيش والإنشاء والسجلات وجعل فيها الكتاب ورؤساء الكتاب والأمناء وكان يجلس للنظر بنفسه فى الظلامات ويخاطب الخصوم ويوقع على الرقاع وما زال على هذا الحال من بسط الكلمة والتصرف فى سائر الأمور حتى مات فى سنة ثمانين وثلثمائة هجرية، وعاد الفتكين إلى الظهور فى أيام العزيز ووالى الهجمات على سائر الشامات التابعة لديار مصر فاهتم العزيز لذلك وسير جوهرا القائد فى جيش عظيم لقتال الفتكين ووردت الأخبار بذلك إلى التفكين فتحصن فى دمشق وملأها بالمؤن والذخيرة فزحف عليه جوهر بعسكره ونزل بظاهر دمشق وبنى على معسكره سورا وحفر خندقاً عظيماً فقاتله الفتكين بمن معه من الرجال وألح فى قتاله فكانت

بينهم سجالاً وما زال جوهر يوالى الهجمات على حصون البلد حتى قلّت الأقوات فى البلد واختل أمر الفتكين وكان يسقط فى يده ثم عاد فتقوى وجاء الخبر إلى جوهر القائد بخروج القرمطى أحمد وزحفه إلى دمشق فخاف جوهر وقد كانت أمواله قلّت وهلك أكثر جنوده ودوابه فراسل الفتكين فى طلب الصلح على شروط معلومة فأجابه الفتكين إليها فرحل جوهر عن دمشق يريد القاهرة فلحقه القرمطى بمن معه وجعل يتخطف مؤخرة عسكر جوهر حتى دخل جوهر الرملة فأرسل القرمطى بسرية فاقتتلت مع جوهر فى واقعة كبيرة قتل فيها جماعة من الفريقين وفرّ جوهر إلى عسقلان فلحقه الفتكين أيضاً فى عسكر وحاصر عسقلان فسير جوهر إلى العزيز فى طلب النجدة وأرسل إلى الفتكين فى طلب الصلح وأن تقرر قاعدته على مال يحمله إليه وأن يخرج من تحت سيفه فأجابه الفتكين إلى ذلك وعلق سيفه على باب عسقلان، فخرج جوهر ومن معه من تحته وساروا إلى القاهرة فوجدوا العزيز قد برز فى عسكر عظيم يريد المسير لقتال الفتكين فساروا معه حتى التقى الجمعان واشتبك القتال فلم تكن غير ساعة حتى انهزم جيش الفتكين وانتصر العزيز نصرة عظيمة فطلب الفتكين فإذا هو قد فر على فرس فقبض عليه أحد العرب وجاء به إلى العزيز وعمامته فى عنقه فأمر به فطيف به على العساكر على جمل فجعل العسكر يلطمونه ويهزون لحيته، وسار بالفتكين وجميع الأسرى يريد القاهرة فدخلها فى أبهة وتجمل زائد والغنائم أمامه والأسرى خلفه ثم رق إلى الفتكين، فاستخدمه ومن معه وأحسن إليه غاية الإحسان وأنزله فى دار وواصله بالعطاء والخلع حتى قال الفتكين يوماً: لقد احتشمت من ركوبى مع مولانا العزيز بالله وتطرّقى إليه بما غمرنى من فضله وإحسانه فلما بلغ ذلك العزيز قال لعمه حيدر: ياعم والله إنى أحب أن أرى النعم عند الناس ظاهرة وأرى عليهم الذهب والفضة والجوهر ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار وأن يكون ذلك كله من عندى وما زال الفتكين يتقلب فى نعم العزيز حتى مات فى سنة اثنتين وسبعين وثلثمائة هجرية وعظمت دولة العزيز بالله وكبر سلطانه فقلّت الفتن فى أيامه إلا ما كان منها ضد النصارى ودرت الأرزاق وهبطت الأسعار وعم الأخذ والعطاء سائر البلاد وما زال يتصرف مع هيبة ووقار حتى وافته منيته فى خلافة القادر بالله أبى العباس أحمد بن إسحق بن المقتدر كما سيذكر فى محله.

ومات فى أيام الخليفة الطائع لله مكاريوس بطرك الإسكندرية بعد أن قام عشرين سنة قام فى خلالها المسلمون فى بيت المقدس على كنيسة القيامة فأحرقوها ونهبوا ما

فيها وأخذوا منها ما قدروا عليه حتى لم يبق فيها شيء يذكر ثم اشتد مسلمو مصر على من بها من القبط أهل البلاد شدّة بالغة فنهبوا أكثر دورهم وخربوا عدّة كثيرة من منازلهم وضيقوا عليهم وطالت أيام هذه الشدّة حتى كادت تعم سائر البلاد ثم زالت فأقام المتأصلون بعد موت مكاريوس المذكور تاوفانيوس وهو ستوهم وأصله من مدينة الإسكندرية وكان عالماً تقيا محبا للخير ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله.

(الفصل الخامس والعشرون)

(فى خلافة أبى العباس أحمد القادر بالله بن إسحق)

ثم قام بالأمر بعد الطائع لله أبو العباس أحمد القادر بالله بن إسحق بن المعتضد بويع له بالخلافة ليلة خلع الطائع لله سنة إحدى وثمانين وثلثمائة هجرية أى سنة إحدى وتسعين وتسعمائة ميلادية وعمره يومئذ أربع وأربعون سنة. قال أصحاب التاريخ: لما قبض على الطائع لله واعتقل فى دار بهاء الدولة ذكر بهاء الدولة من يصلح للخلافة وتكلم مع أصحابه فى ذلك فاتفقوا على القادر بالله وهو أبو العباس أحمد بن إسحق بن المقتدر بن المعتضد هذا وكان بعيداً عن دار السلام خوفاً من الطائع فأرسل بهاء الدولة فى طلبه فشغب جماعة الديلم ببغداد ومنعوه من الخطبة فقيل على المنبر: اللهم أصلح عبدك وخليفتك القادر بالله ولم يذكروا اسمه تسكيناً للفتنة فلما وصل الرسل إلى حيث القادر بالله دخلوا عليه وهو يحكى مناماً رآه تلك الليلة وهو ما حكاه هبة الله بن عيسى كاتب مهذب الدولة، قال: كنت أحضر عند القادر بالله كل أسبوع مرتين فكان يكرمنى فدخلت عليه يوماً فوجدته قد تأهب تأهباً لم تجر به عادته ولم أر منه ما ألفته من إكرامه واختلفت بى الظنون فسألته عن سبب ذلك فإن كان لزلة منى اعتذرت عن نفسى فقال: بل رأيت البارحة فى منامى كأن نهركم هذا نهر الصليق قد اتسع فصار مثل دجلة أضعافاً فسرت على حافته متعجباً منه ورأيت قنطرة عظيمة فقلت: من حدّث نفسه بجعل هذه القنطرة على هذا البحر العظيم ثم صعدتها وهى محكمة فبينا أنا عليها أتعجب منها إذ رأيت شخصاً قد تأملنى من ذلك الجانب فقال: أتريد أن تعبر؟ فقلت: نعم، فمدّ يده حتى وصلت إلىّ فأخذنى وأعبرنى فهالنى فعله قلت: من أنت؟ قال: علىّ بن أبى طالب وهذا الأمر صائر إليك ويطول عمرك فيه فأحسن إلى ولدى وشيعتى. قال المحدّث: فما

انتهى القادر إلى هذا القول حتى سمعنا صياح الملاحين وغيرهم وسألنا عن ذلك وإذا هم الواردون إليه لإصعاده ليتولى الخلافة فخاطبته بإمرة المؤمنين وبايعته وقام مهذب الدولة بخدمته أحسن قيام وحمل إليه من المال وغيره ما يحمله كبار الملوك للخلفاء وشيعه فسار القادر بالله إلى بغداد، فلما وصل إلى جبل انحدر بهاء الدولة وأعيان الناس لاستقباله وساروا فى خدمته فدخل دار الخلافة ثانى عشر رمضان وبايعه بهاء الدولة والناس وخطب له ثالث عشر رمضان فلم تستقرّ به الخلافة حتى أعاد لها بهجتها وجدّد ناموسها وعظّم حرمتها وألقى الله هيبته فى قلوب الخلق فأطاعوه أحسن طاعة وأتمها.

ولما كانت سنة اثنتين وثمانين فى رجب سلم بهاء الدولة الطائع لله إلى القادر بالله فأجله وأكرمه وأنزله حجرة من خاص حجره ووكل به من ثقات خدمه من يقوم بخدمته وأحسن ضيافته، فكان الطائع يطلب الزيادة فى الخدمة كما كان أيام الخلافة فكان القادر بالله يأمر له بذلك ويلاطفه. حكى عنه أن القادر بالله أرسل إليه يوماً طيباً فقال الطائع: من هذا يتطيب أبو العباس؟ يعنى القادر فقالوا: نعم فقال: قولوا له عنى فى الموضع الفلانى كندوج فيه مما كنت أستعمله فليرسل إلىّ بعضه ويأخذ الباقى لنفسه ففعل ذلك وأرسل إليه يوماً القادر بالله عدسية، فقال: ما هذا؟ فقالوا: عدس وسلق. فقال: أوقد أكل أبو العباس من هذا؟ قالوا نعم، قال: قولوا له عنى لما أردت أن تأكل عدسية لم اختفيت؟ فما كانت العدسية تعوزك ولم تقلدت هذا الأمر؟ فأمر حينئذ القادر أن تفرد له جارية من طباخانه تطبخ له ما يلتمسه كل يوم فأقام على هذا إلى أن توفى، وكاتب القادر بالله الملوك فى إرجاع الخطبة لبنى العباس ففعلوا إلا القليل جداً وبايع لولده أبى الفضل بولاية العهد وأحضر حجاج خراسان وأعلمهم بذلك ولقبه الغالب بالله. قال أصحاب التاريخ: وكان سبب البيعة لولده المذكور أنه كان بنصيبين رجل من ولد الواثق بالله أمير المؤمنين اسمه أبو عبد الله بن عثمان الواثقى فجاء أبو عبد الله هذا إلى بغداد وأقام بها أياماً ثم سار عنها إلى خراسان وعبر النهر إلى هارون بن أيلك بقرا خاقان ومعه الفقيه أبو الفضل التميمى فأكرم هارون وفادتهما فأخبره أبو الفضل أنه رسول من عند الخليفة القادر بالله إلى هارون يأمره بالبيعة إلى أبى عبد الله بن عثمان المذكور فإنه ولى عهده فأجابه خاقان إلى ذلك وبايعه وخطب له فى بلاده وأنزله منزلاً رحباً وجعل ينفق عليه فلما بلغ ذلك القادر بالله عظم عليه جداً وراسل خاقان فى الأمر فلم يلتفت خاقان لقوله ولا صغى لرسالته فلبث القادر يعلل النفس حتى مات هارون خاقان

وولى بعده أحمد قراخاقان فكاتب أحمد المذكور فى أمر أبى عبد الله بن عثمان وبالغ فى الطلب فأجابه أحمد إلى ما طلب وأمر بإبعاد ابن عثمان فبادر القادر بالبيعة لولده أبى الفضل بولاية العهد وجاء ابن عثمان إلى بغداد متنكرا فعرف بها وطلبه القادر فهرب إلى البصرة ثم إلى فارس وكرمان ثم إلى بلاد الترك مستنجدا فلم يتم له ما أراد وراسل الخليفة الملوك بطلبه فضاقت عليه الأرض وسار إلى خوارزم وأقام بها ثم فارقها فأخذه يمين الدولة محمود بن سبكتكين فحبسه فى قلعة إلى أن مات بها.

ومرض القادر بالله وانقطع فأرجف الناس بموته فبلغه ما يتحدّث به الناس فجلس لهم جلوسًا عامًا وأذن للخاصة والعامة فوصلوا إليه فلما اجتمعوا قام الصاحب أبو القاسم وقال: إن خدم مولانا أمير المؤمنين داعون له بإطالة البقاء وشاكرون لما شملهم من نظره لهم وللمسلمين باختيار الأمير ولده بولاية العهد فقال الخليفة للناس: قد أذنا بالعهد له فلما عهد إليه ألقيت الستارة وقعد أبو الفضل على السرير الذى أقاموه له وخدمه الحاضرون وهنّئوه ودعى له على المنابر يوم الجمعة لتسع بقين من جمادى الأولى سنة إحدى وعشرين وأربعمائة فلما كان شهر ذى الحجة من السنة المذكورة مات أمير المؤمنين القادر بالله وعمره ست وثمانون سنة وعشرة أشهر فكانت خلافته إحدى وأربعين سنة وثلاثة أشهر وعشرين يوماً. وكان حليماً كريماً خيرا يحب الخير وأهله ويأمر به وينهى عن الشر ويبغض أهله وكان حسن الاعتقاد صنف فيه كتاباً على مذهب السنة وكان يخرج من داره فى زى العامة ويزور قبور الصالحين وإذا وصل إليه حال أمر فيه بالحق. قال القاضى حسين بن هارون: كان بالكرخ ملك أى عقار ليتيم وكان له قيمة جيدة فأرسل إلىّ ابن حاجب النعمان وهو حاجب القادر يأمرنى أن أفك عنه الحجر ليشترى بعض أصحابه ذلك الملك فلم أفعل فأرسل يستدعينى فقلت لغلامه: تقدّمنى حتى ألحقك وخفته فقصدت قبرا معروفا ودعوت الله أن يكفينى شره وهناك شيخ فقال لى: على من تدعو؟ فذكرت له ذلك ووصلت إلى ابن حاجب النعمان فأغلظ لى فى القول ولم يقبل عذرى فأتاه خادم برقعة ففتحها وقرأها فتغير لونه ونزل من الشدة فاعتذر إلىّ ثم قال: كتبت إلى الخليفة قصتى فقلت لا وعلمت أن ذلك الشيخ كان الخليفة، قيل وكان يقسم طعامه فى كل ليلة لثلاثة أقسام فقسم كان يتركه بين يديه وقسم يرسله إلى جامع الرصافة وقسم يرسله إلى جامع المدينة يفرق على المقيمين فيهما فاتفق أن الفراش حمل ليلة الطعام إلى جامع المدينة ففرقه على الجماعة فأخذوا إلا شابا فإنه

رده فلما صلوا المغرب خرج الشاب وتبعه الفراش فوقف على باب فاستطعم فأطعموه كسرات فأخذها وعاد إلى الجامع فقال له الفراش: ويحك ألا تستحى؟ ينفذ إليك خليفة الله الطعام حلالا فترده وتخرج وتأخذ من الأبواب فقال: والله ما رددته إلا لأنك عرضته علىّ قبل المغرب وكنت غير محتاج إليه فلما احتجت طلبت فعاد الفراش فأخبر الخليفة بذلك فبكى وقال له: راع مثل هذا واغتنم أخذه وأقم إلى وقت الإفطار، وقال أبو الحسن الأبهرى: أرسلنى بهاء الدولة إلى القادر بالله فى رسالة فسمعته ينشد:

سبق القضاء بكل ما هو كائن   والله ياهذا لرزقك ضامن
تعني بما يفني وتترك ما به   تعني كأنك للحوادث آمن
أو ما ترى الدنيا ومصرع أهلها   فاعمل ليوم فراقها ياخائن
واعلم بأنك لا أبا لك في الذي   أصبحت تجمعه لغيرك خازن
ياعامر الدنيا أتعمر منزلا   لم يبق فيه مع المنية ساكن
الموت شيء أنت تعلم أنه   حق وأنت بذكره تتهاون
إن المنية لا تؤامر من أتت   في نفسه يوماً ولا تستأذن

قال: فقلت الحمد لله الذى وفق أمير المؤمنين لإنشاء مثل هذه الأبيات فقال: بل لله المنة إذ ألزمنا بذكره ووفقنا لشكره ألم تسمع قول الحسن البصرى فى أهل المعاصى هانوا عليه فعصوه ولو عزوا عليه لعصمهم . اهـ.

وكان القادر أبيض طويل اللحية كبيرها يخضبها لشيبه وكان دائم التهجد كثير الصدقات.

ومات فى خلافته أى سنة ست وثمانين وثلثمائة هجرية العزيز أبو منصور نزار صاحب مصر مات فى بلبيس بعد مرض طويل بالقولنج والحصاة وله من العمر اثنتان وأربعون سنة وبضعة أشهر وكانت خلافته إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر وخمسة عشر يوماً فحمل إلى القاهرة ودفن فى تربة القصر وكان العزيز جميلاً كثير العفو محبّاً للخير أسمر طويلا أصهب الشعر عريض المنكبين واستوزر عيسى بن نسطور القبطىّ فكان عيسى هذا حسن التدبير والسياسة علىّ الهمة عاقلاً رزيناً مهيباً واسع الكلمة فمن حلم العزيز وحبه للعفو أنه كان بمصر شاعر اسمه الحسن بن بشر الدمشقى وكان كثير الهجاء فهجا يعقوب بن كلس وزير العزيز وكاتب الإنشاء أبا نصر عبد الله الحسين القيروانى فقال:

قل لأبي نصر صاحب القصر   والمتأتي لنقض ذا الأمر
انقض عرا الملك للوزير تفز   منه بحسن الثناء والذكر
وأعط وامنع ولا تخف أحدا   فصاحب القصر ليس في القصر
وليس يدري ما ذا يراد به   وهو إذا ما درى فما يدري

فشكاه ابن كلس إلى العزيز وأنشده الشعر فقال له: هذا شيء اشتركنا فيه فى الهجاء فشاركنى فى العفو عنه ثم إن الدمشقى المذكور قال وعرّض بالفضل القائد بهذه الأبيات:

تنصر فالتنصر دين حق   عليه زماننا هذا يدل
وقل بثلاثة عزوا وجلوا   وعطل ما سواهم فهو عطل
فيعقوب الوزير أب وهذا الـ   ـعزيز ابن وروح القدس فضل

فشكاه أيضًا الفضل إلى العزيز فامتعض منه إلا أنه قال اعف عنه فعفا عنه ثم أشار الوزير على العزيز فقال: لم يبق للعفو عن هذا معنى وفيه غض من السياسة ونقض لهيبة الملك فإنه قد ذكرك وذكرنى ابن زبارج نديمك وسبك بقوله:

زبارجى نديم * وكلسى وزير * نعم على قدر الكلب يصلح الساجور

فغضب العزيز وأمر بالقبض عليه فقبض عليه لوقته، ثم بدا للعزيز إطلاقه فأرسل إليه يستدعيه وكان للوزير عين فى القصر ينقل له الأخبار فأخبره بذلك فأمر بقتله فقتل فلما وصل رسول العزيز فى طلبه أراه رأسه مقطوعًا فعاد إليه فأخبره فاغتم له، وكان للعزيز محاسن أخرى وهو أول من اتخذ وزيراً أثبت اسمه على الطرز وقرن اسمه باسمه وأول من رمى من العلويين بالنشاب وأوّل من اتخذ منهم الأتراك واستخدمهم وجعل منهم القواد وأول من ركب من العلويين بالذؤابة الطويلة وضرب بالصولجان ولعب بالرمح وأوّل من اتخذ الحمير لركوبه إياها وأول من أقام الطعام فى جامع القاهرة لمن يحضر فى رجب وشعبان ورمضان.

ولما مات ولى بعده ابنه أبو علىّ منصور الحاكم بأمر الله بعهد من أبيه ولى وعمره إحدى عشرة سنة وستة أشهر وأوصى العزيز أرجوان الخادم به فكان يتولى أمر داره ويدبر أمور مملكته وهو الذى أخذ له البيعة على الناس ولم يمض على ولايته إلا القليل حتى ظهر بمصر ابن عمار شيخ كتامة وسيدها وعلت كلمته فتمكن من أمور السلطنة وأمر ونهى وحكم البلاد ولقب بأمير الدولة. قال أصحاب التاريخ: وهو أوّل من لقب فى دولة العلويين المصريين بهذا اللقب ولما بسط يده

على جميع الأمور أشار عليه أصحابه بقتل الحاكم بأمر الله واستخلاص البلاد لنفسه والاستقلال بملكها فلم يقبل ذلك احتقارا للحاكم واستصغار لسنه وطغت كتامة وتجبرت وتطاولت أيديهم إلى أموال الناس والعبث فى البلاد وأخذ النساء وأرجوان الخادم لا يقدر على منعهم وهو مقيم مع الحاكم فى قصره يحرسه فلما ضاقت على أرجوان المذاهب كتب إلى منجوتكين وهو يومئذ بدمشق يشكو إليه من فعال ابن عمار وأصحابه ويستنهضه إلى نجدة الحاكم بأمر الله فجهز منجوتكين جيشاً وسار به من دمشق إلى مصر فعلم ابن عمار بخبره وخشى العاقبة فأظهر أن منجوتكين قد عصى على الحاكم وحضر إلى مصر ليخلعه من السلطنة ونادى فى جنده بالخروج لقتال منجوتكين فخرجوا وتقدمهم أبو تميم سليمان بن جعفر بن فلاح الكتامى والتقوا بعسقلان واقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم منجوتكين وأصحابه وقتل منهم خلق كثير وأسر منجوتكين وحمل إلى مصر فأبقى عليه ابن عمار وأطلقه وولى على الشام أبا تميم الكتامى بدل منجوتكين المذكور فسار إلى طبرية واستعمل على دمشق أخاه عليّا فامتنع الناس عليه فأرسل إليهم أبو تميم يتهددهم إن هم أصروا على عدم الطاعة فخافوا وأذعنوا فدخل البلد فأحرق وقتل وعاد إلى معسكره وقدّم عليهم أبا تميم فأحسن إليهم وأطلق المسجونين واستعمل أخوه علىّ على طرابلس بدل دمشق وخلع عنها حبش بن الصمصامة الكتامى فساءه ذلك ومضى إلى مصر واجتمع بأرجوان وحبّب إليه العمل على خلع الحسن بن عمارة فمال إلى ذلك وانتهز فرصة غياب كتامة عن مصر مع أبى تميم إلا القليل منهم فدس أرجوان إلى المشارقة أن يفتكوا بمن بقى من كتامة بمصر وبابن عمار معهم فبلغ ذلك ابن عمار فعمل على الإيقاع بأرجوان وشكر العضدى فأخبرهما عيون لهما على ابن عمار بذلك فاحتاطا ودخلا قصر الحاكم باكيين واستدعوا كبار المشارقة وفرقوا فيهم الأموال فثاروا على ابن عمار ومن معه من كتامة وشدوا فى قتالهم فانهزم ابن عمار وأصحابه واختفى فتقوّت عزيمة أرجوان وفرح بهذا الظفر وأخرج الحاكم بأمر الله وأجلسه وجدد له البيعة وكتب إلى وجوه القوّاد وللناس بدمشق بالإيقاع بأبى تميم فلم يشعر إلا وقد هجموا عليه ونهبوا خزائنه فخرج هارباً وقتلوا من كان معه من كتامة فعادت الفتنة بدمشق واضطربت الأمور وعصى أهل صور والرملة وغيرهما فسيّر أرجوان لقتالهم جيشاً عظيماً وظفر بهم وأرجعهم إلى الطاعة وظفر بأبى تميم فكان ذلك أول فتح حصل على يد أرجوان.

وما زال أرجوان يدبر الأمور ويمهد العقبات ويثبت سلطنة الحاكم بأمر الله

ويفتح الفتوحات الكبار مثل برقة وطرابلس الغرب وغيرهما ويبالغ فى خدمة الحاكم حتى كانت سنة تسع وثمانين فثقل مكانه على الحاكم وأبغضه وأراد التخلص منه فقتله وكان أرجوان هذا خصيا أبيض حسن التدبير صائب الرأى وكان له وزير قبطى اسمه فهد بن إبراهيم وكان فهد هذا عاقلاً حسن السياسة فاستوزره الحاكم ومال إليه وأحبه كثيراً وعلت كلمة الحاكم بأمر الله فسير الجيوش للغزو واشتد على القواد وكبار القبائل بمصر وأكثر فيهم القتل فخرج عليه الوليد المعروف بأبى ركوة وخرج معه كبار القبائل وأكثر القواد. قال بعض أصحاب التاريخ فى سبب خروجه على الحاكم ما نصه: كان أبو ركوة اسمه الوليد وإنما كنى أبا ركوة لركوة كان يحملها فى أسفاره سنة الصوفية وهو من ولد هشام بن عبد الملك بن مروان ويقرب فى النسب من المؤيد هشام بن الحكم الأموى صاحب الأندلس ولم استولى المنصور بن أبى عامر على المؤيد وأخفاه عن الناس تتبع أهله ومن يصلح منهم للملك فقتل البعض وهرب البعض كان أبو ركوة ممن هرب وعمره يومئذ يناهز العشرين سنة وقصد مصر وأقام بها وكتب الحديث ثم رحل إلى مكة واليمن وعاد إلى مصر ودعا بها إلى القائم فأجابه بنو قرّة وغيرهم قالوا: وسبب استجابتهم له أن الحاكم بأمر الله كان قد أسرف فى مصر فى قتل القوّاد وحبسهم وأخذ أموالهم وصارت القبائل معه فى ضنك وضيق ويودون خروج الملك من يده وكان الحاكم فى الوقت الذى دعا فيه أبو ركوة بنى قرة قد آذاهم وحبس منهم جماعة من أعيانهم وقتل بعضهم فلما دعاهم أبو ركوة انقادوا له وكان بين بنى قرة وبين زناتة حروب ودماء فاتفقوا على الصلح ومنع أنفسهم من الحاكم فقصد بنى قرة وفتح مكتبا يعلم الصبيان الخط وتظاهر بالدين والنسك وأمّهم فى صلواتهم وشرع فى دعوتهم إلى ما يريد فأجابوه وبايعوه واتفقوا عليه وعرفهم حينئذ نفسه وذكر لهم أن عندهم فى الكتب أن يملك مصر وغيرها ووعدهم ومناهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا فاجتمع بنو قرّة وزناتة على بيعته وخاطبوه بالإمامة وكانوا بنواحى برقة فلما سمع الوالى ببرقة خبره كتب إلى الحاكم ينهيه إليه ويستأذنه فى قصدهم وإصلاحهم فأمره بالكف عنهم وإطراحهم ثم إن أبا ركوة جمعهم وسار إلى برقة واستقر بينهم أن يكون الثلث من الغنائم له والثلثان لبنى قرة وزناتة فلما قاربها خرج إليه وإليها فالتقوا فانهزم عسكر الحاكم وملك أبو ركوة برقة وقوى هو ومن معه بما أخذوا من الأموال والسلاح وغيرهما ونادى بالكف عن الرعية والنهب وأظهر العدل وأمر بالمعروف فلما وصل المنهزمون إلى الحاكم عظم عليه الأمر وأهمته نفسه وملكه وعاود الإحسان إلى الناس والكف

عن أذاهم وندب عسكرا نحو خمسة آلاف فارس وسيَّرهم وقدّم عليهم قائدا يعرف بإينال الطويل فبلغ ذات الحمام وبينها وبين برقة مفازة فيها منزلان لا يلقى السالك الماء إلا فى آبار عميقة بصعوبة وشدة فسيّر أبو ركوة قائداً فى ألف فارس وأمرهم بالمسير إلى إينال ومن معه ومطاردتهم قبل الوصول إلى المنزلين المذكورين وأمرهم إذا عادوا أن يغوّروا الآبار ففعلوا ذلك وعادوا وحينئذ سار أبو ركوة فى عساكره ولقيهم وقد خرجوا من المفازة على ضعف وعطش فقاتلهم واشتد القتال فحمل إينال على عسكر أبى ركوة فقتل منهم خلقاً كثيراً وأبو ركوة واقف لا يحمل هو ولا عسكره فاستأمن إليه جماعة كثيرة من كتامة لما نالهم من الأذى والقتل من الحاكم وأخذوا الأمان لمن بقى من أصحابهم ولحقهم الباقون فحمل حينئذ بهم على عساكر الحاكم فانهزمت وأسر إينال وقتل وأسر أكثر عسكره وقتل منهم خلق كثير وعاد إلى برقة وقد امتلأت أيديهم من الغنائم وانتشر ذكره وعظمت هيبته وأقام ببرقة وترددت سراياه إلى الصعيد وأرض مصر وقام الحاكم من ذلك وقعد وسقط فى يده وندم على ما فرط وفرح جند مصر وأعيانها وعلم الحاكم ذلك فاشتد قلقه وأظهر الاعتذار عن الذى فعله وكتب الناس إلى أبى ركوة يستدعونه وممن كتب إليه الحسين بن جوهر المعروف بقائد القواد فسار حينئذ من برقة إلى الصعيد وعلم الحاكم فاشتد خوفه وبلغ الأمر به كل مبلغ وجمع عساكره واستشارهم وكتب إلى الشام يستدعى العساكر فجاءته ففرق الأموال والدواب والسلاح وسيرهم وهم اثنا عشر ألف رجل بين فارس وراجل سوى العرب واستعمل عليهم الفضل بن عبد الله فلما قاربوا أبا ركوة لقيهم فى عساكره ورام مناجزة المصريين والفضل يناجز ويدافع ويراسل أصحاب أبى ركوة يستميلهم ويبذل لهم الرغائب فأجابه قائد كبير من بنى قرة يعرف بالماضى وكان يطالعه بأخبار القوم وما هم عازمون فيدبر الفضل أمره على حسب ما يعلمه منه وضاقت الميرة على العساكر فاضطر الفضل إلى اللقاء فالتقوا واقتتلوا بكوم شريكٍ فقتل بين الفريقين قتلى كثيرة ورأى الفضل من جمع أبى ركوة ما هاله وخاف المناجزة فعاد إلى عسكره وراسل بنو قرة العرب الذين فى عسكر الحاكم يستدعونهم إليهم ويذكرونهم أعمال الحاكم بهم فأجابوهم واستقر الأمر على أن يكون الشام للعرب ومصر لأبى ركوة ومن معه وتواعدوا ليلة يسير فيها أبو ركوة إلى الفضل فإذا وصل إليه انهزمت العرب ولا يبقى دون مصر مانع فكتب الماضى إلى الفضل بذلك فلما كانت ليلة الميعاد جمع الفضل رؤساء العرب ليفطروا عنده وأظهر أنه صائم وطاولهم الحديث وتركهم فى خيمة واعتزلهم ووصّى أصحابه بالحذر ورام

العرب العود إلى خيامهم فعللهم وطاولهم ثم أحضر الطعام وأحضرهم فأكلوا وتحدثوا وسير الفضل سرية إلى طريق أبى ركوة فلقوا العسكر الوارد من عنده فاقتتلوا ووصل الخبر إلى العسكر فارتج وأراد العرب الركوب فمنعهم وأرسل إلى أصحابهم من العرب فأمرهم بالركوب والقتال ولم يكن عندهم علم بما فعل رؤساؤهم فركبوا واشتدّ القتال ورأى بنو قرة الأمر على خلاف ما قرروه ثم ركب الفضل ومعه رؤساء العرب وقد فاتهم ما عزموا عليه فباشروا الحرب وغاصوا فيها وورد لأبى ركوة مدد من أصحابه فلما رآه الفضل ردّ أصحابه وعاد إلى المدافعة وجهز الحاكم عسكرا آخر نحو أربعة آلاف فارس وعبروا إلى الجيزة فسمع أبو ركوة بهم فسار مجدًّا فى عسكره ليواقعهم عند مصر وضبط الطرق لئلا يسمع الفضل ولم يمكن الماضى أن يكاتبه بذلك فساروا وأرسل إليه من الطريق يعرّفه الخبر وقطع أبو ركوة مسير خمس ليال فى ليلتين وكبسوا عسكر الحاكم بالجيزة وقتلوا نحو ألف فارس وخاف أهل مصر ولم يبرز الحاكم من قصره وأمر الحاكم من عنده من العساكر بالعبور إلى الجيزة ورجع أبو ركوة فنزل عند الهرمين ثم انصرف من يومه وكتب الحاكم إلى الفضل كتاباً ظاهراً يقول فيه: إن أبا ركوة انهزم من عساكرنا ليقرأ على القواد وكتب إليه سراً يعلمه بالحال فأظهر الفضل البشارة بانهزام أبى ركوة تسكيناً للناس ثم سار أبو ركوة إلى موضع يعرف بالسبخة كثير الأشجار وتبعه الفضل وكمن أبو ركوة بين الأشجار وطارد عسكر الفضل ورجع عسكره القهقرى ليطمعوا عسكر الفضل ويخرج الكمين إليهم فلما رأى الكمناء رجوع أبى ركوة ظنوها الهزيمة لا شك فيها فولوا يتبعونهم فركبهم أصحاب الفضل وعلوهم بالسيوف فقتل منهم ألوف كثيرة وانهزم أبو ركوة ومعه بنو قرة وساروا إلى حللهم فلما بلغوها ثبطهم الماضى عن المقام معه فقالوا له: قد قاتلنا معك ولم يبق فينا قتال فخذ لنفسك وانج فسار إلى النوبة فلما بلغ إلى حصن يعرف بحصن الجبل للنوبة أظهر أنه رسول من الحاكم إلى ملكهم فقال له صاحب الحصن: الملك عليل ولابد من استخراج أمره فى مسيرك إليه وبلغ الفضل الخبر فأرسل إلى صاحب القلعة بالخبر على حقيقته فوكل به من يحفظه وأرسل إلى الملك بالحال وكان ملك النوبة قد توفى وملك بعده ولده فأمر بأن يسلم إلى نائب الحاكم فتسلمه رسول الفضل وسار به فلقيه الفضل وأكرمه وأنزله فى مضاربه وحمله إلى مصر فأشهر بها وطيف به وكتب أبو ركوة إلى الحاكم رقعة يقول فيها: يامولانا الذنوب عظيمة وأعظم منها عفوك والدعاء حرام ما لم يحلله سخطك وقد أحسنت وأسأت وما ظلمت إلا نفسى وسوء عملى أوبقنى وأقول:

فررت فلم يغن الفرار ومن يكن   مع الله لم يعجزه في الأرض هارب
ووالله ما كان الفرار لحاجة   سوى فزع الموت الذي أنا شارب
وقد قادني جرمي إليك برمتي   كما خر ميتاً في رحا الموت سارب
وأجمع كل الناس أنك قاتلي   فيارب ظن ربه فيك كاذب
وما هو إلا الانتقام وينتهي   وأخذك منه واجب لك واجب

ولما طيف به ألبس طرطورا وجعل خلفه قرد يصفعه وكان معلماً بذلك ثم حمل إلى ظاهر القاهرة ليقتل ويصلب فتوفى قبل وصوله فقطع رأسه وصلب وبالغ الحاكم فى إكرام الفضل إلى حد أنه عاده فى مرضة مرضها دفعتين فاستعظم الناس ذلك ثم إنه عمل على قتل الفضل لما عوفى فقتله.

وصفت الأمور للحاكم فكثر شره وكبر ظلمه وعظم إفساده وطغيانه فكان لا يستقر على أمر من الأمور وكان له فى كل ساعة شأن قيل إنه ابتنى المدارس وجعل فيها الفقهاء والمشايخ وبالغ فى إتقانها وتعزيزها ثم عاد فقتلهم جميعاً وخربها وألزم الناس بإغلاق الأسواق نهاراً وفتحها ليلاً فامتثلوا ذلك دهراً طويلاً حتى اجتاز مرة بشيخ يعمل النجارة فى أثناء النهار فوقف عليه. وقال ألم ننهكم عن هذا؟ فقال ياسيدى أما كان الناس يسهرون لما كانوا يتعيشون بالنهار؟ فهذا من جملة السهر فتبسم وتركه وأعاد الناس إلى أمرهم الأول وكان يعمل الحسبة بنفسه فيدور فى الأسواق على حمار له وكان لا يركب إلا حماراً فمن وجده قد غش فى معيشته أمر عبداً أسود معه اسمه مسعود أن يفعل به الفاحشة العظمى. وكان قد منع النساء من الخروج من بيوتهن وأن لا يطلعن من الطاقات أو الأسطحة ومنع الخفافين من عمل الأخفاف ومنعهن من دخول الحمامات وقتل خلقا من النساء على مخالفة ذلك وهدم بعض الحمامات عليهن ومنع من طبخ الملوخية والقرع وله رعونات كثيرة للغاية لا تدخل تحت الحصر فأبغضه الناس وكتبوا له الأوراق بالشتم له ولأسلافه فى صور قصص حتى عملوا صورة امرأة من ورق بخفها وإزارها وفى يدها قصة فيها من الشتم شيء كثير فلما رآها ظنها امرأة فذهب من ناحيتها وأخذ القصة من يدها فلما رأى ما فيها غضب وأمر بقتلها فلما تحققها من ورق ازداد غضباً إلى غضبه وأمر العبيد من السود أن يحرقوا مصر وينهبوا ما فيها من الأموال ويسبوا النساء ففعلوا وقاتلهم أهل مصر قتالاً عنيفاً ثلاثة أيام والنار تعمل فى الدور والسبى فى النساء واجتمع الناس فى الجامع ورفعوا المصاحف ولجئوا إلى الله تعالى واستغاثوا به وما انجلى الحال حتى احترق من مصر نحو ثلثها ونهب نحو نصفها وسبيت نساء كثيرة

وفعل بهن الفاحشة العظمى واشترى الرجال من سبى لهم من النساء والحريم من أيدى العبيد. قال ابن الجوزى: وزاد ظلم الحاكم وعنّ له أن يدعى الربوبية فصار الناس إذا رأوه يقولون ياواحد ياأحد يامحيى يامميت . اهـ.

وأنزل بالنصارى شدائد لم يعهدوا مثلها من قبل وذلك أنه لما تمكن الكثير منهم من أعمال الدولة وصاروا الوزراء حسدهم المسلمون واتهموهم بالمكايدة ووشوا بهم عند الحاكم بأمر الله فغضب جداً وكان لا يملك نفسه إذا غضب فقبض على عيسى ابن نسطور القبطىّ وهو إذ ذاك فى رتبة الوزارة فضرب عنقه جهاراً وقبض على فهد ابن إبراهيم كاتب الأستاذ برجوان وضرب عنقه وشدّد على النصارى وألزمهم بلبس ثياب الغيار وشدّ الزنانير على أوساطهم ومنعهم من عمل الشعانين وعيد الصليب والتظاهر بما كانت عليه عادتهم فى الأعياد والمواسم من الاجتماع وقبض على جميع ما هو محبس للكنائس والديارات وأدخله فى الديوان وكتب إلى عماله كلهم بذلك وأحرق خلقاً كثيراً ومنعهم من شراء العبيد والإماء وهدم الكنائس التى بخط راشدة ظاهر مدينة مصر وأخرب كنائس المقس خارج القاهرة وأباح ما فيها للناس فانتهبوا منها ما يجل عن الوصف وهدم دير القصير وأنهب العامة ما فيه ومنعهم من عمل الغطاس على شاطئ النيل بمصر المحروسة وأبطل ما يعمل فيه من الاجتماع وألزم الرجال منهم بتعليق الصلبان من الخشب التى زنة كل صليب منها خمسة أرطال فى أعناقهم ومنعهم من ركوب الخيل ورسم لهم أن يركبوا البغال والحمير بسروج ولجم غير محلاة بل من جلود سود ومنع من ضرب الجرس فى القاهرة ونبّه أن لا يركب أحد من المكارية ذميا ولا يحمل نوتىّ مسلم أحدا من أهل الذمة وأن تكون ثيابهم وعمائمهم شديدة السواد وركب سروجهم من خشب الجميز وأن يعلق اليهود كذلك فى أعناقهم خشباً مدوّراً زنة الخشبة منها نحو الخمسة أرطال وهى ظاهرة فوق ثيابهم وزاد فى الجور والعسف فهدم ما بقى من الكنائس وأباح ما فيها وما هو محبس عليها للناس نهباً وإقطاعاً فهدمت بأسرها ونهب جميع أمتعتها وأقطع أحباسها وبنى فى مواضعها المساجد وأذن بالصلاة فى كنيسة مارى شنودة بمصر وأحيط بكنيسة المعلقة فى قصر الشمع وأكثر العامة من رفع القصص يطلبون بها هدم كنائس أعمال مصر ودياراتها فلم يردّ قصة منها إلا وقد وقع عليها بإجابة رافعها إلى ما سأل فأخذوا أمتعة الكنائس والديارات وباعوها بأسواق مصر من أوانى الذهب والفضة وغير ذلك وتصرفوا فى أحباسها ووجدوا بكنيسة مارى شنودة مالاً جليلاً وكذلك فى كنيسة المعلقة من المصاغ وثياب الديباج شيئاً كثيراً جداً ثم كتب إلى ولاة الأعمال

بتمكين المسلمين من هدم الكنائس والديارات. فعم الهدم والتخريب فيها من سنة ثلاث وأربعمائة هجرية حتى ذكر بعض أصحاب التاريخ أن الذى هدم لغاية أخريات سنة خمس وأربعمائة بمصر والشام وأعمالهما من الهياكل التى بناها الروم نيف وثلاثون ألف بيعة ونهب ما فيها من آلات الذهب والفضة وقبض على أوقافها.

وألزم النصارى أن تكون الصلبان فى أعناقهم إذا دخلوا الحمام وألزم اليهود أن تكون فى أعناقهم الأجراس إذا دخلوا الحمام ثم ألزم الاثنين معاً بخروجهم كلهم من أرض مصر إلى بلاد الروم فاجتمعوا بأسرهم تحت القصر من القاهرة واستغاثوا وصاحوا بطلب العفو حتى أعفوا من النفى وفى خلال هذه الإحن أسلم كثير من النصارى وضربتهم يد الشتات فتمزقوا أو كادوا وأسكن اليهود فى حارة زويلة وتهدّدهم بالقتل إن لم يسلموا فخافوا وأسلم منهم عدد غفير ثم أمرهم بالرجوع إلى دينهم فارتد منهم فى يوم واحد سبعة آلاف ثم عاد فأمر بهدم معابدهم فهدمت ثم أمر بإعادتها لهم فأعيدت وادعى الألوهية فكان يكتب له: بسم الحاكم الرحمن الرحيم. ثم إنه ادعى علم الغيب فكان يقول إن فلاناً قال فى بيته كذا وكذا ودخل له كذا وكذا وكان ذلك باتفاق اعتمده مع العجائز اللواتى كن يدخلن بيوت الأمراء وغيرهم ويخبرنه بما جرى ثم كان من أمره أن تعدّى شره إلى أخته الأميرة سيدة الملك فاتهمها بالفاحشة وتهدّدها بالقتل وقد كانت من أفضل وأزكى نساء عصرها فأخذت فى تدبير الحيلة على قتله فأرسلت إلى أحد كبار قوّاد الحاكم وهو الأمير سيف الدين بن الدوّاس تقول: إننى أريد أن ألقاك وسارت إليه ليلاً. وقالت له: قد جئت إليك فى أمر تحفظ فيه نفسك ونفسى وأنت تعلم ما يجرى من أخى من سفك الدماء وخراب البلاد وقد صمم على قتلك وقتلى وأخاف أن الناس يثورون به فيهلك هو ونحن وتنقلع هذه الدولة فقال وما الحيلة فى أمره؟ قالت: الرأى عندى أن ترسل إليه غلماناً يقتلونه عند خروجه إلى جبل المقطم فى غد وليس معه غلام إلا الزكابى وصبى وينفرد بنفسه فإذا قتل نقيم ولده وتكون أنت وزيره ومدبر دولته وأزيد فى إقطاعك مائة ألف دينار، ومضت سيدة الملك إلى قصرها فلما كان الغد خرج الحاكم على عادته وانفرد بنفسه بالجبل المذكور فعمد ابن الدواس إلى عشرة من العبيد السود وأعطى كل واحد منهم خمسمائة دينار ومضوا إلى الجبل وقتلوه وأتوا به إلى أخته ليلاً فدفنته فى دارها وكان عمره ستّا وثلاثين سنة وتسعة أشهر وولايته خمساً وعشرين سنة وعشرين يوماً. وكان قتله ليلة الاثنين لثلاث بقين من شوال سنة إحدى عشرة وأربعمائة هجرية وبقى الناس على رسمهم يخرجون كل يوم

يلتمسون رجوعه إلى سلخ شوال، فلما كان ثالث ذى القعدة خرج مظفر الصقلبى صاحب المظلة وغيره من خواص الحاكم ومعهم القاضى فبلغوا حلوان ودخلوا فى الجبل فبصروا بالحمار الذى كان عليه راكباً وقد ضربت يداه بسيف فأثر فيهما وعليه سرجه ولجامه فاتبعوا أثره فانتهوا به إلى البركة إلى شرقى حلوان فرأوا ثيابه وهى سبع قطع صوف مزررة بحالها لم تحل وفيها أثر السكاكين فعادوا ولم يشكوا فى قتله واجتمع الجند على سيدة الملك أخت الحاكم يسألون عن سبب عدم رجوع الحاكم ففرّقت فى قوّادهم الأموال، وأصبحت وقد ألبست أبا الحسن عليا بن أخيها الحاكم أفخر الملابس، وكان الجند قد اجتمعوا حول القصر ليعلموا ما جرى على الحاكم فلم يلبثوا أن خرج أبو الحسن وهو صبى والوزير بين يديه فصاح ياعبيد الدولة مولاتنا تقول لكم: هذا مولاكم أمير المؤمنين فسلموا عليه ثم قبّل ابن الدوّاس الأرض بين يديه وكذلك القواد الذين أرسلت إليهم الأموال ودعوا له فتبعهم الباقون ومشوا معه ولم يزل راكباً فنزل ودعا الناس من الغد فبايعوه ولقب الظاهر لإعزاز دين الله وسير الكتب إلى البلاد بمصر والشام بأخذ البيعة وجمعت سيدة الملك الناس ووعدتهم وأحسنت إليهم ورتبت الأمر ترتيباً حسنا وجعلت الأمر بيد ابن الدواس وبالغت فى تعظيمه، ثم إنها قالت له: إننا نريد أن ترد جميع أحوال المملكة إليك ونزيد فى إقطاعك ونشرفك بالخلع السنية فأختر يوماً يفعل فيه ذلك وشاع هذا الخبر بين الناس وتحدّثوا به كثيراً، ثم أحضرته وأحضرت جميع القواد إلى قصرها فلما انتظم بهم المقام أمرت الغلمان فأغلقوا الأبواب وأرسلت إلى ابن الدوّاس غلاماً ومعه السيف. وقالت له: إذا وقفت على رأس ابن الدوّاس فقل للقوّاد أن هذا قاتل مولاكم الحاكم ثم أضربه بالسيف ففعل ذلك وقتله فلم يختلف رجلان وجعلت تتصرف فى الأمور بنفسها فأحسنت التدبير واتسعت كلمتها وقامت هيبتها عند الناس واستقامت الأمور على يديها وعاشت بعد الحاكم أربع سنين لا رادّ لكلمتها.

وكان للحاكم بأمر الله المذكور وزير اسمه حمزة كان عظيم الدهاء واسع العلم غزير المادة قد وضع للحاكم مذهباً مخصوصاً هو من مذاهب الباطنيين، وقيل: بل من اعتقادات القرامطة، وقيل: هو دين مستقل لا علاقة له بشيء من الأديان الأخرى فظهر الدين المذكور وأشتهر أوائل القرن الخامس للهجرة المحمدية فتبعه خلق كثير جدًا وجمع أصحابه فى إخفاء أمره وكتمان سره وغلق جميع أبواب الوصول إليه ومع ذلك فقد اجتهد أهل التاريخ وكتاب الأخبار من السلف فى الحصول على معرفة ما يمكن معرفته من تلك الأسرار، وفاز بعضهم بالاطلاع على

بعض المؤلفات والرسائل فى ذلك الحين وبحثوا وفتشوا فوجدوا من الكتب والرسائل الخاصة بهذا الدين عدّة منها كتاب المشاهد والأسرار التوحيدية وكتاب الرد على النصيرية وهو يتضمن ستا وعشرين رسالة والرسالة المعروفة بالشافية لنفوس الموحدين الممرّضة لقلوب المقصرين الجاحدين والرسالة المعروفة بالرسالة الموسومة بالأسرار ومجالس الرحمة للأولياء الأبرار وأخرى اسمها الرسالة الموسومة بمجالس الرحمة، قال بعض الكتاب: ويظن أن الكتب عندهم سبعة لأن عدد سبعة هو من الأعداد المقدّسة عندهم. قالوا لأن السموات سبع وكذلك الأرضون والسيارات وأيام الأسبوع والعناصر والأئمة عندهم والناطقون وغير ذلك فقد وجد فى أحد كتبهم المار ذكرها هذه العبارة، الجزء الأول من السبعة الأجزاء، وفى كتاب آخر ما نصه فوضعت هذا الكتاب وهو الجزء الأوّل من السبعة الأجزاء يشتمل على فرائض فرضها مولانا ذو المنّة والإحسان وأنطق بها عبدة قائم الزمان يتلو بعضها بعضاً ويوضح فى العقل أنها فرض وفى كل كتاب ذكر فرض ما يجب أن يفرض وإسقاط مايجب أن يسقط وينقض، قال العلامة البستانى فى كتابه دائرة المعارف: ولهم عدّة كتب أخرى محفوظة بدار الكتب فى بلاد الفرنسيس والإنجليز والمكتبة البابأوية وغيرها وتشتمل هذه الكتب على عدّة رسائل أو فصول لكل رسالة أو فصل منها عنوان مخصوص وكلها تعاليم وردود على بعض المارقين من دينهم أو المخالفين لتعاليمهم وجلها بل كلها تنسب إلى حمزة المذكور الملقب عندهم بالعقل.

فمن قواعد دينهم هذا ما جاء فى كتبهم أن الله واحد وهو الكائن الوحيد الذى تجب عبادته وألوهيته لا تدركها العقول فهى غير قابلة للتحديد والتعريف وقد ظهر للبشرعدّة مرار فى ناسوته، ثم ظهر لهم أخيراً باسم الحاكم فعمل من الأعمال ما لا يدركه العقل البشرى، وأعماله كلها حكمة وأسرار غريبة للغاية ثم اختفى فلا يظهر إلا بعد مجيئه الأخير لتأييد دين التوحيد ومعاقبة الجاحدين. ويقول حمزة أيضاً: أن الله هو الأبدى السرمدى القديم المولى المملوء كرامة والسيد الرحيم وهو واحد لا يشابه الكائنات فى شىء وهو يفوق جداً التعيين بالأعداد والمشابهات عظيم فلا زوجة له ولا ولد تعجز الناس طرّا عن استيفاء وصفه فالأعين التى تراه لا تدركه وجوهره لا يدرك بالتأمل فالألوهية له وحده دون غيره، ولا سبيل إلى وصفه بالأوصاف الموافقة للكائنات المخلوقة فيتجانس مع المتجانسين فالعقول والتصوّرات تعجز عن إدراكه تعالى عن الكيف والأين فلا تدركه الأعين ولا تنسب إليه الحركة والراحة فهو واحد ولكن وحدته ليست كالتى يدركها البشر فهو البداية والنهاية وتنزه

عما اعتقده به الناس خطأ وعما نسب إليه مما لا يليق إلا بمخلوقاته والإدراك البشرى يقصر عن فهم أعماله فتخرس الألسن إذ لم تجد لمستخدمها سبيلاً إلى توحيد باريها، وعندهم أن الله الرحمن الرحيم اسم يدل على بعض وزراء دين التوحيد. قال حمزة المذكور كيف توصف وحدة من لا حدود له ولا بداية ولا أصل ولا نهاية فإن أقدم الأشياء أى وزراء الدين والأنفس تقرّ أنه خالقها والكائنات الأخيرة كالأجساد تقرّ أن وجودها جديد فهو ملك الملوك الذى لا يعرف ولا يحدّد بلسان فلم فالحمد لك يامن امتزت بالعظمة والقدرة المتعالى عن جميع البشر بالجود والملكوت الذى كنت موجوداً فى كل دهر وزمان ومكان فلا تشبه البشر ولا يقدر مخلوقك أن يحددك أنت المنزه عن كل تشبيه ووصف مع الإيمان والاعتقاد الثابت الذى لا يتزحزح فى بداية وجودى ونهايته من صميم القلب وعلى رؤوس الأشهاد أنك الإله الخالق القادر الفريد الوحيد الغير القابل الزيادة بالأعداد ولا بالكميات ولا الأسباب والأحساب فأنت الخالق الفريد موجد الكائنات المنزه عن النظير القادر الذى لا كائن له قدرة عليك الغالب ولا ملجأ ولا مجير منك إلا بنفسك الحاكم المولى الذى لا يخضع لحكم أحد تفعل ما تشاء وتأمر بما تشاء بأمرك العالى الممجد عن مقارنة الأصوات واللغات، قال العلامة المشار إليه: فهذا هو توحيد الموحدين مترجما عن اللغات الأجنبية لتعذر الحصول على كتبهم الأصلية، ويقولون: إن للحاكم لاهوتا وناسوتا فلاهوته ثابت عندهم بأعماله التى تفوق إدراك جميع البشر وبحكمته العظيمة جداً وقد دوّنوا فيها سؤالات وجوابات ومنها ما يتعلق بظهور الحاكم وهى:

س ما هي كيفية ظهور مولانا الحاكم وفي أي زمان ظهر؟
ج في سنة أربعمائة للهجرة.
س كيف ظهر؟
ج بالتظاهر بأنه من الفاطميين بستر ألوهيته.
س لماذا ستر لاهوته؟
ج لنقصان الاعتبار وقلة الأصحاب.
س في أي سنة ظهر لاهوته؟
ج في السنة الثامنة بعد أربعمائة للهجرة.
س كم سنة أظهر لاهوته؟
ج ثمان سنوات وأخفاه في السنة التاسعة لأنها كانت زمان تجارب

وأسرار وأظهره ثانية في بداية السنة العاشرة وأثناء السنة الحادية عشرة، ثم أخفاه في بداية السنة الثانية عشرة فلا يظهر بعد ذلك إلا يوم الدين.

س كيف كان الوزراء يحيون الحاكم عند مثولهم لديه؟

ج كانوا يقولون بصوت منخفض السلام عليك يامولانا ومرجعه إليك لأن السلام لك ودينك مقر السلام فالبركات والعظمات لك يامولانا العالي صاحب المجد والشرف.

س ماذا ينبغي أن تفهم مما جاء في رسالة خمار بن جيش السليماني العكاوي الذي هو أخو مولانا المعظم؟

ج إن مولانا أظهر نفسه بحيث أوهم الناس أنه ابن أبيه فعلا فظن خمار أن مولانا أخوه مع أنه لم يكن كذلك إلا بحسب الظاهر فازداد ضلال خمار وكان ضلاله موجباً لصدور أمر مولانا بقتله.

س ما هو معنى ركوب مولانا الحمير دون سروج؟

ج الحمار رمز إلى الناطق فركبه مولانا دلالة على إبطال الناموس وغيره.

... وهنا وضع المترجم أسفاراً استقباحاً لترجمة ما جاء بعد كلمة وغيره عملاً بأدب التحرير.

س إلى ماذا يرمز الثوب الصوف الأسود الذي كان مولانا يلبسه؟

ج إنه ثوب حداد يرمز إلى التجارب التي يمتحن بها عباده بعده.

ولهم غير ذلك من الأسئلة والأجوبة التى لاعلاقة لها بمعتقدهم ويقولون فى ألوهية الحاكم أنها ثابتة بأعماله وقد ذكر حمزة وزيره المذكور تلك الأعمال فى الرسالة المسماة السيرة المستقيمة وقال فيها ما محصله: لو كانت أشجار الأرض كلها أقلاماً والبحر حبراً وأضيف إليه سبعة بحور لما كانت كافية لتدوين جميع كلمات الله، والله هنا اسم إنسانية الحاكم، قال: فأقتصر على ذكر أمور قليلة العدد غزيرة النفع للمتأمل المعترف بوحدة مولانا المستحق التعظيم الذى تفوق قدرته إدراك البشر فأول عمل قام به قتله لبرجوان وابن عمار مع أن برجوان كان متسلطا على الشرقية كلها وابن عمار على الغربية فقتلا كأنهما كلبان بلا تحاش ولا خوف من قيام الفتنة بين الجند والعسكر وهذا أمر لا يأتيه أكبر ملوك العالم بأسره وكذلك قتله لرؤساء قطاعته ولم يبال قط بأولادهم وأصحابهم وكان يسرى ليلاً بين أولادهم وعيالهم ولا سيف معه ولا خنجر ولما أثار أبو ركوة الوليد بن هشام الفتنة خرج مولانا المعظم فلاقى حسن بن علوان ليلاً فى خمسمائة فارس فوقف بينهم بغير سلاح وسأل كلاً

منهم عن مراده ثم دخل البستان وليس معه أحد غير غلام والمؤذنين . قال: ولما ظهرت فتنة المفرّج كان الناس ينتظرون دخوله مصر هو وأصحابه وتسلقه عرش السلطنة فكان مولانا يخرج على عادته ويسير نحو الطريق التى كان يؤمل دخول المفرّج منها حتى وقع الخلاف بين زعماء الفتنة، وعاد حسين بن جعفر الحسينى إلى مكة خوفاً من أن المفرّج يوقع به، وهذا أيضاً مما لا يقدر على فعله أىّ ملك من ملوك الأرض وكان مولانا يخرج فى حمارّة الحر فى الغبار دون مبالأة وأصحابه يكادون يهلكون مما يعانونه وهو لا يظهر العرق على وجهه مع أنه كان يبل أثواب أصحابه حتى ظاهرها وهذه من الأدلة المثبتة لألوهية الحاكم عندهم، وذكر حمزة فى هذه الرسالة أيضاً أموراً أخرى يضيق المقام دون إيرادها كلها، ويقولون أن لاهوته لا يفارق ناسوته أبداً بل هما متلازمان. أما ما يتعلق بناسوت الحاكم وما جاء فيه من قولهمْ فيعرف من الأسئلة والأجوبة الآتية وهى:

س كم مرة ظهر مولانا الحاكم بالناسوت؟

ج ظهر عشر مرات بأسماء بشرية وهي: عليّ والباري والمؤئل والقائم والمعز والعزيز وأبو زكريا والمنصور والحاكم.

س أين وقع الظهور أو الكشف الأول؟

ج في الهند في مدينة اسمها تشماتشن.

س أين ظهر البار أو الباري؟

ج في فارس في مدينة اسمها أصبهان، واسم الله عند الفرس بارخداي، وعليّ ظهر في اليمن، والمؤئل في المغرب وكان ظهوره كأنه رجل صاحب ألف جمل والقائم ظهر في مدينة المهدية بالمغرب أيضاً ثم جاء مصر وبني بابا اسمه رشيدية وأبو زكريا والمنصور ظهرا في المنصورية.

ومما كتبه حمزة بشأن ناسوت الحاكم وظهوره أن الظهور تم عدة مرات فى القدم ولكنه لم يكن الدور الناسوتى وورد فى كتاب لحمزة أيضاً ما محصله: إننا نظهر لكمْ فى كتاب آخر أسماء مولانا الناسوتية التى اتخذها لنفسه عند ظهوره فى الأرض منذ خلق العقل إلى زمن ظهور آدم الصفاء وعبادة الملائكة له، وهى مدة سبعين دورا وبين كل دور سبعون أسبوعاً وكل أسبوع سنة وكل سنة ألف سنة من سنى هذا الزمان وأبين لكم الأسماء أيضاً التى اتخذها العقل وجنده فى تلك الأدوار واسم كائناته، كما أن اسم هذا الجيل هو الإنسانى أو البشرى. وقال فى كتابة أخرى إننى

أبين لكم الاسم الذى اتخذته فى كل من تلك الأدوار، والاسم الذى كان للروح المضاد المدعو إبليس.

وحمزة عندهم هو ظهور العقل وعند ظهوره بين البشر سمى آدم الصفاء وكان له وزيران فعصيا فسمى أحدهما آدم العاصى والثانى آدم الناسى وأنه عندما ظهر العقل المرة الأولى ظهر أيضاً ناسوت الإله باسم البار أو البارىء، وكتب أيضاً فى بعض كتاباته يقول: وقالوا الحاكم جل ذكره بارخداى يعنون بذلك، الله، عبد مولانا جل ذكره. قال بعض الكتاب: ومراد حمزة من هذه العبارة هو أن أسماء الخالق سبحانه وتعالى الواردة فى الكتب الدينية هى كلها عندهم أسماء وزراء الحاكم فاسم الله تعالى اسم لأحد وزراء الحاكم. وقال أيضاً: قد كان مولانا فى زمن شنغيل فى ظاهر الأمر يسمى ناسوته من حيث العالم البشرى بالبار أو البارىء فيقول الناس عند ذكرهم الحاكم «الحاكم بارخداى» والعرب تقول «الحاكم الله» قال: وهذا لا يوافق فإن «الله» اسم الوزير الأول يعنى للحاكم ولكنى «بارخداى» معناه الإله الأعلى أو إله الآلهة فهذا الاسم يوافق لمولانا أكثر من الاسم الأول. قال: وأما محمد بن إسمعيل فاسمه فى تلك الكتب الناطق السابع وهو الثانى من الأئمة الذين هم سلف الخلفاء الفاطميين وفى أيام الثالث منهم ظهر الناسوت يعنى الحاكم باسم أبى زكريا وظهر فى أيام باسم الإمام الرابع باسم علىّ الأعلى، فأبو زكريا لم يكن ملكا فى هذا العالم ثم ظهر العقل معه باسم قارون وفى آخر أيامه عندما كبر وشاخ سمى بديار اليمن بالمهدى ثم ظهر أيضاً النفس باسم أبى سعيد الملطى. فلما كان الظهور الثالث يعنى للحاكم باسم الموئل كان فى بلاد تدمّر وفى الإيالات المشرقية. وكان ظهوره فى شخص تاجر، وجاء فى كتاب حمزة المسمى بالنقض الخفى أن الناطقين سبعة وهم آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى المسيح ومحمد وسعيد وهو عبد الله الخليفة الأوّل الفاطمى الملقب بالمهدى وهو أبو القائم أعظم الوزراء، أما ما جاء عن وزراء الحاكم فى كتبهم وهم الذين لقبوهم بألقاب مختلفة كالسابق والناطق وغير ذلك قولهم، وقد نظرنا إلى السابق والتالى والناطق والأساس والإمام والحجة والقائم فرأيناهم كلهم عبيداً مزدوجين فعرفنا بأن المعبود سواهم وعرفنا بتوفيق مولانا عز ذكره أن الهاء المشار إليها هى الخاتمة أى خاتمة الله وتمامه واللامين والألف خلف تالية وهو آخرهم ورابعهم وتمام القدرة به، لأنه لا يقال لأحد من الحدود يعنى الوزراء ما قيل له وهو المهدى الذى وقع عليه هذا الاسم الأعظم بقوله أبو القاسم ولا يجوز أن يقع هذا الاسم الأعلى أعظم الحدود ونهايتهم كما أن الهاء نهاية لا إله إلا الله.

وقد عمل حمـزة للدخول على الحاكم دستورا بعث به إلى أبى عبـد الله محمد ابن وهَّاب قال فيه مـا محصله: لا تحضر لديه ما لم تدع إليه ولا تكلمـه إلا مجيباً وتقول بصوت منخـفض جداً السلام فليأت السلام منك يامـولانا وليرجع إليك فإنه لك ودينك مقـام السلام أنت المبجل الممـجد ياسيـدنا المتعالى لك المجـد والكرامة، وإياك أن ترفع صوتك ولاتحـرك يديك ولا تومىء بعينيك ولا ترفع رأسك، وكـان الناس يسجدون بين يديه ويقبلون الأرض فإذا قابله أحد وهو راكب نزل عن مركوبه فإذا تقدم للسلام عليه سلم عليه من الجهة اليمنى، وإذا رفعوا له قصة كانت أسطرها فردية أى لا تكون زوجية، وأن يكون كلام الناس معه بالفرد وعندهم أن هذه الأمور كلها رموز فى الدين التوحيدى لابد من العـمل بموجبها وعندهم أن الحاكم لم يمت بل غاب عن الناس إلى سـاعة معلومـة وهى القيامـة التى يعبّرون عنهـا بفوز الدين التوحيدى ومن الأسئلة والأجوبة الآتية يعلم بعض الشىء من معتقدهم فى ذلك:

س ماذا نفهم يوم الدينونة؟

ج هو اليوم الذي يـلبس فيه مـولانا ناسوته ويدين الناس بالسـيف الدينونة القوية.

س كيف يتم ذلك ومتى؟

ج لا يعلم أي متى يكون ذلك غير أنه لابد من ظهور علامات أولية تعرف بها الساعة.

س ما هي هذه العلامات الأولية؟

ج هي تصرف ملوك الوقت في الرعية على هوى أنفسهم وتسلط المسيحية.

س في أي شهر يتم ذلك؟

ج في شهر جمادي أو رجب حسابا هجريا.

س ماذا ترك مولانا عند غيبته؟

ج ترك سجلاً معلقا في باب الجامع سماه بالسجل المعلق.

وكان ملخص مـا فى السجل المذكور هذه العبـارة الآتية، بسم الله الرحـــمن الرحيم، إن الإحسان فى الاستقبال هو للذين حادوا عن السبل المعوجة وابتعدوا عن حماقة الجـهال. وكان إيمانهم حقيقاً الذين يؤمـنون بالله تعالى وولاته وشهدائه عند الناس ونوابه فى الأرض الذين سلـم إليهم أمـير المؤمنيـن أمور مـخلوقاته وكـذلك الإحـسان للذين لا يخـالطون إلا الأبرار الذين يخـافون الله والذين يؤمنون باليـوم

الآخر إيماناً صحيحاً قلبياً خالياً من الشك والريب، والله سبحانه لا يحرم أهل الخير وفاء على البر جزاء ما يستحقون وما العداوة والبغضاء إلا للأشرار والعصاة والأبالسة والخدّاعين والكذابين الذين يقاومون الحق وللمرائين الذين ينكرون اليوم الآخر وقد حمى غضب الله عليهم وعلى الذين يسلكون السبل المعوجة، ثم يلى هذا تعظيم الله سبحانه وتعالى والصلاة والسلام على النبى محمد وعلى آله وصحبه، ثم يأخذ كاتب ذلك السجل فى تعنيف الموحدين وتوبيخهم على الإهمال والتغافل والجهل الذى وقعوا فيه ويحذرهم من سوء العاقبة ويذكرهم بما حصلوا عليه من المنافع الزمنية والروحية من لدن الحاكم رحمة منه ومنة حيث أنعم عليهم بجميع الحقوق الشرعية التى تؤهلهم للتصرف فى أنفسهم وفى مقتنياتهم على أنهم لا يستحقون شيئاً من ذلك ويستلفتهم إلى ما نالوه من الهبات الوافرة والعطايا الجزيلة من الذهب والفضة وجياد الخيل والماشية والإقطاعات وغير ذلك وكيف أن الحاكم رفع أمرهم وأعلى مقامهم إلى درجات العز والرفاهية ووسع سلطانهم شرقاً وغرباً فى السهول والجبال وفى البحر والبر حتى صاروا ملوكاً وسلاطين تحمل إليهم الجزية من كل صوب ودرب، ويقول: إن ما منحهم إياه من المنح الروحية إنما هو تعزيز لشريعة الإسلام وتوحيد دعائم بنيانها وإقامة شعائرها بتزيين المساجد وتوسيع المعابد وضرب صنوف الرق والمذلة على جميع اليهود والنصارى لإكراههم على اعتناق الإسلام دينا وإنشاء مدرسة للفقه والتوحيد، إلى أن قال فى السجل المذكور: واعلموا معشر الموحدين أن ما نلتموه من الهبات الروحية وفزتم بالحصول عليه فهو نتيجة ولائه وصداقته مع الأمم الخارجية وهما علة مجدكم وشرفكم فى هذا الحين مع أعلى السعادة والسلامة الأبدية وهذه النعم إنما هى لأزدياد كنود الإنسان وازدياد ذنوبه فو أن كان أعداءالله وأمير المؤمنين لم يحاربوا الله وأميرالمؤمنين خوفاً منه ورهبة إلا أن بعضهم حارب البعض الآخر واقتتلوا عاصين على الله عابثين بحرمة الدين مستخفين بمقام الأمير مستصغرين الإيمان فأراقوا الدماء وتعدوا على أعراض الناس فتضاربوا وضرب دينهم وضرب بهم نائب الله أميرالمؤمنين فغضب الله سبحانه لذلك وغضب أمير المؤمنين من صنعهم وخروجهم عن الطاعة، فخرج لذلك أمير المؤمنين من بينكم لأن الله سبحانه وتعالى. قال: لست بمعاقبهم حتى تخرج من بينهم فغضب نائب الله يدل على غضب الله سبحانه وقد ظهرت لكل ذى عينين علامات غضب الإمام حيث أغلق أبواب أمته وأبطل مجالس الحكمة وأخرج من قصره مكاتب القواد والعبيد، ومنع جميع الناس من التسليم عليه ومنع الجلوس على

المقاعد حول قصره المقدس وامتنع عن إقامة الصلاة مع الجماعة فى الأعياد والمواسم وشهر رمضان، ومنع المؤذنين من الآذان، ومنع أن يقال له مولانا وأن لا تقبل الأرض بين يديه وأن لا ينزل الناس عن حميرهم وخيولهم إذا مروا به ولبس الصوف من ألوان مختلفة ومنع حاشيته وعبيده من السير فى ركابه وامتنع من إقامة الحدود وغير ذلك والناس عن كل هذه العلامات غافلون فلذلك خرج أمير المؤمنين الذى هو نائب الله من بينهم وترك جميع المخلوقات وشأنها جزاء ما فعلوه، فهلموا أيها الناس هلموا قائمين فى بداية السبيل الذى سلكه أمير المؤمنين عند غيبته وتشبهوا به أنتم وبنوكم مطهرين قلوبكم من الأهواء وأحسنوا النية أمام صاحب الكائنات وارجعوا إليه بقلوبكم واستغفروا ليمنّ عليكم بإرجاع نائبه ولا يخرج أحدكم مفتشاً عن أمير المؤمنين ولا سائلا عما جرى ولا تنقطعوا عن الصلاة فى مدخل تلك الطريق قائلين هنا نسكن وهنا نقيم فإذا حلت ساعة الرحمة ظهر نائب الله بينكم باختياره وإرادته فقوموا بذلك فى الليل والنهار قبل حلول اليوم الآخر وساعة الدينونة وقفل أبواب الرحمة والانتقام من العصاة . اهـ.

وجاء فى آخر السجل المذكور ما معناه قد كتبه عبد أمير المؤمنين فى ذى القعدة سنة إحدى عشرة وأربعمائة مع الأمر بأن لا يمنع أحد من قراءته ولا استنساخه وحرم كل من يقدر على نسخه ولم يفعل، **قلت**: ولا غرابة من تسمية صاحب هذا السجل للحاكم فى هذه المرة باسم أمير المؤمنين ونائب الله تعالى لأن سجله هذا كان مكتوباً للعالم بأسره فالتزم فى تحريره جانب التستر والمواربة ومع ذلك فأنه لايبعد تفسيركل كلمة منه بحسب تعاليم دين الموحدين فاسم الله سبحانه وتعالى عندهم ليس هو إلا اسم لاهوت الحاكم ونائب الله وأمير المؤمنين هو اسم ناسوته، ولما غاب الحاكم وانقطع خبره عن أصحابه خاف زعماء دينه من الفتنة وردة أصحابهم فكتبوا لهم رسالة فى بداية السنة الثانية عشرة والأربعمائة للهجرة يطمنونهم ويمنونهم بالأمانى البعيدة ولكى يباعدوا بينهم وبين السقوط فى الخطأ من جرى توهم ظهور اللاهوت بعد الغيبة فى جسم آخر وفى تلك الرسالة ما محصله: إلى الموحدين المؤمنين بوحدة مولانا سعيد يوم الدين خضعوا وسلموا لكل ما يأمر به مولانا من نحوكم وأيقنوا أنه سيعيد أنفسكم وأنفس جميع البشر وقد اعترفتم بوحدته وتعهدتم بأن لا تكونوا عبيداً لسواه فأحذروا الشكوك وأخشوا الله ولاتخشوا الناس واتكلوا على حماية العالى ولا تخافوا إلا ممن لا قدرة لأحد خلافه فإذا جاءت الشدّة وظهر الاضطهاد ظهر ثابت الإيمان منكم، إخوانى إنكم على يقين أن مولاكم لا تخلو

منه الديار فإن لم تبصره أعينكم فما ذلك إلا لتفاقم خطوبكم وكثرة ذنوبكم فأفقهوا، قال بعض الكتاب: والمراد من كلمة الدار هنا تجرد الحاكم فى ثلاث من السنين وهى سنة ثمان وأربعمائة وعشر وأربعمائة وإحدى عشرة وأربعمائة للهجرة، وعندهم أن ظهور الحاكم بعد تلك الغيبة تسبقه علامات مختلفة منها كشف ستر معلم الأديان الكاذبة منذ الدهور القديمة ومنها تهافت الناس قاطبة على الآثام والفجور والفساد والآراء الكاذبة ومنها ظهور الخادع الذى هو المسيخ الدجال وله مخادع اسمه الحد غشاش فيحارب زمان القيامة بيت الإمامة ويقاتل حتى ينكسر وينهزم ويكون لخبر انهزامه ضجة فى أرض الأقباط ويعقبها زلزلة تهدم بنيان الفسطاط، وظهور مخادع أخر فى مدينة الفسطاط ومن علامات اليوم الأخير عندهم خراب مدينة حلب بجيوش المسيخ الدجال الذى يخرج منها. ويقال يومئذ: أن خداع زمان القيامة الحد غشاش قد خرج من حلب فى يوم نحس وقد اجتمع الروم حول رايته فلابد وأن يلقى تلك المدينة فى ويل وحرب ومن العلامات أيضاً خراب جميع مساجد الشام بالزلزال وضعف الإيمان ووقوع الموحدين فى شدّة عظيمة للغاية وبلوغ النصرانية أوج الأعالى وغير ذلك مما لا يسعنا إيراده هنا.

ومن الأمور السياسية فى الدين التوحيدى عندهم معرفة وزراء الحاكم واحداً فواحداً إلى قسمين ويجعلون لهم خمس رتب فالوزراء الأولون خمسة الوزير الأول حمزة ويقال له العقل. والثانى إسمعيل بن محمد التميمى ويقال له النفس. والثالث أبو عبد الله محمد بن الوهاب القريشى ويقال له الكلمة. والرابع أبو الخير سلامة ابن عبد الوهاب السمورى ويقال له السابق. والخامس أبو الحسن علىّ بن أحمد الملقب بهاء الدين ويقال له التابع، وأما الوزراء الثانويون فهم أيوب بن علىّ ويقال له المجد، ورفاع بن عبد الوارث ويقال له الفتح. ومحسن بن علىّ ويقال له الخيال. وأما غير هؤلاء فدعاة ونقباء وغير ذلك، وورد فى كتبهم عن الوزراء الخمسة الموحدين العظام مانصه قريدان خمسة أجرف دليل على خمسة حدود النفسانيين والنورانيين والروحانيين والجرمانيين والجسمانيين وهو ذومعة العقل الكلى النفسانى وذومعة النفس الروحانى والجناح الربانى، والأيمن الباب الأعظم وهو السابق والتالى معدن العلوم ومنه ابتناؤها . اهـ.

وكتب حمزة إلى أبى الحسن علىّ بن أحمد الملقب بالمقتنى وبهاء الدين ما صورته إلى رابع الحدود النفسانيين وتالى الروحانيين تالى السابق الفضل السيخ المقتنى بهاء الدين . اهـ.

أما أصل هؤلاء الوزراء فهم كما ذكره حمزة فى رسالته المسماة كشف الحقائق حيث قال ما معناه واعلم أن البارىء خلق من نوره الشعشانى شخصاً كاملاً وهو الإرادة التى هى سيد جميع الأشياء وسماه العقل فكان كامل النور والقوّة جمعت فيه الصفات الخمس الأصلية وضمن فيه كامل ما هو كائن وجعله إمام الأئمة فى جميع الأزمنة والأجيال، وهو السابق الحقيقى لأنه سبق الجميع بالاعتراف بوحدة الخالق والعقل كائن يدرك ويقع تحت الحواس فيأكل ويشرب وليس كما قال عنه السابقون لا يدرك وهو أوّل الكائنات التى خلقها تعالى، وسماه أيضاً علة العلل وهذا العقل تام العمل حكيم فى السكون قادر فى الحركة وهو نقطة البيكار يحكم على الأرضيات والسمويات وبه شرف الإنسان ومجده فى الزمنيات والروحيات وأوّل ما خلق الله العقل. وقال له أقبل: فأقبل، ثم قال له أدبر: فأدبر، فقال: وعزتى وجلالى ما خلقت أجل منك شيئاً بك آخذ وبك أعطى وبك أحاسب وبك أعاقب فلما سمع العقل كلام البارى نظر إلى نفسه فرأى أن ليس له مثيل ولا نظير فظن أنه لا يكون له منازع ولكن مولانا جل ذكره أخرج من طاعته العصيان ومن نوره الظلام ومن دعته الكبرياء ومن حكمته الجهل وهى صفات أربع رديئة مضادة للصفات الأربع الحسنة وهى العقل وصفاته، وهى توقد العقل وقوّة النور وراحة التواضع وبرودة الحكمة ورطوبة المادة فكل آلة روحية آلة مضاد تقاوم العقل وتعصيه فأدرك العقل أن ذلك إنما هو تجربة من الخالق له تأديباً على ظنه فى نفسه الكمال فاعترف بضعفه واستغفره وسأله بأن يجعل له معينا على الضد المخالف وخليفة ينوب عنه عند المؤالف ليستغنى به عن مخاطبة الضد ومشاكلة الند فأجاب وخلق نفس الوزير ذى مصة من العقل وهو التابع الخاضع له، وجعل له نصف ما للعقل فكان كالأنثى والعقل كالذكر ولذلك يكون للذكر حظ الانثيين وجميع الوزراء أولاد هذين الكائنين، فالذكر هو العقل، والأنثى النفس، والوزير المسمى الكلمة هو تحت السابق والنفس تحت الكلمة والعقل فوق الجميع وهو روح الوزراء وسابق جميع القدماء ونور الظلام يعنى بذلك (حمزة) الذى هو العقل قالوا: وأما الأرواح الضدية التى خرجت من نور العقل وجاءت النفس متوسطة بين نور العقل وكلام الضد لأن النفس حاصلة على نور العقل فتسمع كلامه وتنتفع بأوامره ولكنها تشترك فى ظلام الضد الحادث فتعرف حيله ومكره وخداعه، وهو ذو لين لأنه فى الأصل من نور العقل وما هو إلا ظلام وظلم بالنسبة إليه ولكنه لين بالنسبة إلى خشونة العالم، والكلمة أخرجت من العقل لمعاونته ومعاونة النفس على الضد وصدر السابق من

النفس وقامت الكلمة عن اليمين والسابق عن اليسار فأمسى الضد مخاطباً بالعقل والنفس والكلمة والسابق فحاول أن يفلت من تحتهم فسمى بالحائر حيث حار فى نفسه ثم سمى بإبليس لأنه خرج من العقل دون إرادته كمن ليس له أب لأنه جاء على غير إرادة أبيه فهو ضد الأولاد الناموسيين أى الموحدين الذين هم أولاد العقل وهو النور وأمهم الرحمة وهى النفس . اهـ.

ولحمزة أسماء كثيرة فى كتبهم وهى لحالته الروحية المجردة عن الشخص الذى ظهر به للناس ومنها، السابق الحقيقى، وذو مصة، والإرادة، والعقل الكلى، والعقل، وقائم الزمان، والباب، والإمام، والآمر، وعلة العلل، والوزير الثانى يسمي روحياً أيضاً بالنفس، والنفس الكلى، والمشيئة، وذو مصة، والتالى، وحجة الإمام، وداعى الإمام، والوزير الثالث يسمى كذلك الكلمة، والجناح، والجناح الربانى، وداعى القائم، وسفير القدرة، وصاحب السعادة، والكلام، والوزير الرابع يسمى السابق، والصغير، والباب السابق، وباب حجة القائم، والباب الأعظم، والجناح الأيمن، ويسمى الوزير الخامس أيضاً بالتابع، والتالى، والجناح الأيسر، ورابع الحدود، وآخر الحدود، ولهم أسماء غير ما ذكر أيضاً وينسبون التعاليم الآتية إلى حمزة للدلالة على نفسه وهى:

س كم مرة ظهر حمزة وماذا كانت أسماؤه؟

ج قد ظهر في جميع الأدوار من آدم إلى النبيّ حمد أي سبع مرات (كذا في الأصل الذي أخذنا عنه).

س ما هي الأسماء التي كانت له؟

ج كان اسمه في زمان آدم شطنيل وفي زمان نوح فيثوغوروس وفي أيام إبراهيم داود وفي أيام موسى شعيا. وكان المسيح الحقيقي في أيام يسوع وكان اسمه العازر أيضاً وفي الهجرة كان اسمه سلمان الفارسي وفي أيام سعيد كان اسمه صالحاً.

س من أين عرفنا شرف قائم الحق حمزة بن عليّ علينا سلامه؟

ج من شهادته بنفسه لنفسه حيث قال في رسالة التحذير والتنبيه: أنا أصل مبدعات المولى وأنا صراطه والعارف بأمره، وأنا الطور والكتاب المسطور والبيت المعمور وأنا صاحب البعث والنشور النافخ في الصور وأنا إمام المتقين وأنا صاحب النعم وأنا الناسخ للشرائع ومبطلها وأنا مهلك العالمين وأنا النار الموقدة التي تطلع على الأفئدة.

س من هو نقطة البيكار؟

ج حمزة بن عليّ

س ماذا نفهم بالطريق المستقيم

ج حمزة بن عليّ الذي يسمى أيضاً قائم الحق وإمام الزمان والعقل والسابق والنبيّ الكريم وعلة العلل.

س من هو قائم الزمان؟

ج هو حمزة بن عليّ.

س ماذا نقول عن الإنجيل الذي هو في أيدي النصارى؟

ج هو حقيقي وفيه كلام المسيح الحقيقي الذي كان يسمى في أيام صاحب الهجرة سلمان الفارسي وهو حمزة بن عليّ.

س من هو الذي قام من القبر ودخل والأبواب مقفلة حيث كان التلاميذ مجتمعين؟

ج هو المسيح الحي الأبدي وهو حمزة عبد مولانا الحاكم.

وقد اختفى حمزة هذا بعد اختفاء الحاكم وغيبته عن الناس فلم يعلم له خبر صحيح، فقال بهاء الدين الذى هو المقتنى: فى غيبة حمزة المذكور ما معناه عندما غاب المعبود، يعنى الحاكم، امتنع قائم الزمان عن الوجود . اهـ.

وكان بعد وظائف الوزراء الخمسة عندهم على أيام الحاكم ثلاث رتب أخرى للذين تعلقوا بخدمة دين التوحيد عندهم ويعرفون بالدعاة والمأذونين والمكاسرين الذين يسمون عندهم أيضاً النقباء، قال حمزة ما معناه: يصح للداعى أن يسير للدعوة مأذوناً ومكاسراً، وقال عن الدعاة: أنهم دعاة الإجلال البانينون بالكشف لدعاة الأعور الدجال المتفاضلون بتصوير الحقائق وهم من أذن لهم بالكسر والجبر وبعدهم النقباء المتزهون عن الكذب الذين يعرفون حقوق وزراء الحق، قالوا ومن أفعال الدعاة أنهم يدعون الناس إلى الاعتراف بالوحدانية والمأذونون يخضعون للدعاء وعليهم القيام بتنفيذ أوامرهم ولا يعلم من كتبهم شيئاً عن المكسرين وربما كان المقصود من اسمهم أنهم يكسرون الاعتقادات القديمة الراسخة فى عقول الناس ويمهدونهم إلى التمسك بالدين التوحيدى، ومن اعتقاداتهم أن الله قال للدنيا كونى فكانت على الحالة التى عليها الآن ذكوراً وإناثاً وشيوخاً وشباباً كهولاً وأطفالاً آلاف الآلف وجعلهم يتوهمون أن لهم آباء وأجداد وأمهات وجدات، فكان كل منهم يتوهم أن أباه فلان بن فلان وزاروا القبور فرأوا العظام، وكان يقول هذا هو ذا قبر

والدى وذاك هذا قبر أمي وهلم جرا، وكان كل إنسان عارفاً بعمله وصنعته وحرفته فتوهموا أنه منقول عن زيد وعمرو على أن ذلك لم يكن غير وهم وتخيل لجهل قوّة البارى، قالوا: ثم أخذت الأنفس تنتقل من جسد إلى جسد بموت الجسد الأول ويبقى هذا مدى الدوران، وفيها أن الله سبحانه وتعالى معلم كل حرفة وعمل وعندهم أن أهل التنزيل هم: المسلمون، وأهل التأويل هم: النصارى، وقد وضعوا فى سؤالات وجوابات وهى:

س ما هو اسم المسلمين؟

ج اسمهم التنزيل.

س ما هو اسم المسيحيين؟

ج اسمهم التأويل الذين أوّلوا كلام الإنجيل، والمسلمون سموا بالتنزيل لأنهم يعتقدون أن القرآن أنزل من السماء.

س كيف يدين الحاكم أصحاب الأديان الأجنبية عن التوحيد؟

ج ينقسمون إلى أربعة أقسام وهم المسيحيون واليهود والكفرة والموحدون.

س كيف تنقسم هذه الأقسام؟

ج أما النصارى فهم النصيرية والمتأولة، وأما اليهود والمسلمون والكفرة فهم الذين تركوا دين مولانا الحاكم.

س ما هو قصدنا من مدح الإنجيل؟

ج إن قصدنا إنما هو تمجيد اسم الحاكم بأمر الله وهو حمزة نفسه لأنه هو الذي علم الإنجيل والإنجيل، مبني على حكمة الهيئة ومعناه الرمزي يدل على الدين التوحيدي.

س ماذا تقول عن الشهداء الذين يعظم المسيحيون بسالتهم ويكثرون عددهم؟

ج نقول إن حمزة لم ير من الموافق الاعتراف بهم ولذلك رفضهم ولو شهد بهم جميع المؤرخين

س إذ قالوا لنا إن حقيقة دينهم مؤسسة على أدلة وبراهين أقوى من كلام حمزة وأثبت منه فماذا يكون جوابنا وبأي شيء عرفنا جودة حمزة بن عليّ.

ج بشهادته لنفسه عندما قال أنا أوّل خلق ا لمولى؟

س ماذا تقول عن الإنجيل الذي في أيدى النصارى؟

ج هو حقيقي لأنه يتضمن كلام المسيح الحقيقي الذي كان اسمه في أيام محمد سلمان الفارسي وهو حمزة بن علي والمسيح غير الحقيقي هو المولود من مريم فإنه ابن يوسف.

س أين كان المسيح الحقيقي عندما كان المسيح غير الحقيقي مع التلاميذ؟

ج كان معهم وكان من تلاميذه وفاه بكلام الإنجيل وعلم المسيح بن يوسف وأراه ماذا ينبغي أن يفعل ليكون عمله منطبقًا على ناموس الدين المسيحي فكان يصغى إليه ويلتفت، ثم إنه خالف بعد ذلك المسيح الحقيقي فألقى بغضه في قلوب اليهود فقاموا عليه حينئذ وصلبوه.

س ماذا جرى بعد الصلب؟

ج دفن فأتى المسيح الحقيقي وأخذه من القبر وخبأه في البستان ثم أذاع بين الناس أن المسيح قام من بين الأموات.

س لماذا فعل ذلك؟

ج لإنشاء الدين المسيحي وليحافظ الناس على التعاليم التي علمهم إياها.

س لماذا فعل هذا كله وخدع غير المؤمنين؟

ج فعل ذلك ليتمكن الموحدون من الاستتار بالدين المسيحي بحيث لايعلم أحد بهم.

س من هو الذي نهض من القبر ودخل المكان الذي كان التلاميذ فيه والأبواب مقفلة ؟

ج هو المسيح الحي الذي لا يموت وهو حمزة عبد مولانا الحاكم.

س من الذي أذاع الإنجيل؟

ج متى ومرقس ولوقا ويحنا وهم النساء الأربع.

س كيف لم يعرف النصارى الدين التوحيدي؟

ج لم يشأ الله ذلك وهو الحاكم بأمر الله، والله هنا اسم لحمزة.

س كيف يمكن أن الله يستحسن الضرر ويرضى عن عدم الإيمان؟

ج قد جرت عادة مولانا أن يعرف البعض ويعرض عن البعض.

س إذا كان الوقوع في عدم الإيمان هو منه فلماذا يجازون عليه؟

ج يجازون لإظهاره نفسه لهم وهم لا يطيعونه.

س كيف يطيعون رجلاً قد خدع حيث كانت الأشياء مجهولة عنده كما ورد لبسنا عليهم ومكرنا بهم؟

ج لا يحب أن يحاسبوا على ذلك ولا يصح أن يطلب إلى الحاكم تبيين أسباب تصرفه بعبيده.

وكان يعتبرون الديانة النصرانية ويجلونها فقد عنونوا إحدى رسائلهم الموسومة بالمسيحية للمقتنى بهذه العبارة: إلى جميع من تقرّب إلى اللاهوت بحقيقة القربان وتمسك به من كل أهل الحق من قسيس وبطرك ومطران، ومن مذهبهم أيضاً الاشتراكية أى أنهم جميعاً إخوة بعضهم لبعض ومن المقرّر عندهم ذب القوى منهم عن الضعيف والذود عنه جهد الاستطاعة وحمل كل فرد منهم لسلاحه ليلاً ونهاراً للدفاع عند الحاجة، فقد قال حمزة ما معناه أطلب إليكم أن يذب بعضكم عن بعض فإنكم جميعاً إخوة فإذا فعلتم ذلك كمل إيمانكم واقضوا حاجات بعضكم الدينية والعالمية وأقبلوا عذر بعضكم بعضاً وكونوا أعداء من يخدعونكم وزوروا المرضى منكم وأحسنوا إلى المساكين، وقال بهاء الدين: إياكم وأن يحاكم بعضكم بعضاً فإن ذلك مجلبة للبلوار، ولهم مباد وأصول وشرائط كثيرة لا يسعنا إيرادها هنا اكتفاء بهذا القدر نقلاً عن أصدق الكتاب وأدقهم تتميما للفائدة، وأقام الظاهر لإعزاز دين الله بن الحاكم بأمر الله يتصرف فى الملك ويدبر أموره على ما يشاء حتى كان من أمره ما سيذكر فى خلافة القائم بأمر الله.

ومات فى خلافة القادر بالله توفانيوس بطرك الإسكندرية بعد أن قام أربع سنين وفى رواية أربع سنين وستة أشهر فقدّم المتأصلون بعده مينا وهو حادى ستيهم وأصله من مدينة جولا وكان راهباً بدير أبو مقار فأقام إحدى عشرة سنة ومات فخلا الكرسى بعده سنة، وقيل: أقام سبع عشرة سنة فأقيم بعده أفرام أو هو إبراهام السريانى ابن زرعة وهو ثانى ستيهم فأقام ثلاث سنين، وقيل: ثلاث سنين وستة أشهر ومات مسموماً من بعض كبار كتاب القبط على ما شاع يومئذ وسببه منعه من التسرى فخلا الكرسى بعده ستة أشهر وكان ورعاً تقياً كثير البر محباً للفقراء غيوراً على الدين جاهد جهاداً عظيماً فى إبطال التسرى وقد كان شائعاً قبله. قيل: وظهرت على يديه عجائب كثيرة وآيات عديدة والله سبحانه وتعالى أعلم بالحقائق، وفى أيام إبراهام هذا بنيت عدة كنائس مما هدم بسبب الفتن المتتابعة والأحن المترادفة وكانت أيامه كلها هدوّا وطمأنينة فلما مات أقيم بعده فيلوثاوس وهو ثالث ستيهم وكان راهباً بدير أبو مقار ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله.

(الفصل السادس والعشرون)

(فى خلافة أبى جعفر عبد الله القائم بأمر الله بن القادر بالله)

ثم قام بالأمر بعد القادر بالله ولده أبوجعفر عبد الله القائم بأمر الله جددت له البيعة وكان أبوه قد بايع له بولاية العهد سنة إحدى وعشرين كما تقدم القول واستقرت الخلافة له وذلك سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة هجرية أى سنة ثلاثين وألف ميلادية قال أصحاب التاريخ: وأول من بايع له الشريف أبو القاسم المرتضى وأنشده:

فأما مضى جبل وانقضى فمنك لنا جبل قد رسا
وأما فجعنا ببدر التمام فقد بقيت منه شمس الضحى
لنا حزن في محل السرور وكم ضحك في خلال البكا
فيا صارما أغمدته يد لنا بعدك الصارم المنتضى

وهى طويلة للغاية وأرسل القائم بأمر الله قاضى القضاة أبا الحسن الماوردى إلى الملك أبى كاليجار ليأخذ له البيعة ويخطب له فى بلاده فأجاب إلى ذلك وخطب له فى بلاده وأرسل إليه هدايا جليلة وأمولاً كثيرة فلم تستقر بالقائم الخلافة حتى قامت الفتنة ببغداد بين السنية والشيعة. قال أصحاب التاريخ: وكان سبب ذلك أن الملقب، بالمذكور، أظهر العزم على الغزاة وأستأذن الخليفة فى ذلك فأذن له وكتب له دستورا من دار الخلافة وأعطى علما فاجتمع له لفيف من الناس فسار واجتاز بباب الشعيروطاف الجرانى وبين يديه الرجال بالسلاح فبينما هم على هذا الحال من التطواف إذ تحرك جماعة منهم وصاحوا بذكر أبى بكر وعمر وقالوا: هذا يوم معاوى فتبعهم الجميع وصاحوا كذلك فنافرهم أهل الكرخ ورموهم وثارت الفتنة ونهبت دور اليهود لأنهم قيل عنهم أنهم أعانوا أهل الكرخ فلما كان الغد اجتمع السنيةً من الجانبين ومعهم جمع من الترك وقصدوا الكرخ فأحرقوا وهدموا الأسواق وأشرف أهل الكرخ على خطر عظيم للغاية وسئل الخليفة فى ذلك فأنكره إنكاراً شديداً ونسب إليهم تخزيق علامته التى مع الغزاة فركب الوزير عند ذلك يريد تلافى الأمر قبل استفحاله فوقعت فى صدره آجرة فسقطت عمامته وأشتد الحال واتسع الخرق

وقتل من أهل الكرخ جماعة وأحرق وخرب فى تلك الفتنة عدة أسواق كبيرة وعمائر واسعة وقتل العامة الكلالكى وهو صاحب العونة وأحرقوه ووقع القتال فى أصقاع البلد من الجانبين واقتتل أهل الكرخ ونهبوا الأسواق وقطع الجسر ليفرق بين الناس وأظهر الجند كراهة الملك جلال الدولة وأرادوا قطع خطبته ففرق فيهم المال وحلف لهم الإيمان الغلاظ فسكنوا ثم أعادوا الشكوى إلى الخليفة منه وطلبوا أن يأمر بقطع خطبته فلم يجبهم إلى ذلك فامتنع حينئذ جلال الدولة من الجلوس للناس وضرب النوبة أوقات الصلوات وانصرف الطبالون لانقطاع الجارى لهم ودامت هذه الحال إلى عيد الفطر فلم يضرب بوق ولا طبل ولا أظهرت الزينة وزاد الاختلاط وما دخلت سنة ست وعشرين وأربعمائة حتى انحل أمر الخلافة والسلطنة ببغداد وزالت هيبتها أو كادت وعم الخلل وارتفع الأمن حتى أن بعض الجند خرجوا إلى قرية على مقربة من بغداد فلقيهم جماعة من الأكراد فأخذوا منهم دوابهم فذهبوا إلى مراح الخليفة فنهبوا أشياء من ثمرته وقالوا للعاملين فيه: أنتم عرفتم حال الأكراد ولم تعلمونا فبلغ الخليفة الحال فعظم عليه جداً ولم يقدر جلال الدولة على أخذ أولئك الأكراد لعجزه وشدة وهنه واجتهد فى تسليم الجند إلى نائب الخليفة فلم يمكنه ذلك فتقدم الخليفة إلى القضاة بترك القضاء وإلى الشهود بترك الشهادة وإلى الفقهاء بترك الفتوى فلما رأى جلال الدولة ذلك سأل أولئك الأجناد ليجيبوه إلى أن يحملهم إلى ديوان الخليفة ففعلوا فلما وصلوا إلى دار الخلافة أطلقوا وعظم أمر طائفة العيارين من الجند فصاروا يأخذون أموال الناس ليلاً ونهاراً ولا مانع يمنعهم لأن الجند لا يحمون إلاعن السلطان ونوابه والسلطان عاجز عن قهرهم وانتشر كذلك العرب فى البلاد فعاثوا ونهبوا وقطعوا الطرق وبلغ النهب إلى أطراف بغداد وأخذوا ثياب النساء فكانت فتنة شديدة ومحنة كبرى.

وكان فى أيام القائم بأمر الله أى سنة ثلاثين وأربعمائة قيام دولة السلاطين السلجوقية وانقراض دولة بنى بويه فكانت مدة ملكهم مائة سنة وسبعاً وعشرين سنة ذكر ذلك ابن البطريق فى تاريخه فى حوادث سنة ست وأربعين وفى أيامه أيضاً أى فى سنة ست وستين وأربعمائة غرق الجانب الشرقى وبعض الغربى من بغداد، قال أصحاب التاريخ: وسببه أن دجلة طغى ماؤه وارتفع كثيراً وانفتح القورج عند المسناة المعزية وجاء فى الليل سيل عظيم وطفح الماء من البرية وهبت ريح شديدة جداً وجاء الماء إلى البيوت من فوق وفاض من البلاليع والآبار بالجانب الشرقى فهدم البيوت وسقطت على ما بها من الخلق فمات خلق كثير فكثر الصياح من كل صوب وحدب

وترك الناس بيوتهم وهم يضجون ويعجون إلى الله وقام الخليفة يتضرع ويدعو الله وعليه البردة وبيده القضيب وأشتد الكرب بالناس وكبر خوفهم وتهدم أكثر المقابر بالجانب الشرقي ومعظم الأسوار ودخل الماء من شبابيك البيمارستان العضدى وكانت شدّة يالهـا من شدّة، قال بعض الكتاب: ومن عجيب ما يحكى فى هذا الغرق أن الناس كانوا قد أنكروا كثرة المغنيات والخمور فقطع بعضهم أوتار عود مغنية كانت عند أحد العسكر فثار به ذلك الجندى فضربه فأجمعت عند ذلك العامة وعلت الضوضاء وكان ممن اجتمع مع العامة كثير من الأئمة منهم أبو إسحق الشيرازى واستغاثوا إلى الخليفة وطلبوا هدم المواخير والحانات وألحوا فى ذلك فوعدهم الخليفة بأنه سيكاتب السلطان فى ذلك فسكتوا وتفرقوا وقد لازم الكثير من الصالحين الدعاء بكشفه فأنفق أن غرقت بغداد ونال الخليفة والجند من ذلك أمر عظيم وعمت مصيبته كافة الناس فرأى الشريف أبوجعفر بن موسى بعض الحجاب الذين كانوا يقولون للناس نحن نكاتب السلطان فى أمر الحانات والمغنيات ونسعى فى تفريق الخلق وينتهرهم ويقول لهم اسكتوا إلى أن يرد الجواب، فقال له أبو جعفر: قد كتبنا يارجل وكتبتم فجاء جوابنا قبل جوابكم يعنى أنهم شكوا ما حل بهم إلى الله تعالى فأجابهم بالغرق قبل ورود جواب السلطان . اهـ.

ومع ما كان عليه الخليفة القائم من رقة الجانب وحسن السيرة وطيب الأخلاق والميل إلى قضاء حوائج الخلق فإنه كان مغلوباً على أمره لا كلمة له البتة ولا رأى ولا صوت مع السلجوقيين بعد بنى بويه فكانوا إذا رأوا منه انحرافا عنفوه وهدّدوه وشدّدوا فى المراقبة عليه فكانت دار الخلافة كلها عيوناً وأرصادا للسلطان، وما زال الحال هكذا حتى مات الخليفة سنة سبع وستين وأربعمائة لعشر ليال مضت من شعبان فكانت خلافته أربعاً وأربعين سنة وثمانية أشهر وقيل خمساً وأربعين سنة وفى رواية أنه خلع ثم أعيد إلى الخلافة ثانية ولكن أصحاب التاريخ لم تذكر شيئاً من ذلك، قال صاحب الكامل: وسبب موته أنه كان قد أصابه ماشرا فافتصد ونام منفرداً فانفجر فصاده وخرج منه دم كثير ولم يشعر واستيقظ وقد ضعف وسقطت قوّته فأيقن بالموت فأحضر ولى العهد ووصاه بوصايا وأحضر المنقبين وقاضى القضاة وغيرهم مع الوزير أبى جهير وأشهدهم على نفسه أنه جعل ابن ابنه أبا القاسم عبد الله بن محمد بن القائم بأمر الله ولى عهده فلما مات غسله الشريف أبو جعفر بن أبى موسى الهاشمى وصلى عليه المقتدى بأمر الله وكان عمره ستاً وسبعين سنة وثلاثة أشهر وخمسة أيام، وكان القائم مليح الوجه أبيض مشربا حمرة حسن الجسم

ورعاً دينا زاهداً عالماً قوىّ اليقين كثير الصبر ميالاً للعدل. قال محمد بن علىّ بن عامر الوكيل: دخلت يوماً إلى المخزن فلم يبق أحد إلا أعطانى فصة فامتلأت أكمامى منها، فقلت فى نفسى لو كان الخليفة أخى لأعرض عن هذه كلها فألقيتها فى بركة والقائم ينظر ولا أشعر فلما دخلت إليه أمر الخدم بإخراج الرقاع من البركة فأخرجت ووقف عليها ووقع فيها بأغراض أصحابها. ثم قال لى ياعامى ما حملك على هذا، فقلت: خوف الضجر منها، فقال: لا تعد إلى مثلها فإنا ما أعطيناهم من أموالنا شيئاً إنما نحن وكلاء.

ومات فى خلافته أبو الحسن علىّ الظاهر لإعزاز دين الله بن الحاكم بأمر الله وكان موته فى سنة سبع وعشرين وأربعمائة وعمره ثلاث وثلاثون سنة وكانت مدّة ملكه خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وسبعة عشر يوماً. كان جميل السيرة حسن السياسة منصفاً للرعية إلا أنه كان مشتغلاً بلذاته محباً للدعة والراحة ففوض الأمور إلى وزيره أبي القاسم علىّ بن أحمد الجرجرانى لمعرفته بإخلاصه وكفايته، ولما مات ولى ابنه أبو تميم معدّ ولقب المستنصر بالله ومولده بالقاهرة سنة عشر وأربعمائة فكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى خلافة المقتدى بأمر الله، ومات فى خلافة القائم أيضاً فيلوثاوس بطرك الإسكندرية بعد أن أقام أربعا وعشرين سنة وقامت فى أيام فيلوثاوس طائفة الملكية على المتأصلين أهل البلاد الذين هم قبط مصر فأخذوا منهم كنيسة السيدة المعروفة بكنيسة البطرك كرها وتسلمها ارسانيوس بطرك الملكية قهرا فقامت لذلك الفتنة بين الفريقين واشتدّ الخلاف وكثر الأخذ والرد وطال الحال على ذلك أياماً وكادت الفتنة تبلغ مبلغاً عظيماً لولا الخطوب المتابعة والكروب المتراكمة فترك المتأصلون الأمر إلى حين آخر، ولما مات فيلوثاوس المذكور أقيم بعده زخريس أو هو زخرياس رابع ستيهم وكان قسيسا بمدينة الإسكندرية فوقع له من البلايا والمحن ما سيذكر فى محله.

(الفصل السابع والعشرون)

(فى خلافة أبى القاسم المقتدى بأمر الله بن محمد بن القائم بأمر الله)

ثم قام بالأمر بعد القائم بأمر الله ولد ولده أبو القاسم عبد الله المقتدى بأمر الله بويع له بالخلافة يوم موت جده القائم بأمر الله سنة سبع وستين وأربعمائة هجرية أى

سنة أربع وسبعين وألف ميلادية وحضر مؤيد الدولة بن نظام الملك والوزير فخر الدولة بن جهير وابن عميد الدولة والشيخ أبو إسحق وأبو نصر بن الصباغ وبقية النقباء وغيرهم من رجال الدولة والأماثل فبايعوه، قال بعض الكتاب: وكان أول من بايعه الشريف أبو جعفر بن أبى موسى الهاشمى وذلك أنه كان قد تولى غسل القائم فلما فرغ منه قام وبايع المقتدى وأنشده:

إذا سيّدٌ منّا خَلاَ قام سيّدُ

ثم ارتج عليه فقال المقتدى: قؤولٌ بما قال الكرام فعول، ولم يكن للقائم من أعقابه ذكر سوى المقتدى فأنّ الذخيرة أبا العباس محمد بن القائم توفى أيام أبيه ولم يكن له غيره فتحقق الناس انقراض نسله وانتقال الخلافة من البيت القاردى إلى غيره وتوقعوا اختلال الأحوال بعد القائم لأن من عدا البيت القادري من العباسيين كانوا يخالطون العامة فى البلد ويجرون مجرى السوقة فإذا ولى أحدهم بحكم الضرورة لم يكن له ذلك القبول ولا تلك الهيبة التى هى لآل البيت القادرى. وكان للذخيرة أبى العباس ولد القائم جارية اسمها أرجوان وكان يلم بها فلما مات ورأت ما نال القائم من المصيبة بانقراض عقبه ذكرت أنها حامل فتعلقت النفوس بذلك فولدت بعد موت سيدها أبى العباس لستة أشهر ذكرا فسموه المقتدى وأشتد فرح القائم وعظم به سروره وبالغ فى الإشفاق عليه والمحبة له، قال بعض الكتاب: فلما كانت حادثة الباسرى (وهى طويلة أضربنا عن إيرادها هنا) كان للمقتدى المذكور أربع سنين تقريباً فأخفاه أهله وحمله أبو الغنائم بن المحلبان إلى حرّان فلما عاد القائم إلى بغداد بعد قيام الفتنة واختلاف أمورها بسبب الباسرى المذكور أعيد المقتدى إليه، فلما بلغ الحلم جعله ولى عهده واستقرت بالمقتدى الخلافة فأقر فخر الدولة بن جهير على الوزارة بوصية من جده القائم وسير حميد الدولة بن فخر الدولة بن جهير إلى السلطان ملكشاه ليأخذ له البيعة وأرسل معه من أنواع الهدايا ما يجل عن الوصف.

ووردت الأخبار إلى المستنصر بالله العلوى صاحب مصر بموت القائم وولاية المقتدى ففرح بذلك وظن بلوغ ما فى نفسه وكتب إلى صاحب مكة ابن أبى هاشم يسأله أن يعيد له الخطبة بمكة وكانت قد انقطعت وعادت إلى العباسيين وأرسل له هدية سنية للغاية ورسالة يقول فيها: إن أيمانك وعهودك كانت للقائم وللسلطان ألب أرسلان وقد ماتا فأخطب لى فخطب له بمكة وقطع خطبة المقتدى، فكانت مدة الخطبة العباسية بمكة أخيراً أربع سنين وخمسة أشهر ثم أعيدت فى ذى الحجة سنة ثمان وستين فلم يتم للمستنصر هذا الأمر حتى سار الإقسيس من دمشق إلى ديار مصر مع جيش عظيم يريد أخذها من المستنصر وكان قد أخذ دمشق بعد حروب

أضربنا عن إيرادها هنا فحاصر مصر بعد وصوله إليها وأطال الحصار وشدد وضيق ولم يبق إلا أن يملكها فاجتمع أهلها مع ابن الجوهرى الواعظ فى الجامع وبكوا وتضرعوا وابتهلوا إلى الله تعالى فأستجاب الله لهم، فلما خرجوا لقتال الإقسيس المذكور انهزم من غير قتال وعاد على أقبح صورة بغير سبب فوصل إلى دمشق وقد تفرق أصحابه فرأى أهلها قد صانوا مخلفيه وأمواله فشكرهم ورفع عنهم الخراج تلك السنة وأتى بيت المقدس فرأى أهله قبحوا على أصحابه ومخلفيه وحصروهم فى محراب داودعليه السلام فلما قارب البلد تحصن أهله منه وسبوه فقاتلهم حتى فتح البلد عنوة ونهب وقتل من خلقها كثيراً جداً حتى أعمل السيف فيمن التجأ إلى المسجد الأقصى وكف عمن كان عند الصخرة وحدها. قال صاحب الكامل: هكذا يقول الشاميون هذا الأسم إقسيس والصحيح أن اسمه أتسز وهو اسم تركى قال: وقد ذكر بعض مؤرخى الشام: إن أتسز هذا لما وصل إلى ديار مصرجعل أمير الجيوش يدرب العسكر واستمدّ العرب وغيرهم من أهل البلاد فاجتمع معه خلق كثير واقتتلوا فانهزم أتسز وقتل أخ له وقطعت يد أخ آخر وعاد منهزماً إلى الشام فى نفر قليل من عسكره فوصل الرملة ثم سارمنها إلى دمشق، وقال آخرون: ولما وصل أتسز إلى بلاد مصر ونزل بظاهر القاهرة أساء أصحابه السيرة فى الناس وظلموا وعاثوا وأفسدوا وفعلوا الأفاعيل القبيحة فأرسل عظماء القرى جماعة فتقدموا إلى المستنصر بالله العلوى يشكون إليه ما نزل بهم فأعاد الجواب بأنه عاجز عن دفع هذا العدوّ فقالوا نحن نرسل إليك من عندنا الرجال المقاتلة يكونون معك ومن ليس له سلاح تعطيه من عندك سلاحاً وعسكر هذا العدوّ قد أمنوا وتفرقوا فى البلاد فنثور بهم فى ليلة واحدة ونقتلهم وتخرج أنت إليه فيمن اجتمع عندك من الرجال فلا يكون له بك قوة فأجابهم إلى ذلك وأرسلوا إليه الرجال وثاروا كلهم فى ليلة واحدة بمن عندهم فأوقعوا بهم وقتلوهم عن آخرهم ولم يسلم منهم إلا من كان عنده فى عسكره وخرج إليه العسكر الذى كان عند المستنصر العلوى بالقاهرة فلم يقدر على الثبات قبلهم فولى منهزماً وعاد إلى الشام مذعوراً فتبعه العساكر المصرية وتقدمهم نصر الدولة وما زالوا خلفه وهو يجدّ فى السير حتى دخل دمشق فلحقوه وحصروا دمشق وضيقوا عليها فأرسل إقسيس إلى تاج الدولة تنش يستنصر به فسار إلى نصرته فلما سمع المصريون بقربه أجفلوا من بين يديه شبه المنهزمين وخرج صاحب دمشق يلتقيه عند سور البلد وكأنه ندم على الاستنجاد به فاغتاظ تاج الدولة من ذلك حيث لم يبعد فى تلقيه وعاتبه فاعتذر الإقسيس بأمور لم يقبلها تاج الدولة وقبض عليه فى

الحال وقتله ودخل دمشق بمن معه من الجنود وملكها وأخذ يتصرف فى أمورها فأحسن السيرة فى أهلها وعدل فيهم، وذلك سنة إحدى وسبعين وأربعمائة كما رواه ابن الهمذانى وغيره من العراقيين، وأما الحافظ أبو القاسم بن عساكر الدمشقى صاحب تاريخ دمشق فقد قال: إن تاج الدولة تتش المذكور كان تملكه لدمشق فى سنة اثنتين وسبعين. ولما كان شهر ربيع الأول سنة ثمان وسبعين وصل أمير الجيوش فى عساكر مصر إلى الشام فحصر دمشق وضيق عليها وبها صاحبها تاج الدولة تتش وما زال يقاتلها ليلاً ونهاراً حتى أعياه أمرها ولم يظفر منها بشىء فرحل عنها عائداً إلى مصر واتسعت كلمة تتش فملك حمصا وغيرها من سواحل الشام وأخذ منها ما كان بيد صاحب مصر، فسير أمير الجيوش بدرًا وزير المستنصر عسكراً عظيماً إلى تلك الأطراف فقاتلوها قتالاً عنيفاً حتى رجعت إلى الطاعة وقرر أمير الجيوش أمورها وجعل فيها الأمراء وولى مدينة صور أميرا اسمه منير الدولة الجوشى فلم تستقر به الولاية حتى عصى وخرج عن طاعة المستنصر فركب عليه أمير الجيوش فى عسكره وكان أهل صور قد أنكروا على منير الدولة عصيانه على سلطانه فلما وصل أمير الجيوش بالعسكر المصرى إلى صور وأحاطوا بالبلد وقاتلوها ثار أهلها ونادوا بشعار المستنصر وأمير الجيوش وسلموا البلد فهجم العسكر المصرى بغير مانع ولا مدافع ونهبوا ما فى البلد من مال ومتاع وأسر منير الدولة ومن معه من أصحابه وحملوا إلى مصر فقتلوا عن آخرهم.

وكانت أمور البلاد فى قلق واضطراب بسبب المجاعة العظيمة التى لم يسمع بمثلها من قديم الزمان، قال أصحاب التاريخ: أشتدّت المجاعة بمصر فى هذه الأيام أعنى فى أيام المستنصر بالله العلوى حتى أكل الناس بعضهم بعضاً وكان الكلب يباع بخمسة دنانير والقط بثلاثة دنانير وأشتدّ الغلاء وعظم البلاء على الناس حتى شوهد فى كثير من الأحيان أن ما بقى من الكلاب كانت تدخل الدور وتأكل الأطفال وهم فى المهود وآباؤهم وأمهاتهم ينظرون إليهم ولا يقدرون على النهوض لخلاصهم من شدّة الجوع، وكان الرجل يسرق ابن جاره ويذبحه ويأكله ولا ينكر عليه ذلك قالوا: وكان فى مصر حارة بها عشرون داراً كل دار يساوى ثمنها نحو ألف دينار يقال إنها بيعت كلها بطبق خبز فسميت من ذلك الوقت بحارة الطبق، وخرجت أمرأة يوماً إلى السوق وبيدها عقد من الجوهر، فقالت: من يأخذ منى هذا العقد ويعطينى عوضه قمحاً فلم تجد من يأخذه منها فالتفتت إلى العقد. وقالت: إذا كنت لا تنفعنى وقت الحاجة فلا حاجة لى بك وألقته على الأرض وسارت مغضبة، ويقال

ان وزير المستنصر ركب بغلة يوماً إلى دار المستنصر فلما نزل عنها أخذها غلمانه وأكلوها ولم يتركوا منها إلا المشامش والجلد وكان الرجل يمشى من جامع ابن طولون إلى باب زويلة ولا يرى فى وجهه إنساناً إلا نادراً، ولبث الحال على هذا الوصف أياماً كثيرة مات فيها من الناس والبهائم وبقية الحيوانات ما لا يكاد يدخل تحت الحصر وارتفع النيل على عادته وعم الأراضى وهبط ولم يوجد من يزرع الأرض سنة، وكثرت الفتن فى البلاد وعظمت نارها ما بين الأتراك جند السلطنة والسودان أتباع المستنصر وغلمانه الذين عليهم معتمده وقد كانوا كثيرى العدد والعدد ولهم الكلمة النافذة والقول المطاع وكانت والدة المستنصر تجنح إليهم لأنها كانت سوداء مثلهم وتحب ظهورهم على جماعة الأتراك واتفق أن المستنصر خرج يوماً إلى بركة عميرة التى هى بركة الحج على عادته ومعه جماعة من أصحابه وطائفة من السود وأخرى من الأتراك فنزلوا هناك يتعاطون الخمر فأفرط أحد الأتراك فى شربها حتى سكروقام وبيده سيفه فأهوى به على أحد السود من أولئك الغلمان فصاح الأسود فى وجه التركى وقام بقية الغلمان عليه فقتلوه بسيوفهم وانقضى ذلك اليوم وعاد المستنصر إلى القاهرة فدخل عليه جماعة من كبار الأتراك وقالوا: إن كان قتل صاحبنا بإغرائك فالسمع والطاعة وإلا فالسيف يحكم بيننا وبين السود فأنكر المستنصر ذلك وحلف أنه لم يأمر بقتل صاحبهم فخرجوا من فورهم لقتال السود فاجتمع الفريقان واقتتلوا فى الأزقة والحارات فى القاهرة ومصر قتالاً عنيفاً حتى جرى الدم فيها ثم افترقوا على أن القاتل يسلم إلى جماعة الأتراك وبقيت الأحقاد كامنة فى قلوب الفريقين حتى قدّم الأتراك عليهم ناصر الدولة أحد كبار القواد المخلوعين فجمع كلمتهم وأحسن تدبير شئونهم وجعل يتأهب لقتال السود فرأى جماعة السود أن لا قبل لهم على قتال الأتراك فنزلوا إلى الصعيد الأعلى فانضم إليهم كثير من العربان والمصريين فقويت قلوبهم وكثرت جموعهم وانحدروا إلى القاهرة والإسكندرية وقاتلوا الأتراك وأوقعوا بهم فى كوم شريك فكانت الدائرة على السود وقد مات منهم خلق كثير وغرق منهم جماعة فى النيل، قال بعض الكتاب: فكان من قتل وغرق منهم زهاء ثلاثين ألفاً ومات مقدّمهم المدعوّ أبا سعيد وكان من المقرّبين عند والدة المستنصر فكبر عليها هذا الأمر جدًا وأحزنها وكثرعبث السود فى القاهرة ومصر وسائر القرى والبلاد وعم الخطب واستفحل أمر الفتنة وطالب الأتراك المستنصر بما لهم من الجوامك والمرتبات وألحوا فى الطلب وركبوا على المستنصر وهدّدوه فاعتذر لنفاد ما فى يده وخرج يوماً وطاولهم فلم يقنعوا وكانوا لا ينكفون

عن مطالبته كل قليل من الزمان فسقط فى يده وخرج يوما هائماً على وجهه حتى دخل جامع عمرو بن العاص بفسطاط مصر وأقام به يريد خلع نفسه وترك أشغال الملك لمن يتولاه فلم يفلح وأعاده رجال دولته وألحوا عليه بالبقاء وعاد الأتراك والسود إلى الفتنة وخروج بعضهم على بعض فاقتتلوا ثانية عند الجيزة أياماً كثيرة كانت الحرب بينهم سجالاً ثم دارت الدائرة على السود فأوقع بهم الأتراك ومزقوا شملهم كل ممزق فترفعوا إلى الصعيد الأعلى وعاد الأتراك إلى القاهرة ومعهم مقدمهم ناصر الدولة وقد صغرت مهابة المستنصر فى أعينهم فطالبوه بالزيادة فى رواتبهم وما زالوا به حتى بلغت أربعمائة ألف دينار نقرة فى كل شهر بعد أن كانت ثمانياً وعشرين ألفا فاشتدّ خوف المستنصر من ناصر الدولة وأصحابه وكبرت طيرته فكان لا يرتاح فى أكله ولا شربه ولا نومه حتى فى صلاته وكذلك كان وزراؤه فخلعوا أنفهسم من منصب الوزارة ومع ذلك كان الأتراك لا ينكفون عن مطالبته بالمال فأخرج كل ما كان فى قصره من الذخائر الثمينة والتحف الغالية التى كانت لأجداده وباعها لهم بأبخس الأثمان، وقد كانت شيئاً كثيراً جدًا من الحلى والأحجار الكريمة والأوانى من الذهب والفضة والقماش والرياش والسروج المحلاة بالياقوت والزمرد والمرجان والسيوف الهندية مما لا يكاد يدخل تحت الحصر، فلما استصفوا ما فى قصره أخذوا أيضاً ما كان فى قبر أجداده من التحف والنفائس ونهبوا ما كان فى خزانة الكتب من الكتب النفيسة، قال بعض أصحاب التاريخ: وعددها عشرون ألف مجلد فاقتسموها بينهم وسيروا إلى ابن المحترق حاكم الإسكندرية بشيء كثير منها وكان يزعم أنه يخصه، فلما بلغوا بالكتب بلدة أبيار خرج عليهم جماعة من عربان قبيلة لواتة فنهبوها واتخذوا لهم من جلود بعضها أحذية وأحرقوا بعضها وتركوا بعضها ملقى فى بعض الدروب فأنهالت عليه الرمال حتى صار تلا عظيماً فكان يعرف بتل الكتب، وكثر عبث جماعة الأتراك وازداد طغيان ناصر الدولة وعسفه فكتب إليه المستنصر يوما يقول لما تقربّت منا وتطلبت حمايتنا حميناك وأوسعناك هبات وخيرات فكافأتنا بالعقوق وما زادك حلمنا إلا قحة فألقيت عصا الشقاق فى جيوشنا وتواطأت مع ذويك على دمارنا فالآن أخرج من عاصمتنا ونحن نضمن لك الأمان ونأذن لك بأن تحمل معك من ثروتك ما شئت إلى حيث شئت، وإن لم تذعن إلى ذلك فالعقاب إن شاء الله شديد، فلم يلتفت إليه ناصر الدولة فكبر الأمر على المستنصر وجمع إليه قواد المغاربة وأمراء كتامة ومن استمالهم من قواد الأتراك وبينهم الأمير دكوز صهر ناصر الدولة، وكان نافذ الكلمة واسع الهيبة وكلمهم فى

أمر ناصر الدولة وما يأتيه جماعة الأتراك فى كل يوم من الجور والعسف وهدم أركان السلطنة وجدد عليهم بيعته فبايعوه وحلفوا الأيمان فتسلل عند ذلك أصحاب ناصر الدولة وتفرّقوا عنه إلا القليل فخرج إلى الجيزة ليدبر الحيلة فى ذلك، فثار أصحاب المستنصر وانتهبوا بيت ناصر الدولة وسائر بيوت أصحابه وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وعم القتل والنهب، وخرج المستنصر بالله راكباً على فرس فى درعه وآلة حربه وأمامه الطبول الحربية وحوله القوّاد وكبار العسكر والأعلام تخفق على رأسه ونادى مناديه بالأمان والطاعة إلى السلطان فتوافد الأتراك زمرا ومرّوا من تحت العلم الكبير وصاحوا بطلب الأمان، وجاء جماعة من كبار قواد ناصر الدولة وفعلوا كذلك وكثرت الغوغاء وارتفعت أصواتهم بالدعاء للسلطان فلما رأى ناصر الدولة ما حل بأصحابه وأيقن أنه مأخوذ لا محالة فرّ هارباً فى نفر من خواصه إلى الإسكندرية وتحصن بها وجعل يدس الدسائس ويبعث البعوث إلى ما جاورها من المدن والبلدان لحمل أهلها على الخروج عن طاعة المستنصر وخلع بيعته والمبايعة إلى الخليفة القائم بأمر الله العباسى واستمال إليه جماعة من عربان أولاد على وأمدّهم بالمال فطافوا يحرضون الناس على الخروج فأفلحوا قليلاً، فانحدر عند ذلك ناصر الدولة إلى القاهرة مع من وافقه يريد حصارها وأخذها من المستنصر وأحرق كل ما مر به من المدن والقرى والمزارع وعاث وأفسد حتى أحاط بسور القاهرة ونصب عليه المنجنيقات وجعل يقاتل من بها أياماً ثم تقرّرت قاعدة الصلح بينه وبين المستنصر بالله على أن يكون بيد ناصر الدولة ما كان له من قبل بشرط الطاعة وحُسن الولاء للمستنصر فأقام ناصر الدولة حينا لا يحرّك ساكناً وقد علم بما آلت إليه حالة المستنصر بالله من الضنك والفاقة وذهاب نعمته حتى لم يبق عنده من حطام الدنيا غير سجادة قديمة وبعض أثواب بالية لا تستر عورته وثلاثة عبيد فأعظم ناصر الدولة هذا الحال جداً ورتب إلى المستنصر فى كل يوم مائة دينار ينفقها فى حاجات بيته وكف عن مشاغبته وما زال ناصر الدولة على حاله من بسطة اليد والتصرف فى سائر الأمور حتى دخل عليه يوماً دكوز صهره وهو جالس فى إيوانه مع أخيه فخر العرب فقتلهما واحتز رأسهما وحملهما إلى المستنصر بالله فقويت عند ذلك عزيمة المستنصر بالله وتجدّدت آماله ونشط إلى إرجاع سلطته وإعلاء كلمته فسير إلى بدر الجمالي صاحب الشام يستقدمه إلى مصر ليوليه سائر ما وراء بابه وألح عليه فى ذلك فأجاب طلبه وسار بدر فى جماعة كثيرة من أصحابه ذوى البأس والنجدة حتى جاؤا عكا وركبوا السفن فلم تكن إلا أيام حتى بلغوا مصر ونزلوا ما بين تنيس ودمياط، وسير بدر إلى الشيخ

سلمان عظيم البحيرة يعلمه بحضورهم فخرج إليه فى جمع عظيم وساروا جميعاً نحو القاهرة فلما وصلوا إلى قليوب سير بدر إلى المستنصر بالله يلزمه بالقبض على دكوز قبل دخولهم القاهرة فقبض عليه فى الحال وسجنه فى خزانة البنود فدخل بدر القاهرة يوم الأربعاء سادس عشرى جمادى الأولى سنة سبع وستين وأربعمائة، ولم يكن عند مقدّم الأتراك علم بمقدمه فما منهم إلا من أضافه، فلما انقضت ضيافتهم أعدّ لهم وليمة فى داره وبيّت مع أصحابه أن القوم إذا جنهم الليل فلابدّ أن يحتاجوا إلى الخلاء فمن قام منهم إلى الخلاء فاقتلوه ووكل بكل واحد واحداً من أصحابه وأقطعه جميع ماتركه المقتول من دار ومتاع وإقطاع فعاد القوم إليه وظلوا نهارهم عنده وباتوا ليلتهم تلك فما طلع النهار حتى استولى أصحابه على جميع دور من قتلوا وشاع الخبر بذلك ففرح المستنصر بالله وخلع على بدر بالطيلسان المقوّر وقلده وزارة السيف والقلم فصارت القضاة والدعاة وسائر أرباب الدولة رهن أمره وزيد فى ألقابه لقب أمير الجيوش كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين وارتفعت كلمة بدر الجمالى واتسعت شهرته فتتبع المفسدين بالقتل والتشريد فلم يبق منهم أحداً، وقتل من أماثل البلاد وقضاتهم ووزرائهم جماعة وسار إلى الوجه البحرى فى جند وخدم وأتباع فأسرف فى قتل أصحاب الفتنة والخوارج من لواته على عهد ناصر الدولة واستصفى أموالهم وأخرب دورهم، ثم سار إلى مدينة الإسكندرية فقتل بها من قتل وشرد من شرد حتى دامت الأمور إلى المستنصر بالله وعاد إلى مصر ظافراً غانماً، ثم سار إلى الصعيد لقتال جهينة والثعالبة وكانوا قد أفسدوا فقتل منهم وسبى وغنم من الأموال ما لا يكاد يدخل تحت الحصر فصلح بما غنمه حال ذلك الصعيد بعد فساده، فلما دانت للمستنصر الأمور وبعدت كلمته قدم عليه الحسن بن صباح رئيس الطائفة الإسماعيلية فى زى تاجر واجتمع به وخاطبه فى إقامة الدعوة له بأرض العجم بأسرها فأجابه إلى ذلك، فعاد الحسن ودعا الناس إليه سراً ثم أظهر الدعوة فتبعه خلق عظيم وكثرت لومه فقاتل بهم وملك القلاع والحصون. وقال للمستنصر: من إمامى بعدك، فقال له: ابنى نزار، وكان نزار أكبر أولاد المستنصر والإسماعيلية يقولون بإمامة نزار إلى هذا الحين ثم كان من أمر الإسماعيلية وظهورهم وقتالهم ما سيتلى عليك فى محله، وتزايدت محبة بدر للرعية ورفقه بحالهم بعد الذى ذاقوه على عهد ناصر الدولة، فأباح الأرض لمن يزرع بغير مال ثلاث سنوات، فترفهت حال الفلاحين واتسعت المزارع وأخصبت الأرض وكثرت غلاتها، فدرت الأرزاق وهبطت الأسعار وشبع الجائع وأكل الفقير وامتلأت مخازن الأغنياء وراجت التجارة فهرع التجار إلى مصر والقاهرة وجاؤوها من كل صوب

وحدب وعم الأمن سائر الأنحاء، وبلغ خراج مصر على يديه ثلاثة آلاف ألف ومائة ألف دينار عينا، وأقام البنايات العظيمة وبنى دار الوزارة الكبرى وسماها الدار الأفضلية فكانت مقره ومقر كل من يلى امرة الجيوش وبقيت كذلك إلى أن انتقل الأمر للأيوبيين، وكان شديد الهيبة وافر الحرمة مع حشمة ووقار. قال علقمة بن عبد الرزاق العليمي: قصدت بدرا الجمالى بمصر فرأيت أشراف الناس وكبراءهم وشعراءهم على بابه قد طال مقامهم ولم يصلوا إليه، فبينما أنا كذلك إذ خرج بدر يريد الصيد فخرجت فى أثره ثم أقمت إلى أن رجع من صيده فلما قاربته وقفت على نشز من الأرض وأومأت برقعة فى يدى وأنشأت أقول:

نحن التجار وهذه أعلاقنا   درّ وجود يمينك المبتاع
قلب وفتشها بسمعك إنما   هي جوهر تختاره الأسماع
كسدت علينا بالشام وكلما   قلّ النفاق تعطل الصناع
فأتاك يحملها إليك تجارها   ومطيها الآمال والأطماع
حتى أناخوها ببابك والرجا   من دونك السمسار والبياع
فوهبت ما لم يعطه في دهره   هرم ولا كعب ولا القعقاع
وسبقت هذا الناس في طلب العلا   فالناس بعدك كلهم أتباع
يابدر أقسم لو بك اعتصم الورى   ولجوا إليك جميعهم ما ضاعوا

وكان على يد بدر بازىّ فألقاه وانفرد عن الجيش وجعل يستعيد الأبيات وهو ينشدها إلى أن استقر فى مجلسه، ثم قال لجماعة غلمانه وخاصته: من أحبنى فليخلع على هذا الشاعر فخرجت من عنده ومعى سبعون بغلا تحمل الخلع والتحف وأمر لى بعشرة آلاف درهم فخرجت من عنده وفرقت كثيراً من ذلك على الشعراء . اهـ.

وطالت أيام بدر وعظمت نعمته وما زال يتصرف فى الأمور ولا كلمة فوق كلمته حتى وافته منيته فى سنة سبع وثمانين وأربعمائة هجرية وله من العمر ثمانون سنة، فكانت أيام حكمه زهاء عشرين سنة، يقال: أنه قتل فى خلالها من الخلائق ما لا يكاد يدخل تحت الحصر ومع ذلك فقد كان محبوباً مطاع الكلمة وافر الحرمة فحزن عليه المستنصر حزناً عظيماً وحزن عليه أهل مصر والقاهرة كافة، وأقام المستنصر مكانه ابنه الأفضل وولاه سائر ما وراء بابه فانطلقت كلمته واتسعت هيبته وظل يتصرف فى الأمور حتى مات المستنصر بالله فى ثامن عشر ذى الحجة سنة سبع

وثمانين وأربعمائة هجرية وله من العمر سبع وستون سنة وخمسة أشهر، ولما مات المستنصر ولى بعده ابنه أبو القاسم أحمد المستعلى بالله وكان المستنصر قد عهد بالخلافة من بعده إلى أكبر أولاده نزار فخلعه الأفضل بن بدر الجمالي من ولاية العهد وبايع المستعلى بالله المذكور، قال أصحاب التاريخ: وكان سبب ذلك أن الأفضل ركب مرة أيام المستنصر ودخل دهليز القصر من باب الذهب راكباً ونزار خارج والمجاز مظلم فلم يره الأفضل فصاح به نزار أنزل ياأرمني كلب عن الفرس ما أقل أدبك فحقدها عليه فلما مات المستنصر خلعه خوفاً منه على نفسه وبايع المستعلى فهرب نزار إلى الإسكندرية وبها ناصر الدولة افتكين فبايعه أهل الإسكندرية وسموه المصطفى لدين الله فخطب الناس ولعن الأفضل بن الأمير بدر الجمالى وأعانه أيضاً القاضى جلال الدولة بن عمار قاضى الإسكندرية فسار إليه الأفضل فى جيش عظيم وحصره بالإسكندرية فعاد عنه مقهوراً، ثم زاد فى عسكره وسار إليه فحصره وأخذه وأخذ أفتكين فقتله، وتسلم المستعلى أخاه نزاراً فبنى عليه حائطاً فمات وقتل القاضى جلال الدولة بن عمار ومن أعانه على الخروج .

ولما كان الخامس عشر من المحرم سنة سبع وثمانين وأربعمائة مات الخليفة الإمام المقتدى بأمر الله أبو القاسم عبد الله بن الذخيرة بن القائم بأمر الله أمير المؤمنين فجأة وكان قد رفع إليه تقليد السلطان بركيارق ليعلم ما فيه وكان السلطان بركيارق المذكور قد جاء إلى بغداد وأرسل إلى الخليفة يطلب الخطبة لنفسه فأجيب إلى ذلك وخطب له ولقب ركن الدين وحمل الوزير عميد الدولة الخلع إلى بركيارق فلبسها وعرض التقليد على الخليفة ليعلم عليه فقرأه وتدبره وعلم ما فيه ثم قدّم إليه طعام فأكل وغسل يديه وهو على أكمل حال وأحسن هيئة فى نفسه وجسمه وبين يديه قهرمانته شمس النهار فقال لها: ما هؤلاء الأشخاص الذين دخلوا بغير إذن؟ فالتفتت فلم تر أحدا ثم نظرت إليه فرأته قد تغير وجهه وأسترخت يداه وانحلت قواه وسقط إلى الأرض فظنت أنه قد غشى عليه فإذا هو قد مات فأمسكت عن البكاء واستدعت الوزير أبا منصور فبكيا ثم أحضرا أبا العباس أحمد المستظهر بن المقتدى وكان قد عهد إليه أبوه فعزياه وهنآه بالخلافة ثم جهز المقتدى وصلى عليه ابنه المستظهر بالله ودفن وكان عمره ثمانياً وثلاثين سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام وكانت خلافته تسع عشرة سنة وثمانية أشهر غير يومين، وكانت أيامه كثيرة الخير واسعة الرزق وعظمت الخلافة على يديه وكان السلطان بركيارق مصمما على إخراجه قبل موته من بغداد إلى البصرة تخلصاً منه إذ كانت حرمته وافرة وهيبته عظيمة جداً والقلوب مجمعة على طاعته، وكان قوى النفس عظيم الهمة من رجال بنى العباس.

(الفصل الثامن والعشرون)

(فى خلافة المستظهر بالله أبى العباس أحمد)

ثم قام بالأمر بعد المقتدى بأمر الله ولده المستظهر بالله أبو العباس أحمد بويع له بالخلافة يوم موت أبيه سنة سبع وثمانين وأربعمائة هجرية أى سنة أربع وتسعين وألف ميلادية بايعه الوزير ثم ركب إلى السلطان بركيارق وأعلمه الحال وأخذ بيعته للمستظهر بالله فلما كان اليوم الثالث من موت المقتدى جلس المستظهر للعزاء فحضر عز الملك بن نظام الملك وزير بركيارق وأمراء السلطان وجميع أرباب المناصب العالية والقضاة والعلماء فجلسوا فى العزاء وبايعوا، وكان للمستظهر بالله لما بويع ست عشرة سنة وشهران ليس إلا.

ولما استقرت به الخلافة جعل يتصرف فى الأمور فلم يكن له من حظها ماكان لأبيه المقتدى بأمر الله لشدة السلطان بركيارق وبسطة يده على جميع الأمور وكراهته لاتساع نفوذ الخلافة، وكانت أحوال سلطنة بركيارق مع ذلك فى غاية الضعف والانحلال لتغلب الفرنجة على الكثير من بلاده وفتحها عنوة إذ كانوا إلى سنة أربع وثمانين وأربعمائة قد ملكوا من بلاد الإسلام عدة مدن وتطرفوا إلى أطراف أفريقية فملكوا منها جزيرة سيسيليا التى كانت فى يد الفاطميين بعد نزعها من أيدى الغاليين الذين هم قدماء الفرنسيس وذلك أنه لما كثر شغب أهل هانه الجزيرة وانقسم بعضهم على بعض واستعصى على المعز لدين الله العلوى إصلاح ما أفسده عماله أكثر من العزل والتولية فى عمالها وشدد فى مراقبتهم وتبعه فى ذلك من أتى بعده من ذريته فلم يفلحوا أيضاً وتفاقم الخطب وتطاولت أيدى الفرنجة إلى دس الدسائس وإغراء من بالجزيرة من المسيحيين إلى الخروج وشق عصا الطاعة، وكان المسلمون من أهل الجزيرة أيضاً قد انقسموا إلى حزبين مختلفين وشطرين متخاصمين، وكان مقدم أحد الحزبين رجلاً يقال له ابن تمامة وهو من عظماء القوم وكبارهم فخرج فى أصحابه لقتال الفريق الثانى فانتشبت الحرب بينهما ثم إنجلت عن هزيمة ابن تمامة ومن معه ففر هارباً إلى كاتان، وكانت إلى هذا الحين فى يد الفرنجة فأكرم صاحبها وفادته وأمده بالعدة والرجال، وعلم الفريق الثانى بما آلت إليه حال ابن تمامة فطلبوا المدد من صاحب أفريقية فأمدهم فكانت بين الفريقين حرب هائلة، وكان ممن خرج مع ابن تمامة للقتال القمص دوجر فى طائفة عظيمة من الفرنسيس فأبلى هذا القمص فى

عسكر أفريقية بلاء حسناً وانتصر ابن تمامة وانهزم من كان فى تلك الجزيرة من المسلمين فدخلها دوجر وجعل يتصرف بدهاء وحكمة وما زال بأهلها حتى بايعوه سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة هجرية وخرجت من يد العلويين كخروج غيرها من بقية المدن والبلدان، وما زال دوجر يدبر أمرها ويتصرف فى ملكها حتى مات سنة خمس وتسعين وأربعمائة هجرية فقام بالأمر بعده ابنه ولقب دوجر الثانى فزاد فى عمارتها وبالغ فى تحسين أحوالها حتى زهت وغنيت وكثرت خيراتها وتنعم أهلها براحة العيش بعد العناء والشدّة، وفى سنة تسعين وأربعمائة خرج الفرنجة أيضاً إلى بلاد الشام وساروا فى جيش عظيم للغاية وقصدوا أنطاكية وصاحبها يومئذ آياغبسيان وكان أهل أنطاكية من المسلمين والنصارى فخاف آياغبسيان أن تغدر به النصارى وتخذله فلما علم بقرب الفرنجة أخرج المسلمين من أهلها ليس معهم غيرهم وأمرهم بحفر خندق حول البلد، ثم أخرج من الغد النصارى لعمل الخندق أيضًا ليس فيهم أحد من المسلمين فعملوا فيه إلى العصر، فلما أرادوا دخول البلد منعهم وقال لهم: أنطاكية لكم فلابد وأن تهبوها لى حتى أنظر ما يكون منا ومن الفرنجة، فقالوا: ومن يحفظ أبناءنا ونساءنا قال: أنا أخلفكم فيهم فساروا إلى عسكر الفرنجة فقبلهم ريشارد ملك الفرنجة وأنزلهم منزلا رحبا وحاصر ريشارد بعسكره البلد تسعة أشهر وظهر من شجاعة آياغبسيان وجودة رأيه وحزمه ما لم يشاهد من غيره، فلما طال مقام ريشارد على أنطاكية راسل الذى كان على برج الوادى من أبراج البلد واسمه بروزبه وبذل له أموالاً وإقطاعاً فلما تقرر الأمر بينهما أفرج لعساكر ريشارد عن البرج فتقدموا من ناحيته وتسلق جماعة كثيرة منهم بالحبال وما زالوا يتسلقون حتى زادت عدتهم عن الخمسمائة ثم ضربوا البوق وكان ذلك عند السحر والجند والحراس نيام فاستيقظ آياغبسيان وسأل عن الحال فقيل أن هذا البوق من القلعة ولا شك أنها قد ملكت فدخله الرعب وأمر بباب البلد ففتح وخرج هارباً فى ثلاثين غلاماً على وجهه وخرج نائبه أيضاً من باب آخر، ودخل عسكر ريشارد البلد فنهبوا وقتلوا من فيه من المسلمين وملكوه، فلما سمع ملوك الإسلام بما جرى على أنطاكية اجتمع منهم قوام الدولة كربوقا ودقاق بن تتش، وطغتكين أتابك، وجناح الدولة صاحب حمص وأرسلان تاش صاحب سنجار، وسليمان بن ارتق وغيرهم من الأمراء وتحالفوا على استخلاص أنطاكية من ريشارد وساروا فى جموع كثيرة نحو أنطاكية فما اقتربوا منها حتى وقع الخلاف بينهم وأساء كربوقا السيرة مع من معه من المسلمين وأغضب الأمراء وتكبر عليهم وانفرد بالكلمة ظناً منه أنهم يقيمون معه على هذا الحال

فأضمروا له السوء وعقدوا النية على خذلانه إذا التقوا بجيوش الفرنجة، فلما أحاطوا بأنطاكية خرجت جيوش الفرنجة لقتالهم وضربوا مصفا عظيماً فوقع الخوف فى قلوب المسلمين وانهزموا شر هزيمة ولم يضرب أحد منهم بسيف ولا طعن برمح ولا رمى بسهم وانهزم كربوقا وتبعهم الفرنجة فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وغنموا ما فى العسكر من الأقوات والأموال والأثاث والدواب والأسلحة، فكان شيئاً لا يكاد يدخل تحت الحصر، ولما وردت الأخبار إلى مصر بهزيمة الترك عن أنطاكية وضعفهم وتفرق كلمتهم طمع أبو القاسم المستعلى بالله صاحب مصر فى استخلاص بيت المقدس من تاج الدولة تتش، وكان قد أقطعه للأمير سقمان بن ارتق فسير إليه عسكراً ومقدمهم الأفضل بن بدر الجمالى أمير الجيوش فحصروه وبه الأمير سقمان وايلغازى ابنا أرتق وابن عمهما سونج وابن أخيهما ياقوتى ونصب عليه الأفضل نيفا وأربعين منجنيقا فهدم مواضع من سوره وقاتلهم أهل البلد فدام القتال والحصار نيفا وأربعين يوماً وملكوه بالأمان وأحسن الأفضل أمير الجيوش المصرية إلى سقمان وايلغازى ومن معهما وأجزل لهم العطاء وسيرهم فساروا إلى دمشق ثم عبروا الفرات فأقام سقمان ببلد الرها، وسار ايلغازى إلى العراق واستناب الأفضل فى بيت المقدس رجلاً يعرف بافتخار الدولة فبقى فيه، ولما فرغ ريشارد من قتال المسلمين على أنطاكية وأخذها سار بعسكره ومن معه من أمراء الفرنجة إلى عكا وحاصروها أياماً كثيرة فلم يقدروا عليها فساروا عنها إلى بيت المقدس وحصروه نيفا وأربعين يوماً ونصبوا عليه برجين أحدهما من ناحية صهيون فقوى عليه المسلمون وأحرقوه وقتلوا كل من به فلم يفرغوا من إحراقه حتى أتاهم المستغيث بأن المدينة قد ملكت من الجانب الآخر ودخل الفرنجة البلد وركب الناس السيف ولبث الفرنجة أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود فاعتصموا به وقاتلوا فيه ثلاثة أيام فبذل لهم الفرنجة الأمان فسلموا إليهم ووفى لهم الفرنجة وخرجوا ليلاً وقتل الفرنجة بالمسجد الأقصى ما يزيد عن سبعين ألفاً، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم وأخذوا من عند الصخرة نيفا وأربعين قنديلاً من الفضة وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم، وأخذوا تنورا من فضة وزنه أربعون رطلا بالشامى وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلاً نقرة، ومن الذهب نيفا وعشرين قنديلاً وغنموا منه مالا يقع عليه الإحصاء. رواه صاحب الكامل وكانت شدة عظيمة للغاية على المسلمين وتمكن الفرنجة من البلاد واستتبت أقدامهم ولم

يقدر المسلمون على ردهم لتفرق كلمة سلاطينهم واختلاف أهواء أمرائهم فقال أبو المظفر الأبيوردى فى هذا المعنى أبياتاً: -

مزجنا دماء بالدموع السواجم   فلم يبق منا عرضة للمراحم
وشر سلاح المرء دمع يفيضه   إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فهيا بني الإسلام أن وراءكم   وقائع يلحقن الذري بالمناسم
أتهويمة في ظل أمن وغبطة   وعيش كنوّار الخميلة ناعم
وكيف تنام العين ملء جفونها   على هفوات أيقظت كل نائم
وإخوانكم بالشام يضحى مقيلهم   ظهور المذاكى أو بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وأنتم   تجرّون ذيل الخفض فعل المسالم
وكم من دماء قد أبيحت ومن دمي   توارى حياء حسنها بالمعاصم
بحيث السيوف البيض محمرّة الظبا   وسمر العوالي داميات اللهازم
وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة   تظل لها الولدان شيب القوادم
وتلك حروب من يغب عن غمارها   ليسلم يقرع بعدها سن نادم
سللن بأيدي المشركين قواضبا   ستغمد منهم في الطلي والجماجم
يكاد لهن المستجن بطيبة   ينادي بأعلى صوت ياآل هاشم
أرى أمتي لا يشرعون إلى العدا   رماحهم والدين واهي الدعائم
ويجتنبون النار خوفاً من الردى   ولا يحسبون العار ضربة لازم
أترضى صناديد الأعاريب بالأذى   ويغضى على ذل كماة الأعاجم

ومنها

فليتهم إذ لم يذودوا حمية   عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم
وإن زهدوا في الأجر إذ حمس الوغا   فهلا أتوه رغبة في الغنائم
لئن أذعنت تلك الخياشيم للبري   فلا عطسوا إلا بأجدع راغم
دعوناكم والحرب ترنو ملحة   إلينا بالحاظ النسور القشاعم
تراقب فينا غارة عربية   تطيل عليها الروم عض الأباهم
فإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه   رمينا إلى أعدائنا بالجرائم

فاستعظم المستعلى صاحب مصر ما تم على أهل القدس واغتم له ورسم إلى الأفضل أمير الجيوش بقتال الفرنجة واستخلاص بيت المقدس منهم فحشد الأفضل

جيشاً عظيماً وسار إلى عسقلان وأرسل إلى الفرنجة ينكر عليهم ما فعلوا ويتهددهم بالقتال فأعادوا الرسول بالجواب ورحلوا على أثره بخيلهم ورجلهم وطلعوا على المصريين عقب وصول الرسول ولم يكن عند المصريين خبر بوصولهم ولا من حركتهم ولم يكونوا على أهبة القتال فلما أحسوا بهم نادوا فى الجند بالخروج وكثر النداء بركوب الخيل فأعجلهم الفرنجة فهزموهم وقتلوا منهم خلقاً وغنموا ما فى المعسكر من مال وسلاح وغير ذلك، وانهزم الأفضل ودخل عسقلان وهرب الكثير من جنده فأختفوا فى شجر جميز كان هناك كثيراً فأحرق الفرنجة بعض الشجر فمات من كانوا فيه وأعملوا السيف فيمن خرج منهم، ثم عاد الأفضل فى نفر قليل من خواصه وأتباعه إلى مصر ونازل الفرنجة عسقلان وضايقوها فبذل لهم أهلها قطيعة أثنى عشر ألف دينار، وقيل عشرين ألف دينار فعادوا إلى بيت المقدس ظافرين غانمين وعظم أمرهم فملكوا أكثر سواحل الشام وغيرها مما لا علاقة له بنا هنا، وأنكف المستعلى عن قتالهم بعد هزيمة الأفضل أمير جيوشه عند عسقلان وإهلاكهم لعسكره، وكذلك تشاغل عنهم السلطان بركيارق بقتال أخيه السلطان محمد وغيره من الأمراء الذين خرجوا عن طاعته ومزقوا سلطته لا سيما طائفة الباطنية الذين هم الإسماعيلية أصحاب الحسن بن الصباح الذى تقدم ذكر خبر حضوره إلى المستنصر صاحب مصر ومخاطبته إياه فى إقامة الدعوة له بأرض العجم بأسرها وجعلهم نزار ولده إمامهم بعد المستنصر المذكور، فقد كان عظم شرهم وكبر أمرهم وخافهم الأمراء والعظماء والقواد والجنود وتبعوا طريقتهم صاغرين وانبثت تعاليمهم فى أكثر المدن فظفروا بها وأقاموا القلاع والحصون وجندوا الأجناد وكادت تعم دعوتهم المشرق بأسره، وحيث قد وعدنا بأن تأتى على ذكر حال هذه الشيعة مفصلاً فى محله، وهذا محله الآن، فها نحن نتلو عليك ما قاله أصحاب التاريخ وأجمعوا عليه من أحوال هؤلاء الشيعة التى كانت تسمى قبلاً بالقرامطة، قالوا: كانت ابتداء ظهور دعوتهم الأخيرة التى اشتهرت بالباطنية والإسماعيلية فى أيام السلطان ملك شاه وكان أول ما انكشف من أمرهم أنه اجتمع منهم ثمانية عشر رجلاً فصلوا صلاة العيد فى ساوة على طريقتهم الشيعية ففطن بهم أصحاب الشحنة وانكشف لهم بعض ما خفى من أمرهم فقبض عليهم واعتقلوا أياماً ثم أفرج عنهم بشفاعة بعض الوجوه والأعيان فكان ذلك أول اجتماع لهم ظاهر للناس ولما أطلقوا من الحبس وأقاموا بساوة يدعون الناس ويكاشفون بعضهم، ثم ساروا إلى أصبهان يدعون أيضاً فكان من دعوهم مؤذن من أهل ساوة كان مقيماً بأصبهان فلم يجبهم إلى دعوتهم

فخافوا أن ينم عليهم فقتلوه فكان أوّل قتيل لهم وأول دم أراقوه فبلغ خبر قتله نظام الملك فأمر بأخذ من يتهم بقتله فوقعت التهمة على نجار اسمه طاهر فقتل ومثل به وجروا برجله في الأسواق فكان أول قتيل منهم، وكان والد طاهر هذا واعظاً أتى بغداد مع السلطان بركيارق سنة ست وثمانين وأربعمائة هجرية فحظى منه ثم قصد البصرة فولى القضاء بها ثم توجه في رسالة إلى كرمان فقتله العامة في الفتنة التي جرت وقالوا: إنه باطني وتقوى الباطنية وأشتد أزرهم بمن انضم إلى شيعتهم من العظماء والقوّاد وظهور دعوتهم فتمكنوا من قتل نظام الملك فكان لفعلهم هذا أثر مهم للغاية وكان أول فتكة مشهورة لهم ولذلك كانوا يقولون قتل نظام الملك منا نجاراً فقتلناه به ثم نزلوا ببلد عند قاين وبها مقدمهم فاجتمعوا عنده فتقووا به فأجتازت بهم قافلة عظيمة من كرمان إلى قاين فخرج عليهم المقدم المذكور ومعه أصحابه ومن اجتمع إليه من الباطنية فقتل أهل القفل جميعهم ولم ينج منهم إلا رجل تركماني فوصل إلى قاين فأخبر بالقصة فتسارع أهلها مع القاضي الكرماني يريدون قتالهم فلم يفلحوا ورجعوا عنهم وفشا مذهبهم بين جند السلطان بركيارق وتقوى به كثير منهم وزاد أمرهم فصاروا يتهددون من لا يوافقهم بالقتل فصار يخالفهم من يخالفهم حتى أنه لم يتجاسر أحد لا أمير ولا مقدم على الخروج من منزله إلا حاسرا فيلبس تحت ثيابه درعا حتى إن الوزير الأغر أبا المحاسن كان يلبس زردية تحت ثيابه واستأذن السلطان بركيارق خواصه في الدخول عليه بسلاحهم وعرفوه خوفهم ممن يقاتلهم فأذن لهم في ذلك وأشاروا على السلطان أن يفتك بهم قبل أن يعجز عن تلافي أمرهم.

ولما مات السلطان ملكشاه وقد تمكنوا من قتل نظام الملك عظم أمرهم واشتدت شوكتهم وقويت أطماعهم واجتمعوا في أصبهان بعد أن كانوا متفرقين واتخذوا أصبهان مقرا وعظم شرهم فصاروا يسرقون من قدروا عليه من مخالفيهم ويقتلونهم وقد فعلوا ذلك بخلق كثير وزاد الأمر وكثر خوف الناس فكان الرجل إذا تأخر عن بيته عن الوقت المعتاد تيقن أهله قتله وقعدوا للعزاء فتحذر الناس وصار لا ينفرد أحد خوفاً من فتك الباطنية ودعا أحدهم جارا له إلى مذهبم فلم يقبل فأخذه وأخفاه فقام أهله للنياحة عليه فأصعده جماعة من الباطنية إلى سطح داره من غير أن يشعر به أحد وأروه أهله كيف يلطمون ويبكون عليه فنظر إليهم وهو لا يقدر أن يتكلم خوفاً منهم واشتد الحال بالناس في أصبهان وهاجر الكثير من أهلها فرارا من فعال هؤلاء الطغاة واتفق أن رجلاً بأصبهان دخل في دار صديق له فرأى فيها ثياباً ومداسات

وملابس لم يعهدها فداخلته الظنون وخرج من عنده وأخبر الناس بما رآه فكشف الناس عنها فعلموا أن صاحب الدار من الباطنية وأن الملابس هى ملابس الناس الذين قتلهم الباطنية فثاروا جميعاً يبحثون عمن قتل ويستكشفون فظهروا على الدروب التى تسكن فيها تلك الطائفة وعلموا أنهم كانوا إذا اجتاز بهم إنسان أخذوه إلى دار منها وقتلوه وألقوه فى بئر فى الدار قد صنعت لذلك وكان على باب درب من دروبهم رجل أعمى فإذا اجتاز به إنسان يسأله أن يقوده خطوات إلى باب الدرب فيفعل ذلك فإذا دخل الدرب قبض عليه وسلمه إلى جماعة منهم فيقتلونه فلما انكشف أمرهم وعلم الناس بما هم عليه قاموا قومة رجل واحد وتجرد للانتقام منهم أبو القاسم مسعود بن محمد الخجندى الفقيه الشافعى وانضم إليه لفيف الأهالى بالأسلحة وأمر بحفر أخاديد وأوقد فيها النيران وجعل العامة يقبضون على الباطنية جماعات وفرادى فيلقونهم فى النار وأوقفوا جماعة يشعلون النيران وسموا أحدهم مالكاً فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وتفرّق من بقى واختفى وكذلك ثار بهم جاولى سقاو وصاحب البلاد التى بين رامهرمز وأرجان وذلك لأنهم لما ملكوا القلاع والحصون بخوزستان وفارس وغيرهما وكثر شرهم وقطعوا الطريق بتلك البلاد وقتلوا وسبوا وفعلوا ما لا خير فيه اتفق جاولى المذكور مع جماعة من صناديد أصحابه على أن يظهروا الشغب عليه ويخرجوا عن طاعته ويفارقوه ويقصدوا الباطنية ففعلوا وأظهروا أنهم معهم وعلى مذهبهم فأقاموا عندهم حتى وثقوا بهم ثم أظهر جاولى أن الأمراء من بنى برسق يريدون قصده وأخذ بلاده وأنه عازم على مفارقتها لعجزه عن ردهم وأنه يريد همذان فلما شاع هذا الخبر وسار قال من عند الباطنية من أصحابه لهم الرأى إننا نخرج إلى طريقه ونأخذه وما معه من الأموال فساروا إليه فى ثلثمائة من أعيانهم وصناديدهم فلما التقوا ثار من معهم من أصحاب جاولى عليهم ووضعوا السيف فيهم فلم يفلت منهم سوى ثلاثة نفر صعدوا إلى الجبل وهربوا وغنم جاولى ما معهم من دواب وسلاح وغير ذلك وركب عليهم أيضاً السلطان بركيارق وقتل منهم خلقا كثيراً للغاية فكادت تضعف شوكتهم وتزول هيبتهم وانكفوا عن أفاعيلهم فقل أذاهم واطمأنت قلوب الناس واستراحت واختفى كبارهم وتتبعهم بركيارق فكان لا يظفر بأحد منهم إلا قتله وشهره.

وأقام المستعلى يدبر الأمور بمصر إلى أن مات سنة خمس وتسعين وأربعمائة لسبع عشرة خلت من شهر صفر فكانت سلطنته سبع سنين وقريباً من شهرين فولى بعده ابنه أبو على المنصور. بويع له فى اليوم الذى مات فيه أبوه وله خمس سنين

وشهر وأربعة أيام ولقب الآمر بأحكام الله ولم يكن ممن تولى قط أصغر منه ومن المستنصر فقام بتدبير دولته الأفضل بن أمير الجيوش أحسن قيام وأخلص فى خدمته غاية الإخلاص. قال ابن يسر فى تاريخه: لما توفى المستعلى أحضر الأفضل أبا على وبايعه بالخلافة ونصبه مكان أبيه ولقبه بالآمر بأحكام الله وكان له من العمر خمس سنين وشهر وأيام فكتب ابن الصيرفى الكاتب السجل بانتقال المستعلى وولاية الآمر وقرئ على رؤوس كافة الأجناد والأمراء وأوله من عبد الله ووليه أبى علىّ الآمر بأحكام الله أمير المؤمنين ابن الإمام المستعلى بالله إلى كافة أولياء الدولة وأمرائها وقوّادها وأجنادها ورعاياها شريفهم ومشروفهم وأميرهم ومأمورهم مغربيهم ومشرقيهم أحمرهم وأسودهم كبيرهم وصغيرهم بارك الله فيهم، سلام عليكم فإن أمير المؤمنين يحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ويسأل أن يصلى على جده محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين الأئمة المهديين وسلم تسليما، أما بعد، فالحمد لله المنفرد بالثبات والدوام الباقى على تصرم الليالى والأيام، القاضى على أعمار خلقه بالتقضى والانصرام، الجاعل نقض الأمور معقودا بكمال الإتمام جاعل الموت حكما يستوى فيه جميع الأنام ومنهلا لا يعصم من ورده كرامة نبى ولا إمام. والقائل معزيا لنبيه ولكافة أمته **﴿كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾** الذى استدعى الأئمة لهذه الأمّة ولم تخل الأرض من أنوارهم لطفا بعباده ونعمه وجعلهم مصابيح الشبه إذا غدت داجية مدلهمة لتضىء للمؤمنين سبل الهداية ولا يكون أمرهم عليهم غمة يحمده أمير المؤمنين حمد شاكر على ما نقله فيه من درج الإمامه، ونقله إليه من ميراث الخلافة، صابراً على الرزية التى أطار هجوعها الألباب والفجيعة التى أطال طروقها الأسف والاكتئاب ويسأله أن يصلى على جدّه محمد خاتم أنبيائه وسيد رسله وأمنائه ومجلى غياهب الكفر ومكشف عمائه الذى قام بما استودعه الله من أمانته وحمله على أعباء رسالته ولم يزل هاديا إلى الإيمان داعيا إلى الرحمن حتى أذعن المعاندون وأقر الجاحدون وجاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون فحينئذ أنزل الله عليه إتماماً لحكمته التى لا يعترضها المعترضون **﴿ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾** صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمه وأبناء أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب الذى أكرمه الله بالمنزلة العلية وانتخبه للإمامة رأفة بالبرية وخصه بغوامض علم التنزيل وجعل له مبرة التعظيم مزية وقطع بسيفه دابر من زل عن القصد وضل عن سواء السبيل وعلى الأئمة من ذريتهما العترة الهادية من سلالتهما آبائنا الأبرار المصطفين الأخيار ما

تصرفت الأقدار وتوالى الليل والنهار وأن الإمام المستعلى بالله أمير المؤمنين قدس الله روحه كان ممن أكرمه الله بالاصطفاء وخصه بشرف الاجتباء ومكن له فى بلاده فامتدت أفياء عدله واستخلفه فى أرضه كما استخلف أباه من قبله وأيده بما استرعاه أباه بهدايته وإرشاده وأمدّه بما استحفظه عليه من مواد توفيقه وإسعاده ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده فلم يزل لأعلام الدين رافعاً ولشبه المضلين دافعاً ولراية العدل ناشرا وللدين عامرا وللعدوّ قاهرا إلى أن استوفى المدة المحسوبة وبلغ الغاية الموهوبة فلو كانت الفضائل تزيد فى الأعمار أو تحمى من ضروب الأقدار أو تؤخر ما سبق تقديمه فى علم الواحد القهار لحمى نفسه النفيسة كريم مجدها وشريف محتدها وكفاها خطير منصبها وعظيم هيبتها ووقتها أفعالها التى تستقى من منبع الرسالة وصانتها خلالها التى ترتقى إلى مطلع الجلالة لكن الأعمار محررة مقسومة والآجال مقدرة معلومة والله تعالى يقول وبقوله يهتدى المهتدون **﴿ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾** فأمير المؤمنين يحتسب عند الله هذه الرزية التى عظم أمرها وفدح وجرح خطبها وقرح وغدت له القلوب واجفة والآمال كاسفة ومضاجع السكون منفضة ومدامع العيون مرفضة فإنا لله وإنا إليه راجعون صبرا على بلائه وتسليما لأمره وقضائه واقتداء بمن أثنى عليه فى الكتاب **﴿إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب﴾** وقد كان الإمام المستعلى بالله قدّس الله روحه عند ثقلته جعل لى عهد الخلافة من بعده وأودعنى ما حازه من أبيه عن جده وعهد إلىّ أن أخلفه فى العالم وأجرى الكافة فى العدل والإحسان على منهجه القائم وأطلعنى من العلوم على السر المكنون وأفضى إلىّ من الحكمة بالغامض المصون وأوصانى بالعطف على البرية والعمل فيهم بسيرته المرضية على علمى بما جبلنى الله عليه من الفضل وخصنى به من آثار العدل، وإننى فيما استرعيته سالك على منهاجه عامل بموجب الشرف الذى عصب الله فى تاجه. وكان مما ألقاه إلىّ وأوجبه علىّ أن أعلى محل السيد الأجل الأفضل من قلبه الكريم وما يجب إليه من التبجيل والتكريم، وإن الإمام المستنصر بالله كان عندما عهد إليه ونص بالخلافة عليه أوصاه أن يتخذ هذا السيد الأجل خليفة وخليلاً ويجعله للإمامة زعيماً وكفيلاً ويحفظ به أمر النظر والتقرير ويفوّض إليه تدبير ما وراء السرير، وإنه عمل بهذه الوصية حذوا على تلك الأمانة النبوية وأسند إليه أحوال العساكر والرعية وناط أمر الكافة بعزمته الماضية وهمته العلية فكان قلمه بالسداد يرجف ولا يجف وسيفه من دماء ذوى العناد يكف ولا يكف ورأيه فى حسم مواد الفساد يرسخ ولا يخف فأوصانى أن أجعله لى

كما كان له صفيا وظهيرا وأن لا أستر عنه فى الأمور لا صغيراً ولا كبيراً وأن أقتدى به فى ردّ الأحوال إلى تكليفه وإسناد الأسباب إلى تدبيره، وإلينا حوط نازل الخطب ومنتقله إلى غير ذلك مما استودعنى إياه وألقاه إلىّ من النص الذى يتضوّع نشره ورياه نعمة من الله قضت لى بالسعد العميم ومنذ شهرت بالفضل المتين والحظ الجسيم والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم، فتعزوا معاشر الأولياء والأمراء والقواد والأجناد والرعايا والخدام حاضركم وغائبكم ودانيكم وقاصيكم عن الإمام المنقول إلى جنات الخلود واستبشروا بإمامكم هذا الإمام الحاضر وابتهجوا بكريم نظره المطلع لكم كواكب السعود ولكم من أمير المؤمنين أن لا يغمض جفنا عن مصابكم وأن يتوخى ما عاد بيامنكم ومناجحكم وأن يحسن السيرة فيكم ويدفع أذى من يعاديكم ويتفقد مصلحة حاضركم وباديكم ولأمير المؤمنين عليكم أن تعتقدوا موالاته بخالص الطوية وتجمعوا له فى الطاعة بين العمل والنية وتدخلوا فى البيعة بصدور منشرحة وآمال منفسحة وضمائر نقية وبصائر فى الولاية قوية وأن تتقدموا بشروط بيعته وتنتهوا بفروض نعمته وتبذلوا الطارف والتالد فى حقوق خدمته وتتقربّوا إلى الله سبحانه وتعالى بالمناصحة لدولته وأمير المؤمنين يسأل أن تكون خلافته كافلة بالإقبال ضامنة بلوغ الآمال وأن يجعل ديمتها دائمة بالخيرات وقسمتها نامية على الأوقات إن شاء الله تعالى. اهـ.

ولم تكد تستقر الولاية بالآمر بأحكام الله حتى كثر عبث الفرنجة بالأملاك المصرية وتطاولت أيديهم إلى إيذاء المسلمين فأنفذ الأفضل أمير الجيوش بمصر سعد الدولة الطواشى مملوك أبيه إلى الشام فى جيش عظيم لحرب الفرنجة وردعهم فلقيهم بين الرملة ويافا فتصافوا واقتتلوا قتالاً عنيفاً وطال القتال ثم حمل الفرنجة حملة صادقة على المسلمين فانهزموا شر هزيمة ومات سعد الدولة تحت سنابك الخيل. قال بعض الكتاب: وكان المنجمون يقولون لسعد الدولة: إنك تموت تحت سنابك الخيل فكان يتحرّز من ركوب الخيل حتى ولى بيروت وأرضها مفروشة بالبلاط فقلعه خوفاً أن تزلق فرسه فيسقط فلم ينفعه الحذر عند نزول القدر وملك الفرنجة خيمه وجميع ما للمسلمين وشردوا من بقى منهم فلما رجع المستنفرون إلى مصر غضب الأفضل وسير ابنه شرف المعالى فى جمع كثير فالتقوا هم والفرنجة بيازور بقرب الرملة فانهزم الفرنجة وتفرّقوا وسار شرف المعالى بن الأفضل من المعركة ونزل على قصر بالرملة وبه جماعة من كبار الفرنجة فقاتلهم خمسة عشر يوماً حتى أخذهم أسرى وحمل منهم جماعة إلى مصر ثم اختلف أصحاب شرف المعالى وتفرّقت أهواؤهم فمنهم

من أراد المسير إلى بيت المقدس لاستخلاصه من الفرنجة ومنهم من أراد المسير إلى يافا وأخذها وبقوا على هذا الخلاف أياماً فبينما هم كذلك إذ وصل إلى الفرنجة المدد فاجتمعوا وساروا إلى عسقلان وبها شرف المعالى فقاتلوه ومن معه فلم يصبر على قتالهم فقفل منها راجعا إلى مصر بمن بقى من أصحابه فأحزن ذلك ابن الأفضل وسير رجلا يقال له تاج العجم فى البر وهو من كبار مماليك أبيه وجهز معه أربعة آلاف فارس وسير فى البحر رجلاً يقال له القاضى ابن قادوس فى عمارة حربية إلى يافا ونزل تاج العجم على عسقلان فاستدعاه ابن قادوس إليه ليتفقا على كيفية القتال فلم يجبه إلى ذلك ولا أرسل إليه أحدا فراجعه فلم يقبل فأشهد عليه ابن قادوس قاضى عسقلان وشهودها وأعيانها وسير الخبر بما وقع إلى ابن الأفضل أمير الجيوش فأرسل ابن الأفضل من قبض على تاج العجم وأرسل رجلاً يلقب بجمال الملك فأسكنه عسقلان وجعله مقدم العسكر فلم يقدر على استخلاص ما بأيدى الفرنجة من السواحل والمدن الشامية فقد كانوا استولوا إلى هذا الحين على فلسطين ويافا وارسوف وقيسارية وحيفا وطبرية ولاذقية وأنطاكية ماعدا بيت المقدس ولهم بالجزيرة الرها وسروج والرقة وقلعة جعير وجبيل وعسفان من الشام وبيروت وطرابلس وبايناس وصيدا وكان السلطان بركيارق كلما سمع بفوز الفرنجة وأخذهم لبلاد المسلمين زادت همومه وعظم حزنه وجد فى حشد الجنود والإكثار من معدات القتال فإذا همّ بالخروج لحربهم عاقته العوائق وحالت دون عزمه الموانع وما زال حتى مرض وهو بأصبهان وثقل به مرضه فسار منها فى محفة طالباً بغداد فلما وصل إلى بروجرد ضعف عن الحركة فأقام بها أربعين يوماً فاشتد مرضه وأيس من نفسه فخلع الأمر على ولده ملكشاه وعمره يومئذ أربع سنين وثمانية أشهر وأحضر جماعة الأمراء وكبار قواده وأعلمهم بما فعله وأخذ عليهم العهد بالطاعة لولده ومساعدته على حفظ السلطنة فحلفوا وتعهدوا فأمرهم بالمسير إلى بغداد فساروا فلما كانوا على اثنى عشر فرسخا من بروجرد وصلهم خبر موته وكان بركيارق قد تخلف على عزم العود إلى أصبهان فعاجلته منيته فرجع جماعة منهم وحملوا تابوته إلى أصبهان ودفن بها ، ووصل السلطان ملكشاه بن بركيارق إلى بغداد فخرج وزير الخليفة وأصحاب الوظائف للقائه وكان وصوله فى خمسة آلاف فارس فخطبوا له ولقبوه بألقاب جده ملكشاه ولم تستقر به السلطنة حتى علم السلطان محمد أخو بركيارق بخبر موت بركيارق فسار فى جيش عظيم يريد بغداد وحمل الناس بها على البيعة له فلما وردت الأخبار بذلك إلى الأمير أياز وزير ملكشاه الوصىّ عليه من قبل أبيه

بركيارق خاف كثيراً وجمع إليه كبار الجند وقواد بركيارق وأعلمهم بخبر مجيء السلطان محمد ورغبته فى أخذ الملك من ابن أخيه ملكشاه واستحلفهم على الطاعة لملكشاه فحلفوا فلما وصل السطان محمد فى عسكره ونزل بالجانب الغربى من بغداد نقض بعض القواد العهد وأظهروا الميل إلى السلطان محمد فخاف الوزير أياز وأسرع إلى تقرير الصلح مع السلطان محمد وتسليم السلطنة إليه وترك منازعته فيها فعبر إلى عسكر السلطان محمد واجتمع به وسلم إليه مقاليد السلطنة فأمنه هو وجميع الأمراء والقواد وضم إليه ولد أخيه ملكشاه ودخل السلطان محمد إلى بغداد فى موكب حافل لبث بها أياماً حتى رتب أمورها وأحكم نظامها وسار عنها إلى أصبهان وجعل يتصرف فى الأمور ويقاتل الفرنجة على ما أخذوه من بلاد المسلمين حتى وافته منيته فى الرابع والعشرين من ذى الحجة سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وكان لما اشتد به مرضه أحضر ولده محمودا وقبله وبكى كل واحد منهما وأمره بالخروج والجلوس على تخت السلطنة وأن ينظر فى أمور الناس وعمره إذ ذاك قد زاد على أربع عشرة سنة فقال: ياأبت إنه يوم غير مبارك يعنى من طريق النجوم فقال له: صدقت يابنى ولكن على أبيك وأما عليك فمبارك بالسلطنة فخرج وجلس على التخت بالتاج والسوارين فلم يمض على السلطان محمد اليوم الثانى من جلوس ابنه حتى مات فجمعوا الأمراء وقرئت عليهم وصيته إلى ولده محمود يأمره فيها بالعدل والإحسان وكان السلطان محمد عادلاً حسن السيرة شجاعاً أطلق المكوس والضرائب فى جميع البلاد فأحبه الناس كثيراً واجتمعوا على طاعته اثنتى عشرة سنة.

ولما تمت البيعة للسلطان محمود ودبر دولته الوزير الرئيس أبو منصور أرسل إلى الخليفة المستظهر بالله يطلب أن يخطب له ببغداد فخطب له فى يوم الجمعة ثالث عشر المحرم سنة اثنتى عشرة وخمسمائة فلم يتم على الخليفة المستظهر بالله بعد الخطبة للسلطان محمود ببغداد إلا ثلاثة أشهر وبضع أيام حتى مات بعلة التراقى وكان عمره إحدى وأربعين سنة وستة أشهر وستة أيام وخلافته أربع وعشرون سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوما ومضى فى خلافته ثلاثة سلاطين خطب لهم بالحضرة وهم تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان والسلطان بركيارق ومحمد ابنا ملكشاه. قال بعض الكتاب: ومن غريب الاتفاق أنه لما توفى السلطان ألب أرسلان توفى بعده القائم بأمر الله ولما توفى السلطان ملكشاه توفى بعده المقتدى بأمر الله ولما توفى السلطان محمد توفى بعده المستظهر بالله وكان الخليفة المستظهر بالله لين الجانب كريم الأخلاق محباً للخير وأهله كثير البر والإحسان لا يرد مكرمة تطلب منه وكانت أيامه

أيام سرور للرعية فكأنها من حسنها أعياد وكان حسن الخط جيد التوقيعات جيد الشعر فمن شعره:

أذاب حر الهوى في القلب ما جمدا   لما مددت إلى رسم الوداع يدا
وكيف أسلك نهج الاصطبار وقد   أرى طرائق في مهوى الهوى قددا
قد أخلف الوعد لما أن شغفت به   من بعد ما قد وفى دهري بما وعدا
إن كنت أنقض عهد الحب في خلدي   من بعد هذا فلا عاينته أبداً

وكانت أيامه عند الرعية كأنها أعياد فكان إذا بلغه ذلك فرح به وسره وإذا تعرض سلطان أو نائب إلى أذى أحد بالغ فى الإنكار والزجر عنه. فلما مات تولى الخلافة بعده ولده أبو منصور الفضل ولقب المسترشد بالله.

ومات فى خلافة المستظهر بالله أيضاً زخزياس بطرك الإسكندرية بعد أن أقام ثمانياً وعشرين سنة صرفها فى الشدائد العظيمة والبلايا الكثيرة واعتقل ثلاثة أشهر وضربت عليه المغارم الفادحة وأخذت منه الأموال الكثيرة وأمر به يوماً فالقى إلى السباع هو وسوسنه النوبى فلم تضرهما بإذن الله تعالى فأخذت السلطان يومئذ إخاذة من الخوف فصرفهما وانكف عنهما ورسم بالكف عن إيذاء النصارى فانكفوا عنهما حينا ولما مات خلا الكرسى بعده أربعة وسبعين يوماً ثم أقيم بعده سانوتيو أو هو شنودة خامس ستيهم من بلدة تلبانة وكان راهباً بدير أبو مقار وكان عالماً كبيراً وإماماً خطيراً وله مناقب كثيرة ومكارم لا تعد ووقع من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

(الفصل التاسع والعشرون)

(فى خلافة أبى منصور الفضل المسترشد بالله بن المستظهر بالله)

ثم قام بالأمر بعد المستظهر بالله ولده المسترشد بالله أبو الفضل بن أبى العباس أحمد بن المستظهر بالله بويع له بالخلافة يوم موت أبيه بعهد منه سنة إحدى عشرة وخمسمائة هجرية أى سنة سبع عشرة ومائة وألف ميلادية وكان سن المسترشد يومئذ سبعا وعشرين سنة وبايعه أخواه ابنا المستظهر وهما أبو عبد الله محمد وأبو طالب العباس وعمومته بنو المقتدى بأمر الله وغيرهم من القضاة والأمراء والأئمة والأعيان.

وكان المتولى لأخذ البيعة القاضى أبو الحسن الدامغانى. وكان نائباً عن الوزارة فأقره المسترشد بالله عليها. قال أصحاب التاريخ: ولم يأخذ البيعة قاض غير هذا وأحمد ابن أبى داود فإنه أخذها للواثق بالله والقاضى أبو علىّ إسماعيل بن إسحق أخذها للمعتضد بالله ثم إن المسترشد عزل قاضى القضاة عن نيابة الوزارة واستوزر أبا شجاع محمد بن الربيب أبا منصور وزير السلطان محمود ولما اشتغل الناس بالبيعة للمسترشد بالله ركب أخوه الأمير أبو الحسن بن المستظهر بالله سفينة ومعه ثلاثة نفر وانحدر إلى المدائن وسار منها إلى دبيس بن صدقة بالحلة فأكرمه دبيس وأخبره بموت المستظهر بالله وأقام له الإقامات الكثيرة فلما علم المسترشد بالله خبره أهمه ذلك وأقلقه وخشى عاقبته فأرسل إلى دبيس يطلب منه إعادة أبى الحسن ويشدد فى ذلك فأجابه بأننى عبد الخليفة وواقف عند أمره ومع هذا فإن أبا الحسن استذم بى ودخل منزلى فكيف أكرهه على الرجوع وكان رسول المسترشد فى ذلك إلى دبيس نقيب النقباء شرف الدين علىّ بن طراد الزينى فقصد الأمير أبا الحسن وكلمه فى عوده وضمن له عن الخليفة كل ما يريد فأجاب إلى العود. وقال: إننى لم أفارق أخى لشر أراده وإنما الخوف منه حملنى على مفارقته فإذا أمننى قصدته وتكفل دبيس بإصلاح الحال بنفسه والمسير معه إلى بغداد فعاد النقيب وأعلم الخليفة بالحال فأجاب إلى ما طلب منه ثم حدث من الأسباب والرواجف ما أخر الحال وأقام الأمير أبو الحسن عند دبيس إلى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة. ثم سار عن الحلة إلى واسط فانضم إليه كثير من الناس وكبر جمعه وأتت الأخبار إلى الخليفة بذلك فتكدر جداً وركب الأمير أبو الحسن على مدينة واسط فملكها وخيف جانبه فتقدم الخليفة المسترشد بالله بالخطبة لولى عهده ولده أبى جعفر المنصور وعمره يومئذ اثنتا عشرة سنة فخطب له ببغداد وكتب إلى الآفاق بالخطبة له وأرسل إلى دبيس بن مزيد فى معنىّ الأمير أبى الحسن وأنه الآن قد فارق جواره ومديده إلى بلاد الخليفة وزاحمه على سلطانه وما يتعلق به ورسم إليه بقصده ومعاجلته قبل قوّته فأرسل دبيس العساكر إليه ففارق واسط وقد تحير هو وأصحابه فضلوا عن الطريق ووصلت عساكر دبيس فصادفوهم عند الصلح فنهبوا أثقاله وهرب الأكراد من أصحابه والأتراك وعاد الباقون إلى دبيس وبقى الأمير أبو الحسن فى عشرة من أصحابه وهو عطشان وبينه وبين الماء خمسة فراسخ وكان الوقت قيظا فأيقن بالتلف وتبعه بدويان فأراد الهرب منهما فلم يقدر فأخذاه وقد اشتد به العطش فسقياه وحملاه إلى دبيس فسيره إلى

بغداد وحمله إلى الخليفة بعد أن بذل له عشرين ألف دينار فحمل إلى دار العزيزة وكان بين خروجه عنها وعوده إليها أحد عشر شهراً.

ولما أدخلوه على المسترشد بالله انكب على قدميه فقبلهما فقام المسترشد وقبله وبكيا وأنزله دارا حسنة كان يسكنها قبل أن يلى الخلافة وحمل إليه الخلع والتحف العظيمة وطيب نفسه فاطمأن وزالت عنه الوساوس وأخلص لأخيه المحبة وجعل المسترشد يتصرف فى الأمور فلم تكد تستقرّ به الخلافة حتى خرج عليه دبيس وخلع طاعته فكانت بينهما حروب كثيرة خرج فى إحداها الخليفة بنفسه ومعه العلماء والقضاة والمشايخ وهو متجمل بعمامة سوداء وجبة سوداء وشاش وعلى كتفه البردة وبيده القضيب وكان ينادي ياآل هاشم الغزاة الغزاة والعامة والعسكر ينادون يا منصور يامنصور فانكشفت الحروب المذكورة عن هزيمة دبيس وموت أصحابه وعظم أمر الخليفة وظهرت كلمته وهابه الأمراء وحسدوه وعظمت شوكة نوابه فاتفق أن وقعت بين نوابه وبين برتقش الزكوى نفرة وطالت أيامها فأرسل إليه الخليفة يتهدده إن هو أطال العناد معهم فخاف برتقش على نفسه وسار عن بغداد إلى السلطان محمود بهمذان وشكا إليه مما يفعله نوّاب الخليفة وحذره جانب الخليفة وأعلمه أنه قد قاد العسكر ولقى الحروب وقويت نفسه فإن لم تعاجله قصد العراق ودخلها فيزداد قوّة وجمعا ويمنعك عن نفسه وحينئذ يتعذر عليك ما هو الآن بيده فمال السلطان إلى مقالته وسار نحو العراق وأشاع الخبر بذلك فأرسل الخليفة يعلمه بما عليه البلاد من الضعف والوهن بسبب غارات دبيس وإفساد عسكره فيها وأن الغلاء قد اشتد بالناس لعدم الغلات والأقوات لهرب الأكرة عن بلادهم ويطلب منه أن يتأخر هذه الدفعة إلى أن ينصلح حال البلاد ثم يعود إليها فلا مانع له عنها وبذل له على ذلك مالاً كثيراً فلما سمع السلطان محمود هذه الرسالة قوى عنده ما قرره الزكوى برتقش وأبى أن يجيب إلى التأخير وصم العزم وسار إليها مجدا فلما بلغ الخليفة الخبر عبر هو وأهله وحرمه ومن عنده من أولاد الخلفاء إلى الجانب الغربى مظهرا للغضب والانتزاح عن بغداد إن قصدها السلطان محمود فلما خرج من داره بكاه الناس بكاء عظيماً فلما علم السلطان بذلك اشتد عليه وبلغ منه كل مبلغ فأرسل يستعطف الخليفة ويسأله العود إلى داره فأعاد الجواب أنه لابد من عودك هذه الدفعة فإن الناس هلكوا بشدة الغلاء وخراب البلاد وأنه لا يرى فى دينه أنه يزداد ما بهم وهو يشاهدهم فإن عاد السلطان وإلا رحل هو إلى العراق كيلا يشاهد ما يلقى الناس بمجىء العسكر فغضب السلطان لقوله ورحل نحو بغداد وأقام الخليفة بالجانب الغربى

فلما حضر عيد الأضحى خطب فى الناس وصلى بهم فبكى الناس لخطبته وأرسل عفيفاً الخادم وهو من خواصه فى عسكر إلى واسط ليمنع عنها نواب السلطان فأرسل السلطان إليه عماد الدين زنكى بن آقسنقر وكان له حينئذ البصرة فلما وصل عفيف إلى واسط سار إليه عماد الدين يحذره القتال ويأمره بالانتزاح عنها فأبى ولم يفعل فعبر إليه عماد الدين واقتتلوا فانهزم عسكر عفيف وقتل وأسر منهم خلق كثير وتغافل عن عفيف حتى نجا لمودّة كانت بينهما، وجاء الخبر إلى الخليفة بما جرى فجمع السفن جميعها إليه وسد أبواب دارالخلافة سوى الباب الغربى وأمر حاجب الباب ابن الصاحب بالمقام عليه لحفظ الدار ولم يبق من حواشى الخليفة بالجانب الشرقى سواه ووصل السلطان فى عسكره إلى بغداد ونزل بباب الشماسية ودخل بعض عسكره إلى بغداد ونزلوا فى دور الناس فشكا الناس ذلك إلى السلطان فرسم بإخراجهم وبقى فيها من له دار وبقى السلطان يراسل الخليفة بالعود ويطلب الصلح وهو يمتنع فكان يجرى بين العسكرين مناوشة والعامة من الجانب الغربى يسبون السلطان أفحش سب ثم إن جماعة من عسكر السلطان دخلوا دار الخلافة ونهبوا التاج وحجر الخليفة فضج أهل بغداد من ذلك واجتمعوا ونادوا الغزاة فأقبلوا من كل ناحية فلما رآهم الخليفة خرج من السرادق والشمسية على رأسه والوزير بين يديه وأمر بضرب الكؤسات والبوقات ونادى بأعلى صوته ياآل هاشم وأمر بتقديم السفن ونصب الجسر وعبر الناس دفعة واحدة وكان له فى الدار ألف رجل مختفون فى السرادب فظهروا وعسكر السلطان مشتغلون بالنهب فأسر منهم جماعة من الأمراء ونهب العامة دار وزير السلطان ودور جماعة من الأمراء ودار عزيز الدين المستوفى ودار الحكيم أوحد الزمان الطبيب وقتل منهم خلق كثير فى الدروب وعبر الخليفة إلى الجانب الشرقى ومعه ثلاثون ألف مقاتل من أهل بغداد والسواد وأمر بحفر الخنادق فحفرت بالليل وحفظوا بغداد من عسكر السلطان ووقع الغلاء عند العسكر واشتد الأمر فكان القتال عليهم كل يوم عند أبواب البلد وعلى شاطىء دجلة وعزم عسكر الخليفة على أن يكبسوا عسكر السلطان فلم يتم لهم ذلك إذ غدر بهم أبو الهيجاء الكردى صاحب اربل وخرج كأنه يريد القتال فانضم إلى عسكر السلطان وترك الخليفة وكان السلطان قد أرسل إلى عماد الدين بواسط يأمره أن يحضر بنفسه ومعه المقاتلة فى السفن وعلى الدواب فى البر فجمع كل سفينة بالبصرة ليشحنها بالرجال المقاتلة وأكثر من السلاح وأصعد فلما قارب بغداد أمر كل من معه فى السفن وفى

البر بلبس السلاح وإظهار ما عندهم من الجلد والنهضة فسارت السفن فى الماء والعساكر فى البر على شاطىء دجلة وقد انتشروا وملئوا الأرض برا وبحرا فرأى الناس منظرا عجيباً كبر فى أنفسهم وملأ صدورهم فركب السلطان والعسكر إلى لقائهم فنظروا ما لم ينظروا مثله وعظم عماد الدين فى أعينهم وعزم السلطان على قتال بغداد حينئذ والجد فى ذلك براً وبحراً فلما رأى الخليفة المسترشد بالله الأمر على هذه الصورة وقد خرج الأمير أبو الهيجاء من عنده بمن معه من العسكر خاف شر العاقبة وأجاب إلى الصلح وترددت الرسل بينه وبين السلطان محمود فاصطلحا واعتذر السلطان مما جرى وكان السلطان حليماً جداً يسمع سبه بإذنه فلا يعاقب عليه فعفا عن أهل بغداد جميعهم، وكان أعداء الخليفة يشيرون على السلطان بإحراق بغداد فلم يفعل وقال: والله لا تساوى الدنيا مثل هذا الفعل وأقام ببغداد إلى رابع شهر ربيع سنة إحدى وعشرين وحمل الخليفة من المال كل ما استقرت القاعدة عليه وأهدى للسلطان سلاحاً وخيلاً وغير ذلك واستمرت الأمور بين صفاء وكدر وخروج وعصيان لا تستقرّ على حال من الأحوال والخليفة المسترشد يعالجها بالصبر والكياسة ويلبس لكل أمر منها لبوسه لعل الله يأتيه بالفرج القريب.

وكما كانت الحال على ذلك بين الخليفة والسلطان محمود كانت بين الآمر بأحكام الله صاحب مصر وبين أمرائه وقواده وجنوده وأهل البلاد إذ قد ساءت سيرته وقبح تصرفه وكثر أخذه للناس بالشبهات فجار وظلم وأراق الدماء بغير موجب ولا سبب فاختل نظام البلاد وعاث فيها المفسدون فى البر والبحر وسلبوا وقتلوا وأحرقوا وارتفع الأمن وتعطلت الزراعات وكادت تقل الأقوات فاتفق جماعة على قتله وجعلوا يراقبون الفرص فلما كان اليوم الثانى من شهر ذى القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة علموا بعزمه على الخروج إلى منتزهه بالروضة فكمنوا له فى الطريق فخرج فى ثلاثة من قومه فوثبوا عليه بالسيوف فأثخنوه وقيل إن الذين قتلوه هم الباطنية بإغراء بعض قواده فكانت ولايته تسعاً وعشرين سنة وخمسة أشهر وعمره أربع وثلاثون سنة وهو العاشر من ولد المهدى عبيد الله. قال بعض الكتاب: وكبر حبه فى آخر أيامه للنساء واشتد شغفه بهن فكان له معهن كل يوم شأن وحكى له يوماً عن جارية من عرب البادية وأنها من الجمال والكمال والرقة ومعرفة ضروب الشعر والأدب على جانب عظيم فشغف بحبها وحمله عشقه إلى التزيى بزى العرب وخرج بتنسم أخبار أهلها حتى نزل على حيهم وما زال يتحيل حتى رآها فأخذت

بمجامع قلبه ووقعت منه موقعاً عظيماً فطلبها من أهلها فأجابوه إلى زواجها فلما صارت فى قصره استوحشت فقالت له يوماً : ما لى ولهذه القصور العالية فهلا أرجعتنى إلى مضربى فتزيل عنى وحشتى قيل فبنى لها الهودج بالجزيرة على النيل وهو من غرائب البناء وكانت تحب ابن عم لها يعرف بابن مياح فكتبت له يوماً هذه الأبيات:

يابن مياح إليك المشتكي   ما لكم من بعدكم قد ملكا
كنت في حي حرا مطلقا   نائلا ما شئت منكم مدركا
فأنا الآن بقصر مؤصد   لا أرى إلا حبيسا ممسكا
كم تثنينا بأغصان اللوا   حيث لا نخشى علينا دركا
وتلاعبنا برملات الحمى   حيثما شاء طليق سلكا

فلما وصلت إليه هذه الأبيات كتب يقول:

بنت عمي والتي غذيتها   بالجوى حتى علا واحتنكا
بحت بالشكوى وعندي ضعفها   لوغد أينفع منها المشتكي
مالك الأمر إليه يشتكي   هالك وهو الذي قد أهلكا
شأن داود غدا في عصرنا   مبديا بالتيه ما قد ملكا

فبلغت هذه الأبيات الآمر فقال: والله لولا أنه أساء الأدب فى البيت الرابع لرددتها إلى حيه وزوّجته بها.

ولما قتل الآمر لم يكن له ولد بعده فظهر غلام أرمنى من غلمانه وتغلب على البلاد لاختلال الحال واستحوذ على الأمور ثلاثة أيام ورام أن يتأمر فحضر الوزير أبو علىّ أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالى أمير الجيوش وأقام الحافظ لدين الله أبا الميمون عبد المجيد بن الأمير أبى القاسم بن المستنصر بالله وبايعوه لينظر فى الأمر نيابة حتى يكشف عن حمل كان للآمر فتكون الولاية فيه ويكون هو نائباً عنه فلما تم له الأمر استحوذ الوزير أبو علىّ على جميع الأمور دونه وحصره فى مجلس لا يدخل إليه أحد إلا من يريده الوزير وخطب لنفسه على المنابر ونقل جميع الأموال من قصر الإمارة إلى داره وأسقط من الدعاء ذكر إسماعيل الذى هو جدّهم وإليه تنسب الإسماعيلية وهو ابن جعفر بن محمد الصادق وأسقط من الأذان حى على خير العمل وأمر الخطباء أن يخطبوا له بألقاب كتبها لهم وهى: السيد الأفضل الأجل سيد مماليك أرباب الدول والمحامى عن حوزة الدين وناشر جناح العدل على المسلمين الأقربين والأبعدين ناصر إمام الحق فى حالتى غيبته وحضوره والقائم بنصرته بماضى

سيفه وصائب رأيه وتدبيره أمين الله على عباده وهادى القضاة إلى اتباع شرع الحق واعتماده ومرشد دعاء المؤمنين بواضح بيانه وإرشاده مولى النعم ورافع الجور عن الأمم ومالك فضيلتى السيف والقلم أبو علىّ أحمد بن السيد الأجل الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش. قال أصحاب التاريخ: وكان الأفضل إمامىّ المذهب يكثر ذم الآمر والتناقص به فنفر منه شيعة العلويين ومماليكهم وكرهوه وعزموا على قتله فخرج فى العشرين من المحرّم سنة ست وعشرين يريد خزانة السلاح ليفرّق على الأجناد على جارى العادة فى الأعياد فسار معه عالم كثير من الرجالة والفرسان فتأذى من الغبار فأمر بالبعد عنه وسار منفرداً معه رجلان فصادف رجلين بسوق الصياقلة فضرباه بالسكاكين وجاء ثالث فضربه بسكين فى خاصرته فسقط عن دابته ورجع أصحابه فقتلوا الثلاثة وحملوه إلى داره فدخل عليه الحافظ وتوجع له وسأله عن الأموال فقال: أما الظاهر منها فأبو الحسن بن أسامة يعرفه وكان من أهل حلب وتولى أبوه قضاء القاهرة وأما الباطن فابن البطائحى يعرفه فقالا صدق فلما مات نقل من أمواله مالا يحصى عددا وبقى السلطان فى داره أربعين يوماً والكتاب بين يديه والدواب تحمل وتنقل ليلاً ونهاراً ووجد له من الأعلاق النفيسة والأشياء الغريبة القليلة الوجود ما لا يوجد مثله لغيره واعتقل أولاده وكان عمره سبعاً وخمسين سنة وكانت ولايته بعد أبيه ثمانيا وعشرين سنة منها أيام المستنصر وجميع أيام المستعلى وأيام الآمر إلى هذه السنة من أيام الحافظ، وكان الأفضل المذكور حسن السيرة محبا للناس ميالا للخير عاملاً على إعلاء شأن البلاد مجداً فى عمارها ونماء ثروتها فبنى فيها المبانى العظيمة والعمائر المفيدة ووسع خلجانها وأكبر مساقى أرضها وهو الذى حفر البحر المعروف ببحر أبى المنجا فى سنة ست وخمسمائة هجرية وسماه باسم مهندسه أبو المنجا أبو شعيا اليهودى وأنشأ أيضاً المرصد الكبير على مقربة من المقطم فى المكان الذى كان يعرف قبل ذلك بالجرف وله غير ذلك من الآثار النافعة. حكى أنه لما قتل وظهر الظلم بعده اجتمع جماعة من الناس واستغاثوا بالسلطان وكان من جملة قولهم أنهم لعنوا الأفضل بحضرة السلطان فسألهم عن سبب لعنهم إياه فقالوا عدل وأحسن السيرة ففارقنا بلادنا وأوطاننا وقصدنا بلاده لعدله فقد أصابنا بعده هذا الظلم فهو كان سبب ظلمنا قيل فأحسن السلطان إليهم وأمر بالإحسان إلى الناس وكثرت الأقوال فى سبب قتل الأفضل وقاتليه فقال قوم: إن صاحبه الآمر بأحكام الله وضع عليه فقتله، قلت: وصوابه الحافظ لدين الله. قالوا: ولقد كان فى قصد

الآمر أن يضع عليه من يقتله إذا دخل عليه قصره للسلام أو فى أيام الأعياد فمنعه من ذلك ابن عمه أبو الميمون عبد المجيد. وقال له : إن فى هذا الفعل شناعة وسوء سمعة لأنه قد خدم دولتنا هو وأبوه خمسين سنة وليس منهم إلا النصح لنا والمحبة لدولتنا وقد سار ذلك فى أقطار البلاد فلا يجوز أن تظهر منا هذه المكافأة الشنيعة ومع هذا فلابدّ وأن نقيم غيره مكانه ونعتمد عليه فى منصبه فيتمكن مثله أو يقاربه فيخاف أن نفعل به مثل ما فعلناه بهذا فيحذر من الدخول إلينا خوفاً على نفسه وإن دخل علينا كان خائفاً مستعداً للامتناع وفى هذا الفعل ما يسقط المنزلة. قال: والرأى عندى أن تراسل أبا عبد الله البطائحى فإنه الغالب على أمر الأفضل والمطلع على سره وقصده أن يوليه منصبه ونطلب منه أن يدبر الأمر فى قتله إذا ركب فإذا ظفرنا بمن قتله قتلناه وأظهرنا الطلب بدمه والحزن عليه فنبلغ غرضنا ويزول عنا قبح الأحدوثة ففعلوا ذلك وقتلوه وقال آخرون غير ذلك. قلت: ونسبة قتله إلى الآمر بأحكام الله خطأ فإن الآمر مات فى ذى القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة والأفضل قتل فى المحرم افتتاح سنة ست وعشرين وخمسمائة فيكون بين موت الاثنين سنة وشهران فيكون القاتل له إذا الحافظ لدين الله بن محمد، ولما قتل ولى بعده أبو عبد الله بن البطائحى ولقب المأمون وتحكم فى الدولة وتصرّف واتسعت كلمته وبقى على ذلك إلى سنة تسع عشرة وخمسمائة فقبض عليه وصلب هو وإخوته واتسعت كلمة الحافظ بعد موت الأفضل وتصرّف فى الأمور واستبدّ بالملك فكثر ظلمه وكبر عسفه واشتدّ على الأمراء والقوّاد شدّة عظيمة وأخذ الكثير منهم بالشبهات واشتدّ على النصارى وبالغ فى التضييق عليهم لأنهم كانوا يحبون الأفضل ابن بدر الجمالى وكان يثق بهم ويعمل بمشورة كبارهم لإخلاصهم فى خدمة الدولة وخلودهم إلى السكون والطاعة وما زال على هذا الحال إلى أن كان من أمره ما سيذكر فى محله.

ولما كانت سنة تسع وعشرين وخمسمائة فى سابع ذى القعدة مات الخليفة المسترشد بالله فكانت خلافته كلها خروج وعصيان وتمرّد وطغيان ولكنه كان شهماً مقداماً عالى الهمة واسع الدراية كبير الدربة قيل لم يل الخلافة بعد المعتضد بالله أعظم شهامة منه إذ كان شديد الهيبة وقد ضبط الأمور وأحيا مجد بنى العباس

وجاهد وغزا مرارا فكانت خلافته سبع عشرة سنة وثمانية أشهر وقيل سبعة أو ستة أشهر. روى أنه ورد إليه رسل فجلس لهم فى جماعة من أهل بيته فلما أحضروهم بين يديه هجم عليه الفداوية منهم بالسكاكين فقتلوه وقتلوا معه جماعة من أصحابه يقال إن مسعودا أخا السلطان محمود جهز عليه الفداوية المذكورين ففعلوا به ذلك وعمره يومئذ أربع وأربعون سنة وقيل خمس وأربعون فبايعوا بالخلافة بعده ولده أبا منصور جعفرا الراشد بالله.

ومات فى أيامه سانوتيو بطرك الإسكندرية بعد أن قام أربع عشرة سنة قاسى فيها من الشدائد أعظمها وفعل العمال بالنصارى من الجور والظلم ما لا يكاد يدخل تحت حصر فأقام المتأصلون بعده خرسطودولو ومعناه عبد المسيح وكان راهباً بصومعة سنجار وهو سادس ستيهم وأصلهم من بلدة بورا. فلما استقر به المنصب قام من مدينة الإسكندرية إلى مصر واتخذ كنيسة المعلقة بظاهر الفسطاط مقرا له وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

(الفصل الثلاثون)

(فى خلافة أبى منصور جعفر الراشد بالله)

ثم قام بالأمر بعد المسترشد بالله ابنه أبو منصور جعفر الراشد بالله بن المسترشد ابن المستظهر بويع له بالخلافة ثانى يوم موت أبيه فى ثامن عشر ذى القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمائه هجرية أى سنة أربع وثلاثين ومائة وألف ميلادية بعهد من أبيه فجعل يتصرف فى الأمور سنة فلما كانت سنة ثلاثين حضر برتقش الزكوى من عند السلطان مسعود إلى بغداد يطالبه بما كان استقر عليه الخليفة المسترشد من المال الى السلطان وهو أربعمائة ألف دينار كما تقدم بيان ذلك فذكر الخليفة الراشد بالله أنه لاشيء عنده وأن المال جميعه كان مع المسترشد بالله فنهب أيام الفتنة فلم يقتنع برتقش بذلك وأعاد القول فراجعه الخليفة وترددت الرسل بينهما أياماً ثم علم الراشد أن برتقش يريد الهجوم على دار الخلافة وتفتيشها وأخذ ما فيها من الأموال فجمع الخليفة العساكر لمنعها وأمر عليهم كبج آبه وأعاد عمارة السور الذى تهدم من الحوادث المترادفة فلما علم برتقش بذلك اتفق هو وبك آبه صاحب الشحنة ببغداد وأعلمه أن السلطان إنما يريد أن يهجم على دار الخلافة فأحس الراشد بذلك واستعد

لمنعهم وركب برتقش ومعه العساكر والأمراء الكبجية ومحمد بن عسكر فى نحو خمسة آلاف فارس ولقيهم عسكر الخليفة فاقتتلوا قتالاً شديداً فأخرجوا عسكر السلطان إلى دار السلطان فساروا إلى طريق خراسان ثم انحدر بك آبه إلى واسط وسار برتقش إلى البندنجيين فنهب العامة دار السلطان ولم يبقوا فيها شيئاً فاشتدت العداوة بين الخليفة وبين السلطان وعظمت الفتنة وكبر الأمر على السلطان واستخدم الخليفة الراشد جنداً كثيراً وأكثر من جمع السلاح ومعدات الحرب وتهيأ للقاء السلطان مسعود فلما جاء الخبر إلى السلطان باستعداد الراشد كاتب أتابك زنكى واستماله وكذلك فعل ببرتقش فأشار أصحاب الراشد عليه بالتوقف فأقبل السلطان مسعود بجيوشه ودخل بغداد فى ذى القعدة وقيل فى ذى الحجة سنة ثلاثين فنهب دور الجند ومنع من نهب البلد. واستمال الرعية إليه وأحضر القضاة والشهود فقدموا فى الخليفة الراشد بأنه صدرت عنه سيرة قبيحة من سفك الدماء المحرمة وارتكاب المنكرات وفعل ما لا يجوز فعله وشهدوا عليه بذلك فحكم قاضى القضاة وهو يومئذ ابن الكرخى بخلعه فخلعوه لأربع عشرة من ذى القعدة سنة ثلاثين وخمسمائة، وكان الراشد لما دخل السلطان إلى بغداد ونهب عسكره الدور هرب فى قليل من خواصه ومعه أتابك زنكى الى الموصل فطلبه السلطان مسعود فهرب إلى فارس ثم دخل إلى أصفهان فحاصرها وتمرض هناك فدخل عليه جماعة من الفداوية فقتلوه وله إحدى وعشرون سنة وقيل ثلاثون سنة ووردت الأخبار بموته الى بغداد فجلسوا للعزاء به فى دار النوبة يوماً واحداً فكانت خلافته أحد عشر شهراً وأحد عشر يوماً.

ولما خلع الخليفة الراشد على هذه الصورة وانقطعت خطبته فى بغداد وجميع أعمالها استشار السلطان مسعود جماعة من أعيان بغداد منهم الوزير على بن طراد وصاحب المخزن وغيرهما فيمن يصلح أن يلى الخلافة فقال الوزير: أحد عمومة الراشد وهو رجل صالح قال: من هو؟ قال: من لا أقدر أن أفصح باسمه لئلا يقتل ثم ذكر السلطان أبا عبد الله الحسين وقيل محمد بن المستظهر بالله ودينه وعقله وعفته ولين جانبه فحضر السلطان دار الخلافة ومعه الوزير شرف الزينبى وصاحب المخزن ابن القشلانى وغيرهما وأمر بإحضار الأمير أبى عبد الله بن المستظهر من المكان الذى كان يسكنه فأحضر وأجلس فى الميمنة ودخل السلطان إليه والوزير وتحالفا وقرر الوزير القواعد بينهما وخرج السلطان من عنده وحضر الأمراء وأرباب المناصب والقضاة والفقهاء وبايعوه ثامن عشر ذى الحجة سنة ثلاثين وخمسمائة ولقب المقتفى لأمر الله كما سيذكر فى محله.

(الفصل الحادي والثلاثون)

(في خلافة أبي عبد الله محمد المقتفي لأمر الله)

ثم قام بالأمر بعد الراشد عمه أبو عبد الله بن محمد ولقب المقتفى لأمر الله بن محمد المستظهر بن المقتدى بويع له يوم خلع ابن عمه وهو الرابع عشر من ذى القعدة سنة ثلاثين وخمسمائة هجرية أى سنة خمس وثلاثين ومائة وألف ميلادية. فلما استقرت به الخلافة أرسل إليه ابن عمه الراشد رسولاً من الموصل مع رسول أتابك زنكى وهو كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزورى فأحضروه فى الديوان وسمعت رسالته عن الراشد بالله فى أمر خلع بيعته وقرروا ذلك بحضرة القضاة والشهود ثم سيرت الكتب بخلافته الى الآفاق واستوزر شرف الدين على بن طراد البرنشنى ابن عم الوزير وأعاده إلى منصبه وقرر كمال الدين حمزة بن طلحة على منصبه صاحب المخزن. قال بعض الكتاب: فجرت الأمور على أحسن نظام وأرسل السلطان مسعود بعد قليل إلى الخليفة المقتفى لأمر الله فى تقرير إقطاع ليكون لخاصته فكان جوابه إن فى الدار - يعنى دار الخلافة - ثمانين بغلة تنقل الماء من دجلة فلينظر السلطان ما يحتاج إليه ممن يشرب هذا الماء ويقوم به فترددت الرسل فى ذلك بينهما وطال الكلام أياماً كثيرة كادت تتكدر الخواطر فى خلالها ومازالوا حتى تقررت القاعدة بينهما على أن يجعل له ما كان للمستظهر بالله من الإقطاع فأجاب الخليفة إلى ذلك وقال السلطان لما بلغه قوله: لقد جعلنا فى الخلافة رجلاً عظيماً، قلت: وهو قول يدل على زوال ما كان باقياً إلى هذا الحين من بأس الخلافة وأنها صارت تحت كلمة السلطنة خاضعة لأمرها.

وجاءت الأخبار إلى الحافظ العلوى بمصر بخلافة المقتفى بالله فلم تهمه لاشتغاله بالفتنة القائمة بالقاهرة بسبب خروج وزيره تاج الدولة بهرام النصرانى الأرمنى وذلك أنه لما استوزره فى سنة تسع وعشرين وخمسمائة تمكن فى البلاد واتسعت كلمته وغلب على الحافظ واستعمل الأرمن وعزل المسلمين وأساء السيرة فيهم وأهانهم هو والأرمن الذين ولاهم وطمعوا فيهم ولم يكن من أهل مصر من تحركه الغيرة ولا تأخذه النخوة سوى الأمير رضوان بن الريحينى فإنه لما ساءه فعل الوزير وأقلقه جمع جمعاً كثيراً وقصد القاهرة فسمع به بهرام الوزير فخاف وهرب إلى الصعيد بغير قتال ولا حرب وقصد مدينة أسوان. فمنعه واليها من الدخول إليها وقاتله وقتل السودان

من الأرمن أصحابه كثيراً فلما لم يقدر على الدخول إلى أسوان أرسل إلى الحافظ يطلب الأمان فأمنه فعاد إلى القاهرة فسجن بالقصر فبقى مدة ثم لبس زى الرهبنة وترهب ولحق بأحد الديارات واستوزر الحافظ الأمير رضوان المذكور ولقبه بالملك الأفضل فكان أول وزير للمصريين لقب بالملك فجعل يتصرف فى الأمور واتسعت كلمته وكاد يتغلب على الحافظ ثم فسد ما بينه وبين الحافظ فعمل الحافظ على إخراجه فثار الناس عليه منتصف شوّال سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة فهرب من داره وتركها بما فيها فنهب الناس منها ما لايعد ولايحصى وركب الحافظ فسكن الناس واختفى النهابون ونقل ما بقى فى دار رضوان إلى قصره وسار رضوان إلى الشام يستنجد بالأتراك ويستنصرهم فأرسل إليه الحافظ الأمير ابن مصال ليرده بالأمان والعهد أن لا يؤذيه فرجع إلى القاهرة فحبسه الحافظ عنده فى القصر * وفى رواية أنه سار إلى الشام وقصد صرخد فوصل إليها فى ذى القعدة ونزل على صاحبها أمين الدولة كمشتكين فأكرمه وعظمه وأقام عنده ثم سار إلى مصر سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ومعه جيش عظيم فقاتل المصريين عند باب النصر فهزمهم وقتل منهم جماعة كثيرة وأقام على الباب المذكور ثلاثة أيام فتفرق منه كثير ممن كان معه فخشى العاقبة وعزم على العود إلى الشام فأرسل إليه الحافظ الأمير بن مصال فرده وحبسه فى القصر وجمع بينه وبين عياله وأهله فأقام فى القصر إلى سنة ثلاث وأربعين فنقب الحبس وخرج منه وقد أعدت له خيل فهرب عليها وعبر النيل إلى الجيزة فاجتمع عليه كثير من المغاربة وغيرهم فحشد منهم جمعاً كبيراً وعاد إلى القاهرة فقاتل المصريين عند جامع ابن طولون وهزمهم ودخل القاهرة فنزل عند جامع الأفخر وأرسل إلى الحافظ يطلب منه مالاً ليفرقه على عادتهم فإنهم كانوا إذا وزروا وزيرا أرسلوا اليه عشرين ألف دينار ليفرقها فأرسل الحافظ إليه عشرين ألف دينار فقسمها وكثر عليه الناس فطلب زيادة فأرسل إليه الحافظ عشرين ألف دينار ففرّقها فتفرق الناس وخفوا عنه وبقى هو فى قلة من أصحابه وإذا الصوت قد وقع وعلت الضوضاء وخرج إليه جمع كثير من السودان وضعهم الحافظ عليه فحملوا على غلمانه فقتلوهم وأعملوا السيف فيمن معه من المغاربة فقدم إليه بعض أصحابه الفرس ليركبه فلما أراد ركوبه ضرب الرجل رأسه بالسيف فقتله وحمل رأسه إلى الحافظ فأرسله إلى زوجته فوضع فى حجرها فألقت به وقالت: هكذا يكون الرجال، ولم يستوزر الحافظ أحدًا بعد موت رضوان وباشر الأمور بنفسه ومازال يتصرف والأمور طوع يده تارة وخارجة عنه أخرى حتى وافته منيته فى جمادى

الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة هجرية فكانت سلطنته عشرين سنة إلا خمسة أشهر وعمره نحوا من سبع وسبعين سنة ولم يزل في جميعها محكوماً عليه مغلوباً على أمره لا كلمة له وإنما الكلمة لوزرائه حتى أنه جعل ابنه حسناً وزيره وولى عهده ليتخلص بذلك من أسر الوزراء وتغلبهم عليه فلم يفلح إذ حكم عليه ابنه المذكور واستبد بالأمر دونه وتجبر وظلم وقتل كثيراً من أمراء دولته وصادر الكثير منهم فكبر ذلك على الحافظ واستعظمه جداً فسقاه سماً فمات * قال أصحاب التاريخ: ولم يل الأمر من العلويين من أبوه غير خليفة غير الحافظ والعاضد، ولما مات الحافظ ولى الأمر بعده ابنه الظافر بأمر الله أبو منصور إسماعيل بن عبد المجيد الحافظ فاستوزر ابن مصال فلبث أربعين يوماً يدبر الأمر واتفق بعد ذلك أن خرج جماعة من السودان عن الطاعة فعاثوا وأفسدوا وعظم شرهم فخرج ابن مصال لقتالهم وردعهم فلما علم العادل بن السلار وهو بالإسكندرية بخروج ابن مصار سار إلى القاهرة ونازعه في الوزارة حتى تولاها وتمكن منها ثم سير ربيبه عباس بن أبى الفتوح بن يحيى بن تميم ابن المعز بن باديس الصنهاجي في عسكر لقتال ابن مصال فظفر به وقتله وعاد إلى القاهرة واستقر العادل وتمكن وعلت كلمته فلم يبق للسلطان معه حكم واشتد على الأمراء وأخذ بأسباب الحزم وبالغ في التجلد فلم يغن هذا كله شيئاً إذ كثر الاختلال واشتد وهن الدولة وتطاولت أيدى الطامعين إلى أملاكها فأخذ الفرنجة في أيامه عسقلان وجاءت مراكبهم إلى دمياط فقاتلوا تنيس وحاصروها وضيقوا عليها أياماً كثيرة ثم انصرفوا عنها وأخذ نور الدين محمود دمشق من مجير الدين أبق ومازال ابن العادل يتصرف إلى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة فقام عليه عباس بن أبى الفتوح بن يحيى الصنهاجي فقتله بإغراء الأمير أسامة بن منقذ ووافقه على ذلك الظافر بالله وولى الوزارة بعده فكانت الوزارة في مصر لمن غلب والعلويون وراء الحجاب والوزراء كالمتملكين لا كلمة فوق كلمتهم. قال أصحاب التاريخ: وقل أن ولى الوزارة أحد بعض الأفضل أمير الجيوش إلا بحرب وقتل وما شابه ذلك.

وتمكن عباس من الدولة وبسط يده على الأمور وعزل وولى وجمع الأموال وهادته الأمراء وخضعت إليه العمال في جميع الجهات وكان الأمراء والأجناد يعلمون أنه إنما ارتقى منصب الوزارة بفعل الأمير أسامة بن منقذ حيث أغراه على قتل العادل كما تقدم فعزموا على قتل ابن منقذ وصاروا يراقبون الفرص فلما أحس ابن منقذ بما عزموا عليه خاف على نفسه وأخذ يدبر الحيلة في فساد أمرهم فخلا بعباس وقال له: كيف تصبر على ما أسمع من قبيح القول؟ قال: وما ذلك قال:

الناس يزعمون أن الظافر يواصل ابنك نصراً وكان نصر خصيصا للظافر وكان ملازما له ليله ونهاره وكان من أجمل الناس صورة وكان الظافر يهتم به فانزعج لذلك عباس وعظم عليه وقال كيف الحيلة؟ قال: تقتله فيذهب عنا العار فذكر الحال لولده نصر فاتفقا على قتله. وفى رواية أخرى أن الظافر أقطع نصر بن عباس المذكور قرية قليوب وهى من أعظم قرى مصر يومئذ فدخل عليه مؤيد الدولة بن منقذ وهو عند أبيه عباس فقال له نصر: قد أقطعنى مولانا قرية قليوب فقال له مؤيد الدولة ما هى فى مهرك بكثير فعظم عليه وعلى أبيه وأنف من هذا الحال وشرع أبوه عباس فى قتل الظافر وأمر ابنه بذلك فحضر نصر عند الظافر يوماً وقال: أشتهى أن تجىء إلى دارى لدعوة صنعتها ولا تكثر من الجمع فمشى معه فى نفر يسير من الخدم ليلاً فلما دخل الدار قتله ومن معه وأفلت خويدم صغير اختباء فلم يره ودفن القتلى فى داره وأخبر أباه عباسا بالخبر فبكر إلى القصر وطلب من الخدم الخصيصين بخدمة الظافر أن يطلبوا له إذنا فى الدخول عليه لأمر يريد أن يأخذ رأيه فيه فقالوا له: إنه ليس فى القصر فقال: لابد منه وكان غرضه أن ينفى التهمة عنه بقتله وأن يقتل كل من بالقصر ممن يخاف أن ينازعه فيمن يقيمه فى السلطنة فلما ألح عليهم عجزوا عن إحضاره فبينما هم يطلبونه حائرين دهشين لايدرون ما الخبر إذ دخل عليهم الخويدم الصغير الذى شاهد قتله وقد هرب من دار العباس عند غفلتهم عنه وأخبرهم بقتل الظافر فخرجوا إلى عباس وقالوا له: سل ولدك عنه فإنه يعرف أين هو لانهما خرجا جميعاً فلما سمع ذلك منهم قال: أريد أن أستعرض القصر لئلا يكون قد اغتاله أحد من أهله فاستعرض القصر فقتل أخوين للظافر وهما: يوسف وجبريل وأجلس الفائز بنصر الله أبا القاسم عيسى بن الظافر بأمر الله إسماعيل ثانى يوم قتل أبيه وله من العمر خمس سنين فحمله عباس على كتفه وأجلسه على سرير الملك وبايع له الناس وأخذ عباس يومئذ من القصر من الأموال والجواهر والأعلاق النفيسة ما أراد ولم يترك فيه إلا ما لا خير فيه، وظن عباس بعد قتله للظافر وإقامة ابنه الفائز أن الأمر يتم له على ما يريد فكان الحال خلاف ما اعتقده فإن الكلمة اختلفت عليه وثار به طوائف الجند من الأتراك والسودان فكان إذا أمر أمراً لايلتفت إليه ولا يسمع له قول فزالت هيبته وانحطت مرتبته فى أعين الرعية فأرسل من بالقصر من النساء والخدم إلى الصالح طلائع بن رزيك وهو يومئذ فى منية ابن خصيب بالصعيد واليا عليها وعلى أعمالها ولم تكن يومئذ من الأعمال الجليلة ولكنها كانت أقرب الأعمال إليهم يشكون ما حل بهم من عباس وكان فى ابن رزيك شهامة فجمع جيشاً عظيماً

وانحدر يريد قتال عباس فلما سمع عباس ذلك خرج من مصر إلى الشام بما معه من الأموال التى لاتحصى كثرة ومن التحف والأشياء التى لاتوجد إلا هناك مما كان قد أخذه من القصر فلما سار وقع به عسكر الفرنجة فى الطريق فقتلوه وأخذوا جميع ما كان معه وسار الصالح صاحب منية ابن خصيب فدخل القاهرة بأعلام سود وثياب سود حزناً على الظافر والشعور التى أرسلت إليه من نساء القصر على رؤوس الرماح فخلع عليه خلع الوزارة واستقر له منصبها وأحضر الخويدم الذى شاهد قتل الظافر فأراه موضع دفنه فأخرجه ونقله إلى مقابرهم بالقصر ولما قتل الفرنجة عباساً وأخذوا ما معه من الأموال وغيرها أسروا ابنه فأرسل الصالح إلى الفرنجة وبذل لهم مالاً وأخذه منهم فسار من الشام مع أصحاب الصالح ولم يكلم أحدًا منهم كلمة واحدة إلى أن رأى القاهرة فأنشد:

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالى والجدود العواثر

فأدخلوه القصر ثم أخرج بعد أيام ميتاً وصلب على باب زويلة واستقصى الصالح بيوت الكبار والأعيان بالديار المصرية فقبض على أهلها وأخذ أموالهم وأبعدهم عن ديارهم فمنهم من هلك ومنهم من تفرق فى البلاد ومنهم من نزح إلى الحجاز واليمن وغيرهما. قال بعض الكتاب: وكان دخول الملك الصالح إلى القاهرة بالأعلام السود والثياب السود من الفأل العجيب فإنه لم يمض سوى خمسة عشر عاماً حتى دخلت القاهرة الأعلام السود العباسية وأزالت الأعلام العلوية ولم يزل الفائز بنصر الله لا كلمة له والحكم للصالح بن رزيك الوزير حتى مات الفائز فى صفر سنة خمس وخمسين وخمسمائة وعمره إحدى عشرة سنة فكانت سلطنته ست سنين ونحو شهرين فلما مات دخل الصالح بن رزيك القصر واستدعى خادماً كبيراً وقال له: من ههنا يصلح للخلافة؟ فقال ههنا جماعة وذكر أسماءهم وذلك له منهم إنساناً كبير السن فأمر بإحضاره فقال له بعض أصحابه سراً: لا يكون عباس الوزير أحزم منك حيث اختار الصغير للخلافة وترك الكبار واستبد بالأمر فأعاد الصالح الرجل إلى موضعه وأمر حينئذ بإحضار العاضد لدين الله أبى محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ ولم يكن أبوه خليفة وكان العاضد يومئذ مراهقاً قارب البلوغ فبايع له وزوجه الصالح ابنته ونقل معها من الجهاز ما لا يسمع بمثله.

وكما كانت أمور السلطنة فى مصر فى اختلال وأحوالها فى اعتلال بسبب الفتن

والخطوب المتراكمة المترتبة على فعال الطامعين فى منصب الوزارة فكذلك كانت أحوال الخلافة ببغداد الى هذا الحين إذ ظهرت الفتن وعمت الإحن وقامت الحروب فى كل الجهات على ساقها واشتدت وطالت أيامها فاختل نظام الأمور وتعذر تدبير الجمهور وعاث أصحاب الفساد فقتلوا ونهبوا وفعلوا ما لا خير فيه وكان من الحوادث أيضاً فى تلك الأيام أن زاد دجلة إلى حد لم يسبق له مثال فخرق الفوارج فوق بغداد وأقبل المد الى البلد فامتلأت الصحارى وخندق البلد وأفسد الماء السور ففتح فيه فتحة فوقع بعض السور عليها فسدها ثم فتح الماء فتحة أخرى وأهملوها ظناً أنها تنفس عن السور لئلا يقع فغلب الماء وتعذر سده فغرق كثير من الدروب والحارات ودب الماء تحت الأرض إلى الكثير من الأماكن فوقعت وأخذ الناس يعبرون إلى الجانب الغربى فبلغت أجرة المعبرة عدة دنانير ولم يكن يقدر عليها لما أصاب الناس ثم نقص الماء وتهدم السور وبقى الماء الذى بداخل السور يدب حتى كثر الخراب وبقيت المحال لا تعرف وإنما هى تلول وقد غرق أيضا بالجانب الغربى من دجلة جميع المقابر وانخسفت وخرج الموتى على سطح الماء فكان أمراً عظيماً جداً لم يسبق له مثيل فيما غبر.

ولما كانت سنة أربع وخمسين وخمسمائة مرض الخليفة المقتفى لامر الله واشتد مرضه وخاف الناس عليه ثم عوفى فضربت البشائر ببغداد وفرقت الصدقات من الخليفة ومن أرباب الدولة وغلقت الحوانيت أسبوعاً وعم الفرح جميع الأهالى ثم لم يلبث أن عاوده المرض فى سنة خمس وخمسين فمات فى ثانى ربيع الأول بعلة التراقى وهو ابن ست وستين سنة فكان خلافته ثلاثا وعشرين سنة وقيل أربعا وعشرين وثلاثة أشهر وستة عشر يوما وقيل خمسا وعشرين سنة وكان شهماً كريماً حليماً حسن السيرة ذا رأى وتدبير وهو أول من استبد بالحكم منفرداً عن السلطان بالعراق من أول يوم الديلم إلى موته وأول خليفة تمكن من الخلافة وحكم عسكره وأصحابه من حين تحكم المماليك على الخلفاء من عهد المستنصر إلى الآن إلا الخليفة المعتضد وكان شجاعاً مقداماً مباشراً للحروب بنفسه وكان يبذل الأموال الجليلة لأصحاب الأخبار فى جميع البلاد حتى كان لايفوته منها شيء وقد عمل لنفسه من العقيق تابوتاً دفن فيه ، ولما مات ولى الخلافة بعده أبو المظفر يوسف المستنجد بالله.

(الفصل الثانى والثلاثون)

(فى خلافة أبى المظفر يوسف المستنجد بالله بن المقتفى لأمر الله)

ثم قام بالأمر بعد المقتفى لأمر الله ابنه أبو المظفر يوسف المستنجد بالله بن المقتفى لأمر الله وقد كان أبوه ولاه العهد فى سنة سبع وأربعين وخمسمائة فبويع له بالخلافة بعد موت أبيه بيوم وقيل بل يوم موت أبيه سنة خمس وخمسين وخمسمائة هجرية أى سنة ستين ومائة وألف ميلادية وكان للمقتفى حظية هى أم ولده أبى علىّ وكانت تكره أبا المظفر وتتمنى تسليم الأمر لولدها أبى على فلما اشتد مرض المقتفى وأيست منه أرسلت إلى جماعة من الأمراء وبذلت لهم الإقطاعات الكثيرة والأموال الجزيلة ليساعدوها على أن يكون ولدها خليفة فقالوا: وكيف الحيلة مع ولى العهد فقالت: إذا دخل على أبيه قبضت عليه وكان يدخل إلى أبيه كل يوم فقالوا: لابد لنا من أحد من أرباب الدولة فوقع اختيارهم على أبى المعالى ابن الكيا الهراسى فدعوه إلى ذلك فأجابهم على أن يكون وزيراً فقبلوا ما طلب فلما استقرت القاعدة بينهم وعلمت أم أبى على أحضرت عدة من الجوارى وأعطتهن السكاكين وأمرتهن بقتل ولى العهد المستنجد بالله وكان للمستنجد خصى صغير يرسله كل وقت يتعرف أخبار أبيه فرأى الجوارى بأيديهن السكاكين ورأى بيد أبى على وأمه سيفين فعاد الى المستنجد فأخبره وأرسلت هى إلى المستنجد تقول: إن والدك حضره الموت فاحضر لتشاهده فاستدعى أستاذ دار عضد الدولة وأخذه معه هو وجماعة من الفراشين ودخل الدار وقد لبس الدروع وأخذ بيده السيف فلما دخل ثار به الجوارى فضرب واحدة منهن فجرحها وكذلك أخرى وصاح فدخل أستاذ الدار ومعه الفراشون فهرب الجوارى فأخذ أخاه أبا على وأمه فسجنهما وأخذ الجوارى فقتل منهن وأغرق.

وجلس المستنجد للبيعة فبايعه أهله وأقاربه وأولهم عمه أبو طالب ثم أخوه أبو جعفر بن المقتفى وكان أكبر من المستنجد ثم بايعه الوزير بن هبيرة وقاضى القضاة وأرباب الدولة والعلماء وخطب له يوم الجمعة ونثرت الدنانير والدراهم ولما استقرت به الخلافة أقر ابن هبيرة على وزارته وأصحاب الولايات على ولاياتهم وأزال المكوس والضرائب وقبض على القاضى ابن مزاحم وبئس الحاكم هو وأخذ منه مالاً كثيراً وأخذ كتبه فأحرق منها فى الرحبة ما كان من علوم الفلسفة فكان منها كتاب الشفاء

لابن سينا وكتاب إخوان الصفا وما يشاكلهما وقدم عضد الدين بن رئيس الرؤساء فكان أستاذ الدار ومكنه وتقدم الى الوزير أن يقوم له تعظيماً وعزل قاضى القضاة أبا الحسن على بن أحمد الدامغانى وأقام مكانه أباجعفر عبد الواحد الثقفى وخلع عليه وأدناه منه، ووردت الأخبار إلى مصر بخلافة المستنجد وموت المقتفى فلم يلتفت إليها الملك الصالح بن رزيك وزير العاضد لدين الله وأهملها كإهماله لغيرها من بقية الأمور واشتغاله بالتحكم فى دولة العاضد واستبداده بالأمر والنهى وجباية الأموال وعزله الولاة والعمال وتبعيده كل من كان يخشى من وثوبه حتى أبغضه الأمراء والعامة وحرم القصر وتمنوا موته والخلاص من شره فأرسلت عمة العاضد لدين الله الأموال إلى بعض الأمراء ودعتهم إلى قتله وكان أشدهم عليه فى ذلك إنسان يقال له ابن الداعى فاتفقوا على قتله ووقفوا له يوما فى دهليز القصر فلما دخل ضربوه بالسكاكين على دهش منه فجرحوه جراحات مهلكة وحمل إلى داره وفيه رمق فأرسل إلى العاضد لدين الله يعاتبه على الرضا بقتله فأقسم العاضد أنه لايعلم بذلك ولم يرض به فقال: إن كنت لم ترض به وبريئا منه فسلم عمتك إلىّ حتى أنتقم منها فرسم بتسليمها إليه فأخذها قهراً وقتلها ووصى بالوزارة من بعده لولده رزيك ولقب العادل فانتقل الأمر إليه بعد أبيه. قال أصحاب التاريخ: وكان الصالح المذكور كريماً فيه أدب وله أشعار حسنة بليغة تدل على فضل غزير فمنها فى الافتخار :

أبى الله إلا أن يدوم لنا الدهر ويخدمنا فى ملكنا العز والنصر
علمنا بأن المال تفنى ألوفه ويبقى لنا من بعده الأجر والذكر
خلطنا الندى بالبأس حتى كأننا سحاب لديه البرق والرعد والقطر
قرانا إذا رحنا إلى الحرب مرة قرانا ومن أضيافنا الذئب والنسر
كما أننا فى السلم نبذل جودنا ويرتع فى إنعامنا العبد والحر

وكان لأهل العلم عنده منزلة ويرسل إليهم العطايا الكثيرة وكان إماميًا لم يكن على مذهب العلويين المصريين، وكان شديد المغالاة فى التشيع صنف كتاباً فيه الرد على أهل الفساد جمع له الفقهاء وناظرهم عليه وهو ويتضمن إمامة على بن أبى طالب والبحث فى الأحاديث الواردة فى ذلك ومن شعره فى التدين هذه الأبيات :

يا أمة سلكت ضلالاً بينا حتى استوى إقرارها وجحودها
ملتم إلى أن المعاصى لم تكن إلا بتقدير الإله وجودها
لو صح ذا كان الإله بزعمكم منع الشريعة أن تقام حدودها
حاشا وكلا أن يكون إلهنا ينهى عن الفحشاء ثم يريدها

قالوا: ولما ولى العاضد الخلافة وركب سمع الصالح ضجة عظيمة فقال ما الخبر؟ فقيل إنهم يفرحون بالخليفة فقال كأنى بهؤلاء الجهلاء وهم يقولون ما مات الأول حتى استخلف هذا وما علموا أننى كنت فى ساعة أستعرضهم استعراض الغنم وقال عمارة دخلت إلى الصالح قبل قتله بثلاثة أيام فناولنى قرطاساً فى بيتين من شعر، وهما :

نحن فى غفلة ونوم وللمو ت عيون يقظانة لا تنام
قد رحلنا إلى الحمام سنينا ليت شعرى متى يكون الحمام

قال فكان آخر عهدى به، وقال عمارة أيضاً ومن عجيب الاتفاق أننى أنشدت ابنه قصيدة أقول فيها :

أبوك الذى تسطو الليالى بحده وأنت يمين إن سطا وشمال
لرتبته العظمى وإن طال عمره إليك مصير واجب ومنال
تخالصك اللحظ المصون ودونها حجاب شريف لا انقضا وحجال

قال: فانتقل الأمر اليه بعد ثلاثة أيام، وكان من جملة وصية الصالح لولده العادل عندما أشرف على التلف أن لا يغير على شاور والى الصعيد قال فإننى أنا أقوى منك وقد ندمت على استعماله ولم يمكن خلعه فلا تغيروا ما به فيكون لكم منه ما تكرهون، وشاور هذا تركى الأصل جاء إلى مصر ودخل فى خدمة الصالح ابن رزيك ولزمه فأقبل عليه الصالح وولاه الصعيد وهو أكبر الأعمال يومئذ بعد الوزارة، فلما استقر به المنصب ظهرت منه كفاءة عظيمة وتقدم زائد واستمال لنفسه الرعية والمقدمين من العربان وغيرهم فعسر أمره على الصالح ولم يمكنه بعد ذلك خلعه فاستدام استعماله لئلا يخرج عن طاعته فلما ولى العادل الوزارة مكان أبيه الصالح، حسن له أهله عزل شاور المذكور واستعمال بعضهم مكانه وخوفوه منه إن أقره على عمله فأرسل إليه بالعزل وخالف وصية الصالح فجمع شاور عند ذلك جموعاً كثيرة وانحدر بهم الى القاهرة فهرب العادل بن الصالح بن رزيك فلحقه شاور وأخذه وقتله فكانت مدة وزارته ووزارة أبيه قبله سبع سنين وشهراً وأياماً وتولى شاور منصب الوزارة ولقب بأمير الجيوش واستولى على جميع أموال بنى رزيك وودائعهم وخزائنهم وأخذ منها أيضا طيا والكامل ابنا شاور شيئاً كثيراً وأنكر ما أخذاه. قال بعض الكتاب: ثم ظهر عليهم عند انتقال الدولة عن شاور والمصريين إلى الأتراك ولم يلبث شاور فى منصب الوزارة طويلاً حتى ظهر الضرغام

فى جموع كثيرة للغاية وأخذ ينازع شاور فى الوزارة وظهر أمره وعلت كلمته وطال نزاعه فانهزم شاور منه إلى الشام فتولى ضرغام منصب الوزارة وأمر ونهى فكان فى هذه الدولة ثلاثة وزراء العادل بن شريك وشاور صاحب الصعيد وضرغام هذا كان أحد كبار الأمراء البرقية الذين أقامهم الملك الصالح بن رزيك على عهد وزارته ويقال له ضرغام أبى الأشبال وهو يومئذ حاجب الباب فلما تمكن ضرغام هذا من الوزارة قتل الكثير من الأمراء المصريين لتخلو له البلاد من المنازعين وأكثر من الأخذ بالشبهات فضعفت لذلك الدولة وانحطت شهرتها وزالت هيبتها وطمع فى أخذها الطامعون فخرجت بعد ذلك من أيديهم كما سيتلى عليك فى محله. أما شاور فإنه لما وصل إلى الشام التجأ إلى صاحبها نور الدين محمد بن زنكى واستجار به وشكا ما حل به من ضرغام فأكرم نور الدين مثواه وأحسن إليه وأنعم عليه وكان وصوله فى ربيع الأول من السنة أى سنة تسع وخمسين وخمسمائة وطلب من نور الدين أن يرسل معه عسكراً إلى مصر ليعود إلى منصبه ويكون لنور الدين ثلث دخل البلاد بعد إقطاعات العسكر ويكون شيركوه بن شادى مقدم العسكر التى تصحبه مقيماً بعسكره فى مصر ويتصرف له بأمر نور الدين واختياره فبقى نور الدين يقدم الى هذا الغرض رجلاً ويؤخر أخرى فتارة تحمله رغبات قصد شاور وطلب الزيادة فى الملك والتقوى على الفرنجة وتارة يمنعه خطر الطريق وأن الفرنجة فيه وكذلك تخوف من ابن شاور إن استقرت قاعدته ربما لا يفى له ثم قوى عزمه على إرسال الجيوش فتقدم بتجهيزها وإزاحة عللها وكان هوى أسد الدين فى ذلك وميله شديداً إلى المسير إلى مصر وعنده من الشجاعة وقوة النفس ما لا يبالى معه بمخافة فجهز جيشاً جراراً وجعل عليه الأمير أسد الدين شيركوه المذكور وهو مقدم عسكره وأكبر أمراء دولته وأشجعهم وساروا وشاور فى صحبتهم وذلك فى جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وتقدم نور الدين إلى شيركوه بن شادى بأن يعيد شاور إلى منصبه وينتقم له ممن نازعه فيه وسار نور الدين إلى طرف بلاد الفرنجة مما يلى دمشق بعسكره ليمنع الفرنجة من التعرض لأسد الدين شيركوه ومن معه فوصل أسد الدين والعساكر الذى معه إلى مدينة بلبيس فخرج ناصر الدين أخو ضرغام بعسكر من مصر ولقيهم فاقتتلوا فانهزم ناصر الدين وعاد إلى القاهرة خاسراً ووصل أسد الدين فنزل على القاهرة أواخر جمادى الآخرة فخرج ضرغام من القاهرة سلخ الشهر لقتال أسد الدين فقتل عند مشهد السيدة نفيسة وبقى يومين ثم حمل ودفن بالقرافة وقتل أخوه فارس المسلمين فلما تم الظفر لأسد الدين خلع على شاور مستهل رجب وأعاده إلى

الوزارة وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة ينتظر وفاء ما قرره شاور فغدر به شاور وعاد عما كان قرره لنور الدين من البلاد المصرية ولأسد الدين أيضاً. وأرسل إلى أسد الدين يأمره بالعود إلى الشام فأعاد الجواب بالامتناع وطلب ما كان قد استقر بينهم فلم يجبه شاور إليه فأرسل فى الحال أسد الدين إلى نوابه فتسلموا مدينة بلبيس وحكم على أقليم الشرقية فأرسل شاور إلى الفرنجة يستمدهم ويخوفهم من نور الدين إذا ملك مصر فسارعوا إلى تلبية دعوته ونصرته وطمعوا فى ديارمصر وكان شاور قد بذل لهم مالاً على المسير إليه فتجهزوا وساروا فلما بلغ نور الدين خبر ذلك سار بعساكره إلى أطراف بلادهم ليمنعهم عن المسير فلم يتمكن من ذلك إذ سار ملك القدس فى عسكره على عجل وكان قد وصل إلى الساحل جمع كثير من الفرنجة يريدون زيارة بيت المقدس فسار جماعة منهم مع صاحب القدس فلما قاربوا مصر فارقها أسد الدين وقصد مدينة بلبيس فأقام بها هو وعسكره وجعلها له ظهراً يتحصن بها فاجتمعت العساكر المصرية وجموع الفرنجة ونازلوا أسد الدين بمدينة بلبيس وحصروه بها ثلاثة أشهر وهو يغاديهم القتال ويراوحهم فلم يبلغوا منه غرضاً فبينما هم على هذا الحال إذ أتاهم الخبر بهزيمة الفرنجة على حارم وملك نور الدين حارم ومسيره إلى بانياس فأرادوا العودة إلى بلادهم ليحفظوها فراسلوا أسد الدين فى الصلح والعودة إلى الشام ومفارقة مصر وتسليم ما بيده منها إلى المصريين فأجابهم إلى ذلك لأن الأقوات والذخائر قلت عليه وخرج من بلبيس فى ذى الحجة وسار إلى الشام وأقام على حاله فى خدمة نور الدين ولكنه كان دائماً يتحدث بمصر مولعاً بها ويحب أن يقصدها وكان عنده من الحصر على ذلك كثير.

فلما كانت سنة اثنتين وستين وخمسمائة تجهز للمسير إلى مصر وسار فى ربيع الأول فى جيش ضخم للغاية فسير معه نور الدين جماعة من الأمراء فكانت عدتهم يومئذ ألفى فارس وكان نور الدين كارها لذلك ولكن لما رأى من جد أسد الدين ورغبته فى المسير لم يمكنه إلا أن يسير معه هذا الجمع خوفاً من الهزيمة أو حادث يتجدد عليهم وسار أسد الدين بعسكره براً وترك بلاد الفرنجة على يمينه فوصل مصر وقصد أطفيح وعبر النيل عندها إلى الجانب الغربى ونزل بالجيزة مقابل مصر ومدينة الفسطاط وأخذ يتصرف فى البلاد الغربية وأنفذ حكمه فيها وأقام على ذلك نيفا وخمسين يوماً وكان شاور لما بلغه مجئ أسد الدين أرسل إلى الفرنجة يستنجد بهم فأتوه على الصعب والذلول طمعاً فى ملكها فترفع أسد الدين بمن معه إلى الصعيد فبلغ مكاناً يعرف بالبابين فتبعتهم العساكر المصرية وعسكر الفرنجة فأدركوهم بها فى الخامس والعشرين من جمادى الآخرة وكان أسد الدين قد أرسل إلى المصريين

والفرنجة جواسيس فعادوا إليه وأخبروه بكثرة عددهم وعُدَدِهم وجدّهم فى طلبه فعزم على قتـالهم إلا أنه خاف من أصحـابه أن تضعف قلوبهم عن القتـال فى هذا المقام الخطير الذى عطبهم فيه أقرب من سلامتهم لقلة عـددهم فاستشارهم فأشاروا بعبور النيل إلى الجانب الشرقى والرجوع إلى الشام وقالوا إن نحن انهزمنا وهو الذى يغلب على الظن فإلى أين نلتجئ وبمن نحـتمى وكل من فى هذه الديار من جندى وعامى وفلاح عـدو لنا؟ فقـام أميـر من مماليك نور الدين يقال له شـرف الدين بن برغش صاحب شفيق وكان شجاعاً وقال: من يخاف القتل والأسر لايخدم الملوك بل يكون فى بيـته مع امرأته والله لـئن عدنا إلى نور الدين من غـير غلبـة ولا بلاء نعذر فـيه ليأخذن مالنـا من الإقطاع والجامكية ولا يعود علينا جميع مـا أخذناه منذ خدمنا إلى يومنا هذا، ويقول تأخذون أموال المسلمين وتفـرون من عدوهم وتسلمون مثل مصر إلى الكفار والحق بيـده فقال أسـد الدين: هذا الرأى وبه أعمل فـقال أخيـه صلاح الدين مثله وكثر الموافقون لهم واجتمـعت الكلمة على القتال فأقام أسد الدين بمكانه حتى أدركهم المصريون والفرنجة وهو على أهبـة وجعل الأثقال فى القلب يستكثر بها وجعل صـلاح الدين فى القلب وقال له ولمن معـه: إن المصريين والفرنجـة يجعلون حملتهم على القلب ظناً منـهم أنى فيه فإذا حملوا عليكم فلا تصـدوهم بالقتال ولا تهلكوا نفوسكم واندفعوا قدامهم بين أيديهم فـإذا عادوا عنكم فارجعوا فى أعقابهم واختار هو من شجـعان عسكره جمعاً يثق بهم ويعـرف صبرهم فى الحروب ووقف بهم فى الميمنة فلما تقاتل الطائفتان فعل الفرنجة ما ذكره وحملوا على القلب فقاتلهم من به قتالاً يسيراً وانهزموا بين أيديهم غير متفرقين وتبعهم الفرنجة فحمل حينئذ أسد الدين فيـمن معـه على من تخلف من الذين حملوا من المسلمـين والفرنجـة الفارس والراجل فهزمـهم ووضع السيف فيهم فأثخـن وأكثر القتل فلما عـاد الفرنجة من أثر المسلمين رأوا عسكرهم منهزماً فانهزمـوا أيضاً ولما تمت هزيمة المصريين والفرنجة سار أسد الدين بمن معـه إلى ثغر الاسكندرية وجبى باقى القرى عـلى طريقه من الأموال ووصل إلى الاسكندرية فتسلمها بمساعدة من أهلهـا سلموها إليه فاستناب بها صلاح الدين ابن أخيه وعاد إلى الصعيد فملكها وجـبى أموالها وأقام بها حتى صام رمضان فكبر ذلك عـلى المصريين والفرنجـة واجتـمعوا بالقـاهرة وأصلحوا حـال عسكرهم وجمعوهم وسـاروا إلى الاسكندرية فحصروا صلاح الدين بها واشتـد عليه الحصار وقل الطعام على من بالاسكندرية فصبروا على ذلك وانـحدر أسد الدين من الصعيد إلى الاسكندرية وكـان شاور قد أفـسد بعض من مـعه من التـركمـان فوصل رسل

الفرنجة والمصريين يطلبون الصلح. قال بعض الكتاب: وبذلوا إلى أسد الدين خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد فأجاب إلى ذلك واشترط على الفرنجة أن يقيموا بالبلاد ولا يتملكوا منها قرية واحدة فأجابوه إلى ذلك واصطلحوا وعادوا إلى الشام وتسلم المصريون الاسكندرية من نصف شوال من السنة ووصل أسد الدين شيركوه إلى دمشق ثامن عشرى ذى القعدة، أما الفرنجة فإنهم اتفقوا مع المصريين بأن يكون لهم بالقاهرة شحنة وتكون أبوابها بيد طائفة من فرسانهم ليمتنع نور الدين من إنفاذ عسكر إليهم ويكون لهم من دخل مصر فى كل سنة مائة ألف دينار وهذا كله استقر مع شاور إذ لم يكن للعاضد حكم ولا كلمة وقد حجب عن الأمور كلها وعاد جماعة الفرنجة بعيد ذلك إلى الساحل الشامى وتركوا بمصر جماعة من مشاهير فرسانهم وكان الكامل شجاع بن شاور أرسل إلى نور الدين سراً مع بعض الأمراء ينهى محبته وولاءه ويسأله الدخول فى طاعته وتعاهدوا أن يفعل هذا وبذل مالا يحمله فى كل سنة فأجابه نور الدين إلى ذلك فحمل إليه ابن شاور مالاً جزيلاً وبقى الأمر على هذا الحال وشاور لا يعلم بالخبر ، فلما كانت سنة أربع وستين وخمسمائة قصد أسد الدين ديار مصر ثلاثة ومعه العسكر النورى فملكها وجعل يتصرف فيها ، وتحرير الخبر أنه لما تمكن الفرنجة من البلاد المصرية وجعلوا لهم شحنة فى القاهرة حكموا وتصرفوا فى الأمور وشدّدوا على الرعية فضج المسلمون واستغاثوا فأرسل الفرنجة إلى ملكهم بالشام المسمى مرى وكان أشجع ملوكهم بالشام يستدعونه ليملكها وأعلموه خلوها من ممانع وهوّنوا عليه أمرها فلم يجبهم إلى ذلك، قال أصحاب التاريخ: فاجتمع إليه فرسان الفرنجة وذوو الرأى منهم فأشاروا عليه بتملكها فقال لهم: الرأى عندى أننا لا نقصدها ولا بغية لنا فيها وأموالها تساق إلينا فنقوى بها على نور الدين وإن نحن قصدناها لتملكها فإن صاحبها وعسكره وجميع بلاده وفلاحيها لايسلمونها إلينا ويقاتلوننا دونها ويحملهم الخوف على تسليمها إلى نورالدين ولئن صار له فيها مثل أسد الدين كانت العاقبة شراً علينا وأجلانا ولا محالة عن الشام فلم يقبلوا قوله وألحوا عليه فى قصدها فقبل منهم على كره وشرعوا يجهزون ويشيعون أنهم إنما يريدون مدينة حمص فلما سمع نور الدين بالخبر شرع أيضاً فى جميع عساكره وأمرهم بالقدوم عليه وجد الفرنجة فى السير إلى مصر فقدموها ونزلوا مدينة بلبيس وملكوها قهراً مستهل صفر ونهبوا ما فيها وقتلوا وأسروا وكان جماعة من أعيان المصريين قد كاتبوا الفرنجة ووعدوهم أن يأخذوا بناصرهم نكاية فى شاور وتخلصا من جوره منهم ابن الخياط وابن فرجلة فاشتد

عضد الفرنجة وساروا من بلبيس إلى مصر فنزلوا على القاهرة عاشر صفر وحاصروها فخاف الناس منهم أن يفعلوا بهم ما فعلوه بأهل بلبيس فحملهم الخوف على الامتناع فحفظوا البلد وقاوموا دونه وبذلوا جهدهم فى حفظه وأمر شاور بإحراق مدينة مصر تاسع صفر وأمر أهلها بالجلاء عنها إلى القاهرة وأن ينهب البلد فانتقلوا وبقوا على الطرق فى حالة تبكى الناظر ونهبت المدينة وأصبح أهلها لا يملكون شيئاً وذهبت أموالهم ونعمتهم قبل نزول الفرنجة عليهم بيوم فبقيت النار تضطرم فيها وتحرقها أربعة وخمسين يوماً فكانت شدة لم يسبق لها مثال ومنظر تنفطر منه الأكباد واشتد الفرنجة فى الحصار فعم البلاء وكبر خوف الناس فأرسل العاضد العبيدى إلى نور الدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن دفع الفرنجة وأرسل فى الكتب شعور نسائه وقال: هذه شعور نسائى من قصرى يستغثن بك لتنقذهن من الفرنجة فلما وصلت كتب العاضد إلى نور الدين كبر عليه الأمر وشرع فى تسيير الجيوش. أما الفرنجة فإنهم لما علموا بعزم نور الدين اشتدوا فى حصار القاهرة وضيقوا على أهلها وشاور هو ولى أمر العساكر فضاق به الخناق وضعف عن ردهم فأخلد إلى إعمال الحيلة وأرسل إلى ملك الفرنجة يذكر له مودته وصداقته له قديماً وأن هواه معه لخوفه من نور الدين والعاضد صاحب البلاد وإنما المسلمون لا يوافقونه على التسليم إليه ويشير بالصلح وأخذ مال لئلا يتسلم البلاد نور الدين فأجابه مرى إلى ذلك على أن يعطوه ألف ألف دينار مصرية يعجل بالبعض ويمهل بالبعض فاستقرت القاعدة على ذلك فعجل له شاور بمائة ألف دينار وسألهم الرحيل عنها ليجمع لهم المال فرحلوا قريباً وجعل شاور يجمع لهم المال من أهالى القاهرة ومصر فلم يتحصل إلا مقدار خمسة آلاف دينار وذلك لأن أهل مصر كانت قد احترقت بيوتهم وما فيها وما سلم من الحريق نهب وهم لايقدرون على الأقوات فضلاً عن الأقساط وأما أهل القاهرة فلأن أغلب أهلها الجند وغلمانهم تعذر عليهم المال وهم فى خلال ذلك يراسلون نور الدين بما أصبح الناس فيه وبذلوا له ثلث بلاد مصر وأن يكون أسد الدين مقيماً عندهم فى عسكره وإقطاعهم من البلاد المصرية أيضاً خارج عن الثلث الذى لهم وكان نور الدين لما وصلت كتب العاضد إليه بحلب أرسل إلى أسد الدين يستدعيه إليه فخرج القاصد فى طلبه فلقيه على باب حلب وقد قدمها من حمص وكانت إقطاعاً له وسبب وصوله أن كتب المصريين وصلت إليه أيضاً فى هذا المعنى فسار إلى نور الدين واجتمع به فعجب نور الدين من حضوره فى الحال وسر بذلك وتفاءل به وأمر بالتجهز إلى مصر وأعطاه مائتى ألف

دينار سوى الثياب والدواب والأسلحة وغير ذلك وحكمه فى العسكر والخزائن فاختار من العسكر ألفى فارس وأخذ المال وجمع ستة آلاف فارس وسار هو ونور الدين إلى باب دمشق فوصلها سلخ صفر ورحل إلى رأس المال وأعطى نور الدين كل فارس ممن كان مع أسد الدين عشرين ديناراً معونة غير محسوبة من جامكيته وأضاف إلى أسد الدين جماعة آخرين من الأمراء منهم مملوكه عز الدين جرديك وغرس الدين قلج وشرف الدين برغش وعين الدولة الياروقى وقطب الدين ينال بن حسان المنبيجى وصلاح الدين يوسف بن أيوب أخى شيركوه على كره منه وسار أسد الدين شيركوه من رأس الماء مجداً منتصف ربيع الأول فلما قارب مصر رحل الفرنجة إلى بلادهم وسمع نور الدين بعودهم فسره ذلك جداً وأمر بضرب البشائر فى البلاد وبعث رسله إلى الآفاق مبشرين بذلك فلما وصل القاهرة ودخل إليها اجتمع بالعاضد لدين الله فخلع عليه العاضد وعاد إلى خيامه بالخلعة وفرح به أهل مصر وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكثيرة والإقامات الوافرة ولم يمكن شاور المنع من ذلك لأنه رأى أن العساكر كثيرة مع أسد الدين وهوى العاضد العلوى معه فلم يتجاسر على إظهار ما فى نفسه وقد كان يكره بقاء أسد الدين فى مصر ويخشى منه على نفسه وشرع يماطل أسد الدين فى تقرير ما كان بذله لنور الدين من المال والأقطاع للجند وإفراد ثلث البلاد لنور الدين وهو يركب كل يوم إلى أسد الدين ويسير معه ويعده ويمنيه.

وعزم شاور يوماً على أن يعمل دعوة يدعو إليها أسد الدين والأمراء الذين معه ويقبض عليهم ويستخدم من معهم من الجند فيمنع بهم البلاد من الفرنجة وكلم ابنه الكامل فى ذلك فنهاه وقال له: والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعلمن به شيركوه فقال له أبوه: لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعاً فقال صدقت ولأن نقتل ونحن مسلمون والبلاد إسلامية خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنجة فترك شاور ما كان قد عزم عليه ورأى العسكر النورى الذين مع أسد الدين مطل شاور فخافوا شره وتكلموا فى أمره كثيراً ثم اتفق صلاح الدين يوسف بن أيوب وعز الدين جرديك وغيرهم على قتل شاور فنهاهم أسد الدين على عادته فسكتوا وهم على هذا العزم من قتله فاتفق أن قصد شاور عسكر أسد الدين كما كان يفعل كل يوم فلم يجده فى الخيام وكان قد توجه لزيارة قبر الإمام الشافعى فلقيه صلاح الدين يوسف وجرديك فى جمع من العسكر فخدموه وأعلموه بأن شيركوه قد انصرف لزيارة قبر الإمام الشافعى فقال نمضى إليه فساروا جميعاً فسايره صلاح الدين وجرديك ومازالا حتى تمكنا منه وألقياه إلى الأرض عن فرسه فهرب أصحابه عنه فأخذ أسيرا ولم يمكنهما

قتله بغير أمر أسد الدين فتوكلا بحفظه وأعلما أسد الدين فحضر ولم يمكنه إلا إتمام ما عملاه فقتل شاور ووصل الخبر بما جرى إلى العاضد لدين الله العلوى فأرسل إلى أسد الدين يطلب منه رأس شاور وتابع الرسل بذلك فأرسلوا رأسه إلى العاضد فى السابع عشر من ربيع الآخر ودخل أسد الدين القاهرة فرأى من اجتماع الخلق ما أخافه على نفسه فقال له أمير المؤمنين يعنى العاضد يأمركم بنهب دار شاور فتفرق الناس إلى الدار فنهبوها وقصد هو قصر العاضد فخلع عليه خلع الوزارة ولقبه بالملك المنصور أمير الجيوش فسار بالخلع إلى دار الوزارة وهى التى كان بها شاور فلم ير فيها ما يقعد عليه واستقل بالأمر وغلب عليه ولم يبق له مانع ولا منازع واستعمل على الأعمال من يثق به من أصحابه وأقطع البلاد لعسكره، وأما الكامل بن شاور فإنه لما قتل أبوه دخل القصر هو وإخوته معتصمين فكان آخر العهد بهم، ذكر أن أسد الدين شيركوه حزن على شاور لأنه بلغه ما كان منه مع أبيه من منعه من قتل شيركوه وما استتب الأمر لشيركوه وثبتت قدماه فى منصب الوزارة حتى أتاه أجله على عجل فمات فى يوم السبت الثانى والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة فكانت ولايته شهرين وخمسة أيام فلما مات قام جماعة من الأمراء النورية الذين كانوا معه وطلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة العاضدية بعده منهم عين الدولة الياروقى وقطب الدين اينال وسيف الدين المشطوب الهكارى وشهاب الدين محمود الحارمى وهو خال صلاح الدين يوسف وكان كل واحد من هؤلاء يخطبها وقد جمع أصحابه ليغالب عليها فأرسل العاضد إلى صلاح الدين وأحضره عنده وخلع عليه وولاه الوزارة بعد عمه وكان الذى حمله على ذلك أن أصحابه قالوا له: ليس فى الجماعة أضعف ولا أصغر سناً من يوسف والرأى أن يولى الوزارة فإنه لا يخرج من تحت حكمنا ثم نضع على العساكر من يستميلها إلينا فيصير عندنا من الجند ما نمنع بهم عن البلاد ثم نأخذ يوسف أو نخرجهم فوافقهم العاضد على ذلك وولاه الوزارة ولقبه بالملك الناصر فلم يطعه أحد من أولئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم ولا خدموه وكان معه الفقيه عيسى الهكارى فسعى مع المشطوب حتى أماله إلى صلاح الدين وقال له: إن هذا الأمر لايصل إليك مع عين الدولة والحارمى وغيرهما ثم قصد الحارمى وقال هذا صلاح الدين هو ابن أختك وعزه وملكه لك وقد استقام له الأمر فلا تكن أول من يسعى فى إخراجه عنه ولا يصل إليك فمال إليه أيضاً، ثم فعل هكذا بالباقين فأطاعه كلهم غير عين الدولة الياروقى فإنه قال أنا لا أخدم يوسف وعاد إلى نور الدين بالشام فلما استقرّت

بصلاح الدين الوزارة استمال إليه قلوب الناس وبذل الأموال فأحبوه وضعف أمر العاضد صاحب البلاد ولم يبق له إلا الاسم ثم أرسل يوسف إلى نور الدين يطلب أن يرسل إليه إخوته وأهله فأرسلهم إليه وشرط عليهم طاعته والقيام بأمره ومساعدته وكلهم فعل ذلك وأخذ إقطاعات الأمراء المصريين فأعطاها أهله والأمراء الذين معهم وزادهم فازدادوا حباً له وطاعة لأمره وكان يوم ولاية صلاح الدين يوماً مشهوداً جداً. قال أبو شامة. كانت الخلعة التى لبسها صلاح الدين يوم ولايته عمامة بيضاء وثوباً دمبيقياً بطراز ذهب وجبة بطراز ذهب وطيلساناً مطرزاً بذهب وعقد جوهر بعشرة آلاف دينار وسيفاً محلى بخمسة آلاف دينار وحجراً بثمانية آلاف دينار وعليه سرج ذهب وسرسار ذهب مجوهر وفى رأسه مائتا حبة جوهر وفى قوائمه أربعة عقود جوهر وفى رأسه قبعة بذهب شديدة البياض بأعلام بيض ومع الخلعة عدة بقج وخيل وأشياء أخر ومنشور الوزارة مكتوب فى ثوب أطلس أبيض وكان ذلك يوم الاثنين الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين قال: وكان يوماً مشهوداً وارتفع قدر صلاح الدين بالديار المصرية واستلفت إليه القلوب وخضعت له النفوس واضطهد العاضد فى أيامه غاية الاضطهاد اهـ.

فلما كانت سنة خمس وستين حاصر الفرنج مدينة دمياط خمسين يوماً فقاتلهم صلاح الدين حتى أجلاهم وجعل صلاح الدين يأمر وينهى ويتصرف فى الأمور لا رادَّ لكلمته ولا أمر فوق أمره والعاضد فى قصره محجور عليه لا يعرف من أحوال البلاد شيئاً ولا يدرى ما هى عليه فكان نور الدين صاحب دمشق إذا خاطب صلاح الدين يوسف لا يخاطبه مع ذلك إلا بالأمير الاسفهلار ويكتب علامته على رأس الجواب تعظيماً عن أن يكتب اسمه وكان لا يفرده بكتاب بل يكتب الأمير الاسفهلار صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا وأرسل نور الدين إلى صلاح الدين بعد أن ضعف أمر العاضد وانحطت كلمته يأمره أن يخطب للخليفة المستنجد العباسى بمصر لأن الخليفة بعث يعاتبه فى ذلك ويطلب إعادة الخطبة إليه كما كانت قبل العلويين فأخذ صلاح الدين من هذا الحين فى تذليل العاضد والتضييق عليه فى جميع أموره واشتد عليه شدّة بالغة فشكى العاضد من ذلك وراسل صلاح الدين وعاتبه فلم يلتفت إليه فكبر الأمر على من بالقصر واتفق مؤتمن الخلافة وهو خصى كان بقصر العاضد إليه الحكم فيه والتقدم على جميع من يحويه مع جماعة من المصريين على مكاتبة الفرنجة واستدعائهم إلى البلاد والتقوى بهم على صلاح الدين ومن معه وسيروا الكتب مع رجل يثقون إليه وأقاموا ينتظرون

جوابه فسار ذلك القاصد إلى البئر البيضاء فلقيه إنسان تركمانى فرأى معه نعلين جديدين فأخذهما منه وقال فى نفسه لو كان مما يلبسه هذا الرجل لكانا خلقين فإنه رث الهيئة وارتاب فيه وفيهما فأتى به إلى صلاح الدين ففتقهما فرأى الكتب فيهما فقرأها وسكت عليه وكانت رغبة مؤتمن الخلافة أن يحرك الفرنجة إلى الديار المصرية فإذا وصلوا إليها وخرج صلاح الدين فى العسكر لقتالهم ثار مؤتمن الخلافة بمن معه من المصريين على متخلفيهم فيقتلونهم ثم يخرجون بأجمعهم يتبعون صلاح الدين فيأتون من وراء ظهره والفرنجة من بين يديه فلا تبقى لهم باقية فلما قرأ صلاح الدين الكتاب سأل عن كاتبه فقيل إنه رجل يهودى فأحضره فأمر بضربه وتقريره فابتدأ وأسلم وأخبره بالخبر وأخفى صلاح الدين الحال واستشعر مؤتمن الدولة بما جرى فلازم القصر ولم يخرج منه خوفاً من صلاح الدين، وصلاح الدين لايظهر له شيئاً من الطلب لئلاً ينكر ذلك، فلما طال الأمر خرج من القصر إلى قرية تعرف بالخرقانة للتنزه فلما علم به صلاح الدين أرسل إليه جماعة فأخذوه وقتلوه وأتوا برأسه، ثم عزل جميع الخدم الذين يتولون أمر القصر واستعمل على الجميع بهاء الدين قراقوش وهو خصى أبيض فكان لا يجرى فى القصر صغيرة ولا كبيرة إلا بأمره فغضب السودان لتقل مؤتمن الخلافة واجتمعوا فزادت عدتهم على خمسين ألفاً وقصدوا حرب الأجناد الصلاحية فاجتمع العسكر أيضاً وانتشبت الحرب بين القصرين وكثر القتل بين الفريقين وكاد يتم الظفر بالسودان وظهرت هزيمة الأجناد الصلاحية فأرسل صلاح الدين فى الحال إلى محلة السودان المعروفة بالمنصورة فأحرقها على أموالهم وعيالهم فلما جاءهم الخبر بذلك ولوا منهزمين فركبهم السيف وأخذت عليهم أفواه السكك فطلبوا الأمان بعد أن كثر فيهم القتل فأجيبوا إلى ذلك وأخرجوا من مصر إلى الجيزة فعبر إليهم شمس الدولة أخو صلاح الدين الأكبر فى طائفة من عسكره فأبادهم بالسيف ولم يبق منهم إلا الشديد ولم يراع لهم ذمة ولا عهداً وذلك سنة أربع وستين فكانت هذه الواقعة من الوقائع التى تمكنت بها سلطنة صلاح الدين وعلت كلمته.

واشتد خوف الفرنجة بالشام من تملك أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين لمصر فقاموا فى سنة خمس وستين وخمسمائة وكاتبوا إخوانهم بصقلية والأندلس وغيرهما يستنجدونهم، يعرفونهم ما يتجدد من ملك الترك لمصر وأرسلوا جماعة يستنهضونهم فأمدوهم بالمال والرجال والسلاح واستعدوا للنزول على دمياط فلما عزموا على الرحيل كان أسد الدين قد مات كما تقدم وملك صلاح الدين فاجتمعوا عليها

وحصروها وضيقوا على من بها فأرسل إليها صلاح الدين العساكر فى النيل وحشد فيها كل من عنده وأمدهم بالأموال والسلاح والذخائر وأرسل إلى نور الدين يشكو ما هم فيه من المخافة ويقول إنى إن تأخرت عن دمياط ملكها الفرنجة وإن سرت إليها خلفنى المصريون فى أهلها بالشر وخرجوا عن طاعتى وساروا فى أثرى والفرنجة أمامى فلا يبقى لنا باقية فسير نور الدين العسكر إليه أرسالاً يتلو بعضهم بعضاً ثم سار هو بنفسه إلى بلاد الفرنجة الشامية فنهبها وأغار عليها واستباحها فوصلت الغارات إلى ما لم تكن تبلغه قبل خلو البلاد من ممانع فلما رأى الفرنجة تتابع العساكر إلى مصر ودخول نور الدين إلى بلادهم ونهبها وتخريبها رجعوا ولم يظفروا بشىء وكان مدة مقامهم على دمياط خمسين يوماً وأخرج فيها صلاح الدين من الأموال ما لا يكاد يدخل تحت الحصر، حكى أنه قال: ما رأيت أكرم من العاضد أرسل إلىَّ مرة لمقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها وأرسل صلاح الدين إلى نور الدين والخليفة المستنجد بالله العباسى يعلمهما بأنه على عزم إعادة الخطبة إلى المستنجد بديار مصر ففرح الخليفة المستنجد وأرسل إلى نورالدين يستحثه على ذلك وظل المستنجد يتصرف فى الخلافة ويدبر أمرها جهد الاستطاعة حتى وافته المنية فى الثامن من ربيع الآخر سنة ست وستين وخمسمائة هجرية يقال إن سبب موته أنه مرض واشتد عليه المرض وكان قد خافه أستاذ الدار عضد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء وقطب الدين قايماز القتفوى وهو حينئذ أكبر أمير فى بغداد فلما اشتد مرض الخليفة اتفقا ووصيا الطبيب على أن يصف له ما يؤذيه فوصف له دخول الحمام فامتنع لضعفه فأدخلوه هم قهراً وأغلقوا عليه بابه فمات وقيل إن الخليفة كتب إلى وزيره مع طبيبه ابن صفية يأمره بالقبض على أستاذ الدار وقطب الدين وصلبهما فاجتمع ابن صفية بأستاذ الدار وأعطاه خط الخليفة فقال له تعود وتقول إننى أوصلت الخط إلى الوزير ففعل ذلك وحضر أستاذ الدار وقطب الدين ويزدن وأخوه تنامش وعرض الخط عليهم فاتفقوا على قتل الخليفة فلم يكن بأسرع من أن دخل عليه يزدن ومعه قايماز الحميدى فحملاه إلى الحمام وهو يستغيث وألقياه وأغلقا الباب عليه وهو يصيح إلى أن مات ، وكان بين وزير الخليفة أبى جعفر ابن البلدى وبين أستاذ الدار وقطب الدين عداوة مستحكمة لأن المستنجد بالله كان يأمر الوزير بأشياء تتعلق بهما فيفعلها فكانا يظنان أنه هو الذى يسعى بهما فلما مرض الخليفة وأرجف بموته ركب الوزير ومعه الأمراء والأجناد وغيرهم بالعدد فلم يتحقق عنده خبر موته فأرسل إليه عضد الدين يقول إن أمير المؤمنين قد خف ما به

من المرض وأقبلت إليه العافية فخاف الوزير أن يدخل دار الخلافة بالجند فربما أنكر عليه ذلك فعاد إلى داره وتفرق عنه الناس وكان عضد الدين أستاذ الدار وقطب الدين قد استعدا للهرب لما ركب الوزير خوفاً منه إن دخل الدار أن يأخذهما فلما عاد أغلق أستاذ الدار أبواب الدار وأظهروا وفاة المستنجد وأحضر هو وقطب الدين أبا محمد الحسن ابن الخليفة المستنجد وبايعاه بالخلافة ولقباه المستضئ بنور بالله وشرطا عليه شروطاً أن يكون عضد الدين وزيراً وابنه كمال الدين أستاذ الدار وقطب الدين أمير العسكر فأجابهم إلى ذلك فبايعه بعد ذلك أهل بيته البيعة الخاصة يوم توفى أبوه وبايعه الناس من الغد فى التاج البيعة العامة وعلم الوزير ابن البلدى بما جرى فسقط فى يده وقرع سنه ندماً على ما فرط من عوده وأتاه من يستدعيه للجلوس للعزاء والبيعة للمستضىء فمضى إلى دار الخلافة فلما دخلها صرف إلى موضع ثم دخل عليه جماعة فقتلوه وقطعوه قطعاً وألقوه فى دجلة وأخذوا جميع ما فى داره فرأوا فيها خطوط المستنجد بالله يأمره فيها بالقبض على أستاذ الدار وقطب الدين وخط الوزير قد راجعه فى ذلك وصرفه عنه فلما وقفا عليها عرفا براءته مما كان يظنان فيه فندما على تفريطهما فى قتله.

وكان المستنجد بالله من أحسن الخلفاء سيرة مع الرعية عادلاً شهماً كثير الرفق بهم شديدًا على أهل العبث والفساد والسعاية بالناس، قال صاحب الكامل: بلغنى أنه قبض على إنسان كان يسعى بالناس فأطال حبسه فشفع فيه بعض أصحابه المختصين بخدمته وبذل عنه عشرة آلاف دينار فقال أنا أعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر لى إنساناً آخر مثله لأكف شره عن الناس ولم يطلقه قال وردَّ كثيراً من الأموال إلى أصحابها وقبض على القاضى ابن المرخم وقد أخذ منه مالاً كثيراً فأعاده إلى أصحابه وكان ابن المرخم ظالماً جائراً فى أحكامه ا هـ.

ومات فى خلافة المستنجد آخر ستودولو بطرك الاسكندرية فكانت مدته ثلاثين سنة كلها إحن وشدائد وكان موته بكنيسة المعلقة بقصر الشمع بفسطاط مصر فبقى الكرسى خالياً مدة اثنين وسبعين يوماً ثم أقيم بعده كيرولس الثانى وهو سابع ستيهم كان حبيساً بصومعة سنجار واسمه جرجس من أهل أقلامه فأقام أربع عشرة سنة وثلاثة أشهر ونصفاً لم يقع فيها من الحوادث شىء يذكر ومات بكنيسة المختار من جزيرة مصر المعروفة بالروضة وهو أول من عمل الكسوة البطريكية من ديباج أزرق

مائة وأربعة وعشرين يوماً ثم أقيم خائل وهو ثامن ستيهم وأصله من بلدة سخا وكان حبيساً بصومعة سنجار وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

(الفصل الثالث والثلاثون)

(فى خلافة المستضىء بنور الله بن المستنجد)

ثم قام بالأمر بعد المستنجد أبو الحسن على المستضئ بنور الله بويع له بالخلافة يوم موت أبيه فى ثامن ربيع الثانى سنة ست وستين وخمسمائة هجرية أى سنة سبعين ومائة وألف ميلادية وخطب له باليمن والديار المصرية وقد كانت الخطبة العباسية منقطعة منها من زمن المطيع كما تقدم الكلام وكان صلاح الدين يوسف قد شرع من أيام المستنجد فى تمهيد الخطبة لبنى العباس فقطع الأذان بحىّ على خير العمل من ديار مصر كلها وعزل قضاة مصر لأنهم كانوا شيعة وولى أقضى القضاة بها صدر الدين بن درباس الشافعى واستناب فى سائر الأعمال شافعية فلما كانت سنة سبع وستين أمر صلاح الدين بإقامة الخطبة لبنى العباس بمصر أو جمعة من المحرم وبالقاهرة فى الجمعة الثانية فكان ذلك يوماً مشهوداً قالوا: والعجب إن أول من خطب للمعز حين أخذت مصر عمر بن عبد السميع الخطيب بجامع عمرو وبجامع ابن طولون فكان أول من خطب لبني العباس هذه النوبة شريف علوى يقال له: محمد بن الحسن بن أبى الضياء البعلبكى وسير صلاح الدين الخبر بذلك إلى نور الدين فأرسل نور الدين إلى الخليفة المستضئ يعلمه بذلك فزينت بغداد وأغلقت الأسواق وعملت القباب وفرح المسلمون فرحاً عظيماً قال ابن الجوزى: وقد ألفت فى ذلك اليوم كتاباً سميته النصر على مصر، وكتب العماد الكاتب صلاح الدين إلى نور الدين صاحب دمشق يبشره بذلك:

قد خطبنا للمستضىء بمصر نائب المصطفى إمام العصر

فى أبيات قد أضربنا عن إيرادها هنا صفحا، وقال بعض شعراء بغداد فى ذلك أبياتاً كثيرة منها:

ليهنك يا مولاى فتح تتابعت إليك به خوص الركائب توجف
أخذت به مصراً وقد حال دونها من الترك ناس فيهم الحق يقذف
فعادت بحمد الله باسم إمامنا تتيه على كل البلاد وتشرف

ولا غرو أن ذلت ليوسف مصره   وكانت إلى عليائه تتشوّف
تملكها من قبضة الكفر يوسف   وخلصها من عصبة الرفض يوسف
كشفت بها عن آل هاشم سبأ   وعارا أبى إلا بسيفك يكشف

وهى طويلة . قال صاحب حسن المحاضرة: قال أبو شامة: أنشدت هذه القصيدة للخليفة قبل موته عند تأويل منام رؤى فى هذا المعنى وأراد بيوسف الثانى الخليفة المستنجد فلم يخطب إلا لولده المستضىء فجرى الفال باسم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب قال صاحب الكامل: عند ذكر حوادث سنة سبع وستين وخمسمائة، وفى هذه السنة فى ثانى جمعة من المحرم قطعت خطبة العاضد لدين الله أبى محمد الإمام عبد الله بن يوسف بن الحافظ لدين الله أبى الميمون عبد المجيد بن أبى القاسم محمد بن المستنصر بالله أبى تميم معد بن الظاهر لإعزاز دين الله أبى الحسن على بن الحاكم بأمر الله أبي عليّ المنصور بن نزار بن المعز لدين الله أبى تميم معد بن المنصور بالله أبى القاهر إسماعيل بن القائم بأمر الله أبى القاسم محمد بن المهدى بالله أبى محمد عبيد الله وهو أول العلويين من هذا البيت الذين خطب لهم بالخلافة وخوطبوا بإمرة أمير المؤمنين ، وكان السبب فى إعادة الخطبة العباسية بمصر أن صلاح الدين يوسف بن أيوب لما ثبت قدمه بمصر وأزال المخالفين له وضعف أمر الخليفة العاضد وصار يحكم فى قصره صلاح الدين ونائبة قراقوش الخصى وهو من أعيان الأمراء الأسدية كلهم يرجعون إليه فكتب إليه نور الدين محمد بن زنكى يأمره بقطع الخطبة العاضدية وإقامة الخطبة المستضيئية فامتنع صلاح الدين واعتذر بالخوف من قيام أهل الديار المصرية عليهم لميلهم إلى العلويين وكان صلاح الدين يكره قطع الخطبة لهم ويريد بقاءهم خوفاً من نور الدين فإنه كان يخاف أن يدخل إلى الديار المصرية فيأخذها منه فكان يريد أن يكون العاضد معه حتى إذا قصده نور الدين امتنع به وبأهل مصر عليه. قال: فلما اعتذر إلى نور الدين بذلك لم يقبل عذره وألح عليه بقطع خطبته وألزمه إلزاماً لا فسحة له فى مخالفته وكان على الحقيقة نائب نور الدين واتفق أن العاضد مرض فى هذا الوقت مرضاً شديداً فلما عزم صلاح الدين على قطع خطبته استشار أمراءه فمنهم من أشار به ولم يفكر فى المصريين ومنهم من خافه إلا أنه لم يمكنه إلا الامتثال لأمر نور الدين وكان قد دخل إلى مصر إنسان أعجمى يعرف بالأمير العالم رأيته أنا بالموصل فلما رأى ما هم فيه من الإحجام وأن أحداً لا يتجاسر يخطب للعباسى قال: أنا أبتدئ بالخطبة له فلما كان أول جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب ودعا

للمستضىء ففعلوا ذلك فلم ينتطح فيه عنزان وكتب بذلك إلى سائر بلاد مصر ففعلوا وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أحد من أهله ولا من أصحابه بقطع الخطبة وقالوا: إن عوفى فهو يعلم، وإن توفى فلا ينبغى أن نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته فتوفى يوم عاشوراء ولم يعلم بقطع الخطبة، فلما توفى جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصر الخلافة وعلى جميع ما فيه فحفظه بهاء الدين قراقوش الذى كان رتبه قبل موت العاضد فحمل الجميع إلى صلاح الدين وكان من كثرته يخرج عن الإحصاء وفيه من الأعلاق النفيسة والأشياء الغريبة ما تخلو الدنيا عن مثله ومن الجواهر التى لم توجد عند غيرهم فمنه الحبل الياقوت وزنه سبعة عشر درهما أو سبعة عشر مثقالاً قال: أنا لا أشك فإننى رأيته ووزنته واللؤلؤ الذى لم يوجد مثله ومنه النصاب الزمرد الذى طوله أربع أصابع فى عرض عقد كبير ووجد فيه طبل كان بالقرب من موضع العاضد وقد احتاطوا بالتحفظ عليه فلما رأوه ظنوه عمل لأجل اللعب به فسخروا من العاضد فأخذه إنسان فضرب به فضرط فتضاحكوا منه ثم آخر كذلك، وكان كل من ضرب عليه يضرط فألقاه أحدهم فكسره فإذا الطبل عمل لأجل القولنج فندموا على كسره لما قيل لهم ذلك. **قلت**: وهو موضع للنظر، قال: وكان فيه من الكتب النفيسة المعدومة المثال ما لايعد فباع بعض من فيه من أمة وعبد وأعتق البعض ووهب البعض وخلا القصر من سكانه كأن لم يغن بالأمس فسبحان الحى الدائم الذى لايزول ملكه ولا تغيره الدهور ولا يقرب النقص حماه ولما اشتد مرض العاضد أرسل إلى صلاح الدين يستدعيه فظن ذلك خديعة فلم يمض إليه فلما توفى علم صدقه فندم على تخلفه عنه وكان يصفه كثيراً بالكرم ولين الجانب وغلبة الخير على طبعه وانقياده، وكان فى نسبه تسعة خطب لهم بالخلافة وهم الحافظ والمستنصر والظاهر والحاكم والعزيز والمعز والمنصور والقائم والمهدى، ومنهم من لم يخطب له بالخلافة وهو أبوه يوسف بن الحافظ وجد أبيه وهو الأمير أبو القائم محمد بن المستنصر ويقى من خطب له بالخلافة وليس من آبائه: وهم المستعلى والآمر والظافر والفائز وجميع من خطب له منهم بالخلافة أربعة عشر خليفة منهم بأفريقية المهدى والقائم والمنصور والمعز إلى أن سار إلى مصر، ومنهم بمصر المعز المذكور وهو أول من خرج إليها من أفريقية والعزيز والحاكم والظاهر والمستنصر والمستعلى والآمر والحافظ والظافر والفائز والعاضد ومدة حكمهم من حين ظهور المهدى بسلجماسة فى ذى الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين إلى أن مات العاضد مائتان واثنتان وسبعون سنة وشهر تقريباً وهذا دأب الدنيا لم تسكن إلا

اضطربت ولم تعط إلا استلبت ما وهبت ولم تحل إلا وتمررت ولم تصف إلا وتكدرت بل صفوها لا يخلو من الكدر وكدرها قد يخلو من الصفو. نسأل الله تعالى أن يقبل بقلوبنا إليه ويرينا الدنيا حقيقة ويزهدنا فيها ويرغبنا فى الآخرة إنه سميع الدعاء قريب من الإجابة قال ابن خلكان: سمعت جماعة من المصريين يقولون إن هؤلاء القوم يريدون العبيديين فى أوائل دولتهم قالوا لبعض العلماء اكتب لنا ألقاباً فى ورقة تصلح للخلفاء حتى إذا تولى واحد منا لقبوه ببعض تلك الألقاب فكتب لهم ألقاباً وآخر ما كتب فى الورقة العاضد فاتفق أن آخر من ولى منهم العاضد أهـ.

قال ابن الأثير: ومن الغريب أن العاضد فى اللغة: القاطع، وفى الحديث: لا يعضد شجرها فبالعاضد قطعت دولة بنى عبيد، قلت وزالت من ديار مصر وانمحت آثارها وقامت مكانها الدولة الأيوبية.

ولما وصلت البشائر إلى بغداد بإعادة الخطبة للخليفة العباسى كما سبقت الإشارة إلى ذلك سيّر الخليفة الخلع مع عماد الدين صندل وهو من خواص الخدم والمقدمين فى الدولة لنور الدين وصلاح الدين فسار صندل إلى نور الدين وألبسه الخلعة وسيّر الخلعة إلى صلاح الدين بالديار المصرية والأعلام السود ثم أرسل الخليفة إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف كتاب التقليد ولم نحجم عن إيراده هنا مع طوله تتميماً للفائدة قال: أما بعد فإن أمير المؤمنين يبدأ بحمد الله الذى يكون لكل خطبة قياداً، ولكل أمر مهاداً، ويستزيده على نعمته التى جعلت التقوى له زاداً، وحمله أعباء الخلافة فلم يضق عنه طوقا ولم يأل فيه اجتهاداً، وصغر لديه أمر الدنيا فما تسوّرت له محراباً ولا عرضت له جياداً، وحققت فيه قوله تعالى: ﴿**تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا**﴾، ثم يصلى على من أنزلت الملائكة لنصره أمداداً، وأسرى به إلى السماء حتى ارتقى سبعاً شداداً، وتجلى له ربه فلم يزغ منه بصر ولا كذب فؤاداً، ثم من بعده على أسرته الطاهرة التى زكت أوراقاً وأعواداً، وورثت النور المبين بلاداً، ووصفت بأنها آخر الثقلين هداية وإرشاداً، وخصوصاً عمه العباس المدعو له بأن يحفظ نفساً وأولاداً، وأن تبقى كلمة الخلافة فيهم خالدة لا تخاف دركاً ولا تخشى نفاداً، وإذ استوفى القلم مراده من هذه الحمدلة، وأنبأ القول فيها عن فصاحته المرسلة، فإنه يأخذ فى إنشاء هذا التقليد الذى جعله حليفاً لقرطاسه، واستدام سجوده على صفحته حتى لم يكد يرفع من راسه، وليس ذلك إلا قناصة فى وصف المناقب التى كثرت فحسن لها مقام الإكثار،

واشتبه الطويل فيها بالاختصار وهى التى لا يعزى واصفها إلى القول المعاد، ولم يستوعر سلوك أطوادها ومن العجب وجود السهل فى سلوك الأطواد ، وتلك هى مناقبك أيها الملك الناصر السيد الأجل الكبير العالم العادل المجاهد المرابط صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب والديوان العزيز يتلوها عليك تحدثاً بشكرك، ويباهى أولياءه تنويها بذكرك، ويقول أنت الذى تستكفى فتكون للدولة سهمها الصائب، وشهابها الثاقب، وكنزها الذى تذهب الكنوز وليس بذاهب ، وحاضرها وقد حضرت فى نصرتها إذا كان غيرك هو الغائب ، فاشكر إذا مساعيك التى أهلتك لما أهلتك، وفضلتك على الأولياء بما فضلتك، ولئن شوركت فى الولاء بعقيدة الإضمار، فلم تشارك فى عزمك الذى انتصر للدولة بسطة الانتصار، وفرق بين من أمدّ بقلبه وبين من أمدّ بيده فى درجات الإمداد، وما جعل الله القاعد كالذى قال لو أمرتنا لضربنا أكبادها إلى برك الغماد، وقد كفاك من المساعى أنك كفيت الخلافة أمر منازعيها، وطمست على الدعوة الكاذبة التى كانت تدعيها، ولقد مضى عليها زمن ومحراب حقها محفوف من الباطل بمحرابين ، ورأيت ما رآه رسول الله ﷺ من السوارين اللذين أولهما كذا بين ، فبمصر منهما واحد تجرى أنهارها من تحته ودعا الناس إلى عبادة طاغوته وجبته ، ولعب بالدين حتى لم يدر يوم جمعته من يوم أحده ولا يوم سبته، وأعانه على ذلك قوم رمى الله بصائرهم بالعمى والصمم، واتخذوه صنما ولم تكن الضلالة هناك إلا لعجل أو صنم، فقمت أنت فى وجه باطله حتى قعد ، وجعلت فى جيده حبلاً من مسد ، وقلت ليده تبت فأصبح ولا يسعى بقدم ولا يبطش بيد ، وكذلك فعلت بالآخر الذى نجمت باليمن ناجمته، وسامت فيه سائمته ، فوضع بيته موضع الكعبة اليمانية ، وقال هذا ذو الخلصة الثانية، فأى مقاميك يعترف الإسلام بسبقه، أم أيهما يقوم بأداء حقه، وههنا فليصبح القلم للسيف من الحساد ، ولتقصر مكانته من مكانته وقد كان له من الأنداد ، ولم يحط بهذه المزية إلا أنه أصبح لك صاحباً ، وفخر بك حتى طار فخراً كما عز جانباً، وقضى بولايتك فكان بها قاضياً لما كان حده ماضياً ، وقد قلدك أمير المؤمنين البلاد المصرية واليمنية غوراً ونجداً ، وما اشتملت عليه رعية وجنداً ، وما انتهت إليها أطرافها براً وبحراً ، وما تستنفذه من مجاوريها مسالمة وقهراً ، وأضاف إليها بلاد الشام وما تحتوى عليه من المدن الممدنة ، والمراكز المحصنة ، مستثنياً منها ما هو بيد نور الدين إسماعيل بن نور الدين محمد رحمه الله وهو حلب وأعمالها فقد مضى أبوه عن آثار فى الإسلام ترفع ذكره فى الذاكرين، وتخلفه فى عقبه فى الفائزين،

وولده هذا قد هذبته الفطرة فى القول والعمل، وليست هذه الربوة إلا من ذاك الجبل، فليكن له منك جار تدنو منه وداداً كما دنا أرضاً، وتصبح وهو لك كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً ، والذى قدمناه من الثناء عليك ربما تجاوزتك درجة الاقتصاد، وألقتك عن فضيلة الازدياد، فاياك أن تنظر إلى سعيك نظر الإعجاب، فتقول هذه بلادنا افتتحتها بعد أن أضرب عنها كثير من الأضراب، ولكن اعلم أن الأرض لله ورسوله ثم لخليفته من بعده ، فلا منة للعبد بإسلامه بل المنة لله بهداية عبده ، وكم سلف قبلك ممن لو رام ما رمته لدنا شاسعه ، وأجلب مانعه، لكن ذخره الله لك لتحظى فى الآخرة بمفازه، وفى الدنيا برقم طرازه، فألق بيدك عن هذا القول إلقاء التسليم، وقل لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، وقد قرن تقليدك هذا بخلعة تكون لك فى الإسلام شعاراً، وفى الرسم فخاراً، وتناسب محل قلبك وبصرك، وخير ملابس الأولياء ما ناسب قلوبنا وأبصارنا ، ومن جملتها طوق يوضع فى عنقك موضع العهد والميثاق، ويشير إليك بأن الإنعام قد أطاف بك إطافة الأطواق بالأعناق، ثم إنك خوطبت بالملك وذلك خطاب يفضى لصدرك بالانشراح، ولأملك بالانفساح، وتؤمر معه بمدّ يدك العليا لا تضعها إلى الجناح، وهذه الثلاثة المشار إليها هى التى تكمل بها أقسام السيادة، وهى التى لا مزيد عليها فى الإحسان فيقال إنها الحسنى وزيادة، فإذا صارت إليك فانصب لها يوماً يكون فى الأيام كريم الأنساب، واجعله لها عيداً وقل هذا عيد الخلعة والتقليد والخطاب، هذا ولك عند أمير المؤمنين مكانة تجعله لك حاضراً وأنت ناء عن الحضور، وتضن أن تكون مشتركة بينك وبين غيرك والضنة من شم الغيور ، وهذه المكانة قد عرّفتك نفسها وما كنت تعرفها ، وما تقول إلا أنها لك صاحبة وأنت يوسفها ، فاحرسها عليك حراسة تقضى بتقديمها ، واعمل لها فإن الأعمال بخواتيمها، واعلم أنك تقلدت أمراً يفتتن به التقى الحلوم، ولاينفك صاحبه عن عهدة الملوم ، وكثيرا ما ترى حسناته يوم القيامة وهى منقسمة بأيدى الخصوم، ولا ينجو من ذلك إلا من أخذ أهبة الحذار، وأشفق من شهادة الأسماع والأبصار، وعلم أن الولاية ميزان إحدى كفتيه فى الجنة والأخرى فى النار، قال النبى ﷺ : «يا أبا بكر إنى أحب لك ما أحبه لنفسى لا تؤمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم» فانظر إلى هذا القول النبوى نظر من لم يخدع بحديث الحرص والآمال ، ومثل الدنيا وقد سيقت إليك بحذافيرها أليس مصيرها إلى الزوال، والسعيد من إذا جاءته قضى بها أرب الأرواح لا أرب الجسوم ، واتخذ منها وهى السم دواء وقد تتخذ الأدوية من السموم، وما

الاغتباط بما يختلف على تلاشيه المساء والصباح ، وهو كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح ، والله يعصم أمير المؤمنين وولاة أمره من تبعاتها التى لابستهم ولابسوها ، وأحصاها الله ونسوها ، ولك أنت من هذا الدعاء حظ على قدر محلك من العناية التى جذبت بضبعك ، ومحلك من الولاية التى بسطت من ذرعك، فخذ هذا الأمر الذى تقلدته أخذ من لم يتعقبه بالنسيان، وكن فى رعاية من إذا نامت عيناه كان قلبه يقظان، وملاك ذلك كله فى إسباغ العدل الذى جعله الله ثالث الحديث والكتاب، وأغنى بثوابه وحده عن أعمال الثواب، وقدّر يومنا منه بعباده ستين عاماً فى الحساب، ولم يأتمر به أمير إلا زيد قوة فى أمره، وتحصن به من عدوه ومن دهره ، وثم يجاء به يوم القيامة وفى يده كتاب أمان، ويجلس على منبر من نور على يمين الرحمن، ومع هذا فإن مركبه صعب لا يستوى على ظهره إلا من أمسك عنان نفسه قبل عنانه، وغلبت لمة ملكه على لمة شيطانه، ومن أكبر فروضه أن تمحى السير السيئة التى طالت مدد أيامها، وأيس الرعايا من رفع ظلاماتها فلم يجعلوا أمداً لانحسار ظلامها، تلك السير هى المكوس التى أنشأتها الهمم الحقيرة، ولا غنى للايدى الغنية إذا كانت ذات نفوس فقيرة، وكلما زيدت الأموال الحاصلة منها قدراً زادها الله محقاً ، وقد استمرت عليها العوائد حتى ألحقها الظالمون بالحقوق الموجبة فسموها حقاً، ولولا أن صاحبها أعظم الناس جرماً لما أغلظ فى عقابه، وقبلت توبة المرأة الغامدية بمتابه، وهى أشقى من يكون السواد الأعظم له خصماً، ويصبح وهو مطالب بما يعلم وبما لم يحط به علماً ، وأنت مأمور بأن تأبى هذه الظلامات فتنهى عن إجرائها ، وتلحق أسماءها فى المحو وإهمالها ، حتى لايبقى لها فى العيان صورة منظوره، ولا فى الألسنة أحاديث مذكوره، وإذا فعلت ذلك أزلت عن الماضى سنة سوء سنتها يداه فبادر إلى ما أمرت به مبادرة من يضيق به ذراعاً ، ونظر إلى الحياة الدنيا بعينها فرآها فى الآخرة متاعاً، وأحمد الله على أن قيض لك إماما مهديا يقف بك على هداك، ويأخذ بحجزتك عن خطوات الشيطان الذى هو أعدى عداك، وهذه البلاد المنوطة بنظرك تشتمل على أطراف متباعدة، وتفتقر فى سياستها إلى أيد متساعده، ولهذا يكثر بها قضاة الأحكام ، وأولو تدبيرات السيوف والأقلام، وكل من هؤلاء ينبغى أن يفتن على الاختبار، ويسلط عليه شاهد عدل من أمانته الدرهم والدينار ، فما أضل الناس شىء كحب المال الذى فرقت من أجله الأديان ، وهجرت بسببه الأولاد والإخوان، وكثيراً ما يرى الرجل الصائم القائم وهو عابد له عبادة الأوثان ، فإذا استعنت بأحد

منهم على شيء من أمرك فاضرب عليه بالإرصاد، ولاترض بما عرفته من مبدأ حاله فإن الأحوال تنقل بتنقل الأجساد، وإياك أن تخدع بصلاح الظاهر كما خدع عمر بن الخطاب بالربيع بن زياد ، وكذلك تأمر هؤلاء على اختلاف طبقاتهم بأن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر محاسبين، ويعلموا أن ذلك من دأب حزب الله الذين جعلهم الغالبين، وليبدءوا أولا بأنفسهم فيعدلوها عن هواها، ويأمروها بما يأمرون به سواها، ولايكون ممن هدى إلى طريق البر وهو عنها حائد، وانتصب لطب المرضى وهو محتاج إلى طبيب وعائد ، فما تنزل بركات السماء إلا على من خاف مقام ربه، والزم التقوى أعمال يده ولسانه وقلبه ، فإذا صلحت الولاة صلحت الرعية بصلاحهم ، وهم لهم بمنزلة المصابيح ولايستضيء كل قوم إلا بمصابيحهم ، ومما يؤمرون به أن يكونوا لمن تحت أيديهم إخوانا فى الأصحاب وجيرانا فى الاقتراب، وأعواناً فى توزع الحمل الذى يثقل على الرقاب ، فالمسلم أخو المسلم وإن كان عليه أميراً، وأولى الناس باستعمال الرفق من كان فضل الله عليه كبيراً ، وليست الولاية لمن يستنجد بها كثرة اللفيف ، ويتولاها بالوطء العنيف ، ولكنها لمن يمال عن جوانبه، ويؤكل من أطايبه، ولمن إذا غضب لم ير للغضب عنده أثر، وإذا ألحف فى سؤاله تخلق بخلق الضجر ، وإذا حضر الخصوم بين يديه عدل بينهم فى قسمة القول والنظر ، فذلك الذى يكون صاحبه فى أصحاب اليمين ، والذى يدعى بالحفيظ العليم والقوى الأمين، ومن سعادة المرء أن تكون ولاته متأدبين بآداب، وجارين على نهج صوابه، وإذا تطايرت الكتب يوم القيامة كانوا حسنات مثبتة فى كتابه ، وبعد الوصية فإن ههنا حسنة للحسنات كالأم للولد ولطالما أغنت عن صاحبها إغناء الجود ، وتيقظت لنصره والعيون رقود ، وهى التى تسعى لها اللالاء، ولايتخطاها البلاء، ولأمير المؤمنين عناية يتبعها الرحمة الموضوعة فى قلبه ، والرغبة فى المغفرة والرحمة لما تقدم وتأخر من ذنبه ، وتلك هى الصدقة التى فضل الله بعض عباده بمزية أفضالها، وجعلها سبباً إلى التعويض عنها بعشر أمثالها، وهو يأمرك أن تتفقد أحوال الفقراء الذين قدرت عليهم مادة الأرزاق، وألبسهم التعفف ثوب الغنى وهم فى ضيق من الإملاق ، فأولئك أولياء الله الذين مستهم الضراء فصبروا، وكثرت الدنيا فى يد غيرهم فما نظروا إليها إذا نظروا ، وينبغى لك أن تهيئ لهم من أمرهم مرفقاً ، وتضرب بينهم وبين الفقر موبقا، وما أطلنا لك القول فى هذه الوصية إلا إعلاماً بأنها من المهم الذى يستقبل ولا يستدبر، ويستكثر منه ولا يستكبر، وهذا يعد من جهاد النفس فى بذل المال، ويتلوه جهاد العدو الكافر فى

مواقف القتال ، وأمير المؤمنين يعرفك من ثوابه بما يجعل السيف فى ملازمته أخاً ، وتسخو له بنفسك إن كان أحد بنفسه سخا، ومن صفاته أنه العمل المصحوب بفضل الكرامة ، الذى ينمو أجره بعد صاحبه إلى يوم القيامة، وبه يمتحن طاعة الخالق على المخلوق، وكل الأعمال عاطلة لا خلوق لها وهو المختص دونها بزينة الخلوق ، ولولا فضله لما كان محسوباً بشطر الإيمان ، ولما جعل الله الجنة ثمناً وليست لغيره من الأثمان ، وقد علمت أن العدو هو جارك الأدنى ، والذى يبلغك وتبلغه عينا وأذنا ، ولتكن للإسلام نعم الجار ، حتى لايكون له بئس الجار ، ولاعذر لك فى جهاده بنفسك ومالك إذا قامت لغيرك الأعذار ، وأمير المؤمنين لا يرضى منك بأن تلقاه مصافحاً ، أو تطرق أرضه مماسياً أو مصابحاً ، بل يريد أن تقصد البلاد التى فى يد عدوّه قصد المغير ، وأن تحكم فيها بحكم الله الذى قضاه على لسان سعد فى بنى قريظة والنضير ، وعلى الخصوص البيت المقدس فإنه بلد السلام القديم ، وأخو البيت الحرام فى الشرف والتعظيم ، والذى توجهت إليه الوجوه من قبل بالسجود والتسليم وقد أصبح وهو يشكو طول الوحشة فى غربتها عنه وغربته فأنهض إليه نهضة تتوغل فى قرعه وتبدل صعب قياده بسمحه ، وإن كان له عام حديبية فأتبعه بعام فتحه ، وهذه الاستزادة بعد سداد ما فى اليد من ثغر كان مهملاً فحميت موارده ، أو مستهدماً فرفعت قواعده ، ومن أهمها ما كان حاضر البحر كأنه أعمى عورته مكشوفة، وخطته مخوفة، والعدو قريب منه على بعده ، وكثيراً ما يأتيه فجأة حتى يثق برقه برعده ، فينبغى أن ترتب بهذه الثغور رابطة يكثر شجعانها ، ويقل أقرانها ، ويكون قتالها لأن تكون كلمة الله العليا لا لأنه يرى مكانها ، وحينئذ يصبح كل منها وله من الرجال أسرار ، وتعلم أهله أن نبأ السيف أمنع من نبأ الأخبار ، ومع هذا فلابدّ له من أسطول يكثر عدده ، ويقوى مدده ، فإنه العمدة التى تعين على كشف العماء ، والاستكثار من سبايا العبيد والإماء ، وجيشه أخو الجيش السليمانى فذاك يسرى على متن الريح وهذا يجرى على متن الماء ، ومن صفات خيله أنها جمعت بين العوم والمطار ، وتساوت أقدار خلقتها على اختلاف مدّة الأعمار ، فإذا أسرعت قيل جبال متلفعة بقطع من الغيوم ، وإذا نظر إلى أشكالها قيل أهلة غير أنها تهدى فى مسيرها بالنجوم ، ومثل هذا الخيل ينبغى أن يغالى فى جيادها ، ويكثر من قيادها، وتؤمر عليها أميراً يلقى البحر بمثله من سعة صدره ، ويسلك طرقه سلوك من لم تقتله بجهلها ولكن قتلها بخبره ، وكذلك فليكن ممن أفنت الأيام تجاربه وزاحمتها مناكبه، وممن يذل الصعب إذا هو ساسه وإن سيس لين جانبه ، وهذا هو الرجل

الذى يرأس القوم فلا يجد هزة بالرياسه ، فإن كان فى الساقة ففى الساق أو كان فى الحراسة ففي الحراسة ولقد أفلحت عصابة اعتصبت من ورائه ، وأيقنت بالنصر من رايته كما أيقنت بالنجح من روائه ، واعلم أنه قد أخل من الجهاد بركن يقدح فى علمه وهو تمامه الذى يأتى فى آخره كما أن صدق النية تأتى فى أوله ، وذلك هو قسم الغنائم فإن الأيدى قد تناولته بالإجحاف ، وخلطت جهادها فيه بغلولها فلم ترجع بالكفاف ، والله قد جعل الظلم فى تعدّى حدوده المحدوده، وجعل الاستئثار بالمغنم من أشراط الساعة الموعوده ، ونحن نعوذ به أن يكون زماننا هذا شر زمان والناس به شر ناس ، لا ممن يستخلفنا على حفظ أركان دينه ثم نهمل إهمال مضيع ولا إهمال ناس ، والذى نأمرك به أن تجرى هذا الأمر على المنصوص من حكمه ، وتبرئ من ذمتك مما يكون غيرك الفائز بفوائده وأنت المطالب بإثمه ، وفى أرزاق المجاهدين بالديار المصرية والشامية ما يغنيهم عن هذه الأكلة التى تكون غداً نكالاً وجحيماً ، وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً ، فتصفح ما سطرناه لك من هذه الأساطير التى هى عزائم مبرمات ، بل آيات محكمات ، وتحبب إلى الله وإلى أمير المؤمنين باقتفاء كتابها ، وابن لك بها مجداً يبقى فى عقبك إذا أصيبت البيوت فى أعقابها ، وهذا الذى ينطق عليك بأنه لم يأل فى الوصايا التى أوصاها ، فإنه لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ثم إنه قد ختم بدعوات دعا بها أمير المؤمنين عند ختامه ، وسأل فيها خيرة الله التى تتنزل من أبر منزلة نظامه ، ثم قال إنى أشهدك على ما قلدته شهادة تكون عليه رقيبة وله حسيبة فإنى لم آمره إلا بأوامر الحق التى فيها موعظة وذكرى ، ولمن تبعها هدى ورحمة وبشرى ، وإذا أخذ بها فلج بحجته يوماً يسأل فيه عن الحجج ، ولم يختلج دون رسوله على الحوض فى جملة من يختلج ، وقيل له لا حرج عليك ولا إثم إذا نجوت من ورطات الإثم والحرج والسلام ا. هـ.

وفرح يوسف بهذا التقليد فرحاً لايوصف وأمر فضربوا البشائر وسيرها إلى الآفاق وعملت الولائم والأفراح أياماً وامتدحه الشعراء وتواردت عليه التهانى من أقطار البلاد شرقاً وغرباً فتقوّت عزيمته وثبت جأشه وتاقت نفسه إلى الغزو والجهاد ومنع إغارات الإفرنجة فسير جيشاً إلى بلاد الفرنجة الشامية وسار هو خلف الجيش حتى نزل على أعمال عسقلان فأغار عليها وعلى الرملة وهجم على ربض غزة فنهبه وأتاه ملك الفرنجة فى قلة مسرعين لرده عن البلاد فقاتلهم وهزمهم وأفلت ملك الفرنجة هارباً، ثم عاد صلاح الدين يوسف إلى مصر فعمل مراكب مفصلة وحملها قطعاً على الجمال فى البر وقصد أيلة فجمع قطع المراكب وأنزلها فى الماء وحصر أيلة

براً وبحراً وفتحها عنوة واستباح أهلها وما فيها ثم عاد غانماً إلى مصر فجاءت إليه الأخبار بخروج العرب بالأقاليم القبلية وأنهم عاثوا وأفسدوا وقتلوا ونهبوا فسير لقتالهم أخاه تورانشاه فى عسكر كبير فقاتلهم وقهرهم وسامهم الخسف حتى دخلوا تحت الطاعة وانكفوا عن الفساد وانكمش كبارهم خوفاً من صلاح الدين وبطشه واتسعت كلمة صلاح الدين وطار صيته وأجله ملوك الفرنجة وحسبوا ما وراء ظهوره واتساع كلمته وحسده نور الدين صاحب الشام وكبر عليه ظهوره ، واتفق أن صلاح الدين يوسف سار عن مصر فى صفر سنة سبع وستين وخمسمائة إلى بلاد الفرنجة غازيا ونازل حصون الشوبك وبينه وبين الكرك يوم ليس إلا وحصرها وضيق عليها وشدّد على من بها من طوائف الفرنجة ودام القتال فطلبوا الأمان واستمهلوا عشرة أيام فأجابهم صلاح الدين إلى ذلك فلما سمع نور الدين بما فعله صلاح الدين داخله الريب وحرك فؤاده الحسد فسار على عجل من دمشق قاصداً بلاد الفرنجة أيضاً ليدخل إليها من جهة أخرى فكلم صلاح الدين يوسف أصحابه فى أمر نور الدين ومسيره إلى بلاد الفرنجة فقالوا له: إن دخل نور الدين بلاد الفرنجة على هذا الحال أنت من جانب ونور الدين من جانب ملكها نور الدين ومتى زال الفرنجة عن الطريق وأخذ ملكهم لم يبق لك بديار مصر مقام مع نور الدين وإن جاء نور الدين إليك وأنت ههنا فلابد لك من الاجتماع به وحينئذ يكون هو المتحكم فيك بما شاء إن شاء تركك أو لا فقد لا تقدر على الامتناع عليه والمصلحة الرجوع إلى مصر فأذعن صلاح الدين إلى قولهم وأخذ برأيهم وأمر بالرحيل عن الشوبك مسرعين إلى مصر ولم يأخذ من الفرنجة شيئاً وكتب إلى نور الدين يعتذر باختلال البلاد المصرية لأمور بلغته عن بعض شيعة العلويين فيها وأنهم عازمون على الوثوب بها وأنه يخاف عليها إذا بعد عنها أن يقوم أهلها على من تخلف بها فيخرجوهم وتعود ممتنعة وأطال الاعتذار فلما وصل كتابه إلى نور الدين تغير حاله وتحرك بغضه الذى كان يكتمه على يوسف وعلم أن ذلك من يوسف حيلة ومكر وعزم على قصد مصر وإخراجه عنها وجعل يتهيأ لذلك فسمع صلاح الدين بالخبر فخاف العاقبة وجمع أهله وفيهم أبوه نجم الدين أيوب وخاله شهاب الدين الحارمى ومعهم سائر الأمراء وأعلمهم بما بلغه من عزم نور الدين وحركته إليه واستشارهم فلم يجبه أحد بكلمة فقام تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين فقال إذا جاءنا قاتلناه ومنعناه عن البلاد فوافقه غيره من أهلهم وبالغوا فى القول فتطاول عليهم نجم الدين أيوب وأنكر ذلك واستعظمه وسفه على تقى الدين وأقعده وقال لصلاح الدين أنا أبوك وهذا خالك

شهاب الدين ونحن أكثر محبة لك من جميع من ترى والله لو رأيته أنا وهذا خالك نورالدين لم نمكث إلا أن نقتل بين يديه ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا فإذا كنا نحن هكذا فما بالك بغيرنا وكل من تراه عندك من الأمراء لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسروا على الثبات فى سروجهم وهذه البلاد له ونحن مماليكه ونوابه فيها فإن أراد سمعنا وأطعنا والرأى أن تكتب كتاباً مع نجاب تقول فيه: بلغنى أنك تريد الحركة إلى البلاد فأى حاجة إلى هذا يرسل المولى نجابا يضع فى رقبتى منديلاً ويأخذنى إليك وما ههنا ما يمتنع ، وقام الأمراء وغيرهم وتفرقوا على هذا الحال فلما خلا به أيوب قال له بأى عقل فعلت هذا أما تعلم أن نور الدين إذا سمع عزمنا على منعه ومحاربته جعلنا أهم الوجوه إليه وحينئذ لا تقوى عليه وأما الآن فإذا بلغه ما جرى وطاعتنا له تركنا واشتغل بغيرنا والأقدار تعمل عملها ووالله لو أراد نور الدين قصبة من قصب السكر لقاتلته أنا عليها حتى أمنعه أو أقتل ففعل صلاح الدين يوسف ما أشار به أبوه فترك نور الدين قصده واشتغل بغيره وأرسل صلاح الدين يعتذر إلى نور الدين من نفسه بالحركة على ما يقرّره نور الدين فاستقرت القاعدة بينهما على أن صلاح الدين يخرج من مصر ويسير نور الدين من دمشق لغزو الفرنجة فأيهما سبق صاحبه يقيم إلى أن يصل الآخر إليه وتواعدا على يوم معلوم يكون وصولهما فيه فسار صلاح الدين من مصر فى عسكر عظيم فى شوال من السنة لأن طريقه أبعد وأشق فوصل إلى الكرك وحصره وأما نور الدين فإنه لما وصل إليه كتاب صلاح الدين بخروجه من مصر فرق الأموال وحصل الأزواد وما يحتاج إليه وسار إلى الكرك فوصل إلى الرقيم وبينه وبين الكرك مرحلتان فلما سمع صلاح الدين بقربه خافه هو وجميع أهله واتفق رأيهم على العود إلى مصر وترك الاجتماع بنور الدين لأنهم علموا أنهم إن اجتمعوا به كان عزل صلاح الدين يوسف على نور الدين سهلاً فأمر صلاح الدين جنوده بالرحيل فرحلوا مسرعين وأرسل صلاح الدين الفقيه عيسى إلى نور الدين يعتذر عن رحيله بأنه كان قد استخلف أباه نجم الدين أيوب على مصر وإنه مريض شديد المرض ويخاف أن يحدث حادث الموت فتخرج البلاد من أيديهم وأرسل معه من التحف والهدايا شيئاً كثيراً فجاء الرسول إلى نور الدين وأعلمه بذلك فعظم عليه وعلم المراد من عود صلاح الدين وداخله ما داخله من الغيظ والكدر وعزم على قصد يوسف ، ولما وصل صلاح الدين إلى مصر وجد أن أباه نجم الدين أيوب قد مات وكان سبب موته أنه ركب فرسه يوماً بمصر فبينما هو سائر إذ جفل الفرس فدقه بالأرض دقة شديدة فحملوه إلى داره فلم يلبث إلا

يومين ومات فحزن عليه يوسف وبكاه وأقام بمصر يفكر فيما سيكون من نور الدين بعد تركه إياه فى الكرك وعدم لقائه به فعلم أن نور الدين حانق من ذلك وأنه على عزم الحركة فزاد خوفه وسقط فى يده وجمع أهله، وكلمهم فى الأمر وقال لهم: إن نور الدين على عزم الدخول إلى مصر فاستقر الرأى بينهم على أنهم يملكون بلاد النوبة أو بلاد اليمن حتى إذا وصل إليهم نور الدين لقوه وصدّوه عن البلاد فإن قدروا على منعه أقاموا بمصر وإن عجزوا عن منعه ركبوا البحر ولحقوا البلاد التى افتتحوها فجهز صلاح الدين أخاه شمس الدولة تورانشاه فى عسكر عظيم وسيرّه إلى بلاد النوبة فوصل إلى جزيرة أسوان ثم سار منها إلى قلعة ابريم فحصرها وقاتله أهلها قتالاً شديداً فلم يتغلبوا عليه لأنهم لم تكن لهم جنة تقيهم السهام وغيرها من آلات الحرب فسلموه القلعة فملكها تورانشاه وأقام بها ولم ير فى البلاد شيئاً يرغب فيه وتحتمل المشاق لأجله ثم شق عليه ما لقيه من شظف العيش مع مباشرة الحروب ومعاناة الكروب والخطوب فترك البلاد وعاد إلى مصر بما غنم من الإماء والعبيد.

وظهر لصلاح الدين يوسف أن جماعة من كبار الدولة يريدون الإيقاع به وإعادة ذرية العلويين وذلك أنه كان قد اجتمع جماعة من الشيعة منهم عمارة بن أبى الحسن اليمنى الشاعر وعبد الصمد الكاتب والقاضى العويرس وداعى الدعاة وغيرهم من جند المصريين ورجالهم السودان وحاشية القصر ووافقهم على ذلك جماعة من الأمراء التابعين لصلاح الدين وجنده وتقرّرت القاعدة بينهم على استدعاء الفرنجة من صقلية ومن ساحل الشام إلى مصر على شيء بذلوه لهم من المال والبلاد فإذا قصدوا مصر فإن خرج صلاح الدين بنفسه لقتالهم ثاروا هم فى القاهرة ومصر وأعادوا الدولة العلوية وعاد من معه من العسكر الذين وافقوهم عنه فلا يبقى له مقام مقابل الفرنجة وإن كان صلاح الدين يقيم ويرسل العسكر للقتال ثاروا به وأخذوه باليد لعدم الناصر له وقال لهم عمارة وأنا قد أبعدت أخاه إلى اليمن خوفاً أن يسد مسده وتجتمع الكلمة عليه بعده وأرسلوا إلى الفرنجة وصقلية والساحل فى ذلك وتقررت القاعدة بينهم ولم يبق إلا رحيل الفرنجة وكان جماعة المصريين قد أدخلوا معهم فى هذه المؤامرة زين الدين على بن نجا الواعظ والقاضى المعروف بابن بحية ورتبوا الخليفة من ذرية العلويين والوزير والحاجب والداعى وقاضى القضاة إلا أن بنى رزيك قالوا يكون الوزير منا وبنو شاور والقاضى قالوا يكون الوزير منا وكلاهما من بيت الوزارة بمصر فلما علم ابن نجا الحال دخل على صلاح الدين وأعلمه حقيقة الخبر فأمره بملازمتهم ومخالطتهم ومواطأتهم على ما يريدون فعله وتعريفه ما يتجدّد

أولاً فأولا ففعل وصار يطالعه بكل ما عزموا عليه ثم وصل رسول من بلاد الفرنجة بالساحل بهدية ورسالة وهى فى الظاهر إلى صلاح الدين وفى الباطن إلى أولئك الجماعة وكان يرسل إليهم بعض النصارى وتأتيه رسلهم فأتى الخبر إلى صلاح الدين من بلاد الفرنجة بما كان من سر خصومه فوضع صلاح الدين على الرسول بعض من يثق به من النصارى وداخله فأخبره الرسول بالخبر على الحقيقة فقبض صلاح الدين فى الحال على المقدمين فى هذه الحادثة منهم عمارة وعبد الصمد الكاتب والعويرس وغيرهم وأمر بصلبهم فصلبوا وبقوا كذلك أياما ، وقيل فى كشف أمرهم أيضاً عبارة أخرى وهى أنه كان بين عبد الصمد الكاتب وبين القاضى الفاضل الصلاحى مودّة فكان إذا لقى القاضى يخدمه ويتقرب إليه بجهده وطاقته فلقيه يوماً فلم يلتفت إليه فقال القاضى الفاضل ما هذا إلا لسبب وخاف أن يكون قد صار له باطن مع صلاح الدين فأحضر على بن نجا الواعظ وأخبره بالأمر وقال: أريد أن تكشف لى الأمر فسعى فى كشفه فلم ير له من جانب صلاح الدين شيئاً فعدل إلى الجانب الآخر فكشف الحال وحضر عند القاضى الفاضل وأعلمه فقال: تحضر الساعة عند صلاح الدين وتنهى الحال إليه فحضر عند صلاح الدين وهو فى الجامع وذكر له الحال فقام وأخذ الجماعة وقررهم فأقروا فأمر بصلبهم جميعاً وكان بين عمارة والفاضل عداوة من أيام العاضد وقبلها فلما أراد صلاح الدين صلبه قام القاضى الفاضل وخاطب صلاح الدين فى إطلاقه فظن عمارة أنه يحرض على هلاكه فقال لصلاح الدين: يامولانا لاتسمع منه فى حقى فغضب الفاضل وخرج وقال صلاح الدين لعمارة إنه كان يشفع فيك فندم فأخرج عمارة ليصلب فطلب أن يمر به على مجلس الفاضل فاجتازوا به عليه فأغلق بابه ولم يجتمع به فقال عمارة :

عبد الرحيم قد احتجب　　إن الخلاص هو العجب

ثم صلب هو والجماعة ونودى فى أجناد المصريين بالرحيل من ديار مصر ومفارقتها إلى أقاصى الصعيد وأحيط بمن بالقصر من سلالة العاضد وغيره من أهله ولم يتعرض صلاح الدين للذين نافقوا عليه من جنده ولا أعلمهم أنه علم بحالهم فكانت هذه الحادثة من أعظم الحوادث التى فاز بالخلاص منها صلاح الدين ووقف على خفى أمرها ، ولم يمض بعد ذلك إلا القليل حتى جاءته الأخبار بموت نور الدين محمود بن زنكى بن آق سنقر صاحب الشام وديار الجزيرة ومصر ففرح بموته فرحاً لايوصف ، مات فى يوم الأربعاء الحادى عشر من شوال سنة تسع وستين وخمسمائة بعلة الخوانيق ودفن بقلعة دمشق ثم نقل منها إلى المدرسة التى أنشأها بدمشق عند سوق الخواصين قيل ومن عجيب الاتفاق أنه ركب ثانى شوال وإلى

جانبه بعض الأمراء الأخيار فقال له أحد الأمراء سبحان من يعلم هل نجتمع هنا فى العام المقبل أم لا فقال نور الدين: لا تقل هكذا بل سبحان من يعلم هل نجتمع بعد شهر أم لا فمات نور الدين بعد أحد عشر يوماً ومات الأمير المذكور قبل الحول فأخذ كل منهما بما قال.

وكان قد شرع فى التجهز للدخول إلى مصر لأخذها من صلاح الدين يوسف فإنه رأى منه فتورا فى غزو الفرنجة من ناحيته وكان يعلم أن ما منع صلاح الدين من الغزو سوى الخوف منه ومن الاجتماع به فإن صلاح الدين يؤثر كون الفرنجة فى الطريق ليمتنع بهم على نور الدين فأرسل إلى الجزيرة والموصل وديار بكر يطلب الجند للغزاة وكان عزمه أن يتركها مع ابن أخيه سيف الدين غازى صاحب الموصل والشام ويسير هو بعساكره إلى ديار مصر فيخلع يوسف عنها ويخرجه هو وجميع أهله منها ويستردها لنفسه فبينما هو يتهيأ لذلك أتاه أمر الله الذى لامرد له. قال صاحب الكامل: حكى لى طبيب كان يخدم نور الدين وهو من حذاق الأطباء قال استدعانى نور الدين فى مرضه الذى توفى فيه مع غيرى من الأطباء فدخلنا إليه وهو فى بيت صغير بقلعة دمشق وقد تمكنت الخوانيق منه وقارب الهلاك فلا يكاد يسمع صوته وكان يخلو فيه للتعبد فابتدأ به المرض فلم ينتقل عنه فلما دخلنا ورأينا ما به قلت له: كان ينبغى أن لا تؤخر إحضارنا إلى أن يشتد بك المرض الآن وينبغى أن تعجل الانتقال من هذا الموضع إلى مكان فسيح مضىء فله أثر فى هذا المرض قال: وشرعنا فى علاجه وأشرنا بالفصد فقال ابن ستين: لا يفصد وامتنع عنه فعالجناه بغيره فلم ينجع فيه الدواء وعظم الداء ومات رحمه الله ورضى عنه اهـ.

وكان نور الدين أسمر اللون طويل القامة ليس له لحية إلا فى حنكه وكان واسع الجبهة حسن الصورة حلو العينين وكان قد اتسع ملكه جداً وخطب له بالحرمين وباليمن لما دخلها شمس الدولة بن أيوب وملكها وكان مولده سنة إحدى عشرة وخمسمائة وطبق ذكره الأرض بحسن سيرته وعدله، وبموته قام ابنه الملك الصالح إسماعيل بالملك بعده وكان عمره يومئذ إحدى عشرة سنة وحلف له الأمراء والمقدمون بدمشق وأقام بها وأطاعه الناس بالشام وجاءت الأخبار إلى صلاح الدين بولايته فخطب له بديار مصر وضربت السكة باسمه وتولى تربيته الأمير شمس الدين ابن محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم وصار مدبر دولته فلم يرض به بعض الأمراء بالشام وقال له كمال الدين: إن صاحب مصر من أصحاب نور الدين والمصلحة أن نشاوره فى الذى نفعله ولا نخرجه من بيننا فيخرج عن طاعتنا ويجعل

ذلك حجة علينا وهو أقوى منا لأنه قد انفرد بملك مصر فلم يوافق هذا القول أغراض بعض أمراء الشام لاسيما شمس الدين محمد وخافوا أن يدخل صلاح الدين يوسف فيخرجهم فلم يمض إلا القليل حتى وردت كتب صلاح الدين إلى الملك الصالح يعزيه ويهنئه بالملك وأرسل إليه دنانير مصرية عليها اسمه ويعرفه أن الخطبة والطاعة له كما كانت لأبيه فلما سار سيف الدين غازى صاحب الموصل إلى بلاد الجزيرة وملكها للأسباب التى لم نأت على ذكرها لبعدها عن غرضنا أرسل صلاح الدين يوسف إلى الملك الصالح يعاتبه حيث لم يعلمه بقصد سيف الدين بلاده وأخذها ليحضر فى خدمته ويكف سيف الدين عن أطماعه وكتب أيضاً إلى كمال الدين والأمراء يقول لو أن نور الدين يعلم أن فيكم من يقوم مقامى أو يثق إليه مثل ثقته بى لسلم إليه مصر التى هى أعظم ممالكه وولاياته ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيرى وأراكم قد تفردتم بمولاى دونى فسوف أصل إلى خدمته وأجازى إنعام والده بخدمة يظهر أثرها وأجازى كلا منكم على سوء صنيعه فى ترك الذب عن بلاده.

وتمسك ابن المقدم ومن معه من الأمراء بالملك الصالح وهم يراقبون الأمور وكأنهم كانوا يعلمون بقصد الفرنجة بلاد مصر بناء على طلب جماعة الأمراء الذين كانوا تآمروا على صلاح الدين يوسف فلم يهتموا لجوابه ولا أعاروه أذناً صاغية فلما كانت سنة سبعين وخمسمائة سير صاحب صقيلة إلى الإسكندرية عمارة عظيمة عدتها مائتا سفينة تحمل الرجال وستاً وثلاثين طريدة تحمل الخيل وست مراكب تحمل آلات الحرب وأربعين تحمل الأزواد وفيها من الرجال خمسون ألفا ومن الفرسان ألف وخمسمائة وكان المقدم عليهم ابن عم صاحب صقلية وكان وصول هذه العمارة فى السادس والعشرين من ذى الحجة سنة تسع وستين وخمسمائة على حين غفلة من أهلها فلما شوهدت أمام المدينة خاف الناس خوفاً عظيماً وخرجوا بسلاحهم وعدتهم ليمنعوهم من النزول إلى البر فمنعهم والى الاسكندرية من ذلك وأمرهم بملازمة السور فنزل الفرنجة إلى البر مما يلى الماء والمنارة وتقدموا إلى المدينة ونصبوا عليها الدبابات والمنجنيقات وقاتلوا أشد قتال وصبر لهم أهل البلد وسيرت الكتب فى الحال إلى صلاح الدين يوسف يستدعونه لدفع العدو عنهم ودام القتال من أول النهار إلى آخره ثم أعاد الفرنجة القتال فى اليوم الثانى وجدوا ولازموا الزحف حتى وصلت الدبابات إلى قريب السور ووصل فى ذلك اليوم بعض الجنود المصرية ممن كانوا فى أقطاعهم القريبة من الإسكندرية فتقوت بهم عزائم أهل البلد وفرحوا بوصولهم

وأحسنوا القتال والصبر فلما كان اليوم الثالث فتح أهل الإسكندرية أبواب البلد وقاتلوا الفرنج قتالاً شديداً اليوم كله ثم عادوا إلى البلد فدخلوه وقد قتل منهم خلق كثير، وأما صلاح الدين فإنه لما وصله الخبر خرج بعسكره وسير مملوكاً له ومعه ثلاث جنائب ليجد السير عليها إلى الإسكندرية ويبشر بوصوله وسير طائفة من العسكر إلى دمياط خوفاً عليها واحتياطاً ووصل مملوك صلاح الدين والناس فى شدة ونادى فى البلاد بمجئ صلاح الدين والعسكر مسرعين ففرح الناس بذلك وتقوت نفوسهم وعاودوا القتال وجدوا فتأخر الفرنجة وتقهقروا وقد علموا بقرب وصول صلاح الدين وأنه على ما هو عليه من نفوذ الكلمة وبعد الصيت فأقلعوا بمراكبهم وعادوا إلى صقلية وكفى الله الناس شرهم ، ولم يكن ليطمئن صلاح الدين يوسف برجوع مراكب الفرنجة عن الإسكندرية وكفهم عن قتال أهلها حتى جاءه الخبر من الأقاليم القبلية بخروج (الكنز) أحد المقدمين بالصعيد وأنه اجتمع إليه من أهل البلاد والغوغاء والسودان والعربان وغيرهم خلق كثير جداً فجعل صلاح الدين يتأهب لقتاله وأمر بجمع الجند وآلات الحرب وكان بالأقاليم القبلية أمير من الأمراء الصلاحية فى أقطاعه وهو أخو الأمير أبى الهيجاء السمين فقام عليه الكنز المذكور وقتله ونهب أرزاقه فعظم قتله على أخيه أبى الهيجاء وكان من أكبر الأمراء وأوسعهم شهرة وأشجعهم فى الحروب فسار إلى قتال الكنز وسيّر معه صلاح الدين جماعة من الأمراء وجيشاً كبيراً فلما وصلوا إلى مدينة طود قاتلوا من بها وجدوا فى قتالهم حتى ظفروا بهم وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ثم ساروا بعد فراغهم من طود إلى الكنز وقد عظم أمره واتسعت كلمته وخضع له معظم البلاد فقاتلوه قتالاً شديداً ومازالوا يجدّون فى قتاله حتى قتل هو ومن معه من الأعراب وغيرهم من السود والغوغاء وأمنت بعده البلاد وجاء الخبر بذلك إلى صلاح الدين فأمر بضرب البشائر فإنه كان يخشى من استفحال أمر الكنز وقيام الأقاليم القبلية معه.

ولما صفت لصلاح الدين الأمور تاقت نفسه إلى الغزو والجهاد وفتح المدن والبلدان فجمع عسكراً عظيماً للغاية وتأهب للخروج وبينما هو على هذا الحال إذ وردت إليه الأخبار باختلال الأمور فى دمشق واضطراب الأحوال بها وتطاول أيدى الطامعين إليها وانحطاط كلمة الملك الصالح بن نور الدين صاحب الشام واستقلال الكثير من عماله بأعمالهم وخروج بعض الأمراء عليه واجتماع كلمة بعض أصحاب الكلمة الذين فى خدمة الملك الصالح على استدعاء صلاح الدين يوسف ليملكوه عليهم ويسلموه جميع البلاد وكان مقدمهم فى ذلك شمس الدين بن المقدم فسر

صلاح الدين بذلك وبالغ فى التأهب والاستعداد ثم حصل من الأسباب ما أوجب تأخيره فجاءته الرسل من الشام تستحثه على المسير فلم يلبث أن سار جريدة فى سبعمائة فارس ومعه القاضى الفاضل وبعض الأمراء فلما وطئ أرض الشام قصد بصرى وكان بها حينئذ صاحبها وهو من جملة من كاتب صلاح الدين بالقدوم لأخذ البلاد فلما رأى قلة من كانوا مع صلاح الدين خاف على نفسه واجتمع بالقاضى الفاضل وقال: ما أرى معكم عسكراً وهذا بلد عظيم لا يقصد بمثل هذا العسكر ولو منعكم من به ساعة من النهار أخذكم أهل السواد فإن كان معكم مال سهل الأمر فقالوا هنا مال كثير مقدار خمسين ألف دينار فضرب صاحب بصرى على رأسه وقال: هلكتم وأهلكتمونا وجميع ما كان معهم عشرة آلاف دينار ثم سار صلاح الدين إلى دمشق فما وصل خبر وصوله إلى من بها من العسكر حتى خرجوا جميعاً للقائه وخدموه ودخل البلد ونزل فى دار والده المعروفة بدار العقيقى وكانت قلعة دمشق بيد خادم اسمه ريحان فأحضر صلاح الدين كمال الدين بن الشهرزورى وهو يومئذ قاضى البلد والحاكم فى جميع أموره من الديوان والوقف وغير ذلك وأرسله إلى ريحان المذكور ليسلم القلعة إليه وقال أنا مملوك الملك الصالح وما جئت إلا لأنصره وأخدمه وأعيد البلاد التى أخذت منه إليه فصعد كمال الدين إلى ريحان ولم يزل معه حتى سلم القلعة فصعد صلاح الدين إليها وأخذها وأخذ ما فيها من الأموال وأخرجها إلى دار أبيه واتسع بها وثبتت قدمه وقويت نفسه وهو مع ذلك يظهر طاعة الملك الصالح ويخاطبه بالملك والخطبة والسكة باسمه ومازال بدمشق حتى قرر أمرها واستخلف بها أخاه سيف الإسلام طغدكين بن أيوب ثم سار عنها إلى مدينة حمص وكانت حمص وحماة وقلعة بعرين وسلمية وتل خالد والرها من بلد الجزيرة فى أقطاع الأمير فخر الدين مسعود الزعفرانى ولكنه كان مغلوباً عليها لا كلمة له فيها لسوء سيرته فى أهلها وتغلب ولاة نور الدين عليها وكان بقلعة حمص وال يحفظها فراسل صلاح الدين من بحمص بالتسليم فامتنعوا فقاتلهم فملك البلد وأمن أهلها وامتنعت عليه القلعة فسار عن حمص إلى مدينة حماة بعد أن وكل بحصار من فى القلعة وقطع عنهم الزاد وهو فى جميع أحواله لايظهر إلا الطاعة للملك الصالح بن نور الدين وأنه إنما خرج لحفظ بلاده من الفرنجة واستعادة ما أخذه سيف الدين غازى صاحب الموصل من بلاد الجزيرة فلما وصل إلى حماة ملك المدينة وكان بقلعتها الامير عز الدين جورديك وهو من المماليك النورية فامتنع من التسليم إلى صلاح الدين فأرسل إليه صلاح الدين يعرّفه ما هو عليه من طاعة الملك الصالح

وإنه إنما يريد حفظ بلاده فاستخلفه جورديك على ذلك وسيره إلى حلب فى اجتماع الكلمة على طاعة الملك الصالح وفى إطلاق شمس الدين علىّ وحسن وعثمان أولاد الداية وقد كانوا معتقلين بحلب فسار جورديك إلى حلب واستخلف بقلعة حماة أخاه ليحفظها فلما وصل جورديك إلى حلب قبض عليه كمشتكين وحبسه فلما علم أخوه بذلك خاف وسلم القلعة إلى صلاح الدين فملكها.

وسار صلاح الدين بعيد ذلك يريد أخذ حلب فحصرها وضيق على من بها فقاتله أهلها قتالاً شديداً وركب الملك الصالح وهو صبى وعمره يومئذ اثنتا عشرة سنة وجمع أهل حلب وقال لهم: قد عرفتم إحسان أبى إليكم ومحبته لكم وسيرته فيكم وأنا يتيمكم وقد جاء هذا الظالم الجاحد إحسان والدى إليه يأخذ بلدى ولا يراقب الله تعالى ولا الخلق فهل يرضيكم فعله وهل تطيقون الصبر على ما تكرهون ثم بكى وأعاد عليهم القول وبكى فأبكى الناس فبذلوا له الأموال والأنفس واتفقوا على القتال دونه والمنع من بلده، وجدوا فى القتال وأظهروا من الشجاعة والإقدام ما أعجز صلاح الدين عن التقدم نحو البلد وأرسل سعد الدين إلى سنان مقدم الإسماعيلية وبذل له أموالا كثيرة ليقتلوا صلاح الدين فأرسلوا جماعة منهم إلى عسكره فلما وصلوا رآهم أمير اسمه خمارتكين صاحب قلعة برقيس فعرفهم لأنه جارهم كثير الاجتماع بهم والقتال لهم فلما رآهم قال لهم ما الذى أقدمكم وفى أى شيء جئتم؟ فقاموا عليه وضربوه بالسكاكين فجرحوه جراحات مثخنة وحمل أحدهم على صلاح الدين ليقتله فقتل دونه وقاتل الباقون من الإسماعيلية جماعة ثم قتلوا وتحرز صلاح الدين واشتد تحفظه وبقى محاصراً لحلب إلى سلخ جمادى الآخرة سنة سبعين وخمسمائة ثم رحل عنها مستهل رجب قاصداً حمص لرد الفرنجة عنها حيث كانوا قد حضروا لنجدة أهل حلب وخلاص ما بيد صلاح الدين من البلاد الشامية فلما علم الفرنجة بوصوله إليهم رحلوا عن حمص ووصل صلاح الدين إليها فحصر القلعة إلى أن ملكها وقد كانت ممتنعة عليه كما تقدم ثم سار منها إلى بعلبك وكان الوالى بها من أيام نور الدين خادم اسمه يمن فحصرها صلاح الدين وهم بقتالها فأرسل إليه بمن يطلب الامان له ولمن معه فأمنهم وتسلم القلعة رابع عشرى رمضان من السنة فصار أكثر بلاد الشام بيده وعظم الأمر جداً على الملك الصالح بن نور الدين فكتب إلى ابن عمه سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود يستنجده على صلاح الدين ويخبره بما جرى على بلاده ويطلب أن يعبر إليه ليقصدوا صلاح الدين معاً ويأخذوا البلاد منه فجمع سيف الدين عساكره وكاتب أخاه عماد

الدين زنكى صاحب سنجار لينزل إليه بعساكره فيجتمعوا على المسير إلى الشام فامتنع عماد الدين من ذلك وكان صلاح الدين قد كاتب عماد الدين وأطمعه فى الملك لأنه هو الكبير فحمله الطمع على الامتناع على أخيه. فلما رأى سيف الدين امتناعه جهز أخاه عز الدين مسعوداً فى معظم عسكره وسيّره إلى الشام وجعل المقدم عليه أكبر أمرائه المدعو عز الدين محمود زلفندار وسار هو إلى سنجار فحصرها وقاتلها وجدّ فى قتالها فامتنع أخوه عماد الدين بها وجد فى حفظها والذب عنها فدام الحصار عليها فبينما هو يحاصرها ويضيق على من بها أتاه الخبر بانهزام عسكره الذى مع أخيه عز الدين مسعود من صلاح الدين فراسل حينئذ أخاه عماد الدين وصالحه على ما بيده ورحل إلى الموصل وثبت قدم صلاح الدين بعد هذه الهزيمة وخافه الناس واتسعت شهرته وترددت الرسل بينه وبين سيف الدين غازى على الصلح فلم يستقر حال ، هذا والملك الصالح بن نور الدين يراسل سيف الدين ويطلب حضوره إليه بعسكره ويستحلفه فكبر الأمر على سيف الدين واستعظمه وسيرّ عسكره مع أخيه عزالدين زلفندار إلى حلب ففرح الملك الصالح بوصولهم واجتمع معهم عسكر حلب وساروا كلهم إلى صلاح الدين ليحاربوه فأرسل صلاح الدين إلى سيف الدين يبذل تسليم حمص وحماة وأن يقر بيده مدينة دمشق وهو فيها نائب الملك الصالح فلم يقبل ذلك وأبى إلا تسليم جميع ما أخذه صلاح الدين من بلاد الشام والعود إلى مصر وكان صلاح الدين فى هذه الأثناء يحشد الجنود ويكثر من معدات الحرب ويتجهز للقتال فلما سمع بامتناع سيف الدين من إجابته إلى ما طلب نادى فى عسكره بالركوب فركبوا وركب وسار بهم إلى عز الدين مسعود وزلفندار فالتقوا بالقرب من مدينة حماة بموضع يقال له قرون حماة. قال بعض الكتاب: وكان زلفندار جاهلاً بالحروب غير عالم بتدبيرها مع جبن فيه إلا أنه قد رزق سعادة وقبولاً من سيف الدين فلما التقى الجمعان لم يثبت عسكر سيف الدين وانهزموا شر هزيمة وثبت عز الدين أخو سيف الدين بعد انهزام أصحابه فلما رأى صلاح الدين ثباته تعجب جداً وقال: إما أن هذا يكون أشجع الناس أو أنه لايدرى شيئاً فى الحرب وأمر أصحابه بالحملة عليه فحملوا فأزالوه عن موقفه وتمت الهزيمة على عسكر سيف الدين وتبعهم صلاح الدين بعسكره فقتل وغنم من السلاح والدواب شيئاً كثيراً للغاية ووصل المنهزمون إلى حلب فلحقهم صلاح الدين فى عسكره وقاتلهم عليها وحاصرها وجدّ فى حصارها وضيق وأمر بقطع خطبة الملك الصالح بن نور الدين وأزال اسمه من السكة فى جميع بلاده ، ولما طال الحصار

واشتد عليهم الأمر راسلوا صلاح الدين فى الصلح فتقررت القاعدة بينهم على أن يكون ما بيده من بلاد الشام ولهم ما بأيديهم منها فتم الصلح على هذه القاعدة ورحل صلاح الدين بجيوشه عن حلب إلى حماة فسيّر إليه الخليفة العباسى بها خلعة نفيسة للغاية مع رسوله ثم سار إلى دمشق وأقام بها وقد عظم شأنه بما ملكه من بلاد الشام وبفوزه المتتابع على الملك الصالح وجميع عماله وولاته وقد ملت جنوده من طول الإقامة بأرض الشام وامتلأت أيديهم من السلب والغنائم فطلبوا العود إلى بلادهم والاستراحة فأذن لهم وسار هو كذلك فى عسكر مصر ومعه الغنائم الكثيرة فلما وصل إليها خرج إليه أهله وضربت البشائر وأولم وتصدق وأكثر من الخير للناس.

ولما كانت سنة خمس وسبعين وخمسمائة مات الإمام المستضئ بنور الله أمير المؤمنين أبو محمد الحسن بن يوسف المستنجد وكان موته فى ثانى ذى القعدة فكانت خلافته نحو سبع سنين وسبعة أشهر وكان مولده سنة ست وثلاثين وخمسمائة وكان عادلاً حسن السيرة فى الرعية كثير البذل للأموال غير مبالغ فى أخذ ما جرت العادة بأخذه وكان الناس معه فى أمن عام وإحسان شامل وسكون وطمأنينة لم يروا مثلها وكان حليماً محباً للعفو والصفح عن المذنبين، واستوزر فى أيامه عضد الدين أبا الفرج ابن رئيس الرؤساء فلبث يتصرف فى الأمور إلى أن قتل فى ذى القعدة سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة فاستوزر بعده ظهير الدين أبا بكر منصور بن نصر المعروف بالعطار وكان خيراً حسن السيرة كثير العطاء فتمكن من الخلافة وظهرت كلمته فلما مات المستضىء قام ظهير الدين المذكور بأخذ البيعة لولده الناصر لدين الله فلما تمت له البيعة صار الحكم فى الدولة لأستاذ الدار مجد الدين بن أبى الفضل بن الصاحب. قال صاحب الكامل: ولم يلبث ابن العطار أن قبض عليه ووكل عليه فى داره ثم نقل إلى التاج وقيد ووكل به وطلبت ودائعه وأمواله وفى ليلة الأربعاء ثامن عشر ذى القعدة أخرج ميتاً على رأس حمال فغمز به بعض الناس فثار به العامة فألقوه عن رأس الحمال وكشفوا سوأته وشدوا فى ذكره حبلاً وسحبوه فى البلد ووضعوا بيده مغرفة كأنها قلم وغمسوها فى الغذرة وصاروا يقولون: وقع لنا ياmولانا إلى غير ذلك من الأفعال الشنيعة ثم خلص من أيديهم ودفن قال هذا فعلهم به مع حسن سيرته فيهم وكفه عن أموالهم وأعراضهم.

ومات فى خلافه المستضئ خائيل بطرك الإسكندرية فكانت مدته تسع سنين وقيل تسع سنين وثمانية أشهر وكانت وفاته بالمعلقة بمصر واتفق فى أيامه أن نقص

النيل نقصاً فاحشاً فسيره الخليفة إلى بلاد الحبشة بهدية سنية إلى النجاشى فتلقاه النجاشى وأكرم وفادته وأجله كثيراً وسأله عن سبب قدومه فعرفه بنقص النيل وضرر أهل مصر بسبب ذلك قيل فأمر بفتح سد يجرى منه الماء إلى أرض مصر ففتح فزاد النيل فى ليلة واحدة ثلاثة أذرع واستمرت الزيادة حتى روت البلاد وزرعت ثم عاد خائيل البطرك فخلع عليه الخليفة وأحسن إليه وأكرمه جداً فلما مات أقيم بعده مقارى أو هو مكاريوس الثانى تاسع ستيهم وهو راهب من دير بو مقار وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

الفصل الرابع والثلاثون

(فى خلافة أبى العباس أحمد الناصر لدين الله)

ثم قام بالأمر بعد المستضئ ابنه أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بويع له بالخلافة يوم وفاة أبيه فى أول ذى القعدة سنة خمس وسبعين وخمسمائة هجرية أى سنة تسع وسبعين ومائة وألف ميلادية وعمره ثلاث وعشرون سنة وسيرت الرسل إلى الآفاق لأخذ البيعة له فسير صدر الدين شيخ الشيوخ إلى البهلوان صاحب همدان وأصفهان والرى وغيرها فامتنع من البيعة فراجعه صدر الدين وأغلظ عليه فى القول حتى أنه قال لعسكره فى حضرته: ما لهذا عليكم طاعة ما لم يبايع أمير المؤمنين بل يجب عليكم أن تخلعوه وتقاتلوه فخاف البهلوان وأذعن للبيعة والخطبة للناصر وسير رضى الدين القزوينى مدرس النظامية إلى الموصل لأخذ البيعة فبايع صاحبها وخطب للخليفة الناصر لدين الله فى هذه السنة وجاءت الأخبار إلى صلاح الدين يوسف بموت المستضىء وخلافة ابنه الناصر لدين الله فبايع له وخطب له أيضاً وسير إليه الهدايا النفيسة والأعلاق الثمينة وهو بمصر ينشئ العمائر العظيمة والأبنية الجسيمة فإنه منذ رجوعه من الشام رسم بترميم القناطر والجسور وتطهير الترع وكانت جسور النيل قد أهملت من عهد الدولة الفاطمية فكان إذا فاض طغت مياهه فأغرقت وخربت الطرق وأفسدت الزرع فرمم ما فسد منها وأقام السدود ونقل لبنائها كثيراً من حجارة الأهرام الصغيرة التى كانت حول الكبيرة بالجيزة وغيرها من أحجار المعابد والهياكل القديمة المصرية ومهد الطريق من مصر إلى الصعيد الأعلى وأنشأ القلعة بسفح المقطم المعروفة الآن بقلعة الجبل وبنى له فيها قصراً وقد كان إلى هذا الحين يسكن فى دار الخليفة العبيدى ودار الوزير فجعلهما مسكناً لقواد الجيوش وأمراء الدولة من بعده ووكل بالبناء وزيره الأمير بهاء الدين الأسدى الحمصى وكان

جليل القدر مقداماً حسن السياسة والتدبير، فبالغ فى العمل وأكثر من البنائين والعمال والمهندسين ونقر فى القلعة بئراً فى الصخر عميقاً فيه من الماء ما يكفى حاجة الجند والمرابطين بالقلعة وهى باقية إلى يومنا هذا والعامة يقولون إنها البئر التى ترك فيها يوسف إخوته . قال بعض الكتاب: وإنما هذا البئر من عمل المصريين القدماء فانطمس بالرمال ولم تخف معالمه فأعاد بهاء الدين حفره عند بناء القلعة واهتم بهاء الدين ببناء سور حول مصر والقاهرة وقلعة الجبل طوله تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة ذراع بالذراع الهاشمى. وكان قد بدأ بعمارته صلاح الدين يوسف سنة ست وستين وخمسمائة على عهد العاضد العلوى ثم بطل العمل فيه بسبب الفتن والحروب فجد بهاء الدين فى عمارته وهدم فى تخطيطه كثيراً من المساجد والمعابد والقبور والبيوت والوكائل والعمائر الجسيمة فضج الناس من ذلك وكبر عليهم هذا الأمر وحسبوه جوراً وظلماً من بهاء الدين فأبغضوه وسموه قراقوش وكانوا يلقون الرقاع فى طريقه وكلها سب ولعن له ولأصحابه وكان إذا مر بالأسواق صاح العامة فى وجهه وقالوا: ما تحل لك هذه الفعال يا ظالم وهو لايلتفت إليهم ولا يؤاخذهم بشىء من ذلك وقد ألف الأسعد بن مماتى كتاباً سماه الفاشوش فى أحكام قراقوش ذكر فيه من أفاعيل الجور والعسف وأنواع المظالم شيئاً كثيراً وحفر بهاء الدين خندقاً يمتد من باب الفتوح إلى المقس وهو الخطة التى بها جامع أولاد عنان اليوم ومن الجهة الشرقية خارج باب النصر إلى باب البرقية وما بعده وجعل خارج هذا الخندق سوراً آخر بأبراج مبنيا بالحجارة العظيمة وابتنى الأشوان العظيمة بمصر لحفظ الغلال التى ترد فى كل سنة من الأعمال من الإقليمين القبلى والبحرى وهى إلى الآن تعرف بمخازن يوسف والناس يظنون أنها مخازن فرعون يوسف التى بناها بعد تعبير رؤياه. قال أصحاب التاريخ: وقد بنى سور القاهرة ثلاث مرات بناه فى المرة الأولى جوهر القائد وفى الثانية أمير الجيوش بدر الجمالى وفى الثالثة بهاء الدين وزير صلاح الدين يوسف فزاد فيه بهاء الدين القدر الذى يبتدئ من باب القنطرة إلى باب الشعرية ومن باب الشعرية إلى باب البحر وابتنى مع ذلك قلعة المقس جعلها على النيل بجانب جامع المقس المعروف الآن بجامع أولاد عنان وزاد فيه أيضاً قطعة مما يلى باب النصر ممتدة إلى باب البرقية وإلى درب بطوط وإلى خارج باب الوزير حتى يتصل بسور قلعة الجبل.

وبينما كان صلاح الدين يشيد العمائر ويمهد الطرق ويقيم الجسور ويصلح الترع ويسهل العقبات بالديار المصرية جاء الخبر بوفاة الملك الصالح بن نور الدين صاحب

حلب والشام مات فى رجب سنة سبع وسبعين وخمسمائة هجرية وعمره نحو تسع عشرة سنة وكان على صغر سنة كثير التأمل واسع الفكر كبير المعرفة وكان يخشى من صلاح الدين يوسف ويعلم أنه سيأخذ عنه يوماً ما بقى له من بلاد الشام ولذلك كان كثير الاحتياط بعيد الحساب فلما مرض وأيس من نفسه أحضر الأمراء وسائر الأجناد وأوصاهم بتسليم البلد إلى ابن عمه عمر عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى واستحلفهم على ذلك فقال له بعضهم: إن عماد الدين ابن عمك أيضاً أحق بها وهو زوج أختك وكان والدك نور الدين يحبه ويؤثره وقد تولى تربيته بنفسه فهو أصلح للولاية وليس له غير سنجار فلو أعطيته البلد لكان أوفق وعز الدين له من البلاد من الفرات إلى همذان ولا حاجة به إلى بلدك فقال له: إن هذا لم يغب عنى ولكن قد علمتم أن صلاح الدين يوسف قد تغلب على عامة بلاد الشام سوى ما بيدى الآن ومتى سلمت حلب إلى عماد الدين يعجز عن حفظها وإن ملكها صلاح الدين لم يبق لأهلنا معه مقام وإن سلمت إلى عز الدين أمكنه حفظها بكثرة عساكره وبلاده فاستحسنوا فعاله وعجبوا من جودة فطنته مع شدة مرضه. ولما قضى نحبه أرسل الأمراء إلى أتابك عز الدين يستدعونه إلى حلب فسار هو ومجاهد الدين قايماز إلى الفرات وأرسل إلى الأمراء فحضروا عنده وساروا جميعاً إلى حلب فدخلوها فى العشرين من شعبان وكان صلاح الدين حينئذ بمصر. قال أصحاب التاريخ: ولولا ذلك لزاحمهم عليها وقاتلهم وكان تقى الدين عمر بن أخى صلاح الدين يوسف بمدينة منبج فلما مر بها عز الدين ومن معه إلى حلب خاف تقى الدين وهرب من منبج إلى حماة فثار أهل حماة فأشار الأمراء والقواد بحلب على عز الدين بقصد دمشق وأطمعوه فيها وفى غيرها من البلاد وأعلموه بمحبة أهل الشام له ولأهل بيته فلم يفعل وقال: بيننا يمين فلا نغدر به وأقام بحلب ما شاء ثم سار عنها إلى الرقة فلم يستقر به المقام حتى جاءته رسل أخيه عماد الدين صاحب سنجار ليطلب أن يسلم إليه حلب ويأخذ عوضاً عنها مدينة سنجار فلم يجبه إلى ذلك وألح عماد الدين وترددت الرسل بينهما أياماً كثيرة وكلمه الأمراء فى ذلك أيضاً فسلمها إليه وأخذ بدلها سنجار وعاد إلى الموصل وكان صلاح الدين يوسف لما بلغه خبر دخول عز الدين إلى حلب وتصرفه فيها كبر عليه الأمر جداً وخاف أن يسير منها إلى دمشق وغيرها فيأخذ ما بيد صلاح الدين من البلاد الشامية فانكمش وجعل يراقب الفرص فلما بلغه ملك عماد الدين لها برز من مصر من يومه وسار إلى الشام وكان خروجه فى الخامس من المحرم افتتاح سنة ثمان وسبعين. قال صاحب

الكامل: ومن عجيب ما يحكى من التطير أنه لما برز من القاهرة أقام بخيمته ظاهر القاهرة حتى تجتمع العساكر والناس عنده وأعيان دولته والعلماء وأرباب الآداب وكلهم مودّع له وسائر معه وكان كل واحد يقول شيئاً فى الوداع والفراق وما هم بصدده من السفر وكان ممن حضر هذا المجلس معلم لبعض أولاد صلاح الدين وكان جالساً خلف الجالسين فأخرج رأسه من بينهم وأنشد :

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

فانقبض صلاح الدين بعد انبساطه وتطير وتنكد المجلس على الحاضرين فلم يعد صلاح الدين إلى مصر إلى أن مات مع طول الوقت ا. هـ.

وسار صلاح الدين عن مصر فتبعه التجار وأهل البلاد ممن كان قصد مصر من الشام فرارا من الغلاء وغيره فجعل طريقه على أيلة فلما سمع الفرنجة بمسيره جمعوا له ليحاربوه ويصدوه عن المسير فسير الضعفاء والأثقال مع أخيه تاج الملوك بورى إلى دمشق وبقى هو فى المقاتلة فشن الغارات على أطراف الكرك والشوبك فلم يخرج إليه منها أحد فسار إلى دمشق فوصلها بمن معه سالماً ولبث بها أياماً حتى أصلح حال جنده ونظم عسكره وسار بهم إلى بلاد الفرنجة فى ربيع الأول فقصد طبرية فنزل بالقرب منها وخيم فى أقحوان من الأردن فتهيأ الفرنجة وجاءوا إليه بجموعهم فنزلوا بطبرية وتأهبوا للقتال فسير صلاح الدين يوسف فرخشاه ابن أخيه إلى بيان فدخلها قهراً وغنم ما فيها وقتل وسبى وعم القتل والسبى وجاءت العرب فأغارت على جفين واللجون وما جاورهما من البلدان حتى قاربوا مرج عكا وسار الفرنجة من طبرية حتى نزلوا تحت جبل كوكب فتقدم صلاح الدين إليهم وأرسل عسكره يرمونهم بالنشاب فلم يتحركوا للقتال فعاد صلاح الدين إلى دمشق ولبث بها أياماً ثم سار منها فعبر الفرات وملك عدة بلاد من ديار الجزيرة وأقطعها للأمراء الذين كانوا فى خدمته ودخل الفرنجة دمشق فقتلوا ونهبوا وسبوا ورحلوا عنها وجاءت الأخبار بذلك إلى صلاح الدين فلم يقدر على الرجوع وقد اطمأن بترك الفرنجة لها ورحيلهم عنها ثم سار إلى الموصل وحاصرها فلم ينل منها وعاد عنها إلى سنجار فقاتلها فخامر معه بعض الأمراء الأكراد وسلم إليه الناحية التى هو بها فطرقه صلاح الدين فلما أحس شرف الدين صاحبها بذلك استكان وخضع وطلب الأمان فأمنه وملك البلد صلاح الدين وسار شرف الدين ومن معه إلى الموصل وقويت عزيمة صلاح الدين بملك سنجار واطمأن على ما بيده من البلاد الشامية إذ صارت سنجار على جميع تلك البلاد كالسور واستناب بها سعد الدين بن معين الدين أتز وهو من

كبار الأمراء وأحسنهم سيرة وبقى صلاح الدين يوسف مشغول البال بملك حلب ونزعها من عماد الدين زنكى بن مودود وهو يراقب الفرص ويتبين انتفاعها فلما كان المحرم افتتاح سنة تسع وسبعين نزل عليها بجيش عظيم وأقام بالميدان الأخضر عدة أيام ثم انتقل منه إلى جبل جوشن فنزل بأعلاه وأظهر أنه إنما يريد أن يبنى مساكن له ولأصحابه وعسكره وأقام عليه أياماً والقتال بين العسكرين كل يوم وعماد الدين زنكى ومن معه من العسكر النورى يجدّون فى القتال ويدفعون عن البلد فلما كان فى بعض الأيام جاء إلى عماد الدين بعض الجنود وطلبوا منه مالاً للنفقة فاعتذر بقلة المال عنده فقال بعضهم: إن من يريد أن يحفظ بلداً مثل حلب لابد له من صرف الأموال ولو باع حلى نسائه فخاف عماد الدين وحسب ما وراء ذلك فمال إلى تسليم حلب إلى صلاح الدين وأخذ العوض عنها وأرسل فى الحال مع الأمير طومان الياروفى وكان ممن يميل إلى صلاح الدين يوسف أن يسلم حلب ويأخذ عوضها سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج وجرت اليمين على ذلك. قال أصحاب التاريخ: وباعها عماد الدين بأبخس الأثمان أعطى حصناً مثل حلب وأخذ عوضها قرى ومزارع فنزل عنها ثامن عشر صفر وتسلمها صلاح الدين يوسف فعجب الناس كلهم من ذلك وقبحوا فعل عماد الدين حتى إن بعض عامة حلب أحضر أجانة وماء وناداه أنت لايصلح لك الملك وإنما يصلح لك أن تغسل الثياب وأسمعوه المكروه. واستقر ملك صلاح الدين يوسف وسار عماد الدين إلى البلاد التى أخذها فتسلمها وتقررت القاعدة بينه وبين صلاح الدين على أن عماد الدين يحضر فى خدمة صلاح الدين بنفسه وعسكره إذا استدعاه لا يحتج بحجة وامتدح محيى الدين بن الزكى قاضى دمشق صلاح الدين يوسف بقصيدة منها:

وفتحكم حلبا بالسيف فى صفر　　　مبشر بفتوح القدس فى رجب

فكان فتح بيت المقدس فى رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة كما سيذكر فى محله وهو من غريب الاتفاق. قال صاحب الكامل: وكان فى جملة من قتل على حلب تاج الملوك بورى أخو صلاح الدين الأصغر وكان فارساً شجاعاً كريماً حليماً جامعاً لخصال الخير ومحاسن الأخلاق طعن فى ركبته فانفكت فمات منها بعد أن استقر الصلح بين عماد الدين وصلاح الدين على تسليم حلب قبل أن يدخلها صلاح الدين فلما استقر الصلح حضر صلاح الدين عند أخيه يعوده وقال له هذه حلب قد أخذناها وهى لك فقال ذلك لو كان وأنا حى ووالله لقد أخذتها غالية حيث تفقد مثلى فبكى صلاح الدين وأبكى ولما خرج عماد الدين إلى صلاح الدين

وقد عمل له دعوة احتفل فيها فبينما هم فى سرور إذ جاء إنسان فأسر إلى صلاح الدين بموت أخيه فلم يظهر هلعاً ولا جزعاً وأمر بتجهيزه سراً ولم يعلم عماد الدين ومن معه فى الدعوة واحتمل الحزن وحده لئلا يتنكد ما هم فيه وكان هذا من الصبر الجميل أ هـ.

ووصلت الأخبار إلى صلاح الدين يوسف بوفاة قطب الدين صاحب ماردين وتملك ابنه بعده وهو طفل وأن الحكم إلى شاه أرمن صاحب خلاط وعسكره فيها وشاه أرمن هذا خال قطب الدين فطمعت نفس صلاح الدين فى أخذها فسار إليها فى جيش عظيم من الرجال والفرسان ونازلها فرآها مشحونة بالرجال وبها زوجة قطب الدين المتوفى ومعها بنتان لها منه وهى أخت نور الدين محمد صاحب الحصن فحاصر صلاح الدين البلد وشدد فى حصارها وكان المقدم على عسكرها أمير اسمه برتقش ولقبه أسد الدين وهو من كبار قواد العسكر وأشجعهم وأعلمهم بفنون الحرب واشتد القتال بين الفريقين شدة بالغة فلم يصل صلاح الدين إلى ما يريد فعدل من القوة والحرب إلى إعمال الحيلة والدهاء فراسل زوجة قطب الدين وهى بالبلد يقول لها: إن أسد الدين برتقش قد مال إلينا فى تسليم البلد ونحن نرى حق أخيك نور الدين فيك بعد وفاته ونريد أن يكون لك فى هذا الأمر نصيب وأنا أزوج بناتك بأولادى ويكون ميافارقين وغيرها لك وبحكمك ووضع أيضاً من أرسل إلى برتقش أن الخاتون قد مالت للمقاربة والانقياد إلى السلطان وأن من بخلاط من الجند والعسكر كاتبوه ليسلموا إليه فخذ لنفسك واتفق أن رسولاً وصل من خلاط ليعلن صلاح الدين يوسف بالطاعة ففرح صلاح الدين بقدوم الرسول وأمره بالدخول إلى ميافارقين والاجتماع ببرتقش فدخل واجتمع به وقال له: أنت عمن تقاتل وأنا قد جئت فى تسليم خلاط إلى صلاح الدين فسقط برتقش فى يده وضعفت عزيمته وأرسل إلى صلاح الدين يطلب أن يقطعه بلداً ومالاً وهو يتخلى عن البلد إلى صلاح الدين فأجابه صلاح الدين إلى ذلك وتسلم البلد فلما دخل إليها وفّى بوعده إلى زوجة قطب الدين وعقد نكاح بعض أولاده على بعض بناتها وأقرّ بيدها قلعة هتاخ لتكون فيها هى وبناتها ورتب الأمور فى ميافارقين وقرر إقطاعاتها وجميع ولاياتها وأحكم قواعدها ثم سار عنها يريد الموصل فإنه كان كثير الرغبة فى أخذها من صاحبها شديد الطمع فى ذلك فسار نحوها وجعل طريقه على نصيبين فوصل إلى كفر زمار والوقت شتاء فنزلها فى عساكره وعزم على المقام بها وقطع المدد من الغلة والأقوات عن الموصل لإضعافها فقد علم أنه لايقدر على محاربتها لمنعتها

وكثرة ما بها من الجند وآلات الحرب وطال مكث صلاح الدين بعسكره فخاف عز الدين صاحب الموصل فأرسل رسله إلى صلاح الدين فى الصلح فمال صلاح الدين إلى ذلك فبينما الرسل تتردد بينهما إذ مرض صلاح الدين وسار من كفر زمار عائداً إلى حوران فلحقه الرسل بالإجابة إلى ما طلب فتقرر الصلح وحلف على ذلك وكانت القاعدة أن يسلم إليه عز الدين شهرزور وأعمالها وولاية القرابلى وجميع ما وراء الزاب من الأعمال ويخطب له على منابر بلاده ويضرب اسمه على السكة وأرسل رسله إلى عز الدين ليحلف بحضرتهم على ذلك فحلف وتسلم البلاد التى استقرت القاعدة على تسليمها ووصل صلاح الدين إلى حوران فأقام بها مريضاً وطال مرضه فأمنت الدنيا وسكنت الفتنة. وكان عند صلاح الدين من أهله أخوه الملك العادل وهو يومئذ على حلب وولده الملك العزيز عثمان واشتد مرضه حتى أيسوا منه فحلف الناس لأولاده بالطاعة وجمع إليه الأمراء وقواد الجند وجعل لكل من أولاده شيئاً من البلاد معلوماً وجعل أخاه العادل وصيًا على الجميع وجاءه ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه صاحب حمص والرحبة ليزوره فرأى من شدة مرضه ما أطمعه فى أخذ دمشق إذا هو مات فسار من عنده إلى حمص واجتاز بحلب وأحضر جماعة من الدمشقيين وواعدهم على تسليم البلد إليه إذا مات صلاح الدين وأقام بحمص ينتظر موته ليسير إلى دمشق فيملكها وانتقل صلاح الدين من حوران إلى دمشق فبلغه ما قاله ناصر الدين فلم يمض غير قليل حتى مات ناصر الدين ليلة عيد الأضحى قيل إنه شرب الخمر وأكثر منه فأصبح ميتاً وقيل إن صلاح الدين وضع إنساناً يقال له الناصح بن العميد من دمشق فحضر عند ناصر الدين فى تلك الليلة ونادمه وسقاه سماً فلما أصبحوا من الغد لم يروا الناصح المذكور فسألوا عنه فقيل إنه سار من ليلته إلى صلاح الدين فكان هذا مما قوّى الظن. ولما مات ناصر الدين شيركوه أخذ صلاح الدين جميع أقطاعه وأعطاها لولده شيركوه وعمره اثنتا عشرة سنة قال بعض الكتاب: وخلف ناصر الدين من الأموال والخيل والآلات شيئاً كثيرا فحضر صلاح الدين فى حمص واستعرض تركته وأخذ أكثرها ولم يترك إلا ما لا خير فيه. قال صاحب الكامل: وبلغنى أن شيركوه بن ناصر الدين حضر عند صلاح الدين بعد موت أبيه بسنة فقال له إلى أين بلغت من القرآن فقال إلى قوله تعالى ﴿**إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا**﴾ قال فعجب صلاح الدين والحاضرون من ذكائه.

ولما كانت سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة أخرج صلاح الدين يوسف ولده

الأفضل علياً من مصر إلى دمشق وأقطعها له وأخذ حلب من أخيه العادل وسيره مع ولده العزيز عثمان إلى مصر وجعله نائباً عنه واستدعى تقى الدين منها وسبب ذلك أنه كان استناب تقى الدين بمصر وجعل معه ولده الأكبر الأفضل عليا فأرسل تقى الدين يشكو من الأفضل ويقول إنه قد عجز عن جباية الأموال معه لأنه كان حليماً كريم الطبع إذا أراد تقى الدين مطالبة أحد أو معاقبته منعه فأحضر صلاح الدين ولده الأفضل وكتب إلى تقى الدين. يقول ليس لك بعد أخذ الأفضل حجة فى الخراج أو غيره وتغير عليه بسبب ذلك وظن أنه إنما يريد إخراج الأفضل عن مصر لينفرد بها حتى يملكها إذا مات صلاح الدين وقوى هذا الخاطر عنده فأحضر أخاه العادل من حلب وسيره إلى مصر ومعه ولده العزيز عثمان واستدعى تقى الدين إلى الشام فامتنع من الحضور وجمع العساكر والأجناد ليسير إلى المغرب إلى مملوكه قراقوش وكان قد استولى على جبال نقوسة وبرقة وغيرها وكتب إليه يرغبه فى تلك البلاد فتهيأ للسفر إليه واستصحب معه الجند والعساكر وآلات الحرب فلما سمع ذلك صلاح الدين يوسف ساءه وعلم أنه إن أرسل إليه يمنعه لم يجبه فأرسل إليه يقول أريد أن تحضر عندى لأودعك وأوصيك بما تفعله فلما حضر عنده منعه وزاد فى إقطاعه حماة ومنبج والمعرة وكفر طاب وميافارقين وجبل جور بجميع أعمالها. قال صاحب الكامل: بلغنى من خبير بأحوال صلاح الدين أنه إنما حمله على أخذ حلب من العادل وإعادة تقى الدين إلى الشام أن صلاح الدين لما مرض بحران أرجف بمصر أنه قد مات فجرى من تقى الدين حركات من يريد أن يستبد بالملك فلما عوفى صلاح الدين بلغه ذلك فأرسل الفقيه عيسى الهكارى وكان كبير القدر عنده مطاعاً فى الجند إلى مصر وأمره بإخراج تقى الدين والمقام بمصر فسار مجداً فلم يشعر تقى الدين إلا وقد دخل الفقيه عيسى إلى داره بالقاهرة وأرسل إليه يأمره بالخروج منها فطلب أن يمهله إلى أن يتجهز فلم يفعل وقال: تقيم خارج المدينة وتتجهز فخرج وأظهر أنه يريد الدخول إلى الغرب فقال له اذهب حيث شئت فلما سمع صلاح الدين الخبر أرسل إليه يطلبه فسار إلى الشام فأحسن إليه ولم يظهر له شيئاً مما كان لأنه كان حليماً كريماً صبوراً رحمه الله أهـ.

ولما دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة كتب صلاح الدين إلى جميع البلاد يستنفر الناس للجهاد وكتب إلى الموصل وديار الجزيرة وإربل وغيرها من بلاد الشرق وإلى مصر وسائر بلاد الشام يدعوهم إلى الجهاد ويحثهم عليه ويأمرهم بالتجهز ثم خرج من دمشق فى عسكرها فسار إلى رأس الماء وتلاصقت به العساكر الشامية فلما

اجتمعوا جعل عليهم ولده الملك الأفضل علياً ثم ساروا جميعاً إلى الكرك وبث سراياه من هناك على ولاية الكرك والشوبك وغيرهما فنهبوا وخربوا وأحرقوا ثم سار منها إلى طبرية فملكها وأمن صاحبتها فرحلت عنها فرتب أمورها وأحكم نظامها وسار عنها إلى عكا فاستسلمت إليه ونزح الكثير من أهلها بما أمكنهم حمله من أموالهم وتركوا ما بقى ودخل المسلمون إليها وسلم البلد بعد ذلك إلى ولده الأفضل وأعطى جميع ما فيه من أقطاع وجناح وغير ذلك إلى الفقيه عيسى وكان فيها من السلاح والأموال والمتاع وغير ذلك شىء لايكاد يدخل تحت الحصر وأقام صلاح الدين بعكا بعد ذلك عدة أيام حتى أتم تقرير جميع أمورها على قواعد مرتبة ثم ملك بيروت وجبلي وغيرهما وأجرى فيها أحكامه وأقام العمال بها على نظامه وترتيبه المألوف عنده فلما دانت له الأمور فى جميع بلاد الشام إلا ما كان منها بيد الفرنجة كان أمر عسقلان وبيت المقدس عنده أهم فكان كثير التحدث بحوادثهما كبير التولع بمعرفة أخبارهما وكان يقول أما عسقلان فإنها على طريق مصر وأحب الأشياء عندى أن تتصل الولايات لى فلا يصعب علىّ خروج العسكر منها ودخولهم إليها وأما فتح بيت المقدس ففيه من الذكر الجميل والصيت العظيم ما يبقى على مر الأيام وفى أخذ البلدين فائدة للإسلام والمسلمين وعظمت رغبته وقويت نفسه بأخذ بيروت فسار منها نحو عسقلان واجتمع بأخيه العادل ومن معه من العسكر المصرى ونازلوها يوم الأحد سادس عشر جمادى الآخرة وجد فى قتالها ونصب المنجنيقات ورمى بالأحجار ليلاً ونهاراً وسدّ عليها جميع المسالك فانقطع المدد وقلت الأقوات وطال القتال أياماً كثيرة فلم ير من بالمدينة من الفرنجة بُدا من التسليم فراسلوا صلاح الدين فى ذلك واشترطوا شروطاً فأجابهم صلاح الدين إليها فسلموها ونزح منهم من أراد الخروج بماله وعياله ووفى لهم صلاح الدين بالأمان ثم مال صلاح الدين بعسكره على ما جاور عسقلان من البلدان فأخذها وأنفذ فى جميعها أحكامه فذاع صيته واتسعت كلمته وهابه الملوك لما رأوه من انتصاره فى غزواته وفتوحاته ٭ ولما فرغ من أمر عسقلان وما جاورها من البلدان وقد استتب له الأمر فيها أرسل إلى مصر فأخرج الأسطول الذى بها فى جمع من المقاتلة ومقدمهم حسام الدين لؤلؤ الحاجب فأقاموا فى البحر يقطعون الطريق على الفرنجة كلما رأوا لهم مركباً عاكسوه أو أخذوه بما فيه من غلة أو متاع ومازال على هذا الحال حتى وصل فسار صلاح الدين عن عسقلان إلى بيت المقدس وكان به جمع كبير من المقاتلة والفرسان الأشداء وقد حصنوه تحصيناً ونصبوا عليه المنجنيقات وتأهبوا للذب والدفاع فلما قرب صلاح

الدين منه تقدم أمير من أمراء جند صلاح الدين فى جماعة من أصحابه فلقيه جمع من الفرنجة قد خرجوا من البلد ليناوشوهم القتال فقاتلوه ومن معه وقاتلهم فقتلوه وقتلوا جميع من معه فأهم المسلمين قتله وساروا حتى نزلوا على بيت المقدس فرأوا على سوره من الرجال ما هالهم وسمعوا لأهله من الجلبة والضجيج من وسط المدينة ما استدلوا به على كثرة الجمع، وبقى صلاح الدين يوسف خمسة أيام يطوف حول المدينة لينظر من أين يقاتلها لأنها كانت فى غاية المنعة فلم يجد عليها موضع قتال إلا من جهة الشمال نحو باب عمور أو كنيسة صهيون فانتقل إلى هذه الناحية ونزلها ونصب فى ليلة وصوله المنجنيقات فأصبح من الغد وقد فرغ من نصبها ورمى بها ورمى الفرنجة بمنجنيقاتهم وقاتلوا أشد قتال فلم يره أحد من الناس وكان فرسان الفرنجة يخرجون فى كل يوم إلى ظاهر البلد فيقاتلون ويبارزون فقتل من الفريقين خلق ومات من المسلمين الأمير عز الدين عيسى بن مالك وهو من أكبر الأمراء فى جيش صلاح الدين وكان أبوه صاحب قلعة جعبر وكان يصطلى القتال بنفسه حتى قتل ومازالوا على جد وشدة فى القتال حتى وصل المسلمون إلى الخندق وجاوزوه والتصقوا بالسور ينقبونه والرماة يحمونهم والمنجنيقات توالى الرمى لتكشف الفرنجة عن الأسوار حتى يتمكن المسلمون من النقب حتى نقبوه فلما رأى الفرنجة ذلك أرسلوا إلى صلاح الدين فى طلب الأمان وخرج صاحب الرملة واجتمع بصلاح الدين يوسف وكلمه فى الكف عن القتال وتقرير قاعدة لتسليم البلد وقال له: أيها السلطان اعلم أننا فى هذه المدينة فى خلق كثير جداً لا يعلمه إلا الله وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان ظناً منهم أنك تجيبهم إليه فإذا رأينا أن لا مناص من الموت فوالله لنقتلن أولادنا ونساءنا ونحرق أموالنا وأمتعتنا ولا نترككم تأخذون منها ديناراً ولا درهماً ولا تسبون ولا تأسرون رجلاً ولا امرأة وإذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرهما من المواضع ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير ولا نترك لنا دابة ولا حيواناً إلا قتلناه ثم خرجنا إليكم كلنا وقاتلناكم قتال من يريد أن يحمى دمه ونفسه وحينئذ لا يقتل الرجل منا حتى يقتل أمثاله ونموت أعزاء أو نظفر كراماً فاستشار صلاح الدين أصحابه فأجمعوا على إجابتهم إلى ما يطلبون وأن لا يخرجوا ويحملوا على ركوب ما لايدرون عاقبة الأمر فيه عن أى شىء ينجلى، فأجاب صلاح الدين حينئذ إلى ما طلبه صاحب الرملة واستقر أن يأخذ من الرجل عشرة دنانير يستوى فيها الغنى والفقير ويزن الطفل من الذكور والبنات دينارين وتزن المرأة خمسة دنانير فمن أدى ذلك إلى أربعين يوما

فقد نجا ومن انقضت الأربعون يوما عنه ولم يؤدها فقد صار مملوكاً فبذل صاحب الرملة عن الفقراء ثلاثين ألف دينار فأجيب إلى ذلك وسلمت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب ورتب صلاح الدين على كل باب من البلد أميراً من الأمراء ليأخذوا من أهلها ما استقر عليهم فاستعملوا الخيانة ولم يؤدوا فيه أمانة واقتسم أولئك الأمراء الأموال وتفرقت أيدى سبأ • قال صاحب الكامل وغيره: وكان على رأس قبة الصخرة بالبيت المقدس صليب كبير مذهب فلما دخل المسلمون البلد يوم الجمعة المذكور تسلق جماعة منهم إلى أعلى القبة ليقلعوا الصليب فحين صعدوا صاح الناس كلهم صيحة واحدة من البلد ومن ظاهرها من المسلمين والنصارى فسمع الناس ضجة عظيمة كادت الأرض أن تميد بهم لعظمها وشدتها فكان هذا الحادث من العجائب وتحدث الناس به كثيراً ، ثم أمر صلاح الدين بإعادة ما تخرب من الأبنية إلى ما كان عليه ولما كانت الجمعة الأخيرة رابع شعبان صلى المسلمون فى المسجد الأقصى صلاة الجمعة ومعهم صلاح الدين يوسف وصلى أيضاً فى قبة الصخرة وكان الخطيب والإمام محيى الدين بن الزكى قاضى دمشق ثم رتب صلاح الدين فيه خطيباً وإماماً برسم الصلوات الخمس وشرع من قام من الفرنجة فى بيت المقدس فى بيع ما لا يمكنه حمله من أمتعة وذخائر وأموال وأخذ ما يطيق حمله فكان ما بيع شيئاً كثيراً من الأسرة والصناديق والبتيات وغير ذلك فاشتراه تجار المسلمين وتركوا أيضاً من الرخام الذى لامثيل له من الأساطين والألواح والفصوص وغيره شيئاً كثيراً ثم ساروا ورحلوا متفرقين. قال أصحاب التاريخ: وهذه المكرمة من فتح بيت المقدس لم يفعلها بعد عمر بن الخطاب رضى الله عنه غير صلاح الدين يوسف رحمه الله وكفاه ذلك فخراً وشرفاً.

ولما شاع خبر أخذ صلاح الدين يوسف بيت المقدس وشحنه بالعساكر والأجناد والمهاجرين من المسلمين وأنه قد ولى عليه الظهير أخا الفقيه عيسى وفوض إليه تدبيره هاج النصارى وماجوا ووصل بعض المستنفرين من أهل بيت المقدس إلى قسطنطينية وغيرها من البلاد الألمانية وأخبروا بما جرى ووردت كتب بابا رومية إلى إمبراطور الألمان وغيره من ملوك أوروبا فى هذا المعنى فهموا بإعداد المقاتلين وأكثروا من جمع الأسلحة ومعدات الحرب وبالغوا فى التجهيز للقتال. قال بعض الكتاب وسار بطرك بيت المقدس إلى رومية فى جمع من القسوس يستنفرون الناس إلى الجهاد واستخلاص بيت المقدس من يد صلاح الدين يوسف ورسموا صورة المسيح فى زى رجل عارى البدن حاسر الرأس وبجانبه آخر فى زى أعرابى وقد طعنه وأسال

دمه وطافوا بهذه الصورة فى الطرق والشوارع وهم يضجون ويبكون ويحثون الناس فهاج الناس وماجوا وكبر عليهم الأمر جداً وزادت حميتهم وتبعوهم وهم ينادون بالثأر يالثأر. وبينما كانت خواطر النصارى فى اضطراب وإمبراطور الألمان يجهز المقاتلة للخروج للقتال كان صلاح الدين يوسف أيضاً يجيش الجيوش ويكثر من الكراع ومعدات الحرب وهو على عزم أن يفتح ما بقى من بلاد الساحل وسار إلى جبلة ففتحها بإغراء قاضيها وفتح ما حولها مثل انطنطوس ومرقية وأخذ حصن بكسرائيل بين جبلة ومدينة حماة وبعد أن قرر أحوال جبلة وجعل فيها الأمير سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر سار عنها إلى اللاذقية وكان الفرنجة قد ساروا عنها وأخلوها وصعدوا إلى حصنين لها على الجبل فامتنعوا بهما فدخل المسلمون المدينة وحصروا القلعتين وقاتلوهما وقد دخل إلى الفرنجة بالقلعتين قاضى جبلة ومازال بهم حتى استأمنوا لصلاح الدين وخرب عسكر صلاح الدين ما فى مدينة اللاذقية من الأبنية العظيمة والعمائر الجسيمة المزخرفة المملوءة بالرخام الملون ونقلوا رخامها وشعثوا كثيراً من كنائسها التى قد غرم عليها الأموال الجليلة المقدار وبعد أن قرر أحوالها سلمها إلى ابن أخيه تقى الدين عمر وسار صلاح الدين من اللاذقية إلى قلعة صهيون فقاتل من بها ومازال يقاتلهم حتى سلموا إليه على قطيعة، فتسلم الحصن وسلمه إلى الأمير ناصر الدين منكورس صاحب قلعة أبى قبيس، ثم بث صلاح الدين سراياه حول صهيون، فملكوا حصن بلاطنوس وحصن العيدو وحصن الجماهرتين وكان جماعة الفرنجة قد تركوها ورحلوا عنها. قال أصحاب التاريخ: فاتسعت المملكة الإسلامية بتلك الناحية إلا أنه كان دون الوصول إليها من البلاد الإسلامية على عقبة بكسرائيل أهوال لأن الطريق السهلة كانت غير مسلوكة فإن بعضها كان بيد الإسماعيلية وبعضها بيد الفرنجة. فلما استسلمت الحصون المذكورة استسلمت أيضاً قلعة الثغر ووجدوا قلعة بكاس خالية ليس فيها أحد من الفرنجة فأخذوها وسير صلاح الدين ولده الظاهر غازى صاحب حلب إلى سرمينية فحاصرها وضيق عليها ومازال بأهلها حتى استنزلهم على قطيعة قررها عليهم فلما أنزلهم وأخذ منهم المقاطعة هدم الحصن وكان فيه وفى بقية تلك الحصون من أسارى المسلمين الجم الغفير فأطلقوا، وكانت جميع هذه الحصون إلى سرمينية من أعمال أنطاكية فلم يبق لها سوى القصير وبغراس ودرب ساك كما ذكره أصحاب التاريخ ثم سار صلاح الدين يوسف إلى حصن برزية ونزل عليه وفتحه بعد قتال شديد دام أياماً وأمن صاحب الحصن هو وعائلته ووفى له بالعهد وسيره إلى أنطاكية ولبث ببرزية

يومين ثم رحل عنها وأتى جسر الحديد على نهر العاجى بالقرب من أنطاكية فأقام عليه حتى وافاه من تخلف من الجند والقواد وسار عنه إلى قلعة درب ساك فنزل عليها ونصب المنجنيقات وتابع الرمى عليها بالحجارة ومازال يجدّ فى قتالها ويزحف على الأسوار بجنده المرة بعد المرة حتى ظهر ضعف من بها من الفرنجة وعجزهم عن القتال وطلبوا من صلاح الدين الأمان فأجابهم إلى ما طلبوه فخرجوا وساروا إلى أنطاكية ولم يأخذوا من أموالهم ومتاعهم شيئاً وكذلك فعل بقلعة بغراس. ولما تم له فتح بغراس عرض عسكره ليسير بمن بقى منهم إلى فتح أنطاكية فرأى من ضعفهم ومللهم وانقباض نفوسهم ما خافه وأشفق منه فلبث أياماً لا يأمرهم بالمسير واتفق أن صاحب أنطاكية أرسل إلى صلاح الدين يطلب الهدنة وأطلق كل أسير عنده من المسلمين، ففرح صلاح الدين بذلك واستشار من عنده فأشاروا بإجابته إلى ما طلب ليعود الناس فيستريحوا ويجددوا ما يحتاجون إليه فأرسل صلاح الدين إلى صاحب أنطاكية بالقبول واصطلحوا مدة على ثمانية أشهر واستحلفه على حفظ الزمام، فحلف له وأطلق من عنده من الأسرى فرحل صلاح الدين بعسكره عن أنطاكية إلى حلب ثالث شعبان من السنة أى سنة أربع وثمانين وخمسمائة فدخلها وسار منها إلى دمشق وفرق العساكر الذين مع زنكى بن مودود وعسكر الموصل وغيرها وكانوا قد أشاروا عليه بذلك ففعل وهو يخشى العاقبة وكان صلاح الدين قبل المهادنة مع صاحب أنطاكية قد جعل على الكرك عسكراً يحصره وكان به الأمير رينودى شاتيلون أحد ملوك الصليبيين فلازموا حصاره مدة طويلة حتى فنيت أزواد من به من الفرنجة وذخائرهم والملك العادل أخو صلاح الدين يشدد فى الحصار ويضيق على من به، فأرسلوا إليه يطلبون الأمان ويبذلون تسليم القلعة فأجابهم إلى ذلك، وتسلم القلعة منهم ونزلوا وتسلم أيضاً ما يقاربها من الحصون كالشوبك وهرمز والوعيرة والسلع فاطمأنت قلوب المسلمين بأخذ ذلك الصقع وفرح صلاح الدين بفتحه فرحاً عظيماً وهو مع ذلك كان يقول: إن العمر قصير والأجل غير مأمون وكيف أطاول الفرنجة وبيدهم إلى الآن كوكب وصفد وغيرهما، وأقام بدمشق إلى منتصف رمضان حتى وافته الجنود والعساكر المشرقية وغيرهم ثم سار عن دمشق إلى قلعة صفد فحصرها وضيق عليها ونصب المنجنيقات ووالى الرمى عليها بالحجارة وكان من بها من عسكر الفرنجة قد مضى عليهم أيام كثيرة وهم يدافعون عنها ولم يأتهم شىء من المؤنة فقلت أزوادهم وضاقت نفوسهم فأرسلوا يطلبون الأمان فأمنهم وتسلمها منهم فخرجوا عنها وساروا إلى مدينة صور، ووفى لهم صلاح الدين بالعهد ثم سار عن

صفد إلى كوكب فحاصرها وأرسل بها من الإفرنج يبذل لهم الأمان إن سلموا ويتهدّدهم بالقتل والسبى والنهب إن امتنعوا فأبوا إلا القتال فقاتلهم وجدّ فى قتالهم ونصب المنجنيقات وتابع الرمى بالحجارة فلم يتمكن منها وطال مقامه عليها. ثم حملوا على سورها حملة رجل حتى التصقوا به ونقبوه فلما رأى الفرنجة ذلك مالوا إلى التسليم وأرسلوا إلى صلاح الدين فى ذلك فأجابهم واستلم منهم الحصن فى ذى القعدة وسيرهم إلى صور فانضموا إلى من بها من المقاتلين وأصلحوا حالهم ورتبوا أمورهم فاشتدت شوكتهم وجاءهم المدد تباعاً من صقلية وغيرها فصاروا جيشاً عظيماً، فندم صلاح الدين على تفريطه حيث لم ينفعه ذلك واجتمع للمسلمين بفتح كوكب وصفد من حد أيلة إلى أقصى أعمال بيروت فكان لا يفصل بينها غير مدينة صور وقد صارت فى غاية القوة والامتناع بما وفد عليها من جموع الفرنجة والأمداد المتتابعة واجتمع لهم أيضاً جميع أعمال أنطاكية سوى القصير.

ولما تم لصلاح الدين أخذ صفد سار إلى بيت المقدس فعيد فيه عيد الأضحى، ثم سار منه إلى عكا فأقام بها حتى انسلخت السنة. فلما كان ربيع الأول من سنة خمس وثمانين سار إلى شقيف ارنوم وهو من أمنع الحصون ليحصره فنزل بمرج عيون وأقام بها يدبر أمر جيوشه، فجرت بينه وبين صاحب الحصن وهو صاحب مدينة صيدا أيضاً مخابرات فى معنى القتال وفى المطاولة وترددت الرسل بينهما وكل منهما راض عما يسأل الآخر فتقررت القاعدة بينهما على تسليم الحصن فى جمادى الآخرة من تلك السنة ولبث صلاح الدين بمرج عيون ينتظر الأجل المضروب بينهما ولكنه كان قلقاً مضطرب البال مفكراً فى قرب انقضاء الهدنة بينه وبين صاحب أنطاكية، تقى الدين ابن أخيه فيمن معه من عسكره ومن يأتى من بلاد المشرق وأمره بالنزول مقابل أنطاكية لئلا يغير صاحبها على بلاد الإسلام عند انقضاء الهدنة وكانت الأخبار عن صور تأتى إليه فى كل يوم أشكالاً وكلها تدل على اجتماع الفرنجة بها وما يتصل بهم من الأمداد فى البحر وتزايد جموعهم يوماً عن يوم، فكان منزعج الخاطر كثير الهم شديد الخوف وكان يخشى من ترك الشقيف وراء ظهره والتقدم إلى صور وفيها الجموع المتكاثفة فتنقطع الميرة عنه وكان صاحب الشقيف فى هذه الهدنة يشترى الأقوات من سوق العسكر والسلاح وغير ذلك مما يقوى به حصنه وصلاح الدين لا يسيء الظن به، وما دخلت سنة ست وثمانين حتى تم تجهيز جموع الفرنجة وكثر عددهم وعُدَدهم تحت راية امبراطور الألمان فسار بهم وهم لا يحصون كثرة يريد بيت المقدس وجعل طريقه على القسطنطينية فلم يمدّهم صاحبها بشيء من

الذخيرة ولا الأزواد وخشى منهم على بلاده وكادت تقع الحرب بينهما على ذلك ثم عبروا خليج القسطنطينية واتصلوا ببلاد الملك قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن قتلش بن سلجق فلم يطئوا حدودها حتى ثارت بهم قبائل التركمان فناوشتهم القتال فلم تنل منهم فجعلوا يسايرونهم ويسرقون ما قدروا عليه ومازالوا سائرين حتى قاربوا مدينة قونية فخرج إليهم الملك قطب الدين ملك شاه بن قلج أرسلان يريد منعهم فلم يكن له بهم قوة فعاد مسرعاً مدحوراً إلى قونية ، فأسرعوا فى السير فى أثره ونازلوا قونية وجدوا فى قتالها وشدّدوا فأرسل إليهم قطب الدين يسألهم الجلاء عن المدينة ولهم ما يطلبون فأجابه الامبراطور إلى ذلك بشرط أن يسلم إليهم جميع ما يحتاجون إليه من قوت وغيره فأتاهم بما يريدون فتزودوا وطلب منه رهائن وتسيير الكتب إلى جميع بلاده بملازمة السكون والطاعة والقيام بكل ما يطلب منهم فسلم إلى الامبراطور نيفاً وعشرين أميراً كان يكرههم رهناً وسير الكتب إلى الآفاق بإمداد جيوشهم بالميرة والزاد وجميع ما يحتاجون إليه وسار امبراطور الألمان فى جموعه حتى أتى بلاد الأرمن فخرج إليه صاحبها لافونة بن اصطفان بن ليون فى جماعة من كبار قومه وأحسن وفادته وقدم له من الأقوات شيئاً كثيراً وكذلك العلوفات وحكم الامبراطور فى بلاده وأظهر له الطاعة، فلبث أياماً ثم نادى فى جموعه بالرحيل فساروا يريدون أنطاكية ونزلوا على نهر فى طريقهم ولبثوا أياماً واتفق أن الامبراطور نزل يوماً فى النهر ليغتسل فغرق فى مكانه ، فعظم ذلك على أصحابه وأحزنهم جداً وكان معه ولده فاجتمع على البيعة له جميع الأمراء وكبار الجند والأحزاب وسار بهم يريد أنطاكية فرأى من تحصينها وامتناعها ما لاتحتاج معه إلى المدد فساروا عنها يريدون عكا فمروا بجبلة ولاذقية وقد ملكهما المسلمون فقاتلوهما قتالاً عنيفاً حتى أخذوهما ثم ساروا إلى عكا فخرج عليهم أهل حلب وغيرهم فلم ينالوا منهم ما أرادوا فكانوا يتخطفون من خلفهم وبلغوا طرابلس وأقاموا بها أياماً فرتبوا أمورهم وأحكموا نظامهم وتزودوا وركبوا السفن وأقلعوا إلى عكا، فلما وصلوا إليها صعد إلى المترسين أمامها من جموع الفرنجة من صعد ممن يفضلون الجهاد على العود إلى الأوطان، وأقلع من أقلع عائداً إلى أهله وولده صحبة امبراطور الألمان وكان صلاح الدين وأصحابه فى قلق وخوف ما عليه مزيد وهم يتوقعون جلاءهم عن جميع أرض الشام فى كل يوم إن هم خسروا عكا وكانوا كلما علموا بقرب جموع الألمان منهم ترفعوا عنهم وأخلوا لهم المسالك وبالغوا فى التحرز والالتفات، فلما سافر ملك الألمان بمن سافر معه من جموعه وقد تقوّت

نفوس من بالمتاريس أمام عكا من الفرنجة بمن جاءهم من المقاتلين والمتطوّعة رتبوا أمورهم وخرجوا فى عدتهم وسلاحهم لقتال المسلمين، وقصدوا معسكر مصر ومقدمهم الملك العادل أبو بكر بن أيوب فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم المصريون وتقهقروا، فتبعهم الفرنجة وأعملوا فيهم القتل ودخلوا خيامهم ونهبوا جميع أموالهم وكانت عساكر الموصل قريبة من العساكر المصرية فلما رأوا ما حل بالمصريين حملوا على الفرنجة ومقدّمهم علاء الدين حزم شاه بن عز الدين مسعود صاحب الموصل وجدوا فى قتالهم وبالغوا فنالوا منهم ثم افترقوا والقتلى لا تكاد تدخل تحت الحصر، فلما كان بعد يومين رأى صلاح الدين وأصحابه من تكاثر ورود المدد فى السفن والبطس الكبيرة إلى من بعكا ما أذهلهم وأخافهم وأوقعهم فى حيرة ثم وصل الأمير هنرى ابن أخى ملك الفرنسيس لأمه وابن أخى ملك إنجلترا لأمه ووصل معه من الأموال والذخيرة وآلات الحرب شىء كثير للغاية فلم يستقر به المقام حتى حشد وجند وبذل الأموال ورتب الأمور وأحكم نظام المقاتلين من كل صنف ثم أظهر أنه يريد الخروج إلى لقاء المسلمين وقتالهم فانتقل صلاح الدين بعسكره من مكانه إلى الخروبة فعكف الأمير هنرى بمن معه على المتاريس ونصبوا خلفها المنجنيقات ورموا بالحجارة على البلد وتابعوا الرمى ليلاً ونهاراً وقويت نفوسهم واشتدت عزائمهم وجاءتهم رسائل بابا رومة بالحث والاستنهاض والمثابرة على الجهاد والجد فى القتال وأنه سير إلى الآفاق يستنهض ملوك المسيحيين إلى استخلاص بيت المقدس من يد صلاح الدين يوسف وأن المدد قائم عليهم برا وبحراً، فلما كان حادى عشر شوال من السنة - أى سنة ست - وثمانين - خرجوا فى عدد عظيم فهال منظرهم صلاح الدين وأصحابه وانقبضت له نفوسهم فنادى صلاح الدين بنقل الأثقال إلى بلدة ميمون فنقلوها وأرسل يستسرع حضور العساكر إليه من الأطراف فحضروا فأحكم نظامهم وجعل أولاده الأفضل عليا والظاهر غازى والظافر مما يلى القلب وأخاه العادل أبا بكر فى الميمنة مع العساكر المصرية ومن انضم إليه وجعل فى الميسرة عماد الدين صاحب سنجار وتقى الدين صاحب حماة ومعز الدين سنجر شاه صاحب جزيرة ابن عمر مع جماعة من أمرائه ونصب صلاح الدين خيمة صغيرة على تل مشرف على العسكر ونزل فيها ينظر إليهم لمرض أصابه يومئذ فاقتتلوا قتالاً خفيفاً ثم عادوا إلى مراكزهم، وقد عرف الأمير هنرى مواقف عسكر المسلمين وما لديهم من الأسلحة والكراع وغير ذلك فجعل يطاولهم ولا ينكف عن الرمى على من بعكا منهم بالحجارة تارة وبالسهام أخرى واشتد الغلاء فى عسكر صلاح الدين وقل الوارد

من المؤنة لتعذر نقلها بسبب الشتاء ووقوف جماعة الفرنجة فبلغت غرارة الحنطة أكثر من مائة دينار صورى فصبروا على هذا ومع ذلك فكانت تأتيهم المؤنة من البلدان القريبة على الصعب والذلول وأرسل من بعكا إلى صلاح الدين يشكون الضجر والملالة والسآمة وكان بها الأمير حسام الدين أبو الهيجاء السمين مقدما على جندها فرسم صلاح الدين بإقامة البدل وإنفاذه إليها وإخراج من بها وأمر أخاه الملك العادل بمباشرة ذلك فانتقل إلى جانب البحر ونزل تحت جبل حيفا وجمع المراكب والشوانى وشحنها بما تيسر من الجنود والعساكر وكانت مراكب الفرنجة قد لجأت إلى صور والجزائر فرارا من عواصف الشتاء فانفتح الطريق إلى عكا وتمكنت مراكب صلاح الدين من دخول المينا وتنزيل المقاتلة فدخل عكا عشرون أميرا وخرج منها ستون أميرا لاستيلاء الضجر والملل على جميع العساكر وأهمل نواب صلاح الدين تجنيد الرجال وإنفاذهم وقلت النفقة على المقاتلين فتفرق بهذا السبب أيضاً خلق كثير. قال أصحاب التاريخ: وانضاف إلى ذلك توانى صلاح الدين ووثوقه بنوابه وإهمال النواب فانحسر الشتاء والأمر كذلك وعادت مراكب الفرنجة الى عكا وانقطع الطريق وعاد الرمى بالمنجنيقات على البلد ليلاً ونهاراً وكان ممن دخل من الأمراء إلى عكا سيف الدين على بن أحمد المشطوب وعز الدين أرسل مقدم الأسدية وكان دخولهم إلى عكا فى أوائل سنة سبع وثمانين فجد الفرنجة فى القتال وشددوا فى الحصار وسدوا الطرق برا وبحراً وعظم الأمر على صلاح الدين وأصحابه. قال صاحب الكامل: فكان حال المسلمين كما قال الله عز وجل ﴿**إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا**﴾ ، ووقع فى عسكر صلاح الدين بعض الموت فمات يوسف بن زين الدين على صاحب أربل وكان قد حضر فى عسكره نجدة لصلاح الدين فى جملة من حضر من الأطراف والقتال من الفرنجة قائم على ساق فى البر والبحر ووصل إلى عكا فى الثانى عشر من ربيع الأول الملك فليب ملك الفرنسيس فى سفن كثيرة ومعه كثير من المقاتلة والمتطوعة فنزلت طائفة منهم إلى البر ونزل الملك فليب فقابله الأمير هنرى وضربت لقدومه البشائر وعلم من فى جميع البلاد التى بيد الفرنجة بخبر قدومه ففرحوا به ولم يلبث أن قاتل من بعكا من المسلمين وألح فى قتالهم وشدد فى التضييق عليهم، وكان صلاح الدين نازلاً بمن معه على شفرعم ،فكان يركب كل يوم ويقصد الفرنجة ليشغلهم بالقتال عن الزحف إلى البلد فلم يكن ليقدر على ذلك، واشتد الكرب على من بالبلد وتولاهم الضجر

والملل وكبر خوف صلاح الدين وكاد يتولاه القنوط عندما جاءته الأخبار أيضاً بقرب وصول الملك ريشارد الملقب بقلب الأسد ملك الإنجليز إلى عكا فى كثير من العساكر والمقاتلين على ظهور البطس العظيمة ومراكب الحرب، وكان ريشارد قد أنذر بالجهاد فسار فى عسكر عظيم من إنجلترا يريد عكا ومر بجزيرة قبرص فنزل عليها ليملكها لأمور بينه وبين صاحبها لا تتعلق بما نحن بصدده ووصلت بعض سفنه إلى عكا ونزل من بها من المقاتلين والمتطوعين وقاتلوا المسلمين مع من يقاتلون من المسيحيين، وألحوا فى القتال وأمر الملك فليب فنصبوا سبع منجنيقات وتابعوا الرمى بها على عكا ليلاً ونهاراً فعظم الأمر على صلاح الدين وقدم ريشارد ملك الإنجليز ثالث عشر جمادى الأولى فى جموعه وقد استولى فى طريقه على جزيرة قبرص وأخذها من الروم ووصل إلى مينا عكا فى خمس وعشرين قطعة كبارا مملوءة رجالاً وأموالاً فلما عظمت المصيبة على من بعكا من المسلمين أرسلوا إلى صلاح الدين يعرفونه حالهم فلم يفدهم شيئاً فخرج الأمير سيف الدين على بن أحمد الهكارى المعروف بالمشطوب من البلد واجتمع بالملك فليب ملك الفرنسيس وبذل له تسليم البلد بما فيه على أن يطلق من به من المسلمين ويمكنهم من اللحوق بسلطانهم فلم يجبه إلى ذلك وأبى إلا التسليم بغير شرط، فرجع المشطوب وأخبر بقية الأمراء بما جرى فلما كان الليل اجتمع منهم عز الدين أرسل الأسدى وابن عز الدين جاولى وسنقر الوشاقى وغيرهم، واتفقوا على الهرب فخرجوا سرا من أصحابهم ولحقوا بصلاح الدين فلما أصبح الناس ورأوا ذلك انفشلوا وازدادوا وهنا على وهنهم وضعفاً على ضعفهم وأيقنوا بالعطب وأرسل صلاح الدين إلى فليب فى معنى التسليم بشرط أن يطلق من أسرى النصارى بعدد ما فى عكا من المسلمين ليطلقوا هم من بعكا وأن يسلم إليهم صليب الصلبوت، فلم يقنع بما بذل وأمر بتشديد القتال فشدّدوا وزحفوا على البلد بحدهم وحديدهم، فلما صارت على وشك السقوط ظهر من بها من المسلمين على السور يحركون أعلامهم ليراها أصحاب صلاح الدين وكانت هى العلامة إذا اخترمهم أمر فضجوا بالبكاء والعويل ولكنهم لم يقدروا على نفع ولم يدفعوا عن البلد ضرا. قال بعض الكتاب: فخرج المشطوب إلى ملوك الفرنجة وقرر معهم تسليم البلد وخروج من فيه وبذل لهم على ذلك مائتى ألف دينار وخمسمائة أسير من المعروفين وإعادة صليب الصلبوت مع أربعة عشر ألف دينار إلى صاحب صور فأجابوه إلى ذلك فسلم البلد إليهم ودخلوه فلما ملكوه غدروا وأحاطوا بمن فيه من المسلمين وأموالهم وحبوسهم وأظهروا أنهم يفعلون ذلك ليصل إليهم ما بذل لهم

وقال آخرون: بل فتحوا البلد عنوة وأعملوا فيه السيف وأخذوا ما به من الأموال والمتاع وأرسلوا إلى صلاح الدين فى إرسال المال والأسرى والصليب حتى يطلقوا من عندهم من المسلمين فطاولهم صلاح الدين فأعملوا السيف فيمن بقى من المسلمين ولم يستبقوا إلا بعض الأمراء والمقدمين ثم أخذوا يصلحون حال البلد ويرممون ما تهدم منها حتى عادت إلى ما كانت عليه من الامتناع وأقاموا إلى شعبان من السنة لايحركون ساكناً ولا يشتغلون بغير تحصين البلد وترتيب أمورهم، ثم برزوا منها وساروا يريدون حيفا وكان الملك الأفضل بن صلاح الدين يوسف فى طائفة من العسكر والمتطوعين يراقبون حركات الفرنجة ومعهم جماعة من الأمراء وهم سيف الدين ايازكوش وعز الدين جورديك وعدّة من كبار الجند فلما أحسوا بخروج الفرنجة وعلموا أنهم يقصدون حيفا كتب الملك الأفضل إلى أبيه صلاح الدين يعلمه بالحال ويستمدّه فنادى صلاح الدين فيمن معه بالمسير إليه فامتنعوا فعاودهم فامتنعوا وقد تولاهم الفشل واختلط الحال على صلاح الدين، فلما أبطأ المدد على الملك الأفضل وعجز عن الوقوف فى طريق الفرنجة جعل يتخطف ساقتهم فعاد ريشارد ملك إنجلترا على ساقة الفرنجة فحماها وجمعهم وساروا وهم على أحسن نظام وأجمل هيئة حتى أتوا حيفا فنزلوا بها ونزل المسلمون بقرية قيمون على مقربة من حيفا فأقام الفرنجة بحيفا أياماً ثم ساروا منها إلى قيسارية والمسلمون يسايرونهم، فلما قاربوا قيسارية لاصقهم المسلمون وقاتلوهم فلم ينالوا منهم ونزل الفرنجة بها ثم قاموا من قيسارية وقد أصلحوا حالهم وساروا يريدون ارسوف وكان المسلمون قد سبقوهم إليها وتبعهم السوقة والباعة وغيرهم ممن يتبعون العساكر فى الحروب ،فلما اقترب الفرنجة من البلد خرج عليهم المسلمون وحملوا عليهم حملة منكرة، فحملت فرسان الفرنجة على المسلمين حملة رجل واحد فولى المسلمون منهزمين لا يلوى أحد على أحد واختلطوا بالسوقة فعلا الضجيج والصياح ووقع السيف على الأعناق وكثر القتل والتجأ من بقى من المنهزمين إلى قلب الجيش وفيه صلاح الدين يوسف فاختل نظامه وولوا جميعاً منهزمين ودخلوا شعرة كثيرة الشجر قريبة من موقفهم فظنها الفرنجة أنها مكيدة فلم يتبعوهم . قال أصحاب التاريخ: فلو علم الفرنجة أنها هزيمة لتبعوهم، واشتهرت الهزيمة وهلك المسلمون عن آخرهم وعاد الفرنجة فدخلوا أرسوف وأقاموا بها أياماً ثم برزوا منها وقد رتبوا أمورهم وساروا إلى يافا، فنزلوها وملكوها وبثوا سراياهم فى الأطراف فعاثوا وقتلوا وتخطفوا من المسلمين خلقاً كثيراً فعم الخوف وضاقت نفوس المسلمين وتفرق عن ملوك الأطراف أصحابهم

والمجاهدون معهم وعظم الأمر جدا على صلاح الدين يوسف ولازمه الحزن والكدر وتولاه القنوط واليأس فسار مجدا فى نفر قليل إلى الرملة ولحق بأثقاله فيها، وجمع إليه الأمراء واستشارهم فيما يفعل فأشاروا عليه بتدمير عسقلان وقالوا له: قد رأيت ما كان منا ومنهم بالأمس وإذا جاءوا إلى عسقلان ووقفنا فى وجوههم نصدهم عنها فلا شك أنهم يظفرون بنا وينزلون عليها فإذا كان ذلك عدنا إلى مثل ما كنا عليه على عكا ويعظم الأمر علينا لأن العدو قوى ونحن قد ضعفنا وتولانا اليأس ولازمنا الملل فلم تسمح نفس يوسف بتدميرها ونادى فيمن عنده من العساكر والمتطوّعة بالدخول إليها والذب عنها فلم يجبه أحد إلى ذلك وقالوا: إن أردت الذب عنها فادخل أنت معنا أو بعض أولادك الكبار وإلا فما يدخلها منا أحد ونحن إلى الآن ما ننسى ما أصاب أهل عكا، فلما أيس من حفظها سار نحوها وأمر بتخريبها فخربت والقيت أحجارها بالبحر وهلك فيها من الأموال والذخائر شىء كثير للغاية وعفى أثرها ثم رحل صلاح الدين عن عسقلان بعد تخريبها إلى الرملة، فخرب حصنها وهدم الكنيسة الكبرى التى بها وأتلف جميع ما كان بها من الذخيرة، وأما الفرنجة فإنهم أطالوا المقام بيافا وشرعوا فى عمارتها وتحصينها وأكثروا فيها من الأسلحة والكراع والمدد يتواصل بينها وبين بقية القلاع والحصون التى بأيديهم ،فلما طال مكثهم بها عظم الأمر على صلاح الدين وأصحابه وقلت عندهم الأقوات واشتد بهم الضجر، فترددت الرسل بين الملك العادل أبى بكر بن أيوب أخى صلاح الدين وبين ريشارد ملك الإنكليز فى معنى الصلح أو المهادنة واجتمع الملك العادل بملك الإنكليز مراراً كثيرة وتكلموا فى المعنى وشاع يومئذ بين العسكرين أن ستقرر القاعدة على أن ملك الإنكليز يزوج ابنة عمه الأميرة جوليا من العادل ويكون القدس وما بأيدى المسلمين من بلاد الساحل للعادل وتكون عكا وما بيد الفرنجة من البلاد لابنة عم ريشارد الملك ثم لم تلبث أن بطلت هذه الإشاعة ولم يتم بينهما صلح ولهذه المصالحة والمصاهرة أسباب تكلم الكتاب من الإنكليز عنها كثيراً فأضربنا عن إيرادها هنا خوف الإطالة. قالوا: وكان ريشارد ملك الإنكليز يفعل ذلك مع الملك العادل خديعة ومكراً وأظهر ريشارد العزم على قصد بيت المقدس فاضطرب صلاح الدين من ذلك وسار إلى الرملة جريدة وترك الأثقال بالبترون ثم عاد إلى البترون وقد برز الفرنجة من يافا يريدون الرملة فى ثالث ذى القعدة على عزم قصد بيت المقدس فاقتربوا من المسلمين وتخطفوهم وأكثروا القتل واشتد البلاء على أصحاب صلاح الدين وعظم الخطب فكان كل ساعة يقع الصوت فى العسكر بلقاء الفرنجة، فلقوا

من ذلك شدة بالغة للغاية وأقبل الشتاء وتوالت الأمطار واشتد البرد والناس فى ضنك، وحرج من حمل السلام والسهر الدائم تحرزاً من الفرنجة، ورأى صلاح الدين من ملل الجند وعجزهم ما أخافه فسرحهم إلى أوطانهم فلم يبق معه إلا العسكر المصرى ومقدمهم يومئذ أبو الهيجاء السمين فسار بهم صلاح الدين إلى بيت المقدس، فنزلوا جميعاً داخل البلد ونزل صلاح الدين بدار الأقصى بجوار بيعة قمامة ورسم بعمارة سور البلد وتجديد ما رث منه فأحكموا بنيانه وعملوا خندقاً عظيماً خارج السور ورتبوا الأبراج وتسلم كل برج منها أمير وحصن البلد حتى صارت فى غاية الامتناع. أما الفرنجة فإنهم وصلوا إلى الرملة وملكوها وأقاموا بها أياماً، ثم ساروا منها إلى البترون ثالث ذى الحجة وقاتلوا من بها من أصحاب صلاح الدين ونالوا منهم وجدّوا فى قتالهم حتى ملكوها، ورحل عنها من بقى من أصحاب صلاح الدين فنزل بها الفرنجة وأقاموا أياماً وبث ريشارد ملك الإنجليز عيونه وأرصاده لتأتى له بخبر ما يفعله صلاح الدين بالبيت المقدس ورسم بعمارة عسقلان وأرجائها إلى أحسن ما كانت عليه وتأهب للمسير إلى البيت المقدس وقد رتب المقاتلين على أحسن ترتيب وكان صلاح الدين لما دخل إلى البيت المقدس سير رسلاً إلى سنان مقدم الإسماعيلية يطلب منه أن يرسل من يقتل ملك الإنجليز قبل أن يبرح من البترون ويأتى إلى البيت المقدس، وأن من قتل المركيز منسرات صاحب صور فله عشرة آلاف دينار فأجابه سنان إلى ذلك ثم عدل عن قتل ملك الإنجليز كى لا يخلوا الجوّ لصلاح الدين فتطمع نفسه فى البلاد وتكثر غزواته وعمد إلى قتل المركيز منسرات، وكان من كبار الملوك معرفة بالحروب وحسن السياسة وبينه وبين ريشارد عداوة ومنافسة بسبب تقدم ريشارد على جميع الملوك الصليبيين واستلامه قيادة الجيش وتصرفه فى جميع الأمور بدون مشورتهم خلافاً للعهد واليمين الذى كان بينهم فأرسل رجلين فى زى الرهبان فاتصلا بصاحبى صيدا والرملة وكانا مع المركيز بصور فأقاما معهما أياماً كثيرة يظهران العبادة فأنس بها المركيز وركن إليهما، فلما كان فى بعض الأيام سار المركيز إلى أسقف البلد ولبث معه برهة ثم خرج يريد مقره فوثب عليه الباطنيان المذكوران فجرحاه جراحاً بليغة وهرب أحدهما فدخل كنيسة يختفى فيها واتفق أنهم حملوا المركيز إلى هذه الكنيسة ليشدوا جراحه فوثب عليه الباطنى المذكور وقتله فقبضوا عليه هو ورفيقه وقتلوهما فى الحال وعظم قتل المركيز على أصحابه جدًا وظنوا أن قتله بوضع من ملك الإنجليز ليخلو وجهه وينفرد بملك السواحل الشامية فولوا بعده الأمير هنرى ابن أخت ملك الفرنسيس من أبيه وهو من

كبار الأمراء وأجودهم رأياً وأحسنهم سياسة وخبرة بالحروب وقد تولى ملك جميع بلاد الساحل الشامى بعد رجوع ريشارد إلى بلاده والفراغ من هذه الحرب الصليبية.

ووصل ريشارد ملك الإنجليز فى عسكره إلى حصن الداروم أوائل جمادى الأولى فخربه وعفى معالمه وسار إلى بيت المقدس وصلاح الدين فيه فوصل بالعسكر إلى بيت نوبة ثم ساروا من هناك إلى قلونية سلخ الشهر وهى على قيد فرسخين من بيت المقدس وبث سراياه فى الأطراف، وطاف هو حول البيت المقدس ليرى من أين يأتيه ويقاتل من به فكبر خوف المسلمين وعظم عليهم الأمر وثابروا على السهر والوقوف على السور ليلاً ونهاراً لا يلقون عنهم السلاح، وعلم الفرنجة بوصول عسكر من مصر ومعهم قفل كبير ومقدم ذلك العسكر أمير اسمه فلك الدين سليمان أخو العادل لأمه ومعه عدة أمراء من المصريين، فأسرى الفرنجة إليهم وأحاطوا بهم جميعاً وأعملوا فيهم السيف بنواحى الخليل فانهزم الجند شر هزيمة وكثر فيهم القتل وغنم الفرنجة خيامهم وآلاتهم وجميع مالهم وهرب من نجا من الأمراء والجند وصعدوا جبل الخليل فلم يتبعهم الفرنجة. قال بعض كتاب الأخبار: ولو اتبعوهم نصف فرسخ لأتوا عليهم جميعاً وعفوا أثرهم، وبقى ملك الإنكليز بعسكره حول البيت أياماً كثيرة وعسكر صلاح الدين لا يغفلون ولا يبارحون الأسوار ثم ترددت الرسل بين ريشارد وصلاح الدين فى أمر الصلح والكف عن القتال وحقن الدماء ورحل ريشارد عن بيت المقدس وسار إلى يافا ثم عنها إلى عكا، فخرج صلاح الدين فى عسكر من البيت المقدس وسار نحو يافا يريد أخذها فقاتل من بها من الفرنجة قتالاً عنيفاً وحاصر القلعة وشدد فى حصارها أياماً. وإذا بريشارد قد أحاط بالبلد وقاتل صلاح الدين وهزمه وانتصر عليه ومزق شمل جموعه. قال أصحاب التاريخ: وبرز ريشارد إلى ظاهر المدينة فى ذلك اليوم واعترض المسلمين وحده وحمل عليهم فلم يتقدم اليه أحد وخافوا منه خوفاً عظيماً فوقف بين الصفين واستدعى طعاماً ونزل عن فرسه وأكل فشق ذلك على صلاح الدين ونادى فى عسكره بالهجوم على الفرنجة والجدّ فى قتالهم فتقدم إليه بعض أمرائه ويعرف بالجناح وهو أخو المشطوب بن علىّ بن أحمد الهكارى فقال له: يا صلاح الدين قل لمماليكك الذين أخذوا أمس الغنائم وضربوا الناس بالجماقات أن يتقدموا ليقاتلوا عند انتشاب نار القتال وتكون الغنائم نصيباً لهم. وكان لما دخل عسكر صلاح الدين إلى يافا بعد فتحها وصار المقاتلون ينهبون ما فيها وقف جماعة من مماليك صلاح الدين على أبواب المدينة وكل من خرج من الجند ومعه شىء من الغنيمة أخذوه منه فإن

امتنع ضربوه وأخذوا ما معه قهرا،" فلما سمع صلاح الدين كلام الجناح غضب وقد أنس الغدر من الأمراء إن هو أطال الحرب مع الفرنجة وراسل ملك الإنجليز فى طلب الصلح وطلب التعجيل، وقد عرف صلاح الدين ما عند العسكر من الضجر، والملل وما قد هلك من سلاحهم ودوابهم وما نفد من نفقاتهم وقال: إن لم نعجل بالصلح تأخر ملك الإنجليز ومن معه من الملوك والأمراء الصليبيين عن الرحيل إلى أوطانهم لدخول الشتاء، فنبقى هنا سنة أخرى وحينئذ يعظم الضرر على المسلمين، ومازال بريشارد حتى تقررت القاعدة بينهم فى العشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسمائة وعقدوا الصلح وتحالفوا على هذه القاعدة ونادى كل فريق فى عسكره بتقرير قاعدة الصلح فاختلط العسكران وزار بعضهم بعضاً وأباح صلاح الدين لطوائف الفرنجة زيارة بيت المقدس. فزاروه وتفرقوا وبقى ما بيد الفرنجة من السواحل الشامية خاضعة للملك هنرى .قال صاحب الكامل: وكان هنرى هذا خيراً قليل الشر رفيقاً بالمسلمين محبا لهم ، وعاد صلاح الدين بعد ذلك إلى بيت المقدس، فرسم بإحكام سوره وعمل به المدرسة والرباط والبيمارستان وغير ذلك ووقف عليها الوقوف ثم سار عن البيت المقدس نحو دمشق واستناب به الأمير جورديك أحد المماليك النورية فدخل دمشق فى الخامس والعشرين من شوال من السنة، ففرح الناس به لطول غيبته عنهم وكان بها أولاده الصغار والظاهر والأفضل والظافر، فلبث بها فلما كان اليوم الخامس عشر من صفر من السنة أى سنة تسع وثمانين ركب فى طائفة من أصحابه لملاقاة الحاج ثم عاد وقد أصابته حمى شديدة ولازمته ثمانية أيام، ثم مات بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر المذكور فحزن عليه الناس حزناً عظيماً وغشى الملك والقلعة فى ذلك اليوم وحشة، وكان كريماً جوداً حسن الأخلاق متواضعاً صبوراً على ما يكره كثير التغافل عن ذنوب الناس مات وله من العمر سبع وخمسون سنة فعمل الشعراء فيه المراثى الكثيرة. من ذلك قصيدة للعماد الكاتب مائتان وثلاثون بيتا أولها :

شمل الهوى والملك عم شتاته   والدهر ساء وأقلعت حسناته
بالله أين الناصر الملك الذى   لله خالصة صفت نياته
أين الذى مازال سلطانا لنا   يرجى نداه وتتقى سطواته
أين الذى شرف الزمان بفضله   وسمت على الفضلاء تشريفاته
أين الذى عنت الفرنج لبأسه   ذلاً ومنها أدركت ثاراته
أغلال أعناق الورى أسيافه   أطواق أجياد الورى حسناته

إلى آخر ما قال .

قال ابن السبكى فى الطبقات الكبرى له يعنى صلاح الدين من الفتوحات التى خلصها من الفرنجة قلعة ايليا وطبرية وعكا والقدس والخليل والكرك والشوبك ونابلس وعسقلان وبيروت وصيدا وبيسان وغزة ولد وحصا وخورية والفولة ومغليسيسيا والطود والاسكندرية وهفوس وباماس وارسوف وقيسارية وجبيل ونبل ومملكية ومقربلا واللجون وآسمه ويافول ومجدل وبابايل والصافية وبيت نوبا والبيرون والحيب والكرسة وبيت لحم وريحاقرا وأحصر الدير وبئر فلفيلة وصرير الزيت والوعر والهرمس وتغليسا والغارزية وتفرع ومجدل والحار والشقيف وسيطلة التى يقال لها قبر زكريا وجبيل وكوكب وانطوطوس واللاذقية ومسكرائيل وصهيون وجبلة وقلعة العبد وقلعة الجماهيرية وبلاطنس والشغر وبكاس وسرمينية وبرزية ودرب ساك وبغراس وصفد وله مضافات يطول شرحها. قال: وكانت مملكته من المغرب إلى تخوم العراق ومعها اليمن والحجاز وملك ديار مصر بأسرها مع ما انضم إليها من بلاد المغرب والشام بأسرها مع حلب وما والاها وأكثر بلاد ربيعة وبكر والحجاز بأسره واليمن بأسره ونشر العدل فى الرعية وحكم بالقسط وبنى المدارس والخوانق وأجرى الأرزاق وهو الذى بنى قلعة الجبل المقطم التى هى دار سلاطين مصر وولاتها ولم يكن لهم قبلها إلا دار الوزارة بالقاهرة .وفتح من بلاد المسلمين حران وسروجه والرها والرقة والبيرة وسنجار ونصيبين وآمد وملك حلبا والمواريخ وشهرزور وحاصر الموصل إلى أن دخل صاحبها تحت الطاعة وفتح عسكره طرابلس الغرب وبرقة من بلاد المغرب وكسر عسكر توتس وخطب بها لبنى العباس ولو لم يقع الخلف بين عسكره الذين جهزهم إلى المغرب لملك المغرب بأسره ولم يختلف عليه مع طول مدته أحد من العسكر وكان رقيق القلب جدا. هذا كله من كلام ابن السبكى فى الطبقات. ومن صنائعه أنه أسقط المكوس والضرائب عن الحجاج بمكة وقد كان يؤخذ منهم شىء كثير ومن عجز عن أدائه حبس فربما فاته الوقوف بعرفة وعوّض أميرها المدعو ثمال أقطاعاً بديار مصر يحمل إليه منه فى كل سنة ثمانية آلاف أردب غلة عوناً له ولمن بعده. قال العماد الكاتب وغيره: مات صلاح الدين ولم يترك فى خزائنه من الذهب سوى دينار واحد صورى وستة وثلاثين درهما ولم يترك داراً ولا عقاراً ولا مزرعة ولا شيئاً من أنواع الأملاك وترك سبعة عشر ولداً ذكراً وابنة واحدة وكان متديناً في مأكله ومشربه وملبسه فلا يلبس إلاّ القطن والكتان والصوف وكان به عرج فقال فيه ابن عينين الشاعر :

سلطاننا أعرج وكاتبه ذو عمش والوزير منحدب

وكان الخليفة المستضئ أرسل إليه فى سنة أربع وستين وخمسمائة خلعاً سنية جداً وزاد فى ألقابه معز أمير المؤمنين، فلما ولى الخليفة الناصر فى سنة ست وسبعين على ماتقدم بيانه أرسل إليه خلعة الاستمرار، ثم أرسل إليه فى سنة اثنتين وثمانين يعاتبه على تلقيبه بالملك الناصر مع أنه لقب أمير المؤمنين فأرسل يعتذر له بأن ذلك كان من أيام الخليفة المستضئ وأنه إن لقبه أمير المؤمنين بلقب فهو لايعدل عنه وتأدب مع الخليفة غاية الأدب .

ولما مات صلاح الدين يوسف بدمشق كان معه بها ولده الأكبر الأفضل كما تقدم القول وكان قد حلف له العساكر جميعهم غير مرة فى حياة أبيه، فلما مات أبوه استقل بملك دمشق والساحل والبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس وهوين وتبنين وجميع الأعمال إلى الداروم وانحلت جميعها عن ملك مصر وكان بمصر أيضاً ولده العزيز عثمان فاستولى عليها واستقر ملكه بها وكان ولده الظاهر غازى بحلب، فاستولى عليها وعلى جميع أعمالها مثل حارم وتل باشر واعزاز وبرزية ودرب ساك ومنبج وغير ذلك وكان بحماة محمود بن تقى الدين عمه فأطاعه وصار معه وكان بحمص شيركوه بن محمد بن شيركوه فأطاع الملك الأفضل وكان الملك العادل أخو صلاح الدين قد صار إلى الكرك فى أيام أخيه، فامتنع به ولم يحضر عند أحد من أولاد أخيه وهكذا اقتسموا مملكة صلاح الدين فيما بينهم وتصرف كل واحد منهم بمصلحته وهواه. ولنضرب صفحاً عن جميع من ذكر ونتتبع حوادث صاحب مصر منهم وهو (الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح) فقد كان من أمره بعد أن استقل بحكم البلاد ودانت له الأمور أن سار فى الرعية سيرة حسنة مع العفة فى المال والغيرة حتى أنه ضاق ما بيده ولم يبق فى الخزانة درهم ولادينار فجاء إليه رجل يسعى فى قضاء الصعيد بمال فامتنع وقال: والله لا بعت دماء المسلمين وأموالهم بملك الأرض فأحبته الرعية ومالت إليه القلوب وأخلصت له الطاعة وجعل يتصرف فلما كانت سنة تسعين وخمسمائة تاقت نفسه إلى توسيع سلطانه وتمديد ملكه فعمد إلى الإغارة على سلطنة أخيه الملك الأفضل علىّ فسار إلى دمشق وحصرها وبها أخوه المذكور ونزل بميدان الحصن فكبر الأمر على الأفضل وأرسل إلى عمه الملك العادل أبى بكر بن أيوب وهو يومئذ صاحب الديار الجزرية يستنجده وكان للأفضل غاية الوثوق به والاعتماد عليه فساء الملك العادل ما فعله الملك العزيز وسار من فوره إلى دمشق وصحبته الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين صاحب حلب

وناصر الدين محمد بن تقى الدين صاحب حماة وأسد الدين شيركوه صاحب حمص وعسكر الموصل وغيرهم واجتمعوا جميعاً بدمشق واتفقوا على حفظها علماً منهم أن العزيز إن ملكها أخذ بلادهم وأذهب سلطانهم فلما رأى العزيز اجتماعهم علم أنه لا قدرة له على البلد فترددت الرسل حينئذ بينهم فى الصلح فاستقرت القاعدة على أن يكون بيت المقدس وما جاوره من أعمال فلسطين للعزيز وتبقى دمشق وطبرية وأعمالها للأفضل على ما كانت عليه وأن يعطى الأفضل أخاه الملك الظاهر جبلة ولاذقية وأن يكون للعادل بمصر أقطاعه الأول واتفقوا على ذلك وعاد العزيز إلى مصر ورجع كل واحد من إخوته إلى بلاده ولكن لم يمض على هذا الاتفاق إلا سنة واحدة غير كاملة حتى نقض العزيز العهد وخرج من مصر فى عسكر عظيم إلى دمشق يريد حصرها ثانية، وكان سبب ذلك أن من كان عنده من مماليك أبيه صلاح الدين المعروفين بالصلاحية مثل فخر الدين جركس وقرا سنقر وقراجا وغيرهم كانوا منحرفين عن الأفضل علىّ لأنه كان أخرج من عنده منهم مثل ميمون القصيرى وسنقر الكبير وأيبك وغيرهم فكانوا يكرهونه لذلك وكانوا يخوفون العزيز من أخيه الأفضل ويحرضونه على الإغارة على بلاده ويقولون إن لم تفعل ذلك مال الأكراد والمماليك الأسدية من عسكر مصر إلى أخيك وانضموا إلى عسكره فيخرجك من البلاد فصدق قولهم وعمل بمشورتهم وخرج فى سنة إحدى وتسعين وخمسمائة فبلغ خبر تأهبه إلى الأفضل فسار من دمشق إلى عمه الملك العادل فاجتمع به فى قلعة جعبر ودعاه إلى نصرته وسار من عنده من حلب إلى أخيه الملك الظاهر غازى فاستنجده وسار الملك العادل من قلعة جعبر الى دمشق فسبق الملك الأفضل إليها ودخلها وكان الأفضل لثقته به أمر نوابه بإدخاله إلى القلعة ثم عاد الأفضل من حلب إلى دمشق فأرسل مقدم الأسدية وهو سيف الدين ايازكوش وغيره منهم ومن الأكراد أبو الهيجاء السمين وغيره إلى الأفضل والعادل بالانحياز إليهما والكون معهما ويحضهما على الاتفاق على العزيز والخروج من دمشق ليسلموها إليهما. قال أصحاب التاريخ: وكان سبب بغض هؤلاء للعزيز وميلهم إلى الأفضل أن العزيز لما ملك مصر مال إلى طائفة المماليك الناصرية وقدّمهم ووثق بهم ولم يلتفت إلى هؤلاء الأمراء فأنفوا من ذلك ومالوا إلى أخيه وأرسلوا إلى الأفضل والعادل فاتفقا على ذلك أيضاً واستقرت القاعدة بحضور رسل الأمراء أن الأفضل يملك الديار المصرية ويسلم دمشق إلى عمه الملك العادل وخرجا من دمشق على ذلك فانحاز إليهما من ذكرنا فلم يمكن العزيز المقام بل عاد منهزماً يطوى المراحل

خوف الطلب ولا يصدِّق بالنجاة وتساقط أصحابه عنه إلى أن وصل إلى مصر وأما العادل والأفضل فإنهما أرسلا إلى البيت المقدس وفيه نائب العزيز فسلمه إليهما وسار بمن معه من الأسدية والأكراد إلى مصر فرأى العادل من انضمام العسكر إلى الملك الأفضل وميلهم إليه ما أخافه وعلم أنه أى الأفضل إن أخذ مصر ربما لايسلم إليه دمشق فأرسل حينئذ سرا إلى الملك العزيز يأمره بالثبات وأن يجعل بمدينة بلبيس من يحفظها وتكفل بأنه يمنع الأفضل وغيره من مقاتلة من بها فجعل العزيز جماعة الناصرية ومقدمهم فخر الدين جركس بها ومعهم جماعة أخرى، فلما وصل العادل والأفضل إلى بلبيس نازلوا من بها من أصحاب العزيز وعزم الأفضل على مناجزتهم أو تركهم بها والرحيل إلى مصر فمنعه العادل من الأمرين وقال: هذه عساكر الإسلام فإن قتلوا فى الحرب فمن يردّ العدوّ الكافر وما بها حاجة إلى ذلك فإن البلاد لك وبحكمك ومتى قصدت مصر والقاهرة وأخذتهما قهراً زالت هيبة البلاد وطمع فيها الأعداء وليس فيها من يمنعك عنها وسلك معه مثل هذا فطالت الأيام وأرسل إلى العزيز سراً وأمره بإرسال القاضى الفاضل وكان مطاعاً عند البيت الصلاحى لعلو منزلته عند صلاح الدين فحضر عندهما وأجرى ذكر الصلح وزاد القول ونقص وانحلت العزائم واستقر الأمر على أن للأفضل البيت المقدس وجميع البلاد بفلسطين وطبرية والأردن وجميع ما بيده ويكون للعادل أقطاعه التى كانت قديماً ويكون مقيماً بمصر عند العزيز قالوا وإنما اختار ذلك لأن الأسدية والأكراد لايريدون العزيز فهم يجتمعون معه فلا يقدر العزيز على منعه عما يريده فلما استقر الأمر على ذلك وتعاهدوا عاد الأفضل إلى دمشق وبقى العادل بمصر عند العزيز.

ولم يستقر الصلح بينهم على ما وصفنا أكثر من حول واحد حتى عاد العادل أبو بكر فأخذ دمشق من الأفضل ابن أخيه صلاح الدين وذلك فى السابع والعشرين من رجب سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة وكان أبلغ الأسباب فى ذلك وثوق الأفضل بالعادل المذكور وقد بلغ من وثوقه به أنه أدخله بلده وهو غائب عنه كما تقدم القول وخالف فيه قول أخيه الملك الظاهر غازى صاحب حلب. وقال بعض كتاب الأخبار غير ذلك، وهو أنه لما أن سار العادل والأفضل إلى مصر وحاصرا بلبيس ثم اصطلحا مع العزيز صاحب مصر أقام العادل مع العزيز بمصر، فلم يلبث حتى استمال العزيز إليه وقرر معه أن يخرجا معاً إلى دمشق ويأخذاها من الأفضل وأن يسلمها إليه فسار معه إلى دمشق وحصروها جميعاً واستمالوا أميراً من أمراء الأفضل يقال له العزيز بن أبى غالب الحمصى وكان الأفضل كثير الإحسان إليه والاعتماد

عليه والوثوق به، فسلم إليه باباً من أبواب دمشق يعرف بالباب الشرقى ليحفظه فمال إلى العزيز والعادل ووعدهما أن يفتح لهما الباب ويدخل العسكر منه إلى البلد غفلة ففتحه فى اليوم السابع والعشرين من رجب وقت العصر وأدخل الملك العادل منه ومعه جماعة من أصحابه ،فلم يشعر الأفضل إلا وعمه معه فى دمشق وركب الملك العزيز ووقف بالميدان الأخضر غربى دمشق، فلما رأى الأفضل أن البلد قد ملك خرج إلى أخيه وقت المغرب واجتمع به ودخلا كلاهما البلد واجتمعا بالعادل وقد نزل فى دار أسد الدين شيركوه وتحادثوا واتفق العادل والعزيز على أنهما يبقيان على الأفضل البلد خوفاً من أنه ربما جمع من عنده من العسكر وثار بهما ومعه العامة فأخرجهما من البلد وعاد الأفضل إلى القلعة، وبات العادل فى دار شيركوه، وخرج العزيز إلى الخيام فبات فيها وخرج العادل من الغد إلى جوسقه فأقام به وعسكره فى البلد وفى كل يوم يخرج الأفضل إليهما ويجتمع بهما فبقوا على هذا الحال أياماً ثم أرسلا إليه وأمراه بمفارقة القلعة وتسليم البلد على قاعدة أن يعطى قلعة صرخد له ويسلم جميع أعمال دمشق، فخرج الأفضل ونزل فى جوسق بظاهر البلد غربى دمشق وتسلم العزيز القلعة ودخلها وأقام بها أياماً فجلس يوماً فى مجلس شرابه فلما أخذت منه الخمر جرى على لسانه أنه على عزم أن يعيد دمشق إلى أخيه الأفضل فنقل ذلك إلى العادل فى الحال فحضر المجلس من ساعته والعزيز سكران فلم يزل به حتى سلم إليه البلد وخرج منه وعاد إلى مصر وسار الأفضل إلى صرخد، واتفق أن خرج العزيز من القاهرة يريد الصيد، فجعل ينتقل من بلد إلى آخر حتى وصل إلى مدينة الفيوم فرأى ذئباً فركض فرسه فى طلبه فعثر الفرس فسقط عنه ولحقته حمى فعاد إلى القاهرة مريضاً واشتد به مرضه، فمات فى العشرين من المحرم افتتاح سنة خمس وتسعين وخمسمائة. قال أصحاب التاريخ: وكان الغالب على أمره مملوك ولده فخر الدين جهاركس، فلما مات العزيز سير فخر الدين المذكور إلى الملك العادل أبى بكر بن أيوب وهو يحاصر ماردين يستدعيه ليملكه البلاد فسار القاصد مجداً فلما بلغ الشام رأى بعض أصحاب الملك الأفضل فقال له : قل لصاحبك إن أخاه العزيز مات وليس فى مصر من يمنعها فليسر إليها على عجل وكان الأفضل محبوباً إلى الناس فلم يلتفت إلى قول ذلك القاصد ولم يتحرك من صرخد حتى جاءته رسل الأمراء من مصر يدعونه إليهم ليملكوه البلاد وكان سبب ذلك أن الأمير سيف الدين يازكج مقدم الأسدية والفرقة الأسدية والأمراء الأكراد يحبونه كثيراً وكانت المماليك الناصرية الذين هم ملك أبيه يكرهونه

فاجتمع سيف الدين مقدم الأسدية المذكور وفخر الدين جهاركس مقدم الناصرية ليتفقوا على من يولونه الملك. فقال فخر الدين: نولى ابن الملك العزيز فقال سيف الدين إنه طفل وهذه البلاد ثغر الإسلام ولابد من قيم بالملك يجمع العساكر ويقاتل بها فأرى أننا إذا جعلنا الملك فى هذا الطفل نجعل معه بعض أولاد صلاح الدين يدبره إلى أن يبلغ أشده فإن العساكر لا تطيع غيرهم ولا تنقاد لأحد غير أهل هذا البيت وجرى بين الفريقين كلام ثم اتفقا على هذا. فقال جهاركس: ومن يتولى القيام بذلك؟ فأشار سيف الدين بغير الأفضل فجرى بينه وبين جهاركس منازعة لئلا يتهم وينفر جهاركس عنه فامتنع من ولايته. قال بعض أصحاب الأخبار: فلم يزل يذكر من أولاد صلاح الدين واحداً بعد آخر إلى أن ذكر آخرهم الأفضل فقال جهاركس: هو بعيد عنا وكان يومئذ بصرخد مقيماً بها من حين أخذت منه دمشق فقال سيف الدين نمضى إلى القاضى الفاضل ونأخذ برأيه فاتفقا على ذلك وأرسل سيف الدين فى الحال القاصد وراءه، فسار عن صرخد لليلتين بقيتا من صفر متنكراً فى تسعة عشر نفراً فلما قارب بيت المقدس، وقد عدل عن الطريق المؤدى إليها لقيه فارسان قد أرسلا إليه من بيت المقدس فأخبراه أن من بالقدس قد صار فى طاعته فجد فى السير فوصل إلى بلبيس خامس ربيع الأول ولقيه إخوته وجماعة الأمراء المصريين وجميع الأعيان، واتفق أن أخاه الملك المؤيد مسعوداً صنع له طعاماً وصنع له فخر الدين مملوك أبيه طعاماً أيضاً فابتدأ بطعام أخيه ليمين حلفها أخوه أن يبدأ به فظن فخر الدين جهاركس أنه فعل هذا انحرافاً عنه وسوء ظن به فاضطرب خاطره وتغيرت نيته وعزم على الهرب فحضر عند الأفضل وقال: إن طائفة من العربان قد اقتتلوا وإن لم نمض إليهم نصلح بينهم لأدى ذلك إلى فساد عظيم فأذن له الأفضل فى المضى إليهم ففارقه وسار مجداً حتى وصل بيت المقدس ودخله وتغلب عليه ولحقه جماعة من الناصرية منهم قراجه الزره كش وسرا سنقر واستقدموا أيضاً ميمونا القصرى صاحب نابلس وهو من المماليك الناصرية فقويت شوكتهم به، واجتمعت كلمتهم على خلاف الأفضل وأرسلوا إلى الملك العادل وهو على ماردين يطلبونه إليهم ليدخلوا معه إلى مصر ليملكوها فلم يسر إليهم لأن أطماعه كانت قد قويت فى أخذ ماردين وقد عجز من بها عن حفظها حتى إذا أخذها جاءهم على الأثر ليدخل معهم مصر.

أما الملك الأفضل فإنه بعد أن استراح من متاعب السفر سار عن بلبيس إلى القاهرة فوصلها سابع ربيع الأوّل وعلم بهرب فخر الدين جهار كس فأهمه ذلك

وترددت الرسل بينه وبين جهاركس ومن معه ليعودوا إليه فلم يزدادوا إلا بعدا ولحق بهم جماعة آخرون من الناصرية أيضا فاستوحش الملك الأفضل ممن بقى من الناصرية فقبض عليهم وهم شقيرة وأيبك فطيس والبكى الفارس وغيرهم وكل من هؤلاء بطل مشهور ومقدم مذكور وسجنهم وجعل الأفضل يتصرف فى الأمور ويقرر القواعد ويصلح الأحوال ويقضى حوائج الخلق والمرجع فى جميع الأمور إلى سيف الدين ياركج فكان معه ابن أخيه الملك العزيز ملكا بالاسم فقط، ولم يمض إلا القليل حتى اجتمعت له الكلمة ومالت إليه القلوب وأحبه الامراء والرعية ووصل إليه رسول من عند أخيه الملك الظاهر غازى صاحب حلب وأرسل ابن عمه أسد الدين شيركوه بن محمد شيركوه صاحب حمص يحثانه على الخروج إلى دمشق واغتنام الفرصة بغيبة العادل عنها وبذلا له المساعدة بالمال والنفس والرجال فمال إلى رأيهم وبرز من القاهرة فى منتصف جمادى الأولى من سنة خمس وتسعين وخمسمائة على العزم إلى دمشق وأقام بظاهر القاهرة إلى ثلث رجب ثم رحل فيه وتعوق فى مسيره. قال أصحاب التاريخ: ولو بادر وعجل المسير لملك دمشق بغير ممانع ولكنه تأخر فوصل إليها ثالث عشر شعبان فنزل على جسر الخشب على قيد فرسخ ونصف من دمشق، وكان الملك العادل قد أرسل إليه نوابه بدمشق يعرفونه قصد الأفضل لهم ففارق ماردين وخلف ولده الكامل محمدا فى جميع العساكر على حصارها وسار جريدة فجدّ السير فسبق الأفضل فدخل دمشق قبله بيومين وتقدّم الأفضل إلى دمشق فى الغد وهو رابع عشر شعبان ودخل فى ذلك اليوم بعينه طائفة يسيرة من عسقلان إلى دمشق من باب السلام وكان سب دخولهم أن قوما من أجناده ممن بيوتهم مجاورة لذلك الباب اجتمعوا بأمير اسمه مجد الدين أخى الفقيه عيسى الهكارى وتحدّثوا معه فى أن يقصد هو والعساكر باب السلامة ليفتحوه لهم فأراد مجد الدين المذكور أن يختص بفتح الباب وحده فلم يعلم الأفضل ولا أخذ أحدا من العسكر بل سار وحده ومعه نحو خمسين فارسا من أصحابه ففتح له الباب فدخله وهو ومن معه فلما رآهم عامة البلد نادوا بشعار الأفضل فاستسلم من به من العساكر والأجناد ونزلوا عن الأسوار وبلغ الخبر الملك العادل فكاد يستسلم ولكنه تماسك أما الذين دخلوا البلد فإنهم وصلوا إلى باب البريد فما رأى عسكر العادل الذين كانوا بدمشق قلة عددهم وانقطاع مددهم وثبوا عليهم وأخرجوهم منه وكان الأفضل قد نصب خيامه بالميدان الأخضر وقارب عسكره الباب الجديد وهو من أبواب القلعة فقدّر الله أنه أشير على الأفضل الانتقال إلى ميدان الحصن ففعل ذلك

فقويت نفوس من فيه وضعفت نفوس العسكر المصرى ثم إن الأمراء الأكراد منهم تحالفوا فصاروا يدا واحدة يغضبون لغضب أحدهم ويرضون لرضا الآخر فظن الأفضل وباقى الأسدية أنهم فعلوا ذلك لقاعدة بينهم وبين الدمشقيين فرحلوا من موضعهم وتأخروا ووصل أسد الدين شيركوه صاحب حمص إلى الأفضل فى الخامس والعشرين من شعبان ووصل بعده الملك الظاهر صاحب حلب وعزموا على الزحف إلى دمشق فمنعهم الملك الظاهر مكرا بأخيه وحسدا له ولم يشعر أخوه الأفضل بذلك أما الملك العادل فإنه لما رأى كثرة العساكر وتتابع الإمداد إلى الأفضل عظم عليه الأمر فأرسل إلى المماليك الناصرية ببيت المقدس يستدعيهم إليه فساروا سلخ شعبان فوصل خبرهم إلى الأفضل فسير أسد الدين صاحب حمص ومعه جماعة من الأمراء إلى طريقهم فمنعوهم فسلكوا غير طريقهم فجاء هؤلاء ودخلوا ودمشق فقوى العادل بهم قوة عظيمة وزال عنه ماكان يخشاه وأيس الأفضل ومن معه من أخذ دمشق وخرج عسكر دمشق فكبسوا العسكر المصرى فوجدوهم قد حذروهم فعادوا عنهم خاسرين وأقام العسكر على دمشق ما بين قوة وضعف وانتصار وتخاذل حتى أرسل الملك العادل خلف ولده الملك الكامل محمد وكان قد رحل عن ماردين ونزل بمن معه بحوران فاستدعاه إليه بعسكره فسار على طريق البر فدخل إلى دمشق ثانى عشر صفر سنة ست وتسعين وخمسمائة فعند ذلك رحل العسكر عن دمشق إلى ذيل جبل الكسرة واستقر أن يقيموا بحوران حتى يخرج الشتاء فرحلوا إلى رأس الماء وهو موضع شديد البرد فتغير العزم عن المقام واتفقوا على أن يعود كل إلى بلده فلما وصل الأفضل إلى مدينة بلبيس نزل بها أياما فوصلته الأخبار بأن عمه الملك العادل قد سار من دمشق قاصدا مصر ومعه المماليك الناصرية وقد حلفوا له على أن يكون ولد الملك العزيز هو صاحب البلاد وهو (أى العادل) المدبر للملك إلى أن يكبر فساروا على هذا وكان عسكر الأفضل بمصر قد تفرقوا فسار كل منهم إلى أقطاعه فرام الأفضل جمعهم من أطراف البلاد فأعجله الأمر عن ذلك ولم يجتمع منهم إلا طائفة يسيرة من قرب أقطاعه ووصل العادل فى عسكر عظيم فأشار بعض الناس على الأفضل أن يخرب سور بلبيس ويقيم بالقاهرة وأشار غيرهم بالتقدم إلى أطراف البلاد ففعل ذلك فسار عن بلبيس ونزل موضعا يقال له السايح والتقى هو والعادل سابع ربيع الآخر سنة ست وتسعين واقتتلوا فانهزم الأفضل ودخل القاهرة ليلا واتفق فى تلك الليلة موت القاضى الفاضل عبدالرحيم بن على البيسانى كاتب الإنشاء لصلاح الدين ووزيره فحضر الأفضل

للصلاة عليه وسار العادل حتى نزل على القاهرة بعسكره وحاصرها وضيق عليها فجمع الأفضل من عنده الأمراء واستشارهم فرأى منهم تخاذلا فأرسل إلى عمه فى طلب الصلح وتسليم البلاد إليه وأخذ العوض عنها وطلب دمشق فلم يجبه العادل فنزل عنها إلى حوران والرها فلم يجبه أيضا فنزل إلى ميافارقين وحانى وجبل جوز فأجابه إلى ذلك وتحالفوا عليه وخرج الأفضل من مصر ليلة السبت ثامن عشر ربيع الآخر واجتمع بالعادل وسار إلى صرخد ودخل العادل إلى القاهرة فى اليوم المذكور.

ولما ثبتت قدم الملك العادل بمصر تاقت نفسه إلى الاستبداد بالملك فقطع خطبة الملك المنصور بن الملك العزيز وخطب لنفسه وصادر طوائف الجند فى أقطاعهم واعترضهم فى أصحابهم ومن عليهم من العسكر المقرر فتغيرت لذلك نياتهم وانحرفوا عليه واتفقت على ذلك كلمتهم وبينما هو على هذا الحال إذ وردت الأخبار بتأهب الفرنسيس لأخذ مدينة دمياط فلم يهتم العادل بذلك فلما كانت سنة خمس عشرة وستمائة وصلت مراكبهم إلى دمياط فى صفر فأرسوا على بر الجزيرة بينهم وبين دمياط النيل وبنوا عليهم سورا وجعلوا خندقا يحول بينهم وبين من يقصدهم وشرعوا فى قتال من بدمياط وعملوا آلات ومرساة وأبراجا يزحفون بها فى المراكب إلى برج عظيم كان بدمياط مشحون بالرجال ليقاتلوه ويملكوه وقد نزل الكامل ابن الملك العادل بمنزلة تعرف بالعادلية بالقرب من دمياط والعسكر متصل من عنده إلى دمياط ليمنع الفرنسيس من العبور إلى أرضها وأدام الفرنسيس قتال البرج وتابعوه فلم يظفروا منه بشىء قيل وكسرت مرماتهم وآلاتهم ومع ذلك لازموا قتاله وبقوا على ذلك أربعة أشهر حتى ظفروا وملكوا البرج وكان منيعا مبنيا فى وسط النيل وفيه سلاسل من حديد غلاظ ممدودة من النيل إلى سور دمياط لتمنع المراكب الواصلة من البحر الملح أن تصعد فى النيل إلى ديار مصر، فلما ملكوا البرج قطعوا تلك السلاسل لتدخل مراكبهم إلى النيل ويتمكنوا من البر فأمر الكامل فنصبوا عوض السلاسل جسرا عظيما امتنعوا به من سلوك النيل فقاتلوا عليه أيضا قتالا شديدا حتى قطعوه، فأخذ الكامل عدّة مراكب كبار وملأها رملا وخرقها وغرّقها فى النيل فمنعت سفن الفرنسيس من السلوك فلما رأى الفرنسيس ذلك قصدوا خليجا هناك يعرف بالخليج الأزرق كان النيل يجرى فيه فحفروا ذلك الخليج وعمقوه وأجروا الماء فيه إلى البحر الملح وأصعدوا مراكبهم فيه إلى موضع يقال له بوره على أرض الجزيرة مقابل المنزلة التى فيها الكامل ليقاتلوه من هناك. فلما صاروا فى بورة

حازوه وقاتلوه فى الماء وزحفوا عليه غير مرة فلم يظفروا فلما كان شهر جمادى الآخرة من السنة أى سنة خمس عشرة وستمائة وردت الأخبار من القاهرة بموت الملك العادل، فقام ولده الكامل من المنزلة إلى القاهرة جريدة إذ بلغه أيضا أن أمراء الأكراد اتفقوا مع الأمير عماد الدين أحمد بن على المشطوب على خلعه وتمليك أخيه الملك الفائز ابن الملك العادل ليصير الحكم لهم عليه وعلى البلاد وشاع الخبر بذلك بين الجند فركب كل إنسان منهم هواه ونادى فيهم منادى الفشل فتركوا خيامهم وذخائرهم وأموالهم وسلاحهم ولم يأخذوا منها إلا القليل جدا وتركوا من الميرة والكراع ودواب الحمل ما يجل عن الحصر ولحقوا بالكامل وأصبح الفرنسيس من الغد فلم يروا من المسلمين أحدا على شاطئ النيل وعلموا بالخبر فعبرو النيل إلى دمياط فغنموا ما فى عسكر المسلمين فكان شيئاً عظيما جدا واتفق أن الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل وصل إلى أخيه الكامل بعد هذه الحركة بيومين والناس فى أمر مريج جدا وكان قد أرسل إليه يستنجده فقوى به قلبه واشتد أزره وثبت جنانه وعاد إلى أشمون طناح وسير إلى القاهرة من أخرج ابن المشطوب إلى الشام قهرا فاتصل بالملك الأشرف وصار من جنده أما الفرنسيس فإنهم عبروا إلى أرض دمياط شرعوا فى حصارها والتضييق عليها فاجتمعت العرب على اختلاف قبائلها ونهبوا البلاد المجاورة لدمياط وطغوا فى الطريق وأفسدوا وبالغوا فى الإفساد، فكانوا أشد على المسلمين من الإفرنج وأحاط الفرنجة يومئذ بدمياط وقاتلوها برا وبحرا وعملوا عليه خندقا يمنعهم ممن يريدهم وأداموا القتال واشتد الحال على أهلها شدة بالغة وتعذرت عليهم الأقوات وكثر القتل والجرح فيهم ودام الحصار زهاء أربعة شهور فسلموا البلد إلى الفرنسيس فى عشرين من شعبان سنة ست عشرة وستمائة قهرا وخرج منهم قوم وأقام آخرون فدخل الفرنسيس المدينة وأقاموا بها وبثوا سراياهم فى كل ما جاورها فجلا أهلها عنها وشرعوا فى عمارتها وتحصينها وبالغوا فى ذلك حتى أنها صارت لا ترام إلا بعد عناء شديد أما الكامل فإنه أقام بالقرب من الفرنسيس فى أطراف البلاد لا يأتى عملا وكثر توارد المدد للفرنسيس من كل صوب وحدب، فعظمت هيبتهم فى قلوب المسلمين، وعم الخوف منهم وعاد الملك المعظم صاحب دمشق إلى الشام فخرب بيت المقدس فى ذى القعدة خوفا من وصول الفرنسيس إليه وأخذه وقد خاف الناس كافة وأشرف الإسلام وأهله وبلاده على خطة خسف فى مشرق الأرض ومغربها وصاروا يتوقعون البلاء فى كل يوم وأراد أهل مصر الجلاء عن البلاد إلى الأقطار الحجازية والديار الشامية وغيرها فلم

يتمكنوا من ذلك لوقوف العربان فى الطرق وإفسادهم فى البلاد وفعلهم بالمسلمين ما لم تفعله الفرنسيس من النهب والسلب وهتك الأعراض وسبى النساء والفرنسيس قد أحاطوا بهم من كل جانب وتابع الكامل كتبه إلى أخويه المعظم صاحب دمشق والأشرف موسى بن العادل صاحب الجزيرة وديار أرمينية يستنجدهما ويحثهما على الحضور بأنفسهما فإن لم يمكن فليرسلا العسكر إليه وبقى الأمر كذلك مع الفرنسيس إلى سنة ثمان عشرة وستمائة ثم وصل الملك الأشرف إلى مصر وكان الفرنسيس قد ساروا من دمياط وقصدوا الكامل ونزلوا مقابله وبينهما خليج من النيل وهو بحر أشمون وهم يرمون بالمنجنيق والجرخ إلى عسكر المسلمين وقد تيقن الناس جميعا بأنهم يملكون الديار المصرية لا محالة فلما علم الكامل بوصول أخيه الأشرف توجه إليه ولقيه واستبشر هو وكافة المسلمين باجتماعهما أما الملك المعظم صاحب دمشق فإنه قصد دمياط ظنا أن أخويه وعسكريهما قد نزلوا بها واجتمع الأشرف بالكامل فاستقر الأمر بينهما على التقدم إلى خليج من النيل يعرف ببحر المحلة فتقدموا إليه فقاتلوا الفرنسيس وازدادوا قربا وتقدمت شوانى المسلمين من النيل وقاتلوا شوانى الفرنسيس وترددت الرسل بين الفريقين فى تقرير قاعدة الصلح وبذل المسلمون للفرنسيس بيت المقدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجبلة مع اللاذقية وجميع ما فتحه صلاح الدين ماعدا الكرك ليسلموا دمياط فلم يقبلوا وطلبوا ثلثمائة ألف دينار عوضا عن تخريب بيت المقدس ليعمروه بها فلم يتم بينهم أمر. وبينما هم على هذا الحال من الخلاف عبر طائفة من المسلمين إلى الأرض التى عليها الفرنسيس فقطعوا النيل فركب الماء أكثر تلك الأرض ولم يبق للفرنسيس جهة يسلكون منها غير جهة واحدة فنصب الكامل حينئذ سورا على النيل عند أشمون وعبرت العساكر عليها فملك الطريق التى يسلكه الفرنسيس إن أرادوا العود إلى دمياط فراسل الفرنسيس عند ذلك الكامل وخابروه فى أمر الصلح وتسليم دمياط بغير عوض وأنفق فى هذه الأثناء وصول الملك المعظم صاحب دمشق ومعه عسكر جرار فاشتدت بحضوره ظهور المسلمين وتمموا الصلح على تسليم دمياط واستقرت القاعدة سابع رجب سنة ثمان عشرة وستمائة وتسلمت فى تاسع رجب المذكور فدخلها المسلمون فلم يجدوا من أهلها إلا القليل فقد كانوا تفرقوا أيدى سبأ ورأوها حصينة لما بذله الفرنسيس فى تحصينها.

ولما رحلت جيوش الفرنسيس عن دمياط جلس الأفضل للعزاء على موت أبيه الملك العادل مع طول المدة فإنه مات فى سابع جمادى الآخرة سنة خمس عشرة

وستمائة كما تقدم القول وحمل إلى دمشق ودفن بالتربة التى أعدها لنفسه بها. قال أصحاب التاريخ: وكان العادل عاقلا ذا رأى سديد ومكر شديد وخديعة صبورا حليما متواضعا وكان عمره خمسا وسبعين سنة وشهورا وملك دمشق من الأفضل ابن أخيه وملك مصر منه أيضا. ومن أعجب ما رؤى فى منافاة الطوالع أنه لم يملك الأفضل مملكه إلا وأخذها منه عمه العادل المذكور فأول ذلك أن صلاح الدين أعطى ابنه الأفضل حوران والرها وميافارقين سنة ست وثمانين بعد وفاة تقى الدين فسار إليها، فلما وصل إلى حلب أرسل أبوه الملك العادل بعده فرده من حلب وأخذ هذه البلاد منه ثم ملك الأفضل بعد وفاة أبيه دمشق فأخذها منه ثم ملك مصر بعد وفاة أخيه الملك العزيز فأخذها أيضا منه ثم تملك صرخد فأخذها منه وهذا من غريب الاتفاق وكان العادل قد قسم البلاد فى حياته بين أولاده فجعل بمصر الملك الكامل محمدا وبدمشق والقدس وطبرية والأردن والكرك وغيرها من الحصون المجاورة لها ابنه المعظم عيسى وجعل بعض ديار الجزيرة وميافارقين وخلاط وأعمالها لابنه الملك الأشرف موسى وأعطى الرها لولده شهاب الدين غازى وأعطى قلعة جعبر لولده الحافظ أرسلان شاه فلما توفى ثبت كل فى المملكة التى أعطاها له أبوه واتفقوا اتفاقا حسنا ولم يجر بينهم من الاختلاف شيء بل كانوا كالنفس الواحدة كل منهم يثق بالآخر بحيث يحضر عنده منفردا من عسكره ولايخافه ولا يظن به السوء.

وحدث فى أيام الملك العادل المذكور فناء عظيم بديار مصر أهلك الكثير من الأغنياء والفقراء وحصل عقب ذلك غلاء شديد واشتد الجوع فى جميع البلاد فرحل الكثير من الناس إلى دمشق والمشرق والمغرب وكان الفقراء يأكلون لحوم الكلاب والقطط والحيوانات فلما نفدت أو كادت صاروا ينبشون القبور ويأكلون جيف الأموات وبلغت بهم الشدّة مبلغا عظيما حتى صاروا يخطفون الأطفال فى الأسواق من أمهاتهم فكانوا يذبحونهم ويشوونهم ويأكلونهم جهارا فى الشوارع . قال أصحاب الأخبار: دخلت امرأة يوما على الملك العادل وهى خائفة ترجف فسألها عن حالها فقالت: إنى يا مولاى قابلة وإن قوما استدعونى فى هذا الصباح لأولد امرأة فذهبت معهم ولما كان وقت الفطور قدموا لى طعاما كثير اللحم غير أنه لا يشبه اللحم المعهود فأنكرته ولم تقبله نفسى ثم وجدت بنتا صغيرة هناك فاختليت بها وسألتها عن ذلك اللحم فقالت البنت: إن فلانة السمينة دخلت لتزورنا فذبحها أبى وهاهى معلقة إربا فى هذه الخزانة فاقشعر جسمى من هذا الخبر وجئت فى الحال

إلى تلك الخزانة ففتحتها على حين غفلة فوجدتها مملوءة من لحم تلك المرأة فجئت إليك لأعلمك بذلك وهذه قصتى فتعجب الملك العادل من كلامها وأرسل معها من هجم على تلك الدار وأخذ من فيها وهرب صاحبها وبقى مختفيا حتى أصلح أمره مع حاكم البلد بدفع ثلثمائة دينار فدية عن نفسه، وكان الذين اعتادوا منهم على أكل لحم بنى آدم يصيدون الناس بأصناف الحيل والمخادعة فكانوا يستجلبونهم إلى بيوتهم بأنواع الملاعب فيذبحونهم ويأكلونهم فوقع مرة فى أشراكهم ثلاثة أطباء أحدهم خرج معهم ولم يرجع والثانى أعطته امرأة درهمين على أن يذهب معها إلى مريض فصدق كلامها وسار معها فلما توغلت به فى الأزقة ومضايق الطرق فكر فى نفسه وعلم الحيلة فخاف وامتنع عنها وصاح عليها وشتمها فتركته وهربت. وأما الثالث فإن رجلا استدعاه إلى زيارة مريض وأطمعه فى الأجرة فذهب معه ومازال يسير به من مكان إلى مكان حتى أدخله دارا خربة فارتاب الطبيب منه وتوقف فى وسط الدرج وكان الرجل قد سبق وطرق الباب فخرج إليه رفيقه وهو يقول له: ما هذه العاقة هل حصلت على صيد ينفع؟ فخاف الطبيب عند سماعه هذا الكلام وخفق قلبه وأيقن بالهلاك وكان فى حائط ذلك الدرج شباك صغير يشرف على إصطبل فألقى نفسه من ذلك الشباك فجاء فى وسط الإصطبل فقام إليه صاحب الإصطبل وقال له: من أنت ومن تكون؟ فخاف خوفا عظيما وكتم أمره عنه خوفا منه أيضا فقال له الرجل صاحب الإصطبل: لا بأس عليك قد علمت ما حالك ولا يخفاك أن أهل هذا البيت يذبحون الناس بالاحتيال والخداع والحمد لله على سلامتك ثم أخرجه من ذلك المكان وسار معه حتى أوصله السوق. قال الراوى: ولولا هذا التصادف والاتفاق لهلك الطبيب وانقطع خبره وكان مدة سلطنة الملك العادل سيف الدين تسع عشرة سنة كلها إحن ومحن.

ولما كانت سنة اثنتين وعشرين وستمائة مات الخليفة الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضيء بنور الله أبى محمد الحسن بن المستنجد بالله مات فى آخر ليلة من رمضان فكانت خلافته ستا وأربعين سنة وعشرة أشهر وثمانية وعشرين يوما وكان عمره سبعين سنة تقريبا فلم يل الخلافة أطول مدة منه إلا ما قيل عن المستنصر بالله العلوى صاحب مصر فإنه ولى بستين سنة، وكان الخليفة الناصر قد بقى ثلاث سنين عاطلا عن الحركة وقد ذهبت إحدى عينيه والأخرى يبصر بها إبصارا ضعيفا ثم أصابه فى آخر أيامه إسهال شديد استمر عشرين يوما مات بسببه.

قال أصحاب التاريخ: ولم يطلق فى طول مرضه شيئا مما كان أحدثه من الرسوم الجائرة وكان قبيح السيرة فى رعيته ظالما فخرب بلاد العراق وتفرق أهله فى البلاد وأخذ أملاكهم وأموالهم وكان يفعل الشيء وضده فمن ذلك أنه عمل دور الضيافة فى بغداد ليفطر الناس عليها فى رمضان فبقيت مدة ثم قطع ذلك ثم عمل دور الضيافة للحجاج فبقيت مدة ثم أبطلها وأطلق بعض المكوس التى جددها فى بغداد خاصة ثم أعادها وقصر همه على رمى البندق والطيور المناسيب وسراويلات الفتوة فأبطل الفتوة فى البلاد جميعها إلا من يلبس سراويل يدعى إليه ولبس كثير من الملوك منه سراويل الفتوة وكذلك منع الطيور المناسيب لغيره إلا ما يؤخذ من طيوره ومنع الرمى بالبندق إلا من ينتمى إليه فأجاب الناس بالعراق وغيره إلى ذلك ، قلت: فإذا كان هذا غرام الخليفة أيام خلافته كان من أعجب الأمور بل من أكبر المعايب وكان ما ينسبه العجم إليه من أنه هو الذى أطمع التتر فى البلاد وراسلهم فى ذلك صحيحا فهو إذا الطامة الكبرى على هامة الخلافة والداهية الدهياء التى يصغر عندها كل ذنب عظيم.

ومات فى أيامه مكاريوس بطرك الاسكندرية وكان يعرف بمكاريوس الثانى وكان تقديمه بدير أبو مقار وكمل بالاسكندرية ثم عاد إلى مصر وأقام بها أياما ثم عاد إلى دير أبو مقار ثانية فقدس به ثم جاء إلى مصر فقدس فى كنيسة المعلقة وأقام ستا وعشرين سنة وأحدا وأربعين يوما ومات فخافت مصر من بطرك للمتأصلين سنتين وشهرين وفى أيامه حصلت زلزلة عظيمة بالقاهرة هدمت فيها كنيسة المختار بالروضة. قال بعض أهل التاريخ: والصحيح أن الذى هدمها هو الأفضل فإنها كانت فى بستانة وكان كثير الضجر من وجودها فى بستانه فلما مات أقيم بعده غبريال المكنى بأبى العلاء صاعد بن شريك الشماس بكنيسة مرقوريوس بالمعلقة وهو السبعون من بطاركة الاسكندرية وأصله من كبار الكتاب بمصر وكمل بالاسكندرية وقدّس بالديارات بوادى هبيب وأقام أربع عشرة سنة ومات فخلا الكرسى بعده ثمانية أشهر ثم قدم بعده مخائيل بن التقادوسى الراهب بقلاية الدمشيرية وهو حادى سبعيهم وأصله راهب من دير أبى مقار فأقام سنة وسبعين يوما ومات ولم يقع فى أيامه من الحوادث شيء يذكر فأقيم بعده يوحنا الخامس المكنى بأبى الفتح بالمعلقة وكمل بالاسكندرية وهو ثانى سبعيهم وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

(الفصل الخامس والثلاثون)

(فى خلافة الظاهر بأمر الله بن الناصر لدين الله)

ثم قام بالأمر بعد الخليفة الناصر ابنه محمد الظاهر بأمر الله بويع له بالخلافة يوم موت أبيه فى الأول من شوال سنة اثنتين وعشرين وستمائة هجرية أى نحو سنة خمس وعشرين ومائتين وألف ميلادية ولم يكن أبوه الملك الناصر يحبه فإنه بعد أن خطب له بولاية العهد على منابر العراق وغيرها من البلاد عاد فخلعه وأرسل إلى الآفاق بقطع الخطبة له. قال أصحاب التاريخ: وإنما فعل ذلك لأنه كان يميل إلى ولده الأصغر علىّ فاتفق أنه مات سنة اثنتى عشرة وستمائة ولم يكن للخليفة ولد خلاف ولى العهد المذكور فاضطر إلى إعادته إلا أنه كان تحت الاحتياط والحجر عليه لا يتصرف فى شىء مّا فلما مات أبوه ولى الخلافة وأحضر الناس لأخذ البيعة وتلقب بالظاهر بأمر الله يعنى بذلك أن أباه وجميع أصحابه أرادوا صرف الأمر عنه فظهر وولى الخلافة بأمر الله لا بسعى أحد. فلما وليها أظهر من العدل والإحسان ما أعاد به سنة العمرين وأعاد الأموال المغصوبة فى أيام أبيه وقبله وكانت شيئا كثيرا جدا وأطلق المكوس فى البلاد جميعها وأمر بإعادة الخراج القديم فى جميع العراق وأن يسقط جميع ما جدده أمير الخراج بأمر أبيه وكان شيئا كثيرا وتقدم إلى القاضى فى أن كل من عرض عليه كتابا صحيحا بملك يعيده إليه من غير إذنه وأقام رجلا صالحا فى ولاية الحشرى وبيت المال وكان هذا الذى أقامه حنبليا فقال إننى من مذهبى أورث ذوى الأرحام فإن أذن أمير المؤمنين أن أفعل ذلك وليت وإلا فلا فقال له: أعط كل ذى حق حقه واتق الله ولا تتق سواه. وكانت العادة ببغداد أن الحارس بكل درب يبكر ويكتب مطالعة إلى الخليفة بما تجدد فى دربه من اجتماع بعض الأصدقاء ببعض على نزهة أو سماع أو غير ذلك ويكتب ما سوى ذلك من كل صغيرة وكبيرة فكان الناس من هذا فى حجر عظيم فلما ولى الظاهر أتته المطالعات على العادة فأمر بقطعها وقال: أىّ غرض لنا فى معرفة أحوال الناس فى بيوتهم فلا يكتب أحد إلينا إلا ما يتعلق بمصالح دولتنا فقيل له: إن العامة تفسد بذلك ويعظم شرها فقال نحن ندعو الله أن يصلح أحوالهم. ومحاسن أعماله كثيرة جدا منها أنه أخرج توقيعا إلى الوزير بخطه ليقرأ على أرباب الدولة فلما وصل الرسول قال أمير المؤمنين بقول ليس غرضنا أن يقال برز مرسوم أو نفذ مثال ثم لا يبين له أثر بل أنتم

إلى إمام فعَّال أحوج منه إلى إمام قوَّال فقرؤوه فإذا فى أوله بعد البسملة: اعلموا أنه ليس إمهالنا إهمالا ولا إغضاؤنا إغفالاً ولكن لنبلوكم أيكم أحسن عملا وقد عفونا لكم ما سلف من تخريب البلاد وتشريد الرعية وتقبيح الشريعة وإظهار الباطل الجلى فى صورة الحق الخفى حيلة ومكيدة وتسمية الاستئصال والاجتياح استيفاء واستدرا كالأغراض انتهزتم فرصها مختلسة من براثن ليث باسل وأيناب أسد مهيب تتفقون بألفاظ مختلفة على معنى وأنتم أمناؤه وثقاته فتستميلون رأيه إلى هواكم وتمزجون باطلكم بحقه فيعطيكم وأنم له عاصون ويوافقكم وأنتم له مخالفون والآن قد بدل الله سبحانه بخوفكم أمنا وبفقركم غنى وبباطلكم حقا ورزقكم سلطانا يقيل العثرة ولا يؤاخذ إلا من أصر ولا ينتقم إلا ممن استمر يأمركم بالعدل وهو يريده منكم وينهاكم من الجور وهو يكرهه لكم يخاف الله تعالى فيخوفكم مكره ويرجو الله تعالى ويرغبكم فى طاعته فان سلكتم مسالك نواب خلفاء الله فى أرضه وأمنائه على خلقه وإلا هلكتم والسلام . وكانت أيامه قصيرة إذ مات فى الرابع عشر من رجب سنة ثلاث وعشرين وستمائة فكانت خلافته تسعة أشهر وأربعة عشر يوما. قال صاحب الكامل: وكان نعم الخليفة جمع الخشوع من الخضوع لربه والعدل والإحسان إلى رعيته ولما مات وجدوا فى بيت فى داره ألوف رقاع كلها مختومة لم يفتحها فقيل له ليفتحها فقال لا حاجة لنا فيها كلها سعايات. ولقصر مدة خلافته لم يقع فيها من الحوادث شىء يذكر وعمل له العزاء فى البلاد كلها لإحسانه وفضله على الرعية وولى الخلافة بعده ابنه أبو جعفر المنصور.

(الفصل السادس والثلاثون)

(فى خلافة المستنصر بالله

أبى جعفر المنصور بن الظاهر بأمر الله)

ثم قام بالأمر بعد الظاهر بأمر الله ابنه الأكبر أبو جعفر المنصور ولقب المستنصر بالله بويع له بالخلافة يوم وفاة أبيه فى الرابع عشر من رجب سنة ثلاث وعشرين وستمائة هجرية أى سنة ست وعشرين ومائتين وألف ميلادية فلما استقرت به الخلافة سلك فى الخير والإحسان إلى الناس سيرة أبيه وأمر فنودى ببغداد بإفاضة العدل وأن من كان له حاجة أو مظلمة يطالع بها تقضى حاجته وتكشف مظلمته فلما كان أول جمعة أتت على خلافته أراد أن يصلى الجمعة فى المقصورة التى كان

يصلى فيها الخلفاء قيل له أن المطبق الذى يسلك فيه إليها خراب لا يمكن سلوكه فركب فرسا وسار إلى الجامع وهو جامع القصر ظاهرا يراه الناس بقميص أبيض وعمامة بيضاء بسكاكين من حرير ولم يترك أحدا يمشى معه من أصحابه للصلاة بالموضع الذى كان يصلى فيه وسار هو ومعه خادمان وركا بدار لا غير فصلى وعاد وكذلك الجمعة الثانية حتى أصلح له المطبق، واهتم بمصالح الرعية وحاجات الخلق فدبر الأمور وأحسن السياسة وكان محبا للرعية ميالا للعدل كثير الحلم كثير العفو ولكنه كان قليل الحظ إذ تحرك الفرنجة فى أيامه ولم ينكفوا عن شن الغارات على بلاد الإسلام فى البر والبحر وكانوا يبالغون جدا فى قتال المسلمين فهاله أمرهم وأزعجه وخشى العاقبة وسيَّر إلى الملك الكامل صاحب مصر يستنجده فتجهز الملك الكامل وجمع عسكرا جرارا وسار به إلى الشام فى شوال سنة خمس وعشرين وستمائة وفى نيته التغلب عليها وأخذها فوصل إلى بيت المقدس ثم سار عنه إلى مدينة نابلس وأغار على تلك البلاد وكانت من أعمال دمشق وهى تابعة للملك المعظم فلما علم الملك المعظم بذلك خاف أن يقصده أيضا ويأخذ دمشق منه فأرسل إلى عمه الملك الأشرف يخبره بحاله ويستنجده ويطلبه ليحضر عنده بدمشق فسار إليه جريدة فدخل دمشق، فلما سمع الملك الكامل بذلك لم يتقدم إليه لأن البلد كان منيعا وقد صار به من يمنعه ويحميه وأرسل إليه الملك الأشرف يستعطفه ويعرفه أنه ما جاء إلى دمشق إلا طاعة له وموافقة لأغراضه والاتفاق معه على منع الفرنجة عن بلاد المسلمين فأعاد الكامل الجواب يقول: وأنا ما جئت لهذه البلاد إلا بسبب الفرنجة فإنه لم يكن فى البلاد من يمنعهم عما يريدونه وقد عمروا صيدا وبعض قيسارية ولم يمنعوا وأنت تعلم أن عمنا السلطان صلاح الدين فتح بيت المقدس فصار لنا بذلك الذكر الحسن على مدى الأعصار ومر الأيام فإن أخذه الفرنجة حصل لنا من سوء الذكر وقبح الأحدوثة ما يناقض ذلك الذكر الجميل الذى ذخره عمنا وأىّ وجه يبقى لنا عند الناس وعند الله تعالى ثم إنهم ما يقنعون حينئذ بما أخذوه ويتعدونه إلى غيره وحيث قد حضرت أنت فأنا أعود إلى مصر واحفظ أنت البلاد ولست بالذى يقال عنى أنى قاتلت أخى وحاصرته حاشا لله تعالى. وتأخر عن نابلس يريد الديار المصرية ونزل تل العجول فخاف الأشرف ومن بالشام قاطبة وعلموا أنه إن عاد استولى الفرنجة على البيت المقدس وغيره مما يجاوره ولا ممانع دونه فترددت الرسل وسار الأشرف بنفسه إلى الكامل أخيه فحضر عنده فى ليلة عيد الأضحى ومنعه من العود إلى مصر فلبثا بمكانهما وقد تم ما كان يتوقعه الملك الكامل من عودة الفرنجة

فإنهم وصلوا فى عدد كثير ونزلوا على السواحل الشامية وأخذوا يفسدون فيما يجاورهم من البلاد الداخلة تحت حكم الإسلام . قال بعض كتاب الأخبار: ومضى إليهم وهم بمدينة صور طائفة من المسلمين يسكنون الجبال المجاورة لمدينة صور وأطاعوهم وصاروا معهم على المسلمين واتفق موت الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب صاحب دمشق فقوى طمع الفرنجة بموته فساروا إلى عكا ونزلوا بها ورتبوا أمورهم وأصلحوا حالهم وتأهبوا للقتال فلما رأى الملك الكامل هو وأخوه الملك الأشرف ما فعله الفرنجة خافا وبعثا بالرسل إلى ملك الفرنجة دفعات كثيرة وتخابرا معه فى الصلح وطال الأمر بين الفريقين ثم استقرت القاعدة على أن يسلموا للفرنجة بيت المقدس ومعه عدة بلاد أخرى من ملحقاته ويكون باقى البلاد مثل الخليل ونابلس والغور وطبرية وغير ذلك بيد المسلمين فتسلمه الفرنجة ورمموا سوره وحصنوه تحصينا عظيما وذلك سنة ستة وعشرين وستمائة هجرية، ولما كان سنة خمس وثلاثين وستمائة جاءت الأخبار إلى الملك الكامل صاحب مصر بموت أخيه الملك الأشرف فسار من مصر إلى الشام يريد دمشق ومعه الناصر داود صاحب الكرك وهو لا يشك فى أن الملك الكامل يسلم إليه دمشق لما كان قد تقرر بينهما وكان بدمشق الملك الصالح إسماعيل فاستعدّ للحصار وأرسل إليه صاحب حمص نجدة فنازل الملك الكامل دمشق ومازال يقاتلها حتى ظفر وأخرج منها الملك الصالح إسماعيل وعوّضه عنها بعلبك وما حولها مضافا إلى بصرى وكان قد ورد من قبل الخليفة المستنصر محيى الدين يوسف ابن الشيخ جمال الدين بن الجوزى رسولا للتوفيق بين الكامل ومن معه فتسلم الملك الكامل دمشق لإحدى عشرة بقيت من جمادى الأولى واشتد حنق الملك الكامل على شيركوه صاحب حمص لمعاونته للصالح إسماعيل فأمر العسكر فبرزوا بقصد حمص وأرسل أيضا إلى صاحب حماة وأمره بالمسير إلى حمص فاشتد خوف شيركوه وتخضع للملك الكامل وأرسل إليه نساءه فدخلن على الملك الكامل فلم يلتفت إليهن وصمم على الانتقام ولكنه لم يتم له قصده إذ اخترمته المنية حتف أنفه بدمشق وكان سبب موته أنه لما دخل قلعة دمشق أصابه زكام فدخل الحمام وسكب عليه ماء شديد الحرارة فاندفعت النزلة إلى صدره وتورمت معدته واشتدت به الحمى فنهاه الأطباء عن القيء وخوّفوه منه فلم يقبل وتقايأ فمات لوقته وعمره نحو ستين سنة. قال أصحاب التاريخ: وكان بين موته وموت أخيه الأشرف نحو ستة أشهر وكانت وفاته لتسع بقين من رجب سنة خمس وثلاثين وستمائة فكانت مدة ملكه على مصر من حين مات أبوه عشرين

سنة وكان بها نائبا قبل ذلك قريبا من عشرين سنة فحكم في مصر نائبا وملكا زهاء أربعين سنة. وكان ملكا جليلا مهيبا حازما حسن التدبير أمنت الطرق في أيامه وكان يباشر تدبير المملكة بنفسه واستوزر في أول ملكه وزير أبيه صفى الدين بن شكر، فلما مات ابن شكر لم يستوزر أحدا بعده وكان يخرج بنفسه فينظر في أمور الجسور عند زيادة النيل وإصلاحها فعمرت في أيامه البلاد وزاد خصبها وكثرت غلاتها ودرت أرزاقها فأحبه الرعية ومالت إليه القلوب المتباعدة عن محبة أهل هذا البيت الصالحى واتفق الأمراء الذين كانوا معه بدمشق على تحليف العساكر والأجناد لولده الملك العادل أبى بكر وهو حينئذ نائب أبيه بمصر فحلف له جميع العساكر وأقاموا في دمشق الملك الجواد يونس بن مودود بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب نائبا عن أبى بكر بن الكامل وتقدمت الأمراء إلى الملك الناصر داود بالرحيل عن دمشق وتهددوه إن هو تأخر فرحل إلى الكرك وتفرقت العساكر فسار أكثرهم إلى مصر وتأخر مع الجواد يونس بعضهم ومقدّمهم عماد الدين ابن الشيخ. ولما بلغ شيركوه صاحب حمص خبر موت الملك الكامل صاحب مصر فرح فرحا عظيما وحصل على ما كان يطمع نفسه فيه وأظهر سرورا ما عليه من مزيد ولعب بالكرة على خلاف العادة وهو في عشر السبعين وأرسل عسكرا فاسترجع سلمية من نواب الملك المظفر وتغلب عليها وقطع القناة الموصلة منها إلى حماة فيبست بساتينها وعزم على قطع النهر العاصى عن حماة أيضا فسدّ مخرجه من بحيرة قدس التى بظاهر حمص وتجهز وركب متن هواه غير حاسب لما وراء ذلك حسابا. وكانت أعمال الكامل كلها خيرا وإصلاحا. قال الحافظ عبد العظيم المنذرى: أنشأ الملك الكامل دار الحديث بالقاهرة، وعمر القبة على ضريح الشافعى وأجرى الماء من بركة الحبش إلى حوض السبيل والساقية التى على باب القبة المذكورة وأوقف غير ذلك من الوقوف على أنواع البر وله المواقف المشهورة بدمياط مع الفرنجة أهـ.

وقال ابن خلكان: واتسعت المملكة للملك الكامل حتى قال خطيب مكة مرة عند الدعاء له: سلطان مكة وعبيدها، واليمن وزبيدها، ومصر وصعيدها والشام وصناديدها، والجزيرة ووليدها، سلطان القبلتين، ورب العلامتين، وخادم الحرمين الشريفين، الملك الكامل أبو المعالى ناصر الدين محمد خليل أمير المؤمنين أهـ.

ووردت الأخبار إلى الملك الأكبر الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل وهو صاحب حصن كيفا بولاية أخيه العادل أبى بكر واتفاق كلمة الأمراء والقواد على البيعة له فأهمه ذلك وأقلقه وجعل يراقب الفرص إلى أن علم بعجز أخيه عن القيام

بأعباء الملك واختلال أمور المملكة فتجرّد للقتال وسار فى عسكر عظيم يريد مصر ليأخذها من العادل ويتغلب عليها فبرز العادل إلى بلبيس يريد قتال الملك الصالح فلم يكد يصل إليها حتى اختلفت عليه الأمور وخرج عليه الجند وشقوا عصا الطاعة فقبضوا عليه واعتقلوه وأرسلوا إلى الصالح أيوب فوصل إليهم فى قلة فملكوه وبايعوا له وذلك فى صفر سنة سبع وثلاثين وستمائة وسيروا الخبر بذلك إلى الآفاق وأقام الصالح فى الملك وقد دانت له الأمور وثبتت قدماه فأحسن السياسة والتدبير فكانت مدّة ملك العادل سنتين غير كاملتين واتسعت كلمة الملك الصالح وتصرف فى الأمور وقبض على سائر الأمراء والمماليك الذين ساعدوه على خلع أخيه ثم أمر بهم فقتلوا جميعا وخلع الملك الجواد يونس ومنعه من دخول مصر وتوعده بالقتل إن هو عاد إليها فسار الجواد إلى جماعة الفرنجة فى عكا وحبب إليهم قتال الصالح واستخلاص البلاد منه ففرحوا به وأحسنوا وفادته وسيروه إلى صاحب دمشق فى طلب التعاقد على ما فيه المصلحة لهم جميعا فتم لهم الاتفاق مع صاحب دمشق والملك المنصور إبراهيم صاحب حمص وتحالفوا على أن تسير جماعة الفرنجة إلى مصر لقتال الصالح ونزع البلاد منه وأن يكون لهم فى مقابل ذلك أورشليم وطبرية وعسقلان والشقيف والصعيد وبادر الفرنجة من حينئذ فملكوا تلك الأماكن وأخذوا فى ترميم حصون عسقلان وطبرية وجعلوا يعدّون المعدات ويتأهبون للزحف على ديار مصر ووردت الأخبار بذلك إلى الملك الصالح فأقلقته، وكان لما تمكن جنكيز خان من شرقى آسية ودانت له الأمور فيها ولم يطعه الخوارزميون كبر عليه هذا الأمر وأعظمه وطردهم من آسية فجاءوا شرقى الشامات ونزلوا هناك فى طلب الرزق وقد علم الملك الصالح صاحب مصر بمقدمهم ذلك فأنفذ إليهم رسلا فى التحالف على قتال الفرنجة ومن تعاهد معهم على قتاله فأجابوه إلى ذلك وأسرعوا فى الزحف إلى أن بلغوا غزة فحاربوا الفرنجة عند أسوارها ووصلت إليهم النجدة من الملك الصالح فانهزمت الفرنجة فتبعهم الخوارزميون وعسكر مصر حتى أخذوا منهم غزة وبيت المقدس واشتدت عزيمة الملك الصالح بما ناله من الغلبة على الفرنجة فسار فى جيش عظيم إلى دمشق يريد أخذها فحاصرها وألح فى قتالها حتى أخضعها لسلطانه وخرج إلى حمص وحاصرها فلم ينل منها مأربا وعمد إلى التقرب من الخليفة المستنصر بالله العباسى ليعظم بذلك أمره وتعلو كلمته وتنضم إليه القلوب المتباعدة عنه فأرسل إليه هدية نفيسة فلم يكد يصل رسوله بالهدية حتى جاء الخبر بموت الخليفة مات بكرة يوم الجمعة العاشر من جمادى الآخرة سنة أربعين وستمائة

هجرية فكانت مدّة خلافته سبع عشرة سنة إلا شهرا. قال أصحاب التاريخ: وكان حسن السيرة عادلا فى الرعية وهو الذى بنى المدرسة فى بغداد المسماة المستنصرية على شط دجلة من الجانب الشرقى مما يلى دار الخلاقة فلما مات اتفق أرباب الدولة على تقليد الخلافة لولده عبدالله ولقبوه المستعصم وهو سابع ثلاثى الخلفاء العباسيين وآخرهم وكنيته أبو أحمد بن المستنصر بالله منصور.

ومات فى أيام الخليفة المستنصر بالله يوحنا بطرك الاسكندرية بعد أن أقام تسع عشرة سنة وكان اسمه أولا يونس أبو الفتح من دير أبى حنس وكانت أيامه كلها شدائد وإحنا وبلايا ومحنا تكاد أن لا تدخل تحت الحصر وقد أضربنا عن إيرادها هنا وخلا الكرسى بعد موته ثلاثة وأربعين يوما ثم أقاموا بعده مرقس بن زرعة المكنى بأبى الفرج ثالث سبعيهم وهو سريانى المحتد ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى حينه.

(الفصل السابع والثلاثون)

(فى خلافة المعتصم بالله بن المستنصر بالله)

ثم قام بعد المستنصر بالله ولده المعتصم بالله أبو أحمد عبد الله بن المستنصر بالله أبى جعفر بن الظاهر محمد بن الناصر العباسى وهو آخر الخلفاء العراقيين بويع له بالخلافة فى جمادى الأولى سنة أربعين وستمائة هجرية أى سنة اثنتين وأربعين ومائتين وألف ميلادية فلم تستقر به الخلافة حتى أساء التدبير وانهمك على اللعب بالحمام وغير ذلك مما لا يليق بالخلافة. قال أصحاب الأخبار: وكان قليل الرأى ضعيف العزيمة لا حزم له ولا حرمة ولا هيبة فلما جاءت البشائر إلى الملك الصالح بخلافته أرسل إليه يطلب منه تقليدا بمصر والشام فجاءه التشريف الطوق الذهب والمركوب فلبس التشريف الأسود والعمامة والجبة وركب الفرس فى موكب حافل للغاية وأولم لأمراء الدولة وكبار الجند وليمة فاخرة ولم تتم أفراحه هذه حتى ورد عليه كتاب الملك لويز ملك الفرنسيس يقول: أما بعد فإنه لم يخف عليك أنى أمين الأمة العيسوية كما أنه لا يخفى علىَّ أنك أمين الامة المحمدية وغير خاف عليك أن عندنا أهل جزائر الأندلس وما يحملونه إلينا من الأموال والهدايا ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل منهم الرجال والنساء ونستأسر البنات والصبيان ونخلى منهم الديار وأنا أرسلت لك ما فيه الكفاية وبذلت لك النصح إلى النهاية فلو حلفت لى بكل

الأيمان وأدخلت عليّ القسس والرهبان وحملت قدامى الشمع طاعة للصلبان لكنت راحلا إليك وقاتلك فى أعز البقاع عليك فإما أن تكون البلاد لى هدية حصلت فى يدى وإما أن تكون البلاد لك والغلبة عليّ فيدك العليا ممتدة إليّ وقد عرفتك وحذرتك من عساكر فى ساحتى تملأ السهل والجبل وعددهم كعدد الحصى وهم مرسلون إليك بأسياف القضا، فلما وقف الصالح على ما فى الكتاب بكى واسترجع وقال للقاضى بهاء الدين زهير: اكتب الجواب فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين، أما بعد فإنه وصل كتابك وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك فنحن أرباب السيوف وما قتل منا فرد إلا جدّدناه ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه ولو رأت عينك أيها المغرور حدّ سيوفنا وعظم حروبنا وفتحنا منكم الحصون والسواحل وتخريبنا ديار الأواخر منكم والأوائل لكان لك أن تعض على أناملك بالندم ولابد أن تزل بك القدم فى يوم أوله لنا وآخره عليك فهناك تسيء الظنون وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون فإذا قرأت كتابى هذا تكون فيه على أول سورة النحل ﴿**أتى أمر الله فلا تستعجلوه**﴾ وتكون فيه على آخر سورة ص ﴿**ولتعلمن نبأه بعد حين**﴾ ونعود إلى قول الله تعالى وهو أصدق القائلين ﴿**كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين**﴾ وقول الحكماء إن الباغى له مصرع وبغيك يصرعك وإلى البلاء يقلبك والسلام وجاءته الأخبار بوصول المراكب الفرنساوية مشحونة بالعساكر والأجناد وهذ غزوتهم السابعة الصليبية فأهمه أمرهم وخرج من القاهرة إلى المنصورة ونزل بها وشحن مدينة دمياط بالآلات العظيمة والذخائر الوافرة وجعل فيها بنى كنانة وهم موصوفون بالبسالة والإقدام وأرسل فخر الدين ابن الشيخ فى طائفة عظيمة من الجند ليكونوا قبالة الفرنسيس إذا نزلوا من مراكبهم فتقدم الفرنسيس نحو البر ونزلوا من المراكب وهجموا على المدينة يريدون أخذها وذلك فى أوائل سنة سبع وأربعين وكان مقدم الفرنسيس فى هذه الحملة الملك لويز التاسع ملك الفرنسيس فخاف فخر الدين ابن الشيخ وهاله كثرة جيوش الفرنسيس فعبر من البر الغربى إلى البر الشرقى فى جماعة من المسلمين ووصل الملك لويز بعسكره إلى البر الغربى لتسع بقين من صفر من السنة فلما جرى ذلك هرب أيضا بنو كنانة وأهل دمياط كافة وأخلوها وتركوها مفتحة الأبواب فملكها الفرنسيس بغير قتال واستولوا على ما بها من الذخائر والساح فعظم الأمر جدا على الملك الصالح وأمر بالقبض على من يوجد من بنى كنانة وصلبه فقبضوا عليهم وصلبوا عن آخرهم وكان الملك الصالح

وهو مقيم بالمنصورة يقاسى ألم المرض وهو السل و القرحة والتى كانت به فلم يقدر على الخروج للقاء عساكر الفرنسيس واشتدت به علته شدة بالغة وكان كلما سمع بظفر الفرنسيس قلق واضطرب، فلما كانت ليلة الأحد لأربع عشرة ليلة مضت من شعبان من السنة أى سنة سبع وأربعين وستمائة مات فكانت مدة تملكه للديار المصرية تسع سنين وثمانية أشهر وعشرين يوما وكان عمره نحو أربع وأربعين سنة وقيل أربعين وكان مهيبا عالى الهمة عفيفا طاهر اللسان وقد جمع من المماليك الترك ما لم يجتمع لغيره من أهل بيته حتى كان أكثر أمراء عسكره من مماليكه ورتب جماعة مهم حول دهليزه وسماهم(البحرية) فكان من أمرهم ما سيتلى عليك فى محله، وكان شديد البأس لايجسر أن يخاطبه أحد إلا مجيبا ولا يتكلم أحد بحضرته ابتداء وكانت القصص تضعها بين يديه الخدام فيكتب بيده عليها وتخرج للموقعين وكان لا يستقل أحد من أهل دولته بأمر من الأمور إلا بعد مشاورته وكان يحب العمارة والبناء فبنى قلعة الجزيرة التى هى الروضة واشترى ألف مملوك وأسكنهم بها وسماهم البحرية وبنى بالقاهرة المدارس الأربع بين القصرين وبنى الصالحية وهى بلدة بالشام وبنى له فيه قصورا للصيد وبنى قصرا عظيما بين مصر والقاهرة يسمى بالكبش وكان له ثلاثة أولاد أحدهم فتح الدين عمر مات فى حبس الصالح إسماعيل وكان قد مات ولده الآخر قبله ولم يبق له غير المعظم تورانشاه بحصن كيفا ومات الملك الصالح المذكور ولم يوص بالملك لأحد وكانت له جارية اسمها شجرة الدر فلما مات أخفت خبر موته وبقيت تعلم بعلامته ثم أحضرت فخر الدين ابن الشيخ والطواشى جمال الدين محسنا وهما من كبار الأمراء وعرفتهما بموت السلطان فكتموا ذلك خوفا من الفرنسيس واتفقوا على أن شجرة الدر تجمع الأمراء كافة وتقول لهم إن السلطان يأمركم أن تحلفوا له أولا ثم لولده الملك المعظم تورانشاه المقيم بحصن كيفا من بعده وللأمير فخر الدين ابن الشيخ بأتابكية العسكر فاجتمع الأمراء وحلفوا وكتب إلى حسام الدين بن أبى علىّ وهو يومئذ النائب بمصر بمثل ذلك فحلف وحلفت العساكر والأجناد وجميع الكبراء بمصر والقاهرة على ذلك أيضا فى العشر الأواسط من شعبان من السنة فكانت تخرج الكتب وغيرها وعليها علامة الملك الصالح وكان الذى يكتبها خادم صغير يقال له السهيلى فلا يشك أحد فى أنها بخط السلطان، وأرسل فخر الدين ابن الشيخ قاصدا لإحضار الملك المعظم من حصن كيفا فلما جرى ذلك شاع بين الناس موت السلطان ولكن كان أرباب الدولة لا يجسرون أن يتفوّهوا بذلك وبلغ الخبر الملك لويز ملك الفرنسيس وهو

بدمياط فسار فى طائفة عظيمة من جنوده فى مستهل رمضان يريد المنصورة فلما صار على مقربة منها لاقته عساكر المسلمين فاقتتلوا قتالا عظيما جدا مات فيه جماعة من كبار المسلمين ونزل الفرنسيس بحر مساح ثم اقتربوا من معسكر المسلمين وكبسوهم على المنصورة بكرة الثلاثاء لخمس خلون من ذى القعدة وكان فخر الدين يوسف ابن الشيخ صدر الدين بن حمويه مقدم العساكر الإسلامية فى الحمام بالمنصورة فركب مسرعا فصادفه جماعة من عسكر الفرنسيس فقتلوه فحمل المسلمون والأتراك البحرية على الفرنسيس حتى ردوهم بعد قتال عنيف للغاية أما الملك المعظم تورانشاه فإنه لما وصل إليه القاصد قام من يومه من حصن كيفا ووصل إلى دمشق وعيد بها عيد الفطر ووصل إلى المنصورة يوم الخميس لتسع بقين من ذى القعدة سنة سبع وأربعين وستمائة فلم يستقر به المقام حتى شدد الفرنسيس فى القتال وقامت الحرب بين الفريقين برا وبحرا وحملت مراكب المسلمين على مراكب الفرنسيس فأخذت منهم عدة كثيرة واشتد الأمر على الفرنسيس وقلت عندهم الأقوات وصعب لذلك عليهم المقام قبالة المسلمين فرحلوا ليلة الأربعاء لثلاث بقين من المحرم افتتاح سنة ثمان وأربعين يريدون مدينة دمياط فاقتفى المسلمون أثرهم فانحاز الملك لويز بمن معه من الملوك والأمراء إلى بلد هناك وطلبوا الأمان فأمنهم الطواشى محسن الصالحى ثم غدر بهم وأحضرهم أسرى إلى المنصورة فقيد الملك الويز وجعله فى دار كان ينزلها كاتب الإنشاء فخر الدين بن لقمان. قلت: وآثارها باقية إلى هذا اليوم وقد تهدم أكثرها، ووكل به الطواشى صبيح المعظمى ففرح المسلمون بذلك فرحا لا يوصف وسار الملك المعظم من المنصورة إلى فارسكور ونزل بها ونصب بها برجا من خشب وقرب إليه أصحابه الذين جاءوا معه من حصن كيفا واعتمد عليهم وسلم إليهم مقاليد الأمور. قال كتاب الأخبار: وكان أولئك الناس من الأراذل واطرح جانب أمراء أبيه ومماليكه وكل منهم بلغه عنه من التهديد والوعيد مانفر قلبه منه فاتفقوا جميعا على قتله وتحالفوا على ذلك فلم يشعر إلا وقد هجموا عليه بالسيوف ومقدمهم ركن الدين بيبرس وضربه بالسيف فهرب الملك المعظم إلى البرج الخشب الذى نصب له بفارسكور فأطلقوا فى البرج النار فخرج المعظم منه هاربا طالبا البحر ليركب فى حراقته فحالوا بينه وبين الحراقة بالنشاب فطرح نفسه فى البحر فأدركوه وأجهزوا عليه فى نهار الاثنين المذكور فكانت مدة إقامته فى الملك من حين وصوله شهرين وأياما، ولما جرى ذلك اجتمع الأمراء واتفقوا على أن يقيموا شجرة الدر زوجة الملك الصالح فى المملكة وأن يكون عز الدين أيبك الجاشنكير الصالحى

المعروف بالتركمانى أتابك العسكر وحلفوا على ذلك وخطبوا لشجرة الدر على المنابر وضربت السكة باسمها. قال أصحاب الأخبار: فكان نقش السكة المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة الملك المنصور خليل وكانت شجرة الدر قد ولدت من الملك الصالح ولدا ومات صغيرا وكان اسمه خليلا فسميت والدة خليل وكانت علامتها على التوقيع والدة خليل .

ولما استقر لها الملك وقع الحديث مع لويز ملك الفرنسيس فى تسليم مدينة دمياط بالإفراج عنه فتقدم لويز إلى من بها من نوابه فى تسليمها فسلموها وأصعد عليها السلطان يوم الجمعة لثلاث مضين من صفر سنة ثمان وأربعين وستمائة وأطلق ملك الفرنسيس فركب فى البحر مع جنوده نهار السبت وأقلعوا إلى عكا ثم عادت العساكر ودخلت القاهرة يوم الخميس تاسع صفر وأرسل المصريون رسولا إلى الأمراء الذين بدمشق فى موافقتهم على ما فعلوه من تولية شجرة الدر فلم يجيبوا إليه وطال الأمر بينهم أياما ثم عادوا فاتفقوا على جعل عز الدين أيبك الجاشنكير فى السلطنة لأنهم رأوا أنه إذا استقر أمر المملكة لامرأة على ما هو عليه الحال تفسد الأمور فولوا أيبك وأركبوه بالصناجق السلطانية وحملت الغاشية بين يديه يوم السبت آخر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ولقبوه بالملك المعز، وكان لصلاح الدين يوسف ابن الملك الكامل ولد اسمه الأشرف موسى وله من العمر ثمان سنين فملكوه مع عز الدين أيبك فخطب لهما معا وضربت السكة باسمهما وسموا الأشرف المذكور السلطان وأبطلوا السكة والخطبة التى كانت باسم شجرة الدر فكان مدة ملكها ثلاثة أشهر. قال بعض كتاب الأخبار: إن شجرة الدر هى التى خلعت نفسها من تخت المملكة وتزوجت بالأمير أيبك المذكور وهو أوّل ملوك الدولة الجركسية بالديار المصرية، فلما استقرت به السلطنة وتصرف فى الأمور شمخت أنوف الأتراك أبناء جنسه وعظم من يومئذ شأنهم ومدوا أيديهم إلى العامة واستوزر الأسعد الفائزى فكان بئس الرجل أكثر من إحداث المغارم والمكوس فأبغضه الناس وكبر بغضهم لأيبك فكان أهل مصر والقاهرة يحقرونه ويسمعونه ما يكره إذا ركب ويقولون: لا نريد إلا سلطانا رئيسا ولد على الفطرة لا عبدا رقا وانحرفت خواطر الجند عليه فجعل يسايرهم ويسترضيهم بالعطايا الجزيلة ومازال حتى دانت له بعد ذلك الأمور واستتبت كلمته وبسط يده على جميع المملكة فرسم بهدم سور مدينة دمياط تخلصا من غارات الفرنسيس فهدموه فى الشعر الأخير من شعبان وبنوا مدينة بالقرب من دمياط فى البر وسموها المنشية، وكانت الأسوار التى هدموها من عمارة المتوكل

الخليفة العباسى، وكبر أمر ولاية الأمير أيبك على الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب دمشق وأعظمه جدا لخروج الملك من بيت أبيه إلى الموالى والعبيد فتحرك يريد أخذ ملك مصر من يد أيبك المذكور استصغارا له واستخفافا بقدره فسار من دمشق وصحبته من ملوك أهل بيته الصالح إسماعيل بن العادل بن أيوب والأشرف موسى صاحب حمص والمعظم تورانشاه ابن السلطان صلاح الدين وأخو المعظم نصرة الدين والأمجد حسن والظاهر شادى ابنا الناصر داود بن الملك المعظم عيسى ابن العادل بن أيوب وتقى الدين بن عباس بن الملك العادل بن أيوب فى جيش عظيم للغاية ومقدم الجيش شمس الدين لؤلؤ الأرمينى وإليه تدبير المملكة وكان خروجهم من دمشق فى يوم الأحد منتصف رمضان من السنة فلما بلغ المصريين خبر قدومهم هالهم أمرهم واهتموا لقتالهم ودفعهم وبرزوا إلى السائح وتركوا الأشرف المسمى بالسلطان بقلعة المقطم وخرج أيبك حينئذ على ولدى الصالح إسماعيل وهما المنصور إبراهيم والملك السعيد عبد الملك وكانا معتقلين من حين استيلاء الملك الصالح أيوب على بعلبك وقطع عليهما ليتوهم الناصر يوسف صاحب دمشق من أبيهما الصالح إسماعيل ويتخوف منه ثم التقى العسكران بالقرب من العباسة بإقليم الشرقية فى الخامس عشر من ذى القعدة فكانت الغلبة أولا على جنود مصر فخامر جماعة من المماليك الترك العزيزية على الملك الناصر صاحب دمشق وثبت المعز أيبك فى جماعة قليلة من البحرية فانضاف جماعة من العزيزية مماليك والد الملك الناصر إلى المعز أيبك فلما انكسر المصريون وتبعهم العسكر الشامى ولم يشكوا فى النصر والغلبة بقى الملك الناصر تحت الصناجق السلطانية مع جماعة يسيرة من المتعممين لا يتحركون من موضعهم فحمل المعز أيبك بمن معه عليه فولى الملك الناصر منهزما طالبا جهة الشام ثم حمل أيبك لطلب شمس الدين لؤلؤ فهزمهم وأخذ شمس الدين أسيرا فضرب عنقه بين يديه وكذلك أسر الأمير ضياء الدين بن أيوب القميرى فحز رأسه وأسر يومئذ الملك الصالح إسماعيل والأشرف صاحب حمص والمعظم تورانشاه بن صلاح الدين بن أيوب وأخوه نصرة الدين ووصل عسكر الملك الناصر فى أثر المنهزمين إلى العباسة وضربوا بها دهليز الملك الناصر وهم لا يشكون أن الهزيمة تمت على المصريين فلما جاءهم الخبر بفرار الملك الناصر اختلفت آراؤهم وتفرقت كلمتهم فمنهم من أشار بالدخول إلى القاهرة وتملكها. قال بعض كتاب الأخبار: ولو فعلوه لما بقى مع المعز أيبك من يقاتلهم به وكان هرب منهم لترفع المنهزمين إلى الصعيد الأعلى، ومنهم من أشار بالرجوع إلى الشام وكان

معهم تاج الملوك بن المعظم وهو مجروح بجراح ليست خفيفة، ودخل المنهزمون من المصريين إلى القاهرة من غد الواقعة نهار الجمعة فلم يشك أهل مصر والقاهرة فى غلبة الملك الناصر ومكله ديار مصر فخطب له الخطيب فى الجمعة المذكورة بقلعة الجبل وبمصر وأما القاهرة فلم يقم فيها فى ذلك النهار خطبة لأحد ثم وردت إليهم البشرى بانتصار المماليك البحرية ودخل المعز أيبك والبحرية إلى القاهرة يوم السبت ثانى عشرى ذى القعدة ومعه الصالح إسماعيل تحت الاحتياط وغيره من المعتقلين فحبسوا بقلعة الجبل وفى ثالث يوم دخوله أمر بإخراج أمين الدولة وزير الصالح إسماعيل وأستاذ داره المسمى يغمور وكانا معتقلين من حين استيلاء الصالح أيوب على بعلبك فشنقهما على باب قلعة الجبل وأعز إلى جماعة من أصحابه بقتل الصالح عماد الدين إسماعيل ابن الملك العادل بن أيوب فلما كانت ليلة الأحد السابع والعشرين من ذى القعدة هجموا عليه وهو يمص قصب السكر وقبضوا عليه وأخرجوه إلى ظاهر قلعة الجبل من جهة القرافة فقتلوه ودفنوه هناك وعمره يقرب من خمسين سنة فعلت كلمة المعز أيبك من حينئذ واتسعت شهرته ومالت إليه القلوب وجعل يتصرف فى أمور المملكة بالاشتراك مع الملك الأشرف لا يقدر على الاستقلال بها ولا الاستبداد بالأحكام لممانعة خوشداشه أقطاى الجمدار له فى ذلك فكان أيبك في حزن دائم من ذلك، فلما كانت سنة اثنتين وخمسين وستمائة دبر المعز أيبك أمر قتل أقطاى فأوقف له فى بعض دهاليز الدور التى بقلعة الجبل ثلاثة مماليك أحدهم يسمى قطز والثانى بهادر والثالث سنجر الغتمى فلما مر بهم فارس الدين أقطاى المذكور ضربوه بالسيوف فقتلوه ووصل خبر قتله إلى المماليك البحرية فانزعجوا وفروا من مصر إلى الشام خوفا من المعز أيبك فخلا الجو للمعز واستقل بالسلطنة وخلع الأشرف موسى منها وسيره إلى عمانه فكان الأشرف موسى المذكور آخر من خطب له من بيت أيوب بالسلطنة فى ديار مصر وكان انقضاء دولتهم فى هذه السنة أى سنة اثنتين وخمسين وستمائة هجرية وسنة خمسين ومائتين وألف ميلادية فكان عدد ملوكهم تسعة أولهم الملك صلاح الدين بن أيوب وآخرهم الأشرف موسى أو الملكة شجرة الدر زوجة الملك الصالح الأيوبى فسبحان من له الملك وحده والسلطان الدائم بلا زوال.

فبادوا جميعا ولا مخبر ❊ وماتوا جميعا وصح الخبر

فلما تمت نعمة المعز أيبك بتملكه على ديار مصر وما يتبعها من الشامات واستقل بحكمها ظهرت على يديه الدولة الشركسية التى هى إحدى فروع الدولة التركية وتمكن سلطانها فتولى حكم البلاد منها سبعة وأربعون ملكا أولهم المعز أيبك

المذكور وآخرهم طومان باي وهم الملقبون بمماليك الدولة الأيوبية الكردية ليمتازوا عن المماليك البحرية وكان الملك الصالح الأيوبى قد اصطفاهم لنفسه وخصهم بخدمته فكان لهم التقدم فى أيامه كما سبقت الإشارة إلى ذلك. قال أصحاب التاريخ: وكان فيهم فظاظة وخشونة واستهتار بالأمور كلها، وأحسن المعز أيبك التدبير وأقام العدل بين الرعية وشدّد على المماليك العزيزية لتمردهم وتطاول أيدى بعضهم إلى العامة فكرهوه وجعلوا يترقبون الفرص للقبض عليه فعلم نيتهم واستعدَّ لهم وبالغ فى الاستعداد، فلما كانت سنة ثلاث وخمسين هموا بالقبض عليه فلم يفلحوا فهربوا من مخيمهم إلى العباسة على حمية فأحاط على وطاقاتهم جميعها وأخذ ما فيها فهابه الأمراء كافة وحسده الملك الناصر صاحب الشام وخاف أن يأخذ ملكه فسير كمال الدين المعروف بابن العديم رسولا من قبله إلى الخليفة المستعصم وصحبته تقدمة جليلة وطلب خلعه من الخليفة فعلم المعز أيبك بقصده فأرسل شمس الدين سنجر الأقرع وهو من مماليك المظفر غازى صاحب ميافارقين إلى بغداد بتقدمة جليلة جدا وسعى فى تعطيل خلعة الناصر يوسف صاحب الشام فبقى الخليفة متحيرا أياما ثم إنه أحضر سكينا من البلسم كبيرة وقال الخليفة لوزيره: أعط هذه السكين رسول صاحب الشام علامة منى فى أنه له خلعة عندى فى وقت آخر وأما فى هذا الوقت فلا يمكننى إعطاؤه شيئا فأخذ رسول صاحب الشام السكين وعاد إلى الملك الناصر يوسف بغير خلعة فكبر عليه هذا الأمر وجعل يراقب الفرص وهو قلق وجل ودس إلى شجرة الدر من يعلمها بحاله ، وكانت شجرة الدر كثيرة التداخل فى أمور المملكة ولها بعض الغلبة على أمر المعز أيبك فأحسن المعز بذلك فكان يضمر لها السوء ويعمل على التخلص منها واتفق أنه سير إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل من يخطب له ابنته ليتزوج بها فلما علمت شجرة الدر بعزمه وكانت قد آنست منه البغض وأحست بالشر صارت تتربص الفرصة للإيقاع به فلما كان يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة خمس وخمسين وستمائة خرج إلى لعب الكرة ثم عاد ودخل الحمام فأوعزت فى الحال إلى سنجر الجوهرى مملوك الطواشى محسن وبعض الخدم بأن يقتلوه فدخلوا عليه وقتلوه وأرسلت شجرة الدر فى تلك الليلة إصبع المعز أيبك وخاتمه إلى الأمير عز الدين الحلبى الكبير وطلبت منه أن يقوم بالأمر فلم يجسر على ذلك وظهر الخبر فثارت مماليك المعز لقتل شجرة الدر فمانع عنها طوائف المماليك الصالحية واجتمع كافة الأمراء وكبار الجند ليولوا ملك البلاد لمن يصلح فاتفقت كلمتهم جميعا على إقامة نور الدين على بن المعز

أيبك ولقبوه بالملك المنصور وعمره يومئذ خمس عشرة سنة ونقلت شجرة الدر من دار السلطنة إلى البرج الأحمر ثم قبضوا على الخدام الذين وافقوها على قتل الملك فصلبوهم وهرب سنجر الجوهرى ولكنهم ظفروا به بعد ذلك وصلبوه واحتيط بالصاحب بهاء الدين عليّ بن حنا الذى كان وزير شجرة الدر وأخذ خطه بستين ألف دينار، ولما تولى الملك نور الدين على المنصور واستقرت به السلطنة قبض على شجرة الدر ودخل بها على أمه فأمرت بإعدامها فقتلها الجوارى بالقباقيب ورماها بالخندق وهى عريانة على باب القلعة وبقيت أياما ثم دفنت بالتربة التى كانت قد أعدتها لنفسها. قال كتاب الأخبار: وقد جوزيت من جنس عملها لأنها كانت سعت فى قتل الملك المعظم فمات غريقا كما تقدم بيانه فى محله وترك ثلاثة أيام على شاطئ النيل فكذلك فعل بها.

ودخلت سنة ست وخمسين وستمائة هجرية بكثير من الحوادث المهمة فقصد فى أولها هولاكو ملك التتار دار السلام وحاصرها وضيق عليها وشدّد حتى ملكها فى العشرين من المحرم وقبض على الخليفة المستعصم بالله* قال أهل التاريخ: وكان سبب ذلك أن مؤيد الدين بن العلقمى وزير الخليفة كان رافضيا وكان أهل الكرخ أيضا روافض فجرت فتنة بين السنية والشيعة ببغداد على جارى عادتهم فأمر أبو بكر بن الخليفة وركن الدين الدوادار العسكر فنهبوا الكرخ وقتلوا النساء وركبوا بهن الفواحش فعظم فعلهم على الوزير ابن العلقمى وعزم على الانتقام فكاتب التتار وأطمعهم فى ملك دار السلام وكان عسكر بغداد قد بلغ يومئذ مائة ألف فارس فقطعهم المستعصم ليحمل إلى التتار متحصل إقطاعاتهم فأصبح عسكر بغداد بعد ذلك أقل من عشرين ألف فارس ثم أرسل ابن العلقمى إلى التتار أخاه يستدعيهم فساروا قاصدين بغداد فى جمع عظيم للغاية فلما علم الخليفة بخبر قدومهم أخرج عسكره لقتالهم ومقدّمهم ركن الدين بن الدوادار فالتقوا على مرحلتين من دار السلام واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم عسكر الخليفة ودخل بعضهم بغداد وسار بعضهم إلى جهة الشام ونزل هولاكو على بغداد من الجانب الشرقى ونزل باجو من أكبر مقدّميه إلى الجانب الغربى على قرية قبالة دار الخلافة وخرج مؤيد الدين بن العلقمى الوزير إلى هولاكو فاستوثق لنفسه وعاد إلى الخليفة المستعصم وقال: إن هولاكو يبقيك فى الخلافة كما فعل بسلطان الروم ويريد أن يزوج ابنته من ابنك أبى بكر وحسن له الخروج إلى هولاكو فخرج إليه المستعصم فى جمع من أكابر أصحابه فأنزله فى خيمة ثم استدعى الوزير الفقهاء والأماثل فاجتمع هناك جميع سادات

بغداد والمدرسون وكان منهم محيى الدين بن الجوزى وأولاده وكذلك صار يخرج إلي التتار طائفة بعد طائفة حتى تكاملوا فأمر هولاكو فقتلهم التتار عن آخرهم ثم مدوا الجسر وعدى باجو ومن معه وبذلوا السيف فى بغداد وهجموا على دار الخلافة وقتلوا كل من كان فيها من الأشراف ولم يسلم إلا من كان صغيرا فأخذ أسيرا ودام القتل والنهب فى بغداد نحو أربعين يوما ثم نودى بالأمان قال الراوى: وأما الخليفة فإنهم قتلوه ولم يقع الاطلاع على كيفية قتله فقيل خنق وقيل وضع فى عدل ورفسوه حتى مات وقيل غرق فى دجلة وقيل غير ذلك وكان هذا المستعصم وهو عبد الله أبو أحمد بن المستنصر أبى جعفر منصور بن محمد الظاهر ابن الإمام الناصر أحمد ضعيف الرأى كما تقدّم وقد غلب عليه أمراء دولته لسوء تدبيره وانهماكه فى اللذات وعدم اهتمامه بمقام الخلافة ومسند الإمامة فكانت خلافته نحو ست عشرة سنة وبموته زالت الخلافة من العباسيين وانقرضت دولتهم وانمحت اثارها فلم تكن شيئا مذكورا. قال أصحاب التاريخ: كان ابتداء دولة الخلفاء العباسيين فى سنة اثنتين ومائة هجرية وهى السنة التى بويع فيها السفاح بالخلافة وقتل فيها مروان الحمار آخر خلفاء بنى أمية وكانت مدة ملكهم خمسمائة سنة وأربعا وعشرين سنة على التقريب وعدّة خلفائهم سبع وثلاثون خليفة. حكى القاضى جمال الدين بن واصل قال: لقد أخبرنى من أثق به أنه وقف على كتاب عتيق فيه ما صورته، أن علىّ بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بلغ بعض الخلفاء من بنى أمية عنه أنه قال: إن الخلافة تصير إلى ولده فأمر الأموى بعلىّ بن عبد الله فحمل على جمل وطيف وبه وضرب وكان يقال عند ضربه هذا جزاء من يفترى ويقول إن الخلافة تكون فى ولده فكان علىّ بن عبد الله المذكور رحمه الله يقول :إي والله لتكونن الخلافة فى ولدى ولا تزال فيهم حتى يأتيهم العلج من خراسان فينزعها منهم.فوقع مصداق ذلك بورود هولاكو وإزالة ملك بنى العباس على يديه فأقامت الدنيا بلا خليفة ثلاث سنين ونصف سنة وذلك من يوم الأربعاء رابع عشر صفر سنة ست وخمسين وستمائة وهو يوم قتل الخليفة المستعصم إلى سنة تسع وخمسين وستمائة فسبحان من له الدوام والبقاء .

وكما كانت دار السلام فى قلق واضطراب بسبب دخول هولاكو إليها بعسكره ظافرا منصورا وقتله للخليفة المستعصم وجميع رجال الدولة وكبار البلد كانت مصر كذلك بسبب الإرهاصات الداخلية والفتن المتوالية وتحزب بعض الأمراء ضد البعض الآخر وتغلب بعضهم على أمر الملك المنصور لا سيما سيف الدين قطز أحد مماليك المعز أيبك فقد كان شديد البأس واسع الكلمة كبير الهيبة وكان يراقب الفرص لخلع

الملك المنصور ليتولى الملك مكانه ومازال على هذا الحال إلى أن أنفق فى أوائل ذى الحجة سنة تسع وخمسين وستمائة خروج علم الدين المغنمى وسيف الدين بهادر وجمع من كبار المعزية إلى الرمى بالبندق وكان لهما كلمة نافذة وشهرة كبيرة فانتهز سيف الدين قطز المذكور فرصة غيابهما وقبض على ولده أستاذه الملك المنصور نور الدين على بن المعز أيبك وخلعه من السلطنة فلما قدم المغنمى وبهادر المذكوران لم يمهلهما حتى قبض عليهما واعتقلهما فخافه بقية الأمراء ودانوا له وبالغوا فى الخضوع إليه فتولى الملك وقبض على زمام السلطنة وتلقب بالملك المظفر ووردت عليه رسائل التهانى من كل صوب وحدب، وكان الملك الناصر يوسف صاحب الشام قد أرسل إلى الملك المنصور علىّ قبل خلعه كمال الدين بن العديم مستنجدا على التتار واتفق خلع الملك المنصور وولاية قطز بحضرة كمال الدين بن العديم المذكور فلما استقر قطز بمنصب السلطنة كلمه كمال الدين فيما جاء بصدده فأعاد جواب الملك الناصر يوسف بأن ينجده ولا يقعد عن نصرته فعاد ابن العديم بهذا الجواب ثم أخذ الملك المظفر حينئذ فى جمع الجيوش وإعداد معدّات الحرب وفرق فى جيوشه الأموال فكانت زهاء ستمائة ألف دينار جمعها مما فرضه على أهل البلاد مما سماه تصقيع الأملاك وزكاتها وما ناله من ثلث التركات مما قيمته ستة آلاف دينار فى سنة وخرج يريد قتال التتار ومعه الملك المنصور محمد صاحب حماة وأخوه الملك الأفضل علىّ فى أوائل رمضان من السنة فلما علم كتبغا وهو نائب هولاكو على الشام ومقدم التتار بسير العساكر الإسلامية إليه صحبة الملك المظفر قطز جمع من بالشام من التتار وسار إلى لقاء المسلمين وكان الملك السعيد صاحب الصبيبة ابن الملك العزيز ابن الملك العادل بن أيوب صحبة كتبغا فتقارب الجمعان واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم التتار شرّ هزيمة وأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب وكثر فيهم القتل وقتل كتبغا وأسر ابنه وترفع من سلم من التتار إلى رؤوس الجبال وتبعهم المسلمون فأخذوهم وهرب من سلم منهم إلى المشرق فجرد الملك المظفر قطز ركن الدين بيبرس البندقدارى فى أثرهم وهو من مقدمى الأمراء المصرية وكبار العسكر وكان ممن صحب التتار أيضا فى هذه الوقعة الملك الأشرف موسى صاحب حمص فلما رأى ما حل بهم من الفشل والقتل فارقهم وتقدم إلى الملك المظفر قطز فى طلب الأمان فأمنه وأقره على ما بيده من البلاد وأما الملك السعيد صاحب الصبيبة فإنه أمسك أسيرا وأحضر بين يدى الملك المظفر قطز فأمر به فضرب عنقه بين يديه ثم دخل الملك المظفر دمشق ظافرا منصورا ففرح به أهل دمشق فرحا لا يوصف

فجعل ينظر فى الأمور ويأمر وينهى ويصلح ما أفسده التتار ولبث على هذا الحال أياما معظم شأنه واتسعت شهرته وطار صيته فحسده أصحابه وكرهوه وخافوا أن تطول مدته فاتفق منهم بيبرس البندقدارى الصالحى مع آخر اسمه آنصور مملوك نجم الدين الرومى الصالحى والهارونى وعلم الدين صوغان أوغلى على قتله وتحالفوا على ذلك فلما قام من دمشق وسار يريد الديار المصرية ساروا معه يرتقبون الفرص فلما وصلوا إلى القصر بطريق الرملة وبينه وبين الصالحية مرحلة وقد سبق الدهليز والعسكر إلى الصالحية قامت بين يدى قطز أرنب ففرح بها وساق عليها يريد قنصها فساق هؤلاء المذكورون معه فلما بعدوا تقدم إليه آنصو وأظهر أنه يريد أن يشفع عند الملك المظفر قطز فى إنسان فأجابه إلى ذلك فأهوى ليقبل يده وقبض عليها فحمل عليه بيبرس البندقدارى حينئذ وضربه بالسيف واجتمعوا عليه ورموه عن فرسه ثم قتلوه بالنشاب وكان ذلك فى سابع عشر ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة فكانت مدة ملكه أحد عشر شهرا وثلاثة عشر يوما وساق بيبرس وأولئك المذكورون معه بعد قتله حتى لحقوا بالدهليز بالصالحية فسألهم أقطاى فارس الدين نائب السلطنة عن الملك المظفر قطز. فقالوا له قتلناه فقال من قتله منكم؟ فقال له بيبرس: أنا فقال له أقطاى ياخوند اجلس فى مرتبة السلطنة فجلس فاستدعيت العساكر والأجناد للتحليف له فحلفوا فى اليوم الذى قتل فيه قطز وهو سابع عشر ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة.

واستقرت السلطنة لبيبرس وتلقب بالملك القاهر ركن الدين بيبرس الصالحى ثم غير لقبه عن الملك القاهر وتلقب بالملك الظاهر لأنه بلغه أن القاهر لقب غير مبارك ما تلقب به أحد فطالت مدته فلما حلف له الجند ورجال الدولة يمين الطاعة سار بهم الملك الظاهر بيبرس المذكور من الصالحية يريد القاهرة ثم تركهم فى الطريق وسار فى جماعة من أصحابه فصعد إلى قلعة الجبل ففتحت له فدخلها واستقرت قدمه فى المملكة وفرح الناس به وزينوا له مصر والقاهرة أياما فجعل يتصرف فى الأمور ويقرر قاعدتها على ما يحب ثم لم يلبث أن سير علاء الدين البندقدارى أستاداره فى عسكر عظيم لقتال عليم الدين سنجر الحلبى المستولى على دمشق من قبل الملك قطز فقاتله بظاهر دمشق فهرب الجلبى إلى بعلبك فتبعه العسكر وقبضوا عليه وحمل إلى مصر فاعتقل ثم أطلق واستقرت دمشق فى ملك الظاهر بيبرس وأقيمت له الخطبة بها وبغيرها من الشامات مثل حماة وحلب وحمص وغيرها وأقام أيدكين البندقدارى الصالحى فى دمشق لتدبير الأمور فعظمت شوكة الملك الظاهر وظهرت كلمته ودانت له الأمور كما يشاء وهابه الملوك وتزلفوا إليه وسيروا إليه الهدايا الجليلة والتحف النفيسة حتى كان من أمره بعيد ذلك ما سيذكر فى محله.

(المقالة السادسة)

(فى كيفية ظهور الخلافة العباسية بالقاهرة بعد موت الخليفة المستعصم بالله)

(وفيها فصول)

لما كان الملك الظاهر بيبرس المذكور شديد الرغبة فى الغزو والفتوحات ومنازعة هولاكو ومن حذا حذوه من ملوك الخوارج وكان يخشى إنه إذا تقدم إلى ذلك فشل أمره وتفرق الناس عنه وزالت سلطنته إذا لم تفرض له الأمور بالفرض الشرعى وقد كانت الدنيا إلى هذا الحين بغير خليفة بعد موت الخليفة المستعصم على ما مر بك بيانه عمد إلى البحث عمن بقى من سلالة الخلفاء العباسيين وأظهر الاهتمام بأمرهم وأجزل العطاء لجماعة من العربان ليأتوه بالخبر فلما كانت سنة تسع وخمسين وستمائة قدم إلى القاهرة فى مستهل رجب جماعة من العربان ومعهم رجل أسود اسمه أحمد أبو القاسم زعموا أنه ابن الإمام الظاهر بالله محمد ابن الإمام الناصر العباسى قالوا: وكان معتقلا ببغداد ثم أطلق وكان عدة أولئك العربان عشرة منهم الأمير ناصر الدين مهنا فلما علم الملك الظاهر بقدومهم أظهر الفرح وخرج للقائهم ومعه القاضى تاج الدين والوزير والعلماء والأمراء والشهود والمؤذنون فتلقوه فدخل من باب النصر فى أبهة عظيمة وكبكبة زائدة وأنزلهم الملك الظاهر بيبرس مكانا رحبا وبالغ فى الحفاوة بهم فلما كان يوم الاثنين ثالث عشر رجب سنة تسع وخمسين جلس الملك الظاهر بيبرس وأبو القاسم الأسود المذكور فى الديوان بقلعة الجبل وجلس القاضى والوزير والأمراء على طبقاتهم وأثبت أبو القاسم المذكور نسبه لدى القاضى تاج الدين بالوجه الشرعى فلما ثبت ذلك وقف قاضى القضاة قائما وأشهد على نفسه ثبوت النسب ثم قام عز الدين بن عبد السلام شيخ الإسلام يومئذ فبايعه بالخلافة أولا ثم السلطان الملك الظاهر ثم القاضى تاج الدين ثم الأمراء ورجال الدولة واحدا فواحدا وركب من يومه فى دست الخلافة بمصر والأمراء بين

يديه والناس حوله وشق القاهرة ولقب المستنصر بالله بلقب أخيه وطيروا الأخبار بذلك إلى الآفاق فكان الناس فى خلافته على طرفى نقيض ولكل فريق حجة والله سبحانه أعلم بالحقائق .

أقول: ولما لم يكن من رأينا الانتقال إلى البحث فى كنه هذه الخلافة ولا فى كيفية صيرورتها إلى أبى القاسم الأسود المذكور كى لا يتطرف بنا القلم إلى الخوض فى مجال قد تسابق فيه فحول الكتاب وكبار أهل النقد على غير جدوى لاختلاف الأقوال فيه وتعدد المذاهب وتباين الأهواء وقد جاء فى حديث صاحب الشريعة الإسلامية فى الأمر بطاعة الخليفة ما لفظه: «اسمعوا وأطيعوا ولو استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة» وكان الغرض من هذا المؤلف إنما وذكر الحوادث على ترتيب سنى خلافة كل خليفة ممن سبق إلى هذه الفترة التى بات فيها الإسلام بغير خليفة قد التزمنا هذه الخطة بعينها فى تقييد حوادث وأنباء المدة من ظهور أبى القاسم هذا على ترتيب سنى خلافته وخلافة من يأتى بعده ممن يكون لله فى الأرض خليفة كما جاء به حديث صاحب الشريعة عسى أن لا يشكل الأمر على القارئ ولا تفوته الفائدة من سرد الحوادث والأخبار متتابعة كتتابع سنى الخلافة واتصال أدوارها بعضها ببعض، كما كانت دار السلام وغيرها مقر للخلافة العباسية والإمامة الإسلامية إلى هذا الحين فقد أصبحت مدينة القاهرة مقرا لها أيضا بظهور أبى القاسم هذا والبيعة له ولكن على آخر رمق من حياة الخلافة بعد ذلك الحول والطول والقوة والسودد فسبحان من قسم الحظوظ.

(الفصل الأول)

(فى خلافة المستنصر بالله
أحمد بن الخليفة الظاهر بالله)

وقام بالأمر بعد قتل الخليفة المستعصم على ما مر بك بيانه فى حينه عمه أحمد ابن الخليفة الظاهر بالله بن محمد بن الناصر العباسى. قال أصحاب التاريخ: وهو أخو المستنصر بويع له بالخلافة بمدينة القاهرة فى يوم الاثنين ثالث عشر رجب سنة تسع وخمسين وستمائة أى سنة ستين ومائتين وألف ميلادية وذلك بعد قتل المستعصم بثلاث سنين ونصف سنة وأيام ولقب المستنصر بالله بلقب أخيه وخطب له على المنابر وضربت السكة باسمه وكتبت الكتب ببيعته إلى الآفاق وأنزل بقلعة الجبل

هو وخدمه وحشمه فلما كان يوم الجمعة سابع عشر رجب ركب فى أبهة السواد وجاءَ إلى الجامع بالقلعة فصعد المنبر وخطب خطبة ذكر فيها شرف بنى العباس ودعا للسلطان ثم نزل فصلى بالناس وفى يوم الاثنين رابع شعبان ركب أيضاً وركب معه السلطان والقاضى والوزراء والأمراء وأهل الحل والعقد إلى خيمة عظيمة قد ضربت له بظاهر القاهرة فألبس السلطان بيده خلعة سوداء وعمامة سوداء وطوقاً من ذهب فى عنقه وقيداً من ذهب فى رجله وفوض إليه الأمور فى البلاد الإسلامية كافة وما سيفتحه من البلاد الأخرى ولقبه بقسيم أمير المؤمنين ثم صعد بعد ذلك فخر الدين ابن لقمان رئيس الكتاب منبراً فقرأ عليه تقليد السلطان وركب السلطان بهذه الأبهة والقيد فى رجليه والطوق فى عنقه والوزير بين يديه ورجال الدولة مشاة سوى القاضى والوزير فشق من القاهرة وقد زينت له فكان يوماً مشهوداً ثم بعد قليل طلب الخليفة من السلطان أن يجهزه إلى بغداد لقتال هولاكو واستخلاص دار السلام منه فأجابه إلى ذلك ورتب له جنداً وجيش له عسكراً وأقام له كل ما يحتاج إليه ودفع إليه ألف ألف دينار وسار السلطان بصحبته إلى دمشق فدخلوها فى يوم الاثنين سابع ذى القعدة وصليا فيها الجمعة ثم سار الخليفة من دمشق بعسكره وركب الملك الظاهر وودّعه وأوصاه بالتأنى فى الأمور ثم عاد إلى الديار المصرية فدخلها سابع عشر ذى الحجة فلم يلبث إلا قليلاً حتى وصلت إليه كتب الخليفة بمصر أنه قد استولى على عانة والحديثة وولى عليهما وأن كتب أهل العراق وصلت إليه يستحثونه على الوصول إليهم ففرح الملك الظاهر بذلك وترامت آماله إلى المرمى البعيد . وبينما كان الخليفة يجدُّ السير بعسكره إلى بغداد وصل إليه التتار فى جمع كثير وأحاطوا بعسكره واقتتلوا قتالاً يسيراً فظفر التتار بعسكر الخليفة وقتلوا الخليفة وجماعة كثيرة من أصحابه ونهبوا ما كان معه من الأسلحة والكراع وشدّدوا على من بقى من العسكر فتفرقوا أيدى سبأ ووصلت الأخبار إلى السلطان الملك الظاهر بما وقع فشق عليه الأمر واستعظمه. قال أصحاب التاريخ: وقد كان يودُّ نصرته وفتحه للبلاد رجاء أن تكبر دولة الملك الظاهر على يديه فلم يوفق إلى ذلك وقتل الخليفة فى ثالث المحرم سنة ستين وستمائة فكانت خلافته دون الستة أشهر.

وكان ممن شهد الوقعة مع الخليفة وهرب مع من نجا أبو العباس أحمد ابن الأمير أبى علىّ الحسن القتبي ابن الأمير على ابن الأمير أبى بكر أمير المؤمنين المسترشد بالله فقصد الرحبة وجاء إلى عيسى بن مهنا فكاتب فيه الملك الظاهر فطلبه فقدم إلى

القاهرة ومعه ولده وجماعة فدخلها فى سابع عشر ربيع الآخر فتلقاه السلطان وأظهر السرور به وأنزله بقلعة الجبل وأغدق عليه واستمر بقية العام بلا مبايعة والسكة تضرب باسم المستنصر المقتول فلما كان المحرم افتتاح سنة إحدى وستين تمت له البيعة وتقلد الخلافة بعد ثبوت نسبه على ما سيذكر.

(الفصل الثانى)

(فى خلافة الحاكم بأمر الله بن المستظهر بالله العباسى)

ثم تولى الخلافة أبو العباس أحمد ابن الأمير أبى بكر علىّ بن أبى بكر بن المسترشد بالله بن المستظهر بالله العباسى بويع له بالخلافة فى يوم الخميس ثامن المحرم افتتاح سنة إحدى وستين وستمائة هجرية أى سنة اثنتين وستين ومائتين وألف ميلادية وذلك أنه لما كان يوم الخميس المذكور جلس السلطان الملك الظاهر بيبرس مجلساً عاماً وجاء أبو العباس المذكور راكباً إلى الإيوان الكبير وجلس مع السلطان بعد ثبوت نسبه فقرئ نسبه على الناس ثم أقبل عليه السلطان وبايعه بإمرة المؤمنين ثم أقبل هو على السلطان فقلده الأمور ثم بايعه الناس على طبقاتهم ولقب الحاكم بأمر الله فلما كان من الغد يوم الجمعة خطب الخليفة بالناس فقال فى خطبته: الحمد لله الذى أقام لآل العباس ركناً وظهيراً ، وجعل لهم من لدنه سلطاناً نصيراً، أحمده على السراء والضراء، وأستعينه على شكر ما أسبغ من النعماء، وأستنصره على الأعداء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه نجوم الاهتداء، وأئمة الاقتداء، الأربعة الخلفاء، وعلى العباس عمه، وكاشف غمه، وعلى السادة الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، وعلى بقية الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. أيها الناس اعلموا أن الأمانة فرض من فروض الإسلام، والجهاد محتوم على جميع الأنام، ولايقوم علم الجهاد، إلا باجتماع كلمة العباد، ولا سبيت الحرم إلا بانتهاك المحارم، ولاسفكت الدماء إلا بارتكاب المآثم، فلو شاهدتم أهل الإسلام، حين دخلوا دار السلام، واستباحوا الدماء والأموال، وقتلوا الرجال والأطفال، وهتكوا حرم الخلافة والحريم، وأذاقوا من استبقوا العذاب الأليم، فارتفعت الأصوات بالبكاء والعويل، وعلت الضجات من هول ذلك اليوم الطويل، فكم من شيخ خضبت شيبته بدمائه، وكم من طفل بكى فلم يرحم لبكائه، فشمروا عن ساق الاجتهاد، فى إحياء فرض

الجهاد، فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون، فلم تبق معذرة فى القعود عن أعداء الدين، والمحاماة عن المسلمين، وهذا السلطان الملك الظاهر السيد الأجل العالم العادل المجاهد المؤيد ركن الدنيا والدين قد قام بنصر الإمامة عند قلة الأنصار، وشرد جيوش الكفر بعد أن جاسوا خلال الديار، فأصبحت البيعة باهتمامه منتظمة العقود، والدولة العباسية متكاثرة الجنود فبادروا عباد الله إلى شكر هذه النعمة وأخلصوا نياتكم تنصروا، وقاتلوا أولياء الشيطان تظفروا، ولا يرد عنكم ماجرى فالحرب سجال والعاقبة للمتقين، والدهر يومان والآخرة للمؤمنين، جمع الله على التقوى أمركم، وأعز بالإيمان نصركم، وأستغفر الله العظيم لى ولكم ولسائر المسلمين فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم، ثم خطب الثانية ونزل فصلى بالناس وكتب ببيعته إلى الآفاق ليخطب له وتكتب السكة باسمه .

قال أبو شامة فخطب له بجامع دمشق وسائر الجوامع يوم الجمعة سادس عشر المحرم من هذه السنة، وقال ابن فضل الله: ونقش اسمه على السكة وضرب بها الدينار والدرهم قال: ثم خاف الظاهر عاقبة أمره فأسكنه عنده بقلعة الجبل وعنده حريمه وخدمه وغلمانه موسعاً عليه فى النفقات والكساوى يتردد عليه العلماء والقراء على أكمل ما يكون من أنواع الإكرام وملازمته جانب الإجلال والمهابة ممنوعاً من اجتماع أحد من أهل الدولة ثم أسقط اسمه من سكة النقود وأبقاه على المنابر فقط .

وجعل الظاهر بيبرس منذ مبايعة هذا الخليفة الحاكم بأمر الله يتأهب لغزو التتار والأخذ بالثأر فبنى دار العدل القديمة تحت سور قلعة الجبل وصار يجلس بها لعرض العساكر فى كل اثنين وخميس ومازال حتى جيش جيشاً ضخماً وسار به فى سنة ست وستين إلى الشام وقاتل من بيافا حتى ملكها واستولى على الشقيف وأنطاكية وبغراس وطبرية والقرين وارصوف وصافيتا وايباس ومرقية وعرج على دار السلام فحاصرها وضيق فى حصارها وما زال بها حتى دخلها وأباحها أياماً ثم رتب أمورها وأحكم نظامها ثم سار منها وصحبته ولده الأمير بركة خان إلى مصر يريد الحج فمر بمدينة حلب وكانت فى أيدي التتار فقاتلهم وأجلاهم عنها ثم عرج إلى بيت المقدس وعاد قافلاً إلى مصر ولبث بها إلى ميعاد خروج ركب الحاج فخرج من القاهرة فى كبكبة عظيمة وسار برا إلى السويس يريد مكة وخرج معه جماعة كثيرة وقد كانت الطريق من مصر إلى مكة إلى ذلك الحين من صحراء عيذاب فكان الحجاج يركبون

السفن بالنيل من ساحل الفسطاط إلى مدينة قوص بالصعيد الأعلى ثم يركبون الإبل منها فيقطعون صحراء عيذاب إلى ساحل البحر الأحمر ويركبون السفن بالبحر الأحمر إلى جدة التى هى ميناء مكة وكذلك كانت تأتى على هذه الطريق جميع قوافل التجار من الحبشة والهند واليمن وجميع جزيرة العرب فكانت لذلك الصحراء المذكورة آهلة عامرة آمنة فلما سار الظاهر بيبرس إلى مكة براً تبعه الناس فى ذلك واقتدوا به وتحولوا عن طريق صحراء عيذاب وكذلك تحولت قوافل التجار بعد سنة ستين وسبعمائة هجرية فزالت بهجة مدينة قوص وقلت أهميتها وتقهقرت تقهقراً سريعاً حتى أصبحت بالحالة التى هى عليها الآن أو أهم بقليل. ولما رجع من الحج اهتم بأمور الرعية وبالغ فى ترتيب أحوال المملكة وعمل على تأمين السبل وقطع شأفة أهل الفساد، وبينما هو على هذا الحال إذ جاءته الأخبار تترى بزحف طوائف التتار إلى أرض الشام ومحاصرتهم بيرة فجيش عسكراً عظيماً وسار بهم إلى قتال التتار وصحبته الأمير قلاوون الألفى فالتقى الجمعان عند بيرة واقتتلوا قتالاً عنيفاً فانتصر المسلمون على التتار نصرة مؤزرة واستولوا على بيرة وساروا منها إلى أرمينية ففتحوها عنوة وأباحها بيبرس أياماً فغنموا وسبوا وقتلوا وأراقوا فيها الدماء الكثيرة ولبث بها حتى رتب أمورها وقرر أحوالها وسار عنها يريد القاهرة فلما صار على قيد فرسخ منها خرج الأمراء والكبراء والعلماء والفقهاء وعامة الناس للقائه وضربت البشائر لقدومه فدخل من باب النصر وقد فرشوا له الطريق بالبسط والطنافس الفاخرة إجلالاً وتعظيماً فشق من وسط المدينة وصعد إلى قلعة الجبل ثم أولم وأعطى الناس وكان قد ترك الأمير قلاوون بالشام فلم يمض إلا القليل على وصوله حتى جاءه الخبر بزحف بغا خان بن هولاكو ملك التتار على أرض الشام وحصره بيرة ثانية فأنفذ إلى الأمير قلاوون بقتالهم وإجلائهم عن البلاد فسار إليهم الأمير قلاوون فى قلة من العساكر المصرية وضربهم ضربة أرجعتهم على أعقابهم فسر الملك الظاهر بذلك سروراً عظيماً ومال إلى الأمير قلاوون وأحبه واعتمد فى كثير من الأمور عليه.

وتاقت نفس الملك الظاهر بيبرس إلى فتح بلاد النوبة والصعيد الأعلى فأنفذ فى سنة أربع وسبعين الأمير آق سنقر فى جيش عظيم فسار من ساحل الفسطاط إلى أسوان فقاتلها وما زال بها حتى استولى عليها وترفع إلى الصعيد الأعلى يغزو ويفتح ويحرق ويخرب ويسفك الدماء حتى ملك جميع مصر العليا وأخضعها لحكم الملك الظاهر وقرر أمورها على ماشاء وقفل راجعاً مثقلاً بالغنائم من الذهب والفضة وسن

الفيل والريش والعبيد والإماء والخصيان والخيل والدواب ووحوش البر ففرح الملك الظاهر بقدومه وسر باتساع ملكه وطمع فى فتح برقة وإخضاعها لحكمه فسار لقتال من بها وعاد ظافراً منصوراً فلما كانت سنة خمس وسبعين عاد بغا خان بن هولاكو إلى الزحف على أرض الشام ليأخذها من عامل الظاهر فأهم الظاهر ذلك واستعظمه وجيش جيشاً عظيماً وخرج به من القاهرة فى يوم الخميس لعشرين مضت من رمضان من السنة وسار يريد قطع شأفة التتار ومحو أثرهم فوصل إلى حلب ومنها إلى النهر الأزرق ثم إلى ابلستين فوصل إليها فى ذى القعدة فسير بغا للقائه عسكراً عظيماً مقدمهم وكبير اسمه تناون وهو من كبار المقدمين فالتقى الفريقان فى أرض إبلستين يوم الجمعة عاشر ذى القعدة واقتتلوا فانهزم التتار وأخذتهم سيوف المسلمين وقتل مقدمهم تناون وغلب كبراءهم وأسر منهم جماعة كثيرة وكان ممن أسر فى هذه الموقعة سيف الدين قبجق وسيف الدين أرسلان فلما تم الظفر للملك الظاهر بيبرس سار إلى قيسارية واستولى عليها وكان الحاكم بالروم يومئذ معين الدولة سليمان البرواناه فكان يكاتب الملك الظاهر فى الباطن والملك الظاهر يظن أنه إن وصل قيسارية يصل إلى البرواناه على ما كان قد اتفق معه فى الباطن فلم يحضر إليه وأقام الملك الظاهر على قيسارية سبعة أيام فى انتظاره وخطب له على منابرها ثم رحل عن قيسارية وقد نفدت منه الأقوات فحصل للعسكر شدة بالغة جداً وفنى العلف فماتت دواب الحمل والخيل ووصلوا إلى عمق حارم وهم فى أسوء حال فلبثوا بها شهراً فلما بلغ بغا بن هولاكو ما حل بقومه التتار ساق فى جمع المغل حتى جاء الانبستين وشاهد عسكره صرعى جيفاً وأشلالاً ولم يشاهد أحداً من عسكر الروم مقتولاً فالتهب قلبه بنار الغيظ وأمر بنهب الروم وقتل من مر به من المسلمين ونهب وخرب وفعل ما لا خير فيه ثم سار إلى الأردن وصحبته معين الدين البرواناه فلما استقر بالأردن أمر بالبرواناه فقتل وقتل معه نيفاً وثلاثين نفساً من مماليكه وخواصه.

أما الملك الظاهر بيبرس فإنه بعد أن أقام بعمق حارم شهراً يصلح حال عسكره رحل عنها فى أواخر سنة خمس وسبعين ونزل بالقصر الأبلق ثم سار منها لغزو الروم وعاد فلما كان المحرم افتتاح سنة ست وسبعين وستمائة مرض مرضاً شديداً ومات فى يوم الخميس السابع والعشرين منه وكانت وفاته وقت الزوال وقد اختلف فى سبب موته. قال بعض كتاب الأخبار: انكسف القمر كسوفاً كلياً وشاع بين الناس أن ذلك سبب موت رجل جليل القدر فأراد الملك الظاهر أن يصرف التأويل إلى غيره فاستدعى بشخص من أولاد الملوك الأيوبية يقال له الملك القاهر من ولد

الملك الناصر داود ابن المعظم عيسى وأحضر خمراً مسموماً وأمر الساقى فسقى الملك الظاهر ثم شرب الملك الظاهر ناسياً بذلك الكأس التى شرب منها القاهر على أثر شربه فمات القاهر عقب ذلك وحصلت للملك الظاهر حمى محرقة ومات بها فى التاريخ المذكور وقال آخرون غير ذلك فكتم نائبه ومملوكه بدر الدين بيلبك المعروف بالخزندار خبر موته وحنطه وكفنه وتركه فى قلعة دمشق إلى أن تمت تربته بدمشق بقرب الجامع فدفن بها وهى مشهورة معروفة وارتحل بعد ذلك بيلبك بالعساكر ومعهم المحفة مظهراً أن الملك الظاهر فيها وأنه مريض وسار إلى مصر وكان الملك الظاهر قد حلف العساكر لولده بركةخان ولقبه الملك السعيد وجعله ولى عهده فوصل بيلبك الخزندار بالخزائن والعسكر إلى الملك السعيد بركة وهو بقلعة الجبل وأصبحوا وقد أظهروا موت الملك الظاهر وجلس ابنه الملك السعيد للعزاء ثم جدّدوا له البيعة واستقرت له السلطنة فكانت مدة ملك الملك الظاهر بيبرس سبع عشرة سنة وشهرين وعشرة أيام على التحقيق لأنه ملك فى سابع عشر ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة ومات فى السابع والعشرين من المحرم افتتاح سنة ست وسبعين وستمائة وكان ملكاً شجاعاً عاقلاً مهيباً ملك مصر والشام واستولى على النوبة وفتح الفتوحات الجليلة فكان ما فتحه مما بأيدى الصليبيين يافا وطبرية وصفد والشقيف وارسوف وقيسارية وأنطاكية وحصن الأكراد والقصير وبغراس وحصن عكا والقرين ومرقية وصافيتا وحلب. قال أصحاب التاريخ: وناصفهم فى طرسوس وأدنة والمرقب والمصيصة وبانياس وغيرها وتملك مما كان بيد المسلمين على عجلون وبعلبك ودمشق وحمص وصرخد والصلت وتل ناشر والرحبة وتدمر والرصافة والخوانى والقدموس والعليقة وقلعة الكهف وصهيون وبلاطيس والرصافة ومصياف والقليعة والشوبك والكرك.

وعمر الحرم النبوى وقبة الصخرة ببيت المقدس وعمر قناطر شبرامنت بالجيزة وسور الاسكندرية وردم فم بحر دمياط ووعر طريقه وبنى منارة رشيد وأنشأ الشوانى وعمر عدّة قلاع بالديار الشامية والأناضول وعمر المدرسة بين القصرين بالقاهرة والجامع الكبير خارج باب الحسينية وحفر خليج الاسكندرية القديم وبنى فى طريقه قرية سماها الظاهرية وحفر بحر أشمون طناح وجدّد الجامع الأزهر بالقاهرة وأعاد إليه الخطبة بعد انقطاعها حيناً من الدهر وأنشأ قناطر السباع. وأصله مملوك قبجانى الجنس وكان أسمر أزرق العينين جهورى الصوت حضر هو ومملوك آخر مع تاجر إلى حماة فاستحضرهما الملك المنصور محمد ليشتريهما فلم يعجبه واحد منهما وكان

ايدكين البندقدار الصالحى مملوك الملك الصالح أيوب صاحب مصر قد غضب عليه الملك الصالح وكان قد توجه ايدكين إلى ناحية حماة فأرسل الملك الصالح المذكور وقبض على ايدكين واعتقله بقلعة جماة فتركه الملك المنصور صاحب حماه فى جامع قلعة حماة واتفق ذلك عند حضور الملك الظاهر بيبرس مع التاجر فلما قلبه الملك المنصور ولم يشتره أرسل ايدكين البندقدار وهو معتقل فاشتراه وبقى عنده ثم أفرج الملك الصالح عن البندقدار فسار من حماة وصحبته الملك الظاهر وبقى مع أستاذه البندقدار مدة ثم أخذه الملك الصالح من البندقدار فانتسب إلى الملك الصالح دون البندقدار وكان يخطب له وينقش على الدراهم والدنانير بيبرس الصالحى فسبحان المعطى بغير حساب.

واستقر الملك للسلطان الملك السعيد بركة بن الملك الظاهر بيبرس فى مصر والشام فى أوائل ربيع الأول من السنة أى سنة ست وسبعين واستقر بدر الدين بيلبك الخزندار فى نيابة السلطنة على ما كان عليه مع أبيه الملك الظاهر واستمرت الأمور على أحسن حال وأتم نظام فلم تطل أيام بيلبك الخزندار بعد ذلك ومات على ما يقال حتف أنفه وقيل إنه مات مسموماً والله سبحانه وتعالى أعلم بالحقائق فتولى نيابة السلطنة بعده شمس الدين العزبانى. قال أصحاب التاريخ: ولكنه لم يتمكن من التغلب على الملك السعيد فحبط لذلك الملك السعيد وخلط وقدم الأصاغر على الأكابر وأبعد عنه أكثر الأمراء وقبض على سنقر الأشقر والبيسرى وبقى الأمر كذلك حتى خرجت هذه السنة ودخلت سنة سبع وسبعين وستمائة فتجهز السلطان الملك السعيد يريد الديار الشامية ثم خرج فى عسكر عظيم ووصل إلى دمشق ثم جرد منها عسكرا مع الأمير سيف الدين قلاوون الصالحى وجرد أيضاً صاحب حماة فساروا جميعاً ودخلوا إلى بلاطيس وشنوا الغارة عليها وغنموا ثم عادوا إلى جهة دمشق واتفقوا على أن يشقوا عصى الطاعة على الملك السعيد بركة ويخلعوه من السلطنة لسوء تدبيره وبغضهم لأفعاله ومروا بدمشق ولم يدخلوها فأرسل إليهم الملك السعيد واستعطفهم وأدخل عليهم والدته فلم يلتفتوا إلى ذلك وداوموا السير فركب الملك السعيد وساق وسبقهم إلى مصر وصعد إلى قلعة الجبل وسار العسكر فى أثره فلما كانت سنة ثمان وسبعين وصل العساكر إلى مصر فى أثر الملك السعيد وذلك فى ربيع الأول وحصروه بقلعة الجبل فخامر عليه أكثر من كان معه من الأمراء فصاروا يهربون واحداً بعد واحد من القلعة وينضمون إلى العسكر المحارب فلما رأى الملك السعيد منهم ذلك أجاب إلى الانخلاع من السلطنة وأن يعطى الكرك فأجابوه إلى

ذلك وأنزلوه من القلعة وخلعوه فى ربيع الأول من السنة أى سنة ثمان وسبعين وسيروه فى الحال إلى الكرك صحبة بيدغان الركنى وجماعة معه فوصل إليها وتسلمها بما فيها من الأموال والخزائن وكان شيئاً كثيراً. قال كتاب الأخبار: وبعد أن جرى ذلك وتم على ما أراده الأمراء اجتمعوا وهم بدر الدين البيسرى الشمسى وايتمش السعدى وبكتاش الفخرى أمير سلاح وغيرهم على إقامة بدر الدين سلامش ابن الملك الظاهر بيبرس فى السلطنة ولقبوه بالملك العادل وذلك فى شهر ربيع الأول المذكور وعمره يومئذ سبع سنين وشهور ثم خطب له وضربت السكة باسمه وصار الأمير سيف الدين قلاوون الصالحى أتابك العسكر فلما استقر الحال على ما ذكر أرسل الأمير سيف الدين قلاوون الأمير شمس الدين سنقر إلى دمشق وجعله نائب السلطنة بالشام وكان العسكر لما خالفوا الملك السعيد بركة على ما تقدم بيانه قبضوا على عز الدين أيدمر نائب السلطنة بدمشق وسجنوه وتولى تدبير دمشق بعده أقوش الشمسى نائب السلطنة بحلب فسار الأمير شمس الدين وتولاها واستمر الحال على ذلك مدة يسيرة.

ولم تكن مدة الملك العادل سلامش المذكور لتطول سوى بضع أشهر وقام الأمير سيف الدين قلاوون أتابك العسكر وخلعه من السلطنة وجلس هو على تخت الملك يوم الأحد الثانى والعشرين من رجب سنة ثمان وسبعين ولقب نفسه بالملك المنصور فلما استقرت به السلطنة وثبتت قدماه فيها قام سنقر الأشقر متولى دمشق وخرج عن طاعته وادعى السلطنة واستحلف العساكر والأجناد فحلفوا له وتلقب بالملك الكامل شمس الدين سنقر وكان ذلك لأربع وعشرين خلت من ذى القعدة وجاءت الأخبار بذلك إلى الملك المنصور قلاوون فأهمه الأمر جداً وجهز عسكراً عظيماً للغاية مع علم الدين سنجر الحلبى وهو من مقدمى العساكر المصرية وكذلك بدر الدين بكتاش وبدر الدين الأيدمرى وعزالدين الأخرم فساروا جميعاً إلى الشام وبرز سنقر بجيوش الشام إلى ظاهر دمشق والتقى الفريقان فى تاسع عشر صفر واشتبك القتال، فلم يكن بأسرع من أن ولى الشاميون وسنقر منهزمين فلعبت فيهم سيوف المصريين ونهبت أثقالهم وكان السلطان الملك المنصور قلاوون قد جعل مملوكه حسام الدين لاجين السلحدار نائباً بقلعة دمشق فاعتقله سنقر بها فلما انهزم سنقر أفرج عن حسام الدين وعن آخرين لم يخالفوا مع سنقر ولم يحلفوا له وكتب الحلبى إلى السلطان الملك المنصور بالنصر، فرسم بتعيين الأمير لاجين المنصورى نائباً للسلطان بالشام أما سنقر الأشقر فإنه هرب إلى الرحبة وكاتب أبغا بن هولاكو ملك التتار وأطمعه فى

البلاد وكان عيسى بن مهنا أمير العربان مع من حلف لسنقر وقاتل معه وكتب بذلك إلى أيبغا أيضاً موافقة له، ثم سار سنقر من الرحبة إلى صهيون فى جمادى الأولى واستولى عليها وعلى برزية وبلاطس والثغر وغيرها بعد حروب كثيرة، وطمع أيبغا ابن هولاكو ملك التتار فى ملك الشام فسير جيشين عين أحدهما مقدمه أباكه خان والثانى مقدمه منجو تيمور بن هولاكو عدته ثمانون ألف فارس فالتقوا بالمصريين واقتتلوا قتالاً عنيفاً فصبر المصريون وقاتلوا قتال الأسود حتى فازوا بالتتار وانتصروا عليهم نصرة مؤزرة وقتل منجو تيمور تحت سنابك الخيل وفر أباكه خان إلى حمدان فقبض عليه أخوه نبكودارا وغلان وسقاه السم فمات لحينه وتولى نبكودارا المذكور الملك بعده وراسل الملك المنصور قلاوون فى أمر الصلح أو الهدنة وأظهر الإسلام وسمى نفسه أحمد خان فتقررت قاعدة الصلح بين الفريقين وتعهد أحمد خان بالطاعة والولاء فعاد الملك المنصور ظافراً مؤيداً ولبث الحال فى سكون والأمور على مايرام حتى قامت الفتنة فى جوف البلاد وخرج على الملك المنصور كبار الأمراء والمماليك ونبذوا طاعته وعملوا على خلعه فتأهب لإذلالهم وتجرد لقطع شأفتهم وأعمل فيهم السيف ثلاثة أيام كاملة ولم يرحم صغيراً لصغره ولا شيخاً لشيخوخته، واشتد القتال حتى امتلأت الأسواق بجثثهم بين رجال ونساء وأولاد فاشتد الهول على الناس وعظم الخطب وارتفعت أصوات النساء بالبكاء واستغاثوا فاجتمع العلماء ودخلوا على السلطان وشكوا إليه ما يلاقيه الناس من هول هذا الأمر وتلطفوا فى القول وبالغوا فى الاستشفاع فأجابهم إلى ما يسألون، وأمر فنادوا بالكف عن القتل وحقن الدماء إلا أنه ضيق على من بقى منهم وأبطل كثيراً من عاداتهم بعد أن كانوا يلبسون الألبسة المطرزة بطراز الذهب والفضة ويضعون العمائم من الحرير والوشى ويرخون ضفائر الشعر على ظهورهم مغطاة بالحرير وغير ذلك من أنواع الزينة والترفه فزالت بعد ذلك هيبتهم وانكسرت شوكتهم وأمن الناس من شرهم وزال عنهم بأسهم.

ولما كانت سنة أربع وثمانين وستمائة هجرية تحرك الأمير سلامش متولى الكرك يريد الاستقلال والخروج عن تابعية السلطان الملك المنصور قلاوون فاستعظم الملك المنصور هذا الأمر وسار من مصر فى جيش عظيم إلى الكرك فلاقاه سلامش فى جمع عظيم واقتتلوا فدارت عليه وعلى جيشه الدائرة وسقط سلامش فى قبضة الملك المنصور فأحضره إلى القاهرة مكبلاً بالحديد وسجنه فلبث مسجوناً إلى ما بعد وفاة الملك المنصور، ورسم بعد ذلك الملك المنصور لولده الملك الصالح علاء الدين بولاية

العهد بعده وسلطنته وأركبه بشعار السلطنة وشق فى وسط المدينة بأبهة وكبكبة عظيمة ولكنه لم يلبث أن أدركته المنية وهو فى شرخ الشباب وزهوة العمر أصابته حمى خبيثة فمات فى سنة سبع وثمانين وستمائة فحزن عليه السلطان الملك المنصور حزناً عظيماً وبكاه بكاءً مرا وجلس للعزاء أياماً كثيرة وفرق الصدقات الكثيرة وخرج من مصر فى جيش فراراً مما يلاقيه من ألم الحزن على فقد ولده فسار يريد فتح طرابلس وقد كانت إلى ذلك الحين فى أيدى الصليبيين لا ينازعهم عليها منازع من نحو المائة وثمانين سنة، فلما وصل إليها حاصرها وضيق عليها وشدد ووالى الرمى عليها ليلاً ونهاراً حتى ظفر بها وفتحها فأباحها أياماً كثيرة وهدم أسوارها وخرب بناءها حتى أوشكت أن تصبح أثراً بعد عين ثم أمر فرمموا ما بقى منها وأعادوا إليها بعض رونقها وولى عليها أميراً من المصريين ورتب له جماعة من العساكر يقومون بحراسة أبراجها ويدفعون عنها عند الحاجة، قال أهل التاريخ: ولم يجسر أحد إلى هذا الحين ممن سبقه من الملوك مثل صلاح الدين أيوب وغيره على التعرض إلى طرابلس لحصانتها وكثرة عساكرها ثم سار لغزو عكا ففتحها أيضاً وبرز إلى مسجد التبرز ومعه العساكر والأجناد المتوافرة فلما أقام به أياماً ابتدأ مرضه وكان فى العشر الأواخر من شوال وهو بالدهليز بالمكان المذكور وأخذ مرضه يتزايد حتى مات يوم السبت سادس ذى القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة وكان جلوسه على تخت الملك فى اليوم الثانى والعشرين من رجب سنة ثمان وسبعين وستمائة فكانت مدة ملكه نحوا من إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر وأياما وترك ولدين هما الملك الأشرف صلاح الدين خليل والسلطان الأعظم الملك الناصر محمد، وكان ملكاً مهيباً حليماً جليل القدر كثير العفو شجاعاً غير سفاك للدماء محباً للرعية ميالاً إلى فعل الخير كثير الإحسان وافر الحرمة فلما مات اجتمع الأمراء من الخاصكية وغيرهم وتكلموا فيمن يتولى السلطنة بعده فاتفقت كلمتهم على تولية ولده الملك الأشرف صلاح الدين خليل.

فلما كان اليوم الثانى من موت الملك المنصور أجلسوا الأشرف صلاح الدين خليل المذكور على تخت السلطنة وبايعوه البيعة العامة بعد أن بايعه الخليفة الحاكم بأمر الله ابن المستظهر بالله فى السابع من ذى القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة ولم تستقر به السلطنة حتى قبض على حسام الدين طرنطاى نائب السلطنة يومئذ قبض عليه فى يوم الجمعة ثانى عشر ذى القعدة وقتله وفوض نيابة السلطنة إلى بدر الدين بيدر وقلد الوزارة إلى شمس الدين محمد بن السلعوس، ولما رتب أمور الدولة على

ما شاء سار إلى أرمينيا وحاصر اروودوم وضيق عليها وشدد فى الحصار حتى فتحها وأقام بها أياماً فذاع صيته وكبرت هيبته وهابه الملوك المجاورون لملكه وتزلفوا إليه وعاد إلى القاهرة وأقام بها أياماً ثم خرج منها على الهجن يريد الكرك وسارت عساكره على الطريق إلى دمشق وسار السلطان ودخل دمشق ثم سار منها إلى البرية متصيداً ووصل إلى العزقلس وهو جفار فى طرف بلاد حمص من الشرق ونزل عليه وأرسل إلى مهنا بن عيسى أمير العرب وأخويه محمد وفضل وولده موسى بن مهنا وكان قد أضمر لهم السوء لأمر نقمه على عيسى المذكور فحضروا إليه فى قلة من قومهم وهم لا يعلمون بسوء نيته فقبض عليهم فى الحال وسيرهم إلى مصر فحبسوا فى قلعة الجبل وعاد السلطان خلفهم فوصلها فى رجب من السنة وجعل يتصرف فى الأمور فظهرت عليه علامات الخيلاء وتبدلت أحواله وتغيرت طباعه وأساء معاملة رجال الدولة وكافة الناس وتخوف لأقل سبب فانحرفت الخواطر عنه وأبغضه الأمراء وتمنوا هلاكه، وكانت طائفة الكتاب من القبط إلى سلطته فى صدر الدولة ولهم الكلمة النافذة والرأى المسموع وقد أحبهم الأمراء الخاصكية كثيراً ومالوا إليهم جداً وكان منهم كاتب عند خاصكى يعرف بعين الغزال فوجد يوماً فى طريقه بمصر سمساراً بشونة مخدومه فلما رآه السمسار نزل عن دابته وسلم عليه فسأله الكاتب عن مال تأخر عليه من ثمن غلة الأمير وأمر غلامه فنزل وأمسك السمسار وسار به نحو دار الأمير فصاح السمسار فتجمع الناس وكثرت العامة وعلت بينهم الضوضاء حتى صار إلى صليبة جامع ابن طولون والناس يكثرون وكان قد قرب الكاتب من بيت أستاذه فأحاط العامة بالكاتب وألقوه عن دابته وخلصوا السمسار من غلامه فسبق الغلام إلى بيت الأمير ليستنجده فجاءت طائفة من غلمان الأمير فخلصوا الكاتب من العامة وشرعوا فى القبض عليهم فصاحوا هذا ما يحل ومروا مسرعين إلى أن وقفوا تحت قلعة الجبل وصاحوا نصر الله السلطان وأكثروا من الضجيج والصياح، فأرسل من يكشف الخبر فعرفوه ما كان من أمر الكاتب والسمسار وما وقع منهما فغضب السلطان وطلب الكاتب ورسم للعامة بإحضار النصارى إليه وطلب الأمير بدر الدين بيدر النائب والأمير سنجر الشجاعى ورسم لهما بإحضار جميع النصارى بين يديه ليقتلهم فما زالا به حتى استقر الحال على أن ينادى فى القاهرة ومصر بأن لايخدم أحد من النصارى أو اليهود عند أمير، وأمر الأمراء كافة بأن يعرضوا على من عندهم من الكتاب النصارى الإسلام فمن امتنع ضربت عنقه ومن أسلم استخدموه عندهم، ورسم للنائب بأن يعرض على جميع مباشرى الديوان

السلطانى ويفعل بهم كذلك فنزل الطلب لهم، فصارت العامة والحرافيش تسبق إلى بيوتهم وتنهبها حتى عم النهب بيوت جميع النصارى واليهود وأخرجوا نساءهم سبايا وقتلوا جماعة منهم بأيديهم فقام الأمير بيدر مع السلطان لرد العامة وركب والى القاهرة ونادى من نهب بيت نصرانى حل دمه وقبض على طائفة من العامة وشهرهم بعد ما ضربهم فانكفوا عن النهب بعد ما نهبوا كنيسة المعلقة بمصر وقتلوا جماعة بها ثم جمع النائب جماعة من كتاب السلطان والأمراء وأوقفهم بين يدى السلطان، فرسم للشجاعى والأمير جاندار أن يأخدا عدة معهما وينزلوا إلى سوق الخيل تحت قلعة الجبل ويحفروا حفراً كبيرة ويلقوا فيها الكتاب الحاضرين ويضرموا عليهم الحطب ناراً فتقدم الأمير بيدر وشفع فأبى أن يقبل شفاعته وقال: ما أريد فى دولتى ديواناً نصرانيا فلم يزل به حتى سمح بأن من أسلم منهم يستقر فى خدمته ومن امتنع ضربت عنقه فأخرجهم إلى دار النيابة وقال لهم: يا جماعة هذا ما وصلت قدرتى إليه مع السلطان فى أمركم وقد قبل شفاعتى على شرط وهو أن من اختار منكم دينه قتل ومن اختار الإسلام خلع عليه وباشر أمر خدمته فابتدره المكين بن السقاعى أحد المستوفين وقال: ياخوند وأى شىء تختارونه منا الآن قولوا لنا ما تختارونه ونحن نتبع قولكم، فغلب الأمير بيدر الضحك وقال: ويحك يا مكين أتختار غير دين الإسلام؟ ثم أمر فأحضروا العدول واستسلمهم جميعاً وكتب بذلك شهادات عليهم ودخل بها على السلطان ثم خرجوا إلى مجلس الوزير الصاحب شمس الدين محمد ابن السلعوس فبدأ بعض الحاضرين بالمكين الصقاعى وناوله ورقة ليكتب عليها وقال: يامولانا القاضى اكتب على هذه الورقة فأجابه على الفور: يابنى والله ما كان لنا هذا القضاء فى خلد فأعجب القوم بفصاحته وسرعة خاطره فى هذا الوقت الضيق وتوجعوا لحالهم جدا وراجع الأمراء السلطان فى أمرهم وألحوا عليه فأجابهم إلى ما يطلبون فكانت حالة من أشد الأحوال وأنكاها مات فيها من الأطفال والشيوخ والرجال عدد كثير، وبلغت فعال العامة بأصحاب البيوتات من النساء مبلغاً عظيماً للغاية، فكن يخرجن حاسرات مكشوفات الوجوه هائمات فى الطرق والحارات لايعرفن للسلامة سبيلاً وكان الأمير بيدرا يرق لحالهن ويتوجع لمصابهن فأخجل ذلك السلطان وندم على ما بدا منه وتوجع كثيراً وقد كثر خلطه وخبطه وأخذه للناس بالشبهات وتخوفه من مماليكه وأمراء دولته حتى من أقرب الناس إليه وأخصهم به فشدد وهدد وبالغ فى التحرز فكرهه مماليكه وتفرقوا عنه وجعل الأمير بيدرا يراقب الفرص للإيقاع به والتخلص من شره، فلما كان أول المحرم افتتاح سنة

ثلاث وتسعين وستمائة خرج من قلعة الجبل يريد الصيد وسار فى طائفة من الجند إلى أن وصل تروجة بالجيزة ونصب دهليزه وركب فى نفر قليل من خواصه، وخرج للصيد فقصده مماليك والده وهم بيدرا نائب السلطنة ولاجين الذى كان متولياً نيابة السلطنة بالشام وكان قد اعتقله السلطان مرة بعد أخرى وقرا سنقر الذى كان خلعه عن نيابة السلطنة بحلب وبهادر رأس النوبة وجماعة من الأمراء فلما قاربوا السلطان خاف منهم وأرسل إليهم أميرا يقال له كرت أميراخور ليكشف خبرهم وسبب مجيئهم فى هذا الحين، فلما وصل إليه أمسكوه على الفور وقاربوا السلطان وكان بينهم وبينه خور فخاضوه ووصلوا إليه وتقدم بيدرا نحوه وعاجله بضربة بسيفه، ثم فعل به كذلك لاجين حتى مات وتركوه ملقى على الأرض فحمله أيدمر الفخرى والى تروجة إلى القاهرة فدفن فى تربته التى أنشأها بجوار مشهد السيدة نفيسة وذلك فى الثالث عشر من المحرم المذكور فكانت مملكته ثلاث سنين وشهرين ليس إلا، وفرح الناس بموته فرحاً عظيماً فكانوا لايذكرونه إلا باللعنات.

واتفق الجماعة الذين قتلوه على سلطنة بيدرا الذى هو مملوكه وأن يلقبوه بالملك القاهر، فساروا على هذا العزم نحو قلعة الجبل فاجتمعت عند ذلك مماليك السلطان الملك الأشرف وانضموا إلى زين الدين كتبغا المنصورى وساروا فى أثر بيدرا ومن معه فلحقوهم عند الطرانة فى خامس عشر المحرم فاقتتلوا فانهزم بيدرا وأصحابه وتفرقوا فى الأقطار فتبعوا بيدرا حتى لحقوه واحتزوا رأسه ورفعوه على رمح واختفى لاجين وقراسنقر ولم يطلع لهما على خبر ووصل زين الدين كتبغا وجماعة المماليك السلطانية بعد قتل بيدرا إلى قلعة الجبل، وبها علم الدين سنجر الشجاعى نائباً واتفقوا على تولية السلطان الملك الناصر ابن السلطان الملك المنصور فأجلسوه على تخت السلطنة فى العشر الأواسط من المحرم وعمره يومئذ تسع سنين وتقرر أن يكون الأمير زين الدين كتبغا المنصورى نائب السلطنة وعلم الدين سنجر الشجاعى وزيراً وركن الدين بيبرس البرجى الجاشنكير أستاذ الدار، وتتبعوا الأمراء الذين اتفقوا مع بيدرا على قتل الملك الأشرف فظفروا أولاً ببهادر رأس النوبة وأقوش الموصلى الحاجب فضربت أعناقهما وأحرقت جثتيهما ثم ظفروا بطرنطاى الساقى وايتاق ونفيه وأروس السلحدارية ومحمد خواجا والطنبغا الجمدار وآق سنقر الحسامى فاعتقلوا بخزانة البنود أياماً ثم قطعت أيديهم وأرجلهم وصلبوا على الجمال وطيف بهم وأيديهم معلقة فى أعناقهم وقبض بعد أيام أيضاً على مختار الساقى فشنق، وتوافق زين الدين كتبغا والشجاعى على القبض على شمس الدين محمد بن السلعوس وزير السلطان الملك الأشرف فقبضا عليه وتولى الشجاعى معاقبته والتصرف فى ماله

وقتله وكان ابن السلعوس قد بلغ عند السلطان منزلة عظيمة وتمكن فى الدولة وصارت الأمور كلها له وكان لابن السلعوس المذكور أقارب وأهل بدمشق فلما صار إلى هذه الحالة أرسل فأحضرهم بمصر فحضروا جميعاً إلا شخصاً منهم فإنه استمر مقيماً وكتب إلى ابن السلعوس يقول :

تنبه يا وزير الأرض واعلم بأنك قد وطئت على الأفاعى
وكن بالله معتصماً فإنى أخاف عليك من نهش الشجاعى

ولم تمض مدة طويلة حتى وقعت الوحشة بين الأمير زين الدين كتبغا وعلم الدين سنجر الشجاعى المذكور فصار مع كل منهما جماعة من الأمراء واشتد الأمر بينهما واستفحل الخلاف فنزل كتبغا ومن معه من قلعة الجبل وبقى سنجر وأصحابه بها لا يبرحون فحصره كتبغا ومازال حتى غلب عليه وقتله واحتز رأسه وطيف به فى البلد وذلك فى صفر من السنة أى سنة ثلاث وتسعين وستمائة، فلما شاع خبر موته ظهر حسام الدين لاجين وشمس الدين قرا سنقر من الاستتار بعد الغيبة فأخذ لهما زين الدين كتبغا الأمان من السلطان وقرر لهما الأقطاعات الجليلة وأعز جانبهما وأخذ زين الدين المذكور من هذا الحين يعمل على اختلاس الملك من أستاذه الملك المنصور، فلما كان يوم الأربعاء تاسع المحرم افتتاح سنة أربع وتسعين وستمائة أزال من طريق مقاصده ما كان يحول دون الوصل إليها وخلع السلطان الملك المنصور من تخت السلطنة وجلس هو على سرير الملك ولقب نفسه الملك العادل زين الدين كتبغا واستحلف الناس على ذلك فحلفوا وخطب له على منابر مصر والشام ونقشت السكة باسمه، ثم قبض على السلطان الملك الناصر ووضعه فى قاعة بقلعة الجبل وحجبه عن الناس فصار لا يراه أحد ولا يسمع بخبره فكانت مدة ملك السلطان الملك الناصر المذكور سنة إلا أياماً.

ولما استتب الأمر لزين الدين كتبغا جعل نائبه فى السلطنة حسام الدين لاجين الذى كان مستترا بسبب قتل السلطان الملك الأشرف وأفرج عن الأمير مهنا أمير العربان وإخوته وابنه عيسى وزوّدهم وسيرهم إلى بلادهم وخرج فى شوال من السنة يريد الشام فوصل دمشق وأقام بها أياما وقد نقم على عز الدين أيبك الحموى نائب السلطنة بالشام أمورا فخلعه وولى مكانه سيف الدين أحد مماليكه وقام من دمشق فى أوائل المحرم افتتاح سنة سبع وتسعين وستمائة بالعسكر متوجها إلى مصر فلما وصل إلى نهر العرجا واستقر بدهليزه وتفرقت مماليكه وغيرهم إلى خيامهم ركب حسام الدين لاجين المنصورى نائب السلطنة بسنجقه ونقاره وانضم إليه بدر

الدين البيسرى وقرا سنقر المنصورى وسيف الدين قلجاق المنصورى وبهادر الظاهرى وغيرهم من كبار الأمراء وكانوا قد اتفقوا مع لاجين نائب السلطنة على الغدر بالسلطان كتبغا المذكور لبغضه لهم وإعراضه عنهم إلى بعض خواصه وباغتوه عند الظهر فى دهليزه بالمنزلة المذكورة فلم يتمكن من جمع أصحابه وركب فى نفر قليل فحمل عليه نائبة لاجين فقتل يكنوت الأزرق ونجاص وكانا أكبر مماليك العادل فولى العادل هاربا راجعا إلى دمشق حيث كان بها مملوكه عزلو ووصل إليها فركب مملوكه عزلو المذكور والتقى به ودخل إلى قلعة دمشق واهتم بجمع العساكر والتأهب للقتال مع لاجين فلم يوافقه عسكر دمشق على ذلك ورأى مهم التخاذل فخلع نفسه عن السلطنة ولبث بقلعة دمشق وأرسل إلى حسام الدين لاجين يطلب منه الأمان وموضعا يأوى إليه فأعطاه صرخد فسار كتبغا إلى صرخد واستقر بها إلى أن كان من أمره ما سيذكر فى حينه، وأما حسام الدين لاجين فإنه لما هزم العادل كتبغا على ما ذكر نزل بدهليزه عند نهر العرجاء واجتمع مع الأمراء الذين وافقوه على مابدا وشرطوا عليه شروطا فالتزمها فكان من تلك الشروط أن لا ينفرد عنهم برأى ولا يغرى مماليكه بهم كما فعل كتبغا فأجابهم إلى ذلك وحلف لهم واستحلفهم على الطاعة فحلفوا وبايعوه بالسلطنة ولقبوه بالملك المنصور حسام الدين لاجين المنصورى وذلك فى المحرم افتتاح سنة ست وتسعين وستمائة فكانت مدة ملك السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى سنتين تقريبا إلى أن خلع.

ولما بايع الأمراء الملك المنصور حسام الدين لاجين رحل من فوره بالعسكر إلى مصر ووصل إليها فدخلها فى أبهة زائدة وصعد إلى قلعة الجبل واستقر بها وجعل يتصرف فى الأمور ويرتب الأحوال على ما يريد ثم سير الأمير سيف الدين منجق إلى دمشق وجعله نائب السلطنة بالديار الشامية وأخرج السلطان الملك الناصر من معقله بقلعة دمشق وسيره إلى الكرك صحبة سلار فأوصله إليها وتركه بها وعاد سلار إلى مصر وأفرج كذلك عن بيبرس الجاشنكير وعن عدة أمراء كان العادل كتبغا قد قبض عليهم واعتقلهم فى أيامه، وتاقت نفسه إلى التشبه بكبار المملوك ممن سلفه فى الغزو والفتوحات فجيش جيشا عظيما وسار إلى بلاد الروم فلم يفتح الله عليه بشىء منها إلا القليل جدا فى جانب ما فقده من المال والرجال وذلك لانحراف قلوب الأمراء عنه وتسليم أموره الخصوصية إلى الأحداث من المماليك الذين اصطفاهم لنفسه وعينهم لخدمته وكان القائم عليهم شخص اسمه سيف الدين طغجى. قال أصحاب التاريخ: وكان سبب بغض الأمراء له ما فعله بهم من أخذ

جانب من إقطاعاتهم وإخراجه من دواوينهم وجعله لهم ولجميع العساكر والأجناد أحد عشر قيراطا بدل عشرين وقد كانت القاعدة إلى سلطنة الملك المنصور لاجين أنهم اعتبروا أرض مصر أربعة وعشرين قيراطا فخصوا السلطان منها بأربعة والعساكر والأجناد بعشرة وسائر الأمراء بعشرة ولما كان الأمراء هم المتولين إدارة شئون جميع العساكر فى السلم والحرب كانوا لا يعطون للعسكر من أقطاعهم إلا بقدر الحاجة وربما أقل بكثير أو لا يعطونهم ويضمون ما يستغل منها إلى دواوينهم الخصوصية فكثرت لذلك أقطاعات الأمراء وأوى إليها أهل الشقاوة الفساد فعاثوا فيما جاورها من البلاد والقرى والمزارع وقطعوا الطرق على المارة وأبناء السبيل وعجز الولاة عن ردعهم خوفا من إغضاب الأمراء وكانت الحقوق الديوانية تمنع من هذه الأقطاعات فكانت طعمة لأعوان الأمراء فلما تولى السلطنة الملك المنصور لاجين راك جميع البلاد ورد تلك الأقطاعات على أربابها وأخرجها جميعها من دواوين الأمراء ورتب للأمراء وجميع الأجناد أحد عشر قيراطا وأفرد تسعة لحاجة العسكر عند الاقتضاء وحرر أوراقا بما يكفى الأمراء والأجناد، فلما أيس الأمراء من رجوع الأحوال إلى ما كانت عليه قبل سلطنة لاجين وقد أحسوا بعزم السلطان على الإيقاع بهم عمدوا إلى قتله واختاروا لذلك جماعة من مماليكه فلما كانت ليلة الجمعة حادى عشر ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين فى أوائل الليل دخل عليه جماعة من أولئك المماليك وهو يلعب بالشطرنج وتقدم أحدهم نحوه واسمه سيف الدين كرجى وضربه بسيفه وتلاه الباقون بسيوفهم حتى قتلوه وطلبوا مملوكه ونائبه منكوتمر فهرب واستجار بسيف الدين طغجى الأشرفى مقدم المماليك فأجاره وبعث به إلى الجب فحبسه هناك ثم بعد استقراره فى الجب توجه إليه كرجى الذى قتل السلطان ومعه جماعة وأخرجوه وذبحوه على رأس الجب وباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا وقد جلس طغجى مقدم المماليك فى موضع النيابة وأمر ونهى. قال كتاب الأخبار: وكان هنالك جماعة من كبار الأمراء المتقدمين مثل حسام الدين أستاذ الدار وبيبرس الجاشنكير وغيرهم فأخذهم آخذ الغيظ مما فعله طغجى فاتفقوا على الوقيعة به وإعادة الملك إلى السلطان الملك المقيم بالكرك الذى تقدم الكلام عنه واتفق فى هذه الأثناء أن حضر بعض العسكر الذين كانوا فى حلب ومعهم أمير السلاح وغيره من الأمراء فأشار الأمراء المتآمرون على طغجى المذكور بالركوب للقاء أمير السلاح فامتنع فعاودوه فأجاب وركب من قلعة الجبل وجعل نائبه بها كرجى قاتل السلطان الملك المنصور لاجين فلما اجتمع الأمراء بأمير السلاح تحدثوا فيما فعله أولئك الصبيان من قتل السلطان وبالغوا فى الأمر واتهموا طغجى المذكور بفعله وكان طغجى جالسا بينهم

فأنكرَ ذلك وبالغ فى الإنكار فقام عليه الأمراء بالسيوف فهرب منهم فأدركوه وقتلوه وقصدوا كرجى بقلعة الجبل فهرب فاتبعوه وقتلوه أيضا وذلك فى ربيع الآخر من السنة فكان مدة ملك حسام الدين لاجين الملقب بالملك المنصور سنتين وثلاثة أشهر وقيل سبعة وأربعين يوما لم يأت فيها بعمل يذكر ولا بمعروف يشكر.

ولما قتل الملك المنصور وطغجى على الوجه المذكور اتفق الأمراء كافة على إعادة الملك الناصر محمد بن السلطان الملك المنصور سيف الدين بن قلاوون إلى مملكته فبعثوا إليه سيف الدين آل ملك وعلم الدين الجاولى إلى الكرك فأحضراه إلى مصر وصعد إلى قلعة الجبل فى أبهة وكبكبة عظيمة فلما كان يوم السبت رابع عشر جمادى الأولى من السنة أى سنة ثمان وتسعين وستمائة أجلسوه على سرير الملك وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق وضربت السكة باسمه فكانت هذه ولايته الثانية واتفق معه الأمراء على أن يكون سيف الدين سلار نائب السلطنة وبيبرس الجاشنيكر أستاذ الدار وبكتمر الجوكندر أمير جاندار ففعل وفوض نيابة السلطنة بالشام إلى جمال الدين أقوش الأفرم وأفرج عن شمس الدين قراسنقر من الاعتقال وكانت له فيه نحو سنة وشهرين ثم سيره إلى الصبيبة وقد كانت البلاد بغير ملك مدّة أحد وأربعين يوما إلى أن حضر السلطان الناصر محمد بن قلاوون المذكور.

وعاود التتار الكرة فى أيام الملك الناصر على بلاد الشام فعبروا الفرات فى شهر ربيع الآخر سنة سبعمائة فجفلت منهم المسلمون ودخلت بلاد حلب وسارقرا سنقر بعسكر حلب إلى حماة وبرز زين الدين كتبغا وعسكر حماة إلى ظاهر البلد ووصل العساكر من دمشق أيضا واجتمعوا بحماة ونزل التتار على سرين والمعرة وتيزين والعمق وغيرها ينهبون ويقتلون فكبر الأمر على السلطان واستعظمه جدا وسار فى عسكره ووصل إلى العرجاء وكان الوقت شتاء فاتفق أن هطلت الأمطار بشدة زائدة فاشتدت الأوحال حتى انقطعت الطرقات وانقطعت الأقوات وعجز السلطان والعسكر عن القيام على تلك الحال فرحلوا وعادوا إلى مصر وبقيت التتار تعيث وتفسد وتفعل بالبلاد ما لا خير فيه نحو ثلاثة أشهر ثم رحلوا إلى بلادهم فرجع عسكر حلب ولم يستقر بالسلطان المقام بعد رجوعه حتى تغيرت عليه قلوب الأمراء وقامت الفتنة بسبب تولى بعضهم المناصب دون البعض الآخر وتحزبوا وتفرقت كلمتهم وكاد يتعذر على السلطان تلافى الأمر وبينما هم على هذا الحال من الاضطراب والاختباط إذ مات الخليفة أبو العباس الحاكم بأمر الله فى ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى الأولى سنة إحدى وسبعمائة فأرسل نائب السلطنة خلف جميع من فى البلاد من الأمراء والقضاة والعلماء والصوفية ومشايخ الزوايا والرباطات

وغيرهم ليحضروا للصلاة على الخليفة فكان المجتمعون خلقا كثيرا جدا وبعد الصلاة عليه دفنوه بجوار السيدة نفيسة فى قبة بنيت له فكان الخليفة المذكور أوّل خليفة مات بمصر من بنى العباس وكانت خلافته أربعين سنة وأشهرا ولم يكن له من الأمر شيء سوى الإمامة والخطبة فى صلاة الجمعة .

قال أبو شامة: ولاحظه الملك الأشرف خليل بن قلاوون أتم ملاحظة ممن سبقه ورعى لوده نعمة الخلافة فيه حقها من جميل المحافظة. وقال غيره: خطب الخليفة الحاكم بأمر الله بالقلعة مرة ثانية يوم الجمعة رابع شوال سنة تسعين وستمائة بسؤال الملك الأشرف له ذلك وذكر فى خطبته تولية السلطنة للأشرف ثم خطب مرة ثالثة بالمنصورة بحضرة السلطان والقضاة وحض على غزو التتار واستنقاذ بلاد العراق من أيديهم وذلك سنة تسعين وستمائة فى ذى القعدة ثم خطب مرة رابعة فى التاسع والعشرين من ربيع الأوّل سنة إحدى تسعين وحث على الجهاد والنفير وصلى بالناس الجمعة وجهر بالبسلمة، وقال الذهبى فى العبر: آخر خليفة خطب يوم الجمعة الراضى بالله ولم يخطب بعده خليفة إلا الحاكم العباسى هذا فإنه خطب فى خلافته، وقال ابن فضل الله: لما ملك المنصور لاجين زاد فى إكرامه أى فى إكرام الخليفة الحاكم بأمر الله وصرّفه فى الركوب والنزول فبرز إلى قصر الكبش وسكن به ثم إنه حج فى سنة سبع وتسعين وستمائة فأعطاه المنصور لاجين ستمائة ألف درهم ورجع من الحج فأقام بمنزله إلى أن مات ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى الأولى سنة إحدى وسبعمائة ودفن بجوار السيدة نفيسة أهـ.

ومات فى أيام الخليفة الحاكم بأمر الله مرقس بطرك الاسكندرية فكانت مدّته اثنتين وعشرين سنة وستة أشهر وخمسة وعشرين يوما وفى أيام مرقس هذا انتقل مرقس بن قنبر وجماعة من القنابرة إلى رأى الملكية وبالغوا فى نصرة الملكيين أياما كثيرة فاستعظم المتأصلون هذا الأمر وكثر بين الفريقين الأخذ والرد إلى أن عاد القنابرة إلى المتأصلين فقبلوا فلم يلبثوا إلا القليل حتى ارتدوا إلى الملكية ثم رجعوا فلم يقبلوا وكان مرقس البطرك المذكور ذا همة ومروءة عاقلا رزينا حازما يحسن السياسة والتدبير وكان جليلا مهيبا مقبول الكلمة واحترقت فى أيامه كنيسة أبو مرقوره وخلا بعد موته الكرسى سبعة وعشرين يوما ثم أقيم يوحنا بن أبى غالب وهو رابع سبعيهم من أهالى مصر وكمل بالاسكندرية وكان من طائفة التجار يتردد إلى اليمن فى البحر حتى كثر ماله وكان معه مال لأولاد الخباب فاتفق أنه غرق فى البحر الأحمر وذهب جميع ماله ونجا بنفسه إلى القاهرة وقد أيس أولاد الخباب من مالهم فلما بلغهم خبر حضوره قابلوه فأعلمهم أن مالهم قد سلم لأنه كان قد حمله

فى نقائر خشب مسمرة فى المركب فصار لهم به من هذ الحين عناية كبرى فلما مات مرقس البطرك سعى يوحنا المذكور للقس أبى باسر ليوليه بطركا قيل فقال له أولاد الخباب خذ أنت البطركية ونحن نزكيك فوافقهم يوحنا على ذلك فسعوا له وأقاموه بطركا فشق الأمر على أبى باسر وهجره بعد صحبة طويلة وكان معه لما استقر فى البطركية سبعة عشر ألف دينار مصرية أنفقها على الفقراء وأبطل الديارية ومنع الشرطونية ولم يأكل لأحد خبزا ولم يقبل من أحد هدية حتى مات رحمه الله تعالى.

ولما مات الخليفة الحاكم بأمر الله قام بالخلافة بعده ولده أبو الربيع سليمان ولقب بالمستكفى بالله وكان أبوه قد عهد إليه بالأمر قبل وفاته فبويع بغير خلاف ولا جدال.

(الفصل الثالث)

(فى خلافة المستكفى بالله أبو الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله)

ثم قام بالأمر بعد الحاكم بأمر الله ولده المستكفى بالله أبو الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله بويع له فى العشرة الأواخر من جمادى الأولى سنة إحدى وسبعمائة هجرية أى سنة إحدى وثلثمائة وألف ميلادية وخطب له على المنابر بالديار المصرية والشامية وسارت البشائر بذلك إلى جميع الأقطار والممالك الإسلامية. قال ابن كثير: قدم البريد من القاهرة سادس عشر جمادى الآخرة فأخبر بوفاة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله ومبايعة المستكفى وأنه حضر جنازته الناس كلهم مشاة فخطب يوم الجمعة تاسع جمادى الآخرة للخليفة المستكفى بجامع دمشق وكتب له تقليد بالخلافة وقرئ بحضرة السلطان والدولة يوم الأحد العشرين من ذى الحجة ولم يكن السلطان أمضى له عهد والده حتى سأل الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد وهو قاضى القضاة يومئذ هل يصلح للخلافة أم لا فقال الشيخ تقى الدين نعم يصلح قال وإنما احتيج إلى ذلك لأنه كان صغير السن لم يبلغ عشرين سنة فإن مولده كان فى أربع وثلاثين وستمائة وكان له ابن أخ أسن نه فكان ينازعه الأمر فلما أشار الشيخ باستخلافه أمضى عهد والده فكان العهد هكذا:

الحمد لله الذى رفع المستكفى به لما انتصب بشريف همته للمعل الأسمى، ومنح الأمة به بربيع خفض العيش وحزم أمرهم على الصلاح والتوفيق حزما، وآدام الأئمة من قريش ونظم لآلئ حكم أحكامهم فى جيد الزمان نظما، وجعل الناس تبعا لهم فى هذا الأمر فغيرهم بالخلافة العظمى لايدعى ولا يسمى، فالحاكم الحسين المسترشد المستظهر بذخيرة الدين القائم بأمره الله القادر المقتدر الموفق المتوكل المعتصم الرشيد المهدى الكامل من اقتفى لسنن سنتهم رسما، استودع الخلافة فى بنى العباس الذى كان لنبيه الكريم عما وفرج عنه ليلة العقبة بمبايعة الأنصار كربا وغما، فبشره بأن الخلافة فى عقبه فعمه بالسرور عما، فلما انتهى ذلك السر فى العوالم إلى الحاكم قيل وقد نكبت هيئة الخلافة عن معرفته حقوقها العظيم من كل عظيم ففهمناها سليمان وكلا أتينا حكما وعلما أحمده حمد من لم يثن عن طاعته وطاعة رسوله وأولى الأمر عزما، والله يؤتيها من يشاء من خلقه اختيارا ورغما، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى دعا إلى مودة أولى القربى وهم أفضل قرابة زكاة وأقرب رحماً صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وخلفائه وعترته الذين هم أعدل البرية حكما وبعد فإن الملك السلام منذ أسجد لآدم وملائكته الكرام فى سالف الأزمان قدما جعل طاعة خلفائه فى بلاده على سائر عبادة حقا كيف لا وبهم يعمر الوجود وتقام الحدود وتهدم أركان الجور هدما، فبحياتهم تأمن البلاد وربما تصادف قرب وفاتهم أن لبس القمر ليلة التم حلة السواد وأخفى جرما، ولما كان سنة من تقدم من الأئمة الخلفاء إذا خاف أن يهجم عليه الحمام هجما ولا تهدى إليه الأيام ألما وسقما تفويض الأمر بولاية العهد إلى الخلق لخير ذريته وبنيه نجدة وحزما أشهد على نفسه الشريفة مولانا الإمام الحاكم الحاكم عليه تقواه ، المراقب لله فى سره ونجواه، الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين ابن عم سيد المرسلين وارث الخلفاء الراشدين أبو العباس أحمد ابن الأمير الحسن ابن أمير المؤمنين المسترشد بالله أبى منصور الفضل ابن أمير المؤمين المستظهر بالله أبى العباس أحمد ابن أمير المؤمنين أبى القاسم عبدالله ابن المرحوم الذخيرة للدين ولى عهد المسلمين محمد ابن الإمام القائم بأمر الله أبى عبدالله محمد ابن القادر بالله أبى العباس أحمد ابن أمير المؤمنين أبى الفضل جعفر المقتدر بالله ابن أمير المؤمنين المعتضد بالله أبى العباس ابن الأمير محمد الموفق بالله أبى طلحة ولى عهد المسلمين ابن أمير المؤمنين جعفر المتوكل ابن أمير المؤمنين أبى إسحق محمد المعتصم ابن هارون الرشيد ابن أمير المؤمنين محمد ابن أمير المؤمنين عبدالله حبر الأمة ابن عباس بن عبدالمطلب عم النبى ﷺ أعز الله به الدين، وأمتع

ببقاء نسله الشريف الإسلام المسلمين وهو فى حالة يسوغ معها الإشهاد عليه، ويرجع فى الأمور المنوطة للخلافة الشريفة إليه أنه عهد إلى ولده لصلبه الإمام المستكفى بالله أبى الربيع سليمان شيد الله به أركان الإيمان، ونصر ببركة سلفه العصابة المحمدية على أهل الكفر والطغيان وجعله ولى عهد واستخلفه من بعده لما يعلمه من أهليته، وعدالته وكفالته وصلاحه لذلك وكفايته، وأشخصه لشهود هذا المكتوب الشريف، ونبه على استحقاقه لذلك ومحله العالى المنيف، عهدا صحيحا شرعيا، معتبرا تاما مرعيا، وفوض إليه أمر الخلافة العظيمة تفويضا شرعيا صريحا وعقد له عقد ولاية العهد على الأمة عقدا صحيحا، وقبل ذلك منه القبول الشرعى المعتبر المرضى فالله تعالى يجمع به كلمة الإسلام ويصحبه فى خلافته الشريفة رأيا موفقا ويقمع ببركة سلفه الكرام أهل الطغيان، ويهيئ له من أمره مرفقا بمنه وكرمه آمين والحمد لله رب العالمين، وصلواته على سيد المرسلين، نبيه وآله وصحبه أجمعين، وبه شهد فى اليوم المبارك التاسع عشر من جمادى الأولى سنة إحدى وسبعمائة أحسن الله العقبى فى ختامها، وأجرى الخيرات فيما بقى من شهورها وأيامها أهـ.

ولما بايعه السلطان والقضاة والأعيان ألبس جبة سوداء وطرحة سوداء وخلع السلطان على أولاد أخيه خلع الأمراء وأشهد عليه أنه ولى الملك الناصر جميع ماولاه والده وفوض إليه جميع الأمور ثم نزل فى داره بالكبش ونقش اسمه على سكة الدينار والدرهم ثم رسم السلطان بعد ذلك أن ينتقل هو وأولاده وجميع من يلوذ به إلى قلعة الجبل إكراما لهم وتعظيما فانتقلوا فى جمادى الآخرة ونزلوا فى دارين منها وأجرى عليهم الرواتب الكثيرة واستمر هو والسلطان دهرا كالأخوين يلعبان بالأكرة ويخرجان إلى المنتزهات ويسافران معا إلى غزو التتار حتى وشى الواشى بينهما وكان من أمرهما ما سيذكر فى محله إن شاء الله .

ولما دخلت سنة اثنتين وسبعمائة نزل بديار مصر نازلة لم يسبق لها مثيل فقد زلزلت الأرض زلزالا عظيما فانشقت الصخور وهدم كثير من المبانى والدور بمصر والقاهرة والأسكندرية وغيرها ومات خلق كثير تحت الردم ودمرت من أسوار مدينة الاسكندرية ستا وأربعين بدنة وكانت القتلى تئن وتستغيث تحت الردم والناس فى دهشة لا يلتفتون إليهم بل كل مشغول بنفسه. قال كتاب الأخبار: فكانت ساعة يالها من ساعة تشيب من هولها الولدان وبقيت الخرائب دهرا فكانوا إذا أرادوا حمل ما انهال من ترابها ظهرت جثث النساء والرجال والأطفال على هيئات مختلفة تنفطر

من رؤيتها القلوب واستمروا على هذا أياما كثيرة وعم الخوف الناس وأخذ من قلوبهم وتطيروا من سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون فانحرفت قلوبهم عنه وتطاولت أيدى بعض الأمراء إلى العبث بأمور المملكة وظهر سلار نائب المملكة وبيبرس الجاشنكير أستاذ الدار واستبدا بالأمر وتجاوزا الحد فى الانفراد بالأموال والأمر والنهى ولم يتركا للسلطان غير الاسم وحصراه فى قلعة الجبل أياما كثيرة حتى قبل جميع ما طلباه صاغرا وكان كلما هم بالخلاص صادفه من الشدة ما يقعده وطال عليه الحال فلما كان شهر رمضان سنة ثمان وسبعمائة أظهر الرغبة فى الخروج إلى الحج وأخذ فى التأهب والاستعداد وخرج فى الخامس والعشرين منه فسار فى خدمته جماعة من الأمراء هم عز الدين أيدمر الخطيرى والأمير حسام الدين قرا لاجين والأمير سيف الدين آل ملك وغيرهم فسار إلى الكرك ووصل إليها فى عاشر شوال وكان النائب بها جمال الدين أقوش الأشرفى فعمل الولائم واحتفل بالسلطان احتفالا عظيما فعبر السلطان إلى المدينة ثم إلى القلعة. قال بعض الكتاب: ولما عبر على الجسر إلى القلعة والأمراء تمشى بين يديه والمماليك حوله وخلفه سقط جسر القلعة وقد أصيبت يد فرس السلطان وهو راكب داخل عتبة الباب فلما أحس الفرس بسقوط الجسر أسرع حتى كاد أن يدوس الأمراء الماشين بين يديه وسقط فى الخندق من المماليك وأهل الكرك عدد كثير ونزل فى الوقت السلطان عند الباب وأمر فأحضروا الجنبات والحبال ورفعوا الذين سقطوا فى الخندق جمعيا، ولما استقر به المقام أمر من كان معه من الأمراء بالرجوع إلى مصر وكاشفهم على أنه إنما أظهر السفر إلى الأقطار الحجازية وسيلة إلى المقام بالكرك وعدم العود إلى مصر تخلصا من فعل سلار وبيبرس الجاشنكير فراجعه الأمراء فى ذلك فلم يقبل وأصر على البقاء بالكرك فعاد الأمراء إلى مصر وأعلموا من بها بالخبر وتشاوروا فيما بينهم واتفقوا على أن يولوا السلطنة بيبرس الجاشنكير وأن يكون سلار مستمرا على نيابة المملكة كما كان عليها وحلفوا جميعا على ذلك .

فلما كان يوم السبت الثالث والعشرين من شوال سنة ثمان وسبعمائة خرج بيبرس من داره راكبا فى شعار السلطنة وحوله الأمراء والمماليك على اختلاف طبقاتهم وأمامه الجنائب السلطانية وسار إلى الديوان الكبير بقلعة الجبل وجلس على سرير الملك ولقب بالملك المظفر ركن الدين بيبرس المنصورى وطير الخبر إلى نواب السلطنة بالشام فحلفوا له وكتب تقليدا إلى السلطان بالكرك ودستورا بما عينه له من الأقطاع وأرسلهما إليه. قال كتاب الأخبار: واستقر الحال على ذلك بلا منازع حتى خرجت

هذه السنة فكانت مملكة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية نحو العشرين سنة، ولما استقر بيبرس المنصب استبدّ بالأمر وأساء التدبير وأظهر الشدة والجفاء للكثير من الأمراء فانحرفت خواطرهم وابتعدوا عنه وظهرت بينهم دلائل الوحشة والنفور ونزح عن مصر منهم جمال الدين أقوش الموصلى المعروف بقتال السبعة وهو من مماليك بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وكذلك لاجين الجاشنكير المعروف بالزبرتاج ومعهما زهاء ألفى فارس من عسكر مصر وبعض من عسكر حماة قاصدين حلب فدخلوها وكان نائب السلطنة فيها يومئذ قرا سنقر المنصورى واتفق أن حضر أيضا جماعة من عسكر دمشق مع الحاج بهادر الظاهرى فسر قرا سنقر بقدومهم وعمدا إلى تمهيد السبل لإرجاع السلطان الملك الناصرمحمد بن قلاوون إلى كرسى السلطنة فجعل يستميل الناس إلى طاعة السلطان ويستنجدهم لنصرته وخرج أيضا جماعة من المماليك على حمية وغيظ مفارقين طاعة بيبرس المذكور وساروا إلى السلطان بالكرك وأعلموه بما عليه الناس من طاعته ومحبته وبغضهم لبيبرس فتقوّت عند ذلك آمال السلطان وأعاد خطبته بالكرك ووردت إليه مكاتبات عسكر دمشق يستدعونه وأنهم باقون على طاعته وكذلك وردت إليه المكاتبات من حلب فسار بمن معه من الكرك فى جمادى الآخرة إلى قرية عمان وهى قريب من رأس الماء ونزل بها فجاءه أحد مماليك قرا سنقر نائب السلطنة بحماة برسالة مكذوبة على قرا سنقر إلى السلطان بعدم تعويله على ما وردت به كتب أولئك الطائعين وسرعة رجوعه إلى الكرك فصدق السلطان هذا الخبر وظنه حقا وعاد مسرعا إلى الكرك فيمن معه من العساكر واستمرت العساكر مع ذلك على طاعته واستدعائه وانحلت فى هذه الفترة حكومة بيبرس أو كادت وجاهره الناس بالعداوة وأظهروا الخلاف وانعكست الأمور عليه وخرج أغلب الجند عن الطاعة فرحل من كان بحماة من الجند والعساكر بغير دستور ولا مرسوم ولم يبق بحماة إلا بعض العسكر المصرى، ولما تحقق الملك الناصر صدق طاعة العسكر له وخروجهم عن طاعة بيبرس وبقاء العسكر الشامى جميعه على الإخلاص والولاء عاود المسير إلى دمشق وخرج من الكرك وخرجت عساكر دمشق إلى لقائه وكان نائب السلطنة بدمشق أقوش الأفرم وهو من الطائعين فلما لم يقدر على منع العسكر من الخروج هرب من دمشق فدخلها السلطان فى يوم الثلاثاء عشر شعبان من السنة وهيئت له قلعة دمشق فلم ينزل بها ونزل بالقصر الأبلق فأرسل الأفرم إليه يطلب الأمان فأمنه فقدم إلى طاعته وتتابع وصول العسكر لنجدة السلطان من حماة والساحل ووردت عساكر الشام جميعا فلما تكاملوا رسم لهم السلطان بالتأهب للمسير إلى ديار مصر وأرسل إلى الكرك فأحضر ما كان بها من

الحواصل وأنفق فى العسكر ثم سار بهم من دمشق فى يوم الثلاثاء تاسع رمضان سنة ثمان وسبعمائة، فلما بلغ بيبرس الجاشنكير ونائبه بمصر ما فعله السلطان خافا جدا وجرد بيبرس عسكرا عظيما مع الأمير برلغى وغيره من المقدمين فساروا إلى الصالحية وأقاموا بها وكان برلغى المذكور من أكبر أصحاب الجاشنكير وأعزهم إليه وسار السلطان بجيشه حتى وصل غزة فى يوم الجمعة تاسع عشرى رمضان فلم يشعر عسكر مصر بوصول السلطان إلى غزة حتى أخذوا يتقدمون له بالطاعة فريقا بعد فريق وكان ممن قدم له الطاعة أيضا برلغى قائد الجيوش وغيره من المقدمين وكثير من العساكر ثم تتابعت الطلاب وكان السلطان يلقى فى كل يوم وهو سائر طلبا بعد طلب من الأمراء والمماليك والأجناد يقبلون الأرض ويسيرون بين يديه قاصدين الديار المصرية ووردت الأخبار بذلك إلى بيبرس فأسرع فى خلع نفسه وسير ركن الدين بيبرس الدوادار ومعه بها درآص إلى السلطان فى طلب الأمان وأن يتصدق عليه ويعطيه إما الكرك وإما حماة أو صهيون وأن يكون معه ثلثمائة مملوك من مماليكه فأجابه السلطان إلى مائة منهم وأن يعطيه صهيون وأسرع مع ذلك فى المسير إلى مصر فهرب الجاشنكير من قلعة الجبل إلى الصعيد وخرج سلار إلى طاعة السلطان والتقاه يوم الاثنين الثامن والعشرين من رمضان قاطع بركة الحاج وتقدم نحوه ثم ضرب للسلطان الدهليز بالبركة فلم ينزل به ورحل فى نهاره ومعه العسكران الشامى والمصرى فوصل إلى قلعة الجبل من يومه وصعد إليها وجلس على سرير الملك بعد العصر فى نهار الأربعاء مستهل شوال سنة تسع وسبعمائة فكانت هذه أيضا سلطنته الثالثة.

وفى يوم الجمعة ثالث شوال وهو اليوم الثالث من دخول السلطان القاهرة سار سلار من قلعة الجبل إلى الشوبك بحكم من السلطان حيث أنعم بها عليه وأعطى سيف الدين قبجق حلبا واسترجع منه حماة فقام إليها وقام معه عسكر حماة ورسم للأمير أقوش الأفرم بصرخد فسار إليها وقرّر نيابة السلطنة بالشام لشمس الدين قرا سنقر وقرر حماة للحاج بهادر الظاهرى ثم استرجعها منه وقرره على نيابة السلطنة بالحصون والفتوحات بعد عزل استدمر عنها وقرر الأمير سيف الدين بكتمر الجوكاندار فى نيابة السلطنة بمصر ورتب جميع الأمور على ما أراد ودانت له الأحوال فجعل يتصرف فيها، أما بيبرس الجاشنكير فإنه لما هرب إلى الصعيد وكان قد أخذ معه شيئا كثيرا من الأحمال والأموال أرسل السلطان فاسترجع منه ما أخذ وضيق عليه فقصد المسير إلى صهيون حسبما كان طلب فسار من أطفيح إلى

السويس ومنها إلى الصالحية ثم سار منها إلى أن وصل إلى موضع بأطراف غزة يسمى العنصر قرب الداروم وكان قرا سنقر متوجها إلى دمشق نائبا بها على ما استقر عليه الحال فوصل إليه مرسوم السلطان بالقبض على بيبرس المذكور فركب قرا سنقر فى الحال وكبس عليه بالمكان المذكور وقبض عليه وسار به إلى مصر حتى وصل إلى الخطارة فبعث إليه السلطان باستدمر الكرجى وتسلم منه بيبرس وأخذه إلى قلعة الجبل واعتقله فيها وذلك فى يوم الخميس رابع عشر ذى القعدة سنة تسع وسبعمائة فكان آخر العهد به وكانت مدة سلطنته أحد عشر شهرا لا غير. قال كتاب الأخبار: وبيبرس هذا هو الذى بنى البيبرسية بالدرب الأصفر ودفن بها وجدّد جامع الحاكم بعد الزلزلة التى سبق الكلام عنها فى حينها، وانتظمت للملك الناصر الأمور واستقرت له الأحوال فتصرف واستبد بالأمر وأنشأ العمارات العظيمة فى سنة عشرين وسبعمائة منها الميدان المعروف بميدان الهاوى المجاور لقناطر السباع وعمد إلى بناء زريبة فى التل الأعظم بجوار الجامع الطيبرسى فرسم بنقل كوم تراب كان هناك وحفر ما تحته من الطين لأجل بناء الزريبة وأجرى الماء إلى مكان الحفر فصار يعرف بالبركة الناصرية وكان الشروع فى حفر البركة المذكورة سنة إحدى وعشرين وسبعمائة قال أصحاب التاريخ: فلما انتهى الحفر إلى جانب كنيسة الزهرى (كانت هناك كنيسة تسمى كنيسة الزهرى بقرب من قناطر السباع فى بر الخليج الغربى بباب اللوق وكان بها كثير من النصارى لا يزالون فيها وبجانبها عدّة كنائس فى الموضع الذى يعرف بحكر اتبغا ما بين السبع سقايات وبين قنطرة السد خارج مدينة الفسطاط) أخذ الفعلة فى الحفر حول كنيسة الزهرى حيث بقيت قائمة فى وسط الموضع الذى عينه السلطان للحفر وزاد الحفر حتى تعلقت الكنيسة ومع ذلك لم تسقط وصار العامة من غلمان الأمراء العاملين فى الحفر وغيرهم فى كل وقت يصرخون فى طلب هدمها إلى أن كان يوم الجمعة تاسع ربيع الآخر وقت اشتغال الناس بصلاة الجمعة وترك أعمال الحفر فتجمع عدّة من غوغاء العامة بغير مرسوم من السلطان وصاحوا بصوت مرتفع الله أكبر ووضعوا أيديهم بالمساحى ونحوها فى الكنيسة المذكورة وهدموها حيث بقيت كوما وقتلوا من كان فيها من النصارى وأخذوا جميع ما كان بها من أوانى الذهب والفضة والحلى وغيره من الأشياء الثمينة، ثم تطاولت أيديهم إلى الكنائس الأخرى فهدموا كنيسة بومينا التى كانت بالحمراء وكانت معظمة جدا من قديم الزمان وبها كثير من المسيحيين قد انقطعوا فيها وكان يحمل إليهم بها من مصر سائر ما يحتاج إليه ويبعث إليها بالنذور الجليلة والصدقات الكثيرة

فوجد فيها مال كثير من نقود ومصوغات وتسلق العامة إلى أعلاها وفتحوا أبوابها وأخذوا منها مالا وقماشا وغيره فكان أمرا مهولا للغاية ثم مضوا من كنيسة الحمراء بعد ما هدموها إلى كنيستين أخريين بجوار السبع سقايات تعرف إحداهما بكنيسة البنات وكان بها كثير من الراهبات المتعبدات وعدةً من الرهبان فكسروا أبواب الكنيستين وسبوا البنات سبيا وكن زيادة عن ستين بنتا وأخذوا ما عليهن من الثياب ونهبوا سائر ماظفروا به وأحرقوا وهدموا تلك الكنائس كلها. قال: المقريزى هذا والناس فى صلاة الجمعة فعندما خرج الناس من الجوامع شاهدوا هولا كبيرا من كثرة الغبار ودخان الحريق وهرج الناس وشدّة حركتهم ومعهم ما نهبوه من الأمتعة فكان ذلك اليوم أشبه بيوم القيامة وانتشر الخبر وطار إلى الرميلة تحت قلعة الجبل فسمع السلطان ضجة عظيمة أفزعته فبعث ليكشف الخبر فلما بلغه ما وقع انزعج انزعاجا عظيما وغضب من تجرى العامة وإقدامهم على ذلك بغير أمره وأمر الأمير أيدغمش أميراخور أن يركب بجماعة الأوشاقية ويتدارك هذا الخلل ويقبض على من فعله فأخذ أيدغمش يتهيأ للركوب وإذا بخبر وقد ورد من القاهرة أن العامة ثارت فى القاهرة وخربت كنيسة بحارة الروم وكنيسة بحارة زويلة وجاء الخبر من مدينة مصر أيضا بأن العامة قامت بمصر فى جمع كثير جدا و زحفت إلى كنيسة المعلقة بقصر الشمع فقفلها الموكلون بها وهم محصورون بها وهى على وشك أن تؤخذ فتزايد غضب السلطان وهم أن يركب بنفسه ويبطش بالعامة فراجعه الأمير أيدغمش فتأخر ونزل من القلعة فى أربعة من الأمراء إلى مصر وركب الأمير بيبرس الحاجب والأمير ألماس الحاجب إلى موضع الحفر وركب الأمير طينال إلى القاهرة وكل منهم فى عدّة وافرة، وقد أمر السلطان بقتل كل من قدروا عليه من العامة بحيث لا يبقوا على أحد فقامت القاهرة ومصر على ساق وفرّت النهابة فلم يظفر الأمراء منهم إلا بمن عجز عن الحركة بما غلبه من السكر بالخمر الذى نهبوه من الكنائس ولحق الأمير أيدغمش بمصر وقد ركب الوالى إلى المعلقة قبل وصول أيدغمش ليخرج من زقاق المعلقة من حضر للنهب فأخذه الرجم حتى فر منهم ولم يبق إلا أن يحرق باب الكنيسة فجرد أيدغمش ومن معه السيوف يريدون الفتك بالعامة فوجدوا عالما لا يحصر وخاف سوء العاقبة فأمسك عن القتل وأمر أصحابه بإرجاف الناس من غير إهراق دم ونادى مناديه: من وقف حل دمه ففر سائر من اجتمع من العامة وتفرقوا وصار أيدغمش واقفا إلى أن أذن العصر خوفا من عود العامة ثم مضى وألزم والى مصر أن يبيت بأعوانه هنالك وترك معه خمسين من الأوشاقية. أما الأمير ألماس فإنه

وصل إلى كنائس الحمراء وكنائس الزهرى ليتداركها فإذا بها صارت كيمانا ليس بها جدار قائم فعاد وعاد الأمراء فردوا الخبر على السلطان وهو لا يزداد الاحنقا فما زالوا به حتى سكن غضبه قال الرواى: وكان الأمر فى هدم هذه الكنائس من أعجب العجب وهو أن الناس لما كانوا فى صلاة الجمعة من هذا اليوم بجامع قلعة الجبل فعندما فرغوا من الصلاة قام رجل موله وهو يصيح فى وسط الجامع اهدموا الكنيسة التى فى القلعة اهدموها وأكثر من الصياح المزعج حتى خرج عن الحد ثم اضطرب فتعجب السلطان والأمراء من قوله ورسم لنقيب الجيوش والحاجب بالفحص عن ذلك فمضيا من الجامع إلى خرائب التتار من القلعة فإذا فيها كنيسة بنيت فهدموها قال: ولم يفرغوا من هدمها حتى وصل الخبر بوقعة كنائس الحمراء والقاهرة فكثر تعجب السلطان من شأن ذلك الفقير وطلبه فلم يوقف له على خبر. أهـ

و لما شاع خبر الكنيسة التى كانت بخرائب التتار بقلعة الجبل وماجرى عليها بأمر السلطان ثار العامة وهدموا كنائس الزهرى وكنائس الحمراء وغيرها من كنائس القاهرة وحرقوا وقتلوا وسبوا ونهبوا وفعلوا من الفظائع ما لا يقع تحت حصر وكان الذى هدم فى ذلك اليوم من الكنائس بالقاهرة كنيسة بحارة الروم وكنيسة بالبندقانيين وكنيستين بحارة زويلة ثم جاءت الأخبار أيضا من مدينة الأسكندرية بأن العامة هدمت بها أربع كنائس وكنيستين بمدينة دمنهور وست كنائس بمدينة قوص وما حولها من العمائر وتواترت الأخبار من الأقاليم القبلية والبحرية بكثرة ما هدم من الكنائس والديارات فى جميع أعمال مصر ما بين قوص والاسكندرية ودمياط وغيرها فكانت شدة عظيمة للغاية.

ولم تكن لتسكن خواطر الناس حتى ظهر الحريق فى القاهرة ومصر فى عدة مواضع فوقع الحريق فى ربع بخط الشوآئين من القاهرة فى يوم السبت عاشر جمادى الأولى وسرت النار إلى ما حوله واستمرت إلى آخر يوم الأحد فتلف فى هذا الحريق شىء كثير وعند ما أطفئ وقع الحريق بحارة الديلم فى زقاق العريسة بالقرب من دار كريم الدين ناظر الخاص فى خامس عشر جمادى الأولى وكان يوماً شديد الريح فسرت النار من كل ناحية حتى وصلت إلى بيت كريم الدين وبلغ ذلك السلطان فانزعج لما كان هنالك من الحواصل السلطانية وسير طائفة من الأمراء لإطفائها فجمعوا الناس لذلك وتكاثروا عليها وقد عظم الخطب من ليلة الاثنين إلى ليلة الثلاثاء فتزايد اشتعال النار وعجز الأمراء والناس عن إطفائها لكثرة انتشارها فى

الأماكن وقوة الريح التى قلعت باسقات النخل وغرقت المراكب فلم يشك الناس فى حريق القاهرة كلها وصعدوا المآذن وبرز الفقراء وأهل الخير وضجوا وعجوا وجأروا وكثر صراخ الناس وبكاؤهم وصعد السلطان إلى أعلى القصر فلم يتمالك الوقوف من شدّة الريح واستمر الحريق والحث يرد على المكلفين بالإطفاء من السلطان إلى يوم الثلاثاء فنزل نائب السلطان ومعه جميع الأمراء وسائر السقائين ونزل الأمير بكتمرّ الساقى فكان يوما عظيما لم ير الناس أعظم ولا أشد هولا منه ووكلوا بأبواب القاهرة من يردّ السقائين إذا خرجوا من القاهرة لأجل إطفاء النار فلم يبق أحد من سقائى الأمراء وسقائى البلد إلا وعمل وصاروا ينقلون الماء من المدارس والحمامات وأخذ جميع النجارين وسائر البنائين لهدم الدور فهدم فى هذه النوبة ما شاء الله من الدور العظيمة والرباع الكبيرة وعمل فى هذا الحريق أربعة وعشرون مأمورا من الأمراء المقدمين سوى أمراء الطبلخانات والعشروات والمماليك وعمل الأمراء بأنفسهم فيه وصار الماء من باب زويلة إلى حارة الديلم فى الشارع بحرا من كثرة الرجال و الجمال التى تحمل الماء ووقف بكتمر الساقى والأمير أرغون النائب على نقل الحواصل السلطانية من بيت كريم الدين إلى بيت ولده بدرب الرصاصى وخربوا ستة عشر دارا من جوار الدار وما قابلها حتى تمكنوا من نقل الجواصل فما كمل أطفاء الحريق ونقل الحواصل حتى وقع الحريق فى ربع الظاهر خارج باب زويلة وكان يشتمل على مائة وعشرين بيتا وتحته قيسارية تعرف بقيسارية الفقراء وهبت مع الحريق ريح قوية فركب الحاجب والوالى لإطفائها وهدموا عدة دور من حول الربع حتى انطفأت ووقع فى ثانى يوم حريق بدار الأمير سلار فى خط بين القصرين ابتدأ من الباذهنج وكان ارتفاعه عن الأرض مائة ذراع فوقع الاجتهاد فيه حتى أطفئ فأمر السلطان الأمير علم الدين سنجر الخازن والى القاهرة والأمير ركن الدن بيبرس الحاجب بالاحتراز واليقظة ونودى بأن يعمل عند كل حانوت دن فيه ماء أو زير مملوء بالماء وأن يقام مثل ذلك فى جميع الحارات والأزقة والدروب فبلغ ثمن كل دن خمسة دراهم بعد ردرهم وثمن الزير ثمانية دراهم ووقع حريق أيضا بحارة الروم وعدة مواضع حتى وجدوا هذا الحريق من نفط قد لف عليه خرق مبتلة بزيت وقطران . قال راوى هذا الخبر: فلما كانت ليلة الجمعة النصف من جمادى قبض على راهبين خرجا من المدرسة الهكارية بعد العشاء الأخيرة وقد اشتعلت النار فى المدرسة ورائحة الكبريت فى أيديهما فحملا إلى الأمير علم الدين الخازن والى القاهرة فأعلم السلطان بذلك فأمر بعقوبتهما قال وبينما هو نازل من القلعة وإذا

بالعامة قد أمسكوا نصرانيا وجد فى جامع الظاهر ومعه خرق فى هيئة الكعك فى داخلها قطران ونفط وقد ألقى منها واحدة بجانب المنبر وما زال واقفا إلى أن خرج الدخان فمشى يريد الخروج من الجامع وكان قد فطن به شخص وتأمله من حيث لا يشعر وقبض عليه فتكاثر الناس فجروه إلى بيت الوالى وهو بهيئة المسلمين فعوقب عند الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب فاعترف بأن جماعة من النصارى قد اجتمعوا على عمل نفط وتفريقه مع جماعة من أتباعهم وأنه ممن أعطى ذلك وأمر بوضعه عند منبر جامع الظاهر ثم أمر بالراهبين فعوقبا فاعترفا أنهما من سكان دير البغل وأنهما اللذان أحرقا المواضع التى تقدّم ذكرها بالقاهرة غيرة وحنقا من المسلمين لما كان من هدمهم الكنائس وأن طائفة النصارى تجمعوا وأخرجوا من بينهم مالا جزيلا لعمل هذا النفط واتفق وصول كريم الدين ناظر الخاص من الأسكندرية فعرفه السلطان ما وقع من القبض على النصارى فقال النصارى لهم بطرك يرجعون إليه ويعرف أحوالهم فرسم السلطان بطلب البطرك عند كريم الدين ليتحدث معه فى أمر الحريق وما ذكره النصارى من قيامهم فى ذلك فجاء مع والى القاهرة فلما أن دخل بيت كريم الدين بحارة الديلم وأحضروا إليه الثلاثة النصارى من عند الوالى قالوا لكريم الدين بحضرة البطرك والوالى جميع ما اعترفوا به قبل ذلك فبكى البطرك كثيرا عند سماعه هذا الكلام وقال هؤلاء سفهاء النصارى قصدوا مقابلة سفهاء المسلمين على تخريب الكنائس وانصرف من عند كريم الدين مبجلا مكرما فوجد كريم الدين قد أقام له بغلة على بابه ليركبها فركبها وسار وأصبح كريم الدين يريد الركوب إلى القلعة على العادة فلما خرج إلى الشارع صاح به العامة ما يحل لك يا قاضى تحامى للنصارى وقد أحرقوا بيوت المسلمين وتركبهم بعد هذا البغال فشق عليه ما سمع وعظمت نكايته واجتمع بالسلطان فأخذ يهوّن عليه أمر النصارى المسوكين ويذكر أنهم سفهاء وجهال فرسم السلطان للوالى بتشديد عقوبتهم فنزل وعاقبهم عقوبة شديدة للغاية قال الراوى: فاعترفوا بأن أربعة عشر راهبا بدير البغل قد تحالفوا على إحراق ديار المسلمين كلها وفيهم راهب يصنع النفط وأنهم اقتسموا القاهرة ومصر فجعلوا للقاهرة ثمانمائة ولمصر ستمائة فكبس دير البغل وقبض على مرتكبيه وأحرق منهم جماعة منهم أربعة بشارع صليبة ابن طولون فى يوم الجمعة فاجتمع لمشاهدتهم عالم كثير فاجترأ من ذلك اليوم جمهور الناس على النصارى وفتكوا بهم وصاروا يسلبون ما عليهم من الثياب حتى فحش الأمر وتجاوزا فيهم المقدار فغضب السلطان من ذلك وهم أن يوقع بالعامة واتفق أنه ركب من القلعة

يريد الميدان الكبير فى يوم السبت فرأى من الناس أمما عظيمة قد ملأت الطرقات وهم يضجون نصر الله الإسلام انصر دين محمد بن عبدالله فجزع من ذلك وعند ما نزل الميدان أحضر إليه الخازن نصرانيين قد قبض عليهما وهما يحرقان الدور فأمر بإحراقهما فأخرجا وأحرقا بمرأى من الناس وبينما هم فى إحراق النصرانيين إذا بديوانى الأمير بكتمر الساقى قد مر يريد بيت الأمير وكان نصرانيا فعندما عاينه العامة ألقوه عن دابته إلى الأرض وجردوه من جميع ما عليه من الثياب وحملوه ليلقوه فى النار ثم تركوه واتفق مع هذا مرور كريم الدين وقد لبس التشريف من الميدان فرجمه من هناك رجما متتابعا وصاحوا كم تحامى للنصارى وتشدّ معهم ولعنوه وسبوه فلم يجد بدا من العودة إلى السلطان وهو بالميدان وقد اشتد ضجيج العامة وصياحهم حتى سمعهم السلطان فلما دخل عليه وأعلمه الخبر امتلأ غضبا واستشار الأمراء وكان بحضرته منهم الأمير جمال الدين نائب الكرك والأمير سيف الدين الأبوبكرى والخطيرى وبكتمر الحاجب فى عدة أخرى فقال الأبوبكرى العامة عمى والمصلحة أن يخرج إليهم الحاجب ويسألهم عن اختيارهم حتى يعلم فكره السلطان منه ذلك وأعرض عنه فقال نائب الكرك كل هذا من أجل الكتاب النصارى فإن الناس أبغضوهم والرأى أن السلطان لا يعمل فى العامة شيئا وإنما يعزل النصارى من الديوان فلم يعجبه هذا الرأى أيضا والتفت إلى الأمير الماس الحاجب وقال له: امض ومعك أربعة من الأمراء وضع السيف من باب زويلة إلى باب النصر بحيث لا ترفع السيف عن أحد ألبتة وقال لوالى القاهرة اركب إلى باب اللوق وإلى باب البحر ولا تدع أحدا حتى تقبض عليه وتطلع به إلى القلعة ومتى لم تحضر الذين رجموا وكيلي يعنى كريم الدين وإلا وحياة رأسى شنقتك عوضا عنهم وعين معهم عدة من المماليك السلطانية فخرج الأمراء بعد ما تلكئوا فى المسير حتى اشتهر الخبر فلم يجدوا أحدا من الناس حتى ولا غلمان الأمراء ولا حواشيهم ووقع القول بذلك فى القاهرة فقفلت الأسواق وتفرق الناس واختفوا وسار الأمراء فلم يجدوا فى طول طريقهم أحدا إلى أن بلغوا باب النصر وقبض الوالى من باب اللوق وناحية بولاق على كثير من الكلابزية والنوتية وأسقاط الناس فاشتد الخوف وعدّى كثير من الناس إلى البر الغربى بالجيزة وخرج السلطان من الميدان فلم يجد فى طريقه إلى أن صعد قلعة الجبل أحدا من العامة فلما استقر بالقلعة سير إلى الوالى يستعجل حضوره فما غربت الشمس حتى أحضر من أمسك من العامة نحو مائتى رجل فعزل منهم طائفة أمر بشنقهم وجماعة رسم بتوسيطهم وجماعة رسم بقطع أيديهم. فصاحوا جميعاً:

ياخوند ما يحل لك ما نحن الذين رجمنا قبل فبكى الأمير بكتمر الساقى ومن حضر من الأمراء رحمة لهم ومازالوا بالسلطان إلى أن قالو للوالى اعزل منهم جماعة وانصب الخشب من باب زويلة إلى تحت القلعة بسوق الخيل وعلق هؤلاء بأيديهم فلما أصبح يوم الأحد علق الجميع من باب زويلة إلى سوق الخيل وكان فيهم من له بزة وهيئة ولم يفتح أحد من أرباب الحوانيت بالقاهرة ومصر فى هذا اليوم حانوتا، وجلس السلطان فى الشباك وقد أحضر بين يديه جماعة ممن قبض عليهم الوالى فقطع أيدى وأرجل ثلاثة منهم والأمراء لا يقدرون على الكلام معه فى أمرهم لشدة حنقه فتقدم كريم الدين وكشف رأسه وقبل الأرض وهو يسأل العفو فقبل سؤاله وأمر بهم أن يعملوا فى حفير الجيزة فأخرجوا وقد مات من قطع أيديهم اثنان وأنزل المعلقون من على الخشب وعندما قام السلطان من الشباك وقع الصوت بالحريق فى جهة جامع ابن طولون وفى قلعة الجبل وفى بيت الأمير ركن الدين الأحمدى بحارة بهاء الدين وبالفندق خارج باب البحر من المقس وما فوقه من الأربع واستمر الحريق فى الأماكن إلى يوم السبت فلما ركب السلطان إلى الميدان على عادته وجد خلقا كثيرا جدا من العامة قد صبغوا خرقا من القماش بلون أزرق وعملوا فيها صلبانا بيضا وعندما رأوا السلطان صاحوا بصوت عال واحد لادين إلا دين محمد بن عبد الله يا ملك الناصر يا سلطان الإسلام انصرنا على أهل الكفر ولا تنصر النصارى فتعجب السلطان من فعالهم وسار حتى نزل بالميدان وصراخ العامة لا يبطل ولم يستقر به المقام حتى أمر الحاجب أن يخرج وينادى بين يديه من وجد نصرانيا فله ماله ودمه فخرج ونادى بذلك صاحت العامة وصرخت نصرك الله وضجوا بالدعاء وكان النصارى يلبسون العمائم البيض فنودى فى القاهرة من وجد نصرانيا بعمامة بيضاء حل له دمه وماله ومن وجد نصرانيا راكبا حل له دمه وماله وخرج مرسوم بلبس النصارى العمامة الزرقاء وأن لا يركب أحد منهم فرسا ولا بغلا ومن ركب حمارا فليركبه بلا إكفاف عرضا ولايدخل نصرانى إلى الحمام إلا وفى عنقه جرس ولا يتزيا أحد منهم بزي المسلمين ومنع الأمراء من استخدام المسيحيين وأخرجوا من ديوان السلطان وكتب لسائر الأعمال بصرف جميع المباشرين من المسيحيين وكثر إيقاع المسلمين بهم حتى تركوا السعى فى الطرقات ولبث الحال هكذا أياما ثم نودى فى الناس بعد ذلك بالأمان وأنهم يتفرجون على عادتهم عند ركوب السلطان إلى الميدان وذلك أنهم كانوا قد تخوفوا على أنفسهم لكثرة ما أوقعو بالمسيحيين وزادوا فى الخروج عن الحد فاطمأنوا وخرجوا على العادة إلى جهة الميدان ودعوا للسلطان

وصاروا يقولون نصرك الله يا سلطان الأرض اصطلحنا اصطلحنا فأعجب السلطان منهم ذلك وتبسم من قولهم وقد سكنت الخواطر وعادت الأمور إلى سابق مجراها وكانت هذه الحوادث من أشنع ما حل بمصر خرب فيها من الكنائس كنيسة بخرائب التتر بقلعة الجبل وكنيسة الزهرى فى الموضع الذى فيه البركة الناصرية وكنيسة الحمراء بجوار السبع سقايات تعرف بكنيسة البنات وكنيسة أبى مينا وكنيسة الفهادين بالقاهرة وكنيسة بحارة الروم وكنيسة بالبندقانيين وكنيستان بحارة زويلة وكنيسة بخزانة البنود وكنيسة بالخندق وأربع كنائس بثغر الإسكندرية وكنيستان بمدينة دمنهور الوحش وأربع كنائس بالغربية وثلاثة بالشرقية وست بالبهنساوية وبأسيوط ومنفلوط ومينة ابن خصيب ثمان كنائس وبقوص وأسوان إحدى عشرة كنيسة وبالأطفيحية كنيسة وبسوق وردان من مدينة الفسطاط وبالمصاصة وقصر الشمع من مصر ثمان كنائس و خرب من الديارات شيء كثير، قال بعض أهل التاريخ: وأقام دير البغل ودير شهران مدة لا يأوى بهما أحد واحترق بالقاهرة ربع فى سوق الشوائين وزقاق العريسة بحارة الديلم وستة عشر بيتا بجوار بيت كريم الدين وعدة أماكن بحارة الروم ودار بهادر بجوار المشهد الحسينى وأماكن بإسطبل الطارمة وبدرب العسل وقصر أمير سلاح وقصر سلار بخط بين القصرين وقصر بيسرى وخان الحجر والجملون وقيسارية الأدم ودار بيبرس بحارة الصالحية ودار ابن المغربى بحارة زويلة، وعدة أماكن بخط بئر الوطاويط وبالحكر وفى قلعة الجبل وغير ذلك الأماكن بمصر والقاهرة قال وكانت هذه الخطوب العظيمة فى مدة يسيرة للغاية فلما وقع مثلها فى الأزمان المتطاولة هلك فيها من الخلق وتلف من الأموال وخرب من الأماكن ما لا يمكن وصفه لكثرته ولله عاقبة الأمور.

وبينما كانت هذه الخطوب تتعاقب والناس في خوف ما عليه من مزيد كان الواشون وأصحاب السعاية يوقعون بين الخليفة المستكفى بالله وبين السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ومازالوا يوغرون الصدور حتى أبغض الناصر الخليفة ومال عليه وأخذ يراقب أموره ينتقد أعماله فاشتدت الوحشة بينهما وخرجت سنة ثلاثين وسبعمائة على هذا الحال فأمره السلطان أن ينتقل من القلعة إلى مناظر الكبش حيث كان أبوه ساكنا ثم أمره أن يخرج إلى بلدة قوص بصعيد مصر فيقيم بها إلى ما شاء الله فخرج فى ثامن عشر ذى الحجة من سنة سبع وثلاثين هو وأولاده وأهله فكانوا زهاء المائة نفس ورتب لهم ما كان مرتبا لهم بمصر من الكساوى والمأكول فتوجع الناس لخروجه كثيرا، قال الحافظ ابن حجر وكان طول مدته يخطب له على

المنابر حتى فى مدة إقامته بقوص واستمر بها إلى أن مات فى شعبان سنة أربعين وسبعمائة ودفن بها، وكان قد عهد بالخلافة قبل موته إلى ابنه أحمد وأشهد عليه أربعين عدلا وأثبت ذلك على يد قاضى مدينة قوص فلما بلغ ذلك الملك الناصر لم يلتفت إلى العهد المذكور وطلب ابن أخى المستكفى إبراهيم ابن ولى العهد المستمسك بالله أبى عبدالله محمد ابن الحاكم بأمر الله أبى العباس وكان جده الحاكم قد عهد إلى ابنه محمد ولقب المستمسك بالله فمات فى حياته فعهد إلى ابنه إبراهيم هذا ظنا منه أنه يصلح للخلافة فرآه غير صالح لما هو فيه من الانهماك فى اللعب ومعاشرة الأرذال فنزل عنه وعهد إلى ولده المستكفى وهو عم إبراهيم وكان إبراهيم المذكور قد نازعه لما مات الحاكم فلم يلتفت إلى منازعته اعمادا على قول الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد كما تقدم بيان ذلك فى محله فأقام على ضغينة حتى كان هو السبب فى الوقيعة بين عمه وبين الملك الناصر وجرى ماجرى من تبعيده إلى مدينة قوص فلم يمض الملك الناصر عهد المستكفى لولده وبايع إبراهيم هذا يوم الاثنين ثالث رمضان كما سيذكر فى محله ولقب الواثق بالله وراجع الناس السلطان فى أمره ووسموه بسوء السيرة خصوصا قاضى القضاة عزالدين بن جماعة فإنه جهد كل الجهد فى صرف السلطان عنه فلم يفعل ومازال بهم حتى بايعوه كرها قال صاحب حسن المحاضرة: ثم إن الله فجع الملك الناصر بموت أعز أولاده الأمير أنوك فكان ذلك أول عقوباته ولم يمتع بالملك بعد وفاة المستكفى فأقام بعده سنة وأياما وأهلكه الله وقد قيل إن وفاة المستكفى كانت سنة إحدى وأربعين فعلى هذا لم يتم الحول على الناصر حتى مات بعد ثلاثة أشهر سُنة الله فيمن مس من الخلفاء أحدا بسوء فإن الله يقصمه عاجلا وما يدخره له فى الآخرة من العذاب أشد قال: ثم إن الله انتقم من الناصر فى أولاده فسلط عليهم الخلع والحبس والتشريد فى البلاد والقتل فجميع من تولى الملك من ذريته إما أن يخلع عاجلا وإما أن يقتل فأول ولد تولى بعده عوجل بخلعه ونفيه إلى قوص حيث كان قد سير الخليفة ثم قتل بها وغالب من تولى من ذريته لم تطل مدته أهـ.

ومات الخليفة المستكفى وهو ابن بضع وخمسين سنة بمدينة قوص فكانت خلافته تسعا وثلاثين سنة وكان موته فى شعبان سنة أربعين وسبعمائة كما ذكر .

ومات فى أيامه بطرك الاسكندرية وكان من الحوادث فى أيامه ما وصفنا من تخريب الكنائس والديارات وقتل الرجال والأطفال وسبى النساء وغير ذلك من الخطوب التى لم يسبق لها مثال فى الأيام الغابرة وقد أقام بطركا ستا وعشرين سنة

فلما مات قام أبو الفتوح بن العياط مع السلطان الملك الناصر فى ولاية القس داود بن يوحنا بن لقلق الفيومى فإنه كان خصيصا به فأجابه السلطان إلى ذلك وكتب توقيعه فشق ذلك على المسيحيين وقام منهم الأسعد بن صدقة كاتب دار التفاح بمصر ومعه جماعة وتوجعوا سحرا ومعهم الشموع إلى تحت قلعة الجبل حيث كان يسكن السلطان واستغاثوا وأوقعوا فى القس داود وقالوا: إنه لا يصلح وفى شريعتنا أنه لا يقوم البطرك إلى هذا المسند إلا باتفاق الجمهور عليه فبعث السلطان يطيب خواطرهم وكان القس المحكى عنه قد ركب بكرة ومعه لفيف الأساقفة وخلق كثير من المسيحيين ليقدموه بكنيسة المعلقة بمصر وذلك يوم الأحد فركب السلطان من قلعة الجبل وأوقف ولاية القس المذكور وبعث فى طلب الأساقفة لتحقيق الأمر فوافتهم الرسل مع القس فى الطريق فأخذوهم فدخل القس عندئذ فى كنيسة فى الطريق وبطلت رسامته يومئذ فأقام المتأصلون بغير بطرك تسع عشرة سنة ومائة وستين يوما وكان بعد ذلك من أمرهم ما سيذكر فى محله .

(الفصل الرابع)

(فى خلافة إبراهيم الواثق بالله ابن ولى العهد المستمسك بالله)

لما مات الخليفة المستكفى بالله أبو الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله طلب السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ابن أخي المستكفى إبراهيم ابن ولى العهد المستمسك بالله أبى عبدالله محمد بن الحاكم بأمر الله أبى العباس أحمد وبايعه بالخلافة في يوم الاثنين ثالث رمضان سنة ست وأربعين وسبعمائة هجرية أى سنة خمس وأربعين وثلثمائة ميلادية رغما عما بدا من قاضى القضاه عز الدين بن جماعة من صرف السلطان عنه ومازال السلطان بالناس حتى بايعوه في السنة المذكورة واستقرت له الخلافة فبالغ السلطان في تعظيمه وقربه إليه واختص به ورتب له الرواتب الكثيرة نكاية فى ولد المستكفى والمتحزبين له ومازال على هذا الحال والناس فى خلافته على قسمين حتى مرض السلطان الملك الناصر ومات فى يوم الأربعاء سابع عشرى ذى الحجة سنة إحدى وأربعين وسبعمائة ولاختلاف الأمراء وتباين أغراضهم لم يتفقوا على الذى يولونه السلطنة من بعده فاشتغلوا بذلك وتركوا السلطان المتوفى ليلة فى قلعة الجبل بغير دفن حتى تم الأمر لابنه أبى بكر المنصور

فى يوم الخميس ثم أخذوا فى تجهيز السلطان المتوفى فوضع فى محفة بعد العشاء الأخيرة وحمل على بغلين وأنزل من قعلة الجبل إلى الإسطبل السلطانى وسار به الأمير ركن الدين بيبرس الأحمدى أمير جندار والأمير نجم الدين والى القاهرة وقطلوبغا الذهبى وعلمدار خوطا بهار الدوادار وعبروا به إلى القاهرة من باب النصر وقد أقفلت الحوانيت كلها ومنع الناس من الوقوف للنظر إليه وقدام المحفة شمعة واحدة فى يد علمدار وعبروا به المدرسة المنصورية بين القصرين ليدفن عند أبيه الملك المنصور قلاوون وكان الأمير علم الدين سنجر الجاولى ناظر المارستان قد جلس ومعه القضاة الأربعة وشيخ الشيوخ ركن الدين شيخ خانقاه سرياقوس والشيخ ركن الدين عمر بن الشيخ إبراهيم الجعبرى فحطت المحفة وأخرج منها ووضع تجاه الفسقية التى بالقبة وأمر ابن أبى المظاهر مغسل الأموات بتغسيله فغسله وكفن فى نصيفة وعملت له أخرى طراحة ومخدة ووضع فى تابوت من خشب وصلى عليه قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز بن محمد بن جماعة الشافعى بمن حضر وأنزل إلى قبر أبيه فى سحلية من خشب وقد ربطت بحبل ونزل معه إلى القبر الغاسل الأمير سنجر الجاولى. قال: فسبحان من لا يحول ولايزول انظر كيف ملك كثيرا من المعمور من الأرض ومات غريبا وغسل طريحا ودفن وحيدا إن فى ذلك لعبرة لقوم يتبصرون.

قال بعض كتاب الأخبار: ومات الملك الناصر وليس له نائب بديار مصير ولاحاجب متصرف وكان أبيض اللون قد وخطه الشيب وفى عينيه حول وبرجله اليمنى أثر شوكة تنغص عليه أحيانا وتؤلمه وكان لايكاد يمس بها الأرض ولا يمشى إلا متكئا على أحد أو متوكئا على شيء ولا يصل إلى الأرض إلا أطراف أصابعه وكان شديد البأس يتولى الأمور بنفسه مهيبا عند أهل دولته إذا وقف الأمراء فى خدمته لا يجسر أحد أن يتكلم مع آخر كلمة ولا يلتفت بعضهم إلى بعض خوفا منه ولا يمكن أحدهم أن يذهب إلى بيت أحد ألبتة لا فى وليمة ولاغيرها فإن فعل أحد منهم شيئا من ذلك قبض عليه وأخرجه من يومه منفيا وكان عارفا بأمور رعيته وأحوال مملكته وأبطل نيابة السلطنة من ديار مصر فى سنة سبع وعشرين وسبعمائة وأبطل الوزارة وصار يتحدّث بنفسه فى الجليل من الأمور والحقير فعظمت حاشية المملكة وكثرت أتباع السلطنة وتخولوا فى النعم الجزيلة حتى الخولة منه والكلابزية وكان كثير الأخذ بالشبهات فقتل فى أيامه خلقا كثيرا من الأمراء وكان إذا كبر أحد من أمرائه وظهر قبض عليه وسلب نعمته وأقام بدله من صغار مماليكه إلى أن يكبر ويعظم أمره فيقبض عليه ويقيم بدله ليأمن بذلك شرهم وكان كثير التخيل والحذر حتى أنه إذا تخيل من ولده قتله، وفى آخر أيامه عظم شرهه فى جمع الأموال فصادر الكثير من

الدواوين القبط والولاة وغيرهم ورمى البضائع على التجار حتى خاف كل من له مال وانكمش وكان مخادعا كثير التحيل لا يقف عند قول ولا يفى بعهد ولا يبر فى يمين وكان محبا للعمارة فعمر عدة أماكن منها جامع القلعة وقد هدمه مرتين وعمر القصر الأبلق بالقلعة ومعظم الأماكن التى بالقلعة وعمر المجرى الذى ينقل الماء عليه من النيل إلى قلعة الجبل على السور وعمل الميدان تحت القلعة ومناظر سرياقوس والخانقاه بسرياقوس و حفر الخليج الناصرى بظاهر القاهرة وعمر الجامع الجديد على شاطئ النيل بظاهر مصر وجدد جامع الفيلة الذى بالمرصد والمدرسة الناصرية بين القصرين من القاهرة وغير ذلك ومازال يعمر منذ عاد فى ولايته الثالثة إلى أن مات.

قال بعض كتاب الأخبار: وبلغ مصروف العمارة فى كل يوم من أيامه سبعة آلاف درهم فضة عنها ثلثمائة وخمسون دينارا سوى من يسخر من المقيدين وغيرهم فى عمل ما يعمره وحفر عدة من الخلجان والترع وأقام الجسور بالبلاد حتى أنه كان يصرف من الأخباز على ذلك ربع متحصل الأقطاعات وحفر خليج الاسكندرية وبحر المحلة مرتين وبحر اللبينى بالجيزة وعمل جسر شيبين وجسر أجاش بالشرقية والقليوبية مدة ثلاث سنين متوالية فلم ينجح فأنشأه بنيانا بالطوب والجير وأنفق فيه أموالا عظيمة وراك فى أيامه ديار مصر والشام وغزا عدة غزوات فتح فيها جزيرة أرواد فى سنة اثنتين وسبعمائة وفتح مطلبية فى سنة خمس عشرة وأناش فى ربيع الأول سنة ثلاث وعشرين وخربها ثم عمرها الأرمن فسير لها جيشا عظيما فأخذها وأخذ معها عدة بلاد من بلاد الأرمن وذلك سنة سبع وثلاثين وأقام بها نائبا من أمراء حلب وعمر قلعة جعبر بعد خرابها واندثارها وضرب السكة باسمه فى سنة إحدى وأربعين فى شوال وخطب له فى ارتنا إحدى بلاد الروم وضربت السكة باسمه أيضا وكذلك ببلاد القرمان وبلاد الكرد وكثير من بلاد الشرق وكان من الذكاء المفرط على جانب عظيم يعرف مماليك أبيه ومماليك الأمراء باسمهم ووقائعهم وكان علىّ الهمة كبير السياسة واسع المعرفة بمهادنة الملوك يبذل فى ذلك من الأموال ما لا يوصف كثرة فكان كتابه ينفذ أمره فى سائر أقطار الأرض وهو مع ذلك مؤيد فى جميع أموره مظفر فى كل أحواله مسعود فى سائر حركاته، وكانت مدة سلطنته فى المرة الثالثة أربعا وأربعين سنة وخمسة عشر ويوما خارجا عما بين ذلك. قال بعض الكتاب: ولما احتضر ندم على مافعل من مبايعة إبراهيم الواثق بالله ابن ولى العهد المستمسك فأوصى الأمراء برد العهد إلى ولى عهد المستكفى بالله وخلع بيعة الواثق

فلما استقرت السلطنة بولده أبى بكر المنصور عقد مجلسا يوم الخميس حادى عشرى ذى الحجة سنة إحدى وأربعين وسبعمائة وطلب الواثق إبراهيم وولى العهد أحمد بن المستكفى المتوفى بمدينة قوص وسأل القضاة قائلا: من يستحق الخلافة شرعا؟ فقال ابن جماعة أن الخليفة المستكفى المتوفى أوصى بالخلافة من بعده لولده أحمد وأشهد عليه أربعين عدلا بمدينة قوص وثبت ذلك عندى بعد ثبوته على يد نائبى بمدينة قوص فعند ذلك قام السلطان وخلع الواثق إبراهيم وبايع أحمد وبايعه القضاة كلهم قال الحافظ بن حجر: ولقب أولا المستنصر ثم لقب الحاكم بأمر الله لقب جده وكتب له ابن فضل الله صورة المبايعة وقد أضربنا هنا عن إيرادها فكانت مدة خلافة الواثق إبراهيم المذكور ثلاثة أشهر وتسعة أيام.

قلت: ولم يعتبر جماعة المؤرخين خلافة الواثق المذكور مدة صحيحة ولذلك لم يذكرها أحد منهم فى مددهم سوى الذهبى فى آخر ذيله على العبر وقد قال الحسينى فى ذيله على العبر أيضا أن الذى قام بالخلافة بعد المستكفى ابنه أحمد الملقب بالحاكم بأمر الله وكان ولى عهد أبيه أهـ.

(الفصل الخامس)

(فى خلافة الحاكم بأمر الله أحمد بن المستكفى بالله)

ثم قام بالأمر بعد المستكفى بالله ابنه الحاكم بأمر الله أحمد وكان ولى عهد أبيه كما سبقت الإشارة إلى ذلك بويع له بالخلافة يوم الخميس حادى عشرى ذى الحجة سنة ست وأربعين وسبعمائة هجرية أى سنة خمس وأربعين وثلثمائة وألف للميلاد بمشورة ابن جماعة بايعه السلطان المنصور أبوبكر بن الملك الناصر قلاوون وبايعه القضاة والأمراء بعد خلع الواثق إبراهيم فى اليوم المذكور ولقب بالحاكم بأمر الله لقب جده واستقرت له الخلافة وأمده السلطان بالرواتب الكثيرة والعطاء الوافر، فلما كان ثانى يوم المحرم افتتاح سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة حضر الخليفة الحاكم بأمر الله المذكور والسلطان الملك المنصور أبو بكر والقضاة بدار العدل فجلس الخليفة على الدرجة العليا وعليه خلعة خضراء وفوق عمامته طرحة سوداء مرقومة بالذهب وجلس السلطان دون مقام الخليفة وخطب خطبة فتحها بقوله إن الله يأمر بالعدل الآية وبقوله وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم الآية ثم أوصى الأمراء بالرفق بالرعية وإقامة الحق وتعظيم شعائر الإسلام ونصرة الدين ثم قال فمن نكث فإنما ينكث على

نفسه وقرأ الآية، وجلس ثم جيء بخلعة سوداء ألبسها الخليفة السلطان بيده ثم قلده سيفا عربيا ثم أخذ علاء الدين بن فضل الله كاتب السر فى قراءة عهد الخليفة للسلطان حتى فرغ منه ثم قدمه إلى الخليفة فكتب عليه ثم كتب بعده القضاة الأربعة بالشهادة عليه ولكن لم تطل مدة السلطان الملك المنصور بعد ذلك فإنه سلم الأمير قوصون زمام الملك وصرّفه فى جميع الأمور بلا استثناء فخانه وعمل لنفسه وكان من أمره ما سيتلى عليك، قال بعض كتاب الأخبار: وقوصون هذا هو سيف الدين حضر من بلاد بركة إلى ديار مصر صحبة خوند ابنة أزبك امرأة الملك الناصر محمد ابن قلاوون فى ثالث عشرى ربيع الآخر سنة عشرين وسبعمائة ومعه قليل من العصى وطسما ونحو ذلك مما قيمته خمسمائة درهم ليتجر فيها فطاف بذلك فى الأسواق بالقاهرة وتحت قلعة الجبل وفى داخل القلعة فاتفق أنه فى بعض الأيام دخل الإسطبل السلطانى ليبيع ما معه فأحبه بعض الأوشاقية وكان صبيا جميلا طويل القامة له من العمر ما يقارب الثمان عشرة سنة فصار يتردد إلى الأوشاقى إلى أن رآه السلطان فوقعا منه موقعا فسأل عنه فعرف بأنه يحضر ليبيع ما معه وأن بعض الأوشاقية تولع به فأمر بإحضاره إليه وابتاع منه نفسه ليصير من جملة مماليكه السلطانية فنزله من جملة السقاة وشغف به وأحبه حبا كثيرا فأسلمه للأمير بكتمر الساقى وجعله أمير عشرة ثم أعطاه إمرة طبلخاناه ثم جعله أمير مائة مقدم ألف ورقاه حتى بلغ أعلى المراتب فلما كبر وظهر أمره أرسل إلى بلاده وأحضر إخوته سوسون وغيره من أقاربه وأمر الجميع واختص به السلطان بحيث لم ينل أحد عنده ما ناله وزوجه بابنته وتزوج السلطان أخته فلما احتضر السلطان جعله وصيا على أولاده وعهد لابنه أبى بكر فأقيم فى الملك من بعده وأخذ قوصون المذكور فى تدبير المملكة وتصرف فى جميع الأمور وحجر على أبى بكر وضيق عليه ثم تاقت نفسه إلى الملك فأخذ فى أسباب السلطنة وأخرج أبا بكر المنصور بعد شهرين من ولايته إلى مدينة قوص بصعيد مصر فى يوم الأحد لعشرين من صفر سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة هو وإخوته فتهتكت يومئذ نساء أبيه الناصر وكثر البكاء والعويل بالقاهرة يوم خروجه ولم يستقر به المقام بقوص حتى سير إليه من قتله وخاف قوصون أن يعجل بارتقاء كرسى السلطنة فأقام بعد الملك المنصور أخاه أبا بكر وعلاء الدين كجك ابن الناصر محمد بن قلاوون ولقب بالأشرف ولم يكمل له من العمر ثمان سنين وقيل ست وقيل خمس وتقلد قوصون نيابة السلطنة بديار مصر فأمر حاشيته وأقاربه ستين أميرا وأكثر من العطاء وبذل الأموال والأنعام فصار أمر الدولة كله بيده

هذا وأحمد ابن السلطان الملك الناصر بمدينة الكرك مقيم يراقب الفرص ويستطلع الأخبار فخاف قوصون منه وأخذ فى التدبير عليه فلم يتم له ما أراد من ذلك وحرك ساكنا فى نفس أحمد فتجرد أحمد بعد ذلك لطلب الملك وخاطب الأمراء وكاتب بعض النوّاب بالديار الشامية والسرية فأذعنوا إليه وكان بمصر من الأمراء الأمير أيدغمش والأمير آل ملك وقمارى والماردانى وغيرهم فارتاب قوصون منهم وأخذ فى التدبير عليهم فأحسوا بذلك وخافوا فوات الوقت فركبوا لقتاله وحصروه بقلعة الجبل ومازالوا حتى قبضوا عليه فى ليلة الأربعاء آخر رجب سنة اثنتين وأربعين ونهبت داره وسائر دور حواشيه وأسبابه وسير إلى الإسكندرية صحبة الأمير قلاى فقتل بها واعتقلوا السلطان الملك الأشرف بقلعة الجبل فى أوائل شعبان وبقى معتقلا إلى أن مات فى سنة ست وأربعين قال صاحب السكردان: والله أعلم كيف كان موته فكانت سلطنته خمسة أشهر وعشرة أيام .

وقام الأمير أيدغمش بأمر الدولة وتدبير المملكة وسير إلى شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد بن قلاوون يستدعيه من الكرك ليوليه سلطنة مصر فقام على البريد فى عشرة من أهل الكرك ليلة الخميس ثامن عشرى رمضان وعبر الدور من قلعة الجبل بمن كان معه واحتجب عن الأمراء ولم يخرج لصلاة العيد ولا حضر السماط على العادة إلى أن لبس شعار السلطنة وعقد له المبايعة بينه وبين الخليفة الشيخ تقى الدين ابن السبكى وكان قد حضر يومئذ من الشام ولقب بالملك الناصر شهاب الدين وجلس على سرير الملك فى يوم الاثنين عاشر شوال من السنة فلما استقرت به السلطنة وتصرّف فى الأمور أعرض عن الأمراء وتباعد عنهم ولم يراع لهم حرمةولا اعتبارا ومازال حتى ساءت سيرته وخبثت سريرته واشتدت الوحشة بينهم وبينه فخشى شر العاقبة وأظهر السفر إلى الكرك لترويح النفس والتخلى عن أشغال السلطنة حينا وخرج فى يوم الأربعاء ثانى ذى القعدة واستخلف الأمير آق سنقر نائب الغيبة فلما وصل قبة النصر بظاهر القاهرة نزل عن فرسه ولبس ثياب العرب ومضى مع خواصه من أهل الكرك على البريد وترك الاطلاب فسارت حتى وافته بالكرك فرد العسكر إلى بلاد الخليل وأقام بقلعة الكرك ففرح الأمراء بخروجه وخلعوه فى يوم الأربعاء حادى عشر المحرم افتتاح سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة فكانت سلطنته ثلاثة أشهر وثلاثة عشر يوما أو أربعين يوما ثم قتل فى أوائل سنة أربع وأربعين كما سيذكر فى محله .

ولما خلع الملك الناصر شهاب الدين المذكور أقاموا بعده أخاه عماد الدين إسماعيل ولقب بالملك الصالح وبايعوه فى يوم الخميس ثانى عشرى المحرم المذكور وقام الأمير أرغون زوج أمه بتدبير المملكة ومعه عدة من الأمراء فلما استقرت به السلطنة سير إلى الكرك جماعة من الأمراء وكثيرا من العساكر والأجناد لقتال الناصر محمد وكانت قد وردت إليه الأخبار بتأهب الناصر محمد لرد الملك لنفسه والاستعداد للبطش بجميع الأمراء المصريين فالتقى الجمعان واقتتل الجنود قتالا شديدا فكانت الحرب بينهم سجالا وطالت أياما كثيرة فلما كان فى أحد الأيام اشتبك القتال بين الفريقين واشتد فثبتت العساكر المصرية وقاتلت قتال الأبطال ومازالت حتى أخذت الناصر محمدا من وسط قومه فانقض عليه سيف الدين منجق اليوسفى وكان من أجناد السلحدارية واحتز رأسه فانفشل أصحابه وتمزق جمعهم وولوا مدبرين وتمت عليهم الهزيمة وعاد اليوسفى إلى مصر ومعه رأس الناصر محمد فى غلق وعاد الأمراء ومن بقى من العساكر ووصل الخبر بما جرى إلى السلطان الملك الصالح عماد الدين ففرح بالنصر وأجاز اليوسفى بالإمرة على ديار مصر فظهر نبله وصار من هذا الحين يتنقل فى مراتب الدولة حتى عظم شأنه واتسعت كلمته وكان من أمره بعيد ذلك ما سيذكر فى حينه، ولما أحضرت رأس الناصر محمد أمام السلطان الملك الصالح ووقع بصره عليها فزع وأخذه الخوف فمرض واشتد به المرض ومازال ينتابه حتى مات فى ليلة الخميس رابع عشر ربيع الآخر سنة ست وأربعين وسبعمائة وقيل رابع ربيع الآخر وعمره نحو عشرين سنة فكانت سلطنته ثلاث سنين وشهرين وأحد عشر يوما وكان حسن السيرة لين العريكة بعيد الغضب محجورا عليه فى جميع أموره ليس له من الملك سوى الاسم فقط والأمر بيد الأمير أرغون ومن كان معه من الأمراء المصريين فقام بالأمر بعده أخوه زين الدين شعبان بعهد من أخيه ولقب الملك الكامل وجلس على تخت السلطنة من غده فلما استقرت به السلطنة تاقت نفسه إلى الاستبداد بالملك وعمل على تبعيد الأمير أرغون ومن معه من الأمراء واستمال إليه جماعة من المماليك فأحس الأمراء بفعاله ووقعت الوحشة بينه وبينهم وطال الأمر وكرهوا ما هو عليه وكبر خوفهم فركبوا عليه وتجردوا لقتاله وركب هو كذلك فى طائفة من المماليك الذين اصطفاهم لنفسه والتقى الجمعان واقتتلا فلم يثبت أصحابه عند احتدام الوطيس وخذلوه فعاد إلى قلعة الجبل منهزما فأتبعه الأمراء وساقوا خلفه وحصروه بالقلعة فى يوم الأثنين مستهل جمادى الآخرة سنة سبع

وأربعين ثم خلعوه فى اليوم المذكور فكانت سلطنته سنة واحدة وثمانية وخمسين يوما واجتمع جميع الأمراء وتشاوروا فيمن يصلح للولاية بعده فاتفقوا على تولية أخيه زين الدين حاجى فبايعوه بالملك من يومه ولقبوه بالملك المظفر، فلما تمت له البيعة واستقرت به السلطنة عبث بالأمور وأساء السيرة وخبثت منه السريرة وانهمك فى الملاذ والملاهى واللعب واستبد بالأمر وعمل على تذليل الأمراء وإبعادهم عن خدمة الدولة واختص بطائفة من الأحداث وسير الأمير سيف الدين منجك اليوسفى إلى دمشق وولاه الحجابة بها مكان ابن طوفل الحاجب فاتسعت كلمته بالشام وكبرت حرمته وعظم أمره فاستعظم الأمراء بمصر ذلك جدا وخافوا من الملك المظفر وهو يخادعهم ويظهر لهم خلاف ما يبطن ويعمل على الإيقاع بهم فلما أيسوا من الصلح تحالفوا على قتاله وركبوا جميعا عليه فركب هو كذلك فى طائفة من أصحابه واقتتلوا فكانت الحرب بينهم سجالا ومازالوا يقاتلونه حتى خذله من كان معه من المماليك وتركوه فهرب فتبعه الأمراء حتى قبضوا عليه واعتقلوه أياما ثم ذبحوه فى يوم الأحد ثانى عشر رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة فكانت مدة سلطنته سنة وثلاثة أشهر واثنى عشر يوما لم يعمل فيها عملا يذكر، وعاد الأمراء وتشاوروا فيمن يصلح للسلطنة فاتحدت كلمتهم على توليه أخيه بدر الدين أبى المعالى حسن بن محمد فبايعوه بالملك من يومه ولقبوه بالملك الناصر وذلك يوم الثلاثاء رابع عشر رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة وله من العمر يومئذ إحدى عشرة سنة وأركب من يومه من باب الستارة بقلعة الجبل وعليه شعار السلطنة وفى ركابه جميع الأمراء إلى أن نزل بالإيوان السلطانى ومديرو الدولة يومئذ الأمير يلبغاروس والأمير الجيغا المظفرى والأمير شيخو والأمير طاز وأحمد شاد الشرابخناه وأرغون الإسماعيلى فخلع على يلبغاروس واستقر فى نيابة السلطنة بديار مصر مكان ارقطاى وقرر ارقطاى فى نيابة السلطنة بحلب وخلع على الأمير سيف الدين منجك اليوسفى واستقر فى الوزارة مع الاستدارية وقرر الأمير أرغون شاه فى نيابة السلطنة بدمشق الشام وجعل يتصرف فى الأمور على ما يشاء ولما كانت سنة تسع وأربعين وسبعمائة هجرية كثر انكشاف الأراضى من ماء النيل بالبر الشرقى فيما يلى بولاق إلى الفسطاط فاهتم رجال الدولة بسد البحر مما يلى الجيزة وفوض ذلك إلى الأمير منجك فجمع لذلك من الأهالى والأمراء من الأموال شيئا كثيرا جدا وبالغ فى العمل وطال الأمر أياما كثيرة فلم يجد نفعا وساء الحال وانقطعت الأمال من رى تلك الأراضى وتطير الناس وخافوا شر

تلك السنة فقبض السلطان على منجك المذكور فى ربيع الأول من السنة واعتقله واشتد بأسباب ذلك الغلاء وقل الوارد من الغلال وغيرها، قال بعض كتاب الأخبار: وظهر بعد ذلك الوباء واشتد وكثر الموت فى الناس كثرة بالغة فكان الفقراء يموتون فى الأزقة والحارات وعلى أبواب المساجد ولا يجدون من يحملهم وامتلأت كذلك البيوت بالموتى وبقوا أياما بغير دفن فكانت الكلاب تدخل البيوت وتأكل الأحياء من الأطفال وتشبع من جثث الأموات فكان أمرا مهولا للغاية وبقى أياما كثيرة حتى ارتفع وزال وقد تشاءم الناس من أيام السلطان الملك الناصر بدر الدين وتطيروا من حكمه فانحرفت عنه القلوب وتغيرت عليه الخواطر وقد زادهم بغضا له وحقدا عليه سوء تصرفه وعدم اكتراثه بالأمور وكراهته للأمراء فإنه لما رشد وأثبت رشده فى سنة إحدى وخمسين وسبعمائة هجرية استبد بالأمر وجعل يتصرف بما فى نفسه وقبض على الأمير منجك الوزير وسجنه ورسم بالقبض على الأمير يلبغاروس نائب السلطنة بديار مصر وهو مسافر إلى الحجاز فقبضوا عليه وألقوه فى السجن وعمل على الوقيعة بالأمير شيخو العمرى ولكنه كان يخشى العاقبة لما لشيخو المذكور من الصولة والكلمة المسموعة فاتفق أن شيخو خرج متصيدا إلى ناحية طنان بالغربية فلما كان يوم السبت أربع عشرى شوال سنة إحدى وخمسين استدعى إليه السلطان جميع الأمراء واستحلفهم لنفسه فحلفوا بالطاعة والوفاء فكتب عند ذلك تقليدا للأمير شيخو بنيابة طرابلس وجهزه إليها مع الأمير سيف الدين طينال الجاشنكير فسار إليه وأخذه من طينال ولم يمكنه من العود إلى القاهرة فوصل إلى دمشق ليلة الثلاثاء رابع ذى القعدة ولم يستقر به المقام حتى ظهر مرسوم السلطان ببقاء شيخو بدمشق على أقطاع الأمير بيلبك السالمى وتجهيزه إلى القاهرة فخرج بيلبك من دمشق وأقام شيخو على إقطاعه فما وصل بيلبك إلى القاهرة إلا وقد وصل دمشق مرسوم السلطان بإمساك شيخو وتجهيزه إلى السلطان مقيدا وتقييد مماليكه واعتقالهم بقلعة دمشق فقبض عليه وسير إلى القاهرة مكبلا بالقيود، ولما وصل إلى قطيا ساروا به منها إلى الإسكندرية فلم يزل معتقلا بها إلى أن خلع السلطان الملك الناصر حسن وتولى أخوه الملك الصالح فأفرج عنه وعن منجك الوزير وعدّة من الأمراء فوصلوا إلى القاهرة فى رابع رجب سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة وكان من أمره بعد ذلك ما سيذكر فى محله إن شاء الله قال أصحاب التاريخ: وشيخو هذا هو الأمير الكبير سيف الدين أحمد أحد مماليك الناصر محمد بن قلاوون حظى عند الملك المظفر

حاجى بن محمد بن قلاوون وزادت وجاهته حتى شفع فى الأمراء وأخرجهم من سجن الإسكندرية ثم إنه استقر فى أول دولة الملك للناصر حسن أحد أمراء المشورة ثم ترفع إلى أن صارت القصص تقرأ عليه بحضرة السلطان فى أيام الخدمة وصار زمام الدولة بيده فساسها أحسن سياسة بسكون وعدم شره وكان نافذ الكلمة مسموع الرأى صائب الفكر ميالا إلى الدعة والسكون والتأليف بين الأحزاب فأحبه الأمراء ومالوا إلية وأخذوا بقوله فلم يخالفوا له كلمة، واشتدّ السلطان الملك الناصر على بقية الأمراء والعمال بالجهات وضيق عليهم وقبض على الأمير المجاهد صاحب اليمن وأتى به إلى القاهرة مقيدا بالحديد وألقاه فى السجن أياما ثم أطلقه ثم عاد فقبض عليه وسيره إلى قلعة الكرك وسجنه بها فامتلأت قلوب الأمراء كافة حقدا عليه واجتمعوا وتحالفوا على قتاله فلما كان يوم الأحد سابع عشرى جمادى الآخرة ركبوا لقتاله وهم طاز وإخوته ويلبغا الشمسى وبيغوا ووقفوا تحت القلعة وصعد الأمير طاز وهو متقلد سلاحه إلى قلعة الجبل فى عدة وافرة من الجند وقبضوا على السلطان فى الحال وسجنوه بالدور الأسفل من القلعة فكانت مدة ولايته ثلاث سنين وتسعة أشهر.

ثم أقاموا بعده أخاه صلاح الدين صالح وبايعوه فى يوم الأثنين ثامن عشر جمادى الآخرة وطيروا الأخبار بذلك إلى الآفاق وبقى السلطان الملك الناصر أبو المعالى حسن معتقلا مؤثرا الاشتغال بالعلم، قال بعض الكتاب: وكتب بخطه نسخة من كتاب دلائل النبوة للبيهقى فكانت حسنة وكان لا يتحرش فى الظاهر لشىء من أمور الدولة ولا لشىء من أحوالها وكان يظهر غاية الرضا عن الحالة التى هو عليها. أما السلطان الملك الصالح صلاح الدين فإنه لم يستقر به الملك حتى كثر لهوه وخرج عن الحد فى التبذل والعبث بمصلحة الدولة وأمور المملكة وكان هو الثامن ممن تولى الملك من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون ثم جعل يبطل ما أمضاه أخوه فرسم بالإفراج عن الأمير شيخو والأمير منجك من معتقلهما بمدينة الإسكندرية فحضرا إلى القاهرة فى رجب سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة ونزل الأمير منجك بالإشرفية من قلعة الجبل وكان السلطان الملك الناصر قد صادره وأخذ جميع أمواله وفرق أملاكه على بعض المماليك السلطانية فلما استقر بالأشرفية بعث إليه الأمير شيخو خمس رؤوس خيل وألفى دينار وبعث إليه أيضا جميع الأمراء بالتقدمات والهدايا وأقام لا يعمل عملا ولا رجع إلى خدمة الدولة فكان يجلس

على حصير فوق ثوب سرج عتيق وكلما أتاه أحد من الأمراء يبكى ويتوجع ويقول انظروا كيف أخذوا جميع مالى حتى صرت على ما ترونى ثم كتب فتوى تتضمن أن رجلا مسجونا فى قيد هدد بالقتل إن لم يبع أملاكه، وأنه خشى على نفسه القتل فتوكل فى بيعها فأفتاه الفقهاء بأنه لا يصح بيع المكره فتقدم الأمراء إلى السلطان فى أمره وفى رد أملاكه عليه فعارضهم فى ذلك الأمير صرغتمش ثم قبل السلطان أن يرد عليه من أملاكه ما أنعم به السلطان على مماليكه فاسترد عدة أملاك وأقام إلى أن قام يلبغاروس بحلب وخرج عن طاعة السلطان فاختفى منجك بعد ذلك وحسب السلطان ماوراء اختفائه فطلبه فلم يجده فأمر بإطلاق النداء عليه بالقاهرة ومصر وفتش عليه وهدّد من أخفاه وألزم عربان العايد باقتفاء أثره فلم يوقف له على خبر وكبسوا عليه عدة أماكن بالقاهرة ومصر وفتش عليه حتى فى داخل الصهاريج التى بالجامع الذى بناه فأعياهم أمره وأدرك السلطان السفر لحرب يلبغاروس بحلب لخروجه فأخذ يتأهب لذلك إلى يوم الخميس رابع شعبان فخرج الأمير طاز وعرض الأمير شيخو والأمير صرغتمش أطلابهما وقد وصل الأمير طاز إلى مدينة بلبيس فحضر إليه من أخبره أنه رأى بعض أصحاب منجك فسير إليه وأحضره وفتشه فوجد معه كتاب منجك إلى أخيه يلبغاروس بحلب وفيه أنه مختف عند الحسام الصفدى استاداره فبعث الكتاب إلى الأمير شيخو فوافاه والأطلاب خارجة فاستدعى بالحسام وسأله فأنكر فعاقبه الأميرصرغتمش فلم يعترف فركب إلى بيت الحسام بجوار الجامع الأزهر وهجمه وإذا منجك ومعه مملوك فشدّ وثاقه وسار به مشهرا بين الناس وقد هرعوا من كل مكان إلى قلعة الجبل فسجن بالإسكندرية ثانية إلى أن شفع فيه الأمير شيخو فأفرج عنه فى ربيع الأول سنة خمس وخمسين ورسم له أن يسيرا إلى صفد فسار إليها من غير أن يعبر إلى القاهرة ولم يتم خروج السلطان لقتال يلبغاروس حتى دخلت سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة وظهر الطاعون بمصر واشتد شدة بالغة فكثر الموت فى الناس وعم فتأخر السلطان الملك الصالح عن المسير لقتال يلبغاروس بحلب وتعطلت أعمال الدولة بسبب اشتداد الطاعون وكثرة الموت وأصاب الطاعون الخليفة الإمام الحاكم بأمر الله فمات ولم يعهد لأحد بالخلافة بعده فجمع الأمير شيخو جميع الأمراء والقضاة وأهل الحل والعقد وكان قد رجع إلى خدمة الدولة بعد الاعتقال وتولى مسند الحل والعقد وطلب جماعة من بنى العباس ليرى من هو أصلح للإمامة وتولى منصب الخلافة فوقع الاختيار على أخيه أبى بكر بن

المستكفى فكانت خلافة الحاكم بأمر الله نحو اثنتى عشرة سنة وكانت أحواله كلها شدة وعيشته فى ضيق لعدم كفاية المرتبات المعينة لمنصب الخلافة.

(الفصل السادس)

(فى خلافة المعتضد بالله أبى الفتح بن أبى بكر المستكفى بالله)

ثم قام بالخلافة بعد الحاكم بأمر الله أخوه المعتضد بالله أبو الفتح بويع بغير عهد وقيل بعهد من أخيه الحاكم بأمر الله وهو أبو الفتح ين أبى بكر المستكفى بالله أبى الربيع سليمان ابن الحاكم بأمر الله أبى العباس أحمد بن أبى علىّ بن المسترشد بالله العباسى ولقب بالمعتضد وكنى أبا الفتح وذلك سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة هجرية أى نحو سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة وألف ميلادية فلما استقرت به الخلافة ضم إليه نظر المشهد النفيسى ليستعين بما يرد إلى ضريح السيدة نفيسة من نذر العامة على تقويم أوده. قال كتاب الأخبار: لأن مرتب الخلفاء كان إلى هذا الحين على مكس الصاغة لا غير وحسبه أن يقوم بما لابد منه من قوتهم فكانوا أبداً فى عيش ضيق فحسنت نوعاً حالة الخليفة المعتضد بما كان يبيعه من الشمع المحمول إلى المشهد ونحوه وصار فى رغد من العيش وكان إلى ما بعد تولية المعتضد الخلافة بأيام قد ارتفع الطاعون وزال من جميع البلاد فجعل السلطان الملك الصالح يتأهب لقتال يلبغاروس بحلب وأمر فنادوا فى الجند بالخروج إلى ظاهر القاهرة فصاروا يخرجون أطلابا والسلطان يستحث الأمراء ويشدد عليهم وهم يتلكئون ويظهرون غير ما يبطنون وطالت أيام النداء فى العسكر بالخروج وعظم بغضهم لنصرة السلطان الملك الصالح على يلبغاروس وكره الأمراء السلطان وظهر بغضهم له فأهمل لذلك التجريدة وبطلت أو كادت وتشاغل السلطان عنها باستمالة العامة واسترضائهم ليكونوا له عوناً على الأمراء إذا ركبوا عليه وخرجوا عن طاعته فعرف العامة منه ذلك وأخذت منهم الخيلاء فجعلوا يطلبون من السلطان المطاليب الكثيرة وتقدم إليه جماعة منهم فى طلب أخذ جميع الأملاك الموقوفة على الديارات والكنائس بمصر وأعمالها وألحوا فى الطلب فمال السلطان إلى قولهم وأحال الأمر على ديوان الأحباس فوجد أن للنصارى أوقافاً تبلغ زهاء الخمسة وعشرين ألف فدان كلها موقوفة على الكنائس والديارات فلما عرضوا ذلك على الأمير شيخو والأمير طاز

والأمير صرغتمش وهم القائمون بالأمـر يؤمئذ قرروا بأن تضاف جميع هذه الأطيان إلى أقطاعات الأمراء وتنزع من أيدى النصارى فانتزعوها واشتد الحال على النصارى بعد ذلك شدة عظيـمة وعاد العامة إلى تخريب الكنائس وهدم الديارات كـما فعلوا فى أيام السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فـهدموا عدة كنائس بمصر والقاهرة وخـربوا عدة أخـرى وخرج الحـاجب والأمـير عـلاء الدين على بن الكورانى والى القاهرة إلى ناحيـة شبرى الخيام من ضواحى مـصر فهدموا كنيسة بهـا وأخذوا منها أصبع الشهـيد وأحضروه إلى الملك الصـالح فرسم بإحراقه فـأحرق بين يديه وذرى رمـاده فى البحـر. قال بعض كتاب الأخـبار: فبطل عيد الشهيد من يومـئذ واشتد العامـة على النصـارى شدة بالغـة وتطاولت أيديهم إلى السلب والنهب وغـير ذلك والسلطان لا يرد للعامة كلمة ولا يوقفهم عند حدّ إرضاء لهم والأمراء فى شاغل بما يدبرونه للسلطان وظل الحـال هكذا أيامـاً ثم سكنت الفتنة وعـادت الأمور إلى مـا كانت عليه وعاد السلطان إلى الاهتمام بتجـريد العسكر لقتال يلبغاروس بحلب وهم بتوليـة موفق الدين مسند الوزارة وهو قبطى مـرتد فعارضه الأمـراء فى ذلك وطلبوا تولية علم الدين وهو قـبطى مرتد كذلك فامـتنع السلطان من قبوله وعـارض فشدد الأمراء فى الطلب وانضم بعضهم إلى بعـض واتحدوا على إكراه السلطان على تولية علم الدين المذكور وإلا خلعوا السلطان وترددت الرسل بين الفـريقين واشتد الخلاف وطال الحال أياماً فبطل الاهتمام بأمر التجريدة ثانية وتحرز السلطان من الأمراء وجمع إليـه مماليكه الذين اصطفاهم لـنفســه فلما كـان يوم الاثنين ثانى شوال سنة خـمس وخمســين ثار عليه الأميران شـيخو وطاز وقبـضا عليه وسجناه بقلعـة الجبل فكانت سلطنته ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام وهذا عجيب فى الاتفاق ثم اتحدت كلمة الأمراء على إرجاع السلطان الملك الناصر حسن فأخـرجوه من معتقله وأجلسوه على تخت السلطنة فى يوم الاثنين المـذكور فكانت مدة سـجنه بقلعة الجـبل ثلاث سنين وثلاثة أشهـر وأربعة عـشر يوماً فلمـا استـقر به المنصب وتصـرف فى الأمور رسم بالقبض على الأمـير طاز فأمـسك وأخرج إلى الديار الشـامية ثم جـعل يأمر وينهى ويتصـرف فى الملك مستبـداً فهابه الأمـراء واتسعت كلمتـه وكبرت شهـرته وضرب الفلوس الجدد فعمل كل فلس زنة مثقال وكان كـثير البغض للأمراء شديد الرغبة فى الإيقاع بهم والتخلص من شرهم فكان لا ينكف عن تذليلهم والنكاية بهم وتفريقهم عن بعض فاشتد بغضـهم له وجعلوا يدبرون على قتله والتخلص منه، ومـا دخلت سنة اثنتين وستـين وسبعمائة حتى ظهـر الطاعون بمصر والقاهرة واشتد وفـشا فكثر

الموت فى الناس والدواب أيضاً وعظم أمـره ومات خلق كثير للغـاية فخرج السلطان فى طائفة من مماليكـه وعدى إلى بر الجيزة وأقـام بناحية كوم برا فـراراً من الطاعون وخرج معـه الأمير يلبغا فى طائفـة من عسكره وخيم على مقـربة من خيام السلطان لحراسته فراسله الأمراء فى قتله فأجابهم إلى ذلك وجعل يخالف أمر السلطان ويقبح فعالـه فاستعظم السلطان منه ذلك وكـبر عليه الأمر ومـازالا يتنازعان والأمير يلـبغا يراقب الفـرص ليغـتالـه إلى ليلة الأربعاء تاسع جـمـادى الأولى ركب السلطان فى جماعة من أصـحابه ليكبس على الأمير يلبغـا فى خيمته ويقتله فـأحس يلبغا بذلك فخرج عن الخيـام وكمن بمكان وهو لابس آلة حربه فى جماعة من قـومه فلم يظفر السلطان به ورجع فثار به يلبغا وهجم عليه بمن مـعه فانكسر السلطان وفر يريد قلعة الجبل فتبعـه يلبغا وقد انضم إليه جماعة من الأمراء وغـيرهم ممن لا يحبون السلطان فدخل السلطان إلـى القلعة وصار يقـاتل مع طائفة من مماليكه أيامـاً وراء السور ثم أحس بالكسـرة وأنه على وشك أن يؤخذ فنزل مـتخـفياً ومع أيدمـر الدوادار يريد الخروج إلى الشام وسارا إلى بـيت الأمير شـرف الدين موسـى بن الأزكشى أمـير حاجب يريدان الاختفـاء به حتى يتيسر لهما الخروج فـبعث شرف الدين المذكور إلى الأمـير يلبغا يعلمـه بمجىء السلطان إليه فـبعث يلبغـا فى الحال من قـبض عليه هو والأمير أيدمـر ومن ذلك الوقت لم يوقف له على أثر ألبتة مـع كثرة تفتيـش أتباعه وحواشيـه على قبره ومـا آل إليه أمره فكانت مدة ولايتـه الثانية ست سنين وسـبعة أشهر وأياماً، قال أصـحاب الأخبار: واشتد فى أيامه على القبط بمصـر ورشيد بغير سبب فضيق عليهم وأبعدهم عن خـدمة الدولة فلاطفه كبارهم لعله يرتدع فلم يقلع عما هو عليه فعاكسوه وأتعبـوه وبالغوا فى تسفيهه والازدراء به فهمّ بالإيقاع بهم فلم يظفر لبغض الأمراء له وكـراهة طوائف المماليك له فعاد إلى ملاطفتهم واسـتمالتهم فلم يفلح لتفاقم الخطب واشتداد النفرة منه وما زال كذلك حتى قبض عليه وقتل.

وبنى فى أيامه جامعه المشهور وهو تحت قلعة الجـبل فيما بين القلعة وبركة الفيل وكان موضعه بيت الأمير يلبغا. قال صاحب الخطط: وابتدأ السلطان عمارته فى سنة سبع وخمسين وسـبعمائة وأوسع دوره وعمله فى أكبر قالب وأحـسن هيئة وأضخم شكل ولا يعرف فى بلاد الإسلام معبد من معابد المسلمين يحكى هذا الجامع أقامت العمـارة فيـه مدة ثلاث سنين لاتبطل يومـاً واحداً وأرصد مـصروفـها فى كل يوم عشرين ألف درهم عنها نحـو ألف مثقال ذهبا. قال: ولقد أخبـرنى الطواشى مقبل الشامى أنه سمع السلطان حسناً يقول أنـفق على القالب الذى بنى عليه عقد الإيوان

الكبير مائة ألف درهم نقرة وهذا القالب مما رمى على الكيمان بعد فراغ العقد المذكور. قال: وسمعت السلطان المذكور يقول لولا أن يقال ملك عجز عن إتمام بناء بناه لتركت بناء هذا الجامع من كثرة ما صرف عليه وفى هذا الجامع عجائب من البنيان منها أن ذرع إيوانه الكبير خمسة وستون ذراعاً فى مثلها ويقال إنه أكبر من إيوان كسرى الذى بالمدائن من العراق بخمسة أذرع ومنها القبة العظيمة التى لم يبن بديار مصر والشام والعراق والمغرب واليمن مثلها ومنها المنبر الرخام الذى لا نظير له ومنها البوابة العظيمة ومنها المدارس الأربع التى بدور قاعة الجامع إلى غير ذلك وكان السلطان قد عزم على أن يبنى أربع منائر يؤذن عليها فتمت ثلاث منائر إلى أن كان يوم السبت سادس شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وستين وسبعمائة فسقطت المنارة التى على الباب فهلك تحتها نحو ثلثمائة نفس من الأيتام الذين كانوا قد رتبوا بمكتب السبيل الذى هناك ومن غير الأيتام وسلم من الأيتام ستة أطفال فأبطل السلطان بناء هذه المنارة وبناء نظيرتها وبقى هناك منارتان قائمتان إلى اليوم. ولما سقطت المنارة المذكورة لهجت العامة بمصر والقاهرة بأن ذلك منذر بزوال الدولة فقال الشيخ بهاء الدين أبو حامد أحمد بن على بن محمد السبكى فى سقوطها هذه الأبيات :

أبشر فسعدك يا سلطان مصر أتى   بشيره بمقال سار كالمثل
إن المنارة لم تسقط لمنقصة   لكن لسر خفىّ قد تبين لى
من تحتها قرئ القرآن فاستمعت   فالوجد فى الحال أداها إلى الميل
لو أنزل الله قرآنا على جبل   تصدعّت رأسه من شدة الوجل
تلك الحجارة لم تنقض بل هبطت   من خشية الله لا للضعف والخلل
وغاب سلطانها فاستوحشت ورمت   بنفسها لجوى فى القلب مشتعل
فالحمد لله حظ العين زال بما   قد كان قدّره الرحمن فى الأزل
لا يعترى البؤس بعد اليوم مدرسة   شيدت بنيانها بالعلم والعمل
ودمت حتى ترى الدنيا بها امتلأت   علما فليس بمصر غير مشتغل

قال فاتفق قتل السلطان بعد سقوط المنارة بثلاثة وثلاثين يوما، ومات السلطان قبل أن يتم رخام هذا الجامع فأتمه بعده الطواشى بشير الجمدار وكان قد جعل السلطان لهذا الجامع أوقافاً عظيمة فلم يترك منها إلا شىء يسير وأقطع أكثر البلاد التى وقفت عليه بديار مصر والشام لجماعة من الأمراء وغيرهم وصار هذا الجامع فى

مقابلة قلعة الجبل لأنه قلما تكون فتنة بين أهل الدولة إلا ويصعد عدة من الأمراء وغيرهم إلى أعلاه ويصير الرمى منه على القلعة، فلما كان فى سلطنة الملك الظاهر برقوق لم يحتمل ذلك وأمر فهدمت الدرج التى كان يصعد منها إلى المنارتين والبيوت التى كان يسكنها الفقهاء ويتوصل من هذه الدرج إلى السطح الذى كان يرمى منه على القلعة وهدمت البسطة العظيمة والدرج التى كانت بجانبى هذه البسطة التى كانت أمام باب الجامع حتى لايمكن التسور إلى الجامع وسدّ من وراء الباب النحاس الذى لم يعمل فيما عهد باب مثله وفتح شباك من شبابيك إحدى مدارس هذا الجامع ليتوصل منه إلى داخل الجامع عوضاً عن الباب المسدود فصار هذا الجامع تجاه باب القلعة المعروف بباب السلسلة وامتنع صعود المؤذنين إلى المنارتين وبقى الأذان على درج هذا الباب، قال المقريزى: وكان ابتداء هدم ما ذكر فى يوم الاحد ثامن صفر سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة ولما شرع السلطان الملك المؤيد شيخ فى عمارة الجامع بجوار باب زويلة اشترى هذا الباب النحاس والتنور النحاس الذى كان معلقاً فى الجامع المذكور بخمسمائة دينار ونقلا فى يوم الخميس سابع عشرى شوال سنة تسع عشرة وثمانمائة فركب الباب على البوابة وعلق التنور تجاه المحراب. فلما كان يوم الخميس تاسع شهر رمضان سنة خمس وعشرين وثمانمائة أعيد الأذان فى المئذنتين كما كان وأعيد بناء الدرج والبسطة وركب باب بدل الباب الذى أخذه المؤيد واستمر الأمر على ذلك.

ولما مات السلطان الملك الناصر حسن المذكور اجتمع الأمراء وتشاوروا فيمن يولونه السلطنة بعده فوقع اختيارهم على ابن أخيه السلطان الملك المنصور صلاح الدين محمد بن المظفر حاجى بن محمد بن قلاوون وعمره يومئذ أربع عشرة سنة فبايعوه فى يوم الأربعاء تاسع جمادى الأولى سنة اثنتين وستين وسبعمائة ولقب بالملك المنصور وركب من يومه فى دست السلطنة وصعد إلى قلعة الجبل فى كبكبة عظيمة للغاية، ولما استقر به المنصب قام بالأمر يلبغا وأخذ فى تدبير الملك والتصرف فى الأمور فأمر ونهى واستبد فاتسعت كلمته وعظمت سطوته وهابه الأمراء جميعاً وتمكن من الملك كل تمكن ودانت له الأمور فلما بلغ السلطان الملك المنصور أشده لم يطق الصبر على فعال يلبغا وتاقت نفسه إلى الاستبداد بالملك فجعل يستعمل الحيلة فى نزعه من يد يلبغا ويستميل إليه الأمراء وطوائف المماليك ويعمل على تقرب العامة منه فلم يفلح وكان من أمره ما سيذكر فى محله.

ولما دخلت سنة ثلاث وستين وسبعمائة مرض الخليفة المعتضد بالله أبو بكر بن

المستكفى بالله وطال مرضه واشتدت علته إلى ليلة الأربعاء ثامن عشر جمادى الأولى مات فى داره بالكبش فكانت خلافته نحو عشر سنين. قال بدر الدين فى ترجمة الخليفة المذكور هو أمير المؤمنين، وقائد المذعنين وإمام الأئمة وقدوة المتكلمين فى براءة الذمة علت أركانه، وبسطت أغصانه وتجملت به ديار مصره، وصغت إلى رأيه ملوك عصره رأس وساد ومنح وأفاد، ورفل فى حلل النعيم، وهدى إلى سلوك الطريق المستقيم، واعتضد بالله فى أموره ولم يخف عن الناس بحجبه ولا ستوره واستمر سائراً فى منهاج عزه وبقائه إلى أن لحق بعد عشرة أعوام بالخلفاء الكرام من آبائه، وكان الخليفة المعتضد المذكور يقنع بالكفاف حسن السيرة حج مرتين إحداهما سنة أربع وخمسين والثانية سنة ستين وكانت أمور عيشه متيسرة وفى خلافته سعى المتأصلون فى إقامة بطرك لهم بعد تلك العطلة التى وقعت بسبب القس داود بن لقلق التى تقدم بيان حوادثها واتحدت كلمتهم فى هذه المرة على إقامة القس داود المذكور فعمل كبارهم على تقليده المنصب وألحوا وأكثروا الطلب حتى تم له الأمر فكان خامس سبعى بطاركة الاسكندرية وهو من مدينة الفيوم، فلما استقر به المنصب أحسن السياسة وقام بواجب الرياسة وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

(الفصل السابع)

(فى خلافة المتوكل على الله أبى عبد الله محمد)

ثم قام بالأمر بعد الخليفة المعتضد ابنه أبو عبد الله محمد بعهد من أبيه فى يوم الخميس ثانى عشر جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وسبعمائة هجرية أى نحو سنة إحدى وستين وثلثمائة وألف ميلادية ولقب بالمتوكل على الله وخلع عليه من يومه بين يدى السلطان الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر حاجى وفوض إليه نظر المشهد النفيسى على ما كان عليه أبوه من قبل وفوض هو إلى السلطان الملك المنصور التصرف فى أمور المملكة ومهام الدولة وأشهد على نفسه بذلك فزادت رغبة السلطان من حينئذ فى الاستبداد بالأمر والتخلص من يلبغا وعظم عليه ما هو فيه من الحجر والتقييد وتجرد لمعاداة يلبغا وإيقافه عند حده وجعل يستميل بعض الأمراء وأصحاب الكلمة وأجزل العطاء إلى طوائف المماليك ليكونوا له عوناً على يلبغا كل هذا ويلبغا لا يلتفت إليه ولا يهتم به حتى ظن السلطان أنه بلغ المنشود وتم له المقصود، فلما

كان يوم الاثنين رابع عشر شعبان سنة أربع وستين وسبعمائة ركب الأمير يلبغا فى نفر من أصحابه وصعد إلى قلعة الجبل وقبض على السلطان الملك المنصور ففر من كان حوله من الأجناد والمماليك وتركوه فخلعه يلبغا فى الحال وسجنه بالقلعة من يومه فكانت سلطنته سنتين وأشهراً وبقى مسجوناً إلى أن مات لسنة إحدى وثمانين وسبعمائة هجرية، وفى اليوم الثانى من خلع السلطان الملك المنصور اجتمع يلبغا مع الأمراء وتشاوروا فيمن يصلح للسلطنة فاتفقت كلمتهم على تولية ابن عمه زين الدين أبى المعالى شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون ولقب بالملك الأشرف وعمره يومئذ عشر سنين قال أصحاب التاريخ: ولم يل من بنى قلاوون من أبوه لم يتسلطن سواه وقام الأمير يلبغا بتدبير الملك والتصرف فى جميع الأمور على ما كان عليه أيام الملك المنصور وزيادة ولبث على هذا الحال زهاء الأربع سنين وقد عظم شأنه وكبر عدم اكتراثه بالأمور وزاد احتقاره لكبار الدولة واستخفافه برجال السلطنة وكثرت مماليكه المعروفة بالخاصكية وساروا بسيرته فعاثوا وجاروا وظلموا الرعية وتطاولت أيديهم إلى أموال الناس واستحلوا ما لا يحل، وظهر القحط فى هذه الأيام بمصر وعم جميع المدن والقرى فأكل الناس الكلاب والقطط والميتة وجذور الأشجار واشتد الحال شدة بالغة واتصل بالديار الشامية وتفشى فيها فضج الناس وعجوا وأكثر أهل مصر من الاستغاثة والتضرع إلى الله سبحانه وتعالى وذهب جماعة إلى دار الأمير يلبغا ورجموه بالطوب وصاحوا ما يحل لك أن تطلق المماليك يعيثون فى الأرض وقد ابتلانا الله بسبب فعالهم بالقحط فعظم الأمر على يلبغا وتطير من ذلك ولبث الحال على هذه الشدة أياماً كثيرة حتى أكل بعض الناس أولادهم وفشا هذا الأمر بينهم فلم يبق منكورا ثم ارتفع القحط فعمد الأمير يلبغا إلى إيقاف مماليكه عند حدهم وكف أذاهم عن الرعية وشدد فى ذلك وبالغ فى العقوبة فانحرفت خواطرهم عنه وتوغرت صدورهم منه وزالت عنهم هيبته فاتفقوا على قتله وجعلوا يراقبون الفرص فلما كان فى بعض الأيام كبسوه بداره التى فى الكبش وهم فى عدة عظيمة وقتلوه ونهبوا ما فى داره من حلى وملبوس ففرح السلطان الملك الأشرف بموته وظن كمال استقلاله بالملك فقام الأمير استدمر الناصرى أحد مماليك يلبغا المذكور وضم هؤلاء المماليك إليه تولى الإمارة عليهم ونادى السلطان الملك الأشرف بالشر وكاشف أولئك المماليك بما فى سره فقويت قلوبهم واشتدت عزيمتهم وتجردوا إلى نزع الملك من آل قلاوون ثم لم يلبثوا أن ركبوا جميعاً لقتال الأشرف وركب الأشرف لقتالهم ومعه المماليك السلطانية واقتتل الفريقان وطالت الحرب بينهم أياماً ومازالوا حتى انهزم استدمر وجميع الخاصكية وانتصر

الأشرف عليهم نصرة مؤزرة وقبض على كثير منهم فقتل طائفة وأغرق طائفة وأبعد طائفة وبقى منهم بمصر جماعة التجئوا إلى بعض الأمراء. قال بعض كتاب الأخبار: وكان هؤلاء المماليك مختلفى الأجناس غلاظ الطباع أشقياء لا دين لهم ومنهم الأمير صرغتمش واستدمر والجاولى اليوسفى ولم يزل من بقى منهم فى اختلاف ومقت وهياج وحقد للدولة إلى أن تحيلوا وعادوا إلى خدمة الدولة واتفقوا على أن طائفة منهم تسكن بالطباق وأن يدخلوا فى سلك مماليك الأسياد يعنى أولاد السلطان ففعلوا ومنهم من بقى أمير عشرة ومنهم من انضم إلى المماليك السلطانية ومماليك الأمراء وظهروا بعد الانكماش فكانوا أرذل مذكور فى الديار المصرية وعادوا إلى العمل على الإيقاع بالسلطان ونزع الملك من ذلك البيت.

فلما كانت سنة ثلاث وستين وسبعمائة عزم السلطان الملك الأشرف على الحج وأخذ فى الأسباب فانتهز عند ذلك أولئك المماليك الفرصة وكتموا أمرهم وتواعدوا مع أصحابهم الذين تأهبوا للخروج وفى خدمة السلطان على أنهم يثيرون الفتنة مع السلطان فى العقبة وكذلك المقيمون بمصر يخرجون فينقضون نظام الدولة ويحدثون الفوضى ويزيلون السلطان وجميع الأمراء ويستبدون هم بالملك فيفعلون ما يستحسنون وخرج السلطان من مصر يريد الحجاز وهو فى أبهة عظيمة للغاية وتجمل زائد فى عدة وافرة من الأطناب وقد رتب قبل خروجه الأمور واستخلف بمصر والثغور من يثق بهم فى خدمته وأخذ معه من أولئك المماليك من لا يظن فيه الخيانة وكان بينهم جملة من المماليك الأخر فلم يبعد عن مصر إلا قليلاً حتى قام من كان بها متهم وأثاروا الفتنة واستمالوا إليهم جماعة من المماليك السلطانية ونادوا بموت السلطان الملك الأشرف وأقاموا ابنه بدلاً منه ولبثوا منتظرين فعل أصحابهم الذين هم فى خدمة السلطان أما هؤلاء فإنهم لما وصلوا إلى العقبة ثاروا على السلطان فقاتلهم واشتد القتال بين الفريقين أياماً فكانت الحرب بينهم سجالاً ثم انهزم السلطان بعد أمور طويلة وطلب العود إلى مصر وصحبته كبار الأمراء وبعض مماليكه الذين اصطفاهم فنهب الخاصكية الخزينة السلطانية وما فيها ونهبوا جميع ركاب الحج وأخذ بعضهم ما سلبه وسار إلى الشام والبعض إلى الحجاز والبعض إلى مصر وعاد نساء السلطان إلى مصر فى أسوء حال وأشد ضيق وقد ذبح الكثير من الأمراء فى هذه الوقعة وتتبعوا السلطان فلحقوه عند قلعة الجبل فانتشب القتال بينه وبينهم واشتد وقاتل السلطان قتال الأبطال وطال الحال أياماً اختل فيها نظام الدولة وعاث أهل الفساد وكثرت العربدة بمصر والقاهرة والقرى القريبة وارتفع الأمن وعم الخطف فانكف الناس عن الخروج إلى الأسواق وأغلق أصحاب الحوانيت حوانيتهم وقاتل

أهل الأطراف العامة من فوق أسطحة البيوت ومازال الحال هكذا حتى قبض الخاصكية على السلطان وقد تفرق عنه من بقى من أصحابه وسجنوه أياماً قلائل ثم خنقوه ونهبوا جميع بيوت الأموال وذخائر السلطان واقتسموا محاظيه وكذلك فعلوا بأموال وذخائر ومحاظى جميع الأمراء وأزالوا عن الدولة القلاوونية عزها ورونقها وأذهبوا بهجتها وكان قتل السلطان الملك الأشرف فى يوم الثلاثاء سادس ذى القعدة سنة ثمان وسبعين وسبعمائة فكانت مدة ملكه أربع عشرة سنة وشهرين وخمسة عشر يوماً وأنشأ فى أيامه قصره المعروف بالأشرفية تحت قلعة الجبل سنة اثنتين وتسعين وستمائة ولما فرغ منه صنع فيه أفراحاً عظيمة للغاية لم يعمل مثلها فى الدولة التركية وختن أخاه الملك الناصر محمد بن قلاوون وابن أخيه الأمير موسى بن الصالح علىّ ابن قلاوون وجمع سائر أرباب الملاهى وجميع الأمراء ونثر عليهم الذهب وخلع عليهم الخلع السنية.

ولما مات السلطان الملك الأشرف اجتمع أصحاب الكلمة من الأمراء وهم قرطاى وأيتبك وغيرهما وكتبوا إلى الخليفة المتوكل بالله العباسى يطلبون منه أن يبايع من يشاء بالملك فكتب يقول اختاروا من بينكم من تشاؤون وأنا أبايعه فوقع اختيارهم على ابن الملك الأشرف علاء الدين وعمره يومئذ سبع سنين فبايعوه ولقب بالملك المنصور وكان الأمير طشتمر رأس الفتنة وزعيم الخاصكية الذين ثاروا على السلطان الملك الأشرف بالعقبة قد تأخر بسبب ركب الحاج فلما وصل إلى القاهرة أرسل إليه قرطاى إنك قد استقرّيت فى نيابة دمشق فسر إلى الشام فرأى العجز فتوجه إلى دمشق كارها وجعل قرطاى يتصرف فى الدولة ويستبد بالملك حتى علت كلمته ودانت له الأمور وعظمت شوكته فأبغضه الأمراء وحقدوا عليه وأخذوا يراقبون الفرص ليفتكوا به، فلما كان فى أحد الأيام قام أيتبك فى نفر من أصحابه وأمسك قرطاى المذكور وغدر به واستقل بالحكم وتصرف فى الأمور وطير الخبر بذلك إلى الآفاق فلما علم بالخبر الأمير طشتمر نائب دمشق شق عليه وكاتب نائب حلب وبقية نواب الشام واستنجدهم على قتال أيتبك فأجابوه إلى ذلك وركب إليه اشغتمر نائب حلب ومعه العساكر الحلبية واجتمع الكل بدمشق قاصدين الديار المصرية وجاءت الأخبار بذلك إلى أيتبك فسير عسكراً لقتالهم وخرج هو كذلك ومعه السلطان وبعض الأمراء وكان بين أيتبك وبين الأمير برقوق والأمير بركة شقاق وهما يراقبان الفرص للغدر به فلما وصل ايتبك إلى أول منزلة ركب عليه المذكوران فى نفر من خواصهما يريدان البط به فهرب نحو القاهرة وانفشل العسكر ورجع السلطان والأمراء وكتب برقوق وبركة إلى طشتمر إنك تحضر أميراً كبيراً للقاهرة فأجاب إلى

ذلك وتفرقت العسكر من دمشق وسار طشتمر إلى مصر فلاقاه برقوق وبركة ودخل القاهرة في موكب حافل واستقر أميراً كبيراً بمصر وأخذ يتصرف فى أمور الدولة فلما رأى برقوق من اتساع كلمة طشتمر وإقبال الدنيا عليه بحذافيرها حسده وندم على تسليمه مقاليد المملكة وتاقت نفسه إلى الملك وكان غاية فى المكر والدهاء صبوراً حازماً مدبراً مولعاً بالاستقلال فجعل يدبر لنفسه ويستميل كبار القوم حتى جاء عيد الأضحى من سنة تسع وسبعين وسبعمائة فركب فى طائفة من أصحابه على طشتمر وأمسكوه واستقر برقوق يحكم البلاد وتصرف فى أمور الدولة فعلت كلمته وكبرت شهرته وطار صيته وهابه الأمراء ومازال على هذا الحال من الشهرة والمجد حتى مات السلطان الملك المنصور فى سلخ ربيع الأول سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة هجرية بعد أن حكم أربع سنين وأربعة أشهر فجمع برقوق الأمراء كافة وتشاوروا فيمن يصلح للسلطنة فاتفقت كلمتهم على تولية زين الدين حاجى أخى الملك المنصور وله من العمر يومئذ ست سنين فبايعوه من يومه ولقبوه بالملك الصالح وأركبوه فى دست السلطنة فلم يكن له منها سوى الاسم والكلمة للأمير برقوق ولبث الأمير برقوق بعد ولاية السلطان الملك الصالح زين الدين سنة ونصف سنة يعمل على إعلاء كلمته وتوسيع شهرته وأخذ الملك لنفسه فلما تم له الأمر قام فى التاسع عشر من رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة على الملك الصالح وخلعه ونفاه واستلم مقاليد الملك فكانت مدة سلطنة الملك الصالح سنة ونصف سنة وبضع أيام وكان هو آخر من حكم ديار مصر من دولة المماليك سلالة قلاوون المعروفين عند أهل التاريخ بالمماليك البحرية وبموته انقرضت دولتهم وعفت آثارهم بعد أن حكموا نحوا من مائة وثلاثين سنة وقد مر بك بيان أخبار هذه المدة وما وقع فيها من الحوادث فقامت بعدها دولة المماليك الثانية وظهرت بظهور برقوق المذكور وهو رأسها ومؤسسها فسبحان من له الملك والملكوت وهو على كل شيء قدير.

(وصل)

(فى أصل الجراكسة وفى طباعهم وأديانهم)

وفى

(منشأ دولتهم الثانية بديار مصر)

قال أصحاب التاريخ: قد سمى الكتاب هذه الدولة بدولة المماليك الشراكسة نسبة إلى منشأ سلاطينها فإنهم كانوا من الشعب الشركسى وقد اختلفوا فى محل

ظهورهم فمنهم من قال إنهم ظهروا بآسية العليا ومنهم من قال إنهم نشئوا بسيبريا ناحية بحيرة بيكال فى نحو القرن السادس للميلاد المسيحى. والثانى أشهر، ثم نزحوا إلى بحر قزبين فاستوطنوا غربية وأنشئوا لهم مساكن على شبه الخيام فسميت تلك الأصقاع من ذلك الوقت باسم شركاسيا وتناسلوا ونموا نمواً عظيماً فكانوا بعد ذلك يحملون إلى أقطار العالم للاتجار بهم كالسلع سواء بسواء وكانوا كغيرهم من بقية الأمم فى الأزمان الغابرة عاكفين على عبادة الأوثان والتقرب إليها بالقرابين والذبائح وتقديم التقادم من الأسلحة والحلى .قال بعضهم: وكان فى أحد الجبال الواقعة ما بين صخوم وصوغوجق التى يقال لها غوية شجرة عظيمة عجيبة المنظر تعادل فى كبرها السنيديان وهى مكونة من عدة أشجار مختلفة الأجناس قد نبتت فى مكان واحد وتسمى عندهم يعنى عند طوائف الشراكسة باسم «قودوش» فكان يأتى إليها فى يوم معلوم من كل سنة طير كبير اسمه بيوغه زعموا أنه يسند رأسه على تلك الشجرة ليسلم نفسه للذبح قرباناً لها ولايمانع من يأتى ليذبحه فإذا فعل ذلك قام أحد الجماعة الحاضرين هناك فى ذلك اليوم فيذبحه فى الحال ثم يصبون على رأسه وعينيه شيئاً من الخمر أو البوزة ثم يكشفون رؤوسهم ويأخذون طقياتهم بأيديهم ويضجون ويقولون: يا إلهنا العظيم إن عنايتك بعبيدك ليس لها حساب ولا حد ثم يسجدون ويتضرعون لهذه الشجرة وهم مكشوفو الرؤس وبعد ذلك يقسمون فيما بينهم لحم ذلك الطير وجلده ويحمدون معبودهم وينصرفون وإذا سار جماعة منهم إلى السرقة والنهب بحرًا فى القارب المعروف عندهم باسم خجابا أو خرجوا إلى السلب فى الطرق والجبال ينذرون لتلك الشجرة شيئاً من سلاحهم وآلة حربهم إن هم فازوا وظفروا بفريستهم فيقول الواحد منهم إن غلبت فى نوبتى هذه فإننى أنذر لشجرة قودوش أحسن بارودة أو أحسن درع أو أحسن شىء لا تفنيه الأمطار ولا تعمل فيه العواصف فإذا تم له ما أراد أتى بما نذره فيعلقه على أغصان تلك الشجرة ولذلك كان يرى على أغصان قودوش المذكورة شىء كثير من تلك النذور باقية معلقة محترمة لايستطيع أحد أن يمسها بيده لأنهم يزعمون أن من سرق شيئا من تلك الأشياء مات لساعته وكان لمعبودتهم قودوش هذه نواب يعرفون باسم طغالك وهؤلاء النواب يختارهم الناس يعنى إذا رأى أحد من الناس شجرة فى جوار داره واستحسنها واستعظم حجمها اتخذها نائبة عن قودوش فيستر ساقها بسياج لطيف ويربط أطرافها من أعلى بالحبال والحشيش اليابس على هيئة عمامة ثم يسميها باسم طغالك وينسبون إليها نماء زرعهم وحفظه من الصيال فإذا هاف الزرع مثلاً ونقصت

غلة الأرض فى سنته تقدموا إلى تلك الشجرة وجعلوا يتضرعون إليها ويقولون وهم حاسرو الرؤوس نرجو كرما منك أيها المعبود العظيم أن تبارك فى غلات أرضنا وتكثرها فى عامنا هذا فقد كانت فى العام الماضى غير كافية لنا ولضيوفنا ثم يسجدون تحتها لجهة الشرق ويذبحون رأسًا من الضأن أو المعز قربانا ويصبون على رأسة شيئاً من الخمر أو البوزة ويكررون هذه الضراعة والابتهال كل قليل إلى زمن الحصاد فإذا أخصبت أرضهم وكثرت غلاتها فى عامهم ذلك فرحوا وخروا سجداً لمعبودتهم وبالغوا فى تعظيمها وإلاّ حنقوا وصاحوا عليها لماذا لا تسمعين نداءنا ثم يغضبون فينزعون عنها أوراقها ويقطعون أغصانها ثم ينزعونها من أصلها ويحرقونها ويتخذون لهم معبودة أخرى مكانها ثم يتقدمون إليها بالتبجيل والتعظيم ويقولون لها يا معبودنا الجديد إن الطغالك الذى كان لنا فعبدناه من قبلك حيناً قد أساء إلينا فألقيناه فى النار والنور وجعلناك لنا طغالك جديدة وسنقوم بعبادتك خير قيام فإن أنت لم تصغى إلى ندائنا قلعناك وألقيناك فى النار. قال الراوى: وكان هذا التنبيه من عاداتهم القديمة. وكانت عادة السلاطين الجانكيزيين أنهم يعطون أولادهم إلى أمراء الجراكسة لإرضاعهم وتربيتهم على حالة البداوة فإذا أتموا مدة الرضاع والتربية ردوهم إلى آبائهم فكانوا لذلك يغدون ويروحون إلى بلاد القرم ولاختلاطهم بمن اعتنق الدين الإسلامى من التتار مال بعضهم إلى التدين به فخلطوه ببعض عاداتهم فكانوا يصومون شهراً فى السنة وبعد أربعة أشهر من هذا الشهر يطبخون حبوب عاشوراء ثم بعد ذلك بشهر أيضاً يدعون لقراءة المولد النبوى شيخاً عارفاً برطانهم فيقرأ عليهم شيئاً تقليداً للإسلام وكانوا يعملون فى كل سنة ضيافة على اسم سلطان الأبطال الإمام علىّ بن أبى طالب ويتظاهرون مثل العلويين وظلوا على هذا الحال حيناً من الدهر وهم لا يعرفون من الإسلام غير الاسم فقط لأن العبادة التى نقلوها عن التتار لم يقصدوا بها عرض العبودية لجانب الحق سبحانه وتعالى وتعظيم نبيه ورسوله بل كانت لحصول الفيض والبركة. قال بعض الكتاب: وكانوا أيضاً يعملون عيد فصح لروح أبى جهل ويسمون هذا الفصح باسم صاوصورووق ا. هـ.

وقد دخلت النصرانية فى عدة جهات من بلاد الجراكسة بسبب الجنويزيين الذين استوطنوا ساحل البحر الأسود فى القرون المتوسطة فمال إلى التدين بها الكثير منهم وكادت تعم جميع القبائل فلما تغلبت الدولة العثمانية على بلادهم واستقر أمرها ظهر الدين الإسلامى وزال الدين المسيحى أو كاد.

وكانت لهم حكايات وروايات غريبة للغاية يروونها بالسند إلى معبوداتهم ودينهم

قبل الإسلام، منها أنهم كانوا يروون أن رجلاً محبوساً فى مغارة فى جهة قلعة الحجاج الكائنة فى جبل البرز يقال له (ضحاك مارى) فاتفق أن رجلاً من أهل قرية كانت تقرب من ذلك الجبل كان يتجول فى الجبل للصيد فرأى المغارة المذكورة ففكر فى نفسه وقال ليتها تصلح مأوى للغنم ثم دخلها فلم ينته إلى جوفها حتى سمع صوتاً مريعاً أوقفه عن المسير فجعل يفرك عينيه بيديه لعله يرى ما فى داخل المغارة وإذا به يرى شيئاً هائلاً على شكل الإنسان مربوطة رجلاه إلى عنقه ويداه مقيدتان بقيد محكم وفى وسطه سلسلة من حديد فوقف الرجل قليلاً حتى سكن روعه واطمأن جاشه وعلم أنه محبوس وبينما هو يفكر فى أمر ذلك المحبوس إذ خاطبه المحبوس قائلاً: مر يا أخى لا تخف واقترب منى فإنى مرهون هنا ومنتظر للوقت المعهود فإن أنت أحسنت لى العمل فأتنى بعصى طويلة تشبه القصبة الطويلة التى يعلق بها حبل الغسيل فإن فعلت وقدرت على أن أنزل هذا السيف المعلق أمامى فإننى أتخلص من هذا القيد وهذه السلسلة التى أنا مربوط بها فأجازيك على إحسانك بخير الإحسان وأحفظ لك هذا الجميل على الأزمان قالوا: فحن إليه الرجل وأتاه بعصا فتناولها ويداه مربوطتان ومدها نحو السيف واجتهد جهده فى تنزيله فلم يقدر فالتفت إلى الرجل وقال له: بورك فيك لم يأت وقت نجاتى ولا ساعة خلاصى من هذا الأسر وكسر العصا قطعاً فجعلها جذاذاً كقطع السواك فتركه الرجل وانصرف وعاد إلى القرية فأخبر زوجته وأولاده بما رآه وحدثهم بما سمعه من ذلك المحبوس وليث أربعة أيام ومات وشاع خبر موته وما أخبر به أولاده من خبر ذلك المحبوس فاجتمع أهل القرية وقالوا: كيف يموت وقد عاش جده وأبوه أكثر من مائة عام وهما لم يشاهدا ذلك المحبوس ولا المغارة ولو لم يره هو ما مات وهو فى هذا العمر واستولى الخوف من الموت على جميع أهل القرية فتعاهدوا على أن لا يذهب أحد منهم إلى تلك المغارة وشاع خبر ما وقع بين القرى المجاورة فاجتمعوا وتعاهدوا على أن لا يقتربوا من تلك المغارة ولا يراها أحد منهم وعملوا لذلك حدوداً لا يتخطوها فأوت إلى تلك الحدود الوحوش من الثعالب والسمور والفهد وكلب الماء وكثير من الطيور كالرهو والليل والرخم والغرنوق ودجاج الأرض والدراج وصيدها جميعها ممنوع فيما بينهم ولم تزل هذه الحيوانات مع كثرتها تشاهد للمارين وهى آمنة مطمئنة لا خوف عليها، ومن عادة الأمهات عندهم أنه إذا بكى الطفل وأسكتته أمه ولم يسكت خوفته بصاحب تلك المغارة فتقول له مه وإلا أتيتك بصاحب المغارة فيفعل بك كذا وكذا ويروون عن هذا المحبوس غير ذلك أيضاً ولهم عادات فى عباداتهم كثيرة غير ما ذكرناه قد أضربنا عن إيرادها هنا.

(لاحقة)

(فى أخلاق الجراكسة وعاداتهم)

جاء فى تاريخ العلامة جودت باشا ما تعريبه: جبت أرض قبائل الجراكسة والأباظة طولاً وعرضاً فوجدتها نظيفة طاهرة من جميع الأدران ووجدتهم قوماً عقلاء قابلين للحضارة والمدنية ذوى شجاعة وجسارة صادقين فى أقوالهم ثابتين فيها لا يتكلمون بالكذب أصلاً ولا يحلفون أيماناً كاذبة فإذا اتخذت لك منهم خادماً فمهما كان عنيداً فظاً عاصياً فاستحلفه على الأمانة والولاء فإذا حلف لا يخونك أبداً ولا يحنث فى يمينه ولا يعمل على خلاف ما أقسم به ولكن يجب استحلافه على كل أمر بحرفه فتقول له: احلف أنك لا تخوننى فى كذا وفى كذا وفى كذا فإذا ارتكب الخيانة فى أمر وعاتبته عليه وكان غير داخل فى عداد من استحلف عليه قال قد حنثت فى هذا الأمر لأننى لم أحلف على عدم الخيانة فيه. قال: وهم قوم فى غاية السخاء والكرم يقرون الضيف حتى لو كان صاحب البيت من أشرافهم والمضيف من صعاليكهم أو من أحد العامة فإنه لا يقعد فى حضوره بل يخدمه واقفا على قدميه ولا ينام بل يقضى ليله مسلحاً بسلاحه لحفظه وحراسته، ومن عادتهم أن صاحب البيت لا يأكل مع الضيف ولا من الطعام الذى صنع للضيف ولا ينزعون عن الدجاج الذى يطبخونه للضيف رؤوسها عن أبدانها بل يضعونها أمام الضيف كذلك إشارة إلى أن رؤوسهم وأجسامهم فداء له وألبستهم تكاد تكون جميعها من لون واحد فلا فرق بين الغنى والفقير فى الملبس وفقراؤهم لا يصيرون أغنياء وأغنياؤهم لا يصيرون فقراء وجميعهم يعتقدون أنهم أخوة بعضهم لبعض فإذا لزم لأحدهم شيء وطلبه من الآخر أعطاه إياها بلا معاوضة ولا يجيبه بكلمة، لا ومن عاداتهم أن لا يقتل أحدهم الآخر ولا يشتمه ولا يسبه ولا يضربه ويستخدمون أسراهم بالرفق واللين من غير أن يضربوهم أو يؤذوهم ولا يقتّرون عليهم فى المأكل والمشرب وليس من الأمور المعيبة عندهم النهب والسلب أو التخريب بل يعتبرون ذلك من البسالة والإقدام، ومن عاداتهم احترام الشباب للشيوخ فلا يقصر الشاب فى خدمة الشيخ بل يقوم بخدمته قيام العبد لخدمة مولاه ويصح لصاحب الحسب والنسب والقدر الرفيع من قبائل الجراكسة أن يتزوج ببنت آحاد الناس ليكسبها قدراً وشرفاً ولكن لايصح أن الأصاغر من الناس يتزوجون ببنات ذوى الحسب الرفيع مطلقاً ولا يسكنون بجوار بعضهم بل بيوتهم متفرقة على رؤوس الجبال فإذا حدث

لأحدهم حادث نادى بما يعبر عنه بلسان التتار أيش حريق فيصل خبر هذا الحادث إلى جميع البيوت فى وقت قريب للغاية فيجتمعون ويتكلمون فى أمر ذلك الحادث وإذا قاموا لحرب قدّموا عليهم أحدهم فلا يبقى لأحد منهم كلمة فوق كلمته فعليه تدبير أمرهم فى تلك الحرب وعليهم طاعته فى جميع ما يأمر به فإذا انقضت الحرب عاد كل إلى ما هو عليه من الحرية والاستقلال، ولغتهم متعددة ولا تنطبق على مخارج الحروف المعتادة قال ومع هذا كله فإنهم متوحشون جبليون لا يميزون بين الكفر والإيمان ولا بين الخير والشر ولايقدر غريب أن يطوف بينهم وإذا أراد أحد الناس أن يمر بين مساكن إحدى قبائلهم أخذ معه دليلاً من قوم تلك القبيلة وإلا وقع فى مخالب العطب وهذا الدليل يقال له (شاغرى) وهذا الشاغرى يكون مرعىّ الجانب مسموع الكلمة فإذا شاء أحد من الناس الاختلاط بقبائل أولئك القوم ومعاشرتهم والتطواف بين منازلهم كواحد منهم لزمه أن يتبنى لأحد أصحاب الحسب وطريقة ذلك عندهم أنه يأخذ أولاً ثوبين من القماش الأبيض وجلداً من السختيان وإبرة وخيطاً ومشطاً وكستباناً ثم يطلب له دليلاً فإذا وجده يعطيه أحد الثوبين المذكورين أجرة ليوصله إلى أمير القبيلة التى يختارها فيسير به إلى دار الأمير فيقدم هديته إلى امرأة صاحب الدار وإذا كان صاحب الدار غائباً فى ذلك الوقت لزمه الدخول إلى فناء الدار وطلب زوجة صاحب الدار فإذا جاءته هجم عليها وأخذ بفمه أحد ثدييها وجعل يرضعه وهو يقول قد صرت فى بيت الوالدين وصرت لك ابناً فى الرضاع يفعل هذا ولو كانت امرأة ذلك الرجل بنتاً وكان زفافها إليه تلك الليلة وإذا كان لايعرف رطانهم يبلغهم ما يقول بواسطة ترجمان منهم وقاعدتهم فى هذا الأمر أن المرأة تمسح بيدها على ظهره إشارة لقبول بنوته ثم تأذن له بالإقامة عندهم وعندما يأتى زوجها تخرج إليه وتقول له: انظر إلى هذا فقد اتخذته لى ولداً ثم تشير إلى زوجها بأن يقبل يده فيفعل ويقبله أيضاً ويأخذ من يومه فى تدارك أمر ضيافته فيعدّ لذلك ما طاب من المأكل والمشرب ويدعو قبيلته ومن جاورها من بقية القبائل ويجعل ذلك الوقت عيداً فيأكلون ويشربون ويفرحون يومهم ذلك وفى ختامه يقول صاحب الدار لجميع من حضر: انظروا قد اتخذت هذا لى ولدا فيبشون فى وجهه ويهنئونه ثم ينصرفون ويبقى صاحب الدار وذلك الرجل فى الاتصال كالأب والابن ويظهر منهما للآخر محبته فيغدو الرجل ويروح بلا ممانع فإن كان تاجراً فلا يبقى فى حاجة إلى من يحفظ عليه ماله بل يكون آمنا من جميع المخاوف والمحاذير فإذا صادفه فى طريقه أحد وقصده بسوء من أخذ ماله أو إذهاب روحه فقال أنا متبنى لفلان فإن ينكف عنه

فإذا لم يلتفت إلى قوله وأخذه ماله أو أخذ أسيراً واتصل خبر ما جرى له بأبيه قام لاسترجاع ما أخذ منه أو استخلاصه وأخذ أيضاً من الفاعل لذلك تسعة أمثال ما اغتاله ويسمون ذلك عندهم (عيبلق) أى جزاء ما ارتكبه من العيب وهى عادة من رسمهم القديم وإذا كان الصائل أو المغتال لا قدرة له على دفع هذا الجزاء أخذ أسيراً وبيع. ومن عاداتهم أن من يحكم عليه بالجزاء لا يهرب بل يسلم نفسه وإذا كان له بنات ورضى أب من أخذ ماله بأخذهن جاز له بحسب قانونهم أخذ البنتين منهن بدلاً عن أبيهما فيباعان عوضاً عن أبيهما.

والقتل عندهم من أكبر الجرائم وأشدها عقاباً ولذلك يتباعدون عنه ما استطاعوا فإذا ضرب أحدهم آخر ضرباً أفضى به إلى الموت كان الجزاء بحسب مرتبة الأهل وهم على ثلاث مراتب وهى مرتبة البكوات، ومرتبة الأوزنيين والطوقاد، فالبكوات هم كبار القبائل وأصحاب الحسب والنسب والأوزنيون هم أواسط الناس والمساتير منهم والطوقاد هم العامة فإذا كان المقتول من أواسط الناس كانت ديته عشرين عدداً حسب اصطلاحهم خمسة منها أسرى تقاس قدودهم على قدر معلوم بالشبر والخمسة الثانية منها عبارة عن خمسة رؤوس من جياد الخيل كل رأس بقيمة أسير والخمسة الثالثة منها عبارة عن خمسة دروع كل درع قيمة أسير والخمسة الباقية يقال لها (شوشقة) يعطى فيها سيف وبارودة وقوس ولابد من قيام المحكوم عليه بالدية بجميع ذلك على أى حال كان ولما لم يكن عندهم نقود ولا سكة كان تقدير قيمة الأسير عندهم بالشبر ولا يعتبر عندهم ثمن الأسير بحسب جماله أو بشاعته بل ينظر حسابه على حسب الشبر والأسير التام عندهم ستة أشبار فإذا كان أقل من ذلك عدّ ناقصاً فإذا لزم أحدهم أن يعطى آخر أسيراً تاماً وأعطاه إياه بقياس أربعة أشبار مثلاً لزمه أن يتمم الباقى بشىء آخر، ومن عاداتهم أيضاً أنه إذا زنت امرأة وثبت زناها بيعت هى وجميع أولادها بأبخس الأثمان، وقاعدة ذلك عندهم أن زوج تلك الزانية يذهب إلى أبيها وأمها ويخبرهما بما وقع ويقول إن بنتكما بنت حرام فخذوها عنى وأعطونى ما أخذتموه منى مقدما فى عقد نكاحها فعند ذلك يتبرأ منها والداها ويأذناه بأخذها وبيعها هى وأولادها فيحملها مع أولادها إلى النخاس ويبيعهم ويأخذ ثمنهم فلا يصل إلى داره إلا ويكون قد فرق جميع الثمن المقبوض على إخوانه وخلانه ويبيت ليلته تلك ويصبح فيسير إلى بيت الزانى ومعه بعض كبار القبيلة ويقول له قد بعت المرأة بكذا من الثمن وأطلب منك حقى ثم يتركه وينصرف، ويرسل إليه فى ثانى يوم من يطالبه بهذا الثمن فلا يسع الزانى إلا أن يقوم بدفع الثمن الذى بيعت به

المرأة وتسعة أمثاله أيضاً جزاء ما ارتكبه من فعل الزنا فإن كان الزانى لا مال عنده ولم يوجد من يعينه على ذلك فيقوم عليه والداه ويقيدانه ويسلمانه إلى زوج المرأة ويقولان له هذا حقك فيأخذه بحيث لا يضربه ولا يشتمه ولا يهينه ولا يوبخه ولا يقول له إنك فعلت كذا وكذا لأن الشتم وفحش القول عندهم مكروه ويسير به إلى السوق ويبيعه بأى قيمة أعطيت فيه ثم يلتفت إلى الشخص ويقول له: هذه قيمتك ويفرق ما قبضه من الثمن على الحاضرين ثم إن قبيلة الجاني توفى بقيمة حقه.

وبلاد الجراكسة لطيفة الهواء والماء وفصولها الأربعة جميلة وأراضيها خصبة ذات محاصيل كثيرة وينبت فيها جميع أصناف الخضر ولكن جميع قبائل الجراكسة لا يأكلون الخضر ويعيشون على أكل اللحم فقط وليس لهم غاية فى الفلاحة فهم ذوو كسل وبطالة وطباعهم أشبه شيء بطباع العرب البادية ولكنهم لا يعادون بعضهم ولا توجد بينهم آداب ولا رسوم مدنية ولا ما يوجب الترقى والحشمة والاحتراز من بعضهم وفى بلادهم جميع أنواع النباتات كالسنا والراوند الصينى ونوع من السحلب القوى وجميع أنواع الفاكهة والخضر والزيتون والكستنة والشاى البرى ومن أشهر الأشجار عندهم شجر البقس وهو يصلح للسفن جداً فذلك إذا أتى أصحاب السفن لأخذ شيء منه لا يتقدمون إلى ذلك إلا إذا وضعوا رهائن منهم عند كبار الجراكسة وأخذوا معهم رهائن منهم أيضاً ليكونوا آمنين من شر أصحاب القرصان المعروفين باسم خجايا ولا يوجد عندهم ملح مطلقاً وهو عزيز للغاية عندهم فلذلك جرت العادة عند أصحاب السفن التى تسير إلى بلاد الجراكسة أن يأخذوا معهم كثيراً من الملح ويتعاملون به معاملة العروض وذلك بأن يضعوا مقداراً من الملح فى إحدى كفتى الميزان ويجعلون فى الكفة الثانية مقداراً من العسل مثلاً أو من شمع العسل أو من جلود الثعالب والسمور، وفى بلادهم أيضاً سائر أنواع الصيد من الطير والوحش ولهم فى القنص أمر غريب ومنه صيد الفهد وهو مخصوص بالنساء وذلك أنهن يعلقن قطعة من اللحم فى شعبتى شجرة ذات شعوب فيأتى الفهد ويثب لأخذ اللحم فتعلق رجله فى شعبة الشجرة فيمسك وفى الحال يسلمنه إلى رجل طويل القامة يسلخ جلده، ومن عاداتهم الغريبة أن الذى يسلخ الفهد يلزم أن يكون مساوياً للفهد فى الطول ولهم عوائد أخر غير ما ذكر قد أضربنا عن إيرادها خوف الإطالة.

وقد جاء بهؤلاء الجراكسة ملوك مصر وأكثروا من شرائهم وتغالوا فى ملبسهم ومركبهم لاسيما السلطان الملك الصالح ابن السلطان الملك الكامل فكانوا مع من بقى من المماليك البحرية الذين اصطفاهم السلطان الملك الصالح لخدمته وسلم إليهم دولته يداً واحدة فكانت لهم حراسة الحصون والقلاع وفى أيديهم سائر الابراج وقد

سكنوها وتسموا بها فكان يقال لهم البرجية كما كان المماليك البحرية يسمون أيضاً فى أيام الملك الصالح بالحلقة إشارة إلى أنهم كانوا لا يفارقونه فى حله وترحاله، ومازالوا على هذا الحال حتى عظم أمرهم واشتد بأسهم وظهرت كلمتهم وهابهم الأمراء لتمكنهم من مناصب الدولة وأمور المملكة وتزلف السلاطين إلى كبارهم وأدنوهم خوفاً من بطشهم وأخذوا برأيهم وعملوا بمشورتهم فسادوا وأمروا وفازوا واشتهروا وظهر من بينهم برقوق اليلبغاوى العمرى الذى تقدم الكلام عنه واشتهر أمره واتسعت كلمته وخضع له كبار الدولة وأمراء المملكة فتصرف فى جميع الأمور تصرف المستبد وركب فى دست السلطنة فى أيام الملك المنصور وفى سلطنة أخيه الملك زين الدين حاجى ومازال على هذا الحال من الرفعة والسودد وعلو الكلمة حتى تمكن ورسخت قدمه وخلع السلطان الملك الصالح زين الدين واستبد بالملك وطلب من الخليفة المتوكل البيعة فبايعه وبايعه القضاة والعلماء والأمراء وكبار الدولة ولقبوه بالملك الظاهر تفاؤلاً بالملك ركن الدين بيبرس البندقدارى، ثم كان من أمره وأمر من جاء بعده من هذه الطائفة ما سيذكر بعد.

(فصل)

(فى الكلام على ما وقع فى أيام هذه الدولة أعنى دولة الجراكسة الثانية إلى انقراضها وزوال ملكها)

لما تمت البيعة للسلطان الملك الظاهر برقوق أحسن السيرة وبالغ فى الاهتمام بشئون البلاد وراحة الرعية ورتب أمور الدولة وأتقن نظام المملكة وحصن الثغور وعمر الأبراج ورمم القلاع وأكثر من العساكر والأجناد وتأهب لقتال تيمورلنك وقد كان تيمورلنك على عزم الزحف على الشام وأخذها والركوب على ديار مصر واستخلاصها من يد السلطان الملك الظاهر فخرج السلطان الملك الظاهر فى أبهة عظيمة وسار من القاهرة فى جيش جرار لقتال تيمورلنك، فلما التقى الجمعان اقتتلا قتالاً عنيفاً فانهزمت جيوش تيمورلنك شر هزيمة وعادت خاسرة وعاد السلطان الملك الظاهر برقوق بجيوشه إلى القاهرة ظافراً غانماً ودخل من باب النصر فى أبهة وأمامه الأمراء ورؤساء الدولة ففرح الناس برجوعه ودقت البشائر ولم يستقر به المقام بالقاهرة حتى سعى أصحاب السعاية بينه وبين الخليفة المتوكل فأعلموه أن الخليفة واطأ جماعة من أهل الفساد على قتله إذا لعب الأكرة وأنه تعاهد مع آخرين على

نصرته واستبداده بالأمر وأن الخليفة يقول: إنه ما فوض إلى السلطان الملك الظاهر برقوق السلطنة إلا كرهاً وإنه لم يسر فى ملكه بالعدل فاستعظم الملك الظاهر هذا الأمر وبث العيون والأرصاد حول الخليفة المتوكل فكبرت الوحشة بينهما وخاف كل من صاحبه وتحفظ فاستدعى السلطان الملك الظاهر بالقضاة والأئمة والعلماء وخاطبهم فى أمر الخليفة وما بدا منه وأعلمهم بخبر الدعاة الذين انضموا إليه ووافقوه على خلع السلطان فأجمعوا على خلع الخليفة وطال الأخذ والرد بينهم أياماً ثم خلعوه وقبض عليه وسجن بقلعة الجبل فى سنة سبع وثمانين وسبعمائة هجرية وقيل بل امتنعوا من إجابة طلب السلطان وقاموا عنه فخلع هو الخليفة بقوته واعتقله بالقلعة ثم طلب عمر بن إبراهيم بن المستمسك بن الحاكم وبايعه ولقبه الواثق بالله وذلك فى رجب سنة خمس وثمانين وسبعمائة، فلما كان ذو القعدة من السنة المذكورة أخرج المتوكل من سجنه فأقام بداره مكرماً لا خوف عليه، وقد كان الخليفة المتوكل المذكور خلع قبل هذا الحين بقليل وذلك أنه لما مات الأشرف وأقيم ولده المنصور عليّ كان الأمير أيتبك البدرى مدبر دولته فوقع بينه وبين الخليفة المتوكل كلام فحقد إيتبك على المتوكل أموراً فطلب نجم الدين زكريا بن إبراهيم ابن ولى العهد المستمسك ابن الخليفة يوم الاثنين رابع ربيع الأول سنة تسع وسبعين وخلع عليه وأقامه خليفة فاستقر بغير مبايعة ولا إجماع ولقب المعتصم بالله، فلما كان العشرون من الشهر المذكور كلم الأمراء أيتبك فيما فعله مع المتوكل ورغبوه فى إعادته إلى الخلافة فأعاده وخلع زكريا فكانت مدة خلافة زكريا خمسة عشر يوماً ولم يتم الشهر على أيتبك حتى اتفق العسكر على خلافه وقاموا عليه فهرب فتبعوه وظفروا به فى تاسع ربيع الآخر من السنة فقيدوه وسجنوه بالإسكندرية ثم كان آخر العهد به فقال فيه شهاب الدين بن العطار:

من بعد عز أذل أيتبكا وانحط بعد السموّ منفتكا
وراح يبكي الدماء منفردا والناس لا يعرفون أين بكى

واستقر الواثق فى الخلافة إلى أن مات حتف أنفه يوم الأربعاء تاسع عشرى شوال سنة ثمان وثمانين وسبعمائة أو سنة سبع وثمانين وسبعمائة فكلم الناس برقوقاً فى إعادة المتوكل إلى الخلافة فأبى وأحضر أخا عمر زكريا الذى كان أيتبك قد ولاه تلك الأيام اليسيرة فبايعه ولقب بالمستعصم بالله فاستقر إلى يوم الخميس ثانى جمادى الأولى سنة إحدى وتسعين وسبعمائة. قال بعض أهل التاريخ: وندم برقوق على ما صنع بالمتوكل فخلع زكريا وأعاد المتوكل إلى الخلافة فركب من يومه فى الدست

وحلف القضاة كلا من الخليفة والسلطان على موالاة الآخر ومناصحته وأقام زكريا بداره إلى أن مات مخلوعاً فى سنة إحدى وثمانمائة هجرية وقرئ تقليد المتوكل فى المشهد النفيسى فى ثامن عشر الشهر بحضرة القضاة والأمراء وقرر له السلطان داراً بقلعة الجبل يسكنها ويركب إلى داره بالمدينة متى شاء، واستمر فى خلافته مهيباً محترماً محبوباً عند الأمراء والوجهاء، وكثرت أولاده كثرة فائقة وأثرى وكثر ماله وهابه الملك الظاهر برقوق لما رأى من طاعة الأمراء له واجتماع رجال الدولة على كلمته والأخذ بمشورته فلم يلبث على مصافاة السلطان الملك الظاهر إلا قليلاً حتى عادت الوحشة بينهما واستحكم النفور واشتد الخلاف فاتحد الخليفة المتوكل مع جماعة من كبار الأمراء وبينهم الأمير يلبغا الناصرى والأمير منطاش على خلع السلطان الملك الظاهر فقاموا عليه وخلعوه من السلطنة وسيروه منفياً إلى قلعة الكرك واستقدموا السلطان الملك الصالح حاجى آخر ملوك دولة المماليك البحرية الذى قد كان خلعه برقوق على ما تقدم بيانه فحضر وبايعوه فى السادس من جمادى الآخرة سنة إحدى وتسعين وسبعمائة ولقب بالملك المنصور واتسعت كلمة منطاش وكبرت صولته وتاقت نفسه إلى الملك فركب فى سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة على بعض الأمراء وقتلهم وأمسك الناصرى مع جماعة من الأمراء وسيرهم إلى الاسكندرية وألقاهم فى السجن وأرسل إلى بزلار نائب دمشق من أمسكه وقتله وأقام بدله فى نيابة دمشق الأمير جنتمر أخا الأمير طاز وسير إلى قلعة الكرك من يقتل السلطان الملك الظاهر برقوق وكان المرسل ممقوتاً عن أهل الكرك فلما علموا بخبر مجيئه قاموا عليه وقتلوه وأطلقوا السلطان الملك الظاهر برقوق فسار برقوق إلى دمشق فى نفر من أصحابه فخرج إليه صاحب دمشق بالعساكر الشامية فانتصر عليهم برقوق نصرة عظيمة ونزل بقبة يلبغا وحاصر دمشق وضيق عليها وشدد وتوجه إليه نائب حلب المدعو كمشبغا بعساكر حلب ناصراً له واجتمع إليه أيضاً كل من كان قد تفرق عنه فكبرت جموعه وجاءت الأخبار بذلك إلى منطاش بالقاهرة فخرج إليه منطاش بالسلطان والعساكر المصرية والخليفة والقضاة وقرب من الشام والتقى الجمعان بناحية شقحب فانتصر البعض من الفريقين وانكسر البعض ولم يعلم أحدهما حال الآخر فولى كمشبغا هارباً نحو حلب وولى منطاش نحو دمشق ولم يشعر السلطان الملك الظاهر برقوق بنفسه إلا وهو على مخيم السلطان الملك المنصور حاجى فنزل فى الحال عن فرسه وأمسك الملك المنصور وقيده وجلس هو على كرسى السلطنة وصار كل من يحضر من الفريقين يجده جالساً فى دست السلطنة فلا يسعه إلا النزول

وتقبيل الأرض بين يديه فلما كان اليوم الثانى خرج منطاش فيمن بقى من عسكر مصر والتقى الجمعان وتناوشا قليلاً، ثم رجع كل إلى مقره وسار السلطان الملك الظاهر برقوق من ليلته قاصداً مصر ومعه جماعة من عسكر حلب والعسكر الشامى والمصرى ووصل إليها فوجد مماليكه قد خرجوا جميعاً من الحبوس وأمسكوا أعوان منطاش والعاملين معه ومنطاش بدمشق فدخل السلطان الملك الظاهر برقوق مصر فرحاً مطمئناً وأطلق جميع الأمراء الذين حبسهم منطاش.

وأما منطاش فإنه لما بلغه خبر وصول السلطان الملك الظاهر برقوق إلى مصر وماجرى فيها أرسل أميرا اسمه تمنتمر الموساى إلى حلب نائبا وحاصروا كمشبغا فى قلعتها وجاء الخبر بذلك إلى السلطان برقوق فجهز عسكرا عظيما من مصر ومقدمهم الأمير يلبغا الناصرى وسير معه الأمير الجوبانى نائبا بدمشق وقرادمرداش نائبا بطرابلس فلما أحس منطاش بقدومه هرب من دمشق وبلغ ذلك تمنتمر وهو يقاتل من بحلب فهرب أيضا وخرج الناصرى والجوبانى ومن معهما من العساكر من دمشق فى أثر منطاش وهو منضم إلى نعير بن جبار وعنقا فحصلت بين الفريقين وقعة عظيمة للغاية على مدينة حمص قتل فيها الجوبانى وجماعة من الأمراء وعاد الناصرى إلى دمشق فجاءه تقليد نيابتها وبلغ ذلك كمشبغا نائب حلب فأخذ فى عمارة سورها ولم تكن عمرت من عهد طاذان ووصل منطاش ونعير وعنقا فى جيش جراروناز لوا حلب وحاصروها فى شهر رمضان فلم يتمكنوا منها ورجعوا عنها خاسئين، وأرسل السلطان الملك الظاهر برقوق فى طلب الأمير كمشبغا فحضر إلى مصر فولاه بها أميرا كبيرا واستقر عوضه قراد مرداش بولاية حلب، ولم ينكف منطاش عن شن الغارة كل قليل من الزمن على البلاد الشامية وكثر عبثه وفساده فكبر أمره على السلطان برقوق وخرج فى جيش عظيم يريد الشام وبلغ ذلك منطاش فهرب نحو الشرق وقدم السلطان دمشق واستصحب معه الناصرى وسارا إلى حلب وأقاما بها أياما ثم عاد إلى دمشق وفى ليلة عوده قتل يلبغا الناصرى وجماعة من الأمراء بقلعة الجبل وأخذ معه قرادمرداش وقرر عوضه فى حلب الأمير سيف الدين بطا الدوادار وسار فى عسكره يريد مصر فدخلها فى سنة أربع وتسعين وسبعمائة وفى قلبه غصة لعدم ظفره بمنطاش وإراحة البلاد منه فلم يمض على وصوله إلا القليل حتى جاءه الخبر بمسير منطاش إلى نعير بن جبار ونزوله عليه طنيبا فأرسل السلطان برقوق ووعد نعيرا بإعادة الأميرية إليه ومناه حتى سلم منطاش فسيره السلطان مع جماعة إلى قلعة حلب فقتل به وأحضر رأسه إلى القاهرة وعلق بباب

زويلة وعاد السلطان فنكث وعده لنعير وأرسل يوبخه ويعيره بأنه خان ذمة العرب ولم يوله الأميرية فندم نعير على ما صنعه بمنطاش وتمكن السلطان الملك الظاهر من السلطنة وثبتت قدماه فى منصبها فهابه الناس وكبرت شهرته وتقرب منه الأمراء والملوك وأهدى له الأمير يوسف بن قرا محمد أمير التركمان بالشرق مدينة تبريز وبعث إليه بمفاتيحها مع بعض كبار قومه فأرسل إليه برقوق خلعة سنية وفوض إليه الغزو وفتح ما تمكن من فتحه من المدن والأمصار ففرح قرا يوسف بذلك وجيش جيشا عظيما وخرج للغزو وقتال التتار فركب عليه تيمورلنك فى عسكر جرار وقاتله فانتصر عليه تيمورلنك نصرة عظيمة ومزق عساكره كل ممزق فسار قرا يوسف ومعه أحمد بن عويس وهو ممن كان حالفه على قتال التتار إلى قسطنطينية مستجيرين بالإمبراطور منول فلم ينجدهما ولم يسمح لهما بالبقاء فى بلاده خوفا من تيمورلنك لاسيما وقد كانت الإمبراطورية كلها فى ضعف واختلال بأسباب الحوادث المتراكمة وهجمات السلطان بايزيد رابع سلاطين آل عثمان على معظم إيالات المملكة الرومانية الشرقية وضم الكثير منها إلى أملاكه وقربه من مقر الإمبراطورية لولا قيام تيمورلنك من خلفه فى عسكر كبير ومنعه من التقدم إلى القسطنطينية، ولما لم يتمكن قرا يوسف وأحمد بن عويس من البقاء فى جوار منويل الإمبراطور جاء إلى مصر فى نحو سنة خمس وتسعين مستجيرين بالسلطان الملك الظاهر برقوق فأحسن برقوق وفادتهما وأنزلهما منزلا رحبا ولبثا عنده أياما وكان تيمورلنك والسلطان بايزيد التركى يتمنى كل منهما فتح ديار مصر ونزعها من يد دولة المماليك الثانية فعمد كل منهما إلى إرسال وفد إلى برقوق فتقدم وفد بايزيد إلى برقرق فى معاهدتهم على السلم وإلى الخليفة المتوكل على أن يقرهم على ما بيدهم من سلطنة الأناضول فأجابهم إلى ذلك أما سفراء تيمورلنك فإنهم أغلظوا فى القول وسألوه تسليم قرا يوسف وأحمد بن عويس فطيب برقوق خاطرهم ولاطفهم فلم يزدادوا إلا عتوّا فأمر بهم فقتلوا جميعا فشق ذلك على تيمورلنك واستعظمه وسار فى جيش عظيم إلى مصر آخذًا بالثأر فمر بالرها ففتحها وأعمل السيف فى أهلها تشفيا وانتقاما فأهلك منها خلقا كثيرا ثم جاء إلى حلب فأنكى فيها فخشى السلطان برقوق العاقبة وخرج من القاهرة فى عسكر عظيم وصحبته السلطان أحمد بن عويس يريد دفع تيمورلنك عن البلاد فلما وصل إلى دمشق خلع على السلطان أحمد المذكور وجهزه بشعاره ذلك وسيره إلى بغداد فأخذها وضرب السكة باسم السلطان برقوق وجعل السلطان برقوق يتأهب لصد تيمورلنك ويكثر من جمع الأسلحة والكراع إلا

أن المنية أدركته قبل أن يتم له الأرب فمات بداء الصرع فى يوم الجمعة خامس عشر شوال سنة إحدى وثمانمائة هجرية وعمره ستون سنة فحزن عليه الناس حزناً عظيماً لعدله ورفقه بالرعية وقد أبطل فى أيامه المكوس عن الفاكهة والأثمار التى كانت ترد من طريق بولاق وكان كثير الصدقات محبا للعلم والعلماء بنى مدرسة عظيمة وسماها المدرسة الظاهرية وابتنى جامعا لايزال إلى يومنا ظاهرا معروفا بجامع برقوق وكان له ولع باقتناء الأسلحة وجياد الخيل والاستكثار من المماليك الجراكسة وكان كثير العناية بأمور الدولة وتنظيم المملكة .

ولما مات السلطان الملك الظاهر برقوق المذكور بايعوا بالملك ابنه فرج زين الدين الملقب بأبى السعادات وله من العمر يومئذ ست وعشرون سنة ولقبوه بالملك الناصر فلما كانت سنة ثلاث وثمانمائة وردت الأخبار إلى الملك الناصر بتأهب تيمورلنك للزحف على ديار مصر والشام فإنه لما عاد من أخذ بلاد الهند بلغه وفاة السلطان الملك الظاهر برقوق فاستبشر لذلك وأنعم على مخبره بجملة تحف وكان فى نفسه منه لقتله رسله ومن أخذ السلطان بايزيد خان مدينة سيواس عقب موت صاحبها القاضى برهان الدين سنة ثمان وتسعين وسبعمائة مع ملطية وأخذ السلطان أحمد بن عويس بغداد فقصد بلاد الشام ومعه من العساكر ما لا يكاد يحصى. قال أبو الوليد محمد بن الشحنة الحنفى: أخبرنى الحافظ الخوارزمى أن بديوان عساكر تيمورلنك المختصة به ثمانمائة ألف وأنه اجتاز على سيواس وحاصرها وأخذها بعد أن حلف لأهلها أن لا يضع فيهم السيف فلما تمكن منهم حفر لهم حفائر ودفنهم فيها أحياء ثم أحرق البلد وأخربها وتوجه نحو البساتين فوجد أهلها قد أخلوها فأحرقها وخربها ثم توجه إلى ملطية فهرب من كان بها فأخذها وخربها ثم اجتاز بهنى فحصرها ونصب عليها المنجنيق وهدم بعض قلعتها ثم أخذها صلحا. ولما كان يوم الخميس تاسع ربيع الأول وصل إلى حلب ونازلها وكان العامل عليها يومئذ المقر السيفى دمرداش الخاصكى فأرسل يستنجد فجاءته عساكر دمشق مع نائبها سعيد بن سودون خال الملك الناصر وعسكر طرابلس مع نائبها المقر السيفى شيخ الخاصكى وعسكر حماة مع نائبها دقاق وعسكر صفد وغزة فلما اجتمعوا اختلفت كلمتهم فن قائل ادخلوا المدينة وقاتلوا من الأسوار، ومن قائل اخرجوا إلى ظاهر البلد بالخيام وظلوا على هذا الحال أياما فلما رأى الأمير دمرداش نائب حلب اختلافهم خاف شر العاقبة فأذن للناس فى إخلاء المدينة والتوجه حيث شاءوا فلم يوافقوه على ذلك وضربوا خيامهم ظاهر البلد تلقاء العدو وحضر قاصد تيمورلنك وطلب الاجتماع

بنائب دمشق فأذن له فلما دخل عليه أمر بعض غلمانه فقتلوه قبل أن يسمع كلامه فلما لم يرجع القاصد علم تيمورلنك أنه قتل فنادى فى العسكر بالخروج فخرجوا من خيامهم وزحف بهم على المسلمين فى يوم السبت حادى عشر ربيع الأول وأمامهم الفيلة فزعر المسلمون وخافوا وولوا نحو المدينة وازدحموا على الأبواب فمات منهم خلق عظيم والعدو وراءهم يأسر ويقتل بحد السيف وأخذ تيمورلنك البلد عنوة فصعد نواب المملكة وخواص الناس إلى القلعة، وكان أهل حلب قد أودعوا غالب أموالهم بها فحاصر القلعة وشدد عليها وضيق فلما كان يوم الثلاثاء رابع عشر ربيع الأول، أخذها بالأمان والأيمان مجردة عن الذمة والأيمان فدخلها العسكر ولبثوا بها يومين اثنين ثم غدروا بكل من فيها وأمر فنقلوا جميع ما كان بها من الأموال والأقمشة والأمتعة مما لا يحصى وعاقب أغلب المسلمين بأنواع العقوبات وحبسهم بالقلعة ما بين مقيد ومزنجر ومسجون ومرسم عليه ثم نزل تيمورلنك من القلعة إلى دار النيابة وصنع وليمة على زى المغل فوقف سائر الملوك والنواب فى خدمته وأدار عليهم كؤوس الخمر فشربوا وطربوا فى ذلك اليوم والمسلمون فى عقاب وعذاب وقتل وسبى وجوامعهم ومدارسهم وبيوتهم فى هدم وحرق وتخريب ونبش إلى آخر شهر ربيع الأول فركب تيمورلنك فى عسكره وسار نحو دمشق وقد أقام على حلب نائبا اسمه الأمير موسى فلما جاءت الأخبار إلى الملك الناصر بمسير تيمورلنك إلى دمشق خرج من القاهرة فى عسكر كثير وسار نحو دمشق لقتال تيمورلنك فالتقى الجمعان وانتشبت الحرب بينهما فكانت سجالا ثم وقعت الهزيمة على الملك الناصر ومزقت عساكره كل ممزق فعاد إلى القاهرة ليجمع ما تفرق منهم ويعود لقتال تيمورلنك فبلغه أن تيمورلنك قد اشتغل عنه بقتال السلطان بايزيد ابن السلطان عثمان التركى ففرح بذلك واستبشر، وكان تيمورلنك لما وصل إلى قراباغ بلغه أن بايزيد سار إلى أرزنكان وأخذها فعظم ذلك على تيمورلنك واستكبره وسار فى عسكره إلى بلاد السلطان بايزيد يريد أخذها فخرج عليه السلطان بايزيد والتقى الجمعان بانكورية وحصل بينهما قتال شديد فدارت الدائرة على السلطان بايزيد وسقط أسيرا فى يد تيمورلنك وبقى عنده مأسورا إلى أن مات واستولى تيمورلنك على غالب بلاده وجهز قصاده إلى السلطان الملك الناصر صاحب مصر يطلب منه أميرا من أمرائه اسمه الطنذى كان قد أمسكه من عدة سنين قرا يوسف وجهزه إلى الملك الظاهر برقوق وبقى فى مصر إلى ذلك الحين فخاف السلطان الملك الناصر من ذلك وخشى شر العاقبة وترددت الرسل بين تيمورلنك وبينه فى تقرير قاعدة

للصلح ومازالوا حتى انعقدت بينهما مودة ومهادنة فأرسل السلطان الملك الناصر إلى تيمورلنك زرافة حبشية فأهداه تيمورلنك فيلا وتتابعت رسائل المودة بين الفريقين فظن الناس خضوع السلطان الملك الناصر إلى تيمورلنك واعترافه بالمبايعة إلى دولة التتار فتخوفوا من ذلك وانقبضت نفوسهم وانحرفت خواطرهم على الناصر وأحس هو منهم بذلك فانكمش وتحرز وأبعد عنه كثيرا من الأمراء ومقدمى الأجناد وكبرت الوحشة بينهم وبينه، واتفق أن قصر النيل فى سنة ست وثمانمائة هجرية ثم شرقت البلاد فدهى أهل الصعيد من ذلك بما لا يوصف واشتد القحط وكثر الموت فى الناس والدواب فمات فى مدينة قوص وحدها جوعا زهاء سبعة عشر ألفا ومات فى أسيوط أحد عشر ألفا ومات نحو ذلك وأكثر فى مدن أخرى واشتد الكرب وعم الخطب وطالت الشدة أياما فزاد بغض الناس للملك الناصر واعتقدوا أنه ما وقع لهم ذلك إلا لتقرب الناصر من تيمورلنك وخضوعه لدولة التتار ثم ارتفع الموت عن الناس وكثر الوارد من الحبوب والأقوات ففرحوا بذلك وجاءت الأخبار بموت تيمورلنك فى السابع عشر من شعبان سنة سبع وثمانمائة فزاد فرحهم واطمأن جاش السلطان الملك الناصر وهم باسترجاع ما أخذه تيمورلنك من البلاد الشامية وطمع فى ذلك لما تحقق من وقوع الفتنة بين أولاد تيمورلنك واختلال نظام مملكة أبيهم فأخذ يجيش الجيوش ويكثر من جمع الأسلحة والكراع بدون مشورة الأمراء ومقدمى العساكر فأغضبهم ذلك منه وانضموا إلى أعدائه من بقية الأمراء المبعدين فلما حانت لهم الفرص ركبوا وضيقوا عليه فى قصره وقام معهم العامة والغوغاء وكثر صياحهم حول القصر وبالغوا فى سبه ورميه بالخيانة وعدم الصلاحية للملك وعقد جماعة من الأمراء لواء وساروا به إلى حيث الأمير عز الدين عبد العزيز أخى الناصر وأركبوه وساروا فى زكابه إلى قصر الملك الناصر فحاصروه وضيقوا عليه وذلك فى السادس عشر من ربيع الأول سنة ثمان وثمانمائة فلما رأى الناصر أنه مأخوذ لا محالة تنازل عن السلطنة وخلع نفسه منها فرضوا بذلك وانصرفوا عنه فخرج من قصره واختفى عند بعض خواصه فظن الناس يومئذ أنه قتل بين الغوغاء وأتموا البيعة لأخيه عز الدين عبد العزيز المذكور ولقبوه بالملك المنصور فكانت سلطنة الملك الناصر ست سنين وخمسة أشهر وأحد عشر يوما، ولما استقر المنصب بالسلطان الملك المنصور عبد العزيز جعل يتصرف فى الأمور ويدنى قوما ويقصى آخرين ثم أساء السيرة فأبغضه الناس وندم الأمراء على مافعلوه بأخيه الناصر فاتصل ذلك بالناصر فخرج من مخبئه وشاع خبر ظهوره وتقدم إليه الأمراء فى أن يعود إلى السلطنة فأجابهم إلى ذلك فولوه المنصب فى جمادى الآخرة من السنة فلما قبض على زمام الأمور أمسك أخاه عز

الدين ونفاه إلى الإسكندرية فقتل بها فى السابع من ربيع الآخر سنة تسع وثمانمائة وقيل سنة ثمان وثمانمائة فكانت سلطنته شهرين غير كاملين.

ولم يكن الخليفة المتوكل على الله ليتعرض إلى شيء من أمور السلطنة فى كل هذه المدّة بعد الذى جرى له مع السلطان الملك الظاهر برقوق بل كان منعكفا على أشغاله الخصوصية مع هيبة ووقار وشهرة، مطاع الأمر، مسموع الكلمة حتى مات ليلة الثلاثاء عشرى رجب سنة ثمان وثمانمائة هجرية. قال أصحاب التاريخ: وهو أول من أثرى من خلفاء مصر وكثر ماله ورزق أولادا كثيرة يقال إنه جاء له مائة ولد ما بين مولود وسقط ومات عن عدة أولاد ذكور وإناث ولى الخلافة منهم خمسة ولا نظير لذلك وتولى الخلافة من إخوته أربعة واتفق للمتوكل هذا أن عاد إلى الخلافة بعد خلعه مرتين ولم يقع ذلك لأحد فيما تقدم إلا للمقتدر فقط، وذكر الحافظ بن حجر فى أنباء الغمر أن مولد المتوكل كان فى سنة نيف وأربعين وسبعمائة وأنه لما تسلطن برقوق المرة الأولى حسن له جماعة من أهل الدولة وغيرهم طلب الملك فكاتب الأمراء والعربان مصرا وشاما وعراقا وبث الدعاة فى الآفاق فبلغ ذلك برقوق فخلعه وسجنه فخرج يلبغا الناصرى على برقوق بسبب ذلك فأفرج عنه برقوق وأعاده إلى الخلافة وفرح الناس به فرحا عظيما. قال فلما انتصر الناصرى وزالت دولة برقوق قال الناصرى للخليفة بمحضر من الأمراء: يامولانا أمير المؤمنين ماضربت بسيفى هذا إلا فى نصرتك وبالغ فى تعظيمه وتبجيله فتبرم المتوكل من الدخول فى الملك وأشار بإعادة حاجى بن شعبان، وكان المتوكل قد عهد بالخلافة لولده أحمد ولقبه المعتمد على الله ثم خلعه وعهد إلى ابنه أبى الفضل العباسى فاستقر فى الخلافة بعده كما سيذكر فى محله ولقب المستعين بالله فكانت خلافة المتوكل المذكور نحوا من خمس وأربعين سنة ومات فى أيامه كيرلس بطرك المتأصلين بعد أن أقام سبع سنين وقد وقعت فى أيامه شدّة عظيمة قاسى فيها النصارى من البلايا والمحن ما لا يكاد يدخل تحت الحصر وكبر الأمر على كيرلس البطرك وعظم الخطب فكان صبورا وقورا عظيم العناية بالأمة. فلما مات خلا الكرسى بعده ثمان سنوات، ثم أقيم بعده ابن القس أبو المكارم بن كليل الشماس المصرى وسمى اثناسيوس وهو سادس سبعيهم فأقام إحدى عشرة سنة ومات ولم يقع فى أيامه من الحوادث شيء فاختاروا بعده شماسا اسمه غبريال أصابته القرعة فنقم عليه جماعة واختاروا آخر اسمه يوحنا فوقعت لذلك بينهم الشحناء فاشتد اللدد وطال الخصام وعمل كل فريق على نصرة صاحبه وتقوى أصحاب يوحنا وثبتت قدمهم فتمكنوا من

إقامته بطركا فكان سابع سبعيهم وأقام ست سنين وتسعة أشهر كلها منافسة ومعاكسة وخصام ثم قاموا عليه وخلعوه وسجنوه بإحدى الديارات وولوا غبريال مكانه فأقام ستين وشهرين كانت الفتنة فى خلالهما لا تخمد نارها ولا ينطفئ أوارها وكان المتأصلون لذلك على طرفى نقيض وقد نادى بينهما منادى القلق الدائم والكمد الملازم ثم عاد أصحاب يوحنا فتغلبوا وظفروا وقاموا على غبريال فخلعوه وسجنوه وأخرجوا يوحنا من معقله وأعادوه إلى منصب البطريكية ثانية فعد ثامن سبعيهم. قال بعض كتاب الأخبار: وكان يوحنا هذا رجلا جليل القدر وقورا واسع العلم والمعرفة فلما استقر به المنصب دبر الأمور فأحسن التدبير وعمل على إزالة الوحشة من بين الأحزاب وبالغ فى التلطف مع الحزم ففاز ونجح ومالت إليه القلوب واتحدت على محبته الخواطر فعظمت شهرته واتسعت كلمته وطالت أيامه وكان من الحوادث فيها ما سيذكر فى محله.

(الفصل الثامن)

(فى خلافة أبى الفضل المستعين بالله ابن المتوكل)

ثم قام بالأمر بعد الخليفة المتوكل على الله ابنه أبو الفضل العباسى بويع له به فى ثانى يوم وفاة أبيه سنة ثمان وثمانمائة هجرية أى سنة خمس وأربعمائة وألف ميلادية ولقب بالمستعين بالله فلما استقرت به الخلافة أدنى منه جميع الأمراء وتحبب إلى رجال الدولة واستمال إليه العامة فمالوا إلى محبته ودانت له الأمور واجتمع الناس على طاعته وبقيت الأحوال ساكنة والخواطر مطمئنة إلى سنة ثلاث عشرة وثمانمائة فوقعت فتنة عظيمة بين السلطان الملك الناصر فرج وبين شيخ المحمودى أحد كبار الأمراء فخرج عليه شيخ وشق عصا طاعته وكان شيخ المذكور أحد مماليك الملك الظاهر برقوق المقربين إليه وكان جليل القدر عالما داهية واسع المعرفة والتدبير شدد فى معاداة الملك الناصر ورماه بالكفر والزندقة والانحلال وتقرب من كبار الأمراء واستمالهم إلى مذهبه فوافقوه عى خلع الناصر وتوليته من يأهل لمنصب السلطنة فكاشف الخليفة المستعين بالله بما فى نفسه وحبب إليه الملك وأعلمه أن الأمراء والناس كافة ميالون إلى مبايعته فمال الخليفة إلى السلطنة وتاقت نفسه إليها وجعل شيخ المحمودى يراقب الفرص للإيقاع بالناصر فاتفق خروج الناصر من مصر إلى الشام ترويحا للنفس فلم يستقر به المقام بدمشق حتى سير إليه الأمير شيخ من

يستقدمه إلى مصر ويسأله التنازل عن الملك طوعا قبل أن يحل به العطب فأكبر الناصر هذا الأمر وأعظمه وقبض على رسول الأمير شيخ وسجنه ونادى فى عسكر الشام بالخروج إلى مصر وجاءت الأخبار بذلك إلى الأمير شيخ فاستعدّ للقائه واشتد على الخليفة فى خلعه وقد أثبتوا عليه الزندقة والكفر وحكم ناصر الدين بن العديم بسفك دمه، واتفق رأى الأمراء كافة على سلطنة الخليفة المستعين بالله واستقلاله بالأمر فوافقهم الخليفة بعد شدة وتوثق منهم بالإيمان فبايعوه وحلفوا له على الوفاء فلم يغير لقبه وجلس على سرير الملك وقام الكل بين يديه ووردت بعد ذلك الأخبار بقرب السلطان الملك الناصر إلى حدود الديار المصرية فخرج الأمير شيخ فى عسكر عظيم ومعه الخليفة المستعين وجماعة من أكابر الأمراء فدخلوا الشام بغير قتال وجعل الخليفة يتصرف فى الأمور فقرر الأمير بكتمر جلق على نيابة الشام وقرقماس فى نيابة حلب وسودون الجلب فى نيابة طرابلس وجعل الأمير شيخ والأمير نوروز فى ركابه يدبران الأمر ونادى منادى الخليفة: ألا إن فرج بن برقوق قد خلع من السلطنة ومن حضر إلى أمير المؤمنين وابن عم سيد المرسلين فهو آمن فتسلل الناس من الناصر ففر الناصر إلى مدينة حلب فلما علم به أهلها قام أناس منهم على أسواق البلد فنادوا نصر الله أمير المؤمنين فلما سمع الرماة ذلك تخوفوا على أنفسهم ولم يغيبوه وقبضوا على الناصر وقتلوه بحكم ابن العديم فى الخامس والعشرين من المحرم افتتاح سنة خمس عشرة وثمانمائة هجرية وكتب المستعين إلى القاهرة باجتماع الكلمة إليه وعزل الجلال البلقينى فأغضبه وفعل معه بعد ذلك ما فعل ثم أرسل المستعين كتابا ثانيا إلى من القاهرة من الأعيان فأرسل إلى الجامع الطولونى فقرأه خطيبه ابن النقاش على المنبر، ثم أرسل إلى الجامع الأزهر فقرأه خطيبه الحافظ بن حجر على المنبر وصدرت الكتب منه أيضا إلى أمراء التركمان والعربان والعشير فكان مفتتحها، من عبد الله ووليه الإمام المستعين بالله أمير المؤمنين، وخليفة رب العالمين، وابن عم سيد المرسلين، المفترضة طاعته على الخلق أجمعين، أعز الله ببقائه الدين إلى فلان ثم سار بالعسكر المصرى ومن انضم إليه أيضا من العساكر الشامية إلى القاهرة فدخلوا فى يوم الثلاثاء ثانى ربيع الآخر من السنة بعد أن تلقاهم الناس إلى قطيا والصالحية وبلبيس وحصل للناس من الفرح بذلك ما لا مزيد عليه وشق الخليفة القاهرة والأمراء بين يديه إلى قلعة الجبل فنزل بها ونزل الأمير شيخ الإسطبل بباب السلسلة فلما كان الثامن عشر من ربيع الآخر صعد الأمير شيخ والأمراء كافة إلى القصر وجبس الخليفة على تخت الملك فخلع على الأمير شيخ خلعة عظيمة بطراز لم يعهد مثلها وفوّض إليه أمر المملكة بالديار المصرية فى جميع الأمور وكتب له أن

يولى ويعزل من غير مراجعة وأشهد عليه بذلك ولقب نظام الملك فكان الأمراء إذا فرغوا من الخدمة بالقصر نزلوا فى خدمة الأمير شيخ إلي الإسطبل فأعيدت الخدمة إليه ليكون عنده الإبرام والنقض ثم يتوجه دواداره إلى الخليفة المستعين فيعلم على المنشورات والتواقيع وظل الحال على ذلك حينا وقد نودى فى الناس برفع المظالم والمكوس وغير ذلك مما أثقل الرعية فأحب الناس الخليفة المستعين جدا ومالوا إليه بقلوبهم وعمل الحافظ أبو الفضل ابن حجر فى المستعين قصيدته المشهورة التى مطلعها :

الملك أصبح ثابت الأساس بالمستعين العادل العباسى

فلما كان فى شعبان سنة خمس عشرة وثمانمائة أمر الأمير شيخ دواداره أن لا يمكن الخليفة المستعين من كتابة العلامة إلا بعد عرضها عليه ففعل الدوادار ذلك فاستوحش الخليفة وضاق صدره وراجع الأمير شيخ فى ذلك فلم يلتفت إليه وسأله أن يفوّض إليه السلطنة على العادة فأجابه الخليفة بشرط أن ينزل من القلعة إلى بيته فلم يوافقه شيخ على النزول بل استنظره أياما فلم يفوّض إليه السلطنة فقام عليه ونقله من القصر إلى دار من دور القلعة ومعه أهله ووكل به من يمنعه الاجتماع بالناس فكتب المستعين إلى الأمير فيروز سرا يستنجده وكان يومئذ واليا على دمشق من قبل المستعين فأسرع لنجدته فى جيش عظيم للغاية فلما بلغ القاهرة جمع فى سابع ذى القعدة العلماء والقضاة واستفتاهم عما صنعه الأمير شيخ بالخليفة المستعين فأفتوه بعدم جواز ذلك فأجمع على قتال الأمير شيخ فاستمر الخليفة المستعين بالقلعة إلى ذى الحجة سنة ست عشرة وهو باق على الخلافة وتقررت قاعدة الصلح بينه وبين الأمير شيخ فعاد فيروز بعسكر الشام إلى دمشق وسكنت الفتنة بعد ذلك أياما قلائل، وعزم الأمير شيخ على الشخوص إلى الشام بعد رجوع الأمير فيروز فخاف من المستعين وخشى غائلته فراجع البلقينى فى أمره وكاشفه بما فى نفسه وكان فى نفس البلقينى من الخليفة المستعين شيء لكونه عزله من منصبه كما سبقت الإشارة إليه فأقام له دعوى شرعية وحكم بخلعه من الخلافة فخلع قهرا وسير إلى الإسكندرية فأقام بها مخلوعا إلى أن مات بالطاعون فى جمادى الآخرة سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة هجرية فكانت خلافته نحوا من أربع سنين وكانت مدة جلوسه على تخت السلطنة سبعة أشهر وخمسة أيام وأقاموا بعده أخاه أبا الفتح داود .

(الفصل التاسع)

(فى خلافة أبى الفتح داود المعتضد)

ثم قام بالأمر بعد المستعين أخوه أبو الفتح داود بويع بالخلافة يوم خلع أخيه سنة ست عشرة وثمانمائة هجرية أى سنة ثلاث عشرة وأربعمائة وألف ميلادية فلم يكن له فى أمور المملكة كلمة ولا رأى والأمر للأمير شيخ المحمودى فإنه بعد أن عاد من الديار الشامية وقد قرر أمورها على ما شاء قبض على زمام الملك واستبدّ بالمنصب فأحسن السياسة واستمال إليه الرعية وحذوا حذو الخليفة المستعين فى إبطال المكوس والمغارم والرفق بالرعية فأحبه الناس واجتمعت إليه القلوب وأمنت الرعية وسعدت البلاد ودرّت الأرزاق ورخصت الأقوات وكثر الوارد منها وأمنت الطرق واختفى أهل الفساد وأرباب الشقاوة. قال المقريزى: وأنشأ جامعه المشهور بجوار باب زويلة من داخله حيث كانت خزانة شمائل وأول ما ابتدئ به فى أمر هذا الجامع أن رسم فى رابع شهر ربيع الأول سنة ثمان عشرة وثمانمائة بانتقال سكان قيسارية سنقر الأشقر التى كانت تجاه قيسارية الفاضل ثم نزل جماعة من أرباب الدولة فى خامسه من قلعة الجبل وابتدئ فى الهدم فى القيسارية المذكورة وما يجاورها فهدمت الدور التى كانت هناك فى درب الصفيرة وهدمت خزانة شمائل فوجد بها من رمم القتلى ورؤوسهم شىء كثير إلى أن قال: وكان السبب فى اختيار هذا المكان دون غيره أن السلطان يريد المؤيد شيخ المحمودى حبس فى خزانة شمائل هذه أيام تغلب الأمير منطاش وقبضه على المماليك الظاهرية فقاسى فى ليلة من البق والبراغيث شدائد فنذر لله تعالى إن تيسر له ملك مصر أن يجعل هذه البقعة مسجدا لله عزوجل ومدرسة لأهل العلم فاختار لذلك هذه البقعة وفاء بنذره إلى أن قال وفى يوم الخميس سابع عشر شوال نقل باب مدرسة السلطان حسن بن محمد بن قلاوون والتنور النحاس المكفت إلى هذه العمارة وقد اشتراهما السلطان بخمسمائة دينار وهذا الباب هو الذى عمل لهذا الجامع وهذا التنور هو التنور المعلق تجاه المحراب إلى أن قال: وبلغت النفقة على الجامع إلى أخريات شهر رمضان هذا سوى عمارة الأمير فخر الدين زيادة عن سبعين ألف دينار وتردد السلطان إلى النظر فى هذا الجامع غير مرة فلما كان فى أثناء شهر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين ظهر بالمئذنة التى أنشئت على بدنة باب زويلة التى تلى الجامع اعوجاج إلى جهة دار التفاح فكتب محضر بجماعة المهندسين أنها مستحقة للهدم وعرض على السلطان فرسم بهدمها فوقع

الشروع فى الهدم يوم الثلاثاء رابع عشريه واستمر فى كل يوم فسقط يوم الخميس سادس عشريه منها حجر هدم ملكا تجاه باب زويلة هلك تحته رجل فغلق باب زويلة خوفا على المارة من يوم السبت إلى آخر يوم الجمعة سادس عشرى جمادى الأولى مدة ثلاثين يوما، قال: ولم يعهد وقوع مثل هذا قط منذ بنيت القاهر أهـ.

ومات السلطان الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودى المذكور فى يوم الاثنين ثامن المحرم افتتاح سنة أربع وعشرين وثمانمائة هجرية فكانت سلطنته ثمان سنين وخمسة أشهر وستة أيام كلها راحة واطمئنان وإسعاد على الرعية فقام بعده ابنه السلطان الملك المظفر شهاب الدين أبو السعادات أحمد وعمره يومئذ سنة ونصف سنة فقام بأمره الأمير ططر فلم يحسن السيرة وأساء التدبير واستبد بالملك وأكثر من السرف والتبذير حتى بذر ما جمعه الملك المؤيد من الأموال وخرج بالمظفر مع حداثته يريد قتال الأمراء بالشام وذلك أنهم لما علموا بموت الملك المؤيد وولاية ابنه المظفر استخفوا به لحداثته وقصدوا الاستبداد بالملك والاستقلال بحكم الديار الشامية فخشى ططر من ذلك وخرج لقتالهم وإرجاعهم إلى الطاعة فسار فى جيش عظيم ومعه السلطان الملك المظفر فلما إلتقى الجمعان اقتتلوا قتالا عنيفا للغاية فظفر بهم الأمير ططر وشردهم وأخضع من بقى منهم وأخذ أموالهم وسبى نساءهم ومازال حتى دانت له الأمور فسار إلى دمشق وفى نفسه ما فيها من حب الاستبداد بالملك فلما استقر به المقام بدمشق قام على الملك المظفر فى شعبان سنة أربع وعشرين وثمانمائة فخلعه وارتقى عرش السلطنة فى يوم الجمعة تاسع عشرى شعبان المذكور فكانت سلطنة الملك المظفر شهاب الدين ثمانية أشهر تنقص سبعة أيام، ولبث ططر بالشام أياما كان يدبر فيها الأمر لنفسه وتلقب بالظاهر وكنى بأبى الفتح وهو من مماليك السلطان الملك الظاهر برقوق وسير الأخبار بسلطنته إلى مصر فتعجب الناس من ذلك حيث لم يكونوا ليتوقعوا ولايته على هذه الصورة ثم سار من دمشق وهو متوعك البدن حتى دخل مصر وصعد إلى قلعة الجبل فى موكب حافل للغاية وأمامه الأمراء وكبار العسكر والجنائب السلطانية فلم يستقر بها حتى ثقل به المرض واشتدّ فمات يوم الأحد رابع عشرى ذى الحجة من السنة فكانت سلطنته ثلاثة أشهر ويومين، فأقيم بعده ولده السلطان الملك الصالح ناصر الدين محمد وعمره نحو عشر سنين فقام بأمره الأمير برسباى الدقماقى وجعل يتصرف فى الأمور فطمعت نفسه فى الملك فقام على الملك ناصر الدين بعد أربعة أشهر وأربعة أيام من ولايته وخلعه وتسلق عرش السلطنة ولقب نفسه بالأشرف سيف الدين وكنى بأبى النصر

وقد كان من مماليك الظاهر برقوق فكان جلوسه على تخت الملك فى يوم الأربعاء ثانى ربيع الآخر سنة خمس وعشرين وثمانمائة هجرية. قال أصحاب التاريخ: وكان فاضلا عالما نحا نحو الملك المؤيد شيخ فى التزام الحزامة والعدل وعدم التهاون فى قضاء مصالح الخلق فأحبه الناس جميعا ومالوا إلى طاعته واجتمعت له القلوب فسعدت أيامه وأمنت الرعية وزالت الفتن وانقطعت أسبابها واختفى أهل الفساد وزاد النيل فى أيامه فعم الأراضى فأخصبت وكثرت غلتها كثرة عظيمة فرخصت الأسعار وشبع الفقراء وكانت له حروب كثيرة مع الفرنجة ووقائع مشهورة فى عدة أماكن وأخضع جزيرة قبرص وألزم الملك لوسبنيان الثالث بالطاعة والخضوع وضرب عليه الجزية فكان أجدر جميع الملوك الشراكسة بالمدح والشكران فقد كان أرفعهم همة وأكبرهم عزيمة وأشدهم حزامة وأقدرهم على سياسة الجمهور وتدبيرالأمور فطالت لذلك أيامه وعاهد ملوك الفرنجة والسلطان مراد سلطان آل عثمان فكبرت لذلك هيبته واتسعت شهرته وارتفعت كلمته وخافه الملوك والأمراء وتزلفوا إليه وهادوه بالهدايا النفيسة، فلما كانت سنة سبع وعشرين وثمانمائة هجرية خرج عليه بنيق النجاشى عامله على دمشق وشق عصا طاعته فسار إليه فى عسكر عظيم وقاتله حتى هزمه وقبض عليه وعلى دعاته فقتل بعضهم وشرد بعضهم وولى الأمير عبد الرحمن مكانه وكان عبد الرحمن هذا زنجيا أسود. قال أصحاب التاريخ: فلم يقع فى أيام السلطان الملك الأشرف المذكور من الحروب والفتن غير هذه الفتنة ولم تلبث أن تلاشت وعادت إليه الأمور بالديار الشامية كما كانت عليه من قبل واستمر يدبر الملك ويعدل فى الرعية إلى أن مات ثالث عشر ذى الحجة سنة إحدى وأربعين وثمانمائة هجرية فكانت سلطنته عشر سنين وتسعة أشهر.

فقام بالأمر بعده ولده يوسف ولقب بالملك العزيز وعمره يومئذ نحو خمس عشرة سنة فقام بأمره الأمير جقمق وسمى نظام الدولة وتسلم مقاليد الأمور فاستبد بها وتصرف حسب هواه وضيق على الملك العزيز فلم يبق له من الملك سوى الاسم فاستعظم الملك العزيز هذا الأمر جدا وجمع مماليكه وشاور كبارهم وأصحاب الرأى منهم فى أمر خلع جقمق من منصبه فوافقوه على ذلك وتجردوا لخلعه فأحس جقمق بما عزموا عليه وتحرز منهم وجمع كبار الأمراء وطوائف العسكر وخرج بهم على الملك العزيز فاقتتلوا أياما اختل فيها نظام الدولة وكثر عبث أهل الفساد وتطاولت أيديهم إلى أموال الناس وكادت الفتنة تعم حتى ظفر جقمق بالملك العزيز فقبض عليه وخلعه وارتقى منصب السلطنة فى التاسع عشر من ربيع الأول سنة اثنتين

وأربعين وثمانمائة فكانت سلطنة العزيز يوسف المذكور ثلاثة أشهر لاغير ولقب جقمق نفسه بالملك الظاهر وقبض على زمام الملك وصار يتصرف فى الأمور فعبث وأكثر من تقرير المغارم وضرب المكوس ولم يهتم بمصالح الرعية فأبغضه الناس وتشاءموا من ولايته ونفرت منه القلوب وظهر الطاعون بالقاهرة ومصر عقب ولايته واشتد الموت فى الناس شدة بالغة ثم عم البلاد ففتك بأهلها فتكا ذريعا فكان الناس يموتون بالأزقة والطرقات ولا يوجد من يدفنهم وطالت أيامه ثم ارتفع ولم ترتفع عن الناس المغارم ولا انكفت عنهم جباة المكوس وأعوان السلطان فكان الخليفة المعتضد بالله فى نكد وكمد بأسباب هذه المحن وما نال الرعية من فعال الملك الظاهر المذكور وكان يئن ويتوجع ويراجع الظاهرى ذلك والظاهر لا يلتفت إليه ولا يزداد إلا تشديدا فى الطلب فمرض الخليفة وثقل به مرضه فكان إذا جاءه أحد الأمراء ليعوده شكى إليه من فعال الظاهر بالرعية وبالغ فى الشكوى وعظم البلوى فلما حضرته الوفاة عهد بالخلافة إلى شقيقه أبى الربيع سليمان ولقب المستكفى بالله وكتب له عهدا بذلك يقول: «بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أشهد على نفسه الشريفة حرسها الله وحماها، وصانها من الأكدار ورعاها، الشريفة الطاهرة الزكية الإمامية الأعظمية العباسية النبوية المتعضدية، أمير المؤمنين، وابن عم سيد المرسلين، ووارث الخلفاء الراشدين، المعتضد بالله تعالى أبو الفتح داود أعز الله به الدين، وأمتع ببقائه الإسلام والمسلمين، أنه عهد إلى شقيقه المقر العالى المولى الأصيلى، العريقى الحسبى النسبى السليلى، سيدى أبى الربيع سليمان المستكفى بالله عظم الله شأنه بالخلافة المعظمة وجعله خليفته بعده ونصبه إماما على المسلمين عهدا شرعيا معتبرا مرضيا نصيحة للمسلمين، ووفاء بما يجب عليه من مراعاة مصالح الموحدين، واقتداء بسنة الخلفاء الراشدين، والأئمةالمحمديين، وذلك لما علم من دينه وخيره وعدالته وكفالته وأهليته واستحقاقه بحكم أنه اختبر حاله وعلم طويته، وأن الذى يدين الله به أنه اتقى لله ممن رآه وأنه لا يعلم أنه صدر منه ما ينافى استحقاقه لذلك وأنه إن ترك الأمر هملا من غير تفويض المشار إليه أدخل إذ ذاك المشقة على أهل الحل والعقد فى اختيار من ينصبونه للإمامة ويرتضونه لهذا الشأن فبادر إلى هذا العدل شفقة عليهم وقصدا لبراءة ذمته ووصول الأمر إلى من هو أهله لعلمه أن العهد كان غير محوج إلى رضا سائر أهله ووجب على من سمعه وتحمل ذلك منه أن يعلم به ويأمر بطاعته عند الحاجة إليه ويدعو الناس إلى الانقياد له فسجل ذلك على من حضره حسب إذنه الشريف وسطر عن أمره قبل ذلك سيدى المستكفى أبى الربيع سليمان المسمى فيه

عظم الله شأنه قبولا شرعيا، ومات الخليفة المعتضد بعد ذلك فى يوم الأحد رابع ربيع الأول سنة خمس وأربعين وثمانمائة هجرية واستقر المستكفى فكانت خلافة المعتضد نحو ثلاثين سنة هلالية .

ومات فى أيام الخليفة المعتضد المذكور يوحنا بطرك المتأصلين بعد أن أقام بطركا تسعا وعشرين سنة فخلا الكرسى بعده سنة ولم يقع فى أيامه من الحوادث شيء يذكر فأقاموا بعده ثاوروسيوس وهو تاسع سبعيهم وأصله من منية ابن خصيب من صعيد مصر واسمه عبدالمسيح وكان راهبا فى دير أبو قانة ولم يقع فى أيامه من الحوادث شيء يذكر.

(الفصل العاشر)

(فى خلافة أبى الربيع سليمان المستكفى باللّه)

ثم قام بالأمر بعد المعتضد شقيقه أبو الربيع سليمان ولقب المستكفى بالله بعهد منه واستقر بالخلافة فى يوم الأحد رابع ربيع الأول سنة خمس وأربعين وثمانمائة هجرية أى سنة إحدى وأربعين وأربعمائة والف ميلادية. قال بعض كتاب الأخبار: وكان من صلحاء الخلفاء وعبادهم صالحا دينا عابدا كثير التهجد والتلاوة كثير الصمت حسن السيرة فلما رآه السلطان الملك الظاهر جقمق على هذا الحال اعتقده وعرف له حقه وأجله وعظم قدره وأحبه ولبثا على الصفاء والمودة حينا من الدهر فلم تقع فى أيامه فتن ولم تقم تلك الإحن التى كانت لا تقعد لها قائمة بأسباب بغض الأمراء بعضهم لبعض وتداخلهم فى أمور السلطنة وأحوال الدولة وميل كل منهم إلى الاستبداد بالأمر والاستقلال بأبهة السلطنة وانكف جقمق عن ضرب المكوس والمغارم على الرعية وأبطل بعضها خوفا من الخليفة فاطمأنت القلوب وسكنت خواطر الفقراء وأمنت الطرق واختفى أهل الفساد ودرّت الأرزاق وكثرت غلات البلاد وشبع الفقراء بعد الجوع وأمنوا بعد الخوف ولم تطل مدة خلافة المستكفى بالله إذ مات ليلة الجمعة سلخ ذى الحجة سنة أربع وخمسين وثمانمائة فكانت مدة خلافته نحو ثمان سنين كلها خير وبركة ولم يعهد بالخلافة لأحد فمشى السلطان فى جنازته إلى تربته وحمل نعشه بنفسه وتسابق الأمراء إلى ذلك وخرج الألوف من الناس أمام جنازته وبكوه بكاءمرا وبايع السلطان الملك الظاهرجقمق بعده أخاه أبا البقاء حمزة ولقب بالقائم بأمر الله.

ومات فى أيام الخليفة المستكفى ثاوروسيوس بطرك المتأصلين فكانت مدته ست سنوات أو نحوا منها وكان ورعا تقيا كثير الصدقات مجتهدا متهجداً ولم يقع فى أيامه من الحوادث شىء يذكر فأقيم بعده يوحنا رئيس دير شهران وأصله من منية ابن خصيب فهو الثمانون عددا لبطاركة الإسكندرية ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله .

(الفصل الحادى عشر)

(فى خلافة أبى البقاء حمزة القائم بأمر الله)

ثم قام بعد بالأمر الخليفة المستكفى أخوه أبو البقاء حمزة فى سلخ ذى الحجة سنة أربع وخمسين وثمانمائة هجرية أى سنة خمسين وأربعمائة وألف ميلادية ولقب القائم بأمر الله وكان شهما صارما أقام أبهة الخلافة وتعرض لأمور السلطنة واستمال إليه جماعة من كبار الأمراء وطوائف القواد فعظمت صولته وكبرت هيبته وتطاولت يده إلى فعل الدسائس وإفساد الأمور على السلطان الملك الظاهر جقمق فأحس السلطان بذلك فأبغضه ومقته وخشى عاقبة فعله وآثر العزلة والتخلى عن الملك على مناواة الخليفة وكان قد ناهز الثمانين فتنازل عن السلطنة لابنه فخر الدين عثمان وصرفه فى سائر الأمور وحذره من فعال الخليفة وكان كثير الحزن والاشفاق على ولده فل تطل بعد ذلك حياته ومات بعد قليل فكانت وفاته فى التاسع والعشرين من صفر سنة سبع وخمسين وثمانمائة فبايع الناس ولده فخر الدين المذكور البيعة العامة فى الحادى عشر من المحرم افتتاح سنة ثمان وخمسين ولقب بالملك المنصور وكانت سلطنة الملك الظاهر جقمق أربع عشرة سنة ونحو عشرة أشهر، ولم يستقر بالملك المنصور المنصب حتى عاد الخليفة القائم بأمر الله إلى دس الدسائس وإيقاظ الفتنة طمعا فى الملك فالتم حوله الدعاة واستفحل أمره وظهرت كلمته واشتد الخصام بينه وبين الملك المنصور وعمل كل على تذليل الآخر فتحزبت الأحزاب وانقسم الناس واختلفت الكلمة وعظمت الفتنة ومازال الرؤساء فى نزاع وخصام والأمر فى شدة واحتدام حتى تمكن الخليفة من خلع السلطان الملك المنصور فى سابع ربيع الأول من السنة فلم تكن مدة سلطنته سوى أحد وأربعين يوما أو أحد وثلاثين ولم يتمكن الخليفة من الاستواء على عرش السلطنة بعد خلع الملك المنصور إذ غادره الدعاة

وانصرف عنه الأحزاب واختاروا مملوكا اسمه أبو النصر اينال وهو شيخ مسنّ فولوه الملك وبايعوه بالسلطنة ولقبوه بالملك الأشرف وذلك ثانى يوم خلع الملك المنصور.

ولما استقرت السلطنة بالملك الأشرف المذكور دبر فأحسن التدبير وساس فأحسن السياسة ونظر فى مصالح الخلق نظرة الصادق الأمين واتخذ الأمير بلجيونى وزيرا ولم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحاط بها فخاف الخليفة منه وخشى أمره وانكف عن المشاغبة ولازم السكون ست سنوات وهو يتوقع فى كل سنة منها موت اينال نظرا لشيخوخته فلم يمت ولما طال عليه الحال وعيل صبره والنفس الأمارة تدفع به إلى ركوب ذلك المركب الخشن قام وأثار الفتنة فأجين بها بلجيونى الوزير فما أعلم السلطان حتى خرج الجند على الأشرف وخرج الخليفة معهم فقام عليهم الأشرف فى مماليكه وخواصه وقاتلهم قتالا عنيفا وظفر بهم وشرد الكثير منهم ومزقهم كل ممزق وأرجع من بقى منهم إلى الطاعة وأرسل فى طلب الخليفة فى قلعة الجبل فصعد بعد إقدام وإحجام فلما دخل عليه عاتبه وأغلظ معه القول وزاد فى الغلظة فغضب الخليفة وقال للأشرف، ما بالك قد خلعت نفسى وعزلتك؟ وكان ذلك غلطا منه، فقال قاضى القضاة علم الدين البلقينى: وكان حريصا على جر الخلافة إلى أخى الخليفة يوسف لكونه زوج ابنته قد بدأ بخلع نفسه فانخلع وثنى بخلع السلطان وهو غير خليفة فلم ينفذ ذلك وحكم بصحة خلعه، وكان ذلك فى جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين وثمانمائة فرسم السلطان عند ذلك بإخراج الخليفة إلى الاسكندرية فأخرجوه مقهورا مبعدا فأقام بالإسكندرية إلى أن مات سنة ثلاث وستين وثمانمائة هجرية ودفن عند شقيقه المستعين بالله العباسى. قال بعض كتاب الأخبار: ومن غريب الاتفاق أنهما شقيقان كل منهما رام السلطنة وكل منهما خلع وكل منهما سكن الإسكندرية ودفنا معا وحكم بخلعهما قاضيان أخوان ذلك خلعه الجلال البلقينى وهذا أخوه العلم البلقينى وهوعجيب أهـ.

وخلا الجو للأشرف اينال بعد ذلك فاستبد بالملك وعاقب زعماء دعاة الخليفة وخلع من كان يتوسم فيه الشر من الأمراء وكبار العسكر ونظر فى أمور السلطنة بعين ساهرة ووافق علم الدين البلقينى فبايع أبا المحاسن يوسف أخا القائم بالخلافة ولقب المستنجد بالله فكانت خلافة القائم بأمر الله نحوا من أربع سنوات وستة أشهر كلها معاندة ومحاسدة فسبحان من أودع فى كل قلب ما شغله .

(الفصل الثانى عشر)

(فى خلافة أبى المحاسن يوسف المستنجد بالله)

ثم قام بالأمر بعد الخليفة القائم أخوه أبو المحاسن يوسف ولقب بالمستنجد بالله بويع له يوم خلع القائم بأمر الله فى جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين وثمانمائة هجرية أى سنة أربع وخمسين وأربعمائة وألف ميلادية فكان حسن السيرة عاقلا رزينا فأحبه الأشرف اينال وأجله ووفاه حقه وأسكنه بدار إخوته الخلفاء بالمدينة وواصله بالعطايا والتحف وكان السلطان الملك الأشرف قد أنهكته متاعب السلطنة وثقل عليه حمل أعباء الدولة فأشرك معه ولده شهاب الدين أبا الفتح أحمد وسلمه مقاليد الأمور فسار فى الرعية سيرة تحمد وسلك مسالك الرفق وأحسن التدبير والسياسة وضرب بعض الدراهم باسمه ووفى السلطنة حق تدبيرها، فلما كان شهر جمادى الأولى سنة خمس وستين وثمانمائة وقد ثقل بالملك الأشرف اينال مرضه خلع نفسه وولى ابنه أبا الفتح المذكور ولقبه بالملك المؤيد فكانت مدة سلطنة اينال ثمان سنين وشهرين فاستقر ولده فى السلطنة واستقل بتدبير الملك وتصرف فى الأمور على أحسن ما يرام فحسده الأمراء واستولت عليهم الغيرة فقاموا عليه وخلعوه فقامت بسبب ذلك فتنة عظيمة وطالت أيامها وبقى الحال على ذلك حتى ولوا بعده فى الثامن عشر من رمضان سنة خمس وستين الأمير سيف الدين خوش قدم ولقبوه بالملك الظاهر فكانت مدة سلطنة المؤيد أربعة أشهر لا غير.

وكان خوش قدم هذا يعرف بالرومى وبالناصرى لأنه كان من مماليك الملك الناصر وكان عاقلا عالما واسع الدراية عظيم التدبير محبا للرعية ساهرا على ما فيه راحتها ميالا إلى الآداب اليونانية القديمة لأنه يونانى الأصل ولم يستوزر إلا كل عالى الهمة كبير الدراية خبيرا بالأمور فعم فى عهده الأمن البلاد وسعد أهلها وجرى أمراؤه على شاكلته فاجتمعت قلوب الأمراء والرعية على طاعته وانصرفوا عن الخليفة فلم يبق للخليفة من الأمور إلا الدين فقط فكان لا يتعرض لأحوال السلطنة ولايزاحم الظاهر عليها ومازال الظاهر مسموع الكلمة ينظر فى مصالح الرعية نظر الأب الشفيق والفتنة راقدة والعدل قائم حتى اخترمته المنية عاشر ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة هجرية فكانت سلطنته نحو ست سنين وستة أشهر فبكاه الناس بكاءً مرا وحزنوا عليه حزنا شديدا.

ولما كان اليوم الثانى من موته اجتمع الأمراء وكبار الجند وتشاوروا فيمن يصلح

للسلطنة فوقع اختيارهم على الأمير أبى سعيد بالباى أحد الأمراء المقدمين فبايعوه فى الحال ولقبوه بالملك الظاهر تفاؤلا فلم يستقر به المنصب حتى أظهر الغلظة فكان فظا مستبدا ظلفا عنيدا وكاد يفسد ما أصلحه السلف فأبغضته الرعية وانحرفت عنه خواطر الأمراء كافة فخاف من الفتنة وأوجس من الخليفة المستنجد فأنزله من داره من قلعة الجبل ووكل به من يراقب أموره فزاد بغض الأمراء له وكرهوا بقاءه فى دست السلطنة وتجردوا لخلعه ثم قاموا عليه قومة رجل واحد وخلعوه فى السابع عشر من جمادى الأولى سنة اثنتين وسبعين وقيل فى سابع جمادى الأولى فكانت مدة سلطنته نحو ست وخمسين يوما وقيل ست وستين، ثم ولوا بعده الأمير تمربغا بايعوا له بالسلطنة فى ثانى يوم خلع الظاهر بالباى ولقبوه بالملك الظاهر أيضا فلم يكد يستقر به المنصب حتى ظهر إفساده وكثر عبثه وأطاع النفس الأمارة فقاموا عليه وخلعوه أيضا ففرحت بخلعه الرعية وكان خلعه فى العشر الأول من رجب من السنة فكانت سلطنته نحو تسعة وخمسين يوما .

وثم ولوا بعده الأمير قايتباى أحد مماليك جقمق وبايعوه فى ثامن عشر رجب المذكور ولقبوه بالملك الأشرف قايتباى فلما استقر به المنصب أخذ فى تدبير الأمور على ما فيه المصلحة وإصلاح ما أفسده السلف، وكان شهما جليل القدر مسموع الكلمة مهيبا واسع المعرفة بأحوال الرعية فأمنت البلاد على يديه واطمأنت خواطر أهلها، وكان بين ملك فارس ومصر معاهدة وعلاقة ودية قد مضى عليها حين وكان بين ملوك آل عثمان وملك فارس عداوة وخلاف كانت الحرب بسببهما لا تنطفى لها نار ولا يسكن لها إوار وظل الفريقان على قدم الحرب والجلاد حينا حتى ظفر السلطان محمد الغازى العثمانى بملك فارس وهزمه شر هزيمة ومزق شمل جنوده فلما جاءت الأخبار بذلك إلى الأشرف قايتباى خاف من السلطان محمد وأوجس شرا وخشى أن يهاجم الديار الشامية يوما فيسلخها عن ملك مصر ويضمها إلى أملاكه التى كانت بلغت يومئذ مبلغا عظميا فجيش الأشرف جيشا ضخما وسيره إلى الحدود ليدفع عنها غارات الجيوش العثمانية فعلم السلطان محمد بقصده ولم يلتفت إليه وخرج فى جيش عظيم يريد قتال الروم وأخذ بعض مدنهم فزاد قلق الأشرف قايتباى وهم بخلع نفسه من السلطنة وترك الأمور لمن يتولاها فخاف الأمراء وقواد الجند عاقبة تنازله ومنعوه من ذلك وجدّدوا له البيعة وبالغوا فى استرضائه فتولاها كارها وأخذ يتأهب لقتال السلطان محمد، وبينما هو على قدم التأهب والاستعداد إذ جاءت الأنباء بنصرة السلطان محمد على الروم وعزمه على الزحف على مصر

والشام وأخذهما وعمت الإشاعة بذلك وتحققت بتأهب السلطان محمد وإكثاره من جمع الأسلحة وآلات الحرب فكبر خوف الأشرف قايتباى وبالغ هو كذلك فى التأهب والاستعداد وصار يراقب الحوادث مع التحذر فلما تم للسلطان محمد ما أراد من ترتيب الجيوش ولم يبق عليه إلا تسييرهم إلى الشام فاجأته المنية فى مدينة طبقور جابر وجاءت الأخبار بذلك إلى الملك الأشرف قايتباى ففرح وظن بلوغ الغاية، ومات السلطان محمد عن ولدين هما بايزيد وجم المعروف عند أهل التاريخ باسم زيزم وكان بايزيد حاكما بأماسيا وجم حاكما فى بلاد القرمان فوقع بينهما الخلاف واشتد خصامهما على الملك واشتغلا عن الفتح بالمنازعة والمخاصمة فثار الانكشارية بسبب ذلك على قرمانى محمد باشا الصدر الأعظم يومئذ وقتلوه وعاثوا فى البلاد حتى كاد يختل نظام العسكر السلطانى فازداد اطمئنان الأشرف قايتباى وعاد إلى القاهرة بجيوشه ولبث يراقب الحوادث ويتنسم الأخبار واشتد الخصام بين ولدى السلطان محمد إلى حد القتال فقامت الحرب بينهما وطالت أيامها ودخل الأمير جم مدينة بورصة عنوة وقتل فيها من الانكشارية خلقا كثيرا فركب عليه أخوه بايزيد وقهره عند مدينة يكى شهر ففر بمن بقى من عسكره يريد الالتجاء إلى حمى الأشرف قايتباى فتبعه بايزيد بخيله ورجله إلى حدود الديار المصرية ثم رجع ظافراً منصورا ووصل جم إلى القاهرة فى نفر من خواصه فأكرمه الأشرف وأحسن لقاءه وأنزله مكانا رحبا فأقام عنده زهاء السنة ثم سار من مصر إلى حلب وأخذ يراسل الأمير قاسما آخر سلالة أمراء القرمان ويمنيه بأنه إذا أنجده ومكنه من تولى الملك مكان أخيه السلطان بايزيد رد إليه بلاد أجداده وعاهده على المودة والصفاء فمال إليه الأمير قاسم وجمع أحزابه وسار فى نفر كثير مع جم المذكور لمحاصرة قونية عاصمة القرمان فركب عليهم كدك أحمد باشا أحد قواد العساكر العثمانية وهزمهم ومزق جمعهم ففر الأمير جم هاربا، وجاءت الأخبار بذلك إلى الأشرف قايتباى فتطير وزاد خوفه من السلطان بايزيد وعزم على مفاجأته والزحف عليه بالعسكر المصرى قبل أن يدهمه بايزيد بخيله ورجله وجعل من يومئذ يناوى الترك ويقطع على قوافلهم السبل ويشرد ركبهم الراحل إلى بيت الله الحرام وكان ملك الهند قد أرسل إلى السلطان بايزيد سفيرا فى أمر لا محل لذكره هنا فلما وصل السفير إلى مدينة السويس أمر الأشرف قايتباى فقبضوا عليه وجاءوا به إلى القاهرة وعوّقه عنده وزحف على أذنة فملكها عنوة وكذلك فعل بطرسوس وقد كانتا فى حوزة العثمانيين فاستعظم السلطان بايزيد ذلك وأكبر وسير سفراء إلى قايتباى فى طلب رد ما أخذه

المصريون من البلاد العثمانية فأرجع قايتباى السفراء بغير جواب وسير عسكرا كثيرا لقتال عساكر بايزيد فكبر كيد السلطان بايزيد وسير هو كذلك جيشا عظيما لقتال عسكر قايتباى فالتقى الجمعان واقتتلوا فكانت الحرب بينهم سجالا ثم انحازت العساكر المصرية إلى ملاطية فأخذها الأشرف قايتباى بخمسة آلاف مقاتل ثم كروا على جند بايزيد وهم فى مضايق الجبال وأعملوا فيهم السيف وقتلوا منهم خلقا كثيرا ومر من بقى وتحصن فى طرسوس وأذنة فأرسل قايتباى الأمير أزبك فى نجدة لإخراج العثمانيين منهما فقاتلهم أزبك قتالا شديدا وأبلى فيهم بلاء حسنا فشق هذا الأمر جدا على السلطان بايزيد وأكبره وآلى على نفسه أن يسترجع أذنة وطرسوس فأنفذ عسكرا عظيما مع صهره الأمير أحمد. وأحمد هذا ابن أمير البشناق ومولده فى بلاد الأرنؤد وتربى فى مهد النصرانية ثم أسلم ودخل فى خدمة آل عثمان حتى بلغ رتبة الإمارة فلما التقى الفريقان اقتتلا قتالا شديدا فانهزم الأمير أحمد وظفرت به الجنود المصرية وانتصروا عليه نصرة عظيمة ووقع أحمد المذكور فى قبضة الأمير أزبك فسار به إلى القاهرة مدحورا ووصل الخبر إلى السلطان بايزيد بما حل بأصحابه فكاد يتميز من الغيظ وجند جندا عظيما وعقد لواءه لأمير من كبار القواد اسمه على باشا فسار فى سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة هجرية ونزل بجيوشه فى بلاد القرمان فعلم الأشرف بخبره وكثرة عساكره فتخوف وعمد إلى طلب الصلح وأنفذ إلى السلطان بايزيد صهره الأمير أحمد واسطة فى ذلك فأبى بايزيد إلا القتال وأحث جيوشه حتى التقت بجيوش الأشرف قايتباى فى أذنة وطوسوس فانتشبت الحرب بينهم فانهزمت جيوش قايتباى شر هزيمة وأخذ منهم العثمانيون أذنه وطرسوس وعاد من بقى من المصريين إلى مصر وفرح السلطان بايزيد بنصرة جيوشه فسار إلى أرمينية فى عسكر عظيم وحاصر تختها وافتتحها بعد قتال شديد وقبض على واليها وسيره إلى القاهرة بدلا من الأمير محمد استخفافا بالأشرف قايتباى فاستعظم الأشرف ذلك وسير الأمير أزبك ثانية فى جيش كبير للقتال فالتقى الفريقان عند طرسوس فواقعهم أزبك فكادوا يهزمونه فعاد إليهم وقارنهم ونال منهم فرجعوا القهقرى ولم يقدروا على القتال فعاد أزبك إلى القاهرة ظافرا غانما فأجله الأشرف وأدناه منه، وحسب الأشرف قايتباى عاقبة تلك الحروب وأوجس منها خيفة فأرسل إلى السلطان بايزيد فى طلب الصلح حقنا للدماء فلم يلتفت بايزيد إلى ذلك وأغلظ فى القول وطلب منه أن يتخلى عن أذنة وطرسوس فإن لم يفعل جاء لقتاله مع جميع دعاة آل عثمان فيفتح مصر عنوة ويعمل السيف فى أهلها فلا يرحم كبيرا ولا صغيرا فأذعن الأشرف

إلى ذلك وتخلى عنهما صاغرا وذلك سنة ست وتسعين وثمانمائة هجرية فانكف بايزيد عن قتاله وعاقده الصلح .

وكان الأشرف قايتباى مع كل هذه الحروب والخطوب كثير التحرز من الخليفة أبى المحاسن يوسف لا يركن إليه ولا يمكنه من شىء من أمور السلطنة ولا يبيح له النزول من قلعة الجبل إلى دار أجداده بالمدينة خوفا من تقرب الأمراء منه وقيام العامة لنصرته فلبث محجورا عليه بقلعة الجبل مقهورا مغلوبا لا يعلم من أحوال المملكة شيئا حتى مات فى يوم السبت رابع عشرى المحرم افتتاح سنة أربع وثمانين وثمانمائة هجرية، كان قد عهد بالخلافة إلى ابن اخيه عبدالعزيز أبى المعز يعقوب ابن المتوكل على الله فكانت خلافة المستنجد نحو ثلاث وعشرين سنة وبضع أشهر .

ومات فى خلافته يوحنا بطرك المتأصلين بعد أن أقام عشرين سنة وكان كامل الرأى صائب الفكر حسن التدبير محبوبا معظما قامت فى أيامه فتنة عظيمة بسبب ضعف الحكام وسقوط هيبة أصحاب الأمر والنهى فقام العامة على النصارى بالقاهرة وأغلقت جميع كنائسهم ومنعتهم من إقامة شعائر دينهم ثم عم هذا الأمر جميع الأقاليم القبلية والبحرية واشتدت نار الفتنة فوقع القتل والسبى والنهب والتخريب وأريقت الدماء هدرا فى الأزقة والحارات وعجز ولاة الأمر عن ردع العامة وزاد الخطب اشتدادا باشتغال السلطان الملك الأشرف قايتباى بقتال السلطان بايزيد وخلوا القاهرة وغيرها من المرابطين من العساكر والأجناد ومازال الحال على ذلك أياما كثيرة حتى سكنت الفتنة من نفسها وانكف العامة والناس جميعا فى تحرز فكان الخطب شديدا، ولما مات يوحنا البطرك المذكور أقام المتأصلون بعده يوحنا التاسع فكان حادى ثمانيهم ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله .

(الفصل الثالث عشر)

(فى خلافة عبدالعزيز أبى المعز يعقوب ابن المتوكل)

ثم قام بالأمر بعد المستنجد ابن أخيه عبدالعزيز أبو المعز يعقوب ابن المتوكل على الله بويع بالخلافة بعهد من عمه يوم الأثنين سادس عشر المحرم سنة أربع وثمانين وثمانمائة هجرية أى سنة تسع وسبعين وأربعمائة وألف ميلادية، فلما كان عصر يوم الاثنين المذكور صعد إلى قلعة الجبل وحضر القضاة والأعيان فأمضوا عهد عمه ولبس تشريف الخلافة ونزل إلى داره والقضاة بين يديه وكان قد أراد أن يلقب نفسه

بالمستعز بالله ثم وقع التردد بينه وبين المستعين أو المتوكل واستقر الحال على أن يلقب بالمتوكل على الله، فلما استقرت به الخلافة أحسن السيرة والتدبير وأدنى منه العلماء وتعفف عن أخذ ما يتحصل من مشهد السيدة نفيسة من النذور من زيت وغيره وصرفه فى مصالح المكان من عمارة وغيرها وكان الخلفاء قبله يأخذون لأنفسهم أكثره ويفرقون ما يتبقى على من شاءوا من الزامهم فرفع ذلك كله فلما خبر السلطان الملك الأشرف حاله مال إليه وأحبه ولم يضيق عليه كما كان يفعل بعمه المستنجد ولكنه مع ذلك كان فى شاغل عنه بالأنباء المتراكمة عن السلطان بايزيد وخوفه من نقض الصلح واضطرام نار الحرب فكان قلق البال مضطرب البلبال وما زال على هذا الحال حتى مرض ومات فى الثانى والعشرين من ذى القعدة سنة إحدى وتسعمائة هجرية فكانت سلطنته تسعا وعشرين سنة وأربعة أشهر وعشرين يوما فبكاه الناس وحزنوا عليه حزنا عظيما واجتمعت كلمة الأمراء كافة على تولية ولده أبى السعادات محمد فولوه يوم وفاة أبيه ولقبوه بالملك الناصر .

فلما استقر به المنصب أساء السيرة وعبث بالأمور وجار وظلم الرعية فكان جبارا غشوما عتلا زنيما لا رحمة عنده وكان شديد البغض للملة النصرانية على غير سبب وكان النصارى من أهل البلاد إلى هذا الحين لم يتمكنوا من لم شعث ما أفسدته الفتنة السابقة ولا إصلاح ماتهدم من كنائسهم ودورهم وغير ذلك فضيق عليهم وبالغ فى تذليلهم وأباح للعامة تتبعهم بالإيذاء ورفع القصص ضدّهم فكان الرجل منهم لا يشعر إلا وقد طرقوا بابه أو أدخلوه عنوة وأخذوا جميع ما وصلت إليه أيديهم من ملبوس وأثاث ثم يأخذون صاحب الدار حتى إذا نزلوا به عند باب داره ذبحوه أو أوقدوا حطبا وألقوه فيه على مرأى من أهله وولده واشتدت نار الفتنة وارتفع لهيبها فقتل وحرق خلق كثير وأغلقت الكنائس وسائر بيوت العبادة وتعطلت الشعائر الدينية، قال بعض أهل التاريخ: فتوجه الناس بقلوبهم إلى الله تعالى وضجوا وعجوا وللناصر بظلمه كل يوم فى شأن، فلما كان فى بعض الأيام اتفق أن مملوكا من مماليكه أذنب ذنبا صغيرا فأمر به الناصر فسلخ جلده حيا بين يديه فقام عليه عند ذلك طوائف المماليك ونادوا بخلعه فخلعوه كرها وحجروا عليه وضيقوا وتشاوروا فيمن يصلح للولاية فاتفقت كلمتهم على مبايعة الأمير قانصوه الملقب بخمسمائة وهو من مقدمى الأمراء ولقبوه بالملك الأشرف فكانت سلطنة الناصر ستة أشهر إلا أياما قلائل كلها عسف وجور لايطاق، فلما استقرت بقانصوه السلطنة رأى من

اختلال الأحوال وتفشى الفساد فى جميع أمور المملكة ما أقعده عن التدبير وأعجزه عن القيام بمهام السلطنة فعالج الأمر فلم يفلح فأكثر من الأخذ والرد مع الأمراء فلم يتم له أمر فخلع نفسه فكانت سلطته خمسة أشهر لاغير وكان من أمره بعد ذلك ما سيذكر فى محله إن شاء الله، وأما الخليفة المتوكل فإنه أقام يدبر أمور الإمامة لا يتعرض لشىء من أحوال المملكة عاكفا على ما بيده من حقوق الخلافة حتى مات فى يوم الجمعة الثانى من صفر سنة ثلاث وتسعمائة ولم يعهد بالخلافة لأحد من بعده فكانت خلافته نحوا من عشر سنين فاجتمعت الكلمة على البيعة للخليفة أبى صابر ولقب بالمستمسك ومات فى خلافة المتوكل الذكور يوحنا بطرك الإسكندرية بعد أن أقام ست سنين قضاها فى أنكد عيش وأضيق حال بين أسر واسترقاق وقد ذاقت فى أيامه النصارى من الرزايا والمحن أنواعا وأصنافا وبموته أقيم بعده بنيامين وهو راهب من جبل سينا فكان ثانى ثمانيهم ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله.

(الفصل الرابع عشر)

(فى خلافة أبى صابر يعقوب المستمسك بالله)

ثم قام بعد الخليفة المتوكل على الله أبوصابر يعقوب بويع بالخلافة يوم السبت الثالث من صفر سنة ثلاث وتسعمائة هجرية أى سنة سبع وتسعين وأربعمائة وألف ميلادية ولقب بالمستمسك بالله وكان حسن السيرة سليم السريرة محبا للخير وأهله عاقلا فأقام فى داره بالمدينة لا يتطرف لشىء من أمور السلطنة ولا يتعلق بأمر من أمور الدولة إلا ما كان بيده من النظر على المشهد النفيسى فمالت إلى محبته القلوب وهابه الأمراء واجتمعوا على طاعته ومال جماعة منهم إلى تسليم مقاليد السلطنة إليه فتحزب آخرون للناصر محمد وطلبوا إرجاعه إلى تخت الملك بعد تنازل الملك الأشرف وخلعه نفسه وانضم إلى هؤلاء جماعة من الكبراء والعلماء ومازالوا حتى فازوا بإرجاعه وتسليم مقاليد الأمور إليه وظنوا إصلاح ما فسد من أخلاقه فلم يستقر به المنصب حتى عاد إلى ما كان عليه من الجور والعسف بالرعية وارتكاب المحرم والفحش مما لا خير فيه وتمادى فى جوره وظلمه فمقته الرعية وأبغضه الأمراء وندموا على توليته الملك وحقدوا عليه وكرهوا مماليكه والمقربين إليه وصاروا يراقبون الفرص للإيقاع به وطال الحال على ذلك أياما، فلما كان سادس عشر ربيع الأول سنة أربع

وتسعين خرج الناصر يريد الجيزة على عادته فكمن له كمين فى الطريق من المماليك وخرجوا عليه وضربوه بالسيوف وتركوه ملقى بالطريق وعادوا إلى القاهرة وأشاعوا خبر موته فاجتمع الأمراء وكبار الجند وتشاوروا فيمن يصلح للولاية بعده فاجتمعت كلمتهم على مبايعة خاله قانصوه الغورى فبايعوه فى يوم الجمعة سابع عشر من الشهر ولقبوه بالملك الظاهر وولوه السلطنة على كره منه إذا كان يعرف ماوراءها من المتاعب وما سيلاقيه من المصاعب، فلما استقر به المنصب رأى من فساد الأحوال ما أقعده وأضعف عزيمته وأبغضه فى الملك فتقاعس وترك الأمور تجرى فى أعنتها وتحجب عن الناس ومنع الأمراء من الحضور إلى خدمته وأغلق دون أهل الظلامات بابه بغضا منه فى السلطنة وكرها فلما أيس الأمراء منه وتحققوا من عزمه على اعتزال المنصب قاموا عليه وخلعوه فى أوائل ذى الحجة سنة خمس وتسعمائة فكانت سلطنته سنة وبضع أشهر وولوا بدله خاله جانبلاط الأشرف قايتباى ولقبوه بالملك الأشرف فتولاها والأمور مختلة والأحوال معتلة وسعد السلطنة فى إدبار فعالجها علها تستقيم فلم يفلح فصمم على خلع نفسه وهم بذلك فأجابوه إليه وخلع فى تاسع عشرى جمادى الآخرة سنة ست وتسعمائة فكانت مدته سنة وأشهرا وأياما.

واختل نظام السلطنة وزالت هيبة الدولة وتطاولت إليها أعناق الطامعين لكثرة العزل والتولية فلما رأى أمراء الشام ذلك وتحققوا أن ذلك إنما هو ناجم عن تفرق الأحزاب وانقسام الآراء وتباين الأهواء اختاروا من بينهم الأمير طومان باى وسيروا الرسل إلى أمراء مصر فى أمر توليته السلطنة فوافقوا على توليته وبايعوه جميعا وطيروا الأخبار بذلك إلى الآفاق ولقبوه بالملك العادل فقدم إلى مصر فى طائفة من الجند الشامى وصعد إلى قلعة الجبل وأمامه الأمراء المصريون ومقدّمو الجند والجنائب السلطانية ودقت لقدومه البشائر وتوسم الناس فيه سمة الخير واستبشروا به فلما قبض على زمام الأمور ورأى من تمرد الجند وإقدامهم على الكبائر بغير خوف ولا حساب لتفشى الخلل فى جميع الأمور وفساد الأحوال شدد عليهم وضيق وآخذهم على كل هفوة فأبغضوه وأضمروا له السوء وصاروا يراقبون الفرص للإيقاع به فأحس بذلك وأخذ يتحرز منهم ويعمل على تفريق كلمتهم وتذليل كبارهم فلم يفلح وقد أكثر المبغضون له وكبر خوفه منهم ففر واختفى أربعين يوما فجعلوا يفتشون عليه حتى عثروا به فى ذى القعدة من السنة فجاءوا به وقتلوه ومثلوا بجثته فكان يوما عبوسا كثر فيه بعد ذلك النهب والسلب والتخريب وإراقة الدماء وتمكن العدو من

عدوه فخاف حينئذ جميع الأمراء وانكمشوا ولم يقدم أحد منهم بعد ذلك على طلب الملك لاستفحال أمر الجند وتصرفهم فى جميع أمور الدولة ثم اجتمع جميع الأمراء وكبار الجند والأعيان والعلماء وأصحاب الوظائف العالية وتشاوروا فى الأمر طويلا ثم اتحدت كلمتهم على إرجاع الأمير قانصوه الغورى إلى دست السلطنة ثانيا لأنهم رأوا أنه لين الجانب سهل الإزالة أي وقت أرادوا خلعه خلعوه لأنه كان أقلهم مالا وأضعفهم حالا وأوهنهم قوة فلما كلموه فى ذلك قال لا أقبل إلا بشرط أن لا تقتلونى فإن رأيتم منى اعوجاجا وأردتم خلعى فأعلمونى فأنزل لكم عن السلطنة وأخلي بيعتكم فعاهدوه على ذلك فقبل منهم فبايعوه فى ذى الحجة من السنةوفرح العساكر ببيعته واستبشروا بولايته وظنوا بلوغ الغاية، قال بعض أهل التاريخ: وكان قانصوه هذا كثير الدهاء كبير المعرفة ذا فطنة وتجربة بالأمور إلا أنه شديد الطمع كثير الظلم جبارا طاغية فجعل يعالج الأمور حتى سكنت الفتنة بما عاهد عليه الجند واشتغلوا عنه وأهملوا أمره فأخذ يعمل التدبير على إهلاكهم وتمزيق شملهم وصار يلقى الفتنة بينهم ويأخذ هذا بهذا ويحرض طائفة على الأخرى ويدس لكبارهم السم فى الطعام ويباعد بين بعضهم والبعض بالأسفار والبعثات الطويلة ، وغير ذلك من الحيل حتى أفنى أكثرهم وأهلك جميع كبارهم وشرد أصحاب الكلمة فيهم وأضعف شوكتهم وأزال صولتهم وفرق كلمتهم وأذهب هيبتهم ثم اتخذ لنفسه مماليك جلبا وأعدهم جندا وبالغ فى ترتيب نظامهم فكانوا بعد قليل ضربة على الرعية يظلمون ويجورون ويعبثون بالخلق ويسلبون المارة وأبناء السبيل وظهر منهم غاية الفساد والجور وهو يتغافل عنهم والناس فى ضجر وابتهال إلى الله بقلوب مفعمة حزنا، فلما قويت بهم شوكته عمد إلى مصادرة الناس فى أموالهم بالقهر والبأس وكثرة أخذه للناس بالشبهات فكثر أصحاب السعاية على بابه فكانوا إذا علموا بأحد من مساتير الناس وشوابه عند السلطان فيرسل إليه أعوانه من أولئك المماليك ويأخذ أمواله بغير رحمة ويسلمه إلى من يعاقبه بأنواع العقوبات حتى يأخذ ما أخفاه من دنياه إلى أن يصبح فقيرا بعد غناه وعمت المصادرة فأخفى الناس أموالهم وتظاهروا بالفقر والمسكنة وعظم ملك قانصوه وكبرت هيبته وعلت كلمته حتى هابه ملوك الروم والمشرق والفرنجة وفك الأسرى منهم وكان له المواكب الهائلة والكلمة المسموعة ومهد طريق الحاج وأمنه فكان يسافر إليه من مصر النفر القليل و نزلت فى أيامه طائفة من الفرنجة على سواحل البحر الأحمر وصاروا يشنون الغارة

على قوافل التجارة التى كانت تأتى إلى مصر من الأقطار الهندية وبلاد العرب وغيرها فاستعظم قانصوه ذلك وسير جيشا عظيما لقتالهم فلما التقى الجمعان اقتتلوا قتالا عنيفا فظفر الفرنجة وانتصروا على عساكر قانصوه نصرة عظيمة وأهلكوهم فلم ينج منهم أحد وكانت هذه الوقعة من أشد الوقائع وأشأمها على السلطان قانصوه إذ بدأ بعدها نجم سعده فى الأفول وسلطنة فى الانحلال، ولما كانت سنة ثمان عشرة وتسعمائة جاء إلى مصر الأمير كركور أخى السلطان سليم ابن السلطان بايزيد فارا من أخيه بعد قتال على الملك لا محل لإيراده هنا واستنجد قانصوه على قتال أخيه ففرح قانصوه بمقدمه وجهزه بعشرين سفينة حربية وأمده ببعض العساكر البرية وسيره لفتح القسطنطينية فسار بها كركور فخرجت عليه عمارة عظيمة من السواحل الشامية وقاتلته وشددت فى قتاله حتى أغرقت جميع المراكب المصرية ودمرتها فلما جاء الخبر بذلك إلى قانصوه ندم على ما فعل وخاف شر السلطان سليم وتحرز وبعث إليه سفراء فى طلب الصلح وعقد معاهدة على الولاء والمودة فلما تمثل السفراء بين يدى السلطان أغلظ عليهم فى القول وهددهم وقال لهم قولوا لصاحبكم ليست السلامة فى كل مرة وإن أنا إلا زاحف على القاهرة فسيلقى صاحبكم نارا حامية إن شاء الله تعالى فرجع السفراء وأخبروه بما كان فكبر خوف قانصوه وأزعجه الأمر وأخذ يراقب الفرص ويعلل النفس بالأمانى البعيدة، ومرض فى هذه الأثناء الخليفة المستمسك بالله وثقل مرضه فزاد خوف الأشرف قانصوه من قيام الفتنة أيضا فى داخل البلاد وخروج الأحزاب لاسيما وقد كان بعض كبار الجند والأمراء ناقمين عليه متحفزين للبطش به ومازال المرض يشتد بالخليفة حتى مات فى سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة هجرية فكانت خلافته نحوا من عشرين سنة ولم يعهد بالخلافة لأحد من بعده فعجل الأشرف قانصوه فى مبايعة ولده محمد المتوكل على الله وبايعه كذلك الأمراء والقضاة والعلماء خوفا من قيام الفتنة.

ومات فى خلافة المستمسك المذكور بنيامين بطرك المتأصلين بعد أن أقام إحدى عشرة سنة واشتد فى أيامه السلطان الملك الأشرف قانصوه على النصارى شدّة بالغة فصادر الكثير منهم فى أموالهم وضيق عليهم وزاد فى نكايتهم حتى عاقب بعض النساء بالجلد ونحوه وكان بنيامين هذا ورعا تقيا ساكن اللب عمر فى أيامه ديرابنابشوى فى برية شهات وبموته خلا الكرسى سنة ثم أقيم بعده بطرس ثالث ثمانيهم واسمه داود وكان راهبا بدير أبى مقار فأقام ثمان سنين ومات ووقع فى أيامه

من الشدائد والإحن ما وقع للنصارى فى أيام بنيامين فكان صبورا جلودا متواضعا فأقيم بعده مرقس وهو رابع ثمانيهم واسمه فرج الله وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

(الفصل الخامس عشر)

(فى خلافة محمد المتوكل على الله ابن المستمسك)

ثم قام بالأمر بعد المستمسك ابنه الخليفة محمد المتوكل على الله بويع بالخلافة ثانى يوم موت الخليفة المستمسك سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة هجرية أى سنة ست عشرة وخمسمائة وألف ميلادية وفى اليوم المذكور صعد الخليفة المشار إليه إلى قلعة الجبل وألبس تشريف الخلافة بحضرة السلطان الملك قانصوه والقضاة والعلماء ونزل إلى داره بالمدينة فى دست الخلافة والقضاة بين يديه والتزم النظر بالمشهد النفيسى على ما كان عليه الخلفاء من قبل واحتجب عن الناس إلا القليل بأسباب الحوادث والفتنة القائمة وتشاغل عنه السلطان قانصوه بما هو فيه من تجنيد الجند وجمع الأسلحة والكراع لقتال السلطان سليم، فقد كانت الأخبار تأتى إليه فى كل يوم أشكالا لاسيما بعد أن سار السلطان سليم فى عسكر جرار لقتال إسماعيل شاه ملك فارس لما بينهما من العداوة القديمة. قال أصحاب التاريخ: وكان سبب هذه العداوة أنه لما عصى السلطان سليم وإخوته والدهم السلطان بايزيد استنجد الأمير أحمد شاه إسماعيل على قتال والده ثم على أخيه من بعده فساعده وقبل من التجأ إليه من أولاده وسير سفراء إلى سلطان مصر قانصوه فى طلب عقد تحالف سرى على الإيقاع بالدولة العثمانية وإيقاف سلاطينها عند حدّهم فعظم هذا الأمر على السلطان سليم وجيش جيشا عظيما لغزو بلاد فارس وأخذها جميعا من إسماعيل شاه ولما كان إسماعيل شاه لا يبدى حراكا ولم يفتح للحرب بابا وكان السلطان سليم على قدم الاستعداد للقتال دس لعماله فى الولايات المتاخمة لبلاد العجم أن يحصوا الشيعيين من العجم النازلين فى بلادهم فأحصوهم سرا فكانوا زهاء أربعين ألفا فأمر بقتلهم صبرا فقتلوا عن آخرهم ثم سار السلطان سليم بجيوشه إلى أدرنه فى الثانى والعشرين من المحرم افتتاح سنة عشرين وتسعمائة فكان كلما مر ببلد أو مدينة فتحها حتى وصل تبريز فلاقاه ملك فارس فى عسكر عظيم واحتدت نار القتال بين

الفريقين فانهزم ملك فارس ومن معه وساقت عساكر السلطان سليم خزائن ملك فارس وآلات حربه وذخيرة جنوده ومازال السلطان سليم يسير خلفه بخيله ورجله حتى وطأ أرض تبريز فقتل وأسر وأراق الدماء وأراد أخذ جميع بلاد فارس ومحو آثار هذه الدولة فلم يفلح لاشتداد القحط والغلاء وانتشار الوباء بين عسكره وبيعت العلو بمائة درهم وبيع الرغيف بمائة درهم وكان ذلك لانقطاع القوافل التى كان أعدّها السلطان سليم لتأتى له بالمؤن والعلوفة فتخلفت عنه ولم يوجد بتبريز شىء من المأكول أو الحبوب حيث أحرق ملك فارس جميع الأجران وخرب المبانى وأفسد المزروعات لكى لا يتمكن السلطان سليم من شىء منها فاضطرب السلطان لذلك وخاف شر العاقبة وسأل عن سبب انقطاع القوافل فقالوا له إن سبب ذلك قانصوه الغورى سلطان مصر فإن بينه وبين ملك فارس عهدا على ذلك فقفل السلطان سليم راجعا بمن بقى من عسكره إلى مقر سلطنته وفى نفسه ما فيها وأخذ يتأهب لقتال قانصوه وسلخ مصر منه وأقسم أنه لا ينكف عن الحرب حتى يزيل عنها دولة المماليك الشراكسة ويبيدهم.

وكان من مقدمى الأمراء المصريين أميران أحدهما اسمه خيربك متولى حلب وثانيهما اسمه سيباى الغزالى متولى الشام وكان بينهما وبين السلطان قانصوه الغورى عداوة فى الباطن وقد علم السلطان سليم بذلك فراسلهما فى أمر قتاله بمصر فأوسعا له الأمل وسهلا عليه سبل العمل وحرضاه على ذلك وكشف له عن فساد الأحوال وعجز السلطان قانصوه عن القتال فأحس السلطان قانصوه بذلك وأخذ يراقب الأمور ويبعث بالعيون لتأتى له بصادق الأخبار حتى علم بتأهب السلطان سليم للحركة والقيام من دار سلطنته فأخذ هو كذلك فى التأهب وعرض العساكر والأجناد وجمع الأموال لنفقة الحرب وفتح خزائن البيسارية وحواصل الأمتعة فأخرجوا منها ما أرادوا من كراع وسلاح وأرسل إلى الخليفة المتوكل على الله أن يتأهب للخروج معه إلى حلب ونادى فى جميع العسكر بالتأهب والاستعداد فلما كان يوم الاثنين ثامن عشرى ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة أنفق على العسكر نفقة السفر فكان ما خص كل مملوك مائة دينار وجامكية أربعة أشهر ثمانية آلاف فضة وثمن جمل سبع أشرفيات ثم نادوا فى العسكر بالخروج فخرجوا فى يوم الجمعة سابع ربيع الآخر وساروا تباعا إلى الريدانية وعسكروا بها أياما ثم خرجت أطلاب السلطان وأمير المؤمنين الخليفة وبقية الأمراء والمباشرين وفى صبح يوم السبت خامس عشر

ربيع الآخرة اجتمع سائر الأمراء المقدمين عند السلطان بالميدان وهم بملابس التشريف فخلع عليهم الخلع السنية فكانت عدتهم خمسة عشر أميرا ثم رسم السلطان بتعيين الأمير طقطاى نائب القلعة أحد المقدمين والامير بلرزمك المعروف بالناشف والأمير تابى بك العجمى أحد المقدمين وغيرهم من الأمراء نواب غيبة كل منهم فى مسنده حتى يرجع السلطان من هذه الحملة ثم خرج السلطان من باب الإسطبل الذى عند السلم المدرج وأمامه النفير السلطانى المسمى بالبرغيشى وهو فى موكب عظيم وأبهة زائدة وكان يتقدم هذا الموكب ثلاثة أفيال مغشاة بالصناجق وخلفهم العساكر بملابس التشريف تباعا ثم الأمراء رؤوس النوب بالعصى ثم أرباب الوظائف من المباشرين ثم ولد السلطان وبجانبه الأتابكى سودون العجمى ثم القضاة الأربعة ثم أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله محمد ابن المستمسك يعقوب العباسى وهو لابس العمامة البغدادية التى بالعذبتين وعليه قباء بعلبكى بطراز أسود حرير ثم سارت الجنائب السلطانية فكانوا طوالتين من الخيل من أحسن الجياد بعراقى وسروج بفواشى من الحرير الأصفر وطبول وزمور وطوالتين آخريين بكياس وسروج ذهب ومياثر زركش وخلفهم جماعة من رؤس النوب مشاة والجاويشية والطيردارية مشاة بالأطيار ثم البقج والمجامع مغطاة بالحرير الأصفر ثم البخورى بالمنجرة. قال بعض كتاب الأخبار: ثم أقبل السلطان الملك الظاهر قانصوه وكان الخليفة أمامه بنحو العشرين خطوة والسلطان راكب على فرس من جياد الخيل وعلى رأسه كلوتا وهو لابس قباء بعلبكيا أبيض بطراز مزركش والصنجق السلطانى على رأسه وشبل العثمانى مقدم المماليك خلفه ومعه السلحدارية والجم الغفير من الخاصكية والجمدارية ودخل من باب زويلة وشق القاهرة بموكبه هذا فضج الناس له بالدعاء ومازال حتى خرج من باب النصر وسار إلى المعسكر بالريدانية ونزلت فى غروب ذلك اليوم من قلعة الجبل جميع الخزائن السلطانية وكان فيها من الذهب زهاء ألفى ألف دينار نقرة وكثير من الفضة والنحاس ثم نزلت الزردخانة وهى محملة على مائة جمل ونادى المنادى سادس عشر الشهر المذكور بخروج من تعوق من العساكر والأجناد بالقاهرة ومصر القديمة وأن السلطان على عزم السفر يوم الجمعة عشرى الشهر فخرج من بقى ورسم السلطان لجماعة من نواب الشافعية ونواب الحنفية ونواب المالكية ونواب الحنابلة أن يرافقوه فى هذه الغزوة ورسم بذلك لجماعة من مشايخ الحقيقة والأئمة ومشايخ القراء والمؤذنين والكتاب وجماعة من الأطباء والكحالين والحلاقين والمغنين

وجماعة كثيرة من البنائين والنجارين والحدادين ثم قام الركب وسار إلى الديار الشامية ولبث السلطان بالريدانية فى نفر من خواصه وكبار أمرائه أياما فجاءته الأخبار من عامله على حلب بأن السلطان سليم لايريد إلا المصالحة وحقن الدماء وعدم الاندفاع إلى حرب ربما كانت عاقبتها عليه وخيمة فسر السلطان الظاهر بهذا الخبر واعتقد صدق مقال السلطان سليم والأمر على عكس ذلك فقد كان هذا القول خدعة من السلطان سليم ومداهنة لغاية فى نفسه، فلما كان يوم السبت ثانى عشرى ربيع الآخر سار السلطان الملك الظاهر قانصوه من الريدانية وصحبته أمير المؤمنين الخليفة والقضاة الأربعة وولده المعز الناصرى وأقباى الطويل وذلك بعد صلاة الضحى يريد الخانقاه السرياقوسية فكانت مدّة لبثه بالريدانية سبعة أقليم وأقام بالخانقاه يوما وليلة ورحل عنها فى يوم الأحد ثالث عشريه، وكان بمصر من أولاد أحمد بك أخى السلطان سليم غلام اسمه قاسم وكان سبب حضوره إلى مصر أنه لما قام السلطان سليم على أخيه أحمد أبى قاسم المذكور وقتله خافت أم أحمد عليه فسلمته إلى مربيه من الخصيان وأشارت عليه بالهرب إلى الديار الشامية فهربا معا إلى حلب وهما فى هيئة مبتذلة فدخلاها فلبثا بها حينا فلما علم السلطان الملك الظاهر بأمر الصبى المذكور كاتب عامله على حلب فى أمره ورسم بتسييره إلى مصر فجاءها مع مربيه وأقاما بها متنكرين فلما عزم السلطان الظاهر على الشخوص إلى الشام جهز الأمير قاسما المذكور فى عدة من المماليك والفرسان والخدم والحشم ودواب الحمل وقيد بخدمته الأمير ماماى الصغير المحتسب ورسم بخروجه خلفه إلى الشام فى هذه الأبهة والكبكبة كى يشيع خبره ويعلم الناس فى دار السلطنة العثمانية أن بمصر غلاما من سلالة ملوكهم فيخرجون على السلطان سليم بسببه وينحازون إليه فتضعف شوكة السلطان سليم وتسقط هيبته فيظفر به ويعود منصورا وكان الصبى المذكور لم يبلغ من العمر سوى الثالثة عشرة فخرج فى غرة جمادى الأولى من السنة فى موكب حافل وشق من صليبة ابن طولون وعلى رأسه عمامة تركمانية وفى وسطه خنجر وفى أذنه قرط مثمن للغاية وخلفه جماعة من العثمانيين والأمير ماماى المحتسب والأمير اينال باى دوادار سكين ولحق بالركب السلطانى كما رسم الظاهر قانصوه.

ودخل السلطان الملك الظاهر قانصوه بجيوشه إلى الصالحية فى يوم الثلاثاء خامس عشرى ربيع الآخر ثم سار منها إلى قطيا فلاقاه نائبها ومدّ له الموائد وجهزه

بمالاق وسار منها فدخل مدينة غزة فى يوم الخميس رابع جمادى الأولى فلاقاه الأمير دولت باى نائب غزة فأقام بها خمسة أيام ثم رحل عنها إلى دمشق فدخلها يوم الاثنين ثامن عشرى جمادى الأولى فلاقاه الأمير سيباى الغزالى نائب الشام وأظهر الفرح بقدومه ومشى فى ركابه فدخل وأمامه الخليفة والقضاة الأربعة وسائر الأمراء وأرباب الوظائف من المباشرين والجم الغفير من العساكر والناس فلاقاه بها جميع أمراء الشام وعسكرها وحملوا القبة والجلالة على رأسه كما جرت عادة الملوك من القدم وزينت له المدينة ودقت البشائر بقلعة دمشق ونثر على رأسه بعض تجار الفرنجة الذهب والفضة وفرش له سيباى الغزالى تحت أقدام فرسه الشقق الحرير خديعة وغشا فشق وسط المدينة ودخل من الباب المسمى باب النصر وخرج إلى القضاء وسار نحو المصطبة السلطانية بناحية فانول فنزل بها ورسم بعمارتها فرمموها. قال أصحاب التاريخ: ولم يتفق هذا الموكب لغيره من ملوك مصر إلا للملك الأشرف برسباى لما سار إلى دمشق سنة ست وثلاثين وثمانمائة، وأقام السلطان بالمصطبة تسعة أيام ثم رحل عنها إلى حمص ثم إلى حماة فلاقاه عالمها قباى بردى الغزالى وبالغ فى تعظيمه وعمل له موكبا حافلا جدا فأقام بها أياما حتى جاءه الأمير قاسم أخو السلطان سليم فأنزله بها وسار هو بعسكره ومتاعه قاصدا حلبا فدخلها فى يوم الخميس عاشر جمادى الآخرة فى موكب حافل ومشى أمامه أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله والقضاة الأربعة وسائر الأمراء وحملت له القبة والجلالة وكان الحامل لها الأمير خيربك عامله على جلب فلم يستقر بالسلطان المقام حتى وفدت عليه رسل السلطان سليم وهم ركن الدين قاضى عسكره وأمير اسمه قراجاه باشا وفى ركابهما سبعمائة راكب فأنزلهم قانصوه فى أحسن مكان وأكرم وفادتهما ودعاهما إلى مقامه وجعل يعاتبهما ويشكو من فعال السلطان سليم وإقدامه على سفك الدماء التى حرم الله سفكها فلاطفاه وهونا عليه الأمر وقالا قد جئنا إلى مقامك وكلانا مفوض فى إجراء كل ما تحب وتختار بشرط أن لا تتعرض لنجدة ملك فارس وقالا إن السلطان يريد أن ترسل إليه سكرا وحلوى من محصول بلادك فسر الظاهر قانصوه بذلك وظن السلامة والإخلاص وأرسل إليه ما طلب ولم تكن نية السلطان سليم من إرسال هذا الوفد إلا ليسير غور الأمور ويعرف أحوال جيوش الظاهر قانصوه وماعندهم من سلاح وكراع وكان السلطان سليم قد وصل فى هذه الأثناء إلى قيسارية ثم خلع الظاهر على رسل السلطان سليم خلعا سنية ورسم

للأمير مغلباى دوادار سكين بأن يتوجه إلى السلطان سليم رسولا ومعه بعض التحف وكثير من الهدايا الثمينة وكتاب يعرب عن المودة والولاء والإشارة إلى تقرير قاعدة للصلح بين الفريقين لحسم المشاكل وقطع أسباب الخصومة ولبث ينتظر الجواب فلما أبطأ رسوله جمع جميع الأمراء المقدمين والألوف والنواب وأمراء الطبلخاناه وأمراء العشراوات واستحلفهم على القرآن بأن يكونوا له عونا على العدو ولا يخونوه ولا يخالفوا له أمرا ولا يغدروا به فحلفوا جميعا وحلف معهم خير بك والغزالى ثم نادى في العسكر بالعرض في الميدان فعرضوا وهم باللباس الكامل ثم مروا من تحت سيفين قد نصبا على شكل قنطرة كعادة الأتراك، وعندهم أن هذا هو القسم الأعظم وأرسل السلطان قانصوه إلى الأمير قاسم بن أحمد بحماة فجاء إلى حلب فخلع عليه وأذاع خبره وطيره إلى الآفاق وجعل يتأهب وبينما هو على هذا الحال إذ جاءه الخبر بأن السلطان سليم قبض على الأمير مغلباى الذى سار إليه بالهدية والكتاب وكبله بالحديد وأبى إلا القتال وقطع دابر الظاهر وأصحابه واستخلاص البلاد منهم، وساق السلطان سليم بعد ذلك بعسكره إلى عنتاب وفتح قلعة ملطية وبهنسا وكركر وغيرهما من القلاع فاضطرب الملك الظاهر وتحير فى أمره ونادى فى طائفة من العسكر بالخروج إلى لقائه فخرج أمير اسمه عبدالرزاق بعسكره وخرج معه خير بك فى نفر من جنده أيضا فكانت عدتهم خمسة آلاف ونزلوا على قيد يوم من مدينة حلب ثم خرج بعدهم سيباى الغزالى نائب الشام والأمير تمراز نائب طرابلس والأمير طراباى نائب صفد ونائب حمص ونائب غزة وتتابع خروجهم بالعسكر والأسلحة فى اليوم السابع عشر من رجب وخرج بعد ذلك من بقى وساروا قاصدين جبلات ووردت الأخبار بذلك إلى نائب الغيبة بمصر فأطلق بعض المحابيس من النساء والرجال وفرق الصدقات ودعا الناس إلى الدعاء للسلطان الملك الظاهر قانصوه بالنصر والتأييد .

وعاد فى هذه الأثناء إلى حلب الأمير مغلباى دوادار الذى سار إلى مقام السلطان سليم رسولا بالكتاب والهدية وهو فى أسوء حال من العرى والتعب وأخبر الظاهر بما ناله من السلطان سليم وتصميمه على القتال ومحو أثر دولة الغورى فهال الملك الظاهر هذا الأمر وأزعجه وخرج من حلب فى يوم الثلاثاء العشرين من رجب ومعه أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله العباسى والقضاة الأربعة وساروا إلى جبلان فبات بها ليلة وأصبح فرحل عنها إلى مرج دابق فأقام بها إلى يوم الأحد

سابع عشرى رجب فجاءته الرسل من قبل السلطان سليم تدعوه إلى القتال فنادى فى العسكر بالخروج وركب هو وعليه تخفيفة صغيرة وملوطة وعلى كتفه طير وأخذ يرتب صفوف العسكر ويختار لها مواقع القتال ثم وقف بخواصه الذين يعتمد عليهم فى قلب الجيش وعلى يمينه أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله وهو بتخفيفة صغيرة وملوطة وعلى كتفه طير مثل السلطان وعلى رأسه الصنجق الخليفى وكان حول السلطان أربعون مصحفا فى أكياس من الحرير الأصفر على رؤوس جماعة من الأشراف وبينهم مصحف بخط الإمام عثمان بن عفان وحوله أيضا جماعة من الفقراء وهم خليفة أحمد البدوى ومعهم العلم الأحمدى والقادرية ومعهم علم أخضر وخليفة السيد أحمد بن الرفاعى ومعه العلم الخليفى والشيخ عفيف الدين خادم السيدة نفيسة ومعه علم أسود والأمير قاسم ابن أخى السلطان سليم واقف بإزاء الخليفة وعلى رأسه صنجق من الحرير الأحمر وكان خلف السلطان الظاهر الصنجق السلطانى وتحته سنبل العثمانى مقدم المماليك والقضاة الأربعة والأمير تمراز الزردكاش أحد المقدمين واصطفت جيوش السلطان سليم وارتفعت أعلامهم فبرز من جيوش السلطان الملك الظاهر الأتابكى سودون العجمى بعسكره والأمير سيباى الغزالى نائب الشام والمماليك القرانصة للقتال فالتقى الجمعان واقتتلا قتالا عنيفا للغاية فانهزم عسكر السلطان سليم وتقهقروا إلى الوراء فساق خلفهم سودون العجمى وأصحابه وغنموا منهم سبعة صناجق ومكاحل وأسروا منهم عددا كثيرا من رماة البنادق وكادت تتم هزيمتهم وكان خير بك عامل حلب والغزالى والى الشام قد راسلا السلطان سليم واستوثقا منه لأنفسهما بأن يعطى خير بك مصر والغزالى الشام فلما التحم الجمعان واضطرمت النيران وكادت تتم هزيمة عسكر السلطان سليم فر خيربك بمن معه وكانوا فى الميمنة وانضموا إلى صفوف العدو وفر الغزالى بمن معه من العسكر الشامى وكانوا فى الميسرة وبقى السلطان الملك الظاهر بمن معه من خواصه فى القلب فاندفع عليه من بقى من عساكر السلطان سليم فأراد الهرب وحول وجه جواده يريد حلبا فقط ومات تحت سنابك الخيل وقيل أصابه فى الحال فالج فلم يملك نفسه فمات لساعته فانقض عسكر السلطان سليم على من كانوا حوله فقتلوا الأمير بيبرس أحد المقدمين وكثيرا من الخاصكية والغلمان وشردوا من بقى ووطئوا المصاحف والأعلام بسنابك الخليل ونهبوا ما وجدوه فى المعسكر المصرى وزال من تلك الساعة ملك السلطان الملك الظاهر قانصوه فكانت مدة تصرفه فى

ملك مصر والشام وأعمالها خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وعشرين يوما فقد كان ولى الملك فى مستهل شوال سنة ست وتسعمائة ومات فى الخامس والعشرين من رجب سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة، وقتل فى هذه الوقعة من الأمراء المقدمين عدة كثيرة وقتل سيباى نائب الشام عند فراره للانضمام إلى عسكر السلطان سليم وعدة أخرى من العمال والنواب وقد ستر وجه الأرض بالجثث من الإنسان والحيوان فكان المشهد مريعا للغاية والخطب شديدا ودخل السلطان سليم وطاق الملك الظاهر فأخذ جميع ما فيه من مال وسلاح وكان شيئا كثيرا وانحاز من بقى من عساكر الظاهر إلى مدينة حلب ليتترسوا فيها فقام عليهم أهلها جميعا ومنعوهم من الدخول وقاتلوا دونها فقتلوا من العسكر خلقا ونهبوا ما كان معهم من سلاح ومتاع وخيول وغنموا ودائعهم التى كانت بالمدينة فارتد من بقى وساروا إلى دمشق فدخلوها وهم فى أسوء حال ما بين ضعيف وجريح بلا لباس ولا سلاح ولحق بهم بعض المتشردين من المباشرين ومن بقى من الأمراء الكبار ولبثوا بها أياما بلا ماء ولازاد إلا القليل جدا وأقام السلطان سليم خارجا عن حلب بالمكان المعروف بميدان حلب حتى تكامل ورود عسكره وجمعوا الأسلاب والغنائم فسار إليه أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله يعقوب والقضاة الثلاثة وهم قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل وقاضى القضاة محيى الدين الدميرى المالكى وقاضى القضاة شهاب الدين الفتوحى الحنبلى أما قاضى الحنفية محمد بن الشحنة فكان قد هرب مع العسكر إلى دمشق فناله ما نالهم فلما دخل الخليفة قام له السلطان سليم وأجله وأجلسه وجلس بين يديه ولم يلتفت إلى القضاة ولم يجلهم ثم رسم للخليفة بالمقام فى مدينة حلب وخلع عليه خلعة سنية من مال وملبوس ووكل به من يحرسه ثم صرف القضاة على غير صورة، وخرج إليه بالميدان أمراء حلب فتسلم المدينة وارتفعت راياته على حصونها بلا حرب ولا جلاد وغنم جميع ما كان بها من مال وسلاح وتحف وغير ذلك وهرب قانصوه الأشرف نائب قلعتها وسار إلى الشام مع من هرب من العسكر. قال بعض كتاب الأخبار: وكان بالقلعة من المال ما قيمته مائة ألف ألف دينار خلاف أوانى الذهب والفضة والتحف النفيسة وصلى السلطان سليم صلاة الجمعة فى جامع الأطروش بحلب فخطب الخطيب باسمه ودعا له ولأسلافه وبالغ فى المدح والتعريف وعند ما سمع السلطان سليم الخطيب يقول فى تعريفه: خادم الحرمين الشريفين، أظهر الفرح والسرور بلقب خادم الحرمين الشريفين وخلع على الخطيب خلعا متعددة

وهو على المنبر وأحسن إليه إحسانا كثيرا فلما خرج من الصلاة زينت له المدينة وأوقدوا له الشموع على أبواب الدكاكين وارتفعت له الأصوات بالدعاء فأقام بالميدان أياما وهو يرتب الأمور ويجرى الأحكام ويمهد العقبات ثم ارتحل إلى الشام فخرج من كان بها من العساكر المصرية هاربين وخرج إليه أهل دمشق وطلبوا الأمان فأمنهم ودخل المدينة فى موكب حافل للغاية وأقام بها أياما وخطب له بها الخطباء ووصل من بقى من العسكر المصرى والأمراء إلى القاهرة وهم فى أسوء حال من العرى والجوع والضعف وبينهم كثير من المرضى والجرحى فقام العزاء بالقاهرة على السلطان ومن مات من الأمراء والعسكر والمباشرين وأرباب الوظائف وكثر البكاء والنواح فى جميع البيوت فكان الخطب عظيما والحزن عاما، وجاءت الأخبار إلى الأمير طومان باى الدوادار متولى الغيبة بعزم السلطان سليم على الزحف بجيوشه على القاهرة فهاله الأمر وأزعجه وجمع من بقى من الأمراء المقدمين وأمراء الطبلخاناه وأمراء العشراوات وتكلموا فى الأمر طويلا فاتفقت كلمتهم على تولية الأمير طومان باى المذكور منصب السلطنة فامتنع فألحوا عليه فلم يقبل وأظهر غاية الامتناع ثم ركب وركب معه من الأمراء المقدمين الأمير علان والأمير أنسيباى حاجب الحجاب والأمير تمر والأمير بقطاى نائب القلعة وآخرون غيرهم وساروا إلى كوم الجارح عند الشيخ أبى السعود وكان للأمير طومان باى معرفة ثابتة به وصحبة فذكروا للشيخ ما وقع للعساكر المصرية بمرج دابق وما حل بالسلطان قانصوه الغورى وعزم السلطان سليم على الزحف بجيوشه على القاهرة ورغبتهم فى مبايعة الأمير طومان باى بالسلطنة وامتناعه وطال بهم الكلام فى ذلك فقام الشيخ وأحضر المصحف واستحلفهم جميعا على أنه إذا قبل الأمير طومان باى المنصب لايخونونه ولا يغدرونه ولا يخامرون عليه ويرضون بقوله وفعله فحلفوا جميعا على ذلك ثم أعاد عليهم اليمين ثانيا أن لا يظلموا الرعية ولا يجددوا الأحداثات من المشاهرة والمجامعة التى أحدثها الغورى وأن يبطلوا ما على الحوانيت من ذلك وأن يجروا الأمور على ما كانت عليه أيام الملك الأشرف قايتباى ويسيروا الحسبة على طريقة يشبك الجمالى عند ما كان متوليا عليها فحلفوا له على ذلك وقاموا من عنده وقد قبل الأمير طومان باى المنصب وأطاع، فلما كان يوم الجمعة رابع عشر رمضان من السنة صلى الأمير طومان باى صلاة الفجر وركب فركب معه الأمراء المقدمون وأمامهم الفوانيس بالشموع والمشاعل وشق من صليبة ابن طولون وهو بتخفيفة

صغيرة وملوطة بيضاء وكذلك الأمراء الذين معه فارتفعت له أصوات الناس بالدعاء وصعد إلى باب السلسلة وجلس به وأرسل يستدعى أمير المؤمنين يعقوب والد أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله فحضر ومعه هارون ولد الخليفة محمد المتوكل على الله وأولاد ابن عم خليل وحضر قاضى القضاة الحنفى حسام الدين محمد بن الشحنة والقاضى شرف الدين يحيى بن البردينى أحد نواب الشافعية وجماعة من نواب القضاة الذين بالقاهرة فلما تكامل المجلس اجتمع سائر الأمراء المقدمين وغيرهم من الأجناد والعسكر فأبرز أمير المؤمنين يعقوب ورقة بالوكالة المطلقة عن ولده المتوكل على الله فتليت بحضرة من حضر وبعد ذلك تقدم الخليفة يعقوب فبايع الأمير طومان باى بالسلطنة وبايعه هو أيضا وشهد عليهما بذلك الشرف يحيى بن البردينى وجماعة من نواب القضاة فلما تمت له البيعة أحضروا له الخلعة السلطانية وهى جبة سوداء وعمامة سوداء وسيف بدوى ولقبوه بالملك الأشرف ثم قدموا له فرس النوبة فركب على سلم الحراقة التى بباب السلسلة والخليفة أمامه فطلع من باب سر القصر الكبير وجلس على تخت المملكة وقبل الأمراء الأرض بين يديه ودقت البشائر بالقلعة ونودى باسمه فى القاهرة ومصر فارتفعت له الأصوات بالدعاء وفرح الناس به فأنه كان بارا شفيقاً على الرعية ميالا إلى خير البلاد فلما كان وقت صلاة الجمعة من ذلك اليوم خرج السلطان الملك الأشرف طومان باى المذكور وصلى صلاة الجمعة وخطب به الشرف يحيى بن البردينى وخطب جميع الخطباء باسمه على المنابر فى ذلك اليوم بعد انقطاع الخطبة خمسين يوما من مصر والقاهرة وغيرهما.

وجاء فى هذه الأثناء إلى القاهرة بعض كبار الأمراء الذين تخلفوا بدمشق ومعهم جماعة كثيرة من كبار دمشق وأعيانها فرارا من إيذاء جند السلطان سليم فإنهم لما دخلوا دمشق عثوا وأفسدوا ونهبوا الدور وأخذوا كل ما وصلت إليه أيديهم فهاجر الكثير من أهل دمشق وتفرقوا وجاء منهم جماعة إلى القاهرة. قال بعض أصحاب التاريخ: وكثر فساد عسكر السلطان سليم فتطاولت أيديهم أيضا إلى نهب ما فى القرى المجاورة لدمشق فخرج لقتالهم الأمير ناصر الدين بن الخشن أحد كبار قبائل العرب فلاقاهم عند قابون واقتتل الفريقان قتالا عنيفا فانتصر عليهم ابن الخشن وقهقرهم وأعمل فيهم القتل بالسيف ثم تترس فى دمشق وجاءت الأخبار بذلك إلى السلطان طومان باى ففرح وتقوّت عزائمه ونادى فى العسكر المصرى الذى تخلف بالقاهرة لحراستها بعد خروج قانصوه بأن يتأهبوا للخروج ثم عرضهم وعين من الأمراء المقدمين الذين تخلفو أيضا ستة أمراء ثم رتب أمور الجند وولى عليهم من

شاء من الأمراء وعين أرباب الوظائف العالية والمباشرين وأمراء الطبلخاناه والعشراوات وغيرهم من أصحاب الوظائف الأخرى وكتب إلى ابن الخشن يستنهض همته إلى قتال السلطان سليم ووعده بولاية حمص وأتابكية الشام إن هو نال من العثمانيين وفرق شملهم وكثر الإرجاف فى هذا الحين واشتد خوف الناس ولم يخرج الحج فى هذه السنة وتعطلت مراسمه وجاءت الأخبار بعزم السلطان سليم على الزحف على غزة بجيوشه بعد أن ملك جميع الديار الشامية من الشام إلى الفرات وأقام الولاة والعمال ورتب الأمور على ما يشاء فلما علم السلطان الأشرف طومان باى بذلك نادى فى العسكر بالخروج إلى الريدانية وخلع على الأمير جان بردى وجعله مقدم هذه الحملة فخرج من يومه إلى الريدانية ونصب وطاقه وأكثر النداء فى العسكر فصاروا يخرجون تباعا والنداء متواصل والأخبار مترادفة بوصول طلائع جيوش السلطان سليم إلى سواد غزة وخرج أصحاب البنادق من الجند وأصحاب المكاحل وغيرهم وتقدم الأمير جان بردى بعسكره يريد غزة وتبعه بعض الأمراء بمماليكهم فالتقت بهم طلائع السلطان سليم على مقربة من غزة فقاتلوهم قتالا عنيفا ولازم كل فريق منهم مواقعه، فلما كان يوم الاثنين حادى عشر ذى القعدة قبض جواسيس السلطان الملك الأشرف طومان باى على جماعة من أصحاب السلطان سليم بطريق بركة الحاج وكانوا نحو خمسة عشر ومعهم شيخ كبير هومقدمهم وكان حضورهم من طريق الدرب السلطانى ولم يأتوا من طريق غزة لوقوف الأمير جان بردى بعسكره عند سواد غزة فلما جاءوا بهم إلى دار الأمير علان الدوادار الكبير أشاروا إلى الشيخ بأن يترجل عن فرسه ليدخل على الأمير فلم يقبل فبطحوه على وجهه وأوسعوه ضربا ومن معه وأمر بهم الدوادار فقيدوهم جميعا بالجديد وألقوهم فى السجن وفتشوهم فوجدوا مع ذلك الشيخ عدة رسائل لبعض الأمراء والمباشرين وأرباب الوظائف العالية بمصر ورسالة إلى السلطان الملك الأشرف طومان باى وهى غاية فى التشديد والغلظة وكلها سباب ووعيد وتهديد إلى أن قال له فيها: ولقد أوحى الله إلىّ بأن أملك جميع البلاد شرقا وغربا كما ملكها ذو القرنين وأن لا تكون كلمة فوق كلمتى ولا يد فوق يدى، وأما أنت فمملوك تباع وتشرى فلا تصح لك ولاية ولايجوز لك التسلط على الأحرار وقد أتت إلىّ السلطنة على ديار مصر بعهد من أمير المؤمنين المتوكل على الله والقضاة فان سالمتنا سلمت وأزلنا عنك البأس واضرب السكة باسمنا الشريف ثم اخطب لنا على المنابر قياما

بواجب السلطنة وقد وليناك بعد الطاعة عمالة مصر وملحقاتها إلى مدينة غزة فقط فإن أبيت الطاعة وأظنك فاعلا أتيت إلى مصر وقتلت جميع من بها من الشراكسة حتى الأجنة الذين فى بطون الأمهات وأمحو شأفتهم عن وجه الأرض، إلى أن قال: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ .

فلما قرئ هذا الكتاب على السلطان الملك الأشرف طومان باى بكى بكاء مرا وجمع إليه الأمراء وكلمهم فى الأمر ثم شدد فى خروج من بقى من العساكر وشاع خبر ما فى هذا الكتاب بين الناس فانزعجوا ونزح بعضهم إلى أطراف القاهرة وبعضهم إلى الصعيد الأعلى بأموالهم وعيالهم وعم الخوف جميع الرعية وامتنع من بقى من العساكر والأجناد من مماليك الطباق لا سيما المماليك القرانصة من الخروج إلى القتال إلا بعد النفقة وأن ينفذ لكل واحد منهم مائة وثلاثين دينارا فأخذ السلطان يلاطفهم ويسايرهم حتى قبلوا خمسين دينارا فجمع السلطان هذا المال من أولاد السلطان الملك الغورى وأولاد السلطان الملك المؤيد وأولاد السلطان الملك المنصور وجميع أولاد الأمراء الذين بالقاهرة ومصر ولم يحدث بسببه إحداثا على أهل البلاد كما كان يفعل غيره من الملوك والسلاطين إذا قامت الحرب من عدو خارجى، وفى هذه الأثناء جاء الخبر بوقوع القتال فى يوم الأحد سابع عشرى ذى القعدة بين العساكر المصرية وعساكر السلطان سليم تحت أسوار مدينة غزة واشتد شدّة بالغة ثم انكشف عن هزيمة المصريين وفى رواية أن هذه الوقعة كانت بناحية بيسان فساق عسكر السلطان سليم خلف العسكر المصرى وأكثروا فيهم القتل والطعن فمات منهم خلق كثير وخرج الأمير جان بردى مقدم الجيوش المصرية والأمير أزرمك الناشف أحد الأمراء المقدمين وغيرهما من كبار الأمراء والمباشرين وغنموا ما كان معهم من سلاح وكراع وخيول وجمال ومات الأمير علىّ باى السيفى الدوادار أحد أمراء الطبلخاناه وتشتت من بقى من المصريين وتمزق شملهم فلما كان يوم الاثنين خامس المحرم افتتاح سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة دخل من بقى من العسكر إلى القاهرة وهم فى أتعس حال فكان أول من دخل الأمير جان بردى مقدم الحملة والأمير أزرمك الناشف وبعض أمراء العشراوات والعساكر والغلمان والأتباع فأخبروا بما نالهم من عساكر السلطان سليم وبالغوا وهولوا وملئوا القلوب خوفا ورهبة من سطوة السلطان سليم وشدة بأس عساكره وأنهم دخلوا غزة وملكوها وأتى مع من حضر أيضا والى غزة المسيحى دولت باى فاشتد غم السلطان الملك الأشرف وحار

فى أمره ووصلت طلائع الجيوش العثمانية إلى قطيا وقد أباح لهم السلطان سليم مدينة غزة أياما فقتلوا فيها وأراقوا الدماء وأفحشوا فى القتل حتى فى الأطفال والصبيان تشفيا وانتقاما وكان فتح غزة على يدى سنان باشا أحد كبار عسكر السلطان سليم .

واهتم السلطان الملك الأشرف بإعداد المعدات وجمع الذخيرة فجمع منها شيئا كثيرا وسيرها مع بعض طوائف الجند من المماليك وأخلاط الناس من سود ومغاربة وغيرهم وأخرج عدة عجلات تجرها الأبقار وعليها المكاحل النحاس وساروا إلى الريدانية ونزلوا على مقربة من تربة العادل ورسم السلطان بتسليم قيادة هذا الجيش إلى الأمير سودون الدوادار فتقيد عندئذ بخروج الجند وإخراج المعدات وبرز بهم إلى الريدانية وبث العيون والأرصاد لتأتى إليه بالأخبار فأعلموه بأن السلطان سليم خرج من دمشق يريد الديار المصرية وقد قسم عساكره إلى فرقتين فسير أحداهما من طريق الدرب السلطانى وثانيتها من طريق التيه وهو طريق البرية التى سلكها بنو إسرائيل مع موسى عليه السلام عند خروجهم من أرض مصر فسير سودون الخبر بذلك إلى الأشرف بالقاهرة فجمع الأشرف الأمراء وحثهم على الخروج إلى الريدانية فخرجوا وعسكروا بها وتابع الأمير سودون استطلاع الأخبار فعلم أن العدو وصل إلى مدينة غزة وأن السلطان سليم عرَّج فى نفر قليل إلى زيارة بيت المقدس ومقام الخليل إبراهيم وأحسن إلى من بالبيت وعاد ولما كان يوم الاثنين تاسع عشر ذى الحجة نزل السلطان الملك الأشرف ومعه الأمير قاسم ابن أخى السلطان سليم من قلعة الجبل فى عدَّة وافرة من الجند والغلمان وساروا إلى الريدانية وأقام السلطان بالمصطبة التى بها المعروفة بالمطعم ورسم بترتيب العساكر ووضع المكاحل واستعد للقاء السلطان سليم بالصالحية فمنعه الأمراء وقالوا لا نقاتله إلا بالريدانية فراجعهم فلم يقبلوا فألح عليهم فامتنعوا فأجابهم كارها ورسم بعمل خندق من سبيل علان إلى الجبل الأحمر وإلى منتهى مزارع المطرية فعملوه ووضعوا عليه الطوارق والمكاحل وأتى إلى الريدانية الكثير من القصابين والخبازين والبياعين على اختلافهم وخيموا هناك وأرسل الأشرف الأمير قانصوه العادلى الذى كان كاشف الشرقية ليستكشف خبر مجىء السلطان سليم بجيوشه إلى قطيا فعاد فى يوم الأحد خامس عشرى الشهر ومعه رأسا شخصين من عساكر السلطان سليم ورجل من أبناء حلب كان فى خدمة الأمير خير بك واليها الذى انضم إلى عسكر السلطان سليم وكان هو سبب هزيمة المصريين

وموت السلطان كما تقدم بيان ذلك فى محله وكان قانصوه المذكور لما وصل إلى الصالحية وجد أن طائفة من عسكر السلطان سليم قد دخلتها وأخذت منها بعض المؤنة وعلائف الدواب الحمل فقبض على اثنين منهم واحتز رأسهما وقبض على ثالث وهو من أتباع خيربك وأتى بالرأسين والرجل إلى الأشرف بالمصطبة فسأل السلطان ذلك الرجل عن أحوال عسكر السلطان سليم ووجدوا معه عدة رسائل من خيربك إلى بعض الأمراء المقدمين بمصر فألقوه فى السجن مقيدا بالحديد وأخفوا عن الناس خبره وخبر تلك الرسائل .

وكان السلطان سليم كلما مر ببلد أو قرية أوقصبة فى طريقه أحسن إلى أهلها فيهرب من بها من الشراكسة أو يختفى ويتنكر وما زال على هذا الحال حتى وصلوا بلبيس ومنها جاءوا إلى العكرشة فلما علم الأشرف بوصولهم إلى الكرشة هم بأن يلقاهم بها ويقاتلهم على ما هم فيه من التعب والجوع فلم تمكنه الأمراء من ذلك وقالوا لا نقاتلهم الآن وكأنهم كانوا على عهد مع السلطان سليم فى ذلك فلما لم يقاتلوه وأفسحوا له فى الأجل سار بعسكره من غير ممانع حتى دخل الخانكاه فخرج أهلها على وجوههم إلى القاهرة مولولين فرسم والى القاهرة بغلق الأبواب الكبرى فغلقوا باب الفتوح وباب النصر وباب الشعرية وباب البحر وباب القنطرة وغيرها من الأبواب وأغلقت أسواق المدينة وتعطلت الطواحين فقل الدقيق والخبز من الأسواق واشتد الجوع بالفقراء، ولما كان يوم الخميس تاسع عشرى ذى الحجة قام السلطان سليم بعسكره من بركة الحاج إلى الجبل الأحمر فقام للقائه الأشرف وصمم على القتال بغير مهل والتقى الفريقان فاقتتلا قتالا عنيفا فقتل من عسكر السلطان سليم عدة وافرة وقتل سنان باشا أحد مقدمى جند السلطان سليم فحزن عليه السلطان حزنا عظيما. قال بعض الكتاب: حتى أنه قال وأى فائدة لى فى مصر بعد يوسف يريد (سنان باشا المذكور) واشتد السلطان سليم على عساكره وقسمهم إلى قسمين وسير أحدهما من خلف الجبل الأحمر وزحف بالثانى نحو الريدانية حيث معسكر السلطان طومان باى ثم انضم القسمان وأعملا القتل برمى البنادق والمكاحل واشتد الرمى وتراسل على العساكر المصرية فلم تكن إلا ساعة أو بعض ساعة حتى قتل أكثر الأمراء المصريين وعدد عديد من العساكر والأجناد فتمت هزيمة المصريين وفر من بقى منهم يريد النجاة ووقف الأشرف طومان باى يقاتل الأعداء مقاتلة الأسود الطوارى وحوله نفر من العبيد الرماة والمماليك السلحدارية ثم عمد بعد ذلك إلى

الفرار ففر إلى طرا ودخلت العساكر العثمانية إلى القاهرة فعاثوا وقتلوا ونهبوا وحرقوا وخربوا جميع بيوت الأمراء وأخذوا ما فى الحواصل والأشوان ولبثوا على هذا الحال اليوم كله فكان يوما عبوسا قمطريرا فقال فى ذلك الشيخ بدر الدين الزيتونى :

يبكى على مصر وسكانها قد خربت أركانها العامرة
وأصبحت بالذل مقهورة من بعد ما كانت هى القاهرة

وأصبح يوم الاثنين سلخ ذى الحجة سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة فدخل القاهرة أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله ومعه بعض كبار الأمراء من أصحاب السلطان سليم وطائفة كثيرة من عسكره ودخل معه الأمير خيربك والى حلب وقاضى القضاة الشافعية كمال الدين الطويل والقاضى المالكى محيى الدين الدميرى والقاضى الحنبلى شهاب الدين الفتوحى وكان دخول الخليفة المتوكل على الله من باب النصر فشق القاهرة وأمامه المناداة على الناس بالأمن والأمان والبيع والشراء والتحذير من إخفاء أحد من المماليك الشراكسة والدعاء للسلطان المظفر سليم خان فلم بسمع الناس النداء ضجوا بالدعاء، قال بعض كتاب الأخبار: ومع ذلك لم تكن العساكر لتكف عن النهب وقتل النساء والأطفال والقبض على كل من وجدوه من المماليك فكانوا إذا قبضوا على أحد منهم ساروا به إلى الريدانية حيث السلطان فيذبحونه بين يديه ويحتزون رأسه ويعلقونه حتى كثرت الرمم وانتشرت من الريدانية إلى سفح الجبل الأحمر إلى مزارع المطرية ولبث الحال على ذلك ثلاثة أيام كاملة والناس فى هول ولا هول القيامة، وخطب فى ذلك اليوم للسلطان سليم على منابر مصر والقاهرة وقد بالغ بعض الخطباء فى خطبته فقال: وانصر اللهم السلطان ابن السلطان ملك البرين والبحرين وكاسر الجيشين وسلطان العراقين وخادم الحرمين الشريفين الملك المظفر سليم شاه اللهم انصره نصرا عزيزا وافتح له فتحا مبينا يامالك الدنيا والآخرة يارب العالمين فسر السلطان سليم بذلك سرورا عظيما.

وأرسل السلطان جماعة من الانكشارية فقيدهم بحراسة الأبواب ومنع العسكر من العبث ونهب البيوت فمنعوهم وسكنت خواطر الناس قليلا وأرسل السلطان خلف المعز الناصرى محمد ابن السلطان الغورى فلما حضر بين يديه خلع عليه

وألبسه قفطانا مخملا مذهبا وألبسه عمامة عثمانية ورسم له بأن يسكن فى مدرسة أبيه التى أنشأها فى الشرابشيين وعين بعض الكشاف للأقاليم القبلية والبحرية وخلع على الزينى بركات بن موسى وجعله يتحدث على الحسبة ونزل السلطان سليم فى يوم الأحد ثانى المحرم افتتاح سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة من الريدانية إلى بولاق ونصب خيامه بها من تحت الرصيف إلى آخر الجزيرة الوسطى وقد أحضروا له مفاتيح قلعة الجبل فلم يلتفت إليها ولا أحلها محلا ثم دخل فى ثانى يوم القاهرة من باب النصر وشق المدينة فى موكب حافل للغاية وأمامه الجنائب والعساكر والأجناد وطوائف الغلمان وهو فى هيبة و جلالة عظيمة ثم رجع إلى بولاق وأقام بوطاقة يرتب الأمور ويفرق المناصب بين قومه وقد ظن موت السلطان الملك الأشرف طومان باى مع من قتلوا فى الوقعة وتمزيق شمل من بقى من العساكر المصرية واطمأن لذلك قلبه فلم يلتفت إلا إلى تنظيم الأحوال وترتيب الأمور على ما تقتضيه مصلحة الرعية وكان من الأمور بعد ذلك ما سيتلى عليك مفصلا فى الجزء الثالث إن شاء الله تعالى.

تم الجزء الثانى ويليه الجزء الثالث مبتدئا بمختصر تاريخ ملوك آل عثمان

قبل فتح مصر بالجيوش العثمانية ثم ماجرى بعد دخول

السلطان سليم بجيوشه إلى القاهرة إلى ظهور

الحاج محمد على باشا الكبير

وولايته

صفحات من تاريخ مصر ٣/٤٨

الكافى

فى
تاريخ مصر القديم والحديث

لمؤلفه
ميخائيل شاروبيم بك
رئيس النيابة العمومية بمحكمة المنصورة الأهلية
والمفتش بنظارة المالية الجليلة
عفى الله عنه

الجزء الثالث

عن الفترة من
١٥١٢ م إلى سنة ١٨٠٠م
٩٢٢ هـ إلى سنة ١٢٢٠ هـ

الناشر
مكتبة مدبولى
٦ ميدان طلعت حرب. القاهرة

هذه السلسلة تضم :

١ – فتح العرب لمصر
٢ – تاريخ مصر إلى الفتح العثماني
٣ – الجيش المصري البري والبحري في عهد محمد علي
٤ – تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي
٥ – تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل
٦ – تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر
٧ – ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا
٨ – تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا (مجلد أول)
٩ – تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا (مجلد ثاني)
١٠ – فتوح مصر وأخبارها
١١ – تاريخ مصر الحديث مع فزلكة في تاريخ مصر القديم
١٢ – قوانين الدواوين
١٣ – تاريخ مصر من محمد علي إلى العصر الحديث
١٤ – الحكم المصري في الشام
١٥ – تاريخ الخديوي محمد باشا توفيق
١٦ – آثار الزعيم سعد زغلول
١٧ – مذكراتي
١٨ – الجيش المصري في الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم
١٩ – وادي النطرون ورهبانه وأديرته ومختصر البطاركة
٢٠ – الجمعية الأثرية المصرية في صحراء العرب والأديرة الشرقية
٢١ – الرحلة الأولى للبحث عن ينابيع البحر الأبيض (النيل الأبيض)
٢٢ – السلطان قلاوون (تاريخه – أحوال مصر في عهده – منشآته المعمارية)
٢٣ – صفوة العصر
٢٤ – المماليك في مصر
٢٥ – تاريخ دولة المماليك في مصر
٢٦ – سلاطين بني عثمان
٢٧ – محمود فهمي النقراشي
٢٨ – دور القصر في الحياة السياسية
٢٩ – مذكرات اللورد كيللرن
٣٠ – عادات المصريين
٣١ – خنقاوات الصوفية ج ١
٣٢ – خنقاوات الصوفية ج ٢
٣٣ – تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الملوك والسلاطين
٣٤ – تاريخ عمرو بن العاص
٣٥ – دور القبائل العربية في صعيد مصر
٣٦ – علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب
٣٧ – عبد الرحمن الجبرتي ٥ أجزاء
٣٨ – مصر في العصر العثماني في القرن ٦
٣٩ – خطط المقريزى ٣ أجزاء (محققة منقحة في ٢٧٥٠ صفحة)
٤٠ – صفحات من تاريخ مصر (صليب باشا سامى)
٤١ – صفحات من تاريخ مصر (سيد مرعى)
٤٢ – سلار الأمير التتري المسلم
٤٣ – مالية مصر
٤٤ – الموسيقى الشرقية
٤٥ – الدليل في موارد أعالي النيل
٤٦ – الموسيقى الشرقي
٤٧ـ النخبة المصرية الحاكمة ١٩٥٢ـ٠
٤٨ـ الكافي في تاريخ مصر– ٤ أجزاء

مكتبة مدبولى
٦ ميدان طلعت حرب – القاهرة – ت : ٥٧٥٦٤٢١
MADBOULI BOOKSHOP
6 Talat Harb SQ. Tel.: 5756421

الكافى

فى تاريخ مصر القديم والحديث

من سنة 1512 م. إلى سنة 1800م
922 هـ إلى سنة 1220 هـ

الكتاب: **الكافى**
الكاتب: **ميخائيل شاروبيم بك**
الناشر: **مكتبة مدبولى**
الطبعة: **ت: ٥٧٥٦٤٢١**
الأولى: ١٨٩٨م ـ ١٣١٥هـ
الثانية: ٢٠٠٤م ـ ١٤٢٥هـ
رقم الإيداع:
مراجعة لغوية: **عبد النبى محمد**

٣/٤٨ صفحات من تاريخ مصر

الكافى

فى

تاريخ مصر القديم والحديث

لمؤلفه
ميخائيل شاروبيم بك
رئيس النيابة العمومية بمحكمة المنصورة الأهلية
والمفتش بنظارة المالية الجليلة
عفى الله عنه

الجزء الثالث

عن الفترة من
١٥١٢م إلى سنة ١٨٠٠م
٩٢٢هـ إلى سنة ١٢٢٠ هـ

الناشر
مكتبة مدبولى
٦ ميدان طلعت حرب. القاهرة

المحتويات

الموضوع الصفحة

المقالة السابعة

فيمن هم الترك وفى نسبهم وفيمن تفرع عنهم من الممالك والأمم إلى ظهور ملوك آل عثمان ١١

المقالة الثامنة

فى تأسيس الدولة العثمانية وفى ظهور ملوكها إلى مجئ السلطان سليم إلى ديار مصر واستخلاصها من أيدى المماليك الشراكسة المعروفين بدولة المماليك الثانية ١٥
مطلب ما جرى بعد موت السلطان بايزيد من الاختلال ٢٣
فصل فى استقلال السلطان محمد الغازى بالملك ٢٤
مطلب قيام البابا كالستوس الثالث وحثه المسيحيين على قتال السلطان محمد ٣١
مطلب زحف السلطان محمد على ولاية أثينا وما كان من وراء ذلك ٣٢
مطلب تدويخ بلاد البوسنا وأخذها عنوة ٣٣
مطلب فيما أصاب عسكر السلطان فى بلاد البغدان وفى هزيمتهم ٣٥
الموضوع الصفحة
مطلب حصار سفن السلطان لردوس والرجوع عنها ٣٥
مطلب وفاة السلطان محمد وولاية ابنه بايزيد ٣٦
مطلب وتاقت نفس السلطان بايزيد إلى فتح الديار المصرية ٣٨
مطلب خروج الأمير سليم على أبيه السلطان بايزيد فى طلب الملك ٣٩

المقالة التاسعة

وفيها فصول :

الفصل الأول: فيما جرى بعد دخول السلطان سليم القاهرة وفى سلطنته على ديار مصر ولبسه شعار الخلافة ٤١
مطلب قتل السلطان الملك الأشرف طوبان باى ٤٦
مطلب خروج السلطان سليم من مصر إلى مقر سلطنته بالقسطنطينية ٤٩
الفصل الثانى : فى سلطنة السلطان سليمان ابن السلطان سليم ٥١
مطلب نظر السلطان إلى ترتيب الدواوين والمجالس وتنظيم الأحكام الشرعية وتقرير قاعدة لذلك بديار مصر ٥١

مطلب تقرير خير بك على عمالة مصر وما جرى له ٥٢
مطلب خروج الغزالى والى الشام عن طاعة السلطان وعزمه على الزحف على مصر وضمها إلى الشام ٥٧
مطلب قتل الغزالى وإرسال رأسه إلى دار السلطنة ٥٨
مطلب كم كان خراج مصر فى دولة السلطان سليمان ومن بعده إلى هذا الحين ٦١
مطلب إبطال السلطان سليمان لقضاة المذاهب الأربعة ٦٢
مطلب ما تقرر من الرسوم على التركات لبيت المال وما أحدث من الإحداثات ٦٣
مطلب خروج قاضى القضاة إلى الحج ٦٤
مطلب موت الأمير خير بك ٦٥
مطلب ولاية الوزير مصطفى باشا ٦٧
مطلب إبطال نظام قلعة الجبل القديم ٦٧
مطلب ولاية أحمد باشا ٦٨
مطلب ولاية قسام جزل باشا وخلعه وولاية إبراهيم باشا ٦٩
مطلب ولاية سليمان باشا الخادم وفيما رسم به السلطان من مساحة أطيان سائر البلاد وجعلها ملكا للسلطان ٧٠
مطلب ولاية خسرو باشا وخلعه ورجوع سليمان باشا إلى الولاية ثانية. ٧١
مطلب ولاية داود باشا ٧٢
مطلب ولاية مصطفى باشا صفصفان وخلعه وولاية على باشا ٧٢
مطلب ولاية محمد باشا المعروف بدوفتركين زاده ٧٣
مطلب ولاية إسكندر باشا ٧٣
مطلب ولاية على باشا الخادم وخلعه وولاية شاهين باشا ٧٣
مطلب ولاية على باشا الصوفى ٧٤
مطلب فى سبب إقامة السور من قنطرة الحاجب إلى الجامع الأبيض ٧٤
مطلب ولاية محمد على باشا المعروف بالمقتول ٧٥
الفصل الثالث: فى سلطنة السلطان سليم الثانى ٧٩
مطلب ولاية سنان باشا ٨١
مطلب ولاية إسكندر باشا الفقيه الشركسى بدلا من سنان باشا ٨٢
مطلب ولاية حسين باشا ٨٣
الفصل الرابع: فى سلطنة السلطان مراد ابن السلطان سليم ٨٥
مطلب ولاية مسيح باشا ٨٥
مطلب ولاية حسن باشا الخادم ٨٦
مطلب ولاية الوزير إبراهيم باشا ٨٧
مطلب ولاية سنان باشا الدفتردار ٨٨
مطلب ولاية أويس باشا ٨٨
مطلب ولاية أحمد حافظ باشا الخادم ٩٠

مطلب ولاية قيودر باشا ٩٠
الفصل الخامس : فى سلطنة السلطان محمد بن السلطان مراد ٩٢
مطلب ولاية خضر باشا ٩٥
مطلب ولاية على باشا ٩٥
الفصل السادس : فى سلطنة السلطان أحمد ابن السلطان محمد خان ـ ٩٦
مطلب ولاية إبراهيم باشا المعروف بالمقتول ٩٨
مطلب ولاية جرجى محمد باشا الخادم ٩٩
مطلب ولاية حسن باشا الدفتردار ١٠٠
مطلب ولاية الوزير محمد باشا ١٠١
مطلب ولاية جاجى باشا وخلعه وولاية محمد باشا المعروف بالصوفى ١٠٣
مطلب ولاية أحمد باشا الدفتردار ١٠٥
الفصل السابع: فى سلطنة السلطان مصطفى ابن السلطان محمد خان ١٠٦
الفصل الثامن: فى سلطنة السلطان عثمان ابن السلطان محمد خان الثانى ١٠٨
مطلب ولاية مصطفى باشا السلحدار ١٠٩
مطلب ولاية جعفر باشا ١٠٩
مطلب ولاية مصطفى باشا ١١٠
مطلب ولاية حسين باشا ١١٠
مطلب ولاية محمد باشا البستنجى ١١١
الفصل التاسع: فى سلطنة السلطان مصطفى الثانية ١١٢
مطلب ولاية إبراهيم باشا السلحدار ١١٣
مطلب ولاية مصطفى باشا ١١٤
الفصل العاشر : فى سلطنة السلطان مراد الرابع ابن السلطان أحمد ١١٥
مطلب ولاية بيرم باشا ١١٧
مطلب ولاية محمد باشا الوزير ١١٨
مطلب ولاية الوزير موسى باشا ١١٩
مطلب ولاية خليل باشا ١٢٠
مطلب ولاية أحمد باشا الجورجى ١٢١
مطلب ولاية الوزير حسين باشا ١٢٢
مطلب ولاية الوزير محمد باشا ابن أحمد باشا ١٢٣
الفصل الحادى عشر: فى سلطنة السلطان إبراهيم خان الأول ١٢٥
مطلب ولاية مصطفى باشا البستانجى ١٢٦
مطلب ولاية مقصود باشا ١٢٧
مطلب ولاية أيوب باشا ١٢٩
مطلب ولاية الوزير محمد باشا بن حيدر ١٢٩
الفصل الثانى عشر: فى سلطنة السلطان محمد الرابع ابن السلطان إبراهيم ١٣٢
مطلب ولاية الوزير أحمد باشا ١٣٣
مطلب ولاية عزل أحمد باشا وولاية الوزير عبدالرحمن باشا ١٣٤
مطلب ولاية الوزير محمد باشا ١٣٤
مطلب ولاية غازى باشا وعزله وولاية عمر باشا ١٣٥
مطلب ولاية أحمد باشا «أووهه»

إبراهيم باشا وعزله وولاية حسين باشا ١٣٥
مطلب ولاية حسين باشا جانبلاط ١٣٦
مطلب ولاية عثمان باشا ١٣٦
الفصل الثالث عشر: فى سلطنة السلطان سليمان خان الثانى ١٣٩
مطلب ولاية حسن باشا السلحدار ١٤٠
مطلب ولاية أحمد باشا ١٤١
الفصل الرابع عشر: فى سلطنة السلطان أحمد الثانى ابن إبراهيم ١٤٢
مطلب ولاية على باشا قلج ١٤٢
الفصل الخامس عشر: فى سلطنة السلطان مصطفى الثانى ابن السلطان محمد الرابع ١٤٣
مطلب ولاية مسلم باشا إسماعيل ١٤٥
مطلب ولاية حسين باشا ١٤٦
مطلب ولاية قرة محمد باشا ١٤٧
الفصل السادس عشر: فى سلطنة السلطان أحمد ابن السلطان محمد ١٤٨
مطلب ولاية رامى باشا ١٥١
مطلب ولاية على باشا ١٥١
مطلب ولاية حسين باشا ١٥٢
مطلب ولاية إبراهيم باشا وخلعه وتولية خليل باشا ١٥٦
مطلب ولاية والى باشا ١٦٤
مطلب ولاية على باشا ١٦٧
مطلب ولاية محمد باشا البستانجى وخلع رجب باشا ١٦٩
مطلب ولاية على باشا ١٧٠
مطلب عزل محمد باشا البستانجى وولاية شاكر باشا ١٧٣
الفصل السابع عشر: فى سلطنة السلطان محمود خان الأول ١٧٩
مطلب عزل أحمد باكير باشا وولاية عبدالله باشا التكفويرلى ١٨٠
مطلب عزل عبدالله باشا وولاية محمد باشا السلحدار ١٨١
مطلب عزل محمد باشا السلحدار وولاية عثمان باشا الحلبى ١٨٢
مطلب عزل عثمان باشا وولاية باكير باشا الولاية الثانية ١٨٣
مطلب عزل باكير باشا وولاية مصطفى باشا أميراخور ١٨٥
مطلب عزل مصطفى باشا وولاية سليمان باشا الشامى المعروف بابن العظم ١٨٥
مطلب عزل سليمان باشا وولاية على باشا حليم أوغلى ١٨٦
مطلب عزل على باشا وولاية يحيى باشا ١٨٦
مطلب عزل يحيى باشا وولاية محمد باشا اليدكشى ١٨٧
مطلب عزل محمد باشا اليدكشى وولاية محمد راغب باشا ١٨٧
مطلب ولاية أحمد باشا كوروزير ١٨٩
مطلب عزل أحمد باشا وولاية عبد الله

باشا ١٨٩

مطلب عزل عبد الله باشا وولاية أمين باشا ١٩٠

مطلب ولاية مصطفى باشا ١٩١

الفصل الثامن عشر: فى سلطنة السلطان عثمان الثالث ابن السلطان أحمد خان ١٩٢

مطلب عزل مصطفى باشا وولاية على باشا حكيم أوغلى ١٩٣

الفصل التاسع عشر: فى سلطنة السلطان مصطفى الثالث ابن السلطان أحمد ١٩٤

مطلب عزل على باشا حكيم أوغلى وولاية محمد باشا سعيد ١٩٥

مطلب عزل محمد باشا وولاية مصطفى باشا الصدر الأعظم وعزله أيضا وولاية أحمد باشا سبيلان ١٩٦

مطلب عزل أحمد باشا كامل وولاية بكير باشا وموته وولاية حسن باشا ١٩٧

مطلب عزل حسن باشا وولاية حمزة باشا ١٩٨

مطلب عزل حمزة باشا وولاية محمود باشا راقم ٢٠٣

مطلب ولاية محمد باشا الأورفلى وعزله وولاية الوزير أحمد باشا ٢٠٩

مطلب ولاية الوزير خليل باشا ٢١٥

الفصل العشرون : فى سلطنة السلطان عبدالحميد ابن السلطان أحمد ٢١٦

مطلب عزل الوزير خليل باشا وولاية مصطفى باشا النابلسى ٢١٧

مطلب عزل مصطفى باشا وولاية الوزير إبراهيم باشا كرلى وموته وولاية محمد باشا المعروف بالعزتلى الكبير ٢١٩

مطلب عزل محمد باشا العزتلى وولاية الوزير إسماعيل باشا ٢٢٣

مطلب خلع الوزير إسمعيل باشا وولاية إسمعيل باشا الثانى ٢٢٩

مطلب ورود الأمر السلطانى بعزل إسماعيل باشا ثم رجوعه إلى الولاية ثانية ٢٣٠

مطلب عزل إسماعيل باشا وولاية محمد باشا ٢٣١

مطلب عزل محمد باشا ملك وولاية على باشا القصاب ٢٣١

مطلب عزل على باشا القصاب وحضور محمد باشا السلحدار وقيل الصابونجى واليا ٢٣٣

مطلب عزل محمد باشا وولاية محمد يكن باشا ٢٤٠

مطلب عزل محمد باشا يكن وولاية عابدى باشا ٢٥٥

الفصل الحادى والعشرون : فى سلطنة السلطان سليم الثالث ابن السلطان مصطفى ٢٦٧

مطلب عزل عابدى باشا وولاية إسماعيل باشا ٢٧٠
مطلب عزل إسماعيل باشا ولاية محمد عزت باشا ٢٧٣
مطلب عزل محمد عزت باشا وولاية صالح باشا ٢٧٨
مطلب عزل صالح باشا وولاية أبى بكر باشا ٢٧٩
فصل فى نزول نابوليون بوناپارته بجيوشه على مصر وما جرى بعد ذلك من الحوادث والمحن ٢٧٩
مطلب مقتل الجنرال كلابير قائد الجيوش الفرنساوية وما جرى بعد قتله. ٣٤٢
مطلب جلاء الجيوش الفرنساوية عن مصر والقاهرة وسائر الديار المصرية ٣٥٨
فصل فى بقية مدة سلطنة السلطان سليم وما فيها من الحوادث والأخبار ٣٥٩
مطلب طرد محمد باشا من الولاية وتولية ظاهر باشا ٣٧٤
مطلب قتل ظاهر باشا وتصرف أحمد باشا والى المدينة المنورة ٣٧٥
مطلب طرد أحمد باشا والى المدينة وتصرف إبراهيم بيك الكبير ٣٧٧
مطلب منع تصرف إبراهيم بيك وولاية على باشا الطرابلسى ٣٨٠
مطلب فتنة الأرنؤط وظهور كلمة محمد على سرجشمة ٣٨٩
مطلب إخراج محمد خسروا باشا من معقله وتوليته الإمارة على مصر بمعونة محمد على سرجشمه ٣٩٢
مطلب تبعيد محمد خسرو باشا وولاية أحمد خورشد باشا ٣٩٢
مطلب ولاية محمد علىّ على جدة وتوجيه رتبة الباشوية إليه وما جرى بسبب ذلك من الحوادث والمحن ٤٠٠
مطلب ما فعله العامة والشيخ الشرقاوى والسيد عمر النقيب مع محمد باشا ٤٠٠
مطلب خلع أحمد باشا وولاية محمد على باشا على ديار مصر ٤٠٥

﴿تمت﴾

(المقالــة السابعــة)

(فيمن هم الترك وفى نسبهم وفيمن تفرع عنهم من المماليك والأمــم إلى ظهور ملوك آل عثمان)

اعلم أن الترك أمة من أقدم الأمم وأعظمها، وقد اجتمعت كلمة أكثر المؤرخين من عرب وأعجام على أنهم من ولد يافث بن نوح وأبوهم ترك هو الذى سماه هيرودتس المؤرخ باسم ترجيشاوس وجاء فى التوراة باسم توجرما.

قال ابن الأثير: والترك من ولد تيرش أو طيراش بن يافث وقيل أيضا إن ترك هذا إنما هو من ولد طوج بن أفريدون ينتهى إلى جومرت أوكيومرت ويرجع إلى تيرش بن يافث بن نوح قال: قال ابن خلدون: وينسبهم العرب إلى غامور بن سويل بن يافث وهو غلط لأن غامور مصحف من كومر أو جومر فأبدل العرب الكاف غينا فصارت غامور وجومر هذا من ولد توجرما وقال مؤرخو التتر المغول: بل هم من ولد تتر ومغول وهما أخوان من نسل ترك بن يافث وهم لا يقصدون بذلك إلا إعلاء شرف عائلتهم أ. هـ .

وقد ذكر هيرودتس المؤرخ وبلنيوس وبمبيونيوس ميلا اسم الترك قديماً وذكروا أيضا فى مواضع أخر باسم توغريوس فصحفه الكتاب وأهل النقل إلى أورغيوس ويقال إن بلنيوس سماهم أيضا ترسى وسماهم بمبيونيوس باسم برسى وكان البزانطيون أى الروم المشارقة يسمونهم باسم فرس أو انغرد يعين المجر. قال بعض

الكتاب: مع أنه لم يكن بين الترك والفرس قرابة ولا بين الفرس والمجر. قال العلامة البستانى صاحب دائرة المعارف ما محصله: وقد خرجت من جبال التابى قبائل تركية وتفرقت فى أنحاء آسية العليا التى هى الآن تركستان فسماها الصينيون باسم توكو كما سمى الفرس بلاد تركستان باسم توران فكان لفظ ترك أو تورانية اسما جنسيا للقبائل المتوحشة وصارت كلمة توران عند جماعة اليونان بلفظ تيران ومعناها طاغية أو عات أ. هـ .

وقد ورد فى بعض الروايات أن أغورخان بن قراخان هو الذى أسس بفتوحاته وشرائعه دولة الترك وشيد ركن تمدنها وأن أوغورخان هذا كان معاصر للخليل إبراهيم عليه السلام وأنه ترك عبادة الأصنام ولاذ إلى عبادة أصح منها ثم ركب على أخيه فقاتله قتالاً دينيا ومازلت الحرب قائمة بينهما زهاء سبعين سنة وهو يقاتل أخاه حتى ظفر به وهزمه شر هزيمة فخضع له حينئذ سائر تركستان وهو القسم الممتد من ارتلاز وسيرام إلى بخارى وخلف أوغورخان هذا ستة بنين فلما مات اقتسموا المملكة بينهم وكان لكل واحد منهم أربعة أولاد فكانوا آباء أربع وعشرين قبيلة تركية فسكن منهم ثلاثة فى تركستان ولم يلبثوا أن اكتسحوا كل البلاد الواقعة بين جيحون وسيحون وتقدموا نحو جنا القلعة والطونة وعاثوا وأفسدوا فكانوا يلقبون بالمدمرين قال بعض الكتاب: وقد سمى بعضهم هذه الأمة بالتتار أيضا ولكن التتار فرع منهم، وقال آخرون: إن من الترك أهم فروع العائلة التورانية وآخرون يقولون إن اسمهم مرادف للتورانية وزعم بعضهم أنهم من الأمة الإيرانية مع أن المتأخرين تحققوا أن لا اتصال لهم بهذه الأمة ألبتة وكان أول ظهورهم فى آسية الشمالية والوسطى بين رعاة الطونة والتتر الذين أكثروا من شن الغارة على الصينيين عدة قرون قبل الميلاد المسيحى وبعده وفى القرن السادس ظهرت طائفة منهم أيضا فى آسية وأصلها على ما يقال من البلاد المسماة الآن تركستان فوطئت بساط السلام آونة ثم عادت فجددت حروبها مع أهل الصين شرقا وأهل فارس جنوبا ولما كانوا كلهم أخلاطا مؤلفين من لفيف قبائل متباينة فى الأخلاق والعادات ميالة بالطبع إلى الغزو والغارات جافية متوحشة لم تتفق لهم كلمة وانفصمت عروة اتحادهم فتفرقوا فى تلك الأنحاء الواسعة واستوطنوها على ما هم عليه من الخشونة فكان ذلك داعيا لضعفهم ولما كانت سنة أربع وأربعين وسبعمائة للميلاد المسيحى استظهرت على مملكتهم أمة منهم يقال لهم الويغور قال بعض أهل التحقيق: وهم أول قبيلة تركية استعملت لغة

مكتتبة وكانوا أولا بوزيين تمجسوا على مذهب زرادشت ثم أسلموا فى القرن التاسع والعاشر، هذا ما كان من أمرهم فى الشرق ، أما ما كان من أمرهم فى الغرب فإنهم فى أواسط القرن التاسع انحطوا وتضعضعوا وسادت عليهم طائفة الفرغيز وهى طائفة منهم، وقيل بل هى من التتر فلما ظهر جنكيز خان الذى كان على يديه انحطاط دولتهم فى آسية الوسطى أيضا وإذلالها صارت من هذا الحين سائر الدول القائمة بتلك الأنحاء وفى جهة العراق وما وراءها أيضا من الممالك الإسلامية تترية بعد أن كانت تركية بيد السلاجقة وغيرهم ومازالوا على هذه الحال إلى موت تيمورلنك فظهروا فى ممالكه واستولوا على أرمينية وما بين النهرين ولبثوا هكذا إلى أواسط القرن السادس عشر للميلاد حتى قام عليهم الصوفية وطردوهم وظهرت فى تلك الأيام الأزبكية، وهى أمة يقال إنها بقايا الويغور كانت نازلة فى جنوب تركستان الصينية تحت جبال تيان شان فاستولت على تركستان الشرقية وما جاورها من المدن والبلدان إلى حدود الفرات ولم يمض عليها قرن أوبعض قرن حتى استظهرت عليها أمة أخرى تركية تعرف بالتركمان. قال أصحاب التاريخ: وليس للترك بقية مهمة الآن إلا الأزبكية والتركمان المقيمون الآن فى مواطنهم القديمة .

واعلم أن أشهر الدول التركية التى ملكت ببلاد الإسلام والروم مما وراء النهر وخراسان هم بنو ساسان وقد ملكوا زهاء مائة وسبعين سنة وكان انقراضهم فى سنة تسعين وثلاثمائة للهجرة وبنو سبكتكين وهم المعرفون بالدولة الغزنوية لاتخاذهم مدينة غزنة قاعدة لمملكتهم وقد ملكوا بلاد السامانية وكانت مدة ملكهم مائة واثنتين وسبعين سنة ثم انقرضوا فى سنة تسع وعشرين وأربعمائة للهجرة، ثم نشأت الدولة السلجوقية فكانت مدة ملكهم مائة وأربعين سنة ابتداؤها من سنة تسع وثمانين وخمسمائة للهجرة وهى أعظم دوله وأوسعها كلمة ثم تفرع منها عدة دول أخرى منها الدولة الخوارزمية التى قام على رأسها خوارزم شاه وهذه قد ملكت ما وراء النهر بعد السلاجقة وكانت مدة ملكها مائة وثمانيا وثلاثين سنة وانتهاؤها سنة ثمان وعشرين وستمائة للهجرة وقد ملك حلب والشام فرع من هذه الدولة أيضا يعرف بدولة تتش بن ألب أرسلان وكان أوّلهم أتسز بن أبق ملك حوالى سنة أربعمائة وثمان وستين ومازالوا إلى أن انقرضوا على يدى تمرتاش بن إيلغازى سنة ست عشرة وخمسمائة ومنهم أيضا بنو أرتق ملوك ماردين وديار بكر وأولهم أرتق بن أكسب ولكنهم لم يلبثوا أن انقرضوا على يد هولاكو سنة سبعين وسبعمائة للهجرة ومنهم

الأتابكية ملوك حلب والشام وأولهم قسيم الدولة آق سنقر مملوك السلطان ملكشاه تولى الملك فى صدر سنة اثنتين وثمانين وستمائة للهجرة ومنهم دولة بنى طغتكين بالشام وأولهم طغتكين أحد رجال تتش بن ألب أرسلان ملك فى القرن الخامس ثم انقرض ملكهم بعد أواسط القرن السادس ومنهم فرع آخر ملك فى بلاد الروم وأولهم قطلمش تولى الملك فى أواسط الخامس ثم انقرضوا بظهور الدولة العثمانية وذلك حوالى سنة تسع وتسعين وستمائة للهجرة أى سنة تسع وتسعين ومائتين وألف ميلادية .

* * *

(المقالة الثامنة)

(فى تأسيس الدولة العثمانية وفى ظهور ملوكها إلى مجئ السلطان سليم إلى ديار مصر واستخلاصها من أيدى المماليك الشراكسة المعروفين بدولة المماليك الثانية)

قد علمت مما تقدم كيف اجتمعت كلمة بعض أصحاب التاريخ على أن ترك الذى هو جد الأتراك هو من ولد يافث بن نوح عليه السلام ثم هم يقولون أيضا بأن أوغز بن قراخان الذى هومن ولد ترك هذا كان ملكا جليل القدر عظيم الشوكة تسلط على بعض البلاد فى أيام الخليل إبراهيم عليه السلام وتصرف فيها فكانت تركستان التى هى توران داخلة تحت سلطانه قالوا: وانقسمت مملكة أوغز هذا بعد موته إلى خانيات منها ثلاثة ويقال لها الأسهم الثلاثة فاختصت بالأوغز الشرقى إلى حدود الصين ثم ثلاثة أخرى ويقال لها الخاطمة ، إحداها خانية الجبال والثانية خانية البحر والثالثة خانية السماء أو خانية القبة الزرقاء ومن هذه الخانية نشأ سبط كابى الذى جاء منه آل عثمان فلما كانت سنة خمسمائة للهجرة أى سنة ست ومائة وألف للميلاد شبت نيران الحروب بين أسباط تلك الخانيات واشتدت وعلا لهيبها فأبادت لفيفهم أو كادت ومزقت من بقى منهم كل ممزق فسار أحد أولاد كابى المذكور إلى ماهان واستوطنها فاجتمع حوله بعض بقايا تلك الأسباط وخضعوا لكلمته ولبث ما شاء الله ثم مات عن عدة بنين منهم كابى ألب وكان عظيما مهيبا ثم مات كابى ألب

المذكور عن ابن اسمه سليمان وكان سليمان هذا مغازيا حسن التدبير مهيبا مطاع الكلمة فلما كان حوالى سنة إحدى وعشرين وستمائة للهجرة أى حوالى الجيل الثالث عشر للميلاد قدم جنكيزخان سلطان المغل فى عسكر جرار ونزل على خراسان وضيق عليها حتى أخضعها فلم يطق سليمان شاه بن كابى ألب المذكور الصبر على ذلك وكان مقيما بماهان كما تقدم فرحل عنها على رأس خمسين ألفا من قومه إلى أرزنجان وخلاط من بلاد الأرمن ولبث مهاجرا سبع سنين حتى طرق السلاجقة الغز خراسان وخوارزم وفتحوها فلما علم بذلك قفل بمن كان معه إلى بلده فبينما هو يجتاز الفرات عند جعير إذ غرق فحزن عليه قومه وبنوا له قبرا يقال إنه باق إلى يومنا هذا يعرف بترك مزارى وخلف سليمان شاه المذكور أربعة بنين وهم سغور زنكى وكونطغدى وأرطغريل ومعناه المستقيم وكوندز فانقسموا مع من كان معهم من القوم بعد دفن سليمان شاه وافترقت كلمتهم فمنهم من شاء العود إلى الوطن ومنهم من فضل الغربة والنزول على بعض الجهات الغربية وهؤلاء قد انضم إليهم الأمير أرطغريل والأمير كوندز وكانوا زهاء أربعمائة عشيرة فيها أربعمائة وأربعة وأربعون فارسا مدججين بالسلاح فساروا فى طريقهم قاصدين الجهات الغربية وبينما هم على هذا الحال إذ رأوا فى طريقهم جيشين يقتتلان قتالا عنيفا وكان أحدهما قليل العدد والعدد وكان هذا الجيش الضعيف للسلطان علاء الدين السلجوقى من ولد ملكشاه بن قلج أرسلان والثانى من المغل الذين هم أعداء للترك فمال الأمير أرطغريل بقومه إلى معاونة جيش السلطان علاء الدين وانضم إليه فاشتد القتال بين الفريقين شدة بالغة ومازالوا يقاتلون حتى دارت الدائرة على المغل وتم النصر للسلاجقة وجاء الخبر بذلك إلى السلطان علاء الدين ففرح واستدعى إليه الأمير أرطغريل وأحسن لقاءه وأدناه من مجلسه وخلع عليه وعلى أخيه كوندز وأنزلهما وقومهما بمراعى نومانية وأرمينية أو بجبال قراجاطاغ عند أنقرة وأخلص أرطغريل فى خدمة السلطان علاءالدين وبالغ فى طاعته وقاتل معه فى حروبه المتتابعة مع الروم والمغل وأبلى فى كل منها بلاء حسنا فأقطعه أيالة عظيمة واقعة بين بلاده وبلاد الروم يقال لها سلطانية فنزل فيها بجماعة ممن لاذوا به وأحسن السيرة فى أهلها فعلت كلمته فلما كان حوالى سنة سبعمائة للهجرة أى سنة سبع وتسعين ومائتين وألف ميلادية مات أرطغريل وقيل بل كانت وفاته حوالى سنة تسع وتسعين وسبعمائة للهجرة أى سنة ست وتسعين وثلثمائة وألف ميلادية بعد أن تغلب على قوطاهية وأخذها من الروم سنة ثمانين وستمائة هجرية أى سنة إحدى وثمانين

ومائتين وألف ميلادية، وفى قول بعض المؤرخين من المتقدمين ومنهم المؤرخ جورجى فرانزس الرومى المولود بمدينة القسطنطينية إن أصل الدولة العثمانية آت عن ملوك الروم بالسلالة وملوك الفرس بالكلالة. قال بعد كلام فلما كانت سنة ثلاثين ومائة وألف ميلادية خرج الإمبراطور يوحنا كونيوس إمبراطور الروم ومعه ابن أخيه أوغسطس المدعو يوحنا أيضا لقتال الملوك السلجوقيين فقاتلهم أياما حتى تغلب على كثير من قلاعهم وحصونهم وأقام على هذا الحال حتى نفدت الذخيرة أو كادت وعز القوت فى تلك الأصقاع الباردة ومات أكثر دواب الحمل والخيل من قلة العلف فخاف الإمبراطور شر العاقبة إذا ظل على هذا الحال وجعل يدبر حيلة للخلاص ورسم بتوزيع ما بقى من الخيل على أعظم فرسانه وأشدّهم بأساً وهم من طوائف الروم والإيطاليان وجعل يجول بين الصفوف وينتقى منهم من يتوسم فيه سمة الفتوة والشجاعة فبينما هو على هذا الحال إذ رأى بين الصفوف فارسا من الطليان حسن الشكل أعجبه منظره فنظر إلى ابن أخيه أوغسطس وقال له: ادفع فرسك إلى هذا الشاب ليمتطيه فاستعظم أوغسطس هذا الأمر فشدّد عليه الإمبراطور فى ذلك فترجل أوغسطس عن فرسه وهو يتميز غيظا ودفعه إلى الشاب وسار من ساعته مغضبا قاصدا ملك العجم فلما علم ملك العجم بقدومه وما وقع له مع عمه فرح به وأحسن لقاءه وقربه إليه ورفع منزلته فدان أوغسطس بدين الإسلام فزوّجه ملك العجم بابنته وأقطعهما بلادا كثيرة وأجزل عطاءهما، وكان أوغسطس هذا شابا جميلا رقيق الشمائل عارفا بعلوم اليونان ولغة العرب مهذبا طلق الوجه كريما مقداما لين الجانب فلقبه الفرس بالشلبى وأحبه الناس كثيرا ومالوا إليه بقلوبهم فعلت كلمته وطارت شهرته وعمت مهابته سائر مدن آسية وولدت له زوجته ولدا فسماه سليمان وهذبه وعلمه العربية واليونانية وبالغ فى تهذيبه فترعرع وشب على مكارم الأخلاق وأحسن الطباع فأحبته الرعية ومالت إليه فلما مات أبوه تولى مكانه وسار فى قومه سيرة حسنة وكان ميالا إلى الفتح والجهاد فاستولى على الكثير من البلدان وضم إلى مملكته كثيرا من مملكة الروم المجاورة لبلاده فاتسع نطاق مملكته وارتفعت كلمته وطار صيته فى الآفاق. قال: فكان أوغسطس هذا الذى هو يوحنا جدّا للأمير أرطغريل خان الذى هو أبو الأمير عثمان رأس ملوك آل عثمان، وأوهم بعض أهل التاريخ من المتأخرين ومنهم أدواردس فوكوك الذى ترجم تاريخ أبى الفرج الملطى إلى اللاطينية وجعله هدية لكرلوس الثانى ملك الإنكليز عام ثمان وأربعين وستمائة وألف ميلادية أى عام ثمان وخمسين وألف هجرية فقال بعد

كلام، : ولم يتسن لأصحاب التاريخ إلى الآن معرفة شيء حقيقي عن سليمان شاه جد آل عثمان ولا إلى من ينتهي نسبهم وحاصل ما نقلوه من أخباره هو أنه لما تغلب جنكيزخان ملك التتر على أكثر البلاد ودان له أكثر مدن آسية خرج سليمان شاه المذكور حوالى سنة إحدى عشرة وستمائة للهجرة فى نفر من قومه وسار إلى تخت الدولة السلجوقية وكان معه أربعة بنين وهم سنقور زنكي وكدنطغدى وأرطغريل وكوندز فبينما هم يعبرون الفرات إذ غرق سليمان شاه المذكور فافترق بنوه واختلفت كلمتهم فذهب اثنان منهم وهم سنقور زنكي وكدنطغدى ببعض القوم إلى الجهة الجنوبية من الفرات وسار أرطغريل بك وكوندز مع من بقى إلى تخت السلطان علاء الدين السلجوقى صاحب قونية ونزلوا فى جواره فأحلهم محلا رحبا وأقطعهم قرجيطاغ فمازالوا بها حتى مات أرطغريل حوالى سنة سبع وثمانين وستمائة هجرية أى سنة ثمان وثمانين ومائتين وألف ميلادية أهـ

وقال العلامة ابن خلدون بعد كلام طويل: والظاهرأن ملوك بنى عثمان كانت إلى هذا العصر من أعقاب على بك وعلى بك صهر محمد بك أحد أمراء التركمان من بنى جق أو أقاربه يعنى أعقاب أقاربه قال: ويشهد بذلك اتصال هذه الإمارة فيهم يعنى الإمارة على التركمان مدة هذه المائة سنة قال: فلما اضمحل التتر من بلاد الروم واستقر بنو ارتنا بسيواس وأعمالها غلب هؤلاء التركمان على ماوراء الدروب إلى خليج القسطنطينية ونزل ملكهم مدينة برصا من تلك الناحية وكان يسمى أرخان ابن عثمان جق فاتخذها داراً لملكهم ولم يفارق الخيام إلى القصور وإنما ينزل فى خيامه فى بسيطها وضواحيها إلى أن قال أهـ.

قلت : ومع اجتماع كلمة بعضهم على أن الترك إنما هم من ولد يافث بن نوح عليه السلام واختلاف السواد الأعظم منهم فيمن هو جد آل عثمان الأول فقد عادوا بعد تأويل وتعليل إلى القول بأن سليمان شاه هو رأس هذه العائلة العظيمة التى دوّخت بحروبها وغاراتها المتتابعة ثلاثة أرباع المعمور من الأرض وقلبت تخت الممالك العظيمة وأبادت الكثير من الأمم والشعوب الذين قاموا فى وجهها فاستولت على ممالك الدولة العباسية وعلى بعض مملكة الدولة الغزنوية لآل سبكتكين والدولة السلجوقية فى الروم وفى كرمان والشام ودولة المماليك فى مصر والشام ودولة الأتابكية فى الموصل ثم الفرنجة فى بعض مدن الشام وقارة أوروبا وجزائر العرب وجزء عظيم من قارة أفريقية وجزائر بحر الروم وغيرها مما هو باق بعضه فى حوزتها إلى يومنا هذا وأنه بموت سليمان شاه المذكور ظهرت كلمة ابنه أرطغريل واتسعت

شهرته ودوّخ أكثر البلدان المجاورة لولايته الصغيرة التى أقطعه إياها علاء الدين ومازال على دأبه من الغزو والجهاد وتوسيع أرجاء مملكته كل أيام حياته حتى مات فى سنة ثمانين وستمائة هجرية أى سنة إحدى وثمانين ومائتين وألف ميلادية فكانت مدة تصرفه فى هذه الإمارة زهاء اثنتين وخمسين سنة بالتبعية لسلاطين قونية السلجوقيين.

وبموته قام بعده ولده الأمير عثمان وكان يقال له عثمان جق كما رواه ابن خلدون فحذا حذو أبيه فى الغزو والجهاد ولبث يقاتل الروم ويهاجم بلادهم حتى استخلص من أيديهم بلادا كثيرة ووقعت هيبته فى قلوبهم وخافوه فأرسل إليه سلطان السلجوقيين منشورا ولواء أبيض وطبولا إعلانا بإمارته وولايته على تلك الأصقاع ولقبه بالغازى فعلت من ذلك الحين كلمته وكبرت مهابته وأحسن السياسة والتدبير ومازال مثابرا على الغزو والجهاد وفتح البلدان وتدويخ المدن حتى أحس بزوال الدولة السلجوقية ورأى من اختلال أحوالها وزوال هيبة القيصرية الرومية وضعضعة أمورها بسبب الخلاف الواقع فى أمر الدين بين جماعة المسيحيين ما دفعه إلى طلب الملك ومال به إلى جانب الظهور والاستبداد بملك السلجوقيين فجعل حينئذ يمهد الأسباب ويأتى على كل أمر منها من أقرب الأبواب حتى قدر الله بانقراض الدولة السلجوقية فى سنة تسع وتسعين وستمائة هجرية أى سنة تسع وتسعين ومائتين وألف ميلادية واندرست معالمها من الأناطولى ولم يبق أحد من سلاطينها واستقل كل من كان تحت حكمها من الأمراء وتقاسموا البلاد فاختص الأمير عثمان المذكور بجزء من مملكة بروسة وخطب له فى بعض أعمالها ولما استقرت به الإمارة أحسن السياسة ورتب أمور البلاد على ما فيه المصلحة ثم تجرد للغزو وفتح المدن والأمصار، وكان شهما جليل القدر عارفا بفنون الحروب والقتال ففتح الفتوحات العظيمة بنفسه وعلى يدى ولده أورخان بك وأخذ كثيرا من المدن القياصرة فكبرت مملكته واتسعت أرجاؤها وظهرت وعرفت من ذلك الحين بالدولة العثمانية ثم نقل تخت مملكته هذه إلى مدينة ينى شهر وأقام بها على أحسن ما يكون من الصولة والبأس حتى مات فى سنة ست وعشرين وسبعمائة هجرية أى سنة خمس وعشرين وثلثمائة وألف ميلادية وكان كريما عالى الهمة أبىّ النفس جوادا قيل ولذلك لم يترك بعد موته شيئا لا من الأموال ولا من النفائس التى جمعها فى غزواته وفتوحاته الكثيرة ولم يوجد عنده إلا بعض الملبوس ومسبحة كانت أعز شيء لديه وكانت مدة ملكه خمسا وعشرين سنة وقيل بل سبعا وعشرين .

وقام بالأمر بعده ولده أورخان الغازى تولى السلطنة فى السنة التى مات فيها أبوه سنة ست وعشرين وسبعمائة هجرية أى سنة خمس وعشرين وثلاثمائة وألف ميلادية فأحسن التدبير ونظم الأمور وعدل فى الرعية فاجتمعت القلوب على محبته وولى أخاه علاء الدين الوزارة فقام بها خير قيام وأخذ فى تنظيم الأمور وسن القوانين وإعلاء شأن المملكة وكان الغازى أورخان المذكور محبا للغزو والفتح كأبيه ميالا لتوسيع نطاق المملكة ففتح مدينة بروسة وبالغ فى تحسينها بالمبانى الفاخرة والآثار العجيبة ثم نقل كرسى مملكته إليها ولم تقعده كثرة حروبه عن تنظيم عسكره وترتيبهم على أسلوب جديد بعد أن كانوا فى أيام أبيه أخلاطا من فرسان التركمان وغيرهم فأنشأ وجاق الانكشارية ورتبه وأحسن ترتيبه فكان له عونا على كثرة الفتوح والمغازى وهابه الملوك وبلغت شهرته مبلغا عظيما ولكن عاد أولئك الانكشارية بعد قليل فصاروا أعداء لمن تولى السلطنة فكان السلطان لا يأتى أمرا إلا بإشارتهم ولا يعمل عملا إلا برضا كبارهم فتبدل خيرهم شرا ونفعهم ضرا وكثرتهم وبالا ومازلوا على هذا الحال من التصرف فى معظم الأمور واختصاصهم بالرياسة والسياسة حتى أذلهم السلطان محمد الثانى ومزق شملهم وفرق كلمتهم وشردهم تشريدا ، ولما دانت للسلطان أورخان الأمور عمد إلى غزو بلاد اليونان فجهز عليها جيشا عظيما للغاية وقاتلها ففتح مدنها وبلدانها وأحسن معاملة أهلها فمالت إلى محبته القلوب واجتمعت على طاعته الخواطر وسار فى غزواته يرافقه الأقبال حتى بلغ خليج القسطنطينية وبوغاز كاليبولى وكان الإمبراطورية الرومية فى هذا الحين آخذة فى الانحطاط إلى حضيض الدمار لاسيما بعد أن ضعضعتها الحروب الداخلية التى سببتها فتنة يوحنا كاتا كوزين نائب الإمبواطور يوحنا باليولوغوس ووصيه، وتحرير الخبر بالإيجاز أنه لما كثر عبث كاتا كوزين المذكور بأمور الدولة وأساء التصرف أبغضه الناس بغضا شديدا وهمّ الروم بخلعه فلما آنس منهم ذلك راسل آل عثمان واستمدّهم فأمدوه وقويت عزيمة الترك على التوغل فى وسط أوروبا فغزوا وفتحوا عدة مدن منها وكثيرا من القلاع والحصون واستولوا عليها وتصرفوا فيها وسار الأمير سليمان أكبر أولاد السلطان أورخان فاجتاز بوغاز شنق قلعة فى سنة ستين وسبعمائة هجرية أى نحو سنة تسع وخمسين وثلاثمائة وألف ميلادية وفتح مدينة غاليبولي التى هى مفتاح القسطنطينية ثم اخترمته المنية، فحزن عليه أبوه حزنا عظيما وأفرط فى البكاء والنحيب فمات غما فى السنة التى مات فيه ولده أى سنة اثنتين وستين وسبعمائة هجرية .

فقام بالأمر بعده ولده السلطان مراد الأول وكان شجاعا مهيبا مغازيا فلما استقرت به السلطنة عمد إلى فتح أدرنه ففتحها وسار إلى الصرب والبلغار فأخضعهما وكانت بلاد الأناطولى لم تزل مستقلة فى حكمها تابعة لبعض الأمراء من الترك يتصرفون فى حكمها كما يشاؤون فحاربهم وأخضعهم وأدخلهم تحت طاعته وزوّج ابنه الأمير بايزيد بابنة أمير كرميان تزلفا إلى ولاة آسية الصغرى وتقربا منهم ليتسنى له بذلك ضم بلادهم إلى أملاكه، ففاز بذلك وضم إلى بلاد مقاطعة كرميان وغيرها من مدن آسية الصغرى واستولى على مدينة كوتاهيا وكان أمير كرميان وهبها لابنته يوم زفافها ثم سار بعسكره بعد ذلك للحمل على مقاطعتى مقدونية وبلاد الأرنؤد فأخضع كثيرا من مدنهما واستفحل أمره واتسعت كلمته وتهيب منه جميع الأمراء المجاورين له فنهض أهل الصرب والقلاخ وأهل دلماطيا والمجر والبلغار وتحالفوا على قتاله وإيقافه عند حده وخرجوا فى جيش جرار فركب عليهم وقاتلهم جميعا وهزمهم وشتت شملهم وأبلى فيهم بلاء حسنا وبينما هو يغدو ويروح فى ساحة القتال ويكر بجواده أذ وثب عليه جندى من البلغار كان بين جثث القتلى وطعنه بخنجر فى أحشائه فمات لحينه فتقهقرت عساكره وانكفوا عن القتال. قال بعض أصحاب التاريخ: وهذا القرن هو الدور الأول للدولة العثمانية فإنها فى مدة المائة سنة هذه عظم أمرها وتمكنت وثبتت أركانها وظهرت فى مظهر الدول الكبار بعد أن كانت إمارة صغيرة ولم يتم لها هذا إلا بمحافظة سلاطينها على وصية الغازى عثمان قالوا: وذلك أنه لما حضرته الوفاة دعا إليه ولده أورخان وأوصاه بوصايا ثلاثة فقال له: يا بنى تمسك فى كل أمورك بالشريعة الغراء وشاور فى المهمات أهل الرأى والدهاء ، وأعط كل ذى حق حقه من التكريم والإنعام لاسيما العلماء الأعلام الذين هم دعائم الدين مصداقا لقول صاحب الشريعة خير الناس من ينفع الناس. وتنبه لما هو أعظم من ذلك هو التعظيم لأوامر الله والرأفة بعباد الله واطلب خير النتائج من إعلاء كلمة الله والغزو لوجه الله فإنك خليفتى من بعدى أهـ.

قالوا فكانت هذه الوصية سنة مرعية بين سلاطين آل عثمان يتلقاها الخلف عن السلف والملك لله يؤتيه من يشاء.

ولما مات السلطان مراد الأول قام بالأمر بعده ولده السلطان بايزيد الأول فى السنة التى مات فيها والده وكان بطلا مقداما عارفا بفنون الحرب والقتال وضروب السياسة ميالا إلى الغزو والجهاد فلما استقرت به السلطنة عمد إلى إخضاع ما بقى

من الممالك الصغيرة التى كانت إلى هذا الحين مستقلة فى الأناطولى فدوخها وأخضعها لسلطانه ثم سار فى عسكر جرار إلى أيالات مقدونية والبلغار والروم إيلى ففتحها وأدخلها تحت طاعته فكبر أمره وعظمت هيبته ودانت له الأمور فلما أنس من الأيام النصر تهيأ لفتح القسطنطينية وإخضاع ممالك الفرنجة فزحف بجيش كبير نواحى أوروبا واستولى على مدينة سالونيك وشن الغارة على بلاد المجر وانتصر على جيوش الفرنجة فى موقعة هائلة ثم سار إلى القسطنطينية فحاصرها وكان إمبراطورها يومئذ مانوئيل فخاف وهاله كثرة عساكر السلطان بايزيد فأرسل إلى من جاوزه من الملوك يطلب منهم المدد على قتال الترك فخاف السلطان بايزيد من اتحادهم وخشى عاقبة أمرهم فعقد مع الروم صلحا لعشر سنين وأن يعطوا له فى كل سنة ثلاثين ألف ريال وأن يجعل فى القسطنطينية قاضيا من المسلمين ويبنى فيها مسجدا ثم رحل عن القسطنطينية ولبث قليلا حتى تبين من الفرص أنفعها فعاد إلى حصارها وشدد فى الحصار ولم يراع ميثاقا ولا عهدا وبينما هو يراسل الرمى على أسوارها وحصونها إذ جاءته الأخبار بركوب تيمورلنك بعسكره إلى بلاده وفتح الكثير منها وضمها إلى سلطنة التتار فاضطرب السلطان بايزيد من ذلك واستعظمه جدا ورحل عن القسطنطينية ليدفع تيمور لنك عن بلاده فالتقى الفريقان عند مدينة أنقره واقتتلا قتالا عنيفا يوما كاملا وقد مات فى ذلك اليوم خلق كثير جدا حتى خاضت الخيول فى الدماء ثم انكشفت المعمعة عن نصرة تيمورلنك وهزيمة السلطان بايزيد وسقوطه فى قبضة تيمورلنك فسجنه فى قفص من الحديد ومازال فى سجنه هذا إلى أن مات سنة خمس وثمانمائة هجرية أى نحو سنة إحدى وأربعمائة وألف ميلادية. قال بعض كتاب الأخبار: وكان قد تغلب السلطان بايزيد فى آخر أيامه هوى النفس فتهافت على ما لا يليق من الإسراف والتبذير والاسترسال فى اللهو والخلاعة وغير ذلك من دواعى التأخير فاغتنم تيمورلنك هذه الفرصة وسار على مملكة بايزيد فى سبعمائة ألف مقاتل فقابله السلطان بايزيد وقاتله فوقع فى يده أسيرا وفرح ملوك أوروبا بسقوط السلطان بايزيد فى قبضة تيمورلنك فرحا عظيما وأرسلوا إلى تيمورلنك رسائل التهانى فكان ممن أرسل ذلك شارلس الثالث ملك الفرنسيس فرد عليه تيمورلنك ردًا حسنا جدا وأوصاه خيرا بمن يقدم إلى بلاد الفرنسيس من تجار الفرس كما أنه ضمن لتجار الفرنسيس الذين يقومون على بلاد فارس كمال الراحة والرفاهية.

(مطلب)

(ما جرى بعد موت السلطان بايزيد من الاختلال)

ولما مات السلطان بايزيد كاد يختل نظام الملك إذ قامت الفتنة بين أولاده واستبدّ كل واحد منهم بقسم من مملكة أبيه فتجزأت المملكة إلى عدّة إمارات صغيرة وجرى عليها ماجرى لدولة آل سلجوق وخرجت عن الطاعة فى خلال هذه الفتنة ولايات البلغار والصرب والقلاخ واستمر النزاع بين أولاد السلطان بايزيد زهاء إحدى عشرة سنة وكان أحد أولاد بايزيد المدعو عيسى قد استبدّ بحكم البلاد الواقعة على مقربة من أنقرة وسينوب والبحر الأسود فوثب عليه أخوه محمد وقتله بعد حروب يطول شرحها واستولى على جميع تلك الأصقاع وسار بلا منازع من إخوته إلى آسية الصغرى واستخلص أخاه موسى وكان فى أسر تيمورلنك وسيره فى جيش عظيم إلى قارة أوروبا لقتال أخيه سليمان فلم يقو عليه بل انهزم أمامه وعاد إلى آسية مدحورا ثم أصلح حال جيوشه وعاد بهم مرة ثانية لقتال أخيه سليمان المذكور فالتقى الجمعان واقتتلا قتالا شديدا فقتل سليمان خارج أسوار مدينة أدرنة وتم الظفر للسلطان محمد، وكان آل عثمان لما اشتدّ الخصام بين أولاد السلطان بايزيد وعمت الفتنة واستفحل أمرها اختاروا الأمير سليمان هذا سلطانا عليهم فى مملكة أبيه التى بقارة أوروبا فبايعوه بالسلطنة وولوه أمورهم ولكنه كان ضعيف الرأى سيء التصرف منهمكا فى الملاذ مولعا بالملاهى والفجور خامل الفكر فلم تطل سلطنته حيث مات فى سنة اثنتى عشرة وثمانمائة هجرية أى نحو سنة عشر وأربعمائة وألف ميلادية، ولما تم الظفر لموسى المذكور سار بمن معه من العساكر وركب على بلاد الصرب وعاقب أهلها على خروجهم وتمردهم وقاتل سمسون ملك المجر حيث أنجد أهل الصرب عليه وكاد يظفر به فظهر من هذا الحين نبله وعلت كلمته واتسعت شهرته فداخله الطمع وطمحت نفسه إلى الاستقلال بالملك والخروج عن طاعة أخيه السلطان محمد وأخذ جميع بلاد أبيه التى بقارة أوروبا وسار بعسكره لحصار القسطنطينية فحاصرها وضيق عليها ليفتحها ويجعلها تخت ملكه فأحس السلطان محمد بما وراء ذلك وخشى العاقبة وأتت إليه رسل قيصر الروم تشكو من فعال أخيه موسى وتستنجده فسار إلى القسطنطينية فى جيش عظيم جداً وقاتل أخاه فكانت الحرب بينهما سجالا ثم تقوّى السلطان محمد بعسكره فزحزح الأمير موسى عن القسطنطينية وتحالف

السلطان محمد مع قيصر الروم وأمير الصرب على إذلال الأمير موسى وتمزيق شمل من معه من الجنود فأعملوا الفتنة وبثوا الدسائس بين عسكر الأمير موسى حتى نفرت منه قلوب الجند وخانه كبار القواد ثم ركب عليه السلطان محمد بعسكره وانتصر عليه نصرة عظيمة وفر موسى هاربا فتبعه فارس من فرسان أخيه محمد وقتله واحتز رأسه وأتى به إلى أخيه وذلك سنة ست عشرة وثمانمائة هجرية أى نحو سنة ثلاث عشرة وأربعمائة وألف ميلادية وفى رواية أنه قتل بين يدى أخيه صبرا.

(فصل)

(فى استقلال السلطان محمد الغازى بالملك)

ولما مات الأمير موسى انفرد محمد بالسلطنة على ما بقى من ملك آل عثمان وبايعه الناس كافة فكان هو الخامس من ملوك آل عثمان على المتفق عليه عند أصحاب التاريخ وقد عرف عندهم بالسلطان محمد چلبى الغازى وكان ملكا جليل القدر واسع المعرفة حليما فصفت له الأيام ودانت له الأمور وجاءت إليه رسل ملوك الفرنجة برسائل التهانى والتبريك فأكرمهم وأحسن وفادتهم وأخذ يمهد الأمور ويدبر أحوال المملكة فعقد الصلح مع الأجانب وقوى معهم روابط المودّة والاتحاد وحافظ على محالفة مانوئيل قيصر الروم الذى لولاه لخيف على ملك آل عثمان من الدمار وردّ إليه جميع ما أخذه أسلافه من القلاع والحصون الرومية فمالت إليه الخواطر واجتمعت على محبته القلوب وعلت كلمته وكان عادلا ذا شفقة على الرعية موفقا فى غزواته ونقل كرسى مملكته إلى مدينة أدرنة وأنشأ السفن البحرية وجعل لها جنودا يقاتلون على ظهور تلك السفن وأعاد رونق السلطنة إلى ما كان عليه بعد أن كاد يتولاها الدمار بأسباب غارات تيمورلنك ، وظهر فى أيامه رجل اسمه بدر الدين من كبار علماء زمانه وكان متوليا القضاء فى عسكر الأمير موسى أخى السلطان محمد فلما انهزم عسكر الأمير موسى وتمزق شملهم حكم على بدر الدين القاضى المذكور بملازمة مدينة أزنيك فلبث بها حينا ثم هرب منها واختفى خبره أياما ثم ظهر يدعو إلى مذهبه وهو المساواة بين الناس على اختلاف طبقاتهم فى الأموال والمتاع وعدم التفريق فى ذلك بين الغنى والفقير والمسلم والمسيحى فتبعه خلق عظيم من المسلمين والمسيحيين وكان يقول إن الناس جميعا إخوة لأب واحد وأم واحدة

فذاع خبره وكثرت أحزابه ولبى دعوته القاصى والدانى وخيف على بهجة الدولة العثمانية من الزوال بسبب دعوته فسير إليه السلطان محمد جيشا عظيما ومقدّمه ابن أمير البلغار الذى كان أسلم وتولى العمالة على مدينة سمسون فخرج عليه أحد زعماء مذهب بدر الدين المذكور فى جيش كبير وقاتله وهزم عسكره شر هزيمة وقبض على ابن أمير البلغار وقتله فلما جاء الخبر بذلك إلى السلطان محمد اضطرب واستعظم هذا الأمر جدا وجمع جيشا عظيما وجعل رئيسه الوزير الأول بايزيد فسار بايزيد لقتال ذلك الزعيم فلاقاه على مقربة من أزمير وكان بدر الدين قد سار إلى بلاد مقدونية فاقتتلت عساكر الوزير مع عساكر بدر الدين واشتد القتال بين الفريقين وانكشف عن هزيمة عسكر بدر الدين وسقوط مقدمهم المدعو مصطفى فى قبضة الوزير فأمر بقتله فقتلوه بين يديه وقتلوا عددا كثيرا ممن كانوا معه وسيروا من يقبض على بدر الدين فى بلاد مقدونية فتحرز بدر الدين وكانت بينهم وبينه وقائع كثيرة وحروب يطول شرحها ثم قبض عليه وقتل شنقا فى سنة عشرين وثمانمائة هجرية أى سنة سبع عشرة وأربعمائة وألف ميلاديه بعد استصدار فتوى في شأن ذلك. قال عمر فى تاريخه ونص الفتوى من أتاكم وأمركم جميعا على رجل يريد أن يشق عصاكم ويفرق جماعتكم فاقتلوه، فسكنت بقتله الفتنة وزالت أسبابها واطمأنت قلوب الناس وبقى السلطان محمد عزيزاً مهيباً محبوباً مطاعاً إلى أن أدركته الوفاة سنة أربع وعشرين وثمانمائة هجرية أى سنة إحدى وعشرين وأربعمائة وألف ميلادية. قال بعض كتاب الأخبار: والسلطان محمد هذا أول من أرسل الهدية إلى أمير مكة قدرا من الذهب فى كل عام للنفقة على فقراء مكة والمدينة وهى التى يطلق عليها اسم الصرة الآن ولكنها لم تكن تبلغ ما بلغته الآن وقال آخران: السلطان سليم الأول هو أول من أرسل الصرة المذكورة سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة هجرية بعد فتح الديار المصرية وإزالة دولة الجراكسة الثانية والقول الأول هو الذى عليه المعوّل.

وبموت السلطان محمد جلبى قام بالأمر بعده (ولده السلطان مراد الثانى) بويع له بالملك سنة أربع وعشرين وثمانمائة هجرية أى نحو سنة إحدى عشرين وأربعمائة وألف ميلادية وعمره يومئذ ثمان عشرة سنة فلما استقرت به السلطنة قام بتدبيرها أحسن قيام ووسع نطاقها وأبرم صلحا مع أمير القرمان وقرر اتفاقا مع ملك المجر على هدنة خمس سنوات وتفرغ لتدويخ من عصى وخرج عن الطاعة من ولايات آسية فلم يتم له ذلك حتى جاءته رسل مانوئيل قيصر الروم فى طلب العهد منه على

ان لا يحارب القيصرية الرومية بوجه ما وأن يسير إلى القسطنطينية اثنين من أولاد السلطان محمد الغازى رهينة على وفاء العهد فإن أبى ذلك أطلق القيصر سراح الأمير مصطفى ابن السلطان بايزيد وكان الأمير مصطفى المذكور قد اختفى خبره ولم يوقف له على أثر بعد واقعة أنقرة التى أسر فيها أبوه السلطان بايزيد الأول ثم ظهر فى أيام السلطان محمد الغازى عقب واقعة بدر الدين الخارجى وطالب أخاه السلطان محمد بالملك وأعانه على ذلك أمير القلاخ تعظيما للفتنة وإضراما لنارها فأغار الأمير مصطفى المذكور على إقليم تساليا من أملاك اليونان فطاردته جنود أخيه السلطان محمد ففر إلى سلانيك وكانت قد عادت إلى مملكة الروم مع غيرها من بعض الأيالات التى أرجعها السلطان محمد إلى قيصر الروم ونزل على عاملها مستجيرا فأجاره وطلبه السلطان محمد فلم يجبه قيصر إلى ذلك ووعد أنه يبقيه عنده ولايفك سراحه مادام السلطان على قيد الحياة فقبل السلطان منه ذلك ورتب لأخيه شيئا فى كل سنة فلبث فى جوار قيصر حتى سير قيصر رسله إلى السلطان مراد فى طلب ذلك العهد فامتنع السلطان مراد من إجابة قيصر إلى ما طلب فسير قيصر الأمير مصطفى المذكور ومعه عشر مراكب حربية فأتى بها وحاصر مدينة جاليبولى وضيق عليها فاستسلمت وامتنعت عليه قلعتها فأحاطها بطائفة من العسكر ليمنع عنها المدد وسار بمن بقى معه يريد أدرنه فسير إليه السلطان مراد جيشا عظيما ومقدمه وزيره بايزيد فلما التقى الجمعان برز الأمير مصطفى أمام صفوف ابن أخيه السلطان مراد ونادى على العسكر وخطب فيهم وقال : إنه هو أولى بالملك وأحق بالسلطنة من ابن أخيه واستنهض العسكر إلى نصرته فلبت الجيوش دعوته وقاموا لنصرته وقبض جماعة منهم على بايزيد وزير السلطان وقتله ثم سار الأمير مصطفى للقاء السلطان وكان السلطان متحصنا مع عسكره عند نهر صغير فلم يقترب الأمير مصطفى من ذلك المكان حتى وقعت الفتنة بين عسكره وخانه بعض قواده وتركه أغلب العسكر فكرّ راجعا إلى جاليبولى ولم يدخلها حتى قبض عليه بعض أتباع السلطان وأتوا به إليه فأمر به فقتلوه شنقا، ولما سكنت الفتنة بموت الأمير مصطفى عمد السلطان مراد إلى الانتقام من قيصر الروم فسار إلى حصار القسطنطينية بجيش جرار وحاصرها وضيق عليها أياما ثم عاد عنها مدحورا لقيام الفتنة وخروج بعض الأيالات عن طاعته ومازال يراقب الفرص حتى مات مانوئيل قيصر وخلفه على سرير الملك يوحنا باليولوغوس فراسل يوحنا المذكور فى دفع مبلغ من المال فى كل عام جزية وأن يسلم إليه جميع البلاد التابعة للقسطنطينية ويستثنى من ذلك

القسطنطينية وضواحيها أو أنه يتأهب لقتاله فقبل يوحنا هذه الشروط وسلم إلى السلطان مراد جميع القلاع والحصون التى كانت إلى هذا الحين فى حيازة الروم على سواحل البحر الأسود وسواحل الروم ايلى ومملكتى مقدونية وتساليا ثم ركب بعد ذلك بعسكره واستخلص أيضا جميع المدن والبلدان التى هى داخل برزخ كورنثوس ومازال يتقدم فى غزواته حتى توغل فى بلاد المورة وضم أكثرها إلى أملاكه، ولما شاع بين ملوك أوروبا خبر فتوحات آل عثمان ومثابرة ملوكهم على الغزو والجهاد خافوا من سقوط القسطنطينية فى قبضة الترك ومن زحفهم على بقية الممالك المسيحية فنهض عند ذلك أوجينيوس البابا وشرع فى عقد محالفة بين ممالك الفرنجة على مقاومة الترك ومنعهم وقام لادسلاس ملك بولونيا والمجر وأخذ على نفسه مقاومة الترك وجيش لذلك جيشا عظيما ومقدمه يوحنا هودياس القائد الشهير وانضم إلى هذا الجيش جمهور من الحربيين والمتطوعة من الفرنسيس والجرمانيين وساروا للقاء الترك فالتقى الفريقان واقتتلا قتالا عنيفا ظفر فيه يوحنا فى معركتين عظيمتين واستظهر على الترك فخشى السلطان مراد شر العاقبة وعمد إلى المصالحة فتقررت القاعدة على أن ينسحب السلطان مراد بمن بقى من جيوشه فانسحب راجعا إلى كرسى مملكته فلما سكنت الفتن وزالت أسباب القلاقل خلع السلطان نفسه عن الملك وتنازل عنه لولده محمد فبايعه الناس وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق ولقبوه بالفاتح واعتكف السلطان مراد عن الناس واعتزلهم والتزم العبادة والتهجد فلما علم لادسلاس صاحب بلونيا والمجر بخبره خالف العهد ونبذ الهدنة ظهريا وتقدم بعساكره لقتال الترك وحبب إلى ملك القرمان شن الغارة عليهم أيضا ليقعوا بين نارين فتقدم عند ذلك كبار الدولة إلى السلطان مراد فى رجوعه إلى منصب السلطنة لرد العدو عن البلاد فعاد إلى المنصب وجيش جيشا عظيما وسار به لقتال الأعداء فالتقى الفريقان عند مدينة وارنه واقتتلا قتالا عنيفا وثبتت جيوش المسيحيين أمام عسكر الترك واشتد القتال شدة بالغة وجرى الدم بين الصفوف مجرى الماء. قال بعض كتاب الأخبار: وكانت العساكر المسيحية قليلة فى هذه الواقعة لانفصال المحاربين من الفرنسيس والألمان عنهم بعد نصرتهم الأولى وكان لادسلاس فى جومة القتال ينادى على العساكر ويحرضهم ويستنهض هممهم ويكر بين المواكب وصفوف الترك كأنه الأسد الضارى حتى أصابه سهم فسقط ميتا وذاع خبر موته بين جنوده ففترت هممهم وتفرق شملهم فهمّ مقدمهم هودياس بجميع شتاتهم والرجوع بهم إلى ساحة القتال فلم يفلح وقد أعمل فيهم الترك القتل بحد السيف فكانت قتلاهم

زهاء عشرة آلاف فى هذه الواقعة الهائلة على ما رواه بعض أصحاب التاريخ وعاد السلطان مراد بعد هذه الواقعة وراية النصر تخفق على رأسه وتنازل عن السلطنة ثانية لولده وعكف على العبادة فلم ترض بذلك جماعة الانكشارية وأبوا إلا عوده إلى المنصب فعاد إليه كارها ثم لم يلبث أن جيش جيشا عظيما وسار به إلى بلاد الارنؤد ليضمها إلى مملكته وكان ممن تولى الحكم على شىء من تلك البلاد بالتوريث أمير اسمه يوحنا كاتريو فلما علم بقدوم السلطان مراد بجيوشه وتحقق أن لا قبل له على رده راسله فى أمر الصلح وعاهده على دفع الجزية فأجابه السلطان إلى ذلك وعاهده وأبقاه على ما بيده من البلاد وأخذ أولاده الأربعة رهينة عنده فاختلط ثلاثة منهم بمماليك السلطان حتى صاروا لا يمتازون عنهم فى شىء والتزم رابعهم وهو أصغرهم واسمه جورج بخدمة باب السلطان وما زال حتى تقدم وارتقى المناصب العالية لشجاعته وبأسه وذكائه ثم أسلم بعد ذلك وتجرد للغزو والجهاد وعرف باسم اسكندر بك فكانت له مواقع هائلة وحروب عظيمة فى خدمة الترك قال بعض كتاب الأخبار: ثم عاد بعد ذلك فندم على ما فرط منه من قتال المسيحيين وارتد إلى دينه وتعصب وصار من أكبر أعداء المسلمين وأشد المبغضين لآل عثمان فحرض الأهالى على الخروج وشق عصا الطاعة فكان من وراء ذلك من الحوادث والخطوب ما لا محل لذكره هنا، وركب أيضا السلطان مراد على قسطنطين صاحب المورة وباقى الأقاليم المتاخمة لتلك البلاد فدوخهم وأخضعهم لملكه ورتب عليهم الجزية وجرت بسبب ذلك حروب هائلة كثيرة بينه وبين الأرنؤد والمجر ومازال يغزو ويفتح البلاد حتى أصابته سكتة فمات فى سنة خمس وخمسين وثمانمائة هجرية أى نحو سنة إحدى وخمسين وأربعمائة وألف ودفن بمدينة بورسه .

فقام بالأمر بعده ولده (السلطان محمد الثانى) بايعه أهل الدولة فى اليوم الذى مات فيه أبوه فكان سابع سلاطين آل عثمان. قال أصحاب التاريخ: وهو من أعظمهم همة وأعلاهم قدرا وكان بطلا مقداما شجاعا قوى الجنان موصوفا بالمغازى والحروب وكان أبوه السلطان مراد قد أوصاه قبل موته أن لا يغمد له سيفا ولا يبطل له جهادًا حتى يفتح مدينة القسطنطينية فجيش جيشا عظيما وأخذ يتأهب لحصارها وكان نظام القيصرية الرومية فى هذا الحين على شفا جرف هار بسبب المنافسات الدينية ولذلك أصبحت القيصرية فى غاية الضعف فزالت هيبتها وانحطت عظمتها فلم يبق للقيصر من السلطنة إلا مجرد الرسوم والعادات البسيطة. قال بعض كتاب الأخبار: وبلغ من خلل أحوال الامبراطورية الرومية وانحطاط قدرها أنه لما وردت

الأخبار إلى القسطنطينية بأن السلطان محمد الثانى ابتنى قلعة بوغاز كسن وكان قد ابتناها لغرض سد خليج القسطنطينية على سفن الإمبراطورية والتضييق عليها خاف الروم واضطربت أحوالهم وعقدوا للمذاكرة فى ذلك مجلسا كبيرا فى كنيسة أيا صوفية فلما اجتمعوا أخذوا يتزاحمون ويتقدم بعضهم على بعض فى الجلوس ولم يراعوا درجات بعضهم فأدى بهم ذلك إلى السباب والملاكمة وانفرط عقد اجتماعهم ولم يعملوا عملا يذكر اهـ.

وكان الإمبراطور على القسطنطينية يومئذ قسطنطين دراغايس بن إيمانوئيل فأرسل إلى السلطان محمد رسلا يستعطفونه ويستميلونه إلى تقرير قاعدة للصلح فطردهم السلطان ولم يسمع كلامهم وأخذ فى التأهب والاستعداد ورسم ببناء الحصون والقلاع على شاطئ بوغاز القسطنطينية فزاد خوف قسطنطين وهاله الأمر جدا وأرسل إلى السلطان سفراء آخرين يقول على أيديهم إن ماوراء بناء هذه القلاع إلا القتال وإضرام نار الحرب فإن لم تراع ما كان بين بلادى وبلادك من العهود والمواثيق وتقرر بيننا قاعدة للصلح فذاك إليك وقد فوّضت أمرى إلى الله فإن هداك سبحانه وعطف قلبك كان ذلك غاية المراد وإن كان قد قضى لك بفتح القسطنطينية فلا مفر مما قدره وقضاه وإلا فلا أسلم فيها وفىَّ لسان ينطق فلما وصلت رسله وقالوا للسلطان مقالته لم يلتفت لقولهم وشدد فى بناء الحصون والقلاع وبالغ فى التأهب والاستعداد فكتب قسطنطين إلى دول الفرنجة يطلب منهم المعونة والإسعاف ويستحثهم على نصرته وأقسم أنه ينجز لهم ما وعدهم به أسلافه من ضم الكنيسة الشرقية إلى الكنيسة الغربية فسر البابا بذلك سرورا عظيما وسير إليه نجدة عظيمة من طوائف الفرنجة فأغضبت فعال قسطنطين جماعة الروم لكراهتم ضم كنيستهم الشرقية إلى الكنيسة الرومانية لما بين الفريقين من العداوة القديمة والشحناء المستمرة ونقموا على إمبراطورهم وتفرقوا عنه وخذلوه وفضلوا سقوط المدينة فى أيدى المسلمين على خلاصها وضم الكنيستين إلى بعضهما وقال الدوق نوتاراس كبير وزراء القسطنطينية يومئذ جهارا أحب إلىَّ أن أرى فى هذه المدينة يريد القسطنطينية تاج السلطان محمد من أن أرى فيها إكليل لبابا ثم تخلى أكثرهم عن حماية أسوار المدينة وتفرقوا عنها فلم يبق منهم إلا نحو عشرة آلاف بين روم وفرنجة وبينما هم على هذا الحال من فتور الهمة واختلاف الكلمة وتفرق الرعية عن راعيها إذ أقبل السلطان محمد فى مائتين وستين ألف من المقاتلين وذلك فى سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة وألف ميلادية أى سنة سبع وخمسين وثمانمائة هجرية ومعه عمارة حربية مؤلفة من ثلاثمائة

سفينة كبيرة فنزل بجيوشه على أسوار المدينة وحاصرها من جميع الجهات وأرسل إلى قيصر يطلب إليه أن يسلم البلد تحت شروط كلها شدة وإهانة فأبى قسطنطين وصمم على القتال جهد الاستطاعة فغضب السلطان محمد لذلك وأمر فشددوا فى الحصار وجاءت الأخبار إلى قسطنطين بعزم السلطان على الهجوم على الأسوار وأخذ المدينة عنوة فى يوم كذا فهاله الأمر جدا وجمع إليه خواصه وكبار قومه ومن كان عليهم معتمدة من الروم وشكا إليهم حاله وبالغ فى الشكوى وبكى وانتحب وعظم البلوى فبكوا جميعا لبكائه وأقسموا على الذب والدفاع واقتحام نار الوغى حتى يقضى الله أمر كان مفعولا ثم قاموا وتعانقوا وقبل بعضهم بعضا قبلة الوداع وطلعوا على الأسوار وتحصنوا فيها وكذلك فعل قسطنطين وكان ممن لبى دعوة قسطنطين وقام لنصرته على المسلمين أهالى جنوه فسيروا لنجدته عمارة بحرية ومقدمها الأمير جوستنياني فأتى بها يريد الدخول إلى مياه القسطنطينية فعارضته السفن التركية فاقتتلوا قتالا عنيفا وانتصر جوستنيانى نصرة عظيمة فدخل المينا غانما فاستعظم السلطان هذا الأمر جدا وصمم على إدخال مراكبه إلى المينا أيضا ومحاصرة المدينة برا وبحرا. قال بعض الكتاب: وفكر كثيرًا فى هذا الأمر فخطر على باله أن ينقل المراكب على البر حتى تجتاز السلاسل الحديد الموضوعة على مضيق البوغاز فمهد لذلك طريقا على البر طوله فرسخان وقيل أكثر وغطاه بالخشب وصب عليه الزيت والدهن ونقل عليه فى ليلة واحدة أكثر من سبعين سفينة. **قلت:** ولعل فى ذلك مبالغة، ولما حل الأجل المعهود هجم عساكر المسلمين على الأسوار هجمة الأسود وكانوا زهاء مائة وخمسين ألفاً من الأبطال المشهود لهم فلقيهم الروم بقلوب مطمئنة واشتبك القتال وحمى الوطيس فخرت الأبطال من فوق الأسوار وكان قسطنطين قائما ما بين النارين ينادي على الروم بالتجلد والثبات وإعمال السيف فى أعناق الأعداء وهو يقاتل قتال الأبطال والمسلمون يندفعون على الأسوار من كل فج عميق فلما أيس قسطنطين من الظفر وأيقن بالغلبة وسقوط المدينة فى أيدى المسلمين نزع عنه أسلحته المذهبة وألقى بنفسه بين صفوف المسلمين فقطعوه بحد السيف ولم يعلموا من هو فلما شاع بين من بقى على الأسوار من الروم خبر موت قسطنطين انفشلوا فظفر بهم المسلمون وتغلبوا على الأسوار وأخذوها ثم اقتحموا المدينة وأعملوا فى أهلها السيف ودخلوا كنيسة القديسة صوفية وقد كان فيها بطرق القسطنطينية يصلى وحوله خلق عظيم وقتلوا من فيها بحد السيف ولم يبقوا على أحد ونهبوا وأسروا وأحرقوا وخربوا ما فى المدينة من الأبنية العظيمة والآثار

الفاخرة وأحرقوا جميع مكاتبها فكان عدد ما أكلته نار الحريق منها مائة ألف مجلد وعشرين ألفا.

ورأى السلطان محمد من أبنية القسطنطينية ومراسمها ومنتزهاتها ما حبب إليه نقل كرسى مملكته إليها فنزح الروم عنها فرارا من الترك وكادت تخلو من السكان فرسم لكل من عاد إليها من الروم أن يبقى على دينه وعاداته ولا يتعرض له أحد بسوء فلم يأت إليها إلا القليل بل كثر النازحون منها لاسيما بعد إقامة الأذان والصلاة فى كنيسة أيا صوفية وتبديل حالها فهال السلطان هذا الأمر واستعظمه وأتى إليها بكثير من أهل القرى والضواحى ثم أقام للروم بطركا ليجتمعوا حوله وسلم له عصا البطريكية وخاتمها كما كانت تفعل القياصرة فى سالف الأزمان وقسم ما فى المدينة من الكنائس بين النصارى والمسلمين وجعل لكل فريق منهم حدا لا يتعداه وفرض على النصارى قدرا من المال يقومون به إلى الخزينة السلطانية فى كل عام. قال بعض كتاب الأخبار: وبقى الحال على ذلك زهاء ستين سنة حتى جاء السلطان سليم الأول فنسخه وسيرهم على ما أراد.

(مطلب)

قيام البابا كالستوس الثالث وحثه المسيحيين على قتال السلطان محمد

ولما استقامت للسلطان محمد الأمور بعد فتح القسطنطينية عمدا إلى فتح جزيرة رودس فسير إلى أهلها يتهددهم ويطلب منهم الجزية وكان عظيمهم يومئذ يوحنا دولستيك فأرسل إليه يوحنا يقول: كف عنا فوالله إن فرسان رودس لم يأخذوها إلا بسيوفهم ومعونة الله سبحانه وتعالى ولم تطأ أرجلهم أرضا بعناية أحد من ملوك الأرض فلن نسلم لك فيها وفينا رمق، وعرض للسلطان محمد بعد ذلك ما شغله عنها فوجه عنايته إلى فتح الصرب فسار إليها فى جيش عظيم وتوغل فى جوفها فقام عند ذلك البابا كالستوس الثالث يستنهض جميع ملوك المسيحية على قتال المسلمين ويحضهم على استخلاص البلاد من أيديهم ويحثهم على الجهاد فى سبيل الله وجاءت الأخبار بذلك إلى السلطان محمد فسار فى مائة ألف وخمسين ألفا من الجند المدربة وحاصر مدينة بلغراد وضيق عليها برا وبحرا حتى كادت تسقط فى يديه وطارت الأخبار بذلك إلى الآفاق فأخذت حمية الدين أحد رهبان القديس فرنسيس

فطاف يحث النصارى ويحضهم على الجهاد واستخلاص بلغراد من أيدى المسلمين وأكثر من التطواف والحض والمناداة فاجتمع حوله زهاء أربعين ألفا من الجنود النمساوية فسار بهم إلى القائد هونيادس الشهير قائد الجيوش المجرية وجعله المقدم عليهم فسار بهم هونيادس وقاتل السلطان محمد قتالا عنيفا للغاية فانتصر عليه وأتلف سفنه الحربية وأغرق أكثرها فلبث السلطان محمد يهاجم المدينة أربعين يوما فلم ينل منها ورجع بمن بقى من عسكره وقد مات منهم خلق عظيم وأصابت هونيادس قائد العساكر المسيحية بعد نصرته جراحات بليغة فاعتل ومات بها بعد انسحاب السلطان محمد بعسكره فلما علم السلطان بموته فرح وسير وزيره محمد باشا إلى فتحها فحاصرها ولبث يقاتل عليها سنة ونصف سنة حتى تم له النصر وسقطت فى يده فخسرت بذلك استقلالها وأصبح حكمها حكم بقية المدن التى وقعت فى قبضة العثمانيين.

(مطلب)

زحف السلطان محمد على ولاية أثينا وما كان من وراء ذلك

ولما كانت سنة إحدى وستين وثمانمائة هجرية أى نحو سنة ست وخمسين وأربعمائة وألف ميلادية زحف السلطان محمد على ولاية أثينا وفتحها بعد حروب هائلة وضمها إلى أملاكه واتفق فى هذه الأثناء أن وقع الخلاف ما بين الملك توما والملك ديمتريوس باليولوغوس أخى قيصر الروم بشأن مملكة المورة التى كانا يحكمانها بالاشتراك معا ويدفعان عنها الخراج للسلطان محمد واشتد بينهما الخصام واستفحل أمره فقامت الحرب بينهما على ساق فظفر توما بدمتريوس وهزمه فاستنجد دمتريوس بالسلطان محمد وطلب منه المدد وزوّجه بابنته ليستميله إليه فلبى لذلك دعوته وأنجده على توما وسير إليه جيشاً ضخماً فهرب توما بعد انهزامه شر هزيمة وخلا الجو لدمتريوس فجعل يتصرف فى الأمور ولكن لم تكد تستقر به الراحة بعد تلك الحروب الهائلة حتى داخل السلطان الطمع ومالت نفسه إلى ضم مملكة دمتريوس إلى بلاده فركب على دمتريوس بخيله ورجله وقبض عليه ونفاه إلى إحدى الديارات واستولى على بلاد المورة إلا بعض الحصون التى كان سلمها توما إلى البابا وأهل البندقية قبل فراره من وجه دمتريوس ، ولم تأت سنة سبع وستين وثمانمائة هجرية أى سنة إحدى وستين وأربعمائة وألف ميلادية إلا وقد زالت آثار السلطنة

المشرقية العظيمة ولم يبق منها سوى مملكة طرابزون فعمد السلطان محمد فى تلك السنة إلى أخذها وضمها إلى مملكته وجيش جيشا وسار به إليها وقاتلها حتى أخضعها لحكمه ودخلت فى عداد ممالكه ثم سار منها فأخذ ولاية سنوب وجاء بصاحبها داود كومومين أسيرا إلى القسطنطينية ومثل به شر تمثيل ثم أمر فقتلوه صبرا وكان قد اتهمه بمكاتبة ملك فارس والتألب معه وقتل كذلك أولاده بين يديه وكانوا ثمانية وعاد إلى القسطنطينية ظافرا غانما، ثم جيش بعد قليل جيشا عظيما وسار به لقتال أمير الفلاخ وكان سبب ذلك تعدى بعض أهالى الفلاخ على جماعة من التجار العثمانية النازلين هناك فلما علم صاحب الفلاخ بحضوره أرسل إليه رسلا فى طلب الصلح وقيامه بدفع جزية فى كل سنة قدرها عشرة آلاف دوكا وأن يصادق على جميع الشروط التى تقررت فى معاهدة سنة ست وتسعين وسبعمائة هجرية أى سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة وألف ميلادية ما بين السلطان بايزيد وأمير الفلاخ يومئذ فقبل السلطان محمد الثانى بذلك وانسحب بجميع جيوشه وكان هذا القول من أمير الفلاخ خدعة ليتمكن من عقد محالفة مع ملك المجر على قتال الترك فلما تم له ما أراد وعلم السلطان بالخبر سير إليه رسولين يسألانه فى ذلك فقبض عليهما وقتلهما ثم لم يلبث أن زحف فى جيش عظيم وأغار على بلاد بلغاريا التى هى من أملاك آل عثمان فعاث فيها وأفسد وخرب وأحرق وعاد بخمس وعشرين ألف أسير فسير إلى السلطان رسلا فى طلب فك الأسرى والرجوع إلى الطاعة وعدم مخالفة العهد فلما مثلوا بين يديه قيل إنه أمرهم بخلع عمائمهم عن رؤوسهم إجلالا له وتعظيما فأبوا ذلك فأمر بأن تسمر عمائمهم على رؤوسهم بمسامير من حديد ففعلوا بهم ذلك وهم بين يديه وجاءت الاخبار إلى السلطان بما وقع لرسله فكاد يتميز غيظا ونادى فى جنده بالتأهب ثم خرج فى مائة ألف لقتال أمير الفلاخ ومازال حتى اخترق جوف بلاده ووصل إلى مدينة بخارست عاصمة مملكته بعد أن هزمه شر هزيمة ومزق شمل عسكره فهرب صاحب الفلاخ ونزل على ملك المجر مستجيرا فنادى السلطان محمد بخلعه من منصب الإمارة وأقام أخاه راوول مكانه وكان راوول هذا قد تربى فى حضانة السلطان محمد وللسلطان به ثقة فصارت بذلك بلاد الفلاخ تابعة لأملاك السلطنة العثمانية.

وركب فى سنة سبع وستين وثمانمائة هجرية أى سنة اثنتين وستين وأربعمائة وألف ميلادية على البوسنا لامتناع أميرها عن دفع الجزية فحاربه وانتصر عليه وقتله هو وولده بعد قتال عنيف للغاية فدانت له بقتله جميع بلاد البشناق وكبر الأمر على

صاحب المجر فهمّ باستخلاص البوسنا من أيدى العثمانيين وخرج فى عسكر عظيم فركب عليه السلطان فى جيش جرار وهزمه وفرق شمل عساكره فعاد خائباً وشدد السلطان على أهل البوسنا فسلبهم جميع ما كان لهم من الامتيازات والحقوق وأدخل فى الصفوف الانكشارية زهاء ثلاثين ألفاً من شبان البوسنا وشدد على كبار أهلها وأشرافهم فتدين أكثرهم بالدين الإسلامى وصارت البلاد ولاية كبقية الولايات الداخلة فى حكم آل عثمان، ولما كانت سنة ثمان وستين وثمانمائة هجرية أى سنة ثلاث وستين وأربعمائة وألف ميلاديه ابتدأ الخلاف بين العثمانيين وأهل البنادقة وكان سبب هذا الخلاف أن عظيما من العثمانيين هرب إلى ناحية كورون التابعة للبنادقة فطلب فلم يسلموا فيه وامتنعوا وقالوا إنه تنصر واعتنق الدين المسيحى فلا يحل اعتباره عبدا رقيقا وكان فى نفس السلطان أن يشن الغارة على جميع أعمال البندقية ويضمها إلى أملاكه فاتخذ ذلك حجة للقتال وجيش جيشا عظيما وسار به فى سنة خمس وسبعين وثمانمائة هجرية ونزل على جزيرة اغريبوز المعروفة أيضا بارجوس يريد قتالها فقاتله أهلها قتالا عنيفا وأرسلوا يستنجدون حكومتهم فسيرت لنجدتهم عمارة عظيمة فوصلت إلى بلاد المورة وأنزلت البر من بها من الجنود والمقاتلة فتقوت بهم عزائم سكانها وثاروا معهم على من كان عندهم من عسكر السلطان فأجلوهم عن البلاد ثم رمموا ماكان تهدم من أسوار برزخ كورنشيه وحاصروا مدينة كورنشيه واستخلصوا مدينة اغريبوز فاستعظم السلطان هذا الأمر وأكبره جدا وزحف فى زهاء ثمانين ألفا فخاف أهل البندقية وسقط فى أيديهم وتركوا البرزخ المذكور ورجعوا القهقرى فوصل السلطان بعسكره ودخل البلاد بعد قتال خفيف واسترجع كل ما أخذوه وأرجع الأمور إلى سابق مجراها.

واشتد بغض أمم أوروبا للعثمانيين وكرهوا جوارهم فقام البابا بيوس الثانى يدعو المسيحيين إلى قتال المسلمين ويستحثهم على نصرة الدين ومحو آثار العثمانيين من قارة أوروبا وأكثر أتباعه من النداء والتحريض فهاجت الخواطر وامتلأت القلوب بغضا فقام صاحب ألبانيا بعسكر جرار وشن الغارة على المملكة العثمانية وقاتل العثمانيين قتالا الأبطال فخرب وأحرق وأهلك الحرث والنسل وأراق الدماء الكثيرة ومازال يقاتل حتى أدركته المنية فمات سنة ثمان وستين وثمانمائة هجرية حتف أنفه وقد كان من أشد خصوم العثمانيين وألد أعداء سلاطين آل عثمان فحاربهم خمسا

وعشرين سنة لا يغمد له فيها سيف ولا ينثنى له عزم ولم يقو السلطان محمد على قمعه وإدخاله تحت الطاعة.

(مطلب)

فيما أصاب عسكر السلطان فى بلاد البغدان وفى هزيمتهم

وسير السلطان بعد ذلك بقليل عمارة حربية لفتح مينا آق كرمان ففتحتها وأقلعت السفن تريد مصاب نهر الدانوب لإعادة الكرة على بلاد البغدان وأخذها فلاقته العساكر البغدانية وفى مقدمها الأمير اصطفن الرابع صاحب البغدان عند نهر الدنواب فاجتاز السلطان النهر فلم تقف أمامه عساكر اصطفن وتقهقروا خديعة ومكرا ولم يقاتلوا السلطان فتبعهم السلطان بعساكره وساق خلفهم بخيله ورجله حتى دخلوا فى غابة كثيفة للغاية لا تعرف مفاوزها فلم يمهلهم اصطفن المذكور حتى انقض عليهم بعسكره وقهرهم وأعمل فيهم القتل بحد السيف ففر السلطان ونجا وتمزق شمل من بقى من عسكره وانتصر اصطفن فى هذه الموقعة نصرة عظيمة وكان ذلك فى سنة إحدى وثمانين وثمانمائة هجرية أى سنة ست وسبعين وأربعمائة ألف ميلادية ففرح المسيحيون بنصرة اصطفن فرحا عظيما وسير إلى الباب رسولا يهنئه بالنصر ويقول له إن البابا قد سماه من هذا اليوم بطل النصرانية وحامى حمى الديانة المسيحية .

(مطلب)

حصار سفن السلطان لرودس والرجوع عنها

وجهز فى سنة خمس وثمانين وثمانمائة هجرية أى سنة ثمانين وأربعمائة وألف ميلادية عمارة أخرى عظيمة وعليها مائة ألف مقاتل وشىء كثير من الذخيرة ومعدات الحرب وسيرها مع ميشطس باشا أحد العائلة الباليولوغية الإمبراطورية الرومية وكان قد اعتنق الدين الأسلامى بعد فتح القسطنطينية فسار بها إلى جزيرة رودس وحاصرها وضيق عليها وأقام تحت أسوارها تسعين يوما فلم ينل منها فجاءه الأمر بالارتحال عنها فارتحل ولم يقدر الله للسلطان محمد قتالها بعد ذلك. قال

أصحاب التاريخ: ولما وصلت عمارة السلطان محمد إلى جزيرة رودس كان صاحبها قد تمكن من إبرام صلح مع سلطان مصر وباى تونس بعد أن وقعت الحرب بينهما وبينه أياما كثيرة ليتفرغ بذلك إلى دفع غارات العثمانيين عن الجزيرة التى هى مقر رهبنة القديس يوحنا الأروشليمى فحاصرتها عمارة السلطان محمد حصارا تاما ومنعت عنها المدد وضيقت عليها من كل جانب ووالت الرمى عليها بالمكاحل فكان أهلها يصلحون فى الليل ما تخربه المدافع من أسوارها فى النهار فطال حصارها تسعين يوما وفى كل يوم يهجم العثمانيون على الأسوار فلم تنل منها وقد قتل منهم خلق كثير للغاية فلم يبق إلا القليل وجاء مرسوم السلطان برفع الحصار والارتحال عنها فارتحلوا.

(مطلب)

وفاة السلطان محمد وولاية ابنه بايزيد

ومازال السلطان محمد على قدم الغزو والجهاد لاينكف عن القتال وتدويخ البلاد حتى أدركته المنية وهوسائر بعسكر جرار لقتال ملك فارس مات فى مدينة ازنكميد فى سنة ست وثمانين وثمانمائة هجرية أى سنة إحدى وثمانين وأربعمائة وألف ميلادية فى سلخ ربيع الأول وله من العمر ثلاث وخمسون سنة فكانت مدة سلطنته إحدى وثلاثين سنة.

قال أصحاب التاريخ : وله الفعال المأثورة فى داخل بلاده فهو الذى دعا الحكومة العثمانية بالباب العالى وقسم هيئتها إلى أربعة أقسام وهى الوزير وقاضى عسكر والدفتردار والنيشانجى أى كاتب سر السلطان ورتب وظائف الجند على أسلوب جديد فجعل لطائفة الانكشارية كبيراً سماه الأغا وسلمه حراسة القسطنطينية وضبط أحوالها الداخلية وآخر لأصحاب المكاحل وآخر لما تحتاجه الجيوش من الذخيرة والمونة ومعدات الحرب واهتم بترتيب وظائف القضاء وسن القوانين النظامية المناسبة للزمان والمكان، وأعقب ولدين وهما بايزيد وجم فبايع الناس بايزيد بالسلطنة فى اليوم الذى مات فيه أبوه وهو الرابع من ربيع الأول سنة ست وثمانين وثمانمائة هجرية أى سنة إحدى وثمانين وأربعمائة وألف ميلادية وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق فأخذت له البيعة العامة فى خلال سنة ست وثمانين هجرية وكان سلطاناً جليل القدر عالماً شاعراً لبيباً مواظباً على العلم حسن السيرة. قال أصحاب التاريخ:

لما مات السلطان أبو الفتح محمد وكان أكبر أولاده بايزيد وولى عهده من بعده مقيما باماسيا يحكمها من قبل أبيه أخفى الوزير قرمانى محمد باشا خبر موت السلطان حتى يأتى ابنه بايزيد المذكور ولكنه لما كان بينه وبين أصغر أولاد السلطان مودة ومحبة أكيدة وكان يفضله على بقية إخوته سير إليه سراً من يعلمه بخبر موت أبيه ويستقدمه على عجل ليسلمه مقاليد السلطنة قبل أخيه بايزيد فشاع خبر ذلك بين الناس وعلم به جماعة الانكشارية فثاروا على الوزير وقتلوه وعاثوا يومئذ فى المدينة وأفسدوا وقتلوا ونهبوا وولوا الأمير كركود ابن السلطان بايزيد السلطنة مكان أبيه حتى يأتى أبوه فلما كان الثالث عشر من ربيع الأول وصل الرسول إلى بايزيد وأعلمه بخبر موت أبيه فركب فى اليوم الثانى فى أربعة آلاف وسار مجداً فدخل مدينة القسطنطينية بعد مسير مائة فرسخ وستين فرسخاً فى تسعة أيام فخرج أمراء الدولة وكبارها وأعيانها للقائه ودخل المدينة فى أبهة وجلالة عظيمة للغاية وأخذ فى مباشرة الأمور. أما الأمير جم فإنه لما وصل إليه الخبر بموت أبيه ركب من فوره فى جماعة من أصحابه وسار قاصداً مدينة بروسة فمانعه من دخولها من كان بها من المرابطين فقاتلهم بمن معه وانتصر عليهم نصرة عظيمة ودخلها عنوة وأقام بها ولم يستقر به المقام حتى جاءه أخوه السلطان بايزيد فى جيش عظيم وقاتله وقهره وساق خلفه بخيله ورجله حتى أوصله إلى تخوم ديار مصر فلما رجع ظافراً منصوراً سأله الانكشارية أن يبيح لهم بروسة لينتقموا منها فلم يوافقهم على ذلك ولكنه خاف عاقبة أمرهم فأقطع كل رجل منهم قرشين.

وأقام جم بمصر ما شاء ثم عاد إلى حلب واتحد مع الأمير قاسم بك آخر سلالة أمراء القرمان على قتال أخيه بايزيد فلم ينالا شيئاً فراسل أخاه فى طلب الصلح بشرط أن يقطعه بعض الولايات ليقيم بها فلم يقبل بايزيد منه ذلك فخاف جم العاقبة وسار إلى جزيرة رودس وطلب إلى رئيس رهبنة القديس يوحنا الأورشليمى أن يساعده على أخيه بايزيد فقبله عنده وأنزله منزلاً رحباً فجاءت وفود السلطان بايزيد إلى رئيس الرهبنة وكلموه فى أمر جم المذكور وأنه إن بقى عندهم بالجزيرة تحت الحفظ تعهد لهم السلطان بعدم مس استقلال جزيرتهم مدة حياته وأن يحمل لهم فى كل سنة مبلغاً من المال قدره خمسة وأربعون ألف دوكا فقبل الرئيس ذلك ووفى بالوعد فلم يمكن جماً من الخروج ولم يسمح له بالذهاب إلى ملك المجر ولا إمبراطور الألمان وقد كان كل منهما يطلبه ليتخذه واسطة لتذليل السلطان بايزيد وإذهاب هيبته وسيره إلى مدينة نيس ليبقى بها محجوراً عليه لا يفارقها ثم نقله إلى

شمبرى وجعل بعد ذلك ينتقل من بلد إلى آخر من بلدان فرنسا زهاء سبع سنوات فلما كانت سنة خمس وتسعين وثمانمائة هجرية بعثه رئيس رهبنة القديس يوحنا إلى البابا توسان الثامن ليبقى عنده فراسل البابا السلطان بايزيد فى أمره وطلب إليه أن يبعث بالمال الذى كان يحمل فى كل سنة إلى رئيس رهبنة القديس يوحنا فأجابه السلطان إلى ما طلب وظل الأمر على ذلك حتى مات البابا توسان وقام بعده البابا إسكندر بورجا واشتغل السلطان بايزيد بما جاءه من أخبار إغارات شارل الثامن ملك الفرنسيس على بلاد إيطاليا وعقده النية على فتح القسطنطينية وقد اشتدت رغبة شارل فى ذلك فبعث البعوث إلى بلاد مقدونية واليونان لإضرام نار الفتنة والخروج على السلطان بايزيد فلما علم ملك نابولى وجمهورية البنادقة بما ينويه شارل خافوا من تعاظم شأن دولة الفرنسيس واستفحال أمرها وأرسلوا إلى السلطان بايزيد يحذرونه شر العاقبة ويحثونه على الأخذ بأسباب التأنى والحزامة وأن يسير إلى بلاد إيطاليا طائفة من عسكره ليصد بها جيوش ملك الفرنسيس فأحس شارل بذلك وأكبره فسار إلى مدينة رومة وحاصرها وضيق عليها من كل جانب وطلب من البابا إسكندر أن يسلمه چما أخا السلطان بايزيد فلم ير بدا من تسليمه فسار چم مع جيوش الفرنسيس حيث ساروا حتى أدركته المنية فى مدينة نابولى فدفنوه فى بلدة من بلاد إيطاليا ثم نقل إلى مقابر أجداده بمدينة بروسه.

(مطلب)

وتاقت نفس السلطان بايزيد إلى فتح الديار المصرية

وتاقت نفس السلطان بايزيد إلى فتح الديار المصرية وضمها إلى أملاكه فسار فى جيش عظيم لقتال سلطانها فالتقيا جهة القرمان واقتتلا قتالاً شديداً فلم يفلح السلطان بايزيد وراسلهما باى تونس بالكف عن القتال بدعوى أنه لا يصح قيام الحرب بين ملكين مسلمين فتقررت بين الفريقين قاعدة للصلح وعاد السلطان بايزيد بعسكره وعادت كذلك العساكر المصرية وبينما هو يغزو ويحارب ويفتح المدن والأمصار والتوفيق ملازمه إذ قامت الفتنة داخل بلاده بخروج اثنين من أولاده عن طاعته وإضرامهم نار الحرب. قال بعض كتاب الأخبار: وقد كان له ثمانية أولاد

ذكور مات منهم خمسة فى حداثتهم وعاش ثلاثة وهم كركود وأحمد وسليم وكان كركود مولعاً بالعلوم والآداب ميالاً لمخالطة العلماء والأدباء فكانت العساكر لا تميل إليه لهذا السبب وكان الثانى عاقلاً رزيناً محبوباً من الأمراء والأعيان موقراً عند كبير الوزراء مكرماً وكان الثالث ميالاً للغزوات والحروب فكانت طوائف الجنود والانكشارية تحبه وتجتمع عند كلمته ولذلك ولى السلطان بايزيد كلا منهم منصباً يليق بحاله فولى الأمير كركود إحدى الولايات البعيدة وولى الأمير أحمد ولاية اماسيا وولى الأمير سليماً ولاية طرابزون فلم يقبل الأمير سليم هذا المنصب واستصغره وسار من طرابزون إلى كافا وسير منها رسلاً إلى أبيه يطلب إعطاءه إحدى الولايات الكبرى من مملكته التى فى أوروبا فاستعظم السلطان ذلك وأكبره ولم يجبه إلى ما طلب وردّ الرسل كما حضروا فكبر الأمر على الأمير سليم وركب فى جيش من التتار وسار لقتال أبيه فأرسل أبوه كذلك جيشاً لإرهابه فلم يرعو واشتد فى التأهب والاستعداد لإضرام نار الوغى فخشى السلطان شر العاقبة وأجابه إلى ما طلب وعقد له الولاية على مدينتى ودين وسمندريه فداخل نفس الأمير كركود من ذلك ما داخلها وأغار على ولاية صاروخان وجعلها له مقراً حتى لا يكون بعيداً عن تخت مملكة أبيه عند الحاجة.

(مطلب)

خروج الأمير سليم على أبيه
السلطان بايزيد فى طلب الملك

ولم يستقر بالأمير سليم المقام فى سمندرية حتى تاقت نفسه إلى ارتقاء منصب السلطنة والانفراد بالملك فسار من سمندرية فى جيش إلى أدرنه واستقر بها ونادى بسلطنته عليها وطير الأخبار بذلك إلى الآفاق فلما وصل الخبر إلى السلطان بايزيد هاله جداً وأغضبه فسير جيشاً لإخضاع الأمير سليم وإرجاعه إلى الطاعة فقاتله فانتصرت عساكر السلطان بايزيد وفر الأمير سليم إلى بلاد القرم واختفى وتفرق من كان معه من العساكر والأحزاب، ولما تم للسلطان بايزيد النصر على ابنه سليم سير جيشاً آخر لقتال ولده كركود بصاروخان فخرج كركود لقتال عسكر أبيه فالتقى الجمعان واقتتلا فانهزم أصحاب كركود شر هزيمة واختفى كركود حتى كان من أمره

ما سيذكر فى محله. ولم يكد يتم الظفر للسلطان حتى قامت طوائف الانكشارية على قدم وساق وسألوه العفو عن ولده سليم وإرجاعه إلى ولاية سمندرية فطاولهم فأكثروا من الإلحاح وشددوا وأرهبوا وهددوا ومازالوا حتى أجابهم السلطان إلى ما طلبوا وسير إلى الأمير سليم فرمان الرضا والولاية على سمندرية كما كان فظهر الأمير سليم عند ذلك من مخبئة وسار في نفر يريد سمندرية فخرج للقائه جماعة من الانكشارية وساروا فى ركابه وعرجوا به إلى القسطنطينية ودخلوها فى كبكبة وضجة زائدة ومازالوا على ما هم عليه من الجلبة والصياح حتى صاروا تحت قصر السلطان بايزيد وسيروا إليه جماعة يطلبون إليه خلع نفسه والتنازل لولده الأمير سليم عن الملك وأكثروا من النداء والصياح وشددوا فى الطلب فاجتمع الناس وكثر الزحام وعلت الضوضاء وعم الخوف سائر من في المدينة واشتد الهرج فخاف السلطان بايزيد شر العاقبة وأجابهم إلى ما طلبوا وخلع نفسه فى اليوم الثامن من صفر سنة ثمان عشرة وتسعمائة هجرية أى سنة اثنتى عشرة وخمسمائة وألف ميلادية وله من العمر يومئذ سبع وستون سنة.

وفى رواية أنه لما قامت الفتنة فى داخلية البلاد بخروج اثنين من أولاده عن طاعته أمر بقتلهما فقتلا فكثرت لذلك القلاقل وعلت كلمة الانكشارية فعاهدوا الأمير سليما بالملك وكلموه فى أمر السلطنة فاجتاز بوغاز القسطنطينية لاستخلاص الملك من أبيه فحاربه أبوه وهزمه فهرب إلى بلاد القرم وأقام بها ثم قصد القسطنطينية ثانية فى جيش وجرى بينه وبين أبيه وقائع كثيرة فلما اشتد الحال بالسلطان بايزيد خلع نفسه من السلطنة وعهد بها إلى ابنه سليم المذكور وسار إلى أدرنة فدس له ابنه من سقاه السم خوفاً من رجوعه إلى دست السلطنة فلما مات بايعوا بعده السلطان سليمًا البيعة العامة واستقرت به السلطنة فقبض على أخويه أحمد وكركود وقتلهما ومثل بهما ليخلو له الجو ثم سار لقتال ملك فارس ثم كان ما كان من انتشاب الحرب بينه وبين السلطان قانصوه الغورى صاحب مصر وتغلغله بعساكره فى داخل البلاد حتى وطئت خيله القاهرة وتصرفه فى الأمور بعد أن بدد شمل عساكر الملك الأشرف طومان باى وظنه موت الأشرف مع من قتل من الأمراء والأجناد والمماليك فى الواقعة التى حصلت عند الريدانية كما مر بك بيان هذا كله فى محله.

* * *

(المقالة التاسعة وفيها فصول)

(الفصل الأول)

(فيما جرى بعد دخول السلطان سليم القاهرة وفى سلطنته على ديار مصر ولبسه شعار الخلافة)

لما استقر بالسلطان سليم المقام بالقاهرة بعد انتصاره على السلطان الملك الأشرف طومان باى ومن معه من كبار الأمراء والمماليك وتبديد شملهم وإعمال السيف فيمن بقى منهم ظن موت السلطان الملك الأشرف وأن قد دانت له البلاد فعمد إلى ترتيب الأمور وتقرير قواعدها ورسم فى يوم الثلاثاء رابع المحرم افتتاح سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة هجرية بتقليد بعض أصحابه المناصب العالية وأمر ونهى وقضى يومه هذا فى أنس وصفاء وهو لايعتقد إلا هلاك الأشرف ، فما أذن لوقت العشاء من ليلة الأربعاء حتى أطبقت عساكر الأشرف على السلطان سليم من كل جانب والأشرف ينادى فيهم بالحمل وإعمال السيف وأن لا يبقوا أحداً فاندفعت عساكر الأشرف على عساكر السلطان اندفاع الوحوش الضوارى وأعملوا فيهم السيف وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وأحرقوا بعض خيامهم وبحثوا عن السلطان سليم فلم يقفوا له على أثر من شدة الظلام وهرع العامة وعياق بولاق من النوتية وغيرهم وأحاطوا بخيام عسكر السلطان وصاروا يرجمون بالمقالع وفيها الحجارة وكثر الصياح وعلت الأصوات واشتدت الجلبة واستمروا على هذا الحال الليل كله حتى مطلع الفجر فتمزق عساكر السلطان سليم كل ممزق وتفرقوا فى الشوارع والحارات يريدون النجاة وذهب فريق منهم إلى ناحية النصرية فلاقاهم الأمير عيلان الدوادار الكبير عند الميدان وقاتلهم

قتالاً عنيفاً ومازال حتى استرد منهم الطريق من رأس الجزيرة الوسطى إلى قنطرة باب البحر وإلى قنطرة قديدار واستمر القتال بين الفريقين من مطلع الفجر إلى ما بعد الغروب واشتدت عزائم الجراكسة وقويت قلوبهم فأفحشوا فى قتل العثمانيين وأخرجوهم من جميع الأماكن التى كانوا مختفين بها وجعلوا يحتزون رؤوسهم كما فعلوا بهم عند الريدانية وكانوا يأتون بالرؤوس بين يدى السلطان الملك الأشرف وهو يستحث المماليك على القتال والأخذ بالثار وأصبحوا يوم الأربعاء الخامس من المحرم والقتال قائم على ساق بين الفريقين والمناداة من السلطان الملك الأشرف متواصلة بالقبض على كل من يجدونه من عساكر السلطان سليم فجد الناس كافة فى طلبهم والقبض على من يجدونه منهم فكان يوماً شره مستطيرا، ورتب السلطان سليم من بقى من عسكره ونادى فيهم بالقتال فقويت قلوبهم وصدموا المماليك عند بولاق وجزيرة الفيل صدمة قوية للغاية فأجلوهم عنها وأخذوهما وهجموا على زاوية الشيخ عماد الدين بالنصرية وقبضوا على من كان بها من المماليك الشراكسة وأحرقوا البيوت التى حول الزاوية وقتلوا جماعة كثيرة من العامة والنساء والأطفال والشيوخ وأجلوا من بقى من المماليك عن النصرية فتوجهوا إلى قناطر السباع ونزل الأشرف طومان باى إلى جامع شيخون بالصليبة وأخذ يجمع من تفرق من عسكره ثم رسم بحفر خندق فى راس الصليبة وآخر عند قناطر السباع وآخر عن راس الرميلة وآخر عند جامع ابن طولون وآخر عند جزيرة البقر ورسم بإحراق خان الخليلى فمنعه بعض الأمراء من ذلك ثم قسم عساكره إلى أربع طوائف. طائفة تقاتل عند قناطر السباع وطائفة عند الرميلة وطائفة عند جامع ابن طولون وطائفة عند راس الصليبة ولكن قد كان الخوف استولى على قلوب عساكره ففترت هممهم وكبر خوفهم لمثابرة عسكر السلطان سليم على القتال وكان القتلى من الفريقين مطروحين فى الطرق من بولاق إلى قنطرة السباع وإلى الرميلة وإلى تحت قلعة الجبل وبقى الحال على هذا الوصف إلى يوم السبت ثامن المحرم فلم يشعر السلطان الملك الأشرف إلا وقد اختفى من بقى من أصحابه ولم يبق معه فى ساحة القتال إلا بعض العبيد الرماة والمماليك السلطانية وقليل من الأمراء فلما رأى أنه مأخوذ لا محالة ترك القتال وهرب إلى بركة الحبش وشاع الخبر بفراره فانقض عسكر السلطان سليم على الصليبة وأحرقوا جميع البيوت التى حولها من درب ابن عبد العزيز وقتلوا كثيراً من العامة وأفحشوا فى القتل والنهب والإحراق وعاثوا فى البيوت والمساجد والأضرحة سعياً

وراء المماليك فمن وجدوه منهم ضربوا عنقه فى الحال وفعلوا بالجامع الأزهر ما لا يحسن وكذلك فعلوا بجامع الحاكم وجامع ابن طولون وغيرهما من الجوامع فكانت الكلاب من كثرة الرمم تنهش فيها نهشاً وتمزقها تمزيقاً وكان المنظر مدهشاً مريعاً جداً والناس فى شاغل عن دفن تلك الجثث لانتشار عسكر السلطان سليم فى الحارات وقتلهم كل من يجدونه فى طريقهم.

ورسم السلطان سليم بالمناداة فى العسكر بالكف عن القتل وإراقة الدماء فانكفوا وعاد السلطان إلى خيمته فى الجزيرة الوسطى واشتغل الناس بدفن الموتى فكانوا لايكادون يميزون بعضهم عن بعض وانتشر البكاء والعويل فى مصر والقاهرة وقامت المآتم ببعض البيوتات الكبيرة فكان الخطب عظيماً والمصاب شديداً. وأخذ السلطان سليم بمشورة أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله العباسى وعمل بقوله فظهرت كلمة الخليفة يومئذ وعظمت شوكته ووقفت فى دهليزه الأمراء من المقدمين وأمراء الطبلخانات والعشروات فراراً من عسكر السلطان سليم وكذلك المخدرات من النساء وأصحاب البيوتات العالية ونزلت عنده خونده ابنة الأمير آق بردى زوجة السلطان الملك الأشرف طومان باى وقد فرض عليها السلطان سليم مبلغاً من المال غرامة فلم تقدر على وفائه واستغاثت بالخليفة على استرضاء السلطان فأخذ يتلطف به حتى تجاوز عن شىء منه وألزمت بإيفاء الباقى ومازال الحال فى شدة والناس فى خوف ما عليه من مزيد حتى يوم الثلاثاء حادى عشر المحرم نادى منادى السلطان سليم بالأمان لجميع من بقى من الأمراء المقدمين وأمراء الطبلخانات وأمراء العشراوات والمباشرين وأصحاب الوظائف الديوانية فخرجوا من مخبئهم وأتوا إلى معسكر السلطان فأمنهم ورسم لهم بالذهاب إلى مدرسة الغورى فلما اجتمعوا بها جاءت طائفة من العساكر العثمانية وأحاطت بالمدرسة فتخوف الأمراء من ذلك وظنوا الغدر بهم ثم رسم لهم بعد أيام بالصعود إلى قلعة الجبل فصعدوا إليها والجند تحرسهم فأقاموا بها تحت طلب السلطان فلما كان يوم الخميس عشرى المحرم صعد السلطان إلى القلعة فى موكب حافل للغاية وأمامه الجنائب والطبول والزمور وطوائف الجند من المماليك الذين كانوا مع خير بيك والغزالى والعساكر العثمانية ومرّ من الصليبة فانطلق العامة بالدعاء له.

ولما استقر به المقام رتب من قومه كشافا على الغربية والشرقية ونظر فى بعض المهمات من الأمور وقيد بعض المأمورين بمساحة الشرقية وكشف ما فيها من

أقطاعات المماليك الشراكسة وغير ذلك من الرزق والأوقاف وكذلك فعل بالغربية والمحلة وجميع الجهات القبلية واحتجب عن الناس بالقلعة ولم يجلس على الدكة السلطانية للنظر فى الظلامات كما كانت تفعل ملوك مصر وسلاطينها قبله. وبينما هو على هذا الحال إذ جاءت الأخبار من الأقاليم القبلية بظهور السلطان الملك الأشرف طومان باى ومعه جموع كثيرة من المماليك والغلمان السود والعربان والعامة والكثير من الخيل والدواب والأسلحة وأنه عازم على المجئ إلى القاهرة ليقاتل السلطان سليماً ويجليه عن البلاد وشاع هذا الخبر بين الناس وتأكد بوصول مكاتبة من الأشرف إلى السلطان يقول له فيها:

وبعد فإن شئت أن أجعل الخطبة باسمك وكذلك السكة وأكون نائباً عنك بمصر وأحمل إليك فى كل سنة الخراج حسبما يقع الاتفاق عليه بيننا فارحل عن مصر إلى الصالحية أنت وعسكرك وصن دماء المسلمين بيننا ولا تحمل وزر إراقة دماء الشيوخ والنساء والأطفال بغير سابق ذنب وإلا فاخرج للقائى بعسكرك فى الجيزة والله سبحانه يعطى النصر لمن يشاء. فلما وقف السلطان سليم على ما فى المكاتبة جمع إليه أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله والقضاة الأربعة وجماعة من وزرائه وكتب بحضرتهم صورة يمين إلى الملك الأشرف وكتب بخطه ووقع عليها ثم تكلموا فى الأمر طويلاً فوقع الاتفاق بينهم على تسيير الخليفة والقضاة الأربعة إلى الأشرف بذلك اليمين وخلع السلطان سليم على القضاة وأمرهم بالتأهب للسفر فنزلوا من عنده على ذلك، أما الخليفة فإنه امتنع عن السفر فرسم السلطان بتسيير دوادار بدلاً عنه فساروا ولما صاروا على مقربة من البهنسا خرج عليهم جماعة من الشراكسة وقبضوا عليهم وسلبوا ما كان معهم من متاع وسلاح وهدايا وخيول وجمال وغير ذلك. وقتلوهم فلم ينج منهم سوى القضاة الأربعة ودوادار السلطان ورجعوا إلى القاهرة وهم فى أسواء حال فلما علم السلطان سليم بما جرى لهم أمر فنقلوا معسكره من الجزيرة الوسطى إلى بركة الحبش ونزل فى يوم السبت حادى عشر صفر من قلعة الجبل ومعه الجم الغفير من العساكر والمباشرين والغلمان ورماة البنادق وقد أشيع خبر انحدار عسكر الأشرف طومان باى من البهنسا إلى ترسة بالجيزة فرسم السلطان بعمل سقائل على النيل بناحية طرا ومصر القديمة وبولاق لعبور العساكر عن الاقتضاء وأخذ فى التأهب والاستعداد وقد ظهرت عليه وعلى جميع قومه علامات الاضطراب وخاف الناس كثيراً لاسيما وهم لم يتناسوا ما حل بهم بأسباب الوقائع التى وقعت بالصليبة والناصرية وغيرهما.

ولما كان يوم الأربعاء ثانى شهر ربيع الثانى أمر السلطان سليم فجئ بجميع الأمراء الذين كانوا بقلعة الجبل وقد كانوا ظهروا بأمان من السلطان كما تقدم القول فأنزلوهم مكبلين بالحديد والجند من حولهم إلى بركة الحبش فلما مثلوا بين يدى السلطان أخبرهم بما فعله الملك الأشرف بالقضاة والدوادار وامتناعه من الصلح بعد أن طلبه وأكثر من تأنيبهم وتوبيخهم ثم أمر بضرب أعناقهم جميعاً فضربوا أعناقهم بين يديه وكانت عدتهم أربعة وخمسين أميراً ما بين مقدمى ألوف وأمراء طبلخانات وعشروات وغير ذلك وألقوا جثثهم للكلاب فكانت نساؤهم تسعى فى أخذها بدفع شيء من المال إلى الموكلين بالعمل ثم قام السلطان سليم من ساعته إلى بركة الحبش وعبر النيل بعسكره إلى الجيزة فجاءته الأخبار بوصول عسكر الأشرف إلى المناوات فأقام بالجيزة إلى يوم الخميس عاشر ربيع الثانى فظهرت طلائع عسكر الأشرف ولاقتها عساكر السلطان عند المناوات وقيل بل عند وردان فالتحم القتال بين الفريقين واشتد وحمى الوطيس والتقت السنابك بالسنابك والرماح بالرماح والصفاح بالصفاح فاستظهر المماليك على عساكر السلطان وقتلوا منهم خلقاً كثيرا وساقوهم حتى ألقى أكثرهم بأنفسهم فى النيل فماتوا غرقاً وكاد يتم النصر للأشرف طومان باى وعسكره وجموعه فجاءت فى وسط هذه الشدة لعساكر السلطان نجدة من أصحاب البنادق ورموا بالبنادق على المماليك واصلوا الرمى بشدة حتى ردوهم ومازالوا بهم حتى فرقوا جمعهم ومزقوا شملهم وعادت الهزيمة عليهم فولوا الأدبار وولى الأشرف مهزوما يريد قرية من أعلى تروجة اسمها البوطة فلما تم للسلطان سليم النصر عاد إلى القاهرة ودخلت عساكره ومعهم العدد الكثير من رؤوس القتلى وهم فى كبكبة عظيمة ثم نودى بالزينة فزينت البلد ثلاث أيام والناس مع ذلك فى شاغل بما سيكون من وراء ذلك لعلمهم بما هو عليه الأشرف من البسالة والجلد على الحروب، أما الأشرف فإنه نزل بقرية البوطة فأقام بها ثلاثة أيام وهو متحرز فى نفر من أصحابه ثم حضر إليه الشيخ حسن بن مرعى وشكر ابن أخيه مشايخ عربان البحيرة، وكان بين المذكور وبين الأشرف صداقة قديمة فدعاه حسن للضيافة وألح عليه فى ذلك فركن إليه الأشرف ونزل عنده فلما استقر به المقام طلب مصحفاً ووضعه بين يدى حسن واستحلفه عليه هو وابن أخيه أنهما لا يخونانه ولا يغدرانه ولا يدلان عليه ولا يخبران بخبره أحداً ولا يسعيان ضده عند السلطان سليم فحلفا على ذلك ثلاثا فطاب قلب الملك الأشرف وسكن جاشه وبات ليلته وأصبح وقد أحاط العربان

بالمكان الذى هو فيه وأحدقوا به من كل جانب فخاف من كان معه من الغلمان والمماليك وتفرقوا عنه وأرسل ابن مرعى المذكور الى السلطان سليم يعلمه بالقبض على الأشرف ففرح السلطان بذلك فرحاً عظيماً وسير طائفة من عسكره فقبضوا عليه وقيدوه بالحديد وأتوا به بين يدى السلطان وهو فى زى العربان فقام له السلطان إجلالاً وعاتبه ثم أشار إلى بعض الواقفين من أصحابه فخرجوا بالأشرف من حضرته وأدخلوه فى خيمة أعدت له وأقاموا حولها الحرس من الغلمان الرماة والانكشارية فلبث إلى يوم الاثنين ثانى عشرى ربيع الآخر نحو سبعة عشر يوماً والأخبار عنه بين الناس كل يوم فى شأن.

(مطلب)

قتل السلطان الملك الأشرف طومان باى

فلما كان يوم الاثنين المذكور أركبوه على اكديش بعد أن عبروا به النيل من انبابه إلى بولاق وهو مكبل بالحديد فى زى العربان الهوارة وأمامه زهاء الأربعمائة من العثمانيين وساروا من سوق مرجوش ومروا به من القاهرة فتسابق الناس لرؤيته وهم فى دعاء له وصياح وجلبة عظيمة وكان يحييهم بلطفه المعهود وهو لايدرى أين هو ذاهب فلما جاءوا به عند باب زويلة وقفوا له وأنزلوه عن الاكديش وأرخوا حبالاً قد نصبوها له على السبيل الذى هناك ووقفت حوله العساكر بالسيوف فلما رأى ما فعلوه قال أو أنتم قاتلى اليوم ؟ قالوا بلى فتبسم والتفت إلى من حوله من جمهور الناس وقال وهو ثابت الجنان راسخ القلب اقرءوا لى الفاتحة يا إخوانى ثلاثاً واعفوا عما فرط منى فضج الناس وارتفعت أصواتهم بالبكاء والنحيب وعلت الضوضاء وارتفعت أصوات النساء من أعالى البيوت والتفت الأشرف إلى الجلاد وقال له: تقدم وافعل ما شئت فالله ولى الأمر فتقدم الجلاد ووضع الحبل فى عنق الأشرف وجذبه فانقطع الحبل وسقط الأشرف فضج الناس وصاحوا وولولوا فرفعوه ثانياً فانقطع الحبل فاشتد صياح الناس وعلت أصواتهم بالبكاء ففارقته روحه فبكاه الناس بكاءً مرّاً وكان عند ذلك مكشوف الرأس وعليه ثياب من الجوخ الأحمر وفوقها ملوطة وفى رجليه سراويل من جوخ أزرق ثم تركوا جثته معلقة ثلاثة أيام حتى فسدت وأنتنت فأنزلوها وساروا بها إلى مدرسة عمه السلطان الغورى فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه فى الحوش الذى خلف المدرسة. رحمة الله برحمته الواسعة.

قال أهل التاريخ: وقد كان شاباً حسن الوجه لا يتجاوز الرابعة والأربعين من العمر بطلاً مقداماً حازماً تولى النيابة فى القبة لما خرج عمه السلطان الغورى إلى قتال السلطان سليم بحلب فأحسن التدبير وأمن السبيل ودفع المظالم وأبطل الإحداثات والبدع وكان محباً للرعية شفوقاً كثير البر والإحسان وقوراً. قال بعض كتاب الأخبار: ولما جهز لقتال السلطان سليم حبب إليه بعض الأمراء أن يجبى الأموال من الرزق والأقطاعات معجلاً لنفقة الحرب فقال: لا ولا أجعلها نقطة سوداء فى صحيفة أعمالى وكانت مدة سلطنته ثلاثة أشهر وأربعة عشر يوماً إذ كانت ولايته فى الرابع عشر من رمضان وهروبه فى التاسع والعشرين من ذى الحجة وهى كلها حروب وكروب وخطوب. روى أنه لما كثر ظلم مماليك الغورى وزاد عبثهم بأمور الرعية وكثر فسادهم فى الأرض أبغضهم الناس جداً وضجوا إلى الله يطلبون الخلاص، واتفق أن رجلاً من خيار الناس رأى جندياً من عسكر الغورى أخذ متاعاً من دلال ولم يرضه فى قيمته فتبعه الدلال يطالبه بحقه وهو ممتنع فقال الدلال بينى وبينك شرع الله فضربه الجندى بدبوس شج رأسه وسقط مغشياً عليه فرفع الرجل يديه إلى السماء وقال: إلهى أنت أعلم بما تفعل هذه الفئة فاحكم فأنت خير الحاكمين ثم نام فى تلك الليلة وهو حزين مما رأى فرأى فى منامه أن ملائكة نزلت من السماء وبأيديهم مكانس وهم يكنسون الشراكسة كنسا فاستيقظ مدهوشاً وإذا بقارئ يقرأ قوله تعالى: ﴿**فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين**﴾ فعلم الرجل أن الله يأخذهم أخذاً وبيلاً فلم يمض إلا القليل من الأيام حتى قدم السلطان سليم وبدّد شملهم وأباد سلطانهم ومزقهم أيدى سبأ فزالت بموت الأشرف طومان باى دولة الشراكسة المعروفة فى عرف أصحاب التاريخ بالدولة الثانية فكانت مدة تصرفهم مائة سنة وإحدى وعشرين سنة وجملة سلاطينهم اثنان وعشرون سلطانا أولهم برقوق وآخرهم الأشرف طومان باى.

ولما دانت الأمور للسلطان سليم بموت الأشرف أخذ يرتب أمور البلاد على ما يشاء فجعل إدارة البلاد ثلاث طبقات وجعل فى كل طبقة منها رئيساً وجميعهم طوع أمر وزير الديوان الكبير ورتب هذا الديوان من والوالى المنتدب من قبل السلطنة على البلاد ومن بكوات سبع وجاقات عسكرية وخص الوالى المذكور بتبليغ الأوامر السلطانية إلى الديوان وحماية البلاد وتوصيل الخراج إلى الخزينة السلطانية وفصل الخصومات بين أرباب الديوان وبعضهم وإيقاف كل عند حده وخص أرباب الديوان

بنقض أوامر الوالى عند الحاجة وخلعه من المنصب عند الضرورة والتصديق على مايصدر منه من المراسيم الديوانية المتعلقة بأمور البلاد وقسم البلاد القبلية والبحرية إلى أربع وعشرين مديرية وولى جماعة من المماليك عليها فكان عليهم جمع الخراج وجباية الأموال ورد العربان عند خروجهم عن الطاعة وقيد هؤلاء الحكام ولم يطلق لهم العمل إلا بمشورة أرباب الديوان العالى ولقب أحدهم المقيم بالقاهرة بشيخ البلد، ثم قسم الخراج الذى يتحصل فى كل سنة إلى ثلاثة أقسام، الأول لمرتبات الجند من المشاة والفرسان والثانى لحاجات الحرمين والثالث للخزينة السلطانية وأقام من المرابطين لحراسة البلاد عشرين ألفا من المشاة واثنى عشر ألفا من الفرسان وجعل مقدمهم خير الدين أغا الانكشارى ورسم له بملازمة قلعة الجبل وعدم البراح منها. قال بعض كتاب الأخبار: ولم يلتفت إلى تحسين أحوال الرعية ولا نظر فى رفع تلك المضار السائدة على أهل البلاد ولا خفف عنهم شيئاً مما أتت به الحروب المتوالية والخطوب المتراكمة فكان هذا كله أكبر الأسباب التى آلت بهذا النظام إلى الزوال وبشوكة السلطنة العثمانية إلى الضعف والذبول على توالى الأيام. ثم انتقل بخيامه من الجزيرة الوسطى إلى الروضة وابتنى له كشكاً فوق قاعات المقياس وهو مشرف على النيل والروضة والمقياس فكان يجلس فيه محتجباً إلا عن بعض خواصه وكبار دولته ثم نزل من ذلك الكشك وسكن فى دار الأشرف طومان باى التى خلف حمام العراقى المطل على بركة الفيل وكان سبب ذلك أن بعض الانكشارية تآمروا على قتله فأحس بذلك ونزل من الروضة وسكن فى الدار المذكورة وأمر فقبضوا عليهم وكانوا كثيرين وأعملوا فيهم القتل والتفريق والشنق على أبواب القاهرة كباب زويلة وباب النصر وباب الفتوح حتى أفناهم.

وجاءت الأخبار إلى السلطان سليم بتأهب ملك فارس لقتاله ورد ما أخذ من أملاكه فأهمه هذا الامر جداً وأخذ يتأهب للخروج من مصر إلى الشام فعرض جميع الخزائن وحواصل الحكومة وأخرج ما فيها من سلاح ومتاع وكراع وغير ذلك ونقل جميع التحف والنفائس التى بالديوان الكبير بقلعة الجبل وكذلك التى كانت فى قاعة البيسارية والدهيشة وغيرهما وجمع جميع الكتب التى كانت فى خزائن المدارس على اختلافها وخاف أن يترك أمير المؤمنين المتوكل على الله فى منصب الخلافة فتطمع نفسه فى السلطنة فقبض عليه ليحمله معه إلى القسطنطينية وقيل بل أمره بالشخوص إليها فخرج يوم الثلاثاء عاشر جمادى الأولى وخرج معه ابنا عمه خليل

وهما أبو بكر وأحمد وخرج معه أيضا الناصرى محمد العلائى على بن خاص بيك صهر الخليفة وكذلك الشرفى يونس ابن الأتابكى سودون، وقبل خروج الخليفة نزع السلطان سليم منه الخلافة قهراً ولبس شعارها فى محفل حافل فخرجت فى هذا اليوم الخلافة من بني العباس إلى آل عثمان وزالت عنهم كما زال الملك من ديار مصر بزوال دولة الغورى فسبحان من بيده تصاريف الأمور وهو المعز المذل يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء إنه على كل شيء قدير.

وتأهب السلطان للرحيل عن مصر فسير أمامه إلى القسطنطينية من أولاد الملوك والسلاطين الذين كانوا بديار مصر وكبار الأمراء والقضاة ونواب القضاة والشهود والعدول والمباشرين والكتاب من القبطة وهم المعلم بانوب كاتب الخزينة السلطانية والمعلم يوحنا الصغير والمعلم أبو المكارم وغيرهم وكثير من الأعيان وكبار التجار وأرباب الصنائع من مثل المهندسين والبنائين والنجارين والحدادين والمرخمين وصغار الفعلة فساروا بهم فى يوم الجمعة سابع عشر رجب الفرد إلى الإسكندرية ثم إلى القسطنطينية وأنزلوا معهم شيئاً كثيراً من الرخام والعمد مما أنزلوه من قلعة الجبل والقاعات الكبرى وأخذوه من بيوت الأمراء والأعيان من القاهرة ومصر القديمة وكانت شيئاً كثيراً.

قال بعض كتاب الأخبار : كان عدد من خرج من الأمراء وأولاد الملوك والقضاة وغيرهم زهاء ألف وثمانمائة وقيل بل أكثر من ذلك جداً فكانت شدة عظيمة للغاية.

(مطلب)

خروج السلطان سليم من مصر إلى مقر سلطنته بالقسطنطينية

ولما كان يوم الخميس ثالث عشرى شعبان سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة خرج السلطان سليم يريد الرحيل إلى القسطنطينية فسار من بيت الأشرف ومر من الصليبة إلى الرميلة وهو فى موكب وجلالة وأمامه العساكر والأجناد من المشاة والفرسان وطوائف الأمراء وكبار الجند وعدة جنائب حربية والأمير خير بيك نائب مصر وجان بردى الغزالى وكان السلطان راكباً على بغلة قيل إنها كانت للسلطان الغورى كان يركبها فى الأسفار وحوله جماعة الوزراء وبينهم يونس باشا والدفتردار فسار بموكبه على السور ومر بتربة الأشرف قايت باى ووقف أمام القبر لحظة لطيفة ثم مرّ من بين

المقابر إلى تربة العادل التى بالفضاء واستمر على ذلك حتى نزل بالمخيم الذى نصبوه له ببركة الحج ولم تعلم العامة بخروجه فى ذلك اليوم فلم تقف للقائه والدعاء إليه كعاداتهم فى مثل هذه المواكب، ثم سار من بركة الحج إلى الخانقاه السرياقوسية. قال بعض كتاب الأخبار : ولما وضع رجله بالركاب يريد المسير تقدم إليه خير بيك بمفاتيح البلد فردها عليه وقا له : وليتك إياها إلى أن تموت بها فشاوره على أن أبناء الشراكسة يريدون الدخول فى خدمة الأجناد فأجابه إلى ذلك فشاوره أيضاً فى إبقاء أوقاف الشراكسة وهى نحو عشرة قراريط من أرض مصر فأجابه بإبقائها على ما كانت عليه فاستاء وزيره وقال فنى مالنا وعسكرنا ونسلمهم بلادهم وندخلهم فى عسكرنا ونبقى أوقافهم يستعينون بها علينا. قال فغضب السلطان وقال أين الجلاد فضرب عنق الوزير ووضع رجل الثانية فى الركاب وسار. قلت: ويقال إن لقتل الوزير المذكور سببا آخر، ولما نزل السلطان الخانقاه لاطفوه وسألوه عن سبب قتل الوزير فقال عاهدناهم على أنهم إن ملكونا بلادهم أبقيناها لهم وجعلناهم عليها فهل يجمل بنا أن نخون العهد؟ وإذا أدخلنا أبناءهم فى جندنا فهم مسلمون أولاد مسلمين وأما أرضهم فأصلها ملك الفاتحين ومنهم من أوقف ومنهم من قامت ذريته من بعده فهل يجوز لنا أن ننازع الملاك فى أملاكهم وإنما أزلت الوزير كراهة أن يغير علىّ اعتقادى بتكرار كلامه.

وسار من الخانقاه يريد بلبيس فلما صار على مقربة منها أصابه مرض حال بينه وبين ركوب دابته فأرسل إلى الأمير خير بك يطلب منه أن يعجل بإرسال محفة فأرسلها إليه فركبها وسار إلى الشام لقتال ملك الفرس فأقام هناك أشهراً وقد اشتدت به علته فسار إلى القسطنطينية فكانت مدة إقامته بمصر ثمانية أشهر إلا أياماً وكان من يوم قتاله للسلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى فى مرج دابق إلى قيامه من القاهرة سنة واحدة وشهر واحد وقد تملك فى هذه المدة من الفرات إلى مصر والعراقين وما حولهما. قال بعض كتاب الأخبار: وكان دخول السلطان سليم بجيوشه إلى مصر من أكبر الضربات على البلاد وأهلها فقد هلك بسببه العدد العديد من الرجال والنساء والأطفال حتى الدواب وتخرب الكثير من المساكن والشوارع والحارات وكسدت التجارة وتعطلت الصناعة حتى بطل منها خمسون صنعة من أعظم الصنائع وأشرفها وزالت منها الخلافة كما زالت السلطنة وأصبحت أيالة تابعة لدار السلطنة العثمانية.

ولما ارتحل السلطان بعسكره إلى القسطنطينية اشتد به المرض وظهرت فى ظهره قرحة عظيمة عجز الأطباء عن علاجها فكانت توضع الدجاجة فى قرحته هذه فتذوب وشوهدت معاليق أكباده من خلف ومازال يشتد به المرض حتى مات سنة ست وعشرين وتسعمائة فكانت مدة سلطنته تسع سنين فتولى الملك بعده ولده السلطان سليمان.

* * *

(الفصل الثانى)

(فى سلطنة السلطان سليمان ابن السلطان سليم)

ثم قام بالأمر بعده ولده السلطان سليمان بويع له بالملك يوم موت أبيه سنة ست وعشرين وتسعمائة هجرية أى سنة تسع عشرة وخمسمائة وألف ميلادية وعمره يومئذ ست وعشرون سنة فكان عاشر ملوك آل عثمان وكان يوم مات أبوه مقيماً بإقليم سارخان فأخفى الوزراء خبر موت السلطان سليم حتى يحضر خوفاً من قيام الانكشارية وإضرام نار الفتنة فلما جاءه الخبر بموت أبيه سار إلى القسطنطينية فدخلها فى سادس عشر شوال وكانت طوائف الانكشارية فى انتظار قدومه فلما رأوه صاحوا بأصوات التهليل وطالبوه بالعطايا حسب العادة فطيب خواطرهم ووعدهم بالإحسان وفى غد ذلك اليوم أغدق عليهم من إنعامه وطير الخبر بخلافته إلى الآفاق وراسل جميع العمال والولاة وأمراء مكة والمدينة فى أمر الحكم بين الناس بالعدل فكان يستهل رسائله بآية: ﴿**إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم**﴾.

وعلم السلطان سليمان بما كان من إخلاص خير بك فى خدمة أبيه السلطان سليم فأعجبه ذلك ونظر إلى مصر نظرة الراغب فى فلاحها فأخذ فى تقرير أمورها على أحسن القواعد ورتب فيها ديوانين ينظران فى مصالح الرعية ويفصلان فى الخصومات فكان إذا انعقد هذان الديوانان جلس الوالى خلف ستار المنبر ليسمع ما تدور عليه رحى الحديث بعد أن يرسم الكتخدا والدفتردار بذلك فإذا تمت مباحثات المجلس رفع الكتخدا والدفتردار ما استقر عليه الرأى إلى الوالى فيرسم بتنفيذه وبلا نقض ولا إبرام فيقضيه الكتخدا من الدفتردار. ويختص الديوان الكبير من هذين الديوانين برؤية أهم الأمور التى لا علاقة لها بدار السلطنة العثمانية فكان لذلك

يتألف من أغوات الوجاقات الست والدفترداريين والرزنامجيين والنواب فى جميع وجاقات العساكر وأمير الحاج وقاضى القضاة والمشايخ والعلماء والأشراف وأصحاب الفتوى الأربعة والأئمة الأربعة، وكان لا يجتمع إلا فى المهمات من الأمور ولا يصح اجتماعة إلا بناء على طلب الوالى وكانت تأتى إليه المراسيم السلطانية على يد الوالى. وأما الديوان الثانى نكان ينعقد كل يوم فى بيت الوالى من الكتخدا والدفتردار والأغا وكبار وجاق المتفرقة ونائب من كل وجاق فينظر فى الأعمال وما تحتاج إليه البلاد من الأمور النافعة. ورسم السلطان بأن يكون مقر الوالى بقلعة الجبل وأن لاتزيد ولايته عن سنة واحدة ثم تعطى لغيره ممن يقع الاختيار عليه ورسم أيضاً بإبطال بعض المكوس والمغارم وأزال بعض العوائد والرسوم وهيأ الحصون ومهد المسالك وزاد فى نظام الجند فأنشأ وجاقاً سابعاً ممن بقى من المماليك الشراكسة ورتب لكل وجاق ديواناً ينظر فى شئونه ويتألف هذا الديوان من كبار الوجاق وأفراد من ضباطه وكان لكل منهم لباس مخصوص وعلامة مخصوصة تدل على مرتبته ووظيفته وكان عدد جند هذه الوجاقات كلها عشرين ألفا وربما زادوا أو نقصوا وكان لوجاق الانكشارية الأفضلية على سائر الوجاقات وكبير مقدم على جميع كبارهم وله الكلمة النافذة عليهم فى كل حال وهم يبجلونه ولا يخالفون له أمراً.

(مطلب)

تقرير الأمير خير بك على عمالة مصر وما جرى له

ولما أتم نظام الأمور على ما أراد أقر خير بك على عمالة البلاد وأجاز له التصرف فى الأمور بما فيه المصلحة وأن يعدل فى الرعية ولا يحدث شيئاً من المغارم والمكوس فجعل خير بك يتصرف تصرف الملوك والسلاطين وبدت من دلائل الجفاء والشدة. قال بعض كتاب الأخبار: ثم لم يلبث أن طغى وظلم وأخذ الناس بالشبهات وأساء إلى طوائف الجند فأبغضوه وتربصوا به الشر فلما أحس منهم بذلك أخذ فى تدبير الحيلة وجمع إليه من بقى من طوائف المماليك الشراكسة وقربهم إليه وأدنى كبارهم منه وأباح لهم ركوب الخيل وحمل السلاح وقد كان ذلك محرماً عليهم منذ دخول السلطان سليم القاهرة بعسكره ورسم فنادوا بذلك فى القاهرة ومصر القديمة وسوق السلاح وقلعة الجبل فشق هذا الأمر على طوائف الجند وأحسوا بما وراء ذلك من الخيبة إن هم ظلوا متقاعسين فقاموا قومة رجل واحد

وسيروا طائفة منهم فوقفوا لخير بك فى حوش الديوان وكلموه فى ذلك وأغلظوا عليه فى القول ومنعوه من الدخول إلى بيته وسبوه وهمّ بعضهم بقتله فأفلت منهم وانزوى فى بيته فعاثوا فى قلعة الجبل وأزعجوا من فيها وتطاولت أيديهم إلى النهب وثاروا على خير الدين نائب القلعة وهموا بقتله فأغلق دونهم الأبواب واختفى منهم فى ذلك اليوم فنزلوا إلى المدينة وتفرقوا وهم حاقدون على خير بك ناقمون عليه واشتدوا على الرعية فصاروا يشوشون على جميع الخلق بلا فرق ولا تمييز حتى على السوقة والباعة وكانوا يأخذون ما فى البيوت من الأبواب والشبابيك وخشب الأسقف للوقود وكان إذا احتاج أحدهم إلى وقود للحريق ذهب إلى أقرب البيوت لبيته وأخذ منه ما يحتاجه ليوم أو ليومه وغده على مرأى من صاحب البيت حتى أخذوا جميع ما فى الأماكن التى فى زقاق الكحل والسطاحى والتى فى الجسر وحكر الشامى والأزبكية من الأخشاب وكانوا يبيعون ما فضل منهم بأبخس الأثمان. قال بعض كتاب الأخبار: فضج الناس وعجوا واجتمع أصحاب البيوت وتبعهم العامة وساروا إلى بيت قاضى القضاة العثمانى وشكوا إليه من فعال أولئك الجند وصاحوا واستغاثوا وقالوا: ما يحل ذلك يامولانا فشق الأمر على القاضى وركب من ساعته وسار إلى بيت الأمير قايتباى الدويدار وأخذه وسار إلى خير بك بمقره وأعلماه بالخبر وأغلظ القاضى فى القول وهدد خير بك إن لم ينشط إلى العمل فجمع خير بك كبار الجند واختيارية الوجاقات وكلمهم فى ذلك فطيبوا خاطره وهوّنوا عليه الأمر وطلبوا منه أن يمنع فتح الحوانيت ليلاً فأمر فنادوا بذلك فكانت السوقة تقفل الحوانيت قبل غروب الشمس.

واتفق فى هذه الأثناء أن جاء رسول من دار السلطنة فى طلب بعض الأمراء المصريين وعدد من العساكر الشاهانية يعنى الانكشارية والأصبهانية نجدة ففرح خير بك بذلك ونادى فى العسكر بالتأهب للرحيل فغضبوا وظنوها خدعة من خير بك وأبوا الرحيل وزادوا فى الإفساد والإضرار بخلق الله فكانوا كلما أكثروا فيهم المناداة زادوا تمرداً وطغياناً ثم خرج منهم جماعة إلى الشرقية وآخرون إلى الغربية فعاثوا وأفسدوا وأحرقوا الحرث والنسل وانضم منهم جماعة أيضاً إلى بعض العربان وقطعوا السبل على المارة واختفى منهم جماعة بالقاهرة ومصر القديمة فشدد خير بك فى التفتيش عليهم وقبض على جماعة منهم وسجنهم فى قلعة الجبل ورسم لرسول دار السلطنة بالتأهب للسفر معهم بلا إبطاء فلما كانت الليلة التى قبضوا فى نهارها

عليهم اجتمع جميع الذين كانوا فى القلعة منهم بالحوش وكسروا باب القلعة ونزلوا منها ليلاً إلى مصر القديمة وركبوا بعض السفن التى وجدوها هناك وساروا إلى الصعيد متفرقين فخشى خير بك شر العاقبة ورسم للأمير قايتباى الدويدار بالخروج خلفهم بخيله ورجله وأن يقتل كل من لقيه منهم فى الطريق بغير معاودة فقام قايتباى ومعه الأمير جانم الحمزاوى والأمير على العثمانى وعبروا النيل إلى الجيزة فلبثوا بها يومهم حتى تكامل خروج عسكرهم ثم ساروا إلى ناحية الميمون بالقرب من جزيرة عدى فالتقوا هناك مع الانكشارية فقاتلوهم قتالاً عنيفاً وانتصر الأمير قايتباى عليهم نصرة عظيمة وحرق مراكبهم وقتل منهم خلقاً كثيراً بالمكاحل والبنادق وقبضوا على من بقى منهم وحزوا رؤوس كبارهم وأصحاب الكلمة فيهم وعادوا إلى القاهرة ففرح خير بك بذلك ورسم لوالى القاهرة برفع تلك الرؤوس على أبواب المدينة فلم يمكنه كبار الانكشارية من ذلك وكادت الفتنة تقوم بالقاهرة، وخاف من بقى من الانكشارية والأصبهانية وانكمشوا وأطاعوا وخرج منهم طائفة كبيرة مع رسول دار السلطنة إلى الريدانية ثم رحلوا عنها بعد أيام إلى الشام مع بعض الأمراء المصريين الذين جاءهم الطلب فكانت هذه الوقعة أول فتن الانكشارية بعد أن تسلموا حراسة البلاد والذب عنها، ولما ظهرت الفتنة على النحو المذكور ضعفت شوكة خير بك وكادت هيبته تزول وطمع العربان فى البلاد وخرج حسن بن مرعى شيخ عربان البحيرة فى طائفة كبيرة من قومه وانضم إلى جماعة من عربان الشرقية وغيرهم وعاثوا فى بلاد البحيرة وأفسدوا ونهبوا وقتلوا وسلبوا وقطعوا السبل على المارة وسار بهم ابن مرعى المذكور يريد القاهرة ووردت الأخبار بذلك إلى خير بك فاضطرب ونزل من قلعة الجبل إلى الميدان وعرض جميع المماليك الشراكسة والعساكر العثمانية واختار منهم جماعة وسيرهم مع الأمير قايتباى الدويدار والأمير خورشد كبير العثمانيين وكانت الأمور قد ضاقت جداً على أهالى الشرقية والغربية واتسع نطاق الفتنة واستفحل أمر الفساد وفعل أولئك الناس بالقرى ما لا يطاق من الجور وظهر عبد الدائم بن بقر وإخوته وهو من زعماء عربان الشرقية فعاث أيضاً وأفسد وخرب بلاداً كثيرة من الشرقية والغربية وعمت الفتنة البر والبحر فكبر خوف الأمير خير بك وشدد على قايتباى الدويدار وخورشد بالقيام إلى البحيرة أولا وقطع شأفة ابن مرعى وأصحابه فحثوا السير فلما أحس ابن مرعى بقدومهم وعلم أن لا قبل له على قتالهم أرسل أخاه شكرا إلى الأمير خير بك يطلب له الأمان فكتب إليه خير بك يؤمنه

وبعث إليه صورة يمين ليحلفه على يدى القاضى فخر الدين بن عوض وأرسل إليه كذلك قفطان حرير مخمل وخلع على أخيه شكر خلعة أخرى وكتب إلى الأمير قايتباى أن يتربص بعساكره فتربصوا فى المكان الذى أدركهم فيه الخبر وجاء حسن بن مرعى صحبة القاضى فخر الدين بن عوض وصعد إلى قلعة الجبل فأكرم خير بك لقاءه وخلع عليه خلعة سنية ثم أنزله فى موكب حافل وعادت الأمور فى البحيرة والغربية إلى سابق مجراها واطمأنت قلوب الرعية وتحول قايتباى بمن معه من العساكر نحو الشرقية فلما علم بقدومه عبد الدائم بن بقر زعيم العصاة بها أرسل إلى خير بك يطلب الأمان فأجاب إلى ذلك وأرسل يستقدمه فحضر إلى القاهرة ومعه جماعة من العربان وحضر معه أبوه أحمد بن بقر فلما مثل بين يدى خير بك أكرم لقاءه ولقاء أبيه وهمّ أن يخلع عليهما ويقرر عبد الدائم المذكور على شياخة عربان الشرقية فقال أبوه: إن أنت فعلت ذلك أيها الأمير جلبت على أهل الشرقية وبالاً ومكنت ولدى هذا من رقاب الأبرياء وزدت نار الفتنة إضراماً فعجب خير بك بكلامه وأمر فى الحال فقبضوا على عبد الدائم وكبلوه بالحديد وقبضوا على جميع من جاءوا معه من أصحابه وسلموهم إلى خير الدين بك نائب القلعة ففرح الناس بذلك فرحاً لا يوصف لاسيما أهل الشرقية والغربية واطمأنت قلوب الخلق وزالت عنهم المخاوف ثم بعد أيام قلائل أخرجوا من أولئك العربان عدة أشخاص وأماتوهم شنقاً بعضهم على قنطرة الحاجب وبعضهم على رأس الحسينية وبعضهم عند باب النصر وقتلوا آخرين بغير ذلك أيضاً. وأما حسن بن مرعى شيخ عربان الغربية فإنه بعد أن خلع عليه خلعة الرضا وأعاده إلى الغربية معززاً لم يلبث بها إلا قليلاً حتى دس خير بك إلى إينال السيفى طراباى كاشف الغربية بأن يقتله مع أخيه شكر فأخذا إينال المذكور يكاتب ابن مرعى ويتودد إليه ويظهر له غاية الإخلاص والمودة حتى أمن جانبه ومال إليه ثم أدب له مأدبة عظيمة فى بلدة قريبة من دمنهور ودعاه إليها مع أخيه شكر فأجابا دعوته وأتيا إليه فأحسن لقاءهما وبالغ فى الترحيب بهما حتى حضر الطعام فأكلوا جميعاً ثم انتقلوا إلى مجلس الشراب فشربوا فبينما هم كذلك إذ خرج على حسن وأخيه جماعة من المماليك الشراكسة من مكان كانوا مختفين به وعاجلوهما بضرب السيوف واحتزوا رأسيهما فأرسل بهما إينال الكاشف إلى خير بك ففرح ورسم لوالى القاهرة برفعهما على باب النصر فرفعهما وتزاحم الناس لمشاهدتهما . قال بعض كتاب الأخبار : وحسن بن مرعى هذا هو الذى غدر

بالسلطان الملك الأشرف طومان باى وقبض عليه وسلمه إلى السلطان سليم واتفق إنه لما سار حسن المذكور إلى مأدبة الكاشف إينال السيفى كان راكباً على فرس السلطان الملك الأشرف التى كان أخذها يوم سلمه الى جند السلطان سليم بعد أن أقسم أنه لا يخونه ولا يدس عليه فلما احتز المماليك رأسه ورأس أخيه شكر ربطوهما فى عنق ذلك الفرس ودخلوا بهما القاهرة على هذه الصورة فعد ذلك من النوادر العجيبة فى بابها.

وفرح خير بك بموت ابن مرعى وعده من أكبر أسباب الظفر وبث العيون والأرصاد حول جماعة العربان فى البحيرة والغربية والشرقية وشدد فى ذلك فانكمشوا وخافوا وتمكن كاشف المنوفية من قتل شيخ العرب على الأسمر بن أبى الشوارب فاختفى من بقى من كبار العربان وأصحاب الكلمة فيهم وسلكت بعض الطرق التى قطعها العربان واطمأنت قلوب الناس ولكن لم تطل هذه الأيام حتى عاد عربان السوالم إلى الخروج بالشرقية وكاد يستفحل أمرهم وعاد الناس إلى التخوف فأعمل إياس كاشف الشرقية الحيلة للقبض على مشايخهم ومازال يتقرب منهم ويتودد إليهم حتى استدعاهم إلى مأدبة أعدها لهم فركنوا إليه واطمأنت من قبله قلوبهم وأتوا إليه فأكرهم لقاءهم وأحسن وفادتهم ولم يقضوا معه يومهم حتى قبض عليهم وقتلهم وسلخ جلودهم وحشاها بالتبن وأرسل يعلم الأمير خير بك بالخبر فسير إليه خير بك طائفة من الانكشارية والأصبهانية والجراكسة فأحاطوا بمنازل عربان السوالم وقتلوا من وجدوه بها من الشيوخ والنساء والأطفال وغنموا ما فيها من الخيل والإبل والأغنام والإماء والعبيد والملبوس والمفروش وقبضوا على الشيخ نجم شيخ عربان العائد لاتهامه بإمداد عرب السوالم وأتوا برؤوس من قتلوا مع جلود المشايخ إلى القاهرة فتفرق من بقى وطلع جماعة إلى الجبال. ونزل جماعة إلى الصالحية فأحرقوها وأحرقوا ما جاورها من القرى والكفور وقتلوا ونهبوا أخذاً بالثأر واشتدت الفتنة وعمت جميع أنحاء الشرقية فولى خير بك أخا نجم شيخ عربان العائد شيخاً بدل أخيه نجم وجهز لقتال السوالم طائفة من الانكشارية والأصبهانية وأخرى من المماليك الشراكسة وطائفة من الرماة بالبنادق وبعض المكاحل وكان لما قبضوا على نجم شيخ عربان العائد قام أيضاً أصحابه وعاثوا فى بلاد الشرقية وقطعوا الطرق على أبناء السبيل وانحدروا حتى أتوا على رأس المطرية فكانوا يقبضون على المارة ويسلبون ما يجدونه معهم فلما وصلت العساكر إلى الشرقية هرب من بقى من السوالم وأطاع

من كبارهم من لم يهرب وسلموا بأنفسهم إلى إياس كاشف الشرقية فنزل بهم إلى القاهرة ودخل بهم على الأمير خير بك فأكرم لقاءهم وخلع عليهم خلع الرضا وأقرهم على المشيخة بشرط الطاعة وحسن الولاء والإخلاص فى خدمة الدولة فأطاعوا.

(مطلب)

خروج الغزالي والي الشام عن طاعة السلطان وعزمه على الزحف على مصر وضمها إلى الشام

ورسم خير بك بشنق شيخ العرب أبو الشوارب فشنق ومعه آخرون من كبار العربان ثم عاد فعفا عن نجم شيخ العائد وأفرج عنه وولاه المشيخة ثانية وأطلق آخرين من كبار السوالم وكان الحامل له على ذلك ما ورد إليه من الأخبار بخروج جان بردى الغزالى والى الشام عن طاعة السلطان واستقلاله بملك الشام واتخاذه لنفسه شعار السلطنة، وأنه قد خضع له جميع الولاة والعمال وقبلوا الأرض بين يديه وزينت له جميع المدن والبلدان أياماً ثلاثة فلقب نفسه بالملك الأشرف أبى الفتوح وكتب إلى جميع الولاة يستحثهم على تجنيد الجند وإعداد آلات الحرب لقتال خير بك بمصر وأخذ البلاد منه وضمها إلى الشام كما كانت على عهد من سلف من الملوك والسلاطين. وكان الحامل له على قتال خير بك أنه لما هم بالخروج وشق عصا طاعة السلطان راسل خير بك فى ذلك وحبب إليه الخروج وألح عليه فى الطلب وهون عليه الأمر، فخدعه خير بك وسير كتب الغزالى إلى السلطان وعلم الغزالى بخبر ذلك فأكبره وأعظمه جداً وتجرد لقتال خير بك فخاف خير بك من هذه الأخبار وخشى سوء العاقبة فأطلق لذلك من أطلقهم من مشايخ وكبار العربان الذين كانوا فى السجون وعاهدهم وأمدهم بالأسلحة والكراع ورسم لهم بقتال جان بردى الغزالى فى طريقه قبل أن يصل إلى الديار المصرية فخرج منهم جماعة وساروا إلى الشام لمنع الغزالى ولمومه وكان الغزالى قد جمع إليه جموعاً كثيرة من الأكراد وعربان جبل حوران ونابلس وعربان بنى عطا وبنى عطية وغيرهم من طوائف العربان وخرج من دمشق فى جيش عظيم للغاية وجموع كثيرة جداً يريد الديار المصرية فاهتم الأمير خير بك لذلك وعرض العساكر والأجناد وجمع طوائف الانكشارية والأصبهانية والكمالية المماليك الشراكسة وغيرهم ممن شاء الدخول فى خدمة الدولة وجماعة

كثيرة من المغاربة والروم أصحاب الحرف والصنائع وأكثر من جمع السلاح وإنشاء المركبات والعجلات لجر المكاحل ونادى فى هذه الجموع والأجناد بالتأهب والاستعداد.

(مطلب)

قتل الغزالي وإرسال رأسه إلى دار السلطنة

وبينما كان خير بك يجند الجنود ويكثر من جمع السلاح كانت رسل الغزالى تأتى إلى مصر بالرسائل إلى بعض الأمراء من الروم وبعض التجار والجواسيس تنقل من أخبار خير بك إلى الغزالى كل ما وصلوا إلى معرفته فأحس خير بك بذلك وشدد ومنع من دخول الأغراب إلى القاهرة إلا بعد البحث والتنقيب عن أحوالهم وقبض على بعض الروم من تجار خان الخليلى وأمر بقتلهم فقتلوا تحت قلعة الجبل بتهمة نقل الأخبار وكان من أمره أنه إذا نقل إليه أن أحد الناس مهما كانت درجته ذكر الغزالى فى مجلس أو تكلم عن زحفه على ديار مصر أو عن استقلاله بملك الشام أمر بصلبه على أحد أبواب القاهرة ثم أمر بإلقاء جثته للكلاب فتنهشها فخاف الناس جداً وانكمشوا وقل خروجهم إلى الأسواق وجلوسهم على الحوانيت، وجاءت الأخبار بوصول طلائع لموم الغزالى إلى اقطيا فجرد خير بك لقتالهم طائفة من الأصبهانية وأخرى من الكمالية فساروا من الريدانية إلى بلبيس ومنها إلى الصالحية فأفسدوا فى طريقهم وعاثوا ونهبوا الكثير من الضياع وعلى الخصوص ما كان منها حول بلبيس والصالحية وأخذوا ما فيها من الشعير والسمن والطيور وأذاقوا أهل البلاد مرارة الجور وانقطع الوارد من الديار الشامية وسدت المسالك فى وجوه أصحاب التجارة فانكفوا وانقطعت العلائق مع أهل الشام وكتب خير بك بتحرير الخبر إلى دار السلطنة فاهتمّ السلطان بأمر الغزالى وجند لقتاله الجنود وسيرها على قدم السرعة ومقدمها الوزير فرحات باشا فلاقته العساكر السلطانية عند حلب الشهباء وكان الغزالى محاصراً لها فقاتلته قتالاً عنيفاً أياماً كثيرة ثم انتصرت عليه ومزقت شمل جنوده ففر وسار يريد الشام وقد كسر جسر الرستين فتبعته العساكر السلطانية وقاتلته خارج دمشق قتالاً شديداً أياماً مات فيه خلق كثير قيل عشرة آلاف وقيل أكثر من ذلك وضيق عليه العساكر السلطانية وسدّوا عليه المسالك حتى قبضوا عليه وقتلوه ذبحا كذبح الشاة وأخذوا رأسه مع رؤوس كثير من كبار قومه وأرسلوها إلى دار

السلطنة. قال بعض الكتاب: وكان الغزالى هذا من مماليك الأشرف قايتباى اشتراه وأعتقه وأخرج له خيلا وقماشاً وصار من جملة المماليك السلطانية ثم استخدمه الأمير تغرى بردى الأستادار شادا على ضيعة له بالشرقية يقال لها منية غزال فنسب إليها وقيل له جان بردى الغزالى مضافاً لاسم تلك الضيعة ثم إن الأشرف قايتباى قرره جمداراً وجعله فى كشف الشرقية ثم صار أمير عشرة فى آخر دولة الناصر محمد بن قايتباى ثم تولى محتسباً للقاهرة فى دولة السلطان الغورى ثم ولاه فى حجوبية الحجاب بمدينة حلب فخرج إليها من يومه ثم نقله السلطان الملك الغورى إلى نيابة صفد وذلك سنة سبع عشرة وتسعمائة ثم إلى نيابة حماة فلبث بها حتى كان ما كان بين الغورى والسلطان سليم فانضم الغزالى بعسكره إلى جيوش السلطان سليم فولاه السلطان سليم الشام وجعل له التحدّث على الشام وحماة وحمص وصيدا وبيروت وبيت المقدس ورملة والكرك وغير ذلك من الأعمال الشامية فلما استقر به هذا المنصب تاقت نفسه إلى الاستقلال بملك الشام فصار يجند الجنود ويكثر من المعدات وآلات الحرب وضم إليه الكثير من عربان حوران ونابلس والكرك وغيرهم واستمال كثيراً من المماليك الجراكسة ممن كانوا فى خدمة الدولة فى مصر فساروا إليه ولحقوا بعسكره ولحق به أيضاً كثير من الأكراد والتركمان ومازال حتى بلغت جنوده اثنى عشر ألف مقاتل وبينهم كثير من الرماة بالبنادق فزحف بهم يريد فتح المدن والأمصار وألبس نفسه شعار السلطنة وتلقب بالملك الأشرف أبى الفتوح وضربت السكة باسمه وخطب له على المنابر فى دمشق وغيرها من المدن قيل خطب له بدمشق جمعتين، وكان طائشاً عديم الرأى غير بصير بعواقب الأمور كثير الأخذ بالشبهات كبير البطش وكانت مدة ولايته على نيابة الشام ثلاث سنين وسبعة أشهر إلا أياماً ولقد صدق من قال:

والنفس لا تنتهى عن نيل مرتبة ... حتى تروم الذى من دونه العطب

ولما جاءت الأخبار بزوال ملك الغزالى وسقوطه فى قبضة العساكر السلطانية وقتله فرح الأمير خير بك فرحاً عظيماً إذ لم يكن عنده من الجنود ومعدات القتال ما يقوى معه على مبارزة جموع الغزالى وجيوشه المنظمة لاسيما وقد كانت الفتنة ضارية بين كبار جند خير بك ورؤساء عسكره وكان كلما أخرج طائفة وسير بها لقتال الخوارج عاثت فى البلاد وأهلكت الحرث والنسل وفعلت ما لا تفعله جنود العدو إذا احتلت البلاد عنوة وكان يخاف جداً من طوائف المماليك الشراكسة حيث

تحقق له أن بعض كبارهم مالوا عنه وانضموا إلى دعوة الغزالى وأنهم يراقبون الفرص ويتأهبون للخروج عند أول سبب، وعادت المواصلات التجارية ما بين مصر والشام بعد موت الغزالى وجاءت قوافل التجارة بأصناف البضائع على اختلافها وزالت وحشة الناس وسكنت خواطرهم بعد الخوف وزاد اطمئنانهم بوصول الأخبار من دار السلطنة بأن السلطان سليمان أجاز لمن كان أحضرهم أبوه من الأمراء المصريين والقضاة ونواب القضاة والشهود والعدول والمعتبرين والتجار وأرباب الحرف والصنائع من المصريين يوم خروجه من مصر بعد فتحها أن يعودوا إلى أوطانهم فلم تكن إلا أيام بعد ذلك حتى حضر منهم من لم تخترمه المنية. قال بعض كتاب الأخبار: وقد ذاقوا الذل ألوانا وأصبح الأعيان والمباشرون منهم لا يملكون شروى نقير حيث نفدت أموالهم، وجاءت أيضاً خاتون سلطانة عمة السلطان سليمان ومعها ولدها الأمير مصطفى تريد الحج إلى بيت الله الحرام وكان حضورها فى كبكبة زائدة وخدم وحشم وكثير من الخصيان فقوبلت بغاية الاحتفاء والاحتفال وسار الأمير خير بك وجميع الأمراء وكبار المماليك فى ركابها حتى نزلت فى بيت مطل على بركة الفيل ورتبت لها ولخدمها المآكل والمشارب ووقف على بابها بعض الحجاب وزارها نساء الأمراء وقدمن لها التحف والهدايا النفيسة فلما خرج المحمل خرجت مرافقة له فى هودج وأمامه الخدم والحشم وبالغ أمير الحج فى تنظيم الركب وسير أمامه المركبات وعليها المكاحل والمدافع النحاس وأنفقت السلطانة فى الحرمين أموالاً عظيمة وشيئاً كثيراً من الأقمشة والغلال وتصدّقت على الفقراء ونزلاء التكايا وكثر فى هذا الحين إفساد الانكشارية والأصبهانية بأسباب عدم صرف جماكيهم وتأخير مرتباتهم فنزعوا إلى الثورة وتعرضوا لخير بك فى طريقه وتحت القلعة وخاطبوه ببذئ القول وفحش الكلام وأقسموا أنهم ينهبون المدينة إن هو أصر على إيقاف صرف جماكيهم ومرتباتهم ووقف جماعة منهم على أبواب الأمراء يهددونهم إن لم يكلموا خير بك فى ذلك فكلموه وحذروه شر العاقبة فصرف لهم بعض المال على قدر الحاجة واعتذر بقلة ذات اليد وعجز المباشرين عن جباية الأموال وتعذر البيع والشراء وكساد الحال وبوار الكثير من المزارع وتشرد أصحابها بسبب فعال العساكر وعبثهم بالبلاد ثم شدد على المباشرين وطالبهم بالمال فانبثوا فى البلاد وطلبوا قسط الخراج معجلاً قبل وفاء النيل وزرع الأراضى وضيقوا على أهل البلاد وبالغوا فى التشديد وقد كان متحصل خراج مصر فى هذه الدولة أى دولة السلطان سليمان على ما قاله بعض الكتاب ألف

ألف دينار وثلثمائة ألف دينار ذهباً ومن الغلال ستمائة ألف أردب منها ثلثمائة ألف قمحاً وثلثمائة ألف شعيراً وفولاً وغير ذلك فى كل سنة.

(مطلب)

كم كان خراج مصر في دولة السلطان سليمان وما بعده إلى هذا الحين

(**قلت**): وكان خراج مصر على عهد المقوقس عظيم القبطة على ما رواه تقى الدين فى خططه مائة ألف ألف دينار وثمانين ألف ألف دينار وكانت مساحة أرضها على عهد الفراعنة مائة ألف ألف فدان وثمانين ألف ألف فدان تزرع غير البور وبلغ خراج مصر على عهد عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى السرح فى صدر الإسلام اثنى عشر ألف ألف دينار وفى أيام أحمد بن طولون أربعة آلاف ألف ألف دينار وثلثمائة ألف دينار غير ما يتحصل من المكوس والغلال، وجبى خراجها فى الدولة الإخشيدية فكان ألفى ألف ألف دينار وجبى خراجها فى أيام الملك الظاهر بيبرس البندقدارى فكان اثنى عشر ألف ألف دينار (**قلت**): وهو اليوم عشرة آلاف ألف ألف وخمسمائة ألف وبضع مئات ذهباً أى جنيها، وكانت جوامك ومرتبات العساكر فى ذلك الحين درجات بعضها فوق بعض فكانت جمكية الأصبهانية منهم ستين ديناراً وخمسين وأربعين وثلاثين وعشرين فى كل شهر والانكشارية ما بين خمسة عشر واثنى عشر ديناراً فى كل شهر والصوباشية ثلاثين ديناراً فى كل شهر والكمالية ما بين اثنى عشر وعشرة دنانير فى كل شهر والمماليك الشراكسة سبعة دنانير فى كل شهر هذا عدا مرتبات الأمراء وكبار الجند وعظمائهم وكانت هذه الجوامك والمرتبات لا تصرف إلا من خراج الشرقية والغربية والبحيرة والأقاليم القبلية فقط دون الأموال الخارجة من الثغور كثغر الإسكندرية ودمياط ورشيد والبرلس وعبدة وغيرها فإنها كانت تحمل إلى خزائن السلطان مباشرة فلا يأخذ الوالى منها شيئاً حتى ولا للجهاد والغزو وكانت أيضاً بعض المغارم والمكوس تحمل كذلك إلى خزينة السلطان فلا يأخذ الوالى منها شيئاً وسرى ذلك إلى ما كان مقرراً على الرزق والاقطاعات والأرزاق الأحباسية والأوقاف وترك الأموات من طوائف الترك والمماليك الشراكسة، ثم تعدى ذلك أيضاً إلى ما كان مقرراً لنواب القضاة والشهود على عقود الأنكحة فقيدوا به قاضياً مخصوصاً اسمه القسام فضرب على عقد البكر ستين نصفاً والثيب ثلاثين نصفاً كانت تحمل إلى الخزينة السلطانية.

(مطلب)

إبطال السلطان سليمان لقضاة المذاهب الأربعة

ولما كانت سنة ثمان وعشرين وتسعمائة رسم السلطان سليمان بإبطال قضاة المذاهب الأربعة من التصرف في القضاء بديار مصر وتسليم جميع الأحكام الشرعية لقاض واحد من قضاة الروم وأن تبطل وظائف سائر النواب والشهود وأن لا يبقى سوى أربعة من النواب لكل مذهب نائب لاغير ولكل نائب منهم اثنان من الشهود لاغير وأنهم يكونون جميعاً بالمدرسة الصالحية فلا يصح بعد ذلك لأحد أن يوقف وقفاً أو يعقد عقداً أو يكتب وصية أو عتقاً أو إجارة أو حجة أو غير ذلك من الأمور الشرعية حتى تعرض على قاضى العسكر المذكور ونودى فى القاهرة ومصر القديمة بذلك فاضطربت أحوال الناس كافة وانكمش جميع القضاة والنواب والشهود وصاروا يتوقعون حضور قاضى العسكر المذكور فى كل يوم فلما كان يوم الاثنين عاشر رجب من السنة أى سنة ثمان وعشرين وتسعمائة قدم إلى القاهرة القاضى المذكور واسمه سيدى چلبى فأوكبوا له موكباً حافلاً وساروا به حتى أنزلوه فى بيت الأمير جانم مصيفة الكائن خلف المدرسة الغورية فلما استقر به المقام قدم عليه قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل وقاضى القضاة المالكى محيى الدين الدميرى وقاضى القضاة شهاب الدين الفتوحى الحنبلى وكان قاضى قضاة الحنفى مريضاً فى هذا الحين فلم يحضر. قال بعض كتاب الأخبار: فلما دخلوا عليه لم يجلهم ولم يقم لقدومهم وكان شيخاً مسناً أبيض اللحية طويل القامة على عينه سحابة فصيح اللسان يحسن العربية جيداً فكلمهم ساعة ثم انصرفوا فلما كان اليوم الثانى نزل الأمير خير بك من قلعة الجبل إلى الميدان وجلس بالمصطبة وجلس معه الأمراء العثمانيون والأمير قايتباى الداودار ثم حضر القاضى المشار إليه وبين يديه المرسوم السلطانى فقرئ المرسوم بحضرة من ذكروا وهو يتضمن تسليم زمام جميع الأحكام الشرعية فى المذاهب الأربعة إليه وأن يكون القائم على جميع الأمور الشرعية على اختلافها ثم كان منه بعد ذلك أن رتب جميع الأمور التى تتعلق بالأحكام والقضاة فأقام قاضياً للحنفية من الروم يحكم بالنيابة عنه وجعل مقره بالمدرسة الصالحية وأقام آخر للحكم على مذهب الإمام الشافعى بالنيابة عنه وأقام لكل قاض من الروم نائباً من قضاة مصر فجعل القاضى شهاب الدين بن شيرين الحنفى نائباً عن القاضى

صلاح الدين العثمانى وجعل القاضى شمس الدين محمد الحلبيى الشافعى نائباً عن القاضى فتح الله العثمانى وجعل القاضى أبا الفتح الوفائى أحد نواب المالكية يحكم بين الناس على قاعدة مذهبه والمرجع فى جميع الأحكام إلى قاضى العسكر المشار إليه ثم رسم بأن لا يبقى مع كل نائب من هؤلاء الأربعة سوى شاهدين اثنين وأبطل سائر النواب والشهود ورسم للرسل والوكلاء الذين بالمدرسة الصالحية بأنهم إذا وقفوا أمامة يأخذون بأيديهم العصى فاجتمع منهم بالمدرسة زهاء الستين.

(مطلب)

ما تقرر من الرسوم على التركات لبيت المال وما أحدث من الإحداثات

ثم أقام أيضاً شخصاً من الروم للتحدث على التركات سماه (القسام) فضرب على كل تركة الخمس لبيت المال مع وجود الورثة من الذكور والإناث وشدد فى طلب ذلك ونودى فى القاهرة ومصر القديمة بذلك وبأن لايعقد أحد من الشهود قاطبة عقداً ولا يكتب وصية ولا إجارة ولا مبايعة ولا شيئاً من الأمور الشرعية إلا فى المدرسة الصالحية وشدد فى السير على مقتضى الشريعة والعمل بموجب السنة وعامل الغنى والفقير والجليل والحقير على السواء فهابه الناس كافة وخافه الأمراء والكبراء حتى إذا كان لأحد من العامة فى ذمة أحدهم شيء بادر إلى إرضائه وتلطف فى معاملته خوفاً من الشكوى. ورسم فنادوا فى القاهرة ومصر القديمة بأن لا تخرج امرأة إلى الأسواق إلا العجائز منهن ومن خالفت تضرب وتربط من شعرها بذنب أكديش ويطاف بها فى القاهرة ومصر فخاف النساء خوفاً عظيماً وانكمشن ولم يخرجن. واتفق أنه صعد إلى قلعة الجبل يوماً فوجد بعض النسوة يتحدثن مع جماعة من العسكر الأصبهانية فى وسط السوق فعز عليه هذا الأمر وكلم الأمير خير بك فى ذلك فرسم الأمير خير بك بأن لا تخرج امرأة من بيتها ولا تركب على حمار مكارى وكل مكارى أركب امرأة شنق من يومه فخاف المكارية وبارت حرفتهم فباعوا حميرهم قاطبة واشتروا بدلها أكاديش وشدوها فصارت النساء يركبن عليها وتحتهن الطنافس والمكارى يقود لجام الأكديش كما يفعل المكارية بالقسطنطينية، ورسم القاضى أيضاً بمسح أطيان الأقاليم القبلية وترتيب سائر الرزق الأحباسية على قاعدة نظمها هو لذلك وقيد بهذا العمل القاضى فخر الدين ابن عوض فسار إلى

الصعيد ومعه جماعات المساحين والقياسين وطوائف الكتاب والمباشرين فجعل يدخل كل ما يجده من أطيان الرزق الأحباسية فى المساحة العمومية وحبس غلاتها ومنع أصحابها من أخذ شيء منها فاضطربت أحوال أصحابها ووقفوا إلى الأمير خير بك فى طريقه يشكون له مما يفعله القاضى فخر الدين بن عوض وأبرز إليه بعضهم مكاتيبهم بتلك الرزق وبعضهم أبرز مربعاتهم فأخذها منهم وصرفهم خائبين ورسم بإدخال رزقهم فى أطيان الذخيرة. قال بعض أهل التاريخ: ولم يكن ليتعرض لهذه الرزق قط أحد من سلاطين مصر ولا أخرج منها شيئاً عن أصحابها منذ أنشأها الإمام الليث بن سعد فإنه هو الذى دون الأحباس وأنشأ لها فى أيامه ديواناً يختص بها دون ديوان الجيش واستمر ذلك باقياً بعد الإمام الليث حتى قام القاضى فخر الدين بن عوض المذكور فنقضه وهو على جهات البر والإحسان.

قلت: ومن هذا الحين زالت ولاية الأحكام الشرعية أيضاً عن قضاة مصر الأربعة كزوال الخلافة والسلطنة عنها وآلت إلى قضاة الروم يتناوبها الواحد بعد الواحد فيولى ويعزل من القضاة والنواب والشهود من يشاء وقد تبدلت هيئتها وزالت رسومها القديمة وخرجت من طور إلى آخر وضاقت حدودها إلا على من أجازهم قاضى العسكر المشار إليه بتولى الأحكام وبطل من هذا الحين أيضاً جلوس الشهود على الحوانيت للفصل فى الخصومات لا سيما ما كان منها بين المتزوجين وزوجاتهم ومن كان منهم له حانوت لذلك أغلقه وزالت عن أولئك القضاة والشهود والنواب بهجتهم ورونق وظيفتهم وصارت المدرسة الصالحية دار الشريعة ومقر المتحدثين عليها دون بقية الجهات ولبث القاضى المشار إليه على هذا الحال من الشدة وعدم التهاون حتى بصغائر الأمور مدة والناس فى قلق واضطراب عظيمين يضجون ويعجون إلى الله بزوال منصبه وإذهاب سلطته.

(مطلب)

خروج قاضي القضاة إلى الحج

فلما كان السادس والعشرون من شعبان خرج القاضى المشار إليه يريد الحج من طريق القلزم فركب وركب معه إلى تربة العادل مودعاً الأمير خير بك وبقية الأمراء من العثمانيين والشراكسة وكبار الجند وقدموا له بعض التقادم والهدايا النفيسة فسار إلى مدينة بلبيس ثم إلى السويس ومنها إلى مدينة جدة ففرح الناس بخروجه وكانت النساء أشد فرحاً وأكبر سروراً فغنت بعض المغنيات منهم بهذه الكلمات :

قوموا بنا نقحب ونسكر　　قد خرج عنا قاضى العسكر

فكانت عند العامة من أطرب المغانى وأحسنها توقيعاً وأكثرها استعادة واستحساناً وأعمها تداولاً على ألسنة الكبار والصغار، ومرض الأمير خير بك فى هذه الأثناء مرضاً شديداً فانقطع عن الخروج ولازم الفراش أياماً واشتد به المرض شدة بالغة فأعتق جميع جواريه وعبيده ومماليكه وأمر بأن يتصدق من ماله على العلماء والفقهاء وأولاد المكاتب وأصحاب المزارات والمنقطعين من ذوى البيوتات ففرقوا شيئاً كثيراً من المال ومن القمح نحو عشرة آلاف أردب وأكثرت نساؤه وجواريه من التصدق والإحسان لعل الله تعالى يشفيه وأمر بأن يخرجوا مراسيم للقاضى فخر الدين بن عوض بالإفراج عن الرزق الأحباسية لأصحابها ويردها إليهم وقد كان ما ضبط منها وأدخل إلى الديوان السلطانى ألف رزقة وثمانمائة رزقة فأفرج عنها لأصحابها وأعاد لهم أيضاً مكاتيب الرزق الجيشية التى كان أخرجها عنهم يوسف بن الجاكية ثم رسم بإطلاق المحابيس من الرجال والنساء وكانوا كثيرين فلم يغن عنه هذا شيئاً واشتدت به علته فاستقدم إليه الأمير سنان بك العثمانى ودفع إليه الخاتم الذى سلمه إليه السلطان سليم يوم ولاه عمالة الديار المصرية وأعلمه بأن فى خزائنه من المال ستمائة ألف دينار ذهباً عيناً خلاف ما هو فى بيت المال.

(مطلب)

موت الأمير خير بك

فلما كان يوم الأحد رابع عشر ذى القعدة سنة ثمان وعشرين وتسعمائة مات خير بك المذكور فاجتمع جميع الأمراء وبينهم الأمير سنان بك وتولوا غسله ودفنه فى موكب حافل للغاية واستقر الأمير سنان بالقلعة يريد التصرف فى الأمور حتى يأتيه مرسوم السلطان فعارضه فى ذلك خير الدين نائب القلعة ومنعه من التصرف حتى يأتى مرسوم السلطان فأبرز الأمير سنان مرسوماً سلطانيا يتضمن جواز تصرفه إذا مات خير بك حتى يأتى الفرمان بما يستقر عليه الرأى وقيل كان الخلاف على التصرف بين الأمير سنان المذكور وبين الأمير خضر أحد كبار أمراء العثمانيين فلما أبرز الأمير سنان المرسوم السلطانى لم يبق بينهما من موجب للخلاف واستقر الأمير سنان بالقلعة وأخذ من يومه يتصرف فعرض ما فى بيت المال من الأموال فوجد لخير

بك بينها ستمائة ألف دينار ذهباً عيناً وكثيراً من الذخائر والتحف والنفائس والأقمشة البعيدة النوال مما لايكاد يدخل تحت الحصر.

وكان الأمير خير بك هذا من مماليك الأشرف قايتباى وهو شركسى الجنس أباظيا وكان اسم أبيه ملباى الشركسى ولهذا كان يدعى خير بك ملباى إلى الأشرف قايتباى وكان له أخوان أحدهما اسمه خضر ولم يعش طويلا ومات والثانى اسمه جان بلاط وكان مقدم ألف وله شهرة مات فى دولة الملك الناصر محمد بن قايتباى وكان موته بالطاعون وأقام خير بك المذكور بالطباق وصار فى عداد مماليك الطباق السلطانية فأخرج له السلطان خيلا وقماشا وأدخله فى عداد الجمدارية ثم الخاصكية وصار داودار سكين ثم صار فى سنة إحدى وتسعمائة أمير عشرة فى دولة الملك الناصر محمد بن الأشرف قايتباى وبعث به رسولا إلى دار السلطنة العثمانية فى مهمة فى سنة ثلاث وتسعمائة ثم صار مقدم ألف فى دولة الأشرف جان بلاط وخرج مع من خرج من العساكر والأجناد إلى الديار الشامية فلما وصلها حجر عليه فى دمشق فلما حضر العادل إلى مصر أرسل بالإفراج عنه واستقدمه فلما حضر أنعم عليه بتقدمة ألف وأقره على ما كان عليه فلما تولى السلطنة الملك الأشرف الغورى جعله حاجب الحجاب فلبث بها حتى تولى نيابة حلب فى سنة عشر وتسعمائة ومازال بها حتى زحف السلطان سليم على الديار الشامية يريد ملك مصر فجرى منه ماجرى من الانضمام بجيوشه إلى جيوش السلطان سليم كما فعل الغزالى، وكان من أمر توليته على نيابة مصر ما تقدم بيانه فاستمر على النيابة إلى أن مات فى يوم الأحد رابع عشر ذى القعدة سنة ثمان وعشرين وتسعمائة فكانت مدة نيابته خمس سنين وثلاثة أشهر وسبعة عشر يوما بما فى ذلك مدة انقطاعه عن المحاكمات، وكان جبارا عنيدا سفاكا للدماء كثير الأخذ بالشبهات طاغية قتل فى أيامه ما لايحصى من الخلائق ظلما فلما جاء الخبر بموته إلى السلطان سليمان وهو على حصار رودس ولى الأمير الوزير مصطفى باشا وكان صدر الوزراء العثمانيين وزوج أخت السلطان سليمان فحضر إلى الإسكندرية وجاءت الأخبار بوصوله إليها فنادوا بذلك فى القاهرة ومصر القديمة .

(مطلب)

ولاية الوزير مصطفى باشا

فلما كان يوم الأربعاء ثالث عشرى ذى الحجة وصل إلى ساحل بولاق فنزل للقائه الأمير سنان وخير الدين نائب القلعة والأمير خضر وجميع الأمراء وكبار الجند وجميع الانكشارية والأصبهانية والكمالية والشراكسة وقابلوه ثم أركبوه على فرس وعليه الخلعة السلطانية وسارت أمامه العساكر والأجناد قاطبة والأعيان والمقدمون فدخل من باب البحر وسار إلى باب القنطرة فمر من سوق مرجوش ثم من القاهرة وكان الأمير سنان على يمينه والأمير جانم الحمزاوى على يساره والأمير خير الدين والأمير خضر أمامه فارتفعت له الأصوات من العامة بالدعاء وكان أبيض اللون عربى الوجه أشقر الشاربين حليق اللحية معتدل القامة عليه حشمة ووقار ومازال فى موكبه حتى مرّ من الرميلة ودخل من الميدان وصعد إلى قلعة الجبل. قال بعض كتاب الأخبار: تولى مصطفى باشا نيابة مصر وهو فى ركاب السلطان سليمان على حصار رودس يوم السبت خامس ذى الحجة سنة ثمان وعشرين وتسعمائة ودخل مدينة الإسكندرية فى التاسع عشر من ذى الحجة فكانت مدة ولايته مذ تقررت برودس أربعة عشر يوما وكانت مدة حضوره من الإسكندرية إلى ساحل بولاق أربعة أيام فدخل فى يوم الأربعاء ثالث عشرى ذى الحجة فتكون مدة ولايته من حين ولى برودس إلى أن دخل الديار المصرية ثلاثة وعشرين يوما أهـ.

(مطلب)

إبطال نظام قلعة الجبل القديم

ولما استقر به المقام بالقلعة تحول عنها الأمير سنان ونزل إلى داره بدرب ابن البابا فكانت مدة نيابته بالقاهرة ثمانية وثلاثين يوما وفى ثانى يوم نزل مصطفى باشا إلى الميدان واجتمع جميع الأمراء والأكابر والأعيان والقضاة والعلماء وقرئ عليهم المرسوم السلطانى القاضى بولايته ثم أخذ يتصرف وجلس للناس عامة فترادفت عليه القصص بحوائج الناس وأخذ فى تدبير الأمور فأبطل نظام القلعة القديم الذى كان على عهد من سبق من الملوك وأبطل البوابين والركابة والبوابية والسوّاس والفراشين

وغلمان السلطان قاطبة والمقرئين والمؤذنين وغير معالم ذلك النظام ورسومه وتصرف فى الحواصل السلطانية والأشوان وبيت المال كما يحب ويختار وجمع إليه أعيان المباشرين وكلمهم فى أمر الخراج فشرعوا فى تحصيله ورتبوا له ولمماليكه خاصة وحاشيته وبطانته ثمانية آلاف دينار ذهبا فى كل شهر يقومون بدفعها نقرة فكان إذا تأخر المباشرون فى شيء من هذا المال المقرر فى أجله ضيق عليهم وشدد وبالغ فى الوعيد فتنبث أعوانهم فى البلاد يضيقون على أهلها ويشددون فى الطلب ويأخذون كل ما وصلت إليه أيديهم من الماشية والغلال ويبيعونها بأبخس الأثمان قياما بأداء تلك النفقة فى آجالها فاشتد بسبب ذلك الكرب على الفلاحين وأصحاب الرزوعات وعم الخطب ونزح الكثير من أهالى الأقاليم القبلية إلى الأقاليم البحرية وأهالى الأقاليم البحرية إلى القبلية وأهملت الأرض فرارا من المطالب المتتابعة فبارت وقل الوارد من الغلال إلى مصر وبولاق فارتفعت الأسعار وشكى الناس من هذا الحال وضجوا وابتهلوا إلى الله فلم تطل مدة ولايته وجاء الخبر بعزله وولاية أحمد باشا ففرح الناس بذلك فرحا عظيما وانكف المباشرون عن التضييق على أهالى البلاد فى جباية الأموال فكانت ولايته سنة واحدة وعشرة أشهر ويومان.

(مطلب)

ولاية أحمد باشا

ولما جاء الخبر بوصول أحمد باشا المذكور إلى بولاق نزل الأمراء وكبار الدولة والعلماء والقضاة وأصحاب العكاكيز للقائه، فركب فى أبهة وكبكبة عظيمة وصعدا إلى قلعة الجبل وأمر فقرئ فرمان التولية فى محفل حافل، قيل وكان السبب فى توليته هو أنه لما جلس السلطان سليمان على تخت السلطنة العثمانية صادف وزير أبيه وهو محمد باشا الصديقي فأقره على الصدارة وكان محمد باشا هذا كبير السن بطئ الحركة فى قيامه وقعوده وتصرفه فرأى عجزه عن القيام بأعباء هذه الرئاسة فأنزل نفسه وولى مكانه إبراهيم باشا المعروف بأودة باشا وكان أقدم من إبراهيم باشا فى الخدمة آخر هو أحمد باشا وكان يؤمل أن الصدارة لا تفوته إلى غيره من بقية الأمراء فزاحم إبراهيم باشا المذكور وجلس بقوة قربه من السلطان فشكاه إبراهيم باشا إلى السلطان فدبر فى إزالته وولاه مصر ليستجلب خاطره فلما تولاها وأخذ يتصرف فى أمورها جعل إبراهيم باشا الصدر يتعقبه للعداوة السابقة ويرميه بما

يوجب قتله ومازال بالسلطان حتى أبرز الأمر لجماعة المرابطين بمصر أن يجتمعوا عنده ويقتلوه فى محله ثم يولوا أحدهم مكانه حتى يرد عليهم الأمر بولاية خلافه وأرسلت الأحكام بذلك إلى الأمراء بمصر. قال بعض أصحاب الأخبار: فوقع الأمر فى يد أحمد باشا المذكور قبل أن يصل إلى الأمراء فخاف وجعل يضرب أخماسا فى أسداس حتى سولت له نفسه العصيان والخروج عن طاعة السلطان وأن يقاتل بجيش يجمعه من مصر فأبدى الخروج وادعى السلطنة وضرب السكة باسمه على الدنانير والدراهم وتحصن بقلعة الجبل وقبض على الأمير وهب جانم الحمزاوى والأمير محمود بك وسجنهما يريد قتلهما ولبث الحال هكذا أياما اختل فيها نظام القاهرة وظهرت الغوغاء وانقطعت السبل وأغلقت الحوانيت نهارا وعاث أهل الفساد فسرقوا ونهبوا وفعلوا ما لا خير فيه.

واتفق أن دخل أحمد باشا المذكور الحمام يوما للغسل فعلم الحمزاوى والأمير محمود بك بذلك فكسرا الأبواب وخرجا ورفعا صنجقا سلطانيا وناديا من أطاع الله ورسوله والسلطان فليقف تحت الصنجق فوقف تحت الصنجق خلق كثير وجم غفير فساروا وسار أمامهم الحمزاوى ومحمود بك إلى الحمام فكبسا الحمام على أحمد باشا وكان قد حلق نصف رأسه وأعجله على حلق النصف الثانى هجوم أصحاب الحمزاوى فهرب إلى سطح الحمام وتسلق من مكان إلى مكان فنهبوا جميع ما عنده من سلاح ومتاع واقتفوا أثره فأدركوه بمنية جناح بالغربية فقتلوه وذلك فى أخريات سنة ثلاثين وتسعمائة واحتزوا رأسه وجيء به فعلقوه على باب زويلة ثم بعثوا به إلى دار السلطنة فكانت مدة تصرفه بمصر سنة واحدة لاغير لم يأت فيها عملا يذكر فيشكر .

(مطلب)

ولاية قسام جزل باشا وخلعه وولاية إبراهيم باشا

وقد تولى بعده قسام جزل باشا فدخل القاهرة فى السنة المذكورة وصعد إلى قلعة الجبل فى موكب حافل وأمامه أرباب الوظائف وطوائف الجند من المشاة والفرسان وعليه خلعة التشريف السلطانية فلم يكد يستقر به المنصب حتى جاء الأمر بخلعه وولاية إبراهيم باشا فنزل من القلعة فى المحرم افتتاح سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة ولم يلبث إلا أياما حتى جاء إبراهيم باشا الوالى المذكور ودخل القاهرة

فى كبكبة عظيمة وصعد إلى قلعة الجبل ثم نزل فى ثانى يوم وجلس على المصطبة بالميدان وبين يديه جميع الأمراء والقضاة والعلماء والمباشرين وأصحاب الوظائف فتلى فرمان التولية ورفعت إليه القصص فى ذلك اليوم فنظر فى مصالح الخلق وكان عاقلا ذكيا محبا للخير، واهتم السلطان سليمان فى أيامه بترتيب أمور الديار المصرية فأجاز لطوائف المماليك الشراكسة الذين أقرهم والده على خدمة الدولة أن يتولوا رتبة الباشوية عند الحاجة وضم إليهم اثنى عشر أميراً فكان من يصح انتخابهم إلى هذه المرتبة العظيمة الكيخيا وقباطين ثغور السويس ودمياط والإسكندرية وأمير الخزينة السلطانية والدفتردار وأمير الحج وصناجق الشرقية والغربية وجرجا والبحيرة، وكان لدار السلطنة اهتمام عظيم وعناية كبرى بالثغور الثلاثة المذكورة لأنها أبواب البلاد فكان الجند المرابطون فيها يقدمون من دار السلطنة مع القباطين فيقيمون سنة ثم يستبدلون بآخرين وهكذا فى كل سنة فكان مرابطو الثغور المذكورون غير محسوبين فى عداد العسكر المصرى وكأنهم أجانب عنه.

(مطلب)

ولاية سليمان باشا الخادم وفيما رسم به السطان من مساحة أطيان سائر البلاد وجعلها ملكاً للسلطان

ولم تطل مدة إبراهيم باشا فقد جاء الأمر بعزله فرحل عن مصر فى شعبان سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة فكانت مدة تصرفه سبعة أشهر وتولى بعده سليمان باشا الخادم فدخل القاهرة فى تاسع شعبان من السنة وجعل يتصرف فى الأمور فرسم فى أيامه السلطان سليمان بمساحة جميع قرى مصر وضبط أراضيها على يدى الأمير كيوان وربط خراجها على من كان يستغلها فطاف المساحون البلاد ومسحوها وقسموها إلى أحواض سموها بالقراريط وأحكموا عملهم فزاد الخراج زيادة عظيمة وجباه الولاة فكان بعد ذلك شيئا كثيرا، ورسم بأنه هو صاحب جميع أرض مصر ومالكها يعطيها لمن يشاء ويمنعها ممن يشاء فكان يقطعها لطائفة من الأهالى يعرفون بالملتزمين فكانوا يتصرفون فى الأرض تصرف الملاك ما بين هبة وإسقاط وإيقاف وغير ذلك وكان أصحاب الأرض الذين هم ملاكها من أهل البلاد يحرثونها ويفلحونها لأولئك الملتزمين، ولا يأخذون من غلاتها إلا بقدر الحاجة ولا يتصرفون فيها مع توريثها لأعقابهم من بعدهم وكان لا يحل لأحدهم ترك ما بيده من الأرض

أو التخلى عن تعهدها بالحرث والزرع بل كان يجبر على ذلك ويضرب ويقوم بدفع ما عليها من الخراج إلى أولئك الملتزمين فإذا مات الفلاح ولم يعقب نسلا أعطيت أرضه للملتزم وهو يعهد بحراثتها لمن يشاء فإذا مات الملتزم ولم يعقب وارثا انحل التزامه وعاد إلى ملك السلطان وكان إذا تأخر الفلاح والملتزم فى دفع الخراج أخذت منهما الأرض وسلمت لغيرهما ليقوم بما عليها فى آجاله وبعد أن أتم مساحة جميع الأطيان سموها من هذا الحين أطيانا سلطانية ورزقا وأوقافا وإقطاعات وغير ذلك وكتب بها دفاتر محررة ووضعت بديوان مصر المحروسة وتسمى دفاتر ترابيع سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة ولم تلبث أن أحرقت ثم جددت وقيل بل أهملت ولم تتجدد.

(مطلب)

ولاية خسرو باشا وخلعه ورجوع سليمان باشا إلى الولاية ثانية

وكان سليمان المذكور ميالا للخير يحب إنشاء المبانى العظيمة والآثار الفاخرة فعمر جامعا بقلعة الجبل وآخر ببولاق القاهرة وبجواره وكايل وأسواق وربوع وغير ذلك ثم ورد عليه مرسوم السلطان سليمان بالتوجه إلى اليمن فكانت مدة تصرفه بديار مصر تسع سنين وأحد عشر شهرا وستة أيام فتولى بعده خسرو باشا ودخل القاهرة فى عشرى رمضان سنة إحدى وأربعين وتسعمائة وصعد إلى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد ولم يقع فى أيامه من الحوادث شىء يذكر وعمر صهريجا بين القصرين بالقاهرة وتصرف إلى سادس جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة فكانت مدة تصرفه سنة وثمانية أشهر وستة أيام وعزل ثم عاد سليمان باشا الخادم إلى ولاية البلاد عند عوده من اليمن فى حادى عشر رجب سنة ثلاث وأربعين فتصرف إلى حادى عشر المحرم سنة خمس وأربعين وكانت ولايته الثانية سنة واحدة وخمسة أشهر وواحدا وعشرين يوما، وكان حسن التدبير عظيم السياسة واسع الرأى مطاعا محبوبا ثم عزل.

(مطلب)

ولاية داود باشا

وتولى بعده داود باشا فدخل القاهرة فى سابع المحرم سنة خمس وأربعين وتسعمائة وجلس للناس على المصطبة بالميدان فرفعت إليه القصص فنظر فى مصالح الخلق وجعل يتصرف مع الكياسة والعدل وكان كريما مهيبا محبا للعلوم والعلماء كلفا بالمطالعة واقتناء كتب العرب وقد جمع منها شيئا كثيرا واستنسخ كل ما ظفر به منها وسعدت فى ولايته البلاد واطمأنت الرعية وساد الأمن وسلكت السبل وبنى فى ولايته مدرسة عظيمة بسويقة صفية اللالة بالقاهرة ووقف لها أوقافا وهى باقية إلى الآن وتصرف إلى ثالث عشر ربيع الأول سنة خمس وخمسين وتسعمائة فكانت مدة ولايته إحدى عشرة سنة وشهرا واحدا وعشرين يوما وتوفى بالقاهرة ودفن بالقرافة وكانت أيامه كلها بركة وإسعادا.

(مطلب)

ولاية مصطفى باشا صفصفان وخلعه وولاية علي باشا

وتولى بعده مصطفى باشا صفصفان فوصل القاهرة فى الخامس من ربيع الأول سنة ست وخمسين وتسعمائة وصعد إلى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد ولم يقع فى أيامه شيء يذكر فتصرف إلى شهر رجب من السنة المذكورة وعزل فكانت ولايته أربعة شهور ونصف شهر وتولى بعده على باشا فى خامس عشر سنة ست وخمسين وتسعمائة وتصرف إلى غاية المحرم سنة إحدى وستين وتسعمائة وعزل فكانت مدته أربع سنين وخمسة أشهر وستة وعشرين يوما وكان على باشا هذا وقورا معززا محبوبا من الرعية شفوقا عليها بعيدا عن العسف والظلم ميالا إلى إنشاء العمائر العظيمة والآثار النافعة فشاد منها فى رشيد والقاهرة وفوه وحذا حذوه الأمراء والكبراء ففعلوا كذلك بمصر والقاهرة وغيرهما من المدن، ولما انصرف عن ولاية مصر عاد إلى دار السلطنة فجعل يتقلب فى الوظائف العالية والمناصب الرفيعة حتى بلغ مسند الصدارة فدبر الأمور وسار سيرة حسنة للغاية فأحبه الناس ومالت إليه القلوب .

(مطلب)

ولاية محمد باشا المعروف بدوفتركين زاده

وتولى بعده على مصر محمد باشا المعروف بدوفتركين زاده ودخل القاهرة فى أوائل صفر سنة إحدى وستين وتسعمائة فلما جاء الخبر بوصوله إلى بولاق نزل الأمراء والعلماء والقضاة للقائه فصعد إلى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد ثم تحجب عن الناس وزاد فى التحجب وكان فظا غليظا جبارا عنيدا فأساء التصرف وعبث بالأمور وأكثر من المغارم ومصادرة الناس فى أموالهم فكثر الوشاة على أبوابه وأخذ بالشبهات فكرهه الناس كافة وأبغضه الأمراء وأعرضوا عنه ثم خلع فكانت مدة تصرفه سنة واجدة وشهرين وتسعة عشر يوما.

(مطلب)

ولاية إسكندر باشا

وتولى بعده إسكندر باشا فدخل القاهرة فى جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وتسعمائة فتصرف إلى غاية رجب سنة ست وستين فكانت ولايته ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثمانية أيام وكان شهما حازما حسن التدبير والسياسة وقورا مهيبا عمر فى ولايته المدرسة التى بباب الخلق المطلة على الخليج الناصرى وهى من أفخر المبانى وأتقنها وعمر تكية تجاهها وسبيلا بجوار المدرسة فعمل له بعض الشعراء تاريخا نصه: رحم الله من دنا وشرب سنة ٩٦٦. ووقف على ذلك أوقافا جليلة.

(مطلب)

ولاية علي باشا الخادم خلعه وولاية شاهين باشا

ولما خلع تولى بعده على باشا الخادم فدخل القاهرة فى سابع عشر شعبان سنة ست وستين وتسعمائة فتصرف إلى سادس عشر صفر سنة ثمان وستين فكانت مدة تصرفه سنتين وستة أشهر ولم يقع في أيامه من الحوادث شيء يذكر، وتولى بعده شاهين باشا فدخل القاهرة فى ثانى ربيع الأول سنة ثمان وستين وأخذ يتصرف فى الأمور فكان رجلا جليل القدر حسن السياسة والتدبير ومازال حتى عزل فى غاية

جمادى الآخرة سنة إحدى وسبعين وتسعمائة فكانت مدة ولايته ثلاث سنين وثلاثة أشهر.

(مطلب)

ولاية علي باشا الصوفي

وتولى بعده على باشا الصوفى فدخل القاهرة فى أول رجب سنة إحدى وسبعين وتسعمائة ولاقاه الأمراء والعلماء والقضاة وأصحاب الوظائف وصعدوا به إلى قلعة الجبل فلم يجلس للناس كعادة الأمراء والولاة وتحجب ثم لم يلبث أن تجبر وظلم وكان قبل حضوره إلى مصر واليا على بغداد وكان له فيها أحوال غريبة وأحكام جائرة فأبغضه الناس وشكوا منه وضجوا وعجوا فعزل عنها وأتى به إلى مصر وكثر عسفه فكثر الفساد فى البلاد وارتفع الأمن وعاث اللصوص فنهبوا وسلبوا بغير ممانع وأحاط قطاع الطرق بضواحى مصر والقاهرة فانكمش الناس وانكفوا عن الخروج خارج السور وضجوا وشكوا إلى على باشا المذكور فلم يلتفت لشكواهم وكأنه كان يقاسم أهل الفساد فيما يسرقونه فبلغت الجراءة بالغوغاء والحرافيش مبلغها وقامت طائفة من الفداوية فأوقدوا النار فى المدينة طمعا فى النهب فسرى الحريق إلى الجامع الأبيض واشتدت النيران وعلا اللهيب وكثير النهب والسلب وخرجت النساء والأطفال والشيوخ من الديار هائمين على وجوههم فرارا من فعال الفداوية ومازالت النار تعمل في جميع ما وصلت إليه حتى كادت تدمر جميع المساكن والوكائل وغيرها .

(مطلب)

في سبب إقامة السور من قنطرة الحاجب إلى الجامع الأبيض

وكلم الأمراء على باشا المذكور فى أمر اللصوص وفيما آلت إليه حالة المدينة من الخراب فلم يلتفت لقولهم فرأوا أن يقيموا سورا من قنطرة الحاجب إلى الجامع الأبيض ليمنعوا البلد من تطاول أيدى اللصوص إليها فأقاموه ووكلوا به من يحرسه فاطمأنت القلوب وسكنت الخواطر قليلا ومازال على باشا المذكور يتصرف بالجور والظلم حتى خلع .

مطلب)

ولاية محمد علي باشا المعروف بالمقتول

وتولى بعده محمد على باشا المعروف بالمقتول فقدم من دار السلطنة فى كبكبة عظيمة فكان كلما مر ببلد من الإسكندرية إلى القاهرة قدمت له التحف والهدايا ومدت له الموائد وبالغ الناس فى تعظيمه وإجلاله فرحا بخلاصهم من ظلم الصوفى وجوره، فلما دخل القاهرة لاقاه جميع الأمراء والعلماء والقضاة والمباشرين وأصحاب الوظائف العالية والأمير محمد بن عمر متولى الأقاليم القبلية يومئذ وقدم له عدة هدايا نفيسة للغاية وخمسين ألف دينار نقرة فأجله محمد على باشا المذكور وأدناه من مجلسه وقد طمع فيه فلما استأذنه بالانصراف وخرج من مجلسه أمر فقبض عليه جماعة من أعوان الباشا وقتلوه خنقا فاندهش الناس من ذلك جدا وأخذتهم الطيرة وسأل عن قاضى القضاة يومئذ الشيخ يوسف العبادى فقيل له إنه لم يحضر فرسم بإحضاره فأحضروه فلما مثل بين يديه أمر بخنقه وهو يستغيث وليس من يغيثه ثم تحجب عن الناس أياما ثم ظهر وبث العيون والجواسيس بين الأمراء وأرباب الدولة فزاد عسفه وأخذه للناس بالشبهات وأكثر من القتل وإراقة الدماء وبالغ فى إذلال الرعية والتنكيل بالأمراء وكان لا يسير فى المدينة إلا ومعه الشوباصى وهو كبير الجلادين فإذا مر بأحد وأراد قتله أشار بيده إلى الشوباصى المذكور فينزع حالا رأسه عن جسده ويهدر دمه على الفور فانكمش الناس وزاد خوفهم وضجوا إلى الله وابتهلوا بالدعاء وزاد سخطهم عليه وتواردت قصص الأمراء بمصر على دار السلطنة مستغيثين من عسف محمد على باشا المذكور وظلمه للرعية فلم يلتفت السلطان إليهم لاشتغاله يومئذ بفتح جزيرة مالطا التى كانت إلى هذا الحين مقر رهبنة القديس يوحنا الأورشليمى وإعداد سفن الحرب ومراكب النقل اللازمة لذلك لأنه لما اتسعت أملاك السلطنة العثمانية وبسطت يدها على الكثير من سواحل البحر الأبيض المتوسط وكانت جزيرة مالطا واقعة بين إقليم تونس وجنوبى إيطاليا وكان لمن يملكها اليد الطولى على البحر المذكور عمد السلطان سليمان إلى فتحها وسير إلى ذلك مائتى سفينة حربية فحاصروها حصارا تاما وضيقوا عليها تضييقا شديدا وواصلوا الرمى عليها بالمكاحل وداموا على هذا الحال أربعة أشهر مات فى خلالها الأمير طرغول أمير تلك العمارة العظيمة وكانت الفرنجة تسميه دراجوت

ومع كل ذلك لم ينالوا منها وجاء الشتاء وكثرت الزوابع وارتفعت أمواج البحر فارتفع عنها الحصار وعادت العمارة إلى القسطنطينية فعاد الأمراء بمصر إلى الاستغاثة بالسلطان من شر محمد على باشا الوالى وأكثروا من رفع الظلامات وترادف القصص فلم ينالوا منه شيئا لخروجه فى جيش عظيم فى سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة لصد هجمات النمسا عن بلاد المجرد إذ كانت له السيادة عليها إلى هذا الحين وبينما هو فى الطريق بلغه أن صاحب سكدوار إحدى مدائن بلاد المجر التى يقال لها أيضا زيجت قد ظفر ببعض الجيوش العثمانية التى كانت تقاتل فى تلك الأصقاع فسار إلى قتاله وحاصر المدينة المذكورة وشدد عليها حتى أخذ جميع معاقلها الأمامية فأخلى عساكرها المدينة وتحصنوا بقلعتها فلم تفتر للسلطان همة فى قتالهم واشتد فى القتال وقد نهكه التعب فمرض وثقل عليه المرض فلما كان العشرون من صفر سنة أربع وسبعين وتسعمائة اشتد عليه مرضه ومات فأخفى وزيره خبر موته تحاشيا من وقوع الفشل فى العسكر وسير إلى ولده الأمير سليم بكوتاهية يعلمه بخبر موت أبيه ويحثه على الحضور إلى القسطنطينية ليتولى منصب السلطنة ولم ينكف الوزير عن القتال مع من تحصنوا بقلعة سكدوار ووالى الهجوم عليها ومازال بها حتى احتلتها العساكر العثمانية عنوة فهرب من كان بها من الأعداء فلم يستقر بها مقام العساكر العثمانية حتى انخسفت بهم أرض القلعة وسقط جميع بنائها عليهم جميعا فماتوا تحت الردم وذلك أن العدو كان قد دبر المكيدة بأن عمل عدّة ألغام تحت بناء القلعة فلما دخلتها العساكر واستقروا بها أشعل العدوّ تلك الألغام فانخسفت أرض القلعة وتهدم جميع بنائها وهلك جميع من دخلها ولما تم النصر للعساكر السلطانية على هذه الكيفية طير الوزير خبره إلى الآفاق وسير الرسائل بخاتم السلطان كى لا يعلم أحد بخبر موته ثم عاد إلى القسطنطينية مع من بقى من العساكر ومعهم جثة السلطان فوجد أن الأمير سليم قد حضر وقبض على زمام الأمور وأخذ يتصرف فى أعمال المملكة. قال أصحاب التاريخ: ولم تكن ولاية العهد قد أتت إليه بالأرشدية أو الاستحقاق بل بدسيسة أمه روكسلان إحدى حظيات السلطان وقتل السلطان لولده الأرشد الأمير مصطفى وابنه الثانى الأمير بايزيد مع أولاد بايزيد الخمسة، وتحرير الخبر، أنه كان للسلطان سليمان حظية مجهولة النسب تسمى روكسلان وكان يحبها حبا شديدا فولدت له من الذكور الأمير سليمان وابنتين وكانت تتمنى أن يكون الملك لابنها بعد موته ولكنها كانت تخفى ذلك عن السلطان وتراقب من الفرص

أنفعها فلما مات إياس باشا صدر الدولة سعت روكسلان المذكورة لدى السلطان فى تولية رستم باشا منصب الصدارة وكان بينها وبين رستم المذكور كلام فى أمر مبايعة ولدها بالملك بعد أبيه فولاه السلطان الصدارة وأدناه منه كثيرا وزوّجه بابنته من روكسلان هذه فزاد تعلق روكسلان به وعمد هو إلى ارضائها بتمهيد الطريق لتولى ابنها الملك بعد أبيه فلما انتشبت الحرب بين الدولة ومملكة فارس سير السلطان الأمير مصطفى أكبر أولاده على رأس جيش إلى ساحة القتال وكان محبوبا عند طوائف الأنكشارية لحسن سياسته ومعرفته بفنون الحرب والقتال وبسالته وإقدامه فأبلى فى الفرس بلاء حسنا وظهرت شجاعته فازداد حب طوائف الانكشارية له ومالت قلوبهم جميعا إليه فانتهز رستم باشا هذه الفرصة وكتب إلى السلطان يخوفه من ولده ويقول إنه عامل على الخروج وشق عصا الطاعة مع طوائف الانكشارية وعزل السلطان وتوليه هو منصب السلطنة كما فعل السلطان سليم الأول بأبيه بايزيد فأكبر السلطان هذا الخبر واستعظمه وكاد لا يصدقه وأهمه للغاية فآنست منه روكسلان الحيرة والاضطراب فسألته عن سبب ذلك فأخبرها بخبر ولده مصطفى وما قاله رستم باشا فاظهرت غاية الخوف والانزعاج وأخذت تقبح له فعال الأمير وترميه بالخيانة والغدر وتحذره من عاقبة التهاون بهذه المكيدة ومازالت به حتى التهب قلبه غيظا وقام فى طائفة من عسكره يريد بلاد فارس وطير الخبر بأنه إنما قام ليتولى قيادة هذه الغزوة فلما اقترب من المعسكر خرج ولده مصطفى وجميع الأمراء وكبار الجند للقائه وساروا فى ركابه حتى أنزلوه فى سرادقه وفرح ولده مصطفى بقدومه فرحا عظيما فلما كان الثانى عشر من شوال سنة ٩٦٠ هجرية استدعى السلطان ولده مصطفى إلى سرادقه ليكلمه فى أمر القتال مع الفرس فدخل عليه وهو فى لباسه المعتاد فلم يكد يصل إلى أبيه حتى قبض عليه جماعة من الخدم وقتلوه خنقا وهو يصيح ويستغيث بأبيه حتى مات وأبوه ينظر إليه ثم نقلوا جثته إلى مدينة بروسة فدفنت فى تربة أجداده. قالوا ولم تكتف روكسلان بقتل الأمير مصطفى بل أرسلت أيضا إلى مدينة بروسة بعض خواصها فقتلوا ابنه الرضيع وشاع هذا الأمر بين الناس فاستعظموه وانحرفت خواطرهم عن السلطان وبكى الأمير مصطفى أهل العلم والأدب ورثاه الشعراء ولم يخشوا بأس أبيه فقال بعضهم فى ذلك:

يادهر ويحك ما أبقيت لى جلدا   وأنت والد سوء تأكل الولدا

وثار طوائف الأنكشارية على السلطان وطلبوا قتل رستم باشا المذكور وهاجوا

وماجوا حتى كادت الفتنة تعم فرسم السلطان بخلعه وولى مكانه أحمد باشا تسكينا للفتنة واسترضاء لطوائف الانكشارية وكان للأمير مصطفى أخ اسمه الأمير جهانكير فحزن على أخيه حزنا عظيما جدا وبكاه بكاء شديدا للغاية حتى مات كمدا عليه بعد قليل من الأيام وقيل بل قتل نفسه أمام أبيه بعد أن وبخه وأنبه على قتل أخيه فلم يبق بعد موته من أولاد السلطان سوى الأمير بايزيد والأمير سليم بن روكسلان، وكان للأمير بايزيد مرب اسمه لاله مصطفى فولاه السلطان النظر على بيت الأمير سليم بعد روكسلان أمه فأحبه الأمير سليم وقربه منه وأعلمه بما كان يخشاه من مزاحمة بايزيد له في الملك بعد أبيه وطلب منه أن يعمل على هلاك بايزيد وأولاده ليخلو له الجو فهون عليه لاله مصطفى الأمر ومناه بالفوز وجعل يستعمل الحيلة فكتب إلى بايزيد يوما يقول إن أخاك سليما منهمك فى اللذات غافل عن واجب السلطنة وما هو مفروض على أبناء الملوك فضلا عما هو عليه من الطيش وعدم الأهلية لمنصب الخلافة ومع ذلك فإن أباك أبى إلا مبايعته بولاية العهد من بعده فهل لك فى هذا الأمر رغبة؟ وتعددت بينهما الرسائل وركن الأمير بايزيد إلى لاله مصطفى وأتمن جانبه فكاشفه بما فى نفسه ولم يخف عنه أمرا ثم كتب الأمير بايزيد إلى أخيه سليم يوما يعيب فعال أبيه ويرميه بالجفاء وغلظة الطبع ويسمه بالقسوة وفقدان الحنو الأبوى فأشار لاله مصطفى على الأمير سليم بإعطاء تلك المكاتبة لأبيه فلما اطلع السلطان على مابها مما يمس كرامته غضب غضبا شديدا وزاده غضبا وشاية لاله مصطفى بالأمير بايزيد فسير إلى بايزيد يقول له إذا أتاك كتابى هذا تحول من فورك عن قونيه إلى اماسية وكان واليا على قونية فخاف بايزيد من ذلك وظن أن أباه إنما يضمر له الشر فامتنع من الذهاب إلى اماسية وجيش له جيشا عظيما وتحصن فى قونية فسير إليه أبوه جيشا ومقدمه الوزير محمد باشا الملقب صقللى فالتقى الجيشان عند قونية واقتتلا قتالا عنيفا مدة ثلاثة أيام كانت فيها الحرب سجالا ثم انكشف القتال عن هزيمة بايزيد وفراره إلى مدينة اماسية فلحقته عساكر أبيه فرحل عنها إلى بلاد فارس ولجأ هو وأولاده إلى طهماسب ملك فارس فقبله وأكرم مثواه ولكنه سير إلى السلطان سليمان خفية يعلمه بخبره فأرسل السلطان سليمان رسلا فى طلبه. فسلمه إليهم طهماسب مع أولاده ولم يرع ذمتهم فأمر بهم السلطان فقتلوا جميعا فى مدينة قزوين إحدى مدائن فارس ونقلت جثثهم إلى مدينة سيواس وخنقوا طفلا كان لبايزيد بمدينة بورسة ودفنوه مع أبيه وإخوته بسيواس. قال أصحاب

التاريخ: فكانت هذه الأمور الشنعاء نقطة سوداء فى تاريخ حياة السلطان سليمان وكادت تذهب بجميع حسناته وشهرة غزواته وكثرة فتوحاته أدراج الرياح مع أنه كان ملكا جليل القدر واسع الكلمة عارفا بفنون الحرب وأساليب السياسة محبا للخيرات وافر الصدقات. قال بعضهم: ومن آثاره الحميدة السحابة الكبرى بطريق الحج ولها أوقاف كثيرة يشترى من ريعها فى كل عام جمل لحمل الفقراء والمنقطعين والعواجز والماء والزاد وغير ذلك ومقرر بها من المغاربة أربعون نفرا ومن المطاوعة أربعون نفرا (يريد بهم العسكر) ذهابا وإيابا مات فكانت خلافته نحوا من تسع وأربعين سنة وله من العمر أربع وسبعون سنة قضاها كلها فى الغزو والفتوحات.

ومات فى أيامه مرقس بطرك المتأصلين بعد أن أقام أربع عشرة سنة وفى أيام سليمان المذكور اشتد الولاة على قبضة مصر وضيقوا عليهم وعملوا على تبعيدهم عن أوطانهم فبعدوا منهم خلقا من العظماء والوجهاء وخيار الناس ثم صادروا من بقى وأفحشوا فى تخريب بيوتهم وتبديد أرزاقهم فكانت شدّة عظيمة للغاية وبعد موت مرقس المذكور أقيم يوحنا وهو خامس ثمانيهم وأصله من الشام فأقام ست سنين ومات فأقام المتأصلون بعده غبريال وهو سادس ثمانيهم وكان راهبا من دير المحرق فأقام ثمان سنين ومات فأقيم بعده متاووس وهو سابع ثمانيهم وكان راهبا بدير المحرق فأقام ثلاثين سنة ومات وكان عالما تقيا عاقلا محبا للخير معينا للفقراء كثير التصدق ولم تكن أيامه أقل شدة من أيام سلفه فقد ذاقت فيها النصرانية من البلايا والمحن أشكالا وبموته أقام المتأصلون غبريال وهو ثامن ثمانيهم وكان راهبا بدير القلامون ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله وبموت السلطان سليمان كما تقدم القول تولى السلطنة بعده ولده السلطان سليم الثانى .

* * *

(الفصل الثالث)

(فى سلطنة السلطان سليم الثانى)

ثم قام بالأمر بعد السلطان سليمان ولده السلطان سليم الثانى بويع بالملك تاسع ربيع الآخر سنة أربع وسبعين وتسعمائة هجرية أى سنة ست وستين وخمسمائة وألف ميلادية وعمره ست وأربعون سنة ولم يمض إلا ثلاثة أيام على

بيعته حتى سار فى جيش عظيم إلى نجدة العساكر الذين كانوا يقاتلون بناحية سكدوار فلما وصل إلى ناحية سردم لاقاه الوزير محمد باشا وكان هو القائد لجيوش تلك الغزوة فأعلمه بما يعانيه العسكر من البرد وسقوط الثلج وكان الوقت وقت شتاء وأعلمه بمنعة قلعة سكدوار ووجوب عودهم إلى الأوطان حتى ينقضي الشتاء وأشار عليه أن يتربص ناحية سردم حتى يأتى إليه بجميع الجند والأمراء المحاصرين للقلعة فلبث السلطان سليم أياما حتى اجتمع العسكر وساروا فى ركابه إلى دار السلطنة، ووردت الأخبار إلى مصر بسلطنة السلطان سليم فزينت المدينة ثلاثة أيام وأطلقت البشائر وفرح الناس بولايته وتقوت آمالهم بالخلاص من مظالم محمد على باشا واستعباده لهم فرفع الأمراء وكبار الرعية والعلماء والمباشرون عندئذ ظلامتهم إلى دار السلطنة واستغاثوا وضجوا فورد مرسوم السلطان إلى محمد باشا المذكور بإجراء العدل فى الرعية والرفق بالناس والنهى عن الجور وكان قد تزايد جوره وأخذه للناس بالشبهات فأفحش فى القتل والسلب وتتبع العورات فلم يرعو ولم تأخذه آخذة من الخوف فعادوا إلى الشكوى وعظموا للسلطان البلوى ولبثوا ينتظرون ما سيكون بعد ذلك، واتفق فى هذه الغضون موت الأمير إبراهيم بك الدفتردار الذى كان متوليا امارة الحج فاستولى محمد باشا المذكور على خزائنه ومماليكه وجواريه وكل ماله وجملة ذلك مائة ألف دينار ذهبا فضمها إلى خزانة السلطان التى يبعث بها فى كل عام من مصر وأرسل معها أيضا شيئا كثيرامن الهدايا والتحف التى لا مثيل لها هدية منه للسلطان ورجال الدولة استجلابا لخواطرهم فلم يكن بعد ذلك من يسمع للمصريين شكوى ودامت الحال على ذلك مدة، فلما كان يوم الأربعاء غاية جمادى الأولى سنة خمس وسبعين وتسعمائة خرج محمد باشا المذكور فى كبكبة وحوله طائفة من أعوانه ومر من جهة الناصرية يريد مصر القديمة فلما صار على مقربة من حائط هناك أطلقت عليه بندقية من خلف الحائط فأصاب رصاصها صدره فسقط عن فرسه فهاج لذلك أعوانه وبحثوا عن القاتل فلم يعثروا له على أثر واتفق فى هذه الأثناء أن مر رجلان من الفلاحين بالقرب من موضع الحادثة فقبضوا عليهما واتهموهما بالفعل وقتلوهما ظلما وقيل إنه قتل فى يوم الأحد تاسع عشرى شهر جمادى الآخرة سنة خمس وسبعين وتسعمائة فكانت مدة تصرفه سنة واحدة وتسعة أشهر وعشرين يوما وفرح الناس بموته فرحا ما عليه من مزيد فقال فيه بعض الشعراء:

موت محمود حياة   فيه للعالم رحمه
قتله بالنار نور   وهو فى التاريخ ظلمه
سنة ٩٧٥ هجرية

وقال بعضهم أيضا :

أتى محمود باشا يوم نحس   فساقته منيته غصيبه
تجاه الناصرية خلف حيط   بغيط جاءه منه مصيبه
ببندقة رماه كف رام   فحررها فجاءته مصيبه

(مطلب)

ولاية سنان باشا

فلما وصل خبر موته إلى دار السلطنة أرسل للولاية بعده سنان باشا فدخل القاهرة فى ثالث عشرى شعبان سنة خمس وسبعين وتسعمائة وكان قبل مجيئه واليا على حلب فلم تستقر به الولاية على مصر حتى ورد عليه مرسوم السلطان بالقيام إلى فتح اليمن واسترجاعها من الزيديين وكانوا قد خرجوا ثانية وشقوا عصا الطاعة فسار من القاهرة فى الرابع من شوال سنة ست وسبعين فكانت مدة تصرفه فى مصر نحوا من تسعة أشهر وسار معه من الأمراء المصريين حمزة بك ومماى بك وغيرهما من الصناجق، قيل وكان استصحابه لهؤلاء الصناجق لأمر نسبوه إليه وهو قتل محمد باشا الوالى السابق، وأقام سنان باشا المذكور يقاتل اليمانيين سنتين وأربعة أشهر حتى يسر الله له الفتح واستنقاذ اليمن من أيدى الزيديين وطير الأخبار بذلك إلى مصر والقسطنطينية ففرح السلطان بذلك فرحا عظيما وتزاحم على أبوابه الشعراء بقصائد التهانى وألف العلامة قطب الدين محمد بن أحمد المكى تاريخه لهذ الفتح سماه البرق اليمانى فى الفتح العثمانى. قيل وهو غاية فى البلاغة وبه قصيدة لا بأس بإيراد بعض أبيات منها هنا وهى :

لك الحمد يا مولاى فى السر والجهر   على عزة الإسلام والفتح والنصر
كذا فليكن فتح البلاد إذا سعت   لها الهمم العليا إلى أشرف الذكر
جنود زهت من كوكبان خيامها   وآخرها بالنيل من شاطئ المصر

(ومنها)

فهل يطمع الزيدى فى ملك تبع   ويأخذها من آل عثمان بالمكر
أبى الله والإسلام والسيف والقنا   وسر إمام المسلمين أبى بكر

وهى طويلة للغاية ...

(مطلب)

ولاية إسكندر باشا الفقيه الشركسي بدلا من سنان باشا

فلما سار سنان باشا إلى فتح اليمن أتى للولاية بعده إسكندر باشا الفقيه الشركسى فدخل القاهرة فى رابع جمادى الآخرة سنة ست وسبعين وجعل يتصرف إلى غاية المحرم افتتاح سنة تسع وسبعين فكانت مدته سنتين وسبعة أشهر وخمسة عشر يوما وكان عادلا تقيا محبا للرعية أبطل بعض المغارم والمكوس ورفعها عن الفقراء والعواجز وأهل العلم وأمنت فى أيامه السبل واطمأنت قلوب الرعية فكانت أيامه كلها بركة ورخاء على البلاد وأهلها ولم يقع فيها شىء من الإحن والبلايا ومازال يتصرف فى الأمور ويعدل فى الرعية حتى مات، وعاد سنان باشا من فتح اليمن بعد موت اسكندر باشا بأيام قلائل ولم يرجع معه أحد من الأمراء والصناجق الذين كانوا قد ساروا فى ركابه إلى هذه الغزوة وكأنهم قد ماتوا جميعا فلما دخل القاهرة جاءه الأمر بولايته على مصر ثانية فتولاها من أول شهر صفر سنة تسع وسبعين فزاد البلاد اطمئنانا وأمن السبل وأتى على إصلاح الأمور من أبوابها فحفر خليج الإسكندرية وأحسن مجراه وأنشأ عدة مساجد وتكايا وربط وجوامع بديار مصر فى الثغور والبنادر ولم يكن إلى ذلك الحين أحد من الولاة أمثاله فعل ما فعله سنان باشا من البر والخيرات وكان كثير العناية بمصالح الرعية شفوقا عليهم يسأل العمال عن الصغيرة والكبيرة وقد بلغه أن الأمير منصور بن بغداد أمير ولاية المنوفية حدث متلاعب أهمل أمور الولاية وهو منهمك فى اللذات واتباع الشهوات وأن جماعة من السفهاء قد استولوا على عقله وهم المتصرفون فى ولايته وقد زاده إهمالا وجراءة معرفته بالوزير الأعظم ميلوش باشا وتقربه منه وكان قد عهد له بأن لا قدرة لأحد على خلعه من ولاية المنوفية فسار سنان باشا فى القعدة من السنة أى سنة تسع وسبعين وقبض على الأمير منصور المذكور وخلعه وولى مكانه الأمير علام بن بغداد واستمر الأمير منصور مسجونا فى البرج بقلعة الجبل من سنة تسع

وسبعين إلى سنة ثمان وثمانين وتسعمائة عندما قدم حسن باشا وأطلق سبيله وأرجعه إلى ولاية المنوفية فكانت مدة حبسه نحوا من عشر سنين.

(مطلب)

ولاية حسين باشا

ومازال سنان باشا يتصرف فى الأمور مع الرفق واللين بالرعية حتى جاءه أمر السلطان سليم بالحضور إلى دار السلطنة فرحل عن مصر والقلوب راضية عنه فكانت مدته الثانية سنتين اثنتين وتولى بعده حسين باشا فدخل القاهرة فى سادس عشرى المحرم افتتاح سنة إحدى وثمانين وتسعمائة وجعل يتصرف فى الأمور ثم خلع فى سنة اثنتين وثمانين فكانت ولايته سنة واحدة وعشرة أشهر وخمسة عشر يوما وكان عاقلا رزينا شفوقا بالرعية ميالا إلى الخير والإحسان ووقع فى أيامه غلاء عظيم وانقطع الوارد من المأكول والمشروب ثم وقع قحط عظيم جدا فأكل الناس بذر الكتان والحشيش اليابس واشتد الجوع بالناس اشتدادا عظيما وأعقبه الموات فجاءة حتى أن الرجل أو المرأة أو الخادم إذا خرج من بيته لقضاء حاجته أدركته المنية فى الطريق فيموت سريعا بلا ألم ولا وجع وبقى الحال على هذا الوصف أياما كثيرة فهاجر الناس إلى ضواحى القاهرة ومصر ونزحوا إلى بعض القرى والبلدان فرارا من الموت ولكنه لم يلبث أن عم جميع القرى والمدن وكثر واشتد شدة بالغة ثم أخذ يزول، وماتم زواله حتى كثرت اللصوص وظهر قطاع الطرق فعاثوا فى البلاد وسلبوا ونهبوا وأفسدوا وقطعوا الطرق على أبناء السبيل وكانوا لا ينفكون ليلا ولا نهارا وعجز حسين باشا المذكور عن ردعهم فتمادوا وكثر شرهم وعم الخوف جميع البلاد فكانت شدة عظيمة وازدادت الأحوال اضطرابا والأمور خللا وفسادا بتطاول أيدى الجند أيضا إلى أموال الناس وعبثهم بمصالح الدولة وعدم وقوفهم عند طاعة كبارهم وإيذائهم للسوقة والباعة وأصحاب البيوت حتى ضج الناس وترقبوا مرور حسين باشا فى الطريق وصاحوا فى وجهه وقبحوا عجزه وأقسموا إنهم إنما هم رافعون ظلامتهم إلى السلطان وكان السلطان فى هذا الحين فى شاغل ليس عن مصر فقط بل عن جميع الأيالات التابعة إلى مملكة أبيه بما تولى عليه من الخمول وضعضعة النفوذ. قال أصحاب التاريخ: وذلك لأنه لم يكن متصفا بما يؤهله للقيام بحفظ فتوحات أبيه ولاهو متصفا بالحزامة وأصالة الرأى فارتبكت لذلك أحوال المملكة

وانفشلت أمورها وطمع فيها الأعداء ومالت بعض الولايات إلى الخروج فشدد بعض الدول الكبرى فى طلب كثير من الامتيازات كدولة الفرنسيس فقد نالت فى أيامه حقوقا مهمة غير الذى نالته منها في أيام أبيه وكان صدر الدولة يومئذ صقللى محمد باشا وهو رجل موصوف بالتدبير عالى الهمة كبير السياسة خبير بفنون الحرب صادق الخدمة فبذل العناية فى بقاء مركز الدولة غير محقر ولامهان وأجهد النفس فى حفظ ما بيدها من الثغور والعمالات وفتح ما يمكن فتحه من المدائن والثغور فسير لفتح جزيرة قبرس عمارة عظيمة من سفن الحرب تحمل زهاء مائة ألف مقاتل ومقدمها لاله مصطفى باشا فحاصرت الجزيرة إلى أن دخل الشتاء فانصرفت عنها ثم عادت لحصارها حتى تم فتحها وأقلعت بعد ذلك هذه العمارة إلى جزيرة كريت لفتحها فلم تنل منها فأخذت من البندقية بعض المدن الواقعة على بحر الأدرياتيك فأكبر البنادقة هذا الأمر جدا وعمدوا إلى محالفة دولة أسبانيا فلما تمت لهما المحالفة تعاهدا مع بابا رومة على قتال الترك ومنازلة عمارتهم ومحو آثارهم من البحار فأعدوا لذلك عمارة عظيمة من مائة وأربعين من سفن البنادقة وسبعين من سفن الأسبانيول واثنتى عشرة سفينة للبابا وتسع من سفن رهبنة القديس يوحنا الأورشليمى بمالطة وكان مقدم هذه العمارة الأمير دون جوان وهو ابن للإمبراطور شرلكان من إحدى عشيقاته وكانت سفن الترك ثلثمائة سفينة فلما التقى الفريقان عند ليبنة اقتتلوا قتالا عنيفا للغاية نحوا من ثلاث ساعات ثم انكشف الأمر عن هزيمة السفن التركية وانتصار سفن الأحزاب فاستولوا على مائة وثلاثين سفينة عثمانية وأحرقوا وأغرقوا أربعا وتسعين وغنموا زهاء ثلثمائة من المدافع وأسروا نحو ثلاثين ألفا من المقاتلين فكانت هذه الواقعة من أتعس الوقائع وأشدها خطرا على مقام الدولة العثمانية فى عرض البحار، وجاءت الأخبار إلى دار السلطنة بما حل بالعمارة فهاج المسلمون وماجوا وهموا بقتل رسل البابا الذين هم رعاة المذهب الكاثوليكى فلم ينالوا منهم لاهتمام صقلى محمد باشا بمنع القلاقل وعدم تطاول أيدى الرعية إلى الإيذاء. قال بعض كتاب الأخبار : ولم تكن هذه الكسرة المشئومة لتقعد همة صقلى محمد باشا عن لم شعث العمارة العثمانية وإعادة ما كان لها من الرونق والبهجة حيث أنشأ لها عدة سفن وجهزها وبالغ فى تجهيزها وأتقن نظامها وسيرها فى عرض البحار طلبا للثار فلم يقع بينها وبين سفن الأحزاب شىء من القتال لانفصام عرا الاتحاد ما بين البنادقة والإسبانيول وعقد معاهدة ما بين

العثمانيين والبنادقة على شروط يرضاها الفريقان فلما كان فى خلال الحوادث الأخيرة مرض السلطان سليم واشتدّ به مرضه أياما ثم مات فى سابع رمضان سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة هجرية أى سنة أربع وسبعين وخمسمائة وألف ميلادية فكانت سلطنته نحوا من تسع سنين فولى السلطنة بعده ولده السلطان مراد خان .

* * *

(الفصل الرابع)

(فى سلطنة السلطان مراد ابن السلطان سليم)

ثم قام بالأمر بعد السلطان سليم ولده السلطان مراد بويع له بالملك عاشر رمضان سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة هجرية أى سنة أربع وسبعين وخمسمائة وألف ميلادية وله من العمر يومئذ ثلاثون سنة وكان شهما مقداما عالى الكلمة واسع المعرفة خبيرا بالأمور محبا للفتح والغزوات فغزا عدة غزوات وسار بجيش ضخم لإخضاع المجر وردها إلى طاعة الدولة بعد أن كادت تخرج عنها فقاتلها وأذلها إذلالا كبيرا وأعادها إلى ما كانت عليه وفتح عدّة مدائن وحصون ودوّخ كثيرا من البلدان فاتسعت كلمته وكبرت هيبته وعاقده كثير من الملوك وتقربوا إليه .

(مطلب)

ولاية مسيح باشا

وكان حسين باشا والى الديار المصرية قد عزل من منصب الولاية قبل أن يتولى السلطان مراد السلطنة بقليل فأقام بدله مسيح باشا وكان من خزنة دار السلطان سليم فدخل القاهرة فى أوائل سنة اثنتين وثمانين وكان ذا مهابة وعفة يكره أهل الفساد واللصوص وقطاع الطرق وكانوا فى ولاية حسين باشا قد كثروا فى الأرض وعاثوا وأفسدوا فيها كما تقدم فعمل على قطع شأفتهم وصار يتجسس أخبارهم ومواطنهم ويبعث بالحكام فيقبضون عليهم ويأتون بهم عشرات عشرات فيقتل منهم ويشنع فى قتلهم فخافوا وانكفوا وارتجع أهل التهم وسكن الحال واستتب الأمن واطمأنت قلوب الرعية واشتدت يقظة الحكام وهابوه وانكفت أيدى الولاة والكشاف

جميعا عن التجرئ على ما لا يصلح عمله من أخذ الرشاوى والبراطيل وأخذ الأموال من أصحابها بالسوط والنبوت وبالغ مسيح باشا فى القتل والتمثيل لأقل سبب قيل فكان عدد من قتل فى أيامه زهاء عشرة آلاف وقد علق شناكل من الحديد بالرميلة وبولاق والشون بمصر القديمة لقتل المفسدين وأصحاب الكبائر فكان لذلك وقع فى قلوب الرعية وخافه جميع الناس ومالت إليه القلوب وأحبته الرعية وتصرف فى الولاية التصرف العام إلى ثانى عشرى جمادى الأولى سنة ثمان وثمانين وتسعمائة ثم جاءه الأمر بالانصراف عنها فقام إلى القسطنطينية على الأثر فكانت مدة تصرفه خمس سنين وسبعة أشهر وخمسة عشر يوما وكان قد بنى له مدرسة ومدفنا بالقرافة وأوقف عليها أوقافا عظيمة وكان يؤمل أن يدفن فى مصر ﴿**وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت**﴾ فحزن الناس لعزله.

(مطلب)

ولاية حسن باشا الخادم

فلما عزل مسيح باشا تولى بعده حسن باشا الخادم فدخل القاهرة فى سادس عشرى جمادى الأولى من السنة وكان قبل ولايته هذه خازندار السلطان مراد فلم يستقر به المنصب حتى ظهرت عليه علامات الغلظة وجعل يتصرف مع العسف والكبرياء فكان ظلوما غشوما عتلا زنيما محبا للمال ومصادرة الناس ميالا للرشاوى والبراطيل فصادر كثيرا من أهل الوجاهة وذوى البيوتات فأصبحهم بعد الغنى والإثراء فقراء لا يمتلكون شروى نقير واشتد بالرعية شدّة بالغة وأخذهم بالشبهات فقتل وشرد وألزم اليهود فى أيامه بلبس الطراطير الحمر وألزم النصارى بلبس القلنسوة السوداء وكان قليل الرأى ضعيف التدبير سفاكا للدماء ولكنه جبان صغير القلب متحجبا إلا على بعض خواصه فأبغضه الناس كافة وضجوا من فعاله ورفعوا القصص إلى دار السلطنة واستغاثوا فجاءه الأمر بالعزل فى ثالث عشر ربيع الآخر سنة إحدى وتسعين وتسعمائة فكانت مدّة تصرفه سنتين وأحد عشر شهرا وثمانية عشر يوما كلها بلايا وإحن وقد عمر ببولاق وكالة تجاه الترسخانة وصهريجا مقابلها يعلوه مكتب للأيتام وكان قصده أن يزيل الترسخانة ويبنى مكانها جامعا فلم يتمكن من ذلك لعزله.

(مطلب)

ولاية الوزير إبراهيم باشا

وتولى بعده الوزير إبراهيم باشا فدخل القاهرة فى رابع عشرى ربيع الآخر من السنة وسار من وسط المدينة فى موكب لم يعهد لأحد من قبله وفرح الناس به فرحا لا يوصف قيل وكان معه مرسوم من السلطان بتحقيق ما ارتكب فعله حسن باشا والقبض عليه وتعويقه حتى يتم ذلك فأحس حسن باشا بذلك وسار من القاهرة خفية قبل وصول إبراهيم باشا إليها وطلع من باب المقابر ليلا فى نفر من أتباعه وبطانته فلما وصل إلى دار السلطنة قبضوا عليه ثم أبعدوه عن خدمة الدولة وبالغوا فى إذلاله ومازال حتى صادفته العناية والعناية صدف فارتقى مسند الصدارة العظمى وعلت كلمته واتسعت صولته ثم عزل وقتل شر قتلة وأما إبراهيم باشا فإنه أخذ يتصرف فى الأمور وأقام بجامع السلطان فرج بن برقوق ديوانا لسماع القصص التى كانت ترفع من الناس على حسن باشا فلبث الديوان ينظر فى تلك القصص من العاشر من رجب من السنة إلى غاية رمضان من السنة فأبان التفتيش عن شىء كثير من مظالم تكاد لا تحصر ولا تعد وكان منها مائة ألف أردب وأربعمائة واثنان وخمسون أردب قمحا بيعت من الشون وأخذ ثمنها حسن باشا المذكور وغير ذلك من الاختلاسات الأخرى قيل فلما رفع أمر هذا كله إلى السلطان مراد وكان حسن باشا المذكور قد ارتقى منصب الصدارة العظمى أمر بإعدامه خنقا وجاءت الأخبار بذلك إلى مصر ففرح الناس بموته لما قاسوه فى أيامه من البلايا والإحن.

وسار إبراهيم باشا من القاهرة إلى داخلية البلاد ليستطلع أحوال الأهالى ووصل إلى بئر الزمرد فأحاط بها علما وظفر منها بالزمرد النفيس وسار إلى دمياط وإلى المحلة الكبرى وكان بها كنيسة عظيمة للغاية وهى من أفخر العمائر القديمة وبها جماعة من قسوس المتأصلين أى أهل البلاد فلم يشأ أن تكون لهم واستعظمها عليهم فأمر بهدمها وبنى مكانها مدرسة وسماها الوزيرية فعدت له هذه نقطة سوداء فى تاريخ حياته ثم سار إلى كثير من المدن والبنادر ثم رجع إلى القاهرة وأنزل نفسه عن الولاية فى سنة اثنتين وتسعين فكانت ولايته سنة واحدة وتسعة عشر يوما وسافر إلى دار السلطنة فى شهر شوال من السنة.

(مطلب)

ولاية سنان باشا الدفتردار

فتولى بعده سنان باشا الدفتردار ودخل القاهرة فى ثالث عشر شوّال من السنة وإبراهيم باشا بها فلما استقر به المنصب طغى وتجبر وظلم الرعية وصادر الناس فى أموالهم وأراق الدماء لأقل الأسباب وأضعفها واشتد شدّة بالغة فضج الناس ورفعوا أمره إلى دار السلطنة فأتاه الأمر بالعزل وقد تصرف إلى ثالث عشرى ربيع الآخر سنة خمس وتسعين وتسعمائة، فكانت مدة تصرفه سنتين وستة أشهر وعشرة أيام ولبث بالقاهرة إلى أن قدم أويس باشا واليا ونزل بناحية شبرا قريبا من بولاق فأرسل إلى أويس باشا المذكور هدية عظيمة للغاية ومعها حصان أشهب مسرج بسرج مرصع وعدة تليق به وكان يؤمل أن أويس باشا حال طلوعه من المركب إلى الوطاق المنصوب له يركب الحصان المذكور فعدل عنه وركب أكديشا أشهب كان أحضره معه ثم إن سنان باشا قدم ناحية شبرا وقابل أويس باشا عند غروب الشمس فشاهد علامات الغيظ على وجهه فهاله ذلك وداخله الخوف فلما رجع من عنده إلى القاهرة اختفى ولم ير بعد ذلك إلا فى الديار الرومية .

(مطلب)

ولاية أويس باشا

وتصرف أويس باشا فى أمور البلاد من ثالث عشرى جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وكان قبل ذلك قد ولى القضاء ثم صار دفتردار الروم إيلى ثم جاء إلى ولاية مصر فكان جبارا عنيدا شديد البطش سفاكا للدماء كثير الأخذ بالشبهات ثم تطاولت يده أيضا إلى العبث بأمور العساكر والأجناد والتصرف فى مرتباتهم وجماكيهم بما يناسب هواه فخرجوا عليه وأحاط جماعة منهم بديوانه ودخل عليه جماعة وأوسعوه ضربا ونهبوا داره فأخذوا جميع ما كان بها من مال ومتاع وقاموا على عثمان أغا أغاة الجاويشية وذبحوه ذبح الشاة وأحرقوا دار القاضى وقتلوا اثنين من قضاة مصر ثم عمدوا إلى حوانيت القاهرة ومصر فنهبوا ما فيها وعاثوا وأفسدوا وفعلوا ما لا خير فيه وذلك فى شوّال من سنة ثمان وتسعين فخاف الناس خوفا شديدا وانكمشوا فى البيوت وتحصنوا بها وقد تطاولت أيدى العامة والغوغاء إلى

النهب والسلب أيضا فكانت فتنة عظيمة للغاية لم تقدر الأمراء ولا كبار الجند على تسكينها وبذل الباشا الجهد فى ملاطفة أصحاب الفتنة وكبار العصابة وبعث إلى القضاة يعلمهم بأن لا يخالفوا للثائرين أمرا عسى أن ينكفوا عن فعالهم فزاد تمردهم وطغيانهم وقبضوا على أولاد الباشا وأخذوهم رهنا على ما يطلبون وكان أولاد البلد إلى هذا الحين يدخلون فى خدمة الدولة ويلبسون لباس العسكر لهم ما لهم وعليهم ما عليهم فلما وقعت هذه الفتنة حرموا من ذلك وحظر عليهم الدخول فى مصاف العسكر إيجابا لطلب أهل الثورة وحدثت عقب ذلك مصادرات كثيرة من وجوه شتى. قال بعض كتاب الأخبار: فكان لاويس باشا المذكور يد فى هذه الحركة لأمر خفى وطالت أيام الفتنة فقلت الأقوات وعز وجودها وضج الفقراء واجتمعوا تحت قلعة الجبل وسبوا أويس باشا ورجموا الناس بالأحجار، ولما كان يوم الأحد رابع صفر سنة تسع وتسعين حصلت زلزلة بالقاهرة ومصر بعد ظهر اليوم المذكور فمكثت درجة وسدس درجة وسقط بسببها عدة منارات وبيوت وربوع وفاض الماء من حيضان الحمامات ومطاهر الجوامع وهدمت عقبة أيلة فنهب العرب جميع ما كان بها من ذخيرة للحجاج والمرابطين قيل ولم يسبق وقوع مثل هذا الزلزال إلا من عهد بعيد للغاية ووقعت بعدها بثلاثة أشهر أى فى يوم الأربعاء عاشر جمادى الأولى من السنة زلزلة أخرى ولكنها لم تلبث إلا يسيرا جدا فزاد تشاؤم الناس وكرههم إلى أويس باشا وعجوا إلى الله تعالى وتضرعوا إليه وكثر الدعاء بالجوامع وغيرها فلما كان سادس شهر رجب سنة تسع وتسعين أصابته سكتة قلبية فجأة فمات بها ودفن بالقرافة ففرح الناس بموته فرحا لا يوصف وكانت مدة تصرفه أربع سنين وشهرا واحدا وثمانية أيام فنظم بعضهم تاريخا فى موته فقال:

أهلك الله أويسا أنه   جار فى الحكم ولم يخش الوعيد
مذ أتى مصر تعدى حدّه   وبه الظلم تبدى فى مزيد
هلك الحرث وكم من فتنة   قد أثيرت منه فيما لا يفيد
مذ دهاه الموت ما أفلته   لا ولا كان له عنه محيد
خاب سعيا بوفاة أرخو   ها وخاب كل جبار عنيد
سنة ٩٩٩ ٦٠٩ ٥٠   ٢٠٦ ١٣٤

(مطلب)

ولاية أحمد حافظ باشا الخادم

فلما مات تولى بعده أحمد حافظ باشا الخادم فدخل مصر فى سابع عشرى رمضان سنة تسع وتسعين وتسعمائة وأيتصرف فى الأمور فكان نعم الرجل ذا رأى وتدبير محبا للعلم والفقراء حسن السياسة فأمنت فى أيامه السبل وانتظمت أحوال الرعية وامتنع أهل الفساد وانكف الولاة والعمال عن العبث بأمور الرعية وكان يجلس للناس فترفع إليه القصص بحاجات الخلق وعمر فى أيامه وكالة كبرى وأخرى صغرى وسوقا وربوعا وبيوتا ببولاق من القاهرة بجوار شون الحطب وعمل مصلى بالوكالة الكبرى مطلة على النيل وعمر كذلك برشيد عمائر أخرى عظيمة وعمل سحابة بطريق الحاج وبه النفع للحجاج فلما كان التاسع من شعبان سنة ثلاث وألف هجرية جاء الأمر بالعزل والقيام إلى دار السلطنة فكانت مدة تصرفه ثلاث سنين وعشرة أشهر واثنين وعشرين يوما ولما بلغ دار السلطنة حمدت مساعيه بديار مصر فولى الصدارة العظمى ثم أنزل نفسه عنها واستأذن فى الحج فأذن له وجاء إلى مصر بحراً فتلقاه الكبراء والأمراء أحسن ملتقى وأهدوا إليه الهدايا النفيسة فحج ورجع إلى الديار الرومية فمات بها.

(مطلب)

ولاية قيودر باشا

وتولى بعده على ديار مصر قيودر باشا فدخل القاهرة فى ثالث عشر رمضان سنة ثلاث وألف وكان أمياً ذا ذكاء محباً للهو واللذات قليل الحيلة ضعيف الرأى لا هم له غير اللعب واللهو ويروى عن لهوه حكايات كثيرة أضربنا عن إيرادها هنا صفحا.

وكان لما تولى السلطان مراد السلطنة أمر فانشئوا بالمدينة تكية ورباطا بظاهر المدينة وقرر بها أرباب وظائف ومجاورين ورتب بالتكية طعاما وحبوبا للحرمين ووقف على ذلك قرى من قرى مصر المحروسة بإقليم البحيرة ناحية نكلا وناحية الضاهرية وبالمنوفية ناحية سبك الأحد وناحية شبرازنكى وبالقليوبية ناحية طنان وناحية كفر زريق وناحية طوخ الملق وناحية سد طنان وناحية سنهرا وبالدقهلية ناحية سندوب

وناحية منية سمنود وناحية أبو الحسن وبالجيزة ناحية كوم برا وناحية نهيا وناحية العتامنة وناحية ديشنا وبالوجه القبلي البهنساوية وناحية بلينا وناحية الذيل وناحية العتامنة وناحية ديشنا وناحية نها بلفية وناحية دنديل وناحية العتمانة وناحية الضوابط وناحية اهناس الخضراء فكان يجهز إلى بندر السويس من متحصل النواحى المذكورة فى كل عام من الحب ألفى أردب ومائتى أردب تحمل فى مراكب فى وقف الدشائش الدارية إلى الينبع برسم التكية المذكورة ومجاورى الحرمين هذا عدا ما كان يجهز من النقد من متحصل النواحى المذكورة فى كل عام صحبة أمير الحج المصرى وقدره سبعة عشر كيسا توزع على أربابها من مجاورى الحرمين، ولعل هذا كله باق إلى الآن، فتطلع قيودر باشا إلى هذه الأوقاف وطمعت نفسه فى أخذ بعضها فلم يقدر ثم خشى العاقبة وانعطف إلى غيرها من موارد الأموال فشكاه الدفتردار إلى دار السلطنة وبالغ فى فساد الأحوال وعدم صلاحيته للولاية. قال أصحاب التاريخ: ولم تكن هذه الأوقاف والخيرات والتكايا لتكفر عن ذنوب السلطان مراد وما اقترفه من جريمة قتل إخوته الخمسة بعد توليته منصب السلطنة فإنه بعد أن تمت له البيعة واستقر به المنصب أمر فقتلوا إخوته المذكورين صبرا ليأمن على ملكه من النزاع ولم يخش الخزى والعار فكانت هذه الفعلة الشنعاء نقطة سوداء فى صفحات أيامه مع مايضاف إلى ذلك من تحجبه عن الناس وعدم اكتراثه بالأمور وتركه الغزو والخروج فى مقدمة الجند كما كانت تفعل أجداده حتى طمع العدو فى البلاد وتغلبت دولة النمسا على كثير من القلاع والحصون العثمانية وانتصرت فى عدة وقائع عظيمة مات فيها كثير من رجال الدولة، ومقدمى العساكر وخرجت بعض الأيالات عن الطاعة فقاتلت حتى انتصرت ونالت الاستقلال واسترجعت ما أخذ من مدنها وبلدانها عنوة واستخفت طوائف الانكشارية بقدر الدولة فتمردوا وأهانوا كبارهم ومقدميهم وثاروا على بعض العمال وكبار الدولة فقتلوهم جهادا ولم يقو السلطان على منعهم حتى كاد يبلغ الخلل حده وكانوا سببا فى دوام الحروب ومعاداة الممالك المجاورة لدولة القسطنطينية لاجتماعهم على الخلاف وعبثهم بأمور الدولة وتقويض أركان الأمن فيها بما يفعلونه من القتل والنهب وإذلال كبارهم عند أقل سبب وقد كان مما أهاجهم وخرج بهم عن حد الطاعة أنه لما كثر فسادهم وكبر شرهم بما فشا فيهم من الإدمان على السكر والإفراط فيه أمر السلطان بمنعهم من ذلك وبالغ فى عقاب من يقبض عليه سكران فقاموا عند ذلك قومة رجل واحد وحاصروا السلطان فى قصره وضيقوا

عليه وصمموا على قتله جهارا ولبثوا على هذا الحال أياما كثر فيها النهب والسلب والعربدة وتطاولت أيدى الناس لسلب أموال بعضهم ولم تسكن هذه الفتنة إلا بعد أن أباح لهم السلطان السكر وتعاطى الخمر والرجوع إلى ما كانوا عليه من العربدة والفساد.

وظلت الأحوال فى مصر ودار السلطنة فى قلق واضطراب بعضه بسبب الحروب المتواصلة بين السلطنة والممالك المجاورة وبعضه بسبب كثرة العزل والتولية فى ولاة مصر وتحزب الأحزاب وظهور كلمة الجند فيها وعدم وقوف كبارهم عند حد إلى أن مات السلطان مراد فى السابع عشر من جمادى الآخرة وقيل سابع عشر رمضان سنة ثلاث وألف هجرية فكانت سلطنته عشرين سنة وتسعة أشهر وستة أيام فخلفه ابنه السلطان محمد.

ومات فى أيام السلطان مراد غبريال بطرك المتأصلين بعد أن أقام تسع عشرة سنة وكانت الأمور فى أيامه على طرفى نقيض ما صفت يوما إلا وتكدرت أياما فأقيم بعده يوحنا وهو تاسع ثمانيهم ولم يكن لرهبانيته دير وكان حازما هيبا محبوبا محبا للخير ميالا للفقراء آوى إليه كثيرا من ذوى الحاجة فمد لهم يد المعاونة وبذل لهم المعروف وأقام أربعا وعشرين سنة ومات فخلفه متاوس وهو المتمم للتسعين وكان قبل ذلك راهبا فى دير المحرق ووقع من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

* * *

(الفصل الخامس)

(فى سلطنة السلطان محمد ابن السلطان مراد)

ثم قام بالأمر بعد السلطان مراد ولده السلطان محمد بويع له بالملك فى يوم الجمعة سابع عشرى جمادى الآخرة سنة ثلاث وألف هجرية أى سنة أربع وتسعين وخمسمائة وألف ميلادية ولم يستقر به مقام السلطنة حتى قام على إخوته فقتلهم ليأمن على ملكه من المنازع وكأن هذه الفعلة الشنعاء قد صارت سنة عند ملوك آل عثمان يعمل بها الخلف عن السلف ثم تحجب بعد ذلك عن الناس وانعكف على الملاذ وترك أمور المملكة لجماعة الوزراء فعاثوا وأفسدوا وتصرف كل

منهم على هواه وعمل على ما فيه مصلحته فباعوا الوظائف وألقاب الشرف بأبخس الأثمان وسلموا مقاليد الدولة للأغرار والسفلة فبلغ الخلل حده وزالت حرمة الدولة وكبر طمع العدو فيها فخرجت عليها الخوارج وقامت الحروب من كل جانب واشتدت الخطوب وظهر الأمير ميخائيل صاحب الفلاخ على عساكرها فى عدّة مواقع عظيمة وضم إلى مملكته إقليم البغدان وجزءاً كبيرا من نسلفانيا وساعدته على غير ذلك أيضا عساكر الفساد فعم الخلل جميع أنحاء المملكة وقامت الفتنة وتطاير شررها إلى جوف الأناطولى وظهر رجل اسمه قره يازجى كان من مقدمى المتطوعة الذين نفاهم السلطان إلى آسية لجبنهم فى الحروب وادعى أن صاحب الشريعة الإسلامية أتاه فى منامه وأمره بالغزو والجهاد فى آل عثمان ووعده بالنصر والغلبة عليهم وأخذ جميع ولايات آسية منهم وبث الدعاة بذلك فى الآفاق فتبعه خلق عظيم من أولئك اللموم فنزل بهم على بلاد القرمان وقتال عامل الدولة عليها حتى ظفر به وأخذ مدينة عين تاب عنوة فكبرت عند ذلك لمومه وظهرت كلمته واشتهر أمره فسير السلطان لقتاله جيشا من الانكشارية فحاصروا مدينة عين تاب وضيقوا عليها وشددوا، فلما أحس قره يازجى بالغلبة وأنه مأخوذ لا محالة عمد إلى استعمال الحيلة فعرض على مقدم الانكشارية الطاعة للسلطان بشرط أن يوليه أماسيا فأجابه إلى ذلك ورفع عن المدينة الحصار فلم يكن بأسرع من أن عاد قره بازجى المذكور إلى العصيان وكان له أخ اسمه والى حسن قد ولاه السلطان على بغداد فسير إليه قره يازجى رسلا تستفزه إلى شق عصا الطاعة والقيام لنجدته فأجابه إلى ذلك وسير إليه جماعة كثيرة من أصحابه فاشتدت عزيمة قره يازجى واستفحل أمر الفتنة وظهرت كلمة قره يازجى وأخيه والى حسن واتسعت شهرتهما وكادت تعم دعوتهما فكبر الأمر على السلطان واستعظمه وسير لقتالهما عسكرا عظيما ومقدمهم صقللى حسن باشا فقاتلوا أوّلا قره يازجى حتى ظهروا عليه وجرحوه فترفع إلى الجبال ومات بجراحته ثم انحازوا لقتال والى حسن صاحب بغداد فقاتلهم قتالا عنيفا وانتصر عليهم فى عدة مواقع وقتل صقللى حسن باشا على أسوار (توقات) ومزق شمل عساكره، ثم سار ونزل على دمشق بخيله ورجله فهزم واليها شر هزيمة وهزم ولاة حلب وديار بكر ونزل على مدينة كوتاهية فحاصرها وضيق عليها من كل جانب فاشتد عند ذلك الخلل وتعاظم وهمت أكثر أيلات الدولة إلى الخروج وتأهبت إلى شق عصا الطاعة إلا مصر فإنها كانت فى شاغل عن هذا كله بما قد انتابها من

كثـرة التولية والعزل فى ولاتهـا وعدم وقوف الجند والأمـراء فيها عند حـد وعسف واليهـا قيودر باشـا وعبثـه بجميع الأمـور وتطاول يده إلى أموال الناس بلا اسـتثناء ومازال الحـال على ذلك إلى سابع عشـر رجب سنة أربع وألف ثم جاء قيـودر باشا المذكور الأمر بالعزل فكانت مدة ولايته عشرة أشهر وعشرة أيام فتولى بعده الشريف محمد باشا ودخل القاهرة فى ثالث شوال سنة أربع بعد الألف وكان مهيبا ذا بصيرة وخبـرة بالأمور واسع الاطلاع بإدارة البلاد فلمـا استقـرت به الولاية وجلس للناس رفعت إليه القصص ضد كوسى حسن الـشاغرت وأحمد المسلمانى وكان الأول على الأموال والثانى على الشون السلطانى وكانا قد اختلسا منهما شيئا كثيرا فعين عليهما من ضبط حـسابهمـا فثبت عليـهما مـاقيل فأمـر بشنقهمـا على باب زويلة وتركت أجسادهما معلقة ثلاثة أيام فهابه الناس وخافوه خوفا ما عليه من مزيد فخامره لذلك الغرور حتى بلغ به إلى الأخذ بالشبهـات والبطش بمن يتوسم فيه سمة الإنكار وأراد أن يبطش ببعض كـبار الناس فأشيع عنه ذلك فـتحذروا منه وأبغضـه الناس والأمراء كافة فلما كان فى بعض الأيام أراد التوجـه إلى الربيع فمنعه بعض أصحابه وأنذروه بسوء العاقـبة إن هو ذهب فى يومه فنبذ كلامـهم، فلما خرج قام عليه جـماعة من العسكر وتعرضوا له عنـد انصرافه وهو بباب الوزير بموكبه الخاص وعـساكره وطائفة من السامانية وهم معـدون بالبنادق فلما عاين من معه كثرة العـساكر تفرقوا عنه فى الأزقة وتركوه فى نفر قليل من أتبـاعه فدعاه العسكر للمحاكمـة أمام قاضى القضاة بمدرسة السلطان حـسن فأظهر لهم الانقـياد والطاعة وسار مـعهم إلى أن وصل إلى الرمـيلة فأركض فـرسه نحـو باب السلسلة ودخل القلعـة وأغلق الأبواب بينه وبين العسكر فهاج العسكر وأثاروا الفتنة وقتلوا كل من كـان يكثر التردد على محمد باشا من الأمراء والعلماء وأصـحاب الوظائف وأخذوا الناس بالشبهات فـعم الخوف وكبر اضطراب الناس وبقى مـحمـد باشا بقلعـة الجبل مكفـوف التصـرف قاصر الكـلمة محجورا عليه إلى أن جاءه الأمر بالعزل فى خامس عشرى ذى الحجة سنة ست بعد الألف وكان جبارا عنيدا سـفاكا للدماء وقع فى أيامه قحط شديد للغـاية استمر مدّة وأعقب القـحط وباء عظيم فكثر الموات فى الناس بالقاهرة ومـصر وضواحيـها وزاد زيادة بالغة ثم عم الـقرى وانتقل أيضـا إلى بقية البلدان فكـانوا يدفنون الأموات فى الليل والنهار وكثـرت الجثث فى البيوت وفى الطرق والحـارات واشتد الوهم بالناس وفر محمد الشريف باشا من القاهرة هربا من الموت واستخلف على البلاد بيرى بيك

أحد كبار الأمراء فلم تستقر به الولاية حتى أدركه الموت فولى الأمراء بدله عثمان بيك فأقام إلى أن كانت الفتنة وعزل محمد الشريف باشا وأتى خضر باشا واليا فكانت مدة تصرف محمد الشريف باشا سنتين وشهرين وثلاثة عشر يوما وخرج من مصر فى موكب عظيم وعلى رأسه عمامة خضراء وركب معه خاصة العسكر وعامته فلما وصل إلى الديار الرومية أرسله السلطان لقتال ملك فارس فأسر وبقى ببلاد فارس إلى أن مات .

(مطلب)

ولاية خضر باشا

ودخل خضر باشا القاهرة فى عشرى ذى الحجة سنة ست بعد الألف فتصرف ثلاث سنوات وخمسة أيام فلم يقع فى أيامه من الحوادث شىء يذكر إلا ما كان من سكون الفتنة ورجوع الجند والعسكر إلى الطاعة وزوال الخوف من قلوب الرعية ثم عزل فى خامس عشر المحرم افتتاح سنة عشر وألف.

(مطلب)

ولاية علي باشا

وتولى بعده على باشا فدخل القاهرة فى تاسع صفر سنة عشر وألف، وكان لما قدم إلى الإسكندرية لبث بها أياما فتراكمت عليه القصص وتساقطت بين يديه بالشكوى من الكشاف وبعض رجال الدولة وأكثرها من برويز كاشف المنوفية وكان برويز هذا عتلا زغبا ظالما محبا للمال كثير المصادرة للناس سفاكا للدماء لا دين له ولا ذمة ولا حرمة ولا أدب فلما أتى الكشاف للقاء على باشا المذكور وبينهم برويز هذا أمر به على باشا فقبضوا عليه وقتلوه بين يديه، وقيل إن لقتل برويز المذكور سببا غير ذلك هو أن شيخى افندى الذى كان متوليا قضاء المنوفية وانصرف عنها قد اجتمع بعلى باشا فى جزيرة رودس فسأله على باشا عن مصر وأحوالها وما فيها من الأمور الخارقة فحدثه بما علمه من أحوال البلاد وأهلها وبالغ فى الوقيعة ببرويز كاشف المنوفية المذكور وأخذ يعدد فظائعه فلما وصل على باشا إلى كفر الخضراء رفعت إليه القصص ضد محمد بن نجا حاكم النحراوية فقبض عليه وقتله بفناء الكفر

فهابه الحكام وخافه الكشاف ودخل القاهرة فى هيبة وجلالة وقبض على برويز وقتله فلقبوه من يومئذ بالنمر، ولما استقرت به الولاية أرسل قوسا وأمر أن يعلق على باب زويلة بالمرمى ولصق به ورقة ذكر أنه مكتوب فيها كل من أدنى هذا القوس يعطى ما هو مقيد بالورقة فلم يجسر أحد أن يمس القوس تأدبا واستمر وهو معلق أياما ثم رفع ثم اشتد بعد ذلك على العسكر وضيق عليهم وصار يؤاخذهم على الصغائر والكبائر فأبغضوه وجعلوا يراقبون فرصة للانتقام منه فاتفق أنه سار إلى طندتا لزيارة السيد البدوى فعارضه بعض العسكر ومنعوه من الخروج من القاهرة إلا إذا أعطاهم ما كانوا طلبوه منه فأجابهم إلى سؤالهم صاغراً وعاد إلى القاهرة، وقد كاد يتميز غيظا فمرض واشتد به مرضه فأرسل إلى دار السلطنة يطلب الإذن بالعود إلى القسطنطينية فأذن له فسافر فى سادس ربيع الآخر سنة اثنتى عشرة وألف فكانت مدة تصرفه سنتين وستة أشهر وعشرين يوما فلما وصل إلى دار السلطنة قلد منصب الصدارة العظمى ثم وجه لقتال المجر فلم يلبث إلا قليلا وعاوده المرض فمات هناك وكانت أيامه بمصر كلها خير وبركه وظهر فى أيامه التبغ بديار مصر وكثر استعماله ولم يكن إلى ذاك الحين شيئا يذكر وظهر الطاعون فمات به خلق كثير جدا وعم القرى والمدن والبنادر ومكث أياما وفتك فتكا ذريعا ثم ارتفع، وجاءت الأخبارفى هذه الأثناء بموت السلطان محمد، مات فى رجب سنة اثنتى عشرة وألف هجرية فكانت مدة سلطنته تسع سنين وخمسة عشر يوما وتولى بعده ابنه السلطان أحمد .

* * *

(الفصل السادس)

(فى سلطنة السلطان أحمد ابن السلطان محمد خان)

ثم قام بالأمر بعد السلطان محمد ابنه السلطان أحمد بويع له بالملك فى ثالث رجب سنة اثنتى عشرة وألف هجرية أى سنة ثلاث وستمائة والف ميلادية وله من العمر ثمانى عشرة سنة فاستوزر الأمير قويجى مراد باشا وكان شيخا كبيرا صادق الخدمة تولى الوزارة وأركان الدولة متزعزعة فى جميع جهات آسية والفتنة قائمة ونار الحرب مستعرة على حدود فارس شرقا والنمسا غربا والسبب فى ذلك أنه لما تولى

عباس شاه على ملك فـارس بعد موت محمد مرزا فى سنة أربع وتسعـين وتسعمائة هجرية نهض إلى استرجـاع ما أخذه ملوك آل عثمان من ملك فـارس فأعد المعدات وجيش الجـيوش ورمم القلاع والحـصون وسار فى عسكر مـن خراسان إلى مشـهد وكانت قد استولت عليها قبائل الأزبك فـاستخلصها منهم وانتصر عليهم عند هرات أيضاً نصرة عظيمة فلما تقوت عزيمته بما ناله من الظفر عمد إلى قتال آل عثمان فنال منهم واسترجع جميع ما أخذوه من مملكة فارس عنوة ولم تقو الدولة على رده يومئذ لاختلال الأحوال وسريان الفساد فى جـميع ولايات الدولة الشرقية وخروج الخوارج بعضهم يستفز بعضاً فلما بطلت الحرب مع عباس شاه سار قويجى مراد باشا الصدر فى مقدمة جيش عظيم إلى إطفاء نار الفتنة وقمع أولئك الخوارج فى جميع الولايات الشرقية فقاتلهم وانتصر عليهم ومزق شمل لمومهم وقبض على كبارهم وأعمل فيهم القتل بحـد السيف ومازال بهم حتى زالت الفـتنة وعادت الأمور إلى سابق مـجراها ورجع بمن بقى من جيوشه إلى القسطنطينية ظافراً غانماً فلقب يومئذ بسيف الدولة ثم مات بعد ذلك فكان موته خـسارة عظيمة على الدولة لصدق خدمته وأمـانته وسعيه فى إعلاء منار الدولة وإرجاع رونقها القديـم، فتولى بعده الوزارة نصوح باشا واتفق بعد ولاية نصـوح باشا هذا أن عادت سفن رهبنة مـالطة وسفن الحرب الأسبـانيولية إلى مهاجـمة مراكب الدولة وسد المسالك عليـها فى عرض البحر الأبيض وأعـانتها على ذلك المراكب الإيطـالية أيـضاً، فـرسم نصـوح باشـا لجـمـيع مـراكب الدولة بالاجتمـاع فى البحر الأبيض والمحافظة على المواصلة ما بين الـقسطنطينية والأيالات المغربية فاجتمعت وكان مجئ بعضها من البحر الأسود، فلما خلا البحر الأسود منها قامت طائفة من القوزاق وزحفت على ثغر سينوب فنهبوا وعاثوا وأفسدوا وفعلوا ما لا خير فيه وجاء الخبر بما وقع إلى دار السلطنة فأكبره السلطان واتهم الصدر الأعظم بالخيـانة وسوء القصد وكـان للصدر خصـوم وأعداء لا تغفل عن الوشـاية به فزينوا للسلطان قتله وحببوا إليه التخلص منه فأمـر به فقتلوه خنقاً فى قصره. وكانت مصر إلى مـا بعد خلع واليـها عـلى باشا وقـيامـه إلى دار السلطنة بأيام كـثيـرة بلا وال والأحوال فـيها فى اضطراب والأمراء والجند علـى طرفى نقيض حتى جاء مـرسوم السلطان إلى أميـر الحاج بالتصـرف فى ولاية البلاد فتـصرف من عاشـر ربيع الآخر فكان لا بأس به أصلح بعض الأمور ورفع بعض المغارم وأبطل كـثيراً من المظالم وأعاد الجند إلى حد الطاعة وأزال الشحناء من بين كبارهم ولكن لم تطل مدته إذا اخترمته

المنية فى يوم الثلاثاء سادس شعبان سنة اثنتى عشر وألف من الهجرة فكانت مدة تصرفه نحوا من خمسة أشهر ودفن بالقرافة فاتفق الأمراء وكبار الدولة على تولية عثمان بك أمير اللواء، فولوه المنصف فى سابع عشر شعبان المذكور إلى أن يقدم من دار السلطنة من يتصرف وكان الأمير عثمان هذا مشهوراً بالعفة والاستقامة وله جلالة وهيبة ورأى وخبرة بالأمور فتصرف مدة ثلاثة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً.

(مطلب)

ولاية إبراهيم باشا المعروف بالمقتول

ثم جاء الخبر بولاية إبراهيم باشا المعروف بالمقتول فدخل القاهرة فى يوم السبت ثانى عشري ذى الحجة سنة اثنتى عشرة وألف فلما استقر به المنصب وتصرف فى الأمور منع الكثير من طلبات العسكر وجعل يتتبع عثراتهم ويتجسس أخبارهم ولاسيما مجالس هزلهم فأشار عليه أصحاب المعرفة بأن يقلع عن هذا فلم يقبل وكان مستقلاً برأيه فخوراً مختالاً لا ينقاد إلى نصح ولا يهتدى لقول مشير. واتفق أن أتت له الأخبار يوماً بأن جماعة من العسكر بالغيط الذى بقناطر السباع يتعاطون الخمر ويفعلون ما لا خير فيه فقام وغير لباسه وسار إليهم ومعه ثلاثة رجال من خواصه فلما علم العسكر بحضوره فروا هاربين وزاد بغضهم له ونووا قتله فلما كان فى تاسع عشر ربيع الآخر سنة ثلاث عشرة خرج إبراهيم باشا فى نفر من الجند والأتباع وأصحاب الوظائف والصناجق لقطع جسر أبى المنجى بين شبرا وقليوب فأشار عليه بعض أصحابه أن لا يخرج وأن الذى يخرج عادة لقطع هذا الجسر هو زعيم مصر فإن كان ما يمنعه أرسل بعض أتباعه لقطعه فقال وما علىَّ لو ذهبت بنفسى قالوا إن خواطر الجند منحرفة وقلوبهم متغيرة عليك بسبب فعلك بهم فقال لابد من الذهاب وخرج بغير إحجام وقد أدركته صلاة الجمعة ببولاق القاهرة فصلى بها وهيئت له سفينة عظيمة وزينت بالستائر والرايات والفرش والطنافس الثمينة فركبها وصحبته الأمير محمد بن خسرو وأمير اللواء بمصر المحروسة وبعض أكابر خدمة الديوان ومازال إلى أن وصل إلى الجسر فقطعه فى يوم السبت مستهل جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة بعد الألف، وكان إبراهيم باشا قد هيأ طعاماً بالغيط الذى أنشأه محمود باشا تجاه قناطر أبى المنجى فدخل الغيط ومن معه وصحبته الأمير محمد بن خسرو وعزمى زاده قاضى القضاة يومئذ وحصل لهم الصفو والمباسطة قبل

الطعام فلما حضر الطعام رأى الأمير محمد بن خسرو وطائفة من العسكر مقبلين بسلاحهم يريدون الفتك بهم فأسرع إليهم وعارضهم وسألهم عما يطلبونه فسألوا من إبراهيم باشا شيئاً كان يمكن قضاؤه فى الحال فلما رأى إبراهيم باشا ما هم عليه من التهديد والجفاء والتحزب لم يجبهم إلى ما طلبوه وأغلظ عليهم القول فتقدموا نحوه فمانعهم الأمير محمد وزجرهم وصاح فى وجوههم فطعنه أحدهم بخنجره فسقط يختبط فى دمه فعلا صدره آخر واحتز رأسه وهجم آخرون على إبراهيم باشا واحتزوا رأسه وهو على مائدة الطعام فامتلأت أوانى الطعام من دمه ورفعوا رؤوسهما على جريدتين من نخيل الغيط وعادوا إلى القاهرة وهم فى ضجة وجلبة وطافوا بهما الشوارع وساروا من وسط المدينة إلى باب زويلة وعلقوهما هناك فخاف الناس وأغلقت جميع الحوانيت فى ذلك اليوم وسدت أبواب الدور من خلف وأيقن الناس بوقوع الفتنة واضطرام نارها وأغلقت أبواب المدينة كباب الحسينية وباب النصر وباب البحر وتعطلت جميع الأعمال فكان يوماً عبوساً وفى قول أن قتل إبراهيم باشا المذكور كان فى قلعة الدولاب وهو راجع مع من كانوا معه إلى القاهرة لما بلغه خبر حضور العسكر لقتله. وكان قد أشار عليه بعض الصناجق بالهروب بحراً وعدم العود إلى القاهرة فلم يلتفت لقولهم ولا أخذ بمشورتهم فلحق به العسكر وقتلوه واحتزوا رأسه وطافوا به فى الشوراع وعبثوا وأفسدوا فى ذلك اليوم وفعلوا ما لاخير فيه فكانت مدة تصرف إبراهيم باشا المذكور فى الولاية أربعة أشهر وثمانية أيام لاغير وقد نظم بعضهم تاريخاً فى موته فقال:

إن إبراهيم باشا قد سعى في الخير سعياً
قتله قد أرخوه وأرى التاريخ بغياً
سنة ١٠١٣

(مطلب)

ولاية جرجي محمد باشا الخادم

ولما قتلوه على الصورة المتقدمة أقاموا قاضى القضاة عزمى زاده والياً بعده فى ثالث جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة بعد الألف وقد كانوا أرادوا أن يولوا الأمير عثمان بك فامتنع ولم يقبل. فلما وصل خبر قتل ابراهيم باشا إلى دار السلطنة غضب السلطان ورسم بولاية جرجى محمد باشا الخادم وأمره بقتل الثائرين وقطع

دابر جميع من كان له يد فى هذه الثورة، فدخل القاهرة فى سابع رجب سنة ثلاث عشرة بعد الألف وأتى إلى الصناجق أيضاً مرسوم السلطان بما ذكر فلما استقر محمد باشا بالقلعة وطلب الأمراء ليقرأ عليهم مرسوم السلطان وأن يأتوا بأهل الفساد وأصحاب الثورة خاف الأمراء وامتنعوا من الصعود إلى القلعة واجتمعوا بقراميدان تحت القلعة وتشاوروا طويلاً وكان بعض أكابر الدولة يترددون ما بين الباشا والصناجق حتى استقرت القاعدة بينهم على تسليم زعماء الثورة والعفو عن الصناجق فسلموهم فأمر الباشا برمى أعناقهم بين يديه فرميت فى الحال وتشتت من بقى من أصحاب الثورة فى البلاد فراراً من وجهه فجد فى طلبهم من الكشاف فمنهم من جيء به حياً فقتل ومنهم من قتله العربان، قال بعض كتاب الأخبار: فكان ما قتله منهم نيفاً ومائتين فى مدة تصرفه، وكانت مدة يسيرة إذ جاءه الأمر بالعودة إلى الديار الرومية فسار فى يوم الأحد ثانى عشر ربيع الأول سنة أربع عشرة فكانت مدته سبعة أشهر وسبعة عشر يوماً وتقلبت به الأحوال إلى أن ولى مسند الصدارة العظمى وكان حازماً شهماً قوى الجأش حسن التدبير صائب الرأى ذا خبرة بالأمور واسع الكلمة مهيباً.

(مطلب)

ولاية حسن باشا الدفتردار

وتولى بعده حسن باشا الدفتردار وقد كان والياً على اليمن ثم صرف عنها وقدم منها صحبة الحج إلى القاهرة فتردد عليه الناس وزاره الأمراء والعلماء والأكابر فشاهدوا منه رجلاً عاقلاً أديباً محتشماً وأقام بالقاهرة أياماً كان يبحث فيها عن أحوال البلاد وسير الكشاف ومعاملة أرباب الحل والعقد لأهالى البلاد فوردت الأخبار إلى القاهرة فى يوم الاثنين ثالث ربيع الأول سنة أربع عشرة وألف بولاية حسن باشا المذكور على الديار المصرية وقد كان إذا أتى لزيارة الكبراء والأمراء والعظماء توجع لهم مما يشاهده من ضنك الأهالى وفاقة الناس واشتداد الكروب ويقول إذا آتانى الله سبحانه ولاية مصر بذلت فى إصلاح الأحوال مهجتى، فلما جاءته الولاية واستقر بها لم يمنع ولم ينفع واختلت أموره وقصرت كلمته وعمت البلوى وانقفل فى وجه أصحاب الظلامات باب الشكوى فعاث العسكر فى أيامه وعادوا إلى التمرد والإفساد فلم يقدر على ردهم فاشتدت الفتنة وظهر أهل الفساد

وارتفع الأمن وسدت الطرق فى وجوه أبناء السبيل وقل الوارد من المأكول إلى القاهرة ومصر القديمة فغلت الأسعار وتعذر على الفقراء الحصول على قوت اليوم ولبث الحال على هذا الوصف حتى صرف عن الولاية فى يوم الأربعاء رابع صفر سنة ست عشرة وألف فكانت مدته سنة واحدة ونصفاً وستة وعشرين يوماً.

(مطلب)

ولاية الوزير محمد باشا

ثم تولى بعده الوزير محمد باشا فدخل القاهرة يوم الخميس خامس عشر صفر سنة ست عشرة وألف وكان حازماً عاقلاً ذا فكرة وتدبير ساكن القلب هادئ اللب كثير الصبر والجلد فلما استقرت به الولاية التفت إلى أمور البلاد وحاجات الخلق وبالغ فى ترتيب الأحوال وتأمين السبل وإبعاد أهل البغى والفساد وأخذ الكل بالشبهات فانحرفت لذلك خواطر الأمراء عنه وأبغضه الجند وكثرت عليه الشكاوى من جور الكشاف وأخذهم أموال الناس فلما كان غاية جمادى الأولى من السنة المذكورة استقدم إليه ابن درغت كاشف المنوفية وبرويز مجر كاشف الغربية وكوسى كاشف البحيرة وعوقهم عنده بقلعة الجبل إلى غروب اليوم ثم أمر برمى أعناقهم وولى مكانهم آخرين وأخذ عليهم العهود والمواثيق أن لا يظلموا الرعية ولا يتعدوا الحدود وكان ممن عين لكشافة الغربية الحلوجى فاتفق أنه بعد توليته ذهب إلى بولاق القاهرة لقضاء مصلحته فالتقى بطائفة من العسكر وقد علموا بولايته على إقليم الغربية فسألوا منه حاجة فلم يجبهم إليها وأغلظ معهم فى القول ونهرهم فأطلق عليه بعضهم طبنجة محشوة بالبارود فانزعج وألقى بنفسه فى النيل فأثقلته ثيابه فمات غريقاً، وبلغ الخبر محمد باشا فجمع إليه الأمراء وأكابر العسكر بالميدان تحت قلعة الجبل ونشروا البيرق السلطانى ونادى مناد من كان مطيعاً لله ورسوله محمد ﷺ وولى الأمر فليدخل تحت لواء السلطنة الشريفة العثمانية، فاجتمع عالم كثير من الأمراء وأكابر العسكر ومكثوا بالميدان ثلاثة أيام ثم طلع الأمراء إلى قلعة الجبل فكلمهم الباشا طويلاً فى أمر هؤلاء الخوارج وقد كانوا بعد موت الحلوجى اجتمعوا خارج سور القاهرة وانضم إليهم طوائف أخرى من العساكر والأجناد وقسموا بينهم بلاد مصر وأقاموا عليهم سلطاناً منهم واختص كل فريق بجهة من جهات مصر العليا والسفلى وتفرقوا على ذلك فعاثوا وأفسدوا الحرث والنسل وسدوا الطرق

وقطعوا السبل ومنعوا ورود الأقوات إلى القاهرة فاستقرت القاعدة ما بين محمد باشا والأمراء فى ذلك اليوم على الخروج بطائفة من الجند لقتالهم فخرجوا واقتتلوا معهم قتالاً شديداً وظفروا بهم ومزقوا شملهم وقبضوا على زعمائهم وأصحاب الكلمة منهم وقدموهم إلى محمد باشا فأمر بقتلهم بين يديه وتتبع الجند من بقى منهم فى المدن والقرى وآبادوهم إلا من طال عمره وخمدت نار الثورة ثم لم تكد تطمئن خواطر الخلق حتى ظهر جماعة من لموم الأشقياء فى أوائل القعدة سنة سبع عشرة وألف واجتمعوا من الأقاليم القبلية والبحرية وتألفوا حزباً واحداً وحلفوا لمن بقى من متشردى أولئك العسكر بعد الواقعة الأولى على الأخذ بثارهم وقطع دابر الأمراء وأكابر الدولة ونصبوا خيامهم بالمرج والزيات وتحالفوا على الهجوم والقتال فلما علم محمد باشا بخروجهم أرسل لهم جماعة من الاختيارية الموصوفين بالعقل والتجربة فوعظوهم وحذروهم عاقبة هذا الأمر فلم ينتهوا فعادوا وأخبروا الباشا بما كان فجمع الباشا طوائف العربان ومشايخها من الأقاليم وجميع العساكر والأجناد وجيش منهم جيشاً عظيماً مدججاً بالسلاح وآلات الحرب وعدّة من المدافع وجعل مقدّمه الأمير مصطفى بك سردار العساكر فسار مصطفى بك بهذا الجيش لقتال الخوارج فلما وصل إلى بركة الحاج تراءى الجمعان فاقتتلا قتالاً شديداً وظفر بهم مصطفى بك وضيق عليهم المسالك فطلبوا الأمان واختلط الجيشان فقبضوا على أشرارهم ومقدميهم وهرب من خلص منهم فتبعتهم العربان وقتلتهم وعاد مصطفى بك إلى القاهرة بمن معه من الخوارج وهم مشاة حفاة حاسرو الرؤوس مكبلون بالحديد ورؤوس القتلى مرفوّعة على الرماح ودخلوا جميعاً من باب النصر والناس ينظرون إليهم ومروا بالقصبة إلى أن وصلوا إلى القلعة فلما تمثلوا بين يدى محمد باشا أمر بجماعة منهم فقتلوا فى ساعة وصولهم والباقى منهم قتل فى ليلة وصوله وألقوا جثثهم فى النيل ثم أخذوا يتتبعون أثر من بقى منهم فكانوا إذا عثروا بأحد نفوه إلى اليمن، ومازالوا حتى لم يبق منهم أحد وصفت الحال وسكنت خواطر الخلق واطمأنت قلوب سكان مصر والقاهرة، ووجه الباشا عنايته إلى ترتيب خراج البلاد وإبطال الكلف والمغارم وتخفيف الضرائب وإبطال طريقة جباية الأموال التى كانت جارية من عهد دولة المماليك الشراكسة ورسم بجبايتها على ما جاء فى حكم السلطان سليمان الموقع فى سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة وكان شفوقاً بالرعية محباً للضعفاء آخذاً بناصر المظلوم نافذ الكلمة لا يرد له أمر وما زال محفوظاً إلى أن اختار العود إلى دار السلطنة

وتنزيل نفسه عن ولاية مصر فخرج فى يوم السبت ثانى جمادى الآخرة سنة عشرين وألف فى جلالة وموكب عظيم ما تخلف عنه أحد من العسكر والأجناد والأمراء فكانت مدة تصرفه أربع سنوات وأربعة أشهر واثنى عشر يوماً وعمر فى ولايته جملة مبان وعدة عمارات بثغر رشيد وأخذ الجزر المقابلة لرشيد وأطياناً بالمنوفية والجيزة وعمل سحابة بطريق الحاج فلما بلغ دار السلطنة ولى مسند الصدارة ثم أرسل بجيش جرار لقتال ملك فارس فلم يقارن أعماله توفيق ولم ينجح له تدبير وعاد مهزوماً فولاه السلطان ولاية حلب فأقام بها قليلاً ومات.

(مطلب)

ولاية حاجي باشا وخلعه
وولاية محمد باشا المعروف بالصوفي

فتولى بعده على مصر حاجى باشا بأمر سلطانى أحضره إليه محمد باشا قبل سفره إلى يالديار الرومية وسلمه إليه إياه بمدينة بلبيس فى يوم السبت ثالث رجب سنة عشرين وألف ودخل القاهرة وتصرف لغاية يوم الخميس العشرين من شعبان من السنة المذكورة فكانت مدتة شهرًا واحدًا وسبعة عشر يوماً وتولى بعده محمد باشا المعروف بالصوفي ودخل القاهرة فى ثانى عشرى شعبان وجعل يتصرف فى الأمور فكان ظاهره اللين والرفق بالرعية وتأمين السبل وقطع شأفة أهل الفتن والفساد فلما كان فى شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وعشرين وألف قدمت إلى مصر طائفة من عسكر الدولة يبلغون زهاء أربعة آلاف غير الأتباع وكان السبب فى قدومهم أنهم ثاروا على الدولة وخرجوا عن طاعة كبارهم وكادت فتنتهم تعم فدبر الصدر الأعظم فى إبعادهم إلى مصر وأشاع بينهم أنه يريد بقاءهم بها رباطاً مستديماً فلما وصلوا إلى القاهرة أتى إلى محمد باشا مرسوم سلطانى بتجهيزهم إلى بلاد اليمن وإمدادهم بما يلزم من المؤن والعلائف ودواب الحمل قدر الاستطاعة فلما تحققوا أنها مكيدة عصوا وتمردوا فأعجلهم محمد باشا بالخروج بعد أن صرف لهم جوامك السفر وسير معهم فندق بك أحد الأمراء ليسير بهم إلى مدينة السويس فبرز فندق بوطاقة يوم ثالث عشرى ربيع الآخر من السنة المذكورة فمر الوطاق بباب زويلة ثم باب النصر وكان به أولئك العسكر فقاموا عليه ورموا بالخيام من فوق ظهور الجمال ومنعوهم من الخروج وهاجوا وماجوا ونادوا بالويل والثبور على السلطان ورجال دولته فوصل

الخبر إلى محمد باشا فجمع من وجد بمصر إذ ذاك من العسكر ورسم إلى فندق بك بالخروج إلى الريدانية بالعسكر وإجهار النداء بأن جميع العسكر الذين قدموا من دار السلطنة يخرجون صحبة السردار المعين ومن خالف قبض عليه وجوزى فامتنعوا جميعاً وأغلقوا بابى النصر والفتوح ورموا خلف البابين بالأحجار وتحفظوا من كل جانب ومنعوا كبارهم من الخروج إلى الريدانية والطلوع إلى الديوان ونصبوا حواجز بالشوارع الموصلة إليهم وتحصنوا بكثير من المتاريس وصعد جماعة منهم إلى أعالى الخانات والربوع والبيوت والجوامع والمنارات وهم ينتظرون من يقدم عليهم فلما بلغ محمد باشا خبر هذا التحصين وأن لا طاقة لفندق بك ومن معه على إخضاع أولئك الخوارج جمع الصناجق والكشاف ومقدمى الخفر بميدان الرميلة وتشاوروا فى الأمر فاستقرت القاعدة بينهم على أن يسيروا إليهم فساروا فلما عاين الخوارج ذلك الجمع أذعنوا للطاعة وأجابوا ورفعوا الحصار وأزالوا المتاريس وفتحوا الأبواب وطلبوا الأمان ودواب الحمل فأحضروا لهم ما يزيد عن ثمانين جملاً فلما وصلت إليهم الجمال عادوا إلى العصيان وضربوا الجمال بالسيوف فنفرت وتشردت وقفلوا الأبواب ثانية وعادوا إلى أقوى مما كانوا عليه من التحصين وشاع الخبر بأنهم قتلوا كبارهم ولم يبقوا على أحد فأمر محمد باشا السردار بالخروج فخرج ومعه جمع كبير من الأمراء والأجناد واثنى عشر من كبار الأمراء وطائفة من حارة الفوالة وساروا إلى الخوارج بستة مدافع كبار محشوة بالفلوس الجدد والمسامير ونودى للرعايا الملاصقين لأماكنهم وبيوتهم بغلق الحوانيت والبيوت فلما وصلوا إليهم وجدوهم متيقظين بعلو الأسطحة والمآذن فلما تراءى الجمعان التحم القتال فكأن كل ما ألقى العسكر من الرصاص والنشاب والأحجار لا يصل إلى الخوارج لعلوهم على العسكر وكل ما ألقاهم على العساكر نال منهم فقتل من العساكر سبعة فهال مقدم عسكر الوالى هذا الأمر وخشى استفحال أمر هذه الفتنة وقد اشتد رمى الخوارج وتتابع على العسكر فجعل مقدم عسكر الوالى يتدبر فى الوصول إليهم من وكالة البطيخ ومازال حتى اتصل إليهم بجماعة من العسكر واتصل الأمير قاسم والأمير عبدى من خلفهم وتقدم الأمير يوسف الغاص بأصحابه فرفع الحواجز والمتاريس ونقبوا عليهم أماكنهم ودخلوا عليهم فلما اشتد الحال عليهم ولم يجدوا لهم قوة على القتال وعلموا أنهم مأخوذون لا محالة طلبوا الأمان وأجابوا بالامتثال فى السفر إلى حيث شاء الباشا فأخرجوا جميعاً ولم يتخلف منهم أحد وسيروا بهم إلى السويس وزالت الفتنة

وسكن الحال واطمأنت خواطر الناس وعادت جميع الأمور إلى سابق مجراها. وسار محمد باشا فى الرعيـة سيرة حسنة وكان شفوقاً عليهم ميالاً لخيرهم فرفع كثيراً من المغارم القديمـة وأبطل بعض المكوس الفادحة وكان يجلس بنفسـه للنظر فى مصالح الخلق ويوقع على ما يرفع إليـه من القصص فزالت فى أيامـه القلاقل والفتن ودرت الأرزاق وحصل رخاء عظـيم حتى بيع أردب القمح بخمـسة وعشرين نصـفاً فلوساً نحاساً والفول كل أردب بخمسة عشر نصفاً والعدس والبسلة كل أردب بثمانية عشر نصفـا وكثر وارد المأكـولات وتنازلت أثمان غيـر ما ذكر ففـرح الناس فرحاً عظيـماً ومالوا إليـه بقلوبهم وأحبوه محـبة عظيمـة. فلما كان فى يوم الأربعاء عـاشر ربيع الأول سنة سبع وعشرين وألف ورد مرسوم سلطانى بصـرف محمد باشا عن ولايته فكانت مدتهـا ثلاث سنوات وستة أشهـر وثمانية وعـشرين يوماً فحـزن الناس عليه كثيراً.

(مطلب)

ولاية أحمد باشا الدفتردار

وتولى بعده أحـمد باشا الدفتردار ودخـل القاهرة فى يوم الخميس حـادى عشر ربيع الأول سنة سبع وعـشرين وألف فى موكب عظـيم مشى فيه جـميع العسـاكر والأجناد وهو على فرس وعلى رأسه عمـامة بريشتين قيل إن قيمـة كل ريشة منهما ألف دينار فلما وصل بموكـبه إلى الجواخين سـقط على فرسه حجر من طـاقة ببيت بالربع الذى يعلو حوانيت الجواخين فألقى إحدى الريشتين على الأرض ومزق جانباً من القماش فقـبض فى الحال على من ألقى الحجر فتطير أحـمد باشا من ذلك وأمر برمى عنق الرجل فرموا عنقه وكان الرجل يوصف بخبـال العقل، ومازال فى موكبه حتى صعـد إلى قلعة الجبل واحتجب أياماً لايـراه أحد ثم جلس للناس وتصرف فى الأمور فكان حاكماً سياسيًا صاحب تدبير سهلاً فى أموره قريباً من الناس ليس عنده تحجب ولا غلظة محباً لخير الرعية ميالاً لإسعاد البلاد، فكان يأتى إلى أحسن الأمور من أبوابها حـتى اجتمـعت القلوب على محبـته واتحدت على طاعـته وهابه الحكام وخافه الولاة والكشاف وساروا بسيرته إلا القليل وعمت الراحة أفراد الرعية وراجت أسباب الزراعة وكثرت غلات البلاد كثرة عظيمة.

فلما كان شهر شوال وردت الأخبـار إلى أحمد باشا بموت السلطان أحمد مات فى اليوم العـاشر من القعدة سنة سبـع وعشرين وألف حتف أنفه وهـو آخر السلالة

المتصلة من عمود هذا النسب وكان عادلاً محباً للغير أرسل إلى حرم صاحب الشريعة الإسلامية حجراً من الماس قيمته يومئذ اثنا عشر ألف دينار وأكثر، ورسم بأن يوضع فى الحجرة وهو موجود إلى الآن وأرسل أيضاً جملة هدايا وتحف وميزابا من الفضة مموها بالذهب فوضع موضع الميزاب العتيق. قيل وله خيرات أخرى كثيرة وكانت مدة سلطنته أربع عشر سنة وأربعة أشهر وعشرة أيام، فتولى بعده السلطان مصطفى ابن السلطان محمد وهو أخو السلطان أحمد المشار إليه.

ومات فى سلطنته متاوس بطرك المتأصلين بعد أن أقام ثلاث عشرة سنة وكانت أيامه كلها هادئة مطمئنة فأقيم بعده غبريال وهو حادى تسعيهم فأقام ثمان سنوات ومات فأقيم بعده ميخائيل وهو ثانى تسعيهم وكان تقياً فاضلاً متواضعاً فلم تطل مدته غير سنة واحدة ومات فأقيم بعده يوحنا وهو ثالث تسعيهم وأصله من بلدة نقادة من صعيد مصر وكان فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله.

* * *

(الفصل السابع)

(فى سلطنة السلطان مصطفى ابن السلطان محمد خان)

ثم قام بالأمر بعد السلطان أحمد أخوه السلطان مصطفى ابن السلطان محمد وهو أول من ارتقى على سرير السلطنة من إخوة ملوك بنى عثمان. بويع له بالملك ثالث عشرى ذى القعدة سنة سبع وعشرين وألف هجرية أى سنة سبع عشرة وستمائة وألف ميلادية وكان فى مدة سلطنة أخيه أحمد مقيماً فى محل داخل السراى السلطانى ممنوع التصرف والاجتماع بالناس لا يمكن من الخروج من مكانه وعنده بعض صبيان يخدمونه قيل وهو موصوف بالصلاح والتقوى لا التفات له إلى سلطنة ولا إلى تصرف فى أمر من الأمور وكان كلما اجتمع بأخيه السلطان أحمد يقول له لا حاجة لى بسلطنة مطلقاً وكان يقال إن السلطان أحمد كلما خطر بفكرة شىء من قبل أخيه السلطان مصطفى كان مصطفى يقول له ارجع يا أحمد عما تقصده. قيل فكان ذلك سبباً للكف عنه فلما تولى السلطنة ظهر عجزه إذا كان ضعيف الرأى منبوذ الكلمة لا هيبة له ولا وقار مغلوباً على أمره والكلمة لوزيره الأعظم واتفق عقب توليته بأيام أن هرب أحد أشراف بولونيا وكان معتقلاً فى دار

السلطنة بعد الحرب التى أخذ فيها أسيراً وكان هروبه بمساعدة سفير دولة الفرنسيس فى دار السلطنة فأكبر الصدر الأعظم هذا الأمر وأعظمه وأمر فقبضوا على السفير وكاتبه وترجمانه وألقوهم جميعاً فى السجن ووصل الخبر بذلك إلى عاصمة الفرنسيس فهاجوا وماجوا وكادت الحرب تقوم على ساقها وبالغت دولة الفرنسيس فى التهديد والوعيد والتأهب والاستعداد وكثر الأخذ والرد بين الفريقين أياماً ثم كان من أمر ذلك ما سيذكر فى سلطنة السلطان عثمان خان الثانى.

واستمر أحمد باشا الدفتردار يتصرف فى ولاية مصر لا راد لكلمته ولا مانع لأمره وقد خافه الجند وهابه العسكر فاعتنى بأمرهم واهتم بصرف مرتباتهم وجماكيهم وعلوفاتهم فساروا سيرة حسنة وانكفوا عن الإيذاء والشر وأمسوا وهم طوع أمره ثم ورد إلى الباشا المشار إليه مرسوم السلطان بأن يجيش نحو ألف من العسكر المصرى نجدة لعسكر السلطان القائم إلى اليمن لقتال الخوارج من الزيديين وقيل لقتال ملك فارس فأرسلهم صحبة الأمير صالح بك أمير الحاج وزودهم بالمال والسلاح والعلوفة فساروا ومروا بالأقاليم المصرية ولم يقع منهم شىء ولا لحق بالأهالى من مرورهم ضرر وقد كان قبل ذلك إذا مر عشرة منهم بقرية أو مدينة عاثوا فيها وأقلقوا راحة أهلها وأهلكوا الحرث والنسل وفعلوا ما لا خير فيه فلما فرق فيهم المال نال الرجل منهم عشرين ديناراً وبينما هو يتصرف فى الأمور على ما ألفه من العدل وإغاثة الملهوف إذا جاءه الخبر بخلع السلطان مصطفى وتولية السلطان عثمان. وتحرير الخبر، إنه لما كان السلطان مصطفى ممن تربى فى حجر الانزواء وكانت أحواله مخالفة للمألوف من حال الزمان وكان مغلوباً على أمره كما تقدم القول لم تطل مدة تصرفه سوى ثلاثة أشهر وعشرة أيام ثم قام عليه كبار الدولة وأصحاب الكلمة وبينهم شيخ الإسلام وقظلار أغاسى السراى السلطانية وبعض الحرم فخلعوه ليلة الأربعاء ثالث ربيع الأول سنة ثمان وعشرين وألف هجرية، ثم أودع فى جب داخل السراى. قال بعض الكتاب: وسد عليه بابه ماعدا روزنة لطيفة ينزل منها الطعام والشراب وولوا بدله السلطان عثمان ابن السلطان محمد خان الثانى.

◆

(الفصل الثامن)

(فى سلطنة السلطان عثمان بن السلطان محمد خان الثانى)

ثم قام بالأمر بعد السلطان مصطفى السلطان عثمان ابن السلطان محمد خان الثانى بويع بالملك يوم الأربعاء ثالث ربيع الأول سنة ثمان وعشرين وألف هجرية أى سنة تسع عشرة وستمائة وألف ميلادية وله من العمر إحدى عشرة سنة لاغير. قال بعض أصحاب التاريخ: فكان مع صغر سنه واسع الفكر هماماً ذا هيبة فأول عمل بدأ به هو أنه أمر فأطلقوا سفير الفرنسيس وكاتبه وترجمانه من الحبس وسير إلى ملك الفرنسيس وهو يومئذ الملك لويز الثالث عشر رسولاً يستعطفه ويستميله إلى الصفح فأجابه إلى ذلك وعادت الأمور بين البلادين إلى سابق مجراها فعمد السلطان بعد ذلك إلى إصلاح ما فسد من أحوال الدولة ودفع ما استولى على جميع أمورها من الخلل فلم يتمكن لخروج العساكر عن الطاعة وتطرق الفساد إلى جميع المصالح وأخذ الأوغاد والأغرار بزمام جميع الأمور وتصدرهم فى الوظائف العالية والمراتب السامية ومع ذلك فإن هذه الشوائن لم تقعده عن الغزو وفتح المدن والبلدان فتأهب لقتال مملكة بولونيا وجعلها حداً بين أملاكه وبين أملاك الروس وجيش لذلك الجيوش وأعد المعدات وخاف أن يترك أخاه الأمير محمداً فى دار السلطنة فينازعه فى الملك فأمر بقتله صبرا وكان إلى هذا الحين لا يبرم أمراً فى دار السلطنة إلا بإشارة مفتيها ولا يتم للسلطان ورجال الدولة عمل إلا برأيه فكان يعزل ويولى من يشاء من الولاة والحكام ويمضى الأحكام بلا معارض ولا منازع فخاف السلطان منه وخشى من تركه فى دار السلطنة على هذا الحال من نفوذ الكلمة وبسط اليد لاسيما وقد كان الانكشارية لا يقفون عند حد وقد تفشى الخلل والفساد بين كبارهم وصغارهم فنزع منه ذلك النفوذ وأبعد عنه تلك الهيبة وأوقفه عند حد الإفتاء لا غير ليأمن شره وسير فى طلب أحمد باشا الدفتردار والى ديار مصر فجاءه المرسوم السلطانى بالانصراف عن الولاية فانصرف عنها فى يوم الخميس ثالث عشر صفر سنة تسع وعشرين وألف هجرية فكانت مدة تصرفه سنتين وأحد عشر شهراً وثلاثة أيام كلها إسعاد وبركة وخير ورفاهية على البلاد وأهلها.

(مطلب)

ولاية مصطفى باشا السلحدار

وولى بعده مصطفى باشا السلحدار فدخل القاهرة فى ثالث عشر صفر من السنة ثم سار السلطان بجيوشه لغزو مملكة بولونيا فالتقى الجمعان واقتتلا قتالاً عنيفاً للغاية ولما كانت طوائف الانكشارية مضطربة الأحوال ناقمة على السلطان تقاعست عن الحرب وأظهرت الملل وطلبت مخابرة البولونيين فى تقرير قاعدة للصلح والكف عن القتال فمانع السلطان فى ذلك وأبى إلا القتال حتى يتم له النصر فلم يفلح وأبى الانكشارية إلا عقد الصلح وألحوا فى الطلب وبالغوا فى التهديد فتقرر الصلح بين الفريقين وعاد الانكشارية إلى دار السلطنة إلى أن كان من أمرهم ما سيتلى عليك فى موضعه. ولما عاد السلطان إلى القسطنطينية خلع مصطفى باشا عن ولاية الديار المصرية أخريات سنة تسع وعشرين فكانت مدة تصرفه سنة إلا شهراً لم يأت فيها من الأعمال شىء يذكر فإنه كان ضعيف الرأى خامل الفكر كثير التحجب والانزواء.

(مطلب)

ولاية جعفر باشا

وولى بعده جعفر باشا وكان جعفر باشا هذا لما قدم من اليمن أقام بالقاهرة أياماً والناس يترددون عليه فكان ذا علم وفضل ومشاركة فى غالب العلوم العالية وأبحاث جيدة فلما رأى إقبال الناس عليه وميل قلوبهم إليه طمع فى الولاية فأرسل إلى دار السلطنة التماساً بذلك ولبث ينتظر الجواب وكان لما علم مصطفى باشا بذلك خشى الفتنة وساءه ما فعله جعفر باشا فأرسل إليه بعض كبار الأمراء يحثه على الرحيل عن مصر ويعلمه شر عاقبة البقاء فامتنع أولاً ثم عاد فأذعن وسافر براً فى نفر من أتباعه وحاشيته ولكنه لم يلبث أن عاد بمرسوم الولاية فخرج لاستقباله الأمراء والعلماء وأكابر الدولة وكبار العسكر ودخل القاهرة فى موكب لم يعهد له مثيل وفرح العامة والخاصة بقدومه وكان دخوله القاهرة فى أواسط صفر سنة ثمان وعشرين وألف كما تقدم القول فلم يستقر به المقام حتى فشا الطاعون بمصر والقاهرة ثم عم جميع القرى والمدن وكثر الموات فى الناس واشتد اشتداداً عظيماً فقفلت الأسواق بمصر والقاهرة. قال بعض كتاب الأخبار: إلا أسواق الأكفان فلم تقفل ليلاً ولا نهاراً ومنع جعفر

باشا عامل الأموات من التعرض للأموات، فكان الناس يدفنون موتاهم بغير إذن فى الليل والنهار واستمر الحال على هذه الشدة نحو الشهرين مات فيهما خلق كثير لا يكاد يدخل تحت حصر ثم ارتفع الموات وزال فسكنت القلوب واطمأنت الخواطر وكره الناس جعفر باشا وتطيروا من ولايته وحسبوها شؤماً على البلاد، فلما كان شهر رمضان سنة ثمان وعشرين وألف جاءه مرسوم السلطان بالعزل فسافر بحراً إلى الديار الرومية فكانت مدة تصرفه ستة أشهر وأياماً قال بعض كتاب الأخبار: فلم يقم بالديار الرومية إلا أشهراً قلائل ومات فعاد ولده إلى مصر وعاش بها فقيراً وليس له من يسأل عنه.

(مطلب)

ولاية مصطفى باشا

وتولى بعده مصطفى باشا فدخل القاهرة فى عاشر رمضان سنة ثمان وعشرين وألف فلم تستقر به الولاية حتى جار وظلم وضرب المغارم والمكوس وأكثر من جمع الأموال بجميع وسائل العسف والقهر وشدد على أصحاب الأموال وضيق وهدد وبالغ فى الإرهاب فكثر الوشاة وأصحاب السعاية على بابه ينقلون له أخبار الناس فضاقت أحوال أصحاب الأموال واختلت جميع الأمور فكان من وشى به إليه وبذل ما طلبه منه سلم ومن تقاعس ولم يبذل حقر وأخذ منه أكثر مما طلب منه، قال بعض كتاب الأخبار: وتتبع أثر مصطفى بك البقجلى زعيم ثورة الجند التى حصلت على عهد مصطفى باشا وقبض عليه وقتله بيده فظن الناس قيام الفتنة بسببه وتمنوا ذلك فلم يحصل فكبر خوفهم منه ورفعوا ظلامتهم إلى دار السلطنة وضجوا وطلبوا خلعه فجاءه مرسوم السلطان بخلعه فى ثالث رمضان سنة تسع وعشرين وألف فكانت مدة تصرفه سنة إلا ثلاثة أيام.

(مطلب)

ولاية حسين باشا

وتولى بعده حسين باشا فى ثالث عشرى الشهر المذكور ووصل إلى القاهرة وأدرك مصطفى باشا المعزول قبل سفره فمنعه من السفر وأنزله من قلعة الجبل إلى بيت مراد باشا بالسبع قاعات بالقاهرة وجعل على بابه الحرس وتركه على هذا الحال

أياماً ثم طلبه فلم يجده وكان قد تخلص بتدبير أحد كبار الدولة وسار إلى الديار الرومية فتبعه كثير ممن صادرهم وأخذ أموالهم فادعوا عليه ونالوا منه وأخذوا جميع ما كان اغتاله منهم وسار حسين باشا الوالى الجديد سيرة حسنة للغاية فأبطل بعض المغارم والمكوس المستحدثة على أيام مصطفى باشا ورتب أمور الدولة وأحكم نظام ما اختل منها أيام أسلافه ووقع فى أيامه غلاء عام حتى بيع أردب القمح بالكيل المصرى بمائتى نصف فضة والشعير بمائة وعشرين نصفاً والفول بمائة وستين نصفا وكذلك بقية الغلال فكانت شدة عظيمة للغاية. ثم زاد النيل زيادة فوق الحد وعم جميع الأرض وثبت على الزيادة فوق جميع الأراضى لغاية شهر هاتور القبطى حتى كاد الناس ييأسون من زرع الأرض ثم هبط فتمكنوا من الزرع ولكنه لم يأت إلا بما قل من المحصول وضربت على الناس فى أيامه أيضاً ضريبة جديدة هى ضريبة النطرون وقد فرضت على جميع المدن والثغور فتألم الناس منها وراجعوه فى رفعها فلم يرض فانحرفت الخواطر عنه وابتعدت القلوب ونقموا عليه وظهر الخلل فى جميع أمور الدولة واستخف الناس بحرمته وزالت عنهم هيبته فعاد أهل الفساد فى جميع المدن والقرى للعبث وكاد يستفحل أمرهم فلما كان عاشر ربيع الآخر سنة إحدى وثلاثين وألف جاء مرسوم السلطان بعزله فكانت مدة تصرفه سنة وسبعة أشهر وعشرة أيام.

(مطلب)

ولاية محمد باشا البستنجي

وتولى بعده محمد باشا البستنجى فى حادى عشر ربيع الآخر ولكنه لم يقدم إلى مصر لقيام الفتنة فى دار السلطنة وخروج طوائف الانكشارية عن طاعة السلطان عثمان وخلعهم إياه ثم سجنه ثم قتله فناب عنه فى الولاية على مصر حسن افندى الدفتردار. قال أصحاب التاريخ: لما ظهر عصيان الانكشارية أيام قتال البولونيين أمام مدينة شوك زم وإكراههم السلطان عثمان على عقد الصلح مع البولونيين والكف عن القتال وإلحاحهم فى ذلك عاد السلطان إلى القسطنطينية وقلبه يلتهب غيظاً وأقسم أن يستأصل الانكشارية ويمحو آثارهم عن وجه الأرض فرسم من هذا الحين بجمع عسكر جديد فى بعض عمالات آسية وجعل يعد لهم المعدات ويبالغ فى إتقانهم وتنظيمهم فأحس الانكشارية بذلك وعلموا ما وراء التقاعد والسكوت فقاموا على

قدم واتحدوا على خلع السلطان فخلعوا بيعته فى التاسع من رجب سنة إحدى وثلاثين وألف هجرية ودخلوا عليه فى قصره وهو بين نسائه وجواريه وقبضوا عليه وأخذوه قهراً إلى محلتهم وسبوه بأقبح السب والشتم ثم نقلوه إلى قعلة يدى قله فلبث بها يوماً وبعض يوم ثم دخل عليه جماعة من كبار الدولة وأصحاب الفتنة فقتلوه ونادوا بولاية السلطان مصطفى الأول ثانية بدله وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق فكانت سلطنة السلطان عثمان أربع سنين وأربعة أشهر وعشرة أيام وكان جليل القدر واسع المعرفة كبير السياسة عظيمها شديداً فى الحروب عظيم التدبير ومع هذا كله فإنه لم يفلح مع جماعة الانكشارية ولم يقدر على إبادتهم كما كان يتمنى.

ومات فى سلطنة السلطان عثمان يوحنا بطرك المتأصلين فكانت أيامه كلها شدة وعناء وضيق وفناء ومصائب وإحن ومحن ذاق فيها القبطة من جور العمال وظلم الحكام وعسفهم أشكالاً وكانت مدة تصرفه ثلاث سنوات فأقيم بعده يوحنا وهو رابع تسعيهم وأصله من بلدة صدفة يعرف بابن المصرى وكان تقياً ورعاً كثير الصدقة مهيباً محبوباً ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله.

* * *

(الفصل التاسع)

(فى سلطنة السلطان مصطفى الثانية)

ثم قام بالأمر بعد قتل السلطان عثمان السلطان مصطفى أرجعوه إلى تخت الملك ثانى يوم قتل السلطان العثمانى فى ثامن رجب سنة إحدى وثلاثين وألف هجرية أى سنة ثمان وأربعين وستمائة وألف ميلادية ولم تستقر به السلطنة حتى قامت الفتنة واشتد لهيبها فإنه لما تم لطوائف الانكشارية ما أرادوه من خلع السلطان عثمان وقتله كبر استخفافهم بالأمور واستصغارهم لكبار الدولة ورجال السلطنة فعاثوا فى القسطنطينية وأفسدوا وصاروا يعزلون ويولون من يشاؤون من الوزراء وكبار الدولة ويبيعون الوظائف جهاراً ويقبضون على من يتوسمون فيه سمة الإنكار حتى اختلت جميع الأمور وفسد نظام الدولة وزالت هيبة السلطنة وظهر الأوغاد وأسافل الناس وقبضوا على زمام الأمور واشتد الكرب وسرت نار الفتنة إلى جميع

العمالات التابعة لدار السلطنة فنهض والى طرابلس الشام ووالى أرضروم إلى شق عصا الطاعة وركب والى أرضروم فى عسكر عظيم للغاية ونادى بالثارات عثمان ونزل على مدينة سيواس وأنقره وفتحهما وأعمل السيف فيمن كان فيهما من طوائف الانكشارية وضبط أموالهم وأرزاقهم ثم سار إلى مدينة بروسة وقد تبعه والى سيواس ووالى سنجق قره شهر فحاصروها وأقاموا على حصارها ثلاثة أشهر حتى دخلوها عنوة ووردت الأخبار بذلك إلى القسطنطينية فلم يلتفت إليها لاشتغال طوائف الانكشارية بالنهب والسلب والقتل وإراقة الدماء ظلماً وظل الحال على ذلك من الخلل والارتباك سنة ونصف سنة والناس فى ضيق ما عليه من مزيد ثم اجتمع رجال الدولة واتحدت كلمتهم على تولية على باشا كما نكش منصب الصدارة وتفويض الأمور إليه لعله يتمكن بخبرته من إرجاع الأمور إلى سابق مجراها فتولى المنصب وجعل يتصرف فى الأمور ويدبر الأحوال جهد الاستطاعة ويعمل على إعادة الأمن إلى داخلية البلاد ويدفع غارات الانكشارية عن أهلها بالتى هى أحسن حتى كان من أمره بعد ذلك ما سيذكر فى محله. ولم تثبت نيابة حسن أفندى الدفتردار فى ولاية مصر عن محمد باشا البستانجى فقد صرف محمد باشا المذكور عن الولاية قبل أن يقدم إلى مصر فكانت مدة تصرف حسن أفندى الدفتردار أربعة أشهر وسبعة أيام.

(مطلب)

ولاية إبراهيم باشا السلحدار

ثم تولاها إبراهيم باشا السلحدار ودخل إلى رشيد فى يوم الجمعة ثانى عشرى شعبان سنة إحدى وثلاثين وألف ووصل إلى القاهرة فى أوائل رمضان من السنة وكان ذا فكر ومهابة واسع الدراية صاحب تدبير ولكنه كان محباً للمال والكسب بكل ما تصل إليه قدرته واتفق أنه وقع فى أيامه غلاء زائد جداً فجاء الناس من الأقطار الحجازية والديار الشامية ومن غزة وغيرها إلى مصر ليمتاروا فمن كان ذا مال امتار ما يحتاج إليه ورجع إلى أهله ومن لا مال معه وله قدرة على الكسب أو الخدمة صار يقتات من خدمته أو كسبه ومن لا مال له ولا قدرة له على الكسب ولا الخدمة صار يستعطى حتى امتلأت مصر وقراها منهم فكان ما بيع فى مصر والمدن والكفور والثغور والقرى من القمح والفول والعدس والشعير وبقية الحبوب شيئاً كثيراً جداً لايكاد يدخل تحت حصر، ولما طالت أيام إبراهيم باشا تغيرت أحواله وتزايد

جوره وجود أتباعه وكثرت على الناس طلباته وطلبات أتباعه فكانت له تجارة واسعة فى بن القهوة يأتيه من اليمن فى كل عام فكان يلزم به التجار ومشايخ الأسواق فحصل لهم بسبب ذلك خسارة عظيمة فشكوا إليه فلم يلتفت لشكواهم فرفعوا ظلامتهم إلى بعض كبار الدولة فتحرك عليه جماعة منهم ومنعوه من ذلك فانحط قدره وقصرت كلمته وبقى مقهوراً مدحوراً إلى أن صرف عن الولاية فى يوم الأربعاء سابع رمضان سنة اثنتين وثلاثين وألف هجرية فكانت مدة تصرفه سنة واحدة وتسعة عشر يوماً.

(مطلب)

ولاية مصطفى باشا

وتولى بعده مصطفى باشا فدخل القاهرة فى الثانى والعشرين من رمضان فلما صعد إلى قلعة الجبل أتى إليه كتبة الديوان يشكون من إبراهيم باشا المعزول وقالوا إنه أخذ من مال الخزينة السلطانية أموالاً جزيلة فسير مصطفى باشا فى أثره جماعة من العسكر فالتقوا به فتهددهم فرجعوا وأخبروا بما كان فسير إليه مصطفى باشا الأمير صالح بك فأدركه وقد نزل البحر عند الاسكندرية فسأله أن يتربص فقال إنى سائر إلى دار السلطنة فإذا كان علىَّ للخزينة شىء دفعته هناك فألح عليه صالح بك فلم يلتفت لكلامه وأقلعت به المركب فأطلقوا عليه المدافع من طابية منارة الإسكندرية فلم ينله منها ضرر ونجا بما كان معه من الأموال والمتاع وكان شيئاً كثيراً، فلما وصل إلى القسطنطينية لم يصبه من جانب السلطنة شىء لاشتداد الفتنة يومئذ وارتباك الأحوال وتعذر إرجاع الأمور إلى سابق مجراها وانكماش على باشا الصدر الأعظم ورفضه البقاء فى منصب الصدارة إن بقى السلطان مصطفى فى منصب السلطنة مع ما هو فيه من وهن العزيمة وضعف العقل وعدم الوقوف عند حدّ، فلما رأى رجال الدولة أن لا خلاص من هذه الفتن إلا بخلع السلطان قاموا عليه وخلعوه فى يوم السبت الثالث والعشرين من ذى القعدة وقيل فى الخامس والعشرين منه سنة اثنتين وثلاثين وألف هجرية وولوا بدله ابن أخيه السلطان مراد ابن السلطان أحمد فكانت سلطنة السلطان مصطفى سنة واحدة لاغير.

◆

(الفصل العاشر)

(فى سلطنة السلطان مراد الرابع ابن السلطان أحمد)

ثم قام بالأمر بعد خلع السلطان مصطفى ولد أخيه السلطان مراد بويع له بالملك يوم الأحد فى الرابع والعشرين من ذى القعدة سنة اثنتين وثلاثين وألف هجرية أى سنه ثلاث وعشرين وستمائة وألف ميلادية فكان مغلوباً على أمره لا كلمة له لحداثة سنه إذ كان لايناهز الثانية عشرة من العمر وكانت كلمة الانكشارية فوق كل كلمة ويدهم فوق كل يد. قال أصحاب التاريخ: ولما كان كل من يتولى الحل والعقد فى تلك الأيام من أهل هذا الاختلال والغش كان الخروج من هذه الدائرة الفاسدة وإصلاح الأمور من المحال وشاع الخبر بذلك عند ملوك الدول المجاورة وكثر تحدّثهم به وكان ممن سره هذا الخلل وأفرحه وهن أركان الدولة العثمانية عباس شاه ملك فارس لما كان بين الدولتين من البغضاء والشحناء فاغتنم هذه الفرصة وعمد إلى أخذ بعض بلاد الدولة العثمانية وإرجاع ما أخذ من بلاده وسار فى جيش عظيم إلى بغداد فحاصرها وكان بها عسكر السلطان فأقام على حصارها حتى احتلها عنوة وأعمل السيف فى أعناق من بها من العسكر السلطانى وقتل جميع كبار الدولة وعظماء الجند ووردت الأخبار بذلك إلى القسطنطينية فهال السلطان هذا الأمر وأزعجه جداً وكان للصدر الأعظم كثير من الأعداء والخصوم من بطانة السلطان وقرنائه فوشوا به عند السلطان وقالوا إن سقوط دار السلام فى يد العدو إنما كان بخيانة الصدر الأعظم فغضب السلطان وأمر بقتله فقبضوا عليه وقتلوه وولى مكانه شركس محمد باشا فلم تطل مدته ومات وتولى الصدارة بعده حافظ باشا.

وورد مرسوم السلطان إلى مصطفى باشا والى مصر بتثبيته فى مقام الولاية والإيعاز إليه بالرفق بالرعية والقيام بما يلزم للحرمين وخروج الحاج فى أوقاته فقرئ بحضرة العلماء والأمراء والمشايخ وأخذ مصطفى باشا يتصرف فى الأمور ولكنه لم يلبث أن جاءه الأمر بالعزل والعود إلى الديار الرومية فلما شاع خبر عزله اجتمع طوائف العسكر على عادتهم وساروا إلى عيسى بك نائب الغيبة وطلبوا أن يعطيهم العطايا التى كانوا يأخذونها عند تولية الولاة فلم يعطهم ومنعهم من الإتيان إلى ديوانه فألحوا فى الطلب وكرروا النداء فلم يلتفت إليهم فاجتمعوا وساروا من وسط

المدينة وهم يضجون وينادون لانريد أحداً يتولى أمور البلاد غير مصطفى باشا وكان مصطفى باشا بعد أن جاءه الأمر بالعزل لبث ينتظر الخلف ومازال الجند يطوفون وينادون إلى أن وصلوا إلى قره ميدان فتحالفوا على أن يكونوا جميعاً يداً واحدة وقلباً واحداً ووصل الخبر بذلك إلى مصطفى باشا ففرح فرحاً لايوصف وتقوت عزيمته وكتب إلى دار السلطنة يلتمس البقاء على ولاية مصر وكذلك كتب العلماء والمشايخ والقضاة فلم تكد تصل رسل مصطفى باشا إلى دار السلطنة حتى وصل الخبر بوصول على باشا الوالى الجديد إلى ثغر الإسكندرية فسيروا إليه فى الحال من يعلمه بأن الجند وأهل البلاد كافة لا تقبله فبعث هو كتاباً إلى العسكر وكافة الأمراء والأجناد وأعيان البلاد يمتدحهم ويثنى عليهم ويقول :

أما بعد، فإنى لم آت إلى مصر إلا طائعاً لأمر السلطان الذى يجب على وعلى كل مسلم صحيح الدين طاعته فلما قرئت الكتب على أهل الحل والعقد سيروا إليه ثانية يقولون إنا لا نقبلك فقبض عند ذلك على الرسل وقيدهم فى سجن قلعة الإسكندرية وكان العسكر المرابطون فيها إخواناً لأولئك الرسل ففكوا فى الحال قيودهم وهجموا جميعاً على وطاق على باشا المذكور بسيوفهم وقبضوا عليه وأنزلوه فى مركب وأخرجوه من مينا الإسكندرية وكانت الريح معاكسة فأعادت المركب إلى المينا قهراً فأطلق عليه الأمير مصطفى أمير جند قلعة المنارة عدّة طلقات ثقبت المركب عدة ثقوب ولم تغرقها فخرج القارب من فوره قاصداً الديار الرومية وعاد الرسل إلى القاهرة فأخبروا بما جرى ففرح مصطفى باشا بذلك.

ولما كان العشرون من ربيع الآخر سنة ثلاث وثلاثين قدم إلى القاهرة من الاسكندرية طائر البطاق يحمل الخبر بقرب وصول قابوجى (أى رسول) من دار السلطنة ومعه مرسوم سلطانى فبعد أيام قلائل وصل القابوجى المذكور ودخل القاهرة فى موكب حافل للغاية وصعد إلى قلعة الجبل وجمع الأمراء والعلماء وجميع الصناجق وتلا عليهم الفرمان بتثبيت ولاية مصطفى باشا على مصر إجابة لطلبهم ثم ألبس مصطفى باشا خلعة سنية وقلده سيفاً عظيماً ففرح الجند بذلك فرحاً لايوصف حيث فازوا بمقصودهم واستقر المنصب بمصطفى باشا فتصرف وعلت كلمته ومالت إليه القلوب وأحبته وزاد النيل فى أيامه زيادة عظيمة فارتفع إلى أربع وعشرين ذراعاً وثبت على ذلك أياماً فخاف الناس من وقوفه إلا أنه هبط بعد ذلك سريعاً وانكشفت الأراضى ففرح الناس وأخذوا فى الحرث والبذر. وبينما هم على هذا الحال والقلوب

مطمئنة ساكنة إذا ظهر الطاعون بالقاهرة ومصر فى أوائل ربيع الأول سنة خمس وثلاثين، وامتد امتداداً سريعاً فى جميع المدن والبنادر والقرى وعم البلاد شرقاً وغرباً فمات به خلق كثير.

(مطلب)

ولاية بيرم باشا

قال بعض الكتاب: كان عدد من مات فى هذا الطاعون نيفاً وثلثمائة وألف بين الخامسة عشرة والعشرين من العمر واشتد اشتداداً عظيماً لم يسبق له مثيل ثم أخذ فى التناقص فى شعبان من تلك السنة وارتفع فى أوائل رمضان فتطاولت يد مصطفى باشا إلى أخذ تركات ومقتنيات جميع من ماتوا فى هذا الوباء وادعى لنفسه حق التوريث فشكا الوراث من ذلك فلم يسمع منهم فرفعوا أمرهم إلى دار السلطنة وأكثروا من الشكوى فجاء الأمر بعزله وتولية بيرم باشا بدله فدخل القاهرة فى جمادى الأولى سنة سبع وثلاثين وألف فكانت مدة تصرف مصطفى باشا المذكور فى المدة الأولى والثانية نحو ثلاث سنين وبضع أشهر، ولما استقر ببيرم باشا المقام منع مصطفى باشا من السفر وحجزه فى بيت بالقاهرة ووكل به من يحرسه وحاسبه على ما فى ذمته من أموال الخزينة وتركات الأموات وألزمه بإرجاع جميع ما أخذه فباع كل متاعه وجميع مقتنياته ودفع ما عليه ورحل إلى الديار الرومية ولبث بها إلى أواخر سنة سبع وثلاثين ثم أمر السلطان بقتله فقتل.

وتصرف بيرم باشا فكان يرى فى الجند شدة العناد الذى يكاد يذهب بنفوذه ويحط بمرتبته إذ كان تحرشهم لعزل وتولية الولاة والخروج عند أقل سبب وتداخلهم فى أمور الدولة مجلبة للبوار وإذهاب رونق النظام الذى أسسه السلطان سليم الفاتح لكل طائفة من الطوائف الحاكمة بديار مصر وقد زاد الجند جراءة وتداخلاً تهاون رجال السلطنة وإجابتهم إلى كل ما يطلبون وعدم الالتفات إلى ما ينجم عن ذلك من الخلل والفساد فبذل بيرم باشا جهده فى ترتيب الأمور ومنع هذه المضار وإعادة نفوذ الدولة إلى ما كان عليه قبلاً فلم يفلح ولم يتم له الأمر إلا بقدر الحاجة فاطمأنت مع ذلك قلوب الرعية وسكنت الخواطر المضطربة بسبب الفتن المتوالية والإحن المتراكم بعضها فوق بعض وراجت أسباب المعاملات وتحسنت التجارة ولكنه أكثر من المكوس والضرائب على أغلب البضائع ولاسيما الصابون فلما كان شهر

شعبان سنة ثمان وثلاثين استدعى بيرم باشا المذكور إلى دار السلطنة فسار إليها فكانت مدة تصرفه سنة ونحو ثلاثة أشهر.

(مطلب)

ولاية محمد باشا الوزير

وتولى بعده محمد باشا الوزير فدخل القاهرة فى أواخر شعبان المذكور وصعد إلى قلعة الجبل فى موكب حافل وتصرف وجلس للناس على العادة فكان رجلاً حازماً مهيباً واسع الرأى نافذ الكلمة متحجباً عن الناس لا ينزل المدينة ولا يتجول فى الشوارع ولا يزور المتنزهات قيل ولم يظهر فى طرق القاهرة فى مدة تصرفه إلا ست مرات وكانت الأحوال فى أيامه هادئة والقلوب مطمئنة وظهرت فى أيامه الفتنة فى بلاد اليمن وخرج أهلها عن الطاعة فعرض على السلطان إخضاعها وتمهيد سبلها وإرجاعها إلى طاعة الدولة فأجابه السلطان إلى ذلك وعهد إليه بالأمر فنظم جيشاً من العسكر المصرى وبالغ فى تنظيمه وعقد لواءه إلى قانصوه بيك أمير الحاج يومئذ فأعجب السلطان ذلك وولى قانصوه بيك ولاية اليمن واعطاه رتبة الباشاوية فجعل قانصوه المذكور يرتب أمور جيشه ويكثر من معدات الحرب فاجتمع تحت لوائه ثلاثون ألفا وبينهم زهاء الألف من العساكر العثمانية وقد حضروا من دار السلطنة لهذه الغزوة وأخرج قانصوه خزائنه فكانت كثيرة للغاية وبعد أن رتب أمور جيشه على ما أراد انقطع فى داره أياماً لغير سبب معلوم ولا أمر ظاهر فأركنت العساكر إلى البغى والفساد وعاثت فى الأسواق وأخذت من الباعة سلعها بغير ثمن فكان إذا مانع البائع عن ماله ضربوه وربما قتلوه وتعرضوا للنساء والصبيان فى الطرق والحارات فانكف الناس عن الخروج وأغلق أصحاب الحوانيت حوانيتهم واحتاج الناس إلى الخبز فلم يتيسر الحصول عليه لغلق الحوانيت والأفران فضج الناس إلى محمد باشا فجمع إليه كبار العسكر العثمانى وكلمهم فى أمر ذلك فكفلوا له الراحة ورد العسكر المصرى عن فعاله وألزموا قانصوه بالخروج والسفر إلى اليمن فخرج صاغراً قيل وكان امتناعه لأسباب يطول شرحها وسار بالعسكر وقاتل اليمانيين حتى أخضعهم وأرجعهم إلى الطاعة وكان خروجه فى المحرم افتتاح سنة تسع وثلاثين ولبث هناك يتصرف فى الولاية فلما كان شهر شعبان من السنة جاء الخبر إلى محمد باشا والى مصر بأن قد نزل فى الشهر المذكور بمكة سيل عظيم فأغرق معظم أرضها

وهدم جميع بنيان البيت الحرام ولم يبق منه إلا الجدار الأيمن فأبلغ محمد باشا هذا الخبر إلى دار السلطنة فعهد إليه السلطان أمر ترميمه فقام بذلك وتوسع فى النفقة فكان ما أنفق عليه مائة ألف قرش رومى.

وفى سنة أربعين وألف قصر النيل فى الزيادة وجاء شهر توت ولم يبلغ الستة عشر ذراعاً فخاف الناس من حصول القحط فاعتنى محمد باشا بأمر رى الأراضى وتقسيم المياه بقدر الاستطاعة فأمنت البلاد من الجوع وأعطت الأراضى بعض المحصول فاطمأنت القلوب ومالت إلى محمد باشا خواطر الرعية وأحبوه وتعلقت آمالهم به ولكنه لم يلبث أن جاء إليه الأمر بالقيام إلى دار السلطنة فى السنة المذكورة واعتزال المنصب فاعتزله وقام إلى الديار الرومية فى ربيع الآخر من السنة فكانت مدة تصرفه سنة وثمانية أشهر.

(مطلب)

ولاية الوزير موسى باشا

وتولى بعده الوزير موسى باشا فلما وصل محمد باشا إلى القسطنطينية قوبل بأحسن قبول وولاه السلطان مسند الصدارة العظمى ودخل الوزير موسى باشا القاهرة سلخ ربيع الآخر سنة أربعين وألف فى موكب حافل وكان الناس قد خرجوا لملاقاته عند شبرا وصعد إلى قلعة الجبل فى كبكبة فلما استقر به المنصب أطاع هوى النفس فتطاولت يده إلى أخذ أموال الناس وقبول الرشاوى والبراطيل فأداه ذلك إلى الجور والظلم والعسف بالناس وترصد أحوال الأغنياء من أهل البلاد وبالغ فى التجسس عليهم وتعقب زلات الأكابر منهم وتفنن فى أفانين السلب والنهب جهد الاستطاعة واتفق أن أرسل السلطان يعهد إليه تجريد حملة من الجند المصرى وتسييرها لقتال ملك فارس فجمع جيشاً كبيراً وجعل مقدمه الأمير قيطاس ثم فرض على البلاد النفقة لهذه الحملة وبث أصحاب الجباية فطافوا البلاد شرقاً وغرباً وجمعوا من ذلك مالاً جزيلاً فلما جاءوا إليه بالمال أخذه لنفسه ولم ينفق منه شيئاً فى لوازم الحملة فطالبه قيطاس بيك فقال لا قدرة للبلاد على القيام بنفقة العسكر لاسيما وأن الحرب التى أعدت لها هذه الحملة لا تفيد مصر بشىء ما فراجعه قيطاس بيك وألح عليه فى الطلب وبالغ فى الشدة وكذلك فعل أشياع قيطاس بيك، وكان الباشا يكره قيطاس المذكور ويتمنى هلاكه فلما عظم الخلاف بينهما استدعى الباشا قيطاس يوم عيد

الأضحى العاشر من الحجة من السنة إلى قلعة الجبل فصعد إليه فى نفر قليل من غلمانه فلما دخل قبض عليه جماعة من أعوان الباشا وقتلوه بالسيوف وأنزلوا جثته فى نعش إلى بيته بالمدينة وكان ممن تأهب من الأمراء المصريين للخروج مع قيطاس بيك لقتال ملك فارس الأمير كنعان بيك والأمير على بيك فلما جاءهما الخبر بموت قيطاس قاما واجتمعا بكبار الجند وأعلماهم بخبر قيطاس فاجتمع الجند فى الحال بالرميلة تحت قلعة الجبل وحاصروها من كل جانب واجتمع العلماء والمشايخ والقضاة والصناجق وكبار الدولة بجامع السلطان حسن وتناجوا فى الأمر واتفقت كلمتهم على خلع موسى باشا المذكور وتولية من يحل محله حتى يأتى أمر السلطان فخلعوه وولوا حسن بيك مكانه وكتبوا إلى دار السلطنة بالواقعة وطلبوا صرف موسى باشا وتولية من يصلح فلم يكن بأسرع من أن ورد الخبر بعزله وتولية خليل باشا.

(مطلب)

ولاية خليل باشا

فلما كان شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين وألف وصل خليل باشا المذكور إلى القاهرة وخرج موسى باشا وهو فى أسوء حال من الخزى والعار فكانت مدة تصرفه نحو سنة إلا بضعة أيام وجعل خليل باشا يتصرف فى الأمور فكان جليل القدر عادلاً حازماً فسكنت فى أيامه الفتن وزالت عن البلاد الرزايا والإحن وأخصبت الأرض وكثرت محصولاتها فهبطت الأسعار وكثر وارد الغلال والمأكولات وفرح الناس بذلك وخرج فى أيامه الشريف نامى شريف مكه بجماعة من اللصوص فعاثوا فى الأرض ونهبوا مكة فلما جاء الخبر بذلك إلى خليل باشا جيش له جيشاً عظيماً وجعل مقدمه الأمير قاسم بيك فسار وقاتل الشريف ومن معه فاستظهر عليه وظفر بزعماء الفتنة وأعمل فيهم السيف ثم عاد ظافراً منصوراً فدخل القاهرة فى صفر سنة اثنين وأربعين فخلع عليه خليل باشا خلعة سنية واتسعت من هذا الحين كلمة خليل باشا وظهر نبله وكبرت هيبته وأحبته الرعية. حكى ابن أبى سرور أنه جيء إلى خليل باشا المذكور يوما بثلاثة من اللصوص قبض عليهم وهم يسرقون فرسم بمحاكمتهم فقال رجل من ديوانه ليس فى الأمر ما يدعو إلى المحاكمة وقد قبض عليهم وهم يسرقون فلا شيء بعد ذلك إلا الحكم عليهم بالقصاص فلما سمع خليل باشا مقالته نظر إلى أحد أعوانه وقال: اذهب الساعة واهدم بناء بيت هذا

وأشار إلى المتكلم فقال: ولماذا أيها الأمير؟ قال إذا كان هدم بيتك المبنى من حطام الدنيا قد دعاك إلى معارضتى فكيف يكون حالنا عند ذلك البانى العظيم إذا هدمنا ما بناه ظلماً. قال ناقل الحكاية: وأطلق اللصوص فتابوا من ذلك الوقت خوفاً من الباشا، وفى أخريات سنة اثنتين وأربعين وألف أنزل خليل باشا المذكور نفسه عن منصب الولاية وكتب إلى دار السلطنة بذلك فأرسل السلطان يستقدمه فسافر فكانت مدة تصرفه سنة وثمانية أشهر كلها خير وبركة على البلاد وأهلها.

(مطلب)

ولاية أحمد باشا الجورجي

وتولى بعده أحمد باشا الجورجي فدخل القاهرة فى موكب حافل وكان قبل ولايته على ديار مصر أميرا خور للسلطان مراد فتصرف وجعل يدبر الأمور على النحو الذى نحاه خليل باشا فكان حازماً كاملاً واسع المعرفة بأساليب السياسة فلما كان شهر صفر من سنة ثلاث وأربعين جاءه مرسوم سلطانى بتجريد ألف مقاتل من العسكر المصرى ليسيروا مع العسكر المنصور إلى قتال طائفة الدروز بلبنان وأن يسير معهم أربعة آلاف قنطار من البارود وخمسة آلاف من البقسماط فجيش ذلك الجيش ولم يتم تنظيمه حتى جاءه مرسوم آخر بتجريد ألفين آخرين وثلاثة آلاف قنطار من البارود وتسييرهم لغزو ملك فارس فهاله هذا الأمر وكتب إلى دار السلطنة يقول إن البلاد فى فاقة ولا قدرة لأهلها على القيام بهذه المطالب الجسيمة فبعث إليه السلطان باثنى عشر ألف قنطار من النحاس ليضربها سكة ويبعث بدلها إلى خزينة السلطان ثلثمائة ألف محبوب ذهباً نفقة لتلك الحروب فجمع لذلك العمال وأعد المعامل ولكنه لم يفلح إذ مات أكثر العمال وعجز من بقى عن القيام بهذا العمل فجمع إليه أهل الديوان وأصحاب الشورى من الأمراء والقضاة والعلماء وشاورهم فى الأمر وقال إنه يرى وجوب صرف هذا المال من ماله رحمة بأهل البلاد وأن يجعل ذلك النحاس سبائك صغيرة ويبعث بها إلى السودان فتباع فيها وقد رأى أحد القضاة غير ذلك وأن تجبر أهالى القاهرة على أخذ النحاس ودفع مطالب السلطان ثم تقررت القاعدة بينهم على عمل تفريدة على أهالى القاهرة فأقاموا لذلك عمالاً وقيدوهم بالعمل فجعلوا يوزعون النحاس ويجمعون عوضه الذهب وبدءوا بذلك من السادس عشر من ذى الحجة سنة ثلاث وأربعين إلى أواخر شعبان من سنة أربع وأربعين

فعمت هذه البلوى الغنى والفقير والتاجر والصانع بلا فرق ولا تمييز فكانت من أشد الضربات ويلاً وأثقلها حملاً فضجوا وعجوا إلى الله وقلت النقود ثم امتنعت وارتفعت أسعار المأكولات وغلت غلاء فاحشاً جداً وأعقب ذلك تقصير النيل فى وفاء أذرعه المعتادة وتشريق الكثير من الأراضى فاستغاث الناس وانكشف حال الميسورين وضاقت الدنيا برحبها في وجوه الفقراء والمحتاجين وظهرت بعض إصابات بالطاعون بأسباب الجوع ولكنه لم ينتشر ولم تشتد وطأته، فلما أتم الجباة جمع أموال هذه التفريدة طمعت نفس أحمد باشا فأخذها لنفسه ولم يرسل منها شيئاً لخزينة السلطان فلم يمض عليه بعد ذلك إلا القليل حتى أتاه الطلب من الباب العالى فرحل عن القاهرة فى سلخ القعدة من سنة أربع وأربعين وألف فكانت مدة تصرفه نحو سنتين إلا أياماً فلما وصل القسطنطينية قام بعض أهالى القاهرة وشكوا أمره إلى الباب العالى وطالبوه بما أخذه من المال فى ضريبة النحاس فعين السلطان جماعة لتحقيق ذلك ثم أمر بقتله فقتل.

(مطلب)

ولاية الوزير حسين باشا

وتولى بعده الوزير حسين باشا فدخل القاهرة فى الثانى من الحجة سنة أربع وأربعين وألف ومعه طائفة من العسكر من دروز لبنان وهم أخلاط من الأشقياء وقطاع الطرق فلما استقرت به الولاية واستقر بهم المقام جار وجاروا وظلم وظلموا وساموا أهل البلاد الخسف وأكثروا من قتل الباعة وهدر دماء السوقة لأقل سبب وتعرضوا للسابلة وقطعوا الطرق وتطاولت أيديهم إلى نهب أموال الناس بغير ممانع واشتدت مظالم حسين باشا أيضا إلى حد لم يسبق له مثيل فكان إذا مات الرجل أرسل أتباعه وأعوانه فيحملون إليه ماله ويحجرون على عقاره فيأخذه لنفسه أيضا ويحرم ورثته وعم فعله هذا جميع المدن والبنادر وكان يكثر التطواف فى الشوارع والحارات راكبا ويقتل فى كل مرة طافها الرجل والرجلين أو أكثر بلا موجب ولا سبب وربما قتل كل ما صادفه من الدواب فى طريقه. قال بعض الكتاب: فكان من قتله فى مدة تصرفه زهاء ألفى رجل وكان كثير الأخذ بالشبهات فكثر فى أيامه الوشاة وتزاحم أهل السعاية على بابه فكان إذا وقع بين رجل وآخر مخاصمة وذهب أحدهما ووشى إلى الباشا المذكور بأن خصمه من ذوى الأموال قبض عليه الباشا

وألقاه فى السجن فلا يخرج منه إلا بالبذل الكثير ومازال على هذا الحال من القتل والسلب حتى جاءه الأمر بالعزل من منصب الولاية فى سلخ القعدة سنة ست وأربعين فكانت مدّة تصرفه سنة ونحو أحد عشر شهرا.

(مطلب)

ولاية الوزير محمد باشا ابن أحمد باشا

وتولى بعده الوزير محمد باشا ابن أحمد باشا فدخل القاهرة فى آخر القعدة من السنة المذكورة وصعد إلى قلعة الجبل فى موكب حافل من العسكر المنصور وتصرف فكان شهما مهيبا صاحب فكر وتدبير ثم لم يلبث أن تبدلت حاله وتغيرت أخلاقه وركب متن الجور فأفسد وظلم وتتبع خطوات السلف فى مصادرة الناس ومد اليد إلى تركات الأمراء والأغنياء والمستورين من أهل البلاد فأثرى وكثر ماله ومنع الصدقات والمرتبات الخيرية عن الأرامل واليتامى وأخذها لنفسه فضج الناس واستغاثوا وعجوا إلى الله تعالى وتضرعوا إليه بزوال ولايته فكان كلما طالت أيامه زاد عسفه وكثر فساده وسام الناس الخسف ، وجاءه الأمر من الباب العالى فى شوال من سنة سبع وأربعين بتجريد حملة للغزو مع العسكر المنصور ببغداد لخروج أهلها ففرح الناس بذلك وظنوا خروجه مع الحملة حسب مرسوم السلطان فلم يخرج وسلم قيادتها إلى قانصوه بك أمير الحاج فسارت فى المحرم من السنة أى سنة ثمان وأربعين وعاد من بقى منها فى صفر سنة تسع وأربعين ومحمد باشا الوالى على ما هو عليه من الجور والعسف فضج الناس ورفعوا ظلامتهم إلى دار السلطنة فلم يلتفت لشكواهم لقيام الفتنة فى دار السلطنة وخروج طوائف الانكشارية عن طاعة السلطان وقتلهم حافظ باشا الصدر الأعظم فى السراى السلطانية وإصرار كبارهم على إرجاع خسرو باشا الصدر المعزول وعدم مراعاة حرمة المراسيم السلطانية. قال بعض كتاب الأخبار: لما كانت سنة تسع وثلاثين وألف هجرية أو نحوها مات شاه عباس ملك فارس وتولى الملك بعده ابنه شاه مرزا وكان صبيا لم يبلغ أشدّه فلما جاءت الأخبار بولايته إلى دار السلطنة تقوت عزيمة كبار العسكر المنصور وفرح خسرو باشا الصدر الأعظم بذلك وسار فى جيش عظيم إلى بلاد فارس لرد ما أخذ من بلاد الدولة ونزل على همذان ودخلها ثم سار منها قاصدا بغداد فلاقته فى الطريق عساكر فارس فقاتلهم وانتصر عليهم وساق خلفهم حتى نزل على بغداد

وحاصرها من كل جانب وشدد فى حصارها ووالى الرمى عليها بالمكاحل بالليل والنهار فلم ينل منها وطالت أيام الحصار ودخل الشتاء فتذمر الانكشارية وطلبوا رفع الحصار والعود إلى القسطنطينية فمناهم بالأمانى الكثيرة فلم يقبلوا وأبوا إلا الرجيل فسار بهم عن بغداد إلى الموصل ولبث معهم حتى انقضى الشتاء وعزم على الرجوع إلى حصار بغداد فلم تطعه العساكر فألح عليهم فأبوا إلا الرجوع إلى القسطنطينية فسار بهم إلى حلب خوفا من أن يداهمه العدوّ وهو بالموصل ولا قبل له على رده ووصلت الأخبار بما جرى إلى السلطان فاستعظم هذا الأمر جدا ورسم بخلع خسرو باشا من منصب الصدارة وسير إليه الفرمان بذلك وأعاد حافظ باشا ثانية إلى منصبه فكبر الأمر على خسرو باشا ودس إلى طوائف الانكشارية من يعلمهم أن خلعه من منصبه إنما كان للذب عنهم والعمل برأيهم فهاجوا عند ذلك وساروا إلى دار السلطنة وأشعلوا نار الفتنة ودخلت طائفة منهم إلى السراى السلطانية وقبضوا على حافظ باشا الصدر وقتلوه فى الثامن والعشرين من رجب سنة إحدى وأربعين وألف ولم يراعوا للسلطان حرمة ولا حفظوا له عهدا ولاذمة فكبر الأمر جدا على السلطان وسير إلى خسرو باشا جماعة فقتلوه وولى الصدارة محمد باشا بيرم وتجرد السلطان من هذا الحين إلى إخضاع الانكشارية وإذلال كبارهم فأعمل فيهم القتل لأقل سبب ورسم بمنع الناس كافة من شرب القهوة والدخان فكان يخرج فى كل ليلة متنكرا ويمشى فى أسواق القسطنطينية بدعوى تأديب المولعين بشرب القهوة والدخان ومعه جماعة من أعوانه وهو إنما يخرج لإتلاف الأشرار وقطع شأفة أهل الفساد من الانكشارية وغيرهم فخافوا وانكمشوا وامتلأت قلوبهم رعبا منه وخشيه الكبير والصغير فمهدت الطرق وزال البأس عن الناس وأمنوا على أموالهم وأعراضهم ولبثوا على الطاعة والانكماش إلى سنة إحدى وأربعين وألف هجرية فهبوا إلى الحركة وتجردوا إلى الثورة ومقدمهم يومئذ رجل اسمه رجب باشا فعاجلهم السلطان وقبض على رجب باشا المذكور وأمر به فذبحوه وألقوا جثته من شباك السراى السلطانية بين جمهور الانكشارية فكبر عند ذلك خوفهم وتفرق جمعهم وعادوا إلى السكينة وملازمة الحدود وزالت من هذا الحين سطوتهم وانحطت شهرتهم وتفرقت كلمتهم وكفى الله الناس شرهم، ولما دانت للسلطان الأمور وزالت عن مقر سلطنته المخاوف بقطع شأفة أهل الفساد سار فى جيش عظيم لغزو بلاد فارس فحارب ملكهم واسترجع كثيراً من القلاع والحصون التى أخذها ملك فارس على عهد الفتن

المتابعة ونال أيضا من بلاد فارس ففتح بغداد واريوان فسير إليه ملك فارس من يخابره فى الصلح وطال الكلام فى أمر ذلك ثم تقررت القاعدة بين الفريقين على بقاء دار السلام فى حوزة السلطان ورد اريوان إلى مملكة فارس وتم الصلح على ذلك وعاد السلطان ظافر منصورا، ثم مرض بعيد ذلك وطال مرضه فلما كان تاسع عشر شوال سنة تسع وأربعين وألف هجرية مات من غير عقب ولم يتجاوز التاسعة والعشرين من العمر فبكاه أهل الفضل من الناس وتولى السلطنة بعده أخوه السلطان إبراهيم الأول فكانت سلطنة المتوفى ست عشرة سنة وأحد عشر شهرا وخمسة أيام رحمه الله تعالى .

(الفصل الحادى عشر)

(فى سلطنة السلطان إبراهيم خان الأول)

ثم قام بالأمر بعد السلطان مراد أخوه السلطان إبراهيم الأول ابن السلطان أحمد بويع بالملك فى عاشر شوال سنة تسع وأربعين وألف هجرية أى سنة أربعين وستمائة وألف ميلادية. قال بعض الكتاب: ووافق تاريخ توليته (٩٨١ ٦٨ سنة ٤٩ ١٠) استعنت بالله ولما كان مشابها فى أحواله وأطواره لعمه السلطان مصطفى تولى أمور السلطنة الأغرار وقرناء السوء فاختلت أحوال المملكة وعادت إلى ما كانت عليه من الفساد وهبت طوائف الانكشارية من رقدة الخمول والانكماش إلى الظهور فعاثوا على عادتهم وطلبوا المطالب الطويلة العريضة فمناهم وأجزل عطاءهم وفتح أمامهم أبواب الحرب ليشغلهم عن العبث بأمور الدولة ومصالح السلطنة فسير طائفة منهم لاسترجاع مدينة أزاق من بلاد القرم التى أخذها القوزاقيون فقاتلوا وأبلوا بلاء حسنا حتى استردوها ثم سير طائفة أخرى لغزو جزيرة كريد إحدى الجزر التابعة يومئذ إلى جمهورية البندقانية وسير لذلك سفنا حربية ومقدمها يوسف باشا ففتحوا الجزيرة المذكورة بعد قتال خفيف فسيرت جمهورية البنادقة سفن حربها إلى بتراس وكورون وموررون من ثغور كريد فأحرقتها تشفيا وانتقاما نظير فتح جزيرة كريد فكبر هذا الأمر على السلطان وهمّ بقتل جميع النصارى الذين فى بلاد الدولة فمنعه من ذلك على ما قيل أسعد زاده أبو سعيد مفتى دار السلطنة وهوّن عليه الأمر فأطاعه

وبذل السلطان جهد الاستطاعة فى إصلاح ما اختل من أحوال المملكة الداخلية، وقد وصل إلى مسامعه خبر ما يلاقيه أهل مصر من جور محمد باشا واليها وظلمه فأمر بعزله وورد الخبر بذلك إلى القاهرة ففرح الناس به فرحا لا يوصف وتأهب محمد باشا للرحيل إلى الديار الرومية وأخذ فى جمع أمواله ومتاعه فكان شيئا كثيرا للغاية وتباطأ فى السفر والخروج من مصر أياما كانت على أهل البلاد كأنها أعوام ثم نزل من قلعة الجبل وأقام فى بيت أحد الأمراء أياما أخرى جاءه الأمر فيها ثانيا من دار السلطنة ببقائه فى منصب الولاية فلما شاع الخبر بذلك حزن الناس حزنا ما عليه من مزيد فصعد إلى قلعة الجبل وعاد إلى التصرف فى الأمور فضاعف الجور وبالغ فى الظلم واشتد على الرعية وأكثر من مصادرة الناس على اختلافهم وفتك وقتل وأراق الدماء ظلما ومازال على هذا الحال من الجور والعسف حتى قدّر الله سبحانه وتعالى بخلعه فجاءه الأمر بذلك فى سلخ جمادى الآخرة سنة خمسين وألف فكانت مدة ولايته ثلاث سنين ونحو ستة أشهر.

(مطلب)

ولاية مصطفى باشا البستانجي

وتولى بعده مصطفى باشا البستانجى فدخل القاهرة فى غرة الحجة سنة خمسين فى موكب حافل وتصرف فكان عاقلا أبىّ النفس قنوعا لا يتطلع إلى ما بأيدى الرعية وكان له ديوانىّ اسمه أحمد افندى وهو جاف خشن الطباع ظلوم فخور مختال وكان بيده مقاليد الأمور فاستبد وجار وظلم وأعاد أيام أحمد باشا من الأخذ بالشبهات ومصادرة الأغنياء والعظماء وأخذ أموال الصدقات والخيرات فشكا الناس أمره إلى مصطفى باشا المشار إليه فلم يفلحوا لتحجبه عن الناس وترك الأمور إلى ديوانيه المذكور يتصرف فيها كما يشاء فاضطربت لذلك الأحوال غاية الاضطراب واختل النظام وفشا الخصام وظهر أهل الفساد واللصوص وقطاع الطرق وكثرت السرقات فى حارات القاهرة وبيوت مصر القديمة وما جاورها من القرى وقصر النيل فى الزيادة فغلت الأسعار وقل وارد الحبوب واشتد البلاء على الناس فكانوا بين قرمين عنيدين الغلاء واللصوص وكان إذا أتى إلى والى القاهرة بلص أو بجماعة منهم أطلق سبيلهم وكذلك كانت تفعل كشاف البلاد والأقاليم فلما اشتد الحال بالناس اجتمعوا زمرا تحت قلعة الجبل وصاحوا على الباشا وشكوا من أفعال والى

القاهرة وكشاف الأقاليم وضجوا ونادوا ما يحل من الله ياباشا اتق الله فى خلقه فاضطرب الباشا وخشى العاقبة وخلع فى الحال والى القاهرة وولى بدله كنعان بك ورسم بالقبض على كل من تقع عليه شبهة فقبض على كثير حتى ملئوا السجون فاطمأنت القلوب وسكنت الخواطر وظنوا بقاء الحال على ذلك، فلما كان شهر شوال سنة إحدى وخمسين ثار جند وجاق الجاويشية على كبارهم واشتدوا على أميرهم على بك وقالو بأنه لم يفرق عليهم شيئا من أموال العطايا وأن الكتاب هم الذين يأخذون هذه العطايا وطلبوا من الباشا خلعه فسايرهم وطاولهم فلم يرجعوا وشددوا فى طلب عزله فعزله وأقام مكانه عابدين بك، فلما رأى جماعة العسكر ما كان من فوز إخوانهم الجاويشية ثاروا هم كذلك وشكوا من فراغ مخازن ذخرتهم وطالبوا بمعاشاتهم المتأخرة واتهموا أحمد افندى ديوانى الباشا السابق الكلام عنه ببيع ما فى تلك المخازن وأخذ أثمانها فعين لتحقيق ذلك قاضى قضاة المحروسة فبحث عما فى الأشوان والحواصل فلم ير فيها شيئا وثبت أن الكاتب المذكور باع ما كان فيها وأخذ الثمن لنفسه فخلعه الباشا تسكينا للفتنة واسترضاء لخواطر الجند فاستنجد الكاتب المذكور بجماعة الجاويشية فأنجدوه وأرجعوه إلى منصبه قهرا فزاد عسفه وتضاعف جوره وظلمه وبالغ فى إيذائه ومازال والناس فى شدة وضيق حتى صرف مصطفى باشا عن الولاية فى جمادى الآخرة سنة اثنتين وخمسين.

(مطلب)

ولاية مقصود باشا

وتولى بعده مقصود باشا فدخل القاهرة فى رجب من السنة فكانت مدة تصرف مصطفى باشا المذكور سنة وثمانية أشهر ولما استقرت بمقصود باشا الولاية جعل ينظر فيما وقع من مصطفى باشا وعوّقه عن السفر من مصر وقبض على كاتبه أحمد افندى وعلى الكيخيا وجلدهما جلدا مبرحا وأخذ منهما مائتى كيس نقرة من أموال الخزينة السلطانية وقد كانا أخذاها لأنفسهما غيلة ثم بعث مصطفى باشا المذكور إلى دار السلطنة تحرسه طائفة من الجند فلما وصل إليها أخذ منه مائة كيس للخزينة السلطانية ثم أخلى سبيله ولبث حينا متحجبا عن الناس ثم أدخل فى خدمة الدولة ومازال حتى بلغ مسند الصدارة العظمى ودبر مقصود باشا أمور البلاد أحسن تدبير فأبطل كثيرا من المكوس والمغارم وأزال بعض الضرائب وأعاد حقوق الوراثة لأهلها

وضرب على الورثة ضريبة يدفعونها للخزينة السلطانية فقط ثم جعل يتعقب اللصوص وقطاع الطرق فقبض على كل من نالته شبهة منهم وسجن وغرّق وقتل فخافوا واختفى خبرهم وارتاحت الأفكار من شرورهم، وبينما كانت القلوب هادئة والخواطر مطمئنة إذ ظهر الطاعون واشتد وعم القاهرة ومصر القديمة وضواحيهما ثم تفشى فى جميع المدن والقرى وعم وكثر الموات وكان ظهوره أولا من ناحية بولاق القاهرة فى أوائل شعبان من سنة اثنتين وخمسين وألف ومازال على هذا الحال من الاشتداد والانتشار من ابتداء ذى القعدة من السنة إلى غاية صفر سنة ثلاث وخمسين وألف ثم بدأ بالتناقص إلى آخر شهر ربيع الأول ولم يسمع بمثل هذا الطاعون فى الفتك والشدة فكانت تنقل الجثث عشرات عشرات والجنازات تسعى خلف بعضها حتى أبطلت الصلاة على الأموات لكثرتهم وفتك بالقرى كذلك فتكا ذريعا جدا. حكى أن مائتين وثلاثين قرية أصبحت خرابا ليس فيها ديار ولا نفاخ نار وكانوا يجدون الأموات فى الطرق وعلى جوانب الجدران والكلاب تحوم حولها ومازال على شدته حتى ارتفع وزال .

وبعد انتهاء الطاعون بقليل من الزمان ظهرت فى العشرين من القعدة فتنة بمدينة الإسكندرية والسبب فى ذلك أن ستمائة من الروم المسيحيين كانوا مقيدين بسجن الاسكندرية وقاسوا من العذاب أمرّه فأتت بعد حين لخلاصهم سفينة وجاءت إليهم أخبار قدومها فقاموا وكسروا أبواب السجن فى اليوم المذكور والمسلمون فى صلاة الجمعة وطافوا فى شوارع المدينة وجعلوا ينهبون البيوت والحوانيت ومخازن الأرزاق وعاثوا وأفسدوا فلم يبقوا ولم يذروا ثم نزلوا بتلك السفينة وأقلعوا من فورهم ونجوا بما كسبوا ولم يظفروا بأحد منهم، وضيق مقصود باشا على الصناجق وطالبهم بثلث الأموال المرتبة على الإقطاعات التى بأيديهم لصرف علائف الجند ورواتب العسكر المنصور فأغضب ذلك الجماعة الصناجق ولم يقبلوا فرأوا منه قرما عنيدا فاجتمعوا فى بيت الأمير رضوان أبى شنب فى يوم الجمعة ثانى عشر رمضان سنة أربع وخمسين وتحالفوا على خلعه إن هو شدد فى الطلب فطولبوا فرفضوا وطلبوا عزل كبار مشورة الباشا فأجابهم إلى ذلك وطالبهم فأبوا وكتبوا إلى الباب العالى يشكون من تصرف مقصود باشا فورد إليه مرسوم السلطان بالاستعلام عن السبب الموجب لتلك الشكوى، فأجاب بما دفع عنه الريبة وأفحم أصحاب الخصومة وقد علم أن زعماء هذه الفتنة الأمير على بك والأمير ماماى بك وشعبان الدفتردار

فعزم على الفتك بهم ورتب لذلك كمينا وأقام لهم رصدا ليقتلهم فى الديوان إذا نزلوا إليه فى يوم الاثنين الثالث والعشرين من ذى الحجة سنة أربع وخمسين فلم ينزل من الديوان من ذلك اليوم إلا الدفتردار فقط فأمسك عن قلته وأبقى العمل إلى يوم آخر فلما كان يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من ذى الحجة من السنة المذكورة جاءه الأمر السلطانى بالخلع واعتزال المنصب وتوليه شعبان بك الدفتردار النيابة حتى يأتى الوالى الجديد، قيل فشق هذا الأمر على مقصود باشا واستعظمه جدا وسلم الأمر إلى الدفتردار صاغرا ثم جاء الخبر من الباب العالى بتولية أيوب باشا فلبثوا ينتظرونه وهم فى خوف حتى انصرف مقصود باشا عن الولاية فكانت مدة تصرفه سنة ونحو سبعة أشهر.

(مطلب)

ولاية أيوب باشا

وقدم أيوب باشا إلى مصر ودخل القاهرة فى موكب خافل قيل ولم يقبل هذا المنصب إلا بعد إقدام وإحجام لما يعلمه من اختلال الأمور واستفحال أمر الجند واتساع سلطتهم وصعد القلعة فى العاشر من صفر سنة خمس وخمسين وألف وأخذ فى تدبير الأمور وترتيبها على الوجه الأتم فأحكم نظامها وقطع دابر اللصوص واقتفى أثر من فر منهم وأعمل فيهم القتل والشنق والتغريق وأخذ على الصغائر فخافه أهل الفساد وانكمش أصحاب الغابات واستتب الأمن وزال الخوف وسادت الراحة واطمأنت قلوب الناس ولازم كل حده ففرحت بأيامه الرعية ولبث يتصرف سنتين ثم كتب يستأذن السلطان فى الانصراف عن منصبه فأذن له فسافر فى سلخ رجب سنة سبع وخمسين وألف فكانت مدّة تصرفه سنتين ونحو ستة أشهر وخرج فى موكب حافل جدا والناس فى حزن عليه.

(مطلب)

ولاية الوزير محمد باشا ابن حيدر

فتولى بعده الوزير محمد باشا ابن حيدر فلما وصل أيوب باشا إلى دار السلطنة رقى إلى مسند الصدارة العظمى فأحسن التصرف والتزم الحزامة وحسن التدبير ثم

نزل وترك المنصب وعكف على العبادة وتنازل عن جميع أمـواله ومقتنياته إلى خزينة السلطان وتزيا بزى الدراويش وانفرد فى جـامع من جوامع الروم إيلى، وتصرف ابن حيدر المذكور فى ولاية مصر فأساء التصرف وعكـس التدبير وأفسد ما نظمه مقصود باشا فكانت أيامـه كلها خروج وطغيان واشـتد حوله الجند واستفـحل أمرهم فكانوا يثورون عند أقل حادثة أو لأصـغر سبب وقامت منهم طائفة الانكشـارية فى العاشر من رجب سنة سبع وخمسين وألف بمصر القديمة فـعاثوا وأفسدوا وفعلوا ما لا خير فيـه فركب عليهم والى القـاهرة وتهددهم إن هم بقـوا على هذا الحال فضـجوا فى وجهـه وساروا إلى ما تحت قلعـة الجبل ونادوا بقتل الوالى المذكـور وكان الوالى من وجاق الجاويشيـة فجاءهم الخبر بعزم البـاشا على قتل الوالى انتصارا للعامـة فركبوا جميعا ونادوا على البـاشا بالويل والثبور فخشى الباشا العاقبـة فدعا إليه قانصوه بك وشاوره فى الأمـر وكان قـانصوه ناقمـا على الأميـر رضوان بك والأميـر علىّ بك فأشار إليـه أن يكتب إلى دار السلطنة بما جرى ويسند حدوث جـميع هذه الفتن إلى الأميرين المذكـورين ويقول إنهما قد أخـذا أيضا مال الخزينة واختلسـا المناصب بغير استـحقاق وكان قـصد قانصوه بذلك رجـوعه هو ومامای إلى منصب إمـارة الحاج وولاية جرجا فجنح الباشا إلى مشورته وطلـب بعض الأعيان للتوقيع على محضر بذلك فاتصل الخبـر برضوان بك فبادر هو بالكتابة يشكو البـاشا إلى الباب وبالغ فى الشكوى وعظم البلوى فورد الجـواب من الباب بتفـويض رضوان بك وعلى بك فى تحقيق جميع ما أسند فعله إلى الباشا وقانصوه بك وورد إلى الباشا فرمان بذلك فى الحـادى والعشـرين من جـمـادى الأولى سنة سـبع وخمـسـين وألف وفى السـابع والعشرين منه استدعاهما الباشا إلى الديوان الخـاص بقلعة الجبل فصعدا إليه وعقدا مجلسا وتجادلا مع من حـضر من الأمراء والعلماء ثم تقرر قتل قـانصوه بك ومامای بك ومن كان على دعوتهما فقتلا وقتل معهما عدة من الأمراء ثم قام بعد ذلك على بك إلى مـقر وظيفـته بجـرجا وسكنت الفـتنة وزالت بعض القلاقل وتسـابق بعض الأمـراء إلى أخذ منصب قـانصوه بك وكـان ممن تقـدم إلى ذلك وبذل الجهـد فى الحصول عليه مصطفى كتخدا الملقب بالششيز فلم يفلح وخاب سعيا فتجرد للعصيان وشق عصا الطاعة وكـادت تستفحل فتنته لولا ماعـاناه رضوان بك من إيقاف تيارها بحسن تدبيره، واستدعى الباشا الأميـر رضوان بك إلى وليمة كان أعدها عنده بقلعة الجبل فخاف رضوان بك على نفسه وأبى الحضـور فغضب الباشا ورسم بتجريده من

إمارة الحاج وكأنه كان ينوى له ذلك فقام رضوان بك من القاهرة فى نحو مائتى رجل وكثير من الأمراء والكشاف ولحق بالأمير على بك بجرجا فجهز الباشا ألفين من الجنود ونحو خمسمائة من الانكشارية وأمرهم فاجتمعوا بالرميلة تحت قلعة الجبل وتأهبوا للسفر ثم عدلوا واتفقوا على نبذ طاعة الباشا إن هو أصر على قتال رضوان بك وعلى بك فخاف الباشا وتحير فى أمره ولبثت العساكر أياما بغير حركة فورد فى هذه الأثناء فرمان السلطان بإبقاء رضوان بك وعلى بك فى منصبيهما فخاب الباشا سعيا وأرسل يستقدمهما إلى القاهرة فقدما فى التاسع عشر من رمضان من السنة أى سنة سبع وخمسين وسعى فى مصالحتهما مع مصطفى كتخدا وأعقب رجوع رضوان بك وعلى بك إلى القاهرة الإشاعة بخلع الباشا وتولية آخر اسمه مصطفى باشا فلهج الناس بهذا الخبر وعم واتصل بالباشا فأخذ يتأهب للسفر وجمع أمواله وأمتعته ولم يبق إلا أن ينزل من قلعة الجبل فلما كان السادس والعشرون من رمضان المذكور ورد فرمان السلطان بتثبيته فى منصب الولاية فعاد وتصرف فى الأمور على ما كان عليه، وفى غاية شهر رجب سنة ثمان وخمسين وألف وردت الأخبار إلى القاهرة بخلع السلطان إبراهيم ابن السلطان أحمد وتولية ابنه السلطان محمد بدله فسار المنادى بذلك فى شوارع القاهرة ومصر القديمة وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق، قال أصحاب التاريخ: ولما كثر عبث طوائف الانكشارية وزاد تمردهم وعمت شرورهم كبر أمرهم على السلطان إبراهيم وعمد إلى الفتك بكبارهم وأصحاب الكلمة فيهم وأخذ يدبر الحيلة فى ذلك فأسر إلى بعض خواصه أن يقتلوهم إذا حضروا وليمة زفاف إحدى بناته على ابن الصدر الأعظم فتأهبوا لذلك واستعدوا فأحس كبار الانكشارية بما فى عزم السلطان فخافوا عاقبة السكوت وتجردوا لخلعه وساروا إلى مسجد أورطة جامع ونادوا بخلع بيعته فوافقهم على ذلك بعض العلماء والمفتى عبد الرحيم وشاع الخبر بذلك فهاج الانكشارية وطوائف السپاه ونادوا جميعا بخلعه وولاية ابنه محمد بدله وهو لم يبلغ يومئذ إلا السابعة فخلعوه فى ثامن عشرى رجب سنة ثلاث وخمسين وألف هجرية وحجروا عليه فى مقره فاضطربت عند ذلك الأحوال واختل النظام وزاد عسف الانكشارية وبقى الحال على ذلك عشرة أيام فعادت طوائف السپاه وطلبت إرجاع السلطان إبراهيم إلى منصب السلطنة وألحت فى ذلك وتجردت لإرجاعه فخشى زعماء الثورة عاقبة ذلك وعمدوا إلى قتل السلطان إبراهيم فساروا إلى مقره ومعهم الجلاد ودخلوا عليه وقتلوه خنقا فمات شهيدا وكان مدة تصرفه نحو ثمان سنين وتسعة أشهر.

ومات فى أيامه يوحنا بطرك المتأصلين بعد أن أقام أربعين سنة وفى أيام يوحنا المشار إليه كان من حوادث الطاعون والغلاء وتوالى الإحن ومصاردة الناس فى أموالهم وتطاول أيدى العساكر والأجناد وانتشار أصحاب السعاية والوشاة والأخذ بالشبهات وغير ذلك من فرض الفرض والمغارم والمكوس ما مر بيانه فى محله فأقيم بعده غبريال وهو خامس تسعيهم واسمه روفائيل من رهبان دير السريان ومولده فى منشاة المحرق وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

* * *

(الفصل الثانى عشر)

(فى سلطنة السلطان محمد الرابع ابن السلطان إبراهيم)

ثم قام بالأمر بعد خلع السلطان إبراهيم وقتله ابنه السلطان محمد الرابع بويع بالملك فى العشرين من رجب سنة ثمان وخمسين وألف هجرية أى سنة ثمان وأربعين وستمائة وألف ميلادية وكان عمره يومئذ سبع سنين فكانت سلطنته بالاسم فقط والتصرف للوزراء وكبار الانكشارية فصارت لذلك أحوال المملكة فى انحلال وأمورها فى اختلال ونظامها فى زوال لعدم وقوف طوائف العسكر عند حد وتداخلهم فى جميع أمور الدولة وعزلهم للولاة والحكام عند أقل سبب وتطاول أيديهم إلى أموال الناس وإراقة الدماء ظلما فكان إذا عمد صدر من الصدور إلى إصلاح الأمور وإرجاع الأحوال إلى سابق مجراها قاموا عليه وخلعوه وربما قتلوه وطافوا بجثته فى الشوارع والطرقات فلم يجسر قط أحد على فعل ما لا يرضونه وقد أخلدوا إلى الترف وكرهوا الحروب فكانوا إذا ساروا إلى غزوة تثاقلوا وركبوا متن هواهم ولم يسمعوا لكبارهم كلمة فيستخف بهم العدو ويتم له النصر عليهم.
قال أصحاب التاريخ: وقد سرى هذا الداء أيضا إلى الجنود البحرية فتولى عليهم الخمول ولازمهم الفشل فآنست جمهورية البندقية منهم ذلك وسيرت مراكبها لقتالهم عند مدخل الدردانيل فانتصرت عليهم نصرة عظيمة واحتلت مدينة تينندوس وجزيرة لمنوس وغيرهما وقطعت الطريق على السفن الحاملة للغلال والمؤنة فلم تتمكن من الوصول إلى القسطنطينية فارتفعت لذلك الأسعار ووقع الغلاء وعز وجود الخبز واشتد الحال بالفقراء وطالت أيام هذه الشدة إلى سنة ست وستين وألف هجرية وقد

تولى الصدارة محمد باشا الكوبريلى وفوض إليه تدبير جميع الأمور وكان شيخا قوى العزم ثابت الجأش حسن التدبير عظيم السياسة خبير بأحوال المملكة فأخذ بزمام جميع الأمور وأتى أوجه الإصلاح من أبوابها واشتد على طوائف الانكشارية شدة عظيمة للغاية فقتل منهم وغرق وشرد وسام كبارهم الخسف فثاروا فاشتد عليهم وضيق فخافوا وانكمشوا ولازموا الطاعة وسير سفن الحرب لاسترجاع ما أخذته مراكب جمهورية البندقية من الجزائر والثغور العثمانية وفتح طريق القسطنطينية فلاقتها سفن البندقية واقتتلوا فكانت الحرب بينهم سجالا ثم انتصرت سفن الدولة واستردت ما أخذ من الجزائر والثغور ومازال يقاوم أعداء الدولة فى الداخل والخارج ويأتى على أوجه الإصلاح من أبوابها حتى مرض واشتد به مرضه فسأله السلطان عمن يتولى المنصب بعده فقال ولدى وعليه فى إتمام ما لم أتمه معتمدى، ومات فى سنة اثنتين وسبعين وألف هجرية فتولى الصدارة بعده ولده أحمد باشا فكان كأبيه فى الحزم وأصالة الرأى وحسن السياسة والتدبير فخافه طوائف الانكشارية وتجرد لمحاربة أعداء الدولة ففاز وظفر ونهى وأمر وغلب وقهر وفتح القلاع والحصون ودوخ المدن والأمصار وأتم الإصلاحات التى كان بدأ بها أبوه فأعاد للدولة مجدها القديم.

(مطلب)

ولاية الوزير أحمد باشا

وكان لما تولى السلطان محمد الملك وبلغ مسامعه خبر الخلاف الواقع ما بين محمد باشا والى الديار المصرية ورضوان بيك وعلى بيك مقدمى الأمراء المصريين رسم بخلع محمد باشا المذكور فجاءه الفرمان بالعزل فى أواخر رمضان سنة ثمان وخمسين وألف، وتولى مكانه الوزير أحمد باشا فسافر محمد باشا المعزول فى العشر الأولى من شوال فكانت مدة تصرفه سنة ونحو ثلاثة أشهر ودخل أحمد باشا القاهرة فى غاية شوال وصعد إلى قلعة الجبل وتصرف فكان سيىء التدبير ضعيف الرأى مشئوم الطالع على البلاد فإنه منذ قبض على زمام الأحكام ظهرت الفتن وبدأت القلاقل ودرج أهل الفساد وقصر النيل عن زيادته المعتادة فلم يبلغ فى سنة ستين وألف زيادة عن الستة عشر ذراعا فشرقت الأراضى فى الأقاليم القبلية جميعها وبعض أراضى الأقاليم البحرية وغلت الأسعار وعزت الأقوات وانقطع واردها إلا القليل جدا وتجرد أحمد باشا من ذلك الوقت إلى تجديد المغارم وفرض

الفرض وإحداث المكوس وتتبع أهل اليسار وعادى جميع الأمراء وخص بالمكيدة رضوان بيك أمير الحاج وكاتب دار السلطنة فى شأنه وطلب عزله من منصب إمارة الحاج وتولية على بيك بدله ليوقع النفرة بينهما فلم يفلح إذ كان رضوان بيك وعلى بيك على غاية المودة والإخاء.

(مطلب)

ولاية عزل أحمد باشا وولاية الوزير عبد الرحمن باشا

فلما كان يوم السبت السادس من صفر سنة إحدى وستين وألف جاء فرمان السلطان إلى أحمد باشا المذكور بالعزل وولاية الوزير عبدالرحمن باشا فدخل عبدالرحمن باشا القاهرة فى سلخ صفر وصعد إلى قلعة الجبل وقبض ومن ساعته على أحمد باشا وسجنه فى بيت وحاسبه على ما فى ذمته من أموال الخزينة فكانت شيئا كثيرا ولم يفرج عنه إلا بعد أن دفعها وسافر إلى الديار الرومية فكانت ولايته نحو سنتين.

(مطلب)

ولاية الوزير محمد باشا

وتصرف عبدالرحمن باشا المذكور فأساء السلوك وحذا حذو السلف فأكثر من جمع الأموال السحت وزاد فى التعرض لأموال الناس وأكثر من الفرض والعوائد والمغارم وتطاولت يديه إلى مال الخزينة السلطانية ولم يقف عند حد فجار وظلم ومازال إلى غرة شوال سنة اثنتين وستين وألف فخلع من منصبه، وأتى مكانه الوزير محمد باشا ولم يدخل القاهرة فى موكبه إلا فى ثامن المحرم افتتاح سنة ثلاث وستين وألف وصعد إلى قلعة الجبل وقبض على عبدالرحمن باشا الوالى المعزول وسجنه ثم حاسبه على ما كان فى ذمته من مال الخزينة السلطانية ولم يفرج عنه من السجن إلا بعد أن أدى ما عليه صاغرا.

وتصرف محمد باشا المذكور فكان حازما عاقلا مدبرا واسع الكلمة مهيبا فخافه الجند وخشوا بأسه فتجرد إلى إصلاح ما أفسدوه ورتب أمور البلاد على أحسن ترتيب فأمن الطرق وقطع دابر اللصوص وأهل الفساد فسكنت فى أيامه القلاقل

واطمأنت قلوب الرعية ودرت الأرزاق وكثرت الأقوات وزال الغلاء وانقطعت أسبابه ومازالت أيامه زاهية زاهرة حتى جاءه فرمان السلطان بالخلع سلخ المحرم سنة ست وستين وألف هجرية فأسف الناس على فراقه أسفا ما عليه من مزيد وخرج جميع الأمراء والكبراء والعلماء والأعيان فى ركابه مودعين.

(مطلب)

ولاية غازي باشا وعزله وولاية عمر باشا

وتولى بعده غازى باشا فأقام بضعة أشهر وجاءه الأمر بالعزل فسار إلى الديار الرومية وتولى بعده عمر باشا فى أواخر سنة سبع وستين وألف هجرية فطالت أيامه، ولما كانت سنة إحدى وسبعين وألف قامت الفتنة بين العساكر المصرية على اختلاف طبقاتها واشتدت نارها وعلا لهيبها فى القاهرة ومصر القديمة ثم امتدت إلى الأقاليم القبلية وعظم أمرها فتطاولت أيدى الجند والغوغاء معا إلى السلب والنهب وهتك الحرمات وظهر العربان فتخطفت كل من خرج من مصر فرارا من الفتنة فكانت شدة عظيمة للغاية مات فيها الجم الغفير من الناس وجرى الدم فى الشوارع والحارات ومات الكثير من الأمراء الفقارية وغيرهم وطالت أيام الفتنة ثم انحسمت أسبابها ولبث عمر باشا الوالى المذكور يتصرف إلى سنة سبع وسبعين وألف هجرية، **قلت:** فإن صح ذلك كانت ولايته زهاء عشر سنين وهذا بعيد فى جانب ما تعوده رجال السلطنة من كثرة العزل والتولية فى ولاة مصر لاسيما وقد كانت أيام عمر باشا المذكور مفعمة بالفتن والكوارث والمحن وخروج الجند بعضهم على بعض فكان لابد لتسكين الفتنة ومنع حدوث مثل هذه القلاقل من تغيير وتبديل فى الولاة.

(مطلب)

ولاية أحمد باشا أو وهو إبراهيم باشا وعزله وولاية حسين باشا

ثم عزل عمر باشا المذكور وتولى بعده أحمد باشا وقيل إبراهيم باشا وذلك فى أواخر سنة سبع وسبعين فأقام سنة وعزل فى أواخر سنة ثمان وسبعين وألف هجرية وفى رواية أنه أقام يتصرف إلى سنة خمس وثمانين وألف هجرية فكانت مدة تصرفه زهاء تسع سنين، وتولى بعده حسين باشا وجاء الخبر بوصوله إلى بولاق مصر

فخرج الناس للقائه وركب فى موكب حافل للغاية وصعد إلى قلعة الجبل ومعه كثير من الخدم والحشم فأخذ يتصرف مع الحكمة والعقل وكان محبا للرعية غير متحجب كان يجلس للناس فترفع له القصص فيأمر وينهى مع الرفق واللين وجاءه فرمان السلطان بطلب ثلثمائة كيس قروش كلاب على حساب القرش الكلب ثلاثون نصف فضة. قال بعض الكتاب: وكانت قيمة القرش الكلب إلى ذلك الوقت أربعين نصف فضة، وكانت قيمة الريال اثنين وأربعين، والشريف البندقى خمسة وتسعين نصف فضة، والشريف المحمدى خمسة وثمانين.

(مطلب)

ولاية حسن باشا جانبلاط

ولبث حسن باشا يتصرف حتى جاءه الأمر بالعزل فى المحرم افتتاح سنة سبع وثمانين وألف هجرية وتولية حسن باشا الجانبلاط فكانت مدة تصرف حسين باشا سنة وبضعة أشهر ودخل حسن باشا الجانبلاط القاهرة فى منتصف المحرم فخرج للقائه العلماء والمشايخ والأمراء وكبار الجند وأصحاب العكاكيز فصعد إلى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد وأطلقت لقدومه البشائر فأخذ يتصرف فى الأمور فكان مشئوم الطالع وقع فى أيامه غلاء عظيم وانقطع الوارد من المأكول وعز وارتفعت الأسعار جدا فبيع الأردب القمح بمائة وثمانين ونصف فضة والأردب الشعير بمائة وثلاثين وكذلك الفول والتبن كل حمل بمائة وخمسين نصفا فضة واشتد الحال على الفقراء حتى أكلوا الميتة وجذور الأشجار وطافوا فى الشوارع يتخطفون الخبز من الأفران ويرجمون بيوت الأمراء بالأحجار ويصيحون ويضجون. قال بعض أصحاب التاريخ: ومع هذا فقد كان النيل فى غاية الكمال.

(مطلب)

ولاية عثمان باشا

وأقام حسن باشا يتصرف إلى أن جاءه الأمر بالعزل فى المحرم سنة إحدى وتسعين وألف هجرية وتولية عثمان باشا فكانت مدة تصرفه أربع سنين، ودخل عثمان باشا القاهرة وصعد إلى قلعة الجبل وأخذ يتصرف فى الأمور فكان عادلا

كاملا حسن السيرة قنوعا غير محب لأخذ ما بأيدى الناس وزاد النيل فى أيامه زيادة عظيمة فعم جميع الأراضى القبلية والبحرية ورواها وأخصبها فأثمرت وأنتجت غلاتها فنزلت الأسعار وكثر الوارد وامتلأت العرصات بالقمح والفول والشعير والعدس والأرز وكثر الخبز بالأفران والدكاكين وشبع الفقراء ووجه غايته إلى ضبط المقاييس والمكاييل وتحرير عيار النقود على اختلافها فلم يتم ذلك حتى جاء الأمر من دار السلطنة بأن يكون وزن الألف نصف فضة مائتين وثلاثين درهما وكل مائة درهم فضة يدخله خمسة وعشرون درهما من النحاس ونودى بذلك فى القاهرة ومصر القديمة فتكدر الناس من ذلك جدا وخصوصا السوقة وأصحاب التجارة وراجعوا الباشا فى ذلك فرفع الأمر إلى دار السلطنة وبالغ فى شكوى الناس من ذلك فلم يلتفت إليه وجاءه الأمر بالتعجيل ففعل.

وكانت إلى هذا الحين لم تبطل الحرب القائمة ما بين الدولة وخصومها ولم يتم جميع الإصلاحات التى بدأ بها كوبريلى أحمد باشا بعد توليته الصدارة العظمى إنجازا لمقاصد أبيه إذ عاجلته المنية فمات حتف أنفه فى سنة سبع وثمانين وألف هجرية، فولى الصدارة بعده زوج أخته قره مصطفى. قال بعض الكتاب: فلم يكن كفؤا لهذا المنصب الجليل ولا هو موصوف بحسن السياسة التدبير فلما استقر به المنصب تغلب عليه هواه فركب متن الشطط وباع المناصب العالية وعاقد الدول على ما يأباه شرف دولته وعزة جانبها وخلط وخبط فأبعد عن الدولة قلوب معاهديها وأزال بسوء تدبيره ما أسسه كوبريلى الكبير وابنه من بعده فظهر الخلل وتطرف إلى جميع مصالح الدولة وتقدمت الأوغاد وعلت كلمة الأغرار واشتد خصوم الدولة عليها فسار قره مصطفى الصدر المذكور فى جيش عظيم يريد محاصرة ويانه عاصمة النمسا فنزل عليها وحاصرها وضيق عليها وأقام على حصارها زهاء شهرين واستولى على جميع قلاعها الأمامية ورمى عليها بالقنابل وراسل الرمى ليلاً ونهاراً حتى هدم بعض أسوارها ولما يأخذها فسير بابا رومه رسله إلى ملك پولونيا وملك ساكس وباڤيرا يستنهضهم إلى نجدة النمساويين وقتال المسلمين وخلاص البلاد من أيديهم فقاموا جميعا للقتال وهاجموا عساكر المسلمين وقاتلوهم قتالا عنيفا للغاية فظفروا بهم وانتصروا عليهم نصرة عظيمة وفشلت جنود قره مصطفى باشا وتمزقت فاستولت الأحزاب على جميع مدافعهم وما تركوه من مؤنة ودواب وآلات الحرب وكانت شيئا كثيرا للغاية ثم جمع قره مصطفى باشا مابقى من جنوده على نهر داب وقفل

راجعا بهم إلى مدينة بور فتتبعه ملك پولونيا فى عكسره وصار يتخطف من خلفه ووصل الخبر بذلك إلى دار السلطنة فكبر الأمر على السلطان وسير على الفور أحد حاشيته إلى قره مصطفى باشا فقتله وبعث رأسه إلى القسطنطينية وولى مكانه إبراهيم باشا وكبر الأمر على دولة النمسا وتعلقت آمال ملكها بالنصر بعد استخلاص ويانه من هجمات العساكر العثمانية فتحالف مع مملكة بولونيا وجمهورية البندقية ورهبنة القديس يوحنا وبابا رومية ودولة الروس على قتال المسلمين وأخذ جميع ما بأيديهم من البلاد فى قارتى آسية وأوربا ودعوا هذه المحالفة بالمحالفة المقدسة ثم فتحوا الحرب على الدولة من كل صوب وحدب فسارت سفن جمهورية البنادقة تتهدد سواحل اليونان وبلاد الموره ومعها سفن حرب البابا وسفن رهبنة القديس يوحنا فتغلبوا على مدن اليونان وأخذوا كورنيشه وأثينه وزحفت جيوش الملك سوبسكى على بلاد البغدان وأغارت عساكر النمسا على بلاد المجر فاحتلت مدينة بست وحاصرت مدينة بور وضيقت عليها فلم تنل منها فهاجموا بعض القلاع والحصون وأخذوها عنوة وفاز الأحزاب وانتصروا عدة نصرات متتابعة فكبر ذلك على السلطان وظنه خيانة من الصدر الأعظم فسير إليه الأمر بالعزل والإبعاد إلى جزيرة رودس وعين مكانه سليمان باشا السردار فلم يغن عزله شيئا ولم يفلح لسليمان باشا السردار عمل وافتتح النمساويون مدينة بور ودخلوها وأعملوا فيمن بها من العساكر العثمانية القتل، وقتلوا عاملها المدعو عبدى باشا فكان سقوط هذه المدينة فى أيدى الأعداء خسارة عظيمة على الدولة العثمانية وفشلت بعد ذلك عساكر سليمان باشا وتولى عليها الجبن والضعف وفازت عساكر الأحزاب وتقدمها النصر فى جميع حروبها والسلطان فى شاغل عن جميع أمور السلطنة بالصيد والقنص ومنادمة قرناء السوء فى القسطنطينية وضواحيها.

ولما وردت الأخبار إلى دار السلطنة بتوالى هزيمة العساكر العثمانية وفوز الأحزاب ودخول الشتاء رسم السلطان بأن يكون الروم إيلى مشتى العساكر فى ذلك العام أيضا وقد كانوا أشتوا فيها عدة سنين فهاج العسكر عند ذلك وماجوا وأبوا إلا العود إلى دار السلطنة فلما صاروا على مقربة منها كتبوا محضرا بما عليه السلطان من سوء الأخلاق وعدم صلاحيته لمنصب الخلافة وطلبوا خلع بيعته فوافقهم على ذلك العلماء والمشايخ وأهل الدولة وخلعوه فى غرة المحرم افتتاح سنة تسع وتسعين وألف هجرية وأجلسوا بدلا منه أخاه السلطان سليمان الثانى وبقى السلطان محمد محجورا عليه حتى مات سنة خمس ومائة وألف هجرية.

* * *

(الفصل الثالث عشر)

(فى سلطنة السلطان سليمان خان الثانى)

ثم قام بالأمر بعد خلع السلطان محمد آخوه السلطان سليمان خان الثانى بويع له بالملك فى الثانى من المحرم افتتاح سنة تسع وتسعين وألف هجرية أى سنة سبع وثمانين وستمائة وألف ميلادية وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق فلما تمت له البيعة دخل جميع العساكر الذين كانوا فى حومة القتال إلى دار السلطنة بسلاحهم وكراعهم ودوابهم وضربت كتائب السباهيين خيامهم فى المكان المعروف بميدان السلطان أحمد وضرب الانكشاريون خيامهم فى المكان المعروف بأت ميدان وما غنموا حتى قبضوا بعد ذلك على أزمة الأحكام وأمروا ونهوا وصاروا يعزلون ويولون ويقصون ويدنون من شاءوا ويقتلون ويصادرون الوزراء والأمراء والحكام على السواء وتطاولت أيديهم أيضا على أموال الرعية واشتدوا على الناس شدة بالغة وعاثوا وأفسدوا وهتكوا الحرمات ودخل جماعة منهم يوما إلى الباب العالى وقبضوا على الصدر الأعظم سياوس باشا وقتلوه شر قتلة فعم الخلل وظهر أهل الفساد فتبعوا العسكر فى النهب والسلب وعاثوا وعربدوا واتفق أن جماعة منهم دخلوا إلى بيت شريف من الأشراف ينهبون فمانعهم الشريف فلم يقدر فخرج وهو يصيح ويضج ثم رفع منديلا على رأس عصا وصار ينادى من كان مؤمنا بالله ورسوله فليأت تحت الصنجق فلما سمع الناس نداءه أتوا إليه من كل صوب وحدب وأحاطوا به وهم يضجون ويعجون إلى الله وذاع الخبر فى جميع أطراف القسطنطينية بخروج البيرق النبوى أى بيرق صاحب الشريعة فهرع الناس أفواجا أفواجا إلى السراى السلطانية وهم لا يشكون فى أن منديل ذلك الشريف هو البيرق النبوى فتعجب الأمراء وكبار الدولة من هذا الأمر الغريب وظنوا أن اجتماع هذه الجموع الكثيرة على هذه الصورة إنما هو بإرادة سماوية ومشيئة إلهية فأسرعوا فى إخراج البيرق النبوى للحال ووقع السيف فى أعناق أهل الشقاوة والفساد وكثر القتل والتفريق وعمت الثورة واستفحل الخطب واشتد الويل والكرب وأغلقت الأسواق وتترس الناس فى البيوت والدروب فكانت فتنة كبرى .

وبينما كانت القسطنطينية تتأجج بنار الفتنة والدماء تسيل فى طرقاتها كانت

عساكر الأحزاب تقاتل بلاد الدولة وتحتل الثغور وتأخذ القلاع والحصون فاستولى البندقيون على إيالة المورة ووصل النمساويون إلى بلغراد ثم استولوا على قلاع ودين وفتح الإسلام ونيس والافلاق وغيرها ووردت الأخبار بذلك إلى دار السلطنة فاجتمع كبار الدولة وأهل الحل والعقد فيها وتشاوروا فى الأمر واعترفوا بعجزهم وعدم قدرتهم على إطفاء نار هذه الفتنة وبعد إقدام وإحجام اتفقت كلمتهم على تسليم كوبريلى مصطفى باشا خاتم الصدارة العظمى فاستقدموه فى الحال وسلموه الخاتم فقبض على زمام الأمور بهمة عالية وأبطل كثيرا من البدع والمظالم المستحدثة وأزال جميع الأمانات والالتزامات وأبطل رسوم وعادات الوزراء فى الأعياد والمواسم وبالغ فى إرجاع الجند إلى حدود الطاعة وملازمة النظام وصرف لهم جميع جماكيهم وعلوفاتهم المتأخرة وبث حول كبارهم العيون والأرصاد فخافوه وأخلدوا إلى السكينة وقطع دابر أصحاب الشقاوة وأهل الفساد وأمن الطرق فأحبه الناس ومالت إليه قلوب الجند فأذعنوا لأمره واجتمعوا عند كلمته وانطلقت ألسنة الناس كافة بالدعاء له فلما تم ما أراده من تنظيم أمور المملكة الداخلية تجرد للغزو وأخذ الثأر من الأعداء وأثار الحرب على النمسا وجمهورية البندقية وبقية الأحزاب وسير لقتالهم عسكرا جرارا فكانت بينهم سجالا، وبينما كانت نار الحرب تشتعل بين العساكر السلطانية وجيوش الأحزاب تحرك كذلك بطرس الأكبر قيصر الروس ونكث العهد وزحف بجيش عظيم يريد إما التخلص من الجزية المفروضة على مملكته لبكوات القريم وإما الحرب والقتال فكبر هذا الأمر على الصدر الأعظم ورسم لجيوش التتار بقتال الروس فقاتلوهم قتالا عنيفا وهزموهم شر هزيمة وغنموا ما كان معهم من المدافع وآلات الحرب والخيام والدواب وكانت شيئا كثيرا وعادت التتار ظافرة وتفرغ الصدر الأعظم حينئذ لقتال الأحزاب وشدد فى ذلك فهزمت العساكر السلطانية عساكر جمهورية البندقية وانتصرت عليها نصرا عظيما وركب هو بعسكره أيضا على دولة النمسا فافتتح قلعة نيس وجميع القلاع والبقاع المتصلة إلى قلعة بلغراد وقلعة سمندرة واسترجعت أيضا السفن العثمانية قلعة ودين وسير طائفة من العسكر إلى أطراف أردل ففتحوها وانتصروا على من كان بها من الأعداء.

(مطلب)

ولاية حسن باشا السلحدار

ولم تكن هذه الحروب المتتابعة لتشغل رجال السلطنة عن التولية والعزل فى ولاة

مصر فإنه بعد أن لبث عثمان باشا يتصرف جاءه الأمر بالعزل فى أوائل سنة تسع وتسعين وألف هجرية وتولية حسن باشا السلحدار فكانت مدة تصرفه نحو ثمان سنين وبضعة أشهر، ووصل حسن باشا إلى الإسكندرية فخرج للقائه الأمراء وكبار الجند والعلماء والوجهاء فدخل القاهرة فى موكب حافل للغاية وصعد إلى قلعة الجبل وأخذ يتصرف فى الأمور فلما كانت سنة ألف ومائة هجرية وقع الغلاء بمصر وامتنع الوارد من الغلال إلى القاهرة فبيع الأردب القمح بمائة وعشرين نصفا فضة والأردب الشعير بثمانين والفول بخمسة وتسعين نصفا. قال بعض الكتاب: وأجرة طحين ويبة القمح أربعة أنصاف فضة فضج الفقراء وطافوا بالأزقة والحارات يتساءلون وصاروا يتخطفون ما يجدونه من الخبز فى الأفران وفى الدكاكين واهتم حسن باشا بأمر الغلاء ففتح الأشوان السلطانية وأطعم حتى زال الغلاء وكثر الوارد من الغلال واطمأنت قلوب الناس.

(مطلب)

ولاية أحمد باشا جانبلا

وبث حسن باشا يتصرف إلى ربيع الثانى سنة إحدى ومائة وألف هجرية فجاءه الأمر بالعزل وتولية أحمد باشا فنزل من قلعة الجبل، ودخل أحمد باشا القاهرة فى آخر ربيع الثانى المذكور فكانت مدة تصرف حسن باشا ثلاث سنين غير كوامل وتصرف أحمد باشا تصرفا حسنا إلا أنه لم تطل مدته وكان السلطان سليمان قد رحل عن القسطنطينية إلى أدرنه وأقام بها يستطلع أخبار الحرب ويستنشق نسمات النصر بعد ذلك الخذلان المتتابع فبينما هو على هذا الحال جاءته الأخبار بظفر جنوده وقهرهم للأعداء ففرح بذلك فرحا لا يوصف وسار من أدرنه إلى دار السلطنة فضربت لقدومه البشائر وعاد بعد أيام أيضا الصدر الأعظم بجميع عساكره ورايات النصر تخفق على رؤوسهم كان ذلك فى وقت الشتاء فتفرغ من الحرب إلى إمضاء الأحكام وتنظيم أمور الدولة وإعادة ما خسرته من العز والجاه وبقى كذلك إلى دخول الربيع فخرج بجيوشه يريد بلغراد للغزو والجهاد وخرج السلطان إلى أدرنه تشجيعا للمقاتلين فلم يلبث بها إلا أياما حتى مرض واشتد به مرضه فمات فى العشرين من رمضان سنة اثنتين ومائة وألف فكانت سلطنته ثلاث سنين وتسعة أشهر وتولى الملك بعده أخوه السلطان أحمد خان الثانى ابن إبراهيم خان.

* * *

(الفصل الرابع عشر)

(فى سلطنة السلطان أحمد الثانى ابن إبراهيم)

ثم قام بالأمر بعد السلطان سليمان أخوه السلطان أحمد الثانى ابن السلطان إبراهيم بويع له بالملك يوم موت أخيه سنة اثنتين ومائة وألف هجرية أى نحو سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف ميلادية فلما استقرت به السلطنة أخذ يتصرف فى الأمور ولم تكن الحرب القائمة بين جيوش مصطفى كوبريلى صدر الدولة وبين جيوش النمسا قد انقضت إلى ذلك الوقت فاهتم السلطان أحمد بأمرها وسير مصطفى باشا المشار إليه إلى بلاد النمسا لإخضاعها واسترداد ما بقى تحت يدها من المدن والبلدان فسار مصطفى باشا ومازال يحارب حتى مات فى ساحة الحرب وانهزم جيشه شر هزيمة ومات منه زهاء العشرين ألفا وتشرد من بقى منه فاضطرب السلطان من ذلك وصمم على الأخذ بالثأر فجعل يعد المعدات ويجيش الجيوش ويراقب الفرص ويتبين انتفاعها فبينما هو على هذا الحال إذ قام الحريق بالقسطنطينية واشتد بها شدّة بالغة جدا فاحترق نحو ربع المدينة ومات كثير من الشيوخ والأطفال وعم الخطب فتعوق تسيير الحملة على بلاد النمسا ولم تخرج إلا فى سنة خمس ومائة وألف وكانت جيوش النمسا فى هذا الحين تشدد الحصار على مدينة بلغراد فلما جاء الخبر بمقدم العساكر العثمانية خاف قائد جيوش النمسا وفك الحصار عن بلغراد ورجع عنها فنزلت العساكر العثمانية حول بلغراد ولبثت هناك من غير قتال ولم يقع الاتفاق بين قائد الجيوش العثمانية وقائد جيوش الفرنجة على شىء من أسباب الصلح أو المهادنة ولم تزل الحال كذلك إلى أن مات السلطان أحمد سنة ست ومائة وألف هجرية فكانت سلطنته ثلاث سنين وبضعة أشهر وقيل أربع سنين ومات فى أيامه أحمد باشا والى مصر فدفن بالقرافة.

(مطلب)

ولاية علي باشا قلج

وجاء فرمان السلطان بتولية على باشا قلج بدله فدخل القاهرة فى ربيع الثانى سنة اثنتين ومائة وألف هجرية فكانت مدة تصرف أحمد باشا سنة وبضعة أشهر

وتصرف على باشا قلج فكان غير موفق فى جميع أعماله ميالا للإيذاء غير قنوع وقصر فى أيامه النيل عن زيادته المعتادة فرسم للشيخ يوسف السادات بأن يبيت فى قاعة المقياس ويتلو حزبه فى كل ليلة حتى يحصل الوفاء وأقام بطرك المتأصلين كذلك الصلاة ودعاء الله سبحانه وتعالى، قيل فزاد النيل ووفى فى السابع والعشرين من مسرى القبطى وعم الأراضى ثم انحدر عنها فأخصبت وأنتجت غلاتها ولبث يتصرف حتى تولى السلطنة السلطان مصطفى الثانى ابن السلطان محمد الرابع وكان من أمره ما سيذكر فى محله .

◆◆◆

(الفصل الخامس عشر)

(فى سلطنة السلطان مصطفى الثانى

ابن السلطان محمد الرابع)

ثم قام بالأمر بعد السلطان أحمد ابن أخيه السلطان مصطفى الثاني ابن السلطان محمد الرابع وبويع بالملك سنة ست ومائة وألف هجرية أى سنة خمس وتسعين وستمائة وألف ميلادية وكان متأدبا حسن السيرة محبا للعلوم والمعارف رزينا كريم الأخلاق فلما استقرت به السلطنة جيش على جزيرة ساقس ففتحها ثم سار إلى قتال النمسا إذ الحرب لم تكن خمدت نارها بين الفريقين فلما التقى الجمعان واقتتلا انهزمت جيوش السلطان شر هزيمة فقفل راجعا بمن بقى معه ثم سار بجيش آخر لقتال الروس فلاقته جيوشهم وقاتلته قتالاً عنيفاً فانتصرت عليه نصرة عظيمة وأخذت منه مدينة أزوف ولما رأى السلطان من توالى نصرة أعدائه وموت عساكره سلم خاتم الصدارة إلى حسين باشا عموجه زاده من عائلة كوبريلى ففرح الناس بذلك وعدوا هذا الفعل من تدابير السلطان الحسنة وكانوا يودون لو أن الصلح يقع مع الدول المحاربة على يد حسين باشا الصدر المذكور فتحقن الدماء وتزول ويلات الحروب وكان الصدر الأعظم يرى وجوب التمسك بقول القائل: إذا أردت الصلح والصلاح كن مستعدا للحرب والكفاح. فسار من فوره بالعسكر السلطانى إلى نواحى بلغراد يريد القتال فتداخلت عند ذلك دولتا الإنجليز والفلمنك

فى تقرير قاعدة للصلح فأذعن الصدر بذلك خوفا من ملل الجنود من توالى الحروب عليهم فى أربع جهات مختلفة ونفاد الأموال فضلا عما طرأ على البلاد من الخراب فتم أمر الصلح مع الأحزاب ولكن لم يرق هذا العمل الخطير فى عين فيض الله افندى شيخ الإسلام وحسد الصدر الأعظم على هذا الفوز فدس فى حقه إلى السلطان وأكثر من النميمة والوشاية به وأثار عليه الخواطر ورماه بالمروق ووسمه بالخيانة فلم يطق الصدر هذا الحال واعتزل المنصب وكتب إلى السلطان بذلك فجاءه جواب السلطان بالقبول. قال أصحاب التاريخ: وقد ختمت بهذا الوزير سياسة محمد باشا الكويريلى ولم تلبث الأحوال أن تغيرت وظهر الأغرار وقبضوا على زمام الأحكام وكان للسلطان ميل تام إلى فيض الله افندى شيخ الإسلام لأنه شيخه ومربيه فأركن إليه واعتمد فى كل الأمور عليه فتاقت نفس فيض الله إلى الانفراد بالأمر ففعل ما لم يفعله أحد قبله من سلفائه وأمضى ما لا يليق بشأن العلماء فولى أولاده ومن ينسب إليه المناصب العالية وإرقاهم المراتب السامية وقبض على أزمة جميع الأمور فنهى وأمر وفاز واشتهر وغلب وقهر وحصر المنافع فيه وفى أولاده وأتباعه وأقبلت عليه الدنيا بحذافيرها فلم تبق كلمة فوق كلمته ولايد فوق يده، وتولى السلطان مصطفى والوالى على مصر على باشا قلج فأتى إليه فرمان الرضا فلبث يدبر الأمر وكان على باشا هذا سيئ الطالع قليل الرأى عديم التدبير متحجبا عن الناس إلا عن بعض خواصه وكانت أيامه كلها شدائد وقع فيها غلاء شديد جدا فقل ورود الغلال يوما عن يوم حتى انقطع وعزت الأقوات وضافت أمور الفقراء واشتد بهم الجوع شدّة بالغة فأكلوا الجيف وجذور الأشجار ثم اجتمع منهم السواد الأعظم رجالا ونساء وصبيانا وصعد إلى قلعة الجبل وذلك فى منتصف المحرم من سنة سبع ووقفوا بحوش الديوان وصاحوا من الجوع واستغاثوا ونادوا على الباشا فلم يجبهم أحد فرجموا بالأحجار وأكثروا من العربدة فركب الوالى وطردهم فنزلوا إلى الرميلة ونهبوا ما بها من حواصل الغلال وكذلك وكالة القمح وحواصل كتخدا الباشا وكانت ملأى بالشعير والفول وأصناف الحبوب الأخرى فلم يقدر أحد على ردهم واشتد الغلاء حتى بيع الأردب القمح بستمائة نصف فضة والشعير بثلثمائة والفول بأربعمائة وخمسين والأرز بثمانمائة نصف فضة أما العدس فكان لاوجود له بالكلية وحصلت شدة عظيمة بمصر والأقاليم كافة وجاء أهالى القرى والأرياف إلى القاهرة ومصر القديمة فامتلأت منهم الأزقة والحارات واشتد الكرب وعم الخطب

ومات الكثير من الناس جوعا وخلت أكثر القرى من أهلها وخطف الأهالى الخبز من الأسواق ومن الأفران والذى على رؤوس الخبازين مع ندرته فكان يذهب الرجلان والثلاثة مع طبق الخبز يحرسونه من الخطف وبأيديهم العصى حتى يخبزوه ويعودوا به واستمر الأمر على ذلك إلى أن عزل على باشا المذكور فى ثامن عشرى من المحرم افتتاح سنة سبع ومائة وألف هجرية.

(مطلب)

ولاية مسلم باشا إسماعيل

وخلفه فى الولاية مسلم باشا إسماعيل وهو من ولاة الشام فلما جاء الخبر بعزله فرح الناس فرحا لا يوصف واستبشروا بالفرج بعد الضيق وقام إبراهيم بك أبو شنب فى نيابة الغيبة حتى يقدم مسلم باشا إسماعيل المذكور إلى مصر، ونزل على باشا المخلوع إلى بيت أحمد كتخدا العزب المطل على بركة الفيل واستقر به فكانت مدّة تصرفه أربع سنين وثلاثة أشهر وأياما وحضر إسماعيل باشا الوالى الجديد من البر وصعد إلى قلعة الجبل بالموكب فى يوم الخميس السابع والعشرين لصفر من السنة فلما استقر به المنصب ورأى ما فيه الناس من الجوع والكرب والموات رسم بتوزيعهم على بيوت الأمراء والأعيان كل إنسان على قدر حاله وقدرته وأخذ لنفسه جانبا ولأعيان دولته جانبا وعين لهم ما يكفيهم من خبز وطعام فى الصباح والمساء إلى أن انقضى الغلاء ثم أعقب ذلك وباء عظيم للغاية فرسم الباشا لأصحاب بيت المال بأن يكفنوا جميع الفقراء والغرباء كافة فكانوا يحملون الموتى من الطرقات عشرات عشرات ويذهبون بهم إلى مغسل السلطان عند سبيل المؤمن ومازالوا على هذا الحال إلى أن انقضى الوباء أيضا فكان عدد الموتى لا يكاد يحصر وكان انقضاء الوباء فى آخر شوّال من السنة فعمل الباشا أفراحا وختن ولدا له اسمه إبراهيم وختن معه ألفين وثلثمائة وستة وثلاثين غلاما من أولاد الفقراء ورسم لكل غلام بكسوة كاملة ودينار، وكان من ملتزمى دار الضرب على عهد على باشا الوالى المنفصل يهودى اسمه ياسف وكان طاغية داهية وقد طلب إلى دار السلطنة وسئل عن أحوال مصر وما يتعلق بها فأملى على أمور والتزم بتحصيل أموال الخزينة زيادة عن القاعدة المقررة فى كل عام وحسن إحداث بعض إحداثات فأجازت له الدولة ذلك وأعطت له مرسوما فلما حضر مصر تلقته طائفة اليهود من بولاق وأصعدوه إلى الديوان فى

كبكبة فقرئت الأوامر التى حضر بها ووافقه الباشا على إجرائها والعمل بها وأشهر النداء بذلك فى شوارع مصر والقاهرة فاغتم الناس وتوجه التجار وأعيان البلد إلى الأمراء وراجعوهم فى ذلك فركب الأمراء والصناجق وطلعوا إلى القلعة وكلموا الباشا فلم يقبل منهم فغضبوا وسألوه أن يسلمهم اليهودى فامتنع فأغلظوا عليه وصمموا على أخذه فأمرهم بوضعه فى العرقانة وأن لا يشوشوا عليه حتى ينظروا فى أمره ففعلوا به ذلك فقام الجند على الباشا وطلبوا أن يسلمهم اليهودى ليقتلوه فامتنع فمضوا إلى السجن وأخرجوه وقتلوه عند بابه وجروه من رجله وألقوه فى الرميلة فقام العامة وجمعوا حطبا وأحرقوه بمرأى من الناس كافة وذلك فى يوم الجمعة بعد الصلاة ثم سكنت الفتنة ،كأنها لم تكن، ومن هذا الحين انحرف الجند على الوالى ونقموا عليه وصاروا ينكرون عليه كل فعل ولو لم يستحق الإنكار حتى قاموا عليه فى الثانى والعشرين من ربيع الأول من السنة وعزلوه فكانت ولايته سنتين اثنتين.

(مطلب)

ولاية حسين باشا

وقام مصطفى بك بالأمر إلى أن حضر الوالى الجديد واسمه حسين باشا واليا على صيدا من أعمال الشام فلما حضر إلى القاهرة طلع إلى قلعة الجبل فى موكب حافل فى منتصف رجب سنة تسع ومائة وألف فلما استقرت به الولاية أخذ ينظر فى أمور البلاد ومصالح الخلق فكان يرى نفسه مغلوبا على أمره لا كلمة له بين الجند والأمراء والصناجق فعمل على تعزيز جانبه وإعلاء كلمته فلم يتمكن لقصر أيامه، واتفق فى ولايته أن خرج المغاربة من أهل تونس وفاس المقيمين بالقاهرة فى رابع عشر شوال من السنة ليحملوا كسوة الكعبة التى تحمل فى كل عام للبيت الحرام وكانت عادتهم فى ذلك اليوم إنهم يمرون بالكسوة فى وسط القاهرة مغ غاية الاحتفاء والاحتفال ويضربون كل من رأوه يشرب الدخان فى أثناء مرورهم فرأوا رجلا من أتباع مصطفى كتخدا القازدغلى يدخن فكسروا أنبوبته وضربوه وشجوا رأسه وكان فى مقدمتهم أناس منهم متسلحون فزاد التشاجر واشتد الأمر فقام عليهم أهل السوق وأوقعوا الضرب فى بعضهم بعضا وكادت الفتنة تعم القاهرة ومصر وخاف الناس العاقبة وحضر أودة باشا البوابة فقبض على جماعة منهم وقيدهم

بالحديد وصعد بهم إلى حيث الباشا فأمر بهم فحبسوا حتى سافر الحاج من مصر ومات منهم جماعة فى السجن ثم أفرج عنهم بعد ذلك.

(مطلب)

ولاية قره محمد باشا

وورد عقب هذا الحادث بقليل الخبر بعزل حسين وولاية قره محمد باشا فحضر مصر فى منتصف ربيع الآخر سنة إحدى عشرة ومائة وألف فكانت ولاية حسين بشا سنة وسبعة أشهر وأياما ولم يكن لقره محمد من حظ الولاية على البلاد إلا ما كان لسلفه فإنه كان مغلوبا على أمره وكانت الكلمة للأمراء والصناجق ولم يبق له إلا صغائر الأمور فوجه عنايته إليها وما هى إلا إزالة بعض السقائف والدكاكين لتوسعة الطرق والأسواق وقطع الأرض وتمهيدها ورسم بترميم جامع الأربعين الذى بجوار باب قره ميدان وأنشأ فى الميدان المذكور جامعا بخطبة وتكية لفقراء الخلوتية من الروم وأسكنهم بها وأنشأ تجاهها مطبخا ودار ضيافة للفقراء وفى علوها مكتبا للأطفال ورتب لهم ما يكفيهم وأنشأ فيما بينها وبين البستان المعروف ببستان الغورى حماما فسيحا مفروشا بالرخام الملون وجدد بستان الغورى وغرس فيه الأشجار ورمم قاعة الغورى التى بالبستان وعمر بجوار المنزل سكن أمير اخور وبنى مسطبة عظيمة برسم الباس القفاطين وتسليم المحمل لأمير الحاج وأرباب المناصب، **قلت** : وهى موجودة إلى يومنا هذا، وعمر مسطبة يرمى عليها بالنشاب وأنشأ الحمام العظيم بقره ميدان ونقل إليه من قلعة الجبل حوض رخام ضمن قطعة واحدة وعملوا به فسقية فى وسط المسلح وعمر بالقرافة مقام سيدى عيسى بن عبدالقادر الجيلانى وجعل به فقراء مجاورين ورتب لهم ما يكفيهم وأنشأ صهريجا بداخل القلعة بجوار نوبة الجاويشية ورتب فيها خمسة عشر نفرا يقرؤون القرآن كل يوم بعد الشمس.

أما فيض الله افندى شيخ إسلام دار السلطنة فإنه لما اتسعت كلمته وبسط يده على جميع الأمور وصار السلطان طوع يده أبغضه الناس. وكثرت خصومه وناواه جميع أعيان الدولة وأركانها وظهرت الفتنة وعظمت واستفحل أمرها فقامت الجنود على السلطان فخلعوه وقبضوا على شيخ الإسلام وقطعوا عنقه بحد السيد وسجنوا السلطان مصطفى ووكلوا به طائفة منهم تحرسه وذلك سنة خمس عشرة ومائة وألف

هجرية فكانت مملكته تسع سنين وقيل ثمان سنين ومازال مسجونا حتى مات فى نحو سنة تسع عشرة وخلفه أخوه السلطان أحمد ابن السلطان محمد .

ومات فى أيام السلطان مصطفى متاوس بطرك المتأصلين بعد أن أقام أربع عشرة سنة وكان اسمه جرجس من رهبان دير البراموس ونقل فى أيامه دار البطركية من حارة زويلة إلى إلى حارة اروم بالقاهرة وسكن بها وكان تقيا عالما فأقيم بعده يوحنا وهو الثالث بعد المائة واسمه إبراهيم من رهبان دير انطونيوس وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله .

(الفصل السادس عشر)

(فى سلطنة السلطان أحمد ابن السلطان محمد)

ثم قام بالأمر بعد السلطان مصطفى أخوه السلطان أحمد ابن السلطان محمد بويع بالملك بعد خلع أخيه سنة خمس عشرة ومائة وألف هجرية أى سنة اثنتين وسبعمائة وألف ميلادية فلما استقر به الملك اشتد على العسكر وضيق عليهم وكان شديد البطش عظيم البأس سفاكاً للدماء فهابه العسكر وخافته الرعية فأصلح بعض الأمور التى فسدت على عهد السلف وأعاد للدولة بعض القوة والنظام وظهرت فى أيامه وقعات الروس مع الأسوجيين وزحف بطرس الأكبر قيصر الروس بعسكر عظيم للغاية على قلعة ازاق فى بلاد القريم وحاصرها وضيق عليها حتى فتحها وطمحت آماله إلى ضم بلاد اسوج إلى مملكته فسار لقتالها وكان ملكها كرلوس الثانى عشر جليل القدر واسع المعرفة بأساليب السياسة وتدبير الممالك وكان يعرف عند أهل الإسلام باسم تيمور باش وقد أنذر الدولة العثمانية بالخطر الذى يلحق بها إذا تركت بطرس قيصر الروس وشأنه يغزو ويدوخ الممالك المجاورة له فلم تلتفت يومئذ لقوله فلما نال بطرس الغلبة وكاد يأخذ ملك أسوج أسيرا هرب ملك أسوج إلى دار السلطنة العثمانية فنال بطرس من بلاد أسوج وضم جانبا عظيما منها إلى مملكته من ناحية بحر البلطيق وتجاوزت العساكر الروسية بعض الحدود العثمانية فرسم السلطان إلى بلطجى محمد باشا الصدر الأعظم بالمسير لقتال بطرس ورد غارات عسكره فسار فى جيش عظيم وعبر الطونة وقطع أياله بسارابيا وكانت عساكر الروس قد عبرت قبل ذلك نهر بروت فنزلوا على ساحل الطونة فلم يلتفت إليهم وظل

سائرًا بجيوشه حتى بلغ ممر فالجى وقصد عبور نهر بروت من هذا الممر فلما تحقق ذلك القيصر ظن الظنون البعيدة وسير فريقا من عساكره لمنعهم من العبور فلم يقدروا وتمكنت العساكر العثمانية من العبور وقاتلوا الروس فهزموهم وساقوا خلفهم حتى ألحقوهم بمعسكرهم بعد الزوال ولم يطلبوا الراحة من التعب بل فاجئوا العدو وهجموا عليه هجمة رجل واحد فانهزم وتقهقر فعارضه نهر بروت من جهة وسد عليه أيضاً خان القريم الطريق من الجهة الثانية فنظر القيصر وإذا به قد وقع بين متطح عنزين فسير رسله إلى الوزير فى طلب الأمان وتقرير قاعدة للصلح فأجابه الوزير إلى ذلك وتقررت بين الفريقين القاعدة وتم الصلح على ما سيذكر وكتب به أيضا عقد مؤقت وهو:

الباعث لتحرير هذا الكتاب الصحيح النصاب هو أنه بتوفيق الله الملك العلام انتهت حرب عساكرنا المنصورة مع قيصر الروس وعسكره فى طرف نهر بروت وبعد حصارهم والتضييق عليهم فبلطفه تعالى الكريم وفضله العميم طلب القيصر المرقوم إجراء المصالحة وعند ذلك عقدت وربطت قيود وشروط الصلح والصلاح على الوجه الآتى بيانه: وهو أن قلعة آزاق مع أراضيها وسائر ملحقاتها يجرى تسليمها كالأول للدولة العلية، والقلعة الجديدة الكائنة فى أعالى طغيان وقمانكة وصمصار المختصة بالقيصر تهدم بالكلية والمدافع والجبخانة الموجودة ضمن قمانكة يجرى تسليمها بتمامها للدولة العلية، وفيما يأتى من الزمن لا ينشأ فى المحل المذكور قلعة ولا تحصل مداخلة بعد الآن من طرف القيصر المرقوم مع اللهويين والتابعين لهم وهم راياش والبورتغال ولا إلى القزاق التابعين لحضرة صاحب السعادة دولتكراى خان القريم بل يرفع القيصر يده عن جميع تلك المواضع بحيث تعود كما كانت قبل الآن وبعد اليوم لا يحق للقيصر أن يقيم سفيرا فى استانبول من طرفه. وأما التجار الروسيون الذين يأتون برا للممالك المحروسة لأجل التجارة فإنهم مأذونون فى الإقامة بها. والأسرى من المسلمين الذين أسروا من قبل ومن بعد يلزم ويجب على القيصر أن يسلمهم للدولة العلية مهما كان عددهم. وملك أسوج حيث إنه التجأ ووقع تحت جناح عناية الدولة العلية فبعد الآن يتوجه إلى مملكته بالأمن والسلامة ولا يحصل له التعرض والممانعة من طرفهم قطعيا وإذا وجد بينهم عدم توفيق ورضا اتحاد فعليهم أن يجريا المصالحة. وأنا أرجو من كمال أفضال مولانا وسلطاننا صاحب الشوكة والعناية والعظمة ومن فيض مكارمه الملوكية غض النظر من طرف الدولة

العلية عن الحركات الخارجية عن الأدب التى سبق وقوعها فى جانب رعايا الدولة وسائر المنسوبين إلى الممالك المحروسة وأن لا يصير عليهم فيما يأتى من الزمان تعد كما تقرر ذلك فى الشروط والعهود. وبحسب الوكالة المطلقة حرر هذا الصك وأعطى لطرف القيصر إلى أن يعقد العهد والميثاق إن شاء الله تعالى فى دار السعادة بالوجه المشروح وتعطى صورته له. وبعد أن يأخذ القيصر صك العهد فلا تكون حينئذ ممانعة ومداخلة فى أمر ذهاب عساكره إلى بلاده فى الطرقات المستقيمة لا من طرف العساكر المنصورة ولا من فرد من أفراد طوائف التتار وجماعتهم. وأما أمين أسرار القيصر قدوة أعيان الملة المسيحية قبارون قانجلبر بترد شافروف والجنرال ميخائيل أولدبورس حفيد شرمت. ختمت عواقبهما بالخير حيث إنهما كانا حضرا من طرف القيصر للمعسكر المنصور ليكونا رهنا فمن بعد تسليم المواد المذكورة وإعطاء صك العهد من طرف القيصر وإتمام خدمتهما يعطى لهما الأذن والرخصة من طرف الدولة العلية بذهابهما إلى بلادهما بلا تأخير ولبيان ذلك حرر هذا فى اليوم السادس من جمادى الآخرة سنة ثلاث وعشرين ومائة وألف .

بيور لدى صحراء التوقيع خدش كجدى

قال بعض كتاب الأخبار : وكان الوزير المحكى عنه صاحب حيل ودهاء دقيق الفكر فى أعماله وحركاته ولم ينل مسند الصدارة العظمى إلا بما أجراه من الدسائس الكثيرة والحيل الغريبة فلما علم السلطان أحمد بحقيقة حاله وأنه من الطغاة أعرض عنه ثم عزله من منصب الصدارة وبقى معزولا حتى قامت الحرب بين الروس وأسوج وكان من أمرها ما تقدم بيانه فاقتضت المصلحة إعادته إلى مقام الصدارة ثانية فأحسن فيها العمل وفاز بالظفر والغلبة على ذلك الرجل العظيم وهو بطرس الأكبر ولكن لم تطل أيامه حيث وشى به خصومه ورموه بالخيانة وقالوا إنه إنما عقد هذا الصلح بالرشاوى والبراطيل وقد كان فى وسعه أن يقطع شأفة جميع الجيوش الروسية بعد أن تحقق له أن بطرس الأكبر لم يسلم بهذه الشروط مع ما فيها من الفضيحة والعار عليه وعلى بلاده إلا بعد أن أكلت جيوشه جميع دواب الحمل حتى جذور الاشجار وبعد أن سدت عليهم جميع المسالك ومازالو يحسنون للسلطان الانتقام منه إلى أن أمر بعزله ونفيه قبل أن يصل إلى دار السلطنة بعد نصرته فى تلك الحرب الهائلة. قال بعض الكتاب: وهو وإن كان بريئا من هذه التهمة فقد ارتكب فى صدارته الأولى من المعاصى والذنوب ضد الكثير من خيار الناس ما لا يكاد يعد فظهر به الآن سر قولهم. إن الجزاء من جنس العمل.

(مطلب)

ولاية رامي محمد باشا

وكان الوالى على ديار مصر عند تولى السلطان أحمد للسلطنة قره محمد باشا فأقره فى منصبه وأتاه فرمان الرضا فلبث يتصرف بعد ذلك أشهرا ثم خلعه. وولى مكانه رامى محمد باشا وكان قد تولى مسند الصدارة على عهد السلطان مصطفى وعزل منها وتولى على جزيرة قبرس ثم حضر منها واليا على مصر فصعد إلى قلعة الجبل يوم الاثنين سادس شعبان سنة ست عشرة ومائة وألف هجرية وجعل يتصرف فى الأمر فكان مشئوم الطالع قليل الحظ توقف النيل عن الزيادة فى سنته فضج الناس وعجوا وابتهلوا إلى الله بالدعاء وطلب الاستسقاء واجتمعوا على المقطم وغيره فاستجاب الله لهم فى حادى عشر توت وزاد النيل فكان من النوادر الغريبة وقد أرخه بعضهم بهذين البيتين:

النيل فى مصر وافى   فى توت حادى وعاشر
والناس قد أرخوه   لله جبر الخواطر

فروى بعض البلاد وهبط سريعا فشرقت البلاد الأخر وحصل الغلاء وبلغ سعر الأردب القمح مائتين وأربعين نصف فضة والفول كذلك والعدس مائتى نصف فضة والشعير مائة نصف فضة والأرز أربعمائة نصف فضة وبيع اللحم الضأن كل رطل بثلاثة أنصاف فضة والجاموسى والبقرى بنصفى فضة والسمن القنطار بستمائة نصف فضة والزيت بثلثمائة وخمسين والدجاجة بثمانية أنصاف. قال الراوى: فكثر الشحاذون فى الأزقة وعزت الأقوات وعم الكرب واشتد الخطب على الفقراء وخشى الناس العاقبة بظهور الوباء فلم يقع شىء من ذلك.

(مطلب)

ولاية علي باشا

وجاء الخبر بعزل رامى محمد باشا فى رجب سنة ثمان عشرة ومائة وألف هجرية وشاع القول بولاية على باشا فنزل محمد باشا من قلعة الجبل فى موكب عظيم وسكن فى بيت أحمد كتخدا العزب المطل على بركة الفيل بالقرب من حمام

السكران حتى قدم على باشا الوالى الجديد من طريق البحر وذهب الناس لملاقاته فأرسى بساحل بولاق يوم الاثنين تاسع شعبان من السنة وهو فى نحو ألف ومائة رجل خلاف الأتباع فلبث ببولاق إلى ثانى عشرى رمضان وركب فى موكبه وصعد إلى قلعة الجبل فأطلقوا المدافع لقدومه وزينت القاهرة ومصر ثلاثة أيام ولم يكد يستقر به المنصب حتى قامت الفتنة على ساق بين وجاق العزب والمتفرقة . وتحرير الخبر أن شخصا من وجاق العزب اسمه محمد افندى من صغار الكتاب كان بعد عزله من منصبه تولى خليفة أى ثانى كاتب فى ديوان المقابلة وحصل له تهمة عزل بسببها من هذا الديوان أيضا فجعل يسعى ويجد حتى نال وظيفة سردار على طائفة العزب النازلين بالإسكندرية ثم كتخدا القبطان واتفق بعد ذلك أن سافر فى إحدى المراكب فشاع الخبر بموته غرقا فحلوا اسمه وماله من المعلقات فى بابه ولكنه لم يلبث أن عاد إلى مصر وصعد إلى الديوان وصحح اسمه الذى فى سجلات العزب وجراياته ومتعلقاته وبقى له بعض تعلقات لم يقدر على خلاصها ولم يساعده أهل بابه على ذلك وأهملوا أمره فأعظم هذا الأمر وأكبره وذهب من فوره إلى تلك المتفرقة وطلب الانضمام إليهم وسألهم أن يخرجوه من العزب فأجابوه إلى ذلك فجعل يركب معهم كل يوم للديوان ويمر على باب العزب. وبينما هو ذات يوم سائر إلى الديوان إذ وقف له جماعة من العزب وقبضوا عليه وأنزلوه وحبسوه فى بابهم فبلغ الخبر جماعة المتفرقة وهم فى الديوان فحضر أمين بيت المال إلى باب العزب وكان يومئذ نائبا عن باشجاويش لتمرضه فعاتبه جماعة المتفرقة على ما فعله جماعة العزب فأغلظ عليهم في الكلام وخاطبهم بفحش القول فقبضوا عليه من أطواقه وأرادوا ضربه فحال بينهم وبين بعض المصلحين وخلصوه من أيديهم فنزل إلى باب العزب وأخبرهم بما فعله المتفرقة فاجتمعت طائفة العزب ووقفوا على بابهم فمر بهم اثنان من جماعة المتفرقة ذاهبين إلى منازلهما فهجم عليهما جماعة العزب وضربوهما ضربا مبرحا وأنزلوهما عن الخيل وشجوا رؤوسهما ونهبوا ما على الخيل من العدد وأخذوا ما عليهما من الملبوس فلما جاء الخبر للمتفرقة اجتمعوا مع بقية الوجاقات وجلسوا على باب الانكشارية ورفعوا أمرهم إلى الأغوات والصناجق وأهل الحل والعقد وبقوا على هذا الحال ثلاثة أيام إلى أن وقع الاتفاق على إبعاد أربعة أشخاص عن الديار المصرية وهم سبب إشعال نار هذه الفتنة فوافق الجميع

على هذا الرأى وصمموا عليه وبعثوا بهم إلى الصعيد الأعلى وانحسمت هذه الفتنة وكفى الله الناس شرها.

وأعقب هذه الفتنة ورود مرسوم السلطان بعزل على باشا الوالى فعزل فى أوائل رجب من السنة ثم حبس فى قصر يوسف بك وبيعت جميع موجوداته لوفاء ما عليه لبعض تجار القسطنطينية ثم أفرج عنه. ووردت الأخبار بولاية حسين باشا فقدم إلى الأسكندرية وجاء منها إلى القاهرة فى ثالث عشرى شعبان سنة تسع عشرة ومائة وألف هجرية فكانت ولاية على باشا سنة واحدة وأياما وكانت قبل قدوم حسين باشا المذكور بأيام قد وقعت فتنة أخرى بباب الانكشارية لها وكادت تشتعل نارها ويعلو لهيبها فتسارع الأغوات وأصحاب الحل إلى تسكينها خوفا من قدوم الوالى الجديد فيرى ما هى عليه البلاد من الخلل وعدم طاعة العسكر وعزلوا أحمد أوده باشا المشهور بأفرنج أحمد وحسين أوده باشا وأبعدوهما إلى الطينة بدمياط فسكنت الفتنة وخمدت نارها فلبثا بالطينة أياما ثم هربا وعادا إلى القاهرة واختفيا عند أغوات الشراكسة والتجأ أحدهما حسين إلى باب النفكشية فلما علم الانكشارية بقدومهما فارين اجتمعوا ببابهم وطلبوا رجوع فرنج أحمد إلى منفاه فلم تقبل طائفة الشراكسة وامتنعوا من تسليمه وقالوا لابد من نقله من وجاقكم وساعدهم على ذلك بقية الوجاقات فصمم الانكشارية على طلبهم ووقفوا ببابهم يومين وليلتين وكذلك فعل كل بلك ببابه فعم الخوف الناس وانقطعوا عن الخروج من بيوتهم وأغلق أصحاب الحوانيت حوانيتهم وكاد ينقطع الوارد من المأكول والمشروب إلى القاهرة ومصر خوفا من عبث العساكر فاجتمع العلماء والمشايخ والتقوا بالصناجق والأعيان وخاطبوهم فى أمر العسكر وفيما كان عليه الناس من الخوف وما يتهدد راحتهم من هذه الفتن المتراكمة وسألوهم فى حسم الفتنة منعا من تفاقم الخطب وانتشار العامة والحرافيش فى الأسواق للعربدة والنهب ثم كلموا الباشا فى ذلك أيضا وألحوا فى الطلب فوقع الاتفاق على أن يولوا فرنج أحمد المذكور رئاسة طبلخاناة وأرسلوا له القفاطين مع كتخدا الباشا وأصحاب الدرك وأحضروه إلى مجلس الأغا وقرءوا عليه مرسوم الصنجقية وأنه إن خالف ولم يطع عوقب بغير معاودة فأطاع وقبل وخرج بموكب عظيم إلى بيته ونزل له الصنجق السلطانى والطبلخاناة فانحسمت الفتنة وسكن الاضطراب واطمأنت قلوب الخلق.

وكان الوالى يرى أنه غير مسموع الكلمة مقهور على جميع أعماله وأقواله ولا قدرة له على دفع هذا الخلل الضارب على البلاد فكان كثير التوجع والشكوى قلقا مضطربا لا يستقر له قرار حتى مال إلى وجاق الانكشارية واستمال كباره إليه واستخلصهم لنفسه ليقوى بهم على قمع الفتن ومنع الدسائس. فبينما هو يدبر هذا الأمر إذ وقعت الفتنة بين طوائف العسكر وكان من خبرها أن مملوكا لرجل من آحاد الناس وقف على دكان قصاب بباب زويلة يشترى منه لحما فوقع بينه وبين حمار عثمان أوده باشى نزاع أدى إلى المشاتمة ثم إلى الملاكمة فوصل الخبر إلى عثمان أوده باشى المذكور فأرسل أعوانه وأتباعه فقبضوا على ذلك المملوك وأحضروه إليه فأمر بحبسه فى سجن الشرطة فلما بلغ سيده خبر حبسه حضر هو وأولاده وأتباعه إلى باب صاحب الشرطة لخلاص المملوك فتطاول بعضهم على بعض بفحش القول ووقعت بينه وبين صاحب الشرطة مشاجرة فقبض عثمان أوده باشى على سيد ذلك المملوك ووضعه فى السجن وأعلم باش أوده باشى وكتخدا مستحفظان بما فعله فلم يرضيا بما وقع وأمراه بإطلاق المملوك وسيده على الفور فرجع وأخرجهما من السجن فاجتمع فى ثانى يوم الحادثة طائفة الجاويشية مع طائفة المتفرقة والاسباهية والأمراء والصناجق والأغوات فى الديوان وطلبوا إبعاد عثمان أوده باشى المذكور جزاء ما فعله من حبس ذلك المملوك وسيده فلم يوافق الانكشارية على ذلك ومانعوا فى إبعاده فوقع بينهم جدال طويل ثم صعدوا جميعا إلى الديوان وطلبوا عثمان المذكور للدعوى فحضر وأقيمت الدعوى بحضرة الباشا والقاضى فأمر القاضى بحبس عثمان كما حبس محمد جاويش سيد ذلك المملوك فلم يرض الأخصام بذلك وقالوا لابد من عزله وإبعاده فلم يوافقهم الانكشارية فطلب العسكر من الباشا أن يرسم بنفيه فأبى عليهم ذلك فنزلوا مغضبين واجتمعوا بمنزل كتخدا الجاويشية وأنزلوا مطبخهم من نوبة خاناه إلى منزل كتخدا صالح أغا وأقاموا به ثلاثة أيام وامتنعوا من الذهاب إلى الديوان ثم اجتمع أهل البلكات وتحالفوا على أن يكونوا على قلب رجل واحد وصمموا على نفى عثمان أوده باشى المذكور ثم اجتمعوا على الصناجق واتفقوا على أن يكونوا معهم على طائفة الانكشارية وأرسل الأسباهية الرسائل إلى أصحابهم المحافظين على الكشاف بالولايات يلزمونهم بالحضور فلما شاع الخبر بذلك رسم الباشا بعزل عثمان أوده باشى المذكور إخماد النار الفتنة فلم يغن عزله شيئا ووردت الأخبار إلى وجاق الانكشارية بأن العسكر على أهبة القتال وأنهم قد

تجهزوا لذلك فبعثوا هم كذلك يطلبون أصحابهم من الجهات فاجتمعوا على الأثر ومروا بالأسواق فانزعج أهلها وأغلقوا الحوانيت كافة واستمر أهل الوجاقات الستة يجتمعون ويتشاورون فى الأمر وكذلك الانكشارية كانوا يجتمعون بالباشا ويتشاورون معه فيما يفعلونه مع العسكر وفى كيفية قتالهم وبالغ كل من الفريقين فى التأهب والاستعداد. وقدم فى هذه الأثناء محمد بك حاكم الأقاليم القبلية فى جند كثير وأتباع وعدة وطلع إلى ديوان مصر على عادة حكام الصعيد المخلوعين ثم لبس الخلع السلطانية ونزل إلى بيته بالصليبة فظن الناس أنه إنما أتى بعسكره لقتال العسكر أو وجاق الانكشارية فخافوا وانكمشوا حتى كادت الأسواق كلها تتعطل وطال الحال بين أخذ ورد أياما فكانت الانكشارية لا تنفك عن مراقبة الحوادث والأخذ بصغائر الأمور وقد شاع أن بعض الأمراء يسعى للحصول على منصب إمارة الحاج بدلا من قيطاس بك المعتاد تقريره فى كل عام لهذا المنصب فلما علم الانكشارية بذلك اجتمعوا بسلاحهم ووقفوا خارج الباب الكبير على طريق الديوان كى لا يمكنوا أحداً من تولى إمارة الحاج خلاف قيطاس بك وعلم الصناجق والأمراء بذلك فخافوا شر العاقبة وأجمعوا رأيهم مع أهل الوجاقات الستة على نفى ستة أشخاص من الانكشارية وهم الذين بيدهم الحل والعقد وإخراجهم من مصر إلى بلد التزامهم تسكيناً للفتنة وعلم الانكشارية بما دبره هؤلاء فاجتمعوا فى بابهم أيضاً فى عدَدهم وعِددهم فلم يهم الأمراء والصناجق أمر اجتماعهم وقالوا لابد من نفيهم أو محاربتهم واجتمعوا هم كذلك فى أبوابهم واستعد الانكشارية فى بابهم وشحنوه بالأسلحة والذخيرة والمدافع وأغلق أصحاب الحوانيت حوانيتهم وخلت الطرق من المارة ونقل جماعة الجاويشية مطبخهم من قلعة الجبل من النوبة إلى دار كتخدا الجاويشية وأقام الانكشارية منهم طوائف يحافظون على أبواب القلعة وباب الميدان والصحراء الذى بالمطبخ الموصل إلى القرافة خوفاً من أن العسكر يستميلون الباشا وينزلون إلى الميدان واجتمع الصناجق بعد ذلك وكبار العسكر واستقر الرأى بينهم على أن ينتدبوا محمد بك الذى كان بالإقليم القبلى لحصار القلعة من جهة القرافة على المقطم بالمدافع والعسكر فقبل ذلك وأسرع فى عمل الحصار فأتمه على أحسن ما يرام وخاف العسكر من وقوع النهب والفتنة بالمدينة إذا انتشب القتال بينهم وبين الانكشارية فألزموا مصطفى أغا الشراكسة بالتطواف فى الأسواق وفى شوارع البلد وحاراتها وأقاموا أحمد بك المعروف بإفرنج أحمد أغات التفكشية لحصار طائفة

الانكشارية من بابهم الموصل إلى المحجر وباب الوزير ومنعوا من يصل إليهم بالمدد.

أما الانكشارية الذين كانوا بالقاهرة فإنهم اجتمعوا بباب الشرطة واتفقوا على أن يدهموا العسكر المحافظين بالباب ويدخلوا إلى باب الانكشارية فلما بلغ الصناجق والعسكر ذلك انتدبوا إبراهيم الوالى ومصطفى أغات الجبجية فى طائفة من الأسباهية فنزلوا إلى باب زويلة وعلم الانكشارية الذين اجتمعوا فى باب الشرطة بنزولهم فتفرقوا واختفوا فجلس مصطفى أغا محل جلوس أوده باش وإبراهيم بك فى محل جلوس العسس وانتشرت طوائفهم فى نواحى باب زويلة وباب الخرق واستمروا على هذا الحال ليلة الأحد وأصبحوا وقد خرج نقيب الأشراف والعلماء وقاضى القضاة وأرباب الأشائر واجتمعوا بالشيخونية فى الصليبة وتكلموا فى الأمر طويلاً ثم كتبوا فتوى بأنه إن لم يذعن الانكشارية إلى نفى المطلوبين وإلا جاز محاربتهم بغير معاودة. وأرسلوا الفتوى صحبة جوخدار قاضى القضاة إلى باب الانكشارية فلما قرئت عليهم فترت عزائمهم وانفشلوا وأذعنوا إلى إبعاد المطلوبين بشرط ضمانهم من القتل فضمنهم الأمراء والصناجق وكتبوا بذلك حجة وسلموها لهم ثم أنزلوهم إلى أمير اللواء إيواز بك ورضوان أغا فسارا بهم فى الحال إلى بولاق ومن هناك سيروهم إلى الريف فلبثوا حيناً ثم عادوا ففرقوهم على الوجاقات بعد رضا الأمراء والصناجق.

ولم تكن الفتنة قد سكنت تماماً حتى جاء الخبر بعزل حسين باشا الوالى وتولية إبراهيم باشا القبودان وأن يكون حسين باشا المعزول نائباً عن إبراهيم باشا حتى يحضر فحضر فى منتصف الحجة سنة اثنتين وعشرين ومائة وألف هجرية وصعد إلى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد ونزل حسين باشا من القلعة إلى بيت الأمير يوسف أغا دار السعادة بسويقة عصفور وأمامه الصناجق والأغاوات وكثير من أرباب المناصب فكانت مدة تصرفه ثلاث سنين وأربعة أشهر وثلاثة عشر يوماً. ولم يستقر المنصب بإبراهيم باشا الوالى المذكور حتى أتاه الأمر بخلعه وتولية آخر اسمه خليل باشا وذلك فى الخامس عشر من رجب سنة اثنتين وعشرين فنزل ابراهيم باشا من القلعة إلى بيت عباس أغا ببركة الفيل وأقام به أياماً فكانت مدة تصرفه ثمانية أشهر لم يعمل فيها عملاً يذكر. ووصل خليل باشا وكان بصيدا والياً فأقام بالبر يوم الثلاثاء خامس شعبان سنة (١١٢٢) اثنين وعشرين ومائة وألف وصعد إلى القلعة فى

الموكب المعتاد فلم يمض على جلوسه إلا شهران حتى قامت الفتنة ثالثة بين أصحاب الوجاقات واستفحل أمرها وعم ضررها. وتحرير الخبر أنه فى صفر من السنة أى سنة ثلاث وعشرين اجتمع من يدعى حسن جاويش القازدغلى وآخر اسمه الأمير سليمان جريجى وآخر اسمه إبراهيم جوربجى وعقدوا النية على ترك خدمة باب مستحفظان والانتقال إلى خدمة أخرى فذهب إليهم اختيارية بابهم واستعطفوهم وسألوهم الرجوع عن هذا العزم فلم يقبلوا وصمموا على الخروج ثم طلب آخر اسمه موسى جوربجى الخروج كذلك فلم يرض رؤساؤه بذلك فذهب موسى إلى إبراهيم بك وإيواز بك وقيطاس بك فسألهم الوساطة فى أمره فلم يقبل رضوان أغا رئيسه إجابة طلبهم ومانع فى ذلك وشدد فى المنع فلما رأوا منه الشدة وعدم الرضوخ لطلبهم من إخلاء سبيل موسى المذكور اتفقوا على إغراء الوالى على عزل رضوان أغا وتولية على أغات الانكشارية سابقاً بدله وأن يعزل أيضاً سليمان كتخدا الجاويشية ويولى بدله إسماعيل أغا تابع إبراهيم بك فكلموا الباشا فى ذلك وألحوا عليه فى عزلهم فامتنع وقد كان اختيارية وجاق الجملية توافقوا مع الأمراء والصناجق على عزل رضوان أغا المذكور واجتمعوا ببيت باشجاويش واجتمع أهل كل وجاق ببابهم واستمروا على ذلك أياماً والوالى لا يجيبهم إلى ما يطلبون خوفاً من قيام العسكر عليه. أما الانكشارية الذين انتقلوا إلى العزب فإنهم اجتمعوا بباب العزب وقطعوا الطريق الموصلة إلى القلعة ومنعوا من يريد الصعود إلى باب الانكشارية من العسكر والأتباع فلم يبق فى الطريق الموصلة إلى القلعة إلا باب المطبخ ثم قصدوا سد السواقى لمنع الماء عن القلعة فمنعهم العسكر من الوصول إليها فكسروا آلات السواقى التى بعرب اليسار وخربوها وسار نفر من الانكشارية من طريق المحجر يريدون الصعود إلى قلعة الجبل فقبضوا عليهم وضربوهم وشجوا بعضهم فمضى أحدهم من طريق الجبل ودخل من باب المطبخ واجتمع بافرنج أحمد وبقية الانكشارية وأخبره بحالهم وما جرى لهم فأخذه جماعة منهم ورفعوا أمره إلى الوالى وقاضى القضاة وبالغوا فى الشكوى وعظموا البلوى فقال القاضى قد جاز قتال هؤلاء القوم حيث منعونا الماء وخرجوا عن طاعتنا وأخافوا الناس وسلبوهم فحقت محاربتهم. فلما فاض الخبر بذلك تقدم أحمد أوده باشا إلى الوالى فى محاربة أصحاب باب العزب فأذن له بذلك وتعوق القاضى عن النزول ولبث مع الوالى وخرج أحمد أوده باشا وشرع فى القتال وراسل الرمى بالمدافع على أصحاب باب العزب من بعد الزوال إلى

ما بعد العشاء واشتد عليهم شدة بالغة فقتل من جماعة العزب كثيرين وعم الخوف أهالى مصر والقاهرة وباتوا ليلتهم تلك وهم فى خوف ما عليه من مزيد وأصبحوا وقد اجتمع الأمير إيواز بيك أمير الحاج والأمير إبراهيم بيك أبو شنب وقانصوه بك ومحمود بك ومحمد بك تابع قيطاس بك الدفتردار وتحادثوا فيما أصاب أصحاب باب العزب واتفقوا على أن يلبسوا آلة سلاحهم ويذهبوا إلى الرميلة مددا للعزب على الانكشارية وهموا بذلك فأخبروا أن أيوب بك قد وضع المدافع على طريق المارين على منزله وعلى قلعة الكبش فامتنعوا من الركوب وجلسوا فى بيوتهم بسلاحهم خوفاً من طارق واستمر إفرنج أحمد يقذف نيران مدافعه على أصحاب باب العزب ثلاثة أيام بلياليها واجتمع على رضوان أغا طائفة من نفره وتذاكروا فيمن كان السبب فى إثارة هذه الفتنة فعرفوهم وهم أربعة من الاختيارية فخلعوهم وكتبوا لهم مرسوماً بأن يخرجوا من بيوتهم ثم ذهبوا إلى بيت قيطاس بك وأرسلوا من كل بلك اثنين من الاختيارية إلى منزل أيوب بك يطلبون رضوان أغا فأركبوه فى موكب حافل ثم عادوا إلى منزل أيوب بك وتناجوا فى أمر الصلح وكتبوا إلى أحمد أوده باشى الذى هو إفرنج أحمد بالكف عن القتال فأبى فكتبوا عرضاً إلى الباشا من جميع الصناجق وأغوات الوجاقات الخمسة بطلب الكف عن القتال فأرسل الباشا إلى الانكشارية بالكف فامتثلوا وتركوا القتال وتكلم الصناجق والأغوات المذكورون مع بعض الاختيارية من وجاق الانكشارية فى أمر الصلح فتقررت القاعدة بينهم على إرسال حسن كتخدا العزب وأحمد بن بقر رسلاً إلى المعسكر فى طلب ذلك فاجتمعوا بالعسكر والصناجق فى بيت إسماعيل بك وحضر معهم أيضاً جميع أهل الحل والعقد وتشاوروا فى إخماد نار الفتنة بالتى هى أحسن وأرسلوا إلى باب الانكشارية فى ذلك فقالوا لا نأبى الصلح بشرط أن هؤلاء الثمانية الذين كانوا سبباً فى إثارة هذه الفتنة لا يكونون فى باب العزب بل يذهبون إلى وجاقهم وأن يسلم الأمير حسن الأخميمى إلى الباشا يتصرف فى أمره كيف يشاء فأبى أهل باب العزب ذلك ولم يرضوه فأرسل الأمراء إلى إفرنج أحمد يشفعون عنده بأن الأشخاص المذكورين يرجعون إلى وجاقاتهم فقط ويعفون من النفى ومن القبض على الأمير حسن الأخميمى فلم يوافق افرنج أحمد على ذلك وقال إن لم يرضوا بشرطى وإلا حاربتهم ليلاً ونهاراً حتى أمحو أثرهم فتفرقوا على غير صلح وبقى الحال على ذلك أياماً ثم اجتمع جميع الأمراء بمنزل إبراهيم بك بقناطر السباع وتذاكروا فى أمر

الصلح على كل حال وكتبوا حجة علـى أن من صدر منه بعد اليوم ما يخالف رضا الجماعة يكون خصم الجمـاعة كلهم وكلموا أيوب بك فى أن يرسل إلى إفرنج أحمد بصورة الحـال وأن يكف عن القتـال إلى تمام الأمر المشـروع فيه فـبطل القتـال نحو الخمسة عشر يوماً وأخذ أفرنج أحمد فى خلال هذه الأيام فى تحصين جوانب القلعة وعمل المتاريس ونصب المدافع وتعـبية الذخيرة وقد ملأ الصـهاريج بالماء وصار على تمام الأهبة والاسـتعداد واتفق أن حـضر فى هذه الأثناء مـحمد بك حـاكم الأقاليم القبلية ونزل بفضاء البساتين ولبث به ثلاثة أيام ثم دخل القاهرة ومعه السواد الأعظم من العربان والمغاربة والهوارة فلم يكن بأسرع من أن جعل يقاتل كذلك بمن معه من جامع السلطان حسن ومن بـيت يوسف أغاة الجراكسة فلم يفلح وقـتل من أصحابه جماعة كثـيرة وانتصر عليه محمد بك المعروف بالصـغير مع من انضم إليه من أتباع إبراهيم بك وإيواز بك ومماليكه وكانوا قد تترسوا فى سوق السلاح ووضعوا المتاريس فى شبابيك الجـامع الذى هناك فانتقل محمد بك المذكـور وسار إلى طولون وتترس بها وهجم على طائفة العزب الذين كانوا بسبيل المؤمن فـوقعت بينهم موقعة عظيمة مات فيها خلق من الفريقين ولم يطق أهل العزب المقـاومة فتركوا السبيل وذهبوا إلى باب العزب فعند ذلك انكف محمد بك عن القتال وترك جماعة من أصحابه بالسبيل رباطا وسار بمن بقى إلى غـير ذلك المكان. ولما اشتد الحال وضـاقت أمور أهل البلد وكبر خوفهم سـار جماعة من كبارهم إلى الشيخ الخليفى أحـد كبار المشايخ وشكوا إليه ما يلاقيـه الناس فسار الشيخ الخليفى إلى إفرنج أحمـد وتكلم معه ومع من كان معه من الاختيارية فى أمر الصلح والكف عن القتال وشدد فى ذلك فرد عليه إفرنج أحمد ببـذئ الكلام وبفحش القول وأرسل فى الحال إلى أصـحاب المدافع أن يطلقوا مدافعهم على أصـحاب باب العزب وأن يوالوا رمى القنابل فجعلوا يطلقـونها تباعاً فانـزعج الناس كافـة وكبـر خوفـهم وقام سكان باب العـزب وأخذوا مـا خف من أمتعتـهم وتركوا بيوتهم ونزلوا بالمدينة وتفرقوا فى الحارات بالـقاهرة ومصر وأغلقت جمـيع الوكائل والخـانات والأسواق وخرج أكـثر السكان القـريبين من قلعـة الجبل كالرمـيلة والحطابة والمحجر هائمين علـى وجوههم وقد هدمت المدافع أكثـر بيوتهم وأحرقتـهم نارها وطاف الانكشارية يحرقـون ما بقى من تلك الدور ولم يصب باب العزب شىء من ذلك إلا القليل من أماكنه ثم إن إفرنج أحمد وأيوب بك أقاما بعض أصحابهما بالمـدرسة بقوصون وجامع مزداره بسويقة العزى وجـامع قجماس بالدرب

الأحمر ليعطلوا الطريق على العزب واختار إفرنج أحمد جماعة من الانكشارية وأعطى لكل واحد دينارا وأرسلهم بعد الغروب إلى تلك الأماكن مدداً لمن بها وجعل هو يقاتل من كان مع الجانبكية. واتفق أن مرّ فى صباح ذلك اليوم رجل من أهل العزب ممن كانوا مرابطين فى جامع مزدارة من ناحية السلطان حسن يريد منزله فقبض عليه طائفة من الانكشارية وسلبوه ثيابه وتركوه عرياناً وبعثوا به إلى إفرنج أحمد فلما بلغ أهل العزب ما حل برجلهم أرسلوا طائفة منهم إلى المترسين بجامع مزدارة فدخلوا من بيت الشريف يحيى بن بركات ونقبوا منزل عمر كتخدا مستحفظان إذ ذاك وما يجاوره من الدور إلى أن وصلوا منزل مراد كتخدا فلما رآهم العسكر الذين كانوا بالجامع المذكور فروا هاربين وتركوا الجامع وما فيه من أسلحة وذخيرة. أما عمر أغاة الشراكسة ومن كانوا معه بجامع قجماس فإنهم بعد أن تترسوا وأحكموا متاريسهم بشبابيك الجامع فرقهم عمر المذكور جهة باب زويلة وجهة التبانة فوقع الخوف فى قلوب سكان تلك الجهة ونزحوا منها إلى حوارى القاهرة حتى ضاقت بهم فأرسل أهل العزب صالح جوربجى الرزاز بجماعة من عسكر العزب وآخرين ممن انضم إليهم من الانكشارية وغيرهم فقاتلوا من كان بجامع قجماس واستولوا على الجامع والمتاريس وأخذوا كذلك جامع المردانى وقهروا من كانوا فيه وأقام به طائفة منهم وأخرى بجامع أسلم وانتشرت طوائفهم بتلك الأخطاط والأماكن فسكنت خواطر أهلها واطمأنت قلوبهم قليلاً.

وهجم طائفة من بلك المتفرقة والأصبهانية على بيت الأمير قرا إسماعيل كتخدا مستحفظان فدخلوا من بيت مصطفى بك ابن إيواز ونقبوا الحائط بينه وبين بيت قرا إسماعيل المذكور فلما جاء الخبر إلى أهل العزب أرسلوا طائفة منهم ومعهم بيرق ومقدمهم أحمد جويجى فلم يتمكن أحمد من الدخول من جهة الباب فخرق صدر دكان هناك وتوصل منه إلى بيت أحمد افندى كاتب الشراكسة ثم نقبوا منه محلا توصلوا منه إلى حيث المتفرقة والأصبهانية فداهموهم وهم مشغولون بنهب الأثاث والأمتعة وهجموا عليهم هجمة واحدة فألقوا ما بأيديهم من السلب ورجعوا القهقرى إلى المكان الذى دخلوا منه فتبعوهم واقتتل الفريقان قتالاً عنيفاً إلى أن دارت الدائرة على طائفة المتفرقة والأصبهانية وتمزقوا كل ممزق ونهبت طائفة العزب بيت مصطفى بك المذكور حيث مكن المتفرقة والأصبهانية من الدخول إلى بيته وانتقل أحمد بمن معه من العسكر إلى قوصون ودخل جامع الماس وتحصن به وكان محمد بك حاكم

الأقاليم القبلية فى هذا الحين يغدو ويروح ما بين جامع الماس والصليبة فكمن له أحمد بطائفة من أصحابه بمنزل البيرقدار فى محل فيه يشرف على الطريق فلما مر بهم فى وسط قومه أطلقوا عليه البنادق فأصابوا أربعة من أصحابه فظن أن النيران أتت من بيت محمد كتخدا البيرقدار فوقف على بابه وأضرم فيه النار فاحترق أكثره ونهبوا ما فيه من أثاث وأمتعة ولحقت النار بالبيوت الملاصقة والمواجهة له فعلقت بها وعلا لهيبها وطار شررها إلى جميع بيوت تلك الخطة فأحرقت أكثرها من الرباع والدكاكين التى هناك من ناحية جامع الماس إلى تربة المظفر يميناً وشمالاً وأفسدت ما بها من أثاث ومتاع وما لم يحترق نهبه النهابة والحرافيش الذين كانوا يتبعون الحريق ويزيدونه ضراماً فكان المنظر مخيفاً جداً وخرجت النساء حاسرات مكشفات الوجوه هائمات فى الأزقة والحارات يطلبن الملجأ وعم النهب والسلب فى هذا اليوم إلى حد لم يسبق له مثال وتعطلت الطرق من المارة والهاربين من نيران الحريق وعلى الخصوص طريق بولاق القاهرة ومصر القديمة والقرافة فقد كانت ملأى بالأخلاط من طوائف الدجوية والهوارة وغيرهم الذين جاءوا مع محمد بيك حاكم الأقاليم القبلية كما تقدم القول وقد أحاطوا بأطراف البلد وصاروا يسلبون المارة واستاقوا جميع جمال السقائين وأخذوها فكان الخطب شديداً والكرب عميماً. وانقسم العسكر فى هذه الآونة إلى فريقين فريق مؤلف من إيواز بك وقيطاس بك وإبراهيم بك أمير الحاج سابقاً ومحمد بك وقانصوه بك وعثمان بك ابن سليمان بك ومحمد بك ومعهم بلوكات الأصبهانية الثلاثة والجاويشية والعزب والثانى من أيوب بك ومحمد بك الكبير وأغوات الأصبهانية ومحمد بك أغاة متفرقة باشى وأهل بلكة وسليمان أغا كتخدا الجاويشية وبلك الانكشارية المقيمين بقلعة الجبل مع إفرنج أحمد والوالى وقاضى القضاة ونقيب الأشراف وأغلقوا أبواب القلعة جميعها ما خلا باب الجبل فامتنع الناس من النزول من القلعة أو الصعود إليها إلا من الباب المذكور واستمر افرنج أحمد ومن معه يطلقون المدافع على باب العزب ليلاً ونهاراً وبالباب المذكور خلق كثيرون منتشرون حوله وحول ما قاربه من الحارات ورتبوا لهم جوامك تصرف إليهم فى كل يوم . ولما طال الأمر على هذا الحال واشتد البلاء على الرعية اجتمع الأمراء بجامع يشبك بدرب الجماميز وأجمعوا على خلع الباشا وتعيين نائب من الأمراء حتى يرد الأمر من السلطان بما يراه واتحدت كلمتهم على إقامة قانصوه بيك ثم ولوا أغوات البلوكات وأرباب الرتب والوظائف وأحكموا الترتيب فبلغ الخبر

أغوات الانكشارية فأعلموا خليل باشا الوالى به فكبر عليه وأعظمه وكتب إلى أغوات جميع البلكات الثلاثة يحضهم على قتال الصناجق ومن معهم لخروجهم على نائب السلطان ثم جمع جماعة للقتال ورتب لهم جوامك ومرتبات واتفق محمد بك حاكم الصعيد مع إفرنج أحمد على أن أحدهما محمد بك يهجم بأصحابه على طائفة العزب من طريق قراميدان ويكسر باب العزب الموصل إلى الميدان فوصل خبر ذلك أيضاً إلى طائفة العزب فاستعدوا وكمنوا على مقربة من بابهم فلما كان بعد العشاء الأخيرة هجم محمد بيك وأصحابه على الباب وكان جماعة العزب قد أحضروا شيئاً كثيراً من حطب القرطم وطلوه بالزيت والقار والكبريت فلما تكامل عسكر محمد بيك أوقد جماعة العزب النار فى ذلك الحطب فأضاء لهم قراميدان وصار كالنهار فأطلقوا على أصحاب محمد بك البنادق وأحكموا الرمى وتابعوه ففر جماعة محمد بك وتقهقروا وقد قتل منهم خلق كثير وأرسل خليل باشا إلى إبراهيم بك وإيواز بك وقيطاس بك يطلبهم إلى الديوان ليتفاوضوا فى الأمر فاعتذروا بما هم عليه من ترتيب أمور الدفاع وعدم فتح الطريق فلما أيس منهم جمع إليه أيوب بك ومن انضم إليه من العسكر واستقرت القاعدة بينهم على استمرار القتال حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً وبرزوا جميعاً إلى ظاهر القاهرة وأخذوا فى التأهب للقتال.

فلما كان يوم الأحد ثالث ربيع الأول أرسلوا أيوب بك ومحمد بك إلى العربان ليأتوا بجميع جمال السقائين وحميرهم ويمنعوا الماء عن البلد ففعلوا وأخذوا جميع ما وجدوه من الجمال والحمير فعز الماء وبلغ ثمن القربة خمسة أنصاف فضة فضج الناس وعجوا وابتهلوا إلى الله تعالى وكبر الأمر على أصحاب العزب فسار طائفة منهم إلى القصر العينى ليستخلصوا تلك الدواب وجلسوا يراقبون من يمر بهم من المعتصبين فلم يكن بأسرع من أن دهمهم محمد بك بجماعة من طائفة الهوارة فدافعوا ساعة ثم هربوا وقد قتل منهم جماعة كثيرة وأرسلت رؤوسهم إلى الباشا قيل فسره ذلك جداً ورجع المنهزمون إلى بيت قانصوه بك وإيواز بك وأخبروا بما حل بهم فكبر الأمر على قانصوه بك وإيواز بك وصمما على البراز فركبا فى يوم الاثنين رابع عشر ربيع الثانى وخرج الفريقان إلى جهة قصر العينى والروضة واقتتلا قتالاً عنيفاً قتل فيه من العسكر خاصة زهاء الأربعمائة من الفريقين خلاف العربان والهوارة وغيرهم من الأخلاط وركب إيواز بك على محمد بك حاكم الأقاليم القبلية فانهزم محمد بك إلى جهة المجرى فساق خلفه وكان محمد المذكور قد أجلس

كميناً فوق المجرى فلما مر بهم إيواز بك أطلقوا عليه الرصاص وعلى من معه فأصابوه فى صدره فسقط عن جواده ميتاً وتفرق من كان معه فقام عليه من بالكمين واحتزوا رأسه وجاء الخبر بقتله إلى أصحابه ففترت عزائمهم وضعفت قلوبهم وذهبوا فى طلبه فوجدوه جثة بغير رأس فحملوه وذهبوا به وتفرقوا وتمزق جمعهم. أما جماعة الانكشارية فإنهم طلعوا بالرأس إلى مقر الباشا وأعلموه بما جرى ففرح وظن تمام الامر وسكون الفتنة بموت إيواز بك وأمر بالرأس فسلخ ثم طلبه أصحاب إيواز من أيوب بك فدفعه لهم فدفنوه مع الجثة. واشتد حزن أصحاب إيواز بك على فقده وكبر كيدهم مما حل به فاجتمعوا ببقية الأمراء وولوا ابنه بدله وتجهزوا للقتال فتجهز الفريق الثانى أيضاً وخرجوا فى يوم السبت تاسع عشر ربيع الثانى والتقى الجمعان فوقع بينهما أمور يطول شرحها فلما رأى جماعة العزب اشتداد الأمر وعدم التمكن من الوصول إلى قلعة الجبل وامتناع من بها وتوالى الرمى عليهم بالمدافع ليلاً ونهاراً اتحدت كلمتهم على أن يولوا كتخدا جديداً لطائفة الانكشارية ويجلسوه بباب الوالى بطائفة من العسكر وينادوا فى الشوارع أن كل من له علوفة فى وجاق مستحفظان يأتى تحت البيرق بالبوابة ومن لم يأت بعد ثلاثة أيام نهب بيته من غير معاودة ففعلوا ذلك وركب الكتخدا المذكور وألبسه قانصوه بك النائب قفطانا وسلمه البيرق فسار العسكر أمامه بالبيرق والمنادى ينادى بما ذكر إلى أن وصل إلى بيت الوالى. وعادوا إلى القتال فبرزوا إلى خارج القاهرة من باب قناطر السباع واجتمعوا بقرب قصر العينى بالمدافع وآلات الحرب واقتتلوا من ضحوة النهار إلى العصر فقتل من الفريقين خلق ثم افترقوا وعاد بعضهم إلى البلد وتخلف طائفة من العزب فأتى إليهم محمد بك حاكم الأقاليم القبلية وأحاط بهم من كل جانب فلما بلغ الخبر قانصوه بك أرسلَ إليهم مدداً فقاتلوا محمد بك وهزموه شر هزيمة وتبعوه إلى قنطرة السد وكان أيوب بك فى هذه الأثناء متترساً بداخل التكية المجاورة لقصر العينى فلما شاهد احتدام الوطيس فر ونجا بنفسه فأحرق طائفة العزب القصر ونهبوا ما فيه واستمر الحال على هذا المنوال أياماً متتابعة.

وأرسل قانصوه بك إلى من بالقلعة من الوجاقات يتهددهم بحرق بيوتهم ونهب ما فيها إن لم يتركوا ما هم فيه من القتال والعمل بإشارة إفرنج أحمد فاختلفت عند ذلك كلمتهم وخارت عزائمهم وأرسل قانصوه بك بعض الأمراء والعسكر إلى نهب بيت أيوب بك وغيره من بيوت الأمراء فاتصلوا بها من ربع يجاورها وأطلقوا على

من بها النيران فهرب أيوب بك وأتباعه فدخلوا ونهبوا ما فى البيت وعم النهب فى ذلك اليوم جميع دور الأمراء وأحرقوا منها ما قدروا عليه ونهبوا ما جاورها من الدور والربوع والدكاكين وغيرها وتقوت بذلك عزيمتهم فأرسلوا طائفة منهم إلى الجيوشى ومعهم بعض المدافع فجعلوا يطلقونها تباعاً على بيت الباشا وعلى قلعة المستحفظان وأحاطوا بالقلعة من أسفل ورموا بالبنادق فرفع الباشا عند ذلك على بيته بيرقاً أبيض يطلب الأمان وفر من كان داخل القلعة من العسكر فهجمت العساكر الخارجة على الباب واقتحموه عنوة ودخلوا الديوان فانزعج الباشا وأرسل القاضى ونقيب الأشراف يطلبان له الأمان فتلقوهما بالتكريم فقالا إن الباشا يقرؤكم السلام ويقول لكم إنا كنا اغتررنا بهؤلاء الشياطين وقد فروا والمراد أن تعلمونا مطلوبكم فلا نخالفكم فقالوا اعلما بأن الصناجق والأمراء والأغوات وسائر العسكر قد اتفقوا على خلعه وأن قانصوه بك يكون نائباً وأما الباشا فإنه ينزل ويسكن فى المدينة إلى أن تعرض الأمراء على الدولة ويأتينا الجواب فأرسل القاضى نائبه إلى الباشا يعرفه بذلك فأجابه بالطاعة واستأمنهم على نفسه وماله وأتباعه وركب من ساعته فى خواصه يقدمه قانصوه بك وأغات مستحفظان على يمينه وأغات المتفرقة على شماله واختيارية الوجاقات من خلفه وأمامه ونزل من باب الميدان إلى الرميلة على الصليبة وقد اصطف العامة على جانبى الطريق وهم يسبونه ويلعنونه ويخاطبونه بفحش القول إلى أن وصل إلى بيت على أغا الخزندار بجوار المظفر. وهجم بعد ذلك أصحاب العزب على باب مستحفظان فملكوه ونهبوا ما وجدوه فيه من متاع وغيره وقتلوا من صادفوه بالباب وبطريق المحجر من أصحاب الفتنة وطلع الذين كانوا بباب العزب من الانكشارية إلى بابهم فكانت عدتهم ستمائة ثم اجتمع الأمراء جميعاً ببيت قانصوه بك وكتبوا محضراً بصورة ما وقع وطلبوا من دار السلطنة إرسال وال آخر وانقضت الفتنة وسكنت الخواطر.

(مطلب)

ولاية والي باشا

ولبث خليل باشا محجوراً عليه بالقاهرة حتى جاء والى باشا من دار السلطنة وصرح له بالسفر فسافر فى ثامن عشر جمادى الأولى سنة أربع وعشرين ومائة وألف هجرية فكانت أيامه كلها فتناً وقتالاً وهى سنة وتسعة أشهر وأيام وكانت أيام

هذه الفتنة خمسة وسبعين يوماً. وطلع والى باشا إلى مقره بقلعة الجبل فى أواخر شهر رجب سنة ثلاث وعشرين ومائة وألف هجرية.

واتفق أن جلس فى مستهل شهر رمضان واعظ من الروم بجامع السلطان الملك المؤيد وأخذ يعظ الناس فكثر عليه الجمع وازدحم المسجد بالأتراك وصار يجلس كذلك فى كل عام ثم انتقل الوعظ إلى ذكر ما يفعله أهل مصر بأضرحة الأولياء من إيقاد الشموع والقناديل فى القبور وتقبيل أعتاب الأولياء وغير ذلك وصرح بأن فعل هذا كله منكر يجب على الناس الإقلاع عنه وعلى ولاة الأمر السعى فى إبطاله وعرض بذكر ما قاله الشعرانى فى طبقاته أن بعض الأولياء اطلع على اللوح المحفوظ وقال إنه لايجوز ذلك أبداً وان الاطلاع على اللوح المحفوظ لا يمنح حتى ولا للأنبياء فضلاً عن الأولياء وندد ببناء القباب على أضرحة الأولياء والتكايا وجزم بهدمها وذكر أيضاً وقوف الفقراء بباب زويلة فى ليالى رمضان فكان لقوله وقع مهم فى قلوب السامعين وما أتم كلامه حتى خرج الناس بعد الصلاة ووقفوا بالنبابيت والمساوق والأسلحة على مقربة من باب زويلة فهرب الذين يقفون هناك فقطعوا الجوخ والأكر التى كانت معلقة وهم يقولون أين الأولياء فتأثر الناس من ذلك جداً وذهب بعض العامة إلى العلماء بالأزهر وحدثوهم بما قاله الواعظ الرومى وما فعله الناس بباب زويلة فأفتى الشيخ أحمد الغزاوى والشيخ الخليفى بأن كرامات الأولياء لاتنقطع بالموت وإن إنكار الواعظ المذكور اطلاع الأولياء على اللوح المحفوظ لا يجوز ويجب على الحكام كفه عن ذلك فأخذ بعض الناس تلك الفتوى ودفعها للواعظ وهو فى مجلس وعظه فلما قرأها غضب وقال: أيها الناس إن علماء بلدكم قد أفتوا بخلاف ما ذكرت لكم وإنى أريد أن أتكلم معهم وأباحثهم فى مجلس قاضى القضاة فهل منكم من يساعدنى على ذلك وينصر الحق فصاحوا جميعاً نحن معك لا نفارقك فنزل عن كرسيه واجتمع عليه من العامة خلق كثير ومر بهم من وسط القاهرة إلى أن دخل بيت قاضى القضاة فانزعج القاضى وخاف وسألهم عن السبب لحضورهم فرفعوا له ورقة الفتوى وطلبوا منه إحضار المفتين والبحث معهم بحضرته فقال القاضى: لا بأس عليكم اصرفوا أولاً هؤلاء اللموم ثم نحضر من أفتى بهذه الفتوى فقالوا: وما تقول أنت فى هذه الفتوى؟ فقال هى باطلة قالوا: اكتب لنا حجة ببطلانها فقال إن الوقت قد فات والشهود قد انصرفوا. قال الراوى: وكان الذى يخاطبهم ترجمان القاضى فقبضوا على الترجمان وأوسعوه ضرباً وطلبوا

القاضى فهرب فقبضوا على النائب فكتب لهم حجة بما شاءوا فتفرقوا وانصرفوا واجتمعوا بعد ذلك لسماع الواعظ على عادتهم فلم يحضر فأخذوا يسألون عنه فقال بعضهم ربما منعه القاضى من الجلوس فقام فى الحال رجل منهم وقال: أيها الناس من أراد أن ينصر الحق فليتبعنى فتبعه الجم الغفير فمضى بهم إلى مجلس القاضى فدخلوا عليه وقالوا أين شيخنا؟ قال لا أدرى فقالوا قم واركب معنا إلى الديوان لنكلم الباشا فى هذا الأمر ونسأله أن يحضر لنا أخصامنا الذين أفتوا بقتل شيخنا ونتباحث معهم فإن أثبتوا دعواهم نجوا من أيدينا وإلا قتلناهم فركب القاضى مكرها وتبعوه إلى أن طلعوا الديوان فسأله الباشا عن سبب حضوره فعرفه بقصة القوم الذين حضروا معه وما وقع منهم بالأمس واليوم وأنهم ضربوا ترجمانه وأخذوا الحجة قهراً وأتوا اليوم وأركبوه قهراً فأرسل الباشا إلى كتخدا الانكشارية وإلى كتخدا العزب وقال اسألا هؤلاء عن مرادهم فقالوا نريد إحضار الغزاوى والخليفى ليبحثا مع شيخنا فيما أفتيا به فرسم الباشا بإحضارهما وافترقوا على ذلك فأرسل الباشا بعد افتراقهم إلى إبرهيم بك وقيطاس بك يعلمهما بما حصل من العامة ويقول: إن لم يعاقب هؤلاء فلابد لى من السفر أنا وقاضى القضاة. أما العامة فإنهم نزلوا بمرسوم الباشا إلى جامع الملك المؤيد وأتوا بالواعظ وأصعدوه إلى كرسيه فصار يحضهم على الاجتماع فى غد بالمؤيد كى يذهبوا بجملتهم إلى القاضى ويحضهم أيضاً على الانتصار للدين وقمع طائفة المفسدين ثم افترقوا على ذلك. ولما وصل مرسوم الباشا بمعاقبة العامة إلى الأمراء اجتمعوا جميعاً ببيت الدفتردار وتناجوا فى الأمر فاتفقوا على أن تركب الأغوات وتطوف بالشوارع والحارات فمن وجدوه من أهل تلك العصابة قبضوا عليه وأن يطردوا كل من يجدونه فى جامع المؤيد من طائفة الترك فلما كان اليوم الثانى صباحاً ركب الأغا وأرسل الجاويشية إلى جامع المؤيد فلم يجدوا منهم أحداً وجعل يفحص ويفتش على أفراد المتعصبين فمن ظفر به أرسله إلى بابه فضرب بعضهم ونفى بعضهم ومازالوا كذلك حتى سكنت الفتنة وعادت الأمور إلى ما كانت عليه.

وما كادت تطمئن القلوب بسكون هذه الفتنة حتى ظهرت فتنة أخرى ومحنة كبرى وذلك أن رجلاً من الأشراف تشاجر مع تركى فى سوق البندقانيين فضرب التركى الشريف فقتله وفر ولم يعلم أين ذهب فقام الأشراف كافة ووضعوا المقتول فى نعش وطافوا به الأسواق حتى طلعوا به إلى الديوان وأثبتوا القتل على القاتل فلم

يقفوا له على أثر فنزل الأشراف وأصبحوا وقد قفلوا الأسواق التى بالقاهرة وصاروا يرجمون أصحاب الحوانيت بالحجارة كى يقفلوا حوانيتهم ويضربون كل من عثروا عليه فى الطريق من المارة ومكثوا على هذا الحال يومهم وأصبحوا كذلك وأرسلوا إلى الأشراف القاطنين بقرى مصر ليحضروا ثم اجتمعوا بالمشهد الحسينى وخرجوا وأمامهم بيرق وساروا إلى بيت قيطاس بك الدفتردار فخرج عليهم أتباعه وطردوهم وهزموهم بعد قتال فرجعوا وقد عاثوا بالطرق وفعلوا ما لا خير فيه فلما تفاقم أمرهم وكادت الفتنة تتسع تحرك عليهم العسكر وركب أغوات الأصبهانية الثلاثة وأغوات الانكشارية فى عدَدَهم وعددهم وطافوا المدينة فخاف الأشراف وتفرقت جموعهم ثم نادوا بالأمن والأمان وفتِّح الحوانيت ففتحت وسكنت الفتنة بعد أن كاد يستفحل أمرها.

وأعقب هذه الفتن المتراكمة والمحن المتوالية طاعون شديد أمات خلقاً كثيراً جداً وبقى على شدته بالقاهرة ومصر من ربيع الأول من السنة إلى أواخر جمادى الثانية ففتك فتكاً ذريعاً وعم وامتلأت البيوت والطرق بالموتى والدفن مستمر ليلاً ونهاراً فكانت شدة عظيمة للغاية ثم ارتفع وزالت بزواله ولاية والى باشا وجاءت الأخبار بعزله وتولية عابدين باشا فقدم إلى مدينة الإسكندرية ثم حضر إلى القاهرة فى صفر سنة خمس وعشرين ومائة وألف هجرية فنزل والى باشا وسافر إلى الديار الرومية فكانت مدة تصرفه عشرة أشهر وأياماً. وأخذ عابدين باشا يتصرف فى الأمور فقدم له الأمراء كافة التقادم والتعابى النفيسة وقدم له إسماعيل بك أيضاً تقدمة نفيسة للغاية فاستعظمها عابدين باشا ومال إليه وأحبه واختص به ومال إلى طائفة القاسمية إرضاء لإسماعيل بك المذكور فجعل يوليهم المناصب العالية حتى ظهروا بمظهرهم القديم من الأبهة والتكريم وزال عنهم البأس ولازمتهم النعمة فصارت أمور البلاد على أحسن ما يرام واستتب الأمن وعم واطمأنت قلوب الرعية وكثرت الأقوات ودرت الأرزاق وارتفع الغلاء وزال الوباء وراجت أسباب التجارة وسلكت الطرق وأخصبت الأرض وأجادت فكانت أيام عابدين باشا المذكور كلها راحة وهناء.

(مطلب)

ولاية علي باشا

فلما كانت أخريات سنة ثمان وعشرين ومائة وألف جاء الخبر بعزله وولاية آخر

اسمه على باشا فأسف الناس لذلك وحزنوا عليه ونزل عابدين باشا من قلعة الجبل عند ما وصل الخبر بوصول على باشا إلى الإسكندرية ثم سافر إلى الديار الرومية قبل وصول على باشا إلى القاهرة فكانت مدة تصرفه ثلاث سنين إلا شهراً وسافر إلى الاسكندرية أرباب الخدم والعكاكيز وكبار الأمراء للقاء على باشا المذكور وحضروا معه إلى القاهرة فصعد إلى قلعة الجبل على الرسم المعتاد واستقر به المنصب والأمور والفتن نائمة والقلوب مطمئنة فلم تبق الحال كذلك مستتبة إلا قليلاً حتى قامت الفتنة بين أهل بولاق القاهرة من حارة الجوابر وبين بعض الجمالة أتباع أمير الحاج وذلك أن بعض سكان الحارة المذكورة تشاجروا مع نفر من الجمالة لأسباب طفيفة للغاية فأدت هذه المشاجرة إلى الملاكمة والمضاربة بالأيدى ثم بالهراوى والمساوق وعلا الصياح واجتمعت الغوغاء والحرافيش وكثرت الجلبة فخرج لمعاونة الجمالة أميرأخور الاصطبل ومعه نفر من الأتباع فقام عليهم أهل الحارة كافة وأوسعوهم ضرباً بالمساوق فوصل خبر ذلك إلى الأمير إسماعيل بك أمير الحاج فأرسل إليهم أغات الأنكشارية والوالى فقاموا عليهما كذلك وضربوهما وكانت النساء فى هذه الأثناء يصوتن بأعلى أصواتهن والصغار يضجون ويسبون كل من يحضر إليهم ويرجمون بالأحجار فى الحارات ومن أعالى البيوت فعاد الوالى ورجع إليهم بطائفة من الجند وقصدوا الحارة فتترس فيها أهلها وعلت الأصوات وصعدت النساء على أسطحة البيوت وصرن يرجمن بالأحجار فأطلق الجند البنادق فقتلوا عدة رجال ثم هرب من بقى فدخلوا البيوت وأخرجوا النساء والأولاد وحملت النساء متاعهن ثم قفلوا الأبواب ودقوا فيها المسامير فسكنت الفتنة ولما بلغ خبرها من بالقاهرة ومصر القديمة خافوا وظنوا أنها من الفتن الكبرى فانكمشوا ليلتهم تلك وتعطلت الأسواق حتى شاع الخبر بسكون الفتنة ورجوع الحال إلى سابق مجراه.

واتفق ان أرسل الوالى الخزينة السلطانية صحبة محمد بك ابن إبراهيم بك أبى شنب وكان بين محمد بك المذكور وبين إسماعيل بك ابن إيواظ وعلى باشا الوالى نفور ووحشة فلما وصل محمد بك إلى دار السلطنة واجتمع بصدر الدولة يومئذ وشى فى حق إسماعيل بك وبالغ فى الوقيعة به وقال إنه إن استمر على هذا الحال وطالت أيامه فى مصر استقل بملكها وأزال عنها نواب الدولة فقد تمكن منها وبث فى خدمتها أتباعه ومماليكه ومماليك أبيه وأن لا حرمة للوالى عنده ولا كلمة فوق كلمته وقد أبعد كل من كان ناصحاً للدولة وصادقاً فى خدمتها وجعل للدولة أربعة آلاف

كيس إن هى أزالت إسماعيل بك المذكور وخلعت على باشا الوالى وأتت بغيره قيل فأجابه الصدر الأعظم إلى ذلك وبقى الأمر مكتوماً بينهما إلى أن تعين أمير للحاج الشامي اسمه رجب باشا فرسم له الصدر بأنه إذا وصل مصر يعرج على القاهرة ويقبض علَى على باشا واليها ويقتله ثم يحتال على قتل إسماعيل بك ابن إيواظ مع جميع عشيرته ماعدا علي بك الهندى. ورجع محمد بك أبو شنب ظافراً مطمئناً وجاء رسول رجب باشا ومعه مرسوم بحبس على باشا الوالى وإقامة أحمد بك الأعسر نائباً فحبسوه فى قصر يوسف بك ثم جاء رجب باشا إلى القاهرة وصعد إلى قلعة الجبل فى موكب حافل فلما استقر به المقام أحضر على باشا بين يديه وكذلك خازنداره وكاتب الخزينة والروزنامجى ورسم بعمل حساب على باشا ثم أمر به فذبحوه ذبح الشاة واحتزوا رأسه وسلخوها وبعث بها إلى دار السلطنة. قال بعض الكتاب: فمات على باشا شهيد الزور والافتراء ودفن بمقام أبى جعفر الطحاوى بالقرافة قال: ويعرف قبره إلى الآن بعلى باشا المظلوم ثم رسم بضبط جميع مخلفاته واستحضر إليه خفية محمد شركس وشاوره فى كيفية قتل إيواظ بك وجماعته فدبروا له ولكن لم يتم له تدبير إذ اختفى ابن إيواظ مدة ثم ظهر ومعه فرمان السلطان بخلع رجب باشا فدفعه إليه وأنزله من قلعة الجبل إلى بيت مصطفى كتخدا عزبان ووكل به من يحرسه ولبث على هذا الحال أياماً إلى أن جاء للولاية من قبل الدولة محمد باشا البستانجى وذلك فى أوائل سنة ثلاث وثلاثين فكانت مدة ولاية على باشا المظلوم سنتين وبعض أشهر.

(مطلب)

ولاية محمد باشا البستانجي وخلع رجب باشا

ولما استقرت بمحمد باشا الولاية أبرز فرماناً سلطانيا بالعفو عن ابن إيواظ وسرح رجب باشا بالسفر فسافر مهاناً مرذولاً وقد كان استفحل أمر محمد بك شركس واعتز جانبه فى أيام رجب باشا فظهر بمظهر الكبرياء والعظمة والاستخفاف بأقرانه من الأمراء وكان حقده على الأمير ذى الفقار وقومه يزداد يوماً عن يوم فطلب من محمد باشا الوالى مرسوماً بالخروج على ذى الفقار المذكور وقتله فأبى محمد باشا ذلك فألح عليه فلم يقبل فقام من عنده يوماً مغضباً وانقطع من ذلك اليوم عن الصعود إلى الديوان وأهمله فغضب لذلك الباشا وأبرز مرسوماً بخلع محمد شركس

المذكور من منصبه وكتب إلى المشايخ وأرباب الوجاقات بذلك فلما علم محمد شركس بالخبر أسرع وجمع إليه أصحابه ورتب أموره وقام معهم وأحاطوا بالرميلة وحوالى قلعة الجبل ونادوا بخلع محمد باشا البستانجى ثم أنزلوه من القلعة وسجنوه فى بيت ابن الوالى وكان ذلك فى أخريات سنة سبع وثلاثين فكانت مدة تصرفه فى هذه المدة التى هى المرة الثانية أربع سنين وأرسل إلى محمد بك أبى شنب فخلع عليه وولوه النيابة وأخذوا منه مرسوماً بقتال ذى الفقار وأصحابه وأرسلوا من يقتله ويأتى برأسه فلم يظفروا به واختفى ذو الفقار فنهبوا داره وأخذوا ما فيها وكتبوا بصورة الحال إلى دار السلطنة وطلبوا أن ترسل لهم والياً آخر بدل محمد باشا البستانجى.

(مطلب)

ولاية علي باشا

وكان محمد باشا المذكور قد كتب أيضاً بصورة ما وقع فأرسلت الدولة آخر اسمه على باشا فدخل القاهرة فى أوائل المحرم سنة ثمان وثلاثين ومائة وألف هجرية فلم تستقر به الولاية حتى عمد إلى العزل والتنصيب فى الأمراء والحكام ونقض فيهم وأبرم والكلمة يومئذ لمحمد بك أبى شنب وإسماعيل بك ابن إيواظ. قال بعض الكتاب: ولما كان هذا العزل والتغيير لم يتناول إلا ذو الفقار وجماعته اجتمعوا وتشاوروا فى الأمر وتكلموا فى كيفية خلاصهم من فعال على باشا المذكور وقد تحققوا ما وراء ذلك من الخيبة إن هم تراخوا ومازالوا حتى أحكموا تدبير أمورهم وعلى باشا وبقية الأمراء فى شاغل عنهم بالمناصب وتفريق الوظائف والعزل والتولية ثم ظهر ذو الفقار من مخبئه واجتمع بمحمد باشا البستانجى المعزول ولم يكن إلى ذلك الحين قد سافر إلى الديار الرومية وكلمه فى أمر الخروج واضطرام نار الفتنة فاستقرت القاعدة بينهم على إعمال الحيلة على قتل كتخدا العزب فإذا تم لهم قتله امتلكوا باب العزب وظفروا بمقصودهم ثم جمعوا لذلك طائفة من الفقارية وأخرى من الشواربية وركب أبو دفيه أحد المقدمين عند فجر ذلك اليوم ومعه بعض الأمراء وقيطاس ذو الفقار وحوله عدة من الكبراء من قومه وربطوا الأربطة بالطريق الموصل إلى قلعة الجبل وساروا إلى الرميلة ووقفوا هناك فلما مر بهم كتخدا العزب المذكور تقدم إليه أحدهم ليسلم عليه وقبض على يده وتبعه آخر وضربه بسيفه فسقط على

الأرض فتركوه وتراكضوا جميعاً إلى الباب وأجلوا من كانوا عليه وامتلكوه ووصل الخبر إلى محمد باشا البستانجى فركب فى الحال وجاء إلى جامع المحمودية وأتى إلى على باشا من أعلمه بالخبر فنزل إلى باب العزب وهو فى دهشة وحيرة واجتمع جميع الصناجق وتشاوروا فى الأمر طويلا فلم يروا بدأ من أن يعيدوا الوظائف إلى ما كانت عليه تسكيناً للفتنة وقسموها بين الفقارية . واتفق أن قبطانا من قباطين دار السلطنة كان قدم إلى القاهرة فى نفر من العسكر السلطانى ولبث بها فلما ظهرت هذه الفتنة ووصل إليه خبرها ركب فى عسكره وأتى إلى جامع السلطان حسن واستقر به مع ذى الفقار بك وظهرت كلمة محمد باشا البستانجى فى الحال فجعل يقسم المناصب العالية ويتصرف فى الولاية وخلع على الأمراء أصحاب الفتنة ولبث على هذا الحال بجامع المحمودية مع أصحابه أياماً. فلما رأى محمد بك شركس أن قد تمت الحيلة ودارت عليه وعلى أعوانه الدوائر كبر عليه هذا الأمر جداً وجعل يتأهب للذب والقتال وسير من فوره إلى بيت قاسم بك عدة كبيرة من الجند والمدافع ورسم فأقاموا المتاريس عند درب الحمام وجامع الحصرية وهجمت عساكره على من كانوا بسبيل المؤمن بالبنادق حتى أجلوهم وهزموهم وهربوا إلى جهة القلعة وسوق السلاح ولكنهم تمكنوا من عمل متاريس عند مذبح الجمال ورموا على من كانوا بجامع المحمودية وتتابع الرمى من كل صوب وحدب فهرب المجتمعون بالرميلة وبنى أصحاب شركس المذكور المتاريس أيضاً عند وكالة بالأشكمنية ومازال فى دفاع وقتال حتى كاد يتم له الظفر بالفقارية وبدأت شارات النصر وعلائم الفوز والغلبة فبرز يوسف الجربجى البركاوى وألقى بنفسه وتسلق على باب العزب ونط الحائط تحت رمى البنادق واتصل بمحمد باشا البستانجى ومن معه بجامع المحمودية وطلب أن يعطوه مرسوماً إلى كتخدا العزب كى يعطيه بيرقاً ومائة مقاتل وضمن لهم إجلاء الذين كمنوا بسبيل المؤمن ثم يتحول بعد إجلائهم بمن معه إلى بيت محمد شركس فيخربه تخريباً بشرط أن يولوه منصب كتخدائية العزب إن عاد إليهم ظافراً فأجابوه إلى ما طلب فنزل بمن معه من باب الميدان وسار بهم من جانب تكية إسماعيل باشا ووقف بجانب باب كان هناك يوصل إلى الرميلة وطوى البيرق وهجم بمن معه على سبيل المؤمن يطلق النيران المتتابعة وهم يهللون ويكبرون فانزعج من كانوا بالسبيل وتحيروا فى أمرهم وولوا جميعاً الأدبار إلى درب الحصرية وأصحاب يوسف جوربجى فى أقفيتهم يعملون فيهم الضرب والطعن حتى جاوزوا جميع متاريسهم

ودخل بيت قاسم بك فحولوا المدافع صوبه وصعدوا منارة جامع الحصرية ورموا بالبنادق على البيت فنزلت عند ذلك سائر البيارق من الأبواب وساروا إلى جهة الصليبة وطلع القبطان إلى قصر يوسف بك ووضع مدفعاً على بيت محمد بك شركس وأطلق عليه الكلل تباعاً وقد كان قاسم بك أصيب برصاصة ممن كانوا بمنارة جامع الحصرية فمات فلما رأى محمد شركس ما حل بقومه وما يترصده من المكاره خرج هارباً فخرج معه محمد بك الأعسر ومحمد شركس الصغير وأخذ جميع أمواله وذهب بأصحابه إلى ناحية مصر القديمة وعبروا النيل إلى الجانب الغربى خفية وركب محمد باشا البستانجى وصعد إلى قلعة الجبل فى أهبة وكبكبة ثانية فنزل على باشا وسافر إلى جزيرة جريد وقبض ذو الفقار بك على زمام الأمور فارتفعت كلمته وظهرت بعد الخمول والانكماش عظمته وبعث بمن يقبض على محمد بك چركس فجد الرسل السير خلفه فلم يدركوه ورجعوا فأخبروا أنه سار إلى الجبل الأخضر ومنه إلى أدرنة وكان خروج محمد جركس المذكور فى يوم السبت سابع جماى الآخرة سنة ثمان وثلاثين ومائة وألف فسكنت بعد خروجه الفتنة وزالت أسبابها ووقف كل عند حده. قال بعض الرواة: وهذه الفتنة كانت بإيعاز من دار السلطنة.

واتفق بعد ذلك بقليل أن على بك المعروف بأبى العزب ومصطفى بك ابن إيواظ ويوسف بك الخائن ويوسف بك ابن الشرابى وعبد الله أغا كتخدا الجاويشية وسليمان أغا أبادفية وهم جميعاً من طائفة القاسمية جلسوا على عادتهم فى بيت أحدهم على بك أبى العزب يشربون الخمر فلما أخذ الشراب من عقولهم فى تلك الليلة تأوه مصطفى بك ابن إيواظ وقال: يموت أخى العزيز الصغير والكبير ويصير الهندى مملوكنا سلطاناً على مصر وله الكلمة النافذة علينا والوالى فى قبضة يده وكان النيل قريب الوفاء فقال على بك: خفف عنك والله إنى لقاتل الباشا يوم جبر البحر فقال أبو دفية وإنى لقاتل ذو الفقار وقال مصطفى بك وإنى قاتل الهندى مملوكنا ثم تحالفوا على ذلك وتعاهدوا على العمل وكان معهم فى تلك الليلة مملوك من مماليك عبد الله بك وقد كان هرب عند قتل سيده ولحق بالهندى وأقام فى خدمته أياماً فلما ارتقى مصطفى بك المناصب العالية أخذه من الهندى وجعله فى خدمته فلما سمع هذا المملوك ما تحالفوا عليه ذهب إلى على بك الهندى وأعلمه بالخبر فبعث به إلى ذى الفقار فأخبره أيضاً فبعثه إلى محمد باشا فأخبره. فلما كان يوم الديوان وقد صعد على بك أبو عزب إلى الخدمة بالديوان أمر به الباشا فقبضوا عليه وقتلوه من

ساعته تحت ديوان السلطان قايت باى وأحاط بداره ونهب ما فيها وكان شيئاً كثيراً للغاية وأرسل فى الحال مرسوماً إلى الأغا بالقبض على باقى أصحاب هذه المؤامرة فكان أول من قبض عليه منهم ابن إيواظ فأركبوه حماراً وأتوا به إلى الباشا فأمر به فقتل فى الحال واختفى الباقون فضعف بذلك جانب القاسمية وانحط قدرهم وعلت كلمة الفقارية ولم يبق ظاهراً من القاسمية إلا على بك الهندى فعمل ذو الفقار على قتله أيضاً فقتله وقتل معه آخرين.

واتفق أن عاد فى هذه الأثناء محمد بك شركس من فراره على ما تقدم بيانه فلما علم أصحابه برجوعه جاءوا إليه وأقبلوا جميعاً عليه فركب معهم ونزل إلى البحيرة يريد الإسكندرية فلاقاه حسين بك الخشاب فى جنوده يريد منعه والظفر به فهزمه جركس وغنم خيامه وخيله وجماله ثم هبط إلى الفيوم ونزل على بنى سويف ثم إلى القطيعة على مقربة من جرجا فاجتمع عليه من بقى منهم من القاسمية المتشردين فقام لصده حسين بك حاكم جرجا فركب عليه جركس المذكور وقاتله فقتل حسين بك وجماعة كثيرة من أتباعه وغنم جركس آلاتهم وجميع معداتهم وجاءت الأخبار بذلك إلى القاهرة فجمع ذو الفقار الأمراء وشاورهم فى الأمر فجهزوا لذلك عسكراً عظيماً صحبة عثمان بك وآخر اسمه على بك قطامش فتلاقوا مع جركس بوادى البهنسا واقتتلوا فكانت الهزيمة على عسكر ذى الفقار ومن معهم واستولى جركس على ما كان معهم من آلات الحرب والخيام والخيل وحال الليل بينهم فافترقوا ورجع المنهزمون إلى القاهرة فشق أمرهم على ذى الفقار وهاله جداً وجمع الأمراء ثانية واتفقوا على إرسال حملة أخرى ولكنهم لم يجدوا ما ينفقونه فطلبوا مرسوماً من محمد باشا البستانجى بثلثمائة كيس من مال الخزينة نفقة وعليهم رده من أموال السنة القابلة فامتنع الباشا فألحوا عليه فصمم على الامتناع فشكوا فلم يسمع فركبوا عليه وأنزلوه من قلعة الجبل وأقاموا محمد بك قطامش نائباً وأخذوا منه مرسوماً بالنفقة وجهزوا العسكر واهتموا بأمرها اهتماماً عظيماً فسارت هذه الحملة والتقت بجركس ومن معه فوقعت بين الفريقين حروب هائلة ووقائع متوالية انجلت عن هزيمة جركس وتبديد شمل جماعته وتمزيقهم كل ممزق.

(مطلب)

عزل محمد باشا البستانجي وولاية شاكر باشا

أما محمد باشا البستانجى فإنه بعد أن خلعوه أنزلوه من قلعة الجبل وحجروا

عليه أياماً حتى ورد الخبر بولاية باكر باشا وذلك فى سنة اثنتين وأربعين ومائة وألف فكانت مدة تصرفه الثانية أربع سنين وأشهراً ووصل إلى مصر باكر باشا الوالى الجديد فكان وصوله فى خلال الفتن واشتداد الخطوب والمحن فلم يعمل عملاً يذكر لأن البلاد كانت فى شدة وضنك بأسباب الحوادث المتراكم بعضها فوق بعض ولم يستقر به المقام إلا أياماً قلائل حتى ثار من فى البلد من القاسمية المختفين وثار معهم سليمان أغا أبو دفية فدخل منهم جماعة على ذى الفقار بك وقت العشاء فى رمضان من السنة وقتلوه وكان ذلك بتدبير من محمد بك جركس وهو مختف جهة الشرقية ينتظر موعدهم بعد قتل ذى الفقار بك فقضى الله بموت جركس قبل أن يعلم بخبر موت ذى الفقار وذلك أنه لما بعث ذو الفقار قومه فى طلب محمد جركس المذكور شددوا فى البحث عنه وتتبعوا خطواته فكان ينتقل من جهة إلى أخرى حتى سار إلى الشرق ومعه جماعة من عربان خويلد فتبعه عثمان بك قطامش بعسكره وسالم بن حبيب البدوى وقومه فتلاقوا معه واقتتل الفريقان قتالاً عنيفاً جداً انجلى عن هزيمة جركس ومن معه ففروا وألقوا بأنفسهم إلى النيل ونزل جركس بفرسه يريد العبور إلى الجانب الغربى من النيل فانغرز الفرس فى روبة تحتها الماء غزير فترجل عنه ليخلصه فسقط ومات غريقاً وكان على مقربة منه شادوف وعليه رجلان من الفلاحين ينقلان الماء إلى مزرعة لهما فنزلا إليه فوجدا الفرس وجركس ميتين ولم يعلما من هو فأخرجاه وأخذا ما عليه من الملابس وسلاحه وزرخه وما فى جيوبه ودفناه بالجزيرة ومر بها قارب صيد فطلباه ووضعاه فيه، وكان على بك جالساً بجانب النيل ومعه سالم بن حبيب فنظر سالم إلى القارب وهو مقبل فقال: ما هذا إلا سمكة عظيمة مقبلة إلينا فأوقفوا القارب فتقدم أحد الشدافين إلى على بك وقبل يده فقال له ما خبرك؟ قال وجدنا جنديا من المهزومين غريقاً ومعه حصان فلعله من المطلوبين وإلا ألقيناه فى الماء فقال لأحد أصحابه اذهب وانظر من هو فلعلك تعرفه فذهب وعاد فأخبر أنه محمد جركس الكبير وقد أحضر معه خاتمه فأمر به فأخرج من القارب وقبض على بك على أحد الشدافين وألزم الآخر باستحضار ما أخذه من الثياب والسلاح فأحضرها ثم أمر فاحتزوا رأس محمد بك جركس وغسلوا جثته ودفنوه ناحية شرونة وارتحلوا إلى القاهرة وكان القاسمية الذين بالقاهرة قد دخلوا على ذى الفقار وقتلوه كما تقدم القول ولبثوا ينتظرون قدوم محمد جركس وكان أبواب المدينة مقفلة وعلى كل باب منها صنجق والوجاقلية يطوفون فى الشوارع

وبأيديهم السيوف والقرابين المحشوة فلما وصل على بك قطامش إلى الآثار النبوية المعروفة عند العامة (بأثر النبى) أرسل يخبر بما جرى فخرج إليه عثمان بك ودخل صحبته بموكب حافل والرأس أمامهم محمولة فى صينية حتى طلعوا بها إلى قلعة الجبل ووضعوها بين يدى الباشا فخلع عليهم الخلع السمور ونزلوا إلى بيوتهم فأتتهم التقادم أيضاً من جميع الأمراء. قال أصحاب التاريخ : وكان جركس المذكور من أظلم خلق الله وأشدهم طغياناً وكان أتباعه على شاكلته فكانت أيامه شر الأيام وكانت الحروب فى عهده لا تقعد لها قائمة فاشتدت على الرعية الخطوب وتوالت المحن والكروب وتعاقب الغلاء وعم الويل والوباء واشتد البلاء وقتل البنون والآباء وكان موت محمد جركس المذكور فى أواخر سنة اثنتين وأربعين. أما الأمير ذو الفقار فقالوا أنه كان أميرًا جليل القدر شجاعاً بطلاً كريم الأخلاق مع قلة ثروته وعدم ظلمه وكان كثير الحسنات يرسل فى كل شهر رمضان من السنة لجميع الأمراء والأعيان والوجاقلية البلكات والكساوى وللعلماء بالأزهر ستين كسوة ودراهم تفرق على الفقراء والمجاورين فكان محبوباً محترماً مهيباً نافذ الكلمة بكاه الناس كافة وحزنوا على فقده هذا ما كان من أمر الفتن بديار مصر.

أما ما كان من أمرها فى دار السلطنة فإنه لما تم لخصوم محمد باشا البلطه جى الصدر الأعظم النكاية به وعزله وتبعيده كما تقدم القول تولى الصدارة بعده عدة من الوزراء فلم تطل أيامهم ولم يفلحوا إلى أن تولاها على باشا دماد فأحسن التدبير وأصلح ما أفسده السلف وساق الجيوش إلى إخضاع أهل الجبل الأسود لتمردهم وخروجهم عن طاعة السلطان ثم سار لتدويخ البلاد التابعة لجمهورية البندقانيين وضمها إلى أملاك الدولة ومحو أثر الجمهورية المذكورة حيث كانت الدولة قد ملت من حروبها المتتابعة ففتح كثيراً من البقاع والقلاع كاستنديل وكورودوس وأتابولى وقتل وسبى وخرب ثم عاد إلى دار السلطنة ظافراً غانماً ولبث إلى أن زال الشتاء وكر راجعاً فى جيش عظيم لأخذ ما بقى من جمهورية البندقانية فلما علمت دولة النمسا بما وراء ذلك من استيلاء العثمانيين على خليج البندقانيين وأن هذا مما يفتح للعثمانيين بابا واسعاً لنقل مهماتهم وذخائر حربهم ويسهل لهم الهجوم على بلادهم ويغنيهم عن المجىء إليها عند طريق بلغراد وطمشوار أفاقت من غفلتها وراسلت الدولة العثمانية فى مجانبة الحرب مع جمهورية البندقانيين وأنذرتها بإنها إذا أبت ذلك أشهرت الحرب عليها فاستعظم الصدر هذا الأمر جداً وحول وجهه عن محاربة

البندقانيين إلى قتال النمسا فسار بجيوشه وشن الغارة على أملاكها فسيرت لقتاله جيشاً عظيماً للغاية ومقدمه البرنس أوجين دى سافوا وهو من أكبر قواد ذلك العصر وأعظمهم خبرة بفنون الحرب والقتال فاشتبكت الحرب بين الفريقين واشتد القتال فانتصر النمساويون نصرة مؤزرة فى موقعة بتروادين وقتلوا الصدر الأعظم فى ساحة الحرب ثم سار قائد الجيوش النمساوية إلى مدينة طمشوار فافتتحها بعد حصار أربعة وأربعين يوماً ثم نزل على مدينة بلغراد وحاصرها وشدد فى حصارها وكان قد تولى مسند الصدارة العظمى خليل باشا فحضر فى عسكر عظيم لاستخلاص المدينة ورفع الحصار عنها فلم يفلح وتغلب عليه العدو ودخل المدينة عنوة وأعمل فيمن بها من عساكر المسلمين السيف ووصلت الأخبار بذلك إلى القسطنطينية فعمدوا إلى طلب الصلح وأرسلوا إلى النمسا فى ذلك وكان الذى قد تولى هذا الأمر إبراهيم باشا نائب الركاب الهمايونى فاستكبر الجند هذا الأمر جداً وقالوا لا نترك طمشوار الجميلة فى أيدى الأعداء فأخذ الناس بقولهم ووافقوهم على استدامة القتال وتبعهم فى ذلك أيضاً طلبة العلم فسقط إبراهيم باشا فى يده وانفرد برأيه وبقى الكلام فى الصلح نسيا منسياً وأعيدت الحرب ثانية فانهزم العسكر الهمايونى هزيمة أشد من الأولى وانفشلوا وركبهم النمساويون بحد السيف فعادوا إلى طلب الصلح وكان إلى هذا الحين قد تولى إبراهيم باشا مسند الصدارة فعقد النمساويون الصلح بعد أخذ ورد فكانت شروطه شديدة على الدولة إذ تركت للنمسا ولاية طمشوار ومدينة بلغراد مع جزء عظيم من بلاد الصرب وآخر من بلاد الفلاخ وتركت لجمهورية البندقية ثغور شاطئ دلماسيا واسترجعت هى بلاد المورة ليس إلا. قال بعض الكتاب: ولو أظهرت الدولة يومئذ للعدو علامات القوة مع عزة النفس لتم عقد الصلح على وجه أليق بشرفها. فلما تمت شروط الصلح على هذه الصورة طمع الأعادى فيها واستخفوا بقدرها فتحركت دولة الروس إلى نكث العهود وسيرت سفيرها إلى دار السلطنة فى طلب إلغاء بعض الشروط المأخوذة على الروس فى معاهدة الصلح الأخيرة والتقى السفير بالصدر وكلمه فى الأمر وشدد عليه فى الطلب وقال إن لم تعجلوا بتعديل الشروط وإلا نقضناها بسيوفنا وكان الصدر الأعظم يكره الحرب ميالاً إلى الترف والراحة فخاف سوء العاقبة وأجابه إلى جميع ما طلب فلم يبق للدولة بعد ذلك شىء من الامتيازات والحقوق التى أريقت بسببها الدماء الكثيرة وقاتلت الأشهر والأعوام الطوال. قال بعض الكتاب: ومع أن المتاركة بين الدولة وخصومها

كان لأجل أن تتمكن الدولة من لم شعث جنودها لتقوى بهم على قمع الأعداء وإيقاف كل عند حده فقد كانت سبباً فى إدخال عوائد جديدة على الناس مالت بطباعهم إلى السفاهة وما شاكلها من نتائج الطيش فأصبح السواد الأعظم أسيرا للملاهى وعبدا للملاذ ففسدت الآداب وانحلت الرابطة الطبيعية القائمة بين الأزواج وزوجاتهم وبالغ الناس فى السرف والترف واندفعوا إلى تشييد المبانى الفاخرة والقصور العظيمة وأنشئوا القاعات الفسيحة المزينة بأنواع النقوش والرخام وغرسوا فى أطرافها الأزهار وأوقدوا فيها المصابيح وجعلوا ظهور السلاحف منائر لها فكانت تلك السلاحف تتجول فى طرق القاعات والجنائن والأنوار تسطع على ظهورها وتنبث مرتبة على أحسن نظام فكانوا لذلك يطلقون عليها اسم جراغان ومعناها الشموع. قال: وقد بنى إبراهيم باشا الصدر الأعظم قصراً جميلاً بجوار بشكطاش سماه بقصر جراغان فكان يأدب فيه فى كل سنة مأدبة حافلة للسلطان وأولاده فيأتى إليها للتفرج على تلك السلاحف الحاملة للأنوار فكان يقيم على هذه الحال أياما وكان هذا الدور فى دار السلطنة محسوباً من أحسن الأدوار صفاء وذوقاً إلا أنه قد أورث الدولة خللا والأمور خطلا والناس كسلا وذهب بكثير من حقوقها وامتيازاتها العظمى.

وانتبه الصدر الأعظم من رقدة ذلك الترف وسكرة تلك الملاذ فرأى أن دولة فارس قد انحلت أو كادت وأن الأفغانيين قد تغلبوا عليها واستولوا على أصفهان فخاف شر العاقبة واستعد لإرجاع ما كان فى حوزة الدولة العثمانية قديماً من البلاد والإيالات ودخلت فى يد فارس قبل أن يبتزها غيرها وسير لذلك جيشاً عظيماً فرافقه النصر وتغلب على عدة إيالات كهمذان وكنجه وروان وشروان وكورجستان وقام كذلك الروس واحتلوا ضاغستان وكافة سواحل بحر الخرز فلم تلبث تلك الإيالات تابعة للدولة حتى قام نادر شاه وتولى ملك فارس واستردها جميعها واسترد كذلك ما كان بيد الروس بعد حروب هائلة جداً كادت تخرب بسببها الأناطولى وغيرها وجعل نادر شاه من هذا الحين يشن الغارة على الحدود العثمانية ولا ينكف عن السلب وإراقة الدماء فكبر أمره على أصحاب الحل والعقد وأنكروا هذه الأحوال على إبراهيم باشا الصدر الأعظم ورموه بالمروق عن جادة العمل وتبعهم العامة فى ذلك فطعنوا فى الصدر وقالوا إنه ترك ما كان عليه أسلافه من الاعتناء بتدريب الجند وتنظيم أحوال المقاتلين وأنه منغمس فى الملاذ واللعب وقد عوّد السلطان على اللهو

والخلاعة وجعل مراتب الدولة ورتبة الوزارة فى أيدى الندامى بعد أن كانت لا تعطى إلا لأهل الخبرة والدراية بجميع الأمور والمستعدين للقيام بها من المجاهدين وأنه ترك لنادر شاه ما كان قد استولى عليه بالحرب والجهاد فلما أنس إبراهيم باشا منهم ذلك أخذ يستعمل الحيلة فضرب السرادقات الهمايونية فى إسكدار لإرهاب نادر شاه المذكور وأذاع السفر إلى بلاد فارس للانتقام منه ولبث على هذه الحال عدة أيام فاشمأزت من ذلك النفوس وتكدرت خواطر الناس وظهرت الفتنة فى القسطنطينية وتأججت نارها وارتفع لهيبها وكان بعض محبى الصدر الأعظم قد حذروه أمر الفتنة فلم يلتفت لقولهم وكذلك تقدم بعضهم إلى كتخدا بك وحذره وقال: إن الخطب شديد والفتنة قائمة فأنكر عليه ذلك وأنبه . واجتمع جماعة من أركان الدولة وأبلغوا السلطان ما كان عليه الناس عليه من الهياج والفتنة إن طال بقاء الصدر فى منصب الصدارة فلم يلتفت لقولهم نظراً لعلو مكانة الصدر عنده فانكمش أهل النصح ولبثوا ينتظرون ما يظهره القضاء وقد اتسع الخرق واشتدت نار الفتنة فرسم الصدر عند ذلك بإخراج البيرق الشريف. وهو بيرق صاحب الشريعة المحمدية، ونادى بالاجتماع حوله فلم يلتفت أحد للنداء وطاف العامة يفسدون وينهبون كل ما وصلت إليه أيديهم وكان زعيم هذه الفتنة رجلاً اسمه بطرونا خليل.

فلما كان خامس عشر ربيع الأول من السنة أى سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف هجرية سير بطرونا المذكور إلى السراى السلطانية جماعة يطلبون قتل الصدر الأعظم والمفتى وقبطان باشا السفن الحربية فامتنع السلطان من إجابة الطلب فشددوا وهددوا وتوعدوا بما لا خير فيه فخاف السلطان شرهم ورسم لهم بقتل الصدر وأمير سفن الحرب ومانع عن المفتى فقتلوهما وألقوا جثتهما فى البحر على مشهد من جميع الناس. ولم تغرب شمس ذلك اليوم حتى عاد أهل الثورة إلى الهياج والجلبة والتطواف فى شوارع القسطنطينية وهم ينادون بخلع السلطان وتنزيله عن منصب الخلافة وتولية ابن أخيه السلطان محمود الأول بدله ثم ساروا إلى السراى السلطانية وأبلغوه ذلك فأسرع إلى إجابتهم وخلع نفسه وبايع ابن أخيه بالملك وذلك فى ليلة التاسع عشر من ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف هجرية وبقى معزولا إلى أن توفى فى أول المحرم افتتاح سنة اثنتين وخمسين ومائة وألف هجرية فكانت سلطنته زهاء سبع وعشرين سنة.

* * *

(الفصل السابع عشر)

(فى سلطنة السلطان محمود خان الأول)

ثم قام بالأمر بعد السلطان أحمد ابن أخيه السلطان محمود خان الأول ابن السلطان مصطفى بويع بالملك فى الليلة التى خلع فيها عمه ليلة التاسع عشر من ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف هجرية أى سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة وألف ميلادية وقد تولى الأمور فى اضطراب والأحوال فى اختلال ولا كلمة فوق كلمة البطرونا خليل فإنه منذ خلعه للسلطان أحمد وقتله للصدر الأعظم وأمير سفن حرب الدولة بسط يده على جميع الأمور وصار يتصرف فى أعمال الدولة كيف شاء فأكثر من العزل والتولية وسام الناس الخسف ولم يفرق بين الجليل والحقير فأمر ونهى وجار وظلمْ وكان إذا رأى من طوائف الانكشارية تذمراً بالغ فى التضييق عليهم وشدد وأوقع بكبارهم فيخافون ويخلدون إلى السكون صاغرين فلما ضاق بهم الخناق ونفد منهم الصبر اجتمع كبارهم حول السلطان وحببوا إليه قتل البطرونا خليل المذكور وكان السلطان يتمنى حصول ذلك فوافقهم فقاموا وركبوا عليه فقتلوه وتأهبوا لقتال أصحابه إن هم قاموا للأخذ بثأره فلم يقو أصحابه على الخروج وأوقعت بهم طوائف الانكشارية وأعملوا فى كبارهم السيف فعادت الأمور إلى سابق مجراها من الهدو والسكينة وأمن الناس على أرواحهم وأموالهم وانطلقت كلمة السلطان فتصرف ودانت له الأمور فسير الجيوش لقتال ملك فارس واسترجاع ما أخذه من الإيالات على أيام عمه السلطان أحمد فوقعت بينه وبين العسكر السلطانى عدة حروب كان النصر فيها لعسكر السلطان ثم أقام عثمان باشا الأعرج أحد مقدمى العسكر الموصوفين فى المعامع والحروب سر عسكر لجيوش الشرق فقاتل ملك فارس وظفر به فى صحراء كركوك ومزق شمل عساكره ففر ملك فارس مجروحاً ثم عاد فى جيش جرار للقتال ثانية فكانت الحرب بين الفريقين سجالاً وطالت أيامها فمات فى خلالها السر عسكر عثمان باشا وأرسلت الدولة إلى ملك فارس فى طلب الصلح فأجابها إليه بشرط رد جميع ما أخذته الدولة من مملكته وإرجاع حدود الدولتين إلى ما هو مذكور فى معاهدة إبراهيم باشا فتم الصلح على هذا الوجه وبطلت الحرب وارتفعت أوزارها.

ورأت النمسا أن الدولة بعد عقد الصلح مع فارس تفرغت أو كادت ولابد من أن تنوبها الشرور فخافت ولم تمهلها وحشدت فى سنة ثمان وأربعين ومائة وألف جيشا عظيما واتفقت معها أيضا حنة قيصرة الروس على هذه الحرب فساقت عسكرها على عسكر الدولة تحت قيادة الجنرال مونيخ فجعل القائد المذكور يذيع الخبر بأنه سيجيء بهذه الغزوة دولة الروم القديمة ويعيد لها مجدها الأول ففرح بذلك الروم وأشرابت نفوسهم إلى هذا المأمول وتلقى أهالى البغدان عساكر الروس عند دخولهم إلى بلادهم بالفرح والقبول وسهلوا أمامهم السبل والعقبات فاشتبك القتال بين الروس والعثمانيين وتمزق جمع العثمانيين وأبلى فيهم الروس بلاء حسنا وأخذوا إقليم البغدان واحتلوا مدينة ياسى عاصمة الإقليم المذكور وانتصرت عساكر النمسا أيضا وأغارت على بلاد البوسنة والصرب والفلاخ فكبر كيد الدولة وكادت تسقط فى يدها، واتفق أنه تولى فى هذه الأثناء مسند الصدارة الحاج محمد باشا وهو من نخبة السياسيين المشهورين بالكياسة وحسن التدبير فرأى من تقهقر عساكر الدولة وانتصار الأعداء عليهم ما أدهشه فأسرع فى حشد الجيوش وإعداد المعدات وسار لمنع تقدم العساكر الروسية وإيقافهم عند حدهم وسير فريقا آخر لقتال عساكر النمسا فظفروا بهم وانتصروا عليهم وانهزموا شر هزيمة وتقهقروا إلى ماوراء نهر الدانواب ثم ساق الحاج محمد باشا بعسكره فرافقه النصر وقيض الله له الظفر فركنت النمسا عند ذلك إلى طلب الصلح ووافقها أيضا على طلبه حنة قيصرة الروس وخابروا الحاج محمد باشا فى أمره وسعت الرسل بين الفريقين وبعد أخذ ورد تمت شروطه على تنازل النمسا للدولة العثمانية عن مدينة بلغراد وجميع ما أعطى لها من بلاد الصرب والفلاخ بمقتضى المعاهدات السابقة لهذه الحرب وتعهدت كذلك قيصرة الروس بهدم قلاع وحصون مينا أزاق وعدم إعادتها مرة ثانية وبعدم إنشاء سفن حربية أو تجارية بالبحر الأسود أو ببحر أزاق وبأن ترد للدولة العثمانية جميع ما أخذته من الأقاليم والبلدان . قال أحد الكتاب: وسميت هذه المعاهدة معاهدة بلغراد ولما تم الصلح على ما ذكر بطلت الحرب وسكنت القلاقل أياما كثيرة .

(مطلب)

عزل أحمد باكير باشا وولاية عبد الله باشا التكفويرلي

وما كانت هذه الحروب المتتابعة والخطوب المتواصلة لتشغل رجال الدولة عن

كثرة العزل والتولية فى ولاة مصر فإنه لما تولى السلطنة محمود خان كان الوالى على مصر من قبل السلطان أحمد باكير باشا فجاءه الأمر بالعزل وتولاها عبد الله باشا التكفويرلى فدخل القاهرة فى سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف هجرية . قال أصحاب التاريخ : وكان من أرباب الفضائل وأصحاب المعارف العالية والعلم والشعر وله ديوان شعر جيد على حروف المعجم ومدحه شعراء مصر لفضله وميله إلى أهل العلم والأدب فقال بعضهم.

ولما جاء مصرا أرخوه   لقد سعدت بعبد الله مصر
١٣٤ ٥٣٤ ٧٨ ٦٦ ٣٣٠
سنة ١١٤٢

وكان خيرا صالحا منقادا للشريعة أبطل المنكرات وحانات الخمارين ومواقف المومسات والبوظ من بولاق وباب اللوق وطولون ومصر القديمة وجعل للوالى والمقدمين عوضا عما كان مرتبا لهم على تلك المحال فى كل شهر كيسا من كشوفيات الباشوات وكتب بذلك حجة شرعية ولعن فيها من تسبب فى إعادة تلك المحال ولم يحدث فى أيامه شىء يذكر إذ كانت قصيرة جدا حيث عزل فى أواخر سنة أربع وأربعين ومائة وألف هجرية.

(مطلب)

عزل عبد الله باشا وولاية محمد باشا السلحدار

وتولى بعده محمد باشا السلحدار والى البصرة فدخل القاهرة فى أوائل سنة خمس وأربعين ولبث يتصرف إلى سنة ست وأربعين ولم يعمل فى أيامه عملا يذكر وجاء الخبر بعزله وتولية عثمان باشا الحلبى فحضر إلى مصر عن طريق العريش ونزل بالعادلية ولاقته أرباب العكاكيز وأصحاب الوظائف فصعد إلى قلعة الجبل فى موكب حافل ونزل منها محمد باشا المعزول وسافر إلى الديار الرومية فأخذ عثمان باشا يتصرف وجاءه فرمان السلطان باحصاء اليهود والنصارى وجمع ما عليهم من الجزية فى كل بلد العال أربعمائة نصف وعشرون نصفا والوسط مائتان وسبعون والدون مائة نصف فاهتم عثمان باشا بالأمر وقيد بذلك عمالا فطافوا البلاد كافة وأحصوا أهلها وفعلوا من الجور والعسف بأهل البلاد ما لا يكيف فضج الناس وشكوا فلم يلتفت إليهم وظل الحال على ذلك حتى دخل شهررمضان واشتغلوا بظهور رجل

تكرورى بالجامع الأزهر يدعى النبوة وقد ذاع خبره وكادت تعم شهرته فأحضروه بين يدى الشيخ أحمد العماوى فسأله عن حاله فأخبره أنه كان فى شربين فنزل عليه جبريل وعرج به إلى السماء ليلة سابع عشرى رجب فصلى بالملائكة ركعتين وأذن له جبريل فلما فرغ من الصلاة أعطاه ورقة وقال له أنت نبى مرسل فأنزل وبلغ الرسالة وأظهر المعجزات فلما سمع الشيخ كلامه قال له أنت مجنون فقال لست بمجنون وإنما أنا نبى مرسل فأمر به فضروبوه وأخرجوه من الجامع فجعل يطوف الأزقة والحارات ويكثر من الجلبة والصياح فسمع عثمان كتخدا بخبره فأحضره وسأله فقال مثل ما قاله للشيخ فبعث به إلى دار المجانين فاجتمع الناس وكثرت حوله العامة رجالا ونساء وكادوا يصدقونه ويدفعون عنه الإيذاء فخاف الوالى شر العاقبة وأمر فأخفوه عن أعين الناس لتسكن الفتنة ثم طلبه الباشا وأمر بحبسه فحبسوه ومنعوا من دخول أحد إليه أياما، فلما كان النصف من رمضان اجتمع العلماء وأحضروه بين أيديهم فسألوه فلم يتحول عن كلامه فعالجوه فشدّد فأمروه بالتوبة فامتنع وصمم على ما هو عليه فأمر الباشا بقتله فقتلوه فى حوش الديوان وهو يقول : فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل. ثم أنزلوه وألقوه بالرميلة ثلاثة أيام فكاد الناس يفتنون ولم تهدأ الخواطر حتى شاع بين الناس بالقاهرة ومصر القديمة أن القيامة قائمة يوم الجمعة سادس عشرى ذى الحجة من السنة أى سنة سبع وأربعين وفشا هذا الكلام فى الناس قاطبة حتى فى القرى والأرياف وودع الناس بعضهم بعضاً وهم بين راغب فى التوبة وداع بطلب المغفرة وباك على ما فات من أيامه ومنهم من كان يقول لرفيقه بقى من عمرنا يومان فقد كانت هذه الأشاعة فى يوم الأربعاء رابع عشرى الحجة. وانتشر أهل الخلاعة فى الجنائن والمنتزهات ليودعوا الدنيا كما كان يقول بعضهم لبعض وخرج أهل الجيزة نساء ورجالا وصاروا يغتسلون فى النيل ومن الناس من علاه الحزن والوهم واعتقدوا صحة الإشاعة ووقع صدقها فى نفوسهم موقعا عظيما وكثر فيها الهرج واشتد بهم الخوف فتعطلت الأعمال وكادت تقفل الأسواق وما زالوا على هذا الحال إلى يوم الجمعة فلم يقع شىء مما كانوا يتوقعون ومضى يوم الجمعة وأصبح يوم السبت فلم يقع كذلك شىء. قال صاحب عجائب الآثار: فانتقلوا يقولون فلان العالم قال: إن سيدى أحمد البدوى والدسوقى والشافعى تشفعوا فى ذلك وقبل الله شفاعتهم فيقول الآخر اللهم نفعنا بهم فإننا يا أخى لم نشبع من الدنيا وشارعون فى عمل حظ ونحو ذلك من الهذيانات أهـ.

(مطلب)

عزل عثمان باشا وولاية باكير باشا الولاية الثانية

وأقام عثمان باشا يتصرف فى الولاية إلى سنة ثمان وأربعين ومائة وألف هجرية ثم عزل وتولى بعده باكير باشا وهى ولايته الثانية فكانت مدة تصرف عثمان باشا سنة وخمسة أشهر وحضر باكير باشا من جدة إلى السويس إذ كان واليا بجدة بعد عزله من ولايته الأولى على مصر وكان دخوله القاهرة فى يوم السبت رابع عشرى شوّال سنة سبع وأربعين ومائة وألف وصعد إلى القلعة فى موكب حافل للغاية وخلفه من الحشم والأتباع زهاء الثلاثين على ظهور الخيل الملبسة بالزروخ المذهبة وله من الأولاد خمسة ذكور ركبوا أيضا أمامه فلما مر من وسط المدينة صاح الناس فى وجهه وعلا صراخ العامة من ثقل المغارم والكلف وفساد العملة فلم يلتفت لصراخهم وسار حتى صعد القلعة ولم يلبث حتى جعل يدس الدسائس بين الأمراء وصار يعمل على فساد أمورهم وتفريق كلمتهم ومازال حتى كاد يتم له ما أراد ولكن ظهر فى غضون ذلك الطاعون وفشا فى المدينة وانتشر فى البلاد قاطبة وفتك بالناس فتكا ذريعا لم يسبق له مثال فسماه العامة طاعون كو وسموه أيضا الفصل العائق يأخذ على الرائق ومات به خلق كثير للغاية وكان فعله كثيرا فى الأعيان فكانت الناس تدفن الموتى فى ضوء المشاعل حتى كاد لا يوجد من يدفن الموتى التى كانت تقع فى الشوارع والحارات واشتد شدة بالغة جدا وطالت أيامه. وبينما الناس على هذا الحال من الشدة وهم يضجون ويعجون إلى الله من كثرة الموات إذ اضطرمت نار الفتنة بين الأمراء وعلا لهيبها واشتد سعيرها. وتحرير الخبر: أن كاشفا اسمه صالح زوج ابنة إيواظ بك كان ملتجئا إلى عثمان بك ذى الفقار وكان صالح هذا من القاسمية فحرضته زوجته على طلب إمارة القاسمية فطلب من عثمان بك أن يساعده على ذلك فوعده وخاطب محمد بك قيطاس المعروف بقطامش وهو إذ ذاك كبير القوم فى ذلك فلم يجبه خوفا من أن يعود القاسمية إلى مظهرهم القديم فيظفروا بالفقارية ويستأصلوا شأفتهم بعد الذى وقع بين الفريقين فبعث عثمان بك بصالح المذكور إلى البحيرة كاشفا نائبا عنه حيث كانت له فلما كملت السنة رجع إلى القاهرة وتحركت همته إلى طلب الإمارة وألحت عليه زوجته فى ذلك فعاود عثمان بك فى الخطاب وهو تكلم مع محمد بك فصمم محمد بك على الامتناع ووافقه على ذلك على بك تابعه وآخر اسمه خليل افندى فذهب صالح

المذكور إلى عثمان كتخدا القزدغلى وشكا إليه حاله وما يلاقيه من قيطاس ثم بكى واستمال عثمان كتخدا المذكور تابعه وخليل أفندى على أن يكونوا معه على قيطاس فقام القزدغلى من ساعته واجتمع برضوان بك أمير الحاج سابقا وسليمان بك الفراش وتكلم معهما فى أمر قتل المذكورين فوافقاه على أن يكون قتلهم فى بيت محمدبك الدفتردار على علم من باكير باشا الوالى وأخبروا محمد بك بذلك فرضى وكتب يطلب اجتماع الأمراء كافة فى بيت الدفتردار للمداولة فى أمور الخزينة فركبوا جميعا إلى بيت قيطاس بعد العصر ومن هناك توجهوا معه إلى بيت الدفتردار فلما تكاملوا ولم يبق منهم أحد أمر محمد بك قيطاس بتحرير عريضة وأملى الكاتب بصورة ما يكتب فخرج الكاتب وكان قد دخل الغروب فأراد القوم الانصراف فوقف الدفتردار وقال: مهلا هاتوا لنا شربات وكان هذا القول هو الإشارة مع صالح المذكور وعثمان كاشف وآخر من مماليك سليمان بك ففتحوا باب خزانة كانت بالمكان الجالسين فيه فخرج منها جماعة على رؤوسهم طرابيش وبأيديهم الأسلحة فوقف عند ذلك محمد بك قيطاس على أقدامه مذعورا فأطلق عليه أحدهم طبنجة فى صدره ووقع الضرب وهاج من كان فى المكان وامتلأ المكان بدخان البارود وظلام الليل فلم يعلم القاتل من المقتول وألقى على الترجمان بنفسه من شباك مطل على الجنينة وأصاب عثمان بك ذا الفقار ضربة سيف قطعت شاشه وقاووقه فأخذ بيده صالح صاحب هذه الفتنة وأنزله فنجا بنفسه وركب حصان أحد الطوائف وخرج من باب البركة وأصيب مستحفظان البرلى بجراح عظيمة فحملوه إلى بيته ثم أوقدوا الشموع ونظروا إلى الأموات وإذا هم محمد بك قيطاس وعلى بك تابعه وصالح بك وعثمان بك كتخدا القازدغلى وأحمد كتخدا الخربطلى ويوسف كتخدا البركاوى وخليل افندى وأغات الجملية وعلى صالح جربجى والأسباهى فكانت عدتهم عشرة غير مستحفظان البرلى الذى مات بجراحه بعد ثلاثة أيام فعروا المقتولين من ثيابهم واحتزوا رؤوسهم وأتوا بهم إلى جامع السلطان حسن فوجدوه مغلقا فأحرقوا الباب الذى جهة سوق السلاح ووضعوا الرؤوس العشرة على الدرج ووضعوا عند كل رأس شيئا من التبن ولما شاع الخبر بما جرى سار صالح كاشف رأس هذه الفتنة إلى باكير باشا ليلا من باب الميدان وأعلمه بما جرى فخلع عليه رتبة الإمارة فطلب منه مالا يفرقه على العسكر المجتمعين إليه فوعده بأن يرسل إليه ما طلب فنزل صالح إلى جامع السلطان حسن فوجد محمد كتخدا الداودية وأتباعه وجماعة آخرين فلبث معهم ينتظر المال وصعد عمر جلبى بن على

بك قيطاس بطائفة من قومه إلى باكير باشا يطلب بثأر أبيه وكان وصوله بعد نزول صالح كاشف فخلع عليه الباشا إمارة أبيه قيطاس ورسم له بقتال قاتلى أبيه ومن معهم وكان يود لو أنهم يقطعون بعضهم بعضا فنزل ابن قيطاس وأصحابه وأمامهم بيرق من المحجر خلف جامع المحمودية وبيت الحصرى وزاوية الرفاعى وعملوا متاريس على باب الدرب قبالة باب جامع السلطان حسن وجعلوا يطلقون بنادقهم تباعًا على كل من يمر بهم من الخصوم وعلى من هم بجامع السلطان حسن وكذلك من باب العزب وبيت الأغا.

(مطلب)

عزل باكير باشا وولاية مصطفى باشا أميراخور

أما صالح كاشف رأس هذه الفتنة فإنه لبث ينتظر حصول المال للنفقة على الجند فلم يرسل له الباشا شيئا فخاف وخشى العاقبة ونزل إلى خان الخليلى ومعه رضوان بك وعثمان كاشف ومملوك من مماليك سليمان بك واختفوا وظل ابن قيطاس وأصحابه يوالون الرمى على الجامع حتى انقطعت أصوات بنادق من كانوا به فاقتحم هو وأصحابه باب الجامع فلم يجدوا به أحدا فرجعوا وباتوا ليلتهم خلف المتاريس فلما أصبحوا ذهبوا إلى بيت الدفتردار ونهبوه ونهبوا بيت رضوان بك ودخلوا على سليمان بك فقتلوه واحتزوا رأسه ونهبوا ما فى بيته فلما رأى كبار الوجاقات ما بلغت إليه هذه الفتنة وأنها إنما هى بإيعاز من باكير باشا قاموا على قدم رجل واحد وأحاطوا بالقلعة وأنزلوا باكير باشا ذليلا مقهورا وسجنوه وكتبوا إلى دار السلطنة بما وقع وطلبوا إرسال وال آخر فأرسل السلطان الأمير مصطفى باشا أميراخور لضبط أموال من قتلوا فى هذه الفتنة فلبث شهرين ثم ورد الأمر بولايته فتولاها فكانت مدة تصرف باكير باشا سنة وبضعة أشهر .

(مطلب)

عزل مصطفى باشا وولاية سليمان باشا الشامى المعروف بابن العظم

وجعل مصطفى باشا المذكور يتصرف إلى سنة اثنتين وخمسين ومائة وألف هجرية ثم عزل ولم يقع فى أيامه شىء يذكر وتولاها سليمان باشا الشامى المعروف بابن العظم فلما استقر به المنصب عمد إلى إيقاد نار الفتنة ثانية بين أمراء الوقت

وجعل يدبر لذلك فاستمال إليه عمر بك ابن على بك قطامش واختصه لنفسه ثم كاشفه بما فى ضميره واتفق معه على قتل عثمان بك ذى الفقار وإبراهيم بك قطامش وعبد الله كتخدا القزدغلى وعلى كتخدا الجلفى وهم إذ ذاك أصحاب الرئاسة ووعده إمارة مصر والحاج إن هو أنفذ ذلك فجمع عمر بك أربعة من أخصائه وأطلعهم على ما وقع الاتفاق عليه مع الباشا فتعهد كل واحد بقتل واحد منهم فكان أول من قتل منهم على كتخدا قتله رجل اسمه لاظ إبراهيم عند بيت اتبرى وهو صاعد إلى الديوان وشاع خبر قتله ففرح الباشا بذلك ظنا منه أن قد قضى الأمر فهم بضبط باب العزب وسير لذلك مائتى جندى فمنعهم جند الباب من العبور وطلب متولى الباب اثنين من كبارهم يسألهما عن مرادهم فقالا: إننا أتينا لتشفع لنا عند الباشا فإنه لم يعطنا علائفنا فأرسل معهم من يشفع لهم فلم يفلحوا فى هذه المرة ثم انكشف أمر الباشا وانفضح سره فقام حسين بك الخشاب وصعد إلى باب العزب ومازال بمتوليه حتى أنزله وتولى هو أشغال الباب وجمع إليه جميع أصحابه بالمكان الذى كان فيه الباشا وأرسلوا يقولون له انزل إلى قصر يوسف بك فركب من ساعته وأراد العبور من باب الانكشارية فوجهت أصحاب الباب أفواه البنادق نحوه فعاد ودخل قصر يوسف بك ثم نزل بعد أيام إلى بيت البيرقدار ومازال به حتى سافر إلى الديار الرومية فكانت مدة تصرفه إلى شهر جمادى الأولى سنة ثلاث وخمسين ومائة وألف هجرية وكانت أيامه كلها قلاقل واضطرابات.

(مطلب)

عزل سليمان باشا وولاية على باشا حليم أوغلى

وتولى بعده الوزير على باشا حليم أوغلى وهى الولاية الأولى على مصر فدخل القاهرة فى جمادى الأولى سنة ثلاث وخمسين وأقام إلى عاشر جمادى الأولى سنة أربع وخمسين فكانت أيامه كلها هدأ واطمئنانا والفتن فيها راقدة.

(مطلب)

عزل على باشا وولاية يحيى باشا

ثم جاء الأمر بخلعه فنزل من قلعة الجبل وأقام فى بيت القاردغلى ولبث ينتظر الوالى الجديد. فجاء إلى القاهرة يحيى باشا وصعد إلى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد

وصعد إليه على باشا المخلوع فلاقاه وأكرمه ثم نزل هو كذلك فسلم عليه وسرحه فسافر إلى الديار الرومية وأخذ يحيى باشا يتصرف فى الأمور إلى أن جاءه الأمر بالعزل مستهل رجب سنة ست وخمسين ولم يقع فى أيامه شىء يذكر.

(مطلب)

عزل يحيى باشا وولاية محمد باشا اليدكشى

وتولى بعده محمد باشا اليدكشى فلما استقرت به الولاية لم يأت عملا ما سوى النهى عن تعاطى الدخان فى الشوارع والدكاكين والجلوس على أبواب البيوت وشدد فى ذلك جدّا فكان يطوف الأغا والوالى وهما فى التبديل كل يوم ثلاث مرات وشدّدا فى الإنكار والنكال بمن يفعل ذلك وكان الوالى إذا رأى فى يد أحد أنبوبة الدخان عاقبه وربما أطعمه حجر الأنبوبة الذى يوضع فيه الدخان بالنار وكذلك كان يفعل الأغا ولم يات من أعماله شيئا غير ما ذكر حتى جاءه الأمر بالعزل سنة ثمان وخمسين فكانت مدّة تصرفه نحو سنتين ففرح الناس بخلعه فرحا لا يوصف.

(مطلب)

عزل محمد باشا اليدكشى وولاية محمد راغب باشا

وتولى بعده محمد راغب باشا وحضر إلى الإسكندرية فذهب لملاقاته أصحاب العكاكيز وأرباب الرتب العالية فلما استقرت به الولاية أخذ يدبر الحيلة لقتل من بقى من الأمراء أصحاب الوقت واستمال إليه حسين بك الخشاب واستخلصه ثم كاشفه بما فى نفسه ثم أقسما الأيمان على أن لا يخونا بعضهما وأعلمه أن السلطان محمود إنما يريد قطع دابر بيت القطامشة والدمايطة وهم أصحاب الكلمة يومئذ فأجابه إلى مرغوبه وهون عليه الأمر وأخذ من يومه يدبر الحيلة ويتبين أنفع الوسائل وأحسن الطرق حتى اجتمع بمن يعتمد عليه من أصحابه وأخبرهم بما علمه من الباشا فاتفقوا على قتل كبارهم بالديوان عند صعودهم إليه وتحالفوا على ذلك وأغلظوا فى الأيمان. فلما كان يوم الديوان أخذ الأمراء فى الحضور جماعة بعد جماعة وحضر بينهم خليل بك وعلى بك الدمياطى ومحمد بك وجلسوا فى أماكنهم فبرز شخص اسمه عثمان أغا أغات المتفرقة وجلس بجانب خليل بك وقال: له لماذا لم تدخل

على الباشا وقد مضى عليك أيام ولم تفعل ذلك؟ فقال خليل بك: دعنا فإنا لسنا ممن يهتم بأمره وقد تركناه لك فأظهر عند ذلك عثمان أغا المذكور الغيظ وصاح فى وجه خليل بك وكأنك تهزأ بى وجرد خنجره فى الحال وطعن خليل بك فسقط ميتا لا حراك به وكان بقية المتؤامرين مختفين فلما سمعوا الصياح خرجوا جميعا والسيوف بأيديهم مسلولة فضربوا عمر بك بلاط واحتزوا رأسه ورأس خليل بك فهرب من كان بالمجلس ودخلوا بالرأسين على الباشا وهرب على بك الدمياطى ومحمد بك ونزلا إلى نوبة الجاويشية واختفيا فيها فأرسل الباشا يطلبهما وقال: إن السلطان رسم بذلك فأتوا بهما إليه فأمر بهما فقطعت أعناقهما أيضا وعم خبر ماجرى الآفاق فخاف من بقى من الأمراء وتجرد إبراهيم بك وعمر بك وسليمان بك الألفى للمقاومة فرسم الباشا بقتالهم وأمر العسكر بالتأهب لذلك فاجتمعوا وأخذوا ما لزمهم من آلات الحرب والمدافع والمكاحل وساروا إلى القاهرة ونصبوا بعض مدافعهم على قنطرة سنقر وكان بها بعض أولئك المشاغبين فلم يقووا على القتال مع العسكر وتفرقوا إلى الأقاليم القبلية فدخلت العساكر بيت إبراهيم بك ونهبوه وكذلك نهبوا بيت خليل بك وذهبوا إلى بيت على بك فوجدوا فيه صنجقا قد احتله وامتلكه بما فيه فلم يتعرضوا له وكذلك لم يتعرضوا ليوسف بك ناظر الجامع الأزهر بسوء.

ولم تكد تجف دماء الذين قتلوا بالديوان حتى طلب الباشا من حسين بك الخشاب أن يعمل على قتل إبراهيم جاويش القازدغلى ورضوان كتخدا الجلفى وأطمعه فى ولاية الأمر والانفراد بالكلمة فتعهد له بذلك وقام لساعته يدبر أمره مع أصحابه الذين عليهم معتمده فاتضح أمره وانكشف سره وعلم إبراهيم جاويش ورضوان كتخدا بالمكيدة فقاما وقامت معهما الجند والعسكر وامتلأ باب الإنكشارية وباب العزب بطوائف الجند واجتمع أمراء العسكر كافة بسبيل المؤمن والأسباهية بالرميلة وأرسلوا يطلبون من الباشا مرسوما بالركوب على بيت حسين بك الخشاب وقتله فلم يرض وامتنع فبعثوا له طائفة من كبار العسكر يطلبون ذلك فإن أبى أنزلوه من القلعة فامتنع فأنزلوه هو وجميع عياله وأتباعه من قراميدان إلى أن صار بالرميلة فأراد أن ينزل على شيخون إلى بيت حسين بك الخشاب وإذا بالعزب المرابطين فى جامع السلطان حسن أطلقوا عليه البنادق لرده فقتل أحد اتباعه فنزل على بيت آق بردى إلى بيت ذى عرجان تجاه المظفر فأرسلوا إليه إبراهيم بك بلقية صحبة كتخدا

الجاويشية فلم ير بدا من أن يوليه النيابة وعاد إبراهيم بك إلى بيته فأخذوا منه مرسوما بجر المدافع إلى ناحية الصليبية وسار أمراء الجند يتقدمهم عمر بك أمير الحاج وآخرون أمثاله واحتاطوا ببيت حسين بك الخشاب وبيت محمد بك أباظة من الجهات الأربع فحاربهم من داخل البيت من الصباح إلى الظهر وكان فى أثناء المناوشة يخرج أمتعته وأمواله وأثقاله وهم لا يشعرون فلما لم يبق فى البيت شىء خرج بمن معه من أصحابه وأتباعه إلى ناحية زين العابدين وسار إلى الإقليم القبلى وكذلك هرب عمر بك ابن على بك فى طائفة من أصحابه إلى أرض الحجاز ودخل العسكر بيت حسين بك الخشاب بعد انقطاع أصوات البنادق والمدافع فلم يجدوا فيه شيئا وكان ذلك فى أواخر سنة إحدى وستين ومائة وألف فعاد كل إلى مقره وسكنت الفتنة قليلا وجعل إبراهيم بك بلفية يتصرف ومحمد راغب باشا محجور عليه إلى أن سافر إلى الديار الرومية فكانت مدّة ولايته سنتين ونصفا .

(مطلب)

ولاية أحمد باشا كوروزير

وجاء الخبر بولاية الوزير أحمد باشا المشهور بكوروزير ووصل إلى الإسكندرية فنزل إليه الملاقون وأرباب العكاكيز وأصحاب الخدم فدخل القاهرة وصعد إلى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد فى غرة المحرم افتتاح سنة اثنتين وستين ومائة وألف وعمل الديوان وخلع الخلع على الأمراء والأعيان والمشايخ ولكنه لم يتمكن من التصرف إذ كان مغلوبا على أمره والكلمة يومئذ لإبراهيم بك جاويش ورضوان كتخدا وهما صاحبا العقد والحل فأقام فى المنصب إلى عاشر شوّال سنة ثلاث وستين ومائة وألف .

(مطلب)

عزل أحمد باشا وولاية عبد الله باشا

وجاء الخبر بعزله وولاية عبد الله باشا فكانت مدة تصرفه سنة وعشرة أشهر وكان عالما مدققا فاضلا كريما محبا للعلم والعلماء مقربا إليهم وكانت أيامه هادئة

مطمئنة لم يقع فيها شيء من الحوادث والفتن. قال بعض الكتاب : وكان مولعا بالرياضيات وعمل عدة منحرفات على ألواح كبيرة من الرخام صناعة وحفراً وعمل له تاريخا منظوما نقشه عليها وهو:

مزولة متقنة — نظيرها لا يوجد
راسمها حاسبها — هذا الوزير الأمجد
تاريخها أتقنها — وزير مصر أحمد
٥٥٧ — ٢٢٣ ٣٣٠ ٥٣
سنة ١١٦٣

ونصب من هذه المنحرفات واحدة بالجامع الأزهر فى ركن الصحن على يسار الداخل بالركن فوق رواق معمر وهى لفضل دائر العصر وأخرى بسطح جامع الإمام الشافعى وفيها خيط مساترة وفضل دائرة وقسى عصر وفضل دائر الغروب وأخرى بمشهد السادات الوفائية وهى بشاخص للظهر والعصر أهـ.

(مطلب)

عزل عبد الله باشا وولاية محمد أمين باشا

وحضر الشريف عبدالله إلى الإسكندرية ونزل أحمد باشا من قلعة الجبل إلى بيت البيرقدار وسافر الملاقون إلى عبدالله باشا فدخل القاهرة فى رمضان سنة أربع وستين فأقام إلى سنة ست وستين. ثم عزل عنها ولم يقع فى أيامه شيئ من الحوادث والفتن وولى حلب فنزل إلى القصر بقبة العزب وهاداه الأمراء وسار إلى حلب فتولى بعده محمد أمين باشا فكانت ولايته سنة وبضعة أشهر لا شئ فيها من الحوادث أو الإحن ودخل محمد باشا المذكور القاهرة وصعد إلى قلعة الجبل وهو مريض فلبث شهرين على فراش الأوجاع ومات فى خامس شهر شوال سنة ست وستين ومائة وألف ودفن بجوار قبة الإمام الشافعى فبقيت مصر بلا وال سنة وخمسة أشهر والكلمة يومئذ لإبراهيم بك ورضوان بك، وفى خلال هذه الحوادث حضر إلى القاهرة من دار السلطنة بطرك الروم ومعه مرسوم سلطانى بمنع نصارى الشوام من الدخول إلى كنائس الفرنجة فإذا دخلها أحدهم عوقبوا جميعا بدفع غرامة قدرها ألف كيس لخزينة السلطنة واستفاض الخبر بذلك بين الشوام ثم أعقب ذلك أن سير إبراهيم كتخدا فى طلب أربعة من قسيسى الفرنجة فجاءوا بهم فحبسهم وأخذ منهم مالا كثيرا ومع ذلك لم تتكف الشوام عن الدخول إلى كنائس الفرنجة فانكشف

الغطاء وبرح الخفاء عن أنها حيلة من بنات أفكار إبراهيم بك لحصوله على المال من قسيسى الفرنجة. واتفق عقب هذا الحادث بقليل أن قصد القبط بمصر الحج إلى بيت المقدس وكان عظيمهم يومئذ المعلم نيروز كاتب رضوان كتخدا فكلم الشيخ عبدالله الشبراوى فى ذلك وقدم له هدية سنية وألف دينار فكتب له فتوى وجوابا يتضمن أن أهل الذمة لا يمنعون من القيام بشعائرهم الدينية وزياراتهم فشرعوا فى قضاء أشغالهم ثم خرجوا فى هيئة وأحمال ومواهى وتختروانات فيها النساء والأولاد ونصبوا خيامهم عند قبة العزب وأحضروا العربان ليسيروا فى خفارتهم وشاع أمر خروجهم بعد أيام فاستعظم المسلمون ذلك وأنكروه واتفق ذهاب الشيخ عبدالله الشبراوى إلى حيث الشيخ البكرى: لزيارة أخى البكرى حيث كان مريضا فلما استقر به المكان قال له البكرى متهكما: ما هذا الحال يا شيخ الإسلام كيف ترضى وتفتى النصارى وتأذن لهم بهذه الفعال هل كان ذلك لأنهم أرشوك وهادوك؟ فقال: إن ذلك لم يكن. قال: بل أرشوك بألف دينار وهدية وعلى ذلك تصير لهم سنة ويخرجون فى العام القابل بأزيد من هذا ويصنعون لهم محملا. ويقال حج النصارى وحج المسلمين وتصير سنة عليك وزرها إلى يوم القيامة قال صاحب عجائب الآثار: فقام الشيخ الشبراوى وخرج من عند البكرى وهو مغتاظ وأذن للعامة فى الخروج عليهم ونهب ما معهم وخرج عليهم كذلك طائفة من مجاورى الأزهر فاجتمعوا عليهم ورجموهم وضربوهم بالعصى والمساوق ونهبوا ما معهم ونهبوا أيضا الكنيسة القريبة من دمرداش. قلت: وهى كنيسة رويس. قال: وانعكس النصارى فى هذه الحادثة عكسة بليغة وراحت عليهم وذهب ما صرفوه وأنفقوه فى الهباء انتهى قوله.

(مطلب)

ولاية مصطفى باشا

وتولى بعد محمد باشا أمين الذى مات كما تقدم القول مصطفى باشا فدخل القاهرة وصعد إلى قلعة الجبل ثالث عشر ربيع الأول سنة سبع وستين ومائة وألف هجرية واستمر على الولاية إلى أن جاء الأمر بالعزل كما سيذكر فى محله.

ورأى السلطان محمود بعد تقرير الصلح مع خصومه شرقا وغربا أن لابد من قيام الروس يوما على دولة السويد وابتلاعها مضغة لينة ثم لا يمنعها بعيد ذلك مانع من شن الغارة على بلاده وأخذ كل ما يمكن أخذه منها فجعل يتدبر الأمر فحسن

له سفير الفرنسيس بدارالسلطنة يومئذ تعضيد دولة السويد وعقد محالفة دفاع وهجوم معها ضد الروس وكشف له عما فى ذلك من الفائدة للدولة وكبح جماح الروس ورد كيدهم فوافق السلطان على ذلك وعقد محالفة مع السويد فكانت حدا فاصلا بين الروس وبين مطامعهم السياسية وهدأت الأحوال وسكنت الخواطر وتفرغ رجال الدولة للإصلاح داخلا وخارجا ودبر الصدر الأعظم أمور الدولة فأحسن التدبير وأمضى الأحكام وأزال بعض الخلل وما زال الحال فى هدو وسكون حتى مات السلطان فى يوم الجمعة السابع والعشرين من صفر سنة ثمان وستين ومائة وألف هجرية أى سنة أربع وخمسين وسبعمائة وألف ميلادية فكانت سلطنته نحو خمس وعشرين سنة. قال بعض أصحاب التاريخ: وهو آخر ملوك بنى عثمان فى حسن السيرة والشهامة والحرمة واستقامة الأمور والمآثر الحسنة وله كثير من المزايا التى خلدت فى بطون التواريخ. وخلفه على سرير الملك السلطان عثمان الثالث ابن السلطان أحمد خان.

ومات فى سلطنته يوحنا بطرك الإسكندرية بعد أن أقام اثنتين وأربعين سنة وكان ورعا تقيا عالما فاضلا مسموع الكلمة وهو من بلدة طوخ وكانت أكثر أيامه شدائد وخطوبا متراكمة بعضها فوق بعض كادت بسببها تتعطل شعائر الدين لولا لطف الله فأقيم بعد موته بطرس وهو الرابع بعد المائة واسمه مرجان من رهبان دير انبابولا فأقام سبع سنين ومات ولم يقع فى أيامه من الحوادث شىء يذكر فأقيم بعده يوحنا وهو الخامس بعد المائة واسمه عبدالسيد من رهبان انبابولا ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله.

* * *

(الفصل الثامن عشر)

(فى سلطنة السلطان عثمان الثالث

ابن السلطان أحمد خان)

ثم قام بالأمر بعد السلطان محمود السلطان عثمان الثالث ابن السلطان أحمد وقيل ابن مصطفى بويع بالملك فى اليوم الذى مات فيه السلطان محمود فى السابع والعشرين من صفر سنة ثمان وستين ومائة وألف هجرية أى سنة أربع وخمسين

وسبعمائة وألف ميلادية، وجاءت بذلك الأخبار إلى مصر فدقت البشائر ودخل الأمراء والعلماء والمشايخ على مصطفى باشا الوالى يهنئونه .

(مطلب)

عزل مصطفى باشا وولاية على باشا حكيم أوغلى

ثم ورد بعد أيام إلى مصطفى باشا فرمان التثبيت فبقى يتصرف فى الأمور إلى أن جاءه الأمر بالعزل فى أوائل ربيع الأول سنة تسع وستين ومائة وألف فكانت مدة تصرفه سنتين إلا أياما ولم يقع فيها من الحوادث شئ يذكر وتولى بعده على باشا حكيم أوغلى الولاية الثانية وقدم إلى الإسكندرية فنزل إليه الملاقون وأرباب المناصب ثم دخل القاهرة فى يوم الاثنين غرة جمادى الأولى من السنة وجعل يتصرف فسار فى الرعية سيرة حنسة ودبر أمورهم أحسن تدبير وأسكن الفتن وطمن القلوب فلم يقع فى أيامه شئ من الخطوب والمحن واستمر على الولاية معززا محبوبا من الرعية وكان قريب الاعتقاد بالخرافات ميالا إلى الزايرجات وأصحابها وكان له تعلق بالشيخ على بن تاج الدين محمد بن الحسن بن محمد بن سالم القلعى الحنفى المكى لغزارة معرفته بهذه العلوم وكان أول اجتماعه به فى الديار الرومية قيل إنه أخبر على باشا بأمور فوقعت كما قال فازداد عنده مهابة وأنزله فى منزل بالقرب من جامع أزبك بخط الصليبة وصار يركب فى موكب حافل مثل موكب الوزير وكان فيه الكرم المفرط والمروءة وسعة الصدر فى إجازة الوافدين مالاً وشعراً ومدحه شعراء عصره بمدائح جليلة جدا وكان على باشا لا يفارقه قيل ولا يعمل عملاً إلا بإشارة منه فله كثير من المزايا ومع ذلك فقد كان حسن التدبير موفقاً محبوباً من الرعية.

وسار السلطان عثمان فى الرعية سيرة رديئة للغاية وكثر تحجبه عن الناس وتجسسه على أحوال الرعية فكان كثير الأخذ بالشبهات ظلوماً غشوماً عسوفاً فظاً غليظًا سفاكا للدماء قيل إنه قتل فى أيام سلطنته ستة وزراء فثقلت أيامه على الرعية وأبغضوه بغضاً كبيراً وابتهلوا إلى الله تعالى وعجوا إليه وظل على هذا الحال من الجور والعسف إلى أن مرض واشتدت به علته فمات وجاء الخبر إلى القاهرة خامس عشرى صفر سنة إحدى وسبعين ومائة وألف هجرية أى نحو سنة سبع وخمسين وسبعمائة وألف ميلادية فكانت مدة سلطنته أربع سنوات غير كوامل فخلفه فى الملك السلطان مصطفى الثالث.

(الفصل التاسع عشر)

(فى سلطنة السلطان مصطفى الثالث

ابن السلطان أحمد)

ثم قام بالأمر بعد السلطان عثمان السلطان مصطفى الثالث ابن السلطان أحمد بويع بالملك يوم موت السلطان عثمان خامس عشرى صفر سنة إحدى وسبعين ومائة وألف هجرية أى سنة سبع وخمسين وسبعمائة وألف ميلادية فاستقرت به الخلافة وكان المتولى الصدارة العظمى الوزير محمد راغب باشا فأقره على منصبه وسلم إليه مقاليد جميع الأمور واعتمد عليه فى تدبير مهام الدولة فأحسن التدبير وأحكم السياسة وكان عالماً عاقلاً رزينا كيسا حازما محبا لنجاح الأمة فبالغ فى إصلاح الأحوال الداخلية وأحدث كثيرا من النظامات المألوفة ورتب الأمور على ما فيه المصلحة فزهت أيامه وسعدت ثم مات فتبدلت بعد موته الأحوال وتغير مجرى الحوادث وتحركت دولة الروس إلى نكث العهود وتجردت إلى الشر وطلبت كاترينة الثانية قيصرة الروس يومئذ التداخل فى شئون مملكة بولونيا فأقامت ستاسلاس بونياتوسكى ملكا على بولونيا بدل ملكها الذى مات خلافا للعهد المتفق عليه بين الروسية والعثمانية. قال أصحاب التاريخ : وقد قصدت كاترينة بذلك العمل بما أوصى به بطرس الأكبر من إزالة الموانع الثلاثة الحائلة بين أملاك الروس وأروبا الغربية وهذه الموانع هى مملكة السويد ومملكة بولونيا والمملكة العثمانية. قالوا وقد تمت إزالة المانع الأول منها بوضع يد الروس على جميع الإيالات السويدية وكاد يتم لها زوال الثانى بتولية ستانسلاس عشيق كاترينة ملكا على بولونيا فلم يبق منها سوى الدولة العثمانية فتنبهت الدولة لذلك وحضت خان القرم على قتال الروس فزحف بخيله ورجله وقاتلهم وانتصر عليهم عدة نصرات وخرب الكثير من أملاكهم وسار البرنس جالتسين بعساكر الروس إلى مدينة شوكزيم فحاصرها وضيق عليها فسير السلطان الصدر الأعظم محمد باشا البرشنجى لنجدتها فى عسكر عظيم فلم يفلح فاستعظم السلطان هذا الأمر وأكبره وسير إلى الصدر المذكور من قتله وأتى برأسه إلى القسطنطينية وانهزمت العساكر السلطانية مرة ثانية عند نهر دينستر بسبب فيضان النهر المذكور عند عبور العساكر السلطانية له فأعمل فيهم الروس القتل والتفريق وتمكن البرنس جالتسين من الدخول إلى شوكزيم واحتل إيالتى الفلاخ والبغدان.

وكانت المراكب السلطانية فى هذه الأثناء تتجول فى عرض البحار فلاقتها مراكب الروس فى المضيق الواقع ما بين جزيرة ساقص وساحل آسية فاقتتلوا قتالا عنيفا للغاية ثم افترقوا ودخلت المراكب السلطانية مينا جشمه فتبعهم حراقتان من مراكب الروس والتحما بالمراكب السلطانية وألقيا عليها النيران فاشتعل ما بها من البارود واحترقت جميعها فكان المنظر مريعا للغاية والخطب عظيم جدا وطال الأخذ والرد بين الدولتين وطالت أيام الحرب والقتال برا وبحرا ثم تخابر الفريقان فى أمر الصلح فشطت الروسية فى الطلب واشترطت على الدولة شروطا مهينة مزرية فأبت الدولة إجابتها إلى ذلك وعاد الفريقان إلى ما كانا عليه من الحرب والقتال فخرجت من يد الدولة مدينة بندر وعدة من جزائر الأرخبيل ودست الروس إلى اليونان والأرنؤد فثارا وأشهرا الحرب وخرجا عن طاعة السلطان ونهض أيضا على بك الكبير أحد أصحاب الكلمة بديار مصر يريد الاستقلال بملك مصر والخروج عن طاعة السلطان وقام أيضا أحد مشايخ عربان الشام المسمى ظاهر العمر وتملك بعض مدن الشام وأخذ يتصرف فى أمورها تصرف المالك المطلق حتى اختل نظام المملكة وسقطت كلمة السلطان وذهبت هيبته أو كادت واستخف به على بك واستصغر شأنه وهمّ بالخروج وشق عصا الطاعة وجعل يتأهب لذلك. وبينما هو على هذا الحال من التأهب والاستعداد إذ ظهر الطاعون بمصر والقاهرة وكان ظهوره عقب أن أمطرت السماء مطرا غزيرا جدا سالت منه السيول وامتلأت الأودية واشتد الطاعون شدة بالغة فكثر الموات وصارت الموتى تلقى فى الطرق والحارات لكثرتها وعدم وجود من يدفنها وكثرت الجيف واجتمعت حولها الكلاب تنهشها وطالت أيام الوباء فسمته العامة (قارب شيحة الذى يأخذ المليح والمليحة)واهتم الأمراء عند ذلك بدفن الموتى وأعملوا الجهد حتى خف الموت فى أواخر رمضان من السنة ولكنه لم يرتفع تماما إلا فى أوائل سنة اثنتين وسبعين.

(مطلب)

عزل على باشا حكيم أوغلى وولاية محمد باشا سعيد

وجاءت الأخبار عقب ذلك بعزل على باشا حكيم أوغلى وتولية محمد باشا سعيد فدخل القاهرة فى أواخر رجب سنة إحدى وسبعين وصعد إلى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد فلم يكن لقدومه رونق ولا بهجة بأسباب الطاعون واشتغال الناس بدفن موتاهم ولم يكن لولايته أثر يذكر عند على بك الكبير إذ كانت الكلمة

والرياسة يومئذ له لا سيما بعد موت حسين بك القزداغلى على ما تقدم لك بيانه وكان لما أن بسط يده على جميع الأمور وقبض على زمام الأحكام ودانت له الرغائب استقدم أصحابه الذين كانوا مبعدين وولاهم المناصب العالية فاتسعت من ذلك الحين كلمته وبعدت شهرته ولكنه كان فى شاغل من جانب عبدالرحمن بك كتخدا المتولى مشيخة البلد فكان لا ينكف عن إعمال الحيلة فى قتله ولا تفتر له همة حتى اتفق مع بعض أعوانه على أن يقتلوه بعد قيامه هو بركب الحاج إلى المدينة وأن يولوا بعد قتله على مشيخة البلد خليل بك الدفتردار ويبقى الأمر مكتوما بينهم حتى قام بركب الحاج فجعل أصحابه يعملون على قتل عبد الرحمن بك فأحس عبد الرحمن بك بالمكيدة واستكشف السر وعلم بخفى أمرهم فأسرع هو إلى عمل الحيلة والتدبير فى تبعيدهم وأغرى بهم على بك بلاط فتمكن من تبعيد خليل جاويش المعروف بحيضان مصلى وأحمد جاويش إلى الأقطار الحجازية وحسن كتخدا الشعراوى وسليمان بك الشابورى إلى فارسكور فتمزق جمعهم وتفرقت كلمتهم. فلما نزل على بك بالعقبة وهو راجع بالحاج علم بما جرى لأصحابه فكتمه وأمر الجند بعمل بعض الأشكال الحربية ليوهم الناس أن الذى جاءه من القاهرة أخبره بخبر يسره ثم سار بركب الحاج إلى قلعة نخل فانحاز إلى القلعة وسلم الحاج والمحمل إلى بعض أمرائه وركب فى خاصته وسار إلى غزة ولبث بها زهاء ثلاثة أشهر وكاتب دار السلطنة ووشى لها فى حق الكثير من الأمراء بالديار المصرية وبالغ فى الوقيعة بهم فجعل رجال الدولة يوعدونه ويعللون منه الآمال بنيل أغراضه ومازالوا حتى استصفوا ما معه من مال ومتاع ولم يتم له أمر فعاد إلى القاهرة بوساطة صهره فلما دخل القاهرة لم يقم بها سوى ثمانية أيام ومات كمدا وقيل بل أطعمه بعض أصحابه سما فاطمأنت القلوب بموته فقد كان داهية قرما عنيدا كثيرا الصبر عظيم الجلد .

(مطلب)

عزل محمد باشا وولاية مصطفى باشا
الصدر الأعظم وعزله أيضًا وولاية أحمد باشا سبيلان

وجاءت الأخبار من دار السلطنة بعزل محمد باشا عن الولاية وتعيين مصطفى باشا الصدر الأعظم بدله فدخل القاهرة فى أواخر السنة وأقام يتصرف فى الأمور إلى سنة أربع وسبعين ومائة وألف هجرية ثم نزل إلى القبة متوجها إلى جدة ليقيم بها

ولم يقع فى أيامه شىء يذكر وحضر بدله أحمد باشا كامل المعروف ببيلان ودخل القاهرة فى أواخر سنة أربع وسبعين فلما استقرت به الولاية صار يشدد فى الأحكام وينزل فى كل يوم لمعرفة أخبار الناس وأحوالهم ويكشف على أرزاق الأمراء ومصادر أموال الخزينة السلطانية وغير ذلك وكان شهما شديد العناد فخافه الأمراء وخشوا عاقبة أعماله فاجتمعوا وتشاوروا فى أمره فاتحدت كلمتهم على خلعه وصاروا يراقبون الفرص حتى دبروا أمرهم وركبوا عليه يوما فخلعوه وكان مصطفى باشا الوالى المعزول لم يزل بالقاهرة يتأهب للسفر إلى جدة فساروا إليه وأصعدوه إلى قلعة الجبل وسلموه زمام الأمور وشكوا إلى دار السلطنة ما وقع وسيروا بشكواهم الشيخ عبدالباسط السنديونى.

(مطلب)

عزل أحمد باشا كامل وولاية بكير باشا
وموته وولاية حسن باشا

فلما وصلت شكواهم إلى صدر الدولة وهو يومئذ محمد راغب باشا سير أحمد باشا المذكور إلى ولاية كاندية وسير مصطفى باشا إلى ولاية حلب ووجه بكير باشا والى حلب واليا على مصر فحضر إلى القاهرة وصعد إلى قلعة الجبل فلم يتصرف إلا زهاء شهرين ومات مبطونا سنة خمس وسبعين ومائة وألف ودفن بالقرافة فجاءت الأخبار بولاية حسن باشا وقدم إلى القاهرة فى أواخر سنة ست وسبعين فكان محجورا عليه لا كلمة له والأمر يومئذ لعلى بيك بلاط فإنه بعد موت على بيك الكبير وتشريد كبار عصابته كما سبق ظهر شأن على بيك بلاط وارتفعت كلمته فجمع أصحابه وأعطاهم المناصب العالية وسلمهم زمام الأمور كغيره من الأمراء الذين تقبل عليهم الرياسة مسرعة وشاع ذكره ونما صيته فلما رأى عبدالرحمن بيك كتخدا الذى هو ابن أستاذ على بيك بلاط ما ناله على بيك من الشهرة ورفعة القدر انطوى على ممالأته ومال إلى مصادقته ليقوى به على أرباب الرياسة وكل منهما يريد تمام الأمر لنفسه وجعل على بيك من هذا الحين يمهد الأمور ويذلل العقبات ثم استكثر من شراء المماليك وبدأ فى مصادرة الناس وأعمل الحيلة على أخذ الأموال من أصحاب البيوتات والأعيان لأقل سبب. وكان يخشى جانب بعض من بيدهم الرياسة مثل عبد الرحمن كتخدا ابن أستاذه وعلى كتخدا الخربطلى وعمر جاويش الداورية ورضوان جربجى الرزاز وغيرهم فلما استتب قدمه فى المنصب

وتمكن وقوى جأشه ركب يوما فى مماليكه وأتباعه وهجم بهم على أبواب القلعة وأجلوا عنها من كانوا بها من أصحاب وأتباع من ذكروا فامتلكوها واحتل قومه بها فخاف الأمراء عند ذلك وانكمشوا فلم يمكنهم من عمل شىء وقبض فى الحال على عبد الرحمن كتخدا وأبعده إلى الأقطار الحجازية وأبعد باقيهم جميعا إلى الأقاليم البحرية فأخاف الناس خروج عبدالرحمن بيك كتخدا إلى منفاه فإنه كان ذا هيبة ووقار وحرمة كبيرة وقد ارتفعت به كلمة الإنكشارية وظهروا على طائفة العزب وكان له عز وأبهة ومماليك وأتباع وجند وغير ذلك من الأخلاط حتى ظن الناس وقوع فتنة عظيمة فى ذلك اليوم فلم يحصل شىء من ذلك سوى ما نزل بالناس من الدهشة والتعجب وأبعد بعد ذلك صالح بيك إلى مدينة غزة فلم يقم بها إلا أياما حتى أرسل إليه بعض الجنود فحملته من غزة إلى رشيد فبقى فيها ثم رتب له ما ينفقه بحسب الحاجة فلبث برشيد مدة فلما جاء الخبر بعزل حسن باشا الوالى وتعيين حمزة باشا بدله أرسل على بيك جماعة من أتباعه ليحملوا صالح بيك المذكور من رشيد إلى دمياط كى لا يجتمع بحمزة باشا إذا حضر إلى رشيد فوصلت إلى صالح بيك الأخبار بقيام أولئك الأتباع فأسرع وركب فى نفر قليل وأسرى ليلا إلى جهة البحيرة فأقام بها ما شاء الله ثم ذهب من خلف جبل الفيوم إلى الأقاليم القبلية فوصل إلى منية ابن خصيب فأقام بها واجتمع عليه خلق كثير ممن شردهم على بيك بلاط فابتنى له أبنية وعمل متاريس ومحال للدفاع وكان له معرفة وصداقة مع شيخ عربان تلك النواحى وطوائف الهوارة وسكان أكثر البلاد الجارية فى أقطاعاته فاجتمع عليه الكثير منهم وقدموا إليه التقادم والذخيرة وما يحتاج إليه وترس فى منية ابن خصيب وهو آمن مما يخشى فلم يجسر على بيك على قتاله ولم يناوشه الحرب خوفا من اتساع الخرق واستفحال الخطب .

(مطلب)

عزل حسن باشا وولاية حمزة باشا

ودخل حمزة باشا الوالى الجديد القاهرة فى أخريات سنة تسع وسبعين ومائة وألف هجرية وصعد إلى قلعة الجبل فنزل حسين باشا قاصدا السفر فكانت ولاية حسين باشا المذكور نحو ثلاث سنين. ولما استقر بحمزة باشا المنصب وأخذ يتصرف فى الأمور بقدر الاستطاعة شكوا إليه أمر صالح بيك وترسه فى منية ابن خصيب وإضراره بالناس ومنعه لورود الغلال وأموال الخزينة السلطانية وبالغوا فى الشكوى

وعظموا فى البلوى فرسم بقتاله فبعثوا له طائفة من الجنود مع أحد الأمراء المدعو حسين بيك كشكش وولوه أيضا الإمارة على إقليم جرجا وسافر معه عدة أمراء أخر فلما التقى الجمعان اقتتلا قتالا شديدا فانهزم صالح بك وهرب إلى شرقى أولاد يحيى فأقام حسين بيك كشكش بالمنية أياما يتأهب للمسير إلى جرجا مركز إمارته فبينما هو على أهبة الرحيل إذ ورد عليه مرسوم من على بيك بلاط بالتبعيد إلى جهة قد عينها له فكاد حسين بيك يتميز غيظا وركب من فوره فى مماليكه وأتباعه وأمرائه وحضر إلى القاهرة فوصلها ليلا فوجد الباب الموصل إلى قناطر السباع مغلقا فطرقه فلم يفتحوا له فكسره ودخل بمن معه وذهب إلى بيته وبقى الأمر بينه وبين على بيك بلاط على المسالمة أياما. واتفق لحظ على بيك بلاط أن حسين بيك المذكور طلب فى غضون هذه الأيام من عبدالله الحكيم طبيب الأمراء أن يصنع له معجونا صالحا للباه فأخبر الطبيب بذلك على بيك بلاط فأمره بأن يدس له فيه سما ففعل وذهب به إلى حسين بيك وبالغ له فى فوائده فقال له: لا بأس به ولكنى أحب أن تأكل أنت منه أولا فتلجلج الطبيب واضطرب فأمر به حسين بك فقتلوه بين يديه وعلم أنها من عزيمة على بيك بلاط فتأكدت بينهما الوحشة وأضمر كل منهما لصاحبه السوء وتوافق على بيك مع أصحابه على الغدر بحسين بيك أو إخراجه فوافقوه ظاهرا واشتغل حسين بيك أيضا بإخراج على بيك أو الغدر به وجمع إلى كلمته كثيرا من قومه فلما كان ذات يوم ركب وركبوا ومعهم المدافع والبنادق وساروا إلى بيت على بيك فصوّبوا أفواه المدافع نحوه، فأرسل على بيك لأصحابه يستنجدهم فلم يأته أحد وخذلوه فشق عليه الأمر واستعظمه جدا وأرسل إلى أصحاب حسين بيك يسألهم عن مرادهم فحضر إليه منهم من يأمره بالركوب والخروج من الديار حالا فقام لساعته وركب وخرج من بيته فسلموه إلى من يوصله إلى منفاه بالديار الشامية ومعه مماليكه وأتباعه وكان ذلك فى أواخر رمضان سنة تسع وسبعين فأنزلوه بالعادلية ثلاثة أيام حتى حاسبوه وحاسبوا أتباعه على ما هو عليهم وهم محاطون بالجند والسلاح والمدافع حتى فرغوا واستخلصوا ما بقى وسافروا إلى غزة، وكانت العادة فيمن ينفى من الأمراء بديار مصر أنه إذا خرج من الديار لم يخلوا سبيله حتى يستصفوا ما عليه وسار صحبة على بيك المذكور جميع أصحابه وكبار قومه وعزلوا من لم يسافر منهم من منصبه. وما كادت تستقر الأمور وتسكن الفتنة حتى جاء الخبر برجوع صالح بيك من شرق أولاد يحيى إلى منية ابن خصيب واستقراره فيها وتحصينها فجيشوا لقتاله جيشا عظيما فبرز بعضه إلى جهة البساتين وبينما هم على هذا الحال من

تجييش الجيوش وإعداد آلات الحرب والاشتغال بأمر القتال مع صالح بيك إذ رجع على بيك بلاط وأصحابه من غزة فلم يشعر أحد برجوعهم ودخلوا القاهرة ليلا ونزل على بيك ببيت حسين بيك كشكش ونزل باقى من كانوا معه فى بيوت أخر فلما علم حسين بيك بقدومه على هذه الصورة جمع إليه أصحابه بجهة الآثار المعروفة بأثر النبى وشاورهم فى الأمر فاختلفت كلمتهم وتباينت أغراضهم فمنهم من أشار بتبعيده إلى جدة ومن أشار بقتله ومن أشار بغير ذلك ثم عادوا فاتحدوا على أن يرسلوه إلى جدة وأرسلوا إليه من يلزمه بالخروج والسفر فقال لا أخرج أبدا من بيت سيدى إلا إذا كان إلى الجهة البحرية فرضوا بذلك واتفقوا على أن يعطوه النوسات أقطاعا وأن يذهب إليها فرضى وذهب إلى النوسات وأقام بها وأرسلوا أصحابه والذين كانوا معه إلى أسيوط وجهاتها وكان بها خليل بيك الأسيوطى فتعرفوا به وتقربوا إليه وصادقوه فأعانهم ومدّ لهم يد المساعدة فتيسرت أمورهم وراجت أحوالهم ولبثوا هناك ما شاء الله .

وعاد حسين بيك بعد تبعيد على بيك وأصحابه إلى تدبير أمر الجيش وإرساله لقتال صالح بيك كما تقدم القول فسار إلى منية ابن خصيب والتقى الجمعان واقتتلا فانهزمت العساكر وانفشلت فأرسلوا له جيشا آخر وأميره حسن بيك جوجو وكان حسن بيك المذكور ميالا فى الباطن إلى خذلة حسين بيك وأصحابه فلم يقاتل إلا بالأمر الخفيف ورجع بالعسكر كأنه مهزوم مذعور فأرسلوا جيشا آخر فكانت الحرب بينهم سجالا ثم رجعوا فلم يروا بدا من مصالحة صالح بيك فخابروه فى الصلح واستقرت القاعدة بينهم على أنه يذهب بمن معه إلى جرجا فتكون له التزاما ويقيم بها بشرط أن يدفع الأموال ويرسل الغلال فى حينها ويقوم بجميع المطاليب وكان ذلك فى شهر جمادى الأولى سنة ثمانين ومائة وألف. أما على بيك بلاط فإنه لم يمض عليه بالنوسات إلا القليل من الأيام حتى تخيلوا أن حسن بيك الأزبكاوى يراسله ويطلعه على عوراتهم فقاموا عليه فى ثانى شعبان من السنة وقتلوه بقصر العينى ورسموا بنفى أصحابه إلى الأقاليم البحرية وخشوا عاقبة بقاء على بيك بلاط بالنوسات فأرسلوا إليه خليل بك المعروف بالسكران فحمله إلى مدينة السويس ليسيره إلى جدة من القلزم وأنزله بإحدى السفن وسلمه إلى ربانها فكانت الريح غير صالحة فبقيت السفينة تنتظر اعتدال الريح فرجع خليل بك إلى القاهرة .

وجاءت أيام عيد الإفطار فركب الأمراء فى ثانى يوم شوال إلى قراميدان ليهنئوا حمزة باشا بالعيد وكان معتاد الرسوم فى مثل هذه الأعياد والمواسم أن كبار الأمراء

يركبون بعد الفجر من يوم العيد وكذلك أرباب العكاكيز فيصعدون إلى قلعة الجبل ويسيرون أمام الباشا على الأقدام من باب السراى إلى جامع الناصر بن قلاوون فيصلون صلاة العيد ويرجعون كذلك ثم يقبلون طرف ثيابه وينزلون إلى بيوتهم فيهنئ بعضهم بعضا على رسمهم واصطلاحهم وينزل الباشا ثانى يوم إلى كشك بقراميدان وقد هيئت مجالسه بالفرش والمساند والستور والطنافس واستعد فراشو الباشا بالقهوة وأطباق الحلوى والقماقم والمباخر ورتبوا جميع الاحتياجات واللوازم من الليل واصطفت الخدم والجاويشية والسعاة والملازمون وجلس الباشا بذلك الكشك وحضرت أرباب العكاكيز والخدم قبل كل أحد ثم يأتى الدفتردار وأمير الحاج والأمراء والصناجق والاختيارية وكتخدا الإنكشارية والعزب أصحاب الوقت والمقادم والأودة باشية والجربجية ويعيدون عليه بالترتيب على قدر مراتبهم ثم ينصرفون. فلما حضروا فى ذلك اليوم وهنئوا الباشا وخرجوا إلى دهليز القصر يريدون الانصراف إلى بيوتهم برز لهم طائفة من الجند وسيوفهم بأيديهم مسلولة وآخرون يحملون البنادق واندفعوا عليهم وأطلقوا البنادق وأعملوا فيهم السيوف فأصيب عثمان بيك الجرجاوى بضربة سيف فى وجهه وأصيب حسين بيك كشكش بطلق نارى فى خاصرته وجرح كثيرون جراحا بليغة فعند ذلك ارتفعت الأصوات وعلت الجلبة وصاح الأمراء بمماليكهم وأتباعهم لنجدتهم فاقتحموا الدهليز والسيوف بأيديهم وحالوا بينهم وبين المتؤامرين حتى تسلقوا من حائط البستان وركبوا خيولهم وهم لا يصدقون بالنجاة وأركبوا عثمان بيك وهو يصيح إلى باب العزب وقد قطع السيف وجهه وفمه فذهبوا به إلى باب العزب وأنزلوه فلم يلبث إلا هنيهة ومات فحملوه إلى بيته وجهزوه ودفنوه ولم يمت ممن جرحوا أحد غيره وباتوا على ذلك وأصبحوا فاجتمعوا وصعدوا إلى الأبواب وأرسلوا إلى حمزة باشا يأمرونه بالنزول من القلعة على عجل فنزل من ساعته إلى بيت أحمد بيك كشك بقوصون ومر بباب العزب فوقف له حسين بيك كشكش وسبه سبا فاحشا وخاطبه ببذى القول وفحش الكلام فلم يجبه بشىء ثم رتبوا أمورهم وسلموا بعض الوظائف المهمة لمن يعتمدون عليه واستكشفوا خفى هذه الحادثة فتبينوا أنها كانت بإغراء من حمزة باشا وقيل بل هى خليقة على بيك بلاط فإنه ما برح منذ تبعيده إلى النوسات يراسل حسن بيك جوجو ويكاتبه سرا ومازالا على هذا الحال حتى تم التدبير لحسن بيك واستحضر طائفة من الجلفية وأطلعهم على ما فى نفسه فوافقوه فأخفاهم فى بيته أياما كثيرة وقد دبروا أن يكون إيقاعهم بالأمراء فى أول يوم العيد وذهبوا إلى

الكشك بقراميدان فى ذلك اليوم وكانوا نحو الأربعين فاختلفت عندئذ كلمتهم وانتقضوا ثم عادوا فاتفقوا على أن يتمو الأمر فى ثانى يوم بدهليز بيت القاضى وتفرقوا على ذلك وقد انحلت رابطتهم إلا أربعة فإنهم ثبتوا على هذا الاتفاق وساروا فى ثانى يوم إلى الدهليز وضربوا من صادفوه بالسيوف والبنادق، وبطل من هذا اليوم أمر العيد من قراميدان وتهدم القصر وخرب وكذلك البستان وذهبت نضارته وبعد وقوع هذا الحادث سيروا من يستكشف خبر على بيك بلاط وهل أقلعت به السفينة إلى جدّة فوجدوه بالسويس فردّوه وأركبوه مع أتباعه ومماليكه إلى القاهرة ومروا به من طريق الجبل وذهبوا إلى جهة شرق إطفيح ثم إلى أسيوط. فلما استقر به المقام اجتمع عليه المبعدون كافة وطوائف الهوارة وأخلاط أخر كثيرة فراسل صالح بيك بمنية ابن خصيب يريد الانضمام إليه بمن معه من هؤلاء الأخلاط فلم يرض صالح بيك ونفر منه فجعل يخادعه ويسايره وأرسل إليه خليل بيك الخربطلى أحد المبعدين يكلمه فى ذلك ومازال به حتى جنح لطلبه واجتمع به بكفالة شيخ العرب همام وتحالفا وتعاقدا وتعاهدا على الكتاب والسيف وكتبت بذلك حجة وكان العهد بينهما أنه إذا تم لهما الأمر أخذ صالح بيك الأقاليم القبلية بتمامها قيد حياته وأرسلوا بما وقع الاتفاق عليه إلى شيخ العرب همام قيل فسرّ بذلك ورضى به إرضاء لصالح بيك وأمدّهما بالعطايا والمال والرجال واجتمع عليهم جميع المتشردين من الغز والأجناد والهوارة والأبطال فصار لهم جيش عظيم فساروا إلى منية ابن خصيب وكان بها خليل بيك السكران عاملا فلما علم بقدومهم رحل عنها وجاء القاهرة هاربا فاستقر على بيك بلاط وصالح بيك ومن معهما بالمنية و بنوا حولها الأسوار والأبراج وركبوا عليها المدافع وقطعوا الطرق على المسافرين بروا وبحرا وأرسل على بيك بلاط إلى ذى الفقار بيك وكان مبعدا بالمنصورة ومعه جماعة من الكشاف يستقدمه إلى المنية بمن معه فارتحل من المنصورة ليلا إلى المنية فلما وردت الأخبار إلى القاهرة بما فعله على بيك وصالح بيك وأنهما فى عدة عظيمة جدا خافوا شرهما وخشوا عاقبة فعلهما فاجتمعوا جميعا وبينهم الشيخ الحفناوى شيخ الوقت يومئذ وتشاوروا فى الأمر وطال بينهم الأخذ والرد ثم اتفقوا على أن يرسلوا لهما عسكرا لقتالهما فقام الشيخ الحفناوى وخطأ رأيهم واستنقصه وأطال الكلام على ما أصبحت فيه البلاد من الضنك والاضمحلال بأسباب توالى الفتن وتعاقب الحروب والمحن وقال: ماذا عليكم لو أرجعتم على بيك وصالحتموه فيأتى ويقيم فى بيته آمنا مطمئنا؟ فقالوا إن لم نذهب لقتاله أتى هو لقتالنا بخيله ورجله

قال: لا تأتوا شيئا حتى أكاتبه ويأتى منه الجواب وقام وكتب له يوبخه ويزجره تارة وينصحه أخرى وينهاه عن فعل ما لا تحمد عاقبته وبعث إليه بالخطاب فلم يلبث الشيخ بعد ذلك إلا أياما ومرض ورمى بالدم ومات فشاع يومئذ أنهم أعطوه سما لينالوا أغراضهم من قتال على بيك وصالح بيك.

(مطلب)

عزل حمزة باشا وولاية محمد باشا راقم

ووردت فى هذه الأثناء الأخبار بعزل حمزة باشا وهو فى سجنه لا كلمة له كما تقدم القول وتولية محمد باشا راقم فقام إليه الملاقون ودخل القاهرة فى غرة ربيع الثانى سنة إحدى وثمانين ومائة وألف هجرية فسافر حمزة باشا إلى بلاد الروم فكان لبثه بمصر سنتين وشهرا.

وعاد الأمراء بعد دخول محمد راقم باشا إلى جمع الجموع وتجهيز معدات القتال للحمل على على بيك بلاط وصالح بيك وكلموا محمد باشا فى أمرهما وأعلموه بأسباب خروجهما وموّهوا عليه الحال وأخذوا منه مرسوما بالقتال وسيروا حسين بيك كشكش ومعه عسكر جرار فطلب حسين بيك النفقة فلم يجدوا فى الخزينة شيئا من الأموال فجعلوا يصادرون التجار ويستصفون أموالهم وطلبوا أمراء البهار المعروفين بالتواخيد وألزموهم بدفع مال البهار معجلا فادّعوا الإعسار فهددوهم وأخذوا جميع ما عندهم من مال ومتاع ثم سار حسين بيك بعسكره والتقى الفريقان بناحية بياضة تجاه بنى سويف فاقتتلا قتالا عنيفا فانهزمت عساكر حسين بيك شر هزيمة وانفشلوا وقتل كثير من أمراء العسكر ورجع المنهزمون إلى القاهرة يوم السبت سابع عشرى الشهر وهم فى أسوأ حال، وأصبح يوم الأحد فطلعوا إلى أبواب القلعة وطلبوا من الباشا مرسوما بإعادة القتال وبأخذ مائتى كيس من مال الخزينة السلطانية نفقة للجند فامتنع الباشا من ذلك فراجعوه فلم يرض، وبينما هم ينازعونه فى ذلك إذ جاء يوم الاثنين الخبر بوصول على بيك وصالح بيك ومن معهما إلى ناحية غمازة وكان حسن بيك جوجو ومن معه من الأمراء نازلين بخيامهم جهة البساتين فارتحلوا ليلا وهربوا وانزعج خليل بيك وحسين بيك ومن معهما من الجند والعسكر وتحققوا أن لا قبل لهم بقتال على بيك بلاط وأن لابد من زوال دولتهم. وأرسل الباشا إلى أصحاب الوجاقات بملازمة كل وجاق لبابه فوصل على بيك وأصحابه إلى البساتين فلم يروا فيها أحدا وتسلل خليل بيك وحسين بيك وأصحابهما وطلعوا إلى

الأبواب فوجدوها مقفلة فرجعوا إلى قراميدان وأقاموا بها ساعة ثم رجعوا على أعقابهم وقد خرج الكثير فى تلك الليلة من الأمراء هاربين إلى حيث على بيك وصالح بيك وفى مقدمتهم حسن بيك جوجو ومن انضم إليه من الأمراء والأجناد وهرب خليل بيك شيخ البلد يومئذ وجميع أتباعه وأعوانه ومماليكه وحسين بيك كشكش وأتباعه وأعوانه وكانوا عدة كبيرة. وأصبح يوم الخميس فخرج الأعيان وغيرهم لملاقاة على بيك وصالح بيك ومن جاء معهما من الأمراء فدخلا القاهرة فى ذلك اليوم ومعهما جميع الذين كانوا مبعدين ولبثا إلى يوم الأحد ثم طلعا ومعهما باقى الأمراء المبعدين والذين تخلفوا عن الذاهبين إلى الديوان بقلعة الجبل فخلع الباشا على علىّ بيك خلعة الرضا وقرره شيخا للبلد وخلع على صناجقه خلع الاستمرار أيضا فى إماراتهم واستقر المنصب بعلى بيك فى إمارة مصر ورياستها وظهر نبله وعلت كلمته حتى ساعدته الأقدار وملك الديار المصرية والأقطار الحجازية والبلاد الشامية كما سيأتى بيان هذا كله فى محله إن شاء الله تعالى .

وتاقت نفسه ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ إلى الانتقام من بعض الأمراء وأعيان البلد وتبعيدهم فرأى أن لا قبل له بذلك خوفا من حسن بيك جوجو وأنه مادام حيا لا يصفو له الحال فأخذ من هذا الحين يدبر على قتله وأطلع بعض خواصه على ما فى سره فهونّوا له الأمر وتعهدوا له بالعمل فلما كانت ليلة الثلاثاء ثامن رجب سنة إحدى وثمانين ومائة وألف حضر حسن بيك جوجو ومعه آخر اسمه على بيك جن وآخر اسمه محمد بيك أبو الذهب وأيوب بيك إلى بيت على بيك بلاط لزيارته فلبثوا عنده برهة من الليل يتحادثون ثم قام حسن بيك ومعه على بيك جن وركبا ومعهما الأمراء المذكورون ونفر من أصحاب على بيك يسايرونهم وهم المتكفلون بالقتل فلما صاروا فى الطريق التى عند بيت الشابورى خلف جامع قوصون جردوا سيوفهم وطعنوا حسن بيك فقتلوه وقتلوا معه على جن وتركوهما ورجعوا فأخبروا على بيك بلاط بما جرى فسرّ سرورا عظيما وبات وأصبح على بيك المذكور مالكا لجميع الأبواب لا رادّ لكلمته ولا يد فوق يده فلما صفا له الوقت ودانت له الأمور أبعد كثيرا من الأمراء والأعيان والوجهاء وشردّهم فى الأقاليم القبلية والبحرية وضيق على كل من كان يتوسم فيه سمة الإنكار فخافه الناس وهابه الأمراء وعمت شهرته واتسعت صولته وجعل يتصرف فى الأمور كما يشاء. وبينما هو على هذا الحال من تتبع الخصوم وقطع دابر المخالفين إذ جاءه الخبر برجوع حسين بيك كشكش وخليل بيك من جهة غزة وهما فى جموع كثيرة للغاية وأخلاط من الجند والعسكر

يريدون القتال والزحف على الديار المصرية فأكبر هذا الأمر جدا وجيش لقتالهم جيشا ضخما للغاية فى البر والبحر واجتمع الفريقان عند الديرس والجراح من بلاد المنصورة وكان حسين بيك كشكش وأصحابه قد عرّجوا أولا إلى دمياط فنهبوا وسلبوا شيئا كثيرا ثم حضروا إلى المنصورة ففعلوا كذلك فلما التقى الجيشان واقتتلا انهزم أصحاب على بيك بلاط وانفشلوا وولوا راجعين وقتل منهم عدة كبيرة من الأمراء والجاويشية ولم يزالوا فى هزيمتهم إلى أن وصلوا دجوة فلما جاء الخبر بذلك اهتم له على بيك ونزل الباشا من قلعة الجبل وخرج إلى قبة باب النصر خارج القاهرة وجمع أمراء العسكر كافة والعلماء وأرباب السجاجيد ورسم أن كل من كان من الجند وأصحاب الوجاقات يبادر بالتأهب للخروج أو يخرج بدلا عنه واحدا واهتم كذلك على بيك بجمع العسكر وإعداد معدات الحرب فجمع جيشا عظيما وسلم لواءه إلى محمد بيك أبى الذهب فسار أبو الذهب من فوره والتقى بمن بقى من العساكر المتشردين فضمهم إلى عسكره وسار بهم فى طلب حسين بيك وخليل بيك وكانا قد نزلا بإقليم الغربية وساروا سيرا حثيثا يريدون القاهرة ليدخلوها فلاقتهم جيوش أبى الذهب بمدينة طنتدا وهم معسكرون فيها فأحاط أبو الذهب وعسكره بالمدينة من كل جانب فوقع الحرب بين الفريقين ولم يزل القتال قائما حتى فرغ ما عندهم من الذخيرة وقلت الأزواد فأرسلوا إلى أبى الذهب يطلبون الأمان فأمنهم وبطل القتال وكاتبهم أبو الذهب وخادعهم وتعهد لهم باسترضاء على بيك فانخدعوا وانحلت عزائمهم وتفرقت كلمتهم وباتوا ليلتهم تلك على بساط الطمان. فلما كان ثانى يوم أرسل أبو الذهب إلى حسين بيك كشكش يستدعيه إلى معسكره ليتكلم معه فى أمر الصلح فسار إليه وليس معه سوى خليل بيك السكران أحد أتباعه فلما وصلا ودخلا مجلسه لم يجداه فجلسا برهة لطيفة ينتظرانه وإذا بجماعة من العسكر قد دخلت عليهما وضربتهما بالسيوف حتى ماتا وجاء فى أثرهما حسن بيك شبكة ولم يعلم بما جرى لأستاذه حسين بيك فلما اقترب من العسكر داخله الخوف وشعر برجفة فأراد الرجوع فعاقه رجل سائس اسمه مرزوق وضربه بنبوت فوقع إلى الأرض فلحقه أحد الجند واحتز رأسه. وجاء الخبر إلى خليل بيك الكبير ومن معه بما جرى على حسين بيك وأتباعه فخافوا خوفا عظيما وذهبوا إلى ضريح السيد أحمد البدوى والتجئوا إلى قبره وأيقنو أنهم لاحقون بإخوانهم وأرسل أبو الذهب إلى على بيك بلاط يستشيره فى أمر خليل بيك ومن معه فرسم بتبعيده إلى الإسكندرية فقبض عليه وبعث به إليها فلم يلبث بها إلا أياما وقتلوه خنقا ورجع

أبو الذهب ومن معه ودخلوا المدينة من باب النصر فى موكب عظيم وأمامهم رؤوس القتلى محمولة فى صوان من الفضة والخدم أمامهم يقولون« صلوا على محمد » وكانت عدة تلك الرؤوس ستا وهى رأس حسين بيك وخليل بيك السكران وحسن بيك شبكة وحمزة بيك وإسماعيل بيك أبو مدفع وسليمان أغا الوالى وكان دخولهم على هذه الصورة فى يوم الجمعة سابع عشرى المحرم افتتاح سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف هجرية .

واشتد على بيك بلاط على ما بقى من الأمراء المخالفين وأبعد منهم عدة كثيرة إلى الصعيد الأعلى وأخرى إلى الأقطار الحجازية وقبض على أولاد سعد خادم ضريح السيد أحمد البدوى وصادرهم وأخذ أموالهم وكانت كثيرة وأبعدهم عن طنطا وأرسل آخر بدلهم اسمه الحاج حسن عبد المعطى وشرع فى بناء الجامع والقبة والسبيل والقيسارية العظيمة وأبطل عنها مظالم أولاد الخادم والحمل والنشالين والحرامية والصيادين وضمان المومسات وغير ذلك من أنواع المغارم التى كانت مفروضة عليها وبلغ على بيك شهرة عظيمة وكبر اسمه فى دار السلطنة العثمانية فأرسل إليه السلطان هدية قفطانا وسيفا صحبة رسول مخصوص بمرسوم سلطانى فتقاطر الأمراء لتهنئته ونزل الباشا إلى بيته وتزاحمت على بابه أقدام المهنئين فداخل صالح بيك من ذلك بعض الحسد وآنس منه على بيك بعض الوحشة فأصر له على بيك السوء وعزم أن يعجل به قبل أن تستحفل الوحشة فيعجل هو به وكاشف بعض رجاله على ما يريده بصالح بيك فهون عليه الأمر وتعهد له بالعمل فلما جاء صالح بيك إلى بيت على بيك ليهنته بهدية السلطان وقفل راجعا إلى بيته ركب معه محمد بيك تابع على بيك وآخرون من الأمراء أتباع على بيك وساروا فى ركابه وخلفهم بعض الجند والأتباع فلما صاروا فى مضيق الطريق عند المفارق بسويقة عصفور تأخر محمد بيك ومن معه قليلا عن صالح بيك وصاح محمد بيك بخادمه ونهره وسبه وجرد سيفه بسرعة غريبة كأنه يريد قتله وطعن به صالح بيك فاخترط بقية من كانوا معه سيوفه وضربوه فسقط عن جواده إلى الأرض ميتا وتركوه وصعدوا من فورهم إلى قلعة الجبل فلما استقر بهم المقام أخذتهم نشوة الظفر بصالح بيك فجعلوا يتحدّثون فى أمر قتله وما فعله كل منهم وعابوا أحدهم أحمد بيك بشناق حيث لم يسرع فى إخراج سيفه وأحجم عن الطعن والضرب كما فعلوا هم فقال: إنى ضربته كما فعلتم فكذبوه وقالوا: أرنا سيفك إن كنت صادقا فلم يفعل وخاف أن يخبروا على بيك بلاط بما وقع منه فيقتله ثم انصرفوا وبات هو ليلته يدبر أمر

الخلاصه فلم ير له سبيلا غير الفرار إلى أرض الله الواسعة وأصبح فأخبر زوجته بما عزم عليه وشدد عليها أن لا تخبر بخبره أحدا حتى يصل إلى الإسكندرية ثم قام وتزيا بزى المغاربة وسار من ساعته وجدّ فى السير من ناحية شلقان فأتت السعاة وأخبرت على بيك بخبره فرسم لحاكم الإسكندرية بالقبض عليه فلم يتمكن من ذلك حيث كان قد نزل بإحدى السفن القاصدة بلاد الروم وكان من أمره بعد ذلك ما كان مما سيذكر فى حينه وأحمد بيك هذا هو أحمد باشا الجزار الشهير الذى ملك عكا وتولى الشام وإمارة الحاج الشامى وطار صيته فى الممالك شرقا وغربا فساء على بيك فراره وخشى عاقبة أمره.

واتسعت كلمة على بيك وكبرت هيبته فسقطت حرمة محمد باشا الوالى فى جانب حرمته وذهب اعتباره وصار مغلوبا على أمره ليس له من الولاية سوى الاسم فخاف على نفسه وأخذ يدبر على قتل على بيك وأعمل فى ذلك جهده وكاشف كتخداه عبدالله بيك بما فى خاطره فلم يكتم سره بل أعلم على بيك به وكشف عما ينويه له محمد باشا فلما علم على بيك بذلك أصبح فملك الأبواب والرميلة وحوالى قلعة الجبل والمحجر وأرسل إلى الباشا يلزمه بالنزول من القلعة فنزل من باب الميدان إلى بيت أحمد بيك كشك ولبث فيه محجورا عليه تخفره العسكر وتولى على بيك النيابة وجعل يتصرف فكثرت مصادرته للناس فى أموالهم ومتاعهم بلا فرق ولا تمييز فكانت هذه السنة السيئة من مبتكراته فى يوم نشأته ثم صارت سنة لمن يأتى بعده، وتاقت نفسه بعيد ذلك إلى الولاية على الشام أيضا فعمل على ذلك وهيأ هدية نفيسة للغاية وخيولا مصرية جيادا وبعث بها إلى السلطان وبعض رجال الدولة وكتب يشتكى من عثمان بيك ابن العظم والى الشام ويطلب من دار السلطنة عزله لقبوله المنفيين من أمراء مصر وانضمامهم إليه والأخذ بقولهم فى جميع أعماله وبالغ فى الشكوى واستفاض الخبر بذلك فى القاهرة ومصر وعلم محمد باشا الوالى به فكان يتحزن ويتوجع ولا قبل له على عمل شىء ومازال على هذا الحال من الحجر والضيق حتى مات فى المحرم افتتاح سنة ثلاث وثمانين ومائة وألف هجرية بقصر عبدالرحمن كتخدا بشاطئ النيل حيث كان مسجونا لم يخرج منه منذ أنزل من قلعة الجبل وقيل كان موته مسموماً فدفن بالقرافة الصغرى عند مدفن الباشاوات بالقرب من الإمام الشافعى ولم يحتفلوا بجنازته .

واجتمع الأمراء المبعدون إلى الأقاليم القبلية على اختلاف درجاتهم بشيخ العرب همام لعله يعاونهم على العود إلى ديارهم فأشار عليهم بالترفع إلى أسيوط

وأخذها عنوة وأن يقيموا بها ولم يسمح لهم بالمقام عنده خوفا من على بيك بلاط ووفاء بما بينهما من العهد فارتحلوا جميعا من عنده وترفعوا نحو أسيوط وكانوا عدة كبيرة واجتمع عليهم أيضا طوائف الهوارة وأخلاط من الناس ممن لا شاغل لهم وكان بمدينة أسيوط فى هذا الحين من قبل على بيك بلاط عبد الرحمن كاشف وذو الفقار كاشف وقد رمموا أسوار البلد وحصنوها تحصينا عظيما فلما وصلوا إليها ووجدوها على هذه الحال من المنعة والتحصين جعلوا يتلصصون إلى أن اتصل قوم منهم فى جنح الليل ببوابة البلد ومعهم خرق ملوثة بالقار والكبريت والزيت وأوقدوا فيها النيران فاشتعل الباب فهجموا على المدينة هجمة رجل واحد فلم يكن لهم بهم طاقة لكثرتهم وملكوا أسيوط وتحصنوا بها وهرب من كان فيها من العساكر والكشاف وجاءت الأخبار بذلك إلى على بيك فهاله الأمر واستعظمه وجيش لهم جيشا عظيما وسيره مع إبراهيم بيك بليفية ومحمد بيك أبو شنب وعلى بيك الطنطاوى وبالغ فى إرسال الذخيرة والميرة وغيرها فلما صاروا على مقربة من أسيوط خيموا عند جزيرة منقباط وعلم من بأسيوط بحضورهم فخافوا وتشاوروا فى الأمر فاتفقت كلمتهم على أن يركبوا ليلا ويدهموا عسكر على بيك فركبوا فى ساعة معلومة بينهم وسار بهم الدليل فى طوق الجبل فضلَّ بهم وأسرى وإياهم حتى تجاوزوا المكان المقصود بنحو الساعتين فخافوا وعلموا فوات الوقت وأن القوم متى علموا بخروجهم ملكوا المدينة من غير ممانع قبل رجوعهم فما وسعهم إلا الذهاب إلى المعسكر ومصادمتهم على أى حال كان فلم يصلوهم إلا بعد طلوع الشمس وتيقظ القوم واستعدّوا لهم والتطموا معهم وهم قليلون فوقع القتال واشتد الجلاد وبذلوا جهدهم فى الطعن والضرب وبرز رجل منهم يريد محمد بيك أبو شنب فبرز له محمد بيك وهو يقول: لبيك ها أنا ها أنا فقصده جماعة منهم وقاتلوه وقاتلهم حتى قتل وحمى الوطيس وكثر الصياح وارتفع الغبار وانكشف عن هزيمة أهل الثورة ونصرة أصحاب على بيك وكانت هذه الوقعة الهائلة عند جبانة مدينة أسيوط فتمزقوا وتفرقوا أيدى سبأ ثم عاد من بقى وانضم إلى كبار الهوارة وملك أصحاب على بيك مدينة أسيوط واحتلوها ولبثوا بها أياما ثم ترفعوا لقتال شيخ العرب همام وكبار الهوارة ومن انضم إليهم من المهزومين فاتحد كبار الهوارة مع الأمراء المهزومين واستعدوا للقاء عسكر على بيك فراسل محمد بك إسماعيل أبوعبد الله ابن عم همام واستماله ومناه ووعده برياسة الصعيد عوضا عن عمه همام إن هو ختل قومه وتخلى عن القتال معهم ومازال به حتى ركن لقوله وصدق تمويهاته وتثاقل عن

القتال وخذل قومه ومن كان معهم من الأمراء فانفشلوا وتمزقوا كل ممزق وخاف شيخ العرب همام شر العاقبة فارتحل عن فرشوط وانحدر على بعد ثلاثة أيام منها ثم مرض أياما قلائل ثم مات كمدا وحزنا على ماجرى وسار محمد بيك بالجند إلى فرشوط فدخلها من غير ممانع ونهب ما فيها وأخذوا جميع ما كان بدور همام وأقاربه وأتباعه من ذخائر وأموال وغلال فزالت دولة همام المذكور من الأقاليم القبلية من ذلك الحين ثم سار محمد بيك بعد ذلك من فرشوط يريد القاهرة فحضر إليه درويش ولد همام بعد موت أبيه مستجيرا فأحضره معه إلى القاهرة فلبث بها أياما حتى رضى عنه على بيك وأعاده إلى فرشوط تحت عهود عاهدها له قبل السفر، أما محمد بيك أبو الذهب فإنه لم يلبث بالقاهرة إلا أياما قلائل بعد عوده ظافرا منصورا حتى وقعت بينه وبين أستاذه على بيك وحشة فخرج منها مغضبا إلى الأقاليم القبلية ولحق بدرويش بن همام وأقام عنده فخلت البلاد شرقا وغربا لعلى بيك ومماليكه واستتبت كلمته وعمت الآفاق شهرته وتفرغ لقطع شأفة المنفيين فى الثغور كدمياط ورشيد والإسكندرية والمنصورة وغيرها ووكل جماعة من قومه بذلك فكانوا يذهبون إلى تلك الجهات واحدة فواحدة فيقيمون بها أياما ويقتلون من بها من أولئك المبعدين خنقا ثم ينتقلون لغيرها حتى أفنوهم ولم يبقوا منهم أحدا وخاف الناس على بيك خوفا عظيما فاتفق أنه دخل يصلى يوما بجامع الداودية فعصد خطيب الجامع وخطب ثم دعا للسلطان ولعلى بيك بالنصر والتأييد فلما انقضت الصلاة وقام على بيك يريد الانصراف استدعى الخطيب وقال له: من أمرك بالدعاء باسمى على المنبر أقيل لك أنى سلطان؟ وكان الخطيب يغلب عليه البله فقال: نعم أنت سلطان وأنا أدعو لك فأظهر على بيك الغيظ وأمر به فضربوه بالعصى وتركوه فركب حمارا لشدّة ما أصابه من الضرب وسار إلى بيته وهو يصيح فى الطريق «بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ» وأكثر من الصياح على هذا الحال فتبعه العامة إلى أن دخل بيته فلما علم على بيك بذلك خاف العاقبة فأرسل إلى الشيخ كسوة سنية وبعض دنانير واستعطفه لما وقع منه.

مطلب)

ولاية محمد باشا الأورفلى ثم عزله وولاية الوزير أحمد باشا

وبعد أيام جاء الخبر بولاية الوزير محمد باشا الأورفلى بدلا من محمد باشا راقم الذى مات كما تقدم القول فحضر على البر فى أبهة وكبكبة عظيمة وقصد إلى قلعة الجبل وذلك فى أواخر سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف هجرية وجعل يتصرف

بقدر الاستطاعة إلى سنة ثلاث وثمانين ثم عزل وتولى بعده الوزير أحمد باشا فأتى من الأقطار الحجازية إلى السويس بالقلزم ودخل القاهرة فى موكب حافل وهو متوعك ولم يصعد قلعة الجبل وسكن بدرب الحجر أشهرا ثم اشتد به مرضه فمات فى السنة المذكورة .

واشتدت رغبة على بيك بلاط فى الغزو وفتح المدن والأمصار لاسيما الديار الشامية والحجاز وقد تقدم القول أنه كتب إلى دار السلطنة يشتكى من ابن العظم ويرميه بالسوء فكانت رسله لا تنكف عن استطلاع أخبار الشام والحجاز وكان يتمنى لو أن الله ييسر له فتحهما فبينما هو على هذا الحال بين الرجاء والتمنى واستطلاع أخبار تلك الأصقاع إذ قدم إلى القاهرة فى المحرم افتتاح سنة أربع وثمانين ومائة وألف هجرية الشريف عبدالله من أشراف مكة وكان من أمره أنه وقع بينه وبين ابن عمه الشريف أحمد أخى الشريف مساعد منازعة فى إمارة مكة بعد وفاة الشريف مساعد فتغلب على الشريف أحمد واستقل بالإمارة وخرج الشريف عبدالله هاربا إلى دار السلطنة مستنجدا فرسم السلطان إلى على بيك بلاط بمساعدته وإعادة الإمارة إليه كما كانت فأنزله على بيك منزلا رحبا وأكرم وفادته وفرح فرحا عظيما ورتب له المرتبات من مأكول ومشروب وأمر بتجهيز الذخائر ومعدات الحرب وملأ بيوت الأمراء الذين قتلوا بالذخيرة وآلات القتال والمؤن واستعرض أصناف العسكر من ترك ومغاربة وشوام ومتاولة ودروز وحضارمة ويمانية وسودان وجبشان ودلاة وغير ذلك وأرسل معهم طوائف فى المقدمات وأنزل المشاة منهم إلى القلزم فى السفن وسار بقية الجند فى صفر من السنة بعد دخول الحاج فى تجمل زائد وكبكبة عظيمة ومعهم محمد بيك أبوالذهب وبعض كبار الأمراء وسار معهم الشريف عبدالله وقد ودعه على بيك وطيب نفسه فلما التقى الجمعان اقتتلا قتالا عنيفا على الينبع فانتصر المصريون على العرب نصرة مؤزرة وهزموهم شر هزيمة وقتلوا خلقا كثيرا من الأشراف وقتلوا والى الينبع العامل عليها من قبل الشريف ثم سار محمد بيك بعسكره حتى اقتربوا من سواد مكة فخرج عليهم قوم الشريف أحمد وأصحابه فقاتلهم وانتصر عليهم ودخل مكة عنوة فخرج الشريف منها هاربا فأباحها ثلاثة أيام فنهبوا ما فيها ونهبوا بيت الشريف وبيوت أصحابه وأخذوا شيئا كثيرا للغاية من متاع وأموال وجواهر وحلى ونفائس وغير ذلك وأجلس الشريف عبدالله فى منصب إمارة مكة وولى حسين بيك أحد الأمراء المصريين على ولاية جدّة عوضا عن واليها من قبل الدولة وأقام أبو الذهب أياما بمكة حتى استتب قدم الشريف عبدالله ثم سار

بعسكره يريد القاهرة ووصلت الأخبار بذلك فخرج لملاقاته الملاقون بالعقبة، فلما جاء الخبر بوصوله إليها خرج الأمراء إلى بركة الحاج والدار الحمراء لانتظاره فدخل فى أوائل شهر رجب من السنة وقدم القاهرة فى ثامنه فى موكب عظيم للغاية وأتى إليه العلماء وأعيان البلاد وقصده الشعراء بالقصائد والتهانى فعلت شهرة على بيك بالأقطار الحجازية وطار صيته فى الآفاق، ولما تكامل ورود عسكره من غزوة الحجاز عزم على أن يوجه بهم لغزو الشام فبدأ بأن أرسل يمهد الطرق أمامهم وكان بغزة شيخ لعربانها اسمه طيط طاغية شديد المراس وكان يكره على بيك ويتمنى خذلانه وزوال دولته فسير إليه على بيك رجلا من أعوانه اسمه عبدالرحمن أغا ورسم له بقتله فسار إلى غزة فى نفر من الجند ولم يزل يتحيل حتى ظفر به وقتله هو وإخوته وأولاده وقد كان عقبة كبرى فى طريق الشام ثم استكثر على بيك من جمع طوائف الجند وإعداد معدات القتال والمؤن والذخائر وجيش جيشا ضخما وسلمه إلى إسماعيل بيك ومعه عدّة من الأمراء فبرزوا إلى العادلية بالآلات والأحمال والخيام وأقاموا بها أيامًا ثم ارتحلوا إلى الشام وسار خلفهم جيش آخر بحرا ومقدمه سليمان بيك والتقى الجمعان فقامت الحرب على ساقها بين الطرفين واشتدت وحمى وطيسها فتابع على بيك إرسال المدد من جند وسلاح ومؤن وذخيرة فى البر والبحر وحتى نفد ما عنده والطلب متواصل فعمد إلى مصادرة الناس وأخذ أموالهم بأرذل الطرق وأخس الوسائل وفرض على القرى أموالا وقرر على كل طائفة مائة ريال وثلاثة ريال حق الطريق فضج الناس وتعطلت أسباب الرزق وهاجر البعض وطلب من قبط مصر مائة ألف ريال ومن يهودها أربعين ألفا وضيق وشدد وهدد وبالغ فى الوعيد فأخذها جميعها.

وسير بعد ذلك جيشا آخر كامل العدد والعدد إلى يافا فحاصرها وضيق عليها ومازال منع الواصل إليها متتابعا حتى فتحت وأخذت عنوة ثم ركبوا على باقى المدن والقرى وقاتلوا من بها من النواب والولاة وهزموهم ففروا من وجوههم واستولى المصريون على جميع الديار الشامية إلى حلب وطار صيت على بيك وملأ الآفاق فداخله الغرور وتاقت نفسه إلى الغزو والفتوح فأرسل إلى محمد بيك أبى الذهب يأمره بتولية الأمراء الذين معه المناصب والولايات على البلاد التى ملكوها وأن يستمر على الغزو والفتوح ويتجاوز الحدود ويستولى على كل ما يصادفه من الممالك والبلدان إلى حيث شاء الله وهو يتابع إرسال المدد إليه من مال ورجال فجمع أبو الذهب من معه من الأمراء والأقران وكبار الجند وشاورهم فى الأمر أخبرهم بما

يريده على بيك فاختلفت كلمتهم وتفرقت أغراضهم وطال الجدال بينهم ثم اتفقوا على الرجوع بجميع العسكر إلى مصر وتحالفوا على أن يكونوا على قلب رجل واحد وساروا من يومهم فجاءوا القاهرة فى رجب من السنة ودخلوها على خلاف ما رسم به على بيك فساءه فعلهم واستعظمه جدا وبقى الأمر على السكوت أياما ثم تكلم على بيك مع أبى الذهب فى أمر رجوعه إلى الديار الشامية لفتح كل ما تيسر له فتحه من مدنها وأمصارها وشدد عليه فى ذلك فأظهر محمد بيك عين السخط وعدم الرضا وعارض فى الأمر كثيرا فصمم على بيك وقال لابدّ من السفر فبدأت بينهما الوحشة باطنا من هذا الحين وأخذت فى الازدياد يوما عن يوم وجعل كل يراقب الفرص ويتبين وجه الانتفاع بها، فلما كانت ليلة الرابع من شوّال من السنة دس على بيك بلاط إلى على بيك الطنطاوى وآخرين معه أن يغتالوا محمد بيك أبو الذهب ويقتلوه على كل حال فركبوا عليه فى تلك الليلة وأحاطوا بداره ووقفت العساكر بأسلحتها فى الطريق فلما أحس محمد بيك بحضورهم ركب من فوره وخرج من بينهم راكبا والسيف بيده وخلفه خواصه وبعض الأتباع وذهب إلى البساتين ثم ارتحل منها إلى الصعيد وعلم من بالأقاليم القبلية من الأمراء المبعدين بحضوره على هذا الحال فساروا إليه وقدموا له ما عندهم من مال ورجال وقدم له أيوب بيك أحد رفاقه هدايا من خيل وأقمشة وخيام وغيرها وقد وضع محمد بيك المذكور بالطريق عيونا وأرصادا لتأتى له بأخبار القادمين عليه من مصر فأحضروا له يوما رجلا يحمل مكاتبة من على بيك بلاط إلى أيوب بيك يأمره بها ويستحثه على سرعة قتل أبى الذهب على أى حال كان ويعده بإمارته وبلاده وغير ذلك فلما قرأ المكاتبة أكرم الرجل وناوله إياها وقال له: اذهب وائتنى بجوابه ولك عند غاية الإكرام فذهب الرجل وغاب ثم عاد بالجواب وناوله إلى محمد بيك فقرأه فإذا هو يذكر فيه أنه باذل ما فى الوسع وهو يراقب الفرص لينتهزها فتحقق محمد بيك خبث طوية أيوب بيك فجمع إليه خاصته وأمراءه وأعلمهم بالخبر وأمرهم بالاستعداد والتأهب وأنه إذا حضر أيوب بك إليه أخذ الأمراء نظراءهم من قوم أيوب بيك وتحفظوا عليهم، فلما حضر إليه أيوب بيك جلس معه فى خلوة فقال له أبو الذهب: بدا لى أن أسألك هل نحن مقيمون على الإخاء والمصافاة والصداقة والعهد الذى تعاهدنا عليه بالشام؟ قال نعم وزيادة قال: ومن نكث وخان اليمين ونقض العهد؟ قال يقطع لسانه الذى حلف به ويمينه التى وضعها على المصحف فقال له: بلغنى أنه أتاك كتاب من عند أستاذنا على بيك فقال لا. فقال لعل ذلك صحيح

وقدكتبت له الجواب أيضا قال لم يكن ذلك أبدا ولو أتانى منه خطاب لأطلعتك عليه ولا يصح أن أكتمه عنك أو أرد له جوابا فأخرج واستحضر له ذلك الرسول فسقط فى يده وأخذ يتنصل ببارد العذر فقال له أبو الذهب لا يصح أن تكون من رفاقى فقم واذهب إلى أستاذك واهنأ به فلما خرج قبضوا عليه وأنزلوه إلى مركب وأحاطوا بوطاقه وأسبابه فتفرقت عنه جموعه ثم أمر محمد بيك أحد رجاله فذهبوا وقطعوا يده ثم وضعوا صنارة فى لسانه وجذبوه ليقطعوه كما حكم هو بذلك فأفلت منهم ورمى بنفسه إلى الماء فغرق ومات فأخرجوه وغسلوه ودفنوه.

ولما فاض الخبر بما وقع لأيوب بك تحقق الناس استفحال الوحشة بين أبى الذهب وأستاذه على بيك وأقبل الأمراء والأجناد المنفيون إليه ودخلوا تحت لوائه واجتمع إليه جميع أتباع القاسمية والهوارة الذين شرّدهم على بك وسلب نعمتهم فأكرمهم وأنعم عليهم وواساهم وقلدهم الخدم والمناصب فتقيدوا بخدمته وبذلوا جهدهم فى طاعته وأخلصوا له النية، فلما وردت الأخبار بذلك إلى القاهرة نزل بعلى بيك بلاط من القهر والغيظ المكظوم ما لا يوصف وجعل يجيش الجيوش ويعد المعدات وسير إسماعيل بيك أحد أتباعه بجيش عظيم فى البر والبحر وذلك فى أواخر ذى القعدة من السنة فلما التقى الجمعان لم يقع بينهما من القتال إلا شىء خفيف جدا ثم انضم إسماعيل بيك بأكثر جنده إلى جند محمد بيك وصاروا جميعا على قلب رجل واحد فاشتد الأمر بعلى بيك ولاحت عليه لوائح الغم وكاد يموت قهرا وغما وعاد إلى جمع العساكر والإكثار من السلاح ومعدات الحرب وسير سبعة من الصناجق. قال أحد الكتاب: وكلهم مزلقون أى مترفهون متنعمون وضم إلى كل منهم عساكر وطوائف ومماليك وأتباعا وبرز بنفسه إلى جهة البساتين ورسم بعمل المتاريس من النيل إلى طريق الجبل ووضع عليها المدافع وسارت العساكر ومعها على بيك الطنطاوى وبقية الأمراء فى منتصف المحرم افتتاح سنة ست وثمانين ومائة وألف فالتقى الجمعان فى الطريق حيث كان أبوالذهب وقومه منحدرين إلى القاهرة واقتتلا عند بياضة أمام بنى سويف ووقعت بينهما مقتلة عظيمة انجلت عن هزيمة عسكر على بيك فساق أبوالذهب خلفهم بأصحابه وهم يمانعون عن أنفسهم حتى عبروا النيل ووصلوا إلى دير الطين وكان على بيك بلاط مقيما به فلما رأى أصحابه مقبلين على هذا الحال من الهزيمة والفشل اشتد قهره وتحير فى أمره ولكنه أظهر التجلد وأمر بالاستعداد وترتيب المدافع وأقام إلى الغروب على هذا الحال وقد تفرقت عنه عساكره من المغاربة وغيرهم ووصل محمد بيك إلى شاطئ النيل المقابل لدير

الطين ونصب صيوانه وخيامه تجاه صيوان وخيام على بيك فنظر إليها على بيك وقلبه يحترق بنار الغيظ ثم ركب عند الغروب ودخل من باب القرافة وطلع إلى باب العزب فلبث برهة من الليل ثم نزل إلى بيته وقد عقد النية على الفرار فحمل أحماله وأمواله وعياله وخرج سائرا إلى الشام وذلك فى ليلة خامس عشرى المحرم افتتاح سنة ست وثمانين وسار معه على بيك الطنطاوى وجميع صناجقه ومماليكه وأتباعه وطوائفه، وأصبح يوم الخميس سادس عشرينه فعلم محمد بيك أبوالذهب بخروج على بيك ومن معه فعبر محمد بيك النيل إلى الجانب الشرقى وأمر فأوقدوا النار فى دير الطين ودمروه تدميرا بعد نهبه ثم دخل المدينة بلا ممانع ونادى أصحاب الشرطة على أتباع على بيك بلاط بأن لا يؤويهم أحد فكانت مدة غيبة محمد بك عن مصر سبعين يوما، فلما استقر به المنصب أرسل فقتل عبدالله كتخدا الباشا ونادى بإبطال السكة التى كان ضربها على بيك باسمه وكانت قروشا وأنصاف قروش وكلها من النحاس قد صنعها المعلم رزق أحد قبط مصر وجعل يتصرف فى الأمور وينظر فى مصالح البلاد ويعطى المناصب ويفرق الوظائف وغير ذلك، وبينما هو على هذا الحال من النقض والإبرام إذ جاءه الخبر بخروج على بيك بلاط من الشام فى جيش عظيم يريد قتال محمد بيك فتهيأ محمد بيك للقائه وبرز بخيامه جهة العادلية ونصب صيوانه فأقام يومين حتى تكامل خروج العسكر وجاء الخبر بوصول على بيك بجنوده إلى الصالحية فارتحل محمد بيك فى خامس صفر سنة سبع وثمانين ومائة وألف هجرية فى جيش عظيم للغاية فالتقيا بالصالحية واقتتلا قتالا عنيفا جدا فكانت الدائرة على علىّ بيك وأصحابه وأصابته جراحة فى وجهه فسقط عن جواده فاحتاطوا به وحملوه إلى مخيم محمد بيك فخرج إليه محمد بيك وتلقاه بأحسن لقاء وقبل يده وأخذ بيده حتى أجلسه بصيوانه وجلس بين يديه وكان القتلى فى هذه الموقعة كثيرين للغاية وقد قتل بينهم على بيك الطنطاوى وسليمان كتخدا وعمر جاويش وغيرهم من كبار جند علىّ بيك بلاط وكانت هذه الموقعة فى يوم الجمعة ثامن شهر صفر من السنة ثم قفل محمد بيك راجعا بعسكره إلى القاهرة ومعه أستاذه على بيك بلاط وأنزله فى بيته الكائن بالأزبكية بدرب عبدالحق وحضر الأطباء لعلاجه فلم يلبث إلا سبعة أيام ومات. قيل: إنه سم فى جراحته ودفن عند أسلافه بالقرافة وزال وزالت دولته العظيمة. قال أصحاب الأخبار: كان شهما شجاعا مقداما فى الحروب داهية طاغية شديد البطش صعب المراس ثابت الجنان سريع الخاطر والانتقام فخلا الجو لمحمد بيك أبى الذهب واتسعت من هذا الحين شهرته وعلت كلمته واستتبت قدمه فى منصب الرياسة أو كادت.

(مطلب)

ولاية الوزير خليل باشا

وجاء الخبر بعد هذا الحادث بقليل بولاية الوزير خليل باشا على ديار مصر فدخل القاهرة فى تاسع عشر ربيع من سنة سبع وثمانين(١) وصعد إلى قلعة الجبل فى موكب حافل للغاية وكان وصوله من طريق دمياط فجلس فى ثانى يوم للناس فدخل عليه أرباب الديوان وأصحاب الوظائف فخلع عليهم الخلع المعتادة وجعل يتصرف فى الأمور كما سيذكر مفصلا فى محله.

قال بعض أهل التاريخ: واشتدت رغبة السلطان مصطفى فى ردّ ما أخذه المحاربون من المدن والأمصار وجيش لذلك جيشا عظيما وعزم على الخروج به إلى الدانوب فلم يتمكن لمرض أصابه ولازم الفراش فاشتدت به علته فلما أحس بقرب أجله استدعى إليه أخاه عبدالحميد وأوصاه بولده سليم وكان قاصرا ثم مات فى سنة سبع وثمانين ومائة وألف هجرية أى سنة أربع وسبعين وسبعمائة وألف ميلادية فكانت مدة تصرفه ست عشرة سنة وقيل سبع عشرة سنة وكانت له عناية ومعرفة تامة بالعلوم الرياضية محبا لأهل العلم وله مؤلفات فى الرياضة تعرف باسمه وكان شهما حازما مهيبا أعماله مشهورة للغاية.

ومات فى أيامه يوحنا بطرك الإسكندرية بعد أن أقام ثمان عشرة سنة واشتد فى أيامه على بيك بلاط على النصارى شدة عظيمة وضيق عليهم جدا وضادر الكثير منهم ثم ضرب عليهم غرامة قدرها مائة ألف ريال كما تقدم القول فانبث أعوانه لجمعها وقد عاثوا وأفسدوا وفعلوا ما لا خير فيه وبيعت بسبب هذه الغرامة الجواهر والأحجار الكريمة بأبخس الأثمان وبموته أقيم بعده مرقس السادس بعد المائة وهو من رهبان دير انبا بولا واسمه سمعان من بلدة قلوصنا وكان فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله.

ولما مات السلطان مصطفى تولى الملك بعده أخوه السلطان عبدالحميد ابن السلطان أحمد .

---

(١) لم أجد فيما راجعته من مذكرات أصحاب التاريخ التي جمعت منها هذا المؤلف اسما لمن تولى مصر من الباشاوات بعد الوزير أحمد باشا الذي قدم من الحجاز فى سنة ثلاث وثمانين ومائة وألف هجرية إلى ولاية خليل باشا هذا التى هى سنة سبع وثمانين فصارت المدة الخالية زهاء خمس سنين والله أعلم أ.هـ مؤلفه.

(الفصل العشرون)

(فى سلطنة السلطان عبدالحميد ابن السلطان أحمد)

ثم قام بالأمر بعد السلطان مصطفى أخوه السلطان عبدالحميد ابن السلطان أحمد بويع له بالملك يوم موت أخيه سنة ثمان وثمانين ومائة وألف هجرية أى سنة أربع وسبعين وسبعمائة وألف ميلادية وله من العمر يومئذ خمسون سنة أمضى منها أربعا وأربعين فى السجن محجورا عليه لا يجتمع عليه إلا بعض الغلمان والأتباع ولا يدرى من أحوال الدنيا شيئا فلم تكن فيه الأهلية لسياسة البلاد ولا القدرة على تدبير أمور المملكة فى ذلك الحين وقد كانت الأخطار تتهدّدها من كل جانب بسبب الحروب القائمة عليها من الداخل والخارج وكان السلطان مصطفى قبل موته قد جيش جيشا عظيما للزحف به على الروس واسترداد ما أخذ من أملاكه فاخترمته المنية قبل ذلك كما تقدم فلما تولى السلطنة السلطان عبدالحميد أمر بإنفاذ جيش السلطان مصطفى وبالغ جدا فى تنظيمه وأعدّ له كل ما يحتاجه من ذخيرة وميرة وأسلحة وكراع وكان زهاء أربعمائة ألف وسلم لواءه إلى الصدر الأعظم فساروا والتقوا بجيوش الروس واقتتلوا فدب الفشل فى العساكر العثمانية وانحصروا فى مدينة شوملة لسوء تدبير الصدر الأعظم وفساد رأيه فحاصرهم الروس وضيقوا عليهم جدا وكادوا يقتلونهم عن بكرة أبيهم فرأى الصدر أن يراسل قائد العساكر الروسية فى طلب الصلح فوافقه القائد على ذلك إذ كان كل من الطرفين يرى أن لا قبل له على إطالة زمن الحرب فعقدوا مجلسا فى مدينة بكرش وحرر المرخص العثمانى عهدا وأرسل صورته إلى دار السلطنة وكان محصل ما فى العهد المذكور إعطاء الحرية التامة للتتار وبقاء قلعة بكرش ويكى قلعة فى يد الروس وحرية سير السفن الروسية التجارية فى البحرين الأبيض والأسود فرضيت دولة الروس بشروط هذا العهد وتمسكت بها لاسيما ما جاء فيها من إعطاء التتار حرية فقد كان ذلك ما تتمناه وتسعى فى الحصول عليه وبناء على ذلك تساهلت هى أيضا للدولة العثمانية فى كثير من الأمور ولكنها كانت طفيفة فى جانب ما نالته هى. ولما شاع خبر هذا الصلح فى دار السلطنة هاج الناس وماجوا وخشى أكابر الدولة شر العاقبة وأنكروا قبول منح الحرية للقريم وسير السفن فى البحرين وقالوا: الحرب والنار ولا هذا العار. قال بعض كتاب الأخبار: وكان قصد الروس من منح الحرية للتتار إنما هو إيقاد نار الفتنة فى القريم وبث روح التعصب والفساد كما فعلوا فى لهستان من قبل

فإذا تم لهم ذلك سهل عليهم الاستيلاء عليها كما استولوا على إيالتى قزان وازدرهان قال: ولم يمنعهم من العمل للمستقبل ما هو واقع من الخلل والارتباك الداخلى وعدم استقامة الأحوال فإنه لما أخذت قيصرتهم كاترينة فى إدخال أولاد الناس فى صفوف الجند وأكثرت من المغارم والمكوس لنفقة الحروب أبغض الناس الحرب ونفرت قلوبهم منه وتولى الخراب على الكثير من مدنها وبلدانها وضج الناس وابتهلوا إلى الله بزوال ملكها وأخذت من هذا الحين تذبل نضارة دولة آل عثمان وكادت تزول سلطتها من وراء الدانوب زوالا تاماً فاشتد الأمر على السلطان عبدالحميد وأعظمه جدا وكان منه ما سيذكر فى محله.

(مطلب)

عزل الوزير خليل باشا وولاية مصطفى باشا النابلسى

وجاء الأمر عقب ولاية السلطان عبدالحميد بقليل بعزل الوزير خليل باشا من ولاية مصر وتوليته على جدة وقيام الوزير مصطفى باشا النابلسى من دار السلطنة ليتولى على مصر فحضر مصطفى باشا إلى القاهرة فى أواخر جمادى الثانية من السنة وطلع إلى قلعة الجبل وقيل إنه سكن ببركة الفيل ، والثانى أصح. وجعل يتصرف فى الأمور فلم يقو على ذلك حيث كانت الكلمة والتصرف للأمير الكبير محمد بيك أبى الذهب وأصحابه وكان وصول مصطفى باشا إلى القاهرة والوقت فى هدو والحال فى سكون والقلوب مطمئنة والأقوات كثيرة والأسعار رخية ولكن كما قال الشاعر

وما الدهر فى حال السكون بساكن ولكنه مستجمع لوثوب

ولما اطمأن قلب الأمير محمد بيك بسكون الحال بعد موت أستاذه على بيك بلاط تاقت نفسه إلى غزو الشام واستخلاص ما بيد الظاهر عمرو من المدن والبلدان فجيش لذلك عسكراً عظيما وبرز بخيامه إلى العادلية وفرق الأموال على الأمراء والعسكر وسيرهم فى البر والبحر وأنزل الذخيرة والميرة وأكثر من المدافع والقنابل الكبيرة وسار بنفسه مع هذا الجيش فى أوائل المجرم افتتاح سنة تسع وثمانين ومائة وألف هجرية وسلم الإمارة ونيابة الغيبة بمصر إلى إبراهيم بيك أحد كبار مماليكه ثم ترك بقية الأمراء ولم يصحبه منهم إلا القليل فلما وصل مدينة غزة وشاع خبر

وصوله خاف أهل البلاد ولم يظهروا أمامه وتحصن أهل يافا وتحصن كذلك الظاهر عمرو بعكا، فلما وصل محمد بيك إلى يافا حاصرها وضيق عليها وشدد فامتنعوا عليه وحاربوه من وراء السور فحاربهم ورمى عليهم بالمدافع والمكاحل وواصل الرمى عدة أيام وليالى فكانوا يصعدون على الأسوار ويسبون المصريين وأميرهم سبا قبيحا فلم يزل المصريون يوالون الرمى بالقنابل حتى نقبوا أسوارها وهجموا عليها من كل صوب وحدب وملكوها ونهبوها وقبضوا على أهلها وقيدوهم بالحبال والحديد وسبوا النساء والصبيان وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ثم جمعوا الأسرى خارج البلد وذبحوهم ذبح الغنم ولم يميزوا بين صنوف الناس وبنوا من رؤوس القتلى عدة صوامع ووجوهها بارزة والرياح تنسف عليها التراب ثم ارتحل عنها طالبا عكا فلما بلغ الظاهر عمرا ماوقع لأهل يافا اشتد خوفه وخرج من عكا هاربا وتركها وحصونها فوصل إليها محمد بك ودخلها من غير ممانع وأذعنت له باقى البلاد وأطاعته وهى صاغرة. فلما دانت له مصر والشام أرسل إسماعيل أغا إلى دار الخلافة بهدايا وأموال عظيمة جدا ملتمسا إمارة مصر والشام وكان السلطان يخشى استقلال محمد بيك بملك البلاد والخروج عن طاعته فأجابه على الفور إلى ما طلب وأرسل إليه مع رسوله تقاليد الولاية والخلع والبيرق والداقم وجاءت له الأخبار بذلك ووردت عليه البشائر بتمام الأمر فوافاه ذلك يوم دخوله عكا فامتلأ فرحا فحمَّ بدنه فى الحال فأقام محموما ثلاثة أيام ومات ليلة الأربعاء ثامن ربيع الثانى من السنة ووافى خبر موته دار السلطنة قبل قيام الرسول الذى كان يحمل التقاليد فانتقض الأمر وردّت التقاليد وفرح السلطان بموته. وكان قد جمع إليه قبل موته الأمراء ومقدمى الأجناد وأعلمهم بعزمه على السير إلى الأمام وفتح ما يفتح الله به عليه من المدن والبلدان فشق الأمر عليهم جدا إذ كانوا قد سئموا الحرب والابتعاد عن الأوطان فلم يجاوبوه بشىء خوفا منه. قال ناقل هذه الرواية: وأقمنا علي ما نحن عليه من الغم والكمد الثلاثة الأيام التى تمرض فيها وأكثرنا لا يعلم بمرضه ولا يدخل إليه إلا بعض خواصه ولم يذكروا مرضه إلا فى اليوم الثالث. قالوا إنه منحرف المزاج فلما كان صبح الليلة التى مات فيها نظرنا إلى صيوانة وقد انهدم ركنه وأولاد الخزنة فى حركة ثم زاد الحال وجرد السيوف بعضهم على بعضهم بسبب المال وظهر أمر موته وارتبك العسكر وحضر مراد بيك فكفهم عما هم عليه وجمع كبراءهم فى الحال وشاورهم فاتفق رأيهم على الرحيل إلى مصر فقاموا وقد غسلوا جثته وكفنوها ولفوها فى

أقمشة ثخينة وحملوها على عربة وساروا طالبين الديار المصرية فدخلناها بعد ستة عشر يوما وكان دخولنا فى ليلة الأربعاء الرابع والعشرين من ربيع الثانى فأرادوا دفن الجثة بالقرافة فحضر الشيخ الصعيدى وأشار بدفنه فى مدرسته تجاه الأزهر فحفروا له قبرا بالليوان الصغير الشرقى وبنوه ليلا فلما أصبحوا خرجوا بجنازته من بيته الذى بقوصون ومشى أمامه المشايخ والعلماء والأمراء وجميع الأحزاب وأولاده المكاتب وأمام نعشه مجامر العنبر والعود لإخفاء رائحة نتنه حتى واروه التراب أ هـ .

واستقر أتباعه أمراء البلاد المشار إليهم فى الحل والعقد ومقدماهم إبراهيم بيك ومراد بيك وكانت عدتهم ستة عشر أميرا.

(مطلب)

عزل مصطفى باشا وولاية الوزير إبراهيم باشا عرب كرلى وموته وولاية محمد باشا المعروف بالعزتلى الكبير

ووردت الأخبار بعزل مصطفى باشا النابلسى وولاية الوزير إبراهيم باشا عرب كرلى فدخل القاهرة وسافر مصطفى باشا فى أواخر جمادى الثانية سنة تسع وثمانين ومائة وألف هجرية إلى جدة ومات بالمدينة وكان وصول إبراهيم باشا المذكور إلى القاهرة رابع شعبان سنة تسع وثمانين فنزل بإمبابة وأقام بها ولم يكن له من الولاية سوى الاسم فقط والتصرف لإبراهيم بيك ومراد بيك ومازال بامبابة حتى مرض ومات فدفن بالإمام الشافعى وتولى بعده الوزير محمد باشا المعروف بالعزتلى الكبير فدخل القاهرة فى يوم الخميس سابع عشر ربيع الأول سنة تسعين فكان كمن سبقه محجورا عليه فى جميع أعماله ليس له من الولاية إلا الاسم فقط والتوقيع على القصص والجلوس فى صدر الديوان. ولم تكن لتسكن الفتن بموت على بيك بلاط وإسماعيل بيك الكبير حتى ظهرت فتنة أخرى بالجامع الأزهر واشتدت نارها وارتفع لهيبها وكان سبب ذلك أن طائفة من المغاربة المجاورين بالأزهر آل إليهم مكان موقوف فطلبوا استلامه واستغلاله فمانع واضع اليد وطعن فى الدعوى واستعان بالأمير يوسف بيك من الأمراء المقدمين ودافع عن المكان المذكور فرفع المغاربة أمره إلى القاضى وترافعوا أمامه فظهر الأمر على خلاف ما يشاء يوسف بيك فحنق لذلك ووسمهم بالغش وارتكاب الباطل وأرسل جماعة من أصحابه ليقبضوا على الشيخ عباس أحد المغاربة العاملين فى هذه القضية فطردهم المجاورون وسبوهم ولم يمكنوهم منه وأخبروا الشيخ الدردير بما جرى فكتب الشيخ إلى يوسف بيك يمنعه

من التعرض لأهل العلم ومعاندة الحكم الشرعى وأرسل المكاتبة صحبة اثنين من المشايخ فلما قرأ الرسالة غضب وأمر بالاثنين فقبضوا عليهما وأودعوهما السجن فوصل الخبر إلى الشيخ الدردير وأهل الجامع فاجتمعوا فى صبح ثانى يوم وأبطلوا الدروس والأذان والصلوات وقفلوا أبواب الجامع وجلس المشايخ بالقبلة القديمة وصعد الصغار على المنارات يكثرون من الصياح والدعاء على الأمراء وأصحابهم وأغلق أهل الأسواق القريبة الحوانيت وبلغ الأمراء الخبر فأرسلوا إلى يوسف بيك فأطلق المسجونين وأرسل إبراهيم بيك إلى المشايخ بملازمة الهدوء والسكون فلم يلتفتوا لقوله وسبوا رسوله فحضرالأغا إلى الغورية ونادى بالأمان وفتح الحوانيت فبلغ مجاورى المغاربة ذلك فذهب إليه جماعة منهم وتبعهم العامة والغوغاء وبأيديهم العصى والمساوق وضربوا أتباع الأغا ورجموا بالحجارة فركب الأغا عليهم وركبت مماليكه والسيوف بأيديهم فقتل من مجاورى المغاربة ثلاثة وجرح منهم ومن العامة كذلك وبقى الهرج إلى ثانى يوم فحضر إسماعيل بيك والشيخ السادات وعلى كتخدا الجاويشية وحسن أغا أغاة المتفرقان وغيرهم ونزلوا بالأشرفية وأرسلوا إلى الجامع بانفضاض الجمع وتمام المطلوب وكان ذلك عند الغروب فلم يرضوا وطلبوا الجماكى والمرتبات المتأخرة فرجعوا وأصبحوا والهرج فى ازدياد فعاد إسماعيل بيك ومعه الشيخ السادات وجلسا بالجامع المؤيد وأرسل إلى المشايخ على يدى الشيخ إبراهيم السندوبى بان إسماعيل بيك المشار إليه قد تكفل بقضاء أشغال المشايخ وقضاء جميع حوائجهم وقبول فتواهم واعتبارها معمولا بها على كل حال مع صرف جماكيهم وجميع مرتباتهم المتأخرة وأن الضامن له فى ذلك الشيخ السادات فلما وصل الشيخ السندوبى ومعه الكتاب قرأه الشيخ عبد الرحمن العريشى على رؤوس الملا وهو قائم على الأقدام فلما سمعوه أكثروا الهرج والجلبة وعلت أصواتهم وقالوا لا نقبل بذلك وترددت الرسل بين الفريقين بطول النهار ثم وقع الصلح وفتحت أبواب الجامع وعادت أموره إلى ما كانت عليه وبعثوا لهم فى ثانى يوم مبلغا برسم الجماكى وقد اشترطوا عدم مرور الأغا والوالى والمحتسب من حارة الأزهر وغير ذلك من الاشتراطات التى لم يتم منها شىء ألبتة. ولم سكنت الفتنة تتبع الأغا كل من كان له يد فيها من أولاد البلد فجعل يقبض عليهم واحدا فواحدا ويقتلهم خنقا وتغريقا ودفنا تحت التراب.

ووقعت الوحشة بعد هذا الحادث بقليل بين إسماعيل بيك وبين مراد بيك الكبير لأسباب يطول شرحها فخرج إسماعيل بك مغضبا يريد العادلية مرتحلا عن

مصر فخرج خلفه إبراهيم بيك الكبير وطيب خاطره وأرجعه فعاد وهو فى غيظ ولبث أياما والوحشة ضاربة أطنابها بينه وبين مراد بيك فعمد مراد بيك إلى قتله واتفق مع جماعة من قومه على أن يركبوا عليه ويقتلوه فى بيته وعينوا لذلك يوما معلوما فعلم إسماعيل بيك بخفى سرهم وخاف على نفسه فحمل أثقاله وجمع متاعه وركب فى الصباح إلى العادلية وجلس بالأزبكية وركب مراد بيك ومر بمنزل إسماعيل بيك ليعرف خبره فوجده قد خرج إلى الأزبكية وكان إبراهيم بيك الكبير قد ذهب فى هذا اليوم إلى قصر العينى فبلغه خبر خروج إسماعيل بيك فخشى عاقبة خروجه وشاع الخبر بذلك فخرج خلفه كثير من الأمراء الناقمين على مراد بيك وإبراهيم بيك وكانت عدتهم خمسة أمراء ولحقوا به بالعادلية وعلم إبراهيم بيك ومراد بيك بذلك فركبا لساعتهما وركب معهما بعض الأمراء من خواصهما وصعدوا إلى قلعة الجبل وملكوا الأبواب واستفاض الخبر فكثر الهرج وتوارد الأمراء إلى الرميلة واضطربت المدينة وأغلق الناس الدكاكين وأقفلت أبواب البيوت وانقطع الناس عن الخروج واستمروا على ذلك أربعة أيام بلياليها وخرج الكثير من أهل القلعة سرا ولحقوا بالأمير إسماعيل بيك ويوسف بيك ومن معهما فأرسل لذلك أهل القلعة إبراهيم أغا الوالى فجلس بباب النصر لمنع خروج من يريد الألتحاق بأصحاب إسماعيل بيك وأغلق الباب ونزل الباشا إلى باب العزب فحضر قاسم كتخدا أمين البحرين وعبد الرحمن أغا وهما من أصحاب الأمير إسماعيل بيك ومعهما آخرون إلى باب النصر وفتحوا الباب عنوة وطردوا الوالى ومن كان معه وملكوا الباب فأرسلوا لهما جماعة من العسكر المغاربة فاقتتل الفريقان وتفرق أصحاب إسماعيل بيك وجرح كثير من المغاربة وانتشر أصحاب إسماعيل بيك حوالى القاهرة ومصر وسارت طائفة منهم إلى بولاق القاهرة فصادفوا فريقا من العسكر يحمل علوفة الخيل التى بالمعسكر فهجموا عليهم وفرقوهم وأخذوا ما كان معهم من فول وتبن وتوجه فريق منهم أيضا إلى المقطم فاشتد الحال وعظمت الفتنة وخاف الباشا شر العاقبة فسعى فى تدارك الأمر قبل استفحال الخطب وأرسل إلى إسماعيل بيك فى طلب الصلح فلم يقبل فراجعه وأرسل ولده إليه وكتخداه مراراً فلم يقبل .

ودخل فى ثانى يوم عبد الرحمن أغا من باب النصر ومر من وسط المدينة وأمامه المنادى ينادى على أصحاب الحوانيت برفع بضائعهم والتحذر فرفع الناس ما بقى منها ولم يزل سائرا حتى وصل إلى باب زويلة ونزل بجامع المؤيد ورتب عسكرا هناك على السقائف والأسبلة ثم سار من هناك فى جند كثير إلى باب زويلة

ومنه إلى الدرب الأحمر إلى جامع المردانى وزحفوا إلى التبانة وعملوا متاريس بالقرب من المحجر ووضعوا بها عسكرا وكذلك فعلوا بناحية سويقة العزى فنزل إليهم بعض الجند الذين بالقلعة وأطلقوا عليهم النيران فدفعوهم برمى البنادق وقطعوا الطرق على من كانوا بالقلعة إلى ما بعد عصر اليوم فنزل إليهم بعض الفرسان المدرعة فحملوا عليهم وهزموهم أيضا وقتلوا منهم جماعة ورجع من بقى منهم إلى القلعة على أعقابهم وما دخل غروب اليوم حتى انفصل عن القلعة جميع العسكر المغاربة وحملوا سلاحهم وانحدروا وانضموا إلى من كانوا بالمحجر من أصحاب إسماعيل بيك ولاحت على أصحاب إبراهيم بيك ومراد بيك لوائح الخذلان وأصبحوا وقد دخل جماعة كثيرة من أصحاب إسماعيل بيك إلى المدينة ورابطوا فى جميع الجهات حتى انحصر من بقلعة الجبل ولم يبق لخلاصهم سبيل وأخذوا ينقبون الأسوار فلما أحسوا بذلك وأيقنوا بالهزيمة انحدر إبراهيم بيك ومراد بيك وجماعة من الأمراء ليلا من باب الميدان وذهبوا جهة البساتين إلى الأقاليم القبلية وتخلف منهم جماعة فخرجوا إلى إسماعيل بيك وخليل بيك وطلبوا الأمان فلما شاع خبر هروب إبراهيم بيك ومراد بيك هجم المرابطون بالمحجر وسوق السلاح على الرميلة ونهبوا جميع خيامهم التى كانت بها وبالميدان ولم يتركوا شيئا حتى ولا جمال الباشا ودخل إسماعيل بيك ويوسف بيك بعد العصر من ذلك اليوم من باب النصر فى عدة من الجند والمماليك والأتباع وسارا إلى بيوتهما وأصبح ثانى يوم فسار عبد الرحمن أغا فى الشوارع ونادى بالأمان والبيع والشراء فزال عن الناس بعض الخوف ولما كان يوم الأحد ثانى عشرى جمادى الثانية من السنة أى سنة إحدى وتسعين صعد إسماعيل بيك ويوسف بيك إلى الديوان فى كبكبة وزينة فخلع عليهما الباشا خلعتى سمور وولى إسماعيل بيك مشيخة البلد بدل إبراهيم بيك فتصرف وجعل يفرق المناصب العالية بين أصحابه وأصحاب يوسف بيك وأتباعهما وقبضوا على الكثير من الأمراء وأصحاب الوظائف على عهد إبراهيم بيك وأبعدوهم إلى أقاصى البلاد ولم يلبث إسماعيل بيك ويوسف بيك طويلا على الإخاء والمودة حتى قامت بينهما الشحناء وتبدل ودهما جفاء فجعل إسماعيل بيك يتدبر فى قتل يوسف بيك ومازال على هذا العزم حتى أرسل إليه جماعة من إتباعه الأخصاء ليقتلوه فى بيته فدخلوا عليه فوجدوه جالسا بالمقعد المطل على البركة فجلس أحدهم أمامه وجلس آخرون على شماله وجماعة بقوا واقفين يحادثونه ساعة لطيفة فى أمر من الأمور وتناقشوا مع بعض بحدة فتأخر عنهم الواقفون من المماليك والأجناد فسحب أحدهم

وهو عبد الرحمن بيك خنجرا وطعن به يوسف بيك فهمً يوسف بيك ليدفع عن نفسه فداس على فروة من كان جالسا بجانبه فسقط على ظهره فقاموا عليه جميعا وضربوه بسيوفهم وأطلق أحدهم طبنجة على الواقفين من الخدم والأتباع ففروا من أمامهم فنزلوا مسرعين من القيطون الموصل إلى البركة وركبوا وذهبوا إلى إسماعيل بيك وأخبروه بالخبر فركب فى الحال وصعد إلى قلعة الجبل وأرسل إلى الباشا وكان بقصر العينى يتنزه فركب من هناك وصعد إلى القلعة وجلس بباب العزب مع إسماعيل بيك فلما بلغ أصحاب خليل بيك وأتباعه خبر موت أستاذهم تلك الليلة ركبوا وخرجوا من المدينة يريدون الصعيد فأركب إسماعيل بيك خلفهم جماعة فلم يدركوهم فأرسل إلى من تخلف منهم فاختفوا ثم خرجوا ولحقوا بمن فر.

(مطلب)

عزل محمد باشا العزتلى وولاية الوزير إسماعيل باشا

وجاءت الأخبار فى هذه الأثناء بعزل محمد باشا العزتلى وتولية الوزير إسماعيل باشا فدخل القاهرة فى يوم الاثنين سادس ذى القعدة من السنة وصعد إلى قلعة الجبل فى موكب حافل ودخل عليه إسماعيل بيك الكبير وباقى الأمراء فخلع على إسماعيل بيك خلعة سمور وأقره على مشيخة البلد وتدبير الدولة والتصرف فى الأمور فرسم إسماعيل بيك بعد ذلك بجمع العسكر والجنود لقتال من هرب من أصحاب يوسف بيك ومن انضم إليهم من الأمراء الهاربين بالأقاليم القبلية واهتم بذلك وسلم قيادة هذه الحملة إلى إسماعيل بيك الصغير وبرز العسكر إلى البساتين ونصبوا خيامهم أياما ثم ساروا فى البر والبحر فالتقى الجمعان عند بياضة تجاه بنى سويف واقتتلا قتالا عنيفا انكشف عن هزيمة أصحاب إسماعيل بيك وتمزيق جمعهم فرجعوا إلى القاهرة على الأعقاب ودخلوها فى أسواء حال وأخذت جميع خيامهم وأسلحتهم ومراكبهم وكانت نيفا وخمسمائة وكان مقدم عسكر إسماعيل بيك فى حراقة صغيرة فلما انهزم العسكر انحدر إلى القاهرة وكذلك بقية الأمراء انحدروا فيما لحقوه من المراكب وكان إسماعيل بيك بالفسطاط فلما علم بخبر حضورهم على هذا الحال من الهزيمة حزن حزنا كبيرا وأحس بزوال دولته ونزل الباشا من قلعة الجبل وخرج إلى الآثار ونادوا فى الناس بالنفير العام فخرج القاضى والمشايخ والتجار وأرباب الصنائع والمغاربة وأهل الحارات كافة وأغلقت الأسواق

حتى ملئوا الفضاء فلما عاين ذلك إسماعيل بيك وعلم أنهم يحتاجون إلى المال والميرة فضلا عن الذخيرة اختار منهم طائفة المغاربة والترك وصرف من بقى من العامة وأرباب الحرف والمشايخ وأصحاب الأشاير والفقراء ووصل الأمراء من الصعيد إلى حلوان وتعلقت آمالهم بالاستيلاء على مصر والقاهرة بعد تلك النصرة العظيمة التى انتصروها فأرسل إليهم إسماعيل بيك جيشا عظيما من الترك والمغاربة ومعهم المدافع الكبيرة فنصبوا متاريسهم مابين التبين وحلوان تجاه العدو وركب فى ليلتها إسماعيل بيك وأمراؤه وأجناده وكان الباشا قد استحضر من ثغر دمياط مركبا حربيا يحمل خمسا وعشرين مدفعا كان ربانه ذا خبرة تامة بالحرب وفنونه اسمه حسن الغاوى فأقلع به ليلا تجاه المعسكر وارتفع حتى تجاوز مراكب العدو وأطلق المدافع على معسكرهم برا وعلى مراكبهم بحرا وساق جميع المراكب بما فيها واشتد الجلاد بين الفريقين فكانت موقعة عظيمة قتل فيها كثير من الأمراء أعداء إسماعيل بيك وانهزموا شر هزيمة وهرب إبراهيم بيك الكبير ولم يظهر مراد بيك الكبير بسبب جراحته وهم أصحاب إسماعيل بيك على خيامهم ومعسكرهم فنهبوه جميعه وفر من بقى منهم إلى الأقاليم القبلية فساقوا خلفهم فلم يدركوهم ودخل إسماعيل بيك بعساكره القاهرة منصورا مؤيدا ولم تكن لهم هذه النصرة فى حساب فكان رجوعهم فى يوم الأربعاء غرة شعبان من السنة .

واستوحش إسماعيل بيك الكبير من إسماعيل بيك الصغير بعد ذلك حيث ظهر عليه فى أحكامه وأوامره فكان كلما أصدر أمرا عارضه فيه ورده عنه بل عمل على خلافه حتى ظهرت كلمته وعلت وتزاحم الناس على بابه وأقبل إليه أصحاب الظلامات والدعاوى وانضم إليه الكثير من الكشاف والأمراء وحدثته نفسه بالانفراد والاستقلال بحكم البلاد فآنس ذلك منه إسماعيل بيك الكبير فتركه وشأنه وأظهر أنه رمد بعينيه وانقطع عن الخروج من أول شهر رمضان ثم خرج فى أواخره إلى زيارة السيد أحمد البدوى ثم رجع وجمع إليه خواصه وشاورهم فى أمر قتل إسماعيل بيك الصغير وكاشفهم بما فى نفسه فاتفقوا على قتله ودبروا لذلك تدبيرا. فلماكان ليلة التاسع والعشرين من رمضان ركبوا فى آخر الليل ومعهم طائفة من العساكر والأجناد وأحاطوا ببيت إسماعيل بيك المذكور فأحس بهم وركب فى مماليكه وخرج فوجد الطرق كلها مزدحمة بالجند فدخل من عطفة الفرن يريد الفرار وخرج إلى قنطرة عمرشاه فوجد الجند أمامه وخلفه فصار يقاتلهم ويدفع عن نفسه من عطفة إلى

عطفة حتى وصل إلى عطفة البيدق وقد أصيب بضربة سيف على كتفه وسقطت عمامته وصار حاسر الرأس والدم يسيل منه إلى أن وصل تجاه درب عبدالحق بالأزبكية فلقيه عثمان بيك أحد خواص إسماعيل بيك الكبير فرده وسقط عن فرسه فاحتاطوا به ونزل على دكان أحد السوقة وهو فى أسوإ حال فعصبوا رأسه بعمامة رجل جمال كان فى الطريق وحمله عثمان بيك إلى بيته وتركه وذهب إلى إسماعيل بيك فأخبره بخبره فخلع عليه فروة سمور وأعطاه فرسا مرختا وأمر الوالى فذهب إليه وقتله خنقا ثم وضعوه فى تابوت وأرسلوه إلى بيت صغير كان له فبقى به إلى الصباح فأخرجوه ودفنوه بغير احتفال بجنازته. ورسم إسعميل بيك بالقبض على أشياع إسماعيل بيك المقتول وأنصاره وإبعادهم إلى أقاصى البلاد فأبعدوا منهم جماعة كثيرة وصادروهم وقتلوا منهم آخرين بعضهم ببولاق القاهرة وبعضهم بغيرها. ولم يطمئن قلب إسماعيل بيك الكبير بموت إسماعيل بيك الصغير وتشريد أنصاره حتى جاءه الخبر باشتداد أزر الأمراء الهاربين فى الإقليم القبلى واستفحال أمرهم وأنهم تملكوا جميع البلاد التى من جرجا إلى فوق وقبضوا الخراج ومنعوا إرسال الغلال فأخذ إسماعيل بيك فى تجبيش الجيوش وإعداد المعدات وضرب لذلك المغارم على القرى فجعل على كل قرية منها ثلثمائة ريال وأمر جميع الأمراء بالتأهب والاستعداد للخروج وخرج هو إلى دير الطين يريد السفر وكذلك رسم الباشا لجميع الأمراء وأرباب المناصب العسكرية فخرجوا جميعا ونصبوا خيامهم عند معادى الخبيرى ونزل الباشا من قلعة الجبل وجلس بقصر العينى وساروا وسار معهم إسماعيل بيك وقد ترك بالقاهرة جماعة من الأمراء من خواصه الذين يعتمد عليهم ورسم لمقادم الأبواب بأن يطوفوا فكانوا يطوفون بالأجناد فى الحارات ليلا ونهارا.
فلما وصل إسماعيل بيك بعسكره إلى منية ابن خصيب لم يجد للعدو بها أثرا وعلم أنهم ساروا إلى مدينة أسيوط ومعهم إسماعيل أبو على أحد كبار الهوارة فسار لقتالهم وبينما هو يجد السير إلى أسيوط جاءه الخبر من القاهرة باتحاد جماعة من الأمراء الذين تركهم بها لتدبير أمورها على الانضمام إلى إبراهيم بيك ومراد بيك وكان زعيم هذه العصابة حسن بيك الجداوى ومعه جميع أصحابه ووافقهم على ذلك أيضا حسن بيك سوق السلاح وأحمد بيك شنن وأصحاب القلاع بأسرهم فلما تحقق ما وراء ذلك هاله الأمر جدا وركب من ساعته بمن معه وانحدر يريد القاهرة وجدّ حتى دخلها فلم يشعروا إلا وهو فى وسطهم وبات ليلته وأصبح فأمر بمنع

المعادى من التعدية وصعد فى ثانى يوم إلى قلعة الجبل وعقد الديوان بحضرة الباشا فاجتمع جميع الأمراء وأرباب الوجاقات والمشايخ وتكلموا فى أمر قتال المحاربين وفيما ظهر من الفتنة بالقاهرة وطال الكلام بينهم فلم يتفقوا على أمر مّا وتفرقوا وأخذوا فى توزيع متاعهم وقد اضطربت أحوالهم وأصبح إسماعيل بيك وقد جمع تجار البهار والمباشرين من الأقباط وطلب منهم مالا قرضة لنفقة الحرب وشدد فى الطلب وأرهب وتوعد. وبينما هو على هذا الحال إذ جاءه الخبر بوصول طلائع أصحاب إبراهيم بيك الكبير ومراد بيك إلى البساتين وأن قد وصل بعضهم إلى الجيزة فلما تحقق ذلك وقد كان على أهبة الفرار أمر أتباعه بحمل متاعه والخروج به فحملوه وخرجوا تباعا من بعد العصر إلى الساعة الرابعة من ليلة الثلاثاء رابع عشر المحرم من السنة أى سنة اثنتين وتسعين ومائة وألف هجرية ونزلوا بالعادلية وخرج معه جميع خواصه من الأمراء والمماليك والأتباع وبات الناس تلك الليلة فى وجل ما عليه من مزيد وأصبحوا فعلموا بخروجهم فاندفعت عند ذلك العامة على بيوتهم ونهبوا ما وجدوه فيها، أما هم فإنهم ساروا فى صبح اليوم قاصدين الديار الشامية وزالت دولة إسماعيل بيك المذكور فكانت مدة تصرفه فى الإمارة على مصر فى هذه المرة ستة أشهر وأياما لاغير.

وعلم إبراهيم بيك الكبير ومراد بك بخبر خروج إسماعيل بيك من القاهرة فعبر مراد بيك ومصطفى بيك وآخرون النيل فى ذلك اليوم إلى مصر القديمة ومروا من وسط المدينة ونودى بالأمان وأرسل إبراهيم بيك يطلب من الباشا الأمر بدخولهم القاهرة فأرسله إليه صحبة ولده وكتخدا فدخل إبراهيم بيك وبات ليلته تلك بقصر العينى وكذلك بقية الأمراء ثم ركب إبراهيم بيك إلى بيته ومعه إسماعيل أبو على أحد كبار الهوارة وأصبحا وقد صعدا إلى قلعة الجبل فقابلهما الباشا وخلع عليهما خلع القدوم ثم استدعى الباشا إبراهيم بيك ثانية وخلع عليه وأقامه فى منصب مشيخة البلد كما كان من قبل فلما استقرت بها سلم الوظائف العالية إلى أصحابه وخواصه فانقسم من هذا اليوم الأمراء بمصر إلى قسمين الأول أصحاب حسن بيك الجداوى ومن كان معه من الأمراء الذين نكثوا العهد مع إسماعيل بيك الكبير وانضموا إلى عصابة إبراهيم بيك ومراد بيك كما تقدم وسمى هذا القسم بالعلوية والثانى أصحاب إبراهيم بيك ومراد بيك الأولين وسمى بالمحمدية فكان فريق العلوية شامخ الأنف على المحمدية يرى المنة لنفسه والفضيلة

لأنه لولا ما بدا منه من الانحراف وخذله إسماعيل بيك ما دخل المحمدية قط إلى مصر ولا عادت إليهم الأمور فكان المحمدية لا يتصرفون فى أمر من الأمور إلا بإذن من العلوية وبرأيهم فكانوا مغلوبين على أمرهم محجورا على تصرفهم. واتفق إن حضر بعد قليل من الأيام إبراهيم بيك أوده باشى وهو ممن كانوا هربوا إلى غزة مع إسماعيل بيك الكبير وكان قد طلب الإجازة بالرجوع فأذنوا له فدخل بيته واعتزل عن الناس ولبث منكمشا أياما ثم لم يلبث بعدها إلا قليلا حتى اتهمه رضوان بيك بالموالسة وأنه إنما هو جاسوس من قبل إسماعيل بيك وعمل على تبعيده فاستجار أوده باشى المذكور بمراد بيك والتجأ إليه فطمن خاطره وخفف عنه وهون عليه فحرك ذلك ساكنا فى قلوب العلوية وفشت الوحشة بينهم وبين المحمدية وأخذت تزداد يوما عن يوم إلى أن خرج مراد بيك يوما ومعه بعض خواصه إلى ضرب النشاب فجعل يكلمهم فى أمر العلوية وتصديهم لسائر الأمور وتغلبهم عليها وغير ذلك ويظهر الغيظ والكمد فبينما هو على هذا الحال إذ أقبل عليه عبد الرحمن بيك وعلى بيك الحبشى وهما من العلوية وجلسا عنده برهة فلما أرادوا الانصراف أشار مراد بيك إلى بعض أتباعه بأن اقتلهما فوثب عليهما وطعن عبد الرحمن بيك فقتله وهرب الحبشى واختفى فى بعض الأشجار فمروا به ولم ينظروه فركب مسرعا ودخل على حسن بيك الجداوى وأخبروه بما جرى فجمع حسن بيك أصحابه وخواصه وجميع الأمراء المتحدين معه وشاورهم فى الأمر فاتفقت كلمتهم على القتال والترس فى بيت الجداوى فترسوا به وعملوا متاريس أيضا بباب زويلة وناحية باب الخرق والسروجية والقنطرة الجديدة وجاء الخبر إلى مراد بيك بما هم عليه من التأهب للقتال فجمع أصحابه وخواصه وكانوا عدة كبيرة وركب إبراهيم بيك الكبير من قية العزب وصعد إلى قلعة الجبل وملك الأبواب وصوب المدافع نحو بيت الجداوى بالداودية وانتشبت الحرب بينهم طول النهار فأغلقت الأسواق وأقفلت كافة الدكاكين وباتوا على ذلك ليلة الأحد وأصبحوا وإطلاق المدافع والبنادق متتابع وهم يزحفون على بعضهم تارة ويتقهقرون أخرى وينقبون البيوت على من يكون داخلها منهم فسقطت بسبب ذلك عدة دور وتهدمت بأصحابها فمات خلق كثير تحت الردم وكثر النهب والحريق والقتل واختل النظام فتطاولت أيدى العامة إلى أصحاب البيوت وقام الخصم على خصمه فقتله من غير مراقب ولا ممانع وتسلق جماعة من المحمدية من الخليج وصعدوا إلى جامع الحين من بين المتاريس وفتحوا بيت

عبد الرحمن أغا من خلف وملكوه ووضعوا عليه المدافع ورموا بها على بيت الجداوى تباعا فأيقن العلوية بالغلبة وأحسوا بالهزيمة فركبوا وخرجوا من باب زويلة إلى باب النصر فركب خلفهم المحمدية وأعملوا فى أقفيتهم السيف فقتلوا منهم خلقا ومات أغلب كبارهم وهرب حسن بيك الجداوى ورضوان بيك وكان ذلك وقت القائلة من يوم الأحد وكان يوما شديد الحر ولم يمت أحد من المحمدية بجراحة سوى مصطفى بيك الكبير بعد أيام قلائل .

وسار حسن بك ورضوان بك فى طائفة قليلة على وجوههم هائمين فخرج عليهم جماعة من العربان وقاتلوهم قتالا شديدا ومزقوهم فتخلص رضوان بيك وذهب بخاصته إلى شبين الكوم وتتبع العربان أثر حسن بيك الجداوى وضيقوا عليه المسالك حتى قبضوا عليه وأخذوا ما معه وجردوه وشدوا وثاقه ثم قادوه بينهم ماشيا على أقدامه وهو حاف وأرسلوا إلى الأمراء بمصر من يخبرهم بخبره فبعث إليه إبراهيم بيك بمن يستحضره فسار معه حتى دخل القاهرة ثم أفلت منه وسار إلى بولاق ودخل إلى بيت الشيخ أحمد الدمنهورى فرجع الرسول وأخبر بذلك فركبت طائفة من المحمدية وذهبوا إلى دار الشيخ الدمنهورى وطلبوه فامتنع من تسليمه فلم يجسروا على أخذه قهرا واشتد به الخوف فصعد إلى سطح البيت وتسلق إلى سطح آخر ولم يزل حتى نزل بالقرب من وكالة الكتان فصادف بعض المماليك فضربه وأخذ حصانه وركبه وذهب مسرعا يريد النجاة فشاع خبر هربه فركبت الجند خلفه وسدّوا عليه المسالك وهو يدافع ولم ير للوصول إلى القضاء سبيلا فعاد إلى المدينة ثانيا وذهب إلى بيت إبراهيم بيك وكان جالسا مع مراد بيك فاستجار بإبراهيم بيك فأجاره وأمنه ولبث فى بيته خمسة أيام وهو مفقود الشعور فلما أفاق وحسنت حاله رسموا له بالذهاب إلى جدة وبعثوا به إلى السويس فى محفة فلما نزل بالمركب وأقلعت به طلب من ربانها أن يذهب به إلى القصير فامتنع الربان من ذلك فتهدده بالقتل فسار به وأنزله هناك فترفع إلى الصعيد واختفى خبره ثم أمر إبراهيم بيك ومراد بيك بتبعيد من بقى من العلوية فأبعدوهم إلى رشيد ودمياط وشبين وغيرها ثم سيروا جماعة فقتلوهم جميعا ولم يبقوا على أحد منهم. ولم تكد تسكن الفتنة حتى أحس إبراهيم بيك الكبير بانحراف من الباشا وتدليس مع إسماعيل بيك الكبير فاجتمع بمراد بيك وكلمه فى ذلك فاتفقت كلمتهما على تنزيله من قلعة الجبل والحجر عليه فأرسلوا له أرباب الوجاقات يأمرونه بذلك وأن يسكن فى بيت حسن

بيك الجداوى بالداودية فامتنع فأمر إبراهيم بيك الجند بالركوب عليه فطلعوا إلى حوش القلعة فلما علم الباشا بحضورهم خاف ونزل من ساعته إلى الداودية فأنزلوا خلفه خدمه ومتاعه فى ذلك اليوم وهو يوم الثلاثاء تاسع عشر جمادى الثانية من السنة أى سنة اثنتين وتسعين ومائة وألف هجرية فكانت ولايته سنتين وثلاثة أشهر.

(مطلب)

خلع الوزير إسماعيل باشا وولاية إسماعيل باشا الثاني

وجاء الخبر بولاية إسماعيل باشا(لعله إسماعيل باشا الثانى) فذهب إليه الملاقون وأرباب العكاكيز وأصحاب المناصب فحضر فى يوم السبت خامس المحرم افتتاح سنة ثلاث وتسعين وبات بامبابه ليلته تلك ثم أقام بالعادلية إلى يوم الثلاثاء ودخل بالموكب من باب النصر ومر بالقاهرة وصعد إلى القلعة فى الكبكبة المعتادة ولم تكن الأحوال على ما يرام من الهدوء والطمأنينة فلم يبرم أمرًا ولم يأت عملا إذ كان مغلوبا على أمره والكلمة يومئذ لإبراهيم بيك الكبير ومراد بيك ولم يستقر بالباشا المقام حتى جاءه الخبر باستفحال أمر حسن بيك ورضوان بيك بالإقليم القبلى وإنهما جمعا جموعا كبيرة وانحدروا إلى جرجا وانضم لهم من العربان أولاد همام والجعافرة وإسماعيل أبو على وأنهم سينحدرون إلى مصر فكلم الباشا إبراهيم بيك ومراد بيك فى ذلك فأعلماه بالخبر وجعلوا من هذا الحين يجيشون الجيوش ويعدون المعدات وسيروها مع أيوب بيك الصغير وسار خلفهم كذلك مراد بيك فلما وصلوا جرجا رجع حسن بيك بمن معه إلى الوراء فأقام مراد بيك بالعسكر فى جرجا إلى أوئل رجب من السنة وأخذ يعمل الحيلة حتى قبض على إسماعيل أبو على أحد مشايخ العرب وقتله ونهب ماله وعبيده ثم رجع إلى القاهرة واختفى خبر حسن بيك وأصحابه بعد ذلك ولم يعلم لهم مستقر ووافق وصول مراد بيك إلي القاهرة من هذه الغزوة الصغيرة أوان خروج الحاج فتولى الإمارة عليه وأخذ يتأهب فكثرت الطلبات وجمع الأموال والاحتياج للجمال والبغال والحمير فكانوا يأخذون بغال الناس ومن وجدوه راكبا على بغلة أنزلوه عنها وأخذوها بلا ثمن وإن كان من أصحاب المظهر دفعوا له ثمنا زهيدا فضج الناس وأخفوا دوابهم حتى سافر ركب الحاج وخرج مراد بيك فى كبكبة وزينة وخرج معه عدة كبيرة من الأمراء والصناجق ومشوا فى ركابه.

(مطلب)

ورود الأمر السلطاني بعزل إسماعيل باشا ثم رجوعه إلى الولاية ثانية

وبعد خروج الحاج بأيام قليلة ، جاء رسول من دار السلطنة ومعه مرسوم سلطانى بخلع إسماعيل باشا عن ولاية مصر وقيامه إلى جدة وتولية إبراهيم باشا والى جدة والياً على مصر فنزل إسماعيل باشا من يومه من قلعة الجبل وسكن بمصر القديمة شهرا ثم تحول إلى العادلية ليسير منها إلى السويس ويذهب إلى جدة فقدر الله بموت إبراهيم باشا فى جدة فجاء إلى إسماعيل باشا مرسوم السلطان ببقائه على ولاية مصر ففرح بذلك وقد كان لا يود الخروج منها وركب فى موكبه وطلع إلى القلعة فى كبكبة وأبهة زائدة ودخل إليها من باب الجبل فلما استقر به المنصب تاقت نفسه إلى التصرف والانفراد بالأمر فنهاه إبراهيم بيك عن ذلك فأظهر الطاعة ولكنه كان يعمل على خلاف ذلك جهد الاستطاعة فنهاه إبراهيم بيك ثانية وثالثة فلم يرعو فأرسل بأمره بالنزول من قلعة الجبل فلم ير بدا من الطاعة ونزل إلى مصر القديمة ولبث بها وتولى إبراهيم بيك النيابة فكانت مدة ولايته الثانية ثمانية أشهر تنقص ثلاثة أيام وهو من أصحاب القلم وكبار الكتاب فى دار السلطنة. قال بعض أهل التاريخ: وكان مراد بيك الكبير من مماليكه فباعه لبعض التجار معاوضة وحضر إلى مصر ورافقته العناية صدف حتى صار أمير البلاد وكبيرها وحضر سيده هذا فى أيام إمارته فلم يراع له حرمة وعزله من الولاية لأسباب لم تعلم ولكنه كان يتأدب معه كثيراً ويهابه ويذكر سيادته عليه وكان إسماعيل باشا هذا رئيسا عاقلا ذا رأى وتدبير. وجاء عقب ذلك بأيام مراد بيك ودخل بالحاج وهم فى أسوإ حال مما قاسوه بالطريق من العربان فقد فعلوا معهم ما لا خير فيه وسدوا عليهم الطرق وأخذوا منهم كل ما وصلت إليه أيديهم من الدواب والمتاع وأعقب دخولهم ورود الأخبار بظهور حسن بيك ورضوان بيك ثانية واستفحال أمرهما وانضمام الكثير من الجند والعسكر والعرب وغيرهم من أتباع إسماعيل بيك الكبير إلى جموعهم فخاف إبراهيم بيك ومراد بيك شر العاقبة وجمعا جيشا ضخما وسار به مراد بيك ومعه بعض الأمراء من خواصه وطلبوا الأموال وصادروا الكثير من التجار وأصحاب المظاهر وجمعوا المراكب وبرزوا بخيامهم إلى جهة البساتين فجاءهم الخبر بحضور إسماعيل بيك

الكبير من الديار الرومية خفية إلى الأقاليم القبلية فانزعج مراد بيك من هذا الخبر وأكبره وسار مسرعا بعسكره إلى الصعيد فكان كلما اقترب من مقام لهم رحلوا إلى آخر وإذا حل بعسكره فى محلة حلوا هم كذلك قباله ولبثوا على هذا الحال أشهراً ولم يقع بين الفريقين حرب ولا قتال ثم خابروه فى الصلح فرضى به وتقررت القاعدة بينهم على إعطاء أخميم لإسماعيل بيك الكبير مع جميع أعمالها وقنا وقوص وأعمالهما إلى حسن بيك وإسنا إلى رضوان بيك فلما تم الصلح على هذه القاعدة أرسل إليهم الهدايا والتقادم ورجع بعسكره إلى القاهرة ومعه إبراهيم بيك قشطة صهر إسماعيل بيك الكبير وسليم بيك أحد صناجقه رهنا على عدم التظاهر والخروج فكانت مدة غيبة إسماعيل بيك ثمانية أشهر وأياما.

(مطلب)

عزل إسماعيل باشا وولاية محمد باشا

وبقى إسماعيل باشا الوالى معتقلا فى دار بمصر القديمة حتى جاء الخبر بولاية محمد باشا ملك فدخل محمد باشا القاهرة أواخر صفر سنة خمس وتسعين ومائة وألف وصعد إلى قلعة الجبل وخرج إسماعيل باشا من حبسه وسار إلى الديار الرومية فلم يكن لمحمد باشا من حظ الولاية أكثر مما لغيره إذ كان كلما همّ بالنظر فى الأمور والتصرف فى الولاية وأحوال الدولة رأى من إبراهيم بك خصما عنيدا ومانعا لا يتحول فلازم الانكماش واتبع سنة أسلافه واقتصر على ما بيده من التوقيع على المراسيم الديوانية بدون بحث ولا تنقيب . وأعلمه مراذ بك بعزمه على الخروج إلى بلاد الشرقية وقراها فأجاز له ذلك كارها فسار إلى بلاد الشرقية وطافها وضرب على أهلها المغارم الثقيلة والأموال الكثيرة والكلف الباهظة وصادر الموسرين منهم وحول عليهم أصحاب الجباية وأعوان المغارم حتى ضج الناس واستغاثوا ورفعوا أصواتهم باللعن والسب ثم نزل إلى الغربية وفعل بها كذلك ثم إلى المنوفية ثم إلى غيرها فكان تطوافه بالبلاد على هذا الحال أشد هولا من هول الطاعون وأصعب على أهل البلاد.

(مطلب)

عزل محمد باشا ملك وولاية علي باشا القصاب

وتمكن سليم بيك وإبراهيم بيك قشطة صهر إسماعيل بيك الكبير فى غيبة مراد

بيك هذهمن الاتفاق مع جماعة من الأمراء الذين ضاقت بهم الأسباب واشتدت عليهم الخطوب على الفرار والهروب فخرجوا ليلا على الهجن وجرد الخيل وهم نحو الثمانين وساروا إلى الصعيد وأصبح الخبر شائعا بذلك فارتبك إبراهيم بيك ونادى الأغا والوالى فى الناس بترك المشى بعد العشاء وملازمة الناس لبيوتها فخاف الناس وكثر اللغط وتنوعت الأقوال وكادت تتعطل أسباب الرزق وتتوقف المعاملات واشتد الخوف بالناس حتى أنهم أغلقوا حوانيتهم نهارا ولم تسكن الخواطر حتى شاع خبر طلب محمد باشا ملك إلى دار السلطنة ليتولى صدارة الدولة وكأنه هو الباعث على هذا الخوف والاضطراب فنزل محمد باشا من قلعة الجبل فى موكب عظيم فى منتصف شعبان من السنة وأقام بقصر العينى بقية شعبان وسافر إلى الإسكندرية فى غرة رمضان فكانت مدة ولايته ثلاثة عشر شهرا ونصفا وهاداه جميع الأمراء بالهدايا النفيسة وكان من أفاضل العلماء متضلعا من الفنون والآداب وكان شيخا جليلا متواضعا لا بأس به. وقدم على باشا القصاب واليا ودخل القاهرة فى أواسط رمضان أو فى عاشر شوّال وصعد إلى قلعة الجبل مارا من الصليبة خلافا لعادة أسلافه فلما استقر به المقام تحجب عن الناس إلا القليل ولم يتعرض لشىء من أمور الدولة وقد زاده تحجبا وامتناعا اللغط المستمر والأقوال الشائعة برجوع إسماعيل بيك الكبير ومن معه إلى شق عصا الطاعة وتطواف الوالى كل قليل من الأيام يكرر المناداة على الناس ويشدد بملازمة بيوتهم ليلا. وانحرفت خواطر الأمراء والصناجق الذين بمصر على إبراهيم بيك ومراد بيك من فعالهما ولا سيما فعال مراد بيك وبدت منهم أمارات الوحشة فخرج منهم أيضا جماعة كثيرة ولحقوا بإسماعيل بيك بالصعيد ولم يبالوا بوعيد مراد بيك ولا بتهديده فكبر خوفه مع إبراهيم بك وأخذا فى جمع العساكر وإعداد آلات الحرب وعزم مراد بيك على الخروج بهذه الحملة فطلب الأموال وقبض على مساتير الناس والتجار وحبسهم وصادرهم فى أموالهم وأخذ ما بأيديهم فجمع من المال ما جاوز الحد وكانت مغارم القبطة فى هذه المرة شيئا كثيرا جدا ثم برز بخيامه فى منتصف ربيع الآخر من السنة أى سنة سبع وتسعين إلى جهة البساتين وخرج معه جماعة من الأمراء وساروا إلى الصعيد فلما صاروا على مقربة من العدو فشل أصحاب إسماعيل بيك وانصرمت حزمتهم وتركهم رضوان بيك وجاء إلى مراد بيك طائعا فقبله وأبقاه عنده وقد تشتتت بانفصاله عنهم عصابتهم وتمزق شملها وساروا إلى الجهات القبلية فرجع مراد بيك

إلى القاهرة وسلم قيادة العسكر إلى ثلاثة من الأمراء وهم مصطفى بيك وعثمان بيك الشرقاوى وعثمان بيك الأشقر فلم يستقر به المقام بالقاهرة حتى وقف على سر مؤامرة أخرى من بعض أمرائه وأمراء إبراهيم بيك ومماليكه ومماليك إبراهيم بيك فعاجلهم بالنفى والتشريد بعضهم إلى المنصورة والمحلة وبعضهم إلى السرو ورأس الخليج والبحيرة وغيرها وكان بينهم إبراهيم أغا الوالى.

(مطلب)

عزل علي باشا القصاب وحضور
محمد باشا السلحدار وقيل الصابونجي واليا

وجاء فى غضون هذا الحادث الخبر بخلع على باشا القصاب وولاية محمد باشا السلحدار وقيل محمد باشا الصابونجى فنزل على باشا من قلعة الجبل إلى قصر العينى وأقام به ينتظر حضور محمد باشا فحضر كتخداه ومعه مرسوم بالنيابة إلى إبراهيم بيك وخلعه فتولى إبراهيم بيك النيابة وجعل يتصرف فى جميع الأمور ويوقع على القصص وغير ذلك ووصل الخبر بذلك إلى جميع الأمراء المنفيين بالمنصورة والمحلة ورأس الخليج وغيرها فاجتمعوا وساروا معا إلى الإقليم القبلى يريدون اللحاق بإسماعيل بيك ومن معه فأرسل عند ذلك إبراهيم بيك فرمانا إلى عثمان بيك الشرقاوى باستقراره حاكما على جرجا وقد كان تركه مراد بيك مع العسكر على ما تقدم بيانه وشدد عليه بمراقبته الأحوال ومنع تظاهر الأمراء المذكورين فتكفل عثمان بيك بذلك وجعل يتصرف فى الأمور أياما كانت فيها رسل إسماعيل بيك ومن معه لا ينكفون عن الاجتماع به والتكلم معه فى أمر انضمامه إلى عصابتهم ومازالوا به حتى انضم إليهم فتقوى جانبهم واجتمعت به كلمتهم فلما علم إبراهيم بيك بذلك هاله الأمر واستعظمه للغاية وأرسل إلى كبارهم يؤمنهم ويمنيهم بالأمانى الكبيرة ويستميلهم إلى عقد الصلح فامتنعوا فطلب إبراهيم بيك حضور عثمان بيك الشرقاوى ومصطفى بك فامتنعا أيضا وقالا لا نحضر إلا إذا عاد إخواننا إلى مناصبهم وعادت إليهم إقطاعاتهم وأرزاقهم وإلا دافعنا عنهم حتى يقضى الله بيننا فخشى إبراهيم بيك ومراد بيك العاقبة وجهزا لذلك عسكرا عظيما وجعلوا يفتشون بيوت جميع الأمراء المبعدين ويأخذون كل ما فيها فكان شيئا كثيرا من غلال ومتاع ثم برز إبراهيم بيك بخيامه مع العسكر يريد المسير لقتال الخوارج وجمعوا

سائر مراكب النقل وأوقفوها وجمعوا جميع الملتزمين وأصحاب المزارع وأخذوا منهم أموالا جزيلة وسار إبراهيم بيك بالعسكر فى كبكبة وتجمل فلما اقترب من الأعداء راسلهم وطلبهم إلى الصلح فأجابوه إليه وتقررت القاعدة بينهم على رجوعهم إلى القاهرة وإعادة إقطاعاتهم إليهم فحضروا جميعا فى سادس عشر ذى القعدة من السنة فساء هذا الصلح مراد بيك ولم يرض عنه ولكنه كظم غيظه وسار إلى زيارة إبراهيم بيك ولم يزر أحدا منهم فسعى إبراهيم بيك فى إصلاح ذات البين فلم ينجح وكبر الأمر على مراد بيك فأخذ فى جمع أرزاقه ومتاعه وأثقال بيته حتى تم له ذلك ثم خرج إلى جزيرة الذهب فتبعه كشافه وأتباعه ومماليكه وأرسل إلى بولاق القاهرة وأخذ منها أرزا وغلالا وشعيرا ويقصماطا وغير ذلك فسير إليه إبراهيم بيك بعض أخصائه ليمنعوه عن الرحيل فلم يقبل وعبر النيل إلى الشرق وسار إلى الصعيد وتبعه أصحابه وأتباعه ومماليكه وأحماله فى البر والبحر فنزل فى منية ابن خصيب واتخذها له مقرا واتفق أن حضر فى هذه الأثناء محمد باشا الوالى الجديد فأنزلوه فى قصر عبد الرحمن كتخدا على النيل فأقام به يومين ثم صعد إلى قلعة الجبل فى موكب وسافر على باشا القصاب إلى دار السلطنة فلما استقر بالوالى المقام وعلم بما جرى مابين إبراهيم بيك ومراد بيك تكلم مع إبراهيم بيك فى شأن ذلك وحثه على إرجاع مراد بيك فنزل إبراهيم بيك من ساعته وجمع إليه الأمراء فاتفقوا على أن يرسلوا إليه محمد أفندى البكرى والشيخ أبا الأنوار والشيخ السادات والشيخ أحمد العروسى شيخ الجامع الأزهر يومئذ ليرجعوه عن عزمه ويهونوا عليه أمر الصلح فساروا إليه واجتمعوا به وكلموه فاعتذر وقال إنه لم يخرج من القاهرة إلا هاربا خوفا على حياته فإن ضمنوا له عدم مسه بضرر عاد معهم بشرط أن يحلفوا له الأيمان فلم يجيبوه إلى اليمين وقالوا: نضمن الراحة لك ولهم عسى أن ترتاح العباد فصرفهم على ذلك فرجعوا وأخبروا بما جرى ولم يمض على رجوعهم إلا أيام حتى انحدر مراد بيك إلى الجيزة فى جموع كثيرة جدا من الغزو والأجناد والعربان والغوغاء فهال إبراهيم بيك أمر حضوره وجمع أصحابه وجميع الأمراء وحضر بهم إلى ناحية معادى الخبيرى قبالة مراد بيك وأصحابه وأرسل إليه بعض الأمراء فى حراقة ليكلموه فى الصلح ويسألوه عن جميع طلباته فلم يأذن لهم بالدخول عليه فرجعوا وكان الباشا قد أرسل كتخداه أيضا مع إسماعيل أفندى الخلوتى فى حراقة أخرى ليلحقا بمن ذهبوا إلى مراد بيك ويهونا عليه الأمر فلم تصل بهما الحراقة

إلى منتصف النهر حتى صادفتهم الحراقة الأولى راجعة بمن فيها فتبعاها فأطلق عليهما أصحاب مراد بيك مدفعا فاخطأها فأسرعا بالرجوع وهما لا يصدقان بالنجاة ورأى ذلك إبراهيم بيك فغضب جدا وأمر بالمدافع فأطلقت على معسكر مراد بيك فأطلق كذلك مراد بيك مدافعه واستمر الطلق متتابعا بين الفريقين ولم يعبر فريق إلى الآخر وحجزت المعادى جميعها فى الجانبين واستمر الحال على ذلك عشرين يوما واشتد الخطب وضج الناس وتعطلت الأسباب وقفلت الأسواق وتعطلت الطرق برا وبحرا وكثر تعدى الأشقياء والمفسدين وتطاولت أيدى اللصوص وغلت الأسعار وقل وجود الغلال وأفحش قوم مراد بيك فى النهب والسلب من بلاد الجيزة وأكلوا المزروعات فلم يتركوا على وجه الأرض عودا أخضر وعين مراد بيك بعض الكشاف والأتباع يطوفون البلاد ويجمعون الخراج ويقضون الكلف والغرامات من أصحاب المزارع واعتقد الناس تمام الظفر لمراد بيك وأصحابه واشتد خوف الأمراء بمصر منه وتحدث الناس بعزم إبراهيم بيك على الهروب فكبر خوف أهل مصر والقاهرة وكادوا يتفرقون أشتاتا فلما كان يوم الخميس أمر إبراهيم بيك برمى المدافع تباعا فلبثوا اليوم بطوله يوالون الرمى بلا انقطاع فلما خيم الظلام أمر بالكف عن ذلك وعبر خمسة من أمرائه ليلا إلى الجانب الثانى من النيل وساروا تحت جنح الظلام فقابلهم طائفة من عسكر مراد بيك فأطلق الأمراء عليهم بنادقهم فولوا منهزمين فملكوا مكانهم واحتلوه وكان على مقربة من بولاق التكرور وعبر آخرون ومعهم مدفعان وجعلوا يزحفون قليلا قليلا حتى صاروا على مقربة من معسكر مراد بيك وأطلقوا عليه المدافع ووالوا إطلاقها فلم يجبهم أحد فباتوا على ذلك وهم فى تحذر وتتابع بهم عسكرهم وخيولهم فلما ظهر نور الصباح نظروا فلم يروا أحدا فى معسكر مراد بيك وقد رحلوا وتركوا جميع أثقالهم ومدافعهم فساروا إليه واحتلوه وعبر رجال إبراهيم بيك وساقوا خلف مراد بيك وأصحابه إلى حد الشيمى فلم يدركوهم فأقاموا بأرض الجيزة أربعة أيام ثم رجعوا وجازوا بالقاهرة .

ورأى إبراهيم بيك أن بقاء الحال على هذا الوصف مجلبة للدمار ووسيلة للبوار فأراد مصالحة مراد بيك فأرسل لذلك اثنين من كبار أصحابه. قال بعض الكتاب: وكان الحامل له على طلب الصلح واستمالة مراد بيك إليه ما رآه من تحزب عثمان بيك الشرقاوى وعدة من الأمراء ضده وعقدهم النية على الانتقاض عليه وقد استخفوا به وقعدوا له بالمرصاد فأخذ الحذر منهم ثم حضر بعد أيام كتخدا مراد بيك واجتمع

بإبراهيم بيك ثم عاد فأرسل إبراهيم بيك معه ولده مرزوق بيك وهو طفل صغير قد حملته مرضعته فلما وصل الطفل إلى مراد بيك جنح للصلح ومال إليه وقدم للطفل هدية سنية وتقادم جليلة منها بقرة ولابنتها رأسان وعاد مرزوق بيك مع مرضعته ومعه كتخدا مراد بيك ثم عاد الكتخدا وشاع الخبر بقرب قدوم مراد بيك فاجتمع الأمراء عند إبراهيم بيك وخوفوه من حضور مراد بيك وعدم سكونه فحالفهم وعاهدهم أنه إن لم يعتدل يكون الجميع يدا واحدة عليه. فلما كان يوم الجمعة وصل مراد بيك إلى غمازة فركب إبراهيم بيك وقت القائلة فى جماعة وخرج إلى ناحية البساتين ثم رجع من الليل وصعد إلى قلعة الجبل وملك الأبواب ومدرسة السلطان حسن والرميلة والصليبية والتبانة وأرسل إلى عثمان الشرقاوى وأيوب بيك ومصطفى بيك وسليمان بيك وإبراهيم أغا الوالى بأن يخرجوا على الفور من مصر وعين لهم دمياط والمنصورة وفارسكور ليذهبوا إليها فامتنعوا وأظهروا العصيان وأخلدوا إلى التترس والقتال فلم يروا لذلك سبيلا حيث ملك إبراهيم بيك القلعة وجميع المواقع الحصينة وقد بدأت جموع مراد بيك بالدخول إلى القاهرة فلم يروا بدا من الخروج وساروا إلى القليوبية ودخل مراد بيك فى كبكبة وسار إلى زيارة الإمام الشافعى فبلغه هناك خبر تبعيد الشرقاوى ومن معه وقد كان يبغضه بغضا ما عليه من مزيد فأسرع وسار من فوره خلف قلعة الجبل ونزل إلى الصحراء وحث السير حتى أدرك قناطر أبى المنجا ونزل عليها وأرسل خلف الشرقاوى ومن معه طائفة من العسكر فأدركوهم عند شبرا شهاب وناوشوهم القتال وأدركهم مراد بيك فالتطموا فكبا بمراد بيك فرسه وكاد يهلك فأدركه أصحابه ووقعت بين الفريقين مقاتلة خفيفة ثم رجع مراد بيك ومن معه إلى القاهرة وسار الأمراء الخمسة المذكورون وعبروا إلى وردان وكان معهم رجل من كبار العرب اسمه طرهونة يدلهم على الطريق الموصلة إلى الصعيد فسار بهم فى طريق مقفرة وعرة ليس فيها ماء ولا نبات يوما وليلة حتى كادوا يهلكون من العطش وانقطع عنهم جماعة ممن تبعهم وكانوا ينقطعون عنهم كلما اشتد بهم الظمأ حتى اقتربوا من سقارة ورأوا أنفسهم على مقربة من الأهرام فضاق خناقهم وايقنوا بالوقوع فى مخالب العطب فطلبوا هجنا ليركبوها وتركوا أثقالهم ومن معهم فقام عليهم الأتباع ونهبوا الأثقال والأحمال وتفرقوا عنهم فتعطلوا وأناخوا مطاياهم وأسرع مملوك من مماليك الشرقاوى على فرس وحضر إلى مراد بيك وكان بالروضة فأعلمه بخبرهم فأرسل لهم طائفة من الجند فلم تجدهم وقد كانوا رحلوا إلى جهة

أخري خوفا من وقوعهم فى أيدى مراد بك واغتم الناس غما شديدا عندما شاع خبر هروبهم إلى الإقليم القبلى لما ينجم عن ذلك من تعطيل ورود الأقوات مع القحط والغلاء المستحوذ على البلد وبات الناس تلك الليلة وأصبحوا يوم الأربعاء حادى عشرى رجب سنة ثمان وتسعين وقد شاع الخبر بالقبض عليهم وكان من أمرهم أنهم لما وصلوا إلى ناحية الأهرام ووجدوا أنفسهم على مقربة من مصر توارروا قليلا وطلبوا من الدليل أن ينظر لهم طريقا يسلكون منها فركب الدليل وانطلق إلى مراد بيك وأعلمه بمكانهم فأرسل لهم جماعة ليقبضوا عليهم فأحسوا بهم فركبوا هجنا وتركوا أثقالهم وولوا هاربين، وكان أصحاب مراد بيك قد أكمنوا لهم كمينا فلما مروا بالكمين خرج عليهم ومسك بزمام هجنهم من غير ضرب ولا قتال وحضروا بهم إلى مراد بيك بجزيرة الذهب فباتوا عنده ليلتهم وأصبحوا فأنزلوهم بالمراكب كل بمفرده تخفرهم المماليك والأجناد وأبعدوهم إلى الأقاليم البحرية فلبثوا بها زمانا يسيرا ثم راسل بعضهم بعضا واتفقوا على الهروب إلى الصعيد فهرب بعضهم وقبض على بعضهم فشددوا فى تنكيلهم.

واتفق بعد ذلك بقليل خروج الحاج إلى الأقطار الحجازية فأمّروا عليه الأمير مصطفى بيك الكبير فخرج فى موكب حافل للغاية وبرز بخيامه إلى بركة الحاج ينتظر ما بقى من مال الصرة فطال عليه الانتظار فذهب إلى إبراهيم بيك وطالبه بالمال فأحاله على مراد بيك فامتنع مراد بيك وأكثر أمير الحاج من الإلحاح على مراد بيك فلم يسع مراد بيك إلا الدفع وعلم أنها مكيدة من إبراهيم بيك فخرج إلى قصره بالروضة مغضبا وأرسل فى الحال إلى الأمراء المنفيين والهاربين بالصعيد أن يتأهبوا فلما علم إبراهيم بيك بذلك أرسل يستعطفه وترددت الرسل بينهما ونظر إبراهيم بيك فلم يجد حوله أحدا من قومه ورفاقه وقد تركوه وذهبوا إلى مراد بيك فساءه ذلك جدا وركب إلى الرميلة ووقف بها ساعة حتى سارت أحماله وأثقاله صحبة عثمان بيك الأشقر وعلى بيك أباظة يريد الصعيد وسار هو بعد ذلك من خلف الجبل وليس له من الأتباع سوى على أغا كتخدا الجاويشية وعلى أغا مستحفظان المحتسب وصناجقه الأربعة فلما بلغ مراد بيك خبر ركوبه على هذه الصورة ركب خلفه برهة من الليل ثم رجع وأصبح وهو منفرد بحكم البلاد فسر بذلك كثيرا وجعل يولى المناصب الغالية لمن شاء من قومه واستقدم بعض الأمراء المنفيين وقلدهم بعض المناصب ونادى مناديه بالأمان وأخرج الغلال المخزونة لتباع على

الناس وقد كان اشتد بهم الجوع وعظم أمر مراد بيك وعلت كلمته فلم يترك للوالى شيئا يتصرف فيه بل زاد فى الحجر عليه إذ كان يغضبه لميله إلى إبراهيم بيك عليه واتفق أن قدم فى هذه الأثناء رسول من دار السلطنة ومعه مرسوم سلطانى بتقرير محمد باشا الوالى المذكور على ولاية مصر سنة أخرى فظن الباشا بلوغ الأمل فطلب جميع الأمراء إلى الديوان ليقرأ عليهم ذلك المرسوم كالعادة فلم يجبه أحد منهم وأهمل ذلك مراد بيك ولم يلتفت إليه فكرر الباشا الطلب فلم يسمعوا قوله فساءه ذلك وأغضبه وأرسل إلى مراد بيك يعاتبه ويسفه رأيه فأرسل إليه مراد بيك فى الحال يأمره بالنزول من القلعة فامتنع فأرسل جماعة من أتباعه فأنزلوه قهرا إلى قصر العينى محجورا عليه وتولى مراد بيك النيابة وعلق الأستار فكانت ولاية محمد باشا المذكور أحد عشر شهرا سوى الخمسة أشهر التى أقامها بثغر الإسكندرية وكانت أيامه كلها شدائد ومحنا وخطوبا وإحنا وجوعا وغلاء وزيادة ونقصا فى النيل وغير ذلك .

ولما استقر المنصب بمراد بيك وتم له الأمر أكثر من طلب الأموال وتفريد المغارم على البلاد فلما لم يبق فيها شيء حوّل الطلب على الملتزمين وبعث لهم المعينين فى البيوت فاحتاج الكثير منهم إلى بيع متاعه ودوره ومواشيه بسبب ذلك ثم تطاولت أيدى عمال مراد بيك إلى المواريث فكان إذا مات أحدا أحاطوا بمتروكاته سواء كان له وارث أو لا. قال بعض كتاب الأخبار: وصار بيت مال المسلمين من هذا الحين منصبا من المناصب الديوانية التى يتولاها الناس بجملة من المال فى كل شهر ولا يعارض فيما يفعل فحل بالناس ما لا يوصف من أنواع البلايا وانقطعت الطرق وكثرت عربدة الأشقياء والغوغاء ومنعت السبل إلا بالخفارة ورحل الفلاحون من بلادهم لقصور النيل وشرق الأرض والمظالم المتراكم بعضها فوق بعض وانتشروا فى جوف المدينة بأولادهم ونسائهم يضجون من الجوع ويأكلون ما يتساقط فى الطرقات من قشور البطيخ وغيره، ثم اشتد بهم الحال فأكلوا الميتات من الخيل والحمير والجمال. قال: فكان إذا خرج من المدينة حمار ميت تزاحموا عليه وتضاربوا وقطعوه وأخذوه بل منهم من كان يأكل منه نيئا من شدة الجوع ومات كثير من فقراء المدينة أيضا جوعا وعز الدرهم والدينار فى أيدى الناس وقل التعامل فيما يؤكل أهـ.

ثم وردت الغلال من الديار الشامية والرومية فانفرجت الأزمة بعد الشدة وبيع الأردب منها بألف وثلثمائة نصف فضة وأرسل شريف مكة إلى المشايخ والعلماء

يتشكى من انقطاع ورود غلال الحرمين فلم يلتفتوا إليه ولا ردوا عليه جوابا فكانت جميع هذه البلايا والمحن ضربة شديدة على هامة مراد بيك وسببا فى عجزه عن القيام بتدبير البلاد وسياستها لاسيما وقد كان إبراهيم بيك الكبير له بالمرصاد فلما أحس بعجزه وأيقن أن لا قبل له على تولى أمور البلاد أرسل إلى إبراهيم بيك الشيخ الدردير وآخرين معه ليكلموه فى أمر الصلح ورجوعه إلى القاهرة على ما يحب فساروا إليه وكلموه وبعد جدال قبل الصلح والعود إلى القاهرة بشرط رجوعه إلى مشيخة البلد ورجوع على أغا كتخدا الجاويشية إلى منصبه فلما رجع الرسل وأخبروا بما يسأله إبراهيم بيك جمع مراد بيك الأمراء وأصحاب المناصب العالية وقرأ عليهم شروط إبراهيم بيك فأذعنوا لها وأحلوها محل القبول وأعادوا الرسل بالإجابة فلما وصلوا إليه عاد فانتقض وطلب طلبات أخرى جديدة فعاد الشيخ الدردير ومن معه وأخبروا بانتقاض إبراهيم بيك فلم ير مراد بيك بدا من معاودته وأرسل إليه ثانياً أيوب بيك الكبير وأيوب بيك الصغير ليهوّنا عليه فلما وصلا إلى بنى سويف أرسلا فاستقدما إليهما سليمان بيك الأغا وعثمان بيك الأشقر ثم ساروا جميعا إلى إبراهيم بيك وتكلموا معه فى الصلح فأجابهم وساروا جميعا إلى منية ابن خصيب ثم انحدروا منها إلى مصر فدخلوها فى يوم الاثنين رابع ربيع الثانى سنة تسع وتسعين ومائة وألف وحطوا رحالهم عند معادى الخبيرى فعبر إليهم مراد بيك فى عدة كبيرة من الأمراء والوجاقلية والمشايخ وعانق مراد بيك إبراهيم بيك وبكى ثم عبروا جميعا النيل إلى مصر ودخل إبراهيم بيك بيته ودخل معه مراد بيك ولبثا معا حصة طويلة فأقام ثلاثة أيام ثم جاءه مرسوم الباشا بالاستقرار على مشيخة البلد ومع المرسوم خلعة الولاية فلبسها بحضرة مراد بيك والمشايخ فقام عند ذلك مراد بيك وقبل يده وكذلك بقية الأمراء وردّت الوظائف إلى أصحابها وأخذ إبراهيم بيك من يومه يتصرف فى الأمور وينظر فى مصالح الرعية فتزاحم أرباب الخصومات على بابه ورفعت إليه القصص فأمر ونهى وأعطى ومنع وقسم المناصب بين ذويها.

وأعقب رجوع إبراهيم بيك إلى القاهرة حصول طاعون شديد فأخذ فى الاشتداد يوما عن يوم وكثر بسببه الموات فخرج الناس من مصر والقاهرة إلى الضواحى والقرى فرارا منه فلحق بهم واشتد وسقط الناس فى الشوارع والطرقات واهتم إبراهيم بيك بدفن الموتى فشدد على الوالى وأعوانه فكانوا يطوفون فى النهار والليل ويحملون الموتى من الطرق على ظهور الدواب ويدفنونهم بغير غسل ولا كفن عشرات عشرات وطالت مدته فكانت ثقيلة للغاية حتى قدر الله فارتفع وعاد الناس

إلى القاهرة وتناسوا أمره وكان عدد من مات لا يكاد يدخل تحت الحصر وأعقب زوال الطاعون.

(مطلب)

عزل محمد باشا وولاية محمد يكن باشا

ورود الخبر من دار السلطنة بخلع محمد باشا وولاية آخر اسمه محمد يكن باشا فلما وصل إلي الإسكندرية ومر بشوارعها يريد التفرج وقف له العامة بالطريق وصاحوا فى وجهه وسبوا حاكم الإسكندرية وقبحوا أعماله ونادوا عليه بالويل وكان قد وقع بينهم وبينه فتنة كبرى وذلك أن أحد أتباعه وقع بينه وبين أحد العامة مشاجرة أدت إلى الملاكمة فتطاول تابع الحاكم وضرب الرجل فقتله فاجتمعت عند ذلك العامة وعلت الضوضاء وكثرت الغوغاء وحملوا المقتول على نعش إلى مقر الحاكم وشكوا له ما وقع من تابعه فحوّل وجهه عنهم ولم يلتفت إلى شكواهم فألحوا عليه فأمر أعوانه بطردهم فثاروا وقبضوا عليه وأنزلوه من ديوانه وأركبوه على حمار بالأكف عرضا وهو حاسر الرأس وعلا الصياح وطافوا به جميع شوارع المدينة على هذا الحال وهم يضربونه ويصفعونه بالنعال ويلطخون وجهه بالطين فكان يوما عبوسا أقفلت فيه جميع الدكاكين وسدت الأبواب وانكمش الناس فى بيوتهم وتطاولت أيدى الحرافيش إلى الخطف والسرقة وفعل ما لا خير فيه ومازالوا على هذا الحال اليوم كله حتى سقط الحاكم بين أيديهم فتركوه وتفرقوا فجاء أتباعه وحملوه فلبث أياما كثيرة حتى تراجعت إليه صحته فلما كثر صياحهم فى وجه الباشا سأل عن السبب فحدثوه بخبر ما جرى للحاكم فانقبض وهوّن عليهم ووعدهم خيرا ثم نزل من يومه على إحدى السفن يريد القاهرة ووصل إلى امبابة فبات ليلته وأصبح فذهب إليه الأمراء وأصحاب الوظائف وعبروا معه النيل إلى قصر العينى فلبث به ثلاثة أيام ثم ركب فى موكبه وصعد إلى قلعة الجبل فلما استقر به المنصب سأل مراد بيك عن مال الخزينة السلطانية وطلب منه سرعة إرساله فأظهر العناية بذلك وسار فى جماعة من كشافه ومماليكه وأتباعه إلى الغربية وجعل يطالب أهلها بالأموال وقد فرض عليهم منها شيئا كثيرا فضلا عن الكلف الخارجية وغير ذلك فكان المعينون للطلب إذا استوفوا شيئا من ذلك طلبوا حق الطريق فإن تأخرت قرية أو بلدة فى أداء

شيء من ذلك قاموا عليها ونهبوها وربما قتلوا منها أناسا ولم يزل مراد بيك وأصحابه على هذا الحال حتى وصلوا إلى رشيد فقرروا على أهلها جملة من المال وكذلك على التجار واشتد الطلب وعين على الإسكندرية أحد كشافه وضرب عليه كذلك مائة ألف ريال نقرة وقيد معه بعض الجباة فعاثوا وشددوا وضيقوا وأمرهم بهدم جميع كنائس الإسكندرية فهدموا منها عدة كنائس وهرب التجار وسافروا إلى الدياز الشامية والرومية وغيرهما فرارا من الطلبات المتتابعة ثم أقفل راجعا بمن معه إلى الدقهلية ففعلوا بها ما فعلوه برشيد والإسكندرية ثم إلى الشرقية وغيرها. وقد أفحش كشافه بمصر والقاهرة فى تعقب الناس وسلب أموالهم ومصادرة أصحاب البيوت. وهجموا يوما على بيت شخص اسمه أحمد سالم الجزار متولى رياسة دراويش الشيخ البيومى فنهبوه ولم يبقوا به شيئا ألبتة فثار لذلك أهل الحسينية وحضروا إلى الجامع الأزهر وهم فى ضجة وأمامهم طبول ودفوف فاجتمع عليهم جماعة كثيرة من العامة والسوقة وبأيديهم المساوق والعصى وذهبوا إلى الشيخ الدردير وشكوا إليه فشجعهم وحرضهم على التظاهر والخروج فساروا من الجامع وقد أقفلوا أبوابه وصعد منهم جماعة على المنارات وجعلوا يضجون ويضربون بالطبول ثم انتشروا فى الأسواق وهم فى صياح وجلبة وأغلقوا الحوانيت. قال بعض كتاب الأخبار: ومناهم الشيخ الدردير بالركوب معهم فى غد ومعه أهل الأطراف والحارات وبولاق ومصر القديمة لنهب البيوت أو أن يموتوا شهداء فلما كان بعد المغرب جاء سليم أغا مستحفظان ومحمد كتخدا إبراهيم بيك وجلسوا فى الغورية ثم ذهبوا إلى الشيخ الدردير وكلموه فى الأمر وقد خافوا من تضاعف الخطب واستفحال الفتنة ووعدوه بردّ جميع ما أخذ من بيوت الحسينية وإجراء ما فيه المصلحة للعميان والمجاورين بالأزهر وبعد جدال تقررت القاعدة بينهم على ما ذكر وسكنت الفتنة وعادت الأمور إلى سابق مجراها.

- ولما لم يرسلوا إلى الخزينة السلطانية ما لها من الأموال رغما عن كثرة الطلب أمر السلطان بتسيير بعض مراكب الحرب إلى الإسكندرية ورسولا مخصوصا معه مرسوم سلطانى خطابا إلى الأمراء فى شأن ذلك فدخل الرسول القاهرة وسلم المرسوم إلى إبراهيم بيك فجمع إليه مراد بيك وبقية الأمراء وتكلموا فى الأمر طويلا فلم يتفقوا على شيئ وطال اجتماعهم أياما على غير جدوى فبينما هم على هذا الحال إذ جاءهم الخبر بحضور مراكب أخرى إلى ثغر دمياط وعلى إحدى تلك

كبار البحر المدعو حسن باشا فخاف الأمراء وارتبكوا فى أمرهم وشاع الخبر فتحدث الناس به وكثر اللغط فركب سليم أغا مستحفظان ونادى فى الأسواق على الروم والغليونجية والترك المقيمين بمصر بأن يرحلوا إلى بلادهم بلا مهل ومن وجد منهم بعد ثلاثة أيام قتل بلا معاودة فأثر هذا النداء فى الناس وتزايد خوفهم وأرسل إبراهيم بيك اثنين من كبار أمرائه إلى رشيد لخفارتها ولكى يتحالفا مع عرب الهنادى على أن يكونوا عونا لهم عند مسيس الحاجة ثم كتبوا قصة ليرفعوها إلى دار السلطنة تتضمن أنه لم يكن من مانع يمنع إرسال أموال الخزينة السلطانية سوى كساد الحال وتعطيل أسباب التجارة والزراعة وأنهم سيبذلون جهد الاستطاعة فى إرسالها فى العاجل القريب. فلما كانت ليلة الخميس عاشر رمضان سنة مائتين وألف هجرية ركب إبراهيم بيك ومعهم مراد بيك وجماعة من الأمراء ومشايخ الوقت ودخلوا على الباشا بمقره فأعلموه بصورة ما وقع الاتفاق عليه وطلبوا وساطته بينهم وبين الباب العالى وأنهم من الآن يقومون بترتيب الأمور وتنظيم الأحوال على ما تشاؤه الدولة فكان طورا يمنيهم وأخرى يقبح فعالهم ثم بعد أخذ وردّ وافقهم على إرسال قصتهم وسير بها كتخداه وانصرف الأمراء وهم لا يدرون ما ستكون عاقبة حضور تلك السفن. وجاءهم الخبر بعد أيام قلائل من حاكم رشيد بأن قد نزل فريق من العساكر العثمانية المنظمة بالأسلحة وآلات الحرب إلى البر ومعهم قائد من كبار القواد وأنه لم يعرف شيئا من عزمهم فكبر خوف إبراهيم بيك ومراد بيك وهالهما حضور العساكر فشددا فى جمع غلال الحرمين وغلال الأنبار وجمع أموال الخزينة السلطانية وبالغا فى التشديد وألزما المعلم إبراهيم الجوهرى عظيم القبط بمصر يومئذ بجميع ذلك وبعثوا سفراء إلى حسن باشا أمير سفن الحرب من المشايخ والعلماء والوجاقلية ومعهم هدية مائة فرق من البن اليمنى ومائة قنطار سكر وعشر بقج ثياب هندية وتفاصيل كثيرة وعودا وعنبرا وغير ذلك فسافروا فى يوم الجمعة ثامن عشر رمضان من السنة فلم يكادوا يبلغون الإسكندرية حتى قدم إلى القاهرة رسول من قبل تلك السفن واجتمع بإبراهيم بيك قيل وعاتبه وقال: كيف تبعثون بسفارة إلى الأمير فى طلب الصفح عما وقع والعفو عما فات وقد أخذتم أهبتكم للحرب والقتال وأكثرتم من جمع الأسلحة والكراع؟ فقال إبراهيم بيك: معاذ الله أن نحارب رجال دولتنا وأمناء سلطاننا على عساكره وجنوده وهب أنا فعلنا فقد تبنا وندمنا ورجعنا إلى الحق فقال: وكيف ذلك وقد بعثتم منذ أيام بقوم قد طافوا البلاد فضربوا على أهلها

المغارم الثقيلة والمكوس الفادحة وجمعوا الغلال وضربوا على كل بلد أردبين من بن القهوة وهذا الصنف غريب عن زراعة البلاد حتى ضج الناس وهربوا وتركوا البلاد خاوية على عروشها وهاهم يموتون جوعا وبردا على الجسور وسواحل الترع وقد أقلق القبطان صوت صراخهم فقال مراد بيك وقد كان حاضرا ليس فى الأمر شئ من ذلك وما هى إلا وشاية من الأعداء يقصدون بها إبعادنا عن رحمة سلطاننا ورضائه وها أنت قد رأيت أن لا مدافع عندنا ولا بنادق ولا أثر للاستعداد ولله الحمد. قال بعض الكتاب: ولم يكن القول من رسول أمير السفن بتطواف الأمراء فى البلاد وأخذ الكلف والمغارم جزافاً فإنه لما سافر الأمراء الاثنان اللذان بعث بهما إبراهيم بيك لخفارة رشيد وسافر معهما أتباعهما وبعض الجند والمماليك مروا بالبلاد وطلبوا هذه الكلف والمغارم وحرقوا وردان لعدم إذعان أهلها للطلب فضج الناس وذهبوا إلى المعسكر العثمانى وشكوا إلى مقدم العسكر ما ألم بهم فهوّن عليهم وكتب لهم فرماناً برفع الخراج عنهم سنتين ثم سار مقدم العسكر المشار إليه من الإسكندرية إلى رشيد فى أبهة وجلالة وكتب عدة فرامين بالعربية إلى مشايخ البلاد وأعيانها ومشايخ العربان وأصحاب الكلمة من أهالى المدن يقول فيها ما نصه :

صدر هذا الفرمان الشريف الواجب القبول والتشريف من ديوان حضرة الوزير المعظم والدستور المكرم عالى الهمم وناصر المظلوم على الظالم مولانا العزيز غازى حسن باشا سر عسكر السفر البحرى المنصور حالاً ودونانمة همايون أيدت سيادته السنية وزادت رتبته العلية إلى المشايخ وعمد البلاد ومشايخ العرب المقيمين بديار مصر وفقهم الله تعالى. نفهمكم أنه بلغ حضرة مولانا السلطان نصره الله ما هو واقع بالقطر المصرى من الجور والظلم للفقراء وكافة الناس وأن سبب هذا خائنو الدين إبراهيم بيك ومراد بيك وأتباعهما فتعينا بخط شريف من حضرة مولانا السلطان أيده الله بعساكره المنصورة بحراً لرفع الظلم ولإيقاع الانتقام من المذكورين وتعين عليهم عساكر منصورة برا بسارى عسكر عليهم من حضرة مولانا السلطان نصره الله وقد وصلنا إلى ثغر الإسكندرية ثم إلى رشيد فى سادس عشر رمضان سنة مائتين وألف فحررنا لكم هذا الفرمان لتحضروا وتقابلونا ثم ترجعوا إلى أوطانكم مجبورين مسرورين إن شاء الله تعالى فحين وصوله إليكم تعملوا به وتعتمدوه والحذر ثم الحذر من المخالفة وقد عرفناكم ا.هـ.

فلما علم إبراهيم بيك ومراد بيك بما جاء فى ذلك الفرمان من الوعيد والتهديد

كبر خوفهما وكادا يسقطان فى أيديهما واجتمعوا بأصحابهما وتشاوروا فرأو أن الخرق قد اتسع والوحشة قد استفحلت والقتال لابد منه فاستقر رأيهم على العصيان والخروج عن طاعة السلطان وكان النيل قد أخذ فى الزيادة فباتوا ليلتهم وأصبحوا وقد بدءوا فى جمع العساكر وتجنيد الجند وإعداد معدات الحرب واتفقوا على أن يسيروا هذا الجيش مع مراد بيك إلى مدينة فوّة فيمنعوا الطريق ثم يرسلوا إلى حسن باشا المشار إليه خطاباً يعلمونه بأنهم شارعون فى عمل الحساب والقيام بغلاق المطلوب للدولة ويسألونه الرجوع إلى دار السلطنة فإن امتثل فيها وإلا فالحرب. وجمعوا السفن وعبوا الذخيرة ونقلوا متاعهم وأثاثهم ورياشهم إلى بيوت أخرى صغيرة بجهة المشهد الحسينى والشنوانى والأزهر وأمروا بغلق الأسواق ليلا والكف عن الختمات والقرآت فى ليالى رمضان فكثر عند ذلك اللغط وتزايد الهرج وخاف الناس سوء العاقبة وظهرت على مراد بيك وإبراهيم بيك وأصحابهما لوائح الخذلان وبرز مراد بيك بعسكره إلى ناحية بولاق وعبروا النيل ليلاً إلى انبابه ونصبوا معسكرهم وخرج مع مراد بيك مصطفى بيك الداودية ومحمد بيك الألفى وحسين بيك الشفت ويحيى بيك وعثمان بيك الأغا وعثمان بيك الشرقاوى وعثمان بيك الأشقر فسايرهم إبراهيم بيك الكبير مودعاً وعانق كلاً منهم وعاد إلى القاهرة وسار مراد بيك قاصداً فوّة وأصبح إبراهيم بيك وقد عاد رسله الذين ساروا إلى أمير سفن الحرب العثمانية وقالوا إنهم اجتمعوا عليه ثلاث مرات الأولى عند وصولهم فقابلهم بالإعزاز وأكرم وفادتهم وأنزلهم بمكان ورتب لهم المأكل والمشرب فى الإفطار والسحور ثم دعاهم فى ثانى يوم وكلمهم قليلاً فى أمر البلاد وما يكابده أهلها من جور الحكام وظلم الولاة والحروب المستمرة وأنه قدم ليعاقب الظالم. قال راوى هذه الحكاية: فقال الشيخ العروسى يامولانا رعية مصر ضعفاء وبيوت الأمراء مختلطة ببيوت الأهالى وهذه طامة كبرى فقال: لا تخشوا من شيء فإن أول ما أوصانى مولانا أوصانى بالرعية وقال إن الرعية وديعة الله عندى وأنا استودعتك ما أودعنيه الله تعالى ثم قال: كيف ترضون أن يملككم مملوكان كافران وترضونهم حكاماً عليكم يسومونكم العذاب والظلم؟ ولماذا لم تجتمعوا عليهم وتخرجوهم من بينكم؟ فأجابه إسماعيل أفندى الخلوتى وقال هؤلاء يامولاى عصبة شديدة البأس وكلهم يد واحدة فغضب الأمير من قوله ونهره وقال: ويحك أترهبنى ببأسهم وشدتهم؟ فاستدرك وقال أعنى بذلك يامولاى أنفسنا لأنه أضعفوا الرعية فحول وجهه عنهم

ساعة ثم صرفهم قالوا والثالثة كانت فى يوم جمعة بعد الصلاة فاستأذنو فى الانصراف فقال فى غد أكتب لكم مرسوماً للرعية فتقرءونه جهاراً فى الجامع الأزهر فاعتذر الشيخ العروسى وقال تشتد الفتنة يامولاى فقبل عذره وقال يكفى الاستفاضة ثم عوقهم يومين آخرين ثم كتب لهم مكاتبات وسلمها إلى أحدهم سليمان بيك الشابورى وسرحهم فودعوه ورجعوا وحدثوا بما جرى. أما رسول إبراهيم بيك الذى سار بالهدية إلى مقدم العسكر الشاهانى والمكاتبة كما تقدم فإنه لما وصل إلى الإسكندرية قبض عليه مقدم العسكر المشار إليه وعوقه عن السفر إلى دار السلطنة وأخذ منه المكاتبة ثم سرحه فعاد إلى القاهرة وأخبر بما جرى له. ووزع مقدم العسكر المذكور عدة مراسيم على مشايخ البلاد وكبار القرى وقد كانت هذه المراسيم وردت إليه من دار السلطنة خطاباً إلى المشايخ والأعيان فشاع خبرها وتحدث الناس بها وبالغوا وهوّلوا وأرجفوا وقالوا: لم يبق إلا الحرب والقتال فركب إبراهيم بيك عندئذ واجتمع بالشيخ العروسى والشيخ الدردير والشيخ البكرى وكلمهم فى أمر العامة وأراجيفهم وحثهم على مراقبة أحوالهم ولزوم حضهم على ملازمة الهدوء والسكينة وأبلغهم خبر انتصار عسكر مراد بيك على بعض العساكر العثمانية بعد قتال عسى أن تهدأ الخواطر وتطمئن القلوب مع أنه لم يحصل شىء من ذلك إلى يومها. وجعل إبراهيم بيك يوالى إرسال المدد والمؤن والأسلحة إلى مراد بيك فكانوا يمرون بها من وسط المدينة ليراها الناس ويعجبوا بها.

وبينما هم على هذا الحال من المواربة وإخفاء الحقائق إذ رست ببولاق مصر سفينة من السفن التى كانت تتبع عسكر مراد بيك فى النيل وفيها كثير من المرضى والجرحى من العسكر والمماليك والوجاقلية فتسابق الناس لاستطلاع أحوالهم ومعرفة حقيقة أخبارهم فأخبروا بهزيمة مراد بيك وعساكره وتمزيق شملهم. وذلك إنه لما وصل مراد بيك إلى الرحمانية عبر سليمان بيك الأغا وعثمان بيك الشرقاوى والألفى النيل إلى البر الشرقى وساروا فوقع بينهم نزاع أدى إلى الخلف فراجع بعضهم بعضاً فكان ذلك أول الفشل ثم تقدموا إلى محلة العلويين وكان بها فريق من العساكر الشاهانية فأخلوا عنها فدخلوا إليها وملكوها وأرسلوا إلى مراد بيك فى طلب المدد فرسم إلى بعض الأمراء أن يعبروا النيل لإمدادهم فامتنعوا فأكبر مراد بيك ذلك وأعظمه وسير بدلهم جماعة من العربان ثم أمر بالركوب فركب من ركب وتأخر من تأخر وسار العسكر جميعه يريدون فوّة فصادفهم فى طريقهم فريق من

العساكر الشاهانية وراء المتاريس فخافوا من التقدم إلى الأمام لوعر الطريق وضيقه وكثرة المساقى والمزارع، وكان فى مقدمة العساكر المصرية سليمان بيك أحد كبار الجند فلما صاروا فى مقربة من متاريس عسكر السلطان وجهت العساكر السلطانية أفواه بنادقهم نحو سليمان بيك المذكور ومن معه فانذعر ورجع مسرعاً إلى الوراء فكبا به فرسه وسقط فحصلت فى جموعه ضجة وظنوها هزيمة فرجعوا جميعاً القهقرى فتبعهم العربان الذين كانوا معهم وأخذوا منهم ما قدروا على أخذه من متاع وسلاح فعبروا النيل وكان مراد بيك محتلاً بمن معه فى مكان ضيق وعر المسالك فأشاروا عليه بتركه والارتحال إلى غيره واجتمعوا وهم على يقين من الهزيمة فكانوا يتخيلون أن العساكر السلطانية سائرة خلفهم ومن أمامهم لتذيقهم مر العطب ومازالوا على هذا الحال من الخوف والطيرة حتى خيم الليل فساروا تحت جنح الظلام ورجعوا القهقرى وطارت الأخبار بذلك فى مصر والقاهرة فعم الخوف جميع الأهالى وصاروا يضطربون من كل شيء ويتطيرون من كل شيء فكان إذا صاح صبى يا أماه ظنوا صياحه مقتلة وإذا نادى مناد على شيء قالوا هى عربدة. واتفق أن مملوكاً أراد الركوب على حمار أحد المكارية فازدحم عليه الحمارة على عادتهم وتراكضوا خلفه ناحية الصاغة فظن الناس أنها وقعة وأن العدو على أبواب الصاغة فتراكضوا جماعة خلف جماعة وصاحت الصغار فاضطرب أصحاب الحوانيت وأسرعوا فى غلق حوانيتهم بالأشراقية والغورية والعقادين إلى باب زويلة وغيره من الجهات القريبة ثم ظهر بعد ذلك أن لا شيء ألبتة فعاد الناس إلى أشغالهم. ووصل فى غروب ذلك اليوم كثير من الجرحى والمرضى من عسكر مراد بيك ومماليكه وطوائفه فزاد الإرجاف واشتد القلق ونزل الباشا من القلعة إلى باب العزب واستقر به وهم إبراهيم بيك بأخذ أبواب القلعة فلم يفلح وأرسل الباشا يطلب قاضى القضاة والمشايخ فى تلك الليلة، فصعد إليه بعضهم وتأخر البعض إلى الصباح فصعدوا جميعاً وصعدت كذلك طوائف الوجاقلية ورفع الباشا البيرق على باب العزب ونزل جاويش مستحفظان وجاويش العزب وأمامهما المناداة على العسكر والأجناد والطائعين كافة لله تعالى وللسلطان أن يأتوا تحت البيرق فخرج جميع العساكر والأجناد والتجار وأهل خان الخليلى وعامة الناس على اختلافهم حتى امتلأت الرميلة وقراميدان من الخلائق وأرسل الباشا يستحث أمير السفن العثمانية فى القدوم وكان فى عزمه التربص إلى خروج الحاج فيأتى إلى القاهرة ومعه العساكر البرية أيضاً فأخذ يتأهب

للحضور ووردت الأخبار بذلك إلى إبراهيم بيك.

ولما رأى إبراهيم بيك تسابق الناس إلى الطاعة واجتماعهم بقراميدان والرميلة وغيرهما أخذ فى نقل أمتعته من ثقيل وخفيف إلى دوره الصغيرة واحتجب عن الناس إلا القليل وتركه الأمراء كافة وطلعوا إلى الباشا يطلبون الأمان فكان الرجل منهم يأتى إلى باب العزب فيطرقه وينادى فلان يطلب الأمان ويكرر النداء وينتظر واقفاً على أقدامه برهة طويلة حتى يأتيه فرمان بالأمان فيدخل بغير سلاح خاضعاً ويبقى مع من بالقلعة أما الصغير منهم فإنه بعد أن كان يعطى له الأمان ينحدر إلى الرميلة أو قراميدان ويبقى مع من هم بها وكان الذين طلبوا الأمان من كبار الأمراء جماعة كثيرة وكذلك من الغز والأجناد، ولما تكامل حضور من حضر من المشايخ والعلماء الطائعين أبرز الباشا خطاً سلطانياً وقرأه عليهم وهو يتضمن الحث على سرعة إرسال إبراهيم بيك ومراد بيك إلى دار السلطنة وتأمين كل من يطلب الأمان أو غير ذلك وبعد تلاوة ذلك المرسوم أقر بعض أصحاب الوظائف العالية فى مناصبهم وفرق بقية الوظائف بينهم ونزلوا إلى المدينة ونادوا بالأمان والبيع والشراء ونادوا كذلك فى الناس بالانصراف إلى بيوتهم بشرط الإجابة عند الطلب ولم يبق إلا المحافظون على الأبواب وأصحاب الرتب. أما مراد بيك فإنه حضر فى ثانى يوم هذا الحادث إلى جهة انبابة وبات ليلته تلك وقام غلسًا إلى جزيرة الذهب وركب إبراهيم بيك فى تلك الليلة وذهب أيضاً إلى الآثار ونادى المنادى فى ثانى يوم بصعود الناس إلى قراميدان والرميلة فصعدوا أفواجاً أفواجاً وكثر زحامهم فنودى فيهم بالأمان وملازمة الهدوء والسكون. وتخييل الباشا من إبراهيم بيك أمير الحاج وقد كان ممن طلب الأمان فرسم له عند ذلك بالنزول إلى بيته فنزل من القلعة إلى جامع السلطان حسن وأقام به فأرسل إليه الباشا بالذهاب إلى بيته فذهب واجتمع ببعض الأمراء فى تلك الليلة سراً وأصبحوا فخرج سليمان بيك وأيوب بيك الكبير والصغير وهم ممن طلبوا الأمان أيضاً فأجيبوا إليه وساروا إلى مضرب النشاب وركب إبراهيم بيك أمير الحاج وذهب إلى بولاق ليأخذ جمال المناخ المعدة لخدمة الحاج فمنعه من أخذها عسكر المغاربة فرجع إلى مضرب النشاب فلما جاء الخبر بذلك إلى الباشا بعث إليهم رسولاً ومعه مرسوم خطاب لهم بأن يرجعوا إلى بيوتهم وأن لا يجتمعوا أبداً على هذه الصورة فمزقوا المرسوم وضربوا الرسول وأقاموا على هذا الحال أياماً بالمصاطب فاجتمعت عليهم عند ذلك طوائفهم وركبوا ولحقوا بمن خرج

قبلهم فاضطربت البلد وظن الناس صعودهم إلى المقطم بالمدافع ليطلقوها على المدينة والقلعة وأغلق الناس جوانيتهم فركب الباشا بعد صلاة الجمعة وركب كذلك قائد أغا ومعهما كثير من المماليك والعسكر يحملون البنادق والقرابين ووصلوا إلى الرميلة ورموا بالبنادق على جماعة الأمراء وأطلقوا عليهم المدافع فانحدر المتحزبون الى الصليبة ثم باب زويلة ومروا بالغورية والأشرفية وبين القصرين وطلعوا من باب النصر وأمامهم المنادى ينادى أمان واطمئنان حكم ما رسم إبراهيم بيك ومراد بيك وحكم الباشا بطال فلما سمع الناس ذلك ورأوا اجتماع الأمراء على هذه الصورة انزعجوا وأغلقوا الدكاكين وهاجوا وماجوا وعلم الباشا بخروجهم على هذه الصورة فأمر فحصنوا القلعة والمحمودية والسلطان حسن ونادى الأغا فى الجند والعسكر بالصعود إلى قلعة الجبل فصعدوا وجعل كل فريق يتأهب للحرب والقتال وعم الخبر مصر والقاهرة فانتشر عند ذلك الأشقياء فى الطرق والحارات ينهبون المارة وتطاولت أيديهم إلى القتل فى رابعة النهار وانقطعت الطرق حتى إلى بولاق القاهرة ومصر القديمة وركب إبراهيم بيك وحسين بيك فى نفر وأتوا إلى مناخ الجمال ليأخذوا جمال الحاج فدفعهم المغاربة فعربدوا فى ذلك الصقع عربدة لا توصف وطلعوا بعد العشاء وباتوا فى السبيل الذى على رأس الرميلة وشدد الباشا فى طلب العسكر وأنفق عليهم نفقة عظيمة فكثر تواردهم إلى قلعة الجبل وفى مواقع المتاريس والحصون واشتد الكرب بالناس وضاق خناقهم وكان الصياح لا ينقطع فى كل يوم فى أطراف الحارات من قحة اللصوص وتسلط النشالين ودخولهم البيوت ليلا وقتالهم مع أصحابها نهاراً وشاع فى هذه الأثناء خبر وصول بعض مراكب حرب الدولة إلى شلقان ومجىء حسن باشا مقدم العسكر السلطانى ففرح الناس وصعدوا إلى المنارات وأعالى الأسطحة ينظرون إلى النيل فلم يروا شيئاً فى ذلك اليوم فاشتد الانتظار وزاغت الأبصار فلما كان بعد عصر اليوم سمع صوت مدافع على بعد فأجابتها مدافع القلعة ففرحوا واستبشروا وحصل بعض الاطمئنان وصعدوا إلى المنارات فرأوا عدة مراكب ونقاير رست على بولاق القاهرة فسروا سروراً ما عليه من مزيد وضجوا ضجيج الفرح فارتجت الأرض من ضجيجهم وكان مراد بيك وجماعة من أمرائه قد ذهبوا إلى بولاق وشرعوا فى عمل المتاريس جهة السبتية وأحضروا عدة مدافع وجمعوا أخشابا وشيئاً كثيراً من حطب الذرة وزنابيل وغير ذلك فبينما هم يشتغلون فى إحكام تلك المتاريس إذ دهمتهم مراكب حسن باشا تجاه المتاريس

فتركوها وولوا الأدبار فضج الناس وصاح الصبيان صياح الهزء والفرح وخرجت النساء يزغردن واحتطن بمدافع مراد بيك. وكسرن أخشابها وأخذنها للحريق.

واجتمع إبراهيم بيك ومراد بيك وجميع الخوارج وكتبوا إلى قاضى القضاة والمشايخ يظهرون التوبة والرجوع إلى الطاعة فقرئت كتابتهم بحضرة محمد باشا يكن. قال الراوى: فقال سبحان الله كم يتوبون وكم يعودون فاكتبوا لهم جوابا معلقاً على قدوم قبطان باشا فكتبوا لهم بذلك ووصل حسن باشا فى عشاء ليلة الاثنين ثانى عشر شوال سنة مائتين وألف فأطلقوا لقدومه المدافع من بولاق القاهرة وبات ليلته وأصبح فركب ودخل القاهرة من ناحية باب الخرق ونزل ببيت إبراهيم بيك الكبير بأتباعه وحاشيته وعسكره ووصل بعده الشيخ الأترم المغربى فى طائفة من المغاربة فنزل بهم ببيت يحيى بيك فسكن الحال واطمأنت قلوب الرعية وفتحت أبواب قلعة الجبل ونزل من بها وشاع الخبر بذهاب إبراهيم بيك ورفاقه إلى الإقليم القبلى من خلف الجبل فسارت خلفهم طوائف العسكر على ظهور السفن لقتالهم فقبضوا على عدة مراكب مشحونة بالذخيرة والمؤن وأنفذ حسن باشا أمير السفن رسلاً إلى إسماعيل بيك الكبير وحسن بيك الجداوى يطلبهما إلى مصر وكانا مبعدين بالإقليم القبلى كما تقدم وجمع محمد باشا يكن من بقى من أهل الخير من الأمراء وقلدهم المناصب العالية وسلمهم الوظائف ورتب أمور البلاد ترتيباً محكماً وأباح على ما قيل للعساكر الشاهانية نهب بيوت الأمراء الفارين فدخلوا بعضها وأخذوا ما وجدوه من أمتعة وأثاث وتبعهم العامة والحرافيش فبلغ ذلك مقدم العسكر فركب بنفسه وطاف المدينة وقبض على من صادفه من العسكر وعلى من وجده فى تلك البيوت فقتل جماعة منهم ممن كانوا يحملون بعض المنهوبات فانكفوا عن النهب ثم نزل من باب زويلة ومر بالغورية ودخل من عطفة الخياطين على باب الأزهر وذهب إلى المشهد الحسينى فزاره وكان قد زاد إعجابه بنفسه أو وشى إليه بعض الوشاة فأمر فنودى على النصارى أن لا يركبوا الدواب المطهمة وأن لا يستخدموا المسلمين ولا يشتروا الجوارى ولا العبيد ومن كان منهم عنده شيء من ذلك باعه أو أعتقه وأن يلزموا زيهم الأصلى من شد الزنانير والزنوط فتسلط العامة عليهم وتتبعوهم بالإيذاء ومن جدوه يغير زنار رجموه بالحجارة وحثوا التراب فى وجهه فانكمشوا وانكفوا عن الخروج أياما وأرسل يطلب من قاضى القضاة إحصاء ما أوقفه المعلم إبراهيم الجوهرى عظيم القبط بمصر يومئذ على الكنائس والديارات من أطيان ورزق وأملاك

وغير ذلك ثم أحس بما وراء ذلك من الفشل وظهور الفتنة فخاف واستدعى إليه المعلم إبراهيم وكلمه فى الأمر فصالحه المعلم إبراهيم على مبلغ عظيم من المال فأمر فنودى فيهم بالأمان وعدم التعرض لهم بمكروه فعادوا إلى ما كانوا عليه وكان ما فعله بالقبط مشجعاً للعساكر السلطانية على العود إلى الخطف من السوقة وأصحاب الحوانيت وكثر تعديهم على أهل الحرف مثل القهوجية والحمامية والمزينين والخياطين وغيرهم فكان يأتى الرجل منهم إلى الحمامى أو القهوجى أو الخياط ويخلع عنه سلاحه ويعلقه على باب الحمام أو القهوة أو حانوت الخياط ويرسم رنكه فى ورقة أو على باب دكان آخر وكأنه صار شريكه وفى حمايته ثم يذهب حيث شاء أو يجلس متى شاء ثم يأتى فى آخر اليوم ويحاسبه ويقاسمه فى ربح يومه ذلك قيل وهذه عادتهم إذا ملكوا بلدا ذهب كل ذى حرفة إلى حرفته التى كان يحترفها فى بلده ويشارك ابن تلك البلد فيها، فثقل على أهل مصر هذا الفعل وشكوا للباشا واستغاثوا فنودى بإبطال هذه المحنة ومن أتاه عسكرى يشاركه أو يأخذ منه شيئاً بغير حق قبض عليه وضرب وأتى به إلى الحكام ثم طاف الوالى وقبض على كل من وجده منهم بالحمامات والقهاوى وطردهم ونهرهم فلم ينكفوا إلا بعد حين ورسم حسن باشا أمير السفن فجمعت ودائع جميع الأمراء وأموالهم المحفوظة عند الناس واستحضرت زوجات إبراهيم بك الكبير وأخذ ما كان عندهن من مال وحلى وغيره، وكذلك زوجات مراد بيك وقبضوا على خفراء الحارات ليدلوا على البيوت التى فيها تلك الودائع فلم يتركوا محلاً إلا فتشوه وأخذوا ما فيه ونودى فى الأسواق بأن من كان عنده وديعة أو شىء من متاع الأمراء الخارجين ولم يظهره فى ثلاثة أيام أهدر دمه من غير معاودة وحجروا على زوجات إبراهيم بك ومراد بيك ببيت كتخدا أياماً كثيرة فشفع فيهن العلماء والمشايخ فلم يفرج عنهن واستحضر النخاسين والدلالين وأخرجوا جوارى إبراهيم بيك وباقى الأمراء بيضاً وسوداً وأحباشا ونودى عليهن بالبيع والشراء فى حوش البيت فبيعوا بأبخس الأثمان اشتراهن طوائف الضباط والعساكر السلطانية واشتد أمير السفن فى الغلظة وبالغ فى التهديد فأمر ببيع ولدى إبراهيم بيك الكبير وهما مرزوق بيك وعديلة هانم وضيق على زوجاته تضييقاً عظيماً فاجتمع المشايخ وصعدوا إلى قلعة الجبل وكلموا الوالى فى ذلك وقالوا: هذا أمر لا ترضاه الشريعة ولا يجوز قطعاً بيع الأحرار وطلبوا منه أن يراجع أمير السفن فى ذلك فقال: لا قدرة لى على رد كلمته فاذهبوا أنتم إليه وكلموه. قالوا ولابد من

أن تذهب معنا فذهبوا جميعاً وكلمه الشيخ السادات وقال: يامولانا قد بعثك السلطان لتذب عن الشريعة المطهرة وتقيم الحدود وتقطع عرق الفساد وتمنع الظالم عن المظلوم لا أن تهدم معالم الدين وتبيع الأحرار فلما سمع كلام الشيخ السادات اغتاظ وأشار إلى أحد الكتاب أن اكتب أسماء هؤلاء المشايخ كى أبعث بها إلى السلطان وأعلمه بحالهم وتوقفهم فى سبيل أعمالى ثم التفت إليهم وقال: لا أجد الآن للإقامة بين ظهرانيكم سبيلاً وقد عزمت على الرجوع فليرسل إليكم مولانا السلطان آخر فتروا ماذا يفعل بكم أو ما كفاكم أنى فى كل يوم أقتل من عسكرى طائفة على أيسر شىء دفعاً لأذاهم عن البلاد وأهلها وإرهابا لمن لم يعرف الحدود ولو كان قائد هذه الجموع غيرى لنظرتم كيف كانت تفعل بالبيوت والأسواق والناس فخاف المشايخ وسقطوا فى أيديهم وتلجلج فصيحهم وقالوا إنما نحن يامولانا شفيعون والواجب علينا قول الحق ثم انصرفوا وهم على أشد ما يكون من الخجل.

ولما كان يوم السبت غرة القعدة من السنة قدمت إلى القاهرة الجيوش البرية ومعهم أمير اسمه عابدى باشا وآخر اسمه درويش باشا وهما مقدما الجيش المذكور فلاقاهم حسن باشا بالعادلية وسار معهم حتى دخلوا المدينة فى أبهة وجلالة وعسكروا بها فلم يحصل منهم إيذاء ولا عربدة بل كانوا إذا اشترى أحدهم شيئاً نقد صاحبه ثمنه حالاً وباتوا تلك الليلة بخيامهم عند سبيل قماز وأصبحوا وقد ركب عابدى باشا ودرويش باشا وسارا أمام العسكر إلى البساتين فمروا بالصحراء وباب الوزير وأجروا عليهم الرواتب من الخبز واللحم والأرز وكأنه لما استقر بهم المقام تاقت نفوسهم إلى استخدام الجوارى كما فعل عسكر حسن باشا بجوارى الأمراء المصريين وجوارى قبطة مصر، فقد نودى بعد أيام على المسيحيين من أهل البلاد كافة بإحضار ما عندهم من الجوارى ثم نزل العساكر بعد النداء وهجموا على بيوت المسيحيين واستخرجوا ما فيها من الجوارى والعبيد فكان شيئاً كثيراً وأحضروهم إلى حسن باشا فباعهم إلى العسكر بأبخس الأثمان ثم صاروا يبيعونهم بالمرابحة فإذا أراد أحد أن يشترى جارية ذهب إلى بيت الباشا وطلب ذلك فيعرض عليه الجوارى من مكان عند بيت النساء فإذا أعجبته جارية أو أكثر حضر صاحبها الذى اشتراها فيخبره برأس ماله ويقول له: وأنا آخذ مكسبى كذا فلا يزيد ولا ينقص فإن أعجبه الثمن دفعه وإلا تركها وذهب ثم وقع التشديد على ذلك وأحضروا الدلالين والنخاسين واستدلوا منهم على من عنده واحدة من الجوارى فكانوا يفتشون بيوتهم دفعات

متوالية حتى اشتد الكرب وعم الخطب ولم يقف حسن باشا المذكور عند هذا الحد من الجور والعسف بل أمر فجمعوا المهندسين والبنائين ليدلوا على الخبايا والمطامير التى ربما يكونون قد أنشئوها للأمراء والناس كافة فى بيوتهم فكان لا يشعر صاحب البيت وهو بجانب عياله إلا وقد هجم عليه جماعة من العسكر ودخلوا البيت وأخذوا ينقبون الحيطان وينبشون الأرض ويدخلون المحال بلا حياء فيأخذون ما يجدونه من فراش أو نحاس أو غير ذلك ويخرجون وصاحب البيت فى دهشة وجمود لايدرى ما سبب حضورهم ولا ما أخذوه وهكذا حتى ضج الناس وعم الخوف وراجت السعاية وظهر شأن أصحاب الدسائس والفتن، وعمت الشدة جميع النصارى فضربت عليهم المغارم وطولبوا بخمسة وسبعين ألف ريال نقرة وأمر بإحصاء جميع دورهم وملكهم فأحصيت فقرر عليها أجرة تدفع إلى خزينة السلطان ثم ضرب عليهم غرامة أخرى قدرها خمسة آلاف كيس فضاقت عليهم الدنيا برحبها وباع الكثير منهم جميع ما عنده حتى ملابسه وملابس عياله وقرر على كل شخص منهم جزية جديدة قدرها دينار بلا فرق وذلك خلاف الجزية الديوانية المقررة على كل واحد منهم، وتتبع الديارات وأخذ كل ما وجده فيها من ودائع وقبض على المعلم واصف أحد عظماء القبط يومئذ ورئيس حسابات الديار المصرية وعليه جميع الإيرادات والمصروفات فجلده وحبسه وطالبه بالأموال وكان المعلم واصف المشار إليه كاتباً حاسباً عاقلاً حاد الذهن وقاد الذاكرة وكان يعرف التركية حق المعرفة وقبض أيضًا على نساء المعلم إبراهيم الجوهرى وكن فى بيت حسن أغا كتخدا على بيك أمين الحساب وضيق عليهن فاعترفن ببعض الخبايا فأخرجوا منها أمتعة وأوانى ذهب وفضة وسروجاً وغير ذلك فأخذها ولم يترك سراح النساء بل بقين تحت الحجر أياماً كثيرة.

وجاء الخبر بوصول إبراهيم بيك الكبير ومراد بيك ومن معهما إلى أسيوط وأن السفن الحاملة للعساكر السلطانية سائرة خلفهم فبعث حسن باشا بسفن أخرى وعليها بعض طوائف الجند فسارت ولحقت بالأولى فلما صاروا أمام أسيوط أطلقوا عليها المدافع تباعاً فأجابتهم مدافع إبراهيم بيك ثم ترفع إبراهيم بيك ومن معه إلى الجبانة فلم تتمكن السفن من إطلاق المدافع عليهم وبعثوا إلى حسن باشا بذلك فعقد الديوان وجمع الأمراء وقلد قاسم بيك أبو سيف ولاية جرجا وقيادة الأجناد والعساكر التى تقرر إرسالها مع عابدى باشا ودرويش باشا وعين معهم عدة كثيرة من

الأمراء ورسم بسرعة التجهيز والرحيل وصرف النفقة فأنفق هو على قومه فأعطى لكل أمير خمسة عشر ألف ريال والوجاقلية سبعة عشر ألف ريال، وأنفق عابدى باشا فى عسكره فأعطى لكل نفر خمسة عشر قرشاً فغضبت من ذلك طائفة الدلاة واجتمعوا بأسرهم وخرجوا إلى ناحية العادلية مغضبين يريدون الرجوع إلى أوطانهم فانزعج الناس ولم يعرفوا ما الخبر فلما بلغ حسن باشا ما وقع ركب فى عسكره وسار إلى العادلية يريد قتلهم فخرج معه بعض العساكر المصرية وركب كذلك عابدى باشا ولحق به عند قصر قايماز وكان هناك أحمد باشا الجداوى فنزل إليه أيضاً وأخذوا يستعطفونه ويسكنون غضبه وأرسلوا إلى الدلاة فاسترضوهم وزادوا أعطيتهم وجعلوا لكل نفر أربعين قرشاً فأذعنوا وأطاعوا وعادوا جميعاً إلى القاهرة. وخرج عابدى باشا ودرويش باشا بعسكريهما ونزلوا بالبساتين يومين ثم ارتحلوا إلى الأقاليم القبلية فخرجت طوائف الوجاقلية أيضاً ونزلوا بخيامهم فى البساتين ولبثوا أياماً قلائل حتى جاء أحد كبار العساكر السلطانية من الشام ومعه طائفة من العسكر فنزلوا بالعادلية يوماً ثم ساروا إلى البساتين وقاموا منها إلى الأقاليم القبلية فقامت معهم طوائف الوجاقلية ونودى بأن لا يتخلف أحد من العسكر ومن تثاقل قتل من غير معاودة.

ولم يكن تسيير الجنود وإعداد معدات الحرب ليشغل حسن باشا أمير السفن عن كشف عورات الناس ومصادرتهم فى متاعهم وأموالهم وأخذ كل ما وصلت إليه يده وتفتيش مساكن أصحاب البيوتات العالية وإخراج ما فيها وقد دلوه على مكان ببيت المعلم إبراهيم الجوهرى مرتفع مهدوم الدرج وكان هذا المكان لولد له مات فى عنفوان شبابه من نحو الستين سنة فلما مات هدمت والدته الدرج الذى يوصل إليه حزنا على ولدها وترك بما فيه فصعدوا إليه وأخرجوا منه شيئاً كثيراً من فرش وأمتعة مزركشة وأوانى ذهبية وفضية وصينية وغير ذلك فأحضرت جميعها إلى حسن باشا فباعها بالمزاد بين يديه فى عدة أيام وبالغ فى تفتيش البيوت والإصغاء لأهل السعاية والوشاة واشتدت رغبته فى قطع دابر إبراهيم بيك ومراد بيك ومن معهما ومحو آثارهم فأجهد النفس وبالغ فى اتخاذ الطرق والوسائل وأكثر من المدد لعساكره الذين ذهبوا لقتالهم، وكان فى كل يوم يبعث بالرسل لتأتى له بالأخبار فلما كان يوم الأربعاء عاشر ذى الحجة من السنة الذى هو يوم عيد النحر وردت إليه الأخبار بوقوع موقعة عنيفة بين إبراهيم بيك والعساكر السلطانية لم يتم فيها الظفر لأحد من

الطرفين فاغتاظ من ذلك جداً إذ كان يرجو انقضاء الأمر قبل دخول فصل الشتاء وهبوط النيل وتعذر انحدار سفن الحرب فأمر عند ذلك بعدم فتح الترع التى كانت تفتح عادة بعد عيد الصليب كبحر أبى المنجا وبحر مويس والقرينين خوفاً من نقص الماء وأرسل إلى عابدى باشا ودرويش باشا ومن معهما من كبار العسكر يستحثهم ويستنهض هممهم إلى الفتك بإبراهيم بيك ومراد بيك فرد عليه عابدى باشاً رداً حسناً وأرسل إليه أيضاً بمكاتبة كانت وردت إليه من ابراهيم بيك رداً على خطاب كان بعث به عابدى باشا يقول فيه بعد كلام ما نصه: كم تخاطبوننا بالكفرة والمشركين والظلمة والعصاة مع أننا بحمد الله تعالى موحدون وإسلامنا صحيح وحججنا لبيت الله الحرام وتكفير المؤمن كفر ولسنا عصاة ولا مخالفين وما خرجنا من مصر عجزاً ولا جبناً عن الحرب إلا طاعة للسلطان ولنائبه فإنه أمرنا بالخروج تسكيناً للفتنة وحقناً للدماء وقد وعدنا أنه يسعى فى تقرير قاعدة للصلح فخرجنا على هذا الشرط ولم نرض بإشهار السلاح فى وجوهكم وتركنا بيوتنا وعيالنا فى عرض السلطان ففعلتم بهم ما فعلتم ونهبتم أموالنا وهتكتم أعراضنا وبعتم أولادنا وأحرارنا وأمهات أولادنا وهذا الفعل ما سمعنا به حتى ولا فى بلاد الكفر وما كفاكم ذلك حتى أخرجتم خلفنا العساكر ليخرجونا من بلاد الله الواسعة ويهددونا بكثرتهم وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله وأما عساكر مصر فأمرها فى الحرب والشجاعة مشهور فى سائر الأقاليم والأيام بيننا وكان الأولى لكم الاجتهاد والهمة فى استخلاص البلاد التى أخذها الكفار واستولوا عليها مثل القرم والورن وإسماعيل لا أن تأتوا هنا على هذه الصورة المنكرة. وكتب غير ذلك من أقوال أخرى ركيكة المبنى قد أضربنا عن إيرادها. فأجابهم عابدى باشا ونقض عليهم وزحف بعسكره فاشتبك بينهم القتال عند المنشية والتحم الفريقان فقتل منهم جملة كبيرة وأبلى المصريون بلاء حسناً للغاية فتنحت عنهم العساكر السلطانية ناحية وهجم إبراهيم بيك وأصحابه وألقوا بأنفسهم فى نيران الحرب وطلب كل غريمه، ثم اندفع العثمانيون وظهر من شجاعة عابدى باشا ما شهدت به الأعداء وأصابت إسماعيل بيك الكبير رصاصة فى فمه فخرجت من صدغه فولى منهزماً وألقى بنفسه إلى النيل وركب فى حراقة صغيرة وانحدر إلى مصر وكان حسن باشا أكثر من استدعائه وهو يعده ويرجوه كتمان خبر طلبه فلما دخل القاهرة اجتمع بحسن باشا برهة ثم ذهب إلى بيت مملوكه على بيك جركس وقد خلع عليه حسن باشا خلعة سمور وأصبح وقد

شاع خبر حضوره على هذه الصورة فتحدث الناس فى أمره وكثر اللغط وأعقب ذلك أيضاً الإشاعة بهزيمة العساكر السلطانية وأرسل حسن باشا فى طلب طوائف العسكر الذين بمدينة الإسكندرية وأرسل أيضاً إلى دار السلطنة يطلب المدد وحضر حسن بيك الجداوى ومعه بعض الجند وقد أصيب بجراحة عظيمة فثبت بحضوره خبر هزيمة العساكر السلطانية وكذلك حضر بقية الأمراء وأكثرهم مصاب بجروح.

(مطلب)

عزل محمد باشا يكن وولاية عابدي باشا

ثم وصل عابدى باشا أيضاً ونزل بقصر العينى أياماً وهو محتجب عن الناس إلا القليل من قومه ولم يظهر إلا لملاقاة الرسول الذى حضر من دار السلطنة بمرسوم ولايته على مصر وخلع محمد باشا يكن وتسييره إلى ديار بكر بدلا من عابدى باشا وانتشر الخبر بذلك فى مصر والقاهرة وعم الآفاق وجعل عابدى باشا ينقل أمتعته إلى بولاق القاهرة ويتأهب للصعود إلى قلعة الجبل وذلك فى المحرم افتتاح سنة إحدى ومائتين وألف هجرية وسافر محمد باشا يكن إلى مركز ولايته الجديدة فكانت مدة تصرفه سنتين وبضعة أشهر، وكان كريم الأخلاق عاقلاً رزيناً يكره الظلم ويبغض أهله فلذلك لم يكن ليرضى عن أعمال حسن باشا أمير السفن بل كان ناقماً عليه كثير التوجع مما أصاب الرعية من عسفه وجوره. وصعد عابدى باشا إلى قلعة الجبل وأخذ يتصرف فى الأمور ويدبر مع حسن باشا أمر الحرب مع الأمراء المصريين فأكثر من إرسال المدد إلى درويش باشا وبث العيون والأرصاد حول ابراهيم بيك ومن معه فجاءه الخبر يوماً بانحدار إبراهيم بيك وجموعه إلى مصر واقتراب طلائعهم من بنى سويف وأنه مات منهم عدة كبيرة من الأمراء والكشاف ولكن مازالت نفوسهم قوية على الحرب وقد أحبوا الموت فأزعجه هذا الخبر واستعظمه ثم جاءه بعد قليل رسول من قبل مراد بيك ومعه مكاتبة تتضمن طلب الصلح والإلحاح بالكف عن القتال حقناً للدماء وأنهم قد تابوا ورجعوا عما كانوا عليه، ثم قالوا: فإن لم تجنحوا إلى الصلح فليس بيننا وبينكم غير الحرب والقتال فلما وقف أمير السفن على ما فى خطاب مراد بيك أسرع فى تسيير ما بقى عنده من مراكب الحرب إلى ناحية التبين فاصطفت هناك وأمر فعملوا متاريس وحفروا خندقاً ووضعوا من المدافع

عدة كثيرة وخرج رضوان بيك بليفيا وسليمان بيك الشابورى وعبد الرحمن بيك عثمان وبرزوا بخيامهم ناحية البساتين ليسيروا منها إلى الصعيد وأتت الجواسيس فأخبروا بتربص إبراهيم بيك وجموعه بناحية بنى سويف ومراقبتهم للفرص فأنفق حسن باشا فى العسكر ثلث نفقة وطلب من التجار قرضة لينفقها فشكوا من كساد الحال فشدد فى الطلب فأغلقوا حوانيتهم فهجم الجنود على بيوتهم ونهبوا ما وجدوه فيها وفرض على الأهالى مبلغاً عظيماً من المال فجمعوه بشق الأنفس وطلب الخيول والبغال والحمير والجمال فأخذوا دواب الناس بلا ثمن وجمال السقائين كافة والمكارية فضج الناس وعجوا إلى الله تعالى ووقع الصياح فى العامة والبكاء من نساء السقائين والمكارية وغيرهن وكثرت ولولتهن وطفن حاسرات يندبن فلم يلتفت إليهن ولا رد شيئاً مما أخذ ووردت مكاتبة أخرى من إبراهيم بيك بطلب الصلح وحقن دماء المسلمين فجمع حسن باشا الأمراء كافة وقرأها عليهم فأبوا جميعاً إلا القتال وبعد كلام أشار حسن بيك الجداوى بصرف طائفة المحمدية من العساكر تخوفاً وتخيلاً منهم إذ هم ميالون إلى إبراهيم بيك وأصحابه فأجابه حسن باشا إلى ذلك وأمر فجمعت منهم خيولهم وسروجهم فكان لذلك أثر مهم وكادت جيوشه لذلك تفشل فهاله الأمر ووقف فى وسط الجند وقال مخاطباً لكبار العسكر: قد أمنتكم فلا تكونوا من الخائنين وإياكم والخدعة والأخذ بالوجوه فتنحازون إلى الأعداء بغضاً فينا أو تزلفاً إليهم وحرصاً على الجنسية فافقهوا واعلموا أنكم إن فعلتم شيئاً من ذلك خربت البلاد سبع سنين عقاباً وجعلت الدماء فيها إلى لبب الخيل. ثم نادى المنادى بالتأهب وعدم تخلف أحد وطاف الأغا على العساكر والأجناد يخرجهم من أماكنهم ويقف على الخانات ويسأل عمن بها منهم ويحثهم على سرعة الخروج والالتحاق بالعسكر. وعادت رسل إبراهيم بيك إلى معاودة حسن باشا فى أمر الصلح وأحضروا معهم ابن أخ عابدى باشا وكان قد أسر مع بعض العساكر السلطانية فى الوقعة الأخيرة وأرسلوا معه منهوبات عابدى باشا وجميع المجاريح وقد أنفقوا على كل واحد منهم ديناراً فلم يجبهم حسن باشا إلى الصلح إلا بشرط خروجهم من الديار المصرية بعيالهم ونسائهم إلى بلد يختارونها وإلا فالحرب والقتال فلما عادت الرسل بهذا البلاغ اتفقوا جميعاً على الانحدار إلى مصر وإصلاء نار الحرب حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً فانحدروا ووصلت طلائعهم إلى أرض الجيزة وصاروا بين الرقق والجيزة وفرضوا الكلف والمغارم ومؤنة العساكر على أهالى الجيزة فبرز عند

ذلك إسماعيل بيك الكبير وحسن بيك الجداوى بخيامهما إلى ناحية طرا ومنعوا السفن والمعادى كافة وأرسوهم بالجانب الشرقى من النيل كى لا يتمكن جموع إبراهيم بيك من العبور إلى مصر ونودى على جميع طوائف المحمدية بالخروج والاجتماع تحت لواء إسماعيل بيك ومن تأخر عوقب وقبضوا على عدة كبيرة منهم ونهبوا بيوتهم وسجنوهم بقلعة الجبل فخرجوا جميعاً من عساكر ومماليك وأتباع وطلب إسماعيل بيك من تجار المدينة قرضاً للنفقة فاعتذروا فادعى على تجار البن بمبلغ من المال قال هو باقى حساب له يوم كان قابضاً على زمام مشيخة البلد فصالحوه على مبلغ أربعة آلاف ريال وجاء رسول من قبل إبراهيم بيك إلى حسن باشا ينذره بالحرب والقتال ويعلمه بخروج جموع إبراهيم بيك وانحدارهم إلى مصر فتعجب حسن باشا من ذلك ولم يعوّق الرسول بل سرحه ونادى فى عسكره بالتأهب وخرج هو وإسماعيل بيك وحسن بيك الجداوى وجميع الأمراء وساروا إلى نواحى البساتين ثم اجتاز بعض العساكر البحرية النيل إلى انبابة وعملوا هناك متاريس وخنادق وانحاز إبراهيم بيك ومراد بيك وجموعهما إلى ناحية الأهرام بأحمالهم وجعلوا يتربصون الفرص ويتبينون انتفاعها وقد سئمت نفوسهم الحياة على هذا الحال واتفق أنه دخل المحمل والحاج القاهرة فى هذه الأيام بعد أمور وقعت للحجاج فى الطريق يطول شرحها فسار حسن باشا وبعض الأمراء للقائه وتحقق ما جرى على الحجاج فلما علم إبراهيم بيك بتغيب حسن باشا عن القاهرة زحف ليلاً بجموعه على المتاريس التى بانبابة وهجموا عليها هجمة رجل واحد فصدهم أصحاب المتاريس وأطلقوا عليهم المدافع من البحر والبر وتابعوا الرمى من الفجر إلى طلوع الشمس فرجع إبراهيم بيك وأصحابه إلى مواقعهم من غير طائل ثم عادوا بعد ظهر اليوم فردوا على أعقابهم وارتحلوا إلى دهشور وأقاموا بها أياماً فساءت جموعهم وداخلهم الفشل وانسلخ منهم جماعة كثيرة وانحازوا إلى العساكر البحرية فخاف إبراهيم بيك شر العاقبة وجنح إلى إعادة الكلام فى أمر الصلح وكتب يطلب أن تعطى لهم بعض الجهات بالصعيد ليقيموا بها ويتعيشوا منها وينكفوا عن القتال فأجابه حسن باشا إلى ذلك بشرط أن لا يسمح بذلك إلا لجماعة قليلة منهم ويحضر باقى الأمراء والعسكر إلى القاهرة ويقيموا بها فلم يرض إبراهيم بيك بذلك وترفعوا إلى ناحية بنى سويف واستقروا بها فرجعت عنهم عند ذلك عرب الهنادى الذين كانوا معهم وفارقوهم وأخذت أحوالهم فى التأخر وشدد حسن باشا فى تسيير

العساكر إلى الصعيد فساروا فى خيل ومدافع وكثير من المعدات وسار خلفهم عابدى باشا ومعه لفيف الأمراء وجاء إلى حسن باشا المدد من عساكر السلطان من قبرس والقرمان وغيرهما فعسكروا فى البساتين ورسم حسن باشا فصنعوا أبراجاً نقالة ومتاريس على أشكال مختلفة وسيرها خلف العساكر ثم وردت الأخبار بعد أيام بارتحال إبراهيم بيك ومن معه من بنى سويف إلى أسيوط وأن قد تخلف عنهم كثير من المماليك والأتباع فى نواحى منية ابن خصيب وغيرها وجاء منهم جماعة إلى القاهرة وحدثوا بأخبارهم وقد انضم جماعة من الأمراء إلى معسكر عابدى باشا طائعين فأمنهم واستبقاهم ولما وصلت العساكر السلطانية إلى أسيوط ترفع إبراهيم بيك وجموعه إلى طحطا وتترسوا بها وتأهبوا للقتال فسارت العساكر خلفهم ثم انقطعت بعد ذلك الأخبار حيناً فخاف حسن باشا وتابع إرسال الرسل لاستطلاع الأخبار ومعرفة ما حل بالعسكر فلم يرجع منهم من يخبر بالخبر وبقى الحال هكذا أياماً ثم قدم رسول ومعه مكتوب من عابدى باشا يخبر بوقوع الحرب فى يوم الجمعة ثامن عشرى ربيع الآخر سنة إحدى ومائتين ناحية الأمير ضرار فكانت الهزيمة على إبراهيم بيك وجموعه بعد أن أبلوا بلاء حسناً جداً وهزموا العساكر السلطانية هزيمتين وهجموا على الحصون والمتاريس والأبراج النقالة هجوم الأسود الضوارى فقتل منهم عدة كبيرة من الأمراء والأجناد والمماليك. قال الراوى: وكانت الحرب بيننا نحو ست ساعات مات فيها من العساكر السلطانية عدة وافرة فلما علم حسن باشا بما ذكر سكن روعه وأمر فأطلقت المدافع من قلعة الجبل نهاراً والحراقات والألعاب النارية ليلاً وطاف المبشرون على بيوت المشايخ والأعيان يبشرونهم بنصر العساكر السلطانية فأتوا وهنئوا حسن باشا بهذا النصر وترفع إبراهيم بيك ومن بقى من جموعه إلى عقبة الهو ثم ساروا منها إلى إبريم والعساكر فى أثرهم تتخطفهم من خلف ثم عادت العساكر إلى إسنا ونزلت بها وكتب عابدى باشا يسأل البقاء بمن معه من العسكر والأمراء بإسنا أو الانحدار إلى مصر فكتب له حسن باشا بالانحدار ومعه إسماعيل بيك الكبير وباقى الأمراء وترك حسن بيك ومحمد بيك المبدول ويحيى بيك بإسنا مع سائر العسكر فانحدر عابدى باشا والأمراء المذكورون إلى مصر فدخلوها فى يوم الأحد حادى عشر رجب وصعد عابدى باشا إلى قلعة الجبل من غير أبهة ولا كبكبة فلم يستقر به المقام حتى جاءت الأخبار منبئة بزحف إبراهيم بيك وجموعه إلى أسوان وأنهم عبروا النيل إلى إسنا فأجلوا عنها من كان بها من العساكر

واحتلوها وانحدروا إلى جرجا فارتحل عنها من بها من العساكر أيضاً ورجعوا القهقرى فأدهش حسن باشا هذا الخبر وجمع إليه الأمراء وأرباب المناصب وشاورهم فى الأمر فاختلفت كلمتهم وتباينت أهواؤهم ثم استقر رأيهم على أن يخابروهم فى الصلح بشرط أنهم يقيمون فى البلاد التى كانت بيد إسماعيل بيك الكبير وحسن بيك الجداوى وأن يرسلوا إلى مصر أيوب بك الكبير وأيوب بك الصغير وعثمان بيك الأشقر وعثمان بيك المرادى ليقيموا بها رهائن وكتبوا بذلك مكاتبات وأرسلوها صحبة الشيخ سليمان الفيومى وبعض الأمراء فقبل إبراهيم بيك ومراد بيك هذا الصلح وجنحوا لشروطه فأرسلوا أيوب بيك الكبير رهينة عن المماليك المحمدية وعثمان بيك الطنبرجى عن مراد بيك وعبد الرحمن بيك عن إبراهيم بيك الكبير فلما تمثل هؤلاء بين يدى حسن باشا سأل الأمراء فى أمرهم فقالوا لم يحضر ممن طلب سوى أيوب بيك الكبير ولا سبيل للصلح إلا بتنفيذ شروطه فكتب حسن باشا بذلك ثانياً إلى إبراهيم بيك ومراد بيك وأرسل إليهما كتخداه فقبلوا بشرط إعطائهما بلاداً زيادة حيث إن ما أعطى إليهما لم يكفهما فزادهم حسن باشا خمسة بلاد أخر فلما استقرت القاعدة بينهم على ما ذكر جاء الطلب إلى حسن باشا بسرعة الرجوع إلى دار السلطنة حيث انتشب القتال بين الدولة العلية والروس وقامت الحرب على ساقها فجمع المشايخ وسائر الامراء وعابدى باشا فى مقره وقرأ عليهم مرسوم السلطان بالطلب وطرف من أخبار الحرب مع الروس وتولى الروس على ما بقى من بلاد القرم وشنهم الغارة على كثير من أملاك السلطنة ثم أبرز مرسوماً آخر يتضمن العفو عن إبراهيم بيك ومراد بيك من القتل وبقاء إبراهيم بيك بقنا ومراد بيك بإسنا وعدم التصريح لهما بالعود إلى مصر أبداً ثم أظهر عزمه على الركوب والسفر فى يوم الجمعة بعد صلاة الظهر ثانى عشر ذى الحجة من السنة.

فلما كان اليوم المذكور ركب جميع الأمراء وسار أرباب المناصب لوداعه فلما تكامل حضورهم فى مقره أمر فقبضوا على جميع الأمراء الرهائن وسلمهم إلى إسماعيل بيك وأمر فسلموا له أيضاً عدة مدافع وكثيراً من آلات الحرب وقليوناً صغيراً ورتب له جماعة من العساكر السلطانية عددهم ألف وخمسمائة يقيمون بمصر ثم رحل إلى الديار الرومية وأخذ معه الأمراء الرهائن ففرح الناس بارتحاله إذ لم يروا على يديه خيراً وقد ضاقت نفوسهم مما ذاقوه من جوره وعسفه فانفرد إسماعيل بيك بإمارة البلاد وعلت كلمته ونفذت إشارته وهابه الأمراء فوزع المناصب العالية بين

قومه وأتباعه ومماليكه واستوزر محمد أغا البارودى فأعانه على فعل ما فى نفسه فتعقب زلات الناس وآخذ على صغائر الأمور وكبائرها وشدد وهدد فى طلب المغارم وفرضها على الناس على اختلاف أجناسهم فضجوا واستغاثوا واجتمعوا وذهبوا إلى الأزهر وصاحوا من جور هذا النازل وحضر الشيخ العروسى فقاموا فى وجهه وهموا بقفل أبواب الجامع فمنعهم من ذلك فصاحوا عليه وسبوه وسحبوه بينهم إلى جهة رواق الشوام فمنع عنه المجاورون وأدخلوه فى الرواق ودافعوا عنه الناس وأغلقوا عليه الباب ومعه طائفة المتعممين وكتبوا كتابة بذلك إلى إسماعيل بيك وأرسلوها إليه صحبة الشيخ الفيومى فبعث جواباً بالعفو والأمان وعدم المطالبة بتلك النوازل وأنها إنما هى قرض من القادرين على دفعه فلما قرأ عليهم الجواب صاحوا هذه خدعة لا نرضى بها أبداً فركب الشيخ العروسى وحوله هذا الجمع العظيم والغوغاء والمجاورون ولاسيما العميان منهم وطائفة من المجاورين تدفع الناس عن العروسى والعامة يصيحون عليه ويسبونه ويخاطبونه بفحش القول إلى أن وصل إلى باب زويلة فنزل بجامع المؤيد وأرسل إلى إسماعيل بيك يخبره بهذا الحال فحنق إسماعيل بيك وظن أنها مكيدة من الشيخ وأنهم إنما فعلوا ذلك بإغراء منه فأجابه الرسول وحلف له أن الشيخ برىء من ذلك ولا قصد له سوى الخلاص فأرسل لهم بالأمان ومعافاتهم من تلك المطالب فبلغهم الشيخ ذلك وأشار عليهم بالانصراف فأطاعوا وانصرفوا ومضى على ذلك يومان ثم أمر إسماعيل بك فانطلق المطالبون إلى أهل الصاغة والجواهرجية والنحاسين وطالبوهم بالمقرر عليهم فقاموا بوفائه صاغرين ثم طالبوا وكلاء الجلابة وتطرقوا إلى مطالبة بقية الأهالى وأرباب الحرف كافة فكانت اثنتين وسبعين حرفة.

ولم تكن لتستقر الراحة بإسماعيل بيك بعد تلك الخطوب حتى جاءه الخبر بانتقاض إبراهيم بيك ومراد بيك ومن معهما من الأمراء وأنهم زحفوا من أسيوط على منفلوط فهرب من كان بها من الجند والكشاف وجاءوا إلى مصر وأخبروا بذلك فلما تحقق الخبر صعد إسماعيل بيك فى صبح اليوم إلى قلعة الجبل وجمع الأمراء وكبار الوجاقات والمشايخ وقص عليهم الخبر وقال: هل يجوز قتالهم الآن؟ فقال المشايخ: يجوز قال حيث جاز قتالهم فقد وجبت النفقة من الخزينة السلطانية وحيث لا خزينة للسلطان فى هذه الديار فقد وجبت عليكم جميعاً فضاقوا عند سماعهم هذا الكلام واعتذروا وأظهروا العجز وكساد الحال وضيق ذات اليد فلم يقبل منهم

وشدد فى الطلب وهدد وبالغ فى الوعيد فطلبوا مهلة وعادوا إلى الكلام فى هذا الموضوع فاتفقوا على أن يبلغوا دار السلطنة خبر انتقاضهم ورجوعهم إلى العصيان وأن يكتبوا لهم أيضاً إنذاراً وتحذيراً فإن زحفوا على مصر قبل أن يأتى جواب الباب العالى قوتلوا وإلا تربصوا حتى يأتى الجواب. واتفق فى هذه الأثناء حضور وال إلى جدة اسمه محمد باشا بعسكر جرار ونزل بالسويس يريد ركوب السفن بعسكره إلى جدة فكتبوا إليه أن يحضر بعسكره إلى القاهرة وأمر إسماعيل بيك بغلق جميع أبواب المدينة إلا باب النصر ووضع على الأبواب طوائف الحراس وضربت المغارم على البلاد من أجل نفقة العسكر فجعلوا على كل بلد مائة دينار نقرة وعشرة عداً ما يتبع ذلك من الكلف وقيدوا بتحصيلها قوماً وجمعوا جميع مماليك وأتباع الأمراء الذين مع إبراهيم بيك وهم الذين تخلفوا بمصر والقاهرة فأخذوا ما وجدوه معهم من خيل وسلاح وأنزلوهم فى سفن إلى الإسكندرية وحبسوهم فى برج هناك وشرع إسماعيل بيك فى إعداد معدات الحرب وجمع الذخيرة والمؤن واجتهد فى سبك القنابل وإتقان المدافع، وكان يباشر ذلك بنفسه فى كل يوم وبينما هو على هذا الحال إذ قدم رسول من قبل إبراهيم بيك ومعه مكتوب للأمراء والمشايخ بمصر يكذب فيه ما عزى إليهم من نقض العهد والخروج ويقول إن الذى انتقض وعمل على خلاف العهد هو حسن باشا القبطان حيث أخذ معه الرهائن وأذاق الذرارى والنساء مضض الضيق فكتبوا له يلاطفونه ويهونون عليه حتى يتمكنوا من جمع العساكر والتأهب للقتال ولم يكتبوا له بما وقع الاتفاق حتى جاءت منه مكاتبة أخرى بعزمه هو ومن معه على القتال ومبارزة الاعداء وجهاً لوجه فجمع الباشا المشايخ والعلماء والأمراء فى ديوانه وقرأ عليهم مكاتبة إبراهيم بيك فوقع فيهم الهرج وكثر القال والقيل فأبرز لهم الباشا فتوى موقعاً عليها من شيخ إسلام دار السلطنة أجاز فيها قتال إبراهيم بيك وجموعه ومحاربتهم ثم طلب منهم أن يفتوه هم كذلك بجواز الحرب والقتال ليدفع أذاهم عن البلاد وأهلها فنزل المشايخ فى الحال من قلعة الجبل إلى الجامع الأزهر واجتمعوا جميعاً ونظموا هذا السؤال:

ما قولكم دام فضلكم فى جماعة أمراء وكشاف تغلبوا على البلاد المصرية وحصل منهم الفساد والإفساد ومنعوا خراج السلطان وأكلوا حقوق الفقراء والحرمين ومنعوا زيارة النبى عليه الصلاة والسلام وقطعوا علوفات الفقراء وجماكى المستخدمين والأنبار وأرسل لهم السلطان يأمرهم وينهاهم فلم يطيعوا ولم يمتثلوا

وكرر عليهم أوامره فلم ينتهوا فعين عليهم عساكره وأخرجهم من البلاد ثم إن نائبه صالحهم وفرض لهم أماكن وعاهدهم على أن لا يتعدوها حقناً للدماء وقطعاً للنزاع وتسكيناً للفتن وأخذ منهم رهائن على ذلك ورجع لمخدومه فعند ذلك تحركوا ثانياً وزحفوا على البلاد وسعوا فى إيقاع الفساد وقطعوا الطرق ونقضوا العهود فهل يجوز لنائب السلطان دفعهم وقتالهم بشرط عدم إزالة الضرر بالضرر أم كيف الحال؟ ثم كتبوا الجواب: يجوز قتالهم ودفعهم وأنه يجب على كل مسلم المساعدة. ورفعوا هذه الفتوى إلى الباشا فكتب الباشا فرماناً بالقتال ونزل أغاة مستحفظان ونادى فى المدينة بقتال إبراهيم بيك ومن معه ونادى على أصحاب الوجاقات بملازمة أبوابهم وعلى العساكر والأجناد بالتأهب للرحيل إلى الصعيد وأنفق إسماعيل بيك على العسكر وكتب الباشا إلى إبراهيم بيك يلزمه الرجوع إلى مقره والخلود إلى السكون وعدم نقض العهد ودفع الأموال المقررة على إقطاعاته وإقطاعات بقية الأمراء وإلا وجب قتالهم فلم يصل إليه هذا الكلام إلا وقد زحف من طحطا إلى منية ابن خصيب وقسم مراد بيك جميع البلاد التى ما بين منية ابن خصيب ومصر على أتباعه ومماليكه والأمراء الذين معه وصمم على الانحدار وإصلاء نار الحرب فلما علم الباشا بذلك فترت همته وضعفت عزيمته وقل اجتهاده فى جمع العساكر وترتيب الأجناد ثم بعثا إلى الباشا ثانيا يقولان: قد تركنا مصر وما فيها ولم نقصد الرجوع إليها وإننا قد اتخذنا هذا الإقليم لنا مقراً فإن قاتلتمونا عليه قاتلناكم إلى النفس الأخير وإن تركتمونا تركناكم ومصر ترتعون فيها وعقدنا معكم صلحاً لا يتخلخل فإن قبلتم ذلك فأرسلوا لنا بعض المشايخ والاختيارية نتفق معهم على ما يحسن السكوت عليه فعقد الباشا الديوان وجمع جميع الأمراء والمشايخ وأرباب الوجاقات وتشاوروا فى الأمر فاتحدت كلمتهم على أن يكتبوا لهما بقبول جميع طلباتهما بحيث إنهما يبعثان من قبلهما أميرين كبيرين فيهما الكفاية لفض النزاع ثم يعودان ومعهما من يلزم من المشايخ والاختيارية فقبل إبراهيم بيك ومراد بيك بذلك بشرط أن يكون لهما من البلاد من أسيوط وما فوق وطلبا إرسال المشايخ فأرسلوا لهما الشيخ محمد الأمير وإسماعيل أفندى الخلوتى ولم يرتحل الشيخ ومن معه من مصر حتى جاء الأرصاد فأخبروا بزحف إبراهيم بيك فى جموعه إلى طحطا وانحداره منها إلى بنى سويف وتأكد الخبر فخاف إسماعيل بيك الكبير وهاله الأمر وأمر بخروج العسكر فأخرجوا الخيام والمدافع إلى ناحية البساتين وعملوا المتاريس ناحية طرا والمعصرة

والجيزة وجمعوا البنائين والفعلة وحفروا الخنادق وبنوا أبراجاً من الحجر وأسواراً لوضع المدافع والمتاريس على جانبى النيل شرقاً وغرباً وكبر خوف بعض الكشاف والعسكر من أصحاب إسماعيل بيك وهربوا إلى حيث مراد بيك فأحاط إسماعيل بيك بدورهم ونهب ما فيها وأخرج نساءهم حاسرات حفايا تشفيا وانتقاماً وعاد الشيخ الأمير ومن معه وأخبروا بانحدار إبراهيم بيك فى أربعين من أصحابه إلى ناحية بنى سويف ولبثه بها وأنه عدل عن الإقامة بالصعيد ويرغب الرجوع إلى مصر فيعيش مع أصحابه ومن هم بها عيشة راضية هادئة وعفا الله عما سلف وإلا فالحرب والقتال فانزعج المشايخ عند سماع هذا الخبر، واجتمعوا وصعدوا إلى قلعة الجبل ودخلوا على الباشا فأدرك إسماعيل بيك ما وراء ذلك من الفشل والخيبة. قال بعض الكتاب: فزور مرسوماً من السلطان بالحث على الخروج وقتال إبراهيم بيك وجموعه فلما استقر بالمشايخ المقام كلموا الباشا فى أمر مجىء إبراهيم بيك فدخل عليهم إسماعيل بيك وأخبرهم بوصول المرسوم السلطانى فأمر به الباشا فقرئ فاختلفت عند ذلك كلمتهم وتفرقت أغراضهم وكادوا يفترقون على غير طائل ثم عادوا فاتفقوا على القتال فنودى فى الحال على العسكر بالخروج وملازمة المتاريس ونودى فى الأجناد كذلك بعد أخذهم النفقة فخرجت طوائفهم وملأت الحصون والمتاريس واشتد الأمر على الناس فتعطلت الأسواق وارتفع الأمن وكثرت مخاوف الطرق خصوصاً خارج أبواب مصر والقاهرة وتعطلت الأسفار وقل الوارد براً وبحراً واستقدم إسماعيل بيك عرب الهنادى فقدموا فى جموع كثيرة وأخلاط عظيمة وانتشروا فى الجهة الغربية من رشيد إلى الجيزة فجعلوا ينهبون البلاد ويأكلون المزروعات ويوقفون السفن فى النيل فيقتلون من بها ويأخذون أحمالها قيل إنهم قتلوا فى يوم واحد من بلدة النجيلة نيفاً وثلاثمائة إنسان وكذلك كانت فعال عرب الشرق والجزيرة ببلاد الجانب الشرقى وجاء المدد من الشام بناء على طلب الباشا فحضر فريق من الأرنؤد وكبيرهم اسمه إسماعيل باشا فخرج إسماعيل بيك للقائهم فدخلوا من باب النصر إلى بولاق واستقروا بها فقدمت لكبيرهم التقادم والهدايا النفيسة من جميع الأمراء ولبثوا على هذا الحال من الوقوف خلف المتاريس أياماً حتى سئمت نفوسهم وانسحب الكثير منهم إلى بيوتهم وكاد يتمزق جمعهم وقد وصل فى هذه الأثناء طائفة من جموع إبراهيم بيك على مقربة من متاريس ناحية طرا وعزموا على أن يدهموا من بالمتاريس فى الثالثة من الليل فسبق العين وأخبر

إسماعيل بيك بذلك فانزعج وركب الأمراء كافة وخرجوا إلى المتاريس وركب الوالى والأغاة وصاروا يفتحون الدروب والحارات ويخرجون الجند من بيوتهم إلى الحصون والأبراج وباتوا ليلتهم فى هرج واضطراب وأصبحوا والمناداة متتابعة على الأهالى والعساكر والجند بالخروج، فلما كان آخر النهار تحقق الخبر بأن إبراهيم بيك وقومه ترفعوا إلى بياضة ثم إلى الصعيد.

وجاء فى هذه الأثناء سفير من قيل قيصر الروس برسالة سرية إلى إبراهيم بيك ومراد بيك ونزل بالإسكندرية فأقام بها أياماً وعلم إسماعيل بيك بخبره فاستقدمه إلى مصر بحيلة لطيفة وأولم له وليمة فاخرة في قصر العينى ثم قبض عليه فى صباح تلك الليلة وصعدوا به إلى قلعة الجبل وحبسه ومنع من الوصل إليه. قال بعض أصحاب التاريخ: وكان سبب قدوم ذلك السفير أنه لما كثر عبث الأمراء المصريين بالبلاد وخرجوا عن طاعة السلطان رغب السلطان فى قطع شأفتهم ومحو أثرهم ولكنه كان فى شاغل عنهم بشن الروس الغارة على بلاده وحدود مملكته فكان كلما همّ بإرسال فريق من عسكره مدداً لمن بمصر منهم قامت الروس وشنت الغارة على أملاكه فيحجم عن تسيير العسكر إلى مصر ويوجه بهم إلى رد الروس وهكذا حتى أعياه الحال وكادت تضعف منه الآمال غير أنه عزم عزماً ثابتاً على أن لا يبقى لهم أثرا وأمر فجيشوا لذلك جيشاً ضخماً للغاية فلما علم قيصر الروس بذلك وكان من مصلحته أن تضطرم نار الحرب بين الفريقين وتطول أيامها أرسل القيصر المشار إليه رسوله إلى إبراهيم بيك ومراد بيك يخبرهما بقصد السلطان ويحثهما على جمع الكلمة والتكاثف وتحصين الحصون ومنع حسن باشا أمير السفن من النزول بعسكره إلى مدينة الإسكندرية أو غيرها من بقية الثغور واجتمع قنصل الروس بإبراهيم بيك قبل حضور أمير سفن السلطان وأخبره بخبره فلم يلتفت إبراهيم بيك يومئذ إلى قوله فجاء أمير السفن المذكور فى عسكره وكان من أمره وما فعله ما مر بيانه، وكان لما اشتد الضيق بإبراهيم بيك ومراد بيك وأصحابهما أرسلا إلى القنصل يطلبانه فسار إليهما سراً فسألاه المدد فوعدهما ورجع إلى الإسكندرية كما حضر وكاتب دولة الروس فى ذلك فأجابته إلى ما سأل وأرسلت إليه عسكراً جراراً وبعض سفن حربية وقدم ذلك السفير ومعه كتاب القيصر إلى الأمراء وكان قد شاع خبر رجوعهم إلى القاهرة فلما وصل السفير بالكتاب وجد الحال على عكس ما سمع فكاتب القيصر بصورة ما رأى وأنه وإن كان الحكم فى البلاد الآن للدولة العثمانية إلا أن بمصر من

الأمراء الذين هم على شاكلة إبراهيم بيك ومراد بيك عدة كثيرة وهم قاهرون للدولة غالبون على أمرها فإذا أمدهم القيصر بعسكره قاموا على الدولة وأخرجوها من البلاد وأذهبوا سلطتها فكتب القيصر إلى الأمراء بمصر يقول ما نصه : أيها الأمراء قد بلغنا أن عبد الحميد الملك الغادر الخائن يريد بكم شراً ويسعى فى إيقاع الفتن بينكم رجاء أن يقتل بعضكم بعضاً ثم لا يبقى على من بقى منكم ويملك بلادكم ويفعل بها ما فعل بغيرها من البلاد التى دمرها بظلمه وجوره فتيقظوا لأنفسكم واطرحوا عنكم الخلاف واطردوا من يأتى إليكم من الترك وارفعوا على حصونكم وقلاعكم رايتنا واختاروا لكم رؤساء منكم وحصنوا ثغوركم وامنعوا من يصل إليكم من هذه الأمة إلا من أتى للرزق ولا تهابوه فنحن نكفيكم مؤنته وقلدوا من قبلكم ولاة وعمالاً بالديار الشامية كما فعل ملوك مصر من قبلكم ويكون لنا الأمر ببلاد الساحل والواصل لكم كذا وكذا سفينة بها كذا وكذا من العسكر والمقاتلين وعندنا من المال والرجال ما تطلبون وزيادة على ما تظنون اهـ.

وجاء السفير بالخطاب ونزل بالاسكندرية وقيل بدمياط وأنفذ الخبر سراً بوصوله وطلب الحضور إلى القاهرة بنفسه فأعلم إسماعيل بيك الباشا بخبره سراً وأرسلوا إليه بالحضور فلما وصل إلى شلقان خرج إليه إسماعيل بيك فى تطريدة كأنه لم يشعر بمقدمه وكأنه على العهد معه وأعد له منزلاً ببولاق وأنزله به ليلاً ثم اجتمع به ومعه على بيك وحسن بيك ورضوان بيك وكأنهم هم زعماء العصابة وقرءوا المكاتبة بينهم ولم يتموا قراءتها حتى جاءهم جماعة من أتباع الباشا فى طلب السفير وكان ذلك بإشارة خفية بينهم وبين الباشا فركبوا معه إلى القصر العينى وأرسل الباشا فى تلك الليلة الأمر بحضور أهل الديوان فى صبحها فلما تكامل حضورهم أخرج الباشا تلك المكاتبة فقرئت عليهم. قال الراوى لهذه الحكاية: فشخصت عند ذلك الأبصار ومدت الأعناق وتفرقت الأقوال وتباينت الأغراض ثم عادوا واتفقوا على أن يبعثوا بها إلى دار السلطنة ففعلوا ووضعوا السفير المذكور بمكان فى قلعة الجبل وأسرعوا فى تسيير بعض سفن الحرب إلى الصعيد للتشديد فى قتال إبراهيم بيك ومن معه. وكانت دولة الروس لا تنكف عن قتال الدولة العثمانية وتحريض جميع الإيالات التابعة لها على الخروج وشق عصا الطاعة فإنها بعد أن سيرت سفنها إلى مصر وكتبت إلى إبراهيم بيك ومراد بيك بما كتبته جعلت تدس الدسائس وتلقى الفتن فى بلاد القرم لتتمكن من احتلالها ووضع اليد عليها بحجة منع القلاقل

والاضطرابات منها ومازالت على هذا الحال والدولة فى شاغل عنها حتى قام فريق من أهل القرم على أميرهم دولتكراى وخلعوه وأقاموا مكانه شاهين كراى فخالفهم فى ذلك الفريق الثانى وأبوا تعيينه فاشتد الخلاف بين الفريقين وقامت الفتنة وكان كاترينة قيصرة الروس قد أقامت على حدود القرم زهاء سبعين ألف جندى وجعلتهم على قدم الأهبة والاستعداد فلما بدأت الوحشة تقع بين الحزبين أوعزت إلى مقدم ذلك الجيش فدخل بلاد القرم بلا ممانع ولا معارض فتم لدولة الروس وقيصرتها ما كانت تتمناه وأصبحت وهى مالكة لجميع سواحل البحر الأسود من الجهة الشمالية فاستعظم السلطان هذا الأمر وأكبره وهمّ بالحرب وعمد إلى إعداد معدات القتال وأكثر من تجنيد الجند وتجهيز سفن الحرب فأشار عليه ملك الفرنسيس يومئذ بالتربص وعدم الاندفاع إلى حرب لا تحمد عاقبتها وأعلمه بأن بين كاترينة وأمبراطور النمسا معاهدة سرية على قتاله وتخريب مملكته ومحو أثرها من البسيطة فنظر السلطان فلم ير له قبلاً على فتح أبواب هذه الحرب فجنح إلى مشورة ملك الفرنسيس وغض الطرف عما فعلته الروس بالقرم بل واعترف لكاترينة بتملكها على تلك الإيالات العظيمة فلم ترض كاترينة من السلطان بهذا الإذعان والسكوت وقد تحققت عجزه وتقاعده عن الحرب فعمدت هى ويوسف الثانى أمبراطور النمسا إلى إيقاد نار الفتنة فى إيالتى الفلاخ والبغدان وبلاد اليونان وتوغير صدور مسيحيى تلك الإيالات على الدولة فأحس السلطان بما وراء ذلك وعلم أنهما إنما يريدان الحرب على كل حال فعاجلهما بها وسير إلى سفير الروس فى دار السلطنة يطلب منه تقرير أمور لا ترضاها كاترينة منها جعل الحق لمأمورى السلطان فى تفتيش جميع سفن الروس التجارية التى تمر من بوغاز القسطنطينية فلم يقبل السفير شيئاً من ذلك ألبتة فأمر السلطان عند ذلك فقبضوا عليه وسجنوه وساق العسكر فانتشبت الحرب بين الفريقين وخاف إمبراطور النمسا من ظفر العساكر السلطانية بالروس فسير إلى مدينة بلغراد جيشاً عظيماً للاستيلاء عليها وإرباك العساكر السلطانية فلم يفلح وعادت عساكره خاسرة وانتصرت عليهم العساكر السلطانية نصرة عظيمة وأدركت السلطان عبد الحميد منيته وهو على قدم القتال ثانى عشرى رجب سنة اثنتين ومائتين وألف هجرية أى سنة تسع وثمانين وسبعمائة وألف ميلادية فكانت سلطنته زهاء ست عشرة سنة وأشهراً فتولى السلطنة بعده ابن أخيه السلطان سليم الثالث ابن مصطفى.

* * *

(الفصل الحادى والعشرون)

(فى سلطنة السلطان سليم الثالث

ابن السلطان مصطفى)

ثم قام بالأمر بعد السلطان عبد الحميد ابن أخيه السلطان سليم الثالث ابن السلطان مصطفى بويع له بالملك فى اليوم الذى مات فيه السلطان عبد الحميد ثانى عشرى رجب سنة اثنتين ومائتين وألف هجرية أى سنة تسع وثمانين وسبعمائة وألف ميلادية فتولى السلطنة وهى محفوفة بصنوف المكاره والعدوّ يتهددها بتمزيق شملها ويعمل على إبادتها من عالم الوجود فاشتدت لذلك عزيمة السلطان وجعل يعبى الجيوش ويعد المعدات ويكثر من المؤن والذخائر ويستحث العساكر على القتال ودفع العدو عن البلاد وكانت العساكر قد ملت وكرهت الحرب فساقها فالتقوا مع الروس وعساكر النمسا معا واقتتلوا قتالاً عنيفاً للغاية دام زهاء ستين يوما ثم انكشف عن هزيمة العساكر السلطانية واستيلاء الروس على أكثر مدن الفلاخ والبغدان وبسارابيا واحتلوا مدينة بندر الشهيرة واحتل النمساويون بلغراد وفتحوا بلاد الصرب وغيرها ثم سارت بعد ذلك العساكر الروسية إلى مدينة إسماعيل ونزلوا عليها وقاتلوها وكان بها الغازى حسن باشا بعسكر عظيم فقاتلوا عنها واشتد القتال بين الفريقين حتى فتحها الروس عنوة وأباحها قائدهم فأعمل فيها العسكر الذبح والنهب وأفحشوا فى ذلك جدا وجاء الخبر بما وقع فى المدينة المذكورة إلى دار السلطنة فهاج الناس وماجوا وقاموا على ساق وقدم ونادوا بالويل والثبور على الغازى حسن باشا وطلبوا قتله أخذا بثأر تلك النفوس البريئة فقتل واشتدت الحال على السلطان شدة بالغة وهاله اتحاد الروس من النمساويين على قتاله وتحقق أن بقاء الحال على ذلك يدعو إلى تمزيق مملكته وتمكن العدوّ منها فبالغ فى حشد الجيوش وإعداد معدات الحرب واستنهاض همم كبار الجند وأمناء الحرب وبقى الحال على ذلك أياماً حتى أتاح الله من الأسباب ما أوقف رحى القتال وشغل النمساويين بموت إمبراطورهم فتوسطت عند ذلك دولتا الإنكليز وبروسيا بين المتحاربين فى أمر الصلح فتم على قاعدة تقررت لذلك بعد أخذ ورد قد أضربنا عن إيراد تفصيلهما خوف الإطالة. وزاد اجتهاد إسماعيل بيك الكبير بعد القبض على سفير الروس وسجنه فى قلعة الجبل

فى جمع العسكر ومعدات الحرب وأنشأ فى طرا قلعة على ضفة النيل وجعل بها مساكن عديدة ومخازن وحواصل وعمل الأبراج والمتاريس والأبنية ممتدة من قلعة الجبل إلى سفحه وأخرج إليها المهمات والأدوات وغير ذلك وأرسل إلى دار السلطنة يطلب المدد. وارتحل إسماعيل باشا مقدم العساكر السلطانية بعسكره من بولاق إلى الصعيد فتربص إبراهيم بيك وجموعه فى بلدة صول وعملوا بها سبعة متاريس فلما وصلت سفن عسكر السلطان إلى المتراس الأول ورست قباله وأطلقت مدافعها تباعا فلم تصل إلى من بالمتاريس فأطلقت عليها المتاريس ووالت الرمى بالقنابل فأحرقت بعضها حتى كادت تغرق بمن بقى فيها فخرج فريق من العساكر الذين بالسفن يريدون الهجوم على ذلك المتراس فدهمهم كمين من أصحاب إبراهيم بيك وأعمل فيهم القتل فقتل منهم خلق كثير وهرب من بقى إلى السفن فأخذ أصحاب إبراهيم بيك رؤوس القتلى ورفعوها على الرماح ليراها من بالسفن ومع ذلك فإنهم أرسلوا إلى الباشا فى طلب الصلح فلما جنح إليه الباشا ومن معه من الأمراء عادوا فتعللوا ولم يعطوا الرهائن فكبر هذا الأمر على الباشا وشدد على مقدم الجيوش السلطانية بسرعة القتال وقطع شأفة هؤلاء الخوارج فمال القائد المذكور بعسكره إلى ناحية صول وأخذ من فى السفن مما بقى من العسكر وحملوا على إبراهيم بيك وجموعه فى يوم الجمعة ثامن صفر من السنة أى سنة ثلاث ومائتين حملة رجل واحد فأجلوهم عن بعض المتاريس وقيل بل هم الذين أخلوا لهم فلما صارت العساكر السلطانية خلف ما أخذوه من تلك المتاريس خرج عليهم كمين من الخلف وأعمل السيف فى أقفيتهم فقتل منهم مقتلة عظيمة فتحصنت العساكر واشتبك القتال بين الفريقين يومى السبت والأحد وإطلاق المدافع متتابع ليلا ونهارا فكانت الحرب بينهم سجالا وكان كل من الفريقين يعمل الحيل وينصب الشباك ويكمن ليلا فيجدون الأرصاد والعيون التى لا تغفل وكثر الموات فى الفريقين وانفصلوا على غير طائل وقدم المصابون إلى القاهرة فانزعج لقدومهم الناس وخافوا عاقبة الهزيمة وتمكن إبراهيم بيك وأصحابه من مستقرهم وتربصوا مرقبة الأحوال. واحتاجت العساكر السلطانية إلى النفقة فطلبوها من إسماعيل بيك فقررها على البلاد وضيق على أهلها فى جبايتها وعمل لها ديوانا فى بيت على بيك الدفتردار فضج الناس واستغاثوا بمشايخ الجامع الأزهر ولا محيص فلما علم إبراهيم بيك بإلحاح العساكر السلطانية فى طلب النفقة واشتغال إسماعيل بيك بجمعها أرسل من قبله رسولا إلى الباشا

يكلمه فى أمر الصلح وقد أعيا عابدى باشا هذا الحال فعقد لذلك الديوان وجمع فيه جميع الأمراء والمشايخ واستحضر بينهم رسول إبراهيم بيك وسأله عما يطلبه إبراهيم بيك وأصحابه فقال إنهم يطلبون أن يكون لهم من أسيوط إلى الصعيد الأعلى شرقا وغربا بشرط أن يقوموا بدفع الأموال الأميرية والغلال وأن يطلقوا سراح السفن والمسافرين بالغلال والأسباب وأنتم لا تمنعون عنهم الواردين بالاحتياجات إلا ما كان من آلات الحرب أو معدات القتال وبعد أن يتقرر الصلح على هذه القاعدة يعرض منكم ومنهم إلى الدولة وتنتظرون ما يكون فإن جاء الجواب بالعفو والقبول أو تعيين مكان آخر لإقامتهم فلا يجادلوا ولا ينقضوا بشرط أن يطلعوا على ذات الأمر الذى يرد بذلك فوافق الجميع على هذه الطلبات وكتبوا بها جوابا وسيروا به الرسول وآخرين معه. ووردت الأخبار فى هذه الأثناء بخلع عابدى باشا عن ولاية مصر وتولية إسماعيل بيك كتخدا حسن باشا أمير سفن البحر وفاض الخبر بذلك فى مصر والقاهرة وسائر المدن فلما وصل المبعوثون إلى إبراهيم بيك ومعهم المكاتبة على قاعدة ما وقع الاتفاق عليه إقرارًا للصلح انتقض وقال: لسنا على ثقة من نجاحنا مع عابدى باشا والاعتماد على صلحه وقد بلغنا عزله عن ولاية البلاد فلا نتقدم إلى عقد الصلح معه إلا إذا أتاه فرمان من السلطان بتأييد ولايته أو أننا نتربص حتى يتولى الأمر غيره ثم كتب جوابا بذلك وسلمه لمن جاءه من قبل عابدى باشا فغضب عابدى باشا وكاد يتميز من الغيظ وجمع إليه المشايخ والعلماء وقاضى القضاة والأمراء وأطلعهم على الجواب فتحيروا فى أمرهم وقالوا لابد من استمرار القتال حتى يرجعوا أو يموتوا عن آخرهم. فقال الباشا: قد عيل صبرى وفرغ تدبيرى فلم يبق عندى إلا أن أقبض على جميع نسائهم وأسكنهم فى الوكائل وآخذ جميع ما فى بيوتهم وأبيعه وأنفقه على العسكر وأكتب لهم بذلك وتوقعوا جميعكم على ما أكتبه فإن خالفتمونى فأنا تارك لكم البلاد وما فيها وأرحل إلى دار السلطنة فأعيش فيها هادئا مطمئنا ثم أخذته رجفة فقالوا جميعا لا نخالف لك كلمة فافعل ما أنت فاعل فكتبوا إلى إبراهيم بيك بذلك ووقع الباشا والعلماء والمشايخ والأمراء كافة على الكتابة ونادى الوالى والأغا بمصر والقاهرة بأن من كان عنده وديعة لأحد من أتباع إبراهيم بيك أو جميع من هم معه وأتباعهم ولم يردها لأصحابها عاجلا قتل من غير معاودة وكان إبراهيم بيك قد عمل جسرا من السفن ممتدا من الجانب الشرقى من النيل إلى الجانب الغربى وعبروا جميعا عليه إلى

الجانب الغربى فلما وصل إليه الجواب بما ذكر خشى العاقبة وعلم ما سيلحق بالنساء والذرارى فأرسل رسله إلى الباشا بارتحاله مع من هم معه إلى الصعيد الأعلى وعدم انحدارهم ألبتة إلى مصر وأنهم لا يأنفون من عقد الصلح على ما رسم به عابدى باشا والمشايخ فعاد الباشا وعقد لذلك ديوانه فأبلغت الرسل أرباب الديوان رسالتهم فرضوا بها وضمن الباشا غائلة إبراهيم بيك وأصحابه وضمن المشايخ غائلة إسماعيل بيك الكبير وحرروا محضرا بذلك ووقعوا عليه جميعا وأرسلوه صحبة مقدم الاختيارية وظهرت علامات الطاعة من إبراهيم بيك ومن معه إذ كسروا ذلك الجسر وسرحوا للسفن بالانحدار فكثر توارد الغلال وغيرها وهبطت الأسعار وزال الغلاء واطمأن الفقراء.

(مطلب)

عزل عابدي باشا وولاية إسماعيل باشا

وقدم فى هذه الأثناء ورسول من القسطنطينية يحمل ثلاثة كتب سلطانية فأصعده الباشا إلى قلعة الجبل وأمر فعقدوا الديوان وحضره المشايخ والعلماء والأمراء والوجهاء وقرئت تلك الكتب فكان الأول منها بتقرير عابدى باشا واليا على مصر سنة ثلاث ومائتين والثانى بلزوم مقاتلة إبراهيم بيك ومراد بيك حتى يرجعا إلى الطاعة أو يموتا، والثالث بطلب تسيير سفير الروس الذى كان مسجونا بقلعة الجبل إلى دار السلطنة فلما أتموا قراءة تلك الكتب أطلقت المدافع من قصر العينى وقلعة الجبل ومراكب البحر ببولاق وذاع الخبر بذلك شرقا وغربا وأصبح وقد طلع الباشا إلى القلعة واستقر بها فجاء إليه المهنئون وأنزل سفير الروس وسيره إلى الديار الرومية وبالغ فى التأهب والاستعداد لقتال إبراهيم بيك ومراد بيك حتى يرجعا إلى الطاعة أو أنهما ومن معهما يموتون عن آخرهم فلم يتم له بعض الاستعداد حتى جاءه الأمر بالعزل وولاية إسماعيل بيك ووصل رسول دار السلطنة فى العاشر من جماذى الآخرة عن طريق دمياط فنزل عابدى باشا من يومه إلى قصر العينى ولبث به أياما، ثم برز بخيامه إلى بركة الحاج وسار منها إلى ديار بكر وسار معه إسماعيل باشا مقدم العساكر السلطانية التى كانت فى قتال إبراهيم بيك .

ولما استقر بإسماعيل باشا الوالى الجديد منصب الولاية أرسل إلى إبراهيم بيك يطلب الغلال والمال حكم قاعدة الاتفاق فلم يرد عليه جوابا ولم يرسل شيئا من

ذلك فخاف إسماعيل بيك الكبير من انتقاض إبراهيم بيك ونزوله إلى القاهرة بخيله ورجاله وهى خالية من العسكر والمرابطين فأرسل إلى دار السلطنة فى طلب المدد فلم يكن بأسرع من أن أرسلوا إليه أخلاطا من الأرنؤد وأهل الأناضول ممن لا كسب له وتراكم حضورهم فى هيآت مختلفة وأشكال متباينة فأنزلهم فى طرا ومصر القديمة والجيزة وبولاق وأجرى عليهم النفقات وجلب له النخاسون المماليك فاشترى منهم عدة كبيرة وخصهم بالغربية كل ذلك للحرص على مقاومة عدوه وتابع إرسال الهدايا النفيسة والأموال والتحف والخيول العربية وأنواع الأقمشة الفاخرة وغير ذلك إلى دار السلطنة قصد استمالة جانب الدولة إليه وتقربا من رجال الحل والعقد بها وتحريضا لهم على بغض إبراهيم بيك ومن معه ومع ذلك فلم يكن إبراهيم لينكف عن بث العيون والأرصاد حول إسماعيل بيك ومن معه ودس الدسائس واستمالة كل من يقدر على استمالته ومازال حتى تمكن بواسطة المعلم يوسف كساب الشامى معلم الجمارك يومئذ من الاتفاق مع أغاة جماعة الأرنؤد المدعو صالح أغا على أن صالحا المذكور يسلم إلى إبراهيم بيك جميع السفن السلطانية والقلاع التى بناحية طرا والجيزة نظير مبلغ من المال التزم به المعلم يوسف وكتب على نفسه تمسكا به فعلم إسماعيل بيك بخبر ذلك فقبض على المعلم يوسف وسأله فاعترف فأمر به فألقوه فى النيل فمات غرقا وأبعد صالح أغا عن ديار مصر وقيل بل قتله خفية فخابت بذلك مساعى إبراهيم بيك ورأى وجوب الترفع ومراقبة الفرص وأن لا شىء أنجح من المطاولة كى تتفرق جموع إسماعيل بيك وأخلاطه الذين جاء بهم من البلاد الرومية، فلما طال لبث أولئك الأخلاط على هذا الحال بطروا وزاد عسفهم بأهالى بولاق ومصر القديمة والجيزة فضج الناس وملت نفوسهم وضجروا. وكان الأغا الوالى يخشى من إخلاد أهل الحسينية إلى الفتنة والخروج عند أقل إشارة فكان يكثر التعدى عليهم بالضرب والحبس وأخذ الأموال ونهب البيوت لأقل سبب إخضاعا لهم وتذليلا واتفق أنه قبض يوما على شيخ طائفة البيومية وكان له حرمة وافرة بين أهل هذه الخطة فثار طوائفه على أتباع الوالى ومنعوه منهم وتجمعوا واجتمع عليهم خلق كثير من تلك النواحى وساروا وهم فى ضجة عظيمة وأمامهم جماعة يضربون بالطبول إلى أن وصلوا إلى الجامع الأزهر وقد أغلقوا الأسواق والدكاكين وصعد جماعة منهم على المنارات يضجون ويسبون إسماعيل بيك ومن معه وهيجوا من بالجامع من المدرسين فقام معهم العميان وهموا بالخروج ليفسدوا فى الشوارع

والأسواق فمنعهم المشايخ وركب الشيخ العروسى واجتمع بإسماعيل بيك وأخبره بخبر العامة وما يفعله الوالى بهم فاعتذر وقال: لو كان الوالى من أتباعى لخلعته الساعة إرضاء للعامة ولكنه تابع حسن بيك الجداوى وأرسل إلى حسن بيك يخبره بما وقع ويطلب خلع الوالى فلم يرض الجداوى وقال إن كان مراده الرفق بالرعية فليخلع أولا الأغا تابعه ويخلع رضوان كتخدا المجنون من قلعة الجبل ويخرج مصطفى كاشف من قلعة طرا ويصرف العساكر القليونجية والأرنؤد الذين عاثوا فى الأرض وملئوها فسادا قال ذلك وخرج إلى العادلية مغضبا وكان الوالى المذكور يركب فى كل يوم ويمر فى شوارع المدينة بالقاهرة ومصر ليرى العامة أنه أكبر من أن يخشاهم فوقف له العامة بالطرق واجتمع منهم خلق كثير ووقعت بينهم وبينه مقتلة قتل وجرح فيها كثير واشتد الهرج وكثر اجتماع العامة جماعات يحملون القرابين والعصى والمساوق وأمام كل جماعة منهم الطبول فركب المشايخ كافة وساروا إلى بيت البكرى فحضر إليهم إسماعيل بيك وطيب خاطرهم والتزم لهم بعزل الوالى ومر الوالى فى ذلك الوقت على بيت البكرى فمنعه العامة وصاحوا فى وجهه وكادوا يبطشون به فاستل سيفه وهجم عليهم وشق من وسطهم وذهب فى طريقه فزاد الحال بالعامة وكثرت غوغاء الناس وعلت الضوضاء وسار جماعة منهم يأمرون الناس بغلق الحوانيت واجتمع آخرون منهم بالأزهر يضجون وينادون بالويل والثبور على الوالى وبقى الحال على ذلك ثلاثة أيام فاجتمع إسماعيل بيك ببقية الأمراء وشاورهم فى أمر العامة فاتفقوا على خلع الوالى والأغا معا ونادوا فى الناس بذلك فهلل العامة وانصرفوا وانقضت الفتنة. وعقب هذا الحادث بيومين غامت السماء غيما عظيما مطبقا وسحت الأمطار كأفواه القرب مع رعد شديد الصوت وبرق هائل متتابع متصل يخطف الأبصار واستمر ذلك ليلة الجمعة ويوم الجمعة والأمطار لا تنقطع حتى سقطت الدور القديمة فى عدة جهات ومات من كان بها من السكان وانحدر السيل من الجبل شديداً حتى ملأ الصحراء وخارج باب النصر فهدمت المقابر وخسفت وانحدر السيل من باب النصر فدخل المدينة وامتلأت الوكائل بالمياه وكذلك جامع الحاكم وسقطت عدة بيوت من الحسينية، وكان ذلك أمرا مريعا جدا فظن الناس أنها تشقيل ونقمة من قبل الله سبحانه وتعالى وإنذار للأمراء على ما فعله الوالى بشيخ البيومية وما يفعلونه فى كل يوم بخلق الله وتكلموا كثيرا فى هذا الأمر حتى كاد الأمراء يعتقدونه ولم تكد تجف الأرض من مياه ذلك السيل حتى ظهر

الطاعون واشتد وكثر الموات فى الأمراء والصناجق وأرباب الوجاقات والمماليك فصار الظن عند الناس يقينا واشتد الطاعون شدة لم يسبق لها مثيل وكثر الموات كثرة بالغة فمات ما لا يكاد يدخل تحت الحصر من الأطفال والشبان والجوارى والعبيد والمماليك والأجناد ومن أمراء الألوف نحو الاثنى عشر أميرا ومات إسماعيل بيك الكبير شيخ البلد المشار إليه فكان لموته ضجة ورجة ووقع الموات أيضا فى طوائف العسكر الذين ببولاق ومصر القديمة والجيزة وعلى الخصوص منهم القليونجية والأرنؤد فكانوا يحفرون الحفر بجانب أبى هريرة ويلقون الأموات فيها بلا غسل ولا كفن وكان يخرج من البيوتات الكبيرة فى جنازة واحدة الخمسة أو الستة نعوش معا لكثرة الموات وقيل العشرة أيضا وكثر تزاحم الناس على الحوانيت لأخذ المغسلين والمغسلات والنعوش لنقل الأموات واشتد الخوف بالناس شدة عظيمة وندر جدا من كان يصاب بالطاعون ولا يموت وندر ظهور الطعن فى الأبدان ولم يكن يحم المصاب كما هى عادة الطاعون بل يكون الإنسان جالسا فيرتعش ويبرد فيدثر فلا يفيق إلا مخلطا ويموت من نهاره أو ثانى يوم وربما زاد أو نقص واستمر الحال هكذا شهرين إلى أوائل رمضان سنة خمس ومائة وألف ثم ارتفع ولم يقع بعد ذلك إلا قليلا نادرا وكان ختام انفضاضه موت الأغا والوالى فولوا غيرهما فماتا بعد ثلاثة أيام فولوا خلافهما فماتا أيضا فكان ذلك من غريب الاتفاق وأعجب ما سمع به.

(مطلب)

عزل إسماعيل باشا وولاية محمد عزت باشا

ولما مات إسماعيل بيك الكبير تنازع الرياسة حسن بيك الجداوى وعلى بيك الدفتردار ووقع بينهما نزاع طويل الأهداب واشتد بينهما الخلاف ثم عادا فاتفقا بعد كلام طويل على تعيين عثمان بيك طبل تابع إسماعيل بيك المذكور فى مشيخة البلد وإعطائه دار سيده ففعلوا ذلك. قال بعض كتاب الأخبار: وكأنهم تابوا عن إيذاء الرعية وكفوا عن إحداث المغارم والكلف وقصرت أيديهم عن نهب البيوتات العامرة بعد الذى رأوه من فعل الطاعون بهم وفتكه فيهم فنادوا بإبطال جميع ذلك وطاف المنادون أياما متوالية فاطمأنت قلوب الرعية قليلا وقالوا أفلح إن صدق. وورد الخبر عقب ذلك بقليل بخلع إسماعيل باشا والوالى عن مصر وتولية محمد عزت باشا الذى كان واليا على جدة فنزل إسماعيل باشا من قلعة الجبل إلى قصر

العينى وأنزل جميع أمتعته وتأهب للسفر إلى موره حيث تقلد منصب ولايتها فمنعه الأمراء من ذلك حتى يحضر محمد باشا عزت ويرى فيما له وما عليه للخزينة فأبى إسماعيل باشا إلا السفر فحجروا عليه بقصر العينى ووقف الحراس على أبوابه أياما حتى حضر محمد باشا عزت إلى القاهرة فى شوّال من السنة أى سنة خمس ومائتين ورست سفينته على بولاق فنزل لاستقباله الأمراء كافة وركب معهم إلى قصر العينى ثم ركب فى يوم الاثنين رابع الشهر وصعد إلى قلعة الجبل فلما استقر به المنصب نظر فى حساب إسماعيل باشا واستخلص ما كان فى ذمته ثم أنزل متاعه بالسفن ولم تقلع من ساحل بولاق حتى ورد الخبر بإعادة محاسبته على مال الخزينة واستخلاص ما أخذه منها فعوّقوه وأوقفوا سفنه حتى استصفوا ما عليه وسافر بعد ذلك بأيام قليلة. ولم يتمكن محمد عزت باشا من التصرف حتى جاءه الخبر بتحرك إبراهيم بيك الكبير ومراد بيك للقتال وعقدهما النية على الانحدار بمن معهما إلى مصر ودخولها إن طوعا وإن كرها وقد تحقق الأمر إذ انحدر مراد بيك من الصعيد إلى منية ابن خصيب وانتشرت جموعه فى المقدمة وعبر بعضهم النيل إلى الشرق ووصلت طلائعهم إلى العياط وتربص إبراهيم بيك بمنفلوط ينتظر ارتحال الحاج من القاهرة فينحدر إليها عاجلا بجموعه ومن معه من الأمراء فأخذ محمد عزت باشا و الأمراء بمصر يتأهبون للقتال وأرسلوا على بيك إلى طرا وآخر إلى الجيزة وأخذوا فى الاهتمام وحفروا خندقا من النيل إلى المتاريس وبالغوا فى التأهب وأكثروا من الحيطة فبينما هم على هذا الحال من الاهتمام والأرصاد تنقل لهم أخبار مراد بيك وأصحابه إذ جاء عمر أفندى مكرم الأسيوطى بكتاب من إبراهيم بيك خطابا إلى شيخ البلد والمشايخ والباشا فعقد الباشا ديوانه وقرئ الكتاب فكان حاصل ما فيه رغبتهم فى العودة إلى مصر بعد هذه الغربة الطويلة والوعد منهم بملازمة الهدء والسكينة وعدم الخروج عن حد الطاعة وأن قد جاءهم مرسوم من دار السلطنة على يد رسول مخصوص بالعفو عما سلف وأن المشايخ يضمنون حسن سيرهم واستقامة أحوالهم فلما أتموا قراءة الكتاب سأل الباشا المشايخ ماذا تقولون فى هذا الطلب؟ فقال الشيخ العروسى: أصلح الله الأمير إن كان التفاقم بينهم وبين أمرائنا المصريين الموجودين بين ظهرانينا فإننا نترجى عندهم وإن كان ذلك بينهم وبين السلطان فالأمر لنائب مولانا السلطان فبعد جدال وقيل وقال اتفقوا جميعا على أن يكتبوا جوابا محصله، إن طالب الصلح لابد أن يقدم الرسالة

بذلك قبل أن يتحرك من مكانه وذكرتم أنكم تائبون وقد تقدم منكم القول بالتوبة فلم نر لها أثرا على أن شرط التوبة رد المظالم وعدم إضرار خلق الله تعالى وأنتم لم تفعلوا ذلك ولم تدفعوا ما عليكم من مال الميرى فى هذه السنة فإن كانت نواياكم ثابتة على الصلح وجب أن ترجعوا إلى أماكنكم وترسلوا المال والغلال وسنطلب لكم من مولانا السلطان العفو فإن عفا عدتم إلى دياركم والإ فلا. ووقع جميع من حضر على هذا الجواب وبعثوا به على يد السيد عمر ثم قرروا بعد ذلك نفى وتبعيد جميع أتباع إبراهيم بيك ومراد بيك الذين بالقاهرة ومصر فأبعدوهم ووضعوا على أبواب المدينة الحراس والمرابطين ونادوا على العساكر والأجناد بالخروج إلى طرا وملازمة المتاريس والخنادق وأشار الأمراء على الباشا بالنزول من القلعة إلى طرا وملازمة المتاريس فنزل وخرج إليها وخرج أيضا جميع الأمراء وطاف الأغا والوالى وهما يناديان على الجند بأن لا يتخلفوا وتسلم المرابطون بقلعة الجبل أبوابها وشددوا المراقبة وأتى الجواسيس فأخبروا أن مراد بيك وأصحابه على عزم الانحدار إلى العادلية من خلف المقطم فأرسل الباشا بعض الأمراء إلى العادلية فعسكروا بها وأرسل أيضا إلى عرب العائد فجاءوا إلى العادلية ونزلوا بها فلما كان الليل تحول الباشا وجميع الأمراء إلى ناحية العادلية وأخذوا بعض المدافع وآلات الحرب والمؤنة وعملوا فيها المتاريس والخنادق فلم يكادوا يفرغون من عملهم حتى شاهدوا إبراهيم بيك ومراد بيك وأصحابهما منحدرين من الجبل إلى العادلية فى أسوإ حال فهم الأمراء المصريون بالهجوم عليهم وأخذهم فى حالة التعب فمنعهم عثمان بيك أبو طبل من ذلك وثبط هممهم وقد كان على عهد مع إبراهيم بيك ومراد بيك بحضورهم فى هذا الحين ثم أمر فرجعت جميع آلات الحرب والذخيرة إلى القاهرة ولبثوا واقفين على ظهور الخيل من غير أن يبدوا حراكا فتمنع إبراهيم بيك وقومه وترفعوا عن مواقع المتاريس ونزلوا عند سبيل علام للراحة حتى يتكامل حضورهم ثم نصبوا خيامهم واستراحوا إلى عصر اليوم كل ذلك وعثمان بيك والباشا ومن معهما لا يبدون إشارة وركب ممن كانوا مع الباشا مصطفى كاشف كتخدا على بيك الذى هو مملوك محمد بيك الألفى وهو أحد الذين كانوا مع إبراهيم الكبير وأخذ معه خمسة مماليك وانحاز إلى أستاذه بمعسكر إبراهيم بيك وركب محمد بيك المبدول أيضا وانحاز بأتباعه إلى أستاذه إبراهيم بيك وكذلك فعل قاسم بيك فانحاز إلى مراد بيك الكبير وكذلك مصطفى كاشف الغزاوى الذى هوأخو عثمان بيك طبل شيخ

البلد واستوثق لأخيه فكتب إليه إبراهيم بيك بالحضور فلم يتمكن من الذهاب إليه إلا بعد العشاء الأخيرة حتى انفرد عن على بيك وحسن بيك الجداوى فلما فعل ذلك وفارقهما علما حقيقة الخبر وأحسا بأنهما قد وقعا فى مخالب العطب فأغمى على علىّ بيك ثم أفاق وركب مع حسن بيك الجداوى وأتباعهما وعدتهم ستة وبعض المماليك والخدم وذهبوا جميعا من خلف القلعة إلى الأقاليم القبلية حيث كانت أخصامهما. فسبحان مقلب الأحوال وهادم بناء صروح تلك الآمال إنه الواحد القهار. ولما التقى عثمان بيك بإبراهيم بيك الكبير أجله كثيرا وأرسله مع ابنه مرزوق بيك إلى مقر مراد بيك فسلم عليه، وقد حضر أصحاب الوجاقات والاختيارية وأرباب المناصب للسلام وبدأ أتباعهم بالدخول إلى القاهرة طول ليلة السبت حادى عشرى القعدة سنة خمس ومائتين وألف هجرية وأصبحوا فدخلت الأحمال والجمال والدواب فكانت شيئا كثيرا جدا ثم دخل إبراهيم بيك ومر بالمدينة ومعه أمراؤه ومماليكه وأكثرهم لابسون الدروع ثم دخل بعده سليمان بيك الأغا وأخوه إبراهيم بيك الوالى ثم بقية الأمراء ودخل مراد بيك من طريق الصحراء ونزل على الرميلة ومعه عثمان بيك الإسماعيلى الذى هو عثمان بيك أبو طبل شيخ البلد وجميع أمرائه ومماليكه وأتباعه ودخلوا بيوتهم وكان فى أكثرها عائلات الأمراء الذين هلكوا بالطاعون وبقى بها نساؤهم ومات أغلب نساء الذين كانوا بالأقاليم القبلية من الأمراء فلما رجعوا وجدوها آهلة بالنساء والجوارى والخدم فتزوجوهن وجددوا فراشهم وعملوا أعراسهم ومن لم يكن له منهم بيت دخل ما أحب من البيوت وأخذه بما فيه من غير ممانع وكأن الله سبحانه قد أورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم وأزواجهم وهى عبرة وتذكرة.

وركب الأغا فى ثانى يوم ونادى على طوائف القليونجية والأرنؤد والشوام بالرحيل عن مصر عاجلا وكل من وجد منهم بعد ثلاثة أيام قتل بغير معاودة وتتبعهم المماليك والجند فكانوا إذا رأوا أحدا منهم قبضوا عليه وأخذوا ما معه من السلاح وأشبعوه ضربا وكانت العامة تسخر بهم ثم صعد إبراهيم بيك ومراد بيك ومن معهم من الأمراء إلى الباشا بقلعة الجبل فقابلهم بالترحاب وخلع عليهم الخلع وكتب إلى دار السلطنة يومئذ بكل ماجرى ولم تكد تستقر بهم الراحة بعد تلك الخطوب المدلهمة حتى جاء الخبر بأن حسن بيك الجداوى وعلىّ بيك اللذين فرا إلى الصعيد قد ضبطا المراكب المنحدرة إلى مصر بأموال ومتاع إبراهيم بيك وأخذوا ما

فيها ومنعا من نزول الغلال وعبثا بالبلاد فاهتم إبراهيم بيك لذلك وجيش جيشا وسلم قيادته إلى إبراهيم بيك الوالى وقلد عثمان بيك المرادى ولاية الصعيد وسيرهما للقبض على حسن بيك وعلى بيك المذكورين وبينما هم على هذا الحال قدم رسول من دار السلطنة يحمل فرمانا بالعفو عن إبراهيم بيك ومراد بيك ومن معهما من الأمراء والجند والإذن لهم بالرجوع إلى مصر والبقاء فيها وكان ذلك بالتماس من محمد باشا عزت حيث كتب إلى الباب العالى يبالغ فيما ينجم عن بقائهم خارج مصر وفيما هم عليه من المنعة والقوة وفى عجز الأمراء الذين بمصر عن ردهم فعقدوا لذلك الديوان بقلعة الجبل فلما قرئ الفرمان أطلقت المدافع وخلع عليهم الباشا خلع الرضا ونزلوا فزارهم العلماء والمشايخ والأمراء وقدمت لهم التقادم والهدايا واستقرت بإبراهيم بيك ومراد بيك المناصب وبث إبراهيم بيك العيون لتأتى له بخبر حسن بيك الجداوى وعلى بيك فجاءوا وأخبروا بانفصال حسن بيك عن على بيك وذهابه إلى جدة عن طريق القصير فاطمأن قلبه وسكن روعه وأخذ فى تقسيم المناصب بين أتباعه وأتباع مراد بيك فعزل وولى وأحكم الأمور وفتح أبواب المغارم القديمة والفرض والضرائب الفادحة وقلد أرباب الجباية وأصحاب المكوس وسيرهم إلى القرى والأرياف فضلا عن المدن هذا والغلاء منشب أظفاره فى جوف البلاد لتقصير النيل فى عامه وعدم وجود الغلال وقد تولد عن ذلك اختصاص الأمراء بما وجد من الغلال فى بعض القرى فنقلوه لأنفسهم ووقع القحط فى البلاد فهام أهلها ودخلوا مصر والقاهرة طلبا للقوت فكانوا يطوفون فى الأزقة والحارات والشوارع طائفة خلف طائفة يضجون ويبكون من الجوع وكانوا يلقون بأطفالهم فى جوانب الجدران أمواتا من الجوع وكذلك كان يقع من أهالى مصر والقاهرة ويموت منهم فى كل يوم خلق كثير وكان إذا وجد الأردب القمح بيع بثمانية عشر ريالا والشعير بخمسة عشر والفول بثلاثة عشر ريالا وكانت الأوقية الخبز بنصف فضة واشتد القحط وكثر الصياح والعويل ليلا ونهارا فكانت لا تكاد تقع الأرجل إلا على خلائق مطروحة بالأزقة وكانوا إذا مات حمار أو فرس أخذوه وأكلوه نيئا ولو كان منتنا ثم زاد الحال شدة فصاروا يخطفون الأطفال من أحضان أمهاتهم ويأكلونهم فانكف الناس عن الخروج بأطفالهم وطال الحال على ذلك أياما حتى جاءت الغلال من الديار الرومية وتتابع ورودها فكثرت وارتفع القحط فأكل الناس وشبعوا ووافق ورود هذه الغلال حصاد الذرة فعاد الناس إلى بلادهم وعمرت بعض القرى بعد

خرابها فكانت شدة عظيمة للغاية وعلا النيل ووفا فانحطت الأسعار وبورك فى رمى الغلال فكان الفدان الواحد ينتج غلة خمسة أفدنة وبلغ النيل زيادته المتوسطة وعم الماء غالب الأرض فأحياها بعد الموات .

ووصل فى هذا الحين إلى ثغر الإسكندرية يوسف باشا صدر الدولة العثمانية يريد الأقطار الحجازية فاهتم إبراهيم بيك بشأنه جدا وأرسلوا إليه الملاقين وقدموا التعابى والتقادم الثمينة وهيئوا لمقامه قصر العينى وزينوه بأنواع البسط والفرش الفاخرة وأنزلوه به وتمثلوا بين يديه فخلع على إبراهيم بيك ومراد بيك خلعة سنية وقدم لهما حصانين مسرجين مرختين وتخوف إبراهيم بيك من حضوره فى هذا الحين وترامت ظنونه إلى المرمى البعيد فأعمل الحيلة ووضع لخفارته عبدالرحمن بيك الإبراهيمى ومعه فريق من الجند فصعد الصدر المشار إليه بعد أيام إلى قلعة الجبل باستدعاء من محمد باشا عزت ثم نزل إلى مقره وأخذ إبراهيم بيك فى إعداد ما يلزم لسفر الصدر المذكور من غلال وأرز وتعابى هندية وغير ذلك من الهدايا والنفائس خوفا من طول لبثه بمصر وإفساد أمورهم وأعدوا له السفن بالسويس فركب فى أواسط جمادى الثانية من السنة أى سنة ثمان ومائتين وألف هجرية فزالت مخاوف إبراهيم بيك ومراد بيك وعادا إلى ما كانا عليه من إعمال الجهد فى تحصيل المغارم وتقرير المكوس والضرائب وغير ذلك وأكثروا من أعوان الجباية وبثوهم فى البلاد والقرى لا يسايرون غنيا ولا يرحمون فقيرا.

(مطلب)

عزل محمد عزت باشا وولاية صالح باشا

وجاء الخبر بتوجيه مسند الصدارة إلى الوزير محمد باشا عزت والى مصر وتولية صالح باشا بدله فنزل محمد باشا من القلعة وسافر إلى الاسكندرية فى صفر من السنة أى سنة تسع ومائتين وألف وأقام بالاسكندرية أياما حتى قدم صالح باشا فى العشرين من ربيع الأول ووصل تقليد الصدارة إلى محمد باشا عزت وهو بالإسكندرية فنزل من فوره وسافر إلى دار السلطنة وحضر صالح باشا إلى القاهرة وصعد إلى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد وصعد الأمراء والمشايخ للسلام عليه فقابلهم وأكرم لقاءهم وأراد التصرف فى الأمور والنظر فى مصالح الخلق فلم يتمكن لتغلب إبراهيم بيك ومراد بيك واستقلالهما بالأمر فالتزم التحجب والانكماش.

مطلب

عزل صالح باشا وولاية أبى بكر باشا

وبقى على هذا الحال عشرة أشهر حتى جاء الخبر بخلعه وتولية السيد أبى بكر باشا وذلك فى ذى الحجة من سنة عشر ومائتين وألف فنزل من قلعة الجبل إلى قصر العينى وتأهب للرحيل وأقام به أياما قلائل ثم سار إلى الإسكندرية فكانت مدة ولايته زهاء عشرة أشهر، وحضر السيد أبوبكر باشا من الأسكندرية إلى القاهرة وركب فى الموكب المعتاد إلى القلعة فى الخامس والعشرين من ربيع الأول سنة إحدى عشرة ومائتين وألف هجرية فلم يكن له من حظ الولاية إلا ما كان لغيره من الولاة فكان مغلوبا على أمره والكلمة لإبراهيم بيك ومراد بيك والناس فى غم من الضرائب الفادحة والمغارم المتوالية والمكوس المتراكمة وضجيجهم مستمر وابتهالهم إلى الله تعالى متواصل بزوال دولة الظالمين ومحو آثار القوم المفسدين وقد بلغت منهم الروح الحلقوم والعظم السكين فأرسل الله سبحانه على زمرة المماليك بونابارته قائد جيوش الفرنسيس فى عسكر عظيم فقهرهم وأباد سلطانهم حينا كما سيأتى بيان ذلك فى محله إن شاء الله .

(فصل)

(فى نزول نابوليون بونابارته بجيوشه على مصر وما جرى بعد ذلك من الحوادث والمحن)

لما عظمت دولة الفرنسيس وكبر سلطانها بما عانته من الغزو وتدويخ الممالك على يدى قائد عسكرها العظيم بونابارته الكبير واتسعت كلمتها وعمت هيبتها مشرق الأرض ومغربها بعد قتل لويس السادس عشر ملكها وقيام الحكومة الإدارية فيها لم يبق من معاند لها ولا واقف فى وجهها كما قاله أصحاب الأخبار سوى دولة الإنجليز فإنها كانت لا تضن أبدا ببذل كل مرتخص وغال فى سبيل إذهاب تلك السلطة ومحو تلك الهيبة وقطع شأفة ما استقر منها فى قلوب كبار الممالك والدول الذين علا هامتهم سيف بونابارته العظيم فأذلهم وأخضعهم وكان كلما عاهدت دولة الفرنسيس دولة بعد الغلبة عليها حقنا للدماء أو حفظا لحرمة الجوار حركها الإنجليز ودفعوا بها إلى نكث العهود ونقض الوعود وأمدوها بما تحتاجه لذلك من المال

ومعدات القتال أو تاركت دولة أخرى أنهضها الإنجليز إلى القتال قبل انقضاء الأجل وحسنوا لها القبيح من هذا العمل فكان بونابارته من ذلك فى كمد دائم وحزن ملازم ولا ينكف عن تدبير الحيل وتعليل الأمل بكسر شوكة هذا العدو الألد وسحق سلطانه من أدنى الأقطار إلى أقصاها فكان مما دبره يومئذ نزع المملكة الهندية من يد الإنجليز وبذل النفس والنفيس فى سبيل ذلك وكأنه رأى أن هذا الأمر لا يتم إلا بنزوله بجيش عرمرم على مصر واستخلاصها من أيدى المماليك وجعلها رباطا لحركاته الحربية ومقرا لمناوشاته السياسية فجعل يفكر ويتدبر وهو قلق البال مضطرب الأحوال حتى اجتمع برجال الحكومة الإفرنسية وهم المعرفون فى ذلك الوقت برجال الإدارة وكاشفهم على ما فى نفسه وبالغ فى الشكوى وأراهم أنه لا سبيل إلى الخلاص من مخالب هذا الأسد الرابض إلا بإرهابه وتذليله ومناهضته فى أرض الهند الواسعة ففكر رجال الإدارة فى ذلك حينا وأحلوه محلا عظيما فكانوا فيه بين إقدام وإحجام وخوف ورجاء فآنس منهم بونابارته ذلك فجعل يشجعهم ويستميلهم وكتب إليهم كتابا يقول ما محصل ترجمته:

لستم تنكرون أيها السادة أن مصر أكثر المدن خصوبة وأكبرها عمرانا وأنها إنما كانت أهراء لأهل رومية وفى هذا الأوان لأهل القسطنطينية فإن أرضها تنبت القمح والفول والأرز وسائر أنواع البقول فضلا عن القطن وقصب السكر والكتان والنيلة والقنب والخيار شنبر والسنامكى والنطرون وفيها من الماشية أشكال ومن الطيور الداجنة ألوان فضلا عما فيها من الحمر والإبل التى لا مثيل لها فى أقطار الأرض ومصر كما لا يخفاكم مركز متوسط بين قارتى آسية وأفريقية تؤمه القوافل من جزائر العرب والشام وسواحل الغرب وبلاد الحبشة وربما جاءته من رأس الرجاء الصالح والسنغال بأنواع المتاجر من الزيت والخشب والفحم والبن ومن الجوار والعبيد والصمغ والتبر والريش وسن الفيل والشالات والعطريات والأطياب وسائر صنوف المتاجر والمحصولات الهندية وقد كانت هذه المحصولات والأرزاق العظيمة تأتى إلى بلادنا قبل اكتشاف رأس الرجاء الصالح من طريق مصر فهى منذ القدم الطريق المأمون والسبيل الميمون ما بين قارتى آسية وأوروبا وكانت تلك الأرزاق والمحاصيل العظيمة تحط أحمالها قبلا عند مدينة برنيس على ساحل القلزم ثم تنقل منها حملا على ظهور الإبل إلى مدينة طيبة زهاء أربع وعشرين مرحلة ثم تسير منها فى النيل إلى قارة أوروبا وكانت فى بعض الأحيان تنقل بحرا إلى القصير ثم إلى مدينة

السويس ومنها على ظهور الإبل إلى منف فتأتينا كما هى وليعلم السادة رجال الإدارة أننا لو فتحنا هذه الديار وأحسنا سياسة أهلها ودبرنا شئونهم على ما تقتضيه مصلحتهم خمسين عاما فقط لعمرت البلاد وسعدت وزاد عدد أهلها أضعاف أضعاف ماهم عليه الآن وراجت محاصيل بلادنا فيها وفيما جاورها من الأمصار وأغنتنا عن أمريكا وكفتنا مؤنة التعاقد معها وليعلم أيضا السادة رجال الإدارة أنه إذا قدر الله ركوز قدمنا فى تلك الديار ووفقنا إلى حسن إدارتها قصرت أيام الإنجليز فى بلاد الهند وصار جلاؤهم عنها أمرا خفيفا فإننا نقيم الجند المرابطين على سواحل القلزم وننشئ المعاقل والحصون المنيعة وندّخر فيها ما نشاء من محاصيل تلك البلاد ونحول التجارة الهندية إليها على أهون ما يكون وإذا فرضنا بقاء الإنجليز فى رأس الرجاء الصالح وقلنا باستحالة رحيلهم عنها فإنه يكون من السهل علينا أن نباريهم ونفتح بين النيل والقلزم ترعة تذلل لنا المصاعب وتذهب عنا تلك المتاعب ونكون قد غلبنا الإنجليز وقهرناهم وقبضنا على زمام تجارتهم بيد من حديد وعندى أن فتح هاته الترعة ليس بالأمر الصعب فقد كانت جارية من قبل وآثارها باقية إلى الآن. وفى فتح مصر وبسط يدنا عليها الطامة الكبرى على الإنجليز والداهية الدهياء التى لابد وأن تذهب بهم إلى حضيض الذل والدمار. أهـ.

فلما وقف رجال الإدارة على ما فى خطابه هذا من البراهين الدامغة والحجج القوية حاروا فى أمرهم وخشوا شر العاقبة وقد كانوا يرون فى دولة الإنجليز أمة قادرة غنية تضرب بحسام غناها ذات اليمين وذات الشمال كما كانوا يرون فى بونابارته هماما مقداما حسن السياسة والتدبير كبير المعرفة بأحوال الممالك والأمم فلما كان الخامس من شهر مارس سنة ثمان وتسعين وسبعمائة وألف ميلادية أى سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف هجرية. اتفق رجال الإدارة مع بونابارته على تسيير حملة يقودها هو مع من يصطفيهم لنفسه من رجال الحرب ففرح بونابارته فرحا لا يوصف وبقى السر مكتوما بينهم لا يعلم به أحد ألبتة ثم جعل من هذا الحين يجيش الجيوش ويعد المعدات فاجتمع له أربعون ألفا من المقاتلين وأربعون قائدا من نخبة القواد أهل النجدة ومائة من المهندسين ومثلهم من أهل العلم بتخطيط الأرض وأصحاب الكيميا والطبيعة ونحوها ومعهم مطبعة عربية وجماعة من الكتاب والمترجمين والأطباء والجراحين والكحالين ومثلهم من الصناع وأصحاب العمل والحفر والنقش وهيأ عمارة عظيمة لم ينقصها شيء ما من آلات الحرب والقتال

وأميرها برويس أحد كبار أمراء البحار وهى مؤلفة من مائة سفينة بين كبيرة وصغيرة وبينها سفينة عظيمة للغاية اسمها الشرق تحمل مائة مدفع وعشرين مدفعا ومن صحب بونابارته فى هذه الحملة من كبار القواد كلابير وديزيه المشهوران ورينيروبون وينو للمشاة والقائد مورات للفرسان ودومارتين لأصحاب المدافع وكافرالى للمهندسين وخرجت سفن الحرب بما عليها من المقاتلين البحرية وهم زهاء عشرة آلاف من أربع جهات متباعد بعضها عن بعض حتى لا يعلم بخبرها أحد من عيون الإنجليز وخرجت معها السفن والشوانى التى كانت تحمل جيوش الحملة فكانت جملتها زهاء سبعمائة سفينة وسار معها بونابارته وحاشيته فى التاسع من مايو من السنة تمخر بهم السفن فى عرض البحر فأنفذ رجال الإدارة إلى دار السلطنة العثمانية (آلالتاليران) أحد كبار السياسة سفيرا من قبلهم ليكلم السلطان في أمر حملة بونابارته هذه والإقرار عليها فسافر إلى القسطنطينية ولم يعلم بخبره أحد ألبتة.

ولما فاض الخبر بقيام تلك الجيوش العظيمة والمعدات الهائلة كثر تحدث الناس بها وترامت ظنونهم إلى المرمى البعيد فمن قائل أنها لقتال الإنجليز وإبادة سلطانها ومن قائل بل أنها لفتح المدن والأمصار فى آسية وإفريقية ومن قائل غير ذلك وطارت الأخبار بذلك إلى الآفاق فخاف الإنجليز شر العاقبة وجعلوا يتدبرون فى الأمر ويبالغون فى البحث والتجسس فلم يقفوا لهذه الحملة على جلية خبر فكبر عليهم هذا الأمر وأعظموه وأنفذوا الأمير نلسون أحد كبار البحر عندهم فى أسطول عظيم وعهدوا إليه أن يتتبع سفن بونابارته أينما حلت وأن لا يمكنها من عمل شىء ألبتة فسار نلسون بسفنه يمخر فى عرض البحار وقد ظن أن بونابارته إنما خرج بجيوشه يريد مصر أو الشام فسار قاصدا مدينة الإسكندرية فأدركها يوم الخميس ثامن المحرم افتتاح سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف هجرية أى سنة ثمان وتسعين وسبعمائة وألف ميلادية وسفنه أمامها وكان العامل عليها السيد محمد كريم أحد عظماء البلد ثم أنزل نلسون نفرا من عسكره فى زورق فطلعوا إلى البر وطلبوا لقاء السيد محمد كريم فأدخلوهم عليه ومعه بعض أعيان المدينة فسألهم عن حالهم وسبب حضورهم بتلك السفن الكثيرة فى ذلك الوقت فقالوا: أتينا نبحث عن طوائف من الفرنسيس خرجوا فى عمارة عظيمة يريدون جهة من الجهات ولاندرى أين يقصدون فربما دهموكم فلا تقدرون على ردهم ولا تتمكنون من منعهم ولذلك رأينا أن نرسو ههنا بمراكبنا لنحافظ على المدينة ومن فيها ولا نسألكم شيئا من المدد

سوى الماء والزاد بثمنه فظن السيد محمد كريم أنها خدعة وحيلة فقال: هذه بلاد السلطان فليس للفرنسيس ولا لغيرهم عليها سبيل فعادت رسل الإنكليز بغير طائل وأقلعوا ليمتاروا فسير السيد محمد كريم إلى كاشف البحيرة من يخبره بخبر تلك السفن ويأذنه بجمع العربان والإتيان بهم إلى الإسكندرية للمحافظة عليها فلما شاعت هذه الأخبار بالقاهرة ومصر خاف الناس وتحدثوا فى الأمر كثيرا وأصحاب الحل والعقد فى شاغل عنه كأنهم فى مأمن من العاقبة أو أنهم على ثقة من الظفر والغلبة فلما كان يوم الاثنين ثامن عشر المحرم وصلت العمارة الفرنسوية مياه الإسكندرية أمام المدينة وأرسلت جماعة منهم يطلبون قنصل الفرنسيس وبعض أهل المدينة فذهبوا إليها فمنعوهم من العودة ولما جن الليل تحول من تلك العمارة بعض السفن إلى ناحية العجمى وأبى قير وأنزلوا من بها من العسكر إلى البر وكان برويس أمير السفن يعارض بونابارته فى ذلك ويمنع من نزول العساكر فى تلك الليلة خوفا من حادث يحدث فلم يلتفت بونابارته إلى كلامه وقال: لابد من نزول جميع العسكر فنزلوا ليلا وساروا نحو الإسكندرية فلم يصبح أهل المدينة إلا والعساكر منتشرون حول المدينة انتشار الجراد فخرج الناس ومن انضم إليهم من الأنكشارية والعرّبان وكاشف البحيرة ليقاتلوهم فلم يستطيعوا مدافعتهم ولا أمكنهم ممانعتهم ولم يثبتوا لحربهم وانهزم الكاشف ومن معه من طوائف العربان ورجع الأهالى إلى التترس فى البيوت وخلف الحيطان ودخل الفرنسيس المدينة وانبث فيها الكثير من ذلك العدد فأيقن أهل الإسكندرية أنهم مأخوذون على كل حال وليس ثم عندهم للقتال استعداد لخلو الأبراج من معدات الحرب فضلا عن المقاتلين مع كثرة العدو وغلبته فطلبوا الأمان فأمنوهم ورفعوا عنهم القتال ونودى فى المدينة بالأمان ورفعت الأعلام الإفرنسية على ما بالمدينة من القلاع والحصون والأبراج وأرسل بونابارته فى طلب أعيان الثغر والسيد محمد كريم فحضروا وهم فزعون وجلون وتمثلوا بين يديه فلاطفهم وكلم السيد محمد كريم لحظة لطيفة ثم ألزمهم بجمع ما بيد الأهالى من الأسلحة ومعدات القتال وإحضاره إليه وأن يضعوا على صدورهم علامة هى على شكل زهرة مستديرة ذات ثلاثة ألوان أحمر وأسود وأبيض وهى ألوان الراية الإفرنسية وتسمى هذه العلامة عندهم جوكار ففعلوا وجعلت طوائف العسكر تطوف فى شوارع المدينة وبأيديهم البنادق والحراب وأخذ جماعة منهم يصلحون ما تهدم من الحصون ويرممون ما تخرب من الأبراج وزحفت بقية الجيوش إلى رشيد

ودمنهور فهاجر أهلهما ونزحوا عنهما إلى فوه ونواحيها فرسم بونابارته بتحريرمنشور للأهالى كافة يؤمنهم فيه على أعراضهم وأموالهم ويطمئن قلوبهم ويسكن روعهم فكان نص ما فى ذلك المنشور.

بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله ولا ولد له ولا شريك له فى ملكه من طرف الفرنساوية المبنى على أساس الحرية والتسوية السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابارته يعرف أهالى مصر جميعهم أنه من زمان مديد والصناجق الذين يتسلطون فى البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار فى حق الملة الفرنسوية ويظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدى فحضر الآن ساعة عقوبتهم وأخرنا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الأباظة والشراكسة يفسدون فى الإقليم الحسن الأحسن الذى لايوجد فى كرة الأرض كلها فأما رب العالمين القادر على كل شئ فإنه قد حكم بانقضاء دولتهم. يا أيها المصريون قد قيل لكم أنى ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالتكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفترين إننى ما قدمت إليكم إلا لتخليص حقكم من يد الظالمين وإننى أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم. وقولوا أيضا لهم أن جميع الناس متساوون عند الله وأن الشيء الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شيء حسن فيها من الجوارى الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرجة فإن كانت الأرض المصرية التزاما للمماليك فليرونا الحجة التى كتبها الله لهم ولكن رب العالمين رؤوف وعادل وحليم وبعونه تعالى من الآن فصاعدا لا ييأس أحد من أهالى مصر من الدخول فى المناصب السامية ومن اكتساب المراتب العالية فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم يدبرون الأمور وبذلك يصلح حالة الأمة كلها. وسابقا كان فى الأراضى المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع من المماليك. أيها المشايخ والقضاة والأئمة والجربجية وأعيان البلد قولوا لأمتكم أن الفرنسوية هم أيضا مسلمون مخلصون وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا رومية الكبرى وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان دائما يحث النصارى على محاربة الإسلام ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكولارية الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين ومع ذلك الفرنسوية فى كل وقت من الأوقات

صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثمانى وأعداء أعدائه أدام الله ملكه ومع ذلك فإن المماليك امتنعوا من الطاعة للسلطان غير ممتثلين لأمره فما أطاعوا أصلا إلا لطمع أنفسهم طوبى ثم طوبى لأهالى مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلوا مراتبهم وطوبى أيضا للذين يقعدون فى مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين فإذا عرفوا بالأكثر تسارعوا إلينا بكل قلب لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك فى محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقا للخلاص ولا يبقى منهم أثر.

(المادة الأولى) جميع القرى الواقعة فى دائرة قريبة بثلاث ساعات من المواقع التى يمر بها عسكر الفرنسوية فواجب عليها أن ترسل للسر عسكر من عندها وكيلا كيما يعرف المشار إليه أنهم أطاعوا وأنهم نصبوا علم الفرنسوية الذى هو أبيض وكحلى وأحمر.

(المادة الثانية) كل قرية تقوم على العسكر الفرنسوية تحرق بالنار.

(المادة الثالثة) كل قرية تطيع العسكر الفرنساوى تنصب صنجق السلطان العثمانى محبنا دام بقاؤه.

(المادة الرابعة) المشايخ فى كل بلدة يختمون حالا جميع الأرزاق والبيوت والأملاك التى تتبع المماليك وعليهم الاجتهاد التام لئلا يضيع أدنى شىء منها.

(المادة الخامسة) الواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة أنهم يلازمون وظائفهم وعلى كل واحد من أهالى البلدان أن يبقى فى مسكنه مطمئنا وكذلك تكون الصلاة قائمة فى الجوامع على العادة والمصريون بأجمعهم ينبغى أن يشكروا الله سبحانه وتعالى على انقضاء دولة المماليك قائلين بصوت عال أدام الله إجلال السلطان العثمانى أدام الله إجلال العسكر الفرنساوى لعن الله المماليك وأصلح حال الأمة المصرية.

تحريرا بمعسكر إسكندرية فى ١٢ شهر سدود سنة ١٢١٢ من إقامة الجمهورية الفرنساوية يعنى فى آخر شهر محرم سنة ١٢١٣ هجرية انتهى بنصه.

وسارت جيوش بونابارته سيرا حثيثا جدا فدخل فريق منهم إلى فوه وآخر إلى الرحمانية وعسكروا فيهما وفاض الخبر بذلك فى القاهرة ومصر فانزعج الناس

انزعاجا شديدا وعول أكثرهم على الفرار وجمع إبراهيم بيك ومراد بيك جميع الأمراء بقصر العينى وكذلك العلماء والمشايخ وقاضى القضاة ونزل الباشا من قلعة الجبل وتكلموا فى هذا الأمر وطال الأخذ والرد ثم اتفقوا على أن يكتبوا بخبر هذا الحادث إلى دار السلطنة العثمانية وأن يتجهز مراد بيك بالعسكر ويخرج للقتال وصد هذا العدو فكتبوا إلى دار السلطنة وسيروا الكتاب مع مخصوص على البر وأخذوا فى الاستعداد وجمع آلات الحرب ومعدات القتال وجعلوا يصادرون الناس ويأخذون ما يحتاجون إليه بغير ثمن ثم ارتحل مراد بيك عن القاهرة وبرز بخيامه إلى الجسر الأسود فأقام به يومين حتى تكامل خروج العسكر وخرج معه على باشا الطرابلسى وآخر اسمه ناصف باشا وقد كانا مقيمين معه بالجيزة وخصيصين به وأخذ عدة كبيرة من المدافع وشيئا كثيرا من الذخيرة وسار برا فى الفرسان وسافرت العساكر المشاة بحرا بسفن الحرب الصغيرة وقد كانوا أخلاطا من القليونجية والأروام والمغاربة وحمل معه سلسلة عظيمة لوضعها على البوغاز عند برج مغيزل لتمنع سفن الفرنسيس من الدخول إلى النيل وظن أن الفرنسيس يطاولونه الحرب وهو يطاولهم كذلك حتى تأتيه النجدة من جانب الدولة فكان الأمر على خلاف ما ظنه فإنه لما دخل بونابارته مدينة الإسكندرية ورتب أموره فيها على ما رأى فيه المصلحة سار بجيوشه على الجانب الغربى من النيل سيرا حثيثا من غير ممانع يطلب القاهرة وبث أمامه العيون والأرصاد لتأتى إليه بخبر مراد بيك ومن معه وكانوا إذا نزلوا على قرية أو بلد أو مدينة رأوا من أهلها الطاعة والإخلاد إلى السكينة وقد بدأت الوحشة بين سكان مصر والقاهرة وكثر الهرج والإرجاف وانقطعت الطرق وأخذت اللصوص فى كل ليلة تطرق المدينة وانكف الناس عن الخروج إلى الأسواق بعد الغروب فنادى الأغا والوالى بفتح الحوانيت ليلا وتعليق القناديل على البيوت والدكاكين لإذهاب الوحشة من القلوب والاستئناس وكشف خبر الدخيل على البلد إذا دخل ولم يكن إلا أيام قلائل من خروج عساكر بونابارته من مدينة الإسكندرية حتى التقوا بجيوش مراد بيك فى يوم الجمعة تاسع عشرى المحرم عند منية سلامة فاقتتل الفريقان فلم تكن إلا ساعة حتى انهزم مراد بيك بمن معه وكان القتال هينا جدا ثم أطلق الفرنسيس مدافعهم على سفن مراد بيك فأحرقتها بما فيها من البارود وآلات الحرب والمؤن والذخيرة والعساكر فأزعج هذا المنظر المريع مراد بيك وهاله جدا فولى الفرار وتبعه عسكره ونزل المشاة منهم فيما بقى من السفن وأقلعوا بها إلى بولاق ووصل

بعضهم إلى القاهرة وهم فى أسوإ حال فانزعج الناس واشتد الخوف وركب إبراهيم بيك إلى ساحل بولاق وتبعه الباشا والعلماء والمشايخ والأعيان فتشاوروا فى عمل متاريس من شبرا إلى بولاق وأن يتولى الإقامة فيها إبراهيم بيك وأتباعه ومماليكه فأجابهم إبراهيم بيك إلى ذلك واهتم له جدا وأحضر السفن الكبيرة والغلايين التى أنشأها حديثا وأوقفها على ساحل انبابه وشحنها بالعساكر والمدافع فكان جانبا النيل شرقا وغربا مشحونين بالعساكر والأجناد والمدافع وآلات الحرب والمتاريس .

قال بعض كتاب الأخبار وكان العلماء من يوم خروج مراد بيك بجيوشه يجتمعون بالجامع الأزهر كل يوم يقرؤون البخارى وغيره من الدعوات وكذلك مشايخ فقراء الأحمدية والرفاعية والإبراهيمية والقادرية والسعدية وغيرهم من الطوائف وأرباب الأشاير ويعملون الأذكار بالأزهر وكذلك أطفال المكاتب كانوا يضجون فى كل يوم بياللطيف وكان الأمراء فى وجل ما عليه من مزيد فكانوا ينقلون فى هذه المهلة أمتعتهم من بيوتهم وقصورهم الرحبة إلى بيوت حقيرة غير معلومة وأرسلوا بعضها إلى الأرياف وتأهبوا للرحيل وكاد يتبعهم فى ذلك أكثر الأغنياء وأصحاب المقامات العالية ووقع النداء بالنفير العام فخرج الناس إلى المتاريس وكرروا النداء فى كل يوم فأغلق الناس الحوانيت والأسواق وخرج الجميع إلى بولاق القاهرة فكانت رجال كل طائفة من أرباب الصنائع يجتمعون وينصبون لهم خياما أو يجلسون فى مكان خرب أو مسجد ويرتبون لهم فيما يصرف عليهم ما يحتاجون له مما جمعوه من بعضهم من المال وكان البعض يتطوع بالإنفاق على الآخرين ومنهم من جهز جماعة من المغاربة أو الشوام بالسلاح والذخيرة وغير ذلك واجتهد الناس اجتهادا عظيما وخرج الفقراء بالطبول والزمور والأعلام والكاسات وهم يضجون ويصيحون ويذكرون بأذكار مختلفة وصعد السيد عمر أفندى نقيب الأشراف إلى قلعة الجبل فأنزل منها بيراقا كبيرا سمته العامة البيرق النبوى فنشره بين يديه من قلعة الجبل إلى بولاق القاهرة وأمامه وحوله الألوف المؤلفة من العامة وبأيديهم النبابيت والعصى والمساوق وهم يضربون بالطبول ويهللون ويكبرون وكانت شوارع القاهرة فى غاية الوحشة إذ كنت لا ترى فيها أحدا سوى من فى بيوتها من النساء والأطفال وضعفاء الرجال وكانت الدكاكين كلها مقفلة نهارا وليلا وجلس العلماء والمشايخ بزاوية على بيك ببولاق القاهرة يدعون ويبتهلون إلى الله بالنصر وأرسل إبراهيم بيك إلى العربان المجاورين لمصر ورسم لهم بأن يكونوا فى المقدمة بنواحى شبرا وما

والاها واجتمع له أيضا كثير من عرب البحيرة والصعيد والجيزة والقيعان وأولاد على والهنادى وغيرهم فكان الجمع يزداد فى كل يوم ويعظم الهول ويشتد الضيق بالفقراء لتعطل الأسباب واجتماع الناس فى صعيد واحد وانقطعت الطرق وتعدى الناس بعضهم على بعض وجمع إبراهيم بيك جميع الفرنجة الذين بمصر والقاهرة فحبس بعضهم بقلعة الجبل وبعضهم ببيوت الأمراء وفتشوا بيوتهم لعلهم يجدون فيها شيئا من السلاح أو آلات الحرب وكذلك فتشوا جميع بيوت الشوام والقبط والروم وجميع الكنائس والديارات والعامة لا ترضى إلا أن يقتلوا النصارى واليهود فيمنعهم الحكام عنهم قال صاحب عجائب الآثار ولولا ذلك المنع لقتلتهم العامة وقت الفتنة أهـ.

ولما كان يوم الجمعة سادس صفر وصل بونابارته بجيوشه إلى الجسر الأسود فباتوا ليلتهم وأصبحوا فساروا إلى أم دينار فوصلوها فى يومهم وقد كان الظن بهم أن يأتوا من جانبى النيل شرقا وغربا فلم يأتوا إلا من الجانب الغربى ونظر بونابارته إلى صفوف العدو على يمين موقفه وهرم الجيزة الكبير على يساره فخاطب جنوده وقال أيها الأبطال البواسل إن أرواح أناس قد مضى عليها خمسون قرنا تنظر إليكم من قمة هذا الهرم العظيم وترقب حركاتكم فى قتال هؤلاء المماليك فافطنوا ثم رسم إلى الجنرال ديزه أن يسير بعسكره نحو اليمين وبقية العساكر نحو اليسار وكان الوقت وقت القائلة وقد خرج جماعة من عسكر إبراهيم بيك وقدموا نحو بشتيل فتلاقوا مع مقدم عسكر الجنرال ديزه فكروا عليهم بالخيول فرماهم الفرنسيس بالبنادق رميا متتابعا وأبلى الفريقان بلاء حسنا فقتل جماعة كثيرة من كشاف محمد بيك الألفى ومماليكه وتعقبتهم عساكر الجنرال ديزه فلما اقتربوا من متاريس مراد بيك ترامى الفريقان بالمدافع وكان قد حضر من دمياط فريق من عسكر البحر الأرنؤد فقاموا بالقتال من خلف المتاريس وحاربوا مع العساكر البرية فلما احتدم القتال وارتفعت أصوات المدافع ضج العامة والغوغاء من الرعية وأخلاط الناس بالصياح فى الجانب الشرقى من النيل ورفعوا أصواتهم بيارب ويا لطيف ويارجال الله وغير ذلك وشرع فريق من العسكر الذين بالجانب الشرقى فى العبور غربا فلم يتم عبورهم حتى تمت الهزيمة على المصريين وكانت الريح شديدة وأمواج النيل تتلاطم وفى قوة اضطرابها والرمال يرتفع غبارها وتنسفها الريح فى وجوه المصريين فلا يقدر أحد أن يفتح عينيه لشدتها وانقسم الفريق المقاتل من الفرنسيس إلى شطرين بشكل مخصوص واقترب من متاريس مراد بيك فصارت المتاريس فى القلب والفرنسيس من الأمام ومن

الخلف ودقوا طبولهم ورموا بالبنادق والمدافع تباعا وقد اشتد هبوب الريح وانعقد الغبار وأظلمت الدنيا من دخان البارود وغبار الريح وصمت الأسماع من أصوات المدافع وبقى الحال هكذا نحو ثلاثة أرباع الساعة وانكشف عن هزيمة المصريين وغرق العدد العديد من فرسانهم فى النيل لإحاطة العدو بهم وظلام الوقت وأسر منهم خلق وملك الفرنسيس المتاريس جميعها وفر مراد بيك ومن معه هاربين إلى الجيزة ثم جاء منزله فى حالة رديئة وقضى أشغاله وسار من فوره إلى الصعيد الأعلى.

ولما تمت هزيمة من كانوا يقاتلون بالجانب الغربى من النيل حول الفرنسيس أفواه مدافعهم إلى الجانب الشرقى وتابعوا الرمى بها مع الرمى بالبنادق أيضا فتحقق من كان بالجانب الشرقى من الهزيمة فقامت فيهم ضجة عظيمة وكثر صياح العامة وتساقط بعضهم فوق بعض وداستهم سنابك خيل الفارين من الأمراء والمماليك وفر إبراهيم بيك والباشا والأمراء وجميع العسكر والأهالى كافة وتركوا جميع الأثقال والخيام ولم يأخذوا منها شيئا وذهب إبراهيم بيك والباشا إلى العادلية ودخل الناس قبيل الغروب المدينة وهم يضجون بالعويل والنحيب ويبتهلون إلى الله من شرّ هذا اليوم العصيب فصارت النساء عند ذلك يصرخن بأعلى أصواتهن من البيوت ويولولن فلما جن الظلام خرج الكثير من الناس خارج أبواب المدينة بنسائهم وأولادهم وخرج بعضهم هائما على وجهه لايرى للسلامة سبيلا غير مبال بترك الزوجة والولد واستمر الحال على هذا المنوال طول تلك الليلة وأصبحوا وقد أحاط بهم العربان من كل جانب فسلبوا ما كان معهم من متاع ولباس وأحمال فلم يترحموا لمن وقع فى أيديهم ما يستر به عورته أو يسد جوعه وعاد من الهاربين من لم يبعد عن أبواب المدينة فدخلوا عرايا نساء ورجالا حتى الأطفال والصبيان والبنات فكانت ليلة وصباحها من أشنع ما رأته أعين المصريين جرى فيها من القتل والنهب وفضيحة النساء على اختلاف درجاتهن مالم يسمع بما شابه بعضه فى تواريخ المتقدمين وأصبحوا وقد اجتمع العلماء والمشايخ بالجامع الأزهر واتفقوا على ان يبعثوا بكتاب إلى بونابارته بمعسكره فى انبابة يسألونه فيه عن مراده وعما يسأله من الطلبات فكتبوا الكتاب وأرسلوه مع أحد المشايخ المغاربة فلما وصل الرسول وتمثل بين يدى بونابارته بش فى وجهه ولاطفه وقرأ الخطاب ثم التفت إلى الرسول وقال وأين عظماء البلد ومشايخها ولم تأخروا عن الحضور لنرتب وإياهم ما يكون فيه الراحة لهم ولأهل بلادهم فقال نريد أمانكم فقال قد أمناكم وبعثنا لكم به قبل الآن قال

الرسول ولكن لتطمئن الناس أيضا فأمر بونابارته فكتب جوابا من معسكر الجيزة خطابا لأهل مصر أننا أرسلنا لكم قبل الآن كتابا فيه الكفاية وذكرنا لكم أننا ما حضرنا إلا بقصد إذهاب دولة المماليك الذين أهانوا الفرنسيس وساموهم الخسف وقد تطاولت أيديهم إلى سلب التجار ومال السلطان فلما حضرنا إلى الجانب الغربى من النيل خرجوا إلينا فقابلناهم بما يستحقونه وقتلنا بعضهم وأسرنا البعض ونحن فى طلبهم حتى لا يبقى أحد منهم بالديار المصرية وأما المشايخ والعلماء وأصحاب المرتبات وكامل الرعية فيكونون مطمئنين ساكنى الخواطر لاخوف عليهم أهـ.

ثم التفت إلى الرسول وقال لترجمانه قل له أنه لابد من حضور المشايخ والأعيان إلينا لنرتب ديوانا ننتخبه من سبعة من عقلاء الناس يدبرون الأمور وينظرون فى مصالح الخلق، فعاد الرسول وأخبر بجميع ماجرى فاطمأن الناس وسكنت خواطرهم وركب الشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى ولم يبق من كبار المشايخ يومئذ غيرهم لفرارهم مع بعض الأمراء وعبروا إلى الجيزة فتلقاهم بونابارته وبش فى وجوههم وسألهم أأنتم كبار المشايخ فقالوا لا وإنما كبار المشايخ قد هربوا فقال لأى سبب يهربون اكتبوا لهم بالحضور وسنعمل لكم ديوانا ينظر فى مصالح الرعية ويقضى أمورها ويقوم بما تقتضيه الشريعة ثم أمر فكتبوا عدة مكاتيب للمشايخ بالأمان وسرعة العودة ثم قام الشيخ الصاوى ومن معه وعبروا إلى مصر بعد العشاء الأخيرة فاطمأن الناس برجوعهم وأصبحوا فأرسلوا خطاب بونابارته للمشايخ فحضر الشيخ السادات والشيخ الشرقاوى وبقية المشايخ ومن تبعهم من الأهالى الفارين من ناحية المطرية فتقوت قلوب الرعية برجوعهم ودخل معهم أيضا جماعة كبيرة من الحرافيش والأوباش الذين كانوا يقتفون الهاربين من الأمراء والأهالى وقصدوا بيتى إبراهيم بيك الكبير ومراد بيك اللذين بخطة قوصون ونهبوا ما بهما وأحرقوهما بغير ممانع ونهبوا عدة بيوت أخرى من بيوت الأمراء وأخذوا ما فيها من متاع وغيره وكانوا يبيعون ذلك فى الأسواق جهارا.

ولما كان يوم الثلاثاء عاشر صفر عبر بونابارته النيل إلى مصر فى فريق من عساكره ونزل فى بيت محمد بيك الألفى بخط الساكت الذى أنشأه وزخرفه وفرشه بأنواع البسط والفرش الثمينة ولم يسكن به إلا أياما قلائل ثم رحل عنه عند وصول الأخبار بدخول الفرنسيس مدينة الإسكندرية فاحتله بونابارته وكأنه قد بنى وفرش له

ولم يدرج فى المدينة من عسكر الفرنسيس إلا نفر ومشوا بالأسواق من غير سلاح ومع غاية الحشمة والوقار فكانوا يبشون فى وجوه الناس ويضاحكونهم ويشترون ما يحتاجون إليه بأغلى ثمن فيأخذ أحدهم الدجاجة ويعطى صاحبها فى ثمنها ريالا ويأخذ البيضة بنصف فضة فلما رأى منهم العامة ذلك أنسوا بهم واطمأنوا لهم وخرجوا إليهم بالكعك وأنواع الفطير والخبز والبيض والدجاج وأنواع المأكولات وصاروا يبيعون عليهم بما أحبوا من الأسعار وفتح أكثر السوقة الحوانيت والقهاوى.

وأرسل بونابارته يطلب المشايخ والأعيان فذهبوا إليه فلما استقر بهم المقام كلمهم فى إقامة عشرة من المشايخ للديوان وفصل الخصومات وقضاء مصالح الرعية فوقع اتفاقهم على الشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ خليل البكرى والشيخ مصطفى الدمنهورى والشيخ أحمد العريشى والشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى والشيخ محمد المهدى والشيخ موسى السرسى والشيخ يوسف الشبرخيتى والشيخ محمد الدواخلى وانتظم فى عداد هذا المجلس أيضا محمد كتخدا أبوبكر باشا عامل السلطان على مصر وقاضى القضاة وقلدوا محمد أغا المسلمانى أغاة مستحفظان وعلى أغا الشعراوى والى الشرطة وحسن أغا محرم أمين احتساب وقد ألح المشايخ بإعطاء هذه المناصب لمن ذكروا من المماليك خلافا لما أشار به بونابارته من تبعيد طوائف المماليك وعدم إدخالهم فى الوظائف العالية وأعلموا بونابارته بأن سوقة مصر لا يخافون إلا من الترك ولا يحكمهم سواهم، قال صاحب عجائب الآثار وأقاموا ذا الفقار كتخدا محمد بيك كتخدا بونابارته والخواجه موسى كانوا وكيلا عن الفرنسيس المقيمين بمصر والخواجه حنا بتتو عن أرباب المجلس، فلما استقر بأرباب هذا المجلس المقام رسم بونابارته فنادى الأغا والوالى فى شوارع مصر والقاهرة بالأمان فلم تكن العامة لتكترث بهذا النداء وبقيت أكثر الدكاكين مقفلة والناس فى ريب من سكون الحال وكانوا لأجل أن يأمنوا شر الطارق من عسكر الفرنسيس يعلقون على أبوابهم الراية الإفرنسية أو يأخذون من معسكر الفرنسيس ورقة مكتوبة بالإفرنسية يلصقونها على الباب ثم أمر بونابارته بتقليد الوظائف لمن يرون فيه الأهلية لذلك فقلدوا برتلمين النصرانى الرومى كتخدا مستحفظان قال وهو الذى كانت تسميه العامة فرط الرمان فركب بموكبه المعتاد من بيت بونابارته وأمامه عدة من طوائف الجند مشاة بين يديه وعلى رأسه حشيشة من الحرير الملون وهو لابس فروة وبين يديه الخدم بالحراب المفضضة وقد رتب الأربطة فى مراكز أخطاط

مصر والقاهرة وسكن ببيت يحيى كاشف الكبير بحارة عابدين وأخذه بما فيه من فرش ومتاع قيل وجوار وغير ذلك وكان برتلمين هذا من أصحاب المدافع عند محمد بيك الألفى وقلدوا أحد الفرنجة أمانة البحرين وآخر أغاة الرسالة وجعلوا الديوان ببيت قائد أغا بالأزبكية قرب الرويعى وسكن به رئيس الديوان وسكن قائمقام مصر ببيت إبراهيم بيك الوالى المطل على بركة الفيل وسكن شيخ البلد ببيت إبراهيم بيك الكبير وآخر ببيت مراد بيك على رصيف الخشاب وسكن بوسليك مدير الحدود ببيت الشيخ البكرى القديم فكان يطلب الكتاب من القبط فى كل يوم ويسألهم عن دفاتر البلاد وحسابها ومربعاتها وغير ذلك، وأفرج بونابارته عن الأسرى من المماليك والأجناد المصرية بشفاعة أرباب الديوان فدخل الكثير منهم بالجامع الأزهر وهم فى أسوإ حال وعليهم الثياب الزرق الرثة فمكثوا يأكلون من صدقات الفقراء المجاورين ويتكففون المارين وفى ذلك عبرة وتذكرة لقوم يعقلون، وجمعوا جميع الأسلحة وآلات الحرب وتتبعوا من كان عنده شيء من ذلك وأخرجوا الدفائن والودائع ودلهم طوائف الخدم على ودائع الأمراء وأمتعتهم فأخرجوها وأخذوها إلى بيت القائمقام فكانت شيئا كثيرا جدا وطلبوا قرضة من التجار المسلمين والقبط والشوام والفرنجة قدرها خمسمائة ألف ريال فطلبوا التخفيف فلم يرض بونابارته فقاموا بدفعها ودخلت العساكر إلى المدينة فملؤا شوارعها وحاراتها وهم فى غاية الحشمة والوقار وكانوا يعاملون الناس بالرفق ويخاطبونهم باللين فاطمأنت القلوب وسكنت الخواطر وأسرع السوقة إلى فتح دكاكينهم وزال عنهم الخوف.

وجاء الخبر بوصول الحجاج إلى العقبة وقرب دخولهم إلى مصر فذهب أرباب الديوان إلى بونابارته وأخبروه بوصول أمير الحاج ومن معه من العساكر والأجناد وطلبوا منه إذنا له بالدخول هو ومن معه فامتنع ولم يسمح إلا بدخوله فى قلة وأن لا تدخل معه مماليك كثيرة ولا عسكر فكتب المشايخ إلى أمير الحاج بأن يحضر إلى الدار الحمراء ويتربص هناك حتى ينظر فى دخوله إلى مصر فلم تصل إليه مكاتبة المشايخ حتى كاتبه إبراهيم بيك الكبير وحبب إليه الحضور إلى بلبيس بمن معه من العسكر فساروا جميعا إلى بلبيس وأقاموا بها أياما وكان إبراهيم بيك عند هروبه من مصر قد ذهب إلى بلبيس وأقام بها وبعث النساء والذرارى إلى القرين بإقليم الشرقية فلما قدم عليه أمير الحاج بمن معه سار بهم إلى المنصورة وقد تفرق جميع الحجاج إلى بلادهم وعلم بونابارته بذلك فخرج فى جيش عظيم إلى العادلية وسار

إلى أن وصلت طلائعه الخانكة وأبا زعبل وطلبوا كلفة من أبى زعبل فامتنع أهلها فقاتلوهم وهزموهم ونهبوا البلد وأحرقوها وارتحلوا إلى بلبيس فملكوها بغير قتال ووصل الخبر بذلك إلى إبراهيم بيك الكبير ومن معه من الأمراء وبعض الأعيان فركب ليلا بمن معه وترفع إلى القرين فتبعه بونابارته بجيوشه فسار إبراهيم بيك إلى الصالحية وأنزل النساء والذرارى فيها ومعهم متاعه وأقام عليهم طائفة من العرب تحرسهم فجاء أحد العربان وأخبر بونابارته بموضع النساء والأمتعة فسير بونابارته فريقا من الفرسان لأخذها فوقف إبراهيم بيك وأصحابه فى طريق أولئك الفرسان واشتبك القتال بين الفريقين ساعة كادت تنهزم فيها الفرنسيس لقلتهم وإذا بالخبر جاء إلى إبراهيم بيك بأن العرب على وشك أن يأخذوا الأمتعة وجميع الأحمال ففر وفر من كان معه على أثره وتركوا قتال الفرنسيس ولحقوا بالأحمال وأجلوا عنها العرب وقتلوا منهم جماعة وساروا مسرعين إلى قطيا فلم تدركهم الفرنسيس بعد ذلك ومازالوا سائرين إلى أن استقر بهم المقام بغزة فعاد بونابارته بجيوشه إلى مصر وجعل ينظر فى الأمور ويرتب أحوال البلد وأكثر من طلب الكلف والمصالحات للنفقة على جيوشه الكثيرة.

وبينما هو على هذا الحال إذ جاءه الخبر بقدوم عمارة الإنكليز إلى ناحية أبى قير مع نلسون أحد أمراء البحر وأنها أحرقت جميع مراكبه وما فيها من آلات الحرب والذخيرة وغيره عند السد وتحرير الخبر أنه لما خرج بونابارته بمراكبه يريد الإسكندرية لم يسر بها فى درب البحر المعلوم خوفا من أن تلحقه مراكب الإنكليز فسار خلفه ربان السفن الإنجليزية ولحق بالإسكندرية ليمنعه من النزول بها فكان من أمر حضوره وعدم ملاقاته بسفن بونابارته ما تقدم بيانه فرجع بمراكبه يمخر فى البحر لعله يعثر على سفن بونابارته فيقاتلها أو يتبعها حيثما سارت فدخلت مراكب بونابارته إلى أبى قير على يسار مدينة الإسكندرية عند غروب الشمس وقيل بعد غروبها وألقت مرساها وكانت الريح على وشك الخروج والبحر كثير الأمواج فقال بونابارته لربانه فلتنزل الجند حالا إلى البر فقال كيف يا مولاى والبحر فى هياج والأمواج فى شدة وماذا علينا إن بقينا إلى الصباح فقال بونابارته لابد من خروج العسكر بلامهل فأخرجت وأصبحوا فلم يبق فى المراكب إلا ملاحوها فقط وسار بونابارته من فوّة إلى الإسكندرية ومنها إلى رشيد ودمنهور والرحمانية قاصد القاهرة كما تقدم لك.

أما سفن الإنجليز فإنه بعد أن أقلع بها نلسون من مياه الإسكندرية وسارت تمخر فى عرض البحار تبحث عن بونابارته وسفنه عادت مسرعة إلى أبى قير فرأت سفن بونابارته راسية هناك فظنت أن بونابارته وعسكره بها فأطلقت عليها المدافع وكانت السفن الفرنساوية راسية على خط واحد ممتدة من الشمال الغربى إلى الجنوب الغربى من أبى قير وربانها الأميرال برويس وكان برويس قد أنزل من كل مركب منها فى ذلك اليوم خمسة عشر رجلا إلى البر لحفر الفعلة الذين أتوا بهم لحفر الآبار للاستقاء فلما شاهد الأميرال برويس سفن الإنجليز قادمة استدعى عساكره الذين بالبر وعقد مجلسا من ضباطه وتناجوا فى أمر القتال مع المراكب الإنكليزية فأشاروا عليه بالخروج إلى ظهر البحر وملاقاتها بعيدا عن أبى قير دفعا للخطر فلم يذعن لمشورتهم وأبقى سفنه فى مرساها وكان نلسون أمير السفن الإنجليزية فى كمد دائم وحزن ملازم بسبب عدم اهتدائه إلى مقر السفن الفرنساوية فلما شاهدها عند أبى قير فرح وأخذ يدبر أمر قتالها قيل فسير بعض مراكبه إلى التحرش فى مراكب الفرنسيس والدخول بينهم حتى يصلوا بالبر وأتى بما بقى من مراكبه أمام مراكب الفرنسيس وكانت الشمس قد مالت إلى الغروب وأطلق مدافعه على سفن الفرنسيس فأجابته مدافع الفرنسيس واشتبك القتال بين الفريقين وتتابع الرمى بالقنابل وعلا الدخان وقد دخل الليل فازداد الجو ظلاما على ظلامه وتحطم بعض المراكب الفرنسوية وأسر البعض الآخر فى قليل من الزمن وكان أميرال السفن الفرنسوية على ظهر أكبر مراكبه المسماة الشرق وبها نحو ألف من الملاحين وكان نلسون على ظهر إحدى بوارجه فأصابته رصاصة فى جبهته فحملوه إلى غرفته وكذلك أصاب أميرال المراكب الفرنسوية شظية من قنبلة قطعته نصفين فحملوه لينزلوا به إلى غرفته فأبى وأشار لهم أن أبقونى حتى أموت فى موقفى هذا واشتد القتال وعلت أصوات المدافع إلى عنان السماء فلما كان بعد العشاء الأخيرة أصابت النار مخازن بارود مركب الفرنسيس الكبرى المسماة الشرق فأشعلتها فارتفعت بما فيها من الرجال والأموال والذخيرة والمدافع والآت الحرب أذرعا كثيرة عن وجه الماء ثم هبطت إلى قاع البحر وقد تمزقت كل ممزق ولم يبق لها من أثر ورأى حريقها أهل الإسكندرية ورشيد وغيرهما وبطل عندئذ القتال نحو ساعة ثم عاد نلسون يرمى بالقنابل تباعا على ما بقى من سفن الفرنسيس إلى نحو ظهر اليوم الثانى حتى دمرها تدميرا وكان الجنرال كليبر فى هذا الحين محتلا بجيشه الإسكندرية فشاهد نيران الحريق وعلم بما

جرى على السفن الفرنسوية من الحريق والدمار فهاله الأمر وأزعجه جداً فبات هو ومن معه من العسكر على قدم الاستعداد فلم يغمض لهم جفن ليلتهم تلك وأصبحوا وقد جاء الخبر بما جرى وأقلعت سفن العمارة الإنجليزية تمخر فى عرض البحار لايعلم أحد أين يكون مرساها بعد هذا النصر العظيم.

واغتم بونابارته غماً شديداً مما حل بالعمارة الفرنسوية وكادت تفتر همته وتخمد عزيمته وأصبح وهو بين منتطح عنزين فقد رجع الإنجليز بسفنهم إلى مياه الإسكندرية يغدون ويروحون يرصدون الفرنسيس ويمنعون عنهم المدد وأطلقوا قنابل مدافعهم على سد أبى قير ليجرى فيه الماء الملح على أراضى البحيرة جميعها لتغرق جيوش بونابارته التى كانت منتشرة يومئذ فى تلك الأطراف فلم تلحق بهم ضررا وقيل بل ألحقت ببعضهم وقيل غير ذلك وكاتب بونابارته أحمد باشا الجزار عامل السلطان سليم يومئذ على الشام يستميله إلى الخروج وشق عصا طاعة مولاه وتسليم البلاد لبونابارته وجعل يمنيه بالأمانى الطويلة وسير إليه الرسل بذلك من نصارى الشوام ومسلميهم وهون عليه الأمر وسار مع هؤلاء الرسل أحد الفرنسيس بهيئة متنكرة وزى التجار فلما قدم على عكا أمر الجزار بذلك الفرنسوى فنقلوه إلى إحدى السفن العائدة إلى دمياط ولم يقابله وأمره بالرحيل حالا ولم يأخذ منه الكتاب وحجز من كانوا معه فعاد ليومه ولم تنجح سفارته وجعل الجزار يكاتب من هذا الحين بعض التجار والمشايخ بمصر والقاهرة ويراسلهم سرا فكان بونابارته لذلك على حذر دائم من المشايخ والعلماء والأعيان كثير التطير منهم فكان يقلب عليهم أنواع التجارب ليعرف ما استكن فى صدورهم فكان تارة يلزمهم بلبس الجوكار وأخرى بتركه وطورا بلبس الفرجيات وأخرى بتغيير شكلها إلى شكل آخر وأرسل إلى أهل الديوان منهم يوما فحضروا فخاطبهم بواسطة ترجمانه ساعة ثم نهض من المجلس ورجع وبيده طيلسانات ملونة بثلاثة ألوان وكل طيلسان ثلاث شقات أبيض وأحمر وكحلى فوضع منها واحدة بيده على كتف الشيخ الشرقاوى فرمى بها الشيخ إلى الأرض وتغير لونه ثم استعفى من لبسها فقال بونابارته لترجمانه قل لحضرات المشايخ أنهم صاروا أحبابنا وإنى لذلك أرغب فى تعظيمهم بزى رايتى وعلامتى فإن تزيوا بها احترمتهم الجند وعظمتهم العساكر فقال المشايخ ولكن يضيع قدرنا عند الله وإخواننا المسلمين فدمدم بونابارته واغتاظ لذلك وقال لا يصلح الشيخ الشرقاوى للرئاسة فلاطفوه وألانوا له الكلام فكان لا ينكف عن تجربتهم كل قليل بمثل هذه

الأمور وغيرها، وعلم بونابارته بترفع مراد بيك الكبير إلى الفيوم بعد فراره من وقعة انبابه فسير إليه فريقا من الجند فترفع وفارقه عثمان بيك الأشقر وعبر إلى الجانب الشرقى من النيل وسار من خلف الجبل ولحق بأستاذه إبراهيم بيك بغزة وكان السيد محمد كريم حاكم الإسكندرية قد أقره بونابارته فى منصبه كما تقدم فأرسل إلى مراد بيك مكاتبة يمنيه فيها بتسليم الإسكندرية إليه إن هو حضر بعسكره ومماليكه وأتباعه فعلم بونابارته بتلك المكاتبة وأتت إليه بها الجوسيس فاستقدم السيد محمد كريم وسأله فأنكر فأبرز له تلك المكاتبة فتلجلج فحكم عليه بغرامة من المال عظيمة للغاية فإن لم يقم بدفعها قتل بغير معاودة فلم يدفع وشفع فيه المشايخ والعلماء فلم تقبل شفاعتهم وأمر به بونابارته فقتلوه واحتزوا رأسه وطافوا بها شوارع المدينة والمناداة أمامها هذا جزاء الخائن وأخبر بونابارته الجواسيس أيضا بورود مكاتبات أخرى من إبراهيم بيك الكبير إلى بعض المشايخ خطابا لهم وللرعية فأرسل فى الحال يطلبها فخاف المشايخ خوفا عظيما وأرسلوها إليه فجمع أرباب الديوان وأمر ترجمانه فقرأ المكاتبات المذكورة فكانت تتضمن الحث لهم على الاتحاد واليقظة والمحافظة على الرعية وأن السلطان بعث إليه بجيش وأنه على عزم الحضور به إلى الديار فتبسم بونابارته وقال هى فرية لا أنزل الله بها من سلطان ثم سرح المشايخ فانصرفوا، واتفق إن جاء فى هذه الأثناء أغا من خصيان دار السلطنة وكان محجورا عليه بالإسكندرية فمر من المدينة يريد المشهد الحسينى فرآه الناس واستغربوا هيأته وقالوا هذا رسول الحى جاء من عند السلطان بمرسوم يأمر الفرنسيس فيه بالجلاء عن البلاد وكثرت أقوالهم فى هذا الشأن وتباينت أخبارهم واجتمعوا بالمشهد الحسينى وتبع بعضهم بعضا وتزاحموا فبلغ بونابارته ما تشيعه العامة وما تتناقله الناس من ورود مرسوم من السلطان خطابا للمشايخ وقد أخفوه عن بونابارته فركب من فوره وحضر إلى بيت الشيخ السادات بالمشهد الحسينى وكان الوقت بعد الظهر فدخل على حين غفلة ولم يكن تقدم له مجئ وهو فى كبكبة وخيول كثيرة وعسكر فانزعج الشيخ ونزل إليه وهو لا يعرف السبب فى مجيئه فى مثل هذا الوقت على هذه الصورة فلما رآه بونابارته سأله عن ذلك المرسوم فقال لاعلم لى بذلك ولم يكن بلغه الخبر فجلس بونابارته مقدار ساعة ثم ركب ومر بعسكره من باب المشهد والناس قد كثر ازدحامهم بالجامع والخطة وهم فى هرج فلما نظروه وشاهد هو جمعهم داخله أمر من ذلك فصاحوا جميعا بصوت واحد وقالوا الفاتحة فسأل عن سبب الصياح

والحامل عليه فقالوا إنهم يدعون لك بخير وأصبح وقد سير جيشا عظيما إلى حيث مراد بيك وآخر إلى الشرقية لمراقبة أحوال إبراهيم بيك الكبير واستطلاع أخباره وقد انحط عنده شأن أرباب الديوان فأهمل أمره أياما ثم شرع في ترتيب ديوان آخر سماه محكمة القضايا ورتب له أصولا وقواعد ترجع أموره إليها وعين له اثنى عشر عضوا ورئيسا ستة من القبط وستة من تجار المسلمين وجعل رئيسه المعلم ملطى القبطى وفوض إليهم الفصل فى أمور التجارة والعامة والمواريث والدعاوى وجعل لذلك الديوان قواعد وأركانا وكتبوا منها نسخا كثيرة أرسلوا منها إلى الأعيان وغيرهم وأمر فأنزل من كان بقلعة الجبل من الأهالى الساكنين فى دورها ودروبها وأصعدوا إليها عدة كبيرة من المدافع ووضعوها فى عدة مواقع وهدموا بها أبنية كثيرة ورمموا بعض الأسوار بها وما تهدم منها وهدموا قصر يوسف صلاح الدين ومحوا محاسن أولئك الملوك والسلاطين ورفعوا ما كان بباب العزب من الأسلحة والدرق والبلط والحراب الهندية وغير ذلك واستقدم مشايخ البلاد وأعيان البنادر والثغور إلى القاهرة فحضروا واجتمعوا ببيت قائد أغا بالأزبكية وجميع من قدم أيضا من الثغور والبنادر معهم وكذلك أعيان التجار ونصارى القبط والشوام ومديرو الديوان من الفرنسيس وغيرهم جمعا موفورا فلما استقر بهم الجلوس برز المعلم ملطى كبير محكمة القضايا وقرأ مرسوم شروط وقاعدة أعمال المحكمة المذكورة فلما تمت قراءته أبرز كبير المديرين قرطاسا كبيرا وناوله لترجمانه فنشره وقرأه فكان محصله شرح حال الديار المصرية وما كانت عليه فى القدم من رفعة الشأن والغنى والثروة واتساع نطاق الزراعة والتجارة وتقدم الصنائع وبلوغ المعارف والعلوم إلى أقصى الدرجات وإنها كانت محط الآمال ومنبث عظماء الرجال ولذلك قد أحدقت بها الأبصار ومدت إليها الأعناق وتطاولت إليها الأيدى فملكها أهل بابل واليونانيون والعرب والترك وغيرهم إلا أن الدولة التركية بالغت فى تخريبها إذ من طبعها أنها إذا حصلت الثمرة قطعت عروق الشجرة فذلك لم تبق الترك بأيدى الناس شيئا إلا النزر اليسير وصار الناس لأجل ذلك مستترين تحت حجاب الفقر وقاية لأرواحهم من الفتك ولأعراضهم من الهتك ثم إن طائفة الفرنسيس بعد أن تمهد أمرها وبعد صيتها وفتحت البلاد وقبضت على أزمة الممالك العظيمة تاقت نفسها لاستخلاص مصر مما هى فيه من المذلة والضنك وإراحة أهلها من عناء هذه المظالم وانتشالها من وهدة هذه الدولة المفعمة جهلا وغباوة فقدمت وأتاح الله لها النصر فبددت شمل

المماليك ومزقتهم تمزيقا ومع هذا الانتصار فإنها لم تعامل الرعية بالقسوة ولم تتعرض لشيء من أمورهم الذاتية بمكروه وقد وضعت دولة الفرنسيس فى مقدمات أعمالها الخطيرة فى هذه الديار إصلاح الطرق وتأمين السبل وحفر الخلجان والترع وتقريب المواصلات بين البلاد وبعضها وتوسيع نطاق التجارة وتعمير ما تخرب من البلاد ومنع القوى من ظلم الضعيف وغير ذلك استجلابا لخواطر أهل البلاد وإبقاء للذكر الحسن فعلى أهل البلد ترك الشغب والإخلاد إلى السكون وإخلاص المودة والإقلاع عن فعل ما لا تحمد عاقبته ولم يكن المراد من استقدام من استقدموا من أهل البلاد وعمدها فى هذا اليوم إلا إبلاغهم نوايا دولة الفرنسيس نحو بلادهم وأهلها وهى على يقين من أنهم يمدون لذلك يد المعونة ويبلغون سر عسكر الدولة الأفرنسية بونابارته بما تحتاجه بلادهم من الأعمال الخطيرة والمنافع الضرورية إلى أن قال وإنا نريد منكم الآن يا مشايخ أن تختاروا من بينكم واحدا يكون كبيركم وعليكم طاعته والإخلاد لإشارته، فقال بعض الحاضرين نختار الشيخ الشرقاوى فقيل لهم وإنما يكون ذلك بالقرعة فاقترعوا فظهرت القرعة للشيخ عبد الله الشرقاوى وما تم هذا الأمر حتى غربت الشمس فأذنوا لهم بالانصراف وأن يعودوا فى غد وذهبوا فى ثانى يوم وانتخبوا بقية من وقع الاختيار عليهم لديوان مصر من أهالى البلاد والمشايخ والقبط والشوام وتجار المسلمين ثم أخذ أعضاء هذا الديوان فى ترتيب أمور الحوادث والنظر فى المقررات على العقار والأملاك ورتبوا لذلك ترتيبا بأن جعلوا على الأعلى منها ثمانية فرانسة فى كل سنة وعلى الأوسط ستة وعلى الأدنى ثلاثة وما كانت أجرته أقل من ريال فى الشهر فلا شيء عليه وأما الوكائل والخانات والحمامات والمعاصر والسيارج والحوانيت فمنها ما جعلوا عليه ثلاثين وأربعين بحسب الخسة والرواج والاتساع وكتبوا بذلك أوراقا وألصقوها بالطرق والمفارق وأرسلوا نسخا للأعيان وعينوا جماعة المهندسين ومعهم أشخاص لتقدير أجرة كل ملك وعقار وشرعوا فى الإحصاء وطافوا بعض الجهات لتجهيز القوائم وضبط أسماء أصحابها فلما شاع خبر هذا العمل بين الناس استعظموه وانتبذ جماعة منهم وتناجوا فى ذلك ووافقهم عليه بعض المتعممين فاجتمع عند ذلك الكثير من الغوغاء من غير رئيس يسوسهم ولاقائد يقودهم وأصبحوا يوم الأحد وهم فى جمع عظيم وأظهروا ما كانوا قد أخفوه من الآلات والأسلحة وخرج رجل اسمه السيد بدر ومعه حرافيش خطة الحسينية وزمر الحارات الخارجة عن القاهرة وهم فى صياح وضجيج

عظيمين وينادون بأعلى أصواتهم نصر الله دين الإسلام وساروا إلى بيت قاضى القضاة فخشى العاقبة وخاف هذا الأمر فأمر فأغلق خدامه الأبواب ووقفوا أمامها يمنعون هذه اللموم من الدنو منها فرجموا بيت القاضى بالحجارة واجتمع كذلك بالجامع الأزهر عدد عديد من أولئك السوقة والغوغاء ووصل الخبر إلى الجنرال بون حاكم البلد فركب على الفور فى عدة من الفرسان ومر بشارع الغورية وعطف على خط الصنادقية وذهب إلى بيت القاضى فوجد ذلك الزحام العظيم فهاله أمره وخرج من بين القصرين وباب الزهومة وكانت جميع هذه الخطط مزدحمة بأخلاط الأهالى فبادروا إليه وضربوه وأثخنوه جراحا وقتلوا بعض فرسانه ثم أخذ المسلمون حذرهم وخرجوا يهرعون وضبطوا عدة أماكن بالقاهرة مثل باب الفتوح وباب النصر والبرقية إلى باب زويلة وباب الشعرية وجهة البندقانيين وما حاذاها وهدموا مصاطب الدكاكين وجعلوا أحجارها متاريس ووقف دون كل متراس جمع عظيم من الناس واقتصر هذا الحادث على من بقلب القاهرة ولم يشاركهم فى هذا الخروج أحد من أهالى مصر القديمة ولا أهل بولاق ولاغيرهم من الأطراف فسار إليهم طائفة من الفرنسيس وظهروا من ناحية المناخلية وأطلقوا بنادقهم على المتاريس الكائنة بناحية الشوايين وقد كان بها طائفة من تجار ناحية الفحامين المغاربة فقاتلتهم المغاربة قتالا شديدا وأجلوهم عن المناخلية وعند ذلك زاد الحال وكثر الزحف والزلزال وخرجت العامة الخروج التام وبالغوا فى الإفساد وتطاولت أيديهم إلى النهب وهجموا على حارة الجوانية ونهبوا دور النصارى الروم والشوام وما جاورها من بيوت المسلمين وسلبوا النساء والبنات وكذلك نهبوا خان الملايات وباتوا تلك الليلة على ماهم عليه من النهب والخطف وأصبح الفرنسيس وقد رتبوا مدافعهم على تلال البرقية وقلعة الجبل ووقفوا ينتظرون إشارة بونابارته وكان بونابارته قد أرسل إلى المشايخ خطابا يسألهم فيه رد العامة بالتى هى أحسن حقنا لدمائهم واستيقاء لأرواحهم فلم تجبه المشايخ بشىء فأطال الانتظار فلم يردوا عليه وقد كثر رمى العامة بالبنادق وعبثهم بالمدينة وأفحشوافى النهب والخطف ومازالوا على هذا الحال إلى مابعد الظهر فلما أعياه الانتظار أمر أصحاب المدافع فجعلوا يطلقون مدافعهم تباعا على البيوت والحارات وعلى الخصوص الجامع الأزهر وما جاوره من المساكن فكانت القنابل تخرج من أفواهها كالمطر وقد دمرت تلك النواحى وخربتها تخريبا فخرج الناس والمجاورون على وجوههم وهم يضجون بأعلى أصواتهم، «ياخفى الألطاف نجنا مما

نخاف»، وخرجت النساء حاسرات وأولادهن فى أحضانهن وهن مولولات وتتابع الرمى بالقنابل من قلعة الجبل وتلال البرقية حتى تزعزعت أركان المدينة وكادت البلد تندك عن آخرها فلما اشتد الخطب وعظم الهول والكرب ركب المشايخ إلى بونابارته واستغاثوا فعاتبهم واتهمهم بالخدعة والتقصير فاعتذروا وتلطفوا فى القول واستنهضوا مروأته فقبل عذرهم وأمر بالكف عن إطلاق المدافع فقاموا من عنده وهم ينادون بالأمان وتسامع الناس بذلك فاطمأنت قلوبهم وسكنت خواطرهم وكان قد أقبل الليل.

أما أهل الحسينية ومن معهم من أهالى الأطراف فإنهم لبثوا وراء المتاريس يتابعون الرمى حتى فرغ منهم البارود فانكفوا عن القتال وقد مات منهم العدد العديد بنيران الفرنسيس التى كانت تتساقط عليهم من كل جانب ثم انكف عنهم الفرنسيس وتركوهم وبعد هزيع من الليل دخلت العساكر الأفرنسية الى المدينة مشاة وفرسانا ومروا بالأزقة والشوارع فلم يعثروا على أحد فهدموا ما وجدوه من المتاريس ودخل طائفة منهم باب البرقية وساروا إلى الغورية ثم كروا ورجعوا وتراسلوا أرسالاً ركباناً ورجالاً ثم دخلوا إلى الجامع الأزهر وهم على ظهور الخيل وبينهم المشاة وعاثوا بالأروقة وكسروا ما وجدوه من القناديل والمصابيح وأصبحوا وقد اصطف منهم فريق بباب الجامع وتفرقت طوائف منهم بتلك النواحى واتخذوا السعى والتطواف بها منهاجاً فخرج سكان تلك الخطة يهرعون وهم فى أسوإ حال وكان الفرنسيس يسيرون بالشوارع ويفتشون كل من يمر بهم فمن امتنع قتلوه ثم أخذوا يحملون القتلى من المسلمين والفرنسيس فكانوا كثيرين ومات فى هذه الثورة الجنرال بون بجراحاته التى أصابته وهدموا ما بقى من المتاريس ورفعوا ترابها وأحجارها وقيدوا برتلمان بالعسس والبحث عن الأسلحة المخبأة فبث أعوانه فى أطراف المدينة وأكثر من الإساءة وبالغ فى تنكيل المسلمين فملأ منهم الحبوس وكذلك فعل الأغا وأصبح يوم الأربعاء فركب المشايخ كافة وذهبوا إلى بونابارته وخاطبوه بالعفو ولاطفوه فوعدهم وعداً مشوباً بالتسويف وطالبهم بأن يدلوه على المتعممين الذين أضرموا نار هذه الفتنة فغالطوه وأكثروا من المواربة فقال إن لم تذكروهم لى الساعة فإنى لا أعفوا أبداً فالتمسوا منه إخراج العسكر من الجامع فأجابهم إلى ذلك وأمر فأخرجوا ولم يبق سوى سبعين جعلوهم رباطاً وبالغ بونابارته فى البحث عن مثيرى هذه الفتنة من المتعممين فكانوا الشيخ سليمان الجوسقى شيخ طائفة العميان والشيخ أحمد الشرقاوى والشيخ

عبد الوهاب الشبراوى والشيخ يوسف المصيلحى والشيخ إسماعيل البراوى فأمر بونابارته فقبضوا عليهم وسجنوهم ببيت الشيخ البكرى ولم يعثروا على السيد بدر المقدسى الذى جمع لموم الحسينية حيث فر هارباً إلى الشام فخاف بقية المشايخ خوفاً ما عليه من مزيد وأكثروا من الذهاب إلى بونابارته والتخشع إليه وطلب فك سجن أولئك المشايخ فغولطوا وقد اتهم أيضاً إبراهيم أفندى كاتب البهار بأنه جمع جمعاً لإثارة هذه الفتنة من المماليك المختفين عنده وقد أعطاهم شيئاً كثيراً من الأسلحة والمساوق والعصى وغيرها فقبضوا عليه وسجنوه ببيت الأغا ثم قبضوا على آخرين وسجنوهم بقلعة الجبل واشتد البحث وتتبع المشاركين فى هذا الحادث فاشتد قلق المشايخ وركب الشيخ السادات وبقية المشايخ إلى بونابارته وتشفعوا وتخضعوا فلم يقبل واستمر القبض على الناس بأدنى شبهة وزد بعضهم ما كان نهبه من بيوت النصارى والشوام وغيرهم أيام الثورة فكان شيئاً كثيراً وتطاير شرر هذه الفتنة إلى جوف البلاد أيضاً فقام بعض أهالى القرى والبلدان على كتائب الفرنسيس المرابطين بها فقتلوهم وأظهروا الخروج والعصيان فاهتم بونابارته لذلك واستخدم جماعة من المغاربة فى الجندية وسلم أمرهم لكبير اسمه عمر القلفنجى من مغاربة الفحامين وسيرهم إلى تلك النواحى فقهروا الأهالى وظفروا بهم وساموهم الخسف وأسكتوا الفتنة وضربوا بلدة عشما وقتلوا شيخها ونهبوا داره وأحضروا جميع أولاده وإخوته فقتلوا جميعهم ولم يبق منهم سوى ولد صغير قد أقاموه شيخاً عوضاً عن أبيه وسار برتلمان إلى ناحية الشرقية فى طلب من فر من أصحاب الفتنة فلم يدرك أحداً منهم فعاد إلى سرياقوس بعسكره ثم رجع إلى القاهرة وقد دخل بعده رسول على هجين قادماً من الديار الشامية ومعه مكاتبات على شكل فرمان من أحمد باشا الجزار والى الشام وآخر من أبى بكر باشا الذى كان عامل مصر قبل دخول جيوش الفرنسيس وقد هرب إلى الديار الشامية خطابا إلى مصطفى أغا كتخدائه وخطاباً آخر من إبراهيم بيك الكبير إلى المشايخ حاصل ما فيها بعد الاستهلال وذكر بعض الآيات القرآنية والأحاديث والآثار المتعلقة بالجهاد ولعن طائفة الفرنجة والحط عليهم وذكر عقائدهم وكذبهم وتحيلهم الحض على قتالهم والتخلص منهم وكذلك بقية المكاتبات فأخذها الكتخدا المذكور وذهب بها إلى بونابارته فلما علم ما فيها قال هى أحبولة من حبائل إبراهيم بيك بقصد إيقاع الفتنة وإضرام نار الوحشة فاحذروا وانظروا فى عواقب الأمور.

وأخذ الفرنسيس من هذا الحين يشيدون الحصون ويرتبون المعاقل ويعدون الأبراج العظيمة على التلال والآكام المحيطة بالبلد ووضعوا عليها المدافع وهدموا أماكن كثيرة بالجيزة وحصنوها تحصيناً عظيماً وكذلك مصر القديمة وشبرا وقد هدموا منها عدة جوامع منها الجوامع المجاورة لقنطرة انبابة ومسجد المقس المعروف الآن بأولاد عنان على الخليج الناصرى بباب البحر وقطعوا نخيل جهة الحلى وبولاق وخربوا دوراً كثيرة وأخذوا ما فيها من الأخشاب ثم ذهبت منهم طائفة بعد أيام إلى منزل الشيخ البكرى فى نحو نصف الليل وطلبوا المشايخ المحبوسين فخرجوا وإذا هم فى وسط فريق من الجند وقد قبضوا عليهم وذهبوا بهم إلى بيت حاكم المدينة بدرب الجماميز ثم عروهم من ثيابهم وصعدوا بهم إلى قلعة الجبل وسجنوهم فلما أصبحوا أخرجوهم وقتلوهم برمى البنادق وألقوهم من السور خلف القلعة وخفى خبرهم عن أكثر الناس وركب فى ذلك اليوم بعض المشايخ إلى مصطفى بيك كتخدا الباشا ليتشفعوا وإياه لأولئك المشايخ فذهبوا إلى بيت بونابارته وهم لا يعلمون بموتهم فقابلهم ترجمانه بعين غامضة ثم تركهم فانصرفوا وأمر بونابارته فكتبوا عدة أوراق على لسان المشايخ وأرسلوها إلى البلاد وأرسلوا منها صوراً إلى المشايخ وهى نصيحة من كافة علماء الإسلام بمصر المحروسة وفيها : نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ونتبرأ إلى الله من الساعين فى الأرض فساداً نعرف أهل مصر قاطبة أنه حصل بعض الخلل فى المحروسة من بعض الجعيدية وأشرار الناس فحركوا الشرور بين الرعية وبين العساكر الفرنسوية بعد ما كانوا أصحاباً وأحباباً بالسوية وترتب على ذلك قتل جملة من المسلمين ونهبت بعض البيوت ولكن حصلت ألطاف الله الخفية وسكنت الفتنة بسبب شفاعتنا عند أمير الجيوش بونابارته وارتفعت هذه البلية لأنه رجل كامل العقل عنده رحمة وشفقة على المسلمين ومحبة للفقراء والمساكين ولولاه لكان العساكر أحرقوا جميع المدينة ونهبوا جميع الأموال وقتلوا كامل أهل مصر فعليكم أن لا تحركوا الفتنة ولا تطيعوا أمر المفسدين ولا تسمعوا كلام المنافقين ولا تتبعوا الأشرار ولا تكونوا من الخاسرين سفهاء العقول الذين لا يقرءون العواقب لأجل أن تحفظوا أوطانكم وتطمئنوا على عيالكم وأديانكم فإن الله سبحانه وتعالى يؤتى ملكه من يشاء ويحكم ما يريد ونخبركم أن كل من تسبب فى تحريك هذه الفتنة قتلوا عن آخرهم وأراح الله منهم العباد والبلاد ونصيحتنا لكم أن لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة واشتغلوا بأسباب معايشكم وأمور دينكم وادفعوا الخراج الذى عليكم والدين النصيحة والسلام اهـ. بنصه.

ولما طار الخبر فى الآفاق بورود مكاتبات إبراهيم بيك والجزار وتكلم فى أمرها أهل البلاد وأكثروا اللغط بها خاف المشايخ من رجوع الحال إلى ما كان عليه وقيام الفتنة فعمدوا إلى تحرير منشور وأرسلوا عدة صور منه إلى المدن والبلدان يقولون فيه، نصيحة من علماء الإسلام بمصر نخبركم يا أهل المدائن والأمصار من المؤمنين ويا سكان الأرياف من العربان والفلاحين أن إبراهيم بيك ومراد بيك وبقية دولة المماليك أرسلوا عدة من المكاتبات والمخاطبات إلى سائر الأقاليم المصرية لأجل تحريك الفتنة بين المخلوقات وادعوا أنها من حضرة مولانا السلطان ومن بعض وزرائه بالكذب والبهتان وسبب ذلك أنه حصل لهم الغم الشديد والكرب الزائد واغتاظوا غيظاً شديداً من العلماء والرعايا حيث لم يوافقوهم على الخروج معهم وأن يتركوا عيالهم وأوطانهم فأرادوا أن يوقعوا الفتنة والشر بين الرعية وذلك لشدة ما حصل لهم من الكرب الزائد بذهاب دولتهم وحرمانهم من مملكة مصر المحمية ولو كانوا فى هذه الأوراق صادقين بأنها من حضرة سلطان السلاطين لأرسلها جهاراً مع أغوات معينين ونخبركم أن الطائفة الفرنساوية بالخصوص عن بقية الطوائف الإفرنجية دائماً يحبون المسلمين ويبغضون المشركين وطبيعتهم وهم أصحاب لمولانا السلطان قائمون بنصرته وأصدقاء ملازمون لمودته وعشرته ومعونته يحبون من والاه ويبغضون من عاداه ولذلك بين الفرنساويين والموسكوب غاية العداوة الشديدة ومن أجل هذا يعاونون حضرة السلطان على أخذ بلاد الموسكوب إن شاء الله ولا يبقون منهم بقية فننصحكم يا أهل الأقاليم المصرية أن لا تحركوا الفتن ولا الشرور بين البرية ولا تعارضوا العساكر الفرنسوية بشيء من أنواع الأذية فيحصل لكم الضرر والهلاك والبلية ولا تسمعوا كلام المفسدين ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون وإلا فتصبحوا على ما فعلتم نادمين وإنما عليكم دفع الخراج المطلوب منكم لكامل الملتزمين لتكونوا فى أوطانكم سالمين وعلى عيالكم وأموالكم آمنين مطمئنين لأن حضرة سارى عسكر الكبير أمير الجيوش بونابارته اتفق معنا على أنه لا ينازع أحداً فى دين الإسلام ولا يعارضنا فيما شرعه الله من الأحكام ويرفع عن الرعية سائر المظالم ويقتصر على أخذ الخراج ويزيل ما أحدثه الظلمة من المغارم فلا تعلقوا آمالكم بإبراهيم ومراد وارجعوا إلى مولاكم مالك الممالك وخالق العباد فقد قال نبيه ورسوله الأكرم «الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها بين الأمم» عليه أفضل الصلاة والسلام ختام اهـ.

ولصقوا نسخاً من هذا المنشور بشوارع القاهرة وأرسلوا منها فى سائر البلاد، وشدد بونابارته فى اليقظة والالتفات وأكثر من العيون والجواسيس وأقام الجنرال استنك واليا على القاهرة بدل الجنرال بون واليها الذى قتل فى الفتنة كما تقدم القول فاطمأن الناس بعد ذلك وسكنت الأحوال وعادت الأمور إلى سابق مجراها وأمر بونابارته فجعلوا يمهدون الطرق والعقبات ويسهلون المواصلات داخل المدينة وقد كانت معرقلة بالتلال الكبيرة والوديان العميقة والأشجار الكثيرة فردموا جميع الجهات التى حوالى بركة الأزبكية وهدموا الأماكن المقابلة لبيت بونابارته حتى جعلوها رحبة متسعة وهدموا الدور المقابلة لها من الجهة الأخرى وردموا مكانها بالأتربة الممهدة على خط معتدل من الجهتين مبتدئاً من بيت بونابارته إلى قنطرة المغربى وفعلوا بعدها كذلك على الوضع والنسق بحيث صار جسراً عظيماً ممتداً ممهداً مستوياً على خط مستقيم من الأزبكية إلى بولاق وينقسم بقرب بولاق إلى قسمين قسم إلى طريق أبى العلاء وقسم يذهب إلى جهة التبانة وساحل النيل وبطريقه الطريق المسلوكة الواصلة من طريق أبى العلاء وجامع الخطيرى إلى ناحية المدابغ وحفروا فى جانبى ذلك الجسر جميعه خندقين وغرسوا بجانبه الأشجار العظيمة وأحدثوا طريقاً أخرى فيما بين باب الحديد وباب العدوى عند المكان المعروف بالشيخ شعيب حيث معمل الفواخير وردموا جسراً ممتداً ممهداً مستطيلاً يبتدئ من الحد المذكور وينتهى إلى جهة المذبح خارج الحسينية وأزالوا ما يتخلل ذلك من الأبنية والغيطان والأشجار والتلال وقطعوا جانباً كبيراً من التل الكبير المجاور لقنطرة الجاحد وردموا فى طريقهم قطعة من خليج بركة الرطلى وقطعوا أشجار بستان كاتب البهار المقابل لجسر بركة الرطلى وأشجار الجسر أيضاً والأبنية التى بين باب الحديد والرحبة التى بظاهر جامع المقس وساروا على المنخفض بحيث صارت طريقاً ممتداً من الأزبكية إلى جهة قبة النصر المعروفة بقبة العزب جهة العادلية على خط مستقيم من الجانبين وقيدوا بذلك ناساً منهم يتعهدون تلك الطرق وأنشئوا مطاحن هواء ومطاحن ماء وجعلوا فى الروضة مستشفى يسع خمسمائة مريض ومثله فى الإسكندرية ورشيد ودمياط وأنشأوا مدرسة بالقاهرة لأبناء الفرنسين المولودين بمصر وجريدتين بالإفرنسية إحدهما تسمى كاد اجبسيان والثانية تسمى كوريه دى إجبت ومعامل للأقفال والأسلحة والمدافع وآلات الحرب وصناعة الورق والأقمشة وسائر ما يلزم للبلاد وفعلوا جميع هذه الأعمال العظيمة فى مدة يسيرة جداً مع همة غريبة وجعلوا جامع

الظاهر بيبرس خارج باب الحسينية قلعة ومنارته برجاً ووضعوا على أسواره المدافع العظيمة وأسكنوا به عدة من العسكر وبنوا فى داخله عدة مساكن وكان هذا الجامع معطل الشعائر من مدة وقد باع نظاره منه انقاضاً وعمداً كثيرة وعملوا عدة أبراج على تل العقارب بالناصرية ووضعوا فيها عدة آلات حربية وأفردوا لجماعة المديرين والفلكيين منهم وأصحاب العلوم الرياضية كالفلك والهندسة والهيئة والنقوشات والكتاب والحساب وغيرهم من أرباب القلم حارة الناصرية حيث الدرب الجديد وما به من البيوت وجعلوا بيت حسن كاشف جركس فى تلك الخطة مكتبة للمطالعة يحضرها من يريد المطالعة منهم فى أوقات معينة من النهار وكان إذا دخلها أحد المصريين فرحوا به وأحسنوا لقاءه وإذا أراد التفرج أطلعوه على ما أراد أو أراد المطالعة أعطوه ما أراد من الكتب ولا سيما الكتب التى تبهج البسطاء بما فيها من الرسوم البديعة وفى جملتها رسم صاحب الشريعة المحمدية ورسوم أخرى للخلفاء الراشدين وغيرهم وكانوا يطلقون فى كل يوم عند الزوال مدفعاً.

ولم ينكف بونابارته عن البحث عمن كان له يد فى الفتنة من عمد البلاد وأعيانها فقبض على شيخ العرب سليمان الشواربى شيخ قليوب حيث عثروا على خطاب منه إلى أهالى سرياقوس يحضهم على القيام والتأهب للفتك بالفرنسيس عند خروجهم من القاهرة مقهورين فسجنوه بقلعة الجبل وسار بونابارته على أثر ذلك ومعه طائفة من الجند والسيد أحمد المحروقي وإبراهيم أفندى كاتب البهار وبعض المديرين والمهندسين والمعلم جرجس الجوهرى والمعلم أنطون أبو طقية وغيرهم قاصداً مدينة السويس لأمر لم يعلم سره فلما شاع بين أهل السويس خبر مقدمه هربوا كافة وتركوا البيوت قائمة على عروشها فنهبها العسكر وأخذوا ما وجدوه فيها من متاع وفرش فأبلغ بونابارته بعض من كانوا معه ما فعله العسكر فرد جميع ما أخذوه ووعد برد ما فقد أو دفع ثمنه وكان مدة لبثه بالسويس يركب فى كل يوم ويطوف فى حارات وشوارع المدينة وجهات الساحل ليلاً ونهاراً قيل وكان معه من الأدم فى هذه السفرة ثلاث دجاجات مقلية ملفوفة فى ورقة وقليل من الخبز، قال صاحب عجائب الآثار وليس معه طباخ ولا فراش ولا خيمة وكل شخص من عسكره معه رغيف كبير مرشوق فى طرف حربته يتزود منه ويشرب من سقاء لطيف من صفيح معلق فى عنقه اهـ.

ثم سار من السويس إلى الشرقية ودخل مدينة بلبيس وقبض على عدة كثيرة من

عربان الشرقية وأولادهم من ذكور وإناث وبعث بهم إلى القاهرة مع جماعة من العسكر وقام من بلبيس قاصداً القاهرة فمر بأبى زعبل فضرب أهلها وضرب كذلك أهل المنير وأمر فأخذت جميع مواشيهما ودخل القاهرة ليلاً فلما كان الصباح أنزلوا شيخ العرب سليمان الشواربى ومعه ثلاث عربان آخرون إلى الرميلة ومعهم الأغا فقتلوهم ذبحا ثم سلموا جثة الشواربى ورأسه لقومه فحملوه فى نعش وساروا به إلى قليوب وفاض الخبر بذلك فى مصر والقاهرة فخاف الناس وانكف أصحاب الفتنة وشدد بونابارته فى تتبع خطوات مراد بيك الكبير وتسيير الجند خلفه أينما سار فكان مراد بيك كلما لحقت به عساكر بونابارته ترفع إلى الصعيد حتى وصل بمن معه إلى عقبة الهواء وقد داخلهم من لقاء الفرنسيس هيبة ورهبة فلم يقابلوهم وبونابارته يشدد فى أمر قتالهم وقطع شأفتهم وقبض على كثير من التجار الترك والقليونجية المقيمين بالقاهرة ومصر بدلالة الأغا وسجنهم بقلعة الجبل وأخذوا ما كان لهم بوكالة ذى الفقار بالجمالية من متاع وغيره وجعلوا يفتشون على من بقى منهم بالقاهرة ومصر وبولاق وخصوصاً من كان منهم فى خدمة مراد بيك الكبير وجمعوا جميع الكريديين الذين كانوا فى الخدمة العسكرية عند إبراهيم بيك ومراد بيك وأدخلوهم فى صفوف العساكر الفرنساوية وزيوهم بزيهم وسير منهم طائفة خلف مراد بيك فلما تزايدت الشدة بمراد بيك ومن معه وضاقت عليهم الدنيا برحبها تخلى عنه على باشا ونصوح باشا وسارا مع بعض اتباع إبراهيم بيك الكبير من خلف الجبل إلى الشام فأمر بونابارته بتحصين تلك الأطراف فسار قوم من الفرنسيس وبنوا فى قطية بعض الأبراج والحصون ومهدوا فيها بعض العقبات وأكثروا من الأسلحة والذخيرة ومعدات القتال وأمر بونابارته بعد ذلك فقتلوا جميع من كان مسجوناً من المماليك والأجناد التركية بقلعة الجبل وكانوا كثيرين وأخذوا فى إعداد دواب النقل من جمال وبغال وحمير والتأهب لغزو الشام وقتال أحمد باشا الجزار واليها.

ولما شاع بين أهل الحجاز خبر تملك الفرنسيس على ديار مصر وتصرفهم فى أمور المسلمين هالهم هذا الأمر واستعظموه جداً وقام فيهم مغربى اسمه الكيلانى من مجاورى مكة والمدينة وجعل يحض الناس على الجهاد واستخلاص البلاد من أيدى الفرنسيس فانزعج الناس وضجوا بالحرب وعجوا إلى الله وجردوا الكعبة من أستارها وجعل الكيلانى يعظ الناس ويدعوهم إلى الجهاد وقرأ بالحرم كتاباً مؤلفاً فى معنى ذلك فاستنهض بعض الناس وبذلوا أموالهم وأنفسهم وكانوا زهاء الستمائة وركبوا

البحر إلى القصير مع من انضم إليهم من أهل ينبع ونزلوا بالصعيد فانضم إليهم العدد العديد من أهله وبعض الترك والمغاربة الذين كانوا مع مراد بيك والكشاف والغز الذين هربوا بعد مقتلة انبابه وزحفوا على جرجا وكان بها الجنرال ديزه بجيوشه يطارد مراد بيك ومن معه فلاقت جيوشه تلك الجموع واقتتل الفريقان فلم تثبت الترك والغز كعادتهم وانهزموا فتبعهم هوارة الصعيد واللموم المجتمعة من القرى وثبت الحجازيون برهة ثم اشتدت عليهم نيران الفرنسيس فتقهقروا ثم ولو الأدبار وترفع من هرب من الترك والمماليك إلى إسنا ومعهم حسن بيك الجداوى وعثمان بيك تابعه وجاء الخبر بذلك إلى بونابارته وبما وقع فتأخر عن الخروج بعسكره إلى غزو الشام وتربص حتى يرى ما سيكون من أمر الحجازيين ومازال الحجازيون يعاودون الكرة على الجنرال ديزه وعساكره والحرب بينهم سجال حتى تمكن منهم وبدد جموعهم وأعمل فيهم القتل والتشريد ومزقهم فى شهر رجب سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف وانقطع خبرهم ولم يظهر بعد ذلك منهم أحد، ووردت البشائر بما أصابهم إلى بونابارته فجعل يتأهب للخروج بجيشه وخرج فى مستهل رمضان من السنة قاصداً الشام وسارت طوائفه طائفة بعد أخرى فى أحمال ومهمات وكراع زائدة للغاية وعقد بونابارته قبل خروجه ديواناً جمع فيه العلماء والمشايخ والأعيان من النصارى والمسلمين وحدثهم بأمر خروجه بعسكره إلى الشام ليقطع شأفة إبراهيم بيك الكبير ومن معه كما فعلت عساكره بمراد بيك ومن معه وأنه سيمهد الطرق ويجعلها فى أمن ويفتح باب التجارة بين مصر والشام ترويجاً لأرزاق مصر وتوسيعاً لنطاق ثروتها قال بونابارته ولا أغيب عنكم سوى شهر ثم أعود فأبذل الجهد فى تحسين أحوال البلاد وترتيب جميع أمورها على النحو المرغوب بعون الله ولا أطالبكم إلا بالخلود إلى السكينة وملازمة الهدوّ ومراقبة أحوال العامة وحضهم على ملازمة السكون وعدم الاختلاط بالجند المقيمين بمصر والقاهرة وهذه وصيتى إليكم فاحفظوها فتعهدوا له بذلك.

وقد سلم زمام القاهرة إلى الجنرال دوغا والصعيد إلى الجنرال ديزه والإسكندرية إلى الجنرال مرمون وخرج إلى العادلية يوم الأحد خامس رمضان من السنة ومعه طوائف الجند وقاضى القضاة ومصطفى بيك كتخدا الباشا وبعض المشايخ والمديرين والمترجمين وغيرهم من أصحاب الوظائف العالية وترك عدة من العساكر بالقلاع والأبراج التى أنشأها فلما وصل إلى قلعة العريش قاتله من بها من العساكر وعدتهم

نحو الألف بين مغاربة وارنؤد فحاصر القلعة وضيق على من بها فأرسلوا يطلبون المدد من غزة فجاء إليهم قاسم بيك أمير البحرين ومعه طائفة كبيرة فلم يتمكن من الوصول إلى القلعة حيث هاجمه عساكر الفرنسيس وحالوا بينهم وبينها ثم كبسوا عليهم ليلاً فقتل قاسم بيك وقتل معه خلق كثير وفر من بقى وهم النزر اليسير واشتد بونابارته فى حصار القلعة وضيق عليها من كل جانب فاستأمن من بقى فيها فأمنهم وأنزلهم من القلعة وأدخل منهم بجيوشه من رام الدخول والانتظام فى سلكهم وصرف من لم يقبل إلى مصر تخفرهم طائفة من الفرنسيس ثم ارتحل إلى العريش واحتلها وكتب كتابا إلى أهل الشام ونصه :

فرمان عام موجه من أمير الجيوش إلى أهل الشام قاطبة بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين، من طرف بونابارته أمير الجيوش الفرنساوية إلى حضرة المفتين والعلماء وكافة أهالى نواحى غزة والرملة ويافا حفظهم الله تعالى، بعد السلام نعرفكم أننا حررنا لكم هذه السطور نعلمكم أننا حضرنا فى هذا الطرف لقصد طرد المماليك وعسكر الجزار عنكم وإلى أى سبب حضور عسكر الجزار وتعديه على بلاد يافا وغزة التى ما كانت من حكمه وإلى أى سبب أيضاً أرسل عساكره إلى قلعة العريش وبذلك هجم على أراضى مصر فلا شك كان مراده إجراء الحروب معنا ونحن حضرنا لنحاربه فأما أنتم يا أهالى الأطراف المشار إليها فلم نقصد لكم أذية ولا أدنى ضرر فأنتم استمروا فى محلكم ووطنكم مطمئنين ومرتاحين وأخبروا من كان خارجاً عن محله ووطنه أن يرجع ويقيم فى محله ووطنه ومن قبلنا عليكم ثم عليكم الأمان الكافى والحماية التامة ولا أحد يتعرض لكم فى مالكم ولا ما تملكه يدكم وقصدنا أن القضاة يلازمون خدمهم ووظائفهم على ما كانوا عليه وعلى الخصوص أن دين الإسلام لم يزل معززاً ومعتبراً والجوامع عامرة بالصلاة وزيادة المؤمنين، إن كل خير يأتى من الله تعالى وهو يعطى النصر لمن يشاء ولا يخفاكم أن جميع ما تأمر به الناس ضدنا فبغدر باطل ولا نفع لهم به ولأن كل ما نضع فيه يدنا لابد من تمامه بالخير والذى يتظاهر لنا بالحب يفلح والذى يتظاهر بالغدر يهلك ومن كل ما حصل تفهمون جيداً أننا نقمع أعداءنا ونعضد من يحبنا وعلى الخصوص لكوننا متصفين بالرحمة والشفقة على الفقراء والمساكين.

وسار بجيوشه إلى غزة فوصل فى ليلة التاسع عشر من رمضان إلى خان يونس فباتوا ليلتهم وعند الفجر ساروا إلى غزة فشاهدوا قبل الظهر بقليل عساكر المماليك والجزار معسكرين أمامها فهاجموهم فلم تدافع عساكر المماليك إلا بالأمر الهين ثم

ولوا جميعاً الفرار فتبعهم الفرنسيس وقاتلوا مؤخرتهم قتالاً يسيراً وبينما كانت العساكر الأفرنسية تطارد جند المماليك انعطف الجنرال كليبر بجيوشه إلى غزة فملكها واحتلها وأخذ ما فيها من الذخائر والشعير والبقسماط وزهاء الأربعمائة قنطار بارود واثنى عشر مدفعاً وعدداً عظيماً جداً من الخيام وغير ذلك من معدات الحرب وبعث إلى القاهرة ببعض الرايات التى غنموها من قلعة العريش وغزة صحبة طائفة من الجند فدخلوا القاهرة فى كبكبة عظيمة وبأيدى بعضهم تلك الرايات ومروا من وسط المدينة إلى الجامع الأزهر فاصطفوا رجالاً وركباناً بباب الجامع وضربوا طبولهم وأبواقهم ثم طلبوا شيخ الجامع فسلموه تلك الرايات وأمروه برفعها على منارات الجامع فنصبوا رايتين منها على المنارة الكبيرة وواحدة على منارة أخرى فلما رفعت تلك الرايات أطلقوا لها عدة مدافع من قلعة الجبل وكان ذلك ليلة عيد الفطر فلما كان عند الغروب أطلقوا عدة مدافع أيضاً إعلاماً بالعيد وطاف بعد العشاء أصحاب الشرطة ينادون بالأمان وخروج الناس على عادتهم لزيارة القبور بالقرافتين والاجتماع لصلاة العيد وأن يفعلوا جميع عوائدهم فى ذلك اليوم.

وسارت جيوش بونابارته من غزة فى الثالث والعشرين من رمضان فوصلوا إلى الرملة فى الخامس والعشرين منه فانجلت عنها عساكر الجزار وولوا هاربين فدخلها فريق من الفرنسيس وملكوا ما فيها من الذخائر وآلات الحرب ثم قصدوا يافا فوصلت طلائع الجيش إليها فى الثامن والعشرين من رمضان ثم حاصروها شرقاً وغرباً فتم حصارها وشددوا عليها وسير بونابارته جيشاً آخر إلى عكا ليناوشها القتال حتى يأتى إليها بجميع عساكره وخندق حول يافا وعمل المتاريس ووضعوا عليها المدافع العظيمة فخرج عساكر الجزار للقتال وهجموا على متاريس الفرنسيس هجمة شديدة للغاية فلاقاهم عسكر الفرنسيس وصدموهم صدمة قوية فكروا راجعين إلى المدينة وامتنعوا فى قلعتها فعند ذلك أرسل بونابارته خطاباً إلى والى يافا يعلمه بأن الغرض من حضوره إلى يافا إنما هو قهر عسكر الجزار وإخراجهم وأنه إن جنح إلى التسليم بالرضا كان ذلك فيه مصلحة للبلد وأهلها وحقن للدماء وإن أبى إلا الحرب فلا يمضى إلا قليل من الساعات حتى ينسف أسوار المدينة نسفاً ويعمل السيف فى رقاب أهلها حتى لا يبقى بها أحد فلما علم الوالى بما فى الخطاب قبض على رسول بونابارته ووضعه فى السجن ولم يجب بونابارته بشىء فلما غاب الرسول وانقطع الأمل من رجوعه أمر بونابارته فأطلقوا المدافع وتابعوا الرمى على المدينة بالقنابل

وحمى الوطيس وارتفع الدخان إلى عنان السماء واشتد الرمى فلم يمض قليل من الزمن حتى تعطلت مدافع حصون يافا وتراسل الرمى من متاريس الفرنسيس ومازالوا حتى تهدم بعض السور وحمل الفرنسيس حملة رجل واحد على السور فملكوا الأبراج ودخلوا المدينة عنوة وأعملوا السيف فى أهلها واشتد الأمر ونهب العسكر المدينة وأخذوا جميع ما صادفوه فكان يوم وليلة يشيب من هولهما الرضيع ثم أمر بونابارته بالكف عن القتل والنهب فكان الموتى لايكادون يدخلون تحت حصر، وكان بمدينة يافا عدد كبير من أهالى مصر ودمشق الشام وحلب وغيرها فرسم بونابارته برجوع كل فريق منهم إلى وطنه سواء كان من المحاربين أو غير المحاربين وجمع الغنائم فكانت شيئاً كثيراً من الأموال والمتاع والسلاح والكراع وغير ذلك فأرسل بعضها إلى مصر مع بعض رايات عسكر الجزار وعددها ثلاث عشرة راية فرفعت على منارات الجامع الأزهر وأنزلوا ما كان عليها من رايات قلعة العريش وأطلقوا لذلك عدة مدافع من قلعة الجبل ثم سار بونابارته بعساكره إلى حيفا ففتحها وغنم ما فيها فكان شيئاً كثيراً جداً وانتقل إلى عكا فحاصرها فتمنعت عليه فشدد فى حصارها وضيق وهى لا تزداد إلا منعة قد طال حصارها.

وبينما كان بونابارته يقاتل أهل الشام ويفتح مدنها وبلدانها كان عساكره بمصر يقاتلون أيضاً الهاربين من الأمراء المصريين ويبددون شملهم بالصعيد والشرقية ودمنهور ويتبعون خطوات الألفى أينما سار فلما ضاق بالألفى رحب الصعيد نزل فى قلة من أصحابه من خلف الجبل ولحق بالشرقية وراسل قبائل العربان ومن بقى من المماليك فانضم إليه منهم جماعة كثيرة وتأهبوا لقتال الفرنسيس فسارت لقتالهم طائفة من العسكر وسارت أخرى أيضاً إلى دمنهور لقتال أهلها حيث خرجوا على العمال وجباة الأموال وشقوا عصا الطاعة وتبعوا رجلاً مغربياً نزل على دمنهور وادعى المهدوية وصار يدعو الناس ويحرضهم على القتال والجهاد فاجتمع إليه كثير من أهل البحيرة وغيرهم وجاءوا إلى دمنهور وقاتلوا من بها من الفرنسيس وطردوا العمال واستمروا على ذلك أياماً كثيرة وجعل ذلك المغربى يكاتب البلاد ويحض أهلها على القتال فلما وصلت إليها العساكر الفرنساوية قاتلتها وأعملت فيها السيف وأفحشت فى القتل والنهب وأراقت فيها من الدماء شيئاً كثيراً جداً ونهبت ما وجدته فكان شيئاً لايكاد يدخل تحت حصر وقتل فى هذه الوقعة ذلك المغربى وكثير من أخصائه وكبار دعوته.

وجاء الخبر بذلك إلى بونابارته وهو على حصار عكا ففرح وبالغ فى الحصار وأجهد النفس وتابع الرمى بالقنابل عليها فلم ينل منها مناله وامتنعت عليه فصمم على تركها والعود إلى مصر وكتب إلى قائده بمصر يقول: اعلم أيها الصديق أنه ما حملنى على ترك حصار عكا والعودة إليكم إلا خمسة عشر سبباً الأول قيام عسكرنا أمام أسوارها ستة أيام بدون حرب حتى وصل إليها بعض ضباط الإنجليز فحصنوها تحصيناً هندسياً قد زاد فى منعتها الثانى أخذ الإنجليز لمراكبنا الكبيرة الستة بما فيها من المدافع عند يافا الثالث كثرة الموات فى عسكرنا بالطاعون واشتداده الرابع عدم حصول عسكرنا على الأقوات الكافية بأسباب خراب البلاد المجاورة لعكا الخامس اضطراب ضباطنا من حوادث الصعيد وعصيان مراد بيك الكبير وموت طائفة كبيرة من الجنود الفرنساوية فى تلك الأصقاع السادس خروج الحجازيين مع الكيلانى إلى الصعيد السابع خروج المغربى المدعو محمد ومن خرج معه من أهالى البلاد الثامن ضبط مراكب الإنجليز لبوغاز الإسكندرية ودمياط التاسع وقوف عمارة الروس أمام رودس العاشر وورود الخبر بنقض الصلح بين أمتنا والأمة النمساوية بتحريض الإنجليز الحادى عشر موت تيبو أحد ملوك الهند أعداء الإنجليز وقد كان بينى وبينه عهد قبل نزولى بعكا الثانى عشر موت كفرللى الذى قد عملت المتاريس برأيه وإشارته وعجزى عن تعيين آخر مكانه لا يلبث أن يغير هيئة تلك المتاريس فيحوجنا إلى عطلة لابد منها، وكفرللى هذا هو المعروف بأبى خشبة وهو من فحول أركان حرب بونابارته، الثالث عشر نزول مصطفى باشا من القسطنطينية بمراكب الإنكليز وسيره إلى مياه الإسكندرية الرابع عشر وقوف مراكب الإنكليز أمام عكا الخامس عشر ما رأيناه من وجوب إطالة الحصار إلى أربعة أشهر على الأقل مع ما وراء ذلك من الارتباك والأخطار التى ذكرناها فهذه يا صديقى هى الأسباب الحاملة لى على ترك الحصار والعود إليكم أهـ.

وكان الإنجليز قد هيجوا على بونابارته الخواطر وحزبوا عليه سائر أهالى الشام من المسلمين والنصارى وأرسل سفيرهم المقيم فى دار السلطنة منشورات إلى لبنان يحض فيها مشايخ وأمراء تلك الأصقاع على الخروج على بونابارته وجيوشه ومد يد المساعدة للدولة العثمانية وأرسل إلى كبار النصارى منهم صورة منشور كان أصدره بونابارته يقول فيه أنه هدم أركان الديانة النصرانية وقوض بنيانها فكان لنشر هذا المنشور بينهم أثر مؤلم جداً فتحزبوا عليه ومنعوا من إعطائه الدقيق والخمر والمؤنة

للعسكر ولا سيما البارود وكانت السفن الإنجليزية تمخر فى البحار طولاً وعرضاً وتضرب كل ما تصادفه من مراكب الفرنسيس وتدمرها تدميراً ورست أمام أسوار عكا بحراً وجعلت تتابع رمى القنابل على معسكر بونابارته ليلاً ونهاراً حتى عرقلت مساعيه وأضعفت أمانيه وبلغت منه الروح التراقى فارتحل عن عكا فى الحادى والعشرين من ذى الحجة سنة أربع عشرة ومائتين وألف يريد مصر بجميع جيوشه وأركب الجرحى والمرضى منهم على دواب الحمل وخيول الفرسان وسار الجيش يطوى تلك الصحارى طياً لعله يدرك القاهرة فقاسوا الشدائد والأهوال وأعمل فيهم الظمأ وتفشى فيهم الوباء وكانت مراكب الإنجليز تتعقبهم فى البحر وترمى عليهم القنابل كلما اقتربوا فى طريقهم من ساحل البحر والعربان تتبعهم من خلف تشن الغارة على مؤخرتهم كل قليل وكذلك كانت الجيوش العثمانية تزحف خلفهم مرحلة بعد مرحلة فكانوا لذلك يخربون كل بلد أو مدينة يمرون بها كى لا تتمكن خصومهم من الاستيلاء عليها فلما جاءوا العريش أمر بونابارته فبالغوا فى تحصينها ومنعتها ولبثوا بها أياماً ولا ماء عندهم وكان القيظ شديداً جداً فكانوا يأتون بالماء من بعض المستنقعات الآجنة فيشربونه وهو مشحون بالديدان والعلق فكان العلق يلصق بأفواههم ويمتص دماءهم ثم رحلوا عن العريش فوصلت مقدماتهم ضواحى القاهرة فى يوم الثلاثاء سابع المحرم سنة أربع عشرة ومائتين وألف هجرية وأخبروا بوصول بونابارته إلى الصالحية فلما كانت ليلة الجمعة عاشره أرسلوا إلى المشايخ والأعيان للخروج لملاقاته فاجتمعوا بالأزبكية عند الفجر بالمشاعل ودقت الطبول فركبوا وركب جميع أرباب الوظائف العالية والمديرون ونائب بونابارته مع كبار العسكر وساروا إلى العادلية فقابلوا بونابارته وسار معهم فى خواصه ودخلوا إلى القاهرة من باب النصر فى موكب حافل للغاية وأمامهم الطبول وخلفهم المركبات والأحمال وساروا على هذا الحال إلى أن دخل بونابارته داره بالأزبكية وأطلقوا عدة مدافع.

فلم تكد تستقر ببونابارته وجيوشه الراحة من غزوة الشام وقيظ تلك الصحارى حتى جاء الخبر بانحدار مراد بيك وأصحابه فراراً من الفرنسيس ونزوله بدهشور أياماً ثم ارتحاله منها إلى نجع الطرانة ثم إلى البحيرة من خلف الجبل فأغضبه هذا الخبر وعبر النيل من فوره فى عسكره ونزل على نجع الطرانة ودهشور وضربهما وأهلك منهما خلقاً كثيراً جداً فعلم بعد ذلك أن مراد بيك عاد ثانياً إلى الأقاليم القبلية وأن عثمان بيك الشرقاوى وسليمان أغا الوالى وآخرين مروا من خلف الجبل إلى ناحية

الشرق فسير بونابارته لقتالهم برتلمان الرومى فى عسكر عظيم من أخلاط الروم والمماليك والقبط والفرنجة فأدركوهم على مقربة من مدينة بلبيس وأتوهم من خلف الطريق المسلوك فأخذوهم غيلة وكان فى هذا الحين عثمان بيك يغتسل فلما أحسوا به بادروا جميعاً إلى الفرار وركبوا وركب عثمان بيك بقميص واحد وطاقية على رأسه وهربوا وتركوا ثيابهم ومتاعهم وذخرتهم وجميع ما كان معهم حتى قدور الطعام على النار ووجدوا على فراش عثمان بيك مكاتيب من إبراهيم بيك الكبير يستدعيهم إلى الحضور إليه بالشام.

وشاع الخبر عقب ذلك بأيام بحضور مراكب كثيرة أمام مدينة الإسكندرية وأبى قير وأن بها كثيرا من الجنود العثمانية فكثر لغط الناس وتحدثهم بهذا الأمر وتحقق الخبر بخروج طوائف الفرنسيس وعبورهم النيل إلى الجيزة واهتمامهم بإعداد مهمات الحرب وآلات القتال ثم خروج بونابارته أيضاً ومعه المعلم إبراهيم الجوهرى واهتم حنا بنتو متولى ساحل بولاق بجمع المراكب وشحنها بالمعدات والذخيرة وغيرها وأقام بونابارته فى مخيمه بجانب الأهرام حتى تكامل الجيش وسير المقدمة وركب هو فى ثانى يوم وهو الثلاثاء ثانى عشرى صفر سنة أربع عشرة ومائتين قاصداً الإسكندرية فلم يكد يصل بجميع جيوشه إلى البحيرة حتى جاءته الأخبار بنزول فريق عظيم من العساكر العثمانية على أرض أبى قير فجد فى السير يريد الوصول على عجل.

قال صاحب عجائب الآثار وكتب بونابارته إلى أرباب الديوان بمصر خطاباً يقول فيه: لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى محفل الديوان بمصر المنتخب من أحسن الناس وأكملهم بالعقل والتدبير عليكم سلام الله تعالى ورحمته وبركاته بعد مزيد السلام عليكم وكثرة الأشواق الزائدة إليكم نخبركم يا أهل الديوان المكرمين العظام بهذا المكتوب أننا وضعنا جماعات من عسكرنا بجبل الطرانة وبعد ذلك سرنا إلى إقليم البحيرة لأجل ما نرد راحة الرعايا المساكين ونقتص من أعدائنا المحاربين وقد وصلنا بالسلامة إلى الرحمانية وعفونا عفواً عمومياً عن كامل أهل البحيرة حتى صار أهل الأقليم فى راحة تامة ونعمة عامة وفى هذا التاريخ نخبركم أنه وصل ثمانون مركباً صغاراً وكباراً حتى ظهروا بثغر الإسكندرية وقصدوا أن يدخلوها فلم يمكنهم الدخول من كثرة البنب والكلل النازلة عليهم فرحلوا عنها وتوجهوا يرسون بناحية أبى قير وابتدءوا ينزلون فى البر وأنا الآن تاركهم وقصدى أن

يتكامل الجميع فى البر وأنزل عليهم أقتل من لا يطيع وأخلى بالحياة الطائعين وآتيكم بهم محبوسين تحت السيف لأجل أن يكون فى ذلك شأن عظيم فى مدينة مصر والسبب فى مجئ هذه العمارة إلى هذا القطر العشم بالاجتماع على المماليك والعربان لأجل نهب البلاد وخراب القطر المصرى وفى هذه العمارة خلق كثير من الموسكو الإفرنج الذين كراهتهم ظاهرة لكل من كان يوحد الله وعداوتهم واضحة لمن كان يعبد الله ويؤمن برسول الله يكرهون الإسلام ولا يحترمون القرآن وهم نظراً لكرههم فى معتقدكم يجعلون الآلهة ثلاثة وأن الله ثالث تلك الثلاثة تعالى الله عن الشركاء ولكن عن قريب يظهر لهم أن الثلاثة لا تعطى القوة وإن كثرة الآلهة لا تنفع بل أنه باطل لأن الله تعالى هو الواحد الذى يعطى النصرة لمن يوحده هو الرحمن الرحيم المساعد المعين المقوى للعادلين الموحدين الماحق رأى المفسدين المشركين وقد سبق فى علمه القديم وقضائه العظيم أنه أعطانى هذا الإقليم وقدر وحكم بحضورى عندكم لأجل تغييرى الأمور الفاسدة وأنواع الظلم وتبديل ذلك بالعدل والراحة مع صلاح الحكم وبرهان قدرته العظيمة ووحدانيته المستقيمة أنه لم يقدر للذين يعتقدون أن الآلهة ثلاثة قوة مثل قوتنا فلم يقدروا أن يعملوا الذى عملناه ونحن المعتقدون وحدانية الإله ونعرف أنه العزيز القادر القوى القاهر المدبر للكائنات والمحيط علماً بالأرضين والسموات القائم بأمر المخلوقات هذا ما فى الآيات والكتب المنزلات ونخبركم بأن المسلمين إن كانوا بصحبتهم يكونوا من المغضوب عليهم لمخالفتهم وصية النبى عليه أفضل الصلاة والسلام بسبب اتفاقهم مع الكافرين الفجرة اللئام لأن أعداء الإسلام لا ينصرون الإسلام ويا ويل من كانت نصرته بأعداء الله وحاشا الله أن يكون المستنصر بالكفار مؤيداً أو يكون مسلما ساقتهم المقادير للهلاك والتدبير مع الثقالة والرذالة وكيف لمسلم أن ينزل فى مركب تحت بيرق الصليب ويسمع فى حق الواحد الأحد والفرد الصمد من الكفار كل يوم تخريفاً واحتقاراً لا شك أن هذا المسلم فى هذا الحال أقبح من الكافر الأصلى فى الضلال نريد منكم يا أهل الديوان أن تخبروا بهذا الخبر جميع الدواوين والأمصار لأجل أن يمتنع أهل الفساد من الفتنة بين الرعية فى سائر الأقاليم والبلاد لأن البلد الذى يحصل فيه الشر يحصل لهم مزيد الضرر والقصاص انصحوهم يحفظوا أنفسهم من الهلاك خوفاً عليهم أن نفعل فيهم مثل ما فعلنا بأهل دمنهور وغيرها من بلاد الشرور بسبب سلوكهم المسالك القبيحة فقاصصناهم ، والسلام تحريراً فى الرحمانية يوم الأحد خامس عشر صفر سنة أربع عشرة ومائتين وألف هجرية انتهى بنصه.

قلت: وفى هذا الخطاب إن كان صحيحاً من النقد على بونابارته والتعييب ورميه بالغش والخديعة ما يزرى ويحط بعظمته ويذهب بشهرته.

وسار بونابارته بجيوشه حتى نزل على أبى قير واقتتل مع الجيوش العثمانية التى كانت بالقلاع قتالاً عنيفاً ومازال حتى قهرها واسترد منها ما أخذته من القلاع والحصون وأخذ مصطفى باشا أمير الجيوش العثمانية أسيراً وكذلك عثمان خجا الذى كان عاملاً على رشيد على عهد إبراهيم بيك الكبير وقتل من العساكر العثمانية خلقاً كثيراً وغنم الفرنسيس من آلات الحرب والذخيرة والمؤن وغير ذلك ما لايكاد يدخل تحت الحصر ثم قفل بونابارته راجعاً بجيوشه ورايات النصر تخفق على رءوسهم فدخل القاهرة ليلة الأحد التاسع من ربيع الأول من السنة ومعه عدة كثيرة من أسرى المسلمين وشاع الخبر بحضوره فى تلك الليلة فلم تصدق الناس ذلك وذهب جماعة ليتحققوا الخبر على جليته فشاهدوا الأسرى وقوفاً فى وسط بركة الأزبكية وبقوا كذلك إلى ظهر اليوم ثم أرسلوا بعضهم إلى جامع الظاهر بيبرس خارج الحسينية وأصعدوا باقيهم إلى قلعة الجبل وبعثوا بمصطفى باشا إلى الجيزة وسيروا عثمان خجا إلى إسكندرية فكان لهذا الحادث أثر مؤلم فى خواطر المصريين فقد كانوا يتمنون الخلاص على يدى أولئك المقاتلين فخابت منهم الآمال، ولما استقر ببونابارته المقام أمر بعثمان خجا فنقل من الإسكندرية إلى رشيد وأدخلوه إليها فى طائفة من العسكر مكشوف الرأس حافى الأقدام وطافوا به حول البلد وهو على هذا الحال ثم ساروا به إلى بيته الذى كان يسكنه قبل فراره إلى القسطنطينية وأوقفوه أمام بابه واحتزوا رأسه وعلقوها على إحدى نوافذ الدور الأعلى ليراها الناس كافة.

وعاتب بونابارته أرباب الديوان بمصر على عدم ولائهم وإخلاصهم للفرنسيس وخص بشديد العتاب الشيخ المهدى والشيخ الصاوى فلاطفاه وسايراه حتى أزالا عنه ما كانا يخشيانه ولبث بونابارته يدبر الأمور على ما يشاء إلى أن كان يوم الاثنين سادس عشر ربيع الأول من السنة ركب من القاهرة وخرج خروج المسافر فى قلة من خواصه وسار إلى الإسكندرية فلما نزل بها استقدم الجنرال منو وولاه قيادة الإسكندرية وولى الجنرال كلابير نيابة الغيبة بمصر وكتب له بذلك مرسوما ثم أعلم الأميرال جانتوم بعزمه فأعد له دارعتين عند العجمى فلما رتب أموره على ما أراد ركب ليلاً فى قلة من خواصه ونزل بإحدى الدارعتين وبات ليلته تلك وأقلع صباحاً وقد تركوا خيولهم على البر ولم يعلم أحد بخبر قيامه إلى عاصمة الفرنسيس حتى جاء كتابه إلى الجنرال دوجيه بمصر فتلاه على أرباب المجلس فكان مضمونه قيام

بونابارته من الإسكندرية إلى باريز ليمهد لعمارته البحرية المسالك والعقبات التى أحدثتها سفن الإنجليز فى سبيلها وأنه لا يتغيب عن مصر أكثر من ثلاثة أشهر وأنه أقام على مصر الجنرال كلابير نائب الغيبة فلما قرئ هذا الخطاب أخذ العجب من أرباب المجلس مأخذه وكادوا لا يصدقونه لملازمة مراكب الإنجليز مياه الإسكندرية صيفاً وشتاء ومنعها جميع المواصلات بالإسكندرية فكرروا على الأمير دوجيه السؤال فأكد لهم سفر بونابارته فى يوم الجمعة حادى عشر ربيع الأول من السنة وحضر الأمير كلابير من معسكره بدمياط إلى القاهرة ونزل فى مكان بونابارته ببيت الألفى بالأزبكية فذهب المشايخ والأعيان وأرباب الديوان لزيارته فلم يروا منه صدرا رحباً ولا وجهاً باشاً كما كانوا يرون من بونابارته وركب فى ثانى يوم فى موكب حافل للغاية وصعد إلى قلعة الجبل وأمامه طائفة كبيرة من القواصة بالعصى يأمرون الناس بالقيام إجلالا له وخلفه عدة كثيرة من الفرسان والمشاة وطوائف الأجناد والوالى والأغا وغيرهما ولبث بالقلعة ساعة ثم رجع إلى مقعده وكان رجلاً حازماً واسع التأمل كبير الفكر عظيم الخبرة بفنون السياسة والحرب فلما استقر به المنصب كتب إلى أرباب الحل والعقد بباريز عاصمة الفرنسيس يقول ما ترجمته :

قد رحل بونابارته عن مصر إلى باريز ولم يعلم بخبره أحد ولم أكن لأعلم بذلك إلا بعد أن أتانى خطابه وقد علمت أنه أرسل بكتاب أيضاً إلى صدر الدولة العثمانية بعد علمه بوصول الصدر المشار إليه إلى دمشق الشام ولا يخفاكم أنه لم يكن لنا عدو سوى المماليك فقط أما الآن فقد أصبح أعداؤنا غير المماليك وهم فى كل من دولة الإنجليز والدولة العثمانية ودولة الروس وقد صارت جنودنا فى نصف العدد الذى احتلت به ديار مصر وهم مع ذلك متفرقون فى جوف البلاد من العريش والإسكندرية إلى جزيرة أسوان وليس لديهم من معدات الحرب ما يكفيهم لتعطيل معامل الأسلحة والبارود وكذلك ليس عندهم من الثياب ما يقيهم من أمراض البلاد ولا مال عندنا بقدر الكفاية إذ خسرت الخزينة زهاء اثنى عشر ألف ألف من الفرنكات هذا وإن كنا قد ضربنا المماليك فمزقنا جمعهم ولكن ما برح مراد بيك الكبير يقاتلنا فى الأقاليم القبلية وفى عدة وافرة من الرجال وأخلاط الناس ولا سبيل إلى التغلب عليه إلا بعد أيام كثيرة وقد جاء صدر الدولة العثمانية من القسطنطينية إلى دمشق الشام من أجل الزحف علينا وقتالنا فلا نعلم ما سيكون من وراء ذلك أما حصوننا وقلاعنا فلا تزيد فى قوتنا شيئاً ومنها حصن العريش فإنه لايدفع مهاجما

وما الإسكندرية إلا شبه معسكر تحيطه زريبة فلذلك أرى أن أنجح الوسائل وأفلحها أن تفتح المخابرة مع الدولة العثمانية عسى نتفق على ما يكون فيه المصلحة فقد علمت اليوم أن عمارة عثمانية عظيمة رست أمام حصون دمياط اهـ.

وجاء الخبر بانحدار مراد بيك الكبير إلى الفيوم وعبثه بالبلاد وتكليف أهاليها بالمغارم والكلف فأرسل لقتاله عسكرا فساروا والتقوا معه ووقعت بينهم وقائع عدة ثم ترددت بين مراد بيك وبين الأمير كلابير الرسل والمراسلات وتكلموا فى أمر الصلح فاتفقوا على شروط منها تقليد مراد بيك إمارة الصعيد من قبل دولة الفرنسيس فوقعت بينهما هدنة على ذلك وكادت تتم لمراد بيك الإمارة وتفرغ الأمير كلابير إلى غير ذلك فحصن الصالحية والقرين وبلبيس وأكثر فيها من الأسلحة والذخيرة ورتب الأربطة وهيأ الحصون وحصن الأبراج وبالغ فى ترتيبها فكانت الأخبار تزداد ورودا بتجمع العساكر السلطانية فى الديار الشامية وقرب حلولها بمصر لإخراج الفرنسيس منها وإجلائهم عنها وكان لما سافر بونابارته إلى باريز وترك الأمر فى مصر إلى الأمير كلابير طمعت الدولة العثمانية فى استخلاص البلد من أيدى الفرنسيس وزادها رغبة فى ذلك السير سدنى سمث أمير السفن الإنجليزية فرسم السلطان إلى يوسف باشا الصدر الأعظم يومئذ بالذهاب إلى الشام ليجمع منها الجند والعسكر ويسير بهم إلى برا إلى مصر وسير جيشاً آخر على ظهر العمارة الإنجليزية ومعه كثير من ضباط الإنجليز وكبار الحرب فسارت العمارة بمن فيها حتى أتت دمياط ونزل من كان بها من العسكر فى قلعة متخربة شرقى البوغاز فخرج الفرنسيس لقتالهم فحاصروهم وضربوهم حتى أجلوهم عنها وقد مات منهم خلق كثير ولم ينالوا من الفرنسيس أما يوسف باشا فإنه لما نزل بالشام ومن معه من كبار السلطنة قيل أنهم عسفوا فى البلاد وضربوا على أهلها الضرائب الفادحة وجبوا الأموال كرهاً وعاثوا فى الأرض مفسدين فكانت شدة عظيمة على أهل الشام ومازالوا على هذا الحال حتى رحلوا عنها وجاءوا إلى غزة فى منتصف رجب من السنة ثم العريش وحاصروا من بها من الفرنسيس وقاتلوهم حتى ملكوا قلعتها فى التاسع عشر من رجب المذكور وغنموا جميع ما كان بها من الذخيرة وآلات الحرب ودخل قائد الجيوش السلطانية وجماعة كبيرة من عسكره وبعض الأمراء المصريين إلى القلعة بعد انسحاب الفرنسيس منها ورفعوا عليها أعلامهم وضربوا طبولهم وأبواقهم فرحاً بأخذها من أيدى الفرنسيس وكان الفرنسيس قد تركوا فيها جندياً عند مخازن البارود

مختفياً فلما صاروا جميعاً داخل القلعة ألهب البارود وكان شيئاً كثيراً للغاية فزلزلت الأرض فى الحال زلزالها وتطايرت أبنية القلعة بمن فيها كافة فمزقتهم عن آخرهم وتطايرت أشلاؤهم إلى عنان السماء ومات كثير من العساكر الذين كانوا خارجاً عنها بما سقط عليهم من النيران والأحجار المتطايرة ولم يبق إلا نفر قليل فكان حادثاً مريعاً جداً ومنظراً تقشعر منه الأبدان وقد تغطى وجه الأرض بالإشلاء والعظام والمشامش المتفتتة وجاءت الأخبار إلى الأمير كلابير فخرج بعسكره من القاهرة وسار مسرعاً إلى الصالحية وضم إليه من بقى من عسكر قلعة العريش وكان قبل دخول العساكر السلطانية إلى قلعة العريش قد ترددت الرسل بين الفرنسيس والعثمانيين على يد أمير الدوارع الإنجليزية بشأن تقرير الصلح على قاعدة صالحة للفريقين وجاءت مكاتبة من يوسف باشا إلى مقدم الفرنسيس باستدعاء رجلين ليتشاور معهما على أمر يكون فيه المصلحة للفريقين فوجهوا إليه رئيس الكتاب بوسليك والأمير ديزه أمير جيوش الصعيد فسارا بحراً وغابا أياماً افتتح فى خلالها العثمانيون قلعة غزة والعريش وجاءوا إلى الصالحية فى الثانى والعشرين من شعبان من السنة ومعهم رئيس كتاب الدولة والدفتردار ثم حضروا جميعاً إلى القاهرة لتقرير الصلح وقد جنح الفريقان إليه حقناً للدماء وأظهر الفرنسيس من المسايرة ما اؤتمن معه جانبهم وزال عن رجال الدولة الخوف من مكرهم فحصل الاتفاق على مصالحة تضمنت اثنتين وعشرين شرطاً وهى معربة

قد صار الاتفاق بين كل من الجنرال ديزه والجنرال بوسيلك مدير الحدود العام النائبين عن الجنرال كلابير قائد عموم جيوش الفرنسيس بمصر من جهة وما بين سامى المقام مصطفى رشيد أفندى الدفتردار ومصطفى راسيه أفندى رئيس الكتاب المفوضين بكمال التفويض من قبل حضرة الوزير يوسف باشا من جهة أخرى على ما هو آت :

حقنا للدماء واستبقاء للنوع الإنسانى من غوائل الحروب وتوالى الخطوب قد رغب ديوان الجمهورية الفرنساوية فى عقد هذا العهد بإخلاء الديار المصرية من جميع الجيوش الفرنساوية رجاء أن تذهب الوحشة الموجودة الآن ما بين المشيخة الفرنساوية والدولة العثمانية وتتوطد به أيضاً دعائم السلام فى أنحاء المغرب ولذلك قد صار التوقيع ممن ذكروا على الشروط الآتية عهداً وميثاقاً كافلين بإخلاء الديار المذكورة من جميع جيوش المشيخة المشار إليها :

الشرط الأول : تنسحب العساكر والأجناد الفرنساوية بجميع أسلحتها ومهماتها وآلات حربها وذخيرتها إلى ثغور الإسكندرية ورشيد وأبى قير ليسيروا منها على ظهور السفن التى ترد من جانب المشيخة وإن لم توجد فمن طرف الدولة العثمانية بقدر الكفاية وقد تعين لذلك مدة شهر واحد وبعد مضى هذه الوعدة التى تبتدئ من تاريخ التوقيع على هذه الشروط يحتل بقلعة الإسكندرية نائب من قبل الباب العالى ومعه خمسون شخصاً.

الثانى : تحصل المهادنة مدة ثلاثة أشهر لا يحصل فيها حرب بكامل الديار المصرية اعتباراً من تاريخ التوقيع على هذا العقد وإذا انقضت هذه المدة قبل أن ترد السفن من طرف الدولة العثمانية اللازمة لنقل جميع العساكر جاز تمديدها لأجل تتمكن معه الدولة المشار إليها من إعداد السفن اللازمة لذلك ووجب محافظة كل من الفريقين على ما بيده من المواقع والحصون والقلاع منعا لما عساه أن يحدث من الفتن بأسباب دخول العساكر العثمانية أو من خروج الأهالى عن الطاعة.

الثالث : انسحاب الجيوش الفرنساوية وتسييرها يكون بأوامر وتعليمات كل من يعينه لذلك الباب العالى والأمير كلابير أمير الجيوش المشار إليها وإذا وقع خلاف بين الوكيلين المذكورين يكون فض هذا الخلاف والحكم فيه موكولاً لعهدة السير سدنى سمث أمير الدوارع الإنجليزية ويجب أن يتبع فى فضه الأصول المقررة فى القوانين البحرية المرعية بالدولة الإنجليزية.

الرابع : إخلاء كل من قطية والصالحية من جميع الجيوش الفرنساوية يكون فى بحر ثمانية أيام بالأقل وعشرة أيام بالأكثر من تاريخ التوقيع على هذا العهد أما المنصورة فمن بعد خمسة عشرة يوماً وأما دمياط وبلبيس فمن بعد عشرين يوماً والسويس تخلى كذلك قبل إخلاء مصر والقاهرة بستة أيام ولا تخلى البلدان والمحال الواقعة فى الجهة الشرقية من النيل إلا فى اليوم العاشر من إخلاء مصر والقاهرة وكذلك مصر السفلى لا تخلى بأجمعها إلا بعد خمسة عشرة يوماً من التاريخ المذكور أما الجهة الغربية وما يتبعها فإنها تبقى بيد الفرنسيس إلى أن يتم جلاء جميع العساكر من الصعيد ومصر والقاهرة ويجب أن تسلم كل جهة من جميع الجهات التى كانت مقاماً للجيوش الفرنساوية بالحالة التى هى عليها.

الخامس: يصير إخلاء مصر والقاهرة بعد مضى أربعين يوماً على الأقل وخمسة وأربعين على الأكثر اعتباراً من تاريخ التوقيع على هذا العهد إن أمكن ذلك.

السادس : يتعهد الباب العالى أن لا يحصل للعساكر والأجناد الفرنساوية لدى انسحابهم من الجهات الغربية أدنى إهانة ولا أن يمسوا بأقل ضرر بحيث يخرجون بكامل أسلحتهم وأمتعتهم وذخيرتهم بدون أن يلحق بأحد منهم إهانة لا من أفراد الأهالى ولا من أفراد العساكر العثمانية.

السابع : قياماً بهذا الشرط ومنعاً لما ربما أن يحدث يجب حتماً تبعيد مواقع العساكر الإسلامية عن مواقع العساكر الفرنساوية بقدر الاستطاعة.

الثامن : اعتباراً من تاريخ التوقيع على هذا العهد يطلق سراح جميع المسجونين من تبعة الدولة العثمانية على اختلاف أجناسهم فى جميع أنحاء القطر ما عدا من هم ببلاد الفرنسيس وكذلك يخلى سبيل جميع التبعة الفرنساوية المسجونين بكامل المدن والأساكل والبنادر العثمانية ويعفى عن جميع من دخل فى خدمة مراسلات وقناصل المشيخة الفرنساوية.

التاسع : إعادة أملاك وأموال كل من رعايا الباب العالى ورعايا المشيخة الفرنساوية يناط برجال تنتخبهم حكومة الدولتين لذلك بالأستانة بحيث يحصل الشروع فى إجراء ذلك عقب إخلاء مصر والقاهرة من العساكر الفرنساوية.

العاشر: يعفى عمن كان له علاقة أيا كانت مع الجنود الفرنساوية من أهالى مصر على اختلاف مذاهبهم.

الحادى عشر : يعطى حتماً للجنود الفرنساوية تذاكر المرور اللازمة إما من قبل الدولة العثمانية أو من قبل الدولتين المتحدتين معها وهما دولة الروس والدولة الإنجليزية وكذلك لجميع السفن التى تحمل أولئك الجنود إلى أوطانهم ببلاد الفرنسيس.

الثانى عشر : يتعهد الباب العالى والدولتان المتحدتان معه بأن لا يحصل للجنود الفرنساوية ما يكدر صفو راحتهم وكذلك يتعهد الجنرال كلابير أمير الجيوش الفرنساوية بأن لا يحصل من قبل عساكره ما لا يرضاه الباب العالى لا للسفن الحاملة لهم ولا للأساكل والثغور الخاصة بالباب العالى أو بالدولتين المتعاهدتين معه كما أنه لايجوز للسفن المذكورة أن تعطف إلى أى أسكلة غير الأساكل الفرنساوية إلا عند الضرورة.

الثالث عشر : تنفيذا لهذا العهد وملاحظة لإخلاء الأقطار المصرية من جميع العساكر والأجناد الفرنساوية فى بحر المدة التى وقع الاتفاق عليها قد اتفق الباب

العالى والدولتان المتحدتان معه على أنه إذا قدم إلى مصر فى خلال المدة المقررة للجلاء عنها سفن فرنساوية على غير علم من سفن الدولتين المتعاهدتين مع الباب العالى وجب قيامها على الفور بعد تزويدها بالماء والزاد ولزم رجوعها إلى الموانى الفرنساوية بلا مهل بناء على تذاكر المرور التى تعطى إليها من جانب الدولتين المتعاهدتين مع الباب العالى وإذا تبين أن إحدى تلك السفن تحتاج إلى ترميم أو تصليح فى بعض آلاتها وجب مكثها حتى يتم تصليحها ثم تقوم إلى الموانى الفرنساوية بمجرد موافقة الرياح لسيرها.

الرابع عشر : يتعهد الجنرال كلابير أمير الجيوش الفرنساوية أن يبلغ ما وقع الاتفاق عليه إلى أرباب الحل والعقد بفرانسا بحيث تعطى لمن يتعين لتوصيل هذه الأجناد تذكرة المرور المطلقة تسهيلا لوصول الخبر فى أمد قريب.

الخامس عشر: حيث يلزم للجنود الفرنساوية الحصول على المؤن يوميا بمدة الثلاثة أشهر المعينة لجلائها عن البلاد وكذلك بمدة الثلاثة أشهر التى تبتدئ من يوم نزولهم بالمراكب إلى يوم وصولهم فقد تعهد الباب العالى بأن يقدم لهم جميع ما يلزم من قمح ولحم وأرز وشعير وتبن بمقتضى القوائم التى تتقدم من أمراء العساكر المكلفين بذلك وما يكون قد أخذ من ذلك بعد التوقيع على عهد الجلاء يستبعد من مجموع تلك القوائم.

السادس عشر: لايجوز لأمراء الجيوش الفرنساوية بعد التوقيع على عهدة الجلاء أن يضربوا على البلاد ضرائب أو يفرضوا عليها فروضاً أيما كانت أو يحدثوا إحداثات بل يكون للباب العالى دون غيره الحق فى جميع الضرائب والفرض المقررة اعتبارا من تاريخ التوقيع على العهد وكل ما تركته الجنود الفرنساوية بعد الجلاء من جمال أو هجن أو مدافع أو ذخيرة أو غير ذلك وكذلك الغلال التى تبقى بالأشوان من أصل الأموال المفروضة لغاية تاريخ التوقيع على عهد الجلاء فهذه كلها يصير تقديرها بمعرفة معينين من قبل الباب العالى على يد أمين البحر الإنجليزى ومن يعينه الجنرال كلابير من قبله ويتعين ثمنها بحيث لا ينقص عن ثلاثة آلاف كيس وهو ما رؤى كفايته لنفقة الجند إلى أن تصل إلى أوطانها وفى حالة عدم بلوغ أثمان تلك الأشياء إلى هذا القدر يجب على الباب العالى دفع العجز من طرفه بصفة قرضة وعلى حكومة الفرنسيس وفاء هذه القرضة اعتمادا على سندات الاستلام التى تكون قد أعطيت من الأمير كلابير أمير الجيوش إلى الباب العالى.

السابع عشر: يدفع مبلغ الثلاثة آلاف كيس المذكور على الوجه الآتى بعد وهو خمسمائة كيس تدفع بعد مضى خمسة عشر يوما اعتبارا من تاريخ التوقيع على عقد الاتفاق بذلك وخمسمائة كيس أخرى تدفع بعد انقضاء ثلاثين يوما وبتمام الأربعين يوما ثلثمائة كيس أخرى وخمسمائة كيس عند تمام تسعين يوما وعند تمام ستين يوما ثلثمائة كيس ويدفع أيضا عند تمام سبعين يوما ثلثمائة كيس وعند تمام ثمانين يوما ثلثمائة كيس أخرى وخمسمائة كيس عند تمام تسعين يوما ويكون اعتبار مبلغ كل كيس من هذه الأكياس خمسمائة قرش عثمانى وعلى الباب العالى بعد التوقيع على نسختى هذا العقد أن يوجه من قبله إلى مصر المحروسة وكافة المدن والبنادر التى تحتلها الآن الجيوش الفرنساوية مأمورين مخصوصين لأجل تسهيل أسباب الجلاء فى أمد مناسب بحيث إذا رؤى عدم كفاية مبلغ الثلاثة آلاف كيس لنقل الجند على الوجه المرغوب وجب على الباب العالى القيام بصرف ما يرى لزوم صرفه أيضا.

الثامن عشر: جميع الأموال والضرائب التى تكون رجال الفرنسيس قد تحصلت عليها من البلاد قبل العلم بالتوقيع على عهد الجلاء تقدر وتخصم من مبلغ الثلاثة آلاف كيس المتقدمة الذكر.

التاسع عشر: تسهيلا لأسباب الجلاء فى الأجل المضروب لا بأس من نقل الجند بالسفن الفرنساوية الراسية الآن بأساكل النيل من وإلى الإسكندرية ورشيد ودمياط.

العشرون: حفظا لسلامة الممالك الغربية ومنعا لنقل الوباء بالطاعون إليها بواسطة المرضى من الجنود الفرنساوية لا ينقل أحد ممن يكون مصاباً منهم بهذا المرض أو بغيره من الأمراض الأخرى التى لا يصح معها السفر بالبحار بل يبقون جميعا فى بيوت المرضى المعدة لهم تحت أمان الوزير الأعظم ومعالجة أطباء الفرنسيس فإذا شفوا من أمراضهم عوملوا فى الحل والترحال بما عوملت به بقية الجنود من قبل كما جاء فى أحكام الشرطين الحادى عشر والثانى عشر من هذا الاتفاق وعلى أمير الجيوش الفرنساوية أنه عند ركوبهم المراكب للعود إلى أوطانهم أن يشدد على ضباطهم غاية التشديد بأن لا يسمحوا لهم بالنزول فى أى أسكلة من الأساكل التى هى فى طريقهم إلا ما تجيز لهم الأطباء النزول فيها لقضاء مدة الحجر الصحى.

الحادى والعشرون: كل خلاف يحدث بعد عقد هذا الاتفاق ولم ينص عنه شىء بهذا الاتفاق يصير فضه بالطرق الحبية بين المأمورين الذين يعينهم الوزير

الأعظم والجنرال كلابير أمير الجيوش لهذا الغرض على وجه السرعة قياما بالجلاء فى الأجل المضروب.

الثانى والعشرون: لايعتبر هذا العهد نافذ المفعول إلا بعد مضى ثمانية أيام من تاريخ التوقيع عليه من الفريقين بحيث بعد التوقيع عليه يجب مراعاته والعمل به.

ورجع كلابير أمير الجيوش الفرنساوية بعد ذلك من الصالحية إلى العادلية ومعه رجل من رجال الدولة العثمانية اسمه محمد أغا فبعث بمحمد أغا المذكور إلى القاهرة وأرسل إلى المحتسب يأمره بأن يتلقاه ويكرم مثواه فلما كان بعد العشاء دخل محمد أغا إلى القاهرة فى موكب فحصل الناس ضجة عظيمة وتزاحموا لمشاهدته وارتفعت أصواتهم وعلا ضجيجهم وركبوا على مصاطب الدكاكين والسقائف.

قال صاحب عجائب الآثار وانطلقت النساء بالزغاريت من الطاقات واختلفت آراء الناس في ذلك ولم يعلموا ما هو فدخل من باب النصر وشق القاهرة ولم يزل سائرا حتى وصل إلى بيت حسن أغا بسويقة اللالأ فأنزل هناك فلما استقر به الجلوس ازدحم الناس والأعيان للسلام عليه ولمشاهدته بالمشاعل والفوانيس قال فلما كان صبح تلك الليلة عمل ديوانا وجمع العلماء والوجاقلية وأعيان الناس وكبار النصارى من الأقباط والشوام فلما تكاملوا أبرز لهم فرمانا من الوزير فقرئ عليهم بالمجلس فدل مضمونه على أنه أغات الجمارك أى المكوس بمصر وبولاق ومصر القديمة وفيه التحكير على جميع الواردات من أصناف الأقوات فيشتريها بالثمن الذى يقدره هو بمعرفة المحتسب ويودعه فى المخازن قال وأبرز فرمانا آخر قرئ بالمجلس مضمونه أن الوزير أقام مصطفى باشا الذى كان أسيرا بأبى قير وكيلا عنه وقائمقامه بمصر إلى حين حضوره وأن السيد أحمد المحروقى كبير التجار ملزوم ومقيد بتحصيل الثلاثة آلاف كيس المعينة لترحيل الفرنساوية وانتفض المجلس على ذلك وأخذ السيد أحمد المحروقى فى تحصيل ذلك القدر من الناس وفرضوه على التجار وأهل الأسواق والحرف وشرعوا فى تحكير الأقوات فغلت أسعارها وضاقت مؤن الناس قال ودهي الناس من أول أحكامهم بهاتين الداهيتين وكان أول قادم فيهم أمير المكوسات ومحكر الأقوات وأول مطلوبهم مصادرة الناس وأخذ المال منهم وتغريمهم قال واجتهد السيد أحمد المحروقى فى توزيع ذلك وجمعه فى أيام قليلة فكان كل من توجه عليه مقدار من ذلك اجتهد فى تحصيله وإخراجه عن طيب نفس وانشراح وبادر بالدفع من غير تأخير لعلمه أن ذلك لترحيل الفرنساوية ويقول سنة مباركة

ويوم سعيد بذهاب الكلاب الكفرة قال كل ذلك بمشاهدة الفرنسيس ومسمعهم وهم يحقدون ذلك عليهم أهـ.

وجاء مصطفى أغا من الجيزة وسكن ببيت عبد الرحمن كتخدا بحارة عابدين وأرسل الوزير الفرمانات إلى البلاد وعين المعينين والمباشرين لطلب الأموال والغلال والكلف من الأقاليم وأرسل إلى البنادر وجعل فى كل بندر أميرا ووكيلا لجمع الغلال والمطلوبات من الذخيرة ووضعها بالحواصل، وجعل العامة وبسطاء العقول من أهالى القاهرة ومصر ينظرون إلى الفرنسيس كافة بعين السخط والسخرية وتطاولوا عليهم بالسب والتحقير وصار فقهاء المكاتب وعلى الخصوص العميان منهم يجمعون الأطفال ويطوفون بهم فرقا وهم يجهرون للنصارى بالسباب وفحش القول وهذر الكلام ولم يملكوا أنفسهم صبرا حتى يتم الجلاء وينقضى الأجل المضروب فنقم الفرنسيس عليهم ذلك وأبغضوهم جدا وصاروا ينظرون إلى جميع أهل البلاد بعين القلى ثم أخذوا فى أهبة الرحيل وشرعوا فى بيع أمتعتهم وما فضل من سلاحهم ودوابهم وسلموا أكثر الثغور والقلاع كالصالحية وبلبيس ودمياط والسويس وتدرج العساكر العثمانية فى الدخول إلى القاهرة وصار فى كل يوم يدخل منهم جماعة بعد جماعة وجعلوا يشاركون الناس فى حرفهم وصنائعهم كالحمامية والقهوجية والخياطين والحلاقين وغيرهم فشق الأمر على أصحاب تلك الحرف والصنائع فاجتمعوا وذهبوا إلى مصطفى باشا النائب عن الصدر الأعظم وشكوا من فعال العساكر العثمانية فلم يلتفت لشكواهم ثم قدم الوزير يوسف باشا إلى مدينة بلبيس ونزل بها ومعه الأمراء المصريون وأرسلوا إلى مراد بيك الكبير بالحضور إلى المعسكر العثمانى فاعتذر حيث كان يومئذ بالصعيد فلم يقبلوا عذره وشددوا عليه فى الحضور قيل فسأل فى ذلك كبير الفرنسيس سرا فأذن له وكان سفيره فى ذلك عثمان بيك البرديسى فحضر مع إبراهيم بيك الكبير واجتمع بالوزير يوسف باشا فخلع عليهما وعاد مراد بيك فخيم بجهة العادلية وحضر حسن أغا نزل أمين أحد رجال الدولة ودخل القاهرة فأخلى الفرنسيس عند حضوره قلعة الجبل وبقية القلاع والحصون التى أحدثوها ونزلوا منها فلم يحتلها أحد من العساكر العثمانية وأعرضوا عن المحاذرة استخفافا بالأمر ودخل الكثير من الأمراء والعساكر المصرية الذين كانوا فروا عند دخول الفرنسيس وأرسل إبراهيم بيك إلى السيد أحمد المحروقى يطلب بعض الثياب لمماليكه فأخرجت لهم الخيام والتراتيب وهيأت نساء الأمراء والجند

احتياجاتهم ولازم الخدم والفراشون الغدوّ والرواح إلى مضارب ساداتهم وهم راكبون البغال والحمير الفارهة وفى حجورهم تعابى الثياب والبقج المزركشة بالذهب والفضة وكذلك الخدم الذين يحملون الخوانات والأسمطة وهم يتغنون برفع أصواتهم ويتجاوبون بكلام وسخريات ولعن للنصارى من أهل البلاد والفرنسيس بمرأى منهم ومسمع، ولما استقر المقام بالوزير يوسف باشا فى مدينة بلبيس وذلك فى أخريات رمضان من السنة بعث بنصوح باشا والأمراء المصريين إلى القاهرة فوصلوا إلى الخانكاه ثم إلى المطرية وقدم درويش باشا الذى كان والى الصعيد على عهد حسن باشا أميرالبحر ونزل بالشيخ قمر أياما ثم سار إلى الصعيد ومعه طائفة من الجند وكذلك سارت طائفة أخرى إلى السويس وأخرى إلى المنصورة ودمياط وانبثوا فى البلاد شرقا وغربا ودخلوا القاهرة جماعات صغيرة وجعلوا يطوفون بالشوارع وانبثت عساكرهم فى الأزقة والحارات يعبثون فيها ويشوشون على النساء والصبيان فلما كان فى اليوم السابع من شوال من السنة أى سنة أربع عشرة ومائتين حدث أن تشاجر بعضهم مع بعض الجنود الفرنساوية فأدّت هذه المشاجرة إلى الملاكمة والقبض بالأطواق ثم إلى الضرب واشتد تألب العساكر السلطانية وأفحشوا فى الضرب فقتل بينهم أحد الفرنسيس وفاض الخبر بذلك فى القاهرة فوقعت فى الناس زعجة وأغلقوا الحوانيت وخاف العساكر السلطانية شر العاقبة فأسرعوا وتترسوا ناحية الجمالية وما والاها واجتمعوا جميعا فى تلك الأنحاء خلف المتاريس التى أقاموها ووصل الخبر بما وقع إلى مقدم الجيوش الفرنساوية فجاءهم جماعة من الفرنسيس ووقع القتال بينهم بالبنادق واشتد فقتل من الفريقين وباتوا ليلتهم وهم على أهبة الحرب والقتال فأصبحوا وقد تداخل كبراؤهم فى الأمر وأزالوا المتاريس وانكف الفريقان عن القتال وشدد مصطفى باشا فى البحث على مثيرى هذه الفتنة فكانوا ستة فقبض عليهم وأمر بهم فقتلوا جهارا وأرسل رؤسهم إلى أمير الجيوش الفرنساوية فلم يطب خاطره وطلب سرعة خروج جميع من دخل القاهرة ومصر من العساكر العثمانية حتى ينقضى الأجل المفروض وإذا دخل منهم أحد إلى المدينة فبغير سلاحه فلم يسع مصطفى باشا إلا الإذعان وأمر فنادوا على جميع من كان فى مصر والقاهرة من الجنود العثمانية فخرجوا على الفور ووقف جماعة من العساكر الفرنساوية خارج باب النصر رباطا فكان إذا أراد أحد من العساكر أو الأعيان من العثمانيين الدخول إلى المدينة ترجل عن دابته عند قربه منهم ونزع عنه جميع سلاحه ثم يتركه عندهم

ويدخل ومعه شخص أو شخصان موكلان به يمشيان أمامه حتى يقضى حاجته ويرجع فإذا وصل إلى العسكر المرابطين أعطوه سلاحه وظل الحال هكذا أياما.

وسافر فريق من الجند الفرنساوية إلى الإسكندرية بمتاعهم وأثقالهم وفيهم الأمير دورجيه النائب العام والأمير ديزه سر عساكر الصعيد والأمير رئيس الكتاب ومدير الحدود ولبثوا بالإسكندرية أياما قد تأهبوا فى خلالها إلى ركوب السفن إلى أوطانهم قيل فلما صاروا على ظهور بدت لهم من سفن الإنجليز إشارات الوحشة وعلامات الانتقام فأحجموا عن السير ومضوا إلى الأمير كلابير يعلمونه بالخبر فأرسل إلى الصدر الأعظم بعلمه بنوايا الإنجليز نحو جنود الفرنساوية ومخالفتهم لأحكام العهد فأجابه بجواب لم يرضه وأصبح زاحفا إلى سطح ـ وكان ذلك فى آخر المهلة المتفق عليها فى دخول الصدر الأعظم إلى القاهرة وجلاء الفرنسيس عنها فلما رأى الأمير كلابير ذلك طلب ثمانية أيام أخرى آجله زيادة على أيام المهلة المقدرة فأجيب إلى ذلك ووصل الأمراء المصريون وجيوش نصوح باشا وكثير من العساكر العثمانية إلى ناحية المطرية وعسكروا هناك وكان من الفرنسيس أن جعلوا الثمانية أيام التى طلبوها ظرفا لجمع عساكرهم وطوائفهم من البلاد القبلية والبحرية ونصبوا معسكرهم على ساحل النيل متصلا بأطراف المدينة ممتدا من مصر القديمة إلى شبرا وترددوا إلى نواحى القلاع التى كانوا أنشئوها داخل البلد فلم يكن بها أحد من العساكر العثمانية فأخذوا فى رد آلات حربهم وذخيرتهم من بارود وقنابل ومدافع وغيره إلى تلك القلاع ليلا ونهارا والناس يتعجبوا من ذلك ومصطفى باشا نائب الصدر الأعظم ومن معه يشاهدون ذلك وهم فى شاغل عنه قيل وكان السبب فى ذلك هو ما ظهر من سوء نوايا أمير العمارة الإنجليزية بسفن الفرنسيس الحاملة لعسكرهم وأن بعض أصدقاء الفرنسيس من جماعة الإنجليز أبلغوهم أن الصدر الأعظم اتفق مع أمير العمارة الإنجليزية على الإحاطة بسفن الفرنسيس إذا صارت على ظهر البحر فلما وقع ما سبقت الإشارة إليه تحقق الأمير كلابير صحة الخبر وأرسل إلى يوسف بيك الوزير فلم يجبه بجواب شاف بل أسرع فى الرحيل والقدوم إلى مصر كما تقدم القول.

وكان الفرنسيس عندما تراسلوا وترددوا على معسكر يوسف باشا عرفوا عدد جنوده وأحوالهم وما هم عليه من القوة والضعف وتحققوا ضعفهم عن المقاومة وقد ردوا أدوات حربهم وجميع آلاتهم إلى القلاع وحصنوا الجهات وأبقوا جماعة وقيدوا

بتلك القلاع والحصون عدة من عسكرهم واستوثقوا من ذلك جيداً ثم خرج من بقى وهم الصدر الأعظم إلى ظاهر القاهرة عند قبة النصر وانتشروا فى تلك النواحى ولم يبق فى المدينة منهم إلا من كان بداخل القلاع ونفر ببيت الألفى بالأزبكية وبعض بيوت أخرى من الجهة المذكورة ولبثوا إلى العشرين من شوال من السنة ثم أرسل كلابير فى طلب مصطفى باشا وحسن أغا نزل أمين فلما تمثلا بين يديه أمر فقبض عليهما وأرسلوهما إلى الجيزة وسجنوهما بها فلما كان ثالث عشرى الشهر المذكور ركب الأمير كلابير قبل طلوع الفجر وسار بعسكره ومدافعه وقد قسم العسكر إلى قسمين قسم سار إلى معسكر الوزير يوسف باشا وقسم سار إلى من هم بالمطرية من الأمراء المصريين والجند الذين معهم فلما صاروا على مقربة منهم رموهم بالبنادق وتابعوا الرمى بقنابل المدافع وأحدقوا بهم واشتدوا فى الرمى شدة بالغة فولوا الفرار منهزمين وتركوا خيامهم وجميع آلات حربهم وركب نصوح باشا ومن معه من الأمراء المصريين وطلبوا جهة القاهرة فتركهم كلابير ولم يلتفت لصدهم عنها وسار خلف الفارين إلى الخانكاه وهو يعمل السيف فى أقفيتهم وقد نهبوا جميع ما فى معسكرهم وأتلفوا المدافع وأخذوا جميع ما وجدوه من متاع وغيره ولحقوا بمعسكر الصدر الأعظم فأرسل إليه كلابير يأمره بالرحيل فى مدة لا تتجاوز أربعا وعشرون ساعة فلم يسعه المخالفة وسار فسار خلفه كلابير بجيوشه وكان أكثر عساكر الصدر الأعظم متفرقة فى هذا اليوم فى أنحاء القرى والبلدان لجمع المال ومفردات الفرض والتشديد على الرعية والتضييق عليهم فسمع أهالى القاهرة ومصر أصوات المدافع والبنادق فهاجوا وماجوا وتراكضوا إلى أطراف البلد فصادفوا فى طريقهم بعض رعايا الفرنسيس فقتلوهم وذهبت جماعة منهم إلى بركة الأزبكية فنهبوا ما وجدوه فيها حيث كان معسكر الفرنسيس وجعلوا يكثرون من الجلبة والصياح وهم لا يعرفون السبب الحامل لهم على ذلك سوى ما سمعوه من أصوات المدافع والبنادق وخرج السيد عمر نقيب الأشراف والسيد أحمد المحروقى.

قال صاحب عجائب الآثار وانضم إليهما أتراك خان الخليلى والمغاربة الذين بمصر وكذلك حسين أغا شنن أخو أيوب بيك الصغير وتبعهم كثير من عامة الناس وتجمعوا على التلال خارج باب النصر وبأيدى الكثير منهم النبابيت والعصى والقليل منهم السلاح وكذلك تحزب كثير من طوائف العمة والأوباش وجعلوا يطوفون بالأزقة وأطراف البلد ولهم صياح وضجيج وتجاوب بكلمات يقفونها من اختراعاتهم

وخرافاتهم وقاموا على ساق وخرج الكثير منهم إلى خارج البلد على تلك الصورة فلما ارتفع النهار حضر بعض الأجناد المصريين ودخلوا مصر وفيهم المجاريح وطفق الناس يسألونهم فلم يخبروهم بشئ لجهلهم أيضا حقيقة الحال قال ثم لم يزل الحال كذلك إلى أن دخل وقت العصر فوصل جمع عظيم من العامة ممن كان خارج البلدة ولهم صياح وجلبة على الشرح المتقدم ذكره وخلفهم إبراهيم بيك الكبير ثم أخرى وخلفهم سليم أغا ثم أخرى وخلفهم عثمان كتخدا الدولة ثم نصوح باشا ومعه عدة وافرة من عساكرهم وصحبتهم السيد عمر النقيب والسيد أحمد المحروقى وحسن بيك الجداوى وعثمان بيك المرادى وعثمان بيك الأشقر وعثمان بيك الشرقاوى وعثمان أغا الخازندار وإبراهيم كتخدا مراد بيك المعروف بالسنارى ومعهم مماليكهم وأتباعهم فدخلوا من باب النصر وباب الفتوح ومروا على الجمالية حتى وصلوا إلى وكالة ذى الفقار فقال نصوح باشا عند ذلك للعامة اقتلوا النصارى وجاهدوا فيهم فعندما سمعوا منه ذلك القول صاحوا وهاجو ورفعوا أصواتهم ومروا مسرعين يقتلون من يصادفونه من نصارى القبط والشوام وغيرهم فذهبت طائفة إلى حارة النصارى وبيوتهم التى بناحية بين الصورين وباب الشعرية وجهة الموسكى فصاروا يكبسون الدور ويقتلون من يصادفونه من الرجال والنساء والصبيان وينهبون ويأسرون حتى اتصل ذلك بالمسلمين المجاورين فتخوف النصارى واحترسوا وجمع كل منهم ما قدر عليه من العساكر الفرنساوية والروم وقد كانوا قبل ذلك محترسين وعندهم الأسلحة والبارود والمقاتلون لظنهم وقوع هذا الأمر فوقع الحرب بين الفريقين وصارت النصارى تقاتل وترمى بالبنادق والآخرون يرمون من أسفل ويكبسون الدور ويتسورون عليها وبات نصوح باشا وكتخدا الدولة وإبراهيم بيك وبعض من صناجق مصر والكشاف والأتباع وطوائف من العسكر بخط الجمالية بوكالة ذى الفقار فلما أصبح الصباح أرسلوا إلى المطرية وأحضروا منها ثلاثة مدافع فوجدوها مسدودة الفالية فعالجوها حتى فتحوها وقام ناصف باشا وشمر عن ساعديه وشد وسطه ومشى وصحبته الأمراء المصرية على أقدامهم وجروا أمامهم الثلاثة مدافع وسحبوها إلى الأزبكية وضربوا بها على بيت الألفى وكان به بعض المرابطين من عساكر الفرنساوية فضربوهم أيضا بالمدافع والبنادق واستمرت الحرب بين الفريقين إلى آخر النهار انكفت وباتوا ينادون بالسهر أ هـ.

وفى هذا اليوم وضع أهل القاهرة ومصر والعساكر المتاريس بأطراف المدينة كلها

وبجهة الأزبكية وشرعوا فى بناء وترميم بعض جهات سور المدينة وبالغوا فى تحصينها جهد الاستطاعة وبات الناس فى تلك الليلة خلف المتاريس فلما أظلم الليل عمد الفرنسيس إلى إطلاق مدافعهم على المدينة وراسلوا إطلاق القنابل من القلاع وتابعوا الرمى على خط الجمالية لاجتماع الأمراء والجند به وشدّدوا فامتلأ الجو بدخان البارود وتهدم الكثير من الوكائل والبيوت وكثر الصراخ من كل صوب وحدب وخرج الناس على وجوههم هائمين وعجز الأمراء عن الدفاع وإسكات مدافع الفرنسيس ثم أجمع رأى الكبراء والرؤساء منهم على الخروج من المدينة فى تلك الليلة لعجزهم عن المقاومة وعدم وجود آلات الحرب وغير ذلك من وسائل الدفاع وفاض الخبر بذلك بين الناس فركب بعضهم بعضا وازدحمت تلك النواحى بالحمر والبغال والخيول والجمال المحملة بالأثقال وباتوا على تلك الصورة المحزنة ووصلت الأخبار بخروج الناس إلى أهل خان الخليلى وبعض مغاربة الفحامين والغورية فجاؤا إلى الجمالية وشنعوا على من يريد الخروج وعضدهم طائفة الإنكشارية وعمدوا إلى خيول الأمراء فحبسوها ببيت القاضى والوكائل وأغلقوا باب النصر وبات فى تلك الليلة أكثر الناس على مصاطب الحوانيت وبعض الأعيان فى بيوت أصحابهم بخط الجمالية وفى الأزقة والحارات وكلهم على أهبة الخروج إلى ظاهر المدينة وأصبح يوم السبت فتهيأ كبار الجند والجند كافة والكثير من سكان القاهرة ومصر ممن لا قدرة له على الحرب وساروا إلى الأزبكية فأقام بعضهم فى البيوت الخالية التى بها وأقام جماعة أخرى خلف المتاريس واستحضروا عدة مدافع مما كان مدفونا فى بيوت الأمراء.

قال صاحب عجائب الآثار واستحضروا فى حوانيت العطارين من المثقلات التى يزنون بها البضائع من حديد وأحجار يرمون بها على العدو بدل القنابل وجعلوا يرمون بها على بيت الأمير كلابير بالأزبكية ولبث عثمان كتخدا بوكالة ذى الفقار فكان كل من قبض على نصرانى أو يهودى أو فرنسوى أخذه وذهب به إلى الجمالية عند عثمان بيك المذكور ويأخذ عليه البخشيش فيحبس البعض حتى يتحرى عن أمره ويقتل البعض ظلما وربما تقتل العامة من تقتلة وتأتى برأسه لتأخذ البخشيش وكذلك كل من قطع رأسا من رءوس الفرنسيس يذهب بها إما إلى نصوح باشا بالأزبكية وإما إلى عثمان بيك بالجمالية وبعد أيام أغلقوا باب القرافة وباب البرقية وبقية الأبواب التى بأطراف البلد وزاد الناس فى عمل المتاريس وفى الاحتراس

والتحذر وجلس عثمان بيك الأشقر عند متاريس باب اللوق وناحية المدابغ وعثمان بيك طبل عند متاريس المحجر ومحمد بيك المبدول عند الشيخ ريحان ومحمد الكاشف أيوب وأصحاب أيوب بيك الكبير وأيوب بيك الصغير عند الناصرية ومصطفى بيك الكبير بقناطر السباع وسليمان كاشف الحمزاوى عند سوق السلاح وأولاد القرافة والعامة وزعر الحسينية والعطوف عند باب النصر مع طائفة من الإنكشارية وباب الحديد وباب القرافة وطائفة خان الخليلى والجمالية عند باب البرقية المعروف الآن بالغريب ولم يبق أحد من أهل البلد إلا وانضم إلى من يقرب إليه من طوائف العسكر بحيث صار جميع أهل مصر والعساكر كلها واقفة بأطراف البلد عند الأبواب والمتاريس والأسوار وأقام بعض العساكر العثمانية ومعهم جماعة من الأهالى بالأسلحة عند الجمالية حتى إذا جاء صارخ من جهة من الجهات أمدوه بفريق منهم ولم ينم أحد فى بيته إلا الضعيف وكان ناصف باشا وإبراهيم بيك الكبير ومن معهما من الإنكشارية والأرنؤد والدلاة وغيرهم مرابطين جهة الأزبكية وناحية باب الهواء والرحبة الواسعة عند جامع أزبك والعتبة الزرقاء وأنشأ عثمان بيك كتخدا معملا للبارود ببيت قائد أغا بخط الخرنفش وأحضر الحدادين والنجارين والسباكين لسبك المدافع والقنابل وإصلاح المدافع التى وجدت فى بيوت الأمراء وعمل العجلات وما يلزم للقتال واهتم لذلك اهتماما عظيما وأرسلوا فاستحضروا بقية المدافع التى كانت بمعسكر المطرية وقد عطلتها عساكر الفرنسيس فكانوا كلما أدخلوا مدفعا أدخلوه بجمع عظيم من الأوباش والحرافيش والأطفال ولهم صياح ونباح وتجاوب بكليمات من مثل قولهم الله ينصر السلطان ويهلك فرط الرمان وغير ذلك أهـ.

واشتدت عزيمة الأمراء المصريين وبدا منهم غاية الهمة والإقدام وثابروا على القتال من خلف المتاريس وظهر رجل مغربى قيل إنه الذى كان يقاتل الفرنسيس بالبحيرة واجتمع إليه طائفة من المغاربة ممن كان قدم مع الجيلانى الذى سبق الكلام عنه ففعل المغربى المذكور ما لا خير فيه من النهب والقتل والسبى وكان يتجسس على البيوت التى بها الفرنسيس والنصارى فيكبسها ومعه جمع من العوام وأسافل الناس والعسكر فيقتلون من يجدونه منهم وينهبون الدار ويسجنون النساء ويسلبون ما عليهن من الحلى والثياب وكانوا يقطعون رءوس الأطفال وبعض البنات طمعا فيما عليهن من الحلى وتتبع الناس عورات بعضهم وما دعتهم إليه النفس الأمارة بالسوء واتهم الشيخ خليل البكرى بأنه يسالم الفرنسيس ويرسل إليهم الأطعمة وغير ذلك

فهجم عليه طائفة من العسكر مع بعض الأوباش من العامة ونهبوا داره وأخذوه مع أولاده ونسائه وأحضروه إلى الجمالية وهو ماش على أقدامه حاسر الرأس فكان العامة يخاطبونه بفحش القول ويكثرون من سبه ولعنه فلما مثلوه بين يدى عثمان كتخدا هاله أمره وطيب خاطره وسيره بنسائه إلى دار بعض الأعيان وطلبت العساكر النفقة فبادر السيد أحمد المحروقى وبقية التجار وأصحاب المظاهر من الناس بالنفقة على الجند والأمراء والمقاتلين من مأكل ومشرب وكذلك فعل جميع أهل القاهرة ومصر، أما الفرنسيس فأنهم تحصنوا بالقلاع المحيطة بالمدينة وبيت الألفى وما والاه من البيوت الخاصة بهم كل ذلك ولا يعلم أحد حقيقة الحال ولا ما جرى بالفرنسيس الذين ساروا مع كلابير خلف عسكر الصدر الأعظم يطاردونهم من بلد إلى آخر واختلفت فى شأنهم الأقوال وكان الصدر الأعظم قد ترك ببلبيس فريقا من عسكره أوهم تخلفوا عنه بعد أن مزقت شملهم العساكر الفرنساوية فسارت إليهم طائفة من الفرنسيس وحاصرتهم وشددت عليهم وضيقت فاستأمنوا فأخرجوهم بغير سلاح وصرفوهم حيث شاؤو فذهبوا أشتاتا بالأرياف يتكففون الناس ويأوون إلى المساجد الخربة فمات أكثرهم من العرى والجوع ولحق بعض الأمراء المصريين بالصدر الأعظم عند الصالحية فعابوا عليه فعله وقبحوه وبالغوا فى سوء تدبيره وخاطبوه ببدى الكلام وفحش القول فاعتذر وقال إنه لم يكن عليه أهبة القتال لتركه الأسلحة والكراع بقلعة العريش اعتمادا على ما تقرر بينه وببن مقدم الجيوش الفرنساوى من الصلح وإنه لم يكن ليعتقد يقظة الفرنسيس إلى حد كشف ما دبره عليهم مع أمير السفن الإنجليزية عند ركوبهم السفن فطلب منه عثمان بيك أن يأمر بجمع الجنود الهائمة على وجهها كالإبل وهو يسير بهم لقتال العدو فاجابه إلى ذلك وخاطب العسكر وبذل لهم الرغائب فامتنعوا ولم يمتثل منهم إلا المطيع وهم لا يبلغون الألف وعادوا على إثرهم وجمعوا إليهم المتشردين منهم ورجعوا يريدون قتال الفرنسيس فنزلوا بوهدة على مقربة من القرين حيث كان الفرنسيس فى قلة يستكشفون مواقع العدو فقاموا عليهم بالنبابيت والحجارة فأصابوا ترجمان الأمير كلابير وسقط على الأرض وتسامع المسلمون فركبوا لنجدتهم واستصرخ الفرنسيس عسكرهم فلحقوا بهم ووقع القتال بين الفريقين حتى حال بينهم الليل والفرنسيس يطاولونهم ثم انكف الفريقان وانحاز كل فريق إلى ناحية فلما دخل الليل واشتد الظلام أحاط الفرنسيس بعسكر المسلمين فأصبح المسلمون وقد رأوا إحاطة العسكر بهم من كل جانب فركب الفرسان

وتبعهم المشاة وقاتلوا حتى اخترقوا صفوف العدو ونجا من نجا وهم قليلون وقتل خلق كثير ورجعوا إلى الصالحية على إثرهم فلما رأى الصدر الأعظم ما حل بهؤلاء أيضا وقد كان يعلل الأمل بفوزهم رحل إلى الشام فيمن بقى أما مراد بيك الكبير فإنه لما رأى هجوم الفرنسيس على من كانوا بالمطرية مع نصوح باشا وكان هو على مقربة من المقطم ركب من ساعته هو ومن معه ومروا بسفح الجبل وساروا إلى دير الطين وعسكروا فيها لينظروا ما سيحل بعساكر السلطان وأقام مطمئنا على نفسه واعتزل الفريقين وحافظ على عهده وولائه للفرنسيس واشتد الخوف والفزع بنصوح باشا ومن معه من الأمراء المصريين لما علموا بما أصاب الصدر الأعظم وجنوده وخارت منهم العزائم وذهب الصبر والجلد ولكنهم خافوا أيضا عاقبة صرف من اجتمع عليهم من العامة والحرافيش وأهل العطوف وأخلاط العسكر فكانوا يذيعون بينهم أخباراً ملفقة لا أصل لها ويمنون الناس بقرب حضور الصدر الأعظم بجيوشه المظفرة وتابعوا المناداة بالتركى والعربى بالتحريض والاجتهاد والحرص على الصبر والقتال وملاقاة العدو، وبينما الناس على هذا الحال وتعلق الآمال بقرب عودة الصدر الأعظم وجيوشه إذ حضر فريق من الفرنسيس نجدة لإخوانهم الذين بالحصون والقلاع التى بداخل البلد ووقفت طائفة منهم خارج باب النصر وباب الحسينية ونهبوا زاوية الدمرداش وما حولها كقبة الغورى والمنيل وعسكروا على بعض التلول ورجع فى هذه الأثناء طائفة قليلة من عسكر الدولة وهم الذين كانوا بالقرى والأرياف يقبضون الكلف والفرض بأمر الصدر الأعظم فلما صاروا عند أبواب المدينة دفعتهم طوائف الفرنسيس فدافعوا عن أنفسهم حتى تمكنوا من دخول المدينة ففرح الناس بقدومهم وتقوت نفوسهم فكانوا يقولون للناس إنهم حاضرون مددا وأن سيأتى على أثرهم عشرة آلاف مقاتل من جيوش الصدر الأعظم لقطع شأفة العدو.

وقام ببولاق رجل اسمه الحاج مصطفى البشتيلى وجمع إليه طوائف السوقة وحرافيش السبتية فكانوا عدة وافرة وساروا نحو معسكر الفرنسيس الذى كان بساحل بولاق وهجموا على من كان به من المرابطين فقتلوا منهم من أدركوه ونهبوا جميع ما فيه من خيام ومتاع وغيره ورجعوا إلى المدينة وهم يترامحون وفتحوا مخازن الغلال والودائع التى لجيوش بونابارته وأخذوا منها ما قدروا على حمله وتترسوا حول بولاق واستطالوا على من كان بها من القبط والشوام فأوقعوا فيهم القتل والنهب وفعلوا مالا خير فيه فكان البلاء عاما والخطب شديد جدا.

ولما استوثق الأمير كلابير من هزيمة الوزير يوسف باشا وعجزه عن الرجوع وهروبه إلى الديار الشامية وضع بالصالحية رباطا من الفرنسيس وكذلك بالقرين وبلبيس وسار إلى القاهرة وقد بلغه خبر دخول نصوح باشا إليها وماجرى على يديه من قتل ونهب وتخريب وتعييب وغير ذلك فوصلها بعد ثمانية أيام من ظهور الفتنة ودخل إلى داره بالأزبكية من غير ممانع إذ لم يقف فى طريقه أحد من الجند ولا من العامة وأمر فأحاط جنده بالقاهرة وبولاق من الخارج وشددوا فى الحصار فصار لا يدخل إليها أحد ولا يخرج منها أحد ومنعوا عنهما الوارد من الأطعمة ثم جعلوا يطلقون عليهما المدافع ويراسلون القنابل من أعلى التلال والقلاع ليلا ونهارا واشتدوا فى ذلك شدة بالغة وقد عدمت الأقوات وعز وجود الخبز وصار العساكر السلطانية الذين بالقاهرة يخطفون ما يجدونه بأيدى الناس من المأكل وغلا سعر الماء المأخوذ من الآبار والأسبلة حتى بلغ سعر القربة نيفا وستين نصفا إذ تعذر الوصول إلى النيل.

قال صاحب عجائب الآثار وتكفل التجار ومساتير الناس والأعيان بكلف العساكر المقيمين بالمتاريس المجاورة لهم فألزموا الشيخ السادات بكلف الذين عند قناطر السباع وأما أكابر القبط مثل جرجس الجوهرى وفلتاؤس وملطى فإنهم طلبوا الأمان من المتكلمين من المسلمين لكونهم انحصروا فى دورهم وهم فى وسطهم وخافوا من نهب دورهم إذا خرجوا فارين فأرسلوا إليهم الأمان فحضروا وقابلوا الباشا والكتخدا والأمراء وأعانوهم بالمال واللوازم وأما يعقوب فإنه كرنك فى داره بالدرب الواسع جهة الرويعى واستعد استعدادا كبيرا بالسلاح والعسكر المحاربين وتحصن بقلعته التى كان شيدها بعد الواقعة الأولى فكان معظم حرب حسن بيك الجداوى معه هذا والمناداة فى كل يوم بالعربية والتركية على الناس بالجهاد والمحافظة على المتاريس قال واتهم مصطفى أغا متسحفظان بموالاة الفرنساوية وأن فى بيته جماعة من الفرنسيس فهجم العساكر على داره بدرب الحجر فوجدوا أنفارا قليلة من الفرنسيس فقاتلوا ودافعوا عن أنفسهم وقتل منهم البعض وهرب البعض على حمية حتى خلصوا إلى الناصرى وأما الأغا فإنهم قبضوا عليه وأحضروه بين يدى عثمان كتخدا ثم تسلمه الإنكشارية وخنقوه ليلا بالوكالة التى عند باب النصر ورموا جيفته على مزبلة خارج البلد واستقر عوضه جاهين كاشف الساكن بالخرنفش فاجتهد وشدد على الناس وكرر المناداة ومنعهم من دخول الدور وكل من وجده داخل داره مقته وضربه فكان الناس يبيتون بالأزقة والأسواق حتى الأمراء والأعيان

وهلكت البهائم من الجوع لعدم وجود العلف من التبن والفول والشعير والإدريس بحيث صار ينادى على الحمار أو البغل المعدد الذى قيمته ثلاثون ريالا وأكثر بمائة نصف فضة أو ريال واحد أو أقل ولا يوجد من يشتريه وفى كل يوم يتضاعف الحال ويعظم الهول اهـ.

وزحف المسلمون على رصيف الخشاب وترامى الفريقان بالمدافع والنيران حتى احترق ما بينهم من الدور وكان إسمعيل كاشف الألفى قد تحصن ببيت أحمد أغا شويكار فى نفر من العسكر وقد كان الفرنسيس قبل الجلاء عنه عملوا به لغما بالبارود المدفون فلما استقروا به أشعل الفرنسيس اللغم فارتفَع ما فوقه من الأبنية والناس إلى عنان السماء واحترقوا جميعا ومات بينهم الألفى وانهدم ما كان حوله من البناء والدور والوكائل والمبانى العظيمة والقصور المطلة على بركة الأزبكية واحترقت جميع البيوت إلى رصيف الخشاب والخطة المعروفة بالساكت بأجمعها إلى الرحبة المقابلة لبيت الألفى مقر الأمير كلابير وكذلك جميع خطة الفوالة وخطة الرويعى بالسباطين العظيمين وما فى ضمن ذلك من البيوت إلى حد حارة النصارى فصارت كلها تلالا وخرائب كأنها لم تكن فضعفت عند ذلك عزيمة نصوح باشا والأمراء المصريين وكادوا يفشلون وأرسلوا إلى مراد بيك الكبير يسألونه الإسراع فى نجدتهم بمن معه وألحوا عليه فأرسل يعتذر ويقول إنه محافظ على الجهة التى هو فيها فأرسلوا إليه ليكشف لهم خبر الصدر الأعظم وماجرى عليه فأرسل يقول لهم اعلموا أن الفرنسيس إذا ظفروا بأحد من المسلمين فلا يقتلونه ولا يضربونه فإذا أحسنتم فافعلوا أنتم كذلك وخابروهم فى الصلح فهو خير لكم وأبقى وانجلوا عن البلاد سالمين فحنق حسن بيك الجداوى وعثمان بيك الأشقر وغيرهم من المسلمين عند سماعهم هذا الكلام وسفهوا رأيه وقبحوا قوله ورموه بالموالاة للفرنسيس فأشار إبراهيم بيك الكبير بذهاب البرديسى إليه ومعه عثمان بيك الأشقر ليبينا له خلطه وشططه فذهبا ورجع عثمان بيك وقد تبدلت أحواله وتغيرت أفكاره وذهبت عنه تلك الحدة التى كانت تزعجه وجنح لرأى مراد بيك فداخلهم من ذلك الفتور وكاد يتولاهم الململ وقد اشتد الخطب وعظم البلاء وعم الكرب وتوالى سقوط القنابل على الدور والمساكن من القلاع وكثر صياح النساء فى البيوت وبكاء الصغار من الخوف والهلع والجوع ومات الكثير من النساء والأطفال والشيوخ والحيوانات والطيور وغير دلك تحت ردم الدور والمساكن التى سقطت وكان مقام الرجال بالأزقة

والأسواق ليلا ونهارا ومقام النساء والصبيان بأسفل الحواصل والعقودات تحت طباق الأبنية إلى غير ذلك وكان المشايخ والسيد أحمد المحروقى والسيد عمر نقيب الأشراف يمرون فى كل وقت ويأمرون الناس بالقتال ويحضونهم على الجهاد وبقى الحال على هذا الوصف عشرة أيام كوامل وترددت الرسل من أصحاب مراد بيك الكبير بين الفرنسيس والأمراء المصريين بشأن الصلح وجلاء جميع العساكر السلطانية عن البلاد فلم يتفقوا على أمر ما فلما كان اليوم الثانى عشر أمر كلابير فأقاموا ببركة الأزبكية فسطاطا لطيفا ورفعوا عليه علما وانكفوا عن الرمى فى تلك الليلة وأرسل كلابير بطلب المشايخ ليتكلم معهم فيما فيه المصلحة فأمرهم نصوح باشا بالذهاب فسار إليه جماعة منهم فلما استقر بهم المقام مع الأمير كلابير عاتبهم على ماوقع ثم أمن جميع الرعية وعفا عما سلف بشرط خروج نصوح باشا وجلاء جميع العساكر السلطانية وارتحالهم إلى حيث الصدر الأعظم وعلى الفرنسيس النفقة عليهم بقدر الكفاية وأما الجنود المصرية الذين أتوا معهم فمن شاء منهم الجلاء فله مالهم ومن شاء البقاء بقى معززا وأن الجرحى والمرضى من العساكر العثمانية ينزعون عنهم أسلحتهم ويعالجون فمن تم برؤه منهم وشاء الإقامة فمعزز أو الرحيل فله ما كان لأصحابه من الكلفة حتى يصل إلى وطنه فجنح المشايخ إلى هذا الصلح وتقررت القاعدة بينهم على ذلك ورجعوا فلما كان الغد شاع أمر الموادعة واستفاض أمر الصلح وعلم الأنكشارية بخبره فقاموا على ساق وقدم وقالوا لا يكون هذا أبدا وخرجوا وخرج العامة معهم وسبوا المشايخ وقبضوا على اثنين منهم وأوسعوهما ضربا ورموا عمائمهما.

قال صاحب عجائب الآثار وصاروا يقولون هؤلاء المشايخ وارتدوا وعملوا فرنسيس ومرادهم خذلان المسلمين وأنهم أخذوا دراهم من الفرنسيس وتكلم السفلة والغوغاء من أمثال هذا الفضول وشدد فى ذلك الرجل المغربى الملتف عليه أخلاط العالم ونادى من عند نفسه الصلح منقوض وعليكم بالجهاد ومن تأخر عنه ضرب عنقه.

قال وكان السادات ببيت الصاوى فتحير واحتال بأن يخرج وأمامه شخص ينادى بقوله الزموا المتاريس ليقى بذلك نفسه من العامة وكان قصد المغربى المذكور دوام الفتنة ليتوصل بها إلى ما يريده من النهب والسلب والتصور بصورة الإمارة باجتماع الأوغاد عليه وتكفل الناس له بالمأكل والمشرب هو ومن انضم إليه واشتطاطه فى

المآكل مع فقد الناس لأدنى ما يؤكل حتى أنه كان إذا نزل جهة من جهات المدينة لإظهار أنه يريد المعونة أو الحرس فيقدمون له بالطعام فيقول لا آكل إلا الفراخ ويظهر أنه صائم فيكلف أهل تلك الجهة أنواع المشقات والتكلفات بتعنته فى هذه الشدة بطلب أفحل المأكولات وما هو مفقود قال ثم هو مع ذلك لا يغنى شيئا بل إذا دهم العدو تلك الجهة التى هو فيها فارقها وانتقل لغيرها وهكذا كان ديدنه وسبحه أهـ.

ولما وقع من الإنكشارية والعامة هذا التظاهر ومانعوا فى إمضاء الصلح لم ترد العلماء على الأمير كلابير جوابا وأطلقوا مدافعهم على معسكر كلابير وأكثروا من إطلاق البنادق إعلانا بأنهم مازالوا على قدم الدفاع فأرسل كلابير يطلب الجواب فأجابه الباشا والكتخدا أن العسكر يرفضون كل صلح وهم يقولون لا تراجع عن حرب الفرنسيس حتى نظفر بهم أو نموت عن آخرنا فأرسل عند ذلك كلابير مكاتبة يقول فيها قد عجبنا من قولكم أن العساكر لم ترض بالصلح فكأن الأمر بيدهم وكيف يكون الأمير أميرا على جيش ولا ينفذ أمره فيهم ثم أرسل كلابير رسولا إلى أهل بولاق أيضا يطلبهم للصلح وترك الحرب ويحذرهم العاقبة فلم يذعنوا فكرر عليهم الطلب فكانوا لا يزدادون إلا عنادا فأرسل كلابير أحد فرسانة فطاف ينادى بالأمان فقام عليه العامة وأنزلوه عن فرسه وقتلوه وظن الناس بالقاهرة ومصر وبولاق أن الفرنسيس إنما يطلبون الصلح لعجزهم وعدم قدرتهم على استمرار القتال فلما علم كلابير بما فعلوه برسوله غضب وأمر فأطلقت عساكره المدافع على المدينة ووالوا الرمى بالقنابل من جميع الحصون والقلاع وراسلوا نيران البنادق واستمروا على هذا الحال الشديد إلى يوم الخميس ثانى عشرى شوال من السنة فلما كان ضحوة هذا اليوم غامت السماء وأرعدت وأبرقت ثم أمطرت مدرارا وطالت وأظلمت الدنيا واشتد المطر وانفتحت أبواب السماء فانهمل السيل انهمالا عظيما لم يسبق له مثال وكثرت الأوحال وتعطلت الطرق بالقاهرة ومصر وبولاق فاشتغل الناس والعساكر بنزح المياه من بعض الطرق وحمل الأوحال تجفيفا لها فانتهز الفرنسيس هذه الفرصة المناسبة وهجموا على القاهرة وبولاق من كل ناحية وكبسوا من ناحية باب الحديد وكوم أبى الريشة وجهة بركة الرطل وقنطرة الحاجب وجهة الحسينية والرميلة وكانوا يرمون القنابل من قلعة جامع الظاهر وقلعة قنطرة الليمون ويزحفون أمامهم المدافع وخلفهم المشاة بالبنادق يتابعون رميها وطائفة أخرى بأيديها فتائل مغمسة بالنفوط والزيت والقطران وكعكات مدبرة تلتهب عند نزول الماء عليها فكانوا يلقونها ملتهبة

بالسقائف وأبواب الحوانيت وشبابيك الدور ويزحفون على هذه الصورة والمسلمون يقاتلون قتال الأبطال وانتقل الأغا وأغلب العامة إلى تلك الجهات وزلزلوا فى ذلك اليوم زلزالا شديدا وهاج العامة وأكثر النساء من الصياح والولولة وتركن البيوت وخرجن حاسرات عن وجوههن فكانت النيران تأخذ كل من صادفته ثم هجموا هجمة رجل واحد على مدينة بولاق من ناحيتى النيل وبوابة أبى العلا فقاتل أهل بولاق وبذلوا الجهد حتى أحاطت بهم الفرنسيس إحاطة السوار بالمعصم وأخذوهم من كل جانب وأزعملوا فيهم السيف والتحريق فقتلوا فى هذا اليوم مالا يكاد يدخل تحت الحصر وملكوا بولاق عنوة وفعلوا بأهلها ما تشيب من هوله النواصى وصارت القتلى مطروحة تدوسها سنابك الخيل وأقدام الناس فى الأزقة والطرقات واحترق أكثر المدينة من الدور والقصور المطلة على النيل وخرج الناس على وجوههم هائمين إلى الصعيد ثم أحاط الفرنسيس بالبلد ومنعوا من يخرج منها واستولوا على الخانات والوكائل والحواصل والودائع والبضائع وملكوا الدور وما فيها من متاع وأموال ونهبوا جميع ماعثروا عليه وصنعوا بكبارها وتجارها مالا خير فيه وكان ذلك اليوم يوم الجمعة ثالث عشرى شوال واختفى البشتيلى زعيم عصابة بولاق ففتشوا عليه وقبضوا عليه وعلى وكيله وجميع أنصاره وكبار العصابة كافة وسجنوهم وضيقوا عليهم عدة أيام ثم أطلقوهم ماعدا البشتيلى وكبار عصابته وكان البشتيلى هذا قد بعث فى أيام الفتنة بخطاب إلى عثمان كتخدا يقول فيه إن الكلب دعانا للصلح يريد كلابير فأبينا منه وأرسل الخطاب مع رجل ليوصله إلى الكتخدا فوقع فى يد الأمير كلابير قيل فحركه ذلك إلى فعل ما فعله ببولاق ثم سلم البشتيلى إلى أهل عصابته ووكلهم بقتله جزاء ما فعل مما كان سببا لما حل بهم فأركبوه حمارا وطافوا به جميع أنحاء بولاق ثم قتلوه بضرب النبابيت وألزم كلابير أهل بولاق بغرامة قدرها مائتا ألف ريال فأدوها وهم صاغرون .

أما أهالى القاهرة ومن فيها من العساكر العثمانية والأمراء المصريين فأنهم جعلوا يقاتلون ويدافعون جيوش الفرنسيس إلى السادس والعشرين من شوال حتى ضاق خناقهم وكادوا يهلكون من الجوع فضلا عن نيران العدو فهجم الفرنسيس على المدينة فى ذلك اليوم من ناحية باب الحديد وناحية كوم أبى الريش وقنطرة الحاجب وغيرها ودخلوا البلد وهم يحرقون بالفتائل والنيران الموقدة ويجلون العساكر السلطانية عن المتاريس واحدا فواحد إلى أن وصلوا إلى ناحية قنطرة الخروبى وناحية باب الحديد

إلى قرب الشعرية وزحفوا على المتاريس التى بها فوقعت الهزيمة على من كانوا بها من الأمراء المصريين والجند فولوا الأدبار وتبعهم العامة بالصياح والولولة وملك الفرنسيس كوم أبى الريش وصعدوا إلى أعلاه وصوبوا أفواه المدافع ناحية المسلمين، والمسلمون من أسفل الكوم فعملت فيهم نيران المدافع مالا يمكن وصفه وقتلت ما لا يكاد يدخل تحت الحصر وكان البرديسى ومصطفى كاشف الأشقر أصحاب مراد بيك يسعون بين نصوح باشا والأمير كلابير وفى المهادنة والكف عن القتال ويكثرون من الترداد بين الفريقين فلما شاهد نصوح باشا ماحل بعسكره من الفشل والموات جنح إلى جميع ما يطلبه الأمير كلابير وألح فى طلب كف القتال وتقررت القاعدة بين الفريقين على أن الفرنسيس يمهلون نصوح باشا وجميع من معه من العثمانيين والأمراء المصريين ثلاثة أيام حتى يتأهبوا للجلاء عن البلاد وجعلوا الخليج بالقاهرة حدا بين مقام الفريقين فى خلال أيام الهدنة وتركوا الحرب وأخمدوا النيران وأخذ العساكر السلطانية والمصرية والأمراء من الفريقين فى التأهب والاستعداد للجلاء وزودهم الأمير كلابير بما لزم من مال وميرة ودواب للحمل وكتبوا بعقد الصلح دستورا من شروطه أن الفرنسيس يبقون عندهم عثمان بيك البرديسى وعثمان بيك الأشقر رهينة ويرسلون ثلاثة من كبار الفرنسيس يكونون مع الكتخدا حتى يصل بمن معه إلى الصالحية وأن يرافقهم ثلثمائة من جند كلابير ثم يعودوا ومعهم الرهائن وأن من شاء الخروج من أهل مصر فلا حرج عليه ماعدا عثمان بيك الأشقر فإنه متى رجعت الرهائن يذهب هو والبرديسى ويلحقان بمراد بيك فى الإقليم القبلى، وأمر كلابير بالرهائن من الفرنسيس فذهبوا إلى وكالة ذى الفقار وأجلسوهم بجامع الجمالى بالجمالية مع نصوح باشا فلما رآهم العامة هاجوا وماجوا وأرادوا البطش بهم وهموا بقتل عثمان كتخدا فأغلق دونهم الباب ومنع نصوح باشا من دنو العامة من المسجد وركب المغربى الذى تقدم الكلام عنه وسار إلى الحسينية وهو ينادى بالجهاد وقتل الكفار فحضر إلى عثمان كتخدا من أهل الحسينية من سأله فى ذلك فنهاهم وحذرهم وأمرهم بمنع ذلك المغربى وركب كذلك المحروقى وأمامه بعض العامة ينادون بأن لا صلح ولا اتفاق ولازموا المتاريس ومر على هذه الصورة بسوق الخشاب فقام عليه نزله أمين وأوقفه عن التطواف ومنعه من المناداة وفتح فى الحال باب خان ذى الفقار فخرج منه طائفة من الجند وبأيديهم العصى فمزقوا شمل العامة وفرقوا جمعهم وضربوهم بالعصى فانكمشوا وسكن الحال وكان نصوح باشا

والأمراء المصريون لما دخلوا القاهرة وضربوا على أهل البلاد المغارم وزادوا فى المكوس والمظالم وشددوا فى تحصيلها حتى من المشايخ وأرباب الطرق طالبوا أيضا الشيخ أبا الأنوار السادات بمبلغ من المال وجاءه السيد أحمد المحروقى بخطاب من كتخدا الدولة بشأن ذلك فاعتذر الشيخ وطلب المعافاة فلم يقبل المحروقى وأبى إلا أخذ المقرر فشق الأمر على الشيخ وأحزنه جدا.

قال صاحب عجائب الآثار فكتب له الشيخ تذكرة وصورتها حسبنا الله ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير وماهو من الظالمين ببعيد.

وظننت أنك عدتى أسطو بها ويدى إذا اشتد الزمان وساعدى
فرميت منك بغير ما أملته والمرء يشرق بالزلال البارد

أما بعد فقد نقضت عهدى، وتركت مودة آل بيت جدى، وأطعت الظلمة السفلة وامتثلت أمر المارقين الثقلة، فأعنتهم على البغى والجور، وساعدت فى تنجيز مرامهم الفاسد على الفور، من إلزامك الكبير والصغير، والغنى والفقر، إطعام عسكركم الذى أوقع بالمؤمنين الذل والمضرات، وبالغ فى النهب والفساد غاية الغايات، فكان جهادكم فى أماكن الموبقات والملاهى حتى نزل بالمسلمين أعظم المصائب والدواهى، فاستحكم الدمار والخراب ، ومنعت الأقوات وانقطعت الأسباب، فبذلك كان عسكركم مخذولاً، وبهم عم الحريق كل بيت كان بالخير مشمولا، كيف لا وأكابركم أضمرت السوء للمرتزقة فى تضييق معاشهم وأخذ مرتباتهم، وإتلاف ما بأيديهم من أرزاقهم وتعلقاتهم، وقد أخفتم أهل البلد بعد أمنها وأشعلتم نار الفتنة بعد طفئها ثم فررتم فرار الفيران من السنور وتركتم الضعفاء متوقعين أشنع الأمور، فواغوثاه واغوثاه أغثنا ياغياث المستغثين واحكم بعدلك يا أرحم الراحمين. أهـ.

فلما وقعماوقع لنصوح باشا وقومه من الأمير كلابير فرح الشيخ بخذلتهم وفرح معه أيضا جماعة من المشايخ لخلاصهم من ظلم الجنود العثمانية وأمرائهم وخرجوا جميعا وخرج معهم إبراهيم بيك الكبير وأمراؤه ومماليكه والألفى وأصحابه ومعه السيد عمر مكرم النقيب والسيد أحمد المحروقى وكثيرون من أهل مصر والقاهرة وساروا إلى الصالحية وسار معهم حسن بيك الجداوى وأصحابه ودخل الفرنسيس إلى المدينة واستولوا على ما كان أعده العثمانيون من المدافع والقنابل والبارود وآلات الحرب وركب المشايخ والأعيان عصر ذلك اليوم إلى مقر الأمير كلابير فلما استقر بهم المقام

أبرز لهم ورقة مكتوبا فيها مانصه، النصرة لله الذى أمر من آتاه النصر باستعمال الشفقة مع الناس وبناء على ذلك فإن أمير الجيوش الفرنساوية لا يبخل بالعفو عن جميع الأهالى ولو أنهم شاركوا العثمانيون فيما ارتكبوه من جرائم القتل وإراقة الدماء فعليهم إذن أن يشتغلوا بأمر معاشهم، ثم التفت إلى المشايخ وقال لترجمانه قل لهم أن يأتوا إلينا فى غد عند قبة النصر فقاموا من عنده مطمئنين وطافوا بالأسواق وبين أيديهم أرباب المناداة ينادون بالأمان العام وباتوا وأصبحوا فركبوا جميعا وذهبوا إلى خارج باب النصر وخرج أرباب المناصب وكبراء القبط والشوام فلما تكامل حضورهم رتبوا موكبا وساروا ودخلوا من باب النصر وأمامهم القواصة يأمرون الناس بالقيام ثم عدد عظيم من الفرسان ثم المشاة وأمامهم الطبول والأبواق ثم الأعيان والمشايخ والعلماء والأمراء والوجاقلية وأتباعهم ثم الأمير كلابير وخلفه الأمير عثمان بيك البرديسى وعثمان بيك الأشقر وخلفهم طوائف الفرسان وبعد انقضاء الموكب زينت البلد ثلاثة أيام ثم أدب الجنرال كلابير ودعا جميع المشايخ والعلماء والأمراء فلما فرغوا من الطعام خلع على الشيخ البكرى خلعة عظيمة وقلد محمد أغا الطنانى أغاة مستحفظان ثم انصرفوا ونادى الأغا بالأمان فى تلك الليلة وأصبحوا وقد دعا مراد بيك الكبير الأمير كلابير وبطانته ومن معه من المقاتلين إلى وليمة أعدها لهم بجزيرة الذهب فذهبوا إليه فبالغ مراد بيك فى إكرام الأمير كلابير وقدم له تقادم وهدايا نفيسة وكذلك لكل واحد من أركان حرب كلابير وقدم إليه أربعة آلاف رأس من الضأن وعجول البقرة وفحول الجاموس وكان قد بعث بها درويش باشا الذى كان بالأقاليم القبلية إعانة إلى نصوح باشا ومن معه من الأمراء المصريين فسر الجنرال كلابير سرورا عظيما فى ذلك اليوم وانشرح صدره وقلد مراد بيك إمارة الصعيد من جرجا إلى إسنا ثم عاد راجعا إلى داره بالأزبكية .

ولما كان فى صبح يوم الجمعة ثامن الحجة من السنة أى سنة أربع عشرة ومائتين وألف حضر المشايخ والعلماء فى زيهم وزينتهم إلى بيت الأمير كلابير باستدعاء من أجل ترتيب الأمور وتقسيم الوظائف والمناصب العالية فذهب كل وهو يؤمل بلوغه ما يتمنى فلما دخلوا أجلسوهم فى مكان برهة طويلة ولم يحضر إليهم أحد وأهملوا ثم طلبوا إلى مكان آخر فدخلوا وجلسوا وأهملوا حصة ثانية أطول من الأولى ثم خرج بعد ذلك الأمير كلابير فى أصحابه ومعه ترجمانه فجلس وأصحابه حوله وكلم ترجمانه ثم بعد أن فرغ التفت الترجمان إلى المشايخ والعلماء وقال يقول الجنرال إنما

قد استحضرتم اليوم إلى هنا من أجل أن تدفعوا إلى خزينة الجيش الفرنسوى عشرة آلاف ألف ألف فرنك عبارة عن ألف ألف فرانسة منها خمسمائة ألف وخمسة وثلاثون ألف فرانسة على الشيخ السادات خاصة وخمسون ألفاً على الشيخ محمد ابن الجوهرى وخمسون ألفاً على أخيه الشيخ فتوح وخمسون ألفاً على الشيخ مصطفى الصاوى والشيخ العنانى ومائتان وخمسون ألفاً نقتطعها من ذلك نظير نهب دور الفارين مع العساكر العثمانية مثل المحروقى والسيد عمر مكرم وحسين أغا شنن وما بقى من المبلغ توزعونه على التجار والأهالى كل بلد وما يناسب حاله ويبقى منكم هنا خمسة عشر رجلا رهينة فاختاروا من يبقى ، ثم قام كلابير من فوره ودخل مع أصحابه إلى داخل وأغلق بينه وبينهم الباب فاستلم فريق من الحراس الأبواب ووقفوا دونها بالبنادق يمنعون من يخرج من الجالسين فبهت الجماعة وانتقعت وجوههم ونظر بعضهم إلى بعض وهم فى دهشة وحيرة ولم يعاف من هذه الغرامة سوى الشيخ المهدى والشيخ البكرى واشتد بالمشايخ الأمر ولم يزالوا على ذلك إلى قريب العصر فأفرجوا عمن دخل معهم من خاملى الذكر وأخذ أرباب الديوان فى توزيع المطلوب وتدبيره وترتيبه فى قوائم حتى وزعوه على الملتزمين أرباب الحرف الدنيئة وجميع صنوف التجار وقضاة المحاكم وقد وضعوا الشيخ الصاوى والشيخ فتوح بن الجوهرى فى السجن وهرب الشيخ العنانى وكانت داره احترقت فضافوا غرامته على الشيخ السادات ووكلوا بالتحصيل المعلم يعقوب والقائمقام مع الخزنة دار لقبض المتحصل وتدبير الأمور والرهونات وركب كلابير مع أصحابه وذهب إلى الجيزة ونزل الشيخ السادات يريد الذهاب إلى داره فسار معه عشرة من الفرنسيس وجلسوا على بابه إلى نصف الليل فحضر إليه عشرة آخرون فأنزلوه من بيته وصعدوا به إلى قلعة الجبل وسجنوه فى مكان فهاله هذا الأمر وأزعجه جدا فأرسل إلى عثمان بيك البرديسى مستغيثا به فركب إلى الأمير كلابير وكلمه فى أمره فقال كلابير أما القتل فلا نقتله لشفاعتك وأما المال فلابد منه إن طوعا وإن كرها ثم أنزلوه من قلعة الجبل وسجنوه فى بيت القائمقام يومين ثم أصعدوه ثانيا إلى القلعة وشددوا عليه وضيقوا فلما اشتد به الخطب طلب أن ينزلوه إلى بيته ليسعى فى سداد المفروض فأنزل فباع متاعه وأثاث داره وما عنده من المال دفعة فلم يبلغ سوى أحد وعشرين ألف فرانسه لاغير ففتشوا جميع بيته ونبشوا أرضه فلم يعثروا فيه على شىء وكان قد نقل نساءه وولده إلى مكان آخر وضيقوا على بقية

المشايخ فى تحصيل المفروض فهرب البعض فنهبوا داره واسترحم البعض فخففوا عنه وأضافوا ما خففوه على الغرامة العامة وانبث الأعوان يطالبون الناس ويقبضون على من لم يدفع ماعليه فاشتد بالناس هذا البلاء وعم الخوف والذل الحقير والعظيم وذهب الدرهم والدينار وعز وجدانهما فصاروا يأخذون المصوغات والأمتعة بأبخس الأثمان حتى نفدت أيضا فأخذوا الدواب وخرج الناس من المدينة وأجلوا عنها إلى القرى والأرياف فرارا فكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار.

(مطلب)

(مقتل الجنرال كليبر قائد الجيوش الفرنساوية وماجرى بعد قتله)

لما خرج نصوح باشا من مصر بعد عقد الصلح مع الأمير كليبر وانجلى عن البلاد بمن كان معه من العساكر السلطانية والأمراء والصناجق المصريين ولحقوا جميعا بيوسف باشا صدر الدولة كبر هذا الأمر عليهم واستعظموه فجعلوا ينظرون فى أمر الخلاص من شر الأمير كليبر ويتدبرون فى أمر قتله فأرسل أغاة الانكشارية إلى حلب يطلب رجلا قادرا مقداما يجسر على قتل كليبر ومناه بالعطايا الجزيلة والمناصب السامية والتحف الجليلة فحضر إليهم رجل اسمه سليمان الحلبى لم يبلغ من العمر سوى أربع وعشرين سنة فقربه الأغا ومناه بالعطايا إن هو قتل كليبر فأقسم أنه يقتله وأخذ لذلك خنجرا وسار إلى القاهرة ونزل بالجامع الأزهر برواق الشوام عند جماعة من مجاورى الشوام له بهم سابق المعرفة ولبث ثلاثين يوما متتبع خطوات كليبر أينما سار ثم كاشف ثلاث من المجاورين بما عزم عليه من قتل كليبر أحدهم اسمه السيد محمد المغربى والثانى اسمه السيد أحمد الوالى والثالث الشيخ عبد الله المغربى وكاشف آخر غيرهم أيضا اسمه السيد عبد القادر الغزى قيل فمنعوه من ذلك ونهوه فلم ينته فلما كان سادس المحرم افتتاح سنة خمس عشرة ومائتين وألف عبر الحلبى النيل إلى الجيزة واجتمع بنفر من بحارة زورق كليبر فسألهم عن كليبر وعن محل وجوده وإقامته وغير ذلك وأراهم أنه رجل غريب يريد الاجتماع به لأمر يهم كليبر فأعلموا بأن عادته أن يتجول فى بستان داره فى كل يوم حصة مقررة فتركهم ورجع إلى مقره بالأزهر وبات ليلته تلك وأصبح يوم سابع المحرم قاصدا الفتك بكليبر وأعلم السيد محمد الغزى ومن معه بأنه سيقتله فى ذلك اليوم وتأبط

خنجره وخرج من الجامع وسار إلى بيت كليبر فعلم بخروجه إلى الروضة سار نحوها فصادفه عائدا إلى داره بالأزبكية فتبعه حتى وصل إلى الدار فدخل كليبر ولبث الحلبى يراقب الفرص حتى علم بنزول كليبر إلى بستانه على عادته فى كل يوم فتمكن من الدخول إلى البستان من غير أن يشعر به أحد من الحراس فوجد كليبر يتمشى ومعه المسيو بروتين كبير مهندسى الجيش فسار الحلبى نحوهما فوقف كليبر وأشار إليه بيده أن ارجع فلم يرجع فقال له بالعربية ما فيش وكررها فلم يرجع وأوهم أن له حاجة عند الجنرال فلما اقترب منه مدّ يده اليسار كأنه يريد تقبيل يده فمد إليه الجنرال يده فقبض عليها وضربه بخنجره أربع ضربات متوالية فمزق بطنه وظهرت أمعاؤه وسقط إلى الأرض صارخا فصاح كبير المهندسين على الحرس فأسرع الحلبى نحوه وعاجله بضربة فضربه كبير المهندسين عدة ضربات بعصا كانت فى يده فهرب الحلبى واختفى فى مكان خرب بقرب سقاية هناك فسمع الحراس الصياح فدخلوا مسرعين فوجدوا الأمير كليبر مطروحا وبه بعض الرمق وكبير المهندسين ملقى بجانبه ولم يجدوا للقاتل أثر فاضطربوا وهاجوا وماجوا ونفخوا فى البوق فاجتمع كثير منهم بين فرسان وركبان وذهب فريق إلى القلاع وصوبوا أفواه المدافع نحو المدينة يريدون تدميرها وهلاك جميع من فيها وبحث الفرنسيس عن القاتل فوجدوه منزويا فى ناحية من البستان المجاور لبيت كليبر وقيل بل إن جارية سوداء كانت تنظر إلى ما وقع من شباك بمنزل سيدها المطل على بستان بيت كليبر وقد رأت القاتل عندما اختفى فى ذلك المكان فصاحت على الجند الذين كانوا يفتشون عليه ودلتهم على مكانه فقبضوا عليه وأمسكوا معه خنجره ملوثا بالدم ووجدوا بجانب جثة كلابير قطعة قماش مصبوغة باللون الأخضر هى من لباس القاتل قيل ولو لم تدل تلك السوداء على مكان القاتل لتهدمت المدينة بأسرها وقتل جميع من فيها بحد السيف ولما قبضوا عليه سألوه فى الحال عن اسمه وعمره وصنعته وبلده ومحل إقامته فاتضح أنه حلبى واسمه سليمان ومهنته كاتب وقد جاء إلى مصر يريد الاستخدام بطرف أحد التجار وهو يأوى بالجامع الأزهر وأنكر قتل الأمير كلابير ودخوله إلى البستان فشددوا عليه وضربوه فاعترف بارتكابه جناية القتل وبأن الذى ساقه إلى ذلك أغاة الأنكشارية حيث أطمعه فى العطايا الجزيلة والمناصب العالية إن هو فعل ذلك فاستحضره كبار المشايخ وأخبروهم بخبر هذا الحادث وعوقوهم عندهم إلى نصف الليل وألزموهم بإحضار الأربعة المشايخ الذين يعلمون بعزم القاتل على فعل القتل

فأحضروا ثلاثة وغاب عنهم رابعهم ونقلوا جثة الأمير كليبر فكان بها أربعة جروح أهمها فى الجنب الأيمن وكانت جثة المسيو بروتاين كبير المهندسين مطعونة ست طعنات أهمها بين ضلوع الجنب الأيسر ثم عقدوا مجلسا لمحاكمة القاتل بعد تحقيق وتدقيق أضربنا عن إيرادهما صفحا فحكم عليه بقطع يده اليمنى ثم رفعه على خزوق بالتل المعروف بتل العقارب ويبقى كذلك حتى تأكل الطيور لحمه وأن ينفذ عليه هذا الحكم بعد دفن جثة كليبر بحيث يراه جميع من يمشى فى جنازة كليبر وحكم كذلك بقتل السيد عبد القادر الغزى وأخذ جميع ما يمتلكه لخزينة الجيش ورفع رأسه على بيته كى يرمى للناظرين وبجانبه ورقة الحكم وحكموا على محمد الغزى وعبد الله الغزى وأحمد الوالى بقطع رءوسهم ورفعها على خشب وحرق جثثهم بالنار على تل العقارب بمرأى من سليمان الحلبى، ولما فرغوا من تحقيق مقتل الجنرال كليبر والحكم على قاتله وشركائه أخذوا يشتغلون بأمر دفن كليبر وكان ذلك بعد موته بثلاثة أيام وأقاموا بدله الجنرال جاك منو ونادوا ليلة الأربعاء خامس عشرى المحرم بتنظيف الطرق والشوارع وأصبحوا فاجتمع عسكرهم وأكابرهم وخرجوا بجنازة كليبر ركبانا ومشاة وقد وضعوا جثته فى تابوت من رصاص ووضعوا التابوت على عربة يجرها أربعة أفراس وعلى التابوت قبعة الأمير وسيفه والخنجر الذى قتل به وهو ملوث بدمه ورفعوا على العربة أربعة أعلام والموسيقى تصدح بأصوات الحزن والبنادق منكسة إلى أسفل فلماخرج النعش من بيته أطلقوا له عدة مدافع وبنادق وساروا من بيت الأزبكية على باب الخرق إلى درب الجماميز إلى جهة النصرية فلما وصلوا إلى تل العقارب حيث القلعة التى أنشأوها هناك أطلقوا عدة مدافع وكانوا قد أحضروا سليمان الحلبى وشركاءه فى الجناية وأوقفوهم عند القلعة تحرسهم الجند ليشاهدوا مشهد قتيلهم ثم ساروا بالجثة إلى أن وصلوا باب قصر العينى فحملوا التابوت ووضعوه على ربوة صغيرة داخل تقفيصة كانوا أعدوها لذلك وعليها كساء أبيض ووقف عند بابها نفر من الجند بالبنادق ملازمين ليلاً ونهاراً ثم عاد الجمع فأوقف عند قلعة تل العقارب ونفذ الحكم على سليمان الحلبى وأصحابه على الوجه المتقدم فكان المنظر مريعا فظيعا للغاية وعندما دنا الجلاد من سليمان ليقد يده اضطرب للغاية وجعل يلتفت يمنه ويسرة كأنه يطلب النجاة فلما رفعوه على الخشبة صاح واستغاث وجعل يكرر كلمات لا معنى لها ثم انصرف الناس وبقى جماعة من الجند حول الخازوق ولما كان ثانى يوم سار القائمقام والأغا إلى الجامع

الأزهر وفتشوا جهاته وأروقته وزواياه بحضرة المشايخ ثم خرجا بمن معهما من الجند ثم عاد الجنرال ومعه القائمقام والأغا بعد أيام وطافوا به ودققوا فى تفتيشه وأمر الجنرال فنبشوا أرضه لاستخراج ماهو مدفون فيها من الأسلحة والودائع فأخذ المجاورون عند ذلك فى نقل أمتعتهم منه وكتبهم وإخلاء الأروقة وأحصى الأغا المجاورين وكتب أسمائهم ورسم بأن لا يبيت عندهم غريب ولا يؤوا إليهم أحداً مطلقا وأخرجوا منه المجاورين من طوائف الترك فتقدم الشيخ الشرقاوى ومن معه إلى الجنرال جاك فى قفل أبواب الجامع منعا للريبة ودفعا للظنون فأذن بذلك فقفلت ثم جمعوا أرباب الوجاقات وألزموهم بجمع ما عندهم من الأسلحة فجمعوها فكانت شيئا كثيرا جدا وجعلوا من هذا الحين يؤاخذون العامة بأقل سبب ويضيقون ويهددون ويبالغون فى النكاية تشفيا وانتقاما فأخذ بعض الناس يهاجرون إلى القرى والأرياف ومالوا إلى الجلاء عن المدينة تخلصا مما يخشون فأمر عند ذلك الجنرال منو فطاف الأغا ينادى بعدم جلاء الناس ورجوع جميع من سافروا بعد خمسة عشر يوماً وإلا نهبت بيوتهم من غير معاودة فرجعوا على أعقابهم صاغرين فضربوا عليهم غرامة أخرى قدرها أربعة آلاف ألف (لعلها فرنكات) فقرروا منها على العقار والدور مائتى ألف فرانسة على الملتزمين مائة وستين ألف وعلى التجار مائتى ألف وعلى أرباب الحرف المستورين ستين ألفا وقسموا المدينة إلى ثمانية أخطاط وجعلوا على كل خطة منها خمسة وعشرين ألف ريال ووكلوا مشايخ الحارات بقبض ذلك مع الأمير الساكن فى تلك الخطة فضاق خناق الناس واشتد بهم الكرب وعجزوا عن السداد فتابعوا نهب الدور بأدنى شبهة واحتجب الجنرال منو عن الناس وامتنع عن الاجتماع بالمسلمين وكذلك عظماء القواد واستوحشوا وزادوا فى تحصين القلاع وجددوا منها عدة كثيرة وبنوا بها المخازن والمساكن وصهاريج الماء فى جميع أنحاء القطر حتى فى الصعيد وهدموا كثيرا من أخطاط الحسينية وخارج باب النصر وباب الفتوح من الحارات والدور وغيرها وزادوا فى التنكيل بالأهالى وفى تذليلهم جزاء ما فعلوه.

وبينما هم على هذا الحال من التحذر والتحجب إذ قدم على أبى قير والإسكندرية عمارة عظيمة من السفن الإنجليزية وجعلت تغدو وتروح أياما وكان بها أيضا جماعة من العساكر العثمانية فلما علم الفرنسيس بخبرها خرج فريق منهم يريد البحيرة والناس لا تعلم ما هناك واستحضر الوالى والمحتسب مشايخ الحارات

والأخطاط وشددا فى التنبيه عليهم بمراقبة السوقة وملاحظة أحوال العامة والتأكيد عليهم بالخلود إلى السكينة وعدم التظاهر بمظاهر الدين الموجبة لتوغير الصدور وظهور كامن الضغائن وبالغا فى النصيحة للغاية وأعلماهم بأنهم هم المؤاخذون بذنوب العامة المسؤلون عنها، وبينما كانت العمارة الإنجليزية تغدو وتروح فى عرض البحر بين أبى قير والإسكندرية وتمنع الوارد عنهما كانت العساكر العثمانية تنحدر من الشام قاصدة ديار مصر ومعهم يوسف باشا صدر الدولة ومازالوا يجدون السير حتى نزلوا على العريش وعسكروا بها أياما فسار للقائهم طائفة من الفرنسيس ومعهم آلات الحرب الكثيرة ونزلوا بالصالحية وأقاموا بها أياما وخرج كذلك الجنرال منو فى نفر من أركان حربه وطائفة من الجند إلى البحيرة فلم يستقر بها حتى جاءه الخبر بنزول طائفة عظيمة من عسكر سفن الحرب الإنجليزية إلى أرض أبى قير وقد كان لا يظن ذلك فسار بمن معه من الجنود من البحيرة إلى انبابة وساروا منها إلى مدينة الإسكندرية مسرعين ولحقت بهم طائفة أخرى ممن هم بالقاهرة ومصر وبرح الخفاء وصارت الحرب أدنى من قاب قوسين وتحقق زحف بعض مقدمات الجيوش السلطانية إلى مقربة من العريش ووردت الأخبار بذلك إلى الجنرال فوريه نائب الغيبة فجمع إليه المشايخ وأرباب الديوان وأعلمهم بخبر وصول السفن الإنجليزية إلى أبى قير والإسكندرية وزحف يوسف باشا الصدر الأعظم بعساكره إلى العريش ووجوب أخذ بعض المشايخ رهينة مادامت الحرب قائمة بينهم وبين العدو فلم يروا بدا من قبول ذلك بالطاعة ووقع الاختيار على أخذ الشيخ الشرقاوى والشيخ المهدى والشيخ الصاوى والشيخ الفيومى فأصعدوهم إلى قلعة الجبل فى الساعة الرابعة من الليل وأنزلوهم بجامع سارية ونقلوا إليهم أيضا الشيخ السادات وأمروا من بقى من أرباب الديوان وهم أربعة مشايخ بأن يلازموا شيخ البلد ويداوموا على حض الرعية بالخلود إلى السكون وملازمة الطاعة واستحضروا كثيرا من الأعيان وأصحاب المناصب القديمة على عهد المماليك وأصعدوهم إلى قلعة الجبل رهائن وأكثروا من نقل الذخيرة والأمتعة والصناديق والفرش والأسلحة إلى قلعة الجبل ليلا ونهارا.

وكان الجنرال منو لما تولى الرياسة لم يحسن التدبير ولم يفلح فى سياسته لعدم خبرته بالتدابير العسكرية وتجرده عن الهيبة الشخصية فأبغضه كبار الفرنسيس وقواد الجنود ومقتوه وكان منو قد أسلم ودعا نفسه عبد الله منو وتزوج إحدى بنات المسلمين وولدت له ولدا فسماه سليمان وسكن بخطة سيدنا الحسين وجعل يخالط

العامة والسوقة بتلك الخطة ليستميلهم إلى محبته وكان ديوان القاهرة إلى ذلك الحين مؤلفا من المسلمين والنصارى كما رتبه بونابارته وكليبر من بعده فأخرج منهم النصارى وسلم الأحكام لمن بقى من المسلمين ومال إلى جانبهم وبالغ فى استرضائهم وأخذ جباية الأموال من يد الأقباط وسلمها إلى المسلمين وقد كانت بيد القبط من عهد عمرو بن العاص إلى ذلك الحين ثم خلط وخبط وقلب نظام الهيئة الحاكمة وأفسد منها ما أصلحه الأمير كليبر وعمل غير ذلك أيضا.

قال بعض أصحاب التاريخ وقد كان إسلام منو هذا خدعة من مكايد الفرنسيس وتغريرهم بالمسلمين، قلت وقد اطلعت على صورة عقد زواج منو المذكور بمجلة الموسوعات منقولة بالنور الشمسى من سجل محكمة رشيد الشرعية فآثرت نقله هنا تتميماً للفائدة التاريخية وهى، بمحضر كل من مولانا العلامة السيد أحمد الخضرى المفتى الشافعى ومولانا الشيخ محمد صديق النائب والمفتى الحنبلى ومولانا السيد محمد غرا النائب والمفتى المالكى والسيد أحمد بدوى نقيب الأشراف حالا والأمير محمد بدوى چوربجى سردار مستحفظان وأحمد أبو جاويش مستحفظان والحاج أحمد جاويش العسال والحاج محمود اللومى المغربى وإبراهيم الجمال الرزاز والحاج محمد ميتو وعبد الله بربيره والحاج بدوى الشناوى واوذن إسماعيل السلانكلى وعلى جاويش كتخدا البيك دام كمالهم:

بعد أن أقر واعترف مينو باشا صارى عسكر القطر المصرى حالا بصريح لفظه وفصيح نطقه بكلمتى الشهادتين وهما، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله عارفا معتقداً معناها ومصدقا لمضمونها تاركا لدين النصرانية والأديان الرديئة على الترتيب والولاء وإعادة التشهد واستيفاء الشروط المعتبرة فيهما شرعاً طائعاً مختارا من غير إكراه ولا إجبار بمقتضى ذلك صار له ما للمسلمين وعليه ما عليهم وظهر منه الرغبة والحب للمسلمين والميل إليهم وسمى نفسه عبد الله باشا وأشهد على نفسه الجماعة المذكورين بجميع ذلك إشهادا شرعياً ثم بعد ذلك رغب عبد الله باشا المذكور فى تزوجه بامرأة مسلمة فخطبها خطبة شرعية وأجيب لذلك بعد إبرازه لفتيا شرعية لفظ سؤالها.

ما قولكم دام فضلكم فى رجل أحب الإسلام وأهله ورغب فيهما تاركا لدين النصرانية ناطقا بكلمتى الشهادتين مصدقا على الوجه الأكمل ثم أراد أن يتزوج امرأة مسلمة على كتاب الله العظيم وسنة نبيه الكريم فهل يجوز له حينئذ التزوج بها

والعقد عليها بشروطه الشرعية أفيدوا الجواب، وبأدناه، الحمد لله حيث كان الحال ما شرح فى السؤال فيجوز للرجل المسلم المذكور خطبة المرأة المسلمة والعقد عليها بشروطه الشرعية والله أعلم.

كتبه الفقير أحمد الخضرى الشافعى لطف الله به وبأدناه، الحمد لله حيث أقر الرجل المذكور بالشهادتين بشروطهما الشرعية فيجوز له أن يعقد على المرأة المسلمة عقدا شرعيا مستوفيا لشرائطه الشرعية والله أعلم، كتبه الفقير محمد صديق الحنبلى عفى عنه وبأدناه، الحمد لله حيث رغب الرجل المذكور فى الإسلام ونطق بكلمتى التوحيد جاز له أن يتزوج المرأة المسلمة وأن يعقد عليها العقد الشرعى بشروطه الشرعية والله أعلم، كتبه الفقير محمد غرا المالكى غفر له الله وعفا عنه.

فبمحضر كل ممن ذكروا أعلاه تزوج عبد الله باشا المذكور بمخطوبته زبيدة المرأة بنت محمد البواب التى كانت زوجا لسليم أغا نعمة الله وطلقها وانقضت عدتها منه شرعا على كتاب الله العظيم وسنة نبيه الكريم وصداق جملته ألفا ريال اثنان معاملة ومائة دينار ذهبا محبوبا فالحالّ لها من ذلك المائة دينار المذكورة أقبضها لوكيلها الحاج حسين ابن السيد محمد الموقت فقبض منه ذلك عددا بالمجلس بمعاينة من ذكر أعلاه وعليه الخروج من عهدة ذلك لها شرعا والباقى الألفا ريال الاثنان يحلان لها عليه بموت أو فراق زوجها له ذلك، وعقد نكاحها عليه وكيلها الحاج حسين الموقت المرقوم بإذنها له فى ذلك بشهادة كل من أخيها لأمها السيد على الحمامى بن حسن البواب والسيد أحمد وشقيقه السيد إبراهيم المكلف كل منهما ابنى السيد سليمان النقرزان تزوجا شرعيا قبله للزوج المرقوم وكيله الحاج أحمد شهاب حسبما وكله صريحا بالمجلس بشهادة شهوده المذكورين وعلى عبد الله باشا الزوج المذكور القيام لزوجته المذكورة فى كل سنة تمضى من تاريخه أدناه بعمل كسوة أقمشة شتاء وصيفا لائقين بحالهما وثبت ذلك لدى مولانا أفندى بعد أن ثبت لديه معرفة زبيدة المذكورة المعرفة الشرعية التى لا جهالة معها شرعا بشهادة كل من شهود توكيلها المذكورين ثبوتا شرعيا وحكم بموجبه حكما شرعيا فى الخامس والعشرين من رمضان سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف انتهى بنصه.

وبعد أن تم عقد الزوجية بين الجنرال منو المذكور وزبيدة بنت محمد البواب على الوجه المتقدم حصل التعاقد بينهما أيضا على شروط وعهود يعيشان على مقتضاها معا وقد تسجلت بالطريقة الشرعية بسجل محكمة رشيد بعد تسجيل عقد الزوجية ونصه، بحضرة كل من مولانا الشيخ أحمد الخضرى المفتى الشافعى ومولانا

الشيخ محمد صديق النائب والمفتى الحنبلى ومولانا السيد محمد غرا النائب والمفتى المالكى والسيد أحمد بدوى نقيب الأشراف والأمير محمد بدوى چوربجى سردار مستحفظان وأحمد أبو جاويش مستحفظان والحاج أحمد جاويش العسال والحاج محمد اللومى المغربى وإبراهيم الجمال الرزاز والحاج محمد ميتو وعبد الله بربيره والحاج محمد الشناوى وأوزن إسماعيل السلانكلى وعلى جاويش كتخدا البيك ولوى چوسيف ويكتور جوليان صارى عسكر حاكم ولاية الثغر ولوى چوست دروى رئيس طائفة عسكرية وكتخدا صارى عسكر الآتى ذكره فيه وجان فرنسواه لوى لويكه مهندس وميقاتى الجيش الفرنساوى ولويزى وانولى باش حكيم الفورنتينه دام كمالهم.

صار التوافق والتراضى بين الحاج حسين ابن السيد محمد الميقاتى الوكيل الشرعى عن زبيدة المرأة بنت السيد محمد البواب الثابت معرفته وتوكيله عنها فيما يذكر فيه بشهادة كل من أخيها لامها السيد على الحمامى بن حسن البواب والسيد أحمد وشقيقه السيد إبراهيم ابنى السيد سليمان النقرزان الثبوت الشرعى وبين الحاج أحمد شهاب الحاضر معه بالمجلس القائم فى ذلك بوكالته الشرعية عن عبد الله باشا منو صارى عسكر القطر المصرى حالا الثابتة صريحا بالمجلس وبتصديقه على ذلك التصديق الشرعى وهو زوج زبيدة الموكلة بموجب كتاب الزوجية المسطر بمحكمة الثغر المؤرخ بخامس عشرى شهر تاريخه أدناه على شروط تكون وتوجد بين عبد الله باشا منو وبين زوجته زبيدة بإقرار الوكيلين المذكورين.

الشرط الأول: أن زبيدة الزوجة أقامت وأذنت زوجها المذكور وكيلا عنها فى سائر ما تمتلكه يدها الآن وفيما يوجد لها من المال يتصرف لها فى ذلك بحسن نظره السديد.

الثاني: أن عبدالله باشا منو الزوج المذكور أقر بأن كامل ما هو تحت يدها من متاع ومصاغ وحلى فهو ملك لها بمفردها.

الثالث: عبد الله باشا منو الزوج المرقوم أعطى لوكيله الحاج أحمد شهاب المذكور مائة محبوب كل واحدة منها بمائة وثمانين نصفا فضة فى نظير صداق زوجته المذكورة وأن الحاج أحمد شهاب سلم جميع ذلك ليد وكيلها الحاج حسين المذكور فسلم له ذلك عددا بالمجلس وذلك على حسب عادة عقودات المسلمين،

الرابع : أن الزوج المذكور شرط على نفسه أنه إن حصل بينه وبين زوجته فراق

يدفع لها ألفى ريال اثنين معاملة فى نظير فراقه لها وكل ما كان تحت يدها وقت ذلك يكون جميعه لها حسب عادة دفع مؤخر صداق المسلمين.

الخامس: أن زبيدة الزوجة المذكورة إن كانت تطلب طلاقها من زوجها المذكور بحسب شرع المسلمين لم يكن لها من الألفين ريال المذكورة ولا نصف فضة ماعدا ما تحت يدها من مصاغ وغيره فهو لها.

السادس: زبيدة لم تزل وارثة فى كل ما كانت ترثه شرعا.

السابع: أن زبيدة أقرت بنفسها أنه إذا مات زوجها المذكور وهى فى عصمته تأخذ من ماله الألفين ريال المذكورة وليس لها موارثة ولا طلب فى تركته وذلك فى نظير أرثها الشرعى حسب رضاها بذلك.

الثامن: أنه إن مات الزوج المذكور وخلف أولادا من زوجته المذكورة وهم قصر يقام عليهم رجلان ناظران ووصيان واحد فرنساوى والثانى ابن عرب يتصرفان فى أموالهم بحسب المصلحة فى طريقة الفرنساوية وطريقة المسلمين.

التاسع: أن الزوجة المذكور إن ماتت وخلفت أولادا من زوجها المذكور فى حياته يكون أبوهم هو الوكيل الشرعى على أولاده وعلى مالهم.

العاشر: الناظر الوصى الفرنساوى المذكور فى الشرط الثامن يقام من طرف حكام الفرنساوية الموجودين فى بر مصر وقت ذاك والناظر الوصى الثانى يقام بحسب عادة المسلمين وإن حصل تداع بسبب اختلاف تقام الدعوى على يد الحاكم الشرعى إن كان ببر مصر أو ببر الفرنساوية.

الحادى عشر: عبد الله باشا منو وزوجته إن ماتا جميعا وخلفا أولادا تكون أولادهما تحت حماية جمهور الفرنساوية والزوجين المذكورين يقصد أفضل الحكام الخمسة التى ببلاد فرنسا يكونوا نظراء على أولادهما وأن الزوج والزوجة أقرا واعترفا برضاهما على هذه الشروط المذكورة على يد وكيلهما الإقرار والاعتراف الشرعيين الصادرين منهما بالمجلس بحضرة من ذكر أعلاه وأنهما التزما بهذه الشروط يفعلانها وقت الاحتياج إليها غير إكراه ولا إجبار التزاما مرضيا وثبت ذلك لدى مولانا أفندى ثبوتا شرعيا وحكم بموجبه فى سابع عشرى رمضان سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف، انتهى بنصه.

وبقيت زبيدة فى عصمة الجنرال منو ولم تفارق رشيد مسقط رأسها وسكنها حتى أخذت رشيد من الفرنسيس وانجلوا عنها فسارت منها بالبحر فى المحرم افتتاح سنة

ست عشرة ومائتين وألف مع أخيها السيد على الرشيدى أحد أعضاء الديوان بثغر رشيد إلى الرحمانية ولبثت أمامها أياما حتى نزل على الرحمانية القادمون من العساكر السلطانية والعساكر الإنجليزية واحتلوا قلعتها فسار السيد علىّ باخته زبيدة إلى مصر ونزل بها ببيت الألفى بالأزبكية أياما قلائل صعد بها إلى قلعة الجبل فأقامت بها وورد كتاب الجنرال منو على أعضاء الديوان بالقاهرة يوصيهم خيرا بها وبولدَه منها سليمان مراد.

قال القائمقام توماس ولسن الإنجليزى فى كتابه المسمى البعثة الإنجليزية بمصر ما تعريبه، ولما كان سابع عشر يونيه سنة إحدى وثمانمائة وألف ميلادية سلم الفرنسيس قلعة القاهرة بعد أن وقعوا على شروط الجلاء عن ديار مصر وخرج من بقى منهم وخرجت امرأة الجنرال منو تريد اللحاق بزوجها فعارض جماعة الترك فى ذلك وشددوا فى منعها وبالغوا فى التشديد فقام فى وجههم القائد بيار وقال لابد من ذهابها وأنا الكفيل بها والضامن لراحتها فخرجت مع من خرجوا اهـ.

وكان تزوج الفرنسيس على اختلاف درجاتهم بالمسلمات قد فشا وعم سائر المدن والقرى وكان حكام الأخطاط من الفرنسيس يلبسون نساءهم من المسلمات الأزياء الفرنجية ويمشون معهن فى الأخطاط للنظر فى أمور الرعية والأحكام فكن يأمرن وينهين كأنهن الحكام وكانت تمشى المرأة منهن بنفسها أو معها بعض أترابها وأضيافها على مثل زيها وأمامها القواسة والخدم وبأيديهم العصى يفرجون لهن الناس كما يفعلون عند مرور كبار الحكام بالطرق والشوارع وكن كثيرا ما يأمرون أيضا وينهين فى الأحكام وكادت هذه المحنة تعم سائر البلاد لولا جلاء الفرنسيس عنها بقدوم العساكر السلطانية والعساكر الإنجليزية.

وبينما كان الفرنسيس يعدون المعدات ويسيرون العساكر إلى أبى قير والإسكندرية ودمنهور والرحمانية وغيرها لمنع تقدم الإنجليز ظهر الطاعون بالقاهرة ومصر واشتد شدة عظيمة فكثر الموات وتزايد يوما عن يوم وصار ينتقل من بلد إلى آخر حتى بلغ الصعيد الأعلى وفتك بأهله فتكا عظيما ومات به مراد بيك الكبير رابع الحجة سنة خمس عشرة ومائتين وألف وجاء الخبر بذلك إلى القاهرة فأقام الفرنسيس بدله عثمان بيك الجوخدار المعروف بالطنبرجى وأقروه على إمرة الصعيد الأعلى ومات كثير ممن كان بقلعة الجبل من الأمراء والأعيان الرهائن وكان مع اشتداد الطاعون وكثرة الموات لم ينكف الفرنسيس عن تعبئة الجنود وإرسال المعدات وبذل الجهد فى منع جيوش الإنجليز من التمكن من الإسكندرية وكان السير رلف

أمبركرومبى أمير العمارة الإنجليزية قد تمكن من إنزال جنوده خارج الإسكندرية وعملوا بعض المتاريس فكانت غاية فى المنعة والتحصين والتقت العساكر الفرنساوية بالعساكر الإنجليزية وانتشبت الحرب بين الفريقين واقتتلا قتالا عنيفا اليوم بطوله فلم يظهر أحد منهما على الآخر ومع ضعف رأى الجنرال منو وقلة تدبيره وجهله بفنون الحرب وترتيب الصفوف فقد كانت خسائر الفرنسيس فى ذلك اليوم خمسمائة رجل وخسائر الإنجليز مائة وألف ورجع الفرنسيس إلى الإسكندرية وأرسل الجنرال منو إلى بونابارته يطلب المدد وكان قد وصل حسين باشا بجيوشه فأنزلهم بأبى قير فضعفت نفوس الفرنسيس وكادت تفتر عزائمهم ولكنهم تابعوا إرسال النجدات إلى الإسكندرية وأبى قير وصار يخرج فى كل يوم طائفة من كبارهم وقوادهم إلى الإسكندرية وخرج معهم المعلم إبراهيم الجوهرى وآخرون من عظماء القبط وكأنهم رهينة وزادوا فى تحصين مصر والقاهرة وعملوا خندقا عظيما بباب البرقية وأصبحوا بين عدوين ألدين وخصمين عنيدين جنود الأعداء المتحالفين والطاعون الذابح لرجالهم بغير سكين ولكنهم ثابروا على القتال بقلوب مائتة وعادوا لقتال الإنجليز والإنجليز من خلف المتاريس وأشار ضباط الفرنسيس على الجنرال منو بمهاجمة الإنجليز من ناحية حصنهم الأيمن إذ كان هو أقوى حصونهم وأمنعها فتردد فى الأمر ولم يقدم عليه إلا فى ليل ذلك اليوم فلم يفلح ورجع بغير طائل فلما أصبحوا أعادوا الكرة على المتاريس وهجموا عليها ميمنة وميسرة وقيل بل هجموا عليها فجر اليوم الثانى وكانوا يودون أخذ الإنجليز على حين غفلة ولكن الإنجليز كانوا على أهبة واستعداد فانتشبت الحرب بين الفريقين وتتابعت أصوات المدافع وتراسل الرمى بالقنابل وزلزلوا وزاد الجو ظلاما على ظلامه ثم تقهقر الفرنسيس مجانبة فأدرك السير رلف أمبركرومبى أمير السفن الإنجليزية قصدهم من ذلك وخاف العاقبة فعزز ميمنة معسكره فعاد القتال بين الفريقين واشتد وحمى الوطيس وزلزلت الأرض من أصوات المدافع وتساقط القنابل وجرح السير أمبركرومبى بجراحة عظيمة ألقته على الأرض ومازالت الحرب على ساقها إلى ثانى يوم قبيل الظهر علا صوت بوق الفرنسيس بالكف عن القتال فعاد الفرنسيس إلى معسكرهم وقد قتل منهم فى هذه الواقعة زهاء الألفين وأقام الإنجليز وراء المتاريس وقد مات منهم زهاء المائتين وأربعين وجرح ألف ومائتين وخمسين ومات السير رلف أمبركرومبى بجراحته بعد أيام قليلة فأقاموا الجنرال هتشنسون أميرا على سفن العمارة الإنجليزية وتقدم حسين باشا قبطان بمن معه من الجيوش السلطانية فأخذ منهم الجنرال هتشنسون أربعة آلاف مقاتل وضم

إليهم فرقتين من الجنود الإنجليزية وثمانية من المدافع وسيرهم مع الكولونيل سبنسر لأخذ مدينة رشيد وكان برشيد حامية قليلة من الفرنسيس فأرسل الجنرال منو يستطلع عدد هؤلاء الجنود فأعلم بأنها أقل عددا مما هى فاستخف منو بها ولم ينجد حامية رشيد فسار إليها الكولونيل سبنسر ودخلها بغير قتال ثم حول مدافعه على حصن هناك يسمى حصن جوليان وفيه نفر من الفرنسيس فضيق الإنجليز عليهم وشددوا حتى استسلموا فأمنوهم وأخرجوهم من الحصن ولما جاءت الأخبار بذلك إلى من كان بالرحمانية من الفرنسيس أرسلوا يطلبون المدد من الجنرال بيار قائد حامية القاهرة فاعتذر فكاتبوا فى ذلك منو فأمدهم بنفر قليل وملك الإنجليز والعثمانيون مدينة رشيد ودمياط والمنصورة وما جاورها من القرى والبلدان فقويت عندئذ عزائمهم وتابعوا القتال ووالوا الزحف ومنعوا من وصول مراكب الفرنسيس إلى الشطوط المصرية وأطلقوا مياه البحر الملح على الأراضى المجاورة للإسكندرية فأغرقتها وصارت لجة عظيمة إلى يومنا هذا ومانعا من خروج عساكر الفرنسيس من الإسكندرية فلم يبق لهم من سبيل إلا من ناحية العجمى إلى البرية وقد وقف لهم فيه الإنجليز ثم رجعوا إلى الرحمانية فملكوها وأجلوا من كان بقلاعها من الفرنسيس وأخذوها وأخذوا جميع الحصون القريبة منها بجهة العطف وغيرها وذلك فى الخامس والعشرين من الحجة سنة ست عشرة .

وبينما كان الإنجليز يقاتلون عساكر الجنرال منو وغيرهم من بقية العساكر الفرنسوية كان يوسف باشا الصدر الأعظم ينتقل بجيوشه على طريق الفرنسيس من قرية إلى أخرى ومن بلد إلى آخر وهو لا يدفع إلا بالأمر الخفيف حتى احتل الشرقية وتربص بها أياما لجمع الكلف والمغارم فأبق الناس وحضر الكثير منهم فارين إلى القاهرة وأخبروا بوصولهم فخرج الجنرال بيار لقتالهم وخرج معه القائمقام فقاتلهم العثمانيون فلم يثبت الفرنسيس أمامهم لقلتهم وكثرة عدد العثمانيين فقد كانوا ثلاثين ألفا وعساكر بيار لا تتجاوز الخمسة آلاف ورجع الفرنسيس مسرعين إلى القاهرة وكتموا الأمر عن الناس ومنعت العساكر السلطانية دخول المأكولات إلى المدينة فعزت الأقوات واجتهد الفرنسيس فى عمل الخنادق والمتاريس خارج المدينة وجهة القرافة وألقوا الأحجار العظيمة والمراكب الكبيرة فى مجرى النيل لتعطيل سفن العدو وكانت أوائل متاريسهم من باب الحديد ممتدة إلى قنطرة الليمون إلى قصر أفرنج أحمد إلى السبتية إلى مجرى النيل ووصلت طلائع الجيوش الإنجليزية والعثمانية الى بلدة نادر

عند رأس ترعة الفرعونية على الجانب الغربى من النيل ووصلت طلائع جيوش حسين قبطان باشا من الجانب الشرقى إلى بنها العسل وطحلا بساحل النيل ونزل يوسف باشا صدر الدولة ناحية دجوه ومازال حتى وصل إلى شلقان ووصل العساكر الإنجليزية أيضا إلى الوراريق وزحفوا حتى جاءوا ناحية انبابه وعسكروا بها وسار العساكر العثمانية على الجانب الشرقى من النيل ومراكب الذخيرة والمؤنة بين الفريقين حتى وصلوا إلى منية السيرج.

ولما كان يوم الأحد الثانى من صفر من السنة أى سنة ست عشرة أطلق الإنجليز المخيمون بأراضى انبابه مدافعهم تباعا كأنهم يدعون الفرنسيس إلى النزال فردت عليهم مدافع الفرنسيس من جميع القلاع والحصون وخرج فى ثانى يوم بعض الفرسان من الفرنسيس وقاتلوا فريق الإنجليز والعثمانيين وقد شغلوا ساحلى النيل شرقا وغربا وبينهما فى النيل الذخيرة والمؤنة وظلت الفرسان تناوشهم القتال اليوم بطوله ثم انفصلوا بعد حصة من الليل ورجع كل إلى مأمنه واستمروا على هذا الحال إلى اليوم السادس من صفر فزحفت العساكر العثمانية حتى قربوا من قبة النصر وكان فى مقدمتهم إبراهيم بيك الكبير فنزل بزاوية الشيخ دمرداش وأشرف بعض الجنود العثمانية على الجزارين الذين كانوا يومئذ بالمذبح من حائط المذبح وكان به ثلاثة من العساكر الفرنساوية فوقع بينهم مضاربة أصيب فيها أحد الثلاثة الفرنسيس فى ساقه ومات جزار يهودى فلما أحس من بقلعة الظاهر من الفرنسيس بذلك أطلقوا المدافع على معسكر العثمانيين وكذلك فعل من بقلعة نجم الدين والتل فأضروا بمقدمات العثمانيين ضررا عظيما وقتلت نيران المدافع منهم خلقا كثيرا وظل إطلاق المدافع متراسلا إلى ما بعد عصر ذلك اليوم ثم انكف الفريقان وأصبحوا فاقتتلوا بالبنادق والمدافع اليوم كله ولم يتعد أحد الفريقين موقفه وأغلق الفرنسيس فى ذلك اليوم باب النصر وباب العدوى وشددوا فى التجسس وأكثر العسس من التطوف ليلا والأغا والوالى نهارا فكان الناس من الخوف سكارى وماهم بسكارى وزحف الإنجليز أيضا من انبابه إلى أن وصلوا ناحية الجيزة ومعهم كثير من الأمراء المصريين وانتشروا فى الجهات القبلية من الجيزة ومنعوا المعادى من العبور إلى البر الشرقى وانكف الفريقان عن القتال أياما تناجوا فيها على عقد شروط الصلح على قاعدة حافظة لحقوق الفريقين وكان الساعون فى ذلك حسين باشا القبطان وهتشنسون مقدم الجيوش الإنجليزية وأفرجوا عمن كان أسيرا من العثمانيين بقلعة

الجبل وأرسلوهم إلى معسكر يوسف باشا وأفرجوا عن المشايخ وغيرهم الذين كانوا رهائن بالقلعة وأخذوا فى نقل أمتعتهم وبيع خيولهم وأنزلوا عدة مدافع من قلعة الجبل وقلعة البرقية وسارعثمان بيك البرديسى إلى الصعيد ومعه مرسوم من صدر الدولة خطابا لأهالى الصعيد بالأمان ووجوب ملازمة السكون والخلود إلى الطاعة ونزل يوسف باشا إلى شبرا ومعه فريق من العساكر السلطانية فسار تجاههم من انبابه فريق من الإنجليز ونصبوا هناك جسرا وعبر الفريقان لزيارة بعضهما وتقررت قاعدة الصلح فى ثلاث عشرة مادة حاصل ما فيها سرعة الجلاء عن مصر والقاهرة وجميع القلاع والحصون التى بهما فى مدة أقلها خمسون يوما وقيام عساكر الفرنسيس برا بجميع متاعهم وأثقالهم وكراعهم إلى رشيد وعلى مقدم الإنجليز النفقة من مؤنة ودواب للحمل ومراكب للنقل وسفن لحمل العساكر بالبحر الأبيض وعلوفة الخيول ودواب الحمل التى تؤخد من القاهرة بحيث لاتدخل تلك السفن من الموانى إلا ماكان منها للفرنسيس وإذا أراد أحد المصريين على اختلاف مذاهبهم الخروج مع الجيوش الفرنساوية فلا مانع يمنعه مع المحافظة على ماله وعياله ولاجناح على من خدم الفرنسيس أو أشار على أحد بخدمتهم وأن المرضى والجرحى منهم يبقون بمصر تحت العلاج بمعرفة أطباء الفرنسيس المعينين لذلك مع الاعتناء بأمرهم والقيام بجميع احتياجاتهم وأن يبعث بكبير من كبراء الإنجليز والعثمانيين إلى مدينة طولون لعرض عقد الصلح وعلى كل من الفرنسيس والعثمانيين تسليم من عنده من الأسرى وإبقاء رهائن من أكابر الفريقين حتى يتم الجلاء.

ودخل بعض أكابر الإنجليز إلى القاهرة ومعهم بعض أكابر الفرنسيس لمشاهدة ما فيها من الآثار والأبنية وكذلك دخل بعض أكابر العثمانيين فزاروا تربة الإمام الشافعى والمشهد الحسينى والشيخ عبد الوهاب الشعرانى فكان كبراء الفرنسيس ينتظرونهم على الأبواب مع التخشع والأدب وأصبحوا وقد انسحب من الفرنسيس السواد الأعظم ونودى فى الأسواق بأن ستطلق المدافع فى غد من جميع القلاع والحصون إجلالا لخروج جثة الأمير كليبر من أرض مصر فأطلقت فى ثانى يوم من جميع الأبراج والحصون تباعا وحملوا نعشه من قصر العينى وساروا به فى كبكبة وأبهة عظيمة جدا وأخلوا قلعة الجبل فى ليلة الجمعة الحادى والعشرين من صفر من السنة أى سنة ست عشرة وكذلك بقية القلاع والحصون وأجلوا عنها تماما وذهبوا إلى الجيزة والروضة وقصر العينى ولم يبق منهم أحد بالمدينة وبولاق ومصر القديمة

والأزبكية وتكاثر دخول العساكر السلطانية إلى القاهرة.

قال صاحب عجائب الآثار ففرح الناس كعادتهم بالقادمين وظنوا فيهم الخير وصاروا يستقبلونهم بالسلام ويباركون لقدومهم والنساء يلقلقن بألسنتهن من الطيقان وفى الأسواق وقام للناس جلبة وصياح وتجمع الصغار والأطفال كعادتهم ورفعوا أصواتهم بقولهم نصر الله السلطان ونحو ذلك وهؤلاء الداخلون دخلوا من نقب الغريب المنقوب فى السور وتسلقوا أيضا من ناحية العطوف والقرافة وأما باب النصر والعدوى فهما على حالهما مغلقان لم يأذنوا بفتحهما خوفا من تزاحم العسكر ودخولهم المدينة دفعة واحدة فيقع منهم القتل والضرر بالناس وباب الفتوح مسدود بالبناء فلما أضحى النهار حضر فى قول وفتح باب النصر والعدوى وأجلس بهما جماعة من الأنكشارية فدخل كثير من العساكر مشاة وركبانا أجناسا مختلفة ودخلت بلوكات الأنكشارية وطافوا بالأسواق ووضعوا نشاناتهم ورنكهم على القهاوى والحوانيت والحمامات فامتعض أهل الأسواق من ذلك وكثر الخبز واللحم والسمن والشيرج بالأسواق وتواجدت البضائع وانحطت الأسعار وكثرت الفاكهة مثل العنب والخوخ والبطيخ وتعاطى بيع غالبها الأتراك والأرنؤد فكانوا يتلقون من يجلبها من الفلاحين بالبر والبحر ويشترونها منهم بالأسعار الرخيصة ويبيعونها على أهل المدينة وبولاق بأغلى الأثمان ووصلت مراكب من جهة بحرى وفيها البضائع الرومية واليميش من البندق واللوز والجوز والزبيب والتين والزيتون الرومى قال فلما كان قبل صلاة الجمعة وإذا بجاويشية وأغوات وعساكر وتلا ذلك حضرة يوسف باشا الصدر فشق من وسط المدينة وتوجه إلى المسجد الحسينى فصلى فيه الجمعة وزار المشهد الحسينى ودعاه حضرة الشيخ السادات إلى داره المجاورة للمشهد فأجابه فدخل معه وجلس هنيهة ثم ذهب إلى الجامع الأزهر فتفرج عليه وطاف بمقصورته وأروقته وجلس ساعة لطيفة وأنعم على الكناسين والخدمة بدارهم وكذلك خدمة المشهد الحسينى ثم ركب راجعا إلى وطاقه بناحية الحلى بشاطئ النيل وعملوا فى ذلك الوقت شنكا وضربوا مدافع كثيرة من العرضى والقلعة ودخل قلقات الأنكشارية وجلسوا برءوس العطف والحارات وكل طائفة عندها بيرق ونادوا بالأمان والبيع والشراء وطلب أولئك القلقات من أهل الأخطاط المآكل والمشارب والقهوات وألزموهم بذلك وانحاز الفرنساوية إلى قصر العينى والروضة والجيزة إلى حد قلعة الناصرية وفم الخليج وعليها بنديراتهم ووقف حرسهم عند حدهم يمنعون من يأوى

إلى جهتهم من العثمانية فلا يمر العثمانى إلا إلى الجهة الموصلة إلى بولاق وأما إذا كان من أهل البلد فيمر حيث أراد وفى مدة إقامة المشار إليه بساحل الحلى ببولاق خرب عساكره ما قرب منهم من الأبنية والسواقى والمتريز الذى صنعه الفرنساوية من حد باب الحديد إلى البحر وأخذوا ما بذلك من الأفلاق الكثيرة المهندمة والأخشاب المنجرة المرصوصة فوق المتريز وتحته فى الخندق فخربوا ذلك جميعه فى هذه المدة القليلة وذلك لأجل وقود النار والمطابخ أهـ.

وتتابع دخول العساكر العثمانية إلى المدينة وانتشروا فى أنحاء مصر والقاهرة واحتل بعضهم القلاع والحصون والطوابى التى كان بها جنود الفرنسيس ورفعوا عليها أعلامهم ماخلا الحصون والقلاع التى انحازت إليها طوائف الفرنسيس وهى من قصر العينى إلى جهة النصرية كما تقدم القول وعاث فريق الانكشارية فى المدينة يزاحمون أرباب الحرف والصنائع فى أرزاقهم ووضعوا أسلحتهم على أبواب الحوانيت كافة إشعارا لأصحابها من الحلاقين والخياطين والقهوجية بأنهم شركاؤهم فى كسبهم اليومى فامتعض السوقة وأصحاب الحوانيت وشكوا من ذلك فدخل أغاة الأنكشارية ومر من وسط المدينة وخلفه بعض الصناجق المصريين وأمر بأسلحة الأنكشارية فرفعوها عن أبواب الحوانيت كافة إلا القهاوى فشكا أصحابها فلم يلتفت إليهم ودخل أيضا فى ذلك اليوم كثير من الجند والعسكر المصرى ومعهم محمد باشا المعروف بأبى مرق وهو المترشح للولاية على مصر من جانب السلطنة وسكن ببيت الهياتم بالقرب من مشهد الحنفى، واتفق فى يوم دخوله أن أحد العساكر السلطانية من الأرنؤد كان بالجمالية فمر به عرقسوسى فشرب منه قدحا ولم يعطه ثمنه فكلم العرقسوسى فى ذلك مقدم قلق الأنكشارية المرابطين بالجمالية فأحضر ذلك الجندى وأمره بدفع ثمن ما شربه فامتنع فنهره وأراد ضربه فأخرج الجندى غدارته وأطلقها على مقدم القلق فقتله وهرب إلى حارة الجوانية ودخل إلى إحدى الدور وامتنع فيها وصار يطلق غدارته على كل من يقصده فقتل خمسة من الجند واتفق أن مر اثنان من الأرنؤد بتلك الخطة فقام عليهما نفر من الأنكشارية وقتلوهما انتقاما ولما أعياهم أمر ذلك القاتل وتعذر عليهم ضبطه أحرقوا عليه الدار التى امتنع فيها فخرج هاربا من النار فقبضوا عليه وقتلوه شر قتلة واشتد الخوف بأهل تلك الخطة فترك أكثرهم دورهم بما فيها وخرجوا على وجوههم ولم تكد تسكن الخواطر بسكون هذا الحادث حتى وقع آخر على مقربة من الخطة المذكورة فاشتد خوف الناس وتبدل فرحهم بخروج الفرنسيس حزنا وأسفا.

مطلب

جلاء الجيوش الفرنساوية عن مصر والقاهرة وسائر الديار المصرية

وخرج طوائف الفرنسيس فى يوم الأربعاء رابع ربيع الأول من السنة أى سنة ست عشرة ومائتين وألف هجرية وأخلوا قصر العينى والروضة والجيزة وانحدروا إلى الشمال من الوراريق وارتحل معهم أمير السفن العثمانية وعدد من الإنجليز وجماعة كثيرة من الأرنؤد وعثمان بيك الأشقر ومراد بيك الصغير وأحمد بيك الكيلارجى وأحمد بيك حسن من الأمراء المصريين يريدون الإسكندرية لعرض الصلح أيضاً على الجنرال منو قائد الجيوش الفرنساوية فلما وصلوا إلى الإسكندرية كلموه فى أمر الصلح وعرضوا عليه شروطه التى وقع الاتفاق عليها فلم يقبل بها وأبى إلا القتال فقاتلوه وحاصروا الإسكندرية وشددوا فى حصارها فكان العربان يدخلون إلى الفرنسيس بالمؤن وغيرها من طريق مجهول واشتد القتال بين الفريقين وتراسل رمى القنابل وكان الإنجليز والعثمانيون يهجمون فى كل يوم فلم ينالوا من الفرنسيس وطال الحرب وسئمت أنفس المقاتلين فخاف الإنجليز والعثمانيون سوء العاقبة فصمموا على الهجوم وهجموا على متاريس الفرنسيس هجمة رجل واحد فقتل العدد العديد من جيوش حسين باشا أمير السفن العثمانية وكذلك قتل من الإنجليز جماعة كثيرة وانجلت الواقعة عن جلاء الفرنسيس عن بعض متاريس ناحية العجمى فملكها الإنجليز وعساكر المسلمين وقتل من الفرنسيس عدد ليس بقليل وكذلك من الأمراء والصناجق المصريين ومازالوا على هذا الحال والحرب قائمة والقتال لا ينفك حتى جاءت إلى الجنرال منو رسل بونابارته بالإذعان إلى الصلح والجلاء عن الإسكندرية فأجلوا عنها بشروط غاية فى الفخر وعزة النفس ونزلوا على ظهور السفن التى أتى لهم بها أمير الدوارع الإنجليزية وساروا إلى أوطانهم فى العشرة الأواخر من جمادى الأولى من السنة أى سنة ست عشرة ومائتين وألف هجرية فكانت مدة لبث الجنرال منو بمدينة الإسكندرية فى الحصار والقتال بعد خروج الفرنسيس جميعا ونزولهم بأبى قير وقيامهم إلى أوطانهم شهرين وبضعة أيام لم يعتبر جماعة الكتاب هذه المدة فى مدة تصرفهم فى البلاد بل عدتها أيام حصر وقتال ليس إلا وقالوا إن مدة إقامتهم وتسلطهم لغاية جلائهم وخروجهم من القلاع هى ثلاث سنوات وأحد عشر يوما حيث نزلوا على انبابة والجيزة وغلبوا طوائف المماليك فى يوم السبت تاسع صفر سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف هجرية وكان انتقالهم وخروجهم من القلاع وجلاؤهم عن المدينة وانخلاعهم عن التصرف والحكم ليلة

الجمعة الحادى والعشرين من صفر سنة ست عشر ومائتين وألف هجرية فسبحان من بيده الملك يؤتيه من يشاء من عباده.

* * *

(فصل)

(فى بقية مدة سلطنة السلطان سليم

وما فيها من الحوادث والأخبار)

لما تم جلاء الفرنسيس عن القاهرة ومصر دخل الوزير يوسف باشا إلى القاهرة يوم الخميس خامس ربيع الأول فى موكب حافل للغاية وكان دخوله من باب النصر ومر من وسط المدينة وأمامه الجند المختلف من أرنؤد وانكشارية وشامية والأمراء المصريين والمغاربة والقليونجية وطاهر باشا أمير العسكر الأرنؤد وإبراهيم باشا والى حلب ومحمد باشا أبو مرق والى مصر والكتبة ورئيس الكتاب وكتخدا الدولة وغيرهم من الخدم والحشم والأتباع وقاضى القضاة والنواب والعلماء المصريين ومشايخ التكايا والدراويش وأمامه الملازمون بالبراقع والجاويشية والسعاة والجوخدارية وخلفه اثنان على يمينه ويساره ينثرون دراهم الفضة على رءوس الناس بالطريق ثم النوبة التركية وبعض المدافع وعربات الذخيرة وكانت الحصون والقلاع جميعها تطلق المدافع تباعا ومازال حتى نزل ببيت رشوان بيك بحارة عابدين، فلما استقر به المقام جعل يتصرف فى الأمور ورسم بأن لا تدفع الأموال والعشور للملتزمين إلا بمرسوم منه واهتم بترتيب ديوان الأعشار والمكوس وبالغ فى ذلك فانقبض الناس وأخذتهم الطيرة من فعاله ولم يلبث حتى طلب قرضة من التجار قدرها مائة كيس وعشرة أكياس فاعتذروا فلم يقبل فاجتمع أصاغرهم عند بيته وصاحوا واستغاثوا ونادوا أرحمنا يرحمك الله فرسم برفعها عنهم وتكليف أهل الميسرة منهم بها فدفعوها وهم صاغرون وشدد فى تحصيل العشور فبلغ ما تحصل منه فى بضعة أيام ستة عشر ألف كيس ولم يكن بأسرع من أن عمد العسكر على اختلاف أجناسهم إلى العسف والجور والاختلاط بالسوقة.

قال صاحب عجائب الآثار وكثر اشتغال طائفة العسكر بالبيع والشراء فى أصناف المأكولات وتسلطوا على الناس بطلب الكلف ورتبوا على السوقة وأرباب

الحوانيت دراهم يأخذونها منهم فى كل يوم ويأخذون من المخابز الخبز بغير ثمن وكذلك يشربون القهوة من القهاوى ويحتكرون ما يريدون من الأصناف ويبيعونها بأغلى الأثمان ولا يسرى عليهم حكم المحتسب وكذلك تسلطوا على الناس بالإيذاء لأدنى سبب وتعرضوا للسكان فى منازلهم فيأتى منهم أناس ويدخلون الدار ويأمرون أهلها بالخروج منها ليسكنوها فإن لاطفهم الساكن وأعطاهم دراهم ذهبوا عنه وتركوه وإن عاند سبوه وضربوه ولو عظيما وإن شكا إلى كبيرهم قوبل بالتبكيت ويقال له ألا تفسحون لإخوانكم المجاهدين الذين حاربوا عنكم وأنقذوكم من الكفار الذين كانوا يسومونكم سوء العذاب ويأخذون أموالكم ويفجرون بنسائكم وينهبون بيوتكم وهم ضيوفكم أياما قليلة قال فما يسع المسكين إلا أن يكفلهم بما قدر عليه وإن أسعفته العناية وانصرفوا عنه بأى وجه فيأتى إليه خلافهم وإن سكنوا دارا أخربوها قال وأما القلقات والأنكشارية الذين تقيدوا بحارات النصارى فإنهم كلفوهم أضعاف ما كلفوا به المسلمين فكانوا يطلبون منهم بعد كلف المأكل واللوازم مصروف الجيب وأجرة الحمام وغير ذلك وتسلط عليهم المسلمون بالدعاوى والشكاوى على أيدى أولئك القلقات فكانوا يتخلصون منهم بما لزمهم بأدنى شبهة ولا يعطون المدعى إلا القليل من ذلك والمدعى يكتفى بما حصل له من التشفى والظفر بعدوه قال إذا تداعى شخص على شخص أو امرأة على زوجها ذهب معهم أتباع القلق إلى المحكمة إن كانت الدعوة شرعية فإذا تمت الدعوة وأخذ القاضى محصوله يأخذ مثله أتباع القلق على قدر تحمل الدعوة.

قال وعاد يوسف باشا فأطلق للملتزمين التصرف فى سنة خمس عشرة ليقضوا ما لهم وما عليهم من البواقى ومال الميرى والمضاف ويدفعوا جميع ذلك إلى الخزينة بأوراق مختومة من إبراهيم بيك وعثمان بيك والقصد من ذلك اطمئنانهم بالجباية والرجاء بالتصرف فى المستقبل ووعدهم بذلك سنة تاريخه بعد دفعهم الحلوان مع أن الفرنساوية لما استقر أمرهم بمصر ونظروا فى الأموال الميرية والخراج وجدوا ولاة الأمور يقبضون سنة معجلة ونظروا فى الدفاتر القديمة واطلعوا على العوائد السالفة ورأوا أن ذلك كان يقبض أثلاثا مع المراعاة فى رى الأراضى وعدمه فاختاروا الأصلح فى أسباب العمارة وقالوا ليس من الإنصاف المطالبة بالخراج قبل الزراعة بسنة وأهملوا وتركوا سنة خمس عشرة فلم يطالبوا الملتزمين بالأموال الأميرية ولا الفلاحين بالخراج فتنفس الفلاحون وتراجعت أرواحهم مع عدم تكليفهم كثرة المغارم

والكلف وحق طرق المعينين ونحو ذلك، انتهى.

وأخذ يوسف باشا الصدر الأعظم فى تدبير الأمور كما يشاء فقسم الوظائف العالية والرتب السامية على من كان يتوسم فيهم سمة الطاعة والإخلاص وخلع محمد باشا أبوم رق عامل الدولة على مصر وولى مكانه محمد خسروا باشا وهو كتخدا حسين باشا أمير السفن الذى كان حضر لقتال مراد بيك وإبراهيم بيك الكبير قبل قدوم الفرنسيس لمصر فكانت ولاية أبى مرق المذكور قصيرة جدا ولم يكن له فيها من الحكم سوى الاسم فقط وجعل يعمل الحيلة على الفتك بجميع الأمراء المصريين وقطع شأفتهم من مصر وعمل ديوانا وجمع إليه جميع أولئك الأمراء والصناجق والأعيان على اختلافهم وأوهم أنه إنما يريد المفاوضة معهم فى شئون البلاد ومصالح الرعية فلما تكاملوا أمر فقبضوا فى الحال على إبراهيم بيك الكبير وبقية الأمراء والصناجق وأصعدوهم إلى قلعة الجبل ووضعوهم بسجن هناك فانزعج من حضر بالديوان وتفرقوا وهم لا يصدقون بالنجاة وسير خلف محمد بيك الألفى بالصعيد طائفة من الجند ليقتلوه وكان قد عاث وعبث بالصعيد وأهلك الحرث والنسل وصادر الأغنياء والفقراء حتى المشايخ والعلماء وأخذ ما فى بيت المال والأوقاف وكل ما وصلت إليه يده وسير جماعة آخرين للقبض على سليم أبى دياب وكان مقيما بالمنيل فلما علم بالخبر طلب الفرار وترك متاعه وأثقاله ووصل إليه الجند فلم يجدوه فنهبوا القرية وأخذوا جميع ما كان له فيها وتبعوه فلحقوا به ناحية طرا فقاتلهم وقاتلوه ومات خلق كثير من الفريقين ثم هرب فى نفر قليل جدا إلى الصعيد من طريق الجبل وأقام طوائف الأرنؤد بالأخطاط وخارج المدينة يقبضون على من يصادفونه من المماليك والأجناد ونودى فى ذلك اليوم على الرعية بالأمان وملازمة السكون وأحاط العسكر بالأمراء المعتقلين واختفى من بقى منهم فنادوا بالتوعد لمن أخفاهم أو آواهم وكان لم يزل بالجيزة فريق من العساكر الإنجليزية مخيم بها فذهب إليهم سليم بيك أبو دياب واستغاث بمقدمهم هتشنسون فأغاثه وأمنه وكلم يوسف باشا فى أمره.

وبينما كان يوسف باشا يعمل على إبادة من بقى من المماليك والصناجق الذين بمصر والقاهرة وغيرهما من البلدان كان حسين باشا أمير السفن يدبر الحيلة أيضا للقبض على من كان عنده بأبى قير من أولئك القوم فأحسوا بذلك وأوجسوا منه خيفة فكانوا لا يذهبون إليه إذا دعاهم إلا وهم حاملون أسلحتهم ومعهم العدد

الكثير من المماليك والأتباع تخفرهم فكان يبش عند لقائهم ويظهر لهم الرفق والملاطفة ويستميلهم بزخزف القول إلى أن دعاهم يوما إلى ظهر سفينته لمأدبة أعدها لهم فذهبوا إليه بسلاحهم ومماليكهم على عادتهم فقابلهم بالترحاب وبالغ فى تعظيمهم فلما تكامل عددهم جاء إليه أحد أتباعه وأخبره بورود ساع من مصر ومعه مكاتيب من الصدر الأعظم فقام ليرى ذلك فما هو إلا أن حضر إلى المجلس أحد مقدمى عسكر السفينة وأعلمهم بأنه قد ورد مرسوم سلطانى فى تلك الساعة باستدعائهم إلى دار السلطنة ثم أمرهم بنزع سلاحهم عنهم فقام فى الحال محمد بيك المنفوخ وسل سيفه وضربه فقتله فما وسع بقية الأمراء إلا أنهم فعلوا كذلك فقام عليهم من بالسفينة من العسكر واشتبك القتال بين الفريقين فقتل أكثر الأمراء المصريين وقبضوا على من بقى منهم وأنزلوهم إلى بعض السفن إلا من فروا مجروحين وهم فى أسوإ حال وذهبوا إلى معسكر الإنجليز ملتجئين وكانوا لما أحسوا بعزم حسين باشا على اغتيالهم شكوا ذلك إلى مقدم الجيوش الإنجليزية ورغبوا إليه أن يذب عنهم ويقوم لنصرتهم فأمنهم ووعدهم وطيب خواطرهم فلما ذهب إليه من نجا منهم من القتل وأخبروه بما فعل حسين باشا غضب جدا وانحاز بعسكره إلى مدينة الإسكندرية وطردوا من كانوا بها من العثمانيين وأغلقوا أبواب الأبراج وأحاط منهم طائفة كبيرة بالبنادق والمدافع بحسن باشا براً وبحراً وطلب الإنجليز بروزه بعسكره لحربهم فلم يرض وقال لم يكن قط بيننا ما يدعوا إلى ذلك فحضر إليه قائد الإنجليز وتكلم معه طويلاً وصمم على أخذ من بقى من الأمراء المعتقلين فأطلقهم فأخذهم قائد الإنجليز وأخذ جثث الأموات منهم ونقل مرضاهم إلى الإسكندرية وبات وأصبح فأخرج الأموات فى مشهد حافل وسارت أمامهم طوائف الإنجليز فى أبهة عظيمة وأرسل إلى قائد جيوش الجيزة يعلمه بما وقع ويطلب منه إلزام يوسف باشا بتسليم من عنده من الأمراء المعتقلين فطالب القائد يوسف باشا بمن عنده من الأمراء وألح فى الطلب فطاول وراوغ واستعمل الخداع واستدعاه إليه وخلع عليه خلعة سمور عظيمة وشللنج من الجوهر يوضع على مقدمة الرأس ثم حمل المعتقلين كافة على تحرير كتاب إلى القائد المذكور يقولون فيه أنهم أتباع السلطان وتحت طاعته إن شاء أبقاهم فى إماراتهم وإن شاء قلدهم المناصب العالية فى ولايات مملكته السلطانية وإن شاء طلبهم يذهبون إليه ولا دخل للأنجليز فيما جرى عليهم من خير أو شر فأرسل القائد إلى يوسف باشا يقول لاعبرة بهذا الخطاب فإن القوم مسجونون

محجور عليهم فى جميع تصرفاتهم لايعملون إلا ماشاء الوزير وأعوانه فأرسلوهم إلينا لنخاطبهم ونعلم ما فى خواطرهم فلما كانت ليلة الإثنين تاسع رجب أحضر الصدر إبراهيم بيك ولاطفه وسايره وكلمه مع بقية الأمراء المعتقلين وأعلمه بأن سيرسله مع من هم معه إلى قائد الجيوش الإنجليزية بالجيزة فيقضوا يومهم هناك ويخبروا القائد بأنهم فى راحة وأنهم طائعون لسلطانهم وخاضعون لكلمته وأن الخطاب الذى بعثوا به هو عن طيب خاطر منهم ولا إكراه لهم على تحريره فأظهر إبراهيم بيك عدم الرغبة فى الذهاب وبالغ فى التمنع وقال كيف نتوجه إليهم وهم أعداء لنا ولديننا وكيف نذهب إليهم على هذه الصورة فألح عليه الوزير وحالفه وحالف بقية الأمراء على سرعة العودة ومناهم بالأمانى الطويلة فلما كان صبح يوم الإثنين نزلوا جميعهم من قلعة الجبل وعبروا النيل إلى الجيزة فتبعهم مماليكهم وأتباعهم وأخصاؤهم وأقاموا بالجيزة ولم يعودوا إلى الوزيرفلبث الوزير ينتظرهم خمسة أيام وأرسل إليهم يدعوهم إلى الرجوع حسب عهدهم فامتنعوا وجاهر إبراهيم بيك بالعداوة ورمى الوزير بسوء النية وخبث الطوية فلما لم يرجعوا أمر الوزير فانعقد الديوان ببيت الشيخ السادات واجتمع فيه جميع المشايخ والوجهاء وأصحاب المناصب العالية وتكلموا فيما جرى من إبراهيم بيك ومخالفته للعهد وإصراره على عدم الرجوع وكتبوا له خطابا بذلك وضمنوه النصيحة ووجوب الطاعة فأجاب هو ومن معه بأنهم مطيعون وأنهم لم يجنحوا للبقاء عند الإنجليز إلا خوفا مما يحل بهم كما حل بإخوانهم بالإسكندية وهم الآن فى حمى أحب الدول للخليفة الأعظم وأقربهم لمودته ثم لبثوا بالجيزة أياما وخرجوا بعد ذلك إلى جزيرة الذهب ونصبوا بها خيامهم أياما أيضا وأخذوا ما قدروا عليه من سلاح وكراع وركبوا ليلا وترفعوا إلى الصعيد من جانب النيل الغربى وتخلف عنهم بعضهم فلما علم الصدر بخبر مسيرهم إلى الصعيد اغتم غماً شديدا وأمر فنودى بالأمان على من بقى منهم أو تخلف عنهم إن هم أتوا إلى باب الوزير فلم يذهب إليه إلا بعض المماليك والأتباع الذين لا كسب لهم ولا عيش وانقطع خبرهم عن الناس فصرفهم.

ولما كان يوم السبت ثالث شوال سنة ست عشرة ومائتين وألف خرجت خيام الصدر الأعظم وأمتعته إلى قبة النصر وقد جاءه الأمر بالرجوع إلى دار السلطنة بمن معه من العساكر والأجناد ونادوا بخروج جميع العساكر وجلائهم عن مصر والقاهرة وبقية المدن والقرى والأرياف فى مدة ثلاثة أيام آخرها يوم الإثنين فأخذوا فى الجلاء

بأحمالهم وأثقالهم ودوابهم وفى يوم الإثنين خامس شوال المذكور خرج يوسف باشا إلى قبة النصر وتتابع خروج الأثقال والعساكر وطوائف الجند فجعلوا عند خروجهم يعربدون ويخطفون أشياء الباعة فى الأسواق وكتب الوزير فى يوم خروجه أوراقا تتضمن كف الناس عن الشر والخلود إلى السكينة ورفع قصصهم إلى باب محمد باشا عامل السلطان على البلاد وأن يحافظوا على زيهم وقوانينهم القديمة ويلازموا على الصلوات بالجماعة فى المساجد ويوقدون القناديل ليلا على البيوت والمساجد والوكائل والخانات التى بالشوارع ولايمر أحد من الجند والعسكر بعد الغروب وكذلك الأهالى إلا من كان معه فانوس أو سراج ويبيعون ويشترون بلا قيد ولا تقييد وأن لا يخفى أحد عنده عسكرا من العثمانيين وأن لا يبقى منهم بعد جلاء الوزير أحد بمصر والقاهرة ومن وجد منهم متخلفا بغير مرسوم فى يده عوقب بأشد العقاب وأن تبطل جميع القهاوى المحدثة ولا يبقى منها إلا ماكان قديم العهد ولا يبيت أحد من العساكر فى قهوة ولا يبيعون المسكرات وغير ذلك الأوامر والنواهى ثم ركب الصدر من قبة النصر فى يوم السبت عاشر شوال وقد سلم مقاليد الأمور إلى محمد باشا الوالى وسار إلى الخانكاه وسار معه جميع العساكر فوصلوا إلى بلبيس وأقاموا بها أياما قلائل ثم ساروا منها إلى طريق الشام.

واستقر بمحمد باشا منصب الولاية فجعل يتصرف فى الأمور وبالغ فى التدبير وضيق وشدد وأرهب وأخذ بالشبهات وأكثر من العيون والأرصاد فتزاحم على بابه أهل السعاية وتقرب إليه أهل الوشاية فأكثر من القتل والصلب والتحريق وزاد فى المغارم والمكوس وأحدث الإحداثات والبدع فخافه الناس جدا وانكمش من كان يظنه فى بادئ الأمر شيئا هينا وقد تتبع الأعيان وأصحاب المظاهر بالمدن والبلدان فأفنى منهم خلقا وطلب الأمراء والمماليك بمصر والقاهرة فاختفوا وتفرقوا فى الجهات وسير طائفة كبيرة من العسكر خلف إبراهيم بيك الكبير ومن معه للقبض عليهم وأكثر من التخفى والتجسس والتطواف بغير زيه لكشف العورات وأقام على الإسكندرية حاكما اسمه خورشيد بيك وقيده بأخذ قلاعها وحصونها من جماعة الإنجليز النازلين بها فسار إليهم وكلم مقدم الإنجليز فى ذلك فجعل يماطل ويكثر من التسويف والتعليل أياما كثيرة حتى جاءهم الأمر من كبير السياسة الإنجليزية بلندن عاصمة بلادهم بالجلاء عن مصر فعبر مقدمهم وبعض قوادهم من انبابه إلى مصر القديمة فتهيأ الباشا لملاقاتهم واصطف الجند عند بيته ووصل الإنجليز إلى الأزبكية فقابلهم الباشا

وأحسن لقاءهم وخلع عليهم وقدم لهم خيلا وهدايا نفيسة وأطلقوا عند ذلك مدافع كثيرة فلما كان يوم الإثنين ثامن المحرم افتتاح سنة سبع عشرة أخلى الإنحليز القلاع التى بالإسكندرية والحصون وعبر محمد باشا النيل إلى انبابه ومعه طاهر باشا مقدم الجند الأرنؤد ونحو الخمسين من أتباعه فقابله مقدم الجيوش الإنجليزية بأحسن استقبال وقدم له بعض التقادم والهدايا ثم أخذ الإنجليز فى الجلاء فعبر فريق منهم إلى القاهرة وخيم بجزيرة بدران أياماً ثم ساروا منها إلى مدينة السويس وسار فريق آخر إلى القصير على السفن العظيمة وخلت الجيزة منهم فى يوم الإثنين ثانى عشرى المحرم من السنة فتسلمها منهم نائب أمير السفن العثمانية ونزل بالقصر وأنزلوا بها بعض العساكر والأجناد المصرية وبقى بالإسكندرية طائفة من الإنجليز بغير أجل محدود.

وجاءت الأخبار بلقاء الجنود السلطانية الذين سيرهم محمد باشا إلى الصعيد الأعلى بعساكر إبراهيم بيك الكبير فوقع بين الفريقين قتال شديد للغاية أياما ثم انجلى عن هزيمة العساكر السلطانية وانخذالهم فقتل منهم جماعة كثيرة وتقوى المصريون بهذه النصرة العظيمة واشتدت ظهورهم وكان مقدم المصريين فى هذه الوقعة الألفى وقد لحق بهم جماعة من الفرنسيس ممن تخلفوا بمصر واجتمع إليهم أيضا عدة كبيرة من العساكر العثمانية طمعا فى بذلهم فاشتد الخطب على العثمانين وأرسلوا يطلبون المدد فاهتم بذلك محمد باشا ورسم بخروج طاهر باشا بعسكره فبرز إلى البساتين وعبر النيل وعسكر بالجانب الغربى من النيل وتبعته العساكر والأجناد بالذخيرة وآلات الحرب وكثرت عربدة الأمراء المصريين بالصعيد واجتمع إليهم العدد العديد من الهوارة وغوغاء الحرف والعربان وزحفوا حتى وصلوا إلى غربى أسيوط وخافهم العساكر العثمانية وداخلهم الرعب منهم وتحصن كل فريق فى مقره ولم تفعل خمرة النصر بإبراهيم بيك والألفى وأصحابهما ما تفعله بجهلاء المحاربين ولم تقعدهما عن استعمال الحيلة فى طلب الصلح فكتبوا إلى محمد باشا خطابا يشكون فيه مما أصابهم ويتوجعون مما لحقهم من الضيق وأنهم فى طاعة الله وطاعة السلطان ولم يكونوا ليتوقعوا هذا التبعيد والتشريد والقتل وماهم فيه من سوء المعاملة وقد خاطروا بأرواحهم فى خدمة الدولة وقاتلوا مع العثمانيين وأبلوا مع الفرنسيس بلاء حسنا وماهم إلا أنهم يرغبون فى إحدى خصال ثلاث إما أن يعطى لهم بلاد يقيمون بها بعيدين عن كل مظنة وريبة وإما أن ترسل إليهم نساؤهم ويبعث

إليهم بعض السفن ليركبوها من القصير إلى جدة فيقيمون بها أو يقيمون بالحجاز وإما أن تعين لهم نقطة يتربصون بها قدر خمسة أشهر حتى يرفعوا أمرهم إلى دار السلطنة ويأتيهم الجواب فلما جاء هذا الخطاب إلى محمد باشا جمع العلماء والمشايخ وبعض الوجهاء وتشاوروا فى الأمر فاتحدت كلمتهم على أن يكتبوا بتأمين جميع الأمراء والصناجق الذين بالصعيد ويأذنوا لهم بالرجوع إلى القاهرة ولهم ما لإخوانهم وأقرانهم وعليهم ما عليهم ماعدا إبراهيم بيك والألفى والبرديسى وأبى دياب فإنهم يبقون تحت الحجر حتى يخابروا فى شأنهم الباب العالى ويأتى الجواب وأرسلوا بذلك إلى إبراهيم بيك والألفى فلم يقبلوا بانفصال أصحابهم عنهم وترفعوا إلى الصعيد الأعلى وانتظروا ما سيكون، ولبث طاهر باشا مخيماً بعسكره فى الجانب الغربى من النيل لايبدى حراكاً وطال لبثه وثقل عليه مكثه وداخل جنده الملل وكاد يتولاهم الفشل ومحمد باشا فى شاغل عنهم بمصادرة الناس وأخذ أموال أهل الميسرة وتتبع أصحاب المظاهر بأضعف الشبهات فكان الرجل منهم لا يمضى عليه بياض يومه إلا وهو فى حساب ما سيكون فى سواد ليله ولا فرق بين القبطى والمسلم إذ كانوا عنده كلهم فريسة واحدة وأمر فقبضوا على ثلاثة من عظماء القبط وهم المعلم انطون أبو طقية والمعلم إبراهيم زيدان والمعلم عبد الله بركات معلم الديوان فقتلهم وأرسل الدفتردار فختم على دورهم وأملاكهم ونقلوا ما فيها إلى بيت الدفتردار ليباع فى المزاد فكان شيئاً عظيماً الغاية من أوانى لذهب والفضة والأقمشة الهندية النفيسة وغير ذلك مما يجل عن الوصف غير الجوارى والعبيد قيل واستمر سوق المزاد فى ذلك عدة أيام ولما طال الحال على طاهر باشا وجنوده رجع إلى القاهرة وسرح بعض الجند واختفى الخبر القائل بتسيير طاهر باشا وجنوده لقتال إبراهيم بيك ومن معه.

وبينما كان محمد باشا يسوم أهل مصر والقاهرة الخسف ويذيقهم مر العذاب كان نائبه على الإسكندرية يكثر من الإحداثات والمظالم والمكوس والمغارم ويضرب على أهلها الضرائب الفادحة وكانت عساكره تفسد فى الأرض وتهلك الحرث والنسل وتتعرض للناس على ما قيل فى أعراضهم فعظم الخلل واستفحل أمره وشكى الناس حالهم لمقدم الإنجليز النازلين بالإسكندرية واستغاثوا به فكلم خورشيد بيك فى أمرهم وقبح ما يفعله الجند بالرعية وحذره سوء العاقبة وطاوله أياماً فاتفق أن جماعة من أولئك العسكر هموا بالقبض على امرأة فاستغاثت بنفر من الإنجليز

فى طريقها فمنعوها منهم فتضاربوا وانتصر كل فريق لصاحبه واشتد القتال بينهم فقتل اثنان من الإنجليز وهرب العثمانيون فنزل فى الحال مقدم الجيوش الإنجليزية وجمع عساكره وزحف بهم إلى القلعة وأرسل إلى خورشيد بيك بأن أخرج من القلعة إلى خارج البلد للقتال فامتنع من ذلك فأمره بترك القلعة والتخلى عنها فلاطفه وماطله فأنزله قهراً وأسكنه فى داره فى البلد ومنع العساكر السلطانية من حمل السلاح وشدد فى مراقبتهم والحجر عليهم وتتبعهم أينما ساروا فسكنت خواطر الرعية واطمأنت قلوبهم بعد الخوف ومالوا إلى محبة الإنجليز وتمنوا لو أنهم يملكون البلاد وأظهروا للعثمانيين عين المقت والقلى وزالت هيبة خورشيد أو كادت.

وكان محمد باشا منذ ولى الولاية على مصر مولعاً بجمع عسكر وترتيبهم على نظام عسكر الفرنسيس فجمع خلقاً كثيراً ممن جاء إلى مصر من الأكراد يريد الخروج مع الحج وألبسهم ألبسة الجوخ الأحمر الضيقة القصيرة وأزناطاً قصيرة من الجوخ الأزرق وطراطير من صوف أحمر على أشكال ملابس الفرنسيس وقيد بتنظيمهم وتعليمهم نفراً من كبار الفرنسيس الذين تخلفوا عن الجلاء وكذلك ألبس عدة وافرة من العبيد السود الذين اغتصبهم من ساداتهم وجمع جميع المماليك الذين للأمراء بمصر والقاهرة وبعض البلدان وألبسهم الملابس الفاخرة وأركبهم جياد الخيل وقيد بهم من الفرنسيس من يعلمهم الفروسية واستعمال السلاح وسماهم بالنظام الجديد واهتم بأمرهم اهتماماً زائداً وشرع فى إنشاء عمارة عظيمة على مقربة من مقره لسكنى أولئك العسكر سماها قشلاق النظام واهتم بهذا القشلاق اهتماماً عظيماً فكان يجلس بنفسه لملاحظة البنائين والنجارين وأصحاب الصنائع وقد ضرب خيمة لجلوسه فى كل يوم من الصباح إلى غروب الشمس.

قال صاحب عجائب الآثار وضرب الباشا خيمة عند بيته بقرب الهدم يجلس فيها حصة كل يوم لمباشرة العمل وربما باشره بنفسه ونقل بعض الأنقاض فلما عاينه الأغاوات والجوخدارية بادروا إلى الشيل ونقل التراب بالغلفان فلما أشبع ذلك حضر طاهر باشا وأعيان العساكر فنقلوا أيضاً وطلبوا المساعدة وحضر طائفة من ناحية الرميلة وعرب اليسار ومعهم طبول وزمور فسأل عن ذلك فقال له المحتسب إن هؤلاء من طوائفى حضروا للمساعدة فشكرهم على ذلك وأمرهم بالذهاب فبقى منهم طائفة وأخذوا فى شيل التراب بالأغلاق ساعة والطبول تضرب لهم فانسر الباشا من ذلك وحسن القرناء للباشا المساعدة وأن الناس تحب ذلك فرتبوا ذلك وأحضروا

قوائم أرباب الحرف التى كتبت أيام فرض الفرنسيس ونبهوا عليهم بالحضور قال فأول ما بدءوا بالنصارى الأقباط فحضروا ويقدمهم رؤساؤهم جرجس الجوهرى وواصف وفلتاؤس ومعهم طبول وزمور وأحضر لهم أيضاً مهتار باشا النوبة التركية وأنواع الآلات والمغنين حتى البرامكة بالرباب فاشتغلوا نحو ثلاث ساعات وفى ثانى يوم حضر منهم أيضاً كذلك طائفة قال ولما انقضت طوائف الأقباط حضر النصارى الشوام والأروام ثم طلبوا أرباب الحرف من المسلمين فكان يجتمع الطائفتان والثلاثة ويحضرون معهم عدة من الفعلة يستأجرونهم ويحضرون إلى العمل ويتقدمهم الطبول والزمور والمجرية وذلك خلاف ما رتبه مهتار باشا فيصير بذلك ضجة عظيمة مختلفة من نوبات تركية وطبول شامية ونقاقير كشوفية ودبادب حربية وآلات موسيقية وطبلات بلدية وربابات برمكية قال كل ذلك فى الشمس والغبار والعفار وزادوا فى الطنبور نغمة وهى أنهم بعد أن يفرغوا من الشغل ويأذنوا لهم فى الذهاب يلزمونهم بدراهم يقبضها مهتار باشا برسم البقشيش إلى أولئك الطبالين والزمارين فيعطيهم النزر اليسير ويأخذ لنفسه الباقى وذلك بحسب رسمه واختياره فيأتى على الطائفة المائة قرش والخمسون قرشاً ونحو ذلك فيركب فى ثانى يوم ويذهب إلى خطتهم ويلزمهم بإحضار الذى قرره عليهم فيجمعونه من بعضهم ويدفعونه قال وإذا حضرت طائفة ولم تقدم بين يديها هدية أو جعالة طولوا عليهم المدة وأتعبوهم ونهروهم واستحثوهم فى الشغل ولو كانوا من ذوى الحرف المعتبرة كما وقع لتجار الغورية والحريرية وإذا قدموا بين أيديهم شيئاً خففوا عليهم وأكرموهم ومنعوا أعيانهم وشيوخهم من الشغل وأجلسوهم بخيمة مهتار باشا وأحضر لهم الآلات والمغانى فضربت بين أيديهم كما وقع ذلك لليهود قال واستمر العمل بقية الشهر الماضى إلى وقتنا هذا فاجتمع على الناس عشرة أشياء من الرذالة وهى السخرة والعونة وأجرة الفعلة والذل ومهنة العمل وتقطيع الثياب ودفع الدراهم وشماتة الأعداء من النصارى وتعطيل معاشهم وعاشرها أجرة الحمام. انتهى

واستفحل أمر الأمراء المصريين بالصعيد الأعلى وكبرت عصابتهم وظهرت كلمتهم واجتمعت إليهم طوائف كثيرة من الهوارة وأهالى الحوف الشرقى والغربى وقبائل العربان وقد تحصنوا عند الهوّ بسفح الجبل ولبثوا على هذا الحال أياماً فبرز رجل من العثمانيين موصوف بالشجاعة والإقدام اسمه أجدر وأخذ معه ألفاً من العساكر الموصوفة وسار إليهم يريد اغتيالهم فسبق العين إلى الأمراء وأخبرهم بخبر

الأجدر فلما توسط الأجدر وأصحابه سطح الجبل نظروا وإذا بالمصريين قد أقبلوا فى ثلاث فرق وأحاطوا بهم فأطلق العثمانيون بنادقهم طلقة واحدة ونظروا وإذا بهم فى وسطهم وتحت سيوف المصريين ففتكوا فيهم ولم ينج منهم إلا القليل وأخذ الأجدر أسيراً فلما أحضروا الأجدر بين يدى الألفى قال له ولأى شىء سميت بالأجدر فقال هو اسم للأفعى العظيمة وقد صرت الآن تحت ظل حماك فافعل ما أنت أهله قال بلى ولكنى أرى اسمك قد زاد إلى حد يوجب خلع أسنانك ثم أمر به فخلعوا أسنانه جميعها ثم قتلوه وزحف المصريون من الهو إلى بنى على ونزلوا عليها فنهبوا غلالها ومواشيها وقبضوا أموالها وكذلك الحوارشة وما جاور ذلك من البلاد فاضطرب الباشا وخشى العاقبة وأخذ فى إعداد المدد من الرجال والذخيرة وآلات الحرب وسيرها إلى الصعيد مع أحد الأمراء (وهو محمد على سرجشمه) أحد مقدمى العساكر السلطانية وأرسل إلى إبراهيم بيك الكبير مكاتبة بالأمان والعود إلى القاهرة والمقام بها لهم ما لإخوانهم وعليهم ما عليهم فلما وصل رسول الباشا بالمكاتبة أحسنوا لقاءه وفض الألفى المكاتبة وقرأها ثم التفت إلى الرسول فقال أما قولكم نذهب إلى دار الخلافة ونقابل السلطان كى ينعم علينا فهذا لا وجه له ولا نرضاه أبداً فإنه على تقدير أن فى نيته الإحسان فلم لا يحسن ونحن هنا فى بلاده وإحسانه لا يتقيد بحضورنا لديه أما طلب إخواننا إلى مصر فهم وشأنهم إن شاءوا أقاموا معنا على الرحب والسعة وإن شاءوا رجعوا إلى القاهرة وهم فى حل منا وأما قولكم أنكم تعطوننا أقطاعاً نعيش منه باسنا فهذا الإقطاع لا يكفينا فإن شاء أعطانا من أسيوط إلى الصعيد الأعلى وعلينا أن نقوم بخراجها وإلا فالأرض لله ونحن خلق الله نذهب حيث شئنا ونأكل من رزق الله ما يكفينا ومن أتى إلينا حاربناه حتى يكون من أمرنا وأمركم ما يكون فلما رجع الرسول بالجواب اغتم الباشا غماً شديداً وركب من ساعته وأسرع فى تجهيز الجند وتسييرهم فعبروا النيل من الآثار إلى الجانب الغربى فى عدة عظيمة وذخيرة وافرة وكان بعد انحدار رسول الباشا من معسكر المصريين أمر الألفى فكسروا قنطرة اللاهون وخيموا على مقربة منها وشرعوا فى قبض الأموال من بلاد الفيوم ومنع الوارد منها إلى مصر فخاف أهل الفيوم ورحل الكثير منها إلى القاهرة فكانوا ينامون بالأزقة والحارات رجالاً ونساء وأطفالاً ولا يجدون ما يقتاتون به فانزعج الباشا من هذا الحال واستعظمه وكان كلما سأل أحداً من الأمراء المصريين القيام مع الجند المسافرين اعتذر وطلب العفو أو أظهر عدم

الطاغة وخرج بعضهم خفية ولحق بالمصريين فلما تحقق الباشا ذلك زاد به القلق ورسم لطوائف العسكر أن يقيم منهم فريق بالقلاع التى على التلال ففعلوا ورفعوا عليها الأعلام العثمانية وأوقفوا الحراس على أبواب المدينة يمنعون من يخرج منها من الغز والكشاف أو من له علاقة مع المحاربين فكان من خرج من بولاق أو غيرها لا يخرج إلا بمرسوم من كتخدا الباشا وأمر الباشا بنهب بيوت المحاربين التى بالقاهرة ومصر فنهبوا ما فيها من فرش ومتاع وغيره وحملوه إلى بيته وتمكن إبراهيم بيك والألفى ومن معهما من جميع بلاد الفيوم فكانوا إذا دخلوا بلدة منها ورأوا من أهلها مقاومة أو عصيانا ركبوا عليها وقتلوا من فيها بحد السيف وأحرقوا دورها وسبوا نساءها فخضعت لهم جميع البلدان والقرى وأدوا لهم المغارم والفرض وأباحوا لهم أخذ الغلال والماشية وهم صاغرون.

وكان بمدينة الفيوم طائفة من الجنود السلطانية فلما رأو من كثرة المصريين وفعالهم بأهل البلد تترسوا فى مواقعهم وأقاموا ينتظرون المدد وزحفت طلائع المصريين إلى الجيزة وأخذوا منها الأموال والمغارم ووصلوا إلى وردان وسار منهم جماعة إلى ناحية الشرقية والمنصورة ومروا بحاكم الشرقية فلم يمنعهم وقد كانوا عدة قليلة فعلم الباشا بذلك وحقد عليه واستقدمه فحضر فأمر به فقتلوه ونهبوا داره وسبوا نساءه وعبر كتخدا الباشا النيل إلى إنبابه وعبر معه طوائف كثيرة من الجند ونصبوا خيامهم وجاء الخبر بوصول إبراهيم بيك ومن معه إلى الجسر الأسود فأقاموا به أياماً ثم ترفعوا إلى المنصورية وبشتيل فخرج طاهر باشا وعبر النيل أيضاً وعسكر بجنوده على مقربة من الورايق ثم ساروا وطائفة بعد طائفة وكان الأمراء المصريون قد نزلوا على مقربة من دمنهور فلاقتهم العساكر السلطانية وناوشتهم القتال وهم فى قلة والعثمانيون فى كثرة زائدة وكان مع جماعة المصريين بعض كبار جند الإنجليز جاءوا إليهم من الإسكندرية فلم يتأخر المصريون عن القتال وهجموا على فرسان العثمانيين هجمة الأسود وكان الإنجليز ينظرون إليهم نظرة المتعجب فهزموهم وولوا الأدبار وتركوا المشاة خلفهم فكر المصريون على المشاة أيضاً فألقوا أسلحتهم وطلبوا الأمان فساقوهم وأخذوا ما معهم من أسلحة ومدافع وذخيرة وغير ذلك وقد تمزق شمل من بقى من العساكر السلطانية وتفرقوا أشتاتاً وجاء الخبر بذلك إلى محمد باشا فانزعج وقد كانت وردت عليه أوامر دار السلطنة بسرعة إخراج إبراهيم بيك وأصحابه من الديار المصرية وإلا لحق به العطب فعمد إلى تجييش جيش آخر وبالغ

فى إتقانه وتنظيمه وعبر به النيل إلى إنبابه وانتقل طاهر باشا من انبابه بعساكره إلى الجيزة وتترس بها ووصلت المجاريح والمرضى من العثمانيين وأكثر الباشا من تحذير أعيان ومشايخ البلاد من مسالمة الأمراء المصريين أو التقرب إليهم وترفع فريق من الأمراء المذكورين راجعاً إلى الصعيد وذهب جماعة منهم أيضاً إلى دار السلطنة فى إحدى سفن الإنجليز لطلب عفو السلطان ونزل محمد بيك الألفى مع طوائف الإنجليز الذين كانوا بالإسكندرية يريد لندن عاصمة بلادهم إذ جاءهم الأمر بالجلاء تماماً عن الإسكندرية فرحلوا عنها فى يوم السبت حادى عشر ذى القعدة من السنة أى سنة سبع عشرة ومائتين وألف هجرية ورجعت جميع العساكر السلطانية الذين كانوا بالبحيرة إلى القاهرة ومصر وانتشروا فيها يطوفون فى الشوارع والحارات وطالبوا الباشا بجماكيهم المتأخرة وقد كان قطع عنهم رواتبهم وعلوفاتهم لفراغ الخزينة وبغضه لهم لجبنهم وهزيمتهم فى الحروب فصار كبارهم يطالبون الباشا والدفتردار وهما يماطلان ويطاولان فاجتمع العساكر حول بيت الدفتردار وصاحوا عليه وتهددوه وشاع قيامهم لنهب أمتعة الناس فنقل أهل الغورية وغيرهم بضائعهم من الحوانيت وقفلوها أياماً كثيرة وخافهم الناس وامتنعوا من الخروج إلى الأسواق بعد الغروب فكانوا إذا انفردوا بأحد عروه من ثيابه فإن مانعهم قتلوه وأكثروا من خطف النساء والغلمان.

قال صاحب عجائب الآثار ومر أربعة أشخاص من العساكر وأخذوا غلاماً لرجل حلاق بخط بين السورين عند القنطرة الجديدة فعارضهم الأوسطى الحلاق فى أخذ الغلام فضربوا الحلاق وقتلوه ثم ذهبوا بالغلام إلى دارهم بالخطة فقامت فى الناس ضجة وكرشة وحضر أغاة التبديل فطلبهم فكرنكوا بالدار وضربوا عليه البنادق من الطيقان فقتلوا من أتباعه ثمانية أنفار ولم يزالوا على ذلك إلى ثانى يوم فركب الباشا فى التبديل ومر من هناك وأمر بالقبض عليهم فنقبوا عليهم من خلف الدار وقبضوا عليهم بعد ما قتلوا وجرحوا آخرين فقتلوهم شنقاً ووجدوا بالدار مكاناً خراباً أخرجوا منه زيادة عن ستين امرأة مقتولة وبينهن من وجدوها وطفلها مذبوحاً معها فى حضنها اهـ.

واختل النظام من توالى هجمات الأمراء المصريين على البلاد وعبث الجنود السلطانية فيها وتجاوزهم الحدود فى القتل والنهب والتخريب والتعييب والفحش وغير ذلك فتطاولت أيدى العربان أيضاً إلى السلب ووقف كثير منهم فى طرق المارة

يسلبون ما معهم ويقتلون من يمانعهم حتى زال الأمن وعم الخوف وانقطعت الطرق حتى فى نواحى المدينة وطريق بولاق القاهرة وغيرها وعجز محمد باشا وظهر ضعفه ثم جهز طائفة من الوجاقلية وسيرهم لقتال العربان فاقتتل الفريقان قتلاً عنيفاً انجلى عن هزيمة الوجاقلية وتمزيق شملهم ثم ترفع العربان بعد هذه النصرة إلى البحيرة وعاد من بقى من الوجاقلية رخيموا بجهة العادلية وجاء من كانوا بالبحيرة من الأمراء المصريين إلى منية ابن خصيب وأرسلوا إلى حاكمها بأن يعبر النيل هو ومن معه من العساكر العثمانية إلى الجانب الشرقى لينزلوا بالمنية أياماً يقضون فيها أشغالهم ثم يرحلون عنها فأبى عليهم ذلك وأمر فحصنوا البلد وزادوا فى عمل المتاريس وأكثروا من المدافع وبينما هم على همتهم من التمنع والتحصين إذا أحاط بهم المصريون وقاتلوهم قتالاً عنيفاً أربعة أيام ليلاً ونهاراً حتى غلبوهم ودخلوا البلد عنوة وأعملوا فيها السيف وأحرقوا وخربوا وقتلوا خلقاً كثيراً جداً من أهلها وجميع من كان بها من العثمانيين وتركوا النار تعمل فيها حتى صارت رماداً وأخذوا ما فيها من الأموال والمتاع والماشية وغير ذلك وأتوا بحاكمها إلى إبراهيم بيك الكبير وقد كان من مماليك إبراهيم بيك وانفصل عنه ودخل فى خدمة الباشا فلما مثل بين يدى أستاذه وبخه وبناء على أمره ضربوه بالنبابيت ثم كبلوه فى الحديد وألقوه فى صومعة ورحل إبراهيم بيك وأصحابه عن منية ابن خصيب إلى الصعيد الأعلى وجاءت الأخبار إلى محمد باشا بما جرى فزاد به القلق وضاقت الدنيا فى وجهه وأرسل إلى محمد على سرجشمه يستحثه على قتال المصريين قبل أن يلحقوا بمدينة أسيوط فيفعلوا بها ما فعلوه بمنية ابن خصيب فاعتذر بخروج الجند عن طاعته بأسباب تأخير صرف جماكيهم وتهديدهم إياه بالقتل فألح عليه محمد باشا فبالغ فى الاعتذار وقد كان على عهد مع إبراهيم بيك وأصحابه.

فلما كان يوم الجمعة سابع المحرم افتتاح سنة ثمان عشرة ثار الجنود جميعاً وحضروا إلى بيت الدفتردار فاجتمع جماعة منهم بحوش الدار وقفلوا أبواب القيطون وأخرجوا من كان به من العسكر التابعين للدفتردار وصعد طائفة منهم فوقفوا بفسحة المكان الذى كان به الدفتردار ودخل عليه منهم أربعة فكلموه فى أمر صرف جماكيهم ورد جميع مرتباتهم فلاطفهم وقال إنه لم يجتمع عنده من المال سوى ستين ألف قرش فإما أن يأخذوها وإما أن يصبروا أياماً حتى يكمل لهم المطلوب فقالوا لابد من الصرف فكتب فى الحال إلى محمد باشا يطلب منه قرضة فأبى عليه ذلك وأرسل

يقول لا أريد هؤلاء الأوباش الهمج فى بلاد قد توليت حكمها فلا بد من خروجهم وارتحالهم عنها وإلا أعملت فيهم السيف وأفنيتهم عن آخرهم فأعاد إليه الرسول يقول أغثنى فإن الدار ملئت بالعساكر أعلى وأسفل فلما أخبرة الرسول بذلك غضب وأمر بالمدافع فأخذوا يطلقونها من قلعة الجبل على بيت الدفتردار وراسلوا الرمى بالقنابل فتساقطت على الدار تساقط المطر واشتعلت الدار بما فيها وتهدم أكثرها والعساكر لا ينفكون عنها واختفى الدفتردار تلك الليلة تحت درج البيت إلى الصباح ونهب العساكر ما فى الخزينة من الأموال وما فى الدار من فرش وبسط ومتاع ومر الوالى بالأسواق والشوارع ينادى فى الناس برفع متاعهم والمحافظة على أنفسهم والتحذر فخاف الناس وأغلقوا الحوانيت والدروب وزاد تطيرهم وتخيلوا هجوم العساكر ونهب المدينة وجميع الدور ونادى المنادى معاشر الناس وأولاد البلد كل من عنده سلاح فليتقلده ويحمله واجتمعوا على شيخ مشايخ الحارات ليذهب بكم إلى بيت الباشا وجاء الطلب بذلك أيضاً إلى تجار الغورية وتجار خان الخليلى وأهل طولون وشددوا فى الطلب وحذروا من التخلف فسار بعض الناس فقيدوهم بخفارة بيت الباشا وبيت ابن المحروقى المجاور له فباتوا ليلتهم تلك وحضر الوالى عشاء تلك الليلة وطاف على الناس يحضهم على القيام لنصرة الباشا على الخوارج من الجند والعسكر فاجتمع بعض الأوباش والغوغاء بالعصى والمساوق وتحزبوا أحزاباً وعملوا متاريس عند رأس الوراقين وجهة العقادين والمشهد الحسينى فلما دخل الليل بطل رمى القنابل من قلعة الجبل وأصبحوا وقد شرعوا فى الرمى فأطلق العسكر كذلك مدافعهم ووالوا الرمى على القلعة وتترسوا بجامع أزبك وبيت الدفتردار وبيت محمد على سرجشمة وكوم الشيخ سلامة وداخل الناس خوف عظيم من هذه الحادثة وبقىَ الحال على هذا الوصف ثلاثة أيام فلما كان يوم السبت رتب الباشا عساكره على طريقة الفرنسيس وخرجوا مشاة وركبانا ومروا حوالى البركة وانقسموا فرقتين فرقة أتت على رصيف الخشاب وفرقة على جهة باب الهواء ليأخذوا الأرنؤد بينهم فلما وصلت فرقة ناحية رصيف الخشاب قاتلوا الأرنؤد قتالاً شديداً فانهزم الأرنؤد من تلك الجهة وانحصروا جهة جامع أزبك فاشتبكوا فى القتال مع الفرقة الثانية وتحققوا الهزيمة والخذلان وكادوا يسقطون فى أيديهم فلما وصلت عساكر الباشا إلى بيت الدفتردار والمحروقى وبيت نساء الباشا اشتغلوا بالنهب وإخراج النساء وتركوا القتال وتقاسموا المنهوبات ففترت همة الفرقة الثانية من عساكر الباشا وانضموا فى الحال إلى النهابين من إخوانهم فتقوت بذلك عزائم الأرنؤد وكروا على من تبقى من عسكر الباشا فهزموهم وأخذوا مراكزهم وأجلوهم عنها وظهر طاهر باشا وركب إلى

الرميلة وتقدم إلى باب العزب فوجده مغلقاً فعالج الطاقات الصغار التى فى حائط باب العزب القريبة من الأرض المعدودة لرمى المدافع من أسفل ففتح بعضها ودخل منها بعض عسكره فتلاقوا مع الأرنؤد المحافظين داخل الباب فتحالفوا واتفقوا على أن يكونوا على قلب رجل واحد ثم صعدوا إلى القلعة فاتفقوا مع من بها من الأرنؤد ودخلوا على الخزندار وطلبوا منه مفاتيح القلعة فمانعهم فشددوا عليه وهموا بقتله فسلمهم المفاتيح ففتحوا الأبواب لطاهر باشا واعتقلوا الخزندار وأنزلوا من القلعة بعض المدافع والذخيرة إلى الأزبكية وتسلم القلعة طائفة منهم وتقيدت بخدمة المدافع فلم يشعر محمد باشا الوالى إلا والقنابل تتساقط على بيته من قلعة الجبل فهاله الأمر وأزعجه جداً وعلم بما جرى فسقط فى يده ونزل طاهر باشا من قلعة الجبل ومر من وسط المدينة وهو يقول بنفسه مع المنادى أمان واطمئنان افتحوا دكاكينكم وبيعوا واشتروا وما عليكم بأس وطاف يزور الأضرحة والمشايخ ورفع الناس المتاريس من الطرق وانكفوا عن التعرض للجند وأكثر الوالى من التطواف والنداء بالأمان والبيع والشراء فاطمأن الناس واستمر الحرب بين الفريقين يوم السبت واشتد ليلة الأحد طول الليل فما أصبح النهار حتى زحف الأرنؤد على جامع عثمان كتخدا وحارة النصارى وصعدوا التلال التى بناحية بولاق القاهرة وملكوا بولاق وهجموا على مناخ الجمال فقتلوا من به من العسكر وسارت طائفة منهم إلى قصر العينى وقبضوا على من به من عبيد الباشا ونهبوا بيت السيد أحمد المحروقى وأخرجوا منه النساء حاسرات وكذلك نهبوا بيت الباشا الملاصق له ونهبوا بيت المعلم جرجس الجوهرى وأخذوا ما فيه من النفائس والأمتعة الثمينة وأشعلوا النار ببيت الباشا فالتهمت الأخشاب والأسقف وسرت إلى جميع المساكن فركب الباشا فى مماليكه وخدمه ومعهم النساء والذرارى وخرج إلى جزيرة بدران وكان خروجه قبيل أذان العصر من يوم الأحد تاسع المحرم افتتاح سنة ثمان عشرة فخرج خلفه جماعة من الأرنؤد يريدون القبض عليه فكر عليهم وهزمهم مرتين أو ثلاثا.

مطلب

طرد محمد باشا من الولاية وتولية طاهر باشا

وسكنت الفتنة بخروج محمد باشا وجلائه عن القاهرة إلى العادلية وطاف الوالى والمحتسب وأغاة الانكشارية ينادون بالأمان وفتح الدكاكين والعود إلى البيع والشراء فكانت مدة ولاية محمد باشا المذكور على مصر سنة وثلاثة أشهر وأحد وعشرين يوماً.

وكان سيئ التدبير لا يحسن التصرف سفاكاً للدماء جافى الطبع قليل التروى يضع الأمور فى غير موضعها فيحسن على من لايستحق الإحسان ويبخل على من فى حاجة إلى القوت وكان فخوراً مختالاً سهل الانقياد لقرناء السوء كثير المظالم ولم يزل فى طريقه إلى أن نزل بقرب قليوب فى غروب يومه فاستراح وأسرى ليلاً إلى دجوة وأنزل الذرارى والمتاع فى بعض السفن إلى بنها العسل وقد تخلف عنه أكثر قومه واجتمع الأغا والوجاقلية ببيت القاضى وتشاوروا فى إقامة طاهر باشا نائباً عن الدولة حتى تأتيه الولاية أو يأتى وال آخر جديد فاتفقوا على ذلك وذهبوا إلى بيت طاهر باشا وألبسوه خلعة النيابة وحرروا محضراً بما وقع ورفعوه إلى دار السلطنة فلما استقر به المنصب وتصرف فى الأمور قبض على الكثير من الأمراء والأعيان وصادرهم ثم اعتقلهم وكاتب إبراهيم بيك الكبير وأصحابه وسألهم الاقتراب من مصر حتى يدبر لهم الأمر فى رجوعهم وسير طائفة من الجند لقتال محمد باشا الوالى المخلوع فساروا خلفه وهو يتنقل من ناحية إلى أخرى حتى نزل بالمنصورة فجبى خراجها وضرب على أهلها المغارم وقبض على من كان بها من أصحاب الجباية وأخذ الأموال منهم وكذلك فعل ببلاد الغربية ثم سار إلى دمياط وقد تخلف عنه جميع أعوانه فلم يبق معه إلا بعض الأتباع والنساء والذرارى وبسط طاهر باشا يده على جميع الأمور وضيق على أصحاب الميسرة من الوجاقلية والقبط وضرب على القبط غرامة قدرها خمسمائة كيس وخص بهذه الغرامة جماعة الكتاب ثم اعتقل جماعة منهم وكذلك فعل باليهود وقتل من أعاظم القبط والشوام خلقاً ونهب دوراً كثيرة وبالغ فى استرضاء الأرنؤد والتزلف إليهم فصرف لهم جماكيهم وأطلق علوفاتهم ورد عليهم الأرزاق اليومية وقرب إليه كبارهم وأصحاب الكلمة فيهم وكان بقلعة الظاهر بيبرس طائفة من الانكشارية جاءوا بأسلحتهم وآلات حربهم من دار السلطنة يريدون الأقطار الحجازية لقتال الوهابيين ومن معهم من الخوارج من أهل مكة والمدينة ونزلوا بالقلعة المذكورة على عهد محمد باشا المخلوع حتى تتم معداتهم فيرحلون عن طريق القلزم والقصير فحدثت الفتنة وظهر أمر طاهر باشا وأصحابه وانقطعت عنهم العلوفات وقلت المؤن وضاق عليهم الحال وكان معهم أحمد باشا والى المدينة فكلموه فى ذلك فطاولهم فذهب جماعة منهم إلى طاهر باشا وطالبوه بالجماكى والعلوفات فأبى عليهم ذلك فراجعوه فلم يلتفت إليهم فأضمروا له السوء.

مطلب

قتل طاهر باشا وتصرف أحمد باشا والى المدينة المنورة

فلما كان يوم الأربعاء رابع صفر من السنة ركب جماعة منهم بعددهم

وأسلحتهم وخلفهم بعض كبرائهم وذهبوا إلى طاهر باشا وسألوه صرف الجماكى فأعرض عنهم وقال ليس لكم عندى منها شيء إلا ما كان من يوم قبضي على زمام البلاد فقالوا حاشا أن يكون كذلك فقال اذهبوا إلى محمد باشا وطالبوه بما كان فى أيامه فألحوا عليه فنهرهم وصاح بقومه ليخرجوهم فابتدره أحد الانكشارية بضربة بسيفه أطاح رأسه فسقط من شباك المكان إلى صحن الدار وجردوا جميعهم سيوفهم وأقبلوا على أتباعه وخدمه ومن كانوا فى البيت من الأرنؤد فقتلوا منهم خلقاً كثيرين واشتعلت النار بالبارود الذى كان بمخادع أتباعه ومماليكه فوقع الحريق والنهب فى الدور المجاورة وخرج الانكشارية وبأيديهم السيوف مسلولة ومعهم ما نهبوه من المتاع وغيره فانزعج الناس وأغلقوا الدكاكين وأبواب الدور وهم لا يعلمون بالخبر ثم طاف الأغا والوالى بعد ساعة وناديا بالأمان واجتماع جميع الانكشارية عند أحمد باشا والى المدينة المنورة لقتال الأرنؤد وإخراجهم من البلاد فلما سمع الأرنؤد بالمناداة تحزبوا واجتمعت طوائفهم عند الأزبكية فكان الانكشارية إذا ظفروا بأحد من الأرنؤد أخذوا ما معه من سلاح وقماش وربما قتلوه وكذلك كانت تفعل الأرنؤد بالانكشارية وقد نهب الانكشارية جميع ما وجدوه فى بيت طاهر باشا من فرش وبسط وملبوس وغير ذلك وبقيت جثته ملقاة لا يجسر أحد من أتباعه على الاقتراب منها وحملها وزالت دولته فكانت أيامه ستة وعشرين يوماً.

قال صاحب عجائب الآثار وكان أسمر اللون نحيف البدن أسود اللحية قليل الكلام فيه هوس وانسلاب يميل للمسلوبين والمجاذيب وأصحاب الشعوذة وقد عمل له خلوة بالشيخونية يبيت فيها كثيراً ويصعد على سطحها مع شيخه ويذكر معه اهـ.

ثم جمع أحمد باشا المشايخ والعلماء والوجهاء فى داره وكلمهم فيما وقع من طاهر باشا وأصحابه وانتدب جماعة منهم فساروا إلى محمد على سرجشمة يسألونه الطاعة والخلود إلى السكينة كى لا يعرض نفسه ومن معه للبوار فقال لست أعرف لأحمد باشا سلطة على البلاد وما هو إلا ضيف ثم يرتحل ولم أكن لأولى طاهر باشا وأجلسه على منصة الملك إلا لأنه مبعوث من الدولة للمحافظة على الديار المصرية والجواب عندى إن أحمد باشا يرتحل عنا على الفور بعسكره وجنوده وله علينا المعاونة والمدد من مؤنة ودواب للحمل وسفن للسفر فأخبر المشايخ أحمد باشا بمقالة محمد على فأضمر له السوء وبدأ من هذا الحين يظهر محمد على وتعلو كلمته والانكشارية يقتلون وينهبون كل ما قدروا عليه من دور الناس والأمراء وتتبع الأرنؤد

وفتك بهم وعملوا بعض المتاريس ونادوا على الناس بالسهر والتحفظ وفتح الحوانيت ليلاً والإكثار من الأنوار وبات الناس على تخوفهم فلما أصبح يوم الخميس أرسل أحمد باشا يستدعى المشايخ والعلماء فذهبوا إليه فكلمهم فى جمع سائر الناس وخروجهم على طوائف الأرنؤد فأجابوه إلى ذلك وأرادوا الانصراف فمنعهم وقال حتى تأمروا العامة فقالوا هذا لا يكون إلا ونحن بالجامع الأزهر ومازالوا به حتى خرجوا ولم يفعلوا شيئاً مما أمر به فجمع إليه جميع الأمراء العثمانيين وتشاوروا فى أمر الظفر بمحمد على أيضاً ومن بقى معه من الأرنؤد، وكان محمد على قد استقر بمن معه بقلعة الجبل وأحكموا أمورهم وكاتب محمد على الأمراء المصريين وكانوا على مقربة من الجيزة وانبابة فحضر إلى القاهرة بعض أتباعهم وطائفة قليلة من عسكرهم وشاع خبر وصولهم إلى الجيزة فعبر إليهم مماليكهم وبعض الكشاف من أصحابهم ثم قدم منهم جماعة فنزلوا بباب النصر وآخرون بباب الفتوح وأرسل إبراهيم بيك الكبير خطاباً إلى أحمد باشا يقول فيه :

حيث قد علمنا بموت طاهر باشا وأنت اليوم بين ظهرانينا فضم إليك من بقى من طوائف الأرنؤد وإياك أن تقرب إليك أحداً من الانكشارية.

مطلب

طرد أحمد باشا والى المدينة وتصرف إبراهيم بك الكبير

فلما كان صباح ثانى يوم ذهب جماعة من الانكشارية إلى الرميلة يريدون قتال عسكر محمد على، فأطلق عليهم أصحاب محمد على المدافع وتابعوا الرمى فولى الانكشارية الإدبار ورجعوا مسرعين إلى بيت أحمد باشا فحاول أصحاب القلعة رمى القنابل على البيت رمياً متراسلاً فخاف الانكشارية وانحلت عزائمهم وتفرقوا عن أحمد باشا وجاء الخبر بما جرى إلى إبراهيم بيك فتقوّت عزيمته وأرسل إلى أحمد باشا يطلب منه قاتلى طاهر باشا ويلزمه الخروج من القاهرة فى برهة لا تتجاوز الساعة الحادية عشرة من النهار ولا يقيم بها إلى الليل، فلم يجد بداً من الامتثال وطلب دواب للحمل فلم يجد فركب فى عصر اليوم وسار وتفرق عنه من كان معه من أعيان العثمانيين وذهبوا إلى محمد علىّ والتجأوا إليه فأحسن لقاءهم وأنزلهم منزلاً رحباً وخرج أحمد باشا وأتباعه مشاة بين يديه ومعه نفر قليل من الانكشارية فوجد عند باب الفتوح من زحام عسكر الأمراء المصريين والعربان والهوارة ما أخافه فدخل بمن معه إلى قلعة الظاهر بيبرس وأغلقوا أبوابها فتبعه جماعة من الأرنؤد

ودخل داره جماعة فنهبوا ما فيها من متاع وأثاث وأحاط بقلعة الظاهر آخرون ليلتهم تلك وأصبحوا فضيقوا على أحمد باشا ومن معه وجعلوا يرمون على المحاصرين من السور وهم كذلك يرمون عليهم من أسفل وجمعوا شيئاً كثيرا من التراب وعملوا منها أكمة وصعدوا عليها وصاروا يرمون عليهم من الخارج بالبنادق بقية النهار وطول الليل، فلما أصبحوا أنزلوا مدفعاً من قلعة الجبل وجعلوا يطلقونه على قلعة الظاهر فأخربت قنابله وهدمت بعض جدران القلعة فطلب الانكشارية الأمان فأمنوهم ففتحوا الأبواب وخرج أحمد باشا ومعه اثنان من الانكشارية وهما قاتلا طاهر باشا فأخذوهم وعبروا بهم إلى الجيزة ولبث من بقى من الانكشارية داخل القلعة وحولهم الجند والعسكر ثم سجنوا أحمد باشا بقصر العينى وأبقوا قاتلى طاهر باشا بقصر الجيزة فتم بسجن أحمد باشا زوال دولته فكانت ولايته بعد موت أحمد باشا طاهر يوماً وليلة لاغير.

واشتدت عزائم طوائف الأرنؤد بهذا الظفر فكثر فسادهم فى الأرض وقتلوا من الترك وأصحاب خان الخليلى خلقاً كثيراً وتتبعوا الناس وأخذوا بالشبهات وظهر نجم محمد على والتجأ إليه الأمراء والأعيان فراراً من إيذاء طوائف الأرنؤد وأتوا يوماً بقاتلى طاهر باشا من قصر العينى إلى الناصرية وضربوا أعناقهما فى وسط النهار وحملوا الرأسين إلى زوجة طاهر باشا بالشيخونية ثم إلى أخيه بقلعة الجبل وأخرجوا طوائف الانكشارية الذين كانوا بقلعة الظاهر وأخذوا جميع ما كان معهم من سلاح وكراع وبعثوا بهم إلى الصالحية مع نفر من الأرنؤد والعربان فمات أكثرهم جوعاً وتمزق من بقى وتشردوا فى الجهات.

ولما كان يوم الأحد خامس عشر صفر سنة ثمان عشر نزل ابن أخى طاهر باشا من قلعة الجبل ونزل من كان معه من كبار الأرنؤد وأعيانهم وعسكرهم ومتاعهم وما جمعوه من المنهوبات وكان شيئاً كثيراً جداً وسلموا القلعة إلى ابراهيم بيك الكبير وأصحابه ولم يبق بها من الأرنؤد إلا طائفة قليلة ومعها أحد كبارهم المدعو حسين قبطان وأخرجوا أحمد باشا والى المدينة من معقله بقصر العينى وسيروه إلى الديار الرومية فى نفر من الانكشارية فلما استقر بإبراهيم بيك المقام قسم الوظائف والمناصب العالية بين قومه وذويه بإشارة محمد على ورتب الأمور على ما أراد محمد على فأحكم ترتيبها فمال الأمراء المصريون إلى محمد على وأحبه العساكر وعمل بمشورته العمال فى جميع البلاد وتقرب إليه الأعيان وتزلف إليه أرباب المناصب وتقرب منه المشايخ والعلماء.

وجاء الخبر إلى إبراهيم بيك الكبير بنزول محمد باشا الوالى المعزول على مدينة

دمياط وتغلبه على ما حولها من البلاد والقرى وإعطاء الوظائف إلى مماليكه وانضمام الكثير من الانكشارية الذين خرجوا من مصر والقاهرة إلى لمومه مع الغوغاء وحرافيش البلاد والعربان فسير لقتاله البرديسى فى طائفة عظيمة من العساكر فوجده ممتنعاً وقد عمل المتاريس والخنادق حول المدينة وضرب على الأهالى المغارم والفرض وبث المعينين لجمع الأموال من البلاد ونقل الغلال فهجم عليه البرديسى بخيله ورجله واقتتل الفريقان قتالاً عنيفاً فانهزم البرديسى وأصحابه عند القنطرة البيضاء من ضواحى دمياط وأجلوهم عن مواقفهم ثم عاد البرديسى وقد رتب عسكره وهجم على عساكر محمد باشا فانهزموا وانتصر البرديسى نصرة عظيمة وانخذلت عساكر محمد باشا وخامر بعضهم مع البرديسى وأشاروا عليه بالزحف على دمياط فزحف وراسل بعض كبار عسكر الباشا فأطمعوه فى الاستيلاء على المدينة بغير عناء فدبر عسكره وهجم على المدينة وقاتلها حتى دخلها عنوة وفتك فى عسكر الباشا بالقتل وتتبعوا خواصه وأتباعه فقتلوهم عن آخرهم وقتلوا من خرج معه من أصحاب الوظائف ونهبوا المدينة وأسروا النساء والأطفال وافتضوا الأبكار واستأسروا من شاءوا وفعلوا من القسوة ما تشيب لهوله الولدان ونهبوا الخانات والبيوت والوكائل وجميع أمتعة التجار التى كانت بها والتجأ محمد باشا إلى بلدة القرية فأحاطوا به من كل جانب فطلب الأمان فأمنوه فنزل من القرية وحضر إلى البرديسى فقام عليه بعض الجند وخطفوا عمامته وهو فى الطريق وكادوا يفتكون به فلما رآه البرديسى ترجل عن جواده وتلقاه بالإعزاز والإكرام وألبسه عمامة وأنزله فى خيمة بجانب خيمته وسير الأخبار بما حصل إلى إبراهيم بيك ففرح بذلك وفرح أصحابه فلما كان يوم الإثنين تاسع عشرى ربيع الأول أحضروا محمد باشا إلى القاهرة ومعه المحافظون من الأرنؤد والعساكر المصرية وليس معه من أتباعه سوى ستة مماليك فقط وقد تفرق باقيهم عنه فنزل بساحل بولاق وكان إبراهيم بيك قد حضر فى ذلك اليوم إلى بولاق فلم يقابل محمد باشا وتشاغل عنه ثم حضر إلى الباشا أحد الكشاف وأركبه وسار به إلى بيت إبراهيم بيك بحارة عابدين فلم يقابله فى ذلك اليوم أيضاً فأخذوه إلى بيت البرديسى فبات ليلته وأصبح فركب إبراهيم بيك إلى قصر العينى وطلب محمد باشا فسار إليه وقابله وقد حضر الألفى وبقية الأمراء المصريين ثم ركب ورجع إلى بيت البرديسى وبقى محجوراً عليه أياماً.

فلما كان يوم السبت خامس عشرى ربيع الأول طلب محمد باشا من سليم كاشف المحرمجى المتولى حراسته أن يأذن له بالخروج إلى الناصرية للرياضة فأرسل سليم كاشف إلى إبراهيم بيك يسأله فى ذلك فأذن له فأركبه سليم كاشف بمماليكه

وعدة أخرى من مماليك المحرمجى فلما خرج إلى خارج الناصرية أطلق جواده وتبعه مماليكه من خلفه فظن مماليك المحرمجى أنهم يتسابقون فلما غابوا عن أبصارهم ساقوا خلفهم ومازالوا كذلك وقد استل محمد باشا سيفه إلى أن وصلوا إلى الأزبكية فقصد بيت أحمد بيك الأرنؤدى فلما اقترب منه أطلق أحد الجند غدارته على جواده فسقط الجواد وسقط محمد باشا أمام الباب ودخل مسرعاً على أحمد بيك ومن كان معه فلما رآه أحمد بيك على هذا الحال وبخه وقبض عليه وفتشوه فوجدوا معه من المال ما قدره ألف وخمسمائة دينار وكذلك أخذ ما كان مع مماليكه وقد كانوا أعدوا هذا المال ليكون لهم عوناً على الهرب وجاء الخبر إلى سليم كاشف المتولى حراسته فركب على مثل ذلك بباقى أتباعه واتصل الخبر بإبراهيم بيك فأمر جميع الكشاف بالرجوع وأصعد طائفة منهم قلعة الجبل وتحفظ على أطراف المدينة وجاء سليم كاشف بمحمد باشا إلى إبراهيم بيك بقصر العينى ومعهما أحمد بيك فخلع إبراهيم بيك على أحمد بيك فروة سمور وقدم له حصاناً مسرجاً ووكل بمحمد باشا من يخفره فى معقله.

مطلب

منع تصرف إبراهيم بك وولاية على باشا الطرابلسى

وجاءت الأخبار بولاية على باشا الطرابلسى ووصوله إلى مدينة الإسكندرية فاستقر بها ولم يقدم إلى القاهرة وأرسل إلى إبراهيم بيك ومن معه يقبح ما فعلوه من رجوعهم إلى القاهرة وتصرفهم فى الأمور بغير إذن السلطان لاسيما خروج الأرنؤد وقتل طاهر باشا بخروج الانكشارية وإخراج أحمد باشا وغير ذلك من الحوادث التى كانوا هم علة وقوعها فأرسلوا إليه يعتذرون ويظهرون الطاعة والولاء للسلطان وأن حضورهم لم يكن إلا عن رضا الأهالى واستدعاء المشايخ والعلماء وتخوف إبراهيم بيك وأصحابه من على باشا المذكور وتحذروا وأقاموا ينتظرون ما سيكون من حضوره إلى القاهرة.

وكان البرديسى فى غضون ذلك قد سار بعسكره من دمياط بعد أسر محمد باشا إلى رشيد لقتال الحاج على باشا قبطان ومن معه من العساكر العثمانية وكان الأرنؤد لما قاموا وخرجوا على محمد باشا جاء على باشا قبطان المذكور فى نفر من العثمانيين ونزلوا على رشيد من البحر وتحصنوا بها حتى صاروا فى منعة زائدة وجعل على باشا مقره ببرج مغيزل يراقب الفرص ليزحف على القاهرة ويفتك بمن بها من أصحاب إبراهيم بيك وطوائف الأرنؤد فوصل إليه البرديسى بعسكره وقاتله

قتالاً شديداً نيفاً وعشرين يوماً وما زال حتى انتصر عليه وفتح البرج عنوة وقبض على عليّ باشا وعدة كبيرة من عسكره وأخرجوهم إلى جهة الشرقية ليسيروا منها إلى الشام ووردت الأخبار بذلك إلى القاهرة فلما علم على باشا الطرابلسى وهو بالإسكندرية ما فعله البرديسي برشيد وكيف أخذ على باشا قبطان أسيراً خاف أن يعرج البرديسي وأصحابه إلى الإسكندرية فيفعلوا بها ما فعلوه برشيد فأمر بسد أبى قير فكسروه فجرى الماء المالح إلى الأراضى التى كانت جفت عنها منذ عهد قريب فى ذلك الحين وأغرقت القرى وأفسدت المسالك على الإسكندرية واشتد الحال على أهلها وضاق بهم الكسب فرحلوا عنها إلى جزائر المحيط كجريت وقبرس ورودس وغيرها ولم يبق فيها إلا الفقراء والعجائز.

قلت: وكان هذا السد من أهم العمائر وأحكمها وأكبرها شهرة ولذلك كانت تتفقده الدول على مر الأيام وتتعهده بالعمارة وإحكام الوضع وتخشى من تهدمه فلما اختلت الأحوال وكثر توالى القلاقل والإحن واستولت الفوضى على البلاد وأهملت أسباب العمارات كافة انهار من هذا السد بعض بنيانه فسال منه الماء المالح على المزارع والقرى الواقعة بين رشيد والإسكندرية فلم يتدارك أولو الحل والعقد أمره لاستفحال الخلل فاستمر على هذا الحال والخرق يتسع حتى كادت تنقطع الطرق بسبب الماء المنهمر منه واستمر على ذلك إلى دخول الجيوش الفرنساوية مصر فلما جاءت خلفهم سفن الإنجليز أراد أميرها تعويق الفرنسيس عن الوصول إلى القاهرة بعد نزولهم بأبى قير فأطلق قنابل مدافعه على السد المذكور فكسر بعض بنيانه واتسع خرقه فانهمر الماء على الأراضى حتى كاد يصل إلى دمنهور واختلط بخليج الأشرفية فغطى جميع وجه تلك الأراضى وأخرب القرى والبلاد وأتلف المزارع وانقطعت الطرق حول مدينة الإسكندرية وامتنع دخول ماء النيل إلى أهلها فلم يصل إليهم إلا ما يصلهم من جهة البحر فى السفن والنقائر أو ما خزنوه من مياه الأمطار بالصهاريج وبعض العيون المستعذبة ثم جاء رجل من مهندسى دار السلطنة اسمه صالح أفندى ومعه بعض السفن تحمل الأخشاب العظيمة والآلات الضخمة برسم بناء السد المذكور فاستمر العمل فى ذلك عاماً ونصف العام حتى قارب التمام ففرح الناس بذلك واستبشر أهل القرى والنواحى فما هو إلا وقد وقعت هذه الحوادث واحتل على باشا قبطان ثغر رشيد وسار البرديسى لقتاله وخاف على باشا الطرابلسى من حضور البرديسى وفعله بالإسكندرية ما فعله برشيد فأمر فكسروا السد فانغمر

وجه تلك الأراضى بالماء المالح فنزح أهل الإسكندرية وتبدل عمارها خراباً.

ووصل الحاج على باشا إلى القاهرة أسيراً فأكرموا نزله ورتبوا له المرتبات من مأكول ومشروب وأرسل البرديسى يطلب المدد فأمدوه فسار من رشيد إلى دمنهور أياماً يدبر أمر الهجوم على الإسكندرية وكيفية الوصول إليها وطالت أيام مكثه فداخل جنوده الملل واعترى أمورهم الفتور والكسل فطالبوا البرديسى بجماكيهم وعلوفاتهم ولم يكن عنده منها شيء فخشى العاقبة ورجع إلى القاهرة وقد مات منهمّ خلق كثير بأسباب الجوع والحرب ودخل الجيزة فى السادس من جمادى الثانية فخرج الأمراء والأعيان لملاقاته فلما أصبح يوم السبت سابعه عبر (محمد على) سرجشمة النيل إلى الجيزة وعبر معه طوائف الأرنؤد إلى مصر وكذلك البرديسى فخرج عليهم الفقراء وبأيديهم المقاطف والغلقان وصاحوا بمحمد على والبرديسى واستغاثوا ويكوا من الجوع فلاطفهم البرديسى وأصبح وقد بعث بمحمد على وخازنداره إلى بولاق ومصر القديمة وأخرجوا جميع ما فيها من الغلال إلى السواحل فاجتمع العالم الكثير من الرجال والنساء فامتاروا بحسب الحاجة واطمأن الناس واشترى الخبازون وفتحوا المخابز وكثر الخير وشبع الفقراء فمالت قلوب الرعية إلى البرديسى وأحبوه.

وأخذ البرديسى فى بناء الحصون والقلاع بجهة الناصرية وعند داره المعروفة بدار حسن كاشف شركس وأنشأ البوابات الكبيرة بجهة قنطرة السباع والمزار المعروف بكعب الأحبار فداخل الناس من ذلك الشكوك وخالجتهم الظنون فعمدوا إلى تعمير الدور التى خربتها الحوادث المتراكمة والخطوب المتتابعة وضيقوا الشوارع عما كانت عليه من السعة والرحب وقد كانت إلى ذلك الحين غاية فى السعة والانتظام وتناسب البناء وحسن وضعه كما هى الآن بأكبر شوارع القاهرة ومصر وأحدثوا فيها الدروب الكثيرة والدعامات البارزة والساباطات وغير ذلك مما أذهب رونقها وجعل أغلبها ظلاماً حتى فى رابعة النهار وزاد الحال وقلد أهل الأخطاط فعال بعضهم واهتموا لذلك اهتماماً عظيماً ونقل البرديسى جميع المدافع التى كانت بالأزبكية ببيت الباشا إلى تلك الحصون والأبراج وعززها بالذخيرة الكثيرة والمهمات وآلات الحرب كل هذا وعلى باشا الطرابلسى العامل على مصر من قبل دار السلطنة لا يتحرك من الإسكندرية ولا يأتى إلى القاهرة وكانت كتبه لا تنقطع عن إبراهيم بيك والبرديسى مشحونة بالوعيد والتهديد إن لم يتركوا القاهرة ويرحلوا عنها إلى الصعيد الأعلى

حتى تأتى رسل دار السلطنة ويأمر السلطان بما يراه فلم يسمعا له كلمة ولا تبعا له إشارة وجعلوا يتصرفون فى البلاد تصرف المالك المطلق.

فلما كان يوم الأربعاء أول شعبان سنة ثمان عشرة قدم إلى مصر كاتب ديوان على باشا الطرابلسى ومعه مرسوم السلطان بالعفو عن جميع الأمراء المصريين إجابة لطلب صدر الدولة وعلى باشا الطرابلسى وأن يقيموا بمصر والقاهرة ولكل أمير منهم فايظ خمسة عشر كيسا وحلوان المحلول ثمان سنوات وأن الأوسية والمضاف والبرانى يضم إلى جانب الخزينة وأن لايكون التصرف فى جميع الأمور والأحكام إلا لعلى باشا والروزنامجى وأما الجمارك والمقاطعات فالكلمة فيها للدفتردار الذى يعين لذلك من قبل الدولة فلما قرئ هذا المرسوم بحضرة المشايخ والعلماء والوجهاء أظهروا البشر والسرور وأطلق لذلك عدة مدافع وكتبوا إلى على باشا يشكرونه ويطلبون منه الحضور إلى القاهرة ليتولى أمور البلاد ويدبر أمر خروج الحاج قبل فواته، فسار على باشا من الإسكندرية برا إلى القاهرة وعبر الألفى بعسكره وكذلك بعض الأمراء المصريين النيل إلى انبابه وساروا منها إلى مقربة من شلقان ونزلوا بها فلما كان الباشا على مقربة منها أيضاً نزل ببعض المزارع هو ومن معه من طوائف الانكشارية وكانوا عدة كثيرة ممن خرج هارباً من مصر والقاهرة وكان يتبعه بالبحر نحو ستين سفينة تحمل أثقاله ومتاعه وأتباعه وبعض العسكر فخرج إليه الألفى بعسكره ومحمد على سرجشمة وأحمد بيك وأتباعه ونصبوا خيامهم وأنزلوا أثقالهم على مقربة من معسكر الباشا فتكدر الباشا من ذلك وأرسل إلى الألفى يقول كيف تقدمون على أن تعسكروا بجندكم قبالة عسكرى وأنتم أتباع السلطان وأنا نائبه على هذه البلاد فأجابه الألفى هذه منزلتنا ومحط عسكرنا ولم نفعل إلا ما وجب فاشتد غيظ الباشا وتقهقر بعسكره إلى الوراء فانتقل محمد على وأحمد بيك بعسكرهما إلى ناحية النيل وعسكروا هناك وأظهر الألفى سوء النية والجفاء للباشا حتى قتلوا بعض أتباعه بمشهد منه مما كاد يقتله غماً.

قال بعض كتاب الأخبار: وكان الحامل على ذلك أنه لما طال مكث على باشا بمدينة الإسكندرية وقد أعيته الحيل فى رد جماح الأمراء المصريين وإكراههم على الجلاء عن مصر إلى الصعيد الأعلى ورأى أنه لابد من المسير إلى القاهرة والالتقاء بهم ووقوع ما لا تحمد عواقبه كاتب محمد على سر جشمة وكبار الأرنؤد وغيرهم من قبائل العرب ومشايخ البلاد يستميلهم ويعدهم ويمنيهم إن قاموا بذلك ويحذرهم

من الانضمام إلى أولئك الأمراء فنقل الأرنؤد ذلك إلى إبراهيم بيك والبرديسى وأطلعوهما على رسائل الباشا واتفقوا على أن يردوا عليه من كبار الأرنؤد بالطاعة والرضوخ لأمره والقيام لنصرته إذا حضر إلى القاهرة حتى إذا خرج الأمراء للسلام عليه يكبسون عليهم هم وعسكره فيستأصلونهم والموعد بشلقان وقد سهلوا له الأمر وهونوا عليه الصعب فراجت عليه حيلتهم وسار من الإسكندرية فى عدة وافرة من العسكر وحضر إلى الرحمانية وأعاد مخابرتهم واستوثق منهم فحضوه على سرعة الحضور إلى شلقان فسار إليها فرحاً فلما صار على مقربة منها أمر فرتبوا المراكب التى كانت تسير معه بالنيل ووضعوا عليها المدافع وعملوا المتاريس وحصنوا موقعهم فخرج إليه الألفى كما تقدم بمن معه ونزل بخيامه أمام خيام الباشا وأرسل إليه بأن يتقهقر بعسكره إلى الوراء حتى تستقر القاعدة بينهما على أمر من الأمور فلم يجد الباشا بدأ من ذلك وطلب الأرنؤد والعربان الذى عاهدهم فلم يجد منهم أحد فأكبر هذا الأمر وتأخر إلى زفيتة ونزل بها وبينما هو على هذا الحال من الحركة والانتقال إذ انحدر حسين بيك الفرنجى أحد الأمراء المصريين بعسكره فى بعض السفن بالنيل حتى صاروا خلف سفن الباشا وأحاطوا بهم وأطلقوا عليهم القنابل والبنادق وساقوهم إلى القاهرة واستأسروهم ثم ذهبوا بهم إلى الجيزة وقد أعملوا السيف فيمن كان بها من الجند وقبضوا على مقدمهم المدعو مصطفى باشا وأخذوه أسيرا وأحاطوا بمعسكر على باشا بناحية زفيتة ومنعوا عنهم الواصل وكانوا إذا خرج أحد من عسكره يريد الذهاب إلى جهة قبضوا عليه وقتلوه فاشتد حزن الباشا واضطرابه وأرسل إلى الألفى من يكلمه فى ذلك فأرسل إليه الألفى يقول: لم نكن لنعلم بخبر هذه الجيوش المخيمة حولك وبسبب اجتماعها إلا من أحب الناس إليك وأطوعهم لكلمتك فلما رأينا من كثرة قومك وأسلحتك ومهماتك وآلات حربك قابلنا عملك بمثله وماعهدنا بالولاة إذا حضروا إلينا إلا أن يكون حضورهم فى قلة من الأتباع لا أن يأتوا فى جيش جرار وقد قيل لك ذلك لما صرت على نية المسير إلينا فإن شئت مسالمتنا فاصرف عنك هذه الأقوام وأتنا فى بطانتك لا غير على الرحب والسعة، فقال: لم يكن من أمر هذه الجيوش سوى الخروج إلى الأقطار الحجازية مدداً لشريف مكة وعوناً له على قتال الوهابيين فإذا وصلنا بهم إلى قلعة الجبل واستراحوا جهزناهم بما يلزم وسيرنا بهم إلى الشريف، فقيل له لم يبق فى القلعة من الأبنية بعد تخريب الفرنسيس لها ما هو أهل لسكانك ولذلك فقد أعددنا قصر العينى مقراً

لك ولأتباعك وحاشيتك واصرف عنك العسكر فيسيرون إلى بركة الحاج ويلبثون هناك حتى تتم احتياجاتهم ويسيرون إلى الأقطار الحجازية.

وترددت الرسل بينه وبين الألفى أياماً ثم حضر من قبل الباشا عابدى بيك مقدم الانكشارية واجتمع بالألفى وكلمه فاستماله الألفى لجانبهم ومناه بالأمانى الطويلة وعاهده على الخذلان بالباشا والانضمام إليه بمن معه من الجند وتحالفا على ذلك وتعاقدا فانصرف عابدى بيك ودبر أمره مع أصحابه فحلفوا له يمين الطاعة وترك الباشا وشأنه، فلما استوثق الألفى من عابدى بيك وأصحابه أرسل يقول للباشا قد طال القال والقيل بيننا ولم نهتد إلى أمر من الأمور فإما أن تأتى إلينا فى بطانتك وحاشيتك على الرحب والسعة، وإما أن تبرز لقتالنا وضربوا للجواب موعداً فلما لم يأت الجواب زحف الألفى بعسكره وزحف بقية الأمراء بعساكرهم على معسكر الباشا وأحدقوا به من كل جانب فطلب الباشا عسكره ونادى فيهم بالخروج فلم يتحركوا وتثاقلوا فلما تحقق خذلانهم له ركب فى خاصته وذهب إلى الألفى وترك خيامه وأثقاله فعند ذلك استقبله جميع الأمراء بالإعزاز وأنزلوه فى خيمة أعدوها له على مقربة من خيمة البرديسى وحضر إليه جميع أرباب الديوان ونقلوا جميع متاعه وأثقاله إلى قصر العينى وسيروا من كان معه من الجنود إلى شرقية بلبيس ليسيروا منها إلى الصالحية ثم انتقل جميع الأمراء المصريين مع الباشا إلى منية السيرج وباتوا ليلتهم فلما كان منتصف الليل والناس جميعاً نيام خرج من خيام الباشا فارس على فرس يعدو بسرعة فصهلت عند خروجه الخيل واضطرب من فى المعسكر فركب جماعة من العسكر وتراكضوا خلفه فلم يلحقوه فسألوا الباشا عنه فأنكر معرفته وقال لعله لص فتخوفوا منه وأخذتهم الطيرة فأجلسوا حول مضربه فى تلك الليلة عدة من المماليك بالأسلحة وأصبحواوقد قبضوا على رجل على ظهر هجين من ناحية البساتين زعموا أنهم وجدوا معه كتابا من الباشا خطابا إلى عثمان بيك حسن المقيم بجرجا يستقدمه إلى القاهرة ليكون له عونا على الأمراء المصريين ويمنيه بالأمانى الواسعة ويعده بتولية إدارة البلاد فلما كان يوم الأربعاء ثانى عشر شوال من السنة أى سنة ثمان عشرة بخيمة الباشا دخل على رضوان أغا كتخدا البرديسى ومعه آخرون وجلسوا عنده فسألهم عن سبب حضورهم فقالوا أتينا لنسألك فيما إذا كنا على صلح تام مع الأمير اليوم أم لا، قال: بلى، فقال كتخدا البرديسى: هلا كتبت إلى أحد قبل ذلك كتابة، قال لا، فقال: لعلك كتبت إلى الصعيد شيئا قبل الآن، قال:

لم يكن ذلك أبدا، فأخرج له عند ذلك مكتوبا وناوله إياه، فلما رآه قال: نعم هذا مما كتبناه بالإسكندرية قبل الصلح فقالوا إنا وجدناه بالأمس مع رسولك وتاريخه يدل على تحريره فتلجلج فقاموا وقالوا له قم فقال إلى أين قالوا إلى غزة حيث لا أمان لنا معك بعد ذلك ولم يمهلوه لكلام يقوله أو لعذر يبديه وقدموا له فرسا وأركبوه عليه فرأى حوله عدة من الأمراء على أهبة الذهاب معه فاضطرب جدا وقال: إن اصحبنى هؤلاء فيلكونوا على بعد منى فى الحل والترحال فأجابوه إلى ذلك وركب أتباعه على دواب الحمل وساروا وهم فى أسوإ حال وقد حجز البرديسى جميع أثقاله ومتاعه وذخيرته وأصبح يوم الخميس ثالث عشرة فدخل الأمراء والجند والعسكر من الأرنؤد ومحمد على سرجشمه وجميع كبارهم وخلفهم الطبول والزمور أما الألفى فإنه ركب على زفيته فضرب أهلها وأحرق البلد وعرج على أجهور فضربها كذلك وشرد من فيها وذهب إلى نزلة عرب بلى بالجيزة فطرقهم فجأة وقتل منهم أناسا ونهب مواشيهم وخرب منازلهم وفعل كذلك بعدة بلاد أخرى لتحالفهم مع علىّ باشا على قتال المصريين وتأهبهم لنصرته وسار المعينون مع علىّ باشا فلم يصلوا على مقربة من القرين حتى مات حتف أنفه على ما قيل وقيل بل خنقوه.

قال بعض الكتاب: وكان علىّ باشا المذكور سيئ الخلق طاغية عنيدا جبارا فخورا معجبا بنفسه كثير المظالم مستبدّا برأيه فعل بأهل الإسكندرية من الجور والظلم والمصادرة مالا يكاد يدخل تحت الحصر وكان يقول لعسكره إنى إن فتحت مصر ووطئت قدمى أرضها أبحتها لكم ثلاثا تفعلون بها ما تحبون.

وعاد الألفى الصغير من قتاله لعرب الجيزة ومعه كثير من الغنائم ونزل بقصره الذى أنشأه بالجيزة وتفرقت عنه عساكره ولم يبق معه إلا القليل مع أمير المدافع ثم جاء الخبر من حاكم مدينة رشيد بوصول الألفى الكبير الذى كان قد سافر إلى لندن عاصمة الإنجليز كما سبقت الإشارة إلى ذلك فلما علم إبراهيم بيك والبرديسى بخبر وصوله خافا منه وأيقنا بخيبة الأمل لما له من الشهرة ونفوذ الكلمة فأضمرا له السوء ودبرا أمورهما وكتماها وكتب البرديسى إلى مملوكه يحيى بيك حاكم رشيد يأمره بقتل الألفى بكل ما وصلت إليه حيلته وعبر هو النيل وعبر كذلك عدة من الأمراء إلى الجيزة وباتوا ليلتهم تلك بخيامهم وأظهروا أنهم يتأهبون للسفر فى آخر الليل مع الألفى الصغير للقاء الألفى الكبير وعبر أيضا حسين بيك الوشاش الألفى ونصب

خيامه على مقربة من النيل فلما كان خامس ساعة من تلك الليلة أرسلوا إلى حسن بيك يطلبونه فحضر مع مماليكه وكانوا قد رتبوا جماعة منهم تأتى بخيل ومصابيح ومشاعل من طريق القصر الذى يسكنه الألفى الصغير فقالوا له أين خيلك فأنا على أهبة الإسراء ليلا فى هذا الوقت إلى لقاء أخينا الألفى وها هو أخوك الألفى الصغير قد ركب وهو مقبل إلينا فنظر فرأى المشاعل والخيل فلم يشك فى صحة ذلك ولم يخطر بباله غدرهم له فأمر مماليكه أن يذهبوا ويأتوا بالخيل وبقى هو وحده ينتظر فرسه فخرج عليه نفر من الخباء وقتلوه بينهم وأرسلوا إلى البرديسى بالخبر وكان محمد علىّ سرجشمه وأحمد بيك وبقية كبار الأرنؤط قد عبروا إلى الشاطئ الثانى من النيل وترفعوا ليلا وكمنوا ينتظرون الإشارة فلما علموا بالخبر زحفوا على قصر الألفى الصغير وأحاطوا به وقد ضموا إليهم مقدم أصحاب مدافع الألفى وأمير عسكره فعطل المدافع وأخذ محمد على سرجشمه يدبر أمر إحاطة القصر بطوائف الأرنؤد إلى آخر الليل فجاء إلى الألفى من أيقظه من نومه وأعلمه بخبر قتل حسين بيك وإحاطتهم بالقصر فتأهب للقتال وطلب أمير مدافعه فلم يجده وأعلموه بما فعل بالمدافع فركب فرسه وخرج وخرجت معه أتباعه ببعض المتاع والأموال فركب محمد علىّ سرجشمه وأحمد بيك ونفر من الأرنؤط خلفه فلم يدركوه وقد اشتغل بقية العسكر بنهب القصر وأخذ جميع ما فيه من أثاث ومتاع وهجموا على بيت كاتبه المعلم غالى ونهبوه وكذلك نهبوا جميع دور أتباعه ومماليكه وأخذوا ما كان عند كاتبه المذكور من الأموال ثم نهبوا جميع دور الجيزة وفعلوا بها ما فعلوه بدمياط من سبئ النساء وفض الأبكار وأصبح الناس فى القاهرة وهم لا يعرفون شيئا مما وقع إلا ماعلموه من صياح النساء وجوارى حسين بيك فى داره.

أما الألفى الكبير فإنه لما وصل إلى رشيد قابله حاكمها بغاية الأبهة والاحتفال ولم يكن معه إلا خاصة بمماليكه وجوخداره تتمة ستة عشر ولم يقم برشيد سوى ليلة ضيفا عند أحد التجار وأنزل أمتعته فى سفن أربعة صغيرة وانتقل فى آخر الليل إلى دار قنصل الإنجليز وأصبح فأهدى إليه القنصل حراقة لطيفة فنزل بها وسار إلى مصر فعانده الريح وكان لما جاء الخبر بوصوله إلى مدينة رشيد سير الألفى الصغير لحضوره ذهابية فانحدرت من بولاق إلى رشيد فلاقوه عند بلدة نادر بعد نصف الليل فلما أصبح نزل بالذهابية وسار إلى منوف العلا فأقام بها يوما ثم سار والريح تعاكسه إلى وقت الظهيرة فلاقاه عدة من الأرنؤط المرسلين لقتاله فى أربع من السفن الصغيرة فى

مضيق الترعة فسلم عليهم فردوا عليه السلام فسألهم بعض أتباعه إلى أين ذاهبون قالوا نريد الألفى وقد تناجى الملاحون فعرف ملاحوا مركب الألفى ماجرى بمصر فأخبروا الألفى بالخبر فكذبه وقال هذا شيء لا يكون أبدا وقد تغربت وركبت الأخطار وقضيت سنة بين ظهرانى الإنجليز أعمل على تعزيز جانبهم وإعلاء كلمتهم رغما من مكايد رجال السلطنة ويعاملوننى بهذا القبيح فلعلها حادثة وقعت بينهم وبين طوائف العسكر ولم تمض إلا ساعة أو نحوها حتى قيل له إن طائفة من الأرنؤط أدركوا الحراقة خلف ونهبوا ما بها من أثقال ومتاع فكاد يسقط فى يده وتحقق الغدر وأنه مأخوذ لا محالة فنزل بإحدى السفن الصغيرة ونزل معه مماليكه كافة وأخذوا بالمجاذيف وهو يستحثهم حتى خرجوا من تلك الترعة إلى ظهر النيل ولم يسر إلا قليلا حتى لاقته طائفة أخرى فى سفينتين ومعهم أحد أتباع البرديسى فلم ينظروا سفينة الألفى أو أنظروها ولم يعرفوه فجعل يجد فى السير حتى وصل إلى شبرا الشهابية فنظر وإذا بساع مقبل من مصر فطلبه وسأله فأعلمه أنه مرسل إلى بيت سليمان كاشف البواب ليخبر بما جرى فعند ذلك تحقق الخبر ونزل إلى البر وأمر بالسفينة فأغرقوها وسار فى مماليكه على أقدامهم ولم يزالوا يجدون السير حتى وصلوا إلى ناحية قرانفيل ودخل إلى نجع عرب الحويطات والتجأ إلى امرأة منهم فأجارته ولبت دعوته وأركبته فرسا وسيرت معه اثنين على الهجن إلى ناحية الجبل فساروا إلى الخانكاه ليلا ومماليكه خلفهم مشاة فلاقتهم طائفة من العربان فأحاطوا بهم فاشتغل المماليك بقتالهم فتركهم الألفى وسار مع أصحاب الهجن ومضى وقد سمع الجند القريبون منهم وفيهم البرديسى أصوات البنادق فأسرعوا إليهم وسألهم عن أستاذهم فقالوا قد كان معنا ثم تركنا وسار إلى الجبل فأمر البرديسى جميع من كان معه من الجنود بأن يتفرقوا ويضبطوا جميع المسالك والطرقات ومن أدركه منهم يقتله فى الحال فذهبوا خلفه وتفرقوا فى كل صوب وناحية فلم يعثر به أحد ولحق به جماعة العربان الذين قاتلوا مماليكه وأرادوا القبض عليه فنثر عليهم ما كان معه من الذهب والجواهر وألقى عنه فروته السمور فاشتغلوا عنه فتركهم وسار وغاب أمره فجعلوا يبحثون عليه وانتشرت طوائفهم فى الجهات شرقا وغربا وتتبعوا أقاربه وأتباعه ففر من فر وقبض على من قبض عليه وأدرك جماعة الأرنؤط سفينته التى كانت تحمل متاعه وأثقاله وكانت شيئا يجل عن الوصف من أموال وطرائف الإنجليز وجوخ وأسلحة وجواهر أهداها له ملك الإنجليز وأكابر دولته ومبلغا من المال لمشترى غلال لذمة ملك الإنجليز ثم أغرقوا تلك السفن فى النيل.

أما الألفى الصغير فإنه سار من فوره إلى الصعيد وفرّض على البلاد الفرد والكلف وطالبهم بها وشدد فى الطلب فكان كل من عصاه أو توانى فى الدفع نهبه وأحرق داره وشرد عياله فكتب إبراهيم بيك والبرديسى لكافة الأمراء والحكام بالأقاليم بالاهتمام فى القبض عليه وفى البحث والتفتيش على الألفى الكبير فأخذوا الناس بالشبهات وكثر الوشاة على أبوابهم فقتلوا بسبب الهاربين خلقا كثيرا وأخرجوا جماعة كثيرة على ظهور الخيل والهجن يتتبعون أثر الألفى الكبير وكلهم من أصحاب البرديسى وخواصه الذين عليهم معتمده وأصبح البرديسى ولم يبق حوله من أصحابه إلا النزر اليسير.

(مطلب)

(فتنة الأرنؤط وظهور كلمة محمد على سر جشمة)

ولم تكن هذه الحوادث المتراكمة والإحن المتوالية لتشغل جماعة الأرنؤط عن طلب جماكيهم المتأخرة وعلوفاتهم الموقوفة ولم يحل عندهم محلها ما نهبوه من متاع وأموال وغيره فى خلال تلك الحوادث فضلا عما كانوا يخطفونه فى كل يوم من المارة وأبناء السبيل فاجتمعوا يوما وذهبوا إلى كبارهم فى طلب الجماكى فوجهوا بهم إلى الأمراء المصريين وطالبوهم ففرضوا لهم مائتى ألف ريال على أقباط مصر منها خمسون ألفا على المعلم غالى كاتب الألفى وثلاثون ألفا على تركة المعلم بقطر المحاسب كاتب البرديسى والمائة والعشرون موزعة عليهم فلم يكتفوا بذلك وتحزبوا فرقا وطافوا فى الشوارع والطرقات يخطفون ما بأيدى الناس ويغتصبون النساء بلا تحاش ولاخوف وقصدوا الصعود إلى قلعة الجبل ليملكوها لكى يدمروا المدينة فلم يتمكنوا من ذلك واشتدت حركتهم وكثر تطوافهم فقتلوا ونهبوا وفعلوا ما لا خير فيه يوما وليلة وأصبحوا فركب محمد علىّ سر جشمه ونادى بالأمان وجمع إليه كبار العسكر وأعلمهم بأن الأمراء مهتمون بصرف الجماكى بواسطة تقرير فردة على الأهالى فأسكنوا هياج العسكر وقام المحروقى بجمع هذه الفردة وشرعوا فى الإحصاء وفرضوها على العقار والأملاك أجرة سنة يقوم بدفع نصفها المستأجر والنصف الثانى يدفعه صاحب الملك وطاف لذلك الكتاب والمهندسون ومع كل طائفة منهم نفر من الجند فنزل بالناس ما لا يوصف من الغم مع ماهم فيه من القحط والغلاء فضجوا واستغاثوا وذهب جماعة من أصحاب الجباية إلى باب الشعرية

ودخلوا درب مصطفى فخرج إليهم الفقراء وصاحوا فى وجوههم وسبوا ورجموا بالأحجار وخرج النساء جماعات يصرخن ويولولن بأيديهن دفوف وطبول يضربن عليها ويندبن ويتغنين ويقلن كلاما على الأمراء مرتبا ويجاهرن بقولهن «ايش تأخذ من تفليسى يابرديسى» وصبغن أيديهن بالنيلة فاقتدى بهن غيرهن وخرج الرجال ومعهم الطبول والبيارق وأغلقوا الأسواق والوكائل وحضر الجمع الكثير إلى الجامع الأزهر فركب المشايخ معهم إلى حيث الأمراء وكلموهم فى الأمر ثم رجعوا وأمامهم المناداة بإبطال تلك الفردة فسكن الحال وخمدت نار هذه الفتنة.

قال صاحب عجائب الآثار: وكانت هذه الفعلة من جملة الدسائس الشيطانية فإن محمد علىّ لما حرش العساكر على محمد باشا خسروا وأزال دولته وأوقع به ما أوقع بمعونة طاهر باشا والأرنؤط ثم بالاتراك عليه حتى أوقع به أيضا وظهر أمر أحمد باشا وعرف أنه إن تم له الأمر وقويت شوكة الأتراك لا يقون عليه فعاجله وأزاله بمعونة الأمراء المصريين واستقر معهم حتى أوقع باشتراكهم قتل الدفتردار والكتخدا ثم محاربة محمد باشا بدمياط حتى أخذوه أسيرا ثم التحيل على على باشا الطرابلسى حتى أوقعه فى فخهم وأنزلوه وقتلوه ونهبوا كل ذلك وهو يظهر المصافاة والمصادقة للمصريين وخصوصا للبرديسى فإنه تآخى معه وجرح كل منهما نفسه ولحس من دم الآخر قال: واغتر به البرديسى وراجت سوقه عليه وصدّقه وتعضد به واصطفاه دون خشداشينه وتحصن بعساكره وأقامهم حوله فى الأبراج وفعل بمعونتهم ما فعله بالألفى وأتباعه وشردهم وقص جناحه بيده وشرد البواقى وفرقهم فى النواحى فى طلبهم فعند ذلك استقلوهم فى أعينهم وزالت هيبتهم من قلوبهم وعلموا خيانتهم وسفهوا رأيهم واستضعفوا جانبهم وشمخوا عليهم وفتحوا باب الشر بطلب العلوفة مع الإحجام خوفا من قيام أهل البلد معهم ولعلمهم بميلهم الباطنى إليهم فاضطروهم إلى عمل هذه الفردة ونسب فعلها إلى البرديسى فثارت العامة وحصل ما حصل وعند ذلك تبرأ محمد على من ذلك وساعدوهم فى دفعهم عنهم فمالت قلوبهم إليهم ونسوا قبائحهم وابتهلوا إلى الله فى إزالة الأمراء وكرهوهم وجهروا بالدعاء عليهم وتحقق العساكر منهم ذلك، قال: وانحرف الأمراء على الرعية باطنا بل أظهر البرديسى الغيظ والانحراف من أهل مصر وخرج من بيته مغضبا إلى جهة مصر القديمة وهو يلعن أهل مصر ويقول لابد من تقريرها عليهم ثلاث سنوات وأفعل بهم وأفعل حيث لم يمتثلوا لأوامرنا اهـ.

ورأى البرديسى من خروج أهـل البلد والتهاب نار الفتنة مـا أذهله وأخافه ومن عبث الأرنؤوط وتطاول أيديهم إلى النهب والسلب وخطف النساء والصبيان والمطالبة بالجمـاكى المتأخرة وعـدم الوقوف عند حد مع الاسـتخفـاف بأمره ما أذهب صـبره وضاق معه صدره فاجتمع بالأمراء واشتوروا ثم أخذوا يدبرون على العسكر فأرسلوا إلى أصحابهم المتفرقين فى الجهات القـبلية والبحرية يطلبونهم للحضور فأرسلوا إلى حسين بيك الوالى ورستم بيك من الشرقية وإسماعيل بيك ومحمد بيك المنفوخ ليأتيا من شرق أطفـيح وقد كانوا جـميعـا يرصدون الألفى وينتظرونه واسـتقدمـوا حاكم الصعيد بمن حوله من الكشاف والأمراء وحاكم رشيد وحاكم دمياط وأصعدوا محمد باشا المسجون الذى سبق الكلام عنه إلى قلعة الجبل فأحس جماعة الأرنؤوط بما وراء ذلك فبادروا واجتمعوا بالأزبكية في يوم الأحد ثان عشرينه ثم ذهب جمع منهم إلى إبراهيم بيك واحتاطوا ببيته بالداودية وكذلك ببيت البرديسى بالناصرية وتفرقوا حول بيوت باقى الأمراء والكشـاف وغيرهم وكان ذلك وقت العصـر فلما علم البرديسى بإحاطة الأرنؤوط لداره رتب أموره وأخذ معه أمـواله وركب فى خاصته على الهجن وذهب إلى ناحية مصـر القديمة وكان الأرنؤوط قد نقبوا نقـبا من حائط الجنينة التى خلف داره ودخلوا منه إلى الدار فـوجدوا البرديسى قـد خرج بمن معـه من المماليك وبعض الجند والأتباع فقاتلوا من وجدوه ونهبوا ما فى الدار من فرش ومتاع وخرجوا فعاثوا وأفسـدوا وقتلوا وسبوا وتطاولت أيديهم أيضا إلى بيـوت الناس على اختلاف طبقاتهم واشتدت الفتنة وكثر صياح النساء وبكاء الأطفال فتحصن الناس فى البيوت ورموا بالأحجار من الشـبابيك إلى أن خيم ظلام الليل، فلما كانت السـاعة السابعة من الليل أرسل محمد على سرجشمه طائفة من الأرنؤوط إلى قاضى القضاة ومعهم مرسوم السلطان بولاية أحمد خورشيد باشا حاكم الإسكندرية على ديار مصر ورسم للقاضى أن يجمع المشايخ والعلماء فى الصباح ليتلى عليهم ذلك المرسوم فاستغرب القاضى ذلك وامتنع من جمع العلماء والمشايخ نظرا لاشـتداد الفتنة وتطواف جماعة الأرنؤوط بالشوارع والطرقات وقتلهم لكل من وقع فى أيديهم وأصبحوا وقد اشتدت الحركـة وكثر الرمى بالبنادق على بيـوت الأمراء فهـرب الكثير منهم وخـرجوا على وجوههم وعلم إبراهيم بيك الكبير بخروج البـرديسى فى مماليكه وأتباعه فخرج هو كذلك فيمن بقى من مماليكه وأتباعه ولم يزل سائرا حتى خرج إلى الرميلة وقد هدم فى طريقه أربعة متاريس وأصيب بعض مماليكه وخيله وأتباعه وأصيب كذلك كتخداه فمات عند باب العزب.

مطلب

إخراج محمد خسرو باشا من معقله وتوليته الإمارة على مصر بمعونة محمد على سرجشمه

وكان بعض الأمراء المصريين قد تعوقوا بقلعة الجبل فتحصنوا بها ووجهوا أفواه المدافع نحو مواقع وبيوت الأرنؤوط وتابعوا الرمى بالقنابل عليها وعلى ناحية الأزبكية وظلوا على هذا الحال إلى الضحوة الكبرى فجاءهم الخبر بفرار إبراهيم بيك والبرديسى ومن أمكنه الفرار من بقية الأمراء فركنوا هم كذلك إلى الفرار وهموا بأخذ محمد باشا وعلى قبطان باشا وإبراهيم باشا الذين كانوا فى حبوس القلعة السابق الكلام عليهم فلم تمكنهم العساكر المغاربة من ذلك فلما نزلوا من باب الجبل قام المغاربة ونهبوا ما فى دار الضرب وعاثوا فى القلعة فأخذوا ما فى المخازن السلطانية وغيرها ثم صعد محمد علىّ سرجشمه إليها فى نفر من الأرنؤوط وتسلمها من غير ممانع ولبث بها برهة ثم نزل منها وقد أنزل معه محمد خسرو باشا الذى كان معتقلاً وأمامهم المناداة بالأمان والاطمئنان وشاع خبر خروج محمد باشا خسرو من معقله ورجوعه إلى مسند الولاية على مصر فخرج الأعيان والمشايخ للقائه وذهبوا إلى بيت محمد علىّ سرجشمه ليهنؤه فقابلهم ولاطفهم فكانت مدة حبسه ثمانية أشهر كاملة حيث جاء إلى مصر بعد أسره فى دمياط فى آخر ربيع الأول وكان خروجه على يدى محمد علىّ سرجشمه فى آخر يوم من ذى القعدة وظن محمد خسرو باشا أن قد أقبلت عليه السعادة بعد إدبارها فجعل يتصرف فى الأمور ويعمل على تسكين خواطر الأرنؤوط ويشير على محمد على بعمل ما يشاء عمله وهو فرح مسرور، فلما كانت ليلة الأربعاء ثانى المحرم افتتاح سنة تسع عشرة لم يشعر محمد خسرو باشا إلا وقد دخل عليه جماعة من الأرنؤود وقبضوا عليه وقبض جماعة أخرى على إبراهيم باشا ونزلوا بهما إلى بولاق القاهرة وأنزلوهما فى إحدى السفن وأحاطوهما بالسيوف والبنادق فأنزعج خسرو باشا وقال إلى أين يا قوم وقد صرت فى ذمة محمد على وأمانه فقالو له حيث يشاء الله فسقط فى يده وكانت ولايته فى هذه المرة أشبه بولاية أحمد باشا الذى تولى بعد موت طاهر باشا يوما ونصف يوم.

مطلب

تبعيد محمد خسرو باشا وولاية أحمد خورشد باشا

قال بعض الكتاب: وكان السبب فى تبعيد خسرو باشا على هذه الصورة بغض أخوه طاهر باشا إليه وحقدهم عليه فخشى محمد على عاقبة بقائه وأسرع فى تبعيده

عن الديار المصرية فسكنت بتبعيده الفتنة وعادت الأمور إلى سابق مجراها، وصعد عابدى بيك أخو طاهر باشا إلى قلعة الجبل واستقر بها فى جمع كثير من الأرنؤوط ووردت الأخبار بمقدم أحمد خورشيد باشا وولايته على مصر فتأهب محمد على للقائه وبالغ فى ذلك حتى وصل إلى القاهرة ودخل فى الموكب المعتاد ونزل بالدار التى أعدت له بالداودية فلم يقم بها سوى يومين وانتقل منها إلى دار محمد على بالأزبكية ولم يكد يستقر به المنصب حتى شاع الخبر بظهور الألفى الكبير وقد كان متخفيا بشرقية بلبيس برأس الوادى عند شخص من العربان اسمه عشيبة فلم يزل عنده حتى زالت دولة البرديسى وتلاشت كلمته وتفرق أصحابه وانجلت الطرق من العيون والأرصاد التى كانت تتبع الألفى فركب فى عدة من الهجانة ومروا من خلف الجبل وسار إلى شرق أطفيح ونزل عند قبيلة المعازة فلما علم محمد على بخبره خافهَ وتطير منه وسير خلفه طائفة من الأرنؤوط وعلم جميع الأمراء الهاربين بظهور الألفى فجاءوا إليه واجتمعوا عليه عند الجيزة واجتمع إليهم العدد الكثير من عربان الهنادى والمماليك وقاتلوا من خرج إليهم من الأرنؤوط فهزموهم شر هزيمة وكاد يستفحل أمرهم فركب عليهم محمد على فى جماعة كثيرة وقاتلهم وأجلاهم عن الجيزة وقتل من العربان خلقا وشرّد من بقى منهم، وقد قتل وجرح كذلك من عسكر محمد على فترفع الأمراء إلى الصعيد وعاد محمد على ظافرا فلم تكن إلا أيام حتى عادوا إلى الجيزة وعاثوا فيها وأهلكوا الحرث والنسل وانتشروا بها انتشار الجراد ونزلوا على انبابة وضربوا أهلها ونهبوا ما عندهم فخرجوا هائمين على وجوههم وعبروا النيل إلى مصر والقاهرة فأخذ محمد علىّ فى جمع عساكره وعبروا النيل الى انبابة وعسكروا على مقربة منها وعملوا خندقا ومتاريس فزحف عليهم الأمراء والعربان وهجموا على المتاريس هجمات متتابعة ووقعت بين الفريقين مقتلة عظيمة أبلى فيها الفريقان نحو نصف النهار ثم انجلت الحرب بينهم وترفع الأمراء والعربان ولم يبلغوا من العساكر وقد قتل من الأمراء عدة كثيرة ولم تكن إلا أيام قليلة حتى عادوا ووصل فريق منهم إلى قبة باب النصر والعادلية من خلف الجبل وجعلوا يغدون ويروحون خلف باب النصر من خارج وباب الفتوح والشيخ قمر والدمرداش ونهبوا الوايلى وجميع ماجاوره ودخلوا الدور وأخذوا ما فيها فخرج أهل تلك الجهات على وجوههم ودخلوا إلى القاهرة فرسم الباشا إلى محمد علىّ بالخروج فى عسكره فخرجوا من باب النصر وعملوا المتاريس عند الباب المذكور فتفرق العربان والأمراء فى إقليم الشرقية والقليوبية وسار منهم طائفة إلى بلبيس فحاصروا بها كاشف الشرقية يومين ثم دخلوها عنوة وقتلوا ونهبوا وقبضوا على

الكاشف واثنين من كبار العسكر ثم حاصروا كاشف القليوبية وأخذوا أحماله ومتاعه وتركوه بعد قتال فهرب بمن بقى معه إلى القاهرة وطلبوا مشايخ البلاد وألزموهم بالكلف وفرّدوا على القرى الفرد الشاقة وقيدوا بطلبها جماعة العربان فكان كل من استعظم الأمر أو عصى حاربوا قريته ونهبوها وسبوا نساءها وقتلوا أهلها وأحرقوا أجرانها فاشتد الكرب وعظم الخطب وسار محمد علىّ بعسكره خلفهم فوقعت بينه وبينهم وقائع وحروب مات فيها خلق من الفريقين ونزل من بقلعة الجبل من الأرنؤوط للقتال فصعد إليها أحمد خورشيد باشا الوالى وسكن فيها بخدمه وأتباعه وأخذ يتصرف فى الأمور ويقرر الكلف والأموال على البلاد فضرب على أهل مصر والقاهرة خمسة آلاف كيس نقرة منها على أعيان القبط وعظمائهم ألف وخمسمائة وجملة أخرى على الملتزمين وثمانمائة كيس على بقية نساء الأمراء المصريين الأحياء منهم والأموات فضج الناس وطلبوا التخفيف فلم ينالوه وطاف المعينون على بيوت نساء الأمراء يجمعون المقرر فكان إذا تأخرت إحداهن أو طلبت المهلة أياما لازموا بابها وطالبوها بما يأكلون وبما يشربون وبما يفرشون لجلوسهم ونومهم فلا يسعها إلا السعى والخلاص على أى حال كان ومع ما جمعه أحمد باشا من هذه الأموال الطائلة والمغارم الفادحة فإنه لم يلتفت لشكوى طوائف الأرنؤوط من تأخير صرف جماكيهم ولم يعطهم منها شيئا فذهب فريق منهم إلى محمد علىّ وأحمد بيك وكبارهم وشكوا إليهم فكلم محمد علىّ باشا فى أمرهم فلم يصغ لقوله وطال الحال عليهم وهم لا ينكفون عن الشكوى فلما كان أحد الأيام جاء منهم جماعة إلى القاهرة يطالبون بما لهم وتربص آخرون بنواحى بهتيم وبلقس ومسطرد بعد أن أخرجوا أهلها منها ونهبوا ما فيها من ماشية وغلال وغيرها وتترسوا فيها ونصبوا خيامهم على أسطحة دورها وعملوا بعض المتاريس خارجها ونصبوا عليها ما كان معهم من المدافع وكان إذا مر أحد رموا عليه بالبنادق فلم يجسر أحد من العسكر على الدنو منهم وسعت بينهم وبين أحمد باشا رسل الصلح فوعدهم بصرف جميع ما تأخر لهم فقالوا لا ننفك عما نحن فيه حتى تأتونا بالمال هنا فأصبحوا وقد أرسل الباشا أوراقا إلى الحرف والصنائع سموّها تشابيه بطلب غرامة قدرها خمسمائة كيس وطاف المكلفون بجمعها فى الأخطاط فضج الناس وتحزبوا وصاحوا فى وجوه أصحاب الجباية واجتمع الجمع الكثير منهم وساروا إلى الجامع الأزهر فتبعتهم الغوغاء والصبيان وهم فى ضجة عظيمة وأمامهم الطبول وشكوا أمرهم للمشايخ وقالوا قد بلغت الروح التراقى فلاطفهم المشايخ فلم ينكفوا عما هم عليه وصعد جماعة على منارات المساجد وصاروا يصرخون ويسبون وينادون بالويل والثبور على الباشا وأعوانه.

قال صاحب عجائب الآثار: وتحلقوا بمقصورة الجامع يدعون ويضرعون ويضجون «بيالطيف» وأغلقوا جميع الأسواق والحوانيت ووصل الخبر إلى الباشا وسمع صياحهم وضجيجهم من قلعة الجبل فأرسل يقول إلى السيد عمر النقيب قد رفعنا الفردة عن الفقراء فبلغهم ذلك فأرسل يقول إن الجميع فقراء أو ما كفى ماهم فيه من القحط والغلاء والوباء وعدم الأمن على الأعراض والأرواح حتى تطالبوهم بجوامك عسكركم فأمر الباشا الأغا فنزل ومعه عدّة من العسكر وجلس بالغورية وهو يأمر الناس بفتح الحوانيت ويتوعد من يتخلف فلم يلتفتوا لقوله وكان كلما شدّد معهم فى القول صاحوا فى وجهه وضجوا وابتهلوا إلى الله ومازالوا على هذا الحال حتى جاء رسول من عند الباشا ومعه مرسوم بإبطال تلك الفردة وكف المعينين عن طلبها فسكنت عند ذلك الفتنة وتفرقت تلك الأحزاب وأصبحوا وقد فتحوا الحوانيت فعاد طوائفة الأرنؤوط إلى المطالبة بجماكيهم وأكثروا من العبث فى المدينة وقطع من كان منهم مخيما ببلقس الطرق على المارة ومنعوا السفن فسير الباشا جماعة من العساكر المصرية لقتالهم فلم يبلغوا منهم مأربا وانحاز المصريون إلى ناحية شلقان بمن معهم من الجرحى والموتى فكانوا كثيرين جدا وأخرج فى هذه الوقعة عابدى بيك أخى طاهر باشا.

وبينما كانت طوائف الأرنؤوط تطالب بالمتأخر من جماكيها وعلوفاتها كان الأمراء المصريون ومن معهم يحاولون الدنو من مصر والقاهرة ويقبضون على من يصادفونه من الجند والرعية ويسلبون المارة ووصلت بعض طلائعهم من عربان ومماليك إلى خارج باب النصر وظاهر الحسينية وناحية الزاوية الحمراء وجزيرة بدران جهة الحلى وعاثوا فى تلك النواحى وحالوا بين من خرج من عسكر الباشا لقتال الأرنؤوط وبين معسكرهم وظفروا بهم ونالوا منهم وأخذوا جميع ما كان معهم من مؤنة وسلاح وذخيرة وجاء الخبر بذلك إلى الباشا فنزل من قلعة الجبل ومعه الجمع الكثير من الجند وسار إلى بولاق ثم إلى الزاوية الحمراء وأمر بأبواب المدينة فأغلقت وقاتل من وجده منهم فلم يظفر فرجع على غير طائل وقد ترفع المصريون إلى مشتهر وبنها العسل ومعهم المنهوبات من متاع وماشية وغير ذلك وخرج خلفهم محمد على سرجشمه وحسن بيك حتى وصلوا إلى قليوب فلم يظفروا بهم ورجعوا على أعقابهم إلى القاهرة وأرسل فى هذا الحين الألفى الكبير إلى الباشا يطلب منه الإجازة بحضوره إلى مصر وأنه على ما يعهده فيه من الإخلاص والولاء فأبى عليه ذلك وأرسل إليه يقول إن كنت على ما عهدناه فيك من الولاء فالزم مقرك بجرجا

التى قد أقطعناها إليك ولا تقدم إلى القاهرة فى هذا الحين حتى نستقدمك عند الحاجة فلم يذعن الألفى لقوله وزحف هو وعثمان بيك حسن ومن معهما من المماليك والأتباع وبعض الجند والكشاف فوصل الألفى إلى بنى سويف ووصل عثمان بيك قبالته بالجانب الشرقى من النيل وأرسل الألفى عند وصوله خطابا إلى المشايخ يقول: قد حافظنا على ولائنا واستمسكنا بعروة الإخلاص الوثقى ولازمنا ما أقطعنا إياه الباشا من البلاد ولم نتعدّها إلى الآن أما وقد مس نساءنا الضر وأصبحت ذرارينا عرضة للتشريد بما ضرب عليهم من المغارم والكلف فلم نر بدّا من الانحدار إلى القاهرة رغما عن كل ممانع حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا فلما وصل الخطاب إلى المشايخ خافوا من كتمانه وأطلعوا الباشا عليه وسألوه الإجازة للألفى فأباها عليه وقال: قد كان نساؤهم بين ظهرانينا كما كانوا بين ظهرانى الفرنسيس وقد صادورهن وهم أعداء الدين واليوم هن معنا فى قرار مكين لا خوف عليهن ولا تضييق فإن عاد الألفى ومن معه إلى مقرهم سعينا فى إصلاح شأنهم وأرجعناهم إلى عيالهم وإلا شردناهم وعملنا على قطع شأفتهم فانصرف المشايخ وأمر الباشا محمد علىّ سرجشمه فخرج بعسكره إلى ناحية الإمام الليث وحفروا هناك خندقا وعملوا متاريس وبالغوا فى إحكامها وترتيبها وأكثروا من إخراج الأسلحة وآلات الحرب وكان العدو أمامهم وقد سدّ على مصر والقاهرة من الجانبين القبلى والبحرى؛ فكان أصحاب إبراهيم بيك والبرديسى وطوائف الأرنؤوط يعيثون فى البلاد من شلقان إلى جوف الشرقية والغربية والمنوفية وجماعة الألفى يعيثون فيها من الصعيد الأعلى إلى الجيزة وما جاورها فعمت الفوضى وارتفع الأمن وخيفت المسالك وكثر القتل والنهب فى الليل والنهار وانضم الجمع الكثير من طوائف الأرنؤوط إلى الأمراء المصريين فتقوت بهم عزائمهم وتطاولت أيديهم إلى كل فساد وشر ووصل أيضا الألفى الصغير بطوائفه إلى انبابة وأراد الزحف على المدينة فأطلق عساكر محمد على عليهم المدافع من بولاق القاهرة ومراكب البحر ومنعتهم من الدنو من المدينة واشتدت الأزمة واستحكمت على من بمصر والقاهرة حلقاتها وكثر تطير الباشا وأخذه للناس بالشبهات فأكثر من الحبس والقتل بأضعف الأسباب حتى كادت تزول هيبته وتضعف كلمته وانتقل محمد على بعسكره إلى بلدة طنط جهة براشيم التين وخلفه ببولاق حسن بيك وعسكره فوقع بين محمد علىّ والأمراء المصريين مقتلة عظيمة انجلت عن هزيمة المصريين فترفعوا بعد الهزيمة عن براشيم التين فتبعهم

بعساكره فترفعوا فعسكر تجاه البراشيم ولبث أياما ثم انحدر منها إلى القرافة بمصر ونزل على مقام عقبة بن عامر الجهنى وقاتل من كان بتلك الجهة من أصحاب الألفى الكبير والصغير وأجلاهم عنها فساروا إلى طرا وتحصنوا بها وكانوا قد أخذوا برجها وتمكنوا مما حوله فكاتبهم محمد علىّ وطلب صلحهم وخدعهم وأظهر لهم عجزه عن قتالهم فاغتروا وأبوا إلا القتال فأتى محمد على ليلا إلى الباشا وأخذ منه قدرا من المال ورجع إلى أصحابه فأنفق عليهم فتقوت عزيمتهم فلما كانت الساعة الخامسة من تلك الليلة ركب محمد علىّ فى نحو أربعة آلاف ما بين فارس وراجل وساروا حتى اقتربوا من حرس العدو فى آخر السادسة فترجلوا وقسموا أنفسهم إلى ثلاث طوائف طائفة سارت نحو الدير وطائفة سارت نحو المتاريس والثالثة نحو الخيل وقد كان صالح بيك الألفى الصغير ومن معه فى سنة من النوم فلم يشعروا إلا وقد صدموهم صدمة شديدة فاستيقظ القوم وبادروا إلى الهرب والنجاة فأخذ أصحاب محمد علىّ الدير وملكوا الأبراج وكان بها العساكر العثمانية وقد أشرفوا على الاستئمان والتسليم وغنموا ما وجدوه من أسلحة وخيل وهجن ومتاع وكان شيئا كثيرا وعاد محمد على عند بزوغ الفجر بعساكره ومعه خمس رؤس وصعد إلى قلعة الجبل بالرءوس فخلع عليه الباشا فروة سمور وعلقوا تلك الرءوس على سبيل الرميلة فلم تكن إلا أيام حتى عاد الألفى يشن الغارة على طرا وأبراجها وكذلك عاد إبراهيم بيك والبرديسي وعسكرهما يشنون الغارة على قليوب وبنها وضواحى القاهرة جميعها، فلما كان يوم الأحد عاشر ربيع الثانى خرج محمد علىّ بعسكره وكذلك خرج عابدى بيك وحسن بيك إلى شبرا وقاتلوا حسين بيك المعروف بالأفرنجى قتالا عنيفا وثابروا على رمى القنابل إلى ضحوة النهار ثم التحم الفريقان واشتد الجلاد بينهما إلى ما بعد نصف النهار، وصبر الفريقان وقتل بينهما خلق كثير من الأرنؤوط وطوائف المماليك وأكابر العسكر ثم إنحاز كل إلى معسكره، وبعد هجعة من الليل اجتمع العسكر من طوائف الانكشارية والأرنؤوط وغيرهم وزحفوا على متاريس حسين بيك الأفرنجي وكبسوها وكان بها حسين بيك وعلى بيك أيوب وعدد كثير من الجند والمماليك ولم يمهلوهم حتى زحفوا على بقية المتاريس فملكوا منها متاريس شلقان وبسوس وانهزم المصريون وارتحلوا إلى الخانكة وأبى زعبل ثم عادوا فجمعوا من تشرد منهم وساروا من خلف المقطم إلى الصعيد .

وبعد أيام من وقوع هذه الحوادث سافر أخو طاهر باشا إلى الديار الرومية

وشاع الخبر بارتحال محمد على سر جشمه كذلك فتطير الناس من ذلك وأعقب هذه الإشاعة عبث العسكر بالأهالى وتطوافهم فى الأسواق يخطفون ما يشاءون من السوقة وأصحاب الحوانيت فضلا عن النساء وغيرهم، فلما كان ثانى يوم مر محمد على وخلفه عدة كبيرة من العسكر وهو ماش على أقدامه وأمامه المناداة بالأمان وعود الأمور إلى سابق مجراها فلم تطمئن قلوب الرعية بل زادوا فى التحذر، وكذلك تحذر طوائف الانكشارية لتعدى جماعة الأرنؤط عليهم وقتل بعضهم البعض فى الطرق والشوارع وفى وسط الأسواق جهارا ثم برز محمد على بعد أيام بعسكره إلى ناحية البساتين ولبث بها أياما والمناداة فى كل يوم فى جميع العسكر بالخروج والاستعداد لقتال الأمراء المصريين، فلما كان يوم السبت رابع عشر شعبان سار محمد علىّ بعسكره إلى الصعيد، وسار آخرون أيضا إلى الأقاليم البحرية فالتقى محمد علىّ بالألفى الكبير ولمومه عند منية ابن خصيب فوقع بينهما القتال وانتشبت الحرب وطالت أيامها فى البر والبحر وطلب محمد على المدد من الباشا فأمدّه وسير إليه كثيرًا من الأسلحة ومعدّات القتال والمؤنة وانتشرت عساكر الأمراء المصريين حتى وصلت إلى زاوية المصلوب وحاصروا من كانوا فى بوش والفشن وبنى سويف وكذلك من بالفيوم ووصلت مقدّماتهم إلى ناحية الجيزة وطلبوا من أهالى تلك البلاد الكلف وضربوا عليهم المغارم كعادتهم وجبوها وأخذوا ما وجدوه فيها من غلال وغيره، فعبر كتخدا الباشا النيل إلى الجيزة وحصن حدودها وعمل فيها المتاريس والخنادق ورتب بها الجند المرابطين، وبعد قتال عنيف بين الألفى ومحمد على أياما كثيرا ارتحل الألفى عن منية ابن خصيب وترفع فدخلها محمد على بعسكره فلم يجد فيها شيئا لا من الذخيرة ولا من المؤنة فاستقر بها حتى يأتيه أمر الباشا، وطال القتال وقوتلت مصر والقاهرة من جميع الجهات واشتد الكرب وعم الهول والخطب فشكا الباشا أمره إلى الباب العالى وطلب منه المدد فأمدّه بطائفة من الدلاة فدخلت إلى القاهرة من العادلية فى سابع عشرى ذى الحجة ختام سنة تسع عشرة ومائتين وألف وهم فى عدة وافرة ومعهم مقدم اسمه ابن كور عبد الله فأنزلوهم ناحية الفسطاط والآثار وناحية البساتين، واهتم الباشا بأمرهم فرتب لهم الجماكى الكثيرة والعلوفات الزائدة وبالغ فى تنظيم أمورهم وأكثر لهم من الأسلحة والكراع وجعل ينظر لكل طائفة من الأرنؤوط والانكشارية وغيرهم دونهم من الأهمية والاهتمام، فلما علم محمد على وحسن باشا وهما فى منية ابن خصيب بخبر حضور أولئك الدلاة إلى القاهرة واهتمام الباشا بأمرهم وركونه إليهم دون بقية الجند وتقرب كبيرهم منه

ووثوقه به تطيرا من ذلك وأدركا ما خفى من نوايا الباشا وخشيا العاقبة فانسحبا بعسكرهما من منية ابن خصيب ورجعا إلى القاهرة فأغضب الباشا رجوعهما وجمع إليه المشايخ والوجاقلية وأرباب الديوان وكلمهم فى أمر رجوع محمد علىّ وحسن باشا بغير إذن وتركهما القتال وقال: إنهما لم يرجعا إلا لامر ينويان فعله فما أن يرجعا لقتال الأعداء وإما أن يرحلا إلى بلادهما، قال: وقد أتانى كتاب بخط السلطان يفوض إلىّ فيه أن أولى من أشاء وأعزل من أشاء وأعطى وأمنع من أشاء فالمصلحة فى أن تبقوا عندى مع كبار الوجاقلية حتى نرى ما يكون من وراء ذلك ثم رسم بخروج العسكر الدلاة المذكورين فخرجوا إلى طرا والجيزة ومعهم بعض الانكشارية والأرنؤوط ومعهم المدافع وآلات الحرب والذخيرة والمؤنة فلم يكن بأسرع من أن نزل محمد علىّ وحسن باشا بعسكرهما إلى طرا فلم يجسر الدلاة على ردّهم ولبثوا بطرأ أياما ثم صاروا يدخلون المدينة خفية حتى تكامل دخولهم ودخل كذلك محمد علىّ وحسن باشا ونزلا فى بيوتهما فازعج دخولهما الباشا وأغضبه جدا ومنع المشايخ والوجاقية من الذهاب إلى محمد على، فقامت من هذا الحين الوحشة بين الباشا ومحمد على وظهرت على كل منهما دلائل الانقباض وتحذر كل من صاحبه فأخذ محمد على فى التدبير على أحمد باشا وخلعه من الولاية، وكذلك بدأت الوحشة بين جماعة الأرنؤوط والدلاة والانكشارية فكانوا على طرفى نقيض وكانت لا تمر ساعة من النهار إلا ويقع التشاحن بين أفرادهم فى الحوارى والطرقات، وزاد بهم الحال إلى حد القتل وتعدى فعلهم هذا إلى المارة وأبناء السبيل وازدحمت طرق مصر والقاهرة باخلاطهم، وعاث الدلاة بمصر القديمة فأخرجوا أهلها من دورهم وسكنوها بما فيها من أثاث ومتاع فخرج أهل مصر رجالا ونساء وجاؤا إلى الأزهر وصاحوا على المشايخ واستغاثوا، فكلم المشايخ الباشا فى ذلك فرسم بخروج الدلاة على الفور وكتب مرسوما بذلك فلم يسمعوا قوله ولا أعاروه جانب الاعتبار فخوطب الباشا ثانيا فلم يأت شيئا فاجتمع العدد العديد من الصبيان الصغار وطافوا يصيحون فى الأسواق ويأمرون الناس بغلق الحوانيت ويستصرخونهم، فقام الناس على ساق وقدم ووصل الخبر بقيامهم إلى الباشا فأرسل كتخداه إلى الجامع الأزهر فلم يجد به أحدا من المشايخ فسار إلى بيت الشيخ الشرقاوى فرأى من تزاحم العامة وتطوافهم بالشوارع والطرقات ما أزعجه فرجع فرجمه الصبيان بالأحجار وسبوه ولعنوه وبقيت الحال كذلك إلى يوم الجمعة عاشر صفر.

* * *

(مطلب)

(ولاية محمد علىّ على جدة وتوجيه رتبة الباشوية إليه وماجرى بسبب ذلك من الحوادث والمحن)

واتفق أن قدم فى هذا الحين قاصد من دار السلطنة ومعه تقليد لمحمد علىّ بولاية جدة فاستدعى إلى قلعة الجبل ليتسلم التقليد فأبى وتأخر فترددت الرسل بينه وبين الباشا، ومحمد على يشدد فى الامتناع وكأنه كان يخشى صعوده إلى قلعة الجبل أو هو يكره الولاية على جدة ولايرضاها وبعد أخذ وردّ وقع الاتفاق على أن ينزل أحمد باشا من القلعة إلى بيت سعيد أغا ويخلع على محمد علىّ خلعة التقليد هناك فكان نزلوه فى ذلك اليوم الذى قام فيه العامة، فلما مر بين صفوف الغوغاء وزحام العامة صاحوا فى وجهه وقالوا «مايحل لك ياباشا» فهاله أمرهم وأسرع بالدخول إلى بيت سعيد أغا وحضر محمد علىّ وحسن باشا وعابدى بيك فقرئ عليهم فرمان التقليد وقد خوطب فيه« بمحمد علىّ باشا» ثم قام أحمد باشا وخلع عليه خلعة التقليد وهى فروة وقاووق فلبسهما وركب يريد الانصراف فثار عليه العساكر وطالبوه بالجماكى والعلوفة فأحالهما على أحمد باشا، وسار إلى داره بالأزبكية وخلفه بعض خواصه وجماعة من أتباعه فكان ينثر قطع الذهب ودراهم الفضة بطول الطريق ووقف العسكر لأحمد باشا ومنعوه من الركوب فلاطفهم حسن باشا ومناهم ولم يتمكن أحمد باشا من الصعود إلى قلعة الجبل إلا بعد منتصف الليل، وظلت الحوانيت والأسواق مقفلة والصبيان لا ينكفون عن الصياح فى الشوارع والطرقات والاستغاثة والنداء « بيالطيف».

مطلب

ما فعله العامة والشيخ الشرقاوى والسيد عمر النقيب مع محمد باشا

فلما كان يوم الأحد ثانى عشرة ركب المشايخ إلى بيت القاضى واجتمع به جماعة من المتعممين والعامة والصبيان وجعلوا يصرخون ويصيحون «شرع الله بيننا وبين هذا الباشا الظالم» قال بعض كتاب الأخبار: مع أنه لم يكن كاسلافه كثير الظلم والجور والعسف ولاسفاكا للدماء ومع ذلك فقد كثر الصياح وعلا الضجيج فكان منهم من يقول: يالطيف، ومنهم من يقول: يارب يامتجلى أهلك طائفة العثمانلى، ومنهم من يقول: حسبنا الله ونعم الوكيل وغير ذلك وطلبوا من القاضى

أن يرسم بإحضار أصحاب الحل والعقد من بطانة أحمد باشا لمجلس الشرع فاستحضروا وجلسوا بالمجلس الشرعى ووقع الجدال فاتفقوا على تحرير ورقة بجميع طلبات الرعية، ففعلوا ذلك وذكروا فيها تعدى طوائف العسكر والإيذاء منهم للناس وإخراجهم من مساكنهم والمظالم والفرد وقبض الخراج معجلا وحق طرق المباشرين ومصادرة الناس بالدعاوى الكاذبة وغير ذلك وأخذوا هذه الورقة معهم ووعدوا القاضى بالجواب فى غد، فأرسل الباشا فى تلك الليلة إلى القاضى والمشايخ يستقدمهم إليه بقلعة الجبل فاشتوروا فى أمر ذهابهم فعلم محمد علىّ باشا بذلك وخاف أن يكون بذهابهم إلى الباشا خمود نار الفتنة وتفريق تلك الجموع، قال أصحاب الأخبار: وهذا لا يوافق مصلحته، فأرسل إلى القاضى والمشايخ من يعلمهم بأن الباشا يريد الفتك بهم إن صعدوا إلى قلعة الجبل فخافوا ولم يصعدوا إليه فى تلك الليلة، فلما كان يوم الاثنين اجتمعوا ببيت القاضى وكذلك اجتمع العدد العديد من الغوغاء والعامة فمنعوهم من الدخول وأقفلوا الأبواب وحضر بعض الأمراء فركبوا جميعا وساروا إلى محمد علىّ باشا بمقرّه وخلفهم العامة والصبيان فى صياح وضجيج فدخلوا عليه وقد كان على علم بما هم فاعلوه وقالوا له: إنا لا نريد أن يكون أحمد باشا واليا علينا وقد اجتمعنا اليوم لخلعه فإن أطاع نجا وإن خالف عاملناه بما كسبت يداه، فقال: ومن تريدون؟ قالوا: قد اخترناك بدلا منه بشروط، قيل: فامتنع فألحوا عليه وأكثروا من الإلحاح فرضى فأحضروا فروة سمور وقفطانا وكان السيد عمر النقيب قد أعدّهما فألبسه إياهما هو والشيخ الشرقاوى وذلك عند عصر يوم الأربعاء سادس صفر سنة عشرين ومائتين وألف هجرية، ثم طاف المنادون بذلك تلك الليلة فى جميع أزقة وحارات وشوارع القاهرة ومصر وأصبحوا وقد سيروا إلى أحمد باشا يخبرونه بذلك ويطلبون منه أن ينزل من قلعة الجبل فلم يهمه الأمر ولم يكترث به وركب المشايخ فى الصباح ومعهم الجم الغفير من العامة وبأيديهم القرابين والعصى والمساوق وساروا إلى بركة الأزبكية حيث بيت محمد على باشا وضجوا وصاحوا ونادوا بالويل على أحمد باشا وزادوا فى سبه ولعنه والسيد عمر النقيب يحرّض الناس ويشجعهم على ماهم عليه من الجلبة فتحصن الباشا بقلعة الجبل وشحنها بالذخيرة والمؤنة والأسلحة الكثيرة وانضم إليه عمر بيك الأرنؤدى وصالح أغا قوش بعساكرهم وأقاموا معه بقلعة الجبل فأرسل محمد علي باشا إلى عمر بيك وصالح أغا جماعة يذكرون لهما ما اجتمع عليه رأى الجمهور من عزل أحمد باشا وخلع طاعته من أعناقهم ويحذرهما من فعل شىء ينجم عنه خروج الرعية وفعل مالا خير فيه فأرسلا يقولان أرونا سندا شرعيا نرتكن

عليه فى التخلى عنه، فاجتمع المشايخ وجميع العلماء فى يوم الخميس سادس عشر صفر ببيت القاضى ونظموا سؤالا وكتب عليه المفتون بالعزل وأرسلوه إليهما فلم يقبلاه واستمرا على الخلاف فلم يلبثا طويلا حتى انحل عن الباشا طوائف الانكشارية وزاد هياج الرعية وأكثروا من التطواف ليلا ونهارا وهم ينادون بتنزيل أحمد باشا من قلعة الجبل واستفحلت الفتنة وتطاير شررها إلى القرى والأرياف فجاء الجمع الكثير من أهلها ودخلوا إلى القاهرة واختلطوا بالعامة، وقيل: استقدموا الشيخ الشرقاوى والسيد عمر النقيب لتعميم الفتنة وتعظيم أمرها ولازموا التطواف مع العامة والصياح والجلبة .

وقدم فى هذه الأثناء محمد بيك الألفى ومن معه من الأمراء والعسكر والعربان وانتشروا جهة الجيزة واستقر الألفى بالمنصورية على مقربة من الأهرام وانتشرت أتباعه جهة الجسر الأسود وأرسل مكاتبة إلى السيد عمر النقيب والشيخ الشرقاوى ومحمد على باشا يطلب أن يقرروا له جهة يتخذها مقرا له هو وأتباعه فكتبوا له أن يختار من البلاد ما يشاء ويتأنى حتى تسكن الفتنة القائمة بمصر وشدّدوا على أحمد باشا الطلب فلم يلتفت إلى قولهم فجعل السيد عمر يحض العامة على الاجتماع والتطواف وركب هو والمشايخ إلى بيت محمد على باشا ومعهم أرباب الأشاير ومشايخ الطرق والعامة والملتزمون وبأيديهم الأسلحة والعصى والمساوق والنبابيت ولازموا التطواف ليلا فى الشوارع والحارات أحزابا وطوائف ومعهم المشاعل وهم فى ضجيج هائل ثم رسم محمد على باشا بمحاصرة قلعة الجبل وفرق عساكره فى جهات الرميلة والحطابة والطرق النافذة مثل باب القرافة والحصرية وطريق الصليبة وجلست طائفة منهم بالمحمودية والسلطان حسن وأنشؤا المتاريس فى تلك الجهات ومنعوا من يصعد أو ينزل من قلعة الجبل فأغلق عند ذلك أهل القلعة الأبواب ووقفوا على الأسوار يسب بعضهم بعضا ويترامون بالبنادق، وصعد جماعة من عسكر محمد علىّ باشا على منارة جامع السلطان حسن وصاروا يرمون منها إلى القلعة رميا متتابعا ومازالوا على هذا الحال إلى ثانى عشرى صفر فركب السيد عمر النقيب والمشايخ ومعهم الجمع الكثير وساروا إلى الأزبكية ودخل المشايخ بيت محمد على باشا ووقف الجمع أمام البيت فلحق بهم العامة والعصب وطوائف الجند والملتزمين وعصب خارج المدينة وأهل الحسينية والعطوف والقرافة والرميلة والحطابة والصليبة ومعهم الطبول والبيارق فوقفوا ساعة ثم رجعوا إلى الجامع الأزهر، ثم عادوا إلى الازبكية وهم فى صياح وضجيج والسيد عمر النقيب والشيخ الشرقاوى يحضانهم على الهياج والصياح ثم خرج المشايخ من بيت محمد على باشا وذهبوا

إلى بيت حسن باشا أخى طاهر باشا ثم رجعوا واستمر الحال على هذا الوصف إلى ليلة الجمعة، فلما كان بعد الغروب بقليل نزل جماعة من العسكر الذين بالقلعة من ناحية الرميلة وهجموا على المتاريس فصدّهم أصحابها وتابعوا عليهم الرمى بالقنابل والبنادق وهكذا إلى ما بعد العشاء الأخير، وخرج الأهالى بما معهم من الأسلحة والعصى فقاتلوا مع أصحاب المتاريس حتى أجلوا أصحاب القلعة عن المتاريس، فلما كان يوم الجمعة رابع عشرى صفر المذكور صعد عابدى بيك إلى قلعة الجبل وغاب ساعة ثم فتحت أبوابها ونزل منها عمر بيك وأمروا بالمتاريس فرفعت وتفرق من كان بها من المقاتلين وشاع خبر نزول أحمد باشا ولبثوا ثلاثا وهو لا ينزل وقد كانت خدعة منهم إذ كانوا قد أشرفوا على الاستئمان لفراغ ما عندهم من الذخيرة ونفاد ما كان معهم من الزاد ففعلوا ما فعلوه بوساطة عابدى بيك حتى تمكنوا من نقل المؤن والذخيرة وغيرها فى بحر هذه الهدنة وأنزلوا عابدى بيك أو هو نزل بنفسه وعادوا إلى الخلاف وامتنعوا من ترك القلعة وأغلقوا الأبواب فزاد بالناس القلق والغم وعادوا إلى التطواف، وقيل: بل أعادهم السيد عمر النقيب إلى ما كانوا عليه من الهرج والصياح والاستغاثة واستقدم السيد عمر الجمع الكثير من قبائل عربان الشرق والغرب وأخذ محمد على باشا فى حصار القلعة من بعد عشاء ليلة الثلاثاء وكثر الاهتمام فى صبحها بذلك وجمعوا الفعلة وأصعدوا جماعة من الجند والعربان وغيرهم إلى المقطم وأصعدوا بعض المدافع ورتبوا لهم عدة جمال لنقل الاحتياجات والخبز وروايا الماء وظنوا الظفر بأحمد باشا ومن معه وبينما هم على هذا الحال من الاهتمام فى أمر الحصار والتضيق على أصحاب القلعة إذ تحرك العسكر وطالبوا محمد على باشا بالعلوفة والجماكى المتأخرة فطاولهم حتى ينزل أحمد باشا من القلعة فأبوا إلا أخذ مالهم فمناهم فتركوا المتاريس التى كانوا بها حوالى القلعة وتفرقوا فذهب جماعة من العامة وأهل العطوف فتترسوا فى مواضعهم ورسم السيد عمر النقيب فانحاز أهالى كل خطة إلى خطتهم وعملوا المتاريس على رؤس الحارات والشوارع ولازموا التطواف نهارا والقيام باخطاطهم ليلا فتقوى أصحاب قلعة الجبل وتراسلوا الرمى بالقنابل على المتاريس ففعلت بالمدينة والخطة القريبة منها فعلا رديا جدا ونزح أهلها إلى الأطراف فرارا، وكما كان جوف مصر والقاهرة يلتهب بنار الفتنة ويزداد فى كل يوم ضراما كانت البلاد فى ضيق ما عليه من مزيد بسبب فعال الألفى الكبير ومن معه من العربان، فقد أفحشوا فى القتل والنهب والتخريب بما لم يسمع له مثيل ولا وقع له نظير فنزح الناس عن البلاد وهرعوا إلى مصر والقاهرة وهم فى أسوء حال، فامتلأت بهم الأزقة فكانوا لا يجدون ما يأكلون ولا ما يشربون

ومات منهم العدد العديد جوعا وعريا تحت أقدام الثائرين من العسكر والأهالى وكان المنظر فظيعا والخطب عميما، وخاف محمد على باشا من سوء العاقبة فأرسل إلى كبار عسكر الدلاة المعسكرين بقليوب يستقدمهم فحضروا إليه فكلمهم فى أمر الانضمام إليه فوافقوه فخلع عليهم الخلع السنية وأنفق عليهم وسيرهم لقتال الألفى فارتحلوا إلى قليوب خلف الألفى فصاروا كلما نزلوا ببلدة طلبوا من أهلها الكلف والمغارم وساموهم الخسف وعملوا معهم مالم تعمله لموم الألفى فكانوا أشدّ هولا وأقوى نكالا وتقاعسوا فلم يلحقوا بالألفى.

واشتدّ الخطب على من بمصر والقاهرة وطالت أيام الفتنة وتمنع الباشا وأصحابه بقلعة الجبل وأبو التسليم وأهل البلد فى هياج وصياح وجلبة وكان بجهة الفسطاط من مقدمى عسكر الأرنؤط مقدم اسمه على باشا السلحدار قد خرج بعسكره عن مخالفة محمد على باشا بأسباب الجماكى والعلوفة فعمل على باشا المذكور على الوصول بأحمد باشا الوالى بقلعة الجبل ومازال حتى تمكن من نقب سور القلعة من ناحية عرب اليسار وسعت بينه وبين أحمد باشا الرسل وصار يمدّ أحمد باشا وأصحابه بالذخيرة والمؤنة من الميرة والأغنام وقرب الماء وكل ما يحتاجونه إليه ولبث على هذا الحال أياما ثم دبر هو وأحمد باشا على الهجوم على المتاريس ليلا من ناحية الصليبة وأن أصحاب القلعة يوالون فى وقت الهجوم إطلاق القنابل على المتاريس من ناحية الأزبكية وجامع الأزهر وجوف المدينة وقد تم الأمر بينهما على ذلك فأصبحوا وقد أرسلوا إلى السيد عمر النقيب يخادعونه ويطلبون السعى فى إطفاء نار الفتنة وعمل ما فيه المصلحة للأهالى والجند، قيل: وأرادوا بذلك تثبيط همم أصحاب المتاريس وإشغالهم بأمر الصلح عن الدفاع فسبق من أعلمهم بسرهم وما عقدوا النية عليه فأرسل السيد عمر إلى أصحاب المتاريس من الأهالى والجند وكذلك أصحاب الأربطة وحثهم واستنهض هممهم وحذرهم فاستعدوا وراقبوا فرأوا الجمال التى تحمل الذخيرة الواصلة من على باشا إلى القلعة ومعها بعض الخدم والأتباع ونفر من الجند، فخرج عليهم حجاج الخضرى زعيم عصابة الرميلة بمن معه من سكان الرميلة فقاتلوهم وظفروا بهم وأخذوا منهم تلك الجمال وقتلوا اثنين وقبضوا على ثلاثة وحضروا بهم إلى بيت السيد عمر النقيب فبعث بهم إلى محمد علي باشا فأمر بهم فقطعوا رقابهم فلما علم من بقلعة الجبل ماحل بأصحابهم رموا فى الحال بالقنابل على المدينة وبيت محمد على باشا وبيت حسن باشا وناحية الأزهر ووالوا الرمى ولم يزالوا على هذا الحال من أول النهار إلى ما بعد الظهر، ثم عادوا

ورموا من العشاء إلى سادس ساعة من الليل فلم يجبهم أحد من أصحاب المتاريس ولا المرابطين بالمقطم وأصبحوا يوم الأحد وهم يتابعون الرمى طول النهار، وكذلك ليلة الاثنين ويوم الاثنين إلى يوم الخميس بطل الرمى ثم عادوا إليه يوم السبت وقد تهدم العدد العديد من الدور والرباع بخط الأزهر وعلى مقربة من الأزبكية فنزح أهل خطة الأزهر إلى بولاق القاهرة والحسينية فرارا من النيران المتراسلة على دورهم، واتفق أن حضر من الإسكندرية فى هذه الأثناء طائفة من عسكر الإنجليز ونزلوا ضيوفا عند قنصل دولتهم فكانوا يجتمعون كثيرا بمحمد على باشا ولبثوا على هذا الحال أياما ثم طافوا يوما مع عسكر محمد على باشا بالمدينة والفسطاط وحول الأسوار وقلعة الجبل، وكان بناحية قلعة الفرنسيس التى بقنطرة الليمون مدفع كبير فرسم محمد على باشا بنقله فنقلوه إلى باب الوزير حيث مجرى السيل وقيدوا به جماعة من أولئك الإنجليز فرموا به على برج القلعة وكذلك رمى المرابطون بالجبل وتتابع الرمى وتراسلت القنابل فخربت وأحرقت وأبادت وأهلكت وفعلت بالناس والمبانى مالا يمكن وصفه واشتد الكرب بالناس وعم الويل والبلاء الرفيع والوضيع فنزح الناس إلى القرى والكفور وأكثر المشايخ والعلماء والوجهاء من الاجتماع بمحمد على باشا والعامة وقوف بأبواب المشايخ يضجون من قفل الأسواق وامتناع باعة الخبز من فتح دكاكينهم والمشايخ يلاطفونهم والسيد عمر النقيب لا ينكف عن تحريضهم خوفا من سكون الفتنة وإخماد نارها قبل بلوغ محمد على باشا ما يتمناه من الولاية على الديار المصرية وكان لما اجتمع المشايخ والعلماء والوجهاء ونادوا بولاية محمد على باشا وألبسوه القاوون والقفطان كتبوا بذلك محضرا وأرسلوه إلى الباب العالى وتقدموا إلى السلطان فى تولية محمد على باشا على ولاية مصر وألحوا فى الطلب وبالغوا فى الشكوى من فساد الأمور وما تقاسيه الرعية بأسباب مظالم الولاة وتصرفهم بالعسف والفجور وقبحوا مسالك أحمد باشا الوالى وطلبوا خلعه.

مطلب

خلع أحمد باشا وولاية محمد على باشا

فلما كان يوم الاثنين رابع ربيع الآخر سنة عشرين ومائتين وألف هجرية قدم رسول من دار السلطنة بفرمان الولاية إلى محمد على باشا وشاع خبر وصوله إلى بولاق فهرع المشايخ والعلماء وأصحاب الوظائف للقائه وتسابق العامة وكثرت الغوغاء فى الشوارع والطرقات وبأيديهم السيوف والمساوق والعصى وهم فى ضجيج

هائل وصياح متتابع، فركب رسول السلطان وركب خلفه المشايخ وأرباب الوظائف وساروا فسار العامة أمامهم وهم يضربون الطبول والزمور ويضجون بكلماتهم التى تعودوا على الضجيج بها وما زالوا حتى أتو الأزبكية فنزل رسول السلطان ببيت محمد على باشا وأقام برهة لطيفة ثم أمر فانتظم المجلس وحضر المشايخ والعلماء كافة والوجهاء وأرباب المناصب العالية والوجاقلية وكثر الجمع فقرئ الفرمان فكان يتضمن الأمر بخلع أحمد باشا من منصب الولاية وتوجيه إلى محمد على باشا اعتبارا من اليوم العشرين من ربيع الأول سنة عشرين ومائتين وألف هجرية إجابة لطلب المشايخ والعلماء والأعيان، وأن أحمد باشا الوالى ينجلى عاجلا عن القاهرة إلى مدينة الإسكندرية ويبقى بها حتى يأتيه أمر السلطان فما أتم القارئ كلامه حتى ضج الناس بالدعاء للسلطان وعلت أصواتهم واشتدت بينهم الجلبة ولبثوا على هذا الحال ساعة ثم انصرفوا وباتوا وأصبحوا ورمى القنابل من قلعة الجبل متتابع وكذلك من الأبراج والمعاقل والمتاريس ثم بطل الرمى بعد ظهر اليوم ويبقى المحاصرون لا ينفكون عن حصارها ومنع الواصل إليها وأرسلوا إلى أحمد باشا صورة ماودر من السلطان من أمر خلعه وتولية محمد على باشا وطلبوا منه أن ينزل من قلعة الجبل ويرحل إلى الإسكندرية فامتنع وطلب الاجتماع برسول السلطان فلم يرض الرسول وأبى الاجتماع به، فاجتمع المشايخ والعلماء والوجهاء وذهبوا إلى محمد على باشا وقالوا له: ما بالك لا تدع عن الرعية حمل السلاح وقد توليت الأمر فأعمل بتدبيرك على إخراج أحمد باشا من القلعة واقبض على زمام الأمور فنحن من اليوم رعيتك وقد تركنا لك الحل والعقد فتصرف، وأصبحوا وقد فتحوا أبواب الأزهر بعد غلقها أياما وطاف الوالى ومعه جماعة من المتعممين ينادون بالأمان وإلقاء السلاح وعود العامة إلى أشغالهم وملازمة أصحاب الحوانيت حوانيتهم فخاف الناس من ذلك وتطيروا وظنوا فتك العسكر بهم إن هم ألقوا عنهم السلاح فامتنعوا وتترسوا فى الأزقة والحارات ورجموا بعض أصحاب الوالى بالأحجار وصاحوا فى وجوههم فشدد الوالى فى المناداة ورجوع الناس إلى أشغالهم نهارا ومراقبة الحوادث ليلا وجاءت الأخبار فى هذه الأثناء بقدوم الأمراء المطرودين من الأقاليم القبلية إلى جهة طرا والبساتين وأنهم على أهبة القتال فركب محمد على باشا فى نفر من الجند ومعه حسن باشا وأخوه عابدى بيك وساروا إلى جهة البساتين والتقوا بالأمراء المصريين وقاتلوهم فتقهقر الأمراء وترافعوا ثانيا إلى الصعيد فوقف محمد على باشا بمن معه من الجند أمامهم أياما ثم عاد إلى القاهرة كل هذا وأحمد باشا المعزول

متترس بقلعة الجبل لا ينزل منها ولا يعترف بولاية محمد على باشا، وكلما سألوه فى أن ينزل زاد فى التحذر وتقوّى فى التترس، فلما كان اليوم خامس عشرى ربيع الثانى من السنة أى سنة عشرين حضر رسول من دار السلطنة ومعه مرسوم إلى أحمد باشا بترك قلعة الجبل والجلاء إلى مدينة الإسكندرية حتى يرد عليه أمر السلطان فأرسلوا إلى أحمد باشا ذلك المرسوم فأبى النزول، وقال: حتى يأتى رسول أمير المؤمنين ويشافهنى فى الأمر فصعد إليه الرسول ومازال الحال هكذا أياما والناس فى خوف من انتشاب الحرب إلى يوم الثلاثاء ثالث جمادى الأول نزل أحمد باشا من باب الجبل إلى بيت مصطفى أغا الوكيل ونزل من كان معه من الجند، ثم خرج إلى جهة باب النصر ومر من خارجه إلى جهه الخروبى وذهب إلى بولاق وأقام بمنزل السيد عمر النقيب وتسلم أصحاب محمد على باشا قلعة الجبل وأقام أحمد باشا ببولاق أياما ثم رحل عنها إلى الإسكندرية باتباعه ومتاعه وعياله فكانت مدة تصرفه سنة ونحوا من ثلاثة أشهر.

إلى هنا تم الجزء الثالث من تاريخنا الكافى ويليه إن شاء الله تعالى

الجزء الرابع وأوّله ترجمة حال محمد على باشا ثم أخبار ولايته

وأخبار من تولاها بعده من ذريته إلى وفاة

ساكن الجنان المرحوم

محمد توفيق باشا

الأول

(استلفات)

قد وقع خطأ فى نقل ترجمة حال ومدّة ولاية بعض بطاركة المتأصلين فى هذا الجزء من أيام يوحنا سادس تسعيهم إلى أيام مرقس السادس بعد المائة لتكرار أسمائهم وتشابهها وخطأ ترتيب الأوراق التى نقلنا عنها فرأينا أن ننبه إلى ذلك ونعيد هنا ترتيب أسماء وأيام هذا العدد منهم على الوجه الأصح اعتبارا من سلطنة السلطان سليمان الثانى تاركين ما جاء منها على ترتيبه الأول أى من سلطنة السلطان سليمان المشار إليه إلى سلطنة السلطان سليم الثالث ابن السلطان مصطفى بدون مساس فإنه لم يؤثر بشىء على ترتيب أيام وحوادث وأخبار الملوك والولاة والحكام الذين تجمعهم صحائف هذا الجزء ولا على ترتيب حوادث وأيام ما سبقه من الأجزاء ولله المنة والحمد، وعلى كل حال فهو خطأ أرجو أولى الفضل والأدب أن يسبلوا عليه ذيل المغفرة ويتنازلوا بقبول ما أبديه من المعذرة فقد كانت عودتى إلى خدمة وطنى العزيز وتوالى أسفارى وعدم استقرارى خصوصا فى الوقت الذى تناولت فيه أيدى الطباعين ملازم هذا الجزء حائلا دون استعادة تلاوة بعض ملازمه التى قد اعتورها هذا السهو فكانت عثرة فى أسلوب ترتيب أسماء هؤلاء الناس الذى وفقناه على قاعدة مامر بيانه إلى أيام يوحنا هذا سادس تسعيهم والعصمة لله وحده.

سلطنة السلطان سليمان خان الثانى	ومات فى أيام السلطان سليم خان الثانى غبريال بطرك المتأصلين بعد أن قام ثلاثا وأربعين سنة وقد عمر فى أيامه دير انبا انطانيوس ودير انبابولا بالجبل الشرقى من النيل بإقليم بنى سويف والبهنسا واشتد عليه الولاة والعمال فانكمش حينا وكان راهبا من دير السريان واسمه روفائيل فأقيم بعده يوحنا وهو سادس تسعيهم ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله.

سلطنة السلطان مصطفى الثانى ابن محمد الرابع .

ومات فى أيام السلطان مصطفى الثانى ابن محمد الرابع يوحنا بطرك المتأصلين بعد أن أقام خمس عشرة سنة وكانت أيامه كلها شدائد ألزمه العمال وأصحاب جباية الأموال بجمع الجزية من الأقباط فجمعها كارها حزينا واشتدوا عليه بسببها فكانت محنة كبرى قاسى الناس فى أثنائها من الجور والعسف أشكالا وبموته قام بعده غبريال وهو سابع تسعيهم واسمه شنودة من بلدة بسين وكان راهبا بدير أنبا بشوى ووقع من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله .

سلطنة السلطان أحمد بن السلطان محمد .

ومات فى سلطنة السلطان أحمد ابن السلطان محمد غبريال بطرك المتأصلين بعد أن قام إحدى عشرة سنة وكانت أيامه كلها هدوءًا وسكينة ولم يقع فيها من الحوادث شىء يذكر فأقيم بعده مرقس ثامن تسعيهم وأصله من بلدة البياضية وكان عالما ورعا تقيا محبا للخير صبورا على المكاره اشتد العمال فى أيامه على القبط شدة عظيمة فكان يكثر من التطواف بين الناس ويحضهم على الصبر والسكون حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا ومات بعد أن قام إحدى عشرة سنة فأقيم بعده يوحنا تاسع تسعيهم وأصله من بلدة ملوى بصعيد مصر وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله .

* * *

سلطنة السلطان محمود خان الأول.

ومات فى سلطنة السلطان محمود خان الأول يوحنا بطرك المتأصلين بعد أن أقام عشر سنوات لم يقع فيها من الحوادث شىء يذكر فأقيم بعده متاويس المتمم للمائة وأصله من بلدة طوخ فلبث خمس سنوات أو ستا لم يقع فيها شىء يذكر ومات فأقيم بعده مرقس الحادى

بعد المائة وأصله من بلدة بهجورة بالأقاليم الوسطى من صعيد مصر ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله .

* * *

سلطنة السلطان عثمان الثالث ابن السلطان أحمد خان.

ومات فى سلطنة السلطان عثمان الثالث ابن السلطان أحمد خان مرقس بطرك المتأصلين بعد أن أقام عشر سنوات وكان حازما شديد البأس صبورا على المكاره قوىّ الحجة لم يقع فى أيامه شىء يذكر فأقيم بعده متاوس وهو الثانى بعد المائة وأصله من بلدة مير واسمه جرجس وكان راهبا بدير البراموس وكان الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله .

* * *

سلطنة السلطان مصطفى الثالث ابن السلطان أحمد.

ومات فى سلطنة السلطان مصطفى الثالث ابن السلطان أحمد متاوس بطرك المتأصلين بعد أن أقام أربع عشرة سنة وفى أيامه نقل دار البطريركية من حارة زويلة إلى حارة الروم بالقاهرة وسكن بها وكان تقيا ورعا عالما فأقيم بعده يوحنا الثالث بعد المائة واسمه إبراهيم من رهبان دير أنطونيوس وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله

* * *

سلطنة السلطان عبد الحميد ابن السلطان أحمد .

ومات فى سلطنة السلطان عبد الحميد ابن السلطان أحمد يوحنا بطرك المتأصلين بعد أن أقام اثنتين وأربعين سنة وكان عالما فاضلا تقيا ورعا وأعاد فى أيامه عمارة دير انبابولا ورمم مبانى بعض الديارات الأخرى وكانت أكثر أيامه شدائد وخطوبا متراكمة بعضها فوق بعض كادت بسببها تتعطل شعائر الدين لولا لطف الله فأقيم بعد موته بطرس الرابع بعد المائة واسمه مرجان من

رهبان دير انبابولا فأقام سبع سنين ومات ولم يقع فى أيامه من الحوادث شىء يذكر فأقيم بعده يوحنا الخامس بعد المائة واسمه عبد السيد من رهبان دير انبابولا ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله .

* * *

سلطنة السلطان سليم الثالث ابن السلطان مصطفى .

ومات فى سلطنة السلطان سليم الثالث ابن السلطان مصطفى يوحنا بطرك المتأصلين بعد أن أقام ثمان عشرة سنة واشتد فى أيامه على بك بلاط على المسيحيين شدّة بالغة وضيق عليهم جدا وصادر الكثير منهم ثم ضرب عليهم غرامة قدرها مائة ألف ريال فانبثت أعوانه لجمعها وقد عاثوا وأفسدوا وفعلوا ما لا خير فيه وبيعت بسبب هذه الغرامة الجواهر والأحجار الكريمة بأبخس الأثمان وبموته أقيم بعده مرقس السادس بعد المائة واسمه سمعان من دير انبابولا وأصله من بلدة قلوصنة وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

صفحات من تاريخ مصر

٤/٤٨

الكافى

فى
تاريخ مصر القديم والحديث

لمؤلفه

ميخائيل شاروبيم بك

رئيس النيابة العمومية بمحكمة المنصورة الأهلية
والمفتش بنظارة المالية الجليلة
عفى الله عنه

الجزء الرابع

عن الفترة من
١٨٠٠ م إلى سنة ١٨٩٠م
١٢٢٠ هـ إلى سنة ١٣٠٩هـ

الناشر
مكتبة مدبولى
٦ ميدان طلعت حرب. القاهرة

هذه السلسلة تضم :

١ – فتح العرب لمصر
٢ – تاريخ مصر إلى الفتح العثماني
٣ – الجيش المصري البري والبحري في عهد محمد علي
٤ – تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي
٥ – تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل
٦ – تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر
٧ – ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا
٨ – تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا (مجلد أول)
٩ – تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا (مجلد ثاني)
١٠ – فتوح مصر وأخبارها
١١ – تاريخ مصر الحديث مع فزلكة في تاريخ مصر القديم
١٢ – قوانين الدواوين
١٣ – تاريخ مصر من محمد علي إلى العصر الحديث
١٤ – الحكم المصري في الشام
١٥ – تاريخ الخديوي محمد باشا توفيق
١٦ – آثار الزعيم سعد زغلول
١٧ – مذكراتي
١٨ – الجيش المصري في الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم
١٩ – وادي النطرون ورهبانه وأديرته ومختصر البطاركة
٢٠ – الجمعية الأثرية المصرية في صحراء العرب والأديرة الشرقية
٢١ – الرحلة الأولى للبحث عن ينابيع البحر الأبيض (النيل الأبيض)
٢٢ – السلطان قلاوون (تاريخه – أحوال مصر في عهده – منشآته المعمارية)
٢٣ – صفوة العصر
٢٤ – المماليك في مصر
٢٥ – تاريخ دولة المماليك في مصر
٢٦ – سلاطين بني عثمان
٢٧ – محمود فهمي النقراشي
٢٨ – دور القصر في الحياة السياسية
٢٩ – مذكرات اللورد كيللرن .
٣٠ – عادات المصريين
٣١ – خنقاوات الصوفية ج ١
٣٢ – خنقاوات الصوفية ج ٢
٣٣ – تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الملوك والسلاطين
٣٤ – تاريخ عمرو بن العاص
٣٥ – دور القبائل العربية في صعيد مصر
٣٦ – علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب
٣٧ – عبد الرحمن الجبرتي ٥ أجزاء
٣٨ – مصر في العصر العثماني في القرن ١٦
٣٩ – خطط المقريزى ٣ أجزاء (محققة منقحة في ٢٧٥٠ صفحة)
٤٠ – صفحات من تاريخ مصر (صليب باشا سامى)
٤١ – صفحات من تاريخ مصر (سيد مرعى)
٤٢ – سلار الأمير التتري المسلم
٤٣ – مالية مصر
٤٤ – الموسيقى الشرقية
٤٥ – الدليل في موارد أعالي النيل
٤٦ – الموسيقى الشرقي
٤٧ـ النخبة المصرية الحاكمة ١٩٥٢-٠٠
٤٨ـ الكافي في تاريخ مصرـ ٤ أجزاء

مكتبة مدبولى
٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة - ت : ٥٧٥٦٤٢١

MADBOULI BOOKSHOP
6 Talat Harb SQ. Tel.: 5756421

الكافى

فى تاريخ مصر القديم والحديث

من سنة 1800 م. إلى سنة 1890م

1220 هـ إلى سنة 1309 هـ

الكتاب: الكافى
الكاتب: ميخائيل شاروبيم بك
الناشر: مكتبة مدبولى
الطبعة: ت: ٥٧٥٦٤٢١
الأولى: ١٨٩٨م ـ ١٣١٥هـ
الثانية: ٢٠٠٤م ـ ١٤٢٥هـ
رقم الإيداع:
مراجعة لغوية: عبد النبى محمد

صفحات من تاريخ مصر ٤٨/٤

الكافى

في
تاريخ مصر القديم والحديث

لمؤلفه
ميخائيل شاروبيم بك
رئيس النيابة العمومية بمحكمة المنصورة الأهلية
والمفتش بنظارة المالية الجليلة
عفى الله عنه

الجزء الرابع

عن الفترة من
١٨٠٠ م إلى سنة ١٨٩٠م
١٢٢٠ هـ إلى سنة ١٣٠٩هـ

الناشر
مكتبة مدبولى
٦ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة

المحتويات

المحتوى **الصفحة**

وصل في: ترجمة محمد علي باشا ١١

(فصل) فيما وقع في أيامه من الحوادث والأنباء إلى ولاية ولده الأمير إبراهيم ١٤

الفصل العشرون: في سلطنة السلطان مصطفى الرابع ابن السلطان عبد الحميد ٣٤

الفصل الحادي والعشرون: فى سلطنة السلطان محمود الثاني ابن السلطان عبد الحميد ٣٦

مطلب: قتل أمراء العسكر المعروفة بقتل الغز ٤٢

مطلب: الفرق على قتل محمد علي باشا ونهب دكاكين تجار المدينة ٤٨

مطلب: موت الأمير طوسون وقيام الأمير إبراهيم بقتال أهل الحجاز بعده ٥١

مطلب: إصلاح ترعة الأشرفية ٥٤

مطلب: فتح السودان وتدويخ أمرائه وترتيب جيش على نظام عسكر الفرنسيس ٥٤

مطلب: إنشاء المدارس الحربية ومعامل الأسلحة والبارود ٥٦

مطلب: خلود اليونان إلى الثورة وطلب الاستقلال ٥٦

مطلب: وصية بطرس قيصر الروسية ٥٨

مطلب: ولاية محمد علي باشا على المورة وكريد ومقالة من بهما من الخوارج ٦١

مطلب: تنظيم العساكر السلطانية على نظام عساكر دولة الفرنسيس. ٦٥

مطلب: ما انتحله محمد علي باشا من العلل لفتح باب الحرب على الشامات والتغلغل في قلب آسيا ٦٦

مطلب: تسليم محمد علي باشا والى حمص إلى الأمير إبراهيم وصدور فرمان السلطان بعزل محمد علي باشا وولاية حسين باشا سر عسكر بدله. ٦٩

مطلب: هزيمة عسكر السلطان عند حلب. ٧١

مطلب: ما كتبه السلطان إلى الدول من عزمه على مخالفة الروس وتهديده إياهم بذلك ٧١

مطلب: مقدم صارم أفندي على محمد علي باشا ليخابره في الصلح. ٧٤

مطلب: عقد المجلس الشرعي بدار السلطنة والحكم بعصيان محمد علي باشا وولده إبراهيم ثم الحكم عليهما بالتجريد والقصاص بالموت ٧٦

مطلب: ما كتبه محمد علي باشا إلى صاحب سياسة الفرنسيس ٧٨

مطلب: ما كتبه محمد علي باشا يهدد

به الدول ٧٩

مطلب: احتفال السلطان بزفاف ابنته زليخا سلطانة وهدية محمد علي باشا ٨٠

مطلب: ضرب الجزية على أهل حوران ولبنان ٨١

مطلب: سفر محمد علي باشا إلى السودان في طلب معادن الذهب ٨٢

مطلب: انقسام رجال الدولة العثمانية وعدم اتفاقهم على استمرار القتال مع محمد علي باشا ٨٣

مطلب: خروج أهل الشام وانتشار الفتنة ٨٤

مطلب: اتخاذ حلب مقرًا لحركة العساكر المصرية واستحلاف أهلها على السمع والطاعة ٨٧

مطلب: عودة قناصل الدول إلى مكالمة محمد علي باشا في الصلح وما كان من وراء ذلك ٨٧

مطلب: ما كتبه الأمير إبراهيم إلى حافظ باشا مقدم العساكر العثمانية وما كان بعد ذلك ٩١

مطلب: قدوم المسيو كاليه مندوب دولة الفرنسيس إلى مصر ومكالمة محمد علي باشا في تقرير قاعدة الصلح ٩٣

مطلب: هزيمة المصريين ليلاً ثم انتصارهم على العدو ٩٤

مطلب: استمالة محمد علي باشا إلى أمير سفن حرب الدول وأخذ سائر السفن غنيمة بلا حرب ولا قتال ٩٥

مطلب: وقوع رشيد باشا صدر الدولة أسيرًا في يد الأمير إبراهيم وتمزيق شمل عسكره وما كان من وراء ذلك ٩٧

مطلب: قدوم مندوب الباب العالي إلى مصر بفرمان العفو عن محمد علي باشا وولده ٩٩

مطلب: حصول العمارة الروسية إلى البوسفور مددًا إلى السلطان. ١٠٠

مطلب: تعاقد الحاج محمد عاكف باشا باشكاتب المابين مع سفير الفرنسيس على كيفية إرجاع محمد علي باشا إلى طاعة سلطانه ١٠٢

مطلب: صدور فرمان السلطان بالعفو عن محمد علي باشا وولده وتوجيه ما قد وجهه إليهما من الرتب وألقاب الشرف ١٠٣

مطلب: اشتداد علة السلطان وما كان من وراء ذلك ١٠٤

الفصل الثاني والعشرون: في سلطنة السلطان عبد الحميد خان ابن السلطان محمود خان ١٠٦

مطلب: عزم دولة الإنجليز على إكراه محمد على باشا على رد جميع ما أخذه واشتداد الخلاف بينهما وبين دولة الفرنسيس بسبب ذلك ١٠٧

مطلب: تأهب محمد علي باشا للقتال بعد أن علم بتألب الدول عليه على السلطان مساعدا دولة الفرنسيس ١٠٩

مطلب: قيام تيرس كبير سياسة

الفرنسيس لنصرة محمد علي باشا وتعاقد الدول على العمل ضد محمد علي باشا ١١٠

مطلب: إطلاق سفن الإنجليز القنابل على بيروت وسائر السواحل الشامية وما كان من وراء ذلك. ١١٢

مطلب: وصول فرمان السلطان إلى محمد علي باشا بجعل ولاية الديار المصرية فى عقبه وتحديد حقوق الولاية وما جاء بعده من الفرمانات ١١٥

مطلب: وصول سيف ونيشان هدية من السلطان إلى محمد علي باشا. ١١٩

مطلب: كف محمد علي باشا عن الحرب والعناية بإصلاح شئون مملكته ١٢٠

مطلب: ما أصاب البلاد من الضربات السماوية في سنة ثمان وخمسين ومائتين وألف هجرية ١٢٣

مطلب: زيارة محمد علي باشا دار السلطنة وما لقيه من حفاوة السلطان به ١٢٤

مطلب: ولاية الأمير إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا ١٢٥

مطلب: في مَنْ هو سليمان باشا الفرنسوي ١٢٧

مطلب: ولاية عباس باشا ابن الأمير طوسون باشا ١٣٠

مطلب: وقوع الحرب بين السلطان ودولة الروس ومعاونة الإنجليز والفرنسيس للسلطان على قتال الروس ١٣١

مطلب: ولاية محمد سعيد باشا ابن ساكن الجنان الحاج محمد علي باشا الكبير ١٤٤

مطلب: عصاوة عربان منية ابن خصيب وما جرى لهم ١٤٥

الفصل الثالث والعشرون: في خلافة السلطان عبد العزيز ابن السلطان محمود خان ١٧٣

مطلب: ولاية إسماعيل باشا ابن إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا ١٧٧

مطلب: مجيء السلطان عبد العزيز إلى ديار مصر ١٧٨

مطلب: تولية إسماعيل باشا مصر دون ذرية محمد باشا ١٨٣

مطلب: فرمان السلطان القاضي بنقل وراثة الخديوية من عقب محمد علي باشا إلى ذرية إسماعيل باشا ٢٠٤

مطلب: بيع سندات خليج السويس إلى الإنجليز ٢٠٧

مطلب: حضور كيف رسولاً من قبل الإنجليز للبحث والتنقيب عن الخزينة ٢٠٩

مطلب: حضور فرمان من السلطان باستحسان عمل الخديوي إسماعيل ٢١٠

مطلب: حضور جوش الإنجليز وجوبير الفرنسيس لتحقيق ديون البلاد. ٢١٠

مطلب: المؤامرة على قتل السلطان عبد العزيز ٢١٨

الفصل الرابع والعشرون: في سلطنة

السلطان مراد ابن السلطان عبد المجيد خان ٢٢٣
الفصل الخامس والعشرون: في سلطنة عبد الحميد ابن السلطان عبد المجيد ٢٢٥
مطلب: رجوع دولة الإنجليز إلى تهديد الخديوي إسماعيل ٢٥٨
مطلب: امتناع الوزير شريف باشا من الحضور أمام هيئة التحقيق وخلعه لنفسه من المنصب ٢٥٩
مطلب: تشكيل الوزارة المختلطة وخلع الوزراء المصريين ٢٦٠
مطلب: تحزب طوائف الضباط وإهانتهم للوزير نوبار باشا ومن بعده. ٢٦١
مطلب: رجوع وزارة الوزير شريف باشا بعد وزارة الأمير محمد توفيق وما كان من وراء ذلك ٢٦٤
مطلب: مجيء الأمر السلطاني بخلع الخديوي إسماعيل وتولية ولده الأمير محمد توفيق وما كان بعد ذلك ٢٦٦
مطلب: رحيل الخديو إسماعيل عن وطنه ومسقط رأسه وسكنه. ٢٦٧
مطلب: ولاية الخديو محمد توفيق باشا ٢٦٩
مطلب: تخلي الوزير محمد شريف باشا عن منصب الرياسة وما اشتهر به بين الناس ٢٧٤
مطلب: تولية رياض باشا الرياسة للمرة الأولى ٢٧٧
مطلب: الحكم بتبعيد جاهين باشا وتجريده من رتبه وألقابه ٢٧٩
مطلب: الاحتفال برفع قانون التصفية إلى مقام الخديوي ٢٨١
مطلب: أول شكوى لضباط الجند مما يلاقونه من عثمان رفقي باشا. ٢٨٣
مطلب: حضور الوحشة بين المراقب الفرنسوي وقونصل جنراله وظهور عصابة الجند ٢٨٤
مطلب: تحالف الضباط المصريين على السيف والمصحف وانتداب أحمد عرابي للزعامة ورفعه عريضة بالطعن في عثمان رفقي باشا. ٢٨٦
مطلب: تولية محمود باشا البارودي رئاسة ديوان الجند وما كان. ٢٩١
مطلب: اشتداد الخلاف ما بين قونصل الفرنسيس والرئيس مصطفى رياض باشا وما كان وراء ذلك. ٢٩٣
مطلب: القبض على أحد الضباط الشراكسة وهو يستكتب ضباط الجند السوداني بالشكوى من عبد العال بيك حشيش ٢٩٤
مطلب: في عمد أحمد عرابي إلى استمالة أهل البلاد ٢٩٦
مطلب: قيام جند الإسكندرية بسبب موت أحدهم بصدمة عربة أجنبي ٢٩٩
مطلب: تطواف عبد الله النديم على أهل البلاد يستنصرهم لرجال عصابة الجند ٣٠٠
مطلب: تقرب البارودي من المراقب الفرنساوي وقونصل جنرال الفرنيسين وما كان وراء ذلك. ٣٠١
مطلب : ورود الخبر من عمال السودان

بظهور كذاب يدعي المهدوية ٣٠٣

مطلب: كيف كان احتجاج العسكر بميدان عابدين وما كان من وراء ذلك ٣٠٥

مطلب: قبول الوزير شريف باشا تشكيل الوزارة بعد امتناع ٣١٣

مطلب: رفع ظلامات أهل المحبوس إلى الوزير ٣١٦

مطلب: رجال الوفد الخديوي فى مقره وذهابه إليهم ٣٢٠

مطلب: مجلس نواب البلاد وهو أحد مطالب جماعة الضباط، ٣٢٥

مطلب: ما كان من سياسة قونصل جنرال الانجليز في أمر تشكيل مجلس شوري النواب................ ٣٢٦

مطلب: الاختلاف فمن يتولى مجلس نواب البلاد. ٣٢٧

مطلب: الخبر باستفحال أمر مدعي المهدوية بالسودان. ٣٢٨

مطلب: افتتاح مجلس شوري النواب. ٣٢٩

مطلب: مفاد ما في قانون الانتخاب. ٣٣٤

مطلب: تولية أحمد عرابي وكالة ديوان الجند وورود لائحة الدولتين للخديوي. ٣٣٥

مطلب: عودة النواب إلى تنفيذ لائحتهم وما وراء ذلك. ٣٤٣

مطلب: تنزل المسيو دي بليفار المراقب الفرنسوي لنفسه من منصب المراقبة وما وراء ذلك................ ٣٥٣

مطلب: محاكمة أحمد عرابي ومن معه من العصاة. ٤٣٦

مطلب: رسم الخديوي بمصادرة أصحاب الثورة. ٤٣٨

مطلب: قيام تجار الاسكندرية لمطالبة الخزينة بثمن ما نهبه النهابون. ٤٣٨

وصل: «فيما كان من وراء احتلال الجيوش الانجليزية لأرض الكنانة». ٤٤٦

مطلب: اعتزال الوزير محمد شريف باشا وتولية نوبار باشا................ ٤٤٨

مطلب: بعثة الأميرال هيوت إلى نجاشي الحبشة................ ٤٥١

مطلب: اهتمام دولة الانجليز بإعطاء الخزينة قرضاً فلم تفلح................ ٤٥٤

مطلب: بعثة السير دورمندولف إلى دار السلطنة العثمانية................ ٤٥٥

مطلب: قاعدة الاتفاق الذي رامت الدولة الانجليزية عقده مع السلطان................ ٤٥٧

مطلب: تعدي العساكر الإيطالية على مصوع واحتلالها عنوة وماجرى. ٤٥٩

مطلب: ما وقع إلى الكونت روني وكيل الفرنسيس السياسي بمصر واعتذار الوزير إليه وهو بكسوة التشريف................ ٤٦١

فصل: «فيما كان من دهاء رجال سياسة الإنجليز على عهد الخديوي اسماعيل» ٤٦٦

مطلب: انحدار عردون بعد ذلك إلى القاهرة. ٤٦٩

مطلب: وصول عبد القادر باشا إلى الخرطوم................ ٤٧٥

مطلب: قيام حمله هيكس إلى الخرطوم ٤٧٧

مطلب: الخلاف بين علاء الدين باشا وهيكس باشا ٤٧٩

وصل في: ظهور الفتنة بالسودان الشرقي ٤٨١

مطلب: إرسال جيش لاستخلاص سنكات وطوكر ٤٨٣

وصل: «في هزيمة أخرى وكسرة أخرى ٤٨٥

مطلب: اشتداد الحال على بربر ومن بها ٤٩٠

وصل: «في سقوط أم درمان والخرطوم وما جرى بعد ذلك» ٤٩١

وصل: في حركة بعد أخرى ٥٠٦

مطلب: وتوالت الطلبات على الخزينة لكثرة النفقة ٥٠٩

مطلب: تحرك نجاشي الحبشة للحرب. ٥١٢

مطلب: إرسال الأمير حسن إلى السودان باسم مندوب فوق العادة ٥١٣

مطلب: وإلى هذا الحين لم تقف رحي المخابرات مع الباب العالي ٥١٨

مطلب: العزم على إنقاذ أمين باشا من خط الاستواء. ٥١٩

مطلب: طلب الإنجليز تخفيض عدد العساكر المصرية ٥٣٢

مطلب: وكاد السلطان ينجح في استمالة الروس والفرنسيس إلى معاونته. ٥٣٤

مطلب: وقوع القتال بسواكن مع عثمان دقنة ٥٤٠

مطلب: : «في ارتياب وانقلاب» ٥٤٣

مطلب: عدم بلوغ النيل حدّه المألوف من الزيادة ٥٥٨

مطلب: مجيء ولي عهد السلطنة الانجليزية إلى مصر ٥٥٩

مطلب: وقوف عثمان دقنة بسواكن على قدم الكر والفر. ٥٦٩

مطلب: موت رجل من الهنود واحراق جثته ٥٧٣

مطلب: ما ترتب على كثرة اللصوص من إلحاح السير بارنج بتعيين مستشار لنظارة الحقانية ٥٧٤

مطلب: ظهور الجراد بالإقليمين القبلي والبحري ٥٨٣

مطلب: موافقة عيد الأضحي لعيد بلوغ ولي العهد سن الرشد ٥٨٤

مطلب: ظهور الوباء بمكة ومصوّع ٥٨٦

مطلب: حريق سراي عابدين ٥٨٦

مطلب: جبر البحر ٥٨٨

مطلب: تحقيق ديون غردون باشا ٥٩٠

مطلب: العثور على عبد الله النديم بعد هروبه ٥٩٠

مطلب: فتح جسر قشيشة المستجد في حفلة حافلة ٥٩١

مطلب: ما أبطل من المغارم والمكوس. ٥٩٧

مطلب: ما وقع من التبديل في قضاة المحاكم الشرعية ٥٩٨

مطلب: ما فعله كتشنر باشا من النظام. ٦٠١

مطلب: ما فعله المستر منلر وكيل المالية. ٦٠١

مطلب: مرض الخديوي توفيق باشا ووفاته ٦٠٢

مطلب: رثاء الخديوى من اسماعيل صبرى ٦١٥

مطلب: رثاء من حفنى بك ناصف ٦١٦

مطلب: رثاء من وهبى بك ٦١٨

تقاريظ على الكتاب ٦٢٢

بسم الله الرحمن الرحيم

وصل

(فى ترجمة محمد على باشا)

هو محمد على بن إبراهيم ولد فى بلدة قاوله التابعة للروم إيلى سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف هجرية أى سنة ثمان وسبعين وسبعمائة وألف ميلادية وكان أبوه من صغار مقدمى العسكر وقيل إنه كان شيخ خفراء البلد وهو الصحيح ولما بلغ محمد على الرابعة من عمره مات أبوه فتولى حضانته عمه طوسون فأقام عنده ما شاء الله ثم جاء مرسوم السلطان إلى والى قاوله بقتل طوسون المذكور فقتل وكان محمد على إلى هذا الحين لم يبلغ أشده فأخذه أحد أعيان البلد واسمه براواسطه فأقام عنده حقيراً مهانا وكان كلما شب شبت معه الأحزان وظل على هذا الحال حينا حتى ضاقت نفسه وتاقت إلى الأسفار فى طلب الرزق فسار فى أرض الله الواسعة الفضاء وأجهد النفس فى تحمل الجوع والعناء فقاسى من الشدائد ما لا يحتمل، ومما حكاه عن نفسه أنه قال: كنت أتمنى أن الله سبحانه وتعالى يدفع عنى هذه الشدائد ويرحمنى مما ألاقيه من الضنك والذل فكنت أجهد النفس فى طلب العيش على قدر الحاجة وكان يمر بى اليوم واليومان أطوى الأرض سائراً على أقدامى لا أذوق مناما ولا أسيغ طعاما وكانت الأرض وطائى والسماء غطائى وأتفق أنى سافرت على ظهر مركب أريد أرض الله الواسعة فى طلب العيش فخرجت ريح شديدة فأرتفعت الأمواج وعلت وأزبد البحر وهاج وألقى مركبنا على الصخور فتحطمت وغرق كل من فيها فتركنى رفاقى وطلعوا إلى بعض الجزائر القريبة وبقيت أنا عرضة للأمواج تعلو بى تارة وتهبط بى أخرى وتستقبلنى الصخور فتدق عظمى وتدمى جسدى حتى

يسر الله لى الوصول إلى تلك الجزيرة سالماً وقد صارت اليوم من بعض أملاكى فسبحان المعطى بغير حساب. اهـ قوله.

وما زال على هذا الحال من قلة ذات اليد وضيق العيش حتى بلغ الثامنة عشرة من العمر فدخل فى خدمة العسكرية وظهرت عليه علامات الشهامة وشدة البأس فقيده الوالى بجباية الأموال وجمع الخراج ومال إليه وأحبه وولاه رتبة البلكباشية. قال بعض الكتاب: وقد زوّجه إحدى قريباته. وقيل غير ذلك فولدت له خمسا من بنين وبنات وهم إبراهيم وطوسون وإسماعيل وزهرة وزينب، فلما كبرت عائلته وقل ماله ترك خدمة العسكرية واتخذ له حانوتاً يبيع فيه التبغ (الدخان) فيسر الله له الحال وبسط له فى الرزق وكانت قد بلغت منه الشجاعة مبلغاً عظيماً فكان إذا تعذر على الوالى القبض على جان سير إليه محمد على فيأتى به صاغرا فهابه الناس جدا وأجله رفاقه وشهدوا له بالبسالة وعلو الهمة ولبث على هذا الحال حينا فلما أغار بونابارته بجيوش الفرنسيس على ديار مصر وكبر ذلك على السلطان سليم جيش لقتاله الجيوش وأعد المعدات وأرسل إلى والى مقدونية فى طلب النجدة فبعث والى مقدونية إلى براواسطه وكان قد تولى على ولاية قاوله بأن يجهز لقتال الفرنسيس مائة مقاتل فجهزهم وجعل مقدمهم ولده عليا ورسم لمحمد علىّ بأن يكون فى ركابه وجاءهم حسن باشا أمير سفن الدولة بسفينة فركبوها فسارت بهم إلى أبى قير وأنزلتهم هناك فقاتلهم الفرنسيس قتالاً عنيفاً وظفروا بهم فخاف علىّ المذكور ورجع بالذى بقى معه من عسكره وأقام محمد على فى نفر قليل ممن مال إلى البقاء معه فأعجب حسن باشا فعله وقلده رتبة البكباشية على من كان معه من العساكر وضم إليه طائفة أخرى فسار بهم مع العمارة الإنجليزية والجيوش العثمانية التى جاءت مع يوسف باشا الصدر الأعظم لقتال الفرنسيس فأبلى محمد على فى قتالهم بلاء حسنا ولما استقر بهم المقام بالقاهرة بعد جلاء الفرنسيس عنها قاتل الأمراء المصريين وكانت له معهم وقائع مذكورة.

واتفق أن حضر بعيد ذلك خسرو باشا أحد كبار عسكر السلطان لقتال الأمراء المصريين والمماليك وقطع شأفة من بقى منهم وإنقاذ البلاد من أيديهم فوقعت بينه وبين محمد على مناظرات كثيرة واشتدت الوحشة بينهما وكبرت حتى كاد خسرو باشا ينفشل ويسقط فى يده ثم عاد فتمكن من نكاية محمد على وسد عليه مسالك التقدم وقفل دونه أبواب الفلاح وجعل يراقب أموره ويرصد أعماله فخافه محمد على وخشى العاقبة وجعل يستميل إليه طوائف الأرنؤط ويتزلف حتى مالوا إليه

وأحبوه فاستوثق لنفسه فولوه وظيفة (قابى بولك باشى) وهى فى عرفهم رتبة حرس السراى فهابه خسرو باشا وعاد إلى مسايرته وأدناه منه وقرّبه من مجلسه وبقيا على ذلك حينا ثم ولاه منصب سرجشمه ولعلها مقدم أربعة آلاف فظهر من هذا الحين طالع نجمه وعلت كلمته ومال إليه الناس وتعلقت به آمال العسكر لا سيما طوائف الأرنؤط فخضعوا له وأطاعوا أمره وعملوا بإشارته فحسده خسرو باشا وتحذر منه وخشى عاقبة ظهوره فلما عصى الأمراء المصريون وخرجوا على خسرو باشا وانحدر إلى القاهرة من كان منهم بالصعيد الأعلى سير لقتالهم عسكرا من العثمانيين ورسم إلى محمد على بالخروج فى جنده لنجدة العساكر السلطانية فخرج كارهاً فلما احتدمت نار القتال بين الفريقين تأخر محمد على عن نجدة العثمانيين وخذلهم فانتصر عليهم الأمراء المصريون نصرة عظيمة وأعملوا فيهم القتل والتشريد وجاء مقدم العساكر العثمانية يشكو مما فعله محمد على فشق فعله على خسرو باشا وأكبره ورسم بقتله وحرر فرمانا بذلك واستدعاه ليلة إلى قلعة الجبل فأحس بالمكيدة وعلم بما وراء صعوده إلى القلعة فى تلك الليلة فتمارض وأصبح وقد ثار الجند يطالبون بالمتأخر من جماكيهم وعلوفاتهم فتحزبوا وشددوا فى الطلب وركبوا على خسرو باشا وقاتلوه فانهزم وفرّ إلى دمياط فى نفر من أتباعه فأقاموا فى الولاية بعده أحمد طاهر باشا وهو من مقدمى عسكر الأرنؤط فلم تكن إلا أيام قلائل حتى قام عليه جماعة الانكشارية وقتلوه فقامت بعد قتله الفتنة وعم الاختلال واشتدت الخطوب وكثر السلب والنهب وهتك النساء فى الشوارع والطرقات واشتد الأمر شدة بالغة ووقع من الحوادث ما مر بك بيانه فى محله مفصلا فكان لمحمد على فى إضرام نار هذه الفتن اليد الطولى وأعانه على جميع ذلك الشيخ الشرقاوى والسيد عمر نقيب الأشراف وخلا لمحمد على الجوّ بموت طاهر باشا وصارت جميع الجند من الأرنؤط طوع أمره فلما آنس منهم كمال الطاعة عمل على استمالة من كان بالقاهرة من كبار المشايخ والعلماء وأرباب الوظائف العالية فانحازوا إليه ولبوا دعوته وتقدموا إلى دار السلطنة العثمانية فى طلب توليته على ديار مصر وكان السلطان قد رسم بولايته على جدة كما أشرنا إلى ذلك بقصد إبعاده عن ديار مصر وتمزيق شمل أصحابه فقد كان هو وأصحابه أشد خطراً على الدولة من جماعة الأمراء المصريين فلم يتعجل بالسفر وتقاعس وأظهر الاهتمام بجمع الزاد والذخيرة واحتياجات العسكر وكان المشايخ والعلماء فى خلال هذه الفترة يكثرون من الإلحاح على دار السلطنة بطلب تقليده الولاية على مصر ويرفعون إليه القصص ويشكون مما يلاقونه من الجور والعسف وقد

أضرموا نار الفتنة بمصر والقاهرة وأثاروا العامة أياماً فخرجوا على أحمد باشا خورشيد عامل الدولة يومئذ على ديار مصر وحاصروه بقلعة الجبل فكان بينه وبين الجند والعامة وقائع وحروب هائلة قد مر بك بيانها فى محلها. وطالت أيام الفتنة والرسل تتردد ما بين دار السلطنة ومصر والحرب والقتل والنهب قائمة على ساق حتى جاء الفرمان بولاية محمد على اعتباراً من العشرين من ربيع الأوّل سنة عشرين ومائتين وألف هجرية ولم يستقر به المنصب إلا فى يوم الثلاثاء ثالث جمادى الأولى سنة عشرين لتمنع أحمد باشا بقلعة الجبل وعدم اعترافه بصحة ولاية محمد على باشا حتى وفد عليه رسول الدولة بمرسوم السلطان يأمره فيه بترك قلعة الجبل والجلاء عنها إلى الإسكندرية فنزل وسار إلى الإسكندرية على ما تقدم بك بيانه.

(فصل)

(فيما وقع فى أيامه من الحوادث والأنباء إلى ولاية ولده الأمير إبراهيم)

ولما استقرت الولاية بمحمد على باشا جعل يتصرف فى الأمور ويعمل على تعزيز سلطانه وتأييد مقامه باسترضاء الجند وصرف المتأخر من جماكيهم فضرب على قبط مصر قرضا وقسمه على كبرائهم، فكان ذلك أول قرض أحدثه بعد ولايته وكان عظيمًا للغاية وبث الأعوان لقبضه فعاثوا وفعلوا ما لا خير فيه ثم قبض على المعلم جرجس الجوهرى معلم مصر يومئذ وصاحب خراجها وعلى جماعة من عظماء القبط وسجنهم ببيت كتخدا وطلب من المعلم جرجس حسابه عن سنة خمس عشرة ومائتين واستقدم المعلم غالى وكان يومئذ كاتب الألفى بالصعيد وأقامه بدله وضيق على المعلم جرجس وشدد فى طلب الحساب وفرض عليه مبلغًا عظيمًا من المال فباع ما كان عنده من أثاث ومتاع ووفى بعض ما طولب به فلم يخل عنه وبقى معتقلاً أياماً. والطلب على أهل البلاد بما فرض عليهم مترادف فحسد الأمراء المصريون محمد على باشا على ما وصل إليه من علوّ الكلمة واتساع الشهرة وحقدوا عليه واستصغروا قدره وناووه فخافهم وخشى عاقبة أمرهم واهتم لقتالهم وشدد فى طلب الأموال وفى جمع الخراج وبث أصحاب الجباية فجابوا البلاد شرقا وغربا ونزلوا على القرى وجمعوا منها ما قدروا على جمعه ثم أخذ فى تدبير أمور العسكر وصرف الجماكى والعلوفات المتأخرة لهم وأكثر من جمع الأسلحة ومعدات الحرب وسير إلى زعماء الأمراء المصريين الذين كانوا بالأقاليم القبلية والبحرية يدعوهم إلى

ترك القتال والعود إلى طاعة السلطان فشطوا فى الطلب وبالغوا فلم يقدر على القيام بمطالبهم فلما علموا بعجزه انحدروا بخيلهم ورجلهم إلى الجيزة وضربوا على أهلها الكلف والمغارم وانضم إليهم من كان بها من لومهم وأتباعهم وسار جماعة منهم إلى ناحية المذبح وكسروا باب الحسينية ودخلوا من باب الفتوح وهم فى ضجة وجلبة عظيمة وخلفهم طبول ونقاقير وجمال وأحمال وساروا من بين القصرين حتى جاءوا الأشرفية فاندهش الناس من دخولهم المدينة على هذه الحال وما زالوا حتى وصلوا إلى عطفة الخراطين فافترقوا إلى فرقتين ودخل جماعة منهم وبأيديهم البنادق والسيوف ومروا بالجامع الأزهر إلى بيت السيد عمر النقيب والشيخ الشرقاوى فامتنع السيد عمر من لقائهم فدخلوا إلى بيت الشيخ الشرقاوى وأتى إليهم السيد عمر فطلبوا منه النجدة وخروج العامة معهم لقتال محمد على باشا فأمتنع فألحوا عليه فلم يقبل وهددهم فركبوا وخرجوا من باب البرقية، وكان قد وصل خبرهم إلى محمد على باشا فأرسل فى أثرهم حسن بيك الأرنؤطى فى عدة وافرة من المشاة فلم يلحق بهم، أما الفريق الثانى منه فإنه جعل يتقدم حتى وصل إلى باب زويلة وسار قليلاً إلى جهة الدرب الأحمر فمانعه العسكر المرابطون هناك وأطلقوا عليهم البنادق فرجعوا القهقرى إلى جهة باب زويلة وهموا بالدخول إلى جامع المؤيد والتحصن به فمانعهم المغاربة الساكنون هناك وأطلق عليهم المرابطون نيرانهم فقتلوا منهم وجرحوا وقوى جأش المرابطين بجهة الدرب الأحمر عند سماعهم أصوات البنادق وتنبه غيرهم أيضاً فاجتمعوا لمعاونة بعضهم فلما شاهد الأمراء المصريون ما حل بأصحابهم من تساقط النيران عليهم من كل صوب وحدب ولوا الفرار فتبعهم العسكر يضربون فى أقفيتهم فلم يزالوا فى سيرهم إلى النحاسين. وقد أغلق الناس بوابة الكعكيين وبوابة الخراطين وبوابة البندقانيين فانقلبوا إلى ما بين القصرين فلاقاهم فريق من عسكر محمد على باشا وأطلقوا عليهم البنادق فوقعوا بين نارين فانفشلوا وسقطوا فى أيديهم وترجلوا عن خيلهم ودخل منهم جماعة إلى جامع البرقوقية وذهب آخرون بخيلهم إلى باب النصر فوجدوه مغلقا فنزلوا أيضاً عن الخيل ودخلوا العطوف وتسوّروا الأسوار وتسلقوا الجدران إلى خارج باب النصر وتفرق منهم جماعة اختفوا فى الحارات وبعض الوكائل والبيوت فأحاط العسكر بمن دخلوا جامع البرقوقية وأحرقوا باب الجامع وقبضوا على من كان به وجردوهم من ثيابهم وأخذوا ما كان معهم من ذهب ونقود وأسلحة وذبحوا منهم جماعة وأخذوا من بقى مكبلين بالحديد وهم فى أسوأ حال وساروا بهم إلى بيت محمد على باشا بالأزبكية، وكان على أهبة الركوب فلما ألقوا بين يديه رؤوس القتلى سكن جأشه وفرح كثيراً، وكان ممن

قبض عليه من الأمراء أحمد بيك تابع البرديسى أمير دمياط وحسن شبكة وآخرون فلما مثل أحمد بيك بين يدى محمد على باشا قال له: أو لم تدر يا أحمد عاقبة الخروج؟ فقال أعطونى ماء فأمر محمد على باشا ففكوا قيوده وأتوه بماء ليشرب فنظر حوله وكان على مقربة منه أحد الجند وفى حزامه خنجر فخطف الخنجر من حزامه وهَمّ بقتل محمد على باشا وقد جرح عدة من العسكر فتكاثروا عليه وقتلوه ذبحًا كذبح الشاة وساقوا الباقين إلى الحبوس فكان ذلك آخر العهد بهم، **قلت**: وكانت هذه أول وقعة وقعت بين الأمراء المصريين وعسكر محمد على باشا بعد وصول فرمان السلطان بولايته على ديار مصر، وزاد من هذا الحين تحذر محمد على باشا وأصحابه من هجمات الأمراء المصريين وسير عابدى بيك فى عسكر عظيم لقتالهم فنزل عابدى بيك على طرا والتقى مع من كان بها منهم فكان بها إبراهيم بيك الكبير وابنه مرزوق بيك وأصحابهما فأقتتلوا قتالاً شديدًا فى البر والبحر وأبلى إبراهيم بيك وأصحابه فى هذه الحرب بلاء حسنا فانهزم عابدى بيك ومن معه وقتل من عسكره خلق كثير وعاد من بقى إلى ناحية الفسطاط وقد غرقت بعض سفنهم فتقوت بذلك عزيمة إبراهيم بيك ونشر جموعه فى البلاد فعاثوا وأفسدوا وقتلوا ونهبوا وسبوا النساء والأولاد وأحرقوا الكفور والقرى فسير محمد على باشا اثنين من أصحابه إلى إبراهيم بيك ليخاطباه فى أمر الصلح فلم يجب إليه وشط فى الطلب، وحضر جماعة من أصحاب الألفى إلى جهة سقارة والجيزة وعاثوا فيها أيضا وطلبوا منها الكلف والأموال وبلغ الصائح القاهرة فنادى محمد على باشا بخروج سائر الجند والعسكر فخرجوا مشاة وركبانا وركب معهم محمد على باشا فى أبهة وجلالة وعبروا النيل إلى الجيزة ليلاً ولم تطلع الشمس إلا وكل أمير قد وقف على أصحابه. وجاء الخبر بقرب العدوّ من محلتهم فزحفوا وبانت طلائع العدو فهجم عليهم عسكر محمد على باشا فأنهزموا وولوا الأدبار فتبعوهم وأعملوا السيف في أقفيتهم واشتدوا عليهم شدة بالغة، فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم كامن من خلف فوقع بينهم الضرب وحمل أحد مقدمى عسكر محمد على باشا بمن معه على الأعداء فظنوه محمد على فأحاطوا به وأخذوه أسيرًا هو ومن معه واشتد القتال بين الفريقين وعلت الضوضاء وكثر الصياح فلم يلبثوا على هذا الحال حتى تقهقر عسكر محمد على باشا ورجع من بقى منهم إلى ناحية الفسطاط وترفع المصريون إلى ناحية بياض وبنى سويف فكانت وقعة من شر الوقائع مات فيها خلق كثير من الفريقين وداست جثثهم سنابك الخيل.

ولم تكن إلا أيام حتى رجع المصريون فى أول المحرم افتتاح سنة إحدى وعشرين فى جمع كثير من العربان ولموم أهل الحرف ونزلوا بناحية جزيرة الهواء فأزعج حضورهم محمد على باشا ورسم بخروج العسكر فخرجوا لقتالهم واقتتلوا قتالاً شديدًا فمات من الفريقين خلق وانضم فريق من عسكر الباشا إلى العدوّ وكان المقدم عليهم يومئذ حسن باشا الأرنؤطى فأرسل إلى محمد على باشا يستنجده ويخبره بما وقع فهاله الخبر وأزعجه فجمع جيشاً ضخماً وسير به نجدة إلى حسن باشا وعين المرابطين بإنبابة وطرا وشدد عليهم فى ملازمة المعاقل ونادى فى جميع الجند بذلك وأكثر من جمع الأسلحة وآلات الحرب وجاء إلى القاهرة كثيرون من الجرحى ونادوا بعدم الخروج إلى الأسواق بعد أذان العشاء فكان لذلك النداء أثر مخيف وعاد العامة وأصحاب البيوت إلى حمل السلاح والسهر والتحرز وملازمة الأزقة نهارًا والأسطحة ليلاً وسار عابدى بيك بعسكره خلف لموم الألفى إلى الفيوم فلم يجد بها أحدًا منهم فاحتلها بعسكره ثم ترك بها رباطا وعاد لنجدة أخيه حسن باشا وأقام معه بناحية الرقق وتوالت رسائل الألفى الكبير على السيد عمر النقيب بالوساطة بينه وبين محمد على باشا وتقرير قاعدة للصلح فشاور محمد على باشا أصحابه فى الأمر فقرروا إقطاع الألفى بلاد الجيزة من غير عقد ولا عهد ولا كفالة كما طلب وكتبوا له بذلك على يد رسوله الذى حضر بخطابه واحتاج الألفى وأصحابه وهم فى انتظار الجواب إلى النفقة فطلبوها من أهل برطس وأم دينار ومنية عقبة فامتنعوا عليهم فركبوا وحاربوهم ونهبوا وقتلوا الشيوخ والنساء والأطفال وفعلوا ما لا خير فيه ثم تفرقوا فى البلاد وعاثوا ووصلت طلائعهم إلى المنوفية ففعلوا بها من القتل والنهب ما لا يوصف وانضم إليهم جماعة من عساكر محمد على باشا فتقوت شوكتهم وزاد عسفهم فعزم محمد على باشا على الخروج لقتالهم بنفسه وأخذ يتأهب لذلك وأنزل شيئاً كثيراً من المهمات من قلعة الجبل ونادى مناديه فى العسكر بالخروج وضرب للنفقة فرضة على البلاد وقامت الجباة لجمعها فكانت كثيرة جداً ووردت الأخبار بقيام الألفى وزحفه من جهة الجسر الأسود والطرانة إلى ناحية الجيزة فخرج لقتاله طائفة من العساكر فوصل الألفى إلى دمنهور فوجدها ممتنعة فحاصرها فقاتلته قتالاً شديدًا فسار عنها قليلاً وعسكر على بُعد منها ومنع عنها الوارد وطلب حسن باشا المدد من محمد على باشا فسيره إليه فقام من بنى سويف إلى منية ابن خصيب فى جمع كثير وقاتل من كان بها من الأمراء المصريين والعربان وأبلى فيهم بلاء حسنًا وسارت طائفة أخرى إلى دمنهور لإجلاء الألفى عنها وظن

محمد على باشا الظفر بأعدائه فى هذه الحملة واستبشر الناس بذلك أيضًا وجعلوا يعللون الآمال بقرب زوال هذه المحن والخطوب المتتابعة، فلما كان يوم الثلاثاء رابع عشر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين ومائتين وألف جاء الخبر من حاكم الإسكندرية بقدوم جيش عظيم من العساكر العثمانية على نظام عسكر الفرنسيس ومع هذا الجيش وال جديد لمصر بدلاً من محمد على باشا اسمه موسى باشا وكان ورود هذا الخبر إلى الدفتردار أولاً فسير به إلى السيد عمر النقيب فجاءه السيد عمر وركبا معاً إلى محمد على باشا وأعلماه بالخبر ثم شاع بين الناس وتناقلته الألسنة فبذل الوالى والمحتسب جهد الاستطاعة فى إخفاء الخبر كى لا يصل إلى الأمراء المصريين فلم يقدرا وقد سار المبشرون إلى الألفى وهو على سواد البحيرة وأخبروه بوصول سفن الدولة وعليها العسكر المنظم ففرح وسر سروراً لا يوصف وطير الكتب بذلك إلى الآفاق فزاد فى مصر والقاهرة الهرج وكثر القال والقيل ولبث الناس على هذه الحال إلى يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر فقدم إلى القاهرة رسول من قبل أمير تلك السفن فسير محمد على باشا جماعة للقائه وأنزله فى بيت الروزنامجى فأقام يومى السبت والأحد واجتمع بمحمد على باشا مرات كثيرة ثم سافر يوم الاثنين ولم يعلم أحد بما دار بينهما من الحديث وجعل محمد على باشا من هذا الحين يتأهب ويستعد ويكثر من عمل آلات الحرب ومعدات القتال وجمع الحدادين والنجارين وأرباب الصنائع بقلعة الجبل وجمع إليه مقدمى العسكر وأصحاب الوظائف العالية فخاف الناس من ذلك وأخذتهم الطيرة وتحققوا عصيان محمد على باشا وخروجه على السلطان وأرسل محمد على باشا إلى السيد عمر النقيب والخاصة وبعض المشايخ والعلماء فأخبرهم بصورة الحال وما ورد له من دار السلطنة بعزله وولاية موسى باشا. قال: وسبب ذلك أن الأمراء المصريين تقدموا إلى الباب العالى فى طلب العفو عنهم وعودهم إلى ديارهم بشرط خروج جميع الجند الأرنؤط وجلائهم عن البلاد وعليهم القيام بخدمة الدولة والحرمين وإرسال غلالهما ودفع الخزينة وتأمين السابلة فأجيبوا إلى سؤالهم على هذه الشروط وأن المشايخ والعلماء يتكفلون بهم ويضمنون عهدهم بذلك، فلما سمع من حضر هذا الكلام سكتوا جميعًا ولم ينطقوا ببنت شفة ثم انصرفوا واشتدت عزيمة محمد على باشا وقوى مع ذلك جأشه فبالغ فى الاستعداد والإكثار من آلات الحرب والتطواف فى الشوارع والصعود والنزول من قلعة الجبل ثم جمع العلماء والمشايخ والسيد عمر النقيب وبعض أخصائه ثانية ومعهم ديوان أفندى وتكلموا فى ذلك الأمر طويلاً فاتفقوا على أن يرفعوا إلى الباب

العالى قصة ينكرون عليه فيها ما يراد فعله من خلع محمد على باشا وتولية موسى باشا فكتبوا يقولون : بسم الله الرحمن الرحيم، الرؤوف الحليم الحمد لله ذى الجلالة على جميع الشئون والأحوال نرفع إليك أكفا من بحر جودك مغترفه ونتوجه إلى كعبة فضلك بقلوب بخالص الوحدانية معترفه أن يديم بهجة الزمان ورونق عنوان اليمن والأمان بدوام وزير تخضع لمهابته الرقاب وتدنو لهيبته سطوة المهمات الصعاب منتهى آمال المقاصد والوسائل ومحط رحال المطالب من كل سائل حضرة صدر الصدور ومدبر مهمات الأمور الصدر الأعظم أدام الله دعائم العز ببقائه وفسح للأنام فى أيامه محفوفا بعناية الرب الكريم محفوظًا بآيات القرآن العظيم آمين، أما بعد رفع المقصد والرجاء ومد سواعد الخضوع والالتجاء فإننا ننهى لمسامعكم العلية وشيم أخلاقكم المرضية بأنه قد قدم حضرة الدستور الأكرم والمشير الأفخم مدير مهمات الأسكلات البحرية خادم الدولة العلية الوزير قبطان باشا إلى ثغر الإسكندرية فأرسل كتخدا البوابين سعيد أغا ومعه الأمر الشريف الواجب القبول والتشريف المعنون بالرسم الهمايونى العالى دامت مسراته على ممر الدهور والأعوام والأيام والليالى فأوضح مكنونه وأفصح مضمونه أنه قد تطاولت العداوة بين الوزير محمد على باشا وبين الأمراء المصريين فتعطلت مهمات الحرمين الشريفين من غلال ومرتبات وتنظيم أمير الحاج على حكم سوابق العادات والحال أنه ينبغى تقديم ذلك على سائر المطلوبات وأن هذا التأخير سببه كثرة العساكر والعلوفات وترتب على ذلك لكامل الرعية بالأقاليم المصرية الدّمار والاضمحلال وأنهت الأمراء المصرية هذه الكيفية لحضرة السدة السنية وأنهم يتعهدون بالتزام جميع مرتبات الحرمين الشريفين من غلال وعوائد ومهمات وإخراج أمير الحاج على حكم أسلوب المتقدمين مع الامتثال لكامل ما يرد من الأوامر الشريفة إلى ولاة الأمور بالديار المصرية، وأنهم يقومون فى كل سنة بدفع الأموال الأميرية إلى خزينة الدولة العلية إن حصل لهم العفو عن جرائمهم الماضية والرضا بدخولهم مصر المحمية والتمسوا من حضرة الدولة قبول ذلك منهم وبلوغهم مأمولهم فأصدرتم لهم الأمر الهمايونى للشريف المطاع المنيف بعزل الوزير المشار إليه المقرر العداوة معه ووجهتم له ولاية سلانيك ووجهتم ولاية مصر إلى الوزير موسى باشا وقبلتم توبتهم وأن العلماء والوجاقلية والرؤساء والوجهاء بالديار المصرية الداعين لحضرة مولانا الخانكار ببلوغ المأمولات المرضية إن تعهدوا بهم وكفلوهم تحصل لهم المساعدة الكلية حكم التماسهم من أعتاب حضرة الدولة العلية فأمركم مطاع وواجب القبول والاتباع غير أننا نلتمس من

شيم الأخلاق المرضية والمراحم العلية العفو عن تعهدنا وكفالتنا لهم فإن شرط الكفيل قدرته على المكفول ونحن لا قدرة لنا على ذلك لما تقدم من الأفعال الشهيرة، والأحوال والمنظورات الكثيرة التى منها خيانة المرحوم السيد على باشا والى مصر سابقاً بعد واقعة ميرميران طاهر باشا وقتل الحجاج القادمين من البلاد الرومية، وسلب الأموال بغير أوجه شرعية والصغير لا يسمع كلام الكبير والكبير لا يستطيع تنفيذ الأمر على الصغير وغير ذلك مما هو معلومنا ومشاهدنا خصوصاً ما وقع فى العام الماضى من إقدامهم على مصر المحمية وهجومهم عليها فى وقت الفجرية فجلاهم عنها حضرة المشار إليه وقتل منهم جماعة كثيرة فكانت وقعة شهيرة فهذا شىء لا ينكر فحينئذ لا يمكننا التكفل والتعهد لأننا لا نطلع على ما فى السرائر وما هو مستكن فى الضمائر ونرجو عدم المؤاخذة فى الأمور التى لا قدرة لنا عليها لأننا لا نقدر على دفع المفسدين والطغاة والمتمردين الذين أهلكوا الرعايا ودمروهم فأنتم خلفاء الله على خليفته وأمناؤه على بريته ونحن ممتثلون لولاة أموركم فى جميع ما هو موافق للشريعة المحمدية على حكم الأمر من رب البرية فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم**﴾ فلا تسعنا المخالفة فيما يرضى الله ورسوله فإن حصل منهم خلاف ذلك نكل الأمر فيهم إلى مالك الممالك لأن أهل مصر قوم ضعاف. وقال عليه الصلاة والسلام: «أهل مصر الجند الضعيف فما كادهم أحد إلا كفاهم الله مؤنته». وقال أيضاً: «وكل راع مسئول عن رعيته يوم القيامة»، ونفيد أيضاً حضرة المسامع العلية من خصوص القرض والسلف التى حصل منها الثقلة للأهالى من حضرة محسوبكم الوزير محمد على باشا فإنه اضطر إليها لأجل إغراء العساكر وتقويتهم على دفع الأشقياء والمفسدين والطغاة المتمردين امتثالاً لأوامر الدولة العلية فى دفعهم والخروج من حقهم واجتهد فى ذلك غاية الاجتهاد رغبة فى حلول أنظار الدولة العلية فالأمر مفوض إليكم والملك أمانة تحت أيديكم نسأل الله الكريم المنان أن يديم العز والامتنان لسدّة السلطان مع رفعة تترشح بها فى النفوس عظمته وسطوة تسرى بها فى القلوب مهابته، وأن يبقى دولته على الأنام وأن يحسن المبدأ والختام بجاه سيدنا محمد خير البرية وآله وصحبه ذوى المناقب الوفية، انتهى بنصه.

وكتبوا هذا المحضر نسختين إحداهما برسم أمير سفن الحرب الراسية بمينا الإسكندرية والأخرى برسم السلطان ووقع المشايخ والعلماء عليهما وأرسلا مع مخصوص فلم يصل رسولهم إلى مدينة الإسكندرية إلا وقد وصل إلى بولاق

سلحدار الوزير فنزل بها فى ليلة الاثنين ثالث عشرى ربيع الآخر من السنة ثم حضر إلى بيت محمد على باشا وأصبح وقد بعث إلى جميع المشايخ خطابا ومثله إلى الشيخ السادات. وثالثًا إلى السيد عمر النقيب من أمير سفن الحرب وكلها تتضمن الأخبار بعزل محمد على باشا عن ولاية مصر وولايته على سالونيك وإقامة السيد موسى باشا المنفصل عنها بدلاً منه وأن يكون الجميع تحت الطاعة والامتثال للأوامر والاجتهاد فى المعاونة ووجوب سفر محمد على باشا عن طريق دمياط ومعه حسن باشا حاكم جرجا وجميع من كان معهما من الجند بلا مهل فلما علموا بالأمر قاموا جميعًا وركبوا فى عصر اليوم واجتمعوا بمحمد على باشا وتناجوا فى الأمر طويلاً ثم انصرفوا وفى الغد سير إليهم بصورة عريضة يكتبونها ردًا على خطاب أمير تلك السفن فكتبوها وسيروا بها إليه وهى تتضمن الاسترحام وعدم القدرة على كفالة الأمراء وطلب منع الضرر الذى لابد وأن يترتب على إرغام العسكر على الخروج بعد الاستيطان وبالغوا فى الشكوى وعظموا فى البلوى وأخذ محمد على باشا فى الأهبة والاستعداد لقتال الألفى وأمر فخرج العساكر إلى بولاق وعبروا النيل إلى الجيزة ونادى فى الجند والوجاقلية بسرعة الخروج وعدم التخلف وأنزل كثيرًا من المدافع وآلات الحرب ثم عبر هو أيضا النيل إلى انبابة واستقدم إليه مشايخ العربان ورتب منهم طائفة لخدمة الجند، فلما وصل إلى أمير سفن الحرب خطاب المشايخ والعلماء غضب وكتب إلى محمد على باشا يستحثه على ترك مصر والجلاء عنها إلى دمياط قيل فلم يبال محمد على باشا بذلك ولم يكف عن حشد الجيوش وجمع معدات الحرب حتى تحقق الناس عصيانه فلما كان ثانى عشر جمادى الأولى من السنة وردت الأخبار بوصول موسى باشا الوالى الجديد إلى مدينة الإسكندرية وحضر إلى القاهرة أحد أعوانه بكتاب إلى الدفتردار بأن يكون قائمًا مقامه مسئولاً عن الأموال وحقوق الخزينة السلطانية فلم يقبل الدفتردار ذلك وكان الألفى لم يزل بالجيزة يبعث إلى أمير السفن الحربية بالأخبار والهدايا العظيمة وقد أرسل إليه ثلاثين حصانا منها عشرة برخوتها ومن الغنم أربعة آلاف رأس وجملة أبقار وجواميس ومائة جمل محملة بالذخيرة وغير ذلك من المال والثياب والأقمشة برسم كبار أتباعه فغضب محمد على من فعله هذا وخاف عاقبته وعجل فى تسيير الجند لقتاله فنزلوا تجاه الرحمانية فلما أحس الألفى بحضورهم سار إليهم بقومه وقاتلهم قتالاً عنيفًا انجلى عن هزيمة عسكر محمد على باشا ولم يزالوا فى هزيمتهم إلى البحر فألقوا بأنفسهم وهرب كتخدا محمد على باشا وطاهر باشا إلى ناحية المنوفية وعبروا النيل

واستولى الألفى على ما تركوه من سلاح وكراع وكان شيئًا كثيرًا وأرسل بمن أسر منهم إلى أمير سفن الحرب وجاءت الأخبار بذلك إلى محمد على باشا فخرج إلى انبابة وطاف الوالى وأصحاب الدرك ينادون على العسكر بالخروج ووصل من بقى من عسكر طاهر باشا إلى بولاق ومعهم الجرحى والمرضى فمنعوا من النزول وسارت بهم السفن إلى امبابة وباتوا وأصبحوا وقد عادوا إلى بولاق ودخلوا المدينة ثم حضر بعد أيام طاهر باشا إلى امبابة وكان قد أرسل إليه محمد على باشا بعد انهزام جيشه أن لا يعود إلى القاهرة، وأن يرحل عنه إلى رشيد فلم يصل إلى رشيد حتى رسم إليه بالرجوع إلى الرحمانية لإجلاء الألفى عنها فرجع إلى الرحمانية ومعه بعض الجند فلما التقى الجمعان انهزم عسكر طاهر باشا ورجعوا القهقرى وما زالوا فى هزيمتهم ومعهم طاهر باشا حتى وصلوا إلى امبابة ورجع الألفى إلى حصار دمنهور والتضييق على من كانوا بها وجاءت الأخبار من أمير السفن إلى الألفى بالتشديد فى قتال من بها حتى يستأمنوا وطال القتال واشتد فى جميع الجهات وترددت الرسل بين أمير السفن والألفى والأمراء المقيمين بالصعيد وطالت المخابرة بينهم وطلب أمير السفن حضور الأمراء من الصعيد إلى الإسكندرية ليتشاوروا فى الأمر فلم يحضروا إذ منعهم البرديسى من ذلك لما بينه وبين الألفى من الشحناء وكان الألفى هو الذى استقدم أمير تلك السفن بسفنه إلى مياه الإسكندرية وعمل على خلع محمد على باشا بوساطة الإنجليز بدون مشورة الأمراء المصريين فلما لم ينحدروا إلى الإسكندرية علم أمير السفن ما بينهم من البغضاء والشحناء وما هم عليه من تفريق الكلمة فتحقق أنهم لا يفلحون وأنه لا يصح له الاستيثاق منهم ولا الأخذ بمشورتهم فنبذهم وأرسل إلى محمد على باشا مكتوبجيه واستوثق منه فتعهد له محمد على باشا بجميع الالتزامات والتعهدات التى عينها الألفى وكتب بذلك عرضا ووقع عليه من المشايخ والاختيارية والوجاقلية وأرسله مع ولده إبراهيم وأرسل معه هدية فاخرة للغاية وخيلا وأقمشة هندية وغير ذلك فلما كان العاشر من رجب وصل كتخدا أمير السفن المذكور إلى ساحل بولاق فأطلقوا لقدومه عدة مدافع وأرسلوا له فى صبح ثانى يوم خيولا صحبة الأمير طوسون ولد محمد على باشا فركب فى موكب حافل للغاية ثم عقد الديوان وقرئ مرسوم أمير السفن ببقاء محمد على باشا على ولاية الديار المصرية وعليه القيام بجميع التعهدات التى منها خروج الحاج والاستمرار على أداء لوازم الحرمين وإيصال العلائف والغلال لأربابها على النسق القديم، وأن لا يدخل فى دائرة تصرفه ثغور رشيد ودمياط والإسكندرية بل تبقى إيراداتها من

الجمارك حقا للخزينة السلطانية فلما تمت قراءة ذلك المرسوم أطلقوا عدة مدافع وطاف المبشرون على بيوت الأمراء والأعيان وأقلع الأمير بسفنه إلى دار السلطنة ومعه موسى باشا والأمير وإبراهيم ولد محمد على باشا فى يوم السبت خامس شعبان وتقوت عزيمة محمد على باشا فجعل يتأهب لقتال الألفى وإجلائه عن دمنهور والرحمانية فلم يتم خروج العسكر لقتاله حتى جاء هو وقومه إلى الجيزة وانتشرت لمومه ببلادها فكانت كثيرة جدًا فأسرع محمد على باشا فى إخراج الجند وعبر بهم النيل إلى امبابة وسير فريقًا منهم إلى الأخصاص فالتقى بأصحاب الألفى واقتتلوا قتالاً عنيفًا فتقهقرت عساكر محمد على باشا وانحازوا إلى الكفور والقرى وأصبحوا وقد نودى فى عسكر الألفى بالرحيل إلى شبرامنت فساروا فى يوم الثلاثاء ثامن عشر القعدة فكانوا عدة كثيرة على نظام وترتيب الفرنسيس فأعجب محمد على باشا نظامهم ورأى الألفى قرما عنيدًا فأمر ببقاء أصحابه على قدم الدفاع فلما كان يوم الخميس العشرين من القعدة حضر جماعة من العربان وأخبروا محمد على باشا بموت الألفى فى يوم وصوله إلى شبرامنت نزل به خلط دموى فتقايأ ثم مات من ساعته ناحية المحرقة على مقربة من دهشور وأن مماليكه أجمعوا على أن يؤمروا عليهم شاهين كما أوصى الألفى عند موته فانفصلت عنهم العربان من طائفة أولاد على وكذلك تركهم كثير من العسكر فلم يصدق محمد على باشا هذا الخبر وشاع فتحدث الناس به وهم بين مصدق ومكذب وسير محمد على باشا من يتحقق الخبر فلم تعد رسله حتى جاءه الخبر أيضاً بموت عثمان بيك البرديسى بمنفلوط وموت سليم بيك أبو دياب ببنى عدى وكلاهما من كبار الأمراء الفارين بالأقاليم القبلية وزعماء العصابة ثم عادت رسل محمد على باشا وأكدوا له موت الألفى فسر بذلك سرورًا لا يوصف وقال لمن كان معه من بطانته يوم وصول هذا الخبر إليه: اليوم طاب لى ملك مصر فلا خوف علىّ. وأرسل إلى كبار جيش الألفى يخابرهم فى الصلح ويمنيهم بالأمانى العظيمة فلم يقبلوا إلا بما كان يطلبه أستاذهم من المزايا والإقطاعات وأن يدخل ضمن هذا العهد أيضاً جميع الأمراء المقيمين بالصعيد وهم إبراهيم بيك وعثمان بيك حسن فخرج محمد على باشا بجنده وعبر النيل إلى الجيزة وخيم على مقربة من ساقية مكى وسير من يخابر الأمراء المصريين فى الصلح وكف القتال واستدعى ولد الشيخ الأمير وولد الشيخ العروسى والسيد محمد الدواخلى وسيرهم سفراء لتقرير قاعدة الصلح على ما فيه المصلحة وظل قوم الألفى وعسكره ببلاد الجيزة يعيثون ويفسدون ويطالبون أهلها بالكلف والمغارم وهم يستغيثون وليس

من مجيب، وكان الألفى داهية طاغية حازما حسن السياسة ساكن الجأش واسع التدبير جسوراً صبوراً على الخطوب مقدامًا فى الحروب وكان قد جلبه بعض النخاسين إلى مصر فاشتراه أحمد جاويش المعروف بالمجنون فأقام عنده أياما فلم تعجبه أوصافه إذ كان مماجنا سفيها فطلب منه أن يبيعه فباعه إلى آخر اسمه سليم أغا الغزاوى المعروف بتيمورلنك فأقام عنده حينا ثم أهداه إلى مراد بيك فأعطاه بدله ألف أردب من الغلال فسمى من ذلك الحين بالألفى وكان جميلاً حسن الصورة فأحبه مراد بيك وجعله جوخداره ثم أعتقه وجعله كاشفا للشرقية فظهر أمره وعرفه الناس وكان صعب المراس قوى الشكيمة وكان له جار اسمه على أغا المتوكلى فدخل عنده يوماً وترجاه فى أمر فوعده بقضائه ثم أحجم عنه فدخل عليه يوما فى بيته وعاتبه فغضب الألفى وأمر خدامه أن يضربوه فضربوه بالنبابيت ضربًا مبرحًا وحملوه إلى بيته فمات فى ثانى يوم فشكى أهله الألفى إلى أستاذه مراد بيك فغضب مراد بيك ونفاه إلى البحيرة فعاث فى فوّة ومطوبس وبارنبال ورشيد وأكثر من الفساد وضرب على أهل البلاد الكلف والمغارم فشكوه إلى مراد بيك فأرسل إليه يتهدده إن عاد إلى مثل ذلك، واتفق فى هذه الأثناء إن وقع التشاحن بين الأمراء المصريين فأبعدوا سليمان بيك الأغا وأخاه إبراهيم بيك ومصطفى بيك فأرسل إليه مراد بيك أن يرافق سليمان بيك إلى الإسكندرية ثم يعود إلى القاهرة ففعل ورجع إلى القاهرة فقلدوه صنجقا وذلك فى سنة اثنتين وتسعين ومائة وألف هجرية واشتهر من هذا الحين بالغلظة والخشونة فخافه الناس وتحاشوا بأسه وبنى له دارا رحبة بقيصون واشترى المماليك والجوارى وأمر من مماليكه الأمراء والكشاف فنشئوا على أخلاق أستاذهم وتطبعوا بطباعه من التعدى والعسف والفجور والتزم بإقطاع فرشوط وغيرها من بلاد الصعيد ومن الإقليم البحرى محلة دمنه ومليج وزوبر وغيرها ولما تولى إمارة الشرقية خافه العربان وقبض على كبارهم وصادرهم فى أموالهم وماشيتهم وفرض على مشايخ القبائل المغارم والجمال ولم يزل على حاله وسطوته إلى أن قدم حسن باشا الجزايرلى إلى مصر فخرج الألفى المذكور مع حاشيته وأصحابه إلى الصعيد وأقام بها ثم رجعوا فى أواخر سنة خمس ومائتين وألف بعد الطاعون وقد لبث بالصعيد نحو الأربع سنوات ولما عاد إلى الشرقية شوهد منه بعض السكون والتأنى ومالت نفسه إلى مطالعة العلوم والنظر فى الفلكيات والهندسة وتعلق بالزايرجات وأشكال الرمل وأحكام النجوم وقرب إليه أهل العلم بها واقتنى كتبا عظيمة فى أنواع العلوم والتاريخ واعتكف ثم عاد إلى القاهرة ونزل بداره القديمة وترك الإمارة وعكف على

العلوم واكتفى بما عنده من الأراضى والإقطاعات ولبث على هذه الحال حينا فصغرت منزلته عند قومه وكادوا يحتقرونه فألتزم الأوسط وانتقل إلى دار أخرى ثم عاد إلى الإكثار من شراء المماليك حتى بلغت مماليكه زهاء الألف عدا من كان منهم فى الوظائف الكبيرة وأنشأ داره العظيمة بالأزبكية فلما تم بناؤها زينها بالفرش وأنواع البسط الفاخرة والتحف العظيمة التى أهداه بها جماعة الفرنجة وجعل خلفها بستانًا عظيماً للغاية وسكن بهذه الدار فى أواخر شعبان سنة اثنتى عشرة وهنأه الشعراء ونظم الشيخ حسن العطار تاريخا لقاعة جلوسه فى بيتين على أسكفة باب القاعة وهما:

شموس التهانى قد أضات بقاعة
محاسنها للعين تزداد بالألف
على بابها قال السرور مؤرخا
سماء سعاداتى تجدد بالألفى
١٠١ ٥٤٦ ٤٢١ ١٤٤
سنة ١٢١٢

فلما كان شهر رمضان أنار الدار المذكورة بالأنوار الكثيرة وازدحمت خيول الأمراء على بابه وأتى إليه المهنئون من كل صوب وما زال على هذه الحال إلى منتصف رمضان ثم بدا له السفر إلى الشرقية فأبطلوا الوقدة وأطفئوا تلك السرج والشموع فكان ذلك فألا وكانت مدة لبثه بهذه الدار ستة عشر يوماً فإنه ما تغيب بالشرقية إلا قليلاً حتى احتل بونابارته بجيوشه ديار مصر وساق الأمراء المصريين سوق الماشية إلى الأقاليم القبلية كما مر بك بيانه فى محله، وكان للألفى مع الفرنسيس تاريخ يذكر ووقائع عدة وما زال يراوغهم ويتعقب كتائبهم إلى أن جاءت الجيوش العثمانية إلى حدود مصر من ناحية الشام فسار إلى الصدر الأعظم قائد هذه الجيوش وقدّم له هدية نفيسة فخلع عليه الصدر وأقام عنده أيامًا ثم رجع وترفع إلى الصعيد ثم انحدر منها إلى الشام والفرنسيس يرصدونه.

ولما دخل الصدر الأعظم مصر بمن معه من الجنود وانتقض الصلح بينه وبين الفرنسيس على ما تقدم بيانه وانحصر المصريون والعثمانيون بالمدينة ركب الألفى فى قومه وقاتل الفرنسيس قتال الأبطال وخالف مراد بيك فى الصلح مع الفرنسيس واستمر على قتاله معهم وما زال إلى أن تم الصلح ثانيًا وخرج مع الصدر الأعظم وجيوشه إلى الديار الشامية ثم رجع إلى شرقية بلبيس ثم جاء إلى القاهرة وأقام بها

مع بقية الأمراء بعد دخول الإنجليز وخروج الفرنسيس وكان فى مدة إقامته معهم شديد التحرز كثير التطير وجعل يتقرب من كاتب يد الوزير حتى مال إليه وأحبه فكلمه فى الوساطة بينه وبين الوزير على أن يقلده الوزير إمارة الصعيد بشرط قيامه بالغلال والأموال فى كل عام من غير تأخير ولما كان الألفى كثير الحشم والأتباع مسموع الكلمة مهيبا عند الناس كافة وكان الوزير يرغب فى تبعيده عن القاهرة وفى تمزيق شمل عصابة الأمراء أجابه إلى طلبه ورسم له بالإمارة فسار من فوره بجميع أتباعه ومماليكه وعسكره وجدّ فى السير فلما شاع الخبر جاء إلى الوزير من قبح له هذا العمل وأشار عليه بنقضه فندم الوزير وسير من يستحضره فلم يلحقوا به وقد وصل إلى مدينة أسيوط وأرسل إلى الوزير الأموال والغلال وهدايا أخرى من أغنام وعبيد وخصيان وغير ذلك ولم يمض على قيامه إلى الصعيد إلا القليل حتى قام جماعة من كبار جند الإنجليز إلى الإسكندرية وكذلك حسين باشا أمير سفن الدولة ونصبوا للمصريين الفخاخ وأرسل القبطان يطلب جماعة منهم، فلما قدموا أوقع بهم وقبض الوزير على من بالقاهرة منهم وحبسهم وجرى ما هو مسطور فى محله وأرسلوا طاهر باشا لقتال الألفى فى عسكر جرار وحصلت المقاومة وقتل من قتل ولجأ الكثيرون إلى معسكر الإنجليز بامبابة وهرب جميع الأمراء إلى الصعيد فقاتل عنهم الألفى قتال الأبطال فى عدة وقائع تذكر ثم سافر مع الإنجليز إلى لوندره عاصمة مملكتهم وغاب بها سنة وشهرا وبعض أيام وجرى فى غيابه من الحوادث ما قد ذكر فى محله بالتفصيل.

ولما تولى محمد على باشا على مصر كان يخشى الألفى ويهابه كثيراً فوقع بينهما من الحروب ما مر بك بيانه فى محله وبالغ الألفى فى الشكوى من محمد على باشا إلى دار السلطنة العثمانية وإلى دولة الإنجليز حتى كان ما كان من حضور أمير سفن الدولة وعزل محمد على باشا وتولية موسى باشا مما قد ذكر فى محله فلما سافر أمير تلك السفن وتأيدت ولاية محمد على باشا اشتد بغض الألفى له وكبر عليه أمر ولايته على مصر فكتب إلى دولة الإنجليز يستنجدها على قتال محمد على باشا فلم تجب طلبه ثم عادت فكتبت إليه توعده بنجدة مؤلفة من ستة آلاف مقاتل فتربص ناحية دمنهور وبقى ينتظر ثلاثة أشهر فلم يأته أحد ولما طال به المقام وعيل صبر قومه وقد ضجروا من الجدب سار بهم إلى الجيزة يريد الصعيد فخرج عليه محمد على باشا بعسكره فارتحل إلى شبرامنت. قال بعض الكتاب: فلما صار على مقربة من قناطرها نزل على ربوة هناك وجلس عليها وقد زاد به الهاجس

والقهر ونظر إلى جهة مصر وقال مخاطبًا لها: ويلك أيتها القاهرة انظرى إلى أولادك وهم حولك ممزقون كل ممزق انظرى فقد استوطنك أجلاف الترك واليهود وأراذل الأرنؤط وصاروا يقبضون خراجك ويحاربون أولادك ويقاتلون أبطالك ويقامون فرسانك ويهدمون دورك ويسكنون قصورك ويفسقون بولدانك وحورك ويطمسون بهجتك ونورك، انظرى، انظرى، انظرى. قال الراوى لهذه العبارة: ولم يزل يردد هذا الكلام وأمثاله حتى تحرك به خلط دموى وتقيأ فى الحال دما ونادى بأعلى صوته أواه قد قضى الأمر وخلصت مصر لمحمد على وما ثم من ينازعه ويغالبه عليها وقد مد حكمه على طوائف المماليك فلا تقوم لهم راية بعد اليوم، قال: ثم جمع إليه أمراءه وأمر عليهم شاهين بيك وأوصاه وأوصاهم بالألفة والتحابب وأن يحذروا من مخادعة عدوهم فهو قرم عنيد وأوصاهم أنه إذا مات يحملونه إلى البهنسا ويدفنونه بجوار قبور الشهداء فمات فى تلك الليلة وهى ليلة الأربعاء تاسع عشر ذى القعدة فحملوه على بعير وساروا به إلى البهنسا ودفنوه هناك وكان جليلاً مهيباً محتشما بعيد الفكر عظيم البأس ذا غيرة حتى على أتباعه وكانت جميع قبائل العربان النازلة بمصر لا يخالفون له كلمة وكان له معهم سياسة غريبة ومعرفة بأحوالهم فكأنما هو مربى بين ظهرانيهم يقومون ويقعدون لأمره وهو مع ذلك يصادرهم فى أموالهم وجمالهم ويقتل منهم وقد تزوّج من بناتهم كثيراً ولم يبق منهن فى عصمته غير واحدة كانت غاية فى الجمال فمات عنها ولما شاع خبر موته بين العربان اجتمعت بناتهم وصرن يندبنه بكلام عجيب فكانت تتناقله أرباب المغانى فتغنى به على آلات الطرب.

وبعد موت الألفى بنحو الأربعين يوماً وصلت نجدة الإنجليز إلى ثغر الإسكندرية ونزلوا إلى البر فبلغهم خبر موته فأرسلوا رسلهم إلى جماعة الأمراء المصريين يطلبونهم إلى الحضور ليتكلموا معهم فيما فيه المصلحة وفى ردهم إلى مناصبهم وإرجاع إقطاعاتهم إلى ما كانت عليه وكان محمد على باشا يقاتلهم بالصعيد فلما علم بذلك خابرهم فى الصلح وأمر بتحصين الثغور وترميم القلاع وقيد بذلك جماعة من كبار العسكر وخشى عاقبة حضور الإنجليز إلى الإسكندرية وقد كان حضورهم فى عمارة عظيمة ونزل الإنجليز بالإسكندرية وأرسل مقدمهم إلى حاكمها يطلب تمكين العساكر البحرية من دخول الأبراج للدفاع عن الثغر بحجة أن جيوش الفرنسيس عائدة لأخذ المدينة عنوة فلم يقبل الحاكم منه ذلك ولم يمكن الجند من دخول الأبراج وترددت الرسل بين أميرال السفن الإنجليزية وحاكم المدينة ومقدم

العسكر المرابطين بالحصون والقلاع وشدد الأميرال فى الطلب وضرب للحاكم أجلاً أربعا وعشرين ساعة فإن أصر على الإباء والعناد ضربت الحصون والقلاع بالقنابل من مدافع السفن فأرسل الحاكم يخبر كتخدا الباشا بجميع ما وقع بينه وبين أميرال السفن الإنجليزية فجمع إليه كبار الدولة وأصحاب الحل والعقد وتشاوروا فى الأمر فاتفقوا على إبلاغ الخبر لمحمد على باشا واستنهاضه إلى سرعة الحضور إلى القاهرة بمن معه من المحاربين فسيروا له الأخبار بجميع ما جرى وشددوا عليه فى الحضور فلما انقضى الأجل المضروب بين الإنجليز وحاكم الإسكندرية وهو فى الممانعة أطلقوا على الحصون المدافع ورموا الأبراج بالقنابل الهائلة فهدموا ركنا من البرج الكبير وكذا هدموا الأبراج الصغار وجانباً عظيمًا من السور فعند ذلك طلب أهل المدينة الأمان فأمنوهم ودخلت العساكر الأبراج وانتشرت فى المدينة وكانت عدتهم خمسة آلاف مقاتل ونزل أميرال الأسطول إلى المدينة وسكن بوكالة القنصل وأمن أمين أغا حاكم المدينة على نفسه ومن معه من العساكر والأجناد وكتب له عهدا بأن لا تسكن عسكر الإنجليز فى البيوت قهرا عن أصحابها بل بالأجرة والتراضى ولا يمتهنون المساجد ولا يبطلون منها الشعائر الدينية وأن من كان له دين على الحكومة يقبض نصفه من الإنجليز حالاً ومن أراد السفر بحراً فليسافر فى خفارتهم إلى أى جهة شاءها إلا دار السلطنة العثمانية وأن أهل البلد لا يتكلفون للأسطول بشىء من الميرة أو المال وتبقى المحكمة الشرعية على ما هى عليه من الفصل فى دعاوى الناس حسب الشريعة والسنة ولا ينظر الإنجليز فى دعاوى المسلمين بغير رضاهم وتبقى رعايا الدول الأجنبية حائزة لجميع الامتيازات الدولية المعروفة بين الممالك وبعضها وأن لا يؤخذ شىء من الرسوم الجمركية على جميع البضائع سوى اثنين ونصف فى المائة.

واشتد خوف محمد على باشا من احتلال الإنجليز للأبراج والحصون وكاد يسقط فى أمره وكتب إلى كتخداه بأن يعجل بجمع العسكر ويجهز المعدات وشدد فى ذلك، وسارت طائفة من الجنود الإنجليزية من الإسكندرية إلى رشيد لاحتلالها، وكان من بها من المرابطين والأهالى على يقظة تامة بالأزقة والعطوف وطيقان البيوت فلما صار الإنجليز بداخل البلد أطلقوا عليهم النيران من كل صوب وحدب فارتبك الإنجليز وألقوا ما بأيديهم من الأسلحة وطلبوا الأمان فلم يلتفتوا إليهم وقبضوا عليهم وذبحوا منهم جملة كثيرة ذبح الشاة وأسروا الباقين وفرّ جماعة منهم إلى ناحية دمنهور، وكان بها طائفة من الجند وجماعة من العربان فخرجوا والتقوا بتلك الفئة فقتلوا بعضهم وأخذوا من بقى أسيرا وأرسلوا السعاة إلى القاهرة بالبشائر ثم

أرسلوا الأسرى مع رؤوس القتلى من الإنجليز، ونادى شيخ الجامع فى طلبة العلم والمجاورين بالأزهر بترك التدريس وحمل السلاح والتأهب للقتال والجهاد فى الإنجليز وشدد السيد عمر النقيب فى ذلك على العامة فزاد هرج الناس وكثر لغطهم واجتمع المشايخ والأمراء وتشاوروا فيما يجب فعله دفاعا عن البلاد فاتفقوا على تحصين المدينة وفتح الخندق الكبير الذى كان قد أنشأه الفرنسيس عند باب الحديد واعتنوا بإصلاحه قدر الاستطاعة وأكثروا من جمع الأسلحة والكراع وأكثر الوالى من الطواف والنداء بخروج العسكر وتأهب الأهالى للدفاع فلما علم أميرال الأسطول بما حل بعسكره فى رشيد سير بعض السفن من مياه الإسكندرية إلى رشيد فأحس أهل رشيد بذلك وأرسلوا السعاة يستنجدون كتخدا الباشا ويقولون عجل فقد أصبح العدو بسفنه على الأبواب وطيروا الخبر بذلك إلى محمد على باشا فتزايد خوفه وذهب صبره وأرسل رسله إلى الأمراء المصريين يستحثهم على الصلح ويستميلهم إلى الاستعداد لطرد العدوّ الزاحف إليهم وما زالوا بهم أيامًا وهم بين إقبال وإدبار ولين وشدة ووعد ووعيد حتى مالوا إلى الصلح فاستوثق منهم وتركهم وانحدر بجيوشه إلى القاهرة ودخلها ليلاً فلما أصبح جمع إليه كبار العسكر وأرباب المناصب وخابرهم فى أمر جلاء الإنجليز وقد جاء الخبر بوصولهم إلى رشيد واستيلائهم على كوم الأفراج وأبى منصور واستمرار إطلاقهم القنابل على المدينة حتى تهدمت أكثر دورها ومات خلق كثير وأن من بها من الحكام وأرباب المناصب يطلبون المدد ويستنجدون المشايخ فطلب محمد على باشا من السيد عمر النقيب أن يفرض على الأهالى فرضة لنفقة الجند قدرها ألف كيس وأخذ فى تجييش الجيوش ونادى فى العسكر بعدم التخلف والخروج لدفع العدوّ وخرج بنفسه ومعه حسن باشا وعابدين بيك وعمر بيك وسار فى طائفة عظيمة من الجند وأرسل إلى الأمراء بالأقاليم القبلية يستنهضهم ويستقدمهم لقتال الإنجليز ويذكر لهم العهد الذى تعهد لهم به ويقول قد صارت الإنجليز على الأبواب فعجلوا بالحضور لدفعهم وإلا فعلى الإسلام السلام فلم يلبوا دعوته وقالوا لسنا على ثقة من عداوة الإنجليز لسلطاننا حتى نقاتلهم وكانوا قد حضروا لنجدتنا بناء على طلب الألفى ثم انحدروا إلى منية ابن خصيب وتربصوا بها وعاد محمد على باشا بعد تغيبه أياما بظاهر المدينة يحض العسكر على الخروج إلى الجهاد ويستنفرهم فلم تكن إلا أيام قلائل حتى جاءت الأخبار بهزيمة الإنجليز وجلائهم عن أبى منصور ومتاريس رشيد والحماد وقد أسر منهم عدة عظيمة وانحاز من بقى منهم إلى الإسكندرية وتحصنوا فيها وقطعوا سد أبى قير فانهمل ماء البحر المتوسط وأغرق ما حول الإسكندرية حتى كادت تسير فيه المراكب الصغار وحضر

الأسرى من الإنجليز إلى القاهرة فأصعدوهم إلى قلعة الجبل فكانوا زهاء الأربعمائة بينهم بعض كبار القواد ففرح الناس بهزيمتهم وتقوّت عزائم الجند المصرى وحضر أيضاً يس بيك أحد أمراء المصريين بعساكره وأقام بالجيزة على عهد الصلح الذى تقرر بينه وبين محمد على باشا ففرح محمد على باشا بقدومه وخلع عليه خلع الرضا وأعطاه ما طلب من متاع وسلاح وجهزه لقتال الإنجليز فعسكر بقومه ظاهر بولاق وطلب العساكر الخارجة عن خدمة محمد على باشا فأتوا إليه من كل صوب وحدب وكبر جيشه واتسعت كلمته فمالت نفسه إلى طلب الرياسة والخروج على محمد على باشا فبث الجباة فى بلاد القليوبية تجمع له الأموال والمغارم والكلف فأحس محمد على باشا بما وراء ذلك وأرسل إليه يطلب سرعة قيامه لقتال الإنجليز والمحافظة على العهد فتقاعس وشغل أمره محمد على باشا فأخذ فى التدبير عليه واستمال العسكر المنضمين إليه وحل عرى رباطهم ورشاهم بالمال والهدايا ونادى فى عسكر الأرناؤط بالخروج جميعًا فخرجوا إلى ناحية السبتية والخندق وحالوا بينه وبين بولاق ومصر وركب محمد على باشا فى طائفة من خواصه وخرج إلى تلك الناحية وحصن أبواب المدينة وأرسل إلى يس بيك يقول: إما أن تستمر على الطاعة وتصرف عنك هذه اللموم وتخرج لقتال الإنجليز وإما أنك ترحل إلى بلادك بلا مهل وإلا فأنا واصل إليك ومحاربك، فخاف يس بيك وانحلت عزائم قومه وتفرق عنه أكثرهم، فلما كان بعد غروب ذلك اليوم طلب الركوب ولم يعلم قومه إلى أين يريد فركبوا جميعًا وساروا قليلاً تحت جنح الليل ثم تفرقوا وتاهوا وذهب كل فريق منهم إلى ناحية لا يعلم له مقر ولم يزل يس فى سراه بمن معه حتى أصبح وقد نزل التبين فسير خلفه محمد على باشا طائفة من الجند لقتاله أما هو فإنه لم يستقر به المقام بالتبين حتى نهب عسكره التبين وحلوان وطرا والمعصرة والبساتين وخطفوا النساء ونهبوا الأجران وأخذوا ما كان فيها وفعلوا غير ذلك من فعال الشدة ولما أحس بقدوم العسكر ارتحل إلى صول والبرنيل ونزل إبراهيم بيك الكبير وعساكره أيضًا على بنى سويف وأرسل يعلم محمد على باشا بقدومه فلم يلتفت محمد على باشا إلى ذلك ولم يهمه ورسم بترميم القلاع والحصون التى كانت للفرنسيس أيام حلولهم بمصر وبالغ فى التشديد بذلك وقيد بعض مقدمى العسكر بالعمل وحضر من الديار الشامية كثير من العساكر الدلاتلية وبعض المرتزقة من الترك فجهزهم محمد على باشا بالسلاح ومعدات القتال ونادى فيمن كان بمصر والقاهرة من العساكر والأجناد بالخروج إلى انبابة وخرج هو فاجتمع حول وطاقه طوائف العسكر

فلما كان يوم الخميس عاشر جمادى الآخرة من السنة أى سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف أمر بالارتحال فساروا فى أبهة وكبكبة عظيمة إلى ناحية البحيرة وتربص محمد على باشا بطائفة من أصحابه على مقربة من مدينة الإسكندرية وبعث سفراء إلى مقدم الإنجليز يخابرونه فى أمر الصلح فجعل السفراء يترددون بين الفريقين أياما ثم حضر إلى معسكر محمد على باشا نفر من الإنجليز واختلوا به إلى نصف النهار، فلما كان يوم الجمعة غرة رجب الفرد من السنة تقررت بينهم قاعدة الصلح على أصول لم يذكرها أحد من أهل التاريخ ثم استحضر إلى الإسكندرية من كان بمصر من أسراء الإنجليز وردّوا إلى معسكرهم وحضر لزيارة محمد على باشا بمعسكره أمير سفن الإنجليز فى نفر من قواده فأكرم محمد على باشا وفادته وأطلق لقدومهم عدة مدافع وقدّم لهم خيولاً وهدايا نفيسة وأقمشة هندية وشيلانا كشميرية ثم ركب معهم فى قلة من قومه وساروا إلى بيت أمير الجيوش الإنجليزية فأكرموا محمد على باشا وقدموا له الهدايا والطرف من أفخر الصنائع ثم أتموا التوقيع على عقد الصلح وسلموا المدينة وفكوا من كان عندهم من أسرى رشيد وانسحبوا من الأبراج والحصون إلى مراكب البحر، ولبث محمد على باشا بالإسكندرية وقد باتت داخلة فى حكمه بعد أن كانت مع سائر الثغور فى حوزة وتصرف أمير سفن حرب الدولة العثمانية من عهد السلطان سليم إلى ذلك الحين وما زال بها حتى قدم إلى القاهرة فى يوم الاثنين ثالث شعبان من السنة أى سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف هجرية فخرج العلماء والأمراء للقائه وأطلقت لقدومه المدافع من قلعة الجبل وسائر الحصون وزينت المدينة ثلاث ليال ورجع معه حسن باشا طاهر وسليمان أغا وكثير من العساكر والأجناد.

وما استقر به المقام حتى جعل ينظر فى ترتيب أمور البلاد ويعمل على إزالة الوحشة التى بينه وبين من بقى من الأمراء المصريين فسير إليهم من يستميلهم ويحبب لهم ترك القتال والانضمام إلى حاشية محمد على فمنهم من مال إلى المصالحة ومنهم من تجافى وشط فى الطلب وكانت لم تزل الدسائس والفتن قائمة بين الجند وأصحاب الكلمة فيهم، فلما كان يوم الاثنين ثالث عشرى شعبان من السنة اجتمعت طائفة كبيرة من الأرنؤط والعساكر الرومية على بيت محمد على باشا وطلبوا علائفهم فوعدهم فقالوا لا نصبر فلاطفهم فتجافوا وأطلقوا بنادقهم مراراً وأصروا على طلب العلائف ثم انصرفوا وتفرقوا فى القاهرة ومصر فخاف الناس وتطيروا وأرسل السيد عمر إلى أهل الغورية والعقادين والأسواق يأمرهم برفع

بضائعهم من الحوانيت ففعلوا وأغلقوها فلما كان قبيل الغروب وصل إلى بيت محمد على باشا فريق آخر من الدلاتلية وطالبوا أيضاً بالعلائف وأطلقوا كذلك بنادقهم على من بباب محمد على باشا فردهم الجند وأطلقوا عليهم النار فجرحوا منهم عدد فانكفوا ورجعوا وبات الناس متخوفين وأصبح يوم الثلاثاء والحال فى اضطراب وقد نقلت أمتعة محمد على باشا فى تلك الليلة إلى قلعة الجبل وصعد هو كذلك إلى القلعة وأرسل إلى رجب أغا أحد مقدمى الأرنؤط من يلزمه بالخروج إلى الديار الرومية بلا مهل فأظهر العصيان وتترس هو وفريق من جنده فى بعض الدور ووقع بينهم وبين عساكر محمد على باشا قتال ثلاثة أيام ثم انجلى عن سفر رجب أغا قهرًا إلى الديار الرومية. قال بعض كتاب الأخبار: ونزل محمد على باشا وطاف بالمدينة ومر بناحية سويقة المعزى سائرا إلى بيت يلبغا وهناك المكتب الذى فوق السبيل بين الطريقين تجاه من يأتى من تلك الناحية فصعد إلى ذلك المكتب اثنان من الجند يرصدان محمد على باشا فى مروره فلما أتى مقابلاً لذلك المكتب أطلقا عليه بارودتين فأخطأتاه وأصابت إحدى الرصاصتين فرس أحد الملازمين حوله فسقط فترجل محمد على باشا عن فرسه وهو ساكن الجأش ووقف على مصطبة حانوت هناك وأمر بالقبض على الجنديين فقبضوا عليهما فأمر بإخراجهما إلى الديار الرومية فأخرجوهما فى الحال، وعاد إلى مخابرة الأمراء المصريين فأول من أذعن منهم للصلح شاهين بيك الألفى فحضر ونزل بدهشور ومعه هدايا عظيمة من إبراهيم بيك الكبير ومحمد بيك المرادى المعروف بالمنفوخ برسم محمد على باشا وهى نحو الثلاثين حصانا من جياد الخيل ومائة قنطار بن قهوة ومائة قنطار سكر وأربعة خصيان وعشرين جارية سوداء فلما وصل شاهين بيك إلى دهشور وحضر من أعلم محمد على باشا بحضوره أرسل معهم هدية عظيمة ورافقهم ولده وكاتب سره ثم انتقل شاهين بيك إلى شبرامنت واستلم الجيزة بعد ذلك والقصر وما حوله وما به من المدافع وآلات الحرب ودخل القصر وأعطاه محمد على باشا إقليم البهنسا وعشر بلاد من بلاد الجيزة وكتب له بذلك تقاسيط ديوانية وضم له كشوفية البحيرة إلى الإسكندرية وأطلق له التصرف فى جميع ذلك بلا معارض وأكثر من مكاتبة الأمراء بالصعيد وسلم لهم أمر مقاتلة يس بيك الذى هرب إلى الصعيد فقاتلوه ونالوا منه وفرقوا جيوشه فانحاز إلى منية ابن خصيب وقد نهبت أحماله ودوابه وانصرف عنه أكثر جنده ولمومه وكاد يسقط فى يده.

ولما كان الثالث والعشرون من شوال من السنة أى سنة اثنتين وعشرين ورد

فرمان السلطان بتأييد ولاية محمد على باشا ووجوب التأهب وإعداد الجند والسلاح لقتال الوهابيين الخارجين بالحجاز ففرضوا لذلك فرضة عظيمة على أهل البلاد وعين من كبار الجند من يقبضها ورسم محمد على باشا بعمارة أسوار وقلاع الإسكندرية وأبى قير والسويس ورشيد ودمياط وبالغ فى العمل وقيد به جماعة وأرسل إلى من كانوا يقاتلون يس بيك أن يشددوا فى حصاره ويمنعوا الواصل إلى مقره ففعلوا وبالغوا فى التشديد فخابرهم يس بيك فى الصلح على شروط اقترحها فقبلوا منه ذلك فاستأمن وصرف من كان عنده من طوائف العربان ثم حضر إلى بولاق وصعد إلى قلعة الجبل فعوّقه محمد على باشا وأراد الفتك به فقام من الأمراء من ترامى على أقدام محمد على باشا فرسم بإخراجه إلى الديار الرومية ثم خلع عليه بعد ذلك وسير معه من يوصله إلى ثغر دمياط ومنها إلى جزيرة قبرص.

واشتغل السلطان عن مصر فى هذا الحين بقيام الفتنة فى القسطنطينية وخروج طوائف الانكشارية عن طاعته وذلك أنه لما أعياه أمرهم وصاروا أشد عداوة للدولة وأعظم ضررا عليها من الأعداء عمد إلى تنظيم عسكر مخصوص على هيئة وترتيب عسكر الفرنسيس واستقدم لذلك قائداً من كبار قوّاد الفرنسيس ففاز ونجح وتم له الأمر أو كاد فلما أحست طوائف الانكشارية بما وراء ذلك تجرّدوا للعداوة وشق عصا الطاعة وأعانهم جماعة من العلماء والمشايخ وأضرموا نار الفتنة فى جوف القسطنطينية وطلبوا صرف أولئك الجنود المنظمة وشدّدوا فى الطلب فأجابهم السلطان إلى ذلك كارهاً فلم يقفوا عند هذا الحد وطلبوا أشياء أخرى فطاولهم فألحوا فى الطلب فأجابهم إطفاء لنار الفتنة ولكى يتمكن من دفع العدوّ المحدق بالدولة من كل جانب فلما سكنت الفتنة وأخلد المشاغبون إلى السكون سير الصدر الأعظم إلى مدينة شوملة لقتال الروس وكانوا قد تجردوا لقتال السلطان ورسم له أيضاً بإرجاع بعض الولايات التى شقت عصا الطاعة وولى مصطفى باشا قائمقامية الصدارة وكان مصطفى باشا هذا من أعداء النظام الجديد وكان قد مات فى هذه الأثناء مفتى دار السلطنة وكان من أكبر أنصار السلطان سليم على إدخال النظام الجديد فى عسكره فتولى مكانه آخر شديد التعصب لعادات الانكشارية ومذهبهم يكره ذلك النظام ويعدّه بدعة مخالفة للدين فاتفق مع مصطفى باشا وبعض المشايخ وكبار العلماء على إبطاله وتحالفوا على ذلك فدسوا الدسائس وأيقظوا الفتنة النائمة وأضرموا نارها فالتهبت وقام العسكر بعضهم على بعض واقتتلوا قتال الأعداء فمات منهم خلق كثير

واجتمع كثير من العساكر المرتزقة وقدّموا عليهم مقدما منهم فسار بهم حتى أتوا إلى المكان المعروف (بايت ميدان) وقد انضم إليهم جماعة من الانكشارية وغير الانكشارية فأتوا بقدور طعامهم فصفوها أمام صفوفهم وهى عادتهم عند عدم الطاعة وقيام الفتنة وصاحوا بالويل والثبور على أصحاب النظام الجديد ثم أتوا بجميع أرباب الوظائف العالية الذين ساعدوا السلطان على إدخال ذلك النظام فى عسكره إلى ذلك الميدان فقطعوا أعناقهم وقطعوا بعضهم فى الطريق قبل أن يصلوا بهم إلى الميدان ولم ينكفوا عن الضجيج والصياح والفتنة قائمة مدة يومين حتى أفتى المفتى بخلع السلطان سليم فى الحادى والعشرين من ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف هجرية أى سنة سبع وثمانمائة وألف ميلادية. وقال: (لا يصلح للملك من يدخل عادات الفرنجة فى بلاد المسلمين والله أعلم) ففرح العسكر بذلك ونادوا بخلعه وولاية السلطان مصطفى خان الرابع ثم قبضوا عليه ووضعوه فى إحدى السرايات محجورا عليه فكانت سلطنته زهاء العشرين سنة.

ومات فى أيامه مرقس بطرك المتأصلين بعد أن أقام فى الرياسة نحو أربع وعشرين سنة كلها شدائد ومحن وقد كثرت فيها المغارم ومصادرة الناس فى أموالهم على ما تقدم بيانه جميعه فى محله فأقيم بعده يوحنا وهو السابع بعد المائة وكان راهباً بدير أنطونيوس واسمه يوسف ووقع من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

(الفصل العشرون)

(فى سلطنة السلطان مصطفى الرابع ابن السلطان عبد الحميد)

ثم قام بالأمر بعد السلطان سليم ابن أخيه السلطان مصطفى الرابع ابن السلطان عبد الحميد بويع له بالملك يوم خلع عمه فى حادى عشرى ربيع الأوّل سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف هجرية أى سنة سبع وثمانمائة وألف ميلادية فلم يكن له من السلطنة سوى الاسم فقط والكلمة للمفتى ومن معه من مبغضى النظام الجديد فتصرفوا فى جميع الأمور وأطاعوا هواهم وولوا الوظائف لغير مستحقيها وسلموا مقاليد القلاع والحصون إلى مقدم الجند الذين ثاروا على السلطان فسكنت الفتنة

وعادت الأمور إلى ما كانت عليه، ووصل الخبر بما جرى إلى العسكر الذين كانوا يقاتلون الروس ففرح جماعة الانكشارية وسروا بقهرهم وقاموا على الصدر الأعظم فقتلوه وولوا بدله چلبي مصطفى باشا فسرى الفساد إلى جميع مصالح الدولة واستولى الخلل على أمورها وعبث بها الأغرار وعاثوا وأفسدوا وقام مقدم أصحاب الثورة بعد قليل على قائمقام الصدارة فخلعه وولى بدله آخر اسمه طاهر باشا فلما استقر بطاهر باشا هذا المنصب وأراد التصرف رأى أنه مغلوب على أمره ليس له من المنصب سوى الاسم والكلمة للمفتى ومقدم الجند أصحاب الفتنة فخلع نفسه ورحل عن القسطنطينية إلى مدينة روستجق ونزل فى جوار حاكمها مصطفى باشا البيرقدار وكان مصطفى باشا هذا راغباً فى النظام الجديد وقد جيش منه جيشاً عظيمًا وكان من أنصار السلطان سليم ميالا إلى إعادته إلى عرش الملك فلما استجار به طاهر باشا قويت آماله بإرجاع السلطان إلى عرشه فسير إلى الصدر الأعظم وأصحاب الحل والعقد من يكلمهم فى الأمر ويستميلهم إلى الغدر بالمفتى ومقدم أصحاب الثورة وما زال بهم حتى مالوا إلى ذلك ووافقوه وبرز الحكم من الصدر الأعظم بقتل مقدم الثورة المذكور فركب عليه أحد مقدمى الفرسان وقتله فهاج أصحابه وماجوا وتجردوا للقتال وكان مصطفى باشا البيرقدار قد وصل فى هذه الأثناء إلى ضواحى القسطنطينية فى جيشه المنظم وصار عسكره على مقربة من الأبواب فلما علم السلطان مصطفى بحضوره خشى العاقبة ورسم بخلع المفتى وأمر فنادى فى الجند أصحاب الثورة بالانصراف إلى أوطانهم فلم يلتفت البيرقدار إلى شىء من ذلك وسار بجيوشه حتى وقف أمام باب السراى السلطانية وقد أغلقوه فهم بكسره أو حرقه ثم فتحوه عنوة وعبروا إلى داخل السراى وطلب السلطان سليم وكان محجورا عليه فأخفوه عنه وسير السلطان مصطفى فى الحال جماعة من خواصه فدخلوا على السلطان سليم وضربوه بالخناجر وأحضروه ميتا إلى حيث السلطان مصطفى فقال: سلموه إلى هذا وأشار إلى البيرقدار وقال: (ها هو سلطانك الذى تطلبه منا اليوم) فلما رآه البيرقدار بكى بكاء مرا وشاع قتل السلطان سليم بين الجند فهاجوا وماجوا وكثر ضجيجهم واشتدت الفتنة ونادوا بخلع السلطان مصطفى ثم قبضوا عليه وسجنوه فى المكان الذى قتل به السلطان سليم وذلك فى الخامس من جمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف هجرية أى سنة ثمان وثمانمائة وألف ميلادية فكانت سلطنته بضعة أشهر وولوا الملك بعده لأخيه السلطان محمود الثانى وهو فى عنفوان الشباب وغضاضة السن.

(الفصل الحادى والعشرون)

(فــى سلطنة السلطان محمود
الثانى ابن السلطان عبد الحميد)

ثم قام بالأمر بعد خلع السلطان مصطفى أخـوه السلطان محمود الثانى بويع له بالملك يوم الخميس خامس جمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف هجرية أى سنة ثمان وثمـانمائة وألف ميلادية ووردت الأخبار بذلك إلـى مصر فقام مـحمد على باشـا بمظاهر الاحتـفال وزينت المدينة ثلاث ليـال وخطبوا له على المنابـر بمصر والقاهرة وسائر المدن القبلية والبحرية واسـتوزر السلطان محمود الوزير مصطفى باشا البيرقـدار وسلمه ختم الصـدارة وصرّفه فى جميـع الأمور فأحكم السيـاسة وأحسن التدبير وجـعل يعمل على إخضاع طوائف الانـكشارية وإيقافهم عند حـدهم فجمع يوماً جمـيع كبار الدولة وأصحاب المناصب العـالية والعلماء والمشايخ وعقـد مجلسا حافلاً وكلمهم فـيما تلاقيه الدولة بسبب خروج الانكشارية وعـدم وقوفهم عند حد رسومـهم وعاداتهم القـديمة وبالغ فى الشكوى وعظم فى البلوى وسـألهم اجتـماع الكلمـة على دفع هذا الفـساد ومنع تـطاول أيدى أولئك القوم إلـى العبث بمصـالح الدولة التى استحوز عليها الفشل وتولاها الخلل فأجابوه إلى ذلك ووافقوه على أخذ فتـوى من مفتى دار السلطنة بوجوب رجـوع طوائف الانكشارية فى جمـيع أمورهم إلى رسـومهم وعاداتـهم القديمـة فقـويت بذلك عزيمـته واشـتد أزره وعمـد إلى إخضاعهم فأخضعهم وألبسهم ثيـاب الذل وتصرف فيهم فخاف عليه بعض أصحابه وحـذره من مكرهم وغدرهم فلـم يلتفت إلى ذلك وبالغ فـى التشـديد وأكثـر من الوعيـد، فلما ضـاق بهم الخناق وأيسوا من الخـلاص أثاروا الفتنة فى مدينـة فليبى وأظهروا العصـيان فسير لقتـالهم جيشه المنظم ولم يبق معـه سوى زهاء أربعة آلاف وبعض العساكر الأخرى وبالغ فى الشدة عـلى من بالقسطنطينية من الانكشارية فلما كانت ليلة السابع والعشرين من رمضان سنة ثلاث وعـشرين أجمعوا أمرهم وتحزبوا وساروا إلى مقر السلطان مصطفى المعزول وانبثوا حوله وهموا بإخراجه وإرجاعه إلى عرش السلطنة فركب عليهم مـصطفى باشا البيرقدار فيمن بقى من عـساكره وقاتلهم قتـالاً عنيفاً فـلم يقو على ردهم وأحس بالهـزيمة لكثرة العـدو فسيـر إلى السلطان مصطفى المعزول من قتلـه وأمر بجثته فألقوها من أعلى السـراى إلى أصحاب الثورة كى لا يتـمكنوا من إرجاعـه إلى عرش السلطـنة فلما رأوا السلطان على هـذا الحال

اشتد هياجهم وعلا ضجيجهم وأضرموا النار فى سراى السلطان مصطفى ليهلك فيها البيرقدار بالحريق وقيل بل أضرموها فى سراى البيرقدار وأفحشوا فى الحرق والهدم والنهب واختفى البيرقدار فى سرداب فلم يعثروا عليه وكان لما اشتبك القتال بين عسكر البيرقدار والانكشارية أدخل أمير سفن الحرب ثلاثاً من السفن إلى بوغاز القسطنطينية ووجه أفواه مدافعها نحو منازل الانكشارية ورمى عليها بالقنابل رميا متتابعا ثم نزل بطائفة من عسكره أيضاً وسار لنجدة البيرقدار وكذلك سار لنجدته أحد مقدمى العساكر المنظمة فلم يفلحوا إذ كان الأنكشارية قد تمكنوا من حرق السراى فأعملوا السيف فى الانكشارية وأخذوهم من كل صوب وحدب حتى انهزموا وولوا الأدبار فانحدر جماعة منهم إلى بيوت الناس فأضرموا فيها النار فعلا اللهيب واشتد وخاف السلطان وهاله الأمر وتحقق دمار جميع المدينة وطمس معالمها فنزل من مقره إلى الباب الموصل إلى البحر ونادى بقتال الأنكشارية فقاتلوهم قتالاً عنيفًا وأكثر الانكشارية من حرق الدور والأبنية العظيمة فانهال اللهب إنهيال السيل والتهبت أكثر دور المدينة فدمرتها وعلا صياح النساء والأطفال من كل ناحية وهب الناس من مضاجعهم مذعورين فصاح السلطان وشدّد على الجند بالقتال وذبح كل من وجدوه يعاون على الحريق وهو مع ذلك محصور فى سرايته يوما وليلة فلما أشتد الحال وضعفت من خلاص المدينة الآمال سير السلطان إلى كبار الانكشارية من يخابرهم فى أمر الصلح وترددت الرسل بينهم فانكفوا عن الحريق وأخذوا فى إطفائه ودخل جماعة من الانكشارية إلى حيث مصطفى باشا البيرقدار فأخرجوه من تحت الردم ميتا وعلقوه فى شجرة ومثلوا به تمثيلاً وسكنت بعد ذلك الفتنة وعادت الأمور إلى ما كانت عليه فاستوزر السلطان الوزير ضيا يوسف باشا الذى كان حضر إلى مصر لقتال عساكر بونابارته وكظم غيظه وجعل يراقب الفرص ويتبين وجه الانتفاع بها.

وكانت هذه الفتنة وما نجم عنها من اختلال نظام الدولة وسقوط هيبتها وغل أيدى السلطان عن أن يأتى بأى أمر أراده وتفاقم شر طوائف الانكشارية كل هذا جعل محمد على باشا فى مأمن من جانب السلطنة ومكنه ذلك من منصب الولاية فتجرد للعمل وسار عن القاهرة إلى الأقاليم البحرية وقد طلب الكلف اللازمة لذلك وفرضها على البلاد فكتب إليه الرزنامجى يقول إن الخراب ضارب أطنابه على أكثر البلاد بأسباب المحن المتوالية فلا قدرة لأهلها على دفع شىء الآن فلم يرض محمد على باشا من الرزنامجى بذلك وجاب البلاد شرقاً وغرباً ومعه الكتاب وبعض

المباشرين ثم رسم بتحرير سجل مخصوص يشمل عدد ما يوجد من البلاد التى لا قدرة لأهلها على الزرع فحرروا سجلاً بها فأقطعها لأولاده وذوى قرابته وجمع إليها من تشرد من أهلها وصار من هذا الحين إذا تأخرت بلده عن القيام بما يفرض عليها أقطعها إلى رجال الدولة أو أحد أولاده أو ذوى قرابته وسميت الإقطاعات من يومئذ أى من سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف هجرية أو نحوها (بالعهد) ثم جعل ينظر فى احتياجات البلاد وفى ترتيب أمورها على ما فيه المصلحة واهتم بذلك كثيراً فكاد يتم له الأمر لسكون الأمراء المصريين واستقرارهم بالصعيد الأعلى وعدم قيام الفتنة.

فلما كان أوائل سنة أربع وعشرين ورد فرمان السلطان بالعودة إلى جمع العساكر والسلاح لقتال الوهابيين وكانوا قد خرجوا بالحجاز فعاثوا ونهبوا وقتلوا وسلبوا ومنعوا الحج وأظهروا البدع والخروج عن السنن والعبث بالشريعة وهم أصحاب عبد الوهاب الدرعى، وعبد الوهاب هذا رجل من العرب ولد فى الدرعية من بلاد الحجاز وتعلم مذهب الإمام أبى حنيفة النعمان ثم سار إلى أصفهان ولاذ بعلمائها وأخذ منهم حتى غرزت مادته وتضلع من علم أصول وفروع الشريعة لاسيما تفسير القرآن ثم قفل راجعاً إلى بلاده فى سنة إحدى وسبعين ومائة وألف هجرية فلما استقر به المقام جعل يقرر مذهب الإمام أبى حنيفة ثم اجتهد واستقل وقرر له مذهبا مخصوصا وألقاه على تلامذته فاتبعوه وعملوا به وكثر مريدوه وشاع أمره فى نجد والقطيف والأحساء وكثير من بلاد العرب كبنى عتبة من أرض اليمن وعمان وغيرهما لمذهبه هذا قواعد وشروط مخصوصة يعلم بعضها من رسالة ذكرها صاحب الخطط التوفيقية نأتى بها هنا تتميما للفائدة.

قال: اعلموا رحمكم الله أن الحنيفية ملة إبراهيم أن تعبد الله مخلصاً له الدين وبذلك أمر الله جميع الناس وخلقهم له كما قال تعالى: **﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾** فإذا عرفت أن الله خلق العباد للعبادة فأعلم أن العبادة لا تسمى عبادة إلا مع التوحيد كما أن الصلاة لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة فإذا دخل الشرك فسدت كالحدث إذا دخل فى الطهارة كما قال الله تعالى: **﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون﴾** فمن دعا غير الله طالباً منه ما لا يقدر عليه إلا الله من جلب خير أو دفع ضر فقد أشرك فى العبادة كما قال الله تعالى: **﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾** وقال تعالى: **﴿والذين تدعون من دونه**

ما يملكون من قطمير إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير﴾ فأخبر تبارك وتعالى أن دعاء غير الله شرك فمن قال يارسول الله أو يابن عباس أو ياعبد القادر زاعماً أنه باب حاجته إلى الله وشفيعه عنده ووسيلته إليه فهو المشرك الذى يهدر دمه وماله إلا أن يتوب من ذلك، وكذلك الذين يحلفون بغير الله أو الذى يتوكل على غير الله أو يرجو غير الله أو يخاف وقوع الشر من غير الله أو يلتجىء إلى غير الله فهو أيضًا مشرك، وما ذكرنا من أنواع الشرك هو الذى قال الله فيه: **﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾** وهو الذى قاتل رسول الله المشركين عليه وأمرهم بإخلاص العبادة كلها لله تعالى ويصبح ذلك أى التشنيع عليهم بمعرفة أربع قواعد ذكرها الله تعالى فى كتابه، أولها أن تعلم أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله يقرون أن الله هو الخالق الرازق المحيى المميت المدبر لجميع الأمور والدليل على ذلك قوله تعالى: **﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أمّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون﴾** وقوله تعالى: **﴿قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون * قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون * قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى تسحرون﴾** إذا عرفت هذه القاعدة وأشكل عليك الأمر فأعلم أنهم بهذا أقروا ثم توجهوا إلى غير الله يدعونه من دون الله فأشركوا، القاعدة الثانية، أنهم يقولون ما نرجوهم إلا لطلب الشفاعة عند الله نريد من الله لا منهم ولكن بشفاعتهم وهو شرك والدليل على ذلك قول الله تعالى: **﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون﴾** وقال الله تعالى: **﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون أن الله لا يهدى من هو كاذب كفار﴾** وإذا عرفت هذه القاعدة فأعرف القاعدة الثالثة، وهى أن منهم من طلب الشفاعة من الأصنام ومنهم من تبرأ من الأصنام وتعلق بالصالحين مثل عيسى وأمه والملائكة والدليل على ذلك قوله تعالى: **﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا﴾** ورسول الله لم يفرق بين من عبد الأصنام ومن عبد الصالحين بل كفر الكل وقاتلهم حتى يكون الدين كله لله وإذا

عرفت هذه القاعدة، فاعرف القاعدة الرابعة، وهى أنهم يخلصون لله فى الشدائد وينسون ما يشركون والدليل على ذلك قوله تعالى: **﴿فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾** وأهل زماننا يخلصون الدعاء فى الشدائد لغير الله فإذا عرفت هذا، فاعرف القاعدة الخامسة، وهى أن المشركين فى زمان النبىّ أخف شركا من عقلاء مشركى زماننا لأن أولئك يخلصون لله فى الشدائد وهؤلاء يدعون مشايخهم فى الشدائد والرخاء، والله أعلم بالصواب انتهى بنصه.

ووردت الأخبار بخروج الصدر الأعظم يوسف باشا من دار السلطنة فى جيش عظيم لقتال الوهابيين وخروج آخر اسمه سليمان باشا من مدينة بغداد فى عسكر أيضاً لقتالهم فجعل محمد على باشا يتأهب للخروج ورسم بتحصين قلاع القلزم وتعبيتها بالأسلحة وآلات الحرب وأكثر فيها من المؤنة والماء وقيد بها طائفة من الجند حتى صارت على قدم الاستعداد وأنشأ على ساحل بولاق معملا لمد السفن وصنعة النجارة سماه الترسخانة وعمل السفن والشوانى الكبيرة وجمع لذلك الصناع والنجارين والحدادين فكانوا يهيئون الأخشاب ويصلحونها ويحملونها على ظهور الجمال إلى السويس فيضمون بعضها إلى بعض وينزلونها إلى بحر القلزم فعملوا من ذلك أربع سفن كبيرة وعدة سفن صغيرة وشحنوها بالآلات والمهمات الحربية فصارت على أهبة السفر إلى الأقطار الحجازية وأظهر محمد على باشا الاهتمام بهذه الحملة، فبينما هو على هذا الحال من جمع الجند وآلات الحرب إذ جاءه الخبر بانحدار الأمراء المصريين إلى الجيزة وأنهم نصبوا خيامهم خارجها ومعهم كثير من العربان والهوارة ولموم أخر وأنهم يريدون حضور محمد على باشا لملاقاة من تعاهد منهم على الصلح فلم يلتفت محمد على إلى ذلك ولم يحضر ولم يرسل أحدا من قبله فى ذلك اليوم فساء ذلك إبراهيم بيك الكبير وعدها إهانة له ولأصحابه ومن حضر معه على العهد من الأمراء فلما كان ثانى يوم عبر شاهين بيك الألفى إلى شبرى واجتمع بمحمد على باشا وعاتبه وأغلظ عليه القول ثم نزل من عنده وعبر النيل إلى الجيزة وأمر فنقلوا متاعه وجميع أثاثه ونساءه وسيّرهن إلى الفيوم ونسى محاسن القصر الذى كان يسكنه بالجيزة وانضم إلى إبراهيم بيك الكبير وبقية الأمراء وخالف العهد وكفر بالنعمة وجمع إليه مماليكه وأتباعه وعساكره ونصب خيامه على مقربة من خيامهم ورتبوا الأمر بينهم وقسموا مواقف الحرب والقتال واختص كل فريق منهم بجهة وجاء الخبر بذلك إلى محمد على باشا فسير إليهم يلاطفهم ويطيب

خواطرهم فلم يقبلوا وتجافوا وأغلظوا فى القول ورموه بالخديعة وشاع الخبر بذلك بمصر والقاهرة فخرج إليهم أيضاً من كان مختفياً من العساكر والأجناد المصريين وعبروا النيل إلى الجيزة فكثرت لمومهم وكبر جيشهم فاستعظم محمد على باشا الأمر وخشى العاقبة فأخذ فى التجهيز ونادى فى عسكره بالخروج فعبروا النيل وهو فى مقدمتهم ونزل بقصر الجيزة وتحققت المفاقمة وتحصن الأمراء خلف السور ووقفت أمامهم عساكر محمد على باشا ولبثوا على هذا الحال إلى ثانى يوم ولم يقع بينهما ضرب ولا قتال ثم ترفع المصريون إلى ناحية دهشور وزنين فأمسك عليهم محمد على باشا الطرق ومنع عنهم المواصلات وشدد فى المنع وبث العيون والأرصاد واستمال من كان معهم من عربان أولاد على وغيرهم وأمنهم فتركوهم وأتوا إليه خاضعين فأحسن إليهم وردهم إلى أوطانهم وسير طائفة من العسكر لقتال شاهين بيك ومن معه فالتقوا بهم عند صول والبرنيل وقد جعلوا بها المتاريس ونصبوا عليها المدافع فقاتلوهم حتى أجلوهم عنها وملكوا المتاريس وقد مات من الفريقين خلق كثير وأنقسم الأمراء المصريون إلى قسمين قسم عبر النيل إلى شرق أطفيح وقسم قفل راجعاً إلى الجيزة لقتال المرابطين بها وإبعادهم عنهم فلم ينالوا منهم أرباً وجعل محمد على باشا يستميل من كان مع شاهين بيك من الأمراء المصريين والكشاف وما زال بهم حتى تخلوا عن شاهين وانحازوا إلى عسكر محمد على باشا فأكرم لقاءهم وخلع عليهم خلع الرضاء وشاع خبر رجوعهم عند أصحاب شاهين فزالت لذلك هيبته وسقطت كلمته ورجع من كان على قدم الطاعة إليه والانضمام إلى عسكره وقام عليه أهل البلاد التى كانوا يمرون بها ومنعوهم من ضرب المغارم وأخذ الكلف وطردوا المعينين لذلك من قبله وكادت تتلاشى سطوته وتتفرق كلمة من كانوا معه وأحس محمد على باشا بانصرام حزمتهم فشدد فى مطاردتهم وضيق عليهم من كل صوب وحدب وأرتحل بعساكره من الجيزة ومعه ولده الأمير طوسون إلى جزيرة الذهب ثم ساروا منها إلى الصعيد فكان كلما اقترب من منازل المحاربين انسحب من جموعهم العدد الكثير وانحازوا إليه وقدموا له الطاعة، فلما كان يوم السبت عاشر رجب سنة خمس وعشرين التقى الجمعان واقتتلا قتالاً عنيفًا فاستظهرت عساكر محمد على باشا على الأمراء وأبلوا فيهم بلاء حسنًا فترفع الأمراء إلى الصعيد وتبعتهم الجيوش المصرية فلما رأى جماعة الألفى أنهم مأخوذون استأمن منهم طائفة كبيرة وتتابعت انتصارات محمد على باشا وضعفت عزيمة الأمراء المصريين فكانوا كلما اقترب العسكر من منازلهم تركوها وترفعوا إلى الصعيد وبينما هو على هذا

الحال إذ جاءه الخبر بقدوم رسول من جانب السلطان بفرمان وأنه نزل بقصر شبرى من ضواحى القاهرة فانحدر محمد على باشا إلى القاهرة على عجل وصعد إلى قلعة الجبل وطلب إليه الرسول فقابله برهة لطيفة شاع بعدها الخبر بأن السلطان راغب فى سرعة قتال الوهّابيين والتعجيل فى تسيير العساكر المصرية لقتالهم فأظهر محمد على باشا الاهتمام بذلك وأمر بالتأهب والاستعداد وأكثر من جمع العساكر ونادى فيهم بالخروج فأجتمعوا عند قبة العزب ونزلوا هناك أيامًا حتى يتم خروجهم وقد سلم قيادهم إلى ولده الأمير طوسون ثم نادى مناديه باجتماع الأمراء وسائر أرباب الوظائف ورجال الحكومة فى قلعة الجبل ليركبوا فى غد بتجملاتهم وزينتهم ويسيروا أمام موكب الأمير طوسون عند خروجه بعسكره إلى مدينة السويس.

(مطلب)

(قتل أمراء العسكر المعروفة بقتل الغز)

فلما أصبح يوم الجمعة سادس صفر سنة ست وعشرين ومائتين وألف ركب جميع الأمراء والكشاف وصعدوا إلى قلعة الجبل فى مماليكهم وأتباعهم وأجنادهم بتجملاتهم وزينتهم ودخل الأمراء منهم على محمد على باشا وتحادثوا ساعة وهو يظهر لهم غاية البشر والإيناس ثم أمر فسار الموكب على الوضع الذى رتبوه فكانت طائفة الدلاة فى المقدمة ومن خلفهم طوائف العسكر المشاة والفرسان وأرباب المناصب وكان محمد على باشا قد أطلع حسن باشا وصالح جوق والكتخدا على ما فى نفسه من الغدر بالأمراء المصريين وقطع شأفتهم وأسرّ بذلك أيضًا فى صبح اليوم إبراهيم أغا أغات الباب فلما سار الموكب من باب العزب وفرغ طائفة الدلاة ومن كان معهم من الوجاقلية وانفصلوا من الباب المذكور أشار صالح جوق فاغلقوا الباب وعرف أصحابه بالمراد فأطلقوا فى الحال نيرانهم على المصريين وقد انحصروا جميعهم فى المضيق المنحدر من الحجر المقطوع فى أعلى باب العزب ما بين الباب الأعلى الذى يتوصل منه إلى رحبة سوق القلعة إلى الباب الأسفل، وهو مشاهد إلى يومنا هذا، وقد كانوا أعدوا عدة من العساكر أوقفوهم على الجدران التى بذلك المضيق فلما أطلقت البنادق من الواقفين عند الباب همّ الأمراء بالرجوع إلى الوراء فلم يتمكنوا من ذلك لتكاثر الخيل من خلف وقد أخذهم ضرب البنادق من خلفهم أيضاً واشتدت عليهم النيران وتتابعت وسمع العسكر الواقفون بالأعالى فأطلقوا نيرانهم أيضًا فلما نظروا ما حل بهم سقطوا فى أيديهم وارتبكوا ووقع منهم قتلى كثيرون وترجل أكثرهم عن خيولهم واقتحم شاهين بيك الألفى وسليمان بيك

الأبواب فى عدة من مماليكهم راجعين إلى فوق ونزعوا ما كان عليهم من الفراوى والثياب الثقيلة وساروا والسيوف فى أيديهم حتى الرحبة الوسطى المواجهة لقاعة الأعمدة وهى قاعة صلاح الدين يوسف وقد قتل أكثرهم برمى البنادق وأصيب شاهين بيك وسقط على الأرض فانقضوا عليه وقطعوا رأسه وأسرعوا بها إلى محمد على باشا وكان محمد على باشا عندما ساروا بالموكب قد دخل إلى بيت الحريم وهرب سليمان بيك البواب وتسلق إلى حائط البرج الكبير فأصابوه برمى الرصاص فسقط فاحتزوا رأسه أيضاً وهرب كثير إلى بيت الأمير طوسون مستجيرين فلحقوهم وقتلوهم وأسرف العسكر فى القتل وتتبعوا الشاردين فى نواحى القلعة وقبضوا على من لم يكن فى الموكب أيضًا وقتلوهم فى تلك الليلة واستمر القتل يوم الجمعة بطوله وليلة السبت ويوم السبت فكان المنظر مخيفاً للغاية والأرض مغطاة بالجثث والأسلحة وثياب القتلى، وأنفذوا إلى كشاف الأقاليم بقتل جميع من يوجد عندهم من طوائف المماليك وفوض محمد على باشا أمر ذلك إلى كتخداه فبالغ فى البحث والتفتيش عليهم بالجهات القبلية والبحرية ونزلت العساكر إلى بيوت الأمراء فنهبوا ما فيها وسبوا النساء وأفحشوا فى القتل وإخراج المخدرات حاسرات الرؤوس وركب محمد على باشا ونزل من قلعة الجبل فى ضحوة يوم السبت وحوله أمراؤه الكبار مشاة وأمامه طائفة الصقاشية والجاويشية بزينتهم ولباسهم الفاخر مشاة وهو راكب على فرس وهم محدقون به وأمامه وخلفه عدة أخرى ونادى مناديه بمنع النهب وأمر بقتل من يضبط ومعه شىء من المنهوبات فانكف الجند وامتنعوا، وسير الكشاف برؤوس القتلى من المماليك ممن كانوا بالمدائن والقرى بالأقاليم القبلية والبحرية فكانت شيئاً كثيرًا جداً. قال بعض الكتاب: فلم ينج من طوائف الألفية إلا اثنان وهما أحمد بيك زوّج أبنة إبراهيم بيك الكبير فقد كان غائبًا فى بلدة بوش. وثانيهما أمين بيك وقيل إنه ألقى بنفسه وهو على ظهر جواده من السور المجاور لقاعة الأعمدة إلى ميدان الرميلة فمات جواده ونجا هو وهرب إلى الديار الشامية فكانت عدة من مات من المماليك فى هذه الوقعة زهاء الأربعمائة ومن الأتباع والكشاف وغيرهم زهاء الستمائة وبينهم مرزوق بيك بن إبراهيم بيك الكبير فوجدت عليه أمه وجدا عظيماً وطلبت جثته فأخرجوها من بين القتلى فدفنت فى مدفن أعدته له، ووصل الخبر بما وقع للأمراء المصريين إلى أحمد بيك الألفى وهو ببوش فسار من فوره إلى الصعيد الأعلى واجتمع بمن فيه من الأمراء وأعلم إبراهيم بيك الكبير بما جرى لولده مرزوق فحزن حزناً عظيما ولبسوا جميعًا السواد وجلسوا للعزاء وما زال القتل متابعا فيمن يعثرون عليه من طوائف المماليك شرقا وغرباً وفى أصحاب البيوتات القديمة منهم

حتى كادوا يمحون أثرهم فأرسل إبراهيم بيك ومن معه يطلب من محمد على باشا الأمان وأن يرسم لهم بالجهة التى يعيشون فيها فلم يرد عليهم جواباً وأرسل لقتالهم مصطفى بيك فى طائفة كبيرة من عسكر الأرنؤط واهتم بعد ذلك بتعبية الجند والسلاح لقتال الوهّابيين، وكأنه قد تفرغ لذلك فجمع منهم طائفة عظيمة وعقد لأبنه لواء الأمير طوسون هذه الحملة فلما كان يوم الأحد سادس ربيع الأوّل سنة ست وعشرين نزل الأمير طوسون بجيشه من قلعة الجبل فى موكب حافل وأمامه المدافع وآلات الحرب وعسكر ببركة الحاج وأقام بها حتى تكامل جيشه وسافر محمد على باشا إلى السويس وقد سير ما كان فى ميناها من السفن ومراكب الحرب فسارت إلى الينبع وتقاتلت مع من بها من الوهّابيين ونالت منهم ثم سار الأمير طوسون بجيشه من البركة فى يوم الخميس التاسع من رمضان هذه السنة فوصلوا فى السابع من شوال إلى بندر المويلح وعيدوا العيد بمقابر شعيب يوم السبت ثم ساروا إلى الينبع وملكوها من غير قتال وساروا إلى منزلة الصفراء والحديدة فوجدوا فيها عند سفح الجبل متاريس فقاتلوا عليها حتى أخذوها ثم تسلقوا الجبال فالتقى فريق منهم بجيوش الوهابيين فانتشب بينهم القتال وثابروا عليه يوماً وليلة ثم انجلى عن هزيمة المصريين فرجعوا القهقرى واختل نظامهم وتبدد شملهم وطلبوا السفن وكان قد حضر منها بساحل البريك عدة مددا فلحقوا بها وتزاحموا عليها وتفرقت دواب الحمل وتشردت وترك الجنود خيامهم وسلاحهم مع جميع متاعهم وكانت وقعة من أشد الوقائع ورجع الأمير طوسون إلى ينبع بعد تغيبه يوماً عن معسكره وقد ظنوا موته ولبث بينبع أربعة وعشرين يوماً حتى جمع شتات عساكره المشاة أما الفرسان فقد رجعوا إلى الوراء وما زالوا حتى وصلوا إلى المويلح وقد أجهدهم الجوع وأضناهم الوصب فنزلوا بها ووردت الأخبار بما حصل إلى محمد على باشا فلم يتزعزع ولم تفتر له همة ونادى فى العسكر المقيمين بمصر والقاهرة بالخروج وشدد فى النداء وبرز إلى ضواحى القاهرة وخرج العسكر فرتبهم وعقد لواءهم لبونابارته الخازندار فساروا إلى الينبع ليرابطوا بها وجيش جيشاً آخر وعقد لواءه لصالح بيك السلحدار وجعل معه جماعة من الكشاف واستقدم من كان مع الأمير طوسون فحضروا فأمرهم بالجلاء عن مصر والرحيل إلى بلادهم فلم تسعهم المخالفة وخرجوا فى عدة كبيرة من العساكر الأرنؤط وخرج بنفسه لقتال الوهابيين والأخذ بثأر من مات من رجاله فسار بجيش عظيم ومعه حسن باشا طاهر وأخوه عابدين بيك فلم يسر بمرحلة عن القاهرة حتى وردت إليه الأخبار فى ثانى يوم باستيلاء من بقى من

المصريين على عقبة الصفراء والحديدة بغير حرب ولا قتال وأنهم لم يجدوا فيها أحداً من الوهابيين ففرح بذلك وسار إلى السويس ولبث فيها أياماً وقد عدل عن المسير إلى الحجاز فعجل بتسيير الجيوش التى كانت معه برا وأنزل طائفة منهم بالسفن والشوانى وسير كذلك مصطفى بيك والى باشا بجميع عساكر الدلاتلية ومعهم شيء كثير من المؤن وآلات الحرب وعاد إلى مصر فلما دخل القاهرة وردت إليه الأخبار بوصول عساكره إلى المدينة وأنهم نزلوا بفنائها وقد أحضر المبشر بهذا الخبر مفاتيح المدينة فزينت لذلك البلد ثلاث ليال أولّها يوم الخميس ثالث عشر ذى الحجة سنة سبع وعشرين ومائتين وألف هجرية فأرسل المفاتيح مع رسول مخصوص إلى دار السلطنة.

وبينما كان بعض عساكره يقاتل الوهابيين ويسترد منهم ما ملكوه من بلاد الحجاز كان البعض الآخر يطارد أيضًا من بقى من الأمراء المصريين حتى أجلوهم عن الصعيد وما زالوا على أثرهم حتى ترفعوا إلى النوبة ودخلوا إبريم فقطعوا عنهم الواصل وسدوا عليهم المسالك وقبضوا على كثير من أتباعهم وقتلوهم وما زال يشدد فى تتبعهم بالقتل والتشريد حتى أمن شرهم فأمّر ولده إبراهيم على جميع الأقاليم القبلية وأطلق له فيها التصرف وأخذ هو فى تدبير أمور البلاد فأكثر من المشروعات المهمة والأعمال المفيدة كحفر الترع وترميم الجسور وإنشاء الحصون والمعاقل بمدينة الإسكندرية، وبعضها باق إلى هذا اليوم، وأنشأ المعامل العظيمة لمد السفن ومراكب الحرب وهيأ عمارة حربية عظيمة وسلحها بالمدافع وآلات القتال وسير منها عدة كبيرة مددا إلى ولده الأمير طوسون وكان يظن ذهاب شوكة الوهابيين وسقوط كلمة زعيمهم الأمير سعود وقد كان الأمير سعود هذا قد انكف عن قتال عساكر الأمير طوسون حينا وترفع بقومه إلى بعض الجبال ولكنه عاد فى سنة ثمان وعشرين ومائتين وألف فهاجمهم بعدة كثيرة من أصحابه ناحية طراباى شرقى مكة فملكها وكانت شدة القيظ قد فعلت بالعسكر المصرى فعلاً رديئًا جدا ثم سار إلى المدينة وملك جميع أرباضها والقرى المجاورة لها وأفحش فى النهب والسلب وقاتل من بها من العساكر المصرية وضيق عليها ومنع عنها الواصل فكان كل من هرب من الحصار وقفل راجعاً إلى الوراء قبضوا عليه وقتلوه ووصلت الأخبار بما جرى فشق الأمر على محمد على باشا وأعظمه وجيش جيشا عظيمًا وخرج به من القاهرة يوم الجمعة ثالث عشر شوّال سنة ثمان وعشرين ومائتين وألف ونزل ببركة الحاج ثم سار منها إلى السويس فلاقاه المبشرون فى الطريق وبشروه بسقوط عثمان المضايفى فى أسر

الأمير طوسون وكان المضايفى هذا قد خرج فى لموم كثيرة لقتال من بالطائف من العسكر المصرى فبرز إليه الشريف غالب بالعسكر المصرى وطوائف العربان وقاتلوه واشتد القتال بين الفريقين فأصيب جواد المضايفى فنزل عنه واختلط بالعسكر فلم يعرفوه فخرج من بينهم هاربًا فصادفه جماعة من جند الشريف غالب فعرفوه وقبضوا عليه وقد أصابته جراحة فلما مثل بين يدى الشريف أمر فقيدوه بالحديد وسير به إلى الأمير طوسون. قال بعض كتاب الأخبار: والمضايفى هذا زوّج أخت الشريف خرج عنه وانضم إلى الوهابيين فكان أكبر عون لهم وكان هو الذى يستميل لهم طوائف العربان فنما لذلك أمره واشتهر ذكره فدوّخ المدن وفتح منها عدة كثيرة وافتتح الطائف وله وقائع وحروب مشهورة أضربنا عن ذكرها هنا.

ولما وصل محمد على باشا إلى ينبع سير طلائع عسكره إلى المدينة فناوشوا من كان حولها من أصحاب الوهابى وأجلوهم عنها فنزل عليها محمد على باشا وأدّى فريضة الحج ثم أخذ فى تدبير أمور الحملة ومال إلى الشريف غالب وأظهر له الولاء والمحبة فانخدع الشريف وبقى معه على ذلك أياماً ثم قبض عليه هو وثلاثة من أولاده وسيرهم مع نفر من الجند إلى جدة وأنزلوهم بإحدى السفن فأقلعت بهم إلى مصر عن طريق القصير، قال بعض الكتاب: وتحرير الخبر أنه لما وصل محمد على باشا إلى مكة جدد العهد مع الشريف غالب وحلفا الأيمان فى جوف الكعبة بأن لا يخون أحد صاحبه ولا يغدر به ولا يعمل على إيذائه فكان بعد ذلك يذهب كل منهما إلى الآخر فى قلة من أصحابه واستمرا على هذا الحال زهاء خمسة عشر يوماً من ذى القعدة فلما كان أحد الأيام دعا الأمير طوسون الشريف غالب إلى بيته فأتاه فى قلة على عادته فلما اقتحم الدار رأى فيها من العساكر والأجناد ما رابه فصعد متخوفاً فلما استقر به المجلس حضر عابدين بيك فى نفر من الجند وصعد إلى المجلس ودنا من الشريف وأخذ خنجره من منطقته وقال له قم قد بعث سيدنا ومولانا أمير المؤمنين فى طلبك إلى دار السلطنة فقال على السمع والطاعة ولكن لى أشغال أقضيها فى ثلاثة أيام فقال لا سبيل إلى ذلك وقد أعددنا لك سفينة لتحملك فلما سمع جماعة الشريف وعبيده هذا القول تحزبوا وأسرعوا إلى الأبراج التى هى مقر الشريف يريدون القتال فأرسل محمد على باشا يتهددهم بحرق المدينة إن هم فعلوا شيئاً وأرسل الشريف كذلك ينهاهم عما عزموا على فعله وكان أولاد الشريف الثلاثة فى بيت له فأرسل إليهم محمد على باشا أحد خواص الشريف وما زال يخادعهم حتى انخدع كبيرهم فنزل بهم متحفظًا إلى مكان وفى الحال استحضر

محمد على باشا الشريف يحيى بن سرور وهو ابن أخى الشريف غالب وخلع عليه وقلده إمارة مكة ونودى بذلك وطيروا خبره إلى الآفاق وأقام الشريف غالب أربعة أيام ثم أنزل إلى سفينة فسارت به إلى القصير ومنها إلى القاهرة فاستقبله كتخدا الباشا بالاحتفال والاحتفاء وأطلقت لقدومه المدافع وأنزلوه ببيت السيد المحروقى أياماً ثم أعدوا له دارا أخرى وأسكنوه بها وجعلوا الجند على بابه تحرسه ثم قدم بعده أيضاً ولد أخيه الشريف عبد الله بن الشريف سرور مبعدًا منفياً فأنزلوه فى دار مخصوصة محجورًا عليه ولم يجتمع بعمه ولم يره قيل وكان هذا كله بأمر من دار السلطنة فكادت لذلك تنصرف عن الأمير طوسون طوائف العربان الذين أتوا بكلمة الشريف غالب وتقاعسوا عن القتال معه وفترت همتهم وأنفشلوا وهاجر الكثير منهم ومن الأشراف وانضموا إلى الوهابيين وقاتلوا جيوش الأمير طوسون قتالاً عنيفًا وأبلوا بلاء حسنًا فوقع بأسباب ذلك فى الحرمين غلاء شديد وقل الوارد من الحبوب والدقيق واشتد الجوع وهاجر الفقراء إلى الجبال فكانت شدة عظيمة جدًا، ومات فى هذه الأثناء سعود شيخ الوهابيين فولى الوهابيون ولده عبد الله مكانه وكان يظن انفشالهم بعد موته ووردت الأخبار بذلك إلى الأمير طوسون ففرح وأمر عساكره فزحفوا إلى ناحية (قنفده) وحاربوا عليها أياماً كثيرة حتى فتحوها وأستولوا عليها ووصلت الأخبار إلى دار السلطنة بوقوع الشريف غالب فى أسر المصريين فحضر منها قاصد يخبر بوجوب جمع ما أخذ من الشريف ورده إليه من متاع ومال وذخائر وكان محمد على باشا قد أرسل إلى دار السلطنة من ذخائر الشريف مسبحتين من لؤلؤ فاستحضرهما معه ذلك القاصد وردهما للشريف فلما كان يوم السبت تاسع عشرى شعبان سنة تسع وعشرين أنزلوا الشريف غالب إلى بولاق بنسائه وأولاده وغلمانه وعبيده فسافروا مع القاصد إلى دمياط ومنها إلى سلانيك وأرسل محمد على باشا فى طلب الشريف عبد الله بن سرور إلى الديار الحجازية وكانوا قد شددوا فى الحجر والتضييق عليه وكان لما حضر إلى مصر وأقام محجورا عليه أيامًا رأى كتخدا بيك عدم المانع من إخلاء سبيله يغدو ويروح فى الشوارع وعند المعارف والأحباب واستمر على هذا الحال شهرا ثم زينت له نفسه الفرار فاختفى أياما فأزعج كتخدا بيك فراره واستحضر سائر مشايخ الحارات وشدد عليهم فى إحضاره وبث العيون والأرصاد واهتم لهذا الأمر جدًا فلما كانت ليلة السبت ثامن عشرى رجب سنة تسع وعشرين حضروا به فى وقت الغروب إلى بيت السيد المحروقى فسلمه إلى كتخدا بيك وكانوا قد عثروا عليه بحلوان فضيق عليه هو وعمه من ذلك الوقت

ومنع من خروجهما حتى سافر الشريف غالب إلى سلانيك وسافر عبد الله المذكور إلى الديار الحجازية.

ورأى محمد على باشا أنه لابد من مصالحة الأشراف واسترضائهم كى تنحسم أسباب الخصام وتبطل الحرب بعد أن طالت أيامها وملت منها نفوس الجند فجعل يعمل ويدبر حتى استمال الشريف راجح وتودد إليه وأظهر له غاية الإخلاص وأمده بالمال وأجزل له العطاء فكانت مصالحته سببا فى ظفر جيوش الأمير طوسون وفوزهم وارتفاع كلمة محمد على باشا وقد دانت إليه الأمور وتم له المأمول وزيادة ووصل الخبر بذلك إلى دار السلطنة فجاءه فرمان السلطان بإضافة الديار الحجازية إلى ولاية مصر وجعلها كلها ولاية واحدة خاضعة لحكمه ففرح محمد على باشا فرحاً عظيماً وطير الخبر بذلك إلى الآفاق ولبث بالحجاز يدبر الأمر ويحسن حال جيش الأمير طوسون حتى أصلح ما أراد وقفل راجعًا إلى مصر ودخلها فى ليلة الجمعة خامس عشرى رجب سنة ثلاثين ومائتين وألف هجرية فى قلة من الخدم والأتباع وبعض الجند فتسابق الناس إلى رفع التقادم والهدايا إليه وقد احتجب عن الخروج أياماً ثم خرج وصعد إلى قلعة الجبل وأخذ فى إعداد ما لزم لعساكر الأمير طوسون وأكثر من جمع الجند وآلات الحرب وبالغ فى ذلك كثيرًا والناس فى ريب وطيرة لا يدرون ما سيكون من وراء هذا الاهتمام وعمد إلى تنظيم هيئة الجندية وتنسيقها على نسق عسكر الفرنسيس فشاور مقدمى الجند فى ذلك وجعل يستميلهم إلى رأيه فلم يقبلوا فأمر بعسكر ولده إسماعيل وكلهم من المرتزقة فاجتمعوا بظاهر بولاق فأوقفهم صفوفًا وأعلمهم بقصده من ترتيبهم على نسق عسكر الفرنسيس فلم تعجبهم مقالته وأكبروا الأمر جداً وأظهروا العصيان والخروج على كبارهم وباتوا ليلتهم تلك بين أخذ ورد وأصبحوا وقد اتفقوا على قتل محمد على باشا والغدر به ووافقهم على ذلك أيضًا بعض كبارهم.

(مطلب)

(العزم على قتل محمد على باشا ونهب دكاكين تجار المدينة)

فلما كانت ليلة الجمعة ثامن عشرى شعبان من السنة اجتمع عند عابدين بيك جماعة من أكابر الجند فى وليمة وبينهم محو بيك وعبد الله أغا سارى جله وحسن أغا الأرزنجلى فتناجوا فيما يريده محمد على باشا وفيما تقرر بين الأحزاب من الغدر به فأعجبهم رأيهم واتفقوا على الركوب عليه فى تلك الليلة واغتياله قبل أن يستشعر بالأمر وأن يهجموا عليه عند مطلع الفجر فى بيته الذى بالأزبكية وتحالفوا على ذلك

واستوثق بعضهم من بعض ثم عادوا إلى ما كانوا عليه فى مجلسهم غافلهم عابدين بيك وتركهم فى أنسهم ولهوهم وخرج متنكراً مسرعًا إلى محمد على باشا وأخبره بخبرهم ورجع إلى أصحابه فلم يعلموا من أمره شيئاً وأسرع محمد على فى الركوب فى سادس ساعة من الليل وطلب عسكر طاهر باشا فركبوا معه وقد أحاط الدار بالعسكر ثم أخلف الطريق وذهب إلى ناحية البركة الناصرية ومرمى النشاب وصعد إلى قلعة الجبل وتبعه من يثق به من الجند فلما قارب الفجر قام المتآمرون يريدون الهجوم على دار محمد على باشا فمانعهم المرابطون واشتد بينهم رمى البنادق فقتل منهم عدة ولم ينالوا غرضاً فساروا إلى ناحية قلعة الجبل وقد علموا بصعود محمد على باشا إليها واجتمعوا بالرميلة وقراميدان وتحيروا فى أمرهم واشتد غيظهم ووقفوا وهم لا يدرون ماذا يفعلون ثم أجمع رأيهم على أن يتفرقوا فى المدينة وينهبوا متاع الرعية وأموالها فنزلوا من وسط قصبة رضوان على الصليبة والسروجية وجعلوا يكسرون أبواب الحوانيت المغلقة وينهبون ما فيها وقد كان الناس لما تسامعوا بالحركة أغلقوا حوانيتهم وأبواب دورهم وتركوا تجارتهم طلبا للسلامة وانضم إلى الثائرين من بقى طائعاً من الجند وعمت الفوضى وبادروا جميعاً إلى النهب والخطف وشاركهم العامّة وأراذل الناس ومضوا على طريقهم إلى داخل باب زويلة وكسروا حوانيت السكرية وأخذوا ما فيها من أموال وبضائع ومضوا فى سيرهم إلى العقادين والغورية والأشرفية وسوق الصاغة ووصلت طائفة إلى سوق مرجوش فكسروا أبواب الحوانيت والوكايل والخانات ونهبوا ما فيها من أقمشة وغيرها ومروا بخان الخليلى وأرادوا مدّ يد النهب فثارت عليهم طائفة الأتراك الذين يتعاطون التجارة الساكنين بخان البن والنحاس وأطلقوا عليهم نارا حامية وكذلك فعل من كان منهم بباب الزهومة حتى ردوهم ومنعوهم وقام عليهم أيضًا طائفة المغاربة بالفحامين وحارة الكعكيين وأطلقوا البنادق فردوهم عن تلك الناحية وأغلقوا البوابات التى على رؤوس الحارات وجلس عند كل باب جماعة ومن فوقها آخرون من أهل الخطة وبأيديهم البنادق لمنع الواصل إليهم ووصلت طائفة إلى خان الحمزاوى فعالجوا بابه حتى كسروا الخوخة التى بالباب وعبروا الخان وكسروا حواصل التجار كافة ونهبوا ما وجدوه من الأقمشة الهندية والشامية والمقصبات وتبعهم فى ذلك الخدم والعامة وأخرجوا ما فى الدكاكين والحواصل من الأموال وأنواع البضائع وكان القوى منهم يعدو على الضعيف فيأخذ ما معه ويقتل بعضهم بعضا وكسروا أبواب الحوانيت التى خارج الخان بالخطة وأخرجوا ما فيها من التحف والأوانى الصينية والبلور وأنواع

الزجاج وكذلك فعلوا بسوق البندقانيين وكثر خلفهم النهابون والغوغاء واستباح الناس يومئذ أموال بعضهم وكان هذا الحادث من أشد الحوادث وأنكاها بالرعية. قال بعض الكتاب: وقد تم هذا كله فى ظرف مدة لا تتجاوز الخمس ساعات وذلك من قبيل صلاة الجمعة إلى قبيل صلاة العصر ولم تصل الجمعة فى ذلك اليوم وأغلقت المساجد بداخل المدينة وأخذ الناس حذرهم وتسلحوا وأغلقوا البوابات وسهروا الليالى وأقاموا على التحذر والتخوف، وأصبح يوم السبت تاسع عشرى شعبان موافقًا لآخر يوم من شهر أبيب وقد أوفى النيل أذرعه وكان فى ذلك اليوم أيضاً رؤية هلال رمضان فلم يعمل فيه شيء من المراسم المعتادة لقيام الفتنة فلما سكن الحال رسم محمد على باشا بإحصاء ما نهبه العسكر وتقويمه لرده لأصحابه من ماله فطلع إليه كبار العسكر يعتذرون ويتنصلون من تبعة ما فعله الجند فرسم لهم بجمع ما يمكن جمعه من النهابين ففعلوا وشقوا فى وسط المدينة ونادوا بالأمان فلم تطمئن خواطر الرعية ونزل كتخدا بيك وجلس عند جامع الغورية ورسم لأهل الأسواق بفتح حوانيتهم وأن يجلسوا فيها على عادتهم ففعلوا على تخوف وأخذ محمد على باشا يتدبر فى أمر أولئك العسكر ويعمل على تمزيق شملهم فاستعمل مع بعض كبارهم المسايرة وقرّبهم من مجلسه وتزلف إليهم جهد الاستطاعة وأجزل لهم العطاء ورفعهم إلى الرتب السامية ولم يعجل فى عمله بل لازم التأنى والصبر، فلما كان شهر ربيع الآخر من سنة إحدى وثلاثين أمر أولاده بالخروج بمن معهم من العساكر والأجناد إلى ظاهر المدينة والإقامة على أهبة السفر وأسرّ إليهم ما فى ضميره من قتل كبار الفتنة وزعماء هانه العصابة وخاطب أمراء العسكر فى الخروج فخرجوا وعسكروا بظاهر المدينة وأصحب مع ولده الأمير طوسون رجلاً من خواصه أسمه أحمد أغا المنجورجى المدللى ووكل إلى الأمير طوسون تدبير أمر قتل القوم فأخذ الأمير طوسون فى التدبير وعمل الحيلة وبدأ بمحو بيك وهو أعظمهم قدرا وأكثرهم جندًا وأخذ فى استمالة عسكره وإبعادهم عنه وما زال حتى لم يبق مع محو بيك إلا القليل فلما تمكن من ذلك وصار قتله أمراً مقضياً أرسل إليه يدعوه لمشورة فعلم أحمد أغا المنجورجى بما وراء ذلك فذهب إليه وأسر إليه بما يراد به فعله وأشار عليه بعدم الذهاب فركب محو بيك من فوره وذهب إلى كبار الدلاة مستجيرا فشفعوا فيه عند محمد على باشا وقد علم محمد على بما فعله أحمد أغا فأمر به فقتلوه عند باب زويلة وتركوا جثته ملقاة يوماً كاملاً وتحرز كبار الجند وداخلهم الخوف والقلق وأخذتهم الطيرة فأقام الأمير طوسون بعسكره أياماً حتى رسم له أبوه بالرجوع إلى

الحجاز فعاد إليها بعسكره وسير إلى الشريف عبد الله بن مسعود الذى تولى زعامة الوهابيين بعد موت أبيه من يخابره فى الصلح وطالت المخابرة بينهما إلى أن تقررت القاعدة على ما يحبان فحضر جماعة من الوهابيين نحو العشرين وأقاموا عند الأمير طوسون رهائن على تنفيذ عقد الصلح وحضر منهم اثنان إلى مصر وأبلغا محمد على باشا ما تقرر بينهم وبين الأمير طوسون ثم رجعا، فلما كان اليوم الأوّل من ذى القعدة من السنة أى سنة إحدى وثلاثين وصل الأمير طوسون إلى السويس وأتى إلى القاهرة فزينوا لقدومه المدينة وعملوا له موكبا حافلا فدخل من باب النصر وعلى رأسه الطبلخان وشعار الوزارة وطلع إلى قلعة الجبل وأقام بها إلى ليلة الجمعة خامس عشره ثم سافر إلى الإسكندرية حيث كان أبوه ينتظره ثم عاد إلى مصر وقد ولاه أبوه قيادة الجند الأتراك والدلاة وأطلق له التصرف فى تدبيرهم، وكان محمد على باشا فى خلال هذه المحن والخطوب مثابرًا على مساحة الأراضى وضبط الرزق والأجباس وتعميم الفلاحة وإنشاء الترع والجسور وإحداث المعامل النافعة وغرس الأشجار الكبيرة وتنظيم الطرقات وتأسيس المدارس وإحياء العلوم على اختلافها ولاسيما الطب والهندسة والفلك وعمل السفن والمعاقل والحصون وقد بذل النفيس فى إعادة السدّ الممتد الموصل إلى الإسكندرية وهو سد أبى قير فقد كان اتسع أمره وتخرب وزحف منه الماء الملح وأتلف الكثير من الأراضى وأغرق القرى وخرب المدن والمزارع وتعطلت بسببه الطرق والمسالك وعجزت الدول فى أمره ولم يزل يتزايد فى التهوّر وزحف المياه الملحة على الأراضى حتى دخلت إلى خليج الأشرفية الذى تمتلىء منه صهاريج الإسكندرية المعروف الآن بترعة المحمودية فلما اعتنى محمد على باشا بتشييد الإسكندرية وتعمير أبراجها وحصونها ومعاقلها وأنزل بها العمارات اعتنى أيضاً بأمر السد المذكور وأرسل إليه المباشرين والقوّام والعمال والفعلة والنجارين والبنائين والأخشاب وآلات الحديد والأحجار والمؤن حتى تممه وكان له عناية لم تكن لغيره من ملوك هذه الأزمان وقيد به بعض المهندسين والعمال وما زالوا به إلى هذا الحين.

(مطلب)

(موت الأمير طوسون وقيام الأمير إبراهيم بقتال أهل الحجاز بعده)

واتفق أن ظهر الطاعون بمصر فى هذه السنة أى سنة إحدى وثلاثين واشتد وكثر الموت فى الناس وكان الأمير طوسون قد ذهب إلى رشيد وعاد منها إلى قصره فى برنبال ففى ليلة وصوله إلى القصر أصابه الطاعون فتململ نحو العشر ساعات ومات

ليلة الأحد سابع شهر ذى القعدة من السنة فكفنوه ووضعوه داخل صندوق ووصلوا به فى سفينة منتصف ليلة الأربعاء عاشره وكان أبوه بالجيزة فلم يتجاسروا على إخباره فذهب إليه أحمد أغا أخو كتخدا بيك فلما علم بوصوله ليلاً استنكر حضوره فى ذلك الوقت فسأله عن سبب حضوره وعن ولده الأمير طوسون فقال إنه حضر متوعكا إلى شبرا فركب فى الحال محمد على باشا طرادة وانحدر إلى شبرا وصعد إلى القصر وصار يمر بالمخادع ويقول : أين هو؟ أين هو؟ فلم يقدر أحد على إخباره بالخبر وكانوا قد ذهبوا به وهو فى السفينة إلى بولاق ورسوا عند الترسخانة وأقبل كتخدا بيك على محمد على باشا فرآه يبكى فأنزعج انزعاجًا شديدًا وكاد يقع مغشياً عليه ونزل سفينة وأتى إلى بولاق آخر الليل ولازم النعش وهو يبكى بكاء مرا فلما أصبحوا ساروا بالنعش فى مشهد حافل للغاية وصلوا عليه بجامع المؤمنين ثم ذهبوا به إلى المدفن الذى أعده أبوه لموتاه وكان محمد على باشا يسير بجانب النعش وعيناه شاخصتان إليه والدموع تنحدر على خديه ولحيته ولم يخبروا والدته بموته إلا بعد دفنه فوجدت عليه وجدا عظيما ولازم أهل المدينة الحداد أربعين يوماً وجلسوا للعزاء عند قبره ومات وهو فى مقتبل الشباب لم يبلغ العشرين وكان أبيض جسيماً بطلاً شجاعاً جواداً كريماً يحب المصريين وله هيبة فى قلوب العسكر زائدة وكان محبوبا عند الناس فكانوا يرجون ولايته بعد أبيه ويأبى الله إلا ما يريد وطار خبر موته إلى الآفاق وشاع بين الوهابيين ففرحوا وعادوا إلى الخروج ثانية إلا القليل من كبارهم وجاء الخبر بذلك فجهز محمد على باشا لردهم ولده الأمير إبراهيم وجيش له جيشاً عظيما وعدداً من مراكب الحرب والشوانى الكبيرة فسار وقاتل الشريف عبد الله وفتح بعض المدن والبنادر وأعمل فى أهلها القتل والنهب وتغلغل فى جوف البلاد وغاب عن أبيه خبره فأنزعج وبعث بطائفة أخرى من العساكر والأجناد وبالغ فى المدد براً وبحرًا ثم وردت الأنباء بوصول الأمير إبراهيم إلى ناحية اسمها (الموتان) وأنه قاتل الوهابيين فيها قتالاً شديداً كان له فيه الظفر وقد أسر منهم عدة رجال وأخذ خياماً كثيرة ومدفعين وقبض على زعيم من زعمائهم اسمه (عتيبة) ثم سار بعساكره إلى ناحية الشقراء وكان بها الشريف عبد الله بن مسعود فقاتل عليها قتالاً عظيماً فخرج منها الشريف هارباً إلى الدرعية فتبعه العسكر وفتحوا كل ما صادفهم فى طريقهم من المدن والبنادر حتى أتوا الدرعية فحاصروها وقاتلوها قتالاً عنيفًا ومنعوا عنها الواصل وأحاطوا بها أيامًا كثيرة وضيقوا عليها وشددوا، واتفق أن سار الأمير إبراهيم بجماعة من عسكره إلى بعض الجبال لاستكشاف معسكر الوهابيين وقد كان على مرحلتين

من الدرعية فتغيب أيامًا فلما أحس المرابطون فى الدرعية بغيابه خرجوا وقاتلوا عساكره حتى أجلوهم وأخذوا خيامهم وآلات حربهم وقتلوا منهم جماعة كثيرة واشتدوا عليهم شدة بالغة فكانت وقعة من شر الوقائع وجاء الخبر إلى الأمير إبراهيم فكرّ راجعاً ولكنه لم ينل من الوهابيين فأخذ فى تدبير جيشه وجمع من تشرد منه وطلب من أبيه المدد فأمده بعدة عظيمة من المشاة والفرسان وعدة من مراكب الحرب فتقوّى جند الأمير إبراهيم فأعاد الكرة على الشريف عبد الله وأصحابه واشتد فى قتالهم فقتل الشريف حمودة أصابته جراحة وهو فى ساحة القتال ناحية الدرعية وضيق على من بقى فيها حتى أخذها عنوة وقبض على الشريف عبد الله وسير به أسيرًا إلى مصر. قال بعض كتاب الأخبار: فلما مثل بين يدى محمد على باشا قام له إجلالاً وأجلسه بجانبه ولاطفه وقال له: «ما هذه المطاولة»؟ فقال: الحرب سجال. قال: وكيف رأيت ولدى إبراهيم؟ قال: ما قصر وبذل الهمة وقد فعلنا نحن فعله حتى كان ما قدره الله. فقال: سأشفع فيك عند الخليفة إن شاء الله. فقال: ما قدّر سوف يكون، فألبسه خلعة وانصرف من عنده إلى بيت إسماعيل باشا ببولاق ولبث أياماً ثم سيروه إلى دار الخلافة مع طائفة من الجند تخفره وأرسل الأمير إبراهيم فريقاً من عسكره ومقدمه خليل باشا لفتح يمن الحجاز فقاتلها قتالاً عنيفًا حتى تغلب عليها وفتحها عنوة فلما وصلت الأخبار بذلك إلى دار السلطنة سر السلطان بذلك سرورًا عظيماً وأرسل إلى محمد على باشا وولده الأمير إبراهيم الهدايا النفيسة والتحف الغالية وخلع عليهما خلع الرضا، وحضر إلى مصر من بقى من الوهابيين وسقط فى قبضة الأمير إبراهيم فكانوا زهاء الأربعمائة ما بين رجال ونساء وأولاد فأسكنوهم بالمكان المعروف بالقشلة بالأزبكية وبينهم ابن الشريف عبد الله بن مسعود وقد كان أبوه قتل فى دار السلطنة بعد وصوله إليها بقليل فلم يحجر عليهم فعلم الناس منهم أن يمن الحجاز لم تؤخذ عنوة قالوا: لأنه لما مات حمودة شيخها وولوا مكانه ولده أظهر الطاعة للدولة فلما سار خليل باشا لقتاله أخلى له البلد وأعتزل فى حصن له ولم يخرج لدفعه ومحاربته كما فعل أبوه وترددت بينهم الرسل وما زال به خليل باشا حتى أنزله من الحصن وأتى إليه فى قلة فقبض عليه وسيره إلى مصر أسيرًا، وعاد الأمير إبراهيم من الأقطار الحجازية فى حادى عشرى صفر سنة خمس وثلاثين ومائتين وألف عن طريق القصير ودخل القاهرة من باب النصر فى موكب حافل للغاية وعلى رأسه الطبلخان السليمى فى شعار الوزراء وصعد بالموكب إلى قلعة الجبل ثم عاد إلى مقره بالروضة وقد تزاحم

على بابه المهنئون ومدحه الشعراء وقدّمت له الهدايا والأعلاق النفيسة وظهرت من هذا الحين كلمته واتسعت شهرته وهابه الكبراء والأمراء.

(مطلب)

(إصلاح ترعة الأشرفية)

ونظر محمد على باشا إلى ما يقاسيه التجار من صعوبة نقل أرزاقهم وقلة المواصلات فرسم بتصليح الترعة الموصلة إلى مدينة الإسكندرية المعروفة بالأشرفية فقيد بها العمال والمباشرين والمهندسين فأخذوا فى حفرها وتنسيقها سنة وبضع أشهر حتى تمت أخريات ربيع الأول سنة خمس وثلاثين وجرى فيها الماء وسارت بها المراكب إلى رشيد والإسكندرية بالأرزاق والبضائع والركاب وفرح الناس بها فرحًا عظيمًا وسافر بها محمد على باشا وأعجبه وصفها وسماها فى ذلك اليوم المحمودية وهى من أجل الأعمال النافعة والمآثر الباقية إلى يومنا هذا.

(مطلب)

(فتح السودان وتدويخ أمرائه وترتيب جيش على نظام عسكر الفرنسيس)

ولما زالت الفتن من جوف البلاد بزوال الأمراء المصريين وقطع شأفة المماليك والغوغاء من الجند والحرافيش وتذليل الوهابيين بالديار الحجازية والقبض على زعمائهم وأصحاب الكلمة فيهم وعجز من بقى منهم عن مقاومة المرابطين من العسكر المصرى عمد محمد على باشا إلى فتح السودان وقوى عزمه على الإغارة عليها واستخراج كنوزها ومعادنها فاهتم اهتماماً زائدًا فى تجييش الجيوش وإعداد المؤن وآلات الحرب وجعل ولده الأمير إسماعيل مقدّم هذه الغزوة وبالغ فى تجهيزه بجميع ما يلزم وضم إلى جيشه كثيرًا من العربان فصار جيشا ضخما للغاية وسارت طلائعه فى أوائل شعبان سنة خمس وثلاثين ثم ارتحل الأمير إسماعيل فى ذى القعدة من السنة وارتحل معه محمد بيك الدفتردار ليتولى قيادة الحملة الذاهبة إلى الدارفور ومحو بيك وغيرهم واستقر محمد كتخدا لاظ بأنصنا التى هى إسنا لتوصيل المؤن والذخيرة ودواب الحمل وكان محمد على باشا إلى هذا الحين شديد الرغبة فى إنشاء جيش من أولاد الناس على نظام عسكر الفرنسيس وقد خلت البلاد من كثير من العسكر الذين ارتحلوا مع ولده الأمير إسماعيل إلى غزوة السودان فعمد إلى تنفيذ ما فى نفسه وخاطب أهالى البلاد بأن من يشاء أن يدخل فى خدمة الدولة بصفة جندى

يصرف له كذا من العلوفة وكذا من السلاح وكذا من الألبسة بشرط أن يكون فى سن الخامسة والعشرين أبيض اللون صحيح الجسم سليم البصر فليسجل اسمه فى الدفتر الذى أعدّ لذلك عند مشايخ البلاد، وكان الناس جميعاً ميالين إلى مساواتهم بطوائف الجند فراراً من إيذائهم فتسابقوا إلى الدخول طوعاً وافتخر بعضهم على بعض بحسن القد وانتظام الهيئة وتسارعوا إلى تسجيل أسمائهم فكان إذا اجتمع فى البلدة أو القرية اثنان أو ثلاثة سيروا بهم إلى بنى عدى من مديرية أسيوط حيث كان محمد كتخدا لاظ أوغلى فيسلمهم إلى الموكلين بتعليمهم وكان محمد على باشا قد رسم بأخذ جماعة من مماليك رجال الدولة وأرباب الوظائف فاختاروا منهم من توسموا فيه النجابة واستقدم إليهم ضابطا من عظماء الفرنسيس اسمه (الكولونيل ساف) فأخذ ساف المذكور فى تعليمهم العلوم العسكرية حتى تخرّجوا ونبغوا وتولوا هم تدريب الجند وتعليمهم بحيث لم يعلم بخبرهم من أهل البلاد إلا النزر اليسير وما زالوا حتى تم لهم تمرين خمسة آلاف مقاتل وكمل نظامهم على نحو ما أرادوا وفرح محمد على باشا بهم فرحا عظيما وأمر فسيروهم مع من خرج من الجند إلى السودان فى شعبان سنة خمس وثلاثين فقطعوا الشلالات ومروا بشندى والمتمة وأخضعوا كل ما صادفهم فى طريقهم من القرى والبلدان وهم لا يدافعون إلا بالأمر الخفيف ثم ساروا إلى سنار على البحر الأزرق وراء الخرطوم فخرجت عليهم قبيلة الشايقية وقاتلتهم قتالاً غير طويل حتى استأمنت فدخل العساكر سنار التى هى عاصمة الكردفان وعسكروا بها ورتبوا أمورهم ثم سار الأمير إسماعيل عن سنار إلى فيزوغلى فى طائفة من عسكره ليكشف حقائق تلك البقاع ويعرف ما فيها من الكنوز والمعادن فاستولى على عسكره المرض وفشا فيهم الوباء وكثر الموت فمات منهم خلق كثير فأرسل يطلب المدد فأتت إليه نجدة من ثلاثة آلاف مقاتل ومقدمهم أحمد بيك الدفتردار فقويت عزيمة الأمير إسماعيل وترك الدفتردار يدبرالأمور فى كردفان وسار هو إلى المتمة فى عسكر ثم عبر النيل إلى شندى ونزل بها وكان بها سلطان اسمه (نمر) وكان عاتيا شديد البأس جبارا فاستحضره الأمير إسماعيل وضرب عليه الكلف وقرر عليه شيئاً كثيراً من الذهب والرجال قيل طلب منه ملء سفينة صغيرة من الذهب وألفى مقاتل فى أجل لا يتجاوز الخمسة أيام فاستعظم نمر هذا الأمر وبالغ فى الشكوى والاستعطاف وما زال بالأمير إسماعيل حتى رضى أن يأخذ عشرين ألف ريال عوض الذهب ثم سأله أن يمد له الأجل فغضب عند ذلك الأمير إسماعيل وكان بيده شبق الدخان فضرب نمرا به على رأسه وقيل بل ضربه بمنشة على وجهه وصاح عليه ونهره فخرج نمر من عنده وهو مضمر له السوء فلما كان

المساء من تلك الليلة أكثر نمر من استحضار التبن علفا للجمال ودواب الحمل والحطب لوقود العسكر وجعل يصفه صفوفاً حول العسكر بعضه يتصل ببعض فكان شيئاً كثيراً جدا ثم أتى إلى مقر الأمير إسماعيل فى سرب من العبيد يضربون الطبول وينفخون فى قرون الحيوانات كالمزامير ويرقصون فأعجب الأمير إسماعيل منظرهم وطرب أصحابه منهم وما زالوا على هذا الحال إلى منتصف الليل وقد اجتمعت الغوغاء وعلت الضوضاء واشتدت الطبول وعلت أصوات القرون فأمر نمر طائفة منهم فأشعلوا النار فى التبن وذلك الوقود ووقفت طائفة منهم بالسيوف والحراب تمنع الخارج فاندلع لسان اللهيب وعلا وأظلم الجوّ فأعملوا السيوف فى أعناق الجند فهموا بالفرّار فلم يتمكنوا فاحترق من أحترق ومات الأمير إسماعيل بالحريق وهو بين طائفة من مماليكه وأصبحوا ولم يبق من العسكر ديار ولا نفاخ نار وساق أصحاب نمر سلبهم إلى شندى وأتصل الخبر بالدفتردار وهو بدارفور فقام من فوره وسار إلى شندى وأقسم أنه ليهلك عشرين ألفا فداء لإسماعيل فلما نزل عليها لاقاه نمر بأصحابه فقاتلهم بمن معه من العسكر وظفر بنمر وقتله وأعمل السيف فى أصحابه وأفحش فى القتل وأسرف فى الانتقام ولم يحنث فى يمينه فهابه الناس واتسعت شهرته إلى أقاصى السودان فانكمش أصحاب الفتن وظل يدبر الأمور ويأمر وينهى ويخضع الكبار من السود إلى سنة أربعين ومائتين وألف هجرية حتى جاءه الأمر من محمد على باشا بالتخلى عنها والانحدار إلى القاهرة فانحدر وتولى مكانه رستم بيك فحذا حذوه وأكثر من الوعيد والتهديد حتى خضعت له جميع الأهالى ودانت له سائر الأمور.

(مطلب)

(إنشاء المدارس الحربية ومعامل الأسلحة والبارود)

واشتدت رغبة محمد على باشا بعد فتح السودان فى إتقان نظام عسكره على نسق عسكر الفرنسيس فأنشأ مدرسة للمشاة فى الخانقاه وأخرى للفرسان بالجيزة فى بيت مراد بيك الكبير واستحضر لهما أشهر أساتذة الفرنجة وأنشأ أيضًا مدرسة لأصحاب المدافع وأسس معامل للبارود وصب المدافع وعمل البنادق وجميع آلات الحرب واحتياجات الجند على اختلافها وسلم إلى الكولونيل سيف الذى هو سليمان باشا الفرنسوى زمام تدبيرها ووكل لعهدته جميع أمور الجندية وجعله رأس جميع مقدميها فبالغ سليمان باشا فى تعزيزها وإتقان نظامها فلم يمض عليها إلا القليل حتى صارت جندا عظيماً مدبراً مغازيا واسع الإصابة موفقا مظفرا أينما سار، ونقل

الناقلون إلى السلطان خبر ما وصل إليه محمد على باشا من الشهرة والجاه بعد فتحه للأقطار السودانية فخشى السلطان عاقبة أفعال محمد على باشا وظن به السوء وجعل يراقب أحواله ولكنه كان لا يقدر على أن يأتى معه أمرا لقيام الفتنة فى جميع الإيالات التابعة لمملكته واشتغال عساكره بالحروب القائمة مع الأحزاب لا سيما الحرب القائمة منها مع اليونان فقد كانت من أشدها ويلا وأعظمها خرابا وأنكاها بالغالب من الفريقين والمغلوب وطالت أيامها وأريق فيها من الدماء شىء كثير للغاية فكانت كلما طالت استعرت نارها وأشتد أوارها وقويت ظهور الثائرين وجاءهم المدد من أرض الله الواسعة برا وبحرا فقاتلوا قتال المستقتلين حتى أعيا السلطان أمرهم وداخل عساكره الملل وخشى عاقبة ذلك.

(مطلب)

(خلود اليونان إلى الثورة وطلب الاستقلال)

قال أصحاب التاريخ: لما نهض اليونان إلى طلب الاستقلال والخروج عن تابعية السلطنة العثمانية رأوا أن هذا الأمر لا يتم لهم إلا ببث الحرية والمساواة بين طبقات الرعية وهذا لا يتم أيضاً إلا بتثقيف أذهان أبنائهم بالعلوم والمعارف الصحيحة فتألب كبراؤهم وأصحاب الميسرة فيهم وسيروا أولادهم إلى بلاد الفرنجة لتلقى العلوم والآداب ومعرفة عاداتهم حتى إذا عادوا إلى أوطانهم بما عرفوه من معارف أولئك القوم وعاداتهم كانوا هم مقدمى الأمة ورعاة حريتها ومخرجيها من مضايق الأسر والاسترقاق إلى بحبوحة الحرية والمساواة فنجعوا فى ذلك وأنشأوا جمعيات سرية للذب عن حقوقهم السياسية وجعلوا مقرها بلاد الروس وبلاد النمسا فعملت تلك الجمعيات وبالغت جدًا وكان أهمها عملا وأشدها خطرا الجمعية المسماة هيتيرى ومعناها الجمعية الأخوية وكان مقر هذه الجمعية أوّلا بمدينة أودسا ثم انتقلت إلى مدينة كيف وكلتاهما من أملاك الروس وبقيت تحافظ على كتمان أمرها إلى سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف هجرية ثم ظهرت نتائج أعمالها بظهور الفتنة وخروج اليونان عن طاعة السلطنة العثمانية، وكان للقيصر إسكندر الأول ابن القيصر بولس قيصر الروس يد قوية فى تعضيد تلك الجمعيات وتقوية عزائم الجنس اليونانى وتعزيز مطالبه تنكيلا بالدولة العثمانية ولكى لا تخمد نار الفتنة من جميع بلادها ولا ينطل لها اضطراب فيتمكن من تنفيذ وصية بطرس الأكبر التى أوصى بها كل من يتولى ملك الروس أن يجعل القسطنطينية باب الممالك الروسية ومفتاح مغالق الديار الأوروباوية (قلت) ولما كانت هذه الوصية عند كبار السياسة الشرقية والغربية لاسيما

عند كبار رجال السلطنة العثمانية بمكان وكان بقاء السلطنة المشار إليها وزوالها معقودين بأطراف تلك الوصية رأيت أنه لا بأس بإيرادها هنا كما جاءت فى ترجمة تاريخ العلامة جودت باشا ولا أعلم من أين وصلت إليه معرفتها وعهدنا بوصايا الملوك التى من هذا القبيل أن يقفل دونها جميع أبواب الوصول قال:

(وصية بطرس قيصر الروسية)

(البند الأول) من اللزوم أن تقاد العساكر دائمًا إلى الحرب وينبغى للأمة الروسية أن تكون متمادية على حالة الكفاح لتكون أليفة الوغا وترك وقت لراحة العساكر أو لأجل إصلاح المالية وتوفيرها وإن كان ضروريا يلزم أن يكون تنظيم المعسكرات متعاقبا وتكون مراقبة الوقت الموافق للهجوم متصلة آنا بآن وعلى هذه الصورة ينبغى لروسيه أن تتخذ من الصلح والأمان وسيلة قوية للحرب وهكذا زمن الحرب للصلح وذلك لأجل زيادة قوتها وتوسيع منافعها.

(البند الثانى) فى وقت الحرب ينبغى اتخاذ جميع الوسائل الممكنة لاستجلاب ضباط للجنود من بين الملل والأقوام الذين هم أكثر معلومات فى أوروبا وكذلك فى زمن الصلح يتعين استجلاب أرباب العلم والمعارف منهم أيضاً ويلزم الاعتناء بما يجعل الأمة الروسية تستفيد من منافع سائر الممالك ومحسناتها بحيث إنها لا تضيع سعيا فى تحصيل المحسنات المخصوصة بمملكتها.

(البند الثالث) عند سنوح الفرصة ينبغى وضع اليد والمداخلة فى جميع الأمور والمصالح الجارية فى أوروبا وفى اختلافاتها ومنازعاتها وعلى الخصوص فى وقوعات ممالك ألمانيا الممكن الاستفادة منها بلا واسطة بسبب شدة قربها.

(البند الرابع) ينبغى استعمال أصول الرشوة لأجل إلقاء الفساد والبغضاء والحسد دائماً فى داخلية ممالك «له» وتفريق كلمتهم واستمالة أعيان الأمة ببذل المال واكتساب النفوذ في مجلس الحكومة حتى تتمكن من المداخلة فى انتخاب الملك وبعد الحصول على انتخاب من هو من حزب روسيه من تلك الأمة ينبغى حينئذ دخول عساكر روسيه إلى داخل البلاد لحمايتهم والتعصب لهم بإقامة العساكر المذكورة مدة مديدة هناك إلى أن تحصل الفرصة لاتخاذ وسيلة تمكننا من الإقامة وعندما تظهر مخالفة فى ذلك من طرف الدولة المجاورة فلأجل إخماد نار الفتنة موقتا ينبغى أن نقاسم المخالفين فى ممالك «له» ثم نترقب الفرص لاسترجاع الحصص التى تكون أعطيت لهم.

(البند الخامس) ينبغي الاستيلاء على بعض الجهات من ممالك أسوج بقدر الإمكان ثم نسعى فى اغتنام وسيلة لاستكمال الباقى منها ولا نتوصل إلى ذلك إلا بوجه تضطر فيه تلك الدولة إلى أن تعلن الحرب على دولة الروسية وتهاجمها والذى يلزم أولاً هو أن تصرف المساعى والهمة لإلقاء الفساد والنفرة دائماً بين أسوج والدانمرقة بحيث إن يكون الاختلاف والمراقبة بينهم دائمين باقيين.

(البند السادس) يجب على الأسرة الأمبراطورية الروسية أن يتزوّجوا دائماً من بنات العائلة الملوكية الألمانية وذلك لتكثير روابط الزوجية والاتحاد بينهم واشتراكهم فى المنافع إذ بهذه الصورة يمكن إجراء نفوذهم فى داخل ألمانيا ويربطون أيضاً الممالك المذكورة لجهة منافعنا ومصالحنا.

(البند السابع) أن دولة إنجلترا هى الدولة الأكثر احتياجا إلينا فى أمورها البحرية ولهذه الدولة فائدة عظيمة جدا أيضاً فى أمر زيادة قوتنا البحرية فلذلك من الواجب ترجيح الاتفاق معها فى أمر التجارة على سائر الدول وبيع محصولات ممالكنا كالأخشاب وسائر الأشياء إلى إنجلترا وجلب الذهب من عندهم إلى ممالكنا واستكمال أسباب الروابط والمناسبات متماديا بين تجار وملاحى الطرفين فيتوسع بهذه الوسيلة أمر التجارة وسير السفن فى ممالكنا.

(البند الثامن) على الروسيين أن ينتشروا يوما فيوما شمالا فى سواحل بحر البلطيق وجنوباً فى سواحل البحر الأحمر.

(البند التاسع) ينبغي التقرب بقدر الإمكان من استانبول والهند وحيث أنه من القضايا المسلمة أن من يحكم على استانبول يمكنه حقيقة أن يحكم على الدنيا بأسرها فلذلك من اللازم إحداث المحاربات المتتابعة تارة مع الدولة العثمانية وتارة مع الدولة الإيرانية وينبغي ضبط البحر الأسود شيئًا فشيئًا وذلك لأجل إنشاء دار صناعات بحرية والاستيلاء على بحر البلطيق أيضًا لأنه ألزم موقع لحصول المقصود وللتعجيل بضعف بل بزوال دولة إيران لنتمكن من الوصول إلى خليج البصرة وربما نتمكن من إعادة تجار الممالك الشرقية القديمة إلى بلاد الشام والوصول منها إلى بلاد الهند التى هى بمثابة مخزن للدنيا وبهذه الوسيلة نستغنى عن ذهب إنجلترا.

(البند العاشر) ينبغي الاهتمام بالحصول على الاتفاق والاتحاد مع دولة أوستريا والمحافظة على ذلك ومن اللازم التظاهر بترويج أفكار الدولة المشار إليها من جهة ما

تبتغى إجراءه من النفـوذ فى المستقبل فى بلاد ألمانيا وأما باطنهـا فينبغى لنا أن نسعى فى تحـريك عروق حـسد وعداوة سـائر حكام ألمانيـا لها وتحـريك كل منهم لطلب الاستـعانة والاسـتعـداد من دولة روسية ومن الـلازم إجراء نوع من حمـاية الدولة المذكورة بصورة يتسنى لنا فيها الحكم على تلك الدول فى المستقبل.

(البند الحادى عـشر) ينبغى تحريض العائلة المالكة فى أستوريا على طرد الأتراك وتبعـيدهم من خطة الروم إيلى وحينما نسـتولى على استـانبول علينا أن نسلط دول أوروبا القديمة على دولة لستوريا حربا أو نسكن حسدها ومراقبتها لنا بإعطائها حصة صغيرة من الأماكن التى نكون قد أخذناها من قبل وبعده نسعى بنزع هذه الحصة من يدها.

(البند الثـانى عـشـر) ينبغى أن نستـميل لجهتنا جميع المسيـحيين الذين هم من مـذهب الروم المنكرين رياسـة الباب الروحـية والمنتـشـرين فى بلاد المجر والممـالك العثمانية وفى جنوبى ممالك «له» ونجعلهم أن يتخـذوا دولة روسيا مرجعا ومعينا لهم ومن اللازم قبل كل شىء إحـداث رياسة مذهبيـة حتى نتمكن من إجـراء نوع نفوذ وحكومة رهبانيـة عليهم فنسعى بهذه الواسطة لاكتـساب أصدقاء كثيـرين ذوى غيرة نستعين بهم فى ولاية كل أعدائنا.

(البند الثـالث عشـر) حين ما يصبح الأسوجيون متشتتين والإيرانيون مغلوبين واللاهيون محكومـين والممالك العثمانية مـضبوطة أيضًا حينئذ نجـمع معسكراتنا فى محل واحد مع المحافظة على البحر الأسـود وبحر البلطيق بقوتنا البحرية وعند ذلك نظهر أولاً لدولـة فرنسا كـيفيـة مقـاسمات حكومـات الدنيا بأسـرها بيننا ثم لدولة أستوريا ويعرض ذلك على كل من الدولتين المشار إليهما كل منهما على حدة بصورة خفية جداً لقبول ذلك وحيـث إنه لابد من أن إحداهما تقبل بهذه الصورة فعند ذلك ينبغى مداراة واحترام كل منهما ونجعل من كان منهما قابلاً بما عرضناه عليهما واسطة لتنكيل الأخرى وبذا تكون دولـة روسية حينئـذ قد ضبطت جـميع الممالك الشرقـية ويكون مثل ذلك أعظم قطع أوروبا حديثة الدخول فى يد تصرفها فعنده يسهل علينا أن نقهر وننكل فيما بعد أىّ دولة بقيت فى الميدان من الدولتين المذكورتين.

(البند الرابع عشر) على فرض المحال أن كلاً من الدولتين المشار إليهما لم يقبل بما عرضته عليهـما روسيه فينبغى حينئذ لروسية أن تصـرف الأفكار لمراقبة ما يحدث

من النزاع والخلاف بينهما فإذا وقع ذلك فلابد أن يحصل تعب للطرفين ويشتبك هذا الأمر مع الآخر وفى ذلك الوقت يجب على روسية أن تنتظر الفرصة العظيمة وتسوق حالاً معسكراتها المجتمعة أولاً بأول على ألمانيا فتهجم على تلك الجهات ثم تخرج قسمين كليين من السفن أحدهما من بحر أزاق المملوء بالعساكر الوافرة المجتمعة من أقوام الأناضول المتنوعة. والثانى من ليمان أرخانكل الكائنة فى البحر المتجمد الشمالى فتسير هذه السفن وتمر فى البحر الأبيض والبحر المحيط الشمالى مع الأسطول المرتب فى البحر الأسود وبحرالبلطيق وتهجم كالسيل على سواحل فرنسا وأما ألمانيا فإنها تكون إذ ذاك مشغولة بحالها وبما ذكرنا تصبح المملكتان الواسعتان المذكورتان مغلوبتين على هذه الصورة فالقطعة التى تبقى من أوروبا قابلة للفتح والتسخير، انتهت بنصها. قلت: ولا يقع فى ملكه إلا ما يشاء.

(مطلب)

(ولاية محمد على باشا على المورة وكريد ومقالة من بهما من الخوارج)

وانتشر سر جمعية الهيتيرى المذكورة بين جميع الجنس اليونانى المقيم ببلاد المورة وغيرهما من بقية بلاد المملكة العثمانية وفشا بينهم فلم تأت سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف هجرية حتى بلغ عدد أعضائها العاملين فيها نيفا وعشرين ألفا ممن يقدرون على حمل السلاح ولا يرهبون الموت عند الكفاح فلما ظهرت الفتنة فى يانيا وخرج واليها المسمى على باشا عن طاعة السلطان واشتغلت العساكر السلطانية بقتاله نهض أعضاء تلك الجمعية نهضة الأسد الرابض وركبوا على الجنود العثمانية المرابطة فى حصونهم وقلاعهم وأعملوا فيهم القتل واشتدت الفتنة وعمت وتمكن زعماء العصابة من الاستيلاء على كثير من الحصون والقلاع وأشغل السلطان أمر هذه الفتنة وأهتم لها أهتمامًا عظيمًا فلما سكنت فتنة يانيا وقتل واليها سير السلطان خورشيد باشا فى عسكر عظيم لإخضاع اليونان وإرجاعهم إلى الطاعة فقاتلوه قتالاً عنيفاً وانتصروا عليه نصرة مؤزرة فى مضيق الترمونبيل ومزقوا شمل عساكره كل ممزق وتمكنوا من إضرام النار فى جميع سفن حرب الدولة العثمانية التى كانت يومئذ راسية أمام جزيرة صاقز فمات فى الحريق زهاء ثلاثة آلاف من جند تلك السفن وكانت هذه السفن قد قاتلت على جزيرة صاقز وساموس وغيرهما واستخلصتها من أيدى أصحاب الفتنة فأفحش عسكرها فى القتل والنهب وسبى النساء والأطفال

وارتكاب أنواع الفظائع والفجور فقام أصحاب الفتنة عليها ودمروها تدميراً فلما جاءت الأخبار بذلك إلى دار السلطنة اضطرب السلطان وكاد يأمر بالكف عن القتال وترك الأعداء وشأنهم ولكنه خشى العار خصوصًا بعد أن قام سفراء الدول فى دار السلطنة على ساق وقبحوا على الصدر الأعظم ما فعله عساكر السفن الحربية من القتل والنهب والسلب وسبى النساء والأطفال فى صاقز وغيرها فعمد إلى استعمال الحيلة وأخذ فى التدبير وسير إلى محمد على باشا فرمان الولاية على المورة وكريد ورسم له بقتال أصحاب الفتنة وإرجاعهم إلى الطاعة ليشغله بهذه الحرب المستعصية عن الخروج وطلب الاستقلال بملك الديار المصرية والأقطار الحجازية وأرسل إليه خلع الرضا فأجابه محمد باشا إلى ذلك وأعد للقتال زهاء السبعة عشر ألفا من المشاة المصريين وعددا من الفرسان وأصحاب المدافع وجعل مقدمهم ولده الأمير إبراهيم ومعه سليمان باشا الفرنساوى فساروا إلى مدينة الإسكندرية ثم ركبوا السفن وأقلعوا فى ذى القعدة سنة أربعين ومائتين وألف هجرية إلى رودس فلبثوا بها أياماً ثم رحل عنها الأمير إبراهيم إلى كريد وترك سليمان باشا فى طائفة من العسكر فلما وصل إلى كريد قاتل من بها من الثائرين ثم احتلها عنوة وسار إلى سواحل المورة يريد إنزال جنوده بها فلم يتمكن وقاتله أصحاب الفتنة قتالاً عنيفًا للغاية وكان إلى ذلك الحين لم يبق للدّولة العثمانية من بلاد تلك السواحل سوى مدينتين مودون وكورون فسار إبراهيم باشا بعسكره إلى مينا مودون وأنزلهم إلى البر بعد عناء شديد وكان أصحاب الفتنة على قدم الأهبة والاستعداد للقاء العسكر المصرى بما عندهم من الرجال والذخائر والأموال وآلات الحرب التى كانت ترد إليهم من أهل البر ومحبى تحرير الأمم وفك قيود أسرهم فقد كانت تألفت فى ديار أوروبا عدة جمعيات باسم جمعيات محبى اليونان وانتظم فى عداد أعضائها كثير من الأمراء والكبراء فكانوا يرسلون إلى أصحاب الفتنة بالأموال وآلات الحرب والذخيرة وكان ممن انتظم فى سلكها الشاعر الفرنسوى المسمى فيكتور هوجو والناظم كازيمير دلافين فجعلا يقولان الأشعار والقصائد الحماسية فى تلك الحروب ويبالغان فى وصف ما يقاسيه أهل المورة وكريد من العسف والجور فكان لقولهما وقع فى قلوب أهل النخوة والمروءة فتجرد الكثير منهم إلى التطوع وبذل النفس فى عتق تلك الأمة وجاءهم أيضًا واشنطون ابن واشنطون محرر بلاد أمريكا واللورد بيرون الشاعر الإنجليزى متطوعين حبا فى تعميم الحرية وانتصاراً للضعيف على القوى ففاز اليونان وتقوت عزائمهم وانتصروا على العساكر السلطانية فى عدة وقائع واستخلصوا كثيراً من

القلاع والحصون التى كانت تسكنها عساكر الدولة العثمانية ولم يستقر بالأمير إبراهيم فى مودون المقام حتى جاء الخبر بمحاصرة العدو لمدينة كورون وكان بها بعض العساكر السلطانية فسير لنجدتها طائفة من عسكره وسار هو فى طائفة لحصار مدينة ناورين فنزل عليها وشدد فى حصارها وضيق وما زال بها حتى فتحها ودخلها عنوة فى سلخ شوال سنة إحدى وأربعين ومائتين وألف هجرية ثم سار إلى مدينة كلاماتا ففتحها أيضاً ودخل مدينة تريبولنا بعد قتال وكان رشيد باشا مقدم العسكر السلطانى نازلاً فى هذا الحين على مدينة يسولونجى محاصراً فاستعصى عليه الفتح وأعيته الحيل فسير إلى الأمير إبراهيم يستقدمه لنجدته فسار إليه فيمن معه من العسكر المصرى ونزل عليها وقاتلها قتالاً شديداً وبالغ سليمان باشا الفرنسوى فى حصارها وضيق وطالت أيام الحصار لوصول المدد إليها من البحر وعدم التمكن من قطعه عنها وما زالوا بها حتى فتحوها ودخلها العسكران المصرى والعثمانى ظافرين فأعملوا فيمن وجدوه بها القتل وغنموا منها شيئاً كثيراً من المؤن والذخيرة وآلات الحرب، ثم لم تستهل سنة اثنتين وأربعين ومائتين وألف هجرية حتى زحفت العساكر السلطانية على مدينة أتينا وقاتلت عليها حتى فتحتها واحتلت قلعتها الشهيرة وكان بها الأمير كوشران القائد البحرى الإنكليزى مقدم الجيوش اليونانية فى تلك الثورة فأعمل العسكر السلطانى السيف فيمن وجدوه بها من العسكر والمتطوعة وأفحشوا فى القتل والتخريب وبينما هم على هذا الحال والأمير إبراهيم يتأهب لرد ما بقى فى أيدى أصحاب الفتنة إذ مات إسكندر الأول قيصر الروس وتولى الملك بعده نيقولا الأول ثالث أولاد القيصر بولس فتجرد إلى معاكسة الدولة العثمانية وطالبها بالمطالب الطويلة العريضة وهم بفتح أبواب الحرب عليها وتسيير عسكره إلى بعض الإيالات التابعة لها فأجابته إلى ما طلب وعقدت معه معاهدة سميت بمعاهدة «آق قرمان» فكان مما جاء فيها منح الروس حق الملاحة فى البحر الأسود والعبور من البوغازين بلا معارضة ولا تفتيش على ما فى سفنها وأن لا تحتل العساكر السلطانية إلا قلعة بلغراد وثلاث قلاع أخرى مما هو فى حوزة الدولة العثمانية ومنح الصرب كثير من الامتيازات تجعلها أشبه بالمستقلة بإدارة نفسها وأن يكون للدولة الروسية حق انتخاب حكام كل من القلاخ والبغدان لمدة سبع سنين ولا يصح للدولة العثمانية عزلهما إلا بإقرار من قيصر الروس، ومع ما كان فى هذه المعاهدة من الحيف والجور بالدولة العثمانية لم تر بدا من قبولها تفاديا من فتح أبواب الحرب فى ذلك الوقت ولم يقف القيصر نقولا عند هذا الحد بل دس إلى جميع الدول الكبرى بأن يتوسطوا ما بين

السلطان وأصحاب الفتنة من اليونان فكلم سفير الإنجليز الصدر الأعظم فى ذلك وبالغ فى الشكوى مما تلاقيه أهل مورة من العسكرين العثمانى والمصرى وألح فى الطلب فلم يلتفت السلطان إلى ذلك وصمم على قتالهم حتى يرجعوا إلى الطاعة فاتفق قيصر الروس وملكا الإنجليز والفرنسيس وتعاهدوا على إكراه السلطان على منح اليونان استقلالهم الإدارى وعليهم الجزية فى كل عام حسبما يقع عليه الاتفاق وتحديد تخوم الفريقين وضربوا للسلطان أجلاً لا يتجاوز ثلاثين يوماً لا يقع فيها حرب ولا جلاد فلما علم السلطان بما فى هذا العهد غضب وأبى إلا القتال حتى يرجعوا إلى الطاعة وسير إلى خورشيد باشا بالإلحاح فى قتال الثائرين واستخلاص ما بأيديهم من القلاع والحصون ولبثت الدول الثلاثة تراقب فوات الأجل المضروب فلما انقضت أيامه سيروا مراكب حربهم إلى سواحل اليونان وكتبوا إلى الأمير إبراهيم بالكف عن القتال فلم يلتفت إلى قولهم وقال حتى يأتى فرمان السلطان وسير الخبر بذلك إلى دار السلطنة فاجتمعت سفن الأحزاب فى مينا تاورين ومنعت من خروج السفن العثمانية والمصرية وشددت في المنع ثم لم تلبث أن أطلقت مدافعها على السفن العثمانية والمصرية وراسلت الرمى بالقنابل فاشتبك القتال بين الفريقين وحمى الوطيس وارتفع الدخان وتكاثف وأظلم الجوّ وانكشف عن تدمير جميع السفن العثمانية والمصرية بنيران المدافع ووصلت الأخبار بما وقع إلى دار السلطنة فاضطرب السلطان وهاله هذا الأمر وكتب إلى جميع الإيالات التابعة إلى مملكته يحذرهم من مقاصد الدول عموماً ودولة الروس خصوصاً ويحضهم على الغزو والجهاد دفاعاً عن الإسلام وأهله وأن يقوموا يداً واحدة لنصرة الدين ودفع العدو الطامع فاهتم قيصر الروس لذلك وخشى العاقبة وعجل بفتح باب الحرب على الدولة وزحف بعسكره فى صفر سنة أربع وخمسين ومائتين وألف هجرية ورأى الأمير إبراهيم أنه لا قبل له على قتال الأحزاب بعد حرق أعظم السفن التى كانت معه فكتب إلى أبيه بما جرى فجاءه الأمر بالانسحاب بجميع عسكره والعود إلى مصر فخرج بمن معه وعاد على ما بقى من السفن المصرية إلى مدينة الإسكندرية ثم وقع بعيد ذلك ما وقع بين الدولة العثمانية والأحزاب فعقدوا محفلا فى لندن عاصمة الإنجليز ليقرروا فيه قاعدة لاستقلال اليونان وطلبوا من السلطان أن يبعث سفيرا من قبله فلم يقبل وأصر على ما فى نفسه فلم يهمهم ذلك وقرروا ما شاءوا من سلخ بلاد اليونان من تابعية الدولة فانسلخت من ذلك الحين واستقلت بحكم نفسها وتعهدت بدفع الجزية خمسمائة ألف قرش تحمل إلى الخزينة السلطانية فى كل

عام وأشتغل السلطان بحرب الروس عن إخضاع اليونان وإرجاعهم إلى الطاعة وطالت أيام الحرب بين الفريقين ثم انكشفت عن هزيمة العساكر السلطانية فترددت رسل السلطان فى طلب الصلح وبعد أخذ وردّ تقررت القاعدة بينهما على حصول دولة الروس على كثير من الامتيازات والحقوق وأعتراف السلطان بسلخ البلاد اليونانية من مملكته ومنحها جميع الامتيازات التى تقررت فى محفل لندن عاصمة الإنجليز.

(مطلب)

(تنظيم العساكر السلطانية على نظام عساكر دولة الفرنسيس)

وكان إلى هذا الحين قد تمكن السلطان من إبادة جميع طوائف الانكشارية وطوائف السلامدارية والعلوفة جيه وأراح الدولة من شرهم. قال أصحاب التاريخ: لما رأى السلطان أن لا قبل لهؤلاء الأخلاط من العسكر على قتال جيوش الدول المتمدنة المنظمة لا سيما فى الحروب الأخيرة عمد إلى تنظيم عسكر على نسق العسكر الأوروبى وتجرد لمعاداة كل من يخالفه فى ذلك وجمع كبار الدولة وأعيان المملكة ومقدمى جميع طوائف الانكشارية ومفتى دار السلطنة وكان ممن لا يبغضون النظام الجديد فقام الصدر الأعظم بينهم خطيبا وتكلم فى أمر الانكشارية كثيراً وحض القوم على نصرة الدين بتقوية المجاهدين وترتيبهم على النظام الكافل بصد الأعداء والذب عن بيضة الإسلام فوافقوا جميعاً على عمل ما فيه المصلحة للأمة والبلاد وحرروا محضرا بذلك وأفتى مفتى دار السلطنة بجواز العمل بما تقرر شرعا وتعزير المخالفين له ووقع على ذلك جميع مقدمى الانكشارية فلما شرعوا فى العمل وأحس طوائف الانكشارية بما وراء ذلك ندموا على ما فعله كبارهم وأكثروا من التألب والاجتماع وتأهبوا للثورة والخروج كما فعلوا على عهد السلطان سليم وأخذت الوحشة بينهم وبين العسكر المنظم تكبر فلما كان شهر رمضان سنة أربعين ومائتين وألف قام جماعة منهم وجعلوا يزاحمون العسكر المنظم فى أوقات تمرينهم ويعاكسونهم فرفع كبار الجند أمر ذلك إلى السلطان فأغضبه جدا ورسم بقتل كل من يبدو منه أدنى معارضة بلا معاودة فلما شاع خبر ذلك بين طوائف الانكشارية هاجوا واجتمعوا وتحالفوا على العصيان وتأهبوا للخروج فجمع السلطان العلماء والمشايخ

وأخبرهم بما فعله طوائف الانكشارية فأكبروه وقبحوه وتقدموا إلى السلطان فى طلب قتالهم والجهاد فيهم وأصبحوا وقد أخرج السلطان علم صاحب الشريعة المحمدية وأمر أصحاب المدافع بالخروج إلى (آت ميدان) فخرجوا وأمامهم العلم المشار إليه وخرج معهم أيضًا كثير من العلماء والمشايخ وطلبة العلم وكان بالميدان المذكور أصحاب الفتنة والعدد العديد من طوائف الانكشارية وهم فى ضجيج وجلبة فأحاط بهم أصحاب المدافع إحاطة السوار بالمعصم وأطلقوا عليهم القنابل وراسلوا الرمى واشتدوا وأصلوهم نارا حامية فهربوا إلى منازلهم يريدون النجاة فتبعهم أصحاب المدافع وصوّبوا أفواه المدافع نحو المنازل واشتدوا فى الرمى عليها بالقنابل فهدمتها جميعها وأشعلت فيها النيران وارتفع لهيبها وتطاير شررها وما زالت النيران فى اشتعال حتى أبادتها وصيرتها رمادا ومات فيها جميع من كان بها من طوائف الانكشارية وبات الحال هكذا وأصبحوا وقد رسم السلطان بإبطال زيهم واصطلاحاتهم وجميع ما يتعلق بهم من جميع الأيالات التابعة لمملكته ونودى بذلك فى الشوارع وطيروا الخبر بما جرى إلى الآفاق وكتب إلى جميع العمال بالقبض على كل من يجدوه منهم فيقتلونه بغير معاودة فوقع فيهم القتل فى كل فج وتتبعوهم حتى أبادوهم ولم يبق منهم إلا من طال عمره فاختفى عن العيون والأرصاد، وجاءت الأخبار بما وقع بطوائف الانكشارية إلى محمد على باشا فعادت همته إلى ما كانت عليه قبل حرب مورة من تجنيد الجنود وإتقان نظام العسكر والإكثار من الآلات والكراع وإنشاء عمارة عظيمة من سفن الحرب وشوانى النقل بدل التى أحرقتها سفن الأحزاب وأقام البنايات العظيمة منازل للجند وجلب الخيل والبغال والجمال لحمل المؤن والذخيرة وغير ذلك فاتصلت أخبار هذا كله بالسلطان فحقد على محمد على باشا لما يعلمه من ميله إلى الخروج ورغبته فى الاستبداد بملك الديار المصرية مع عجز السلطان عن رده وإرجاعه إلى الطاعة إن هو عمد إلى ذلك وجعل يراقب الأمور ويتودد إلى محمد على باشا بالهدايا النفيسة والتحف الجليلة.

مطلب)

(ما انتحله محمد على باشا من العلل لفتح باب الحرب على الشامات والتغلغل فى قلب آسيه)

قال بعض الكتاب: وكان تأهب محمد على باشا واستعداده فى هذه المرة إنما هو للزحف على الديار الشامية وضمها إلى بلاده كما كانت على عهد من سبقه من

الخلفاء والسلاطين وكان شديد الرغبة فى ذلك جداً فأتفق أن بعض الملتزمين من أهل مصر هربوا إلى عكا ونزلوا فى جوار عبد الله باشا الجزار واليها فرارا من محمد على باشا لدين عليهم وقيل فرارا من الفرض والطلبات المتابعة وقيل غير ذلك فأرسل محمد على باشا إلى الجزار يقول له: اقبض على من أتاك من أهل بلادى وردهم إلىّ فإنه لا يصح أن تمنعهم عنى فاستعظم الجزار هذا الأمر من محمد على باشا وأرسل إليه يوبخه ويشنع عليه ويقول: لست خادمًا على بابك حتى تتصرف فى أمرى وإياك أن تخاطبنى فى هذا الأمر ثانياً فشق هذا الكلام على محمد على باشا وأقسم الأيمان الغلاظ أن يسير عسكره إلى عكا لقتال الجزار ويضم جميع البلاد الشامية إلى مصر وجعل يتأهب لذلك من هذا الحين، فلما كان سادس عشرى جمادى الأولى سنة سبع وأربعين ومائتين وألف خرجت الجيوش المصرية من القاهرة تريد عكا ومقدمها الأمير إبراهيم ومعه سليمان باشا الفرنساوى وكان عددها زهاء أربعة وعشرين ألفا فساروا إلى الصالحية فالعريش فغزة وركب الأمير إبراهيم وحاشيته السفن إلى يافا فلم يدرك يافا حتى استولت عساكره على غزة ويافا بعد دفاع خفيف فسار بهم إلى عكا فنزل عليها حادى عشرى جمادى الثانية وحاصرها برا وبحرا ونصب خيامه أمامها ورمى عليها بالقنابل وراسل الرمى وشدد فخرج الجزار فى عسكر عظيم وقاتلوا قتالاً عنيفاً فمات منهم خلق كثير وعادوا إلى المدينة وجعلوا يقاتلون من وراء الأسوار وطالت الحرب واشتد الحصار ومنع الأمير إبراهيم الوارد عن المدينة من البر والبحر إلى سادس عشرى ذى القعدة وقيل سادس شوال ثم نادى فى عسكره بالهجوم فهجموا عليها واقتحموا أسوارها وحصونها فاستأمن من كان بها من العسكر الشامى والعثمانى فأمنهم ودخل بعسكره البلد فكاد العسكر يستبيحونها فلم يمكنهم الأمير إبراهيم من ذلك وقيل أباحها ثلاثة أيام فأعمل عسكره فيمن بها السيف، فلما كان اليوم الثانى وصل الأمير عباس حلمى ابن الأمير طوسون فى عسكر عظيم ومعه كثير من العربان والهوارة إعانة للعسكر المصرى فسيرهم الأمير إبراهيم إلى حصار بعض المدن والبنادر كصور وصيدا وبيروت واشتدت عزيمة العساكر المصرية بما نالوه من النصر المتتابع وسير الأمير إبراهيم الكتب إلى البلاد كافة يدعوهم إلى الطاعة والخروج على من عندهم من العساكر السلطانية كتب كذلك إلى متولى بيت القدس والمفتى وقاضى القضاة به يقول:

تعلمون أن فى بيت المقدس كثيراً من الديارات والكنائس والآثار الدينية التى تحج إليها فى كل عام طوائف النصرانية واليهود وقد شكى إلينا هؤلاء مما يلاقونه

منكم من العنت والقسوة والغلظة عليهم والتحقير لدينهم فضلاً عما أنتم فارضوه عليهم من الكلف والمغارم الفادحة غير ناظرين إلا إلى ما فيه إرضاء أنفسكم والعمل بهواكم على أن هذه الغايات الدنيئة والفعال الرديئة لا ترضاها النفوس الأبية ولا يصح السكوت عليها ولذلك أنهاكم وأحذركم من عاقبة التعرض لأولئك القوم وأسألكم أن تفسحوا لجماعة القسيسين والرهبان والشمامسة أهل ذلك البيت المقدس من جميع المذاهب قبطا كانوا أو روما أو أرمنا فى دينهم ودنياهم ولا تمنعوهم من إقامة شعائر دينهم ولا تأخذوا ممن يذهبون زائرين بحر الشريعة شيئاً من الكلف والمغارم ولا تضيقوا على زائرى كنيسة القيامة ولا تلزموهم الصغار بدفع المال فإن أطعتم أحسنتم لأنفسكم وإن خالفتم أسأتم عليها والسلام عليكم ورحمة الله.

وجاءت الأخبار بذلك إلى السلطان فاغتم وكاد يسقط فى أمره وكانت قد جرت عادة الباب العالى أن ينشر جدول التوجيهات والتغيرات التى تحصل فى هيئة الحكومة فى كل سنة فى اليوم الأول من العيد الأكبر فجاء فى صدر الجدول الذى نشر فى تلك السنة ما معناه قد رأينا أن لا نقطع بتوجيه ولايات مصر وجدّة وكريد حتى يأتى إلى بابنا العالى جواب محمد على باشا على ما أرسلناه إليه من الرسائل والفرمانات بشأن ما ارتكبه من الخروج والعصيان على خليفته وسلطانه ولزوم عدوله عن خطة الخسة والدناءة التى سار فيها هو وإبراهيم ولده ورجوعه إلى حد التأدب وقهره بقدر ما تصل إليه القدرة إن شاء الله، ثم رسم للوزير عثمان باشا بالخروج فى جيش عظيم لقتال الأمير إبراهيم واستخلاص ما بيده من بلاد الدولة لا سيما منها مدينة عكا وقهره جهد الاستطاعة فسار الوزير وسير الكتب إلى الأمير إبراهيم يدعوه فيها إلى طاعة خليفته وسلطانه ويحذره من عاقبة الخروج وشق عصا الطاعة فلم يلتفت الأمير إبراهيم إلى شىء من ذلك وترددت الرسل بين العسكرين أيامًا على غير طائل ثم زحف الفريقان للقتال فلما التقى الجمعان اقتتلا قتالاً عنيفًا فانهزم الوزير عثمان باشا بعسكره شر هزيمة وأخذتهم سيوف المصريين من كل صوب وحدب فمزقت شملهم وولى من بقى منهم مدحوراً فغنم المصريون ما كان فى معسكرهم من كراع ومتاع وعجل الأمير إبراهيم المسير بعسكره بعد هذه النصرة إلى مدينة حمص يريد حصارها والتضييق عليها وتحقق الوزير من ذلك فجعل يجمع من بقى من عسكره وسار بهم خلف العسكر المصرى يتخطف ساقه ويناوشهم القتال فوقف له العسكر المصرى وقاتلوه فهزموه ثانية وأعملوا فى جنده السيف ففروا ووصلت الأخبار بما جرى إلى دار السلطنة فهال السلطان هذا الحال وأزعجه فأنفذ إلى عامله على حمص

بالثبات وقتال العسكر المصرى ما استطاع ووصل الأمير إبراهيم بخيله ورجله إلى حمص فى سابع ربيع الأوّل سنة ثمان وأربعين ومائتين فلاقاه واليها محمد باشا بعسكره واقتتل الفريقان قتالاً شديداً.

(مطلب)

تسليم محمد على باشا والى حمص إلى الأمير إبراهيم وصدور فرمان السلطان بعزل محمد على باشا وولاية حسين باشا سر عسكر بدله

قال بعض الكتاب: كان هذا القتال حيلة من محمد باشا يريد بها تسليم حمص إلى الأمير إبراهيم وقد كان استوثق لنفسه وتعاهد مع الأمير إبراهيم على ما لم يصل أحد إلى معرفته فلم تكن إلا ساعة أو بعض ساعة حتى استسلم محمد باشا فاستلم الأمير إبراهيم حمصا ورتب أمورها على ما شاء وترك طائفة من عسكره فيها وسير جيشاً إلى حلب فاستسلمت إليه بغير قتال فكان كلما اقترب من مدينة أو قرية سلمت إليه بغير قتال فيأخذ منها المؤن ودواب الحمل ويسير عنها إلى غيرها فلما ورد الخبر بما وقع إلى دار السلطنة كاد السلطان يتميز غيظا وجهز حسين باشا سر عسكر الدولة فى جيش عظيم ورسم له بالخروج إلى القتال وولاه مصر وكريد والحبشة، كذا ولا أعلم ما هى ولاية الحبشة والحبشة كما هو محقق ومشهور دولة قائمة بذاتها منذ قرون وأجيال، وسلمه فرمان الولاية بيده وترجمته:

من سلطان الدولة العلية العثمانية وولى نعمة المملكة العظمى الشاهانية إلى فخر الأمراء المعظمين وقدوة أعيان دولتنا المفخمين حسين باشا بلغه الله ما شاء وأسبل عليه بساط اليمن والأمان وأفاض عليه سجال العدل والإحسان وأسبغ عليه من المكارم رداء سابغاً وأورده من موارد الأمن شراباً سائغاً سنجق التشيرمان وأمير بحرية الأناضول الموجه إليه من لدن مكارمنا المشهورة ولاية الديار المصرية والحبشة وجزيرة كريد وما يتعلق بها.

- أما بعد - لا يخفى على من تهمه أخبار دولتنا العلية وما هى عليه مملكتنا العثمانية الشاهانية أن محمد على باشا والى الديار المصرية سابقاً بعد أن كان فردا من آحاد الرعية لا يعرف له حسب ولا نسب قد تدرج إلى أوج المعالى وما زال حتى تولى حكومة الديار المصرية من قبل بابنا العالى فنظرنا إليه بما جبلنا عليه من كرم الطباع وعاملناه بغاية الرفق والتودد والاتضاع وكنا نظن أنه يقف عند حد الشكران فلا يخالف لنا كلمة ولا يغلب على طبعه النكران وأن يقابل نعمتنا بالصدق والولاء

ولكنه لدناءة أصله وخسة نفسه قد أطاع هواه فداخله الغرور والكبرياء وكفر بالنعمة وشق عصا طاعتنا وجاهر بمعاداة حكومتنا ولم يقف عند حد من إثارة الفتن وتعميم القلاقل والاحن ودس الدسائس الشيطانية بين عمال وولاة إيالاتنا الشاهانية حتى استمال إليه الكثير ممن كنا نعتمد عليهم ونركن فى جميع الأمور المهمة إليهم وقد أقلق راحة أهالى ألبانيا والروم إيلى بشن الغارة على بلادهم والإكثار من القتل والنهب بلا موجب ولا سبب حتى كاد الخراب يتولاها وكثيراً ما ألح على مصطفى باشا بوساطة جلال بك وقاوللى مصطفى بالخروج عن طاعتنا سرا وطالما ما مناه بالمال والرجال ومعدات القتال فلم يفلح وهو يظن أننا عن تصرفاته هذه غافلون وعن سوء أفعاله لاهون على حالة أنه لم تخف عنا خافية قط وكثيراً ما دس إلى عبد الله باشا والى عكا المخلص فى طاعتنا ووسوس إليه وسوسة الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس حتى فتنه أوكاد وأدركه لطف الله سبحانه فعاد فوقع بينهما من العداوة والشحناء ما قامت بسببه الحرب بين الفريقين وجاء إبراهيم ولد محمد على باشا الخائن المذكور فى عسكر جرار إلى يافا ففتحها والى طرابلس ودمشق الشام فدخلهما ثم تقدم نحو عكا فحاصرها وقاتلها ولم يبال بما أرسلناه إليه من الرسائل المفعمة بالنصح والاسترضاء ولم يعد عن غيه وضلاله بل اندفع وراء هواه حتى استهواه ومع هذا كله فلم نعجل بمؤاخذته ولم نتسرع بمعاقبته وطاولناه حقنا للدماء ورحمة بعباد الله الذين عهدت العناية الربّانية إلينا رعايتهم وعسى أن يجد لنفسه من نفسه رادعا عن ركوب هذا المركب الخشن والتمادى على عدم طاعة خليفة رسول رب العالمين والرجوع إلى جادة الحق بعد هذا الزيغ والضلال والمروق عن الدين ويتوب ويستغفر عما جنت يداه وقد فسحنا إلى ذلك المارق الأجل عله يرتدع أما الآن وقد آن الأوان وحل القضاء الذى لا مفر له منه فلم يبق من باعث على التهاون والإغضاء ولكنا مع ذلك نعفو عمن يأتى إلى بابنا طائعا لائذا مقرا بالذنب ممن شاركوه فى خيانة العصيان مكرهين ولو كانوا من ولده وأهله وعشيرته وأصحاب الوظائف السامية والمناصب العالية وكبار الجند وأفراد العسكر وغيرهم وقد أصدرنا فرماننا هذا العلى الشأن بتوجيه ولاية مصر والشام وجريد والحبشة إليك مع ما يتبعها ورسمنا لك بنزعها من أيدى أولئك المارقين وإنا لعلى يقين بحسن خبرتك ودرايتك بجميع الأمور وببسالتك فى الغزو والجهاد وبمشيئة الله تعالى وببركة رسوله المصطفى ﷺ تسير بالعسكر المنصور إلى حلب ثم تنحدر إلى ديار مصر فتنتزع جميع البلاد من أيدى أولئك الخائنين وأذكر شفقتى ولا تنس عفوى عمن يتوب ويرجع إلى طاعة الله وطاعة رسوله وطاعة خليفته من بعده واتق الله وأخلص النية يجعل الله لك من كل

شدة مخرجًا والسلام، فسار حسين باشا بعسكره وهم زهاء ستين ألفا بين فارس وراجل وتباطأ فى سيره حتى تمكن الأمير إبراهيم من ترتيب عسكره على ما يشاء وتأهب للقاء العسكر السلطانى وجاء الخبر بذلك إلى محمد على باشا فجعل يبالغ فى التأهب والاستعداد وأيقن بأن قد بلغ العظم السكين واستعصى الوئام فلم يبق إلا الكفاح والجلاد حتى يحكم الله بينه وبين خليفته وهو أحكم الحاكمين.

(مطلب)

(هزيمة عسكر السلطان عند حلب)

ووصلت طلائع عسكر السلطان إلى مقربة من حلب فخرج للقائهم الأمير إبراهيم فى عسكره وقاتلهم وصبر على قتالهم حتى ظفر بهم وبدد شملهم ثم ساق بخيلة ورجله حتى دخل حلب واحتلها فتفرق من بقى من العسكر السلطانى وجاء الخبر بذلك إلى حسين باشا فتقهقر بمن بقى معه وتحصن فى مضيق بيلان أهم مضايق جبال الطورس وعلم الأمير إبراهيم بخبره وما هو عليه فخرج من حلب لقتاله فلما ألتقى الجمعان اقتتلا قتالاً عنيفاً وما زالا حتى تمت هزيمة العسكر السلطانى فغنم الأمير إبراهيم متاعهم ودوابهم وآلات حربهم وتتبع من بقى منهم حتى نزلوا سفنهم التى كانت راسية فى مينا الإسكندرونة ووصلت الأخبار إلى دار السلطنة بما حل بعسكر السلطان فحزن وأغتم وعم الخبر وشاع عند سائر الدول وكانت ولاية المجر تخشى من استفحال أمر الفتنة فى إيالات الدولة العثمانية وأشتغال الدولة بالحروب والخطوب المتتابعة فتطمع دولة النمسا فى إرجاع المجر إلى سلطتها وتلحقها بمملكتها وكانت تلاحظ مع الحزم والتأنى الحوادث الجارية فى أوربا فأرسلت يومئذ إلى محمد على باشا تتهده بتسيير جندها مع العسكر السلطانى لقتاله إن هو لم يرجع إلى الطاعة وينكف عن العصيان وجارتها فى ذلك دولة الروس وأظهرت المودة والإشفاق إلى الخليفة فكتبت إلى قنصلها الجنرال بديار مصر بأن انسحب من الإسكندرية وأقطع كل علاقة مع محمد على باشا فانسحب فلم يلتفت محمد على باشا إلى شيء من ذلك البتة واشتدت رغبته فى هدم أركان الدولة العثمانية وأخذ سائر ما بيد سلطانه من الإيالات وتدمير معالم الخلافة.

(مطلب)

(ما كتبه السلطان إلى الدول من عزمه على محالفة الروس وتهديده إياهم بذلك)

وكتب إلى ولده إبراهيم بالإلحاح فى القتال وأن يعجل بالفتح ما استطاع وأن

يتقدم بعد ذلك إلى الأمام ما قدر فتغلغل الأمير إبراهيم فى خوف الأناضول فكتب السلطان إلى الدول يخبرها بعزمه على التحالف مع قيصر الروس على الذب والدفاع إن لم تبادر إلى إيقاف محمد على عند حده وترجع عساكره عن التغلغل فى جوف أملاك السلطنة العثمانية فكتبت دولتا الفرنسيس والإنجليز إلى محمد على باشا بذلك وحذرتاه عاقبة تعاقد السلطان مع دولة الروس وألحتا عليه بإيقاف تيار هذه المحنة حتى تتقرر قاعدة الصلح على ما فيه مصلحة الطرفين، وأنفذ يومئذ قيصر الروس الأمير موررايف أحد كبار قومه إلى محمد على باشا ليكلمه فى ذلك وسيرت معه كذلك دولة الفرنسيس الكولونيل روهابيل وكتب قنصل جنرال الفرنسيس أيضاً إلى الأمير إبراهيم يقول: كتابى إليك حرسك الله ورسل السلام يخاطبون أباك فى وضع حد لهذه القلاقل والمحن المترتبة على تلك الحرب القائمة فقد آن للباب العالى أن يطلب حقن دماء خلق الله الذين عهدت رعايتهم إليه وسيصل خليل باشا أمير سفن الحرب السلطانية رسولاً إلى أبيك ومعه شروط الصلح التى رضيها السلطان بناء على إشارة دولة الفرنسيس التى لم يبق فى وسعها السكوت عن هذه القلاقل التى عمت جميع المشرق أو كادت بسبب الحرب القائمة بين أبيك وسلطانه ولنا جميعاً الأمل بأن ما جبل عليه والدك من سلامة النية وما هو موصوف به من الحزم والنظر فى عواقب الأمور يكونان سببا فى قبوله الصلح وترك الخصام فيشير إليك بإيقاف عسكرك عن التوغل فى قلب الشام والروم وإطفاء نار الوغى حتى يأتيك الأمر بما كان وما سيكون، واعلم هداك الله أنك مسئول أمام جميع الدول العظمى عما ينجم عن تغلغل عسكرك فى داخلية البلاد والله عليم بالعاقبة فاعدل عن الحرب وانكف حتى يأتيك الخبر والسلام.

وكان الأمير إبراهيم فى هذه الآونة ينتقل بجيوشه من مكان إلى مكان يريد القسطنطينية فأرسل السلطان إلى قيصر الروس يطلب منه أن يسير لصد الأمير إبراهيم سفينة حربية وخمسة آلاف من المقاتلين وعلمت دولة الفرنسيس بذلك فأرسلت إلى السلطان تتهدده بمساعدتها للعساكر المصرية إن هو عاقد الروس على شىء من ذلك، ووصل فى هذه الأثناء الجنرال موررايف رسول القيصر إلى الإسكندرية وكلم محمد على باشا فى أمر الصلح فحاول محمد على باشا وطاول وأظهر الشدة وخاطب الجنرال موررايف بغلظة وحدة فغضب الجنرال موررايف وعمد إلى التهديد فضرب إلى محمد على باشا أجلا فخشى محمد على باشا شر العاقبة وكتب إلى ولده الأمير إبراهيم يقول: إذا أتاك كتابى بأية أرض فقف حتى يأتيك رسولى ثم أعلم موررايف بما كتبه فطير موررايف الخبر بذلك إلى الآفاق ففرح

السلطان ولم تنكث دولة الروس بعد ذلك فيما وعدت به السلطان وتمكنت فى هذه الآونة من التعاقد معه على الذب والدفاع عن جميع أملاك السلطنة العثمانية واحتلال أى جهة شاءتها بخيلها ورجلها أو سفن حربها فى أى وقت شاءت وسمت هذه المعاهدة بمعاهدة (خونكار اسكله سيى) فلما علمت الدول بخبر هذه المعاهدة امتعضت ولاسيما دولتا الفرنسيس والإنجليز فسعتا جهد الاستطاعة في إبطالها فلم تفلحا وخابت مساعيهما وخافت دولة الفرنسيس من تمكن دولة الروس من احتلال شئ من أملاك السلطنة العثمانية بسبب هذه المعاهدة فجعلت تراقب الفرص واشتدت عزيمة السلطان بهذه المعاهدة وقوى ظهره فجعل يتأهب ويستعدّ ويستعمل الحيلة فى إطالة الوقت بين أخذ ورد ليتمكن من لم شعث جنوده وجمع ما تفرق فى تلك الأصقاع من أعلامه، واتفق أن قدمت إلى دار السلطنة فى هذه الأثناء زهرة هانم أرملة الأمير إسماعيل ثالث أولاد محمد على باشا ابنة عارف أفندى قاضى عسكر ولاية آسية وكان شيخ الإسلام يومئذ بدار السلطنة تريد زيارة أبيها. قال بعض كتاب الأخبار: ولم يكن ذهاب تلك السيدة إلى دار السلطنة لمجرد محض الزيارة كما كان يظن الكثير من الناس وإنما كانت رسول محمد على باشا فى التقرب من كبار السلطنة ومقدمى الدولة واستمالة أهل الحل والعقد من جماعة المابين بما لأبيها من النفوذ والكلمة المسموعة فسعت وأجهدت النفس وسعى أبوها ولبثت على هذه الحال أياما لم يخف فيها على عيون السلطان من أعمالها خافية فكان السلطان فى خلال ذلك يكثر من مناجاة الدول فى أمر إرجاع محمد على باشا إلى الطاعة ويستفزهم إلى الأخذ بناصر الحق وإزهاق الباطل فكان كلما عرضت الدول عليه رأيا حاول فيه وطاول ورد عليهم ردا جميلا وسألهم التوسع فى النصح قال الراوى: كل ذلك ليتمكن من الفرص المناسبة لأغراضه وقدمت بعيد قليل من الإسكندرية السفينة الحربية المسماة (النيل) لنقل الأميرة زهرة هانم فأرسلت تستأذن السلطان فى ذلك فأذن لها وأهداها هدية نفيسة وأحسن إلى رجال السفينة بشيء من المال للنفقة وسير معها أحمد فوزى باشا أحد رجال سفن الحرب فلما ألقت النيل مرساها وعلم محمد على باشا بمقدم فوزى باشا تغافل عنه ولم يظهر شيئاً من الاهتمام به وأوعز إلى حبيب أفندى أن يتلقاه ويكرم مثواه فأنزله حبيب أفندى منزلاً رحبا ورتب له المأكل والمشرب على أحسن ما يكون ولبث على هذه الحال أياماً لم ير فيها محمد على باشا ولا علم من أمره شيئًا حتى جاءه مرسوم السلطان بالقيام إلى القاهرة والالتقاء بمحمد على باشا ومناجاته فى أمر الصلح وفى العدول عما يغضب خليفته وسلطانه وقد أبلغ السلطان رجال ديوانه الخاص خبر بعثة فوزى باشا وطلب أن يبدوا فيها

رأيهم ليعمل هو به فقام برتو باشا وعارض فى ذلك كثيرًا. وقال: ياأمير المؤمنين والله ما مثل فوزى باشا فى مصر إلا مثل الحمل الصغير الذى ذهب إلى وكر الذئب الهرم ليعوده وهو يرجو السلامة من العطب فلا يغرنك من ذلك الشيخ نعومة كلامه وبساطة أحلامه فهو يا أمير المؤمنين أكبر من كل كبيرة والرأى أن ترسل إليه صارم أفندى مهر دار الخارجية فهو ابن بجدتها وأخو نجدتها فأعجب السلطان رأيه وسير فى الحال يطلب فوزى باشا وكان فوزى باشا إلى هذا الحين قد اجتمع بمحمد على باشا ووقع بينهما من المحبة والمودة ما أكبر معه العود إلى دار السلطنة ولكنه قام كارها ولم يستقرّ به فى دار السلطنة المقام حتى أرسل إلى محمد على باشا يقول: إياك وخفض الجناح إلى من سيقدم إليك واحفظ عليك نفسك وكرامتك حتى أرجع إليك فأتفق وإياك على ما فيه المصلحة لبلادك إن شاء الله تعالى.

(مطلب)

(مقدم صارم أفندى على محمد على باشا ليخابره فى الصلح)

ووصل صارم أفندى إلى القاهرة مع بعض الخدم والأتباع فأكرم محمد على باشا وفادته وبالغ فى الحفاوة به وأنزله منزلاً عظيماً فجعل صارم أفندى يغدو ويروح إلى مقر محمد على باشا ويكلمه فى الرجوع إلى طاعة سلطانه ومحمد على باشا تارة يظهر اللين وأخرى يظهر الشدّة وآونة يشكو مما يلاقيه من أفاعيل أهل الحل والعقد بدار السلطنة وأخرى يظهر الصبر والتجلد فسأله صارم أفندى يوما قائلا أما آن لك أن تخلص النية وتتمثل بين يدى خليفتك وسلطانك فتتعاقد معه على ما ترضيانه فاعتذر محمد على باشا وقال نفعل إن شاء الله إذا آذنت الفرص. قال الراوى لهذا الخبر: ويعجبنى من محمد على ما قاله يوما لأحد كبار الأجانب وكان من أصدقائه هلا علمت بخبر جنون القيصر نقولا قيصر الروس وكانت الجرائد أذاعت هذا الخبر زورا وبهتانا فقال ذلك الصديق نعم سمعته وهو من الغرابة بمكان فقال وعندى أنه ليس فى الأمر شئ من ذلك فإن جلالة السلطان متبوعى الأعظم أجن بكثير من نقولا إذ هو يدعو محمد على ذلك الشيخ الذى حنكته التجارب وهذبته المحن والنوائب إلى المثول بين يديه والتعاقد معه على ما فيه المصلحة. قال: ثم ضحك حتى كاد يستلقى على قفاه. وطال مكث صارم أفندى بالقاهرة وهو ومحمد على باشا كل يوم فى أخذ وردّ وقد قال يوما لمحمد على باشا سيعطيك سلطانك ولايتى مصر وجزيرة العرب لك ولذريتك من بعدك إن أنت رجعت عن قصدك وأخلصت له النية وأقلعت عن عدائه فلم يلتفت محمد على باشا إلى قوله فقال ويوليك أيضاً ولايتى عكا وطرابلس أو صيدا وطرابلس بشرط أن تعيد إلى

حكومة سلطانك سائر ما أخذته من الشام فلم يقبل وقال لابد من بقاء سائر ما فتحته عساكرى فى يدى وفى يد ذريتى من بعدى فإذا تم ذلك قمت بإرسال الإتاوة فى حينها إلى الخزينة السلطانية ووفيت طاعة سلطانى حقها فعاد صارم أفندى بعد أيام إلى دار السلطنة ولم يمض على وصوله إلا القليل حتى ورد مرسوم السلطان بالرضا عن محمد على باشا وقبول توليته الولاية العامة على ديار مصر وبلاد العرب وجعل هذه الولاية فى عقبه من بعده الأرشد فالأرشد مع ولاية صيدا وطرابلس بشرط قيامه بحمل الخراج إلى الخزينة السلطانية فى آجاله وخفض جناح الطاعة إلى متبوعه وولى أمره فى السر والعلانية: وفى بعض الروايات أنه لما عاد صارم أفندى إلى دار السلطنة وقد بلغ ما وقع بينه وبين محمد على باشا من الأخذ والرد رسم السلطان فى سادس عشر ذى القعدة وقيل رابع عشرى ذى الحجة سنة ثمان وأربعين ومائتين وألف هجرية بتمليك محمد على باشا ديار مصر وكريد وتولية ولده الأمير إبراهيم ولاية جدة وتسليمه رياسة الحرم المكى مع ضم الشام إلى مصر وجعلها إرثا لذريته من بعده. قال الراوى: وجاء إلى مصر صارم أفندى أحد قرناء السلطان يحمل قاعدة هذا الوفاق ونزل على محمد على باشا بالإسكندرية فأكرم لقاءه وأحسن مثواه وأظهر له غاية المجاملة والتلطف. وقال له: إنما تعطى إلىّ بلاد الشام إلى طوروس كما تعطى لذريتى من بعدى. قال: فراجعه صارم أفندى وقال: هذا يكون غير ما أذن به أمير المؤمنين والمصلحة أن تنكفوا عن إراقة دماء المسلمين ولا تحاربوا الله ورسوله وكفى ما مضى فقال محمد على باشا: لا سبيل إلى غير ما أقول ولا مصلحة لى إلا فى الذى أنا طالبه فقال صارم أفندى: والمصلحة عندى أن تتمثل بين يدى سلطانك فيهون الأمر وتنفرج هذه الأزمة فقال: نفعل إن شاء الله فعاد صارم أفندى إلى دار السلطنة ولم يتم له مع محمد على باشا شىء، قال: وقد كان صارم أفندى هذا يحمل معه عند ذهابه إلى مصر عقد الصلح الذى كان وقع الاتفاق عليه فى بلد كوتاهية التى هى مقر الأمير إبراهيم وعساكره يومئذ، قلت: ومع بحثى عن معاهدة كوتاهية هذه لعلى أعرف لها تفصيلا إذ هى من أهم المعلقات التاريخية لحروب محمد على باشا مع دار السلطنة فلم أجد لها أثرا ولم أقف لها على خبر فى مؤلفات أصحاب التآليف من الغربيين والشرقيين وعلى الخصوص مؤلف الشهير تيتسا الفرنسوى الذى تجرد لجمع سائر المعاهدات والعقود والرسائل التى دارت ما بين الدول كافة ودار السلطنة العثمانية غير أنى وجدت فى مؤلفه المشار إليه صفحة ٣٥٠ ما تعريبه: ولقد طالما زعم مؤرخو الغرب أن الخلاف الذى وقع بين الباب العالى ومحمد على باشا صاحب مصر انتهى بعقد المعاهدة التى سميت باسم كوتاهيه وهى

المدينة الكائنة بآسية الصغرى وعندى أن لا أثر ألبتة لهذه المعاهدة ولم تحصل مطلقا غاية ما وقع أن السلطان أرسل إلى محمد على باشا بعض الفرمانات والخطوط الهمايونية فعلم منها محمد على باشا مقاصد الباب وبيان ما يريد السلطان منحه إياه من البلاد والامتيازات الأخرى التى اقتضاها يومئذ الحال. قال: ثم بعد أن تبادل الفريقان الأخذ والردّ انحسمت الأسباب ووقعت الهدنة بين الفريقين حينا من الدهر. انتهى.

(مطلب)

(عقد المجلس الشرعي بدار السلطنة، والحكم بعصيان محمد على باشا وولده إبراهيم ثم الحكم عليهما بالتجريد والقصاص بالموت)

وأرسل محمد على باشا من فوره إلى دار السلطنة بعد قيام صارم أفندى يقول: ليس فيما رسم به السلطان شيء مما وقع الاتفاق عليه مع مبعوث الباب وأنه يبقى الحالة الراهنة على ما هى عليه من عدم قبول شيء من ذلك ألبتة وسير إلى ولده الأمير إبراهيم بالتأهب والاستعداد إلى إصلاء نار الحرب ثانياً وعدم الوقوف عند حد، ووصلت الأخبار بذلك إلى دار السلطنة فأعظم السلطان الأمر وأكبره ورسم بعقد مجلس شرعى لينظر فى أمر عصيان محمد على باشا وولده ويحكم بالجهاد فيهما فانعقد المجلس فى سادس عشر ذى القعدة وقيل رابع عشرى الشهر المذكور سنة ثمان وأربعين ومائتين وألف فحضر فيه ثلاثة من المفتين وأربعة عشر من قضاة العسكر واثنا عشر قاضيا وتسعة من أئمة السراى السلطانية والمدارس الشاهانية وشيخا جامع آيا صوفيا وجامع السلطان أحمد فلما اجتمع عقد نظامهم رسم السلطان بتوجيه الأسئلة الآتية إليه:

ما الذى جاء به الشرع الشريف من الأمر بطاعة أمير المؤمنين وخليفة ربّ العالمين؟

الجواب عن ذلك: قد فرضت له الطاعة والوقوف عند حد أوامره جهد الاستطاعة.

ما الذى جاء به الشرع الشريف فى عقاب العامل المارق عن طاعة خليفته وسلطانه الذى أحسن إليه وأتم نعمته عليه فطغى وتجبر ودس الدسائس وأقام الأحقاد وأيقظ الفتنة الراقدة وعمل على تمزيق ملك سلطانه فركب متن الجور والعسف وأراق الدماء هدراً وخرب ديار المسلمين ولم يرض بالطاعة للدين ولا العمل بسنة سيد المرسلين؟

الجواب عن ذلك: يجرد عن سائر رتبه ووظائفه ولا يعهد إليه بأمر من أمور المسلمين ثم يقتل وتلقى جثته لوحوش البرية أو إلى طيور الفلاة وهذا جزاؤه فى الدنيا وفى الآخرة الخزى والنار الآكلة.

هل يكون الخليفة مسئولاً بدم ذلك المارق أمام الله والناس؟

الجواب عن ذلك: لا جناح عليه ولا تثريب فإنه قد قام بما فرضه الشرع الشريف وجاءت به أحكام الدين المنيف.

ثم اختلى القوم ساعة وأصدروا الحكم الآتى:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله وحده، حيث ثبت خروج محمد على وولده إبراهيم عن طاعة سلطانهما فحق العقاب عليهما كما حق على سائر من حذا حذوهما فى شق عصا طاعة أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين وبذلك قد قضى الشرع الشريف أولا بتجريد محمد على وولده إبراهيم من جميع الرتب والمناصب الديوانية وألقاب الشرف الممنوحة لهما من لدن أمير المؤمنين ثم بقصاصهما قتلا مع سائر من شاركهما فى هذا العصيان والخروج عن طاعة السلطان . اهـ.

وجاء الخبر إلى محمد على باشا بما جرى فى دار السلطنة فلم يحفل به ولم يلتفت إليه وسير الكتب إلى ولده إبراهيم بالإكثار من الحصون والقلاع على خط جبال الطورس التى هى مفتاح الشامات من جهة آسيه وامتنع من حمل الخراج إلى الخزينة السلطانية وشدد فى تعبية الجيوش وإعداد المعدات وسير كثيراً من قطع السفن الكبار مشحونة بالمؤن والذخيرة إلى ولده فسعى سفراء السلطان لدى الدول الكبرى فى وساطتهن فى الأمر والعمل على إيقاف محمد على باشا عند حده وكانت دول أوروبا تعرف أنه إذا اشتدت نار الوغى بين محمد على باشا وسلطانه وتم لمحمد على باشا ما يتمناه من تغلغل عسكره فى داخلية آسية وضم أكثر بلدانها إلى مملكته التى يريد الاستقلال بها وجعل قاعدتها على ضفاف النيل عمدت دولة الروس إلى العمل بمقتضى معاهدة خنكارا سكله سى فتنشب أظفارها فى جوف المملكة العثمانية وتنال منها غنما فيستعصى على الدول إرجاع الشئ إلى أصله والله يعلم بما سيكون من وراء ذلك، فكتبت دولة الفرنسيس على يدى البارون روسين متولى أعمال خارجيتها إلى محمد على باشا تقول قد آن للسلطان أن يعدل عن تلك الحرب المشئومة بعد أن عرف قدرك وتحقق أن لا قبل لعسكره على لقاء عسكرك المنصور بحسن قيادة ولدك وقد عاد عما تعاقد عليه مع قيصر الروس وقد سير إليه بإيقاف إرسال تلك النجدة التى كان يطلبها لقتال ولدك وودّ لو لم يكن قد تسرع فى الأمر

ولكن القيصر لم يلتفت إلى شئ من ذلك ورسم فأتت إلى بوغاز القسطنطينية سفينة من أكبر سفن الحرب الروسية فألقت مرساها والله سبحانه يعلم بما سيكون من وراء حضورها إن أنت أبيت الصلح وصممت على القتال فاحذر التطويل وأقلع عن التسويف والتعليل ولا تفتح لخصوم الدولة باباً يلجونه للإضرار بها وأنت هداك الله شريك لسلطانك فى السراء والضراء وسيقدم عليك خليل باشا مبعوثاً من قبل السلطان ومعه شروط الصلح التى تقررت قاعدتها فلا تأباها عليه ولا تشط فى الطلب فتدفع بدولة الروس إلى ابتلاع مملكة سلطانك واذكر أنك إن عاقدت سلطانك على الصلح حقنت دماء قومك وعملت ما فيه المصلحة لبلادك فعجل بتسيير رسلك إلى ولدك بالكف عن القتال واقبل من سلطانك ما تنازل لك عنه فقد عفا عنك وولاك حكم عكا وجميع أراضى بيت المقدس والشام ونابلس وإياك والطمع فإنه يجلب عليك وعلى بلادك وبالاً ونكالاً واعلم أن دولة الفرنسيس التى هذبت رجالك وعلمت فنون الحرب لإبطالك هى التى أشارت بعقد رباط هذا الصلح ورضيت عن القاعدة الواصلة إليك وأرسلتنى إلى دار السلطنة لهذه الغاية فلا تأبى الكرامة ولا تطع هوى النفس وسيصل إلى مقرك السامى كتابى هذا على يد كبير تشريفات ديوانى فأكرم وفادته كما عوّدتنا الجميل والسلام.

وأرسلت كذلك دولتا النمسا والإنجليز إلى محمد على باشا على يدى قنصليهما تهددانه بأشد ما يكون من التهديد إن هو لم يقف عند حد الطاعة لسلطانه وأرسلت إليه دولة الروس تقول أيضًا إن لم تعدل عن غيك وتنكف عن عدائك وترجع إلى طاعة سلطانك عملت بمقتضى ما بينى وبين سلطانك من العهد وفعلت ما تسوئك عقباه ومالم تطق عليه صبراً إذا لم تعجل دولتا الفرنسيس والإنجليز بحصر سائر السواحل المصرية والشامية بسفن حربهما وتضيقا عليها تضييقًا ثم وإياك والشطط فى دعواك بعد الذى تنازل لك عنه خليفتك فالله فى نفسك وأهلك وولدك والسلام.

(مطلب)

(ما كتبه محمد علي باشا إلى صاحب سياسة الفرنسيس)

فكتب محمد على باشا إلى صاحب سياسة الفرنسيس يقول: أما بعد فقد وافانى كتابك الشريف على يدى كبير تشريفات مقرك المنيف وقد ذكرت فيه أنه بمقتضى قاعدة الاتفاق التى قررتموها لم يبق لى حق فى شئ من البلاد الشامية سوى

حكم ولاية عكا وطرابلس الشام وبيت المقدس ونابلس وبعض مدن أخرى أخجل ويعلم الله من ذكرها وأنه يلزمنى بعد ذلك استرجاع جميع جنودى من بلاد الأناضول والمبادرة إلى عقد رباط الصلح مع سلطانى فإذا أبيت ذلك قامت دولة الفرنسيس بخيلها ورجلها لتذيقنى وجميع أهل بلادى النكال، أعاذنا الله معاشر المصريين من ذلك ولقد بلغنى رسولك هداه الله أنى إن لم أبادر إلى قبول تلك الشروط الجائرة وأحلها محل السمع والطاعة سيرت إلىّ دولتا الفرنسيس والإنجليز سفن الحرب والشوانى الكبار مشحونة بالرجال لتكرهنى على الطاعة والتسليم، فقل لى بحقك كيف جاز لكم إكراهى وأى شرع من شرائع الأمم المتمدنة أحل لكم هذه الفعال أو ترضى أمة الفرنسيس أم التمدن ومهد الحرية والتفنن أن أترك بلاداً فتحتها بالسيف والجهاد والكفاح والجلاد قضية مسلمة اعلم أن قومى وسائر أهل بلادى هم طوع أمرى واقفون عند حد إشارتى فلا شئ عندى أقرب من أن أقود بنفسى جيوشى تلك المظفرة وأسير بها لفتح جميع بلاد الأناضول والروم إيلى وأبذل النفس والنفيس فى ضم كل ما استطعت ضمه إلى مملكتى ما دام فىّ قطرة من دم وثق بأنى قد وطنت النفس على ذلك فلا حول لى عنه ولا مندوحة منه وإنى لأعجب كيف تشدد علىّ النكير وتكرهنى على ترك بلاد قد حكمتها بالفتح والغزو وتكبدت فى فتحها جيوشى أصعب المصاعب وأتعب المتاعب وأريقت فيها الدماء الكثيرة وضاعت الخزائن الوفيرة وعلم أهل المعمور شرقًا وغرباً شهامة رجالى وبسالة أبطالى ونبالة مقصدى واستبشر الناس طرا بأنى سأوفق إن شاء الله تعالى إلى فتح جميع بلاد الدولة العثمانية وأنال منها قبل أن تنال دولة الروس وهل يجمل بك أن تشير بتركى مصر والاستعاضة عنها وأنت تعلم أنها لا تفارقنى أبدًا ولا أفارقها إلا بمفارقة الروح للجسد فافقه يا هداك الله واعدل ولا تكن من المجحفين واذكر أن المروءة لا ترضى بذلّ من وطن النفس على القيام بخدمة الشرق عموماً ودولة آل عثمان خصوصاً والسلام.

(مطلب)

ما كتبه محمد علي باشا يهدد به الدول

قال بعض الكتاب: ثم لم ير محمد على باشا بعد كل هذا التهديد والوعيد بدًا من العدول عن طلب الاستقلال التام بحكم ما بيده من ديار مصر والشام إلى طلب الولاية بالتوريث فى عقبه من بعده وأن يكون حكمه فى ذلك كحكم ولاة بغداد

وعلى باشا والى يانيا وسير الكتب إلى سفراء الدول وكلم سفير الفرنسيس فى ذلك طويلاً فلما لم ير منهم أذنًا صاغية عمد إلى التهديد، وكتب إليهم ثانية يقول كتابى إليكم يا أنصار الإنسانية وعهدى بكم الوفاء وحسن الإخلاص والولاء وإنى والله لا أدرى ما علة هذا الجفاء مهلاً مهلاً مابالكم تجافيتم بعد ذلك العطف والتلطف فإن كنتم ترون فى طلبى الاستقلال بملك مافى يدى شططًا وغنمًا لا تحمد عقباه فقد عدلت عنه إلى طلب الولاية وجعلها ميراثًا بعدى إلى ولدى ولا أخالكم تنكرون علىّ ذلك أيضًا بعد الذى تحققتموه من أمرى فإن شئتم فعلتم ذلك وإلا فدون استسلامى إلى سلطانى على يدكم خرط القتاد ولا لوم علىّ ولا تثريب إذا جاهرت بالذى أبتغيه وحافظت على ما بيدى من البلاد بحد السيف فقد عشت طويلاً ورأيت كثيراً وخير لشيخ مثلى أن يموت عزيزًا موقرًا من أن يموت حقيرًا مرذولاً وكيف ذلك وأنا لم أطلب شيئًا يتعدى مصلحة أوروبا السياسية ولم أسأل ما هو من العنت والخيلاء فى شئ فملكم تراوغوننى مراوغة ما أنزل الله بها من سلطان ألكونى على غير دين المسيحية لا أظن ذلك ويعلم الله فإن المروءة والشهامة تأبيان الإضرار بمن لا يسعى إلا إلى غاية شريفة ومستقبل شريف لذريته من بعده ولقد أكثرت من الشكوى ولم أخف عنكم ما وطنت النفس على عمله فلم يبق إلا أن أقول علانية إنى عاهدت النفس أخيرًا على الخوض فى معامع الحرب والجلاد حتى الموت فإن فازت الدول بالانتصار وألحقت بى وبعسكرى البوار فهذا لا يزيدها شرفًا ولا يكسبها غنمًا إذ أنها أكبر من ذلك كثيرًا وإن أتاح الله سبحانه لى الظفر ووفقنى إلى سبل الغلبة والنصر أريت الدول عاقبة هذا الأمر وأنبأتها بما لم تطق عليه الصبر وكم من فئة صغيرة غلبت فئة كبيرة بإذن الله والسلام.

(مطلب)

احتفال السلطان بزفاف ابنته زليخا
سلطانه وهدية محمد علي باشا

واتفق فى غضون هذه الحوادث أن احتفل السلطان بزفاف ابنته زليخا سلطانه على خليل باشا أحد كبار رجال الدولة فعمل لذلك الأفراح والولائم وأتت إليه هدايا الملوك والسلاطين والولاة من كل صوب وحدب فأرسل إليه كذلك محمد على باشا شيئًا كثيرًا من الأعلاق النفيسة والتعابى الثمينة والجواهر النادرة المثال فلم يكن احتفال السلطان بها إلا كاحتفال الدائن يأخذ ماله فى ذمة مدينه ولم يردّ على

محمد على باشا ردًا جميلاً فامتعض محمد على باشا من ذلك وعاد إلى الشكوى من فعال الدول ووقوفهم فى وجهه فكلم وكلاء الدول السلطان فى وضع حد لهذا النزاع والخصام يكون من ورائه فصل الخطاب والكف عن إراقة تلك الدماء هدرا فأجابهم بأحسن جواب وأخذ على نفسه هذا العمل وهجر سرايه المعروفة بسراى استافروى فراراً من الطاعون الذى دخلها بالعدوى من بعض الشيلان الكاشميرية التى جاءته هدية من قاضى القضاة بمصر ومنع رجال دولته من التداخل فى أمر حل هذه المشاكل ولم يشرك معه فى حلها سوى سعيد بيك كاتم أسراره الأول وواصف أفندى كاتم أسراره الثانى وجعلت رسله تتردد على مقر سفير الفرنسيس وطال الأخذ والرد فى تقرير قاعدة لتنازل السلطان عن ولاية مصر وتركها إلى محمد على باشا ثم إلى ذريته من بعده ميراثًا للأرشد فالأرشد وعن ولاية الشامات مقيدة ببعض القيود اللازمة لحفظ حقوق المتبوع على التابع وألح سفير دولة الفرنسيس فى ذلك وأكثر من التشديد فلم يفلح.

(مطلب)

ضرب الجزية على أهل حوران ولبنان

وكتب محمد على باشا إلى ولده الأمير إبراهيم يأمره بالتأهب والاستعداد لإصلاء نار الحرب فى الأقرب العاجل فجعل الأمير إبراهيم يتأهب وقد بالغ فى ذلك ففرض على أهل الشام الفرض الفادحة وضرب الجزية على أهل حوران ولبنان وقد أحس منهم بالشر والخروج عن الطاعة فألزمهم الصغار واشتد فى تذليلهم وعمت الجزية سائر أهل تلك الأصقاع وقد كان عمال السلطان قبلاً لا يفرضونها إلا على اليهود والنصارى دون المسلمين فعم القلق من أقرب البلاد إلى أقصاها وبدت إشارات العصيان وعلم الأمير إبراهيم بحضور جماعة من عيون السلطان وأنهم يجوبون البلاد ويحضون الناس على الخروج وإضرام نار الفتنة فبالغ فى الحيطة والتحرز وبلغ جيشه الذى جمعه فى هذا الحين زهاء ثمانية عشر ألفًا، وجعل السلطان يكثر أيضًا من حشد الجيوش ويعد المعدات ويرسل الجند تباعًا إلى حدود الشامات وقلب آسيه وسلم قيادتها إلى حافظ باشا أحد كبار الحرب وعمد إلى الإضرار بمحمد على باشا ماليًا أيضًا فعاقد دولة الإنجليز على يد رشيد باشا واللورد بونسنبى على منع احتكار المحاصيل المصرية فكبر هذا الأمر على محمد على باشا وكاد يسقط فى يده لحاجته إلى المال لنفقة الجنود وجعل يفكر فى تجديد المخابرات مع

الباب العالى مباشرة مبتعدًا ما استطاع عن وساطة الدول سادًا دون ذلك كل منفذ وباب.

(مطلب)

سفر محمد علي باشا إلى السودان في طلب معادن الذهب

قال بعض الكُتّاب: وكان يرى أنه فى حاجة إلى المال الذى هو أكبر معين على بلوغ هذه الآمال فعزم على الرحيل إلى بلاد السنار فى طلب معادن الذهب حتى إذا فاز منها ببلوغ الأرب أعطى ووهب وقهر وغلب وقلب إلى تلك الدول ظهر المجن بعد الذى عاناه بسببهم من المكايد والمحن وقال آخرون: بل كان يقصد بهذه الرحلة الطويلة تغيير مجرى الحوادث وتفريج تلك الأزمة التى استحكمت حلقاتها بما كان يأتيه من التشديد والتهديد وقد كان يرى من دولتى الروس والإنجليز عدوًا لدودًا وخصمًا مشاغبًا كنودًا وأن رجوعه القهقرى بعد ذلك التشامخ والتعاظم يكون نقطة سوداء فى صحيفة أيامه فعمد إلى تلك الرحلة وعقد النية على أنه إن عاد سالمًا لا يظهر فى ميدان ذلك المعترك بمظهر البادئ بالشر إلا إذا اضطره الخصم إلى القبض بكلتى يديه على حر هذا الجمر، وكان معه فى هذه الحملة كثير من العمال وأرباب الصنائع والبنائين والمهندسين وأصحاب علم طبقات الأرض من الفرنسيس وغيرهم وجماعة من القبط والملتزمين والخدم والأتباع وجاهد من مشاق الأسفار ما لا يقدر عليه إلا القليل فلما وصل إلى سنار جاءه مشايخ القبائل وأمراء السود وبعض سلاطين ذلك الصعيد خاضعين وقدّموا له الهدايا النفيسة من الذهب وكثيرًا من الإماء والعبيد والخصيان وسن الفيل والريش والعطريات فأكرم لقاءهم وبالغ فى الحفاوة بهم وحادثهم فيما هم عليه ووعدهم خيرًا إن هو ظفر بأمنيته من تدويخ سائر ولايات السلطنة العثمانية وتم له الاستقلال بملك سائر ما بيده من البلاد ثم بث سائر من معه من أصحاب علم طبقات الأرض فى أنحاء السنار يجوبون الصحارى والقفار علهم يهتدون إلى شئ من معادن الذهب فلم يوفقوا إلى ذلك ألبتة سوى ما عثروا عليه من بعض الرمال المخلوطة بالشئ اليسير من القشور الذهبية فأحزنه هذا الأمر وسار عن السنار وقد ترك بها جماعة من المهندسين والعمال والكُتّاب وأصحاب طبقات الأرض وهو على عزم أن يؤسس بها مستعمرة يسميها باسمه ووافق وصوله مدينة القاهرة يوم افتتاح سنة خمس وخمسين ومائتين وألف هجرية فعلم بخبر وصول بعض السفن العثمانية ومعها الهدايا والتعابى المعتاد إرسالها فى

كل عام إلى مكة والمدينة وكان الموكل بتوصيل تلك الهدايا نائب أمير سفن الحرب العثمانية فلم يحفل محمد على باشا بقدومه وأغضى عنه وكأنه لا يعلم من أمره شيئًا فأرسل إليه النائب يقول: أمير المؤمنين يقرئك السلام ويخصك بالتحية والإكرام ويقول: عجل بحمل الخراج ولا تحدث حدثًا بعد الذى علمته من إغضاء سلطانك وعفوه عما فات فلم يردّ عليه أيامًا ثم أرسل إليه كتابًا يقول فيه لست فى استعداد للقائك الآن فارحل عنا ثم عد بعد أربعة أشهر فلم يسع النائب المذكور إلا العود خائبًا مقهورًا.

(مطلب)

انقسام رجال الدولة العثمانية وعدم اتفاقهم على استمرار القتال مع محمد علي باشا

وانقسم رجال الدولة من هذا الحين إلى فريقين مختلفين أحدهما يقول بلزوم الحرب وإصلاء نار الوغى مع محمد على باشا حتى يرجع صاغرًا وكبير هذا الحزب أحمد قبطان باشا وثانيهما يقول بلزوم التأنى وترك العجلة والأخذ بأسباب المساهلة حتى تخمد نار هذه الفتنة وتعود الأمور إلى ما كانت عليه من المودة والصفاء بين المتبوع وتابعه ورأس هذا الحزب خسرو باشا قال بعض الكُتّاب: وقد كان خسرو هذا من ألد أعداء محمد على باشا وأكبر خصومه وهو الذى كان واليًا على ديار مصر أيام على بيك الكبير شيخ البلد ومراد بيك ووقع بينه وبين محمد على باشا من البغضاء ما قامت الحرب بسببه بين أصحابه وعسكر محمد على باشا أيامًا كثيرة حتى خلعه محمد على باشا وأخرجه من مصر خاسرًا مقهورًا وولى مكانه خورشيد باشا (كما هو مذكور فى محله من الجزء الثالث من كتابنا هذا) قال الراوى: ومع ذلك فقد كان من المحقق الذى لا مراء فيه أن خسرو باشا مع قيامه بزعامة حزب السلم كان يرجو قهر أحد الفريقين المتحاربين وغلبته ويقول: إن دحر محمد على وقهرته العساكر السلطانية كان ذلك غاية ما أتمنى أن يحيق به جزاءً له على خلعى من ولاية مصر وإخراجى منها قهراً وإن ظفر محمد على بالعساكر السلطانية ومزق شمل جمعهم كان ذلك ما أرجوه كى يحيق برشيد محمد باشا وحسين باشا مقدمى العساكر السلطانية العار والشنار والخزى والبوار.

(مطلب)

خروج أهل الشام وانتشار الفتنة

وعلت فى غضون هذه الحوادث ضوضاء أهل حوران ولبنان وكثر ضجيجهم ونادوا بالخلاص من نير عبودية الأمير إبراهيم وجور عسكره وقدمت رسلهم إلى دار السلطنة يصيحون المدد وقد كان لما أحس أهل الشام بضعف جيوش الأمير إبراهيم قاموا على عماله وخرجوا عن طاعتهم وانبثت عصاباتهم فى القرى والبلدان يدعون الناس إلى شق عصا الطاعة فهبوا جميعًا إلى الثورة فأرسل الأمير إبراهيم إلى أبيه بالإسكندرية يستنجده فسار محمد على باشا من فوره إلى يافا ومعه الهدايا النفيسة والتعابى الفاخرة فلما ألقت سفينته مرساها طلب وجهاء البلد وأعيان القوم وكبار القبائل فحضروا إليه فأحسن لقاءهم وخلع عليهم الخلع النفيسة وأعطاهم التعابى الغالية وبالغ فى استمالتهم فمالوا إليه وعاهدوه فأرسل إلى ولده يقول عجل بالخروج وقاتل ما استطعت وشرد أصحاب الفتنة وشدد عليه فى ذلك وبالغ فى توبيخه وتعزيره استرضاء لأصحاب العهد فخرج الأمير إبراهيم بعسكره وحارب أصحاب الفتنة وقاتلهم قتالاً عنيفًا حتى دوّخهم وظفر بهم ثم ركب على نابلس وقاتل من بها فقاتلوه وصبروا على قتاله أيامًا كثيرة ثم عادوا فطلبوا الأمان فأمنهم وركب كذلك على الكرك والسلط وأمر عسكره فهدموها ودكوا حصونها وأخضع جبال الناصرة وأرجع أهلها إلى الطاعة وسير جماعة من عسكره إلى اللاذقية فبينما هم فى طريقهم إذ خرج عليهم أهل الناصرة ثانية فنالوا منهم قتلاً وجرحًا وتشريدًا فرجع من بقى إلى حيث الأمير إبراهيم فكبر عليه هذا الأمر وأخذ فى التدبير على أهل الناصرة وعاهد الأمير بشير الشهابى على الذب والدفاع فجيش الأمير بشير عسكرا لقتال أهل الناصرة وقدم عليهم ولده الأمير خليل وجيش كذلك الأمير إبراهيم جيشا آخر وسلم قيادته إلى الأمير خليل فسار بهم إلى الناصرة وقاتل من بها فوقعت بينهم عدة وقائع كانت الحرب فيها سجالاً وما زال الأمير يقاتل والمدد يأتيه تباعًا حتى ظفر بأهل الناصرة وأخضعهم وقبض على كبارهم وسلمهم إلى الأمير إبراهيم فمثل بهم وقتلهم وبالغ فى التحذر واستئصال أسباب الفتنة فرسم بجمع ما فى أيدى الشاميين من سلاح وآلة حرب وشدد فى ذلك وتوعد وطاف القرى والبلدان ومعه جماعة من العسكر يكبسون الدور ويحفرون الفسحات ويهدمون الجدران ويخرجون ما فيها من سلاح وآلات حرب فكانت شيئًا كثيرًا فخافه الشاميون

وانكمشوا وانمحت آثار الفتنة وخضعت جميع الشامات فلم يتركهم بل عمد إلى إذلالهم وتنكيلهم ورسم بجمع كل ما قدروا على جمعه من الخيل ودواب الحمل وأدخل الشبان من أولادهم فى مصاف الجند وسيرهم إلى أقصى البلاد فكان عمله هذا من أشد الضربات على الشاميين وكان كلما بدت منهم دالة التمرد أو الخروج فعل بهم كذلك فيرجعون إلى الطاعة وقد تراكمت الشكاوى من ذلك على الباب العالى فأبلغ السلطان وكلاء الدول خبرها وقال لابد من خروج إبراهيم وعسكره من الشامات وجلائهم عنها بغير معاودة وإلا فالسيف والنار ولا هذا الخزى والعار فراجعته دولة الفرنسيس وكذلك فعلت دولة الروس آخذة فى هذه الآونة برأى كبير سياستها المسيو رويوتانوف. قال أصحاب التاريخ: فقد كان هذا الرجل من فحول أصحاب السياسة ومقدمي رجال الرياسة كثير المعرفة بأحوال الدول فلما رأى من اللورد بونسنبى سفير الإنجليز من المواربة والدهاء أدرك ما وراء ذلك فاستدرك الخطأ وعمد إلى تغيير خطة سياسة دولته من المكابرة والمعاندة إلى المساهلة والمجاملة واتبعته فى ذلك أيضًا دولتا بروسيا والنمسا وأكثروا جميعًا من الأخذ والرد مع السلطان وهو يطاول ويحاول ويظهر خلاف ما يبطن حتى خشى حزب السلم من تفاقم الخطب واشتداد الكرب وعمد إلى طلب خلع أحمد قبطان باشا مقدم حزب الحرب فلم يفلح لمكانته وقربه من السلطان فعدل عن ذلك إلى طلب تحقيق حالة الشامات وما إذا كانت تستلزم البقاء على هذه الحرب المشؤمة التى لا يعلم عاقبتها إلا الله وحده وألح خسرو باشا بطلب ذلك وزين للسلطان العمل برأيه فأجابه كارهًا وسير سعيد باشا ناظر الحربية إلى الديار الشامية وكانت العساكر السلطانية إلى هذا الحين نازلة بملاطية وقد فعل فيها برد ذلك الشتاء فعله وقلت عندهم المؤن وفشت بينهم الأمراض وكثر الموات وساءت حالهم وبدت منهم إشارات الخروج وشق عصا الطاعة فكان حافظ باشا مقدمهم يخشى عاقبة ذلك ويلح على السلطان بطلب الإذن بفتح باب الحرب والزحف بعساكره لقتال الأمير إبراهيم فأجابه السلطان إلى ذلك وسير إليه ثلاثة من كبار قواد الجيوش البروسياويه وبينهم البارون ملتكه الشهير ليكونوا له عونًا على العمل فسار حافظ باشا بعسكره من ملاطية يريد الشامات وعبرت طائفة منهم الفرات ومقدمهم إسماعيل باشا وسارت على أكمل ترتيب ونظام حتى اقتربت من حلب وكان الأمير إبراهيم قد سار عن حلب إلى حوران ليرى المزارع وغرس الأشجار الكثيرة التى أشار بغرسها فى تلك الأصقاع فلما جاءه الخبر بوصول العساكر السلطانية أرسل إلى قواد عسكره يستحثهم على التأهب والاستعداد وجمع

إليه مشايخ قبائل وبلاد تلك الأنحاء واستحلفهم على الطاعة والولاء فحلفوا له الأيمان الغلاظ وكان ممن حضر معه فى ذلك اليوم سليمان باشا الفرنسوى فقال له: أيها الأمير خفف عنك فوالله إما أن ندخل دار السلطنة فى هذه المرة بعسكرنا المنصور وإما أن نعود إلى ديارنا مدحورين خاسرين فسرّ الأمير إبراهيم عند سماعه هذا الكلام وقال بوركت يا سليمان والله لن يكون إلا دخولنا بإذنه تعالى ظافرين غانمين، وأحاطت العساكر السلطانية بالشامات ونزلت على بلادها من كل صوب وحدب واجتمع لهم عند مدينة قونية كثير من الجند وتأهبوا للهجوم على البلد والولوج منها إلى المفاوز الموصلة إلى مدينة أطنة وجاءت كتب السلطان إلى عزت محمد باشا والى أنجور بتجييش الجيوش وإعداد المعدات مددا عند مسيس الحاجة وسار كل من والي بغداد ووالى الموصل فى عسكر عظيم مددا إلى حافظ باشا. قال بعض الكُتاب: ولم يكن سير هذين الأميرين بعسكرهما إلا لإمداد الأمير إبراهيم ومعاونته على قتال عسكر السلطان وكان الأمير إبراهيم فى خلال هذه الحركة وتعبية تلك الجيوش الجرارة ساكن القلب هادئ اللب وهو مع ذلك يعلم أن جيوش السلطان التى جاءت لقتاله فى هذه المرة زهاء المائة ألف وخمسين ألفًا فضلاً عما وصل أيضًا من سفن الحرب الكبيرة والشوانى المشحونة بالمدافع والمقاتلين وجعل يرتب جيوشه ويرسلها إلى مواقف القتال فسارت منها طائفة إلى مرعش وأخرى من أصحاب المدافع إلى عنتاب لرد أهلها إلى الطاعة فإنهم لما أحسوا بقرب العساكر السلطانية منهم ثاروا على عمال الأمير إبراهيم وشاغبوهم وسارت طائفة أخرى من الفرسان وأصحاب المدافع إلى حماة ومعهم جماعة من عربان الهنادى ومقدمهم قفطان بك وخرجت قبيلة العنزة عن طاعة السلطان أيضًا وانضمت إلى العسكر المصرى فهال السلطان خروجهم وأزعجه واهتم محمد على باشا بجمع المال لنفقة الجند واحتياجات العسكر فزاد فى فرض الفرض وضرب المكوس والمغارم على سائر أهالى البلاد بلا فرق بين الغنى والفقير والصغير والكبير من التجار وأرباب الحرف والصنائع والكتاب والملتزمين وبالغ فى جمعها وبث الجباة والمأمورين يجوبون البلاد شرقًا وغربًا فى طلب ذلك فاشتدوا على الناس شدة بالغة وأخذ أيضًا سائر ما كان مودعًا من المال بصندوق التوفير من مال أرباب الرتب العالية وأصحاب الوظائف السامية وقدره ثلاثون ألف ألف قرش وخرج إلى بعض المدن مثل طنطا والمحلة وشبين الكوم والمنصورة وفارسكور وغيرها ليحض الجباة والمأمورين على جمع المال

وكتب إلى الأمير إبراهيم يقول: لا تعجل بفتح أبواب الحرب وكن مدافعًا لا مهاجمًا حتى تعرف دول أوروبا أن سلطانك هو البادى بالشر والبادى أظلم.

(مطلب)

اتخاذ حلب مقرًا لحركة العساكر المصرية واستحلاف أهلها على السمع والطاعة

وكان إلى هذا الحين قد انقطعت المواصلات بين الشام ومصر وبلاد الترك وانقطع ورود القوافل بالتجارة واستوحش كل قرين من قرينه واشتد الخوف بأهل تلك الأطراف من عبث الجيوش العثمانية وإهلاكهم للحرث والنسل، وقدم طاهر باشا رسولاً من قبل السلطان إلى حافظ باشا مقدم العسكر السلطانى يحمل المرسوم بفتح أبواب الحرب وإصلاء نار الوغى وكانت عيون الأمير إبراهيم تنقل إليه الأخبار فأعلموه بخبر ما هى عليه العساكر السلطانية من القوة ووفرة العدد والعدد وحصانة الموقع فاتخذ حلب مقرًا لحركة جنوده واستحلف عظماءها ثانية على السمع والطاعة فحلفوا فجبا أهلها الجزية سلفًا فدفعوها فكانت ثلاثة آلاف كيس ومائة كيس واستقرضهم قرضًا قدره ثلاثمائة وخمسة وسبعون ألف قرش فأقرضوه إياه فكان ما خص النصارى والمسلمين من هذا القرض ثلاثمائة ألف وما خص اليهود خمسة وسبعين ألفًا وسير لحراسة بعلبك ومنع القادم من العساكر العثمانية إلى حوران ولبنان طائفة من الأرناؤط ورفع عن أهلها الجزية وسائر المغارم كى يخلدوا إلى السكون وأباحهم الزرع بلا مال ولا خراج وأجاز لهم انتخاب شيوخهم ومديرى أمورهم وأعاد إليهم ما كان قد جمعه منهم من الأسلحة وآلات الحرب وأقام عليهم شبلى عريان أحد كبارهم ومقدّمى حزبهم عينًا ليراقب أحوالهم ويحرس دروبهم وبالغ جدًا فى الحيطة والتحرز من أهل تلك الأطراف لشدة بأسهم وصبرهم على الحرب والقتال.

(مطلب)

عود قناصل الدول إلى مكالمة محمد علي باشا في الصلح وما كان من وراء ذلك

ووردت كتب الدول إلى وكلائهم بالإسكندرية بأن يعاودوا محمد على باشا فى كف ولده عن الزحف والقتال. قال بعض الكتاب: وكان كتاب كبير سياسة الروس

فى ذلك إلى قنصلهم شديد اللهجة غليظ الكلام وكان محمد على باشا هذه الأثناء يجوب البلاد وقد وصل إلى مدينة دمياط فسار إليه قنصل الروس وأبلغه الرسالة وأخبره بخبر كتب الدول إلى وكلائها فغضب محمد على باشا وعاد من فوره إلى الإسكندرية فاجتمع إليه سائر القناصل وجعلوا يكلمونه فى الإقلاع عن كل هذا العداء والكف عن الحرب واستدعاء ولده ومن معه من العسكر وتقرير قاعدة أخرى للصلح قال: فامتعض محمد على باشا وقال ما بالكم تسعون فى الإضرار بى وبأهلى وولدى وما بالكم تضربون على يدى وتطلقون يد السلطان يقتل من شاء ويخرب ما شاء ويحرق ما شاء أو لم تخافوا الله وتحكموا بالقسط بينى وبينه والله لن أرجع عن الحرب والقتال ولن ترجع عساكرى عن الغزو والفتح حتى يحكم الله بينى وبينه وهو أحكم الحاكمين. فجعل القناصل عند ذلك يخففون عليه حتى سكن بعض ما به ورسم إلى كاتب سره أن يكتب إلى الدول شيئًا مما هم بصدده فكتب يقول: قد خاطبنى قناصل الدول العظمى بما جاءهم من الكتب فى أمر تقرير قاعدة للصلح بينى وبين سلطانى فلم أر بدًا من العود إلى إعلامكم بما قد وطنت النفس على عمله آخذا بمشورتكم فإن عادت العساكر السلطانية الذين عبروا الفرات وأصبحوا على مقربة من المعسكر المصرى إلى حيث أتوا وتم ذلك فى الأقرب العاجل سيرت إلى ولدى بإيقاف عسكره ورجوعه إلى دمشق مع حاشيته وأركان حربه وإن خرجت سائر العساكر السلطانية وانجلت عن الديار الشامية استوقفت سائر جيوشى واستقدمت ولدى إلى مصر فإذا تكفلت لنا الدول بالمحافظة على السلام وتوكيد عرى الولاء مع السلطان بتوريث أولادى من بعدى ملك ما بيدى من البلاد فإنى لا أحجم عن استقدام بعض جيوشى إلى مصر ولا آنف من العود إلى المخابرة مع سلطانى فى تقرير قاعدة للصلح راسخة الأركان لا يبقى من ورائها باقية والسلام، قال بعض الكتاب: كل هذا والسلطان يظهر إلى سفراء الدول خلاف ما يبطن فكان من جهة يقول: إنه ما برح يطاول محمد على باشا وولده ويدفعهما عن بلاده بالتى هى أحسن ومن أخرى يحض مقدم عسكره على الزحف والانتقال من بلد إلى آخر بعلل وأسباب مختلفة وقد أنشب الموت أظافره فى العساكر السلطانية فأهلك منهم خلقًا كثيرًا ولحق كذلك بدوابهم فكاد يبيدها ونزل فريق من العساكر فى مضيق من الجبال وعر المسلك ولبثوا فيه لا يتحركون أيامًا. قال الراوى: فلو كان الأمير إبراهيم نازلهم فى ذلك المضيق بنفر من عسكره ساعة لأتى على آخرهم ولكنه

لم يفعل حقنًا للدماء ولكي لا يقال أنه البادى بالشر وشاع خبر ذلك فى دار السلطنة فكبر خوف حزب السلام وقام سفراء الدول يسألون طاهر باشا فى ذلك فلم يروا منه جنوحًا إلى المسالمة ولاميلاً إلى المكالمة وكثر اللغط بلزوم الحرب والقتال وقطع شأفة العساكر المصرية من كافة بلاد الدولة وظهر من اللورد بونسنبى سفير الإنجليز ميل إلى معاداة محمد على باشا وأوعز إلى قنصل الإنجليز بدار السلطنة أن يكلم السلطان فى تقليد الجنرال سكرانودسكى البروسياوى قيادة الجيوش العثمانية فى هذه الحملة فلما شاع خبر ذلك غضب سائر كبار حرب الجيش البروسياوى وقاموا قومة رجل واحد وقالوا النار ولا هذا العار الذى يلحق بنا إذا ظل الرجل فى خدمة جيوشنا وكان هذا الجنرال قد تجنس بالجنسية الإنجليزية وقام كذلك كبير سياسة بروسيا يمانع ويشدد فى المنع فخاف السلطان شر العاقبة ولم يوافق على طلب اللورد بونسنبى وانبثت العساكر السلطانية فى أنحاء الشامات فعاثت وأفسدت واجتمع إليها أهل البطالة والفساد وأتت إليها الأحزاب من كل صوب وحدب ووصلت طائفة من الفرسان إلى ناحية (مزار) على قيد فرسخين من نصيبين وأرسل مقدم هذه الطائفة إلى عامل السلطان على (أرول) فى طلب الرجوع إلى طاعة سلطانه وترك الأمير إبراهيم وشأنه فأجابه إلى ذلك وعلم الأمير إبراهيم بخبره فرسم إلى محمد معجون بك بالمسير بمن معه من العساكر والعربان إلى تل باشر فسار إليه ثالث عشر ربيع الأول من السنة وكثر احتلال الجنود العثمانية للكثير من القرى والبلدان الداخلة فى ولاية عنتاب والتقى والى (أرول) بمقدم العساكر السلطانية فأكرم وفادته فبالغ الوالى فى السمع والطاعة إليه وأشار عليه بجمع مشايخ ذلك الصعيد ففعل فكلمهم فى الخروج عن طاعة الأمير إبراهيم فأجابوه إلى ذلك فأعطاهم الأسلحة وآلات الحرب وأكثر لهم من الذخيرة ففرقوها على أهل البلاد ودفعوا بهم إلى قتال العسكر المصرى ومع كل هذا فقد كان كبير سياسة السلطان يقول لسفراء الدول إن أمير المؤمنين جانح إلى السلم كاره للحرب وإنه على ما هو عليه من التأنى وترك التسرع حتى تقضى الدول بينه وبين متبوعه.

وكبر كيد الأمير إبراهيم فلم يبق فى إمكانه السكوت لا سيما وقد انبثت العساكر السلطانية حوله وجاءوا إلى مواقع عسكره من كل صوب فأرسل إلى سليمان باشا الفرنسوى يستحثه على الحضور بسائر من عنده من العساكر ثم سار هو من حلب فى جماعة من الفرسان وأصحاب المدافع ولحق به سليمان باشا بمن معه

وبينما الأمير إبراهيم فى طريقه إذ جاءه الخبر بهزيمة العربان الذين كانوا رباطًا عند نهر الساجور قاتلهم الفرسان العثمانيون فلم تأت ساعة أو بعض ساعة حتى انهزموا شر هزيمة وأسر منهم جماعة كثيرة وتمزق شمل من بقى منهم فأزعجه هذا الخبر وسار سيرًا حثيثًا يريد لقاء العساكر السلطانية فلم يتمكن من ذلك وكان رجال المابين السلطانى فى خلال هذه المشاغبات يكثرون من الضجيج والعجيج إلى الدول من شر فعال محمد على باشا وولده إبراهيم وامتناعه من حمل الخراج إلى الخزينة السلطانية ويقولون إنه ما برح يظهر إلى سلطانه كل بغض وعداء بتجييشه الجيوش وإعداده المعدّات بعد أن صفح عنه وعفا عما فات ثم أرسل صدر الدولة إلى وكلاء الدول كتابًا يقول فيه: قد آن لكم أن تروا ما يراه أمير المؤمنين من لزوم حل عقدة هذه المشاكل والإحن التى قوّضت أركان السلام أو كادت فقد فرغ الصبر واستفحل شر هذا الأمر وأخذت الخيلاء من ذلك التابع المارق مأخذها فداس بقدميه هامة الخلافة وزعزع أركانها وبلغت به القحة مبلغها والجسارة منتهاها فلم يبق فى وسع الباب العالى الإغضاء بعد هذا كله، وقد تنازل أمير المؤمنين بأن يبعث إلى الإسكندرية سفراء يعرضون على محمد على الرجوع إلى طاعة خليفته وسلطانه فإن أذعن عفا الله عما سلف وإن امتنع وكابر فالسيف والنار ولا هذا الخزى والعار، ولأمير المؤمنين عضد ونصير من جانب دولة الإنجليز التى وعدت بالمعونة والمدد وأمسى وعدها إن شاء الله أمرًا مقضيًا، وبعد فأمير المؤمنين يسأل الدول المتحابة أن تسعى جهدها فى إقناع ذلك التابع بالإذعان والكف عن المشاغبة وعدم الطموح إلى ما لا تحمد عقباه وأمير المؤمنين على يقين من حسن نوايا الدول المتحابة وميلهن إلى توطيد أركان السلم وسد أبواب تلك الحرب التى لم يبق فى وسع أحد النظر إلى تيارها الجارف نظرة المتفرج فلذلك يرجوهم تدارك الخطر قبل استفحاله والسلام.

ووردت على محمد على باشا فى هذه الأثناء الأخبار من ولده الأمير إبراهيم بما هم عليه من الجهد والتعب بسبب هجمات طلائع الجيوش السلطانية على مقدمة العساكر المصرية والتزامه خطة الدفاع والوقوف عند حد التحرز لكل لا تتهمه الدول بسوء القصد بعد الذى هم فيه من الأخذ والرد فلم يصل إليه الجواب حتى جاءه الخبر بوصول رجل اسمه موستتيك بك فى طائفة كبيرة من عساكر الكراداغ المرتزقة يريد قتاله وما زال موستتيك هذا يتقدم بخيله ورجله حتى صار على قيد فرسخ من مواقف المصريين فكبر أمره على الأمير إبراهيم وركب فى طائفة من المصريين لقتاله

وشاع الخبر بذلك بين أهل ذلك الصعيد فهب أهل لبنان إلى شق عصا الطاعة وتألبوا جميعًا على قتال المصريين وإجلائهم عن البلاد ووصلت طلائع لموم موستيك إلى عنتاب وبها طائفة من العساكر المصرية فخرج أهل البلد للقائهم وفرحوا بمقدمهم وانقلبوا يريدون مشاغبة من عندهم من المصريين فأسرع الأمير إبراهيم فى إجلاء عسكره عن عنتاب فانسحبوا فى رابع عشرى ربيع الأول من تلك السنة بجميع متاعهم وكراعهم وانضموا إلى المقاتلين ولم يتم انجلاؤهم عن عنتاب حتى دخلها والى مرعش وقد خرج عن طاعة الأمير إبراهيم بإغراء مقدم العساكر السلطانية وجعل يتصرف فى البلد وفيما هو فيها من مال وكراع، فلما كان سابع عشرى ربيع المذكور عبر حافظ باشا مقدم الجيوش السلطانية الساجور ومعه خمسة آلاف من المقاتلة وثلاثة آلاف فارس من المرتزقة وسار يريد الالتقاء بالعساكر المصرية فلما ترآى الفريقان جعلت العساكر السلطانية تطلق مدافعها تباعًا فلم تلتفت إليها العساكر المصرية .

(مطلب)

ما كتبه الأمير إبراهيم إلى حافظ باشا مقدم العساكر العثمانية وما كان بعد ذلك

وكتب فى الحال الأمير إبراهيم إلى مقدم عسكر السلطان يقول: إذا كنتم تعلمون ما هو جار بين أمير المؤمنين والدول من الأخذ والرد فى شأن الكف عن القتال حتى تتقرر قاعدة الصلح بيننا وبينكم فكيف سيرتم سليمان باشا العثمانى فى طائفة كبيرة من الفرسان المرتزقة لمهاجمة عسكرنا النازلين (بولايتك) وكيف استبحتم إرسال موستيك بك فى جيش جرار من الأكراد ليعاونوا أهالى (باياس) على شق عصا طاعتنا وبعثتم الحاج عمر أوغلى إلى الكراداغ لإيقاظ الفتنة النائمة وهاجمتم عرباننا الهنادى المرابطين على الحدود ومددتم أهل عنتاب بالأسلحة ومعدات الحرب ليقاتلونا ورسمتم إلى سليمان باشا العثمانى بدخول عنتاب والقتال عنها ما استطاع ولم تقفوا عند هذا الحد من التعدى وخرق حرمة العهد حتى زحفتم علينا بخيلكم ورجلكم وأطلقتم علينا اليوم بنادقكم ومدافعكم رجاء أن تخرجونا من دائرة التأنى والصبر والعمل برغائب أمير المؤمنين والدول المتحابة إلى التهوّر والاندفاع إلى إصلاء نار الحرب المغضبة لخليفتنا وسلطاننا وللدول أجمع وكأنك هداك الله ظننت أن سكوتنا عن قتالكم ضرب من العجز أو شئ من الجبن حاشا ثم حاشا فإن كان قد أتاكم أمر الخليفة بقتالنا فليس من النصفة أن تستعملوا الخدعة والمكر بنا والتدليس

بأصحابك فأعلن الحرب جهاراً وناد بالجهاد علانية وسترى منا إن شاء الله أسودا بواسل لا يهابون القتال ولا يحسبون حسابًا للقاء الأبطال فقد عيل منهم الصبر وهذا كتابى واصل إليك على يد محمود بك أحد مقدمى أصحاب المدافع فأفدنا الجواب والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

فلما علم حافظ باشا ما فى جواب الأمير إبراهيم كتب إليه يقول: ألفيت كتابك مفعمًا بعبارات الطاعة وإشارات الخضوع إلى سلطانك خليفة رسول رب العالمين وظل الله الوارف فى أرضه فقبل كل قول يجب علينا أن نرفع أكف الضراعة والابتهال إلى المولى العزيز المتعال بأن يديم لنا فرع هذه الشجرة المقدسة زاهيًا زاهرًا موفقًا مدى الدهور والأعوام وبعد فإنك تعلم هداك الله أن طاعة أمير المؤمنين واجبة مفروضة على من يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر وأن هذه الطاعة لم تكن باللفظ المجرد عن العمل وإلا كانت مروقا وعصيانا فإن كنت قد وطنت النفس على الطاعة وعقدت النية على التقرب من عرش الخلافة فكيف أرسلت لقتالنا محمد معجون بك فى جماعة من العربان وكيف أذنت طلائع عسكرك بأن يناوشوا طلائعنا الحرب ويجروهم إلى القتال فكل هذه الأمور قد جعلتنا فى ريب من إخلاصك ودفعت بنا إلى مناوشتك القتال فإن أنت رجعت وتبت وندمت على ما فعلت فعليك الأمان من أمير المؤمنين والسلام عليك ورحمة الله وبركاته، ولم يصل كتاب حافظ باشا إلى الأمير إبراهيم حتى جاءه الخبر أيضًا بقيام سفن حرب السلطان مشحونة بالمقاتلة والفرسان والذخيرة والميرة الكثيرة وهى مؤلفة من عدة شوانى كبار وقطع عظيمة وبأن الحرب لا مندوحة عنها ولا فرار قط منها فسير الأمير إبراهيم الخبر بذلك إلى أبيه وطلب المدد واستسرع النجدة فكتب إليه أبوه فى ثامن عشرى ربيع الأول من السنة أى سنة ثمان وخمسين ومائتين وألف يقول: جاءنى كتابك وعندى الخبر اليقين بما يلاقيه عسكرنا من الحيف وما هو مشاهد فى كل يوم من عبث العساكر العثمانية بالبلاد وتسليح حافظ باشا لأهل الشقاوة الخوارج وبثهم فى المدن والقرى لإهلاك الحرث والنسل ولقد طال منا التغاضى أخذًا بمشورة الدول أصحاب الوساطة لعل حافظ باشا يرعوى ويقف عند حده حتى تقرر القاعدة بيننا على ما فيه المصلحة فلم يفعل فإذا أتاك كتابى هذا فسر على بركة الله بعسكرك المنصور وقاتل هذا العدو المارق وادحره دحراً وأوقع به وبعسكره ما استطعت وسر من فورك إلى (كوليك) بوغاز ومن هناك إلى ملاشيا وقريوت وعرفة وديار بكر والله سبحانه وليك وهو حواليك لا عليك والسلام ورحمة الله وبركاته.

(مطلب)

قدوم المسيو كاليه مندوب دولة الفرنسيس إلى مصر ومكالمة محمد علي باشا في تقرير قاعدة للصلح

وجعل محمد على باشا يجيش الجيوش ويكثر من آلات الحرب لنجدة ولده وأقام المرابطين على الحدود وبث العيون وظهرت الحركة بالقاهرة وبولاق القاهرة ومصر وتحت قلعة الجبل بمرور دواب الحمل وسحب المدافع والأثقال وطير قناصل الدول الخبر بذلك إلى الآفاق فاهتمت له دولة الفرنسيس وسيرت على الأثر رسولين أحدهما إلى محمد على باشا واسمه المسيو كاليه وثانيهما إلى دار السلطنة واسمه المسيو فوتز وزودت كلا منهما من الأسرار بما اقتضاه الحال، واتفق أن قدم محمد على باشا إلى مدينة الإسكندرية ليباشر بنفسه إرسال المدد إلى ولده الأمير إبراهيم فقدم عليه المسيو كاليه فى نفر من الكتاب والحشم والأتباع فأكرم محمد على باشا مقدمه وبالغ فى الحفاوة به فكلم محمد على باشا فى أمر الكف عن القتال والتأنى فى الحركة حتى يتم تقرير قاعدة الصلح بينه وبين السلطنة على ما فيه المصلحة فامتنع محمد على باشا من ذلك وقال لابد من متابعة القتال وعدم الكف عن الحرب حتى يقضى الله بيننا فألح المسيو كاليه فى الطلب وبالغ فى استرضاء محمد على باشا وطاوله أيامًا ثم عاوده فأجابه ورسم إلى خسرو أفندى بقبول وساطة دولة الفرنسيس وساطة فعلية فى جعل حد لهذه الحرب وتقرير قاعدة راسخة للصلح وأن يكتب إلى الأمير إبراهيم بأن يبقى حيث هو مقيم حتى يأتيه كتاب وركب المسيو كاليه وخسرو أفندى سفينة مصرية يريدان الشام والالتقاء بالأمير إبراهيم وكان قد قام بعسكره لقتال حافظ باشا عملاً بالكتاب الوارد إليه من محمد على باشا وقصد ناحية مزار الواقعة جنوب شرقى نصيبين ونزل على قيد فراسخ من محلة العساكر السلطانية، قال بعض كتاب الأخبار: فاضطرب عند ذلك مقدم العساكر السلطانية ورسم لمقدمى عسكره بمناوشة طلائع المصريين فجعلت العساكر السلطانية تطلق مدافعها تباعًا على المصريين مع ما هم عليه من مشقة السفر فأطلق كذلك المصريون مدافعهم وتراسلت قنابلهم قال فخاف عند ذلك جماعة الترك وولى منهم فيلق الحرس الفرار فنادى عند ذلك النفير على المصريين بالزحف على مزار فالتصقوا بأسوارها قبل غروب الشمس ونزلوا على شاطئ الساجور بخيلهم وكراعهم فكبر أمرهم على حافظ باشا وقد شاهد من نظامهم وكثرة عددهم وعددهم ما أذهله

وأخافه فرسم إلى كبار عسكره بأن لا يبدءوا بالقتال وأن يتحينوا الفرص فلما رأى الأمير إبراهيم إحجامهم سار بعسكره وعبر الساجور ونزل على الضفة الثانية وجعل كل من الفريقين يتأهب للقتال وكانت العساكر السلطانية قد بلغت إلى هذا الحين زهاء ثلاثين ألفًا من المشاة وخمسة آلاف من الركبان وثلاثة آلاف من أصحاب المدافع عدا أرباب الخدم وكانت العساكر المصرية تربو على الأربعين ألفاً عدا أصحاب الخدمْ، قال بعض كُتاب الأخبار: وكانت هاته الجيوش التركية على كثرتها ينقصها شئ من الصفات العسكرية كالدربة على الحروب وحسن النظام والطاعة ونحو ذلك من الصفات المهيئة لأسباب الظفر والغلبة على العدو وكانت الوظائف العسكرية عندهم تعطى لغير مستحقيها من الأغرار الصنائع الذين لا خلاق لهم فكان حافظ باشا لذلك فى قلق دائم وكمد ملازم يتوقع الهزيمة فى كل لحظة تمر فى النهار.

(مطلب)

هزيمة المصريين ليلاً ثم انتصارهم على العدو

وما غربت شمس ذلك اليوم حتى نادى منادى الأمير إبراهيم فاصطفت جنوده فخطب فيهم وقال: قد علمتم أيها الجنود البواسل قدر ما أحرزتموه من الشرف والفخار لغاية الآن فلم يبق عليكم إلا أن تكللوا هذه الأعمال بإكليل حسن الختام واعلموا أنكم لن تنالوا ذلك إلا ببذل المهج فيكم إعزاز الوطن وبموتكم حياته وخير لنا أن نموت لحياة الوطن من أن نحيا لذله وشقائه فالله سبحانه حوالينا لا علينا وهو حسبنا ونعم النصير، فصاح عند ذلك جماعة الضباط الله الله ولا حول ولا قوة إلا بالله وباتوا ليلتهم تلك وكان حافظ باشا قد رأى أن الظفر كل الظفر فى كبس المصريين ليلاً وأخذهم على غرة فرسم إلى إسماعيل باشا أحد كبار العسكر بالإسراء نصف الليل بجماعة من أصحاب المدافع وأن ينزلوا على ميسرة المصريين حتى إذا صاروا على مقربة منهم أطلقوا عليهم المدافع وأصلوهم نارًا حامية قال الراوى: فلم يشعر المصريون إلا ونيران الترك قد أخذتهم من كل جانب وتراسلت قنابلهم على خيمتى الأمير إبراهيم وسليمان باشا الفرنسوى فهبوا من نومهم مذعورين وكادوا يتمزقون كل ممزق فنادوا فيهم بالنفير فنشطوا إلى الدفاع وقاتلوا حتى مطلع الفجر وظفروا بالعساكر السلطانية وردوهم على أعقابهم وقتلوا منهم جماعة ولما أصبحوا جعل الأمير إبراهيم يتفرس فى مواقف العساكر السلطانية فإذا هم على مرتفع من

الأرض تحيط به أخاديد كأنها خنادق طبيعية وكانت مواقف العساكر المصرية فى ذلك اليوم حرجة للغاية معرّضة لنيران مدافع العدوّ فكبر عليه هذا الأمر وأعظمه لا سيما وقد رأى من حركة العساكر السلطانية ومن معهم من الضباط الأجانب ما أدهشه وأخافه فرسم إلى سليمان باشا الفرنسوى بترتيب الصفوف وإحكام مواقع الوقوف ونادى فى العسكر بالتأهب للقتال والاستعداد للطعن والنزال فأنس من بعضهم شيئًا من العصيان فعجل يسوقهم إلى ساحة القتال فانتشبت الحرب بين الفريقين وارتفعت أصوات المدافع والتحمت الصفوف بالصفوف والتفت السيوف بالسيوف وزلزلت الأرض من هول ذلك اليوم العصيب وثبت الترك الثبات العجيب ونكلوا بالمصريين تنكيلاً حتى دحروهم وقهروهم فهربت منهم طائفة فى عرض الأرض وكادت تتم هزيمتهم وما زالوا بين أخذ ورد وطعن وصد حتى تمكنوا من الظفر على مقربة من نصيبين فتفرقت الجنود التركية أشتاتًا وفرّ حافظ باشا إلى مدينة مرعش فاستولى المصريون على ما فى معسكر الترك من متاع وكراع وكثير من الخيام ودواب الحمل وأسروا زهاء خمسة عشر ألفًا من الأتراك ووجد الأمير إبراهيم فى خيمة حافظ باشا سائر الكتب التى كانت تأتيه من السلطان بالإسراع فى الزحف والقتال وقطع شأفة المصريين.

(مطلب)

استمالة محمد علي باشا إلى أمير سفن حرب الدولة وأخذ سائر السفن غنيمة بلا حرب ولا قتال

وكان السلطان قد رسم أيضًا إلى أمير سفن حرب الدولة بالإقلاع إلى مدينة الإسكندرية ودكّ حصونها ومعاقلها بقنابل المدافع وعدم البراح من مياهها حتى يقبض على محمد على باشا ويأتى به إلى دار السلطنة مكبلاً بالأغلال والقيود فسارت السفن وألقت مرساها عند كريد أيامًا كثيرة ترددت فى خلالها الرسل بين أميرها ومحمد على باشا قيل فخدعه محمد على باشا واستماله وعاقده على تسليم سائر ما معه من سفن الحرب والشوانى بغير حرب ولا قتال فجاءت تلك السفن وألقت مرساها بمينا الإسكندرية أمام رأس التين ثم أنزلوا من بها من العساكر والأجناد إلى المدينة وقد سلموا جميع سلاحهم وآلات حربهم ولم يلبثوا إلا أيامًا قلائل حتى فرقوهم فى البلاد شرقًا وغربًا وأنزلوا أمير تلك السفن فى بيت محرم

بك ثم نقوله بعد أيام إلى دار مخصوصة وجرت عليه الأرزاق فى كل شهر وشاع الخبر بذلك بين سائر الدول فكان له دهشة عظيمة، قال بعض الكتاب: وكانت حجة أمير تلك السفن فى التسليم على هذه الصورة تأخير جماكى العسكر وقطع بعض المرتبات، ووصل المسيو كاليه مبعوث دولة الفرنسيس الذى تقدم الكلام عليه ومعه مرسوم محمد على باشا إلى حلب فلاقاه واليها وأعلمه بخبر تلك الموقعة وما جرى فيها على الترك فسار مجداً يريد لقاء الأمير إبراهيم قبل أن يتحرك حركة أخرى وقد كان الأمير إبراهيم بعد أن تم له النصر وحقق الله له الغلبة والظفر رسم إلى معجون بك بأن يسير بمن معه من العربان إلى غزنة ويقاتل من بها ويفتحها والى عثمان بك وأحمد بك المنكلى وسليمان بك بالاستيلاء على كل ما يمكن الاستيلاء عليه من بلاد آسية الصغرى وسار هو فى طائفة أخرى من العساكر والأجناد فى سادس عشر ربيع الثانى يريد عنتاب لإخضاعها وإرجاعها إلى الطاعة ونزل عليها بخيله ورجله فخرج إليه كبارها وأصحاب الكلمة فيها يرجون عفوه وصفحه عما فات فعفا عنهم ولكنه ضرب عليهم الجزية مضاعفة فكانت نارها أشد عليهم من نار الحرب ولما كانت ليلة حادى عشر الشهر المذكور وصل المسيو كاليه إلى معسكر الأمير إبراهيم فأحسن الأمير لقاءه وبالغ فى إكرامه فبات ليلته وعند الصباح سلم إلى الأمير إبراهيم كتاب أبيه ثم تقدم إليه فى الكف عن القتال وترك الأمر حتى يتم تقرير قاعدة الصلح فامتنع الأمير إبراهيم من ذلك وقال لابد من القتال حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً فألح عليه المسيو كاليه وجعل يهوّن عليه الأمر وهو لا يزداد إلا عناداً ونفوراً واختلف الكتاب فى الذى دفع بالأمير إبراهيم إلى عدم الإذعان والرضا بمطالب المسيو كاليه فمن قائل إن ذلك كان بإيعاز من أبيه على يد سامى بك كاتب سره ومن قائل غير ذلك وصمم الأمير إبراهيم على الزحف والقتال ونادى فى عسكره بحضرة المسيو كاليه بالمسير وعبور جبال الطورس واصلاء نار الحرب ما استطاعوا إليها سبيلاً فمانعه المسيو كاليه وما زال حتى رسم إلى كبار جنده بأن لا يتجاوزوا سلسلة تلك الجبال ولكنه مع ذلك لم ينكف عن تدويخ وإرجاع سائر من خرج عن طاعته ولم يتعرض لفتح شئ من البلاد الثابتة على طاعة السلطان وسير إلى أبيه كتاباً يقول: جاءنى أمركم الكريم على يد المسيو كاليه أحد كبار ديوان السياسة الإفرنسية والذى أحيطكم به علماً أنه لما استولى حافظ باشا مقدم العساكر السلطانية على مدينة عنتاب قد صممت بعد الاتكال على الله سبحانه وتعالى على

إرجاعها وسرت بجيوشنا المظفرة إلى مواقع العدو فوافانى أمركم الكريم بالكف عن القتال وترك الحرب والنزال إلى حين ولما كان الصعيد الذى قد نزلناه ليس فيه من المؤن والزاد ما يكفى بحاجة العسكر ولا من الكلا ما يفى بمؤنة دواب الحمل وخيول الفرسان وكان بقاؤنا فيه أشد خطرًا علينا من لقاء العدوّ وكان أقرب بلد من ذلك الصعيد هو حلب الشهباء فقد سرنا إليه فشاهدنا من تأهب العدوّ واستعداده لصدنا وإصلائنا نارًا حامية ما اضطرنا إلى تركه والمسير نحو عنتاب ومرعش وهذا ما دفع بنا إلى التقدم إلى الأمام والسلام ورحمة الله وبركاته، وأما المسيو فوتز رسول دولة الفرنسيس إلى دار السلطنة فإنه لم يفلح فى رسالته ولم يتمكن من إقناع السلطان بالعدول عن الحرب وفتح أبواب الصلح وأقام أيامًا لم ينل فيها مأربًا فاستعان باللورد بونسنبى سفير الإنجليز بدار السلطنة فلم يعنه واتهم السلطان دولة الفرنسيس بالتحزب مع محمد على باشا والعمل على إرغام السلطان وفعل كل ما يحط بقدر الدولة ويذهب بكرامتها.

(مطلب)

وقوع رشيد باشا صدر الدولة أسيرًا في يد الأمير إبراهيم وتمزيق شمل عسكره وما كان من وراء ذلك

واشتد الضيق بالأمير إبراهيم وعسكره وأحدقت بهم العساكر السلطانية من كل صوب وحدب فخاف شر العاقبة سيما وقد كاد يظهر عجزه عن الحركة واستضعفه أهل الأطراف فجعلوا يتخطفون مؤخرة جنده فساق بعسكره يريد التغلغل فى قلب الأناضول واخترق جبال الطورس واحتل إقليم أطنة وما وراءه إلى مدينة قونية ووردت الأخبار بذلك إلى السلطان فكاد يسقط فى يده وكبر كيده ورسم بتسيير رشيد باشا صدر الدولة فى عسكر لرد الأمير إبراهيم فسار رشيد باشا فى عسكره يريد اللحاق بقونية والدفاع عنها وجاء الخبر بذلك إلى الأمير إبراهيم فجمع جيشًا عظيمًا من الشام والروم وعجل بالمسير يريد القسطنطينية لملاقاة رشيد باشا فالتقى الجمعان عند قونية واشتبك القتال بينهما وتراسلت القنابل واشتدت النيران وعلت أصوات المدافع وتكاثف الدخان فلم تكن إلا فترة بين الزوال والغروب حتى تمت هزيمة العساكر السلطانية وتمزقت كل ممزق ووقع رشيد باشا أسيرًا فى يدى الأمير إبراهيم وكذلك أسر جماعة كثيره من مقدمى العساكر التركية فكانت هذه الوقعة من

أتعس الوقائع وأشدها هولاً على السلطان، واختلف الكُتاب وأصحاب التاريخ يومئذ فى كيفية سقوط رشيد باشا فى قبضة الأمير إبراهيم فمن قائل أن ذلك كان باتفاق بينهما ومن قائل بل كان لحسن تدبير حركة الجنود المصرية فى ذلك اليوم وحصانة موقفهم ومن قائل غير ذلك وطار الخبر بما جرى على رشيد باشا وعسكره فكان له أشد الوقع فى النفوس وسار الأمير إبراهيم بخيله ورجله يريد القسطنطينية فأرسل السلطان إلى قيصر الروس يطلب منه إرسال سفينة حربية وخمسة آلاف من المقاتلين لرد إبراهيم وإيقافه عند حده وشاع الخبر بذلك بين رجال السلطنة فقبحوا هذا الرأى وقالوا لا تحل الاستعانة على قتال المسلمين بالعساكر النصرانية وورد الخبر إلى محمد على باشا فجعل يبالغ فى الشكوى ويعظم فى البلوى ويكاتب الدول فى هذا الأمر وظهر على أثر ذلك حركة فى دار السلطنة وتكلم الناس كثيراً فخاف السلطان شر العاقبة وعاد إلى مخابرة محمد على باشا فى عقد الصلح وسير فى الحال خليل باشا قبطان باشا قبلاً إلى مصر وفوّض إليه الاتفاق على ما فيه المصلحة وكتب إلى سفير الروس يعلمه بأن الحالة الآن لا تستلزم طلب المساعدة وأخذ يعمل الجهد على إرجاع الجنرال موراويف الروسي عن عزم الذهاب إلى ديار مصر والالتقاء بمحمد على باشا فلم يفلح ودخل موراويف إلى الإسكندرية كإشارة قيصر الروس فعمد السلطان حينئذ إلى ملاطفة دولة الفرنسيس واستمالها إلى التحرير أولاً إلى محمد على باشا بوجوب المحافظة على مبادئ الصلح وأسباب السلم التى قد تعهد بالمحافظة عليها وثانيًا إلى الأمير إبراهيم بعدم مبارحة موقفه والكف عن التغلغل بجيوشه في جوف البلاد وقد كان الأمير إبراهيم إلى ذلك الحين لم يكتم عن الناس خطة تسيير جنوده ولم يخف عن الملأ أنه سائر نحو قوطاهيه وبروسا ومنها إلى أسقودار ليجمع هناك مجلسًا من كبار علماء الإسلام ليحكموا بينه وبين سلطانه فكان ذلك موجبًا لقلق السلطان وعدوله عن الاستعانة بدولة الفرنسيس ورجوعه إلى طلب معاونة دولة الروس فسير فى الحال كتبه إلى القيصر بأن يمده عند الطلب بعشرين ألفًا من الجنود البرية وخمسة آلاف من العساكر البحرية وعمارة ساوتابول البحرية فعلم سفير الفرنسيس بذلك فكتب إلى الأمير إبراهيم فى الحال يقول إياك ومبارحة قونية واحذر شر العاقبة فقد بلغ القنوط من سلطانك مبلغه وجاء الخبر بما فعله السلطان إلى محمد على باشا فكتب إلى ولده يقول: إذا أتاك كتابى وأنت بأية أرض فلا تبرحها ولا تحرّك لك قدمًا حتى يأتيك آخر، وكان الأمير إبراهيم قد بلغ بجيوشه مدينة

قوطاهيه وأرسل محمد على باشا إلى السلطان والى دولة الفرنسيس يخبرهما بخبر ما كتبه إلى ولده الأمير إبراهيم ويقول الباب العالى إن الحامل لولدى على الانحدار إلى قوطاهيه إنما هى حاجته إلى حطب الوقود وغيره من احتياجات العسكر التى لم توجد فى قونية وما زال الحال بين أخذ ورد وخوف ورجاء حتى عاد سفير الروس الذى كان ذهب للالتقاء بمحمد على باشا إلى دار السلطنة يحمل بشائر الطمأنينة والسلام حيث أبلغ الباب العالى أن محمد على باشا صرح بخضوعه وطاعته لسلطانه وأنه عبد لمولاه وقد عقد النية عقدًا وثيقًا على فض أسباب الخلاف والاتفاق مع خليل باشا على أمر الصلح بتاتًا، قال بعض الكُتاب: ولم يستعمل الجنرال موراويف فى كلامه مع محمد على باشا شيئًا من الشدة التى أقسم أنه يستعملها معه ولم يسمعه شيئًا من هذر الكلام كما كانت تقتضيه رسالته ولكنه كان إذا اجتمع به لاطفه وهون عليه أمر الصلح وحببه إليه ويقول له إن مولاى القيصر يعلم ما أنت عليه من شرف المبدأ ونبالة المقصد ومكارم الأخلاق فلا تكن سببًا فى زلزلة موقف سلطانك ولا تعمل على فساد ملكه ولا تحدث فى الإسلام حدثًا قل أن تحمد عاقبته واتق الله فى نفسك وولدك وعسكرك، ووصلت كتب محمد على باشا إلى ولده بالكف عن القتال والوقوف عند حد السكون حتى يتم الأمر على ما تشاؤه الأقدار، وما شاعت الأنباء بذلك حتى ورد على قنصل جنرال النمسا كتاب من بابا روميه يسأله الوساطة بين محمد على باشا وسلطانه وكفه عن إراقة الدماء هدراً وكأنه لم يعلم بخبر ما وقع الاتفاق عليه بين محمد علي باشا والجنرال موراويف مندوب الروس فأرسل القنصل إلى محمد على باشا خطابًا فى المعنى محشواً بالتهديد والوعيد فلم يلتفت محمد على باشا إليه ولم يفلح القنصل فى شئ ألبتة.

(مطلب)

قدوم مندوب الباب العالي إلى مصر بفرمان العفو عن محمد علي باشا وولده

ووصل خليل باشا مندوب الباب العالى إلى مصر يحمل الفرمان السلطانى بالعفو عن محمد على باشا وشروط الصلح على قاعدة الامتيازات التى أعطيت إلى محمد على باشا وهى ولاية عكا وطرابلس والشام ونابلس وأراضى بيت المقدس فلاقاه محمد على باشا وسائر رجال حكومته بالحفاوة والتعظيم وأنزله منزلاً رحبًا

وقدّم له التقادم من التحف والأعلاق النفيسة ورتب له المرتبات من المأكول والمشروب ثم رسم بقراءة الفرمان فلم يعجبه ما جاء فيه من الامتيازات حيث لم تكن شاملة لسائر الشامات ولا لولاية آطنة فكلم خليل باشا فى ذلك وطال بينهما الأخذ والرد أيامًا حتى تم الاتفاق على نوال محمد على باشا سائر ما طلبه وسير خليل باشا الكتب بما وقع الاتفاق عليه إلى دار السلطنة، قال بعض الكُتاب ومع ذلك فقد كان السلطان فى ريب من العاقبة فلم يصرف وجهه عن طلب معاونة دولة الروس ولم ينكف عن مكالمة وكيلها فى ذلك من حين إلى حين، قال: وكان الحامل له على ذلك كثرة إرجاف الأمير إبراهيم وإرساله البعوث إلى بلاد آسيا لدس الدسائس وبث الفتن وتحريض الناس على شق عصا طاعة السلطان ولم يمض إلا القليل من الأيام حتى عاد الصدر الأعظم وكتب إلى الدول الكبرى يقول إن أمير المؤمنين جاهر بأنه لم يبق فى إمكانه العدول عن طلب المدد من قيصر الروس والاستنجاد بعسكره على إخراج الأمير إبراهيم وعسكره من جميع أملاك الدولة فى الأقرب العاجل واتفق أن وصل فى عشية ذلك اليوم إلى دار السلطنة مندوب دولة الفرنسيس وقد علم بما سير به الصدر الأعظم من الكتب إلى الدول فاجتمع به وخاطبه فى الأمر طويلاً وحبب إليه أن يكتب إلى دولة الروس بعدم الحاجة إلى إرسال سفن الحرب بعد أن أسفرت مأمورية خليل باشا عن طاعة محمد على باشا ورجوعه إلى مجاملة سلطانه فوعده الصدر الأعظم وعدًا جميلاً وقال لابد من اجتماع مجلس شورى الدولة وطرح هذا الأمر عليه.

(مطلب)

حصول العمارة الروسية إلى البوسفور مددًا إلى السلطان

وبينما كان مندوب الفرنسيس يراقب ما سيكون من وراء اجتماع المجلس إذ وصلت العمارة الروسية تمخر فى عباب البحار وألقت مرساها أمام البوسفور فكانت عشر قطع كبار من الطراز الأول وكانت بعض سفن الحرب الإفرنسية راسية هناك كطلب سفير الفرنسيس فلما رأى ربانها تلك السفن والشوانى الروسية هاله أمر حضورها وسير فى الحال إلى صدر الدولة يقول نظرًا للانقلاب السريع الذى طرأ فى هذه الآونة وتغيير الأحوال عن سابق مجراها صار يعز علىّ البقاء بما معى من السفن إن لم تقلع السفن الروسية وترجع من حيث أتت وأكثرت رسله من التردد على

الباب العالى فى طلب الجواب فكتب إليه السلطان يقول: كتابى إليك أعزك الله وعوامل الاضطراب والقلق المستحوذين على مملكتى تشخص أمام عينى ذلك الودّ القديم الذى يربط بلادى بمملكة الفرنسيس وتدفع بى إلى طلب المعونة والمدد من تلك الدولة القوية العظيمة دولة الفرنسيس الفخيمة فإن أنت هداك الله تعهدت باسم وشرف مملكة الفرنسيس بأن يكون عقد رباط الصلح بينى وبين متبوعى محمد على على قاعدة الشروط التى بلغها إليه خليل باشا عجلت بإرجاع العساكر الروسية ورد سفنها الحربية والسلام، فأجابه ربان السفن الإفرنسية إلى ذلك فلم يسع السلطان يومئذ إلا معاودة ربان سفن الحرب الروسية وأمير جيوشها البرية بالرجوع فما أقلعت تلك السفن حتى سير أمير سفن حرب الفرنسيس رسولين على عجل أحدهما إلى محمد على باشا ليقهره على إرسال كتبه إلى كبار عسكره بسرعة الكف عن الحرب وثانيهما إلى الأمير إبراهيم ليلزمه بسرعة العودة إلى مصر والكف عن كل عداء مع ولاة وعمال السلطان وكتب كبير سياسة الفرنسيس أيضًا إلى قنصلهم بمصر يقول أن شدّد على محمد باشا بالإذعان وقبول شروط الصلح التى وصلت إليه على يدى خليل باشا فإن أطاع وأذعن فبها وإلا فلا مندوحة عن إكراهه.

قال كبير السياسة المذكور فى كتاب بعث به إلى وكلاء دولته لدى سائر الدول بعد كلام طويل: ومن تصفح أدوار هذه الأزمة، يعنى بها الأزمة القائمة ما بين محمد على باشا وسلطانه، مع عدم التحيز حكم بنزاهة دولة الفرنسيس عن الغرض وطهارة ذمتها من أدران التشيع وتحقق نبالة مقصدها فى سائر أدوار هذه الأزمة التى اختلط فيها الحابل بالنابل وكادت تذهب بالشرق الأدنى إلى مهواة الدمار قال ولما كانت دولة الفرنسيس قد أخذت على عهدتها إصلاح ذات البين والتوفيق بين مصلحة الطرفين لم يبق فى وسعها العدول ولا ترك الأمور هدفًا للحوادث ولا غرضًا للغاية الطامحة ولو تطوّح بها الأمر إلى رد القوة بالقوة والسيف بالسيف فإنها لا تلوى عنان الجهد ولا تتقهقر أمام هاتيك العواقب التى قد حسبت لها ألف حساب اهـ.

(مطلب)

تعاقد الحاج محمد عاكف باشا باشكاتب المابين مع سفير الفرنسيس على كيفية إرجاع محمد علي باشا إلى طاعة سلطانه

ورسم السلطان بعد ذلك إلى الحاج محمد عاكف باشا باشكاتب ما بينه بالتعاقد مع سفير دولة الفرنسيس على إرجاع محمد على باشا إلى طاعة سلطانه فتعاقدا ثانى شوّال من السنة على شروط حاصل ما فيها قبول الباب العالى تداخل دولة الفرنسيس بواسطة سفيرها البارون روفارن فى أمر الصلح بشرط أنها تضمن للباب العالى قبول محمد على باشا بالامتيازات التى منحه إياها السلطان بالفرمان المرسل على يدى خليل باشا مشير الطبخانة العامرة وبشرط رجوع محمد على باشا إلى الطاعة والإخلاص لمتبوعه وأن هذه الامتيازات لا تتعدى ولايته على عكا وطرابلس والشام وبيت المقدس ونابلس وأن يتكفل السفير المذكور باسم امبراطور الفرنسيس بعقد رباط الصلح على هذه القاعدة ويتعهد الباب العالى بأن يقرر ويعلن عدوله عن قبول أو طلب كل مدد أجنبىّ أو مساعدة مادية يراد بها الإضرار بمحمد على باشا، وشاع الخبر بما وقع الاتفاق عليه ما بين الحاج محمد عاكف باشا وسفير الفرنسيس وعزم دولة الفرنسيس على قهر محمد على باشا وإرغامه على طاعة سلطانه وتكلم الناس فى الأمر كثيرًا وكتب سفير الإنجليز إلى الأمير إبراهيم يقول، كتابى إليك وعندى العلم اليقين بما رضيه سلطانك من تقرر قاعدة الصلح مع خليل باشا مشير الطوبخانة السلطانية فامتلأ قلبى فرحًا وتحققت آمالى بأنك ستنكف عن تلك الحرب المشؤمة التى كادت تدك معالم المدينة وأنك ترفع سيفك إن شاء الله عن هامة تلك الأرجاء التى قد تولاها الخراب ونزل بها البلاء من كل حدب واعلم أن سلطانك قد منح أباك ولاية الشامات وحلب ودمشق وقد سير إليه فرمان الرضا وفرمان الولاية على يدى رشيد بك قابوجى السلطنة وأمره بالكف عن القتال وأن يكتب إليك بذلك فى الأقرب العاجل وقد ورد الأمر من لدن إمبراطور الفرنسيس إلى سفيره لدى الباب العالى بالمسير مع رشيد بك إلى الإسكندرية ليشرح لأبيك وخامة العاقبة إن هو أغضب دولة الفرنسيس برفض الصلح على قاعدة ما فى الفرمان أما دولة الإنجليز فقد أضحت أميالها وأغراضها واضحة معلومة لأبيك ولا أشك فى أنه لا

يجهل التأثير الذى يحصل للحكومة الإنجليزية إن هو امتنع من الصلح كما أنه عالم بالعواقب التى تكون من وراء هذا الرفض وإنى لا أخالك أيها الأمير ممن يأبى الكرامة فلا تمتنع من الصلح الآن واجعل خاتمة أعمالك السلامة والسلام.

(مطلب)

صدور فرمان السلطان بالعفو عن محمد علي باشا ولده وتوجيه ما قد وجهه إليهما من الرتب وألقاب الشرف

وطير السلطان الخبر إلى الآفاق بالعفو عن محمد على باشا وولده الأمير إبراهيم وبتوجيه ما قد وجهه إليهما من الرتب وألقاب الشرف وأصدر فرمانًا يقول فيه: حيث إن محمد على باشا وولده قد عادا إلى طاعة سلطانهما وأبديا من الإخلاص مالم يبق معه موضع للريب فى حسن المآل إن شاء الله تعالى وقد طلبا العفو عما فات فقد اقتضت إرادتنا السلطانية ومراحمنا الشاهانية العفو عنهما وأصدرنا فرماننا هذا السامى بتأييد ولاية أحدهما محمد على باشا على كريد والديار المصرية كالتماسه وأحسنا إليه أيضًا بالولاية على دمشق وطرابلس وصيدا وصفت وحلب وبيت المقدس ونابلس مع إمارة الحج ونيابة أشقودره وولينا ولده رياسة الحرمين الشريفين مع صنجقية جده وقارنًا التماسه بالإحسان عليه أيضًا بولاية أطنة وملحقاتها وعهدنا إليه جباية خراجها الآن وبناء على ما طبعنا عليه من الرفق والحنان وما خصنا الله سبحانه وتعالى به من الميل إلى إسداء المعروف والإحسان نعلن أصحاب الكلمة وأولى الشأن من العمال والمأمورين ببلاد الأناضول أن يغضوا الطرف عما وقع من سكان تلك العمالات من الخروج وشق عصا الطاعة وأن لا يتعرضوا لأحد لا فى روحه ولا فى ماله ولا فى عياله وأن يعلموا الناس كافة بما اقتضته إرادتنا الشاهانية وسمحت به تعطفاتنا الخاقانية من العفو عن الجميع والصفح عما وقع من الرفيع والوضيع وأن يكونوا من الآن ساكنى الخواطر قريرى النواظر وعلى سائر الولاة والحكام حض الرعية على الالتفات إلى ما فيه خيرهم وإصلاحهم واستمرار الدعاء بتأييد عرشنا بالنصر الدائم والظفر الملازم ولكى يكون فى علم سائر الولاة والحكام وجميع صنوف الرعية من مسيحيين وإسلام ما شملهم من العفو العام والرضا التام قد أصدرنا هذه الإرادة متوّجة بطغرائنا ناطقة بما نحن عليه من حسن النية وسلامة الطوية كى يبسط الكل أكف الضراعة والإبتهال إلى المولى ذى الجلال والإكرام بدوام دولتنا وتأييد سدّتنا وإعزاز شوكتنا بمنه وكرمه اهـ.

فلما شاع خبر هذا الفرمان وذاع رفع الأمير إبراهيم إلى الباب العالى عريضة ضمنها أبلغ ما يكون من عبارات الشكران والامتنان إلى أن قال: ويعلم مولاى أدام الله سلطانه وحرس ملكه وأيد بالنصر أركانه أن العبد ما برح على ما يعلمه فيه مولاه من الطاعة والولاء لسدتكم العلية لا سيما وقد قلدنى المولى أدام الله تعالى وجوده منة العفو وولانى تفضلاً منه وتكرمًا حكم ولاية أطنة وجباية خراجها فلم يبق فى النفس بعد ذلك شئ والله سبحانه على ما أقول شهيد وها أنا العبد باسط أكفُ الضراعة والابتهال بأن يديم أيام ملككم غرّة فى جبين الدهر وليعلم مولاى أنى قد وطنت النفس على خدمة الأعتاب الشريفة بما فى الطاقة والله خير مسئول يوفقنى إلى طاعتكم بمنه وكرمه إنه السميع المجيب، قال بعض الكُتاب: ومع هذا فإنه لم يمض القليل من الأيام حتى جاءت الأخبار إلى دار السلطنة تترى بزحف الأمير إبراهيم بجيوشه وآلات حربه إلى قلب آسية وأنه ترك قونية وهو على قدم المسير إلى بروصاء فاندهش السلطان من سماع هذه الأنباء وظنها مبالغة ووقيعة فلم تكن إلا أيام حتى ثبتت صحتها وجاءت الكتب بذلك إلى الباب العالى فسير السلطان فى الحال إلى سفير الفرنسيس من يكلمه فى أمر ذلك فاندهش السفير وكتب إلى الأمير إبراهيم يقبح ما فعله ويحذره شر العاقبة ويمنعه من التغلغل فى داخلية البلاد فرد عليه الأمير إبراهيم يقول إن الحاجة إلى الماء والميرة وحطب الوقود وعدم وجود شئ من ذلك ألبتة بقونية واتقاء برد الشتاء وتفشى الأمراض فى الجنود المصرية كل ذلك كان الحامل لنا على المسير إلى بروصاء وأنا مازلنا على قدم الطاعة والولاء لأمير المؤمنين وواقفين عند حد ما رسمه لنا محمد على باشا فلا تصغوا إلى وشاية الواشين ولا تلتفتوا إلى غواية الغاوين وأعرضوا عن كل قول هراء فإن العدوّ ما برح يدس السم فى الدسم ويتمنى لو أن الدهر يرمى كياننا بالعدم فالله والسلام.

(مطلب)

اشتداد علة السلطان وما كان من وراء ذلك

واشتدت فى هذه الأثناء علة السلطان محمود وكبر مرضه واستعصى برؤه فاضطربت أحوال السلطنة أو كادت وكثر تحدث الناس فى أسباب علته فمن قائل أنها ذات الجنب ومن قائل أنها ضرب من الهذيان والهزؤ الدائم ومن قائل أنه السل وكانت أخباره كل يوم فى شأن والباب العالى يكثر من نشر بشائر سلامته وعافيته

والناس لا يصدقون ذلك فانعقد مجلس فى السراى السلطانية من خسرو باشا وخليل باشا وسعيد باشا وعزت بك وضيا بك وجعلوا يتشاورون فيما يجب عمله إذا جاءت منية السلطان على عجل وكانت رسل والدة السلطان وولى عهده يغدون ويروحون إلى مقر السلطان وبعد أخذ وردّ بين أصحاب المجلس وقع الاتفاق على أن يكتبوا إلى قبطان باشا سفن الحرب بأن لا يبرح بسفنه كلها من البوسفور والى حافظ باشا مقدم العساكر القائمة بقتال الأمير إبراهيم بإيقاف رحى الحرب حتى تأتيهما الأخبار بما سيكون فكاد حافظ باشا يسقط فى يده وطارت الأخبار بما أصبح فيه السلطان من الخطر وشدد الأطباء فى عدم دخول أحد عليه فلما كان يوم الاثنين تاسع عشر ربيع الأول وقيل سادس عشريه سنة أربع وخمسين ومائتين وألف هجرية أى سنة تسع وثلاثين وثمانمائة وألف ميلادية مات وحيدًا فى مخدعه فكانت سلطنته زهاء إحدى وثلاثين سنة وعمره أربعا وخمسين سنة على المشهور، قال بعض الكُتّاب: ومن الغريب أن اليوم الذى مات فيه يوافق اليوم الذى تولى فيه السلطنة قال وكان ملكًا مهيبًا مقدامًا عالى الهمة واسع المعرفة كبير الدراية بالأمور صبورًا على الشدائد محبًا للرعية ميالاً إلى العمارية عادلاً بعيدًا عن العسف والجور ولكنه كان قليل الحظ حسن الخط غير موفق كأن الدهر عدوه مغلوبًا على أمره بحكم الأيام فقد خرج فى أيامه كثير من الإيالات ما بين حجازية وشامية ورومية وهو الذى أباد طوائف الانكشارية والأصبهانية ونظم عسكره على نظام الفرنسيس وأنشأ الكثير من سفن الحرب ومعدات القتال وأفرغ الجهد فى إصلاح الأمور ومحو آثار الفتن الداخلية فلم يوفق إلى ذلك لسوء حظه ونكد طالعه والله سبحانه يؤتى النصر لمن يشاء من عباده.

ومات فى أيام السلطان محمود يوحنا بطرك المتأصلين بعد أن أقام ستًا وعشرين سنة ولم يقع له من الحوادث الأجنبية شئ يذكر ولكن قامت عليه النصارى لأسباب نقموها عليه فهرب واختفى مدة ثم استقدموه بعد أن تاب واستغفر ولبث فى منصب البطريكية إلى أن مات فأقاموا بعده مرقس وهو الثامن بعد المائة واسمه يوحنا وكان راهبًا بدير أنطونيوس بالجبل الشرقى وفى أيامه نقلت دار البطريكية من حارة الروم عند باب زويلة بالقاهرة إلى الأزبكية بالدرب المعروف بالدرب الواسع فصارت من حينئذ مقرًا لبطاركة المتأصلين إلى يومنا الذى نحن فيه ثم مات بعد أن أقام ثلاث عشرة سنة فأقاموا بعده بطرس وهو التاسع بعد المائة واسمه مرقوريوس وكان راهبًا بدير أنطونيوس وأصله من بلدة جاولى بصعيد مصر ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله.

الفصل الثانى والعشرون

(فى سلطنة السلطان عبدالمجيد خان

ابن السلطان محمود خان)

ثم قام بالأمر بعد السلطان محمود خان ولده السلطان عبدالمجيد بويع له بالملك يوم بموت أبيه سادس عشرى ربيع الأول سنة أربع وخمسين ومائتين وألف هجرية أى سنة تسع وثلاثين وثمانمائة وألف ميلادية تولاها والفتنة قائمة ونار الحرب متأججة والأمور فى خبال ونكال ودول أوروبا فى إقدام وإحجام يوم معه ويوم عليه وكان قيصر الروس لا ينكف عن طلب العمل بمعاهدة خونكار اسكله سى التى تعاقد فيها مع السلطان محمود على الذب والدفاع عن جميع بلاد الدولة واحتلال كل ما يمكن احتلاله منها عند الضرورة وقد تزايد طلبه إلى ذلك بعد استسلام جميع سفن الحرب السلطانية إلى محمد على باشا وفناء أكثر العساكر العثمانية فى الحرب القائمة مع الخوارج وكانت دولتا الفرنسيس والإنجليز تكرهان ذلك من قيصر الروس ولا ترغبان فى أن يكون له عليهما سابقة ولا كلمة وتخشيان أن يكون من وراء تلك المعاهدة احتلال الروس لمدينة القسطنطينية تكون الطامة الكبرى على سائر أوروبا فجعل سفراء الفرنسيس والإنجليز والنمسا والبروسيا يعملون على ما فيه استمالة دولة الروس إلى جانبهم وما زالوا حتى أوعز القيصر إلى سفيره بدار السلطنة بذلك فاجتمعوا بخسرو باشا صدر الدولة يومئذ وتناجوا فيما يصح جعله قاعدة للتعاقد مع محمد على باشا والكف عن القتال وأشار سفير النمسا والإنجليز برد جميع ما فتحه محمد على باشا من البلاد الشامية إلى الدولة وأن لا يعطى إليه إلا ديار مصر فقط فعارضهما فى ذلك سفيرا الفرنسيس والروس وقالا لا بل يعطى إليه ملك مصر وإيالات الشام الأربع وطال الجدال بينهم وما زالوا فى أخذ وردّ حتى وافق سفير البروسيا سفيرى النمسا والإنجليز وقال بقولهما فسقط رأى سفيرى الفرنسيس والروس وتقررت القاعدة بينهم على أن لا يعطى إلى محمد على باشا سوى ديار مصر وأن يؤخذ منه جميع ما افتتحه من بلاد الدولة ثم أشار سفير النمسا بعقد مؤتمر دولىّ إما فى عاصمة النمسا وإما فى عاصمة الإنجليز لإتمام ما بقى متعلقًا بمصر فلم

تصادف إشارته قبولاً وعارضه سفيرا الفرنسيس والإنجليز وكذلك سفير الروس وقال إن مولاى القيصر لا يقبل أن يكون لمؤتمر دولى حق تجديد علاقة مملكته السياسية مع دار السلطنة العثمانية وأنه لا يتنازل عن العمل بما أباحته معاهدة خونكار اسلكه سى من الذب والدفاع عن جميع أملاك الدولة العثمانية بما أعده القيصر من الجيوش البرية والسفن الحربية واحتلال معظم إيالات الدولة إذا لم ينكف الأمير إبراهيم عن القتال والتغلغل فى قلب بلاد الدولة فهال سفيرى الفرنسيس والإنجليز هذا الطلب وخافا شر عاقبته وطلبا من صدر الدولة أن يجيز لمراكب الحرب الإنجليزية والفرنسوية العبور من بوغاز الدردنيل لدفع غارات الروس والمصريين عن بلاد الدولة عند الحاجة وسيرت دولة الإنجليز إلى القسطنطينية إحدى مراكب حربها المسماة ستويفورد للمخابرة مع السلطان فى ذلك وكثر القيل والقال وساء بقية السفراء ما فعله سفير الإنجليز وتجرد سفير الروس إلى المقاومة والإصرار على ما طلبه وسير إلى صدر الدولة يقول إن أباح السلطان لمراكب الإنجليز والفرنسيس العبور من الدردنيل قطعت كل علاقة بين حكومتى ودار السلطنة وخرجت من القسطنطينية بلا مهل، وكانت مراكب الإنجليز والفرنسيس على مقربة من البوغاز تنتظر ما يرد إليها من الأخبار، وأرسلت دولة النمسا إلى عاصمتى الفرنسيس والإنجليز تقول إن ما فعله سفيراكما من الشدة والعنت لا يكون من ورائه إلا فصم عروة الاتحاد وقيام الحرب على قدم وساق ولذلك فهى تصمم على الانسحاب من دائرة ذلك التحالف إذا بقى الحال هكذا وتكون مطلقة اليدين فيما تنوى فعله، وكان السلطان ميالاً إلى إجابة طلب مبعوث الإنجليز فكان خسرو باشا يحبب إليه ذلك فلما اشتد الخصام بين مندوبى الدول وكبرت الفتنة خشى السلطان العاقبة فلم يجب مطالب مبعوث الإنجليز وأوعز إلى الصدر الأعظم بأن يخابر الدولتين فى أمر إبعاد مراكبهما عن الدردنيل ففعل ففشلوا جميعًا وتفرقت كلمتهم وذهب كل إلى مذهب وتعطلت المخابرة أيامًا كثيرة.

(مطلب)

عزم دولة الإنجليز على إكراه محمد علي باشا على رد جميع ما أخذه، واشتداد الخلاف بينها وبين دولة الفرنسيس بسبب ذلك

فلما كان شهر شوال سنة خمس وخمسين ومائتين وألف هجرية سيرت دولة الإنجليز رسولاً من قبلها اسمه اللورد بونسنبى إلى دار السلطنة العثمانية يقول

للسلطان: إن دولة الإنجليز متأهبة لأن تكره محمد علي باشا على رد جميع ما اغتصبه من المراكب العثمانية وترغمه إلى الطاعة والإخلاد إلى جميع مطالب السلطان بشرط أن تدخل مراكب الحرب الإنجليزية إلى بوغاز القسطنطينية لدفع الروس إذا اعتدوا على بلاد الدولة فساء ذلك دولة الفرنسيس واستعظمته وأوعزت إلى أمير مراكب حربها الراسية فى بحر الروم بأن لا يعاون مراكب الإنجليز على قتال محمد على باشا ولا يشترك معها فى أى عمل كان وأن يكون دائمًا على قدم التأهب والاستعداد وطيروا الأخبار بذلك إلى الآفاق فعم الخوف وظن الناس أن الحرب بين الدولتين الإنجليزية والإفرنسية صارت على قاب قوسين أو أدنى وأخذت بقية الدول حذرها وكتبت دولة النمسا تقول إنها تأبى التداخل فى هذه المسألة بعد أن خابت سعيًا فى عقد المؤتمر الذى أشارت به وجاهرت دولة الفرنسيس بميلها إلى الذب عن محمد على باشا وتعضيده فى جميع مطالبه وقالت لابد من إعطائه ولايتى مصر والشام له ولذريته من بعده وإقليمى أطنه وطرسوس له مدة حياته فخالفتها فى ذلك دولة الإنجليز وقالت لا يعطى إليه إلا ولاية مصر فقط وأصرت على ذلك فلما رأت من دولة الفرنسيس قرما عنيدا عادت إلى مسايرتها وأشارت بإعطائه أيضاً النصف القبلي من بلاد الشام مدة حياته واشترطت أن لا تكون مدينة عكا داخلة في ذلك النصف فأبت دولة فرنسا عليها ذلك وألحت بقبول مطالبها إذ المصلحة فيها للطرفين وطال الأخذ والرد بين الدولتين أيامًا فكان لا ينكف فيها رسول الإنجليز عن استمالة سفراء الدول الأخرى إلى الأخذ بمشورته حتى ظفر وفاز وكتبت دولتا النمسا والبروسيا تقولان إنهما توافقان على ما أشار به رسول الإنجليز وتعضدان مطالبه فى السر والجهر.

وكانت دولة الروس إلى هذا الحين تراقب الفرص فلما تحققت من اشتداد الفتنة بين دولتى الإنجليز والفرنسيس واختلاف الغاية سيرت إلى عاصمة الإنجليز رسولاً اسمه البارون دى برونو يقول إن دولة الروس تترك للإنجليز حرية العمل فى مصر ولا تأنف من مساعدتهم على إخضاع محمد على باشا بشرط أن تتمكن الروس من وضع جيش فى مدينة سينوب الواقعة على شاطىء البحر الأسود بالقرب من دار السلطنة العثمانية لتيسير الدفاع عن مدينة القسطنطينية إذا زحف عليها الأمير إبراهيم بعساكره فمال اللورد بالمرستون كبير سياسة الإنجليز يومئذ إلى ذلك واستحسنه وحسبه من مسببات الفوز والغلبة وهم بإنفاذه فرأى من استنكار كبار الدولة

وأصحاب الحل والعقد له واستقباحهم إياه ما أقعده فحاول الاستظهار عليهم فلم يفلح فمال إلى المواربة وسأل مبعوث الروس أن يكلم القيصر فى أمر تخليه عن جميع تلك الحقوق الممنوحة له بمعاهدة خونكار اسكله سى من حماية جميع بلاد الدولة العثمانية فإذا تخلى عنها أنفذ له مطالبه وتعاقد معه على ما فيه المصلحة فلم يقبل القيصر ذلك واستنكره وأوعز إلى رسوله بمبارحة عاصمة الإنجليز فرحل عنها وتعطلت المخابرة وأعرضت عنها جميع الدول.

(مطلب)

تأهب محمد علي باشا للقتال بعد أن علم بتألب الدول عليه مع السلطان ما عدا دولة الفرنسيس

وعلم محمد على باشا بما تنويه له دولة الإنجليز من السوء وما صممت عليه من أخذ جميع ما افتتحه من بلاد الدولة وإرجاعه إلى طاعة السلطان ومساعدة جميع الدول لها إلا دولة الفرنسيس وأن لا قدرة لدولة الفرنسيس على الدفاع عنه ومعاداة جميع هاته الدول فعمد إلى التأهب والاستعداد وتجرد للدفاع ما استطاع وأوعز إلى سليمان باشا الفرنسوى بتقوية الحصون والقلاع الشامية جهد الاستطاعة وعلى الخصوص منها قلاع عكا وبيروت ورسم بتكليف جميع أهل الشام بحمل السلاح والتدرب على الحركات العسكرية للقيام بها عند الحاجة واستقدم جميع العساكر المصرية التى كانت فى نجد والحجاز وأهمل شأن تلك الأصقاع وأطلق سراح محمد ابن عون شريف مكة وقد كان محجوراً عليه بالقاهرة فسار إلى مكة وجعل يتصرف فى أمورها على ما تقتضيه مصلحته وأنفذ إلى ولده الأمير إبراهيم بالالتفات والأخذ بأسباب الحزم فبالغ الأمير إبراهيم فى ذلك وبث العيون والأرصاد وحاسب أهل الشام على الذرة والبرة فانكمشوا وانكفوا وأخلد كبارهم إلى الطاعة خوفا من جبروته وبقى الحال هكذا إلى أوائل سنة ست وخمسين ومائتين وألف هجرية وإذا بدولة النمسا قد عادت إلى الإلحاح بطلب عقد المؤتمر فى مدينة فينا لفض جميع المسائل المتعلقة بمصر ومنع جميع القلاقل المترتبة على بقاء هذه المسألة عرضة لأغراض الدولة وسبباً لوقوع التخاصم بينهم فأجابتها الدول حينئذ إلى عقد المؤتمر بلندن عاصمة الإنجليز وحضره مبعوث من دار السلطنة العثمانية بناء على طلب دولة الفرنسيس فلم يتفقوا على حال من الأحوال وأصرت كل من دولتى الفرنسيس

والإنجليز على ما طلبته ثم انصرفوا على غير طائل وتعطلت المخابرة ووقفت عند حدها الذى كانت عليه.

(مطلب)

قيام تييرس كبير سياسة الفرنسيس لنصرة محمد علي باشا وتعاقد الدول على العمل ضد محمد علي باشا

واتفق بعيد ذلك بقليل أن تولى الموسيو تييرس رياسة الحكومة الفرنسوية وكان يكره أن تحل المسئلة المصرية جميع الدول ويرغب أن يكون حلها بينه وبين السلطان مباشرة فما استقرّ به المنصب حتى سير إلى السلطان من يعلمه بوجوب ترك إيالات الشام ومصر إلى محمد على باشا وذريته من بعده ويتوعده بقيام دولة الفرنسيس للذب والدفاع عن محمد على باشا إن أبى عليه ذلك وسير أيضاً إلى محمد على باشا يمنيه بالأمانى الطويلة ويحضه على نبذ مطالب دولة الإنجليز وعدم الالتفات إليها وأن يثابر على الجد والاجتهاد وتقوية الحصون والقلاع الشامية وأنه سيأتيه المدد من عسكر الفرنسيس إذا هم الإنجليز بإكراهه على قبول ما لا يحب فتقوت عزائم محمد على باشا قيل: ولكنه كان يحسب ما وراء تألب بقية الدول على معاكسته فكان كثير الوساوس شديد الهواجس بعيد النظر فى العواقب فلما علم اللورد بالمرستون كبير سياسة الإنجليز بما فعله تييرس صاحب سياسة الفرنسيس تجرد إلى المقاومة وعمد إلى إغراء دولة الروس والنمسا وبروسيا على التحالف معه على صد إغارات الأمير إبراهيم ورد جميع ما أخذه من البلاد الشامية وإرجاعه إلى طاعة سلطانه وما زال بهم حتى أفلح وتعاقدوا معا على هذا العهد :

أولا: إلزام محمد على باشا بإرجاع جميع ما أخذه من بلاد الدولة ما عدا الجانب القبلى من ولاية الشام دون مدينة عكا.

ثانياً: محاصرة السفن الإنجليزية والسفن النمساوية للموانى الشامية ومساعدة جميع من أراد من أهل الشام على خلع طاعة الأمير إبراهيم والخروج على العساكر المصرية لإشغالهم عن مقاومة سفن الدولتين.

ثالثاً: دخول سفن روسية وإنجليزية ونمساوية إلى بوغاز القسطنطينية للذب عن المدينة إذا اتصلت بها العساكر المصرية.

رابعاً: عدم جواز عبور سفن إحدى الدول المذكورات بوغاز القسطنطينية ما دام الأمن مستتبا فى المدينة.

خامساً: وجوب تصديق الدول الثلاث المذكورات على هذا العقد فى مدة لا تتجاوز الشهرين وأن يكون هذا التصديق فى مدينة لندن.

وأضافوا إلى هذا العقد صكا موقعا عليه من مبعوث دار السلطنة فيه بيان لما وقع الاتفاق على إعطائه إلى محمد على باشا من الحقوق، قال بعض كتاب الأخبار: وعز على كبير سياسة الإنجليز الصبر فعمد إلى دس الدسائس وإثارة الفتن بين أهل لبنان وأوعز إلى سفيرهم بدار السلطنة أن يعجل فى ذلك فسير السفير ترجمانه المدعو (وود) إلى الشام فوصلها ولم يلبث بها أياماً حتى ظهرت الفتنة وعمت البلاد وخرج الشاميون على الأمير إبراهيم وامتنعوا من دفع الخراج وحمل المؤن للجند فركب الأمير إبراهيم وسليمان باشا الفرنسوى والأمير عباس على أهل الثورة وقاتلوهم حتى أخضعوهم وأرجعوهم إلى الطاعة صاغرين وجاء المدد من مصر فتقوت عزائم المصريين ونالوا من الشاميين وأطفئوا نار الثورة وبالغ سليمان باشا فى تحصين مدينة بيروت وجعلها على أهبة الدفاع وشحنها بالمؤن والذخيرة وأنشأ القلاع والحصون بالثغور والمدن وتأهب لصد الأعداء برا وبحرا وأرسل إلى محمد على باشا يطلب المدد من طريق البحر فعلم كبير سياسة الإنجليز بذلك وأوعز إلى الأمير نابير من أمراء سفن الحرب الإنجليزية بالوقوف بسفنه فى طريق الشام والإسكندرية وإحراق كل ما يلاقيه من السفن المصرية وأسر ما يمكن أسره منها فأحس كبير السياسة الفرنسوية بذلك فسير فى الحال مركبا إلى مدينة بيروت لتخبر قائد الجيوش المصرية بالخبر وجاء النبأ إلى محمد على باشا فأزعجه واسترجع ما كان قد سيره من تلك السفن ووصلت السفن الإنجليزية مع نابيير إلى الإسكندرية فلم تعثر فى طريقها على واحدة من السفن المصرية.

ولما كان خامس عشر جمادى الأولى سنة ست وخمسين ومائتين وألف هجرية تم توقيع الأحزاب على معاهدة لندن وصدق عليها السلطان فصار معمولا بها من ذلك اليوم ولم يمض عليها شهر حتى أبلغها قناصل الدول المتعاهدة إلى محمد على باشا وعرضوا عليه ما اتفقت عليه كلمة دولهم من إعطائه ولاية مصر له ولذريته من بعده وولاية نصف الشام بما فيها عكا مدة حياته ثم تردّ إلى مملكة السلطان بعد موته وضربوا له أجلا عشرة أيام قيل فأزعجه هذا الحال وأحزنه ومضى الأجل المضروب

فلم يجب إلا بالسلب والامتناع وعدم التسليم فى شىء مما تطلبه الأحزاب فأخبره القناصل بأن امتناعه عن قبول ذلك قد أسقط حقه أيضاً فى أخذ مدينة عكا مدة حياته وصارت الدول لا تسمح له بشىء سوى ولاية مصر فكبر غيظه وراجعهم فى الكلام فقالوا لا سبيل إلى غير ذلك وقد أمهلناك عشرة أخرى فأصر على الامتناع وانقضت المهلة ولم يجبهم فسيروا الأخبار بذلك إلى دار السلطنة ولما ضربوا له الأجل الأول ولم يجب رسم السلطان بعقد مجلس فى دار شيخ الإسلام حضره المشايخ والعلماء وأصحاب المراتب العالية وتناجوا فى امتناع محمد على باشا وتأهبه للذب والدفاع فبعد أخذ ورد أفتى الشيخ بسقوط حكم محمد علي باشا من الشام وخلعه وقرئت هذه الفتوى في سائر مساجد دار السلطنة وورد الخبر بما جرى إلى محمد علي باشا فأرسل إلى السلطان يقبح ما أفتى به شيخ الإسلام ويقول: إما ولاية مصر فهى من حقوقى وحقوق أولادى الوراثية وأما الشام فلا أتخلى عنها بعد الذى أرقته فيها من الدماء وصرفته من الأموال الطائلة.

(مطلب)

إطلاق سفن الإنجليز القنابل على بيروت وسائر السواحل الشامية، وما كان من وراء ذلك

وجاء الأمر إلى نابيير أمير سفن الحرب الإنجليزية بالتأهب لإطلاق المدافع على بيروت وجميع السواحل الشامية وأخذها من أيدى المصريين فسار بسفنه قاصدا بيروت وأخذ فى طريقه كل ما صادفه من مراكب التجارة المصرية ولحق به أيضاً الأميرال ستفورد ومعه ثمان سفن حربية من القطع الكبار ولحقتهم التجريدة العثمانية من قبرص وهى زهاء ستة آلاف مقاتل تحملها ثمان وعشرون قطعة من سفن النقل الإنجليزية ومقدمها الأمير واكر وأرسى نابيير سفنه أمام حصون بيروت وأرسل إلى سليمان باشا الفرنسوى مقدم العساكر المصرية بها يعلمه بسرعة التخلى عن المدينة والجلاء عنها وسير إلى من بعكا يخبرهم بذلك أيضاً وطير الأخبار إلى الآفاق بما تقرر شرعا من خلع محمد على باشا وتنزيله عن ولاية الشامات وحض أهل الشام جميعا على الخروج وشق عصا طاعة الأمير إبراهيم فبدأت عند ذلك تظهر علامات الوحشة بين الفريقين وأخذ كل حذره وجعل سليمان باشا يرتب عسكره ويزيد فى تحصين القلاع والحصون ويبعث البعوث إلى بقية الثغور للحض على اليقظة

والالتفات وأرسل محمد على باشا إلى الموسيو تيرس كبير السياسة الفرنسوية يستنهضه إلى الوساطة فى الأمر والرجوع بالأحزاب إلى اللين وترك الشدّة فتجرد الموسيو تيرس إلى ذلك وبالغ فى الإرهاب وجعل يتأهب ويحشد الجيوش ويعدّ المعدات للذب والدفاع عن جميع مطالب محمد على باشا. قال بعض كتاب الأخبار: ولكنه رأى أنه فى حاجة إلى شىء من السلاح والذخيرة لفراغ المخازن منها يومئذ وأنه ينقصه أشياء أخرى من معدات الحرب فكاد يسقط فى أمره وشاع الخبر بذلك بين الفرنسيس فقاموا على كبير سياستهم وقبحوا فعاله ونادوا بالويل والثبور ورموه بالخيانة والغدر ووسموه بالكذب والفجور حيث حرض محمد على باشا على مقاومة الأحزاب وشق عصا طاعة سلطانه ثم عاد فتخلى عنه عند شديد الحاجة وجعلوا يطوفون جماعات حول بيته وهم يهزءون ويسخرون به ويصيحون فكبر عليه الأمر واستعظمه وأنزل نفسه عن منصب الرياسة واعتزل موقف هذه السياسة فى سلخ رمضان سنة ست وخمسين ومائتين وألف هجرية وجاء الأمر إلى أمير سفن الحرب الفرنساوية التى كانت راسية يومئذ على مقربة من بيروت بسرعة العود إلى جزائر اليونان ثم إلى بلاد الفرنسيس فأقلعت من فورها وتركت الشام ومصر هدفا لرمى قنابل سفن الأحزاب فعدّ ذلك لدولة الفرنسيس من الغلطات المسوّدة لوجه تاريخ حسناتها فى ديار مصر وهكذا سياستها عند اشتداد الكروب وتفاقم الخطوب ومثل هذا سواء بسواء ما فعلته مما نجم عن ظهور الثورة العرابية كما سيتلى عليك فى محله إن شاء الله.

ولما كان الخامس عشر من رجب الفرد سنة ست وخمسين تقدمت سفن نابيير الإنجليزى نحو حصون بيروت ورمتها بالقنابل وراسلت الرمى لحظة ثم انكفت وأرسل نابيير إلى سليمان باشا الفرنسوى يقول له: أن تخل عن الحصون وانجل بعسكرك عن المدينة قبل أن أدكها عليكم دكا فأرسل إليه سليمان يقول: لن تدخلوها إلا خرابا بلقعا ولم نسلم لكم فيها وفينا رجل وكان قد سير إلى الأمير إبراهيم فى بعلبك أن ينحدر إلى بيروت بمن معه من العساكر والأجناد فحضر ونصب خيامه ظاهر بيروت وباتوا ليلتهم ثم أصبحوا وقد اقتربت جميع السفن من المدينة وأطلقت عليها القنابل واشتدت فى القتال شدّة بالغة حتى أحرقت المدينة ودكت أسوارها وتقدم الأرشيدوق فردريك أمير سفن الحرب النمساوية بمركبه وأطلق مدافعها على بيت المرضى من العساكر والأجناد المصرية وكانت عليه راية سوداء إشارة إلى أنه

بيت المرضى فلم يحفل بها وأطلق على جدران ذلك البيت القنابل حتى دكه على من به من المرضى ولم تأخذه شفقة ولا حنان وهم يقولون بأنهم أنصار المروءة وإخوان الرحمة وتمكن نابيير من تنزيل طائفة من العساكر العثمانية والإنجليزية إلى بيروت وسير بعض السفن إلى عكا وبقية الثغور فدمرتها بنيران المدافع وأصلت من بها من المصريين نارا حامية، وانتقض أهل الشام ولبنان وخان الأمير بشير الشهابى العهد واليمين الذى حلفه للأمير إبراهيم فاشتدت نار الفتنة وعمت جميع البلاد وصار المصريون بين منتطح عنزين وتساقطت عليهم نيران الأعداء من البر والبحر فانجلى من بقى منهم عما كان بأيديهم من القلاع والحصون وخرجوا وهم فى أسوأ حال لا مؤن ولا زاد ولا دواب للحمل إلا القليل وتبعهم الشاميون يتخطفون ساقهم ويمنعون عنهم الواصل من الماء والميرة فاشتد بهم الجوع شدة بالغة فأكلوا جميع ما كان معهم من دواب الحمل حتى أكلوا جذوع الأشجار وما صادفوه من الحشيش اليابس وشربوا بول البهائم وفشا فيهم الموات بالحميات الخبيثة وما زالوا يجدّون السير ويدافعون عن ساقهم والعدو من خلفهم حتى وصلوا إلى حدود الديار المصرية وقد ذاقوا مرارة التعب وقاسوا شديد النصب وتحملوا ما تكل عن وصفه الأقلام ولا تحيط بنعته الأوهام وتركوا تلك الديار التى ترطب أديمها بدماء إخوانهم حينا من الدهر، وسار نابيير بست من سفنه الكبار إلى الإسكندرية ورسا أمام مقر محمد على باشا برأس التين وأرسل إليه يطلب تنازله عن جميع الحقوق التى تقررت بمعاهدة كوتاهيه فأبى محمد على باشا ذلك فأغلظ نابيير فى القول وشدد فى الطلب وتهدده بحرق الإسكندرية ويخلعه من منصب الولاية على مصر أيضاً إن هو أصر على الامتناع والعناد وضرب له أجلاً ضيقا وأرسل يقول: إن مضى الأجل ولم توقع على عقد التنازل أحرقت المدينة وجعلتها رمادا فكبر الأمر على محمد على باشا وأحزنه جداً وترددت الرسل بينه وبين محمد على باشا عسى أن يصلوا إلى أمر فيه المصلحة فلم يفلحوا وأبي نابيير إلا ما أراد فأجابه محمد علي باشا إلى ما طلب فأقلع نابيير بسفنه راجعا إلى دار السلطنة وعاد محمد على باشا إلى الشكوى فرفع أمره إلى دولتى الفرنسيس والروس وشكا مما فعله نابيير فعمدت الدولتان إلى إبطال ذلك العقد وعملتا جهد الاستطاعة على إحباط مساعى دولة الإنجليز نظرًا لتفردها بالعمل وتجاوزها حد الوساطة وشددتا فى ذلك وكادت الروس تتحد مع الفرنسيس على ما فيه الإضرار بالدولة العثمانية فخشى السلطان شر العاقبة وعمد إلى الملاطفة

والمجاملة وأنفذ إلى محمد على باشا بأن تكون ولاية مصر فى عقبه وللسلطان أن يختار منهم الأليق فامتنع محمد على باشا من قبول ذلك أولاً ثم عاد فرضى به وتقررت القاعدة بين الفريقين نهائيا وتم الاتفاق.

(مطلب)

وصول فرمان السلطان إلى محمد علي باشا بجعل ولاية الديار المصرية في عقبه، وتحديد حقوق الولاية، وما جاء بعده من الفرمانات

فلما كان حادى عشر ذى الحجة سنة ست وخمسين ومائتين وألف هجرية ورد فرمان السلطان بذلك إلى مصر فأبلغته قناصل الدول إلى باغوص بيك ناظر الخارجية يومئذ ونصه:

قد رأينا بسرور ما عرضتموه من البراهين على خضوعكم وتأكيدات أمانتكم وصدق عبوديتكم لذاتنا الشاهانية ولمصلحة بابنا العالى من طول اختباركم وما لكم من الدراية بأحوال البلاد المسلمة إدارتها لكم من مدّة مديدة لا يجعلان عندنا ريبا بأنكم قادرون بما لكم من الغيرة والحكمة فى إدارة شئون ولايتكم على الحصول من لدنا الشاهانى على حقوق جديدة ونظراً لتعطفاتنا الملوكية وثقتنا بكم فلابد أنكم تقدّرون إحساساتنا إليكم حق قدرها وتجتهدون فى بث هذه المزايا التى التزمتم بها إلى أولادكم ولذلك قد صممنا على تثبيتكم على ولاية مصر وسلمنا لكم زمامها حسب الحدود المبينة بالخريطة المرسومة لكم من لدن صدر دولتنا الأعظم وقد منحناكم فضلاً عن ذلك الولاية بطريق التوارث بالشروط الآتية.

عندما يخلو منصب الولاية المصرية تعهد الولاية إلى من تنتخبه سدّتنا الملوكية من أولادكم الذكور وتجرى هذه الطريقة فى حق أولاده أيضاً إلى ما شاء الله فإذا انقرضت ذريتكم الذكور فلا حق لأولاد بناتكم الذكور فى الولاية وإرثها ومن وقع عليه من أولادكم الانتخاب للولاية على ديار مصر بالإرث من بعدكم وجب عليه الحضور إلى دار السلطنة لتقليده الولاية بشرط أن حق التوارث الممنوح لكل والٍ منه لا يمنحه رتبة ولا لقبا أعلى من رتبة سائر الوزراء ولقبهم ولا حقا فى التقدم عليهم بل يعامل بنفس معاملتهم وجميع خطنا الشريف الهمايونى الصادر عن كل خانه وكافة القوانين الإدارية الجارى العمل بها أو تلك التى سيجرى العمل بها فى جميع

ممالكنا العثمانية وجميع العهود المعقودة أو التى ستعقد فى مستقبل الأيام بين بابنا العالى والدولة المتحابة يجب العمل بها جميعها فى ولاية مصر أيضاً وتحصيل جميع الأموال والضرائب المفروضة على أهل مصر باسمنا الملوكانى.

ولكى لا يكون أهل مصر الذين هم من بعض رعايا بابنا العالى معرّضين للمضار والضرائب غير القانونية يجب أن تنظم تلك الضرائب بما يوافق حالة ترتيبها فى سائر الممالك العثمانية ويرسل إلى خزينة بابنا العالى العامرة ربع الإيرادات الناتجة من جميع الرسوم الجمركية ومن بقية الضرائب التى تتحصل فى سائر الديار المصرية ولا يتأخر منه شىء ألبتة والثلاثة أرباع الباقية تبقى لولايتكم للقيام بنفقة التحصيل والإدارة والعسكرية ونفقات الوالى وأثمان الغلال التى تقوم مصر بتسييرها فى كل عام إلى الحرمين الشريفين ويبقى هذا الخراج مستمرا أداؤه على هذا الوجه مدة خمس سنوات تبتدىء من عام سبع وخمسين ومائتين وألف هجرية ويصبح تعديل ذلك بطريقة أخرى فى مستقبل الأيام تكون أكثر موافقة لحالة الإيالة المصرية ونوع الظروف والمناسبات التى تطرأ عليها.

ولما كان من واجب بابنا العالى الوقوف على مقدار الإيرادات فى كل عام وكيفية تحصيلها لا سيما تحصيل العشورى منها وجباية بقية الضرائب وكان الوصول إلى معرفة هذا كله يستلزم تعيين عمدة يخول حق المراقبة على جميع أعمال إيالة مصر فينظر فى ذلك فيما بعد وسيتقرر ما يوافق إرادتنا السلطانية ونظرًا لأهمية طريقة سك النقود ووجوب تقرير قاعدة ثابتة لهذا الأمر المهم كى لا يحدث فيها خلاف لا من جهة العيار ولا من جهة القيمة فقد اقتضت إرادتنا السلطانية أن تكون جميع النقوذ من الذهب والفضة التى يجوز لإيالة مصر ضربها باسمنا الشاهانى معادلة للنقوذ المضروبة فى الضربخانة السلطانية العامرة سواء كانت فى العيار أو فى الشكل ولا يكون لإيالة مصر فى أوقات السلم أكثر من ثمانية عشر ألفا من الجند للمحافظة على داخلية البلاد بحيث لا يجوز أن تزيدوا على هذا العدد شيئاً ألبتة غير أنه لما كانت قوات مصر العسكرية هى معدة لخدمة ممالكنا المحروسة أسوة ببقية إيالاتنا العثمانية فلذلك يسوغ أن يزاد هذا العدد فى زمن الحرب بما يرى لزومه ويراعى فى خدمة الجندية بإيالتكم ما هو مقرر ومتبع فى كافة ممالكنا المحروسة وهى بعد أن تخدم الجند خمس سنوات يستبدلون بغيرهم من أبناء البلاد وهذه القاعدة يجب اتباعها فى إيالة مصر بحيث ينتخب ممن يكون فى الخدمة حالا بعد الذين

أمضوا تلك المدة عشرين ألفا فيبقى منهم ثمانية عشر ألفا بمصر والألفان الباقيان يرسلان إلى الآستانة لأداء مدة خدمتهم وحيث إن خمس هذا القدر يعنى العشرين ألفا واجب استبداله سنويا فيطلب فى كل سنة من مصر أربعة آلاف حسب القاعدة المقررة فى نظام العسكرية عند سحب القرعة بشرط أن تستعمل مواجب الإنسانية ونزاهة القصد والسرعة المقتضية فى هذه الأحوال فيبقى فى مصر ثلاثة آلاف وستمائة جندى ممن ينتخبون حديثاً ويرسل منهم أربعمائة إلى الآستانة فمن أتم منهم خدمته سواء كان ذلك بمصر أو بدار السلطنة عاد إلى بلده ولا يجوز طلبه للخدمة مرة ثانية هذا وبما أن طبيعة بلاد مصر وهواءها ربما يستلزم أن تكون أقمشة ملابس عسكرها غير أقمشة ملابس عسكرنا المنصور فلا بأس بذلك إنما يراعى جيداً أن لا تختلف هيئة الملابس والعلائم التميزية ورايات الجنود المصرية عن مثلها من ملابس ورايات سائر عسكرنا المظفر وكذا ملابس الضابطان وعلامات امتيازاتهم وملابس البحرية والعساكر البحرية ورايات السفن المصرية يجب أن تكون كملابس ورايات وعلامات رجالنا وسفننا ويجوز للحكومة المصرية أن تمنح ضابطان البر والبحر إلى حد رتبة الملازم أما ما كان من فوق ذلك فمرجع الأمر فيه إلى إرادتنا الملوكانية ولا يسوغ منذ الآن لوالى مصر أن ينشىء سفنا حربية إلا بإذننا الخصوصى، ومن المعلوم أن الامتياز المعطى من لدنا بوراثة مصر هو معلق بجميع الاشتراطات المبينة آنفا فإذا توقف تنفيذ هذه الاشتراطات كان الامتياز المذكور لاغيا لا عمل له وبناء على ذلك قد أصدرنا خطنا هذا الشريف الملوكانى لتعرفوا أنتم وذريتكم قدر ما جبلنا عليه من الإحسان فتقوموا مع تمام الاعتناء بتنفيذ الاشتراطات المدونة آنفا وتمنعوا عن أهل مصر كل ما يكرهونه وتكفلوا أمنيتهم وسعادتهم وتجتنبوا كل مخالفة لسائر أوامرنا السلطانية مع إخبار بابنا العالى عن جميع المسائل المهمة المتعلقة بالبلاد المعهودة ولايتها لكم .اهـ.

وورد مع هذا الفرمان فرمان آخر بتوجيه ولاية النوبة ودارفور وكردفان وسنار إلى محمد على باشا مدة حياته فقط ثم تعاد بعد موته إلى السلطنة العثمانية فيوليها السلطان لمن يشاء ونصه: حيث قد تثبتم على ولاية مصر بمقتضى ما هو واضح بفرماننا السلطانى الصادر إليكم ووافق إرادتنا الشاهانية توريث ذريتكم من بعدكم مسند هذه الولاية بشروط وحدود معلومة ومعينة فقد قلدتم أيضاً فضلاً عن ولاية ديار مصر إيالات النوبة ودارفور وكردفان وسنار وجميع ملحقاتها الخارجة عن حدود مصر ولكن بغير توارث فبناء على ما هو معهود فيكم من الحكمة والاختبار وما

أمرتم به من التمسك بهما تقومون بإدارة هذه الإيالات وترتيب جميع شئونها بما ينطبق على عدالتنا ويوافق رغائبنا السلطانية مع توفير أسباب السعادة لسائر الرعية وترسلوا فى كل سنة إلى بابنا العالى قائمة ببيان الإيرادات السنوية جميعها.

وحيث إنه فى غالب الأحيان يصير الهجوم من العساكر والأجناد على القرى والبلدان بتلك الأصقاع فيأخذون منها ما يقدرون على أخذه من الشبان الذكور والإناث ويتصرفون فيها بالبيع وغير ذلك نظير مرتباتهم وعلوفاتهم فهذه الفعال فضلاً عما يترتب على استمرارها من انقراض أهالى تلك الديار فإنها من الأمور المخالفة للشريعة الإسلامية المطهرة وكذلك أيضاً ما هو شائع ومستعمل فى جب الرجال أى جعلهم خصيانا لخدمة النساء فإنه من أفظع الأمور التى لا تنطبق على إرادتنا السنية لما فيها من مخالفة مبادىء العدل والإنسانية التى هى من أجل مقاصدنا منذ جلوسنا على عرش الخلافة العظمى فعليكم مداركة جميع الأمور بما ينبغى من العناية والاعتناء ومنع حدوثها فى المستقبل واعلم أنى قد عفوت عن جميع الضابطان والعساكر وباقى المأمورين الموجودين الآن بديار مصر إلا من وصلوا منها بمراكبنا الحربية فاستسلموا وكما قلنا بفرماننا السلطانى المرسل إليكم قبل هذا أنه يجوز لكم منح سائر الضابطان من البرية والبحرية لحد رتبة الملازم فقط فلا بأس من إرسال جدول بأسماء من رتبتم من ضابطان العسكر المصرى إلى بابنا العالى لينال التصديق منا وترسل لكم الفرمانات المثبتة لرتبهم هذا ما اقتضته إرادتنا الشاهانية ووافق رغبتنا الساميّة السلطانية فعليكم المبادرة فى العمل بمقتضاه . اهـ.

فلم ير محمد على باشا بدا من الطاعة وخفض الجناح لهذه الشروط على ما فيها من الحيف والقهر وذل النفس بعد الذى نالته عساكره من الفوز والغلبة ولكنه كتب إلى الدول يشكو من جور هاته الشروط وشدة ما فيها من الحجر والتضييق ويسألها الوساطة فى تحديد شروط الوراثة وجعلها لأكبر أولاده من بعده وتحديد مبلغ الخراج وجعله قدرا يحمل فى كل عام إلى الخزينة السلطانية ومنحه حق إعطاء الرتب وألقاب الشرف للضابطان البريين والبحريين إلى رتبة الميرالاى فأجابته الدول إلى ذلك وخابرت السلطان فى الأمر فأجابها إلى ما طلبت وسير إلى محمد على باشا الفرمان بذلك فى عاشر جمادى الأولى سنة سبع وخمسين ومائتين وألف هجرية ونصه:

إن الحضرة الفخيمة السلطانية تلقت ما تعطفت عليها به الدول المتحالفة من

النصائح فى هذه الواقعة أيضًا ولذلك قد منحت محمد على باشا وتكرمت عليه بالامتيازات الآتية بشرط انقياده الانقياد التام إلى جميع الوثائق والمعاهدات المبرمة حالاً والتى ستبرم فى مستقبل الأيام فيما بين سلطتنا العثمانية والدول المتحالفة، قد صار مسند ولاية ديار مصر من الآن فصاعدا ينتقل بالإرث من محمد علي باشا إلى أولاده وأولاد أولاده الذكور بكيفية أن يتولاه الأرشد فالأرشد فيقلده الباب العالي مسند الولاية كلما خلا هذا المسند من وال وقد تنازلت سدتنا الملوكانية عن أخذ ربع إيرادات الإيالة المصرية مقابلة تقرير مبلغ فى كل سنة يحمل إلى خزينتنا السلطانية خراجا وهذا المبلغ سيقرر فيما بعد مع بيان كيفية تحصيله بما يناسب حالة إيرادات البلاد كما وأنه من الآن فصاعداً صار من المرخص لمحمد على باشا أن يمنح من تلقاء نفسه رتب ضابطان البرية والبحرية إلى رتبة الأميرالاى فقط وما زاد عن ذلك يعرض عنه لبابنا العالى أما ما يتعلق بإدارة الإيالة الداخلية التى يجب أن تكون على مثال الإدارة الجارية فى جميع ممالكنا المحروسة فهو وإن كان محمد على باشا لم يتكلم عنها بشىء حسبما يقتضيه الحال من الصراحة مع كونه قد سبق تقرير ذلك بالعقد الملحق لمعاهدة المحالفة ولكن لكى لا يدع الباب العالى سبيلا للدول المتحالفة بالتضرر منه كما لو حدث أن وقع من محمد على باشا فى مستقبل الأيام أمور مخالفة لوجه مهم من الأوجه المستندة على المعاهدة المحكى عنها قد تقرر أن تطلب أولاً الإيضاحات والتقريرات المذكورة من قبلكم كتابة. اهـ.

فقبلت الدول المتحالفة هذا التحوير وأشارت بتأييده فجاء الفرمان بذلك إلى محمد على باشا، ثم ورد فرمان آخر فى غرة جمادى الأولى سنة سبع وخمسين ومائتين وألف بتقرير مبلغ ثمانية آلاف كيس خراجا يحمل فى كل عام إلى الخزينة السلطانية ووقفت المخابرات بين محمد على باشا وسلطانه يومئذ عند هذا الحد.

(مطلب)

وصول سيف ونيشان هدية من السلطان إلى محمد علي باشا

فلما كان رابع عشرى شعبان سنة سبع وخمسين قدم إلى القاهرة رسول من دار السلطنة يحمل سيفا ونيشانا عاليا هدية من السلطان إلى محمد على باشا فأنزلوه فى سراى شبرى واحتفلوا للقائه احتفالا شائقا وعملوا لذلك تشريفا بقلعة الجبل فى

خامس عشرى الشهر اجتمع فيه جميع الأمراء والكبراء ورجال الحكومة والمشايخ والعلماء، قال بعض كتاب الأخبار: ولم تكن هذه الهدايا لتذهب ما علق بخاطر محمد على باشا من فعال رجال دار السلطنة ولا ما داخله من الحقد على كبير سياسة الإنجليز والبغض لهذه الدولة فقد عملت حتى نالت منه وسلخت عنه الشام والحجاز وغيرهما ولم تبق له إلا ولاية مصر والنوبة وذهبت أمواله ودماء رجاله الذين فتحوا تلك الأصقاع ودوّخوها هدرا وانحصرت حدود مملكته وضاقت حلقة سلطنته وألزم بدفع الجزية صاغرا مبلغا قدره ثمانية آلاف كيس ذهبا تحمل إلى الخزينة السلطانية فى كل عام وقل عدد عساكره إلى ثمانية عشر ألفا لا يلبسون الإ زى العسكر السلطانى وقيدوا علاقته مع سائر الدول الأجنبية بقيود منها أنه لا يجوز عقد عهود أو استدانة شىء من المال إلا بأمر من دار السلطنة ولا يعطى شيئاً من ألقاب الشرف ونياشين الاعتبار إلا إلى الدرجة الثانية للملكيين ورتبة أميرالاى للعسكريين فخسر بسعايتهم ما لم يكن له فى حساب وقد كانوا يريدون إخضاعه وإرجاعه إلى طاعة سلطانه بغير عهد ولا شرط، قال: وسعوا فى حرمان ذريته من تولى منصب الولاية من بعده تشفيا وانتقاما لأمور نقموها عليه منها أنهم كانوا اشتروا جزيرة عدن من أحد مشايخ العربان مع أرض أخرى متصلة بها بمبلغ من المال وأنشئوا بها حصنًا عظيما لعلمهم ما سيكون لتلك الأرض من الأهمية فى مستقبل الزمان فلما امتدت شوكة محمد على باشا بالفتح إلى خليج فارس وعلت كلمته وكبرت شهرته بتلك الأصقاع خاف الإنجليز على ما لهم من الأملاك الواقعة على شطوط البحر الأحمر فكتبوا إلى محمد على باشا بأن ينفذ إلى عسكره النازلين على تلك الجزيرة بالانجلاء عنها خوفاً من تألب العرب مع العساكر المصرية فيقومون على الإنجليز النازلين بتلك الجزيرة فيكرهونهم على الجلاء عنها فأبى محمد على باشا عليهم ذلك فبقيت فى حوزة جنوده تابعة لمملكته حتى تنازل عنها إلى سلطانه مع مكة والمدينة وجميع الديار الحجازية بغير عهد ولا شرط.

(مطلب)

كف محمد علي باشا عن الحرب
والعناية بإصلاح شئون مملكته

قال الراوى لهذه الحادثة: ونقموا على محمد علي باشا أشياء أخرى غير هذه فكانوا لذلك يظهرون له غاية البغض وينظرون إلى فعاله بعين المقت والحسد

ويخشون عاقبة ظهوره فلم ينكفوا عنه حتى أذلوه وأقعدوه عن كل عمل فانكف عن الغزو والفتح ووقف عند حد العناية بإصلاح شئون مملكته وترتيب أمورها على ما تقتضيه مصلحة العباد والبلاد وسالم سلطانه وخليفته وخفض له جناح الطاعة وأظهر له غاية الإخلاص والولاء وسير ولده الأمير محمد سعيد إلى دار السلطنة ليرفع إليه فروض الإخلاص فنال الأمير محمد من السلطان غاية الألتفات وحسن الوفادة فلما استأذنه بالرجوع إلى مصر أذن له وأهداه كثيرا من الهدايا والتحف النفيسة والتعابى الثمينة وأحسن إلى من كانوا معه من الخدم والحشم والأتباع فكان لهذا الصنيع وقع حسن عند محمد على باشا فتجرد إلى الإصلاح، وكانت الحوادث المتوالية والمحن المتراكمة قد أمحلت البلاد وكادت تذهب ما بقى بها من آثار العمران فعمد إلى إنشاء المعامل وضبط الصنائع واحتكر تجارة جميع الأصناف وراك الحياكة وجعل لكل شىء ديواناً وكتابا وجعل لكل ديوان لما يتحصل من غلات البلاد حواصل بكل بلد يأتى إليها الزارعون بما يتحصل عندهم بثمن مقدر فيخصم منه ما عليه من الخراج ويباع ما بقى إلى التجار الأجانب الذين كانوا يأتون إلى ديار مصر ليمتاروا وأنشأ معامل للحديد وأخرى للقطن وأخرى للكتان ومثلها لسائر أصناف الأقمشة من المقصبات والأحواخ ونحوها ونظم الشوارع ومهد الطرق وابتنى المبانى العظيمة ديارا للعلوم والصنائع وأنشأ بالإسكندرية معملا للسفن وصناعة البحار وكان قد أتى بسفن الحرب والدوارع من البلاد الأجنبية وأنشأ بها أيضاً مدرسة لعلم البحار وأتى لها بالأساتذة من ديار الإنجليز والفرنسيس واستقدم زهاء الألف وخمسمائة من فلاحى الفرنسيس وفرقهم فى البلاد البحرية والقبلية ليعلموا أهلها طرق الزراعة ويبثوا بينهم محبة وخدمة الأرض ويكثروا من زراعة شجرة البن واستقدم المسيو جوميل الفرنسوى لزراعة القطن وقد كانت إلى ذلك الحين هملا مهملا لا يعرفون لها طريقا ففاز ونجح وكبرت زراعته واتسعت وأتى بنبات النيلة والأفيون وأكثر من غرس الأشجار الكبيرة النافعة وأنشأ الجنائن والبساتين العظيمة فى جزيرة الروضة وشبرى والأزبكية وبالغ فى الاهتمام بأمر الطب وأتى له بالطبيب الشهير العلامة كلوت الفرنسوى فأنشأ مدرسة لذلك وأخرى للقوابل وعهد بإدارتها إلى الست جوت الفرنساوية وأخرى للطب البيطرى وسلم إدارتها إلى المسيو هامون الفرنسوى وأنشأ ديارا لمرضى العسكر وأهل البلاد على أحسن ما يكون من النظافة والنظام وجعلها تحت نظر المسيو دوساب والمسيو لبها وقد كان الطب إلى هذا الحين كغيره هملا مهملا وسقطا مرذولا

ليس بين أهل البلاد من يعرفه بل كانوا لا يعولون إلا على ما تصفه العجائز ولا يرضون إلا بأقوال المشعوذين والدجالين فكانوا إذا مرض أحدهم ذهب أهله فطرقوا له الودع والقول وقاسوا الأثر وحسبوا النجم فكل ما قاله لهم الدجال صدقوه واعتمدوا عليه ثم يكتبون له الأحجبة والتعاويذ والتحويطات الطويلة العريضة التى ربما بلغ طول ورقتها ضعفى طول المريض وربما أضعافا ويبخرونه باللبان وجلد القنفذ والكزبرة اليابسة ونسج العنكبوت والشب الأبيض والميعة وغير ذلك وعلقوا عليه الخرزات وكان لهم عناية عجيبة بالأحجار فكانت عندهم خرزات كل واحدة يزعمون أنها تبرىء من داء فللعين خرزة حمراء يسمونها البذلة وللرقبة خرزة بيضاء يسمونها خرزة الرقبة ولهم أحجار يحكونها للفزعة والحمى يسمونها حجر الشفاء فإذا لسع أحدهم حكوا له الخرتيت وسقوه ماءه أو وضعوا له على موضع اللسعة فصا يسمى فص العقرب وغير ذلك من التمائم والأحجبة وخيطان الصوف وعظام الأموات المعروفة عندهم بعظام الكفرة أو أصبع الكافر، ومن إهمال أمر الصحة يومئذ اتخاذ الناس المقابر وسط المدينة فكانت بمصر والقاهرة شيئاً كثيرًا مثل مقبرة السيدة زينب ومقبرة القاصد والشيخ عبد الله والشيخ ريحان وغيرهم بل كان الكثير من الناس يدفنون موتاهم فى حيشان البيوت وفى المساجد والمدارس الكائنة وسط المدينة، ووقع فى سنة سبع وخمسين ومائتين وألف هجرية وباء شديد فأمات خلقا كثيرًا حتى أن الأموات كانت تشاهد ملقاة بالأزقة والحارات وبجانب جدران البيوت فى الشوارع ثم انتقل إلى الماشية فأهلك منها شيئاً يفوق الحصر وكاد يفنيها لولا لطف الله.

قال بعض الكتاب: وكما كان الطب مهملاً فقد كان كذلك أمر تدبير ماء النيل وحفظ الجسور وبناء القناطر فأتى لها محمد على باشا بالمسيو لينان الفرنسوى فأكثر من بناء القناطر والجسور وسهل سبل الزراعة ومهد المسالك وأنشأ القناطر العظيمة الواقعة على رأس مصر السفلى المسماة بالقناطر الخيرية على يدى أحد كبار مهندسى الفرنسيس المدعو المسيو موجيل وهى من أكبر الأعمال الهندسية وأشرفها وهى مفتاح النيل ومغلقه عند فرعيه الشرقى والغربى وعليها حساب رى الإقليم البحرى ونصف الإقليم القبلى وكان مع موجيل هذا جماعة من مهندسى الفرنسيس فأظهروا فى وضع هذه القناطر أسرار الهندسة ودقائق صنعة البناء وكانت ديار مصر إلى هذا الحين قد فقدت صناعها المهرة وأمست وهى فى حاجة إلى كل شىء لا سيما العمارة، أما إهمال النظافة فقد كان شاملا مصر والقاهرة وجميع المدن والبنادر على

اختلافها وكانت القاذورات تلقى بجوانب الحارات وعلى أبواب الأزقة وتحت الأسبطة وفى أركان الجدران وكان ما ينشأ من الهدم والأتربة إن اعتنى به ألقى على أبواب المدينة فيصير تلالا فإذا نسفها الريح قام منها فوق البلد سحاب من التراب نتن الرائحة كريه الشم يورث الأمراض المعدية الوبائية فأين سرّحت الطرف فى البلد ترى المجذوم والمجدور والأبرص والأعمى وغير ذلك من بقية الأمراض، وكانت البلد محاطة بالتلال من كل جانب وكانت ضيقة المسالك والحارات مرتفعة البناء على غير نظام قذرة فلا تتمكن الشمس من تحويل أشعتها نحو قاع تلك الحارات لتنقيها من الرطوبات وتحلل ما فيها من النتن ولا الرياح من تجفيفها وكانت تتصاعد على من بها من السكان فتحدث الأمراض الجلدية كالحكة والأجذيمة وغيرها كل هذه الأدران قد طهر منها البلاد وأراح من مصائبها العباد فحسبت له حسنات لا يمحيها كرور الأيام وينال عليها إن شاء الله خير الجزاء من بارئ الأنام.

(مطلب)

ما أصاب البلاد من الضربات السماوية في سنة ثمان وخمسين ومائتين وألف هجرية

ولما كانت سنة ثمان وخمسين ومائتين وألف هجرية نزل على البلاد جراد كثير فعمها وأهلك زرعها حتى ورق الأشجار العظيمة وكل نبات أخضر ثم باض وأفرخ حتى غطا وجه الأرض فوقع الغلاء وقل وارد الغلال واشتد الضيق بالناس وعم البلاء والويل الغنى والفقير وهاجر الناس فراراً من أصحاب الجباية وأعوان التحصيل وقد كانوا انبثوا فى البلاد لجبايتها بأمر من الأمير إبراهيم فكانوا إذا نزح أهل بلد أضافوا ما عليهم من الخراج على البلد المجاورة لها وشددوا على أهلها فى الطلب وبالغوا فى إيذائهم فضاق خناق أهل البلاد وارتفع ضجيجهم وعجيجهم وأصبحوا وهم بين منتطح كبشين إذهاب الحرث والنسل وإيذاء أصحاب الجباية فكادوا يشقون عصا الطاعة ويخرجون على عمال الخراج وكان محمد على باشا يومئذ بالإسكندرية فلما علم بالخبر اضطرب قيل فأصابه بسبب ذلك نوع من الهذيان وتحقق أن ذلك من فعال الأمير إبراهيم بالرعية فغضب غضبا عظيما وانتقل من مقره برأس التين إلى بيت محرم بك عند المحمودية وأقام هناك أياما وهو يخلط فى القول ويكثر من النداء على بعض الخدم ويقول: يالله قد خاننى القوم فأيقظوا الفتنة

وأبغضوا الناس فىّ وبقى على هذا أياماً والناس يقولون بذهاب عقله ولزوم تخليه عن حكم البلاد ثم سار من الإسكندرية إلى القاهرة فى نفر من الأتباع ونزل بقصره بشبرى فأتى إليه أصحاب الوظائف ورجال الدولة فعنفهم وزاد فى توبيخهم رحمة بالرعية فلم يجسر أحد على معاودته.

(مطلب)

زيارة محمد علي باشا دار السلطنة، وما لقيه من حفاوة السلطان به

وتاقت نفس السلطان عبد المجيد لرؤية محمد على باشا فدعاه للحضور إلى دار السلطنة فلبى دعوته وسار فى سنة اثنتين وستين ومائتين وألف هجرية فى قلة من الخدمَ والأتباع ونزل ضيفا على رضا باشا أحد كبار الدولة وكان رضا باشا هذا من ألد أعداء محمد على باشا ثم تمثل بين يدى السلطان فرحب به كثيراً فتقدم ليقبل يده فأمسك بيده ورفعه وأجلسه بجانبه ولاطفه جداً وحادثه ساعة، قال بعض الكتاب: واتفق أنه كان يحادث السلطان يوما فقال له فى أثناء الحديث حفظت يابنى وأحسنت، ثم استدرك أن هذا الخطاب لا يليق بأمير المؤمنين فقال: ليعف مولاى عن زلة عبده فإن حبى لأبناء مصر قد أجرى على لسانى مخاطبة الكبير منهم والصغير بيا بنى، فتبسم السلطان وقال: لا بأس عليك يغفر الله لنا ولك ولبث فى دار السلطنة زهاء ثلاثين يوما أنفق فيها من المال ألف ألف قرش ما عدا الهدايا النفيسة والتعابى الغالية والتصدق على المساكين وذوى البيوتات ثم رحل عنها إلى قوله مسقط رأسه فمكث بها أياما وأنشأ بها مدرسة للفقراء ودارا للمساكين ورحل عنها راجعاً إلى الإسكندرية ففرح الناس كافة برجوعه فرحا عظيما ودقت له البشائر وزينت المدينة ثلاث ليال وكذلك زينت مصر والقاهرة والكثير من المدن وأقام يدبر الأمر ويتصرف حتى كثر هذيانه وقل إدراكه فكان لا ينكف عن النداء على بعض حاشيته لغير سبب وكان سريع الغضب يكره أن يرى ولده الأمير إبراهيم فإذا رآه اضطرب وظهر على وجهه الغضب فأنفذ الأمير إبراهيم إلى دار السلطنة يخبر بأمر أبيه وما وصلت إليه حالته ويعلم أهل المابين بوجوب تخليه عن المنصب فأجابه السلطان إلى ذلك ورسم له بالولاية على ديار مصر وجاءه الفرمان بذلك فقرىء بقلعة الجبل فى مشهد حافل ودقت البشائر وطيروا الخبر إلى الآفاق ونقل محمد على باشا إلى الإسكندرية وكانت أحب البلاد إليه وقد كثر خلطه وكبرت علته.

فلما كان ثالث عشر رمضان سنة خمس وستين ومائتين وألف هجرية فى ولاية عباس حلمى باشا الأول مات محمد على باشا وله من العمر ثلاث وثمانون سنة وقيل أكثر من ذلك وكان ولده الأمير محمد سعيد فى صحبته لم يفارقه كل أيام مرضه فبالغ فى جنازته ونقل نعشه إلى القاهرة مع التجلة والتكريم فى مشهد حافل جداً ودفن بالمقصورة التى ابتناها لنفسه فى جامعه الذى أنشأه بقلعة الجبل ولم يكن قد تم بناؤه فحزن عليه أهل القاهرة وسائر البلاد حزنا عظيما لاجتماع القلوب على محبته، وكان رحمه الله أبيض اللون مشربا بحمرة عالى الجبهة أصلعها أسود العينين متوسط القامة جميل الهيئة مع هيبة ووداعة سريع الحركة كثير التفكر إذا مشى يجعل يديه خلفه مثل نابوليون بونابارته بسيط الملبس لا يحب التفاخر ولا الزينة ولا كثرة الحشم والحجاب ميالاً إلى مسامرة كبار الجند ورجال الحرب لا سيما منهم سليمان باشا الفرنسوى فإنه كان يحبه ويجله، قال بعض الكتاب: فكان سليمان باشا يقول لم أتعلق بمحبة أحد غير ثلاثة أبى وبونابارته ومحمد على باشا وكان محمد على باشا إذا جلس فى مجلسه لا يتقلد السلاح بل يجلس وفى يده علبة السعوط والمسبحة وكان سليم القلب سريع التأثر لا يعرف الكظم سريع الانقياد كريم النفس أبيها سخىّ العطاء واسع التدبير محبا للاطلاع على أخبار الأمم وأحوال الممالك كثير الاشتغال بالسياسة كبير الاهتمام بأحوال الرعية قليل العزم دينا صحيح الإسلام محبا للنصارى لا سيما القبط أهل البلاد قرّب منهم جماعة كثيرة وأخلص لهم فأخلصوا فى خدمته وخدمة البلاد فسلم إليهم مقاليد الدواوين وصرفهم فى ما وراء بابه فأحسنوا العمل وأحكموا التدبير وكان الأجانب عموما يسمونه بمحيى ديار مصر بعد اندراسها ومبيد طوائف المماليك رحمه الله تعالى برحمته الواسعة وأسكن روحه جنات النعيم.

(مطلب)

(فى ولاية الأمير إبراهيم باشا ابن محمد على باشا)

لما اشتدت علة محمد على باشا وكثر هذيانه أنفذ ولده إبراهيم باشا إلى دار السلطنة يعلمهم بما آلت إليه حالة أبيه ويسألهم الإجازة بتنزيله عن منصب الولاية وتخليه عن حكم البلاد فجاءه الأمر بذلك فى جمادى الأولى سنة أربع وستين ومائتين وألف هجرية فجعل يتصرف فى الأمور بالوكالة عن أبيه حتى يأتيه فرمان

التولية فلما كان منتصف شعبان من السنة قدم إلى القاهرة مظلوم بيك أحد رجال دار السلطنة ومعه الفرمان بولاية إبراهيم باشا فقرىء فى ثامن عشر شعبان بقلعة الجبل فى محفل حافل من كبار الدولة والعلماء والمشايخ والكبراء ودقت البشائر وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق فلما كان شهر رمضان سافر إبراهيم باشا إلى دار السلطنة ليقبل الأعتاب على حكم ما فى فرمان الولاية فأكرم السلطان لقاءه وأحسن وفادته ولبث أياما ثم عاد فوصل الإسكندرية فى عاشر شوال من السنة وهو يشكو من مرض فى الباطن وما زال يشتد به المرض حتى مات ثالث عشر ذى الحجة سنة أربع وستين ومائتين وألف هجرية أى سنة سبع وأربعين وثمانمائة وألف ميلادية فلازم أهل مصر والقاهرة الحداد عليه أربعين يوما ودفن بالإمام الشافعى وكان جليل القدر مهيبا حازما واسع الفكر عظيم التدبير شديد البطش سريع الغضب جبارا قرما عنيدا صبورا على الحروب جسورا راسخ القلب موفقا يحسبه العدوّ بألف مقاتل فى قومه، وكان لما عاد من حروبه فى آسيه الصغرى وتم عقد الصلح بين محمد على باشا وسلطانه عزم على السفر إلى بلاد الفرنسيس للاطلاع على ما فيها من فنون القتال وأسرار الحروب فسار معه سليمان باشا الفرنسوى ورافقهما الدوق نيمورس والأمير جوانفيل فلما وصل إلى عاصمة الفرنسيس قوبل بغاية التجلة والاعتبار وكان ينتظره أحد كبار الأسطبل الملوكى وقيل أحد كبار الدولة ومعه فرس عربى مطهم بسرج من السروج الكليمانية قد أعد لركوبه فقدمه إليه فركبه وسار بين مظاهر الاحتفال والاحتفاء وكان هذا الفرس لإبراهيم باشا وقد شاهد معه جميع الوقائع والحروب فى الشام وآسيه الصغرى ودخل به مدينة نصيبين ظافراً منصورا بعد فتكه بالعسكر السلطانى فسيرّ به محمد على باشا بعد ذلك هدية إلى قصر التويلرى بعاصمة الفرنسيس ومعه تسعة من السوّاس المصريين ولبث إبراهيم باشا بباريز أياماً أولمت له فيها الولائم العظيمة وكانوا يضعون له فى كل مأدبة أو وليمة كرسيا موجها إلى جهة الشرق إشارة إلى أنه نابغة الشرق ومحيى دياره بعد الاندراس وكانت آلات الطرب والموسيقات تكرر بحضرته نغمات النصر وتردد أدوار الظفر والألحان الحماسية إشارة إلى الوقائع والحروب التى اشتهر بها وفاز فيها بالنصر والغلبة، وجال فى باريز وشاهد ما فيها من الغرائب وتصدق على فقرائها بثمانية وأربعين ألف قرش وسيرت إليه ملكة الإنجليز تدعوه لزيارة بلادها فاعتذر ولم يشأ الذهاب لبغضه لكبار الإنجليز وبارح ديار الفرنسيس إلى عاصمة البرتغال فأحسن ملكها وفادته واحتفل لقدومه

احتفالاً شائقا وأهداه نيشان الصليب الأكبر ثم عاد إلى مصر وعاد فى ركابه سليمان باشا.

(مطلب)

فى من هو سليمان باشا الفرنسوى

وقد سمعت بعض الناس يقولون إن سليمان باشا هذا كان فوضويا ميالاً إلى الثورة وقلب هيئة الحكومات فلما اشتهر خبره بين كبار الفرنسيس خافوا منه فأقصوه إلى البلاد البعيدة فجاء هارباً إلى مصر ودخل فى خدمة محمد على باشا وتقلب فى الوظائف العسكرية حتى حاز الرتب العالية والألقاب السامية واعتنق الديانة الإسلامية تزلفا واسترضاء فجعلت أبحث عن ترجمة حاله وأسأل عن صدق أخباره ممن كانوا معه وساروا فى ركابه إلى معامع الحروب ومشاهد القتال فلم أعرف منهم إلا ما عرفه العامة وتحدثوا به وما زلت أبحث حتى عثرت على ترجمته لأحد كتاب الفرنسيس فنقلتها عنه وهى، هو سيف بن أوكتاف جوزيف انتلم الطحان ولد بمدينة ليون من أعمال فرنسا فى أوائل شهر أبريل سنة سبع وثمانين وسبعمائة وألف ميلادية أى سنة إحدى ومائتين وألف هجرية وكان له جد قوى الجأش شديد البأس طاغية قاسى القلب يلقب بالتركى لقساوته وسكون قلبه وكان سيف المذكور مولعاً بالحروب ميالا إلى الغزو والجهاد والخوض فى معامع القتال فلما بلغ السابعة عشرة من عمره سار إلى طولون إحدى أعمال فرنسا ودخل فى خدمة بحريتها متطوعا وأقام بها خمس سنوات ثم نال رتبة وكيل للفرقة الثانية البحرية المدفعية ولبث بها زهاء سنتين ثم تاقت نفسه إلى الانخراط فى سلك الجندية البرية وقد كان مارس حركاتها وتعلم أساليبها وجال فى البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلانتيكى مرات كثيرة وزار جزائر الأرخبيل ثم عاد إلى ليون لجراحة أصابته فى ذراعه الأيسر فى حرب ترافلجار وأقام مع أبويه أياما كثيرة ثم حدث بعد ذلك أن وقع بينه وبين عدوّ له مشاجرة أدت إلى الملاكمة ثم المضاربة فانقض سيف على عدوّه وقتله وفرّ هاربا من ليون إلى إيطاليا خوفاً من العقاب ودخل فى عسكريتها جنديا فى الفرقة السادسة التى كان يقودها الكولونيل باجول ولبث على هذا الحال حينا ولما كان من نظام دولة إيطاليا العسكرى فى ذلك الحين تعليم الفرسان الإيطالية جميع حركات المشاة أيضاً قد تكفل سيف بتعليمهم وأخذ ذلك على عهدته فظهر أمره وكبر شأنه وعرفه الناس فاتسعت شهرته، فلما كانت سنة تسع وثمانمائة وألف ميلادية اختارته الدولة

الإيطالية لأن يكون قائدا لجيوشها التى ساقتها إلى القتال فى واقعة الرين الشهيرة مع دولة الروس فأبلى فى تلك الحرب بلاء حسنا حتى شهد له العدو بالبسالة ومعرفة أسرار الحروب وما زال يقاتل والنصر يلازمه والتوفيق يتقدمه حتى أصيب فرسه فى إحدى المعامع فسقط ميتا وسقط هو على الأرض فأصابه العدو بثلاث طعنات وطلق نارى ثم حمل أسيرا إلى مدينة موسكو عاصمة الروس فلبث بها ما شاء الله حتى شفيت جراحته ونقه من علته واستعرض القيصر أسراء تلك الحرب وعلم بأحوال سيف فمال إليه وامتدح بسالته وجعله وكيل مقدم جميع الفرسان الروسية ثم مقدّم جميع الفرسان فظهر نبله واشتد أمره وحاز نياشين الشرف فى معامع الحروب وكاد أن يسقط فى يد العدو فى واقعة بوزن وقد جرح بجراحة خطيرة ثم شفى منها فقلده القيصر قايمقامية قيادة الجيوش الروسية وفى سنة أربع عشرة وثمانمائة وألف ميلادية افتتح بعض المقاطعات القوزاقية بطريقة لم يسبق لها مثيل ولم يكن ليسمح له بها رئيسه الجنرال بيره فزاد إعجاب رجال حرب الروس به وقدروه قدره ولما طالت غيبة سيف عن الآل والوطن حنت إليهما جوارحه فصار بين إقدام وإحجام حتى علم بونابارته من أمره ما أعجبه فأنفذ إليه بالحضور إلى عاصمة الفرنسيس فلبى إشارته وأتى مسرعا إلى باريز فأكرم بونابارته لقاءه وأدخله فى خدمة الجيوش الفرنسوية فسار سيرة حسنة للغاية وبالغ فى الطاعة وأداء الخدمة حقها واشتهر فى خدمة برينة شهرة عظيمة للغاية فمال إليه بونابارته وأحبه ومنحه رتبة القايمقام، ورافق المارشال جروشى قائد جيوش الفرنساوية فى واقعة وأنزلوا الإنجليزية فنال شهرة عظيمة ثم تغيب عن ساحة الحرب فدارت فى غيبته الدائرة على الفرنسيس فانهزموا شر هزيمة وكان له بعيد ذلك فى حروب المائة يوم المشهورة اليد الطولى فغلب فيها وقهر وفاز وانتصر ونال من العدو وظفر فنال رتبة الكولونيل أى أميرالاى مع نيشان الافتخار، فلما سقط بونابارته عن عرشه وبطلت الحروب بسقوطه عز على الأمير سيف هذا المصاب وحزن على بونابارته حزناً عظيماً واعتزل الجندية ومال إلى الزرع والفلاحة فاستأجر مزرعة فى أراضى الجرنيل وجعل يفلح حينا ثم تاقت نفسه إلى الخوض فى عباب الحروب ومشاهد القتال وكأنه أقسم أن لا يموت إلا شهيد الحرب والجلاد ولما لم يكن بين بلاده وبين دولة أخرى حرب قائمة ترك وطنه ومسقط رأسه وسكنه وسار إلى بلاد فارس وقد كان ملك فارس أخذ ينظم جيوشه يومئذ على ترتيب ونظام جيوش الفرنسيس فمر سيف فى طريقه بالإسكندرية ولبث بها أياماً فأعجبه هواؤها وحن إلى البقاء فيها وعدل عن الذهاب إلى ملك فارس وكان يعرف

بالإسكندرية تاجرا من كبار الفرنسيس فقصده وكاشفه على ما فى نفسه من الميل إلى خدمة محمد على باشا وترتيب عسكره على نسق وترتيب عسكر الفرنسيس وكان محمد على باشا ميالا إلى ذلك جدا فلما علم بأخبار الكولونيل سيف وعرف مبلغ شهرته فى تنظيم الجيوش وتدريب العسكر وتحقق من بسالته وإقدامه وتمكنه من الفنون الحربية مال إليه وأدخله فى خدمته وسلم إليه مقاليد كافة الأمور العسكرية فلاقى من كبار وصغار العسكر الأرنؤد والدلاة وغيرهم من بقية أخلاط العسكر المصرى يومئذ غاية الجفاء والشدة فكانوا يخاطبونه بفحش القول وينادونه بالكافر واشتد بغضهم إليه وكرهوا بقاءه بينهم فألحوا على محمد على باشا بإخراجه من ديار مصر وإلا فهم قاتلوه لا محالة ودسوا إلى جماعة منهم ممن دخل فى نظام العسكر الجديد أن يقتلوه فبينما كان يدرب العسكر يوما ويعلمهم استعمال البنادق أطلق عليه أحدهم بارودته فأخطأته فتغافل الكولونيل سيف عنه ولم يظهر اهتماما بأمره وظل على ما هو عليه من لين الجانب ودماثة الأخلاق وجعل يستميل خصومه ويسامرهم فنجح بعض النجاح ولكنهم عادوا فأطلقوا عليه الرصاص مرة ثانية فلم يصيبوه فتبسم وصاح عليهم لا بأس عليكم يارفاق وددت لو أنكم تحسنون الرماية فيسر خاطرى بكم فلما رأوا ثباته وشدة محبة محمد على باشا له هابوه وخضعوا له فظهرت كلمته واتسعت شهرته ولبث يعلم الجند ثلاث سنين والتوفيق ملازم له حتى ظهرت فتنة أهل المورة وخرجوا عن طاعة السلطان محمود فسير السلطان لإخضاعهم جيشا من خمسة آلاف مقاتل ومقدمه خورشيد باشا صدر الدولة يومئذ وكثيراً من سفن الحرب ومراكب النقل فاستظهرت الروم على الترك ونالت منهم قتلا وتفريقا وأحرقوا سفنهم وكادوا يدمرونها عن آخرها فأنفذ السلطان إلى محمد على باشا فى رابع عشر جمادى الأولى سنة تسع وثلاثين ومائتين وألف هجرية يستنجده على قتال الروم ويمنيه بالأمانى الكثيرة ويخاطبه بعبارات التجلة والتكريم ويلقبه بمبيد طغام الكفار ويعده بضم مورة إلى ولاية مصر إن هو دوّخها وأرجعها إلى الطاعة وكان يوسف بوغوس بيك الأرمنى متوليا يومئذ رياسة الخارجية والتجارة وكتابة سر محمد على باشا فلما اطلع على ما فى فرمان السلطان من عبارات التجلة والتكريم كاد يطير فرحا وتقدم إلى محمد على باشا وهو يقول: ليضع الله بيده القادرة على جبينك الشريف تاج ملك جميع العالم فإنك أهل لذلك يابونابارته أفريقية. فسير محمد على باشا لقتال الروم جيشا ومقدمه الأمير إبراهيم باشا وكان الكولونيل سيف فى هذا الحين قد أسلم واعتنق الدين الإسلامى وسمى سليمان ونال رتبة الباشاوية

فسار مع الأمير إبراهيم باشا وقاتل الروم وأظهر من فنون القتال وأسرار الحرب ما شهدت به الأعداء وبلغت شهرته يومئذ مبلغا عظيما وأحبه محمد على باشا ثم كان منه ما كان فى حروب الشام وآسيه الصغرى وزحفه بالعسكر المصرى على أبواب القسطنطينية وأسره للصدر الأعظم وغيره من كبار رجال حرب الدولة وما أنشأه من القلاع والحصون والمعاقل التى كانت من معجزات فنون القتال وغير ذلك من الأعمال الخطيرة التى قل أن يأتى غيره بمثلها فى ذلك الحين وما زال يتقلب على بساط النعيم فى بحبوحة الهناء حتى مات ودفن ببستان منزله على ساحل النيل بمصر القديمة.

وكان إبراهيم باشا مولعا بالزراعة وفلاحة الأرض فضم إلى أملاكه أجود الأراضى وأخصبها بالإقليمين القبلى والبحرى ورتبها بغرس الأشجار العظيمة وأنشأ معامل السكر والكتان ومطاحن القمح ومعامل النيلة وبالغ فى ترتيبها وبذل النفيس فى إصلاح أمرها حتى زادت غلتها وكثرت محصولاتها ونمت، قالوا: وكان شديد البأس على الفلاحين جافى الطبع حازما مقترا يحاسب على الذرة والبرة ولا يترك لأحد منهم مثقال ذرة فكان أبوه يكره منه ذلك ويعنفه عليه ولا يمكن نفسه من هواها وقد أثرى وكثر ماله فى آخر أيامه كثرة بالغة واتسعت مادة رزقه اتساعا عظيما وخلف ثلاثة بنين هم أحمد وإسماعيل ومصطفى ومات عن عدة زوجات أكثرهن بغير ولد وكثير من الجوارى والحظيات وعمره ستون سنة هلالية فكانت ولايته سبعة أشهر وثلاثة عشر يوما منها ثلاثة أشهر بعد ورود فرمان السلطان إليه بالولاية فتولى الأمر بعده ولد أخيه عباس باشا الأول ابن طوسون بن محمد على باشا.

(مطلب)

(ولاية عباس باشا ابن الأمير طوسون باشا)

كان عباس باشا يوم موت عمه إبراهيم بالديار الحجازية فاراً من وجه عمه إذ كان يمقته كثيراً ويريد البطش به لأمور نقمها عليه وقيل بل ذهب لأداء مناسك الحج والأول أشهر فاستقدموه ورفعوا أمر ولايته إلى دار السلطنة فورد الفرمان بولايته في سابع عشري ذي الحجة سنة أربع وستين ومائتين وألف هجرية فأصعدوه إلى قلعة الجبل فى موكب حافل وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق فلما استقرت به الولاية صرف الكثير من بطانة جده وأبعد أصحاب الوظائف العالية واتخذ له بطانة ممن يعتمد

عليهم ويميل بالطبع إليهم وأقصى أصحاب الرأى وأهل الشورى واختص بقوم غيرهم فسلم إليهم مقاليد الأمور وتدبير مهام الرعية فعملوا لأنفسهم واشتدت فى هذا الحين الفتنة بين قيصر الروس والسلطان عبد المجيد وكبرت الوحشة بين الفريقين.

(مطلب)

وقوع الحرب بين السلطان ودولة الروس ومعاونة الإنجليز والفرنسيس للسلطان على قتال الروس

قال أصحاب التاريخ: وكان سبب ذلك أنه لما كان لدولة الفرنسيس حق حماية جميع الكنائس الكاثوليكية والذب عنها عند الحاجة بمقتضى أحكام المعاهدة التى تمت ما بين الملك لويس الخامس عشر ملك الفرنسيس والسلطان محمد خان سنة ثلاث وخمسين ومائتين وألف هجرية أى سنة أربعين وسبعمائة وألف ميلادية على ما تقدم بك بيانه فى الجزء الثالث من هذا الكتاب، وكانت دولة الروس تكره ذلك وتسعى فى تعضيد جانب جماعة الأرثوذكس وإعلاء كلمتهم فوق كلمة أصحاب الكثلكة لا سيما فى بيت المقدس وتشتد رغبتها كل يوم فى نزع كنائس بيت المقدس من أيدى قسوس الكاثوليك وإعطائها إلى قسوس الأرثوذكس فجعلت تراقب الفرص وتتبين انتفاعها حتى رأت اشتغال دولة الفرنسيس بإخماد نار ثورتها الداخلية ثم بالحروب التى أثارها بونابارته على جميع الممالك الغربية زهاء اثنتين وعشرين سنة بما لا تقدر معه على الذب عن أهل الكثلكة فعمدت إلى نزع جميع ما بأيدي الكاثوليك من تلك الحقوق والامتيازات وسلمتها إلى جماعة الأرثوذكس فتصرفوا فيها واستبدوا بها وغيروا وبدلوا حسب أهوائهم وما زالوا يتصرفون حتى تولى نابوليون الثالث رياسة جمهور الفرنسيس الثانية فرأى من اهتمام أهل الكثلكة بهذا الأمر ما أعجبه وزين له مخابرة السلطان فى إرجاع تلك الحقوق والامتيازات إلى ما كانت عليه حسب المعاهدات والعقود القديمة فطال الأخذ والرد ثم تقررت القاعدة بين الفريقين على انتخاب عمدة من كبار المذاهب وأئمة الدين لينظروا فى مزاعم الخصمين ويقرروا فيها أمرا باتا فأطالت العمدة البحث والتنقيب ولبث الحال على ذلك أياماً كثيرة ثم حكمت برد جميع الكنائس والديارات إلى جماعة الكاثوليك ببيت المقدس وبرد بعض الامتيازات والحقوق الأخرى حسب أحكام المعاهدات القديمة وحررت بذلك صكا فى شهر جمادى الأولى سنة تسع وستين ومائتين وألف هجرية أى فى شهر فبراير سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة وألف ميلادية فعارضت دولة الروس فى نفاذ

هذا الصك وهدد قيصرها السلطان بالحرب والقتال إن هو رسم بتنفيذه وطالب نابوليون السلطان بتنفيذ حكم العمدة ورد ما أخذ من جماعة الكاثوليك وشدد في الطلب فأصبح السلطان وهو بين متطح عنزين ولكنه عاد فرسم بتنفيذ حكم العمدة فقامت دولة الروس وقعدت وكان القيصر شديد الرغبة فى فتح أبواب الحرب والتعجيل فى قتال السلطان وقد أخذ تأهبه لذلك منذ حين فعمد إلى استعمال الشدة وسير إلى دار السلطنة الأمير منشكوف كبير ديوان البحرية الروسية ليكلم السلطان فى عدم جواز العمل بما قضت به العمدة وعدم مس ما بأيدى الأرثوذكس من الكنائس والديارات فوصل إلى دار السلطنة فى ثامن جمادى الأولى سنة تسع وستين، قال بعض الكتاب: فاحتفل للقائه جماعة الروم بالقسطنطينية احتفالا عظيما وبالغوا فى إجلاله وتعظيمه استصغارا بالمسلمين وساروا أمامه وهم فى ضجة وجلبة عظيمتين فنزل فى دار سفير الروس أياما لا يقابل فيها أحدا من رجال الدولة فلما كان العشرون من جمادى المذكور سار إلى مقر صدر الدولة وهو فى زى المسافرين ودخل عليه بلا حشمة ولا تأدب وكلمه فى أمر الكنائس ببيت المقدس وقال إن مولاى القيصر لا يطيق الصبر على ما يلاقيه أهل الأرثوذكسية من أصحاب الكثلكة ولا يسمح بتنفيذ حكم العمدة الدينية وقد سير بى إلى هنا لأكلمكم فى الأمر فإن أنتم فعلتم ما نحب فيها ونعمت وإلا فالسيف يحكم بيننا وبينكم وطير الخبر بذلك إلى القيصر فجعل القيصر يستطلع ما سيكون من دولة الإنجليز إن هو ركب بعسكره لقتال السلطان وسأل سفيرالإنجليز فى ذلك وفيما إذا كانت دولة الإنجليز تعاقده على قتال السلطان «قال» فإذا هى فعلت ذلك وبلغنا المقصود من تقسيم بلاد السلطنة العثمانية وإرجعناها إلى ما كانت عليه من الذل والصغار تساهلت معها وأنلتها أخذ الديار المصرية وجزيرة كريد وتخلصنا جميعاً من مكايد هذا القرم العنيد فخابر سفير الإنجليز دولته فى ذلك فلم تقبل خوفا من استفحال أمر الروس وامتداد شوكتهم فى الشرق ودخول القسطنطينية فى عداد أملاكهم فيشاركون الإنجليز فى ملك البحار ويزاحمونهم على نيل الأوطار.

وكبر ما وقع من سفير الروس على السلطان عبد المجيد واستعظمه فكلم دولتى الإنجليز والفرنسيس فى أمره فتجرد نابوليون الثالث للعداوة وزين لدولة الإنجليز التحالف على قتال الروس وإيقافهم عند حد احترام العهود والعمل بمقتضى المواثيق القديمة وما زال بها حتى مالت إلى الحرب خوفا على هندها فسير فى الحال بعض

سفن الحرب الفرنسوية إلى اليونان فألقت مرساها فى فرضة سلامين إحدى الجزر اليونانية ولبثت تراقب الحوادث ورسمت كذلك دولة الإنجليز إلى سفن حربها الراسية فى مينا مالطة بأن تكون على قدم التأهب والاستعداد وكان الأمير منشيكوف الروسى فى غضون ذلك يتردد على الباب العالى فى طلب تجديد معاهدة خونكار اسكله سى ليكون لدولة الروس من وراء تجديدها حق حماية جميع طوائف الأرثوذكس الذين فى بلاد السلطنة العثمانية فكان السلطان يطاوله ويمنيه بالأمانى البعيدة ثم رسم بإعادة رشيد باشا الصدر المعزول إلى منصب الصدارة وهو من أعداء الروس وأشد رجال الدولة كرها لهم وكان قد خلع من منصبه استرضاء للقيصر ومنعا للدسائس والفتن السياسية فلما تقلد المنصب تجرد إلى الدفاع ووقف فى وجه الأمير منشيكوف وأبى عليه كلما طلبه فاستعظم الأمير منشيكوف هذا الأمر وأنفذ إلى الباب العالى بلاغا فى شعبان سنة تسع وستين ومائتين وألف بجميع مطالب مولاه القيصر وضرب للصدر الأعظم أجلا خمسة أيام فلما انقضى الأجل المضروب أمده بثمانية أيام أخر فانقضت ولم ينل من الباب العالى جوابا، وكان السلطان لما ورد إليه بلاغ الأمير منشيكوف طير خبره إلى عاصمتى الإنجليز والفرنسيس وطلب منهما الوساطة فى الأمر حقنا للدماء فسيرت فى الحال سفنهما الحربية نحو الدردنيل وعلم الأمير منشيكوف بذلك فكتب إلى صدر الدولة فى تاسع عشر رمضان من السنة يعلمه بزحف الجيوش الروسية على حدود السلطنة العثمانية فلما كان خامس عشرى الشهر المذكور جاءت الأخبار باجتياز الأمير كورتشاكوف الروسى بعساكره نهر البرونة واحتلاله مقاطعة الدانوب فسير إليه السلطان من يسأله الجلاء وعدم مجاوزة الحدود فلم يلتفت إلى ذلك ونادى فى عسكره بالتأهب ووردت الأخبار بذلك أيضاً إلى عاصمتى الفرنسيس والإنجليز فاجتازت سفنهما الدردنيل وكان القيصر يؤمل مساعدة إمبراطور النمسا له فى هذه الحرب لما بين القيصر وبينه من العلائق الودية وما للقيصر عليه من الأيادى البيضاء لا سيما بعد قيام الفتنة فى بلاد المجر وخروج أهلها عن طاعته وكان إمبراطور النمسا يخشى عاقبة هذه الحرب ويعلم أن ما وراءها إلا الطامة الكبرى على مملكته إن نالت دولة الروس من السلطنة العثمانية وتم لها النصر فعمد إلى استعمال الموارية وخابر الدول جميعا فى عقد مؤتمر بمدينة ويانا لإصلاح ذات البين ومنع وقوع الحرب بين الطرفين فأجابته الدول إلى ذلك وتم انعقاد المؤتمر فى سلخ ذى القعدة سنة تسع وستين ومائتين وألف هجرية وتقررت القاعدة بين

مبعوثى كافة الدول على حدود وشروط معينة قيل فأذعنت لها دولة الروس راضية على ما فيها من المواربة والتعقيد ولم يقبلها الباب العالى وفضل الحرب على هذا السلم المحفوف بصنوف المكاره فانحل المؤتمر على غير طائل وكان الأمير كورتشاكوف قائد الجيوش الروسية قد تمكن فى خلال هذه الفترة من احتلال ولايتى الفلاق والبغدان والتحصن فى حصونها فأنفذ إليه السلطان بإخلائهما وضرب له أجلا خمسة عشر يوما ورسم إلى عمر باشا مقدم الجيوش العثمانية فعبر الطونة فصارت الحرب بين الفريقين أدنى من قاب قوسين.

واستخف الأمير كورتشاكوف بقدر الجيوش العثمانية التى عبرت الطونة فلم ينجل عن مواقعه وزاد فى التحصن والاستعداد فسار إليه عمر باشا وقاتله قتالاً عنيفاً وطال القتال أياماً ثم انكشف عن هزيمة كورتشاكوف شر هزيمة وجلائه عن معاقله وانتصار عمر باشا نصرة مؤزرة وجاءت الأخبار بذلك إلى دار السلطنة وكان السلطان قد رسم أيضاً إلى عبده باشا أحد مقدمى العسكر السلطانى بالزحف على حدود الروس من جهة بلاد قافقاسية فسار بعسكره حتى اجتاز الحدود وقاتل وأخذ قلعة سان نقولا وانتصر كذلك على الروس نصرة عظيمة واشتد القتال بين الطرفين أياماً ثم توقف بسبب الشتاء وتراكم الثلوج والأمطار فهال القيصر هذا الأمر وأزعجه وكبر خوفه من عاقبة هذه الحرب إن اشتركت فيها أيضاً عساكر الفرنسيس والإنجليز وطلب المدد من إمبراطور النمسا فلم يجبه خوفا من شر العاقبة فسير القيصر إلى دولتى الفرنسيس والإنجليز يسألهما عدم دخول مراكبهما الحربية إلى البحر الأسود وتربصها عند البوغاز وهو يكفل لهما عدم إجراء شيء من الحرب والقتال. قال بعض الكتاب: البحر المذكور لو نزلت فيه مراكب الدولتين لا تتحرك من مكانها أياما وظن السلطان وقوف رحى الحرب حتى ينقضى الشتاء وكان للسلطان عمارة صغيرة بالبحر الأسود راسية فى مينا سانوب فلم يشعر أميرها إلا وقد داهمته مراكب الروس وأحاطت بمراكبه من كل جانب وأطلقت عليها القنابل تباعا فسقط فى أمره واختبل وعز عليه التدبير للخلاص واشتد رمى مراكب الروس وتراسلت القنابل حتى دمرت جميع المراكب السلطانية ولم تبق لها أثرا وجاء الخبر بذلك إلى دار السلطنة فأبلغه الصدر إلى سفراء الدول فجاء الأمر على الأثر إلى السفن الفرنسوية والإنجليزية باجتياز البوغاز ودخول البحر الأسود والتأهب لرد جميع المراكب الروسية عن الدنو من موانىء السلطنة العثمانية فاجتازته وسارت تمخر فى طوله وعرضه وأرسل السلطان إلى عباس باشا يطلب المدد من العسكر المصرى فبعث إليه عباس باشا

بجيش ضخم كامل العدد وأرسل إلى الخزينة السلطانية شيئاً من المال لنفقة الجند قيل وكان يكره نجدة السلطان ويتمنى انفشاله حبا فى الاستقلال بملك مصر والخروج من تابعية السلطنة فلم تساعده الأيام ولم ينل هذا المرام وسارت العساكر المصرية مع العساكر العثمانية وقاتلت وانتصرت فى عدة مواقع كبيرة وأبلت بلاء حسنا ووردت الأوامر من قيصر الروس إلى سفيريه بعاصمتى الفرنسيس والإنجليز بالشخوص إلى عاصمة الروس وقطع العلائق السياسية فانسحبا ووقع الاتفاق بين دولتى الفرنسيس والإنجليز والسلطان على قتال الروس وتقررت القاعدة بينهم على أن تسوق دولة الفرنسيس إلى ساحة القتال خمسين ألف مقاتل من رجالها كاملى العدد وكذلك دولة الإنجليزية تسير خمسة وعشرين ألفا ليتألبوا على القتال ولا ينفكوا عنه حتى تلزم دولة الروس حدودها وتنكف عن القتال صاغرة فإذا تم لهم النصر عادت العساكر الإفرنسية والإنجليزية وتركت الدولة العثمانية وشأنها تتصرف فى بلادها وترتب أمورها على ما فيه مصلحتها فلما كان شعبان سنة سبعين ومائتين وألف هجرية قامت الجيوش الإفرنسية ومقدمها الماريشال دى سنت أرنو والجيوش الإنجليزية ومقدمها اللورد رجلان ومعهم شيء كثير من المؤن والذخائر وآلات الحرب الكاملة على ظهور سفن النقل العظيمة قاصدة دار السلطنة العثمانية فلم تكد تصل إليها حتى قامت الحرب على ساقها بين مراكب الحرب الإنجليزية والفرنساوية وبين قلاع وحصون مدينة أوديسا، قال بعض الكتاب: وتحرير الخبر أنه لما انقطعت العلاقات السياسية بين الأحزاب ودولة الروس جعلت كل دولة منهم تحافظ على كرامة رعاياها وحرمتهم فى بلاد عدوّتها فسيرت دولة الإنجليز بعض السفن الحربية التى لها بالبحر الأسود لنقل قنصل الإنجليز ومن معه من الرعايا الإنجليزيين الذين بمدينة أوديسا فلما اقتربت السفينة المذكورة أطلق عليها الروس الذين بقلاعها المدافع وراسلوا الرمى بالقنابل حتى كادت تدمرها فهربت فهال هذا الأمر أمير السفن الإنجليزية واتفق مع أمير السفن الإفرنسية على الأخذ بالثأر إن لم يعتذر حاكم أوديسا عما وقع ويطلب الصفح ويقوم بالترضية وضربا له أجلا أربعا وعشرين ساعة فلم يلتفت الحاكم إلى ذلك ولم يحل طلبهما محلا فسارت جميع السفن فى شعبان سنة سبعين ووقفت أمام حصون المدينة وجعلت ترمى عليها بالقنابل تباعا حتى دمرتها تدميرا والتهمت النيران جانبا منها ثم تركتها وسارت نحو سباستوبول ودعت مراكب الحرب الروسية للنزال فلم تبرز لنزالها فسارت على الفور بعض السفن الإفرنسية والإنجليزية لضرب جميع الثغور الروسية الولقعة على البحر الأسود فأنفذ القيصر الماريشال بسكيفتش

فى جيش جرار لعبور نهر الطونة فعبره وسار نحو مدينة سلستريا وحاصرها وضيق عليها من كل جانب وأقام على حصارها زهاء خمسة وثلاثين يوما فلم ينل منها وقد كان من بها من العسكر السلطانى لا يتجاوز الخمسة عشر ألفا ومقدمهم موسى باشا وجاءت الأخبار بذلك إلى دار السلطنة فسارت الجيوش المتحالفة إلى وارنه لنجدة موسى باشا ومن معه فمات موسى باشا قبل أن ينجدوه وخاف أمير العساكر الروسية من وصول الجيوش المتحالفة وهو على قدم الحصار فانجلى بعسكره عن المدينة فتبعته العساكر العثمانية وجعلت تتخطف ساقته حتى تجاوز نهر الطونة وما زال يقاتل ويدافع حتى عبر نهر البروت وصار فى مأمن من نيران العسكر السلطانى فعادت بعد ذلك العساكر السلطانية فاجتمع سائر أمراء الجيوش المتحالفة وتشاوروا فى أمر القتال مع العدوّ وكان الطاعون قد تفشى فى حدود السلطنة العثمانية وكثر فيها الموات فاتفقت كلمتهم على النزول على سباستبول ومحاصرتها وعدم الجلاء عنها حتى يدكوا أسوارها دكا وسيروا فى المحرم افتتاح سنة إحدى وسبعين جماعة من المقاتلين من الفرنسيس والإنجليز والترك والمصريين فكانوا زهاء ستين ألفا كاملى العدد فنزلوا عليها ولم يستقرّ بهم المقام حتى التهبت نار الحرب بينهم وبين الروس وعلا ضرامها وانكشفت عن هزيمة الروس ونصرة الفرنساويين نصرة مؤزرة وأخذوا منهم المرتفعات المشرفة على نهر الماء فكانت عندهم من أهم المواقع الحصينة ثم عمدوا إلى فتح مينا بلكلاوا ليجعلوها مأمنا لسفنهم التى كانت تأتى إليهم بالمؤن والذخائر ومعدات الحرب فزحفوا عليها وقاتلوها يومين حتى فتحوها عنوة ودخلوها ثم انكفوا عن القتال أياما فتمكنت فيها جماعة الروس من تحصين سباستبول تحصينا منيعا وبالغت فى ذلك من البر والبحر حتى صارت لا ترام.

وسارت جيوش الأحزاب نحو سباستبول وقد تفشت فيهم الحميات فكثر الموات بينهم وحم الماريشال سانت أرنو مقدمى الجيوش الإفرنسية ومات قبل أن يعيد الكرة على حصون سنباستبول فنقلوا جثته إلى عاصمة الفرنسيس باحتفال زائد وأقاموا مكانه الجنرال كانروبر فحاصروا سباستبول ورموا عليها بالقنابل فى أوائل صفر سنة إحدى وسبعين ولبثوا يراسلون الرمى ليلا ونهارا زهاء خمسة أيام ثم هجموا عليها هجمة رجل واحد فلم ينالوا منها وردوا على أعقابهم خاسرين وتبعتهم طائفة من العساكر الروسية وقاتلتهم قتالاً عنيفا ثم عادت ولم تظفر بهم وطالت أيام الحصار والحرب بين الفريقين سجالا حتى دخل الشتاء فكثر الموات فى عسكر الأحزاب وتفشت بينهم الأمراض فأوقفوا رمى القتال ولبثوا على قدم الحصار فعادت العساكر

الروسية إلى تقوية ما تشعث من الحصون وترميم ما تهدم منها حتى عادت إلى ما كانت عليه من المنعة وخاف رجال سياسة الفرنسيس والإنجليز من اتحاد إمبراطور النمسا مع قيصر الروس على الذب والقتال فتزداد هذه الحرب ويلا وتعظم مصيبتها لا سيما وقد كانوا يرون فى الروس خصما عنيدا وقرما صبورا على القتال فعمدوا إلى استمالة إمبراطور النمسا وحببوا إليه الاتفاق معهم على ما فيه المصلحة لبلاده أيضاً فوافقهم على ذلك وكان بينه وبين فريديك غليوم ملك البروسيا عهد على أن لا يقدم أحدهما على التحالف مع الدول الثلاثة المتحالفة إلا بعد رضا الآخر فخابره أمبراطور النمسا فى ذلك وزين له الاشتراك معه على ما فيه المصلحة لبلاده فلم يلتفت إلى شيء من أقواله فاتفق الأحزاب على مخابرة قيصر الروس فى الصلح وكف القتال على قاعدة هى عدم انفراد القيصر بحماية المسيحيين من رعايا الدولة العثمانية وعدم التعرض لحماية الفلاق والبغدان وإباحة المرور لجميع مراكب الدول فى نهر الطونة وتعديل المعاهدات المتعلقة بالمرور فى بوغازات القسطنطينية لا سيما منها معاهدة سنة سبع وخمسين ومائتين وألف هجرية وكلموا سفير الروس بعاصمة النمسا فى ذلك فطلب المهلة حتى يأتيه أمر القيصر فأمهلوه واشتغلوا بالتأهب والاستعداد لإضرام نار الحرب إذا ولى الشتاء وجاء الصيف وبينما هم على هذا الحال إذ هاجم الروس مدينة أوپاتوريا وكان بها عدد من العساكر السلطانية والعساكر المصرية فاقتتل الفريقان قتالاً عنيفاً وصبر كل فريق على القتال فمات خلق كثير ومات سليمان باشا مقدم العسكر المصرى فى هذه الموقعة ثم انكشف القتال عن هزيمة الروس وردهم على أعقابهم خاسرين ووردت الأخبار بذلك إلى معسكر الأحزاب فأخذوا أهبتهم واستعدوا لمهاجمة سباستبول والإلحاح فى قتالها وأكثروا من جمع الأسلحة والكراع فلم يمض على ذلك إلا أيام حتى مرض القيصر واشتد به مرضه ومات فى جمادى الثانية سنة إحدى وسبعين ومائتين وألف هجرية وشاع خبر موته فظن الناس زوال الفتنة وكف المتحالفون عن القتال فلم يصب ظنهم المرمى إذ تولى الملك بعد موت القيصر المشار إليه ابنه إسكندر الثانى ولم يستقر به المنصب حتى جعل يتأهب للزحف على مواقع الأحزاب ويكثر من حشد الجيوش وإعداد معدات القتال فلما أنس الأحزاب منه ذلك زينوا إلى ملك ساردينا التى هى اليوم مملكة إيطاليا الاتحاد معهم على قتال الروس وما زالوا به حتى سير جيشا عظيما من عسكره إلى حصار سباستبول وتحالف على الذب والقتال فقويت عزيمة الأحزاب وجعلوا يناوشون الروس القتال فكانت بينهم سجالاً ثم تمكنت جيوش الأحزاب من

احتلال مدينة كمريش وبوغاز پريكوب ومدخل بحر أزاق فأتموا حصار سباستبول ومنعوا عنها الواصل واشتد الحال من هذا الحين على الروس فجعلت جيوش الأحزاب توالى الزحف والهجوم على مواقع الروس وتلح فى قتالهم من البر والبحر فانتصروا فى عدة مواقع وأخذوا بعض القلاع والحصون الداخلة فى حدود بلاد القرم ومنها قلعة ملاكوف أخذها الجنرال ماك مهون الفرنسوى عنوة فى خامس عشر ذى الحجة سنة إحدى وسبعين ومائتين وألف هجرية ولما اشتد الحصار على سباستبول وضاقت عليها المسالك وانقطع المدد خرج من كان بها من الروس وأوقدوا فيها النيران فالتهمتها عن آخرها ودكتها دكا فدخلتها عساكر الأحزاب فى ثانى يوم متخوّفة.

ودخل الشتاء فوقفت رحى الحرب بين الفريقين وأحست دولة الروس بالغلبة وعدم القدرة على دفع جيوش الأحزاب بعد خراب سباستبول فعمدت إلى المواربة وتودد القيصر إسكندر إلى أمبراطور النمسا فكلم الأمبراطور الدول المتحالفة فى تقرير قاعدة للصلح والكف عن القتال وحقن الدماء المهدرة بسبب هذه الحرب المشؤمة فأجابته الدول إلى ذلك وقرزوا القاعدة بينهم على ما فيه المصلحة وعرضوها على القيصر فأجابهم إليها وطلب عقد مؤتمر فى باريس عاصمة الفرنسيس لتقرير أمر الصلح نهائياً فأجابوه إلى ذلك أيضاً وانعقد المؤتمر ووالى الاجتماع أياماً حتى تم الصلح بينهم وتسطر فى أربع وثلاثين مادة أصلية ومادة إضافية صار التوقيع عليها من جميع مبعوثى الدول ومبعوث السلطان ثم تقرر بعيد ذلك رفع الحصار عن جميع الموانى والثغور الروسية وانسحاب جميع عساكر الأحزاب من بلاد القرم فى أجل لا يتجاوز الستة أشهر وأن تتجلى دولة النمسا عن ولايتى الفلاق والبغدان فى بحر ثلاثة أشهر وكذلك تنجلى الروس عن مدينة قرص وقلعتها وتردها إلى الأملاك السلطانية فى بحر ثلاثة أشهر وعاد من بقى من العساكر المصرية إلى القاهرة ثم كان بعيد ذلك ما كان من الفتن والإرهاصات الداخلية وخروج بعض الإيالات عن طاعة السلطان ونوالها شبه الاستقلال بتعضيد دول أوروبا لها مما لا محل له هنا خوف الإطالة.

وكثر على باب عباس باشا أصحاب السعاية وأهل الوشاية فأخذ بقولهم وعمل بمشورتهم واشتدت رغبته فى معرفة أحوال جميع الناس وأسرار أصحاب البيوتات فانفذ لذلك جماعة فكانوا يأتون إليه بالأخبار المقلقة والحوادث المكدرة ليباعدوا بينه

وبين الناس فتطير وأخذ حذره وأكثر من شراء المماليك الجلب والإماء السود وأقام طوائف الترك على بابه يحرسونه نهارا وطوائف المماليك يخفرونه ليلا وكان شديد البغض لأهله وعمومته وعلى الخصوص منهم أولاد إبراهيم باشا فضيق عليهم وشدد وبالغ فى تنكيلهم فضبط أرزاقهم وحبس غلاتهم وشرد أتباعهم وحاشيتهم وأقصى القائمين بإشغالهم إلى سنار وفيزوغلى وأقام عليهم الدعاوى الطويلة حتى ضاق بهم الخناق فكانوا لا يحصلون على طعام يوم لحبس أرزاقهم وانكمشوا وقل ظهورهم بين الناس خوفا من اشتداد الفتنة ورميهم بالتهم الكاذبة ومع ذلك فقد كانت عيونه وأرصاده لا تفارق أبوابهم ساعة ووقع بينه وبين عمه الأمير محمد سعيد من النفرة والشحناء ما لم يبق معه إلا القتال فادّعى على عمه الدعاوى الكثيرة واتهمه بالخروج وشق عصا الطاعة واتهم أعيان البحيرة وبعض مشايخ عربان أولاد على بنجدته فأعمل فيهم القتل والتشريد والتبعيد إلى أقاصى السودان وبالغ فى تخريب دورهم ومحو آثار منازلهم فاختفى من بقى منهم ونزحوا إلى الشام والحجاز وألزم عمه بالمكث فى الإسكندرية وعدم دخوله القاهرة وبث حوله العيون والأرصاد فضاقت على الأمير محمد سعيد المذاهب واستنجد ببعض رجال الدولة وكبار النزلاء من الأجانب فلم يفلح لشدة بأس عباس باشا وعظم هيبته فى نفوس الناس على اختلاف طبقاتهم واشتدت بعباس باشا الطيرة فاحتجب عن الناس ومال إلى سكنى البيداء والجبال فابتنى له قصرا بالدار البيضاء بطريق السويس وآخر بسفح الجبل الأحمر خارج باب الحسينية سماه العباسية نسبة إلى اسمه فكان إذا ذهب إلى أحدهما أقام به أياماً لا يصل إليه إلا المقربون من قومه وابتنى مبانى أخرى كثيرة كالحلمية وغيرها بمنيل شيحه ورسم ببناء دار بظاهر بركة الأزبكية بجوار جامع الكيخيا فشرعوا فى العمل وبدؤا ببناء السور من الحجر الأحمر وجمعوا لذلك البنائين والنحاتين والحجارين والخشابين والفعلة ووكل بهم جماعة من الترك يحملون العصى والأسواط فكانوا يسومون أولئك العمال الخسف ويذيقونهم مضض التعذيب وكان ذلك على عهد ولاية جده محمد على باشا فاتفق أن مر الأمير إبراهيم باشا يوما بالأزبكية فسمع من صياح العمال وجلبتهم ما أدهشه فسأل عن ذلك فقيل له أنهم عمال فى بناء الدار التى ينشئها الأمير عباس فسار نحوها فرأى من كثرة أولئك العمال وما يقاسونه من تعذيب الموكلين بالعمل ما هاله وأحزنه فسير فى الحال إلى الأمير عباس من يعلمه بترك هذا العمل وصرف أولئك العمال بالتى هى فخاف

الأمير عباس وصرفهم وترك البناء فى ذلك المكان ولم يتم منه إلا بعض السور من الجانب الشرقى فرسم الأمير إبراهيم يجعله مناخا للجمال المرتبين لخدمة الدولة وبقى كذلك إلى أيام إسماعيل باشا ابن إبراهيم باشا فأزاله وأنشأ فى جانب منه النزل المعروف باللوقاندة الجديدة وأمر ببيع الباقى منه فصار الآن من أحسن الدور وأرفعها بناء وأنظمها ترتيبا وتنسيقا، وكان شديد البغض للأجانب جبارا على الرعية سهل الانقياد لبعض حاشيته والمقربين إليه ميالا إلى الوشاية وإيقاع الفتنة بين أصحاب الوظائف حذرا من تآلفهم واتحادهم على ما يخشاه وكان مثل الخليفة المعتصم بن هارون الرشيد فى الإكثار من شراء المماليك ووقوفهم على بابه وتزيينهم بأفخر الملابس وكان يركبهم جياد الخيل بالسروج المطهمة وأنشأ فرقة منهم ومن أبناء بعض الناس بلباس مخصوص على زى الجند سماها الأورطة المفروزة فكانوا هم حراس أبوابه وكان مع شدة بطشه وعدم أغضائه عن الصغائر كثير التخيل لا يمكن أحدا من الدنو منه حيثما سار فكان يمشى وحوله طوائف الترك فإذا رابهم من أحد ريبة فى طريقهم مالوا عليه وأوجعوه ضربا بالسياط والعصى وربما قتلوه وكان يحب المكث عند عرب الهنادى بالشرقية، قال جماعة: وتزوّج بإحدى بناتهم وكانت غاية فى الجمال وعندى أنها فرية ما أنزل الله بها من سلطان، وقال آخرون بل سلم جماعة منهم ولد له ليربوه على طباع أهل البادية فلم يعش ومات وهذه هى الحقيقة بلا مراء وكان قربه منهم باعثا لهم على التمرد والشقاوة فأذلوا أهل الشرقية وتطاولت أيديهم إلى سلب أموالهم ونهب زروعهم ومواشيهم فلم يكن الرجل من أصحاب الزرع ليأمن على ماله ولا على عرضه ولم يقفوا عند هذا الحد بل ضربوا على أصحاب الزروعات المغارم والكلف الفادحة من مال وغلال فإذا تعذر جمعها عاثوا فى البلاد وأهلكوا الحرث والنسل وكان عباس باشا يدفع بهم كل قليل من الزمان إلى قتال عربان البحيرة لميلهم إلى عمه الأمير محمد سعيد ثم لم يلبث على موالاتهم طويلا حتى عاد فغدر بهم وأهلك كبارهم وشرد نساءهم ونهب زروعاتهم على يدى رستم بيك مدير الشرقية فلم تقم لهم بعد ذلك قائمة، وأبطل فى يوم واحد جميع معامل القطن والكتان والأقمشة والأجواخ والحرير والمقصبات التى أنشأها جده محمد على باشا وشرّد من كان بها من الصناع والعمال، قال بعض الكتاب: وقد تم ذلك بإغراء من الجنرال ميرى قنصل جنرال الإنجليز فكان فعله هذا من أشد الفعال المحزنة لقلوب أهل البلاد فقد كانت هذه المعامل على ضخامة آلاتها وقلة معداتها والاعتماد فى

حركتها على الدواب لعدم ظهور استعمال البخار يومئذ وتعذر وصولها إلى حد الكمال التى هى عليه المعامل اليوم كافلة باحتياجات البلاد وقد أحيت من الصنائع ما أماتته الأيام وأذهبه جور الحكام وأعادت لمصر بعض رونقها القديم وسهلت على أهل البلاد سبل الكسب والتعليم فعاش فى ظلها العدد العديد وترامت آمالهم فيها إلى المرمى البعيد ولو بقيت إلى يومنا هذا لكان لها من الشهرة ما يغنى البلاد عن كثير من المصنوعات الأجنبية على اختلافها وأمست وهى مهبط الرزق للصانع فيها والمتجر فى مصنوعاتها ولكنها أصبحت فلم تكن شيئاً مذكوراً.

ولما كانت سنة خمس وستين ومائتين وألف هجرية تقدم إليه قنصل جنرال الإنجليز فى تحجير الطريق من باب الحسينية إلى مدينة السويس تسهيلا لنقل السوّاح من الإنجليز الذين كانوا يأتون من السويس على عجلات كانت تجرها الخيل فرسم بذلك وقيد بعض الترك بهذا العمل فأفحشوا فى الجور وإيذاء خلق الله حتى أتموه فى عهد قريب، وعمر فى سنة ست وستين مسجد السيدة سكينة وعمل على الضريح مقصورة من النحاس الأحمر وجدد كذلك جامع العشماوى بشارع العشماوى بالأزبكية فأعجب ذلك أهل القاهرة ومصر واستحسنوه منه وتقدم إليه الجنرال ميرى قنصل الإنجليز فى إنشاء خط حديدى أيضاً بين الإسكندرية والقاهرة وسلك تلغرافى كذلك وألح عليه وكرر الطلب لتسهيل المواصلات بين عاصمة الإنجليز وهندها وما زال به وهو يمنيه بالأمانى البعيدة حتى رسم بإنشائهما فكان مدّحور الخط فى تاسع عشرى ذى الحجة سنة سبع وستين ومائتين وألف هجرية، وحجت أمه فخرجت من القاهرة فى كبكبة عظيمة وسارت مع ركب الحج وأمام هودجها الجند وخلفه الخدم والحشم والغلمان والأتباع فلما دخلت المدينة أنفقت وفرقت من الغلال شيئاً كثيرًا وفعلت كذلك بمكة وغيرهما وعادت إلى القاهرة فأولم لها الولائم العظيمة وأطعم وكسى أولاد المكاتب والأيتام وتصدق على بعض المساجد وأضرحة الأولياء وأقام المقرئين والفقهاء يتلون القرآن فى دارها أياما وزارها جميع الأمراء والكبراء وأصحاب البيوتات العالية من النساء وقدموا لها الهدايا والتعابى النفيسة.

وكان كثير التساؤل عن مستقبل الأمور ثابت الاعتقاد فى صحة الكهانة والعرافة والزايرجات فأدنى منه جماعة من أصحابها وقربهم وسألهم عما يكون فى أيامه من الحوادث والكوائن وما سيقع إليه من خير أو شر فأبهموا عليه الأمر فهددهم فقالوا

إنا نخاف عليك من رجل طويل القامة أسمر اللون فى شكل كذا وكذا قيل فاضطرب وزاد خوفه من جميع الناس وأمر بالدجالين وأصحاب الزابرجات فجمعوهم وأقصوهم إلى أعالى السنار والدارفور فتطاولت عند ذلك أيدى أعوانه إلى خيار الناس من كل ملة فكان صاحب الوجاهة لا يشعر إلا وقد كبس داره جماعة من الترك فيحملونه مقيدا بالحديد إلى حيث لا يدرى ويرجعون فيبحثون عما فى داره من كتب وأوراق ويأخذون كل ما وصلت إليه أيديهم من حلى ومتاع فكثر لذلك أصحاب السعاية واشتد الخوف بالناس فانكمشوا وقل اجتماعهم وأوجس كل من صاحبه بل ومن خادمه أو خادمته إذ كان من المحتم على كل خادم أن يبلغ شيخه فى كل يوم أخبار بيت سيده من قيل وقال وما دخل إليه من مأكول ومشروب وملبوس وغير ذلك فلا يشعر صاحب البيت إلا وهو بين يدى صاحب الشرطة يسألهُ عما قاله فى ليلته أو فعله فى صباح يومه فإذا أنكر أتى إليه بألف دليل من أسرار بيته وعورات أهله وولده فكان إذا أغضب المخدوم خادمه أو أغلظ عليه فى القول وشى به عند صاحب الشرطة فتكون عليه الطامة الكبرى، وكان يحب اقتناء المعزى والنعاج وكبار الكباش للمضاربة والحمام والسباع والفيلة والضباع وجياد الخيل وكان شديد العناية بها ينفق عليها أموالا كثيرة ويرسل خواصه للإتيان بها من أقاصى البلاد كالهند والعراق واليمن ونجد وبغداد وكان شديد البغض للنصرانية ناقما على النصارى لا سيما منهم أهل البلاد فأخرج الكثير منهم من خدمة الدولة ومنع من استخدامهم وبالغ فى تذليلهم وأتى للمباشرين منهم بطائفة من الأحداث الأغرار وأبناء المكاتب فجعلهم فى وظائفهم وألزمهم بتعليمهم وتدريبهم وضرب لهم أجلا فاختل نظام المصالح الديوانية وتطرق الفساد إلى جميع الأعمال وكسدت حرفة القلم وتحقرت، قيل: واشتد به البغض للنصارى حتى دبر أمر إخراجهم من وطنهم وتبعيدهم إلى أقاصى السودان وأرسل إلى الأستاذ الشيخ الباجورى شيخ الإسلام يومئذ يسأله فى ذلك فلما جلس الشيخ قال له أسألك أمرا لا تكتمه علىّ قال وما هو ياأمير قال: إنى أقصد تبعيد النصارى كافة من بلادى ومقر حكومتى إلى أقصى السودان وقد دبرت لذلك تدبيرًا فما قولك قيل فقطب الشيخ وجهه وقال أى النصارى تعنى ياأمير إن كنت تعنى الذميين الذين هم أهل البلاد وأصحابها فالحمد لله لم يطرأ على ذمة الإسلام طارىء ولم يستول عليها خلل حتى تغدر بمن هم فى ذمته إلى اليوم الآخر وإن كنت تعنى النصارى الفرنجة النازلين فى بلادك فإنى أخاف

إذا فعلت بهم شرا أن يحل ببلادك ما حل بالجزائر من الفرنسيس، قيل فغضب عباس باشا ونادى خذوه عنى فقام الشيخ وهو يقول أى ويعلم الله أى ويعلم الله، وكان إذا أبغض أحد من بطانته آخر أيا كانت درجته قال له أن فلانا (يريدخصمه) فيه شيء من الأوصاف التى قال عنها فلان صاحب الزايرجة وفلان صاحب تخت الرمل فلا يشعر ذلك المبغوض إلا وقد دخل عليه طائفة من الترك فيأخذونه إلى حيث لا يعود فكان الرجل أية كانت وجاهته يقضى بياض يومه فى حساب ما سيكون فى سواد ليله فكان إذا غضب على أحد غضب الناس كافة عليه فلا يقترب منه الرفيق ولا يكالمه الصديق خوفا من العيون فأشتد الخوف بالناس إلى حد القنوط واليأس.

قال أحد كتاب الأخبار: فتجردوا للعداوة وابتهلوا إلى الله وتوجهوا إليه بقلوبهم واتفق أنه خرج من القاهرة فى شوال سنة سبعين ومائتين وألف هجرية ونزل بقصره ببنها العسل على النيل كعادته وهو قصر قد أنشأه على مقربة من تل تريب قيل موضع قصر المقوقس عظيم قبطة مصر وأقام به أياما مع بطانته وكثير من الخدم والحشم والأتباع وطائفة من الغلمان فلما كانت ليلة ثامن عشر شوال من السنة تآمر أولئك الغلمان على قتله فدبروا الأمر وأحكموا التدبير وتولى قتله أربعة منهم وقيل ستة والأول أصح فقاموا عليه وهو بفراشه فقتلوه وخرجوا من ساعتهم يوهمون أنهم إنما خرجوا يريدون القاهرة لأمر أشار به عباس باشا وتركوه وباب حجرته مغلق عليه فطلع النهار وارتفع وصار الظهر قريبا ولم يدر أحد بما جرى عليه واتفق أن مر فى ذلك اليوم ببنها أحمد باشا يكن يريد بالذهاب إلى إقطاعاته بالمنصورة فلما علم بوجود عباس باشا بقصره نزل للسلام عليه وطلع إلى الديوان وسأل عنه فقيل له أنه نائم فلبث ينتظره ساعة حتى أذن الظهر ثم قرب العصر ولم يظهر خبر فأوجس أحمد باشا خوفا وقال دلونى على حجرة نومه فدلوه عليها فطرق بابها فلم يجبه أحد فتابع الطرق ثم أمر فكسروا الباب ودخلوا فإذا هو ملقى على فراشه فأمر من كان معه بكتمان الخبر واستدعى كبير الخصيان وقال له الباشا يأمر بذهاب جميع النساء إلى القاهرة فى هذه الساعة فنزلوا ونزل رجال ديوانه الخاص وجميع الخدم والحشم والأتباع وجماعة الغلمان وأبقى معه جماعة وألبس عباس باشا ثيابه وأعد عربته ولم يعلم بالخبر إلا القليل فلما أذنت العشاء أنزلوه من حجرته حملا على الأيدى وأجلسوه فى عربته كأن به مرضا وجلس معه أحمد باشا وساروا إلى القاهرة

فى الكبكبة المعتادة وأنزلوه بمقره بالحلمية وأصبحوا وقد شاع الخبر بموته وتناقله الناس فلم يصدقوه وكان عمه الأمير محمد سعيد بالإسكندرية محجورا عليه فوردت عليه فى صباح ذلك اليوم رسائل التهانى وأرسلوا إليه يستقدمونه وتشاغل الناس عن جنازة عباس باشا حتى المقربون إليه والعائشون فى نعمته وأبطؤا فى دفنه فلم تخرج جنازته إلا بعد الظهر وكان اليوم شديد القيظ فسارت جنازته فى نفر من خواصه وبعض الجند ومرت من الغورية فالنحاسين والناس فى دهشة لا يصدقون بموته ثم طيروا الخبر إلى محمد سعيد باشا واستقدموه ليولوه الولاية فرحل عن الإسكندرية يريد القاهرة فكانت ولاية عباس باشا زهاء خمس سنوات رحمه الله.

(مطلب)

(ولاية محمد سعيد باشا ابن ساكن الجنان الحاج محمد على باشا الكبير)

لما ورد الخبر إلى الأمير محمد سعيد باشا بموت عباس باشا قيل: إنه اندهش وكاد أن لا يصدقه لولا ترادف رسائل التهانى عليه من كل فج وصوب فجمع إليه قناصل الدول وسار بهم من الإسكندرية يريد القاهرة فعلم فى الطريق أن ألفى باشا أحمد أخصاء عباس باشا تعاهد مع أمير جند قلعة الجبل على غلق أبواب القلعة ومنع سعيد باشا من دخولها واستقدام الأمير إلهامى ولد عباس باشا من الديار الأوروباوية وكان قد سافر إليها من أيام وتحالفا على ذلك فلما دخل سعيد باشا القاهرة لاقاه جميع رجال الدولة وأصحاب الوظائف العالية والعلماء والمشايخ وساروا فى ركابه إلى قلعة الجبل ومعه قناصل الدول وبعض كبار الأجانب ففتح لهم أمير جندها الأبواب وقابله الجند بالسلام وانطلقت ألسنتهم بالدعاء إليه ودقت البشائر وطيروا الخبر بولايته إلى الآفاق ففرح الناس فرحا عظيما قيل فلم يمض على ألفى باشا بياض يومه ذلك حتى مات غما وقيل خوفا مما فعل فتولاها الأمير محمد سعيد باشا ابن محمد على باشا فى عشرى شوال سنة سبعين ومائتين وألف هجرية أى سنة أربع وخمسين وثمانمائة وألف ميلادية فلما استقرت به الولاية وجاءه فرمان السلطان أحسن التدبير وأحكم السياسة ورتب أمور البلاد على ما فيه المصلحة لأهلها ورد جميع الأطيان التى كانت أعطيت إلى كبار المأمورين وأرباب الدولة على عهد إبراهيم باشا وعباس باشا إلى أصحابها من الفلاحين وأبطل الكثير من المكوس

والمغارم والضرائب الفادحة وأزال البدع والمظالم والأحدوثات التى كادت تدمر البلاد منذ ولاية إبراهيم باشا ورتب الخراج ورفع المتأخرات والبقايا من الأموال الأميرية عن الفلاحين ورد المتشردين منهم إلى أوطانهم وأمن الطرق وسهل سبل التجارة فراجت أسباب الزراعة واتسع نطاقها وعلت الأسعار فأثرى الفلاح وحسن حاله واتسعت مادة رزقه فأسرف وبالغ فى السفه حتى لم يبق ولم يذر.

وكان يحب الجندية ويعجب بها جداً فبالغ فى تنظيمها وأكثر عدد رجالها وألبسهم الملابس الفاخرة وسلحهم بالأسلحة المتقنة وجمع إليهم من أبناء جميع البلاد وأنشأ طائفة من السود فكانت على أكمل هيئة وأجمل نظام فكان إذا سار إلى بلد سار جميع الجنود فى ركابه وخلفها المكاحل والمدافع ودواب الحمل كأنها زاحفة للحرب والقتال وإذا عاد عادت على هذه الصورة من الكبكبة ونزلت بالخيام ظاهر القاهرة ومصر القديمة أو دخلت إلى منازل الجند كقصر النيل وطرا والجيزة وغيرها فلم يستقر بها المقام حتى يأتيها الأمر بالرحيل إلى مريوط أو أدفينة أو بنى سويف أو غيرها فكانوا دائماً على قدم الأهبة والاستعداد لا تفتر لهم همة ولا تخمد لهم عزيمة وكان مع حبه للجند وشدة تعلقه بهم شديد البطش فتاكا بمن تقع منه صغيرة أو كبيرة من العسكر فكانوا كأحسن عساكر الدنيا طاعة وخفة ونظاما وملبسا ومأكلا ومشربا.

(مطلب)

عصاوة عربان منية ابن خصيب وما جرى لهم

وظهر فى أيامه عصيان عربان منية ابن خصيب فركب عليهم بخيله ورجله وأعمل فيهم القتل والتشريد. قال بعض كتاب الأخبار: وكان سبب خروجهم عن الطاعة أنه أراد أن يأخذ منهم جماعة ليدخلهم فى مصاف الجند فيكون لهم ما لهم وعليهم ما عليهم وأنفذ إلى مدير منية ابن خصيب بإحصائهم فجمع المدير كبارهم وأصحاب الرأى منهم وكلمهم فى الأمر فامتنعوا وقالوا لا سبيل إلى ذلك ونحن وعيالنا متعهدون بخفر الدروب والجبال منذ ولاية محمد على باشا الكبير إلى هذا الحين فلا يصح إدخال أولادنا فى مصاف العسكر وإذهاب ما بأيدينا من الحقوق المعطاة لنا من ذلك العهد فراجعهم المدير فى ذلك فامتنعوا فألح عليهم فتجافوا وخاطبوه بفحش القول فأمر بهم فعوّقوهم ورفع أمرهم إلى محمد سعيد باشا فأغضبه ذلك قيل وكان يبغضهم بغضا شديدا لميل عباس باشا إليهم وتحريضهم على

قتال عربان أولاد على نكاية بسعيد باشا كما تقدم القول فأنفذ إلى مدير منية ابن خصيب يقول لا سبيل إلى غير ما سيرت به إليك فإياك والتقاعس وإهمال هذا الأمر فشدد المدير فى الطلب وألح على أولئك المشايخ فطلبوا مهلة فأمهلهم وسرحهم وضرب لهم أجلاً فساروا وتحصنوا بالجبل الشرقى ولم يرجعوا إليه وجاء الخبر بذلك إلى محمد سعيد باشا فكاد يتميز غيظا ونادى فى عسكره بالرحيل إلى منية ابن خصيب وبنى سويف فساروا وركبوا على أولئك العربان وقاتلوهم أياما كثيرة فترفع العربان إلى الجبل الشرقى وبعضهم إلى الجبل الغربى فتبعهم الجند وأعملوا فيهم القتل فقتلوا منهم خلقا كثيرا وسبوا النساء والأولاد والبنات وأتوا بهم إلى مدينة الفيوم وبنى سويف فكانوا يعطونهم إلى أصحاب البيوت كالإماء والعبيد وقبضوا على كبارهم وأصحاب الوجاهة منهم وأودعوهم السجون وكان الجند إذا كبسوا حيا من أحياء أولئك القوم وجدوا البيوت قاعا صفصفا ليس فيها إلا ما ثقل حمله وبخس ثمنه فيأخذونه فإذا ابتعدوا عنها قليلاً وجدوا الأطفال مطروحين مثقلين بالرمل كى لا يقدرون على الزحف فيموتون حيث وضعتهم أمهاتهم فكانوا يأتون بهم إلى بنى سويف والفيوم وغيرهما ويعطونهم إلى أهل الخير فيكفلونهم وكان أولئك العربان على عهد عباس باشا واسعى الكلمة عظيمى الصولة كبيرى الإهابة فعاثوا فى البلاد وأفسدوا وأهلكوا الحرث والنسل وأمر سعيد باشا فأعملوا فيهم القتل والشنق والتمزيق بنيران المدافع وأباحهم لجميع المديرين لا سيما يعقوب بيك مدير بنى سويف فأفحش فى قتلهم وبالغ فى البحث عنهم وتتبعهم أينما ساروا وخرب منازلهم وشرد من بقى منهم إلى أقاصى الشام والحجاز فأختفى من لم يتمكن من الفرار فى القرى والكفور وتزيا بزى العامة والفلاحين وتكلم بكلامهم وترك ما يلتزمه العرب فى كلامهم من الترخيم وكسر آخر الكلم وقد كان الفقير منهم يأنف من مخالطة أهل البلاد ومكالمتهم ويحسب ذلك عارا ومذلة فصار الكبير منهم لا يرى السلامة إلا بالألتجاء إلى أصغر بيوت الفلاحين، وأشتد الخوف بأهل الفساد واللصوص وقطاع الطريق فأختفوا فأمنت السبل وسلكت المسالك وأشتدت يقظة أهل البلاد فأقاموا الخفراء على الحدود ورؤوس الطرق والمسالك وارتفع الخوف عن الناس فكانت المرأة تأتى من مريوط إلى أقاصى الصعيد الأعلى برا من غير رفيق فلا تجد فى طريقها من يعترضها فى مالها أو عرضها أو يسألها من أين أو إلى أين وكبرت هيبة سعيد باشا فى أعين أهل البلاد كافة فانكفوا عن إيذاء بعضهم وعكف كل على مهنته وحرفته وصنعته فحسنت حالهم وكثرت أموالهم وغزرت مادتهم

ونمت زروعاتهم ودرت الأرزاق فأكلوا وشربوا وشبعوا ولبسوا ما لم يأكلوا ولم يشربوا ولم يلبسوا فى أيامهم الغابرة، ونظر إلى مستقبل موظفى الحكومة وأرباب الدولة فرتب لهم قانونا كافلا لمعاشهم إذا تقاعدوا عن الخدمة ورسم فى خامس ربيع الثاني سنة إحدى وسبعين بالعمل بمقتضى هذا القانون فكان من أكبر النعم وأجل المزايا التى لا يعادلها شيء عند جميع موظفى الدولة وهو معمول به إلى يومنا الذى نحن فيه حتى أصدر إسماعيل باشا قانونه الجديد فنفذ حكمه على من كانت خدمته فى مصالح الدولة ودواوينها تالية لتاريخ صدور ذلك القانون، وأنشأ القلعة القائمة على بناء القناطر الخيرية وسماها بالقلعة السعيدية ووضع أساسها بيده فى ثالث عشرى جمادى الآخرة من السنة وبالغ فى تنظيمها حتى جاءت من أحسن المبانى وأتقنها وقد زالت محاسنها وتشعث بعض بنائها فازالها اليوم جماعة الإنجليز ولم يبقوا منها حجرا على حجر، ولما كان شهر رمضان من السنة ظهرت الهيضة بالقاهرة ومصر واشتدت فكثر الموات فى الناس كثرة بالغة ولبث الحال على ذلك أياما فبلغ عدد من أحصى ممن مات نيفا وخمسة آلاف نسمة وأما من لم يحص فكثير ثم ارتفع واطمأنت القلوب وعاد من هاجر من أهالى القاهرة ومصر فرارا من الموت، وأعاد سعيد باشا بعض ما أبطله عباس باشا من المعامل والمدارس الملكية والعسكرية واستقدم العلامة رفاعة بيك من منفاه بالديار السودانية حيث كان أبعده عباس باشا لوشاية الواشين وسلمه مقاليد تلك المدارس فأفلحت وتخرج منها الكثير من أبناء البلاد.

وقدم فى ولايته الشهير فردينانديلسبس الفرنسوى إلى القاهرة وكلمه فى حفر خليج يصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر مبتدئا من مدينة السويس إلى ما يجاور الاشتوم المعروف باشتوم الجمل على ساحل البحر الأبيض المتوسط وألح على سعيد باشا فى ذلك فاستكبر سعيد باشا هذا العمل وعده رابع المستحيلات وطاول ديلسبس ومناه فاشتدت عزيمة دى لسبس وشدد فى الطلب وأكثر التردد على مقر سعيد باشا وتواردت على سعيد باشا الرسائل تترى بعضها طعنا فى أعمال دى لسبس وبعضها استهزاء بمشروعه وسخرية به. قال أحد الكتاب: وأكثرت دولة الإنجليز من التنديد بهذا العمل الخطير واندفع أصحاب صحف أخبارها يسلقون دى لسبس بألسنة حداد ويبالغون فى الهجاء والسخرية فمنهم من سماه سيزوستريس القرن التاسع عشر ومنهم من قال بل هو إسكندر المقدونى ابن فلبس ومنهم من قال هو عمرو بن العاص فاتح مصر الذين تقدموا فى أيامهم إلى إيصال البحرين ببعضهما ولم يبق

لعملهم أثر على ما كان لهم من بُعد الصيت واتساع الكلمة وتذليلهم للصعاب ومع هذا كله لم ينثن لديلسبس عزم ولم تفتر له همة وثابر على الإلحاح فوعده سعيد باشا ومناه فرفع إليه فى ثانى عشرى صفر سنة إحدى وسبعين ومائتين وألف هجرية كتابا يقول فيه:

يامولاى - لقد طالما اشتغل عظماء العالم بأسره لا سيما ملوك مصر الأولين بأمر إيصال البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط وقد أثبت التاريخ ما قيل عن سيزوستريس فرعون مصر الشهير والإسكندر المقدونى وقيصر ملك رومية وعمرو بن العاص وبونابارته ووالدك محمد على باشا أنهم قد بذلوا جهدهم فى سبيل انجاز هذا المشروع الخطير وقد تم لبعضهم ما أراد فأوصلوا البحرين ببعضهما بواسطة ترعة تمرّ بالنيل وبقيت هذه الترعة مدة غير طويلة فى منتصف القرن التاسع قبل الهجرة المحمدية ثم علاها التراب فطمها وامتنع جريان الماء بها فتعطلت وبطل نفعها ثم قام بعضهم بعيد ذلك وأعاد هذا الاتصال فبقى زهاء أربعمائة سنة وخمس وأربعين سنة فى أيام خلفاء الإسكندر المقدونى على ديار مصر ولبث الحال على ذلك إلى القرن الرابع قبل الهجرة المحمدية ثم علاها التراب وطمها حينا حتى دخل عمرو بن العاص مصر بجيوش المسلمين فأخذ بأطراف هذا الأمر العظيم ونهض إلى استرجاع ذلك الاتصال ففاز ونجح وجرى الماء فيه فعبرته السفن مائة وثلاثين سنة ولقيام الفتن وتوالى البلايا والمحن علاه التراب فطم وامتنع سير السفن منه.

ولما دخل الشهير بونابارته بجيوشه ديار مصر وشاهد بعينى رأسه موقع ذلك الاتصال ودّ لو استطاع إرجاعه فينال شهرة عظيمة لا يمحوها كرور الأيام والسنين وعمد إلى تشكيل عمدة من كبارالمهندسين وأماثل علماء الآثار وأتى بهم من الديار الأروباوية لينظر فى انجاز هذه الأمنية وسألهم إذا كان فى الإمكان إرجاع ذلك الاتصال بشرط أن لا يمر بالنيل فأجابوه إلى ذلك ورفع إلى مقامه أحدهم الموسيو لوبير تقريرا عما ظهر لهم من البحث والتنقيب وما يحتاجه هذا العمل الخطير من النفقة فلما اطلع عليه بونابارته صاح قائلا أنه لعمل يستحق مزيد العناية والاهتمام ويجب علىّ إنجازه ولكن من أين لى النفقة الآن ويدى خالية فعسى أن يأتى يوم تعود فيه السلطنة العثمانية إلى سابق مجدها وغناها فتعيد ذلك الاتصال فيخلد ذكرها على ممر الأعوام فها قد آن يامولاى الأوان وجاء اليوم الذى قال عنه الشهير بونابارته نعم إن العمل خطير ولكن انجازه سيكون داعيا إلى ظهور شأن السلطنة العثمانية ورفعة كلمتها واتساع شهرتها فتقطع ألسنة القائلين بقرب سقوطها وزوال

مجدها ويرجعون فيعلمون أنها ما برحت صاحبة الكلمة المسموعة والقول الذى لا يرد ويخلد لها الذكر الحسن فى بطون التواريخ الجامعة لحوادث المدنية والعمران، ولا خفاء أن اجتماع دول أوروبا على الذب عن الآستانة وحفظها مقرا للسلطنة العثمانية والذود عن ذمارها ورغبتها فى بقاء السلطنة المشار إليها زاهية زاهرة موفقة معززة قوية على خصومها وقيامها لنصرتها عند أى حادث بالنفس والنفيس وركوبها على عدوها لقتاله وارجاعه إلى الطاعة والخلود إلى السكون إنما هذا كله نظراً لما لبوغاز السويس من خطارة المركز وأهمية الموقع الذى يفصل ما بين البحرين وحذرا من وضع يد إحداهن عليه فتصبح هى المالكة المتسلطة على بقية الديار فتنتقض المساواة وتختل الموازنة المتفق عليها بين الدول الغربية التى يهم العالم بأسره حفظها بين الدول الكبرى، ولعمرى إذا كان البوغاز المذكور هو سبب تكاتف سائر الدول على معاونة السلطنة العثمانية والاهتمام بأمرها فكيف بها لو جعلت مصر مركز العالم بأسره ومحط رحال التجارة وطريق العالمين الغربى والشرقى بالجمع بين البحرين فلابد وأن يزداد شأنها علوا وقدرها خطارة ومقامها أهمية لدى أهل السياسة إذ تصبح مفاتيح العالم بأسره فى يدها ولا خوف عليها فأنه متى تم حفر ذلك الاتصال قام جميع الدول بجعله حرا مباحا للجميع سواء وجعلته تحت رعاية الدولة العلية دون سواها إذ هى صاحبة الدار، وقد كان الموسيو لوبير من نحو الخمسين سنة قدّر عدد الفعلة اللازمين للعمل فى الاتصال المذكور بعشرة آلاف وضرب لهم أجلا لانجازه زهاء أربع سنين وقوّم ما يحتاجه من النفقة بقيمة ثلاثين أو أربعين مليونا من الفرنكات وقال أنه يمكن اتصال البحرين بواسطة ترعة على خط مستقيم وأما الموسيو طلابوت الذى سبق انتدابه لهذا الغرض ضمن الثلاثة المهندسين المشهورين الذين سيرت بهم الجمعية الفرنسوية التى تأسست بفرانسا من نحو العشر سنين للنظر فى هذا الموضوع فقد تراءى له جعل الترعة المذكورة واصلة من مدينة السويس إلى الإسكندرية بحيث تمر بالنيل على القناطر الخيرية وقدر للنفقة على هذا العمل مائة وثلاثين أو مائة وأربعين مليونا من الفرنكات ونحو عشرين مليونا أخرى لعمل مينا ورصيف بمدينة السويس وأما لينان بيك الموظف بخدمة الحكومة المصرية الموكول لعهدته منذ ثلاثين سنة حفر الترع وتقوية الجسور ونحوه فقد اشتغل بأمر البحث عن إعادة الاتصال المذكور بحثا مدققا مع ما هو عليه من الدراية والخبرة المشهود له بهما فى جميع الدول فتراءى له صلاحية مدّ ترعة بحيث تمر ببحيرة التمساح وأن يعمل

بالبحيرة المذكورة مينا ترسى فيها السفن الآتية من بيلوز التى هى آتية إلى البحر الأحمر أو من السويس إلى البحرالأبيض المتوسط وكذلك العلامة الشهير كاليس بيك مهندس الحصون والقلاع المصرية على عهد المرحوم أبيك قد كان رفع إلى أبيك رحمه الله مشروع حفر ذلك الأتصال على شكل خط مستقيم وعمل له رسما عن ذلك بقلم العلامة لينان بيك المشار إليه وموجيل بيك مهندس أشغال القناطر الخيرية والكبارى والجسور المصرية وما من هؤلاء إلا وكان يطنب لوالدك المبرور فى مدح هذا العمل وما ينجم عنه من الفوائد الجمة وفوق ذلك فأنه فى سنة أربعين وثمانمائة وألف ميلادية استدعى الكونت دى والوسكى الذى كان وقتئذ نزيل الديار المصرية الموسيو كاليس المومى إليه وكلمه فى أمر هذا الاتصال فرفع إليه كاليس تقريرا بما يراه ولكن قد حالت يومئذ دون انجاز هذا المشروع موانع لا وجود لها اليوم.

ولما كان من الواجب علينا أن ندقق البحث ونمعن النظر مع التأمل فى جميع آراء أولئك العلماء الأفاضل والمهندسين الأماثل مع مراعاة أن هذا المشروع المهم قابل للانجاز على أحسن حال وأتم منوال لزمنا أن نختار منها أسدّها وأصوبها وأقواها حجة وبرهانا فنعمل به وليعلم مولاى حفظه الله أن الموانع والمرابك والعقبات التى طالما أقلقت القدماء وأضعفت عزائمهم وحالت بينهم وبين انجاز هذا العمل الجليل قد زالت اليوم وهب أنها لم تزل باقية بعضها أو كلها فإن تحمل الصعاب مع الصبر والجلد فى سبيل انجاز هذا الأمر الخطير لهو من أوجب المواجب بل من أسمى المطالب بقى إذا علينا أن ننظر فى أمر النفقة وهذه أيضاً ليست بالأمر البعيد فأنه لا يصعب على أولى الحزم والعزم حل عقدتها على أحسن ما يرام إذ ستكون إيرادات ذلك الاتصال أضعاف أضعاف ما سينفق عليه وعلى ذكر هذه المسئلة الثانوية فليسمح لى مولاى أدامه الله بأن آتى إليه بالبيان الآتى بعد فيتضح لسموّه أن المصاريف التى يحتاجها عمل ذلك الاتصال لا تعد شيئاً فى جانب الفوائد المهمة والمنافع الجمة المترتبة على إعادته فضلاً عن كونه سيقصر المسافة الواقعة ما بين الهند وآسية وبين أوروبا وأمريكا وهذا البيان قد سطره الأستاذ الشهير والجيولوجى الماهر الموسيو كورديه.

أشهر مين أوروبا وأمريكا	المسافة ما بين المين المذكورة إلى بومباي		الفرق بين الطريقين بالفرسخ
	من المحيط الأطلانتيكي	من طريق الاتصال الجديد	
قسطنطينية	٦١٠٠	١٨٠٠	٤٣٠٠ بالفرسخ
مالطا	٥٨٠٠	٢٠٦٢	٣٧٧٨ بالفرسخ
تريستا	٥٩٦٠	٢٣٤٠	٣٦٢٠ بالفرسخ
مارسيليا	٥٦٥٠	٢٣٧٤	٣٢٧٦ بالفرسخ
كاديش	٥٢٠٠	٢٢٣٤	٢٩٧٦ بالفرسخ
يسبون	٥٣٥٠	٢٥٠٠	٢٨٥٠ بالفرسخ
بوردو	٥٦٥٠	٢٨٠٠	٢٨٥٠ بالفرسخ
هافر	٥٨٠٠	٢٨٢٤	٢٩٧٦ بالفرسخ
لوندرا	٥٩٥٠	٣١٠٠	٢٨٥٠ بالفرسخ
ليفربول	٥٩٠٠	٣٠٥٠	٢٨٥٠ بالفرسخ
آمستردام	٥٩٥٠	٣١٠٠	٢٨٥٠ بالفرسخ
سان بطرس برج	٦٥٥٠	٣٧٠٠	٢٨٥٠ بالفرسخ
نيويورك	٦٢٠٠	٣٧٦١	٢٤٣٩ بالفرسخ
نيوفيل أورلانس	٦٤٥٠	٣٧٢٤	٢٧٢٦ بالفرسخ

ولقد وافق على هذا التقدير سائر المهندسين وأجمعوا على دقة ضبطه وقرروا بأنه يهم جداً سائر بلاد أوروبا وأمريكا والهند والعالم بأسره إعادة هذا الاتصال، وليعلم مولاى أن لا عمل في بلاده أكبر خطارة ولا أعظم فائدة ولا أجل شأنا من هذا العمل العظيم فليعمل مولاى على ذكر اسمه فى مصاف أولئك الذين تملكوا على ديار مصر وينجز هذا المشروع فى أيامه فيزدان حكمه بما لم ينله غيره من قبل

وتسعد الأمة المصرية فتتجه نحوها الأبصار وتمد إليها الأعناق وينادى باسم مولاى فى سائر أنحاء المعمورة ويخلد ذكره فى بطون التواريخ وينال من الشهرة ورفعة القدر ما لم ينله الفراعنة الذين شادوا الأهرام والهياكل الضخمة التى لا فائدة فيها للنوع الإنسانى كالفائدة المترتبة على إعادة ذلك الاتصال وإنما هى مبان تدل على القدرة البشرية التى سخرت كل نوع لحذقها وإظهار مجدها، ومن فوائد هذا الاتصال العظيمة التى لا ينكرها مكابر تسهيل طريق الحج إلى بيت الله الحرام وتعلق الناس بفن الملاحة وتسيير السفن وإتقان السباحة فى أرض البحار فيتسع نطاق التجارة وتنفتح أبواب الرزق على أهل البلاد المصرية ويعم نفع ذلك جميع البلاد الواقعة على ساحل القلزم وخليج العجم وشرقى أفريقيا ومملكة سيام وشنشين واليابان ومملكة الصين البالغ عدد سكانها زهاء أربعمائة مليون فضلا عن جزائر فيلبين وأوستراليا وجميع جزاير البحر الأبيض المتوسط التى هاجر إليها الكثير من الأوروباويين فتجرى المواصلات بينها جميعها وتسعد حالها.

هذا ولقد ظهر من الإحصاءات المدققة أن ما تنقله السفن الأوروباوية فى كل سنة عن طريق رأس الرجاء الصالح ورأس هارون لا يقل عن الستة ملايين طونلاطة فإذا سارت هذه السفن بطريق خليج العجم وترعة السويس المراد إنشاؤها زاد نقلها عن ذلك زيادة عظيمة وكان الدخل المتحصل منها زهاء المائة وخمسين مليونا من الفرنكات باعتبار عشرة فرنكات عن كل طونلاطة وربما زاد الدخل عن ذلك كلما انتظم سير السفن بالترعة المذكورة وحسنت الملاحة فيها، ويجب مراعاة أن إعادة هذا الاتصال بين البحرين يهم جدا دولة الإنجليز التى هى سيدة البحار وأغنى سائر العالم مالاً وأكثرهم تجارة وأكبرهم رغبة فى تقريب الاتصالات التجارية ولكن بعض أهل السياسة يقولون أن إعادة هذا الاتصال تضر جداً بمصالح الإنجليز وتحط بها لأنها تقرب العالم بعضه إلى بعض وتوسع نطاق ملاحة جميع الدول على أن الإنجليز لا يحبون تقدم غيرهم فى شىء من ذلك البتة ويميلون إلى أن يروا أنفسهم السابقين فى كل شىء والرابحين لكل شىء ولذا أصبح هذا البحث الدقيق الشغل الشاغل لكثير من أهل السياسة وكان من أكبر الأسباب الباعثة على تأجيل الشروع فى هذا العمل الجليل ولو تأمل أصحاب هذا الرأى فيما جاء فى المعاهدات التى أبرمت بين دول فرنسا وانجلترا والباب العالى فى هذا الشأن لتحققوا أن الأمر على غير ما يتوهمون وعلموا أن دولة إنجلترا تملك أهم وأعظم بوغازات العالم بأسره مثل جبل طارق ومالطا وجزاير الأرخبيل وعدن وغير ذلك فى الهند وسنجابور وأوستراليا فلا

يضر بشىء من مصالحها إرجاع ذلك الاتصال فإذا سمح مولاى بالأخذ بأطراف هذا العمل لا يسع دولتى الفرنسيس والإنجليز إلا الإذعان والموافقة على حفر مستطيل لا يتجاوز طوله ثلاثين فرسخا ولعمر الحق من ينظر إلى شكل هذا المستطيل على خريطة نظرة التأمل ولا يهيم شوقا إلى رؤياه برزخا يجمع ما بين البحرين أما مدّ خط حديدى من مدينة الإسكندرية إلى مدينة السويس كما تمنت ذلك الدولة الإنجليزية وسعت جهد الاستطاعة وراء الحصول عليه فهذا لا يأتى بالفائدة المطلوبة إلا إذا كان المراد منه مساعدة الملاحة فى الاتصال المذكور.

وإذا نظرنا إلى دولة النمسا فلا نراها تبدى اعتراضنا على هذا العمل لأنها أباحت حرية الملاحة فى نهر الدانوب والسوبليانا فلا سبيل لها إلى غير الإذعان والقبول وكذلك دولة المجر لا ترى فى هذا العمل سوى زيادة أهمية مينا تريستا والبندقية وجعلهما من أهم مين العالم التجارية فنعم به السعادة والرفاهية أهل بلادها ويتسع عندها نطاق التجارة والصناعة فلا تجد بدا من معاونتنا وهى على أتم ما يكون من حسن الرضا والقبول، وإن قيل أن دولة الروسيا لا ترضى عن ذلك العمل قلت هذا لا يكون لأنها تودّ ظهوره وهى الآن فى غناء عن أن تعارضنا لا سيما وجلالة قيصرها قد فاز بكل ما تاقت إليه نفسه فافسح لكل بلاد دخلت فى دائرة حكومته طرق التمدن والعمران فإذا تم عمل هذا الاتصال كان له نور على نور فينفذ قومه إلى أقاصى الهند بأصناف المتاجر والبضائع فتنفتح لهم أبواب الرزق وتسعد أحوالهم وكذلك تزداد العلائق يوما عن يوم بين الولايات المتحدة الأمريكية وبين الهند والصين وتزداد مواصلات أسبانيا مع جزائر الفليبين وهولاندا مع جافا والصومال وبرنيو ودولة إيطاليا الشهيرة قديماً مع اليونان وبالإجمال يسر العالم بأسره سرورا عظيماً يوم يعم خبر الشروع فى هذا العمل العظيم، وإنى أعد مولاى حرسه الله بأنى سأبذل جهد المجتهد فى الحصول على معاونة جميع هذه الدول وأقوم خير قيام بوفاء وعدى والسلام.

فاستحسن سعيد باشا هذا المشروع وأحله محل القبول وبعد التأمل والبحث الطويل أجاب الموسيو ديلسبس إلى الأخذ فى أسباب عمل الاتصال المذكور وأنفذ إليه إجازة تتضمن اثنتى عشرة مادة بصورة العمل وما يحتاجه من العمال وما يتبع فى حق الأراضى الواقعة على شاطىء الاتصال المذكور وكيفية المساهمة والمشاركة فى الأموال اللازمة للنفقة والأرباح الناتجة من الملاحة فيه وفى تسمية شركة لذلك

وتعيين عدد المساهمين وغير ذلك من الشروط والالتزامات التى يستلزمها هذا العمل العظيم، ولما كان لا يتأتى الجزم بالشروع فى هذا العمل عقب إعطاء هذه الإجازة للموسيو ديلسبس إلا من بعد مخابرة دار السلطنة العثمانية فى ذلك والحصول على رخصة البراءة السلطانية أو عز سعيد باشا إلى الموسيو دى لسبس بالشخوص إلى دارالسلطنة ليخابر صدر الدولة فى هذا الأمر فسار إليها فكان بينه وبين الصدر الأعظم أخذ وردّ أياما كثيرة وورد مرسوم الصدر الأعظم إلى سعيد باشا باستحسان المشروع وحلوله محل القبول لدى أمير المؤمنين ولزوم التأنى والتروى فيه قبل إنفاذه وأنه صار من ذلك اليوم موضوع نظر رجال الدولة ومبحث أرباب الحل والعقد وأنه قد تصرح للموسيو ديلسبس بالشخوص إلى حيث شاء حتى يأتيه أمر السلطان.

وجاء المسيو ديلسبس إلى القاهرة غير قانط ولاضعيف الأمل ولبث بها أياما يغدو ويروح على مقر سعيد باشا ثم سار إلى بلاد الفرنسيس ليعدّ المعدات ويجمع المال للنفقة فكثر تحدث كبار الدول فى هذا الأمر واندفعت أصحاب صحف أخبارهم تبدى وتعيد كل حسب ما تمليه عليه أهواؤه وما يلائم مصلحة بلاده ووقف الوشاة على باب السلطان يدسون الدسائس ويحركون ما فى صدور أهل الحل والعقد ويعملون على إبطال هذا المشروع فلم يكن بأسرع من أن عاد ديلسبس ومعه جماعات المهندسين والرسام والبنائين والغواصين وصناع الآلات ومعلمى طبقات الأرض والمعادن وشرعوا فى العمل فرسم محمد سعيد باشا فى سادس عشر ذى القعدة سنة اثنتين وسبعين ومائتين وألف هجرية بتسخير زهاء عشرين ألفا من أهالى البلاد بالمناوبة فى حفر ذلك الاتصال ووكل مديرى الجهات بجمعهم وتسييرهم فكانت شدة عظيمة للغاية ونال مشايخ القرى والبلاد من أهلها فأذلوهم وتمكن العدوّ من عدوه وشمت الغريم بغريمه وكادت تتعطل أسباب الفلاحة إذ هاجر الكثير من أهل البلاد ونزحوا من أوطانهم فرارا من هذه المحنة الكبرى، وسار ديلسبس فى العمل سيرا حثيثا غير مبال بعدم رضا السلطان ولا هياب من العاقبة وفرق العمال على طول خط الاتصال من بيلوز على البحر الأبيض التى على أرضها الآن مدينة بورسعيد إلى مدينة السويس فتبعهم الباعون على اختلافهم وأصحاب القهاوى والحانات وأهل الخلاعة والقصف فعمرت تلك الأصقاع وصارت آهلة بأخلاط الناس من الروم والترك والفرنجة والمصريين وغيرهم ممن جاء من البلاد البعيدة فى طلب الرزق واهتم رجال الدولة باستتباب الأمن فى تلك الأنحاء فرتبوا لها العسس

والشرطة لا ينكفون عن التطواف ليلا ولا نهارا وقام سعيد باشا بجميع تعهداته التى تعهد بها إلى ديلسبس ماديا وأدبيا فاندهش العالم بأسره وكان من وراء ذلك ما سيتلى عليك فى محله إن شاء الله.

وبينما كانت الأحوال على ما يرام والقلوب مطمئنة والفتنة راقدة إذ جاء الخبر بزحف نجاشى الحبشة على بعض الأملاك المصرية الواقعة على الحدود وشنه الغارة عليها وأنه نهب أهلها وساق مواشيهم وأسر منهم خلقا فهال سعيد باشا هذا الأمر وأزعجه فجند جندا عظيما لقتال النجاشى وعزم على لقائه وكان إلى هذا الحين لم يرتق كيرولس بطرك المتأصلين مسند البطريكية بل كان مطرانا ووكيلا للدار البطريكية بعد موت بطرس البطرك وكان بين كيرولس ونجاشى الحبشة مودة وصحبة قديمة على عهد بطرس فإنه كان سفيرا من قبل بطرس إلى النجاشى وقد نزل فى جواره أياما كثيرة، والحبشان يجلون بطارقة القبط ويخضعون لسلطتهم الدينية خضوعا عظيما ويعتقدون أن البطرك إنما هو أقرب جميع المخلوقات إلى نوع الملائكة والأرواح العلوية من أنواع البشر ولذلك لا يقربون من مقامه ولا ينظرون إليه فإذا نظروا اضطرارا فبطرف خاشع مطرق، وبعد أن تأهب سعيد باشا للمسير للقاء النجاشى عاد فحسب ما وراء هذه الحملة فخاف العاقبة وظهر أن ماء النيل آخذ فى الهبوط فى غير أوانه فخاف الناس وترامت ظنونهم إلى المرمى البعيد فسلك سعيد باشا فى الأمر مسلك التأنى وشاور أصحاب الفكر فأشاروا بإنفاذ رسل إلى النجاشى يكون كيرولس مطران المتأصلين صاحب الكلمة بينهم فأعجب سعيد باشا رأيهم وكلم كيرولس فى الأمر فأجابه إلى ذلك فرسم سعيد باشا فجهزوا له باخرة من بواخر النيل فركبها مع رجال الوفد وترفعوا نحو الصعيد الأعلى فكانت إذا مرت باخرتهم بإحدى المديريات أطلقوا لها المدافع إجلالا وتعظيما وأنزلوا فيها أصناف المأكول والمشروب ثم ركبوا الهجن والجمال حتى بلغوا حدود الحبشة وعلم النجاشى بقدوم كيرولس ومن معه فخف للقائهم وسار إليهم فى أربعين ألفا من الجند فلما اقترب من المحلة التى كانوا بها ترجل وسعى على أقدامه حاسر الرأس فقام كيرولس للقائه فقبل النجاشى يديه وقبل كيرولس رأسه وسار معه والجند حوله حتى دخل مجدلة تخت الملك يومئذ وشاع خبر مجيء كيرولس فى جميع أرض الحبشة ففرحوا فرحا عظيما ودقت البشائر وأقيمت الصلاة فى جميع الكنائس وبالغ النجاشى فى إكرامه وقد كان يتمنى لو أنه يراه كى يمسحه ملكا على جميع ملوك الحبشة كما

كانت تمسح أبناء بنى إسرائيل ملوكهم حسب ناموس موسى عليه السلام وكان إلى هذا الحين لم يعتبر النجاشى نفسه ملكا على سائر ملوك الحبشة إذ هو لم يمسح بتلك المسحة فلم يستقر بكيرولس المقام حتى سأله النجاشى أن يمسحه فأجابه إلى ذلك وضرب له أجلا فوفدت جميع ملوك الحبشة والأمراء وسائر قواد الجند والوجهاء والأعيان من أقاصى الحبشة إلى مجدلة وأقيمت الولائم والأفراح فى كل صوب وحدب أياماً ثم مسحه بين الملوك والأمراء وقواد الجند وصفوف العسكر والعدد العديد من أهل البلاد وفرح ثيودوروس النجاشى بذلك فرحاً لا يوصف وكان فى مجدلة نفر من الإنجليز مرسلين من الجمعية المعروفة بجمعية التبشير بالإنجيل لبث تعاليم مارتين لوثر الدينية بين الحبشان وقد تقربوا من النجاشى بعمل المدافع وصنع الأسلحة لعسكره وتعليمهم فنون الحرب والقتال حتى مال إليهم وأحبهم وأباح لهم التجول فى جوف البلاد فجالوها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا وبثوا تعاليمهم حتى كادت تعم تقاليدهم جميع البلاد وأصبحوا وقد عبثوا بطقوس الكنيسة القبطية التى هى أم الكنيسة الحبشية فكبر هذا الأمر على مطران الحبشة وخشى العاقبة فعمد إلى إيقاف هؤلاء المرسلين عند حدهم فلم يفلح وقدكبر شأنهم واتسعت كلمتهم واشتدت الوحشة بينهم وبينه فلما جاء كيرولس شكى إليه المطران مما تلاقيه الكنيسة من أولئك القوم وسأله أن يتقدم إلى النجاشى فى تبعيدهم عسى أن تزول من البلاد تقاليدهم فأجابه كيرولس إلى ذلك ولما تمت الأفراح بمسح النجاشى ورجع من حضر من الملوك والأمراء والقواد والجند إلى أوطانهم كلم كيرولس النجاشى فى سبب قدومه عليه من مصر وسأله أن يردّ ما أخذه من بلاد مصر وأن يقلع عما يفعله فى الحدود منعا لقيام الحرب بين الحبشة ومصر وحقنا للدماء التى حرم الله سفكها فأذعن النجاشى وأجابه إلى كل ما طلبه ورسم فكتبوا إلى سعيد باشا يعلمونه بقبول ما طلبه كيرولس بغير شرط ولا تقييد ففرح كيرولس بذلك وكلمه أيضاً فى أمر المرسلين الإنجليز وزين له تسييرهم إلى أوطانهم فقال إنما هم عندى لعمل المدافع وتدريب عسكرى على القتال فقال كيرولس لم يبق موجب لبقائهم وقد زال ولله المنة والحمد ما كان بينك وبين والى مصر من الوحشة والنفور فإن كنت فى حاجة إلى صناع لآلات الحرب أو إلى من يدرب عسكرك أتيت لك من مصر بمن لا تحتاج معهم إلى غيرهم فقال النجاشى هذا ما أبغيه ثم رسم بإخراج من كان فى البلاد من جماعة الإنجليز فأخرجوهم وقد علموا بالسبب فشق عليهم الأمر جداً واستعظموه وصمموا على الأنتقام.

وكتب كيرولس إلى سعيد باشا يعلمه بما جرى ويسأله أن يسير إليه بطائفة من الصناع والمعلمين وعلم قنصل جنرال الإنجليز بمصر بالخبر فعمد إلى الأخذ بالثأر والانتقام من كيرولس جزاء ما فعله بجماعة المرسلين فدخل على سعيد باشا بمقره وقال قد علمت أن كيرولس مطران القبط سأل مولاى أن يبعث إلى نجاشى الحبشة ببعض صناع آلات الحرب ومعلمى الجند فقال قد كان ذلك قال ولا أظن أن مولاى يجهل أن عند القبط كتابا يعتقدون صحة ما فيه وهو يدلهم على زحف الحبشة على أرض مصر فى يوم معلوم عندهم فيأخذونها عنوة قال لا علم لى بذلك ولعله حديث خرافة فقال القنصل هو كذلك ولكنى أتقدم إلى مولاى فى أن يأخذ حذره من كيرولس فأنه داهية طاغية قوى المراس بعيد الفكر محتال قال الراوى لهذا الحديث وما زال بسعيد باشا حتى تمكنت منه الظنون وترامت إلى المرمى البعيد وجمع إليه رجال ديوانه وأهل الدولة وشاورهم فى الأمر فأشاروا بالقتال وإعداد الجند والعسكر فرسم بالتأهب والاستعداد وكتب إلى كيرولس يعيب عليه ما فعله ويقول قد أفرطت وتجاوزت حد المصالحة فعجل بالحضور، وقام فى جيش عظيم قاصدا الخرطوم فوصلها فى سادس عشرى جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف هجرية، قال الراوى فلما تمت حيلة الإنجليز بقيام سعيد باشا بعسكره إلى حدود الحبشان دسوا إلى النجاشى من أعلمه بأن قدوم كيرولس إلى بلادك إنما هو لمنعك من إعداد جندك وآلات حربك لتذب عن مملكتك من إغارة والى مصر وقد أتى إلى السودان ليركب عليك بخيله ورجله فيأخذ ملكك ويذهب سلطانك وأنت آمن مطمئن وقد سير إليك أيضاً مع كيرولس كساء مسمم النسيج حتى إذا لبسته تسمم جسدك ومت من يومك وكان مع ما أتى به كيرولس من الهدايا والتحف النفيسة والتعابى الثمينة برنس من الجوخ الأحمر المزركش بطراز الذهب والفضة والحرير الملون فهال النجاشى هذا الأمر وأزعجه جدا وأنفذ من يستكشف له خبر مجىء سعيد باشا إلى الخرطوم فجاءه الخبر بوصول جيش عظيم من المصريين فكبر خوفه وتبدلت أفراحه أتراحا وأمر بكيرولس فسجنوه فى مقره وأحاط به الحراس من الجند ومنعوا من الدخول عنده ووكل به جماعة من خواصه يراقبونه فى الليل والنهار لمعرفة أحواله واستطلاع أسراره ووكل جماعة آخرين بطعامه وشرابه وضيق عليه وشدد وكيرولس لا يعلم بالخبر ولا يدرى ما هذا الأمر ثم لم يلبث أن نادى فى عسكره بالخروج وكثرت المناداة فى كل يوم فخرجت طوائف الجند مشاة وركبانا

فكانت شيئاً كثيراً للغاية وصاروا على قدم الرحيل إلى حيث يلتقون بالعدوّ، ورأى النجاشى أنه إذا ترك كيرولس معتقلا وسار بعسكره للقتال تمكن كيرولس من الخروج فيمسح أحد بيت الملك أو أحد كبار قواد الجند ملكا فتذهب سلطته وتسقط بيعته وتخرج عليه الملوك والقواد فيصبح بين منتطح عنزين فعزم على أن لا يتركه فكان إذا سار من بلد إلى آخر ساقه معه فى حلقة من الحراس ونفر من الخواص وإذا نزل بعسكره للراحة استدعاه وجعل يؤنبه ويعنفه بفحش الكلام ويقول أو هذه فعالك ياإمام النصرانية فشق هذا الأمر على كيرولس وأحزنه جداً وأخذ فى التدبير فكان كلما كلموا الملك فى أمره زاد غضبا وغيظا فلبث كيرولس على هذه الحال من الشدة أياماً طوالا إلى أن تمكن من لقاء أم الملك وكانت تقية صاحبة دين وورع فشكى إليها ما يلاقيه من ولدها وقص عليها خبره واستجار بها وسألها أن تعلم ولدها بحقيقة الحال فأجابته إلى ذلك وكلمت النجاشى واستحلفته أن يجمع إليه رجال دولته ويشاورهم فى أمر كيرولس فلم ير بدا من طاعتها وجمع كبار قومه ورجال دولته وقص عليهم ماعلمه من أمر قدوم كيرولس إلى البلاد ثم أمر بحضوره فاستحضر فسئل عن سبب حضور سعيد باشا إلى الخرطوم بعسكره وسبب وضع الكساء المسمم بين الهدايا التى قدمها إلى الملك فوقف بين أيديهم والدمع ينحدر على لحيته وبالغ فى بيان الحقائق وأكثر من مدح سعيد باشا وبالغ فى إخلاصه وولائه للنجاشى وجميع قومه وما زال يستميل القلوب بحسن إبداعه حتى بش الملك وزال عنه بعض الغضب فقال كيرولس: وأما الكساء فهو هدية الباشا إليك أيها الملك العظيم فلا يأخذنك ريب فى أمره ولا تصدق ما أخبرك به الوشاة وما أنا إلا أخلص الناس فى الأمانة وأقرب إلى طاعة الله فلا آخذ بالوجوه ولا أبيع الآجلة بالعاجلة فإن كنت فى ريب من أمر هذا الكساء فأذن لى حتى ألبسه ما شئت من الأيام فيتحقق لك الأمر فاستحسن الملك مقالته وأمر بالكساء فأتوا به وألبسوه إياه على لحمه ووكل به من يحرسه يومين كاملين فلم يصبه ضرر فاستغرب الملك من ذلك وأمر فجىء برجل محكوم عليه بالموت فألبسوه الكساء ووكل به من يحرسه ثلاثة أيام فلم يصبه شىء البتة فالتفت الملك إلى قومه وقال: ماذا تقولون قالوا: هى فرية ما أنزل الله بها من سلطان وقد أسأنا إلى كيرولس فليجعلنا فى حل مما وقع فقال: بقى علينا أن نسأله إرجاع سعيد باشا إلى مقره فإن فعل شكرناه وكنا له من المحسنين ثم أرسل إلى كيرولس فدخل عليه فأجله وأجلسه بجانبه فقال: هل لك أن تكتب إلى سعيد باشا

بالانحدار بعسكره إلى تخت بلاده ويكفينا وإياه شر القتال فإن فعلت ذلك شكرناك واستغفرنا عما سلف قال: سأفعل الساعة إن شاء الله وكتب من فوره إلى سعيد باشا يعلمه بما جرى ويسأله الانصراف عن الخرطوم تتميما لقاعدة الصلح التى تقررت مع النجاشى وسير بالكتاب مع نفر من كبار الحبشان فلما ورد الكتاب على سعيد باشا رحل بعسكره عن الخرطوم وكتب إلى كيرولس، قد رحلنا عن الخرطوم إلى القاهرة فبلغوا عنا الملك خالص المودة وأعلموه أنا ما زلنا على حسن الولاء والمحبة، فعاد الرسل بالجواب ففرح كيرولس فرحا لا يوصف وقام ودخل على الملك فلاقاه الملك وهو حاسر الرأس حافى الأقدام وانكب على يديه يقبلهما فقبل كيرولس رأسه وسامحه وأمر الملك فدقت البشائر وأقيمت الأفراح وأولمت الولائم ونودى فى العسكر بالخروج فخرجوا أفواجاً ومروا بالمكان الذى كان به كيرولس والنجاشى وصاحوا بأصوات التهليل وأمر النجاشى فجيء إليه بورقة العهد الذى رسم بعقده مع سعيد باشا فوقع عليها وهو بين كبار قومه ورجال دولته وأرسلت والدة النجاشى إلى كيرولس هدية نفيسة للغاية وكذلك الأمراء وكبار القواد وزاروه وقبلوا أقدامه وتزاحمت على بابه أقدام المهنئين وأتوا إليه من كل صوب وحدب ثم استأذن الملك فى الشخوص إلى مصر فجهزه بمال وأرسل معه كثيرا من الهدايا النفيسة وسير معه وزيرا من كبار وزرائه وكتابا إلى سعيد باشا فلما وصل كيرولس إلى الإسكندرية قوبل بغاية الاحتفاء والاحتفال وأنزلوا وزير النجاشى بدار الضيافة الخاصة وقد رفع إلى سعيد باشا كتاب الملك والعهد والهدايا ولبث أياماً كثيرة لم ير فيها سعيد باشا غير المرة الأولى ثم استأذن بالانصراف فأذن له وأرسل معه بعض الهدايا والتحف وجوابا إلى الملك.

وأحس كيرولس بعيد رحيل وزير النجاشى بغيظ محمد سعيد باشا منه وإعراضه عنه فكبر عليه ذلك وتردد على مقر سعيد باشا لعله يعرف شيئاً من الأمر فلم يتمكن فصمم على العزلة حتى تنجلى الحقيقة ويظهر الصدق لذى عينين، واتفق بعد أيام أن خرج كيرولس إلى دير أنطونيوس بالجبل الشرقى ومعه بطركا الروم والأرمن الأورثوذكس ليقضوا فيه أياماً ترويحا للنفس فلما وصلوا بلدة بوش على مقربة من بنى سويف نزلوا بعزبة الرهبان أياماً حتى تأتى القافلة فيخرجوا معها، قال الراوى لهذا الحديث: وعلم قنصل الإنجليز بخبر قيامهم ونزولهم بعزبة الرهبان ببوش فسار إلى مقر سعيد باشا ودس إليه بأن كيرولس إنما ذهب إلى الدير بمن معه

من البطاركة للتحالف وتجديد العهد على وحدة الطوائف الأروثوذكسية بمصر وجعل كيرولس بطركا عليهم ووضع الكنيسة القبطية تحت حماية دولة الروس فإذا تم له ذلك أصبح مسند الولاية المصرية على شفا جرف تحيط به الأخطار من كل جانب، قيل فانذهل سعيد باشا من فعال كيرولس وأنفذ إلى مدير بنى سويف يقول: سر إلى كيرولس بطرك القبط وقل له أن يأتى إلينا عاجلا فإنا فى حاجة إلى حضوره فسار إليه بعزبة بوش وأبلغه الرسالة فقال إنى ذاهب مع رفاقى إلى الدير بالجبل الشرقى فإذا عدنا إن شاء الله ذهبت إليه وتمثلت بين يديه فقال المدير اكتب بذلك فأخذ كيرولس ورقة وكتب مقالته هذه فبعث بها المدير إلى سعيد باشا فاشتد غيظه ثم كان من خبر كيرولس وما جرى له بعيد ذلك ما سيذكر فى محله إن شاء الله تعالى.

ولم تكن لتشغل محمد سعيد باشا عندما نزل على الخرطوم الحرب المنتظر وقوعها بينه وبين نجاشى الحبشة عن النظر فى شئون الرعية وإصلاح ما أفسدته أيدى الحكام والعمال من أمور البلاد وتخفيف الضرائب وإبطال بعض المكوس فأنفذ إلى جميع عماله على السودان فى سلخ جمادى الثانية سنة ثلاث وسبعين مرسوما يقول فيه: ليس منكم من يجهل ما ألاقيه من التعب فى سبيل إحياء ما اندرس من معالم المدنية والعمران وإيراد كافة صنوف الرعية موارد العز والرفاهية وقطع شأفة الظلم والاستعباد ومع ذلك فإنى لما قدمت إلى هذه الأصقاع شاهدت بعينى رأسى ما يلاقيه أهلها من الضنك والفاقة وسمعت بأذنى صوت أنينهم من أحمال الضرائب التى أثقلت كاهل الغنىّ منهم فضلا عن الفقير وفداحة الخراج المضروب على سقاياتهم وأطيانهم وتسخيرهم فى كثير من الأعمال التى لا قدرة لهم على القيام بها والإتجار فى أولادهم وبناتهم كالسلعة فى الأسواق فكان ذلك مما أحزن قلبى وبلبل فكرى لا سيما وقد علمت بأنهم أخذوا يهاجرون من أوطانهم إلى أقاصى البلاد هربا من هذه الكوارث والمحن المتراكم بعضها فوق بعض فلذلك قد عقدت النية على جعل الخراج قدرا يناسب حالة البلاد وأهلها وعلى أن أبذل جهد المجتهد فى إصلاح أحوالهم وترتيب أمورهم على ما فيه الصالح لهم ولذريتهم من بعدهم فلما نزلت على بربر جمعت المشايخ وجميع من جاء للقائى من أهل البلاد على اختلاف مراتبهم وسألتهم أن يؤمروا عليهم أميراً يختارونه من بينهم ممن يستبشرون بإمارته ويتوسمون فيه الخير للبلاد وتحصل على يديه السكينة والخلود إلى الطاعة وأن يقدروا مبلغ الخراج الذى يسهل عليهم القيام به بلا كلفة ولا مشقة ففرحوا بذلك وطلبوا أن

يربط على كل سقاية خراجا قدره مائتان وخمسون قرشا فى كل سنة فلم يعجبنى ذلك منهم لكثرته مع حاجة البلاد إلى التخفيف فرسمت بأن لا يزيد خراج كل سقاية عن مائة وخمسين قرشا وخراج كل فدان من أرض الجزائر خمسة وعشرون قرشا أما أراضى العلو فعشرون قرشا لا غير فكان لهذا العمل أحسن وقع فى قلوب سائر الرعية وفرحوا فرحا لا يوصف وأخلدوا إلى السكون والطاعة وهنأ بعضهم بعضا وأرسلوا يستقدمون من هاجر منهم وترك الأوطان.

ولما وصلت إلى الخرطوم جاءنى أولئك المشايخ والأعيان فأحسنت لقاءهم وأكرمت مثواهم وطيبت خواطرهم مما لم يسبق له مثيل علكم تقتدون بى وإنى لم أقلدكم المناصب إلا لتكونوا عونى على استتباب الأمن وإصلاح أمور الرعية فإياكم والعسف والجور ولا تجبوا الخراج إلا فى الأوقات المناسبة واعقدوا لتقرير قاعدة ذلك جمعية فى الثلاثة شهور التى لا زرع ولا قلع فيها وقسموا الخراج على أقساط متساوية يسهل عليكم جبايتها إلى آخر كل سنة وكلفوا جماعة الأعيان بتقرير هذا العمل وكل ما وقع عليه الاتفاق ارفعوه إلىّ ثم أحصوا جميع الكشاف والجند الموكلين بجباية الخراج واخلعوهم وقلدوا مكانهم مشايخ البلاد فهم أولى بذلك وعافوهم فى مقابلة هذه الخدمة برفع خراج سقاية فى كل خمس وعشرين سقاية هذا وحيث أن لأولئك المشايخ والأعيان بيوتًا ينزل عليها كل طارق وقاصد فارفعوا عن كل منهم خراج أربعة أفدنة فى كل مائة فدان وإذا ابتاعت الحكومة شيئًا من أهالى البلاد لزمها أن تنقدهم ثمنه حالاً بزيادة اثنين فى المائة عما تشترى به الأهالى بعضها من البعض الآخر وإياكم والمخالفة فيكون جزاؤكم شر الجزاء.

وحيث يوجد فى هذه البلاد من الأخشاب الصالحة للعمائر ومد السفن والحريق وغيره شيئًا كثيرًا فاشتروا منه من الأهالى كل ما تيسر وسيروا به إلى القاهرة وانقدوهم الثمن معجلاً وعلموهم الصنائع والفنون وإنشاء المبانى المنظمة والمساكن المشيدة وغرس الأشجار بالشوارع والطرقات وإذا أعطيتم أحدًا أرضًا للفلاحة من الأطيان المتروكة فأخبروا بذلك المديرية التى أنتم فى دائرة اختصاصها وإذا عاد من هاجر إلى بلده وطلب رد أطيانه وكانت ثابتة إليه وجب ردها إذا لم يمض على انسحابه خمس عشرة سنة وارفعوا عن الأهالى جميع المتأخرات لغاية سنة إحدى وسبعين ومائتين وألف هجرية واعتبروا أن مساحة كل فدان أربعمائة قصبة وإن كل قصبة ثلاثة أمتار فقط وإياكم والمخالفة فيكون جزاؤكم شر الجزاء اهـ.

فلما ذاع خبر هذا المنشور بين أهل السودان فرحوا فرحًا عظيمًا وعاد منهم من هاجر ورحل عن الأوطان بسبب تلك المغارم والمظالم المتراكم بعضها فوق بعض وجاءت وفودهم إلى مقر سعيد باشا يقبلون أعتابه ويدعون له بخير ويعلمونه بأنهم قد أصبحوا على قدم الطاعة والخلود إلى الدعاء بدوام ملكه وتأييد عرشه فأكرم لقاءهم وأحسن وفادتهم ووعدهم بانجاز كل ما يتمنونه من الخير لبلادهم.

وكان ميالاً جدًا إلى مد الخطوط التلغرافية والحديدية من القاهرة إلى قلب السودان فلم تمكنه الأيام من ذلك ولكنه رسم بتسيير عدة من سفن البخار فى النيل بين الصعيدين فكانت من أكبر أسباب العمران وأدعى إلى رحيل الكثير من الأجانب إلى تلك الأطراف، وكان سريع الخاطر قريب الغضب سريع الرضا يرضى بالقليل من كل شئ ولا يتطلع إلى ما فى أيدى الرعية ولم يظلم أحدًا قط وكان إذا علم بظلامة أحد هاج وعاقب مرتكب هذه الظلامة لا سيما منهم أرباب الدولة والحكام وكان بعيد التعصب لأحد الأديان لا يفرق بينهم ولا يفضل بعضهم على بعض فأحبته الرعية ومالت إليه جميع القلوب وكان لا يملك دارًا لنفسه فإن جميع ما ابتناه جعله ملكًا للخزينة، وسار فى عشر رجب من القاهرة يريد الحجاز فوصل مدينة السويس فى رابع عشرة وركب من يومه الباخرة المسماة نجد وزار الحرمين وتصدق فى مكة والمدينة وأطعم وفرق أموالاً كثيرة وقام من المدينة فى سادس شعبان فوصل ينبع فى ثالث عشرة وسار منها إلى مدينة السويس فوصلها فى سابع عشر الشهر المذكور ففرح الناس بقدومه ودقت البشائر وزينوا له مصر والقاهرة ثلاث ليال فكانت كلها أفراحًا، وكان بينه وبين نابوليون امبراطور الفرنسيس محبة كبيرة وكانا على وفاق فى كثير من الأمور فأبغضه لذلك كبار سياسة الإنجليز وعملوا على نكايته وتذليله، قال بعض الكتاب: فدسوا إلى السلطان أنه إنما يسالم نابليون ليساعده على الاستقلال بملك البلاد والخروج عن تابعية دار السلطنة وكانت المملكة العثمانية يومئذ فى غاية الارتباك والخبال لخروج الكثير من إيالاتها كالجبل الأسود والبوسنة والهرسك وغيرها عن الطاعة وطلب الاستقلال أو شبه الاستقلال مع تعرض الدول الكبرى إلى جميع أمور السلطنة الداخلية ووقوفهن فى سبيل إصلاح الأحوال وإرجاع الأمور إلى سابق مجراها فكانت إذا عمدت إلى إخماد فتنة فى إحدى الإيالات ظهرت ثورة فى أخرى وإذا تجردت إلى مقاومة طائفة قامت عليها أمة فكان كبار سياسة الدول يهولون ويرمون السلطنة بالجور والعسف ويسمونها بالغلظة

والجفاء فسعت وبذلت المهج فى سبيل إخماد تلك الفتن وأجهدت نفسها ولم تتمكن من إعادة السكينة إلى ربوع الهرسك وبوسنه وإصلاح بعض أمورها حتى ظهرت الفتنة بجزيرة كريد واشتدت وعظم أمرها فقام من بها من المسلمين على النصارى واقتتل الفريقان قتال الأعداء وكادت تمتد نار الفتنة إلى جميع البلاد فتدارك صدر الدولة يومئذ عالى باشا الأمر بحكمة منه وخلع والى الجزيرة وأقام مكانه سامى باشا استرضاء لفريق النصارى فسكنت الفتنة وعادت الأمور إلى ما كانت عليه وشدد الصدر الأعظم فى مراقبة الأحوال واستطلاع الأخبار فلم يكن بأسرع من أن ظهرت الفتنة أيضًا بمدينة جدة فقام من بها من المسلمين وركبوا على النصارى فى ذى الحجة سنة خمس وسبعين وأعملوا فيهم القتل بحد السيف وجرحوا قنصل الفرنسيس وكاتبه بجراحة عظيمة وقتلوا زوجة القنصل وجاء الخبر بذلك إلى دار السلطنة فاهتم له الصدر الأعظم وفؤاد باشا ناظر الخارجية اهتمامًا عظيمًا وسيرا فى الحال فريقًا من الجند ومقدمه إسماعيل باشا وأباح له الصدر قصاص جميع أصحاب هذه الثورة بالقتل من غير معاودة فسار إسماعيل باشا قاصدًا جدة فلم يبلغها حتى علمت الدول الكبرى بالأمر فهاجت وماجت ونادت بالويل والحرب وأنفذت دولتا الفرنسيس والإنجليز إلى بعض سفن حربهما بالشخوص إلى جدة ورميها بالقنابل تباعًا حتى تدكها دكًا وأعلمتا الباب العالى بذلك فراجعهما فلم يلتفتا لقوله، وكان لما وصل الخبر بما جرى فى مدينة جدة إلى عامل السلطان على مكة سار من فوره إلى جدة وقبض على أصحاب الفتنة وزعماء الثورة وحكم على جماعة منهم بالقتل وعلى آخرين بالتبعيد ورفع أمرهم إلى دار السلطنة ولبث ينتظر الجواب فوصلت فى هذه الأثناء إحدى سفن الحرب الإنجليزية وعلم ربانها بما جرى فسير إلى العامل على مكة يطلب التعجيل بقتل أصحاب الفتنة وضرب له أجلاً أربعًا وعشرين ساعة فأعاد إليه الجواب لا أعمل عملاً حتى يأتينى أمر السلطان فلما مضى الأجل المضروب أطلق ربان السفينة قنابل مدافعه على المدينة تباعًا واشتد الرمى وتراسلت القنابل زهاء عشرين ساعة حتى كادت تدمرها ولا تبقى بها حجرًا على حجر ومات تحت الردم خلق كثير وبينما القنابل تتساقط من كل صوب وحدب إذ وصل إسماعيل باشا مبعوث السلطان ومعه طوائف الجند والعسكر العثمانى فكلم ربان السفينة الإنجليزية فى الكف عن رمى القنابل فأجابه إلى ذلك وأنزل من معه من العسكر وكذلك أنزل إسماعيل باشا عسكره إلى البر ورسم بقتل أصحاب الفتنة وزعماء الثورة فعلقوهم على الأخشاب وبالغوا فى التمثيل بهم فزالت الفتنة ولم يبق لها أثر.

وكانت هذه الدسائس وأشباهها موجبة لطيرة السلطان وتخوفه من جميع عماله ورجال مملكته وتحذره عند كل حادث فلما أعلموه بخبر مسالمة سعيد باشا لنابوليون ودسوا إليه أنه إنما يتودد إلى نابوليون ليكون له عونًا على الخروج والاستقلال بملك مصر خشى العاقبة والبلاد باب الحرمين وطريق الحج إلى بيت الله فبث العيون ليأتوا إليه بالأخبار وما زال حتى تحقق أنها فرية لحاجة فى النفس فأخلد إلى السكينة مع التحذر والالتفات وما زالت الأمور بينهما على ما يرام من التودد والصفاء حتى مرض السلطان ومات فى سابع عشر ذى الحجة سنة سبع وسبعين ومائتين وألف هجرية أى سنة إحدى وستين وثمانمائة وألف ميلادية فكانت سلطنته ثلاثًا وعشرين سنة وستة أشهر وعمره أربعون سنة وأربعة عشر يومًا.

ومات فى أيامه بطرس بطرك المتأصلين بعد أن أقام اثنتين وأربعين سنة وكان تقيًا ورعًا زاهدًا متقشفًا محبًا للخير قليل الكلام مع هيبة ووقار يقضى يومه منكبًا على المطالعة ولا يجلس إلا على الأرض ولا يلبس إلا الصوف الخشن ولا ينام إلا على حصير من القش بعيد الغضب إذا تكلم فمع التأدب والحشمة ولا ينظر إلى وجه سامعه وكان قد استقدمه إبراهيم باشا إلى بيت المقدس على عهد حكمه على الشام فأكرم وفادته وأحسن لقاءه وبالغ فى تعظيمه ثم أعاده إلى القاهرة، قيل ولما احتضر سأله بعض كبار الأمة عمن يخلفه فى المنصب فرفع عينيه إلى السماء لحظة ثم أطرق وقال داود رئيس عزبة بوش فاستقدموه عاجلاً وكان قد كتب إليه قبل مرضه بأيام كثيرة أن أحضر ولا تبطئ فإني فى حاجة إليك، وكان لا يتعرض إلى أمر من أمور السياسة ولا يجتمع بأحد من ولاة الأمور وإذا سار فى الطريق أرخى على وجهه لثامًا أسود، مات فى ليلة الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة ثمان وستين ومائتين وألف هجرية ولم يصل داود إلى القاهرة إلا فى تاسع عشري رمضان من السنة أى بعد موت بطرس بشهرين وخمسة عشر يومًا فقد كان رسوله إلى الرسا علىّ ملك ملوك الحبشة لفض الخلاف الذى كان بين الحبشة ودار البطريكية بخصوص الدير المعروف بدير السلطان الكائن بأرض بيت المقدس، وتحرير الخبر أن للقبط بأرض بيت المقدس ديرًا عظيمًا يعرف بدير السلطان وهو على مقربة من كنيسة القيامة وكانت تأوى إليه جماعة من الحبشان المتوطنين ببيت المقدس كسائر الأغراب الذين لا مأوى لهم بتلك الديار فاتفق أن وقع بين بعض أولئك الحبشان وبين رهبان ذلك الدير شقاق أدى إلى المخاصمة ثم إلى الملاكمة فلم يسع الرهبان إلا إخراج

أولئك الحبشان خارج الدير المذكور وسد أبوابه فى وجوههم فتحزبوا وأرادوا الدخول عنوة فلم يفلحوا فشكوا أمرهم إلى أصحاب الحل والعقد فلم ينالوا غرضًا وكأنه قد كبر مصابهم على قنصل الإنجليز ببيت المقدس فتجرد للأخذ بناصرهم وبالغ فى تعضيدهم لأمر لم تصل إلينا معرفته فقام أولئك الحبشان يدعون ملكية الدير المذكور وقالوا إن الذى أنشأه هو أحد ملوك الحبشة ولذلك يسمى بدير السلطان وأما القبط فلا ملك لهم ولا سلطان منذ دخول النصرانية بأرض مصر وإنما السلطان للحبشان وقال القبط: غير ذلك وإن الذى بناه هو الأسعد أحد عظماء القبط فى خلافة محمد المهدى ثالث خلفاء بنى العباس وقد كان الخليفة المشار إليه أحسن إلى القبط بقطعة الأرض الواقع عليها بناء الدير المذكور ورسم ببنائه على نفقته فسماه جماعة القبط من يومئذ دير السلطان إجلالاً للخليفة المهدى وتعظيمًا واشتد الخلاف وتحرجت الأمور بين الفريقين فأوعز قنصل الإنجليز ببيت المقدس إلى جماعة الحبشان برفع ظلاماتهم إلى دار السلطنة العثمانية فسار نفر منهم إلى القسطنطينية ووردت كتب النجاشى فى ذلك إلى بطرس البطرك فرسم بطرس إلى مطران بيت المقدس بفض هذا الخلاف بالتى هى أحسن فبذل المطران الجهد فى إقناع جماعة الحبشان فلم يفلح واستفحل الأمر وتعذر الوئام وكبر التساهل على الفريقين وقنصل الإنجليز لا يقف عند حد فلما أعيا بطرس البطريرك الحال وخشى سوء المآل استقدم داود رئيس عزبة بوش التى هى مفتاح دير أنطونيوس بالجبل الشرقى ورسم له بالذهاب إلى الحبشة سفيرًا إلى الرسا على لفض الخلاف الواقع بسبب ذلك الدير وكان لداود المذكور إقبال وحسن سياسة فسار فى نفر والتقى بالرسا على وكلمه فى الأمر قال بعض الكُتاب: فلم يفلح لسعاية قنصل الإنجليز وطال مقامه على غير طائل فجاء إليه الطلب فى أوائل ربيع الآخر سنة ثمان وستين فتقدم إلى النجاشى فى ذلك فلم يأذن له وعوّقه أيامًا آخر ثم سرحه فوصل القاهرة فى تاسع عشرى رمضان فكانت مدة لبثه عند النجاشى سنة وبضعة أشهر وكان وصوله إلى القاهرة بعد موت بطرس كما تقدم القول فلاقاه الناس باحتفال عظيم للغاية ونزل بدار البطريكية ضيفًا ولبث بها أيامًا على الرحب والسعة ثم اجتمع كبار الملة وأصحاب الرأى فيهم وتشاوروا فى إقامة داود خلفًا لبطرس فاتفقت كلمتهم على ذلك وكان الأمر يومئذ إلى عباس باشا حلمى والى الديار المصرية فاجتمع جماعة من كبار الملة ورفعوا إلى عباس باشا رقعة بطلب إقامة داود مكان بطرس البطرك، قال أحد كُتاب الأخبار فطاولهم وسأل

أصحاب الزايرجات عما يرونه فى إقامة داود بطركا فأرجفوا وهوّلوا وقالوا نكد ثم خصام وشدة ثم موت الوالى وتمزيق شمل أتباعه فاضطرب عباس باشا وشدد فى السؤال فلم يروا فى حسابهم غير ذلك وكان من مقدمى دواوين الدولة يومئذ ديوانى اسمه جاد أفندى عونى وهو جاد شيحه فاستدعاه كتخدا الباشا وقال له أعلم جماعة القبط بأن لا سبيل إلى ولاية داود منصب البطريكية فإن أبوا إلا هو كانت الطامة الكبرى فلما علم القوم بما قاله كتخدا الباشا اختلفت آراؤهم وتفرقت كلمتهم وانقسموا فمنهم من قال: لا نختار غير داود ومنهم من طلب الأنبا يوساب أسقف إخميم وهؤلاء هم أنصار جاد أفندى ومنهم من اختار الأنبا اثنا سيوس أسقف أبى تيج ومنهم من اختار غيره واشتد الخلاف وتفرقت الأهواء وكثر التحزب وتوالى الاجتماع فى الليل والنهار ولبثوا على هذه الحال أيامًا وجاد أفندى يغدو ويروح على كتخدا الباشا ليعلمه بأخبار كل يوم.

فلما كادت الحزمة تنصرم ونار الوحشة بين الأحزاب تضطرم قام أنصار داود ولجئوا إلى المستر ليدر أحد مرسلى جمعية التبشير الإنجليزية واستنجدوه فكلم قنصل الإنجليز فى ذلك والقنصل كلم عباس باشا فطاوله فألح عليه فمناه وطال الحال والناس يذهبون فى كل يوم إلى بيت القنصل ويسألونه التعجيل، واتفق أن قدم فى هذه الأثناء رسول من قبل نجاشى الحبشة ومعه كثير من التحف والهدايا النفيسة إلى عباس باشا وشئ من الذهب والفضة والمرجان والدواب والوحوش البرية وكتاب من النجاشى لم يصل إلينا علم مافيه فأنزلوه فى دار الضيافة فلم يمض على حضوره إلا أيام حتى شاع الخبر بأن القبط جميعًا كانوا على قدم الخروج وشق عصا الطاعة وأن داود إنما سار إلى النجاشى ليستنجده وكثر تحدث الناس فى هذا الأمر فلما كان فى أحد الأيام جاء إلى دار البطريكية رسول من قبل محافظ البلد ومعه جماعة من الكتاب والجند وجعلوا يسألون داود عن سبب ذهابه إلى النجاشى وما كان بينه وبين النجاشى من القيل والقال وعما هى رسالة بطرس البطريرك إلى النجاشى وظلوا على هذه الحال أيامًا ثم رسم عباس باشا بحمل داود إلى مجلس الأحكام بقلعة الجبل فكانوا يأتون به أمام المجلس فى كل يوم المرة والمرتين ويشددون عليه فى السؤال وهو مع ذلك ساكن القلب هادئ اللب لا ينطق عن الهوى فكبر أمره على عباس باشا وزادت كراهته للقبط فرسم بإخراج جميع مباشرى الدواوين من خدمة الدولة وكذلك سائر الكتاب فأخرجوهم وأقصى أصحاب الوجاهة منهم إلى سنار

ودارفور وبالغ فى تذليل من لم يمكن الاستغناء عنهم فكانوا لضيق الحال ونفاد ما بأيديهم يشترون المصالح الديوانية بالمناقصة وكثر ذهاب أنصار داود إلى بيت المستر ميرى قنصل جنرال الإنجليز يستفزونه إلى الأخذ بناصرهم وعباس باشا لا يزداد إلا إباءً وعنادًا ثم سير كتخدا الباشا يومًا فى طلب جاد أفندى ورسموا له بأن يختاروا آخر غير داود خلفًا لبطرس وأن يعجلوا فى ذلك كى لا يبقى لوساطة القنصل محل فقام جاد أفندى واجتمع من ساعته بجميع الأساقفة وأخبرهم بما يريده كتخدا الباشا وقال لهم اختاروا واحدًا من بينكم يكفينا مؤنة التطويل فاختلفت كلمتهم وتفرقت أغراضهم وذهب كل إلى مذهب ثم طال بينهم الكلام واشتد اللدد والخصام ففشا سرهم وانكشف خفىّ أمرهم وتفرقوا فى ليلتهم تلك على غير طائل وأصبحوا وقد اجتمعوا وبينهم جاد أفندى وتكلموا فى الأمر وبعد أخذ ورد اتفقت كلمتهم على مبايعة الأنبا يوساب أسقف إخميم وكتبوا عهدًا بذلك وتحالفوا على كتمان الخبر فلما كانت الليلة الأولى من رجب الفرد سنة تسع وستين ومائتين وألف هجرية اجتمع جميع الأساقفة بدار البطريكية فتبعتهم الغوغاء سرًا ومعهم صاحبهم يوساب وجاد أفندى ونفر من أقاربه وأغلقوا الأبواب وأقاموا الحجاب تحرسهم ورفعوا الصلاة وبينما هم على هذه الحال إذ برز أعمى من عزفان المكاتب اسمه ينى وجعل يطوف فى الأزقة والحارات المجاورة لدار البطريكية وينادى بأعلى صوته هبوا يا قوم فقد قضى الأمر اليوم يا قوم ها هم يبايعون الليلة أنبا يوساب فإن تغافلتم ندمتم وإن نشطتم غنمتم يا قوم قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة بادروا قبل الفوات هداكم الله هداكم الله، وما زال يكرر النداء ويكثر من الصياح والتطواف حتى استيقظ الناس وهبوا من نومهم وهم لا يدرون ما الخبر وهرعوا إلى دار البطريكية فتبعتهم الغوغاء واقتحموا الأبواب وعلت الضوضاء وكثر الصياح وهب جماعة من الحبشان كانوا نيامًا بدار البطريكية وسألوا عن الخبر فزينوا لهم إخراج الأساقفة من المسجد فذهب جماعة منهم وأتوا بالعصى والمساوق واقتحموا المكان الذى كان به جمع الأساقفة ورسول الباشا وهم لا يعرفون حقيقة الخبر فكسروا الأبواب وفرقوا شمل جميع الحجاب وصاحوا فى وجوه الأساقفة وأخرجوهم قسرًا فعلت أصوات العامة وكثر الصياح ووقع بينهم الهرج وطلب العامة رسول الباشا فكان كمن غمس فى الماء أو عرج به إلى عنان السماء وظل جماعة الحبشان والناس يغدون ويروحون أمام دار البطريكية حتى مطلع الفجر فتفرقوا وانصرف جمعهم.

وقد بدأ التعصب يدب فى صدور الناس ولاحت لوائح الفتنة وظهرت علائم اليأس فذهب قنصل الإنجليز إلى عباس باشا وأخبره بما جرى وبالغ فى الأمر وهوّل فى سوء العاقبة وأشار إلى ما سيكون من وراء الإباءة والمنع فخاف عباس باشا ورسم بإقامة داود وكيلاً لدار البطريكية فرضى القنصل ورضى سائر القبط بذلك وقالوا أن أول الغيث قطر فلما كان خامس عشر رجب من السنة سير الباشا مرسومه بذلك فأقاموا الصلاة سراً خوفًا من قيام جماعة الحبشان إذ كانوا لا يحبون داود ولا يرضونه بطركا فما كادت الصلاة تتم حتى برح الخفاء وشاع الخبر فاجتمع الحبشان بالمسجد فلحق بهم العامة وتبعهم أتباع المصلين واقتحموا الأبواب وبأيديهم العصى والمساوق وصاحوا فى وجوه المصلين وأكثروا من شتمهم وسبهم ثم تماسكوا بالأطواق ووقع الضرب واللكم وكثر الصياح وعلت الأصوات واشتدت الجلبة وتطايرت العمائم عن الرؤوس وتكسرت مصابيح المسجد وأطفئت الشموع فهرب الأساقفة واختفى داود وأصحابه ففتش عليه الحبشان فلم يعثروا عليه فانكفوا وسكنت الفتنة وقد كان لا يظن أنها تسكن وأصبحوا وقد اتفقت كلمتهم على إقامة داود خلفًا لبطرس فلما كان يوم الأحد التالى اجتمعوا بالكنيسة الكبرى وبايعوه جهارًا وسموه كيرولسا وولوه مطرانًا على كرسى مصر ووكيلاً للكرسى البطريكى فلم يستقر به المنصب حتى قامت الفتنة ووقع الخلاف فتفرقت الكلمة وتحزبت الأحزاب وذهب كل إلى مذهب فى أمر كيرولس وكبرت الوحشة بينه وبين فريق منهم وقد كانوا هم مقدمى القوم وأصحاب الكلمة فيهم فحجروا عليه فى جميع تصرفاته ومنعوه من النظر فى شئون الملة واشتدوا عليه شدة بالغة فكان إذا أراد النوم لا يجد لرأسه وسادة ولا لجنبه فراشا وإذا جاع لا يطعم إلا ما قدموه إليه وإذا زاره أحد فلا يأذنون له بلقائه وهو مع ذلك ساكن البال رائق الحال لا يألو جهدا فى تأليف القلوب المتفرقة والنفوس المتنافرة وما زال حتى أفلح فى ضم الكل إلى الكل فصاروا على الخير أعوانا وفى ذات الله إخوانا وطرحوا عنهم الخلاف وعادوا إلى الاستنجاد بقنصل جنرال الإنجليز على تولية كيرولس منصب البطريكية فأجابهم إلى ذلك وما زال بعباس باشا حتى رسم فى سلخ شعبان من السنة أى سنة سبعين ومائتين وألف هجرية بولايته.

فلما كان تاسع رمضان بايعه الأساقفة فى أبهة زائدة وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق وفرحوا بولايته ووفد عليه المهنئون من كل صوب وحدب ولم يمض على

ارتقائه منصب البطريكية أيام حتى مات عباس باشا فاعتقد الناس صحة ما قاله أصحاب الزايرجات وأحلوه محلا، ولما استقر بكيرولس المنصب جمع إليه القلوب المتنافرة واستمال الخواطر المتباعدة وأصلح ما أفسده التحاقد فمال الناس جميعا إليه وأخذوا بكلمته وساروا بمشورته فعمد إلى إخراج سليلة قدماء المصريين من حضيض الجهالة ومهاوى الرذالة إلى أوج المعارف والتمدن وصروح التعلم والتفنن فأنشأ لهم المدارس وأتى لها بكبار الأساتذة والمعلمين من الفرنسيس والإنجليز والإيطاليين وعلماء العربية وأكثر لها من المعدات والأدوات والكتب المرتبة وغير ذلك، وكان المشار إليهم فى تعليم الأطفال يومئذ جماعة من العميان يعرفون باسم العرفان وكان لهم منزلة عظيمة بين الناس وحرمة واسعة وكلمة مسموعة فلما أحسوا بما فعله كيرولس أدركوا ما وراءه من الخيبة وسد أبواب الرزق فى وجوههم فتجردوا إلى العداوة وإيقاظ الفتنة الراقدة وجعلوا يطوفون البيوت ويحضون آباء الأولاد وأمهاتهم على العصيان وشق عصا الطاعة ويقولون كيف تلقون أولادكم بأيديكم إلى التهلكة وصاحبكم كيرولس قد عاقد الدولة على أن يجند لها من أولادكم ألوفا لتدفع بهم إلى حيث لا يعلم إلا الله وكان إذا وصل إلى دار البطريكية شىء من الكتب أو معدات التعليم ولولوا وقالوا هذه البنادق وآلات الحرب وملابس الصيف وأحذية الشتاء تأتى على عجل وكان الناس كافة كما هو اليوم يكرهون الجندية ويخافون التجند خوفا ما عليه من مزيد فاعتقدوا صحة الخبر وأخذتهم الطيرة وكرهوا عمل كيرولس وتجردوا لمقاومته وجماعة العرفان لا ينكفون عن التطواف وحض الناس على مقاومته، أقول وقد كنت وإخوتى نتعلم العربية عند أحد أولئك العميان ولى من العمر يومئذ السابعة فبينما نحن يوما نرقب حضوره كالعادة إذ أقبل يهرول فى ثيابه ويده على كتف أحد الصبيان فقمنا إجلالا إليه وأقبلنا جميعا نقبل يديه فجلس ثم أخذ يتمايل تمايل الزق المنفوخ أو البوّ المسلوخ وأخرج علبة السعوط فحشا خياشيمه حشوا حتى تأوه وعطس ثم مخط وسعل وتفل يمنة ويسرة وضرب الأرض بعصاه فطار عثيرها وتساقط على رؤسنا تساقط المطر وصاح لا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم قال أف لكم وتعسا لوالديكم فلسوف تلقون غدا ما تلقون فقد استسلم آباؤكم إلى الترهات وزخرف القول فضلوا وألقوكم بأيديهم إلى التهلكة فبئس المصير بئس المصير ثم عاد فحشا خياشيمه بالسعوط وصاح اقرؤا ارفعوا أصواتكم ثم اشتد

به السعال حتى كاد يغمى عليه فلما أفاق قال ها هاهيه أسمعنى صوتك، كرر لوحتك، اسكت يابن النجار، أخسأ ياشقى، اخرس ياشيطان، لا تعض أذن أخيك يابن الصائغ قم وأفرغ ما فى خياشيمك يابن يوسف صه ياأحدب ياأبا الرأسين يا أبا ذباب وما زال على هذا الحال من النداء والصياح والجلبة والسب والشتم ونحن فى جلبة وضجيج حتى نعس ونام واشتد غطيطه ونحن كالحلقة حوله ندفع عنه الذباب ونطرد الكلاب الداخلة علينا من الباب فلما سكنت قلوبنا بنومه أقبلنا على معلمنا الذى كان يكتب لنا الألواح ويضفر لنا زعف النخل فراشا نجلس عليه فسألناه عما أصاب العريف فى يومه فقال هو بخير وعافية ولكنه فى شاغل مما أتاه كيرولس البطريرك فإنه على عزم أن يجمع جميع أبناء الملة ويضعهم فى دار أنشأها بالقبيلة وسماها (دار العلوم) وقد عين لدخول التلامذة فيها يوم كذا ونودى بذلك فى الناس اليوم بالكنيسة الكبرى فدعونا وهذا الكلام وارفعوا أصواتكم قبل أن يرفع العريف رأسه فعلت الأصوات واشتدت الجلبة.

وأحس كيرولس بما وراء تطواف أولئك العميان من الفشل فاستعمل الحيلة وأحسن التدبير فجمعهم إليه وطيب خواطرهم وأناط بهم التعاليم الابتدائية وأقرهم على ما بأيديهم وأفرز لكل منهم محلا بدار المدرسة الكبرى ورتب لهم الجماكى والمرتبات وأخذ عليهم العهود ومهد لهم طريقا للتعليم وجعل لامتحان تلامذتهم أياما معدودة فى كل ستة شهور فمن وجد منهم ناجباً ضم إلى صفوف المدرسة فلم يمض على ذلك إلا القليل حتى دخل من هؤلاء فى صفوف المدرسة نيف وتسعون تلميذا ومائة ممن كانوا خارجا وظهرت عليهم علامات النجابة ودلائل الفلاح فتكلموا بالإنجليزية والأفرنسية والإيطالية والقبطية وجودوا العربية وتعلموا منها النحو والصرف والبديع والبيان ونبغوا ونجحوا نجاحا عظيما ثم أنشأ بعد ذلك مدرسة ثانية بالخطة المعروفة بحارة السقايين فكان شديد الولع بها وكان فى نهاية كل سنة يولم الولائم العظيمة ويدعو كبار القوم والوجهاء والعلماء لامتحان التلامذة ثم يفرق الجوائز من نياشين الذهب والفضة ونفيس الكتب ويمد الموائد الفاخرة وكان إذا سمع من أحد التلامذة كلمة وأعجبه وضعها أو استكبرها على قائلها لصغره وعدم بلوغه حد النقد فرح به فرحا عظيما واستعادها مرارا وأخبر بها كل من يراه فى يومه فيقول سمعت اليوم فلان ابن فلان يقول كيت وكيت فسرنى جداً إدراكه وتحقق لي نجاحه إن شاء الله، ووجه عنايته إلي ترميم المعابد وإعادة ما تخرب منها فأعادها إلى ما كانت عليه وأنشأ بالخطة المعروفة بحارة السقايين كنيسة وقد كان إلى ذلك الحين

يصعب جداً إنشاء الكنائس تمسكا بالعهد القديم والسنة المتبعة عند أولياء الأمور وأصحاب الكلمة من أمناء الدين وأنشأ أيضاً الكنيسة الكبرى بالقبلية على نظام أشهر الكنائس ولم يتم بناؤها وأنشأ دارا للطباعة وسماها باسمه وسلم أمر تدبيرها لجماعة من أبناء المدارس فأحسنوه وأتقنوا صنعة الطباعة فطبعوا فيها كثيرا من الكتب الدينية وكتب التاريخ والآداب وجمع من خزائن الديارات والمعابد القديمة نفائس الكتب وأشهر السجلات ليضعها فى دار مخصوصة قد أعدها لذلك وقد تبددت بموته ورسم بتصحيح الكثير من كتب الكنيسة وقد كانت محشوة بالخلط والتحريف فصححوا ما فيها وضبطوا عباراتها فجاءت على أحسن ما يرام ورتب الطقس الإكليريكى وهذب الزى الشمامسى فجاء حسنا مقبولاً جارياً إلى يومنا الذى نحن فيه وأحيا اللغة القبطية بعد مواتها فطبع منها عدة كتب بدار الطباعة الكبرى بلندن عاصمة الإنجليز فتعلمها أبناء المدارس وتكلموا بها فكانت إلى آخر أيامه من أهم اللغات التى تتكلم بها أبناء المدارس، وكان ميالا إلى تعليم البنات وتهذيبهن إلى جد يكن فيه معينات لأزواجهن ومربيات لأولادهن فصادف من المقاومة فى ذلك أشكالا ولكنه كان مع ذلك يتحين الفرص ويتبين انتفاعها فلم تطل أيامه ومات قبل أن ينال إربه من ذلك.

ووقع بينه وبين محمد سعيد باشا من الوحشة والنفور بسبب ما رماه به الإنجليز من سعيه وراء الخروج عن طاعة الدولة وجعله الكنيسة القبطية تحت حماية الدولة الروسية كما تقدم بيان هذا كله فى محله ما أوجب تخوفه وانكماشه وعدم اجتماعه بأحد من رجال الدولة وكأنه كان يخشى وقوع أمر يتهدده ولكن.

ولا يمنعنك الطير شيئاً أردته فقد خط بالأقلام ما كنت لاقيا

وطالت أيام عزلته ورسل القيصر تعوده كل قليل وتخابره فى أمر الكنيستين القبطية والروسية وعندى أنها حقيقة لا يصح إنكارها فقد كانت من أعظم رغائب كيرولس وهو أكثر الناس تعلقا بها وأشدهم تمسكا بأهدابها وقد بذل فى الوصول إليها النفيس وتقرب ممن أشاروا عليه بذلك جهد الاستطاعة واستمالهم فأعانوه وصار اتحاد الكنيستين أدنى من قاب قوسين بل أمرا مقضيا، فلما كان فى أحد الأيام جاء إليه رسول من قبل محافظ مصر يستدعيه إلى الديوان لأمر لا يتم إلا بحضوره فلم يقبل الذهاب وصرف عنه الرسول بالتى هى أحسن فعاد إليه ثانية وثالثة فلم ير بدًا من الذهاب وسار معه وغاب ساعة ثم عاد ووجهه يقطر منه العرق وقد نزلت به حمى شديدة فلازم الفراش من ساعته واشتدت به الحمى شدة بالغة فأتوا إليه بطبيب

فعرف العلة وأشار بالدواء فلم يأته حتى أتاه طبيب محمد سعيد باشا بأمر منه وأخذ فى علاجه وما زال يعالجه أياما وقد اشتدت علته وعظم الداء وفقد الرشد وسقط شعر رأسه ولحيته على وسادته وانحل جسده ومات ليلة من سنة تسع وستين ومائتين وألف هجرية أى سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة وألف ميلادية ودفن بتربته التى ابتناها لنفسه بالكنيسة الكبرى بالقبيلة ودفن معه حظ القبط جميعا وحظ بنيهم من بعدهم وحزن الناس عليه حزنا عظيما فكانت مدته خمس سنين إلا أياماً رحمه الله رحمة واسعة.

قلت وهو داود بن توماس بن بشوت بن داود ولد سنة خمس وعشرين ومائتين وألف هجرية بقرية اسمها نجع أبوزقالى من قسم صومعة شغلاق بإقليم إخميم بصعيد مصر وأقام مع أبويه بهذه القرية إلى أن ناهز الخامسة والعشرين وكان رحمه الله عفوفا تقيا ورعا محباً للفقراء حسن النية سليم الطوية ميالا إلى العزلة والانفراد شديد الرغبة فى معرفة أخبار الصالحين مولعا بأهل العلم آوى إليه كثيرا من أهل الفضل من جماعة القسيسين والرهبان وانكب على تلقى العلوم الدينية ثم تاقت نفسه إلى الرهبنة والتجهد وهم بالرحيل عن وطنه فمنعه من ذلك أبواه ثم جعل يراقب الفرص حتى خرج هاربا فى عام ثمان وأربعين ومائتين وألف هجرية إلى دير أنطونيوس الأعلى بالجبل الشرقى ولبس مسح الرهبانية وأقام سبع سنين فكان محبوباً موقرا يشار إليه فى المهمات، فلما كانت سنة خمس وخمسين ارتقى إلى رتبة القسيسية فزادت منزلته وعلت كلمته ومالت إليه القلوب وأحبه الناس وفى سلخ جمادى الأولى من السنة المذكورة استقدمه بطرس البطرك وولاه الوكالة على الأحباس والأوقاف فدبر أمورها وأحسن تدبيرها وأكمل نظامها وعرفه الناس فمالوا إليه وتقربوا منه فرأوه شهما حازما واسع الدراية يقظا نشيطا وقورا حسن السياسة ميالا إلى تعميم المعارف وتوسيع نطاق التمدن شديد الرغبة فى إحياء ما اندرس من معالم مدنية الأمة القبطية والارتقاء بها إلى درجات الرفعة والتقدم، وفى أخريات سنة خمس وخمسين ومائتين وألف هجرية ولاه بطرس البطرك الرياسة على دير أنطونيوس الأعلى فأحسن التدبير ورتب الأمور على أحسن ما يرام وشدد فى ملازمة حدود الرهبانية فافتتن فى أيامه جماعة الرهبان فتنة كبرى ولبثت أياماً حتى تمكن من إخماد نارها وبقى رئيسا تسع سنين أولها سنة سبع وخمسين وآخرها سنة ست وستين ثم استقدمه بطرس وسير به إلى الحبشة رسولا إلى النجاشى كما تقدم القول

وكان رحمه الله عظيم التجهد يتظاهر بحسن الملبس وهو لا يلبس على جسده إلا أخشن الوبر يظهر الاعتناء بعظائم الأمور وهو غاية فى العفة والتقشف حليم بعيد الغضب شديد على جماعة الرهبان لا يبيح لهم ترك الجبل والاختلاط بالناس كريم النفس أبيها رزين خبير بالأمور وبموته خلا الكرسى زهاء سبع سنين كان يدبر الأمر فيها مرقس مطران البحيرة ثم قام بعده ديمتريوس سنة سبعين ومائتين وألف هجرية أى سنة أربع وخمسين وثمانمائة وألف ميلادية وهو الحادى عشر بعد المائة واسمه مخائيل وكان رئيسا على دير أبى مقار ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله إن شاء الله تعالى.

(الفصل الثالث والعشرون)

(فى خلافة السلطان عبد العزيز

ابن السلطان محمود خان)

ثم قام بالأمر بعد موت السلطان عبد المجيد أخوه السلطان عبدالعزيز خان ابن السلطان محمود خان بويع له بالملك يوم موت أخيه سابع عشر ذى الحجة سنة سبع وسبعين ومائتين وألف هجرية أى سنة إحدى وستين وثمانمائة وألف ميلادية وأتت بذلك الأخبار إلى القاهرة فزينت المدينة ودقت البشائر وخطب له على المنابر وضربت السكة باسمه وورد إلى محمد سعيد باشا فرمان الرضا فقرىء فى ديوان الغورى بقلعة الجبل ولما استقرت به السلطنة نظر إلى أمور الدولة من أبوابها وأجهد النفس فى ترتيبها وقد كانت الحروب القائمة عليها أمحلتها وأذهبت رونقها وبهجتها حتى كاد العدوّ ينشب أظفاره فى جوفها فبالغ فى إصلاح ما أفسدته الأيام وعزز جانبها وجند لها الجند الكثير وأنشأ مراكب الحرب وسفن الطراد وحصن الحصون والقلاع بأنواع الأسلحة الثقيلة فعلت كلمته وكبرت فى أعين الخصوم هيبته وتقرب منه الإسكندر الثانى قيصر الروس وتحبب إليه وسالمه وأخذ بقوله وعمل بمشورته حتى كاد ينفضح ما كان بينهما من السر المكتوم وخاف الإنجليز شر ذلك وأحسوا بما وراءه من تنكيس أعلامهم فى قلب آسية وداخل أبواب هندهم فبذلوا النفيس وتقربوا

إلى مشايخ قبائل ذلك الصقع وأعملوا الدسائس فى دار السلطنة ببذل المال وإعطاء العطايا العظيمة وما زالوا يميلون بأبناء البلاد يمنة ويسرة حتى نالوا منهم وأسسوا عصابة باسم تركية الفتاة وأمدوها بالمال فنمت وعظمت وكثر عددها وانضم إليها الكثير من فحول الكتاب وأصحاب التحرير والخطباء والقوّالين فكتبوا وألفوا وصنفوا وقالوا فى الخليفة السلطان عبد العزيز ما قال مالك فى الخمر ورموه بالمزوق عن الدين ووسموه بموالاة الروس أعداء المسلمين وأكثروا من التقريع والوقيعة بعالى باشا الصدر الأعظم وشيخ الإسلام وأهل الحل والعقد من رجال الدولة وبلغت بهؤلاء القوم القحة إلى حد كانت رسائلهم المشحونة بالسب والشتم وفحش القول تلقى فى مخادع الصدر الأعظم وشيخ الإسلام وقد وصلوا إلى معرفة أخبار دار السلطان وأسرار كافة بيوت أهل الحل والعقد واشتدوا عليهم شدة بالغة وكان لهذه العصابة أصول وفروع بين عاصمة الفرنسيس وعاصمة الإنجليز ودار السلطنة العثمانية فخافها السلطان وعمل على تنكيلها فلم ينجح له عمل ولم ينل منها أربا لاستفحال أمرها واتساع كلمتها حتى كان من أمرها بعد ذلك ما سيتلى عليك فى محله، ولم يقع بين السلطان ومحمد سعيد باشا من المودة والإخلاص ما كان يظن وقوعه بعد موت السلطان عبد المجيد فقد كانت الوحشة لم تزل قائمة ما بين محمد سعيد باشا ورجال الدولة وأركان السلطنة لا سيما الصدر الأعظم عالى باشا فكان كل من الطرفين على حذر والتفات دائم وكان سعيد باشا أبعد جميع الولاة عن موالاة السلطان وأقربهم إلى بغض رجاله وأكبرهم حقدا وشماتة ومع ذلك لم تتمكن رجال الدولة من استغلاطه ولا مؤاخذته بأمر من الأمور السياسية لا فى الداخل ولا فى الخارج ولا هبت للفتنة بسبب ذلك نار فى جميع أيامه لاشتغالهم عنه بالكثير من الكوائن والمحن الداخلية فكان فى مأمن من كيدهم وفى حرز من شرهم يعطيهم من طرف اللسان حلاوة، ومات فى أيام محمد سعيد باشا الأمير أحمد أكبر أولاد إبراهيم باشا بن محمد على باشا مات غريقا فى النيل بين كفر الزيات وكفر العيس بإقليم الغربية فى يوم عيد أضحى سنة ثمان وسبعين ومائتين وألف هجرية وذلك أنه لما كان سعيد باشا بالإسكندرية وقد دخل عيد الأضحى استقدم جميع أصحاب الوظائف العالية من الملكيين والجنديين وعمد وأعيان سائر المدن وجميع الأمراء من ذرية محمد على باشا لعمل تشريف العيد بمقره بالإسكندرية فعمل التشريف فى ذلك على نسق لم يسبق له مثال ثم نزلوا يريدون الرجوع إلى القاهرة. وكان جسر

كفر الزيات الحديدى الموصل لخط السكة الحديد بما بين الإسكندرية والقاهرة لم يتم بناؤه إلى ذلك الحين وقد جعلوا لنقل عربات الركاب والبضائع والوابورات جسرا متحركا على ظهر سفينة تسير فى النيل بالبخار فكان إذا وصل المسافرون إلى كفر العيس من الإسكندرية وقف القطار هناك فيأتون بذلك الجسر ويوقفونه ملتحما بضفة النيل ويدفعون على ظهره عددا معلوما من العربات ويقيدون عجلاتها بسلاسل الحديد فيسير بها الجسر ويعبر النيل عرضا إلى أن يرسو ملتحما بالجانب الثانى فيدفعون بما عليه من العربات بمن فيها من المسافرين إلى الخط الحديدى الموصل إلى القاهرة أو بالعكس إلى الإسكندرية وكان ممن ركب فى قطار ذلك اليوم يريد الرجوع إلى القاهرة الأمير أحمد بن إبراهيم باشا والأمير عبد الحليم بن محمد على باشا وبعض الباشاوات مثل أدهم باشا وغيرهم ونزل أيضاً الأمير إسماعيل وأخوه الأمير مصطفى فاضل أخوا الأمير أحمد ولكنهما عادا فنزلا من القطار قبل أن يسير من الإسكندرية بإيعاز من أحد رجال ديوان سعيد باشا فلما وصل القطار إلى كفر العيس ودفعوا بعدد من عربات المسافرين إلى ظهر ذلك الجسر وقد كان فى إحداها الأمير أحمد والأمير عبد الحليم وغيرهما من الباشاوات قيل إنهم لم يقيدوا عجلات العربات كعادتهم بل وتركوها خلوا وأتوا بغيرها من خلفها فلطمت الأولى فتحركت واندفعت إلى الأمام فسقطت جميعها فى النيل وغرقت وكان الأمير أحمد شابا جميلا قوى الجسم ضخما كبير البطن فلم يتمكن من الخلاص فمات غريقا أما الأمير عبد الحليم فإنه لما سقطت العربة ألقى بنفسه من نافذتها إلى البحر فعاونه بعض أصحاب السفن التى كانت هناك وأخرجوه حيا ومات أدهم باشا وجميع من كانوا بالعربة مع الأمير أحمد فكان المنظر مروّعا والمشهد محزنا وقد كثر صياح العامة وولولت النساء وانتشرت مماليك الأمير أحمد وأتباعه على وجه الماء يطلبون جثته وأتوا بجماعة من صيادى السمك فألقوا شباكهم وما زالوا حتى عثروا عليها وأخرجوها وأخرجوا من عثروا به أيضًا من بقية الأموات وجاءوا به إلى القاهرة وغسلوه فى بيته الذى بجانب القصر العالى ثم دفنوه فى ثانى يوم فى مشهد حافل للغاية وتحدث الناس كثيرًا فى أمر موته فقالوا أنه أغرق بأمر من سعيد باشا كى لا يتولى ملك البلاد بعده لأمر نقمه عليه ولكى تنتقل الوراثة بموته إلى أخيه الأمير إسماعيل، قلت وقد حدثنى أحد مماليك الأمير أحمد قال جاء الأمر من سعيد باشا إلى مولاى الأمير وهو بالقاهرة بشخوصه إلى الإسكندرية للحضور فى تشريف عيد

أضحى سنة ثمان وسبعين فقمنا فى صبح يوم الوقفة بعرفات ووصلنا إلى الإسكندرية قبل المساء بقليل وبتنا ليلتنا تلك والأمير ساكن البال رائق الحال وأصبحنا وقد دعانى فدخلت عليه فرأيت الدمع يذرف من عينيه فقلت أصلح الله حال مولاى ما باله يبكى وقد كنا بالأمس على أحسن ما يكون من السرور وصفاء البال قال رأيت البارحة فى نومى كأنى وإياك على شرافة هذا المنزل نريد الاختفاء من وجه سعيد باشا وقد أرسل فى طلبنا جماعة من العبيد السود فما وقع بصرهم علينا حتى هجموا علىّ هجمة الأسود الضوارى وأخذوا جميعاً بيدى ورجلى وألقوا بى فى تيار النيل فقمت مذعورا من نومى وتعوذت بالله ونمت فجاءنى هاتف يقول هلا أوصيت على العيال قلت ولماذا قال قد أتت المنية فلا مفرّ فقمت مذعورا وتعوذت بالله ولبثت باهتا ساعة حتى غلب على النوم فنمت فإذا بشخص فى زى الفقراء وعلى كتفه شبكة صياد قد اقترب منى وقال قم ياأحمد فقلت ومن أنت؟ يرحمك الله قال رسول ملك الموت فقمت باكيا من ساعتى كما ترى، قال: فقلت يامولاى هذه أضغاث أحلام وقد أتعبك البارحة السفر فلا تظن الظنون الفاسدة وقم فقد حل وقت عمل التشريف فقام ولبس كسوة التشريف وركب وهو فى قلق واضطراب وركبت معه فكان كلما مررنا بقولق من قولقات العسكر قاموا إجلالا وتعظيما ونفخوا فى البوق فيبكى ويذرف الدمع فلما انقضت ساعة التشريف قال لابد من السفر الساعة فقلت يامولاى أرحم نفسك ودعنا نبيت الليلة هنا فقال لا بل نسير إلى القاهرة عسى الله يفرج كربتى فركبنا القطار وركب معنا جميع الأمراء من ذرية محمد على باشا فلم يكن بأسرع من أن دخل أحد رجال ديوان سعيد باشا وهمس فى أذن الأمير إسمعيل فالتفت إلى أحد أتباعه وقال أنزلوا متاعى فقد عدلت عن السفر فقال له أخوه الأمير مصطفى فاضل إن كان ولابد من بقائك اليوم فإنى مرافقك ونزلا معا وتركانا فسار بنا القطار حتى وصلنا إلى كفر العيس وكان من أمر غرقنا ما سارت بذكره الركبان وعرفه القاصى والدان فالله الله ولا حول ولا قوة إلا بالله . اهـ.

قلت ولم تطل ولاية سعيد باشا بعد هذا الحادث فأنه مات سادس عشرى رجب سنة تسع وسبعين ومائتين وألف هجرية أى تاسع عشر يناير سنة ثلاث وستين وثمانمائة وألف ميلادية، قال بعض الكتاب من الغربيين: لما ثقل المرض بسعيد باشا واشتدت علته وجاء خبر ذلك إلى الأمير إسمعيل وهو بالقاهرة سير إلى الإسكندرية أحد المقربين إليه من جماعة الفرنسيس واسمه ديرفيو ليرسل إليه بأخبار سعيد باشا

فى كل يوم ومناه بالأمانى الكثيرة والعطاء الجزيل إن هو بعث إليه بخبر وفاته. فلبث دير فيور بالإسكندرية أياما يرسل فيها الأخبار إلى الأمير إسمعيل باشا فلما كان صباح تاسع عشر يناير أرسل إليه يقول أعدّوا البيت فقد عزم الساكن على الرحيل، يشير بذلك إلى قرب مفارقة سعيد باشا لهذه الدار الدنيا وتأهب إسمعيل باشا للدخول فيها، فلما جاءه هذا الخبر فرح به كثيراً ولبث ينتظر ما سيكون من وراء ذلك حتى جاءه الخبر بموته فسير إلى الإسكندرية من يجهزه ويدفنه هناك وكان جميع أرباب الديوان الخاص قد حضروا إلى القاهرة ولم يبق منهم بالإسكندرية إلا نفر قليل مع محمد شريف باشا الذى لم يفارقه طرفة عين قيل وكان سعيد باشا قد أوصى بأن يدفنوه فى القاهرة وقيل فى الإسكندرية فحزن عليه الناس كثيراً لا سيما أهل الإسكندرية وأقامت النساء عليه المناحات بشوارع المدينة فكان يوم دفنه يوما مشهودا وكانت ولايته زهاء تسع سنين وقيل ثمان سنين وتسعة أشهر وستة أيام وعمره اثنتين وأربعين سنة رحمه الله تعالى برحمته الواسعة وأسكن روحه فردوس جنانه.

(مطلب)

(ولاية إسماعيل باشا بن إبراهيم باشا بن محمد على باشا)

بويع فى اليوم الذى مات فيه محمد سعيد باشا وهو يوم السبت سادس عشرى رجب سنة تسع وسبعين ومائتين وألف هجرية الأمير إسمعيل باشا بن إبراهيم باشا ابن محمد على باشا بايعه فى قلعة الجبل أرباب الدولة وأهل الحل والعقد والعلماء والوجهاء ودقت البشائر وطيروا الخبر إلى الآفاق وزينت جميع المدن والبنادر ثلاث ليال وأقيمت الأفراح والولائم وبولغ فى ذلك مبالغة زائدة جداً وفرقت والدته فى ذلك اليوم من الهدايا والتعابى النفيسة إلى أرباب الدولة والعلماء والمشايخ شيئاً كثيرا وأقامت الأدعية فى المساجد أياماً ورسمت بترميم بعض أضرحة الأولياء والصالحين من مالها تفاؤلا واستزادة للنعمة فلما استقرت به الولاية وجاءه فرمان السلطان عمد إلى تغيير الكثير من عادات البلاد والأحداثات المتبعة وتصرف فى الأمور ونظر فى ترتيب موارد الإيرادات نظرة الراغب فى المزيد فضبط الخراج وعدل العشر وأحدث بعض المكوس والمغارم ورتب لذلك طوائف الجباة والعمال والقباض والرقباء وتقريب كثيرا من رجال السلطنة وأهل المابين واتخذ له من كبارهم أخلاء يعتمد عليهم فى

عظائم الأمور وأجزل عطاءهم فمهدوا له العقبات وذللوا له الصعاب وفتحوا له من الآمال والأمانى أوسع الأبواب وحببوا إلى السلطان زيارة مصر وزينوا له مشاهدة ما فيها من العجائب والآثار فمال إلى ذلك ووردت الأخبار بعزمه على الحضور فى نفر من خواصه وحشمه وأتباعه فبالغ إسماعيل باشا فى الاستعداد لقدومه وأنفق النفقة الواسعة فى إعداد معدات الولائم ولوازم الأفراح من مأكول ومشروب ومفروش وملبوس واهتم لذلك اهتماما عظيما.

(مطلب)

مجيء السلطان عبد العزيز إلى ديار مصر

فلما كان رابع عشر شوال سنة تسع وسبعين ومائتين وألف هجرية وصل السلطان إلى مدينة الإسكندرية على باخرة عظيمة يخفرها الأسطول العثمانى الحربى وفريق من العسكر وكان فى انتظاره فى الإسكندرية إسماعيل باشا وجميع رجال الدولة وأرباب الوظائف العالية فقوبل فى أبهة واحتفال لم يسبق لهما مثال للملك من ملوك المشرق والمغرب وسار فى شوارع المدينة والذهب ينثر بين يديه وكان فى ركابه مراد أفندى وعبد الحميد أفندى ابنا السلطان عبد المجيد خان ورشاد أفندى ويوسف عز الدين أفندى والوزير محمد باشا والوزير فؤاد باشا ثم قام من الإسكندرية إلى القاهرة على قطار مخصوص وكانت الناس على جانبى الطريق من الإسكندرية إلى القاهرة فلما دخل إليها قوبل بأحسن ما قوبل به فى الإسكندرية وشق من وسط المدينة فانطلقت ألسنة العامة بالدعاء له وصاحوا نصر الله مولانا السلطان وطلع إلى قلعة الجبل وقد أعدوا له مقرا بها فزينوه بأنواع الحرائر والمقصبات وأفخر وسائل الزينة ودقت له البشائر وزينت مصر والقاهرة سبعة أيام وأقيم له الدعاء بالمساجد كافة وكبروا لحضوره على مآذن مصر والقاهرة وبعد أيام نزل لزيارة المساجد فزار المشهد الحسينى والزينبى والنفيسى وغيرها فكان إذا مر بالناس وقفوا صفوفاً إجلالاً وتعظيما فينظر إليهم يمنة ويسرة نظرة لطيفة وهى كناية عن السلام فى عرف سلاطين آل عثمان وكان العامة والسوقة إذا رأوه صاحوا الفاتحة لمولانا السلطان فينظر إليهم كأنه يحييهم فيكثر صياحهم وتشتد جلبتهم وهى حالة لم يرها السلطان فى بلاده فإنه إذا مر بالناس يوم خروجه للصلاة مثلا أو فى أيام المواكب أطرقوا بأبصارهم إلى الأرض وتخشعوا ولم يرتفع لأحد منهم صوت.

وتصدق السلطان وأكثر العطاء وفرق على الفقراء والمحتاجين وطلبة العلم بالجامع الأزهر وعلى أصحاب التكايا وخدام المساجد وبعض الأضرحة ولم يره من أصحاب الوظائف إلا القليل، وكان إذا ركب سارت خلف عربته الجنائب السلطانية وطائفة الحرس السلطانى بالعمائم البيض والبرانس الحرير الأبيض وفى أيديهم القرابينات على شكل جميل للغاية ولبث بالقاهرة أياماً ثم سار إلى الإسكندرية وركب منها إلى دار السلطنة وتبعه الأسطول الحربى والسفن التى تحمل التحف والهدايا فكانت أيامه بديار مصر كلها أفراحا وولائم عند العامة ومن لا خلاق لهم، وأما خيار الناس فقد كانوا يخشون عاقبة مجيئه إلى مصر وقد أخذتهم الطيرة إذ لم يسبق لأحد من سلاطين آل عثمان بعد السلطان سليم الفاتح دخول أرض مصر وكبر خوفهم وقدأخذوا بأقوال أصحاب الزايرجات فترامت ظنونهم إلى المرمى البعيد فلما كانت سنة إحدى وثمانين ومائتين وألف هجرية مع أخريات سنة ثمانين ظهر الوباء فى البقر واشتد وعم جميع البلاد شرقا وغربا ولم يترك قرية ولا كفرا إلا ودخله واشتد شدة بالغة حتى كاد يفنى جميع البقر وقل وارد السمن من جميع البلاد بل وانقطع وأكل الناس الدهن والزيت فأمر إسمعيل باشا فاستحضروا من البلاد الأجنبية كالنمسا والمجر ونواحى الأناضول السمن وهو فى غاية الرداءة والنتن وباعه على أهل البلاد وفرق منه على الفقراء مجانا فكانوا يتزاحمون على الوكائل ومخازن التوزيع بالأخطاط وهم فى ضجيج وجلبة تصم الآذان واستمر الحال هكذا أياماً كثيرة حتى ارتفع الوباء وبدأ الوارد من سمن الجاموس والضأن يرد إلى القاهرة ومصر من الجهات القبلية ولم يكد ينقضى هذا الوباء حتى وقع الغلاء وارتفعت الأسعار وانقطع وارد القمح واشتد الطلب فلم يجد الفقراء له أثرا لا فى سواحل بولاق ولا فى مصر القديمة ولا فى جميع رقع الغلال فضجوا وعجوا وكثر طواف النساء فى الأسواق يحملن المقاطف لعلهن يجدن من يبيعهن قمحا أو دقيقا وعلم إسمعيل باشا بما عليه الناس من الضر فهاله الأمر وأزعجه ورسم بجلب القمح والدقيق من البلاد الخارجية فأتوا له بشىء كثير منهما وفرقوه فى الوكايل وجهات الرقع ورتبوا للبيع وقتين فى الصباح والمساء ونادوا فى الناس بذلك ففرحوا وتزاحموا على أبواب الوكائل وجهات الرقع تزاحم الجياع واستمروا على هذا الحال شهرين وبضعة أيام حتى تواردت الغلال من الأقاليم القبلية وملأت مخازن التجار وأشوان الدولة وعم الوارد منها الأقاليم البحرية فلم تكن لتسكن الخواطر وتطمئن القلوب

حتى ظهر الوباء فى الناس ثانى عشر المحرم إفتتاح سنة اثنتين وثمانين ومائتين وألف هجرية واشتد الموات شدة بالغة بالقاهرة ومصر القديمة ثم عم جميع البلاد شرقا وغربا فكانت الفقراء تموت بجانب جدران البيوت وفى الأزقة والحارات وأصحاب الشرطة يطوفون لنقل الجثث إلى المقابر وبالغ محافظ المدينة فى نظافتها فلم يرتفع الوباء واستمر على شدته إلى رابع عشرى ربيع الثانى فمات خلق كثير ثم ارتفع وقد نزح الكثير من الأجانب وأهل البلاد إلى الديار الخارجية فرارا من الموت وخلط الناس وخبطوا وقالوا أن هذه الكوائن إنما هى ناجمة عن دخول السلطان إلى مصر إذ لم يسبق لذلك مثيل منذ فتحها السلطان سليم بعسكره واشتد خوفهم وأخذتهم الطيرة وتشاءموا من حاكم الوقت وخشوا عواقب أيامه وأخذوا بأقوال أصحاب الزايرجات والمنجمين كعادتهم عند وقوع الشدائد وضجوا وعجوا وابتهلوا إلى الله تعالى وتوجهوا إليه بقلوبهم وقد أحصوا من مات فكان زهاء المائة ألف نسمة.

وما انقطع الوباء وسكنت الخواطر حتى جعل إسماعيل باشا يتصرف في أمور الدولة بحب هواه أو ما يلائم مصلحة البلاد فنقض ما أبرمه سعيد باشا مع ديلسبس فاتح ترعة السويس ورسم بعدم تسخير أهل البلاد فى حفر ذلك الاتصال كما كان المعينين سعيد باشا وديلسبس واستعان إسماعيل باشا على إبطال هذا الحدث بالسلطان فكتب إلى الباب العالى يقول:

إن عدل أمير المؤمنين لا يسمح بتسخير رعاياه فى عمل قد أضر بالحرث والنسل وأذهب براحة أهل البلاد وأوعز إلى أصحاب صحف الأخبار المصرية فهبت يومها تنادى بالويل والحرب وتستفز رجال الدولة إلى إبطال هذا العمل والأخذ بالأسباب لدفع ورفع هذا النير عن أعناق أهل البلاد وكان إلى هذا الحين لم يصدر السلطان البراءة وعمل ذات الاتصال بعد أن سار دي لسبس إلى دار السلطنة وأقام بها أياما كثيرة وكاتب الصدر الأعظم فى ذلك مرارا فكتب عالي باشا إلى سفير الدولة العثمانية بعاصمة الفرنسيس في شأن ذلك يقول: غير خاف على معارفكم أن الدولة العلية أيدها الله قد صرفت كثير أنفس أوقاتها فى بحث أمر عمل الاتصال المراد عمله ما بين البحر الأبيض المتوسط والأحمر ومع كونها تودّ من صميم القلب انجاز هذا المشروع الخطير والعمل على الاتحاد مع الدولتين البحريتين العظيمتين لعلمها بأهمية وخطارة هذا الاتصال إلا الورود على الباب العالى فى هذا الحين مطالعة من والى الديار المصرية يطلب فيها تأييد أمير المؤمنين فى هذا الأمر ويحزننى جداً أن

أرى أنه قد بدىء وكاد أن يتم عمل الاتصال قبل أن يقع الاتفاق على أمر من الأمور بين الباب العالى والدول المتحالفة ويعز على أيضاً إيقاف العمل الآن وتعطيل مشروع كهذا جزيل الفائدة كبير القيمة على أنى مع ذلك أقول أنه لا يمكن للدولة العلية على أىّ حال كان الموافقة على عمل هذا الاتصال إلا بعد اتفاق سائر الدول مع الباب العالى على جعله حرا مستقلا تحت حكومة البلاد التى هو فيها بمثابة بوغاز البوسفور والدردنيل فى دار السلطنة العثمانية وقد تكلفت تلك البلاد أعنى البلاد المصرية بتشغيل زهاء عشرين ألفا من جراء هذا الاتصال عونة وسخرة مع سبق النشر والإعلان بإبطال هذه العادة الخشنة وإبطال العدل والشرف ومما يحول دون اعتراف الباب العالى بتتميم عمل ذلك الاتصال فقد تم عقد الاتفاق الموقع عليه محمد سعيد باشا والموسيو دى لسبس صاحب ذلك المشروع بعد محمد سعيد باشا الموسيو المشار إليه بتنازل حكومة البلاد له عن منفعة بيع الأراضي التى تكون واقعة على ضفتى الاتصال المذكور مدة تسع وتسعين سنة ولم يبق مانع يمنع دخول مدينة السويس وجميع ما جاورها من القرى والمزارع والبقاع ومدينة بورسعيد وسائر حدود الشام أى معظم المملكة المصرية فى حوزة وتصرف شركة ترعة السويس وينجم عن ذلك ظهور شعوب متفرقة مستقلة بنفسها خارجة عن طاعة أمير المؤمنين وهو أمر لا تحمد عواقبه ولا أخالكم تنكرون علىّ القول بأنه ما من حكومة رزقها الله حسن النظر فى عواقب الأمور ولو بقدر مثقال ذرة وألهمها السعى وراء حفظ استقلالها وتوسيع نطاق عمرانها ومدنيتها ترضى بمثل هذه الشروط المفعمة جورا وخذلانا لرعاياها الطائعين ولا تظنوا أن أمير المؤمنين يجيز العمل بمقتضى تلك الشروط التى كان بعث محمد سعيد باشا بصورة منها إلى الباب العالى وهو يعلم حرسه الله ما وراء ذلك من تعيير سائر الأمم لحكومته ورميها بالقصور والمروق عن جادة الحق فإن أجازه فإنما يجيزه بعد قبول هاته الخصال الثلاث:

الأولى منها: جعل هذا الاتصال مستقلا تحت رعاية الحكومة المصرية وعدم منح أية دولة كانت امتيازات أو حقوق خصوصية فى أى حال من الأحوال.

الثانية: رفع نير السخرة من أعناق أهل البلاد.

الثالثة: العدول عن مشروع حفر الاتصال المار بالنيل وأن لا يعطى شىء من الأراضى لشركة هذا الاتصال إلا ما كان لازما لإنشاء معاملها وورشها فقط.

فإذا تم قبول هاته الخصال الثلاث جاز العمل بالاتفاق مع والى الديار وسهل التصديق على بقية الشروط المدوّنة بالعقد، فالذى نسألكم إياه الآن هو أخذ رأى

الدولتين المتحالفتين أعنى بهما دولتى الفرنسيس والإنجليز عما يليق عمله الآن أيليق منح شركة حفر هذا الاتصال عدة امتيازات وحقوق لا يكون من ورائها إلا هضم حقوق رعايا الدولة العلية وإذهاب ثروة البلاد واضمحلالها وضياع كثير مما نالته من شبه استقلالها وهل يوافق أنه إذا لم يتم التراضى بيننا تأخذ حكومة أمير المؤمنين على عهدتها بالاتفاق مع عاملها على ديار مصر انجاز عمل هذا الاتصال وأن تنفق عليه من مالها أو تسلمه لشركة أخرى بشروط وعهود يقع الاتفاق عليها بحيث لا يبقى للشركة الحالية حق فى المطالبة بالمال الذى أنفقته إذ كان اندفاعها إلى العمل بغير إجازة ولا مسوّغ أفيدوا الجواب، ووردت الأخبار بهذا المغنى إلى إسمعيل باشا من الباب العالى فسر بها سرورا عظيما وكتب إلى الموسيو دى لسبس يقول:

لا يليق بنا أن نخفى عليك معرفة أنه لما كان من الخلاف فى أمر عمل اتصال البحر الأبيض بالبحر الأحمر قد كنا خابرنا دار السلطنة العلية فى ذلك وسألنا الباب العالى أن يفتينا فى الأمر فجاءنا منه مطالعة فى هذا الحين تجيز لنا المخابرة مع شركة الاتصال المذكور والاتفاق معها على جميع التغيرات المراد إدخالها على عقد التنازل الموقع عليه مع المرحوم محمد سعيد باشا وإبطال ما فيها مما كان سببا لحصول الإباءة وعدم قبوله لغاية الآن، ولا إخالك تجهل إنى مذ وليت الأحكام إلى هذا الحين لم يكن عندى من المشاغل شىء يعادل هذه المسئلة وكان الذى لم يقبله الباب العالى وهو يمانع فيه للآن كل الممانعة أمرين الأول تسخير أهل البلاد فى ذلك العمل والثانى تنازل الحكومة عن منفعة الأراضى الواقعة على شاطىء الاتصال المذكور فلأجل أن لا يزداد الأمر إشكالاً والأحوال بيننا جدالاً قد رسمت إلى نوبار باشا بحل عقدة هذه المسئلة بالاتحاد معك ومع أعضاء الشركة وإنى لواثق بأنك تبادر إلى فض هذا النزاع بالتى هى أحسن بما لك من سلامة النية كى لا يقع بسبب ذلك فى مستقبل الأيام ما لا تحمد عقباه وقد ضرب لنا الباب العالى أجلا للاتفاق قدره ستة أشهر فإن مضى الأجل ولم نتفق على أمر يحسن السكوت عليه لم يعد إذ ذاك فى وسعى أن أعيد الكلام مع دار السلطنة فتدخل المسئلة فى دور جديد مع الباب العالى ويعز الوفاق ومعاذ الله أن نصل إلى هذا الحد، وسترون أن الذى رسمته إلى نوبار باشا ليخابرك عنه لم أراع فيه سوى راحة الرعية ورفع المضار عنهم مع إنجاز مشروعكم على النمط المرغوب هذا وقد جاءنى مرسوم أمير المؤمنين بأن أبادر إلى تبليغ مقره الكريم حالة ما هو عليه الاتصال المذكور من العمق والطول والعرض

المراد جعله حسابا لذلك الاتصال وأن يلاحظ بأن لا يكون الاتصال المذكور قليلاً السير السفن الحربية فإن أمير المؤمنين حرسه الله لا شيء أحب إليه من المحافظة على السلم واجتناب جميع المشاكل مع سائر الدول . اهـ.

فاجتمع نوبار باشا بعد أيام مع الموسيو ديلسبس وسأله الموافقة على تقليل عدد العاملين فى حفر ذلك الاتصال من أهل البلاد من عشرين ألفا إلى ستة آلاف ونفقة فرنكين أى سبعة قروش وثلاثون فضة لكل واحد يوميا والتنازل عن جميع الأراضى المتنازع فيها وقيام الحكومة بجميع المصاريف التى أنفقتها الشركة إلى تاريخ عقد هذا الاتفاق مع قيامها أيضاً بجميع نفقة الترعة المراد إنشاؤها من النيل إلى جوار الاتصال فطال بين الفريقين الأخذ والرد واشتد الجدال وكاد يتعذر الوفاق وينفض اجتماعهم على غير طائل فرفع إسماعيل باشا الأمر إلى نابوليون أمبراطور الفرنسيس وتقرب منه وتزلف إليه وأقام الوسطاء والشفعاء فأشار نابوليون بوجوب تقرب الفريقين وإصلاح ذات البين وأقام لذلك عمدة من خمسة من كبار السياسة وأصحاب الشريعة بعاصمة الفرنسيس ورسم لهم بالتخفيف وحسم أسباب النزاع بالتى هى أحسن فتم الوفاق على ما شاءه إسماعيل باشا وقام برد النفقة التى أنفقت على جميع الأراضى التى كانت الشركة تتنازع فيها وبنفقة الترعة الحلوة التى أنشئت ممتدة من النيل فكان ما أنفق على ذلك دون غيره عشرة آلاف ألف من الفرنكات أى سبعة وثلاثين ألف ألف وخمسمائة ألف قرش وورد فرمان السلطان فى ثانى عشر القعدة سنة اثنتين وثمانين وألف هجرية بقبول كل ما وقع الاتفاق عليه وارتفعت السخرة عن أهل البلاد وزالت عنهم تلك المحنة وحسبت مكرمة إلى إسماعيل باشا على مر الأيام.

(مطلب)

تولية إسماعيل باشا مصر دون ذرية محمد باشا

وكان إسماعيل باشا قد سبر غور رجال المابين وأصحاب الحل والعقد فى دار السلطنة بعد أن تم له ما أراد فى أمر اتصال ترعة السويس ولما كان شديد الرغبة من يوم توليه مسند الولاية فى نزع حقوق الوراثة المحصورة فى ذرية محمد على باشا بمقتضى الفرمان السلطانى المؤرخ فى شهر ذى الحجة سنة ست وخمسين ومائتين وألف وجعلها فى عقبه من بعده أى فى الأرشد من ولده وفى عقب ولده، قال بعض أهل التحقيق: وقد كانت رغبته فى ذلك مترتبة على سببين أولهما بغضه الشديد لأخيه الأمير مصطفى فاضل المستحق للولاية من بعده وثانيهما حرمان الأمير عبد الحليم بن محمد على باشا من الولاية بعد الأمير مصطفى فاضل فسعى فى دار

السلطنة وأنفق الأموال الطائلة وأجزل العطاء لأرباب الدولة وتزلف إلى أصحاب الحل والعقد ورجال المابين وهادى الصدر الأعظم وشيخ الإسلام ثم جعل يدبر على أخيه وعمه ويكيد لهما ورفع القصص إلى الباب العالى يشكو من أفاعيل عزاها إليهما وقال أنهما كادا له وعملا على قتله وكان أخوه قد نزل فى جوار السلطان وعمه باق بالقاهرة فضيق على عمه وشدد وأرهب وتوعد فانكمش عمه بمقره بشبرا بضواحى القاهرة وانزوى عن الناس فزاد فى التضييق عليه وأقصى عنه حاشيته والمتقربين إليه ومزق أتباعه وضبط أكثر أرزاقه وحبس غلاته وبالغ فى نكايته حتى أخرجه مدحوراً إلى دار السلطنة فنزل على أصحاب المابين مستجيرا فلم يمدوا له يدا قد بسطوها إلى عمه فأقام يراقب الفرص لعل الله يأتيه بالفرج القريب وما زال إسماعيل باشا يكثر السعى ويجهد النفس ويبذل النفيس حتى مال السلطان إلى طلبه وحقق أمنيته ورسم فى ثالث عشر المحرم افتتاح سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف هجرية بجعل حكومة البلاد وراثية تنتقل من إسماعيل باشا إلى أكبر أولاده ثم للأرشد من عقب ولده وجاء الفرمان بذلك إلى القاهرة ففرح إسماعيل باشا فرحا لا يوصف ودقت البشائر وعملت الولائم والمآدب وأكثر رجال الدولة من عمل الأفراح وتصدقت والدة إسماعيل باشا وأطعمت وفرقت الهدايا على المشايخ والعلماء وكست أولاد المكاتب واليتامى وقد أدرك الباب العالى بعد قليل من الأيام أنه لم يحدد فى فرمانه الخطة الواجب إتباعها عندما يكون الوارث لكرسى الحكومة المصرية قاصرا أى لم يبلغ سن الثامنة عشرة وعلم أن فى إغفال ذلك تعقيدا وإشكالا فسير فى ثانى صفر من السنة إلى مصر رسولا ومعه فرمان آخر بما ذكر فلما وصل القاهرة قوبل باحتفال عظيم فاستغرب الناس يومئذ حضوره وكثرت الأقوال فى شأنه وترامت الظنون إلى المرمى البعيد وما زالوا على هذا الحال حتى شاع الخبر بما فى ذلك الفرمان وتناقلته أصحاب صحف الأخبار على اختلافها.

وبدأت من هذا الحين تعلو كلمة إسماعيل باشا وقد زال عنه ما كان يلاقيه من متاعب شركة ترعة السويس ونقل الوراثة إلى عقبه من بعده وتبعيد أخيه الأمير مصطفى فاضل وعمه الأمير عبد الحليم وتمكن من مخانق رجال المابين وأصحاب الحل والعقد فى دار السلطنة فاشتدت عزيمته ومالت نفسه إلى التشبه بكبار الملوك وأصحاب الحكومات الدستورية لما فى ذلك من استرضاء الناقمين من كبار الدول الأورباوية فرسم فى شعبان من السنة أى سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف هجرية

بتشكيل مجلس شورى للبلاد على نسق ورتب مجالس الأمم المتمدنة والحكومات الدستورية المقيدة وبالغ فى الأمر وطير الخبر بذلك إلى الآفاق وأوعز إلى بعض أصحاب صحف الأخبار الأجنبية فقاموا وقعدوا وشادوا بذكر تلك المجلس وقالوا هو من مقدمات الإصلاح ومبادىء الفلاح وانتقال البلاد من دور الخراب والهمجية إلى دور العمران والمدنية (قال بعض الكتاب) ولم يكن فى الأمر شىء من ذلك البتة فأنه ما تم اجتماع أعضائه وجعلوا ينظرون فى مصالح البلاد حتى زادت الضرائب وكثرت المكوس وتعددت أنواع المغارم وانبث أصحاب الجباية شرقا وغربا واشتدوا على الرعية شدة بالغة ونواب الأمة لا يعزفون من مواجب النيابة غير الطاعة لمن قال من كبار الحكومة أو أشار من أصحاب الحل والعقد فكانوا حملا ثقيلا على عاتق أهل البلد وسدا قويا بين القادحين من أهل النقد وبين أصحاب الحل والعقد فنهض عند ذلك بعض أصحاب صحف الأخبار الأجنبية إلى الطعن وتجردوا إلى التعييب ورموا نواب الأمة بالجهل والمروق وشخصوا أوقات اجتماعهم بهيآت مضحكة حاكوا فيها الملاعب الخيالية والأشكال السخرية وحذروا أهل البلاد من شر العاقبة وخوفوهم من سوء المصير ولايضعف هذا كله لإسماعيل باشا عزما ولا وقف به عند جد لمكانته عند رجال السلطنة وأصحاب الكلمة فى المابين وكان كلما زاد أصحاب صحف الأخبار فى التقريع والتعييب زاد هو أيضاً فى التقرب إلى رجال السلطنة وأجزل لهم العطاء وأهدى لهم الهدايا والتحف العظيمة فيقضون له كل ما فى نفسه، واشتدت رغبته فى التسمي باسم لم يتسم به أحد ممن تولى حكم البلاد قبله فسأل السلطان أن يلقبه بعزيز مصر وأن يرسل له خطا فطوعه بذلك السلطان ومناه فكثرت رسائله إلى أصحاب الباب ثم أهدى وفرق فجاء الخبر بأن السلطان قد لقبه بلقب خديو وهو أكبر مراتب الدولة وأرفعها ولم يسبق لأحد نوال مثلها من الوزراء وكبار القوم فإن لقب عزيز مصر إنما هو دون لقب خديو إذ كان يوسف بن يعقوب عليهما السلام عزيز مصر أى وزيرها والأمين على خزائنها ففرح بهذه البشرى وشاع خبرها بين الناس فلما كان خامس ربيع الأول من السنة جاء فرمان السلطان بذلك على يدى أحد القرناء السلطانية فقرىء فى محفل حافل للغاية ودقت البشائر وطيروا الأخبار إلى الآفاق ودعوا للسلطان فى جميع المساجد بالقاهرة ومصر والأقاليم القبلية والبحرية وانطلقت كلمة الخديو إسماعيل من هذا الحين بعد التقييد واتسعت وحل له فعل ما لم يحل من قبل من عقد العهود مع الممالك الأجنبية والقروض مع أصحاب الأموال بلا استئذان من الباب وضرب الضرائب وتعديل

المكوس وفعل كل ما يختار من غير معاودة ولم يمض على ذلك إلا اليسير حتى مالت به النفس إلى الاستزادة وتاقت لها الاستقلال بملك الديار المصرية فعمد إلى تنظيم الجند والإكثار من معدات الحرب وحصنت الحصون وأنشأ القلاع العظيمة بثغر دمياط ورشيد وأبى قير ومعامل البارود والفشنك والبنادق والمكاحل وملابس الجند والخيام وسروج الخيل وغير ذلك وأرسل يشترى الكثير من البنادق الجديدة المستعملة فى جيوش الدول الكبرى واستقدم جماعة من كبار جند الأمريكان وأركان الحرب والمهندسين لتعليم العسكر وتدريبهم على النسق المستعمل فى جيوش الممالك الأجنبية وأكثر من التزلف إلى نابوليون امبراطور الفرنسيس وهو يومئذ صاحب الكلمة والقول الفصل بين كبار الملوك ليستعين به عند الحاجة وأدنى منه دى لسبس فاتح خليج السويس ليكون رسوله فى المهمات وجعل يراقب الفرص ويتحين انتفاعها فلم تخف أعماله على رجال دار السلطنة وعلم السلطان بما فى نيته فكبر عليه أمر ذلك واستعظمه ورسم إلى عالى باشا الصدر الأعظم بمراقبة الحوادث وعدم التهاون فى شىء وكان صفاء الود الذى بين الخديو والصدر المشار إليه قد تكدر لأسباب لم تصل إلينا معرفتها فاشتد الصدر على الخديو وبعث العيون إلى مصر وجعل يراقب الحوادث ويسأل عن الصغيرة والكبيرة ويحاسب على الذرة والبرة.

واتفق فى هذا الحين أن قدم إلى دار السلطنة داعى نابوليون امبراطور الفرنسيس يدعو السلطان إلى الوليمة المزمع أعمالها فى عاصمة الفرنسيس عند فتح المعرض الذى أقيم فيها وقد دعا إليه الأمبراطور كثيراً من الملوك والأمراء والخديو إسمعيل فسار الخديو من الإسكندرية فى سابع صفر ووصل السلطان إلى باريز في تاسع عشرة فقوبل باحتفال واحتفاء عظيمين وأقام بها زهاء شهر ونصف وكان معه بعض رجال الدولة وجماعة من المابين فكلمه الأمبراطور في أمر الخلاف الواقع بين الباب العالي والخديو وهوّن عليه الأمر وما زال به حتى استرضاه فعفا السلطان عما سلف وأدنى الخديو منه ولاطفه ثم عاد السلطان إلى دار الخلافة فى سادس ربيع الثانى سنة أربع وثمانين ومائتين وألف هجرية وأقام الخديو أياماً فعرفه من حضر إلى باريز من الملوك وأولاد الملوك والأمراء والكبراء وتقرب من الكثير منهم وتزلف إليهم وبالغ فى التظاهر بمظاهر كبار الملوك فاتفق وأهدى وأجزل العطاء وحبب إليهم الحضور إلى مصر عند عمل الأفراح لفتح خليج السويس فمنهم من أجاب إلى ذلك ومنهم من وعد ثم عاد إلى الإسكندرية وأقام بها أياما يدبر أمر ضيافة أولئك الملوك والكبراء

فرأى أن مصر ليس فيها من محال اللعب واللهو ما فى أصغر بلاد الفرنجة كمراسح التشخيص ومواقف المغانى وغير ذلك مما لم تسمع به أهل البلاد ولم تره فعاد إلى القاهرة ورسم إلى بعض المقربين إليه من الأجانب بإنشاء مرسحين على نفقة الخزينة فأقام أحدهما على بقايا بناء السراى المعروفة بسراى ثلاثة وليه وهى منزل أحمد طاهر باشا بن طاهر باشا الكبير وسموه باسم الكوميديا والثانى على يسار الأول وسموه باسم (الأوبرا) وبالغوا فى تزيينهما بأنواع الفرش والبسط والطنافس والتحف والنقوش البديعة وأتوا إليهما من الديار الأوروباوية بجماعة المشخصين والمشخصات والمغنين والمغنيات وأساتذة هذا الفن وعملوا لهم من الملبوس والحلى الفاخرة شيئاً يكاد أن لا يدخل تحت الحصر ورتبوا لهم الجماكى والمرتبات الواسعة ورسم إلى شركة ترعة السويس بأن تنشىء على نفقة الخزينة أيضاً دارا فى مدينة الإسماعيلية لضيافة الزائرين من أولئك الملوك والأمراء والكبراء فأنشأتها فكان ما انفق عليها زهاء ثمانين ألفا ذهبا، فلما حل الأجل المضروب لإقامة تلك الأفراح والولائم وكان الاتصال بين البحرين الأبيض والأحمر قد تم وجرى الماء بينهما مختلطا وهو كاف لحمل البواخر والسفن التى تشق عبابه سير الخديو رسله إلى الديار الأوروباوية يدعون ملوكها وأمراءها إلى تلك الأفراح فلقوا من جميعهم الرضا وقد أخذ فى الأهبة والاستعداد ورسم بخروج سائر عمد وأعيان البلاد القبلية والبحرية بخيامهم وطبولهم وزمورهم وخيلهم ومأكولهم ومشروبهم فخيموا بمدينة الإسماعيلية وهى إحدى المدن التى أنشئت على شاطىء الترعة على قيد بعض فراسخ من قرية العباسية وأمر فجمعوا سائر المغنين والمغنيات وأرباب الملاعب على اختلاف أنواعها وعملوا الزينة على أشكال متنوعة يعجز اللسان والقلم عن وصفها ورتبوا الحراقات والأشكال النارية ووضعوا الرايات الخاصة بمملكة كل ملك وأمير دعى إلى هذه الأفراح وجاءت إلى مدينة الإسماعيلية طوائف العساكر والأجناد بالمدافع وآلات الحرب الكاملة وكثير من الزوارق والسفن الصغيرة المزينة بأحسن الزينة وتقاطرت إليها الذبائح من الضأن وشباب البقر وفحول الجاموس والغزلان والمعزى ومن الطيور على اختلافها وتراكمت أحمال المأكول والمشروب بحالة يقصر عن وصفها اللسان والقلم.

وبينما كانت الاستعدادات لهذه الأفراح والولائم قائمة على ساق كان على باشا الصدر الأعظم يخابر الدول الكبرى فى أمر تعدى الخديو على حقوق أمير المؤمنين

واستصغاره لواجبات التابعية وأنه إذا كانت ديار مصر من أملاك الخلافة كالقلب من الإنسان فكيف ساغ للخديو أن يتولى أمرا من أهم الأمور وأكبرها بغير إجازة وأنه ليس من الكياسة ولا من حسن السياسة فى شىء أن تذهب الضيوف إلى دار أمير المؤمنين وهو غير عالم بأسباب الضيافة ولا قائم بواجباتها مع أنه أحرص الناس على حفظ كرامة مملكته وشرف كرسى سلطنته وعدم تعريض حقوقه الذاتية للضياع، قال بعض كتاب الأخبار: وكان قد بلغ الباب العالى أن الخديو إنما يريد بهذه الأفراح واستدعاء ملوك الدول وكبار الممالك لبس شعار السلطنة على ديار مصر والخروج من تابعية السلطان فهال السلطان هذا الأمر وأزعجه جداً ورسم إلى الصدر الأعظم بمداركة الخطب قبل استفحاله وشدد فى ذلك فكلم الصدر الأعظم كبار ساسة الدول وما زال بهم حتى أحجم بعض الملوك عن الذهاب وبعضهم أناب عنه ولى عهده أو أحد قرابته وانفشلوا أو كادوا ولاحت بشائر الظفر للصدر الأعظم فكبر الأمر على الخديو واستعظمه وشكى حاله إلى نابوليون واستنجده فكلم نابوليون الصدر الأعظم فى ذلك وشدد وهدد وما زال الأمر بين أخذ ورد أياماً حتى تقررت القاعدة على أن كل من شاء من الملوك والأمراء إجابة دعوة الخديو وجب عليه أن يعرج على دار الخلافة قبل ذهابه إلى مصر ويزور الخليفة السلطان بصفته صاحب الدعوة ثم يسير إلى مصر بعد ذلك على الرحب والسعة وأن للخليفة أن ينيب عنه من شاء فى هذه الولائم لتفتح مراسم التهانى باسمه الشاهانى وترفع لمن حضر واجبات الشكر وحقوق الضيافة فأناب السلطان عنه مبعوث دولة الإنجليز وزوده بما شاء مما لم تصل إلينا معرفته.

فلما كان ثانى شعبان سنة ست وثمانين ومائتين وألف هجرية قدم الوافدون تتقدمهم أوچنيه أمبراطورة الفرنسيس وأمبراطور النمسا والمجر مع ولى عهده وولى عهد ملك إيطاليا وكثير من الأمراء والكبراء وولى عهد البروسيا فباتوا ليلة فى مدينة بورسعيد بين مظاهر الأنس والسرور وأصبحوا وقد ركبوا السفن ومعهم طوائف الحرس والخدم والحشم وأكابر ممالكهم ونزلوا الإسماعيلية وقد تكامل عددهم ولم يتأخر منهم سوى مبعوث الإنجليز النائب عن الخليفة أمير المؤمنين فباتوا ليلتهم ورأوا من إتقان نظام الوليمة وحسن ترتيبها ما لم يجر على مثال سابق وكانت الموائد تمد تباعا فى الخيام والصواوين والسفن والأماكن التى أعدت لذلك والمدعوون يتعاقبون عليها فوجا بعد فوج واستمر الحال على ذلك زهاء أربع عشرة ساعة، قال بعض كتاب الأخبار، فأعجب الملوك ذلك جدا بل أدهشهم وجعلهم فى حيرة وأصبحوا

رابع عشر شعبان وقد اجتمعوا جميعا فى مجلس أعد لهم وبينهم أوجنيه أمبراطورة الفرنسيس وكبير وزراء مملكتها ورئيس أركان حرب الجيوش الأفرنسية فقامت فيهم الخطباء والفصحاء فخطبوا وتكلموا وأطنبوا وبالغوا فى الإطراء ولم يتم الخطيب كلامه حتى وقف في وسطهم مبعوث الإنجليز وقد كان لا يظن وصوله فى هذا الحين فختم الخطيب خطابه بالثناء على الخديوى وامتدح من حسن لقائه وكرم أخلاقه فصاح رسول الإنجليز بالدعاء للخليفة أمير المؤمنين صاحب البيت وما فيه فتبعه من حضر بالدعاء جهارا فأطلقت السفن مدافعها تباعا وأطلقت كذلك مدافع البر وهتف الجند بأصوات التهليل والدعاء وصدحت الموسيقى من كل صوب وحدب وعلا الصياح واشتد التهليل ودقت العمد والأعيان والمشايخ وأرباب الطرق طبولهم وهتفوا جميعا بالدعاء ومرت السفن بالخليج تباعاً بعضها آت من البحر الأبيض المتوسط وبعضها من البحر الأحمر وهى مزينة بصنوف الرايات وأشكال الزينة ورست أمام مدينة الإسماعيلية بعضها خلف بعض وجندها وملاحوها يهتفون بالدعاء على أعالى الصوارى وما زالوا على هذه الحال حتى تم عبورها فكان مشهدا من أعجب المشاهد وأحسنها لا يمكن وصفه ولا استيفاء محاسن ما فيه وقد كان ما أنفق من مال الخزينة على هذه الولائم والأفراح ما قدره ألفا ألف ذهبا ما عدا الهدايا والتقادم النفيسة التى أهداها الخديو من ماله وهى كثيرة جداً، ورجع من حضر من الملوك والأمراء ولم يبق إلا أوجنيه أمبراطورة الفرنسيس ومن معها من الحشم والأتباع وبعض الأمراء لمشاهدة الآثار القديمة بمصر وصعيدها فبالغ الخديو فى إكرامها ولازم ركابها حيثما سارت وجعل الأمير حسين ثانى أولاده فى خدمتها وطاف معها الخديو جميع ضواحي القاهرة ومصر مثل المطرية وطرا والأهرام وسقارة وغيرها على ظهور الحمير وأراها جميع العادات المصرية فى المأكول والملبوس وفى الأعراس والولائم وفى تمشيط العروس وجلوتها وتخطيرها وغير ذلك بأن زوّج بعض حظياته إلى بعض رجال ديوانه الخاص وعمل لهن الأعراس على أحسن ما يكون من الأبهة والعظمة الشرقية ثم سارت أوجنيه من القاهرة تريد الصعيد فسار الأمير حسين فى ركابها وخصص الخديو لخدمتها ستة عشرة باخرة تمخر في النيل صعودا وهبوطا فكان بعضها لحمل الحشم والأتباع وبعضها لجلب المأكل والمشرب فى كل يوم من القاهرة وقضت بالصعيد اثنين وعشرين يوما صرف فيها من الأموال شيئاً كثيراً ثم عادت ولبثت بالقاهرة أياماً قلائل ثم سارت راجعة إلى عاصمة الفرنسيس ومعها من التحف والهدايا الفاخرة والأعلاق الثمينة ما لا يكاد يدخل تحت الحصر ويجل عن الوصف.

ولما فرغ الخديو من ولائم ترعة السويس وأفراحها عاد إلى التفكر فى أمر توسيع دائرة خديويته بين مصر والسودان والحبشة وخط الاستواء فسير الإرساليات العلمية والعسكرية إلى جوف السودان والحبشة لتخطيط الطرق واستكشاف أحوال البلاد ومواقعها وعوائد أهلها وأميالهم وغير ذلك واهتم بتحسين فرضتى سواكن ومصوّع الواقعتين على ساحل القلزم وقد كان تقدم إلى السلطان فى ضمهما إلى خديوية مصر مع بعض بلاد الصومال التابعة للسلطنة العثمانية فى مقابلة زيادة الخراج المقرر دفعه كل سنة إلى الخزينة السلطانية وإبلاغه إلى سبعمائة وخمسين ألفا من الجنيهات فأعطاه إياها السلطان فحصن سواكن ببعض القلاع الخفيفة وأقام بها المرابطين من العسكر المصرى وفعل كذلك بمصوّع ثم تأهبت عساكره وشنت الغارة على غير ما أخذه من بلاد الصومال واستولى على عدة بلدان منها وسير جيشا عظيما إلى جوف السودان والدارفور وخط الاستواء ففتح الكثير من بلدانها واستولى على عدة مدائن وأراض واسعة وعاثت جنوده فى تلك الأصقاع وأعملت فيمن عصاها السيف ففتكت ونهبت وأسرت وأهلكت الحرث والنسل فهابهم أهل السودان وخشوا بأسهم واستسلموا لهم كارهين فأقام عليهم الحكام من أهل القوّة والبأس وبث بينهم جباة الأموال من أهل الخشونة والقوّة ووكل بهم ذوى الطمع والجشع وجعل تلك البلاد الآهلة بالإنسان والحيوان والضرع والزرع منفى لأصحاب الجرائم وأهل الشقاوة وضرب عليهم العمال والولاة الضرائب الفادحة وفرضوا الفرض والمكوس الجائرة واشتدوا على طوائف التجار منهم والنخاسين وخصوهم بالمغارم والفرض وأذلوهم بالمصادرة والتشريد عند أصغر سبب أو أقل تقصير، وكان ممن سيرهم إلى جوف بلاد الحبشان لمعرفة أحوالها والتقرب من بعض كبار رجالها رجاء الغنم رجل نمساوى الأصل اسمه مشنجر فتغلغل مشنجر هذا فيها وغاب خبره حينًا ثم عاد حاملاً شيئًا من محاصيل البلاد وزين للخديو التغلب عليها وضمها إلى مملكته وقد كانت الفتنة يومئذ قائمة بين ملوكها وأمرائها والخلل ضارب فيها أطنابه قيل وأقسم مشنجر للخديو بأغلظ الأيمان أنه يملكها ويدوّخها بنفر من العسكر المصرى وشئ من النفقة فأعجب الخديو رأيه ومال إليه وما زال مشنجر يتردد على أبواب الخديو حتى ولاه المحافظة على فرضة مصوع التى هى مفتاح أرض الحبشان البحرى وأعطاه رتبة البيكوية فسار مشنجر إليها واستقرّ بها وجعل يدبر فى فتح البلاد وقرّب إليه بعض مشايخ السواحل واستمالهم بالرشاوى والبراطيل ودفع بهم إلى دس الدسائس

وإيقاظ الفتنة ما استطاعوا ولبث على هذا الحال حينًا ثم استقدمه الخديو إلى القاهرة وعوّقه أيامًا ثم أعاده وأنفذ إليه جيشًا خفيفًا معقودًا لواؤه إلى أرندروب بيك الأمريكانى أحد مقدمى الحرب الذين أتى بهم الخديو للخدمة فى الجيش المصرى ورسمَ له بالزحف على البلاد وفتحها وأقام مكانه فى المحافظة على مصوع أراكيل بيك وهو شاب أرمنى المحتد لابأس به فخرج مشنجر بالعسكر من مصوع فى يوم مشؤم الطالع وسار نحو بلاد الحبشة سيرًا بطيئًا وجعل يستميل فى طريقه مشايخ القبائل الضاربة فى الطرق والمسالك وقرّب منه شيخ قبيلة الحماسيين وبالغ فى التودد إليه ومناه بالأمانى الكثيرة فلازم الشيخ ركابه خديعة ومكرًا وسار معه وهو على قدم السمع والطاعة ومشنجر يظن بلوغ الغاية والفرح ملء فؤاده وسير إلى أراكيل بيك يعلمه بالخبر فكتب أراكيل إلى الخديو يبشره بذلك، وتاقت نفس أراكيل إلى الخروج والغزو مع مشنجر ليشاطره النصر ويشاركه فى الغنم فسار عن مصوع ولحق بالحملة وساروا جميعًا وعيون النجاشى من أمامهم ومن خلفهم وعن يمينهم ويسارهم وهم لا يشعرون فلما بلغوا بلدة (جندت) نزلوا بها ونصبوا خيامهم وأوقدوا نيرانهم ليبيتوا ليلتهم وكان مع مشنجر فى هذه الغزوة امرأته وأولاده وبناته وبعض الخدم والأتباع كأنهم ذاهبون إلى عرس أو وليمة أعدت لهم على الرحب والسعة فبينما هم نيام على فراش الاطمئنان إذ دب عليهم جماعة الحبشان فى منتصف الليل الآخر وأحاطوا بالخيام إحاطة السوار بالمعصم ودخلت جماعة أخرى فى وسط الخيام وأعملوا فى العسكر السيف فهب العسكر من نومهم مذعورين واختلطوا بالحبشان فلم تمكنهم الحبشان من الدفاع وأثخنوا فيهم قتلاً وطعنًا حتى أفنوهم أو كادوا ودخلوا على مشنجر فى سرداقه فذبحوه مع امرأته وأولاده وبناته ذبح الشاة وذبحوا جميع حاشيته وأتباعه وقتلوا أراكيل بيك شر قتلة وكان شابًا جميلاً حسن الشمائل عاقلاً ذكيًا مولعًا بالمعالى وقتلوا كذلك أرندروب وأصبحوا ودماء القتلى تجرى بين الخيام جريان الماء وأخذوا جميع ما وجدوه من سلاح ومؤن وذخيرة وخيام ودواب للحمل ورجعوا ظافرين غانمين.

وعاد من بقى من العسكر إلى مصوع فى أسوأ حال من العرى والجوع وكلهم مثخن بالجراح وأخبروا بما جرى فسيروا بالخبر إلى الخديو فهاله وأزعجه، قال بعض الكُتاب: وأقسم بالأيمان الغلاظ أن لا ترجع عساكره عن أرض الحبشان وفيها ديار أو نفاخ نار ورسم إلى راتب باشا أحد مقدمى العساكر وسردارها يومئذ بتجنيد الجند

وإعداد المعدات وشدد وبالغ فى ذلك وكان قد عاد فى هذه الأثناء من الديار الأورباوية الأمير حسن ثالث أولاد الخديو وقد تعلم الفنون الحربية وخدم فى عسكر الإنجليز وعسكر الألمان حينًا.

فلما كان شوال من سنة اثنتين وتسعين ومائتين وألف رسم الخديو بخروج العساكر والأجناد وتسييرهم إلى مصوع فسار أولاً عثمان رفقى باشا أحد مقدمى العسكر من الشراكسة على رأس الايين إلى مصوع ونزل بها أيامًا ثم لحقهم الجيش كله فى ذى القعدة من السنة فى ثالث عشرة ولبثوا بها جميعًا زهاء أربعين يومًا حتى تكامل وصول مؤنتهم ودواب حملهم وذخيرتهم وآلات حربهم ووصل أيضًا الأمير حسن ومن معه من أركان حربه ومقدّمهم الجنرال لورنج الأمريكانى المعروف بأبى ذراع لبتر ذراعه الأيسر ثم بعد أن رتبوا أمورهم وأصلحوا حالهم وتأهبوا للزحف سار فى مقدّمتهم عثمان رفقى باشا بمن معه من العسكر إلى المحلة المعروفة باسم (بعرزه) وهى تبعد مسيرة يوم للمجدّ المسافر ويومين للراكب البطئ وسار بقية الجيش بسلاحه ومتاعه ودواب حمله عن مصوع فى يوم الاثنين سابع عشرى ذى الحجة من السنة فلم تغرب عليهم شمس ذلك اليوم حتى نزلوا على بلدة (ينعض) فباتوا بها ليلتهم وأصبحوا سائرين على أحسن ما يكون من الهيئة والترتيب فبلغوا (بعرزه) بعد الزوال بقليل فأنزلوا بها أحمالهم يوم الأربعاء وباتوا ليلة الخميس وفى الصباح الذى هو أول المحرم افتتاح سنة ثلاث وتسعين ساروا إلى (عدرسه) فنزلوا عليها فى غروب اليوم وباتوا بها ليلتهم وأصبحوا يريدون بلدة (قيح خور) التى يقال لها أيضًا (قيا خور) وباتوا بها ثم أصبحوا سائرين نحو (قرع) فبلغوها فى ضحوة يوم السبت ثالث المحرم المذكور وقياخور وقرع كلاهما من حدود مملكة الحبشان فرسم السردار إلى أركان حربه بتهيئة مكان لنزول العسكر فأنزلوهم غربىّ البلد ودقوا خيامهم ورتبوا دوابهم وحفروا الخنادق وأقاموا الاستحكامات الخفيفة وأنشئوا قلعة على ذلك الاستحكام على أحسن ما يكون من الوضع والنظام وخندقوا حولها خندقًا على أعظم ما يكون من العمق وسموا هذه القلعة بالقلعة الجديدة وقد مهدوا الطريق من مصوع إلى قياخور وأزالوا ما يتخلله من العقبات وحفروا به بعض الآبار للإرتواء وانبث جماعة منهم بين الحبشان لشراء الشعير لمؤنة الدواب والدقيق والعسل فاشتروا من ذلك شيئًا كثيرًا وآخرون لاستراق سمع الأخبار عن النجاشى يوحنا ومن معه من العساكر والأجناد وقد سار عن (عدوة) تخت مملكته يريد الإلتقاء بالعساكر المصرية

والقتال معهم وما زال ينتقل بخيله ورجله من بلد إلى بلد حتى وصل إلى ناحيتين يقال لأحداهما (دنبه) والأخرى (لمزه) وهما يبعدان عن المعسكر المصرى زهاء ست ساعات فتربص هناك، وجعل الأمير حسن يراسل كبار الحبشان وأمراءهم ويستميلهم إلى طاعة أبيه ويمنيهم بالأمانى الكثيرة فكان أول من مال إلى ذلك (لح برو) عظيم (عد خاله) فحضر إلى معسكر المصريين فى نفر من الجند والأتباع فأكرم الأمير حسن وفادته وأهداه شيئًا من الملابس وشقق الحرير وهذا الرجل من أهل العصاوة وقطاع الطرق وله وقائع عدة مع العساكر المصرية فى واقعة أرندروب وجاءهم أيضًا (دجاج) ولد تكائيل صاحب الحماسيين فى جيش عظيم وطبول ورايات فلاقاه الأمير حسن ومقدموا عسكره وأحسنوا لقاءه وقدموا له الهدايا النفيسة من الشيلات الكاشميرية وشقق الحرير والمقصبات وقلائد الفضة وسروج الخيل المطهمة وأقام بالمعسكر المصرى يومًا وليلة وأطلقوا لقدومه بعض المدافع وحادثه الأمير حسن فيما هم بصدده، وولد تكائيل هذا من دهاة الحبشان وأصحاب الكلمة فيهم واجتمع حول المعسكر المصرى بذلك الصقع الكثير من السوقة وأصحاب السلع وأصناف الحبوب من الفول والعدس والشعيروالسمن والعسل واللبن والدجاج والبقر والخيول والبغال والضأن والمعز فكانوا يبيعون على العسكر آمنين مطمئنين وكانوا مدة لبثهم بغير قتال شديدى التحرز والالتفات وكان كبار الضباط من الشراكسة شديدى القسوة والجبروت على صغار الضباط من المصريين يؤاخذونهم بالعنف والشدة على أصغر الصغائر، قالوا لكى لا ينفشلوا، ويلقونهم فى أضيق الحبوس عند أقل حادثة فكانت أيام هذه الحملة على صغار الضباط المصريين من أتعس الأيام وأشدها ويلاً، وكانت عيون الأمير حسن وجواسيسه تنقل من أخبار النجاشى وعسكره فى كل يوم أشكالاً حتى أتت فأخبرت بأن النجاشى على أهبة الزحف بخيله ورجله فى يوم الثلاثاء حادى عشر صفر من السنة أى سنة ثلاث وتسعين فنادى راتب باشا فى العسكر المصرى بالتأهب والاستعداد لملاقاة العدو فتأهبوا ورحل يوحنا النجاشى عن دنبه ولمزه يريد مواقع المصريين فظهرت طلائع جيوشه ضحوة الثلاثاء وسمعت أصوات طبولهم وزمورهم فخرج فريق من المصريين ما بين مشاة وفرسان وجماعة من أصحاب المكاحل والمدافع من القلعة ووقفوا على قيد فرسخ منها على أحسن ما يكون من النظام والترتيب وناوشوا العدو القتال فقامت الحرب بينهما على قدم وساق واشتد الطعن والنزال وحمى الوطيس وعلت أصوات المدافع وارتفع الدخان إلى عنان السماء

فأظلم الجوّ والتقت الصفوف بالصفوف والتقت السيوف بالسيوف فأظهر الحبشان القهقرى والرجوع فتبعهم العسكر المصرى ومازالوا يتقهقرون والمصريون من خلفهم يصلونهم نارًا حامية حتى قطعوا ذلك الوادى وعبروا خورًا هناك وطلعوا على قطعة من اليبس توصل إلى خورثان وكلاهما يجرى فيه الماء والحبشان من أمامهم يناوشونهم القتال ولم يطل الحال على ذلك ساعة أو بضع ساعة إلا وقد أخذ الحبشان المصريين من خلفهم يعملون فى أقفيتهم السيوف والحراب وانطبقوا عليهم من كل جانب واشتدوا بالطعن والضرب وكانت صفوف المصريين الذين خرجوا من القلعة للقتال بغير احتياط ولا مدد وربما كان ذلك لحكمة لا يعلمها إلا العارفون بفنون الحرب والقتال وهجمت طائفة من فرسان الحبشان على القلعة يريدون اقتحامها وأخذ الأمير منها وكانوا يظنون أنه بها فالتقوا به عند الخور الأول فى جماعة من الحرس وأركان الحرب فاندفعوا عليه اندفاع السيل الجارف وأوشكوا أن يقبضوا عليه فساق بجواده وهم خلفه فلم يدركوه وتبعه من كان معه من حاشيته والعدوّ فى أثره حتى دخل الحصن وأغلقت أبوابه وانفشل العسكر المصرى أى انفشال واستولت عليه الهزيمة وأمر راتب باشا فجعلوا يطلقون المدافع على من كانوا خارج الحصن ووالوا الرمى بأشد ما يكون فكانت قنابل المدافع تكنس الأجسام من العسكريين كنسًا بل فعلت بالمصريين فعلاً تنفطر له الأكباد وتتمزق من هوله القلوب وما زال الرمى متراسلاً إلى قرب الزوال فتفرق من بقى من الحبشان وخلا منهم ذلك المكان فبطل رمى القنابل وقد امتلأ ذلك الوادى بالجثث والجرحى من العسكريين وجرى فيه الدم جريان الماء فى خوره وكان المنظر مزعجًا للغاية ثم خرج فريق من العساكر المصرية لدفن الموتى فأقاموا على ذلك أيامًا.

ووقع فى أسر الحبشان كثير من العساكر المصرية وجماعة من أرباب الوظائف بالجيش فقتلوا منهم وخصوا وأذاقوهم مر العذاب، قال أحمد رفعت بيك مقدم كتاب هذه الحملة فى رسالته التى ألفها باسم، جبر الكسر فى الخلاص من الأسر، وقد كان وقع فى أسر الحبشان فى هذه الواقعة ووفقه الله تعالى إلى عقد رباط الصلح مع النجاشى ما نصه، وقد حضر إلينا والحرب قائمة ضابطان من سوارينا يستطلعان حال القلعة إذ ربما يكون قد دهمتها جنود الأعداء وعلمنا منهما انتصار عساكرنا وظهورهم على العدو قال وقد كان لى فى القلعة جواد فأخذه خادم محمد نسيم أفندى أحد أصحابنا بقصد التوجه به إلى مخدومه لتوصيل ماء إليه فناديت

الخادم أن ارجع فلم يرجع وكان قصدى بذلك أن يوجد جوادى بجانبى حتى إذا فاجأتنا الأعداء بالهجوم واضطرتنا الحال إلى مغادرة القلعة ألفيت الجواد بجانبى ونجوت به مع الناجين، قال: ولما لم يرجع الخادم بعثت خلفه بتابع لى يستحضره ويحجزه فلم يعد هو أيضًا فاشتد حنقى وزاد غيظى وخرجت من القلعة ماشيًا ومعى قربينة وجبخانة بقدر ما يكفى سعيًا على الحصول على جوادى وطمعًا فى مشاهدة الحرب ومشارفة القتال وقد ظننت أنه إذا حصلت هزيمة لعساكرنا المحاربة أدركهم عسكر الاحتياط بالمدد كما شاهدت ذلك فى محاربة كريد فأكون ما بين ذلك قد تمكنت من العود إلى القلعة غير أن الأمر كان بخلاف ذلك إذ لم يكن لعساكرنا مدد ولا احتياط على حسب القواعد الحربية وما كنت أظن هذا الأمر ولا أتخيل حصوله، ولما أخذت فى السير وبعدت عن القلعة بمسافة ألف وخمسمائة متر تقريبًا وجدت حسن أفندى أحمد الكاتب معى حاضرًا خلفى على قدميه ثم رأيت حضرة محمد على بيك الحكيم راكبًا بجير ومعه خادمه وشاهدت خادم محمد بيك جبر الميرالاى راكبًا على بجير محمل ماء لتوصيله إلى مخدومه فأمر محمد على بيك الحكيم خادم محمد بيك جبر بالنزول عن البجير كى أركبه ففعل ولما امتطيته سلمت القربينة للخادم المذكور وسرنا وقد جاء تسليم القربينة للخادم من الحكمة كما سيظهر فيما بعد وبعد مسيرنا ببرهة لم نشعر إلا والعجاج الثائر يغشانا شيئًا فشيئًا وقد رأيت وقتئذ شابين من عساكرنا راجعين بهرولة فسألتهما عن السبب فقالا إن عساكرنا انهزموا ولما أردت الرجوع بالبجير قصر عن الإسعاف ثم حرن وعمد إلى التقدم مجفلاً عن الرجوع فلم أجد سبيلاً سوى الترجل فنزلت عنه ولسان حالى يقول:

أنل قدميّ ظهر الأرض إنى ـ رأيت الأرض أثبت منك ظهرًا

وقصدت العود ماشيًا ولكن هيهات إذ بعدت المسافة ولم يمكنى الجرى. قال: أما الكاتب فاندهش وانذهل وقال هات يدك ثم افترق منى إلى الجبل وقد رأيت محمدَ على بيك الحكيم راجعًا بجواده وما لبثنا حتى وافتنا خيالة العدو فى الحال تؤم القلعة بالهجوم فأحاطت بنا إحاطة السوار بالمعصم وأقامت بيننا وبين القلعة سدا محكما ثم أقعدنى أحد فرسان العدو فعمد الشابان المنهزمان إلى ضربه فقال لهما أمان فكفا أيديهما عنه فعاد إلىّ وجذبنى من يدى فتخلصت منه بالعنف وأنا عن السلاح أعزل فصوّب نحوى بندقيته ولم يطلقها وربما كانت خالية من الذخيرة وكان تصويبه إياها من باب الإرهاب ثم عمد إلى سيفه وضربنى به ضربة جاءت خلف أذنى اليسرى فأسالت الدم فى الحال غير أنى لم أشعر بها إلا عند نزول الدم على

ملابسى لما اعترانى من الدهش والانذهال وشتات الذهن وتفرق البال ثم شفع الضربة الأولى بثانية صادفتنى خلف العنق وكانت خفيفة الوطأة هينة التأثير قائلا: كيدن، ومعناها بالحبشية اذهب وهنا انجلت حكمة سبق تسليمى القربينة للخادم المتقدم ذكره إذ لو كنت حاملاً لبعض السلاح لظننى الفارس محاربا وابتدرنى بالقتال والكفاح، قال: ولما كانت خيالتنا عائدة بالهجوم على القلعة طار عنى الفارس المذكور خائفا وجلا فاختفيت فى شجر المرسين فلما سلم منهم عاد إلى فأدركنى بمجنى ومختبئى وقهرنى على القيام وكانت النيران فى أثناء ذلك تلقى من قلعتنا على العدوّ صدا لهجماته وردا لغاراته فأخذ العدو فى القهقرى ونزل حينئذ الفارس الذى أمسك بى عن جواده اتقاء الإصابة بالمقذوفات النارية راجعا إلى الوراء منحنيا فى سيره مشيرا إلىّ بالاقتداء به حتى أسلم من الإصابة وكنت أشاهد بعض عساكر العدو وبعض عساكرنا الذين اختلطوا بهم فى ملتحم الهجوم ومزدحم الرجعى يصابون بالرصاص فيخرون على الغبراء مضرجين بالدماء وقد أفضت بنا القهقرى إلى نفق بالجبل فأوينا إليه وتوارينا به وكانت حينئذ تمر على رؤسنا مقذوفات المدافع فتنصدم بالجبال ولما توارينا بالجبل وصرنا على حذر من الوجل أخذ الآسر المذكور يمشى بى على مهل حتى وصلنا إلى نهير فاغترف لى منه ماء بيده وسقانى وبعد أن شربت شرع فى سلب ما علىّ من الثياب فأخذ منى أوّلا البالطو وكان ملطخا بالدم وعلقه بعنق جواده وبعد ذلك سرنا حتى جئنا إلى ميدان واسع وكان ذلك فى الساعة الحادية عشرة نهارا تقريباً فرأيت هناك جموعا شتى ولم يمكن أن أتبين فى الحال هذا الميدان الذى أعهده من قبل وذلك بسبب ما أصابنى من الدهشة والفرق ووجدت هناك جملة أسارى من عساكرنا وقد سأل الآسر المذكور أحدهم عما إذا كنت أميرا من الأمراء أو غير ذلك فأخبره وكان لا يعرف أننى منهم مستدلا على ذلك بزيى وهيئتى ثم رمق الآسر ساعتى وسلسلتها وأراد سلبهما فأخرجت ختمى من السلسلة بحيث لا يرانى وأخفيته فى جيب البنطلون لتعلقى به إذ هو عندى من منذ ثلاث وعشرين سنة فأخذ منى الساعة والسلسلة وعلقهما بعنقه وصار يدور حولى راكبا ويقول كلاما لم أفهمه قيل لى فيما بعد أنه عبارة عن ترنمه بشجاعته وذكر حسبه ونسبه وإتيانه بأسير وبعد ذلك وصل بى إلى محل فى هذا الميدان وأخذ يفتش على زملائه فلم يجد منهم أحدا وكان ذلك وقت الغروب وقد عرفت هذا الميدان وهو الكائن شرقى (قرع) الذى كنا اتخذناه معسكرا لنا فى أول الأمر إذ وجدت فى المكان

الذى كنت فيه قطع ورق مما كنت أكتب فيه بختمى فقلت سبحان من أحلنى بهذا المكان أسيرا وقد كنت فيه البارحة أميرا ولعلى منيت بالأسر لحكمة مستورة علمها عند الله إلى أن قال وفى صباح يوم الخميس ثالث عشر صفر رأيت عساكر العدو يحتشدون زمرا وأفواجاً على هيئة القولات واحتفزوا للتوجه إلى القلعة ثم ساروا ولم يخلفوا فى معسكرهم سوى الأسراء والنساء والصبيان وقد أوثقوا الأسراء وبعد برهة سمعنا صوت البنادق والمدافع منبئة بانتشاب المحاربة واشتداد المضاربة وحمى الوطيس بين الفريقين فانطلقت النساء الموجودات بالمعسكر عند إذ يصحن قائلات أبيت أبيت وهى كلمة تضرع ومعناه ياسيدى ياسيدى وكن يسجدن على الأرض ويأخذن التراب ويذررنه على رؤوسهن وهذا جميعه طلبا للنصر والتماسا للظفر وبعد ساعتين تقريباً عاد قوشو آسرى وعلمت من حاله انفشال أمرهم وخيبة أملهم ثم صار عساكر العدو يؤبون بالتعاقب إلى آخر النهار وسيماهم الحزن والأكدار إلى أن قال ولم يمكن العدو أن يتغلب علي الاستحكام في محاربة يوم الخميس كما أسلفنا ذلك وقد رجع مهزوما مغلوبا مع كونه كرر الهجوم على الاستحكام دفعات متعددة من أول النهار إلى آخره حالة أن الاستحكام المذكور لم يكن به سوى أورطة ونصف تقريباً من العساكر فلو أن السبع أورطات يعنى كامل العساكر التى ساقوها لهذه الغزوة التى خرجت من الاستحكام أقامت به ولحقها الثلاث أورطات التى كانت فى قيادخور لتكوّن من ذلك قسوة عظيمة فى الاستحكام ولانهزم جيش العدو شر هزيمة ولم يقو على القرب من الاستحكام لوصول مقذوفاتنا إلى النقطة التى أخذها العدو معسكرا ولو كنا اقتصرنا على قذف النيران على العدو من الاستحكام لكان هذا كافيا لكسره وتبديد جموعه قال: وحصول الأمر بخلاف ذلك نشأ من تفرق الكلمة وتباين الآراء لأن جناب السردار رأى أن تتحصن العساكر فى الاستحكام وتلحق بها الأورطات التى كانت بقياخور ورأى الغير ولعله الأمير حسن خروج العساكر لمقابلة العدو وبقاء جزء منه بالقلعة مع عدم إخلاء قياخور من العساكر خشية انقطاع خط المواصلات، إلى أن قال: ولكن إذا أراد الله نفاذ أمر سلب من ذوى العقول عقولهم حتى ينفذ أحكامه فيهم فإن صاحب ذلك الرأى يريد (الأمير حسن) لم يراع فيه التدبير اللازم حتى إننا ما كنا نعلم بسبب عدم الاستكشاف إن كانت مقذوفات مدافعنا تصل إلى معسكر العدوّ أم لا وما علمنا وصولها إلا بعد أن غادر جيش العدوّ هذا المعسكر قال وليس من الحكمة والتدبير أن تساق العساكر بأجمعها إلى المحاربة دفعة واحدة ولا يكون لها مدد واحتياط للرجعى

ولا يصح إيجاد العساكر فى مكان على يمينه جبل يمكن صعود العدو فيه وإشرافه عليهم وحول أطرافه خور محيط به يمنع الرجعة فإنه لما اصطفت عساكرنا فى ذلك المكان وأقبل عليهم جيش العدو رموه بمقذوفات المدافع والبنادق فما وسعه إلا الهبوط إلى الخور والسير منه بحيث لم تره عساكرنا لعمق الخور حتى وصل منه إلى ذروة الجبل فتسلط على يمين جيشنا وكسر جناحه ولما عمد جيشنا إلى الرجعى منعه الخور المذكور وقد انقلب فيه مدفع من مدافعنا بحيواناته وانكبت حملة من عساكرنا فيه على بعضهم فبطل الرجوع بالكلية ونشأ منه ذلك الفشل والهزيمة ووقوع فوج من عساكرنا فى أسر العدو. اهـ.

ولما لم تتمكن الحبشان من أخذ الحصن عنوة وقد أخذتهم نيران مدافعه تراجعوا فنادوا فيهم بدفن الموتى ونقل الجرحى فدفنوهم ونقلوا جرحاهم ثم دقت طبولهم بالرحيل فانقلبوا فى الحال على من عندهم من الأسرى فقتلوا منهم خنقا وذبحا وأفحشوا فى ذلك جداً ثم ساروا أفواجا وهم فى عدة كثيرة بكراعهم ومتاعهم حتى نزلوا على بلدة (اقلبه) وعسكروا بها فلما كان يوم السبت أرسل الملك فى طلب أحمد بيك رفعت وقد أخذ منه الجهد والتعب وبلبلة البال مأخذا عظيما فقام وسار مع رسول الملك وصحبتهما الآسر لأحمد بيك وهما يقولان له أمان أمان ويفهمانه أنه ذاهب إلى حيث النجاشى يكلمه فى شىء من أمر الصلح والكف عن الحرب، قال أحمد بيك فلما وصلنا إلى ساحة الملك وجدت الآسر سجد خلف خيمة فظننتها خيمة الملك وأن السجود له وإذا هى كنيسة الملك وهى مصنوعة من جوخ أحمر أما خيمته التى يقيم فيها فمن قماش أبيض قال: وبعد برهة طلبت إليه وكان أول من قابلنى على باب خيمته شخص يعرف قليلا من العربية وحينئذ خرج كل من كان عند الملك من أمير وحقير ولم يبق لديه إلا عمه المدعو رأس سرايه فقال لي: ذلك الشخص الذي قابلنى أأنت الكاتب وكبير الكتاب وهل تعرف مقدار السلاح والبارود وكل شىء فقلت نعم ولما دخلت فى الخيمة ألفيت الملك متلثما حتى لا يمكننى من معرفة صورته وقيل لى فيما بعد أن من عادة ملوك الحبشة أن يفعلوا ذلك عند لقاء الأجنبى المعادى خوفا من أن يعرفه فيفتك به عند سنوح الفرصة وكان الملك طويل القامة متوسط اللون بين السواد والسمرة عارى الرأس مضفور الشعر مستطيل الوجه عسلى العينين ضخم الأنف بارز الأسنان حافى الأقدام نظيف الملابس وعليه منها جلابية ولباس وفوطة متشح بها وكان جالسا على سرير عنجريب وعلى يمينه مخدة

وعلى يساره أخرى وهما كبيرتان الجرم من نوع الشطمة المستعملة قديما وأمامه على الأرض كليمان وقد وقف بجانبه الشخص الذى دخل معى وسألنى عن وظيفتى ثانيا وكان إذ ذاك عم الملك جالسا على الكليم دون السرير ولما لم يحسن الفهم ولم يجد التفهيم استحضر الملك شخصا آخر يحسن الكلام بالعربية فصار يترجم بينى وبينه.

فسألنى الملك بواسطة ترجمانه قائلاً: ما سبب حضوركم وما القصد منه؟ قلت: أن القصد هو تبادل التجارة بين الحبشة والمصريين وتوطيد دعائم المودة والألفة بين الفريقين ولما أرسل إليكم أرندروب بيك أحد النواب المدعو محمد عبد الرحيم للمفاوضة فى هذا الصدد سجنتموه على أن الرسول لا يسجن ولا يهان فقال: نحن لم نأمر بسجنه إلا لكونه قال: أن الخديو يريد الاستيلاء على ما بين مصوع إلى المارب ومن العادة أن من يريد المفاوضة فى هذه المسائل لا يأتى ومعه العساكر فأرندروب بيك حضر إلى بلادنا ومعه الجنود فقلت له أما ما بلغه الرسول فلا ينطبق على الواقع ولا يوافق القصد فإن كان قال: ذلك فهو من عندياته وأما حضور أرندروب بيك بعساكر فمن المعلوم أن أراضى الحبشة عبارة عن وديان سحيقة وجبال وعرة وفيها قطاع الطريق والمتلصصون ونحوهم ويخشى من الطواف بها والتجوّل فيها بالانفراد فالعساكر التى أرسلت مع أرندروب بيك لم تكن إلا للمحافظة عليه فى أثناء الطريق واتصال خط المواصلة والدليل على ذلك أنه لم يكن معه سوى ألف نفر وباقى العساكر كان بالمحطات بقصد توصيل الذخائر إليه وإلى من معه حتى لا يكلفوا جناب الملك بشىء ما فقال ولو أن كلامك من هذا القبيل غير أنى عارف ببواطن الأمور وهل عندك ختم تكتب لنا جوابا بالصلح فقلت نعم: ولكن أخذه الآسر فأمر الملك حينئذ بإحضار الختم وقد حصل فكان ذلك عندى من طلائع السرور وتباشير الحبور إلى أن قال: ولما خرجت من عند الملك أجلسونى فى خيمة معدة لحفظ الأسلحة الخاصة به وهى عبارة عن درق وحراب وبعض أمتعة فطلبت قرطاسا وقلما ودواة فأحضروا لى ذلك مع كاتب يدعى متى من أقباط مصر يشبه صيارفة البلاد ولبسه ثوب وعمامة وهو حافى الأقدام وفى خلال ذلك كنت قعدت بمعزل عن الخيمة مع الترجمان وعرفنى أن اسمه دسته وطلب منى الوعد بأن لا أنساه من البر والإحسان إذا نجح المطلوب وحصل المرغوب فقلت له لك ذلك وبعد حضور الكاتب قدموا لى من باب الإكرام بعضا من العسلية فتناولته مطمئنا فرحا وقلت لمن فى الخيمة (تملسوا) ومعناها باللغة الحبشية أخرجوا وقصدى بذلك إخلاء الخيمة من الناس فضحكوا تعجبا من إخراجهم مع كونهم هم أصحاب المحل ثم

أخذت القرطاس والقلم وكتبت مسودة خطاب عن لسان الملك إلى جناب البرنس حسن باشا وذكرت فيه.

إننى كنت أود استمرار علاقات المودة بينى وبين والدكم الأفخم ولكن حال دون هذه الأمنية تمويهات مسنجر باشا محافظ مصوع وبثه الأكاذيب حتى بنى على ذلك حضور أرندروب بيك وحضوركم وكان ما كان فى وقعتى جندت وقرع من هدر الدماء بين الفريقين وهذا أمر لا يرضى الله ولا الناس ولم ندر ما هو المقصد والمرام من حضوركم بالجنود إلى بلادنا فالأولى أن ترسلوا مندوبا من عندكم أو نرسل مندوبا من عندنا للمفاوضة فى شأن الأمر الذى نحن فيه إلى أن قال ونقلت مسودة كتابى على قرطاس بخط كاتبهم بدون تغيير فيها ولا تبديل ولا محور ولا إثبات ثم عرض على الملك فختمه وحررت منى كتابا تركى العبارة إلى جناب السردار بما شاهدته من حال جيوش الحبشة من حيث وفرتها وكثرتها وما لاح لى من هذا القبيل مع الاختصار وختمته باستلفات نظره إلى ضرورة حسم هذه المشكلة بالحسنى.

وقامت رسل النجاشى بالكتاب إلى المعسكر المصرى وسلموه إلى الأمير حسن فشرع يكلمهم فى تقرير قاعدة يحسن الوقوف عندها فقالوا إنما نحن أتينا نحمل خطاب الملك لا أن نناجيكم فى أمر الصلح فرسم الأمير حسن بأن يكتبوا إلى النجاشى بأن يرسل إليهم رجلا مفوضا من قبله فى عقد رباط الصلح والكف عن الحرب والقتال فلم يرد عليهم النجاشى أياماً كثيرة وسار فى عسكره عن (أقلبه) إلى ناحية دوارية إحدى بلاد الحماسيين وهى التى وصلت إليها العساكر التركية على عهد فتح السلطان سليم لبلاد الحبشة وتعطلت المخابرة فى أمر الصلح أو كادت ثم كتب النجاشى بعد ذلك إلى الأمير حسن يقول قوموا وتوجهوا ولا خوف على عساكركم منا ولا على مودتنا من الانقطاع فلما علم الأمير حسن ما فى هذا الجواب سأل الرسول أن يبدى رأيه فى أمر الصلح فقال: لم يأذن لى مولاى بالكلام فى شىء من ذلك فكبر الأمر على الأمير حسن واستعظمه وسير فى طلب المدد فجاءته طائفة من الجند فأمد بها المرابطين فى قياخور ولبث ينتظر ما سيكون وكانت كتبه ترد فى كل يوم على أبيه بمصر يحملها السلك البرقى وكذلك كتب أبيه وكلها فى معنى ما هم فيه، واشتد قلق أحمد رفعت بيك وخشى عاقبة التطويل وكان يرى من حركة الحبشان وميل كبارهم إلى إعادة الكرة على العسكر المصرى ما زاده قلقا وانزعاجا فسير إلى راتب باشا سرا يسأله تعجيل طلب الصلح وتلافى الخطب قبل استفحاله

وعدم النطوح إلى إعادة الحرب التى لا تؤمن عاقبتها على حالة أن النجاشى موصوف بالحنان والرفق كارها لإراقة الدماء راغبا فى المسالمة والتودّد فأجابه راتب باشا إلى ذلك وحثه على عقد رباط الصلح والإسراع فى عمله قبل دخول الشتاء واشتداده على العسكر المصرى ومناه بالأمانى الكثيرة إن هو عجل فى العمل فتقدم أحمد رفعت بيك إلى النجاشى في طلب تقرير قاعدة الصلح على ما فيه المصلحة للطرفين وما زال به حتى ألانه واستماله وهون عليه الأمر فرسم له النجاشي بطلب أحد زعماء العسكر المصرى يكلمه فى شىء من ذلك فسير أحمد رفعت بيك إلى راتب باشا يطلب مبعوثا من قبلهم وضمن هو سلامته وعدم مس المبعوث بضر فلم تكن إلا أيام حتى جاءت الأخبار بقرب وصول علي أفندى الروبى أحد مقدمى الفرسان المصريين وأحمد أفندى عبد الغفار ويوزباشى من الأقباط مبعوثين لعقد شروط الصلح والكف عن القتال فرسم النجاشى بالاستعداد والتأهب للقائهم فخرج للقائهم زهاء الألفين من الحبشان بسلاحهم وآلات حربهم وكثر اللغط فى معسكرهم بقرب وصول المبعوثين فلما وصلوا وصاروا على مقربة من مقر النجاشى ترجلوا عن خيولهم ودخلوا على النجاشى مع بعض الأمراء الذين هم فى ركاب الملك فأحسن النجاشى لقاءهم ورحب بهم كثيراً ورسم بنزولهم على الرحب والسعة فأنزلوهم فى خيمة أعدت لهم وقدموا لهم شيئاً من المأكل والمشرب ولبثوا يومين يتكلمون فى قاعدة الصلح ثم اتفقوا على أن يرسل الملك رسولا من قبله إلى معسكر المصريين فسير معهم رجلا اسمه (ليكا منكاس ورقى) وهو من قرناء الملك فغاب ليكامنكاس ورقى أياما وعاد ومعه شىء من الهدايا والتحف ومبعوثو الأمير حسن المفوضون بعقد رباط الصلح فتناجوا فى ذلك أياما فكان ما طلبه المضريون من الحبشان رد سائر المدافع وآلات الحرب التى غنموها وفتح أبواب التجارة ما بين أملاك مصر والحبشة فكره النجاشى منهم ذلك وأنكره وقال لا سبيل إلى رد شىء من الأسلحة البتة اللهم إلا إذا كان ما قدره خمسمائة بندقية لا غير فألح رسل الأمير حسن فى الطلب وجعلوا يهونون على النجاشى الأمر فأخذته ثورة الغضب. وقال: لا سبيل إلى رد شىء وقد أخذتم من بلادنا سنهيت ومصوع بغير مسوّغ شرعى ومصوع هى مينا الديار الحبشية ومفتاحها البحرى فلا سبيل قط إلى شىء مما تطلبون وما كنا لنتوقع من خديويكم أن يناوينا الشر على غير موجب ولا سبب فكان من وراء فعاله هذه ما هدرتموه من دم أولئك الأبرياء فالله عليكم شهيد ثم أعرض عن رسل الأمير

فأخرجوهم عنه وباتوا وأصبحوا وهم محل الإعراض والازدراء بعد الذى لقوه من التجلة والتكريم فعادوا وأعلموا الأمير حسن بإعراض النجاشى عنهم وعدم الالتفات إلى شيء مما طلبوه وأن النجاشى لا يسلم فى شيء من السلاح والمتاع ولا رد شيء مما غنمته عساكره البتة سوى إرجاع الأسرى والتعاقد على المحبة والولاء وفتح طريق التجارة بين المملكتين فلم ير الأمير حسن بدا من قبول ذلك فأعاد الرسل بالسمع والقبول فرسم النجاشى بإحصاء الأسرى وردهم جميعا فنادى مناديه فى العسكر بذلك فاجتمع الأسرى حول خيمة النجاشى حتى تكاملوا ثم أدخلوهم عليه وكان بينهم بيكباشى أمريكى اسمه دورهاس فالتفت إليهم النجاشى التفاتة لطيفة كأنه يحييهم تحية الوداع فخرجوا فسار أمامهم أصحاب الطبول والزمور يضربون بطبولهم ويعزفون بمزاميرهم والحبشان من نساء ورجال على جانبى الطريق حتى دخلوا إلى المعسكر المصرى سالمين.

وعاد الأمير حسن بمن بقى من حاشيته وبطانته وبعض مقدمى العساكر المصرية من جماعة الشراكسة إلى القاهرة ثم لحقهم طائفة من العسكر وبقيت طائفة أخرى بعضها بقياخور وبعضها بعدرسة وبعرزه وهؤلاء لم يلبثوا طويلا حتى رحلوا إلى القاهرة وحل محلهم جماعة الباشيبوزق والعربان وبقى راتب باشا معهم حتى يأتيه مرسوم الخديو بالرحيل فلما جاء المرسوم بذلك نزل بمن معه فى إحدى السفن التجارية وأنزلوا ما بقى من المدافع والأسلحة والمهمات في ثلاث سفن كبيرة وبينما هي تسير قاصدة السويس اصطدمت إحداها المسماة دنقلة بصخر فى الماء فغرقت بما عليها ولم ينج منها غير الرجال ووصلت العساكر إلى مدينة السويس فسيروهم على الأثر إلى رأس الوادى فأقاموا بها أياما ثم سرحوهم فعادوا إلى أوطانهم فكانت هذه الغزوة من أتعس الغزوات وأشرها على البلاد وأهلها فسبحان من يؤتى النصر لمن يشاء من عباده.

وكان الخديو منذ ولايته ميالا إلى جعل مدينة القاهرة على نسق عواصم الأمم المتمدنة والدول الكبرى فى الترتيب والنظام وتنسيق المبانى وتوسيع الطرق وغرس الأشجار لتظليل الشوارع وغير ذلك من المحسنات فبالغ فى هذا الأمر ورتب له ديوانا مخصوصا وقيد به جماعة من المأمورين فصرفوا الأموال الطائلة فى توسيع الطرق وإنشاء المبانى وعمل المراسح ومحال اللعب العمومية وغرس الأشجار الكبيرة وإنشاء الحدائق والمنتزهات البديعية وإنارة الشوارع بالأنوار الغازية على ترتيب غريب وفرشوا الأرض بالحصا الأحمر وكسوها بالرمل الأصفر وهدموا الكثير من الدور

والوكائل القديمة والجوامع والأضرحة والتكايا توسيعا للطرقات وعملوا من محاسن البناء والتنظيم شيئاً كثيراً فكانت هذه الأعمال وغيرها مما سيتلى عليك بعضه سببا فى امحال الخزينة ونضوب الإيراد وذهاب الدرهم والدينار والاضطرار إلى الاستدانة من أصحاب الأموال بالربا الفاحش فاستدانت الخزينة مبلغا من المال قدره ثمانية آلاف ألف من الذهب فكانت هذه القرضة الأولى التى مدت إليها يدها بعد ولاية إسمعيل باشا ولم تكن استدانت شيئاً من قبل سوى أربعة آلاف ألف على عهد سعيد باشا لتبتاع بها سهاما من شركة خليج السويس فكثرت من هذا الحين معاملة أصحاب الأموال للخزينة وانبسطت أيديهم فاعطوا وسجلوا وحاسبوا وطالبوا وطاولوا وتقربوا وتلطفوا فى المعاملة فأمن الخديو جانبهم واستدان منهم أيضاً باسم أملاكه وزروعاته الخصوصية فأعطوه فاستزاد فزادوه واستطال فطاولوه حتى بلغ الدرهم دينارا فأنشأ معامل السكر العظيمة وسكك الحديد الزراعية والأبنية الفاخرة والعمائر الواسعة وأكثر من بناء القصور والمنتزهات الغريبة وبالغ فى أسباب الزينة بأحسن مما يفعله أكبر ملوك العالم وزوّج أولاده وبناته وعمل لهم الأفراح والولائم العظيمة وجمع فيها سائر أرباب القصف واللهو وسائر المغنين والمغنيات وفرق الهدايا العظيمة والتحف الجليلة على رجال الدولة والعلماء والمشايخ وأنفق الأموال الطائلة وخص كل واحدة وواحد منهم بالاقطاعات العظيمة والعقارات الواسعة للنفقة وأنشأ لهم القصور المشيدة والمبانى الفاخرة فى باب الخرق وخطة الإسماعيلية والقبة والجيزة وبولاق التكرور وزوّج الكثير من جواريه وسراريه إلى كبار الجند وصغار الضباط وأصحاب الوظائف الديوانية وبنى لهن الدور الواسعة وزينها بأنواع الفرش والبسط وأفخر الأوانى ورتب لهن الجماكى والمرتبات وأعطاهن غير ذلك من العطايا والتحف.

وكان إذا نضب الإيراد وأمحلت الخزينة وعز الدرهم عمد إلى الاستدانة وضرب المغارم وتكثير المكوس وفرض الفرض على البلاد شرقا وغربا وإعادة أشكال المكوس الغريبة التى كانت على عهد ملوك دولة الشراكسة الثانية وما زال على هذه الحال من السرف والأرغال وأصحاب الأموال تطاوله وهو يمنيهم بالأمانى البعيدة حتى اشتد بأهل البلاد الضيق واستحكمت حلقاته فضجوا وعجوا وجباة الأموال تجوب البلاد شرقا وغرباً وأصحاب الأموال من اليهود والروم تتبعهم فإذا تعذر على المموّل سد مطالب أصحاب الجباية أخذوا ما وجدوه عنده من غلة أو ماشية وباعوها لمن تبعهم من أولئك المرابين بأبخس الأثمان وهكذا كانوا يفعلون بأهل كل بلد وقرية حتى عم

الويل واشتد الكرب واستفحل الخطب وعز الخلاص، ولم تكن هذه المحن لتقعد الخديوى عن إعطاء نفسه كل ما تتمناه إذ سار فى سنة تسعين ومائتين وألف هجرية أى سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية إلى دار السلطنة العثمانية ليستعطف صدر الدولة يومئذ ويزيل ما كان بينهما من الوحشة والتقاطع فأحسن السلطان لقاءه وبالغ فى إكرامه فأقام فى قسطنطينية أشهرا أنفق فيها من الأموال ما لا يكاد يدخل تحت الحصر وتقرّب من صدر الدولة وكبار السلطنة وأزال ما كان بينهم وبينه من الوحشة وأولم الولائم الكثيرة وأهدى لهم الهدايا العظيمة والتحف الفاخرة فلما تمكن من استرضائهم استقدم إليه من عاصمة الفرنسيس الموسيو أوبنهايم المرابى الشهير واقترض منه قرضا برسم الخزينة قدره ثمان وعشرون ألف ألف من الجنيهات أى ثمانية وعشرون مليونا ذهبا بحجة وفاء جميع ما على الخزينة من الديون وصرف ما يتبقى فى شئون البلاد وحاجاتها وكان من شروط هذا القرض أن لا يدفع ملتزمه للخزينة معجلا سوى ستة آلاف ألف نقدا وأن يعطى بالباقى أوراقا، هى المعروفة فى عرف أصحاب الأموال بالسندات الاسمية، فقام أوبنهايم بهذا الشرط ووفى إلى خزينة الخديوى هذا المال فى آجاله فلم يهتم له الخديوى وتقدم إلى أمير المؤمنين فى قبول ثلاثة آلاف ألف منه إعانة للخزينة السلطانية فقبل السلطان ذلك ورسم بحمل المال إلى الخزينة السلطانية وكأنه عز على الخديوى العود إلى القاهرة وفى خزينته شىء مما بقى من ذلك المال فعمد إلى شراء الجوارى الحسان والجواهر الثمينة والأعلاق النفيسة وهادى جميع رجال الدولة وأنفق وأولم للسلطان وليمة لم يسبق لها مثال جمع فيها من أصناف الزينة وبدائع الألعاب النارية والأنوار والفرش والمأكول والمشروب ما لا يمكن استيفاء شرح محاسنه وأولمت كذلك والدته لوالدة السلطان وليمة أخرى وقدمت لها من التعابى والأعلاق الثمينة ما لا يمكن وصفه.

(مطلب)

فرمان السلطان القاضي بنقل وراثة الخديوية من عقب محمد علي باشا إلى ذرية إسماعيل باشا

قال بعض كتاب الأخبار: وتحقق لهما فى تلك الليلة أنهما من أقرباء بعضهما تجتمعان فى جد واحد ففرحنا بذلك فرحا عظيما وجعلتا تتزاوران كل قليل ولا تنقطع من بينهما فى كل يوم رسل التحية والتسليم ولبث الخديوى بعد ذلك أياما

كلها أفراح ومواسم ثم تقدّم إلى السلطان فى أن يسرحه بالانصراف فسرحه فوصل الإسكندرية فى أوائل ربيع الثانى من السنة فزينت له المدينة ثلاثة أيام وكذلك زينت القاهرة عند وصوله إليها ودقت البشائر وزاره الأمراء والكبراء والعلماء والوجهاء ولم يستقر به المقام حتى شاع الخبر بورود فرمان السلطان بتأييد سائر الفرمانات السابقة مع إضافة جميع الحقوق والامتيازات التابعة لرتبة الخديوية إليه وتحدث الناس فى ذلك كثيرا ولم تمض إلا أيام حتى قرىء الفرمان فى محفل حافل بديوان السلطان الملك الغورى بقلعة الجبل حضره جميع رجال الدولة والأمراء والكبراء والمشايخ والعلماء فكان ما فى الفرمان المذكور بعد الديباجة المعلومة ما نصه.

قد نظرنا بعين الاهتمام إلى طلبك بإصدار خط سلطانى يجمع بالتفصيل والتغيير اللازم جميع الخطوط الصادرة بعد الفرمان المانح المرحوم الوالى محمد على باشا الحكومة الأرثية سواء كانت تلك الفرامين متعلقة بكيفية الخلافة أو بالحقوق والامتيازات الجديدة الممنوحة مراعاة لحال الخديوية وسكانها فهذا الفرمان من شأنه أن ينسخ فى المستقبل حكم تلك الفرامين جميعها بما يتضمنه مما سيأتى بعد ويكون دائماً نافذا مرعى الإجراء.

أن كيفية وراثة الحكومة المصرية المقررة فى فرماننا الصادر ثانى ربيع الآخر سنة خمس وسبعين ومائتين وألف قد غيرت على وجه أن تنقل الخديوية من متبوّىء كرسيها إلى كبير أبنائه ومن هذا إلى أكبر أبنائه أيضا وهلم جرا علما بأن ذلك أدنى إلى المصلحة وأرشد ملاءمة لأحوال البلاد المصرية واختصاصا لك بانعطافى الذى صرت له أهلا بحسن سعيك واستقامتك واجتهادك وأمانتك وإثباتا لذلك أجعل قانون الوراثة الخديوية لمصر ومتعلقاتها وما يتبعها من البلاد وقائمقامية سواكن ومصوّع وتوابعهما كما تقدم بيانه بحيث تكون الولاية لبكر أبنائك ثم لبكر أبنائه من بعده فإذا لم يرزق من ولى الخديوية ولدا ذكرا كانت الولاية من بعده لأكبر أخوته أو لأكبر بنى أخيه الأكبر كما تقرر ولا تكون هذه الوراثة لأبناء البنات ولأجل تأييد هذه الأحكام ينبغى أن تكون الوصاية فى حال كون الوارث قاصرا على الصورة الآتية:

إذا توفى الخديوى وكان كبير ولده قاصرا أى غير بالغ من العمر ثمانى عشرة سنة يكون هذا القاصر بالحقيقة خديويا بحق الوراثة فيصدر إليه فرماننا بوجه السرعة وأما إذا كان الخديوى المتوفى قد نظم قبل وفاته أسلوبا للوصاية وعين كيفيتها وذوى إدارتها بصك ثبت بشهادة اثنين من رؤساء حكومته فأولئك الأوصياء يقبضون إذ ذاك

على أزمّة الأعمال عقب وفاة الخديوى ثم ينهون ذلك إلى الباب ليثبتهم فى مناصبهم ولكن إذا توفى الخديوى بغير وصية وكان ابنه قاصرا فمجلس الوصاية عند ذلك يؤلف من متولى الإدارة الداخلية والحربية والمالية والخارجية والحقانية وقائد العسكر ومفتش الأقاليم فتجتمع هؤلاء الذوات وينتخبون للخديوى وصيا بإجماع الآراء لا بالأغلبية فإذا تساوت الآراء لاثنين من المنتخبين كانت الوصاية لارفعهما رتبة باعتماد الترتيب السابق من الداخلية فما بعدها ويشكل مجلس الوصاية من الباقين فيباشرون جميعاً أمور الخديوية ويعرضون بذلك لسلطتنا السنية ليصدّق عليه بالفرمان الشريف. وكما أنه لا يجوز تبديل الوصى وتغيير هيئة الوصايا قبل انتهاء مدتها على الصورة الأولى أي فيما إذا كان تنظيمها بحكم وصية الخديوى المتوفى فكذلك لا تغير فى الصورة الثانية وأما إذا توفى الوصى أو أحد أعضاء مجلس الوصاية فى خلال تلك المدة فينتخب بدل الأول أحد أعضاء المجلس وبدل الثانى أحد ذوات الحكومة وبمجرد بلوغ الخديوى القاصر ثمانى عشرة سنة يكون راشدا فيباشر أمور الخديوية وذلك مماتقرر لدينا واقتضته إرادتنا السلطانية.

ولما كان تزايد عمارة الخديوية المصرية وسعادة حالها ورفاهية سكانها من أهم الأمور لدينا وكانت إدارة المملكة المالية ومنافعها المادية المتوقف عليها تكامل وسائل الراحة وتوفر أسباب السعادة عائدا على الحكومة المصرية رأينا أن نذكر كيفية تعديل الامتيازات وتوضيحها على شرط بقاء جميع الامتيازات الممنوحة سابقا للحكومة المصرية وذلك أنه لما كانت إدارة المملكة الملكية والمالية بجميع فروعها وأحوالها ومنافعها عائدة بالحصر على الحكومة ومتعلقة بها وكان من المعلوم أن إدارة أيّ مملكة وحسن نظامها وتزايد عمارتها وسعادة سكانها ما لا يتم إلا بالتوفيق والتطبيق بين الإدارة العمومية والأحوال والمواقع وأمزجة السكان وطباعهم فقد منحناكم الرخصة المطلقة فى وضع القوانين والنظامات الداخلية حسب الحاجة واللزوم ولأجل تسهيل تسوية المعاملات سواء كانت من قبل الرعية أو من قبل الحكومة مع الأجانب وتوسيع نطاق الصنائع والحرف وتوفير أسباب التجارة منحناكم أيضاً الرخصة المطلقة فى عقد المشاركات وتجديد المقاولات مع مأمورى الدول الأجنبية فى أمور المالك والتجارة وسائر المعاملات الجارية مع الأجانب فى أمور المملكة الداخلية وغيرها على شرط أن لا يكون ذلك موجبا للإخلال بمعاهدات الدول السياسية.

ولكون خديوى مصر حائزا لحق التصرف المطلق فى الأمور المالية فقد أعطيت له

الرخصة فى عقد القروض من الخارج بغير استئذان عندما يجد لذلك لزوما على شرط أن يكون القرض باسم الحكومة المصرية وبما أن أمر المحافظة على المملكة وصيانتها من الطوارق وهو أهم الأمور وأحوجها إلى العناية من أقدم الوظائف المختصة بخديوى مصر قد منحناه الإذن المطلق بتدارك أسباب المحافظة وتنسيبها على مقتضى ضرورات الزمان والحال وبتكثير أو تقليل عدد العساكر المصرية الشاهانية على حسب اللزوم بغير تقييد ولا تحديد وأبقينا كذلك لخديوى مصر امتيازه القديم بمنح الرتب العسكرية إلى رتبة ميرالاى والملكية إلى الرتبة الثانية على شرط أن تكون المسكوكات المضروبة فى مصر باسمنا الشاهانى وتكون أعلام العساكر البرية والبحرية فى القطر المصرى كالأعلام التى لعساكرنا السلطانية بلا فرق ولا تمييز ولا يجوز لخديوى مصر أن ينشىء البوارج المدرّعة بغير استئذان أما سائر السفن والبوارج ففى استطاعته أن ينشئها متى شاء.

ولأجل إعلان الأحكام السابق بيانها وتأييدها قد أصدرنا إليكم هذا الفرمان الجليل القدر من ديواننا الهمايونى وأعطى لكم متمما ومعدّلا وشارحا للخطوط الشريفة والأوامر المنيفة الصادرة إلى هذا التاريخ سواء كانت فى وراثة الحكومة المصرية وفى كيفية الوصاية أو فى إدارة الأمور الملكية والعسكرية والمالية والمنافع العمومية وسائر المهمات على شرط أن تكون أحكام هذا الفرمان الجديدة نافذة مرعية الإجراء على مر الأزمان قائمة مقام أحكام الفرمانات السالفة على ما اقتضته إرادتنا السلطانية فينبغى أن تعلموا قدر لطف عنايتنا وتؤدوا الشكر لها وتصرفوا الهمة إلى تنظيم الإدارة على محور الاستقامة وإلى الأخذ بأسباب وقاية الرعية وإصلاح شئونها وتأييد راحتها على حسب ما فطرتم عليه من الغيرة والاستقامة وحسن الأخلاق وما وقفتم عليه من أحوال تلك الجهات وأن تراعوا أحكام الشروط الواردة فى هذا الفرمان الجديد مع تأدية المائة وخمسين ألف كيس المضروبة على الديار المصرية سنويا فى أوقاتها المعينة إلى خزينتنا العامرة السلطانية على القوانين والقواعد المرعية انتهى بنصه.

(مطلب)

بيع سندات خليج السويس إلى الإنجليز

وظل الخديوى سائرا على ما يهواه من السرف وتمهيد العقبات أمام أصحاب الأموال حتى تمكنوا من أعناق أهل البلاد وأثقلوهم بالديون التى لا خلاص لهم منها

ونال أموال قرض الثمانى وعشرين ألف ألف ما نال غيره من أموال القروض السابقة له وكثرت الديون المعروفة فى عرفهم بالديون السائرة إلى حد لا يمكن معه الوفاء ونضب جميع موارد الإيراد والخديوى مع ذلك لا ينكف عن إنشاء المبانى الواسعة والقصور المشيدة والحدائق الناضرة والتغالى فى أسباب الزينة والترف والإتيان بعجائب المقتنيات من بلاد الهند والصين غير مبال بما وراء هذا كله، وكان المتولى النظر على الخزينة فى هذا الحين المشير إسمعيل صديق باشا فأعمل الفكرة فى رأب هذه الصدوع فلم يكن فى الإمكان إصلاح ما كان واشتدت الأزمة واستحكمت على الخزينة حلقات الضيق وتأخر صرف الجماكى والمرتبات والعلوفات ولا سيما جماكى الجند وعلوفاتهم فطالب أصحاب الديون السائرة بديونهم وتزاحموا على أبواب الخزينة ولجوا ورموا المشير إسمعيل صديق باشا بسوء التدبير وفساد الرأى فعمد إلى معالجة الداء بالداء واصطفى له من بين أصحاب تلك الديون جماعة فجعلوا يخلطون ويخبطون ويمنون غيرهم بالأمانى الكثيرة ولكن على غير جدوى فانكمش أصحاب الأموال وعز على الخزينة الاستدانة وابتعد عنها من كان أقربهم إليها واشتد الطلب على المشير إسمعيل صديق باشا وقد سدت فى وجهه أبواب الحيل ولج الخديوى بإصلاح الحال تعاميا وتغريرا ورسم ببيع سندات خليج السويس التى كان اشتراها محمد سعيد باشا باسم الخزينة كما تقدم القول وسامها مع قنصل جنرال الإنجليز وكلمه فى شرائها باسم دولته فأجابه إلى ذلك وعجل بشرائها كى لا يسبقه إلى ذلك قنصل جنرال الفرنسيس، فلما كان أوائل سنة اثنتين وتسعين ومائتين وألف هجرية رسم إلىّ المشير إسمعيل صديق باشا بتسليم تلك السندات إلى المستر بورج قنصل الإنجليز بالقاهرة وقد كانت مودعة بالخزينة وكنت يومئذ ترجمان الباشا المشار إليه فقضيت فى تسليمها أياما فكنت أرى من الاهتمام بأمرها والتعجيل بنقلها إلى عاصمة الإنجليز على ظهر دارعة حربية استقدمت من الهند لهذا الغرض ما لم يكن لأحد فى حساب وفرح كبار سياسة الإنجليز بشراء تلك السندات فرحا عظيماً وتكلم أصحاب صحف أخبارهم فى الأمر ففصلوا وقاسوا وألبسوه ثوب الأطراء والمدح وعدّوه من معجزات سياسة ذلك الحين ثم انقلبوا يقرّعون الخديوى ويندّدون به ويرمونه بالخيانة ويسمون المشير إسمعيل صديق باشا بالتغرير وظلوا على هذه الحال أياما كثيرة لم تكن لتهدأ فيها أيضاً خواطر أصحاب الديون السائرة ولا انثنى لهم عزم عن الإلحاح فى طلب الوفاء.

(مطلب)

حضور كيف رسولاً من قبل الإنجليز للبحث والتنقيب عن الخزينة

واشتدت الأزمة وانقلب أصحاب صحف أخبار الإنجليز من التقريع والتنديد إلى تحريض صاحب سياستهم على التداخل فى الأمر والأخذ بناصر أصحاب الديون والبحث فى الأسباب المترتب عليها إمحال الخزينة ونضب الإيرادات وأطالوا الكلام فى ذلك وبالغوا فلم يمض إلا القليل حتى وردت الأخبار بقيام مبعوث من الإنجليز يريد القاهرة اسمه المستر (كيف) وهو مزوّد بشىء من الأسرار فاهتم الخديوى لحضوره وأمر فأعدّوا قصر النزهة من ضواحى القاهرة لنزوله ورتبوا له أصناف المأكول والمشروب وبعض الخدم والحشم فلما وصل إلى القاهرة لاقاه بعض رجال الديوان الخاص وأنزلوه بذلك القصر فاستراح قليلا ثم زار الخديوى بمقره بعابدين فأحسن الخديوى لقاءه وأولم له فى تلك الليلة ثم لم يلبث أياماً حتى شاع خبره وتناقله الناس وقالوا أن كيف هذا جاء ومعه أوامر بعضها سرية وبعضها علانية فالسرية منها كشف المخبا من أعمال الخديوى والحامل له على السرف وإنفاق الأموال الطائلة التى استدانها باسم الخزينة فى حين أن الخزينة لم تأخذ منها إلا القليل وأما العلانية فهى البحث فى حساب الخزينة وتحقيق جميع أبواب الإيراد والمصرف منذ تولى الولاية والأسباب الحاملة إلى كثرة الاستدانة وأوجه النفع المترتبة عليها إلى غير ذلك من أبواب البحث والتنقيب وقد كنت يومئذ رسول المشير إسمعيل صديق باشا إلى ذلك المبعوث فكنت أؤدى رسالة كل منهما إلى صاحبه وأحمل إلى (كيف) الصكوك والأوراق الديوانية التى كان يطلبها من الخزينة فكنت أرى منه رجلاً عاقلاً رزينا واسع المعرفة وكان إذا طلب شيئاً من الصكوك أو الأوراق نقبه تنقيبا فلا يتركه حتى يأتى على ما فيه من صدق أو كذب وأقام على هذه الحال أياما ثم رحل عن مصر إلى عاصمة الإنجليز فظن الناس أنه عاد صفر اليدين والأمر على غير ذلك فإنه لم ينكف عن البحث والاستقصاء والإتيان على جميع الأمور من أبوابها حتى عرف ما لم يعرفه أقرب الناس من مقام الخديوى وأعرفهم بأحوال البلاد وأهلها وقد سألنى المشير إسمعيل صديق باشا عما استطلعته من أعمال كيف ونواياه مدة مكثى معه فأعلمته بما عرفته وكاشفته بما استكشفته فظن أن فى الخبر إطراء ومبالغة وأن الرجل سارعنا وهو لا يعرف شيئاً من عوراتنا، وما جاء الخبر بوصوله إلى عاصمة بلاده

حتى أرسل كبير سياسة الإنجليز إلى الخديوى يستنهضه إلى استرضاء أصحاب الديون السائرة ويحذره من انقلاب الأحوال بسبب استنجاد أرباب تلك الديون بحكوماتهم فكبر هذا الكلام على الخديوى واشتد على المشير إسماعيل صديق باشا فاشتد الطلب على الفلاحين بقبض الثلث من الخراج معجلا ثم الربع ثم ما بقى من المغارم الأخرى فلم يأت هذا كله بالغرض المطلوب واشتدت الأزمة بأكثر مما كانت عليه وبقى الحال هكذا حينا وشاع الخبر بتكدر خاطر السلطان على الخديوى بسبب ما يلاقيه أهل البلاد من أصحاب الجباية وتكلم أصحاب صحف الأخبار الإنجليزية فى ذلك وبالغوا وهوّلوا.

(مطلب)

حضور فرمان من السلطان باستحسان عمل الخديوي إسماعيل

فلما كان سابع عشرى ربيع الثانى سير السلطان سريًا وراءه إلى مصر ومعه خط شريف باستحسان مساعى الخديو لدى الذات الشاهانية ومحظوظيتها منها مع إحالة فرضة زيلع وملحقاتها على الخديوية المصرية مقابلة خمسة عشر ألف جنيه عثمانى تضاف إلى الخراج الذى يحمل إلى الخزينة السلطانية فى كل سنة فبالغ الخديوى فى الاحتفال بقراءة هذا الخط وطير الخبر به إلى الآفاق فاستعظم الإنجليز هذا الأمر وكبر عليهم جداً وتجرد كبارهم إلى المقاومة وخابروا كبار ساسة الفرنسيس فى ذلك وزينوا لهم الاتحاد على ما فيه المصلحة لأصحاب الديون وكان أصحاب السياسة من الفرنسيس ميالين إلى الانتقام فأجابوا كبار سياسة الإنجليز إلى ما طلبوا وكتبوا إلى الخديوى يسألونه التعجيل فى فض هذه الأزمة بالتى هى أحسن ويحذرونه شر العاقبة فمناهم وبقى الحال هكذا أياما كثيرة.

(مطلب)

حضور جوشن الإنجليز وجوبير الفرنسيس لتحقيق ديون البلاد

وعاد أصحاب الديون إلى الوقوف على باب المشير إسماعيل صديق باشا يطالبون بما لهم أو ببعض الشىء منه فلم يفلحوا فعمدوا إلى الاستغاثة بقناصلهم وهؤلاء رفعوا الأمر إلى دولهم فظهرت لوائح الشدة وبانت دلائل الوحشة وجاء

الخبر إلى القاهرة بعزم دولتى الفرنسيس والإنجليز على تسيير رسولين إلى مصر باسم وكيلى الدائنين من رعايا الفرنسيس والإنجليز وتحدث الناس فى هذا الأمر فلما كانت أخريات سنة اثنتين وتسعين ومائتين وألف هجرية وصل المبعوثان المذكوران إلى القاهرة ونزلا بالنزل المعروف بنزل شبرد ببركة الأزبكية واعتزلا الناس كافة ولم يقابلا الخديوى إلا فى اليوم الثالث من وصولهما وكلماه فى سبب حضورهما وسألاه أن لا يكون بينهما وبينه وساطة ولا متكلم وأن جميع طلباتهما المتعلقة بمأموريتهما إنما يطلبانها من شخص الخديوى دون غيره وهو يكلم بها من شاء من رجال دولته فشق هذا الأمر على الخديوى وأكبره وتحقق أن فى الجراب ما فيه وكان الإنجليزى منهما اسمه جوشن والفرنسوى اسمه چوبير.

وبالغ جوشن ورفيقه فى البحث والاستقصاء عن موارد الإيراد وأوجه الصرف وأسباب الاستدانة وما أنفق وما لم ينفق حتى حصحص الحق وبان ولم يمض على ذلك إلا القليل حتى رفعا إلى الخديوى محضرا بما رأياه من أوجه الإصلاح وهى، إقامة اثنين باسم مفتشين أحدهما فرنسوى والآخر إنجليزى وتقسيم أعمال الخزينة إلى قسمين قسم للإيراد ويرأسه الإنجليزى وقسم للمصرف ويرأسه الفرنسوى وسألاه التصديق على ذلك فلم يسعه إلا الإذعان ورسم به فلم يكن بأسرع من أن حضر إلى القاهرة ذلك الذى تولى على الإيراد واسمه المستر رومين وحضر أيضاً الذى تولى على المصرف واسمه البارون دى ملاريه وقبضا على زمام أعمال الخزينة وأمرا ونهيا وتصرفا واشتدا على أصحاب الجباية والمديرين وأخذا ما فى يد المشير إسمعيل صديق باشا من الوظائف فلم يبق له من الرياسة إلا الاسم فقط ثم رفعا إلى الخديوى محضرا آخر بتسليم زمام الجمارك إلى رجل من الإنجليز يديرها على ما فيه المصلحة وبتشكيل هيئة من ثلاثة مأمورين أحدهم فرنسوى وثانيهم إنجليزى وثالثهم مصرى يختصون بإشغال السكك الحديدية غير تابعين إلا إلى جهة واحدة هى نظارة الأشغال العمومية فرأى الخديوى أن مستعظم النار من مستصغر الشرر وأنه إن تساهل مع جوشن ورفيقه اختبط عليه الأمر واختلط الحابل بالنابل وخرجت موارد الإيراد من قبضته فلا يعود فى إمكانه الحصول على شىء مما كان فعمد إلى المراوغة والتطويل وسير إلى جوشن ورفيقه يعلمهما بأن مصلحة البلاد وعادات أهلها لا تجيز تسليم الأمور ليد أجنبية وأنهما يتفاوضان مع المشير إسمعيل صديق باشا فى ذلك فأبيا مكالمته وألح جوشن فى الطلب وطال الأخذ والرد أياما فلما رأى جوشن عناد

الخديوى وإصراره على الإباءة تجرد للعداوة وأظهر ما كان يخفيه من الحقد فكان يدخل على الخديوى بمقره بلا تأدب ولا احتفال ويخاطبه بفحش القول ويتهدده بإفشاء ما علمه من خفى سره، قال بعض الكتاب: وأرسل إليه يوما رقعة يقول فيها: لقد كنت أتمنى أن لا تحدو بى مأموريتى إلى حد توجيه السؤال إلى شخصك الكريم عن أمر يهم دولة الإنجليز معرفته ولكنى أرى نفسى مع زميلى مضطرين إلى سؤالك أين صرفت الأربعة عشر مليون جنيه الباقية من قرض الخزينة والإيراد السنوى من عهد المرحوم محمد سعيد باشا إلى هذا الحين، قال فلما اطلع الخديوى على هذا السؤال اضطرب وكبر عليه الأمر فجعل يرعد ويزيد ويتكلم كمن أصابه هذيان ثم جمع إليه رجال الدولة وأصحاب الحل والعقد من العاملين والمتقاعدين وبينهم ولده الأمير حسين وهو يومئذ فى منصب تفتيش الأقاليم وشاورهم فى الأمر فتكلموا فيه كثيراً ثم استقر رأيهم على تكليف المشير إسمعيل صديق باشا بالجواب على ذلك السؤال ولم يكن المشير بينهم فى تلك الليلة فكتب الخديوى إلى جوشن بذلك واستدعى إليه المشير إسمعيل صديق باشا ورسم له بالجواب على سؤال جوشن فامتنع وقال لا جواب عندى البتة فشدد عليه وقال لابد من الجواب فقال إن كان ولابد فلا جواب عندى سوى قول الحق والتزام جانب الصدق وهذه كتبك ومراسيمك تنبئك بما فعلته بتلك الأموال وما بددته فى الحل والترحال قال فاستعظم الخديوى هذا الكلام واضطرب منه أىّ اضطراب وراجع المشير فقال لا سبيل إلى غير ذلك، وعاد رسول الخديوى ومعه جواب من جوشن يقول لا حاجة لنا البتة إلى السؤال من إسمعيل صديق باشا خلافا لما بيننا من العهد ولا نطلب الجواب إلا من شخصك فجمع الخديوى إليه محمد شريف باشا وولده الأمير حسين وبعض حاشيته ورجال ديوانه الخاص ولم يحضر معهم فى ذلك اليوم أيضاً المشير إسمعيل صديق باشا وتناجوا فى الأمر طويلا ثم انفض اجتماعهم على ما لم تصل إلينا معرفته، فلما كانت الساعة الثالثة من ليلة الخميس حادى عشرى شوال من السنة أى سنة ثلاث وتسعين حضر إلى مقر الخديوى بعابدين أحد أتباع المشير إسمعيل صديق باشا ومعه مكاتبة برسم خيرى باشا المهر دار وسلمه إياها ففضها وإذا هى خطاب إلى شخص الخديوى غاية فى الشدة وفى بيان ما أصاب خزينة البلاد من الإمحال وما حل بالرعية من الضنك وسوء الحال بأسباب أفاعيل الخديوى وأنه هو برىء من كل تبعة مترتبة على كثرة الاستدانة والنفقة بغير حساب وأنه قد خلع نفسه من منصب النظر على الخزينة واعتزل من ذلك اليوم الوظيفة وترك الأمر لمن بيده سبحانه وتعالى

تدبير سائر الأمور فدخل خيرى باشا على الخديوى وناوله الخطاب فهاج عند رؤيته وماج وصاح علىّ به الساعة فسار إليه خيرى باشا يستدعيه فامتنع ولم يحضر فجاء إليه طونينو بيك أحد رجال التشريفات فامتنع أيضا فأرسل إليه أحمد نشأت بيك فامتنع وبات ليلته تلك وأصبح يوم الخميس فجاء إليه خيرى باشا واجتمع به وجلس يكلمه ساعة ثم قاما معا وسارا إلى مقر الخديوى بعابدين فلما دخل على الخديوى أحسن لقاءه وبش فى وجهه وعاتبه وتلطف فى عتابه ثم مازحه وقضى معه ذلك اليوم ثم انصرف المشير إسمعيل صديق باشا من عنده فى نحو الساعة الثالثة ليلاً وفى ثانى يوم الجمعة صباحاً جاءه رسول الخديوى يدعوه كالعادة فسار معه إلى عابدين وصعد إلى مقر الخديوى فلم يلبث إلا قليلاً حتى جاءت عربة الخديوى أمام سلم الديوان وحولها طوائف الحرس على عادتهم ثم انحدر الخديوى ومعه المشير إسمعيل صديق باشا وركبا معا فسارت العربة بهما فى الساعة الرابعة نهارا من الطريق الموصل إلى قصر النيل فكانت هذه الساعة آخر العهد به رحمه الله تعالى.

وعقد الخديوى فى تلك الليلة مجلسا بمقره بعابدين اجتمع فيه جميع رجال الدولة وأصحاب الوظائف العالية والعلماء والمشايخ ومفتى الديار المصرية وتكلموا فى أمر المشير إسمعيل صديق باشا وأسندوا إليه فعل ما لا يحل من العصيان والكيد على الخديوى وحرروا محضرا بذلك وحكموا بتبعيده إلى دنقلة إحدى مدائن السودان ووقعوا جميعاً على ذلك المحضر فلم يعلم الناس إلى هذا اليوم شيئاً مما جاء فيه غير ما قلناه وقد قفلت دونه من تلك الساعة أبواب الوصول، حدثنى صاحب لى، قال: أو ظننت صدق الخبر القائل بتسيير المشير إسمعيل صديق باشا إلى دنقلة وموته بها مبطونا، قلت نعم هو الصدق الذى لا مراء فيه فقال: اعلم أنه لما ركب الخديوى مع المشير العربة من رحبة عابدين سارت بهما والجند تخفرها إلى قصر النيل وكان به الأمير حسن ونساؤه يومئذ فلما وقفت بهما عند السلاملك التفت الخديو إلى المشير وقال تبقى هنا قليلاً حتى أزور ولدى وأرجع إليك فنزل المشير وجلس برهة لطيفة وإذا بالأمير حسن قد أقبل وهو يتلكأ فى مشيته وسلم فقام المشير إجلالاً له وحياه فنظر الأمير إليه وقال قد رسم الخديو الساعة بالترسيم عليك هنا تحت حراسة هؤلاء الجند حتى تأتى الباخرة التى ستقلك إلى دنقلة مبعدا فقال: وما سبب ذلك يامولاى وأى ذنب جنيته وأنا أصدق الناس فى خدمة أبيك وأشفقهم عليه وأطوعهم لإشارته فقال: لست أدرى ويعلم الله هل لك من حاجة تسألينها

ففاضت عينا المشير بالدمع وقال: لاشئ اسألك، وإنما أسأل الله الرحمة بى ثم نادى بأعلى صوته، ياغياث أغث عبدك وسكت وكـانوا قد دبروا أمر تبعيده وأعدوا لذلك باخرة من بواخر النيل وأرسوها تحت القصر وحولهـا الجند تحرسها وقد أنزلوا إليها بعض المأكـول والمشروب والمفـروش وجمـاعة من الخـدم والاتباع وطائفـة من الجند ومقدمـهم إسحق بيك أحد الضبـاط الشراكسة ثم عـاد الأمير حسن وخلفـه الأمير حسين ودخلا على المشير فوجـداه هادىء اللب ساكن القلب فقال له الأمير حسن: قم فقد تم كل شىء فهم يريد الـقيام فلم يقدر فأمسك الأميـر حسن بيده وخرج به من المكان وسلمه إلى إسحق بيك مقدم العسكر المكلفـين بحراسة الباخرة ومصطفى فهمى باشا محافظ المدينة يومئذ.

قال الراوى: لهـذه العبارة وسـمعت ممن يدعى أنه رأى المشيـر وهو خارج من المكان بين الأميرين حسن وحسين أن الأمير حسين لما رأى جبنه وخور عزيمته لطمه على وجهه وقال له: لقد خـانتك الأيام يالئيم فأذهب، قال: وعندى أنه لم يحصل شىء من ذلك فقد كان لوقوع هذا الأمـر الغريب فى ذلك الحين دهشة عند القريب والبعيد ولما أنزلوه إلى الباخرة أحاط بهـا الجند من كل جانب وأوصدوا جميع ما بها من الشبابيـك وأرسوها فى وسط النيل فكان المشير يصـيح وينادى كل قليل كأنه فى غرفـة نومه ثم كـثر هذيانه واشـتدت جلبتـه ومازالت البـاخرة فى مرسـاها والناس يسمعون صـياحه حتى غربت الشمس فأقلعت وسـارت ببطء قاصدة الإقليم القبلى ولم تسر قيد ربع فرسخ من قصر النيل حتى خفى صوت المشير ولم يعلم ماذا جرى عليه بعد ذلك ثم سارت الباخرة عند شروق الشمس مترفعة إلى الصعيد وقد طيروا الخبر إلى الآفاق بعدم دنو أحد منها ولا خروج أحد منها إلى البر فسارت فى عرض النيل سيرا حثيثا وما زالت والناس فى ريب من صحة الخبر حتى وصلت إلى أسوان فنزل من البـاخرة رجل على رأسـه شملة من صـوف وركب على جمل وسـاروا به على هذه الحال إلى دنقلة ونزلوا بها أيامـا قلائل ثم أذاعوا خبر موت المشـير مبطونا وعملوا محـضرا بذلك بشهادة قاضى دنقـلة ومديرها وبعض مأمورى الحكومة فـيها وعادوا إلى القاهرة وقـد شوهد فى سبابة إسحق بـيك اليمنى جراحة عظيمـة فشاع خبر تلك الجراحة وتحدث الناس فى أمرها وقـالوا بأنها دليل على مقتل ذلك الشهيد رحمه الله تعالى رحمة واسعة، قال: وأصـبحوا ليلة القبض عليه وقد وصل خبر ما حل به إلى نسائه فقام الصياح واشتد العويل والبكاء وهرعت جميع النساء العائشات فى نعمته إلى دوره وأقمن الصيـاح والندب فاشتدت الجلبة وعلت الأصوات فكانت

ساعة تنفطر من هولها الأكباد وجاء رجال ديوان الخديوى الخاص ونفر من قومه الذين اصطفاهم لنفسه ودخلوا على نساء وجوارى المشير وأخذوا جميع ما فى الدور من تحف وأعلاق وأموال وأوراق الديون المعروفة باسم (بونات الخزينة) وكانت كثيرة ونقلوا جميع ما وجدوه من الأمتعة الغالية وأدوات الزينة الفاخرة وأخرجوا جواريه وسراريه وفرقوهن على بعض عامة الناس ومشايخ القرى ونقلوا جميع نسائه وذراريه إلى دار فى خطة التبانة تحت قلعة الجبل وشردّوا مماليكه وغلمانه وخصيانه وأقصوا بعضهم إلى أقاصى السنار والدارفور وضيقوا على خزندارته واثنتين معها ليدللن على خبايا المشير وأمواله ونقلوهن إلى سراى الزعفران بالعباسية فلم يعترفن بشىء وقلن أن جميع ما كان له قد نقله أعوان الخديوى وأتباعه، وجاء أصحاب بيت المال فأحصوا ما بقى من فرش وبسط وغير ذلك وضبطوه وبالغوا فى الضبط والتحرير فقام كل من كان له دين على المشير يطالب بما له وقد استبدل درهمه بدينار واشتد الطلب من كل صوب وحدب فعينوا لعمل حساب تركته عمدة من أصحاب الوظائف فأحصوا ما لأصحاب تلك الديون وسجلوه وادعى الأمير حسين ثانى أولاد الخديوى بأن للخزينة على المشير قدرا من المال له صورة وكان قد تولى نظارة الخزينة بعد خلع المشير فأجابته العمدة إلى ما طلب وجعلوا يبيعون ما أحصوه من فرش وبسط وطنافس وأسرة ومقاعد وكراسى وأوانى فاخرة وغير ذلك فاشتراها بعض صغار الناس وبعض السوقة بأبخس الأثمان وظلوا على هذه الحال أياماً ربح فيها من ربح وخسر من خسر وقليلون ويعلم الله هم الخاسرون وانقضى الأمر وقد جمع ما ترك من متاع وزروع ودور وهى من أحسن الدور وأفخرها وأوسعها وأجملها زينة فأعطى الخديو واحدة منها إلى المشير محمد شريف باشا فانتقل إليها بعياله ورسم بجعل الاثنتين الأخريين مقرا لبعض دواوين الحكومة فأنزلوا فيهما الخارجية والحقانية والخزينة والداخلية وهى باقية فيها إلى يومنا الذى نحن فيه فسبحان من يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

قلت: وقد كان بين المشير إسمعيل صديق باشا وبين أحد رجال دار الندوة الإنجليزية مودة وصحبة كبيرة فكان إذا أتى الرجل إلى القاهرة أيام الشتاء تبديلا للهواء على عادة كبار الإنجليز لازم المشير وبالغ فى التقرب منه فاتفق أنه حضر إلى القاهرة فى غضون الأزمة القائمة بسبب فعال جوشن وجوبير فاجتمع بالمشير إسمعيل صديق باشا وكلمه فى أمر بعثة جوشن ورفيقه وقد كنت يومئذ ترجمانهما وكاشفه

على كثير من المسائل المهمة التى لا محل لها هنا ونصح له أن يلتزم جانب الحزم عند الحاجة وأن يدفع عن نفسه بالتى هى فقال له المشير: إنى عزمت على خلع نفسى وترك منصبى فيوليه الخديو من يشاء من أولاده فإن منهم من يزاحمنى عليه أشد المزاحمة. قال: ومن هو قال: هو الأمير حسين فإذا تخليت عن المنصب واعتزلته وجاءنى الطلب من جوشنكم، يريد جوشن الإنجليز، وسألنى عما أعلمه من أمر المصرف والإيراد وكيفية الاستدانة ولا أظنه إلا فاعل ذلك أطلعته على ما ظهر من الأمر وما خفى وأعلمته بكل ما علمته من أفاعيل الخديوى مذ تولى إلى هذا الحين فيخف عنى ما ألاقيه من اضطراب الحال وبلبلة البال وأكون قد وفيت الذمة حقها والله يتولانى برحمة منه، فقال له: أو تأمن شر الخديوى والله لئن فعلت ذلك ليقتلنك شر قتلة وإنى أراه داهية غادرا خدّاعا يظهر غير ما يبطن فقال لم يبق فى قدرته فعل شىء من ذلك بعد أن نلت رتبة المشيرية فأنا اليوم رجل السلطان لى ما للخديوى نفسه وعلىّ ما عليه، فقال الرجل: لا يغرنك هذا الأمر فسلطانك فى شاغل عنك بما لديه من المشاغل المهمة والخطوب المدلهمة فلا تعجل فى الأمر واحذر التقرب من جوشن حتى يظهر الحق ويزهق الباطل ثم افترقا على ذلك فلما رفع المشير قصته إلى الخديوى وقد تهدده فيها بتبليغ جوشن جميع ما يعلمه من أمره كما تقدم الكلام سير إلى صاحبه المشار إليه فجاء فقال لى: قل له إنى خلعت نفسى واعتزلت المناصب وأوعدت الخديوى شرا فقد عيل منى الصبر واشتد بى الأمر ولم أر لى خلاصا إلا فيما فعلت فماذا تقول، فبهت الرجل وظهرت عليه علامات الدهشة وسكت برهة ثم قال: قد قضى الأمر وغدر بك صاحبك فقال لى: قل له لا تخش من ذلك فالله غالب على أمره ثم افترقا على ذلك فلما شاع الخبر بتبعيد المشير إلى دنقلة ذهب الرجل فى صباح الليلة التى أنزلوا فيها المشير إلى الباخرة ودخل على الخديوى وتقدم إليه فى أن لايصيب المشير أدنى ضرر فقال له الخديوى أخشى أنه يقتل نفسه بنفسه فإنه ما برح مذ أنزلوه إلى الباخرة وهو يشرب الخمر بالطاس ولا ينكف عنها فربما عجلت بموته فخرج من عنده حزينا، واتفق أنى قابلته فى ثانى يوم فسلمت عليه فوجدته مقطب الوجه كاسف البال فرد علىّ السلام وقال قتل صاحبى ويعلم الله قلت ومن أين أتاك علم ذلك قال: كنت البارحة عند الخديوى أرجوه أن لا يصيب المشير ضرر فقال لى كيت وكيت فتحققت أنه مات لا محالة.

وتقدم الأمير حسين إلى الخديوى فى طلب منصب النظر على الخزينة بدلا من المشير إسمعيل صديق باشا فولاه إياه فلم يستقر به حتى جعل يعزل ويولى ويتصرف فى صغير الأمور وكبيرها ولم يقدر على إرجاع جوشن ورفيقه عن عزمهما من إقامة موظفى الجمارك والسكك الحديدية كما شاآ وقد عاودا الطلب والتزما جانب الشدة فلم ير الخديو بدا من الإذعان ورسم بذلك فى أخريات شوال سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف هجرية أى سنة ست وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية ومع هذا فلم يقف بهما الطلب عند هذا الحد بل طلبا أيضاً إقامة مراقبين من جانب الدولتين الإنجليزية والفرنسوية على جميع أعمال الحكومة فلا يبرم أمرا إلا بمشورتهما ولايعمل عملا إلا برأيهما بحيث يبقى منصبهما دائمالا يتزعزع وإقامة عمدة من جميع الدول يكون من اختصاصها إجراء جميع الأعمال المتعلقة بديون الخزينة ومراقبة تحصيل الأموال الأميرية وصرفها إلى أصحاب الديون فى آجال ضربت لذلك فرسم الخديو بتنفيذ جميع ذلك صاغرا وحضرت العمدة إلى القاهرة فأنشأوا لها مكانا مخصوصا سموه، صندوق الدين، وتسموا هم كذلك باسم أعضاء صندوق الدين وجعلوا يتصرفون فى الأمور فجمعوا إليهم جميع إيراد المديريات والمصالح الضامنة لدين الخزينة وتسيطروا على جميع الأعمال الخاصة بأصول وفروع الديون فلما تم لجوشن ورفيقه ما أراد عادا إلى بلادهما يظنان الخلاص مما مضى والغلبة فيما هو آت وقام أصحاب صحف الأخبار من الإنجليز والفرنسيس يثنون عليهما بكل لسان ويقولون أنهما إنما أقاما بحكمة منهما دون تطاول يد الخديوى إلى أموال الخزينة سدا قوى البنيان فلم يكن فى الأمر شىء من ذلك البتة إذ عاد الخديو إلى العبث بموارد الإيراد وأهمل كل عهد وميثاق وجعل يحمل منها ما شاء من الأموال إلى خزائن زروعاته وبعضها إلى خزينته الخاصة وأعضاء صندوق الدين ثملون بخمرة وظائفهم هذه العالية ومرتباتهم الفادحة التى لم تكن تخطر لأحدهم على خاطر ولم يمض على ذلك الترتيب والنظام الجوشنى الجوبيرى سوى بضعة أشهر حتى ظهر العجز فى الإيراد زهاء ثمانمائة ألف وعشرين ألفا ذهاب وتعذر القيام بمطالب أصحاب الديون السائرة فى آجالها وعادت الأزمة بأشد مما كانت عليه فتزاحم أصحاب تلك الديون على أبواب الخزينة وأكثروا الإلحاح واللجاج وصاح بعضهم فى وجه الأمير حسين وخاطبه ببذئ الكلام وفحش القول وأقاموا الدعاوى على الخزينة أمام المحاكم المختلطة فحكمت وشددت فى التنفيذ وحجرت على الكثير من موارد الحكومة وأملاكها فاشتد الضيق بالخزينة واستحكمت حلقاته وزادت

الأمور خبالا وأشكالاً وأنفذت دولة الإنجليز إلى المستر فيفيان قنصلها الجنرال بمصر أن يكلم الخديوى فى الأمر ويسأله سرعة القيام بمطالب أرباب تلك الديون قبل استفحال الخطب وتفاقم الضرر فلم يلتفت الخديو إلى ذلك ولم تقصر يده عن أخذ كل ما وصلت إليه من أموال الخزينة وبقى الحال هكذا أياماً قد وقف فيها دولاب التجارة وضاقت على أهل البلاد مسالك الرزق.

(مطلب)

المؤامرة على قتل السلطان عبد العزيز

وبينما كانت الأزمة فى مصر تشتد والحال فى ارتباك وخبال كانت الفتنة فى دار السلطنة قائمة على قدم وساق ورجال الدولة وأصحاب الحل والعقد فيما وراء باب السلطان يعملون على خلعه ويحزبون الأحزاب ويهيئون العصب ويفتحون للفتنة أوسع الأبواب، قال بعض الكتاب: وتحرير الخبر، أنه لما أحس السلطان بمكايد الإنجليز واتخاذهم رجال الدولة وكبار السلطنة آلة صماء فى أيديهم يهددون بها دولة الروس كلما رأوا منها تدخلاً نحو أملاكهم الهندية أو تعطيلا لرواج تجارتهم الآسيوية فتخسر السلطنة العثمانية بأسباب ذلك من الرجال والأموال والبلدان ما لا يمكن معه بقاء عين أو أثر لمملكة آل عثمان ففطن إلى الأمر وهمّ بمداركة الخطر ومال عن معاضدة الإنجليز وأبغض سياستهم بغضا شديدا وتقرّب من قيصر الروس على يد سفيره الأمير أغناتيف ففرح القيصر بذلك وتحبب إلى السلطان وترددت بينهما رسل المودّة والتسليم وتكاثرت رسائل المحبة وتناسيا ما بين الأمتين من العداوة القديمة وتعاهدا على كبح جماح الإنجليز وإبعادهم عن أن ينالوا من السلطنة العثمانية بسياستهم ما كانوا ينالونه من قبل ودبرا لذلك تدبيرا حسنا للغاية فعلمت عيون سفير الإنجليز بالخبر وأعلمته به فخافه جدا وسير به إلى كبير سياستهم فجاءته الرسائل بالتيقظ ودقة الالتفات فبث العيون والأرصاد حول الأمير أغناتيف وتجرد إلى المقاومة وجعل يستميل كبار الدولة ويشتريهم بالذهب الرنان ثم كلمهم فى التدبير على خلع السلطان والتخلص منه فمالوا إليه وباعوا آخرتهم بأبخس الأثمان وكان ممن وافقه على ذلك نورى باشا ومحمد جلال الدين باشا صهرا السلطان عبد الحميد سلطان هذا الوقت ومحمد رشدى باشا الصدر الأعظم وعونى باشا وقيصرلى أحمد باشا وخير الله أفندى شيخ الإسلام ومدحت باشا رئيس شورى الدولة وبقى هذا السر

مكتوما بينهم حينا كانوا يحزبون فيه الأحزاب ويهيئون لإيقاد نار هذه الفتنة أعظم الأسباب حتى تم لهم ما أرادوا ثم سلموا الأمر بعد ذلك إلى محمد رشدى باشا ومدحت باشا وحسين عونى باشا وخير الله أفندى شيخ الإسلام وانضم إلى عصابتهم أيضاً السلطانة والدة مراد أفندى بكر أولاد السلطان عبد المجيد وجماعة من المابين وبعض كبار جند الحرس وهم نجيب بيك وعلى بيك وفخرى بيك وسعيد بيك ورضا بيك وغيرهم وجعلوا يتحينون الفرص ويتبينون انتفاعها وسفير الإنجليز يمهد لهم العقبات فلما أحكموا التدبير عمد الصدر الأعظم إلى الادعاء على السلطان بالدعاوى العريضة واتهمه بمحالفة العدوّ والتفريط فى أعظم حقوق الأمة والوطن وتعريض حقوق الخلافة الإسلامية إلى الضياع والتعاقد مع قيصر الروس على إدخال جيش من الروس فى قلب دار السلطنة للفتك بكبار الدولة وأركان الملة وأنه خالف عوائد أسلافه السلاطين وحاكى جماعة الفرنجة فى عاداتهم ومجتمعاتهم وغير ذلك ورفع إلى شيخ الإسلام هذا السؤال وهو: إذا كان زيد الذى هو أمير المؤمنين قد اختل شعوره فصار لا قدرة له على سياسة الأمة وهو مع ذلك ينفق أموال الخزينة فى ملاذه الذاتية ومنافعه الخصوصية إلى حد لا تطيق الأمة الصبر عليه وقد زاغ عن الحقائق الدينية وأخل بالأمور الدنيوية وكاد يقلب هيئة الملك ويهدم أركان السلطنة وكان بقاؤه ضررا فهلا يصح خلع بيعته؟

(الجواب) يصح كتبه الفقير حسن خير الله عفى عنه.

فلما كان يوم الاثنين سادس جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف هجرية أى خامس عشرى مايو سنة ست وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية هموا بخلع السلطان وأناطوا حسين عونى باشا بتدبير أمر ذلك وكلفوا شيخ الإسلام مع بقية رجال الدولة وزعماء العصابة بمبايعة السلطان مراد بن السلطان عبد المجيد خان فأنفذ الصدر الأعظم إلى أمير سفن الحرب السلطانية بالتأهب والاستعداد فجعل يرتب سفنه على هيئة حصار لمقر السلطان وشاهد السلطان ذلك من بعض نوافذ مقره فاستغربه وسير إلى أمير السفن يستعلم عن سبب تلك الحركة الفجائية فأجاب بأنه ليس فى الأمر ما يستوجب الخوف وإنما هى مناورات لابد منها وعلم الصدر الأعظم ومدحت باشا بسؤال السلطان عن حركة السفن أمام مقره فخشيا أن يفتضح أمرهم ويتضح ما خفى من سرهم فلما كانت الساعة الثانية من غروب ذلك اليوم اجتمع زعماء العصابة فى باب السر عسكرية وخرج رديف باشا فى ألفين وخمسمائة من

الجند وأحاطوا بسراى السلطان إحاطة السوار بالمعصم وتسلم سليمان باشا حراسة أبوابها بمائة من تلامذة المدرسة الحربية وهم على ظهور الخيل ثم خرج حسين عونى باشا فى عربة وسار إلى مقر السلطان مراد وأنزله وأركبه فى العربة وهو لا يدرى ما الخبر فانزعج واشتد به الخوف حتى كاد يغمى عليه فلما وصلا إلى باب السر العسكرية لاقاهما شيخ الإسلام والشريف عبد المطلب وأخذا بيد السلطان مراد وهو يضطرب وكان رجال الدولة وكبار السلطنة وجميع أصحاب الحل والعقد وكبار الجند وقوفا على الأقدام فاجلسوا السلطان مراد على كرسى وحوله زعماء العصابة وتولى جماعة من العسكر حراسة الأبواب كى لا يخرج ممن حضر أحد وقام شيخ الإسلام فبايع السلطان وبايعه جميع الأمراء والكبراء ورجال السلطنة وكبار الجند وهو مع ذلك لا يتمالك نفسه مما لحقه من الخوف والفزع ووصل الخبر إلى رديف باشا بتمام البيعة إلى السلطان مراد فلم يشعر السلطان عبد العزيز إلا وقد دخل عليه رديف ونفر من كبار ضباط الجند فاضطرب واستكبر الأمر جدا وقال كيف تأتون إلىّ فى هذه الساعة بغير إذن فقال رديف باشا أتينا لنخبرك بأن الأمة خلعت بيعتك فقال كيف يكون ذلك وصاح فى وجوهم فقال له: رديف باشا انظر من الطاق فنظر وإذا بالجند قد أحاطت بمقره ومدافع مراكب البحر موجهة نحوه قيل فبكى وقال: أو أنتم فاعلون بى شيئاً الساعة فقالوا: لا وإنما سنقوم بحراسة أبوابك حتى ينقل بك إلى سراى طوب قبو وفى نحو الساعة الحادية عشرة ليلاً اطلقت المدافع من البر والبحر ونادى المنادون فى الشوارع والطرقات بخلع السلطان عبد العزيز وولاية السلطان مراد ابن أخيه فهرع الناس من كل صوب وحدب إلى باب السر عسكرية وأصبحوا وقد نقلوا السلطان عبد العزيز من مقره إلى سراى طوب قبو فذهبت معه السلطانة والدته وولده يوسف عز الدين أفندى وباقى أولاده ونساؤه فأقامت والدته فى حجرة بجانب حجرته خوفا عليه من فعال الأعداء وقد وكلوا بحراسة السراى نفرا من الجند ومعهم نجيب بيك وعلى بيك وهما من أصحاب الفتنة، قال أحد كتاب الأخبار، ولما تم نقل السلطان عبد العزيز إلى ذلك المكان وقد نقلوا معه جميع متاعه ومقتنياته اجتمع جلال الدين باشا ومدحت باشا ونورى باشا وبقية أصحاب الفتنة فجعلوا يدبرون أمر قتل السلطان عبد العزيز وأرسلوا إلى نجيب بيك وعلى بيك فى أمر ذلك.

واشتد القلق بالسلطان عبد العزيز من بقائه فى سراى طوب قبو وتطير من ذلك فكتب فى عاشر جمادى الأولى إلى ابن أخيه السلطان مراد يقول، بعد اتكالى على

الله سبحانه قد وجهت اعتمادى عليك فأرفع إليك مراسم التهانى بارتقائك تخت السلطنة وأبين لك ما بى من الأسف على أنى لم أقدر على القيام بخدمة الأمة كما تبغى ولكنى أؤمل أنك تبلغ هذا الأرب وإنك لا تنسى إنى بذلت كل ما فى وسعى لصيانة المملكة والذب عن شرفها وأوصيك أن تذكر أن من صيرنى إلى ما أنا فيه الآن إنما هم الجند الذين سلحتهم أنا بيدى وحيث إنى كنت كثير الرفق بالمظلومين ميالا إلى معاملتهم بالمعروف فأرغب إليك أن تأذن بنقلى من هذا المكان الضيق الذى أنا فيه الآن إلى مكان آخر وإنى أهنىء نفسى بانتقال الخلافة إلى ذرية أخى السلطان عبد المجيد خان، فرسم السلطان مراد بنقله إلى سراى أخرى فلم يمكث بها غير بياض يومه ذلك وفى المساء أدخل نجيب بيك وعلى بيك المتوليان حراسة المكان جماعة هم مصطفى البهلوان ومصطفى الجزايرلى وأربعة من الخصيان إلى مقر السلطان وأخفوهم عن الناس فلما كانت الساعة الثالثة ليلا دخل عليه أولئك القوم ومعهم اثنان أحدهما اسمه فخرى بيك والثانى اسمه الحاج أحمد أغا فتقدم فخرى بك وأمسك بكتفى السلطان وقبض مصطفى الجزايرلى والحاج أحمد أغا على ساقيه وتقدم مصطفى البهلوان وأمسك بأحد ذراعيه وقطع أوردته بمقراض ثم فعل كذلك بالثانى وما زالوا به وهو يصيح ويستغيث حتى خرج جميع دمه ومات فلفوا جثته بقميص أبيض وحملوها إلى حجرة قهوة وجاق الحرس السلطانى وألقوها على حصيرة كانت هناك وقد شاهدت بعض ما حل بالسلطان جارية من جوارى والدته فصاحت واستغاثت فصاح لصياحها سائر الجوارى واشتد الصياح والعويل وعلت الضوضاء وكانت والدة السلطان قد خرجت من حجرتها لقضاء حاجة فجاءت مسرعة لترى ما حل بولدها وفلذة كبدها فلم يمكنوها من ذلك وأخذوا فى حمل متاعه ومقتنياته وما كان عنده من تحف وأعلاق ثمينة إلى مقر السلطان مراد وكان مما أخذ من عنده سيف السلطان سليم فاتح مصر وهو من أشهر السيوف عند سلاطين آل عثمان وباتوا على تلك الحالة وأصبحوا وقد حضر إلى محل الجثة بعض الوزراء وكبار الدولة وبعض المشايخ والعلماء ووكلاء سفارات الدول وطبيب سفارة الإنجليز وماركو باشا رئيس المدرسة الطبية السلطانية وغيرهما من كبار الأطباء وكشفوا على جثة السلطان وبحثوا عما فيها فاختلفت كلمتهم وتحاجوا وطال بينهم الجدال وقال طبيب سفارة الإنجليز إن السلطان هو القاتل لنفسه ووافقه على ذلك بعض الأطباء وقال رئيس المدرسة الطبية بل قتل عمدا ووافقه على قوله بعض الأطباء واشتد

الجدال بين الفريقين وأبى رئيس المدرسة الطبية أن يوقع على محضر الكشف وأصر على الإباءة وقد شوهد فى جثة السلطان طعنة خنجر فى جانبه الأيسر وبعض خدوش فى فمه وذهاب إحدى أسنانه بضربة شديدة على فمه واشتد اللجاج بين جماعة الأطباء ساعة ثم أشاروا بدفن السلطان فدفنوه فى مشهد حافل للغاية ولم يكن حديث الناس طرا يومئذ إلا أنه مات شهيد التقرب من قيصر الروس وتناقل هذا الحديث أصحاب صحف الأخبار الروسية وقالوا وعادوا وبالغوا فى الشكوى فخاف رجال الدولة وخشوا العاقبة فأشاعوا أن قد أصاب السلطان أمراض عقلية بسبب تنزيله عن عرش السلطنة فاضطربت من ذلك اليوم أحواله وتبلبل بلباله فكان يتخيل له أن السفن راسية فى بوغاز المدينة تراسل رمى القنابل على العدوّ واشتد به هذا التخيل إلى حد أذهب نومه فى الليلة التالية لخلعه وأصبح فذهب إلى الحمام على عادته ثم خرج منه ونزل إلى البستان ثم عاد وأمر بعض الجوارى بفتح سائر الشبابيك والأبواب ففعلن فتركهن وخرج إلى البستان ثم عاد ثم خرج ثالثة ثم عاد ثم أراد الخروج من الباب الموصل إلى البحر وفى يده غدارة فمنعه الموكل بحراسة الباب فتهدده بتلك الغدارة ثم عاد إلى حجرته وقد اشتدت به الأعراض وكثر هذيانه فصار يتخيل أن عدوا هاجم عليه فيصيح على الجند والحراس بأن تطارده وعلى السفن بأن تمنعه قالوا ثم طلب من بعض الجوارى أن تأتيه بمقراض ومرآة ليهندم لحيته فأحضرتهما له من والدته وانصرفت عنه فتأمل فرأى والدته تنظر من وراء الباب فصاح عليها وأمرها بالانصراف ثم حضر عنده بعد ذلك أحد قرنائه وجلس معه برهة فجعل يقص عليه خبر العدوّ الذى كان يتخيله ولزوم مقاتلته وفى أثناء الحديث أخذ المقراض وقطع به عرقا من أوردة ذراعه الأيمن فهم الرجل يمنعه فلم يقدر فأسرع إلى والدة السلطان ليخبرها بالخبر فقام السلطان فى الحال وأقفل الباب وجميع شبابيك المكان وقطع عرق ذراعه الأيسر أيضاً ونام على فراشه حتى خرج دمه ومات، ويروون عنه غير ذلك أيضا ما لا يسعنا إيراده هنا، وعظمت الفتنة بعد موت السلطان عبد العزيز وكاد يتطاير شررها إلى سائر الإيالات وتظاهر جماعة من أصحاب الكلمة المسموعة والرأى المحمود فى دار السلطنة بالتشيع إليه والرغبة فى الأخذ بثأره فخاف أصحاب الفتنة وبالغوا فى الحيطة وعملوا على تفريق القوم ما استطاعوا وأوعزوا إلى بعض أصحاب صحف الأخبار التركية فحملوا على السلطان عبد العزيز حملة منكرة ورموه بالمروق عن الدين وإذهاب كرامة سائر المسلمين

ووسموه بالخبال وذهاب العقل وأكثروا من الجلبة والضوضاء حتى تخيل للناس أن أصحاب الفتنة فى حل مما فعلوه، ومما سيتلى عليك من تحقيق حادث خلع السلطان عبد العزيز وموته وما جرى فى شأن ذلك فى خلافة السلطان عبد الحميد سلطان هذا الوقت تعرف أى القولين أصح وأى الحجتين أقوى وأشد فتحكم إما لأصحاب الفتنة وإما عليهم والله يحكم بينهم وهو أحكم الحاكمين.

مات السلطان فكانت مدة سلطنته زهاء خمس عشرة سنة وله من العمر اثنتان وستون وقيل خمس وستون سنة وكان كبير المعرفة واسع الدراية ميالا إلى خير الرعية وإيراد البلاد موارد التقدم والعمران بعيد العسف غير متحجب ولا مشاغب مبغضا للإنجليز وسياستهم عاملا على التخلص منهم جهد الاستطاعة فلم يبلغ مأربا ومات شهيد جرأته رحمه الله برحمته الواسعة.

ومات فى أيامه ديمتريوس بطرك المتأصلين بعد أن أقام سبع سنين وكان شهما عاقلا محبا للعلوم فاعتنى بترتيب المدارس وبالغ فى وضعها على النحو الذى نحاه كيرولس مؤسسها فأعانه الخديو على ذلك وأقطع المدارس أرضا واسعة فأوقفت على عمارتها وتوسيع نطاق العلوم فكانت لها أعظم عضد ولما مات خلا الكرسى بعده أشهرا ثم أقيم كيرولس وهو الثالث عشر بعد المائة وأصله من بلدة تزمنت بإقليم بنى سويف واسمه يوحنا من رهبان دير البراموس ببرية شهات وهو بطرك المتأصلين الآن وله من الأعمال المبرورة والآثار المشكورة ما سيذكر فى محله إن شاء الله.

(الفصل الرابع والعشرون)

(فى سلطنة السلطان مراد ابن السلطان عبد المجيد خان)

وقام بالأمر بعد السلطان عبد العزيز السلطان مراد ابن السلطان عبد المجيد بويع بالملك يوم خلع عمه عبد العزيز سابع جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف هجرية أى سنة ست وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية ولم يمض على ولايته إلا بضعة أيام حتى ظهرت عليه علامات الضعف ووهن العزيمة قيل وكثر هذيانه فكان يميل إلى العزلة والانفراد ويخاف من كل شىء ويضطرب لأقل شىء يراه أو يسمع به، وكان ليوسف عز الدين أفندى ابن السلطان عبد العزيز ياور لركابه فى

أيام أبيه اسمه حسين بيك بن إسماعيل بيك أحد أمراء الجراكسة الذين هاجروا إلى دار السلطنة وكان حسين بيك هذا طاغية شديد البأس جبارا وحسين عونى باشا السر عسكر يعلم حال حسين بيك ويخشى عاقبة بقائه فى دار السلطنة بعد موت السلطان عبد العزيز فرسم بتسييره إلى بغداد ليتولى رياسة فريق ممن بها من العسكر السلطانى وأرسل إليه الفرمان بذلك فامتنع فأمر بحبسه فحبسوه أياما ثم عاد فأظهر الطاعة والرغبة فى الرحيل إلى بغداد وطلب مهلة يومين فأمهلوه فلما كان صباح يوم الخميس ثالث عشر جمادى الأولى خرج حسين بيك هذا من داره متسلحا بخنجر وأربع غدارات مسدسة وسار يريد منزل حسين عونى باشا وسأل عنه فقيل له أنه فى بيت مدحت باشا فسار إلى بيت مدحت وسأل الخدم عن عونى باشا فقالوا إنه مع بقية الوكلاء فى مجلس مخصوص فأعلمهم بأن معه تلغرافا يتعلق بباب السر عسكرية يريد توصيله إلى عونى باشا فأغضوا عنه فلبث برهة لطيفة ثم صعد إلى حيث مجلس الوكلاء وأراد الدخول فمنعه حارس الباب فسأله حسين بيك ومن أنت قال: سالم أغا خادم الصدر الأعظم فقال: ادعُ إلىّ خادم عونى باشا فإنى فى حاجة إلى لقاء مولاه الساعة فذهب سالم أغا وترك الباب فدخل حسين بيك فى الحال إلى المكان الذى فيه الوكلاء وقصد حسين عونى باشا فلما دنا منه أطلق عليه غدارته طلقتين فأصابتاه فقام ليدفع عن نفسه فانخرط عليه حسين بيك بالخنجر وطعنه عدة طعنات ثم أطلق عيارا على محمد راشد باشا فأصابه فى عنقه فمات لساعته ومال على قيصرلى أحمد باشا أمير سفن الحرب فقام وأمسكه بيده فأثخنه بالجراح وقد تمكن قيصرلى أحمد باشا وبقية الوكلاء من الهرب إلى بيت النساء وأغلقوا دونهم الأبواب وجاء أحمد أغا خادم الصدر الأعظم مسرعا وهجم على حسين بيك ليقبض عليه فصرعه حسين بيك قتيلاً وقصد كسر الباب الذى حال بينه وبين بقية الوكلاء فلم يفلح فجعل يكسر المصابيح وأخذ شمعة ليوقد بها الأستار كى يحترق جميع المنزل ليتمكن من الفرار فلم يقدر إذ جاءت طائفة من العسكر وكبسوا عليه وأمسكوه وقد قتل أحد العسكر وشكرى بيك ياور ركاب الصدر الأعظم وزجوه ليلته تلك فى السجن وأصبحوا وقد عجلوا بالحكم عليه بالتجريد والقتل شنقا، فلما كان فجر يوم السبت أتوا به بين طائفة من الجند وعلقوه على شجرة فى ميدان بايزيد وبقى معلقا إلى يوم الاثنين، قال بعض الكتاب: وكان عند عمل التحقيق معه ساكن القلب هادىء اللب لم تأخذه أخذة من الخوف وكان يظهر الأسف على من مات من ضباط العسكر والعسكر ويقول وددت لو أنى أذقت قيصرلى أحمد باشا أيضاً كأس المنون

كما ذاقها عونى وراشد، وتحدث الناس بما فعله حسين بيك فاختلفت الأقوال وتباينت ثم عادوا فاجتمعت كلمتهم على أنه إنما فعل ذلك بهم انتقاما لقتلهم السلطان عبد العزيز واتصل خبر هذا الحادث بالسلطان مراد فكبر خوفه قيل واشتد هذيانه وتغيرت أحواله واضطربت فكان لا يعرف أحدا ولا يميز بين الضار والنافع وكان الصدر الأعظم يخفى حقيقة حاله عن الناس وقيل بل كانت أمه تظهر أنه عاقل رزين وتعمل على إخفاء حقيقة أمره ولا تقرّب منه أحدا فلما طال تحجبه عن الناس لا سيما عن قناصل الدول وقد اشتدت به علته استحضروا له طبيبا نمساويا اسمه ليدزورف قد اشتهر بمداواة المجانين فلما شاهد أحواله وخبر أموره حكم بعدم نجاحه فاجتمعت كلمة الوزراء وكبار الدولة على خلعه وكتبوا إلى خير الله أفندى شيخ الإسلام سؤالا فى معنى ذلك وهو:

إذا جنّ إمام المسلمين جنونا مطبقا ففات المقصود من الإمامة فهل يصح حل الإمامة من عهدته؟ (الجواب) يصح والله أعلم، كتبه الفقير حسن خير الله عفى عنه، واجتمع الوزراء فى يوم الأربعاء عاشر شعبان وقرروا خلع بيعته والبيعة لأخيه السلطان عبد الحميد فخلعوه فكانت سلطنته ثلاثة أشهر وثلاثة أيام لا غير ووردت الأخبار بما وقع له إلى القاهرة فكان الخديو فى شاغل عنها بما هو فيه من نكد الحال وبلبلة البلبال بسبب مطالب أصحاب الديون وقيام دولة الإنجليز لنصرتهم كما ستراه فى محله إن شاء الله تعالى.

(الفصل الخامس والعشرون)

(فى سلطنة السلطان عبد الحميد ابن السلطان عبد المجيد)

وقام بالأمر بعد خلع السلطان مراد أخوه السلطان عبد الحميد ابن السلطان عبد المجيد خان بويع بالملك فى يوم الخميس حادى عشر شعبان سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف هجرية أى سنة ست وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية تولى السلطنة والملك فى ارتباك والفتنة قائمة والعمالات فى اضطراب فعمد إلى سن القوانين والنظامات الدستورية الحافظة لحقوق جميع الرعية على التساوى بلا فرق ولا تمييز

وكان التفريق بينهم يومئذ قد أخذ مأخذه حتى تمزقت جامعتهم وتفرقت كلمتهم وعمل التقاطع فيهم عمله فنالت الدول أصحاب الغايات السياسية من ذلك ما لم تنله بحد السيف وكرات المدافع، ورسم فى خامس شوال سنة ثلاث وتسعين بتأسيس مجلس لنواب البلاد يتألف من هيئتين إحداهما ينتخب أعضاءها أهل البلاد وتسمى بمجلس المبعوثان والثانية تنتخب أعضاءها الحكومة وتسمى بمجلس الأعيان وكان المتولى الصدارة العظمى يومئذ محمد رشيد باشا فخلعه وولاها أحمد مدحت باشا وهو صاحب ذلك الدستور وأنفذ إليه صورة من القانون الأساسى الذى أنشىء لجميع الإصلاحات الواجب العمل بها فى جميع ما وراء الباب. قال بعض الكتاب وكان هذا القانون يشتمل على مائة وتسع عشرة مادة فرسم بنشره والعمل به من يومه فى جميع أنحاء المملكة وأصدر فرمانا بذلك فى سابع ذى الحجة فكان من أحكام ذلك القانون المساواة بين صنوف الرعية وعدم التفريق بين الناس كافة وتحديد اختصاص مجلسى المبعوثان والأعيان وإبطال مصادرة الناس فى أموالهم وترك القسوة والتعذيب فى تحقيق الجرائم ومنع السخرة والعونة وعدم عزل القضاة إلا بحكم شرعى وتعيين مواجب العمال والولاة وجعل التعليم إجباريا وإعطاء الحرية للمطبوعات وغير ذلك مما لا يسعنا إيراده هنا مفصلا، قال بعض الرواة: فلم يستقر بمدحت باشا منصب الصدارة حتى داخله الغرور وجعل يعمل على خلع السلطان عبد الحميد وإرجاع السلطان مراد إلى تخت الملك ويسعى فى فصل الخلافة الإسلامية عن مسند السلطنة العثمانية وجعلها عربية فيمن بقى من قريش من أشراف مكة وأوعز إلى بعض أصحاب صحف الأخبار الأجنبية فأشارت إلى ذلك وتكلمت عنه مع التعقيد والإبهام، قلت: وهذه سياسة غلادستون زعيم الأحرار بديار الإنجليز وأمنيته منذ نعومة أظفاره وكثيراً ما كتب وخطب وحض على أخذ شعار الخلافة من ملوك آل عثمان وإعطائه إلى من بقى من قريش أو لمن يصلح للإمامة من غير قريش وكان عربياً فلما أحس السلطان عبد الحميد بذلك رسم فى حادى عشر المحرم سنة أربع وتسعين بخلع أحمد مدحت باشا وتنزيله عن منصب الصدارة وتبعيده عن دار الخلافة وأقام محمد أدهم باشا بدله فكانت صدارة مدحت باشا شهرين لا غير. قال بعض كتاب الأخبار: ولم يبعد مدحت باشا عن دار الخلافة حتى تحركت إمارتا الصرب والجبل الأسود وجعلتا تحشد الجيوش وتعدّ المعدّات وتدرّب العساكر والأجناد على فنون القتال وقدم جماعة من ضباط عسكر الروس فتطوّعوا فى خدمة جيوش

الإمارتين وجعلوا يحصنون الدروب ويوعرون الطرق وعلم السلطان بما وراء ذلك فرسم بحشد جيش ضخم على الحدود فلما تم للإمارتين ما أرادتا سير كل من نقولا وميلان أميرى الإمارتين إلى دار السلطنة يطلبان كثيراً من المطالب الطويلة العريضة فأبى عليهما السلطان جميع ما طلباه وكثر الأخذ والرد بين الطرفين وأصر كل منهم على مزاعمه فاجتازت عند ذلك عساكر الجبل والعساكر الصربية الحدود وزحفت على بلاد السلطنة العثمانية فزحف عليهم العسكر السلطانى من كل صوب وحدب ومقدمهم الغازى عثمان باشا وعبد الكريم باشا السر عسكر وقاتلوهم حتى هزموهم شر هزيمة ثم سارت طائفة من العسكر السلطانى إلى مدينة مينا شيوار ففتحوها عنوة وساروا إلى مدينتى عالكيناس ودلجراد ليقاتلوهما فلم ينالوا منهما لحصانتهما ومنعتهما فرحلوا عنهما وعبروا نهر موراوا فلم يشعر العدو إلا وهم قد صاروا على الشاطىء الأيسر من النهر وساروا يريدون مدينة بلغراد عاصمة الصرب فهال الصربيين هذا الأمر وأزعجهم جداً لخلو المدينة ممن يدافع عنها ويقاتل دونها فعبروا النهر على الفور وساروا خلف العسكر السلطانى فوقفوا للقائهم وأصلوهم نارا حامية حتى انفشلوا وتفرق جمعهم وركن أكثرهم إلى الفرار من غير ضرب ولا طعن فسارت العساكر نحو بلغراد لا يمانعهم فى طريقهم ممانع وجاء الخبر بذلك إلى دار السلطنة وكان أمير الصرب قد سير إلى سفراء الدول بدار الخلافة فى طلب الوساطة بينه وبين الباب العالى خوف الهزيمة والعار فكلموا السلطان فى ذلك فمناهم وطاولهم حتى صارت العساكر السلطانية على أبواب بلغراد ووردت الأخبار بذلك إلى السفراء فقاموا وقعدوا وشددوا فى الطلب فسير السلطان إلى مقدم عساكره بالكف عن القتال حتى يأتيه الأمر وفتح سفراء الدول باب المخابرة فى أمر الصلح وكثر الأخذ والرد وترددت السفراء على الباب العالى أياما والقلوب فى اضطراب فأبى الباب العالى إمضاء الصلح إلا على ثلاث خصال، الأولى حضور أمير الصرب إلى دار السلطنة وتقديمه مواجب الخضوع والتذلل لعرش السدة الشاهانية، الثانية أن تحتل الجيوش السلطانية ثانيا جميع القلاع التى كانت الدولة سمحت لإمارة الصرب باحتلالها مؤقتاً فى سنة اثنتين وثمانين ومائتين وألف هجرية، الثالثة إبطال الرديف من إيالة الصرب وأن لا تجيش الإيالة من الآن عسكرا إلا عشرة آلاف فقط وبطاريتين من أصحاب المدافع لحفظ الأمن فى الداخل فلم يرض الدول هذا الطلب واتفقوا معا على إكراه الباب العالى على إرجاع حالة

الصرب والجبل الأسود إلى ما كانت عليه قبل الحرب وتأسيس إدارة وطنية مستقلة فى البوسنيه والهرسك لتراقب مأمورى الحكومة وكذلك فى البلغار وأنفذ اللورد دربى صاحب سياسة الإنجليز يومئذ إلى الباب العالى مكاتبة بذلك وأوعز إلى سفيره فى دار السلطنة بأن يلح فى الطلب فبالغ السفير فى ذلك فلم يلتفت السلطان إلى قوله وأوعز إلى مقدم الجيوش المحاربة بإعادة الحرب والقتال حتى يتمكن من تدويخ العدوّ ويرجعه إلى ما كان عليه من الطاعة فزحفت العساكر السلطانية على مدينة جونيس وكان بها الجنرال تشرنايف الروسى ومعظم العسكر الصربى فقاتلوهم قتالاً عنيفاً ثم هجموا على المدينة هجمة رجل واحد فتقهقر الصربيون وتركوا المدينة وأخلوا كذلك مدينة دجراد فدخلتهما طائفة من العساكر السلطانية وسارت طائفة أخرى تريد مدينة بلغراد عاصمة الصرب لقتال من بها وأخذها عنوة.

وطار الخبر بذلك إلى الآفاق وعلمت به سائر الدول فاهتموا له اهتماما عظيما وأنفذ صاحب سياسة الروس إلى سفيره فى دار السلطنة بطلب إيقاف رحى الحرب ومهادنة الصرب والجبل الأسود مدة شهرين فإن لم يجب الباب العالى إلى ذلك انقطع حبل العلاقات السياسية بين الدولتين وضرب لذلك أجلا ثمانيا وأربعين ساعة فأجاب الباب العالى إلى ذلك كارها وقد أحس بتأهب الروس للقتال وإضرام نار الحرب وبدأت من هذا الحين تظهر دلائل الوحشة بين الفريقين وخافت سائر الدول عاقبة ذلك لا سيما دولة الإنجلير فخابر صاحب سياستها كبار ساسة الدول فى عقد مؤتمر فى دار الخلافة لتقرير قاعدة ثابتة لراحة جميع المسيحيين من رعايا الدولة العثمانية ومنع الحرب التى صارت على قاب قوسين فأجابته الدول إلى ذلك بعد أخذ ورد وسيرت مبعوثيها إلى دار السلطنة وقررت كثيرا من الطلبات التى لا يطيق الباب العالى الصبر عليها ولا الإذعان لها ثم اجتمع جمعهم فى سراى البحرية وحضر بينهم مندوبو الدولة فتكلموا فى الأمر كثيرا وطال اجتماعهم أياما على غير طائل فرسم السلطان حينئذ بعقد مجلس من كبار الدولة وأعيان السلطنة ورؤساء الأديان كافة فلما تمَ اجتماعهم وكانوا زهاء المائتين عرض عليهم طلبات مبعوثى الدول فاستعظموها وقالوا هى مذلة وصغار وحط من كرامة الدولة ومقام الخلافة العظمى فلا سبيل إلى قبولها وفى المملكة من يذب عن ذمارها فراجعوهم فى الأمر فقالوا جميعا: الحرب والنار ولا هذا الخزى والعار وكثرت جلبتهم وعلت أصواتهم ثم انصرفوا وقد سطروا بذلك محضرا فرفعه صفوت باشا مندوب الدولة يومئذ إلى

أصحاب المؤتمر فكبر عليهم ورحلوا عن دار السلطنة ولم يقابل منهم أحد أمير المؤمنين كما جرت العادة بذلك واختلط الحال على كبار سياسة الدول واختبط واستعصى عليهم حل هذه العقدة وقد رأوا من الباب العالى عنادا وتصميما وكانوا لا يتوقعون منه غير الطاعة والإذعان فجعلوا يمنون الروس بالأمانى البعيدة ويهوّنون عليهم الأمر، فبينما هم على هذه الحال إذ عاقدت الدولة العثمانية الإمارة الصربية على الصلح وترك القتال على شروط رضى بها الفريقان وشاع الخبر بذلك فخشيت دولة الروس العاقبة وفطنت إلى الأمر وتحققت أنها إن لم تبادر إلى إشهار الحرب مع الدولة العثمانية قبل أن تعاقد أمير الجبل الأسود الصلح أيضاً انفشل الروس وسقطوا فى أمرهم فحض القيصر الدول كافة على تدارك الخطب قبل استفحاله فأجابته إلى ذلك وأرسلت إلى دار السلطنة إنذارا تتهدد فيه الباب العالى بأن تتركه وشأنه مع دولة الروس إن هو أصر على الإباءة والعناد فرد عليهم القول ردا جميلاً وصمم على مطالبه كلها فتجرد قيصر الروس عندئذ إلى التأهب والاستعداد وجعل يحشد الجيوش ويعد المعدات ويكثر من نقل المؤن والذخرة وأنفذ إلى مندوب الباب العالى فى عاصمة الروس بأن يرجع إلى سلطانه وبأنه قد أعلن بالحرب والقتال فسار المندوب إلى دار السلطنة فما وصل الخبر إلى الباب العالى وتناقله الناس حتى قاموا وقعدوا واشتد بينهم الهرج ونودى فى جميع العسكر بالخروج وأفتى شيخ الإسلام بأنه قد حق على كل مسلم الغزو والجهاد وبأن يضاف إلى ألقاب أمير المؤمنين عند الدعاء له على المنابر لقب غازى عملا بحديث صاحب الشريعة القائل «من جهز غازيا فى سبيل الله فقد غزا».

وورد الطلب من الباب العالى إلى الخديوى بإرسال مدد من العسكر المصرى ليسير مع العسكر المنصور لقتال الروس فاهتم بذلك الخديوى وأظهر العناية وجهز طائفة من المقاتلين ومقدمهم الأمير حسن ثالث أولاده ومعه جماعة من كبار الضباط الشراكسة فحملتهم بعض السفن إلى در السلطنة واشتركوا مع العسكر السلطانى فى عدة مواقع، قال بعض كتاب الأخبار: وقد أبلوا بلاء حسنا ونالوا من الروس فى عدة وقائع واشتد القتال بين الفريقين وحمى الوطيس واجتاز الروس نهر الطونة بغير قتال وقيل: بل كانوا يدفعون بالأمر الخفيف ثم ألحوا فى القتال فاحتلوا مدينة ترنوه ثم مدينة ينكوبلى وسار الجنرال جوركوا فى عسكره فاحتل مضايق البلقان التى هى أبواب مضيق شبكا واشتدوا على العساكر السلطانية شدة بالغة وجاء الخبر بذلك إلى

دار السلطنة فكبر خوف الناس وعظم اضطرابهم واشتد قلقهم وهم الكثير منهم بالجلاء عن دار السلطنة فلم يتمكنوا حيث رسم السلطان فى جمادى الأولى من السنة أى سنة أربع وتسعين بجعل دار السلطنة تحت الأحكام العرفية فانكمش الناس وأخذوا حذرهم وكانوا يتوقعون هجوم العدوّ على المدينة فى كل لحظة واشتد الروس فى القتال والنصر ملازم لهم وجاءوا لحصار مدينة بلفنه وكان بها عثمان باشا فى ثلاثين ألفا من المقاتلين فسير إلى دار السلطنة فى طلب المدد قبل أن يتمكن الروس من تشديد الحصار وألح فى الطلب ووردت رسائله تترى على ديوان الحرب مفعمة بالحض والاستنهاض فلم يلتفتوا إلى ندائه والروس تشدد فى حصار المدينة يوما عن يوم فكان عثمان باشا يقاتلهم فى كل يوم من وراء الأسوار كى يشغلهم عن تشديد الحصار فلم يفلح ووالى الروس الهجوم على المدينة لعلهم يفتحونها فلم يتمكنوا حتى تم لهم حصارها فضيقوا وشددوا ومنعوا عنها الوارد من كل جانب ووصلت الأخبار بذلك إلى السلطان فكبر عليه الأمر ورسم بخلع عبد الكريم باشا سردار العساكر السلطانية من منصبه وتنزيل درويش باشا من منصب رياسة ديوان الحرب لظهور خيانته وسوء تدبيره وخلعوا أيضاً جماعة كثيرة من كبار الضباط وصغارهم لخيانتهم لسلطانهم وبلادهم وحكموا عليهم بالنفى والتبعيد وأكثروا من التغيير والتبديل فى مراكز الجند ومواقف القتال استدراكا لما فات وسيروا المدد إلى عثمان باشا فلم يتمكن من الوصول إليه لإحاطة العدو بالمدينة من كل صوب وحدب وسيروا طائفة أخرى لتقاتل الروس غلى مضيق شبكا وأخرى لدفع جيوش ولى عهد القيصر الزاحفة على بلاد الدولة العثمانية واهتم السلطان لذلك وظن بلوغ الآمال وإرجاع العدو فاقتتلوا قتالاً شديداً وأبلوا بلاء حسنا ونالوا من الروس وجاء الخبر للقيصر بما حل بعسكره فسار من فوره فى قلة إلى ميدان القتال وقيل بل جاء جريدة وسير إلى أمير الجبل الأسود يسأله العون والمدد فجاءه فى نحو مائة ألف مقاتل وكثير من الأسلحة والكراع وقاتلوا العثمانيين قتالا عنيفا للغاية وانتصروا عليهم فى عدة وقائع واشتدوا فى حصار بلفنه شدة بالغة وألحوا فى قتال من بها من العساكر فكانوا لا ينكفون عن الرمى عليها فى الليل والنهار وما زال الرمى من الفريقين متراسلا حتى نفد ما عند العساكر السلطانية من المؤن والذخيرة فنادى عثمان باشا فيمن بقى من العسكر بالخروج من المدينة ومهاجمة العدو فإما أنهم يموتون جميعاً شهداء الدفاع عن ملجأ الخلافة أو أنهم يسلمون فخرجوا جميعاً واندفعوا على خطوط العدو وثابروا على القتال والعدو يصليهم نارا حامية حتى أصابت

عثمان باشا مقدمهم جراحة فى ساقه الأيسر فسقط عن جواده وسقط جواده أيضاً ميتا وشاع خبر موته بين الجند فانفشلوا وسقطوا فى أمرهم وهموا بالرجوع إلى المدينة فلم يتمكنوا من ذلك لدخول العدوّ بها ورميه بالقنابل عليهم تباعا فصاروا بين نارين فلم يروا بدا من التسليم فألقوا عنهم سلاحهم وسلموا بأنفسهم وكانوا قد نقلوا عثمان باشا إلى أحد البيوت القريبة من موقف القتال فقابله أحد كبار ضباط الروس وبالغ فى إجلاله وتعظيمه ونقله فى إحدى العربات إلى مدينة بلفنه وبينما هو فى الطريق قابله الغرندوق نقولا وأمير رومانيا فأوقفاه وسلما عليه وبالغا فى ملاطفته إظهارا لفضله وإكبارا لشهامته.

وتقوّت عزيمة الروس لسقوط بلفنه فى أيديهم فتقدموا نحو دار السلطنة وهم يفتحون كل ما صادفهم فى طريقهم من الحصون والقلاع فخرج عند ذلك أمير الصرب عن الطاعة ونقض ما كان بينه وبين الباب العالى من العهد ونهض إلى معاونة الروس بالرجال والمال فاشتد الأمر على الباب العالى وسدت فى وجه العساكر السلطانية أبواب الفلاح وتولاهم الفشل وكادوا يقنطون من النصر والغلبة فأنفذ السلطان إلى الدول الكبرى فى الوساطة بينه وبين قيصر الروس فطاولوه ولم يهتموا إلى ذلك وبقيت الحرب قائمة بين الفريقين حتى دخل الشتاء وكثرت الثلوج والأمطار وهم مع ذلك لم ينكفوا وسارت جيوش الروس تريد الإغارة على بلاد البلغار والروملى الشرقية وتقدم الجنرال چوركوا بعسكره فاجتاز جبال البلقان ونزل على مدينة صوفية تحت البلقان واحتلها ثم سار إلى مدينة فليبه واحتلها أيضاً وسارت طائفة من عسكر الجنرال سكوبلف إلى مدينة أدرنه فقاتلت من بها واحتلتها عنوة ولبثوا فى هذه المدن أياماً حتى أصلحوا حالهم وساروا فى كثرة يريدون دار السلطنة فلم يجدوا فى طريقهم من يمنعهم أو يناوشهم الحرب لخلو الطريق حتى صاروا على أبوابها، وبينما كان الروس يتقدمون نحو دار السلطنة فى عدة وافرة كانت عساكر الجبل الأسود تقاتل مدينة انتيبارى حتى ملكتها وسارت حتى وصلت إلى ضواحى أشقودره ودخلت أيضاً العساكر الصربية مدينة نيش وأحاط الأعداء بمعظم بلاد الدولة من كل صوب ودرب وقد زاد الأمر ويلا وشدة جلاء المسلمين من أهل البلغار وغيرهم عن أوطانهم ونزولهم على دار السلطنة وهم فى أسوأ حال من العرى والجوع فملئوا شوارع المدينة وحاراتها واهتم الباب العالى بمأكولهم ومشروبهم وملبوسهم ووقودهم لوقر البرد وتبرع أهل البر والإحسان بالمال للنفقة واهتموا لذلك

اهتماما عظيما ومع هذا فقد فشت بينهم الحميات الخبيثة وكثر فيهم الموات واشتد فكانوا يموتون بجانب الجدران وعلى أبواب بيوت أهل الخير فكان المنظر محزنا والخطب عظيما.

ورسم السلطان بتسيير أربعة من كبار الدولة إلى حيث الغراندوق نقولا ليكلموه فى تقرير قاعدة للصلح بين الفريقين يكون من ورائها إبطال الحرب وحقن الدماء فساروا إلى قزانلق والتقوا بالغراندوق وكلموه فى الأمر فأجابهم إلى ذلك وسار بهم إلى مدينة أدرنة وقد سير إلى القيصر فى طلب إجارته بعقد شروط الصلح فأجابه فأمضى معهم عهدا فى المحرم افتتاح سنة خمس وتسعين كان فيه منح الاستقلال الإدارى لإمارة البلغار والاستقلال السياسى لكل من مملكة رومانيا ومملكة الجبل الأسود وأعطاهم بعض أملاك من أملاكِ السلطنة وتكليف الخزينة السلطانية بنفقة الحرب فإن لم تدفعها عينا أعطت بها قلاعا أو حصونا من قلاع السلطنة ثم قرروا بينهم قاعدة للهدنة ونودى فى العسكرين بالكف عن القتال فبطل الحرب وكفى الله المؤمنين شر القتال وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق فقامت الدول الكبرى وقعدت وترامت ظنون كبارها إلى المرمى البعيد لا سيما دولة النمسا فإنها كانت تخشى من قرب الروس من حدودها فأنفذ إمبراطورها إلى الدول فى طلب عقد مؤتمر لينظر فى شروط ذلك الصلح وماهيته وألح على دولة الإنجليز فى ذلك فأجابته إلى ما طلب وأشارت على الدول بذلك وكلمت الروس فى الأمر فطاول القيصر وحاول ولم يبلغ الدول شيئاً مما وقع الاتفاق عليه بينه وبين الباب العالى وقد كان يأبى وساطة الدول وعدم تداخلهم فى أمر الصلح وطال الأخذ والرد بين الدول وبعضهم أياماً فأزعج الدول امتناع القيصر وعدم إجابة طلبهم وكثر القيل والقال واختلط عليهم الحال وكثرت الإشاعة بدخول الروس فى دار السلطنة وعمدت دولة الإنجليز إلى استعمال الشدة والترهيب فسيرت سفن حربها إلى دار السلطنة لمنع الروس من الدنو من القسطنطينية فاجتازت الدردانيل عنوة ورست أمام المدينة فخاف الناس من ذلك وأخذتهم الطيرة وكثر لغطهم وتحدثهم فى هذا الأمر ورموا رجال الدولة وكبار السلطنة بالخيانة والتدليس وقام جماعة من رجال مجلس المبعوثان يعيبون على أصحاب الحل والعقد سوء تدبيرهم ويرمونهم بالمروق عن الدين فرسم السلطان بنفيهم وتبعيدهم فأقصوهم عن دار السلطنة وكثر الهرج والمرج وكادت تلتهب نار الفتنة فى جوف القسطنطينية واختلط الحال على السلطان فجعل يكثر من العزل

والتولية فى مناصب الدولة وخلع الصدر الأعظم أدهم باشا وولى مكانه أحمد حمدى باشا فلم يمض على ارتقائه منصب الصدارة سوى أيام حتى خلع أيضاً وأبطل لقب الصدارة بلقب رئيس الوكلاء وعين فى هذا المنصب رفيق باشا فلم يلبث أن عزل فى خامس عشرى ربيع الثانى وولى مكانه الصادق محمد باشا واشتدت الأزمة فاستحكمت الوحشة وكره الناس أصحاب الحل والعقد وبدأت تظهر دلائل الفتنة.

فلما كان سابع عشر جمادى الأولى قام رجل بخارى الأصل اسمه صعاوى من أصحاب الدسائس والفتن وهو أحد أركان العصابة التى كان ألفها الأمير مصطفى فاضل باشا أخى الخديوى إسماعيل وسماها باسم (جون ترك) أى تركية الفتاة وصرف عليها الأموال الطائلة فكان لها فى قلب هيئة السلطنة وخلع السلطان عبد العزيز وقتله وغير ذلك من الفتن والدسائس الداخلية اليد الطولى وكان الأمير مصطفى فاضل باشا هذا يتمنى أنه يرى جميع ذلك بعينه ولكنه مات قبل أن يخلع السلطان بأشهر وعمد صعاوى هذا إلى إيقاد نار الفتنة فى جوف القسطنطينية وخلع السلطان عبد الحميد وإعادة السلطان مراد إلى منصب الخلافة وكان فى دار السلطنة زهاء مائة وخمسين ألفا من المهاجرين وكلهم ناقمون على رجال الدولة كارهون للسلطان فقام بينهم صعاوى خطيبا وكان فصيح اللسان قوى الجنان وجعل يزين لهم خلع السلطان عبد الحميد ومبايعة السلطان مراد ثم سار فى جماعة منهم فى ذلك اليوم إلى سراى جراغان التى هى مقر السلطان مراد واقتحموها من البر والبحر وقتلوا من كان على أبوابها من الحرس واتصل صعاوى بغرفة السلطان مراد وسلمه طبنجة وأخذ بيده يريد الخروج وقد علت الضوضاء وكثر صياح العامة فترامح الناس من كل صوب وحدب واشتد الخوف بهم شدة بالغة وظن السوقة دخول الروس إلى المدينة وإعمالهم السيف فى أهلها فتسابقوا إلى غلق حوانيتهم وهرعوا إلى بيوتهم يدفعون عنها إيذاء العدو وجاءت طائفة من جند الحرس السلطانى إلى سراى جراغان وكبست على أصحاب الفتنة من البر والبحر وأعملوا فيهم القتل بحد السيف فلم تكن إلا ساعة أو بعض ساعة حتى أتوا على آخرهم إلا من طال عمره ومات صعاوى وصالح بيك مقدّما هذه الفتنة وجاء الأمر من السلطان بالقبض على أخيه مراد ووالدته ومن عنده من الجوارى والغلمان فقبضوا عليهم ونقلوهم إلى سراى السلطان عبد الحميد محجورا عليهم ولم يمض على هذا الحادث سوى ثلاثة أيام

حتى دس بعض أصحاب الفتنة النار فى دوائر الباب العالى فاشتعلت اشتعالاً عظيما واندلع لسان لهيبها إلى عنان السماء فأحرقت دوائر شورى الدولة وما يتبعها ودائرة الأحكام العدلية والتشريفات والداخلية وغيرها وأبادت جميع ما فيها من فرش وبسط وأوراق وغير ذلك وكبر غيظ السلطان فرسم بخلع الصادق محمد باشا من منصب رياسة الوكلاء فخلع فى سابع عشرى جمادى الأولى وولى مكانه محمد رشدى باشا وأعيد إليه لقب صدر أعظم فلم يكد يستقر به المنصب بضعة أيام حتى خلع وولى مكانه صفوت باشا.

ولما دخلت سفن حرب الإنجليز ورست أمام القسطنطينية كما تقدم القول عظم أمرها على الروس وعدّوه إهانة لهم وتحقيراً فأنفذ مقدم عساكرهم النازلة عند أبواب القسطنطينية فى طلب دخول طائفة من عسكره إلى المدينة وشدد فى ذلك فمانعته دولة الإنجليز وطال الأخذ والرد بين الروس وبقية الدول أياماً وجاء الغراندوق نقولا إلى أدرنه قبل انتهاء الهدنة فسير إليه السلطان نامق باشا ليكلمه فى منع دخول عساكره إلى المدينة فلم يقبل إلا بشرط أن تحتل مقدمة جيوشه خط بيوك چكمجه وكوچك چكمجه من ضواحى القسطنطينية وأن تنسحب العساكر السلطانية إلى ما وراء ذلك مع جعل مركز المخابرات فى قرية سان اسطفانوس الواقعة على بحر مرمرة وكان لم يعرف لها اسم ولا خبر قبل هذا الحادث فقبل السلطان ذلك وسار الغراندوق إلى قرية سان اسطفانوس فى ألف مقاتل ونزل بها وصار يأتى إليه المدد فى كل يوم حتى بلغت عساكره بالقرية المذكورة زهاء عشرين ألفا وجاءت رسل السلطان بعد ذلك لتقرير قاعدة الصلح فطال الجدال بين الفريقين أياماً وكان رسول القيصر فى عقد هذا الصلح الأمير اغناتيف وهو من دهاة السياسيين وأقطابهم فجعل يقلب للدولة ظهر المجن فسطر شروطا غاية فى الشدة والتضييق على الدولة العثمانية وسأل رسل السلطان التوقيع عليها فطلبوا مهلة فلم يقبل وضرب لهم أجلا فإن انقضى ذلك الأجل سارت العساكر النازلة فى سان اسطفانوس إلى القسطنطينية ودخلتها عنوة فراجعه رسل السلطان فلم يقبل وكان ذلك الأجل الثالث من شهر مارس الذى هو يوم عيد قيصر الروس فجعل رسل السلطان ينقبون فى تلك الشروط كى لا يحل الأجل المضروب إلا وقد أتوا على آخرها فلما كان ثالث الشهر المذكور أى ثامن عشر صفر سنة خمس وتسعين جمع الغراندوق نقولا جيوشه بين مشاة وفرسان وأوقفهم موقف الاستعراض إجلالا لعيد القيصر ولبث ينتظر ما سيكون من

رسل السلطان فلما أبطأ عليه الجواب سار إلى حيث رسل السلطان وطلب منهم الجواب فى تلك الساعة وإلا سارت جميع جيوشه إلى دار السلطنة بلا مهل فهال الرسل هذا الأمر وما زال الأمير اغناتيف يتهددهم حتى يتم توقيعهم على الشروط ولحق اغناتيف بالغراندوق ومعه شروط الصلح وكان الغراندوق ممتطيا جواده أمام العساكر وحوله جماعة من كبار الجند والحرس فناوله اغناتيف شروط الصلح فلما تناولها صاح من كان حوله من كبار العسكر فصاح العسكر جميعاً بأصوات الفرح وترجل جميع ضباط الجند عن خيولهم وخروا على الأرض سجدا لله عزّ وجلّ الذى أتاح لهم هذا النصر المبين وجاء أحد القسيسين فصلى بالعسكر صلاة الشكر وهم جميعاً سجود وطير الغراندوق الخبر إلى القيصر بما جرى ففرح فرحا لا يوصف ووردت على الغراندوق رسائل التهانى من كل فج عميق، وكان مما أخذ عهدا وميثاقا بين الدولتين بعد تلك الحرب الهائلة واشتهر بمعاهدة سان اسطفانوس هو الشرط الآتى ترجمته بعد: إن حضرة قيصر الروسيه وحضرة سلطان المملكة العثمانية قد عين كل منهما مرخصين لأجل تحرير مقدمات الصلح رغبة فى تأمين بلادهما ورعاياهما من وقوع ما يخل بالراحة والأمنية فيما بعد وطلبا لحصول فوائد المسالمة والراحة العمومية حالا فالمرخصان اللذان نصبهما القيصر أحدهما (الكونت نقولا اغناتيف) وهو حائز رتبة أمير اللواء ياور القيصر ومن أعضاء المجلس الخصوصى وعنده نشان روسى مرصع وهو نيشان صان عكساندر نويسكى ونياشين أجنبية متعددة والمرخص الآخر (موسيو نيلدوف) من قرناء الدائرة الإمبراطورية ومن أعضاء شورى الدولة وعنده نيشان صانت آن من الطبقة الأولى مع السيوف المختصة به وعدة من النياشين الروسية والأجنبية والمرخصان اللذان عينهما حضرة السلطان أحدهما (صفوت باشا) ناظر الأمور الخارجية الحامل النيشان العثمانى المرصع والنيشان المجيدى وكلاهما من الطبقة الأولى والنياشين الأجنبية المتنوعة والثانى (سعد الله بيك) سفير الدولة العلية فى مركز إمبراطورية ألمانيا وهو حامل النيشان المجيدى من الطبقة الأولى والنيشان العثمانى من الطبقة الثانية فهؤلاء المرخصون من بعد أن اطلعوا على المحررات الرسمية المتعلقة بكيفية ترخيصهم ووجودها مطابقة للأصول والعادات قرروا المواد الآتى ذكرها فيما بينهم.

المادة الأولى: أنه بموجب الخريطة المربوطة بهذه المعاهدة وبمقتضى الشروط والوجوه الآتى ذكرها تقرر تصحيح حدود ممالك الدولة العلية والجبل الأسود وذلك

لأجل إنهاء المنازعات والمصادمات المتتابعة الوقوع فيما بينهما فالحدود تمتد من جبل دوبروزيجه على الوجه الذى عينه المؤتمر الذى كان عقد فى الآستانة إلى (غوريتوويبلكه) والحد الجديد يستطيل إلى (غاجقه) وعلى هذا (توتركيا غاجفو) تبقى فى تصرف الجبل الأسود وتمتد الحدود أيضاً من مجمع أنهر (بيوه وتاره) وتمر من نهر (درين) إلى جهة الشمال وتنتهى إلى مجمع هذا النهر مع النهر المسمى (ثيم) وأما حدود الجبل المذكور الشرقية فتبتدىء من نهر (ثيم) إلى (بريرة بولره) ومن (روستراق إلى سوق بلانيا) وبيهور وروستراق تبقيان داخل الجبل فعلى ذلك يكون تخطيط الحدود هكذا أعنى من الجبال المتسلسلة الجامة لروغوه بلاوا وكورنره إلى پاقلنى ومن رؤوس جبال قوبر يونيق وباباور وبور وحذاء حدود بلاد الأرناؤط إلى أعلى ذروة جبل (بروقلنى) ومن هذه النقطة إلى (كنيب بيسقاشيق) وينتهى الحد على الخط المستقيم إلى عين الماء فى چيستى هوتى ويفصل فيما بين چيستى هوتى وچيستى فاسترانى ويتجاوز ماء أشقوره إلى أن ينتهى لنهر بويانه وهكذا مع النهر إلى مصبه فى البحر وبموجب ذلك تبقى نكسيك وغاجقة وأشبوزى ويورغوريچه وزابلياق وباز ضمن الجبل المذكور وقد يصير تعيين حدود الجبل قطعيا بمعرفة لجنة مركبة من بعض مأمورى دول أوروبا بشرط أن تكون وكلاء الباب العالى والجبل الأسود معهم أيضاً فهذه اللجنة تلاحظ منافع الطرفين وأمنية البلاد الكائنة فى الجهتين ثم تشير فى الخريطة إلى التعديلات التى ترى لها لزوما وتعلم أنها هى الحق وتوضح فى ذلك ما رأته من صالح الجهتين ثم لا يخفى أن أمر سير السفن فى نهر بويانه لم يزل يجلب النزاع فيما بين الباب العالى والجبل الأسود فلأجل قطع هذا النزاع سيصير تحرير نظام ذلك بمعرفة اللجنة المذكورة.

المادة الثانية: أن الباب العالى يثبت استقلال إمارة الجبل الأسود على الوجه القطعى ثم فيما يأتى تتقرر فيما بين دولة الروسيه والدولة العلية والإمارة المذكورة كيفية المناسبات التى ستكون بين الباب العالى والجبل وقضية تعيين وكلاء من طرف الإمارة فى الآستانة والبلاد العثمانية المقتضية ويتقرر أيضاً أمر إعادة أرباب الجنايات الذين يفرون من بلاد الدولة العلية إلى الجبل الأسود ومن الجبل إلى بلاد الدولة وأمر إطاعة أهل الجبل المقيمين أو المارين فى بلاد الدولة العلية وانقيادهم إلى نظامات ومأمورى الدولة طبق الحقوق الجارية بين الدول والعادات والمعاملات القديمة التى كانت تجرى بحقهم فى بلاد الدولة وستنعقد أيضاً مقاولة فيما بين الباب العالى

والجبل الأسود لأجل توضيح وتنظيم المسائل المتعلقة بالإنشاءات العسكرية فى قرب الحدودو وأحوال ومناسبات الأهالى المتجاورة هناك وإذا اختلف الباب العالى مع الجبل الأسود فى بعض مسائل ولم يمكن فصلها باتفاقهما فتحكم بينهما دولتا الروسيه وأوستريا ومن بعد هذه المعاهدة إذا وقعت مباحثة أو مصادمة فيما بين الباب العالي والجبل الأسود ما عدا المطالب الملكية الجديدة ينبغى أن يفوضا أمرهما إلى دولتي الروسيه وأوستريا وهما باتفاقهما يفصلانها بينهما وقد تقرر أنه من بعد إمضاء مقدمات الصلح إلى عشرة أيام يجب على عساكر الجبل الأسود أن تخرج من البلاد الغير داخلة ضمن الحدود المذكورة أعلاه.

المادة الثالثة: أن إمارة الصرب تكون مستقلة ويكون حدها بموجب الخريطة المربوطة لهذه المعاهدة مجرى نهردرين وتبقى كوچك أزورنيق وسقار فى إدارة الصرب ويمتد هذا الحد إلى منبع نهر رازده الكائن بجوار استايلاق على حسب الحدود القديمة وتبتدىء الحدود الجديدة من هنا أعنى مع مجرى نهر رزوه إلى نهر راسقه ومنه إلى يكى بزار ومن يكى بزار يصعد الخط الفاصل ويمر من جوار قريتى مهنتره وارغويج إلى أعلى النهر المذكور حتى ينتهى إلى منبعه ويمتد إلى بوسور بلاتينا الكائنة فى وادى إيبار وينزل مع الماء الجارى الذى يصب فى النهر المذكور ومنه يسير مع أنهر إيبار وسيديج ولاب إلى منبع نهر ياتنسه الكائن فى جبل عزايا شينجه بلاتينا وبعدها يمر من التلال الفاصلة بين نهرى قربوه وترينجة ومن أقصر الطرق الموجودة على مصب نهر ميوواجقه حتى ينتهى أيضاً إلى نهر ديرنجه ويسير مع هذا النهر ويقطع ميوواجقه وبلاتينا ويصل إلى جهة مواروه فى قرب قرية قاليمانس ومن هنا يسير إلى قرب قرية استابقوجى ويجتمع هناك مع نهر بلوسينه وهكذا مع النهر إلى موراوه ويمتد من النهر إلى جهة فوق حتى يصل إلى قوتقاويجه ويقطع سوق بلاتينا ويجتمع بنهر نيساوة ويتصل بقرية قرونراج ومنها يمر من أقصر الطرق ويمتد على حدود الصرب القديمة إلى جنوب شرق قره ول بور وعلى هذا الخط يتصل بنهر الطونة وتقرر إخلاء اطه قلعة وهدمها وترتيب لجنة مركبة من مأمورى الدولة العلية والصرب لأجل تعيين خط الحدود على الوجه القطعى فى برهة ثلاثة أشهر ويكون ذلك بمعاونة مأمورين من طرف دولة الروسيه وهذه اللجنة تفصل أيضاً المسائل المتعلقة بجزاير نهر درين وتقطعها وحينما تبتدىء هذه اللجنة بتعيين الحدود الفاصلة بين بلاد الصرب والصقالبة ينبغى أن يكون وكيل واحد من طرف الصقالبة يشترك معهم فى هذا الأمر.

المادة الرابعة: أن المسلمين الذين لهم أملاك فى البلاد التى صار إلحاقها بالصرب إذا لم يريدوا الإقامة هناك فلهم الخيار إن أحبوا أجروا أملاكهم وإن أحبوا أقاموا وكلاء من طرفهم لأجل حفظها واستغلالها والمسائل المتعلقة بأموالهم غير المنقولة تفصلها لجنة مركبة من مأمورى الدولة العلية والصرب بإعانة مأمورين من طرف دولة الروسيه فى ظرف سنتين وهذه اللجنة تفصل أيضاً فى برهة ثلاث سنين أمر فراغ الأملاك الميرية والموقوفة والمسائل المتعلقة ببعض الأشخاص الذين لهم علاقة ونفع فى الأملاك المذكورة وذلك يكون عقيب انعقاد المعاهدة فيما بين الدولة العلية والصرب والأناس المقيمون أو الذين يجولون فى بلاد الدولة من تبعة الصرب تكون المعاملة معهم على القواعد الكلية بمقتضى الحقوق الكائنة بين الدول وقد تقرر أنه من بعد إمضاء مقدمات الصلح إلى خمسة عشر يوما يجب على عساكر الصرب أن تخرج من البلاد التى ليست داخلة ضمن الحدود المذكورة أعلاه.

المادة الخامسة: أن الباب العالى قد أثبت استقلال رومانيا أعنى المملكتين ولها أن تطلب من الدولة العلية تضمينات الحرب وتجرى المذاكرة فى هذا الشأن فيما بينهما وعند ما تنعقد المعاهدة بين الدولة العلية ورومانيا رأسا تنال تبعة رومانيا الأمن والامتياز طبق تبعة دول أوربا.

المادة السادسة: تقرر أن تكون البلغارستان أعنى بلاد الصقالبة إمارة مختارة فى إدارتها تدفع مبلغا معلوما إلى الدولة العلية ويكون مأمورو الحكومة والعساكر الملية من المسيحيين ويصير تعيين حدودها على الوجه القطعى بمعرفة لجنة مركبة من مأمورى الدولة العلية والروسية وذلك قبل خروج عساكر الروسيه من الروم إيلى وهذه اللجنة تبين هناك فى الخريطة التعديلات التى ينبغى إجراؤها وتلاحظ ملية أكثر الأهالى وتوضح المنافع المحلية تطبيقا لفن تخصيص الأراضى وتقرر تعيين وتبيين مقدار اتساع ملك الصقالبة بخريطة وجعلها أساسا فى قطع الحدود، وخط الحدود يبتدىء من حدود الصرب الجديدة ومن غرب ورا نثره إلى سلسلة الجبل الأسود ومن جهة الغرب يمر من نهر دبو جيجه إلى درنية غرب قومانوه وقوچانى وقلقان ولن إلى جبل قوارب ومن هناك يمر من نهر بوجيجه إلى درينة ويلتفت إلى جهة الجنوب إلى حدود غرب قضاء (أخرى) حتى ينتهى إلى جبل ليناس ومنه يمر من غربى كوريجة واستادره ويتصل بجبل غراموس وكذلك يمر من ماء فاستريا ويلتصق بنهر موغلينجه ويسير مع النهر إلى يكچه ويمر عن نهر واردا يكچه ومن مصب نهر وارداد وقرية غاليقو وإلى قراء يارغه وصارى كوى وهناك يمر من وسط عين الماء المعبر عنه

بشيك كل إلى مصب نهرى أستروما وقره صو ومن السواحل إلى بورروكل ويمتد إلى الشمال الغربى ويمر على سلسلة جبل رودوب إلى جبلى جالتپه وأوشوه ويمرّ من جبال أشك قولاج وچبيلون وقره قولاس وجيقلر إلى نهر أرده ويلتفت إلى جهة الجنوب ويمر من قرامسو كوتلى وقره حمزة وارتاد كوى وأقارجى وأپنجه إلى تكه دره سى فى قرب أدرنه ومن تكه دره سى وجورلى دره سى إلى لوله برغوثى ومن هنا وعن نهر جوجق دره إلى قرية سوركن ومنها إلى التلال ويقطع حكيم طابيه سى حتى يتصل بساحل البحر الأسود ويبتدىء أيضاً من صقالبة السواحل ويمر من شمال حدود لواء طوچى ومن فرق راسوه إلى نهر الطونة.

المادة السابعة: أن أمير الصقالبة يصير انتخابه من طرف الأهالى بالحرية التامة والباب العالى يثبته بانضمام آراء الدول ولا يجوز انتخاب أحد من أقارب دول أوربا الجالسين على سرير الملك للإمارة المذكورة وحينما تنحل الإمارة كذلك يكون انتخاب الأمير الجديد على هذا المنوال وهاته الشروط وقد تقرر أنه ينبغى من قبل انتخاب الأمير أن يجتمع مجلس مشيرى الصقالبة إما فى قلبه وإما فى طرنوه تحت نظارة مأمورين من طرف الروسيه وفى حضور مأمورين من طرف الدولة العلية وتؤسس نظامات هذه الإدارة المستقلة توفيقا لأمثالها أعنى لنظامات المملكتين التى تنظمت فى سنة ثلاثين وثمانمائة وألف ميلادية بعد انعقاد مصالحة أدرنه وعند تأسيس تلك النظامات ستصير وقاية حقوق ومنافع الأهالى من المسلمين والروم والأولاخ وغيرهم الموجودين والمختلطين مع الصقالبة وتقرر أيضاً إحالة تأسيس هذه الإدارة الجديدة فى البلغارستان مع ما يلزم من النظر فى صور إجرائها لعهدة مأمورين موظفين من طرف دولة الروسيه من هنا إلى سنتين وفى انقضاء السنة الأولى من تأسيس الإدارة الجديدة إذا لم يحصل اتفاق بهذا الشأن فيما بين الروسيه والباب العالى ودول أوربا يكون للدول المشار إليهم حق أن يوظفوا مأمورين برفق مأمورين الروسيه.

المادة الثامنة: ليس لعساكر الدولة العثمانية حق بعد هذا للإقامة فى البلغارستان وسيصير هدم القلاع القديمة الكائنة هناك بمعرفة الحكومة المحلية وأن الباب العالى له حق أن يتصرف فى الأدوات الحربية الموجودة فى قلاع الطونة التى صار إخلاؤها من العساكر بموجب سند المتاركة الذى تحرر فى حادى ثلاثين كانون الثانى والآلات الحربية الكائنة فى مدينتى شمنى ووارنه وجميع الأملاك المتعلقة بالحكومة العثمانية

كيفما شاء وتبقى عساكر الروسية فى البلغارستان مقيمة إلى أن ينتهى ترتيب العساكر الملية المحلية الكافية لحفظ الراحة وتوطيد الأمنية وإذا اقتضت الحال يقومون فعلا بإعانة المأمورين وسيصير تعيين عدد العساكر الملية بالاتفاق فيما بين الدولة العلية ودولة الروسية وأن مدة إقامة عساكر الروسية فى البلغارستان تكون سنتين والعساكر التى تبقى هناك بعد خروج جميع العساكر الروسية من بلاد الدولة العلية تكون عبارة عن ست فرق مشاة وفرقتين خيالة وجميعها خمسون ألفا ومصروف هؤلاء العساكر يكون على بلاد الصقالبة ويكون لها طرق مراسلات فى المملكتين فى شطوط البحر الأسود من جهة وارنه وبرغوس وفى مدة إقامتها هناك يكون لها المخازن المقتضية على الشطوط المذكورة.

المادة التاسعة: أن المرتب السنوى الذى يلزم على البلغارستان إيفاؤه للدولة العلية يتسلم إلى البنك الذى يعينه الباب العالى وهذا البنك يصير تعيينه بمعرفة دولة الروسية والدولة العلية وسائر الدول وذلك فى انتهاء السنة الأولى من ابتداء إجراء أصول الإدارة الجديدة ومقدار ذلك المرتب يتأسس بالنظر لإيراد البلاد والأراضى التى تكون فى إدارة الإمارة على الحساب المتوسط والبلغارستان تتعهد بالقيام بالتعهد الذى على الدولة العلية إلى شركة سكة الحديد فى طريق وارنة وروسجق غب المذاكرة المذكورة ومع الباب العالى وإدارة الشركة المذكورة ومسئلة السكة الحديد الأخرى الموجودة ضمن الإمارة يصير فصلها بمعرفة الدولة العلية وحكومة الصقالبة وإدارة الشركة.

المادة العاشرة: أن الباب العالى له حق أن ينقل ويجلب عساكر ومهمات وذخرة من الطريق المعينة فى داخل البلغارستان إلى الإيالات العثمانية التى وراء البلغارستان ولأجل عدم وقوع مشاكل فى هذا الخصوص وتأمين الإيجابات العسكرية العثمانية سيوضع نظام بالاتفاق مع الباب العالى والإمارة من ابتداء تعاطى هذه المعاهدة إلى ثلاثة أشهر فى ذلك وهذا الحق المتعلق بالمرور والعبور يختص بالعساكر النظامية فقط دون الباشبوزق والجراكسة والعساكر المعاونة وللباب العالى كذلك أن يتعاطى البوسطة من طريق الإمارة ويستعمل مسالك التلغراف فى مخابراته فهذان الأمران كذلك يصير تعيينهما وتنظيمهما فى المدة والشروط المحررة أعلاه.

المادة الحادية عشرة: أن المسلمين وغيرهم من أصحاب الأملاك إذا أرادوا الإقامة فى خارج الإمارة لهم أن يحفظوا أملاكهم ويؤجروها أو يفوّضوا أمر إدارتها إلى من

يريدونه ثم إن مأمور الدولة العلية ومأمور الصقالبة يجتمعان تحت نظارة مأمور الروسية ويفعلون المسائل المتعلقة بتصرف الأملاك وفى منافع مسلمى الصقالبة وذلك يكون فى ظرف سنتين والأملاك الميرية والموقوفة يصير تعيين أمرها إما بالبيع وإما باستعمالها على الوجه الذى يكون فيه النفع الزائد لجهة الباب العالى ويصير تعيين ذلك بمعرفة لجان مخصوصة محدودة فى السنتين المذكورتين والأراضى التى تبقى بدون صاحب عند انتقاض السنتين يصير طرحها فى المزاد وتباع ويؤخذ ثمنها ويدفع إلى أيتام وأرامل المصابين فى الأحوال الأخيرة من المسلمين والمسيحيين.

المادة الثانية عشرة: أن القلاع الكائنة على نهر الطونة يصير هدمها جميعاً ولا يبقى من بعد هذا على سواحل الطونة قلعة مّا مطلقا ولا يجوز وجود سفن حربية فى مياه رومانيا والصرب والصقالبة سوى السفن الصغيرة والفلوكات المختصة والمستعملة فى أمور الضبط فقط وحقوق ووظائف وامتيازات لجنة الطونه المختلطة تبقى بتمامها على أصلها.

المادة الثالثة عشرة: أن الباب العالى يتعهد بتنظيف البحر فى مضيق سنه وإرجاعه إلى حاله السابق ليصلح لمرورالسفن منه ويتعهد أن يضمن العطل والضرر الذى حصل للتجار بسبب منع مرور السفن من نهر الطونه مدة الحرب وسيصير خصم خمسمائة ألف فرنك من أصل دين لجنة الطونة إلى الباب العالى لأجل هذا الأمر.

المادة الرابعة عشرة: أن الإصلاحات التى تبلغت إلى مرخص الباب العالى فى أول جلسة مؤتمر الآستانة ينبغى حالا وضعها فى موقع الإجراء فى بوسنه وهرسك مع التعديلات التى ستقرر فيما بين دولتى الروسيه وأوستريا ويجب أن لا يطلب من هاتين الإيالتين بقايا الأموال الميريه وأن لا يؤخذ شىء من الواردات إلى ابتداء شهر مارس سنة ١٨٨٠ بل تصرف كلها فى الاحتياجات المحلية ويسدّ بها عوز الأهالى والعيال الذين أصيبوا فى الأحوال الأخيرة ومن بعد انقضاء المدة المذكورة يتعين المبلغ الذى يلزم على الأهالى دفعه فى كل سنة إلى الحكومة المركزية بالاتفاق فيما بين الدولة العلية ودولتى الروسيه وأوستريا.

المادة الخامسة عشرة: يتعهد الباب العالى بإجراء أحكام النظام الأساسى الذى وضع فى سنة ثمان وستين وستمائة وألف المختص بجزيرة كريد طبق مطلوب الأهالى الذى بينوه مقدما ويلزم إجراء الإصلاحات المماثلة لنظامات كريد فى ترحاله

ويانيه وفى سائر جهات الروم إيلى التى ليس لها نظامات مخصوصة ويصير تشكيل لجنة مركبة من الأهالى المحلية فى كل إيالة لأجل ترتيب وتأليف النظامات الجديدة ثم يصير تقديمها إلى الباب العالى وهو يتذاكر مع دولة الروسية فى ذلك.

المادة السادسة عشرة: أن خروج عساكر الروسيه من الأرمنستان وإرجاع تلك البلاد إلى الدولة العلية يمكن أن يفضى إلى المناقشة والاختلاف فيما بينهما فلهذا يتعهد الباب العالى حالا بإجراء الإصلاحات على حسب الاحتياجات المحلية فى الولايات التى سكانها أرمن وتأمين المسيحيين من تعدى الأكراد والجراكسة.

المادة السابعة عشرة: أن الباب العالى سيعلن العفو العمومى عن المتهمين فى الأحوال الأخيرة ويطلق سبيل المحبوسين والمنفيين بسبب ذلك.

المادة الثامنة عشرة: أن الباب العالى يتعهد بالتبصر بعين الدقة إلى ما بينه وكلاء الدول المتوسطة فى خصوص قضاء قوتور وتعيين الحدود الإيرانية على الوجه القطعى.

المادة التاسعة عشرة: أن مبالغ التضمينات الحربية التى طلبها حضرة قيصر الروسيه هى فى مقابلة الأضرار والخسائر التى تكبدتها دولته بسبب هذه الحرب والباب العالى قد تعهد بدفعها فمن هاته المبالغ أوّلا - تسعمائة مليون روبل فى مقابلة مصروف العساكر والأدوات الحربية والأشياء التالفة. وثانيا: - أربعمائة مليون روبل لأجل الأضرار الحاصلة فى سواحل بلاد الروسية الجنوبية وفى إخراجات البضائع التجارية وفى طرق الحديد. وثالثا: مائة مليون روبل فى مقابلة الضرر الحاصل من الهجوم على قوقاس. ورابعا - عشرة ملايين روبل لأجل الخسائر التى حصلت لتبعة الروسية المقيمين فى الممالك العثمانية ولتأسيساتها فعلى ذلك تكون هذه المبالغ من حيث المجموع عبارة عن مليار واحد وأربعمائة مليون وعشرة ملايين روبل يعنى مائتين وخمسة وأربعين مليونا ومائتين وسبعة عشر ألفا وثلثمائة وأحدا وتسعين ليرة عثمانية وريال مجيدى أبيض ونصف، هذا وأن القيصر المشار إليه قد لاحظ ضيق حال الدولة العلية من جهة المال وتأمل فى مقاصدها التى نوهت عنها فى هذا الشأن فلذلك قد قبل أن تترك الدولة العلية الأراضى المحررة أسماؤها أدناه عوضا عن القسم الأكثر من المبالغ المذكورة. أولا - لواء طوالحى يعنى قضاء كيليا وسنه ومحموديه وإيساقجى وياجين وبابا طاغى وخرسوه ولوستنجه ومجيدية والجزائر الكائنة فى نهر طونة قد تركتها الدولة العلية جميعا إلا أن الدولة الروسية

ليس لها فكر بإلحاق هاته البلاد إلى ملكها بل إنها تحفظ حق مبادلة هذه البلاد بقطعة بسارابيا التى أخذت منها بموجب معاهدة سنة ست وخمسين وثمانمائة وألف فحدود قطعة بسارابيا من جهة الجنوب طرف من أراضى كيليا ومصب نهر الطونة والجهات التى يصطادون بها السمك فى النهر يصير تفريقها بمعرفة مأمورين من طرف الروسيه ومن حكومة المملكتين فى برهة سنة واحدة اعتبارا من تاريخ تعاطى هذه المعاهدة.

ثانيـاً ـ أردهان وقبـرص وباطوم وبايزيد مع الأراضى المحاذية لهـا إلى جبل جوغانلى سيصير تسليمها إلى دولة روسيه وحينئذ الحدود الفاصلة تكون هكذا أعنى يبتـدىء الخط الفاصل من الجبال الـتى فيما بين الميـاه الجارية والمنصبـة فى نهر هويا وجوروق ويمـر من الجبال المـتسلسلة الواقعـة فى جنوب قضـاء وارتوين ومن جوار قريتى والات وبشاكت ومن فوق درونيسك وكـفى وهوجسه زاد ويحقين صاغ ومن الجبال الفـاصلة للمياه التى تختلط بنهرى تورقم وجـورف ومن فوق قراء يالى وهين ولم كليسـا إلى أن ينتهى لنهـر تورتم ومن هناك يمر من سـيورى طاغ ومن مـضيق سيورى طاغ ويتـصل بقرية نريمان ويلتفت إلى وجهـة الجنوب حتى يصل إلى زوين ومن زوين يمر من غربى طريق أردوست خراسان إلى جنوب جبل جوغانلى ويتصل بقرية كيلجمان ومنها يمر من جبـل تريا ومن قرية خمير ومن أون رست مسافة ومن تلال طاندور ومن جنوب وادى بايزيد وينتهى فى الجهة الجنوبية من قازلى كول وهذا المحل هو الحد الفاصل قديما فيما بين حدود أرض الدولة العلية وأراضى دولة إيران وإن الأراضى التى صار إلحاقها بممالك الروسـية ومذكورة فى الخريطة المربوطة لهذه المعاهدات يصيـر تعيين حدودها قطعيـا بمعرفة مأمور من طرف الروسيـة ومأمور من طرف الدولة العليـة وهما يلاحظان قـواعد تخطيط الأراضى وأسـباب تأمـين حسن الإدارة.

ثالثاً: إن الأراضى التى صـار تركها للدولة الـروسية كمـا هو محرر أعـلاه قد اعتبرت بمبلغ مليار ومائة وعشرة ملايين روبل وأما الباقى من التضمينات وهو ثلثمائة مليون روبل ما عـدا العشرة ملايين روبل التى هى فى مـقابلة خسائر تبعـة الروسية وتأسيساتها فستتفق دولة الروسية مع الدولة العلية على قضية دفعها وتأمين وفائها.

رابعاً: إن العـشرة ملايين روبل التى تخص التبـعة الروسية ومـؤسساتها يـصير تسويتهـا هكذا. أعنى أن سفارة الروسية فى الاسـتانة تجرى التدقيقـات اللازمة بهذا الشأن عـلى طلبات أرباب الشـأن وتعرض الكيـفية علـى الباب العالى وهـو يجرى التسوية على مقتضى تبليغات السفارة.

المادة العشرون: أن الباب العالى يتعهد بأن يستعمل التدابير المؤثرة سريعاً فى حسم الدعاوى المتنازع فيها منذ سنين عديدة المتعلقة بتبعة الروسية وأنه إذا اقتضى الأمر يدفع تضمينات وينفذ أحكام الإعلامات.

المادة الحادية والعشرون. أن أهالى البلاد التى سلمت إلى الروسية إن أرادوا الهجرة منها لم أن يبيعوا أملاكهم وأراضيهم ويهاجروا وقد أعطى لهم مهلة فى ذلك ثلاث سنين من تاريخ تعاطى هذه المعاهدة فالذين لا يبيعون أملاكهم فى هذه المدة ولا يهاجرون يدخلون فى حكم الروسية عند انقضاء تلك المدة. والأملاك الأميرية والموقوفة يصير بيعها على حسب الأصول التى يعينها مأمور الروسية ومأمور الدولة العلية فى بحر السنين المذكورة وهما يتممان إيفاء كيفية نقل الأدوات الحربية الموجودة فى المحلات التى هى الآن فى يد الروس سواء كانت من البلاد التى سلمت إلى دولة الروسية أو غيرها.

المادة الثانية والعشرون: أن القسيسين والزوار الذين يسكنون أو يسيحون فى الممالك العثمانية فى الروم إيلى والأناضول من تبعة الروسية سينالون الحقوق والامتيازات التى ينالها القسيسون والزوار من تبعة سائر الدول سوية وسفارة الروسية الكائنة فى الاستانة وقناصلها يحمون حقوق أولئك الأشخاص وذواتهم ومؤسساتهم والرهبان وغيرهم الموجودون فى الأماكن المقدسة وبالخصوص فى اينورز فهم حائزون حقوقهم التى كانوا حائزين عليها فى السابق ويحفظون الديارات الثلاثة الكائنة فى اينورز مع مشتملاتها المتعلقة بهم كسائر الديارات والمؤسسات المذهبية الكائنة لغيرهم هناك سوية.

المادة الثالثة والعشرون: أن المعاهدات والمقاولات التى كانت موجودة فيما بين الدولة العلية والروسية المتعلقة بالتجارة المحاكمة وبتبعة الروسية المقيمين فى بلاد الدولة العلية وتعطلت أحكامها بسبب هذه الحرب ينبغى أن تجرى أحكامها كما فى السابق وأن دولتى الروسية والعثمانية قد أعادتا العلاقات إلى سابق مجراها قبل هذه الحرب فى الأمور التجارية وغيرها فيقتضى إحكام عرى المعاهدات والمقاولات المذكورة ما عدا الموادّ التى نسختها هاته المعاهدة.

المادة الرابعة والعشرون: أن خليج الاستانة وخليج جناق قلعة سواء كان فى زمن الحرب أو زمن الصلح يكون مفتوحا للسفن التجارية التى تريد المرور منه إلى بلاد الروسية من الدول التى تكون على الحيادة والباب العالى ليس له من بعد هذا

أن يستبدّ بمراقبة الشطوط الواقعة فيما بين البحر الأسود وبحر الأزاق المخالف لمضمون معاهدة باريز التى صار إمضاؤها فى رابع أبريل سنة ١٨٥٦ ست وخمسين وثمانمائة وألف.

المادة الخامسة والعشرون: أن عساكر الروس يخرجون من بلاد الدولة العلية الكائنة فى أوربا بالروم إيلى ما عدا البلغارستان وذلك من تاريخ انعقاد الصلح القطعى إلى ثلاثة أشهر هذا وأن العساكر المذكورة لهم أن يأتوا إلى الأساكل الموجودة فى البحر الأسود وبحر مرمرة عند السفر للركوب فى السفائن التى تحضرها أو تستأجرها دولة الروسية حتى لا يكونوا مجبورين على تحديد مدة الإقامة فى الممالك العثمانية وفى رومانيا وأما خروج عساكر الروسية من الأناطول فيكون بعد انعقاد الصلح القطعى بستة أشهر ولهم أن يأتوا إلى طرابزون لأجل الركوب فى السفن ومن هناك يسافرون إلى القريم أو القوقاى.

المادة السادسة والعشرون: أن قواعد الإدارة والأوامر التى وضعتها دولة الروسية فى البلاد التى دخلتها عساكرها والتى ينبغى تسليمها إلى الدولة العلية بموجب هذه المعاهدة تكون باقية وجارية إلى حين قيام العساكر منها وليس للباب العالى المشاركة فى الأحكام ولا للعساكر العثمانية الدخول إليها قبل ذلك بناء على هذا فإن أمير عساكر الروسية يخبر الضابط الذى يعينه الباب العالى عن سفر عساكر الروسية وليس للباب العالى أن يجرى الأحكام من قبل أن تسلم له القلاع والإيالات.

المادة السابعة والعشرون: أن الباب العالى لا يجازى أحدا بسوء من تبعته الذين لهم علاقة مع دولة الروسية فى زمن الحرب وليس لمامورى الدولة العلية أن يمنعوا أو يوقفوا أحدا من الأهالى الذين يرغبون أن يسافروا مع العساكر الروسية.

المادة الثامنة والعشرون: أن أسرى الحرب يصير إرجاعهم تحت ملاحظة مأمورين مرتبين من طرف الدولتين وذلك عقب تعاطى مقدمات الصلح وهؤلاء المأمورون يسافرون إلى أودسة وسيواستابول وأما مصروف أسراء العساكر العثمانية فتدفعه الدولة العلية فى ظرف ست سنوات على ثمانية عشر قسطا بموجب الدفتر الذى يحرره المأمورون المذكورون وأما قضية مبادلة الأسرى فيما بين حكومتى دونيا والصرب وإمارة الجبل الأسود فيصير إجراؤها على هذا الأساس إلا أنه يصير تنزيل العدد الذى تستلمه الدولة العلية من العدد الذى تستلمه من الأسرى.

المادة التاسعة والعشرون: أن حضرة إمبراطور الروسية والحضرة السلطانية

سيثبتون هذه المعاهدة ووثائق الاتفاق تكون معاطاتها فى سان بطرسبورج فى ظرف خمسة عشر يوما أو بوجه أسرع من ذلك إن أمكن وكذلك يجرى التصديق رسميا على الشروط المذكورة فى هذه المعاهدة على حسب الأصول الجارية فى المعاهدات الصلحية وأن الدولتين المتعاهدتين من تاريخ تعاطى المعاهدة تعدّان أنفسهما رسميا بأنهما متعهدتان بأن مرخصى الطرفين قد أمضوا هذه المعاهدة كما يأتى تصديقا لمضمونها (انتهت كما رقمها صاحب الجوائب) ثم جاء بعد ذلك ما نصه: إن معاهدة مقدمة الصلح التى صار إمضاؤها فى هذا اليوم أعنى فى تاسع عشر شعبان وثالث إدار سنة ثمان وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية قد حصل سهو بها فى الجملة الأخيرة من المادة الحادية عشرة فلذلك زيدت العبارة الآتية واعتبرت جزءاً متمما للمعاهدة المذكورة وهى:

أنّ الذين يقيمون أو يسيحون فى الممالك العثمانية من أهالى البلغارستان يكونون تابعين للقوانين العثمانية انتهى.

قال بعض كتاب الأخبار: فلم تكن لترضى هذه المعاهدة سكان البلاد المنسلخة عن السلطنة العثمانية ولا بقية الدول وعلى الخصوص منها دولة الإنجليز فإنها أصبحت وكأن الطير على رؤوس كبار سياستها فقد هاجوا وماجوا وأوعزوا إلى دولة النمسا فقام أصحاب الكلمة فيها يطالبون بحل عقد هذا التحالف ويزمون دولة الروس بالخديعة والمكر ويقولون لا سبيل إلى ترك بوسنة وهرسك مضغة لينة لغيرنا ولابد من أخذ مينا سلانيك لتغنينا عن تريستا التى أكثرت إيطاليا تهديدنا ووعيدنا بسببها وكتب كبير سياسة الإنجليز إلى دولة الروس يقول إن كل عمل تأتيه الروسية مع الدولة العلية مخالفا لنصوص معاهدة سنة ست وخمسين وثمانمائة وألف المبرمة فى عاصمة الفرنسيس لا يعمل به إلا برضا جميع الدول الضامنة لتلك المعاهدة وسألت دولة النمسا بقية الدول فى عقد مؤتمر فى مدينة برلين عاصمة الألمان للنظر فى مدعياتها فأجابتها إلى ذلك واشترطت دولة الإنجليز أن يكون لأعضاء هذا المؤتمر حق النظر فى جميع مواد معاهدة سان اسطفانوس والإتيان عليها من سائر أبوابها فمانعت دولة الروس فى ذلك وشددت فى المنع وعظم الخلاف بين الروس والإنجليز واستفحل الخطب وجعل كل فريق يتأهب لقتال الآخر وكثر اهتمام الإنجليز بحشد الجنود وإعداد معدات القتال وجعل سفن حربهم على قدم الاستعداد أمام جزيرة مالطة واستقدموا عدة طوائف من عساكرهم الهندية إلى الجزيرة المذكورة كى يكونوا على مقربة من دار السلطنة عند الحاجة إليهم وبالغت دولة الروس كذلك فى حشد

الجنود وتسليح الكثير من سفن التجارة بالمدافع الضخمة لتسحق بها سفن تجارة الإنجليز عند انتشاب الحرب بين الفريقين واشتد الخوف وعم الاضطراب وقامت الفتنة فى البلغارستان وخرج من بها من المسلمين على الروس وقاتلوهم وتحصنوا فى الجبال فعز على الروس إرجاعهم إلى الطاعة وعمت الفتنة جميع البلغارستان وضواحى صوفيا إلى حدود الصرب واشتدت وبقى الحال هكذا أياما ومراكب حرب الإنجليز راسية أمام دار السلطنة وعساكر الروس حولها من كل صوب ودخل الصيف وزال الشتاء فتفشت الأمراض فى عسكر الروس ووقع فى الجند الموات فكبر الأمر على القيصر وسير إلى خاله إمبراطور الألمان فى الوساطة بينه وبين الإنجليز وأنفذ إلى سفيره بعاصمة الإنجليز فى ذلك أيضاً فانفتح باب المخابرة فى الصلح والوقوف عند حدّ يكون فيه المصلحة للفريقين ثم اتفق الروس والإنجليز على عقد المؤتمر فى برلين عاصمة الألمان كطلب دولة النمسا وكتبوا إلى البرنس بسمارك كبير سياسة الألمان فى أمر ذلك فأنفذ إلى بقية الدول بأن تبعث سفراء من قبلهم فجاءت سفراؤهم إلى برلين بعد أخذ وردّ وانعقد المؤتمر وتكلموا فى معاهدة سان اصطفانوس وفيما يجب تغييره من أحكامها. قال بعض الكتاب: وقال اللورد بيكنشفيلد كبير سياسة الإنجليز يومئذ: ولماذا لا تنسحب العساكر الروسية عن ضواحى دار السلطنة العثمانية فأجابه البرنس غورتشاكوف كبير سياسة الروس حتى تنسحب السفن الإنجليزية من مياه القسطنطينية فعارضه بيكنشفيلد فى ذلك وردّ عليه غورتشاكوف وعلت أصواتهما واشتد بينهما اللدد وكاد ينحل عقد المؤتمر لولا وساطة بسمارك وحسن سياسته، وما زال المؤتمر يوالى جلساته حتى تم الاتفاق على ما أرادوه وكتبوا به عهدا فى عاشر رجب سنة خمس وتسعين ومائتين وألف هجرية أى ثالث عشر يوليو سنة ثمان وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية وهو المعروف بمعاهدة برلين وهى تحتوى على أربع وستين مادة قد أضربنا عن إيرادها هنا وكان من أحكامها انفصال ولاية البلغار انفصالا تاما عن ممالك الدولة العثمانية وتسليم البوسنة والهرسك إلى دولة النمسا والمجر تسليما لا رد بعده وإعطاء اليونانية جزءاً من أراضى الدولة العلية توسيعا لحدودها وكذلك اتسعت حدود الصرب وحدود الجبل الأسود وإعطاء أمير الجبل المذكور مينا انتبغارى المهمة الواقعة على بحر الأدرياتيك وقد نالت كذلك دولة فارس جزءاً من الأملاك العثمانية أسوة بغيرها أما دولة الإنجليز فإنها لم تكتف من الغنيمة بالإياب بل أخذت جزيرة قبرص على شروط

وعهود قد أضربنا عن إيرادها هنا وانقضت تلك الحرب المشئومة وقد خسرت فيها السلطنة العثمانية من المال والرجال والأراضي ما كاد أن يخلخل أركانها بل يقوض بنيانها ويمحى ما بقى من آثار مجدها القديم والأمر يومئذ لله الواحد القهار.

لماعادت الأمور إلى سابق مجراها أظهر السلطان ميله إلى موالاة الروس ومحبة قيصرهم وكرهه لسياسة الإنجليز ثم عمد إلى قطع شأفة المفسدين وأصحاب السعاية والفتن والمتحيزين للإنجليز من كبار الدولة وأصحاب الوظائف العالية ورسم بتحقيق مقتل عمه السلطان عبد العزيز وقد بث العيون والجواسيس حول جميع من كان لهم يد فى تلك الفتنة وشدد فى الأمر وقيد بذلك جماعة من كبار المحاكم فقبضوا على كل من ظهرت تهمته فى ارتكاب هذه الجناية؛ قال أحد الكتاب: فكانوا خمسة عشر شخصاً منهم مصطفى البهلوان ومصطفى الجزايرلى والحاج أحمد أغا ونجيب بيك وعلى بيك ونورى باشا ومحمد جلال الدين باشا أصهار السلطان عبد الحميد سلطان هذا الوقت ومحمد رشدى باشا وخير الله أفندى شيخ الإسلام والسلطانة والدة السلطان مراد وأربعة آخرون وقد أثبتوا عليهم ارتكاب هذه الجناية الشنعاء.

فلما كان رابع جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف هجرية انعقدت محكمة القضاء لمحاكمتهم فأتى بهم أمام دائرة الجنايات وكانت هذه الدائرة مشكلة من رئيس اسمه تيمستوفل خرستو فوتيادى يونانى الجنس عثمانى التبعة وثلاثة قضاة آخرين أحدهم أرمنى واسمه إسكندر أفندى والاثنان مسلمان وتعين لرئاسة الجلسات التى عهد إليها النظر فى هذه الدعوى سرورى أفندى رئيس دائرة محكمة الاستئناف وهو الذى تولى التحقيقات الابتدائية وقد حضر فى قاعة الجلسة السفراء والوكلاء وقناصل سائر الدول وموظفو الحكومة وأرباب المناصب العالية وكتاب صحف الأخبار فلما استقر بمن حضروا المقام نودى على المتهمين وقد كانت نصبت لهم خيمة كبيرة بجانب حرس مالطة على بعد من سراية يلدز فحضر أوّلا مصطفى البهلوان ومصطفى الجزايرلى والحاج أحمد أغا ونجيب بيك وعلى بيك وفخرى بيك وسعيد بيك ورضا بيك ثم استحضروا نورى باشا ومحمد جلال الدين باشا، وكان المدعى العمومى اسمه لطيف بيك، فافتتح الرئيس الجلسة وأخذ فى تعريف المتهمين وقد محض النصيحة للمحامين الذين انتدبوا للدفاع عنهم، ثم أشار بتلاوة المثبت فى صحيفة التحقيق وأوراقه فجعل يتلوها عز الله أفندى باشكاتب الدائرة واستمر فى تلاوة هذه الأوراق نحو ثلاث ساعات فكان حاصل ما فيها:

أنه بعد خلع السلطان مراد وجلوس السلطان عبد الحميد على سرير الملك رسم بترتيب مصروفات السراى السلطانية. وبحث فى أمر المرتبات فوجد أن ثلاثة أشخاص من صغار المأمورين عين لهم مائة ليرة عثمانية معاشا شهريا فبحث عن سبب ترتيب هذا المعاش لهم، فعلم أنه ترتب لهم مكافأة على قتل المرحوم السلطان عبد العزيز وهؤلاء المأمورون هم: مصطفى البهلوان ومصطفى الجزايرلى والحاج أحمد أغا، فلما سئلوا عن ذلك اعترفوا بالحقيقة وقالوا: إن محمد جلال الدين باشا ونورى باشا أصهار الحضرة السلطانية هما اللذان أغرياهم على فعل القتل، وأن محمود باشا زودّهم بما يلزم فعله وزادهم علما به نورى باشا وشدد عليهم بكتمان الأمر بأيمان القسامة، وقد وافق على إجراء هذا الفعل العظيم هيئة تألفت من: محمد رشدى باشا الصدر الأعظم، ومدحت باشا، وحسين عونى باشا، وخير الله أفندى شيخ الإسلام فإنهم كانوا استصدروا من السلطان مراد قبل خلعه فرمانا بأن لا يقع فى داخلية السلطنة وخارجها شيء إلا بأمر هذه الهيئة، فظهر من التحقيق أن قتل السلطان عبد العزيز كان بموافقة رأى هذه الهيئة وثبت أن المتآمرين كان من قصدهم أيضاً اغتيال جميع العائلة السلطانية حيث دعوهم جميعاً إلى مأدبة أعدها جلال الدين باشا فى قسطية فى أعالى بك أوغلى فأحسوا بالمكيدة وامتنعوا عن الذهاب إلى تلك الناحية، وبناء على ما ظهر فى هذه القضية حكمت النظارة (لعلها دائرة التحقيق عندهم) على المتهمين الذين هم: محمد جلال الدين باشا، ونورى باشا، ومدحت باشا، ومحمد رشدى باشا، وخير الله أفندى شيخ الإسلام، والسلطانة والدة السلطان مراد بالأشغال الشاقة إلى أمد طبقاً للمادة الحادية والتسعين من قانون العقوبات، وعلى السلطان مراد بهذا الجزاء أيضاً، وبأن يعافى من ذلك لاختلال عقله، وحكمت بالقتل على فخرى بك، ومصطفى الجزايرلى، ومصطفى البهلوان، والحاج أحمد أغا، ونجيب بك، وعلى بك وسعيد بك، ورضا بك طبقا للمادة المائة وسبعين من قانون العقوبات، وبعد تلاوة الأوراق لخص سرورى أفندى الرئيس الدعاوى وأخذ فى استنطاق المتهمين فسأل مصطفى البهلوان أولا: فقال:

ـ قد استدعانى محمد جلال الدين باشا يوما وقال لى: إنه رتب لى مائة ليرة عثمانية في كل شهر، ولرفيقى مصطفى الجزايرلى أيضاً على أن نقوم بمهمة قتل السلطان عبد العزيز بواسطة فتح عروقه بمقرض أعده لنا. ثم استدعانى نورى باشا أنا ورفيقى وأوصانا بما ذكر وبالغ فى الوصية وشدد علينا فى الأمر، وقال: لم يبق

لنا حيلة سوى الخلاص من أسر هذا السلطان واسترقاقه لنا. واستحلفنا على كتمان السر فحلفنا فناول كلا منا ثلاثين ليرة عثمانية. فلما كان عصر اليوم أدخلنى نجيب بيك وعلى بيك الضابطان اللذان كانا يحرسان السراى بأورطة كوى أنا ورفاقى وأربعة من الخصيان إلى مقر السلطان عبد العزيز فقتلناه بحضرة فخرى بك وهو الذى قبض على السلطان من كتفيه ومصطفى الجزايرلى والحاج أحمد أغا قبضا على ساقيه بعنف وشدة كى لا يستطيع التخلص فقبضت أنا على ذراعه وقطعت أوردته ثم على الثانى وفعلت به كذلك وهو يصيح ويستغيث، وكان نجيب بك وعلى بك فى هذا الحين يحرسان باب الدائرة فلما قضى السلطان نحبه حملوا جثته وهى ملفوفة ببعض الثياب ووضعت فى حجرة قهوة وجاق الحرس على حصير من القش كانت هناك.

فسأله الرئيس - أصحيح ما قيل أن السلطان كان به رمق من الحياة حين نقل به إلى الحرس. فقال البلهوان: لا علم لى بذلك غير أنى أظن أنه كان قد مات وشبع موتا.

فالتفت الرئيس إلى الحاج أحمد أغا وسأله فاعترف ولم ينكر من فعله شيئاً، ثم سأل مصطفى الجزايرلى فتلعثم وتلون واختلفت أقواله عما اعترف به فى التحقيق الابتدائى، ثم قال: إن ما قلته من أن نورى باشا قد حلفنا اليمين بأن نقتل السلطان ونكتم سر ذلك خطأ منى، فإن نورى باشا لم يأمرنا بشىء من ذلك بل أوصانا بأن نخدم السلطان أحسن خدمة وأن نقترب من مقامه إن شاء أن نكون بحضرته وأن نعتنى بحراسة مقره غاية الاعتناء فعملنا بما أوصانا به إلى أن قتل السلطان نفسه - فقال الرئيس - أو لم تشترك مع رفاقك فى قتل السلطان؟ فقال: حاشا فقد كنت وقت قتله فى أسفل الدائرة فلما سمعت الغوغاء صعدت مع من صعد من الناس لأعرف الخبر فوجدت أن السلطان قد قتل، فقال الرئيس: قد خالفت ما اعترفت به فى التحقيق الأول، فقال: أخطأت مرادى أن أقول سمعت الغوغاء فتوهمت حريقا فى السراى فهرولت إليها فقالوا لى إن السلطان قتل نفسه.

فنظر الرئيس إلى فخرى بك وسأله فقص ما وقع من السلطان عبد العزيز وانتقاله إلى طوب قبو وإقامته بها بعد أن كتب ورقة إلى السلطان مراد وهو فى سراى شراغان ثم قال: إن السلطان عبد العزيز ما دخل هذا المكان حتى بدأت تظهر عليه علامات الجنون والهذيان، فقد رأى حزمة فى أرض الجنينة لتذويب الكلس

فاضطرب منها. وقال إنها من علامات السوء ودلائل النحس، ثم سمع طلق مدفع فقال: إن أهل البلاد انقسموا إلى حزبين وها هم يتضاربون من أجله ـ قال: وكان السلطان يقول: إنه لابد من أن يقتل كما قتل السلطان سليم، واتفق أن رأى نفرا من الجند يدخنون السيجار تحت شبابيك السراى فجعل يشتمهم ويعزرهم على كفرهم بالإحسان ـ ورأى مركبا حربية آتية لترسو تجاه قصره فصاح مناديا بأنهم لا يلبثون أن يطلقوا القنابل على مقره ـ قال: وفى تلك المدة دعيت إلى حرس أورطة كوى حيث كان نجيب بك وعلى بك فأخبرانى بأن عندهم ثلاثة أشخاص لابد من إدخالهم إلى مقر السلطان تنفيذا للإرادة الشاهانية، وأن هؤلاء الأشخاص مأذونون بنقل بعض المتاع من السراى فعارضتهما ولكن اضطررت بعيد ذلك إلى الإذعان فدخلوا وقد رجعت إلى مقر السلطان فكنت أرى علامات الجنون تزداد عليه حتى كان يتوهم أن سقف السراى يلتهب نارا وأن الأعداء أوقدوا فيه النار عمدا، وقد طلب مرآة ومقصا لكى يهندم لحيته وكنت أمرت أن لا يعطى شيئاً ولكن بالرغم عنى أعطوه ما طلب فانزوى فى مخدعه وقفل بابه فحضرت إحدى جوارى والدته وجعلت تنظر من الطاق لتعرف ما الذى يفعله فلما لم تتمكن من ذلك صاحت وعلا صوتها فأسرعت إلى الدائرة فوجدته مطروحا غريقا فى دمه ـ فقال الرئيس: قد كان عند السلطان سيف السلطان سليم فهل أخذت ذلك السيف؟ فقال: نعم ولكن وضعته مع بقية الأشياء التى أخذت بأمر الذات السلطانية ـ فقال الرئيس: لمن سلمته ـ فقال أدخلته من الطاق وأعطيته لأحد الحراس ـ الرئيس: من هو هذا الحارس ـ لا أعرف اسمه.

الرئيس: قد نظروك مساء وأنت تتكلم فى موضع الحرس مع جلال الدين باشا وحسين عونى باشا ونورى باشا.

نعم: قد كانوا استدعونى ليتحدثوا معى بشأن خدام السراى.

الرئيس: لمن سلمت السيف ؟ لا أعرف ـ لا يخطر لعاقل على بال أنك تكون سلمته لمن لا تعرفه.

ثم سئل نجيب بك الذى كان متوليا رئاسة حراسة الباب المشرف على الرصيف فى أمر مقتل السلطان فأنكره، وأكد أنه قتل نفسه ـ قال: وقد كنت مكلفا بحراسة متاع السلطان المأخوذ من السراى ففى ليلة هذه الحادثة ذهبت إلى سراى دولمه بغجه حيث تقابلت مع جلال الدين باشا وأخذت منه سلسلة من ذهب وساعة ثم رجعت إلى مقر السلطان عبد العزيز ومعى ثلاثة من الخدام وأربعة من الخصيان مرسلين بأمر

السلطان مراد فقضيت ليلتى تلك بغاية الطمأنينة، وبينما أنا راقد فى الليل إذ سمعت غوغاء فانتبهت ورأيت ما جرى وعلمت أن السلطان قتل نفسه.

الرئيس - إن بعض المتهمين قالوا إنك كنت قائما بالباب عندما كانوا يباشرون فعل القتل - فقال - ليس ذلك بصحيح - فالتفت الرئيس إلى محمود باشا، وقال: قد ظهر أنه بعد جلوس السلطان مراد على التخت الملوكانى كانت تشكلت هيئة فى السراى بإرادة سلطانية، فصار من المحتم أن كل شىء يقع فى البلد لا يكون إلا بإشارة هذه الهيئة فهلا كنت عضوا عاملا فيها؟ - فقال محمود باشا: لا علم لى بوجود هذه الهيئة ولم أكن من أعضائها، نعم إنه فى ثانى يوم جلوس السلطان مراد توجهت إلى السراى فكلفونى بقبول منصب إحدى الوزارات، وفى اليوم التالى بقيت فى السراى ولا أعلم ألبتة بهذه الهيئة - فقال الرئيس - لقد صرح أدهم أفندى ونورى باشا بما يخالف ذلك - فقال محمود باشا: كذبا فيما قالا.

الرئيس - علمنا أنه لما نقل السلطان عبد العزيز إلى سراى طوب قبو طلب منك أن تنقل إليه جميع أمتعته وعهد إليك أيضاً المحافظة عليه حين نقله بعيد ذلك إلى سراى قرية، فأنت حينئذ الذى حافظت على مقر السلطان مع نجيب بك وعلى بك من كبار العسكر، فقال: حاشا حاشا وكلا لم يعهد إلى بأن أخفر السلطان فى مقره - فقال الرئيس - وأين كنت ياترى ليلة مقتل السلطان - فقال: كنت فى دارى بالفندقلى إلى أن توجهت إلى محمد رشدى باشا - فقال الرئيس - محمد رشدى باشا يكذبك فإنهم قد نظروك ليلة قتل السلطان وقبل حصول القتل بساعة فى الحرس تتكلم مع فخرى بك ونجيب بك وعلى بك - فقال: لم يحصل شىء من ذلك ألبتة - فقال الرئيس - الشهود عليك كثيرون وذكر له أسماء الشهود - فقال محمود باشا كلهم يكذبون فيما يدعون - فقال الرئيس - قد نظرك القبطان راسم يوم نقل أمتعة السلطان تكسر صندوقا مدهونا بدهن أخضر - فقال محمود باشا: قد حصل وقت النقل ضرر ولم يمكن منع وقوعه - فقال الرئيس - هل توجهت إلى محل الحادثة عندما علمت بها؟ فقال: لالا - قال الرئيس - ومن أين إذًا علمت بهذه التفاصيل - فقال: علمت بها من صحف الأخبار التى تكلمت عنها.

فالتفت الرئيس إلى نورى باشا وقال: من الذى دعاك ماريشال السراى أى أمير أمراء جند الحرس السلطانى - فقال: السلطان مراد هو الذى دعانى بهذا الاسم - فقال الرئيس - قد شكلت بعد جلوس السلطان على تخت السلطنة هيئة فى السراى

فممن ياترى كانت هذه الهيئة مؤلفة؟ - فقال نورى باشا: كانت مؤلفة من محمد رشدى باشا ومحمد جلال الدين باشا ومدحت باشا وحسين عونى باشا وخير الله أفندى شيخ الإسلام وكنت أنا من أعضائها أيضا - فقال الرئيس - إذا ما هى الأعمال التى نيطت بتلك الهيئة؟ - فقال: هى جميع الأشغال وقد كان لابد من عرضها عليها بحيث لا يقع فى الدولة شىء بدون آرائها حسبما أمر به مولانا السلطان - الرئيس - ومن الذى بعث بالثلاثة رجال إلى مقر السلطان عبد العزيز؟ - فقال: أرسلهم المباينجى سعيد باشا حيث أتى بهم إلىّ بأمر سلطانى، وبما أنى مارشال السراى كان لابد من مخابرتى فى جميع الأمور فأرسلتهم بصفة كونهم خدمة إلى مقر السلطان عبد العزيز وأوصيتهم بأن يحسنوا الخدمة ما استطاعوا - الرئيس - هل أعطيتهم تعليمات سرية؟ حاشا فإنى أدخلتهم فى مخدعى بحضور كثير من الناس وكلمتهم عما لزم جهارا، ثم ذكر أسماء الذين كانوا حاضرين وقتئذ - الرئيس - كيف هذا مع أن مصطفى الجزايرلى قد قرر خلاف ما ذكرت وقال: إنك طلبت منهم كتمان السر وإنك حلفتهم يمين القسامة؟ ليس ذلك بصحيح ألبتة - الرئيس - هل توجهت إلى محل القتل؟ - نعم عندما علمت أن السلطان عبد العزيز جرح نفسه توجهت واستدعيت ماركو باشا طبيب المرحوم السلطان فأتى ومعه أطباء آخرون وجعلوا يفحصون أسباب الموت فحصا طبيا وكتبوا تقريرا بما رأوه غير أن ماركو باشا أبى أن يوقع على التقرير وتشاجر مع بقية الأطباء.

فتقدم محمود باشا وأنكر أقوال نورى باشا وكرر القول بأنه لا يعلم ألبتة بتشكيل تلك الهيئة - فقال الرئيس - كيف وقد قلت واعترفت بأنك أنت الذى أوصيت نورى باشا بمصطفى البهلوان - فقال: إنى لم أر البهلوان سوى مرة واحدة من نحو الخمس عشرة سنة فى ناحية جاملجة وأوصيت نورى باشا به ولم يكن فى خدمتى أو يتردد علىّ قط قبل الآن.

ثم دخل مدحت باشا وبيده مفكرات ودفاتر فأوقف موقف المتهمين وعلامات السكون تنطق من وجهه فمدت إليه الأعناق وأحدقت به الأبصار وقد وضع ذراعه على رأس كرسى كان أمامه - فقال له الرئيس - يتلو عليك الكاتب الآن ما يتعلق بك مما ورد فى أوراق الدعوى - فأجاب مدحت قائلا: قبل أن أسمع هذه التلاوة أقول ويحق لى أن أقول إنى أعد نفسى سعيدا إذ دعيت لأبرىء نفسى من تبعة جناية أمام هيئة علانية ويجب على فى هذا المقام أن أمتدح غيرة ومساعى المأمورين بالقضاء

إذ رغبوا فى أن يقوموا حق القيام بمأموريتهم فتصرفوا بنوع من العجلة وحكموا قبل أن يقضوا وينبغى على هذا تقديم واجب الاحترام لشعائر العدل المتصف بها جلالة مولانا السلطان حيث تنازل وأمر بكشف خفايا هذه المسئلة فى محاكمة علنية وهى خطوة عظيمة نحو الحرية فما تم مقاله حتى جعل الكاتب يتلو مرسوم الإحالة وأوراق الدعوى، وقبل أن تتم تلاوة جميع الأوراق عاد مدحت باشا إلى سياق مقالته الأولى فقاطعه الرئيس وقال: يجب عليك السكوت فإن إدارة المحكمة هى من خصائص الرئيس لا المتهم، ثم قال له: قل ما تعلمه من أمر الهيئة التى كانت فى السراى. فقال: لا علم لى بوجود الهيئة المذكورة بل الذى أعلمه أن مجلس الوزراء هو الذى كان وحده يدبر جميع أمور الدولة، وإنى كنت أحد أعضائه ولم نؤمر قط بقتل السلطان عبد العزيز، فقال الرئيس: من الذى أمر بأن يؤخذ من السلطان المخلوع سيف السلطان سليم ؟ فقال مدحت باشا: أتعنى بذلك بعد الخلع؟ فقال الرئيس: نعم، قال: قد أمر بعد نقله إلى سراى طوقبو أن يبعد عنه كل نوع من الأسلحة ولم يكن لذلك من سبب سوى الخوف على حياته - الرئيس - متى تمت وفاة السلطان؟ فقال مدحت باشا: يوم الأحد توجهت إلى الباب العالى لأحضر الجلسة التى كان مزمعا عقدها فوصلت إليه ولم أجد أحدا فسألت عن الخبر فقيل لى: أنّ المستشار سعيد باشا أفندى هو وحده موجود هنا، فسألته عن سبب غياب الوزراء فأخبرنى بالحادثة فراعنى الخبر بل كدّرنى جدا خصوصا وقد خطر ببالى وقتئذ ما يترتب على ذلك من مؤاخذة الكثير من خلق الله فى هذه الحادثة بمجرد الشبهة - الرئيس - لكن سعيد باشا أفندى المذكور يكذب قولك، فقال مدحت: ليس لتكذيبه عندى أهمية فبعد أن سمعت هذا الخبر بارحت الباب العالى وسرت إلى دولمه بفنجه قاصدا حرس أورطة كوى حيث كان هناك جماعة الوزراء وجم من العلماء وغيرهم من أهل المراتب وتسعة عشر طبيبا فكلهم قالوا لى مع فخرى بك إن السلطان قتل نفسه فلم يسعنى إلا التصديق كسائر من سمع الخبر من الحراس - الرئيس - قالوا إنهم وجدوا عدا الجروح التى كانت فى ذراعيه جرحا آخر فوق ثديه الشمال وآثارا أخرى شديدة تدل على أنه قتل مقهورا وحيث إنك كنت فى ذاك الحين وزيرا فكان من واجباتك أن تأمر بالفحص فى أمر قتله، فقال مدحت: إذا اعتبرتمونى لأجل ذلك مسئولا وجب إذا جعل جميع الوزراء الآخرين مسئولين مثلى ولكنى لست أراهم قائمين بجانبى فى هذا الموقف حتى أقتسم بينى وبينهم مسئولية

عدم أمرهم بإجراء الفحص ـ الرئيس ـ هل كان فى السلطان رمق من الحياة عندما نقلت جثته إلى وجاق قهوة الحرس؟ فقال مدحت: لا علم لى ألبتة بذلك ـ الرئيس ـ كيف ومحمد رشدى باشا لا يقول ما قتله أنت الآن؟ فقال مدحت: ذلك ممكن وقد قرر محمد رشدى باشا أمورا أخرى كثيرة من هذا القبيل ـ الرئيس ـ إن المجلس يرغب أن يسألك أيضاً عن الأسباب التى حملتك على الالتجاء إلى دار قونصلية فرانسا، فقال مدحت باشا: هذه الحادثة تحتاج للتفصيل ولكنى مع ذلك أقول: إنه قد كانت وردت لى مكاتبات من الآستانة تعلمنى بكل ما كان يقال فى حقى وكشفت لى عن التهمة التى رميت بها فى ظروف لا يطمئن معها قلبى، ثم لم ألبث أن رأيت فى صباح ذات يوم معاون الحضرة السلطانية وصل إلى أزمير ثم أتى القوناق وجعل فى الحال يراسل السراى السلطانية برسائل الأرقام، وقد أبلغنى بذلك رجال البوليس السرى الذى كنت أنشأته هناك، فعلمت أن ذلك الأمر يختص بى ذاتيا ثم بعيد وصول هذا المعاون بأيام قلائل علمت أيضاً بوصول مأمور عسكرى وهو على بيك رجل على شاكلة وفطرة شركسلى حسن وادعى أنه إنما جاء لأجل أن يرتقى إلى رتبة ميرالاى وأن لباسه الرسمى لم يكمل لغاية حضوره إلى أزمير ولذلك أتى بغير لباس عسكرى ثم جعل بعد أيام من وصوله يتكلم بما لا يليق ونسب لى أمورا قبيحة فقصدت القبض عليه ولكن لم يقع ذلك حتى بلغنى أنهم عازمون على القبض علىّ وفى تلك الليلة نفسها رأيت أنه قد أحاط بمنزلى ثلاثمائة جندى فداخلنى من الخوف ما ألجأنى إلى عدم التأخر عن المسير حتى لا تنالنى هذه الحراب المشرعة ولا أقع فى أيدى رجال على بك المذكور ولهذا السبب خرجت من باب الجنينة وركبت أول عربة وجدتها وسرت إلى المحلة الأورباوية فأوّل باب وجدته مفتوحا كان باب دار قونصلية دول الفرنسيس فدخلتها وإنى لأكذب كل التكذيب ما قيل من أنى فتحت بابا فى الجنينة عمدا لهذا الغرض قبل بخمسة أيام كما أنى برىء من اتهامى بأنى هيأت العربة فى تلك الليلة قبل الأمر.

فلما أتم مدحت باشا كلامه أشار الرئيس بقفل الجلسة وأنه لدى افتتاحها تسمع شهادة كثير من الشهود ولما كان اليوم الثانى افتتحت الجلسة بعد الظهر وجلس القضاة وأخذ فى تلاوة طلب المدعى العمومى وقرار المجلس المشتمل على الحكم على مصطفى البهلوان وحاجى محمد ومصطفى الجزايرلى وفخرى بك بأن لهم اليد فى قتل السلطان وعلى محمود باشا ونورى باشا وعلى بيك ونجيب بيك وعزت بيك

بأنهم شركاء فدافع عنهم المحامون، وقال بعضهم أمام هيئة المحكمة: إنهم يرفعون دعواهم أمام محكمة التميز، وقال البعض الآخر: إنهم يسلمون أمرهم لحلم ورحمة الذات السلطانية وكذلك طلب المحامى عن محمود باشا تخفيف الحكم عليه، ثم قام الأعضاء واختلوا برهة ثم عادوا وقرروا الحكم على سبعة من المتهمين بالقتل طبقا للمادة المائة وخمس عشرة من القانون العثمانى، وهم: مصطفى البهلوان وحاجى محمد ومصطفى الجزايرلى وفخرى بيك ومحمود باشا ونورى باشا وعلى بيك ونجيب بيك، وحكموا على سعيد بيك وعزت بيك بعشر سنين فى الأشغال الشاقة وكان هذا الحكم بموافقة جميع الآراء خلا الحكم على محمود باشا ونورى باشا فإنه كان بالأغلبية، ثم أخرجوا جميع المتهمين من قاعة الجلسة وعاد القضاة بعد ذلك فحكموا على مدحت باشا ولم يحضر بين القضاة سرورى أفندى فإنه قد رد نفسه عن الحكم لخلاف وقع بينه وبين مدحت عند مدافعته عن نفسه وبعد أن تقرر الحكم على مدحت استدعى أمام الهيئة فلما حضر تلى عليه طلب المدعى العمومى القاضى بقتله لاشتراكه فى مقتل السلطان عبد العزيز، ثم سأله الرئيس هل عندك شىء من الملحوظات تقوله لهيئة المحكمة؟ فقال: إن عندى كلاما طويلا فى طريقة المحاكمة والسير الذى سارت به، فأجابه الرئيس بأن هذا ليس له فى هذه الهيئة من محل وأمره بالسكوت فقام شهرى أفندى المحامى عن مدحت باشا وقال: إن موكلى مدحت باشا يطلب استئناف الدعوى فقام القضاة واختلوا مليا ثم عادوا وحكموا باتحاد الآراء بالقتل لاشتراكه فى قتل السلطان عبد العزيز، وبعد أن تلى عليه الحكم قال له الرئيس: إنه لابد من تقديم تقرير الاستئناف فى ظرف ثمانية أيام، فلما شاع الحكم على مدحت باشا بالقتل اندفع أصحاب صحف الأخبار الإنجليزية يهوّلون ويهددون ويرمون رجال السلطنة العثمانية بالعسف والجور وقام أحد خطباء الإنجليز يطلب من حكومته باسم الإنسانية وبشرف الأمة الإنجليزية التداخل فى أمر استبدال الحكم على مدحت بحكم آخر لا يضر بحياته التى هى ثمينة عندهم وجعل يبالغ فى الإطراء ويعدد مناقب مدحت وماله من الأيادى البيضاء على الدولة الإنجليزية فرد عليه أحد رجال السياسة وقال متهكما: خفف عنك يا صاح ولا تجزع، فإن رجال حكومتنا عافاهم الله لم ينجلوا بأن أنفذوا إلى دوفرين سفيرنا فى دار السلطنة العثمانية بالوساطة فى استصدار فرمان من السلطان بالعفو عن مدحت ومحمود جلال الدين ونورى باشا فإنهم قد دافعوا كثيراً عن السياسة الإنجليزية وعززوا جانبها بل أخلصوا لها الخدمة يوم كانوا قابضين على زمام الحكومة لا سيما مدحت، قال:

ولا إخالك تنكر على القول بأن قومك الإنجليز أصلح الله حالهم يحبون مدحت حبهم لأنفسهم ولم يتركوه يوم أنزله السلطان من مسند الصدارة بل أعمل سفيركم هناك الجهد حتى ولاه على الشام، وكم شدد يومها وهدد وأرعد وأزبد ونادى بالويل والثبور ولو لم يقدر الله بسقوط الحزب المحافظ الذى كان قابضا على زمام الحكم على بلادك يومئذ لأرانا من دسائسه فى تلك الأصقاع عجائب غرائب بل المبكى والمضحك فتأمل عافاك الله واحكم إن كنت من المنصفين . اهـ.

ورفع مدحت باشا إلى أمير المؤمنين بعد الحكم عليه بالقتل قصة يقول فيها: إنى وإن كنت قد عملت على خلع بيعة السلطان عبد العزيز عندما ظهرت منه الرغبة فى عزل الوزراء وتسليم البلاد والأمة وإدخال جيش روسى فى دار الخلافة الإسلامية ولكنى لم أعمل على موته ولم أشترك فى ذنب سفك دمه ولم أوافق قومه إلا على خلع بيعته وتنزيله والله ورسوله على ما أقول شهيدان، فلم يلتفت السلطان إلى كلامه ولم يسمح بتخفيف العقوبة عليه قال بعض كتاب الأخبار: وقد نسب أصحاب صحف أخبار الإنجليز ما وقع لقاتلى السلطان عبد العزيز من الشدة ثم الحكم عليهم بهاته العقوبات إلى دسائس الروس واتساع كلمتهم فى دار السلطنة العثمانية فتحرك لذلك خواطر العامة والخاصة من الإنجليز وقاموا وقعدوا وطلبوا منع تنفيذ الأحكام على مدحت ورفقائه كأنهم إنجليز أولاد إنجليز، ثم قام خطباؤهم فى دار ندوتهم ينادون واتمدناه وإنسانيتاه وامرحمتاه فوقعت عند ذلك بينهم ضجة حمل فيها أهل اليمين على أهل اليسار وعلت الضوضاء وارتفعت الأصوات وطال الجدال واشتد اللجاج واحتدم النكال فلم يخرجوا وقبعاتهم على رؤوسهم إلا وهم على بينة مما سيكون ولم يمض على ذلك إلا القليل حتى شاع الخبر بصدور فرمان السلطان باستبدال حكم القتل على مدحت ورفقائه بالنفى والتبعيد إلى الأقطار الحجازية، فلما كان تاسع رمضان سنة ثلاث وتسعين عبرت من ترعة السويس سفينة عثمانية حربية اسمها (عز الدين) تحمل مدحت ورفقاءه قاصدة جدة ولم ترس بالمينا بل دخلت من البوغاز وسارت إلى السويس مسرعة فأغضب قيصر الروس هذا الأمر وعلم أنه من أفاعيل دولة الإنجليز فأضمر لها السوء وعمد إلى معاكساتها فى أواسط آسيا وتنكيس أعلامها فى جوف الهند وعلى حدود الصين فسير عسكره المنصور إلى قلب التركمان تك وحدود الأفغان التى هى حصن الإنجليز الأكبر الحائل بين غارات الروس وبين هندهم، ففعل ذلك الجيش فعاله وتغلغل فى جوف البلاد وأزهب

وهدد وأخضع الخصوم وذلل الصعاب فكادت قلوب الإنجليز تطير خوفا وقد أعيت كبارهم الحيل وضاقت عليهم المذاهب فكادوا يسقطون فى أمرهم، وبينما كان القيصر ينظر إلى ظفر جنوده فى تلك الأصقاع نظرة الساهر على الأخذ بالثأر إذ تحركت طوائف الناهليست وهم طائفة العديميين، وقيل: حركتهم أيدى الإنجليز وتآمروا على قتله فدبروا له المكايد وتبعوه أينما سار بالآلات الجهنمية قصد إذهاب روحه فتحفظ وبث العيون والأرصاد وأكثر من الحراس والرقباء وبالغ فى تعقب هذه العصابة الوحشية واشتد عليها شدة بالغة حتى خيل له أنه فى مأمن من شرها، واتفق أنه ذهب بعد ظهر الحادى عشر ربيع الآخر سنة تسع وتسعين إلى مشاهدة معرض الجنود على عادته فبينما هو عائد إلى مقره ألقى عليه نفر من هذه العصابة قنبلة محشوّة بالمواد الالتهابية فسقطت القنبلة تحت عجلات عربته وانفجرت انفجارا هائلا فقتلت وجرحت بعضا ممن كان معه فأسرع هو ونزل من العربة فراراً ولكن لم تصل أقدامه إلى الأرض حتى سقطت بين رجليه قنبلة أخرى فخلعتهما معا فسقط وأغمى عليه لا يبدى ولا يعيد فأسرع الجند فى نقله إلى السراى وهو لا ينطق بكلمة ولبث ثلاث ساعات ونصفا فى نزع شديد حتى فارق الحياة وقد مات أيضاً بعض من كانوا معه وبذل أصحاب الشرطة جهد المجتهد فى القبض على مرتكبى هذه الجناية العظيمة فكانوا أربعة ثلاثة رجال وامرأة وهم دوساكوف وسكبالابوف ومكاوف وصوفيا برسوكا والقتهم فى السجن مكبلين بالحديد ونادوا بولى العهد قيصرا على الروس وبايعوه البيعة العامة ثم دفنوا القيصر فى مشهد وأخذوا فى محاكمة أولئك القاتلين فحكم عليهم جميعاً بالقتل، ولم يكن موت هؤلاء الطغاة يغنى عن موت السلطان عبد العزيز والقيصر إسكندر الثانى اللذين ذهبا شهيدى التحالف والاتفاق على الضرب على يد أصحاب السياسة الإنجليزية رحمهما الله تعالى فهو الغفور التواب.

(مطلب)

رجوع دولة الإنجليز إلى تهديد الخديوى إسماعيل

وعادت دولة الإنجليز وكأنها قد تفرغت إلى تهديد الخديوى إسماعيل وإرغامه على وفاء سائر الديون الصغيرة التى حكمت بها المحاكم المختلطة كما تقدم القول وأنفذت إلى قونصلها المستر فيفيان أن يشدد فى طلب ذلك والخديوى يحاول ويطاول، واتفق فى هذه الأثناء أن تغيرت هيئة حكومة الفرنسيس بهيئة أخرى كان

فيها المسيو وادنجتون وزيرا للأمور الخارجية فنظر هذا المسيو إلى ما هو واقع من الخديوى بعين القلا والرجل من دم إنجليزى أقام سفيرا للفرنسيس بدار الإنجليز أعواماً كثيرة فيصح أن يقال عنه أنه إنكليزى بحت فكتب فى صفر سنة خمس وتسعين إلى وزير الإنجليز يعلمه بما آلت إليه الحالة بمصر ويستفزه إلى الأخذ بالأحوط وتدارك الخطر قبل استفحاله وما زالت المخابرة بين الفريقين متتابعة حتى تقررت القاعدة بينهما على تشكيل هيئة باسم مجلس التفتيش يكون من اختصاصها تنقيب جميع الطرق التى اتخذت للنظر فى حالة خزينة البلاد وأرباب الديون وكلموا الخديوى فى ذلك وما زالوا به حتى رسم فى سادس عشرى ربيع الأول سنة خمس وتسعين أى فى غاية مارس سنة ثمان وسبعين ميلادية بتشكيل ذلك المجلس برياسة المسيو فردينندلبس فاتح خليج السويس ووكالة أحد رجال الإنجليز المسمى ريفرس ويلصون فلم يتسن للرئيس الحضور فى جلسات المجلس لأسباب سياسية لم نصل إلى معرفة الصحيح منها فأخذ المجلس فى العمل تحت رياسة ويلصون الإنجليزى وجعل يبالغ فى البحث والتنقيب وكان من حدوده بمقتضى ما رسم به الخديوى أن يطلب من شاء من موظفى الحكومة وكبار رجال الدولة ويسألهم فيما يرى لزوم سؤالهم فيه.

(مطلب)

امتناع الوزير شريف باشا من الحضور أمام هيئة التحقيق وخلعه لنفسه من المنصب

وكان الوزير محمد شريف باشا فى هذا الحين فى منصب وزارتى الخارجية والحقانية فسير إليه ويلصون يستدعيه يوما لسؤاله أمام المجلس عن شىء يريده فاستعظم الوزير هذا الأمر وأكبره وامتنع من الذهاب فكبر ذلك على ويلصون وكان مصطفى رياض باشا قد أقامه الخديو وكيلا ثانياً لهيئة ذلك المجلس وكان بينه وبين الوزير شريف باشا بغض ونفور مستحكم فلما امتنع الوزير من الحضور أمام هيئة المجلس، قيل إن مصطفى رياض باشا جعل يزين إلى ويلصون الإصرار على طلب الوزير وأن يحاسبه على الذرة والبرة فشدد ويلصون فى الطلب ومال على الوزير شريف باشا، وقال: لابد من حضوره فصمم الوزير على الامتناع، وقال: لا سبيل إلى ذلك، وطال بين الفريقين الأخذ والرد وتداخل فى الأمر قناصل الدول واشتدت

الأزمة واتسع الخرق فلم يسع الوزير إلا التخلى عن منصبه فاعتزله ولم يرض بالذل والصغار، فرسم الخديو بإقامة مصطفى رياض باشا بدلا منه بإيعاز من ويلصون فتعطلت أعمال المجلس أياماً وأحست دولة الإنجليز بما وراء ذلك من الخيبة والفشل فرسمت بإقامة ويلصون رئيسا فأجابها الخديو إلى ذلك وأناب عن هيئة الحكومة فى ذلك المجلس بطرس بيك غالى وهو يومئذ كاتم أسرار وزارة الحقانية فبالغ ويلصون فى البحث والتنقيب حتى أتى على جميع الأمور من أبوابها وكتبوا بما علموه من حالة البلاد والخزينة والديون محضرا ذكروا فيه أمورا كثيرة كان أهم ما فيها أن جميع ما اتخذ من التحوّطات قبلا وما تقرر يومئذ من القواعد الكافلة بحسن سير الخزينة وراحة أهل البلاد وطمأنينة أصحاب الديون لا حقيقة لها ألبتة وماهى إلا من قبيل النقش على الماء وأن لا سبيل إلا إلى تصفية جميع حسابات الخزينة وتقرير قاعدة لها ثابتة الأركان لا يعتورها شىء من الزور والبهتان وكلموا الخديوى فى ذلك فأظهر غاية الميل ومزيد الرغبة وسهل لهم الأمر ما استطاع وعمل بما أشاروا به جهد الاستطاعة.

(مطلب)

تشكيل الوزارة المختلطة وخلع الوزراء المصريين

فلما كان شهر شعبان سنة ١٢٩٥ خمس وتسعين ومائتين وألف هجرية أى شهر أغسطس سنة ثمان وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية أنفذت دولة الإنجليز إلى الخديو بخلع الوزراء وتنزيلهم كافة عن مناصبهم فخلعهم طائعاً فرسمت له بتأليف وزارة أخرى من ويلصون رجلها ودى بلينار الفرنساوى الذى كان ممن جاءوا للنظر فى أمر ديون الخزينة وآخرين من أهل البلاد وأن يكون رئيس هاته الوزارة الوزير نوبار باشا فأجابها إلى ذلك، وتم تشكيل الوزارة على ما أرادت فكان ويلصون الإنجليزى لوزارة المالية ودى بلينار الفرنسيسى للأشغال العمومية ومصطفى رياض باشا للداخلية وأخذت على الخديو العهود بأن لا يأتى عملا إلا بمشورة وزرائه ولا يبدى رأيا إلا بعد رأيهم أسوة الممالك الدستورية، وصادق أصحاب سياسة الفرنسيس والإنجليز على هذه العهود وأنزلوها منزلة عالية وفرح الناس بها وظنوا سكون الحال وزوال الشدة وانحلال عقدة ذلك الضيق، وأعقب ذلك أن استدانت الخزينة قرضا جديدا قدره ثمانية آلاف ألف من الذهب من أحد كبار أغنياء الإنجليز المسمى روشيلد وجعلت جميع إقطاعات الخديو وإقطاعات عائلته على اختلافها رهنا

لوفاء هذا القرض وعقدوا بذلك عقدا كان من شروطه أن أنشئوا ديوانا مخصوصا فتولى رجاله إدارة عمل تلك الإقطاعات وجمع أموالها وتدبير شئونها وكانوا ثلاثة إنجليزى وفرنساوى ومصرى، واشترطت دولتا الإنجليز والفرنسيس عدم جواز تنزيل أحدهم من منصبه إلا بعد رضاهما بذلك وخصتهم ببعض الحقوق والامتيازات التى تجعلهم فى مأمن من كل حادث ولم تقفا عند هذا الحد بل طلبتا أيضاً إقامة اثنين مراقبين يكون من اختصاصهما المراقبة على جميع أعمال الهيئة الحاكمة ومنع وقوع ما لا يلائم منها مصلحة أصحاب الديون وخزينة البلاد، وراسلت دولة الإنجليز الخديو فى ذلك على يد المستر فيفيان قنصلها الجنرال بمصر وأظهرت للخديو غاية التجمل والملاطفة فأبى الخديو عليها ذلك فألح عليه القونصل وأكثر من الإلحاح والترداد على مقر الخديو فأكبر الخديو هذا الأمر وأحزنه، وقال للقونصل يوما: ما هذا الإلحاح وقد كنا والإنجليز يشيرون علينا إشارة الصاحب الودود فأصبحنا وهم يتهددوننا تهديد العدوّ الكنود فجعل القونصل يطاوله وهو يراوغه ويحاوله.

وسار الوزراء فى أعمالهم سيرا حثيثا وأظهر ويلصون همة ورغبة زائدة فى تخفيف المصارفات عن عاتق أهل البلاد والتزام جانب الاقتصاد والحزم جهد الاستطاعة، قيل: وكلم الخديوى فى ذلك فاستحسنه وحبب إليه العمل به وقد كانت الخزينة إلى هذا الحين فارغة والجماكى معطلة لا سيما مرتبات سائر الجند والعسكر وعلوفات كبارهم، وقد مضى عليهم زهاء عشرين شهرا لا يحصلون على فضة ولا نحاس فعمد ويلصون عند ذلك إلى الإتيان على أوجه الاقتصاد من أبوابها فحسب ودقق وصرف من الجند والعسكر زهاء الألفين إلى أوطانهم تخفيفاً على الخزينة وجعل ينظر فى جميع مصروفاتهم من أوجهها الحقيقية فساء ذلك أمراء الجند وكبارهم واستعظموه وشكوا منه إلى مقدمهم، وتزاحموا على أبواب ويلصون والوزير نوبار باشا يطلبون صرف جماكيهم الموقوفة ومرتباتهم المتأخرة وهما يعدانهم ويهوّنان عليهم فكانوا لا يزدادون إلا إلحاحا وتشديدا فى الطلب.

(مطلب)

تحزب طوائف الضباط وإهانتهم للوزير نوبار باشا ومن معه

فلما كان خامس عشرى صفر سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية أى ثامن عشر فبراير سنة تسع وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية اجتمع نيف وأربعمائة من صغار الضباط، وساروا وهم مزججون بالسلاح ومروا برحبة عابدين حتى أتوا شارع

الدواوين فى نحو الظهر وتفرقوا فى أنحائه يرقبون مرور ويلصون والوزير نوبار باشا فلما مرت بهم عربة الوزير وهو بها وعلى يمينه كمال بك كاتب سر المجلس انقض عليها جماعة منهم وأمسكوا بلجم الخيل وتقدم جماعة آخرون وأمسكوا بأطواق الوزير وصاحوا فى وجهه لا يحل لك ياظالم أن تعيش رغدا متمتعا ونحن نموت جوعا أعطنا جماكينا الساعة، فجعل يلاطفهم ويكلمهم بأحسن الكلام وقد حث سائق العربة الخيل بضرب السوط يريد الفرار بمولاه فترامح خلفه جميع الضباط حتى أوقفوه وأخذوا بلجم الخيل وعادوا به إلى مقر الدواوين واتفق خروج ويلصون ولم يشعر به أحد من المتآمرين فلما علموا بخروجه أكثروا من الصياح والجلبة وعلت بينهم الضوضاء وترامح الناس فأغلق أصحاب البيوت القريبة أبوابهم وغص مقر الدواوين بالضباط والجند وأصحاب الوظائف وأصعدوا الوزير نوبار باشا إلى الديوان ووقفوا على الأبواب يحرسونها، ووصل الخبر بما جرى إلى مقر الخديو فجاء وحوله طوائف الحرس وجميع بطانته ورجال ديوانه الخاص وعبد القادر باشا محافظ المدينة يومئذ وشق من وسط الزحام حتى دخل حوش الديوان واقتحم الدرج وهو ساكن القلب هادىء اللب كأن لا خوف عليه فلما رآه الضباط والجند صاحوا بأصوات الدعاء والتهليل فغاب برهة جمع فيها هيئة مجلس الوزراء وكلمهم فى الأمر ثم أشرف على الجمع من الشباك وخاطبهم بالحسنى وأكثر من ملاطفتهم ووعدهم بصرف جميع جماكيهم وسائر مرتباتهم المتأخرة إن هم عادوا إلى منازلهم، فصاحوا لا سبيل إلى ذلك فالموت بالنار خير لنا من الموت جوعا فزاد فى ملاطفتهم فزادوهم لجاجا وحجاجا فغاب عنهم برهة ثم عاد وكلمهم فلم ينصرفوا، فنزل وحوله بطانته وحاشيته وحرسه وأمر فتقدم إلى جماعة الضباط نفر من الحجاب والحراس ليفرقوهم فمانعوا وأطلقوا عدة طلقات نارية فكثر عند ذلك الضجيج وعلا الصياح والتحم الجمع واشتدت الضوضاء وتماسك البعض بالبعض واشتد اللكم والضرب فأسرع الخديوى وركب عربته وخلفه أصحابه وأتباعه وسار إلى مقره وجمع إليه هيئة الوزراء ثانية وبينهم بعض قناصل الدول وكلمهم فى الأمر طويلا وبالغ فى الشكوى إلى أن قال للقناصل: قد صرت عاجزا عن درء كل ما يحدث فى داخلية البلاد وأخشى من انتشار الفتنة واتساع نطاق الثورة إن لم تعد إلىّ السلطة التي سلبتها منى هيئة الوزارة الجديدة وإنى لا أرى من المناسب قط بعد وقوع ما وقع اليوم بقاء الوزير نوبار باشا

قابضا على زمام الحكومة وقد رأيتم ظهور الفتنة وتحزب طوائف الجند على ما لم يسبق له مثال قيل فاستعظم القناصل هذا الأمر ولم يبق عند أحدهم شك فى أن الخديو هو الذى هيأ هذه الفتنة وأضرم نارها لغاية فى نفسه واشتد الخوف بالناس وكثر تطيرهم والخديو يشدد فى طلب تنزيل الوزراء عن مناصبهم ويطعن فى شخص ويلصون الإنجليزى ويرميه ببغض البلاد وأهلها وأنه عامل على تخريبها وكثر اجتماع العلماء وكبار المشايخ بالجامع الأزهر وهم يتكلمون فيما فعله ويلصون والوزير نوبار باشا من الإضرار بالبلاد ويشكون من تغلب النصرانية على حدود الشريعة المحمدية المطهرة وتقدم الشيخ البكرى بالأصالة عن نفسه وبالوكالة عن زهاء سبعين ألفا من الدراويش هم أرباب الأشاير والطرق ومشايخ السجاجيد وأصحاب العكاكيز والمتعممين يشكون مما أصاب البلاد وأهلها من سوء فعال ويلصون والوزير نوبار باشا، وتكلم مع الخديوى فى ذلك وأكثرمن الترداد على مقره. قال بعض الكتاب: فكان إذا اجتمع عند الخديو قناصل الدول أو بعض كبار الأجانب أرسل فى الحال إلى الشيخ البكرى فيدخل على الخديو فيقوم له الخديو إجلالا ويعظمه ويدنيه من مجلسه ويخاطبه بغاية التجلة والتكريم مع الرهبة والوقار، فإذا خرج نظر الخديو إلى الحاضرين، وقال: هذا هو كبير الإسلام وشيخ مشايخ الدراويش وإن فى خدمته وتحت أمره وإشارته سبعين ألف من الدراويش وهو اليوم يطالبنى بحقوق الأمة فلا أدرى ما ستكون عاقبة الأمر معه، ونادى بعض العلماء على منابر الجوامع بتكفير مصطفى رياض باشا ومروقه عن جادة الحق وتعضيده للنصرانية وأهلها، ثم اجتمع نواب البلاد وجعلوا يطعنون فيما بدا من ويلصون وينكرون عليه ما قاله من ضعف حال البلاد وإمحال موارد الإيراد وذهاب ما فى خزينتها من الأموال وأرسل صاحب شرطة القاهرة إلى مصطفى رياض باشا يقول: دبر للخلاص أمرا فإن البغض إليك فى ازدياد ولذلك فإنى غير مسئول عما سيحيق بك إذا لم تغادر البلاد فإنى أرى الخطب شديد والخلاص بعيد فهال مصطفى رياض باشا هذا الكلام وأزعجه جدا، ورأى الوزير نوبار بعد ذلك استحالة بقائه فى منصب الوزارة فخلع نفسه وتبعه فى ذلك مصطفى رياض باشا وبقى ويلصون الإنجليزى ودى بلينار الفرنسيس فى القاهرة ينتظران الأمر من دولتيهما، وفر مصطفى رياض باشا من وجه الخديو إلى الديار الأورباوية خوفا من البطش به.

(مطلب)

رجوع وزارة الوزير شريف باشا بعد وزارة الأمير محمد توفيق وما كان من وراء ذلك

ولما تم تنزيل الوزير نوبار باشا ورفاقه وتخليهم عن المناصب عمد الخديو إلى تشكيل وزارة يرأسها أكبر أولاده الأمير محمد توفيق وسير الخبر بذلك إلى دولتى الفرنسيس والإنجليز فوافقتاه على كره واشترطتا أنه إن حدث أىّ حادث بعد وقوع ما وقع فلا لوم إلا على شخص الخديو فقبل الخديو ذلك ولكن لم تطل أيام رياسة الأمير محمد توفيق وزالت لاشتداد الأزمة واستحكام حلقات الضيق بإمحال الخزينة فخلع رابع عشرى ربيع الآخر سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية أى سابع أبريل سنة تسع وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية وأقيم بدله الوزير محمد شريف باشا قال بعض الكتاب: وقد كان لم يصل لأحد من الوزراء علم بهذا التغيير فلم يشعر الواحد منهم إلا وقد دخل عليه من خلفه وقبض على زمام الأعمال فتنحوا عن المراكز وهم صاغرون وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق، فلما علمت دولتا الإنجليز والفرنسيس بما جرى خلافاً للعهد هالهما الأمر وحرك منهما ساكنا فأوعزتا إلى وكيليهما بالقاهرة أن يكلما الخديو ويحذراه سوء العاقبة فلم يلتفت لقولهما وأطلق للنفس عنان هواها وأمر فزيد فى عدد العساكر والأجناد إلى ستين ألفا وأكثر من جمع الأسلحة وآلات الحرب وبالغ فى التأهب والاستعداد، قيل وأوعز إلى بعض أصحاب صحف الأخبار فنقلوا خبر ذلك محشوا بالغلو والمبالغة وصاحوا بالثارات الدائنين بالثارات حاملى السندات، ولم يقف عند هذا الحد بل رسم أيضاً فى تاسع عشرى ربيع الآخر سنة ست وتسعين بإبطال جميع النظامات والتعديلات التى كانت تقررت للخزينة سنة ست وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية وعدم اعتبارها لعدم ملاءمتها لحالة البلاد وعادات أهلها فتجرد عندئذ أصحاب سياستى الفرنسيس والإنجليز للذب والدفاع وعمدوا إلى الاستعانة بالسلطان وأوعزوا إلى سفيريهم بدار السلطنة أن يبلغا السلطان حديث ما جرى ويستطلعا أفكاره وكلموا فى ذلك أيضاً بسمارك داهية السياسة وكبير وزراء الألمان فسير بسمارك إلى دار السلطنة فى طلب خلع الخديو تلافيا للخطر قبل استفحاله فاشتدت عزائم الإنجليز حينئذ وتقدموا إلى السلطان فى تولية الأمير محمد توفيق مسند الخديوية وظنوا أنهم إن فازوا بذلك كانوا أقوى جميع الدول حجة على الأمير وأبيضهن يدا فلا يصح له بعد ذلك أن

ينقض لهم كلمة أو يخالف لهم إشارة، وأحس الخديو إسماعيل بذلك فبث العيون فى دار السلطنة وأكثر من البذل والعطاء وهادى رجال الدولة وكبار المابين فأتت إليه الأخبار بعضها يناقض بعضا وطال الأخذ والردّ بين سفراء الإنجليز والفرنسيس وصدر الدولة واشتدت الأزمة فى سائر البلاد واستحكمت حلقات الضيق على أهلها وسيرت دولة الفرنسيس إلى مصر وكيلا لها اسمه تريكو وأوعزت إليه أن يعمل على خلع الخديو بكل ما وصلت إليه حيلته فزاد هذا الرجل الأمر تعقيدا وخبالا وكان يدخل على الخديو تارة يظهر التحقير والاستخفاف وطورا بالإرهاب والتهويل ويطلب منه التخلى عن منصب الخديوية وكان قونصل الإنجليز فى ذلك الحين أروغ من ثعلب يظهر الرفق آونة وآونة يظهر الوعيد والخديو يجدّ فى استمالة رجال السلطنة العثمانية وكبار الدولة ويتقرب منهم كى لا تتمكن الدول الثلاث من خلعه، وبينما هو على هذه الحال إذ ورد عليه الخبر من إبراهام باشا كابوكخياه بدار السعادة بأن السلطان أبى على الدول خلعه ففرح بذلك فرحا لا يوصف وطير الخبر إلى الآفاق ولكن لم يمض بياض يومه حتى وردت الأخبار فى سواد ليله تنبىء بأنه إن لم يتنازل عن عرشه لولده الأمير محمد توفيق طائعا سلبه إياه الأمير عبد الحليم بن محمد على باشا كرها فاضطرب أىّ اضطراب وكاد يسقط فى يده وجاء الخبر من سفير الفرنسيس بدار السلطنة العثمانية إلى تريكوا بأن يلح على الخديو بالتعجيل فى خلع نفسه والتنازل لولده إذ صارت تولية الأمير عبد الحليم أمرا مقضيا وشاع الخبر بذلك فى تلك الليلة فاشتد الخوف بالناس وكثر تحدثهم فيه وجمع إليه الخديو كبار قومه ورجال أبيه إبراهيم باشا وطوائف المشايخ والعلماء والأعيان ونواب الأمة وتناجوا فى الأمر طويلا فلم يستقروا على أمر من الأمور واشتد قلق الخديو وفارقته تلك الحمية وذلك الثبات فلما كانت ليلة الخامس من رجب أى ليلة خامس عشر جونيو سار قونصلا الفرنسيس والإنجليز إلى دار الوزير محمد شريف باشا وأعلماه بخبر ما تقرر فى دار السلطنة من خلع الخديو وتولية ولده الأمير محمد توفيق وحدثاه بعزم السلطان على إعادة حقوق الوراثة إلى ذرية محمد على باشا وتولية الأمير عبد الحليم إن أصر الخديو على الإباءة والعناد، ثم قاموا جميعاً وقد مضى من الليل أكثره وساروا إلى مقر الخديو بعابدين وطلبوا الاجتماع به فمانع فى ذلك كبير الخصيان، وقال: كيف أفتح لكم الأبواب وقد مضى من الليل أكثره فراجعه الوزير فلم يقبل فصاح به، وقال: ويحك أنا رئيس الوزراء وهؤلاء وكلاء الدول الكبرى وقد أتينا لأمر لا تدرك أنت أهميته.

(مطلب)

مجئ الأمر السلطانى بخلع الخديوى إسماعيل وتولية ولده الأمير محمد توفيق وما كان بعد ذلك

فبينما هم على هذه الحال مع كبير الخصيان إذ نادى مناد من وراء الحجاب افتح لهم عاجلا ياغلام الأبواب فصعد الوزير ومن معه ولاقاهم الخديو بلباس النوم فكلموه طويلاً فى أمر تخليه عن المنصب طوعا قبل تنزيله كرها وألح الوزير عليه فى ذلك فأعلمهم الخديو بالخبر الذى جاءه من كابوتخداه بدار السلطنة وطال بينهم وبينه الجدال واشتد اللجاج فقال الخديو: لا أتنازل حتى يأتينى أمر السلطان بذلك وقد كان يظن طول الأجل وبلوغ نهاية الأمل فخرجوا من عنده وقد كتب تريكو إلى سفير الفرنسيس بدار السلطنة يخبره بما قاله الخديو فلم تمض الساعة الثانية عشرة من تلك الليلة حتى ورد إلى خيرى باشا المهردار مرسوم السلطان على جناح البرق خطابا إلى الخديو بخلعه من منصب الخديوية فاضطرب خيرى باشا ولم يجسر على إخبار الخديو بخبره وظل باهتا حائرا فدخل عليه الوزير محمد شريف باشا فأعلمه خيرى باشا بالخبر، فقال: ولماذا لم ترفعه لمولاك؟ فقال: لا أجسر على الدخول عليه الآن، فقال: قم وادخل معى فقام ودخلا معا وفى يد خيرى باشا ورقة الخبر فلما رآها الخديو قال: ما هذا الذى أتيتمانى به الساعة، فقال الوزير: هو خبر ورد من دار السلطنة فمدّ الخديو يده وأخذه ونظر إلى ما فيه فاضطرب وعلا وجهه الاصفرار ولبث برهة لا ينطق ببنت شفة ثم نظر إلى الوزير وقال: علىّ بولدى توفيق الساعة، وكان لما كثر اللغط بين الناس وتحدثوا فى أمر خلع الخديو وفيما هو جار بين الدول ودار السلطنة العثمانية فى شأن ذلك وكان الأمير محمد توفيق يومئذ نازلا بسراى الإسماعيلية الكائنة عند قصر الدبارة كثر ذهاب بعض رجال الدولة وكبار الأمة والمشايخ إليه ورسم بنقل الأمير محمد توفيق من سراى الإسماعيلية إلى سراى القبة بعين شمس فنقلوه مع نسائه وأولاده وأحاطت بمقره طوائف الجند فامتنع الناس عنه وبقى محجورا عليه حتى سير الخديو فى طلبه فى تلك الليلة فأتوا به إلى سراى الإسماعيلية وأوقفوا الحراس على بابه يمنعون من أراد الدخول عليه فسار إليه الوزير محمد شريف باشا وهنأه بالولاية وأركبه معه وحضر به إلى عابدين فلما مثل بين يدى أبيه قام له إجلالا، وهى أول مرة قام له، فتقدم الأمير وقبل يده فأذن له بالجلوس فجلس وهو ينظر إليه نظرة البائس الحزين، وقال له: يابنى لقد اقتضت

إرادة الله سبحانه وتعالى وإرادة مولانا وسلطاننا أن تكون أنت خديو البلاد فأوصيك يابنى بإخوتك وسائر الآل برا واعلم أنى سائر عنك آسف لعجزى عن إزالة جميع ما ستلقاه فى أعمالك من المصاعب والمتاعب على أنى واثق بحزمك فاتبع يابنى رأى ذوى شوراك وعش سعيداً لا كما عاش أبوك. فبكى الأمير توفيق عند سماعه هذا الكلام وبكى سائر الحاضرين وشاع الخبر فى القاهرة ومصر القديمة بخلع الخديو وولاية ولده الأمير محمد توفيق وطير الخبر بذلك إلى الآفاق وأخذ الوزير بيد الأمير وعاد به إلى مقره بالإسماعيلية ثم تركه وعاد إلى عابدين فوجد بها قناصل جميع الدول وبينهم تريكو الفرنسيسى فدخل الوزير على إسماعيل باشا وأعلمه بحضورهم فدعاهم إليه وكلمهم فى أمر تخليه عن المنصب لولده الأمير توفيق وفى ميله إلى العزلة ما بقى من أيامه وكان إلى هذه الساعة لم يخطر على باله قط أنهم سيبعدونه عن البلاد ويخرجونه من أرض الفراعنة قهرا فتقدم إليه عند ذلك تريكو وأعلمه بما وقع الاتفاق عليه من تبعيده عن أرض مصر وطلب منه الإسراع فى جمع ما يشاء من متاعه لينقلو إلى البلد التى يختارها، قيل: فاصفر لونه وتلجلج لسانه وعض على إصبعه ندما على ما بدا منه من التخلى عن المنصب قبل أن يستوثق لنفسه ونظر إلى تريكو وقال: يعلم الله أن هذا التبعيد ما كان لى فى خلد، ثم جعل يمانع وأغلظ على تريكو فى القول وتجافى فى الرد فجعل الحاضرون يلاطفونه ويهوّنون عليه ويحذرونه عاقبة العناد وما زالوا به حتى عاد وطلب كثيراً من المطالب فأجابوه إلى جميعها.

ثم قال: أطلب مائة ألف ذهبا للنفقة وباخرة لخدمتى وأن آخذ معى جميع مقتنياتى ومن يريد الخروج معى من نسائى والجوارى والحاشية والأتباع وجميع الأمتعة وأن أقيم فى جزيرة أزمير إحدى جزر البحر المتوسط فوافقوه على كل طلب وتساهلوا معه جهد الاستطاعة، وقامت بشأن ذلك المخابرات ما بين قناصل الدول بمصر والسفراء بدار السلطنة والناس فى القاهرة فى خوف عظيم يحسبون للعاقبة ألف حساب.

(مطلب)

رحيل الخديو إسماعيل عن وطنه ومسقط رأسه وسكنه

وأخذ أتباعه فى نقل المتاع والصناديق من عابدين والجيزة والجزيرة إلى بولاق الدكرور وطاف جماعة الخصيان على بيوت الأمراء يخبرونهم بالخبر وهم فى بكاء

ونحيب فخرج النساء فى ذلك اليوم وتزاحمن على أبواب عابدين وهن باكيات مولولات رافعات أصوات النحيب، وخرج أيضاً نساء إسماعيل باشا وطفن ببعض البيوت الكبيرة مودّعات فكان يوماً شره قمطريرا، وفى اليوم الثانى الذى هو سادس رجب وسادس عشرى يونيو قبل شروق الشمس غصت رحبة عابدين بجماهير الناس والجند وأرباب الوظائف العالية والمأمورين والعلماء والمشايخ والأعيان وقاضى القضاة والمفتى وجميع أتباع إسماعيل باشا والعائشين فى نعمته، وقد علا الضجيج وكثرت الغوغاء وظلوا على هذه الحال إلى الساعة الثالثة عربى، فحضر الأمير توفيق ومعه سائر الوزراء وصعدوا إلى مقر إسماعيل باشا فلاقاهم والدمع ينحدر على خدّيه وحادثهم ساعة ثم حضر تريكو الفرنسيس يستحثه على الخروج فقام من فوره وهو لا يتكلم واقتحم الدرج وهو يتوكأ على كتف ولده الأمير توفيق وخلفه ولداه حسن وحسين والوزراء وقناصل الدول ورجال الديوان الخاص وكبار الجند وأصحاب الرتب العالية وغيرهم من طوائف الخدم والحشم، فلما انتهى إلى باب السراى وقف على آخر الدرج لحظة لطيفة كأنه يودّع الدار ومن فيها فتقدم إليه قاضى القضاة وقبل طرف أثوابه وهو ينتحب بالبكاء فانحنى إليه وقبل رأسه وارتفع صوته بالبكاء وتقدم إليه الوزير محمد شريف باشا وصافحه فتبعه فى ذلك بقية الوزراء وبكوا لبكائه، ثم نزل وركب عربة وركب معه ولده الأمير توفيق وركب فى عربة ثانية الأميران حسن وحسين فلما سارت به العربة وخلفه الجم الغفير صاح النساء من شبابيك السراى واشتد الصراخ من كل صوب وارتفعت أصوات الرجال أيضاً بالبكاء واشتد الهرج والمرج وترامح جماعة الخصيان والجاويشية حول عربته وهم يبكون ويلولون «على من تركتنا ياسيدنا» «من أوصيته بنا ياسيدنا» وكان إذا مرت عربته ببيت من بيوت جواريه فتحن الشبابيك وصحن صارخات بأعلى أصواتهن وكدن يلقين بأنفسهن وما زال سائرا والصراخ أمامه وخلفه متواصل حتى وصل إلى محطة السكة الحديد وكانوا قد أعدوا للقائه فريقا من الجند، فنزل الأمير توفيق وأمسك بيد أبيه وأنزله ومر من بين صفوف الجند فحيوه بالسلام وصدحت الموسيقى بالنشيد الخديوى فدخل إلى المحطة وقد أعدوا له قطارا مخصوصا فلما دنا منه التفت إلى ولده الأمير توفيق يريد أن يخاطبه فخنقه البكاء فضمه إلى صدره وقبله ويبكى بكاء مرا فقبل الأمير يده ووقف بجانبه طارق العين والتفت إسماعيل باشا إلى الحاضرين ورفع صوته يريد أن يودّعهم فلم يقدر فصعد إلى عربة القطار فسار به إلى الإسكندرية وأنزله بالقبارى

حيث كان ينتظره زورق خصوصى فركب وسار بين صفوف الجند وأصوات المدافع من جميع القلاع والحصون وركب الباخرة المسماة المحروسة وقد كانت أعدت لركوبه وركب معه ولداه حسن وحسين وجميع نسائه وجواريه وأتباعه وغلمانه ومن رافقه من كبار الموظفين والباشاوات وقد سلم محافظ المدينة إلى ربان الباخرة مرسوما وأمره أن لا يفض ختامه حتى يبعد عن الإسكندرية فراسخ قيل: وهو يتضمن منع تنزيل إسماعيل باشا ومن معه بأى جهة من أملاك السلطنة العثمانية والمسير به إلى أى جهة شاءها من الممالك الأجنبية فلما أعلمه الربان بذلك قال: نسير إلى مدينة نابولى إحدى أعمال دولة إيطاليا فوصلها بعد أربعة أيام وألقت الباخرة مرساها وكان ملك إيطاليا قد رسم لحاكم المدينة بلقائه فلاقاه وبالغ فى إكرامه والاحتفال به فكانت ولايته سبع عشرة سنة وعشرين يوماً، ومن عجيب الاتفاق أنه تولاها فى شهر رجب واعتزلها فى شهر رجب فسبحان من لا زوال لملكه ولا إذلال لجبروته سبحانه فهو المعز المذل لا يهدى من عاداه ولا يضل من استهداه إنه التواب العظيم.

(مطلب)

ولاية الخديو محمد توفيق باشا

ولما كان يوم الخميس سابع رجب الفرد من السنة أى سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية ورد من خير الدين باشا صدر الدولة يومئذ مرسوم على جناح البرق خطابا إلى الأمير محمد توفيق باشا يقول:

بناء على أن الخطة المصرية هى من الأجزاء المتممة لجسم أملاك السلطنة العثمانية وأن غاية صاحب الشوكة والاقتدار إنما هى تأمين أسباب الترقى وحفظ الأمن والعمارة فى الممالك - وبناء على أن الامتيازات والشرائط المخصوصة للخديوية المصرية مبنية على ما للحضرة الشاهانية من المقاصد المذكورة الخيرية - وبناء على تزايد أهمية ما حصل فى القطر المصرى الناشئة عما وقع فيه من المشكلات الداخلية والخارجية الفائقة العادة وجب تنازل والد جنابكم العالى إسماعيل باشا - ثم إنه بناء على ما اتصفت به ذاتكم السامية الأصافانيه من الرشد وحسن الروية وعلى ما ثبت لدى ملجا الخلافة العظمى من أن جنابكم الداورى ستوفقون إلى استحصال أسباب الأمنية والرفاهة لصنوف الأهالى وإدارة أمور المملكة على وفق إرادة الحضرة الشاهانية الملوكانية توجهت الإرادة العالية بتوجيه الخديوية الجليلة إلى عهدة استئهال صفانيتكم - وبناء على الفرمان العلى الشأن الذى سيصدر حسب العادة على مقتضى

الإرادة السنية السلطانية التى صار شرح حـدودها ـ وبناء على ما كتب بالتلغراف إلى حضرة المشار إليه إسماعيل باشـا من تخليه عن النظر فى أمور الحكومة وتفرغه منها بصورة وقوع انفصاله قد تحرر هذا التلغراف لكى يعلن حال وصوله للعلماء والأمراء والأعيان وأهل المملكة جميعاً وتباشر من بعده أمور الحكومة وهذا من التوجيهات الوجيهة إلى أثر استحقاق اصفانيتكم لتجرى التنظيمات والترقيات مبدأ وتقدمة ويصير تكرار الدعاء بتوفيق الذات الجليلة الفخيمة السلطانية ولذلك صارت المبادرة إلى إبداء لوازم التهنئة لحضرتكم أيها الخديوى المعظم والأمر والفرمان على كل حال لمن له الأمر. انتهى.

فلما كانت الساعة الثالثة صباحا من يوم الخميس صعد الخديوى إلى قلعة الجبل فى أبهة وكبكبة زائدة واحتفل بقراءة هذا المرسوم احتفالا عظيما ودخل عليه رجال الدولة وكبار الحكومة والعلماء والمشايخ والرؤساء الروحانيون ووكلاء الدول كافة وطوائف ضباط الجند فهنؤه وتزاحمت ذوات البيوتات على باب والدته وأتت إليه رسائل التهانى تباعا من كل صوب وفرح الناس جميعا بولايته ودقت البشائر فى ذلك اليوم وأولمت والدته وأطعمت وكست بعض الفقراء وتصدقت وكتب الخديوى إلى الصدر الأعظم يقول:

وصل ليد التبجيل تلغرافكم السامى الآمر أن فراغ محسوبكم والدى المحترم عن الحكومة المصرية وتوجيه مقام الخديوية من محض جليل عواطف الحضرة الملوكانية لعهدة رقيقكم هما من مقتضى عالى إرادته السنية السلطانية وبالحقيقة أن تكرم حضرة صاحب الخلافة الأقدسى الذات بتوجيه مقام الخديوية لعهدة هذا العبد كان دليلا على جليل المبانى وركنا بالفخر لا يعادله ثانى على وجود عبدكم مشمولا بفيض النظر الملوكانى وبما أننى مهما بذلت من الوسع والمقدرة لإيفاء ذرة من التشكرات المفروضة على هذه العنايات والآلاء أرى ذاتى عاجزا بالكلية عن حق الإيفاء والأداء فلذا رفعت إلى مقر إجابة الرب القدير أكف الأدعية الخيرية ببقاء عمر وعافية وارتقاء شأن وشوكة الحضرة السلطانية مشفوعة بتكرار الدعوات المستجابة بدوام موفقية فخامتكم وبمقتضى منيف إرادة الجناب السلطانى السنية قد صعدت إلى قلعة مصر فى الساعة العاشرة من يوم الخميس وهناك قد أعلنت الكيفية لجميع من حضر من العلماء والأشراف والوجوه والأعيان والرؤساء الروحانيين والمأمورين الأجانب ولكافة الأهالى وأطلقت المدافع، ثم أخذت بزمام الحكومة وبدأت بظليل ظل الحضرة السنية الملوكانية فى مباشرة أمور الخديوية عالم علم اليقين أن سلامة

الخديوية المصرية وسعادتها وموفقية عبدكم الكاملة يحصلان بالثبات على قدم العبودية والتابعية للسلطنة السنية، وأن بقاءها لا يقوم إلا بالصداقة والإخلاص للذات السنية الملوكانية فأستمر على هذا الطريق وأصرف الوسع والقدرة بالاهتمام لاستحصال راحة ورفاهية أهالى مصر وسكانها والملتمس عرض ذلك لعالى أعتاب الحضرة السنية السلطانية متخذا ذلك وسيلة لاستبقاء توجيهات فخامتكم العلية وفى جميع الأحوال الإرادة والفرمان لحضرة من له الأمر. انتهى.

ولما استقر بالخديوى المنصب رسم إلى الوزير محمد شريف باشا بترتيب هيئة الوزارة فرتبها على ما شاء، ثم رسم بصرف عشرة آلاف من الجند إلى أوطانهم فصرفوا ولم يبق من الجند العامل سوى اثنى عشر ألفا فبدأت دلائل الإصلاح وظهرت إشارات الفلاح ففرح الناس فرحاً عظيمًا ورفع الكثير من الأجانب المستوطنين بالإسكندرية والقاهرة على اختلاف أجناسهم العرائض إلى وكلاء حكوماتهم بالإطراء والمدح للهيئة الحاكمة ويشكرون لها أخذها بأطراف الهمة وسيرها على سنن الإصلاح ويرجونهم فى منع تعرض أبناء جلدتهم إلى عمل الحكومة وترك تدبير أمور البلاد إلى أهلها قالوا: لأنهم أعلم الناس بها وأعرفهم بحاجاتها فاشتدت عند ذلك عزائم المصريين وعمد الوزير إلى الإتيان على جميع أوجه الإصلاح من أبوابها وبالغ فى ترتيب سائر الأمور وإحكام نظامها، وكان إلى هذا الحين لم يرد فرمان السلطان بالولاية وقد جاء الخبر بأنّ رجال السلطنة العثمانية وأهل المابين الهمايونى على طرفى نقيض فإن بعضهم يعمل على تقليل امتيازات مصر الممنوحة لها من أيام محمد على باشا الكبير وأن السلطان ميال إلى ذلك فخشى الوزير محمد شريف باشا العاقبة، وكلم وكيلى الفرنسيس والإنجليز فى الأمر فكتبا إلى كبيرى السياسة الإفرنسيسية والإنجليزية فى ذلك فكلما الباب العالى وشدّدا فى الطلب وطال الأخذ والردّ بين الفريقين وأظهر رجال السلطنة العثمانية حزما وثباتا فطاولوا وحاولوا واشتدت عزيمة أنصار الأمير عبد الحليم بن محمد على باشا وبذلوا النفيس فى استمالة رجال المابين فخاف سفيرا الفرنسيس والإنجليز بدار السلطنة شر عاقبة هذه الحال وأعملا الفكرة وأكثرا الترداد على الباب العالى وما زالا حتى تقررت القاعدة بينهما وبين الصدر الأعظم على تسيير سفير مخصوص ومعه فرمان الولاية فطيروا الخبر بذلك إلى القاهرة فزال عن الوزير محمد شريف باشا ما كان يخشاه.

(مطلب)

ورود فرمان الولاية على يدى فؤاد بك كاتب أول المابين

فلما كان ثالث عشرى شعبان سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية وصلت إلى مدينة الإسكندرية الباخرة عز الدين السلطانية وعليها الأمير على فؤاد بيك كاتب أول المابين يحمل الفرمان المشار إليه فأنزل فى سراى رأس التين فى تلك الليلة وقدم إلى القاهرة فى رابع عشريه فأنزل مع حاشيته بقصر النزهة بشبرا من ضواحى القاهرة فزاره جميع الوزراء ورجال الحكومة وبالغوا فى إجلاله وتعظيمه وطيروا الخبر بقدومه وفى صبح الخميس خامس عشريه هرع الناس إلى قلعة الجبل وتقاطر إليها رجال الدولة وكبار المأمورين وهم بلباس الزينة والتشريف، وصعد كذلك وكلاء الدول والعلماء والرؤساء والأعيان واصطفت الجند تباعا من صليبة ابن طولون وطريق محمد على إلى ديوان السلطان الغورى بقلعة الجبل، وفى نحو الساعة الثانية صباحاً صعد الخديوى راكبا فى عربة التشريف وعلى يساره الوزير محمد شريف باشا وأمامه على فؤاد بيك رسول السلطان وبجانبه طلعت باشا كاتب الديوان الخديوى ومر من وسط الجند بين ضجيج الدعاء وأصوات البوق والنفيرَ ودوىّ المدافع حتى صعد إلى الديوان فلما استقر به المقام تقدم مبعوث الخليفة بالفرمان وناوله إياه فأخذه وقبله ورفعه إلى رأسه ثم ناوله إلى طلعت باشا الكاتب فقبله هو أيضاً وارتقى مكانا مرتفعا أعدّ له وقرأ ما فيه بالرومية فكان بالعربية هكذا:

الدستور الأكرم والمعظم الخديوى الأفخم المحترم نظام العالم وناظم مناظم الأمم مدبر أمور الجمهور بالفكر الثاقب متمم مهام الأنام بالرأى الصائب ممهد بنيان الدولة والإقبال مشيد أركان السعادة والإجلال مرتب مراتب الخلافة الكبرى مكمل ناموس السلطنة العظمى المحفوف بصنوف عواطف الملك الأعلى خديوى مصر الحائز لرتبة الصدارة الجليلة فعلا الحامل لنيشاننا الهمايونى العثمانى المرصع ونيشاننا المرصع المجيدى وزيرى سمير المعالى «توفيق باشا» أدام الله إجلاله وضاعف اقتداره وإقباله إنه لدى وصول توقيعنا الهمايونى الرفيع يكون معلوما لكم أنه بناء على انفصال إسماعيل باشا خديوى مصر فى اليوم السادس من شهر رجب سنة ١٢٩٦ ست وتسعين ومائتين وألف هجرية وحسن خدامتكم وصداقتكم واستقامتكم لذاتنا الشاهانية ولمنافع دولتنا العلية ولما هو معلوم لدينا من أن لكم وقوفا ومعلومات بمصر منذ مدة وإصلاحها وجهنا إلى عهدتكم الخديوية المصرية المحدودة بالحدود القديمة

المعلومة مع الأراضى المنضمة إليها المعطاة إلى إدارة مصر توفيقا للقاعدة المتخذة بالفرمان العالى الصادر فى الثانى عشر من المحرم سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف هجرية المتضمن توجيه الخديوية المصرية إلى أكبر الأولاد ـ وحيث إنكم أكبر أولاد الباشا المشار إليه قد وجهت إلى عهدتكم الخديوية المصرية ولما كان تزايد عمران الخديوية المصرية وسعادتها وتأمين راحة كافة أهاليها وسكانها ورفاهيتهم هى من المواد المهمة لدينا ومن أجل مرغوبنا ومطلوبنا وقد ظهر أن بعض أحكام الفرمان العلى الشأن المبنى على تسهيل هذه المقاصد الخيرية المبين فيها الامتيازات الحائزة لها الخديوية المصرية قديما نشأت عنها الأحوال المشكلة الحاضرة المعلومة فلذلك صار تثبيت المواد المقتضى تبديلها وتعديلها وإصلاحها فما تقرر إجراؤه الآن هو المواد الآتية:

إن كافة إيرادات الخطة المذكورة يكون تحصيلها واستيفاؤها باسمنا الشاهانى وحيث إن أهالى مصر أيضاً من تبعة دولتنا العلية وأن الخديوية المصرية ملزومة بإدارة أمور المملكة والمالية والعدلية بشرط أن لا يقع فى حقهم أدنى ظلم ولا تعدّ فى وقت من الأوقات فخديوى مصر يكون مأذونا بوضع النظامات اللازمة الداخلية المتعلقة بهم وتأسيسها بصورة عادلة ـ وأيضا خديوى مصر مأذون بعقد وتجديد المشارطات مع مأمورى الدول الأجنبية بخصوص الجمرك والتجارة وكافة أمور المملكة الداخلية لأجل ترقى الحرف والصنائع والتجارة واتساعها ولأجل تسوية المعاملات السائرة التى بين الحكومة والأجانب بشرط عدم خلل معاهدات دولتنا العلية المؤسسة وفى حقوق متبوعية مصر إليها وإنما قبل إعلان الخديوية المشارطات التى تعقد مع الأجانب بهذه الصورة يصير تقديمها إلى بابنا العالى ـ وأيضاً يكون حائزا للتصرفات الكاملة فى أمور المالية لكنه لا يكون مأذونا بعقد استقراض من الآن فصاعدا بوجه من الوجوه وإنما يكون مأذونا بعقد استقراض بالاتفاق مع المداينين الحاضرين أو وكلائهم الذين يتعينون رسميا وهذا الاستقراض يكون منحصرا فى تسوية أحوال المالية الحاضرة ومخصوصاً بها ـ وحيث إن الامتيازات التى أعطيت إلى مصر هى جزء من حقوق دولتنا العلية الطبيعية التى خصت بها الخديوية وأودعت لديها لا يجوز لأى سبب أو وسيلة ترك هذه الامتيازات جميعها أو بعضها أو ترك قطعة أرض من الأراضى المصرية إلى الغير مطلقا ـ ويلزم تأدية مبلغ سبعمائة وخمسين ألف ليرة عثمانية الذى هو الويركو المقرر دفعه فى كل سنة فى أوانه ـ وكذلك جميع النقود التى تضرب فى مصر تكون باسمنا الشاهانى ولا يجوز جمع عساكر زيادة عن ثمانية

عشر ألفا لأن هذا القدر كاف لأمنية إيالة مصر الداخلية فى وقت الصلح وإنما حيث إن قوّة مصر البرية والبحرية مرتبة من أجل دولتنا يجوز أن يزاد مقدار العساكر بالصورة التى تستتب فيها حالة دولتنا العلية محاربة وتكون رايات البرية والبحرية والعلامات المميزة لرتب ضباطهم كرايات ونياشين عسكرنا الشاهانى ويباح لخديوى مصر أن يعطى الضباط البرية والبحرية إلى غاية رتبة أميرآلاى والملكية إلى الرتبة الثانية ولا يرخص لخديوى مصر أن ينشىء سفنا مدرّعة إلا بعد الإذن والحصول على رخصة صريحة قطعية إليه من دولتنا العلية - ومن اللزوم وقاية كافة الشروط السالفة الذكر واجتناب وقوع حركة تخالفها - وحيث صدرت إرادتنا السنية بإجراء المواد السابق ذكرها قد أصدرنا أمرنا هذا الجليل القدر والموشح أعلاه بخطنا الهمايونى وهو مرسل صحبة افتخار الأعالى والأعاظم وفخار الأكابر والأفاخم فؤاد بيك باشكاتب المابين الهمايونى ومن أعاظم دولتنا العلية الحائز والحامل للنياشين العثمانية والمجيدية ذات الشأن والشرف انتهى.

فلما أتم طلعت باشا قراءته نزل فارتقى مكانه الشيخ سليم عمر خطيب جامع قلعة الجبل ودعا ببعض الأدعية للخليفة ورجال دولته وللخديوى ورجاله ثم أطلقت المدافع تباعا وهتف الجند بأصوات الدعاء والتعظيم ودقوا طبولهم ونزل الخديوى بموكبه إلى مقر عابدين فانصرف الجميع وتزاحم الكبراء والأمراء ورجال الدولة فى ذلك اليوم على بابه وزار والدته نساء الأمراء والكبراء وزينت مصر والقاهرة ثلاث ليال وأطلقت المدافع من قلعة الجبل فى الأوقات الخمس وفرح الناس بذلك كثيراً.

(مطلب)

تخلى الوزير محمد شريف باشا عن منصب الرياسة وما اشتهر به بين الناس

وسار الخديوى فى الرعية سيرا حسنا وسلك بهم مسالك الدعة والرفق وفرّق الصدقات على المساكين والمنقطعين وبالغ فى الإحسان فلم يردّ سائلا ولم يمنع مستعطيا وتقدم إليه الوزير محمد شريف باشا فى رفع الخراج عن جميع الأراضى المأخوذة للمنافع العمومية فرسم برفعه وكان شيئاً كثيراً وتقدم إليه أيضاً فى طلب كثير من الأمور النافعة للبلاد وأهلها فأجابه إليها فتعلقت الآمال بالوزير واجتمعت على محبته القلوب وظل الحال على أحسن ما يكون من الهدوّ والطمأنينة ورواج

الأعمال أياما والناس فى فرح واستبشار حتى خلع الوزير محمد شريف باشا نفسه من منصب الرئاسة وتخلى عنه طائعا فى الثلاثين من شعبان فتطير الناس من ذلك وترامت ظنونهم إلى المرمى البعيد واختلفت الأقوال فى الأسباب فمن قائل أنه تخلى لخلاف بينه وبين قونصلى الإنجليز والفرنسيس ومن قائل بل لخلاف مع قونصل الفرنسيس لأمور نقمها عليه ومن قائل: بل بإيعاز من دولة الإنجليز إذ كانت ترى منه قرما عنيدا شديد البأس عزيز النفس أبيها صبورا على الشدائد فعملت على تنزيله فأحس بذلك فبادر هو بخلع نفسه، ومن قائل غير ذلك وعندى أن القول الأخير أرجح بل أصح فحزن الناس عليه وأسفوا أسفا شديدا وقد عرفوا منه رجلا كيسا حازما صائب الرأى شريف النفس واسع المعرفة بأساليب السياسة شديد الميل إلى نصرة المظلوم يعفو عند المقدرة ويغض عن الهفوات ويعرض عن بطانة السوء ويكره المطرين وأصحاب الوشاية ميالا إلى بث روح الحرية والمساواة بين صنوف الرعية، وهو أول من نادى بالشورى على عهد الخديو إسماعيل وبذل جهد المجتهد فى بثها فى جوف البلاد ثم أنشأ قانونها ورفعه إلى الخديوى إسماعيل وطالبه يومئذ بتحرير البلاد وفك قيود الرعية فتململ ولم يقبل فألح عليه وهدده بتنزيل نفسه وتخليه عن منصب الرياسة يومئذ إن هو أصر على الإباءة ثم حدث فى ذلك الحين من الكوائن ما كان سببا لترك ذلك القانون فى زوايا الإهمال، فلما تولى الخديوية الأمير محمد توفيق باشا ووجه مسند الرياسة إليه أحسن الظن بمخدومه وأخلص له النية. قال بعض كتاب الأخبار: فأبان له عما فى الشورى من الخير والبركة وجعل يحبب إليه العمل بها فمال إلى رأيه ودعاه إلى سنّ قانون لا يمس حقوقه الذاتية ولا يذهب شيئاً من سلطته الوراثية فرفع إليه القانون الذى كان أنشأه على عهد أبيه إسماعيل. قال: فاستشار رجال ديوانه فى جواز العمل به فقبحوا له ذلك وموّهوا عليه الحقائق وهوّلوا فى العاقبة فأعرض عنه فراجعه الوزير فلم يرض فأنزل نفسه عن منصب الرياسة فى الثلاثين من شعبان كما تقدم القول (قلت): وهذا قول آخر فى أسباب تخليه عن منصبه وعندى أنه قول لا صحة له والأول أصح، وكان مصطفى رياض باشا إلى هذا الحين نزيل الديار الأورباوية وكان قد فرّ هاربا من وجه إسماعيل باشا خوفا من البطش به كما تقدم القول فأرسل إليه الخديوى يستقدمه ويستحثه على الحضور ليوليه مسند الرياسة وأقام هيئة وزراء مؤقتة برياسته كان فيها الوزير منصور باشا يكن وعلى حيدر باشا وذو الفقار باشا ومصطفى فهمى باشا ومحمد مرعشلى

باشا وعثمان رفقى باشا وعلى إبراهيم باشا فتحدث الناس فى أمر طلب مصطفى رياض باشا وتطيروا من توليته مسند الرياسة وخشوا عاقبته لما يعلمونه من عدم موفقيته ونكد طالعه على البلاد وكثر لغطهم فى ذلك، فلما كان سابع عشرى رمضان قدم رياض باشا إلى القاهرة فبالغ الخديوى فى إكرامه ولبث أياما يغدو ويروح إلى مقر الخديوى والناس فى تخوف كأنّ على رؤوسهم الطير ثم شاع أن استقدامه بعد ذلك التبعيد إنما كان بإيعاز من دولة الإنجليز وإلحاح من قونصلها بمصر. قال بعض كتاب الأخبار: وتحرير الخبر أنه لما سار إلى لندن عاصمة الإنجليز بعيد فراره من القاهرة اجتمع به ويلصون الذى كان متوليا نظارة المالية المصرية على عهد إسماعيل باشا وشكى إليه حاله وما لاقاه من مضض التضييق وذل التبعيد عن الآل والوطن فقربه ويلصون من كبار ساسة الإنجليز واستمالهم إليه وأعلمهم بحاله وما لاقاه من إسماعيل باشا. قال الراوى: فسأله بعضهم قائلاً: ماذا تفعل إذا أرجعناك إلى ديار مصر وولیناك منصب الرياسة؟ قال: أكفل لكم تعضيد سيادتكم وإعلاء كلمتكم والعمل فى سائر الأحوال بحسب إشارتكم فوعدوه بذلك إن هو حافظ على العهد ولم يرجع عنه وجعلوا من ذلك الحين يعملون مع الخديوى على إرجاعه وتوليته فأحس الوزير محمد شريف باشا بذلك فخلع نفسه وأفرغ لهم المسند فاستقدمه الخديوى كما أشار قونصل الإنجليز وقد زاد الناس اعتقادا فى صدق هذا النبأ ما تبينوه يومئذ من استحسان أصحاب صحف الأخبار الإنجليزية أمر توليته منصب الرياسة وامتداحهم لكفاءته وحسن سياسته وقدرته على تدبير الأمور على أحسن ما يكون، وقد تطرف بهم الإطراء إلى القول بأنه على عزم أن يرفع إلى مقام الخديوى قبل تولية المنصب ثلاثة مطالب لابد منها ولا مندوحة عنها الأول: جعل هيئة الحكومة دستورية أو مشوروية بأن تؤلف من وزراء مسئولين ولا يكون أمير البلاد مسئولا عن أىّ خلل يحدث فى الخزينة أو فى إدارة البلاد. الثانى: عدم جواز خلع أحد من موظفى الحكومة إلا بحكم يصدر عليه. الثالث: أن لا يترأس الخديوى قط على هيئة مجلس الوزراء ليكون لكل منهم حرية إبداء فكره فلم يعتبر الناس يومئذ بأن هاته المطالب من عنديات مصطفى رياض باشا لأنهم يعرفونه عدواً للشورى. قلت: وقد سبق لأصحاب هذه الصحف طلب تقرير هاته الأمور على عهد إسماعيل باشا فحضوا جوشن وجوبير يوم كانا بديار مصر على تقريرها وإكراه إسماعيل باشا على العمل بها ثم حال دون ذلك من المحن والكوائن ما كان سببا فى خلع إسماعيل باشا وتبعيده.

(مطلب)

تولية رياض باشا الرياسة للمرة الأولى

فلما كان رابع شوّال من السنة (أى سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية) رسم الخديوى إلى مصطفى رياض باشا بتشكيل هيئة الوزارة فشكلها على نحو ما أراد ووافقه الخديوى على تشكيلها فتزاحمت على بابه أقدام أصحاب الوظائف والمناصب العالية ومأمورى الحكومة وذوى الغايات والمطامع فأمر ونهى وتقدم إلى الخديوى فى إقامة المراقبين الماليين الإنجليزى والفرنسوى اللذين أشار بهما رجال لجنة التصفية كما تقدم الكلام على ذلك فى محله فأجابه إلى ما طلب ورسم به فجاء من قبل دولة الإنجليز أحد رجالها واسمه الماجور بارنج وجاء من قبل دولة الفرنسيس آخر اسمه المسيو دى بلينار وهو الذى كان متوليا نظارة الأشغال العمومية على عهد إسماعيل باشا فسلم لهما الرئيس مصطفى رياض باشا زمام الأعمال فبحثا ونقبا وأتيا على جميع أمور الخزينة من أبوابها وأخذا فى إصلاح ما فسد من أحوالها ورتبا لأصحاب الديون نظاما كافلا بحفظ حقوقهم وعينا لجباية الأموال آجالا يجبون فيها الخراج وقد كانت إلى ذلك الحين هملا مهملا وأبطلا كثيرا من المغارم والمكوس الظالمة والبدع المستحدثة وقررا قاعدة لميزانية خزينة البلاد وإيرادها ومصرفها ونظرا فى جميع أوجه الإصلاح من أبوابها وقيدا الأعمال باللوائح والنظامات المرتبة على نسق ما فى بلاد الأمم المتمدنة ونظرا إلى فلاحى البلاد وأصحاب الزراعات نظرة الأب الشفيق فهوّنا عليهم كل أمر شاق، وبينما كان المراقبان يعملان على ما فيه المصلحة للبلاد وأهلها كان الرئيس مصطفى رياض باشا يعمل أيضاً على تعزيز مقامه وإعلاء كلمته وبسط يده على جميع الأمور وإحاطته علما بالصغير منها والكبير فتطرّق به حب هذه الأثرة إلى التعدى على حقوق الخديوى وجعل أعماله ونفوذه الذاتى لا يتعدى إشارته وكان الخديوى منذ تولى المنصب قد جعل يعطى مأمورى الحكومة وبعض أعيان البلاد ألقاب الشرف ونياشين الاعتبار تلطفا منه وإحسانا فلم يرق عمله هذا فى عين الرئيس بل أنكره وندد به ونهاه عن التمادى عليه فلم يلتفت الخديوى إلى قوله فأكبر الرئيس هذا الأمر من الخديوى وكتب فى رابع عشرى ذى القعدة من السنة إلى جميع دواوين الحكومة يقول: إنه لا عبرة قط لهذه الرتب فى أمر الجماكى والمرتبات فى جميع الخدامات الملكية فساء الخديوى ذلك واستعظمه وكبر عليه الرجوع عما فى نفسه فزاد فى الإحسان وأكثر من العطاء فامتعض الرئيس وعقد لذلك مجلس الوزراء فقرّ قرارهم على أن لا يعطى شىء من ألقاب الشرف والنياشين

إلى مأمورى الحكومة وموظفيها أيا كانت درجته إلا بعد الطلب من مجلس الوزراء ورفع هذا القرار إلى الخديوى ليصادق عليه.

(مطلب)

فاتحة الخلاف ومبدأ الشقاق بين الخديوى والرئيس مصطفى رياض باشا

فكبر الأمر عليه وأزعجه فطاول وحاول أياما وراجع الرئيس ثم أدرك ما سيكون من وراء ذلك من الفشل واستفحال الخطب إن هو أصر على الامتناع فوقع على القرار كارها فكان هذا الحادث فاتحة الخلاف ومبدأ الشقاق بين الخديوى والرئيس مصطفى رياض ومن معه ورأى الخديوى بعد ذلك من الرئيس غلظة وجفاء فتأهب للتجوّل فى أنحاء القطر والترفع إلى الأقاليم القبلية ترويحا للنفس من شر هذا الحال، فلما كان صبح الخميس تاسع عشرى صفر من السنة أى سنة سبع وتسعين ومائتين وألف هجرية تحرك ركابه وسار قاصدا الأقاليم القبلية ومعه آل بيته وحاشيته وأتباعه وغلمانه ورجال ديوانه الخاص فاستعدّ أهل البلاد للقائه وفرحوا بحضوره إليهم فرحا لا يوصف وأظهروا من الإخلاص والتلطف للقائه ما لا يكاد يصدقه العقل فزينوا البلاد بالأنوار والرايات والرياحين والأزهار وقابلوه بالطبول والزمور وإطلاق البنادق بين ضجيج الفرح وأصوات الدعاء والابتهال إلى الله، فكان إذا نزل ببلد هرع أهلها رجالا ونساء وأطفالاً وقابلوه بالدعاء وبالغوا فى تعظيمه فكان يقابلهم بالبشاشة والترحاب ويمد لهم الموائد ويعطى الفقراء والمساكين منهم ولا يردّ لهم سائلاً وما زال على هذه الحال حتى مدينة أسيوط، فلما استقر بها ركبه كتب إلى الرئيس مصطفى رياض باشا يقول:

أنا الآن بأسيوط وليس فى الإمكان والاستطاعة وصف جميع ما أظهره الأهالى من الجيزة إلى هذا المكان من عظم الفرح والمسرة وحسن الترحب بنا ولا شك أن مثل هذه الأفراح والمسرات لا تصدر إلا عن الثقة العمومية ولا توجد الثقة إلا بوجود العدالة والاستقامة، ويرى أن الرعية الآن آملة فينا واثقة بنا، تلك نعمة آلهية عظيمة المقدار وتوجب علينا الاستمرار على نهج منهج العدالة والأمانة لتزداد الرعية حبا لنا وثقة بنا جمل الله القدير اجتهادنا بالفلاح، ثم رجع إلى القاهرة فى كبكبته وزينته بين خدمه وحاشيته وأتباعه ورجال ديوانه وسار منها إلى الأقاليم البحرية فلاقاه أهل البلاد بالفرح وأولموا لقدومه الولائم والأفراح وبالغوا فى ذلك بما لا يكاد يدخل تحت الحصر ثم قفل راجعا إلى القاهرة وقد بلغه من أخبار الرئيس

مصطفى رياض باشا واستهتاره بالأمور وتحامله على منصب الخديوية وشخص الخديوى ما أنساه تلك الولائم والأفراح فجعل عند ذلك يراقب الأحوال والرئيس لا يلوى عنان النفس عن هواها وقد بسط يده على جميع مصالح الحكومة فتزاحم على بابه أصحاب السعاية وتقرب من مجلسه أهل النميمة والوشاية واشتد على كل من آنس منه جأشا فهابه الحكام وخافه أصحاب الوظائف وكثرت عيونه وأرصاده وأوجس أتباع إسماعيل باشا منه شرا إذ مال على بعضهم يريد الانتقام واشتد عليهم شدة بالغة فهالهم أمره وأزعجهم تهديده وخشوا عاقبة فعله فانضم بعضهم إلى بعض وتألبوا مع الفريق شاهين باشا كنج الذى كان رئيس ديوان الجند على عهد إسماعيل باشا وجعلوا يدبرون على الخلاص منه فلما أحس بما هم عليه سير إلى شاهين باشا يتهدده ويقول: إن لم تقلع عما أنت عليه ساءت حالك وكذب فألك ثم بث حول داره العيون ومنع من دخول الناس إليه فكبر الأمر على شاهين باشا وأرسل إلى إسماعيل باشا يعلمه بما آلت إليه حالة أتباعه وحاشيته وكل من نالته منه نعمة ويشكو من مقال الرئيس مصطفى رياض باشا فحبب إليه إسماعيل باشا ترك تابعية السلطنة العثمانية والألتجاء إلى دولة إيطاليا فمال شاهين إلى ذلك فرارا من إيذاء الرئيس وعلم الرئيس بالخبر فمانع قال بعض الكتاب: وحرض بعض مشايخ البلاد التى بها زروعات شاهين باشا فأقاموا عليه الدعاوى الطويلة وضيقوا على خدمه وأتباعه وأخذوا ما قدروا عليه من أرزاقه فكبر عند ذلك خوف شاهين باشا وألح على إسماعيل باشا فى التعجيل فوردت إليه أوراق التابعية فقام من فوره وحصر أرزاقه وضبطها ووكل بها من يبعث إليه برزقها فى حينه وتأهب للرحيل إلى مدينة نابولى حيث يقيم إسماعيل باشا فكبر الأمر على الرئيس مصطفى رياض باشا وجعل يدبر على فساد حيلة شاهين وسير إلى قونصل دولة إيطاليا فى ذلك فلم يفلح.

(مطلب)

الحكم بتبعيد جاهين باشا وتجريده من رتبه وألقابه

فلما كان خامس رجب قام شاهين من القاهرة إلى الإسكندرية يريد الذهاب إلى نابولى فجمع الرئيس فى صباح سادسه هيئة مجلس الوزراء على خلاف العادة وهيأ قرارا بتجريد شاهين باشا من جميع رتبه وألقابه وصفاته الرسمية مع محو اسمه من سجل ضباط الجيش المصرى ومنعه من العود إلى ديار مصر منعا مؤبدا، ثم رفع

هذا القرار إلى الخديوى فامتنع من التوقيع عليه فشدد الرئيس فى الطلب فوقع عليه كارها فسير به الرئيس مع رسول إلى شاهين باشا فأعطاه إياه وهو على ظهر السفينة التى كانت قائمة ذلك اليوم إلى مدينة نابولى، حدثنى صاحب لى قال: كنت فى ذلك اليوم على ظهر السفينة التى كان بها شاهين باشا وكنت مودّعا خليل أغا كبير خصيان جدة الخديوى حيث كان قاصدا مدينة نابولى إحدى أعمال إيطاليا فرارا من وجه الرئيس مصطفى رياض باشا فبينما نحن مهتمون بإصلاح متاع السفر إذ صعد على ظهر السفينة أحد مأمورى الحكومة وعلامات الاضطراب بادية على وجهه فتقدم إلى شاهين باشا وناوله ورقة مختومة ففضها وقرأ ما فيها وهو هادىء اللب ساكن القلب ثم التفت إلى ذلك المأمور وقال: قل للرئيس أصلح الله حاله إنى فاعل ما أراده حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا والتفت إلينا وقال وهو يتبسم: تالله لو بغى جبل على جبل لدك الباغى. قال: صاحبى فقلت جعلت فداك هل هى وصية يجب العمل بها؟ فقال : بل هى فرية يجب أن تخلد فى بطون التواريخ ليعلم صاغر عن كابر كم تقاسى مصر وأهلها من الجور والاستعباد. قال صاحبى: فخفت أن أطيل الكلام بحضرة المأمور وتشاغلت عن حديثه بحديثى مع كبير الخصيان حتى تركنا المأمور وانصرف فنظرت إلى شاهين باشا لعله يعيد علينا حديث ما فى تلك الورقة فلم يفعل وكان لم يكن به شىء وودعته مع كبير الخصيان وانصرفت وأنا فى خوف ظانا أن قد وصل خبرى إلى الرئيس فرجعت إلى القاهرة ولازمت دارى أياما حتى سكن جأشى واطمأن قلبى ولم يقدّر الله علىّ بمكروه . اهـ.

قلت: وقد عدّ فرار شاهين باشا وخليل أغا كبير خصيان جدة الخديوى وإلحاقهما بإسماعيل باشا ذنبا لا يغفر إذ عقد الرئيس مصطفى رياض باشا فى ثامن رجب هيئة مجلس الوزراء وتناجوا فى ذلك طويلاً وبعد أخذ وردّ تقررت القاعدة بينهم على نزع سراى عابدين مع ما يتبعها من الأبنية وغيرها من جميع الملحقات وسراى الإسماعيلية وملحقاتها وما يتبعها من الأبنية وسراى القصر العالى وملحقاتها وما يتبعها والمكان الكائن بمصر القاهرة بخط الإسماعيلية وملحقاته المعروف بمخزن الموبليات ومطبعة بولاق وملحقاتها مع ما يتبعها من الآلات والمهمات والأبنية وأصطبلات بولاق وسراى الجزيرة مع ما يتبعها من الأبنية والجنينة البالغ مقدار ذلك اثنين وستين فدانا والأراضى التى تتبعها وقدرها ثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسة وتسعون فدانا وجميع الملحقات الكائنة بالجيزة وسراى الجيزة وما يتبعها من الأبنية

والجنينة والأراضى من جميع الملحقات التى قدرها خمسمائة فدان وسبعة عشر فدانا والنزل والكشك والحمامات الكائنة بمدينة حلوان وجنينة النزهة القديمة المعروفة بجنينة باستريه بالإسكندرية على ترعة المحمودية وسراى الرمل بالإسكندرية وجميع ما يتبعها من الأبنية والثكنات والإصطبلات وغيرها من الملحقات الكائنة بالرمل وسراى دفينة وما يتبعها بمديرية البحيرة وسراى المنصورة وما يتبعها وسراى الروضة وسراى المنيا (أى منية ابن خصيب) من ملكية إسماعيل باشا وجعلها من أملاك الحكومة قالوا: لأنه قد تبين لهم أن بناء البعض وشراء البعض الآخر كان من مال الخزينة ولأنها لازمة جميعها للمنافع العمومية أو لإقامة خديوى مصر ولأنها كانت لغاية الآن مخصصة لذلك، فلما شاع خبر ذلك استعظمه الناس وتحدثوا به وقد كانوا لا يظنون وقوعه من الرئيس، ثم أعقب ذلك أيضاً أن سير الرئيس إلى ربان السفينة المسماة المحروسة التى كان إسماعيل باشا اتخذها مسكنا لنسائه أمام مدينة نابولى بأن يسرع الكرة إلى الإسكندرية بالسفينة وإلا عدّ تأخيره عن الحضور عصيانا وخروجا وكتب بذلك أيضاً إلى إسماعيل باشا فكبر الأمر على إسماعيل باشا وأحزنه جدا ولم يسعه إلا إعادة السفينة ومن شاء الرجوع إلى القاهرة من خدمه وأتباعه وحاشيته واشترى له دارا بنابولى وأسكن بها من بقى من جواريه ونسائه وأرسل إلى الخديوى توفيق فى ذلك وعاتبه وبالغ فى الشكوى من فعال الرئيس مصطفى رياض باشا وحذره من سوء العاقبة وأشار عليه باليقظة والالتفات.

(مطلب)

الاحتفال برفع قانون التصفية إلى مقام الخديوى

وكانت لجنة التصفية إلى هذا الحين قد أتمت أعمالها على وجه ما تقدم بيانه وعملت بها دستورا سمته (قانون التصفية) وتأهبت لنشره والعمل به، فلما كان يوم السبت تاسع شعبان من السنة سار رجال هذه اللجنة من القاهرة إلى الإسكندرية وصعدوا إلى مقر الخديوى بسراى رأس التين فتقدم إليه ويلصون رئيس اللجنة وبقية رجالها فصافحهم جميعا ثم خاطبه ويلصون بعبارات التهانى وقص عليه مجمل ما عملته اللجنة فأجابه الخديوى بعبارات التلطف وناوله بيده النيشان المجيدى من الدرجة الأولى وكذلك ناول كلا من بطرس بك غالى والمستر كولفن والمسيو براوللى والمسيو دى بوغاز والمسيو تريكو والمسيو يتجره والمسيو ليرون دى رول النيشان العثمانى من الرتبة الثالثة وأعطى كذلك النيشان المجيدى من الرتبة الرابعة لبقية رجال

تلك اللجنة وبعد انصرافهم أحسن الخديوى على الرئيس مصطفى رياض باشا بالنيشان العثمانى من الدرجة الأولى وعلى المسيو دى بلينار المراقب الفرنسوى بالنيشان المجيدى من الدرجة الأولى أيضاً وأحسن كذلك بعدة رتب ونياشين إلى بعض الوزراء وعند غروب اليوم استدعى الخديوى للطعام جميع الوزراء ورجال لجنة التصفية بمقره برأس التين، وكان المكان غاية فى البهجة والزينة داخلاً وخارجا فأتت إلى ديوان الخديوى فى ذلك اليوم وتلك الليلة رسائل التهانى من الآفاق وحضر فى نحو الساعة الثالثة من تلك الليلة إلى رحبة السراى طوائف الجند ما بين مشاة وركبان بالطبول رافعين بأيديهم فوانيس الزجاج الملون موقدة بالشموع وساروا إلى أن وصلوا إلى واجهة السراى المشرفة على تلك الرحبة حيث كان الخديوى وسائر الوزراء ورجال اللجنة ينتظرونهم فاصطفوا هناك وبعد برهة لطيفة نادوا بأصوات التهليل ثم ساروا وعبروا شوارع المدينة حتى انتهوا إلى ميدان المنشية فوقفوا هناك برهة فهرع الناس لرؤيتهم وفى أواخر الساعة الثالثة اجتمع أرباب الأشاير والطرق تتقدمهم المشاعل والأنوار والطبول والزمور والبيارق والرايات وساروا على نظام معلوم عندهم إلى أن دخلوا رحبة السراى فى عدد كثير وكان كل فريق منهم على شكل مخصوص وهم يضجون ويعجون ثم ورد من بعدهم أبناء المدارس وفى أيديهم مصابيح الشمع وفى ذلك الوقت كان ساحل البحر مزدانا بالأنوار وكذلك جميع السفن الراسية فى المينا وقد سار عدد من قوارب البحر يحمل الجماهير من الناس وكانت مزدانة بالأنوار والقناديل وفى بعضها الطبول والمغنون والمغنيات فانتهوا إلى مقر الخديوى وهم يعزفون ويضربون الطبول إلى أن كانت الساعة السادسة من تلك الليلة فأطلقت شنكات البارود والحراريق والألعاب النارية أمام السراى من باخرة الخديوى الخصوصية وباخرتى محمد على ومصر واستمرت كذلك إلى الساعة السابعة من الليل وقد تسابق الناس على اختلافهم لرؤية هذا المنظر البهيج والمشهد الحافل وكانت ليلة لم يسبق لها مثال وأكثر الشعراء فيها من المدح والغزل وعملوا فى لجنة التصفية القصائد والمدائح وأوعز الرئيس مصطفى رياض باشا إلى مديرى الأقاليم فوردت رسائل التهانى ركاما من سائر البلاد.

وكان أول شيء بدىء به من نفثات التصفية زيادة مائة وخمسين ألف جنيه ذهبا على ضريبة الأطيان العشورية وتوزيعها على التساوى بلا فرق ولا تمييز بين الأراضى وبعضها قالوا: وستبقى هذه الضريبة معمولاً بها حتى ينجز ترتيب أمور الخزينة فلم

يتم توزيعها حتى انبث أصحاب الجباية يعيثون فى البلاد لجمعها فشق هذا الأمر على أصحاب تلك الأطيان وشكوا منه وتزاحموا على باب الرئيس فمناهم ووعدهم خيرا فسكتوا فلما كان خامس عشر رمضان من السنة قرر الرئيس اعتبار هذه الضريبة أصلا مقررا فى ضرائب الأطيان العشورية وأن لا يكون بينها وبين الضرائب الأصلية فرق وأن جميع الأطيان المعطاة قبل الآن بشرط أن تكون عشورية يربط عليها العشور المناسبة لها على هذا الأساس بعد فرزها وتقدير درجاتها وما كان معطى بدون شرط جعلها عشورية وكذلك جميع الأطيان الميرية التى تنقل من الآن فصاعدا من حيازة الميرى لحيازة أخرى تعتبر أطيان خراجية ويربط عليها الخراج بحسب الدرجة المناسبة لها فأتت الزيادة بعد ذلك القرار أمرا مقضيا فاشتد انقباض الناس من فعال الرئيس وتطيروا منها وابتعدت قلوبهم عنه أو كادت وكثرت الإشاعة بقرب خلعه وتنزيله عن منصب الرياسة.

(مطلب)

أول شكوى لضباط الجند مما يلاقونه من عثمان رفقى باشا

وأعقب ذلك أيضاً أن ظهر فريق من ضباط الجند يشكون مما يلاقون من عثمان رفقى باشا رئيس ديوان الجند وصرفه الكثير منهم عن الخدمة العسكرية واستعاضتهم بآخرين من جماعة الشراكسة بغير سبب، قالوا: سوى الميل إلى الجنسية ورغبته فى تبعيد أبناء البلاد ووالوا الشكوى وعظموا البلوى ورفعوا إلى الرئيس مصطفى رياض باشا ظلامتهم ووقفوا ببابه أياماً فلم يروا منه التفاتا وقد اشتد بهم الضيق وكثرت عليهم حاجة العيال فكانوا يجتمعون فى كل ليلة فى دار محمد أفندى فنى رئيس المترجمين بديوان الخزينة يتناجون فى أمرهم وما هم فيه من الشدة والفاقة ويرددون حديث ما تعانيه أهل البلاد من جفاء الرئيس مصطفى رياض باشا واستصغاره بأمور الرعية فاتصل به خبر اجتماعهم فبث حولهم العيون والأرصاد وهم لا يشعرون، فلما كانوا فى إحدى الليالى يتناجون فى حوادث يومهم ذلك إذ كبس عليهم نفر من الجند وأصحاب الشرطة ومأمور من مأمورى الضابطة وقبضوا عليهم جميعاً وساقوهم إلى المحبوس فباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا فنقلوهم إلى سجن قلعة الجبل ورسم الرئيس فهيئوا لمحاكمتهم مجلسا حربيا وشددوا عليهم وضيقوا فكثر تحدث الناس فى ذلك وتطاولت ألسنتهم إلى التقريع والسباب، فلما كان ثالث ذى الحجة سنة سبع وتسعين حكموا على محمد أفندى فنى صاحب البيت بالطرد من خدامات

الحكومة والسجن بقلعة الجبل سنتين وحكموا على من كانوا يجتمعون معه بالسجن والعزل من الوظائف العسكرية، واشتدوا من هذا الحين على جميع الضباط المصريين وبالغوا فى التضييق عليهم وخلعوا الكثير منهم بغير موجب ولا سبب واستودعوهم بربع الجماكى فكانوا نيفا وألف ضابط وقد حاق بهم الذل والحيف وأعمل الجوع فى أطفالهم عمله فتألبوا وتحزبوا وارتبط بعضهم ببعض بالأيمان والعهود وانضم إلى جمعهم كل ذى نائبة من أبناء البلاد وكانوا كثيرين لا سيما من ثقلت عليهم يد الرئيس، حدثنى صاحب لى قال: لما ظهرت علامات الفتنة وكادت تبدو إشارات الخروج وأحس الخديوى بذلك كلم الرئيس مصطفى رياض باشا وحذره من سوء العاقبة فلم يلتفت وكان إذا شدد عليه الخديوى وحذره وألقى عليه التبعة ذهب إلى قونصل الإنجليز وشكى إليه واستعان به على الخديوى فبلغ من نفوذ القونصل المذكور يومئذ أن صار يعزل ويولى من يشاء من مأمورى الحكومة وأرباب الوظائف وأتى بجماعة من قومه فأدخلهم فى خدمة الحكومة وسدّ بهم أبواب الرزق فى وجوه أهل البلاد وجاراه فى ذلك قونصل الفرنسيس فبات الرئيس وهو لا يقدر أن يخالف لهما كلمة ولا ينبذ لهما طاعة وظل على هذه الحال والخديوى لا يرى للخلاص سبيلا.

(مطلب)

ظهور الوحشة بين المراقب الفرنسوى وقونصل جنراله وظهور عصابة الجند

ورأى المسيو دى بلينار مراقب الفرنسيس من نفوذ قونصل جنرال دولته واتساع كلمته وتطاول يده إلى أعمال الحكومة والعبث بمنصب المراقبة ما أزعجه وبلبل أفكاره فكلم الرئيس مصطفى رياض باشا فى ذلك وحذره من سوء العاقبة ثم جعل يمانع فى تداخل القونصل ويعمل على إيقافه عند حده فاستكبر القونصل ذلك ونقمه عليه وناواه الخصام فقامت بين الاثنين قائمة الشحناء واشتدت البغضاء وأعرض الرئيس عن المراقب ومال إلى جانب القونصل فكبر بغض المراقب له أيضاً واستفحل بينهما الخلاف واستعصى الوئام، وبينما كان الرئيس والمراقب والقونصل يتنازعون النفوذ والحرب بينهم سجال كان عثمان رفقى باشا رئيس ديوان الجند يكثر من عزل الضباط المصريين ويقصيهم عن مناصبهم ويولى بدلهم جماعة الشراكسة وكان ممن عزلهم من مناصبهم كبير من ضباط الفرسان اسمه أحمد بيك عبد الغفار وكان له منزلة وحرمة بين قومه فما شاع خبر عزله حتى انضم إليه جماعة الضباط المعزولين وجعلوا

يجتمعون فى كل ليلة فى داره ثم اتفقوا على أن يختاروا لهم رئيسا يرجعون إليه فى أمورهم وتدبير شئونهم فوقع اختيارهم على أحد أمراء الجند المدعو أحمد بيك عرابى أمير جند الألاى الرابع فلبى دعوتهم وتجرد لنجدتهم وعمل على توحيد كلمتهم وأحكم التدبير على ما يناسب مصلحتهم، قلت: وأحمد عرابى بيك هذا رجل ولد من أبوين فقيرين وكان مولده فى ليلة السبت ثالث عشرى جمادى الثانية من عام ثمان وأربعين ومائتين وألف هجرية، وقيل: ولد فى صفر عام سبع وخمسين فى قرية من قرى الشرقية تسمى هرية رزنه على بعد بعض فراسخ من الزقازيق أنشأها محمد على باشا الكبير وأسكن بها جماعة من العربان الذين يقال إن أجداد أحمد عرابى هذا منهم وأقطعهم بعض الأراضى لزرعها واستغلالها رزقة بلا مال إلى أجل فكان ما أصاب أبو أحمد المدعو عرابى من تلك الأرض ستة أفدنة سوادا فكانت مادة حياتهم ومنبع تعيشهم، فلما بلغ أحمد عرابى أشدّه سلمه أبوه إلى قبطى اسمه المعلم مخاييل غطاس وكان صراف الناحية ليعلمه القراءة والكتابة فلازمه زهاء خمس سنوات أحسن فيها معرفة القراءة والكتابة وبعض القواعد الحسابية ثم أدخله أبوه فى مصاف طلبة العلم بالجامع الأزهر فرارا من العسكرية وذلك سنة خمس وستين ومائتين وألف هجرية فلبث به زهاء الأربع سنوات يتلقى بعض أصول النحو واللغة والفقه وحفظ القرآن ثم عاد إلى قريته وأقام مع والديه إلى سنة اثنتين وسبعين ومائتين وألف هجرية ثم أخذ إلى العسكرية قهرا على عهد سعيد باشا وكان من أهل قريته بالمعسكر جاويش بروجى لسعيد باشا اسمه حسن حلمى له كلمة مسموعة فتقرب منه أحمد عرابى ولازمه واحتسب عليه فأحبه وعمل على مساعدته فرقى بواسطته إلى رتبة بلوك أمين للبلوك السابع من الأرطة الرابعة من ألاى المشاة الأول وكان يعرف بين الجند يومئذ بالشيخ أحمد عرابى فلما كانت سنة ثلاث سبعين رقى إلى رتبة ملازم ثم إلى رتبة يوزباشي فى سنة أربع وسبعين ثم إلى رتبة الصاغقول أغاسى والبيكباشي إلى سنة ست وسبعين وكان فى غضون هذه المدة قد بلغ حسن حلمى البروجى رتبة القائمقام ومات فبكاه أحمد عرابى بكاء مرا وجزع عليه جزعا شديدا وبلغ ذلك طيب الذكر سعيد باشا فتعجب ومنحه رتبة حسن حلمى المتوفى وذلك سنة سبع وسبعين فصار من هذا الحين معدودا من كبار ضباط الجند ولبث على هذا الحال حينا ثم اعتزل الخدمة حينا أيضاً ثم عاد إليها فى أوائل ولاية إسماعيل باشا فى سنة تسع وسبعين هجرية ولبث بها إلى أن وقعت بينه

وبين خسرو باشا أحد كبار الضباط الشراكسة خصومة فهيئوا لمحاكمة أحمد عرابى مجلسا حربيا فحكم عليه بالحبس بضعة أيام فلم يقبل الحكم ورمى هيئة المحكمة بالمروق عن جادة العدل والأخذ بالوجوه فرفعوا أمره إلى إسماعيل باشا فأمر بإبعاده عن الخدمة العسكرية فأبعدوه وبالغوا فى تذليله فكبر عليه الأمر وعظم بغضه لطائفة الشراكسة ولبث مبعدا زهاء السنة ثم توسط بعض أهل الخير فى شأنه فأدخلوه فى خدمة الدائرة الحلمية وهى دائرة الأمير إلهامى باشا ولد عباس باشا الأول فأحسن الخدمة واستمال إليه كبار الدائرة فزوّجوه بابنة مرضعة الأمير إلهامى وهى أخت حرم الخديوى محمد توفيق باشا بالرضاع، ولما كانت سنة اثنتين وتسعين ومائتين وألف هجرية تشفعوا له عند الخديوى إسماعيل بسبب زوجته فأعاده إلى خدمة الجندية فلم يستقر به المنصب حتى جعل يبث بين الضباط من المصريين روح الألفة والاتحاد ويقرب بعضهم إلى بعض حتى صاروا على قلب رجل واحد فلما تولى الخديوية الأمير محمد توفيق باشا وأحسن على الكثير من رجال العسكرية والملكية بنياشين الشرف ورتب الاعتبار ساعد الحظ يومئذ أحمد عرابى فنال رتبة الميرالاى وكان ذلك فى رجب سنة ست وتسعين .

(مطلب)

تحالف الضباط المصريين على السيف والمصحف وانتداب أحمد عرابى للزعامة ورفعة عريضة بالطعن فى عثمان باشا رفقى

واتفق فى هذا الحين أن شرع عثمان رفقى باشا كبير ديوان الجند فى سن قانون للقرعة العسكرية دل مبدؤه على عدم جواز ترقى أحد من الجند إلى الرتب العالية حيث قضى على العسكرى أن يبقى فى الخدمة مدة أربع سنوات ثم يذهب إلى بلده إمداديا ويبقى هكذا مدة خمس سنوات أخرى ويأتى إلى مركز المديرية شهرين فى كل سنة لمباشرة التمرينات العسكرية وبعد مضى الخمس سنوات يقيم فى بلده بغير عمل ويسمى احتياطيا تحت الطلب مدة ست سنوات ثم يمحى اسمه من دفاتر الجندية فلما ذاع خبر هذا القانون بين ضباط الجند فرح لسماعه جماعة الضباط الترك والشراكسة وانقبض له الضباط المصريون وعلموا بأنه إنما سن هذا القانون على هذا المبدأ لحرمانهم من الرتب وجعلهم جندا تحت تسلط جماعة الترك والشراكسة واختصاص هؤلاء بالرتب والمناصب العالية فجعلوا يقبحون العمل به وشكوا من

فعال عثمان رفقى باشا وكان بين الباشا المذكور وبين على فهمى المعروف بعلى الديب أمير ألاى جند الحرس الخديوى وعبد العال حلمى المعروف بعبد العال أبى حشيش تفور ووحشة لأمور لم نصل إلى معرفتها فاجتمع على فهمى وعبد العال وأحمد عبد الغفار بأحمد عرابى فى بيته وتناجوا فى أمر ذلك القانون وفى فعال عثمان رفقى باشا ثم تحالفوا وتعاهدوا وارتبطوا بالمواثيق على أن يكونوا كرجل واحد ثم أصبحوا وقد جمع كل من عنده من الضباط والصف ضباط وخطب فيهم خطب الحث والتهييج ضد جماعة الشراكسة وقبح لهم فعال عثمان رفقى باشا ثم استحلفهم على السيف والمصحف بأن يكونوا يدا واحدة وقلبا واحدا على مساعدة أمراء الألايات الثلاثة فى عملهم والمحافظة على أرواحهم إذا قصدوا بسوء وبعد أن تم ذلك كتب كل من ضباط الأيالات عريضة يطلبون فيها بعض المطالب الذى هم فى حاجة إليها فأخذ أحمد عرابى العرائض الثلاثة وأبقاها عنده ورفع هو عريضة أخرى إلى الرئيس مصطفى رياض باشا يقول:

مقدم هذا لإعتاب دولتكم بغاية كل خضوع ضباط الجهادية وما نعرض عنه أفندم أنه لما أشرقت بحمد الله أنوار شمس الحضرة التوفيقية وأينعت بالعدل فى أرجاء ديارنا المصرية نشر العدل ألويته على دوائر أطلالنا وتحررت رقاب المصريين من رق العبودية كما تخلصت نفوسهم من ضيق الاستبداد الذى طالما استولى على بلادنا عدة أجيال يعاملنا بأنواع المظالم الغدرية فحمدناه تعالى على ذلك وسألناه التوفيق لتشييد دعائم أركان العدل والإنصاف محفوفة برياض الحرية المبنية على المساواة فى الحقوق بين الرعية لكن لما أحيل على سعادة عثمان رفقى باشا نظارة الجهادية رأينا سعادته يعامل ضابطان الجهادية بالذل والاحتقار ويسعى فيما يوجب لنا الحرمان والإضرار كاننا الأعداء الألداء وكأن الله سبحانه وتعالى يطلب منه ظلم المصريين والإجحاف بحقوقهم مقتفيا فى ذلك أثر راتب باشا فى آخر العهد السابق من تهييج الأفكار وإثارة الفتن التى تكون سببا فى توقيف حركة الإصلاح الإدارى قصد أن يتمكن مما ساقته إليه نفس سعادته وما زلنا صابرين على مضض البلايا حتى آل الأمر لحرمان أغلبنا من خدمة وطننا مع استعدادنا وتأهلنا وعدم تأخرنا عمن ترقوا فى الخدمة بوجه امتياز على ما بهم من العلل ولا موجب لترقيهم سوى كونهم أقارب ومحاسيب من لهم فى العسكرية النفوذ المطلق وبرهاننا على ذلك أنه موجود بديوان الجهادية فوق الألف ضابط بقلم المستودعين لم يكن فيهم أحد من غير الوطنيين

وهذا مضاد للمساواة ومجحف بالحقوق هذا ومن بعد أن تبين لسعادته تسكين الخواطر واستقامة الأحوال كبر ذلك عليه وقصد تهييج الأفكار بإصدار أمره المبنى على الاستبداد والاستعباد برفت أحد قايمقامى السوارى المسمى أحمد عبد الغفار بيك بصورة تهكم بغير محاكمة قانونية وعلى ضد كل قانون عادل فبذلك هيج بلبالنا وأورثنا عدم الأمن والاطمئنان وصرنا متوقعين الإيقاع بنا واحدا بعد واحد ما دام سعادة المشار إليه فى مسند نظارة الجهادية الذى لا تسمح القوانين الحرة بتوجيه هذا المسند لمثل سعادته ومما يؤيد تلك القوانين مسألتا كنج چاهين وحافظ باشا وبعد ذلك ينظر فى أفضلية من امتازهم عنا بالخدمة مع عدم مساواتهم معنا فى العلوم والآداب العسكرية وغيرها ومآثر دولتكم فى تسكين حركة الخواطر وبث روح العدل والمساواة اتباعا لمبدأ الحضرة الخديوية يوجب علينا القيام بواجبات الشكر الحقيقى والأمر لمن له الأمر انتهى.

(مطلب)

تشكيل المجلس العسكرى للحكم على عرابى بك ومن معه من كبار العسكر

فلما علم الرئيس مصطفى رياض باشا بما فى هذه العريضة كبر عليه الأمر ونقمه على أحمد بيك عرابى وجمع إليه فى الحال هيئة مجلس الوزراء وعقد مجلسهم وبينهم عثمان رفقى باشا كبير ديوان الجند وتكلموا فى الأمر طويلاً فطال بينهم الأخذ والرد ساعة ثم انفض مجلسهم على غير طائل وعلم الخديوي بالخبر فكلم الرئيس مصطفى رياض باشا وحذره سوء العاقبة وأشار بالتأنى وترك العجلة ورسم بالمجاملة والتلطف وترك القسوة والعنف فلم يعجب الرئيس منه ذلك وتجرد إلى المقاومة وعمد إلى التهديد فبث العيون وشدد فى النكير والضباط لا ينكفون عن التحزب والتألب وضم كل بعيد عنهم ممن مسه الضر بفعل الرئيس، فلما كان صبح الثلاثاء ثالث ربيع الأول من السنة أى سنة ثمان وتسعين اجتمع الرئيس مصطفى رياض باشا ببقية الوزراء فى جلسة خصوصية وكلمهم فى أمر أحمد عرابى بيك ومن معه من جماعة الضباط فاتفقوا بعد جدال على تشكيل مجلس عسكرى من كبار الشراكسة لمحاكمة كل من له يد فى تأسيس عصابتهم وتشكيل محكمة أخرى من بعض الموظفين الملكيين لمحاكمة من انضم إليهم من الأهليين وقد أخذ عثمان رفقى باشا على عهدته تنفيذ ما يتعلق بزعماء العصابة وقام من ساعته وذهب إلى

مقر ديوانه بقصر النيل وجمع إليه رجال مجلسه الحربى وكلهم من الشراكسة فتكلموا فى الأمر برهة قصيرة ثم برز من مجلسهم الحكم بتجريد كبار العصابة من رتبهم ووظائفهم العسكرية وتبعيدهم عن الديار المصرية وتسليم مناصبهم لجماعة من الضباط الشراكسة وكتبوا فى الحال ثلاثة أوامر إلى الثلاثة أمراء وهم على بيك فهمى المعروف بعلى الديب أمير جند الحرس الخديوى وأحمد عرابى بيك أمير جند الآلاى الرابع وعبد العال حلمى بيك المعروف بأبى حشيش أمير الجند السودانى يستدعونهم إلى قصر النيل بحجة أن عثمان باشا كبير الديوان يريد مشاورتهم فيما يجب فعله من ترتيب زفاف الأميرة جميلة هانم أخت الخديوى فلم تخف عليهم الحقيقة وقد علموا بكل ما وقع الاتفاق عليه ومع ذلك فإنهم لم يتأخروا وقاموا من فورهم وساروا إلى قصر النيل ومعهم من يأتى بالخبر إلى أصحابهم إذا حل بهم ما يكرهون فلما دنوا من مقر عثمان رفقى باشا أحاطت بهم طوائف الحرس ومشى خلفهم كثير من الضباط الشراكسة وأدخلوهم إلى حيث المجلس العسكرى فلما وقفوا بين أيدى رجال المجلس التفت إليهم خسرو باشا أحد الأعضاء وقال: قد حكم عليكم اليوم مجلسنا العسكرى بالتجريد من الوظائف وجميع الرتب العسكرية ومحو أسمائكم من سجل العسكرية فاخلعوا عنكم سيوفكم الآن وسلموها. فقال أحمد عرابى بيك: قد سمعنا ما تقول ونطلب أن تطلعنا على ورقة هذا الحكم لنكون على علم بما جنينا ونعرف ما إذا كان حكمكم هذا ينطبق على ما جاءت به أحكام القوانين العسكرية أو... فقاطعه أحد رجال المجلس بأن قال: ومن أين أثبتم لأنفسكم حق هذا النظر وكيف تطلبون الاطلاع على ورقة الحكم وأنتم اليوم مجرمون مجردون من كل رتبة وشرف، ثم صاح ببعض الحراس خذوا عنهم سيوفهم الساعة واذهبوا بهم إلى حيث أمرناكم فخلع الأمراء عنهم سيوفهم وسلموها وهم صاغرون فأخذوهم ومضوا بهم إلى أسفل الديوان ووضعوا كل أمير منهم فى سجن منفردا تخفره الجند وبعض كبار الجراكسة وكان ذلك فى نحو الساعة العاشرة نهارا فلما بلغ خبر سجنهم عسكر الحرس الخديوى برحبة عابدين وكان محمد أفندى عبيد أحد كبار ضباط هذا الحرس يراقب الحوادث وقد علم بما وراء حبس الأمراء نادى فى جنده بالخروج فخرجوا جميعاً بأسلحتهم وعدّتهم فاعترضه خورشيد بيك يسمى قائمقام الحرس وسأله عن سبب خروج العسكر على هذه الصورة فلم يلتفت إلى قوله وأمر بعض الجند فقبضوا عليه وأودعوه فى إحدى الحجرات ووقفوا على بابه يخفرونه وسار محمد عبيد بجميع الجند إلى قصر النيل وهم فى ضجة وجلبة وبلغ الخديوى الخبر

فأشرف على الجند من شرافة السلاملك ورسم إلى الفريق راشد حسنى باشا بمنعهم من الذهاب إلى قصر النيل فلم يتمكن فأمر بروجى قرا قول السراى بأن ينفخ فى البوق مناديا لجماعة الضباط أن احضروا أمام الخديوى فلم يلتفت أحد لندائه وظلوا سائرين وهم فى ضجة وجلبة حتى دخلوا أبواب قصر النيل فمانعهم بعض الجند النازلين هناك فلم يلتفتوا إليهم وقصدوا مقر الفريق عثمان رفقى باشا وكان عثمان باشا قد علم بخبر مجىء الجند فأمر بالأبواب فأغلقت فلما رأى الجند أن الأبواب مقفلة صاحوا ودمدموا وكسروها واقتحموها عنوة وهم يكثرون من الشتم واللعن وبادروا كل من لاقوه بالضرب واللكم والسب وفتشوا على عثمان رفقى باشا يريدون البطش به فلم يعثروا له على أثر وكان قد خرج من ديوانه مسرعا حتى دخل ورشة تشغيل ملابس العسكر فقام إليه ناظرها ألماس بيك وأخذ بيده وأدخله أحد المخازن وستره عن الأعين ببعض الأكياس الفارغة فتوارى هناك فلما لم يجدوه اقتحموا سجون الأمراء الثلاثة وأخرجوهم وساروا بهم إلى مقر الحرس الخديوى حملا على الأيدى وهم حاسرون الرؤوس والناس خلفهم فى ضجة وجلبة عظيمتين.

ووصل الخبر إلى الخديوى بما جرى فاضطرب وأىّ اضطراب وسير فى طلب الرئيس مصطفى رياض باشا وسائر الوزراء فحضروا فرسم بذهابهم إلى قصر النيل ليتداركوا الأمر قبل استفحاله فساروا ولم يتجاوزوا رحبة عابدين حتى رأوا الجند آتين ومعهم الأمراء الثلاثة وهم ينفخون فى البوق وخلفهم العامّة فى ضجة عظيمة فعادوا مسرعين إلى مقر الخديوى وأعلموه بالخبر ولم يكد يقرّبهم المقام حتى أحاط الجند بالسراى إحاطة السوار بالمعصم وقد طار الخبر فى هذه الأثناء إلى معسكر طرا والعباسية فحضر منهما على الفور فرقتان بالبنادق والحراب وانضمتا إلى جند الحرس ورفعوا أصواتهم على الأثر ونادوا بالويل والثبور على عثمان رفقى باشا وأشياعه وطلبوا خلعه من منصبه وأكثروا من الضجيج والصياح فسير إليهم الخديوى يقول هوّنوا عليكم فسنرى فيما تطلبون الساعة فضجوا عند ذلك بالدعاء للخديوى ثلاثاً وقد هرع الناس عند سماعهم الضجيج وأتوا إلى رحبة عابدين من كل فج عميق وتزاحموا خلف صفوف الجند وعلت بينهم الضوضاء وصاح الصبيان (الله ينصر السلطان) واجتمعت الغوغاء وكثر الهرج والمرج وحضر قناصل الدول إلى مقر الخديوى وهم فى دهشة واضطراب وكان أحمد عرابى بك قد أرسل إليهم فى الحال يعلمهم بالحادثة ويطمنّ خواطرهم من نحو رعاياهم وأتباعهم ويقول لهم: إنه لا علاقة لهذه الحركة قط بالأمور السياسية.

(مطلب)

تولية محمود باشا البارودى رئاسة ديوان الجند وما كان

ورأى الخديوى من استفحال الخطب ما أزعجه فأمر بمجلس الوزراء فانتظم وحضره جميع من حضر من قناصل الدول وتكلموا فى الأمر طويلاً ثم استدعوا أحمد عرابى بك وسألوه ماذا يطلب فتكلم كثيراً وبالغ فى الشكوى وعظم البلوى ثم قال: إنا لا نطلب الآن سوى خلع عثمان رفقى باشا وتنزيله من منصبه فتناجوا فى الأمر طويلاً ثم قرروا خلع عثمان باشا من منصبه والعفو عن الأمراء الثلاثة وأن تعاد لهم وظائفهم فنزل أحمد عرابى بك وأعلم جميع الضباط بماجرى ووقع الاتفاق عليه ونادى فى العسكر بالمسير فهتفوا جميعاً بأصوات الدعاء ثلاثاً وانسحبوا إلى معسكر عابدين والموزيقى تصدح أمام صفوفهم فباتوا ليلتهم وهم بين راقص ومطرب ومدخن بقصبة دخانه وضاحك مع رفيقه حتى مطلع الفجر فسارت الجنود السودانية مع مقدمهم عبد العال بك إلى طرا وسار أحمد عرابى بك بعسكره إلى العباسية وأصبحوا وقد تولى محمود باشا البارودى رياسة ديوان الجند بدلاً من عثمان رفقى باشا المعزول فانحاز جميع الأمراء ومقدمى الجند إليه وتقربوا منه ليكون لهم عونا فأعجبه ذلك منهم ومال إليهم وتقدم إلى الخديوى فى طلب العفو عنهم جميعاً وما زال به حتى أجابه إلى ذلك.

فلما كان يوم السبت عشرى ربيع الأول رسم الخديوى بحضورهم جميعاً إلى مقره بعابدين فحضروا فى الساعة الخامسة وفى مقدمتهم محمود باشا البارودى فلما تمثلوا بين يديه قام فيهم خطيباً يقول:

إنكم تعلمون حق العلم ما عندى من الميل والمحبة للعساكر والالتفات إلى شئونهم من يوم استلامى زمام الحكومة وذلك لما هو محقق لدىّ من أنهم متحدون معى على مقاصدى الحسنة التى هى دوام حفظ الأمنية واستقامة الأحوال الإدارية فى هذا القطر لذلك لا أخفى عليكم ما حصل لى من الأسف بأسباب الحركة التى حدثت وانقضت ومع ذلك فإنى قد عفوت ولم يبق فى قلبى من آثارها شىء بالكلية فيلزمكم من الآن فصاعدا أن لا تشتغلوا بشىء خارج عن حدود وظائفكم واجتهدوا فى أداء واجباتكم العسكرية ومن المعلوم أن سعيى واجتهادى متجه إلى إصلاح الأحوال وتحسين الأمور وهيئة النظار الحاضرة متحدة معى فى هذه المقاصد الخيرية ومجتهدة فى تتميم ما يجب من الإصلاحات اللازمة وليس بخاف عليكم ما تم بهذا

القطر من الإصلاحات المالية والإدارية فى ظرف سنة واحدة وذلك مما يوجب على كل محب لهذا القطر إبداء الشكر وإظهار المسرة وحاصل ما أقول لكم إن العساكر ليس لهم وظيفة سوى التمسك بالقوانين العسكرية والسعى فى أداء واجباتهم والامتثال لولى أمرهم وإنى لعلى يقين من أنكم تعتقدون بأن أكمل الصفات العسكرية هى الاستقامة والامتثال فى جميع الأمور والأحوال فمن الواجب عليكم أن تحافظوا على ذلك وتجعلوا أعمالكم كلها دائرة على هذا المحور . اهـ.

فلما أتم خطابه هتفوا جميعاً بالدعاء وانصرفوا ثم توجه الأمراء الثلاثة إلى قونصلى الفرنسيس والإنجليز وتكلموا معهما فيما هم عليه من السكينة والتمسك بالحدود والقوانين العسكرية وأن ليس هناك قط ما يدعو إلى القلق أو الاضطراب ولله درّ من قال:

فلا يمنعنك الطير شيئاً أردته فقد خط بالأقلام ما كنت لاقيا

ولم يكن يرضى الرئيس رياض باشا عما بدا من الخديوى من والعفو السماح ولا عما وقع من خلع عثمان رفقى باشا من منصبه ولا عن تولية محمود باشا البارودى مسند نظارة الجهادية فجعل يرقب الفرص ليوقع بالأمراء الثلاثة وصار يكيد لهم كيدا والبارودى يعمل على ما فيه المصلحة لهم والذب عنهم وما زال حتى أعيت الرئيس الحيل وكاد يخيب منه الرجاء والأمل وتحقق أن لا نجاح له ولا فلاح إلا بالخلاص من البارودى فعمد إلى معاكسته فى السر والنجوى ورماه بتهمة الخيانة وإفشاء أسرار الحكومة وأعمال مجلس الوزراء قبل تقريرها وتبليغ قونصل جنرال الفرنسيس بحوادث البلاد قبل إذاعتها، قيل: وقد كان البارودى تقرب من قونصل الفرنسيس وتحبب إليه فأحبه ومال إليه انتقاما من الرئيس لما بينهما من سابق العداوة التى تقدم الكلام عنها واشتد الخلاف بين الرئيس والبارودى شدة بالغة وشكا الرئيس للخديوى وقبح مصاحبة البارودى للقونصل وكتب إلى رئيس جمهور الفرنسيس يشكو من فعال القونصل ويعيب تداخله فى أعمال الحكومة وأوعز إلى بعض أصحاب صحف الأخبار المحلية فقاموا وقعدوا ووقعوا بالقونصل سبا وتعييبا وأكثروا من اللوم والتقريع بدولة الفرنسيس لتركها قونصلها يعمل على إثارة الخواطر وبلبلة الأفكار وأعانهم المراقب الفرنسوى على ذلك أيضاً لما بينه وبين القونصل من البغض والمزاحمة على النفوذ.

(مطلب)

اشتداد الخلاف ما بين قونصل الفرنسيس والرئيس مصطفى رياض باشا وما كان من وراء ذلك

ولما اشتد الخلاف بين القونصل والرئيس وكبرت الوحشة بينهما قام جماعة من الفرنسيس نزلاء القاهرة والإسكندرية واجتمعوا بالنزل المعروف بنزل أبات بالإسكندرية يريدون تعضيد القونصل ورد كيد الرئيس والمراقب عنه فخطب فيهم الخطباء وتكلم بينهم الفصحاء فى ذلك اليوم وهم يقبحون أفعال الرئيس والمراقب وكتبوا بذلك محضرا وبعثوا به إلى مجلس نواب بلادهم وسألوهم أن لا يعيروا شكوى الرئيس ووشاية المراقب جانب الالتفات وأن يستبقوا القونصل فى منصبه كى لا يهدموا بأيديهم ما بناه القونصل بديار مصر من العز ونفوذ الكلمة فلم يكد يصل خطابهم إلى عاصمة الفرنسيس حتى جاء الطلب إلى القونصل مع البريد فهاج أصحابه وماجوا ورفعوا عريضة ثانية إلى كبير جمهورهم فلم ينالوا وطرا وسار القونصل عن القاهرة فى غاية ربيع الأول من السنة فشيعه العدد العديد من الفرنسيس وبالغوا فى الاحتفال بوداعه وألقوا المقالات المهيجة وهم على ظهر الباخرة التى نزل بها راجعا إلى بلاده وفرح أصحاب صحف الأخبار الإنجليزية بخلع القونصل وتبعيده عن ديار مصر واتهموه بالاشتراك فى مؤامرة الجند وخروج الأمراء الثلاثة وقالوا إنه هو الذى حضهم على شق عصا الطاعة نكاية بالرئيس وأصحابه فرد عليهم أصحاب صحف أخبار الفرنسيس وأغلظوا فى الرد وتجافوا فى القول وقامت بينهم حرب الأقلام على قدم وساق واشتد الغيظ بأصحاب القونصل وقام زعيمهم المدعو الموسيوجاكن وألف لجنة أو عصابة سماها العصابة الوقتية المكلفة بالدفاع عن مصالح الفرنسيس بأرض الفراعنة وكتب إلى كبير جمهور الفرنسيس يقول: إنى بصفتى رئيس اللجنة المؤقتة المكلفة بالدفاع عن مصالح الفرنسيس فى ديار مصر أطلب بإلحاح أن تنظروا بعين الالتفات إلى العريضة التى بعثنا بها لمقامكم على جناح البريد ثم نشر الزعيم المذكور فى رابع ربيع الثانى إعلانا يطلب فيه اجتماع كافة الفرنسيس نزلاء مصر والإسكندرية وسائر التابعين للراية ذات الألوان الثلاثة يعنى الراية الإفرنسية بالنزل المعروف بنزل أبات بالإسكندرية لإقامة لجنة دائمة تكلف بالدفاع عن مصالح الفرنسيس عوضا عن تلك اللجنة المؤقتة فلبى القوم دعوته وتزاحموا حتى غص بهم المكان فقام فيهم الخطباء والنصحاء ورموا الرئيس بالخيانة

لوطنه والمروق عن جادة الحق وبالغوا فى السب والتعييب بين أصوات التهليل وضجيج الاستحسان ثم بعثوا بعد ذلك برسالة ثالثة إلى كبير جمهورهم فلما علم الرئيس بما جرى خشى العاقبة وقد أحس بوشك رجوع القونصل إلى منصبه فتقدم إلى الخديوى فى التحرير إلى كبير جمهور الفرنسيس بمنع رجوع القونصل إلى ديار مصر كى لا يتكدر صفاء المودّة بين البلدين فأجابه الخديوى إلى ذلك وكتب .

(مطلب)

القبض على أحد الضباط الشراكسة وهو يستكتب ضبط الجند السودانى بالشكوى من عبد العال بيك حشيش

ولم يكد يطمئن قلب الرئيس باستحالة رجوع القونصل إلى منصبه حتى قام زعماء عصابة الجند وقعدوا وهاجوا وماجوا وكثر اجتماعهم فى دار البارودى وطاف أعوانهم يرجفون ذلك لأن عبدالعال بيك حشيش أمير الجند السودانى قبض على أحد الشراكسة من الضباط الذين معه وهو يطوف على جميع الضباط والعسكر السودانى يحضهم للتوقيع منهم على محضر قالوا إنه مرقوم عن لسان جميع الضباط والجند بأنهم ليسوا راضين عن أميرهم عبد العال وأنهم يطلبون العفو من الخديوى عما سلف من طاعتهم لأميرهم وإخراجهم إياه من قصر النيل قالوا: وقد ثبت أن يوسف باشا كامل كبير ديوان بيت الخديوى يومئذ هو الذى استقدم إليه الضابط المذكور وسلمه ذلك المحضر وتسعمائة جنيه ذهبا عينا وأوصاه أن يبذل جهد المجتهد فى التوقيع عليه من جميع ضباط وأفراد جند عبد العال ولكل ضابط فى نظير ذلك ثلاثة جنيهات وللجندى جنيه وله هو فى مقابلة ذلك الرفعة وعلو الكلمة فذهب الضابط وسعى وسط الجند فاستمال بعضهم وخدع بعضهم وكان ممن تكلم معه فى ذلك أونباشى أى كبير عشرة من الجنود فوافقه الأونباشى ووعده ثم تركه وذهب إلى القائمقام وأعلمه بالخبر فقام من فوره ودخل على ذلك الضابط وقبض عليه وفتشه فوجد المحضر وعليه نيف وثلاثون توقيعا فكبله بالحديد وألقاه فى الحال بالسجن وضيق عليه وسأله فاعترف بما ذكر وبأنه رسول يوسف باشا كامل فسير القائمقام فى الحال إلى عبدالعال بيك فحضر وأخذ تلك الورقة وعاد بها إلى رفاقه وأعلمهم بخبر الضابط واجتمعوا بمعسكر رحبة عابدين وأرسلوا إلى البارودى باشا فجاء على الأثر وعقدوا مجلسهم وتناجوا فى الأمر ثم قام البارودى ودخل على الرئيس وأعلمه بما

جرى فلم يهتم به ولم يلتفت إليه فساء البارودى ذلك وذهب إلى الخديوى وحدثه بما جرى فغضب ورسم بخلع يوسف باشا وتبعيده عن القاهرة فسار إلى أرض له بالإقليم البحرى وخمدت بتبعيده نار الفتنة وسكت خواطر زعماء العصابة وأخذوا من ذلك اليوم بأطراف الجد والحزامة فتقدموا إلى البارودى فى ترتيب سائر أمور الجندية على ما يقتضيه نظامها وتقييدها بالقوانين واللوائح والنظر فى حالة الترقى والجماكى والمرتبات وسنّ قانون يكون إليه المرجع فى تقدم كل عسكرى وواجباته وعدم تقييد حياته بالخدمة العسكرية وغير ذلك من أوجه الإصلاح فأجابهم البارودى إلى ذلك وكلم الرئيس مصطفى رياض باشا فى الأمر فحاول وطاول البارودى يلح فى الطلب فلما أعيته الحيلة سأل الخديوى فى ذلك فكلم الخديوى الرئيس فلم يلتفت وأصر على الإباءة فرسم الخديوى بتشكيل مجلس من جاكى باشا واستون باشا وبلتش باشا وإسماعيل كامل باشا وأحمد عرابى بيك وبرناردى بيك والمستر جولد اسمث مفتش الدار السنية وغيرهم من الضباط لينظروا فى طلبات زعماء الجند ويقدروها قدرها فاجتمعوا ووالوا الاجتماع أياما ثم رفعوا إلى الرئيس مصطفى رياض باشا محضرا بينوا فيه لزوم تقليل العسكر العامل وجعلوا حدًا للترقى فى الدرجات العسكرية تخلصا من تزايد عدد المستودعين وقالوا: إنه يوجد من هؤلاء أى من المستودعين بعد الذين أدخلوا فى الخدمات الملكية والدواوين العمومية ما يبلغ ألفا وزيادة وطلبوا من الرئيس الإقرار على هاته القاعدة فأجابهم إلى ذلك كارها ورفعها إلى الخديوى فرسم بتنفيذها والعمل بها فبات الجند وأصبحوا وقد زادت جماكيهم وزادت أيضا المرتبات والعلوفات فظهرت عند ذلك كلمة محمود باشا البارودى وعلت منزلته واتسعت شهرة أحمد عرابى بيك وأحبه الضباط والجند كافة ومالوا إلى طاعته والاجتماع عند إشارته إلا نفرا من الضباط فسعى فى عزلهم وتولية أنصاره مكانهم.

ورأى البارودى بعيد هذا كله ضرورة الجمع ما بين زعماء العصابة والرئيس مصطفى رياض باشا وصرف ما فى النفوس لعل الأزمة تنفرج، فلماكان حادى عشرى جمادى الأولى من السنة أولم وليمة عظيمة بقصر النيل ودعا إليها جميع الوزراء والمراقبين الإنجليزى والفرنسوى وضباط الجند فلما جلسوا على الطعام قام البارودى وخطب فيهم فكان ما قاله، هذه ليلة أنس دعتنا إلى الاجتماع فيها دواعى المحبة والائتلاف تذكارا لمآثر الحكومة الخديوية الجليلة التى وجهت وجه عزيمتها إلى

إصلاح أحوال الأهالى جميعا وإقامة العدل فيهم وإيصال كل لما يستحقه فقد رأينا فى هذا الزمن القليل من عهد خديونا المعظم زمام الحكومة تغييرا مهما إذ تبدل فيه العسر باليسر والظلم بالعدل وما ذاك إلا من حسن مقاصد هذا الجناب وطهارة سجاياه ـ إلى أن قال ـ ولاريب فى هذه النعم يجب علينا استبقاؤها والاستزادة منها ولن يكون ذلك إلا إذا قرناها بالشكر فقد قالوا الشكر سياج النعم وحقيقته أن يكون جميعنا مخلصا للحكومة فى خدمته قائما بواجباتها معضدا لجميع مقاصدها خاضعا لأوامر الحضرة الخديوية التى هى السبب فى هذا الخير العظيم وعلى ذلك لابد أن نـنادى جميعا فليحى الجناب الخديوى أطال الله بقاءه، فقام بعده الرئيس مصطفى رياض باشا وتكلم مخاطبا طوائف الضباط ـ إلى أن قال ـ إن محسنات العدل ووجوه الإصلاح التى امتازت بها أيام حكم الجناب الخديوى فى هذه الأوطان أمر معلوم يعدّ تعداده من قبيل تحصيل الحاصل وأنتم معاشر الضباط تعلمون ذلك حق العلم فلا حاجة إلى بسط الكلام فيه وإن ضباط العسكرية وهم من أشرف أعضاء الحكومة ممن شملتهم هذه المحسنات وعمتهم فوائد الإصلاح . ـ إلى أن قال ـ وقد رأيتم من أنفسكم أن حقوقكم وصلت إليكم وأنتم قوة الحاكم وآلته المنفذة فإذا بادأكم الحاكم بحسن الالتفات ونظر إليكم بعين الرأفة والرحمة فعليكم وجوبا كما أخذتم مالكم أن تؤدّوا ما عليكم وهو طاعة ولى الأمر الذى هو السبب الأعظم فى جميع هذه الخيرات ـ إلى أن قال ـ وعلينا جميعا أن نبتهل إلى الله تعالى ببقاء الخديوى وتأييد عزة وأن ننادى بلسان الحال فليعش الجناب الخديوى فأجابه الحاضرون على ذلك .

(مطلب)

فى عمد أحمد عرابى بيك إلى استمالة أهل البلاد

قلت: ولم تكن هذه المآدب والخطابات والتمدح بطاعة الجند لتذهب ما فى نفوس زعماء العصابة من البغض للرئيس مصطفى رياض باشا ولا لتقلل من همتهم فى العمل على خلعه والتخلص منه فإنه لما تمكن أحمد عرابى بيك من طاعة جميع الجند ومحبة سائر الضباط عمد إلى استماله أهل البلاد وعمدها ومشايخها ومشايخ قبائل العربان والتقرب من جماعة العلماء والمشايخ والوجهاء ثم جعل يبعث البعوث فكانوا يجوبون البلاد ويهيجون العامة ويضرمون فى صدورهم نار البغض للرئيس وأعوانه وتخطى به الخروج إلى أن كتب إلى عمد وأعيان البلاد القبلية والبحرية على

أيدى رسله يقول: إن الوزارة الرياضية يعنى الهيئة التى يرأسها مصطفى رياض باشا قد ركبت متن الشطط وعدلت عن الصراط المستقيم وليس لها من نية سوى العمل على مافيه اضمحلال البلاد وتلاشيها بما هو جار من بيع الأراضى الكثيرة للأجانب وتسليم أغلب مصالح الحكومة لهم وإعطائهم الرواتب الفادحة المثقلة على أكتافكم فضلا عن أنها رسمت برفع الأحجار الطبيعية الموجودة ببوغاز إسكندرية لتتمكن سفن الأجانب من الدخول إلى جوف البلاد بلا ممانع وإن سكوتنا وإضرابنا عن هذا كله يعدّ من الجبن والعجز والتفريط فى وطننا ومقر نشأتنا فاعلموا يا معاشر الوطنيين أن أولادكم القائمين بالخدمة العسكرية قد اتكلوا على البارى سبحانه وتعالى وعزموا على منع كل إجحاف بحقوقكم والذود عنها جهد الاستطاعة ولا يخفاكم أن هذا لا يتم إلا بتنزيل وزارة رياض باشا وخلعه من منصب الرئاسة وتشكيل مجلس نواب للبلاد لينال وطننا الحرية المطلوبة والمقصود هو أنكم توقعون على الكتابة المرسلة إليكم على يد حاملها والغاية منها جعلى نائبا عنكم فى كل ما يتعلق بأحوال البلاد، فأجابه إلى ذلك كثير من عمد البلاد وأعيانها وغيرهم من المزارعين وأصحاب الأراضى واتفق فى غضون ذلك أن قام الخديوى وحاشيته ورجال ديوانه إلى مدينة الإسكندرية لقضاء فصل الصيف فيها على عادته فى كل عام وتبعه الرئيس وهيئة مجلس الوزارة فخلا الجو لزعماء العصابة فأكثر رسلهم من التطواف على بيوت الأعيان والدخول فى مجالس أصحاب الكلمة المسموعة وهم يرجفون ويقبحون فعال الرئيس ويحضونهم على تعضيد العصابة والأخذ بيد زعمائها، وظهر فى هذا الحين نجم من ذوات الذنب فكان يرى فى كل ليلة بشكل جلى حتى لضعاف البصر فهال الناس ظهوره وخافوه وأخذتهم الطيرة وجعلوا يتأولون ظهوره إلى رموز وإشارات شتى ويقولون: إن هذه السنة أى سنة ثمان وتسعين لا تتم دون وقوع أمور مهمة وحوادث مدلهمة بل حروب وكروب وخطوب وقطوب وقد نسبوا إليه جميع الوقائع والحوادث التى وقعت فى غير ديار مصر، وتكلم أصحاب صحف الأخبار عن هذا النجم فقالوا: إنه النجم ذو الذنب الذى سبق فتكلم عنه المعلم مبل الفلكى الشهير فقال: إنه ظهر فى سنة ست وسبعمائة وألف ميلادية وشاهده فى سنة سبع وثمانمائة وألف ميلادية واستدل على أنه سيعود بعد أربع وسبعين سنة من هذا التاريخ، ونقل بعض أصحاب تلك الصحف أيضا أن أحد المنجمين الأقدمين تنبأ بأن العالم بأسره سينقرض نهارا فى رابع عشرى نوفمبر سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة

وألف ميلادية يعنى فى ثانى المحرم افتتاح سنة تسع وتسعين ومائتين وألف هجرية قال: وتستمر الأحوال من هذا التاريخ إلى ثامن ديسمبر يعنى سابع عشر المحرم أى مدة خمسة عشر يوما يأتى كل يوم منها بداهية دهياء وأن النوع البشرى ينقرض فى اليوم السادس من ديسمبر المذكور الذى هو يوم عيد القديس نيقولاس العجائبى بعد أن يشاهد الكثير من هذه النوازل الطامة التى منها تلاشى أسماك جميع البحار وأن يوم البعث والنشور يكون فى ثامن ديسمبر بحيث لا يستغرق إلا يوما واحدا قال المتنبئ: ثم يعود بعد ذلك كل إلى وظائفه العادية أ.هـ.

«قلت»: فكان أهل القاهرة عند ظهور ذلك النجم يحيون الليالى وهم على أسطحة البيوت مولولين وكانت لا تمضى لحظة إلا ويسمع فيها من يقول قد دنت الساعة وبعد أيام كذا تقوم القيامة ومنهم من ترك أشغاله وتأهب للرحيل إلى دار الخلود ومنهم من اقتصر على الصلاة فى المساجد ومنهم من باع حلى امرأته واشترى له قبرا وكانوا يقضون اليوم فى بيوتهم وهم يضربون بالعصى على بعض أوانى النحاس ويضجون ويعجون ويقولون: يا لطيف يالطيف فإذا سألهم سائل عن ذلك قالوا: الناس تتحدث به وهذا نجم الذنب ظاهر للعيان، وقد اعتقد الناس أنه دليل صحيح على حدوث أمر خطير فى هيئة الحكومة أو كرسى الخلافة والولاة وغير ذلك، وكان مما زاد أهل البلاد خوفا وتطيرا إرجاف الضباط الذين كانوا يجوبون البلاد ويلقون بين أهاليها الأراجيف الباطلة والإشاعات الكاذبة ويستفزونهم إلى الخروج عن طاعة ولاة الأمور ويحضونهم على عدم دفع الضرائب والمكوس لأصحاب الجباية ويوسوسون لهم بأن ما كان فى البلاد من الضنك والخراب وإمحال الأرض إنما هو من فعال الرئيس وبغضه للأهالى ورغبته فى تسليم البلاد للإنجليز حتى صدّقوا ذلك وأحلوه محل الاعتبار وعمّت هذه الأراجيف البلاد شرقا وغربا فنجم عنها أن كره أهلها سائر الأجانب المستوطنين فى البلاد وطمعت نفوسهم فى أموالهم وأرزاقهم فكان إذا استدان أحد دينا من أحد هؤلاء التجاروحل أجله ماطل وحاول وطلب المهلة فإذا شدد عليه الطلب أنكر الدين وهدد صاحبه وتوعده فخاف جميع التجار وانكمشوا وقلت ومعاملتهم لأهل البلاد ونزح الكثير منهم إلى المدن الكبيرة وقد تبدل ورقهم ورقا حتى تعطل البيع والشراء وبارت الأرزاق ومحاصيل البلاد لتخوف المشترين من الأجانب وتعذرت الجباية وقلت حيلة أصحابها وذهب الأمن من جميع الجهات وعاث أهل الفساد وكثرت اللصوص فشدد الرئيس على

المديرين ومأمورى الحكومة بمراقبة الأحوال ومنع هذه القلاقل وإيقاف تيار الفتنة فلم يفلحوا لفساد أخلاق العامة وميل أهل البلاد إلى الأباطيل والأخذ بأقوال الأولياء والمشايخ والمكاشفين من رجال الوقت وأصحاب الزايرجات التى كان يذيعها ضباط الجند بين أهل البلاد.

(مطلب)

قيام جند الإسكندرية
بسبب موت أحدهم بصدمة من عربة أجنبى

وبينما كانت أفكار العامة فى اضطراب وقلوبهم تتقد غيظا من النزلاء ويتمنون لو أنهم يبطشون بهم جميعا إذ حدث بمدينة الإسكندرية أن جنديا من مرابطى القلاع كان سائرا بميدان المنشية فصدمته عربة لأحد النزلاء فسقط ميتا فى الحال فرآه بعض رفاقه فأسرعوا إليه وطلبوا سائق العربة فلم يجدوه وكان كمن قمس فى الماء أو عرج به إلى عنان السماء فحملوا جثة رفيقهم وساروا بها إلى سراى رأس التين وخلفهم الخلق الكثير من السوقة والغوغاء وهم فى صياح وجلبة فإذا مروا بأجنبى أوسعوه شتما وسبا وتهديدا وكثر صياح الغوغاء وتخطفهم الأشياء من حوانيت الناس فخاف الناس العاقبة وأغلقوا حوانيتهم وشاع الخبر فتلاحق بهؤلاء الجند نفر من أصحاب الشرطة يريدون أخذ الجثة منهم فمانعوا وأبوا إلا الصعود بها إلى مقر الخديوى ومازالوا سائرين بين صياح العامة وولولة النساء حتى دخلوا حوش رأس التين ووضعوا جثة رفيقهم تجاه شباك مجلس الخديوى وصاحوا نصرك الله يا أفندينا ما يحل للنصارى قتلنا فى أيامك ائت لنا بصاحب العربة يا أفندينا نصرك الله على أعداء الدين فأشرف الخديو فى الحال من الطاق ولاطفهم وهوّن عليهم ووعدهم ورسم بحمل الجثة إلى دار صاحب الشرطة فصاحوا ما يحل ذلك يا أفندينا النصارى النصارى تقتلهم جميعا فأرسل إليهم بعض ضباط حرسه يطمنون خواطرهم ويهوّنون عليهم فلم ينكفوا عن النداء والصياح وحضر فى هذه الأثناء صاحب الشرطة ومعه نفر من أعوانه فحملوا الجثة قهرا وساروا بها وخلفهم الغوغاء وجاء الخبر بذلك إلى القاهرة فبالغ الناس فيه وخلطوا وخبطوا حتى قالوا: إنه قد قامت الحرب بين الجند والطوائف الافرنجية بشوارع الإسكندرية والأمر يومئذ على غير ذلك فقد قبض صاحب الشرطة على رفاق ذلك الجندى وألقاهم فى السجن أياما ثم حكموا عليهم بالعقاب الشديد فلما شاع خبر الحكم عليهم تحرك جند الإسكندرية وأظهروا غاية

السخط وعدم الرضا عما أصاب رفاقهم ثم كثر تطوافهم فى ذلك اليوم فى الأزقة والحارات التى تسكنها الطوائف الإفرنجية فعم الخوف جميع سكان الإسكندرية وجاء الخبر إلى البارودى فأبلغه للرئيس مصطفى رياض باشا فلم يعره جانب التصديق وظنه فرية أو هو من أراجيف زعماء العصابة التى ما برحوا يذيعونها للتهويل والإرهاب.

(مطلب)

تطواف عبد الله النديم على أهل البلاد يستنصرهم لرجال عصابة الجند

وأوعز فى هذا الحين أحمد عرابى بيك إلى رجل من أهل البلاد اسمه عبدالله نديم صاحب صحيفة من صحف الأخبار اسمها (التنكيت والتبكيت) أن يجوب الأقاليم القبلية والبحرية ويدعوالناس إلى نصرة زعماء العصابة ويستفزهم إلى طلب تشكيل مجلس نواب للبلاد كما كان على عهد إسماعيل باشا لينالوا بواسطته مالم يقدروا على نواله الآن من الرئيس مصطفى رياض باشا وكان عبدالله هذا قوى الحجة فصيح اللسان قوّالا سهل العبارات عذب المنطق مفلقا مهيجا بذلاقة لسانه وقوة حجته وبيانه قد عرف عادات البلاد وأميال أهلها فطفق يجوب المدن والبنادر والقرى ويخطب فى الناس ويقص عليهم حديث أجدادهم وأخبارهم وما ألم بهم من الجور والعسف وماحل بالبلاد على أيامهم من الويل والخراب وكان يصعد على منابر الجوامع ويخطب جهارا وعيناه تذرفان الدمع فافتتن الناس ومال إليه خلق كثير من الأعيان والوجهاء من كل صوب وحدب فلما آنس منهم ذلك كتب محضرا وذكر فى عرض عباراته أن أهل البلاد كافة يدعون ولاة الأمور ومن بيدهم زمام الأحكام إلى تشكيل مجلس تكون أعضاؤه من أهل البلاد البحرية والقبلية للذب عن حقوقهم واستخلاصهم من ربق الاستعباد الذى أثقلهم فوقعوا عليه جميعا وسموه المحضر الوطنى وعاد عبدالله بذلك المحضر إلى القاهرة وسلمه إلى أحمد بيك عرابى ففرح به وتقوت عزائم زعماء العصابة فنهضوا إلى طلب الشىء الكثير من المطالب وسألوا زيادة عدد العسكر العامل إلى ثلاثين ألفا، وجعل زمام الجيش وإدارة جميع أموره بيد أمراء الآلايات دون غيرهم ـ وزيادة جماكى العسكر ـ وتعديل قوانين العسكرية وغير ذلك مما لم يكن للرئيس مصطفى رياض باشا فى حساب وكتبوا بجميع ذلك محضرا ورفعوه إلى الرئيس على يدى البارودى فحرك ذلك ساكنا من قلب الرئيس

ولكنه جعل يطاول ويحاول ويمنى البارودى، والبارودى لاينكف عن الطلب ولم تفتر له عزيمة وبلغت منه الشدة يومئذ مبلغها قيل: فكاشف الخديوى على ماخفى من فعال الرئيس وحقق له أن الرئيس إنما يعمل منذ اليوم الذى عفا عنه الخديوى عن الجند وزعماء العصابة على سلب امتيازات الخديوى وإذهاب حقوقه الذاتية وأطلعه على كثير من الأمور الخفية التى لم تكن تخطر له على بال، قال الراوى: فاندهش الخديو من ذلك وتزايد قلقه وكاد يظهر للرئيس ما يخفيه من بغضه إليه وحقده عليه ولكنه اعتصم بحبل التأنى. ورسم بأن لا تعقد هيئة مجلس الوزراء إلا برئاسته وأن لا يقع شىء إلا بعد مشورته وأن لا يأتى الرئيس عملا إلا بعد التصديق عليه منه فأجابه الرئيس بالسمع الطاعة ولكنه لم يطق الصبر عليه فكان إذا أطلع الخديوى على شئ أخفى عنه أشياء وإذا أخبره بأمر ستر عنه أمورا والخديوى يتغافل ويظهر الصبر والتجلد وبقى الحال على هذا المنوال أياما.

(مطلب)

تقرب البارودي من المراقب الفرنسوى وقونصل جنرال الفرنسيس وما كان من وراء ذلك

وتقرب البارودى من المراقب الفرنسوى واستماله فمال إليه وقربه من المسيو سنكوفيتش قونصل جنرال الفرنسيس الذى جاء خلفا للمسيو دى رنج المعزول الذى تقدم لنا الكلام على أعماله وحوادثه مع الرئيس رياض باشا. قال بعض الكتاب: وتحابوا توادّوا فرأوا من الخديوى عينا راضية وأذنا صاغية فلم يبق عند الناس من هذا الحين شك فى أن للخديوى يدا فى جميع هذه الحوادث وأنه راض عن فعال زعماء العصابة انتقاما من الرئيس للأسباب التى تقدم بيانها واشتدت عزيمة البارودى وتقوت أنصار أحمد عرابى بيك وتقدم البارودى إلى الرئيس فى طلب تنفيذ مطالب أمراء الجند التى تقدم بيانها وشدد فى ذلك وألح وهدد الرئيس فكبر الأمر على الرئيس وشكا إلى قونصل جنرال الإنجليز ما يلاقيه من المراقب وقونصل الفرنسيس والبارودى وزعماء العصابة، قيل: فهون عليه القونصل وشدد عزيمته وحسن له الإصرار على الإبادة. قال بعض العارفين بأساليب تلك السياسة: إن القونصل إنما أراد بذلك اشتداد الفتنة واستفحال الخلاف فعمل الرئيس بمشورته وأخذ بقوله ومانع البارودى وأغلظ له فى القول فقابلهِ البارودى بما هو أشد وأنكى وأوعز إلى زعماء العصابة فقاموا وقعدوا وأكثروا من عقد المحافل وإلقاء خطب التهديد على لسان

عبدالله صاحب (التنكيت والتبكيت) وكثر الأخذ والرد بين الرئيس والبارودى وكلم قناصل الدول الخديوى فى ذلك فأرسل الخديوى فى سادس عشر رمضان يستقدم الرئيس وجميع الوزراء إلى الإسكندرية فساروا إليه وانعقد مجلسهم فى ساعة وصولهم فكلمهم الخديوى فى أمر ذلك الخلاف وحذرهم من الفتنة وحركة الجند وعرض بذكر أعمال الرئيس وتجافيه وحطه من مقام الخديوى وقال: لابد من تنزيل الوزراء وخلعهم جميعا وأن يتقلد هو رئاسة المجلس ويتولى النيابة الوزير محمد شريف باشا كى تخمد نار هذه الفتنة وترجع الأمور إلى سابق مجراها وشدد فى ذلك وعنف الرئيس. قال الراوى لهذا الخبر: فتغيرت عند ذلك أحوال الرئيس واصفر لونه وقال: لست بمتخل عن منصبى ولا أنا بمنزل نفسى وفىّ بقية من الرمق بل لن أعترف بمايطلبه الخديوى من تقليده نفسه رئاسة مجلس الوزراء فأجابه على ذلك البارودى وجعل يؤنبه ويعدد معايبه ويذكر للخديو ما ينويه الرئيس من السوء للبلاد وأهلها فكثر بينهم الأخذ والردّ واشتد اللد فتلجلج الرئيس وضعفت حجته وفاز البارودى أو كاد فكبر الأمر على قونصل جنرال الإنجليز وقد كان حضر مجلسهم وهم يتحاجون فانتصر للرئيس وبالغ فى الدفاع عنه فكثرت عند ذلك الغوغاء وعلت الضوضاء وأظهر البارودى ثباتا وحزما وتقدم إلى الخديوى فى قبول تنازله عن منصبه وألح على الخديوى وترامى على أقدامه، وقال: والله لن يجمع بينى وبين رياض باشا مجلس فأجابه الخديوى إلى ذلك ورسم فى الحال بتقليد الأمير داود باشا ابن الأمير أحمد باشا يكن منصبه ثم انفض مجلسهم على ذلك فى نحو الساعة السابعة عربى من تلك الليلة وفى النفوس مافيها، وفرح الرئيس مصطفى رياض باشا بخلع البارودى وظن انفشال أصحاب الحركة وانصرام حزمتهم فقرب إليه الأمير داود واستحثه على عدم التهاون حتى بصغائر الأمور فشدد الأمير على صغار الضباط ومنعهم من الاجتماع ليلا فى بيوت بعضهم وحرر بذلك منشوراً وأوعد كل من يخالف بالتبعيد إلى أقاصى السودان فلم يرتدوا وظلوا على ماهم عليه من الخروج ليلا وتطواف بعضهم على بعض فأنفذ إلى الدراملى صاحب شحنة القاهرة بالقبض على كل من يراه منهم ليلا فطاف الدراملى ليلا ونهارا فلم يفلح إذ كانوا يتهددونه ويتوعدونه بالقتل وكان إذا هم بعمل شىء علموا به قبل الشروع فيه وسدّوا عليه جميع أبوابه فلما أعيته الحيل تمارض وطلب التخلى عن منصبه فأنزلوه وولوا مكانه عبدالقادر باشا أحد أمراء الجند على عهد إسماعيل باشا فتدبر وجعل يكثر من التطواف والتشديد ولكنه لم يفلح أيضا إذ عصاه أصحاب الشرطة ونبذوا

كلمته وعكسوا عليه عمله وأفسدوا تدبيره واتهمه ضباط الجند بأنه إنما يطوف حول دار أحمد عرابى ليفتك به وأذاعوا ذلك بين العامة فتحدثوا به وخلطوا وخبطوا فخاف عبدالقادر باشا شر العاقبة ولازم بيته أياما بحجة أنه مبطون وكلم الأمير داود الرئيس مصطفى رياض باشا فى ذلك فاستعظم الأمر ولم يطق الصبر على حر هذا الجمر ورسم بالتشديد وعدم الكف عن التهديد حتى يرجعوا صاغرين.

وبينما الناس فى شاغل بالحوادث المترادفة والبلايا المتراسلة إذ ظهر أيضا نجم جديد من ذوات الذنب ولم يكن غاب النجم الأول غير أنه صار ضعيف الضوء لايكاد ينظر إلا بالجهد وكان هذا النجم الجديد صغيراً لا يتجاوز الست درجات ولا يظهر جدا لشدة ارتفاعه فى الشمال الغربى بأسفل الدب الأكبر ومع ذلك فقد كان ينظر فى نحو الساعة الثالثة عربى ليلا إلى بعد نصف الليل بساعة فلما رآه الناس عادوا إلى التخوف والتطير وجعلوا يحيون الليالى على الأسطحة ورؤوس الجدران يرصدونه وهم فى ضجة وولولة وابتهال إلى الله أن يرفع عن البلاد وأهلها ما يستقبلها من الخطوب وكان ظهور هذا النجم فى خامس عشرى رمضان من السنة أى سنة ثمان وتسعين ومائتين وألف هجرية .

(مطلب)

ورود الخبر من عمال السودان بظهور كذاب يدعى المهدوية

فلما كان سابع عشريه وردت الأخبار من عامل السودان بظهور رجل كذاب يدعى أنه المهدى المنتظر على رأس القرن الثانى عشر من الهجرة المحمدية واسمه محمد أحمد وكان سبب ظهوره أنه لما سار جماعة من العسكر السودانى بمديرية آيا الكائنة بالنيل الأبيض وهى مستقر المهدى المذكور ليأتوا به إلى مقر الوالى وقد تنبه على مقدمهم بأن لا يسير إليه إلا ومعه قاضى بلدة الكوة فلم يأخذ معه القاضى وسار بعسكره فى الساعة الثالثة ليلا فلما قربوا من مقر المهدى وجدوا عنده زهاء المائتين من الدراويش مزججين بالرماح والبنادق فأوعز مقدم العسكر إلى العسكر بأن يطلقوا النيران على أولئك الدراويش ليمزقوا جمعهم فامتنع العسكر من ذلك وقالوا: لا نضرب قوما فقراء ولا نقاومهم لأنهم من الدراويش فأحس الدراويش بهم فركبوا عليهم وأعملوا فيهم القتل بحد السيف فقتلوا نيفا ومائة عسكرى وستة من الضباط وفرّ من بقى والتجئوا إلى النيل، ولما رجع أصحاب المهدى إليه ظافرين اشتد ظهره وتقوت عزيمته وبث الدعاة فى البلاد فلبى دعوته كثير من البقارة وأهالى

الجبال وكثرت لمومه فعبر بهم إلى الجانب الغربى وظهر من هذا الحين أمره وعلت كلمته ثم دخل بلدة حبال نقلى إحدى بلدان مديرية كردفان بأراضى البقارة وجعل بها مقره وطير الخبر إلى الآفاق يدعو الناس إلى طاعته ويستحثهم على الخروج عن طاعة الكفرة الملحدين فجمع الوالى عند ذلك لقتاله جماعة من الباشيبوزق والجند وسيرهم إلى فاشوده ليسيروا منها غربا والوالى يومئذ رؤوف باشا وأرسل إلى القاهرة فى طلب المدد من الرجال ومعدات الحرب فسر الرئيس مصطفى رياض باشا بذلك وظن بلوغ المأمول ورسم إلى الأمير داود بأن يسير إليه طائفة من مرابطى قلعة الجبل وأخرى من جند أحمد عرابى بك النازلين بالعباسية فأحس زعماء العصابة بما وراء ذلك فبثوا أعوانهم يشيعون تكذيب خبر الفتنة بالسودان ويقولون: إنها مناوشات بين البقارة وسكان الجبال لابد منها عند خروج أصحاب الجباية لجمع الخراج فشدد الأمير داود فى طلب خروج العسكر والمعدات فامتنع كبارهم وبالغوا فى الامتناع وتجرد عبدالله صاحب (التنكيت والتبكيت) للذب والدفاع وكثر بين الفريقين الأخذ والرد فكلم الرئيس مصطفى رياض باشا المستر ماليت قونصل جنرال الإنجليز فى ذلك واستعان به فأعانه وتقدم إلى الخديوى فى طلب صرف جميع الجند إلى أوطانهم علها تسقط كلمة أحمد عرابى ويذهب نفوذ زعماء العصابة فرسم الخديوى بذلك إلى الأمير داود فجمع الأمير داود كبار الجند من جماعة الشراكسة وكلمهم فى الأمر فأجابوه بالسمع والطاعة ولكنهم لم يفلحوا حيث رأوا من صغار الضباط غاية الممانعة والرفض فعملوا على استرضائهم فلم يتمكنوا وكان الأمر على غير ما يريدون، فلما أعيتهم الحيل وكاد يخيب منهم الرجاء والأمل كتب الأمير داود مرسوما فى ثالث عشر شوّال إلى جميع طوائف الضباط ينهاهم عن الاجتماع ويحذرهم من شر العاقبة وطاف فى ليلة تحزيره ذلك المرسوم على بيوت الضباط ليرى ما سيكون من أمرهم فرآها غاصة بجماهيرهم وهم فى هرج وجلبة فأصبح وقد كتب إليه عبد العال بيك أمير الجند السودانى يطعن فى مرسومه ويعيب قوله ويرمى الهيئة الحاكمة بالجور والعنف ويقول إن هذا النهى مما لا يصح الامتثال إليه إذ هو مخالف للقوانين العسكرية وإرادة أمير البلاد ومقتضيات الملة الحنيفية وأن تعاضد الجند واتحاد العسكر فى أمورهم وتقوية عزائمهم بالتزاور وتآلفهم وتجمعهم فى أعمالهم كل ذلك عنصره القوة والنظام العسكرى فى كل أمة وملة ولا سبيل إلى النهى عنه فاستعظم الأمير داود هذا الجواب وأكبر مافيه من الغلظة والتعنيف وقام من ساعته وسار إلى قصر النيل وجمع ضباط الفرسان المرابطين هناك وجعل

يستميلهم ويمنيهم بالأمانى العظيمة ومازال بهم حتى استمالهم واستمال كذلك ضباط فرسان قلعة الجبل وكان قبل هذا الحين قد استحلف ضباط الألاى الخامس النازلين بمدينة الإسكندرية وضباط الحرس الخديوى وظن إخلاصهم والاعتماد عليهم عند الحاجة فلما تم له ذلك رسم إلى أحمد عرابى بالقيام بجميع عسكره إلى مدينة رشيد وإلى جند قلعة الجبل بالقيام إلى دمياط وأنفذ إلى مقدم جند دمياط أن يأتى بعسكره إلى مدينة الإسكندرية وإلى مقدم جند الإسكندرية بالحضور إلى القاهرة عند انحدار جند أحمد عرابي وجند قلعة الجبل إلى رشيد ودمياط، فلما وصل مرسوم الأمير داود إلى مقدم جند القلعة بالانحدار إلى رشيد وكان ممن لا يميلون إلى أحمد عرابى وأصحابه جمع الضباط الذين معه وتلا عليهم المرسوم واستحثهم على التأهب للخروج مع العسكر إلى رشيد فقالوا لا نخرج فراجعهم فعنفوه وانحدر جماعة منهم وأعلموا زعماء العصابة بما جرى فخافوا العاقبة وجمعوا فى الحال جميع ضباط الجند الذين بالقاهرة وطرا والعباسية فى معسكر الحرس الخديوى وقام فيهم أحمد عرابى خطيبا فشكى من فعال الأمير داود وبالغ فى الشكوى وعظم البلوى وأطال الكلام عن الاتحاد والتعاضد وما فيهما من الخير والأمن على الأرواح ثم استحلفهم جميعا على السيف والكتاب بأن تكون أرواحهم موقوفة على حفظ الوطن من شر الأعداء والاحتراس على موارد إيراده من أيدى الطمع وبأن يكونوا جميعا على قلب رجل واحد ثم أعلمهم بأنه قد اجتمعت الكلمة على تسليمه زمام الزعامة وأن يكون المرجع فى كل الأمور إليه.

(مطلب)

كيف كان اجتماع العسكر بميدان عابدين وما كان من وراء ذلك

وانقضى مجلسهم فكتب أحمد عرابى بيك إلى الأمير داود يقول: قد تحقق لنا ولعموم ضابطان الجهادية وأفراد العسكر صدور أمركم إلى الألاى السادس بالتوجه إلى الإسكندرية بدون باعث ولا سبب يقتضى ذلك ولكن علمنا أن المراد تفريق القوة العسكرية ليسهل الانتقام منا والتمكن من الغدر بمن هم محافظون على الطاعة والإخلاص ولا ذنب لهم سوى طلب الإصلاح فليكن معلوما لدى سعادتكم أننا لا نسلم أنفسنا إلى الموت وأن كافة الألايات ستجتمع يوم تاريخه فى الساعة التاسعة نهارا بميدان عابدين للنظر فى حل تلك المسائل بحيث إن هذه الألايات لا تتحرك من

موضعها إلا إذا حصل التأمين الكافى لسنّ قانون عادل يوقف كل إنسان عند حده وسنشعر وكلاء الدول الأجنبية بما يلزم ا. هـ بنصه.

وكتب إلى قناصل الدول أيضا يقول: أتشرف بأن أحيط علم جنابكم أنه من أول شهر فبراير سنة إحدى وثمانين أى من وقت ابتداء الفتنة التى أحدثها عثمان رفقى باشا إلى الآن قد مضى فوق السبعة أشهر وفى كل هذه المدة تقاسى العسكرية أتعابا وتتحمل مصائب ونوازل وتهديدات وتتوقع الفتك والإعدام غدرا وخديعة ومن هذه المصائب حادثة يوسف باشا كامل وكيل الحضرة الخديوية ونازلة فرج بك السودانى وواقعة التسعة عشر ضابطا الذين كانوا يدسون الدسائس. قلت: وهاتان الحادثتان لم أذكرهما لعدم أهميتهما يومئذ، ونحن مع كل ذلك نسعى فى تحسين الحال وقطع المفاسد بالحكمة والتدبير رغبة فى الحصول على الراحة العمومية وحقن الدماء والمحافظة على كافة تبعة الدول المتحابة ومن وقت أن تشرفت مصر بالحضرة الخديوية أخذت الفتن والدسائس تزداد إلى أن شرع فى تجزئة الجيش المصرى وتفريقه تسهيلا للغدر والانتقام فلهذا التزمنا بالمحافظة والمدافعة عن أنفسنا وأعراضنا إلى أن يأتينا أمر دولتنا العلية الذى يترتب عليه حفظ بلادنا ومن فيها وقد دعت الحالة إلى تحرير هذا لجنابكم لتعلموا بأننا متمسكون بالمحافظة على حقوق التبعة الأورباوية واقبلوا مزيد الاحترام. أ. هـ.

فلما وقف الأمير داود على ما فى خطاب أحمد عرابى بيك تكدر وقام من فوره ودخل على الخديوى بعابدين وكان الخديوى قد عاد من الإسكندرية منذ أيام وحدثه بخبر تحزب جميع الضباط وما فى خطاب أحمد عرابى بيك فسير الخديوى فى الحال فى طلب الرئيس مصطفى رياض باشا وجميع الوزراء وبينهم المستر كولفن المراقب الإنجليزى لغياب ماليت قونصلهم الجنرال فحضروا فعقد مجلسا وتناجوا فى الأمر طويلا وكثر بينهم الأخذ والرد فأوقعوا اللوم على الرئيس وعابوا عليه جميع أفعاله وبينما هم على هذا الحال إذ حضر من يعلم الخديوى بأن حرس سراى القبة التى هى مقر نساء الخديوى قد انضموا إلى عسكر العباسية وتركوا مراكزهم فظهرت عند ذلك على وجوه جميع الحاضرين علامات الدهشة والخوف واشتد بهم القلق وانفض مجلسهم على ما لم تصل إلينا معرفته إلى الآن، وفى نحو الساعة السادسة نهارا عاد الرئيس مصطفى رياض باشا ومعه سائر الوزراء فعقدوا مجلسهم ثانية وتكلموا فى الأمر وبينهم كولفن المراقب الإنجليزى فتقدم كولفن إلى الخديوى فى إبلاغ المسيو سنكوفيش قونصل جنرال الفرنسيس بخبر هذا الحادث إذ كان فى هذا

اليوم بمدينة طنطا فرسم له بذلك فغاب كولفن ساعة ثم عاد فأعلمه الخديوى بأن جند الحرس وجند الألاى الثانى على قدم الاستعداد لإرغام جند أحمد عرابى وإرجاعهم إلى الطاعة وأنه على عزم الذهاب ومعه جميع الحاضرين إلى معسكر الحرس لتحقيق صدقهم وإخلاصهم جميعا بكلمة الإخلاص وهتفوا بالدعاء له فسار هو ومن معه إلى قلعة الجبل ودعا إليه رضا باشا مقدم العسكر النازلين بها ورسم إليه بأن يسير إلى أحمد عرابى بك من يخبره بأن لا يتحرك بجنده ولايأتى إلى ميدان عابدين بشىء من المدافع وفى هذه الأثناء حضر المستر كوكسن كاتب المستر ماليت قونصل جنرال الإنجليز فقص عليه كولفن تفاصيل الحادثة فنزل من فوره من القلعة وبعث بها إلى عاصمة الإنجليز على جناح البرق ولما صار الخديوى ومن معه فى جوف القلعة اجتمع حوله جميع الضباط وأظهروا له كمال الطاعة وحسن الولاء والإخلاص ودعوا له ثلاثا ثم نادوا بالويل والثبور على الرئيس مصطفى رياض باشا ورفاقه وطلبوا خلعه من منصب الرياسة عاجلا فقال الخديوى: ما السبب فى نبذكم للأوامر فقالوا حاشا أن نخالف لأميرنا أمرا ونحن عبيده المخلصون فى طاعته فالتفت إلى إبراهيم بيك حيدر مقدمهم التفات الاستغراب فقال إبراهيم بيك: لم يكن من سبب لنبذ الأوامر سوى إغراء فوده حسن هذا البيكباشى وأشار إليه فتقدم نحوه الرئيس مصطفى رياض باشا وأمسك بأطواقه وجذبه إليه وقال له: أمثلك من يعصى أمير البلاد ويمانع فى إجراء ما أشارت به الهيئة الحاكمة فلما فعل به ذلك نفخ أحد أصحاب البوق على الجند ونادى ضعوا الحراب ضعوا الحراب فأسرعوا جميعا ووضعوا حرابهم على أفواه البنادق وأحاطوا بالخديوى ومن معه إحاطة السوار بالمعصم وكثر ضجيجهم واشتدت جلبتهم ونادوا أطلق ضابطنا أطلقه فخلى عنه الرئيس وقد ظن أنه مأخوذ على رؤوس الحراب فالتفت الخديوى إلى الجند وقال: ألست خديويكم وولى أمركم قالوا: بلى قال: هل تأخر لأحد منكم راتب أو تعيين أو كسوة حتى جهرتم بهذا العصيان وفعلتم ماأنتم فاعلوه قالوا والله إنا مطيعون لك لانخالف لك أمرا وأنت أميرنا وولى نعمتنا ولانريد سوى خلع الرئيس وتبعيده عن خدمة البلاد فتركهم عند ذلك الخديوى وانحدر وانحدر من كان معه على عجل، قيل: وبينما هم منحدرون أشار الرئيس والمستر كولفن على الخديوى بأن ينحدر إلى عابدين قبل أن يصل إلى ميدانها أحمد عرابى ومن معه من الجند فامتنع وأصر على الذهاب إلى العباسية على غير الطريق المسلوك حتى انقطع عنه بعض فرسان حرسه

وقد غطى الغبار وجهه ولحيته وابتلت جميع ملابسه بالعرق فوصل العباسية في أقل من ساعة ودخل محلة الجند فلم ير فيها ديارا ولا نفاخ نار قيل فطرق كفا على كف وكر راجعا إلى عابدين، وأما أحمد عرابى بك فإنه لما صار الساعة الثامنة عربى نهارا نادى فنفخوا فى البوق واصطف الجند وحملوا بنادقهم وساروا من العباسية فتبعهم أصحاب المدافع يجرون اثنين وعشرين مدفعا من الطراز الكبير وكان قيامه بهذه العساكر والأجناد من العباسية فى نفس الساعة التى دخل فيها الخديوى قلعة الجبل فقد أرسل إليه ضباط القلعة يعلمونه بوصول ركب الخديوى إليهم وكذلك أرسلوا إلى عبدالعال بك مقدم الجند السودانى بمعسكره بطرا فتحرك فى الحال عبد العال بجنوده وركبوا قطار سكة حديد حلوان ونزلوا بميدان محمد على ثم صعدوا إلى قلعة الجبل ليقبضوا على جميع الوزراء ويلقوهم فى سجن القلعة، وفى رواية ليقبضوا على الخديوى وعندى أن الأول أصح، فقد أكد بعض العارفين أن الخديوى كان على اتفاق مع زعماء العصابة إلى هذا الحين فلم يكن من موجد إذن للقبض عليه ولما لم يجدوا أحدًا بالقلعة كروا راجعين إلى رحبة عابدين فالتقوا هناك بجند العباسية والفرسان وأصحاب المدافع فتقدم عبد العال بك إلى حيث أحمد عرابى وبقية الضباط وتعانقوا ثم تصافحوا وتساروا لحظة ثم وقف كل فى مقدمة عسكره وسيفه بيده مسلول وقد اجتمع حولهم العامة ما لا يحصر عدده من النساء والرجال والصبيان وما وصل جند عبدالعال بيك حتى نفخ البوق نفخات متابعة فعلت الضوضاء عند ذلك وكثر صياح العامة وارتفعت أصواتهم بالاستغاثة وترامحوا وترامى بعضهم فوق بعض ظنا منهم أن البوق إنما يدعو الجند إلى إطلاق قنابل المدافع على المدينة وقد كان صوت البوق ينادى جند الحرس الخديوى للخروج من معسكرهم فخرجوا فى الحال يحملون البنادق والحراب ومروا بين الصفوف ودخلوا السراى وأمامهم مقدمهم على بيك الديب وأحاطوا بالسراى من كل صوب ودرب يمنعون الناس من الدنو منها وهم فى غاية الهدوّ والسكينة، أما الخديوى فإنه لما وصل إلى رأس الطريق الموصل إلى ميدان عابدين ورأى الميدان غاصا بالجند والخيل والمدافع والخلق الكثير من العامة وهم فى ولولة وخوف عرّج إلى طريق أخرى ودخل السراى من باب صغير أمام الجناح الذى بالجانب القبلى من السراى وكان معه فى مركبته كولفن المراقب الإنجليزى وخلفه الجنرال أستون باشا وثلاثة من الضباط فنزل وسار نحو الباب الغربى الموصل إلى الميدان حيث الجند والخيل فتقدم إليه فى

الحال رضا باشا وأعلمه بأن جند قلعة الجبل قد انضموا أيضاً إلى المتظاهرين ولم يسمعوا لمقدمهم كلمة فالتفت كولفن إلى الخديوى عندئذ وقال: إذا تقدم نحوك أحمد عرابى فأمره أن يرد سيفه إلى غمده ويتبعك فإذا فعل تقدم أنت إلى رأس كل فريق من الجند ومره بالانصراف فقدم الخديوى بقلب ثابت وشهامة كبرى وسار نحو أحمد عرابى وعبد العال وأشار لهما بالسلام فسلما بالاحترام والتجلة والوقار فقال لهم: مالكم قد نبذتم عن طاعتى وعصيتم أمرى؟ فقالوا: حاشا نحن عبيدك المخلصون فقال: انصرفوا وسأبذل جهد الاستطاعة فى تحسين أحوال العسكرية وتنظيم قوانينها على قواعد ثابتة فأجاب أحمد عرابى إنى وإخوانى وجميع ضباط الجيش وأفراد العسكر خاضعون لك يامولاى وكلنا لا نبرح من هذا الموقف حتى تنجز لنا ما طلبناه فقال له الخديوى ردّ سيفك إلى غمده فأجاب سمعا وطاعة وناول الخديوى ورقة وقال: هذه يا مولاى ملحقة بمقترحات الوطن وبنيه فأخذها الخديوى وقفل راجعا إلى السراى ولم يأمر أحمد عرابى أن يتبعه ليقبض عليه ويطرحه فى السجن كما أشار بذلك المراقب الإنجليزى فلم يقتحم الخديوى الدرج حتى جاءه من يقول إن جند الحرس انضموا أيضاً إلى المتظاهرين فقطب وجهه وصعد إلى مقره فلما استوى به المقام أمر فعقدوا هيئة مجلس الوزارة وتليت عليهم مقترحات ضباط الجند فكانت ـ أولا: عزل جميع الوزراء وتشكيل وزارة أخرى يرأسها الوزير محمد شريف ـ ثانيا: جعل عدد العساكر العاملة ثمانية عشر ألفا طبقا للفرمان الصادر فى شأن ذلك ـ ثالثاً: تشكيل مجلس نواب البلاد على ما كان عليه فلما طرق أذن الرئيس مصطفى رياض باشا طبل هذا الكلام كاد يتميز غيظا وقال: كيف يحل لهم طلب خلع الوزراء كافة والوزراء خدموا البلاد وأخلصوا فى خدمة أبنائها لا سيما وهم اليوم مؤيدون بتصديق دولتى الإنجليز والفرنسيس فلا يصح التعرض لهم بشىء ألبتة إلا بعد استشارة الدولتين فقال الخديوى: وأنا أرى أيضاً أن الوزير محمد شريف باشا لا يريد أن تكون له الرياسة على هيئة تكون كالآلة الصماء فى أيدى الجند، أما من جهة مجلس شورى النواب فلا اختصاص لعصابة الجند بطلب تشكيله وكذلك جعل عدد العسكر العامل ثمانية عشر ألفا مما يثقل حمله على عاتق الخزينة وليس فى الأمر الآن ما يستلزم هذه الزيادة، فكثر عند ذلك الأخذ والرد بين الوزراء والخديوى وعلت بينهم الضوضاء وتنوعت الأغراض وتفرقت الأهواء وعلا صوت الرئيس مصطفى رياض باشا وأقسم أنه لا يخلع نفسه وفيه بقية من الحياة فعنونه

بعض رجال ديوان الخديوى وقالوا له: إنك أنت محدث هذه الثورة وموقد نار هاته الفتنة وكأنك تعمل على خلع شخص الخديوى لغاية فى نفسك فأغلظ عليهم فى الرد وشدد فى الامتناع فراجعه الخديوى فامتنع أيضاً، فقام عند ذلك المستر كوكسن نائب قونصل جنرال الإنجليز ليسأل أحمد عرابى بيك عن رغائبه، وكان أحمد عرابى واقفا وحوله كتيبة من الجند تحرسه على شكل قلعة فدنا منه المستر كوكسن وقال: قد تقرر خلع الوزراء الآن ولكن لا يتقرر تعيين بدلهم حتى تصرف جميع الجند وتفض هاته الجموع المجتمعة حولهم فصاح عند ذلك جميع الضباط ونادوا نطلب الوزير محمد شريف باشا، الوزير محمد شريف باشا، فقال كوكسن: ويحكم إنى أرى أن الأجمل صرف الجند الساعة وإلا كنتم سبب ضياع وطنكم وعيالكم فإن الخليفة أمير المؤمنين ودولتى الإنجليز والفرنسيس لا يرضون عن جعل حكم هذه البلاد فى قبضة جنودها انصرفوا، فصاح الضباط ثلاثا نطلب الوزير محمد شريف باشا فرجع كوكسن إلى مقر الخديوى وغاب برهة لطيفة ثم عاد، وقال: إن الخديوى رسم بإحالة نظر هذه المشكلة على دار السلطنة فلا يعمل فيها عملا حتى يأتيه الإذن من أمير المؤمنين فأصرفوا الجند وفضوا هذا التظاهر، فقال أحمد عرابى بيك: أما إحالة نظر هذه المشكلة على دار الخلافة الإسلامية فلا بأس به وأما صرف الجند فلا سبيل إليه قبل أن يعطى لنا الخديوى أمرا قاضيا بخلع الرئيس مصطفى رياض باشا وأصحابه وإقامة الوزير محمد شريف باشا بدله، فقال كوكسن: إن كنت تخشى شيئاً من انصراف الجند فأنا كافل لك أنت ومن معك حفظ أرواحكم وعيالكم وأموالكم وجميع ما لكم من الرتب وألقاب الشرف فضحك أحمد عرابى وقال: بورك فيك، كيف تكفل لنا حفظ أرواحنا وأموالنا وعيالنا وأنت غريب نازل ببلادنا التى هى فى حفظ وحراسة هؤلاء الجنود الساهرين على حفظ أرواح سائر الأجانب وصيانة أموالهم وأعراضهم وكيف يكون لك ذلك وأنت فرد من الإنجليز ولا أظنك تجهل أن دولتى الإنجليز والفرنسيس مع تكفلهما معا بحفظ حياة الوزير إسماعيل صديق باشا لم يدفعا عنه مرارة تلك الكاس التى شربها قهرا فعند ذلك سكت كوكسن وعاد إلى المجلس ولم يعد ثالثة إلا ومعه كولفن المراقب وخيرى باشا المهدار وبيد خيرى باشا مرسوم الخديوى إلى الوزير محمد شريف باشا بتوليته منصب الرياسة وتشكيل هيئة الوزراء على ما يشاء، فلما دنوا من موقف أحمد عرابى أخذ القونصل المرسوم ودفعه إلى أحمد عرابى وقال: ها هو ما تطلبه فأعطه

بيدك إلى الوزير محمد شريف باشا ومر الجند بالانصراف وقد خرج من مجلس الخديوى من يستدعى أحمد عرابى للمثول بين يدى الخديوى فدخل أحمد عرابى إلى المجلس وغاب برهة ثم عاد فأمر صاحب البوق فنفخ فيه تباعا فصاح الجند جميعا بصوت واحد (أفند مز جوق يشأ) ثلاثاً فظن الناس عند ذلك أن قد قامت الحرب على ساقها ولم يبق إلا طلق المدافع فترامحوا وارتفعت أصواتهم بالصياح وتساقط بعضهم فوق بعض وكثر بكاؤهم فنفخ البوق ثانية وثالثة فسار أوّلاً جند عبد العال بيك إلى ناحية طرا ثم جند قصر النيل، ثم جند العباسية وكان فى مقدمة جند العباسية كوكبة من الفرسان ثم أخرى من المشاة على شكل قلعة وفى وسطها أحمد عرابى بك وخلفه جماعة من الضباط يحملون السيوف ثم بقية المشاة ثم أصحاب المدافع وخلفهم نساء العامة والسوقة وهن يزغرتن ويغنين الأغانى الريفية ويصحن فى كل لحظة ويقلن الله ينصرك ياعرابى ياسند الولايا الله ينصرك.

وسير الخديوى فى الحال بعد انفضاض الجمع خبر هذا الحادث إلى دار السلطنة فأتاه الجواب من صدر الدولة يستحثه على استدراك الخطب قبل استفحاله، وأرسل فى نحو الساعة الخامسة ليلا إلى الإسكندرية يستقدم الوزير محمد شريف باشا وقد كان بها منذ أيام فقام من محطة الحضرة فى قطار مخصوص هو وآل بيته وخدمه وحشمه وأتباعه فوصل القاهرة فى فجر السبت سادس عشرى شوّال ودخل على الخديوى ولبث بحضرته طويلا ولم يحدث فى تلك الليلة شىء مما كان يتوقع الناس حدوثه من العامة وزغانف الفرنجة، فقد كان أصحاب الشرطة ساهرين يقظين والعسس يكثر التطواف فى الأزقة والحارات، وأصحاب الدركات ينادون بعضهم على بعض تباعا ورتب أحمد عرابى بك جماعة من الجند يطوفون ويمنعون العامة من التجمع فى الطرق والقهاوى على عاداتهم، وألبس كثيرا من صغار الضباط ملابس العامة فكانوا يمرون بين الناس لاستراق السمع واستطلاع الحوادث وأصبحوا والناس فى فرح ما عليه من مزيد وقد سر أصحاب الوظائف ورجال الدولة بخلع الرئيس مصطفى رياض باشا وذهب الوزير محمد شريف باشا إلى مقر الخديوى بعابدين وعقد مجلسا حضره جميع قناصل الدول الكبرى وبعض قناصل الدول الصغرى وكان بعضهم فى هذا اليوم فى الإسكندرية وبعضهم فى طنطا وحضر فى هذا المجلس أيضاً مقدمو العسكر فتكلم الوزير محمد شريف باشا فى طلبات زعماء الجند وتباحثوا كثيراً فعلق الوزير قبوله منصب الرياسة على خلع أمراء الأيالات

الثلاثة من مناصبهم وأنه يكفل لهم الذب عن جميع حقوقهم الذاتية ولسائر الجند بنوال العفو عما فرط ولزوم انسحاب جند العباسية وطرا إلى رأس الوادى ودمياط فلم يرض مقدمو العسكر بذلك، وقالوا: إنما نحن نطلب أن يتولى رياسة ديوان الجند رجل من أهل البلاد لا شركسى ولا من العائلة الخديوية وأن لابد من إبلاغ عدد الجنود العاملة إلى ثمانية عشر ألفا، وأن يشكل مجلس شورى البلاد كما كان على أيام الخديوى إسماعيل باشا فطال بينهم الأخذ والرد وكثرت الضوضاء ثم انفض مجلسهم على غير طائل، وشاع الخبر بما كان فتطير الناس وخافوا وكثرت الأراجيف وتنوّعت الإشاعات فمن قائل إن مراكب حرب الإنجليز والفرنسيس آتية للإسكندرية لإخضاع زعماء الجند وإرجاعهم إلى الطاعة، ومن قائل لا بل إن عسكر السلطان صارت على مقربة من العريش وهى آتية لمعاونة زعماء الجند وتقرير جميع مطالبهم واشتد اللغط وكثر تساؤل الناس بعضهم لبعض وأصبحوا فأرسل الخديوى إلى الوزير محمد شريف باشا يلح عليه بقبول منصب الرياسة وتوسط فى ذلك أيضاً قناصل الدول فامتنع، وقال: لا سبيل إلى ذلك حتى تنسحب جميع العساكر إلى رأس الوادى ودمياط وينزل أمراء الجند الثلاثة عن منصبهم فانقسم الناس فى أمره يومئذ إلى فريقين فريق كان يصوّب آراءه ويستحسنها غاية الاستحسان مشيرا بذلك إلى عزة نفسه ونزاهتها عن الأغراض الذاتية التى تصحب عادة تلك المناصب العالية مع حبه الزائد للوطن، وفريق كان يرى أن حب الوطن مفضل على كل شىء فكان عليه أن يلبى الداعى ويأخذ بأطراف الحزم مع أجمل المساعى فيفض المشكلة بحكمته المشهورة وينقذ البلاد وأهلها من البلايا التى وقعت فيها، وكان لكل من الفريقين دليل وبرهان وعندى: أن القول الثانى أفضل وقد ظن بعض الناس أن تردده فى قبول منصب الرياسة مبنى على رغبته فى إماتة الوقت والمطاولة حتى تصل إلى الإسكندرية مراكب الحرب السلطانية، وظن آخرون أنه لا يقبل هذا المنصب حتى تنحل عقدة المراقبة وينزل المراقبان الإنجليزى والفرنساوى عن مناصبهما لما بين الوزير والمراقب الفرنساوى من الوحشة والنفور، قلت: ولم يكن الوزير على هذا الجانب من الإفراط والتفريط فإنه معروف بين جميع أهل البلاد بالتنزه عن الأغراض الذاتية مشهور بلين العريكة وسلامة النية فلا تميله الأغراض ولا تغير المناصب من أخلاقه شيئاً ولا يسير إلا على ما يعتقد أن فيه الخير والمصلحة للبلاد وأهلها، وفوق ذلك فهو ليس بذى طمع مع إحدى الدول الطامعة فى البلاد كغيره ممن تولوا الرياسة،

ولذلك كان الناس كافة يعتبرونه أبا الأمة وأخا الإصلاح ومحيى روح المساواة بين صنوف الرعية، ولما طال امتناعه أوعز الخديوى إلى قناصل الدول والعلماء والرؤساء الروحانيين وعمد البلاد ووجهاء التجار أن يستميلوه إلى قبول المنصب ففعلوا وزادوا فى استعطافه ورفع إليه العلماء وعمد البلاد ووجهاؤها وأئمة المذاهب ومشايخ الطرق سجلا بأختامهم وأسمائهم وهم زهاء الستة آلاف ذكروا فيه: أنهم كافلون وضامنون طاعة أمراء العسكر وجميع صغار الضباط وعدم عودهم إلى تكدير صفو الراحة وامتثالهم لإشارة الوزير وغير ذلك من أقوال اللين والتلطف فلم يسعه بعد ذلك إلا القبول وقام من ساعته ودخل على الخديوى بمقره بالإسماعيلية ولبث بحضرته لحظة ثم كر راجعا إلى داره فلقيه وفد من مقدمى العسكر ومعهم التماس وقع عليه جميع أفراد الضباط على اختلاف درجاتهم فدفعوه إليه فقبله ولاطفهم وأظهر لهم غاية البشر والإيناس وقرأه وإذا هم يقولون فيه:

نحن ضباط الجيش المصرى نعتقد الاعتقاد التام فى حسن صداقة وغيرة دولتكم وخلوص طويتكم وسلامة نيتكم فى خدمة الوطن العزيز والمحافظة على حقوقه والسعى فى رفاهية أهله ولهذا ولكوننا جميعا نحب تقدّم وطننا العزيز فنلتمس من دولتكم قبول مسند رياسة مجلس النظار ونسترحم من دولتكم انتخاب نظار الدواوين ممن يكونون موصوفين بالصفات الحسنة والعرض عنهم للحضرة الفخيمة الخديوية للقيام بأعباء خدمة الوطن العزيز وإعلانا لصداقتنا وانقيادنا لأوامر الحكومة التى تصدر فى صالحنا العمومى قد أمضينا هذه العريضة ونحن على يقين أن تقع لدى دولتكم موقع القبول . اهـ.

(مطلب)

قبول الوزير شريف باشا تشكيل الوزارة بعد امتناع

فما فرغ من قراءة العريضة حتى هان عليه الخطب وخف عنه ما كان يلاقيه ورسم بتشكيل هيئة الوزراء فعين مصطفى فهمى باشا لوزارة الخارجية وحيدر باشا للمالية وإسماعيل أيوب باشا للأشغال ومحمود باشا البارودى للجهادية والبحرية وقدرى بك للحقانية وأضاف إلى مسند الرياسة وزارة الداخلية وكان الفراغ من تشكيل الوزارة على هذا النسق بعد ظهر يوم الثلاثاء تاسع عشرى شوال سنة ثمان وتسعين وشاع خبر ذلك بين الناس ففرحوا فرحا لا يوصف واطمأنت قلوبهم بعد

الخوف وذهبت عنهم تلك الطيرة ووردت رسائل التهانى على الوزير محمد شريف باشا من كل صوب وحدب وأحس مصطفى رياض باشا بما وراء تنزيله عن منصب الرياسة لا سيما وقد كثر اللغط وعمت الإشاعة بأن زعماء الجند يطلبون محاكمته على ما ارتكبه من الجور والعسف وتخريب البيوت العامرة وتبعيد الكثير من أبناء البلاد إلى أقاصى السودان والدارفور بلا موجب، فخاف وتقدم إلى الخديوى فى أن يسرحه بالخروج إلى الديار الأجنبية كما فعل عند خلعه على أيام الخديوى إسماعيل فسرحه بشفاعة قونصل الإنجليز والمستر كولفن المراقب فرحل عن القاهرة مساء الثلاثاء تاسع عشر شوال إلى الإسكندرية ثم سار عنها فى ثانى يوم إلى مدينة نيس إحدى مدن بلاد الفرنسيس فكان بين خلعه وارتحاله ثلاثة أيام وإحدى عشرة ساعة بالقاهرة وزهاء سبع عشرة ساعة بالإسكندرية وطير الخديوى الخبر بجميع ما جرى إلى دار السلطنة، فجاءه الجواب فى ثالث عشرى شوال يهنئه بما حصل ويسأله تحقيق الآمال بجعل الوزير محمد شريف باشا يتصرف فى الأمور بعزمه وحزمه المعلومين وينظر إلى مصالح الخلق من أبوابها الحقة، وجاء إلى القاهرة العدد العديد من وجهاء البلاد وأعيانها وكبار الأهلين ومعهم عريضتان موقع على كل منهما من زهاء الألف والخمسمائة من عمد البلاد وكبارها إحداهما برسم الوزير محمد شريف باشا ومضمونها: أن جميع من وقعوا عليها كافلون بأنه لا يقع فى المستقبل من الجيوش المصرية شيء تأباه الهيئة الحاكمة وإنهم فرحون فرحا ما عليه من مزيد حيث تنازل وقبل مسند الرياسة لأنهم يعتقدون أن قبوله هذا هو الوسيلة العظمى فى اطمئنان الخواطر وسكون النفوس، وثانيتهما: برسم الخديوى ومضمونها طلب تشكيل مجلس النواب حيث إنه هو الواسطة الكبرى للإصلاح الذى توجهت إليه آمال جميع الأهلين وكان بين هذه الجموع التى حضرت محمد سلطان باشا أحد وجهاء منية ابن خصيب فوقف وقال مخاطبا الوزير محمد شريف باشا: إنى أعرض على مسامع دولتكم أن هؤلاء الوجهاء والنبلاء قد تمثلوا بين أيدى مراحمكم ليظهروا ما عندهم من الفرح والسرور حيث تفضلتم بقبول مسند الرياسة الجليل فأنهم يعرفون ما لدولتكم من الميل الحقيقى لإجراء الإصلاح الذى كثيرا ما أمّلوه وليعرضوا أنهم متكلفون بالجيوش المصرية الذين هم فى الحقيقة أبناؤهم وإخوانهم وليلتمسوا من مكارمكم ما يعلمونه فى سموّ أفكاركم من بث روح الحرية فى البلاد والمساواة بين أصناف الرعية، وحيث إن دولتكم على هذه الأفكار السامية فهذا الجمع يلتمس من

كرمكم بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن إخوانهم الموقعين على هاتين العريضتين أن تمدوا إليهم ساعد المساعدة القوى وتسعفوهم بما علموه فى همتكم من الإقدام وقوة العزيمة وأن مساعدتهم على نوال ما طلبوه لا تتحقق إلا بأن تكون دولتكم الواسطة العظمى فى رفع هذه العريضة المتضمنة طلب تشكيل مجلس النواب إلى الجناب الخديوى المعظم أعزه الله، وليست هذه بأول ما رآه الناس من حبكم لبث روح الحرية فى البلاد فأن أفكاركم السامية لم تزل ولا تزال موجهة نحو كل ما فيه الخير والمنفعة لهذه الأوطان . اهـ.

فأجابه الوزير بما شف عن إخلاصه فى مساعدتهم وأنه عازم كل العزم على أن يسعى جهده فيما تتقدم به البلاد لا سيما فى تشكيل مجلس شورى النواب فانصرفوا وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق، فوردت على الوزير فى هذا اليوم رسائل التهانى من جميع قناصل الدول وكبار الأجانب والأهلين وأرسل إليه صاحب جريدة التقدم وهو يومئذ بالشام فارا من وجه مصطفى رياض باشا تاريخاً على جناح البرق يؤرخ به عوده إلى منصب الرياسة وهو:

فهذه النعمة تاريخها نصر من الله بفتح قريب

سنة ١٢٩٨ هجرية

وتواردت عليه قصائد التهانى وأبيات المديح من جميع الجهات تترى ووقف بعض الشعراء على بابه، وسمعت شطر بيت لأحد أدباء القاهرة يؤرخ به رياسة المشار إليه وكأنه كان يعرّض بأعمال مصطفى رياض باشا أيام رياسته ولكنى لم أقف على الشطر الأول وهو

* الدهر حر والوزير شريف * سنة ١٢٩٨

ولم يستقر به المنصب حتى جعل ينظر فى طلبات الجند من أبوابها فقرر منها قانون الإجازات العسكرية البرية والبحرية، وقانون تسوية حالة الضباط المستودعين وقانون معاشات الجهادية البرية والبحرية، وقانون القواعد الأساسية الذى يليه قانون الترقى، وقانون الضمائم والامتيازات والإعانات العسكرية فلما أتمها على الوجه المطلوب رفعها إلى الخديوى فصادق عليها ورسم بتنفيذها والعمل بها اعتبارا من ثامن عشرى شوّال ففرح الجند بذلك فرحا لا يوصف وسر كبارهم واطمأنت قلوبهم واعترفوا للوزير بالفضل والمنة، وكانت هذه القوانين غاية فى السهولة والاعتدال لا شيء فيها خارج عن رغائب الحكومة وما تقتضيه حالة البلاد ولم يعلم إلى هذا

الحين ما الذى حمل مصطفى رياض باشا أيام رياسته على تعييبها والامتناع من العمل بها بعد أن رسم بتقريرها فكانت على نحو ما أراد ولو لم يقع منه فى أيام رياسته شىء من الجفاء والشدة مع مقدمى الجند سوى إصراره على عدم تنفيذ هذه القوانين لكفى فإن أعمال زعماء العصابة كانت لغاية اليوم الذى تقررت فيه هذه القوانين غاية فى الخطل والخلل بل هى كأعمال صبيان المكاتب ليس فيها ما يوجب الخوف ولا ما يورث القلق وكانت مجردة عن كل حكمة مشوبة بالأغراض التى لابد وأن تفضى بصاحبها يوما إلى الوقوع فى الهلكة وكان عقلاء القوم يعرفون ذلك جيدا فلما رسم مصطفى رياض باشا بتقرير تلك القوانين ثم عاد فامتنع من العمل بها كان مثله فى ذلك كمثل رجل سلم لآخر سيفا باترا على حين لا يملك عصا واستحلفه أن لا يتقلده إلا متى بلغت منه الشدة مبلغها ثم كان منه بعد أيام أن ضيق عليه وبالغ فى إذلاله وسامه الخسف فلم يشعر إلا وذاك السيف يكاد يعمل فى عنقه فالتفت مذعورا وقال لصاحبه: أو أنت فاعل قال: كيف لا وقد استحلفتنى وهذا السيف سيفك الذى سلمتنيه فندم ولكن لم ينفع الندم.

(مطلب)

رفع ظلامات أهل المحبوس إلى الوزير

وسار الوزير محمد شريف باشا فى النظر فى أمور البلاد واحتياجاتها سيرا حثيثا فكثر توارد القصص والظلامات على ديوانه من أهل المحبوس التى ملأها مصطفى رياض باشا بالكثير من أهل البلاد لأقل ذنب وأصغر شبهة فكان إذا خرج الوزير من بيته يريد الديوان تعلق نساء أهل تلك المحبوس وأطفالهم بأثوابه واستغاثوا وضجوا وبكوا وتساقطت الظلامات بين يديه فتناقل هذا أصحاب صحف الأخبار المحلية وشاع حتى نقله أصحاب صحف أخبار الإنجليز وقاموا له وقعدوا وتبعهم أصحاب صحف أخبار الفرنسيس واستعظموا البلوى ونادوا ياللعدالة ياللإنسانية فكبر الأمر على الوزير محمد شريف باشا واستعظمه ورسم بتشكيل لجنة عهد إليها تفتيش جميع المحبوس وتحقيق ظلامة كل مسجون، وسيرت دولة الإنجليز أحد مقدمى جنودها إلى القاهرة ليشارك اللجنة فى أعمالها، وكلم القونصل الوزير محمد شريف باشا عنه فلم يمانع فى حضوره فبحثت اللجنة ونقبت فظهر لها كثير من المظالم والفظائع قالوا: ولم تكن هذه المظالم قاصرة على مستخدمى بعض المصالح

والدواوين كالطرد والحرمان من الخدامات والتبعيد والسجن وغير ذلك بل قد عمت أيضاً جميع أهل البلاد وأنشبت بالجليل منهم والحقير والغنى والفقير حتى غصت بهم الحبوس وضاقت على اتساعها وأبعد الكثير منهم إلى أقاصى السودان وغيرها بلا قضاء شرعى ولا حكم قانونى وأحصوهم فكانوا زهاء الأربعة آلاف من سائر المديريات القبلية والبحرية فأطلقوا من بقى منهم فعادوا إلى أوطانهم على نفقة الخزينة، وبينما الناس فى شاغل بحوادث أصحاب الظلامات ومن أهلكتهم الحبوس إذ جاء الخبر من دار السلطنة فى ثلمن ذى القعدة إلى ديوان الخديوى الخاص بقيام إحدى سفن حرب الدولة إلى الإسكندرية وعليها أربعة من مأمورى الدولة وهم: على نظامى باشا المعتمد الأول الموكول إليه البحث فى أمر تظاهر أحمد عرابى بيك وأصحابه، وعلى فؤاد بيك المعتمد الثانى الموكول إليه النظر فى الأمور السياسية وله حق الاشتراك فى المخابرات التى تقع بين مصر والدول الكبرى، وراتب باشا، وصفر أفندى وهما من ياوران الخليفة أمير المؤمنين ويتضمن الخبر أيضاً التهانى للخديوى على ما أظهره من الحزم وحسن السياسة فى حل تظاهر الجند وتسكين قلوب الرعية، ويقول إنى: أرسلت إليك فى مركب حربية من مراكبنا السلطانية بعض المأمورين من ياوراننا الخاص سيكونون لك عونا على حل هذا الإشكال وفض الخلاف بالتى هى أحسن ومنع حدوث مثل هذه القلاقل مرة ثانية فلما شاع الخبر بما ذكر استعظمه الناس وخافوا عاقبته واهتم له الوزير محمد شريف باشا فرسم فى الحال بانحدار عبد العال بيك بعسكره السود إلى مدينة دمياط فانحدر فى نفس اليوم الذى جاء فيه الخبر بقيام وفد السلطان وقد شيعه على المحطة العدد العديد من ضباط الجند والوجهاء والأعيان والتجار على اختلاف درجاتهم وأحمد عرابى بيك والبارودى، فقبل أن يسير بهم القطار وقف عبد العال بين الضباط وقال مخاطبا للجمع أيها الإخوان: إنا نودعكم والقلوب معكم وكلمة الوطنية تجمعنا فاجعلوا حبل المواصلة بيننا ممدودا وثقوا بعزمكم ولا تطيعوا الوشاة فيما يفترونه علينا كما أننا لا نسمع من واش كلاما واعلموا أننا فى تيار أفكار إن لم تحفظ أنفسنا فيه بالاتحاد وإلا هلكنا وكلنا يعلم حسن طوية مولانا الخديوى وطهارة رجاله الفخام فنحن نخدم أفكارهم بأرواحنا ونقضى العمر فى طاعتهم والله الحفيظ على وعليكم وهو على كل شىء قدير.

فبرز عند ذلك عبد الله صاحب جريدتى الطائف والتنكيب والتبكيت وقال مخاطبا للجند: حماة البلاد وفرسانها من قرأ التاريخ وعلم ما توالى على مصر من

الحوادث والنوازل عرف مقدار ما وصلتم إليه من الشرف وما كتب لكم فى صفحات التاريخ من الحسنات فقد ارتقيتم ذروة ما سبقكم إليها سابق ولا يلحقكم فى إدراكها لاحق ألا وهى حماية البلاد وحفظ العباد وكف يد الأستبداد عنهما فلكم الذكر الجميل والمجد المخلد يباهى بكم الحاضر من أهلنا ويفاخر باثركم الآتى من أبنائنا فقد حيى الوطن حياة طيبة بعد أن بلغت الروح التراقى فإن الأمة جسد والجند روح ولا حياة للجسم بلا روح وهذا وطنكم العزيز أصبح يناديكم ويناجيكم ويقول:

إليكم يردّ الأمر وهو عظيم   فإني بكم طول الزمان رحيم
إذا لم تكونوا للخطوب وللورى   فمن أين يأتي للديار نعيم
وأن الفتى إن لم ينازل زمانه   تأخر عنه صاحب وحميم
فردّوا عنان الخيل نحو متيم   تقلبه بين البيوت نسيم
وشدّوا له الأطراف من كل وجهة   فمشدود أطراف الجهات قويم
إذا لم تكن سيفا فكن أرض وطأة   فليس لمغلول اليدين حريم
وإن لم تكن للعائذين حماية   فأنت ومخضوب البنان قسيم

ولقد ذكرتم باتحادكم وحسن تعاهدكم ما كان من رسول الله ﷺ عند تغيب سيدنا عثمان فى أهل مكة من مبايعة أهل الشجرة على استخلاص صاحبهم فصاروا يعنونون بالعشرة المبشرين بالجنة وأنتم قد تعاهدتم على حفظ الأوطان وبقاء سلطة مولانا الخديوى وتأييد ملكه وتبايعتم على الدفاع ووقاية أهليكم من كل ما يذهب بالثروة أو يضعف القوة أو يخدش الشرف ﴿فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾ ثم التفت إلى عبد العال بيك وقال: هذا أخوكم الحرّ يودعكم ويسير بإخوانكم إلى دمياط فاجعلوا عروة الود وثيقة ولا تحلوا حبل الاتحاد الذى جاهدتم الأنفس فى إحكامه فقد:

زالت موانعنا التى   كانت تجرّ إلى الفساد
والأنس دار رحيقه   بين الجيوش أولى الرشاد
لا تعمر الدنيا إذا   لم تترك الخلق العناد
الأرض تنبت زرعها   لحياتنا بالاتحاد

ومن محاسنكم التى تفتخرون بها ويعرف لكم بها الفضل طاعتكم لأوامر الحكومة وامتثالكم لإشارتها وربط قلوبكم بمحبة مولانا الخديوى ورجاله الكرام

خصوصا هذا الرئيس البر الرءوف القائم بخدمة الأمة وبلادها وأحسن ما يؤرخ به اسم الجهادى عند النوازل أن يقال مات شهيد الأوطان . اهـ .

فما ختم خطابه حتى نادى الجمع بصوت واحد رضينا بالموت فى حفظ الأوطان ووقاية أميرنا من كل ما يمس سلطته، ثم سار القطار قاصدا دمياط فقابلهم أهلها بالبشر والترحاب فنزل الجند فى المحلة التى أعدت لهم، وزار عبد العال بيك جميع وجهاء البلد وأعيانها وعملوا له الولائم والختمات وتوددوا إليه وتقرّبوا منه جهد الاستطاعة فلما جاء الخبر إلى القاهرة بأن قد استقرّ بعبد العال بيك وجنده المقام رسم الوزير محمد شريف باشا إلى أحمد عرابى بأن ينحدر بجنده إلى رأس الوادى فنادى فيهم بالخروج فخرجوا يوم الخميس ثالث عشر ذى القعدة وأمامهم أحمد عرابى بك على فرس وحوله كوكبة من الضباط على ظهور الخيل والسيوف بأيديهم مسلولة وساروا من وسط المدينة إلى المقام الحسينى فلما اقتربوا منه ترجل أحمد عرابى بيك وترجل معه جماعة من الضباط ودخل إلى المقام ومعه بيرق الألاى وطاف حول الضريح مرارا كثيرة وهو يقرأ بعض الأحزاب ثم خرج وركب هو ومن معه وساروا قاصدين محطة السكة الحديد وكان جند الحرس الخديوى مصطفا على جانبى الطريق وبأيدى ضباطه باقات الورد والزهور وكذلك بعض العامة وكانت الطرق غاصة بجماهير الناس من الرجال والنساء والصبيان فلما اقترب أحمد عرابى بيك من المحطة هتف الناس هتافا عظيما وعزفت الموسيقى وترامت عليه ضمات الزهور من كل جانب وكان فى انتظاره كبار الضباط وبعض أعيان القاهرة وعمد بعض البلاد وقد فرشوا له الأرض بالزهور والرياحين وأوراق الشجر فترجل عن جواده ووقف برهة لطيفة وحوله جماعة من مقدمى الجند وهم: على بيك الديب مقدم الحرس الخديوى، وعلى بيك يوسف مقدم جند قلعة الجبل الذى تولى بدل إبراهيم بيك حيدر، وطلبة بيك عصمت مقدم جند قصر النيل الذى تولى بدل شوقى بيك وقبل أن يتحرك به وبعسكره القطار التفت إلى من كانوا حوله وجعل يحضهم على الاتحاد والتعاون وعدم تفريق الكلمة مع صفاء القلوب وإخلاص النية عند كل عمل، ثم تقدم عبد الله صاحب الطائف وخطب فحض وحث وبالغ فى التنكيت والتبكيت حتى أخذ بالعقول وكاد يبكى الناس ثم رحل بهم القطار قاصدا رأس الوادى فلما وصل مدينة الزقازيق التى هى كرسى القرية التى ولد فيها أحمد عرابى بيك هرع إليه الكثير من مشايخ البلدان والعمد والأعيان يحمل بعضهم أغصان الشجر وبعضهم سعف النخل وبعضهم الزهور والرياحين وهم فى ضجة

وجلبة عظيمة فأشرف عليهم من نافذة العربة فصاحوا ودعوا له فنزل ووقف بينهم وأشار إلى صاحب الطائف فتكلم وبالغ فى الحث ثم تكلم هو كذلك فترامت عليه الزهور والرياحين من كل جانب وعلت الأصوات بالدعاء ثم انحدر القطار مسرعا إلى رأس الوداى.

(مطلب)

رجال الوفد بالخديوى فى مقره وذهابه إليهم

واتفق أنه وصل فى هذا اليوم رجال الوفد القادمون من دار السلطنة إلى مدينة الإسكندرية ودخلت مركبهم المينا فسلمت فرد عليها بعض الحصون السلام وكان الخديوى قد رسم إلى ذى الفقار باشا فانحدر إلى الإسكندرية للقاء رجال الوفد فأنزلوهم فى سراى رأس التين فأكلوا وشربوا وركبوا إلى محطة السكة الحديد حيث كان ينتظرهم قطار الخديوى الخاص وكان فى ركابهم فريق من العسكر وجماعة من أصحاب الشرطة ومحافظ المدينة وصاحب شرطتها فسار بهم القطار قاصدا القاهرة فوصلوا فى الساعة الثانية ليلا وساروا إلى قصر النزهة حيث أعدّ لهم وكانت عدتهم ستة، وهم: على نظامى باشا وراتب باشا وعلى فؤاد بيك وصفر أفندى وسيف الله أفندى والشيخ أحمد أسعد أفندى متولى الفراشة بالحرمين الشريفين عدا الخدم والحشم والأتباع فإنهم كثيرون وكان جميع ضباط الباخرة التى جاءت بهم من ضباط القصر الشاهانى وقد بقى معهم اثنا عشر شخصا لم ينزلوا إلى البر وهم من الحرس السلطانى المكلفين بمراقبة رجال الوفد، ولما كان صباح الجمعة رابع عشر ذى القعدة ركب رجال الوفد لزيارة الخديوى بمقره بالإسماعيلية فتلقاهم بغاية البشر والترحاب وبالغ فى تكريمهم وجلسوا معه برهة يتحدثون فيما لم تصل إلينا معرفته أو كما قال بعض أصحاب صحف الأخبار المحلية أنهم أبلغوا الخديوى تسليمات الذات السلطانية وأعربوا عما لها من تمام المسرة والرضا عن همة الخديوى فى حفظ الأمنية وأن المقصود من حضورهم إنما هو إظهار ما للذات الملوكانية من الوثوق والاعتماد على الجناب الخديوى وتأييد نفوذه وتعزيز موقعه وتثبيت مركزه، قالوا: فعند ذلك نطق الخديوى بآيات الخضوع وأدى واجبات الشكر للذات الشاهانية على حسن عنايتها ثم دعا لها بتخليد ملكها وتمكين قوّتها وبعد ذلك انصرفوا، فلما جاءت الساعة الخامسة ركب الخديوى فى كبكبته وزار رجال الوفد بقصر النزهة ولبث معهم برهة ثم كر راجعا إلى الإسماعيلية فبات حضور رجال هذا الوفد مع طلب الأمة

إنشاء مجلس شورى نواب البلاد شغل جميع الناس الشاغل لهم عن كل شيء وكان الوزير محمد شريف باشا يعرف ذلك منهم فتقدم إلى الخديوى فى خامس عشر ذى القعدة فى طلب التصديق على إنشاء المجلس على قاعدة قد قررها فصادق الخديوى عليها راضيا ورسم بافتتاحه فى غرة صفر الخير سنة تسع وتسعين ومائتين وألف هجرية باحتفال عظيم وشاع الخبر بذلك ففرح الناس كثيراً وطاف جماعة الضباط على بيوت الوجهاء والأعيان بالقاهرة ومصر يبشرونهم وتكلم أصحاب صحف الأخبار المحلية عن الفوائد العظيمة التى تنجم عن إنشاء هذا المجلس وأطالوا الكلام وبالغوا فى الإطراء، وقالوا: إنه لهو من المحسنات بل من المعجزات التى لا يقدر غير الوزير محمد شريف باشا على الإتيان بها لا سيما فى إبان هذه الظروف المهمة والخطوب المدلهمة.

وفى يوم الثلاثاء ثامن عشر ذى القعدة زار رجال الوفد سائر دواوين الحكومة ونظاراتها ثم ساروا إلى ديوان الجند بقصر النيل فاصطفت لقدومهم جميع العساكر وكان محمود باشا البارودى واقفا على باب الديوان متهيئا لاستقبال رجال الوفد فلما دخل على نظامى باشا أخذ البارودى بيده ومر معه على صفوف العسكر ثم استدعى إليه طلبة بيك وجميع القائمقامات والبيكباشية فألقى عليهم خطابا بالتركية فترجمه البارودى بالعربية فكان هكذا، إن للجناب الخديوى الأكرم منزلة رفيعة من الحب وحسن الرعاية عند مولانا السلطان الأعظم أيده الله ونصره فهو لذلك يحافظ على تعزيز جانبه وتأييد مركزه ويعضد نفوذه وسلطته وليس بخاف على حضراتكم أن الجناب الخديوى هو الوكيل المفوض عن مولانا السلطان الأعظم وأن الوكيل كالأصيل فمن أطاع الجناب الخديوى وامتثل أوامره وانقاد لأحكامه فقد أطاع حضرة مولانا السلطان وكان من العاملين بما جاء فى محكم القرآن من قوله تعالى: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم﴾ ومن خالف الجناب الخديوى فقد خالف مولانا السلطان وعصى أمر الرحمن - نعوذ بالله من ذلك، فنحن معشر العساكر يلزمنا فى كل حال أن نطيع ونذعن لولى الأمر وأن لا نتردد أو نتهاون فى القيام بما يكلف به من الأوامر وأن لا نبحث عن موجبها ولا نسأل عن أسباب ما تكلف به من الأوامر وإنما علينا أن نمتثل كل ما أمرنا به ونجرى على مقتضاه وقد أمضيت فى خدمة العسكرية ثلاثة وأربعين عاما واشتركت معكم أيام الحروب الماضية فى المخاطرة بدمائنا وأرواحنا امتثالا لأوامر مولانا وسلطاننا وإعلاء لكلمة ديننا

ودفاعا عن عموم أوطاننا فأوصيكم أن تتمسكوا بالطاعة وتقيموا على الانقياد وتلزموا حدودكم المعروفة فلا يعرف الصغير إلا من هو أكبر درجة منه ولا الكبير إلا الأعلى منه رتبة وهكذا لا يعرف إلا كبيره درجة بعد درجة إلى الانتهاء، وبعد أن ختم مقالته هذه ودّعهم وانصرف مع من حضروا معه فلما كان بعد ظهر اليوم ركب ومعه فؤاد بيك وزار بعض المدارس العليا والوزير محمد شريف باشا قيل وأعلماه بأنه لم يكن فى عزمهما التداخل فى شىء من أمور البلاد وبأن غاية حضورهما مع من حضر من رجال الوفد إنما هى تقديم مراسيم التهانى للجناب الخديوى على ما أظهره من الحزم وأصالة الرأى فحادثهما الوزير عن عادات البلاد وسلامة نوايا أهلها ودوام خلودهم إلى الهدوّ والسكينة وعدم الاندفاع إلى ما يكدّر صفو راحتهم ثم انصرفوا وأمر الخديوى فزارهم كثير من الوجهاء والأعيان وشيخ الإسلام وبعض العلماء ومشايخ الطرق وبالغوا فى إجلال رجال الوفد وتعظيمهم.

وحسب قونصل جنرال الإنجليز بمصر ما وراء حسن وفادة على نظامى باشا ومن معه وتقرّب أهل البلاد منهم فجعل يراقب الحوادث ويستطلع الأخبار ويكثر من الذهاب تارة إلى مقر الخديوى وأخرى إلى مقر الوزير محمد شريف باشا وطورا إلى مقر البارودى وبث العيون والأرصاد حول مقام الوفد وطاف رجال ديوانه على بيوت بعض رجال الدولة يستنشقون نسمات تلك الأخبار وكأنه آنس منهم بعض الشىء فكتب به إلى اللورد جرانفل كبير السياسة الإنجليزية يومئذ فسير هذا اللورد إلى الباب العالى يطلب سرعة استرجاع رجال الوفد وجلائهم عن الكنانة واستنجد بكبير سياسة الفرنسيس وهو يومئذ المسيو بارتملى سنتهلار فأنجده وجعلا يشدّدان الطلب وضربا لجلاء الوفد أجلا وأوعزا إلى أصحاب صحف أخبارهم فهاجوا وماجوا ونادوا بالحرب والقتال وخبطوا وخلطوا فى القول وترامت ظنونهم إلى المرمى البعيد، فمن قائل: أن الوفد إنما دخل أرض الكنانة يتابعه من السر ما لا يعلمه إلا المقرّبون من أبواب السلطان، ومن قائل: بل هم يتأبطون جميع الفرامين والخطوط الهمايونية الصادرة من عهد محمد على باشا الكبير إلى أيام الخديوى توفيق لغاية خفية وسر مكتوم وتناهى ببعضهم الخلط إلى القول بأن رئيس الوفد قام من دار السلطنة إلى مصر ومعه فرمان مخصوص لا يليق التكلم عنه حتى ينجلى الصبح لذى عينين (قلت): يريدون فرمانا بعزل الخديوى توفيق وتولية الأمير عبد الحليم بن محمد على باشا وجعلوا يقولون غير ذلك من الأراجيف فقام أصحاب صحف الأخبار التركية

يفندون تلك المزاعم ويرمون أصحاب صحف الإنجليز والفرنسيس بسوء النية وخبث الطوية ويقولون إنما مصر بلد إسلامية وهى كالقلب من جسم السلطنة العثمانية فأى جناح على المتبوع إذا سير إلى تابعه يسأل عن حاله ويخفف عنه ما اشتدّ من أحواله وطال الأخذ والردّ على غير جدوى والسلطان لا يلتفت إلى أقوال صاحبى سياسة الإنجليز والفرنسيس فعمد عند ذلك صاحب سياسة الفرنسيس إلى التهديد وسير إحدى مراكب حربهم إلى مدينة الإسكندرية وكانت من أضخم سفنهم واسمها آلما فوصلت ليلة تاسع عشر ذى القعدة وباتت ليلتها خارج البوغاز وأصبحت فدخلت إلى المرسى وسلمت على الطوابى بإطلاق مدافعها فردّت عليها طوابى رأس التين السلام وكانت تحمل زهاء ثلثمائة وخمسين من الفرق الحربية وعشرة مدافع من العيار الكبير والطراز الجديد، وشاع خبر قدومها ووصل إلى القاهرة فخاف الناس وكثر تحدثهم به وخشوا سوء العاقبة وكأن السلطان قد بما وراء ذلك فجاء الخبر إلى رجال الوفد بالجلاء عن مصر فتأهبوا للرحيل، ولما كان ثالث عشرى ذى القعدة تمثل على نظامى باشا وفؤاد بيك ورجال الوفد بين يدى الخديوى وأبلغاه أنّ أمير المؤمنين قد أحسن عليه بنيشان الامتياز وأنّ من شأن توجيه هذا النيشان أن الخليفة يضعه بيده على صدر من تشرف به وهو ممثل بين يديه بملابس التشريف، قيل: فأظهر الخديوى الخضوع والطاعة، وقال: سأتشرف إن شاء الله بالمثول لدى سيدى ومولاى أمير المؤمنين عند تمام استتباب الأمن وسكون خواطر أهل البلاد، ثم تقدم إليه فخرى بيك ربان باخرة الوفد وأبلغه بأن قد ورد إليه مرسوم السلطان بالعود إلى دار السلطنة حالا وانصرفوا وفى الساعة الثالثة من صباح ثانى يوم الثلاثاء رابع عشرى الشهر خف على نظامى باشا وفؤاد بيك إلى مقر الخديوى بالإسماعيلية لوداعه فأحسن لقاءهما ورحب بهما ورسم فهيؤا قطاره المخصوص فركبوا إلى محطة السكة الحديد، وكان الوزير محمد شريف باشا وسائر الوزراء والكبراء وموظفى الحكومة فى انتظارهم فركبوا القطار وسار بهم إلى الإسكندرية ونزلوا بسراى رأس التين فوفد عليهم جميع ضباط جند الإسكندرية للسلام فوقف بينهم المشير على نظامى باشا وخطب خطابا وجيزا معناه، أنه عند وصوله إلى مقر الخلافة العظمى لابد أن يبشر إخوانهم العسكر المنصور هناك بأن لهم فى مصر إخوانا لا يرون غير الطاعة لأوامر مولانا أمير المؤمنين والانقياد للخديوى ثم نزلوا إلى السفينة ورحلوا إلى دار السلطنة وقد تخلف عنهم بالقاهرة عظيم اسمه كامل باشا وحجته فى ذلك عزمه على السفر

إلى الأقطار الحجازية، فأقام أياما يتراوح بين القاهرة والإسكندرية لا يعلم أحد من أمره شيئاً ثم رحل إلى السويس ومر بمدينة الزقازيق قصبة الشرقية فلاقاه فى محطتها أحمد عرابى بيك وكأنه كان فى انتظاره فركب معه فى عربة القطار ولبثا معا إلى أن بلغ القطار محطة التل الكبير ثم ودّعه ونزل فسار القطار الهوينا وكان على يسار طريق القطار جميع جند أحمد عرابى ومعهم الموسيقى، فلما اقترب منهم القطار عزفت الموسيقى بنشيد السلام السلطانى وضج الجند بأصوات التهليل والتكبير فبرز كامل باشا من شباك العربة وحياهم بإشارات السلام فصاحوا بالدعاء للخليفة أمير المؤمنين وكان أحمد عرابى على رأس صفوف أولئك العسكر وخلفه جماعة من كبار الضباط وهو يهلل بالدعاء فأعجب هذا كله كامل باشا وسر به سرورا عظيما، وكان لقاء كامل باشا وأحمد عرابى على موعد بينهما رغما عن ممانعة رجال الحكومة وبذلهم الجهد فى التبعيد بينهما، وبعد أن خرجت الباخرة العثمانية بمن عليها من رجال الوفد من مينا الإسكندرية بقليل دخلت باخرة حربية إنجليزية اسمها انشيل قادمة من مالطه وهى من المدرعات الضخمة فيها أربعة عشر مدفعا كبيرا فأقامت بالإسكندرية يومين ثم خرجت فى سادس عشرى ذى القعدة وخرجت معها المركب الفرنساوية، وتشوّف الناس يومئذ إلى معرفة ما سيكون بعد وصول رجال الوفد إلى دار السلطنة وتزايد تساؤلهم عما فى صحف الأخبار وأكثروا من شرائها واضطر من لا يعرف القراءة من العامة إلى مصاحبة من يعرف القليل منها فكنت تراهم فى شوارع القاهرة ومصر القديمة جماعات وبينهم الرجل أو الصبى من صبيان المكاتب وهو يقرأ عليهم ترجمة عبارة لصاحب جريدة التيمس الإنجليزية أو لصاحب الديبا الأفرنسية أو لغيرها من صحف الأخبار الأجنبية وهم فى ضجة وحوقلة وعم هذا الحال السوقة وأصحاب الحرف الدنيئة كالصباغين والزياتين والحلاقين، وقد رأيت يوما صبيا فى حانوت لرجل يبيع البقل وبيده صحيفة من صحف الأخبار العربية وأمام الحانوت خلق من السوقة وهم محدقون بالصبى وهو يقرأ عليهم ما نصه، قد طلب الباب العالى من سفيرى الفرنسيس والإنجليز أن يعلماه مفصلا بالسبب الحامل للدولتين على إرسال المركبين الحربيتين إلى مدينة الإسكندرية، فأجاباه بأن ليس المقصود من إرسالهما إرغام رجال الوفد العثمانى على سرعة الخروج من مصر كما أشاعه المرجفون وإنما المقصود هو وقاية رعايا الدولتين فقط فإذا سافر المبعوثان سافر المركبان أيضاً انتهى، فقهقه الجمع عند سماعهم هذا الكلام وهمس كل فى أذن

الآخر وصاح أحدهم قائلاً وهلا ترى فى هذه الورقة أيضاً أن الإنجليز والفرنسيس يتخوّفون من تخلف كامل باشا السمين بالقاهرة بعد قيام الذين جاءوا معه من دار السلطنة وقد نادى أصحاب صحف أخبار الفرنسيس على قومهم بالحذر والألتفات إلى ما عساه أن يحصل من بقاء الباشا المذكور فقلب الصبى الصحيفة يمنة ويسرة وتأملَ فيها، وقال: صدقت ياعماه ومن الذى أعلمك بهذا الخبر، فقال: سمعت فلانا الحلاق الساعة يقول أنه سمعه من أحد موظفى الحكومة، فقلت فى نفسى أن الله بالعاقبة عليم.

(مطلب)

مجلس نواب البلاد وهو أحد مطالب جماعة الضباط

ووصل رجال الوفد إلى دار السلطنة فاندهش كبار سياسة الدول من دهاء السلطان وعدم جعله تلازما أو تعلقا بين وجود مبعوثيه فى بلاد هى تابعة له وبين إرسال دولتى الإنجليز والفرنسيس مركبيهما الحربيتين إلى مدينة الإسكندرية فكاد سفير الإنجليز فى دار السلطنة يتميز غيظا من عجزه عن إدراك جميع هاته المعميات التى لم تكن تخطر له على بال، وقد أشار إلى ذلك صاحب جريدة الدالى نيوز الإنجليزية فى كثير من عباراته عن سياسة الخليفة السلطان «عبد الحميد» وما فعله عند إرسال وفده إلى مصر مما لم يعرفه أحد إلى يوم رجوع رجال الوفد إلى القسطنطينية، وانصرفت أفكار الناس عن البحث فيما أتى من أجله رجال الوفد بعد رحيلهم إلى القسطنطينية إلى استطلاع ما سيكون من أمر تشكيل مجلس شورى نواب البلاد وقد رسم الوزير محمد شريف باشا إلى مديرى الجهات ومحافظيها باستدعاء أهالى البلاد إلى الانتخاب على القاعدة التى تقررت لذلك وأرسل يستحث الناس على التدبر وأن لا ينتخبوا إلا من عهد بالصدق وعرف فيما بين العموم بالفطانة والذكاء واشتهر بالمعرفة وحب المنافع للبلاد والأهتداء إلى طرقها الحقيقية وتحققت منه العفة والاستقامة قديما وحديثا - قال - فمن وجد بهذه الصفات انتخبوه غير مراعين إلى الشهرة والظهور ومن وجدتموه على ما يناقض هذه الأخلاق فابتعدوا عنه وانبذوه وإن كان أثرى المثرين، فما طار الخبر بذلك إلى الآفاق حتى غصت دواوين الحكومة بالوجهاء والأعيان والمثرين من أهل القرى واختلفت كلمة أهل البلاد وتفرقت أهواؤهم وتباينت أغراضهم حتى كادوا يفتتنون وتعذر على المديرين

والمحافظين عمل الانتخاب والوزير يستحثهم ويحضهم على الأخذ بأطراف الحزم وأن لا يراعوا إلا المصلحة العامة ولا ينظروا إلا إلى الأوسع معرفة من قومهم والأقوى إدراكا والأنفذ بصيرة والأكثر اطلاعا والأعرف بأحوال بلاده وحكوماتها فى الماضى والحاضر فاطمأنت عند ذلك القلوب وتم الانتخاب أو كاد.

(مطلب)

ما كان من سياسة قونصل جنرال الإنجليز فى أمر تشكيل مجلس شورى النواب

قال بعض الكتاب: فكبر هذا الأمر على المستر مالت قونصل جنرال الإنجليز واستعظمه لا لأنه من الأهمية عنده فى شىء ولكن لاعتباره إياه أنه هو المحور الذى ستدور عليه رحا أعماله فعمد إلى ملازمة الخديوى وأكثر من مجالسته فكان إذا رأى منه تسرعا فى تحديد أجل تشكيل مجلس النواب على النحو الذى أشار به الوزير محمد شريف باشا بالغ فى النصيحة وهوّل فى العاقبة وأظهر من جانب القسوة حنواً وإشفاقاً وإذا رأى منه بعد ذلك تباطؤا فى العمل وإغضاء ذهب إلى البارودى وشكا إليه من تغاضى الخديوى وإبطائه وحض البارودى على الثبات والحزم وعدم التخلى عن زعماء العصابة حتى يدركوا منشودهم فلم يخرج من عند البارودى وأصحابه إلا وهم فى ضجة وجلبة وهياج فإذا كثرت جلبتهم وعظم ضجيجهم ورموا الخديوى بسوء النية وبالغوا فى تعنيفه وتعييبه حتى ينقبض ويغضب ذهب إليه مالت ولاطفه وهوّن عليه الأمر ومناه بالأمانى الطويلة العريضة فإذا آنس منه سكون الخاطر والخلود إلى المساهلة عرج به إلى الوقيعة وشدد فى القول وعظم البلوى وحذر من العاقبة حتى يتخيل للخديوى أن قد سدت أبواب النجاح وانطمست معالم الفلاح فيرجع إلى ما كان عليه من الوحشة والانقباض ويرجع كذلك البارودى وأصحابه إلى الاستغاثة بقونصلى الفرنسيس والإنجليز - قال - وهكذا كان حال الخديوى وزعماء العصابة من اليوم الذى بعث فيه الوزير محمد شريف باشا يستحث المديرين والمحافظين على سرعة الانتخاب، وكان من وراء ذلك أن تطاولت أيدى رجال العصابة العسكرية إلى العبث بعمل الانتخاب فجعل عبد الله صاحب الطائف يجوب البلاد ويستميل الناس إلى انتخاب المحزبين لرجال العصابة فاستمال الكثير من أهل الشرقية والبحيرة والدقهلية والقليوبية وغيرهم من أهالى المدن القبلية، فلما كان

عاشر ذى الحجة من السنة أى سنة ثمان وتسعين قدم أحمد عرابى إلى القاهرة وقدم كذلك من مدينة دمياط عبد العال بيك حشيش وشاع خبر حضورهما فتحدث الناس به وترامت ظنونهم، وقالوا: إنهما إنما قد حضرا لإكراه الهيئة الحاكمة على سرعة تشكيل مجلس نواب البلاد واشتد خوف العامة وكثر لغطهم فكانوا إذا رأوا جماعة يهرولون فى الطريق، قالوا: إنهم ذاهبون بدعوة من أحمد عرابى أو شاهدوا زحاما على حانوت، قالوا: إنه بإشارة منه لسر لا يعلمه إلا هو والمقربون إليه أو سمعوا مؤذنا ينادى حى على الفلاح، قالوا: إنما هو يدعو الناس إلى التعاون والتعاضد أو سمعوا امرأة تولول على صبى ضل اسمه أحمد، قالوا: إنما هى تستغيث بأحمد عرابى بيك لدفع ظلامتها وكشف غمتها وعم هذا الخلط جميع المدن والبلاد فكانت إذا وضعت حبلى صبيا سمته عرابى أو أحمد عرابى لا سيما أهل القرى واشتد تعلق الناس به شدة لم تكن تخطر لأحد على بال وتكلم أصحاب صحف الإنجليز والفرنسيس فى أمر مجىء أحمد عرابى وعبد العال حشيش إلى القاهرة وفصلوا وقاسوا وخاطوا فخشى الوزير محمد شريف باشا العاقبة واستقدم سائر المديرين والمحافظين وشدد عليهم بسرعة الانتخاب فأتموه فى ثانى عشر ذى الحجة المذكور.

(مطلب)

الاختلاف فيمن يتولى مجلس نواب البلاد

ولما تم انتخاب سائر الأعضاء ولم يبق إلا الرئيس اختلفوا فيمن يتولى الرئاسة وطالت أيام الاختلاف فتباينت الأغراض وتفرقت الأهواء وعادوا إلى ما كانوا عليه من الخلط والخبط وكثرت أراجيف ضباط الجند وتزايد تطوافهم فى شوارع المدينة ولبثوا على هذه الحال أياما حتى اجتمعت كلمتهم على انتخاب محمد سلطان باشا أحد أعيان منية ابن خصيب بالأقاليم القبلية وزال ما كاد أن يقع من الوحشة بين الوزير محمد شريف باشا وزعماء العصابة وشاع خبر رحيل أحمد عرابى وعبد العال حشيش عن القاهرة إلى دمياط ورأس الوادى ولم تكد تسكن الخواطر وتطمئن القلوب لقيام أحمد عرابى بك وعبد العال بك إلى مقر عسكرهما حتى عاد الأرجاف بقيام العسكر على كافة النزلاء الذين بالإسكندرية وإعمال السيف فى رقابهم فاشتد الخوف بالناس شدة بالغة، وتحرير الخبر أنهم وجدوا فى سادس عشر المحرم افتتاح سنة تسع وتسعين رجلا من الشرطة قتيلا فى الطريق وكان أول من رأى

جثته رجلا إيطالياً فذهب الرجل إلى مقر محافظ المدينة وأعلمه بالخبر فلما شاع الخبر وعلمه أصحاب ذلك الشرطي ظنوا أن الإيطالي هو القاتل فهاجوا وماجوا وحملوا بنادقهم وتأثروا الإيطالي فاختبأ في مقر المحافظ فأرادوه عنوة واقتحموا المكان وهم فى ضجيج هائل وذهب جماعة منهم إلى موضع القتيل فحملوه وأتوا به أمام مقر المحافظ وصاحوا ونادوا وطلبوا الإيطالى للبطش به فاجتمعت عند ذلك الغوغاء وعلت الضوضاء وتزاحم الناس على أبواب الديوان يريدون الدخول فنزل إليهم المحافظ وجعل يلاطفهم وأمر بالقتيل ليحمل ويدفن فامتنعوا وصاحوا فى وجهه وقالوا: لا يحل لك ذلك يامسلم أحضر لنا النصرانى الساعة لنبطش به وإلا ذهبنا بالجثة إلى القاهرة فاشتد اللدد وخاف الناس واختفى الأجانب وأغلق أصحاب الحوانيت حوانيتهم وأرسل المحافظ إلى الوزير محمد شريف باشا يعلمه بالخبر فاستعظم الأمر جدا وسير إلى المحافظ يستحثه إلى مداركة الأمر وكتب إلى صاحب الشرطة يقول لازموا السكينة وسيقدم عليكم وفد لتحقيق الحادثة فبذل المحافظ وصاحب الشرطة جهد الاستطاعة حتى فرقوا تلك الجموع وحملوا الجثة وواروها التراب ليلا وبات الناس ليلتهم تلك وهم فى خوف مما عليه من مزيد، فلما كان اليوم الثانى قدم إلى الإسكندرية وفد الوزير محمد شريف باشا فسأل وبحث ودقق فلم يظهر أن للإيطالى ذنبا ولا جناية فاخلوا سبيله وقد ثبت أن القاتل للشرطى نفر من أهله لسر بينهم فسكنت الفتنة واطمأنت قلوب الخلق.

(مطلب)

الخبر باستفحال أمر مدعى المهدوية بالسودان

ولم تكن لتتمكن الهيئة الحاكمة إلى هذا الحين من تسيير المدد إلى السودان لقتال مدعى المهدوية، وقد وردت الأخبار من والى السودان وهو رؤف باشا فى ثالث صفر من السنة تنبىء باستفحال أمر مدعى المهدوية وإعلاء كلمته وأنه عاد فخرج على من وجده من العسكر المصرى فقتل منهم زهاء الثلثمائة ونهب متاعهم وسلاحهم فلما شاع خبر نصرته بين سكان الجبال اعتقدوا صحة دعواه فتبعه خلق كثير من العربان والقبائل الرحالة وشنوا الغارة على الكثير ممن لم ينضموا إليه ولم يقوموا لنصرته ودخلوا القرى فأحرقوا ونهبوا ما لا يحصى من البقر والغنم والأنعام والريش وسنّ الفيل واستلبوا ما فى خزائن مراكز الحكومة فلم يبقوا ولم يذروا،

ووصل الخبر بذلك إلى أهل الخرطوم وتجارها فحصل لهم فزع عظيم وداخلهم من الخوف ما لا مزيد عليه فجمعوا أموالهم وسيروا بها إلى أسوان بالصعيد الأعلى فكبر الأمر على الوزير محمد شريف باشا وجعل يرسل المدد تباعا من الجند والكراع وقدم إلى القاهرة طوائف التجار من الأقطار السودانية ما بين أهليين وأجانب فرارا من نار الثورة وإيذاء مدعى المهدوية وأصحابه فتحدثوا بخبر ما وصلت إليه لموم المدعى وما يفعله أصحابه من القتل والنهب وإحراق المدن والقرى وذبح الأطفال على صدور الأمهات وإهلاك الحرث والنسل وكثر انحدار السفن ومراكب النقل إلى أسيوط والقوافل من طريق الأربعين وغيرها تحمل أرزاق التجار وانقطع إرسال البضائع إلى السودان وتعطلت سائر أسباب الرزق بتلك الأصقاع فلم يبق عند الناس شك فى صحة خبر المتمهدى وقد كانوا إلى هذا الحين يظنون أن القول بظهوره إنما هو اختلاق من الرئيس مصطفى رياض باشا أيام رئاسته ليتمكن بذلك من تمزيق شمل عصابة الجند والتفريق بين كبارها وأطالوا الكلام فى أمره أياما ثم تناسوه بحديث مجلس شورى النواب وما سيكون من أمر رجاله وتبعهم فى ذلك أصحاب صحف الأخبار المحلية وأكثروا من حض الوزير محمد شريف باشا على سرعة فتح أبواب ذلك المجلس وأطالوا العتب واللوم.

(مطلب)

افتتاح مجلس شورى النواب

فلما كان الخامس من صفر افتتح المجلس فكان يوما مشهوداً أخذ الناس منذ شروق الشمس يتواردون عشرات عشرات إلى صوب المقام حتى غصت حجرات المكان بالوفود من أهل البلاد والأجانب وامتلأت دوائر قاعة المجلس بالوجهاء والمعتبرين ثم جاء الأعضاء بملابس الزينة والتشريف فجلسوا واصطف فى الفسحة الخارجية فرقتان من الجند ولم يلبثوا إلا قليلا حتى أقبل الخديوى فى عربته يصحبه الوزير محمد شريف باشا وأمامهما أحمد خيرى باشا المهردار وطلعت باشا كاتب الديوان الخديوى فنادى الجند بالسلام وعزفت الموسيقى بالنشيد الخديوى فخرج للقائه زهاء العشرين من النواب وسائر النظار فدخل قاعة الاستراحة ولبث لحظة ثم انتقل فى نحو الساعة السادسة إلى قاعة المجلس ووقف فى صدر المكان وعلى يمينه النظار ورجال ديوانه الخاص وأخذ ورقة وقرأ ما نصه.

أبدى لحضرات النواب ممنونيتى من اجتماعهم لأجل أن ينوبوا عن الأهالى فى الأمور العائدة عليهم بالنفع وفى علم الجميع أنى من وقت ما استلمت زمام الحكومة عزمت بنية خالصة على فتح مجلس النواب ولكن تأخر افتتاحه للآن بسبب المشكلات التى كانت محيطة بالحكومة فأما الآن فنحمد الله تعالى على ما يسر لنا من رفع المشكلات المالية بمساعدة الدول المتحابة ومن تخفيف أحمال الأهالى بقدر الإمكان فلم يبق مانع من المبادرة إلى ما أنا متشوف لحصوله وهو مجلس النواب الذى أنا فاتحه فى هذا اليوم باجتماعكم وأنتم تحيطون علما أن جل مقاصدى ومساعى حكومتى هو راحة الأهالى ورفاهيتهم وتنظيم أمورهم بتعميم العدالة بينهم وتأمين سكان القطر على اختلاف أجناسهم وهذا منهجى واضح مستقيم وعليه سيرى منذ توليت أمركم محبا للتربية ونشر العلوم والمعارف فعلى المجلس أن يكون مساعدا للحكومة فى هذه الأمور كلها خالصا مخلصا فى خدمة الوطن منحصرة وأفكاره ومذكراته فى المنافع العمومية مع مراعاة قرار لجنة التصفية وسائر تعهدات الحكومة مع الدول سالكا المسلك المعتدل والمنهج القويم الذى هو أهم شىء فى هذا الوقت الذى هو عصر الترقي والتمدن فالواجب علينا الاعتدال والتأنى وحسن التبصر وأن نكون يدا واحدة فى إتمام الأعمال النافعة متوسلين بعناية الله تعالى وإمداد رسوله الكريم ومتمسكين ارتباطا بالحضرة السلطانية وبالدولة العلية أدامها الله تعالى نسأل الله حسن النجاح وهو ولى التوفيق.

فلما أتم كلامه أمن الجميع على دعائه ونادى الرئيس قائلا أدام الله المعظم فكرر ذلك أيضا الحاضرون ثم استراح الخديوى بقدر جلسة الخطيب ثم خرج وركب عربته فاطلقت عند ذلك المدافع من قلعة الجبل وأخذ الناس فى الانصراف هيئة المجلس فأمر رئيسهم فعقدوا جلستهم وتلا عليهم هذا الخطاب.

أيها السادة النواب نحمد الله الذى جعل أمرنا شورى، ونصلى ونسلم على نبيه فيه المأمور بالشورى، والآمر بها، وبعد فقد سمعتم ما تضمنته المقالة الخديوية الكريمة من حسن القصد وسمو الإرادة مما لم يزدكم إلا يقينا بما عهدتم بالجناب المعظم من حسن النية، وكريم العنصر وسلامة الطوية، والارتياح إلى المصلحة الوطنية، وقد سمعتم فى هذا المقام الرفيع بعناية الجناب الخديوى العالى ورجال حكومته السنية أمور أوطانكم وأنتم خلاصة وجهاء القطر وبضعة أعيانه ونبهائه فواجباتكم من قيل تقضى عليكم بالحكمة والاعتدال والثبات ولا أزيدكم علما بأن الولى العزيزى إلى الإصلاح والتنظيم قابل للتقدم والعمران جامع لأسباب المنافع الكلية

فما الاجتهاد إلا لنوال المراد ولكنكم لا تجهلون أن علينا حقوقا واجبة الحفظ وسلامة الرعاية وأنا قد أمرنا شرعا بحفظ العهد ورعى الذمم فمن تلك شدة الأرتباط ؟؟ للدولة العلية التى هى مركز قوتنا ومرجع سطوتنا وقد عرفنا منها العناية ؟؟؟ الإخلاص فلابد من ثباتنا على هذا الحال بالنظر إليها ولا شك أن تقدمنا ؟؟؟ وتأييد أمور الشورى فينا يسر هذه الدولة العلية لما ينشأ لنا عنه من القوة جزء من قوتها الكلية، وأن الذمم والمواثيق هى علاقاتنا المالية والتجارية مع الدول العظمى فهذه الذمم واجبة الرعاية لما يترتب على حفظها من استحكام صلات المواثيق بيننا وبين هاتيك الدول التى ينبغى لنا الأعتقاد برغبتها فى انتظام أمورنا وميلها يعود علينا بالنفع كما صرح بذلك عظماء رجالها على منابر المجالس النيابية وفى المنشورات الرسمية فإذا حفظنا تلك العهود وراعينا تلك الذمم وعرفنا حقوق الوطن علينا ولم نذهل عن شىء من الواجبات لزمنا الأخذ بأسباب الحكمة والثبات للنظر فيما يجلب علينا النفع ويدرأ عنا الضرر ويثبت للناس جدارتنا بما وصلنا إليه ويحقق لنا ظن أبناء الوطن الذين جعلونا موضع ثقتهم واعتمادهم فوجهوا إخوانى همتكم فى السعى بالحكمة والاعتدال والتبصر والثبات فمن جدّ وجد ومن سار على الدرب وصل فنسأل الله العظيم حسن البداية والنهاية.

ثم انفض مجلسهم وتفرقوا ولما كانت الساعة التاسعة من تاسع الشهر المذكور وفد على مقر الخديوى بالإسماعيلية عشرة من نواب البلاد انتدبهم المجلس لتقديم الجواب على الخطاب الذى افتتح به الخديوى المجلس فمثلوا بين يديه وحوله جميع الوزراء والوزير محمد شريف باشا على يساره فتلا أحدهم هذا الجواب.

بعد حمد الله على توفيقه وإرشاده، والصلاة والسلام على من اصطفى من عباده، نقوم لدى هذه السدة الخديوية الكريمة نحن معاشر الأمة المصرية مقام النيابة عن جميعها فى تقديم واجب الشكر لهذا الجناب الخديوى الفخيم على انعطاف عواطفه نحو مجلس شورى النيابة الذى انتخبه بنطقه الشريف إظهارا لمقصده الجليل من حيز القوة إلى عالم الفعل وإجابة لرغبة الأمة ونظرا لمصلحة العامة بعد أن أزالت العوائق دونه وامتنعت الموانع بيننا وبينه بجلائل همة الخديوى التى زلت لها صعاب المسائل، وخضعت لها رقاب المشاكل، حتى صفا الوقت واطمأنت الحال، ودنا المنى وانقادت الآمال، ولقد شنف أسماعنا، وأنعش أرواحنا، ذلك النطق الكريم، وملك أفئدتنا سرورا وطربا بما تضمن من الإفصاح عما عرفناه لولى النعمة وألفناه من نزاهة

ونبالة القصد حتى لقد نطقت السرائر بما بدا من نسمات السرور فلم تدع بالألسنة من حاجة للتعبير عن فرط محبة عظيمة من أمة كريمة لمولى تفضل عليها وتحبب إليها تحبب محب لحريتها مشغوف بخيرها ونفعها فلم يبق إلا أن نبذل غاية ما فى السعة وتأتى جهد الاستطاعة فى نفع هذه الأمة التى انتدبتنا للنظر فى منفعتها واستنابتنا عن أنفسها لرؤية مصالحها سالكين فى ذلك مسالك الحزم والتبصر وحسن النظر بما تتحسن بعناية الله مغبته وتحمد بيمن التوفيق غايته ويعضد مقاصد حكومتنا السنية المتجهة للرشاد والسداد وسلامة البلاد والعباد ويؤيد ما لنا من روابط التبعة للذات السنية السلطانية والدولة العلية العثمانية التى منحتنا عواطفها الكريمة من الامتيازات المرعية فكملت به النعمة وعظمت المنة ويؤيد علائقنا الإدارية مع الدول الأجنبية المحبة لمنفعتنا وفائدة بلادنا مبتهلين إلى الله جل ثناؤه وتقدست آلاؤه فى أن يحرس لنا هذا الجناب الخديوى الفخيم ويديم لأوطاننا به النفع العميم أدام الله توفيقها على أحسن ما يرام وبلغ به الوطن العزيز غاية المرام آمين.

والتأموا بعد ظهر اليوم ثانية وقرروا أمر تحقيق الانتخابات فكانت جملة النواب خمسة وسبعين ثم شكلوا لجنة لتنظر فى أبواب وفصول قانونهم وتنقيحه، وقد كان ذلك القانون هو الذى أنشأه الخديوى إسماعيل وقرر كل قسم نوابا عنه فى تلك اللجنة فأخذوا بأطراف العمل وساروا فيه سيرا حثيثا فلما كان ثانى عشر صفر سار الوزير محمد شريف باشا إلى مقر النواب ورفع لهم القانون الأساسى لأعمال المجلس لينظروا فيه ويبدوا ما يخطر لهم من الأفكار فى مواده وحدوده ثم وقف بينهم وألقى فيهم هذا الخطاب.

(أيها السادة النواب - إنى لا أقدر أن أعبر لحضراتكم عن سرورى من الحضور بينكم فى هذا اليوم الذى أعدّه مبدأ لعصر جديد إن شاء الله يعود على هذا القطر بالتقدم والنجاح وحضراتكم تعلمون أنه من منذ ثلاث سنوات تراءي لى أن الطريقة الوحيدة لخلاص البلاد من الورطات التى كانت محيطة بها هى توسيع نطاق الشورى واشتراك رأى نواب البلاد مع الحكومة فى نظر كل أمر مهم تعود منه المنفعة وكنت قدمت مشروعا لمجلس النواب الذى كان موجودا يومئذ وقد أجري فيه تغييرات ثم تيسر للحكومة النظر فيها ثم طرأت حوادث سياسية ومالية ليست خافية عليكم قد ترتب عليها تعويق إتمام المشروع والحمد لله قد زالت العوائق وإنى لأجد نفسى سعيدا حيث إن أفكارى فى هذا الخصوص ما كانت إلا نتيجة مقاصد الحضرة الخديوية وهذه الأفكار قد طابق عليها عموم الأهالى ولهذا حصل انتخاب حضراتكم

واجتمعتم فلنهنىء القطر على ذلك ولنهنىء أنفسنا وندعو للذات الشاهانية والحضرة الخديوية ببقائها مصدرا لكل خير ولما كانت لائحة النواب التى اجتمعتم على مقتضاها لا تلائم أفكارنا جميعاً قد أوضحت من منذ ثلاث سنوات وكررت المعروض الذى رفعته أخيرا للسدة الخديوية عند طلب اجتماع مجلسكم هذا فاشتغلت مع رفقائى بتحضير لائحة موافقة لمقاصد العموم وقد تمت وها أنا الآن أقدمها لحضراتكم للنظر فيها ومع كون هذه أول مرة اجتمع فيها مجلس نواب حر فكان يلزم أن السلطة التى تعطى له لا تكون مطلقة بالكلية حتى يحكم المستقبل بإطلاقها بالتدريج شيئاً فشيئاً لكن حيث إن مقصدنا جميعا واحد وهو خير البلاد والحكومة معتقدة بكفاءة النواب وعلمهم بحقوقهم وواجباتهم ومحبتهم للوطن فقد أعطت لكم الحرية التامة فى إبداء آرائكم وحق المراقبة على أفعال مأمورى الحكومة من أى وجه وأى صنف كانوا وصرح لكم بنظر الموازين العمومية وإبداء آرائكم فيها ونظر كافة القوانين واللوائح وقد التزمت بعدم وضع أى ضريبة ولا نشر أى قانون أو لائحة ما لم يكن بتصديق وإقرار منكم، وكذلك تعهدت بأن تجعل النظار مسئولين لديكم عن كل أمر يترتب عليه إخلال بحقوقكم والغاية فأنه لم يحجر عليكم فى شىء ما ولم يخرج أمر مهم عن حد نظركم ومراقبتكم إنما لا يخفاكم الحالة المالية التى كانت عليها مصر مما أوجب عدم ثقة الحكومات الأجنبية بها ونشأ من ذلك تكليفها بترتيب مصالح وتعهدها بالتزامات ليست خافية عليكم بعضها بعقود خصوصية والبعض بقانون التصفية فهل يتيسر للحكومة أن تجعل هذه الأمور موضعا لنظرها أو لنظر النوّاب حاشا لأنه يجب عليها قبل كل شىء القيام بتعهداتها وعدم خدشها بشىء مّا حتى نصلح خللنا وتزداد ثقة العموم بنا ونكتسب أمنية الحكومات الأجنبية ومتى رأت منا تلك الحكومات الكفاءة لتنفيذ تعهداتها بحسن إخلاص بدون مساعدتها فنتخلص شيئاً فشيئاً مما نحن فيه، وإنى لواثق بأن بصيرة وحكمة النواب ومساعدتهم الحكومة لابد وأن يترتب عليها ازدياد الثقة بنا هذا ومن المعلوم أننا تابعوُن للدولة وصوالحنا مرتبطة بصوالحها وهذه التبعية وهذا الارتباط هما السبب الوحيد لسلامتنا ونجاتنا فحقوقها حينئذ هذه مقدسة ومراعاتها فرض واجب على كل منا ولندع الله جميعاً بدوام الذات الشاهانية وتأييد دولته العلية التى منحتنا امتيازات تضمن لنا خير البلاد وحيث إن الثمرة المقصودة من اجتماع المجلس وهى نفع البلاد لا يمكن الحصول عليها إلا بعد التصديق على لائحة إجراءاته فالمأمول من

حضراتكم المبادرة بنظرها حتى إننا نشرع فى الأعمال النافعة المهمة ولكون من تتمة وضع مجلس نواب يلزم ترتيب مجلس للإدارة وتحضير القوانين ومحاكمة المأمورين عن كل أمر يجرونه خارج عن حدودهم أو مخالف للقوانين واللوائح فى أثناء تأدية وظائفهم فقد عمل عن ذلك مشروع وها هو مقدم للمجلس المأمول أيضاً الإسراع بنظره حتى يصدر مع اللائحة وإن شاء الله تعالى سيتقدم لحضراتكم عما قريب مشروع لائحة الانتخاب فنسأله تعالى ببركة نبيه الكريم أن يقرن أعمالنا بالنجاح ويوفقنا للاتحاد قولا وفعلا لما يكون فيه الإصلاح آمين آمين بجاه خاتم النبيين.

فأمّن الجميع على دعائه ثم تركهم وانصرف.

(مطلب)

مفاد ما فى قانون الانتخاب

وكان مفاد القانون الذى رفعه إليهم فى ذلك اليوم أن الانتخاب وكيفيته يكون بموجب قانون آخر يتبع القانون العمومى وأن مدة النيابة لا أقل من خمس سنين وأن النواب يكونون أحراراً فى الأعمال وإذا ارتكب أحدهم جريمة فلا يجوز للحكومة أن تقبض عليه إلا بإذن وتصديق من هيئة المجلس ومن أحكام هذا القانون أيضاً أن النائب ينوب عن الجهة التى استنابته خصوصا وعن مصالح البلاد كلها عموما ويكون مقر المجلس بالقاهرة ولا يكون التئامه إلا بأمر يصدر من الخديوى على قرار من مجلس الوزراء ولا يستعمل فى إدارة أشغاله إلا اللغة العربية ويصح للنظار أن يحضروا جلساته كما لهم أن يستنيبوا عنهم فى الجواب عن بعض المسائل أعضاء مجلس الإدارة أو أحد كبار الموظفين فى دواوينهم ويقدم النظار الجواب عن كل ما يسئلون عنه من قبل المجلس اللهم إلا فيما هو من خصوصياته وإذا اختلف مجلس الأمة ومجلس الوزراء فى أمر من الأمور جاز للخديوى حل عقد مجلس الأمة ويأمر بانتخاب سواه لمدة أربعة أشهر، فإذا صدق مجلس الأمة بعد الانتخاب الثانى على ما كان قرره الأعضاء السابقون كان قراره هو النافذ ولا يعرض موضع الخلاف على مجلس الأمة ثانية فى كل مدته ولمجلس الأمة أن يتداول فى اللوائح والقوانين والضرائب وفى كل أمر تعرضه عليه الهيئة الحاكمة وله أن يرى فى ميزانية الخزينة ويبدى فيها رأيه فقط وأن لا يمكن فرض ضريبة من أى نوع كان بدون قانون يصدق عليه من الأمة فإذا جمعت ضريبة غير المقرر فى القوانين المالية عوقب جامعها

بأشد العقاب أما ميزانية الخزينة فتعرض على المجلس قبل نهاية الشهر الثانى من التشامه ويجب أن تكون موضحة التوضيح الكافى وله أن يبدى فيها رأيه وعلى الرئيس أن يبلغ ذلك إلى ناظر الخزينة قبل انحلال المجلس ولا يجوز للمجلس التداخل فى أمر العسكرية ولا قرارات لجنة التصفية وصندوق الدين وما يتعلق به ولا المعاهدات الدولية ولا يمكن المداولة فى المجلس إلا إذا حضر ثلثا الأعضاء ويقتضى لاعتبار قراراته أن تكون الأغلبية تامة أما قرار مسئولية النظار فيكون بأغلبية من ثلاثة أرباع الحاضرين، هذا هو ملخص ما فى ذلك القانون أتيت به تتميما للفائدة المقصودة.

(مطلب)

تولية أحمد عرابى وكالة ديوان الجند
وورود لائحة الدولتين للخديوى

وفرح الناس بفتح أبواب مجلس شورى نواب البلاد واستبشروا به خيرا فأناروا فى تلك الليلة منارات المساجد بالأنوار الكثيرة وأقيمت الأدعية على المنابر وهنأ الناس بعضهم بعضا وأصبحوا وقد شاع الخبر بتولية أحمد عرابى بيك وكالة ديوان الجند فتناقلوه وهم بين مصدق ومكذب لا سيما أصحاب صحف الأخبار الأجنبية فلما كان خامس عشر صفر تأكد الخبر وتحقق صدق الرواية فهرع إلى داره طوائف الضباط والوجهاء والعلماء والأعيان والعميان وأصحاب العكاكيز ووقف الشعراء والمطرئون على بابه وأتته الهدايا من الضأن والأرز والسمن والعسل والسكر وبن القهوة والشمع وغير ذلك من أعيان البلاد وعمدها وتزاحموا على بابه يرجون لقاءه ويتمنون طلعته ولبث الحال هكذا يومين وخرج فى تاسع عشره يريد مقر الخديوى ليقبل الأعتاب على العادة المألوفة فى مثل ذلك فقابله الخديوى بالبشاشة والترحاب وأحسن لقاءه ولم يخرج من عنده حتى دخل قونصلا الإنجليز والفرنسيس ورفع إلى الخديوى ورقتان هما فى عرف أهل السياسة (لائحة) وقالا: إنهما متحدتان فى المعنى والمبنى وقد بعثت بهما الدولتان يعدان الخديوى فيهما بالمساعدة والإعانة على قضاء كل ما يروم نواله لاستتباب سلطته وتمكين عرشه عند مسيس الحاجة وشاع خبر هاته اللائحة فتعجب الناس وكثر تحدثهم به وداخل ضابط الجند بسبب هذه اللائحة من الريب ما داخلهم فاجتمعوا بقصر النيل وتناجوا فى الأمر طويلا ثم اتفقت كلمتهم على أنّ البارودى يكلم هيئة مجلس النظار فى ذلك فاجتمع البارودى

بالوزير محمد شريف باشا ثم بالخديوى وعقدوا لذلك مجلسا وتكلموا فى معنى ما جاء فى تلك اللائحة وبعد أخذ ورد اتحدت كلمتهم على أن يرسلوا صورة منها إلى الباب العالى ويسألوه الجواب فبعث الوزير بالصورة إلى دار السلطنة وكأنّ القونصلين قد أحسا بما وراء ذلك فتقدّما إلى الخديوى والوزير محمد شريف باشا فى طلب الجواب وألحا فى الطلب فرسم الخديوى إلى الوزير بإعطاء الجواب فطاول فشدد الخديوى فى ذلك فكبر الأمر على الوزير وطال بينهما الأخذ والرد فاحتجب الوزير فى بيته أياما فذهب إليه قونصل الفرنسيس فى صبح حادى عشرى صفر وطلب الجواب وألح فى الطلب فقال الوزير: لا جواب عندى على ذلك البتة والبلاد آمنة مطمئنة فإذا وقع فيها ما يكدر صفو الراحة كانت الدولة العلية أولى بالذب عنها فهى صاحبة السيادة والخليفة أمير المؤمنين سلطان البلاد، فقال القونصل: لا سبيل إلى غير ما تطلبه دولتا الفرنسيس والإنجليز، فقال الوزير: لم أعرف إلى الآن ما مراد الدولتين من هذه اللائحة ولذلك فإنى استوضح منك مشكلاتها قبل إعطاء الجواب فقام القونصل وتركه، وكلم قونصل جنرال الإنجليز كبير سياستهم فيما يسأله الوزير محمد شريف باشا من فك أسرار ومشكلات تلك اللائحة فرسم له بسؤال الوزير عما يريده ففعل وأبلغ ما أعطى بيانه ولبث ينتظر الجواب، وبينما كان الوزير محمد شريف باشا يراقب الحوادث ويطمن القلوب الراجفة ويعمل على منع الأراجيف وإزالة القلاقل إذ كتب صاحب صحيفة التيمس الإنجليزية عبارة طويلة سماها باسم لائحة الحزب الوطنى وضمنها فصولا وأبوابا لا يسعنا إيرادها هنا وعزا تحريرها وتنميقها إلى أحمد عرابى بيك وبالغ فى مدحها واستحسانها فكبر هذا الأمر على الوزير واستعظمه وعمل على تكذيبه وإذهاب ما علق منه بالأذهان، وقد كان لما تظاهر أحمد عرابى بيك بزعامة العصابة وتمكن من خلع الرئيس مصطفى رياض باشا من منصب الرياسة أحدقت به عيون أهل السياسة من الإنجليز وكثر تواردهم عليه وتزلفهم إليه رغبة منهم فى معرفة قدر إدراكه ومبلغ علمه بعوائد الأمم وأحوال البلاد وأساليب السياسة وكأنهم كانوا يرون فى ظهوره وخروجه مفتاحا لمغالق آمالهم فسيروا له من دهاتهم وحملة أسرارهم جماعة فجعلوا يسايرونه ويبالغون فى الأطراء عليه ويخاطبونه بأنواع التجلة والتكريم ويقولون له إنك لمن أعاظم الرجال وأقطاب أهل السياسة وإنك لرجل الحرية ومنقذ البلاد وأهلها من وهدة الذل والعبودية وأنت العون والسند وأنت الملجأ والملاذ وغير ذلك من صنوف التضليل والتغرير حتى استهووه وتطوّحوا به وكان ممن لازمه ملازمة الظل من دهاة هؤلاء

القوم طاغيتان أحدهما اسمه وليم جريجورى وثانيهما اسمه بلانت فاستهوياه وغررا به تقريرا وزينا له كل عمل وحرّضاه على فعل كل خارجة لا سيما منهما بلانت فإنه تمكن من أحمد عرابى وأخذ بمجامع قلبه وكاشفه على ما خفى من سر بعثته إلى ديار مصر التى إنما هى سلخ الكنانة عن تابعية دار السلطنة العثمانية والعمل على تشييد مملكة عربية إسلامية يدخل تحت لوائها سائر بلاد العرب من عراق ويمن وحجاز وما بين النهرين وتونس وطرابلس والجزائر ودمشق الشام وكل بقعة من بقاع الأرض التى تحتلها العرب وبالغ فى المدح والإطراء، قال أحد المقرّبين إلى أحمد عرابى: وما زال ذلك الطاغية بأحمد حتى تاقت نفسه إلى طلب المعال الرخيصة وخضع له وعمل بمشورته فتجرد عند ذلك هو ورفيقه جريجورى على تحرير الرسائل المهيجة وتلفيق الأراجيف المزعجة وجعلا يرسلانها إلى صحفهم السيارة على لسان عرابى وشيعته حتى كادا ينكران متبوعية مصر لدار السلطنة العثمانية فكانت أصحاب صحف الإنجليز ترددها مشفوعة بالمدح والإطراء والتكهن بزوال ملك آل عثمان. اهـ.

قال جماعة: وزين بلانت ورفيقه إلى أحمد عرابى مخابرة شريف مكة وغيره من كبار العرب فى هذا الأمر وفى استنهاضهم إلى الخروج وشق عصا الطاعة عند ظهور الحركة بمصر قيل وسير إلى السنوسى بطرابلس الغرب يستقدمه إلى القاهرة ليكون له عونا على بلوغ الأرب وبعث إلى كبار مسلمى الهند يشاورهم فى الأمر فظهرت عندئذ حركة الخواطر وبدت إشارات الخروج وبلغت ترهات بلانت ورفيقه يومئذ والتغرير بأحمد عرابى مبلغا عظيما فكانا إذا سمعا أحمد عرابى يقول فى حديثه مع آخر أن نفرا من الجند أصابتهم اليوم تخمة تستلزم نقلهم إلى المستشفى كتبا إلى أصحاب صحف الإنجليز يقولان أشار أحمد عرابى بيك بنقل فريق من الجند وطائفة من العسكر بجميع سلاحهم وكراعهم إلى الجهة الفلانية وهم على قدم الرحيل والقلوب واجفة والخواطر مضطربة، وإذا سمعاه يقول زرت اليوم ضريح ولى الله العتريس أو اجتمعت بشيخنا فلان فدعا لى دعاء صالحا وبشرنى بأنى من أهل الجنة، كتبا يقولان علمنا ممن يوثق بحديثه أن قد طاف أحمد عرابى بيك على مساكن الجند ومعه جماعة من كبار العلماء وأئمة الدين فحثوا الجند على التعاون والتعاقد وإعزاز الدين والخروج عن طاعة الخلافة الغير الصحيحة إلى طاعة خلافة عربية تعمل بسنة الله ورسوله وغير ذلك من الأقاويل فكانت هذه الترهات والأضاليل داعية إلى كلمة القال والقيل وحاملة إلى طيرة الناس وتخوّفهم

وتسآلهم، قلت: وبلانت هذا رجل طويل القامة يبلغ الخمسة والأربعين من العمر قد نزل بالقاهرة أعواما يتقرب من بعض العلماء والمشايخ وأرباب الوظائف العالية ويتظاهر بمحبته إلى العرب وميله إلى عاداتهم وطباعهم وحريتهم وحبهم للاستقلال ومقته للذل والاسترقاق وولوعه بلغتهم وغير ذلك فاغتر الكثير منهم بظاهر أمره وأدنوه من مجالسهم فجلس وتصدر واستفرغ ما فى صدورهم من حيث لا يشعرون حتى عرف مبلغ علمهم ولبث بين ظهرانيهم يكاتب رءوساء قبائل عرب العراق واليمن والحجاز وما بين البحرين ويستميلهم بالعطايا والتحف وأصحاب الحل والعقد فى سنة من النوم لا يعرفون من أمره سوى أنه من سوّاح الإنجليز الذين دأبهم البحث عن الآثارالقديمة ومعرفة طبقات الأرض وقد اتخذ عين شمس له مقرا وما زال حتى ظهرت الفتنة بالقاهرة وقام أحمد عرابى ومن معه يطالبون بمطالبهم الطويلة ففرح بلانت وتجرد إلى العمل وتقرب من أحمد عرابى وأصحابه وجعل يزين لهم ما بدا ويحضهم على الأخذ بأطراف الحزم حتى كان من أمرهم ما كان مما سيتلى عليك فى محله إن شاء الله تعالى.

وكان لما بعث الوزير محمد شريف باشا بصورة من لائحة الدولتين إلى الباب العالى كما تقدم القول أرسل السلطان إلى كبيرى السياسة الإنجليزية والأفرنسية يستعلم عن السبب الحامل على إرسال تلك اللائحة ويحتج عليهما فى ذلك فكتبا إليه يقولان إنهما لا ينازعان فى تبعية ديار مصر إلى مقام الخلافة العظمى ولكنهما عزمتا على تأييد سلطة الخديوى وحفظ مقامه الحالى وبقاء المراقبة على ديوان الخزينة كما هى بدون مساس فأحس السلطان بخطورة ما وراء ذلك من اشتداد الأزمة واستفحال الخطب إذا ظل الحال هكذا (قال جماعة) فراسل أحمد عرابى سرا على يدى أحد القرناء وكأنه رسم له بحشد الجنود والتأهب للقتال ومنع تطاول يد الدولتين فعاد أحمد عرابى إلى طلب زيادة عدد الجنود العاملة إلى ثمانية عشر ألفا والح فى الطلب وشدد على البارودى فى ذلك فنادوا فى البلاد بخروج سائر العسكر وجاءت الكتب بذلك إلى المديرين والمحافظين فانحدرت العساكر أفواجا إلى القاهرة حتى ضاقت بهم منازل الجند أو كادت وانبثوا فى الأسواق فخاف طوائف الأجانب وزاد بهم الهلع وظنوا أنه ما وراء هذا الزحام إلا حصول الطعن وامتشاق الحسام فنزح الكثير منهم إلى الإسكندرية وطارت الأخبار إلى الآفاق بمجيء العسكر إلى القاهرة فهوّل أصحاب الصحف الإنجليزية وبالغوا فى الأمر ونهوا قومهم عن

الاختلاط بالمسلمين ومجانبتهم.

وبينما كان الجند يأتون إلى القاهرة تباعا والناس فى شاغل بهم عما سواهم كان نواب البلاد وهيئة الحكومة على طرفى نقيض فى أمر تخويّلهم حق النظر فى ميزانية الخزينة ومصروفات المصالح وقد طال بينهما الخلاف واشتد اللدد وأرسلوا لائحة مجلسهم إلى مجلس النظار يريدون الاعتراف منه بما أدخلوه على موادها من التحوير والتعديل لا سيما ما كان متعلقا بأمر الميزانية فطاولهم المجلس وناهم فأبوا إلا ما يقولون وشددوا فلما كان يوم الثلاثاء حادى عشر ربيع الأول أعاد مجلس النظار إلى مجلس النواب اللائحة وأرسل يقول أن وكيلى الدولة الإنجليزية والأفرنسية يريان أن لاحق لمجلس النواب فى تقرير ميزانية الخزينة ولكنهما مع ذلك يقبلان المخابرة فى هذا الشأن بشرط أن يستقر الاتفاق بين جماعة النواب وهيئة الحكومة على سائر بنود اللائحة وبناء على ذلك تطلب الحكومة من النواب أن يصدقوا على اللائحة كما عدّلها مجلس النظار وأن يترك البند المتعلق بالميزانية إلى حين وأن يبدى النواب رأيهم النهائى فى أمر الميزانية ليتسنى للحكومة جعله أساسا لفتح باب المخابرة مع الدولتين فلما وصلت اللائحة إلى النواب مع الطلب بما تقدم كبر عليهم الأمر واستعظموه واجتمعوا فى بيت محمد سلطان باشا الرئيس وظلوا ليلتهم تلك يتشاورون ويتدبرون فى العمل إلى أن اتحدت كلمتهم على أن لا يجيبوا طلب الحكومة ولا يعملوا برأيها وأصبحوا وقد عقدوا مجلسهم على غير العادة وقرروا تسليم اللائحة وورقة الطلب إلى اللجنة التى كان عهد لها تحرير تلك اللائحة واشترطوا عليها أن تنظر فيها ثانية وتعدل منها ما ترى لزوم تعديله ففعلت وصادقت على بعض البنود وأنكرت البعض الآخر وأبقت البند المتعلق بالميزانية جائزا بجميع أحكامه، وفى صبح الخميس سار خمسة عشر من النواب إلى مقر الخديوى بالإسماعيلية ليطلبوا تنفيذ ما قرروه فمروا فى طريقهم ببيت الوزير محمد شريف باشا فدخلوا عليه وسألوه قبول العمل بما قرروه فامتنع وقال: هذا لا يصح فألحوا عليه فلم يقبل فساروا إلى مقر الخديوى وتقدموا إليه فى قبول لائحتهم والعمل بما قرروه فيها وإلا لزم تنزيل الوزير محمد شريف باشا وخلعه من منصب الرياسة وتحقق الوزير ما فى عمل جماعة النواب من الدسائس الغريبة عن طباعهم فخشى العاقبة وعمد إلى المواربة وعين للوساطة بينهم بطرس بك غالى كاتب سر مجلس النظار يومئذ ورسم له بالعمل فقام بالأمر وسلك مسالك الجد والحزم وعمل على تذليل تلك الموانع فكان إذا مهد السبل وأحكم العمل وسار معه جماعة النواب وهم آمنون مطمئنون بوصولهم إلى الغرض وسوس

لهم خناس العصابة فيرجعون ناكصين وهم أشد عنادا وأصعب مراسا من ذى قبل فلما ضاقت عليه المذاهب أو كادت عمد إلى مجامع العصابة فدخلها وما زال بكبارها وأصحاب الكلمة فيها حتى تمكن من تعديل بعض مواد القانون التى لا علاقة لها بالميزانية وبقيت أحكام المادة المتعلقة بالميزانية على ما هى عليه، وعظم الأمر على الوزير محمد شريف باشا واستعصى الحل فكتب قونصلا الإنجليز والفرنسيس إليه يقولان بناء على كون قانون التصفية لم يبح اشتراك نواب البلاد فى تقرير ميزانية الخزينة وبما أن الدولتين تقرّان أن أمر الميزانية صار ارتباطا بينهما وبين حكومة مصر فيجب على الحكومة أن ترفع لنا بيان ما يتطلبه الآن مجلس النواب لتبعث به إلى أصحاب الحل والعقد فى بلادنا ليروا فيه رأيهم، فجمع الوزير فى اليوم الثانى مجلس الوزراء وبينهم بعض نواب البلاد ليروا فى طلب القونصلين فتكلموا فى ذلك كثيرا وطال الأخذ والرد حتى علت الأصوات وكثرت الضوضاء واشتد الخصام وأبى النواب إلا ما أرادوا من رؤية ميزانية الخزينة وتعديل أبوابها على ما فيه المصلحة للبلاد ثم انصرفوا على غير طائل وعاد الوزير بعد ظهر ذلك اليوم فجمع إليه محمد سلطان باشا رئيس النواب وشريعى باشا رئيس التحرير وشواربى بيك وأمين بيك الشمسى ومحمد بيك سليمان وأباظه بيك وأحمد أفندى محمود وإبراهيم أفندى الوكيل وأحمد أفندى عبد الغفار وأعادوا البحث والجدال فى أمر الميزانية وفى نص الفقرة المختصة بها فى القانون (قلت) وكان نصها:

(متى تعادلت الآراء استشير مجلس الأمة فإذا صدق على قرار لجنة التحوير وأصرت الحكومة على رفض ذلك ولم تستعف الوزارة فض المجلس وجاز حينئذ أن تسحب المبالغ الضرورية لسير الإدارة وتوقفت الميزانية إلى أن يلتئم مجلس النواب الجديد فإذا صدقت لجنته على قرار لجنة المجلس السابق وجب أن يكون قرارها مقبولا . اهـ.

فلم يتم لهم فى ذلك اليوم أمر ولم ينفض لهم نزاع فانصرفوا وعادوا فى نحو الساعة الثالثة عربى ليلا إلى بيت الوزير ولبثوا يتنازعون إلى ما بعد نصف الليل ولكنهم لم يهتدوا إلى أمر مّا فعند ذلك نهض الوزير وقال بعد كلام: وحيث إننا لم نصل مع توالى الاجتماع إلى حل عقدة هذا الإشكال صار المتعين علىّ المخابرة فى ذلك مع قونصلي الإنجليز والفرنسيس إذ هى من المسائل الخاصة بهما وباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا وقد اجتمع الوزير بالمستر مالت قونصل الإنجليز وتحادثا فى الأمر

فدخل عليهما قونصل الفرنسيس فتكلموا فى ذلك طويلا وتكلموا أيضاً فيما لم تصل إلينا معرفته إلى هذا الحين وسير الخديوى إلى سلطان باشا يستحثه على استمالة النواب وتركهم لهذا الشغب فأرسل يعتذر ويقول: أنه لم يقو على استمالتهم لأنهم جميعاً فى طاعة عصابة الجند وفى قبضة أحمد عرابى وأن لا سبيل إلى عدولهم إلا باستمالة زعماء العصابة واسترضائهم وهذا مما لا يقوى عليه هو أيضاً فرسم الخديوى باجتماع مجلس الوزراء فاجتمعوا فى سراى عابدين وبينهم سائر النواب وجعلوا يتجادلون فى أمر ذلك الخلاف فطال الحال واشتد بهم الجدال وكثر القيل والقال واحتدم الخصام وتعذر الوئام وانفض مجلسهم على غير طائل.

واتفق أن دخلت فى هذا اليوم إلى مينا الإسكندرية سفينة من سفن الحرب العثمانية آتية من دار الخلافة فجاء الخبر بدخلوها وتحدث الناس به كثيرا وجزم بعضهم أن مع ربانها أوراقا من بسيم أفندى أحد قرناء السلطان مخاطبة إلى أحمد عرابى وقال البعض: إن الربان المذكور جاء خفية من الإسكندرية إلى القاهرة ونزل بالنزل المعروف بلوقاندة أورينتال وبات ليلته تلك وأصبح فركب حمارا واستتر برداء من أكسية جند البحر وسار إلى بيت أحمد عرابى بباب اللوق ولبث معه ساعة ثم رجع من فوره إلى الإسكندرية وشاع الخبر بذلك فطيره الناس إلى الآفاق وبالغوا فى نقله على عادتهم فأحس الوزير محمد شريف باشا بما وراء ذلك فكتب إلى المديرين والمحافظين وسائر مأمورى الحكومة يلزمهم بحض الناس على ملازمة السكون وترك الإشاعات وعدم الأخذ بأقوال أصحاب الغايات وقال: أن هذه السفينة وإن كانت من مراكب الحرب العثمانية ولكنها ليست الآن إلا فى خدمة والى الشام وأنها لما قامت من مرساها قاصدة إحدى الموانى العثمانية صادفها ريح عاصف فألقى بها إلى سواحل مصر فلجأت إلى مينا الإسكندرية فرارا من الأنواء ونظرا لكون بعض آلاتها تعطلت بأسباب ما لاقته ستلبث أياما حتى تصلح ما تعطل منها فى هاويس الإسكندرية ثم ترجع، فلم تبطل هذه الأقوال الإشاعة ولم تنكف الناس عن القال والقيل ولا سيما الأحزاب وضباط الجند، قلت: وكان لمجىء تلك السفينة فى هذا الحين أى بعد رفع الدولتين لائحتهما التى تقدم الكلام عليها سرّ خفى وقصد منوى عليه وكان السلطان وجميع قرنائه وأرباب شوراه وأصحاب الكلمة فى بابه وإمامه الشيخ أحمد أفندى أسعد يعتقدون أن فى ظهور أحمد عرابى وأصحابه وقيام الحركة بالقاهرة واضطراب الخواطر بالأقاليم القبلية فتحا ونصرا للسلطان على خصومه بديار

مصر فترفع فيها كلمة الخلافة وترجع الشوكة السلطانية إلى ما كانت عليه قبل سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف هجرية فيتولى الباب العالى التصرف فيها كتصرفه فى بقية الإيالات التابعة له من شام وعراق وكانت هذه الهواجس والظنون تقوى عندهم كلما أكثر أحمد عرابى والبارودى من إرسال كتب التلطف ورسائل التأدب إلى الباب العالى عند الشكوى من أفعال الرئيس مصطفى رياض باشا ومراقبى الإنجليز والفرنسيس فكثر لذلك توارد كتب السلطان على أحمد عرابى بواسطة بسيم أفندى من قرناء السلطان وجاءته الرسائل تترى بما لم تصل إلينا معرفته إلى الآن وظن رجال السلطنة أن بضاعتهم ردت إليهم، وكما كانت آمال رجال السلطنة العثمانية وبابهم العالى معلقة بالمحال وهم فى تغرير وضلال قد كان سعاة الإنجليز لا ينكفون عن التقرب من أحمد عرابى وأصحابه وكبار سياستهم يعملون ليس على سلخ مصر عن تابعية الخلافة العثمانية فقط بل وعلى إزالة ملك آل عثمان من قارتى آسيا وأوروبا وتأسيس دولة عربية ليتم لهم ما يرغبون وهذه هى سياسة غلادستون شيخ الأحرار من الأحزاب الإنجليزية منذ حداثته فكانوا كلما تقربوا من أحمد عرابى مال عطفا إليهم وعمل بقولهم وأخذ بمشورتهم وراسل مشايخ العرب باليمن والحجاز والعراق وتقرب من السنوسى وتحبب إلى شريف مكة ودعاهم إلى نصرته وجماعة الإنجليز يظنون أن قد تم الأمر لشيخ سياستهم غلادستون على يدى أحمد عرابى، وكان الخديوى إسماعيل باشا يرى أيضا أن فى ظهور أحمد عرابى واتساع كلمته واستفحال الخلل بديار مصر وتهديد مقام ولده توفيق باشا فرصة ربما كان من ورائها خلع ولده وعودته هو إلى كرسى الخديوية فجعل يراسل أحمد عرابى ويمنيه بالأمانى الكثيرة ثم عمد إلى الاستعانة ببعض كبار الإنجليز فماراهم بالهدايا العظيمة والتحف الجليلة قيل فكان أحمد عرابى يظهر له الطاعة ويتلطف معه فى الجواب ويهوّن عليه الأمر حتى ظن إسماعيل باشا المحال وبلوغه غاية الآمال، وكما كان إسماعيل باشا يمنى النفس بقرب عودته إلى منصب الخديوية على يدى أحمد عرابى بك وأشياعه كان الأمير عبد الحليم بن محمد على باشا يتقرب أيضاً من أحمد عرابى ويهديه بالهدايا النفيسة والتحف الجليلة على يدى أحد خدام بيت أبيه ويستفزه إلى نصرته بردّ تاج الوراثة إليه، قال بعض الكتاب: وأغراه بالرشا والبرطيل واشتد أمله وكبر رجاؤه بتحزب بعض رجال المابين الهمايونى إليه فكان أحمد عرابى يسايره ويتلطف فى الرد عليه ويمنيه بالأمانى الكثيرة حتى اختلط الأمر على أحمد عرابى

وطاش منه الرجاء وحار وقد كان فى خلده أن لا يعمل إلا لنفسه ولا يجاهد إلا فى إعلاء كلمته وارتقائه منصب الخديوية بما له من المكانة عند أهل البلاد والمحبة فى قلوب العساكر والأجناد والهيبة عند كبار الناس وعظمائهم كما فعل محمد على باشا الكبير، قال جماعة: وقد كانت هذه الآمال أيضاً لا تفارق كلا من محمود باشا البارودى ومحمد سلطان باشا رئيس نواب البلاد كما سيتلى عليك خبر ذلك فى موضعه فكان مثلهم فى ذلك كمثل صبى فى يده مرآة يوجه بها نحو أشعة الشمس فينطبع ضوءها على الأرض ومعه فتية يتزاحمون ويترامون على ذلك الضوء فكل منهم يظن أنه أصاب منه شيئاً وهم لا يقدرون لحركة ذلك الضوء بتحريك الصبى للمراءة.

(مطلب)

عودة النواب إلى تنفيذ لائحتهم وما وراء ذلك

وعاد نواب البلاد إلى طلب تنفيذ لائحتهم كما صوروها وأصروا على ذلك وسار جماعة منهم إلى مقر ديوان الداخلية ورفعوا إلى الوزير محمد شريف باشا تلك اللائحة وقالوا: إن تأخير تنفيذها جالب للفشل فإنا عقدنا النية على أن لا نترك هذا اليوم يمضى بغير قبولها أو رفضها فجعل الوزير يلاطفهم ويهوّن عليهم ثم قال لهم: تعلمون أنى منذ أخذتم فى تنظيم لائحتكم هذه لم اتعرض لشىء من امتيازاتكم سوى ما تطلبونه من رؤية ميزانية الخزينة وإبداء رأيكم فيها على أنى ما زلت لا أتحول عن هذا الرأى فلذلك لم أصادق على ما رأيتموه فى أمر الميزانية إلا بعد رضا الدول ذوات الشأن فقالوا: إنّ هذا من خصائصك ولا دخل للدول فيه بل لا موجب لتوقفهم فإنها مسألة لا تمس ما لهم من الحقوق ولا تضر لهم مصلحة، فقال الوزير: لا سبيل إلى ذلك البتة، فقال جماعة منهم: إنا نأسف جدا أن يصادق لنا على اللائحة غيرك يعنون بذلك إكراهه على التخلى عن منصبه، ثم انصرفوا وساروا إلى مقر الخديوى بعابدين وتمثلوا بين يديه وتقدم جماعة منهم وقالوا: إنا جازمون بمحبة مولانا للوطن وميله إلى إصلاحه ولهذه الغاية قد منح مولانا الأمة المصرية حقوق الشورى وفتح مجلسها فنظمنا له هذه اللائحة ونقحناها وطلبنا إلى الوزير محمد شريف باشا أن يوقع عليها فلم يقبل حالة كوننا لم نتعرض لشىء مما فى العقود الدولية، فقال الخديوى: إذا كانت هيئة الوزارة قد أبت التصديق على اللائحة فماذا تطلبون حينئذ قالوا: نطلب أن تعزل فتشكل وزارة أخرى لا تأبى

التصديق والعمل معنا فوعدهم بإعطاء الجواب فى غد فانصرفوا ولبث الوزير بعد خروج نواب البلاد يفكر فى الأمر ويضرب أخماسا فى أسداس ثم قام ودخل على الخديوى وجعل يتحاجج معه فيما لم تصل إلينا معرفته وحضر قونصلا الإنجليز والفرنسيس إلى مقر الخديوى ودار بينهم الحديث فاشتد الجدال وطال القيل والقال، فوقف الوزير وقال: قد خلعت نفسى واعتزلت منصب الرياسة فانظروا من يتولاها فأجابه الخديوى إلى ذلك بحضرة القونصلين وانصرفوا جميعا وفى نحو الساعة الثالثة من ليلة الخميس خامس عشر ربيع الأول من السنة استقدم الخديوى الخمسة عشر عضوا المندوبين من قبل شورى البلاد لتنفيذ لائحة مجلسهم فتمثلوا بين يديه فقال قد تخلى الوزير محمد شريف باشا عن الرياسة فاختاروا من يتولاها فقالوا لا، وحاشا أن نتعدى على حقوق مولانا فيطلب مولانا من يختاره، فقال: لابد من ذلك فامتنعوا وبقى الحال على ذلك إلى الساعة الرابعة ثم انصرفوا وأصبحوا وقد استقدمهم الخديوى وسألهم أن يختاروا من يصلح للرياسة فقالوا نختار اليوم محمود باشا البارودى رئيس ديوان الجند بشرط تصديقه على لائحة مجلسنا ثم خرجوا وساروا إلى بيت البارودى وانتظم مجلسهم ومعهم جماعة من كبار عصابة الجند فتناحوا بينهم فيمن يختارونهم لبقية المناصب فاختاروا جماعة ممن لا يخالفون لهم كلمة وكأنهم أرسلوا إلى الخديو يعلمونه بذلك فلما كان بعد ظهر اليوم بعث الخديوى مع أحد رجال ديوانه الخاص إلى محمود باشا البارودى مرسوما يقول فيه: حيث دعت الأحوال لانفصال محمد شريف باشا بناء على استعفائه واقتضى الحال لانتخاب بديل عنه يكون متأهلا ولائقاً لمقام الرياسة ومن المسلم عندى أنك أهل لذلك لما اتصفت به من كمال الدراية وحلية الصدق والاستقامة فقد انتخبتك لهذا المقام الخطير وقلدتك رياسة النظار فيجب المبادرة بانتخاب هيئة النظار اللازم وجودها معك وحيث إن غاية قصدى ونهاية أملى إنما هى السعى وصرف الجهد لما فيه عمارة وسعادة الوطن وإصلاح أحواله فأملى فيك القيام بهذه المساعى الحسنة وفقنا الله جميعاً لما به الإصلاح والنجاح انتهى.

فلما وصل الكتاب إلى البارودى فرح به وفرح من معه من زعماء العصابة ورفع فى الحال إلى الخديوى عريضة ذكر فيها أسماء الوزراء الذين انتخبهم للهيئة الجديدة فكان مصطفى باشا فهمى للخارجية والحقانية وأحمد عرابى بيك للجهادية والبحرية وإسماعيل باشا أيوب للمالية ومحمود فهمى بيك للأشغال وعبد الله فكرى باشا للمعارف وحسن شريعى باشا للأوقاف فاستقدم الخديوى فى الحال قونصلى الإنجليز

والفرنسيس وكلمهما فى هذا الأمر طويلا ثم صدّق على هذا الانتخاب وأضاف إلى عهدة البارودى نظارة الداخلية أيضاً وجاء الوزراء وتمثلوا بحضرة الخديوى بسراى عابدين فحادثهم طويلاً فيما لم تصل إلينا معرفته فلم ينصرفوا من عنده حتى خلع إسماعيل أيوب باشا نفسه من منصب وزارة المالية بناء على أن خلع الوزير محمد شريف باشا لنفسه من منصب الرياسة لم يكن إلا بسبب بند الميزانية فأجابه الخديوى إلى ذلك وقام بقية النظار وساروا إلى بيت البارودى فعقدوا مجلسهم واختاروا لوزارة المالية بعد جدال طويل على صادق باشا وباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا وقد اجتمع سائر ضباط الجند فى ساحة قصر النيل فوفد عليهم أحمد عرابى بيك وخطب فيهم خطابا طويلاً فى وجوب الاتحاد ووحدة الكلمة، ثم ساروا بعد ذلك جميعا إلى رحبة عابدين وتمثل جماعة من كبارهم أمام الخديوى يتقدمهم طلبة عصمت بيك أميرجند قصرالنيل فألقى طلبة خطابا بين فيه تعلق جميع أفراد العسكر بشخص الخديوى ثم ساروا إلى ديوان الداخلية حيث البارودى وإلى مقر والدة الخديوى وحرمه وهم فى أبهة وكبكبة زائدة، وقد كان نواب البلاد عند اشتداد الخلاف بينهم وبين الوزير محمد شريف باشا على بند الميزانية ومسئولية الوزراء أمامهم على طرفى نقيض فكان جماعة منهم يرون أن الظروف التى قضت بتشكيل مجلس النواب وخولته النظر فى جميع مصالح البلاد هى نفس الظروف التى تقضى على النواب بلزوم التساهل وعدم فصم عرى الوفاق بينهم وبين هيئة الحكومة وإلا طاش المجلس عن الغرض وضل عن الغاية، وكان الآخرون يرون أن فى إكراه الحكومة على تخويل مجلس النواب حق النظر فى الميزانية وتعديلها بحسب ما تقتضيه مصلحة البلاد فائدتين عظيمتين أولاهما: تخفيف أثقال المصروفات بالتزام طرق الاقتصاد وقفل أبواب السرف والتبذير فى أى نوع كان فيسهل على البلاد التخلص من كثير من شدائد الديون وذل الاستدانة التى كانت السبب فى استرقاق أهلها وتثقيلهم بأحمال الضرائب والمكوس والمغارم، وثانيتهما: تعديل موارد الإيراد وترتيبها على نمط عادل جامع بين النظام والمساواة بين صنوف الرعية وكل مستوطن فى البلاد فيستتب بذلك الأمن ويرتفع الظلم والأعتساف وتتزايد العمارة فتعظم ثقة الأجانب بأهل البلاد ويجل قدر الحكومة فى أعينهم وتقوى شوكتها فلا يظفر بها نسر ولا يغتالها أسد (إشارة إلى دولتى الفرنسيس والإنجليز) وكان هذا الرأى لفريق من زعماء العصابة أيضاً فاستمالوا إليه كثيرين من وجهاء البلاد وأعيانها وتمسك كل فريق بمدعيانه فاشتد الخلاف يومئذ واستفحل فأدرك زعماء العصابة ما وراء ذلك وتجردوا

لمقاومة أصحاب الرأى الأول وحذروهم وهدّدوهم فكان إذا تخلف أحدهم فى بيته ليلة لا يشعر إلا وقد دخل عليه نفر من الجند فيوسعونه شتما وسبا ويتوعدونه بالتبعيد إلى أقاصى الدار فوراً وربما توعدوه بالقتل إن هو لم يعدل عن رأيه وما زالوا معهم على هذه الحال حتى اشتد بهم الخوف وأخذ من قلوبهم مأخذه فانضموا إلى بقية النواب وصاروا أشد طاعة وأكثر تزلفا إلى أصحاب الزعامة فقويت عزيمة أولئك الزعماء فخلع كبارهم رداء المواربة وأظهروا ما كانوا يخفونه عن الناس من طلب المعالى باستلام زمام حكم البلاد والتصرف فى أمور الرعية فجعلوا يعملون على استحكام النفرة بين نواب البلاد والهيئة الحاكمة ويراعوا أن البلاد فى حاجة إلى مثل الوزير محمد شريف باشا إذ أعماهم الغرض وتملك عليهم هوى النفس وما زالوا يوسوسون فى صدور النواب ويزينون لهم كل عاطل حتى تجرد النواب يومئذ إلى المقاومة واختاروا من بينهم أولئك الخمسة عشر كما تقدم القول ففعلوا ما فعلوه حتى نفر منهم الوزير محمد شريف باشا وفضل خلع نفسه من منصب الرياسة عن نقض العهود ومس الذمم فأنزل نفسه كما تقدم وكان ما كان من تقليد البارودى منصب الرياسة فلم يكن ليخفى على الناس يومئذ أن فى طلب نواب البلاد تقليد البارودى هذا المنصب غاية الجبن والتدليس فقد دلت على ذلك الدلائل وقامت على صدقه البراهين ولو لم يكن فى الأمر سوى اتحاد أصحاب الزعامة على تقسيم المناصب العالية بينهم قبل أن تصل إليهم لكفى.

ولما استقر بالبارودى منصب الرياسة فرح قومه وعم السرور أعوانه والمتقربين من بابه فمنهم من أولم ومنهم من أدب ومنهم من تصدق ودفع النذور وحذا حذوهم نواب البلاد فأكثروا من الولائم والمآدب وكان ممن توسع من النواب فى مأدبته أحمد محمود صاحب نيابة البحيرة حيث دعا إليها البارودى وأحمد عرابى وسائر الوزراء وجميع نواب البلاد وكبار الجند ولفيف العلماء وبعض الوجهاء وكثيرا من موظفى الحكومة ووكلاء الدواوين وبعد الفراغ من الطعام ارتقى صاحب البيت منبر الخطابة فتكلم طويلا وذكر فى كلامه ما عاناه نواب البلاد من العنت والشدة منذ بداية المجلس إلى تلك الليلة وعرّض بذكر وساطة بطرس بيك غالى بينهم وبين الوزير محمد شريف باشا كما تقدم بيانه فى حينه وكان معهم فى تلك الليلة، فقال الخطيب ولا أخالكم تجهلون أيها السادة إننا لما قمنا بحقوق النيابة وتجردنا للدفاع عن الوطن وطالبنا رجال الحكومة يومئذ بمراعاة الذمم انتدبوا للوساطة بيننا وبينهم وسيطا من إخوانهم الذين يدعون الوطنية ويتظاهرون بمحبة الوطن فقام بالأمر وأدى عافاه

الله واجب الوساطة فكان تارة يتوعدنا وأخرى يهددنا وطورا يعززنا وآخر يباكتنا وآونة يستميلنا بزخرف القول وآنة يعدنا برتب الشرف ونياشين الاعتبار وما درى أنا على غير ما كان يتوهم وإنا جميعا على قلب رجل واحد فى خدمة الوطن وبنيه.

ولما كان تاسع عشر ربيع الأول اجتمع الوزراء بعد الظهر بسراى عابدين وعقدوا مجلسهم بحضرة الخديوى وتكلموا فى قانون مجلس نواب البلاد فتقرر العمل به بدون تغيير حتى فى بند الميزانية، ثم تلى بينهم أيضاً الجواب على اللائحة التى كان رفعها قونصلا الإنجليز والفرنسيس إلى الوزير محمد شريف باشا فوافقوا عليه وتقرر إرساله إلى القونصلين على يد مصطفى فهمى باشا وفى ثانى عشرى ربيع المذكور سار البارودى إلى مقر نواب البلاد وسلم إلى رئيسهم قانون المجلس مصدقا عليه فقام النوّاب من ساعتهم ودخلوا على الخديوى وقدموا له مراسم الشكر والطاعة ثم انصرفوا، وقد قرأت فى ذلك اليوم فى إحدى صحف الأخبار الإنجليزية صورة مكاتبة بعث بها أحد كبار الإنجليز بعاصمتهم على جناح البرق إلى أحمد عرابى بيك يقول فيها، تقدّموا أيها المصريون فلا خوف عليكم من جانب الأمة الإنجليزية فإنها لا تروم إلا تأييد مذهبكم القائل يجب الرأفة بفلاح بلادكم، أى نعم فلتسقط أقوال الباخسين للأعمال المالية باختلاف الأكاذيب ولتعش الأمة المصرية لتحيا الأمة المصرية، وشاع خبر هذا الإنجليزى ففرح به ضباط الجند وسروا سرورا عظيما ونقشوا ترجمته على أوراق وجعلوا يرسلونها إلى الأحزاب والمتقربين وهؤلاء كانوا يتلونها على الناس محشوّة بالخلط والتحريف وسقط القول فكان منهم من يقول: أى والله قد جاء اليوم إلى أحمد عرابى بيك أعزه الله فرمان من ملكة الإنجليز منقوشا بخط يدها تقول فيه إنها فرحة القلب، قريرة العين بما علمت به من أعمال الحزب الوطنى وثبات زعماء عصابة الجند ووقوف نواب البلاد موقف الجلاد وأنها لم تكن لتعلم إلى هذا الحين قدر عزة نفوس المصريين ولذلك فهى ساخطة على من كان السبب فى إبعاد أخبار هذه الحقائق عنها وهى تطلب من الله تعالى أن يطيل بقاء أحمد عرابى بيك ويجعل أيامه كلها خيرا وبركة على البلاد وأهلها، فيقول الثانى بل هو خطاب سياسى متوّج بتاج الملكة، فيقول الثالث ليس هو كما تقولان فقد نظرته منقوشا بماء الذهب وأحسن الألوان التى لم تر عينى لها مثيلا، فيقول الرابع إنكم جميعا لفى ضلال فقد حدثنى من رآه بعينى رأسه وسمع ما فيه بأذنيه أنه على شكل كراسة مغشاة من الخارج بالديباج الأحمر وفيها أساطير كلها تحية وتعظيم، فإذا قيل

لهم قد نقلت أصحاب صحف الأخبار هذا النبأ وليس هو فى شىء مما تذكرون قالوا هى عادة أصحاب الصحف يقولون غير ما يسمعون وظل الحال هكذا أياماً، وبينما كانت الأفراح والولائم لنواب البلاد والبارودى قائمة على ساق تحرك المراقبان الإنجليزى والفرنساوى ورفعا إلى الخديوى محررا سياسيا احتجا فيه على الحكومة حيث أباحت لنواب البلاد حق النظر فى ميزانية الخزينة وخولتهم المراقبة على جميع ما يتعلق بأنواع الإيراد والمنصرف فكان مما قالاه فيه ما تعريبه، ولما انتشرت الأوامر الخديوية بتنظيم سلطة المراقبين وخصائصهما كانت القوة المادية منحصرة فى شخص الخديوى بالأصالة عن نفسه وفى وزرائه بطريق الوكالة والنيابة وبما أن حق المراقبين العموميين هو قاصر على إبداء النصيحة وإعطاء المشورة فكان المتعين إذا التسمك بنصيحتهما واعتبارهما بما يحق لهما من الاعتبار والمراعاة فلذلك تحققت الآمال وأصبحت خزينة البلاد فى غاية الضبط والسداد بعد أن كانت فى غاية الخلل والأرتباك ولكن لم تلبث على هذه الحال طويلا حتى تزحزحت تلك القوة المادية من موضعها وانتقلت إلى مجلس نواب البلاد وفريق من كبار الجند واستأسر هذا الفريق جميع النواب فهم لا يعملون عملا إلا بمشورته فهذا التغيير العظيم الذى طرأ على نظام البلاد أحدث تأثيرا مهما حيث كان دبيبه تدريجيا مبتدئاً من شهر فبراير سنة إحدى وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية الذى هو تاريخ قيام الثورة وخروج الجند وزعزعة سلطة الخديوى ووزرائه ومن هذا التاريخ أخذت هذه السلطة فى القهقرى والانحطاط يوما عن يوم إلى هذا الحد وكان من نواب البلاد الذين كانوا على عهد إسماعيل باشا مقيدين بقيود الرق والعبودية وأوقعوا البلاد تحت أحمال الديون الثقيلة أن قاموا فى هذا الحين يطالبون بحقوق غير ملائمة لحالة البلاد ولهيئتها الاجتماعية وتمادى بهم الحال إلى إكراه الخديوى على خلع الوزارة التى كان معتمده عليها وألزموه بواسطة جماعة من كبار ضباط الجند بتسليم رئيس ديوان الجهادية زمام رياسة الوزراء حتى انحطت بذلك سلطته وصارت هملا مهملا وكأن لم يبق لشخص الخديوى وجود وحيث قد بلغت هذه الأحوال حدها فصار لا يهمنا كثيرا معرفة ما إذا كان المراد التعرض أيضاً لسلطة المراقبين واختصاصهما أولاً لا سيما وأنها قد أصبحت اليوم منحلة العرى بأسباب عدم إمكانهما الاشتغال مع الخديوى ولا مع وزرائه الذين أقيموا فى هذا المنصب جزافا لا ولا مع نواب البلاد والجند العاملين معهم فإن الخديوى وهؤلاء الوزراء ليسوا مسئولين أمام الرأى العام والدول

الأجنبية عن الطرق والأسباب التى عارض فيها المراقبان ودونّاها فى مراسيم سينشرانها عاجلا، إلى أن قالا، ولقد كان المصدر الوحيد لتأييد قوانا الأدبية هو شخص الخديوى والوزراء أما الآن فلابد وأن تصير هذه القوة وهمية مع الوزراء الذين انتقاهم نواب البلاد وفريق رؤوس الجند فإن الوزراء الذين هم على هذه الصورة لا يكون إذعانهم إلا لرؤوس الجند ونواب البلاد إذ لولاهم ما كانوا ولقد تم هذا الأمر حيث عقدت الوزارة الحالية النية على تخويل مجلس النواب حقا فى نظر الميزانية ولم تكترث بمعارضة المراقبين معارضة رسمية فى هذا الأمر ولا ننسى أن السبب الذى أوجب سقوط وزارة الوزير شريف باشا هو مراعاتها عدم معارضة حكومتى الإنجليز والفرنسيس فيما طلبه مجلس النواب من أن يخوّل له حق النظر فى الميزانية فصار إذا قبول الوزارة الحالية لهذه الأمور وإخراجها إلى حيز الفعل هو بمنزلة قبول ما يمكن ارتكابه من انتهاك حرمة نفوذ دولتى الفرنسيس والإنجليز ونجم عن ذلك إزالة نفوذ المراقبين اللذين لا سلطة لهما إلا بسلطة حكومتيهما هذا ولا يليق التعامى عن الأسباب التى لابد وأن تدك أس الإصلاحات وتذهبها أدراج الرياح بعد توطيد أركانها فى داخلية البلاد منذ السنتين فإن التعامى مجلبة التغرير وقصارى الأمر أنه ليس ببعيد وقوع الخلل فى الأحوال المالية التى قامت بترتيبها وإصلاحها لجنة التحقيق ولجنة التصفية. اهـ.

فلما وقف الخديوى على ما فى هذا الخطاب تململ وسير به إلى البارودى فلم يكترث به ولا أعاره جانب الالتفات ثم عاد فاجتمع بالمراقبين وأعلمهما بأن ليس فى نية الوزراء قط التعرض لسلطة المراقبة على أى حال كان ومع ذلك فقد كان الوزراء إذا عقدوا مجلسهم للنظر فى أمور البلاد لم يدعوا المراقبين للحضور فيه كعادتهم فإذا سأل المراقبان عن السبب قيل لهما إن الوزراء إنما هم ينظروا فى الأحوال الإدارية والأمور الداخلية التى لا علاقة لها بالأشغال المالية فأصبح المراقبان بعد هذا هملا مهملاً بل سقطا مرذلا وشاع الخبر وتناقله أصحاب الصحف المحلية والأجنبية فكثر تساءل كبار حكومتى الفرنسيس والإنجليز واشتد بينهم الأخذ والرد وقام خطباؤهم وقوالهم يقلبون لنواب البلاد ظهر المحن بعد ذلك وعمت الإشاعة بقرب وصول بعض مراكب الحرب الإنجليزية والفرنساوية إلى مينا الإسكندرية فبالغ العامة فى التحدث بهذا الخبر وأحجم أصحاب صحف الأجنبية تكذيبه فخاف عقلاء الناس وتطيروا منه فلما كان اليوم الأول من ربيع الثانى طارت الأخبار إلى القاهرة بقدوم

سفن حربية فرنسية وإنجليزية إلى مدينة بورسعيد الناس واختلفوا فى أسباب حضور تلك السفن وكثر تحدّثهم فى أمرها فبالغوا فى وصفها واختلفوا فى عددها فمن قائل إنها عشرون ومن قائل بل أربعون فكتب البارودى إلى قونصل جنرال الفرنسيس فأجابه بأن ليس فى الأمر ما يدعو إلى الاضطراب وإنما هى سفينة واحدة قاصدة كوكشين الصين وهى معدّة لنقل الجنود الذين قضوا مدتهم العسكرية فى تلك الأقطار ونقل المرضى وشاع الخبر بذلك فلم تكن لتنكف لتنهى التحدث فى أمر حضور تلك السفينة حتى كثر اللغط أيضاً بحركة الملك يوحنا نجاشى ونزوله على حدود مصر الشرقية وتضييقه على أهلها وإحراقه الكثير من قراها وغير ذلك واشتد اللغط وكثر الأرجاف أياما حتى وردت الأنباء الصحيحة بأنه أهالى قرية من قرى أرض البورى التى تبعد عن مصوع مسافة يومين الضرائب لأصحاب الجباية (وكانت عادة ملوك الحبشة أن لا يجبيوا الضرائب (الجند والعسكر) قامت عليهم الجنود فأحرقت منازلهم وغنمت زهاء أربعة آلاف وعشرة آلاف من الضأن وثلاثة آلاف من الحمير وقتلوا نحو مائة وسبعين رجلاً أحد عشر فأذاع هذا الخبر أصحاب صحف الأخبار وتوسعوا فى الكلام على ذلك الحبشان وشوكة ملوكهم وشدة بأسهم وجبروتهم على الرعية عسى أن تنقطع أسباب القلاقل وتبطل الأراجيف.

وأشار البارودى بإبطال تسيير الجند الذين كانوا على أهبة السفر إلى السودان لردع صاحب المهدوية فأوقفوا وصرفوا وأشاعوا أن القوة التى هى فى بلاد السودان هى لحصر المتهمدى فى جبل هناك ودفع أذاه عن البلاد وأهلها وطيروا الخبر بذلك إلى الملأ فصدّق الناس الإشاعة أو كادوا فلم تكن إلا أيام حتى وردت الأنباء الصحيحة باستفحال أمر المهدى وتزايد جيوشه وخضوع الكثير من المدن والقرى إليه وقيام الحركة الدرفور وكردفان وغيرهما قالوا وبلغت لومه إلى هذا الحين مبلغا عظيما فكان إذا نزل بأرض ولم تقم أهلها بأمره شن عليها الغارة ونهبها وحرق بيوتها وأعمل السيف فى أهلها على آخرهم فهابه لذلك الناس وخشوا سطوته وقاموا لنصرته فتقدم ولم ير أمامه ممانعا وبث الدعاة فى الأطراف حتى فى مراكز الحكومة وحول مقر الحكام فأجاب الناس دعوتهم صاغرين وكبر الخوف بالسواد الأعظم من أهل الكردفان وسنار والخرطوم فانجلوا عنها فرارا من بطشه فتعطلت أسباب الرزق ووقفت حركة التجارة وزال الأمن من تلك الأصقاع وانحدر أصحاب التجارة ببضائعهم إلى مدينة أسيوط ومنع تجار القاهرة من إرسال شىء من البضائع على

ظهور السفن إلى مدينة أسيوط كعادتهم ووصل إلى القاهرة ومصر بعض النازحين وظهرت الحركة فلم تبق للريب محلا، واتفق أن حضر فى هذا الحين إلى القاهرة جماعة من قبائل العربان ومشايخهم وساروا ما بين راكب وراجل وهم متقلدون السيوف يريدون مقر البارودى فلما رآهم العامة على هذه الحال ظنوا أنهم رسل مدعى المهدوية وهم فى ضجة وجلبة حتى دخلوا إلى ديوان الداخلية وصعد جماعة منهم إلى مقر البارودى فقابلهم وسألهم عن سبب حضورهم فقالوا نريد أن لا تضيع علينا حقوقنا التى ورثناها عن آبائنا وهم نالوها بمقتضى فرمانات محمد على باشا الكبير مقابلة خفارتنا للحدود ومنع العدوّ من الوصول إليها فقال: وماذا تبتغون الآن؟ وهذه قضية رآها من كانوا فى خطتى من قبل وفعلوا فيها ما فعلوه قياما بالمصلحة العامة فقالوا لا نرضى أن يؤخذ منا رجال للجند النظامى ولا أن تخرج قومنا للسخرة أو العونة وهذه حقوق ورثناها فلا سبيل إلى التخلى عنها ما دامت البادية بادية ونحن حارسوها فهوّن عليهم البارودى الأمر ولاطفهم فانصرفوا ولكن لم تنصرف عن الناس تلك الهواجس والأوهام وحضر فى هذه الأثناء أيضاً عبد العال بيك أبو حشيش أمير الجند السودانى من مدينة دمياط إلى القاهرة ولازم أحمد عرابى بيك أياما فاشتد الخوف بالناس وكثر تطيرهم وقالوا: إن حضوره فى ذلك الحين عقب حضور أولئك العربان إنما هو مترتب على أن تكون مراكب العدوّ قد ألقت مرساها أمام حصون وقلاع دمياط فلم يبق إلا الرمى بالقنابل، وكان حضور عبد العال بيك فى ذلك الحين باستدعاء من أحمد عرابى ليتشاوروا فيما يلزم عمله للحصول على ما يطلبونه من ألقاب الشرف ونياشين الأعتبار فقد كانت القاعدة من القدم أن لا يتولى رياسة ديوان الجند إلا من حاز رتبة الفريق ليتمكن من سياسة الأمور وحفظ نظام كبار الضباط وكبار الجند وقد تولاها أحمد عرابى بيك وهو لهذا الحين لم يتخط رتبة إمارة فريق من الجند فلما كان لابد من ارتقائه منصة هذه الرتبة العالية وكان عبد العال بيك وبقية أصحاب الزعامة على ماهم عليه من الرتب الصغيرة خاف أحمد عرابى من أنه إذا نال تلك الرتبة السامية قبل أن ينالها أصحاب الزعامة حسدوه ثم أبغضوه وعملوا على نكايته وإذلاله فسير فى طلب عبد العال فقدم إلى القاهرة ولبث بها أياماً حتى تم لهم ما أرادوه من ترتيب أماكن إقامة سائر الجنود والعساكر وإبعاد من شاءوا إبعادهم من صغار الضباط وإدخال من كانوا يتوسمون فيه سمة الخلود إلى طاعتهم والقيام بإشارتهم، ثم رفعوا إلى الخديوى

ورقة بأسماء كثير من صغار الضباط الذين اصطفهم وقدم إليه أحمد عرابى فى طلب إعطائهم بعض الرتب والنياشين فلم يعجب الخديوى بذلك ورأى منهم من لا أهلية له ولا استحقاق فراجعه أحمد عرابى بيك وهوّن عليه الأمر فامتنع وجعل يطاول أياماً، وكانت عادة أصحاب الزعامة أنهم إذا رأوا من الخديو مطلوبة فى أمر يبتغونه أشاعوا أنه إنما يفعل ذلك ابتغاء مرضاة خصومهم فيكثرون حينئذ من الاجتماع والتطواف ويبثون الأراجيف ويختلقون الأكاذيب والترهات فإن عدل عن عزمه عدلوا هم كذلك عن فعالهم وإلا تمادوا حتى يتاح لهم الظفر فلما تحققوا إصراره على الامتناع من إجابة طلب أحمد عرابى بيك قام من بينهم عبد العال بيك أبو حشيش أمير الجند السودانى وأشاع أنه قد دس إليه السم فى اللبن، قال وتحرير الخبر أنه بينما كان ؟ذات ليلة عند أحد أخوانه إذ عاد إلى بيته فقالت له الجارية التى كانت تعدّ له الشاى واللبن فى صباحا إنها تركت المحل لحظة لطيفة ثم عادت فرأت غطاء الوعاء الذى فيه اللبن مكشوفا ولون اللبن متغيرا قال: فبحث فى الوعاء الذى فوجد فى راسبه مادة فأبقاها إلى الصباح وأحضر طبيبا عارفا فحلل تلك المادة فإذا بها زرنيخ كاف لقتل نفس فأكثر واتهم فى هذا العمل غلاماً يبلغ السابعة عشرة وهو يهتم بتربيته فى بيته فقبض عليه وأتى به إلى مقر جند الحرس الخديوى برحبة عابدين وضيق عليه قيل فاعترف بأنه الفاعل بإغراء محمد بك بن إسماعيل بيك ابن أبى بكر راتب باشا ثم عدل واعترف بأن غلاما شركسياً من مماليك الخديوى رفيقا له فى المكتب أعطاه ذلك الزرنيخ وأوصاه بوضعه فى وعاء اللبن ففعل رجاء حارسى وصاية عبد العال بيك وحيازته على أمواله المودعة عنده ثم بعد ذلك سلم الغلام إلى صاحب شرطة المدينة فأودع فى السجن حتى تظهر الحقيقة، ولم ينتشر خبر هذا الخبر العجيب حتى جعل ضباط الجند يفدون على دار عبد العال بيك عشرات عشرات يهنئونه بالسلامة وهرع إليه كذلك أعيان المدينة والعلماء والوجهاء وبعض موظفى الحكومة واستقدم الخديو صاحب شرطة المدينة وشدد عليه فى استكشاف سر هذا الحادث وكشف الحقيقة وقد خافه ورسم بالقبض على ذلك الغلام الشركسى ووضعه بالسجن أيضا دفعا للشك والظنون وسير إلى عبد العال بيك أحد رجال ديوانه الخاص كدره من وقوع هذه الحادثة ويهنئه بالنجاة من شرها وأطال عبد الله صاحب الكلام فى هذا الحادث وبالغ فى مدح تلك السوداء التى كانت سببا فى نجاة عبد العال كانوا يزعمون فهاداها جميع ضباط الجند بالحلى والملابس وكان اسمها

تشريفا فجعلوا يصيحون تشريف تشريف وينادون بالويل والثبور على أصحاب هذه المكيدة يعرضون الخديو وعداوته لجماعة الضباط وأصحاب الزعامة منهم حتى أجابهم إلى ما يطلبون كبارهم من الرتب ونياشين الافتخار ما كانوا يسألون فنال أحمد عرابى بيك وعلى بيك أمير جند الحرس وعبد العال بيك حشيش أمير الجند السودانى لقب ميرلواء الباشوية وشاع الخبر بذلك وتناقله الناس فهرع إلى دار أحمد عرابى العلماء والكبراء والوجهاء وتزاحم على بابه الشعراء وغصت حجرات داره بالكثير من الأجانب ووردت إليه رسائل التهانى من عمد البلاد ومشايخها والتجار بالبريد وسلك التلغراف وهادته الوجهاء بالمأكول والمشروب والملبوس والمفروش فأدب فى ذلك اليوم وزين داره وأتت إليه طوائف أرباب الأشاير وأصحاب العكاكيز والمتعممين بطبولهم وزمورهم وكاساتهم يضربون بها أمام داره واصطف حول الدار سائر ضباط الجند على اختلاف درجاتهم وجعلوا يضجون ضجيج استحسان ويهتفون هتاف التبريك وزاره فى غروب ذلك اليوم سائر رجال الحكومة الملكيين والعسكريين والرؤساء الروحانيين ومحررى صحف الأخبار المحلية والأجنبية وبعض قناصل الدول كقنصل دولة إيطاليا وغيره ممن كانوا يكثرون الترداد عليه لأمور لم نصل إلى معرفتها وما زالت داره محطا للمهنئين وكعبة للشعراء والمادحين ثلاثة أيام وهكذا جرى مع على باشا الذيب وعبد العال باشا حشيش فقامت عند ذلك قيامة أصحاب الصحف الأجنبية لا سيما منها الإنجليزية ونادوا واحرباه إن لم تتدارك دولتا الإنجليز والفرنسيس الخلل الذى كان يهبط بمصر إلى حضيض الويل والدمار وجعلوا يحضون كبار سياستهم على الأخذ بأطراف العمل ووجوب تغيير منهج السياسة الذى اتخذته الدولتان منذ ظهور الجند إلى هذا الحين فأكثر قونصل الإنجليز من الغدوّ والرواح إلى مقر الخديو للمكالمة فى الأمر.

(مطلب)

تنزيل المسيو دى بلينار المراقب الفرنسوى لنفسه من منصب المراقبة وما كان بعد ذلك

واتفق فى ثالث عشرى ربيع الثانى أن تقدم المسيو دى بلينار المراقب الفرنسوى إلى الخديو فى قبول تخليه عن منصب المراقبة فأجابه الخديو إلى ذلك بغير معاودة فانحدر من فوره إلى الإسكندرية ومعه عياله يريد عاصمة الفرنسيس فلما شاع خبر انسحابه من منصبه فرح أصحاب الزعامة وبالغوا فى الأسباب وعزوها لأنفسهم

وقالوا إنما هى معجزة من معجزاتهم وآية من آياتهم وجعل عبد الله صاحب الطائف حينئذ يطنب فى مديح أحمد عرابى باشا ويثنى على همة رجال العصابة أولى العزم ويقول: قد آن والله الوقت الذى لابد فيه من التخلص من نيران هؤلاء البعوث الجائعة الذين لا يهمهم إلا إشباع بطونهم، واختلف الناس فى أسباب عودة الرجل إلى بلاده وتخليه عن منصبه وقد كان سعى الخديو والرئيس مصطفى رياض باشا أيام رئاسته خلف هذه الغاية ذاهبا أدراج الرياح فترامت الظنون إلى المرمى البعيد وكثر تحدث الناس فى هذا الأمر فمن قائل أن لاستعفائه غاية سياسية قضت حالة البلاد الحاضرة على دولة الفرنسيس باتحادها فلا يلبث أن يرجع إلينا وفى وعائه شىء من السم والدسم ومن قائل بل كان استعفاؤه إرضاء لأصحاب سياسة الإنجليز إذ هم يعتبرون أن بقاءه فى منصبه باعث على فصم عرى الاتحاد وقطع رباط الوفاق الذى عقدته الدولتان لأن الرجل شهم حازم جرىء حريص على نفوذه قوال فعال لا تأخذه رهبة ولا يخشى مكيدة وكان المراقب الإنجليزى على غاية من الجبن وضعف العزيمة وفساد الرأى، قال أصحاب هذا المذهب: فلما كان دى بلينار بهذا لا يعمل إلا لمصلحة بلاده خاصة ميالا إلى التفرد بالعمل وكان المراقب الإنجليزى لا يقوى ولن يقوى على مجاراته استقدمته دولته حرصا على بقاء عرى الاتحاد وشدّ رباط الوفاق وعزمت على استبداله بآخر أقل غيرة وأكثر صبرا، ومن قائل بأنه ليس فى الأمر شىء من هذا كله وإنما هى فلتة من فلتات السياسة الأفرنسية التى ما وراءها إلا الخيبة والعدم حيث لا ينفع الندم، وعندى أن لاستعفاء دى بلينار هذا سبب آخر لعله الصحيح أو ما يقرب منه وذلك أنه لما سقطت وزارة غامبتا رجل الجمهورية الفرنساوية وخطيبها المقلق وقامت بعدها وزارة فريسينيه وكانت سياسة دى بلينار هذا على شاكلة سياسة غامبتا كلها حزم وكياسة وتدبير ورئاسة وكانت سياسة فريسينيه مشوبة بالضعف وعدم الثبات محفوفة بضوضاء المكاره من الأحزاب لا سيما منهم غلاة الحرية الذين كانوا أطوع إلى رغائب الإنجليز منهم إلى مصلحة وطنهم أدرك دى بلينار ما وراء بقائه فى منصب المراقبة فى هذا الحين من ذهاب الكرامة وسقوط الهيبة لا سيما وقد كان واقعا يومئذ بين منتطح عنزين عداء الفرنسيس الذين بمصر وتقييم لأعماله جزاء ما بدا منه لقونصلهم على عهد رئاسة مصطفى رياض باشا كما سبق بيان ذلك فى موضعه وبغض رجال الحكومة إليه فعمد إلى خلع نفسه واعتزال المنصب وتقدم إلى كبير سياسة الفرنسيس والخديو فى قبول ذلك فقبلاه فرحل راضيا من الغنيمة بالإياب، ولم تك تهدأ القلوب بعد زوال أراجيف استقالة المراقب الفرنساوى حتى شاع الخبر وذاع بحركة نجاشى الحبشة وزحفه بالجند الكثير على

حدود مصر وعقده النية على إضرام نار الحرب حتى يقضى ما فى نفسه فتحدث الناس به وخلطوا وخبطوا كعادتهم حتى خيل لهم أن قد قامت القيامة وانتصب الميزان، وتحرير الخبر أن علاء الدين باشا العامل يومئذ على شرق السودان أرسل إلى ديوان الخديو يقول قد جاءت رسل نجاشى الحبشة وبينهم قسيس من قسوسهم اسمه ملاك برهان قيروت ومعهم عشرة رجال آخرون خمسة منهم من أئمة الدين وترجمان اسمه يعقوب وعشرة من الأتباع الذين يحملون متاع الوفد فدفع إلى كبيرهم كتاب من النجاشى يقول فيه، باسم سيدنا يسوع المسيح كلمة الله إلخ.

من الملك يوحنا ملك صهيون نجاشى الحبشة وملك ملوكها إلى حضرة المحب المكنون علاء الدين باشا.

- تخبركم أننا بنعمة سيدنا يسوع المسيح نحن وجميع عسكرنا ورجال مملكتنا حائزين كمال الصحة والعافية ممتعون بالراحة الوافية ونود استمرار العلاقات بيننا وبين حكومة مصر ونحب تثبيت أحسن الصلات الودّية وأنه مرسل لكم يامحبنا الباشا هدية وهى حصان من جياد الخيل إشارة إلى التودد والمحبة والسلام. اهـ.

وكان مع ذلك الوفد أيضاً هدايا أخرى بعضها إلى بطرك القبط بديار مصر وبعضها إلى الخديو وهى عبارة عن عشرة من الفضة المموّهة بالذهب ونياشين من الذهب الخالص وثمان درقات وكمية من اللؤلؤ وزهاء الألف وخمسمائة جنيه فرنسوى برسم القدس الشريف وكتاب إلى الخديو وكانت جميع رجال الوفد البيت المقدس ليلبثوا فيه ما شاء الله، فلما تحقق الخبر بقدومأولئك الحبشان ومثولهم بين يدى الخديوى ثم نزولهم بدار البطريكية القبطية بالقبيلة بطلت الأراجيف وزالت الهواجس واشتغل الناس بما سيكون من وراء ارفضاض مجلس نواب البلاد إذ ظهرت الإشاعة بقرب ارفضاضه ورجوع النواب إلى بلادهم وقد تناقلها أصحاب صحف الأخبار فما لبث أن بلغت أصحاب الصحف الأجنبية حتى وردت صحفهم مشحونة بالتقبيح والتعييب والاستهزاء والسخرية بنواب البلاد وأصحاب زعامة الجند وقام بعض الأجانب الذين فى خدمة الحكومة يسخرون أيضاً بالنواب ويهزؤن بأعمالهم فكانوا إذا قابل أحدهم رفيقه فى طريقه أو فى مجتمع عام قال له عوض صباح الخير أو مساء الخير مثلاً، إننا نودّع نواب الأمة الوطنيين - الوداع للنواب الوطنيين - وغير ذلك من عبارات السخرية والاستهزاء فحرك هذا كله ساكنا فى قلوب ضباط الجند فجعلوا يطوفون بالشوارع والطرقات ويكثرون من التطواف ملازمين مساكن الأجانب فانكمشوا وانكفوا عن الاجتماع فى المنتديات والطرق العمومية وخافوا العاقبة فقام بعض أصحاب صحف الأخبار المحلية يهوّنون الأمر

على أهل البلاد ويلاطفون ضباط الجند ويكثرون من الإطراء على النواب فكتب أحدهم فى وداع النواب يقول: وداع يزيد النفوس وجدا، وبعد يفيد القلوب قربا، وانفصال لا يؤثر فى المشارب إلا اتصالا، وافتراق لا يوجب فى المبادىء إلا اتحادا، وداع لنواب الأمة المصرية راحلين يوم السبت بما فى قلوب الأحبة من الثناء والدعاء مشكورين مأجورين مرجواً عودهم بالمهابة والإجلال والتوفيق والإقبال إن شاء الله . اهـ.

فلما كان ثامن جمادى الأولى من السنة أى سنة تسع وتسعين فى نحو الساعة الخامسة العربية صباحا قدم محمود باشا البارودى إلى مقر النواب يحمل مرسوم الخديو بارفضاض المجلس فدخل عليهم وسلم ووقف بينهم موقف الخطيب، وقال: إن المدة القصيرة التى أقمتموها والأعمال الكثيرة التى نشرتموها تدل على شدة ميلكم إلى الإصلاح ورغبتكم فى تقدم الوطن العزيز، وحيث إن هذا اليوم هو اليوم المعين لأرفضاض المجلس بمقتضى لائحته الأساسية فقد أتيت بالأصالة عن نفسى وبالنيابة عن إخوانى لأشكر مساعيكم المحمودة وأرغب إليكم أن تشغلوا أفكاركم فى مدة الاستراحة بالمنافع العامة والمشروعات التى ستوضع فى العام القابل موضع النظر ليسهل تقريرها بالسرعة اللازمة، قال: وهذا هو الأمر الكريم الناسق بانفضاض المجلس على مقتضى القانون أقدمه لديكم والله المسئول فى توفيقنا جميعا لخدمة الوطن العزيز.

فأجابه محمد سلطان باشا رئيس النواب يقول: إنا نشكر للجناب الخديوى المعظم عنايته باستنابة عطوفتكم فى ختم أعمال المجلس هذا العام ونسأل الله توفيقنا فى العام القابل لتتميم المقاصد الخيرية والمنافع العامة التى منع قصر الوقت فى هذا الاجتماع من إخراجها إلى عام الفعل كما نسأله أن يؤيد الاتحاد ويزيد تألف القلوب لنكون يدا واحدة وقلبا واحدا على خدمة هذا الوطن العزيز بما يحتاج إليه من الإصلاح آمين، فأمّن النواب جميعاً على هذا القول ثم ودّعهم البارودى وانصرف وقاموا هم من ساعتهم وساروا إلى مقر الخديو بسراى عابدين لوداعه فقابلهم وخاطبهم قائلا: إن اجتهادكم فى خدمة الوطن وقيامكم بأداء حقوقه الواجبة قد صادف لدينا موقع القبول والاستحسان كما أثبت لكم الفضل وعلو الهمة وصدق العزيمة فى خدمة الأمة ولا ريب عندنا أنكم ستصرفون العناية فى مدة انفضاض المجلس إلى البحث عن طرق المنافع العمومية والمذاكرة فيما يوضع لديكم موضع النظر فى العام القابل لتأتوا إن شاء الله على ما فى نيتى من الإصلاح لوطننا العزيز

وإنى أستودعكم الله ضارعا إليه سبحانه وتعالى أن يوفقنا لما يترتب عليه سعادة بلادنا وأن أحسن الحال يحسن المآل آمين، فرد عليه محمد سلطان باشا رئيسهم يقول أيد الله تأييد الجناب المعظم بعنايته ويحفظه برعايته وأن يبقيه للأمة والوطن فتحصل فى ظله الأمانى وتكمل المنافع العمومية وتدوم قوم الاتحاد بين أركان البلاد ولها غرو فى ذلك فإنه أدام الله مجده قد بسط للنواب يد المساعدة فيما انصرفت همتهم إليه من أوجه الإصلاح ومهد لهم جانب العناية فى البداية والنهاية، ثم بعد ذلك قدم الموكب الخاص إلى الخديو المراسيم الصادرة للنواب باعتماد نيابتهم فسلم إلى كل منهم المرسوم الموجه إليه بيده فكان ما فيه.

قدوة الوجوه المعتمدين، والأعيان المنتخبين حضرة فلان زيد إقباله إنّ من الأمور التى أثبتتها التجارب من سوالف الأزمان حتى صارّت جلية عند ذى البصائر والأذهان ووصلت إلى درجة الاستغناء عن إقامة دليل وبرهان أساليب الأقوى فى تقدم الأمم والوسيلة العظمى لانتظام الأحوال على الوجه الأتم هو التشاور فى الأمور وتبادل الأفكار والمبادلة فى الآراء والأنظار ولا شك أن هذه هى أحسن المسالك والشرع الشريف يأمر بذلك فلذا تحرينا طريق الصواب واخترنا أن يكون لمصر مجلس نواب تبعث الأهالى أعضاءه بالانتخاب ويتبادل فيه آراء الأعضاء المرجوه فى مذاكرة ما يلزم من الأمور والقوانين والآن قد تم الانتخاب بالأهلية وعرض ذلك علينا فقوبل بالقبول والاستحسان لدينا فأصدرنا إليك هذا الرقيم إعلاناً على شرف العضوية مدة خمس سنين فى ذلك المجلس الكريم فنرجو الله تعالى أن يجعل هذا المجلس باعثا لحصول مقاصدنا وأوطارنا بتقدم أوطاننا وأقطارنا ووسيلة لانتظام أمورنا وأمصارنا وأن يكون سببا لنوال الفلاح وكمال الإصلاح إنه ولى التوفيق .اهـ.

فانفض من عنده شاكرين وأولم لهم البارودى وليمة فاخرة فحذا حذوه بعض أعيان القاهرة ثم سافر من سافر منهم وبقى من بقي فكتب صاحب جريدة مصر هذه الأبيات مودعا لهم بها قال:

ودّعتهم وبنفسي من مآثرهم   آثار حمد أقامت بعد ما رحلوا
أكارم إن همو عن ناظري انفصلوا   فذكرهم أبدا بالفكر متصل
لهم منازل حب في القلوب فهم   بها مقيمون إن ساروا وإن نزلوا
فحبذاهم من قوم أماثل في   أمثالهم بالمعالي يضرب المثل
وحبذا القول ما قالوه عن رشد   وحبذا الفعل في الإصلاح ما فعلوا
ضنوا بأوطانهم وهي التي بذلوا   في حبها النفس نعم الجود والبخل

وكان الناس يظنون أنه بارفضاض هذا المجلس وانحلال عقد اجتماعه تبطل تلك القلاقل المتتابعة فتطمئن القلوب الواجفة وتسكن الخواطر الراجفة وتنكف أصحاب الزعامة عن اختلاف المشاكل والأراجيف، فبينما هم على هذا الجانب من الظنون إذ قامت قيامة أصحاب الزعامة ورفعوا إلى الخديو فى خامس عشرى جمادى الأولى شكوى تتضمن أن عصابة سرية من جماعة الضباط الشراكسة الذين اختيروا لقتال مدّعى المهدوية بالسودان قامت للفتك بأحمد عرابى باشا وأنهم أعدوا له كمينا فى مفارق بعض الطرق لأخذه غيلة وجعلوا يبالغون ويهوّلون فكبر الأمر على الخديو ورسم بكشف الحقيقة، وبث أحمد عرابى باشا العيون حول جماعة الضباط الشراكسة وتتبعهم الجند فقبضوا على خمسة منهم وألقوهم فى سجن قشلاق جند الحرس برحبة عابدين وهيؤا لتحقيق هذا الحادث مجلسا عسكريا مؤلفا من عشرين عضوا بينهم على بيك الروبى وعبد العال باشا أبو حشيش وانقسم هذا المجلس إلى قسمين أحدهما، لعمل النهار، والثانى: لعمل الليل وقبضوا على كثير من الشراكسة وألقوهم فى حبوس قشلاق عابدين وقبضوا كذلك على يوسف نجاتى بيك وآخرين معه فكانت عدتهم نيفا وأربعين فاشتد الخوف بأصحاب البيوتات من جماعة الترك والشراكسة وأخذوا حذرهم فى الداخل والخارج فلما كان تاسع عشرى الشهر انعقد مجلسهم العسكرى بقصر النيل وجعل يسأل المتهمين، قالوا: فتحقق أن الذى هيأ هذه العصابة هو راتب باشا سردار العسكر المصرى على عهد إسماعيل باشا فى بيت أحمد أفندى راشد أحد الضباط الشراكسة بحارة الرزنامجة القديمة وكان ذلك على علم من محمد أفندى طلعت ويوسف نجاتى بيك ومحمد نيازى أفندى وأمين شكرى أفندى وسالم شوقى أفندى وعمر أفندى رحمى المعاون بديوان الضابطة ومحمد شفيق أفندى ومحمد أفندى فؤاد الملازم بالمخالفات وأحمد فهيم أفندى وخليل حسنى أفندى ورشوان أفندى ونجيب أفندى المقيم مع شفيق أفندى وأحمد أفندى وصفى الملازم بالمخالفات قالوا: وتحالفت هذه العصابة على السيف والكتاب وجعلوا مقاصدها سرية لا يطلع عليها أحد من صغار الضباط حتى تتقوّى عزائمهم وتطمئن قلوبهم ثم اجتمع معهم بعد قليل من الأيام محمود أفندى طلعت أخو راتب باشا وعقدوا مجلسا وأعلموا الصغار من جماعة الضباط الشراكسة بأن أول شىء يعمله رجال العصابة هو أنهم يرفعون إلى الخديو عريضة يطلبون فيها ردّ حقوقهم إليهم ورفع يد الاستعباد عنهم ولم يطلعوا أحد من أولئك الأصاغر يومئذ على سر المقصد

الإعدامى الذى تحالف عليه كبارهم فانضم إليهم كثير من الأصاغر ومالوا إلى تعضيدهم فبلغوا يومئذ زهاء المائة فكتبت أسماؤهم فى ورقة وأعطيت إلى أحمد أفندى راشد صاحب الدار.

واتفق أن قدم من الإسكندرية خليل أفندى حلمى أحد كبار العصابة فاجتمع عصابة منهم فأبلغهم أنه قد انضم إلى عصبتهم على باشا شريف ووعدهم بالمساعدة جهد ؟استطاعته إذا ظلوا على هذه الحال من الاتحاد قالوا وكأنهم قد أحسوا بما وراء اجتماعهم فى بيت أحمد أفندى راشد فتركوا الاجتماع فيه واستبدلوه ببيت عبد الله أفندى الكردى فانضم إليهم عندئذ حسن أفندى الكردى ورجب أفندى ناشد وتشاوروا فاستقر رأيهم على الاجتماع فى ليلة جمعة ليقيموا كلا من رجب أفندى ناشد وحسن أفندى حلمى وعبد الله أفندى الكردى رؤساء موكلين يدبر كل واحد منهم خمسين رجلا ويأخذ عليهم العهد وأن يكونوا روحا واحدة وجسدا واحدا وإذا مات أحدهم قاتل الكل على دمه حتى إذا اتسع نطاق العصابة ونجحت آمالها اختارت الرؤساء من أصحاب الرتب العلية ؟؟ محمود بيك طاهر ومحمد بيك نجيب ومحمد بيك شوقى وهكذا كلما عظم أمرها واتسعت كلمتها فوّضت الرياسة إلى الأكبر من جماعة الشراكسة أو الترك واتفقوا جميعاً على أن مقام السيدة زينب ليتحالفوا ويجدّدوا يمين القسامة هناك ويظهروا ما أسروه من أسر عن بعضهم من قتل أحمد عرابى وكل من يناويهم الشر أو يقف فى سبيلهم هذا فلما عرضت الرياسة على عبد الله الكردى أباها وقال إنى أحس ياقوم بانقباض فى صدرى واضطراب فى قلبى ورجفة فى جسمى من هذا الاجتماع وأخشى أن يكون وخيم العاقبة تتمكن العصابة من إنفاذ مقاصدها ويعظم شأنها فإذا تم لها الأمر وقامت على قدم والوثاق أتيت لها بخمسمائة من الباشبوزق بمعاونة حسين بيك قراجول فأجابوه إلى ذلك حتى يبلغ مبادىء عصابتهم إلى بعض كبار الشراكسة ليكونوا لهم عونا عند الحاجة فاجتمع بالبغض منهم وعاد فأخبر رجال العصابة بأنه لم ير من أولئك الكبار إلا غاية الجبن حتى انفصل عبد الله الكردى عن رجال العصابة لأسباب فكادت تنفشل وتتفرق كلمتهم ولولا رجب أفندى ناشد وحسن أفندى حلمى أدركاها بهمة منهما حيث جمعا أفراد العصابة الذين كانوا عقدوا جلستهم تلك فى بيت أحمد أفندى فهيم الكائن بالقوطية واتفقوا على أن يكون كل من انتظم فى سلك العصابة إلى مقام السيدة زينب ليطلعوه على السر المقصود بهم على إخراجه

إلى حيز الفعل حتى لا تنفصم عقدتهم قبل إدراك مأربهم فلما انكشف أمرهم وعلم به بعض صغار الضباط الشراكسة ذهب أحدهم المدعوّ على رمزى وأخبر بعض أقارب أحمد عرابى وأفشى مكنون سرهم فهال أحمد عرابى الأمر ورسم فقبضوا على أكثرهم وتتبعوهم حتى لم يبق منهم أحد خارج المحبوس، حدثنى صاحب لى قال: عصابة الشراكسة وتناقله الناس حتى كثر تطواف الجند بالشوارع والحارات وأخذوا يقبضون على المارة ويكبسون البيوت ويخرجون من فيها من صغار الضباط الشركسة حاسرى الرؤوس حافى الأقدام فيزجونهم فى المحبوس بقشلاق حرس الخديو برحبة عابدين والناس خلفهم يترامحون وهم فى دهشة وحيرة فكنت لا تسمع فى تلك البيوت إلا عويل النساء وبكاء البنين والبنات وتأوّه الشيوخ وكان كل من أودع السجن منهم وكلوا به من يذيقه مر العذاب فكان الواحد منهم يقضى بياض يومه وسواد ليله واقفا على قدميه وأمامه الموكل به فإذا أغمض الجفن لكمه أو وخزه فينتبه وعيناه تذرفان الدمع فإذا خر على الأرض أو سقط مغشيا عليه من شدة التعب دهمه ذلك الموكل بالضرب واللكم المتتابع فيسترحم وليس من يرحم، قال وكانت حبوسهم مجردة عن كل ما يحتاج إليه المسجون كجرة للماء مثلا أو صحفة للطعام أو حصيرة للرقاد أو مصباح للضوء وكان ضجيجهم لا ينقطع وعبراتهم مترسلة فأثر هذا الحال فى الكثير من جند الحرس أثرا مؤلما فضجروا وكادوا يخرجون عن طاعة كبارهم فلم ينتبه رجال المجلس العسكرى إلا وجند الحرس على أهبة التخلى عنهم فتداركوا الأمر وعجلوا بالعقاب فجاروا وظلموا وأغمضوا جفن الطمان على وسادة الانتقام فلا حول ولا قوة إلا بالله، قلت: وطار خبر هذا الحادث إلى الآفاق فأرسل السلطان فى خامس جمادى الآخرة إلى الخديوى يسأل عن ذلك وكتب أحد الشراكسة إلى إحدى صحف الأخبار الأجنبية يقول قد نزل آباؤنا بديار مصر من عهد ليس بقصير فكانت هى مسقط رؤوسنا وأرض نشأتنا وقد تربينا تحت سمائها وتلقينا من علومها وفنونها أشكالا فقمنا بواجب شكرها وأخلصنا فى خدمتها أعواما طوالا وبذلنا النفس والنفيس فى تلبية داعى تقدمها ودافعنا عن مجدها باقتحام الحروب الروسية وتجشم الخطوب الهائلة الدموية فخدمناها خدمة الابن البارّ بأبويه ومازلنا على هذه الحال حتى وسوس شيطان الحسد فى صدور أهل البغى والفساد فرموا بعضنا بالفجور والتألب على اغتيال النفوس التى حرم الله قتلها وقبضوا عليهم قبض الوحش على فريسته وكبلوهم فى قيود الظلم وألقوا بهم فى

حبوس الهوان وأذاقوهم مضض اللكم والوخز وأليم الأخذ والرد وحرموهم لذة الرقاد واحرقوا منهم الأكباد بنار الجوع كل ذلك بلا ذنب جنوه ولا خطأ ارتكبوه فالله حسبنا ونعم الوكيل إلى أن قال: وحيث ضاقت بنا أرض هذه البلاد وقد أصبحنا مضغة فى أفواه قوم لا يخشون يوم الميعاد فقد عزمنا على الرحيل إلى الدنيا واسعة الفضاء وقد عينا أنفسنا لخدمة أمير المؤمنين لا غير والسلام. اهـ.

فأعجب الناس بهذه المقالة وحنوا إلى جماعة الشراكسة وعابوا على زعماء عصابة الجند فعالهم، فلما كان حادى عشر جمادى الآخرة حكم المجلس العسكرى على هؤلاء الضباط بالنفى والتبعيد المؤبد إلى أقاصى السودان وكانوا مائة وأربعين وبينهم عثمان رفقى باشا مع تجريدهم من كافة رتبهم العسكرية وامتيازاتهم ونياشينهم وأن يكونوا متفرقين فى أنحاء السودان بعيدين عن مراكز المدن والبنادر والسواحل النيلية وحكموا كذلك على اثنين من موظفى الحكومة بالنفى والتغريب مع تجريدهم من كافة حقوقهم المدنية وحكموا على راتب باشا السردار الذى عدّ زعيم هذه العصابة بالتجريد من رتبه العسكرية وامتيازاته ونياشينه وحرمانه من العود إلى ديار مصر بحيث إذا عاد إليها نفى منها على الصورة المذكورة وقال المجلس العسكرى فى حكمه أن الخديوى إسماعيل هو مسبب هذه الحركة العدوانية والباعث عليها مستعيناً فى بثها بالمرتبات التى تصرف إليه فى كل سنة من خزينة البلاد فقرر أن يكون للخديو توفيق ولهيئة الحكومة حق النظر فى قطع هذه المرتبات وإلغائها ورفعوا هذا الحكم للخديو ليرسم بتنفيذه وكان الذى رفعه هو محمود باشا البارودى، وقيل: على باشا الروبى والأوّل أصح فلما وقف الخديوى على ما فيه كبر عليه واستعظمه فراجع البارودى فلم يقبل فكلم فى ذلك أحمد عرابى فأظهر غاية الشدة وبالغ فى الجفاء فجعل الخديوى يطاول ويحاول لعله يتمكن من استرضاء أصحاب الزعامة فلما أعياه الحال تجرد إلى تعديل الحكم فنقض فيه وأبرم واستبدل حكم التبعيد إلى أقاصى السودان بالتبعيد عن ديار مصر حيث يشاء المبعدون مع حفظ رتبهم ونياشينهم ولم يتعرض إلى مرتبات أبيه فلما برز الأمر من ديوانه على هذه الصورة كبر ظهوره على البارودى وأحمد عرابى وكادا يتميزان غيظا وراجعا الخديوى فأبى إلا ما رسم به فألح عليه البارودى فامتنع وشدد فى الامتناع فعظم عند ذلك الخلاف وكبرت الفتنة وتزاحمت أقدام أهل السعاية على أبواب الفريقين وانبثت العيون حول مقر الخديوى، قيل: وهدد البارودى الخديوى بالخلع فلم يلتفت الخديوى إلى ذلك

ولم يحتفل به، حدثنى أحد المقربين من البارودى، قال: وتاقت نفس البارودى والنفس أمارة بالسوء إلى ارتقاء منصة الخديوية المصرية بعد استفحال أمر الخلاف بينه وبين توفيق باشا فجمع إليه جماعة من أهل التاريخ وكاشف بعضهم على ما فى نفسه وسألهم أن يأتوه بسلسلة نسبه فأتاه أحدهم بشجرة كثيرة الفروع ينتهى أصلها إلى السلطان الملك الأشرف طومان باى وقيل إلى السلطان الملك قانصوه الغورى فاشتد عند ذلك ظهره وكبرت آماله. اهـ.

قلت: ومع بحثى عن حقيقة هذا الخبر كنت أرى الناس فيه فريقين فريق يؤيده بالأدلة القاطعة وفريق ينكره ويقول إنه فرية على البارودى لا أنزل الله بها من سلطان وعندى أن قول الفريق الثانى أقرب إلى الصدق وأبعد عن الشماتة والحط من مقام البارودى، قالوا وتجرد البارودى إلى العداوة فلم يطق الخديوى الصبرعلى ذلك وقد علم بما فى نفس البارودى فراسل السلطان فى أمره وأعلمه بخبره فورد إليه الجواب باستعمال الحزامة والتأنى والإتيان على سائر الأمور من أبوابها فاطمأن عند ذلك الخديوى ورسم إلى جماعة الشراكسة بالخروج إلى حيث شاءوا فخرجوا جميعاً إلى دار السلطنة ولم يتخلف منهم أحد.

وسير البارودى إلى نواب البلاد يستحثهم على الحضور إلى القاهرة فحضروا جميعاً وانعقد مجلسهم بغير إجازة من الخديوى كما هى العادة فقص عليهم البارودى ما وقع من الخديوى وبالغ فى الشكوى واستمسك عليه بأمور منها مؤامرة جماعة الشراكسة على قتل أحمد عرابى وتبعيد الحرمة عائشة المعروفة بالكودية والغلام الحبشى الذى سرق بعض الجواهر من سراى عابدين وقيام إبراهيم أغا التتنجى إلى الشام بمأمورية سرية وإرسال ثابت باشا إلى دار السلطنة بغير موجب ولا سبب ظاهر وسعى الخديوى خلف إذهاب حقوق البلاد وتقليل امتيازاتها الممنوحة لها بالفرامانات السلطانية وغير ذلك من التهم التى ما أنزل الله بها من سلطان فأطال النواب اجتماعهم وتناجوا فى الأمر وجعلوا يقومون ويقعدون والحال على ما هو عليه من الوحشة والنفور بين الفريقين وأصبحت حادثة الجراكسة شغل البارودى الشاغل له عن حوادث السودان وخروج المهدى واتساع كلمته بين قبائل تلك الأصقاع وعجز رؤوف باشا عامل السودان عن إيقاف تيار الفتنة مع طلبه المدد ونداثه المتواصل ولم تكن لتخفى يومئذ حقيقة الحال بتلك الديار عن الكثير من أهل القاهرة فقد وصل جماعة كثيرة من تجار السودان بعيالهم وأموالهم ومتاعهم وأخبروا بجميع

حوادث صاحب المهدوية وقصوا على الناس القصص والأنباء وحدّثوا عن عجز رؤوف باشا وأصحابه وقالوا: إن نار الفتنة لم تضطرم إلا بيد سلاطين بيك أحد مديرى ولايات الدارفور بما أعطاه إلى العربان من بنادق الحكومة وذخائر الحرب فكثر تحدث الناس فى ذلك وجعلوا يتبعون سير تلك الحوادث ويحسبون ما وراءها والله من وراء كل حساب، حدثنى صاحب لى قال: حدثنى من لا شك عندى فى صدق حديثه قال: ما تعاقد كبير السياسة الإنجليزية مع الخديوى إسماعيل عام ثلاث وتسعين ومائتين وألف هجرية على إبطال تجارة الرق من بلاد مصر والسودان حتى جعل يطالبه بالمطالب الطويلة ثم لم يلبث أن دس إليه الرقباء من قومه فساروا إلى أرض السودان وجعلوا يجوبون البلاد من أدناها إلى أقصاها ويبحثون فى عادات أهلها وطباعهم وأميالهم والاختلاف الواقع بين عادات بعض القبائل والأدواء الناجعة فى استمالة أعصى القبائل وأشدها بأسا ثم عمدوا إلى تخطيط الأراضى ومعرفة ما فيها من الدروب والمسالك والعقبات والمرابك ووقفوا على حقائق نباتها وأشجارها وتربة أرضها وأنواع حيواناتها وأحصوا قبائلها عددا ولم يتركوا شيئاً تدعو إليه الحاجة إلا وأحصوه وكان ممن سير به من الإنجليز كبير من مقدمى جندهم اسمه غوردون فقدم إلى القاهرة ولبث أياماً لم يفارق فيها باب الخديوى إسماعيل ثم رحل إلى السودان باسم مراقب منع الاتجار فى الرقيق فلم يلبث أن صار حاكم شرقى السودان وخط الاستواء ثم سواحل البحر الأحمر ثم حكمدار جميع أرض السودان وخط الاستواء وأطلق الخديوى له الكلمة وأعطاه رتبة الباشوية وأتحفه بنياشين الشرف فعظمت هيبته وعلت كلمته ونزع إلى قلب الكثير من عادات تلك البلاد وأبطل بعض المغارم والمكوس ورفع ما تأخر من الأموال الأميرية عن مشايخ القبائل ولبث فى خرطوم السودان يأمر وينهى ويعطى من يشاء ويحرم من يشاء بلا رادّ ولا ممانع فنزح فى أيامه إلى أرض السودان كثير من الأجانب وأهل التجارة فراجت تجارتها وكثرت ثروتها ودرت أرزاقها وكان ممن سارت به مطية الأمل إلى تلك الأصقاع أيضاً رجل اسمه سلاطين قيل: أنه نمساوى الجنس، وقيل: إيطالى، والأوّل أصح وقيل: أن الخديوى إسماعيل هو الذى سير به إلى السودان فى خدمة واليها إسماعيل أيوب باشا فلبث فيها يتقلب فى المناصب الديوانية ويترفع إلى درجات الحكام والمديرين حتى قبض الله له من ولاه ولاية صغيرة من أعمال الدارفور فنشط عند ذلك من عقال وهب من خمول وأخذت كلمته من هذا الحين فى الظهور فلما تولى السودان

غوردون الإنجليز تقرب سلاطين هذا منه وأخلص فى خدمته وأجهد النفس فى طاعته، قال: وخلع غوردون نفسه من ولاية أرض السودان بعد بضع سنين ورجع إلى بلاده وهم أعلم من وطىء هذه الأرض بعادات أهلها وطباعهم وأميالهم وعاداتهم من قبائل العربان وقد بدأت فى أيامه تدب روح الحرية فى صدور كبار أشد القبائل بأسا وأعظمهم شهرة ولم يمض بعد ذلك غير القليل حتى ظهر رجل من الأبيض الدارفور اسمه محمد أحمد فادعى المهدوية وتظاهر بمظاهر النساك وتزيا بزى الصالحين واتخذ له خلوة ورباطا وجمع إليه جماعة من أهل الجبال سماهم دراويش وأكثر هو وإياهم من مظاهر التقشف والتعبد والزهد والورع فشاع بين العربان خبره وظهر اسمه واشتهر ذكره ومال إليه كثير منهم فهادوه بالهدايا من الأدرة والدخن والبقر والضأن وتقربوا منه ولازم بعضهم رباطه فكان يقص عليهم قصص الأبرار ويحدثهم بأخبار الصالحين ويحذرهم من قرب الساعة ودنوا لأجل ويقول إذا عم دين الإسلام واتحدت كلمة المؤمنين على يديه قامت الساعة وانتصب الميزان وحكم الحاكم الديان وما زال على هذا الحال حتى عم خبره وبلغت الآفاق شهرته وتجاوزت بلاد الدارفور فبلغ عدد من لازم خدمته ولاذ إلى رباطه نيفا ومائتين وأربعين درويشا وبدت على عهد رؤوف باشا معظم الخروج وتحزب بعض قبائل العربان وكادت تشق عصا طاعة أصحاب الجباية وامتنعوا من دفع الخراج فرفع أصحاب الجباية الأمر إلى رؤوف باشا وأخبروه بخبر هؤلاء القوم فلم يلتفت إلى ذلك ولم يحفل به فتورّك من هذا الحين محمد أحمد فى تخت المهدوية آمنا مطمئنا وجعل يبعث الدعاة إلى بلاد الدارفور يدعون الخلق إلى طاعته ويستميلونهم إلى طريقته ويستنجدهم إلى نجدته واستخلاص البلاد من أيدى الكفرة المارقين فمال إليه ناس كثيرون جدًا من أهل تلك الأصقاع وتبعه آخرون ممن تبعوا غوردون الإنجليز من قبل وواصلوا رباطة بالهدايا والتحف وصاروا يجعون إليه فى أيام معلومة من كل شهر ووردت الأخبار بذلك إلى القاهرة فأوعز أصحاب الحل والعقد إلى رؤوف باشا بتدارك الخطب قبل استفحاله وأن سعين هيئة الحكومة بأصح الأخبار فأرسل رؤوف نفرا من الجند لا يبلغون المائتين وضابطين من صغار الضباط إلى مقر صاحب المهدوية ورسم لهم بقتاله وأن يأتوا به حيا صحيحا فلما كانوا على مقربة من رباطه انقض عليهم دراويشه فمزقوهم كل ممزق وسدوا عليهم المسالك وأبدوهم حتى لم يبق منهم سوى ضابط ورجلين قد ولوا الأدبار وركنوا إلى الفرار فاخبروا بما حل

بأصحابهم، قال المحدث، فلم يحرك هذا الحادث من قلب رؤوف ساكنا ولم يتبين له همة حيث جهز للقتال ثانية جماعة من الجند لا يزيدون عن الذين ماتوا وشدد عليهم فى الإتيان بمحمد أحمد حيا وكان المهدى بعد أن ظفر أصحابه بجند رؤوف وسلبوا ما كان من ذخيرة ومتاع قد ترفع بهم إلى الجبال وسير فى طلب النجدة من بعض القبائل فاجتمع لنجدته كثير من السود الأبطال وخرجوا للقاء أصحاب الوالى ودارت بين الفريقين رحى الحرب والقتال فظفرت لوم صاحب المهدوية وانتصرت على أصحاب الوالى نصرة مؤزرة وأبادوهم بحد السيف وشاع الخبر بين قبائل العربان القريبة من مقر المهدى فهابوه وخشوا بأسه وآمنوا بمهدويته وقاموا فى الحال لنصرته وتواردت على رباطه الهدايا وكثرت عنده المؤن فأحبه أصحابه وأخلصوا له الخدمة وبالغوا فى طاعته فوقع الوالى فى الخبال وبلبلة البلبال وكتب إلى حكام الدارفور يستفزهم إلى إيقاف تيار هاته الفتنة فكان أول من لب نداءه سلاطين بيك حيث جمع نفرا من العربان وقلدهم بنادق الحكومة وجهزهم بمعدات الحرب وسير بهم إلى القتال فكان كغراب نوح عليه السلام يوم استقر به الفلك وكانت هذه الضربة من أشد الضربات على هامة الحكومة حيث تقوّت بقوم سلاطين ومعدات حربهم عزيمة صاحب المهدوية وكبرت شهرته وكادت تعم دعوته سائر البلاد وهان لديه من هذا الحين كل رخيص وغال فنهى وأمر وجمع وادّخر وغلب وقهر وفاز وانتصر ورتب قومه على أحسن ترتيب وسمى منهم أمراء الجيوش وكبار المئات والأمناء على بيت مال المسلمين وبالغ فى التظاهر بمظاهر الأولياء والصالحين بل الأنبياء المقربين وسن لأصحابه سنة جديدة فكانوا كلهم على قلب رجل واحد يأتمرون بأمره ويقومون عند إشارته، قال محدثى: كل هذا ورؤوف باشا كان كمن ضرب على سمعه وبصره، ثم تنهد وأطرق لحظة ثم رفع رأسه وقال: ولسوف يأتى يوم ترى فيه النفوس تفتك بالنفوس والرؤس مختلطة بالرؤوس يوم تنطبق فيه السنابك على السنابك وتلتقى البنادق بالبنادق والألوف تفتك بالألوف والسيوف تخابط السيوف فالله الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، قلت وكأن رؤوف باشا خشى عاقبة إخفاء الحقائق فجاء منه الخبر إلى أولى الأمر مفصلا بما هنالك من اشتداد الفتنة وخروج الكثير من بلاد الدارفور عن الطاعة فسيروا إليه المدد من القاهرة من جند وكراع وكتبوا إليه يقبحون فعاله ويتوعدونه بالعقاب الشديد وجعلوا يواصلون إرسال المؤن والذخيرة ويراقبون سير الحوادث فلما رأوا أن لا قبل له على إطفاء نار

هذه الفتنة خلعوه من منصب الولاية وأقاموا مكانه عبد القادر باشا أحد كبار الجند على أيام الخديو إسماعيل فسار إلى الخرطوم فى نفر من الأتباع ففرح الناس بولايته واستبشروا.

وبينما الناس فى شاغل بسبب حوادث أرض السود واستفحال أمر الفتنة وما يفعليه أصحاب المهدى فى كل يوم من القتل والنهب وسبى النساء والأطفال رفع قونصلا الإنجليز والفرنسيس فى حادى عشر جمادى الآخرة إلى الخديوى لائحة تتضمن وجوب إيقاف زعماء العصابة ونواب البلاد عند حدّ عدم مس العهود الدولية المرتبطة بها الحكومة المصرية والإقلاع عن كل ما من شأنه إثارة الخواطر ووقوع القلاقل والاضطرابات وإلا وجب التداخل القوى وإيقاف كل عند حده فاستقدم الخديوى عند ذلك البارودى وأعطاه تلك اللائحة فكبر أمرها عليه وعلى سائر أصحابه واستعظموا ما فيها وعدوه عارا وشارا وجعلوا يولون الاجتماع بنواب البلاد حتى تقررت القاعدة بينهم على أن يرسلوا بصورة من تلك اللائحة إلى الباب العالى ويسألون سرعة التداخل فى الأمر ومنع تعدى الدولتين على حقوق البلاد واختاروا من بينهم من يذهب إلى الخديوى ويحذره من التكلم فى أمر تلك اللائحة مع القونصلين حتى يرد الإذن من أمير المؤمنين، واشتد من هذا الحين بغض أهل البلاد الأجانب على اختلافهم فتقدم قناصل الدول إلى البارودى وأحمد عرابى فى ذلك فهوّنا عليهم الأمر وتكفلا بالأمن وعدم تكدير صفو الراحة فلم يطمئن مع ذلك للأجانب قلب ولم يكن لهم جاش ونزح الكثير منهم إلى أوطانهم فرارا مما كانوا يتوقعون وكثر اللغط بقرب وصول مراكب حرب الدولتين إلى ثغر الإسكندرية تارة وبقيام مأمور من كبار رجال السلطنة العثمانية أخرى، وقد بلغت الوحشة بين الخديوى والبارودى حدها وتفاقم الشر بين الفريقين، فلما كان أحد الأيام أرسل الخديوى أحد رجال ديوانه إلى البارودى يقول له تخلى عن مسند الرياسة واعتزلها وإلا أنزلناك عنها قهرا وكذلك قال لبقية الوزراء فعند ذلك عقدوا مجلسهم فى بيت البارودى وتناجوا فيما بينهم ثم سيروا إليه يقولون إننا لا ننزل عن منصبنا ولو أكرهنا على ذلك وإننا نعتبر كل أمر يصدر فى هذا الصدد بمثابة تهديد للأمن العام وتكدير لكأس الراحة فإذا قامت الفتنة بين أهل البلاد ولحق الإيذاء بالأجانب الدين بيننا كان الخديوى مسئولاً عن جميع ما يحدث دون غيره قيل فكبر هذا الكلام على الخديوى حتى كاد يتميز غيظا فلما كان اليوم الثانى الذى هو خامس عشرى جمادى الآخرة انقطع البارودى وبقية النظار عن الذهاب إلى نظاراتهم واجتمع نواب البلاد فى بيت

مقدمهم محمد سلطان باشا ولبثوا ساعة يتحدثون فى أمر انقطاع النظار ثم انتقلوا إلى بيت البارودى ولبثوا فيه طويلا وجاءهم أيضاً بعض العلماء والمشايخ والوجهاء والأعيان وبعض قناصل الدول وتكلموا فى ذلك وأكثر قونصلا الإنجليز والفرنسيس الغدوّ والرواح بين مقر البارودى وسلطان باشا ثم جمع إليه البارودى سائر الوزراء ونواب البلاد وأصحاب الزعامة من ضباط الجند وأغلقوا عليهم الأبواب وأوقفوا الحجاب قال بعض المتقربين إليهم: وتكلموا فى خلع الخديوى وتزيله وفيمن تصح ولايته من بعده كأن أمره بيدهم أو روحه من عندهم وطال بينهم الجدال وكثر القيل والقال فكانوا إذا أتوا على أمر وهموا بتنفيذه قام من بينهم من يفتحه ويحذرهم عاقبته فيرجعون عنه إلى غيره وما زالوا حتى أعياهم الحال وقلت منهم الحيل فصمموا على اعتزال سائر الأشغال وترك الأمور وشأنها وإلقاء تبعة جميع ما يحدث من الخلل أو ما يقع من سفك الدماء والفتك بالأجانب والنزلاء فى قلب البلاد على شخص الخديوى وأرسل البارودى فى الحال فى طلب محمد سلطان باشا فحضر ومعه بعض النواب فأعلمه بما وقع الاتفاق عليه وسأله أن يذهب إلى مقر الخديوى ويعلمه بالخبر وكان ذلك فى نحو الساعة العاشرة نهاراً فراجعه محمد سلطان باشا وكذلك فعل نواب البلاد وطال بينهم الأخذ والرد إلى الساعة الرابعة عربى ليلاً فقام محمد سلطان باشا وسار إلى مقر الخديوى ولبث عنده إلى الساعة السادسة ثم عاد إلى بيت البارودى واختلى معه إلى نحو الساعة الثامنة فكان بينهما من الحديث ما لم تصل إلينا معرفته إلى هذا الحين ثم انصرفوا جميعاً وباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا وقد جمع البارودى سائر الوزراء وأصحاب الزعامة من ضباط الجند وبعض العلماء والمشايخ والأعيان والوجهاء وجعلوا يتكلمون فيما وقع عليه الاتفاق بالأمس فعلت أصواتهم وقامت بينهم الضوضاء وتفرقت كلمتهم فأرسل البارودى يطلب محمد سلطان باشا فحضر ومعه جماعة من نواب البلاد فلم يستقر بهم المقام حتى دخل قونصلا الإنجليز والفرنسيس وطلبا من البارودى وأحمد عرابى أن يعطيا لهما كفالة على عدم التعرض لرعايا دولتيهما بسوء والذب عن أرواحهم وأموالهم عند مسيس الحاجة فأجابهما إلى ذلك ثم طفق البارودى يقص على القونصلين ما فعله الخديوى مما يعكس مشروعات الأمّة ويصغر من قدر نواب البلاد وما وراء غايته من تعديل حكم المجلس العسكرى وتعضيده لجماعة الضباط الشراكسة وإرساله ثابت باشا إلى دار السلطنة لدس الدسائس وإذهاب امتيازات البلاد فتكلم القونصلان مع البارودى

وأحمد عرابى ومحمد سلطان باشا طويلاً وأخذا على عهدتهما إزالة ما فى الصدور وإذهاب ما علق فى الخواطر وإرجاع الحالة إلى ما كانت عليه من المودة والصفاء، وقاما من ساعتهما ودخلا على الخديو وكلماه، قيل: فشكى إليهما ما يلاقيه من البارودى وأصحابه فما زالا به حتى هونّا عليه وخففا عنه وزال بعض ما به من الغضب.

فلما كان يوم الاثنين سادس عشرى جمادى الآخرة اجتمع محمد سلطان باشا ولفيف النواب وبعض العلماء والمشايخ والوجهاء بالبارودى وأصحابه فى بيته الكائن بشارع عابدين وتكلموا فى أمر الصلح وفى رجوع البارودى إلى معاطاة أشغال منصبه رحمة بالناس ودفعا لشماتة الأعداء وظلوا على هذا الحال إلى أن صارت الساعة الثانية عربى ليلا فقام محمد سلطان باشا ومعه جماعة من نواب البلاد وتقدموا إلى الخديو فى طلب العفو وحسم أسباب الشقاق فلم يقبل، وقال: لابد من خلع البارودى من مسند الرياسة فخرج محمد سلطان باشا ومن معه من النواب وعادوا إلى بيت البارودى وأخبروا بما جرى، فقال البارودى: نتخلى كلنا عن مناصبنا ونلقى تبعة ما يحصل من الأخطار على عاتق الخديوى وطال بينهم الكلام ساعة ثم عاد النواب إلى مقر الخديوى وتقدموا إليه فى قبول تنزيل البارودى فقط بشرط أن يتولى الرياسة مصطفى باشا فهمى فأجابهم الخديوى إلى ذلك فساروا إلى مصطفى فهمى باشا وكلموه فى الأمر فامتنع وشدد فى الامتناع وقال لا أتولاها والحال على ما هو عليه من الشدة والخصام فعادت عند ذلك الأمور إلى ما كانت عليه بل زادت خبالا وإشكالا وتعطلت الأشغال ووقفت حركة المصالح واشتد الخوف بالناس وأخذتهم الطيرة وعجز محمد سلطان باشا أوكاد عن التوفيق بين مطالب الفريقين وكثر تطواف صغار الضباط فى الشوارع والحارات وانبث الجند فى أطراف القاهرة وأكثر صاحب شرطة المدينة من التطواف والمراقبة وبقى الحال هكذا إلى سابع عشرى جمادى الآخرة فجمع محمد سلطان باشا لفيف العلماء والوجهاء وجماعة من الكبراء والأعيان واشتوروا ثم سار نفر منهم إلى مقر الخديوى بسراى عابدين وجعلوا يستعطفونه ويستميلونه إلى العفو عما فات وهو لا يلتفت إلى قولهم وما زالوا به حتى هان عليه الخطب ونسى أو كاد ينسى ما فات وأجابهم إلى ما طلبوا وهم الكافلون فتكفلوا فرسم باستبقاء الوزراء فى مناصبهم فأصبحوا وقد جلسوا على كراسيهم يأمرون وينهون وطيروا الخبر إلى الآفاق بزوال الخلاف وعود الأمور

إلى سابق مجراها فسكنت الخواطر المضطربة واطمأنت القلوب الواجفة ولكن لم يمض على هذه الحال أيام حتى وفد على مدينة الإسكندرية مساء الجمعة غرة رجب الفرد مدرعة من مدرعات الحرب الإنجليزية ودخل كذلك فى صباح السبت ثانيه اثنتان إنجليزيتان وثلاث أفرنسيات فأطلقت المدافع سلاما للحصون فردت عليها الحصون السلام وجاء الخبر بذلك إلى القاهرة ثم بعد أيام وردت عدة سفن أخرى كبيرة فاشتد الخوف بالأجانب ونزح الكثير منهم من الإسكندرية وكثر تحدث الناس فى أمر حضور هذه السفن العظيمة وكادت تقف حركة الأشغال بالإسكندرية، فلما كان سابع رجب المذكور رفع القنصلان إلى مقام الخديوى بلاغا نهائيا من جانب دولتى الإنجليز والفرنسيس يطلبان فيه أوّلا تنزيل الوزراء من مناصبهم ثم خروج أحمد عرابى من ديار مصر إلى حيث يشاء من أرض الله الواسعة الفضاء مع بقاء رتبه ومرتباته وحفظهما عليه وتبعيد عبد العال مقدم الجند السودانى وعلى فهمى مقدم جند الحرس الخديوى إلى الأقاليم القبلية أو البحرية مع حفظ رتبهم وألقابهم على ما هى عليه فإن لم يتم ذلك بالتى هى وجب تنفيذه كرها فاستعظم البارودى ما فى هذا البلاغ واستكبره جدا فلم يجب عليه فسأله القونصلان، فقال: لا شأن للدول الأوروباوية معنا فى مثل هذه الأحوال وإنما نحن تابعون لسلطان فإذا شئنا فيلخابرن سلطاننا وما ذلك عليهن ببعيد وزعم البارودى وأصحابه بأن الصلح كان خدعة من الخديوى حتى تأتيه سفن حرب الدولتين فيفعل ما بدا له فكثر اجتماعهم تارة فى بيت البارودى وأخرى فى قشلاق الحرس الخديوى وكثر تطواف الجند فى الأزقة والحارات ليلا ونهارا وعاد محمد سلطان باشا إلى الوساطة بين الفريقين فلم يفلح ولم ينجح له عمل واشتدت الأزمة واستحكمت حلقاتها وتحذر كل فريق من الآخر ورأى البارودى أن فى خلعه لنفسه من منصب الرياسة غاية التبعة ونهاية المسئولية على الخديوى أمام الدول الأجنبية فخلع نفسه فى ثامن رجب وتبعه فى ذلك بقية الوزراء فهاج عند ذلك ضباط الجند وماجوا واحتج البارودى ورفاقه على بلاغ الدولتين واشتد الهياج والاضطراب فأرسل الخديوى إلى الوزير محمد شريف باشا ورسم إليه بتشكيل هيئة وزارة أخرى فامتنع فراجعه فأصر على الامتناع ولازم بيته فسار إليه قونصل الإنجليز وكلمه فى الأمر فلم يقبل فأراه خبرا واردا إليه من صاحب السياسة الإنجليزية وترجمته: بودّنا لو يقبل شريف باشا رياسة الوزراء فتؤكدوا له أننا نعضده ونؤيده جهد الاستطاعة فقال لا لكم ولا للكرامة والله ما

توليتها وهى على شفا جرف تتجاذبها الأهواء واشتد الخوف بالناس وسعى محمد سلطان باشا ونواب البلاد بين الفريقين فلم يفلحوا وذهب جماعة من ضباط الجند مع طلبة بيك عصمت إلى مقر الخديوى بسراى عابدين وكأنهم يريدون به السوء فرسم الخديوى بحضور الوزير محمد شريف باشا فحضر وانعقد مجلس حافل حضر فيه نواب البلاد والعلماء والأعيان والوجهاء فكلم الخديوى الوزير فى قبوله منصب الرئاسة وألح عليه فى ذلك وكذلك فعل النواب والعلماء والأعيان والوجهاء فقال أتولاها بشرط تنفيذ ما فى لائحة الدولتين وخروج أحمد عرابى من البلاد فعند ذلك قام طلبة عصمت وقال إنا فى طاعة أولى الأمر ولكننا لا نقبل ما فى تلك اللائحة ولاحق للدولتين فى طلب ذلك منا إذ هى أمور خاصة بالخليفة أمير المؤمنين ثم قام من فوره مغضبا فتبعه من كان معه من الضباط وانفض مجلسهم على غير طائل.

وظهرت بعد خروج طلبة من مجلس الخديوى حركة عظيمة بين الجند وسائر الضباط وورد الخبر من الإسكندرية بأن الجنود المرابطين فيها امتنعوا من قبولهم رئيسا على ديوانهم غير أحمد عرابى وأنه إن مضى اثنتا عشرة ساعة ولم يرجع إلى منصبه لا يكونون مسئولين عما يحصل بالإسكندرية فأزداد الحال إشكالا وخبالا وكبرت حجة الوزير محمد شريف باشا على عدم قبوله الرئاسة وكثر تطواف أحمد عرابى فى هذا اليوم أرسل إلى محمد سلطان باشا فى طلب سائر نواب البلاد فاجتمعوا فى بيت سلطان باشا وحضر أحمد عرابى فى نفر من الضباط والجند وأحاطوا بالبيت ومسكوا على من فيه المسالك ودخل أحمد عرابى فوقف فى وسطهم وعلى يساره محمد عبيد أحد ضباط جند الحرس الخديوى وخطب فيهم خطبة طويلة كلها حض على التعاضد والتعاون على خلع الخديوى ورفض سائر مقترحات الدولتين ثم طفق يقبح ما وقع من الخديوى ويعدد مساويه ومعايبه ومعايب أسلافه وما جلبوه على البلاد وأهلها من المظالم والمغارم وغير ذلك من أنواع البلايا والرزايا فما أتم خطابه حتى علت بينهم الضوضاء واشتد الهرج فصاح أحمد عرابى ما بالكم لا تسمعون وكأنكم خشب مسندة إن كنتم لا تنادون بخلعه فنحن قد خلعناه فصاح عند ذلك سائر العسكر الذين كانوا حول البيت قد خلعناه ثلاثا وكان ممن حضر فى مجلسهم تلك الليلة الشيخ البحراوى مفتى الحقانية فقام ورد على أحمد عرابى وكاد أن يوقفه فتقدم إليه محمد عبيد وصفعه وأمسك بفروجيته فمزقها فصاح الشيخ فى وجهه

وصاح جميع الحاضرين واستل محمد عبيد سيفه وأقسم أنه يقطع عنق سلطان باشا ومن لم يناد بخلع الخديوى من سائر الحاضرين الساعة فهرب أكثر النواب وألقى بعضهم نفسه من الشبابيك وعلا الصراخ فى بيت نساء سلطان باشا ظنا منهن بأنه مات ذبحا وترامح الأتباع ليروا ما حل بساداتهم والجند تدفعهم عن الأبواب وما زالوا على هذه الحال من الجلبة والصياح إلى نحو الساعة السادسة ليلا فخرج أحمد عرابى ومن معه وهم يرعدون ويزيدون كأن بهم مسا من الجن وعلم الخديوى بما جرى فى بيت محمد سلطان باشا فى تلك الليلة فأرسل إلى الباب العالى وديوان المابين الهمايونى يقول إن الجنود المصرية لم ترض عن تخلى الوزراء عن مناصبهم وأن مقدمى الجنود والوزراء أقاموا الحجة على لائحة الدولتين فأتى إليه الجواب بأن قد رسم جلالة الخليفة أمير المؤمنين بإرسال وفد ليرى فى الأمر وسيقدم عليكم بعد ثلاثة أيام فانتظروه وكان الخوف قد كبر بالناس فلم ير الخديوى بدا من استبقاء الوزراء فى مناصبهم فرسم بذلك حتى يأتى وفد السلطان فعاد أحمد عرابى إلى تعاطى الأشغال وكتب إلى سائر قناصل الدول يطمنهم ويضمن لهم تأييد الأمن وعدم مس أحد من أهالى البلاد والأجانب بسوء وقال لهم بعد كلام أيضاً ولم تطلب العصابة الوطنية ونواب البلاد إلا أمورا ثلاثة، الأول منها إعادة لائحة الدولتين كما وردت مع خروج مراكب الحرب لتطمئن القلوب، وثانيها وضع قانون أساسى تتبين فيه حدود كل العائلة الخديوية والوزراء، وثالثها قطع المخابرات والعلاقات مع دولتى الإنجليز والفرنسيس خصوصاً وسائر الدول عموما لا بواسطة دار السلطنة العثمانية، وبلغ هذا الكلام الدول فأكبرته وأعظمته جدا وكتبت دولة الإنجليز إلى قونصلها بمصر تقول إنها لا تألو جهد فى الذب عن مقام الخديوى والدفاع عن نفوذه ما استطاعت.

فلما كان عشرون من رجب دخل مينا الإسكندرية مركب سلطانية وفيها رجل من كبار الدولة اسمه المشير درويش باشا فنزل فى سراى رأس التين برهة لطيفة ثم ركب منها إلى محطة السكة الحديد وأمامه نفر من أصحاب الشرطة وضابط المدينة وسافر إلى القاهرة فكان فى انتظاره على محطتها فريق من الجند ونفر من أصحاب الشرطة وضابط المدينة وقد أعدوا لركوبه عربة من الأصطبل الخديوى فركبها وسارت الجنود أمامه وأصحاب الدولة خلفه فاجتمع عند ذلك الكثير من الحرافيش والسوقة وزعر باب الحديد البحر والأطراف وترامحوا أمام الجند وهم يضجون ويصيحون

ببذىء القول وفحش الكلام وأحاط جماعة منهم بعربة المشير وهم يصيحون بأصوات مزعجة نصر الله دين الإسلام ؟وهدم الله دين الكفار أتاكم الموت ياكفار أتاكم الموت بحرق النار وغير ذلك من عبارات السب واللعن وإشارات السخرية والأستهزاء، قيل فسأل درويش باشا عن سبب ذلك قال إن هذه عادة العامة إذا فرحوا بقدوم ضيف عزيز لديارهم فلم يستحسن منهم ذلك وأشار فلم يفعلوا وما زالوا على هذه الحال من الضجيج والصياح والنداء بعضهم على بعض إيذاء المارة من الأجانب وأهل البلاد حتى وصل المشير إلى المكان الذى أعدّ له فوقف أمام بابه ساعة وهم على ما هم عليه من الصياح والجلبة ثم انصرفوا وبات الناس ليلتهم تلك ذلك وهم فى شاغل مما عساه أن يحدث بسبب حضور درويش باشا ولقائه على هذه الصورة المنكرة وأصبح درويش باشا وقد بدأ فى المكالمة مع أحمد عرابى وكبار الدولة وأصحاب الوظائف العالية وعقد لذلك عدة مجالس فتكلموا فيها طويلاً وكانوا إذا أغلظوا فى القول مع أحمد عرابى وعابوا ما وقع من الوزراء ولا سيما منهم البارودى قال لاحق لكم ولا عتب ما دامت البلاد آمنة مطمئنة وها هى الفتنة قائمة على ساقها ومع ذلك لم يقع فى جوف البلاد ولله الحمد ما يكدر صفو الراحة وطال الكلام بينهم أياماً على غير جدوى.

وكان مذ قدمت سفن حرب الدولتين إلى مدينة الإسكندرية قد أخذ الأجانب يفدون عليها أفواجاً وهم فرحون بها مطمئنون كأنهم لا يخشون بجوارها جائرا فكبر ذلك على العامة والسوقة من أهل الإسكندرية وحسبوه إهانة لهم وإذلالا وظنوا أن الأجانب إنما يريدون بأهل البلاد الشر فأظهروا التغيظ وبدت منهم دلائل الشر وأغلظوا فى مخاطبة الأجانب فكان إذا كلم الواحد منهم أجنبياً هزله الرأس وأسبل الجفن توعدا وتهديدا فأحس الأجانب بما وراء ذلك وخافوا شر العاقبة فأخذوا فى التأهب والاستعداد وأكثروا من شراء البنادق والبارود واستخدم عظماؤهم بعض الأقوياء من أسافل اليونان وزعر الطليان، قيل: وشاوروا فى ذلك أميرى مراكب حرب الإنجليز والفرنسيس فوافقاهم عليه وأرسلوا رجلا منهم إلى القناصل بالقاهرة ليسألهم فى ذلك أيضاً فلم يوافقوا عليه واشتد تحذر الفريقين وظهرت علامات الوحشة فقل تطواف الأجانب فى الليل وامتنع جلوسهم فى محلات اللهو وأغلق أصحاب الحوانيت منهم حوانيتهم فكانت وحشة عظيمة للغاية، فلما كان يوم الأحد سادس عشرى رجب من السنة أى سنة تسع وتسعين هجرية وحادى عشر جونيو سنة

إحدى وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية بينما كان الأجانب خارجين عن بيوتهم قامت الغوغاء من أهل الإسكندرية وتجمعت زمرا وسارت أولا من الشارع المعروف بشارع إبراهيم وبأيديهم العصىّ والهراوى والمساوق وحطب الوقود وهم فى ضجة وجلبة عظيمتين ثم أتى جماعة منهم من شارع الضبطية وأخرى من سوق الطباخين وكأنهم كانوا على عهد واتفاق وأوقعوا بالأجانب ضربا وقتلا فترامح الناس إلى الحوانيت والبيوت وتسابق الأجانب يريدون الخلاص وأطلقت البنادق من منافذ البيوت على الغوغاء فكانوا إذا رأوا أجنبياً ترامحوا خلفه ونزلوا بالعصى والهراوى على أم رأسه حتى يسقط ميتاً فيأخذون ما معه ويتركونه ويلحقون بغيره وقد أفحشوا فى القتل والسلب وتخريب الحوانيت ونهب ما فيها فكثر الصياح من أقصى المدينة إلى أقصاها واشتد البكاء والعويل وضاقت الأرض فى وجه الأجانب ولجأ بعضهم إلى بيت أصحاب الشرطة فرارا من الموت فلاقاهم أصحاب الشرطة الذين هم جند المستحفظة بسنابك البنادق فقتلوهم عن آخرهم فكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار وطافت الغوغاء جميع حارات الأجانب فكان إذا رأى الأجنبى نفرا من هؤلاء الأخلاط مقبلين نحوه امتقع لونه فى الحال وتخلخلت قدماه فإذا هم بالفرار فلا تطاوعه قدماه فيعدو عدو الغراب خطوات ثم ينكب على وجهه فيلحقونه بضرب العصىّ والنبابيت وربما وجدوه ميتا من شدة الخوف فكان ذلك من غرائب الطبيعة وقد جرح ومات فى ذلك اليوم خلق كثير وبينهم جماعة من كبار الأجانب ووجهائهم، وكان مقدم جند الإسكندرية يومئذ سليمان بيك داود فأرسل إليه عمر باشا لطفى محافظ المدينة فى طلب المدد من الجند ليستعين بهم على إيقاف تيار الفتنة وحقن الدماء وكان ضابط المدينة قد تمارض فى ذلك اليوم ولم يخرج من بيته فأرسل سليمان بيك يقول لا دخل لى فى شيء من ذلك حتى يأذن لى أحمد عرابى فطير عمر لطفى باشا الأخبار إلى القاهرة بما وقع فورد الأمر من أحمد عرابى بقيام الجند ومنع تلك الفظائع فتفرقت العساكر فى الشوارع وأخذوا فى التطواف فى نحو الساعة الحادية عشرة العربية نهارا وكانت إلى هذه الساعة قد تفرقت الغوغاء وتمزقت اللموم وطاف محافظ المدينة فى نفر من أصحاب الشرطة ومعاونى الضابطة وأمر فجمعوا ما بقى من جثث القتلى بالشوارع والطرقات وجوار حمام الضابطة فكانوا نيفا وثلثمائة قتيل، وقيل: غير ذلك ونادوا بالأمان وعود الناس إلى تعاطى أشغالهم وما زال الجند يطوفون الليل كله وبكاء النساء وصياح الأبناء على آبائهم متتابع، فكانت

حادثة يالهـا من حادثة لم يسبق لها مـثيل إلا فى دولة المماليك الثـانية وقيام العـامّة على نابليون بالقاهرة، ولما علم من بمصـر والقاهرة بما وقع بالإسكندرية قامت بينهم ضجة عظيمة وتسابـق كل من له أهل أو ولد بالإسكندرية إلى موارد الأخبار يسألون وعم الخوف والإضـراب وباتوا وهم فى كمـد ملازم وأصـبحوا وقـد اجتـمع سائر قناصل الدول ودخلـوا على المشـيـر درويش باشـا وكلمـوه فى الأمـر وأغلظوا فى مخاطبته واتهموه بإضرام نار هذه الفتنة وعنفوه وقالوا أنت وحدك المسئول عن كل ما جرى إذ لولا حـضورك فى هذه الظروف ما أريقـت هذه الدماء الزكيـة ونحن اليوم نطلب منك أن تكفل صـيانة أرواح جمـيع الأجانب الذين فى داخل البـلاد، قيل: فاضطراب المشير وأشـار بعقد مجلس فى سراى عابدين للمداولة فى الأمـر فعقدوه وحضر فيه الخديوى ودرويش باشا ومن معه من رجال الوفد العثمانى والوزير محمد شريف باشا وكـبار رجال الحكومة وسـائر قناصل الدول فتقررت القاعـدة بينهم بعد أخـذ وردّ على التكفل لقناصل الدول بحـفظ أرواح وأمـوال سائر الأجـانب ونزلاء البلاد منهم بشرط امتثال أحمد عرابى وطاعته وقـيامه بتنفيذ كل ما يصدر إليه متعلقا بالأمن فأجـابهم أحمد عرابى إلى ذلك وتكفـل لهم درويش باشا بجميع مـا طلبوه وبملاحظة طاعة الخـديوى والقيام بجميع أوامـره فانفض مجلسهم يومـئذ على ذلك وقام أحمـد عرابى من فوره وأرسل إلى سـائر المديرين والمحافظين بمنع اجتـماعات الجند أينما كـانوا وكتب إلى سليمان بيك داود مـقدم جند الإسكندرية يستـحثه إلى الالتـفات ومنع وقـوع شىء من الحـوادث والقلاقل وبذل العـناية فى ملازمـة جند الإسكندرية لحدود الطاعة والامتثال.

ورسم الخديوى بتحـقيق أسباب هذه المذبحة ومـحاكمة كل من كان له يد فـيها وشكل لذلك مجلس مخصوص يرأسه عمـر لطفى باشا محافظ الإسكندرية فاجتمع المجلس فى دار المحافظة وبينهم مندوبو قناصل الدول وقد كـثر فى هذا الحين رحيل الأجانب عن الإسكندرية وحضورهم من داخل البلاد عـشرات ومئات إلى السواحل طلبا للفـرار والنجاة وكثـر تواردهم حتى لم يبق منهم أحـد فى المدن والقرى ونزح أيضاً العدد العديد ممن كان منهم بالـقاهرة وقام الخديوى إلى الإسكندرية فى سادس عشـرى رجب ومعه درويش باشا ورجـال ديوانه الخاص فلما نزل بمقـره برأس التين استدعى إليـه قناصل الدول وحادثهم فى أمر الفتنة وطيب نفوسـهم وكلمهم كذلك درويش باشا وهوّن عليهم وبقى قـونصلا الإنجليز والفرنسيس بالقـاهرة ولم يحضرا

مع الخديوى إلى الإسكندرية إلا بإجازة من حكومتيهما بعد أيام فلما قدما إلى الإسكندرية أوعزا إلى سائر قناصل الدول بالتشديد عن رعاياهم بالجلاء عن البلاد ففعلوا فاشتد الخوف بالناس ونزل من بقى من الأجانب إلى السفن الراسية أمام الإسكندرية وطلب قناصل الدول من دولهم سفنا لنقل رعاياها فجاءتهم فسكنها الناس بدل البيوت فرارا مما عساه أن يقع.

حدثنى صاحب لى كان لا يفارق باب الخديوى فى هذه الأيام قال: دخل المراقب الإنجليزى يوما على الخديوى وقال له: هل يمكن الاعتماد على ما يقوله المشير درويش باشا من طاعة الضباط وأمانة العسكر المصرى فى الخدمة عند مسيس الحاجة، قال فتأفف الخديوى وقال: أنى يكون لنا ذلك ولم نر منهم إلى الآن إلا العسف على أنى أخشى العاقبة ولا أرى سبيلا لتوطيد الأمن فى هذه الظروف إلا باستنجاد أمير المؤمنين فيرسل إلينا فريقا من عسكره المنصور يذب عن البلاد ومن فيها عند مسيس الحاجة ولم أر فى سفارة المشير درويش باشا ما كنت أتمناه من الفلاح فقد خابت سعيا وباتت وأصبحت وكأنها لم تكن شيئاً مذكورا، وشاعت هذه الأقوال بين الناس وعلم بها قناصل الدول فتقدموا إلى الخديوى فى خلع الوزراء وتشكيل وزارة أخرى عسى أن تفلح فى تدارك الخطر قبل استفحاله فأجابهم إلى ذلك وقد كانت حاجة فى نفسه، ورسم بتشكيل وزارة جديدة برئاسة إسماعيل راغب باشا وهو من كبار رجال الحكومة القدماء وأنزل أحمد عرابى باشا نفسه من منصبه وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق فاستغرب الناس هذا الأمر وكثر تحدثهم به فلما استقرت براغب باشا الرئاسة تقدم إلى الخديوى فى طلب العفو عن جميع من اشتركوا فى الحوادث الأخيرة إلا من كان لهم يد فى مذبحة الإسكندرية وقال للخديوى: إنما نريد بذلك تطييب القلوب المتنافرة فيعود الأمن وتزول المخاوف وترجع الأحوال إلى سابق مجراها فأجابه الخديوى إلى ذلك ثم جعل راغب باشا يشدّد فى تحقيق حادثة الإسكندرية ويقبض على كل من كان له يد فيها وبث العيون والجواسيس وأصحاب الشرطة فى أنحاء البلاد فجاءوا بالكثير من السوقة والغوغاء والحمارين والشيالين وأهل البطالة والكسل وبعض مشايخ الحارات ومشايخ الطرق وجماعة من أصحاب الشرطة فأمر بهم فألقوهم فى حبوس الإسكندرية حتى غصت بهم وضاقت وجعل الخديوى يطوف فى نفر من الحراس فى شوارع المدينة وأرجائها

تطمينا للقلوب وتسكينا للخواطر المضطربة وكذلك كان يفعل درويش باشا ومن معه من رجال الوفد ومع ذلك فقد كان جلاء الأجانب عن البلاد متتابعا.

وتقدمت الدول الأوروباوية على يد سفرائها إلى الباب العالى فى عقد مؤتمر دولى بدار السلطنة للبحث فى أنجع الأدواء الحاسمة لأسباب الفتنة بديار مصر وإيقاف أهلها عند حدهم وشددوا على الباب العالى فى طلب ذلك فامتنع وقال ليس فى الأمر والأنباء متواصلة من درويش باشا باستتباب الأمن ورجوع سائر الأمور إلى مقدر ما كانت عليه فأبى كبار سياسة الإنجليز إلا عقد ذلك المؤتمر والباب العالى يطاول ويحاول ثم استعان بدول روسيا وألمانيا وإيطاليا فأعانوه وقاموا لنصرته خوفا من مطامع الإنجليز فى مصر دولة الإنجليز منهم ذلك وكتبت تقول أنها تتعهد متى تم عقد ذلك المؤتمر لا تعمل قط على فصم عرى الصداقة التى بينها وبين الباب العالى ولا تعمل على أراضيه إلى جانب أملاكها ولا أن تستولى على مصر ولا على قسم منها ولا أن تسعى قط فى الحصول على شىء من الامتيازات السياسية أو التجارية ما لم يشاركها فى ذلك بقية الدول فانحازت لرأيها عند ذلك سائر الدول وانفرد الباب العالى فأصر على الامتناع فتشذذت الدول وعقدت المؤتمر فى قسطنطينية فى سابع شعبان من السنة أى سنة تسع وتسعين ولم يحضره أحد من جانب الباب العالى فتقررت القاعدة بينهم على أن الحكومة وكلاؤها بالنيابة عنها على هذا البروتوكول (يعنى المحضر السياسى) تتعهد قط اغتنام أرض مّا ولا الحصول على امتيازات مّا ولا أن يكون لرعاياها من يكون لغيرها من رعايا الدول الأخرى فى مصر وذلك فى جميع المسائل التى عليها بسعيها واشتراكها فى المخابرات لترتيب وضبط أمور البلاد المذكورة الإنجليز من هذا اليوم يعدّون المعدّات ويجهزون الجنود ويجعلون سفن حربهم قدم الاستعداد ثم دعوا بقية الدول إلى الأشتراك معهم فى عمل يكون من ورائه الفتنة ووقوفهم عند حد الطاعة أو أنهم يسيرون معا إلى الإسكندرية والعساكر لإرجاع الأمن والراحة إلى تلك البلاد فأحست الدول بما وراء ذلك لأسباب لم تصل إليها معرفتنا لغاية الآن، فلما رأت منهن هذا الإحجام قونصلها بمصر وهو المستر مالت فتمارض ونزل إلى إحدى سفن الحرب الإنجليزية أمام الإسكندرية ولبث بها أياما والناس يتساءلون عن سبب ذلك ثم شاع الخبر إلى برندزى إحدى موانى البحر الأبيض فتحدث الناس به كثيرا وأخذتهم الطيرة فى هذا الحين على هذه الصورة هو بمثابة إشهار الحرب على البلاد وإطلاق النار على حصون

الإسكندرية، وبينما كان مالت قونصل جنرال الإنجليز بعيدا عن منزويا فى برندزى كأن لم يبق بين دولته وديار مصر علاقة كان دوفرين سفير السلطنة يغرر بالباب العالى ويزين لرجال المابين استرضاء أحمد عرابى نياشين الاعتبار وما زال بهم حتى أفلح سعيه فأحسن السلطان على أحمد عرابى المجيدى الثانى وسير الخبر بذلك إلى القاهرة ففرح أحمد عرابى وأصحابه وظنوا أن رضاء السلطان وارتياحه إلى ما هم عليه من مخالفة الخديوى والدولتين ولم يعلموا الخطر القريب وتناقل أصحاب الصحف المحلية خبر هذا الإنعام وفصلوا فيه وقاسوا وخاطوا فنقله أصحاب الصحف الإنجليزية ونادوا بالويل والثبور وقالوا أنه لبرهان جديد على عداء السلطان لسيدة البحار ودولة العظمة والفخار وعمر كبار سياستهم على إحباط أعمال المؤتمر الدولى وتقدموا إلى بقية الدول فى رفع لائحة إلى الباب العالى يطلبون فيها إما أن يسير جنوده إلى مصر لإخماد نار الفتنة وإرجاع الأمور إلى سابق مجراها وإما أن يترك الدول ترى رأيها فى ذلك فامتنع الباب العالى وقال لا داعى لإرسال الجنود والبلاد آمنة مطمئنة فأعجب الإنجليز امتناعه ووافق ما فى نفوسهم وقد كانوا يخشون من ذهاب عسكر السلطان إلى مصر ويحسبون لذلك ألف حساب وأوعزوا فى الحال إلى أمير سفن حربهم الراسية أمام الإسكندرية أن ينتحل أقل العلل والأسباب العدائية ويطلق على الفور مدافعه على حصون الإسكندرية حتى يدكها دكا وكان أحمد عرابى قد قدم من القاهرة إلى الإسكندرية فى حاشيته وبعض الخدم ومعه بعض كبار الجند المقرّبين إليه فاستقرّوا بالترسخانة وكان فى حصون الإسكندرية تسعة آلاف مقاتل فكتب سيمور أمير تلك السفن إلى أحمد عرابى يقول أن الجنود المصرية آخذة فى تحصين سائر القلاع وإلقاء الأحجار الكبيرة فى مدخل المينا ليسدوه ويمنعوا المدد فينحصر الأسطول وأن فى تحصين الحصون وتقوية الاستحكامات مع وقوف سفن دولة الإنجليز أمامها عارا وتحقيرا فإن لم تنكف الجنود عن ذلك أطلقت عليها مدافعى وأصليها نارا حامية، وكان طلبة عصمت أحد أصحاب الزعامة هو المتولى أمر ذلك فكتب إلى أمير السفن يقول ليس فى الأمر شيء مما تقول وأن حصوننا وقلاعنا هى فى حالة لا تستدعى عملا مّا فعاود سيمور الكلام وأغلظ فى القول وقال: لابد من جلاء العساكر المصرية عن طابيتى الأنفوشى والبرج واحتلال الجنود الإنجليزية لهما فلم يجبه طلبة إلى ذلك أيضاً فجعل سيمور يهدد عساكر الحصون ليلا بأنوار الكهرباء التى كانت تنبعث من مراكب الحرب على الحصون فتخطف

الأبصار وتهتز لها القلوب وشاع خبر ذلك بين الناس فاشتد بهم الخوف وكثر جلاؤهم عن الإسكندرية إلى القرى والأرياف البعيدة وكثر تطواف أحمد عرابى فى الشوارع والطرقات وخلفه جماعة من الجند يحملون البنادق وأرسل سيمور إلى الخديوى على يدى كولفن مراقب الإنجليز يقول له: أترك المدينة وأنزل إلى إحدى السفن كى لا يصيبك شىء مما عسى أن يحصل بأسباب ضرب القلاع والحصون فلم يقبل، وقال: عار علىّ أن أترك المدينة وفيها العدد العديد من رعاياى المخلصين فألح عليه كولفن فامتنع وقال: لا يحل لى أن أتركهم فى وقت الشدة ولا يجمل أن أترك بلادى فى ساعة الضيق، وتداخل قناصل الدول فى الأمر وسعوا فى الصلح بين سيمور البحر وعرابى البر فلم يفلحوا وكان سيمور يأتيهم فى كل يوم بطلب جديد فإذا امتنع عرابى من تنفيذه جاءه بأشد منه فكتب أحمد عرابى محضرا بجميع ما يطلبه سيمور ووسمه بالعداء والفجور وقال عن سيمور: أنه مثال الظلم والعداء للبلاد وأهلها وأنه أهان المصريين واحتقرهم ولم يراع للهيئة الحاكمة حرمة ولا اعتبار ولذلك وجبت مقاومته جهد الاستطاعة وأنه قد فوض أمر الدفاع عن البلاد إلى أحمد عرابى ومن معه من كبار الجند المصرى ثم أخذ ورقة هذا المحضر جماعة من أصحاب الزعامة وطافوا بها على بيوت الوزراء فوضعوا عليها أسماءهم قيل ودخلوا بها على الخديوى أيضاً فلم ير بدا من التوقيع عليها ثم أرسلوا هذه الورقة إلى سيمور البحر وسير فى الحال أحمد عرابى إلى سائر المديرين والمحافظين يعلمهم بأن يكونوا من الآن على قدم الاستعداد لإرسال المدد من المال والرجال عند الطلب وأكثر من تطوافه على القلاع والحصون وترتيب الذخرة ومعدّات الحرب فلما كان يوم الأحد ثانى عشرى شعبان جاء رسول من قبل سيمور ودخل على الخديوى بمقره برأس التين، وقال: إن الأمير على عزم إطلاق المدافع على الحصون فى صبح الثلاثاء رابع عشرى الشهر وقد جئت أسألكم أن تنتقلوا من سراى رأس التين إلى سراى الرمل تحرزا مما عساه أن يحصل من رمى القنابل ثم تركه ودخل على المشير درويش باشا وناوله خطابا يقول فيه: إنك أنت المطالب بحياة الخديوى وعليك تبعة جميع ما يحصل لشخصه فأحذر العاقبة والسلام، وفى صبح الثالث والعشرين من شعبان أرسل إلى راغب باشا رئيس الوزراء ودرويش باشا مندوب الباب مكاتبة يقول فيها: حيث قد انسحب قونصلنا من الديار المصرية ولم يبق بها أحد الآن من وكلاء دولتنا فقد انقطعت بذلك العلائق التى كانت بين حكومة جلالة ملكة الإنجليز

والخديوية المصرية ولم يبق بينهما من الوداد ما كان، فلما شاع هذا الكلام بين الناس خافوا خوفا عظيما وازداد جلاؤهم عن المدينة وشدد قناصل الدول على من تخلف من رعاياهم بسرعة الأرتحال أو النزول بالسفن الراسية أمام الإسكندرية واشتد الهرج والمرج فى الشوارع والطرقات وأغلق فى ذلك اليوم ما بقى من حوانيت الأجانب وغيرها من حوانيت أهل البلد وهرع العامة إلى بابى رشيد وسدره فارّين إلى الريف وخرجت مراكب حرب الفرنسيس فى مساء ذلك اليوم راجعة فلم يبق منها سوى مركبين تحت طلب قونصل جنرال الفرنسيس فكان لخروجها دهشة عظيمة وكثر تساءل الناس عن سبب ذلك فاختلفت الأقوال فمن قائل: إن خروجها كان لخلاف وقع بين أميرى الأسطولين، ومن قائل: بل بين الدولتين، ومن قائل: لكره الفرنسيس لقتال المصريين وغير ذلك من الحدس والتخمين وقد عاب عقلاء الناس على الفرنسيس هذا الأمر وعدّوه فلتة من فلتات سياستهم المحفوفة بالطيش والخفة وقالوا: سوف يندم أصحاب سياسة الفرنسيس على ما فرط منهم فلا ينفعهم الندم واشتد قلق الناس وتحذرهم وامتناعهم من الخروج من دورهم فى الليل فكانت وحشة عظيمة للغاية.

ولما كانت الساعة الأولى من يوم الثلاثاء رابع عشرى شعبان سنة تسع وتسعين ومائتين وألف هجرية أى صباح الحادى عشر من يوليو سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية صوب سيمور أفواه مدافع سفنه نحو الحصون والقلاع وأطلق عليها القنابل إطلاقا متتابعا فاطلقت الحصون كذلك مدافعها وتتابع الرمى من الفريقين ووصلت قنابل السفن إلى القلاع والحصون والبيوت وضواحى المدينة فكانت أشكالا مختلفة بعضها عن بعض ففتكت بجند الحصون فتكا ذريعا ودكت بعض القلاع دكا فلما اشتد الرمى وكادت تتعطل مدافع الحصون خرجت الغوغاء من الحارات وانتشرت فى الأطراف واختلطت بالجنود وهم فى جلبة وصياح وتزاحموا على القلاع والحصون يريدون معاونة الجند فكان إذا هم الجند بتصويب مدفعه نحو سفن الإنجليز هللوا وصاحوا ونادوا ياأهل بيت رسول الله، ياشيخنا ياأباصيرى، ياسيدى ياقوت يا عرشى، وغير ذلك من أنواع النداء والصياح والجلبة وسار جماعة منهم وأمامهم أرباب الأشاير بالبيارق والطبول والكاسات حتى وقفوا على شاطىء البحر ناحية السيالة وصاروا يصيحون بأعلى أصواتهم بيالطيف الله أكبر الله أكبر وهم يطوحون البيارق ويضربون الطبول والكاسات فرمت عليهم إحدى تلك السفن شيئاً

من القنابل الصغيرة تباعا فمزقتهم وأهلكتهم عن آخرهم إلا من كان بعيدا واشتد الرمى من السفن وترلسل فاتصلت نيران إحدى القنابل بمخازن البارود الكائنة بقلعة آطة فالتهب البارود وانفجر انفجارا هائلا ودمر القلعة ودكها دكا وأهلك جميع من بها من الجند والعامة والضباط والتصقت لحومهم وما بقى من مشاشهم بجدران القلعة فكان لها منظر تنفطر من رؤيته القلوب وتتفتت من هوله الأكباد وما زال الرمى متراسلا من السفن والحصون وأحمد عرابى لا يخرج من قلعة القضا ولا يعلم بشىء مما هو جار فى غيرها من بقية القلاع، قيل: وكان لا هم له فى ذلك الحين سوى تحريك شفتيه بتلاوة بعض الأوراد وتحريك أصبعيه على مسبحة كانت بيده، وكان راغب باشا رئيس مجلس الوزراء وبعض الوزراء عند باب رشيد فخرج الناس من المدينة هائمين على وجوههم من شدة رمى القنابل وفعلها بالقلاع والدور والوكائل ومروا من باب رشيد زمرا كالإبل الآبقة، فلما كان وقت الظهيرة بطلت مدافع الحصون وسكنت أصواتها وظهر على ما بقى من القلاع رايات بيضاء إشارة إلى الكف وطلب الأمان فانكفت السفن عن الرمى وخرج حينئذ أحمد عرابى من مخبئه وسار إلى مقر الخديوى بسراى الرمل فسأله الخديوى عما جرى بالقلاع وما حل بالعسكر فقال: الخيبة والفشل والخطر الشديد ولا حول ولا قوّة إلا بالله فلم يبق فى قدرتنا أن نقاوم فأما أحسن التدبير فالتسليم بسائر مطالب أمير السفن، فلما سمع الخديوى هذا الكلام كبر عليه الأمر واستعظمه وكان معه بالسراى يومئذ عثمان باشا وإسماعيل باشا كامل والزبير باشا والجنرال استون باشا رئيس أركان حرب الجيش على عهد إسماعيل باشا وفريديكو بيك وتيكران بيك وآخرون غيرهم فجمعهم إليه وعقد فى الحال مجلسا منهم وكلمهم فى الأمر كثيرا فاتفقوا على أن يسيروا طلبة بيك عصمت أحد أصحاب الزعامة رسولا إلى سيمور أمير السفن ليخابره فى الصلح فسار طلبه وغاب ساعة ثم عاد وأخبر الخديوى بأن سيمور يطلب أن تحتل عساكره ثلاث قلاع من أكبر قلاع المدينة وإلا فانه يعاود الرمى بالقنابل بعد الظهر، قال: فسألته مهلة حتى تحصل المداولة فلم يقبل فأمر الخديوية عند ذلك بالمجلس فانتظم وتكلموا ثانية فتقرر أنه لا يصح قط للخديوى المصرية الترخيص فى نزول جنود أجنبية فى قلاعها ولا حصونها بغير إذن من الباب العالى وكتبوا بذلك محضرا ولكنهم لم يبلغوه إلى سيمور السفن.

وأخذ من بقى من جند القلاع والحصون فى الخروج منها قبيل الغروب وقد تركوا ما فيها من جثث الأموات والذخيرة والمهمات وساروا نحو باب رشيد والباب الجديد وخرجت كذلك بقية العساكر من معاقل رأس التين وباب رشيد والباب الجديد إلى ناحية الملاحة وحجر النواتية وتتابعوا فى الخروج الليل بطوله فلما لاح الفجر ظهر سليمان بيك داود مقدم جند الإسكندرية ورسم إلى بعض الفرسان بالنداء فى الناس بالخروج من المدينة عاجلا ومن تخلف حل به ما يكره فكثر النداء فى الحارات والشوارع وهب الناس من نومهم وكأن على رئوسهم الطير وخرجوا هائمين وهم حفاة حاسرو الرءوس، فكانت الأطفال تبكى وتصيح والأمهات يولولن والرجال تتسابق وتترامح وهم فى دهشة وذهول وتتابع خروج النساء من ذوى البيوتات لا يحملن من متاعهن سوى المآزر وما عليهن من خفيف الثياب والعسكر يستحثوهنّ إلى الخروج من الباب الجديد وينادون عليهن بأصوات التهديد فلم تشرق الشمس إلا وقد غصت رحبات الباب الجديد بالخلق الكثير من الرجال والنساء والأطفال وهم فى أسوأ حال وكثر الزحام واختلط الناس بعضهم ببعض وارتفعت الشمس فاشتد بهم الظمأ فطلبوا الماء فلم يصلوا إليه وانتشر العربان حول تلك الأطراف فعاثوا وأفسدوا وسلبوا كل ما وصلت إليه أيديهم فعلا عند ذلك الصياح وارتفعت أصوات النساء بالبكاء والنحيب وهم بعضهن بالرجوع إلى المدينة على ما فيها من المخاوف والأخطار فلم يتمكنّ إذ بانت طلائع زمر الأخلاط والحرافيش يحملون المنهوبات من الحوانيت بالمنشية وشارع شريف باشا والميدان والسكة الجديدة من أصناف الحرير والديباج والمقصبات وأفخر الملبوسات وأثمن المجوهرات والمصوغات وأنواع التحف وأصناف الزينة والمشروب والمأكول وأصناف العطريات وأثاث البيوت من الصينى والبلور وغير ذلك مما يجل عن الحصر وهم فى ضجة وجلبة عظيمتين وأكثرهم ملطخ بالدم، وكان لما أخذ الناس فى الخروج من المدينة وقد تركوا بيوتهم بما فيها من متاع وفرش ومأكول ومشروب تطاولت أيدى العامة إلى سرقة بعض الشىء من ذلك ولم تكد تصل إليه أيدى البعض الآخر حتى برز سليمان بيك داود فى ميدان محمد على، قيل: ونادى فى الجند والعامة بكسر حوانيت التجار ونهب ما فيها وإضرام النار فى المدينة حتى تصير رمادا وأكثر من النداء بذلك فقامت العامة قومة واحدة وكسروا أبواب الحوانيت بالفؤوس والبلط ونهبوا جميع ما فيها من الحرائر والمقصبات وأصناف الأقمشة الغالية والمجوهرات

والمصوغات وكل ما وصلت إليه أيديهم وكان الرجل منهم إذا حمل شيئاً من ذلك وهم بالخروج لحقه من هو أقوى منه فيضربه أو يقتله ويأخذ ما معه وربما اقتتل الاثنان أو الثلاثة منهم على شيء لا يستحق بعض قروش وأنحدر العربان من السيوف والرمل والمندرة وباب العرب ومريوط وغيرها وانبثوا فى المدينة انبثاث الجراد فقتلوا ونهبوا وفسقوا بالأبكار والأمهات قسرا وعاثوا فيمن خرج من الناس إلى الباب الجديد وخطفوا ما وجدوه من حلى وملبوس وقتلوا بعض النساء بإطلاق البنادق والرجال بطعن الرماح وفعل كذلك الجنود فنهبوا وخطفوا وأطلقوا بنادقهم على من كان يقاومهم وكان المشهد مريعا جدا والخطب شديدا للغاية، فلما كان بعد الظهر بساعة أضرموا النار فى الكثير من بيوت المنشية وشارع المسلة وشارع الضبطية والميدان وفى تلك الوكائل العظيمة والمبانى الشهيرة فاندلع لهيب النار وتطاير الشرر إلى عنان السماء وأظلم الجوّ وامتلأ بالدخان واسودّ وجه الأرض من الرماد المتساقط والجند يطوفون ويزيدون النار إضراما بإراقة زيت البترول على ما لم يشتد منها لهيبه والعامة يسيرون بين النار وهم يحملون المنهوبات والناس فى بكاء ونحيب والأطفال والنساء يلتهبون عطشا ويصيحون الماء الماء، ودخل الليل فكان المنظر أشد هولا وإزعاجا فقد كانت المدينة كلها كشعلة واحدة وبقى الجند والنهابة على ما هم عليه من القتل والنهب والعبث بالأبكار والنساء كرها إلى صباح اليوم الثانى فأخذوا فى الجلاء عن المدينة وخرج معهم من لم يبق معه شيء يخاف عليه وتبعهم من كانوا بالباب الجديد فرارا من العربان الضاربين حولهم كالوحوش الخاطفة وأمر أحمد عرابى فأتوا بقطارات السكة الحديد وأركبوا فيها الناس إلى سائر البنادر والقرى لحد القاهرة وأرسل فى يوم الحريق أصحاب الزعامة إلى مقر الخديوى بسراى الرمل جماعة من الفرسان يبلغ عددهم زهاء الأربعمائة فارس وبعض أصحاب الشرطة فأحاطوا به من كل جانب وعلم الخديوى بخبر ذلك فأرسل يسأل عن سبب حضورهم فقال مقدمهم: إنما جئنا لحراسة الذات الخديوية والمحافظة عليها، قال بعض الكتاب: ولم يكن الأمر كذلك فقد كان حضورهم لإضرام النار فى السراى وقتل كل من يخرج فارا منها وظلوا واقفين إلى قبيل الغروب ثم سارت جماعة منهم وبقيت جماعة أخرى تبلغ زهاء المائتين وخمسين فسير عند ذلك الخديوى إلى منيب أفندى مقدمهم يدعوه إلى الطاعة ومراعاة الذمة والعهد فأذعن وتمثل بين يدى الخديوى وأقسم أنه يموت بين يديه وجعل يكلم الجند حتى أطاعوا أيضاً وحلفوا يمين الطاعة ثم نصبوا خيامهم أمام مقر الخديوى وقاموا بخفارته.

ودخل فى ذلك اليوم على الخديوى محافظ المدينة وقص عليه خبر ما جرى من إضرام النار بالمدينة ونهب حوانيت التجار وانحدار العربان من الأطراف وما فعلوه من القتل والنهب والعبث بالأبكار وما الناس عليه من الشدة بسبب إكراههم على الخروج من المدينة فبكى الخديوى وطرق كفا لكف ورسم إلى إسماعيل باشا كامل وإلى الزبير باشا بالانحدار ومنع العامة من النهب ورد العربان إلى منازلهم فانحدرا وبذلا جهد الاستطاعة فلم يفلحا، وأرسل سيمور البحر فى سادس عشرى شعبان يعلم الخديوى بأنه على عزم أن ينزل بعض عسكره إلى سراى رأس التين لحراستها ويطلب إليه أن يأتى إلى إحدى سفن الحرب فيقيم بها حتى تخمد نار الفتنة فامتنع الخديوى وقال : إنى أفضل البقاء فى مقرى برأس التين بين رعاياى الأمناء على البقاء فى سفينة الأميرال وانحدر من ساعته من سراى الرمل فى عربته ومعه المشير درويش باشا وأمامه وخلفه جماعة الحرس وطوائف الفرسان والحجاب وجاويشية ديوانه وساروا بين أطلال القصور والمبانى التى دمرتها النيران، فلما رآه العامة ظنوا أنه أحمد عرابى عائد لقتال الإنجليز فصاحوا الله ينصرك ياعرابى وما زال حتى دخل سراى رأس التين فلاقاه الأميرال سيمور فى نفر من الجنود الإنجليزية يبلغون الثلثمائة مقاتل وأصعدوه إلى السراى فجلس وجلس معه سيمور يتحادثان فيما لم تصل إلينا معرفته لغاية الآن، فلما كان غروب اليوم نزل أيضاً من كان على ظهور السفن من وكلاءِ الدول وصعدوا إلى مقر الخديوى وهنؤه بالسلامة وباتوا ليلتهم تلك وهم فى تحرز وأصبحوا وقد أنزل سيمور طائفة أخرى من عساكره إلى البر ورسم لهم بالتطواف فى المدينة فجعلوا يطوفون فى الشوارع والحارات ومعهم بعض المدافع الخفيفة فكانوا إذا رأوا أحدا من العامة أو أسافل الروم بين أطلال الحريق يلتقط ما بقى من النهابة رموه بالبنادق وشددوا فى ذلك فامتنع الناس قاطبة وكان إلى ثانى يوم الحريق لم يبق فى المدينة أحد من العساكر والجنود المصرية ولا من الضباط ومقدمى العسكر إلا انسحب إلى حجر النواتية وامتدوا منه إلى كفر الدوار وتركوا المدينة ومن بقى فيها يضرعون إلى الله من هول ذلك اليوم العصيب.

(وقد نظمت قرائح بعض الأدباء فى حريق هذه المدينة الآهلة القصائد الرنانة فمنها قصيدة لقدرى بيك أحد رجال الدولة الذين كانوا مع المشير درويش باشا قال فيها) :

إسكندرية هذه أحلام   أو قد قضت فيما نرى الأيام
ما هذه الأحوال ياثغر الغنى   حارت بها الأفكار والأوهام
أتكون قاعا بلقعا منشية   إن العمارة بعدها لحرام
أو تنظر العينان أبهج بلدة   أضحت رمادا والسماء قتام
أحرقت أعرابيّ ثغر بلادنا   والله قد حاطت بك الآثام
ياليت شعري ما اقترفت فأنه   ما سام هذا الفعل قبلك حام
فنقول من فرط الهنا أهل العنا   إسكندرية هذه أحلام

انتهى باختصار

(وقال أحد الأدباء أيضاً فى هذا المعنى):

تفطر القلب من حزن ولا عجبا   والدمع فاض على الخدّين منسكبا
إسكندرية ما هذا الخراب وكم   من نكبة بك قد حلت فوا حربا
قتل وموت وتدمير مهاجرة   سلب ونهب وكف للنساء سبا
قد كنت راقصة مثل العروس وها   أصبحت ثكلي فلا حظا ولا طربا
وكنت بالأمس مثل الشمس مشرقة   فناء كل ضياء عنك واحتجبا
ما هذه الحال في يوم وليلته   يحل فيك مصاب قط ما كتبا
يبكيك دان وقاص والدموع دم   وقد كوت نارك الأهلين والغربا

(وقال طيب الذكر أديب أفندى إسحق فى ذلك أيضاً):

عج بي على تلك الطلول ونادى   أني تحمل أهل هذا النادي
هل صادهم شرك الردى فأبادهم   صرف أناخ على ثمود وعاد
أم غادروا الأوطان في أوطانهم   مذ حاذروا غدر الزمان العادي
وسل الرسوم وإن خلت عنهم وما   فعلوا قبيل رحيلهم بفؤادي
خلفته في حبهم ميتا فهل   أحياه أم محياه أهل ودادي
أم حملوه رديف صبري والمنى   وتجلدي وتعالى ورقادي
أم غادروه رفيق وجدي والضنى   وتلهفي وتذللي وسهادي
يا وارد الإسكندرية طامعا   بمنافع الأصدار والإيراد
أقصورها خفيت عن الأنظار أم   آثار قصري في القفار بوادي
أم تدمر قد دمرت وعمورة   ما عمرت أم دار ذي الأوتاد

هذي عروس الشرق ماتت فاكتسى   حزنا عليها الغرب ثوب حداد
بالأمن كانت والبياض دثارها   واليوم صارت أرسما بسواد
كانت ملاذ الخائفين فأصبحت   والخوف منه مبعد القصاد
كانت موارد للظماء وقد غدت   ما أن بها من مورد للصادي
كانت مراتع نعمة فغدت وما   فيها سوى البأساء للمرتاد
كانت وكان الدهر يسعد أهلها   فأصابها بالأهل والإسعاد
كانت وكنا لا ينام حسودنا   صارت وصرنا راحة الحساد
كانت وما تخشى بوادر ضدها   فغدت ترجى رحمة الأضداد
قامت على أقوى العماد تزين ما   تحت التي رفعت بغير عماد
فأبادها جهل خفيّ ما بدا   مثل له من حاضر أو بادي
جهل الذي رام الأماني وهي في   قمم الجبال وكان دون الوادي
وعدا وما لقي الثعالب عمره   يبغي اقتحام عرائن الآساد
وسعى إلى الشورى ولكن خالها   لما تهتك برقع استبداد
وعلى المساواة ابتنى هدم الهنا   لما تساوى حزبه بفساد
وقد ادّعى في عسفه حرية   يامن رأى حرية استعباد
وإلى الإخاء دعا فنال بفعله   من قومه ما لم ينله العادي
شقيت بزلته الجموع وطالما   أشقت جموعا زلة الأفراد
وتلاه في سبل الغواية معشر   زلوا وضلوا حيث ضل الهادي
غرسوا الجناية في الجنون فما جنوا   مما جنوه غير شوك قتاد
وسعوا فساداً في البلاد كأنهم   والحادثات أتوا على ميعاد
خلعوا الشعار المستعار من الحيا   فتقمصوا عارا إلى الآياد
وتخيلوا أن الطريق خلت لهم   فسعوا فكان العدل بالمرصاد
فأتاهم رعد المدافع مبرقا   فنبوا عن الأبراق والأرعاد
وسطوا على المستأمنين خيانة   لم تشف منهم غاية الأحقاد
ورموا بنارهم الديار وبدّدوا   ما استجمعت من طارف وتلاد
نكر عرفنا منه أن لبعضهم   بز اللصوص وبزة الأجناد
ونقيصة يسعى بها أبناؤهم   لمقابر الآباء والأجداد
أسفا على تلك القصور فأنها   كانت منى الورّاد والروّاد

أسفا على من قاده استسماؤه   للفاتكين ولم يجد من قاد
أسفا على قوم أتاهم فجأة   صوت المنادي بالبلاء ينادي
فتسارعوا طلب النجاة من الردى   بنفوسهم والأهل والأولاد
ياهولها من ساعة مرت بما   زهقت به الأرواح م الأجساد
كم حامل خرجت بها محمولة   فوق الكواهل أو على الأعواد
ومصونة نفسا تقول لصحبها   ياليتني قدمت قبل ولادي
لطخت بآثار الولاد ومادرت   جسدا تلطخ قبله بجساد
دمياء ما يدميه لمس حريره   طفل قريب العهد بالميلاد
ومعمر لم يبق في الدنيا له   غير السكينة من منى ومراد
ومريض قوم غاب عنه طبيبه   وجفاه أنس الأهل والعوّاد
خرجوا وهم لا يهتدون سبيلهم   والنائبات روائح وغوادي
ودموعهم والنار في أحشائهم   حلت محل مزادهم والزاد
فكأنهم إبل ببدو نالها   ألم السغوب وحاد عنها الحادي
تعلو وتهبط جانحات لا ترى   من بلغة في النجدو وهاد
أو أنهم قصدوا الصبوح فجاءهم   في فجأة منهم طريد طراد
شهد الوبال ولم يجد من منجد   فأغذ في الأتهام والانجاد
فتفرقوا والهول ملء قلوبهم   يقتادهم زمرا بغير قياد
أو أنهم أهل القبور تيقظوا   سحرا بنفخ الصور بعد رقاد
نشروا عراة واجفين فيومهم   يوم المعاد أتى بلا ميعاد
والنار موقدة سرت من خلفهم   فكأنها حيات بطن الوادي
والجند شردّهم قتال عدوّهم   فرقا فلم يتجلدوا لجلاد
ونضوا على أهل السبيل بواترا   في الحرب ما نضبت من الأغماد
قد حدّيت شفراتها لكنها   كانت على الأعداء غير حداد
ولرب عاد منهم في رعدة   ما أن تسلم بصائد الرعاد
سكنت فرائسه على نهب الحمى   من قبل تسكن رعدة الصياد
ومرأس حيث الجواد وخلفه   مما حباه النهب حمل جواد
عدم الرباط فشده بنجاده   وأتى معسكره بغير نجاد
فهم اللصوص وإن هم قد أوهموا   أن ليس ما ارتكبوه غير جهاد

وبلادهم قد نالها من عارهم   ما لم يحق في عهدنا ببلاد
عيبت فلولا السابقون ومجدهم   وبقاء من ولدوا من الأمجاد
ومؤيد ملك أمير عادل   أدبي بمفرده على الأعداد
وعصابة كانت قلائد فضلهم   أبهى من الأطواق في الأجياد
لم تلف في مصر ومصر عزيزة   من قائل هذي البلاد بلادي
إلا وقد ولي الشريف أمورها   فلها بحول الله خير معاد
مولى له في النفع رغبة طامع   وعن المضرة عفة الزهاد
وهو الذي يخبا ليوم كريهة   وسداد ثغر من طريق سداد
وإذا بدا من ليل خطب رأيه   أزرى بنور الكوكب الوقاد
ياحائز المجد الرفيع وجامع   الفضل الصديع وواحد الآحاد
ياجالب النعم العظام ورافع النقم   الجسام وموئل القصاد

إلى أن قال:

بيضت بالنعماء أيامي وما   حالت فأصبغ عرفها بسواد
وبلوتني فرأيت مني صادقا   ما شاب ورد صلاحه بفساد
وحميتني والنائبات ملمة   ونصرت ضعفي والزمان معادي
وظهرت فيك بكل مدح صادق   صرف وما جمري كمين رماد
وقد اعتذرت وما ورا متنصلي   في القلب غير أمانة ووداد
فإذا صفوت فذاك غاية مقصدي   وإذا رضيت فذاك كل مرادي
ياصبح كل مؤمّل بالنجح   كل توسل يامورد الأمداد
لولاك ما أحييت ليلى ضاربا   في الشعر بالأسباب والأوتاد
وصفا لما يجري الدموع أقله   ويقل فيه تفتت الأكباد
فلقد هجرت الشعر لما أن رمى   ضعف السليقة سوقه بكساد
واستامه من ليس يفرق بين ما   يفني ويبقى عالي الإنشاد
لكن رأيتك يانصيري جامعا   نقد البصير ودقة النقاد
فنظمته نظم الفرائد مثل ما   نظمت لديك قلائد الأرفاد

إلى أن قال

زعموا بأن سريرتي قد كدّرت   فلمن يصافي بالجميل يصادي
فبعثت صافي الشعر يثبت صفوها   ولو استطعت جعلت فيه فؤادي

انتهى

وأخذ أحمد عرابى وأصحابه فى التأهب والاستعداد للقتال فأرسل فى طلب الجند وعدة الحرب من مؤن وذخرة وسير فى طلب جماعة المهندسين وأرسل العيون الجواسيس إلى أطراف الإسكندرية ليأتونه بالأخبار وأرسل إلى القاهرة مكاتبة يقول فيها سنقاتل الإنجليز دفاعا عن الدين والوطن فعجلوا بالمدد وثابروا على الدعاء للعسكر المظفر بذلك فأرسل إليه يأمره بالإمساك عن جمع الجند وإعداد المعدات ويقول له لا خطوب قط بين بلادنا والدولة الإنجليزية وأن أمير سفن الحرب يقول أنه على أهبة تسليم ترتيب القوة الحافظة لها واستتب الأمن فيها وسأل أحمد عرابى أن يسرع رأس التين ليكلمه فى الأمر، وكان لما خرج أحمد عرابى من الإسكندرية بعد والقطوب المدلهمة ونزل كفر الدوار لحق به بعض من التف عليه من الأجانب بلانت الإنجليزى الذى سبق لنا الكلام عليه فبينما هم جالسون مع أحمد عرابى الخديوى بما ذكر فأراه إلى بلانت وشاوره فى الأمر، قال بعض الكتاب: فقبح له بمشورة الخديوى وحبب إليه مقاتلة الإنجليز حتى يذعنوا، وقال: إن الإنجليز ليس لهم منتظم يقدرعلى مقاومة العساكر المصرية وأن الدول كافة لا تترك الإنجليز وشأنهم فى ذلك فهن للإنجليز بالمرصاد فإياك وأن تخدعك ظواهر الخديوى وأمير السفن وثابر على ذلك حتى يعلموا أن فى هذه البلاد رجالا، قال وكان هذا الكلام خدعة من بلانت فاغتر أحمد عرابى وهان عليه كل خطب وكتب إلى الخديوى يقول: إنى لم الإنجليزية بجند القلاع إلا بعد أن صدر لى بذلك قرار مجلس الوزراء فإذا كان قد رغب الآن فى الصلح بعد انتشاب القتال فلا بأس به ولكن هذا الطلب الحرب قائمة بيننا وبينه وإنى لا أرغب عن الصلح ولكن مع المحافظة على شرف البلاد والحكومة فإذا أراد الأمير تسليم المدينة فليسملها وليعجل بسحب مراكبه عن الإسكندرية أما الأستعدادات الحربية فلا مندوحة عنها ولابد منها حفظا لشرف البلاد ما دامت القوة الإنجليزية على سواحلها ولا يمكننى الرجوع إلى الإسكندرية وألقى بيدى ما دام الإنجليز بالإسكندرية وختم كلامه بطلب سائر الوزراء إلى مقره بكفر الدوار فكبر الأمر على الخديوى ومنع من إرسال أحد إلى كفر الدوار وراجع أحمد عرابى فى ذلك فلم يلتفت أحمد عرابى إلى قوله وتجرد إلى العداوة والبغضاء وأرسل فى الحال إلى يعقوب سامى باشا وكيل ديوان الجند يومئذ يوقع بالخديوى ومن معه ويرميه بالتهم الطويلة ويصفه بالمروق وسوء النية نحو البلاد وأهلها ويقول أنه هو الذى جلب كل هذه المصائب بسوء رأيه وفساد تدبيره وأنه يطلب لذلك عقد

مجلس من علماء الأزهر ومشايخ القاهرة والوجهاء والأعيان ليروا رأيهم فى خلع الخديوى وتولية من يصلح لتدبير شئون البلاد فجمع يعقوب سامى باشا جميع العلماء والمشايخ والرؤساء الروحانيين وأرباب المناصب العالية والأعيان والوجهاء وكبار التجار وعقد مجلسا منهم فى غرة رمضان برئاسة حسين دراملى باشا الذى كان وكيل نظارة الداخلية وتلا عليهم مرسوم أحمد عرابى وكان المكان غاصا بجماهير الناس حتى السوقة والغوغاء وأسافل القوم فما أتم القارىء كلامه حتى علت الضوضاء واشتد الهرج وجعل بعض العلماء والمشايخ يقبحون ما فعله الخديوى ويرمونه بالمروق وكان بينهم الشيخ عليش المغربى الأزهرى شيخ المالكية فوقف فى وسط ذلك الجمع وقد أخذته رجفة فصاح الله أكبر الله أكبر قد خلعناه ياقوم قد خلعناه الله أكبر على من طغى وتكبر ثم اضطرب وأخذته الرجفة فكثر عند ذلك صياح العامة فكانوا بين مدمدم ومحوقل وناطق بالشهادتين ثم اتفقوا على أن يرسلوا إلى الإسكندرية وفدا ليرى أولا ما يدعيه الخديوى على زعماء العصابة عموما وأحمد عرابى خصوصا وثانيا ليحقق ما إذا كان الوزراء مسجونين كما جاءت بذلك الأخبار وقد وقع اختيارهم لذلك على على مبارك باشا ورءوف باشا وأحمد بيك السيوفى والشيخ سعيد بيك الشماخى والشيخ على نايل والشيخ حمد كبوه فساروا إلى كفر الدوار واجتمعوا بأحمد عرابى وحدثوه بما جرى فسرحهم إلى الإسكندرية ومعهم نفر من الجند فلم يتمكنوا من دخولها إلا بعد شدة زائدة وتمثلوا بين يدى الخديوى وقصوا عليه جميع ما وقع فساءه الأمر ورسم بخلع أحمد عرابى من منصب الوزارة وطير الخبر بذلك إلى الآفاق وكتب إلى دار السلطنة يخبر بعصيان أحمد عرابى وأصحابه ورفع عن نفسه تبعة ما ينجم عن فعالهم من الخطر على البلاد وأهلها وكان فى هذه الأثناء قد ورد مرسوم السلطان إلى درويش باشا ومن معه بالعود إلى دار السلطنة بناء على تغير الحال ونوال سفير الإنجليز من المابين مأربا فعادوا وكأنهم عافاهم الله لم يحضروا إلا لتضرب الإنجليز حصون الإسكندرية وتحتل جنودهم المدينة على مشهد منهم وكأن أحمد عرابى يعلم سر بعثتهم فلم يطع للخديوى كلمة وقد أخذ فى إعداد معدات الحرب والذخرة وبالغ فى جمع العساكر والأجناد وإنشاء القلاع والحصون على طول خط ملاحة الإسكندرية وعالج سدّ ترعة الإسكندرية ليمنع الماء عنها فلم يفلح وسير إلى القاهرة يشدّد فى طلب المؤن والمدافع وطوائف البنائين والمهندسين، وقد وصل إلى القاهرة مرسوم الخديوى بخلع أحمد

عرابى من منصبه وشاع خبره وتحدث الناس به فكادت تقف رحى أعماله وتنصرم حزمة آماله فأدرك يعقوب سامى ما وراء ذلك وجمع سائر من حضروا فى المجلس المنعقد فى غرة رمضان وتلا عليهم ما رسم به الخديوى من خلع أحمد عرابى وتنزيله فاختلفت عند ذلك كلمتهم وتفرقت أغراضهم وعلت بينهم الضوضاء وكان بينهم جماعة من كبار الضباط وصغارهم وطائفة من الجند فلما رأوا ما هو عليه ذلك الجمع من الهرج واختلاف الكلمة وأدركوا أن السواد الأعظم منهم ميال إلى خلع أحمد عرابى كما رسم الخديوى قاموا وصاحوا فى وجوه الناس وارتفعت أصواتهم بسبب الخديوى وتقبيح فعاله ونادوا القتال القتال ما دام الإنجليز فى قلب البلاد ثم أكثروا من الحركة وقبضوا على سيوفهم كأنهم يقاتلون الإنجليز فانكمش سائر الحاضرين وخافوا وتحققوا أنهم إن مالوا إلى خلع أحمد عرابى والعمل برسوم الخديوى أخذتهم سيوف الضباط وحراب الجند من أمامهم ومن خلفهم فقر رأيهم على استبقاء أحمد عرابى فى منصبه وتكليفه بالذب عن البلاد ما دامت مراكب حرب الإنجليز أمام الإسكندرية وعدم الالتفات إلى ما رسم به الخديوى فطير يعقوب سامى الخبر بذلك إلى الآفاق وعلم به الخديوى فأحزنه جدا ورسم ثانية بخلع أحمد عرابى وعصيانه وسير الكتب بذلك إلى القاهرة وسائر المدن والبنادر فمنع الضباط وصولها وجعلوا يجوبون البلاد ويحضون الناس على بغض الخديوى ويسمونه بالمروق عن الدين وقام الخطباء والفصحاء من أهل البلاد يخطبون فى الناس ويحضونهم على معاونة زعماء العصابة والأخذ بناصر مقدمهم أحمد عرابى وقام بعض الشعراء من أهل القاهرة يلقون الأشعار الحماسية والقصائد المهيجة من ذلك قصيدة لأحد علماء الأزهر يقول فى مطلعها:

لعمرك ليس ذا وقت التصابي   ولا وقت السماع على الشراب
ولا وقت الجلوس على القهاوي   ولا وقت التغافل والتغابي
ولا وقت التشبب في سليمي   ولا وقت التشاغل بالرباب

إلى أن قال:

ولكن ذا زمان الجدّ وافى   وذا وقت الفتوّة والشباب
ووقت ليس فيه يليق إلا الـ   إقامة بالقلاع وبالطوابي
ووقت فيه الاستعداد فرض   لتنفيذ الأوامر من عرابي

إلى أن قال:

وفي مصر لقد طمعوا ومصر   بكم والله أمنع من عقاب

وقال فيها:

وقوموا بالثبات على الأعادي   وقولوا فيهم فصل الخطاب
وإن سألوكم من بعد هذا   فما غير المدافع من جواب

إلى أن قال:

وقولوا ياعرابي مر بأمر   تراه فأنت ذو الأمر المجاب
ودم لوزارة لسواك تأبى   وإن وصلت إليك بلا طلاب
وقولوا ياعرابي دم رئيسا   لحزب النصر محفوظ الجناب

(ونظم آخر قصيدة فى هذا المعنى قال فى مطلعها):

نوال المعالي من طعان الكتائب   ونيل الأماني من ثمار المتاعب
وقهر الأعادي بالتدبر أوّلا   وبعد بإشهار السيوف القواضب

إلى أن قال:

ولسنا كقوم عن طريق الهدى عموا   إلى اليوم من اضلالهم في غياهب

ومنها قوله:

ومن كعرابي في البرايا وحزبه   أولى العزم أصحاب القنا والقواضب

وغير ذلك من الشعر والنثر شيء كثير لا يسعنا إيراده هنا، وسير أحمد عرابى جماعة من الفرسان وأخرى من المشاة إلى ناحية المندرة ووكلهم باستطلاع أخبار الإنجليز فلم يبلغوها حتى خرج عليهم جماعة من عسكر الإنجليز وناوشوهم القتال فقاتلوهم وتغلبوا عليهم فانهزم الإنجليز وولوا الإدبار فأعمل المصريون فى أقفيتهم السيف ثم عادوا فى ثانى يوم وقاتلوا حتى أجلوا المصريين عن مواقفهم فسير أحمد عرابى فى طلب المدد من المال والرجال ومد الحصون والقلاع من الرمل إلى كفر الدوار وأقام بكفر الدوار خطا عرضه ثلاثون مترا وحفر تحته خندقا فاصلا ما بين الخط والفضاء وقد جعل فى هذا الفضاء عدة كثيرة من القلاع، وكان خط الدفاع الأول مما يلى المحلة بمسافة ألف متر على طول الخط الممتد من الرمل إلى البيضاء وجعل ما وراء هذا الخط من المرتفعات والتلال مواقع محصنة إلى كفر الدوار فبلغت عدة هذه الاستحكامات والمواقع الدفاعية زهاء الخمسمائة وكذلك فى المسافة الواقعة ما بين كفر الدوار وأبى حمص وكان بين أبى حمص ومدينة دمنهور تل كبير مرتفع فحصنوه وجعلوه معقلا يقيهم عند الحاجة إذا تقهقروا إلى الوراء وعززوا دمنهور بالكثير من المدافع الكبيرة وعبوا فيها المؤن والذخيرة ومعدات الحرب وأقام فيها

جماعة من الجند ووكلهم بتسيير المؤن وتوصيل المدد إلى كفر الدوار، ورأى سيمور من استعداد أحمد عرابى وتأهبه للقتال وقطعه لجميع المواصلات مع الإسكندرية ما لم يكن يتوقعه فأرسل إلى عاصمة الإنجليز فى طلب النجدة ورسم فمدوا سلكا تلغرافيا تحت البحر من الإسكندرية إلى بورسعيد وجاءه المدد من المشاة والفرسان وأصحاب المدافع على ظهور السفن من قبرص وجبل طارق ومالطة والهند وكأنهم كانوا جميعاً على قيد فرسخ من مدينة الإسكندرية وجعلت حكومة الإنجليز تبالغ فى التأهب والاستعداد غير سائلة عما تقوله بقية الدول ولا راغبة فى مشاورتهن ولا ميالة إلى مشاركتهن وقد أعدت من المال لنفقة هذه الحرب مائتى ألف ألف وثلاثمائة ألف من الذهب وكان ما جاء إلى سيمور من الجند ألفين وأربعمائة من الفرسان وثلاثة عشر ألفا من المشاة وألفا وسبعمائة من أصحاب المدافع وثلاثة آلاف وسبعمائة ما بين خدمة المرضى وأصحاب الخدم وجيشا احتياطيا قدره ثلاثة آلاف ومائة مقاتل وكان المقدم على هذه الحملة قائدا اسمه الجنرال جارنت ولسلى وآخر اسمه أوبيا ومعهما آخرون من الأمراء والقوّاد فلما نزلت هذه الجيوش بمدينة الإسكندرية أخذوا فى ترميم ما تهدم من الجسور الواقعة على خندق الباب الجديد وما تداعى إلى السقوط من جدران قلعة كوم الدكة ونصبوا بعض المدافع على باب رشيد للدفاع عن محطة السكة الحديد ونصبوا تسعة مدافع من الطراز الكبير على قلعة كوم الدكة وبالغوا فى تحصين المدينة لمنع الواصل إليها وسارت طائفة منهم إلى الملاحة فقطعت خط السكة الحديد الموصل إلى الإسكندرية لتكون المدينة آمنة من هجوم العصاة.

ووقع بين الباب العالى ودولة الإنجليز وبقية الدول مناقشة وجدال فى أمر إرسال عساكر عثمانية أو عساكر مختلطة من الإنجليز والفرنسيس والإيطاليين إلى مصر ما استغرق الأيام الكثيرة ولكنها كلها كانت مماحكة ومراوغة فكان كل فريق من الدول ولا سيما العثمانيين والإنجليز والفرنسيس يظهر للآخر خلاف ما يبطن ويقول غير ما يفعل ثم عادت دولة الإنجليز وشدّدت على سعيد باشا مندوب الباب العالى فى تلك المفاوضة وأعلمته بأنها لا تسمح قط بأن تطأ أقدام الجنود العثمانية أرض الكنانة وأنها قد أخذت على نفسها إرجاع الحالة إلى ما كانت عليه من الهدوء والسكينة وتأييد مركز الخديوى بكل ما تصل إليه قدرتها فراجع سعيد باشا اللورد دوفرين سفير الإنجليز فى ذلك، فلما كان خامس رمضان انقطع سعيد باشا عن ملاقاة سفير الإنجليز وانكف عن مناقشته فى الأمر فجعل السفير يفكر فى ذلك فما هو إلا أن

جاءه الخبر فى ثانى يوم بقيام سفينتين كبيرتين من سفن النقل العثمانية وعليهما جماعة كثيرة من العسكر العثمانى وكان قيامهما من دار السلطنة تحت جنح الليل وفيهما أيضاً كثير من الذخيرة والمؤن ومعدات الحرب وأن قد قام بعدهما أيضاً فى نفس تلك الليلة مركبان أخريان إحداهما إلى أزمير وثانيتهما إلى الدردانيل وفى ثالث ليلة قام غيرهن يحملن كثيرا من الجند وآلات الحرب وقامت أخرى فى خامس ليلة من الجهة المعروفة بقرن الذهب إلى صورابأى بمياه جزيرة كريد وكانت فى نفس هذه الليلة مركب أخرى على أهبة القيام إلى جهة غير معلومة وشاع الخبر حينئذ بأن السلطان قد رسم بجعل جميع هذه القوات تحت إمرة درويش باشا وآخرين من كبار القواد العثمانية فتأهب هؤلاء للقيام على ظهر الباخرة عز الدين إلى سلانيك ثم يسيروا منها ليلتقوا بالجند إما بمياه رودس أو مياه صورابای فخشى سفير الإنجليز عاقبة ذلك وأزعجه الخبر وسير إلى كبير سياستهم يعلمه بالأمر فلم يكن بأسرع من أن جاء الأمر إلى سيمور أميرال سفن الحرب الراسية أمام الإسكندرية يقول: إذا جاءتكم مراكب حرب الدولة العثمانية فامنعوا من نزول أحد من جندها بالإسكندرية وبورسعيد وأى جهة من الموانى المصرية واحذروا ما استطعتم وأعلموا مقدمى العساكر السلطانية مع غاية الرقة والتلطف بأن يرجعوا فورا إلى جزيرة كريد أو إلى أى جهة يشاؤنها وإياكم والتغافل، فرتب عند ذلك سيمور مراكبه وصفهم فى سلك الدفاع وأبلغ سفير الإنجليز خبر ذلك إلى سعيد باشا مندوب الباب العالى فراجعه سعيد باشا وقال: إن السلطان رسم بتسيير عسكره وهو يكفل بإرجاع الأمور إلى سابق مجراها من الأمن وصفاء الحال وسيرسم أيضاً بعصيان أحمد عرابى واعتباره خارجا عن طاعة أمير المؤمنين فلا موجب إذا للتعرض لمراكب الدولة إذا وصلت إلى الموانى المصرية التى هى جزء من بلاد السلطنة فقال السفير: قد ذهبت الفرص وطاش الغرض ولم يبق من حاجة إلى شىء من ذلك البتة وقد سارت الجنود الإنجليزية على جناح الطائر الميمون وما كنا نرجوه بالأمس قد أصبح عندنا اليوم أمرا مقضيا فراجعه سعيد باشا فلم يقبل، فقال له: قد قبلت الدولة سائر مقترحات الدول بشأن إرسال العساكر السلطانية وبسائر الحدود والاختصاصات التى حددتها لها بالديار المصرية وصرحت بقبولها جميع ما ترى لزوم إجرائه أيضاً لإرجاع الأمور إلى ما كانت عليه فقال السفير: لا سبيل إلى ذلك وقد نفذ المقدور فكبر الأمر على السلطان واستعظمه للغاية وارتبكت أحوال الباب العالى وكثر توارد الجنود الإنجليزية

على مدينة الإسكندرية وقدم إليها فى خامس عشرى رمضان الدوق أوف كانوت ثالث أولاد ملكة الإنجليز وهو أحد مقدمى العساكر وأخذوا فى تحصين بعض القلاع والحصون وتعبية المؤن والذخيرة ثم جعلوا يناوشون العساكر المصرية عند كنج عثمان وحجر النواتية وكفر الدوار مناوشة خفيفة ونشر ولسلى مقدم العساكر الإنجليزية منشورًا يقول فيه، لم تأت الجنود الإنجليزية إلى هذه الديار بقصد الغزو أو فتح البلاد وإنما حضورهم لردع العصاة وإيقاف تيار الفتنة إلى حد إرجاع الهدوء والسكينة إلى سابق مجراهما وتأييد سلطة الخديوى جهد الاستطاعة، ثم رسم فألقوا بأوراق من هذا المنشور فى مواقع المصريين ليعلم الضباط ما فيها فالتقطوا منها شيئاً كثيراً.

ولما كان خامس شوال انتشب القتال ما بين طليعة العرابيين وبعض الجنود الإنجليزية عند كفر الدوار وطال زهاء الساعتين ثم انجلى عن هزيمة العرابيين فباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا يقاتلون فكانت الحرب بينهم سجالا وبالوا وأصبحوا فاقتتلوا قتالا عنيفاً فأظهر العرابيون بسالة زائدة وكادوا يستظهرون على الإنجليز فطلب مقدمهم المدد فجاءه على قطارات السكة الحديد من الإسكندرية واشتد الرمى من الجانبين بالقنابل والرصاص شدة بالغة ثم افترقوا وقد تحرز كل فريق فى موقفه وكان مقدم العرابيين فى هذه المواقع طلبة عصمت وأصبحوا ولم يتقدّم الفريقان لقتال وكانت أخبار الحرب والقتال تأتى إلى الإسكندرية والقاهرة على غير حقيقتها منقولة عن الفلاحين والعربان وضباط الجند ومقدمهم طلبة عصمت فلم يحلها عقلاء الناس محل التصديق ولم يعيروها جانب الألتفات، ونزل من كان على ظهور السفن الراسية أمام الإسكندرية من الأجانب على اختلاف أجناسهم إلى المدينة ودارت رحى الأعمال فى دواوين الحكومة وباشر أرباب الوظائف وظائفهم على قدر الاستطاعة فعز عند ذلك المأكول ونفد ما كان موجودا منه ببعض الحوانيت واشتد الجوع بالناس ثلاثة أيام خرج فيها صغار الناس على اختلافهم إلى رحبة سراى رأس التين وهم يضجون ويعجون فهال الخديوى أمرهم ورسم بإطعامهم وشدد فى ذلك فرتبوا لهم مشارد الثريد بالأرز واللحم مرتين فى كل يوم وكان الخديوى يلاحظ إطعامهم بنفسه وهو مشرف عليهم من مجلسه وشدد الإنجليز فى المحافظة على المدينة فكانت الجنود تطوف فى النهار والليل ومنعوا من خروج الناس من بيوتهم بعد غروب الشمس إلا من كان معه كلمة سر الليل وهى كلمة كان يتفق عليها فى غروب كل ليلة ليعبر بها من يتلقاها وكانوا يقبضون على كل من يرونه سائرا بغير مصباح ولو كان يعرف سر

الليل وأفحشوا فى رمى الناس بالرصاص لأقل سبب وكان إذا رأى أحد المرابطين أحدا فى الطريق بعد الغروب نادى عليه بكلمة (هلت) ومعناها قف فإن لم يجبه على الفور بكلمة (فرند) يعنى صاحب أو رفيق رماه بالرصاص فيسقط ميتا وإذا رأوا مارا بحارات المنشية أو غيرها من جهات الحريق ظنوه يلتقط ما بقى من المنهوبات فيقتلونه فى الحال برمى البنادق فخاف الناس واستوحشوا وامتنع خروجهم قاطبة فكانت شدة عظيمة ووحشة بالغة، وتقدم إسماعيل راغب باشا إلى الخديوى فى قبول خلعه نفسه من منصب رياسة الوزارة فقبل منه ذلك ورسم إلى الوزير محمد شريف باشا بتشكيل وزارة أخرى مع قبوله هو مسند الرياسة فأذعن وأطاع، وكان لما طير البرق الخبر إلى الديار الأوروباوية بخروج عرابى وأصحابه عن طاعة الخديوى وإشهاره الحرب على الإنجليز وبقاء الخديوى مع كبار الدولة وحاشيته بمدينة الإسكندرية وكان مصطفى رياض باشا يومئذ بإحدى مدن الفرنسيس فارا من وجه زعماء العصابة على ما تقدم بيانه فى محله عاد من فوره إلى الإسكندرية وتمثل بين يدى الخديوى مسترحما فعفا الخديوى عنه ورسم له بتولى نظارة الداخلية ووردت الأخبار بذلك إلى القاهرة فلم يحفل أصحاب الزعامة بها ولا أحلوها محلا وجدوا فى إرسال المدد إلى كفر الدوار وهم يشيعون فى كل يوم أخبار هزيمة الإنجليز ووقع الموات فيهم وسير أحمد عرابى إلى المديرين والمحافظين فى طلب حشد الجند من خفراء البلاد وتسييرهم إلى مواقع التل الكبير وفرض على كل مديرية عددا فكان ما خص البحيرة ألفا ومائة واثنين وسبعين والقليوبية ألفا وثمانية وثلاثين والشرقية ألفين وسبعة وسبعين والغربية ثلاثة آلاف وأربعمائة وخمسة وثلاثين والدقهلية ألفين وستمائة وخمسة وستين والجيزة ألفا وثلاثمائة وخمسين وبنى سويف ستمائة وخمسة وتسعين والفيوم ثمانمائة وثلاثة وستين ومنية ابن خصيب ألفا وسبعمائة وثمانية وثلاثين وأسيوط ألفين وثلاثمائة وخمسة وأربعين وجرجا ألفين ومائة واثنين وستين وقنا ألفا وستمائة وعشرة وإسنا ألفا وأربعمائة واثنين وستين فكان جميعهم خمسا وعشرين ألفا فاهتم بعض المديرين بهذا الطلب وبالغ فى الاهتمام وتراخى البعض الآخر ولم يحفلوا به لما يعلمونه من سوء العاقبة وسوء المصير وجاءت الأخبار بذلك إلى أحمد عرابى وهو على حصون كفر الدوار فكبر عليه الأمر واستعظمه وعاود الطلب وشدد وهدد وقام الخطباء من أهل البلاد فى المساجد يحضون الناس على الجهاد ودفع العدو وأكثروا من الأرجاف والتهويل وقام بمدينة أسيوط رجل اسمه

الشيخ على المليجى فجعل يحض الناس على الغزو والجهاد ويستفزهم إلى التطوع فى سبيل طاعة أحمد عرابى وخطب فيهم يوما يقول:

الحمد لله الذى جعل أمة محمد ﷺ خير الأمم، وعوّدها العناية والنصر إذا العدوّ بها ألم، لا إله إلا هو لا عز لنا إلا به إلى يوم الدين، فهو المختص بإعانة من هاجر فى سبيله وكلف عزمه وسمعه، لقوله تعالى **﴿ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيراً وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾**، ونحمده سبحانه وتعالى على ما أولانا من النعم، ونتوب إليه من جميع الآثام إذا انجرّ بها القلم، ونسأله اللطف والإعانة على الكافرين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، المتعالى عن المشاركة والمشاكلة، وعن أن يحتاج لمشارك له فى إعانة من خرجوا من بلادهم متطوّعين، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله، وذروة سنام المجد وتاجه وإكليله، رسول خصه الله بالعناية والفتح المبين، اللهم صل وسلم على هذا النبى العظيم، والرسول السيد السند الكريم، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه كلما برق بارق النصر للمؤمنين وبأن أثر الذل على الخائنين، وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد فياعباد الله لا خفاء أنه قد مرت بنا فى الزمن السالف أيام غير صافية العيش للمسلم، وما ذلك إلا لعدم الحمية الإسلامية فى حكامه الذين كانوا كالليل المظلم، إذ كانوا منهمكين فى ميدان حظهم الدنيوى وعن الدين غافلين، والآن قد ظهرت البشائر بعز المسلمين وسطوتهم، إذ قد اعتدل حكام الوقت أيدهم الله بالأخذ فى أسباب قوة الدين ورد ما ضاع من شوكتهم، وصاروا باذلين الهمة فى التوصل لما يبعد الأمة عن التشويش ولما يكونون به آمنين، إذ قد شرع رئيس المجاهدين المؤيد بنصر ربه فى مدافعة من كانوا فى تشويش الأمة أول سبب، وباع نفسه هو وجيشه للجهاد فى سبيل الله ولم يبال بمشقة ولا تعب، كل ذلك لحفظ الوطن وإعلاء كلمة الدين، فطوبى لقوم باعوا الحياة الدنيا وشروا الآخرة ولم يكن لهم مطمح نظر سوى النصر من رب العالمين، واعلموا عباد الله بأن الله تعالى أمرنا فى كتابه المجيد بالقتال وأوضح لنا أمره، فنعم السيد الآمر ونعم من امتثل أمره، وتأمل فى قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين﴾**. فالمسلم العاقل من اكتفى بأمر مولاه، واشترى آخرته وباع دنياه فى سبيل الله، وتباشر بقوله تعالى: **﴿فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا**

مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن اوا مع الصابرين﴾ فأقبلوا عباد الله واخلعوا عنكم ثياب البخل والكسل، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله قبل اقتراب الأجل، وزوّدوا أنفسكم التقوى وأعرضوا عن المتقاعدين، فمن الواجب الآن على غنينا القاعد بذل الهمة فى الإنفاق على من تبرع بنفسه لدفع الأعادى، وصارت شهامة الإسلام على وجهه وجميع أعضائه تنادى، وجعل قوّته قوله تعالى: **﴿ثم ننجى رسلنا والذين امنوا كذلك حقا علينا ننجى المؤمنين﴾** فمن لم يقنع الآن وبعد الآن بما سمعه فهو منافق، ومن دين الحق مارق، وغافل عن قوله تعالى: **﴿فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين﴾** قال رسول الله ﷺ : «إن الله تعالى قال: من انتدب خارجا فى سبيلى غازيا ابتغاء وجهى وتصديق وعدى وإيمانا برسلى فهو ضامن على الله عزّ وجلّ إما أن يتوفاه فى الجيش بأى حتف شاء فيدخله الجنة وإما أن يسيح فى ضمان الله وإن طالت غيبته حتى يرده الله إلى أهله مع ما نال من أجر أو غنيمة وعلى الله قصد السبيل». وجاراه فى ذلك أيضاً آخر اسمه الشيخ محمود إبراهيم من أهالى أسيوط فخطب يقول ـ حمدا لمن جعل أعلام الملة المحمدية، على كواهل أعلام الأمة العربية، وحرسها بشهب ثاقبات، لرجم شياطين أهل البغى والغوايات، وصلاة وسلاماً على من كان إذا أراد غزوا ورّى به، ليتأهب ذو الهمة فيتوجه بصادق آرائه، وعلى آله الذين أقاموا أنفسهم أسوارا لحرمة الدين، ومن تبعهم فى المحاماة من كل حر لعرضه يصون (أما بعد) فإن الإنجليز قد طاشت عقولهم، وعميت بصائرهم، فلم يحسنوا الضروريات فساموا بسوق أموالنا وديارنا نفيسها، وساقوا إلينا من زيف المعارضات خسيسها، وقابلوا عيشنا بخداع، وفتشوا أكنافنا لغدر أضمروه ليوم النزاع، ونحن لما جبلنا عليه من محاسن الإيمان، وفينا لهم بعقد الذمة والأمان، فعاملناهم بالحسنى، وجبرنا ما كان منهم ضعفا ووهنا، فلما صحت أبدانهم، وعمرت أوطانهم، لم يقنعوا بذلك، بل طلبوا التصرف فينا تصرف المالك، فعاد عليهم سوء الحال بالانقلاب، فخربوا بيوتهم بأيديهم من غير زعزعة منا ولا اضطراب، وهكذا خاتمة أهل السوء والفحشاء، والله يؤيد بنصره من يشاء، حيث أقام ناظرا بعين الشرع ناظر، لم يخش فى الله لومة لائم أو زجر زاجر، فقابل كتائب الضلال، وأذاقهم كأس النكال، وقام خطيبنا يدعو إلى دعوة الحق، إذ كان من أم الكتاب بها فى عصرنا هو الأحق، فلباه أناس باعوا أرواحهم للجهاد، فى قطع جيش الضلالة والعناد، فأقبلوا إليه من كل فج عميق أفواجاً،

بالمال والنفس فرادى وأزواجاً، فعند ذلك دهى الإنجليز ما دهاها، حيث لم يكن فى حسابها ما عراها، فنسأل الله أن يكون سعادة أحمد عرابى باشا هو المشار إليه بـ (يبعث الله على رأس كل مائة سنة) فإن البشائر دلت عليه، حتى يمزق الباغون كل ممزق، ويحيا المندوب والمفروض بهذا الموفق، وتموت البدع التى اسودّ القطر بظلمائها، ويختفى شارق الظلم بأرجائها، فحاشا أن يجعل الله ديار أهل بيت نبيه فى ذمة كافر، جعل الله سعادة أحمد عرابى باشا وجنده الظافرين بأعدائنا فى المبدأ والآخر آمين.

وجاء الأمر إلى سيمور البحر بعد وصول ولسلى مقدم العساكر البرية كما تقدّم القول فرحل سيمور بسفنه عن الإسكندرية إلى بورسعيد وألقى مرساها أمام المدينة على هيئة الدفاع وبقيت سفن النقل أمام الإسكندرية وكان لما وصل سيمور بسفنه إلى بوغاز بور سعيد رأى هناك سفينة حربية صغيرة اسمها الصاعقة راسية أمام المدينة فتخوف سيمور منها وقد جاءه الخبر بأن فيها من الديناميت والمواد الالتهابية ما يكفى لسد البوغاز فى أسرع من لمح البصر وأن ربانها من أحب الناس إلى أصحاب الزعامة فتحرز سيمور منها وباتوا ليلتهم تلك وقد قضى ملاحو الصاعقة ليلتهم فى جلبة وحركة فلما أصبحوا أرسل سيمور إلى الربان يقول: ما هذه الحركة وما داعى تلك الجلبة وقد شوشتم علينا وأقلقتمونا فقال الربان: هى حركة لابد منها أمام السفن الأجنبية، فأرسل إليه ثانية يقول: كف وإلا ألحقتك والمركب إلى قاع البحر وارع حرمة سفن الحرب الإنجليزية ما دامت على قدم الاستعداد فانكمش الربان وخاف، وقدمت إلى بورسعيد بعض الطرادات الأفرنسية والألمانية والإيطالية تخفر السواحل يمنة ويسرة وحضرت مدرّعة كبيرة إنجليزية اسمها أوريون ورست أمام البوغاز فمانع أصحاب البوغاز من الفرنسيس فى دخولها فبقيت أياما ثم دخلت وسارت حتى رست فى بركة التمساح وكان فيها من الضباط مائة واثنان وأربعون ومن العساكر والأجناد عدد كثير، قيل وكان من أخص عمل هذه السفينة الوقوف أمام القنطرة بعد قطع خط التلغراف الموصل إلى دار السلطنة، ثم عدلت عن قطعه وعادت فألقت مرساها أمام مدينة الإسماعيلية، وكانت الحرب إلى هذا الحين قائمة ما بين العرابيين والإنجليز عند مواقع كفر الدوار والمواقع الأمامية بلا انقطاع حتى أتت الأخبار إلى أحمد عرابى بوصول مراكب الحرب إلى مدينة بورسيعد ونزول جيوش ولسلى بمدينة الإسماعيلية فسار من كفر الدوار إلى التل الكبير ومعه جماعة

من الضباط وطائفة من الحرس فلما وصل قطاره إلى مدينة الزقازيق خف لـلقائه العمد والأعيان والمشايخ وأرباب الطرق والأشاير وموظفوا الحكومة فنزل بالمحطة وعلى يمينه عبد الله صاحب الطائف وجلس بالكشك المقابل لها فاجتمع عند ذلك زعانف الناس حول الكشك واشتد زحامهم وعلا الضجيج وكثر الصياح بكلمات وعبارات قد لفقوها على قدر عقولهم من مثل العسكر فى الطوابى، الله ينصرك ياعرابى، يامولانا ياعزيز، أهلك عسكر الإنجليز، ياسيمور ياوش القملة، من قال لك تعمل دى العملة، وغير ذلك من بذىء القول وفحش الكلام ولبث على هذا الحال برهة ثم قام ودخل عربة القطار وهو ينادى أنا لها أنا لها والناس فى ضجيج زائد والغوغاء يصفقون بأيديهم ويضربون الأرض بأرجلهم فسار به القطار إلى التل الكبير على عجل وجعلوا من هذا اليوم يتابعون إرسال المؤن وآلات الحرب إلى التل الكبير وتوارد الجند من مشاة وفرسان وأصحاب المدافع وكثر الوارد منهم فتعطلت قطارات السفر من الإسماعيلية والسويس وهاجر من السويس من رجال الدولة وبعض الأهالى وأجهد الجند الطاقة فى إنشاء الحصون والمعاقل وأقاموا المتاريس على مسافة وجمعوا الكثير من أهل البلاد لهذا العمل ورتبوا المقدمات وبالغوا فى تعبئتها وعالجوا قطع الماء الحلو عن الإسماعيلية والسويس وتبع العسكر كثير من السوقة وأصحاب الصنائع الدنيئة مثل الإسكافية والقهوجية والسمكرية والخياطين وباعة الأفيون والمكيفات ونصبوا لهم المطاول وعملوا النايات والعشش من القش والبوص وغير ذلك فأصبح ذلك الصعيد آهلا بأصناف الناس وكانت لما رست تلك السفينة الإنجليزية أمام مدينة الإسماعيلية تصدّت إلى سائر ما وجدته هناك من بقية السفن على اختلافها ومنعت وقوفها أمام المدينة وشددت على أصحابها وضيقت فرحلوا عنها وهم صاغرون وخلا لها الجوّ فلم يمض إلا النصف الأول من تلك الليلة حتى قامت فى المدينة حركة شديدة للغاية وضوضاء وجلبة، ثم اشتد بعد ذلك إطلاق البنادق وجر المدافع وزحف الجند فهب الناس من مضاجعهم مذعورين وكأن على رؤوسهم الطير ونظروا وإذا العساكر الإنجليزية قد ملأت الفضاء وهم فى حركة زائدة كأنّ العدوّ يهاجمهم ثم لم يمض على ذلك إلا ساعة أو بعض ساعة حتى دوت أصوات المدافع من تلك السفينة وسفينة أخرى جاءت فرست بجانبها اسمها كارليفور واشتد الرمى وتراسلت القنابل على مواقع العرابيين بناحية نفيشة وما زال الحال هكذا طوال الليل فلما أشرقت الشمس سكتت المدافع وخرج جماعة من الإنجليز

قاصدين قرية العرب فلما رآهم أهلها مقبلين خرجوا على وجوههم هائمين فأخذتهم نيران البنادق من كل جانب لا سيما منهم النساء والأطفال ثم قطعوا سائر خطوط التلغراف القائمة ما بين السويس والإسماعيلية والقاهرة فاشتد الخوف بأهل الإسماعيلية من الأجانب والأهلين ونزح الكثير منهم إلى بور سعيد والمنزلة والمنصورة وغيرها ووصل إلى الإسماعيلية سيمور أمير سفن الحرب وولسلى مقدم العساكر البرية وكثر توارد المؤن وآلات الحرب ودواب الحمل من الجمال والخيل والبغال على ظهور السفن والشوانى واشتدت الحركة بزحف العساكر وجر المدافع وتحميل الأثقال، قيل: فأخذت أحمد عرابى وأصحابه الطيرة واشتد بهم القلق وقد كانوا على عهد مع ديلسبس فاتح خليج السويس بأنه لا يمكن سفن الإنجليز من العبور والوصول إلى مدينة الإسماعيلية فكتب أحمد عرابى إلى المابين الهمايونى كتابا يقول فيه: كنت قد بسطت لعطوفتكم قبل الآن أمر اعتداء الإنجليز وتسلطهم فى جهتى السويس والإسماعيلية على الترعة ومخالفتهم للعهود بما جاء مخلا بنظام الترعة وبسطت أيضاً ما كان من الهمة التى بذلناها فى جعل الترعة على الحيادة لأنها نقطة وحيدة لاجتماع منافع الأمم وممر تجارة العالم أجمع وحيث قد قرب الآن توجه المحل الشريف والحجاج المسلمين إلى جهة الحجاز كتب إلى المسيو ديلسبس الموجود الآن فى الإسماعيلية بالاستفهام عما إذا كانت إنجلترا تمانع فى مرور عساكر المحافظة المعتادة على التوجه مع المحمل الشريف أولا فأجاب وكالة الجهادية بالتلغراف، قائلا: إنه بالنظر إلى الأحوال الحاضرة لا يمكنه أن يأخذ على نفسه تبعة إرسال المحمل الشريف قال وبعد ورود هذا الجواب منع الإنجليز جميع سفن الدول الحربية من المرور بالقتال وقطعوا الأسلاك البرقية الكائنة بين السويس والإسماعيلية كما عرفنا ذلك بالتلغراف ثم أدخلوا سفنهم الحربية مع العساكر بأسلحتهم وقد أجرينا الاحتياطات لمقاومة العدو إذا تقدم إلى داخلية البلاد وكان قومندان الخط الشرقى ومحافظ الإسماعيلية ويوزباشى المستحفظة هناك قد أفادوا أن من عزم الإنجليز أن يطلقوا مدافعهم على النقط العسكرية الكائنة فى مداخل البلاد ففى هذا الصباح علم من الأخبار الواردة أن الإنجليز شرعوا فى الساعة التاسعة من ليلة أمس فى إطلاق القنابل من جهة الإسماعيلية على نفيشة أما نحن فبالنظر إلى احترامنا لعهود الترعة بأن تكون على الحياد وإلى عدم تقويتنا لتلك النقطة وعدم وجود قوة عسكرية تقوم بشأن المحافظة على النقط فيما عدا نقط العساكر المستحفظة وموالاة التحريض الشديد

على عدم مس حقوق الترعة كل ذلك جعلنا فى مأمن تام من تحمل أى تبعة كانت. ولما بدا من الإنجليز هذا الاعتداء على ضفاف الترعة أقام المسيو ديلسبس الحجة على الأميرال الإنجليزى وأرسل صورة الحجة بالتلغراف إلى الحكومة الفرنساوية فاتصل خبرها بوكلاء الدول فى عاصمة الحكومة المشار إليها فأعلموا بها دولهم بصفة رسمية أما الإنجليز فسيرا منهم على حكم المثل السائر «البادى أظلم» لم يلتفتوا إلى إقامة الحجة بل أصروا على الإخلال بنظام الترعة وفى هذا الشأن أرسل تلغراف إلى المسيو ديلسبس بما يأتى «بما أن الإنجليز خرقوا نظام حيادة الترعة فقد صارت مصر مضطرة إلى سدها وتعطيلها منعا لاعتداءتهم فإذا لم يرد لنا جواب فى مدة أربع وعشرين ساعة اضطررنا إلى اتخاذ الاحتياطات اللازمة للمدافعة» - قال - فمن التفاصيل التى تقدم سردها تعلمون أن الدولة الإنجليزية التى كانت متخذة لها مقاما خطيرا لدى الخلافة الكبرى وفى دار السلطنة العظمى وكانت تزعم أنها أشد الدول محافظة على السلام وأنها لا تحارب مصر ولا تقصد بها شرا قد أوقعت المسلمين فى إشكال عظيم ومن التعدى الذى قامت به أمس ظهر فى الواقع أنها تتظاهر بخلاف ما كانت تزعمه سابقا وتحقق أيضاً أنها مقاومة لجميع المصريين الأمة الخاضعة للدولة العثمانية، وأنها داست بأرجل المطامع منافع جميع الدول ولم تخش أحدا ورمت بنار الحرب والقتال إقليما عظيما فبما أن أعمال الإنجليز وصلت إلى هذه الدرجة لم يعد فى الإمكان أن نتراخى فى اتخاذ الوسائط الموصلة لدفع كيدهم وأما النتائج الوخيمة التى ستترتب على ذلك فستكون عائدة على المعتدى الظالم وقد بسطت فيما مضى شرح الأحوال التى كانت جارية يوم تدوينها وإرسالها فلكى يكون ما أعقبها غير خاف على شريف علم ظل الله بادرنا إلى كتابتها وتقديمها لنادى عطوفتكم . اهـ.

وكان أحمد عرابى وأصحابه يعلمون أن دخول عسكر الإنجليز إلى جوف البلاد سيكون من هذه الأرجاء الواسعة ولا سيما من جهة الصالحية فعقد مجلسا من جميع الضباط وكبار العصابة وتكلموا فى هذا الأمر ثم استقر رأيهم على تجييش قوة ثالثة يكون مركزها الصالحية وسيروا فى طلب ما جمعوه من خفراء البلاد بالجهاد القبلية والبحرية وألبسوهم الدرعيات من البفتة البيضاء ولبد الصوف عوض الطربوش وسلحوهم بالبنادق والقرابينات على غير دربة ولاخبرة وجعلوا المقدم عليهم على الروبى أحد زعماء العصابة وساقوهم إلى الصالحية فعسكروا بها وعملوا بعض الخطوط والمتاريس وخرج معهم محمود باشا البارودى متطوعاً يريد الغزو والجهاد فى

الإنجليز، وكان أحمد عرابى قد أعد لنفسه بالتل الكبير خيمة سعيد باشا ابن محمد على الكبير وهى من عجائب الخيام التى قلّ أن يكون لها مثيل، وأقام بها بين الخدم وطوائف الحرس كأنه فى عرس أو وليمة فجاءه جميع العلماء والمشايخ والعمد والأعيان ووجهاء البلاد للسلام وهاداه عمد ومشايخ سائر البلاد بالهدايا من السمن والأرز والعسل والدقيق وعجول البقر وفحول الجاموس والضأن لطعامه وطعام الجند المحاربين معه وأكثروا من إرسال الحلوى والفاكهة على اختلافها فكانت تأتى إليهم على قطارات السكة الحديد، وكان لما ذاع الخبر بما عليه المحاربون من الراحة ورغد العيش تطوع الكثير من أرباب الطرق والأشاير والمتعممين وأصحاب العكاكيز من سائر البلاد القبلية والبحرية وسار من منية ابن خصيب إلى مواقع التل الكبير الشيخ عبد الجواد ومن اليمون الشيخ الجنيد فى لوم كثيرة وطبول وزمور وكاسات وبيارق فأنزلوهم فى ناحية أعدت لهم فكان لا هم لهؤلاء القوم البتة سوى طلب المأكول والمشروب فى الأوقات الثلاثة فإذا أكلوا وشربوا وامتلأت بطونهم من الثريد واللحم المسلوق وجحظت عيونهم عقد كل طائفة منهم مجلسا كما يسمونه فيذكرون ويرطنون بكلمات لا معنى لها البتة ويصيحون وينادون مدد مدد فإذا اشتبك القتال بين الجند والإنجليز واشتدّ رمى المدافع والتقت نيران البنادق بالبنادق صاحوا وترامحوا ونادوا ياسيد يابدوى يا أبا عبد العال يا آل البيت يارجال الله ثم لا يلبثون أن يختفوا عن الأبصار، فإذا بطلت الحرب عادوا إلى حلقات الذكر وتكلموا برطانتهم ثم يقولون قتلنا من الكفار كذا وذبحنا بحد السيف كذا وكذا ولا نزال بهم إن شاء الله حتى نأتى على آخرهم ببركة آل البيت وكذلك كان يفعل جماعة العربان الذين كانوا بالصالحية مع معسكر على الروبى عند النداء فى العسكر بالخروج إلى القتال.

وبينما كانت الحال على ما وصفنا فى مواقع التل الكبير وكفر الدوار والصالحية كان العامة بطنطا ودمنهور والمحلة الكبرى يفعلون ما لا يوصف من النهب والقتل والعربدة ويكثرون من التطواف ليلاً ونهاراً جماعات وبأيديهم العصىّ والمساوق وهم فى ضجة وجلبة وصياح بيامولانا ياعزيز أهلك عسكر الإنجليز وغير ذلك من العبارات التى لفقوها، حدثنى من شاهد، فعال العامة بمدينة طنطا ورآها رأى العين بعد كلام قال: ولم أتجاوز البيت يعنى بيته حتى رأيت البلد يضج بالغوغاء وصراخ النساء والأطفال وتجمع الناس فى الأزقة والشوارع يدفع بعضهم بعضا فسألت عن السبب فقيل لى أن الحرب على أبواب البلد وقد ثار المسلمون على النصارى

يذبحونهم وينهبون بيوتهم ويسبون نساءهم وأولادهم فقلت فى نفسى فتنة ورب البيت وأسرعت إلى مقر ديوان المديرية فرأيت أمامه من المناظر المحزنة والمشاهد الموجعة ما تنفطر منه الأكباد فقد كانت الناس تقتل وتجر من أرجلها على الأرض كالبهائم المأخوذة إلى السلخ بعد الذبح وكان الغوغاء وخفراء الديوان يحملون العصىّ والمساوق ويوقعون العطب بكل من يمر عليهم من النصارى ولا يرفعون أيديهم عنه حتى يقضى عليه، وكان بعد موته على هذه الحالة الشنعاء يستلمه جماعة آخرون، فمنهم من يجره من رجليه، ومنهم من ينزل على رأسه بالهراوة حتى تتطاير أجزاؤه . اهـ.

وحدثنى أيضاً من شاهد ما وقع فى نفس ذلك اليوم بالمحلة الكبرى بعد كلام قال: وقد كنت فى سوق السلطان وكان الوقت بالغا إذ ذاك من النهار حدّ الساعة السابعة إذ أقبل من ناحية القنطرة جم غفير من الحمارة والسوقة وكلهم من السفلة والرعاع وفى أيديهم العصىّ والمساوق وبعض الآلات الجارحة والنارية وهم فى ضجة وجلبة عظيمة وكلما مروا بحارة أو زقاق انضم إليهم أهله من أصحاب البطالة حتى اقتربوا منا فسمعناهم ينادون ياتجار اقفلوا حوانيتكم لأن النصارى جعلوا يقتلون المسلمين على القنطرة فعند ذلك سارعنا إلى النهوض وقصدنا بيوتنا خوفا على العيال، وكان معنا فى هذا الحين حسين أفندى سامى مأمور تاريع المديرية فأبى الذهاب إلى بيته وقال: حتى أرى ما أصاب المسيو كجروس مفتش تاريع المحلة فذهبنا معه وقبل أن نصل إلى بيت ذلك المفتش سمعنا الغوغاء يقولون: يامسلمون اقتلوا النصارى وانهبوا بيوتهم كما أمر ضابط البلد، ووصلنا إلى بيت المفتش فوجدنا بابه مغلقا وعليه جماهير العامة وأصحاب الفتنة يريدون كسره واقتحام البيت لنهب ما فيه وقتل المفتش ومن معه فصاح فيهم حسين سامى وفرّق جموعهم ودخل على المفتش وهدّأ روعه وسكن جأشه وسار الأهالى رجالا ونساء وأولادا وهم يصيحون الله أكبر ويهجمون على الخانات ودكاكين التجار وينهبون ما فيها من مأكول ومشروب وملبوس ومفروش واستمر الحال على هذا الوصف إلى قبيل الغروب قليل وقد قتل تسعة رجال منهم ستة من الروم وثلاثة من مهندسى التاريع الأجانب، وقد كانوا مقيمين فى ناحية الشون الكبير وكان لأحدهم زوجة ولآخر ثلاث بنات أبكار وغلام وحماة التجؤا كلهم إلى بيت محمود أفندى منجد مأمور مركز سمنود فآواهم وذب عنهم جهد الاستطاعة - قال - وقد أحرقت العامة بعض القتلى بنار البترول وألقوا البعض الآخر فى البحر ومنهم من دفن فى تل الواقعة. اهـ.

(قلت): وكانت فعال العامة بالقاهرة أيضاً بالغة حدّ الجفاء والشدة ولكن لم يقع شيء من القتل ولا النهب ليقظة صاحب الشرطة إبراهيم فوزى بيك وتطوافه فى الشوارع والأزقة والحارات ليلاً ونهارا وقد رأيت جماعة منهم يوما يطوفون وبينهم حمار وعلى ظهره كلب أسود وعلى رأس الكلب قبعة (برنيطة) بالية والكلب فى غاية الخمول والكسل كأنه أطعم شيئاً من المخدّرات كالحشيشة ونحوها ولسانه قد تدلى من شدة الظمأ والتعب وهم يصيحون حول بياسيمور ياوش القملة من قال لك تعمل دى العملة، وما زالوا على هذه الحال من التطواف إلى وقت الهاجرة ثم أتوا إلى قشلاق جند الحرس الخديوى برحبة عابدين فلما صاروا أمام الباب تقدم أحدهم نحو الكلب وألقاه عن ظهر الحمار وذبحه بسكين كانت معه ذبح الشاة، فصاح عند ذلك الجمع صياحا متتابعا الله الله قطع الله رأس سيمور قطع الله رأس سيمور يريدون سيمور أمير مراكب الحرب وهكذا كان شأنهم مع الكلاب فى كل يوم حتى انكمشت واختفت عن الأبصار ولجأت إلى مواقد الحمامات وخرائب المدينة وكان إذا ظهر واحد منها ونادى عليه أحد الصبيان باسم سيمور انذعر وترامح واختفى عن الأبصار فرارا من الموت وكأن الكلاب قد أدركت بملكة التمييز (أى الغريزة الحافظة لنوع الحيوان) ما وراء كلمة سيمور من لبس القبعة والتطواف على ظهر الحمار ثم قطع الرأس أقول: والشيء بالشيء يذكرحدثنى صاحب لى، قال: حدثنى أبى رحمه الله وقد كنت أقص عليه يوما فعال العامة بالكلاب فى تلك الأيام فتبسم وقال: ليس فى الأمر ما يدعونى إلى الاستغراب من تلك الحيوانات الداجنة فقد أتى إلى القاهرة على عهد محمد على باشا الكبير أمير من أمراء الإنجليز ومعه زوجته للتفرج على آثار الديار فأقام بالقاهرة ما شاء يتجول فى شوارع المدينة ويتفرج على ما فيها من الدور والمبانى والمساجد والمعامل وكانت يومئذ كثيرة إلى أن سار يوما إلى ناحية الحسينية والدمرداش ومعه زوجته وكان زىّ ملابس الأمراء فى ذلك الحين قبعة طويلة سوداء وسراويل ضيقة وكساء مخروطا من الأمام ولفافة حول العنق، وكان كساء النساء فستانا تحته آخر بأسلاك الحديد على شكل قبة الهواء وقبعة كثيرة الأقمطة والأربطة فلما وصلا إلى ناحية الحسينية عرّج بهما ترجمانهما إلى ناحية المذبح ليروا كيفية الذبح فى هذه البلاد وكان أمام المذبح كثير من الكلاب الأشداء كأنها الوحوش الكاسرة فلما رأت هذه الهيئة الغريبة والزى البعيد عن عادة أهل البلاد قامت على الأمير وزوجته قومة واحدة فذعرتهما ومزقت ملابسهما فتداركهما أهل تلك الخطة

وخلصوهما فعادا إلى المدينة ولبثا ما شاء ثم عزما على الرحيل عن مصر فذهبا لوداع محمد على باشا فلاطفهما وحادثهما ساعة وسألهما عما أعجبهما فى البلاد - قال: وكان محمد على باشا شديد الرغبة فى تقدم البلاد وإيرادها موارد العز والرفاهية ميالا إلى توسيع نطاق الزراعة والتجارة والصناعة محبا لخيرها جهد الاستطاعة فقال الأمير: قد رأينا فى بلادك أيها الأمير كل ما يسر الخاطر ويقر الناظر ويبشر إن شاء الله بخير المستقبل غير أن قد رأينا أيضاً شيئاً لم نره فى بلاد الأمم المتمدنة قال: وما هو، قال: رأينا بناحية المذبح عند باب الحسينية جيشا من الكلاب فما وقع نظرها علينا حتى قامت قومة واحدة كالوحوش الكواسر فازعرتنا فتداركنا نفر من أهل تلك الخطة فخلصونا وعهدنا بالبلاد المتمدنة أن لا يترك فى شوارعها مثل هذه الحيوانات الكاسرة فقال الباشا يحزننى جداً ما أصابكما ولكن إذا عدتما إلينا فى السنة القابلة إن شاء الله فلا تريان إلا ما يسركما فشكراه وودعاه وانصرفا فأرسل الباشا فى الحال فى طلب كتخداه لاظه أوغلى فدخل عليه فقال: عليك من الساعة أن تبعد عن القاهرة ومصر جميع ما فيهما من الكلاب وتسير بها إلى الدار البيضاء وطره والجيزة وإياك أن تبقى منها واحدا، قال: فنزل الكتخدا وسار إلى ديوانه ودعا إليه مشايخ الحارات، وقال: تجمعون من الساعة سائر كلاب مصر والقاهرة ومن ترك واحدا منها حل به ما يكره فنزل مشايخ الحارات وجعلوا يطوفون فى الأزقة والحارات وتبعهم الصبيان يقبضون على كل ما يجدونه منها وكثر البحث والتفتيش وأخرجوها من كل فج عميق واشتدوا عليها شدة بالغة فكانوا يسيرون بها عشرات ومئات إلى الدار البيضاء وطره والجيزة فأدركت الكلاب ما هنالك واختفت عن الأبصار فشددوا فى طلبها أياما حتى ظنوا أنه لم يبق منها واحدا فانكفوا، فلما كان بعد بضع أيام ظهر منها ما كان مختفيا وهى فى أسوأ حال من الجوع وجعلت تسعى فى طلب الرزق ولا خفاء أن عادة السوقة وأصحاب الحوانيت إذا جلسوا فى حوانيتهم صباحا لا يبيعون ولا يشترون حتى يفطروا فيأتون بالفول المدمس والبصل والخبز ويجلس الرجل منهم وظهره إلى الطريق فكان إذا أتى كلب ووقف أمام الحانوت يطلب صدقة التفت إليه صاحب الحانوت فيقول له اخسأ - جر - عصا - امش - فلا يتحرك فإذا قال لغلامه: ناد ياولد على شيخ الحارة - هرول الكلب مسرعا واختفى عن الأبصار لإدراكه ما وراء حضور شيخ الحارة من القبض عليه والتغريب وبقى الحال هكذا فى منع الكلاب وطردها عن الحوانيت أياما كثيرة.

وكبرت فى هذا الحين شرور مهاجرى الإسكندرية وعظمت فعالهم فعاثوا وأفسدوا وبالغوا فى إيذاء الناس بلا فرق ولا تمييز فابعدوهم عن مصر والقاهرة وفرقوهم فى الأقاليم القبلية والبحرية وأسكنوا من بقى منهم بالقاهرة فى دور الحكومة وبيوت الأمراء الذين لجؤا إلى الخديوى بالإسكندرية وأنزلوا جماعة منهم فى بيت محمد سلطان باشا رئيس نواب البلاد على ما فيه من فرش وبسط وأثاث نكاية وانتقاما ورتبوا لهم خبزا فى كل يوم وأقاموا عليهم من يقوم بتدبير أمورهم وإحضار طعامهم فى أوقاته فكانوا لا يشكرون نعمة ولا يحمدون محسنا ولا ينفكون عن المهاترة والشناعة والملاكمة بعضهم مع بعض رجالا ونساء وأولادا وكان الرجل منهم إذا أعوزه الأفيون أو الدخان أو بعض المكيفات عمد إلى الحوانيت المقفلة ففتحها وأخذ ما فيها بلاخوف ولا اكتراث فكان إبراهيم فوزى بيك صاحب شرطة القاهرة لا ينفك عن التطواف ليلا ونهارا ومعه جماعة من أعوانه بأيديهم العصى فإذا رأوا جماعة من هؤلاء الحرافيش فى إحدى الطرق فرقوا جمعهم وباعدوا بينهم وبين بعض كى لا يتمكنوا من فعل شيء بالدور والحوانيت المقفلة وكانت فعال من تفرق منهم فى القرى والبلدان غاية فى الشناعة والإيذاء أيضاً فكانوا ضربة على البلاد وأهلها.

ولما تكامل حضور العساكر الإنجليزية إلى مدينة الإسماعيلية جعل مقدمهم يستكشف مواقع العرابيين ومعاقلهم وحصونهم التى كانوا يشتغلون بعملها بين الإسماعيلية والمسخوطة وكانوا قد تمكنوا من منع الماء عن الإسماعيلية وبورسعيد والسويس فرأى مقدم الإنجليز أن يعاجلهم بالقتال وهم على هذه الحال فزحف عليهم وقاتلهم قتالا شديدا حتى أوقع بهم واستولى على مواقعهم ثم كر عليهم العرابيون فأخرجوا الإنجليز من مراكزهم ولكنهم عادوا فاستولوا عليها بعد قتال، وسار جماعة منهم قبل ظهر السادس من شوّال يبلغ عددهم زهاء الثلاثمائة قاصدين نفيشة فوصلوا إليها فلم يجدوا فيها أحدا من العرابيين فأنهم لما علموا بقرب الإنجليز منهم تركوا نفيشة وساروا إلى المحسمة فعلم الإنجليز بخبرهم فتبعوهم وضيقوا عليهم وأخذوا عليهم الطرق من كل جانب فتقهقروا من المحسمة وتركوا بعض ما كان معهم من المؤن والذخرة وآلات الحرب وكان محمود باشا فهمى ناظر الأشغال العمومية وأحد زعماء العصابة مع العرابيين يومئذ فى ذلك المكان يرتب خطوط الدفاع الأمامية للتل الكبير فتركه العرابيون وتقهقروا فلاقاه نفر من الإنجليز عند

محطة السكة الحديد ولم يعرفوا من هو إلا بواسطة أحد العساكر المصرية المجروحين لأنه كان لابسا لباس الملكيين وبيده مظلة بيضاء فلما اقترب من ذلك الجندى المجروح وكان الجند جالسا قام وأدى له إشارات التعظيم ففطن الإنجليز لذلك وقبضوا عليه فسجنوه ليلتهم تلك فى حجرة صغيرة ثم أصبحوا فسيروا به إلى الإسماعيلية، فلما تمثل بين يدى مقدم الجيوش الإنجليزية قال له: أأنت ممن تركوا العسكر وولوا الإدبار أو ممن أسروا قهرا قال إنى أسير ولست منهزما فأمر به مقدم الجيوش فنقلوه إلى الإسكندرية وسجنوه فى دار محافظة المدينة وتقدم الإنجليز فى ذلك اليوم يريدون قطع شأفة العرابيين فخرّج عليهم جماعة من العرابيين ورموا عليهم بالبنادق رميا متتابعا وكذلك رمى الإنجليز واشتبك الحرب بين الفريقين ففعلت يومئذ نيران العرابيين بالإنجليز فعلا رديئا وكان القيظ لا يطاق فى ذلك اليوم ففعلت الشمس أيضاً بهم من الموت ما لم تفعله نيران العرابيين وظهرت مدافع المصريين أيضاً وتابعت الرمى بالقنابل على مواقع الإنجليز واشتدت فى الرمى حتى اتصلت بمؤخر الإنجليز وفعلت بهم فعلا أليما، وكان العرابيون قد حصنوا التل الذى هناك وأقاموا فيه خطوط دفاعهم مرتبة ترتيبا حسنا إذ كان يشتغل فيها من أهل البلاد والقرى المجاورة زهاء سبعة آلاف فلما اشتدت عليهم نيران الإنجليز وتراسلت قنابلهم انسحبوا إلى التل المذكور وتحصنوا به فتبعهم الإنجليز فى عاشر شوّال وقاتلوهم قتالا عنيفاً وكان مقدم المصريين فى هذه الواقعة الفريق راشد باشا حسنى الجركسى المعروف بأبى شنب فضة فقاتل فى ذلك اليوم قتالا شديدا جدا وفعلت نيران مدافع العرابيين بالإنجليز فعلا رديئاً وكانت قنابلهم تأتى إلى مواقف الإنجليز تباعا محكمة الرمى والإصابة حتى اتصلت بموقف ولسلى مقدم الجيوش فقتلت من حاشيته وجرحت فشهد الإنجليز لأصحاب المدافع وامتدحوا كفاءتهم وما زالوا على هذه الحال والرمى متراسل من الفريقين وراشد باشا يدير الحركة ويتابع الإشارات لأصحاب المدافع وهو بين ملتقى النارين حتى جرح جرحا بليغا وشاع الخبر بذلك بين العسكر فانفشلوا وانهزموا فتبعهم الإنجليز وضيقوا عليهم حتى أخذوا مواقفهم وغنموا ما كان فيها من المدافع والمؤن والذخرة واشتد التعب بالإنجليز وأعوزهم الماء والطعام فقد قضوا ثلاثة أيام كاملة بعد هذه الوقائع لا يأكلون سوى البقسماط اليابس ويشربون الآسن الممزوج بدماء القتلى من الإنسان والموتى من الحيوان ففعل فيهم هذا كله فعلا رديئاً ووقع فيهم الموات واشتدت بهم العلل والأمراض وحاول

العرابيون رجوع الكرة عليهم واسترجاع مواقع القصاصين منهم فخرجوا عليهم بقوتين إحداهما: قدمت من مواقع التل الكبير، والثانية: من مواقع الصالحية وكان مقدم هاتين القوّتين فى ذلك اليوم على باشا فهمى المعروف بالديب فخرج الإنجليز للقائهم واقتتلوا قتالا عنيفا فظهر الإنجليز على العرابيين وجرح على الديب جرحا خفيفا وتقهقر المصريون وانفشلوا وتبعهم الإنجليز وقد مات فى هذه الواقعة من كبار الإنجليز وصغار ضباطهم جماعة وعدد من الجنود وتحصن العرابيون بعد ذلك فى حصون ومعاقل التل الكبير فتبعهم الإنجليز رويدا فجعل المصريون يرمون عليهم بالقنابل رميا متتابعا غاية فى الإحكام فتربص الإنجليز حتى تكاملوا، حدثنى صاحب لى قال: ودبر العرابيون الأمر ورتبوا كيفية هجومهم على الإنجليز والإيقاع بهم بأن تسير من مواقع الصالحية قوّة مؤلفة من الجنود بين مشاة وركبان ومدفعيين وجماعة من العربان بقيادة على الروبى والبارودى فتأتى على ميمنة وخلف الإنجليز قبل مطلع الفجر الأوّل، وتسير قوة أخرى من مواقع التل الكبير وتأتى على ميسرة وخلف الإنجليز أيضا بعد وصول القوة الأولى بقليل ثم تلتحق القوتان بطرفيهما فيصير الإنجليز فى القلب ويقطعان عنهم خط الرجعة إلى المحسمة ويعملان فيهم القتل والتشريد قال: وسمعت أهل الحرب يقولون كانت هذه الخطة غاية فى الإتقان بالغة حد التفنن الحربى ولكن لحظ الإنجليز لم يتم للعرابيين شىء من ذلك إذ تأخر حضور عسكر الصالحية فى الميعاد المحدد لالتقائهم بجند التل الكبير وانقسم الرواة فى سبب تأخرهم إلى قسمين قسم قال: إن الخبراء من العربان الذين تولوا الإسراء بالجند ليلا من صحراء الصالحية إلى المحسمة قد ضلوا عن الطريق فلم يشعروا إلا ونور الفجر قد لاح وهم على قيد فراسخ من المواقع فخاف الضباط وتربصوا قليلا ليتحققوا الأمر فسمعوا أصوات المدافع مترادفة فرجعوا على أعقابهم القهقرى، وقسم قال: إن الذى أوجب تأخرهم إنما هو ضخامة الجيش وثقل مدافعه وصعوبة السير على رمال تلك الصحراء المموّجة فلما وصلت طليعة جند التل الكبير إلى مقربة من مواقع الإنجليز وكان الإنجليز قد أحسوا بما دبره العرابيون قابلهم فرسان الإنجليز بالسيوف شمال المراكز وأعملوا فيهم الضرب فتقهقروا وعادوا إلى الوراء بدون قتال ولجؤا إلى مقدمات قلاع التل الكبير ولم يفلحوا فى هذه اللحظة التى كان عليها تمام نصرتهم والله يؤتى النصر من يشاء من عباده.

وبدأت تظهر من هذا الحين طلائع الأخبار ببعض المدن وفى القاهرة بعزم

السلطان على إشهار عصيان أحمد عرابى ومن معه من كبار العصابة وأنهم خوارج مارقون واتصلت هذه الأقوال ببعض أخصاء أحمد عرابى والمقربين إليه من أهل البلاد فبالغوا فى كتمانها وكأنهم قد أشفقوا عليه فكثرت رؤياهم وأحلامهم أو هم أكثروا منها وجعلوا يذيعونها بين العامة وصغار الناس علها تدفع عن أسماعهم الخبر القائل بعزم السلطان على تكفير أحمد عرابى والنداء بخروجه وشقه لعصا الطاعة، حدثنى صاحب لى ممن كان فى ركاب أحمد عرابى بالتل الكبير قال: وكثر وقوع الأحلام والرؤيات لبعض المشايخ والمتعممين من أهالى القاهرة ومصر وبعض المدن فكانوا يسطرونها على أوراق ويرسلونها إلى أحمد عرابى بالتل الكبير وكلها عجائب وغرائب فقد اطلعت على بعض ما فى تلك الأقوال فرأيت أنها من الإفك والبهتان بمكان عظيم وعلى الخصوص منها أحلام أهل الشرقية وبعض مشايخها فقد أرسل أحدهم إلى أحمد عرابى يوما يقول رأيت فى نومى الليلة البارحة كأنى دخلت بستانا كثير الأشجار يانع الثمار تجرى فيه الأنهار فأدهشنى حسن ما فيه وتقدمت رويدا وأنا أسرح الطرف فى ذلك البهاء الظاهر والجنة التى لا يعرف لها أوّل من آخر فبينما أنا على هذا الحال إذ أمسك بكتفى صبى ما رأت عينى أجمل طلعة من طلعته، وقال: إلى أين ياهذا أصلحك الله؟ فقلت :لا أدرى ورب البيت، قال: انظر إلى يمينك ولا تجزع فنظرت فإذا بى أرى كرسيا من الزمرد الأخضر وبجانبه آخر من العقيق الأصفر ثم سمعت دويا كصوت النحل ومنادياً ينادى أنزل يامصطفى أنزل ياأحمد أنزل يامحمد فاشتد عند ذلك صوت ذلك الدوى وارتج المكان رجة مزعجة حتى كدت أسقط مغشيا على من شدة الخوف فلم ألتفت إلا وقد جلس على ذلك الكرسى الأخضر إنسان لم تر عينى أحسن شكلا منه وبيده مسبحة حباتها من العنبر فنظر إلى المكان نظرة المشفق ثم دق كفا لكف فحضر لديه فى الحال جماعة من الغلمان كأنهم البدور إذا بدت وقبلوا الأرض بين يديه وقالوا: لبيك ياحبيب الله قال: أين المجاهد أين المغازى أين نسل ولدى الحسين فغاب بعضهم لحظة لطيفة وعادوا وأنت بينهم أيها الأمير الجليل متشحا بحلة من السندس الأخضر وعلى وجهك هيبة وجلالة الله أكبر فقال النبى عليه الصلاة والسلام، تقدم ياأحمد فتقدمت وأنت خاشع مطرق فمد النبىّ ﷺ لك يده الشريفة فقبلتها مبتهلا، وقلت: انظر يارسول الله ما فعل الكفار بنا ونحن فى جوار عترتك الطاهرة وآل بيتك الكرام انظر كيف طرقوا أرض الكنانة بخيلهم ورجلهم فعاثوا وأفسدوا وأراقوا

الدماء هدرا ثم اغرورقت عيناك أيها الأمير بالدموع فنظر إليك رسول الله ﷺ وهو باسم وقال: خفف عنك ياأحمد فسوف تظفرون بهم وينصركم الله عليهم نصراً مبينا ثم ناولك سيفا قبضته من الذهب الخالص المرصع بالدر والجوهر، وقال: اضرب بهذا رقابهم ولا تكف عنهم حتى يستسلموا بإذن الله تعالى فلما سمعت أنا هذا الكلام من رسول الله ﷺ وكأنى والله فى يقظة لا فى منام صحت فرحا وقلت الله أكبر على من طغى وتجبر فانتبهت من نومى وكان رؤياى منقوشة على صدرى فأبشر بالنصر والغلبة على القوم الكافرين والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، قال الراوى لهذه العبارة: وكانت هذه الأكاذيب تتلى بين المحاربين فى مواقع التل الكبير من ضباط وجند وعربان وفى مواقع الصالحية وكفر الدوار فيتناقلها العامة والسوقة الذين يتبعون الجيش فى مواقع القتال وهؤلاء يبثونها محشوة بالإفك والبهتان بين أهل المدن والقرى القريبة فكان الناس لا يشكون قط فى صدقها ولا يقبلون لها تأويلا وظل الحال على ما هو عليه من انبثاث دعاة العصابة فى جوف البلاد يحضون البسطاء من أهلها على إمداد المحاربين فى مواقع التل الكبير بالنفس والنفيس ويموّهون عليهم الحقائق ويقصون عليهم تلك الأحلام والمنامات محشوّة بالخلط والتخريف حتى عم الفساد واختل النظام واشتدت الفتنة واتسع خرقها وصار الناس كلهم يتطاولون على مقام الخديوى بالسباب وفحش القول ويرمونه بالمروق ويتهمونه بترك دينه والتمسك بدين النصرانية ونصروا عبد الله صاحب الطائف ودعاة العصابة معه وأحلوا سائر مفترياتهم محلا عظيما، وبينما كانت الحرب قائمة على ساقها أمام مواقع التل الكبير ونار الفتنة تتأجج فى جوف البلاد كان سفير الإنجليز بدار السلطنة العثمانية يكثر من تهديد رجال المابين ويعمل على قطع حبل الاتصال الذى كان مشدودا بينهم وبين أحمد عرابى ولا سيما منهم الشيخ أحمد أسعد إمام السلطان فكان يقضى بياض يومه وسواد ليله وهو يغدو ويروح ما بين الباب العالى ومقر السلطان ويعمل بدهائه ويدبر بفطنته وذكائه ويلح بطلب صدور فرمان السلطان بعصيان عرابى، وكان يرجو من هذا العمل أمرين خطيرين أولهما: صرف وجه أحمد عرابى وأشياعه عن السلطان ورجال المابين فيفتتنون وتنقصم عروة اتحادهم والثانى تنزيل أحمد عرابى من عيون المصريين وصرف وجوههم عنه لخروجه عن طاعة سلطانه ورميه بالمروق واعتبار أن حربه للإنجليز حرب غير جائزة ولا هى من الجهاد فى شىء كما كانوا يظنون وما زال السفير يعمل ويكيد حتى أفلح وغرر

بالسلطان ورجال ما بينه وكبار دولته وأصدر فرمانا بخروج أحمد عرابى وعصيانه فطير السفير الخبر بذلك إلى الآفاق وأوعز إلى صاحب جريدة الجوائب العربية التى تطبع فى دار السلطنة العثمانية فنقش ذلك الفرمان على صحائف جريدته فابتاع السفير منه زهاء ستة عشر ألف نسخة وسير بها إلى الهند ومصر وغيرها من البلاد الإسلامية فوصل منها إلى مدينة الإسماعيلية شيء كثير فأمر به مقدم الجيوش الإنجليزية فنشروه على أيدى الجواسيس من العربان والفلاحين فى معسكر التل الكبير والصالحية وكفر الدوار فما انتشر بينهم وذاع خبر ما فيه حتى تراخت عزائم العسكر وفترت همم الضباط وكادوا ينفشلون وعم خبر ذلك بين الأفراد فتحدثوا به كثيرا.

وكان ممن جاء مع عسكر الإنجليز إلى الإسماعيلية محمد سلطان باشا رئيس نواب البلاد وجماعة آخرون من رجال الحكومة المتحزبين للخديوى قد سير بهم الخديوى فى ركاب مقدم العسكر الإنجليزية ليكونوا له عونا على قضاء حاجاته ويمهد أمام جيوشه ما يحدثه أهالى القرى من الموانع والعقبات فجمع إليه سلطان باشا بعض طوائف العربان ممن كانوا حول معاقل العرابيين واستمالهم وأجزل عطاءهم وقرّب منه بعض كبارهم فأطاعوا ومالوا إلى العطاء ودخلوا بين جند التل الكبير وأذاعوا بين صغار الضباط وأفراد العسكر خبر ما رسم به السلطان من عصيان عرابى ومن تبعه وأنهم خارجون مارقون عن طاعة أمير المؤمنين فأزعجهم هذا الأمر وتراخوا وانحلت عزائمهم وانفشلوا أو كادوا واتصل خبر ذلك بأحمد عرابى وأصحابه فهالهم وكبر عليهم وتناجوا فيه طويلا فاتفقواعلى كتمانه وإخفائه إلى حين ولكنهم لم يفلحوا إذ انتشر الخبر وعم وتكلم به سائر العسكر، قيل: وجاء فى هذا الحين رسول من عند مقدم الجيوش الإنجليزية فاجتمع بأحمد عرابى فى سرادقه وتحادثا ساعة فيما لم يصل أحد إلى معرفته حتى الآن ثم قفل الرسول راجعا إلى معسكر الإنجليز فظهرت بعد ذلك على وجوه كبار الضباط وصغارهم علامات اليأس والقنوط ووقع بينهم الهرج وبانت على وجه أحمد عرابى دلائل الضعف والاستسلام وذهبت عنه تلك الشدة والحدة وتولاه الخمول فلم يكن لهم فى هذا الحين سوى تحريك شفتيه بتلاوة الأوراد والأحزاب وتقليب مسبحته ذات اليمين وذات الشمال والاحتجاب عن الناس إلا القليل من مقدمى العسكر وكان مقدم جنود خطوط التل الكبير الأمامية اسمه على يوسف المعروف بعلى خنفس فراسله محمد

سلطان باشا أيضاً واستماله إلى طاعة الخديوى فأطاع واستوثق لنفسه، فلما كان ثامن عشرى شوّال من السنة أى سنة تسع وتسعين ومائتين رتب مقدم جيوش الإنجليز عسكره على مقربة من خط السكة الحديد وترك المعسكر كله خاليا فى حراسة نفر قليل من جماعة المهندسين وأبقوا نارهمْ موقدة إيهاما بأنهم متربصون فى مضاربهم فلما صاروا على قدم الاستعداد سروا بعد نصف ليلة تاسع عشرى شوّال تحت جنح الظلام وأمامهم جماعة من الضباط المصريين ممن كانوا فى خدمة الخديوى بالإسكندرية وجماعة من عربان الهناده يدلونهم على الطريق وما زالوا على قدم السير حتى بلغوا مقدمة خطوط العرابيين فأمر لهم على بيك يوسف فدخلوا بين صفوف عسكره بلا ممانع ولا مدافع وكان جل العسكر فى هذا الحين نياما على الحصون والمتاريس والضباط فى فراشهم بأقمصة النوم كأنهم فى أسرة بيوتهم بين أحضان عيالهم آمنين مطمئنين وما زال الإنجليز حتى صاروا فى وسط المعقل وأطلقوا البنادق تباعا فانصبت نيرانها على العرابيين انصباب المطر فهبوا من نومهم مذعورين وحملوا على الإنجليز فلم يثبتوا إلى لحظة لطيفة حتى تمت هزيمتهم وولوا الإدبار وثبت أصحاب المدافع وأكثروا من الرمى بالقنابل فركب الإنجليز عند ذلك أقفيتهم وأعملوا فيهم السيف وأفحشوا فى قتل كبارهم وصغارهم فلما سمع عرابى أصوات المدافع والبنادق هب من نومه وقيل: بل كان على يقظة فخرج من سرادقه وخرج معه عبد الله صاحب الطائف وركب فرسا وركب عبد الله كذلك ومعهما جماعة من الفرسان وخرجوا على وجوههم يريدون بلبيس وقد ترك عرابى ما كان فى سرادقه من أوراق ومتاع فتبعهم نفر من فرسان الإنجليز وترامحوا خلفهم فلم يدركوهم أو لم يشأوا أن يدركوهم وما زالوا حتى أتوا أنشاص الرمل قبيل الظهر واتفق أنه كان بمحطة أنشاص قطار من قطارات المهمات قاصدا القاهرة فترامح أحمد عرابى ومن معه حتى أدركوه وركبوا فى آخر عربة فيه فسار بهم إلى القاهرة فدخلوها فى الساعة الثامنة عربى نهارا من تاسع عشرى شوال والناس فى شاغل عنهم بما هم عليه من التطواف والضجيج فى الشوارع والحارات فقد كان العامة وأرباب الطرق والأشاير وسائر صبيان المكاتب يطوفون زمرا فى ذلك اليوم ويصيحون بيالطيف، ياجبار اهلك عسكر الكفار، وكان المؤذنون يعجون على المنائر ويبتهلون إلى الله بعبارات الاستغاثة وطلب النصر على العدوّ فلما دخل عرابى القاهرة طاف صاحب الشرطة ومعه جماعة من العسكر يمنع الناس من التجمع فى الشوارع ويشدد على العامة بملازمة

السكون على غير عادته فلم تلتفت العامة إلى قوله وبقوا على هذا الحال من التطواف والضجيج والعجيج حتى شاع الخبر بوصول عرابى ومعه رأس سيمور أمير سفن الحرب الإنجليزية ورؤوس كثيرين من كبار الإنجليز والمصريين فهرع عند ذلك العامة من كل صوب وحدب وتبعتهم النساء بالزغاريت واشتدت جلبتهم وتزاحمت الغوغاء فى الشوارع والطرق وكثر صياحهم وضجيجهم واشتدت الحركة فخاف أصحاب الحوانيت وأغلقوا حوانيتهم وكبر خوف أصحاب البيوت وتطيروا من شر ذلك اليوم العصيب وسار عرابى بعد وصوله إلى قصر النيل وجمع إليه أصحابه من كبار الضباط وصغارهم وأخبرهم بخبر هزيمته ودخول الإنجليز فى جوف الحصون والمعاقل قيل: وشكى وبكى فتكلموا فى الأمر طويلاً فألح عليهم بالتعجيل فى إنشاء الحصون والمعاقل ومد الخطوط والاستحكمات أمام العباسية وأن يجمعوا المتشردين من العسكر ويلتقوا بالإنجليز قبل أن يدخلوا المدينة فيقاتلوهم وخطب عبد الله صاحب الطائف فى ذلك وجعل يستحثهم ويستنهض هممهم فاختلفت كلمتهم وكان ممن حضر معهم يومئذ فارا من الصالحية على الروبى فأشار بوجوب التسليم للقضاء وعقد المجلس العرفى فعقدوه واستدعوا سائر أعضائه من كبار العسكر والملكيين والعلماء والمشايخ والرؤساء الروحانيين والوجهاء والأعيان فقص عليهم عرابى ما جرى وبكى وبالغ فى الشكوى وعظم البلوى ثم قال: وإنى ما زلت على قدم الدفاع ورد العدوّ عن البلاد ما دام فىّ رمق من الحياة وجعل ينتحب فردّ عليه بعض الحاضرين من كبار العسكر وقال: أوماكفاك ياهذا أن دمرت الإسكندرية حرقا بسوء تدبيرك وجهلك العواقب حتى تريد أن تدمر القاهرة أيضاً بسوء فعالك فإن كنت لم تبق فيها على شىء فإن لنا فيها عيالا وأطفالا وأملاكا لا نسلم بضياعها ضحية لأغراضك فكفى كفى ماجرى، فعند ذلك أطرق عرابى رأسه خجلاً ولم ينطق ببنت شفه وطال بين الجميع الأخذ والرد ساعة ثم استقر رأيهم على كف القتال وعدم التعرض لعسكر الإنجليز بشىء مّا وأن يتقدم أحمد عرابى وأصحابه إلى مقام الخديوى فى طلب العفو عنهم بعريضة يرفعونها إليه فقام عبد الله صاحب الطائف وكتب عريضة ملأها بالطعن والتنديد بفعال الإنجليز وشحنها بالإفك والتغرير والتضليل وقص فيها ما وقع من البداية إلى النهاية ولم يصرح فيها بذكر شىء من ذنوب أحمد عرابى وذنوب أصحابه ثم جعل يتلوها على الحاضرين فلم تعجبهم وكان ممن حضر فى ذلك المجلس أيضاً بطرس باشا غالى وكيل الحقانية فكلم عبد

الله فى ذلك، وقال: إن المقام الآن لا يحتمل شيئاً من الطعن ولا التشديد فهات أملى عليك ما يحسن رفعه إلى مقام صاحب الأمر فأملى عليه شيئاً من عبارات الاستعطاف والاسترضاء فأعجب الحاضرين وأوقع عليه عرابى وأصحابه على كره من صاحب الطائف ثم اختاروا لهذه السفارة محمد رءوف باشا وبطرس باشا غالى فطلب على باشا الروبى مرافقتهما وقاموا من ساعتهم فى قطار مخصوص فسار بهم إلى الإسكندرية فلم يصلوا إلى كفر الدوّار حتى جاءهم الخبر بأن تربصوا حتى يأتيكم عبد الله برسالة من عرابى وأصحابه فتربصوا حتى حضر عبد الله على قطار مخصوص ومعه عريضة أخرى يخالف ما فيها ما فى العريضة الأولى، وقال: يقول لكم عرابى باشا لا ترفعوا إلى الخديوى العريضة الأولى وارفعوا إليه هذه، وكان لما قام رءوف باشا ومن معه إلى الإسكندرية فكر عبد الله فيما سيلقاه من العذاب إذا حوسب كل بعمله فزين لعرابى العدول عن طلب العفو وأن يظهر من الضعف قوة ومن الخوف رجاء ويكتب إلى الخديوى قصة يدفع بها عن نفسه عار الذل وشماتة الأعداء فأجابه عرابى إلى ذلك وعبد الله إنما يريد بهذه الحيلة التمكن من الفرار والاختفاء فلما وصل إلى كفر الدوار اختفى ولم يوقف له على أثر إلى أن كان من أمره ما سيذكر فى محله إن شاء الله.

ووصل رءوف باشا ورفاقه إلى الإسكندرية فى غرة ذى القعدة بعد العناء الشديد وتمثل هو وبطرس باشا بين يدى الخديوى ورفعا إليه عريضة عرابى وأصحابه فلم يقبلها وأمر بعلى الروبى فقبضوا عليه وأودعوه فى السجن منفردا عمن أتى بهم الإنجليز من مواقع الحرب من العرابيين وفرح أهل الإسكندرية يومئذ فرحا لا يوصف وأتت رسائل التهانى إلى ديوان الخديوى من كل صوب وطاف طوائف الفرنجة بالإسكندرية يهللون وينشدون أناشيد النصر ونزل المستر مالت قونصل جنرال الإنجليز إلى الإسكندرية ودخل على الخديوى وهنأه من قبل ملكة الإنجليز ومناه بالأمانى الكثيرة، أما المقاتلون من الإنجليز بمواقع التل الكبير فإنهم لما دخلوا فى وسط معاقل العرابيين وحصونهم نسفوا بعضها ومزقوا شمل من كان بها من العساكر ثم تركوا منهم جماعة لدفن جثث القتلى فأحصوها فكانت زهاء الألفين وسار الباقون قاصدين القاهرة من طريقين الأول بجانب السكة الحديد الموصلة إلى مدينة الزقازيق وبنها وبلبيس والثانى على ضفة الترعة الحلوة الخارجة من القاهرة كى يصلوا إليها بأسرع ما يمكن خوفا من أن يصيبها ما أصاب مدينة الإسكندرية وكان سير فرسانهم إلى الزقازيق غاية فى البطأ والفتور بسبب تعب الخيل وضعف الجند عن الحركة فلما

صاروا على قيد فرسخين من الزقازيق هجموا عليها ولكن بغاية الضعف والاختلال فلم يروا من يردهم فمال جماعة منهم نحو السكة الحديد وكان بها فى هذا الحين خمسة قطارات مشحونة بالعساكر المصرية والمهمات الحربية وكثير من المرضى والجرحى فأربعة من سائقى هذه القطارات لما رأوا اقتراب الإنجليز منهم قاموا وأسرعوا فى مسيرهم فنجوا بمن معهم من الوقوع فى أيدى الإنجليز أما الخامس فأنه ما كاد يتحرك حتى لحقه ضابط من الإنجليز ورماه بالرصاص فسقط ميتا فلما رأى العرابيون ما حل بسائق القطار وهجوم الإنجليز عليهم ألقوا بأسلحتهم وفروا طالبين النجاة فلم يتبعهم الإنجليز لقلة عددهم فنجا العرابيون جميعا وفى نحو الساعة الثالثة عربى نهارا تكامل وصول جميع العساكر الموكلين باحتلال مدينة الزقازيق مع مقدمهم الجنرال ماكفرصون وأما الفريق الثانى الذى سار إلى القاهرة على ضفة الإسماعيلية فأنه عبر الترعة من ناحية التل الكبير وسار سيرا حثيثاً جدّاً على شكل هجوم وما زالوا كذلك حتى وصلوا إلى مدينة بلبيس ليلا فباتوا فيها ليلتهم وهم على أهبة وتحفظ ثم ساروا غلسا فى ثانى يوم الذى هو غرة ذى القعدة وقد تركوا الطينة وترفعوا نحو الخانكاه ومازالوا يجدّون السير حتى بان لهم سواد القاهرة فى نحو الساعة العاشرة ونصف عربى نهارا وما وطئت حوافر خيلهم أرض العباسية حتى غابت الشمس فنزلوا عليها وهم فى أسوأ حال من شدة التعب وفعل الشمس وقلة الماء وشدة الحركة وكان عدد من دخل العباسية فى تلك الليلة زهاء سبعة آلاف مقاتل وسار نحو قلعة الجبل أيضاً زهاء ثلاثة آلاف آخرين فدخلوها فى نحو الساعة الثالثة عربى ليلاً وأخرجوا من كان بها من العسكر المصرى وصغار الضباط وفكوا قيود من وجدوهم فى حبوسها ممن أتى بهم زعماء العصابة من المديرين والوجهاء والأعيان وغيرهم وكذلك فكوا قيود أصحاب الجنايات قيل ولم يكن مقدم العساكر الإنجليزية الذين صعدوا إلى قلعة الجبل يعرف طريق القلعة من جهة العباسية فضبط اثنين من صغار الضباط المصريين الذين كانوا بمعاقل العباسية ليدلاه على الطريق فامتنعا فرسم بقتلهما فأطاعا وسارا مع الإنجليز حتى أدخلاهم القلعة فقابلهم مقدمهم جندها وبش لهم وأدخلهم بها على الرحب والسعة وكان بالقلعة من العساكر المصرية فى تلك الليلة زهاء أربعة آلاف مقاتل كاملى العدد فسلموا بغير منازعة وألقوا بأسلحتهم ونزلوا من ساعتهم إلى معسكر قصر النيل فلما خلت القلعة منهم استلم مقدم الإنجليز سائر المواقع والأبواب ومفاتيح قلعة المقطم الواقعة على

رأس قلعة الجبل وباتوا ليلتهم وأصبحوا وقد دخل القاهرة الجنرال ولسلى كبير مقدمى الجيوش الإنجليزية ومعه محمد سلطان باشا رئيس نواب البلاد وبعض كبار الضباط من المصريين فهرع للقائهم بعض موظفى الحكومة ممن كانوا فى حبوس العرابيين بالقاهرة وإبراهيم فوزى بيك صاحب شرطة المدينة، وكان لما دخل الجنرال لو بعسكره إلى العباسية ولاقاه صاحب الشرطة رسم له بالقبض على أحمد عرابى وكافة أصحابه والإتيان بهم إلى العباسية فنزل صاحب الشرطة وذهب إلى أحمد عرابى فوجد معه طلبة عصمت وآخرين غيره فقال لهما الجنرال لو مقدم جيوش العباسية يطلبكما الساعة فاضطرب أحمد عرابى ولكنه جعل يظهر من الضعف قوة وقام ومعه طلبة عصمت وساروا جميعا إلى العباسية وأرسلوا فى طلب على يوسف أيضاً وعلى يوسف هذا هو الذى سلم للإنجليز قلعتى الجبل والمقطم بعد أن تخلى لهم عن الطريق فى مقدمات التل الكبير كما تقدم بيان ذلك فى محله، فلما دخل ومن معه فى وسط معسكر الإنجليز أوقفوهم برهة وحولهم جماعة من العسكر بالبنادق والحراب ثم أخذوهم إلى مقر الجنرال لو وكان الجنرال جالسا على كرسى ورجلاه ممدودتان على كرسى آخر وحوله جماعة من عسكره وترجمانه فلما تمثلوا بين يديه لم يلتفت إليهم برهة طويلة ثم نظر إلى أحمد عرابى نظرة الظافر وقال: أأنت عرابى باشا؟ قال: نعم، قال: أأنت الذى عصيت وخرجت عن طاعة أميرك ومولاك وحاربته بغير سبب حتى سقطت فى أيدى جند ملكة انجلترا فتلجلج عرابى ولم يردّ الجواب فالتفت إليهم الجنرال وقال: اخلعوا عنكم سيوفكم فخلعوها وتقدموا بها إليه وقالوا إليك نسلم سيوفنا وإلى حكومة جلالة ملكة بريطانيا العظمى نسلم أنفسنا لأننا نعتقد سلامة نواياها نحونا ومعاملتنا بالعدل فامتنع الجنرال من أخذ سيوفهم بيده وقال: لستم أهلا لأن تؤخذ سيوفكم كأسراء الشرف ألقوها إلى الأرض كما تستحقون فألقوها أمامه فأشار إلى بعض صغار الجند الذين حوله فأخذوها وقبضوا على عرابى وطلبة عصمت وعلى يوسف وألقوهم فى سجن العباسية فى تلك الليلة، هذه رواية، وفى رواية أخرى أنهم لما تمثلوا بين يدى الجنرال لو بسيوفهم أخذها بيده فقالوا إننا نحمد الله تعالى على تسليمنا بأنفسنا إلى أمة تعرف العدالة وتقدرها قدرها وسيتضح لها أنا ما عملنا إلا بواجبنا ولم نسع إلا خلف حقوقنا وإن عندنا من العسكر المنظمة بمراكز العباسية زهاء خمسة وثلاثين ألفا ومثلهم فى مواقع كفر الدوار ورشيد ودمياط وهم على قدم الدفاع عند أول نداء

فيهم ولكنا لم نقدم على فعل شيء بعد ذلك خوفا على سلامة البلاد وقد سلمنا بأنفسنا فداء للوطن (قلت): وعندى أن لا حقيقة لهذه الرواية فقد كان موقفهم فى تلك الساعة محفوفا بالمكاره وأبعد من أن يتكلم فيه الفصيح اللبيب اللهم إلا إذا كانوا على يقين من السلامة وبينة من أمرهم وهذا ليس بالأمر البعيد فقد كان فى انسحاب أحمد عرابى من مواقع التل الكبير ودخول العساكر الإنجليزية بين حصون ومعاقل المصريين على ما مر بيانه سر سيتلى عليك فى محله إن شاء الله.

ولبثوا فى سجن العباسية إلى يوم الأربعاء حادى عشرى ذى القعدة ثم نقلوهم إلى قشلاق جند الحرس برحبة عابدين وقد احتله طائفة من الجنود الإنجليزية ونزل فريق آخر بقشلاق قصر النيل ففعلوا به ما لا خير فيه فقد أخذوا جميع ما فى ديوانه من فرش وبسط وطنافس وشراشف وكراسى فكانوا يبيعونها للعامة تحت القصر بأبخس الأثمان أو بشيء من التبغ أو العرق أو الفاكهة أو الخبز أو الجبن وأحرقوا جميع ما عثروا عليه من الأوراق والدفاتر الديوانية والأدوات على اختلافها ونزل الجنرال ولسلى بسراى عابدين واتخذها له مقرا وأقام على أبوابها الحراس والحجاب وأنزل بسراى الحرم الخديوى جميع أركان حربه ونزل الجنرال موريس مقدم النزل بسراى المدرسة التى برحبة عابدين وانبثت العساكر الإنجليزية فى شوارع القاهرة زمرا تطوف وتخاطب العامة بعبارات التحية وكان الهنود منهم يكثرون التطواف بالخطة المعروفة بخطة سيدنا الحسين وناحية دهليز الملك والحسينية ويحيون الناس ويقولون السلام عليكم يا مسلمون نحن مسلمون مثلكم أتينا لخلاصكم من أيدى العصاة المارقين، واهتم محمد سلطان باشا بأمر المؤن والعلوفات لعسكرالإنجليز وقد كثر طلبهم للخبز والأرز واللحم والسمن وغيره فشدد محمد سلطان باشا على صاحب شرطة المدينة فى ذلك فلم يقدر على القيام بأداء هذه الطلبات فى أوقاتها، وقد كنت يومئذ من مفتشى المراقبة العمومية فأتانى الطلب من محمد سلطان باشا على يد صديق لى اسمه عبد القادر بيك فهمى من قضاة المحاكم المختلطة فذهبت إليه فرسم لنا بأن نهيىء ديوانا يناط به لوازم العسكر الإنجليزى وكتب بذلك إلى صاحب شرطة المدينة وإلى ديوان الخزينة فأنشأنا ديوانا بالمكان الذى كان به ديوان المحافظ وقمنا بجمع حاجة الجيش فكانت أشياء كثيرة جدا من الضأن والبقر والخبز والأرز والسكر والفلفل والعسل والشاى وبيض الدجاج وبن القهوة والزبدة والسمن والخضروات

وحطب الوقود والتبن والفول والشعير والحشيش اليابس فى كل يوم صباحا مما قيمته ألف جنيه مصرى وسبعمائة جنيه عدا ما كان معهم من المؤن والعلوفات.

وعادت الأشغال الديوانية بعد أيام إلى سابق مجراها ووردت كتب الخديوى بالقبض على سائر من كان له يد فى إضرام نار الفتنة فقبضوا على من بالقاهرة وأودعوهم فى سجون بيت الشرطة وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق فأفحش المديرون والمحافظون فى معاقبة الناس وبالغوا فى إيذائهم وعلى الخصوص منهم مديرى الشرقية ومنية ابن خصيب فأخذا بالشبهات وملأ السجون من أصحاب الوجاهة وكبار الناس تشفيا وانتقاما وتزاحم أصحاب الوشاية وأهل السعاية على باب مصطفى رياض باشا ناظر ديوان الداخلية فأخذ بقولهم وشدد وهدد وتبعه فى ذلك سائر المأمورين ومن له كلمة مسموعة فانكمش الناس وعم الخوف وبات كل من لا يأمن على نفسه وولده، وكان لما دخل الجنرال وود بعسكره مواقع كفر الدوار حضر للقائه يعقوب سامى وكيل ديوان الجهادية فرسم له بإحصاء ما فى تلك المواقع من جند وآلة وسلاح فأحصاهم فكانوا زهاء ستة آلاف مقاتل وسبعمائة فرس مسرجة ملجمة وخمسين مدفعا بجميع مهماتها وخمسة عشر ألف بندقية فنقل جميع ذلك إلى القاهرة ثم رسم بدفن ما وجد من جثث الموتى من الإنسان والحيوان وبصرف جميع العساكر إلى أوطانهم فانصرفوا ماعدا الضباط فأنه أمر فسيروهم إلى سراى الرمل تخفرهم جماعة من فرسان الإنجليز، قال بعض الإنجليز: وكانت مواقع كفر الدوار غاية فى المنعة وحسن الوضع الهندسى والطبيعى قلّ أن يمكن التغلب عليها إلا بعد معاناة الأهوال وموت الألوف من الأبطال إذ كانت تنقسم إلى ثلاثة خطوط منتظمة محاطة بأرض غير مسلوكة لكثرة ما فيها من الأوحال والمرابك ويتفرغ من تلك الخطوط خطوط أخرى على شكل زوايا قائمة ممتدة إلى جهة سكة حديد كفر الدوار وترعة المحمودية وكانت الخطوط جميعها مسلحة بكثير من المدافع المرتبة على هيئة مناسبة للغاية قلّ أن يمكن معها للعدوّ الظفر بها وكان أمام كل خط من الخطوط الثلاثة خندق بعرض خمسة عشر قدما متقن الوضع محكم العمل وكان بين الخط الأوّل والثانى والثالث خمسة آلاف متر وكان على رأس الأول منها قلعة تسمى قلعة الإسلام إعزازا للدين وهى من أجمل القلاع شكلا وأقواها بنيانا وأحكمها وضعا. اهـ.

وكان العرابيون قد سدوا خط السكة الحديد بسدّ من البناء والتراب فرسم

الجنرال وود بكسر هذا السد فكسروه بشىء من الديناميت وأصلحوا بعض ما تعطل من خط السكة الحديد وعثروا وراء الخط الثالث من تلك الخطوط على كثير من عربات النقل مشحونة بشىء كثير من الحرائر والمقصبات والأطالس والشاشات وغيرها من منهوبات الإسكندرية فجمعوا ذلك كله وأحصوه، ولما أنجز يعقوب سامى ما رسم به الجنرال وود تمثل بين يديه وخلع سيفه وسلمه إليه وقال: لم يكن فيما فعلته إلى الآن مع أصحاب الثورة إلا طاعة مولاى الخديوى وكمال الإخلاص فى خدمة أهل البلاد وكثيرا ما نصحت عرابى فلم يقبل حتى كانت العاقبة ما كانت فلم يلتفت الجنرال إلى كلامه بل قال له: وما الذى جرى للقائمقام الإيطالى مسيو يولشى الذى نزل من بضعة أسابيع من مركب الحرب الإيطالية ولحق بعرابى فى كفر الدوار فقال لا أعرف من هو ذلك الرجل فالتفت الجنرال إلى جماعة الضباط المصريين فرأى الرجل بينهم وهو فى زى الضباط المصريين فأمسك بيده وقال هو هذا الذى أطلبه قال: ذلك وسلمه إلى نفر من الإنجليز فساروا به إلى الإسكندرية ليجازى عما فعل، واستسلم أيضاً من كانوا فى رشيد وحصون أبى قير والبرلس وطابية أشتوم الجميل القريبة من مدينة بورسعيد وغيرها من بقية القلاع والحصون ولم يمتنع سوى عبد العال أبو حشيش مقدم جند دمياط ومن معه من الضباط وصمم على الامتناع والمقاومة ونادى فى عسكره بالخروج فخرجوا بعددهم وآلات حربهم ولازموا الحصون والمتاريس وجدّوا فى تحصين مواقعهم فلم يلبثوا حتى شاع بينهم خبر استسلام جند طابية الجميل وبقية الحصون ففترت همتهم وتراخت عزيمتهم وتركوا سلاحهم وتفرقوا أشتاتاً ولم يفلح عبد العال فى ردّهم وجاء الخبر بذلك إلى الجنرال وود فسير فرقة من عسكره على قطار السكة الحديد إلى دمياط فلما وصلوا السنانية أرسل كبيرهم إلى عبد العال يقول إنا لم نحضر إلى هنا إلا لنأخذك كرها إذا لم تأت بنفسك خاضعا فامتنع عبد العال وأرسل يقول إنى مريض فعبر كبير الإنجليز النيل إلى دمياط فى قلة من أصحابه ودخل على عبد العال بمقره وقيل بل لاقاه عبد العال عند باب الديوان فأمر مقدم الإنجليز فقبضوا عليه قبيل الغروب وعبروا به النيل إلى السنانية ووضعوه ليلته تلك فى إحدى عربات البضاعة والجند يخفره وأصبحوا فسيروا به إلى القاهرة وأنزلوه فى سجن أحمد عرابى ومن معه وهى دار أعدوها لهم بجوار جامع أزبك عند رأس الأزبكية.

وفعل الإنجليز بمدافع الحصون والقلاع جميعها ما لا خير فيه وألقوا جميع

ما وجدوه فى المخازن من البارود والمهمات وآلات الحرب والعدد فى النيل وقد كان شيئاً كثيرا جدا وشاع الخبر بذلك وتناقله الناس فانقبضت صدورهم وظنوا بالإنجليز السوء بعد أن كانوا فرحين بمقدمهم، فلما تم للإنجليز ما أرادوه من نسف مواقع كفر الدوّار وحصون التل الكبير وتعطيل مدافع سائر القلاع من الإسكندرية إلى أبى قير فرشيد فالبرلس فدمياط فالجميل وما بين هذا كله من المعاقل والأبراج أنزلوا عسكرهم فى جميع المخافر ومراكز الأربطة بالإسكندرية والقاهرة ورتبوا منهم أصحاب الشرطة والعسس وجماعة يطوفون فى الليل والنهار مشاة وركبانا لانتشار عسكرهم فى الطرق والشوارع العمومية وأماكن اللهو والقصف بخطة الأزبكية والعتبة الخضراء والموسكى وجلهم سكارى فكان العامة يتحككون فيهم ويمازحونهم أو يشوّشون عليهم وجماعة العسس المتطوفون يحملون السكارى منهم إلى المعسكرات فكان مقدّمهم يرسل الأوامر تباعا إلى كبار ضباط العسكر وصغارهم بمنع العسكر من الاجتماع فى الحانات والتشديد على باعة الخمور والمسكرات بالامتناع عن بيع الردىء منها إليهم وإلا بولغ فى عقابهم فلم يأت ذلك بفائدة إذ تفشت الحميات الخبيثة بين العسكر كافة فى قلعة الجبل والعباسية وقصر النيل وميدان عابدين وفى سائر المخافر حتى فى مساكن الضباط فأنشئوا الشفاخانات (وهى بيوت المرضى) بقلعة الجبل والعباسية فامتلأت بمرضاهم من كل صنف ورتبة وكثرت موتاهم كثرة بالغة فكانوا يحملون الجثث بالنقالات على أكتاف الخدم من الهنود أو على عجلات المدافع مغطاة بالراية الإنجليزية وأمامها الجند بالبنادق والموسيقى تعزف بألحان الحزن والحنان فإذا كان الميت ضابطا أو عظيما من قوّادهم سيروا جواده خلف العجلة التى تحمل نعشه مجللا بالسواد وعلى سرجه قبعة الميت وسيفه وحذاؤه فى ركاب السرج بشكل يخيل للرائى أن صاحب الجواد راكب عليه فكانت العامة إذا رأوهم على هذه الحال تجمعوا عليهم خلقا كثيرا وزاحموهم من الأمام ومن الخلف وربما دخل الصبيان بين صفوفهم فلم يكونوا ليظهروا شيئاً من الضجر فإذا وصلوا بالميت إلى المقبرة وضعوه لحظة لطيفة للصلاة عليه، وربما رثوه بشىء من الكلام يناسب مقامه أو رتبته ثم يوارونه التراب وحينئذ يطلقون بعض المدافع من قلعة الجبل أو يطلقون بنادقهم فى الهواء فوق القبر ثم يعودون صفوفا كما أتوا وكانت المنية يشتدّ فعلها يوما عن يوم بين عسكرهم الهندى فأهلكت منهم خلقا كثيراً فاهتم لذلك مقدّم الجيوش ورسم بإرجاعهم إلى أوطانهم وجاءه الأمر بذلك فأخذوا

يرحلون طائفة بعد أخرى إلى مدينة السويس ومنها إلى الأقطار الهندية على ظهور النقالات والشوانى الكبار وبقيت طائفة من فرسانهم وبعض كبارهم بالمكان المعروف بالبوليجون بالعباسية وهم فى ضعف وهزال وقد شاع يومئذ أنهم سيلبثون بالقاهرة حتى يأتيهم الطلب إلى عاصمة الإنجليز فيتمثلون بين يدى امبراطورتهم فتهنئهم عن أنفسهم وعن بقية الذين أبلوا منهم البلاء الحسن فى قتال العرابيين، هذا ومن عجيب الاتفاق أن الليلة التى دخلت فيها الجيوش الإنجليزية القاهرة وضواحيها وهى ليلة الثانى من ذى القعدة سنة تسع وتسعين ومائتين وألف أى خامس عشر سبتمبر سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة وألف كان الكثير من أهالى القاهرة ومصر القديمة عاكفين على الأعراس والأفراح والولائم وهم فى شاغل عن كل ما سوى ذلك فكانت فعالهم فى ذلك اليوم كفعالهم يوم دخول نابليون بونابرت القاهرة بجيوش الفرنسيس سواء بسواء فكأن مدارك القوم هداهم الله لم تتصل إلى شىء من الترقى من ذلك الحين إلى الآن وفى ذلك ما فيه من العجب العجاب.

ونهض أصحاب صحف الأخبار من الإنجليز يفصلون ويقيسون فى شكل موقعة التل الكبير ويلبسونها أثواب المدح والإطراء ثم جعلوا يعرّضون بذكر حروب بونابرت مع طوائف المماليك بديار مصر ويعجبون بالفرق بين ما لاقته جنود بونابرت من التعب والموات بسبب وعورة الطرق وقلة الماء وما لاقته جيوش الإنجليز من التوفيق وحسن الحظ ونسف مواقع التل الكبير فى قليل من الزمان وعدّوا أفعال مقدم عسكرهم من العجائب والآيات الحربية فرد قولهم بعض الكتاب وأكثروا من النقد والتعييب وقالوا: إن الصورة التى هجم بها قائد الإنجليز على مواقع التل الكبير كانت غاية فى الخلل بالغة حدّ الطيش الذى ما بعده إلا الخسارة والندم قالوا ولا يخطر على بال عاقل قط أن قائدا محنكا يجسر على اتخاذ تلك الخطة الهجومية على خطوط عدوّ من إحدى الدول الأوروباوية فإن إسراء تسع مراحل تحت جنح الظلام كاف وحده للجزم بالفشل والخسارة وبشؤم المصير وأن خروج مقدم عسكر الإنجليز هذا بعسكره فى نحو الساعة الثانية عربى ليلا وتركه جميع المعسكر تحت حراسة نفر من الجند وإسراءه وإياهم إلى منتصف الليل ثم تربصه ثم إسراءه لمن أكبر الأغلاط وأتعس المناورات وقد عابوا أيضاً طريقة الهجوم التى فعلها عند خطوط التل الكبير الأمامية وقالوا إنها تخالف الطرق الجديدة المعمول بها الآن فى جيوش الدول الكبرى وجزموا بوجود سر خفى فى الأمر وشىء متفق عليه بين قائد العساكر

الإنجليزية وبين أحمد عرابى ومن معه من زعماء العصابة ولولا ذلك ما تمكن مقدم جيوش الإنجليز من الدخول على تلك الصورة الخارقة لكل فنّ ونظام عسكرى، وكتب رجل اسمه جون نينى كتاباً فى هذا الصدد يقول فيه، مالى أرى إخواننا الإنجليز ولا سيما أصحاب صحف الأخبار منهم يلهجون بذكر موقعة التل الكبير ويحسبونها كرامة لمقدم عسكرهم مع أن الأمر ليس فى شىء من ذلك البتة لأنه لما اشتدت الأزمة واستحكمت على جيوش الإنجليز حلقات الضيق قدم إلى أحمد عرابى فى ظهر ثامن عشرى شوال من السنة يعنى سنة تسع وتسعين أحد مشايخ العربان وأعلمه بأن الإنجليز على قدم الهجوم على خطوط الدفاع بعد نصف ليلة تاسع عشرى شوال المذكور بساعتين وأنهم سيسيرون بعد ذلك إلى بلبيس ليفتحوا الطريق منها إلى القاهرة فكان الذى يجب على أحمد عرابى فعله بعد أن سمع هذا الكلام أن يبادر على الفور بتحصين مدينة بلبيس جهد الاستطاعة كى لا يتمكن العدو من دخولها وهى التى كانت أول حصن لبونابرت عند زحفه على مدينة القاهرة ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك وأرسل إلى طلبة عصمت مقدم جند كفر الدوّار يستمده ويقول له أرسل لى المدد بحيث يكون وصوله إلى التل الكبير ضحوة تاسع عشرى شوال يعنى بعد أن تكون قد خرقت جيوش الإنجليز خطوط التل الكبير ومزقت شمل من بها من الجنود وساروا منها إلى بلبيس ليفتحوا الطريق إلى القاهرة ومع ذلك فقد جاء المدد قبل الأجل المضروب ودخل مدينة الزقازيق ولكن ما الذى رآه ياترى ذلك المدد رأى جندا شاردا كالإبل الآبقة وأشلاء قد غطت وجه الفضاء وقد تم الأمر للإنجليز وفر أحمد عرابى هاربا إلى القاهرة فعاد المدد مع من لحق به من الفارّين إلى القاهرة - قال - ومن العجب العجاب أن فى الليلة التى دخل فيها الإنجليز معاقل العرابيين كان العربان على رأس الخطوط الأمامية منها فلما سمعوا صوت أول طلق خرج من بنادق الإنجليز صاحوا وترامحوا وعلت جلبتهم وجعلوا يدوسون بأرجلهم بطون الجند النائمين فهب الجند من نومهم مذعورين لا يعرفون من معهم ومن عليهم وخرجوا على وجوههم هائمين ومع ذلك فقد قابل أصحاب المدافع منهم عساكر الإنجليز وهم لا يزيدون عن ثلاثة آلاف مقاتل فقاتلوهم فأعمل الإنجليز فيهم السيف كأنهم يقاتلونهم وجها لوجه ومع ذلك فقد راسل أصحاب المدافع الرمى على الإنجليز فأصلوهم نارا حامية - قال - ولم يبق مجال للشك أو الريب فى أن ساداتنا الإنجليز قد قبضوا على كثير من صغار الضباط المصريين

وكبارهم عندما هموا بالفرار بما أخذوه من الرشاوى والبراطيل فأذاقوهم كأس المنون بحيث لم نر بين جثثهم جثة واحدة أو شيئاً من مشامش أحد العربان الذين كانوا كما قلنا على رأس الخطوط الأمامية فى تلك الليلة وبين الحصون والمتاريس ولم يكن ثمت ما يدرأ عنهم فى تلك الساعة نيران الإنجليز غير أنهم كانوا على عهد مع محمد سلطان باشا وبينة من الأمر قبل وقوعه ومن العجب العجاب أننا لم نر أحدا من هؤلاء العربان سيق إلى الحبوس كما ساقوا غيرهم مع أنهم كانوا لا ينقصون عن أربعة آلاف كلهم مدججون بالسلاح بل لم نر أحدهم أوقف يوماً موقف المسئول فليقل لنا السادة الإنجليز هل بعد هذا كله من دليل على صحة ما يزعمون وما بالهم اليوم ينكرون على جماعة العربان ذلك التوفيق والفوز العظيم الناجم عن فعالهم وما لنا لا نسمعهم يردّدون آيات الشكر والثناء على سلطان باشا جزاء ما قام به من بذل الأصفر الرنان حتى أزال به ما كان يتخلل طريق عسكرهم من العقبات وحال دون ما كان يترصدهم من المرابك والهلكات ـ قال ـ والحق أقول ولا أخشى لومة لائم أن جيش الجنرال ولسلى الذى كان يبلغ زهاء خمسة وثلاثين ألف مقاتل كاملى الآلات والعدد لم يقاتل فى تلك الليلة على خطوط التل الكبير سوى ثلاثة آلاف من المصريين وبينهم قليل من أصحاب المدافع وكلهم فى دهشة من النوم فأنه لما كثر صياح العربان عند دنو الإنجليز من الخطوط وارتفعت أصواتهم وعلت جلبتهم خرج سائر المصريين على وجوههم هائمين فلم يبق منهم بالمعاقل فى تلك الساعة سوى هذا النزر القليل وعليه فإنى لم أر فى نصرة مقدم الإنجليز على مواقع التل الكبير شيئاً يستوجب الاستغراب أو التفاخر والإعجاب . اهـ. بنصه.

وقد كانت رحى المناقشة إلى يوم دخول الإنجليز مواقع التل الكبير دائرة ما بين الباب العالى واللورد دوفرين سفير الإنجليز بدار السلطنة العثمانية على قاعدة تقرير عصيان أحمد عرابى وخروجه عن الطاعة وكانت هذه المناقشة غاية فى المواربة بل كانت من قبيل إظهار غير الخفى وإخفاء الظاهر المشاهد لأنه بعد أن كانت انقطعت المخابرة بينهما بشأن إرسال العساكر السلطانية إلى ديار مصر لأسباب ما أنزل الله بها من سلطان ووصل إلى المابين الهمايونى الخبر بقيام الجنرال ولسلى مقدّم حملة الإنجليز بعسكره من الإسكندرية إلى مدينة بورسعيد وأنه قد احتل القنطرة ثم الإسماعيلية وأنه أخذ يقاتل العرابيين تباعا وأن مساعى محمد سلطان باشا فى استمالة العربان إلى طاعة الخديوى قد تمت أو كادت عاد رجال الدولة إلى فتح باب

المخابرة مع السفير بشأن إرسال فريق من العسكر السلطاني إلى مصر وألحوا فى الطلب فكان السفير يطاولهم تارة ويحاولهم أخرى ثم عاد إلى المواربة فى القول فلما آنسوا منه بعض الرغبة عادوا فأظهروا عدم الرضا عن قاعدة الاتفاق الذى بموجبه يرسل السلطان عسكره، قيل: فانقبض السفير عند ذلك وانكف عن الكلام أياماً أخرى. وكان الإنجليز قد سيروا جماعة منهم فى هذا الحين إلى الشام لشراء بعض الدواب من البغال والخيل والجمال لحملتهم على مصر، فأرسل الباب العالى إلى عماله بالولايات يحذرهم من بيع تلك الدواب وخروجها من بلاد الدولة ففعلوا وقبضوا على من استخدمه الإنجليز من أهل البلاد فى خدمة هذه الدواب وألقوهم فى الحبوس، فجاء الخبر بذلك إلى السفير فاستعظمه وكبر عليه وكلم الصدر الأعظم فى ذلك وبالغ فى الشكوى وأكثر من الترداد بين الباب العالى والمابين ومازال يغدو ويروح حتى رسم السلطان فى ثامن شوال بإطلاق أمر البيع والشراء فى تلك الدواب لمن يشاء من خلق الله وأطلقوا سبيل من كانوا فى الحبوس بسببها، وأرسل السلطان بعد ذلك أحد رجال ديوانه الخاص إلى السفير يسأله أن لا يكون نزول العساكر السلطانية المزمع إرسالها إلا فى مدينة الإسكندرية فقام السفير من ساعته واجتمع بصدر الدولة وكبارها وكلمهم فى الأمر فكلموه طويلا وبعد أخذ وردّ قال السفير: إنه سيبلغ هذا كله إلى كبير السياسة الإنجليزية فوافقوه على ذلك ووافقوا أيضاً على جميع الأوجه التى كانت سببا فى الاختلاف ورفع السفير الأمر إلى كبير سياستهم ثم عاد فكلم السلطان فى إصدار فرمانه بعصيان أحمد عرابى وشقه لعصا طاعة الخلافة، قيل: فتململ السلطان وامتنع فألح السفير فشدد هو فى الامتناع ورسم إلى رجال دولته فجعلوا يطاولون ويحاولون ويهوّنون على السفير الأمر والسفير لا يزداد إلا تشديدا فى الطلب وسير إلى الصدر الأعظم يوما من يقول له: أن دولة الإنجليز لا تعتبر إرسال العسكر السلطانى إلى الإسكندرية أمرا مقضيا وأنه لا يصير التوقيع على الاتفاق المبرم بشأن ذلك حتى يصدر السلطان فرمانه بعصيان أحمد عرابى ومن معه، وباتوا وأصبحوا وقد جاء الخبر من صاحب سياسة الإنجليز برفض طلب السلطان نزول عسكره بمدينة الإسكندرية فكبر الأمر على السلطان ورسم إلى الصدر الأعظم بمعاودة السفير وفتح باب المخابرة معه، وأنه متى تم إرسال العساكر السلطانية إلى الإسكندرية رسم السلطان بعصيان أحمد عرابى، وطير الخبر بذلك إلى الآفاق فعاد الصدر إلى الكلام مع السفير وأظهر غاية اللين والتلطف وثابر على الكلام مع

المجاملة لعله ينال أربا فلم يفلح، قيل: فأرسل إلى الولاة ثانية يمنع من خروج دواب الحمل لحملة الإنجليز على مصر ففعلوا وأحس السفير بذلك فانكف عن الكلام مع رجال السلطنة أياماً فراسله الصدر الأعظم فى ذلك فامتنع وقال: لا سبيل إلى ما تطلبون فسير إليه من يعلمه بأنّ أمير المؤمنين لا يمتنع من قبول نزول عسكره بأبى قير عوضا عن الإسكندرية فإذا وافقت دولته على ذلك وصار التوقيع على العهد أصدر السلطان فرمانه بعصيان أحمد عرابى ومن معه فأظهر السفير رضاه بهذا الشرط، ولكنه طلب قبل كل شيء أن ينفذ الأمر لسائر الولاة والعمال بالكف عن منع خروج الدواب من ولاياتهم فأجابه الصدر إلى ما طلب، وشاع الخبر بذلك فى دار السلطنة فظن الناس أنه لم يبق بعد هذا كله من سبب للمواربة والتكلف لا سيما وقد ورد على بعض رجال الدولة الخبر بتقدم العساكر الإنجليزية وتغلغلهم فى جوف البلاد المصرية وانضمام بعض كبار العربان إليهم، فلما كانت ليلة سادس عشر شوال سار سعيد باشا صدر الدولة إلى دار سفير الإنجليز وأعلمه بأن أمير المؤمنين ميال كل الميل إلى التعجيل بتسيير عساكره إلى أبى قير كما وقع الاتفاق فلم ير من السفير فى ذلك اليوم وجها باشا ولا صدرا رحبا فانصرف عنه وعاد إليه فى ثانى يوم ومعه كاتم أسرار السلطان. وقال: الخليفة يقرئك السلام ويقول أنه لم يكن ليأنف قط من تنفيذ رغائب صاحب السياسة الإنجليزية كما هى إذا تساهل فى نزول عساكره السلطانية بمدينة الإسكندرية كما أنه لا يحجم أيضاً عن تقليل عددهم المتفق عليه ابتداء وتنزيله إلى ألفين أو ألف مقاتل وأنه يرسل معهم باكر باشا الإنجليزى قائدا ثانيا ولا يمنعه من أن يأخذ معه من الضباط الإنجليز من يشاء بحيث تبقى العساكر السلطانية فى ديار مصر فى هذه الحملة تحت المراقبة الإنجليزية كما كانت أيام الحرب الروسية، قيل فرفع السفير محصل هذا الكلام إلى صاحب سياستهم فلم يرد عليه الجواب أو ورد ولكنه لم يبلغه إلى الصدر الأعظم، وجعل يطاول ويحاول إلى أن وردت إليه الأخبار بنجاح حملتهم وتحقق من تمام استمالة بعض كبار الضباط المصريين وصغارهم ومشايخ قبائل العربان وجاءه الأمر من صاحب سياستهم بأن يبلغ السلطان أن حكومة الإنجليز كانت لا تتأخر عن قبول شروط إرسال العساكر الشاهانية إلى مدينة الإسكندرية لولا ما يحول دون ذلك من الدواعى والأسباب الكثيرة ولكنها مع ذلك لا تمتنع من قبول إرسال ألفين منهم وتنزيلهم فى أحد مواقف ترعة السويس، قيل: فلما سمع السلطان هذا الكلام حزن جدا لا سيما وقد

جاء الخبر فى هذا الحين إلى المابين والباب العالى بتغلغل ولسلى وعسكره فى جوف البلاد وأن قد انضم الكثير من كبار الضباط وصغارهم إلى جهة الإنجليز فأرسل السلطان الصدر الأعظم إلى دار السفير يقول: إن أمير المؤمنين يقبل تنزيل عسكره فى مدينة بورسعيد وأنه فى مقابلة ذلك يتعهد بإصدار فرمانه بعصيان أحمد عرابى وسائر زعماء الثورة بديار مصر فأظهر السفير رضاه عن ذلك ولكنه لم يبد جوابا شافيا.

فلما كان رابع عشرى شوال سار السفير إلى الباب العالى صباحا ومعه ورقة مسطور فيها العهد المراد إبرامه بشأن إرسال العسكر السلطانى ودخل إلى مقر الصدارة ولم يستقر به المقام حتى جاءه من أعلمه بصدور الفرمان الشاهانى القاضى بعصيان أحمد عرابى فسر بهذا الخبر سرورا عظيما، ولكنه لما اطلع عليه لم يعجبه وانقلب سروره حزنا أو هو تظاهر بذلك وقال إنه لم يتضمن شيئاً البتة من الأسباب والقواعد التى وقع الاتفاق عليها فراجعه الصدر الأعظم فلم يلتفت إليه وامتنع من التوقيع على ورقة العهد القاضى بإرسال العساكر الشاهانية إلى مصر فعاوده الصدر ولاطفه وهوّن عليه، وقال: لابد من إرجاع كل شىء إلى ما وقع الاتفاق عليه وسأله أن يطلعه على ما فى ورقة العهد فأطلعه عليها فإذا هى لم تعين مدينة بورسعيد محطا للعساكر السلطانية كما وقع الاتفاق على ذلك بل تبيح نزولهم على ضفاف ترعة السويس ليس إلا فاستاء الصدر الأعظم من ذلك، وقال للسفير: وددت أن لا يبقى بيننا من الآن شىء من المواربة فقد ذهب الصبر واختلط الحال والعهد الذى أبرم بيننا إنما هو على جعل مدينة بورسعيد محطا لعساكرنا وقد وافقتمونا على ذلك فلا موجب إذا أن تعدلوا فتركه السفير وانصرف ثم عاد وقد كتب فى تلك الورقة ما نصه: أن حكومة جلالة الملكة تبيح للعساكر السلطانية الرحيل إلى مدينة بورسعيد ومنها إلى الموقع أو المواقع التى يحصل الاتفاق عليها ما بين مقدمى الجيشين . اهـ.

(قلت): وقد قصدوا بذلك أن العساكر السلطانية يأتون فيمرون من ترعة السويس ولا ينزلون على ضفافها إلا حيث يأمرهم مقدم عسكر الإنجليز، فأبى السلطان عليهم ذلك، وقال: لا بل ينزلون بمدينة بورسعيد فوعد السفير بتبليغ هذا الكلام إلى صاحب سياستهم وانكف عن مقابلة الصدر الأعظم أياما فأحس رجال الدولة بما وراء هذا التطويل وأدركوا ما يترصدهم من الخيبة لا سيما وقد جاءتهم

الأخبار يومئذ بقرب تغلب الإنجليز على أصحاب التل الكبير وأنهم قد طيروا الخبر بعصيان أحمد عرابى وخروجه عن طاعة أمير المؤمنين كماتقدم القول.

وفى سادس عشرى شوال سار الصدر الأعظم إلى مقر سفير الإنجليز متأبطا بعض الأوراق وصورة من العهد المتعلق بإرسال عساكرهم إلى ديار مصر ومذكرة للتوقيع عليها من السفير وكلمه فى الأمر، وقال: قد رسم أمير المؤمنين بأن لا يمكن التغاضى عن عدم ذكر هذه العبارة فى بنود الاتفاق وهى: «ينزلون بمدينة بورسعيد» فأبى السفير عليه ذلك. وقال: لا بأس من أن نأتى على تفسيرها فى سطور المذكرة بهذه العبارة «تسير العساكر الشاهانية قاصدة مدينة بورسعيد لكى تتمكن من الدخول من خليج السويس» وكانت تلوح على وجه السفير فى هذا الحين لوائح الاضطراب والوجل وكأنه كان يتوقع حدوث حدث جديد وكان فى كل لحظة يدخل عليه أحد بطانته فيكلمه همسا فكان تارة يحمر وجهه فرحا وأخرى يصفر وجلا ورجال الدولة فى شاغل عنه بمراجعة بنود الاتفاق وقراءة عبارة المذكرة ثم أعادوا معه الكلام فلم يقبل إلا ما أشار به وأصر على الامتناع فقاموا من عنده وانقطع الكلام بينهم أياماً أخرى، فلما كان تاسع عشرى شوال وردت الأخبار إلى السفير بانتصار الجنرال ولسلى على العرابيين ودخوله القاهرة فأشاع السفير هذا الخبر وطيره إلى الآفاق فجاءه فى ذلك الحين الصدر الأعظم وناظر الخارجية وكلماه فى أمر إرسال العساكر السلطانية إلى بورسعيد وفى تعديل بنود العهد وكأنهما لا يعلمان شيئاً مما حل بالعرابيين، فلما سمع السفير كلامهما تبسم وقال: قد ضاعت الفرص وذهبت الآمال بل قضى الأمر فلم يبق من موجب لإرسال العساكر السلطانية وقد انتصرت ولله الحمد عساكرنا وظفر مقدم جيوشنا بأهل الثورة ظفرا مبينا، قيل: فأظهر الصدر الأعظم استغرابه من هذا الخبر وقال: وكيف ذلك؟ فقال السفير: نعم وقد أتانى الأمر بأن استرجع صورة الاتفاق التى قد كنت بعثت بها إلى المابين ولقد كانت حكومة جلالة ملكتنا تودّ أن لا تعمل إلا ما فيه إرضاء أمير المؤمنين غير أن الظروف لم تأت بالغرض ولكنها لم تغير قط شيئاً من العلائق الودية الكائنة بين الدولتين من القدم فقال ناظر الخارجية: أى نعم وأن حكومة عظمة أمير المؤمنين لا تنسى قط ماهية الحب المتبادل بينها وبين حكومة جلالة الملكة، وعليه فإنى أسأل باسم مولانا أمير المؤمنين ما هو الأجل الذى ضربتموه لجلاء عساكركم عن أرض الكنانة فطفق عند ذلك السفير يحدثهم بخبر ما لاقته العساكر الإنجليزية من التعب

أمام حصون التل الكبير وجعل يبالغ فيما بذلته حكومة جلالة الملكة من النفس والنفيس حبا فى إرجاع الهدوء والطمأنينة إلى البلاد بعد أن كادت تقوض الفوضى ربوعها إلى أن قال: ولقد زادت هذه الضحايا فى نفوذنا نفوذا آخر نجم عنه مسئولية عظيمة لا يمكن التخلى عنها لا سيما وقد انحل الجيش المصرى وأصبح خديوى البلاد فى حاجة إلى تدبير حكومته وإرجاع سابق سلطته فلا يجمل بدولة بريطانيا فى هذا الوقت إجلاء عساكرها وترك البلاد بلا حافظ ولا رقيب على أنها مع ذلك قد رسمت بجلاء فريق منهم وهى على عزم أن لا تبقى منهم أحدا فى جوف البلاد متى سمحت الظروف بذلك إلى أن قال: ولا أرى نفسى مقصرا فى القيام برغائب أمير المؤمنين كما لا ينكر جلالته علىّ ذلك ولكن إعراض جلالته عن الأمر فى حين وجوب الإقبال والتزامه جانب التطويل فى الوقت الذى كان يجب فيه الاختصار كلاهما كان باعثا على وقوع ما وقع. ومع كل ذلك فإن رباط المودّة بين الدولتين لا ينفصم أبدا فقام الصدر الأعظم ومن كان معه وانصرفوا وشاع فى الأستانة خبر دخول جيوش الإنجليز إلى القاهرة فاضطرب الناس وأخذتهم الطيرة وقبحوا فعال الصدر الأعظم ووزير الخارجية ورموهما بالخيانة وسوء النية واتهموهما ببيع أملاك الدولة بثمن بخس وقامت الفتنة فى السراى السلطانية وتفرقت أغراض أهل المابين ورمى كل رفيقه بالغش والخيانة وانكشف من أسرارهم المضحك والمبكى، وتكلم أصحاب صحف أخبارهم فى هذا الأمر وتوسعوا فى القول وكادوا يفضحون ما استترت معرفته عن الناس فمنعوهم وهددوهم فانكفوا وفى القلوب ما فيها وقد صدق من قال: وقد يغلب المقدر على التقدير حتى تكون الآفة فى التدبير فالله حسبنا وكفى.

ورسم الخديوى بخلع سائر المديرين والمحافظين وسائر المأمورين الذين استلموا زمام الوظائف على عهد أصحاب الثورة فخلعوا، ورسم أيضاً بصرف سائر العساكر المصرية ورجوعهم إلى أوطانهم فتفرقوا ولم يبق منهم بالقاهرة إلا نفر قد لبسوا لباس العامة ودخلوا فى خدمة بعض الناس وكذلك رسم بتشكيل لجان خصوصية لتحقيق حادثتى رابع عشرى رجب ورابع عشرى شعبان سنة تسع وتسعين بمدينة الإسكندرية وفى طنطا وأخرى بالمحلة الكبرى لتحقيق ما وقع بهما من القتل والحريق ثم أرسل مصطفى رياض باشا الذى ولى نظارة الداخلية إلى المديرين والمحافظين يستقدم من وقع القبض عليهم من أهل كل بلد ممن كان لهم يد فى إضرام نار الفتنة

فسيروا بهم مكبلين بالحديد عشرات عشرات وهم فى أتعس حال وقام المأمورون بعمل التحقيق فجىء لديهم بالمتهمين من كل فج عميق فخاف الناس وأوجس كل شرا من عدوّه وصديقه إذ كثر أصحاب السعاية على باب مصطفى رياض باشا وتزاحموا على ديوانه وتسابق الغريم إلى النكاية بغريمه والجار إلى الإضرار بجاره لأقل سبب ،وأنشئت محكمة عرفية فى القاهرة وجعل رئيسها محمد رؤوف باشا وأخرى رئيسها إسماعيل أيوب باشا، فاختصت محكمة رؤوف باشا بالحكم فى جميع الدعاوى التى ترفع من اللجنة الخصوصية وجعلوا أحكامها فى ذلك قطعية لا تقبل الاستئناف وشكلوا لجنة عسكرية أخرى بالإسكندرية لتحكم أيضاً فى القضايا التى ترفع إليها من محكمتى الإسكندرية وطنطا المخصوصتين حكما قطعيا لا يقبل الاستئناف وكثر القبض على الناس وانبث أصحاب الشرطة يبحثون على الفارّين من المتهمين فكانت شدة عظيمة للغاية كل هذا والخديوى بالإسكندرية يتابع إصدار المراسيم بإعادة النظام وترويج الأعمال كسابق مجراها، فلما كان حادى عشرى ذى القعدة قام الخديوى من الإسكندرية إلى القاهرة فدخلها فى الساعة السابعة عربى نهاراً وكانت طوائف الجند من الإنجليز والهنود مشاة وركبانا مصطفين ذات اليمين وذات الشمال من محطة السكة الحديد إلى سراى عابدين فلما نزل من القطار ونزل معه الدوق أوف كانوت ثالث أولاد ملكة الإنجليز، وكان هذا الدوق قد حضر للقتال كقائد فرقة من العساكر الإنجليزية، أطلقت المدافع من قلعة الجبل وفسحة المحطة تباعا وصدحت الموسيقى بالنشيد الخديوى وهتف الجند بأصوات التهليل فركب عربة يجرها أربعة من جياد الخيل وركب على يساره الدوق المشار إليه وجلس أمام الخديوى ولسلى مقدم الجيوش الإنجليزية وأمام الدوق المستر مالت قونصل جنرال الإنجليز وكلهم بملابس الزينة والتشريف وخلف العربة طوائف الحرس وكبار الضباط وكوكبة من الفرسان وما زال سائرا بين صفوف الجند وأصوات التهليل ودعاء العامة المتواصل وزغاريت النساء من أعالى البيوت حتى نزل بمقرّه بعابدين وأمر فعملت الولائم والمآدب لكبار عسكر الإنجليز أياماً كثيرة وأهداهم نياشين الافتخار من كل رتبة وصنف وأحدث نيشانا جديداً من المعدن المعروف بالبرنز على شكل زاوية سماه النجمة المصرية وأهداه لجميع الجنود الإنجليزية الذين شهدوا قتال مواقع كفر الدوار والتل الكبير، ثم أتت جميع الجنود الإنجليزية إلى القاهرة فلم يبق منها إلا نفر بالإسكندرية وبورسعيد والإسماعيلية فاستعرضها الخديو برحبة عابدين بين عزف

الموسيقى وأصوات المدافع وكانوا قد أعدّوا لذلك كشكا لطيفا فى وسط الرحبة وزينوه بالبيارق والرايات وكان بين هذه البيارق والرايات الراية الإنجليزية فجلس الخديو بالكشك ومر الجند من أمامه تباعا على أشكال متنوعة واتفق أن جلوس الخديو بذلك الكشك كان تحت الراية الإنجليزية وعلى يمينه الدوق أوف كانوت فتطير الناس من ذلك وخافوه وترامت ظنونهم فى ذلك اليوم إلى المرمى البعيد وجعلوا يتساءلون عن معنى ذلك الاستعراض وما فيه من الرموز والإشارات الخفية وما ينجم عن جلوس الخديو تحت ذلك العلم الإنجليزى.

وانقضت ليالى الأفراح والولائم على أحسن ما يكون من الأبهة والزينة وعادت الأعمال الديوانية إلى سابق مجراها فجعل الوزير محمد شريف باشا يدبر الأمور على أحسن ما يكون من التدبير وقد رأى أن فى بقاء جميع العساكر الإنجليزية فى جوف البلاد خطرا دائما وكمدًا ملازما فكلم قونبصل جنرال الإنجليز فى ذلك وكشف له عما فى سياسة بقاء جيوشهم بالقاهرة من الخطل وضعف الرأى وطال الأخذ والرد بينهما أياما حتى تقرر الاتفاق على بقاء اثنى عشر ألفا منهم بين القاهرة والإسكندرية وطالبت حكومة الإنجليز الخزينة المصرية بنفقة هذه الجنود ورسمت بصرف ثمانية وأربعين ألفا ذهبا فى كل شهر ما دامت هذه الجنود قائمة بحراسة البلاد، قالت: حتى يستتب الأمن وتتوطد الراحة وتقوى الحكومة الخديوية على القيام بشئونها المالية والإدارية منفردة، ثم رحل عن القاهرة سائر الجنود الذين حصل الاتفاق على تسفيرهم وعاد الجنرال ولسلى إلى عاصمة بلاده وقد أهداه كبار القاهرة وأعيانها سيفا من الصنعة المصرية منقوشا عليه هذه العبارة (هدية من المصريين إلى الجنرال ولسلى قائد الجيوش الإنجليزية). ولم يكد يستقرّ بالجنرال المقام فى عاصمة بلاده حتى قدم إلى القاهرة اللورد دوفرين سفير الإنجليز فى دار الخلافة لينظر فى تنظيم أمور البلاد على ما تقتضيه المصلحة الإنجليزية فقوبل بغاية الاحتفال وأنزلوه مع حاشيته وبطانته بقصر النزهة بشبرا من ضواحى القاهرة فلبث به أياما ثم انتقل إلى دار قطاوى بيك بخطة الإسماعيلية فلازمه بعض الأجانب النازلين بمصر ممن يدعون العلم بعادات البلاد وأخلاق أهلها وما يحتاجونه من خير أو إصلاح شر فقصوا عليه ما وصلت إليه معارفهم وبث هو كذلك العيون لتأتيه بأخبار العامة وما يقوله أهل البلاد، وجعل يوالى الاجتماع تارة بالخديوى وأخرى بالوزير محمد شريف باشا ويكثر من التطواف فى شوارع القاهرة وبين مجتمعات العامة وظل على

هذه الحال أياما، ثم حرر تقريرا فى غاية التطويل والإسهاب وقسمه إلى أبواب وفصول دوّن فيها ما شاء من احتياجات البلاد المالية والإدارية والقضائية وما ينفعها من النظامات الداخلية وبالغ فى إظهار حاجتها إلى ترتيب أمر الجندية وأصحاب الشرطة أوّلا، ثم جعل المراقبة على جميع مصالح الحكومة فى حالة أقوى وأكمل مما هى عليه الآن، ثم توسيع نطاق المصالح الأميرية المتولى إدارتها الموظفون الأجانب وتقليل عدد الموظفين بالدواوين من المصريين، قال: وهم الذين ضاقت بهم تلك المصالح لكثرتهم، وتنظيم محاكم عدلية على نظام يناسب حال أهل البلاد والمساواة بين الأجانب والأهلين وإنشاء هيئة شورية تكون حاصلة على شيء من الحرية واستقلال الفكر ولا بأس من أن تكون هذه الهيئة هى مجلس نواب البلاد أو ما يشابهه وإبطال تجارة الرقيق وقطع دابر الاسترقاق وتأمين طرق التجارة وسبل الاتصال ما بين الديار الأوروباوية والشرق عن طريق مصر وعلى الخصوص جرية المرور من خليج السويس، هذا أهم ما جاء فى تقرير دوفرين هذا، فلم تتناوله الأيدى حتى قابله أصحاب صحف الأخبار المحلية بألسنة الطعن وعابوا عليه كثيرا من الملاحظات ولا سيما ما يتعلق منها بخدمة الحكومة وأرباب الوظائف وشددوا عليه النكير ورموه بالخلط والخبط، وقالوا: إنما هى سفسطة نقلها عن رسله الذين كانوا يجوبون القرى ويطوفون البلاد وينقلون عن حرافيشها وزعانف النزلاء فيها الذين لا خبرة لهم ولا دراية بالأمور فما هو إلا كلام فى كلام. فلم يلتفت دوفرين إلى هذا كله ولم يعبأ به وعمد إلى الاهتمام بأمر من كانوا فى الحبوس بتهمة الاشتراك فى الفتنة وقد غصت بهم وضاقت إذ بلغت عدتهم يومئذ ألفا ومائتى مسجون لم يحسب بينهم محمود فهمى وأحمد عرابى وطلبة عصمت ومحمود البارودى ويعقوب سامى وعبد العال حشيش وعلى فهمى وعلى الروبى وغيرهم من كبار العصابة ومقدمى الثورة، فكلم مصطفى رياض باشا فى ذلك وسأله التعجيل فى أمر أولئك المتهمين وفك قيود البرىء منهم فأعظم مصطفى رياض باشا هذا الكلام وأكبره لأنه لا يستطيع أن يرى يدا فوق يده أو كلمة سابقة لكلمته فلم يلتفت إلى ذلك ولا أحل طلب دوفرين محله وقد وردت الشكاوى تترى على مقر دوفرين من أصحاب الحبوس يعدّدون فيها ما يقاسونه من أليم العذاب وأشكال الضيم وذهب بعض نسائهم وذراريهم إلى مقرّه يبكون ويتوجعون إليه مما يلاقيه أهلهم من الجور والعسف من مصطفى رياض باشا ويسألونه الرحمة بأنفسهم والرأفة بأهلهم، فهال

دوفرين أمرهم وأحزنه وقيد جماعة من كبار ضباط الإنجليز بتفتيش جميع السجون التى بالإقليمين القبلى والبحرى وسماع ظلامة سائر من بها من أهل البلاد فذهبوا وعادوا وقصوا عليه من أخبار تلك السجون ما تنفطر من سماعه القلوب لا سيما حبوس الشرقية ومنية ابن خصيب فتقدم إلى الخديوى فى العفو عن سائر أصحاب الجرائم الصغيرة فأجابه إلى ذلك ورسم بالعفو عن سائر صغار الضباط إلا من كان منهم فى مظاهرتى غرة ربيع الأول ورابع عشرى شوال سنة ثمان وتسعين ومن كان تحت السلاح وقت مذبحة حادى عشر يوليو سنة اثنتين وثمانين ميلادية أى رابع عشرى شعبان سنة تسع وتسعين ولبثوا فى الخدمة العسكرية إلى حين ظهور الفتنة واضطرام نارها وماعدا الذين دخلوا فى الخدمة العسكرية باختيارهم بعد اشتداد الفتنة ووقوع مذبحة حادى عشر يوليو المذكور فسكنت عند ذلك خواطر الناس قليلا وزال عنهم بعض الخوف، قال بعض الكتاب: فلم يرق هذا فى عينى مصطفى رياض باشا وأغضبه فنزع إلى التفرد بالأمر وعمد إلى معاكسة اللورد دوفرين فشدّد فى تعقب أعمال أحمد عرابى وأصحابه وضيق عليهم وهدد فأحس دوفرين بما وراء ذلك وأدرك أن العاقبة إنما هى شر على أحمد عرابى وأصحابه، وفى ذلك نكث لعهدهم معه فرسم بوجوب التحقيق مع أحمد عرابى وأصحابه بالطرق العادلة ورفع الأمر بعد ذلك إلى محكمة لتحكم فيه ومنع تعرض مصطفى رياض باشا وكفه عن العبث بالنظام الذى جاءت الجيوش الإنجليزية لتثبت أركانه، قال المستر شارلس رويل أحد كتاب الإنجليز فى كتاب ألفه فى حوادث مصر الأخيرة، فامتعض لذلك مصطفى رياض باشا وأبى إلا معاقبتهم بغير تحقيق وألح على اللورد دوفرين فى ذلك فلم يقبل وصمم على إجراء التحقيق والتزام جانب العدالة ورسم بسرعة العمل فزاد امتعاض مصطفى رياض باشا واشتد به الغيظ إلى حد لم يطق معه السكوت فسار إلى مقر اللورد دوفرين وكلمه طويلا واحتد وأغلظ فى القول فلم ير من اللورد دوفرين أذنا واعية ولا وجها طلقا فتركه ودخل على الوزير محمد شريف باشا وكلمه أيضاً فى ذلك فقال الوزير: لابد من التحقيق ورفع الأمر إلى محكمة، فكاد مصطفى رياض باشا يتميز غيظا وسأل الوزير أن يقيله من منصبه فأجابه إلى ما طلب بغير معاودة، وقد قيل: فى أمر تنزيله من هذا المنصب أقوال أخرى أضربنا عن ذكرها ومن هذا الحين أصبح عمل التحقيق مع أحمد عرابى وأصحابه ورفع نتيجته إلى محمكة تحكم عليهم بما تراه أمرا مقضيا لا رادّ له.

وكان لما أخذ الإنجليز محمود فهمى أسيرا فى موقعة القصاصين على ما تقدم بيان ذلك فى حينه وأتوا به إلى الإسكندرية أرسل المستر مالت قونصل جنرال الإنجليز إلى اللورد جرانفيل زعيم أو صاحب سياستهم يقول: أن الجنرال ولسلى مقدم جيوشنا فى مصر يرى أن من مواجبه تسليم جميع الأسرى الذين يؤتى بهم من ساحة القتال إلى سلطة وتصرف الخديوى فأجابه اللورد جرانفيل إلى ذلك بشرط عدم الحكم على أحد منهم بالقتل ما لم تصادق على ذلك حكومة الملكة، فاعلم القونصل الخديوى بذلك فقبله واشترط على نفسه أن لا يأتى أمرا فى حقهم قبل أن تعترف به دولة الإنجليز، فلما كان سلخ ذى القعدة قدم إلى القاهرة رجلا اسمه مارك نابيير من كبار علماء الشريعة الإنجليزية ومعه آخر اسمه ريشارد آيث وتقدما إلى المحاماة والدفاع عن أحمد عرابى أمام المحكمة التى سيرفع لها أمره فمانع فى ذلك الوزير محمد شريف باشا، وقال: أن الشريعة المعمول بها فى بلاد مصر لا تبيح للمجرمين اختيار من يدافع عنهم ولا إجراء التحقيق معهم علانية ولا تجيز وجود أحد من الأجانب فى هيئة المحكمة وأبلغ هذا الكلام إلى المستر مالت فرفعه إلى زعيم سياستهم فورد الجواب على غير ما يرضاه الوزير وصمم الزعيم المشار إليه على وجوب الدفاع عن أحمد عرابى ورفقائه وعلى تنفيذ ما أشار به مما يتعلق بكيفية المحاكمة فبعد أخذ وردّ طويلين قبل الوزير محمد شريف باشا ذلك بشرط أن يكون المحامى عن أحمد عرابى مصريا لا إنجليزيا فلم يقبل اللورد جرانفيل، وأعاد القول بترك الدفاع عن أحمد عرابى إلى من يختاره هو لنفسه من أى جنسية كانت بشرط اجتناب جميع وسائل الإكراه والتهديد فامتنع الوزير من قبول ذلك وطال الأخذ والرد بين الفريقين أياماً وقفت فيها رحى التحقيق ثم عادت على ما رسم به زعيم السياسة الإنجليزية رغما عن كل مكابرة وعناد، وانقسمت الآراء وتباينت الأقوال فى أمر دفاع الإنجليز عن أصحاب الثورة ومحاماة كبار شريعتهم عن أحمد عرابى فكان الناس فى ذلك على طرفى نقيض لاسيما أصحاب صحف الأخبار المحلية فقد قام بعضهم ينادى بوجوب تسليم أهل الثورة لشريعة البلاد ومنع دفاع الإنجليز عنهم وعدم مس كرامة الشريعة المطهرة فلم يجدوا لندائهم من مجيب، ونزع فى عاصمة الإنجليز جماعة من كبارهم وآخرون من كتابهم وجعلوا يصيحون بألسنة أقلامهم واعدالتاه وا إنسانيتاه وأمرحمتاه، وكان فى مقدمة هؤلاء القوم السير وليم جريجورى والمستر بلانت اللذان تقدم لنا الكلام عما فعلاه، وجاء بلانت هذا برجل من أصحاب الشريعة الإنجليزية اسمه برودلى وقيده بالدفاع عن أحمد عرابى، وكان

هذا الرجل من موظفى حكومة الهند ثم انفصل عنها ولحق بباى تونس مولاى حسن باى فقدم القاهرة فى رابع عشرى ذى القعدة وطلب الاجتماع بأحمد عرابى فلم يسمحوا له بذلك، فاستعان هو ومن معه من جماعة الكتاب والمحامين بقونصل جنرال الإنجليز فأعانهم ونزع إلى مساعدتهم وطلب من الوزير محمد شريف باشا جعل التحقيق مع أحمد عرابى وبقية أهل الثورة علنيا فطال بين الفريقين الجدال وكثر القيل والقال وأبى القونصل إلاما أراد ومازال حتى تقررت القاعدة على تسليم أمر الدفاع عن أحمد عرابى وأصحابه وعمن يشاء من بقية المجرمين إلى برودلى هذا وتقييد بوررلى بيك أحد محامى الحكومة بإقامة الدعوة العمومية ثم تعينت أوجه التهم وأسبابها فكانت ـ أولاً ـ تهمة أحمد عرابى وطلبة عصمت ومحمود سامى ومحمود فهمى وعمر رحمى كاتم سر أحد عرابى بكل ما حدث من الأضرار المترتبة على رفعهم الراية البيضاء على طوابى الإسكندرية فى يوم الأربعاء خامس عشرى شعبان، ثم إخراجهم جميع العساكر المصرية من المدينة وإضرام النيران فيها، بينما كانت تلك الراية تخفق على حصونها ـ ثانياً ـ تهمة أحمد عرابى وطلبة عصمت ومحمود سامى ومحمود فهمى وعمر رحمى وعلى فهمى بتحريض الناس وحضهم على حمل السلاح والخروج عن طاعة أمير البلاد وماترتب على فعالهم هذه من القتل والنهب والسلب وإراقة دماء الأبرياء من النساء والأطفال ثم تهمة أحمد عرابى ومحمود فهمى وطلبة عصمت ومحمود سامى باستمرار القتال ومحاربة الإنجليز بعد علمهم بإتمام الصلح وتقرير قاعدته. وشاع الخبر بذلك وكثر طلب أصحاب التهم من العامة وصغار الموظفين بمحكمتى طنطا والإسكندرية واشتد أصحاب الشرطة فى البحث عن الفارّين منهم فكبسوا على الكثير من الدور والوكائل فعظم خوف الناس وكانت شدة بالغة.

فلما كان سابع ذى الحجة انتظم مجلس التحقيق فأتوا بأحمد عرابى ورفاقه وخلفهم الحراس من أصحاب الشرطة بالبنادق والحراب فكان لايرى على وجه أحمد عرابى شىء من الاضطراب أو الخوف بل كان ساكن القلب هادئ اللب، وكان إذا سئل أجاب بلا تردد ولا تلجلج وأكثر من الاحتجاج بل ندد وقبح وعاب عليهم ما يرمونه به من العصيان والخروج عن طاعة الخليفة وأمير البلاد وقدم إلى هيئة المحكمة كثيراً من الرسائل التى كانت تأتيه من كبير المابين الهمايونى ومن كاتم أسرار أمير المؤمنين ومن الشيخ أحمد أسعد إمام السراى السلطانية وكلها استنهاض

وتحريض وتشجيع على التظاهر بما كان وإعلاء كلمة السلطان فى داخل البلاد. قال أحد الكتاب العارفين بحقائق هذه الأمور بعد كلام طويل: وقد نجحت تمام النجاح تلك الدسائس الإنجليزية وفازت فى دار السلطنة عامى أحد وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية واثنين وثمانين فإنه ما تظاهر أحمد عرابى مظاهرته الحربية بميدان عابدين التى لم يكن القصد منها إلا تنزيل مصطفى رياض باشا ورفاقه من منصب الوزارة حتى حض الإنجليز الباب العالى على انتهاز هذه الفرصة للحصول على سلطة فعلية فى بلاد مصر فأطاع وعمل بما أشاروا، فلما رأوا فلاح سياستهم والعمل بمشورتهم زادوا وغرروا برجال الدولة ومنوا السلطان بالأمانى البعيدة التى منها محو امتيازات عائلة محمد على باشا الكبير وإعادة مصر إلى ولاية عثمانية خاضعة تماماً للباب العالى إن هو عمد إلى تعضيد أحمد عرابى وأصحاب الحزب الوطنى - قال: ولم يقف أرباب السياسة الإنجليزية عند هذا الحد من التغرير بالسلطان ورجاله بل أوعزوا أيضًا إلى أصحاب صحف أخبارهم أن يساعدوا على نوال هذه الحظوة فصاحوا بالثارات السلطان عبد الحميد وأشاروا على دول أوروبا بأن تسأل الباب العالى فى إرسال جيوشه المظفرة لإخماد نار هذه الثورة التى لا يقوى على إخمادها إلا العساكر العثمانية، فاغتر الباب العالى بذلك أيضًا واندفع دفعة أخرى فى غير طريق الهدى وسير إلى القاهرة جماعة من المابين والسراى السلطانية بينهم الشيخ أحمد أسعد وقدرى أفندى ليؤكدوا إلى أحمد عرابى ورفاقه تعضيد أمير المؤمنين لهم فنشط عند ذلك أحمد عرابى وتجرد للدفاع عن حقوق أمير المؤمنين فمالت إليه قلوب أهل البلاد واستمال إليه من كان يخالفه من قبل ومن بعد ا.هـ.

وقدم أيضًا أحمد عرابى إلى هيئة المحكمة عدة محاضر موقعًا عليها من عمد وأعيان البلاد يمتدحون فيها أعماله ويشكرونه على نهضته ويسألون له النجاح والفلاح ويطلبون منه الاستمرار على الدفاع عن حقوق الوطن وأهله ومحاضر أخرى منهم أيضًا بمعنى ما ذكر إلى رئيس المابين الهمايونى فأعجبت هذه الأوراق جماعة الإنجليز وعظمت لديهم الأمر واشتد بها أزر برودلى الذى تقيد بالمحاماة عن أحمد عرابى ورفاقه فبالغ فى الدفاع وشدد فى الحجة وأعانه على ذلك جماعة من كبار دار الندوة الإنجليزية وجماعة من أصحاب الكلمة فى دولتهم إذ قام منهم الخطباء والفصحاء يشدون النكير على رجال السلطنة العثمانية ويرمونهم بالخديعة والمكر، فتبدلت عند ذلك الأحوال وتبددت الآمال وانقلبت من طور إلى طور ومازالت

الأمور بين أخذ ورد وإقبال وإدبار حتى ثبت عصيان أحمد عرابى ورفاقه فكتب رئيس لجنة التحقيق إلى برودلى يقول: قد صار من المقرر فى نية هيئة مجلس التحقيق إحالة أحمد عرابى على المحكمة القانونية التى تشكلت للحكم على العصاة وأصحاب الثورة حيث قد تراءى وجوب محاكمتهم بالعقوبة المنصوص عنها بالمادة الثانية والتسعين من القانون العسكرى العثمانى وبالمادة التاسعة والخمسين من قانون الجزاءات الهمايونى. وشاع الخبر فاختلف الناس فيما سيكون من وراء ذلك وتفرقت آراؤهم وترامت ظنونهم إلى المرمى البعيد وكلهم مجمع على فشل الحكومة وفوز جماعة الإنجليز.

(مطلب)

محاكمة أحمد عرابي ومن معه من العصاة

فلما كان يوم الأحد ثانى عشرى محرم الحرام افتتاح سنة ثلثمائة وألف هجرية أى رابع ديسمبر ختام سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية اجتمعت هيئة المحكمة فى قاعة مجلس شورى القوانين وأتى المتفرجون من كل رتبة ودرجة وغص المكان بجماهير الإنجليز وكبار ضباطهم وكتاب صحف أخبارهم وجمع قناصل الدول وكانت أمارات الهيبة والوقار بادية على هيئة المكان والناس كلهم فى سكون وخشوع فلم تكن إلا ساعة حتى دخل المتهمون ووقفوا فى وسط المكان فأحدقت بهم العيون من كل جانب وتهللت الوجوه فرحاً بوقوفهم فى موقف الجزاء فأشار الرئيس إلى أحمد عرابى وقال : يا أحمد عرابى باشا قد أتوا بك اليوم أمام هذه المحكمة بصفة أنك متهم بالعصيان والخروج عن طاعة الذات الخديوية كما ثبت ذلك أمام مجلس التحقيق وأن عقابك على هذه الجناية يكون بمقتضى كل من المادة الثانية والتسعين من القانون العسكرى العثمانى والمادة التاسعة والخمسين من قانون الجزاءات الهمايونى فهل تعترف بأنك مذنب أم لا؟ فقام فى الحال برودلى المقيد بالمدافعة عن أحمد عرابى وناوله ورقة فأخذها عرابى وجعل يقرأ ما فيها بصوت جهورى فكان هكذا: أعترف بإرادتى وبناء على نصيحة المحامى عنى أنى مرتكب للجناية التى أنا متهم بها الآن. فلما أتم أحمد عرابى كلامه قال الرئيس : انفضت الجلسة مؤقتاً وسيتلى الحكم فى الساعة الثالثة بعد الظهر. ولم يحضر فى ذلك اليوم بوررللى بيك المدعى العمومى لكى يشرح لهيئة المحكمة موضوع التهمة ويسمع الحاضرين ما أتاه أولئك المجرمون من الفظائع وما ارتكبوه من الجرائم ولاأقام من يتكلم بدلا عنه فاندهش

عند ذلك الحاضرون وجعل ينظر بعضهم إلى بعض وهم فى حيرة واستغراب وجعل جماعة الإنجليز يكلمون بعضهم همسا والسرور يطفح على وجوههم، فلما كانت الساعة الثالثة تسابق الناس إلى قاعة الجلسة حتى ضاق بهم المكان ولم تكن إلا لحظة حتى خرج الرئيس والقضاة وجلسوا على منصة الحكم فأتوا لديهم بالمتهمين، فلما صاروا فى وسط الجمع أشار الرئيس إلى أحمد عرابى وقال: اسمع الحكم عليك ثم تناول ورقة وقرأ ما نصه: حيث قد ثبت ارتكاب أحمد عرابى باشا جناية العصيان والخروج عن الطاعة وهذه الجناية منصوص ومعاقب عليها بحكم المادة الثانية والتسعين من القانون العسكرى العثمانى والمادة التاسعة والخمسين من قانون الجزاء الهمايونى، وحيث مع ثبوت ارتكابه هذه الجناية لدى مجلس التحقيق لم يتعرض المجلس للبحث فى شىء خلافها ولذلك لم يطلب من المحكمة إلا الحكم بالعقوبة المنصوص عنها فى المادتين المذكورتين وهى عقوبة القتل. فبناء على هذه الأسباب ، قد حكم باتحاد الآراء على أحمد عرابى بالقتل لارتكابه جريمة العصيان والخروج عن طاعة الجناب الخديوى طبقاً لأحكام المادة الثانية والتسعين من القانون العسكرى العثمانى والمادة التاسعة والخمسين من قانون الجزاءات الهمايونى ويرفع هذا الحكم للجناب العالى للتصديق عليه وقد حكم بهذه العقوبة أيضًا على بقية المتهمين بجريمة العصيان مع أحمد عرابى المذكور. فلما سمع الحاضرون هذا الحكم تهللت وجوههم فرحاً ولكن لم يضع رئيس المحكمة ورقة ذلك الحكم من يده حتى تناول أخرى وأخذ يقرأ ما فيها وإذا به عفو خديوى ونصه : قد اقتضت إرادتنا بأن الحكم الصادر على كل من أحمد عرابى وطلبة عصمت وعبد العال حلمى ومحمود سامى وعلى فهمى ومحمود فهمى ويعقوب سامى المتضمن جزاءهم بعقوبة القتل وقع تبديله بالنفى إلى الأبد من جميع الأقطار المصرية وملحقاتها، وأن هذا العفو يبطل ويقع إجراء الحكم على المذكورين بالقتل إذا رجعوا إلى الأقطار المصرية أو ملحقاتها وأن يجردوا جميعاً من كافة الرتب وألقاب الشرف والنياشين مع محو أسمائهم من سجل العسكرية.

فما أتم الرئيس قراءته حتى وقع الهرج بين الناس وعلا وجوههم الاصفرار وانقبضت نفوسهم وجعل بعضهم ينظر إلى بعض وكأن على رؤوسهم الطير وجلس عرابى وبقية المجرمين وهم باشو الوجوه منشرحو الصدور فتقدمت عند ذلك إحدى النساء الإنجليزيات هى زوجة نابيير شريك برودلى الذى تقيد بالمحاماة عن أولئك المجرمين وهى بملابس الزينة والأعراس وناولت عرابى باقة من الورد الأبيض إشارة إلى الظفر والغلبة ثم صافحته ضاحكة فصافحها باسماً فاشتد تعجب الناس

واستغرابهم وكبر عليهم هذا الأمر وخرجوا وهم يتحدثون به ويعجبون من تصاريف الأيام. وأخذ العهد على أولـئك المجرمين بالبقاء فى الجهة التى تعـينها لهم الحكومة بعيدة عن الديار المصرية وكتبوا بذلك صكا فوقعوا عليه جميعاً.

(مطلب)

رسم الخديوي بمصادرة أصحاب الثورة

فلما كان ثالث صفـر رسم الخديو بمصادرة أحمد عرابى وسـائر أصحاب الثورة وقيدوا جماعة بضبط أرزاقهم وعقاراتهم فضبطوها فلم تكن شيئاً يذكر ولم يتعرضوا إلى شىء من متاعـهم وكان كثيراً خصـوصًا متاع أحمد عرابى، وقـد قيل: إنه كان يحتوى على شىء كـثير مما نهبه النهابون من الإسـكندرية مما خف حمله وغلا ثمنه ولم يمسوه بشىء كما أشار بذلك وزير سياسة الإنجليز، ثم تأهب المجرمون للرحيل إلى سيلان إحدى ممالك الهند الإنجليزية وقد كانـوا يعلمون بأنها ستكون دار إقامتهم قبل أن يـصدر الحكم عليـهم بالإعدام بأيام كـثيـرة كما هو ظاهـر مما كتبـه برودلى المحامى عنهم فى كـتابه المعنون بعنوان (الله ينصرك يا عرابى) أو (كـيف كان دفاعنا عن أحمد عرابى) فـحملوا إليهم سائر متاعهم وذخـائرهم وأتوا لهم بها فى قشلاق قصر النيل فى منتصف ليلة خامس عشر صـفر المذكور وكذلك حضر إليهم من شاء الذهاب معهم من نسـائهم وجواريهم وأولادهم وأتباعهم فكانوا نيفاً وسـتين ما بين إناث وذكور وساروا جميعاً فى قطـار مخصوص فى تلك الليلة إلى مدينة السويس، ثم أنزلوهم فى إحـدى بواخر الشركـات الإنجليزية وصحـبهم بعض رجـال الإنجليز مودعين ومطيبين لخواطرهم فأقلعت بهم السفينة بسم الله مجراها.

(مطلب)

قيام تجار الإسكندرية لمطالبة الخزينة بثمن ما نهبه النهابون

وكلم اللورد دوفرين الوزير مـحمد شـريف باشا فى أمر من بقى من أصـحاب الفتنة فرسم الوزيـر بالتعجيل ففـعلوا وقد كانوا أنفذوا من قبل الحـكم على سليمان داود مقدم جند الإسكندرية بـالإعدام شنقاً لارتكابه جريمة إحـراق المدينة فضلاً عن جريمة الخروج عن الطاعة وحكموا على بعضهم بالتبعيد إلى سواكن ومصوع وعلى البعض الآخر بالتبعيد إلى الشام وغيرها وكانوا كثيرين، وعفى عن البعض وانفضت

حينئذ مجالس التحقيق ومجالس القضاء وانجلى أصحاب الثورة عن مصر ولكن لم ينجل عنها شر فعلهم إذ قام تجار الإسكندرية يطالبون الخزينة بثمن ما أخذه النهابون وقد تقدم الكلام على ذلك فى موضعه، ونزع قناصل الدول كافة إلى الشدة فى الطلب فجعل الوزير محمد شريف باشا يطاول ويكثر من مخابرة كبار رجال السياسة حتى تقررت القاعدة بينهم على إلزام الخزينة بردِ ثمن جميع ما نهبه العامة والرعاع وكانت الخزينة إلى هذا الحين قد أمحلتها الحوادث وزادها إمحالا نفقة الجنود الإنجليزية القائمة بين الكنانة والإسكندرية فضلاً عن كساد التجارة وتعطيل أسباب المعاملات وبوار أكثر المزروعات بأسباب جمع سائر أبناء البلاد وتجنيدهم لقتال الإنجليز بمواقع التل الكبير وكفر الدوّار فلم ير رجال الدولة بدأ من الاستدانة فاتفقوا على أخذ قرض قدره أربعة آلاف ألف من الذهب، وتقدم اللورد دوفرين إلى الوساطة فى أخذ هذا المال من بيت روشيلد الغنى الشهير بعاصمة الإنجليز واهتم صاحب سياستهم بذلك اهتماماً عظيماً كى لا يفشل فى سياسته بعد نصرة التل الكبير، وقيد الوزير محمد شريف باشا جماعة من موظفى الحكومة ورجال الدولة بإحصاء ما نهبه النهابون وحرافيش الإسكندرية وما أكلته نيران الحريق فأنشئوا لذلك ديواناً بدار محافظة الإسكندرية سموه ديوان لجنة التعويضات وطيروا خبره إلى الآفاق فتزاحمت على بابه أصحاب الشكايات فأحصوا ما ضاع لكل صاحب حانوت ومخزن وأصحاب البيوت فكان شيئاً لا يكاد يدخل تحت الحصر لكثرته فردّوا لهم قيمته ذهباً من ذلك القرض ومازالوا حتى لم يبق أحد من أصحاب الشكايات فربح يومئذ من ربح وخسر من خسر وقليل هم الخاسرون.

وتسابق من يومئذ أصحاب الدور والوكائل إلى البناء وإعادة ما تهدم فتوسعوا فى العمل وبالغوا فى الإتقان فلم تمض إلا أشهر حتى عادت المدينة إلى أحسن ما كانت عليه من الرونق والبهجة واتسعت وعمرت ربوعها وامتلأت حوانيتها بأصناف المتاجر الفاخرة والبضائع الثمينة وعاد إليها من نزح منها من الأجانب على اختلافهم وجاءها الكثير من تجار الإنجليز بأصناف البضائع النفيسة والصنائع الغريبة فاتسع نطاق الأخذ والعطاء وراجت التجارة وعادت الأمور إلى سابق مجراها واتصلت العلائق التجارية بعضها ببعض بين القاهرة والإسكندرية وداخلية البلاد على ما كانت عليه من قبل واطمأنت قلوب أهل البلاد وزالت عنهم أسباب الوحشة فلم يبق من الثورة إلا حديثها والحديث ذو شجون.

ونظم بعض الأدباء فى سير هذه الحوادث المهمة ومآل هذه الخطوب المدلهمة

كثيراً من القصائد المشخصة لبعض وقائع الحال وما بلغت إليه يومئذ الأحوال مع وصف ما وقع من أصحاب الثورة من سوء الأعمال منها منظومة العلامة مصطفى باشا صبحى التى عنوانها «صدق المقال فى مثالب البغاة الجهال» وهى:

تبين عقبى غيه كل معتدى   وأمسى العرابى وهو بالذل مرتدى
يعض بنان المستكين ندامة   ويقرع بالإذلال سنّ المسهد
فهلا رعى نعماء كانت ظليلة   عليه وهلا قد وعى نصح مرشد
وهل ندم الباغى إذا حم أمره   إلى الحين يجدى بالرجاء المردّد
بنى الجهل والطغيان كيف كفرتمو   بأنعم توفيق العزيز محمد
مليك توافيه الملوك لنصره   بأنفسها غير الخميس المجرّد
وهل غير إحسان الخديوى عليكمو   سوابغ كانت من طريف ومتلد
نبذتم قوانين الشريعة ضلة   وجاهرتمو بالبغى فى كل مشهد
ومن كان لايدرى حقيقة أمركم   أنبئه الأنباء عنكم ليهتدى
ولست مريداً بالقوافى مصانعا   ولا راهبا من غائل أو مندّد
فقد تلجئ الأحوال للعجز حازما   كما تلبس الأحرار أثواب أعبد
ويدخل فى عد النواصب خيفة الـ   ـردى علوىّ حين لم يلق مفتدى
وما أنا إلا ذاكر ما جنيتمو   كما يذكر الرائى فعال المعربد
سرقتم نقود الجند ثم رميتمو   دفاترها ليلاً بسرداب مفقد
وقد ظهرت تلك الخفايا جلية   وحان جزاء السارق المتعمد
كما سرق التفتيش طلبة عامدا   وبالرفت أمسى فى عقال التلدد
ورب يتيم قد أكلتم تراثه   وأبعدتموه عن مجير ومسعد
وقلتم جنى ذنبا ليعفى وتظفروا   بإعدامه والمال يبقى لذى اليد
وأرملة أتلفتمو جل مالها   وصيرتموها عرضة للمفند
وأظهرتم التوكيل عنها تسترا   على نهب محصولاتها والتردّد
وبالوفر لما أن فصلتم كغيركم   تضررتمو كالأرقش المتوقد
ووطأتم العصيان بالعهد بينكم   وثرتم بقصر النيل ثورة مفسد
وفى مصر ساورتم سراى أميركم   مراراً وأوريتم زناد التمرد
وجئتم تجرّون المدافع حولها   حصاراً وأبرقتم بأصوات مرعد
فأصبحتمو أصحاب سيف ومدفع   وللفأس والشادوف وسمات باليد
ولما تيقنتم بأن جزاءكم   هو القتل أعملتم دسائس ملحد
وأجمعتمو كيد ابن ملجم إذ غدا   يحاول قتل الأبرياء ولا يدى
وألفتمو حزب الضلال يحوطكم   بترقيش بهتان وزور ممهد

وقلتم عن الأوطان والدين أنكم تحامون فى الجلى محاماة صندد
وما للأوطان والدين آفة سواكم عليها إذ أتيتم بمؤيد
وزدتم على ماهية الجند وافرا ومن يستزد بالبغى ما شاء يزدد
وأنشأتمو قانون يربى معاشكم بتلفيق أحكام وقول معقد
يخالف أسلوب القوانين وضعه ويزرى ببيت المال إزراء محصد
فأمست به بعض الأرامل منكم لواء وأخرى كالفريق الممجد
وغيرتم الضباط عمرا بفاسد وسعداً بمشئوم وحراً بأوغد
ولقبتمو منكم عبيداً بخالد تريدون سيف الله بعدا لمعتدى
وألقاب شتى من همام وقائد وحامى حمى الهيجا وفارس معهد
وقدمتمو أهل الرذائل منكمو كما شئتموا فى مسند بعد مسند
يجرّون أعقاب السيوف على الثرى فتعركه فعل السفيه اليلندد
وصححتم الأضغاث بالوهم بينكم وبالرغم سدتم لا بفضل ومحتد
وأبرمتمو عهد التحالف بينكم على الحرب إن فى اليوم تنشب أوغد
وكان عفا بالحلم عنكم أميركم فآليتمو إلا وفاء التعهد
هو الحلم حتى يقتل الجهل ربه وترمى به الأهواء فى شرّ مورد
ولما أتى الأسطول مصر مسالماً أثرتم بريح البغى نار التعند
ومناكمو بالمستحيل خطيبكم وأدمج غشا فى حماس مقلد
وأوهم زورا أن فيكم بسالة فحاولتمو بالجهل خطة أصيد
وهيأتمو بعض الطوابى تنمرا وهددتمو سيمور كل التهدد
فسببتمو إحراقها وخرابها وكانت حصاناً بالبناء المشيد
وأتلفتمو الخرطوش من غير عائد مع الريح يدوى لا إلى الفلك يهتدى
ولم تر منكم فى سفين إصابة تعلل نفس الحرّ عند التنهد
وغادرتمو قتلاكمو دون ملحد وخلفتمو الجرحى بها دون منجد
وصلتم على المستأمنين لتأخذوا بثار الطوابى من ضعيف ومقعد
وأخرجتم السكان من دور ثغرهم سراعاً بتهديد وضرب مبدّد
وكم من برئ قد قتلتم ببغيكم وكم من عزيز قد أهنتم وسيد
وكم ذات خدر قد فضحتم وحامل جبهتم فألقت حملها دون مولد
وأحرقتمو منشية الثغر بعد ما نهبتم وسرتم كالنعام المشرد

وكان سليمان الغبيّ معينا   إلى الحرق وقافا لذى كل مرصد
فمالكمو لا أحسن اللّه حالكم   هربتم هروب الأرعش المتبلد
وخلفتمو فى الثغر عارا ورحتمو   بخزى لكم يبقى بذّم مخلد
وعاودكم بعض الغرور فملتمو   إلى الرمل ميل الغادر المتقصد
وحاصرتمو قصر الخديوى بعسكر   وخيل توالت من كميت وأجرد
وفى كفرة الدوار خلتم مقامكم   منيعا فأظهرتم كمين التحقد
وحالفتمو إبليس فيها وقد خلا   لكم جوّها فى فدفد بعد فدفد
نصفرتمو تيها ونقر بعضكم   ولاح لكم بيض به النصر يفتدى
وفى العزل والتنصيب والحكم جرتمو   وكنتم لجمع المال أشره مجتدى
سلبتم من الأنحاء محصول زرعها   وما للأهالى من لجين وعسجد
وأظمأتم الإسكندرية حينما   منعتم وصول الماء من كل مورد
وكم محضر أمضيتموه بقهركم   وممتنع أرهبتمو بالتوعد
وأخربتم البلدان ثم صعدتمو   إلى التل فى جيش كثيف معدّد
إليكم إليكم إنما قد تركتمو   إلى أجل دون القصاص محدّد
فهذى جيوش للنضال تواصلت   بكل سفين مثل صرح ممرّد
لنصر الخديوى أو لقهر عداته   لهم وثبات بين راغ ومزبد
وأضحت رحى طغيانكم فى عديدكم   تدور عليكم بالكروب المهدد
بطالع توفيق المفدّى وبغيكم   خذلتم غداة الحرب فى كل مطرد
وفى وقعة التل الكبير انهزامكم   يعيركم فى كل عصر مجدد
أغارت عليكم فيه أول فرقة   فطرتم شعاعا كالهباء المبدد
وما رابها الروبى هناك بخيله   ولا زأر الذئب الكمين بمرقد
فأين الذى واعدتمو وادّعيتمو   به من ثبات فى الوغى وتجلد
فهلا صبرتم وهو تصديق زعمكم   وهلا قتلتم وهو خير لمرتدى
إذا كانت العورات يخفى ظهورها   لدى البحث فى ناد دقيق التفقد
ولكن فضحتم بالفرار كدأبكم   وكان العرابى بالهزيمة مبتدى
كدأب بنى كلب غداة تمكنت   بنو أسد منها بضرب المهند
كدأب جهول باع ثوراً لبومة   وقيده فى غصنها المتأوّد
لعمرى لقد أبدى العزيز لجهلكم   من الحلم ما يوهى صلابة أقود

ورقاكمو بالمكرمات فحدتمو وكل لئيم إن رقى يتمرّد
مطايا العلى فى الخطب تنجو بصادق وتكبو بمعتل السريرة أحقد
بيمن الخديوى مصر كانت لأهلها عروسا تجلت فى كساء زمردى
سقاها نمير النيل صفوا فأزهرت وراقت بنى الدنيا بوجه مورّد
تدبرها للسلم نظار مجدها وأحكامها تبدو بعدل موطد
فعهد رياض كان يزهو نضارة وكان شريف للعلى خير منجد
وقد حذراكم ما استطاعا فختمو وأضحى بكم سامى أشرّ مقلد
تضلونه جهلاً ومكراً يضلكم وكل بآراء المضلين مقتدى
ومازال فى أمر (١) البريثين آخذا بقول العرابى مظهراً للتشدد
إلى أن هوى بعد العتوّ ولا لعا لعثرة باغ فى الحماقة أوحد
جعلتم(٢) لذى الداءين فيها رئاسة فعرضتموها للدواهى بأجرد
وهل ميت الأحياء يرجى لمعظم من الأمر فى يوم من الخطب أسود
بمنشوره البرقى هيج فتنة وأسند عهد الحكم فى غير مسند
كأن له فى الأمر حق تصرف وصيره فيكم بقصد التودّد
لقد زاد فى الطنبور أنكر نغمة بها أرق المحزون صوب المغرّد
ولولاه ما حاز العصاة من القرى مغانم شتى غير رفد ومرفد
فقل للعرابى إن رؤياك صادفت ولكنها وافت على غير مقصد
وتأويلها بالحبس تلقى إهانة ويعقبها شر يسوءك فى غد
فيا كل مشئوم ويا كل غافل لك الويل من عاد عن الرشد مبعد
أراك درست البغى بالجهل كاملا وفى الحزم لم تبدأ بأول أبجد
وسلمت سيف الذل فى مصر صاغرا فيا شئوم سيف فى الوغى لم يجرّد
فلو كنت تجزى بالذى تستحقه لناداك داعى الحكم غير مردّد
تقدم عرابى وأرق أعواد واعظ بصمت وقبل الارتقاء تشهد
ومثلك فى ذا الحكم كل مجاهر ببغى على عدل العزيز المؤيد
ولكن عفا عنكم أمير تعوّدت خلائقه الإحسان كل التعوّد
له الفضل أما أنتمو بفضولكم تعيشون أمواتاً بزلة أنكد

---

(١) البريثين: يريد بهم جماعة الشراكسة.

(٢) لذى الداءين: يريد به راغب باشا.

ولولا صدور العفو ناحت نساؤكم   وغص بنوكم بالقراح المبرّد
وإن تبعدوا لا قرّب اللّه داركم   ولا دار من والاكمو فى التحيد
فبغيكمو أبقي عراقيل جمة   عليكم بها لعن من اللّه سرمدي
فسيروا إلى أرض الجزيرة حيثما   منيتكم خمت بها وكأن قد
وكم سائل هل أخرجوا من ديارنا   وهل أمنت أوطاننا عود معتدي
فقل في جواب السائلين مؤرخا   بلى خرجوا كرها لنفي مؤبد
سنة ١٣٠٠   ٤٢ ٨١٠ ٢٢٦ ١٧٠ ٥٢

يعيش أبو العباس ذخراً لمصره   وكهفاً لأهليها ورغما لحسد
يعيش الخديوي مصلحا لرسومها   بعد وإجلال ومجد وسودد
وتسمو به الأنجال مثل جدودهم   سموا لإبراهيم بعد محمد
ولا زالت النظار تحمي ذمارها   بحزم وتدبير ورأي مسدد
وإن تعرض الآراء من أيّ وجهة   فإن الخديوي يتقي كل أفيد
أصالته بالرأي في مصر أرخت   محمد توفيق به الكل يقتدي
سنة ١٣٠٠   ٩٢ ٥٩٦ ٧ ٨١ ٥٢٤

وقال العلامة البحر الفهامة الشيخ الجليل على أفندى الليثى فى ذلك أيضاً :

كل حال لضدّه يتحوّل   فالزم الصبر إذ عليه المعوّل
يافؤادى استرح فما الشأن إلا   ما به مظهر القضا يتنزل
رب ساع لحتفه وهو ممن   ظنّ بالسعى للعلى يتوصل
قدر غالب وسر الخفايا   فوق عقل الأريب مهما يكمل
غاية العقل حيرة وعقال   واللبيب الذكى من قد تأمّل
كيف ننسى وحادثات الليالي   فاجأتنا بكارث ليس يحمل
أذهبت أنفسا وغالت نفيسا   وذوى مربع الحظوظ وأمحل
كان إقليمنا رياض صفاء   فيه للواردين أعذب منهل
من رآه يقول توفيق مصر   أبصر الناس بالأمور وأعدل
قد أمنا الزمان فيه وغنا   آمنين الخطوب لا نتململ
نتهادى فى ظل أسمى مليك   من سجاياه كل خير يؤمل
فسرت أعين الحوادث فينا   فأطرحنا الوقار والأمر أعضل
ورأى غيرنا من الحلم أمرا   غرّة فابتغى الذى لا يحصل

وإذا المرء كان بالوهم يبغى   فخيال الظنون ما قد تمثل
ويح قوم سعوا لإدراك أمر   دون إدراكه الجبال تزلزل
ما أصروا عليه إلا أضروا   بأناس من نابه أو مغفل
ذاك يسعى على التقية خوفاً   وسواه يسعى لكيما يجمل
لو أصابوا الرشاد عند ابتداء   كانت الغاية الجميلة أمثل
وكفينا معرّة أو بقتنا   فاستوى شائك السلاح وأعزل
آه من رقدة الحلوم ودهر   أيقظتنا صروفه إذ تبدّل
كانت الناس فى ظلال نعيم   تجتنى من ثمار غصن تهدّل
ما لنا لم نقم بجد وندعو   من عدا المهتدى وننصح من ضلّ
ما لنا كلنا سوى القل منا   قد سلكنا سبيل غاو مضلل
قد تساوى الغبى والمتغابى   وعليم من جاهل صار أجهل
قد جبنا وصاحب الجبن جان   وهو بالطبع فى الآنام مرذل
لو رزقنا السداد لانسد باب   وحقنا دماء قوم تحلل
كان ياقوته المذاب مصونا   فسقينا به الثرى اذ تهبل
كم غرسنا جماجما وجسوما   وجنينا الأسى بزلة من زلّ
ياترى من يقوم عنا بعذر   إذ أطعنا الغواة فى كل محفل
حيث حدنا عن المليك وخفنا   سطوة من عداه والقطر مقفل
حيث لا يرفع البريد شكاة   وسلوك السلوك صار معطل
حيرة أدهشت أولى اللب حتى   ما اهتدى للصواب منهم مجمل
ذاك سر القضا وليس عجيبا   أن يحار الأديب فيه فيذهل
غير أنا لما أفقنا أرقنا   من شئون العيون دمعا تسلسل
ويسطنا اللسان فى ذم قوم   إن ذكرناهمو نغص ونخجل
ومددنا أكف ذلّ لمولى   شأنه البر كم عفا وتطوّل
آل مصر بغيره لا تلوذوا   إذ هو الملجأ الملاذ لمن زل
ياعظيم الجناب يا خير ملك   سعده قد أباد من قد تغول
من بغى والوغى أثار فحكم   فى طلاه الحسام فالسيف فيصل
واجعل العدل عادل الرمح فيهم   نافذاً قدر ما يعلّ وينهل
واسقهم كالذى سقيناه إنا   قد شربنا من بعد بعدك حنظل

واغتفر زلة لمن جر غما   لبلاد ولا منيع يؤمّل
كم مليك عفا وأنت المفدّى   فوقهم همة فلا تتعجل
وامنح الناس من سجاياك عطفا   واجعل العفو موضع الشكر واعمل
فجدير بمجد ذات الخديوى   كل فضل وليس للعذر محمل
فابق واستبق من رعاياك قوما   أمّلوا العفو من حباك المسهل
إن تدقق تدق أعناق ألف   بل مئين من الألوف تقتل
والرعايا تضيع بين عدوّ   وولىّ له الفخار المؤثل
حاش توفيقنا يقصر عما   ينشر الصفو فى البلاد وينقل
سيدى لا عدمت شكرا سناه   يملأ الخافقين ليس يعلل
لا تكلف جميل طبعك أمرا   غير ما فيه فهو لا يتحوّل
كان ما قد أساء حلما فلما   أصبح الصبح بالسرور تأوّل
هذه مصر زينت واستعدت   لسعيد الركاب لما تفضل
وازدهت بالجمال حين تبدّى   موكب بدره بنور تهلل
موكب حف بالكواكب زاه   من رجال أعزة قد تبجل
كلهم صادق شريف الطوايا   نصحهم والخطوب تنهلّ يبذل
ما رأت مصر يوم بشر كهذا   أيّ يوم بدا أغرٌّ محجل
دمت للدين والدنا خير راع   ولعباسك النجيب المؤمّل
ما جرى بالفخار عنك حديث   صار بين الملوك بالمدح أكمل
أو أشار الزمان للسعد أرخ   الخديوي لمصر يا سعد أقبل
سنة ١٢٩٩   ٦٦١   ٣٦٠   ١٤٥   ١٣٣

وصل

(فيما كان من وراء احتلال الجيوش الإنجليزية لأرض الكنانة)

قد كان من وراء ما تقدم من الحوادث والأنباء واحتلال الجيوش الإنجليزية للقاهرة وبعض الثغور والمدن كالإسكندرية ودمياط والسويس وطنطا والإسماعيلية أن

وقع أمران خطيران فى نوعهما وعليهما حياة البلاد السياسية والاقتصادية فى مستقبل الأيام ـ الأول: قلب هيئة الحكومة وتغيير عاداتها والتزاماتها القديمة وإبطال الكثير من مراسمها المعمول بها من أيام محمد على باشا الكبير واستبدالها بالقوانين والشرائع الثابتة والإحداثات التى تناسب روح العصر وترقى البلاد وأهلها إلى ذروة العمران والمدنية ـ والثانى: سلخ الأقطار السودانية عن جسم المملكة المصرية وتركها مرسحا للفوضى وعيث العاثئين من الخوارج الذين هم مدعى المهدوية والملتفون حوله وقد ذكرنا فيما تقدم كيف كان خروج ذلك وأمر الفتنة وحديث النافخين فى ضرامها وكيف تطاير شررها حتى عم تلك الأصقاع شرقاً وغرباً ثم كيف كان عجز الحكومة يومئذ عن إخماد نارها بسبب الثورة العرابية وما جرته على مصر وأهلها من الويل وذهاب القوة والصولة على أنه لم يمض على مقدم اللورد دوفرين رسول الإنجليز بمصر أيام حتى عكف على ابتكار الإحداثات وسن النظامات الجديدة آتيا الأمور من أبوابها فرسم بإنشاء المحاكم الأهلية على هيئة وشكل المحاكم المختلطة بديار مصر وتوسع فى نفقتها وساعده على ذلك الوزير محمد شريف باشا وبطرس غالى باشا لأن إنشاء هذه المحاكم كانت حاجة فى نفس الوزير منذ أيام الخديوى إسماعيل وأتوا لهذه المحاكم بجماعة من القضاة البلجيكيين والهولانديين منعاً لتطاول أيدى رجال الدول الكبرى إلى وظائفها والاستئثار بها أو كما شاع يومئذ تمهيداً للوصول إلى حل عقدة المحاكم المختلطة وإذهاب سلطتها لأنها عقبة كؤد فى سبيل بسط الحماية الإنجليزية على البلاد وإخراجها من تحت نير المراقبة الدولية وقد كنت ممن وقع عليهم الاختيار لوظيفة القضاء بمحكمة المنصورة ثم لرئاسة النيابة العمومية بها فسارت هذه المحاكم سيرا حثيثاً واشتدت عزيمة رجالها جميعاً بما نالوه من الحرية فى العمل والاستقلال فى الفكر ففرح الناس بها فرحاً عظيما وحمدوا دوفرين على صنيعه كما شكروا الوزير محمد شريف باشا على عنايته واستبشروا بحسن المآل. وبينما هم على هذه الحال إذ وردت كتب صاحب السياسة الإنجليزية وهو يومئذ اللورد جرانفل إلى دوفرين سفيرهم بلزوم سلخ سائر الأقطار السودانية عن جسم المملكة المصرية وتركها إلى مدعى المهدوية بغير رد ولا معاودة فصدع دوفرين بالأمر وكلم الوزير محمد شريف باشا فى ذلك فلم يوافقه وقال: لا يكون هذا الأمر وفى عروقى قطرة من الدم فراجعه دوفرين فلم يقبل فكبر الأمر على دوفرين وأعظمه وكلم الخديوى فيما بدا من الوزير من الغلظة والمكابرة ثم أوعز إلى

مالت قونصلهم بما أوعز فقامت حينئذ بينه وبين الوزير قائمة الأخذ والرد وبدت علامات الوحشة، وجعل مالت يكيد المكايد والوزير هادئ القلب ساكن اللب لا يزحزحه عن عزمه شيء من ذلك، ثم اشتد دوفرين فى الطلب وجعل يسد فى وجه الوزير أبواب كل عمل ونافذة كل أمل حتى استفزه وأضاع صبره وتقدم إلى الخديوى فى قبول استقالته من منصب الرئاسة فأجابه الخديوى إلى ذلك بحضرة الوزراء وقال له: أقلتك. قيل: فالتفت الوزير إلى دوفرين وقال: إنى برىء مما سيراق من الدماء فى سبيل هذه الغايات الرديئة فولوا الرئاسة من تشاءون والله من وراء ما تفعلون.

قال بعض الكتاب: وأشار دوفرين على الخديوى بتقليدها للوزير نوبار باشا فصدع نوبار باشا بالأمر ولكنه لم يقدر على المجاهرة بسلخ السودان عن جسم مصر.

(مطلب)

اعتزال الوزير محمد شريف باشا وتولية الوزير نوبار باشا

وأعجب الناس بما فعله الوزير محمد شريف باشا وازدادوا تعلقاً به واشتدت محبتهم له واندفع أصحاب صحف الأخبار يلهجون بحمده فجاءت إليه رسائل التهانى تترى من كل فج عميق، وزاره أصحاب السياسة من الإنجليز والفرنسيس ليعرفوا منه ما خفى من الأسباب وما استعصى عليهم فهمه من مغامز هذه السياسة وكان ممن زاره عظيم من الإنجليز فكتب يومئذ إلى إحدى صحف أخبارهم يقول: زرت الوزير محمد شريف باشا فى داره بعد اعتزاله للرئاسة فحادثنى طويلاً فى جميع الضحايا التى ضحاها فى سبيل الوفاق مع وكلاء دولتنا بديار مصر لعلهم يقفون عند حد يكون من ورائه الكف عن مشاغبته، ثم قال لى وهو يتنفس الصعداء: قد أقسم مالت قونصلكم أن يتركنى وشأنى أتصرف فى العمل حسبما تقتضيه مصلحة البلاد إذا قبلت الرئاسة ومع ذلك فما كنا نتأخر عن فعل ما كانت تشير به دولة الإنجليز فيما يتعلق بالإصلاحات فقط، لا فيما يمس وجودنا السياسى الذى يقضى علينا بالمحافظة على الأصقاع السودانية الشرقية والقبلية وإلا فنكون غير سالكين مسلك الصداقة نحو الأمة التى تعتبر ذلك أمراً ضرورياً لحياة مصر وراحتها. وليس بخاف أنى كثيراً ما ضحيت محبة الأمة لى وتعلقها بى إرضاء لمطالب الإنجليز ومع ذلك فإنى أعتبر نفسى غير أهل لمنصبى إذا افتخرت بهذا العمل. أما زعيم

السياسة الإنجليزية فإنه لم يعمل عملاً طيباً لنا نحن معاشر المصريين وتشديده علينا بترك السودان فى أيدى المهدى أكبر برهان على ما أقول، لأنه من المعلوم أن ترك السودان للمهدى مما يزيد فى قوته ويصيره عزيزاً قوى الجانب، فإذا بلغ متمناه هذا فماذا تكون ياترى الواسطة فى إيقاف تيار تلك القوة الثائرة ومن الواضح البين لكل ذى بصيرة أن جعل حدود مصر عند أسوان أو وادى حلفا كما أشار صاحبكم يستلزم وضع جيش من خمسة عشر ألفا إلى عشرين ألفا من الجنود ليبقى رباطا هناك فمن يا ترى يقوم بنفقة هذا الجيش. نعم إن الخطر بعيد عنا حتى الآن ولكنكم سترونه قريباً على الأبواب ولا أنكر عليك سيدى أن السودان كانت تكلفنا الشيء الكثير من المال غير أنه لا خسارة علينا إذا حافظنا على حدودنا بإنفاق زهاء مائتى ألف جنيه وأظنك لا يعزب عليك أن محمد على باشا أدرك فى أيامه أن حماية حدود مصر الأصلية تستلزم ضم أراضى النيل الأبيض إليها فسعى فى ذلك وأخضع بقوته تلك الأطراف وجعلها تابعة لديار مصر فنعم ما فعل، وهل يصح بعد ذلك أن تترك حكومة متوحشة بربرية على حدود البلاد فتسلبها راحتها وطمأنينتها مدى الأيام على أن النفقات التى تنفق على إقامة خط دفاعى على النيل الأبيض لا تبلغ جزءاً من النفقة التى يستلزمها الدفاع عن وادى حلفا أو أسوان وأن خمسة عشر ألفاً من المصريين يقومون على حراسة الخرطوم وبربر ودنقلة وسنار وعلى ذلك يكون من الخرق فى الرأى بل من قلة التبصر تضحية سكان هذه المدن ومن فيها ونحن مسئولون عن الذب عن أرواحهم وأموالهم وأعراضهم.

قال الراوى: ثم أطرق الوزير لحظة ورفع رأسه وقال: وماذا تفعلون يا ترى أيها الإنجليز بدعاة المهدى الذين أقسموا أغلظ الأيمان أن يموتوا بحد السيف أو يفتحوا مصر السفلى، أما أنا فلم أفهم ما الحامل للإنجليز هداهم الله على التنحى عن مقاتلة المهدى واحتلال السودان، وما الباعث لهم على معارضتنا فى استرجاع البلاد التى أخذها مدعى المهدوية ولماذا لا يسمحون لنا بإبقاء النيل الأبيض فى حوزتنا كما كان؟ ولماذا لا نطلب من أمير المؤمنين السلطان عبد الحميد النجدة فيمدنا بعشرة آلاف من أبطاله وقد أمددناه مراراً عند حاجته إلى ذلك، وإنى أقول لك الحق: إنا لو أجلينا المهدى عن الخرطوم لاتخذت المسألة دوراً آخر ولكن قل لى بحقك ما الذى يدعونا نحن إلى الانجلاء عن ذلك البلد قبل أن يتقدم لها المهدى بأقوامه وهاهو الزبير باشا قد أبى الذهاب إلى دارفور والآن حيث إنى خلعت نفسى من الرئاسة ومادام أمر الجلاء عن السودان شيئاً مقرراً ولا يمكن التخلى عنه فلابد أن حسين باشا ومن معه

من العربان لا يتقدمون إلى الأمام وتفتر عزيمتهم تماما - قال - وإنى لا أخفى عنك أنى ناظر إلى المسألة من وجهها الحقيقى فلذلك أرانى مشاهدا من بعيد جميع المصاعب التى تترصدنا، فإن نجاح المهدى أحدث تأثيراً قوياً فى عقول أهل البلاد بحيث صار يتعذر علينا إنفاذ ما ننويه حالة كون البلاد بأسرها تضادنا فى ذلك - قال: وأنت تعلم أن سقوط هيئة الوزارات عادة لا يكون إلا عند مباينة رأى الرئيس لآراء الأعضاء الآخرين ومن تبعهم من أعيان البلاد، أما وزارتنا فقد كان سقوطها مسبباً عن اتفاقنا فى الرأى بشأن عدم ترك السودان، نعم إنى مع رفاقى سلمنا بجميع ما يمكن التسليم به على أننا قد رأينا أن ترك الخرطوم وبربر ودنقله أمر لا تقوى عليه عزيمتنا وكيف نستطيع ذلك وهى ليست من أملاكنا الخاصة؟ وما نحن إلا قائمون بحراستها بموجب فرمان سلطانى لا يسمح لنا بالتصرف فيها دون رضا الباب العالى وكأنى بصاحبكم يزعم أن بقاء السودان فى يدنا ضرب من الجور والظلم، فإذا كان الأمر كذلك فلماذا ياترى جازفنا بإنفاق الأموال الطائلة فى إبطال التجارة بالعبيد حتى أغضبنا أهل تلك البلاد وحاربناهم لتوطيد أركان التمدن وتثبيت قدم الإنسانية وإن كنا قد أنفقنا الأموال الكثيرة فى ذلك فإنا ولله المنة لم يعاونا أحد على تحمل أثقال هذه النفقة، نعم إنى صممت على التسليم بترك كردفان والدارفور ولكننى لم أسلم قط بترك الخرطوم وسوف ترون ما سيكون من وراء سياسة صاحبكم الخرقاء وما ستتكبده البلاد من النفقة الثقيلة لا لشىء سوى المحافظة على القوم فقط.

قال الراوى: ثم حملق إلىَّ الوزير بعينيه وقال: إنى أقول لك الحق إنى حزنت جدًا من جراء حادثة السودان ولكنى لم أضجر وثابرت عى العمل وأجهدت النفس ما استطعت، فلما أيقنت أنى مشرف على هوة عظيمة جزعت ووقفت ثم خلعت نفسى من منصب الرئاسة وكان بودى لو يعلم الناس كافة إخلاصى فى الخدمة حتى النهاية ولكن يأبى الله إلا ما يريد. اهـ.

قلت: فكان لمقالة الوزير غاية الوقع فى نفوس أقيال السياسة وأقطابها وتكلم عنها أصحاب صحف الأخبار الأجنبية وعدوها غاية فى الإصابة والسداد بل آية من آيات حسن النظر وأصالة الرأى وازدحم على بابه كبار الكتاب من الإنجليز والفرنسيس لاستكتاب حق أفكاره فكان يحدثهم غير متهيب من عظيم أو كبير.

وبينما كانت الظنون تترامى إلى ما سيكون من وراء تولى الوزير نوبار باشا منصب الرئاسة وما سيكون من وراء ترك السودان وغوائل الحرب القائمة من أقصاها

إلى أقصاها كان زعيم السياسة الإنجليزية يتخبط فى الأمر ويعمل على سلخ السودان شرقاً وجنوباً لأقل الأسباب وأوهى العلل.

(مطلب)

بعثة الأميرال هيوت إلى نجاشي الحبشة

ثم قدم فى هذه الأثناء إلى القاهرة أمير من أمراء سفن الحرب الإنجليزية اسمه الأميرال هيوت مبعوثاً إلى نجاشى الحبشة لعقد وفاق معه على فصل التخوم بين الأملاك المصرية وأملاك السلطنة الحبشية فلبث فى القاهرة أياماً ثم سار إلى السويس ومنها إلى مصوع فوصلها فى أخريات جمادى الثانية من السنة أى سنة إحدى وثلثمائة وألف هجرية، ثم غادرها ومعه محافظ المدينة وبعض كبار عسكر سفينته يريد لقاء الرأس ألولا قائد الجيوش الحبشية وكان قد سير أمامه جماعة من العسكر ليخبروه بقدومه وبسبب حضوره ويطلبوا تعيين المكان الذى يأذن النجاشى بمقابلته فيه، فعادوا وأخبروا بأن اللقاء يكون فى بلدة عدوة فسار إليها بمن معه من الرجال فلما صاروا على مسافة يومين منها كتب إلى النجاشى يعلمه بالغرض من مهمته وبالشروط التى ينبنى عليها الاتفاق بين الدولة الإنجليزية والحكومة المصرية والمملكة الحبشية ولبث ينتظر الجواب أيامًا حتى جاءه الخبر من قائد الجيوش الحبشية بأن النجاشى مقيم ببلدة مكله فإذا شاء المسير إليه لاقاه على الرحب والسعة فلم يشأ الأميرال الذهاب إلى مكله، وسار بمن معه إلى عدوة فلما بلغوها لبثوا بها أياماً فجاءهم أمير الجيوش يحمل الأمر من النجاشى بالمداولة معه فيما جاءوا بصدده فوارب الأميرال ولم يمتنع بتاتاً وأكثر من الأخذ والرد فيما لا طائل تحته وجاء الخبر بذلك إلى النجاشى فلم يحفل به ولم يتحرك إلى عدوة وبارح مكله وعرّج فى طريقه إلى دبه ومدرا وغيرهما ثم رجع إلى مكله ثانية كل هذا والأميرال ومن معه يتحملون مضض الانتظار حتى قدم الملك عدوة وأذن لهم بمقابلته فدخلوا عليه وسلموه كتب ملكة الإنجليز وقدموا له بعض التحف والهدايا. فلما كان اليوم الثانى طلبهم أيضًا إلى حضرته فتمثلوا بين يديه وهو فى زيه الملوكى فحادثوه طويلاً فى أمر المعاهدة وما تتضمنه من الشروط والقيود، ثم ودعوه ورحلوا إلى مصوع وعادوا إلى القاهرة ومعهم ورقة عليها خاتم النجاشى واسم الأميرال وماصون بيك محافظ مصوع قالوا: إنها هى تلك المعاهدة وأنها تتضمن سبعة أمور أهمها منح الحرية التامة

للمملكة الحبشية فى نقل جميع البضائع والأسلحة والذخائر من ميناء مصوع تحت حماية الراية الإنجليزية، ثم إعادة بلاد بوغوس إلى المملكة الحبشية مع كسلا وأماديب وسنهيت بما فى جميعها من المبانى والأسلحة والذخيرة حين جلاء العساكر المصرية عنها بشرط أن النجاشى يسهل لأولئك العساكر سبل الجلاء. فلما شاع خبر هذه المعاهدة أخذ الناس يتساءلون عما يراد منها فى حين أن تلك البلاد آمنة مطمئنة لا خوف عليها من إغارات العدو، فقال قوم: إنها غلطة من غلطات زعيم السياسة الإنجليزية، وقال آخرون: بل هى آية من آياته يريد بها إضرام نار الفتنة بين الحبشان ومدعى المهدوية عند بسط النجاشى يده على تلك البلاد فتقوم الحرب بين الطرفين ويقتتلان دونها حتى يهلكا كلاهما أو يهلك فريق ويضعف الآخر فتلتهم السودان دولة الإنجليز لقمة سائغة وتضمه إلى ما نالته من قبل، على أنه لم يكد ينشر خبر هذا للوفاق وما جره على البلاد من الخزى والعار حتى ظهرت الإشاعة بتعاقد زعيم السياسة الإنجليزية مع زعيم السياسة الإيطالية على تنازل السلطنة الإنجليزية للإيطاليان عن مدينة مصوع بعد سلخها من أملاك الحكومة المصرية مع سائر النقط الحربية الواقعة على سواحل البحر الأحمر ما بين عصب ومصوع على شرط أن الجنود الإيطالية التى تحتلها تقوم بقتال أصحاب المهدوية عند الحاجة فنشط حينئذ أصحاب صحف الأخبار المحلية وجعلوا ينادون بالويل والثبور ويحضون أصحاب الحل والعقد على الوقوف فى وجه زعيم تلك السياسة وينذرونهم بالخراب العاجل إن هم ظلوا على هذا الإغضاء والتعامى. وكان ممن أكثر من هذا الصياح والجلبة صاحب جريدة إفرنسية اسمها البوسفور فإنه بالغ فى الوقيعة بزعيم سياسة الإنجليز وزاد فى الطعن والسباب والحط من كرامته حتى استشاط جماعة الإنجليز ولم يطيقوا السكوت على ذلك فطلبوا من الوزير نوبار باشا القبض على الرجل وإبعاده فلم يقدر الوزير على ذلك ولكنه رسم بإلغاء صحيفته وإغلاق محل تحريرها فمانع قنصل الفرنسيس فى ذلك ووردت إليه الأخبار من وزير السياسة الإفرنسية بالمثابرة على الممانعة وقطع كل علاقة مع الحكومة إن هى أصرت على ما تبغيه من إغلاق مكان صاحب البوسفور فأصبح الوزير نوبار باشا وهو بين منتطح كبشين لا يدرى أى الطرفين أدنى إلى السلامة، إغضاب جماعة الإنجليز أم قطع العلاقات مع دولة الفرنسيس، ثم إنه كأنما رأى الثانى أهون الشرين فأوعز بإغلاق المحل فرحل القنصل فى الحال عن القاهرة إلى الإسكندرية وأعلن قطع كل علاقة مع الحكومة ولبث ينتظر ما يأتيه من زعيم سياستهم، وقد اشتغلت الخواطر بهذا الأمر ولم يبق للناس حديث سواه وهم بين

مستضعف لدولة الفرنسيس وشامت بها فكان بعضهم يقول: لو أن فرنسا أظهرت هذا الحزم والعزم يوم كانت مراكب حربها أمام طوابى الإسكندرية ولم ترض بانسحابها صاغرة ذليلة لما حاق بقومها والنافخين فى بوقها ما حاق بهم اليوم من الذل والهوان وقال آخرون: هذا جزاء ما فعلته بنا من التغرير حتى أصبحنا وإياها على ما ترى من الضيم والحيف والجزاء من جنس العمل، وقد كثر الأخذ والرد حينئذ بين وزير السياسة الإنجليزية ووزير سياسة فرنسا ونوبار باشا ونسى جماعة الإنجليز أو تناسوا أنهم النافخون فى ضرام هاته الفتنة فجعلوا يسعون بين المتخاصمين ويصلحون ذات البين كأنما لم يكن لهم يد فيها وطالت المخابرة فى ذلك أياماً والأنباء تأتى فى كل يوم إلى القاهرة أشكالاً وألواناً. واتفق أن جاء فى هذه الأثناء إلى ميناء الإسكندرية بعض سفن الحرب الإفرنسية فطاش عند رؤيتها جماعة الفرنسيس وبالغوا فى الاحتفاء بمن جاء فيها من كبار الجند ومقدمى العسكر وهب أصحاب صحف أخبارهم مما كانوا فيه من خمول وأخذوا يفصلون خبر مجيء تلك السفن ويظهرونه فى مظهر العداء والوعيد حتى خيل للناس أن قد قامت الحرب على أبواب القاهرة وبينما هم على هذه الحال إذ انجلت المخابرة عن حصول الاتفاق بين الفرنسيس والوزير نوبار باشا على أن تعود جريدة البوسفور إلى الظهور وأن يذهب نوبار باشا إلى دار قنصل الفرنسيس بكسوة التشريف معتذراً عما وقع فعاد حينئذ القنصل من الإسكندرية إلى القاهرة ومعه أمير تلك السفن الحربية وبعض كبار عسكره، فلما كان اليوم الثالث بعد عودتهم زارهم الوزير بكسوة التشريف فقابلوه هم كذلك فابتدرهم بعبارات الاعتذار والمصالحة فأجابوه بتلطف وفتحت بعد ظهر ذلك اليوم أبواب محل الجريدة فعادت الأمور إلى سابق مجراها وبطل حينئذ القيل والقال بهذا الشأن وانتقل حديث الناس من ذلك إلى سبب رحيل فتس جرالد أحد رجال الإنجليز الذى تولى إدارة أعمال حسابات الحكومة وخزينتها حيناً فقلب نظامها وغير قواعدها القديمة بمعاونة بلوم باشا الذى تولى وكالة الخزينة على عهد الخديوى إسماعيل ولهذا الرجل وخلعه من منصب الوكالة حديث طويل كله أحاجى ومعميات قد ضربنا صفحاً عن ذكره هنا. رحل فتس جرالد هذا فى تاسع عشرى رجب من السنة أى سنة اثنتين وثلثمائة وألف هجرية فلم تكن إلا أياما حتى جاء بدله آخر اسمه ويستلاند فلم تطل أيامه وانقلب راجعاً، قالوا: لأنه رأى فى أعمال حسابات الخزينة من الخلل والخلط ما لم يوافق عليه، وقد كان من رأيه إعادة شكل الحسابات القديم الذى كان على عهد رؤساء كتاب الخزينة من أهل البلاد وكان من همه منذ حضر إلى القاهرة من ديار الهند الإنجليزية البحث والتنقيب لمعرفة ما كانت

عليه هيئة الحسابات قبل أن يتولاها الإنجليز وبعد أن تولوها وظل على هذه الحال أياما حتى إذا ما هم بإرجاع شكلها إلى ما كان عليه مانعه فى ذلك جماعة الإنجليز فلم يسعه إلا التخلى عن منصبه مفضلاً الرجوع إلى وظيفته فى ديار الهند على البقاء مقيداً بعمل لاترضاه نفسه فحمده الناس على ذلك، فجاء بدلاً منه آخر يدعى بلمر فسار على خطة فتس جرالد وزاد فيها توسعًا وبالغ فى الإكراه على العمل بها حتى عمت سائر دواوين الحكومة وأبطل من قواعد الحسابات القديمة ما لم يتمكن فتس جرالد من إبطاله إلى يوم رحيله عن البلاد، ومازالت طريقة فتس جرالد هذه مرعية إلى هذا اليوم.

ومن الحوادث الجوية الغريبة التى وقعت فى ليلة الحادى والعشرين من صفر من السنة أى سنة ثلاث وثلثمائة وألف هجرية أنه انفجر بعد العشاء الأولى فى السماء ضوء حتى ملأ الجوّ ثم ظهرت بعده فى السماء نيازك وجعلت تتساقط ركاماً كأنها سهام ترمى فى أعقاب الشمس حتى خيل للناظر أن الحرب فى السماء قامت على قدم تنفجر نيازكها انفجار نار المدافع وإن لم يسمع لها دوى فخاف العامة كثيراً وترامحوا وهم يولولون ويضجون بيالطيف يا خفى الألطاف وصعدوا إلى أسطحة البيوت وصاروا يعجون ويبتهلون إلى الله تعالى، وكانت النساء يبكين والأطفال يصرخون بأصوات الخوف وعذرهم فى ذلك مقبول إذ هم لم يسمعوا بل لم يروا من قبل هذا الحادث الغريب وكان المنظر فى تلك الليلة غاية فى الغرابة فلم يبق طرف إلا مدّ إليه ولا نظر إلا تعلق عليه وكانت نجمة الزهرة فى تلك الليلة أشبه بالمنارة الدائرة على نفسها ينقبض نورها حتى لا تكاد تتميز عن سائر صغار النجوم، ثم لا تلبث أن تنبسط فتعود إلى حالها ونورها الزاهر واستمرت على حالتها تلك برهة طويلة والنيازك بين ذلك متتابعة متواصلة كأنها أوراق الشجر تتساقط متناثرة، ثم بطلت وسكنت خواطر الخلق وأصبحوا وهم يرجفون بوقوع الحوادث المهمة وحدوث الخطوب المدلهمة.

(مطلب)

اهتمام دولة الإنجليز بإعطاء الخزينة قرضًا فلم تفلح

وكانت إلى هذا الحين قد أمحلت خزينة البلاد وتولى العجز مواردها وكثرت عليها المطالب والمغارم كثرة بالغة فهمت دولة الإنجليز بإقراض الخزينة قرضًا يقوم بسد احتياجاتها فعارضها فى ذلك وزير سياسة الفرنسيس وقال: إن الحكومة المصرية

مرتبطة بعهود ومحالفات دولية لايصح معها انفراد الإنجليز بهذا العمل فضلاً عن أن البلاد مازالت تحت سيادة السلطان عبد الحميد فلا يصح لها أن تستدين إلا بإذنه.

قال بعض الكتاب: وقد كان وزير الفرنسيس يريد بذلك غل يد الإنجليز فى مصر وإظهار عجزهم عن سد حاجتها حتى لا يعتبر احتلالهم إياها لازماً لابد منه ولكن خاب ظنه وطاش سهمه إذ ما لبث الإنجليز أن سعوا لدى السلطان ورجال المابين حتى جاء فرمان السلطان بعدم المانع من الاقتراض لوفاء مطالب الخزينة المترتبة على الحوادث التى حدثت فتم للإنجليز عمل ذلك القرض فراجت الأعمال وزالت المصاعب فنشط الوزير نوبار باشا حينئذ إلى مخابرة زعيم السياسة الإنجليزية فى صعوبة جعل وادى حلفا حداً فاصلاً بين السودان ومصر وعدم موافقة ذلك لمصلحة البلاد، وقد كان زعيم السياسة المشار إليه رسم بذلك لأصحابه وأشار بالتعجيل فقال الوزير نوبار باشا: إن طمأنينة البلاد لا تتم إلا إذا صارت مديرية دنقلة غاية تخومها لا وادى حلفا لتتمكن من السيادة على النيل - قال: ولما كان ذلك يستلزم إرسال حملة إليها بعد جلاء العساكر الإنجليزية عنها فهو يرى أن تعهد هذه الحملة إلى الحكومة المصرية بحيث تجند عسكراً كامل العدد والعدد يتولى قيادته رجل مصرى خبير بأحوال السودان وأن هذه الواسطة أقرب من سواها إلى الوصول إلى أحسن النتائج فضلاً عن أن النفقة التى تلزم لذلك ستكون طفيفة بالنسبة للنفقات الجسيمة التى يقتضيها تجريد حملة إنجليزية وأنه ينبغى أن نقاتل السود بنفس أسلحتهم، وإذا تحقق خبر موت المهدى كان الأمر أيسر وكانت العاقبة أسلم والمبادرة بالحرب أوجب وألزم فلما علم صاحب سياسة الإنجليز بمقالة الوزير أرسل إليه يقول: اترك كل شىء على ما هو عليه الآن حتى يفد عليك رسولنا درومند ولف.

وكان لما خلع الوزير محمد شريف باشا نفسه من مسند الرئاسة بسبب تصميمه على عدم التخلى عن السودان وتركها لمدعى المهدوية وأخذت أقلام الكتاب يومئذ تقرّع صاحب السياسة الإنجليزية بأشد ما يكون من التقريع عمد إلى شىء من المواربة تسكيناً للفتنة وأرسل كتبه إلى السلطان يعلمه بما عزمت عليه السلطنة الإنجليزية من إرسال رسول ينوب عنها فى التعاقد مع الباب العالى على ما فيه المصلحة لديار مصر والسودان فى مستقبل الأيام.

(مطلب)

بعثة السير درومند ولف إلى دار السلطنة العثمانية

فلم تكن إلا أيام بعد ذلك حتى سار إلى الآستانة عظيم من الإنجليز اسمه السير

دروموند ولف يحمل الأمر بإبابته عن السلطنة الإنجليزية فى عقد ذلك الاتفاق فأكرم السلطان وفادته وأحسن لقاءه فأخذ يغدو ويروح على الباب العالى تارة والمابين الهمايونى أخرى أياماً لم يتعد الكلام فيها تعيين القاعدة اللازمة لمواد ذلك الاتفاق، وكان الكلام بين الفريقين غاية فى المواربة والتعقيد. وبينما هما على هذه الحال إذ قامت الفتنة فى إمارة البلغار وظهر أهلها ومن ولى الإمارة عليها يطالبون بالاستقلال والخروج من تابعية الدولة العثمانية.

قال بعض الكتاب: ويقال إن دولة الإنجليز هى التى أغرتهم على فعل ذلك وجرتهم إلى التظاهر فى تلك الأيام بما يوجب فشل الدولة العثمانية واضطراب أمورها عساها تتساهل مع رسولها ولف فتنال منها ما تتمناه فتعطلت المخابرة بين ولف والباب العالى ووقفت عند حد الانتظار واشتدت الفتنة البلغارية وتطاولت أيدى رجالها إلى العبث بحقوق السلطنة العثمانية واستخفوا بها فجيش أميرها الجيوش وأعد المعدات وسير الرسل إلى الدول الكبرى يستفزها إلى نصرته فطافوا الممالك وأكثروا من الشكوى ،وعظموا البلوى فمن الدول من مناهم بالأمانى البعيدة ومنها من حضهم على طاعة السلطان وملازمة السكون وطالت الأيام على مبعوث الإنجليز وهو ينتظر فى دار السلطنة العثمانية ما سيكون من وراء تلك الفتنة عسى أن يكون من ورائها مغنم لهم فلم يقع شىء من ذلك وتلاشت الفتنة على أيسر ما يكون وعادت الأمور إلى سابق مجراها وبعد أخذ ورد ما بين ولف والباب العالى وسفراء الدول الكبرى وقع الاتفاق على أن يرسل السلطان مبعوثاً من قبله إلى ديار مصر مع ولف مبعوث الإنجليز فيكون مندوب السلطان هو الأول ومندوب الإنجليز هو الثانى ويكون مع كل من الاثنين بعض الموظفين والمأمورين ليساعدوه على قضاء مأموريته بحيث إن هذه الرسالة لا تتناول إلا البحث فى أحوال خزينة البلاد وأمورها الإدارية والعسكرية مع إصلاح ما يمكن إصلاحه وعلى المندوبين أن يرفعا تقريراً بما يريانه مشتملاً على تفصيلات المسائل باباً فباباً .

ووصل ولف الإسكندرية فقوبل بغاية التجلة والتعظيم وسارت خلفه وأمامه الفرسان من الإنجليز والمصريين إلى محطة السكة الحديد، فلما وصل القاهرة بالغ الخديوى فى الاحتفاء به فقد كان فى انتظاره على المحطة ذو الفقار باشا كبير التشريفات وجميع النظار ومحافظ المدينة وقائد عموم جيش الاحتلال وبعض مقدمى العسكر وكوكبة من الركبان والمشاة، ثم زاره الخديوى وكبار الدولة والأمراء كافة ولبث ينتظر قدوم المبعوث السلطانى وهو يجتمع فى كل يوم بعظماء أهل البلاد

ولاسيما من كان منهم له علاقة بالسودان ومعرفة بأحوالها. وبينما هم يترقبون قدوم مبعوث السلطان إذ جاء الخبر إلى ديوان الخديوى بالإحسان من الخليفة على الخديوى بنيشان الامتياز العالى، وأنه قد أرسل النيشان على يد الفريق محمد باشا وآخر اسمه خيرى بيك فوصلا إلى الإسكندرية وقدما منها إلى القاهرة وسارا من محطة السكة الحديد فى موكب حافل حتى أنزلوهما بقصر النزهة من ضواحى القاهرة فباتا ليلتهما وأصبحا فسارا إلى مقر الخديوى بعابدين ولبثا بحضرته برهة لطيفة ثم عادا إلى قصر النزهة. فلما كان اليوم الثانى عمل التشريف فدخل على الخديوى كبار الدولة وأصحاب الوظائف العالية فهنئوه وأطلقوا لذلك عدة مدافع من قلعة الجبل وفى عصر اليوم سار الخديوى إلى قصر النزهة حيث الوفد العثمانى فسلم عليهما وجلس معهما برهة لطيفة ثم عاد إلى مقره وأقام رجال الوفد بعد ذلك أياماً ثم بارحا الديار إلى الآستانة.

(مطلب)

قاعدة الاتفاق الذى رامت الدولة الإنجليزية عقده مع السلطان

وجاء البريد من دار السلطنة فى ثانى عشرى صفر من السنة أى سنة ثلاث وثلثمائة وألف يحمل صورة الوفاق الذى تم ما بين دولة الإنجليز والباب العالى بشأن مأمورية السير درومند ولف مبعوث الإنجليز وسعيد باشا ناظر خارجية السلطنة العثمانية والأمور التى سيجريها فى مصر بالاشتراك مع الغازى مختار باشا مبعوث السلطان فكانت كما يأتى بنصه:

لما كانت جلالة ملكة بريطانيا العظمى وأيرلانده وإمبراطورة الهند اتفقت مع جلالة السلطان على إرسال معتمدين فوق العادة إلى مصر لأجل تنظيم الشئون المصرية قررا أن يعقد بينهما وفاق وعينا لهذه الغاية معتمدين مرخصين وهما المحترم السير هنرى درومند ولف من أعضاء المجلس الخاص حامل نيشان شوفاليه غران كرواه من صنف سان مشيل وسان جورج ونيشان شوفاليه كومندور من صنف بين وأحد أعضاء البرلمان الإنجليزى ومعتمد الدولة الإنجليزية ووزيرها المرخص لدى جلالة السلطان بمأمورية خصوصية تتعلق بالأكثر بشئون مصر من قبل جلالة ملكة بريطانيا العظمى وأيرلانده وإمبراطورة الهند ودولتلو محمد سعيد باشا وزير الخارجية

العثمانية الحامل النيشان الأول المرصع والنيشان المجيدى الأول من قبل جلالة السلطان. وبعد أن تبادلا الاطلاع على أوراق تعيينهما الرسمية ووجداها صحيحة توافقا على المواد الآتية المبينة على سائر الفرمانات الشاهانية المرعية :

المادة الأولى : يرسل كل من جلالة ملكة بريطانيا العظمى وجلالة السلطان معتمدا سامياً إلى مصر.

المادة الثانية : يبحث المعتمد السامى العثمانى بالاتحاد مع سمو الخديوى أو مع المعتمد الذى يعينه سموه فى أصلح الوسائط الممكن الوصل إليها لإخماد ثورة السودان بطريقة سلمية ويوقف المعتمد السامى العثمانى وسمو الخديوى المعتمد الإنجليزى السامى على سير المخابرات.

ولما كانت الاحتياطات التى ستقرر متعلقة بتسوية شئون مصر العمومية اقتضى اعتمادها وتنفيذها بالاتحاد مع المعتمد الإنجليزى السامى.

المادة الثالثة : ينظم المعتمدان الساميان الجيش المصرى بالاتحاد مع سمو الخديوى.

المادة الرابعة : يفحص المندوبان الساميان بالاتحاد مع سمو الخديوى جميع فروع الإدارات المصرية ولهم أن يعدلوا فيها ما يستصوبون طبقاً للفرمانات الشاهانية.

المادة الخامسة : تصدق الحكومة العثمانية على جميع العهدات الدولية التى أبرمها سمو الخديوى بشرط أن لا تكون مغايرة للامتيازات المخولة لسموه بمقتضى الفرمانات الشاهانية.

المادة السادسة : عقيب أن يتأكد المعتمدان الساميان حصول الأمن على التخوم وتوطيد الحكومة المصرية يقدم كل منهما تقريراً إلى حكومته وعندئذ تبحث الحكومتان فى عقد وفاق يتقرر فيه جلاء العساكر الإنجليزية عن مصر فى أجل مناسب.

المادة السابعة : يصدّق على هذا الوفاق ويصير تبادل النسختين المصدق عليهما فى الآستانة فى خلال خمسة عشر يوما أو أقل إذا أمكن.

وبناء على ذلك وقع المعتمدان المرخصان على هذا الوفاق وذيلاه بطغرائهما اهـ.

(مطلب)

تعدي العساكر الإيطالية على مصوع واحتلالها عنوة وما جرى

وبينما كان المبعوث الإنجليزى ورجال الحل والعقد فى مصر يراقبون حضور مبعوث السلطان وأهل البلاد يرجون النفع من وراء هذه النهضة إذ جاء الخبر من عامل الخديوى على مصوع بأن الجيوش الإيطالية التى كانت ضاربة حول البلد قد دخلتها وأحاطت بأماكن ودواوين الحكومة وطلبت من محافظ البلد الجلاء العاجل عنها بمن معه من المرابطين وتسليم القلاع والحصون إلى قائد الإيطاليان فمانع المحافظ فى ذلك وقال: إنه لا يفعل حتى يأتيه الأمر من الخديوى فشدد قائد الإيطاليان فى الطلب وأغلظ فى القول وهدد المحافظ بإطلاق القنابل من مدافع السفن على الحصون حتى يدمرها إن هو أصر على الامتناع فلم يسع المحافظ إلا الانسحاب بمن معه من الجند وبارح البلد وانحدر إلى سواكن، فلما شاع خبر هذا الحادث هاج الناس وماجوا وطاف نساء وذرارى الضباط وأصحاب الوظائف الذين بمصوع يتساءلون عما جرى لرجالهم وهم فى ولولة وضجة واجتمع الوزراء كافة وبينهم الخديوى وتكلموا فى الأمر طويلاً ثم اتفقوا بعد جدال على أن يحتجوا على عمل دولة إيطاليا هذا ويرفعوا الأمر إلى الباب العالى ليرى رأيه فيه مع سفراء الدول الكبرى بدار السلطنة وظنوا أن الغازى مختار باشا لا يفد إلى مصر إلا ومعه علم ما كان وما سيكون من أمر هذه المحن المتتابعة. فلما كان ثانى عشرى ربيع الأول من السنة أى سنة ثلاث وثلثمائة وألف هجرية وصلت السفينة عز الدين إحدى البواخر السلطانية تقل الغازى مختار باشا مبعوث السلطان فقابله الوزير نوبار باشا وسائر النظار وذو الفقار باشا كبير التشريفات فى أبهة وجلالة وأطلقت المدافع لقدومه من قلاع وحصون الإسكندرية، وكان فى انتظاره العدد العديد من العلماء والوجهاء وأعيان البلد فبعد أن سلموا عليه جميعاً بات ليلته تلك بالسفينة وأصبح فسار بمن معه من رجال الوفد ونسائه وخدمه وأتباعه إلى محطة السكة الحديد فحملهم القطار إلى القاهرة، وكان فى انتظاره الأمراء والكبراء والعلماء والوجهاء فسار بين صفوف الجند وأصوات المدافع إلى سراى الإسماعيلية التى أعدوها لنزوله ولم يستقر به المقام حتى زاره المبعوث الإنجليزى ولبث بحضرته برهة لطيفة وكذلك زاره العلماء

والوجهاء وأصحاب الوظائف على اختلاف طبقاتهم، ثم زار الخديوى فى ثانى يوم ولبث معه برهة وعاد إلى مقره فرد له الخديوى الزيارة وهو فى موكب التشريف، ثم بعد أيام قلائل جعل الغازى يوالى الاجتماع بمبعوث الإنجليز ويتكلمان فى أمر الإصلاح وفى أوجهه وأسبابه وظلا على هذه الحال أياماً. وجلسا يوماً يتكلمان فقال الغازى لولف: لا أخفى عليك أن حالة البلاد الآن داعية إلى تجييش جيش مناسب تسلم قيادته لقواد من أهل الخبرة والتجربة من المسلمين ليتولى إرجاع الأمور فى الديار السودانية إلى سابق مجراها والزحف على بلادها كلما سنحت الفرص. فقال ولف: إن الاتفاق مع أمير المؤمنين مبنى على اتخاذ الوسائل السلمية لا على تجنيد الجنود وتسليح العساكر وإرسالها لقتال العدو فقال الغازى نعم إنى لم أتعود أن أروى غير الحقيقة وقد يمكن أن يكون مولاى الخليفة يظن ذلك فعلىَّ أن أرفع إلى سدته الملوكانية ما أراه الآن من استحالة إرجاع الأمور إلى ما كانت عليه بالوسائل السلمية ما لم تعضدها قوة عسكرية، فقال ولف: ومن أين المال للنفقة؟ فقال الغازى: إن شاءت الدولة الإنجليزية مساعدتنا فالأمر دين والنفقة متيسرة وما عليها إلا أن تعطينا ما تأخذه من خزينة البلاد نفقة على جيشها المحتل الآن مصر. قال محدثى: فسكت عند ذلك السير ولف وأطرق لحظة ثم رفع رأسه وقال: سأكتب بهذا القول إلى صاحب سياستنا وأنتظر الجواب فإذا جاءنى اجتمعنا وتناقشنا فى الأمر.

واتفق فى هذه الأثناء أن تقدمت طائفة من العربان وجماعة من الدراويش أنصار المهدى إلى مواقع العساكر المصرية والإنجليزية الضاربة على الحدود فعاثوا فى ذلك الصعيد فقامت عليهم العساكر وضربتهم ومزقت جمعهم وتأثرتهم فاسترجعت منهم عدة مواقع وكثيراً من القرى والبلدان الصغيرة ومازالت تطاردهم وتعمل فى أقفيتهم السيف حتى صارت على أبواب دنقلة ووردت الأنباء بذلك إلى القاهرة من عاصمة الإنجليز لا من الحدود ففرح الناس فرحاً عظيماً وتعلقت آمالهم بقرب دخول العساكر المصرية دنقلة وإرجاعها إلى حوزة الحكومة وجعلها مقراً للحركات العسكرية ووردت رسائل التهانى على الخديوى من كل فج عميق فلم تكن إلا أيام حتى جاء الأمر من اللورد سلسبورى زعيم السياسة الإنجليزية إلى الجنرال استيفنصون قائد الجيوش الإنجليزية بالحدود أن ردّوا المقاتلين كافة عن دنقلة وأرجعوهم إلى الحدود، قيل: فراجعه الجنرال استيفنصون فى ذلك فلم يقبل وشدد فى إرجاعهم فانحدروا إلى مواقعهم الأصلية وتركوا ما كان بأيديهم من تلك المعاقل والمراكز فعاد إليها

العربان وتقوّوا فيها وتترسوا وجعلوا يراقبون الفرصة لإعادة الكرة على الحدود وانحدر الجنرال استيفنصون إلى القاهرة فشعر الناس بما وراء ذلك من مكنون السياسة الإنجليزية وأكثر أصحاب الصحف المحلية من الكلام على سوء الأثر المترتب على هذه السياسة وعلى بقاء العساكر الإنجليزية فى الحدود من الاضطراب ودوام القلق وأن الحال يحتاج إلى غير ذلك.

(مطلب)

ما وقع إلى الكونت روني وكيل الفرنسيس السياسي بمصر واعتذار الوزير إليه وهو بكسوة التشريف

ولم يشغلهم عن هذه الجلبة إلا ما وقع لقنصل جنرال الفرنسيس ووكيلهم السياسى بمصر، وذلك أنه قد جاء فى هذه الأثناء عظيم من الفرنسيس اسمه الكونت رونى لتولى منصب الوكالة السياسية بمصر فلما وصل القاهرة تحدد يوم لقبوله فى الموكب المعتاد واستلام الأوراق المؤذنة بتعيينه فى هذا المنصب على الطريقة المألوفة فلما حل الأجل المضروب لذلك وتمثل القنصل بين يدى الخديوى بملابس الزينة والتشريف وسلمه تلك الأوراق وألقى عليه حديث المودة وعلائق المحبة الكائنة بين حكومة مصر ودولة الفرنسيس لم تطلق المدافع لذلك من قلعة الجبل كالمتبع فى مثل هذا الاحتفال وانفضت الحفلة على غير سنتها المألوفة ونزل القنصل إلى داره وفى قلبه ما فيه لاسيما وأن المتولين أمر قلعة الجبل وإطلاق مدافعها فى هذه الحفلات الرسمية هم جماعة الإنجليز، فما استقر بالقنصل المقام فى داره حتى كتب إلى الوزير نوبار باشا يقيم الحجة ضد ما وقع ويطلب الترضية العاجلة فانزعج الوزير أى انزعاج ورسم الخديوى بإطلاق المدافع فى اليوم الثانى استرضاء للقنصل وتطييباً لخاطره فلم يقبل، وقال: لابد من الترضية بأن يأتى إلى دارى رئيس التشريفات بكسوة التشريف ويعتذر عما فرط فتطلق عند ذلك المدافع ثانية. وبأن يأتى كذلك الوزير نوبار باشا بملابس التشريف وتطلق المدافع ففعلا وأطلقت المدافع ثانية وثالثة. واندفع أصحاب صحف الفرنسيس ينادون بالويل والثبور على جماعة الإنجليز بمصر وشاركهم فى ذلك أصحاب الصحف المحلية فاهتم السير ولف مبعوث الإنجليز بالأمر وخاف أن يكون من وراء ذلك فشل مأموريته فسار إلى دار قنصل جنرال الفرنسيس ومعه قائد الجيوش الإنجليزية، قيل: واعتذرا وتلطفا فى المقال. فطلب القنصل عندئذ نشر بيان

جميع ما جرى بالجريدة الرسمية فأجابا طلبه وأشار ولف على الوزير نوبار باشا بالتعجيل فى ذلك ففعل وزال الخلاف فعادت الأمور إلى سابق مجراها. وعاد ولف إلى الاجتماع بالغازى مختار باشا والمكالمة فى شئون البلاد وحاجاتها وفى قواعد الإصلاح الواجب إدخالها فى سائر دواوين الحكومة وفى تنظيم الجيش على النمط الذى يمكن معه إعادة الكرة على دنقلة ثم استرجاع البلاد السودانية إلى الطاعة وتدويخها وإرسال رسول من قبل الخديوى إلى وادى حلفا للمخابرة مع زعماء القبائل رجاء الوصول إلى تقرير قاعدة للصلح معهم وظلا على هذه الحال أياماً وجاء الطلب من عاصمة الإنجليز إلى السير افلنج بارنج قنصل جنرالهم فتأهب للسفر وقد رتب متاعه وزار الوزير نوبار باشا وبقية الوزراء وقناصل الدول فشاع الخبر يومئذ بخلعه من منصبه وأنه لا يعود إليه إلا إذا عاد ولف إلى بلاده ظافراً بما يرجونه من بعثته، فتحدث الناس فى ذلك كثيراً وقالوا إن استدعاءه فى هذه الظروف الحرجة وإفراغه من كل عمل يدلان على وقوع شىء من النفور بينه وبين السير ولف أو أن يكون نداء الوزير نوبار باشا المتتابع بطلب خلع القنصل المشار إليه قد أقلق صاحب السياسة الإنجليزية ومال به إلى استدعاء القنصل، وقالوا غير ذلك أيضاً. فسار القنصل من القاهرة وغاب عنها حيناً ثم جاءها وقد أعلوا منزلته وأكبروا منصبه وسموه وكيلهم السياسى بديار مصر فذهبت تلك الظنون أدراج الرياح وتم له ما أراده فى منصبه من النجاح والفلاح.

وجاء الخبر بعيد ذلك بقليل بعزم صاحب السياسة الإنجليزية على إرسال غردون الذى هو غردون باشا إلى السودان لاسترجاع من بها من العساكر والجند وغيرهم ممن يشاء الجلاء عنها ثم لم يمض إلا أيام حتى جاء الطلب فى أخريات شهر صفر من صاحب السياسة المشار إليه بتولية غردون الولاية العامة على السودان وإعطائه السلطة المطلقة فيها فأبلغ السير بارنج هذا الطلب إلى الخديوى والوزير نوبار باشا فدهشا واضطربا ومانعا فى ذلك كثيراً فلم يقبل السير بارنج وصدع بالأمر، ثم لم تكن إلا أيام أخر حتى وصل غردون إلى القاهرة فى أخريات ربيع الأول من السنة أى سنة ثلاث وثلثمائة وألف واجتمع بالسير بارنج فأسر إليه بارنج بكل ما قضت به سياستهم فى أصقاع السودان ولم يتصل أحد يومئذ إلى معرفة ما الذى تنويه الهيئة الحاكمة ولا ما إذا كانت شاركت السير بارنج فى آرائه أو لا. ولم يطل غردون مكثه بالقاهرة بل غادرها فشيعه الوزير نوبار باشا وسائر الوزراء والسير بارنج والعدد

العديد من مقدمى العساكر الإنجليزية ولم يأخذ غردون معه فى ذلك اليوم جنداً ولا كراعاً ولا حشماً ولا أتباعاً سوى وعاء لملابسه ورحل إلى الخرطوم كأنما هو ذاهب إلى داره للقاء أم أولاده فتأمل.

قال صاحب كتاب السودان: فلما وصل كروسكو كتب كتاباً إلى المهدى وأرسل معه هدية من نوع الهدايا التى تقدم إلى مشايخ الأعراب كالبنش وغيره وفحوى الكتاب: إننى أعترف بك سلطاناً على السودان الغربى كله فأنت مطلق التصرف فى أقاليمه التى هى كردفان ودارفور. قلت: وهذه هى سياسة الوزير محمد شريف باشا التى مات شهيدها - قال: وإننى لما بلغنى ما أصاب أهل السودان من سفك الدماء وتوالى الحروب خامرنى غم شديد ولذا قد انتدبتنى جلالة ملكة بريطانيه العظمى وإمبراطورة الهند واليًا على السودان وصدقت على ذلك الحضرة الفخيمة الخديوية وإننى من صميم فؤادى أرغب توثيق عرى العلائق الودادية بينى وبين سلطنتكم وأرجو أن تسمحوا بإعادة المواصلات التلغرافية وأظن أن أدوات التلغراف قد أتلفت فى غضون تلك الخطوب، ولهذا أصدرت الأوامر إلى مركز الحكمدارية بأن يعطيكم كل ما تطلبونه من تلك الأدوات وأن يستقبل رسولكم كما يستقبل أعظم سفير، وقد داخلنى الحزن الشديد لما علمت بقفل طرق السودان الشرقى مما حال بين المسلمين وبين مكة المكرمة التى يقصدونها فى كل عام لأداء فريضة الحج وزيارة قبر النبى عليه الصلاة والسلام فهيا بنا لفتح هذا الطريق وإلقاء السلاح وتشييد أركان الراحة وتوطيد دعائم السلام اهـ.

ووصلت الأخبار إلى الخرطوم بمقدم غردون وولايته العامة على السودان ففرح الناس بذلك فرحاً عظيماً وأملوا النجاة على يديه فوردت عليه رسائل التهانى من كل صوب فأرسل إلى أهل الخرطوم يعلمهم بتركه المتأخر من الضرائب والأموال وخراج ثلاث سنوات مستقبلة وبترك جميع السودان الغربى إلى مدعى المهدوية واعتباره منفصلاً عن الخديوية المصرية وأن حكومة جلالة ملكة الإنجليز هى التى منحت المهدى هذا السلطان الواسع. وسير كذلك إلى حسين سرى باشا باعتزال منصب وكالة الولاية فاعتزله صاغراً وأقام بدله رجلا من الإنجليز اسمه الكولونيل برى كوتلجف - قال: وكان هذا الرجل قد حضر إلى الخرطوم فى مهمة سرية من قبل زعيم السياسة الإنجليزية قبل مقدم غردون بكثير ورسم غردون بتولية آخرين بعض الوظائف العالية ثم إنه رحل عن كروسكو إلى بربر فلاقاه مديرها ومعه أعيان البلد

وأصحاب الوظائف الديوانية فحضهم على الولاء والإخلاص، وقال: قد تركت لكم سائر المتأخر من الأموال الأميرية وتجاوزت عن خراج ثلاث سنوات مستقبلة وقد أبحت لكم الاتجار فى الرقيق وأبطلت كل مرسوم يخالف ذلك، ثم أهداهم بعض الهدايا النفيسة والتحف الغالية وسار عنهم قاصداً الخرطوم فكان يرى من الأهالى فى طريقه عين المقت والقلى إذ كانوا يسبونه ويكثرون من شتمه ويقولون فى وجهه: قد زالت دولتكم يا كفار. قال الراوى: فاندهش غردون من ذلك وأكبره جداً وكاد يتحقق عدم فلاحه وخيبته فى هذه البعثة إلا أنه تجلد واستعان بالصبر إلى أن وصل الخرطوم فجمع الأعيان والعلماء والوجهاء والمشايخ وتلا عليهم فرمان الولاية. ثم جعل يقول للناس: يا أهل السودان جميعاً إن الخديوى يسلم عليكم صغيراً وكبيراً أحراراً وعبيداً إناثاً وذكوراً وكذلك جلالة الملكة فيكتوريا ملكة دولة بريطانيه العظمى وإمبراطورة الهند. وأنكم لاتجهلون شفقتى عليكم ومحبتى لكم وقد ساءنى ما سمعته عنكم لما قامت بينكم الحرب وتعطلت تجارتكم وسفكت دماؤكم ومنعتم من تأدية فريضة الحج التى هى من أركان الإسلام ومن زيارة قبر النبى عليه السلام، وقد ساء ذلك كلا من جلالة الملكة وسمو الخديوى المعظم فانتدبت من قبل حكومة جلالة الملكة لأكون والياً على السودان ومرخصًا فوق العادة وقد صار فصل السودان فصلاً تاما وفوض إلىَّ الحكم المطلق عليه وقد خابرت حضرة السيد محمد أحمد المهدى بكنه مأموريتى واعترفت له بالسلطة المطلقة على السودان الغربى برمته بشرط أن لا يمد يده لغيره. وقد أبطلت جميع الأوامر المانعة من الاتجار فى الرقيق وتجاوزت عن جميع المتأخر من الضرائب لغاية سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية وتجاوزت أيضًا عن خراج ثلاث سنوات منذ أول سنة أربع وثمانين وأمرت بإحراق دفاتر المتأخرات وبإطلاق جميع المسجونين على اختلاف جرائمهم وتنوع جناياتهم وقد عزمت منذ الآن أن لا أجعل أعضاء حكومتى إلا من الوطنيين حيث إننى أود تشكيل حكومة وطنية ليحكم السودان نفسه بنفسه وقد عينت عوض الكريم أباسن مديراً للخرطوم وأحسنت عليه برتبة الباشوية، ولى الأمل بأن العلائق ستصبح بينى وبين سلطان الغرب «يعنى المهدى» وثيقة العرى وقد أمرت منذ اليوم بفتح أبواب الحصون وتخريبها وسحب الجنود منها لكى تتفرغوا إلى عمارية بلادكم وحرث أراضيكم وإنماء تجارتكم ومنى عليكم السلام اهـ.

قال صاحب كتاب السودان: وكان أهل الخرطوم يسمعون هذا الكلام وأعينهم

تذرف الدمع حزناً وإشفاقاً لأنهم كانوا يعلمون أن دوام الحال من المحال وأن مدعى المهدوية سوف ينحدر عليهم بخيله ورجله فلا عهد ينفع ولا حنان غردون يدفع. فدخل جماعة العلماء والوجهاء على غردون وقالوا: إنا نموت موتاً إن أنت أتلفت شيئاً من الحصون والقلاع فإن المهدى لا يلتفت إلى شيء مما دعوته إليه ولا يرده عنا إلا عسكر جرار وهاهم طوائف العربان الضاربون حولنا متحفزون للوثبة علينا والإيقاع بنا فلم يلتفت غردون إلى قولهم ولم يحفل به فلم تمض على ذلك أيام حتى جاء الخبر إلى الخرطوم بفشل حملة الجنرال جراهام وقتل جل رجالها. وكانت هذه الحملة قد سارت من القاهرة إلى شرقى السودان لتمهد الطريق إلى غردون فى مقاصده فلما شاع خبر اندحارها وإثخان رجال المهدى فيها اشتد الخوف بمن هم فى الخرطوم وأكبروا المصيبة وانزعج غردون وجعل يتدبر فيما عساه أن يكون إذا امتنع المهدى عليه وهاجمت جموعه الخرطوم وأخذ من يومه يطوف الحصون والقلاع ويتعهد المعاقل التى كان أشار فى مقالته بفتح أبوابها وتخريبها وسحب من بها من العسكر وبث العيون لتأتى له بأخبار العدو من كل صوب وحدب، فكانوا يتخبطون فى القول ولا يصدقون فى الرواية حتى ضعفت منه الآمال واختلطت عليه الأحوال.

واعلم أن ذهاب غردون إلى الخرطوم فى هذه الظروف المحفوفة بأكبر الأخطار وأعظم المكاره واندفاع أصحاب السياسة الإنجليزية وراء هذه الغاية ليس من الهنات الهينات ولا هو من المجازفة أو عمى البصيرة فى شيء وإنما هى أعمال تشف عن عزم ثابت قوى ونية معقودة على أمر لا يقبل المراجعة وهذه النية كانت تكنها صدور أصحاب تلك السياسة من عهد محمد على باشا الكبير بل ومن قبله على عهد مراد بيك وعلى بيك الكبير فكانوا كلما لاحت لهم بارقة أمل تتبعوها أو فرصة انتهزوها حتى أيام الخديوى إسماعيل الذى بش لهم وفتح لهم الأبواب مرحباً فولجوها آمنين وخفض لهم جناح الطاعة فتربعوا فى مناصب الرئاسة وتصرفوا فى موارد إيراد البلاد ومازالوا يعملون على بلوغ الغاية تارة ببذل المال وأخرى بدهاء الرجال وتارة باستعمال الضغط والتشديد وطوراً بالوعد والوعيد إلى أن أتاح لهم القدر المقدور ظهور فتنة صاحب المهدوية ثم اشتداد الثورة العرابية فأصبحت حكومة البلاد وهى أشغل من ذات النحيين فنهضوا حينئذ إلى إظهار ما تكنه الصدور وسيروا غردون هذا إلى الخرطوم على ما وصفنا وهم يقدرون له السلامة فى الحل والترحال ويرجون على يديه بلوغ سلطنتهم غاية الآمال. ولأجل أن لا يفوت القارئ معرفة بعض

الشيء من ضروب هذه السياسة الحازمة نذكر في فصل آت شيئاً مما جرى من أفيال هولاء القوم في السودان على عهد الخديوي إسماعيل والله سبحانه من وراء كل عمل.

فصل

(فيما كان من دهاء رجال سياسة الإنجليز على عهد الخديوي إسماعيل)

لما فتح محمد على باشا السودان ودوّخ مدنها وبلدانها شرقاً وغرباً وملأها بعسكره وجنوده جنوباً وأنشأ عاصمتها الجديدة التي هي مدينة الخرطوم، وقد كانت قاعدتها يومئذ مدينة واد مدني الواقعة على شاطيء النيل الأزرق جعل يولي عليها الولاة والعمال بعد ولاية الدفتردار العامة فكان جلهم على ما قاله بعض الكتاب ممن يحسنون التدبير عارفين بحاجات البلاد بعيدين عن الجور والاعتساف. فلما مات محمد على باشا وجاءت أولاده من بعده كان أكثر عمالهم أغرارا كثيري الجور والظلم ميالين إلى أخذ ما بأيدي الناس مع غلظة وتجبر، وكان آخر من تولاها على عهد محمد سعيد باشا سنة أربع وسبعين ومائتين وألف هجرية حسين سلامة بيك.

قال صاحب كتاب السودان: كان نعم الرجل عادلاً شفوقًا على الرعية، وكان يسمى يومئذ مدير عموم قبلي وبحري السودان وبقي الرجل وبقيت الولاية بهذا الاسم حتى تولى الملك الخديوي إسماعيل فجعل يبدّل ويغير في الولاة وليس بينهم من تحمد أيامه أو تشكر أحلامه إلى أن تولاها جعفر باشا المعروف بالصغير فكان رجلاً عادلاً شفوقاً باراً بالرعية عارفاً بحاجة البلاد وأهلها فأقام ماشاء الخديوي، ثم عزل وخلفه عدة من الولاة على التعاقب فكان آخرهم قبل غردون الإنجليزي إسماعيل أيوب باشا وفي أيامه بلغت سلطة الخديوي في تلك الأنحاء أوجها وعمت كلمته أرجاء السودان شرقاً وغرباً وجنوباً إذ تتابعت غزوات عسكره وأوغلت في أقاصي البلاد طلباً للمزيد من الفتح فكان أصحاب سياسة الإنجليز وأقطاب القوم منهم ينظرون إلى فعاله بعين السخط ويحسبون لها حساباً كبيراً وجعلوا يعملون على ما تقتضيه مصلحتهم ويتدبرون لمستقبل الأيام فأرسلوا الكشاف والرواد من طريق

الزنجبار ورأس الرجاء بعضهم فى زى المبشرين بالنصرانية، وبعضهم باسم علماء الآثار وأصحاب علم طبقات الأرض، فلم يتم لهم ما أرادوا فعمدوا إلى الحيلة والتدبير وجاءوا الخديوى إسماعيل من أقرب المسالك وأحبها إليه فزينوا له المزيد من فتح تلك الأصقاع واستكشاف مجاهل خط الاستواء وما فى جوف أرضه من معادن الذهب والفضة والحديد والفحم ومازالوا به حتى ظفروا منه ببغيتهم وساعدهم على ذلك ما كان فيه يومئذ من التورّط فى الدين لأصحاب الأموال من الإنجليز والفرنسيس ثم إنهم سيروا إليه رجلاً من أقيالهم العارفين بمناحى سياستهم ومرامى غايتهم اسمه السير صمويل بيكر فتلقاه الخديوى على الرحب والسعة فأقام بالقاهرة أياماً، وكان قد أتى معه من ديار الإنجليز بشىء من الهدايا والتحف برسم زعماء قبائل السودان ومشايخ أهلها وأدلاء دروبها ومسالكها وهى أصناف من الخرز والجلود المصبوغة والفراء والقبعات الحمر والأساور والأقراط والخواتم والقلائد من الصفر والأحذية وشقق الكتان والخناجر والسكاكين والشىء الكثير من ألاعيب الأطفال كالأكر والمزامير والصفافير والعصىّ والسياط فاستصحب كل ذلك وبارح القاهرة على عجل وما برح سائراً حتى تغلغل فى جوف السودان وأوغل فى مجاهل خط الاستواء فبحث ونقب وراد الطرق واستكشف المسالك واستمال بعض زعماء القوم وعرف الشىء الكثير من طباعهم وعاداتهم وما يميلون إليه وما ينفرون منه. قيل وعاهد بعضهم على الولاء والإخلاص للسلطنة الإنجليزية وعاقدهم على ما لم تصل إلينا معرفته وبعد أن لبث بتلك الأصقاع ماشاء هو أو ما شاء صاحب سياسة الإنجليز قفل راجعاً إلى قومه بسلام فلم تكن إلا فترة بعد ذلك حتى أخذ قنصل جنرال الإنجليز بالقاهرة يصبح الخديوى ويمسيه فى طلب معاقدة دولة الإنجليز على منع الاتجار فى الرقيق وقطع شأفة النخاسة من أرجاء السودان المصرى فكان الخديوى يماطل ويحاول والقنصل لا ينفك عن الطلب ولا ينثنى له عزم دون نوال هذا الأرب حتى فاز وغلب . وتم التعاقد على شروط أقل ما فيها من الحيف أن صار لأمراء سفن الحرب الإنجليزية تمام السيطرة على سائر السفن والشوانى الحاملة للراية المصرية بالبحر الأحمر وحق التفتيش عليها وضبط ما يوجد بها من الإماء والعبيد وتحريرهم ومصادرة كل ما كان بها من مال ومتاع ومعاقبة أصحابها بالعقوبات الشديدة. فلما شاع خبر هذه المعاهدة أخذت أصحاب صحف الأخبار الإنجليزية نشوة الفرح فتهللوا وأيقنوا بالفوز والغلبة ونحن المصريين لاهون عما سيكون من وراء ذلك فى مستقبل

الأيام. ثم رسم الخديوى إلى عماله بالسودان أن يعملوا بنصوص تلك المعاهدة وأن لا يخالفوا شيئاً من أحكامها فصدعوا بالأمر وذاع خبرها فى البلاد شرقاً وغرباً وجنوباً فلم تكن إلا أيام حتى ظهرت على وجوه السود علامات الوحشة والانقباض وبدأت إشارات الخروج أو كادت ووقفوا فى وجه أصحاب الجباية الذين عم شرهم يومئذ وثقل نيرهم على الأهلين، لأن القوم رأو أن منع المتاجرة فى الرقيق مصيبة كبرى لأن هذا الاتجار معين ثروة كبيرة لهم فضلاً عن أن أهل السودان لم يتعودوا خدمة الأرض بأيديهم ولا خدمة ماشيتهم بل أن نساءهم قلما يؤدين شيئاً من الخدمات البيتية وكل اعتمادهم فى زرع الأرض وتربية الماشية والخدمة البيتية إنما هو على أولئك الإماء والعبيد.

ولما تم للإنجليز ما أرادوا من أمر تلك المعاهدة أوعزوا إلى قنصلهم يومئذ أن كلم الخديوى فى ارسال رجل منهم إلى مجاهل خط الأستواء مرة ثانية ليحيى ما إندرس من معالم المدنية التى كان وضع أساسها فى تلك الأنحاء السير صمويل بيكر ولكى يقطع شأفة الاتجار بالعبيد ويسد المسالك على القوافل التى تقوم بالنخاسة ففعل القنصل وأكثر من ملازمة باب الخديوى إسماعيل والخديوى لا يجهل ما وراء ذلك فكان يطاول ويمنى القنصل بالمواعيد والقنصل لا ينكف عن الطلب حتى أذعن الخديوى، فأتوا له برجل من كبار عسكرهم اسمه الكولونيل غردون «وهو غردون هذا الذى نحن بصدد الكلام عليه» فرسم له الخديوى بالولاية على سواحل البحر الأحمر التى هى شرقى السودان المصرى فتولاها حينا وكأنه لم يطب له المقام هناك أو كأن لم يحسن فى عينى زعيم السياسة الإنجليزية أن يرى سلطة صاحبهم وتعاليمه لا تتجاوز شرقى السودان فوردت حيتئذ كتبه على الخديوى بطلب تولية غردون الولاية العامة على خط الأستواء وما يليه. وكانت الديون الى هذا الحين قد أثقلت كاهل الخزينة وأمحلتها فأصبحت وهى بين أيدى أصحاب الديون من جماعة الإنجليز والفرنسيس كالريشة فى مهب الرياح، فكان الخديوى يبذل فى مرضاة أصحاب سياسة الدولتين كل مرتخص وغال عساهم يدفعون عنه بعض ما يعانيه من جور الدائنين فلم ير بدا يومئذ من إجابة طلب صاحب سياسة الإنجليز ورسم إلى غردون بالولاية على خط الأستواء فى أخريات سنة تسعين ومائتين وألف هجرية أى سنة أربع وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية فسار غردون إلى الخرطوم على الطائر الميمون فتلقاه إسماعيل أيوب باشا والى السودان يومئذ وبالغ فى إكرامه وأطلق المدافع

إجلالاً لقدومه وأنزله على الرحب والسعة بالقصر المعروف بقصر راسخ بيك فلبث به أياماً ثم سار بمن أخذه من العساكر والجنود إلى فشوده ومنها إلى منزلة سبت التى هى أول بلاد خط الأستواء شمالاً فأمر ببناء القلاع والحصون فيها وحفر خندقاً عظيماً وجعلها مقراً لحكومته الجديدة، ثم رحل عنها بعد أيام إلى جبل الرجاف وكندكور التى كانت مقراً لأستاذه السير صمويل بيكر من قبله ومازال ينتقل من مكان إلى مكان ويأخذ العهود على من يلتقى بهم من زعماء القبائل والمشايخ ويقيم الولاة والحكام من صغار ضباط الجند وممن كانوا فى خدمة صمويل بيكر حتى قامت فى وجهه قبائل العبيد وقاتلت عسكره قتالاً عنيفاً ومازالت تقاتلهم حتى هزمتهم العساكر شر هزيمة وأخضعتهم بغير عهد ولا ذمة، وظل غردون يجوب البلاد شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً حتى نزل على بلاد الملك أمبته صاحب بلاد مرولى فعمد إلى ضم بلاده الواسعة إلى فتوحاته وهمّ بذلك، ثم علم بأن الرجل يدين بدين النصرانية وقد اعتنقها على يدى المبشرين الإنجليز الذين قدموا عليه من ناحية الزنجبار فانكف عن غزو بلاده وجعل مرولى خاتمة فتوحاته.

(مطلب)

انحدار غردون بعد ذلك إلى القاهرة

فلما كانت سنة أربع وتسعين ومائتين وألف هجرية انحدر غردون إلى القاهرة وجعل يغدو ويروح على مقر الخديوى أياماً ثم برح القاهرة إلى ديار الإنجليز فلم يستقر به المقام حتى شاع الخبر وسطرته صحف الإنجليز بتوليته الولاية العامة على جميع السودان المصرى شرقاً وغرباً وجنوباً. قيل: فاندهش الخديوى ورجال دولته لأنهم لم يكونوا يعرفون عن ذلك شيئاً البتة. ولم تمض إلا أيام حتى عاد غردون إلى القاهرة فى هيبة وجلالة ودخل على الخديوى فسلمه الخديوى فرمان الولاية بيده مكرهاً فسار غردون إلى الخرطوم ودخلها فى ضجة عظيمة فدقت لمقدمه البشائر وطير الخبر بولايته إلى الآفاق فجاء مشايخ وزعماء القبائل فخلع عليهم الخلع من الاكسية والفرجيات من الجوخ الأحمر وشقائق الحرير وبالغ فى إكرامهم وفرق بعض التحف والهدايا على جماعة العلماء والوجهاء والأعيان وبعض أصحاب الوظائف فانطلقت ألسنتهم يومئذ بالدعاء له إذ كانوا لم يروا شيئاً من ذلك البتة على يد أحد من كبار الولاة قبل جعفر باشا الصغير. وكانت ولاية غردون على سائر السودان

المصرى ولاية عامة فأطلق الخديوى يده وصرفه فى سائر الأمور. قال بعض الكتاب: وهى محنة أخرى قد نزلت على هامة البلاد من سماء عاصمة الإنجليز وفتنة كبرى لا يعلم بعاقبتها إلا الحكيم العزيز، فإن غردون مالبث أن تربع فى دست الولاية حتى وردت الكتب منه تباعاً على الخديوى فلم يكن إلا شهر أو بعض الشهر حتى جاءه أمر الخديوى بضم سائر بلاد خط الأستواء إلى ولايته فرتب لها الحكام وعين جباة الأموال وسلم مقاليد المهمات إلى جماعة من الإنجليز والألمان والأميريكان والطليان ونفر من أهل البلاد كإدريس بن أبتر وغيره ممن كانوا سيارة يتجرون فى الإماء والعبيد والريش وسن الفيل وأطلق لهم الكلمة حتى تصرفوا فى سائر الأمور فعملوا لغير ما تقتضيه مصلحة البلاد وبالغوا فى منع الاتجار بالرقيق وصادروا التجار فى أموالهم وأرزاقهم وضيقوا عليهم سبل الاتجار وقفلوا فى وجههم أبواب الكسب. واستكتب غردون يومئذ رجلاً اسمه التهامى بك وجعله كاتم أسراره فتمكن التهامى هذا من قلب غردون وأخذ بمجامع لبه فكان لا يأتى أمراً إلا بإشارته ولا يعمل عملاً إلا برأيه.

قال صاحب كتاب السودان: وكان ذلك الرجل من شر الرجال وأخبثهم نية وأفسدهم طوية فسلك بغردون مسلكاً نفر منه القلوب وحرك فى صدور أهل البلاد كامن الحقد عليه وكان تشديد الحكام لا سيما من الإنجليز والإيطاليين فى منع الاتجار بالرقيق وتحرير كل من علموا بوجودهم عند ساداتهم من أهم الأسباب التى دفعت بأهل السودان إلى شق عصا الطاعة كما سيأتى بيان ذلك فى محله. إذ كان الناس هناك يحسبون أن تحرير مواليهم وخروجهم من حوزتهم على يد أولئك الأجانب اضطهاد دينى من النصرانية للإسلام وكان شيوخهم وعلماؤهم يؤيدون لهم ذلك بالأدلة المقبولة والشواهد المعقولة حتى أصبحت عندهم حقيقة لاشك فيها فكانوا يخفون ما بقلوبهم من نار التألم والحقد على عمال الحكومة ويرقبون كل سانحة حتى ظهر محمد أحمد مدعى المهدوية وأيقظ الفتنة الراقدة فهبوا جميعاً لنصرته ولبوا على الفور دعوته وبايعوه على الطاعة والجهاد ضد أولئك القوم الكافرين فلما انتشرت دعوته أو كادت عاهده حتى الذين كانوا ينكرونها عليه. وقالوا: عاهدناك سواء صدقت فى دعواك أو كذبت ما بقيت على عداء هذه الدولة الجائرة ومحاربتها. وقد بقى هذا السر مكتوماً والدعاة يجوبون البلاد شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً حتى قامت الفتنة بين الحبشة ومصر على يد غردون بأسباب تحديد التخوم

بين المملكتين وكان غردون هو البادئ بمعاداة النجاشي والاستخفاف بشأنه استغضاباً له وتكبيراً للفتنة فلم يطق الخديوى إسماعيل الصبر يومئذ على ذلك خوفاً من استفحال الخطب وإضطرام نار الفتنة بين البلدين لا سيما وقد كانت دولتا الإنجليز والفرنسيس فى ذلك الحين تشدان عليه النكير بسبب كثرة الديون وتضيقان عليه الخناق بالبحث والتنقيب فى موارد ومصارف البلاد وتشيران من طرف خفى إلى أن خلعه من مسنده هو من الهنات الهينات. وكان قد آنس من غردون أيضاً الميل إلى الاستبداد بأمر السودان فاستقدمه على عجل فدخل غردون القاهرة فى آخريات سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية مستقيلاً من منصبه فأقاله الخديوى ورسم إلى محمد رؤوف باشا بالولاية بدله فسار رؤوف باشا إلى الخرطوم فلم يصلها إلا ودعوة المهدى قد استفحل شأنها إذ كان قد بايعه أهل الحلوين والخلق العظيم من القبائل الضاربة حول جزيرة آبا وبينهم قبيلتا دقيم وكنانة المعروفتان باسم البقارة لكثرة ماشيتهم والقوم من أهل القوة البأس والصبر فى الحروب وعاهده كذلك عظيم من السود من ذوى الوظائف الديوانية على موافاته بالأخبار والتف حوله زهاء الثلاثة آلاف من العربان كل هذا ورجال الحكومة لاهون عنه أو هم مغضون لا يريدون كشف أسراره ولا ذكر شيء من أمره حتى وردت الرسائل تترى على رؤوف باشا من بعض أعداء المهدى يعيبون فيها الحكومة على ذلك الإغضاء ويلومونها على تركها الرجل يعمل على إيقاد نار الفتنة وشق عصا الطاعة حتى ظهرت كلمته كل هذا الظهور، فأرسل رؤوف باشا الكتب بذلك إلى مدير فشوده وهو يومئذ الطيب بيك ورسم له بالقبض على ذلك الخارجى فصدع بالأمر وسار إلى آبا فى نفر من الجند وكبس الخارجى فى مقره وأمسكه حياً وزجه فى السجن أياماً. قال صاحب كتاب السودان: حتى جاء بعض أتباعه ومريديه ورشوا الطيب فأطلق لهم سراحه واستقدم الواشين وهددهم وتوعدهم إن هم عادوا إلى الشكوى، ثم أنه قفل راجعاً إلى فشوده. أما الخارجى فإنه ما أفلت من السجن حتى زاد غروره وكبرت قحته فأرسل الكتب إلى سائر من عاهدهم يقول فى مطلعها بعد البسملة والحمد له : إنه قد جاءنى النبى ﷺ فى اليقظة ومعه الخلفاء الراشدون والأقطاب والخضر عليه السلام وأمسك بيدى ﷺ وأجلسنى على كرسيه وقال لى: أنت المهدى المنتظر من شك فى مهدويتك فقد كفر وإن الترك كفار وهم أشد الناس كفراً لأنهم ساعون فى إطفاء نور الله **﴿ويأبى الله إلاّ أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾** وأخبرنى ﷺ بأن

النصر سيسير بين يدى أربعين ميلاً وأنه ﷺ يحضر بذاته الكريمة أمام جيشى ومعه الخلفاء الراشدين، وأن الله تعالى أيدنى بالأولياء والشهداء والصالحين من عهد آدم عليه السلام إلى زماننا هذا، وأن مؤمنى الجن يجاهدون معى ولا ينهزم لى جيش وأن الله ناصرى ومؤيدى على كل من حاربنى من الثقلين وأن أصحابى كأصحابه ﷺ وعامتهم أكبر مقاماً فى دار الخلد من الشيخ عبد القادر الحلى. قال صاحب كتاب السودان، وهو شيخه الذى نهاه عن الخروج فى هذه البدعة ثم طرده. قال: وأرسل نسخاً عديدة من هذا المنشور إلى أناس فى الخرطوم منهم الشيخ الأمين الضرير رئيس العلماء بالسودان وهذا أطلع عليه رؤوف باشا فرسم الباشا إلى أبى السعود بيك العقاد أحد معاونيه بالسفر وأصحابه بجماعة من الدنقليين المقيمين بالخرطوم وأنفذهم رسلاً إليه يعنى إلى الخارجى يدعونه إلى الطاعة ويحذرونه عاقبة الفتنة ويبلغونه أمر الوالى بدعوته إلى الحضور لديه فذهبوا على الباخرة الفاشر، ولما وصلوا إلى جزيرة آبا قابلهم كل من فيها بالتكبير على الكفار وكان الخارجى يتعبد فى سرداب فى الأرض فامتنع عن مقابلتهم أولاً، ثم أذن لهم بالدخول فدخلوا عليه وسيوف أصحابه مسلولة على رأسه فسألوه عن دعواه فأجابهم بمعنى ما فى منشوره فقال له أبو السعود بيك: إن الوالى يدعوك إلى الحضور لديه فقال: لا أذهب، فقال: يا سيدى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم، فقبض المهدى على سيف كان على فخذه الأيسر وكشر عن أنيابه وقال: أنا ولى الأمر الآن على سائر الأنس والجان فاستأذن الرسل بالانصراف فأذن لهم وهم الناس بالإيقاع بهم لولا أنه شدد عليهم فى الكف عنهم وقفلوا راجعين إلى الخرطوم.

وعلم الملتفون حول الخارجى من المريدين والدراويش بخبر رسل الوالى وما جرى لهم فخافوا شر العاقبة وأيقنوا أن الحرب قائمة لا محالة وأن لا قبل لمدعى المهدوية على الوقوف فى وجه العسكر المصرى فتفرقوا عنه وتركوه مع نفر من أقاربه وخواص مريديه من الدناقلة وهؤلاء أيضاً كانوا يتوقعون القتال فى كل يوم. ووصل رسل الوالى إلى الخرطوم وأخبروا بما جرى لهم فسير الوالى طائفة من العسكر ومعهم مدفع لقتال ذلك الخارجى ومن معه والإتيان به حياً فخرجوا فى أخريات رمضان من سنة سبع وتسعين ومائتين وألف قاصدين جزيرة آبا فوصلوها قبيل الغروب، وكان الوقت صيفاً والأمطار تهطل غزيرة والأوحال تملأ الطرقات فلم يتم نزولهم من السفن التى كانت تحملهم حتى اختلف الضابطان اللذان كانا يقودان هذه

الحملة على من منهما يتولى الرئاسة واشتد بينهما الخلاف حتى باتوا جميعاً فى مكانهم تلك الليلة بعد أن وضعوا أحمالهم والتموا حولها فعلم الخارجى بخبرهم وبث حولهم العيون وهم نيام لا يشعرون ومازال يراقبهم بمن معه من المقاتلة حتى بعد ما نصف الليل فانقض عليهم حينئذ وأعمل فيهم السيف فلم يفلت منهم إلا بضع نفر منهم أبو السعود بيك وغنم الخارجى جميع متاعهم وكراعهم وسائر ما كان معهم وعاد أبو السعود وأخبر بما جرى فعم حينئذ الخوف وذاع خبر هزيمة العسكر فى أكثر البلاد السودانية فجعل التجار من الأجانب والأهلين يرحلون من المدن والقرى ويأتون إلى الخرطوم وأسيوط والقاهرة وغيرها وارتبك رؤوف باشا وتحير فى أمره وكأنما كان يعتقد سراً بصحة مهدوية ذلك الخارجى فلم يأت شيئاً من الحزم أو حسن التدبير سوى أنه أرسل طائفة أخرى من الجند لحصار جزيرة آبا وأرسل إلى مدير كردفان فى طلب النجدة العاجلة وكان المهدى لما ظفر بالعساكر المصرية فى تلك الواقعة حسب وما رواه ذلك فجمع إليه أصحابه وقال لهم: أن رسول الله ﷺ يأمرنى أن نعمل العبج «قال صاحب كتاب السودان وهو نوع يشبه الفلين لخفته وطفوه فوق الماء» مركاب لنعبر بها النيل إلى الجانب الغربى وإن الله تعالى سيأخذ على ناصية الترك الكفار لا يقدرون على إيصال الأذى إلينا حتى نبلغ مأمننا من الجانب الغربى ومن هناك نتوجه إلى دار هجرتنا بجبال ماسه وقدير وهى دار هجرة الأنبياء كلهم إلا نبينا محمداً ﷺ ففرح أصحابه بذلك وعملوا شيئاً كثيراً من تلك المراكب وعبروا النيل فلم يأذن رؤوف باشا لقائد العسكر الذى كانوا يحاصرون الجزيرة بتدمير تلك المراكب وكأنما كان يعمل فى ذلك الحين بمشورة ججلر باشا الألمانى وكيل الولاية وهو تلميذ غردون فى سياسة السودان وغرس نعمته فما استقر الخارجى بالجانب الغربى حتى جاءته رجالة دقيم وكنانة والتفوا حوله وبايعوه على السمع والطاعة والجهاد فى سبيل الله ثم قدموا له الأقوات. قال صاحب كتاب السودان: وكانت البيعة هكذا بايعنا الله ورسوله وبايعناك على طاعة الله وأن لا نسرق ولا نزنى ولا نأتى بهتاناً نفتريه ولا نعصيك فى أمر بمعروف ونهى عن منكر، بايعناك على زهد الدنيا وتركها وأن لا نفر من الجهاد رغبة فيما عند الله اهـ.

وكان الذين بايعوه فى ذلك اليوم زهاء عشرة آلاف مقاتل مدججين بالرماح والسيوف الهندية وبينهم جماعة من الفرسان، ثم ساروا معه إلى جبال ماسه وقدير فعارضهم قبائل النوبة الساكنة هناك وقاتلوهم أياماً كانت الحرب فيها سجالاً، ثم

حلت الهزيمة بأهل الجبال فأذعنوا وأطاعوا فتركهم ومر بجبال تقلى فلم يتمكن من إخضاع أهلها لأنهم أصحاب بأس وقوة فى الحروب، وشاع الخبر بما جرى حتى بلغ كردفان فقويت عقيدة أهلها فى مهدويته وتاقت نفوسهم إلى نصرته وتحققوا خلاصهم على يده من ذل الولاة والحكام فهرعوا إلى قدير ليبايعوه. قال صاحب كتاب السودان: وفد عليه زعيم قبيلة الحوازمة الذين هم البقارة وزعيم قبيلة القديات وكل منهما فى مائتى فارس من أشجع فرسان قومهم وأصبرهم على القتال فأحسن لقائهم فبايعوه على السمع والطاعة. قيل: وقال له زعيم قبيلة الحوازمة أبايعك على المهدوية وإن لم تكن مهديا أبايعك على قتال الحكومة وخلع طاعتها فتقوت بهؤلاء القوم عزيمة الخارجي وأنصاره ووقعت مهابته فى قلوب أهل الجبال المجاورة فكان إذا تحرك جماعة منهم إلى قتاله نزل عليهم وهزمهم شر هزيمة. وفى هذه الأثناء كان قد خلع السلطان الخديوى إسماعيل من مسند الخديوية وتولاه ولده محمد توفيق باشا وكان ما كان من ظهور الثورة العرابية وعجز الحكومة يومئذ عن قطع شأفة المهدوية فلما كانت سنة تسع وتسعين ومائتين وألف هجرية جاء الأمر إلى رؤوف باشا بالتخلى عن الولاية فاعتزلها وسلم مقاليدها إلى ججلر باشا وكيلها وسافر من فوره إلى القاهرة يريد لقاء عبد القادر باشا الذى تولى الولاية العامة بدله فجعل ججلر يتصرف فى الأمور كما يشاء وأرسل يوسف باشا حسن الشلابى فى جيش ضخم لقتال المهدى فظفر به المهدى وفتك بعساكره فتكاً ذريعاً وأخذ جميع ما كان معهم من متاع وسلاح ودواب للحمل فعظمت بذلك قوة الخارجى واشتدت ظهور أصحابه وكثرت لمومه وعمت بيعته سائر الأصقاع السودانية أو كادت فتاقت نفسه إلى التشبه بالخلفاء الراشدين وترتيب أصحابه وأنصاره على طريقة المجاهدين فى أيام عمر بن الخطاب . قال صاحب كتاب السودان: وكان الذين يعتمد عليهم فى سائر أموره خمسة أولهم الخليفة عبد الله التعايشى فعقد له لواء أسرد على جميع المقاتلين معه من قبائل السودان الغربى ولقبه بخليفه الصديق، والثانى الخليفة على بن محمد حلو وعقد له لواء أخضر على المقاتلين من القبائل التى تسكن ضفتى النيل الأبيض والجبال الواقعة حول جبل قدير ولقبه الخليفة الفاروق، والثالث ابن عمه الخليفة محمد شريف بن حامد وجعله مقدماً على سائر من معه من أهالى الخرطوم وبربر ودنقله وسنار ولقبه بخليفة الكرار، وجعل الزعامة العامة لأخيه محمد عبد الله ولقبه بأمير الجيوش المهدوية، وولى رجلاً اسمه أحمد بن سليمان من قبيلة المحس أمانة

بيت المال فكان أحمد هذا من أقرب المقربين إليه وأصدقهم فى طاعته وأحفظهم لسره وأطلعهم على سائر عوراته. قال: وهؤلاء هم الخمسة الذين كانوا موضع ثقته اهـ.

وما ذاع خبر انتصار أصحاب الخارجى على جيش الحكومة بين أهل البلاد حتى خرج على عمال الحكومة وأصحاب الجباية كل من فى قلبه مرض وكالوا لهم بالكيل الوافى وزحف رجل اسمه عامر بن المكاشفى فى لموم كثيرة على سنار فقاتل من بها وفتحها عنوة وأفحش فى القتل والنهب وسبى النساء والذرارى وجاء الخبر إلى ججلر فقام من الخرطوم فى نفر من العسكر يريد اللحاق بابن المكاشفى وإجلاءه عن سنار فسمع الصائح فى طريقه بخروج آخر اسمه الشريف أحمد طه ووقوفه فى لموم كثيرة بين الخرطوم وسنار فتربص بمن معه وأرسل إليه يدعوه إلى الطاعة فلم يذعن بل قتل الرسول فسير إليه جماعة من العسكر فقاتلوه وهزموه شر هزيمه وتبعوه حتى قتلوه ثم انقلب ججلر بمن معه من العساكر إلى سنار فأنقذها وشتت شمل من كان حولها من لموم المكاشفى وكان ابن المكاشفى قد مات قبل وصول ججلر بجراح أصابته عن دخوله سنار.

(مطلب)

وصول عبد القادر باشا إلى الخرطوم

وبينما كان أهل الخرطوم فى خوف ما عليه من مزيد وهم يتوقعون فتك العدو بهم فى كل لحظة من الزمان لخلو البلد من المرابطين وانتشار أهل الفساد وقطاع الطرق حوله وعدم وجود من يحسن التدبير عند مسيس الحاجة إذ جاءهم عبد القادر باشا فى نفر من الخدم والاتباع والكتاب فلم يستقر به المقام حتى طاف البلد وعلم ما يحتاج إليه من أسباب الدفاع فرتب العسس للحراسة فى الليل وجمع من العبيد عسكراً لحراسة النهار والدفاع عند الحاجة وحصن البلد تحصيناً منيعاً وخندق عليه وأوقف الحرس على الأبراج فذهب الخوف من قلوب الناس وانتشر الأمن حول البلد وخاف أهل الشقاوة وانكمشوا، ثم أرسل فى طلب المرابطين عند حدود بلاد الحبشة فجاؤا فعهد إليهم بحراسة بعض المواقع والأبواب. وكان إذ ذاك قد التهب جوف السودان المصرى جميعه بنار الفتنة وعمت دعوة المهدى سائر تلك الأطراف وخرج من كان باقياً على الطاعة وكثرت المذابح فى كل صوب وحدب. قال صاحب كتاب

السودان: فكان لا شئ أيسر من أن يهب كل من فى قلبه مرض إلى الخروج وشق عصا الطاعة فتلتف حوله اللموم من أهل حلته على أسرع ما يكون بسيوفهم ورماحهم ومؤنتهم طلباً للجهاد وغزو الكفار فيسير بهم حينئذ إلى الخارجى فى جبل قدير فيوليه الخلافة ويأخذ عليه العهد بما شاء ثم يرجع بمن معه ويقفون فى طريق الجند ويقاتلونهم أو يطاردونهم أو يهاجمون مراكزهم مستقتلين مستبسلين والدعاة يجوبون البلاد شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً يدعون القبائل إلى طاعة الخارجى حتى لم تبق قبيلة إلا استنجدوا بها ولا بيت إلا طرقوا بابه. وجاء الخبر سراً إلى عبد القادر باشا بعزم الخارجى على ترك جبل قدير والزحف على الأبيض لبقائها على ولاء الحكومة الخديوية ووجود المرابطين من العسكر المصرى بها. قال صاحب كتاب السودان: وكان زحف المهدى إلى الأبيض بدعوة من تجار كردفان وإلحاح منهم فجعل عبد القادر باشا يتأهب للقائه بالأبيض وينظم النجدات ويعد المعدات على قلة من عسكره وكان يخشى أن المهدى إذا انحدر إلى كردفان سير دعاته حول الخرطوم فيحرضون الناس على الخروج وشق عصا الطاعة فيشتغل بمن معه من الجند بإرجاعهم ويتعذر عليه حينئذ إرسال النجدة إلى كردفان، فتتمكن لموم المهدى من الفتك بمن فيها من الحامية - قال - وقد صدق ظنه فإنه ما أنحدر المهدى من قدير حتى قامت الفتنة حول الخرطوم واشتبك عبد القادر باشا معهم فى القتال واشتد عليهم واشتدوا عليه فلم يكن ليخضعهم حتى تم للمهدى الاستيلاء على الأبيض وتخريب ما فيها من آثار المدنية والعمران. ثم جعل عبد القادر باشا ينتقل من بلد إلى آخر ويلح فى قتال أنصار الخارجى ويصليهم ناراً حامية ويجد فى تمزيق جموعهم حتى تمكنت مهابته من قلوبهم مع ما كانت عليه جنوده من شظف العيش وعرى الأجساد إذ كانوا يستترون بالجلود ويقتاتون بلحوم الماشية التى كانوا يغنمونها من العدو ويعملون أحذيتهم من جلودها مع خلو أيديهم من الدرهم والدينار لعدم صرف مرتباتهم وتأخير جماكيهم الشهور الكثيرة، وكان عبد القادر باشا لا ينفك عن استعطاف رجال الدولة بمصر علهم يرثون لحالهم ويطلقون لهم شيئاً من رواتبهم. فبينما هم على هذه الحال إذ جاءه الخبر من ديوان الخديوى بأن قد قامت إلى الخرطوم حملة عظيمة من الجنود المصرية بقيادة رجل من الإنجليز اسمه هيكس وأنها على قدم السرعة وستدرك الخرطوم فى القريب العاجل.

(مطلب)

قيام حملة هيكس إلى الخرطوم

فلما ذاع هذا الخبر إندهش الناس أى اندهاش إذ مع ما هو معلوم من أن الفريقين المتحاربين كليهما من المسلمين فإن الفتنة كانت معتبرة دينية والحرب بينهما جهاداً، فكيف إذا علم أصحاب الثورة أن قواد الجيش المحارب لهم هم من الإنجليز، وكيف يكون تأجج نار الفتنة واشتداد أوارها وفوز دعاة المهدوية متى تحقق للخارجى وأصحابه ذلك. أما هيكس هذا فهو رجل من مقدمى عسكر الإنجليز أوفده زعيم سياستهم إلى أرض مصر لهذه الغاية فلم يلق عصا ترحاله حتى طلب السير بارنج إلى الخديوى إرساله على رأس ذلك الجيش إلى السودان لإخضاع أهله والقبض على مدعى المهدوية فأكبر الخديوى الأمر وأعظمه وكلم الوزير محمد شريف باشا فى ذلك فامتنع الوزير وقال: لا سبيل إليه والفتنة دينية والرأى عندى أن نمد عبد القادر باشا بالمدد الكافى ونطلق له عنان التصرف وإلا اختلط الحابل بالنابل وتعذر إطفاء نار هذه الفتنة، فراجعه السير بارنج ووردت الكتب من صاحب سياسة الإنجليز بالتعجيل وخروج العسكر والوزير يحاول ويطاول. وكان إسماعيل أيوب باشا الذى تولى السودان على عهد الخديوى إسماعيل يشغل أحد المناصب الوزارية مع الوزير محمد شريف وكان يكره ظهور كلمة عبد القادر باشا ويميل إلى خذلانه وحرمانه من فخر الفوز على الخارجى وشرف الظفر بقطع دابر الفتنة، فزين إلى السير بارنج طلب استرجاع عبد القادر باشا وإرسال هيكس بدله، قيل: ومازال هو والسير بارنج يعملان يداً واحدة وبقلب واحد حتى تم إخراج الجيش على رغم أنف كل مكابر وكان مؤلفاً ممن كانوا يعملون فى الجيش المصرى على عهد الثورة العرابية، فسار بهم هيكس وقد أعطاه الخديوى رتبة الباشوية فوصل بالجيش إلى الخرطوم ومعه الشىء الكثير من الأسلحة والمدافع ودواب الحمل والذخيرة وكان إلى يوم وصوله قد تم تحصين سنار ورحل عنها العدو وزالت القلاقل من الجزيرة وحصر عبد القادر باشا دعوة الخارجى فى إقليم كردفان فزال الخوف عن الخرطوم أيضاً بمقدم جيش هيكس أوكاد. قال صاحب كتاب السودان: وكان عبد القادر باشا قبل قدوم جيش هيكس يتمنى لو أن الحكومة تمده بشىء من المال والرجال فيتيسر له إذ ذاك وضع حامية تقاوم دعاة المهدى فى الجزيرة وحول الخرطوم ثم يتقدم هو نحو كردفان من طريقها الشمالى الذى يكثر فيه الماء لا من طريقها الجنوبى الذى لا ماء فيه ولا رواء تاركاً

فى كل مرحلة يقطعها حامية تحفظ له خط الرجعة، ثم يؤلف ممن بقى قوة للهجوم فيهجم بها على العدو فيمزق شمله ويقضى عليه القضاء الأخير ولكن قد جاء هيكس وقضى الأمر اهـ.

وقد اشتد العجب بالناس أيضاً من قدوم كبير من كبار عسكر الإنجليز اسمه الكولونيل استيورت إلى بربر ومعه كتاب من الديوان الخديوى إلى سائر العمال يأمرهم فيه بأن يطلعوا استيورت هذا على سائر دفاتر وأوراق الحكومة وأن يصدعوا بأمره فى كل ما يطلبه وكان مع استيورت هذا رجل آخر اسمه داليه إيطالى الجنس ممن كانوا فى خدمة السودان على عهد الخديوى إسماعيل، فسار استيورت من بربر إلى الخرطوم والتقى بعبد القادر باشا ولبث بها أياماً لا يعلم أحد من عمله شيئاً، ثم غادر الخرطوم إلى سنار فالقضارف فكسلة فمصوع فمصر فاختلف الناس فى داعى حضوره فمن قائل: إنه جاسوس جاء ليتحقق من أمر طموح عبد القادر باشا إلى الاستقلال بملك السودان كما أشاع يومئذ المرجفون وهم على ما ذهب إليه بعضهم إسماعيل أيوب باشا وأشياعه أو على مذهب غيرهم، هم صاحب السياسة الإنجليزية ورجال حزبه، ومن قائل: بل حضر ليمهد العقبات أمام جيش هيكس، ومن قائل: غير ذلك ، وعلى كل حال فلم تكن إلا أيام بعد عودة استيورت إلى القاهرة حتى جاء الأمر من الديوان الخديوى إلى عبد القادر باشا بالتخلى عن الولاية والعودة إلى مصر فتخلى عنها فى الحال وجعل يتأهب للرحيل، وبينما هو على هذا إذ جاء علاء الدين باشا والياً بدله فانحدر عبد القادر باشا من الخرطوم يريد القاهرة وجعل علاء الدين يتصرف فى الأمور، وعلم الخارجى بخبر جيش هيكس فاهتم له كثيراً. قال صاحب كتاب السودان: وظهرت على وجوه أصحابه علامات الخوف فتطير الخارجى من ذلك وكتب يحض الناس على الغزو والجهاد فى أعداء الله ورسوله: ثم نادى فى عسكره بالخروج إلى ظاهر البلد وظلوا على هذه الحال زهاء ستة شهور، فلما كان شهر ذى الحجة من السنة أى سنة ثلثمائة وألف خرج جيش هيكس من أم درمان براً وبحراً حتى بلغ الدويم وتربص حتى تكاملت رجاله ومعداته وجاء الصائح إلى الخارجى بمسير الجيش فأرسل فى الحال رجلا من مقدمى عسكره وآخرين ممن لاذوا به من عسكر الحكومة ومعهم أربعون ألفا من الجعليين والدناقلة ورسم إليهم بأن ينزلوا جميعاً بمكان يعرف بالبساطة على مقربة من أم درمان ـ قال ـ وقال لهم: إذا سارت حملة هيكس من أم درمان فسيروا خلفها على بركة الله واجعلوا بينكم وبين مؤخرها رمية قوس. وخرج علاء الدين باشا ليسير مع الجيش ومعه بعض الخدم

والحشم والاتباع ودليلان من قبيلة الجمع قدما إلى الخرطوم بإيعاز من مدعى المهدوية ليسيرا بالجيش من أوعر الطرق وأقلها ماء ورواء، وكان هذا الجيش كما وصف صاحب كتاب السودان: مؤلفاً من ستة عشر ألف مقاتل من العساكر النظامية وألف من الفرسان لابسى الدروع والخوذ وألف من الجنود السود وكثير من الفرسان الترك غير المنظمين، وكان عدد دواب الحمل فيه زهاء الثلاثين ألف جمل ما عدا البغال ومع الجيش الشيء الكثير من الأسلحة والمدافع والمكاحل من الطراز الجديد والمؤن والذخيرة، وسار هذا الجيش الضخم من الدويم إلى شاة ثم منها إلى عقبة وما كاد يفارق النيل حتى جعل العدوّ يقلقه بالجلبة والصياح فاضطر أن يسير على شكل مربع يحيط بدواب الحمل وكان لايقدر على المبيت إلا فى داخل زريبة من الشوك فكان كل من ابتعد من العسكر عن الزريبة فى طلب الحشائش لعلف الدواب وقع فى أيدى العدو فتعذر الحصول على العلف ومات أكثر الدواب جوعاً ولحق بالعسكر ما لامزيد عليه من التعب من قلة النوم لأن العدو كان لايتركهم ينامون من كثرة صياحه وجلبته فى كل ليلة مما يضطرهم إلى التأهب والاحتياط والوقوف على قدم الاستعداد والسهر حتى مطلع الفجر.

(مطلب)

الخلاف بين علاء الدين باشا وهيكس باشا

وبينما كانت الجنود على هذه الحال من التعب وتهديد العدو لهم فى الليل والنهار بغير حرب ولا نزال كان الخلاف قائماً ما بين علاء الدين باشا وهيكس على أى منهما تكون له الرئاسة إذ كان كل منهما يزعم أنه مقدم هذا الجيش وصاحب الكلمة بين أفراده. حدثنى صاحب لى قال: حدثنى رجل ممن وقع فى يد العدو بعد هلاك جيش هيكس قال كانت فعال هيكس هذا تدل على جهله بأحوال البلاد وعادات السود وكان كثير التقلب قريب الغضب، وكان علاء الدين فخوراً مختالاً فكان إذا أبدى رأياً فى أمر خالفه هيكس وعابه وإذا أشار هيكس بشيء مانعه علاء الدين وخطأه ورماه بالجهل فظهر عندئذ من جماعة الضباط وطوائف العسكر الاستخفاف بالاثنين فنبذوا طاعتهما وقد أضناهم العطش وأنهكهم التعب وتفشت بينهم الأمراض العفنة وكثر الموات فى دوابهم لقلة العلف والماء ومازالوا والعدوّ محدق بهم من كل صوب يسيرون وهم على هذه الحال حتى نزلوا على غدير يقال له: غدير شيكان مملوء بماء الأمطار، فأقاموا عليه أياماً قلائل حتى استنزفوا ماءه

وسبقهم الخارجى بجيوشه إلى غدير كثير الماء ونزل حوله ليمنعهم من الوصول إليه فلم يتمكنوا من اللحاق به ولم يقدروا على مناجزة العدو لضعفهم وخور قواهم وأقاموا حول غدير شيكان حتى أكلوا طينه وأوحاله من شدة الظمأ وتمرد الجند على كبارهم وهموا بقتلهم مراراً. فلما كان يوم الاثنين رابع المحرم افتتاح سنة إحدى وثلثمائة وألف قاموا على ما هم عليه من الجهد والضعف يريدون الأبيض لخلوها من رجال الخارجى والتماساً للماء فيها. قال صاحب كتاب السودان: وكانت جواسيس المهدى قد أبلغته ما هم عليه من حالة الضعف والظمأ وأنهم قد أصبحوا جثثا لا حراك بها فنادى فى أصحابه بالخروج عليهم فأطبقوا عليهم من كل جانب وأعملوا فيهم السيف فلم يقدروا على الدفاع ولم يسمع لهم صوت مدفع ولا بارودة حتى أفنتهم سيوف العدو ولم يبق منهم إلا بضع عشرات ممن اختفى بين الأشلاء وأمر الخارجى أتباعه فجعلوا يحرقون جثث القتلى من أعدائهم معللين ذلك بأنهم كفار وقتلوا علاء الدين وهيكس شر قتلة. قلت: هذه رواية، وفى أخرى أنه لما خرج الجيش من أم درمان على ما تقدم ذكره سار الدليلان أمامه فى طريق كثير الغابات شديد المرابك والعقبات قليل الماء والرواء والعدو من خلفه وعن يمينه وعن شماله يثب على مربع العسكر كل حين وهم يجدّون المسير رجاء أن يدركو الماء ويرووا بعض ما بهم من الظمأ فلم يمكنهم العدو من ذلك وقد قل علف دوابهم فكثر فيها الموات وضعفت عن حمل أثقالهم وجرّ مدافعهم، ثم تفشت فى العسكر الأمراض العفنة وأنشب فيهم الموت أظافره ولما كان كلهم أو جلهم من الذين كانوا فى مظاهرات الثورة العرابية وكان كبارهم ممن حكم عليهم بالتجريد من الرتب وألقاب الشرف وكان انتظامهم فى هذا الجيش إنما هو بإيعاز من صاحب السياسة الإنجليزية ولنكد حظهم كان ما كان من سوء تدبير الجيش وتغرير الدليلين بعلاء الدين وهيكس أيقنوا جميعاً بأنهم إنما هم مسوقون إلى الموت لا محالة فانتقضوا وعصوا كبارهم وأكثروا من سبهم وتعنيفهم وضربهم، قيل: وهموا بقتلهم مراراً ومازالوا على هذه الحال من الظمأ والتعب والعدو من أمامهم ومن خلفهم وعن يمينهم وعن شمالهم وهم لا يقدرون على دفعه حتى نزلوا على غدير شيكان فشربوا ما فيه وأكلوا من طينه وأوحاله وعيون العدو ترمقهم حتى أيقنوا أنه لم يبق فى أحد منهم شىء من القوة يدفع بها قاتله فانقضوا عليهم وهم كالأموات وأعملوا فيهم السيف حتى لم يبق منهم إلا نفر قليل ممن اختبؤا بين جثث الأموات وقتلوا هيكس وعلاء الدين وجمعوا السلاح والمتاع والمدافع وما بقى من دواب الحمل وقفلوا

راجعين إلى الأبيض فرسم الخارجى بتقسيم الأسلاب والغنائم على المجاهدين والأنصار والخلفاء. وجاء الخبر إلى القاهرة بما أصاب جيش هيكس فكان لذلك رنة حزن وأسف شديدين وكثر البكاء والعويل فى بيوت الضباط وكبار الجند وجلس الناس للعزاء أياماً وظن أهل الخرطوم أن الخديوى لا يلبث أن يعيد عبد القادر باشا فى عسكر جرار للأخذ بالثأر وشاع بينهم أيضاً خبر عزم زعيم سياسة الإنجليز على إرسال غردون قائداً على ذلك العسكر فجعلوا يعجون ويبتهلون إلى الله بتحقيق هذا الخبر واختلط الحال على الخديوى ورجال دولته فجعلوا ينقضون اليوم ما أبرموه أمس ويتخبطون فى العمل كمن فقد الرشد ووزير السياسة الإنجليزية يضرب على أيديهم ولا يمكنهم من أخذ أو رد فكانوا إذا قاموا أقعدهم وإذا قعدوا أقامهم وإذا قالوا عاب عليهم قولهم وإذا عملوا رماهم بالعسف حتى جاءهم مرسومه بالتعجيل فى إخلاء الدويم وفشوده والكوه والجلاء عنهال وتركها إلى الخارجى والإتيان بحاميتها إلى الخرطوم، فصدعوا بالأمر فلم يتم الجلاء عن هذه البلاد حتى جاءهم الأمر أيضاً بإجلاء سائر المصريين عن الخرطوم وإعادتهم إلى مصر على نفقة الخزينة فصدعوا كذلك بالأمر صاغرين وأخذ الناس فى الجلاء إلى بربر وأحصوا النازحين يومئذ فكانوا زهاء مائتى ألف وخمسين ألفاً، وشاع خبر ذلك فى البلاد شرقاً وغرباً فأجمع الناس من ذلك اليوم على طاعة الخارجى والإسراع إلى متابعته فكان يجتمعون فى القرى والبلدان ويضربون الطبول ويخلعون أثوابهم ويلبسون المرقعات التى هى شعار المهدوية ويوفدون الوفود إلى حيث الخارجى ليبايعوه ويأخذوا عليه العهد فتم إلى هذا الحين سقوط هيبة الحكومة المصرية وزوال سلطانها وذهاب نفوذها وصار حكام البلاد يذهبون بما لديهم من الأموال إلى مقر الخارجى تزلفاً وتقرباً منه فكان يمنيهم بالأمانى الكثيرة، وكان ممن سلم وتزلف وبالغ فى ذلك جداً سلاطين باشا ومن كان معه من كبار العساكر وأسلم يومئذ ونطق بالشهادتين على يد الخارجى ولازم باب الخليفة التعايشى. قال صاحب كتاب السودان: أما مقدموا العسكر فقد فعل بهم المهدى من القساوة والتعذيب والضرب بالسياط ما تقشعر لسماعه الأبدان.

وصل

فى ظهور الفتنة بالسودان الشرقى

قد كانت الفتنة إلى هذا الحين فى السودان الشرقى نائمة ولم يحرك أحد من القبائل لها ساكناً، وكان بقرية الدامر على ساحل النيل شيخ من أرباب الطرق اسمه

الطاهر المجدوب وكان محبوباً موقراً معظماً عند أهل السودان الشرقى مسموع الكلمة عند الولاة والحكام وافر الهيبة معززاً. فأرسل إليه مدعى المهدوية يدعوه إلى لقائه ويشرح له كيفية مهدويته ويسأله الانضمام إلى خلفائه هو ومن معه من المريدين ومشايخ الطرق ويستحثه على الخروج على عمال الحكومة وأجازه بمبايعة الناس وخاطبه بألقاب الإمارة على السودان الشرقى جميعه فبعث إليه الطاهر بجماعة من مريديه يتقدمهم رجل اسمه عثمان دقنه بن أبى بكر دقنه وهو من التجار الكبار كانت له أملاك واسعة بسواكن وسواها فذهبت أمواله وبيعت أملاكه لأسباب سياسية.

لا محل لسردها هنا، وكان عثمان دقنه هذا يحمل كتاباً من الشيخ الطاهر إلى الخارجى يقول فيه: إن عثمان هذا من خيرة مريديه ومن أصدق أتباعه وإنه من أولى العزم والحزم وأنه أجدر بإمارة شرقى السودان منه يعنى من الشيخ الطاهر وأن الشيخ لا يأنف من أن يكون تابعاً لأفضل مريديه وأنه سيكون هو مستشاره ومدبر أموره والناصح لسائر أتباعه بالقيام بنصرته وموازرته وأنه لم يكن من مانع من قبول منصب الإمارة لنفسه سوى الشيخوخة والعجز عن الحركة التى يستلزمها هذا المنصب الخطير، فلما وفد عثمان دقنه على الخارجى أكرم الخارجى وفادته وبالغ فى الاحتفاء به وسأله عن الحال فى شرقى السودان قيل: فهوّن عليه، وقال: ياسيدى الناس طرا طائعون لك واهبون أرواحهم فى سبيل مرضاتك ومرضاة رسول الله ﷺ وهم جميعاً على أهبة الغزو والجهاد فى الكفار، قال: ثم ماذا ؟ قال: وأستاذى يقول: أن الدولة قدعزمت على قهرك بإرسال جيش جرار إلى بربر عن طريق سواكن وهو يشير عليك بإرجاعى للوقوف مع المجاهدين فى طريق ذلك الجيش وسد جميع المنافذ عليه حتى تتمكن من فتح الخرطوم. قال الراوى: ففرح الخارجى بمقالة عثمان دقنه وسرحه إلى سواكن وكتب له كتباً إلى سائر القبائل الضاربة هناك يستصرخهم ويستفزهم إلى نصرته ونجدته وأنه قد أمرّ عليهم عثمان دقنه فيجب عليهم طاعته والعمل بمشورته فلم يصل عثمان إلى بربر حتى علم رجال الحكومة بخبره وما جرى له مع الخارجى فأرسلوا خلفه من يقبض عليه فلم يفلحوا ووصل إلى سواكن آمناً مطمئنا واجتمع بالشيخ الطاهر وسلمه كتب المهدى، فجمع الشيخ سائر مريديه وأبناء طريقته ومن التف حولهم وقام فى وسطهم ومد يده إلى عثمان دقنه وبايعه بالإمارة فبايعه الناس كافة وترامت أخباره إلى مصوع وكسلة فدخلت جميع القبائل فى طاعته فجاء الأمر إلى محافظ سواكن بالقبض عليه وهو يومئذ فى سنكات فسير إليه توفيق بك مأمور طوكر فى ستين من الجند للقبض عليه ولم يكن محافظ سواكن يعلم من

أمر جموعه ومن التف حوله من القبائل شيئاً، فلما صار توفيق بك ومن معه على مقربة من سنكات خرجت عليه لموم عثمان دقنه فقاتلهم وأصلاهم ناراً حامية وتحصن داخل زريبة من الشوك وخندق وعمل متراساً عظيماً وصار يدافع من ورائه ويصلى عدوّه بناره.

(مطلب)

إرسال جيش لاستخلاص سنكات وطوكر

وجاء الخبر إلى القاهرة بظهور الفتنة أيضًا فى شرقى السودان وخروج جميع قبائله عن طاعة الحكومة، فبعد أخذ وردّ طويلين مع السير بارنج جاء الخبر من صاحب السياسة الإنجليزية بإرسال جيش لاستخلاص طوكر وسنكات من أيدى أصحاب الفتنة، فاهتم لذلك الخديوى وجماعة الوزراء وجيشوا زهاء خمسة آلاف مقاتل ممن بقى من العسكر المصرى بعد حملة هيكس وبالغوا فى الإكثار من معداتهم وآلات حربهم وعقدوا لواء هذا الجيش إلى محمود طاهر باشا أحد مقدمى العسكر على عهد الخديوى إسماعيل، فسار بجيشه هذا يريد طوكر فعلم بخبرهم عثمان دقنه وتأهب للقائهم فى عدة كثيرة من المقاتلة وكمن بهم فى منتصف الطريق بين طوكر والترنكتات فبينما هم سائرون خرج عليهم الكمين من كل صوب وحدب وداهمهم على غرة فأوقع بهم ومزق شملهم، فلم ينج غير مقدمهم محمود باشا ونفر قليل وغنم دقنه سائر ما كان معهم وعاد الفارون إلى سواكن فتبعهم العدوّ إليها وأحدق بها وجعل يتهددها وجاء الخبر إلى القاهرة بما حل بجيش محمود باشا فأكبر الخديوى الأمر وأعظمه جداً وكبر قلقه أيضاً على الخرطوم لترادف الأخبار يومئذ بما هى عليه من الشدة والضيق واقتراب دعاة الخارجى من أبواب البلد، وكثر تردد السير بارنج على مقر الخديوى تارة وعلى ديوان الوزير نوبار باشا أخرى، ثم لم تكن إلا أيام حتى شاع الخبر بعزم الحكومة على إرسال جيش آخر معقود لواؤه لكبير من كبار عسكر الإنجليز اسمه بيكر باشا فتطير الناس من ذلك وأيقنوا عجز الدولة وعدم قدرتها على إرجاع الأمور فى شرقى السودان أيضاً إلى ما كانت عليه وكأنما أراد صاحب سياسة الإنجليز بإرسال هذا الجيش استبقاء سواحل البحر الأحمر فى قبضة الحكومة المصرية إلى حين حتى يتمكن هو من بسط سلطانه عليها وإدخالها ضمن ممتلكات مملكتهم فخرج بيكر باشا فى أربعة آلاف مقاتل فلما بلغ سواكن أرسل يستميل بعض زعماء القبائل وبالغ فى استرضائهم والتودّد إليهم وأقام على

هذه الحال أياماً فلم يفلح فعمد إلى مخابرة القبائل الضاربة بجهات مصوّع لعله يجد بينهم من يشد بهم أزره فى فتح الطريق إلى كسله ثم إلى الخرطوم فلم يفلح أيضاً وقد علم أن الطريق بين مصوع وكسله كلها أدغال وغابات كثيرة المرابك والهلكات وأن الطريق إلى الخرطوم أصعب من أن ترام فأخذ يتأهب للمسير إلى طوكر لإنقاذها ثم لإنقاذ سنكات، فلما كان شهر ربيع الثانى من السنة أى سنة إحدى وثلثمائة وألف خرج بعسكره من سواكن إلى ترنكتات وسلك ذات الطريق التى سار فيها محمود باشا بجيشه فلم تكن إلا مرحلة أو بعض مرحلة حتى انقض عليهم عثمان دقنه بخيله ورجاله فاختل عندئذ نظام العسكر وفشلوا أى فشل وركن من فى الساقة إلى الفرار وألقوا ما بأيديهم من السلاح فأثخن العدو فيهم قتلاً وضرباً حتى أفنى منهم زهاء الثلاثة آلاف وفر بيكر باشا ومن بقى إلى ترنكتات وغنم عثمان دقنه سائر ما كان معهم من سلاح ومتاع ودواب وكانت واقعة من شر الوقائع وجاء الخبر بما جرى إلى القاهرة فكثر صياح وعويل نساء الضباط فى بيوتهم وجلسوا للعزاء وكثر اللغط بأن هلاك هذا الخلق الكثير من العسكر والضباط إنما كان بإيعاز من الخديوى وجماعة الإنجليز لغاية فى النفس، واشتد القلق بالناس جميعاً حيث أعقب هذه الواقعة سقوط سنكات أيضاً وقتل من كان بها من العسكر مع توفيق بيك ذلك البطل المغوار مذبوحاً ذبحاً.

وقد كانت عمت الفتنة سائر أطراف السودان وتفشت أيضاً فيما حول الخرطوم من القرى والبلدان فأصبحت الخرطوم وهى مطمح نظر الخارجى يريد الانقضاض عليها بخيله ورجاله ليقبض على ناصيتها حتى إذا ما علم ذلك فى شرقى السودان وغربه وشماله وجنوبه دانت له البقية الباقية من زعماء بعض القبائل الموالين للحكومة فيخلو له الجوّ حينئذ وكانت عيونه تنقل له أخبار ما كانت عليه البلد من الشدة والضيق وما وصلت إليه الدولة من العجز ووهن العزيمة وزوال الهيبة فيزداد تحمساً وغروراً ويكثر من البعوث والدعاة ويرسل الكتب مشحونة بما حدثه به الخضر وإلياس أو ما بشره به صاحب الشريعة الإسلامية وما أعده الله له ولأصحابه من الأسرة والكراسى فى جنات النعيم وغير ذلك من الخرف والهرف والبهتان على الله وعلى أنبيائه ورسله، حتى افتتن الناس طراً واتسع الخرق وتعذر الخلاص وقد زاد الأمر خبالاً والطين بلة بما ورد على الخديوى من صاحب السياسة الإنجليزية من وجوب ترك جميع السودان والتخلى عنه بما فيه من مال ومتاع وكراع إلى الخارجى والإسراع بإجلاء من به من أصحاب الوظائف ومن بقى من العسكر ومن يريد الجلاء

من الأهلين أيضاً، فكان ما كان مما مر بك بيانه فى محله من تنحى الوزير محمد شريف باشا عن منصب الرئاسة وتولية الوزير نوبار باشا بدله وما وقع من اشتداد زعيم السياسة الإنجليزية على الخديوى والوزير نوبار باشا وترادف طلباته وتباين بعضها لبعض حتى تولى غردون الولاية العامة على السودان ونال السلطة المطلقة عليه شرقاً وغرباً وذهب إلى الخرطوم على ما وصفنا وكان من أمره وما وقع بعيد ذلك ما سيتلى عليك فى بابه إن شاء الله تعالى.

وصل

فى هزيمة أخرى وكسرة كبرى

لم يكن غردون ليتوقع الفشل إلى هذا الحد بعد أن اعترف للخارجى بالملك والسلطنة على غربى السودان وبعد أن خطب فى الناس بما خطب من ترك البقايا من الأموال ومنع الجباية ثلاث سنوات وإطلاق حرية التجارة فى الرقيق وغير ذلك من عبارات المجاملة والتلطف، ولكن خانته الأقدار وسقط فى يده واختلط عليه الحال وفسد التدبير وقلت منه الحيلة وضاق عليه الفضاء بما رحب لا سيما وقد جاءته الأنباء فى هذا الحين بفشل جيش جراهام وموت أكثر رجاله وقد كان يعتقد أن خلاصه وخلاص من معه مرهون على فوز هذا الجيش ونجاح غزوته.

وتحرير الخبر أنه لما علم صاحب السياسة الإنجليز بفشل جيش بيكر باشا ووقوع معظم رجاله في قبضة عثمان دقنه علي ما تقدم بيانه كبرت عليه هذه الخيبة وقد كان يرى أن فتح الطريق ما بين سواكن وبربر أمر لابد منه لفائدة سلطنتهم في مستقبل الأيام فعمد إلى إرسال جيش ثالث من رجالهم وصفوة أبطالهم ليتم له ما يريد من فتح ذلك الطريق فجاء جراهام هذا على رأس ذلك الجيش إلى سواكن في العشرة الأخيرة من ربيع الثاني من السنة أي سنة إحدي وثلثمائة وألف ومعهم الشيء الكثير من آلات الحرب ومعدات القتال وانجروا من سواكن إلى ترنكتات وسار معه بيكر باشا مقدم الجيش الذي أفناه عثمان دقنه قاصدين الالتقاء بدقنه، وقد علم دقنه بوصولهم فتحصن في التيب وخندق عليها وأحاط الخندق ببعض المتاريس ووضع عليها المدافع التي غنمها من محمود باشا طاهر وبيكر باشا وتأهب للدفاع، فلما صار جيش جراهام علي مقربة من التيب وشاهد جراهام ما هو عليه موقع العدو من المنعة والحصانة نادى في عسكره بالزحف والهجوم فلم يفعلوا وجبنوا ثم ولوا الأدبار

فلحقتهم قنابل العدو وتساقطت عليهم تساقط المطر وفتكت فيهم فتكاً ذريعاً جداً فما زال بهم جراهام حتى لم شعثهم وأعاد صفوفهم وسار بهم ثانية حتى صار على مقربة من متاريس العدو ثم جعلوا يطلقون مدافعهم ويرسلون قنابلهم على المتاريس والعدو يشتد عليهم فى الرمى ويصليهم ناراً حامية حتى انكشف نظام أحد جوانب الجيش وفعلت فيه قنابل العدو فهمّ جراهام بتغيير شكل صفوفه ليدرأ عنهم تلك النيران الآكلة فاحس بذلك عثمان دقنه فلم يكن بأسرع من أن هجم بقومه عليهم من كل صوب وأعمل فيهم السيف وبقى الحال هكذا بضع ساعات من النهار، ثم انفصل الفريقان فكانت القتلى من الجانبين لاتعدّ. وتقهقر عثمان دقنه إلى طوكر لعل جراهام يتبعه فيقع فى مخالب العطب فأدرك جراهام الحيلة ولم يغرر بعسكره. فلما تحقق غردون ما أصاب جيش جراهام كاد يذوب حزناً وأيقن أن الحيلة ضائعة وأن القضاء واقع لا محالة فرسم إلى كبار عسكره بترميم الحصون وتحصين القلاع وشاع خبر ذلك وملأ الأسماع فاعتزل أصحاب الوظائف الديوانية من المصريين وظائفهم ونزلوا مع الكثير من التجار يريدون القاهرة فراراً من البلاء المنتظر وورد على غردون جواب الخارجى هادماً لصروح أمانيه مفعماً باللوم والتقريع وقارص القول ورد هدية غردون التى كان أهداها إليه على ما تقدم لك بيانه ومعها مرقعة من مرقعات الدراويش. قال صاحب كتاب السودان: وأرسل يقول له: إن أحسنت فى دنياك وآخرتك فعجل بترك الكفر واعتنق الإسلام دينا وألبس هذه المرقعة التى هى لباس الزاهدين فى الدنيا الراغبين فى الآخرة ولا تكن سبباً فى إراقة الدماء وأعمل كما عمل غيرك من الولاة والحكام. فغضب غردون غضباً ما عليه من مزيد وكبر عليه أمر ذلك جداً. وكان الناس إلى ذلك اليوم لا يعرفون حقيقة بعثة غردون ويجهلون نوايا دولة الإنجليز فى شأن السودان المصرى ولا يدرون ما إذا كان الخديوى مطلق اليد فى التصرف فى بلاد هى ينبوع حياة مملكته وأم نيلها العظيم أو أنها خرجت من قبضته بحكم لاراد له ولا ممانع فيه، فدلهم يومئذ تخبط غردون وخلطه وعدم حضور عسكر من الإنجليز كما كانوا يتوهمون على أن صاحب سياسة الإنجليز لم يبعث غردون إلا ليعمل على ترك السودان للخارجى حيناً حتى إذا تم لهم ما يريدون من التحفز للوثبة انقضوا على ذلك الخارجى بخيلهم ورجالهم وانتزعوها منه أو من خليفته من بعده وضموها إلى أملاكهم فى هذه القارة السوداء وأضخموا بها جسم سلطتهم الواسعة وهى غاية فى نفسهم طالما تمنوها حتى مهد لهم رجالهم الأسباب وفتحوا لهم بحسن كياستهم مغلق تلك الأبواب بأن أوقدوا نار الثورة

العرابية فى جوف القطر المصرى ونفخوا فى ضرام نار الفتنة المهدوية فى جوف السودان وأدانوا لهم فى القريب العاجل من الأيام ما لم تكن لتناله سلطنتهم فى البعيد من السنين والأعوام.

وكثرت كتب محمد بن البصير داعية الخارجى فى أرباض الخرطوم إلى غردون مفعمة بالسباب واللعن والحط من قدره وتهديده بالويل والثبور وعظائم الأمور إن لم يعجل بالتسليم بغير ذمة ولا عهد وظل الحال على ذلك أياماً كاد يهلك فيها غردون كمداً. قال صاحب كتاب السودان: فاجتاز غردون النيل الأزرق إلى قصر راسخ بيك وأرسل إحدى عشرة رسالة برقية إلى السير بارنج بمصر يخبره بما وصلت إليه حالته ويقول: إن العدو على وشك الزحف للإحاطة بالبلد وأن أسلاك البرق انقطعت قبل أن يتمكن من مخابرته ثانية وأرسل كذلك إلى الخديوى والوزير نوبار باشا فأجابه السير بارنج بما معناه - إنى لم أفهم ما تضمنته رسائلك الإحدى عشرة فأعلمنى بقصدك بعد التفكر الطويل - على أن كل ما فى تلك الرسائل كان يتضمن استنهاضهم إلى إرسال النجدة وحفظ الاتصال بين دنقلة وبربر - قال - ولعل السير بارنج كان يقصد بقوله لم أفهم ما معناه - ياغردون أنك لاتجهل أن مقاصد حكومة جلالة الملكة غير الذى أنت تطلبه فلذا لم أفهم منك هذه الطلبات حيث إنك لا تجهل أنها لا تتحول عما عقدت النية على تنفيذه - قال - وفى تلغراف غردون أن الأسلاك البرقية على وشك الانقطاع وأنه من المتعذر بعد هذه الفرصة وصول أخباره إلى القاهرة فكانت إشارة السير بارنج بمخابرته بعد التفكر أمراً فى غاية الصراحة بعدم لزوم المخابرة حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً ا.هـ.

قلت: وهذه كانت صفوة الغرض من الممانعة فى نجدة عبد القادر باشا عندما كان يقاتل الخارجى واتهامه بشق عصا طاعة الخديوى والاستقلال بحكم السودان ثم استقدامه على غرّة بعد أن كاد يقضى على الفتنة فيما وراء الدارفور وعاد بعيد ذلك غردون إلى استعطاف السير بارنج إذ كتب إليه يقول: ليس فى الإمكان إجلاء أصحاب الوظائف من المصريين بمن معهم من العيال إلا أن تفتحوا لى الطريق التى قلت لكم عنها فرد عليه رداً كله مماحكة وفيه شيء من الأمانى وفى كل عبارة يحضه على التروّى وطول التأمل أى كأنه يقول ما بالك لا تفقه ما أسره إليك صاحب سياستنا ومالك تطلب المدد ونحن على غير ذلك من العهد معك. حدثنى صاحب لى خبير قال: كانت فعال السير بارنج فى هذه الظروف الحرجة تقضى بالعجب العجاب، فإنه بينما كان يمنى غردون بالمدد ويعده بقرب وصول النجدة إليه كانت

رسائله ترسل تباعاً إلى عاصمة الإنجليز بأن فتح الطريق بين سواكن وبربر بطائفة من فرسانهم كطلب غردون ضرب من الحماقة، كما أن إرسال جماعة من عسكرهم إلى أسوان ووادى حلفا لتأمين السبل وتسهيل الجلاء عن الخرطوم كما يشير غردون لا معنى له البتة ولا هو من حسن السياسة فى شىء، فكانت كل هذه الأحاجى والمعميات قاضية على حياة غردون وحياة الآلاف المؤلفة من الرجال والنساء والأطفال فى الخرطوم وأرباضها ولا ذنب لهم غير الارتكان على عزيمة الحكومة المصرية وحسن ظنهم بأصحاب الحل والعقد بها فتأمل.

ورأى غردون كثرة مناوشة العدو للجند والعسكر المرابطين بالخرطوم وتحقق من دخول سائر سكان الضواحى فى طاعة الخارجى وخروج جميع السود من سكان البلد إلى معسكر ابن البصير داعية الخارجى والانضمام إليه فأكبر الأمر جداً، وكان العدو قد جعل مركز حركاته فى الحلفايا على قيد بعض فراسخ من الخرطوم وقد تحصن بها فأمر غردون بخروج طائفة من العسكر لطرد العدو من حلفايا وإجلائه عن الضواحى المتاخمة. قال صاحب كتاب السودان: خرج من الجند لذلك يعنى لطرد العدو ثلاثة آلاف من الباشيبوزق وألفان من المنظمين وعقد لواء هذا الجيش إلى السعيد حسين الجميعاتى وحسن إبراهيم الشلالى من معه من مقدمى العسكر ولم ينج إلا بضع عشرات عادت بهم السفن إلى الخرطوم، وما انتشر نعى القتلى حتى ضجت البلد بالعويل والبكاء من كل صوب ودرب وحزن غردون حزناً عظيماً وكاد يستسلم للقضاء المحتم وقد جاءته أخبار جواسيسه بزحف الخارجى على الخرطوم فنظر فلم ير أمامه باباً يلجه فى طلب النجدة إلا استعطاف السير بارنج بمصر لعله يفرج كربته بنفر من العساكر الإنجليزية سوى إرسال الكولونيل استيورت الذى كان فى ركابه من الخرطوم إلى دنقلة ومنها إلى القاهرة مزوداً بالرسائل والكتب بطلب النجدة، فانحدر استيورت هذا من الخرطوم على إحدى البواخر فى أخريات ذى القعدة من السنة أى سنة إحدى وثلثمائة وألف وتبعه باخرتان تحملان بعض المقاتلة وانحدر معهم كذلك نفر من المهاجرين يريدون اللحاق بدنقلة، فبينما هم فى طريقهم خرج عليهم العدو وجعل يطلق عليهم بنادقه وهم يجدون المسير حتى وصلوا بربر فرجعت باخرتا الحرس بمن فيها من المقاتلة وانطلقت سفن المهاجرين تمخر فى النيل وخلفها باخرة استيورت تشق عباب الأمواج والعدو من ورائها وعلى يمينها وعلى شمالها يطلق عليها نيران البنادق إلى أن قطعت الشلال الأول واستيورت يحث ربانها على الإسراع فى المسير أكثر فأكثر حتى ارتطمت بصخر

عظيم ولم تكن إلا لحظة حتى دخلها الماء وملأ جوفها فانزعج استيورت ولم يوفق لنكد طالعه إلا إلى إلقاء المدفع الذى كان معه وسائر الذخيرة فى الماء وأنزل متاعه فى زورق وسار به مع من كان معه من الخدم والأتباع إلى جزيرة فى وسط النيل ونزل بها فأشار عليه بعض من كان معه أن يسير بالزورق إلى حدود دنقله، ثم يرسل من يحمل الخدم والأتباع فامتنع من ذلك ولم يقبل لنفاذ القدر المقدور، وبينما هم فى تردد وحيرة إذ أقبل عليهم جماعة من أهل السلامانية ونادوا بأنهم فى طاعة الحكومة وأنهم على عهد الخديوى فأرسلوا لنا بنفر منكم لنتكلم معهم فصدق استيورت كلامهم وأرسل إليهم جماعة من الأتباع وملاحى البارجة فعبروا النيل والتقوا بأولئك القوم وسألوهم عما إذا كانوا باقيين على الطاعة فأقسموا أنهم على ذلك فعاد رسل استيورت وأخبروه بالخبر وباتوا ليلتهم تلك بالجزيرة، فلما أصبحوا جاء اثنان من القوم يقولان لاستيورت: إن شيخ القرية قد عاد من غيبته وعلم بما أصاب باخرتكم فجهز لكم ما يلزم من دواب الحمل وهى فى انتظاركم بالجانب الشرقى من النيل فإن شئتم فاعبروا وامتطوها وسيروا على بركة الله ـ قال: ففرح استيورت بذلك وعبر مع من كانوا معه وهم زهاء خمسة وأربعين ونقلوا متاعهم فلم يجدوا غير سبع من النوق ضئيلة، فقالوا لهم: إن الفرق آتية الساعة فلبثوا فى انتظارها حتى قريب الزوال، وبينما هم كذلك إذا جاء رجل من أهل القرية يقول لاستيورت: إن الشيخ أعد لكم طعاماً فهيا كلوا واشربوا هنيئاً مريئاً فقام استيورت من ساعته ولبس ملابسه كأنه ذاهب إلى وليمة أحد الأصدقاء ولم يأخذ لنفسه شيئاً من الحيطة أو الحذر وسار معه قونصلا النمسا والفرنسيس اللذان نزلا معه من الخرطوم وترجمانه فلاقاهم أهل القرية بالترحاب وبشوا فى وجوههم وأدخلوهم فى مكان فسيح كان فيه خمسون رجلاً فى زى السيارة فرحبوا بهم وهنئوهم بالسلامة ثم انصرفوا عنهم لحظة لطيفة وعادوا فانقضوا على استيورت والقونصلين وأغمدوا فى رقابهم السيوف وذهب جماعة من القرية إلى شاطئ النيل وأعملوا السيف فيمن كان هناك حتى أفنوهم جميعاً وأخذوا كل ما كان معهم من متاع وأوراق، وكتب غردون التى كان استيورت يحملها وأرسلوا بجميع ذلك إلى الخارجي ـ قال: ففرح الخارجى بها فرحاً عظيماً وأمر فدقوا البشائر وطير الخبر بذلك إلى غردون وعرّض له بذكر ما فى كتبه التى كان استيورت يحملها، ودعاه إلى الطاعة والدخول فى عداد الدراويش فحزن غردون حزناً شديداً وأيقن أنه لم يبق فى طاقته دفع هذا المقدور، وتحقق الناس طرا أن الخرطوم ساقطة لا محالة وأن جميع من بها هالك ولا شك وقد كانوا أحصوا من بها من المصريين فقط فكانوا مائتى ألف فلا حول ولا قوة إلا بالله.

(مطلب)

اشتداد الحال على بربر ومن بها

وإلى هذا الحين كان قد اشتدت الحال على بربر وضاقت ذرعاً بأمرها ووصل إليها دعاة الخارجى وضيقوا عليها المسالك وأمسكوا عليها الأطراف فجعل من بها من المرابطين وأهل البلد يصيحون المدد وكتبهم تأتى إلى مقر الخديوى وديوان الوزير نوبار باشا، وقد أرسلوا يوما عريضة على لسان البرق تشتمل على عبارات تؤلم الفؤاد وتفتت الأكباد فمما جاء فيها قولهم: هل من العدل أن تترك فريسة للعصاة ضحية سوء سياستكم يا أصحاب الأمر أين العاطفة الإنسانية والشهامة والحمية، أين منا جرائد لونده وجمعياتها المزرية بالاسترقاق ما بالها أغفلتنا وقد باعنا رجالها لهالك بفساد سياستهم وها نحن نحسد الأرقاء فإنهم آمنون على حياتهم ونحن لا نأمن على الحياة والعرض والمال، فأين الدولة البريطانية العظمى التى وعدت وصرحت برغبتها فى إنقاذنا وانتشالنا مما ألم بنا ، ما بالها لا تتقدم إلى وفاء الوعد والقيام بالواجب قبل انقضاء الأجل، وهل تمد يد المعونة بعد أن نذوق حتفنا فتقيمنا من القبور أو كيف؟ وما القصد والداعى إلى تقاعدها وتهاملها بل ما كان الموجب لاسترجاعها عساكرها بعد حلولها فى سواكن وإعلان عزمها على كشف الضيق الحائق بنا . أما نحن فلا نستمد الفرج من إنجلترا وحدها بل نلتمس إسعافنا بالقوة من أية دولة كانت فإن القصد الوحيد إنقاذنا من الموت الزؤام وحفظ أعراضنا وأموالنا فالمدد المدد يا أولياء الأمر المدد اهـ.

فصاح حينئذ لصيحتهم هذه أصحاب صحف الأخبار المحلية وجعلوا يقرعون الهيئة الحاكمة وينحطون عليها باللائمة وهى لا تقدر على نجدة أهل بربر ولا على مكالمة صاحب سياسة الإنجليز فى ذلك بعد الذى تحقق لها من اشتداده فى طلب إخلاء السودان جميعه من المصريين ومن معهم مهما بلغت الضحايا وعظمت الرزايا. وأخذت الخديوى آخذة من الغمّ فجمع إليه سائر الوزراء وبينهم الوزير محمد شريف باشا ومصطفى رياض باشا وخيرى باشا وعمر لطفى باشا وثابت باشا ومحمد سلطان باشا وتناجوا فيما عليه أهل بربر فبعد أخذ ورد ظهر عجزهم عن نجدة القوم وأن الجلاء عن بربر خير من البقاء فاشتدت جلبتهم وطال بينهم الجدال فأخذت أحدهم عند ذلك «ولعله الوزير محمد شريف باشا» هزة الغضب: فقال ما بالكم تقولون غير ما تفعلون وتطلبون ما أنتم عن إدراكه عاجزون وكأنكم تجهلون

أو تتجاهلون أنكم أمسيتم كالريشة أمام مهب الريح إزاء وزير السياسة الإنجليزية لا تملكون من أنفسكم ولا من أموالكم وعيالكم شيئاً منذ احتلت جنودهم البلاد وهاكم كتب صاحبهم ناطقة بذلك ومشيرة إلى ما هنالك فعلا من هذا الاجتماع والإم نتغافل ونتعامى عن الحقائق. قال الراوى: وبينما هم على هذه الحال إذ جاءهم الخبر بأن داعية الخارجى فى أرباض بربر أرسل كتاباً إلى حسين باشا خليفة مدير بربر يدعوه إلى التسليم هو ومن معه من المرابطين وأهل البلد فامتنع فنادى داعية الخارجى عند ذلك فى عسكره وجموعه بالتأهب لحصار البلد ومنع الوارد عنها حتى يسلم من فيها أو يموتوا جوعاً فأكبر الوزراء الأمر جداً وأرسلوا فى الحال إلى صاحب السياسة الإنجليزية يسألونه عما يفعلونه فجاءهم الجواب بأن لا نجدة إلا بعد أربعة أشهر يعنى ابان الشتاء فإنفض مجلسهم يومئذ على ذلك. وكتب الوزير نوبار باشا إلى حسين باشا خليفه يقول: إن قدرت على الدفع فادفع عن نفسك وإلا فانحدر بمن معك والسلام. فلم تكن إلا أيام قلائل حتى شاع الخبر بقيام سائر القبائل المتاخمة لبربر إلى نجدة أصحاب الخارجى على قتال من فى البلد وانضمام بعض المرابطين إليهم أيضاً، وكان من وراء ذلك ما سيتلى عليك فى محله والأمر لله من قبل ومن بعد.

وصل

فى سقوط أم درمان والخرطوم وما جرى بعد ذلك

لما وردت أخبار النصر على الخارجى تباعاً من كل صوب وحدب تقوت عزيمته واشتد ظهره فرسم إلى عبد الرحمن ولد النجومى صاحب الراية البيضاء الذى سبق الكلام عليه بالزحف على الخرطوم ومعه ستون راية يتبع كل راية زهاء ألف مقاتل خاضعين إلى أمير، وهذا الأمير خاضع إلى ولد النجومى، وانضم إلى جيش ولد النجومى أيضاً عبد الله بن النور فى عشرين راية أخرى ومعه بعض المدافع التى غنمها من المصريين. قال صاحب كتاب السودان: ونادى مناديه فى الناس من شاء الغزو والجهاد فى الكفار فليلحق على بركة الله بجيش ولد النجومى فخرج الناس أفواجاً أفواجاً من الأحرار والعبيد فبلغت بهم عدة الجيش زهاء ستين ألفاً، وبينهم عشرة آلاف من الجنود السود بالبنادق ونحو عشرة آلاف فارس مدججين بالسلاح فوصل هذا الجيش العرمرم إلى بلدة الجريف فى أخريات ذى القعدة من السنة أى سنة إحدى وثلثمائة وألف ، ونزل بها ولد النجومى أياماً حتى تكامل عسكره فقسمهم إلى ثلاث معسكرات وشاد القلاع وأقام الحصون وحفر الخنادق وأنشأ

المتاريس وسلم إلى مقدمى العسكر مواقع الدفاع ومفارق الطرق، وأرسل إلى غردون يدعوه إلى التسليم ويحذره من عاقبة الامتناع ـ قال ـ وتراجع أيضاً المنهزمون من جماعة أولاد الشيخ العبيد وعسكروا فى الحلفايا كما كانوا واحتفروا الخنادق وعملوا المتاريس فكانت مقذوفاتهم تصل إلى منازل المدينة يعنى الخرطوم وشوارعها وتلحق الضرر بالسكان وتميت كثيراً منهم فى كل يوم، ولبث الحال على هذا المنوال إلى أوائل المحرم افتتاح سنة اثنين وثلثمائة حيث زحف الخارجى فى جيش عظيم، قيل: إنه بلغ زهاء الستمائة ألف مقاتل يريد أم درمان، فلما صار على مقربة منها أرسل جواسيسه فدخلوا الخرطوم ولم يشعر بهم أحد وصاروا ينشرون كتب الخارجى بين الناس وكلها حض وتحريض على شق عصا الطاعة والاجتماع على نصرته وألقوا بشوارع البلد من تلك الكتب شيئاً كثيراً. وأقام الخارجى بمكانه حتى تكاملت لمومه فرسم لهم بالهجوم على أم درمان وكان بها جماعة من العساكر المصرية والعساكر السود فهجم القوم عليها فى أوائل النصف الثانى من المحرم هجمة قوية فقابلتهم الجنود بنار حامية واشتدت عليهم برمى القنابل فتراجعوا عنها خاسرين، وقد مات منهم خلق كثير فكبر الأمر على الخارجى ونادى فى قومه بالقتال ثانية فقاتلوا قتالاً شديداً حتى ملكوا من البلد بعض المواقع الأمامية ثم حاصروها حصاراً شديداً إلى آخر ربيع الأول فنفذ ما كان عند الحامية من المؤن ولم يبق عندهم شىء يقتاتونه فسلموا إلى صاحب المهدوية بإشارة من غردون فأحسن الخارجى معاملة كبارهم واستخدمهم فى مصاف جيوشه.

فلما سلمت حامية أم درمان وشاع خبر ذلك بين من بالخرطوم من العساكر والأجناد وهنت عزائمهم وظهرت عليهم علامات الضجر وزاد الأمر شدة نفاد ما فى المخازن والأشوان من المؤن والغلال وعدم إمكان الحصول على شىء منها من الخارج لأخذ العدو بأطراف الطرق فتفشت المجاعة بأسرع ما يكون واشتد الجوع بالناس فصاروا يقتاتون ورق اللوبيا العفنة كانوا يطبخونها ويلعقونها ـ قال ـ وكان قوت الحامية من الصمغ مخلوطاً مع جمار النخل، وقد شوهد أن الذين يقتاتون هذه الأصناف يصابون بالإسهال وتظهر على وجهوهم، أعراض تشبه أعراض مرض اليرقان ثم تتناقص قواهم الجسمية فى مدة ثلاث أيام وتعقبها أعراض الموت ـ قال ـ ومن غرائب ما رأينا فى حصار الخرطوم أن صيادى السمك قبل الحصار كانوا يصطادون فى كل يوم نحو ألف قنطار من الأسماك، ولما بدأ الحصار انقطع وجود الأسماك كأنها فرت من فرقعة البنادق وهزيم المدافع حتى أن غردون اشتهى سمكة

يتغذى بها قبل سقوط الخرطوم بأربعة شهور فلم يتيسر الحصول عليها وكما أن الأسماك هجرت شواطئ الخرطوم فإن أراضى بساتين المدينة التى كانت تقوم بحاجة سكانها من البقول والفاكهة أصبحت فى إبان الحصار وقد تلفت كل مزروعاتها ولم ينبت فيها شيء من البقول وذبلت أشجار الفاكهة وتلاشت محصولاتها - إلى أن قال وكانت أسعار الأقوات فى البلد حتى سقوطها كما يأتى ثلاثون ريالا ثمن الكيلة من الغلة وعشرة ريالات ثمن الأقة من البقسماط وخمسة ريالات ثمن الأقة من اللحم البقرى، وكان بعض السكان يذبحون الحمر الأهلية والحكومة تعاقب من يرتكب ذلك اهـ.

واختل نظام الجند بالخرطوم فتمردوا على كبارهم وساروا عصابات تعبث فى البلد وتسطوا على باعة الأقوات وتخطف كل ما هو معرض للبيع، ولحق جماعة كثيرة منهم بالخارجى عند أم درمان هرباً من الجوع، وكان غردون مع كل هذه الكروب يظن أن صاحب السياسة الإنجليزية ربما يكون غير أو بدل من أسرار سياسته فيعمد إلى إرسال حملة لخلاصه فأعد لاستطلاع طلع هذه الحملة الموهومة تسع بواخر مدرعة كانت إلى ذلك الحين تناوش العدو وتأتى بالمؤن إلى الخرطوم من القرى فسير بهذه البواخر إلى المتمة وبربر ولكن على غير طائل. وكان يضرع إلى الله تعالى أن يقرب عودتها حاملة أخبار تلك الحملة وظل على هذه الحال أياماً ثم يئس وقنط وتولاه الحزن والاضطراب فكان لا يستقر له قرار لا فى الليل ولا فى النهار وكان يغدو ويروح بين الحصون والقلاع يشدد عزائم الجند بلين الكلام ويحضهم على الأمانة والإخلاص وكان كلما رآهم وهم يتألمون من وخز الجوع يذوب حسرة وتوجعاً. ويقول: كيف يهدأ بالى وها هى جنودى تقاسى ألم الجوع ومر العذاب، قيل: وكان يقضى اليوم والليلة لا يذوق إلا الشيء اليسير من الطعام وأكل جمار النخل أياماً حتى أضناه وكاد يودى بحياته. وكانت كتب الخارجى ترد عليه كل قليل يدعوه بها إلى التسليم وترك العناد ويقول له فى بعضها: إن الإنجليز إن قدموا لنجدتك فلا يصلون إليك ولا يكون حظهم إلا كحظ يوسف الشلالى وهيكس. قال صاحب كتاب السودان: وكتب المهدى ثلاثة كتب إلى غردون، نص الأول منها : بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد، فمن العبد المعتصم بمولاه محمد المهدى بن عبد الله إلى غردون باشا هداه الله إلى طريق النجاة قبل أن يتلاشى آمين. نعلمك أن جوابك ردّ المحرر منا وصل إلينا وفهمنا مضمونه وقد عذرناك على عدم إذعانك وإجابتك لنا بالطاعة كما طلبنا منك

وذلك لأنك لم تدر الحقيقة التى نحن عليها وتحسب مقامنا ودلالتنا على الله وشفقتنا على عموم خلق الله حتى من هو مثلك ولكن لم يطب قلبنا بصرف النظر عنك ولا زلنا ندارجك عسى الله أن يهديك إلى سواء السبيل فأجب داعى الله واغتنم سلامتك من الشر الوبيل فقد رأيت ما حل ونزل ولا زلت ترى ولا طاقة لك ولا لأعوانك بحرب جند الله عز وجل وقد ذكرت أن عبد القادر ولد أم مريوم حبيبك وتقبل قوله ونصيحته وتطلب إرساله لك فعلام ذا هل أنت منيب إلى الله وقصدك التسليم لنا على يد المذكور؟ أم أنت على تصميمك على إعراضك ومعاداتك لربك فأفدنا على هذا لنعلم طلبك له على أى الوجهين ونرسله لك إن رأينا فى ذلك صلاحاً للدين وأقول لك إن عزة الإسلام خير لك وأبقى لدوام احترامك فى الدارين فتحل بها إن عقلت والسلام.

قال ـ والكتاب الثانى : بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله المولى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد، فمن العبد المفتقر إلى الله المعتصم به محمد المهدى ابن عبد الله إلى غردون باشا أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن أعرضت كان عليك إثمك وإثم من معك فقد أتى الخبر عن الرسول ﷺ أن الجردة الآتية لو كان معى أمامها ستة أنفار تموت أو خمسة تموت أو واحد يموت أو وحدى كذلك ولو كانت مثل ورق الشجر ونبت الوعر وموج البحر وقد آتانى خبرها تموت أيسر من موت جردة ولد الشلالى وهيكس وسأملك المديريات الغربية كلها والبحر الأبيض كذلك موعود بجميع البلاد فالأمر لله ومادام أن الله القادر أيدنى بالكرامات والنصر فلا يضرنى إنكار منكر وإنما يضر نفسه فقط والأمر الذى وعدت به من رسول الله ﷺ جار على الجردة التى تعتمدونها مالها وجه يوصلها لكم لسد الأنصار الطرق فإن أسلمت وسلمت فقد عفونا عنك وأكرمناك وسامحناك فيما جرى منك، وإن أبيت فلا قدرة لك على نقض ما أراده الله وسترى والسلام اهـ. تحشية ـ وإن طلبت زيادة بعد وصول جوابى هذا فتخبرك المرأة الواصلة إليك وإن رأيت التمكين واليقين إن أردت التسليم أكثر من هذا الجواب فسنرسل لك عبد القادر ولد أم مريوم لزيادة الطمأنينة فى الأمان ولا مانع وبذا لزمت التحشية اهـ. بنصه.

قال ـ والكتاب الثالث : بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله المولى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد، فمن العبد الفقير إلى الله محمد المهدى بن عبد الله إلى غردون باشا وقاه الله كل شر لاشى فإن أراد الله سعادتك

وقبلت نصحنا ودخلت فى أماننا وضماننا فهو المطلوب، وإن أردت أن تجتمع على الانجليز الذى أخبرنا رسول الله ﷺ بهلاكهم فنوصلك إليهم فإلى متى تكذبنا وقد رأيت ما رأيت وقد أخبرنا رسول الله ﷺ بهلاك من فى الخرطوم إلا من آمن وسلم ينجيه الله ولذلك أحببت لك أن لا تهلك مع الهالكين لإنا قد سمعنا مراراً أن فيك الخير ولكن قد كاتبناك للهداية والسعادة فما أجبتنا بكلام يؤدى إلى خيرك كما نسمعه من الواردين والمترددين، والآن ما أيسنا من خيرك وسعادتك ولما سمعنا من الفضل فيك سنكتب لك آية واحدة من كتاب الله عسى أن تتيسر هدايتك بها إذ جعلنا الله باب الرحمة والدلالة إلى الله ولذلك طالما كاتبناك لنرجع إلى وطنك وتحوز فضيلتك الكبرى ولا تيأس من الفضل الكبير، أقول لك قال الله تعالى: **﴿ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً﴾** والسلام، وقد قلت فى جوابك الذى أرسلته إلينا أن الإنجليز يريدون أن يفدوك وحدك منا بعشرين ألف جنيه، ونحن نعلم أن الناس البطالين يقولون كلاماً كثيراً ليس فينا وذلك ليصدوا من أراد الله شقاوته ولا يعلم نفيه إلا من اجتمع بنا وأنت إن قبلت نصحنا فبها ونعمت وإلا فإن أردت أن تجتمع بالإنجليز فبدون خمسة فضة نرسلك إليهم والسلام. اهـ. بنصه.

قلت: وقد عثرت على صورة كتاب آخر من ذلك الخارجى إلى غردون يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله المولى الكريم والصلاة والسلام على سيدنا محمد مع التسليم. وبعد، فمن العبد الفقير إلى الله محمد المهدى بن عبد الله إلى عزيز بريطانية والخديوية غردون باشا، قد وصلنا جوابك وفهمنا ما فيه والحال أنك تزعم إرادة إصلاح حال المسلمين وفتح الطريق لزيارة قبر النبى عليه الصلاة والسلام واتصال المودة فيما بيننا وبينكم وإطلاق المسيحيين من النصارى والمسلمين وأن تجعلنا سلطانا على كردفان، فأقول والأمر لله إنى قد دعوت العباد إلى صلاحهم وما يقربهم إلى ربهم وأن يفزعوا من الدنيا الفانية إلى دار البقاء ويعملوا ما يصلحهم فى آخرتهم وقد كتبت إلى حكمدار الخرطوم وأنا بآبا بدعوته إلى الحق وبأن مهدويتى من الله ورسوله ولست فى ذلك بمتحيل ولا مريد ملكاً ولا جاها ولا مالا، وإنما أنا عبد أحب المسكنة والمساكين وأكره الفخر وعز السلاطين ونبوهم عن الحق المبين لما جبلوا عليه من حب الحياة والمال والبنين وهذا هو الذى صدهم عن صلاحهم وأخذ نصيبهم من ربهم فأخذوا الفانى وتركوا الباقى واشتغلوا بما لايكون من الفانيات ولم يسمعوا قول الله ولا رسوله ولم يذكروا خبر أهل القرون الذين لم يغن عنهم ذلك شيئاً وتندموا على قدر الذى تمتعوا به فأيدنى الله تعالى بالمهدوية الكبرى لدلالتهم

إلى الله تعالى وليتركوا العز الفانى والنعيم الفانى إلى العز الدائم والنعيم الأبدى فى دار النعيم المقيم ولأعرفهم غرور من يريد العاجلة ويظن أنه ساع فى رضا الله ويكون له نصيب فى الآخرة وقد قال المسيح عليه السلام يا معشر الحواريين ابنوا على موج البحر لكم داراً وإياكم والدينا فلا تتخذوها قرار (قلت: إن المسيح لم يقل شيئاً ولا شبه شيء من هذا الكلام فى إنجيله البتة) - قال المدعى - فمن ظن أنه يخوض البحر من غير بلل فهو مقهور وكذلك من ظن أنه يجمع الدنيا ويريد عزها وجاهها ويكون له فى الآخر شأن فأنب إلى الله الباقى واخضع لجلاله واطلب عز الآخرة ولا تظن أن هذه الدنيا دار بقاء حتى تسعى لملكها وعزها وكيف من يكون على خلاف طريقة النبى ﷺ ممن يرغب زيادة الكلاب كما ورد فإن الدينا جيفة وطلابها كلاب ولم يرغبها فمن عبد غير الله نسى الله وأعرض عن كلامه وطلب متاع الحياة الفانية فإن كنت شفيقاً على المسلمين فالأولى أن تشفق على نفسك وتخلصها من سخط خالقها وتقومها على اتباع دين الحق باتباع سيدنا محمد رسول الله ﷺ الذى أحيا ما اندثر من ملل الأنبياء عليهم السلام الذين لو حضروا لما سلكوا غير ملته وكلهم يتمنون أن يكونوا من أمته ومن حضر بعثته وما بعد لا يقبل منه دين غير سكته فطهر نفسك أولاً بالدخول فى ملته ثم اشفق على أمته بسلوك سنته فعند هذا فأنت الشفيق ومن غير هذا فما لك من المحقين رفيق، كيف وقد قال الله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين﴾** - إلى أن قال: **﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون، ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾** وإننا امتثلنا أمر الله فما نتخذ وليا إلا الله ورسوله والمؤمنين، وعلى ذلك قد وعدنا الله بالغلبة كما سمعته من قول الله هذا ومادام أن الله يقول هم الغالبون فلا غلبة لغيرهم فإن رجعت عما أنت عليه من ملة غير الإسلام وأنبت إلى الله ورسوله واخترت الآخرة نتخذك وليا وتكون من إخواننا وتكون المودة المطلوبة عند الله ورسوله وتكون ممن امتثل أمر الله فاستحق الوعد والبشارة بعد هذه الآية فى قوله تعالى: **﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾** الآية. . فبعد هذا تظل المودة بيننا وتكون ممن عمل بالقرآن والتوراة والإنجيل وتكون قد اتبعت باتباع نبينا محمد ﷺ عيسى وجميع الرسل والنبيين وحزت الخير الأبدى، وحيث علمت من كلام الله أن حزب الله والذين وليهم الله ورسوله والذين آمنوا هم الغالبون فاعلم أن حزب الله واصل إليك مزيل

لك عما شاركت به خالقك فادعيت ملك عباده وأرضه مع أن الأرض لله يورثها عباده الصالحين وأن المسلمين والمسيحيين الذين دعوت بإطلاقهم إليك فأنا أريد لهم الصلاح والنفع عند الله وفى دار الأبد كما أريده لك ولكافة عباد الله خلاء من جنتهم إلى محنتهم فإن الله قد أيدنى رحمة لعباده ولإنقذهم من الهلاك الذين هم واقعون فيه لولا رحمة الله بظهورى فيهم واعلم إنى المهدى المنتظر خليفة رسول الله ﷺ فلا حاجة لى بالسلطة ولا بملك كردفان ولا غيرها ولا رغبة لى فى مال الدنيا وزخرفها وإنما أنا عبد الله دال إلى الله والى ما عنده فمن كان سعيداً أجابنى وتبعنى ومن كان شقياً أعرض عن دلالتى فأزاله الله عن موضعه وأذله وعذابه عند الله إلى الابد وقد أيدنى الله تعالى بالأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين وجميع الأولياء والصالحين لإحياء دينه وقد بشرنى النبى ﷺ بأن جميع من يلقانى بعداوة يخذله الله ويهزمه ولو كان الثقلين الأنس والجن فلا تغتر فتهلك كما هلك إخوانك فافهم وسلم تسلم.

وأما الهدية التى أرسلتها لنا فعلى حسب نية الخير جزاك الله الخير وهداك إلى الصواب، واعلم أنه كما كتبنا أنا لا نرغب فى متاع الحياة الدنيا وزينتها وإنما هى قصد المترفين الذين لم يكن لهم عند الله نصيب فها هى مرسلة إليك مع ما نرغبه من الملبس لنفسنا ولأصحابنا الذين يريدون الآخرة ويرغبون فيما عند الله من الخير الباقى الأبدى ليستحقوا بذلك نعيم الأبد وملك الدوام كما درج على ذلك الأنبياء والمرسلون وجميع السعداء من عباد الله الصالحين وتعلم ذلك أنت حقيقة من سيرة عيسى عليه السلام وحواريه، وقد قال: كتبت لكم الدنيا فلا تغشوها بعدى (**قلت**: والمسيح لم يقل هذه الترهات أيضاً ولا جاءت فى إنجيله) - قال - فتعلم بذلك أن من خالفه من الأحبار والرهبان وجميع من يدعى اتباعه ليسوا محقين وإنما غرتهم الحياة الفانية والأمتعة الآيلة إلى أن تكون جيفة وعذرة ثم عدما محضاً فتكون حسرة ورزأ عند فراقها وما فوتته من اكتساب خيرات الدوام ثم إن مثل هديتك عندنا كثير ولكن أعرضنا عنه طلبا لما عند الله وأقول لك فى ذلك كما قال سليمان عليه السلام لبلقيس وقومها: **﴿أتمدونن بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون * ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون﴾** وأعلم إنك إذا أتيتنا مسلما نؤنسك ونريك من النور ما يطمئن به قلبك ويزول به طمعك فى الدنيا وما فيها ثم بعد ذلك إن رأينا فيك خيراً وصلاحاً للمسلمين وليناك كما فعلنا ذلك بمحمد خالد المشهور بزقل مدير دارا سابقاً فإنه لما أتانا ورأى الحق وفرح

بلقائنا وندم على ما فات مما ضيعه من عمره فى الفانى واطمأن قلبه بالإيمان واختار الآخرة ووثق بالله وليناه على دارفور وقد كتب لنا قبل ذلك عبد القادر سلاطين «يريد سلاطين باشا» بالتسليم فأكرمناه وإلى الآن نريد كمال تربيته وهو الآن فى خير كثير وكذلك السيد جمعة الذى كان مديرا لفاشر والآن أرسلنا إلى محمد خالد المذكور يأتى به الينا لكمال التربية والإرشاد وبلغنا حسن إسلام الدمترى سجاده وصدق اتباعه لنا وإنابته للآخرة وكذلك جميع أمراء النقط بدارفور قد أذعنوا لله كباقى سلاطين دارفور وسلموا جميعاً أمرهم إلينا فى حب الله ورسوله فحسن تسليمهم واتباعهم لنا، وكذلك الملك آدم ملك جبال تقلى الآن أتى مهاجراً لما رأى الحق وحسن اتباعه وصدقه وقد أكرمناه وهو الآن معنا بخير كثير وهلم جرا، فكل سعيد لابد أن يتصل بنا من جميع أقطار الأرض ومن أبى لابد أن يخذله الله ويعذبه فى الآخرة كما أشار إلى ذلك النبى ﷺ مراراً وليكن معلوماً عندك ياحضرة الباشا أن جميع الذين قتلوا على يدى قد أنذرتهم أولاً إنذاراً بليغاً وها هو واصل إليك إنذار ولد الشلالى بعد مخاطبته وإنذار هيكس بأجوبة عديدة وجواب مخصوص له ولأكابر جيشه وقد أرسلنا إلى باشه الأبيض بجواب فقتل رسلنا وبعد أن وقع فى يدنا أكرمناه وأعطيناه جبة جميلة ليتدرج إلى الصدق مع الله ولازلنا نكرمه ونعظمه ليقتدى بنا ويصدق مع الله فيكون من الأصحاب الذين هم كالنفس فلم يصدق ولازال يقع فيما يهلكه ونحن نصفح عنه حتى أخذته منيته فمات، ومع ذلك لأجل مبايعته لى ومجالسته معى أياماً قد أتانا خبر بعد موته أنه عفى عنه فى الآخرة فصار من السعداء والعبد إذا كان يسعد فى الآخرة فهو المقصود ولاخير فى الدنيا ولا فى نعيمها بل إنما متاعها يكثر الحسرة والحبس فقط يوم القيامة ونيتى بالعباد سعادتهم فى آخرتهم الأبدية وإزالة الهلاك عنهم من الله ولذلك لاطفت جميع الأكابر من الدولة والحكام فما عملنا معهم إلا الخير والإكرام فمن صدق منهم معنا فهم الآن فى خير كثير وازدياد شرف والسلام ـ وبعد هذا البيان فإن اهتديت وسلمت لى واتبعتنى حزت شرف الدنيا والآخرة وفزت بأجرك وأجر جميع من اتبعك وإلا هلكت فكان عليك إثمك وآثام جميع من اتبعوك وإن كان لك حسن نور فى العقل تعلم أنى خليفة رسول الله ﷺ فلم تتهمنى فيما أسوق به إلى الله والدار الآخرة ولم تسمع على قول الظلمة الحساد الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ـ وقد قال ﷺ من شك فى نصرة المهدى فليقرأ قوله تعالى: ﴿وهو الذى

أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾، وقوله: ﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله﴾ ولزيادة الشفقة عليكم لزمت التحشية بهذا والهادى هو الله وكثرة البيان لاتهدى هدانا الله والعباد إلى الصواب آمين اهـ. بنصه.

قيل: وكتب المدعى على الظرف الذى أرسل فيه هذه الرسالة ما نصه سألتك بحق الله ونبيه عيسى عليه السلام أن تقف على أجوبتنا هذه بالحرف الواحد وقد أبلغنى محمد سعيد المسلمانى الذى يسمى جرجو اسلامبولى أن رجلاً يسمى السيد أفندى نعيم الأجزجى له معرفة بلغتكم وبالخط العربى ومادام أنه يعرف الخطين واللغتين نرغب منكم الوقوف على ما فى هذا الظرف جميعه حرفاً حرفاً على يد المذكور أو من هو مثله والسلام.

وأرسل إلى غردون بعد هذه الرسالة خطاباً يذكر له فيه بيان الهدية التى أرسلها إليه فى مقابلة الهدية التى كان غردون أرسلها عند مقدمه إلى الخرطوم ونص هذا الخطاب: بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله المولى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن عبد ربه الفقير إلى الله محمد المهدى بن عبد الله إلى غردون باشا باطلاعك على ما تدون بالجواب إليك تعلم باطنه وبه كسوة الزهاد أهل السعادة الكبرى الذين لا يبالون بما فات من المشتهيات طلباً لعالى الدرجات وهى جبة ورداء وسراويل وعمامة وطاقية وحزام وسبحة فإن أنبت إلى الله وطلبت ما عنده لايصعب عليك أن تلبس ذلك وتتوجه لدائم حظك وها هو الرسول الذى أتانا منك واصل إليك مع رسل من عندنا كما طلبت والسلام اهـ.

وعندى أن هذا الجواب يجب أن يكون أول كتب المدعى إلى غردون ومع ما فيه من سماجة الأسلوب وركاكة التركيب فأنى استبعد أن يكون من إنشائه إذا جزمنا بأن الخطاب الثالث الذى هو أحد الخطابات التى نقلناها عن صاحب كتاب السودان هو من إنشائه وعلى كل حال فإنها كلها تدل على مبلغ اعتقاد الرجل فى دينه ويقينه الثابت بأنه هو المهدى المنتظر بلا جدال.

وجعل غردون منذ اشتداد العدو على حصون البلد ومعاقلها يدبر واسطة لخلاص قناصل الدول الذين كانوا معه فى الخرطوم فلم يقبلوا وقالوا: لا بل نبقى حتى تصل الجنود الإنجليزية، فأجابهم غردون إلى ذلك وقد كانت الأخبار جاءتهم بأن صاحب السياسة الإنجليزية أرسل لخلاص غردون ومن معه حملة كبيرة بعد أخذ

ورد لا محل لايرادهما هنا وأن تلك الحملة بلغت النيل عند المتمة فقاتلها أنصار الخارجى قتالاً عنيفاً فقهرتهم وغلبتهم، ووردت الأخبار كذلك إلى الخارجى بما وقع لاصحابه فاضطرب وجمع إليه خواصه وأهل شوراه وكلمهم فيما هم فيه فاختلفوا فمنهم من أشار عليه بالزحف، فى جيوش وأنصاره والوقوف فى طريق الإنجليز وقتالهم حتى ينجز لهم الله النصر ومنهم من أشار بترك حصار الخرطوم والجلاء عنها والرجوع إلى كردفان والتحصن فيها ومنهم من أشار بغير ذلك. قال الراوى: ثم سكتوا لحظة فالتفت الخارجى إلى أبى قرجة أحد الأمراء وعبد القادر على ابن عم الخارجى وقال وأنتما ماذا تقولان: فقال أبو قرجة؟ إن الفرنجة لا يقصدون إلا الخرطوم فإذا بلغها مائة منهم تعذر وقوعها فى قبضتنا فالرأى عندى أن نقاتل من بها ونلح فى قتالها حتى نفتحها فإذا وصل خبر سقوطها إليهم ارتبكوا وتولاهم اليأس فنكرّ عليهم ونقاتلهم حتى نقهرهم، وقال عبد القادر: مقالة أبى قرجة أيضاً فظهرت عند ذلك على وجه الخارجى علامات الفرح، وقال: هذا هو الرأى الصواب فنعمل به إن شاء الله تعالى وقد كان الخارجى إلى هذا الحين يظن أن المؤن عند حامية الخرطوم كافية وأن أهل البلد فى أمان من الجوع كما كان يكتب إليه غردون كل قليل من الأيام فكان لذلك يخشى الزحف على البلد وفتحها عنوة، وكان يحسب لذلك حساباً كبيراً فلما قال أبو قرجة وعبد القادر مقالتهما هذه اشتدت عزيمته وزال خوفه وعقد النية على مهاجمة البلد وفتحها وكان من عساكر الباشيبوزق سنجقان قد مالا إلى دعوة الدعاة وكأنهما استوثقا لأنفسهما منهم. قال صاحب كتاب السودان: فخرجا فى إحدى الليالى من البلد سراً ولحقا بالمهدى فأكرم مثواهما وقربهما منه وسألهما عما فيها من المؤن والعسكر فأعلماه بكل شيء وكشفا له عن عورات البلد وهونا عليه فتحها ودلاه على مكان فى طرف الخندق من ناحية النيل الأبيض قد انحسر عنه الماء فلذلك يسهل الولوج منه إلى البلد ففرح المهدى بذلك فرحاً لايوصف، فلما كان صبح الأحد ثامن ربيع الثانى من السنة أى سنة اثنتين وثلثمائة وألف خرج المدعى من كهفه وعلى رأسه مقطف من الخوض مملوء رملاً وسار فتبعه الناس حتى جاء شاطئ النيل فأحاط به الناس إحاطة السوار بالمعصم فوقف صامتاً لا يتكلم والناس كأن على رؤسهم الطير ثم صاح الله أكبر على الخرطوم وأخذ حفنة من الرمل بيده ورماها فى اليم فصاح الناس جميعا الله أكبر على الخرطوم ومازال يصيح هكذا ويلقى بالرمل فى اليم والناس يصيحون بعده بمثل مقالته حتى فرغ ما فى المقطف فالتفت إلى من هم حوله وقال يا قوم: إن النبى ﷺ قال لى يا محمد

اهجم على البلد فى هذه الليلة فتسقط فى يدك لا محالة، قال ذلك وعبر النيل إلى الجانب الشرقى يريد معسكر ولد النجومى وبعد صلاة العصر ركب جملاً فاحتشد الناس حوله فأثنى على ولد النجومى وقال له: إن النبى ﷺ بشره بالاستيلاء على الخرطوم فى هذه الليلة وأمره أن يقسم مقاتلته إلى ثلاث فرق كقلب وجناحين ويكون هو فى القلب ومعه الفرسان ويكون الحاج محمد أبو قرجة قائد الميمنة ومعه حملة البنادق ومحمد نوبارى شيخ قبيلة بنى جراد احدى بطون قبيلة الكبابيش قائد الميسرة ومعه العرب والبقارة أصحاب الحراب والسيوف وأن يكون هجوم القلب على نقطة الوسط من الخندق عند البرج المعروف باسم باب المسلمية ـ قال وهى مقر فرج باشا الزينى قومندان الحامية ويكون هجوم الميمنة على الخندق مما يلى النيل الأزرق لجهة برى ويكون هجوم الميسرة على الخندق مما يلى النيل الأبيض عند المكان الذى انحسر عنه الماء وتراكمت عليه الأوحال وصار فى الإمكان الوصول منه إلى المدينة وقدم المهدى عمر إبراهيم وهو أحد الصنجقين اللذين دلا على عورات البلد إلى محمد نوبارى قائد الميسرة بصفة دليل يرشده إلى ذلك المكان «يعنى المكان الذى انحسر عنه الماء» ودفع إليه شخصاً آخر اسمه بدوى الدنقلاوى، وكان كيالا فى الشون بصفة دليل ثان وأصدر المهدى إلى محمد النور أمراً قال فيه ما يأتى: لدى دخولك المدينة يجب أن تقصد سراى غردون على الفور وتبلغه تحيتى ثم تحافظ على حياته ولا تترك أحدًا يتعدى عليه حتى توصله إلى سالماً بغير أن يصيبه مكروه وخطب على الجميع قائلاً لا يتعرض منكم أحد إلى حياة غردون بسوء لأننى أريد أن أفدى به أحمد عرابى باشا، ثم خطب فيهم يحضهم على الجهاد ويذكرهم بنعيم الآخرة، وقال لهم فى ختام خطبته: احملوا الحشائش لإلقائها فى الخندق حيث تجتازون عليها وقفل راجعاً إلى أم درمان ومعه عبد الله التعايشى وترك الخليفتين محمد شريف خليفة الكرار والخليفة على بن حلو خليفة الفاروق واجتاز النهر آيباً إلى أم درمان اهـ.

وكثر عبور المقاتلة من أم درمان إلى الخرطوم وجعل مقدم العساكر المهدية يطلق مدافعه من أم درمان على الخرطوم تباعاً من عصر الأحد ثامن ربيع الثانى إلى ظهر الاثنين تاسع الشهر المذكور وكان يوم الأحد يوما لا شمس له قد حجبتها الغيوم المتلبدة والضباب المتكاثف وكان البرد قارصاً وعلم غردون بحركة العدو واحتشاده فصعد إلى سطح داره ومعه قناصل الدول وجعل ينظر بالنظارات إلى كثرة العدو

وعبوره النيل فانزعج وتحقق أن العدو على أهبة الزحف على البلد فى تلك الليلة فأسرع إلى الحصون والمعاقل وجعل يستنهض همم الجند ويحثهم على الصبر فى الدفاع فكانوا فى شاغل عن كلامه بما هم فيه من الجهد والتعب وما أصابهم من الضر فعاد إلى مقره، قيل: والدمع ملء عينيه فقابله قناصل الدول فقال لهم: لاقدرة للجنود على دفع العدو وقد دبرت لكم أمر النجاة فلم تقبلوا فلا ذنب لى ولا جناح على ولابد للعدو من ولوج البلد فى هذه الليلة ثم صافحهم جميعاً قائلاً أنى أبرأ إلى الله والعالم أجمع من تبعة كل داهية تلم بكم، فقالوا: نحن نشهد بما تقول فصافحهم ثانية وكانت مناوشات العدو فى ازدياد من ناحية الخندق ومن جهة أم درمان وشاع الخبر فى نحو الساعة العاشرة ليلاً أن العدو على عزم الهجوم على البلد فوقع الهرج فى الناس وعلت الضوضاء فلم تكن إلا ساعة حتى دخل العدو بخيله ورجاله وساروا نحو مقر غردون وأحاطوا به إحاطه السوار بالمعصم. قال صاحب كتاب السودان: وكان القائد فرج باشا واقفاً وقت زحف العدو عند باب المسلمية فلما أحس بدخول الميسرة إلى الخندق مما يلى البحر الأبيض أمر بفتح باب المسلمية حيث فر منه بعد أن تنكر بملابس جندى ومعه القائم مقام سرور بهجت ولما دخل محمد نوبارى المدينة قصد بكل مقاتلته سراى غردون - قال - وكانوا زهاء مائة ألف مقاتل فأطل غردون من النافذة ونظر إليه ثم قال لحراسه لا تبدوا معارضة لأى أحد يريد الوصول إلى وإياكم أن تبدوا أقل دفاع - قال - ولبس كسوة التشريفة الصغرى التى هى ملابسه اليومية على الدوام وتقلد سيفه ولبس طربوشاً ووضع عليه رداء حريريا «كوفيه» وربطه بعقال كزىّ الأعراب فدخل عليه محمد نوبارى وجماعة من مقاتلته فوجدوه جالساً على كرسيه ممسكاً بيده منديلاً أبيض فابتدره أحد الدراويش وقال له أين أموالك ياغردون يا كافر، قال: فتبسم غردون ضاحكاً، وقال له : أين محمد أحمد يقصد المهدى فابتدره الرجل بطعنه فى صدره خر منها صريعاً على الأرض يتخبط فى دمه ولكنه لم يفقد حواسه من هذه الضربة - قال - ونقل لى أحد الحاضرين أنه سمع واحد من الدراويش صاح بالذى طعن غردون وقال له: لا تقتله بل أبقه كأمر المهدى فأجابه القائد محمد نوبارى بقوله إن الخليفة التعايشى أمر بقتله وكان صوته خافتاً حين نطق بهذه العبارة قال: ثم سحبوا غردون من رجليه ولم يكن قد فقد الحواس ولا قوة النطق حتى قيل: إنه كان يبتسم وهو مسحوب على وجهه ثم أنزلوه إلى حوش السراى وهناك قطعوا رأسه وأرسلوها إلى الخليفة

محمد الشريف الذى كان وقتئذ فى جامع الخرطوم فانتدب محمد بن عبد الكريم من أقارب المهدى فركب الباخرة اسماعيلية وأوصل رأس غردون إلى المهدى الذى أنكر قتله وصاح قائلاً لماذا قتلتموه ألم أنهكم عن قتله ؟ فقال له التعايشى: إن قتله خير من استحيائه. فبدت من المهدى علامات الغضب وأسرع بالقيام ودخل إلى منزله ونصبت رأس غردون على خشبة طولها متران وأخذ الصبيان والنساء يرجمونها بالحجارة ويهينونها بالبصق حتى تهشمت قطعاً صغيرة اهـ.

ووردت الأخبار نتفاً إلى القاهرة بسقوط الخرطوم فى قبضة الخارجى واستسلام من بها من المرابطين وموت غردون ومن كان معه من قناصل الدول فكان الناس يتحدثون فى هذا الأمر همسا ولا يصرحون به عسى أن يكون من سقط الروايات أو من تضليل الرواة وكانت الحملة التى سيرها الإنجليز لاستخلاص غردون معقوداً لواؤها إلى الجنرال ولسلى صاحب موقعة التل الكبير أو هو فاتح مصر على المشهور وقد سارت مدججة بالسلاح مثقلة بالشىء الكثير من الكراع والمدافع الحديثة الطراز والمؤن والخيل ودواب الحمل وكثير من سفن النقل فجعلت مركز حركتها مدينة أسوان وجعل الجنرال ولسلى يترفع بالجنود إلى أرض السود يريد اللحاق بالخرطوم قبل أن يتمكن الخارجى من فتحها، وقيل: بل كان فى تردد وحيرة وكتب صاحب سياستهم تأتيه تباعاً تارة بالإقدام وأخرى بالإحجام والمخبرون يأتونه من الأنباء بأشكال متضاربة حتى وقع القنوط واليأس أو كاد وكثر توارد كتب الخديوى على ولسلى أيضاً فى طلب معرفة بعض الشىء من أخبار الخرطوم وما حل بها فلم ينل مأرباً واختلط الحال كذلك على قناصل الدول وكثر تساؤلهم وترددهم على ديوان الوزير نوبار باشا يسألون عما حل بقومهم النازلين بأرض السود فلم يعرفوا من خبرهم شيئاً سوى الشائع بين الناس. وجاءت الأخبارفى هذا الحين أيضاً بوصول طائفة من العساكر الإيطالية فى عدة وذخيرة عظيمة إلى فرضة مصوع وأنهم قد احتلوا بعض المواقع فى ضواحى البلد وهم على عزم الزحف إلى بربر للالتقاء بجيوش الجنرال ولسلى وإنقاذ غردون ومن بالخرطوم فكان الناس بين مصدق ومكذب إذ البلد تابعة لمصر وكان الخديوى ورجاله لايعلمون من أمر هذه العساكر ونزولها على مصوع شيئاً إلا بقدر ما تعلمه العامة وأصحاب صحف الأخبار أو كانوا يعلمون بحقيقة خبرها ولكنهم كانوا يتجاهلون كيلاً يوقظوا الفتنة الراقدة، وكان مقدم سياسة الإنجليز لما عوّل على إرسال جيش ولسلى إلى الخرطوم عن طريق

أسوان استمال السنيور كرسبى وزير إيطاليا يومئذ إلى أن يمد جيش ولسلى بمدد من العساكر الإيطالية يسيرون إلى فرضة مصوع ومنها إلى بربر فيلتقون بالجيش ويتضافرون جميعاً على غزو ما فتحه الخارجى من البلاد، وللجماعة الإيطاليين فى مقابلة ذلك فرضة مصوع وما والاها من بلاد الصومال وما جزاء الإحسان إلا الإحسان ففرح كرسبى بذلك وأرسل أولئك العسكر على السفن والشوانى الكبار فأنزلوهم فى بعض المواقع القريبة من مصوع وضربوا خيامهم ولبثوا ينتظرون الأخبار عن جيش ولسلى وهم على أهبة الزحف على بربر وجعل كبارهم يتقربون فى تلك الأيام من مشايخ القبائل الضاربة فى تلك الأطراف ويتزلفون اليهم بالهدايا والتحف فالتف حولهم بعض أولئك القوم وكشفوا لهم عن عورات الصوماليين وهونوا عليهم غزوهم والغلبة عليهم وإدخال بلادهم فى طاعة سلطنتهم. قيل: فعاقدوهم وعاهدوهم على ذلك وكتموا السر إلى حين حتى كان من أمرهم وما وقع لهم ما سيتلى عليك فى محله إن شاء الله تعالى.

وسار جيش ولسلى والأخبار عن الخرطوم ومن فيها تأتيه مبتورة مقتضبة لا تشفى عليلاً ولا تروى غليلاً وعيون الخارجى من أمامهم ومن خلفهم وعن يمينهم وعن شمالهم تنقل أخبارهم وهم لايشعرون، وكان أصحاب صحف الأخبار الإنجليزية يظنون إلى هذا الحين أن غردون حى يرزق، وبعضهم يقول: إنه يقاتل دعاة الخارجى على بربر فإذا تقدم جيش ولسلى إلى ما وراء دنقلة تمكن غردون من مبارحة الخرطوم والإتيان إلى دنقلة بطريق بربر دون أن يلقى معارضة من أصحاب الفتنة إذ هم يخلدون إلى السكينة بمجرد نزول جيش ولسلى على دنقلة، وكان غيرهم يقول غير ذلك والعلم بمقتل غردون عندهم غير مقطوع به، وكان الخديوى قد رسم الى سائر المديرين والمشايخ والأعيان فى جميع البلاد السودانية بأن يكونوا عوناً للجيش وفى طاعة الجنرال ولسلى وشدد عليهم فى ذلك تشديداً كأنهم باقون على طاعة وولاء حكومته والأمر يومئذ على غير ذلك، وكثر توارد سفن النقل للجيش على أشكال مختلفة يديرها جماعة من رجال البحر من أهل كندا وتقاطر مرور الشوانى الكبار صعداً وهبوطا إلى أسوان وكبرت الحركة وعمرت أسوان بالبيوت والأشوان والحوانيت لارباب التجارة والصناعة وأصحاب الوظائف ومقدمى العسكر وغيرهم، وقدم بعض السعاة فى هذا الحين بكتب من غردون كان قد أرسلها قبل سقوط الخرطوم، وكلها استجارة واستغاثة وإعلان بأن لموم الخارجى أصبحت

أدنى من رمية قوس من الخرطوم ثم يقول فى بعضها: إنى لا أرى الخلاص إلا إذا جاءنا عسكر من العساكر السلطانية العثمانية وإلا فالبلد ساقط لامحالة، ويقول أيضاً: إنه إذا جاءه الزبير باشا فى نفر من أصحابه كانت النجاة على يده أيضاً وكأنه كان يخشى اشتداد الفتنة بوصول جيش ولسلى أو كأنه قد أشفق على قومه من الوقوع فى مخالب ذلك العدو الأسود، وشاع خبر تلك الكتب بين الناس وتحدثوا بها كثيراً وكلهم مجمع على سقوط الخرطوم وموت غردون وتعذر بلوغ جيش ولسلى الخرطوم فى الأجل المضروب لسرعة هبوط النيل وانحسار الماء وارتكاز أكثر شوانى النقل فى معبر الشلالات حتى تعذر المسير فيها. ووصل ولسلى مع أركان حربه إلى دنقله فلاقاه مديرها وأجله إجلالاً عظيماً فألبسه ولسلى نيشاناً إنجليزيا وأراه مرسوم الخديوى إلى سائر المديرين وأهل البلاد بمعاونة الجيش والطاعة إلى مقدمه فجمع المدير إلى ديوانه سائر المأمورين والجند والأعيان والتجار وتلا عليهم المرسوم وهو :

من خديوى مصر وجميع ملحقاتها - إلى حضرات المديريين والعلماء والقضاة والتجار ومشايخ القبائل وسائر أهالى السودان رعاياه إليكم سلامنا الخصوصى وبعد، فإن الجنرال ولسلى ذاهب إلى السودان بوظيفة قائد عام للجيوش الإنجليزية بمقتضى مأمورية خصوصية ذات أهمية سامية وقد صدرت له من لدنا ولدن الحكومة البريطانية التعليمات اللازمة لأجل قضاء الغرض المطلوب على أحسن حال ولذا فإنا نوصيكم جميعاً بأن تكونوا خاضعين له مطيعين لأوامره مجيبين لمطالبه كى تفوزوا برضانا ويتمكن من إتمام المأمورية المنوطة به بأقل ما تقتضى من الزمن والسلام عليكم أجمعين اهـ.

قال الراوى: فعند سماعهم هذا المكتوب سكتوا ولم يعجبهم ما فيه، ورسم ولسلى بجعل دنقله مركز حركة الحملة ونقطة مخازن المؤن والكراع، وجعل بلدة الدبة أول النقط الاستحكامية ورتب جماعة من المرابطين فى مروى لحفظ المواصلات، وقرر القاعدة بينه وبين أركان حربه على أنهم يسيرون بعد ذلك قاصدين بربر فإذا تمكنوا من فتحها زحفوا إلى شندى فإذا قابلهم المهدى بأصحابه جعلوا تلك النقطة حداً فاصلاً وإلا زحفوا إلى الخرطوم وأنقذوها، واشتدت الحركة لذلك فى دنقله وكثر توارد العسكر وانتشرت خيامهم حول البلد فلم تكن إلا أيام حتى تفشت بينهم الأمراض المعدية والحميات الخبيثة والجدرى فعظم قلق الجنرال

ولسلى وضاعت تخميناته هباء منثوراً. قال صاحب جريدة الغازيت الإنجليزية : يا الله إن المصاعب الحائلة دون تقدم جيش الجنرال ولسلى إلى السودان ظهرت أكثر جداً مما خمنها ولسلى وقد تعود المرء أنه إذا صحت له نبوءة مرة حاول التكهن أخرى، ولكن لعمرى ما كل مرة تسلم الجرة ولا كل مرة يصح التكهن، فقد قال هذا المقدم الكبير قبل مبارحة الآل والوطن: إن جيشه يجتمع فى دنقله سابع عشر شهر نوفمبر وأنه سيجلس مع غردون على خوان الطعام خامس عشرى ديسمبر من السنة فها قد مضى الأجل الأول ولم يجتمع من عساكره فى دنقله إلا العدد القليل، فإذا كانت نيته أن لا يتقدم إلى عطمور أبى حمد قبل احتشاد جمع عساكره فى دنقله فعسير عليه إذا المسير قبل أخريات يناير افتتاح سنة خمس وتسعين وثمانمائة وألف أما إذا بلغت به الجسارة مبلغها ونهض إلى الخروج مع فرقة الهجانة المتسلحة على خطر معاناة الفشل فيتعذر عليه التقدم قبل منتصف شهر يناير المذكور ـ قال: فقل لى بحقك إذا أين هذا التاريخ وتاريخ وصوله إلى الخرطوم من الأجل الذى ضربه ليأكل فيه مع غردون على خوان واحد إن فى ذلك العجب العجاب اهـ.

وشاع الخبر يومئذ بأن ولسلى سير رسله إلى الخارجى فى طلب تقرير قاعدة للصلح والكف عن القتال فلم يفلحوا فاستنتج الناس من ذلك حرج موقف جيوشه وتحققوا خبر تفشى الأمراض الخبيثة فيهم وإشفاق ولسلى عليهم، وقد جاءت كتبه إلى القاهرة بتعجيل إرسال المؤن والأدواء والأكسية وسائر احتياجات العسكر فعجلوا بإرسالها فى الليل والنهار وظهرت الحركة تحت قلعة الجبل وفى بولاق الدكرور وبالغوا فى التعجيل بتسيير قطورات السكة الحديد تباعاً حتى كان بعيد ذلك ما سيتلى عليك فى محله.

وصـــل

فى حركة بعد أخرى

بينما كانت الخواطر فى حركة واضطراب دائمين بسبب الفتنة المهدوية وتباين الأخبار عمن هم فى الخرطوم من الجند والعسكر والأهل والمال والولد ظهرت حركة أخرى، إذ جاء الخبر من زعيم سياسة الإنجليز بمقدم عظيم من عظمائهم إلى القاهرة اسمه اللورد نورثبروك ومأموريته هى أن يفحص فيما عليه البلاد من خير أو شر وما تحتاجه دولاوين الحكومة من القلب والإبدال كان الذى أتاه دوفرين رسولهم من قبل

لم يكن شيئاً مذكوراً فلم تكن إلا أيام حتى وفد الرجل ونزل ضيفاً على السير بارنج ثم جعل يجتمع برجال الدولة وأصحاب الحل والعقد وأرباب المناصب العالية فيحادثهم فى أمر المكوس والضرائب وأمن البلاد ونظام عمل وعمال الدواوين وغير ذلك، ثم سار عن القاهرة فطاف الإقليمين القبلى والبحرى واجتمع بكثير من أعيان البلاد ومشايخها وكلمهم فى الأمر كذلك، ثم قفل راجعا إلى القاهرة وكان قبل مبارحته عاصمة الإنجليز قد أرسل إلى الهند فى طلب قاض من قضاتها وأصحاب الشورى فيها فجاء إلى القاهرة رجل طويل القامة أسمر اللون طويل اللحية أسودها تظهر على وجهه علامات السذاجة اسمه سميع الله خان ومعه صبى فى الرابعة عشرة من العمر ،قالوا: والرجل صديق اللورد نورثبروك جاء به ليطلع على قانون البلاد المعمول به فى محاكمها الجديدة ويعمل فكره فى تنقيحه وفى التوفيق بين الشريعة المدنية والشريعة الحنيفية وتوحيد المحاكم المصرية وتشريع شيء جديد يناسب روح العصر فأدهش الناس حضوره إذ البلاد بلاد علم وعلماء الشرع فيها ليسوا بقليلين فلبث سميع الله هذا بالقاهرة أياما زار فيها سائر دواوين الحكومة ورجال الدولة وقاضى القضاة بمصر وأرباب المحاكم الأهلية فلم يظهر للناس من أمره شئ، وقد كنت يومئذ رئيسًا للنيابة العمومية بمحكمة المنصورة الأهلية فجاءنا الأمر من الوزير نوبار باشا بلقاء الرجل فلاقيناه على الرحب والسعة وجلس يتكلم بالعربية مع غاية البطء والتكلف وعلامات الإعجاب والخيلاء بادية على وجهه فقال: أنتكم تنظرون المقدمات يريد هل أنتم تنظرون فى قضايا الأحوال الشخصية وكان يتكلم وهو يقلب صفحات نسخة من القانون الأهلى فقلت: إن للمقدمات التى يعنيها الأستاذ محاكم أخرى وقضاه آخرين، فقال: وكم من المقدمات عندكم اليوم : فقلت لا شيء منها عندنا وكما قلت لك هى من خصائص المحاكم الشرعية فسكت لحظة ثم قال : أنتكم تحكمون بشريعة سيدنا محمد ﷺ : فقلت قد شغلنا عن الحكم بها شاغل من هذا الذى بيدك وأشرت إلى نسخة القانون فدمدم بالهندية، وقال: أنتكم تجلسون وين فأخذت بيده وأريته قاعة الجلسة وسائر غرف المحكمة فكان ينظر إليها وهو باهت جامد، ثم رحل عنا إلى القاهرة، قيل: واجتمع بشيخ الأزهر وبعض كبار العلماء وحادثهم فى شيء من شريعة بلاده وما هو عليه القضاء فى مدن وقرى الهند الإنجليزية، قالوا: وبالغ كثيرا فى مدح الأمة الإنجليزية وفى رجال دولتها، ثم رحل عن القاهرة إلى عاصمة الإنجليز وغاب عنا كما غابت عن الناس

نتائج مأموريته، وكان قد حضر قبل سميع الله هذا آخر من الإنجليز اسمه كليفور دليود وهذا قد كانت مهمته تغيير نظامات الحكومة واستبدال عاداتها المعمول بها من القدم بأخرى تناسب روح العصر الجديد وتنطبق على المألوف من عادات البلاد والشريعة الإنجليزية وتنفيذ ما أسسه اللورد دوفرين من اللوائح وقننه من القوانين، فكان الرجل من شر الرجال متسرعاً مخاطرا فخوراً مختالاً مستخفا بعظائم الأمور صلفا عنيدا مكابراً فعاث وعبث وجعل يغير من شرائع البلاد ويقلب من عاداتها ويسن البدع ويبدع السنن السيئة ويكاتب مشايخ البلاد والقرى ويزين لهم الخروج عن حدودهم التى ألفوها وينظر إلى سائر المأمورين وأصحاب الوظائف العالية بعين السخط والقلى ويمدّ يده إلى كل عمل ويقع على المديرين والمأمورين باللائمة والتقريع لأقل سبب واتخذ له مقرا بديوان الداخلية وصار يسمى نفسه فى كل يوم باسم جديد فتارة يقول: مأمور الإصلاح، وأخرى يقول: مستشار الإصلاح وأنه مدير النظام، وأخرى منشئ التحسينات المستحدثة وغير ذلك من الأسماء والعنوانات المتشابهة وهو كالهر الذى عثر عليه الأعرابى وقد سماه له الناس بأسماء كثيرة فأكبر ثمنه فلما وجده على غير ذلك ضرب به الأرض، وقال :لا بارك الله فيك ما أكثر أسماءك وأقل ثمنك، وظل كليفور دليود هذا على ما وصفنا من التحرش بسائر أمور الحكومة مع بسط يده على كل شىء حتى ضج الناس وعجوا وصاح المأمورون والحكام صيحة الضجر والملل، وقد أعيا الوزير نوبار باشا أمره وعجز عن ردّه وإيقافه عند حده، فأرسل كتبه إلى زعيم السياسة الإنجليزية يشكو من فعال الرجل ويحذر أصحاب الحل والعقد فى دار السلطنة الإنجليزية من شر العاقبة ويلقى كل تبعة على الرجل، فجاء الأمر بخلعه فانخلع وسار إلى بلاده متنكرا وقد ترك من آثاره إبطال دواوين أصحاب الشحنة وتقليل اختصاصات بعض الدواوين الأخرى وتقليل سلطة أعضاء مجلس شورى البلاد وعدم تقييد الهيئة الحاكمة بآرائهم والاستغناء عن العدد العديد من أصحاب الوظائف وقفل أبواب الرزق فى وجوه المرتزقة من أبناء البلاد.

وقدم إلى القاهرة فى هذه الفترة شارم ساير عامل الإنجليز على شرق السودان وسواحل البحر الأحمر يسأل الوزير نوبار باشا والسير بارنج استبقاء شرقى السودانى وعدم تركه لأصحاب الثورة قال : حتى يتمكن جيش الجنرال ولسلى من الغلبة على أصحاب المهدى، واستخلاص الخرطوم ومن فيها وكان قد جاءه الأمر بالتخلى عن

بعضها لدعاة المهدى وبعضها إلى نجاشى الحبشة بما فيها من متاع وكراع فلم ير بدا من الشخوص إلى مصر ومكالمة الوزير فى ذلك إشفاقا، فعقد الوزير مجلسه فى دار السير بارنج وحضره عبدالقادر باشا ومصطفى فهمى باشا والجنرال استيفنصون قائد الجيوش الإنجليزية بديار مصر والمستشار المالى وشارم سايد وتكلموا فى الأمر طويلا وحرروا بما وقع عليه الاتفاق محضرا وأرسلوه إلى دار السلطنة الإنجليزية وانفض مجلسهم يومئذ على ذلك، وأرسل الوزير فى ذلك اليوم أيضا إلى الجنرال ولسلى قائد الحملة يسأله عما يكون قد أخبره به جواسيسه من أبناء الخرطوم ومن فيها فلم يحصل إلا على بعض كليمات كلها أحاجى ومعميات لا تشفى غليلا، على حين أن الأخبار مترادفة على بعض ذوى المقامات بالقاهرة ومصر بوقوع النفور والوحشة بين الجنرال ولسلى ومدير دنقلة وإعراض ولسلى عن المدير إعراضا تاما، قالوا: وذلك لا متناع المدير من المسيرة بمن عنده من عساكره فى طليعة الحملة إلى بربر وتكلم أصحاب صحف الأخبار بعزم ولسلى على تحويل سير الحملة من طريق النيل إلى سواكن وكادت تتحقق الإشاعة بعبور بعض سفن النقل والشوانى الكبار ترعة السويس إلى سواكن، وثبت الخبر القائل بأن دعاة المهدى ومن التف حولهم قد تحصنوا بمعبر بربر وإن طلائعهم نازلة فى جهات مروى أو ما يتقدمها، وإنه لما علم ولسلى بذلك أخذ الحيطة ورسم بعدم تجاوز عسكره الدبة فتربصوا بها وهم على قدم الأهبة والاستعداد لصد العدوّ عنهم وأرسل كتشنر بعض الجواسيس من الدبة إلى الخرطوم عساهم يأتون ببعض الشئ من أنبائها فلم يتمكنوا من ذلك، وجاء الأمر إلى شارم سايد عامل شرقى السودان بالشخوص إلى سواكن وإجلاء الحامية الباقية هناك وترك البلاد كافة لمن يطلبها من الحبشان وأصحاب عثمان دقنه فسار على عجل وانقطعت أخباره أياما ليست قليلة .

(مطلب)

وتوالت الطلبات على الخزينة لكثرة النفقة

وتوالت الطلبات على الخزينة وكثرت النفقة فتعذر على أصحاب الحل والعقد رتق هذا يتأهبون للقتال فلم يكن بأسرع من أن أطلق عليهم العدوّ نارا حامية وأرسل الرمى واشتد فى ذلك شدة بالغة فقتلت نيرانه جماعة كثيرة من الإنجليز وجرحت قائدهم الكولونيل استيورت جراحا بليغة فاستلم قيادة الجيش آخر اسمه

الجنرال ولسن فأودع الجرحى والمؤن وآلات الحرب فى الزريبة وسار بمن بقى من الجيش يجتاز تلالا من الرمال على شاطئ النيل، كان المقاتلون من أصحاب المهدى متترسين خلفها ومعهم طائفة كبيرة من الفرسان فتراجع المهدويون حينئذ وتبعهم ولسن بجنوده، فلما كان ثانى يوم علم ولسن بأن البلد حصينة منيعة لا ترام وأن بها زهاء الألفين من الحامية بينهم ألف من العساكر المنظمة يرأسهم الأمير نور أنقره وعندهم ثلاثة مدافع وكثير من المؤن والذخيرة. فباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا وقد جاءهم الفرج حيث رأوا أربع سفن حربية من سفن غردون وعليها بعض المقاتلة مقبلة ففرحوا بمقدمها فرحا لا يوصف، فلما دنت من الشاطئ نزل منها خشم الموس باشا ومن معه من العساكر وانضموا إلى جيش ولسن ولبثوا يومهم فى تأهب واستعداد وأصبحوا وقد سير ولسن ثلاثا من تلك السفن لا ستكشاف ما فى شندى فعادوا وأخبروا بأن حامية البلد قليلة وليس عندها من الأسلحة وآلات الحرب سوى مدفع واحد فعدل ولسن عن مقاتلتهم وأنزل جماعة من عسكره بثلاث سفن من تلك السفن وترفع بهم يريد اللحاق بالخرطوم وترك بقية عسكره فى كابوت بعد أن حصن البلد تحصينا منيعا حتى صارت لا ترام، وجاء الخبر بذلك إلى القاهرة ففرح به جماعة الإنجليز فرحا عظيما وقالوا: ها قد أصبح الجيش الإنجليزى على أبواب الخرطوم وغدا غردون فى مأمن من ذلك العدو فلم يبق على أولئك الأبطال البواسل إلا اقتسام الأسلاب والغنائم وبسط السلطة الإنجليزية على تلك القارة السوداء من أقصاها إلى أقصاها، كل هذا والعارفون بحقيقة ما أصاب غردون يسخرون ويقولون سبحان من يحيى العظام وهى رميم.

وجعل جيش ولسن يخرب القرى المجاورة لكابوت ويدكها دكا حتى لم يبق بها حجرا على حجر وقد تركها أهلها ونزحوا إلى الجبال مستصرخين الأهالى للأخذ بالثار، وكان إلى هذا الحين لم يعلم ماذا جرى على جيش آرل الذى سيره ولسلى عن طريق أبى حمد فخاف أصحاب الحل والعقد من الإنجليز الذين بالقاهرة أن يكون قد لحق به العطب فاستصرخوا نقلة أخبارهم، فجاء الخبر بوصوله إلى برتى الواقعة شمال أبى حمد وأنه لم يلق فى طريقه إلا شراذم قليلة من أصحاب المهدى فبدد شملهم وأوقع بهم، ولكنه عجز عن أخذ بربر ولن يتأتى له أخذها إلا إذا ساعده جيش ولسن الضارب عند المتمة وهذا عسير عليه الانضمام إلى جيش آرل إلا إذا تم له فتح المتمة وشندى وتبديد شمل من بهما من المقاتلة، وترفع ولسن بسفنه

ومعه الجنرال شارلس الذى كان ربان السفينة الحربية الكسندرا يوم ضرب حصون الإسكندرية وآخر اسمه الكولونيل ورتلى وخمسة من ضباط العسكر ومائة من عساكر البحر، فلما صارت سفنه على مقربة من حصون أم درمان لم تشعر إلا وقد علتها نيران مدافع العدو من كل صوب وتراسلت عليها القنابل من طوابى الخرطوم وطوابى عسكر المهدى واشتدوا عليها جميعا بالرمى، فتأمل آرال ومن معه حينئذ فرأوا أن الخرطوم وريعها قد تهدمت وأن منازل الحكومة قد تلاشت فلم يبق منها حجر على حجر فأسرعوا بالسفن فلم يتمكنوا من ذلك وقد أصابت قنابل العدوّ اثنتين من السفن فأغرقتها بما كان فيهما ونجا ولسن ومن معه وطلعوا إلى إحدى الجزر الواقعة أمام البلد وتمكنت الدفة الثالثة وكان عليها الكولونيل ورتلى من النجاة فانحدرت مسرعة إلى حيث مقدمة. وأخبر ورتلى بما جرى، فطيروا الخبر بذلك إلى ولسلى مقدم الجيش فأخذ فى الحال يأمر صاحب سياستهم على لسان البرق من دنقله إلى لندن عاصمة السلطنة الإنجليزية واختلط على ولسلى يومئذ الحال وفسدت تدابيره وانعكست آماله وقام أصحاب صحف أخبارهم وقعدوا وعلت ضوضاؤهم واشتدت جلبتهم وكلهم مجمعون على فساد سياستهم وسوء تدبيره فى إرسال جيش ولسلى وجعلوا يتكهنون بما أصاب غردون بالضعف من أهل البلد من النساء والأولاد حتى قال بعضهم: إن حامية الخرطوم صادقة فى الخدمة أمينة إذ كان غردون يقول لهم كل قليل من الأيام أنه إنما قدم لهم من قبل الخديوى وأمير المؤمنين السلطان عبدالحميد فكانت واثقة من صدق الرواية على الطاعة وحسن الولاء، فلما رأت العين قدوم العساكر الإنجليزية بأكسيتهم وقبعاتهم المحدّبة والمقعرة كذبت الرواية ومالت عن غردون وأبغضته ففتحت للعدو البلد فولجها وأعمل فيمن بها السيف ولربما أصاب غردون ما أصاب آحاد الناس وحدثنى فى هذا الحين رجل ممن فرّ ناجيا من الخرطوم، قال: كانت جميع القبائل حول الخرطوم إلى ما قبل سقوط البلد مخلصة فى طاعة الحكومة الخديوية غير هيابة ولا مصدّقة لدعواه ولا هى حاسبة له حسابا حتى تبدلت أحوال غردون واختلط عليه وساءت أعماله حيث أمر بتخريب المقام الخوجلى الواقع على قيد غلوة من الخرطوم خدام المقام وخليفته فنفرت عند ذلك جميع تلك القبائل أىّ نفور وأخذوا من ذلك اليوم يضيقون على البلد ويمنعون عنها الوارد من المأكول حتى اشتد الجوع بمن فيها من والناس فأكلوا الصمغ والجمار أياما حتى سقطت البلد وقتل غردون ذبحا ومثلوا بجثته تمثيلا شنيعا أ.هـ

وأرسل ولسلى سفينة لتأتى بالجنرال ولسن ومن معه ممن تركوا بالجزيرة بعد غرق السفينتين كما تقدم الكلام فأتوا بهم بعد العناء الشديد، وقد عثروا فى طريقهم بخمسة رجال من الفارين من البلد فأتوا بهم إلى ولسلى فأخبروه بمقتل غردون وما هم عليه وكيف مثل العدوّ برأسه تمثيلا شنيعا فى أم درمان وأكدوا ذلك بالأدلة والأيمان الغلاظ فطير ولسلى الخبر بذلك إلى صاحب سياستهم قيل: فاختلط عليه الحال واختلف مع أصحاب الحل والعقد فيما يفعلونه وفى الذى يشيرون على ولسلى بعمله وقام بينهم والقوّالون ينادون يا لثارات غردون ولبث ولسلى ينتظر الجواب وقد كان إلى ذلك الحين يظن أن قبيلة الشايفية مازالت باقية على الولاء والإخلاص للحكومة الخديوية فلما، جاءه الخبر بسقوط الخرطوم آنس من هذه القبيلة الخروج ومشايعة المهدى أيضا ومظاهرته على الإنجليز فرسم إلى سائر العساكر بالتحفظ وملازمة المعاقل والمتاريس حتى يأتيه المدد، ولكن العربان لم تتركهم بل هاجموهم عند آبار غدقول وأرسلوا عليهم الرمى بالبنادق أياما فلم ير ولسلى بدا من استمالتهم فسير إليهم رسلا يقولون: إن الإنجليز إنما هم آتون من قبل ملكتهم لبث السلام فى ربوعهم وأنه خير لهم أن يخلدوا إلى السكينة والطاعة فيكونون فى مأمن على أرواحهم وأموالهم وعيالهم وهو يكفل لهم جميعا القيام بسائر ما وعدهم به غردون، وظل على هذا الحال أياما والأخبار ترد إلى القاهرة أشكالا وألوانا حتى شاع فى خلالها أن قد وقع الاتفاق بين زعيم السياسة الإنجليزية وزعيم السياسة الإيطالية على حضور جماعة من العساكر الإيطالية النازلين عند مصوع وما والاها ليحلوا محل العساكر الإنجليزية بالقاهرة فيرحل حينئذ من بالقاهرة من الإنجليز إلى السودان لنجده إخوانهم وتأكدت الإشاعة أو كادت بظهور الحركة بين قلعة الجبل ومنازل الحرب ومنازل الجند بقصر النيل والعباسية وتسابقهم فى جر المدافع وإنزال الأثقال والأحمال وآلات الحرب من مخازن قلعة الجبل وذهاب طائفة من العسكر إلى مدينة السويس بخيلهم ومدافعهم ونزولهم بخيامهم فى ظاهر البلد أياما.

(مطلب)

تحرك نجاشى الحبشة للحرب

وزاد الأمر تخوفا وخبالا تحرك نجاشى الحبشة وتأهب عسكره لتذمره من فعال الإنجليز وخرقهم للعهد الذى عاهدوه عليه من ترك مينا مصوع وبوغس حرة له

ومفتاحا لا ملاكه لا يحتلها أحد غير عساكره ورجال دولته، فإنه لما علم بتوارد العساكر الإيطالية ونزولها حول مصوع أكبر الأمر وأعظمه وراسل المهدى ومناه بالمساعدة على قتال الإنجليز وأرسل كذلك إلى عثمان دقنه واستفزه إلى قتال الإيطاليين وجاءت صحف أخبار الإنجليز وهى ملأى بالحض على إرسال المدد إلى سواكن والا اختلط على من بها الحال وتعذر الخلاص، وكانت عيون عثمان دقنه وأرصاده على أشد ما يكون من اليقظة والانتباه، فلما شاع خبر قدوم المدد من الإنجليز إلى سواكن أخبروا به عثمان دقنه فزحف عثمان بمن معه من المقاتلة وخيم فى طمانيب فأنضم إليه أكثر القبائل الضاربة فى شرقى السودان وشايعه أهالى اكجيج وغيرها واجتمعت لدية قوّة عظيمة مدججة بالسلاح وكلهم متحفزون للوثبة على القادمين من البر والبحر، وكانت إلى هذا الحين ما برحت حمله آرل السائرة عن طريق أبى حمد على قدم المسير والعدّو يتخطف ساقها ويجول على يمينها ويسارها وهى تدافع بالأمر الخفيف فلما صارت فى منتصف الطريق بين مروى وأبى حمد بأن العدوّ أمامها فى عدد كثير ثم اختفى فخاف آرل شر العاقبة وأرسل طليعة للمكاشفة فعادت الطليعة وأخبرت بما رأت فتحرز آرل وجمع جنوده وسار بهم حتى صار على مقربة من مواقع الثائرين وأحاط بهم من كل جانب فهبوا من مرابطهم كالأسود الضوارى واشتبك القتال بين الفريقين فأظهر أصحاب المهدى بسالة وإقداما غريبين واشتدوا فى الطعن والضرب شدة بالغة وأبلوا بلاء حسنا ومازالوا حتى انكشف القتال عن قتال الجنرال آرل وأربعة من مقدمى العساكر الكبار وترفع العدوّ إلى التلال الواقعة على شواطئ النيل وكان الذين يدبرون أصحاب المهدى فى هذه الموقعة ثلاثة أمراء وهم موسى: ولد أبى حجل وعلى ولد حسين وحامد ولد على وقد ماتوا جميعا فى ساحة الحرب وكان المقاتلون معهم نفرا من المناصير ونفرا من الرباطاب وجماعة من دراويش بربر ثم جعل من بقى من جيش آرل بعد لم شعثه يتابع السير إلى أبى حمد وهم على أشدّ ما يكون من الجهد والإعياء وقد تولى قيادتهم الجنرال براكنبورى بعد مقتل آرل.

(مطلب)

إرسال الأمير حسن إلى السودان
باسم مندوب فوق العادة

وبينما هم على هذه الحال إذ وردت كتب زعيم السياسة الإنجليزية إلى السير بارنج بالمكالمة مع الأمير حسن أخى الخديوى فى ذهابه إلى السودان من قبل السلطنة

الإنجليزية باسم مندوب مدنى فوق العادة بدلا من غردون الذى تحقق لهم خبر مقتله فصدع السير بارنج بالأمر وكلم الأمير فى ذلك فأجابه إلى ما طلب، وقال لى شروط أشترطها: فقال السير بارنج وما هى : قال: أن ترسل معى الحكومة الخديوية خمسة آلاف مقاتل من الباشيبوزق وأن تكون لى الولاية العامة على السودان شرقا وجنوبا فأولى من أشاء من الحكام والمأمورين وأن يعطى لى التصرف المطلق فى سائر الأمور ولا يكون معى قط أحد من الإنجليز فلم تعجب صاحب سياسة الإنجليز هذه الاشتراطات، وأرسل يقول: إذا قبل الأمير الذهاب بلا شرط ولا قيد نال رضا حكومة جلالة الملكة فأذعن الأمير وأطاع ولم يبد بعد ذلك معارضة ففرح الناس وقالوا: إن أول الغيث قطر ثم ينهمل وبارح الأمير القاهرة فى نفر من الكتاب والجاويشية على الباخرة زينة البحرين إلى أسوان ومنها إلى قرطى مركز مقدمة جيش الجنرال ولسلى فلم تكن إلا أيام من وصوله حتى ظهرت الحركة فى قرطى والدبة وغدقول ودنقله وفى سوا كن وشرق السودان وبأن عزم الإنجليز على الجلاء عن تلك الأطراف أو كاد ووردت كتب صاحب السياسة الإنجليزية بذلك إلى الوزير نوبار باشا ثم لم تمض إلا أياما على ذلك حتى أرسل إلى الوزير يقول: أن اتركوا السودان إلى صاحب المهدوية واجعلوا وادى حلفا حدا بينها وبين مصر وعجلوا فى ذلك، فاختلط حينئذ على الوزير الحال وتولاه الاستغراب فجعل يكثر من التردد بين مقر الخديوى ودار الوزير محمد شريف باشا وهم يتكلمون فى الأمر وقد استعصى على الناس إدراك مغزى هذه السياسة إذ كيف يرسلون بالأمس الأمير حسن مندوبا بدلا من غردون ليحافظ على ما بقى من البلاد فى طاعة الحكومة ويسترجع ما يقدر على استرجاعه مما خرج منها واليوم يطلبون تخلى الحكومة عن سائر البلاد السودانية إلى صاحب المهدوية بغير شرط ولا عهد وإجلاء من بها من العساكر، واختلف الناس فى أسباب ذلك الجلاء العاجل فمنهم من قال: إنه مترتب على عجز جيش ولسلى عن مقاومة العدوّ وتفشى الأمراض الخبيثة بين أفراده وسوء الحال الذى بات بالحسنى ودلتهم على المكان أخذوا ما وجدوه وأكلوا وشربوا ما يعثرون عليه من طعام وشراب وخرجوا آمنين مطمئنين لاخوف عليهم وإذا رأوا من أصحاب الدار دفعا كانت الداهية الدهياء على البلد وجميع من فيه فيتفرقون فى أزقته ودروبه أو خارجا عنه ويصلون أهله نارا حامية ويفحشون فى القتل والتخريب وهتك الأعراض وكان الذى أكبر فيهم هذه القحة المتناهية ما التقطوه من البنادق والخرطوش مما تركه

العساكر المصرية إبان الثورة العرابية فى ميادين القتال بكفر الدوار والمسخوطة والتل الكبير، وقد كنت يومئذ رئيسا للنيابة العمومية بمحكمة المنصورة الأهلية فرأيت من غرائب أفاعيل أولئك الطغاة أمورا لا يكاد العقل يتصوّرها من ذلك أنهم سطوا ليلة على بلدة العزيزية «إحدى بلاد الشرقية» وكان منسرهم زهاء الأربعين لصا وهم مسلحون ببنادق رمنجتون التى التقطوها من ميادين الثورة فلما أحس بهم خفراء البلد قاموا فى وجههم وأطلقوا عليهم البنادق تباعا فقابلهم اللصوص بالمثل واشتبك القتال بين الفريقين وخرج أهل البلد بما عندهم من الأسلحة وقاتلوا اللصوص قتالا عنيفا من بعد العشاء الأخيرة حتى مطلع الفجر، وبينما النيران تتراسل بين الفريقين كان جماعة من اللصوص ينقبون جدران البيت حتى اتصلوا بمكان لرجل اسمه عبدالجليل أغا المورلى فدخلوه وأخذوا جميع ما وجدوه من حلى ومتاع وقتلوا صاحب البيت وابنته وخادما أسود وخرجوا بما أخذوه من وسط زحام أهل البلد وهم على أشدّ ما يكون من القحة والجراءة وقد أحصينا ما أطلقوه من الخرطوش فى تلك الليلة فكان زهاء السبعمائة خرطوشة واهتمت الهيئة الحاكمة بأمر أولئك الأشقياء اهتماما عظيما فرتبت لمحاكمتهم محاكم فوق العادة باسم لجان تحقيق الجنايات وخولّت لها شيئا فوق الحقوق القانونية فجعلت من يومها تقبض على كل ذى شبهة وكل شقى وتودعه الحبس ثم تتحقق من جنايته وتحكم عليه بالعقوبات الشديدة بين قتل وأشغال شاقة ومؤبدة وسجن مؤبد وغير ذلك من صارم العقوبات فامتلأت الحبوس بعديد أولئك الأشقياء فى الأقاليم البحرية والقبلية ورسم الخديوى أيضا بجمع ما تركه أصحاب الثورة العرابية فى ميادين القتال من البنادق وأدوات الحرب وبكبس دور أهالى كافة القرى والبلاد وإخراج ما بها من ذلك ومعاقبة من يوجد عنده شىء منها بأشد العقوبات فأحصينا ما جمعوه يومئذ من قرى الدقهلية والشرقية وبعض البلدان الأخرى فكان زهاء عشرة آلاف بندقية ومائة ألف من الخرطوش فخاف عند ذلك الأشقياء وانكمشوا وبطل سطو العصابات واطمأنت قلوب الناس قليلا وأمنت الطرق وبات أصحاب الزرع فى مزارعهم بعد أن كانوا لا يلتفتون إليها إذا قربت الشمس إلى الغروب، وسارت تلك اللجان فى عملها سيرا حثيثا فلم تخل من الانتقاد والتعييب ولم تتنزه أحكامها عن الخطأ بأخذ البرئ بذنب المجرم وظلت على هذه الحال عامين وبضعة أشهر حتى أمر الخديوى بحلها فانحلت وعاد النظر فى الجرائم كلها إلى المحاكم الأهلية كما كانت عليه من قبل والحكم لله وحده من قبل ومن بعد.

وصـــــل

(فـى آمـال وفـرض احـتـمـال)

إلى هذا الحين كانت قد تبدلت وزارة غلادستون شيخ الأحرار وزعيم السياسة الإنجليزية الذى فعل بالسودان ما فعل بوزارة المحافظين القائم على رأسها اللورد سلسبورى وأصبح هذا اللورد زعيم السياسة والقابض على دفة الرئاسة فلما علم المصريون بهذا التغيير ترامت ظنونهم إلى أبعد المرامى وتعلقت آمالهم بأعصى المرامى وجعلوا يفرضون الاحتمالات ويتساءلون فيما بينهم عما عسى أن يكون من سياسة ذلك الزعيم فلم تكن إلا أيام حتى وردت كتبه على قائد جيوشهم بمصر بلزوم التخلى عن سائر بلاد السودان وتركها شرقا وجنوبا إلى خليفة الخارجى وغيره ممن يشاء احتلالها وعدم الخروج عما رسم به الوزير غلادستون، فلما كان السابع من رمضان من السنة أى سنة ثلاث وثلثمائة وألف هجرية اجتمع الوزير نوبار باشا وسائر الوزراء والمشير مختار باشا مبعوث السلطان والسير ولف مبعوث الإنجليز والسير بارنج والجنرال استيفنصون قائد الجيوش الإنجليزية بمصر وكبار العساكر المصرية والكولونيل كروف أحد مقدمى العساكر الإنجليزية وبعض كبار عساكرهم أيضا، فلما انتظم عقد اجتماعهم أبرز الجنرال استيفنصون ورقة وقرأ ما فيها علنا وإذا هى مرسوم زعيم سياستهم الذى كانت ترجى رحمته بأهل السودان يقول فيه: إن حكومة جلالة ملكة الإنجليز تطلب من أصحاب الحل بديار مصر - أولا: إخلاء وادى حلفا التى تبقى مستقرا لطائفة من العساكر المصرية فقط رباطا - ثانيا: استرجاع سائر الجيوش الإنجليزية من أسوان وتحديد مواضع استقرارهم فى مدينتى أسيوط والقاهرة - ثالثا: إمداد القبائل المصافية بما يحتاجونه من المال والذخيرة ليتيسر لهم مقاتلة العدوّ فى وادى حلفا أ. هـ

فما أتم الجنرال قراءة ذلك حتى أخذ العجب من جماعة المصريين مأخذه وعرتهم الدهشة وسكتوا لحظة ثم جعلوا يناقشون جماعة الإنجليز ويراجعونهم فى الأمر فاشتد الأخذ والرد بين الفريقين واختلفوا وذهب كل إلى مذهب فقام حينئذ الوزير نوبار باشا وقرأ على مسمعهم نبأ ورد إليه من يوسف شهدى باشا الذى كانوا بعثوا به إلى وادى حلفا بعد رجوع الأمير حسن ليسهل الجلاء على النازحين من تلك الأطراف ويكلم دعاة المهدى فى أمر الصلح والتعاهد معهم على الهدو

والسكون يقول فيه: إنه قد وصل إلى وادى حلفا خلق كثير من الموظفين المصريين القدماء فى الخرطوم وأخبروا بأن الفوضى ضاربة فى تلك البلد بين الأهالى والأمراء والرؤساء وأن الشقاق مستحكم بين عبد الله التعايشى خليفة المهدى وأبى الخير أمير بربر وأن القبائل تتأهب للقتال وأن لا صحة لخبر تحفز العصاة للوثوب على التخوم فما أتم الوزير مقالته حتى وقع الهرج بينهم وعلت الضوضاء وكبرت حجة المصريين واشتد ظهر الوزير بهم فتكلم فى الأمر طويلا ولكنه رأى من جماعة الإنجليز غلظة فى الرد وجفاء فى القول واشتد السير ولف فى الكلام مع المشير مختار باشا ثم انفض اجتماعهم على غير طائل وهم الكولونيل كروف بالرحيل لتبليغ خبر ما جرى إلى صاحب سياستهم، وأعقب ذلك ورود الخبر من يوسف شهدى باشا بعجزه عن العمل وبعدم إمكان استتباب الأمن على التخوم إلا إذا استرجعت دنقله وأخذت من دعاة المهدى، وقد هوّن على أولى الأمر بلوغ الغاية بنفر من العساكر المصرية وبشئ قليل من النفقة فلم يقو المشير مختار باشا على إقناع السير ولف بذلك ولم يتمكن الوزير نوبار من استمالة السير بارنج إلى رأيه، ورحل السير بارنج عن مصر إلى دار السلطنة الإنجليزية فلحق به الوزير ولم يلقيا عصا الترحال حتى جاء الخبر بنجاح الوزير فى استرجاع الصلات التجارية بين مصر والسودان والتصريح للقوافل بالخروج إلى الدروب ففرح الناس بذلك فرحا عظيما وتأهب أصحاب التجارة لذلك وبعثوا البعوث إلى أسيوط وحلفا وأسوان ليمهدوا لهم الطرق ويتفقوا مع المكارية وأصحاب الأبل وراجت أصناف التجارة السودانية أو كادت رغما عن الأخبار المتواترة بوقوف الدراويش والدعاة فى جميع الدروب والمسالك وشنهم الغارة على الحدود، وكان الناس يقولون كما أقول إن إعادة هذه الصلات ينجم عنها فائدتين عظيمتين أولهما: تدانى الخواطر فى السودان من جانب الصلح والسلام. والثانية: نهوض التجارة من حضيض الكساد إلى أوج الرواج، وكان المشير مختار باشا مندوب الباب العالى يذهب أيضا إلى هذا المذهب ويكثر من إرسال الكتب إلى الباب العالى والمابين الهمايونى فى ذلك، ويقول: إنها مفتاح مغالق السلام والطمأنينة وخلود العدو إلى السكينة وظل الحال هكذا أياما حتى جاء الخبر ثانية بعدم نجاح الوزير فى رسالته وامتناع زعيم السياسة الإنجليزية من استرجاع دنقله ومن إعادة الصلات التجارية بين مصر والسودان فعاد الوزير وعاد كذلك السير بارنج وكتب يوسف شهدى متتابعة إلى الخديوى والوزير نوبار باشا بالحض على فتح دنقله وانتهاز هذه الفرصة التى

أنشب فيها الجوع أظافره بأصحاب الفتنة من أدنى السودان إلى أقصاه وكبار عسكر الإنجليز بأسوان يشكون من فعل الأمراض الخبيثة بعساكرهم وامتلاء بيوت المرضى منهم فترفع الجنرال استيفنصون قائد الجيوش الإنجليزية إلى وادى حلفا وأقام بها رباطا من الإنجليز والمصريين ورتب العيون والجواسيس من الجند تخلصا من تغرير الجواسيس من أهل البلد وأقام كذلك بأسوان رباطا ورسم بتبعيد الروم بائعى الخمور والمسكرات فأقصوهم إلى أسوان رحمة بالعساكر الإنجليزية الذين ضاقت بهم بيوت المرضى بسبب إدمانهم على السكر وأراقوا خمورهم فى النيل وفى الطرقات فضجوا وعجوا وانحدروا إلى القاهرة صفر اليدين وجعلوا يرجفون ويشيعون الأخبار المقلقة عن الجنود الإنجليزية والناس لا ينكرون عليهم شيئا مما يقولون لما تولد فى صدورهم من البغض لسائر المحتلين على اختلاف طبقاتهم.

(مطلب)

وإلى هذا الحين لم تقف رحى المخابرات مع الباب العالي

وإلى هذا الحين لم تكن لتقف رحى المخابرات بين الباب العالى وصاحب سياسة الإنجليز ولم تنكف الرسل عن التردد بين الفريقين وهم بين أخذ وردّ وكتب الغازى مختار باشا تترادف على المابين الهمايونى وكلها ملأى بأوجه الإصلاح وأسباب الخير للبلاد فكان صاحب السياسة الإنجليزية يطاول فى ذلك ويحاول وفى كلامه شئ من الجفاء والغلظة، وكان إذ جاءت جواسيس الحدود بخبر تجوّل نفر من السود عند التخوم فى طلب الماء أو الكلا لماشيتهم طير الإنجليز الخبر إلى الآفاق بأن قد قامت الحرب واتسع ميدان القتال بين دعاة المهدى والجند المرابطين هناك فيصيح حينئذا أصحاب صحف أخبارهم وا حرباه المدد المدد، وإذا تخاصم هناك اثنان من سائقى الإبل على ركوة من الماء أو شئ من التمر قالوا: هما من أمراء الدراويش وقد أتيا يسترقان السمع ويستكشفان مرابط الجند فيصيح حينئذ أصحاب صحف أخبارهم وا كرباه النجدة النجدة فإذا أغضى الباب العالى وخفض المابين الجناح أو أظهر شيئا من المجاملة انكفوا، وقالوا: إن الحدود آمنة مطمئنة لا خوف عليها من زعانف السود فكانت الدول كافة تنظر مع الباب العالى إلى هذه المغامرة نظرة الحائر فلاهم يجسرون على نبذها وإيقاف ترهاتها عند حدّ ولاهم قادرون على إكراه هذا الأسد الرابض على الجلاء عن البلاد وتركها لأهلها وغاية ما فعله كل من زعيم

السياسة الروسية، وزعيم سياسة الفرنسيس أنهما كتاب إلى زعيم سياسة الإنجليز يقولان: إنهما لا يعترفان بصحة أى اتفاق يحصل رأسا بين الباب العالى ودولة الإنجليز فكان من وراءه ذلك أن وقفت رحى المخابرات بين الباب العالى وسفير الإنجليز بدار السلطنة العثمانية وبارح ولف رسولهم القاهرة وانكشف شيء مما خفى من تلك المخابرات وهو اعتراف السلطنة الإنجليزية بسيادة السلطان عبدالحميد خان على ديار مصر وتكفل جماعة الإنجليز بتأييد الراحة والطمأنينة فى داخلية البلاد ودفع كل عدوّ خارجى بحيث إن خزينة البلاد هى التى تقوم بالنفقة على ذلك فى كل عام، ثم جلاء الجيوش الإنجليزية عندما يصح الجلاء بامتناع الأسباب الحائلة دونه فإذا تم الجلاء لزم زيادة عدد العساكر المصرية ووجبت زيادة القوّاد بينهم من الإنجليز ويصح أن يستخدم معهم نفر من الضباط العثمانيين فإذا مضت ثلاثة شهور ولم تقم حرب على التخوم لزم جلاء العساكر الإنجليزية عنها إلى أسوان ووادى حلفا وحلت محلهم العساكر المصرية ورحلت حامية القاهرة الإنجليزية إلى مدينة الإسكندرية بحيث يبقى لجماعة الإنجليز أرجحية الرأى والإدارة فى سائر المسائل المتعلقة بالخزينة والأشغال العمومية قالوا: أما وزارة الداخلية ووزارة الحقانية فتبقيان مصريتين مطلقا مع الاعتراف بسيادة السلطنة الإنجليزية الأدبية على مصر اعترافا لا يقبل اللبس والإبهام، فلما شاع خبر ذلك قام له أصحاب الصحف المحلية وقعدوا واستصرخوا رجال المابين الهمايونى وقالوا عليكم بالتأنى فى تدبير حل هذا المشكل وإياكم والعجلة فإن الخطب جلل وخذوا برأى صاحبى سياسة الروس والفرنسيس حتى لا يكون فى عملكم ما يوجب الندم أو يدفع إلى زلة القدم، قالوا: وأنتم يا أهل البلاد « ينادون المصريين» عليكم بملازمة الهدوء والسكينة وخفض جناح الطاعة لأولى الأمر عسى أن تعترف جماعة الإنجليز بذلك ولا تنكره فينجلون عن البلاد أو يعينون ساعة الجلاء.

(مطلب)

العزم على إنقاذ أمين باشا من خط الاستواء

فلم تكن إلا أياما بعيد هذه الصيحة من أتت كتب زعيم السياسة الإنجليزية إلى الوزير بعزمه على إرسال حملة خصوصية إلى خط الاستواء بقيادة الرحالة استانلى لإنقاذ أمين باشا مدير خط الاستواء على عهد غردون وإنقاذ من معه من العساكر

والمرابطين فى تلك الأطراف فلم يعجب الوزير هذا الخبر وأكبره لما فيه من المغامز والمقاصد الخفية، قلت: وأمين باشا هذا رجل ألمانى الأصل كان طبيبا مع غردون على عهد الخديوى إسماعيل فولاه غردون يومئذ الوظائف العالية حينا ثم استعمله على عمالة خط الاستواء فبدل اسمه من الألمانية إلى العربية وديانته من النصرانية إلى الإسلامية وسار فى تلك الأرجاء سيرة الملوك والسلاطين وتقرب من مشايخ وزعماء القبائل وتمكن من المنصب أىّ تمكن فلما قامت الفتنة المهدوية وخرجت سائر الأصقاع السودانية من قبضة الحكومة المصرية بقى أمين باشا هذا متربعا فى دست منصبه لا يزاحمه مزاحم ولا يحاربه متاخم فتاقت نفسه حينئذ إلى الاستقلال بملك تلك الأطراف واستمال إليه زعماءها وتحبب لعظمائها وادّخر المؤن وأعد المعدات ليوم الكريهة - وعلم أصحاب الشركة الأفريقية الإنجليزية بخبر ما عنده من العاج وريش النعام وتحقق أهل الحل والعقد فى السلطنة الإنجليزية مما هو عليه من عزة السلطان ونفوذ الكلمة وأيقنوا أنه سيكون عقبة كؤودا فى طريق ملك مملكتهم الجديدة التى ينوون بسط يدهم عليها حتى يدخل فى حوزتهم السودان من أدناه إلى أقصاه وتتبع ذلك الأقطار المصرية إلى الإسكندرية فأوعزوا هم وأصحاب تلك الشركة إلى صحف أخبارهم فأقاموا حينئذ صيحة الأسف وضجوا ضجيج التوجع على مصاب أمين باشا وجعلوا ينادون وا غوثاه أغيثوا يا أهل المروءة سجين خط الاستواء ارحموا يا أهل الرحمة والحنان من معه من الرجال والأطفال والنساء وأمين باشا فى إبان هذه ضجة قرير العين جذل بما أتاحته له الأيام من السكينة والاطمئنان وكان فى حوزته تسعة مواقع حصينة قائمة على شاطئ النيل ومعه من الجنود نيف وألفا مقاتل مدججين بالسلاح وعشرة من المصريين بوظيفة مقدمى العساكر وخمسة عشر من السود ومعه عشرون من الأقباط أصحاب الوظائف الديوانية وكثير من النساء والأطفال والخدم والأتباع وكلهم فى صحة وعافية وظل أصحاب تلك الصحف على هذه الحال من النداء والاستغاثة أياما حتى صدّق الناس أو كادوا يصدّقون أن خلاص أمين باشا والإتيان به من تلك المجاهل البعيدة عمل من أجل الأعمال المشكورة التى تفردت بها أمة الإنجليز، ولم تمض بعيد ذلك إلا أيام حتى جاء الطلب من صاحب سياستهم إلى الوزير بتقدير النفقة لإرسال حملة لإنقاذ أمين باشا هذا ومن معه والإتيان بهم إلى القاهرة فراجع الوزير السير بارنج فى ذلك فلم يفلح واشتد السير بارنج فى الطلب فتقرر على الخزينة القيام بنفقة الحملة وقدرها اثنا عشر ألف ذهبا

وسار استانلى رسولهم لإنقاذ أمين باشا بحملته عن طريق الزنجبار فلقى فى طريقه بعض المقاومة من جماعات السود مما عاقه عن السير أياما ومازال حتى بلغ خط الاستواء والتقى بأمين باشا ولبثا يتجادلان أياما إذ لم يكن أمين باشا ليرضى بترك مقره ولا التسليم فى سلطانه فجعل استانلى يُهدده تارة ويمنيه بالأمانى الكثيرة أخرى حتى تمكن من إحضاره مع بعض نسائه وأولاده ونفر من المصريين إلى الزنجبار فلقيه قنصل الألمان وتحادثا فيما هم فيه هناك، فحبب إليه الرجوع إلى مقره والعمل تحت ظل الراية الألمانية وعدم الالتفات إلى شىء مما يقوله استانلى، قيل: ففرح أمين بذلك وتقوّت عزيمته وامتنع من الرحيل عن الزنجبار وصمم على الرجوع إلى واد لاى ووافقه على ذلك نفر ممن جاء معه من المهاجرين ووردت الأخبار بذلك إلى القاهرة وتحدث الناس بها كثيرا وكبرت الوحشة بين أمين واستانلى، قيل: وتلاكما ثم تماسكا بالأطواق وانحدر استانلى إلى السويس يريد القاهرة على غير طائل فوصلها فأولم له الخديوى وهنأه رجال الدولة بسلامة العودة فلم تكن إلا أيام حتى برح الخفاء وظهر للعالمين ما خفى من سر بعثة استانلى وداعى إنقاذ أمين باشا إذ قام أصحاب صحف الألمان يرمون استانلى بالخديعة والمكر ويسمون السلطنة الإنجليزية بالخيانة والغدر، ويقولون: إنها أخلاط من أصحاب المتاجر فى ريش النعام وسن الفيل ومزيج من المرابين والسوقة ثم جعلوا يتهددونها بالحرب والقتال فى تلك القارة السوداء إن لم تقلع عن عدائها لدولة الألمان ومعاكستها فى مستعمرتها الأفريقية أو إن هى عملت عملا يكون من ورائه الإضرار بأمين باشا فردّ على ذلك أصحاب صحف الإنجليز ردّا جافيا واستطالوا على دولة الألمان بهذر الكلام وهددوا أمين باشا بالخيبة وسوء المصير إن هو عاد إلى واد لاى ليؤيد فيها السلطنة الألمانية، وقالوا: سوف يرى «يعنون أمين باشا» من الشدائد ما ليس له فى حسبان بحيث لا يستغرب عجزه عن الوصول إلى بحيرة نيانزة أو أوغانده فإن وصل فلابد أن يرى عند وصوله إليها العلم الإنجليزى خافقا عليها لأن الشركة التى قد سيرت استانلى لخلاصه ستسبقه إليها لتمد فيها النفوذ البريطانى وتمنع يد الألمان من التطاول إليها مهما كلفها ذلك من النفس والنفيس، وكأن استانلى قد أوجعه طعن أصحاب صحف الألمان ووخزهم لفؤاده الدامى بعد خيبته فى استرجاع أمين باشا فالتقى يوما بأحد مراسلى صحف الإنجليز الكبرى، فقال له: وهو يتنفس الصعداء قل لى بحقك ما الذى دفع بأصحابنا الألمان إلى كل هذه المهاترة والهراء ولقد كان من واقع أمرى

أننى خيرت أمين باشا بين خصال ثلاث ليختار إحداها: إما البقاء فى وادى لاى تابعا للسلطنة الإنجليزية براتب سنوى قدره ألف وخمسمائة جنيه مع مساعدة مادية قدرها اثنا عشر ألف، وإما أن يرحل إلى جهة أخرى من تلك القارة ليستقل بحكمها، وأما أن ينحدر معي إلى القاهرة. فهذا كل ما حصل مما لا يستلزم كل هذه الجلبة والتطاول على غير مسوغ فبلغهم عنى ما سمعت منى والله يحكم بيننا، فلما بلغت أمين باشا مقالة استانلى هذه وأن استانلى يتهمه أيضا بأنه لم يذعن إلى مبارحة واد لاى إلا بعد أن فرض له جعلا على ذلك قدره اثنا عشر ألف ذهبا أكبر الأمر وأعظمه وكتب إلى صديق له من أصحاب الحل والعقد فى السلطنة الألمانية يقول: لم يبق فى وسعى وآيم الله مراعاة السكوت والكتمان فى حق من لم يكتم السر ولم يراع حقوق الذمة فلقد عرض علىّ استانلى رسول تلك الشركة الطامعة قبول خصلة من خصلتين: إما أن أترك منصبى فى خدمة الحكومة المصرية وأدخل فى خدمة ملك البلجيك بمستعمرة الكونغو برتبة قائد مع بسط سلطتى على واد لاى وأن أطلب لنفسى ما أريده من الراتب السنوى خلاف مبلغ الأثنى عشر ألف جنيه الذى سيتقرر كنفقة للإدارة. وأما أن أجمع له جندا من السود ليكون هو قائدهم من جانب تلك الشركة الإنجليزية لا يقل عددهم عن أربعة آلاف ليسيروا معه« يعنى مع استانلى» إلى الجنوب الغربى من بحيرة فيكتوريا نيانزا ويحتلوا كاخير وندو ثم يؤسسوا فيها مركزا إذا وجدوها موافقة ويذهب استانلى فى أثناء ذلك إلى مومباسيا ليأتينى بسفينتين نقالتين لنقلى مع طائفة من جيشى لبعثة فى نواحى أوغاندا وأونبورو حتى إذا تم لنا فتح ذلك الصعيد كانت مركزا لنا نزحف منه رويدا رويدا إلى واد لاى مقر حكومتى القديمة ثم أجمع بين البلادين وأتولى الحكم فيها باسم الشركة الأفريقية الإنجليزية لاباسم الحكومة المصرية - قال - وقد ألح علىّ ذلك الإنجليزى «يعنى استانلى» بوجوب الدخول فى خدمة تلك الشركة وتفضيلها على الحكومة المصرية وكان عافاه الله يخاف كثيرا من أنى أفضل البقاء فى مقر سلطانى على الرحيل معه لعلمه أنى بانفصالى عن خدمة الحكومة المصرية لا يمنعنى شىء من الرجوع إلى خدمة دولتى إذا دعيت إليها، ولذلك قد عقد نيته وعزم عزما ثابتا على أنه إما أن يكرهنى على قبول خصلة من الاثنتين وإما أن أرضخ لامره وأبارح على الفور القارة الأفريقية وإلا سلبنى جميع ما عندى من ذخرة ومؤنة وآلات حرب وتركنى وشأنى لا زاد ولا سلاح فاضطررت إلى مرافقته كارها حزينا فظن أنه قد نال منى أربه وفاز بمغنمه وساعدته القدرة على تقليم أظافر ذلك الأسد ولكن قد خابت

آماله وفسدت أحلامه وها أنا اليوم خادم للراية الألمانية فى تلك الأرجاء والله من وراء ما يعملون.

قلت: وشاع عند وصول استانلى إلى القاهرة أنه أشار على الخديوى والوزير أن يرسلا إلى سلطان الزنجبار فى طلب أمين باشا وأنه إذا حضر له عاقه ومنعه من الرجوع إلى واد لاى فلم يفحلوا جميعا فى ذلك لما ناله أمين باشا من المكانة وعزة الجانب بين الألمان وتحقق الناس حينئذ أن تلك الصيحة التى بلغت عنان السماء من جانب جماعة الإنجليز لاستنهاض أهل النخوة وأصحاب المروءة إلى فك أسر أمين باشا وإنقاذ من معه ليست من الحنان فى شىء ولا هى لوجه الله تعالى، وظهر اهتمام دولة الألمان بتلك الأرجاء وبحملة أمين باشا فبالغت فى تشييعها وأكثرت لها من المعدات وآلات الحرب وأوعزت إلى أمين باشا بأن يبسط يده على بحيرات نيانزا ومات والاها مع واد لاى، وأن لا يبقى ولا يذر وسيرت إليه جماعة من مقدمى العسكر وعظيما من قومها اسمه الماجور ويسمن قد ولته الولاية العامة على ما كان وسيكون لها من المرافق والأملاك هناك، ثم صاحت على جماعة الإنجليز بلسان أصحاب صحفها الكبرى أن ارجعوا عن طمعكم وخففوا من جشعكم فى القارة السوداء واعلموا أن يومكم ليس كأمسكم فلا ارعاد سلطتكم القديم ينفع ولا أزيادها اليوم يدفع واقصروا أيديكم من التطاول الذى هو دأبكم فعيوننا وأرصادنا ترمقكم من كل صوب وحدب وعسكرنا يحول دون بلوغ سلطتكم كل أرب لاسيما وإن كان كلمتها هناك قائمة على الإيهام والتغرير وسلطانها أفرغ من كنّ الفقير فلا عسكر لها هناك ولا كراع ولا حصون ولا قلاع فإن أحسنت العمل فلنفسها وإن أساءت فعليها والسلام، فقام لذلك جماعة الإنجليز وهموا بعمل شىء يرجون من ورائه كشف هذه الغمة فلم ينالوا مأربا واهتمت دولة الألمان من هذا الحين بتوسيع نطاق استعمارها فى قارة أفريقية بعد أن كانت تبتعد عن ذلك وتحسبه ضربا من الطمع وعمدت إلى المزيد من الفتح حصل هذا كله ورجال مصر لاهون بما عندهم من المشاغل معرضون عن الاهتمام بشئ مما وراء الحدود التى رسمها لهم صاحب السياسة الإنجليزية والناس فى دهشة مما يرون ويسمعون - وقد تفرق بعض من حضر من المهاجرين مع أمين باشا فى أزقة وحارات مصر والقاهرة يستعطون أهل البر والإحسان ويحدّثون الناس بما كانوا فيه وقد طرقوا أبواب الحكومة فى طلب ما تأخر من جماكيهم وما يستحقون من المعاش حتى وقفوا فى طريق الوزير فأهتم بأمرهم

وكشف عن بعض غمتهم وصرفوا لهم ثلث ما تأخرلهم وطالب كذلك أمين باشا الخزينة بماله من المتأخر مدة السبع سنوات التى لبثها فى أواسط أفريقيا فأجابته إلى طلبه صاغرة وأعطته ما يستحق كارهة ورتبت له معاشا شهريا يتقاضاه من الخزينة، وأشاع جماعة الإنجليز عن أمين باشا بعيد ذلك الإشاعات المختلفة والأقوال المقلقة عند قومه فيوما يقولون: إنه مريض، ويوما يقولون: إنه فقد السمع والبصر ويوما يقولون: أنه جن وآخر أنه سقط من شرفة مكانه فدق عنقه ومات، وغير ذلك من الإشاعات المتباينة حتى قدم الماجور ويسمن من الزنجبار إلى القاهرة ومعه بعض الخدم من السود والأتباع فاحتفل بمقدمه جماعة الألمان وبالغوا فى إكرامه وأدبوا له المآدب الفاخرة فوقف مرة خطيبا فى إحدى تلك المآدب وقال: أشكركم على المقابلة التى قمتم بها نحوى كلما أسعدنى الدهر بالمرور فى هذه العاصمة الزاهرة ثم إنى أخبركم بأننى قد قمت بالمأمورية التى عهدا إلىّ امبراطور ألمانيا وأؤكد لكم بأن السلام الذى عبث به بعض الثائرين قد استتب فى جميع سواحل أفريقيا الشرقية والفضل فى ذلك للعساكر والمدافع التى استخدمتها لإخضاعهم ولكننى مع ذلك أقول: إنه يتهدد مصالح ألمانيا فى أملاكها الآن مصاعب سياسية ولذلك فقد دعانى عظمة الأمبراطور «يعنى امبراطور ألمانيا» لأبين له نتيجة بعثتى وأعين الرسوم الجديدة لاملاكنا فى أفريقيا حسما للنزاع الذى ربما ينشأ عن هذه المصاعب السياسية ثم إنى أؤمل أن أعرض على دار ندوتنا حالة دولتنا فى أملاكها فى أفريقيا وأسأل النفقة اللازمة لإقامة مملكة استعمارية ألمانية ثابتة فى تلك البلاد وأؤكد لكم أنه رغما عن المساعى التى يبذلها البعض لمنع النفوذ الألمانى فى أفريقيا فإن ألمانيا لا تتأخر البتة رغم أنوف الذين يحولون دون أعمالها المدنية.

هذا وأنى أنقل لكم سلام أمين باشا الذى لا يزال يذكر أصدقاءه فى مصر وأبشركم بأنه على غاية الصحة والعافية خلافا لما تقوله الجرائد عنه من أنه مريض كفيف البصر معتوه العقل بل هو لا يزال كما عرفناه من عشر سنوات بدليل أنه بدلا من أن يعود إلى بلاده للمعالجة قد أحب أن يعاود سفره إلى أواسط إفريقيا رئيسا لحملة عظيمة ولقد أخذه العجب من الذين كانوا يدعونه بالشهير «يعنى الإنجليز» أيام كان فى خدمتهم ثم أصبحوا الآن يدعونه بالكفيف العاجز المعتوه بعد أن فارقهم وعاد إلى خدمة دولتنا فسبحان مغير الأحوال أ.هـ .

وعاد استانلى إلى عاصمة الإنجليز فأجزلت له سلطنتها العطاء ولقبته بأكبر

الألقاب عندها وأسندت إليه مسندا عاليا وهو اليوم فى مصاف أهل الرأى وأصحاب الشورى فنشط إلى استنهاض أصحاب الحل والعقد إلى الوقوف فى وجه الدولة الألمانية ومنعها من التغلغل فى جوف القارة الإفريقية ووقوفها سدا قويا فى طريق الإنجليز هناك وجعل يخطب فى الناس ويملأ صحف أخبارهم بعبارات الحض والاستنهاض .والأنين والشكوى من تقاعد رجال السلطنة الإنجليزية عن تدارك الخطب قبل استفحاله لاسيما وقد تمكنت دولة الألمان من قلب القارة الإفريقية أوكادت فتحركت حينئذ خواطر القوم وهمّ صاحب سياستهم بإرسال عظيم منهم إلى عاصمة الألمان يرجو امبراطورها الوقوف عند حد ومنع ذلك الخصام واللدد فلبث الرجل هناك أياما حتى رسم الإمبراطور لرجل من قومه اسمه الدكتور كرانل بأن يناقش رسول الإنجليز فيما جاء فيه فأقاما على هذه الحال أياما طال فيها الأخذ والردّ بين صحف الفريقين وكثرت بينهم المهاترة والقول الهراء على ما تقدم بيانه فجعلت حينئذ أصحاب صحف الفرنسيس تسخر بهم وتهزأ بفعالهم، فما قالته إحدى تلك الصحف الإفرنسية عبارة لا بأس بإيرادها هنا فإنها تشخص لقارئها واقعة الحال بأجلى مظاهر التعبير وتدله على نوايا السلطنة الإنجليزية فى تلك القارة من أقصاها إلى أقصاها ـ قالت لعمرى إن من تأمل مساحة تلك القارة الواسعة على صفحات الخريطة تبين له من أول نظرة أنها كافية لاستعمار سائر الدول حتى دولة البرتغال، ولكن متى تذكر ما اتصفت به الدولة الإنجليزية من الطمع والأنانية واستعمار الدولة الألمانية واندفاعها فيه عاد به الأمر إلى عكس ماتوهم من كفايتها حتى لنسأل عن الدولتين بعد إذ حرمتهما منها دولة البرتغال حتى لا ينتهى بهما الحال إلى الخصام عليها وقد رأينا أن نمثل للقارئ دورا لطيفا بين هذين الرسولين، نعنى بهما رسول دولة الإنجليز ورسول الألمان بكلام نسطره لهما مما يوافق الحال وإن لم نبلغ فيه إلى ما دار بينهما من الجدال بحرفه ولكنه يبين للقارئ بأجلى بيان نوايا الدولتين فى تلك القارة السوداء فنقول ليتمثل القارئ البنيه رسول الإنجليز منكبا علي خريطة إفريقيا وفي يده قلم يخط به خطا من الدرجة الخمسين طولا على طول طريق يؤدي إلي أواسط إفريقيا من بوغاز السويس ثم التفت إلي صاحبه الألمانى وقال: أليست هذه أرضا إنجليزية فانحنى له الألمانى وتبسم فأردف الإنجليزى عبارته هذه وأتبعها بقوله: إننا إذا اتبعنا الدرجة الخمسين طولا نجد أنها تقطع النيل فى موضعين أو ثلاثة مارة به فيكون نهرا إنجليزيا إن شاء الله تعالى ـ فقاطعه الألمانى بقوله: نعطيكم إياها إن شاء الله ـ فقال الإنجليزى وبذلك نصل إلى الخرطوم ولا ننكر عليكم أن غردون قد مات

ولكن لابد من الأخذ بثأره لأن استانلى عندما عاد إلينا فى هذه المرة جعل يقول إن ترك السودان يعد جريمة لنا لا تغتفر وأن أخذها من الهنات الهينات إذ لا يلزم لافتتاحها سوى مد خط حديدى بين البحر الأحمر والنيل كما بين سواكن وبربر مثلا وهو خط لا يكون طوله أكثر من ثلثمائه كيلو متر وذلك ليس بالشئ العسير ثم نمتد من بربر مقتفين الدرجة الخمسين طولا فنأخذ العبيد وسنار ثم نصعد فى النيل الذى هو ملكنا كما لا يخفاك حتى بلغ كوندوكورو وبذلك نضمن لتجارتنا سلامة النهر بطوله على مسافة ألف وخمسمائة كيلومتر تبتدئ من بربر ومن ثم نتصل إلى البحيرات العظمى بلا مشقة ولا عناء ـ فقاطعه الألمانى على رسلك يا صاح لقد وصل الدكتور بترس عالمنا الشهير إلى تلك البحيرات العظيمة أيضا وكنا نظنه ميتا قد دفن فإذا بنا نجده حيا يرزق وفى وعائه الشئ الكثير من المعاهدات والاتفاقيات التى عقدها مع ملوك وزعماء تلك الأصقاع بعد المخاطرة فى قطع جبلى كينا وكليمنجارو اللذين قد أصبحا جبلين تابعين لدولتنا بعد الآن ولم يقتصر على ذلك بل دار حول بحيرة نيانزه فيكتوريا حتى صار الآن فى أواسط أوغانده حيث يتبعه أمين باشا عما قليل ويلاقيهما الماجور ويسمن قادما من الزنجبار فإذا الدرجة الخمسون التى قد اتخذتموها لأنفسكم ملكا حلالا ليست لكم فإنها تمر فى درجة نفوذنا ولا يصح قط التسليم لكم فيها ـ فقال الإنجليزى: إذا أنتم تريدون أن تنازعونا فى البحيرات العظمى التى هى خزانات النيل ومنبع حياته كأنكم تجهلون أنها إنجليزية وأن مكتشفيها من الإنجليز فإن كنتم تجهلون ذلك أو تتجاهلونه فانظروا إلى اسمها تجدوا فيكتوريا وكفى بهذا الاسم دليلا على أنها إنجليزية فضلا عن أن سكان تلك الجهات لا يعرفون من الأمم الأخرى سوانا وفوق ذلك فإن الرحالة استانلى لم يسمح لزعيم سياستنا بأن يتخلى عنها وهذا الزعيم لم يسمح لى بأن أتخلى لكم عن قيد شبر قط بل ولا عن محط أصبع من تلك الأرض ثم أنتم تعلمون أن أمين باشا كان حاكم السودان وقد بسط يده عليها باسم الحكومة المصرية أى باسم السلطنة الإنجليزية كما أنكم لا تنكرون أن تلك الدرجة الخمسين إنما هى طريقنا إلى تانفانيكا أفتريدون أن نتخلى عنها ونتركها لكم ـ فأجابه الألمانى ما هذا يا صاح إن تانفانيكا هذه التى تقول عنها إنما هى قلب النفوذ الألمانى وفلذة كبده وأنت هداك الله لا تجهل أننا عزمنا على أن نمد مستعمراتنا من الزنجبار إلى الكونغو وتانفانيكا كما هو واضح ومعلوم واقعة فى طريقنا فهى إذا لنا ولا كلام ـ فهز الإنجليزى رأسه وقال هيهات

ذلك فقد أخذناها وقد عقد لنا استانلى المعاهدات القوية مع زعماء القبائل الضاربة فى شماليها وستتخذها شركتنا الإنجليزية الإفريقية قاعدة لنفسها سيما وأن استانلى رجلنا عافاه الله لا يدع صاحب سياستنا يتخلى عنها قط ـ فقال الألمانى وصاحب سياستكم أظنه لايدعك أنت أيضا تتخلى لنا عن شئ منها ـ فقال: أجل وكيف أتخلى عن شيء من ذلك فتقطعون طريقنا بين البحيرات وتانفانيكا من جهة وبين أملاكنا فى نياسا من جهة ـ فصاح الألمانى رويدك رويدك ماذا وكيف تقول ألا تدرى أننا ملكنا نصف نياسا وأنها إحدى طرقنا المطروقة إلى الكونغو وغيرها حتى أن البرتغاليين قد تركوها لنا إننى أراك متسرعا متعديا على حدود نفوذنا وهذا لايمكن أن يكون وفينا قطرة من الدم ـ فقال الإنجليزى: كيف تزعمون امتلاك بحيرة نياسا ونحن الذين حمينا منازل المرسلين الأيكوسيين حواليها بل من الذى مدّ الطريق بين تانفانيكا وبينها ومهده غير جماعة المرسلين الإنجليز أماما تدعيه دولة البرتغال من الحقوق فإنكم معشر الألمان تعرفون أننا نجهلها ولا نعترف بشئ منها ولذلك فإنها لم تقدر أن تتنازل لكم عن أراض ليست لها فى الحقيقة وفضلا عن ذلك فكيف تقدرون إن تقطعوا علينا الطريق الوحيدة التى توصلنا من أملاكنا الواقعة فى خط الاستواء إلى أملاكنا الشمالية إلى بورنتال مارة فى دالاكوا التى إن لم نبسط يدنا عليها اليوم ففى غد وغد لناظرة قريب ـ فقال الألمانى: يا لله ولماذا إذا لا تقول أن الدرجة الخمسين هى كلها لكم لالسواكم ـ فأجابه الإنجليزى: ولكن هذا هو الحاصل وإذا أنصفتم وعدلتم لم يسعكم إلا جعل الحق فى جانبنا وأن تلك الدرجة هى طريقنا من مصر أرض الفراعنة إلى رأس الرجاء الصالح ثم أنتم إذا تبصرتم فى الأمر رأيتم أننا لا نطلب إلا طريقا بين مستعمرتين إنجليزيتين فأين يكون الشطط أو الاجحاف فى ذلك ونحن لا نطلب إلا الوصول إلى أخواننا فى طرفى القارة وذلك ويعلم الله أقل ما يكون فعند ذلك تمطى الألمانى وقال: فماذا نصنع إذا وماذا يصنع البرتغاليون والإيطاليون ـ فأجابه على الفور ما لنا وللبرتغاليين الآن أما جماعة الإيطاليان فقد طاب لهم المقام بمصوع فإذا أرادوا الحبشة أيضا فليأخذوها وإن كنا قد دخلناها بجنودنا فيما مضى وصار لنا فيها بعض الحق ولكنا نتركهما لهم هبة كريم مسامح ـ فقال الألمانى: ونحن ـ فأجابه: أما أنتم فقد أعطيناكم الزنجبار بين جزيرتها وشاطئها وذلك فوق الكفاية بل قد نكون أخطأنا فى ذلك لانه سيأتى يوم نحتاج فيه لنقل محصولات خط الاستواء إلى البحر من غير بدّ فإذا ظل أصحاب المهدى آخذين

علينا طريق النيل لم يكن لنا ندحة عن إيـرادها من البحيرة إلى البحـر ولا سبيل لنا غيـر الزنجبـار ولذلك كانـت هذه الجهـة أولى بنا من سواها لاننا إذا أطعنا الرحـالة استانلى ـ فـعند ذلك قاطعه الألمانى واحتـد والتفت إليه محـملقا وقال إنى لا أرى فائدة مـن هذا الجدال وإنه خيـر أن نرفع الأمر إلى امـبراطورنا لأنى عـلى ما أرى عسير علىّ أن أسالك شيئا بشـأن تحديد النفوذ بيننا فقام الإنجليزى وانصرف مقطب الوجـه وهو يقـول أجل ومن قـال دائرة النفـوذ الإنجليـزى فكأنما يقـول دائرة الكرة الأرضية بتمامها أ. هـ.

وجاءت فى هذه الأيام أيضا كتب صاحب السياسة الإيطالية إلى ديوان الخديوى والوزير نوبار باشا بطلب فتح باب المخابرة بينهم بشـأن السودان وتوسيع دائرة النفوذ الإيطالى فيه من حد سـواحل البحر الأحمر يعنى من فرضـة مصوع وما والاها إلى ضفة النيل الأزرق فأكبـر الخديوى هذا الطلب وأعظمه وكلم قنصل إيطاليا فى ذلك فلم تكن إلا أيام حـتى وردت كتب صـاحب السيـاسة المذكـور بأنه إنما يريد إطلاق الحرية له فى احتلال كسله والاعتراف بسيادة الايطاليان على البقعة المأهولة بقبيلة بنى عامر والممتدة إلى ناحية بركة التى قـبل أهلها حماية دولة إيطاليا لهم. قال: فإن لم تتفق معنا الحكومة المصرية على ما فيـه المصلحة كلمنا فى ذلك زعيم سياسة الإنجليز فأن لم يوافقنا هو أيضا تصرفنا فى الأمر بحسب ما تقتضيه مصلحتنا وبسطنا سلطاننا على كل قسم من القارة الإفريقيـة بدخل ضمن دائرة نفوذنا، وجعلوا من هذا الحين يحاولون مباغته القبائل الصومالية المصافية للحكومة فكانوا إذا انسوا منهم إخلادا إلى السكينة ورأوا من نجاشى الحـبشة تغاضيـا أو من الرأس ألولا مقدم جيوش الحـبشان تقاعـدا عن الحركـة تقدمـوا بعسكرهم ببطء ومـدّوا يدهم إلى بعض البقـاع بلطف وسايروا أهل القرى وكبار القوم فيها وأجزلوا لهم العطاء وأتحفوهم بالتحف والهدايا وخابروا صاحب سياسـة الإنجليز فيما هم فيه وعلقوا أملهـم بالمحال فإن أحسوا من مقدم عـسكر الحبشان بالحـركة وزحف الجنود ورأوا الكتائب تتلو الكتائـب انكمشوا وعاودا صاحب سياسة الإنجليز فى الكلام فيمنيهم ويهوّن عليهم ويشير بالتأنى وترك العجلة فلما طال على نجاشى الحبـشة الحال ورأى أنه لا هو دافع شر الإيطاليان عن تلك البـلاد التى تعتـبرها جـزءًا من سلطته بحكم الاتفـاق الموقع عليـه مع رسول الإنجليز «وقد مر بيانه» ولا هـو تاركها للإيطاليان يضمونها إلى مسـتعمرتهم الجديدة رسم إلى مقدم جيوشه بالحركة وعدم الوقوف عند حد فسار مقدم الجيوش إلى التاكا

وضرب القبائل النازلين حولها ونهب أموالهم وماشيتهم وأفحش فى قتلهم ثم قفل راجعا إلى عدوه مقر كرسى النجاشى ولبث بها أياما ثم سار إلى جندع الواقعة بين عائلة وأسمره على مرحلة من مصوع وعسكربها بجيوشه وجعلها مقره ومركز حركته وأخذ يتأهب لقتال الإيطاليان وشاع الخبر بذلك فخاف الناس كثيرا وأخذوا يلجئون بعيالهم ومتاعهم إلى الجزيرة وتتابع خروجهم من البلد حتى لم يجد الرائى فى طرقها سوى النوق المحملة بالأثاث والمتاع فقلق عند ذلك جماعة الإيطاليان واشتدوا فى عمل الحصون والمتاريس وأكثروا من وضع المدافع والمكاحل على الأبراج وسيروا إلى كتشنر باشا عامل الخديوى على سواكن فى طلب المدد فأرسل إليهم سفينتين حربيتين من سفن الحرب الإنجليزية وجاءهم كذلك بعض السفن الإيطالية وكبر خوف المرابطين من العساكر الإيطالية من اهتمام الحبشان بإقامة الحصون والمتاريس بمعسكرهم فأنشأوا هم كذلك قلعة حصينة على رأس الناحية المعروفة بحرقيقو وسموها طابية وعا ووضعوا عليها كثيرا من المدافع الكبار وبث الحبشان عيونهم وأرصادهم حول البلد فانقطع عنها الوارد من المأكول والمشروب ورحل من كان نازلا حولها من العربان والمرتزقة فطير الجنرال جنيه قائد العساكر الإيطالية الخبر بما جرى إلى زعيم سياستهم ثم كتب يقول له قد استحكمت النفرة بيننا وبين الرأس ألولا قائد الجيوش الحبشية فالمدد المدد فلما أبطأ المدد لم ير بدّا من تسليح الموالين من أهالى حرقيقو بالبنادق وأعطاهم شيئا كثيرا من الذخيرة والمؤن واستحلفهم على أن يكونوا عونا لهم على الحبشان وتصاريف الزمان فلم تكن إلا أيام حتى جاء الخبر إلى مقدم العساكر الإيطالية بحاجة المرابطين منهم فى موكوللو إلى المؤنة والذخيرة فأزعجه هذا الخبر لحراجة الموقف ويقظة العدوّ فجعل يراقب الفرص حتى آنس من الحبشان بعض الخلود إلى السكون فسير قافلة صغيرة بما تيسر لديه من المؤن والذخرة إلى موكوللو وأتبعها بطائفة من المقاتلين فلم يتم خروجهم من البلد حتى داهمهم العدوّ بخيله ورجله وأعمل فيهم القتل بحد السيف حتى لم يبق منهم أحد وخرج من كانوا فى موكوللو من المرابطين على وجوههم إلى مصوع لعدم قدرتهم على البقاء وتركوا رباطهم بما فيه من متاع وكراع فلم يتعرض لهم جماعة الحبشان بسوء واحتلوا مكانهم وغنموا ما فيه غنيمة باردة فأكبر قائد العساكر الإيطالية هذا الأمر وأعظمه جدا ولكنه لم يجسر على الخروج بعسكره من البلد وسير الكتب تباعا إلى صاحب سياستهم فى طلب المدد ولكن يالله ماذا ينفع هذا كله وأرض السود هوّة

عميقة تبتلع الشيء الكثير من الأموال والأحمال والأثقال والعدد العديد من الرجال وتزهق دون إخضاع جبابرتها أرواح الأبطال ولقد طالما أنفق فيها الدم والمال من المماليك القديمة كما يدل على ذلك تاريخها ورأينا رأى العين ما أصاب الإنجليز والمصريين من نار هذه الأرض الغبراء حتى جاءت اليوم نوبة الإيطاليان الذين غر صاحبهم الطمع فأوقع قومه فى هذه المهلكة فلما اتصل خبر هزيمتهم هذه بزعيم سياستهم أبلغه إلى دار ندوتهم فعلم به السواد الأعظم من عامتهم وأهل الدعارة منهم فاجتمعوا حول دار الندوة ألوفا وارتفعت أصواتهم وعلت ضوضاؤهم ونادوا بالويل والثبور على زعيم سياستهم واشتد بهم اللجاج والهياج فجاءت طائفة من عسكرهم وفرقت جمعهم ومزقت بضرب العصى شملهم بعد لكم وضرب وجاء كتاب نجاشى الحبشة إلى جنيه قائد عسكرهم بالجلاء العاجل عن مصوع وما جاورها حقنا للدماء وإلا فالسيف والنار ولا هذا العار قيل فلم يردّ عليه وقيل بل ردّ بأحسن ما يكون من عبارات التلطف والتودد.

وقد هيج ظفر الحبشان بجماعة الإيطاليان ساكنا من أصحاب المهدوية النازلين حول سواكن فهبوا إلى الحركة وجعلوا يتخطفون الناس والماشية من حول البلد ويمنعون عنها الوارد من المأكول والمشروب فاهتم كتشنر باشا بالأمر وأكثر من تطواف العساكر حول البلد فى الليل والنهار وتقدمت بعض سفن الحرب الإنجليزية نحو البلد تأهبا للدفاع عند الحاجة وأخذ كتشنر يستميل مشايخ القبائل الذين كانوا يكرهون الانضواء إلى عثمان دقنه والطاعة إلى دعاة المهدى وخليفته فمال إليه بعضهم فأمدّهم بالأسلحة والذخرة ودفعهم إلى قتال العدو فقاتلوه وأبلوا فى قتاله فترفع العدو إلى الجبال وانجلى عن ضواحى البلد ثم انحدر إليها بعد أيام وهكذا كانت فعالة كل قليل من الأيام، وورد على كتشنر باشا يومئذ كتاب التعايشى خليفة المهدى مفعما بالتهديد والوعيد إن لم يخفض كتشنر جناح الطاعة ويترك العناد وقد ذكر له شيئا كثيرا من مناقب المهدى وصحة مهدويته ثم دعا كتشنر إلى ترك النصرانية واعتناق المهدوية فإنها أصح المذاهب وأقربها إلى الله تعالى فإن لم يأت طائعا مخلصا فى العقيدة سير إليه جيشا عظيما فيستولى على سواكن وما والاها ويطرح حاميتها فى أليم حيث يكونون طاما لأسماكه وشاع خبر هذا الكتاب بين أهل البلد فخافوا خوفا عظيما وصاروا يتوقعون وصول جيش التعايشى كل قليل من الأيام وقد زادهم خوفا ما شاع فى ذلك الحين أيضا من تواطئ الرأس ألولا مقدم الجيوش الحبشية مع كبار

المهدويين على قتال الأجانب الطامعين فى بلادهم وقطع شأفتهم وأن النجاشى يوجنا ميال إلى ذلك وكاد يتحقق الخبر بخروج مشايخ الحباب والشاكرية والهدندوى والشيخ أمين فقيرى شيخ قبيلة الارقويت الذين استمالهم كتشنر إلى طاعة الحكومة وموالاتها وامتناعهم عن مناهضة العدو رغما عما بذله لهم كتشنر من الأسلحة والأموال الطائلة والهدايا الكثيرة وكان كتشنر قد أرسل إلى السير بارنج فى طلب الشيخ الميرغنى شيخ سجادة الطريقة الميرغنية التى يتبعها أهل السودان شرقا وجنوبا ليحمل العصاة على الرجوع إلى طاعة الحكومة فجاء الشيخ إلى سواكن وجعل يبعث البعوث ويرسل الدعاة ويحض القوم على ترك الحرب والكف عن القتال فلم يفلح وقد رموه بالمروق عن الدين القويم واتهموه بالنصرانية وبيع الآجلة بالعاجلة فلاهم لذلك يعرفونه ولا هم يعتقدون مشيخته فكبر الأمر على الشيخ وسار إلى بلد اجيج وأقام بها أياما لعله ينال من القوم مأربا فلم ينل ولم تجسر بعوثه ودعاته على لقاء أحد من كبار المهدويين فكانت أخبار تلك الأطراف كل يوم فى شأن إن سرت يوما أحزنت أياما.

وعاد الوزير نوبار باشا إلى الرأى القائل بأن إعادة العلائق التجارية مع السودان لابد أن يكون من ورائها تفرق العصاة فى البلاد طلبا للرزق وعدم اجتماعهم فى صعيد واحد للتألب على قتال الحكومة فكتب ثانية إلى زعيم سياسة الإنجليز فى ذلك ولبث ينتظر الجواب أياما حتى جاءه بالقبول ففرح الناس بذلك فرحا عظيما واستبشروا بحسن المآب وقالوا أوّل الغيث قطرة ثم ينهمل وقد كانوا لا يتوقعون بلوغ هذه الأمنية بعد امتناع زعيم السياسة الإنجليزية من المكالمة مع الوزير نوبار باشا فى شأنها حينا على ما تقدم بيانه فاهتم الوزير لذلك اهتماما عظيما ورسم بعمل دستور يكون قاعدة لإعادة تلك العلائق فأجتمع الوزراء كافة فى مجلسهم وقرروا سبعة أمور، حاصل ما فيها منع الاتجار فى الأسلحة وسائر أنواع الآلات والأدوات الحربية وضبط ما يوجد منها ومعاقبة المتجرين فيها وجعل حلفا وكروسكو وأسوان ودراو المراكز التى تخرج وتدخل البضائع منها وأخذ العهود على مشايخ العبابدة والكبابيش وغيرهم من قبائل العربان بذلك وبطاعتهم لتفتيش سائر البضائع التى ترد من السودان أو التى ترسل إليه أوّلا فى حلفا فى كروسكو وفى أسوان وفى دراو ثم يعطى لأصحابها تسريح، فجعل التجار من ذلك الحين يتأهبون للعمل وسار جماعة منهم إلى حلفا وأسوان ونزلوا بهما فعمرت أسوان وكثرت فيها الحوانيت والمخازن

والأشوان للبضائع وأصناف المتاجر وراجت التجارة فى القاهرة بعض الرواج وشاع خبر انحدار بعض القوافل من دنقلة بالصمغ والريش وسن الفيل وأشياء أخر من محاصيل أرض السود وشوهد كذلك عير لأهل كردفان بأصناف المتاجر وجاءت الأخبار بخلود العربان والدراويش المرابطين على الحدود إلى السكينة عندما وصلت إليهم الأخبار بعود العلائق التجارية بين مصر والسودان.

(مطلب)

طلب الإنجليز تخفيض عدد العساكر المصرية

ولم تكن أيام بعد ذلك حتى تقدم الجنرال جرانفل باشا سردار العساكر المصرية إلى الخديوى فى طلب تخفيض عدد العساكر المصرية وحل بعض ألويتها لعدم الحاجة إليها يومئذ وأن الجيوش الإنجليزية تحل محلها فى سائر مضاربها وكان زعيم السياسة الإنجليزية قد رأى فى إعادة العلائق التجارية مع السودان وفى بقاء العساكر المصرية على قدم الاستعداد فى عددها وعددها شيئا يخافه فى مستقبل الأيام فأوعز إلى السردار أن اطلب تخفيض عددهم فوافقه الخديوى على ذلك وكلم الوزير نوبار باشا فى الأمر فاهتم له الوزير وجمع إليه سائر الوزراء وعقد مجلسهم وجلس الخديوى بينهم فقال السردار مقالته وبالغ فى الطلب فرد عليه عبدالقادر باشا وهو يومئذ المتولى نظارة الداخلية وأخذ يشرح الأسباب الداعية إلى بقاء الجيوش المصرية على ما هى عليه من العدد والعدد وما تحتاجه البلاد فى هذه الظروف من حفظ كرامتها فى أعين الأعداء وإعظام قوتها الدفاعية رهبة لهم فعارضه فى ذلك السردار وبالغ فى الممانعة وكان الخديوى لا يشاء أن يبرم أمرا على غير الذى يرمى إليه زعيم السياسة الإنجليزية تسكينا للخواطر وتطمينا للقلوب، قيل فعضد السردار فى رأيه وعاب على عبدالقادر باشا قوله وسفهه فامتعض عبدالقادر باشا وبالغ فى التعبير وسفه رأى السردار ورفع صوته بحضرة الخديوى فقاطع عليه الوزير نوبار باشا وقال له: أنت بحضرة مولاك فاخفض من صوتك، قيل فتأفف الخديوى من ذلك وكان الخديوى يعرف من الشوائن والتهم الموسوم بها عبدالقادر باشا شيئا كثيرا وكان إلى ذلك الحين يغض الطرف عنها منعا للقلاقل وتحاشيا من سوء العاقبة وكان جماعة الإنجليز يودون لو أن الخديوى يأذن بتحقيق تلك التهم وقد جمعوا من الدلائل على صحتها وعلى سوء تصرف عبدالقادر باشا مع بعض أصحاب الأطيان بحوش عيسى

والنوبارية بمديرية البحيرة واستعماله لسلطة وظيفته وتطاول يده إلى أموال الناس شيئا كثيرا فلما رأى منه هذه الجرأة والمكابرة ومعاندة السياسة الإنجليزية فى مجلسه كبر عليه الأمر وأعظمه لاسيما وقد رأى من جماعة الإنجليز فى ذلك اليوم تحفزا للوثبة وكشف ما خفى من عورات الهيئة الحاكمة فرسم حينئذ بتحقيق كل ما هو مسند فعله إلى عبدالقادر باشا وقيد بذلك جماعة من كبار الموظفين فأصبح عبدالقادر باشا وهو يتوقع العزل فى كل لحظة من الزمان وعلم خصومه بالخبر فوردت شكاياتهم تترى على ديوان الخديوى وتم لصاحب السياسة الإنجليزية ما أراده من تخفيض عدد العساكر المصرية فى أيام قلائل، حدثنى صاحب لى قال: كان مما أوجب بغض جماعة الإنجليز لعبد القادر باشا وأكبر سعيهم وراء خلعه من منصبه أنهم رأوا أنه فضلا عن استعماله لسلطة وظيفته فى أخذ حقوق بعض الناس وتطاول يده إلى أملاكهم على غير مسوغ شرعى وتطلعه إلى ما فى أيدى الغير فقد كان يكيد للإنجليز كيدا عظيما ويدس لهم الدسائس فى السر والجهر واتفق أن خلت قلعة الوجه الواقعة على التخوم بين الأراضى المصرية والأقطار الحجازية من المرابطين وباتت خاوية على عروشها منذ انحلال الجيوش المصرية بعد الثورة العرابية فهمّ مقدم الجيوش الإنجليزية بإرسال نفر من عسكره ليحتلوها ويرفعوا الراية الإنجليزية على ما يجاورها من البقاع فأحس الباب العالى بذلك فسير فى الحال جماعة من كبار العسكر الشاهانى وطائفة من الجند إلى تلك القلعة فاحتلوها وبسطوا يدهم على ما يجاورها من السهول والبقاع وجاء الخبر بذلك إلى عبدالقادر باشا بصفته ناظرا للداخلية فأهتم له كثيرا واستحسنه وبالغ فى استحسانه واجتمع بالمشير مختار باشا مندوب الباب العالى بمصر وتناجيا فى ذلك طويلا فلما علم زعيم السياسة الإنجليزية بما جرى وتحقق أن لا قبل له على إخراج العساكر السلطانية من تلك القلعة إلا إذا دفع برجال الحل والعقد فى الحكومة المصرية إلى معمعان المقارعة مع الباب العالي أوعز إلى السير بارنج بأن يكلم الوزير نوبار باشا فى ذلك ففعل وأكثر من الاجتماع بالوزراء فكان يرى من عبدالقادر باشا جفاء وغلظة فى القول فشكاه إلى الخديوى وكان الخديوى يكره فعال عبدالقادر باشا وينقم عليه كثيرا فرسم بتشكيل هيئة من بعض كبار موظفى الحكومة لتنظر فيما هو مسند إليه من سلب أموال بعض الناس والاستطالة على حقوق الضعفاء من الرعية فسارت تلك الهيئة فى عملها سيرا حثيثا وحققت من تلك الشوائن شيئا فلم تكن إلا أيام حتى ظهر خبر تنزيل عبد القادر باشا من منصبه

وعلمَ الناس بخبر مبارحته القاهرة على عجل فتحققوا أنه مكره لابطل فولى الخديوى مكانه مصطفى فهمى باشا وولى محمد زكى باشا مكان مصطفى باشا نظارة الخزينة ا. هـ.

(مطلب)

وكاد السلطان ينجح في استمالة الروس والفرنسيس إلى معاونته

وكاد السلطان فى هذه الفترة ينجح فى استمالة كبار سياسة الروس والفرنسيس إلى معاونته على طلب تخفيض عدد العساكر الإنجليزية المحتلة لمصر وهموا جميعا بطلب ذلك فلما أحس زعيم السياسة الإنجليزية بما هم عليه أوعز فى الحال إلى قائد جيوشهم بمصر بأن أظهر الأهبة والاستعداد لجلاء الكتائب فجعل يظهر الحركة بين الجنود وأخذت كتائبهم تغدو وتروح بين الإسكندرية والقاهرة وتحت قلعة الجبل وبولاق الدكرور بأثقالهم وأحمالهم وآلات حربهم ودوابهم وانجلى من كان منهم بقشلاق الحرس الخديوى برحبة عابدين فاحتله نفر من العساكر المصرية ولم تكن إلا أيام حتى كثر الأرجاف بأن جماعة من الدراويش انحدروا إلى حلفا بخيلهم يريدون الزحف على أسوان فالقاهرة وأن الفتنة ظهرت بين أهالى ذلك الصعيد وأن قد جاء الصائح بطلب المدد العاجل فأسرعوا فى إرسال طائفة كبيرة منهم إلى الحدود قالوا لمنع العدوّ وأنزلوهم بالمواقع والمعاقل التى قد كانوا أخلوها وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق فسكت حينئذ أصحاب المابين وانكف السلطان عن استنهاض الدول ولبث كعادته يراقب الفرص فعلم الناس أنها خدعة وحيلة وظن السواد الأعظم بالوزير نوبار باشا السوء ورموه بالخيانة وعاد أصحاب الصحف الحازبة إلى صيحتهم الأولى وهى طلب تنزيل الوزير نوبار باشا من منصبه وإرجاع الوزير محمد شريف باشا إلى منصة الرئاسة وبدأت تظهر طلائع التحزب بين الناس وشوهد بعض الأوراق التحريضية ملصقة على جدران بعض محال الحكومة فتناقل خبرها مراسلو الصحف الأجنبية وأكبروها جدا فلم تكن إلا أيام بعد ذلك حتى مرض الوزير محمد شريف باشا واشتدت علته فجمعوا له الأطباء فأشاروا بسرعة مغادرته للقاهرة والترفع فى النيل إلى الصعيد الأعلى فاندهش الناس من هذا الحادث الغريب وترامت ظنونهم إلى المرمى البعيد فمن قائل إنه مريض بذات الجنب ومن قائل إنه مريض باهة فى

الكبد ومن قائل بأنه قد سم فى التبغ بيد أجنبية ومن قائل غير ذلك وسار الوزير على ظهر باخرة من الركائب الخديوية إلى الصعيد الأعلى فلبث أياما ثم انحدروا به على غير جدوى إذ اشتدت علته وكبر سقمه فأشار الأطباء بقيامه إلى الديار الأورباوية فسار فى نفر من الاتباع إلى تريستا وأقام بها والناس كافة يسألون الله له السلامة والعودة إلى منصب الرئاسة فلم تكن إلا أيام حتى جاء الخبر بموته فحزن الناس جميعا وبكوه ورسم الخديوى إلى الوزير نوبار باشا بتعطيل سائر دواوين الحكومة حدادا عليه وإلى كبير التشريفات الخديوية بالشخوص إلى تريستا على باخرة مخصوصة ليأتى بالجثة إلى مصر التى كان يحبها وكانت تحبه وتحنّ إليه وجلسوا فى داره للعزاء أياما حتى وصلت جثته على ظهر سفينة قد استأجرها ولده قبل أن تصل إليه سفينة مصر فما ألقت السفينة مرساها حتى هرع الناس من كل رتبة ودرجة إلى المسير أمام نعشه فسار أوّلا جمهور المشايخ والعلماء ثم صفوف جند البر والبحر ورجال الحرس الخديوى تتقدمهم موسيقى باخرة المحروسة ثم وجهاء البلد وأعيانها على اختلاف أجناسهم ثم تلامذة المدارس ومازالوا سائرين بالنعش والناس على جانبى الطريق يبكونه حتى وصلوا به إلى محطة الباب الجديد فأنزلوه فى قطار مخصوص وسار القطار إلى القاهرة فلما وصلها حمل النعش جماعة من العساكر المصرية وساروا بالجنازة على شكل مهيب وترتيب عجيب أسكب عبرات الناس وأبكاهم حتى واروه التراب، وكان شريف باشا رحمه الله معروفا بالإخلاص والترفع عن الدنايا مشهورا بالحزم والحكمة والدراية وسعة الباع فى المعارف السياسية والعلاقات الدولية وغير ذلك من علوم العصر - تلقى علومه فى مدارس الفرنسيس العليا وقضى فى خدمة البلاد وأهلها زمنا غير قليل فى الجندية على عهد الحاج محمد على باشا الكبير ثم على عهد إبراهيم باشا وعباس باشا الأول وسعيد باشا ثم فى ولاية إسماعيل باشا وتقلد فى كل هذه الأزمنة وظائف خطيرة أدار مهامّها بالحزم والجد والغيرة مات وله من العمر ثمان وستون سنة وقيل سبعون وهو القائل إن تركنا السودان فلا تتركنا فذهب مثلا عند المصريين رحمه الله برحمته الواسعة .

وكان مما زاد الناس كرها للهيئة الحاكمة توالى الحوادث وظهور الكوارث واشتداد الإنجليز على أهل البلد وإذلالهم لأقل سبب وأصغر حادث فقد وقع فى هذه الأيام أن اثنين من كبار عسكر الإنجليز خرجا يوما للصيد فى أرباض أهرام الجيزة فاتفق أن أحدهما أطلق بارودته يريد صيداً فأصابت نارها وجه صبى لأحد الفلاحين كان

يرعى جاموسته فانذعر الصبى وذهب مولولا مستصرخا أباه فلحق به الضارب وأخذ يلاطفه ويخفف عنه وأعطاه شيئا من الدراهم ولم ينصرف عنه حتى جاء أبوه وقبض على الإنجليزى وأوسعه سبا ولكما فصاح الإنجليزى على رفيقه فأتاه مسرعا وصوب بارودته نحو الرجل فاستصرخ الرجل أهل قريته وأكثر من النداء عليهم فأطلق أحد الإنجليزيين بارودته على الرجل فسقط ميتا وجاء أهل القرية مسرعين وقبضوا على الإنجليزيين وأخذوا ما كان معهما من سلاح وذخيرة وساقوهما إلى قرية وزجوهما فى دار هناك وحملوا القتيل إلى القرية بين الصياح والجلبة وعويل النساء ثم ساروا بالإنجليزيين إلى ديوان مديرية الجيزة وسلموهما إلى ولاة الأمر فلما اتصل خبر ما جرى بقنصل جنرال الإنجليز وقائد جيوشهم قاما وقعدا واشتد القنصل على الوزير نوبار باشا فى طلب معاقبة أهل تلك القرية جميعا لقبضهم على القاتل والجارح من الإنجليز ولم يكن إلا يوم أو بعض يوم حتى سار إلى تلك القرية طائفة من فرسان الإنجليز وأحاطوا بها من كل صوب ودرب وأخرجوا جميع من بها من الرجال وساقوهم كالأنعام إلى خيمة قد ضربوها على مقربة من الأهرام وبها جماعة من الإنجليز فأخذوا يستنطقونهم ويسألونهم ثم عاقوهم أياما ثم حكموا عليهم جميعا بالجلد بالسياط فضربوهم ضربا مبرحا وسجنوا بعضهم وقد جمعوا ما فى القرية من سلاح وهراوى وانصرفوا وقد راح دم ذلك المقتول هدرا تم هذا كله والهيئة الحاكمة لا تبدى حراكا ولا تظهر عراكا سوى أنها وافقت على زج أهل تلك القرية فى الحبوس حتى تحكم عليهم المحاكم بالعقوبات التى يقتضيها القانون فكان من وراء ذلك أن ظهرت عصابة من شبان أهل القاهرة ومصر القديمة المتخرجين من بعض المدارس وسموا أنفسهم باسم «الوطنيين الأحرار» فالتف حولهم جماعة من المحازبين لمصطفى رياض باشا وجلعوا يجتمعون فى بيت أحدهم فى السر والعلن ويتكلمون فيما وصلت إليه الحكومة من الضعف وزوال الهيبة وفى استسلام الوزير نوبار باشا وجماعة الوزراء إلى السير بارنج وشوهدت بعض الأوراق المفعمة بالتقريع والتنديد على جماعة الوزراء ملقاة فى بعض دور الحكومة ودواوينها وجاء مصطفى رياض باشا من مزرعته فى طود البحيرة وأقام بالقاهرة فتزاحم على بابه أهل الدعارة والمملقون ومن فى قلبه مرض وتحققوا أن الوزير نوبار باشا معزول لا محالة وظهرت يومئذ الحركة فى ديوان الخديوى وترددت رسله على بيت مصطفى رياض باشا لغير سبب ظاهر سوى الإرجاف بعزم الوزير نوبار باشا على التخلى عن منصب الرياسة

وماهو شائع بين الناس من أن كبار الإنجليز أرسلوا إلى الأقاليم القبلية نفرا من اليونان والمالطيين جواسيس يسعون فى استطلاع أفكار أهل البلاد بشأن احتلال الإنجليز لمصر وغير ذلك من الترهات التى ما أنزل الله بها من سلطان، وكان من دهاء السير بارنج وقوة شكيمته أنه كلما آنس من أولئك الزعانف خلودا إلى الحركة أو سمع لهم صوتا فى مجتمعاتهم أو رأى لهم مقالا فى إحدى الصحف المحازبة عمد إلى المساهلة مع الوزير نوبار باشا وخفف من طلباته وهوّن عليه كل صعب من الأمور كأن يقول خففوا عنكم فوالله ما استعملنا صاحبكم « يعنى مصطفى رياض باشا» إلا بعد أن نكون قد دبرنا له المكايد والإحن وقلبنا لكم ظهر المجن ونلنا على يديه ما لا تستطيعون عليه صبرا، حدثنى صاحب لى قال: كان بعض هؤلاء الصبية يراسلون بعض مديرى الأقاليم وأصحاب بعض الوظائف الديوانية بكتب الاستمالة والانعطاف إلى مصطفى رياض باشا وهو لا يأنف من ذلك ولا يراه معيبا بل كان إذا زاره أحد من أعيان البلاد أو مديرى الجهات زلفى أنّ واشتكى وعاب على الهيئة الحاكمة ضعفها وتأفف مما وقعت فيه البلاد من الدمار وكان كثير الوقيعة برجال القضاء يقول إنهم أحداث أغرار لا خبرة لهم بالأمور ولا دربة حتى خيل للناس يومئذ أنه إن عاد إلى منصة الرئاسة أراح جميع الخلق وسلك فى سائر أموره مسالك الحق - قال: وأخذت الحمية من أولئك الصبية مأخذها فنجحت سعايتهم وتحرجت صدور الناس من الوزير نوبار باشا أو كادت فتجرد حينئذ السير بارنج إلى النهج فى منهاج جديد والقبض على زمام سائر الأمور بيد من حديد - قال: وكأنه كان على اتفاق مع الوزير نوبار باشا بأنه إذا شاء إنفاذ أمر من الأمور التى تقتضيها سيطرة الاحتلال الإنجليزى وحفظ هيبته فى أعين أهل البلاد من مثل إحداث الإحداثات المخالفة لعاداتهم أو إبداع البدع الداعية إلى سقوط نفوذ الحكام المصريين أو ترتيب النظامات الجديدة الحاملة على إقصاء أصحاب الوظائف من أبناء البلاد عن أبواب الارتزاق جعل إنفاذ ذلك كله على يدى من كان معتمد أولئك القوم عليه وأرغمه على العمل به - قال: فقد مضى على رئاسة الوزير نوبار باشا فى هذه المرة حين وكلمة السير بارنج معه فى شئون البلاد لم تتجاوز حد النصيحة والإرشاد ولم تتعد عبارات التشجيع والاستنهاض ماعدا ما يتعلق منها بالسودان شرقا وجنوبا وكان الوزير إذا رأى منه يوما إكراها على عمل شيء أراده صرفه عنه بالتى هى أحسن واستماله إلى التأنى وترك العجلة فينثنى عنه راضيا ولذلك قد تأخر إبرام الشيء

الكثير من مقاصد زعيم سياسة الإنجليز فى الأمور الداخلية وظلت كلمة المديرين والمحافظين وأصحاب الوظائف الأخرى مسموعة وأيديهم مطلقة وسلطتهم مرعية وكان الذين تولوا الوظائف العالية من جماعة الإنجليز إلى هذا الحين يعدّون على الأصابع وقد تمكن الوزير نوبار باشا بحزمه وقوة شكيمته من فك قيود الحكومة من العقود التى كانت مرتبطة بها مع الأجانب النزلاء الذين فى خدمتها ونادى على رؤوس الأشهاد بالكف عنها وعدم العود إليها فهيج هذا العمل أصحاب بعض الصحف الأجنبية فقاموا يستصرخون قناصلهم وظهر التحزب والتألب بين أصحاب الوظائف من كل جنس وطبقة ولبث الحال على ذلك أياما كثر فيها أنصار مصطفى رياض باشا وتقوت عزيمتهم بما كانوا يسمعونه من ضوضاء أصحاب الصحف الأجنبية وتكهنهم بقرب سقوط الوزير نوبار باشا من أعالى منصة الرئاسة، وكأن مصطفى رياض باشا قد استبشر بما سيكون من وراء هذه الحركة فجعل يكثر من التردد على مقر الخديوى ويظهر التودد والعطف إلى رجال ديوانه الخاص ويوالى المآدب إلى كباره ويدنى من مجلسه أصحاب صحف الأخبار ويوحى إليهم بالذى يعمله إذا أفضت إليه الرئاسة.

وأشاع المرجفون فى هذا الحين أن الوزير نوبار باشا أكره الشيخ المهدى شيخ الجامع الأزهر ومفتى الحنفية وجماعة من كبار العلماء وأصحاب المقامات العالية على عمل محضر يطلبون فيه ضم مصر وسائر ملحقاتها إلى أملاك السلطنة الإنجليزية واستخلاصها من سيطرة الدولة العثمانية التى أثقلتها كل هذه السنين والأعوام وتكلم فى ذلك أصحاب صحف الأخبار على اختلافها فصدق ذلك السواد الأعظم من الناس وأرجفوا إرجافا عظيما والأمر على غير ما كانوا يسمعون وذلك أن الشيخ المهدى مالت نفسه فى ذلك الحين إلى الاستبداد بتقليد وظائف القضاء الشرعى إلى صنائعه والأغرار الملتفين حول ولده الشيخ عبدالخالق وقد كان إعطاء هذه الوظائف لذويها من أهل العلم والفضل موكولا إلى لجنة يرأسها بطرس باشا غالى وكيل الحقانية يومئذ والشيخ عضو من أعضائها فمانعه بطرس باشا فى ذلك واشتد فى ممانعته بحكم اللوائح المعمول بها عندهم فامتعض الشيخ وأخذته هزة الأحزاب فاستمال إلى رأيه جماعة من العلماء وأعضاء شورى البلاد فكان لا حديث لهم فى سمرهم إلا خبر وقوف بطرس باشا فى وجه الشيخ والحيلولة بينه وبين هواه واتفق أن رجلا من أهل الجزائر التابعين لدولة الفرنسيس امتلك دارا بأحد شوارع القاهرة

وآخر يمتلك دارا أمام دار ذلك الجزائرلى قد تداعت إلى السقوط فأخذ صاحبها فى لم شعثها وترميم ما تهدم من جدرانها وتنسيق شبابيكها على الطراز الجديد فقام عليه ذلك الجزائرلى ومنعه من العمل وقال له إن منافذ دارك تكشف عورات دارى فعارضه صاحب الدار المتداعية وقال إن بين الدارين طريقا ولا سبيل قط إلى المعارضة وطال بين الاثنين الخصام أياما لم ينكف فيها صاحب الدار عن العمل فشكاه الجزائرلى إلى قاضى قضاة مصر فحكم له القاضى بسد منافذ دار خصمه فهال صاحبها حكم القاضى وأزعجه أىّ إزعاج فرفع ظلامته إلى المحكمة المختلطة لتابعية خصمه لدولة الفرنسيس فأنصفته وحكمت ببقاء منافذ داره كما هى وحكمت علي خصمه بشىء من المال تعويضا عما لحق صاحب الدار من الخسارة بسبب الحكم الشرعى فلما شاع خبر ذلك بين الأحزاب هاجوا وماجوا وأكبر الشيخ المهدى الأمر وأعظمه جدا وقال إنما هو عمل من أعمال بطرس باشا غالى التى يقصد بها إلصاق الخزى بأصحاب الشريعة الحنيفية ونصرة أصحاب شريعة الفرنجة وسعى الشيخ مع جماعة من أعضاء مجلس شورى البلاد والأعيان عند الخديوى ووشوا فى حق الباشا ومازالوا بالخديوى حتى كادوا يستهوونه ويغرّرون به فعلم بطرس باشا بما فعله القوم فدخل على الخديوى وأعلمه بحكاية الجزائرلى وما جرى لصاحب الدار المتداعية وما حكم به قاضى قضاة مصر وحكم المحكمة المختلطة فكبرت عليه فعال الشيخ المهدى وأعظم مقارعة المحازبين له من الأعيان وشورى البلاد وأرسل فى طلب الشيخ وكلمه فى ذلك طويلا ورسم إلى بطرس باشا بعمل ما فيه المصلحة تسكينا لتلك القلاقل فأشار على الشيخ بتكذيب كل قال وقيل فى هذا الصدد فلم ير مناصا من الإذعان وكتب من يومه إلى الجريدة الرسمية وصحف الأخبار المحلية يعلمهم بأنه لم يحصل شيء مما ذاع خبره ألبتة وأن جماعة العلماء براء من كل تهمة أو فرية يفتريها عليهم المفترون وأن لا أصل لما أرجف به المرجفون العاملون على إيقاظ الفتنة فاختلف الناس يومئذ حتى كادوا يفتتنون وداخل الخديوى ما داخله من بغض الشيخ المهدى حتى رسم بخلعه من منصبى الإفتاء ومشيخة الجامع الأزهر فخلع وولى مكانه فى مشيخة الجامع شمس الدين الشيخ محمد الأنبابى وفى منصب الإفتاء الشيخ محمد البناء الاسكندرى واتفق فى هذه الأثناء أن مرض الوزير نوبار باشا واحتجب عن الناس أياما فعاد الإرجاف بخلعه وتنزيله عن منصب الرئاسة .

(مطلب)

وقوع القتال بسواكن مع عثمان دقنه

وبينما كانت الأحزاب فى قيل وقال وأمانى وآمال إذ وردت الأخبار من سواكن بوقوع القتال بين أصحاب عثمان دقنه والقبائل المصافية للحكومة والمرابطين من العسكر المصرى وبأن العدوّ أبلى فى قتال المرابطين بلاء حسنا، وتحرير الخبر أنه لما كثرت مناوشات العدوّ للقبائل المصافية وكثر تعديهم على ضواحى البلد رسم كتشنر باشا العامل يومئذ على سواكن إلى نفر من الجند والمولدين المرتزقة والى أولئك المصافين بقتال العدوّ وإجلائه عن ضواحى البلد فخرجت طائفة من قبيلة الرمادر وجماعة من الباشيبوزق والمرتزقة مع طائفة أخرى من السود الذين نجوا من حامية كسله وغيرها فى منتصف الليل يتقدمهم كتشنر وبعض كبار العسكر من الإنجليز وبعض الفرسان والهجانة المصريين وساروا بجوار الخط الموصل إلى هندوب وما زالوا فى طريقهم حتى إذا كان ما بعد زوال اليوم الثانى وصاروا على مقربة من هندوب بانت لهم طلائع العدوّ فهجم عليهم جماعة الباشيبوزق والعبيد وهزموهم أو كادوا فلم تكن إلا لحظة حتى أحدق العدوّ بكتشنر وجنوده من كل صوب ودرب فثبتت الجنود فى مواقفها واشتدت فى رمى القنابل ورصاص البنادق على العدو وأصلته نارا حامية فقابلهم العدوّ بالمثل وهجمت طائفة من فرسانه على ميمنة الجنود هجمة شديدة كادوا يسحقون فيها الميمنة سحقا وأصابت كتشنر رصاصة فى فكه الأيمن وأصابته كذلك جراحة عظيمة فتفرقت عساكره شذر مذر وتعذر جمعهم للقتال أو الدفاع وكثرت القتلى والجرحى واقتفى العدوّ أثر من بقى من العساكر يصليهم نارا حامية حتى دخلوا البلد وهم فى أسوأ حال واشتدت علة كتشنر وعظمت جراحته فانحدر من سواكن إلى السويس وجاء القاهرة فاهتم السير بارنج لحضوره وزاره الكبراء والعظماء وجعل أصحاب صحف الأخبار ينقلون للناس أخبار صحته وما يطرأ عليه فى كل ساعة من ليلة ونهاره كعظماء الملوك أو أقيال القوم إذا مسهم مرض ومازالوا حتى برأ وعوفى وزال عنه البأس.

وكما كانت أحوال سواكن إلى هذا الحين فى قلق واضطراب بسبب هجمات العدوّ المتتابعة فقد كانت أحوال مصر أكثر قلقا وأكبر اضطرابا لتفشى الأمراض الخبيثة بين الجنود الإيطالية وفعلها فيهم وفى خيلهم ودواب حملهم ووقوف الحبشان

لهم بالمرصاد وتخطفهم كل من بعد ولو قليلا عن البلد حتى سئمت نفوس العساكر وخارت عزائمهم من السهر ليلا على حراسة البلد والطواف حولها نهارا دفعا لذلك العدوّ الرابض كالأسد وكان قائد الجنود الإيطالية يتقرب زلفى من القاضى إبراهيم شيخ قبيلة الأسورتيين ويستميله بالرشا والبراطيل إلى معاونة الإيطاليان وحماية أجنحة الجيش بنفر من قومه فكان هذا الشيخ كثير التقلب إذا قرب يوما ابتعد أياما وإذا أظهر الرضا والحركة يوما فبالشيء الكثير من المال حتى أعيت الحيلة زعيم السياسة الإيطالية وهمّ بإجلاء العساكر عن مواقعهم والتخلى عما بأيديهم إلى ذلك العدوّ الذى أشبعهم ضربًا وطعنا قد طأطأت لشدتهما الرؤوس وكان قائد الجيوش الحبشية يرسل فى كل قليل رسله إلى الحماسيين يستحثهم على اليقظة وعدم ترك السلاح ويستنهضهم إلى إجلاء العدوّ عن أرضهم فكان دعاته يجوبون البلاد شرقا وغربا وأهل البلاد فى حركة متتابعة ونهضة عظيمة وقد زاد الحال شدة على الجنود الإيطالية اشتداد القيظ وكثرة الموات من تفشى الحميات الخبيثة بينهم، وإلى هذا الحين كان قد تم الاتفاق بين صاحب سياسة الإنجليز والدول الكبرى على عزلة بوغاز السويس وجواز سير سائر السفن فيه وكيفية الحكم فى الخلاف الذى يقع بين الدول فى ذلك وفى حق سيادة الباب العالى وملكيته لسائر الأراضى التى يشقها الخليج من أدناها إلى أقصاها فلما اشتدت الأمراض بالعساكر الإيطالية المرابطين بمصوع وفتكت بهم ذلك الفتك الشديد كلم زعيم سياستهم وزير السياسة الإنجليزية فى أن يأذن لهم بالنزول فى قطعة أرض بمدينة السويس وجعلها مصيفا لهم إبان القيظ فرارا من هذا العدوّ الذى قد ضم عداءه إلى عداء الحبشان فكادوا لا يبقون على أحد منهم فأجابه وزير سياسة الإنجليز إلى ما طلب فهب حينئذ أصحاب صحف الفرنسيس من رقادهم وتبعهم أصحاب الصحف المحلية واستصرخوا الدول كافة وحذروهم سوء عاقبة هذا الأمر وأكثروا من الجلبة والضوضاء ولم يشغلهم عن هذه الصيحة إلا ورود الخبر بهجوم عثمان دقنه ولمومه على حصون سواكن مرة ثانية فإنه لما تم له الظفر بالقبائل المصافية للحكومة وقهرهم طمع فى مقاتلة المصريين فكان لا ينكف عن شن الغارة على ضواحى البلد ولا يقف عند حدّ من تخطف القادمين إليها أو الخارجين منها ورمى حصونها بالقنابل رميا متتابعا ليل نهار حتى فرغ صبر المرابطين وأعياهم الدفاع من خلف الأسوار فتقدمت عند ذلك سفينتان من سفن الحرب الإنجليزية وجعلت ترمى قنابل مدافعها على العدوّ كلما اقترب من البلد وظلت على

هذه الحال أياما فلما كان بعض الأيام رأى الكولونيل تاب مقدم عساكر المصرية أن العدوّ قد احتل عند مطلع الفجر مرتفعات القلعة المسماة بقلعة هدسون وهى لا تبعد عن سور البلد إلا بقدر فرسخ وأن قد جاءه المدد من المشاة والركبان من هندوب فخاف تاب العاقبة ونادى فى العسكر بالخروج من وراء الحصون فخرجوا جميعا بمدافعهم وآلات حربهم وخرج كذلك طائفة من الجنود الإنجليزية ومعهم بعض مدافع السفن وساروا جميعا لإجلاء العدوّ عن تلك القلعة فاشتبك القتال بين الفريقين وحمى الوطيس والتقت السنابك بالسنابك فلم تكن إلا ساعة أوبعض ساعة حتى تقهقرت العساكر ورجعوا إلى الوراء على أعقابهم فتبعهم العدوّ وأصلاهم بناره ثم انقض عليهم من كل صوب فقتل الكولونيل تاب وقتل وجرح كثير ممن معه ومازالت نيران العدوّ تتساقط تساقط المطر حتى غابت شمس ذلك اليوم وتمكن من بقى من العساكر من دخول البلد فرجع أصحاب دقنه بما ظفروا به من الغنائم والأسلاب وشاع الخبر بما جرى ووردت تفاصيل الواقعة إلى الخديوى والوزير نوبار باشا فانزعجا وكان كتشنر باشا قد عوفى فكر راجعا إلى سواكن قيل وأوصاه الخديوى بعدم خروج العساكر من وراء الحصون كى لا يحركوا ساكنا من العدوّ وجاءت كتب زعيم سياسة الإنجليز بالتخلى عن سواكن أيضا وتركها إلى العدوّ فكبر أمر ذلك على الخديوى وأقلقه جداً ووردت أيضا كتب كتشنر إلى الوزير نوبار باشا بأن جماعة من المهاجرين الذين قدموا إلى سواكن أخبروا بأن عثمان دقنه أرسل إلى الخليفة عبدالله التعايشى فى طلب النجدة على قتال المرابطين فى سواكن فإذا جاءته النجدة هاجم البلد بخيله ورجله ولم يتخل عنها حتى يفتحها عنوة ويقتل جميع من بها بحد السيف وكبر خوف كتشنر يومئذ واهتم كثيرا باستطلاع أخبار العدوّ ومراقبة حركاته ورسم إلى جميع العساكر بملازمة الحصون والسهر على حراستها وأرسل دعاته إلى مشايخ قبيلة الرمادر يستفزهم إلى الوقوف فى طريق عثمان دقنه ومنعه من التقدم إلى البلد قيل فأجابوه إلى ذلك وسيروا رسلهم إلى دقنه يقولون له لا تبارح هندوب وإلا قاتلناك أشد القتال ومزقنا جموعك فلم يلتفت دقنه إلى قولهم ولم يهمه أمرهم وقال للرسل: السيف يحكم بيننا فارحلوا عنا فعادوا كما ذهبوا، واتفق أن جماعة من عساكر السفن الإنكليزية الراسية أمام البلد نزلوا إلى البر لحاجة وابتعدوا عن البلد قليلا فخرج عليهم نفر من أصحاب دقنه وأعملوا فيهم الطعن بالحراب والضرب بالسيوف فرأى المرابطون بالقلعة ما حل بالإنجليز فأطلقوا على

العدو مدافعهم فلم تكن إلا ساعة أوبعض ساعة حتى اجتمع العصاة واحتشدوا ألوفا وهاجموا القلعة هجوم الأسود الضوارى حتى كادوا يأخذونها عنوة لولا اشتداد نيرانها عليهم وتراسل قنابل مدافعها ولم يرجعوا عنها إلا بعد قتال عنيف للغاية، وخاف من فى البلد فكادوا يتركونها وينزلون إلى السفن ولم تطمئن قلوبهم إلا بعد رجوع العدوّ عن القلعة وكف المرابطين عن إطلاق المدافع وأصبحوا وقد رأى كتشنر أنه لا يمكن الذب عن البلد وردّ العدوّ عنها إلا إذا أنشئوا قلعة أخرى فأنشئوها وأتموها على أحسن ما يكون وسلحوها بالمدافع الكبيرة وعبوها بالأسلحة وآلات الحرب والمؤن الكثيرة وأقام بها المرابطون فكانوا يدفعون العدوّ عن البلد كل قليل من الأيام وهو لا ينكف عنهم فلما أعياه الحال وعجز عن مناجزة من فى هذه القلعة عاد على أعقابه إلى هندوب فكبر أمر رجوعهم على عثمان دقنه وأعظمه وأرسل الكتب إلى الخليفة عبدالله التعايشى فى طلب المدد ويبشره بقرب الفتح والخليفة يمنيه ويرد عليه الرد الجميل ولم يمده بشىء.

وصل

(فى ارتياب وانقلاب)

قد كانت الرئاسة على طول أيامها لم تصف إلى الوزير نوبار باشا من أكدار الوشاية وأوضار السعاية إذ كان له مع الخديوى من أمرها فى كل يوم شأن ومع السير بارنج فى كل لحظة أخذ ورد بشأن أعمال بعض المأمورين وأصحاب الوظائف وفى نظام بعض الدواوين وفى غير ذلك مما يتعلق بشئون البلاد الداخلية وقد كبرت فى هذه الأيام شدته وعظم إلحاحه فى طلب تنفيذ الكثير من الإحداثات المخالفة للمألوف عند أهل البلاد وإبداع البدع التى لا يقوى الوزير على عملها خوفا من صيحة الأحزاب وتألبهم عليه فكان إذا دافعه وحاجه وكادت حجته تغلب حجته تأفف وقلب للوزير ظهر المجن حتى يكاد يخلط عليه الحال ويفسد عليه كل عمل وتدبير وإذا سايره وعمل بعض الذى يريده كارها قامت صيحة الأحزاب وأخذت الوزير من كل جانب واشتدت جلبة أعدائه وأكثروا من الاجتماع تارة فى بيت مصطفى رياض باشا وأخرى فى مقر الغازى مختار باشا فإذا علت أصواتهم وسمع الناس صيحاتهم ورأوا كثرة اجتماعهم أقبل السير بارنج على الخديوى وتبرأ من تبعة كل عمل وشجعه على الأخذ بأطراف الحزامة وحبب إليه الاستبداد بشئون مملكته

فداخل الخديوى من هذا الحين ما داخله وصار لا يأذن بانعقاد مجلس الوزراء إلا تحت رئاسته ولا يبرم فى شئون البلاد أمر إلا برأيه ولا يعمل عمل إلا بمشورته حتى كاد يستبد بالأمر ولا يترك لأحد من رجال دولته عملا وتعذر على الوزير حينئذ أن يوفى الرئاسة حقها أو أن يأتى عملا إلا ويكون من ورائه اللدد والكمد فكثر توجعه وعظمت شكواه إلى بعض قناصل الدول وضعفت عزيمته عن العمل وضاعت تدابيره فخاب منه الرجاء والأمل وظهرت علامات الوحشة بينه وبين الخديوى وكادت تستفحل فأرسل الوزير تكران باشا وكيل نظارة الخارجية يومئذ إلى زعيم سياسة الإنجليز يشكو إليه علة الوزير وما يلاقيه من أفاعيل السير بارنج وما نجم عن ذلك من الاضطرابات الداخلية التى لابد وأن تودى بنظام الحكومة وترجع بالأحوال إلى أسوأ مما كانت عليه ولبث تكران باشا فى عاصمة الإنجليز أياما ثم قفل راجعا إلى القاهرة وشاع الخبر بعد رجوعه بوصول كتب صاحب السياسة الإنجليزية إلى السير بارنج بالإقلاع عن كل عداء وعدم مساس كرامة الوزير بشىء ولا مراجعته فى شىء من أعمال منصبه فلم يكن هذا الخبر ليرضى الأحزاب ولا ليوقف الأرجاف عند حد بل زاد النفور وربك الأمور ومال بالخديوى إلى التفرد بالعمل والبحث فى الصغيرة والكبيرة من أمور الحكومة وقد أحس مصطفى رياض باشا بما وراء ذلك فعاد يومئذ إلى عمل المآدب للكبراء والأمراء وأصحاب الوظائف وبالغ فى التودد إلى الناس والإقلاع عن التحجب فكثر تردد المديرين وأعيان البلاد على بيته تزلفا فلما كان شهر رمضان من السنة أى سنة خمس وثلثمائة وألف هجرية جاء من مزرعته بمحلة روح إلى القاهرة وأكثر من عمل تلك المآدب فقويت حينئذ ظهور المحازبين له وظهرت جلبتهم وكثرت اجتماعاتهم وفى تاسع عشرى الشهر أرسل الخديوى إلى الوزير نوبار باشا كتابا يقول فيه:

إنه بناء على ما وقع فى جلسة المجلس بالأمس وماهو إلا تكرار ما حدث أكثر من مرة من التباين فى الآراء مما رأيت معه استحالة بقائك فى منصبك فلهذا قد أقلتك منه وعهدت رئاسته وتشكيل هيئة جديدة إلى صاحب الدولة رياض باشا أ. هـ.

ثم أرسل إلى مصطفى رياض باشا يستقدمه إلى الإسكندرية وقد كان الخديوى يومئذ هناك فجاءها فى ظهر الثلاثين من رمضان واجتمع بالخديوى ولبث بحضرته ساعة ثم نزل وطاف يزور بيوت الكبراء والأمراء وقناصل الدول وغيرهم من

الأجانب أصحاب الحيثيات فزاره الجم الغفير منهم وازدحم على بابه الشعراء والمهنئون وأصبحوا وقد خرج الناس من الأمراء والكبراء وأصحاب الوظائف لتأدية واجبات التهنئة بالعيد وصعدوا إلى مقر الخديوى برأس التين فهنئوه، وسمعت بعضهم يقول للخديوى ونحن بقاعة التشريف ساعة التبريك عيد مزدوج يا أفندينا يريد بذلك عيد الفطر وعيد خلع الوزير نوبار باشا وكان ممن سمع معى هذا القول جماعة ممن لا يفضلون فريقا على الآخر فنظر اليّ أحدهم بعد أن خرجنا من حضرة الأمير وقال أو تظن أن الخديوى أقال الوزير نوبار باشا للأسباب التى تضمنها مرسومه؟ قلت لا أظن غير ذلك ـ فقال: اعلم أنه لما كبرت الوحشة بين الوزير نوبار باشا والسير بارنج وعظم الخلاف وضاعت تدابير السير بارنج أدراج الرياح فلم ينل من الوزير مأربا عمد إلى المواربة فكان إذا اجتمع بالخديوى ورأى منه انقباضا خفف عنه وقال: يا مولاى إن البلاد إسلامية وقد بلغت فيها المعارف الحديثة مبلغها فليس من حسن السياسة أن يكون وزيرها نصرانيا ولا من الحزامة أن تترك البلاد هدفا لغايات الأحزاب الذين قد ظهر صوتهم وارتفع نداؤهم، وكان إذا طرأ شىء من الخلاف بين الخديوى والوزير على أمر من الأمور دخل على الخديوى وأظهر التأفف وبالغ فى الإشفاق ـ كل ذلك ليتمكن من خلع الوزير من منصب الرئاسة لكرامة الوزير عند صاحب سياسة الإنجليز وتقديره له حق قدره ـ قال: ومازل بالخديوى وهو يهوّن عليه خلع الوزير حتى ظن الخديوى أن السلامة فيما يشير به السير بارنج وأن الخلاص هين وميسور فلما آنس منه ذلك أشار عليه بتولية الرئاسة للوزير مصطفى رياض باشا وهو يرمى بذلك إلى غايتين أولاهما التنكيل بالوزير نوبار باشا وثانيتهما بلوغ ما يتمناه لدولته من المآرب على يدى مصطفى رياض باشا لشهرته بالوطنية وإعجاب السواد الأعظم بكياسته وحسن تدبيره حتى إذا ارتفعت أصوات الأحزاب يومئذ وعلت ضوضاء أصحاب صحف الأخبار وقالوا فعل الإنجليز بالبلاد كذا وتركوا كذا وكذا أجابهم السير بارنج خففوا عنكم فما هى إلا فعال زعيمكم ومقدام وطنكم فلا لوم على الإنجليز ولا تثريب فتأمل - فقلت ياهداك الله هذه ظنون وأوهام ولله وحده علم ما فى مستقبل الأيام فقال نعم ولكن الأمر ظاهر للعيان والنتيجة لا يختلف قط فيها اثنان واعلم أن الخديوى ما برح ذاكرا للوزير نوبار باشا حسن طاعته وولاءه لذاته وعرشه وهو يعلم أنه أسلم الوزراء نية وأنقاهم طوية وأحب الناس إلى البيت العلوى وأحفظهم لنعمته ولكن وقع القضاء فلا خلاص ولا مناص ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم تم تشكيل هيئة الوزراء فكان الوزير مصطفى رياض باشا للرئاسة ولنظارتى الداخلية والمالية ومصطفى فهمى باشا للحربية والبحرية وذو الفقار باشا للخارجية ومحمد زكى باشا للأشغال العمومية وحسنين فخرى باشا للحقانية وعلى مبارك باشا للمعارف العمومية، وجعل الوزير مصطفى رياض باشا يغدو ويروح على مقر الخديوى إلى يوم الثلاثاء ثم عاد مع الوزراء إلى القاهرة وطير الخبر بتوليته إلى الآفاق وكتب إلى سائر المديرين والمحافظين بالقيام بواجب وظائفهم وحذرهم من عاقبة التراخى والإهمال ثم لم تمض إلا أيام حتى استقدمهم إلى القاهرة وأشبعهم تأنيبا وتقريعا ثم حضا على الاستقامة والأخذ بأطراف الحزامة والسهر على راحة العباد وتأمين الطرق والمسالك فى أنحاء البلاد وقد شاع يومئذ أنه على عزم خلع سائر وكلاء النظارات كنظارة الخارجية ونظارة الحقانية ونظارة المعارف فقام لذلك بعض أصحاب الصحف الأجنبية والصحف المحلية وقعدوا وأخذوا يرمون بعض أولئك الوكلاء بشىء من التهم ويوجهون إلى بعضهم اللائمة فكان ممن أكثر الكلام فى ذلك صاحب جريدة الغازيت الإنجليزية وهى لسان الإنجليز بمصر فإنه شط فى المقال وأغلظ فى التعبير وكان إذا أمسك عن الكلام يوما أتته كتب الخصوم فى ذلك تترى فيرجع إلى المهاترة وهذر القول حتى ظن الناس أن مناصب القوم باتت على شفا جرف الزوال وأن قول صاحب الغازيت فى ذلك موحى به إليه من المراكز العالية ولكنه لم يمض على هذه الجلبة إلا أيام حتى نهض أصحاب صحف الإنجليز الكبرى يعيبون على صاحب سياستهم ما وقع من خلع الوزير نوبار باشا ويظهرون الميل والعطف إليه وإلى مباديه وأمياله الشريفة ثم جعلوا يعرّضون بدسائس الغازى أحمد مختار باشا مبعوث الباب العالى ويقولون إنه هو علة هذا الانقلاب وداعية ذلك المصاب بإيقاظه الفتنة الراقدة وتشجيعه السير بارنج على ما زين للخديوى عمله وأخذوا من هذا الحين يقلبون للغازى مختار باشا ظهر المجن ويتوعدون الرئيس مصطفى رياض باشا وأصحاب شوراه بسوء العقبى والمصير إن لم يقلعوا عن هذا المنهاج المعيب ويعتدلوا فى سيرهم وتطرق بعضهم إلى القول بأن الرئيس إنما يريد من هذه الضوضاء تولية ولده منصب وكالة الحقانية وزج سائر ذوى قرباه فى مصاف أصحاب الوظائف العالية وقالت بعضهم غير ذلك، وأخذ الرئيس يتصرف فى الأمور فمد يده إلى أعمال سائر الدواوين وبسط عليها نفوذه فتعذر على كبارها توفية وظائفهم حقها واستعصى عليهم رده عن هواه أو مخالفة كلمته فاختلط يومئذ الحابل

بالنابل وفشلوا أى فشل وهو لا ينكف عن ترديد نداء الوعد والوعيد إلى المديرين والمحافظين وسائر أرباب الوظائف بالالتفات إلى تأمين الطرق وقطع شأفة اللصوصية وأصحاب السطوات إذ كثر عبثهم فى هذه الأيام واشتدوا على القرى والبلاد بين قتل ونهب وإفساد فكان كلما اشتد الرئيس على أصحاب الوظائف بسبب ذلك ازداد اللصوص قحة وجرأة على الإفساد وإراقة الدماء وفتكوا بالناس فتكا ذريعا فى مشرق البلاد ومغربها حتى فى القاهرة ومصر القديمة إذ سطوا على بيت حسين فخرى باشا ناظر الحقانية وأخذوا منه شيئا من الحلى والأعلاق النفيسة وكذلك فعلوا ببيت نوبار باشا بعد رحيله إلى الديار الأوروباوية وبيت الطبيب جرانت بك الإنجليزى وأزعجوا أهل القاهرة ومصر وبلغ خوف الناس منهم معظمه فكان إذا خرج الرجل من بيته لحاجة وكل جاره بحراسة بيته حتى يعود والرئيس مع هذا كله كان يقول: عسير علىّ أن أرى فى أيام رئاستى غير ما هو صائر من تأمين الناس على أرواحهم وأموالهم وعيالهم وقطع شأفة أصحاب الشقاوة .

واجتمع به يوما مكاتب جريدة الستاندرد الإنجليزية فحادثه فى أحوال البلاد وما عليه أهلها من القلق والخوف المتزايد بسبب عبث اللصوص فى مشرق البلاد ومغربها وفى التهم الفاضحة الموجهة إلى أصحاب بعض الوظائف الديوانية وأشار على الرئيس بتشكيل لجنة شبيهة باللجان التى يتولاها مجلس الأشغال العمومية فى عاصمة الإنجليز وأن تكون أعمال هذه اللجنة علنية لا تخفى على أحد من الناس فقال له الرئيس: إن مثل هذه اللجان فى بلادكم لا تتناول إلا أبناء جنسكم فقط على حين أنها إذا أنشئت هنا حال دون بلوغها الغاية موانع شديدة إذ تقوم الأحزاب ويندفع كل منهم على الآخر ويرمى غيره بالتهم والوشاية وهناك تكون الطامة الكبرى- إلى أن قال: وحقيقة الأمر أن الأحوال فى السنوات الست الماضية « يعنى بها أيام رئاسة الوزير نوبار باشا» قد بلغت حدا من الخلل والارتباك لم أكن أخالها تبلغ إليه عند ما استلمت زمان الرئاسة فى هذه المرة والذى أراه أنه ليس فى الإمكان الآن فحص جميع الأعمال المخلة التى عملها بعض موظفى الحكومة لا سيما وأنهم فيما يظهر قد أقدموا عليها مدفوعين ممن كانت واجباتهم تقضى عليهم بمعاقبتهم قال: وأؤكد لك أنه لا يكاد يمضى يوم حتى يظهر فيه مظهر جديد مشوّه بالعيوب والخلل مما كان يدفع بى أحيانا إلى القنوط إذ أجد نفسى تجاه أمور ثقيلة تقضى على بالعناء الكثير والذى يدهشنى ويوجب مزيد استغرابى هو عدم تداخل الدولة

الإنجليزية فى ذلك الأمر وإغماضها الطرف عن الأعمال السابقة «يعنى أعمال الوزير نوبار باشا» قال وإنى لا أقصد محو المغايرات القديمة والإغضاء عنها ولكنى سأجهد النفس فى نسيان الماضى لا سيما وأن المستقبل معقودة نواصيه بنزاهة الأعمال الحاضرة أ. هـ.

قلت : ومحصل بعض هذه التهم التى أشار إليها ذلك المكاتب الإنجليزى أنه لما سقطت الخرطوم وانحدرت الجيوش الإنجليزية وتحقق الناس خروج الأقطار السودانية من قبضة الخديوية المصرية تقدم إلى ديوان الخزينة جماعة من اليونان والروم الذين كانوا يتجرون فى السودان يطالبون بمال لهم فى ذمة غردون أيام الحصار ودفعوا إلى الخزينة صكوكا موقعا عليها بخاتم غردون تثبت أن فى ذمته لأصحابها مالا اقترضه للنفقة أيام الحصار وتزاحمت أقدام هؤلاء القوم على أبواب الخزينة وهم فى كل يوم يلحون فى طلب مالهم فاهتمت الخزينة يومئذ بالأمر وأكبره رجالها وشكلوا لفحص تلك الصكوك هيئة ممن أشار بهم جماعة الإنجليز فتقرب أصحابها حينئذ من بلوم باشا وكيل الخزينة وأورنشتاين كاتب سر المستشار المالى قيل ومنوهما ووعدوهما بالوعَود الكثيرة ففصلا فى الأمر وقاسا وألبسا كلا من أصحاب تلك الصكوك ما لاق فهمّت الخزينة بالوفاء وهى فى إمحال وعسر فلم تتمكن فانبث أصحاب الجباية يومئذ يجوبون البلاد شرقا وغربا ويجمعون الأموال والضرائب مع العنف والشدة وطلب أصحاب تلك الصكوك مترادف حتى برح الخفاء وبان فساد تلك الصكوك وتحققوا أن خاتم غردون مزوّر فامتنعت الخزينة من القيام بتعهداتها وخابت مساعى كل من كان فى قلبه مرض بعد قيل وقال ضربنا عنهما صفحا فلما ذاع كلام الرئيس مصطفى رياض باشا مع ذلك المكاتب على ما تقدم وتناقله الناس أخذت الرئيس ألسنة الأحزاب وعابوا عليه خيلاءه وتفاخره وقالوا عسير عليه أن يدرأ عن نفسه وصمة هذا التزلف وعار التقرب من الإنجليز وهو رجل الوطن ووحيده وتطيروا من ذلك وحسبوا للمستقبل أيام رئاسته فى هذه المرة حسابا كبيرا.

وكان قد حدث على عهد الوزير نوبار باشا حادث فى الفيوم ـ وذلك أن أحد أصحاب الحيثيات بها واسمه مصطفى بك واصف قتل فى إحدى ليالى شهر رمضان فى بيت وجيه من البلد اسمه خليل الدهشان فاهتمت الحكومة يومئذ بالأمر ورسم الوزير نوبار باشا إلى جماعة من المأمورين بتحقيق هذا الحادث وإظهار الجانى فلم يفلحوا واختلط عليهم الحال أياما فلما تولى الرئيس مصطفى رياض باشا الرئاسة

وآنس من الناس قلقا واضطرابا لفقدان الأمن وعبث اللصوص فى سائر البلاد عمد إلى إظهار شىء من الشدة فى تحقيق مقتل مصطفى بك هذا ورسم به إلى جماعة اصطفاهم وهم حشمت بك رئيس محكمة المنصورة، وأحمد خيرى بك قاضى تحقيق جنايات محكمة مصر، ومحمد صبرى بيك أحد ضباط قسم الضبط فساروا جميعا إلى مدينة الفيوم وقبضوا على خليل الدهشان صاحب البيت الذى قتل فيه مصطفى بك وعلى جماعة آخرين ممن حصروا الشبهة فيهم وزجوهم فى الحبوس وضيقوا عليهم وشددوا فلم يصلوا إلا إلى معرفة أن الرجل أصيب بطلق نارى وهو يلعب النرد مع خليل الدهشان ثم شاع الخبر بعد ذلك أن خليلا وأخاه خير الله هما القاتلان - قالوا: وتحرير الخبر أن مصطفى بك هذا جاء فى إحدى ليالى شهر رمضان من مزرعته إلى بيت الدهشان ليزوره لمودة وصحبة بينهما فبعد الإفطار وأداء صلاة التراويح جلس مصطفى بيك مع الدهشان على مسطبة فى صحن الدار يتحادثان لحظة لطيفة ثم طلب مصطفى بيك من الدهشان أن يلاعبه النرد «الطاولة» فأجابه إلى ذلك ونادى على أحد أتباعه أن هات لنا الطاولة فأتى بها الخادم فبينما كان خليل يرتب أحجارها نظر مصطفى بيك مسدسا بجانب خليل فقال ما هذا؟ قال هو مسدس من الطراز الجديد قال أرنى إياه ومد يده وأخذه فقلبه وأعجب به كثيرا ثم ناوله إلى الدهشان فجعل الدهشان يقلبه أيضا ويطرى على صانعه فلم يشعر مصطفى بيك إلا وقد خرجت منه رصاصة أصابت كتفه فانزعج وصاح فى وجه الدهشان وقال «أهى خونة يا كلاب فلا كنتم ولا كانت صحبتكم» فجاء فى الحال خير الله أخو خليل وصاح على أخيه ما هذا وما الذى تنتظره بعد الذى جرى عجل بإزهاق روحه - قال وأخذ هو المسدس وأطلقه على مصطفى بيك ثانية فأماته. قالوا وقد شهد شهود الحال بهذا المقال فأتم جماعة المحققين عملهم وانحدر حشمت بك إلى القاهرة وأخبر الرئيس بما جرى قيل فأعجب الرئيس فطنته وذكاؤه واهتم بالأمر ورسم إلى حسين فخرى باشا ناظر الحقانية بتشكيل محكمة مخصوصة للحكم في مقتل مصطفى بيك فرفعوا بذلك طلبا إلى الخديوي فأجابهم إليه وتشكلت تلك المحكمة من خمسة قضاة وهم: عبدالحميد باشا، وأحمد بليغ بيك، وإبراهيم نجيب بيك، ومحمد كمال بيك صهر الرئيس مصطفى رياض باشا، وسليمان رؤوف بيك، وأحمد حشمت بيك، لأداء وظيفة المدعى العمومى وتقرر بأن تتبع هذه المحكمة فى أحكامها نصوص القانون الجديد المعمول به فى المحاكم الأهلية بالأقاليم البحرية

لأنه إلى ذلك اليوم لم تكن تأسست المحاكم بالأقاليم القبلية وبأن يكون حكمها فى ذلك نهائيا لا يقبل طعن على أى وجه كان فلما كان صباح الاثنين خامس عشرى المحرم افتتاح سنة ست وثلثمائة وألف هجرية انعقدت هيئة تلك المحكمة وأوقفوا أمامها خليلا وأخاه خير الله ووقف معهما أحمد أفندى الحسينى وخليل أفندى إبراهيم المحاميان عنهما وبعد دفاع يومين كاملين حكمت المحكمة بإعدام خليل وأخيه شنقا، وصادق قاضى قضاة مصر والخديوى على ذلك وأعطى للمحكوم عليهما مهلة ثمانية أيام من يوم صدور الحكم لكى يدبر أمر عيالهما وعلاقاتهما ثم نفذ الحكم على خليل بمدينة الفيوم وعلى خير الله أخيه باهربيت إحدى قرى الفيوم فلما وضعوا حبل المشنقة فى عنق خليل وأزاحوا الكرسى الذى كان تحت أقدامه انقطع الحبل وسقط خليل مغمى عليه فأجلسوه على كرسى وذهب الجلاد يشترى حبلا آخر من سوق البلد ففتح خليل عينيه وقال ائتونى بقليل من الماء فأتوه بركوة فشرب قليلا والتفت إلى الجمع وقال: أشهدكم بأنى مظلوم مظلوم ويعلم الله - القصاص قريب - ثم أغمض عينيه وسكت فضج الناس وتوجعوا وظهرت حركتهم وعاد الجلاد بالحبل ووضعه فى عنق خليل وشده فبقى معلقا وفاضت روحه فى الحال وشاع خبر هذا الحادث فانقبضت صدور الناس لسماعه وعاب كثير من القضاة على تلك المحكمة حكمها ورموا بعض رجالها بالمروق عن جادة الحق وكثر تحدث الناس فى ذلك ولا سيما بعد أن خلع الرئيس بعض أصحاب الوظائف العالية وحاكم البعض الآخر ممن كان لهم يد فى التحقيق الأول. حدثنى وجيه من وجهاء الفيوم قال: أيظن الناس أن خليل الدهشان وأخاه خير الله هما قاتلا مصطفى بك واصف - قلت: لم يبق على ما أظن من ريب عند أحد فى ذلك بعد أن حكمت به تلك المحكمة العليا فأطرق ثم رفع رأسه وقال عرفت مصطفى بك منذ حين وأعرف ولدى الدهشان من قبل فأحدهما وهو خليل صعب المراس قوىّ الشكيمة جبار عنيد ولكنه جواد كريم حسن المعشر بعيد عن الجور وكان بينه وبين مصطفى بك صحبة ومودة عظيمة لا لغرض سوى محض الإخلاص وكان أعرابى اسمه منصور مستأجرا لشىء من أطيان خليل الدهشان بإحدى قرى الفيوم وله زوجة جميلة قد علق خليل بحبها وعلقت هى كذلك به فكان خليل يزورها فى خدرها كل قليل من الأيام وتزوره فى بيته بالبلد وكانت مع شدة مراقبة حليلها وغيرته لا تخشاه ولا تنكف عن الإتيان إلى خليل وشاع خبر ذلك بين الناس وعرفه كبار البلاد وصغارها حتى ندّد بعضهم يوما بزوج المرأة وناداه بعضهم بفحش القول فصمم الرجل على الانتقام من

خليل وجعل يراقب الفرص وخليل يعلم ويحذر ويدفع بالرجل إلى المهالك رجاء الخلاص منه واتفق أن حضر مصطفى بك فى إحدى ليالى شهر رمضان لزيارة خليل فى داره باهربيت والإفطار عنده فى تلك الليلة ففرح خليل بحضوره وبعد الإفطار جلسا على مسطبة بصحن الدار يتحدثان ساعة ثم قال مصطفى بك لخليل أو ليس عندك طاولة للعب فقال عندى قال: هاتها لنلعب معا قتلا للوقت فنادى خليل على أحد أتباعه أن ائتنا بالطاولة من بيت النساء فدخل الخادم وأبطأ كثيرا فقال مصطفى بك أين الطاولة ياقوم ما هذا الإبطاء فخجل خليل من إبطاء الخادم وأسرع إلى بيت النساء فلاقاه الخادم عند الباب وقال له: سيدى فلان «يريد به ابن أخى خليل المتوفى» منعنى من أخذ الطاولة ويقول إن أخته ماتت منذ خمسة أيام فكيف يليق لعب الطاولة وقد لطمنى على وجهى فلما سمع خليل ما قاله الخادم غضب وأسرع بالدخول وكان ابن أخيه قد رآه على هذه الحال فأسرع إلى الطاولة وأخذ حجرا من أحجارها ليمنع من الاستفادة منها فمال عليه خليل وأشبعه ضربا ولكما وأخذ الطاولة وخرج مسرعا وجعل يعتذر إلى مصطفى بك ومصطفى بك يضحك فجلس خليل وفتح الطاولة يريد رص أحجارها فوجد حجرا فاقدًا فنادى على الخادم أن أحضر لنا قرشا نحاسًا نضعه بدل الضائع من الحجارة فذهب الخادم، وعلم منصور العربى فى تلك الساعة بخبر جلوس خليل وضيفه فى صحن الدار فأتى مسرعا يتأبط بارودته ووقف خلف سور صحن الدار والسور لا يتجاوز ثلاثة أذرع ارتفاعا وصوب بارودته نحو رأس خليل وكان فى هاته اللحظة قد رجع الخادم وناول سيده القرش فأخذه وانحنى قليلا وجعل يرص الحجارة ثم رفع رأسه قليلا ثم طاطأها فأطلق الأعرابى بارودته فخرجت رصاصتها عند انحناء خليل واحتكت برأسه من خلف إلى الإمام وأصابت كتف مصطفى بك ثم استقرت بقلبه ففاضت روحه لساعته واختفى الأعرابى فلم يعلم به أحد فقامت ضجة فى بيت خليل وامتلأ صحن الدار بالعدد العديد من أهل البلد وطيروا الخبر بما حصل إلى المدير وإلى أهل الفقيد فوردت يومئذ كتب الوزير نوبار باشا مشددة بالقبض على القاتل وجاء بعض مأمورى الحكومة لتحقيق الحادث وبثوا العيون فدلت التحقيقات على أن الطلق النارى كان على بعد بضعة أمتار وأن مقذوف البارودة شظية من الرصاص لا رصاصة من رصاص المسدسات واستخرج تلك الشظية جماعة من الأطباء فلم يبق موضع للريب عند أحد فى أن القاتل هو غير الدهشان. قال: ولكن أين هو القاتل يا ترى لم يحصل العثور عليه إلى ذلك الحين، واتفق أن عزل الوزير نوبار باشا من

منصبه فتولى الرئاسة مصطفى رياض باشا فاهتم بهذا الحادث اهتماما عظيما لسعاية بعض الخصوم وتقرب أصهار مصطفى بك من مجلس الرئيس فوردت كتبه على مدير الفيوم بالتشديد فى طلب القاتل والتحذير من عاقبة التوانى ثم لم تكن إلا أيام حتى أرسل أحمد حشمت بك أحد رؤساء المحاكم الأهلية ومعه جماعة من المأمورين فما لبثوا أن قبضوا على خليل وأخيه خير الله وزجوهما فى الحبس مع نفر من أهل البلد وعملوا ما لا خير فيه إذ نبشوا جثة المقتول وأخرجوها من قبرها وكبسوا بعض الدور وفتشوها ونقلوا شيئا مما وجدوه بها ومنعوا المسجونين من الراحة فى الليل والنهار واشتدوا عليهم فى الأخذ والرد شدة بالغة وقالوا إن الجراحة التى شوهدت فى رأس خليل ليست إلا كيا بمسمار محمى فى النار يراد به درء فعل القتل عنه. قال: وقد كان السواد الأعظم من أهل الفيوم يعلم بأن الحقيقة غابت عن أولئك المأمورين أو هم أخفوها لغرض فى النفس فأخذتهم الطيرة وكانوا إذا تكلم بعضهم مع بعض فى شيء من ذلك تكلموا همسا خوفا من العيون وكثر غدو ورواح حشمت بيك إلى القاهرة فكان كلما ذهب وعاد قلب الأعمال بطنا إلى ظهر وبالغ فى الحيطة والتشديد على المسجونين ثم جاء جماعة من القضاة للحكم على خليل وأخيه فى محكمة مخصوصة أو هى محكمة عليا كما سموها وجلسوا لذلك يوما وبعض يوم قام فيهما حشمت بك مدعيا فبالغ فى القول وشط فى الطلب وعاب على بعض مأمورى التحقيق عملهم وارتاب فى ذممهم ولم يترك جارحة إلا وطعن بها جسم خليل وأخيه خير الله ثم أخذ بعد كلام طويل ينادى القصاص القصاص احكموا لنا بتعليق هذين السفاكين على خشبة احكموا احكموا على قاتلى ذلك البرئ احكموا فكان السامعون يدمدمون فيما بينهم ثم قام المدافعون عن خليل وأخيه وتكلموا واحتجوا بأقوى الحجج وبرهنوا بأعظم ما يكون من البراهين على براءة خليل وأخيه واستلفتوا أصحاب الحكم إلى صوت الحق الصارخ أمامهم حتى بكى بعض الحاضرين وبعد أخذ وردّ تقدم خليل وكانوا قد فكوا قيوده وأغلاله وقال بصوت استلفت إليه الأنظار: يا سادتى اتهمنى وأخى خير الله حضرة هذا المدعى الذى لم يراع الذمة ولم ينصر الحق واشتد على وعلى أخى شدة الله يحكم فيها بعدله وزعم أن الجراحة التى أصابت رأسى من الطلق النارى الذى أصاب قلب فقيدنا مصطفى بيك إنما هى جراحة أحدثها لى أحد الحلاقين إخفاء لحقيقة جريمتى وقد سمعتم من دفاع المدافعين عنى ما أسأل الله أن يوفقكم به إلى الصواب فلم يبق إلا أن أسألكم أمرا هو إن وفقتم إلى الحكم على وعلى أخى بالقتل ولا أظنكم إلا

فاعلين فأستحلفكم بمن ترجون منه الرحمة من هول هذا الموقف الرهيب أن تبدءوا بى وتستبقوا أخى خير الله أياما حتى تفحص الأطباء جراحتى بعد الموت فإن كانت إصابة حقيقة وليست جراحة من يد حلاق كما يزعم مدعيكم فأطلقوا سبيل أخى ليعول صبيتى وأهلى ويكون قد خفف الله عنكم وزرا من وزرين وكفاكم عقاباً من عقابين وإن كانت جراحتى كما يقول صاحبكم فأنتم فى حل من دمى ودم أخى والله على ما أقول شهيد ثم ذرفت عيناه الدمع فانتحب وبكى الناس لبكائه وكادوا يضجون ويرفعون أصواتهم. قال الراوى: فعند ذلك قام القضاة واختلوا برهة ثم خرجوا وجلسوا على كراسيهم ونطق الرئيس بالحكم على خليل وأخيه بالإعدام شنقا فانذعر الناس وخرجوا وكأن على رؤوسهم الطير. قال: واتفق أن عاد السير بارنج قنصل جنرال الإنجليز إلى القاهرة بعد غياب وشاع خبر حضوره فعلمت به عجوز هى أم خليل وخير الله فقامت لساعتها ومعها صبى لخليل لم يناهز الخامسة وانحدرت إلى القاهرة واتصلت بباب السير بارنج واستجارت فأدخلها إليه وسألها عن سبب حضورها فقصت عليه الخبر وقالت جئتك يا سيدى لا لتخلص ولدى من الموت بل ليبدءوا بقتل خليل وفحص جراحته فإن كانت كما يقول فأبقوا لى خير الله يعولنى ويعول صبيته وصبية أخيه وإن كانت كما يزعم مصطفى رياض باشا وأصحاب شوراه فهم فى حل مما يفعلون. قال: وبكت العجوز بكاء مرًا وترامى الصبى على أقدام السير بارنج فطيب السير خاطرها ووعدها خيرا. قال: وكأن السير بارنج أرسل إلى الرئيس مصطفى رياض باشا يستعلم عن هذا الحادث فلم يكن إلا يوم أو بعض يوم حتى جاء أحمد حشمت بك إلى الفيوم يحمل الأمر بتنفيذ الحكم على خليل وأخيه، ولم يكن قد مضى الأجل المضروب لذلك قانونا فأنفذوه على ما اشتهر خبره يومئذ وبلغ السبع الطباق أ. هـ

قلت: وكأن الرئيس كان يظن أن فى قتل ولدى الدهشان، وعبرة وإرهابا لأهل الشقاوة وأصحاب اللصوصية الذين ملئوا البلاد شرقا وغربا ينهبون ويقتلون ويقطعون الطرق فلم يصب ظنه المرمى فإنه ما انتشر خبر هذا الحادث حتى كبرت قحتهم وعظمت جرأتهم وانبثوا فى سائر أنحاء الإقليمين فكانت الأخبار تأتى إلى الرئيس تباعا بوقوع النهب والقتل وإتلاف المزارع وتسميم الماشية حتى ضج الناس وذهب منهم الصبر وتولاهم القنوط واليأس وقد زادهم قلقا واضطرابا ورود الخبر بظهور الوباء فى مكة واشتداد الموات بين الحجاج شدة بالغة فاهتمت رجال الحكومة لذلك اهتماما كبيرا ورسم الخديوى بناء على ما قرره مجلس الكورنتينات بإرسال قوّة

كبيرة من العساكر والأجناد إلى مدينة السويس لتقوم بعمل طوق صحى ما بينها وبين طور سينا وعيون موسى وتشديد مراقبة الحجر على الحجاج فى الطور عند قيامهم من جده وغيرها وبالغت الخزينة فى بذل النفقة اللازمة لذلك وتحوطت الدول الأجنبية كافة فضربت الحجر على سائر ما يرد إلى موانيها من الموانى المصرية وسواحل البحر الأحمر وأرسل بعضهم إلى السويس رسلا ليراقبوا مرور الحجاج بالترعة الملحة عند عودتهم إلى أوطانهم وخاف الناس من تناقض الأخبار وورودها متقتضبة مبتورة عن ظهور هذا الداء أيضا فى رواندوز من بلاد الموصل وفى جزيرة ابن عمر وغيرها من البلاد العربية وهو آت إليها من الهند الإنجليزية وكثر اجتماع الرئيس مصطفى رياض باشا بكبار موظفى ديوان الصحة ليروا رأيهم فيما يجب عليهم عمله لقاء هذا العدوّ الفتاك وطاف أطباء أقسام مصر والقاهرة فى الأزقة والحارات ومعهم أصحاب الشرطة ومشايخ الحوارى يستحثون العامة إلى نظافة بيوتهم والعناية بتطهيرها وصارت الأخبار تأتى فى كل يوم من مكة والمدينة بعدد الوفيات فكان مبلغها فى اليوم نيفا وألفًا فاشتد الخوف بالناس وكبرت حيطة رجال الحكومة ورسم الخديوى بمنع عمل الموالد ومنع الناس من الاحتشاد فيها وأرسلوا بعض سفن الحرب لحراسة السواحل من السويس إلى دبه ومنها إلى الزعفرانة وأقاموا أربطة من الجنود على هذه السواحل لمنع الفارّين من الحجر والأخبار ترد فى كل يوم باشتداد الوباء فى مكة وفى المدينة ودخوله إلى جدة وفتكه بالحجاج فتكا ذريعا ثم كثر توارد الحجاج على ظهور السفن إلى الطور وعيون موسى فأنزلوهم هناك محجورا عليهم وبقى الحال هكذا أياما وجاء الخبر يوما إلى محافظ السويس بفرار أربعة من الطوق الصحى ودخولهم المدينة ثم فرارهم منها ليلا إلى القاهرة واختفائهم فى بولاق مصر فطير الخبر بذلك إلى محافظ مصر فاهتم له المحافظ وبث جماعة من أصحاب الشرطة فى طلب الفارّين فعاثوا فى بولاق مصر وكبسوا على كثير من الدور والوكائل على غير طائل واتفق أن مرض رجل من سكان بولاق مرضا عاديا سبقه بعض القئ والذرب فأخبر شيخ حارته طبيب القسم بخبره فسار الطبيب إلى منزل المريض ليبحث عن علته وسبب مرضه فوجد أن الرجل قد مات وأن أهله يستعدون لتشييع جنازته فمنعهم من ذلك وأرسل فى طلب عربة الموتى من مركز صاحب الشرطة ببولاق وطير الخبر إلى محافظ البلد بأن الرجل مات بالهيضة الوبائية ثم منع الناس من الاقتراب من الجثة وبالغ فى ذلك فقام عليه حينئذ أهل الميت وأشبعوه ضربا ولكما ووخزا وأخرجوه خارج الدار وقفلوا دونه الباب فلم تكن

إلا لحظة حتى أتى رجال الشرطة ونفر من رجال الصحة ومعهم عربات نقل الموتى وتطهير متاع المصابين بالأمراض المعدية وشيء من العقاقير ومواد التبخير ودقوا باب بيت الميت فلم يفتحوا لهم فظلوا على هذا الحال ساعة اجتمع فيها العامة وزعر بولاق بعصيهم وهراويهم واشتدت جلبتهم وصياحهم فى وجه أصحاب الشرطة ورجال الصحة وعلا عويل النساء وصراخهن من شبابيك الدور ورموا رجال الصحة بالحجارة من أسطحة البيوت وكثر الهرج والمرج فأتى محافظ المدينة فى نفر من الجند والأتباع ومازال بأهل الميت حتى فتحوا الباب فدخل أصحاب الشرطة ورجال الصحة وحملوا الجثة عنوة ووضعوها فى عربة الموتى فسارت بها على عجل إلى مستشفى القصر العينى والناس محتشدون حولها وهم فى ضجة وصياح فكان المشهد مريعا وخاف الناس خوفا عظيما وظن بعضهم أن قد أنشب الوباء أظفاره فى جوف بولاق القاهرة بدخول الفارّين من الحجر الصحى إليها واستصرخ أصحاب الصحف على اختلافها رجال الصحة واستنهضت أصحاب الشرطة إلى الأخذ بأطراف الحزم والثبات وسألت أصحاب الحل والعقد أن لا يبخلوا ولا يقتروا فى النفقة حتى يدفع الله عن البلد شر هذا العدوّ القاهر وأكثر الأطباء من نشر الإرشادات الطبية والنصائح الصحية لعل الناس يعوّلون عليها ويعملون بها، فلما كان اليوم الرابع من ظهور هذا الحادث ظهر الخبر وتحقق أن ذلك الميت لم يمت بالهيضة الوبائية وأن مرضه إنما هو من الأمراض العادية التى تحصل عادة فى فصل الصيف من كل سنة وأن الرجال الفارين من محجر الطور ليسوا من الحجاج وإنما هم ممن ذهب مع ركب الحج يوم خروج المحمل من القاهرة ثم تخلفوا بالسويس لضيق ذات اليد ولبثوا بالبلد ينتظرون رجوع الحجاج فينزلون معهم إلى القاهرة كأنهم حجوا وطافوا وتمموا المناسك كلها زورا وبهتانا وتكلمت فى ذلك الجريدة الرسمية وأقامت عليه الدليل فاطمأن الناس وزال عنهم الخوف وكبرت عناية أصحاب الحل والعقد بمراقبة السواحل والتشديد فى النطاق الصحى بمحجرى عيون موسى وطور سينا.

وبينما كان دعاة الصحة يطوفون المدن والبلدان شرقا وغربا وشمالا وجنوبا يحضون الناس على تنظيف دورهم وإصلاح حالة طعامهم والعناية بماء شربهم والامتناع عن كل ما من شأنه تسرب ذلك الداء الفتاك إلى البلاد وفتكه فيهم وفيمن يحبون كان جباة الخراج يطوفون كذلك البلاد زمرا يجبون الأموال فى غير آجالها ويشددون على الناس فى ذلك تشديدا بالغا وكان بعض المديرين يبذلون من الهمة فى ذلك والعناية به ما أعجب الرئيس مصطفى رياض باشا وأرضاه إذ كان يخشى

عاقبة إمحال الخزينة وفراغها من الدرهم والدينار وعجزه عن القيام بالنفقة المطلوبة - قيل وهو فى كل يوم يقول لجماعة الإنجليز إن أيام رئاستى خير ورخاء على البلاد وأهلها فرسم للمديرين كافة يومئذ بخروج الجباة والتشديد عليهم فى جمع الأموال وعدم الوقوف فى التحصيل عند حدّ فطافوا وعاثوا واشتدوا على الناس فضج الناس وعجوا إلى الله تعالى وأرسلوا الشكاوى تترى إلى ديوان الرئيس بطلب المهلة وكف أيدى الجباة إلى حين فلم يلتفت الرئيس إلى ذلك بل رسم أيضا بتحصيل سائر المتأخرات على اختلافها وعدم التجاوز عن شيء منها وسير بعض المأمورين وأصحاب الوظائف إلى الأقاليم يستحثون الجباة على التعجيل وعدم الإبطاء فضاق خناق الناس وتولاهم القنوط وانحدر منهم جماعة كثيرة إلى القاهرة ووقفوا على أبواب الداخلية والمالية يرجون لقاء الرئيس أو لقاء صهره محمود باشا دبوس أوغلى فلم تمكنهم الحجاب من ذلك أياما.

واتفق فى هذه الأثناء أن تولى وكالة الخزينة المستر منلر أحد كبار الإنجليز «وقد كان مديرا لحسابات الخزينة» بدلا من بلوم باشا الذى تولاها فى عهد الخديوى إسماعيل وبقى شاغلا لها حتى أقصاه الإنجليز عنها فى هذه الأيام صاغرا لأسباب لا محل لإيرادها هنا فتزاحم القوم على باب منلر وصاحوا واستغاثوا ووردت على ديوانه كذلك صكوك الظلامات من كل فج عميق فأكبر منلر الأمر واهتم له اهتماما عظيما لأنه أعلم الإنجليز بحالة البلاد وأهلها وما هم فيه من شظف العيش وخلو ذات اليد وأعلمهم كذلك بقدر اهتمام الرئيس بجباية الأموال وميله إلى قهر الناس على دفعها صاغرين فسار من فوره إلى الإقليمين القبلى والبحرى وطاف كثيرا من المدن والبلدان وخبر من أحوال أهلها ما زاده شفقة وعاد إلى القاهرة فسير إلى المديرين والمأمورين فى منع الجباية إلا فى آجالها المقررة وكف الجباة عن المطالبة بالبقايا والمتأخرات إلى ميسرة وشدد عليهم فى ذلك تشديدا فلم يعجب الرئيس فعال منلر وعابها وحسبها تعديا وافتياتا على منصبة وهمّ بردّ كل شيء إلى ما كان عليه وأرسل فى طب سائر المديرين ووكلاء المديريات فحضروا فخلا بهم فى ديوانه يوما أو بعض يوم ثم أرجعهم إلى مراكزهم فلم تكن إلا أيام حتى ظهر لمنلر وجماعة الإنجليز أن بعض المديرين يكرهون مشايخ البلاد على تقديم عرائض يسألون بها دفع جميع الخراج معجلا عن السنة الجارية أى سنة تسعين وثمانمائة وألف ميلادية وأن قد ورد على ديوان الخزينة شيء من تلك العرائض فاهتم منلر بالأمر كثيرا وطال الأخذ

والردّ بينه وبين الرئيس أياما ثم أرسل منلر كتبه إلى المديرين ثانية بالكف عن الجباية والإقلاع عن كل إكراه وإلا ساءت العاقبة وعظم الحساب وبدت من هذا الحين دلائل الوحشة بين منلر والرئيس ونفر كل من رفيقه واهتم منلر بإيقاف الرئيس عند حده وبالغ فى السعى وراء ذلك وعلم الناس بما جرى ففرحوا وحمدوا منلر وشكروه فتكلم فى ذلك بعض أصحاب صحف الأخبار وعابوا على الرئيس فعاله وقالوا ما ضره لو أقلع عن هواه وقلل من حدّته ولم يمكن منلر من الغلبة عليه وتنفير قلوب الناس منه وهو رجل الوطن وكاشف غمته ومفرج كربته فردّ عليهم بعض أصحاب الصحف المحازبة للرئيس ردا كله مماحكة ومهاترة ووقعوا على المستر منلر باللائمة وأشبعوه تأنيبا وتقريعا، وتلاقيت يوما مع أحد المقربين من مجلس الرئيس فقلت قد ذهبت أتعاب صاحبكم فى التعجيل بجباية الخراج قبل أوانه وفى تحصيل البقايا القديمة والمتأخرات العاطلة هدرا وقد كان عهدنا به أن لا يصرف وجه أصحاب الظلامات عنه ولا أن يمكن أحدا من طرق باب غير بابه فان ذلك كما تعلم أدعى إلى الصغار وأدنى إلى مهواة البوار وكلنا يعلم ما لصهر الرئيس من الحيطة والقدرة على تلافى مثل هذه الفلتة المزرية المعيبة خصوصا فى هذه الأيام التى قويت فيها شوكة الأجنبى واتسعت سلطته فسبحان الله ـ فتبسم الرجل عند ذلك وقال: وأى حيطة تنفع أو قدرة تدفع والرئيس قد خص ذاته بقضاء أشغال الخزينة ولجناتها ومجلس الوزراء وجلساته وأشغال الداخلية وفروعها واهتم بمعرفة أسرار وعورات كل فرد من أفراد مستخدمى كل ديوان وإدارة من الصغير إلى الكبير فضلا عن عنايته الكبرى بنشر المنشورات والإكثار منها وقلب النظامات وغير ذلك من دوام التفكير فى أحسن التدابير مما لا يقدر عليه أحد غيره ـ **قلت:** إنى لا أراك مصيبا فى ذلك لأن ما لا يقدر على عمله بنفسه وقلمه وهو على كرسى إدارة الخزينة مثلا يقوم بعمله صهره محمود باشا وهو فى مسند وكالة الداخلية ـ قال: وهل لصهره من الوقت ما يكفيه لقضاء مثل هذه الأعمال الخطيرة كلها وقد هجر منزله فى بولاق مصر ولازم دار الرئيس بالحلمية نهارا وليلا ولا يجد مع ذلك ساعة يقضيها فى حوائج نفسه لأنه يأتى نظارة الداخلية فى صباح كل يوم فيجد على مكتبته الشىء الكثير من الرسائل الرسمية والكتب الخصوصية فيفض ختامها ويقرؤها جميعها ويحفظ الخصوصى منها ثم يرد الباقى إلى أصحاب الوظائف الديوانية كل هذا وهو يقابل الكتاب والحجاب وأصحاب الحاجات الخصوصية وأرباب الوظائف العالية وأصحاب الحاجة من مشايخ البلاد حتى الساعة الأولى بعد الظهر فيذهب إلى دار الرئيس ويجلس معه على مائدة

طعام الظهر ويقص عليه حوادث الصباح وما فيها وقصص أفراد السهارة فى الليل وحاجات أصحاب الحاجات منهم ثم يذهب فيستريح قليلا ويقوم بعد ذلك إلى حيث يستقبل الوافدين فيرد عليه رواة الحوادث والأخبار اليومية والجواسيس الخصوصية ثم المرتزقة وطالبو الخدمات ووظائف مشيخة البلاد وأرباب الصحف وأصحاب الوساطة فيقضى بقية يومه فى سماع ظلاماتهم وربما حنّ لشكوى بعضهم وتوجع لبلواهم حتى الغروب فيأخذ فى قراءة الصحف بتأمل وإمعان فيذم الذامة منها ويضرب بها عرض الحائط ويقبل على المادحة ثم يقوم إلى تناول الطعام مع الرئيس فيقص عليه ما اتصل به من أخبار نقلة الأخبار والجواسيس ثم ما قرأه فى الصحف من مدح وقدح ثم يشير على الرئيس بأن يأمر بإقصاء زيد عن خدمة الحكومة وبإدخال عمرو فيها وبردّ بكر إلى مشيخة بلده كما كان وغير ذلك من المقاصد والآراء إلى أن ينتهى من الطعام فيرجع إلى حيث يستقبل الناس فيدخل عليه حينئذ المدلسون والملقون والمداهنون والواشون والآكلون للحوم إخوانهم والزوار فمن كان من هؤلاء مقبولا فى مجلس الرئيس استأذن له وأدخله وإلا أخذ يسمع له شكواه ويتأوّه لبلواه حتى منتصف الليل فيتركه ويذهب إلى غرفة نومه أو يشعر الرجل بثقل وطأته فيرحل من ساعته وهو يعض أصبع الندم على ما أضاعه من الوقت فقل لى بعيشك أين الساعة التى يتمكن فيها من نظر تلك الظلامات وهذه الحال حاله بين ليله ونهاره فقلت إن لله فى خلقه شئونا.

(مطلب)

عدم بلوغ النيل حده المألوف من الزيادة

ولم تكد تطمئن القلوب بزوال الوباء وعودة الحجاج إلى أوطانهم وسلامة البلاد كافة من تسرب الداء إليها حتى ظهر انخفاض فيضان النيل عن معتاده فى كل عام وعدم بلوغه حده المألوف الذى ترتاح إليه الخواطر فكان قلق أهل الإقليم القبلى والحوف الشرقى عظيما إذ ارتفعت عندهم أسعار الغلال من القمح والفول والشعير والعدس والحلبة وقلّ علف دوابهم فانحدروا بها إلى الأقاليم الوسطى والإقليم البحرى طلبا للكلأ والعلف فاهتمت الحكومة لذلك وظهر اهتمام جماعة الإنجليز بالأمر تقربا من أهل البلاد وزلفى وسار محمد زكى باشا ناظر الأشغال إلى الإقليم القبلى لينظر فى تدارك الخطر قبل استفحاله وسار معه الماجور روس مدير رى الإقليم القبلى وهو من كبار مهندسى الإنجليز رجل كبير الدراية واسع الخبرة عالى

الفكر مهندس حاسب مقدام لم يضارعه أحد ممن تولى عمل الرى قبله وقل أن يضارعه أحد من بعد فاهتم الماجور روس بالأمر وعمل من خوارق الأعمال الهندسية ما أزال الخوف وأمن الناس فعاد من نزح منهم إلى بلده وجاء زمن الرى فلم يتعذر سوى رى الجزر المرتفعة والحوف الشرقى وقليل من الأحواض العالية ببلاد إسنا وقنا وجرجا فأصاب أهلها الضر ولا سيما أهل الحوف الشرقى منهم فمات بعضهم وأنشبت الأمراض الخبيثة أظفارها فيمن بقى منهم وكبرت عناية الماجور روس بأمر رى ذلك الصعيد واهتم بتنسيق جسوره وتنظيم أحواضه على أحسن ما يكون من الأشكال الهندسية وعمل من خوارق الأعمال شيئا كثيرا ولم تبخل الخزينة بالمال وأكثرت من بذل النفقة حتى جاءت أعماله آية من الآيات الهندسية وهى باقية إلى ما شاء الله تشهد للرجل بالفضل وطول الباع.

(مطلب)

مجيء ولي عهد السلطنة الإنجليزية إلى مصر

وجاء الخبر فى هذه الأيام إلى ديوان الخديوى بقيام الأمير دى غال ولى عهد السلطنة الإنجليزية على ظهر إحدى سفنهم الحربية يريد ديار مصر والمكث فيها أياما معدودة فرسم الخديوى إلى الرئيس مصطفى رياض باشا بالتأهب للقاء هذا الضيف العظيم فقام رجال الدولة حينئذ من مصريين وإنجليز لذلك وقعدوا وبالغوا فى الاستعداد فلما كان يوم الأربعاء سابع ربيع الأول من السنة أى سنة سبع وثلثمائة وألف هجرية سير الخديوى أخاه الأمير حسن وذو الفقار باشا ناظر الخارجية وعبدالرحمن رشدى باشا كبير التشريفات ومحمد زكى بك التشريفاتى إلى الإسكندرية على قطاره الخاص لينوبوا عنه فى استقبال الأمير فساروا إلى سراى رأس التين وباتوا ليلتهم وأصبحوا وقد جاءهم الخبر من بورسعيد بقرب وصول الأمير إليها وأنه قد رجع عن عزمه على القدوم إلى الثغر الإسكندرى وأنه أراد الذهاب إلى القاهرة عن طريق الإسماعيلية فقاموا من ساعتهم إلى الإسماعيلية على القطار الخديوى ومنها إلى بورسعيد ولبثوا يومهم ذلك حتى وصل الأمير فى نفر من الحاشية والأتباع فقاموا فى ركابه إلى القاهرة وكانت قد توجهت ساعة الظهيرة كوكبة من العساكر المصرية وأخرى من العساكر الإنجليزية إلى محطة السكة الحديد للقاء الأمير وكذلك وفد إليها الوجهاء ومقدمو العسكر ورؤساء النظارات ثم تبعهم الخديوى بلباس الزينة والتشريف ومعه جماعة الوزراء وكبار الدولة بزينتهم ووقفوا

جميعا على أكمل هيئة ونظام حتى أقبل القطار الذى يقل الأمير وأولاده ورجال حاشيته فأطلقت عند ذلك مدافع التعظيم واستقبله الخديوى بالتجلة والتكريم وأركبه على يمينه فى عربة تجرها أربعة من جياد الخيل يتقدمها طائفة من الفرسان المصريين والإنجليز وخلفها عربة أولاد الأمير ومعهم الأمير حسين أخو الخديوى ثم عربات الوزراء وكبار الدولة ومازالوا سائرين حتى وصلوا إلى دار قنصلاتو الإنجليز فنزل بها الأمير وحاشيته وذهب الخديوى إلى مقره بعابدين وأقام الأمير فى تلك الدار لحظة تناول فيها طعامه ثم سار فى موكبه إلى سراى الجيزة وقد كانت أعدت لنزوله فزاره الخديوى فرد له الزيارة على الأثر ولما كان فى مساء ذلك اليوم أقبل الأمير إلى سراى عابدين بموكب حافل لمأدبة أدبها له الخديوى وفيها ثمانون مدعوا فلبث إلى ما قبل نصف الليل بقليل ثم عاد إلى مقره بالجيزة وفى اليوم الثالث خرج إلى شوارع المدينة وجعل يتجول فيها وفى ركابه السير بارنج وشاع الخبر فى ذلك اليوم بأنه سيستعرض الجيوش الإنجليزية والمصرية معا بميدان العباسية عند الجبل الأحمر فهرع الناس إلى ذلك المكان أفواجا وانتشر أصحاب الشحنة على طول الطريق ذات اليمين وذات الشمال ثم أقبل الخديوى فى موكبه فلم تكن إلا ساعة حتى برز كل من الأمير والخديوى إلى الميدان فى ملابس زينته وتشريفه ممتطيين جوادين ووقفا وحولهما كبار الجند ومقدمو العسكرين وخلفهما حاملو العلمين فهتف لهم الجند بأصوات التهليل وصدحت الموسيقى بألحان السلام ومرت من أمامهما العساكر والأجناد مشاة وركبانا وكذلك أصحاب المدافع وما يتبعهم فكان المنظر مهيبا والناس فى دهشة وسكون كأن على رؤوسهم الطير إشفاقا مما عساه أن يكون من وراء مجيء ذلك الأمير إلى هذه الديار، واتفق أنه فى مساء ذلك اليوم كانت الليلة الكبرى لمولد صاحب الشريعة المحمدية المعتاد عمله فى كل عام فبعد أن تناول الأمير العشاء مع الخديوى ركب عن يمينه فى موكب حافل مشى فيه الوزراء وكبار العسكر وساروا إلى ساحة المولد ونزلوا بفسطاط شيخ مشايخ الطرق لحظة لطيفة. ثم انتقلوا إلى فسطاط الخديوى وجلسوا به ساعة كثر فيها لغط العامة وتساؤلهم وترامت ظنونهم إلى أسمج المرامى ثم انصرفوا جميعا وباتوا وأصبحوا وقد ركب الخديوى فى موكبه وسار إلى محطة السكة الحديد وخلفه سائر الوزراء والأمراء وكبار العسكرين يريدون وداع الأمير حتى إذا كانت الساعة التاسعة صباحا أقبل الأمير وولده يحف بهما موكب حافل من الفرسان وطائفة من الحرس الخديوى فاستقبله الخديوى وبالغ فى وداعه فركب الأمير مع حاشيته القطار إلى الإسكندرية فلما وصلها نزل فى سفينته فأقلعت به إلى بعض الثغور الإيطالية .

وما تحركت سفينته حتى تحركت معها أقلام أصحاب الصحف العربية المحازبة للسياسة الإنجليزية بمصر فجعلوا يتكهنون وينبئون بمستقبل الأيام ويقولون قد قضى الأمر ونفذ القضاء وأذن الله بضم الديار المصرية من أقصاها إلى أقصاها إلى ملحقات السلطنة الإنجليزية فلا دافع ولا راد لقضاء الله ولا مجير لأهل البلاد سوى الاستسلام وخفض جناح الطاعة لأولى الأمر من الإنجليز وأن تقلع الأحزاب عن تلك الضوضاء وتنكف عن استصراخ الدول لتخلصهم من سيطرة الإنجليز فقام حينئذ فى وجههم أصحاب الصحف الأخرى وكذبوا فيما يقولون ورموهم بالخيانة وبيع الذمم وقالوا لهم إنما أنتم فى إضرام نار هذه الفتنة مريدون السوء للبلاد وأهلها وكثر اللغط فى ذلك كثيرا حتى أرجف بعض أصحاب تلك الصحف بأن الخديوى قد استسلم وأطاع وعقد النية على تسليم البلاد بشروط وقع الاتفاق عليها بينه وبين الأمير دى غال وعندى أنها فرية ما أنزل الله بها من سلطان .

واشتدت عزيمة السير بارنج بمقدم الأمير دى غال وأظهر ما كان يخفيه من الشدة والجبروت وكان الرئيس قد تمكن من بسط يده على سائر الدواوين والإدارات وقلب بعضها بطنا إلى ظهر ومسخ نظام بعضها واشتد على قضاة المحاكم الأهلية فخلع بعضهم لغير علة ولا سبب ظاهر وهدد بعضهم بشىء من قارص الكلام فاختلط الحال على من بقى منهم وأصبحوا وهم فى ريب من استقلالهم وسلامة مراكزهم وبات حسين فخرى باشا ناظر ديوانهم مغلوبا على أمره ليس له من حق النظر سوى الاسم والأمر للرئيس مصطفى رياض باشا وحده فكان إذا أخذت حسين باشا يوما عزة النفس وهمّ بعمل يرضى الله والناس قام فى وجهه محمود باشا صهر الرئيس فينكف وفى النفس ما فيها وظل الحال على هذا المنوال حينا حتى تحركت من جراء ذلك خواطر جماعة الإنجليز القابضين على زمام بعض المصالح الديوانية وأكبروا عمل الرئيس وأعظموه وعابوا عليه عسفه وخيلاءه وشكوه إلى السير بارنج فعمد السير بارنج حينئذ إلى إيقاف كل عند حده قيل وقد زاده اهتماما بهذا الأمر ما عرفه من دخائل حادث مقتل خليل الدهشان وأخيه خير الله وما تحققه من أسباب التعجيل فى تنفيذ الحكم بإعدامهما قبل الأجل المفروض وجعل من هذا الحين يكيد للرئيس كيدا فكان إذا همّ الرئيس بأمر من الأمور وقف فى وجهه ورده عنه ومنعه من هواه فيتركه أياما ثم يرجع إليه فيرده وهكذا حتى اشتد الجفاء وكبرت الوحشة بين الاثنين وظهر للعيان بغض بعضهما لبعض فتحقق الناس من خذلان الرئيس وقالوا بأنه معزول لا محالة وأن رئاسته باتت على شفا جرف الزوال ومال الخديوى

أيضا عن مسايرته وعاب عليه الشيء الكثير من أعماله وأنكرها فظهرت عند ذلك جلبة الأحزاب وترددت رسل الرئيس على دار السير بارنج يسترضونه ويستميلونه وهو يكيد له كيدا ويعمل على تسليم زمام الوظائف العالية إلى جماعة الإنجليز ويطلق لهم الكلمة فيما هم قابضون عليه منها ويفسح لهم نطاق سلطتهم بلا حد ولا تقييد وظل الحال على ذلك حتى بات أصحاب الوظائف من الأهلين وهم لا يملكون من أمرهم فى مناصبهم شيئا سوى جماكيهم وما يتبعها من الألقاب والنعوت وذاع الخبر بأن السير بارنج سيتقدم إلى الخديوى فى طلب إقامة مستشارين من كبار الإنجليز فى كل وزارة من وزارات الحكومة ليحولوا بين هوى الرئيس وحقوق المأمورين وأصحاب الوظائف الذين أثقلهم نير الرئيس وعسفه فقام عند ذلك أصحاب الصحف المحاربة يقرعون السير بارنج ويرمونه بالجور فرد عليهم أصحاب بعض الصحف الكبرى الإنجليزية كصاحب التيمس وصاحب الدالى نيوز وصاحب مجلة القرن التاسع عشر ردا كله إيعاد ووعيد وإرهاب وتهديد ثم نادوا صاحب سياستهم أن اضرب على يد أولئك الأغرار الذين زينت لهم أنفسهم الإمارة إذهاب ما صنعته أيديك من الإصلاح فى أرض الفراعنة وأدراج الرياح ولا تكن ضعيفا مستضعفا فيشمت بك الشامتون ويستخف بك المستخفون فلم تمض على هذه الضجة إلا أيام حتى تقدم السير بارنج إلى الخديوى فى طلب إقامة رجل من الإنجليز مستشارا قضائيا يكون مقره بديوان الحقانية ويختص بالإشراف على سائر أعمال المحاكم الأهلية والشرعية على السواء فلا يبرم أمر إلا بإشارته ولا يتم عمل إلا برأيه- قال : كى لا يبقى للرئيس مصطفى رياض باشا دخل فى شيء من هذه الشئون وكى لا تزول بهجة ذلك النظام الذى أحدثته يد السلطة الإنجليزية بعد ذلك العناء الكبير. قيل فمال الخديوى إلى مقالة السير بارنج ووقعت عنده موقعا مقبولا لأنه كان يكره من الرئيس استبداده بسائر الأمور وضغطه على صغار وكبار المأمورين وأصحاب الوظائف وكان ينهاه عن ذلك ويتألم من اندفاعه وراء صغار الأمور وإيغار الصدور على غير مسوّغ فكتب صاحب جريدة الأهرام لمحة فى هذا المعنى بعنوان «صهوات المناصب لفوارس التجارب» وهى من حسن السبك وخالص النصح بمكان عظيم قال فيها:

سأل أحدهم حكيما من أجلّ الرجال فقال: من قام بأجل الأعمال قال من هو وما هى قال من قاد أبدان الناس بقلوبها وقلوبها بخواطرها وخواطرها بأسبابها قال إذا تعنى رب المنصب ومنصبه أجاب أنت قلت وإلى هذا المعنى أشار أرسطو

الفيلسوف على الإسكندر حيث قال املك الرعية بالإحسان إليها تظفر بالمحبة منها واعلم أنك إنما تملك الأبدان فاجمع لها القلوب لأن الرعية إذا قدرت أن تقول قدرت أن تفعل فاجتهد أن لا تقول تسلم من أن تفعل. نتج مما ذكر أن سياسة المنصب من أجل الأعمال وأن القائم بمواجبها له امتياز الفضل بين الرجال ولا غرو فإن المرء ليتولاه الشعور بالفخر وتتلقاه نوافل الثناء وهو لم يحسن القيام إلا بسياسته وسياسة خاصته فكيف به وقد أضاف إلى ذلك إحسانه سياسة العامة، ولما كان مقدار فضل المرء على سواه موقوفا على مقدار نفعه سواه كما جاء فى الحديث الشريف «إن خير الناس من نفع الناس» كان لرب المنصب ما ليس لغيره من الذرائع التى تعدّ له سعة المجال فى سبيل نفع الناس وليس بخفى على البصير أن المرء يطالب بقدر مكنته ووسائطه إذ لا جود إلا من وراء موجود فإذا أمسك موسرا ليم لوم من بسط معسرا وإذا نشرت له الأيام بساط العمل فطواه إما بذراع أدماها سهم الخمول والكسل أو بيد أشلها الغرض والحمق قضى عليه العدل بعقاب من عاكس إحكام الوضع والطبع وخالف قانون العرف والشرع وهل تفترش الأيام بساط العمل لرجل أولى من رجل المنصب فهو ولا مراء شريك الطبيعة فى المحافظة على قوانينها والاحتفاظ على نواميسها بل هو آلتها المنفذة لأحكامها والقائمة بحركة دقائقها فإذا لم تكن صالحة حالت دون الحركة فنشأ الضرر وقد قيل إذا زل العالم زل بزلته العالم ومثل ذلك زلة من يتولى مصلحة العباد ويقوم بسياستهم فهو قد عهد إليه أهم أعمال الإنسان فكان مركبه خشنا وموقفه هائلا وحسبه من صعوبة المراس جمعه من الأضداد ما قاله عمر رضى الله عنه وهو لين لا يتولاه ضعف وقوة لا يمازجها عنف أو ماقاله آخر تواضع عن رفعة وزهد عن قدرة وإنصاف عن قوة.

وإذا سبرنا غور الحقائق بإمعان الفكرة وإنعام النظرة وأنسنا إلى صحة المبادئ التى شرحنا متونها وقفنا أمام المنصب وقد حفرت بنان الحق على قوائم كرسيه الأربع أربع كلمات وهى وطنية حكمة همة مسئولية فوجدنا الموقف هائلا لأن من ورائه التقاضى إلى محكمة مهيبة عادلة قانونها الذمة وقاضيها الضمير ومنفذ أحكامها الشرف فمن العبث إذا أن تسند المناصب إلى من لا تهصر أعطاف الوطنية فى مقامه ولا يجنى ضرب الحكمة من ضروب بنانه ونفثات أقلامه ولا يسل سيف الهمة من أجفاف نشاطه وأغماد إقدامه ولا تشام بارقة شعور فى أفق ضميره من سحب نقضه وإبرامه إلى أن قال: أما الوطنية فهى المحور الذى تدور عليه كرة الخواطر أو النقطة التى ترسم منها دائرة الشعور والعواطف يولدها الطبع وتنميها التربية ويكفلها الشرف

وتعززها الأريحية ولها على المرء من الحرمة ما لوالديه عليه لأنها تقوم بكفايتهما ليقوما بكفايته ولم تعمر البلدان إلا بمحبة الأوطان ولذلك قالوا إن حب الأوطان من الإيمان فعلى صاحب المنصب أن يتصف قبل كل صفة بالوطنية الصادقة ويأنس إلى وفاء حقوقها العامة قبل النظر فى وفاء حقوقه الخاصة لاشتمال الأولى على الكل والثانية على الجزء والجزء داخل فى الكل وأن له من احتضان الطير لعشه مهمازا لشاكلة تنبيهه.

وأما الحكمة فهى الدعامة الثانية المتممة للوطنية لأن مجرد إرادة الميل إلى العمل لا يغنى مالم يشفع بقوة فاعلة مدركة تستبين أوجه العمل والذرائع التى تنطبق على ذاك الميل وتجاوب على تلك الرغائب الصادقة وإلا ضاع الميل القويم باستكانة عن خمول أو نزق عن جهل فأتى الضرر من حيث يرجى النفع ووقع الخطأ من حيث يرام الصواب ومن هذا القبيل قولهم عدوّ عاقل خير من صديق جاهل.

وأما الهمة فمن متممات الحكمة لأنها القوة المنفذة لها والكافلة لاغتنام نتائجها بل هى التى تمتطى الليل والنهار فى مجاهل العمل إنفاذا لما تشعر به الوطنية ويقضى بإيجابه الحكمة فمن ثبطت همته عن السعى إلى الأمام نقلته إلى الوراء أدوار الأيام.

وأما المسئولية فما هى إلا خلاصة القوى الثلاث ومن خصائصها التنبيه والتحذير وصون رب المنصب من الخطل فى القول والزلل فى العمل صونا ناشئا عن رعاية لحرمتها وإدراك لأهميتها فمن لا يسئل عما يعمل يأخذه دافع من اثنين إما قعود يمازجه كسل وإما غرور يخالطه طيش وفى الأول سقوط وخمول يفضيان إلى الإضاعة والضعة وفى الثانى استبداد وظلم يؤديان إلى النفرة والضغينة وبئست نتيجة المقدمتين .

ولكن بأى شىء تقوم الوطنية يا ترى أبالدعوى بها قولا والإغماض عنها عملا أم بمجرد الانتماء النسبى دون القيام بمواجبه أم بالتحامل على قريب لم يسئ أم بكسر الأبواب الموصدة دون تداخل الغريب أم بنسيان الواجبات التى تستلزمها الوطنية على مبدأ الدين والشرف ـ كلا ليس ما ذكرناه من الوطنية فى شىء فالقول لا يصدق حتى يشهد به العمل ولو أنك لم تقل ولم تفعل خير من أن تقول ولا تفعل وأفضل منه فعل لا يسبقه قول وما ألطف ما قاله صفى الدين الحلى فى مثل ذلك إذ ضمن فى شعره مثل البلبل والصقر فقال البلبل مخاطبا الصقر:

وقال أراك جليس الملوك   ومن فوق أيديهمو تحمل
وأنت كما علموا أخرس   وعن بعض ما قلته تنكل
وأحبس مع أنني ناطق   وقدري عندهمو مهمل
فقال صدقت ولكنهم   بذاك دروا أني الأفضل
لأني فعلت وما قلت قط   وأنت تقول ولا تفعل

وأما مجرد الانتماء دون القيام باللوازم فكالصفر عن يسار العدد لا قيمة له أو كواو عمرو تكتب ولا تقرأ بل هو عيب لا يستر وذنب لا يغفر ومثله إيقاع الأذية بمن لم يسئ تشفيا وانتقاما على جهل بدعوى أن ذاك ليس منا مع أن السياسة تقضى بأن تعتبر من ليس عليك فى مصاف من هو معك ويعاكس ذلك تمهيدك لمن هو عليك السبيل الذى تمهده لمن هو معك وهذا من قبيل وضع الشىء فى غير موضعه ومثل ذلك إغضاؤك أو صمك الأذنين دون استماع صوت الدين والشرف اللذين يقضيان عليك بأن تفدى وطنيتك بما عز وهان وتحتقر فى جنب صونها كل مصلحة خاصة وإن عظمت وتحترم كل مصلحة عامة وإن حقرت تلك هى الوطنية الحقة الصادقة التى يجب أن يتجلى بها كل ذى منصب ورئاسة .

ثم بماذا تقوم الحكمة الوطنية يا ترى أبالاستبداد فى الرأى والعمل أم باتخاذ المنصب ذريعة للإضرار بالناس إجابة لداعى الانتقام أو إصاخة لإشارة أم بتفريق كلمة أبناء الوطن وإيجاد الشقاق بينهم ودفع الواحد منهم للإيقاع بالآخر أم بإنفاذ الغرض الخاص وتحميل المؤتمرين بالأمر ما ليسوا مكلفين باحتماله أم بأسر الإرادة فى شئون الإدارة وإطاعة كل إشارة أم بتفضيل حلاوة المنصب مجردة على مرارته مركبة وقد نتجت المضرة من بينها وحكم العقل والعيان بها وأبى الطبع الشريف قبولها فكل ذلك بينه وبين الحكمة بون شاسع وبعد سحيق ـ فأما الاستبداد فضرب من ضروب الحماقة وقالت الحكماء: الرجال ثلاثة رجُل ونصف رجل ولا رجل فالأول من له رأى ومشورة والثانى من له رأى ولا مشورة له والثالث من لا رأى له ولا مشورة فالمستبد لابد من أن يكون ثانى الثلاثة أو ثالثهم ولا يعزب عنا قوله : ﴿وشاورهم في الأمر﴾ والمشورة من الروح القدس قال الشاعر:

أقرن برأيك رأى غيرك واستشر   فالأمر لا يخفي علي الاثنين
للمرء مرآة تريه وجهه   ويرى قفاه بجمع مرآتين

وقال آخر :

شارو سواك إذا نابتك نائبة يوما ولو كنت من أهل المشورات
فالعين تنظر منها ما دنا ونأي ولا تري نفسها إلا بمرآة

وقيل لرجل من عبس ما أكثر صوابكم فقال: نحن ألف رجل وفينا حازم واحد فنحن نشاوره فكأننا ألف حازم، وأما اتخاذ المنصب ذريعة للمضرة فمن أكبر المعايب وأخس الأفعال فعلى رب المنصب أن ينسى صفته الخاصة وهو فى منصبه ولا ينظر إلا فى صفته العامة التى تحظر عليه الانتقام إما لغاية داخلية أو لإشارة خارجية فإن ذلك من الدنايا التى يترفع المنصب عن النزوع إليها ومن سوء الطبع اندفاع القوى إلى الإضرار بالضعيف وإن لم يحل دون ذلك حائل فكيف به وقد قام حاجز حصين هو منصة تحمل دعامتها نجاد حسام العدل والحق ولذلك امتاز كبار الرجال بتنكبهم عن هذه الخلة وشرفوا مناصبهم برعاية ما ظهر لهم صوابه ولو بدا من عدوّ ألد فضلا عن صديق أودّ، ثم الإغضاء عما لم يأت على مرادهم أو لم يلائم سياستهم، بل ما هى الحكمة الوطنية من وراء نثر النظيم وتشتيت الجميع إذا كان رب المنصب يثير ثائرة الحقد من هذا على ذاك ويفرق كلمة الرعية المؤتمرة بأمره ويولد الضغائن والأحقاد فى القلوب بإنشاء الأحزاب المتباينة وتعضيد البعض للتغلب على الآخر إما لانتقام خاص عن كره لذاك وإما لغاية أخرى مثل أن يتوهم أنه بتفريق كلمتهم تسود كلمته فيأمن فى سربه وينال مرامه ويجاوب جشع طمعه بينا تقضى الحكمة بجمع الشتيت ونظم النثير وإزالة الأحقاد وتأليف القلوب ونبذ التنافر ومثل ذلك يقال فى تحميلهم ماليسوا مكلفين باحتماله بأن يكرههم وهوغير مصيب أو مسوق إليه بموجب قانون على قبول ما يكرهون وهم مصيبون وغير مكلفين به بقانون ولله در من قال من تداخل فيما لا يعنيه سمع ما لا يرضيه وأن ليس فى القانون محاباة وجوه ومراعاة خاطر على حد قول الشاعر:

ولم أنس المليحة حين راحت إلى قاضى المحبة تشتكينى
فقلت لها ارحمى ضعفى فقالت وهل فى العشق يا أمى ارحمينى

وكيف يليق به وهو يرى نفسه أهلا لمنصبه أو أسمى منه أن يكلف من يأتمر بأمره إما عن رجاء أو عن تهديد بتحمل ما يكره وهو غير مكلف به وهل ذلك من قبيل الحكمة الوطنية والطبع الشريف والمنزع السامى ومن هذا القبيل أيضا عدم استقلال الإدارة فى شئون الإدارة وهكذا - إلى أن قال: وليس من الحكمة أيضا

رفض رب المنصب كل ما يطلب إليه ثم قبوله لكل ما رفض لأن الرفض إما أن يكون عن أنفة واستكبار إجابة لخلق غريزى يرتاح إلى مجرد النهى والأمر دون النظر فى صوابية المطلوب وإما عن اقتناع مسبوق بتروّ وإمعان بأن المطلوب لا يناسب فإذا كان الأول ولا مناص من القبول فالأولى عدم الرفض لأن مرارة العود إلي القبول تربو على حلاوة الاستبداد بالرفض وإذا كان الثانى فالثبات على الرفض أولى ولا عبرة للمصانعة إذا كان هناك سبيل للتخلص منها والتنصل من تبعتها ويقاس على ذلك تفضيل الحلاوة المجردة على المركبة التى كدرتها المرارة فإن فى منابذتها حلاوة لا تعقبها مرارة وهى وسيلة للتجرد عن مضرة تكتنفها معرة.

ثم بماذا تقوم مهمة الحكمة الوطنية أبالنزوع إلى إنفاذ العمل دون رعاية الظروف أم بالضغط الشديد المتولد عنه ضغط متسلسل؟ ليست هذه المهمة تقوم بمثل ذلك لأن الإسراع فى إنفاذ العمل دون رعاية الظروف يدعو فى كثير من الأحايين إلى تجاوز الحقيقة والتخطى إلى الاعتساف فلكل مقام مقال والأشياء مرهونة بأوقاتها وكثيرا ما أفسد العمل التسرع فى إنفاذه ولذلك قالوا فى العجلة الندامة وفى التأنى السلامة وإما الضغط المنوّه عنه فأقل ما فيه أن يدفع العمال بالتسلسل إلى الإخلال بالقانون والعبث بأحكامه وما أحسن ما جاء عن معاوية فى هذا الشأن حيث قال: إنى لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى ولو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت فقيل له وكيف ذلك قال كنت إذا مدوها أرخيتها وإذا أرخوها مددتها - ثم بماذا تقوم المسئولية وراء ذلك أبالاسراع فى العمل حسنا أو قبيحاً أم بمجرد نيته دون إنفاذه أم برفعها عن كاهله وإلقائها على كاهل غيره؟ كلا لا تقوم المسئولية بشيء من ذلك ولكنها وتقوم بأن يعلم رب المنصب أنه مسئول أمام منصبه أوّلا من ربه وثانيا من ضميره وثالثا من شرفه ورابعاً من أميره وخامسًا من وطنه وسادسًا من خاصته وبأن يعلم عظم هذه المسئولية وأهميتها وما يترتب عليها له ولوطنه من مضرة ونفع وخير وشر - وأن عليه تلقاء ذلك مواجب ذات شأن تقضى عليه بمغادرة الوسن وملازمة السهر ومزاولة العمل ومراقبة الحوادث وانتهاز الفرص ومنابذة الأغراض والترفع عن الدنايا والتجلد على مضض الشغل واحتمال أثقاله بالصبر والتؤدة والرفق بمن يأتمرون بأمره وزرع بذور الاتحاد والألفة والمحبة بينهم واستئصال جراثيم الشقاق والخلاف والضغائن والأحقاد بحيث يكون لهم بمثابة أب وأخ وابن فيبر أباه ويحفظ ويرحم ابنه تلك هى مسئولية المنصب بل تلك هى بعض المواجب التى عليه ولا سبيل لتنصله من تبعتها إذا لم يقم بها فإذا قرن استقلال

إرادته بحسن إدارته أتاحت له الأيام إدراك غايته ونيل بغيته فلزم الوظيفة يشرفها وتشرفه واستمال إليه قلوب من سلم زمام أمرهم فأخلصوا له فى السر والنجوى ووثقوا منه بعدم تغيره فى سلوكه لوثوقهم بأن نفسه أسمى من منصبه على نحو ما قاله أرسطو وقد سئل عما دفع زيدا إلى التغيير بعد الولاية فقال: من ولى منصبا وكانت نفسه أكبر منه لم يتغير له ولكن إذا كانت نفسه أصغر منه تغير له. فالمنصب إذا مقام خطير محفوف بالمصاعب فمن الخطأ أن تراه العامة بالنظر المجرد فتحكم بأن صاحبه آمر مطاع لا يهمه إلا إصدار الأمر ونبل الراتب بل يجب أن لا يفوتهم العلم بحقائقه من أن صاحبه أليف الأرق حليف الفكر رفيق الهموم حديد اللحاظ شديد التأثر مديد التصور هدف لسهام اللوم عرضة لملاحظات العموم مسئول عن كل ما يفعل عدوّ لنصف من يرعاهم ولو عدل بعيد السخط قريب الرضا ومن كانت هذه مواجبه وكلها مرارة فهل يحلو له ذكر المنصب فهو على حد المثل القائل «درهم من عسل على قنطار من خل» وحسبه هما اضطراره إلى الاحتفاظِ على الأحكام السياسية ليتذرع بها إلى نيل غاية صعبة المنال ألا وهى استمتاعه بهيبة الخاصة مع صدق مودته وانقياد قلوب العامة بالإنصاف إليها وقد قل بل ندر من حنكته تجربته ومكنته حكمته من الوصول إلى هذا المطلب ولذلك قلنا إن صهوات المناصب لفوارس التجارب أ. هـ.

فكان كل ما فى هذه المقالة من المغامز الظاهرة والمطاعن الخفية قليلا من كثير مما بدا من الرئيس مصطفى رياض باشا لدى توليه المنصب فى هذه المرة وتناقل الناس مقالة صاحب الأهرام هذه فى الأندية والمجتمعات فكانت سمر ليلهم وحديث نهارهم حتى ظن بعضهم أنه موعز إليه بها من ديوان الخديوى الخاص إرهابا للرئيس وتحذيرا والأمر على غير ما يظنون فإنه لما اختلط على الرئيس الحال وفسد التدبير وساء المال ونال السير بارنج من دواوين الحكومة كل منال اجتمعت كلمة أصحاب صحف الأخبار المحلية على نشر هذه الشوائن على رؤوس الملأ والتعريض بها كل قليل من الأيام عسى أن يقلع الرئيس عن هواه ولا يعطى نفسه مشتهاها فترجع عن بغضه القلوب وتنكف عن تقريعه الألسنة وتقف مطامع جماعة الإنجليز عند حدّ ولذلك لم يهبّ أحد من المحازبين للرئيس إلى الرد على مقالة صاحب الأهرام وأقوال غيره ممن حذا حذوه بل أقبلوا على قولهم وأنزلوه من سمعهم وقلبهم وامتدحوه قالوا فقد بلغت الروح الحلقوم والسكين العظم.

(مطلب)

وقوف عثمان دقنه بسواكن على قدم الكر والفر

وكانت أخبار التخوم إلى هذا اليوم لم تخل من المغامز الدالة على عدم خلود العدوّ إلى السكينة ووقوفه على قدم الكرّ والفرّ ولا سيما عثمان دقنه ومن معه من عصاة شرقى السودان فقد عظم شرهم وكبر أمرهم وكثر هجومهم على القلاع والحصون تارة ورميها بالقنابل أخرى حتى ضاق خناق المرابطين وأعيتهم الحيل وأرسل مقدمهم يطلب المدد فجاءه سردار الجيوش المصرية ومعه جماعة من مقدمى عسكر الإنجليز وأقاموا بسواكن أياما يتروون فى أمر الخلاص من شر ذلك العدوّ وعلم دقنه بمقدم السردار فزاد فى الكرّ والفرّ بمن معه من أولئك الأبالسة السود واشتد فى رمى القنابل على الحصون والمتاريس فى الليل والنهار ففعلت مقذوفاته بالمرابطين فعلاً رديئا جدا واتصلت بسفن الحرب الإنجليزية الراسية أمام البلد فخاف السردار العاقبة وقد آنس من المرابطين مللا ونفورا إذ أعياهم القيام على قدم الدفاع ليلا ونهارا فأرسل إلى صاحب السياسة الإنجليزية يخبره بواقعة الحال ويسأله سرعة إرسال المدد على كل حال فكان يطاول ويحاول ويرسل كتبه إلى الباب العالى بأن تحتل طائفة من العساكر الشاهانية سواكن وتتولى أمر الدفاع عنها - قيل وكانت تلك الكتب على ما فيها من التطويل معقدة مفعمة بالألغاز والمعميات ليتعذر على السلطان ورجال دولته البت بإرسال عساكره إلى سواكن ولبث الحال على ذلك أياما فلما آنس من السلطان ميلا وعزما على إرسال حملة من عساكره إلى سواكن بعد ذلك التردد والإحجام خاف العاقبة ورسم على الفور إلى قائد عسكرهم بمصر بإرسال النجدة العاجلة من عسكرهم إلى سواكن فصدع بالأمر وحملت ذلك العسكر سفنهم وشوانيهم وأنزلتهم فى سواكن ففرح المرابطون بمقدمهم وأخذوا من يومهم فى ترميم الحصون والمتاريس وضاعفوا القلاع ورتبوا مدافعها وأصلحوا الخنادق وجعلوا يتأهبون لقتال العدوّ فلما شاع خبر وصول هذه النجدة وتناقله أصحاب صحف أخبار الإنجليز قامت الأحزاب فى عاصمتهم واشتد حزب الأحرار منهم على زعيم سياستهم وعلت ضوضاؤهم فى دار ندوتهم وظهرت جلبتهم فى سائر محافلهم ونادوا واويلاه ما لكم تعرّضون بأرواح رجالنا وتبددون أموالنا لمصلحة غيرنا وظل حالهم على ذلك أياما حتى كاد المطلع على صحف أخبارهم لا يشك فى أن الرجل على شفا جرف السقوط من منصة الزعامة وأن أصحابه مخذولون وما

ذلك إلا ضرب من التغرير كأن يقولوا إذا قامت الدول فى وجه صاحبهم ومانعت فى حلول عسكرهم سواكن إنا ما احتللناها بعسكرنا وسفن حربنا إلا مكرهين وهذا الباب العالى قد استصرخنا رجاله وسألناهم نجدة المرابطين فلم ينجدوهم ولا أعاروا نداءنا المتتابع فلا لوم علينا بعد هذا كله ولا تثريب ولا نحن مؤاخذون بما فعلنا .

وعلم عثمان دقنه بمقدم العساكر الإنجليزية مددا للمرابطين بحصون سواكن وماهم عليه من الحركة فجدّ حينئذ فى قتالهم وألح وتابع الرمى بالقنابل على القلاع والحصون أياما فهاجموه فلم ينالوا منه مأربا فأحلوا فى قتاله بين كرّ وفرّ أياما أيضا ثم عادوا إلى الحصون وجعلوا يدافعون من وراء المتاريس أياما أخرى ووردت الأخبار إلى ديوان الخديوى بما هم عليه من التعب المتواصل بسبب مناوشة العدوّ لهم فى الليل والنهار وعجزهم عن كفه عن تخطف كل من بعد عن البلد ولو قليلا وكبر على السلطان ورجال دولته خبر وصول المقاتلين من الإنجليز إلى سواكن فعادوا إلى مخابرة صاحب السياسة الإنجليزية فى تقرير القاعدة التى على مقتضاها يرسل الباب العالى إلى سواكن طائفة من العساكر الشاهانية لتبقى مع المرابطين وأكثروا من الأخذ والرد فى ذلك أياما فلم يفلحوا ولم يساعدهم أحد من رجال سياسة الدول الكبرى على نوال هذا الأرب فتكلم حينئذ أصحاب صحف دار السلطنة بكلام فى معنى سيادة السلطان على تلك السواحل وفى معنى كيان السلطنة العثمانية وفى شىء من ماهية الخلافة الإسلامية وفيما يعتورها من الضعف إذا زالت هيبتها وتقلص ظل نفوذها من سواحل البحر الأحمر وأطالوا فى ذلك القول وبالغوا فى التوجع حتى كتب أحدهم صورة المعاهدة الدولية التى كان تم التوقيع عليها من كبار سياسة الدول صاحبات الشأن فى حياد بوغاز السويس شاهدا على ما للسلطان من المقام الراجح بينهن ولم يكن أحد يعلم بها إلى يومنا هذا وهى:

أولا - يبقى بوغاز السويس حرا مطلقا فى زمن الحرب والسلم لجميع السفن الحربية بغير تمييز بينها وعليه فالدول العظمى الموقعة على هذا الوفاق قد وافقت على أن لا يعبث بحرية هذه الترعة سواء فى زمن الحرب أو السلم وعلى أن لا تحاصر شطوطها على الإطلاق .

ثانيا - أن الدول الموقعات باعترافهن بأنه لا يمكن أن تكون الترعة الحلوة منفصلة عن الترعة الملحة قد أخذن على أنفسهن القيام بالمعاهدات المبرمة بين خديوى مصر وشركة بوغاز السويس العمومية فيما يتعلق بالترعة الحلوة كما هو مذكور فى

الوفاق المبرم فى ثامن عشر مارس سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية الذى يشتمل على مقدمة وأربعة بنود ثم تعهدن بأن يحسن حالة هذه الترعة وما يتبعها ولا يقمن فيها ما يمنع حريتها.

ثالثا ـ قد تعهدت الدول باحترام المواد والأبنية والأعمال الموجودة فى الترعتين المذكورتين وعدم مسها بشىء ما .

رابعا ـ تبقى الترعة الملحة مفتوحة فى زمن الحرب بحيث تمر فيها المدرعات الحربية بدون ممانع كما جاء فى الوجه الأوّل من هذا الوفاق ـ وبناء على ذلك قد اتفقت الدول الموقعات على أن لا يباح عمل عدائى يكون من شأنه منع حرية الملاحة فى الترعة والموانى الموصلة إليها أو على بعد ثلاثة أميال بحرية من تلك الموانى ومن جملة هذه الموقعات الدولة العثمانية ولو كانت من المحاربات ثم إن المدرعات الحربية لا يجوز لها أن تأخذ إلا ما يكون ضروريا لها من المؤن والذخيرة فى الترعة والموانى الموصلة إليها وأن يكون مسيرها منها فى أقرب ما يمكن من الزمن على حسب الشروط النافذة ولا تقف إلا عندما تقضى الضرورة بذلك وفى هذه الظروف أيضا تكون مجبورة على السفر بأسرع ما يمكن ويجب أن يكون الوقت بين خروج سفينة وخروج أخرى من سفن دولة معادية لها من إحدى الموانى الموصلة للترعة أربعا وعشرين ساعة على الأقل .

خامسا ـ أن الدول المتحاربات لا يمكنهن فى زمن الحرب أن ينزلن فى البوغاز والموانى الموصلة إليه جنودا أو ذخائر أو موادّ حربية ولا أن يأخذنها منها ولكن إذا حدث بها مانع فى الترعة كان لها عند ذلك أن تنزل إلى تلك الموانى أو تأخذها منها فرقا من الجنود لا تبلغ الواحدة منها ألف رجل بما يلزم من المؤن.

سادسا ـ إن ما اشترط على المدرعات فى مسيرها يشترط فى مناوشاتها إذا حصلت فى الترعة .

سابعا ـ لا يجوز لأية دولة أن تبقى لنفسها فى مياه الترعة أو فى بحيرة التمساح والبحيرات المرة مدرعة حربية على أنه يجوز لها أن تقيم فى الموانى الموصلة إلى مدينة بورسعيد والسويس مدرعات لا يتجاوز عددها اثنتين لكل دولة إلا أن هذا الشرط لا يباح للدول المحاربات .

ثامنا ـ أن وكلاء الدول القائمين فى مصر من قبل الدول الموقعات على هذا الوفاق منوط بهم مراقبة تنفيذه بحيث إنهم عندما يحدث ما يهدد سلام الترعة

وحرية الملاحة فيها يجتمعون بناء على طلب ثلاثة منهم برئاسة أقدمهم فى الوكالة للبحث فيما يجب إجراؤه ثم يخبرون الحكومة الخديوية بما يكونون قد عملوه من المحاضر لتأخذ الوسائط الفعالة لضمانة ووقاية الترعة وحرية المرور فيها وعلى كل حال فإنهم يجتمعون مرة فى كل سنة ليروا ما إذا كانت المعاهدة معمولا بشروطها أو لا وهذه الاجتماعات يصح أن تكون برئاسة مرخص مخصوص تعينه الدول العثمانية الشاهانية ويصح أن ينوب عن هذا المندوب آخر من رجل الحكومة المصرية عند غيابه ويصح له أن يحضر الجلسات إذا كان حاضرا ويكون لهؤلاء الوكلاء الحق فى أن يطلبوا على الخصوص منع كل اجتماع على أى مكان من شطوط الترعة يكون من ورائه مس حرية المرور بالترعة .

تاسعا - تتخذ الحكومة المصرية بما لها من السلطة الممنوحة لها بالفرمانات السلطانية وبموجب الشروط المذكورة فى هذه المعاهدة كل ما يلزم من الوسائل توصلا إلى إنفاذ المعاهدة واحترامها ولكن إذا لم تكن هذه الوسائط كافية لذلك فعليها أن تطلب من الباب العالى الشاهانى القيام بتلك الوسائط من عنده وإعلانها إلى الدول الموقعات على التصريح الذى أبرم فى لندن فى سابع عشر مارس سنة خمس وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية والاشتراك معهن عند الحاجة فى المحذورات الواضحة فى المواد أربعة وخمسة وسبعة وثمانية فلا تكون عائقا فى تنفيذ الوسائل اللازمة بمقتضى هذا الوجه.

عاشراً - وأيضا فإن المحذورات الواردة فى المواد المذكورة لا تحول دون الوسائل التى تضطر الحضرة السلطانية الشاهانية أو الخديوى بالنيابة عنها بموجب الفرمانات الممنوحة له إلى اتخاذها لكى يكفلا بقوّتهما الخاصة حماية مصر وتأييد النظام العام فيها ولكن إذا اضطرت الحضرة السلطانية أو الخديوى أن يستزيدا الاستثناءات الواردة فى هذا الوجه كان على حكومة السلطان أن تعلن الدول الموقعات على تصريح لوندره بذلك ثم إن ما ورد بالأوجه الأربعة السابقة بشأن هذه الاستثناءات لا يمنع الوسائل التى ترى حكومة جلالة السلطان ضرورة اتخاذها بواسطة قواتها الخاصة ضمانة لحفظ سائر أملاكها على الساحل الشرقى من البحر الأحمر.

حادى عشر - إن الوسائل التى تؤخذ مراعاة للأحوال الواردة فى الوجهين التاسع والعاشر من هذا الاتفاق لا يجب أن تكون عثرة فى سبيل استعمال الترعة وحريتها وفى هذه الأحوال يكون من الممنوع إقامة حصون مستمرة تخالف منطوق الوجه الثانى.

ثانى عشر - تتعهد الدول الموقعات على هذه المعاهدة بناء على مبدأ المساواة فيما يتعلق بحرية استعمال الترعة وهو المبدأ الأساسى لهذه المعاهدة أن لا يسعين بالتوسع فى الأرض والتجارة بالنسبة للترعة ولا بالحصول على امتيازات دولية تتعلق بهذا الشأن أيضا ماعدا الدولة العثمانية لما لها من الحق فى ذلك لكونها صاحبة البلاد.

ثالث عشر - عدا المواثيق الواردة بإيضاح فى بنود هذا الاتفاق فإنه لا يجوز مس حقوق الخديوى الممنوحة له بالفرمانات ولا التعرض إلى ما أغفل منه من الواجبات.

رابع عشر - اتفقت الدول الموقعات على هذا على أن المواثيق الناشئة عن هذه المعاهدة لا تنتهى بانتهاء مدة الامتياز الممنوح لشركة بوغاز السويس .

خامس عشر - لا تحول شروط هذا الاتفاق دون التحوطات الصحية المتخذة فى الديار المصرية .

سادس عشر - تتعهد الدول المتعاقدات بأنهن يبلغن هذا الوفاق إلى الدول التى لم توقع عليه ويطلبن منها التسليم به وهذه المعاهدة يصدق عليها ويتبادل التصديق بشأنها فى الأستانة فى مدة شهر أو أقل إن أمكن .

وبناء على ذلك فالمرخصون قد وقعوا على هذه المعاهدة ووقعوا أختام وظائفهم عليها. انتهى بنصه .

ونقل أصحاب صحف الأخبار العربية نص هذه المعاهدة وقالوا إذا كانت كل هذه الحقوق للسلطان وليس لدولة من سائر الدول أن تنازعه فيها فليس إذا من النصفة فى شىء أن تستضعف الإنجليز جسم السلطنة العثمانية إلى هذا الحد فتسلبها حقها وتبخسها أشياءها ولا من الكياسة فى شىء أن تطيل يدها إلى هذا الحد من التطاول على غير مسوّغ فرد عليهم أصحاب صحف الإنجليز وأغلظوا فى الرد وبالغوا فى التهديد وعادوا إلى استنهاض همم صاحب سياستهم وحضه على ترك المجاملة والأخذ بأطراف الحزامة والضرب على يد كل مكابر حتى يرجع صاغرا.

(مطلب)

موت رجل من الهنود وإحراق جثته

واتفق أن مات فى هذه الأيام رجل من الهنود التابعين للسلطنة الإنجليزية وهو من كبار تجارهم بمصر فعزم قومه على إحراق جثته حسب عاداتهم الدينية فطلبوا من قنصلهم التسريح بذلك فسرح لهم وأعلم صاحب الشرطة بخبرهم فاحتمل القوم

جثة فقيدهم إلى فضاء العباسية عند سفح الجبل الأحمر وطرحوها على الأرض ودهنوها بالزبدة ثم لفوها بلفائف من نسيج الكتان ووضعوا قطعة من الخشب فوق الرأس وأخرى فوف القدمين وأحاطوا بالجثة حطبا مرصوصًا بعضه فوق بعض وأضرموا فيه النار إلى أن احترقت وصارت رمادا فرآهم وهم على هذا الحال نفر من أصحاب مقالع الحجر بالجبل الأحمر وسمعوا دمدمتهم بشيء من الأدعية الدينية فهلعت قلوبهم من شدة الخوف وصاحوا وولوا مسرعين إلى البلد يستفزون أصحاب الشرطة ويستصرخون العامة من سكان الحسينية والمذبح وعلت أصواتهم بيا لطيف نصر الله دين الإسلام أهلك الله دين الكفار فتبعتهم النساء والأولاد وهم فى صياح وجلبة ولحقهم أصحاب الشرطة ففرقوا جمعهم وأقاموا جماعة منهم يحرسون القوم حتى جمعوا رماد جثة فقيدهم فى ركوة وساروا بها على غير الطريق السلطانى خوفا من بطش العامة وزعر الحسينية بهم وانتشر فى تلك الليلة خبر هذا الحادث فى سائر أطراف القاهرة ومصر القديمة وتحدث العامة به فقال ضعفاء العقول منهم إن هذا الحادث قطرة من بحر مما سيحل بالمسلمين بعد أن جاء ولى عهد السلطنة الإنجليزية وأنهم سيرون يوما قبور آبائهم منبوشة وعظامهم محرقة بزيت البترول وجثث موتاهم تلقى على قمم الجبال وغير ذلك من الأرجاف حتى كادوا يفتتنون.

(مطلب)

ما ترتب على كثرة اللصوص من إلحاح السير بارنغ بتعيين مستشار لنظارة الحقانية

وكثرت فى هذه الأيام اللصوصية وعم فساد أهل الشقاوة وكبر عبثهم فى القرى والبلاد وعظمت قحتهم فكانوا يتخطفون فى الليل والنهار ويكبسون الدور بلا حياء ولاخوف فجد أصحاب الشرطة فى طلبهم واهتم الرئيس لذلك جدا تحاشيا من ضوضاء جماعة الإنجليز وأصحاب صحف أخبارهم فلم يتمكن من إرجاع الأمور إلى مجراها وبقى الحال على ذلك أياما كثر فيها تردد السير بارنج على ديوان الخديوى تارة وديوان الرئيس أخرى يشكو مما هو صائر من الخلل وعدم الأمن على الأرواح والأموال بسبب فساد رأى المديرين والمحافظين وعجزهم عن إرجاع الأمن إلى البلاد ثم أشار على الخديوى بطلب تسليم وكالات المديريات والمحافظات إلى جماعة من الإنجليز وهو يقول لا خلاص للبلاد من هذه الفوضى المستحكمة إلا

بتسليم زمام سائر إدارة الحكومة إلى جماعة الإنجليز قيل فتأفف الخديوى من ذلك وكلم الرئيس فيما هو صائر وأغلظ عليه فى القول وألقى عليه تبعة ذلك كله فتشكى الرئيس من أعمال المكلفين بضبط الجنايات من رجال النيابات ورماهم بالجهل وقال: إنهم أغرار غير أكفاء لمهمة ضبط الوقائع وتحقيق الجرائم ووسم قضاة المحاكم بوهن العزيمة والخلط بين اللين والشدة وطلب جعل النيابات تابعة لنظارة الداخلية وتحت سلطة رجال الإدارة فلما شاع هذا الكلام نقله أصحاب صحف الأخبار الإنجليزية وجعلوا يقرّعون الرئيس ويرمونه بالعجز وعدم القدرة على تدبير الأمور فى هذه الأيام وأكثروا من عبارات الهزء والسخرية. قالوا وقد آن الوقت الذى يجب فيه على صاحب سياستهم أن يسلم زمام الدواوين الكبرى إلى من يحسن تدبيرها من الإنجليز لكى يحولوا دون كل مطمع وهوى وما كادت تهدأ ضوضاؤهم هذه حتى تقدم السير بارنج إلى الخديوى فى التعجيل بإعطاء منصب استشارة الحقانية والإشراف على سائر النيابات والمحاكم الأهلية والشرعية إلى رجل من الإنجليز قد اصطفوه لذلك اسمه أسكوت، وجعل يغدو ويروح على مقر الخديوى أياما حتى رسم الخديوى إلى الرئيس بالعمل، قيل فامتنع لما فى ذلك من الحيف والصغار لا سيما وأنها كبيرة من الكبائر التى لم يكن ليقوى السير بارنج على إتيانها أيام رئاسة الوزير نوبار باشا فجعل يطاول ويحاول والخديوى فى قلق من تردد السير بارنج على ديوانه فلما آنس الرئيس من الخديوى ميلا إلى طلب السير بارنج زين كما قيل يومئذ إلى حسين فخرى باشا ناظر الحقانية الوقوف فى وجه السير بارنج والعمل على إيقافه عند حده فقام حسين فخرى باشا قومة الحازم غير هياب ولاوجل ورفع إلى الخديوى صحيفة كلها تفنيد لمزاعم السير بارنج وتحذير من سوء عاقبة هذا الأمر، حدثنى صاحب لى من المقربين من مجلس الرئيس قال: كان الرئيس إذا رأى فى هذه الأيام من حسين فخرى باشا مللا أو إغفالاً لمقاومة مطالب السير بارنج حرضه وشجعه وأكبر قدره أو أنبه وقرّعه وصغر نفسه وأحرج صدره فيهب إلى المشاغبة ويتجرد إلى الدفاع ويملأ فضاء ديوانه بكلمات الوعيد وعبارات التهديد على أنا نعلم والناس كلهم يعلمون أن صيحته هذه إنما هى كصرخة فى واد أو نفخة فى رماد وأن لا راد للسير عن هواه ولا دافع لقدر الله وقضاه وكانت كتب زعيم سياسة الإنجليز مترادفة على ديوان الخديوى بالتعجيل وترك الإبطاء والخديوى فى أخذ ورد مع الرئيس والرئيس يفسح لحسين فخرى باشا الأمل ويشجعه على الأخذ بأطراف العمل

لعله ينال من ذلك الداهية مأربا فقال الناس يومئذ: إن أحد الرجلين مخلوع لا محالة وإن فوز زعيم سياسة الإنجليز فى هذه المرة سيكون مفتاحا لمغالق ما استعصى على جماعة الإنجليز ولوجه من دواوين الحكومة إلى الآن فلما كان خامس عشرى فبراير من السنة أى سنة إحدى وتسعين وثمانمائة وألف ميلادية وسادس رجب الفرد سنة ثمان وثلثمائة وألف هجرية رسم الخديوى بتولية أسكوت هذا منصب الاستشارة القضائية والإشراف على سائر المحاكم فتولاها وكان من أمره بعد ذلك ما هو مشهور ومعروف أ. هـ.

وحدثنى أيضا من لا أشك فى صدق حديثه قال: قد كان من دهاء صاحب سياسة الإنجليز فى أمر تسليم زمام الاستشارة القضائية إلى أحد رجال الإنجليز أنه كان يرسل إلى الخديوى الرسائل تلو الرسائل وكلها تتضمن الشكوى والإشفاق مما هو حاصل من ذهاب الأمن من البلاد وكثرة اللصوصية ويستميله إلى تمحيص الأسباب الناجم عنها هذه الفوضى المستحكمة حلقاتها ويشير بمنع تطاول يد الرئيس مصطفى رياض باشا إلى العبث بوظائف رؤساء النيابات ومأمورى تحقيق الجنايات ومازال بالخديوى حتى هان عليه تولية أسكوت المنصب حولا فإن أفلح وتم لأهل البلاد على يديه فى ذلك الحول ما يرجونه من تأمين الطرق واستتباب الراحة فإلى ما شاء الله أو إلى أن تصير المحاكم فى غنى عنه وإلا عادت الأمور إلى ما كانت عليه ثم تعين أسكوت فلم تمض عليه أيام حتى طاف سائر المحاكم بالإقليم البحرى وسبر غور ما فيها وجعل يمحو ويثبت ما يشاء من موادّ القانون المدنية والجنائية ويعدل فى نظام وهيئة القضاء والقضاة ورؤساء أقلام النيابات ويدوّن كل ما يعنّ له من أوجه الإصلاح ووسائل الفلاح ثم سار إلى الإقليم القبلى وسار معه حسين فخرى باشا فكان إذا نزل فى بلد استدعى إليه عمدتها ومشايخها وحادثهم فيما عليه المحاكم بالإقليم البحرى ويبشرهم بقرب انفراج الأزمة وزوال تلك الشدة ومناهم بمستقبل كله خير واطمئنان ثم عاد إلى القاهرة وشاع الخبر بأنه على عزم أن يرفع إلى الخديوى والرئيس تقريرا بما رآه من أوجه الإصلاح فتحدث الناس فى ذلك وفيما عساه أن يكون من الرئيس إذا أحرج السير بارنج موقفه وأكرهه على قبول مطالب أسكوت وأحس الرئيس بوشك وقوعه فى هذا الشرك فعمد إلى الخلاص منه وأوعز إلى حسين فخرى باشا بأن يستعد لتقديم تقرير إلى الخديوى بما يراه فى مطالب أسكوت وفيما يلائم وما لا يلائم منها مصلحة البلاد فلم تكن إلا أيام حتى رفع أسكوت تقريره وفعل كذلك حسين فخرى باشا وكل يدعى لنفسه العصمة والبعد

عن الخطل، ورأى الرئيس أن لا ينجز لأسكوت غرضا ولا أن ينيله مأربا فرسم بتشكيل لجنة من المسيو بيترى مستشار قضايا نظارة الحقانية وإبراهيم فؤاد بك وكيل محكمة الاستئناف الأهلية وإبراهيم نجيب بك رئيس المحكمة الابتدائية والمسيو لوجريل النائب العمومى واثنين من مستشارى الاستئناف الأجانب لينظروا فيما يشير به أسكوت من أوجه الإصلاح وفيما يعارضه به فخرى باشا فوافق على ذلك مجلس النظار وقرر العمل به، وسافر الخديوى إلى الأقاليم القبلية فى قلة من الخدم والحشم والأتباع ترويحا للنفس أو كما شاع فرارا من عناء الأخذ والرد فى هذا الحادث الذى كثرت أذنابه واشتبك بعضها ببعض وأحس أسكوت بالذى ترمى إليه أغراض الرئيس فلم يرض عن تشكيل تلك اللجنة وعدّ تشكيلها ميلا عن الجادة وضررا بالإصلاح وقال: لا يصح تشكيلها على هذه الصورة قبل أن يصادق مجلس النظار على المبدأ الذى قد بنى عليه تقريره ولاسيما تصديقه على وجود المراقبة والتفتيش على سائر المحاكم وجعل سلطة التفتيش بيد جماعة من الإنجليز أو من المصريين إن وجد بينهم من يصلح لذلك واشتد الأخذ والردّ بين الرئيس والسير بارنج شدة بالغة كان من ورائها استبدال المسيو بيترى مستشار قضايا نظارة الحقانية بالمسيو مور يوندو مستشار قضايا الداخلية وجعل رئاسة اللجنة لحسين فخرى باشا فكبرت عند ذلك حجة أسكوت وأنكر على اللجنة فعلها وقال إن حكمها فى ذلك سيكون من قبيل حكم المرء لنفسه وامتنع المستر بوند الإنجليزى أحد الاثنين المستشارين المعينين بعضوية اللجنة من الحضور فى جلستها وقال لا تصح رئاسة حسين فخرى لها وهو خصم أسكوت المعارض له فى مبدئه وكذلك لا تصح عضوية بعض الأعضاء لأنهم أصغر درجة من صاحبى الخصومة فلم يلتفت أعضاء اللجنة إلى شىء من ذلك واجتمعوا بغير حضور بوند وبحثوا فى قولى الخصمين أياما ثم اتفقت كلمتهم على رفض سائر مطالب أسكوت إلا ما كان منها مختصا بتعيين مستشارين من الأجانب بمحكمة الاستئناف العليا بشرط أن يكونوا من القضاة الأجانب الشاغلين الآن لوظائف القضاء بالمحاكم الابتدائية لا أن يكونوا من جماعة الإنجليز كما أشار أسكوت، ولما علم السير بارنج بما قررته اللجنة أكبر الأمر وأعظمه ورأى أن فوز الرئيس مصطفى رياض باشا فى هذه الطفرة يكون هادما لأمانى صاحب سياسة الإنجليز وقاضيا على عظمة الاحتلال فرفع فى الحال إلى الرئيس مذكرة يطلب فيها البت قبل كل شىء بتثبيت أسكوت فى منصب الاستشارة وعزل حسين فخرى باشا من مسند نظارة الحقانية وعدم المعارضة فى ذلك ويقول إن هذه المذكرة واردة إليه على جناح البرق

من صاحب سياستهم وهو يلقى تبعة كل إبطاء فى تنفيذها على عاتق الرئيس، وكأن التعجيل بتثبيت أسكوت تعجيل أيضا بقبول سائر مطالبه على علاتها لأنه إذا تمت له ولاية المنصب أمنت مطالبه جميعها من العبث وحقت على الرئيس طاعته- فلما وقف الرئيس على ما فى تلك المذكرة عقد فى الحال جلسة مجلس النظار فلم يحضرها معه سوى على باشا مبارك وقبل حسين فخرى باشا أيضا وقرر عدم جواز تثبيت أسكوت فى المنصب ورفض عزل حسين فخرى باشا وكتب مذكرة بالتركية ورفعها مع قرار المجلس إلى الخديوى بالصعيد الأعلى ولبث الفريقان ينتظران الجواب وهما على أحر من نار الجمر.

فلما كان تاسع عشرى جمادى الثانية من السنة أى سنة ثمان وثلثمائة وألف هجرية وتاسع فبراير سنة إحدى وتسعين وثمانمائة وألف ميلادية عاد الخديوى من رحلته فبالغ أهل القاهرة ومصر فى عمل الزينة لمقدمه ثلاث ليال وأولم الرئيس مصطفى رياض باشا وليمة عظيمة لسائر الأمراء من البيت العلوى وكبار الحكومة وأصحاب الوظائف ولم تنقض ليالى الزينة حتى اجتمع النظار لدى الخديوى بسراى عابدين صبيحة الجمعة رابع رجب الفرد وثالث عشر فبراير وجعلوا يتباحثون فيما جاء فى مذكرة السير بارنج حتى الساعة الحادية عشرة فظهر الخبر وتحقق بأنه قر رأيهم أولا على إبقاء أسكوت فى المنصب مع قبول جميع الشروط المترتبة على الولاية وجميع فروعها وأذنابها بغير معارضة، وثانيا رفض عزل حسين فخرى باشا من منصبه بما أنه قد تقررت ولاية أسكوت فلم يوافق السير بارنج على ذلك وقال لابد من عزل حسين فخرى باشا لاستحالة حصول الوئام بينه وبين أسكوت وترددت الرسل بين الخديوى والسير بارنج بقية يوم الجمعة إلى ظهر السبت والناس فى تساؤل عما عساه أن يكون من الرئيس بعد ذلك التشديد وتلك الحدة وهل هو باق على عزمه من اعتزاله الرئاسة بعد أن وكلت الاستشارة إلى أسكوت وأصاب سهم السير بارنج من جسم الحكومة فى هذه المرة أيضا مقتلا وبعد أن باتت نظارة الأشغال بيد منكريف والحربية بيد الجنرال جرنفيل والخزينة بيد منلر وبالمر والداخلية بيد فنك والمعارف بيد صنائع السير بارنج فيها وقد ختم أيضا على قلب الوظائف الصغرى بخاتم لا يقدر على فضه إلا الجبار العظيم فلم يبق إلا أن يقضى على البقية الباقية بأيدى أبناء البلاد الضعفاء من أوجه الارتزاق فيموتون جوعا وتحيا جماعة الإنجليز أو ثناه عنه عزة المنصب وأبهته الظاهرة فلم يكن إلا القليل حتى برح الخفاء وظهر للعيان أنه قد غير من عزمه وفضل البقاء فى منصبه فقالوا لعل فى ذلك حكمة .

واشتد أصحاب صحف الإنجليز على الرئيس وبعض النظار بقارص الكلام ورموهم بالعسف وحب الذات وقالوا إنهم جميعا زعماء للحزب الذى عاش أعواما تحت راية الاستبداد القديم فلا يليق بعظمة السلطنة الإنجليزية أن تفسح لهم فى الأجل ولا أن تتركهم يتضافرون على مثل هذا العمل فإما عيشة راضية وإما ضربة قاضية وإلا ساءت الحال واتسع المجال واستعصى على سلطانة البحار بلوغ الآمال. وهبَّ صاحب سياسة الفرنسيس من الخمول وأرسل إلى قنصلهم بمصر أن يحتج على تولية أسكوت منصب الاستشارة ويمانع فى تعيين لجنة المراقبة وأن يعلن أصحاب الحل والعقد بمصر أن دولة الفرنسيس لا تتساهل فى شىء من ذلك ألبتة فصدع القنصل بالأمر واجتمع بالرئيس مصطفى رياض باشا وتيكران باشا وأدّى الرسالة حقها، قيل ففرح الرئيس بذلك وأبلغ الخبر إلى السير بارنج وهذا رفعه إلى صاحب سياستهم ولبثوا ينتظرون الجواب وانقطع الرئيس فى داره يوما وبعض يوم ثم سافر إلى مزارعه بطود البحيرة وأقام بها أياما كثر فيها لغط أصحاب صحف الأخبار المحلية بشىء من مطاعن أصحاب الصحف الإنجليزية ثم جاء الخبر إلى ديوان الخديوى بنزوع صاحبى سياسة الإنجليز والفرنسيس إلى المناقشة فيما أفضى إلى تولية أسكوت منصب الاستشارة وأن المناقشة فى اشتداد وقد دخلت فى غمارها أيضا دولة الألمان والباب العالى.

واتفق أن مات فى رابع عشر رجب قاضى قضاة مصر الشيخ عبدالرحمن نافذ فخلا بموته منصب القضاء الشرعى فتساءل الناس عمن يخلفه وعما إذا كان ذلك الخلف يأتى من دار السلطنة بفرمان من الباب العالى على ما جرت به العادة من قبل أو أن الحكومة المصرية تولى من تشاء من قضاتها وظنوا أن وقوع هذا الحادث فى هذا الحين قد يمكن السلطان من التوسع فى الكلام مع الدول عن حالة القضاء بديار مصر وفى تطاول يد الاحتلال الإنجليزى إلى العبث به وفى تولية أسكوت منصب الاستشارة على غير مسوّغ فيتضافروا جميعا على ما فيه المصلحة وقد وقع ما كانوا يظنون فإنه ما بلغ الباب العالى خبر موت الشيخ القاضى حتى وردت كتبه على ديوان الخديوى والغازى مختار باشا بعزم السلطان على إلغاء ما جاء بفرمانه الشاهانى المؤرخ سنة إحدى وتسعين ومائتين وألف هجرية من بقاء الشيخ عبدالرحمن فى منصب القضاء بمصر وعدم استبداله كالعادة المتبعة بالباب العالى فى كل سنة إذ بموت الشيخ عاد إلى الباب العالى حقه فى تولية القضاء كل عام لمن هم مترشحون لذلك

من مشايخ الوقت فى دار السلطنة، فاهتم الخديوى بالأمر وكلم الغازى مختار باشا فى بقاء حق انتخاب القاضى الجديد للخديوية المصرية فأرسل الغازى إلى الباب العالى فى ذلك فجاء الجواب قائلا إنه قد جرت العادة من قديم أن للباب العالى وحده حق تعيين قاضى قضاة مصر من أصحاب الدراية والأهلية بالترتيب لكل قاض منهم سنة واحدة فإذا انقضت السنة يرسل الباب العالى صاحب الدور وهكذا، فلما كانت سنة إحدى وتسعين ومائتين وألف هجرية التمس الخديوى إسماعيل من لدن الذات الشاهانية بقاء الشيخ عبدالرحمن نافذ فى منصب القضاء بشرط أن تدفع خديوية مصر ثلاثة آلاف جنيه فى كل سنة لصاحب الدور من مشايخ الوقت فى دار السلطنة بدون أن يشغل الوظيفة فأجاز الباب العالى للشيخ عبد الرحمن البقاء فى مصر من سنة اثنتين وتسعين بمرتب قدره ألف وخمسمائة جنيه يتقاضاه من خزينة الخديوية المصرية فى كل سنة إلى أن يتوفاه الله ولما كان هذا الامتياز لم يختص به إلا الشيخ عبد الرحمن وحده فقد زال بموته وعاد إلى الباب العالى حقه فى إرسال صاحب الدور من علماء دار السلطنة إلى هذا المنصب، فمال الرئيس مصطفى رياض باشا إلى مقالة الباب العالى وأحلها محلها ولم يبخسه حقه وكأنه كان يتمنى لو أن السلطان ينال من هذه الفرصة مأربا فيوقف مطالب صاحب سياسة الإنجليز عند حد ويعمل على إرجاع الأمور إلى ما كانت عليه ولكن هل يطلب أثرا بعد عين وقد جاء فى المثل «الصيف ضيعت اللبن» وقيل إن من التوقى ترك الإفراط فى التوقى لأن من حنكته التجارب قاد هامة الحوادث بذوائبها فدانت له ورجل الأنام من قدر على الاستيثاق من موادعة الأيام.

فلما كان ثالث عشرى رجب جاء الخبر من دار السلطنة العثمانية بأن قد صدر الفرمان السلطانى بتولية الشيخ عبدالله جمال الدين قضاء مصر وقد كان على قضاء الروملى ثم أعقب هذا الخبر ورود كتاب من الصدر الأعظم إلى الديوان الخديوى يقول فيه: إن جلالة مولانا المتبوع الأعظم أمير المؤمنين قد ساءته تولية أسكوت الإنجليزى منصب الاستشارة القضائية بالخديوية المصرية فى حين أن القضاء بديار مصر قد بلغ أقصى درجات الكمال وشاع الخبر بذلك فأرسل الخديوى إلى الباب العالى على جناح البرق رسالة يقول فيها بعد الاستعطاف والتلطف: إنه بإجازته تولية أسكوت هذا المنصب لم يأت أمرا جديدا فى ديار مصر بل هو فعل مثل ما فعله خلفاؤه من تولية بعض الأجانب فى المصالح والدواوين المهمة للاستفادة من

نشاطهم وعلمهم وأنه لا شيء بيد أسكوت من القوّة الإجرائية ولا هو مطلق الكلمة في شيء وأن مشروعاته لا يعمل بها إلا بعد تمحيصها والتصديق عليها من مجلس النظار وصدور الأمر بتنفيذها - فلم يعجب الأحزاب هذا القول وظنوه خدعة وحيلة وقالوا إن الباب العالى سيطاول فى إرسال القاضى الجديد حتى يتم لصاحب سياسة الفرنسيس الاتفاق مع زعيم السياسة الإنجليزية على إرجاع الأمور إلى ما كانت عليه فلم يصب ظنهم المرمى ووصل القاضى إلى الإسكندرية فى صبح الاثنين الحادى والعشرين من شعبان من السنة مع عائلته وبعض الخدم وبات ليلته تلك فى بيت مفتى الثغر فزاره العلماء والوجهاء وأصبح فركب قطار السكة الحديد إلى القاهرة فاستقبله فى محطتها جماعة العلماء والغازى مختار باشا وبعض رجال الغازى وفخرى باشا ناظر الحقانية وشيخ الجامع الأزهر ومفتى مصر والتشريفاتى الخديوى وبعد تبادل التحية ركب القاضى فى مركبة من المركبات الخديوية يحف بها كوكبة من الفرسان وعلى يساره حسين فخرى باشا ونزل ضيفا بمنزل سعادته وفى ثانى يوم ركب فى عربة من عربات الخديوى وعلى يساره الشيخ الرافعى رئيس المجلس العلمى وحضر إلى سراى عابدين فاستقبله عبد الرحمن رشدى باشا رئيس التشريفات وأدخله على الخديوى فقابله بالترحيب وبعد أن تناول القهوة ألبسه الخديوى خلعة ثمينة من فرو السمور فنزل بها إلى المحكمة واحتفل به قضاة مجلسها وهنئوه وبعد برهة لطيفة سار إلى المشهد الحسينى فزاره وركب من هناك إلى منزل مضيفه وبعد أيام قلائل أولم له الخديوى وليمة شائقة حضرها الغازى مختار باشا وبعض الأمراء من البيت العلوى وبعض الوزراء وكبار الديوان الخديوى والعلماء.

واتفق أن ابتاعت حكومة الإنجليز من الحكومة الخديوية قطعة أرض من فضاء قصر الدوباره على ساحل النيل الشرقى لبنائها دارا لقنصلاتو الإنجليز بثمن وقع الاتفاق عليه وكان المشترى لها السير بارنج باسم ملكة الإنجليز وإمبراطورة الهند فبعد أن تم الاتفاق على البيع والشراء وقبض الثمن أرسل ناظر المالية إلى قاضى القضاة جمال الدين يطلب توقيع الصيغة الشرعية وتسجيل البيع بالطريق الشرعى واستخراج الحجة بذلك فأعاد القاضى السؤال عما إذا كان تحديد الأرض يشمل شيئا من ساحل البحر فإذا كان كذلك فلا يصح لأنه طريق مطروق لا يصح تمليكه للغير فقال السير بارنج إن البيع يشمل الساحل وأنه قد اشترى الأرض إلى مجرى الحوت فامتنع القاضى عند ذلك من عمل المسوغ الشرعى وقال لا يجوز تمليك الطريق السلطانى للغير

فشدد السير بارنج فى الطلب وقال لابد من استخراج الحجة بما تم بيعه فسأل حسين فخرى باشا مفتى مصر رأيه فى ذلك فأفتى بعدم جواز البيع وبعدم تمليك الطريق السلطانى للغير وعدم جواز جعل الحد الغربى .

فلما كان عصر ذلك اليوم حضر مصطفى فهمى باشا إلى مقر الخديوى بعابدين ولبث بحضرته برهة ثم خرج فأرسل إليه الخديوى فى سادس شوال مرسوما يقول فيه: إنه بناء على ما رأيناه فى عطوفتكم من الدراية والأهلية ووثوقنا بكم قد أحلنا على عهدتكم رئاسة مجلس نظار حكومتنا وعلى هذا نطلب منكم القيام بتأليف هيئة نظارة جديدة وليكن فى علمكم أننا نعضدكم ونساعدكم على الأعمال المهمة التى دعوناكم لأدائها وبما أن المنهج الذى سلكناه منذ توليتنا لحسن سير أعمال حكومتنا وسرنا على مقتضاه للآن هو ما جاء فى أمرنا الصادر بتاريخ حادى عشر سبتمبر سنة تسع وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية ولا حاجة لتذكيركم بما تضمنه من المواد الأساسية وهى أن حكمنا وإجراءه يكون مع مجلس نظارنا وبواسطته مع بقاء الحق لنا فى الرئاسة على جلساته بذاتنا كلما رأينا لزوما لذلك كما أن جل قصدنا وغاية مرغوبنا هو العدل والاستقامة والإصلاح وحسن الترتيب فى جميع إدارات القطر والسعى فى ازدياد الرفاهية والتقدم فى جميع أنحاء البلاد حسا ومعنى فليكن ذلك دائما مطمح أنظاركم حتى يتسنى لنا بإذن الله الحصول على ما ذكر ونسأله تعالى أن يوفقنا جميعا لما فيه الخير للبلاد ورفاهية العباد أ.هـ .

فلما وصل إلى مصطفى فهمى باشا مرسوم الخديوى اجتمع بالسير بارنج برهة طويلة واجتمع كذلك بالمستشار المالى وعند الساعة الثامنة من ذلك اليوم تمثل بين يدى الخديوى بمقره ورفع إليه عريضة تتضمن أسماء من ستتألف منهم هيئة الوزارة الجديدة فكان فيها أن عبدالرحمن رشدى باشا للمالية ومحمد زكى باشا للأشغال العمومية والمعارف وحسين فخرى باشا للحقانية ويوسف شهدى باشا للحربية والبحرية وتيكران باشا للخارجية فوافق الخديوى على إسناد هذه المناصب إليهم ورسم بذلك فساروا جميعا إلى مقره بعابدين فهنأهم فقبلوا يده وانصرفوا وسافر مصطفى رياض باشا إلى مزرعته بطود البحيرة واحتجب عن الناس كافة وعفت أخباره وشاع الخبر بعزم أولى الأمر على خلع محمود باشا دبوس أوغلى صهره من وكالة الداخلية فاستحسن الناس ذلك وأحلوه من الصواب محله.

(مطلب)

ظهور الجراد بالإقليمين القبلي والبحري

ووردت الأخبار من بعض مديرى الإقليمين القبلى والبحرى على ديوان الخديوى وديوان الداخلية بظهور الجراد فى جهات الصالحية والزنكلون وتل حوين من بلاد الشرقية وأهوه وباروط وآهـا من بلاد مديرية بنى سويف وكثير من بلاد مديرية جرجا وأسيوط وبلاد مركزى النجيلة والدلنجات واليهودية وقبور الأمراء بالبحيرة وطود وداماريس والبرجين والأخصاص وغيرها بمديرية المنيا وأكثر بلاد القليوبية والمنوفية وكسا أراضى الجزيرة بالبر الغربى من القاهرة وكان ظهوره فى أخريات رمضان فخاف الناس شره واهتمت الحكومة بأمره اهتماما عظيما وأرسلت إلى سائر المديرين والمحافظين بالتشديد على قطع شأفته فجدوا فى تأثره وكانت الأخبار ترد تباعا بتكاثره وانتشاره شرقا وغربا وشمالا وجنوبا وفتكه بكل ذى خضرة من النبات والشجر والنخيل وظل الحال على ذلك أياما والناس فى دهشة وحيرة حتى أذن الله سبحانه بأن هبت فى أخريات شوال من السنة رياح مختلفة بعضها من الشرق وبعضها من الغرب ولبثت على اشتدادها أياما فاكتسحته وحملت بعضه إلى الحوف الشرقى وبعضه إلى الجبل الغربى ولم تترك منه إلا القليل فى البلاد والقرى التى نزل عليها فأباده أهلها بضرب العصى وسعف النخل وجدّوا فى جمع بيضه وفرضت الحكومة قرشين لمن يأتى بأقة من بيضة فتسابق الناس إلى البحث عن مواطنه وإخراجه منها فكان أكثره فى مركز النجيلة بالبحيرة وفى الجبل الغربى وسواحل البحر وفى الفشن بمديرية المنيا، ومن غريب ما نقل عنه أن سحابة منه نزلت على مزرعة قطن بإحدى بلاد المنوفية فأكلتها وما أتت على آخرها حتى ماتت جميعها فجاءت أخرى إلى مزرعة فى جوار المزرعة الأولى فلما رأت ما أصاب الأولى نفرت من النزول على شجر القطن وعافته وفرت فلم ير بعد هذه الحادثة جراد يأكل شجر القطن وتحوّل ضرره إلى الأشجار والنباتات الأخرى وأخبر جماعة من تجار المنوفية مديرها وحلفوا له الأيمان المغلظة بأنهم شاهدوا فى بلاد مركز أشمون جريس طيرا كثيرا جدا أقرب شبها بأبى قردان ولكنه أطول منقارا قد نزل من الجبل الغربى أسرابا أسرابا وأخذ يتتبع الجراد أينما وجده ويكبس عليه ويزدرد منه المئين والألف ثم يتقيئوه ميتا وهكذا فلا يرحل عن البلد أو المزرعة إلا وقد أفنى ما فيها من الجراد وأباده وأن بعض الجهلة من الفلاحين كانوا يخافون من ذلك الطير

فيرجمونه بالأحجار وهو لا يلتفت إلى ذلك ولم يثن له عزما، **قلت:** وقد شاهدت شيئا كثراً من ذلك الطير نازلا على طول الطريق من نفيشة إلى السويس وهو على هيئة صفوف الجند بعضها خلف بعض ساكن القلب لا يزعجه مزعج ولا يحركه محرك وقد أخبرنى بعض أهالى نفيشة بأن قد نزل عليهم منذ أيام وهو يترصد الجراد الزاحف من بلاد الشرقية إلى الحوف الشرقى حتى إذا مر به قام من فوره وسد عليه الطريق وجعل يضربه بأجنحته ومنقاره ويبتلع منه الألف فلا تستقر فى جوفه لحظة حتى يتقايأها فإذا أفلت منه شىء تعقبه وقتله ثم يعود إلى مكانه متربصًا. قيل وبقى على هذه الحال أياما حتى قامت تلك الريح واكتسحت ما بقى من الجراد فسبحان مدبر الأكوان ومسلط الأبدان على الأبدان إنه خلاق عظيم سبحانه جل شأنه.

(مطلب)

موافقة عيد الأضحى لعيد بلوغ ولي العهد سن الرشد

وبالغ الخديوى هذا العام فى إظهار أبهة عيد الأضحى لموافقة أيامه لأيام عيد بلوغ الأمير عباس ولى العهد سن الرشد وكان الخديوى باسكندرية على عادته فى إبان الصيف فطير الخبر بعمل تشريف العيد إلى الآفاق فهرع الأمراء من البيت العلوى والكبراء والعلماء والمشايخ وأرباب الوظائف على اختلاف مراتبهم إلى الإسكندرية استعدادا لحضور يوم التبريك بالعيدين عيد الأضحى وعيد بلوغ الأمير سن الرشد وكثر توارد رسائل التهانى على ديوان الخديوى من كل صوب، فلما كان صبح الخميس عاشر ذى الحجة ركب الخديوى عربة التشريف وعلى يساره الأمير عباس وأمامه الأمير محمد على ولده الثانى وأمام العربة كوكبة من الفرسان وخلفه كذلك وسار إلى مسجد أبى العباس فصلى صلاة العيد ثم عاد إلى مقره برأس التين فدخل عليه الأمراء من البيت العلوى فهنئوه بالعيد وبلوغ ولى العهد سن الرشد وهنئوا كذلك الأمير ثم دخل الوزراء والكبراء والعلماء والوجهاء والرؤساء وأدوا فروض التهانى وخرجوا من عنده إلى سراى الحرم وكانت رحبة السراى مزدحمة بصفوف الجند والمواكب والمدافع تطلق من طوابى وأبراج البلد ومن سفن البحر على اختلاف أجناسها والموسيقى تصدح فى كل ناحية من ساحة السراى وكانت والدة ولى العهد قد أولمت ثلاثة أيام قبل يوم العيد وأطعمت وتصدّقت على الفقراء وأصحاب البيوتات وفرقت بعض التحف والهدايا النفيسة وكذلك فعل الخديوى

وجاء إلى ولى العهد نيشان الافتخار من إمبراطور النمسا والمجر فسلمه إياه القنصل فى حفلة من الأمراء والوزراء والكبراء وألبسه الخديوى كذلك بيده فى حفلة أخرى النيشان العثمانى الأوّل فوقف على باب الأمير يومئذ الشعراء والقوالون وتسابق المهنئون من كل صوب فمما قاله أحدهم فى الأمير :

نبه يراعك من وصف وتشبيب   وخذ بنظم التهانى كل أسلوب
إن الهناء إذا طابت موارده   أغناك عن غزل فى الشعر مطلوب
واليوم جلت تهانينا فكان لها   صدر المقام كعنوان المكاتيب
قد بلغ الله مصرا ما به وعدت   ونعمة الله وعد غير مكذوب

إلى أن قال :

والبدر فى أصله تم تحجبه   أيامه ثم يبدو غير محجوب
يابالغ الرشد فى ترتيب مدته   وأنت بالغه من قبل ترتيب
ونائل الأدب الوضاح من خلق   من قبل تأديب أستاذ وتهذيب
ليس الحداثة من حلم بمانعة   قد يوجد الحلم فى الشبان والشيب
وليس رشد الفتى فى سنه أبدا   بل فى فؤاد وأخلاق وتدريب
كذاك قد خلق الله الأمير لنا   والمجد فى النفس طبع غير مكسوب
فنال من بعد تغريب معارفه   ولم ينل فضله من بعد تغريب
فضل توارثه عن خير محتده   والفرع من أصله فى الحسن والطيب
جارى أباه فكادا يجريان معا   لولا مهابة إجلال وتأديب
وأصبحت مصر فى آمالها ولها   قلب المحب أتاه وعد محبوب
حتى ترى منه غيثا فى شمائله   والغيث فى وشك سكب مثل مسكوب
لقد دعوه بعباس ليوم وغى   ولكنه فى الندى من غير تقطيب
فأبصروا منه بحرا فى مكارمه   تخلو عذوبته من كل تعذيب
وشاهدوا منه عقل الشيخ فى حكم   برأس أمرد داجى الشعر غربيب
ومن يكن نجل توفيق البلاد فلا   بدع إذا كان مجموع الأعاجيب
حاولت وصف الهنا فيه فأزعجنى   كأنه شقة فى عين متعوب
فلم أنل وصفه إلا على بعد   ولم أنل مدحه إلا بتقريب

وركب ولى العهد فى ذلك اليوم فى عربة فاخرة وخلفه نفر من الجند فطاف على بيوت الأمراء من البيت العلوى وزار بعض قناصل الدول فكان يوما مشهودا.

(مطلب)

ظهور الوباء بمكة ومصوّع

وما تمت أيام العيد وما تبعها من أيام التزاور حتى ورد الخبر من مكة بظهور الوباء الأصفر بها ودخوله إليها من الحجاج الهنود فقام رجال الحكومة لذلك وقعدوا وأرسل الخديوى كتبه إلى نصحى باشا أمير ركب الحج المصرى فجاء الرد يقول إن الوباء على أشد ما يكون بمكة وأنه قد مات به ثلاثة من الجنود المصرية وأحمد أفندى عمر طبيب الركب المصرى ثم جاء الخبر أيضا بدخول ذلك الوباء إلى مصوع وفتكه بمن فيها فتكا ذريعا فرسم الخديوى من فوره بعمل الاحتياطات الصحية وسيروا فى يوم الأربعاء سادس عشر ذى الحجة جماعة من الأطباء والصيدلية وخدام المرضى إلى محجر الطور على ظهر الباخرة عائدة ومعهم الأدوية والخيام والملابس لفقراء الحجاج وأرسل ديوان الصحة إلى سائر عماله بالتأهب والاستعداد ليوم الطلب ومنعت نظارة الداخلية من إقامة سائر الموالد فى أنحاء البلاد فخاف الناس وجعلوا يبالغون فى الحيطة والتوقى من شر ذلك العدوّ الفتاك وطاف مشايخ الحارات ينادون على العامة بتنظيف دورهم والعناية بمأكلهم ومشربهم وملبسهم فضلا عن نظافة أجسامهم فوقع هذا النداء من قلوبهم موقعا رهيبا وكثر بينهم الهرج والمرج على عادتهم عند ظهور خبر هذا الحادث وطاف كذلك أصحاب الشرطة وأطباء الأقسام يفتشون الدور والوكائل ويلزمون أصحابها بنظافتها والعناية بها وظل الحال على ذلك حتى وصل الحجاج إلى محجر الطور ولبثوا به أيام الحجر فكان الموات بينهم قليلا ثم انقطع ولم يبق عليهم من خوف فجاءوا إلى السويس ودخلوا القاهرة معافين فزال عن الناس الخوف واطمأنت قلوبهم وانكف أصحاب الشرطة وأعوان الصحة عن التطواف كما كانوا يفعلون فى كل يوم .

(مطلب)

حريق سراي عابدين

وفى فجر يوم الخميس سابع عشر ذى الحجة سمع دوىّ شديد وصوت كأشد ما يكون من قصف الرعد وانتشر دخان كثيف ملأ جو القاهرة فهب الناس من نومهم

مذعورين وخرجوا يريدون مكان ذلك الصوت فظهر لهم لهب النار يرتفع من سراى الخديوى بعابدين إلى عنان السماء وشاهدوا طوائف الجند من المصريين والإنجليز يتسابقون إلى رحبة السراى ومعهم أصحاب المطافئ وجماعة ينفخون فى البوق نداء لمن تخلف منهم وكانت النار قد ظهرت أولا من غرفة فى الجهة الشرقية المجاورة لأحد مطابخ الدائرة الخاصة واشتد لهيبها ثم اتصلت إلى غرفة أخرى فأصابت أنابيب الغاز فتفرقعت الأنابيب فاشتد سعير النار وامتد لسانها وكبر خطرها وكثر نداء البوق فهرع الجند من كل صوب وناحية وجاءت خيل الحمل وعربات المياه وعربات الرش والطلمبات والفعلة ثم حضر الوزراء ووكلاء النظارات ورؤساء المصالح وكثير من الباشوات المتقاعدين وجعل كل منهم يقول رأيه فى كيفية إطفاء تلك النيران الآكلة فاختلفت الآراء واشتد اللهب وعلا علوا كبيرا وقد غاب عنهم جميعا إجراء الهدم للفصل بين الأماكن التى أخذت النار تأكل فيها وبين الأماكن التى لم تكن قد وصلتها النار واشتد الخوف على ما فى السراى من الأمتعة الفاخرة والفروشات الثمينة والثريات والمقاعد والأسرة والتحف التى لا تكاد تدخل تحت الحصر فأشار بعضهم بنقلها كلها إلى فسحة السراى الخارجية فنقل الجند بعضها فتكسر بعضه وتعطل البعض الآخر وكانوا يلقون بالشىء الكثير منها من النوافذ والشبابيك فيتحطم وهكذا ولم ينتبه أحدهم إلى الهدم والحيلولة بين النار وبين ما بقى من البناء أو تنبه بعضهم ولم يجد سميعا حتى أتت النار على جميع ما فى الجهة الشرقية إلى قرب باب المعية من الجهة الأمامية وإلى قريب سراى الحرم من الجهة الخلفية فتنبهوا حينئذ للهدم فهدموا غرفتين كبيرتين بين ديوان المعية وبين سراى الحرم بإلقاء الديناميت وكذلك هدموا سائر محلات الكتبة فانفصلت النار عن غرف المعية وانحصرت فى الجهة الشرقية وكان فعل الديناميت عند إلقائه على ذلك البناء غريبا مهولا جدا مادت له الأرض وأظلم به وجه السماء وكاد الناس يخرون على وجوههم لشدة ما أصابهم ثم جعلوا يلقون الماء على النار من المطافئ كالسيل ومازالوا على ذلك حتى تمكنوا من إخمادها وسلمت الجهة البحرية من السراى وكان ما كان من أمر المفروشات والنفائس والتحف أما الأوانى الذهبية والفضية والخزائن والسجلات والأوراق المهمة فقد نجت كلها من النار فحفظوها فى مكان وأقاموا الحراس من الجند حول السراى وما تهدم منها فى الليل والنهار وطيروا الخبر بما جرى إلى الخديوى فجاء ولى العهد ووالدته إلى القاهرة على قطار مخصوص وذهبا من فورهما إلى بناء السراى ولبثا هناك إلى قريب الغروب ثم عادا إلى الإسكندرية ومعهما من حضر من

الخدم والأتباع، واختلف الناس فى أسباب الحريق وكثرت الظنون وترامت إلى أسمج المرامى فرسم الخديوى بتحقيق الأسباب قيل وبلغه ما يقوله الناس فشدد على النائب العمومى فى ذلك، واتفق أن وجد جماعة العسس فى فجر الخميس ثانى عشرى ذى الحجة كيسا ملقى فى الطريق ما بين ترعة الإسماعيلية وكنيسة الإفرنج فيها ففتحوه فوجدوا فيه جثة رجل من العامة مقطوع الرأس مجهول الاسم والبلد فحملوا الجثة ودفنوها وأبقوا الرأس على رصيف الطريق وحولها جماعة من العسكر تخفرها فلما طلع النهار وشاع خبر ذلك تسارع الناس على اختلاف طبقاتهم إلى ذلك المكان ليروا الرأس واشتد الزحام حتى استدت منافذ الطرق وكثرت ضوضاء العامة وقالوا إن صاحب هذا الرأس هو الذى أحرق سراى عابدين وأنه قد حكم بقطع رأسه وتشهيرها وكثر اللغط بذلك وانتشر فى القاهرة ومصر القديمة فخاف أصحاب الشرطة العاقبة وحملوا الرأس فدفنوها وقد كانوا يريدون من عرضها على الناس معرفة صاحبها فلم يتمكنوا من ذلك وجدّ أصحاب الشرطة فى البحث عن القاتل وتعقبه أينما سار وحيثما صار فعلموا أن القاتلين للرجل جماعة دعاهم إلى فعل القتل الطمع فيما معه من المال، وتحرير الخبر أن القتيل رجل من المزارعين من أهالى أسيوط وله عادة أن يأتى إلى القاهرة فى مثل هذه الأيام من كل سنة ليدفع أجرة أرض استأجرها من أحد أعيان القاهرة فجاء فى ذلك اليوم على سابق عادته فى إحدى المراكب ومعه شيء من القمح والفول ليبيعه ويدفع إيجار الأرض من ثمنه وبات ليلته تلك عند صاحب له من خفراء بيوت خطة الإسماعيلية فظن الخفير أن ضيفه يحمل معه إيجار الأرض لصاحبها على عادته فى كل عام فلما نام الرجل آمنا مطمئنا فى حمى مضيفه انسل الخفير وعاد ومعه رجلان على شاكلته فانكبوا على الرجل وهو فى نومه وذبحوه ذبح الشاة وفتشوه فلم يجدوا معه شيئا لأنه لم يكن إلى تلك الليلة قد باع غلته فوضعوا جثته فى كيس وألقوها فى الطريق فقبض أصحاب الشرطة عليهم جميعا وألقوهم فى الحبس لينالوا جزاءهم.

(مطلب)

جبر البحر

ورسم الخديوى بأن يكون جبر الخليج أى جريان الماء فى خليج الخليفة المار بوسط القاهرة فى يوم الخميس ثالث عشر الشهر أى شهر المحرم من السنة وأن ينوب عنه فى حضور المهرجان ولى عهده الأمير عباس فقام الأمير من الإسكندرية فى يوم

الأربعاء على قطار خاص فكان كلما وقف القطار في محطة أطلقت له المدافع إجلالا وتعظيما حتى وصل القاهرة وقد كانت محطتها مزدانة بالرياحين والأزهار وغاصة بجماهير الأمراء والوزراء والعلماء والموظفين والوجهاء وقضاة المحاكم الأهلية وأعضاء مجلس شورى البلاد وقد اصطفت الجنود ما بين مشاة وركبان في ساحة المحطة مع بعض العساكر الإنجليزية فلما نزل الأمير من القطار أطلقت المدافع وصدحت الموسيقى العسكرية فسار بين هذا الجمع حتى ركب العربة وإلى يساره شقيقة الأمير محمد على وركب أمامهما شوقى باشا ناظر الخاصة ودومرتينو باشا أحد رجال المعية وسارت بهم المركبة وخلفها الجند حتى اليخت الخديوى بالترسانة ببولاق مصر فأطلقت لمقدمهم المدافع من كل صوب فباتوا ليلتهم باليخت فلما كان مساء اليوم الثانى فى نحو العشاء الأولى ركب الأمير وشقيقه إلى مصطبة فم الخليج وقد أعدّوا لهما بصدر المصطبة سرادقا من الديباج فرش بالطنافس وأنير بالثريات وصفت فيه الكراسى الملبسة بالحرير فجلس الأمير واجتمع الناس فى تلك الساحة وفى الساعة التاسعة أحرقت الحراقات وأطلقت الأسهم النارية وجعل كبار القوم يدخلون على الأمير ويهنئونه إلى نحو نصف الليل ثم ركب مع شقيقه وحاشيته إلى قصر الجزيرة فباتوا وفى الصباح عاد إلى المصطبة وكان قد اجتمع هناك الوزراء وموظفو الحكومة بملابس الزينة والتشريف وبعد برهة لطيفة أمر الأمير بقطع السد فجرى الماء بالخليج ونثرت على السد الدنانير فصاح الناس بأصوات الفرح ثم ركب فى قلة من الخدم والحشم إلى مدينة حلوان فقضى فيها بقية يومه وعاد فبات ليلته فى اليخت الخديوى وأصبح يوم الجمعة فزار فى مسائه المشهد الزينبى والمسجد الجامع والمسجد الحسينى ومن هناك عاد إلى اليخت وفى يوم السبت قضى هو وشقيقه نهارهما بين المطرية والقبة والأهرام ومتحف الجيزة وسافرا فى صبح الأحد عائدين إلى الإسكندرية ووقف الشعراء على باب الأمير وامتدحوه بالأبيات الأبيات فممن قال فى ذلك محمود أفندى حسنى المعاون بمحافظة مصر قصيدة طويلة قال فى مطلعها.

وفى النيل بالأنجال يمنا لذا العام ولاحت شموس البشر للخاص والعام

وقال فى المديح :

صفات صفت من معدن المجد والتقى صفات أمير القطر والسودد النامى

وقال فى الختام:

جبرتم قلوب العالمين تكرما بتشريف جبر النيل فى خير أيام

وقال فى التاريخ :

بذا لسعود القطر قلت مؤرخا   وفى النيل بالأنجال يمنا لذا العام

(مطلب)

تحقيق ديون غردون باشا

وعادوا فاشتغل أصحاب الحل والعقد بعد خلع مصطفى رياض باشا من منصب الرئاسة بتحقيق ديون غردون لأصحاب الأموال بالسودان أيام حصار الخرطوم والنظر فى شكاوى النازحين من الأقطار السودانية من الجند وأصحاب الوظائف والأهلين فقد كان قناصل الدول فى سعى متواصل مع رجال الدولة فى ذلك فرسم الخديوى فى سابع عشرى المحرم وأول سبتمبر بتشكيل لجنة من البارون رشتوفن والكونت زالوسكى والمسيو لوشوفاليه والمستر مونى والمسيوريوميدس والمسيو مورانا والبرنس موروزى وكلهم أعضاء صندوق الدين والمسيوروكاسيره مستشار قضايا الخزينة وأجاز لهم النظر فى تلك الطلبات والحكم فيها نهائيا مع اعتبار صحة سائر الديون التى حكم بها قضائيا بأحكام صارت فى قوّة التنفيذ وكذلك الديون المعترف بها من الخزينة أنها صحيحة وأن ترد للخزينة جميع الأموال التى قامت بدفعها قبل تشكيل هذه الهيئة فأحصوا تلك الديون والطلبات فبلغت تسعمائة ألف وستة وتسعين ألفًا وستين جنيها مصريا منها ستمائة ألف وسبعة وخمسون ألفًا ومائتان وثمانية وخمسون للأجانب على اختلاف أجناسهم وثلثمائة ألف وثمانية وثلاثون ألفا وثمانمائة واثنان للأهالى على تباين مذاهبهم فعدّلوا فيها ماشاءوا وحكموا بما شاءوا واستدانت الخزينة لوفاء هذه الديون والمطالب قدرا من المال كبيرا فكان نصيب الأهلين وأصحاب الوظائف الديوانية من ذلك نصيب الثعلب من صيده مع الأسد وراحت أموالهم وأرزاقهم هباء كما راح دم غردون بين أصحاب المهدى هدرا.

(مطلب)

العثور على عبد الله نديم بعد هروبه

وشاع خبر عزم الخديوى على الحضور إلى القاهرة من مصيفه بالإسكندرية وأن بعض العيون أبلغت ديوانه الخاص بأن فى بلد الجميزة التابعة لمديرية الغربية رجلين غريبين يقيمان بها منذ أمد بعيد وربما كان أحدهم عبدالله نديم صاحب الطائف

وخطيب عصاة الثورة العرابية وصاحب تلك الأحوال والأهوال المشهورة فاهتم الخديوى بالأمر وسير إلى مدير الغربية مرسوما بتحقيق الخبر ومعرفة ذينك الغريبين فصدع المدير بالأمر وسير جماعة من أصحاب الشرطة وبعض رجال العسس إلى ذلك البلد فلم تكن إلا أيام حتى عادوا فى ثانى ربيع الأول ومعهم عبدالله نديم بعينه ومينه وخادم له اسمه صالح أحمد وكان عبدالله فى زى الدراويش المولوية وعلى رأسه عمامة خضراء مكورة وقد أطلق لحيته فجعلته أقرب شبها بعرب العبابدة فكتم المدير عن الناس خبر ظهوره خوف الفتنة وطير الخبر بذلك إلى ديوان الخديوى ونظارة الداخلية فاجتمع فى نظارة الداخلية عبدالرحمن رشدى باشا وزكى باشا وكتشنر باشا وتيكران باشا وأحمد شكرى باشا وتناجوا طويلا فى ظهور عبدالله نديم بعد اختفائه كل هذه المدّة الطويلة وفى الخطة الواجب اتخاذها فى تحقيق أمر هربه واختفائه ومكثه كل هذا الزمان بالجميزة فلما كان عاشر الشهر قرر مجلس النظار إنفاذ الأمر الخديوى الصادر بنفى عبد الله نديم إلى الشام وإطلاق سبيل من ضبط معه وجاء الأمر بذلك إلى مدير الغربية وبأن يرسل عبدالله إلى الإسكندرية ليسير منها إلى الشام فأنزلوه فى قطار السكة الحديد تحرسه جماعة من الجند ومعاونى المديرية ومنعوا الناس من رؤيته وقد كانوا قبضوا أيضا على جماعة من أهل الجميزة ممن آوى إليهم عبدالله ومن كان يعرفه فعفا الخديوى عنهم وأطلقوا سراحهم ووصل عبدالله إلى الإسكندرية فأنزلوه فى سجن الترسانة ليلته تلك ثم أصبحوا فنقلوه إلى إحدى بواخر الشركة الخديوية الذاهبة إلى الشام وقد رسم الخديوى إلى ربانها بأن لا يضيق على عبد الله ولا يشوّش عليه وأن ينزله بأى بلد شاءها هو من بلاد الشام وأن يعطى له بعد نزوله شىء من المال للنفقة وتيسير المعيشة وأجاز إلى عبدالله أن يشتغل بأى حرفة شاءها فأعجب الناس صنع الخديوى وتحدثوا به كثيرا وقد كان بعضهم يظن أن عقاب عبد الله نديم بعد العثور عليه لا يكون إلا الصلب أو قطع يديه أو النفى من أرض الشرق بأجمعه فوقع غير ما كانوا يظنون واختار عبد الله أن ينزلوه بيافا فأنزلوه بها قيل ففتح مكتبا لتعليم الصبيان وأظهر الزهد والورع ما استطاع ورضى بالكفاف فعرفه بعض الناس وقربوه منهم فحسنت حاله.

(مطلب)

فتح جسر قشيشة المستجد في حفلة حافلة

وجاء الخبر إلى الديوان الخديوى فى الإسكندرية بما بذله عمال الرى من جماعة الإنجليز من العناية بضبط رى سائر حيضان مديريات الإقليم القبلى فى هذا العام

وعدم تخلف شيء من الشراقى إلا النزر القليل من أطيان الحوف الشرقى رغما عن عدم بلوغ النيل حده المعتاد فى الزيادة وهم يطلبون الإذن بفتح قناطر قشيشة المستجدة فى حفلة حافلة فرسم الخديوى بذلك فلما كان رابع عشر ربيع الأول من السنة وسابع عشر أكتوبر زين رجال الرى القنطرة بطولها والطريق الموصلة إليها بالأعلام والرايات ووضعوا رسم الخديوى فى مدخل القناطر من جهة ورسم ناظر الأشغال العمومية والكولونيل منكريف والنابغة الكولونيل روس مفتش الرى وجماعة المهندسين الذين باشروا عمل هذا البناء من الجهة الثانية وقد اجتمع سائر الوزراء والكبراء وأرباب الوظائف وكبار المزارعين وطوائف المهندسين من أجانب ووطنيين وكثير من كتاب صحف الأخبار فلما أتت الساعة الحادية عشرة صباحا فتحوا خمسا من عيون تلك القنطرة فانحدر الماء انحداراً عجيبا ثم جلسوا على مائدة الطعام الذى أعده لهم المسيو زورو مقاول بناء القناطر فأكلوا جميعا وشربوا وعادوا إلى القاهرة فى القطار الخصوصى الذى حضروا به، وقد كان بناء هذه القناطر بإشارة من المجاور روس فإنه لما رأى الخطر المحدق بجسر سكة حديد الإقليم القبلى بسبب المياه التى تتسلط عليه أوان انحدار مياه الحيضان القبلية إلى حوض قشيشة وعدم تيسر ضبط صرف مياه هذا الحوض ومياه سائر الحيضان التى تنصرف إليه وضرورة وجود الموازنة فى مياه الصرف حرصا على فائدة حيضان الإقليم البحرى وانتفاعه منها أشار بعمل تلك القنطرة فاتفقوا مع أحد المهندسين الأجانب واسمه المسيو زورو وشريكه المسيو بوتا فى أخريات جمادى الثانية سنة سبع وثلثمائة وألف هجرية وأوائل شهر فبراير سنة تسعين وثمانمائة وألف ميلادية على عمل البناء بمقتضى تخطيط وتقدير هندسى فأتموا بناءها وهى تشتمل على ستين عينا مزدوجة سعة الواحدة منها ثلاثة أمتار وتحتوى على صفى عقود أحدهما فوق الآخر وللصف الأعلى منها أبواب أفقية من الحديد المتين وللصف الأسفل أبواب من حديد أيضا مركبة فى دروندات سطحية ترفع بواسطة مرفعتين متحركتين على خط حديدى مستوى الدورند من الأمام ووزن الباب الواحد من الأبواب العليا نحو سبعة وأربعين قنطارا مصريا ومن الأبواب السفلى نحو ثلاثة وعشرين قنطارا وكيفية استعمال هذه الأبواب هى أنه قبل أن يأخذ النيل فى الزيادة ترفع سائر الأبواب العليا منها وتجعل أفقية فتسد الفتحات العليا من القنطرة ثم ترفع البوابات السفلى فتدخل من العيون السفلى مياه النيل إلى الحوض ومتى صارت مياه الحوض معادلة لمنسوب مياه النيل أقفلوا تلك البوابات لكى تعلو

مياه الحوض مما يرد عليه من مياه الملق ومياه البحر اليوسفى فإذا زادت المياه بالحوض عن منسوب تمام الرى المعتدل فتحوا العيون السفلى مرة ثانية للتخفيف كلما دعت الحالة لذلك حتى يجيء وقت الصرف العمومى فيفتحون الأبواب العليا كلها حتى إذا ما هبط منسوب الحوض هبوطا كافيا فتحوا العيون السفلى لسهولة صرف ما يكون قد بقى فى الحوض من المياه - وبصرف مياه قشيشة إبان الصرف يرتفع النيل عند القاهرة وتظهر فيه الزيادة ولكنها تختلف بحسب مناسيب مياه الحوض والبحر فى إبان الصرف ويبلغ عمق المياه المحصورة فى الحيضان الكائنة بين أسيوط وقشيشة ما بين عشرين وأربعين سنتيمتراً - وقد بلغ ما أنفق على هذه القناطر العظيمة زهاء اثنين وستين ألفا وستمائة وعشرين جنيها مصريا فجاءت من أجل الأعمال الهندسية وأكبرها فائدة إذ هى تصرف فى النيل مياه سلسلة الحيضان الكائنة بين أسيوط وقشيشة على مسافة مائة وسبعة وسبعين ميلا تجمع خمسمائة ألف وخمسة وخمسين ألف فدان وستمائة واثنين وخمسين فدانا وأخبرنى جماعة من المهندسين بأن هذه القنطرة تصرف كل عشرين يوما ألفى مليون متر مكعب فى السنين التى يكون نيلها عاليا وألف وخمسمائة مليون فى السنين التى يكون نيلها منحطا فيكون صرفها فى كل يوم مائة مليون متر مكعب فى الحالة الأولى ومائة وخمسين فى الحالة الثانية، قلت: وكانوا قبل إنشاء هذه القنطرة يردمون شاطئ النيل موضع القنطرة الآن ردما محكما ويغطون سطحه بالأحجار الضخمة أيام الشتاء وينفقون على ذلك الكثير من المال فضلا عن تسخير العدد العديد من أهالى مديرية الجيزة وأهالى مديرية بنى سويف وبعض أهالى مديرية الفيوم فإذا جاء الصيف وبدأ النيل فى الارتفاع أعادوا ردم ما يكون قد تشعث منه وبالغوا فى حراسته وأكثروا من التطواف عليه فى الليل والنهار وهكذا حتى تتم زيادة النيل وتمتلئ الحيضان القبلية فإذا جاء أوان صرفها إلى قشيشة قام بحراسة ذلك السدّ مدير بنى سويف ومدير الجيزة وجماعة المهندسين والمأمورين والعدد العديد من أهالى البلاد القريبة والعمد والمشايخ فيضربون خيامهم على طول الشاطئ ويقضون ليلهم ونهارهم متأهبين لكل طارئ حتى يأتى الأمر بكسر السد فيكسروه مع التحفظ والالتفات فتنصرف منه مياه الحيضان كافة إلى النيل وهكذا فى كل عام يصرفون على هذا السد الشيء الكثير من المال ثم هم يكسرونه ويلقون به فى اليم حتى انشئوا تلك القنطرة فتخلصوا من جميع تلك المخاوف، ولم يمض على ذلك أيام حتى شاع الخبر بعزم الكولونيل منكريف وكيل نظارة الأشغال والماجور روس صاحب الأيادى البيضاء فى أعمال رى الإقليم القبلى على ترك

منصبيهما والعودة إلى عاصمة الإنجليز فأجمع الناس يومئذ على أن ذلك مترتب على ما هو واقع بينهما وبين السير بارنج من البغض والشحناء قالوا لأن الرجلين من أقيال القوم وأصحاب البيوتات العالية والمعارف السامية فلم يخفضا جناح الطاعة العمياء إلى ذلك الداهية ولم يطيقا الصبر على ذل النفس وإكراهها على مالا ترضاه فبادرا إلى اعتزال المنصب وترك السير بارنج وشأنه فى هذه الأرض أرض العجائب يولى فيها المناصب العالية والوظائف السامية لمن يشاء من صنائعه والملتفين حوله من شبان الإنجليز الأغرار حتى إذا قال لأحدهم قم قام أو افعل فعل بغير أخذ ولا رد، فلما كان أول ربيع الثانى من السنة وثالث نوفمبر اجتمع مجلس النظار بغير حضور الخديوى وقرر قبول استعفاء الرجلين وتعيين المستر جارستن لوكالة نظارة الأشغال والمستر فوستر لتفتيش رى الإقليم البحرى والمستر براون لتفتيش رى الإقليم القبلى والمستر ويلكوكس لتفتيش الخزانات المزمع إنشاؤها بأسوان عند قصر أنس الوجود والمستر الن يوسف لرى القسم الثالث وإسماعيل بك سرى لرى القسم الرابع-وأن يؤتى باثنين من الإنجليز المقيمين بالهند ليتولى أحدهما رى القسم الأول وثانيهما رى القسم الثانى فتطير الناس من ذلك وقال جماعة منهم هى حلقة من سلسلة كثيرة الحلقات سيطوقون بها أعناق أهل البلاد مادامت مصر مغنما والإنجليز ساداتها وقال آخرون ربما كان فى تخلف الخديوى عن الحضور بجلسة ذلك اليوم حكمة لا تلبث أن تظهر للعالمين يوم يعود الخديوى من مصيفه بالإسكندرية، فلما كان خامس الشهر أى شهر ربيع الثانى قام الخديوى من الإسكندرية على قطاره الخاص ومعه جماعة الوزراء ورجال ديوانه يريد القاهرة فكان لوداعه احتفال عظيم وكان فى انتظاره بمحطة القاهرة كافة الأمراء من البيت العلوى والكبراء والعظماء والعلماء وأصحاب الوظائف العالية فلما وصل القطار أطلقت المدافع من قلعة الجبل وصدحت الموسيقى وهتف الجند هتاف الترحيب فركب عربته وعلى يساره الرئيس مصطفى فهمى باشا وخلفه طائفة الحراس وجماعة الفرسان وسار إلى مقره بسراى عابدين وكان قد تم بناء ما تهدم منها وكمل زخرفها على أحسن ما يكون وفرشت بأحسن المفروش وأنفقوا على ذلك شيئا كثيرا جداً وكان يعمل فيها من الصناع والبنائين وأصحاب الصنائع الأخرى فى كل يوم ألفان وثمانمائة عامل مدة أربعة أشهر كاملة - وبالغ أهل القاهرة ومصر القديمة فى عمل الزينات والألعاب النارية إجلالا لمقدمه وغصت الشوارع كافة بالمتفرجين مشاة وركبانا وانتشر أصحاب الشرطة فى كل صوب ودرب فأقبل الخديوى عند الساعة الثامنة مساء فى عربته يطوف في تلك الشوارع ويحيى

الناس فانطلقت ألسنة العامة بالدعاء له وألسنة النساء منهم بالزغاريت وطافت كذلك خلفه والدة ولى العهد فى عربة وحولها جماعة الخصيان وأمامها طائفة من الفرسان ثم عادوا جميعا إلى سراى القبة وأصبحوا وقد وقف على بابه الشعراء والقوالون وأتت إلى ديوانه قصائد التهانى والمديح من كل صوب ومنها قصيدة طويلة لحسن بيك حسنى الطويرانى يرحب فيها بالخديوى قال فى مطلعها:

توسمت بدر الفوز من مطلع اليسر   فبشرت آمالى بطالعة البشر

وفى مخلصها :

ولولا الهوى لم أشك من غربة النوى   ولولا سنا توفيق ماعدت للشعر
له موكبا بأس ولين كلاهما   وأقام المنى والأمن فى البر والبحر
أنام الورى فى أمنه وهو ساهر   وأتعب منه النفس فى راحة القطر

وفى ختامها:

وأرخ بأفراح القدوم زهاء الهنا   وقل عاد توفيق المليك إلى مصر

وقال فى ذلك أيضا محمود أفندى حسنى أحد معاونى محافظة مصر:

بحسن عود الخديوى أنس مصر بدا   وكوكب البشر فى أفق الهنا صعدا

وقال فى الختام وهو بيت التاريخ الهجرى:

لسان إسعادها نادى يؤرخها   بحسن عود الخديوى أنس مصر بدا

ثم شفعها بتاريخ هجرى آخر قال فيه :

بالصفو عاد الخديوى   والأنس بالبشر عرف
ياقطر فاهنأ وأرخ   باليمن توفيق شرف

ومضت أيام الأفراح والزينات والناس متشوقون إلى معرفة ما سيفعله الخديوى بعد تسليم زمام الرى إلى جماعة الإنجليز وإطلاق أيديهم فى شئونه فلم تكن إلا أيام قلائل حتى قرر مجلس الوزراء مرتبات أولئك القوم فكانت ألفا وخمسمائة جنيه لكل منهم يتقاضاها من الخزينة فى كل سنة وستمائة فقط إلى إسماعيل سرى بك فصادق الخديوى على ذلك ورسم به فاختلط حينئذ الحال على الناس وقالوا حكمة الله سبحانه فى ذلك فوق كل حكمة، فلم يكن إلا يوم أو بعض يوم حتى جاء الخبر من مدير البحيرة بأن قد حدث قطع عظيم بساحل ترعة المحمودية عند جسر حجر النوتية وأن الماء قد انحبس عن الإسكندرية وانهال على ملاحة مريوط وأن سبب

ذلك إهمال أصحاب الرى ردم الجسور وتقوية منافذ الماء وجاء الخبر كذلك من محافظ الإسكندرية بانحسار الماء عن الآلات الرافعة لسقاية البلد وأن الأهالى فى قلق واضطراب لاسيما الأجانب منهم وقد تزاحمت العامة على صهاريج أصحاب البيوت القديمة بالبلد ليستقوا منها فاهتم أصحاب الحل والعقد لذلك اهتماما كبيرا وقام مدير البحيرة ومحافظة الإسكندرية وسعدالدين باشا رئيس مفتشى الداخلية والمستر فوستر أحد أولئك الإنجليز إلى مكان القطع وحشدوا الأنفار وجمعوا بعض الصناع واشتدوا فى العمل وأكثروا من المعدات وظلوا على هذه الحال أياما وانحدار الماء من القطع على أشده حتى تمكنوا بعد العناء الكبير من سده ورجعت المياه إلى مجاريها ولم يمض على هذا الحادث إلا بضعة أيام حتى جاء الخبر من مدير أسيوط بأن قد جرت المياه إلى حوض الزنار وغمرتها ثانية بعد انقضاء أوان صرف ذلك الحوض فأغرقت مزروعاته وأماتتها جميعا وأن قد قامت ضجة أصحاب تلك المزروعات ورفعوا الدعاوى أمام الجهات الاختصاص على أصحاب الرى ووردت شكاوى القوم على ديوان الخديوى تباعا وكلها مفعمة بقارص الكلام ومر الملام والتألم من فعال أصحاب الرى الذين تسلموا زمامه فى هذه الأيام فأكبر الخديوى الأمر وكلم الرئيس مصطفى باشا فهمى فى ذلك فأوعزالرئيس إلى مدير أسيوط بملاطفة أصحاب تلك المزارع وأن يخفف عنهم ما استطاع حتى يتروى فى الأمر، ثم كلم أصحاب الرى فى شكوى أهالى حوض الزنار وتوجع من فعال المكلفين بصرف مياه الأحواض فقام على الفور الماجور براون مفتش رى الإقليم القبلى إلى أسيوط وغاب أياما ثم عاد ورفع إلى نظارة الأشغال تقريرا قال فيه - إن الضرر الذى أصاب الزروعات بذلك الحوض ليس بالأمر العظيم لأن المزروعات تتراوح مابين مائتين إلى ثلثمائة فدان وأن أصحاب الرى لم يخطئوا فى عملهم عند فتح الحيضان للصرف وأن الأهالى كسروا سدا لم يشر أصحاب الرى قط بكسره فكان فعلهم سببا لرجوع المياه إلى الحوض يعنى حوض الزنار وغرق تلك المزروعات، وعلم مدير أسيوط بما قاله الماجور براون فأنكر عليه مقالته وأثبت أن الضرر ألم بمزروعات زهاء ثلاثة آلاف فدان وقال إن الأهالى لم يكسروا شيئا من السدود وأن الخطأ كل الخطأ فيما فعله أصحاب الرى. وعلت ضوضاء أصحاب حوض الزنار وأنذر بعضهم نظارة الأشغال بطلب التعويض على يدى المحاكم المختلطة وقام أصحاب صحف الأخبار يقرّعون جماعة الإنجليز ويرجعون على أصحاب الرى منهم باللائمة ويقولون إنهم أغرار

يجهلون طرق الرى المصرى ولا يعرفون شيئا من وسائل الحيلولة بين النافع منها والضار وأن إعطاءهم تلك الجماكى الفادحة ضرب من الجور ومحنة كبرى لا دواء لها وصاح لصيحتهم هذه أيضا بعض أصحاب صحف الفرنسيس فأكبر الرئيس مصطفى فهمى باشا أمر ذلك وعقد جلسة مجلس النظار وتناجوا طويلا وبعد أخذ ورد قرروا تشكيل لجنة من محمد سعد الدين باشا وعامر عبد البر بيك واسمعلوم بك لتحقيق تلك الشكاوى وتقدير ما أصاب أصحابها من الخسائر وإقامة الدليل على ما إذا كان الخطأ الناجم عنه تلك الخسائر واقعا بفعل أصحاب الرى أو الأهالى أو غيرهم فساروا إلى أسيوط وقد أحس السير بارنج بما وراء ذلك فعمل على استرضاء الكولونيل مونكريف والماجور روس واستبقائهما فى منصبيهما حولا آخر وسعى فى ذلك ما استطاع حتى قبلا البقاء عاما أو بعض عام فغيروا حينئذ من ذلك النظام وقللوا من أهمية وظائف جارستن وبراون وفوستر وغيرهم إلى حين ثم خففوا من مطالب أصحاب حوض الزنار واسترضوهم بشىء من المال فسكتوا وانقطعت ضوضاؤهم فبات هذا الحادث بعد ذلك فى خبر كان.

(مطلب)

ما أبطل من المغارم والمكوس

ورأى منلر وكيل المالية عند عمل ميزانية الخزينة لسنة إحدى وتسعين وثمانمائة وألف ميلادية أن فى مجموع موارد إيراد الخزينة شيئا كثيرا من المغارم والمكوس التى ما أنزل الله بها من سلطان وهى غل فى أعناق الفقراء من أهل البلاد فأخذ منذ ولايته يدبر الأمر على إبطالها ويعمل على تغيير نظام بعض تلك الموارد ومازال دائبا على ذلك وبعض كبار الإنجليز يمانعونه حتى تمكن فى أخريات ربيع الثانى من السنة وأخريات سبتمبر من إعفاء بيوت القاهرة ومصر القديمة التى لا يتجاوز إيجارها فى السنة خمسمائة قرش من الإتاوة السنوية ومن إبطال رسوم القيدية على رخص تعاطى صناعة الطب والولادة والجراحة الصغرى ومهنة القوابل والمحلات المعدة لبيع العقاقير والمواد الأقرباذينية والجواهر السامة ورخص الصنائع وأنقصوا ثمن الملح كى لا يتعذر على الفقراء وأهل القرى استعماله بدلا من الملح البرانى الذى هو الملح الجبلى وأبطلوا دائرتى بلدية مصر والإسكندرية وخصصوا دخل دخولية الإسكندرية لمجلس بلديتها وأبطلوا كذلك السخرة والعونة وما يتبعها من البدل

النقدى وتكفلت الخزينة بالنفقة على خفارة الجسور والأعمال المستعجلة التى تلزم عند حصول خطر من فيضان النيل ففرح الناس بذلك واستبشروا بانفراج الأزمة بعد أن استحكمت حلقاتها .

(مطلب)

ما وقع من التبديل في قضاة المحاكم الشرعية

وإلى هذا الحين أى إلى شهر ربيع الثانى من السنة كان المستشار القضائى قد كاد ينجز ما أراده من القلب والإبدال فى هيئة القضاء والقضاة بالمحاكم الأهلية وأعضاء ورؤساء النيابات كما تقدم القول فلما كانت أخريات الشهر عمد إلى التغيير والتبديل فى قضاة المحاكم الشرعية أيضا فمد يده إلى محاكم الجيزة وأسيوط وبنى سويف والغربية والشرقية وسيوه وسواكن وتناول كذلك بعض وظائف الإفتاء بالمديريات ثم انقلب على محكمة الاستئناف الأهلية فتنحى عبدالحميد صادق باشا عن مركز رئاستها فتولاها إبراهيم فؤاد بيك رئيس محكمة مصر الابتدائية واشتد المستشار فى عمله وأكبر فى القلوب هيبته وتمكن من منصبه أى تمكن واستبد بالأمر حتى بلغ الغيظ من حسين فخرى باشا معظمه واتفق أن أحسن الخديوى على إبراهيم فؤاد بك برتبة الباشوية عقب توليته رئاسة محكمة الاستئناف فقال الناس إنه سيخلف حسين فخرى باشا فى منصبه وشاع الخبر بذلك وأصبح عند نقلة الأخبار فى حكم الشىء المقرر لأن السواد الأعظم كان يتوقع ذلك من يوم دخول حسين فخرى باشا فى عداد وزارة مصطفى فهمى باشا لبغض جماعة الإنجليز له وكرههم لبقائه فى مسند الوزارة وسعيهم وراء خذلانه، فلما كان صبح الثانى عشر من جمادى الأولى من السنة أى رابع عشر ديسمبر ذهب السير بارنج إلى مقر الخديوى بعابدين ولبث بحضرته ساعة ثم انصرف ثم عاد ولبث برهة أخرى ثم انصرف فاستدعى الخديوى فى الحال جماعة النظار وعقد مجلسهم فتداولوا معه فى كيفية افتتاح الجمعية العمومية لمجلس شورى البلاد حسب العادة فى كل سنة ثم انفض مجلسهم وذهب كله منهم إلى ديوانه ولم يؤذن الظهر حتى جاء الطلب من الديوان الخديوى إلى حسين فخرى باشا فقام من فوره وتمثل بين يدى الخديوى فقال له الخديوى إن الرئيس مصطفى فهمى باشا قد شكا إلى منذ أيام مما هو بينكما من الخلاف والتباين فى الرأى ويقول إنه يستحيل اتفاقه معك وقد أتانى اليوم وعرض علىّ خصلة من ثنتين إما أن يخلع نفسه ويترك

منصب الرئاسة وإما أن تخلع أنت من مسند الحقانية فقال يامولاى إنى لا أريد أن أكون حجر عثرة فى سبيل أعمال حكومة سيدى وها أنا قد خلعت نفسى وتركت منصبى فليقبل سيدى منى ذلك فقال الخديوى قد قبلته فانصرف حسين فخرى باشا من حضرة الخديوى وأرسل فى طلب ماله فى الديوان من الأوراق الخصوصية فأتوه بها. حدثنى أحد المقربين من باب الخديوى قال: خرج حسين فخرى باشا فى ذلك اليوم من حضرة الخديوى وهو يجر أذيال الغيظ ويعض أصبع الندم وكلنا يعلم أن ما بدا من الرئيس مصطفى فهمى باشا من الشكوى وما قاله من استحالة الاتفاق مع فخرى باشا إنما هو مكره عليه من أسكوت ومدفوع إليه من السير بارنج وأن خلع فخرى باشا وتنحيته عن منصبه أمر متفق عليه من قبل وقد ضربوا له أجلا هو تغيب أسكوت بالإجازة فلما غاب أسكوت وحان الأجل المضروب استقدمه الخديوى وقال له تلك المقالة التى لم تخف مغامزها على أحد من العالمين - قال ولقد كان الأجدر بحسين فخرى باشا أن لا يبقى فى هذا المنصب المحفوف بصنوف المكاره إلى أن يكرهوه على التخلى عنه فإن ذلك يحط من الكرامة وتأباه الشهامة - قال: وبعد فقل لى بحقك من ذا الذى يرجو السلامة لجماعة النظار من مثل هاته الضربة إذا لم ترض جماعة الإنجليز طاعتهم أولم تعجبهم شمائلهم، إن الناس طرا يعلمون أن سياسة القوم فى هذه الأيام هى تمزيق شمل أصحاب الوظائف من أهل البلاد كل ممزق حتى يتم لصاحبهم ما طفق ينادى به على رؤوس الملأ من أنه لا رجال فى مصر يحسنون التصرف فى مناصب البلاد أ. هـ.

واتفق أن أحمد بليغ بيك وكيل رئاسة محكمة الاستئناف العليا أدب فى ليلة اليوم الثانى لخلع حسين فخرى باشا مأدبة لإبراهيم فؤاد باشا بمناسبة ارتقائه مسند الرئاسة للاستئناف ودعا فى تلك الليلة جماعة القضاة وبعض رؤساء النيابات فأكلوا وشربوا وبينما هم حاصلون على أكمل ما يكون من أسباب الأنس والصفاء إذ دخل عليهم كحيل باشا باشكاتب مجلس النظار وأبلغ إبراهيم فؤاد باشا خبر ما رسم به الخديوى من توليته مسند نظارة الحقانية بدلا من فخرى باشا فشكر وانطلق لسانه بالدعاء فهنأه الحاضرون وأصبح فسار إلى مقر الخديوى بعابدين فهنأه الخديوى بالمنصب فقبل يده وكان ذلك اليوم وهو خامس عشر جمادى الأولى وسابع عشر ديسمبر من السنة موعد افتتاح الجمعية العمومية لمجلس شورى البلاد فرسم الخديوى إلى إبراهيم باشا بالذهاب إلى قاعة الشورى مع جماعة الوزراء فقبل يده وانصرف،

وركب الخديوى كذلك عربة التشريف وعلى يساره ثابت باشا كاتب الديوان الخديوى وأمامه وخلفه جماعة الحرس وطوائف الجند وسار إلى قاعة الشورى فلقيه النظار وجماعة أعضاء شورى البلاد فدخل وجلس فى إحدى غرف المكان فقدموا إليه عمد البلاد المنتدبين لعضوية الجمعية العمومية فحلفوا بين يديه يمين الأمانة إذ كانت هذه أول مرة لانعقاد الجمعية العمومية بعد الانتخابات الأخيرة ثم دخل الخديوى القاعة الكبرى وخلفه النظار فخطب على الأعضاء الخطبة المعتادة ثم قال إن الغرض من اجتماعكم فى هذه المرة هو النظر فى مشروع تقليل فيات ضرائب الأطيان ولا يخفاكم أن هذا المشروع إنما هو مقدمة لتخفيف الضرائب كافة وأملى أنكم تنظرون فيه بما يكون صالحا للبلاد وأهلها وأسأل الله أن يوفق الجميع إلى ما فيه السداد والخير فعند ذلك صاح جماعة الأعضاء بالدعاء له فخرج ولبث أصحاب الشورى مع جماعة النظار يتكلمون فيما هم بصدده وفى ثانى يوم سادس عشر جمادى الأولى رسم الخديوى بتولية بليغ بيك رئاسة محكمة الاستئناف بدلا من إبراهيم فؤاد باشا وأحسن عليه برتبة الباشوية وعاد أسكوت من غيبته فرحا جذلا بما ناله من الظفر والغلبة على حسين فخرى باشا وقد خلا له الجو فجعل يصفر وينقر ما شاء أن ينقر ولم تكن إلا أيام قلائل من عودته حتى رسم الخديوى أيضا بتولية إسماعيل صبرى بيك رئيس محكمة الإسكندرية وكالة محكمة الاستئناف العليا فلم يبق فى نفس أسكوت بعد ذلك حاجة إلا قضاها فأقصى عن سائر المحاكم صنائع مصطفى رياض باشا وصهره محمود باشا وخلع من وظائفها جماعة من أهل الدعارة والنفاق وألبس القضاة والنواب وأعضاء النيابات شارات مخصوصة عند جلوسهم للحكم بين المتقاضين وهى زنار من الحرير فى عرض قبضة اليد يجمع بين اللونين الأحمر والأخضر اللذين هما لونا الراية المصرية العثمانية فكانوا إذا جلسوا فى كراسى القضاء تقلدوها على صدورهم وألبس كذلك جماعة المحامين كساء من الجوخ الأسود على شكل الفروجيات أو أقبية العلماء وأصحاب حلقات التدريس بالجامع الأزهر يلبسونها عند الوقوف فى موقف المحاماة وقد كانت هذه الشارات والأكسية من مبتكرات شفيق بيك منصور على عهد ولايته وكالة النيابة العامة ولكنه رحمه الله لم يقدر على إخراجها إلى عالم الظهور لممانعة مصطفى رياض باشا فى ذلك أيام رئاسته فأهملت حتى جاء أسكوت فجعلها ركنا من أركان نظامه الجديد فى محاكم البلاد.

(مطلب)

ما فعله كتشنر باشا من النظام

وكما بسط أسكوت يده على سائر المحاكم فغير وبدل أدنى من قضاتها من شاء وأقصى منهم من شاء وسنّ لهم السنن وقنن القوانين فعل كذلك كتشنر باشا فى نظام الشحنة ومن فيها من الجند ومقدمى الجند وقد بالغ فى الحيطة وإحكام التدبير لعله يتمكن من قطع دابر اللصوصية وإرهاب أهل الشقاوة وتأمين السبل لأبنائها فكان له فى كل يوم منذ تولاها شأن جديد وعزم لا يفله الحديد وكان لا ينكف عن التجوال بين الإقاليم القبلية والبحرية ليتحقق من كفاءة خفر البلاد وعسسها وسير مشايخ القرى وعمدها وما يحتاجه الأمن فيها من الوسائل والأسباب وقد غير وبدل كثيرا من ضباط الجند وسنّ لهم السنن وقنن القوانين الصارمة وسنّ كذلك قانونا للعطلة من أهل البلاد والأجانب سكان المدن والمتشردين من الفئتين لا يقدر على العمل به إلا الجبار العنيد فلما أخذ أصحابه فى تنفيذه والعمل به استعصى عليهم الحال وأشكل المآل وخشن قناصل الدول للرئيس مصطفى فهمى باشا بسببه المقال وظلوا على ذلك أياما حتى أوعز الرئيس بعد أخذ ورد مع أعضاء شورى البلاد بإهماله والكف عن مشاغبة الناس إلى حين.

(مطلب)

ما فعله المستر منلر وكيل المالية

وكذلك فعل المستر منلر وكيل نظارة المالية فإنه لما ساءه ما فعله مصطفى رياض باشا أيام رئاسته من التشديد على مأمورى الحكومة بجمع الخراج فى غير آجاله وبثه أصحاب الجباية فى شرق البلاد وغربها لتحصيل البقايا القديمة والمتأخرات العاطلة وكان ما كان بينه وبين مصطفى رياض باشا من الوحشة والجفاء واستفحال العداء إلى الحد الذى بيناه فى محله عمد من ذلك الحين إلى البحث والتنقيب عن حالة موارد الخزينة وما وصلت إليه حالة أهل البلاد مع المرابين وتجار الأرياف من جماعة الروم وغيرهم وفى أسباب استدانتهم وما عليهم من الديون المتراكمة بعضها فوق بعض وفى كيفية حبس أرزاقهم وزروعاتهم وعقارهم تحت أيدى أولئك القوم رهنا على تلك الديون كل ذلك ليبرهن إلى صاحب سياستهم على أن فلاحى البلاد فى

أشد ما يكون من حالات العسر والإفلاس وعلى أن البلاد فى أحرج المواقف وأدناها من مهواة الدمار وعلى أن فعال رياض باشا يومئذ كانت ضربا من العسف بأهل البلاد وتغريرا بأصحاب الوظائف الديوانية من جماعة الإنجليز فرفع إلى صاحب سياستهم صحيفة مطولة فى معنى ما ذكر وتناقل ما فيها أصحاب صحف أخبارهم الكبرى كالتيمس والدالينيوز وغيرهما وتعقبوا عليها بشىء من قارص الكلام وقد أحصى منلر فى صحيفته تلك حياه الله ما على أهل البلاد على اختلاف درجاتهم من الديون المسجلة بسجلات المحاكم المختلطة وحدها لأولئك القوم إلى أخريات سنة تسعين وثمانمائة وألف ميلادية فبلغ عشرين ألف ألف وستا وثمانين ألفا ومائة واثنين وثمانين جنيها مصريا وأن ما حبس لوفائها من الأطيان بلغ ألف ألف وثلثمائة ألف وأربعمائة فدان من العقار تسعة آلاف وخمسة وتسعين عقاراً هذا عدا ما استدانوه فى سنة إحدى وتسعين الحالية وعدا ما هو مسجل بالمحاكم الشرعية وفضلا عن المبالغ المتعامل بها بين الأهالى والأفراد الأخر من الأجانب ونزلاء البلاد مما لا ينقص عن الخمسة آلاف ألف وخمسمائة ألف جنيه وأطنب منلر فى المقال وأكثر من البرهان على وجوب تعديل الخراج والتعجيل بالتخفيف عن أهالى مديريتى الحدود وأسوان وشاع خبر ذلك بين الناس ففرحوا ومدحوا منلر وقالو « إذا تزاحمت الخيل فمن سعد الركاب» وجعل منلر من هذا الحين يكثر الترداد ما بين مجلس النظار ومجلس شورى البلاد حتى تم له ما أراده من التخفيف عن تينك المديريتين وتقررت قاعدة ذلك بينهم.

(مطلب)

مرض الخديوي توفيق باشا ووفاته

واتفق أن ذهب السير بارنج فى سابع عشرى جمادى الأولى من السنة أى تاسع عشر ديسمبر إلى سراى عابدين ليكلم الخديوى فيما وقع الاتفاق عليه مع منلر فعلم من رئيس التشريفات أن الخديوى بعد أن كان على عزم الانحدار من قصره بحلوان إلى عابدين على عادته فى كل يوم وقد أخذ رجال ديوانه الأهبة لذلك جاءهم الخبر بعدم قدرته على الحضور وأنه يشكو منذ صباح اليوم ذات الصدر فعاد السير بارنج إلى مقره ولبث يومه ينتظر الخبر فإذا بهم أرسلوا يقولون إنه قد شعر فى ذلك اليوم بقشعريرة أتعبته ولكن الأعراض ليست شديدة وليس فيها ما يدعو قط

إلى القلق، فلما كان اليوم الثانى أى ثامن عشرى جمادى الأولى سار السير بارنج وجماعة الوزراء وبعض الكبراء إلى حلوان للسؤال عن صحته فعلموا فى طريقهم بأنه انحدر من حلوان إلى القاهرة فعادوا ودخلوا عليه بمقره بعابدين فشكا إليهم ما يلاقيه من أعراض النزلة وبات ليلته تلك بسراى القبة ثم عاد فى ثانى يوم إلى حلوان فلم يصلها حتى اشتدت به الأعراض فلازم مخدعه ولم يخرج منه واستدعى طبيبيه الخصوصيين وهما سالم باشا سالم وعيسى باشا حمدى فأثبتا أنه مصاب بالنزلة الصدرية فى درجتها البسيطة وبقى على هذه الحال إلى صباح خامس جمادى الآخرة وكان ديوانه قد أعلن عزم الخديوى على أن يأدب فى هذا اليوم أى خامس جمادى الآخرة مأدبة يحضرها ثلاثون مدعوا من الأمراء والعظماء ومقدمى العسكرين المصرى والإنجليزى وقد كانوا أخذوا الأهبة والاستعداد لذلك فلما اشتدت به علته شاع الخبر بأن قد أبطلت تلك المأدبة وتأجلت إلى يوم الثلاثاء حادى عشر جمادى الآخرة ثم جاء الخبر إلى القاهرة بتقدمه إلى العافية وزوال البأس عنه وتكلمت صحف الأخبار فى ذلك وهنأه بعضهم بشىء من مليح القول فلما كانت عشية ذلك اليوم أحس الخديوى بألم شديد فى الصدر فاستدعى طبيبه عيسى باشا وشكا إليه ألمه فجس الطبيب نبضه فإذا به على أشد ما يكون من السرعة وكذلك الحرارة على أشد ما يكون فسهر عليه ليلته تلك وبعد نصف الليل بقليل ظهرت عليه أعراض أخرى خطرة فاستدعوا الطبيب سالم باشا فحضر فى نحو الساعة الثالثة بعد نصف الليل فرأى أن الحالة قد بلغت أشدها وأن الخديوى على شفا جرف الموت فطيروا الخبر إلى صاحب شركة سكة حديد حلوان بإعداد قطار خاص يستحضر بعض الأطباء من القاهرة فلم تكن إلا ساعة أو بعض ساعة حتى حضر الطبيب كمانوس والطبيب هيس فلما عاينا حالة الخديوى قالا إنه فى النفس الأخير وأن لا مفر من القدر المحتوم وكان إلى هذه الساعة قد اشتدت به علة ذات الرئة فامتنعت بذلك كل وسيلة ولم يبق لهم قط حيلة.

إن الطبيب له فى الداء مخبرة　　مادام فى أجل الإنسان تأخير
أما العليل فإن حانت منيته　　تاه الطبيب وخانته العقاقير

وقضى الأطباء الليل كله فلم تنجح لهم طريقة وبقى الحال هكذا إلى الساعة الثالثة من مساء الخميس سابع الشهر فكبر الخطر وشاع الخبر وطلب الأطباء جماعة آخرين ليشاوروهم فى الأمر فحضر الطبيب أمبرون والطبيب بنيت والطبيب ويلد

فلما شاهدوا الحالة قالوا لم يبق أمل فى النجاة فقد استعصى الداء ولا ينفع الدواء وكان لما وصل الخبر إلى القاهرة بطلب هؤلاء الأطباء تسارع كبار قناصل الدول والأمراء من البيت العلوى والكبراء وعظماء القوم إلى حلوان، ومند الساعة السادسة غاب العليل عن الصواب ولم يعد يعى وسأله الطبيب كمانوس عما يؤلمه فلم يجبه بشيء سوى هذه الكلمات«هاتوا لنا الضوء» فتحقق جماعة الأطباء أنه قد دخل فى غمرات النزع الأخير واستمر النزع إلى الساعة السابعة وفيها أسلم الروح فقام الصياح من كل صوب وعلت أصوات الجوارى والخدم والحشم والأتباع بالصياح والعويل فهب الناس من نومهم وتسارعوا إلى رحبة القصر وكلهم باك منتحب ووصل الخبر إلى القاهرة إذ طاف جماعة الخدم والخصيان على بيوت الأمراء يخبرونهم بالحادث وانتشر نعيه وشاع فى كل صوب ودرب فهرع الناس على اختلاف طبقاتهم إلى حلوان وعقد النظار جلسة مجلسهم فى صباح الجمعة بحلوان فجلس بينهم السير بارنج قنصل جنرال الإنجليز وتناجوا فى ذلك طويلا وقد شاع أنهم لم يقروا على تبليغ الخبر من طريقه الرسمى إلى دار السلطنة العثمانية ولكن الخبر وصل إلى المابين والباب العالى من مصادر أخرى كثيرة ثم انعقد المجلس مرة ثانية بسراى عابدين فجلس معهم غرانفل باشا سردار الجيش المصرى وكتشنر باشا صاحب الشرطة فقرروا فيما بينهم كيفية سير الجنازة والإتيان بجثة الفقيد من حلوان ثم قرروا أيضا تبليغ الخبر إلى الباب العالى قيل وقد كان تأخرهم عن ذلك مترتبا على انتظار مجيء الإذن من صاحب السياسة الإنجليزية .

ونشروا فى ضحوة اليوم بالجريدة الرسمية النشرة الآتية: الجناب الخديوى محمد توفيق باشا توفى إلى رحمة الله تعالى فى ليلة الجمعة ثامن يناير سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة وألف فى الساعة السابعة وسبع عشرة دقيقة إفرنكى ليلا بسراى حلوان، وقد أعلن بذلك سمو البرنس عباس باشا حلمى تلغرافيا (بويانا) وينتظر قدومه لمصر بوابور مخصوص وسيدير أعمال الحكومة إلى حين حضور سموه مجلس النظار تحت رئاسة سعادة مصطفى فهمى باشا .

الاحتفال بجنازة جثمان الخديوى سيكون فى الساعة الثانية على الحساب الأفرنكى بعد الظهر من هذا اليوم يعنى الجمعة ثامن شهر يناير والجنازة ستشيع من سراى عابدين .

وإيذانا بالحزن ستقفل كافة دواوين الحكومة والمصالح العمومية يومى السبت والأحد تسعة وعشرة يناير.

وانتشر الخبر وذاع ونقله البرق إلى الإسكندرية وسائر المدن والبلدان فى داخلية القطر ودار السلطنة العثمانية والممالك الأورباوية فى تلك الليلة فأصبحوا يوم الجمعة وقد رفعت الأعلام مجللة بالسواد وألبسوا مصابيح الغاز بالشوارع لفائف سوداء وأناروها فى النهار وأقفلت سائر دواوين الحكومة والبنوكة والمخازن والدكاكين والمدارس والمكاتب ورفع قناصل الدول أعلامهم منكسة وجاء إلى القاهرة كثير من وجهاء البلاد والعمد والأعيان وفى الساعة الأولى من بعد ظهر اليوم حملوا نعش الفقيد من قصر حلوان فى قطار مخصوص فسار به إلى القاهرة وكان قد ركب فى القطار الأمير حسين أخو الخديوى ورجال الديوان الخاص وكثير من كبار الأهلين والأجانب ممن جاءوا حلوان فلما وصل القطار إلى محطة باب اللوق استقبل النعش الغازى مختار باشا مندوب دار السلطنة « وقد كان مقيما فى بلدة مغاغة فى الأقاليم الوسطى تبديلا للهواء فوصله الخبر ليلا فانحدر إلى القاهرة مسرعا» واستقبل النعش مع الغازى مختار باشا جماعة الوزراء ورجال الديوان الخاص والعدد العديد من الوجهاء والعظماء وأجلة القوم فحمل النعش جند الحرس وسار المشهد إلى سراى عابدين بين الزحام وولولة النساء من الشبابيك وأسطحة الدور فلما وصلوا إلى السراى قابلهم العلماء والرؤساء الروحيون وقناصل الدول وأعضاء صندوق الدين ورؤساء المصالح الأميرية وكبار الجند وأصحاب البنوكة والتجار وأرباب الإشارات وأصحاب الطرق وعدد لا يحصى ولا يحصر من الأهالى والقادمين من الأقاليم القبلية والبحرية ثم ساروا بالمشهد فمشت أمامه جمال الكفارة ثم طائفة من الجند الهجانة ثم جماعة من الفوارس المصرية وأمامهم رجال الموسيقى ساكتة زرق الملابس والجند منكسو السلاح ثم جماعة من أصحاب المدافع ومعهم بعض المدافع الكبار ثم مقدمو العساكر المصرية مشاة وركبانا ثم حملة المصاحف والذاكرون ثم مشايخ الطرق والسجاجيد وأرباب الإشارات وبأيديهم البيارق ثم تلاة البردة ودلائل الخيرات ثم تلاة الأحزاب والأوراد ثم نقباء الأشراف والأشراف ثم مشايخ التكايا ودراويشهم ثم طوائف طلبة العلم بالجامع الأزهر ثم تلامذة المكاتب الأهلية والمدارس الأميرية وطلبة مدرسة دار العلوم والمدارس العالية الخصوصية ثم تلامذة المدارس التجهيزية والابتدائية ثم التجار والأمراء والكبراء من الأهلين والأجانب ثم موظفو النظارات والمصالح فى العاصمة وغيرها من مدن القطر ثم رجال المحاكم المختلطة والأهلية والأفوكاتية والمحامون ومديرو صندوق الدين والسكك الحديدية والدائرة السنية والدومين ثم الرؤساء الروحيون وخدمة الدين ثم كبار قناصل الدول ثم النظار ثم الأمراء من البيت العلوى والغازى مختار باشا ورجاله ثم العلماء ثم حملة القماقم

والمباخر ثم أولاد الكتاتيب يحملون المصاحف ثم النعش وحوله جماعة من العسكر وطائفة من أصحاب الشرطة وخلفه جماعة أخرى من الجند المصرى ثم فريق من فرسان الشرطة وعلى النعش سيف الفقيد وبعض ما عنده من النياشين .

وخرج المشهد من سراى عابدين إلى شارع عبدالعزيز إلى العتبة الخضراء إلى الموسكى إلى السكة الجديدة ومنها إلى المشهد الحسينى فوضعوا هناك النعش وصلوا عليه ثم حملوه إلى القرافة فوصلوها قبيل الغروب فدفنوه وفرقوا ساعة دفنه الصدقات وعاد الجمع إلى رحبة عابدين حيث نصبت السرادقات وأوقدت المصابيح فجلسوا للعزاء كما جلسوا للعزاء أيضا بسراى القبة وقصر حلوان فلم تكن إلا ساعة بعد جلوسهم حتى ورد الخبر من الأمير عباس إلى الرئيس مصطفى فهمى باشا يقول: إن خبر وفاة سيدى ووالدى قد أدهشنى وهذا مصاب عظيم ليس بالنسبة لعائلتى وحدها بل بالنسبة لجميع القطر المصرى أيضا فمتى وصلتنى منكم الأخبار الأكيدة عن الوابور الذى سيصير تحضيره فى تريسته أسافر بلا تأخير وأخبركم بالتلغراف عن ساعة السفر وإنى على يقين من أن الأعمال ستستمر سائرة إلى حين وصولى على أحسن محور بهمة عطوفتكم ورفقائكم أ. هـ.

وجلسوا للعزاء ثلاث ليال متواليات ثم جعلوا يجلسون فى مساء كل يوم خميس إلى تمام أربعين يوما، وفى ضحوة تاسع جمادى الآخرة ورد على السير بارنج إشارة من ملكة الإنجليز وإمبراطورة الهند بطلب موافاتها بتفصيل مرض الخديوى توفيق باشا وأسباب الوفاة قيل فأرسل السير بارنج خبرا مفصلا للحادث وجاءت بعد ظهر اليوم إلى الغازى مختار باشا والرئيس مصطفى فهمى باشا إرادة سلطانية مؤداها أنه لما وصل الخبر بوفاة المغفور له محمد توفيق باشا اجتمع الوكلاء فى الحال وقرروا أن يسند مسند الخديوية المصرية إلى الأمير عباس ووكالة أشغال الحكومة إلى الرئيس مصطفى فهمى باشا وبقية النظار إلى حين حضور الخديوى عباس وأنه برفع هذا القرار إلى أعتاب المتبوع الأعظم صدرت الإدارة الشاهانية بالموافقة عليه، فعقدوا فى الحال مجلس النظار وقرروا تبليغ هذه الإرادة السلطانية إلى سائر قناصل الدول وأن يوالوا الاجتماع فى كل يوم صباحا حتى يصل الخديوى الجديد .

واختلفت الأقوال فى مرض الفقيد وفى كيفية العلاج وأسباب الوفاة وما فعله الطبيب عيسى باشا وقد أجمع جماعة الأطباء الذين شاهدوا الفقيد قبل موته بقليل

أن عدم العناية بالعلاج وإهمال مراقبة سير المرض كانا سببا فى تسمم دم المريض واختلاط علته الأصلية التى هى النزلة الصدرية بعلل أخرى وأودت بحياته رحمه الله فطلب بعض الأمراء من البيت العلوى وقيل السير بارنج تحقيق أسباب الوفاة ومقاضاة الطبيبين فسأل الرئيس مصطفى فهمى باشا الطبيب هيس والطبيب كمانوس أن يبديا رأيهما فى ذلك وكلم والدة ولى العهد فى هذا الأمر فلم توافق على مقاضاة الطبيبين ورفع الطبيب هيس والطبيب كمانوس تقريرا قالا فيه فى الساعة الرابعة الإفرنجية من صباح الخميس سابع يناير الجارى دعينا للتوجه إلى حلوان على قطار مخصوص لأجل عيادة الجناب العالى فوصلناها منتصف الساعة السادسة الإفرنجية من الصباح واستقبلنا هناك سالم باشا الطبيب الخصوصى بالحضرة الخديوية فأعلمنا بالإيجاز أن الجناب العالى أصيب منذ ثمانية أيام بالنزلة الوافدة وكان سير المرض إلى البارحة عاديا وأن الحمى لم تشتد وطأتها إلا فى الليلة الماضية وأن الجناب العالى كان يعانى الأرق وضيقا فى التنفس وبعض الألم فى الجانب الأيسر وأنه لأجل تخفيف الألم أعطيت له حقنة من المورفين ولما دخلنا بعد هذا التعريف إلى غرفة المريض انذهلنا إذ رأيناه فى حالة موجبة للقلق الشديد وكان منظره على العموم متغيرا ولونه أصفر وبصره شاخصا وكان متكئا على أذرعة جاريتين وظاهرا عليه شدة ضيق التنفس ولم يكن يميز من حوله وكان يشكو على الخصوص عدم إبصاره للضياء وبالفحص وجدنا أن الحمى بلغت درجة أربعين وأن ضربات النبض سريعة وضعيفة جدا ويمكن إيقافها بسهولة ثم فحصنا الجسد فوجدنا ارتشاحا شعبيا رئويا زائدًا فى الرئة اليسرى ونزلة شعبية عامة فى الرئة اليمنى ومع كون حالة الرئتين هى بهذه الشدة فإنها ليست كافية لإحداث الأعراض المخية التى كانت ظاهرة ولذلك وجهنا نظرنا إلى فحص الوظائف الأخرى وخصوصا الكليتين وباستيضاحنا من الأطباء المعالجين عن حالة البول كان الجواب أن لا شيء فيه خارجا عن الحالة المعتادة وعندما أتممنا الفحص أمرنا بعلاج موافق لما ظهر لنا من التشخيص وشددنا فى التنبيه على اتباعه ثم رجعنا إلى مصر لاخذ الاحتياطات اللازمة لمرضانا والعودة إلى جنابه العالى فلما رجعنا إلى حلوان فى الساعة الواحدة الإفرنجية بعد الظهر حصل لنا مزيد الكدر لما رأينا حالته قد أخذت فى الخطر الشديد بكيفية ظاهرة وأن الأعراض التى فى جهة الصدر قد اشتدت وفوق ذلك أن الأعراض المخية قد وصلت إلى درجة ينقطع معها الأمل ودلنا ذلك دلالة واضحة على تسمم الدم بالبول فألححنا فى طلب

البـول فعلمنا حـينئذ أن جنـابه الفخـيم لم يبل منذ الليلة الماضـية فـأدخلنا المجس وتحصلـنا بواسطة القسطرة على كـمـيـة صغيـرة من بول أسود قـاتم فحللناه تحـليلا كيماويا اتضح منه وجود كمية عظيمة من الزلال فى البول فقادنا ذلك إلى أن نعرف بلا ريب طبيعة الداء وهو أن الجناب العالى بعد إصابته بالنزلة الوافدة أصيب بالتهاب رئوى عفن مصحوب بالتـهاب وريدى عفن أيضا وأنه فى هذه الحالة لم يبق لنا أمل ولكن لم يمنعنا ذلك من اتخاذ كافة التدابير والوسائط الفـعالة حسب ما يقتضيه فنّ الطب وإن لم نجـد نفعـا وبمزيد الأسف علمنا أنه لابد مـن الوفاة التى حـصلت فى الساعة السابعة وربع مساء أ. هـ.

فتـحقق الناس طرًا أن الوفاة كـانت بسبب إهمال الطبـيبين وخـصوا الخطأ كل الخطأ بالطبيب عيسى باشا لإخفائه خبر احـتباس البول عن الطبيب سالم باشا بسبب مرض المثانة المزمن وتحدثوا فى ذلك كثيرا فكان سمر ليلهم وحديث نهارهم وأرجف بعضـهم بأن سيـقبض على الطـبيب عيـسى ويودع فى ظلمـات الحبوس حـتى تتم مقـاضاته ثم شاع بعد أيام أن والدة ولى العـهد لم تسمح بذلك وأنهـا أشارت على الرئيس مصطفى فـهمى باشا بالكف عن مـتابعة هذا الحـادث فانكف إذ لم يبق إلا التفويض لله الـواحد القهار الذى لا يزول ولايحول وهو وارث الأرض ومـن عليها وإليه المآب.

قلـت: وهو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن محمد على باشا الكبير ولد فى يوم الخمـيس عاشر رجب سنة تسع وسـتين ومائتـين وألف هجرية ولما شب أدخل مدرسة المنيل فـتعلم فيهـا العلوم الأولية ثم انتقل إلى التجـهيزية فتلقى بهـا علومها واللغات العربيـة والإفرنسية والإنجليـزية والتركية والفارسـية ولما بلغ التاسعـة عشرة تولى رئاسـة جلسات المجلس المخـصوص فى سنة ثـمان وثمـانين ثم تولى نظارتى الداخلية والأشغال العـمومية ثم قلد رئاسة مجلس النظار قبل تـوليته الخديوية بقليل وفى سنة تسعين ومـائتين تزوج بابنة الأمير إلهامى بن عبـاس باشا الأوّل والى مصر وفى سنة إحدى وتسعـين ولد له بكره الأوّل الأمير عبـاس وفى سنة ثلاث وتسعين ولد له ابنه الثانى الأمير محمد على وفى سنة أربع وتسعين ولدت له الأميرة خديجة هانم وفى سنة ثمان وتسـعين ولدت شقـيقتهـا الأميرة نعـمت هانم وتولى الخديوية المصرية فى يوم الخميس سابع رجب الفرد سنـة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية أى سابع عشرى يونيـه سنة تسع وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية وكان عـمره يومئذ

سبعا وعشرين سنة هجرية إلا ثلاثة أيام وأقام فى هذا المنصب ثلاث عشرة سنة إلا شهرا ومات فى ليلة الجمعة لسبع مضين من جمادى الثانية سنة تسع وثلثمائة وألف فكانت حياته كلها أربعين سنة هجرية إلا ثلاثة وثلاثين يوما ـ وكان رحمه الله شفوقا على رعيته يواليهم فى شدائدهم ويعفو عنهم كثير التسآل عن حالهم وما هم عليه فى إبان الشدة والرخاء وكان باراً بذوى قرابته مع رأفة وحنان وشفقة وعطف وأمانة ومروءة وعدل واستقامة وحلم وتواضع وخشية وتقوى وجلال وإنفاق فى الخير وتصدق فى السر والعلن ولكنه قليل الحظ غير موفق الطالع فكانت ولايته كلها مشاكسة ومعاكسة ومحاسدة ومنافسة إن سرت يوما أحزنت أياما وإن صفت عاما كدرت أعواما وهو مع ذلك طويل الروح كثير الجلد والصبر شديد التوكل حسن الاعتقاد فى وحدانية الله تعالى وقدرته فلم يكن يظهر مللا ولا ضجرا ولا قنوطا بل كان دائما هادئ اللب ساكن القلب حتى وافاه القدر المقدور وقد رثاه الشعراء وأبنه الفصحاء وبكاه أصحاب الصحف على اختلاف مذاهبهم فمن قال فى ذلك صاحب المؤيد :

هى الدار ما الآمال إلا فجائع ... عليها وما اللذات إلا مصائب
فكم سخنت بالأمس عين قريرة ... وقرت عيون دمعها الآن ساكب

يالله أىّ خطب نزل وأى مصاب حل وأى صاعقة صعقت القلوب وأى حادثة شقت لها الجيوب بل ما شأننا وقارعة الخطوب قد اندكت لها جوانب الجنان وفاجعة القلوب قد تولت على خاطر كل إنسان وخارت القوى وحارت النهى ووهى العزم وخان الجلد فإنا لله وإنا إليه راجعون نعم آمنا بقول القائل :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل ... وكل نعيم لا محالة زائل

وأى نعيم بعد نزول هذا الخطب المدلهم الذى قضى على كل جارحة بالثكل فلا عجب أن ناحت الثاكلات وأوحت إلى المحاجر كيف تجود بالعبرات فإنا لله وإنا إليه راجعون يا لله بماذا نسمى الداهية الدهياء والمصيبة العظمى التى فاجأتنا بها حوادث الأيام فقضت بالبأس على الأنام وعلى العبرات بالانسكاب وعلى المهج بالأنين وعلى الأحداق بالرنين كما قيل فى المثل استراحة المنكوب ولكن أين الاستراحة وقد اغتالتها أيدى الحادثات فلتذرف الماء فى بلاء راحة ذائب الجوانح :

فلقد آن لك أن تودع خلة ... رثت وكان حبالها أرماما

كذلك تكون فى آمالك يا طالب الراحة فى هذه الحياة الدنيا وموضوع سعادتها قد تولى

وهل تستطيع النادبات إلى العلا — تقول يفدّى الملك بعد الذى حلا
وفى نعيها نعى الملوك بأسرهم — ودون الذى تنعيه كم حادث جلا

فيا مصيبة الملك والدِّين والدنيا بعد أن قضى توفيق أمير البلاد المحبوب نحبه وعاجلته المنون فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وقال صاحب الأهرام:

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر — فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

طلع على مصر صباح اليوم بما أظلم ضحاها وودّ الناس معه لو طال ليلها وامتد دحاها ينعى إلى رجالها خطب فقيد تقومت لمنعاه الأضالع وفقد عظيم ارتجت لوقعه القلوب واستكت لمنعاه المسامع فقامت تندب بفقد أميرها الكريم على توفيقها المحبوب وتبكى على عزيزها العظيم بما استنزف شئون المدامع واستدرّ حبات القلوب وكيف لا يبكى الوطن على من كان له أبا شفوقا بل كيف لاتسفح عين العدالة والمكارم على من كان لها خدنا ورفيقا بل كيف لا يندبه وطن ساوى بعدله بين جميع سكانه حتى ذهب كريما مندوبا ينشده الحال بلسانه:

فكنت لناشيهم أبا ولكهلهم — أخا ولذى التقويس والكبرة ابنما

فلتبك عليك البلاد ياتوفيقها عدد انعامك وعدلك وتنتحب عليك قلوب أبنائها بمقدار ما خزنت فيها من حبك وفضلك فإنها لو بكتك بما لك فى نفوسها من الفضل والمكارم إذن ما رأينا مقلة إلا وهى دامعة ولا مدمعا إلا وهو ساجم فعليك رحمة ربك من ذاهب ذهبت الأكباد على آثاره وفقيد فقدنا الصبر من بعده فحل محله شديد تذكاره وكريم تولت المكرمات لما مات وواعظ مرشد هدى الناس فى الحياة حتى هداهم فى الممات فأىّ آثار فضلك لا يندبون بعدك وأنت لم يطلبوا منك محمدة وعدلاً إلا وجدوهما عندك بل أى فضائلك ينساها الناس وقد كنت لهم أبا رحيما كما أنت أبوالعباس أمحاسن فضلك أم مآثر عدلك أم فيض مراحمك أم غزارة مكارمك أم حسن أخلاقك أم كرم أعراقك .

أىّ الفضائل منك نندب فقدها — يا بن المكارم يا أبا العباس
فلقد حويت من المحاسن مثل ما — جمعت جميع الناس لفظة ناس

فقل لمصر الآن أن ترثيك بعد مدائحها ولشعرائها أن تجود فى تأبينك إن كنت أبقيت لغير الحزن مجالا فى قرائحها وللأقلام أن تبكيك بدمع محابرها وللكتاب أن تتفجع عليك بما يسوّد وجوه دفاترها فلقد طالما بيضتها بمحاسن أعمالك ومعاليك فصار يحق لها أن تلبس أثواب الحداد من خط مراثيك فإنك الراحل الذى لم يجعل مطاياه غير القلوب والمودّع الذى لم يترك للناس زادا غير أكباد ملتهبة ودمع مصبوب فنحن نودعك بما أبقى فقدك فى نفوسنا ان كان فيها بقية ولا نزال نذكر رزيتنا فيك مع أمثالك إن كان يوجد مثلها رزية رحمك الله رحمة واسعة عداد حسناتك وأجمل أجرك وأجر البلاد فيك بعدد مبراتك وخيراتك فأنت الكريم فى حالى فقدك ووجودك ويومى حياتك ومماتك.

ثم نتقدم بعدك بالعزاء إلى صاحبة الطهر والعفاف والنجلين الكريمين اللذين يعز علينا أن نعزيهما بك بعد أن كنا نهنئك ببدريهما الكاملين ولكن مثل بيتك الكريم من حمل المصائب ومثل آلك المصون من عودته على التقاء الخطوب واستقبال النوائب فإنا عهدنا الصبر على قدر قلب الثاكل كما عهدنا الأجر فيه على قدر الفقيد الراحل فأيهما اعتبرنا فهم أصحاب الصبر الكريم وإلى أيهما ذهبنا فأنت الفقيد الراحل العظيم نسأل الله أن يعوضهم وإيانا جميل الصبر وأن يكتب لك بما تقدم من عدلك مزيد الأجر فإنك لا تخل قلبًا من المسرة فى حياتك ولم تحزن نفسا قط إلا فى مماتك.

ومن يحزن الناس فقدانه   يسر ملائك دار النعيم

هذا ما سمحت به بادرة الحزن وأجازة على القلم وقع المصاب وهول الفجاءة ووسعة مقام الجريدة وضيق الوقت والصدر منهما أضيق والقلب أصغر وأحرج ولاحولة ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

يا دهر بع رتب المعالى بعده   بيع السماح ربحت أم لم تربح
قدّم وأخّر من تشاء فإنه   مات الذى قد كنت منه تستحى

وقال صاحب النيل :

قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير .

سمو ولى نعمتنا البر الرحيم بنا المشفق علينا خديونا المعظم بالأمس محمد توفيق الأول وهو اليوم الخديوى المرحوم هو اليوم الفقيد العزيز وهو اليوم ساكن

الجنان فى جوار رضوان الله عليه الرحمة والرضوان ولاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

قد مات توفيقنا والدائم الله   فليهرق الدمع ولتستتبع الآه
مات الخديوى الرحيم البر فطرته   قديسة ملكيات سجاياه
قضى فياحسرة الملك العظيم له   ومات فلتندب العلياء علياه
فازت بطلعته الأخرى ويا أسفا   أضحت تعزى به من بعد دنياه

إى وربك إن خديوينا العزيز أمير مصر المحبوب توفيق الأوّل قد فارق الدنيا مأسوفا عليه بقلوب الأمةمبكى الشمائل بدموع الوطن انتقل إلى جوار مولاه طيب ثراه وأكرام فى الفردوس مثواه فترك القلوب تسامى الجيوب فى الانشقاق وودع العيون المندفقة تجارى المهج المحترقة فالتقى النهران دم يراق ودمع مهراق وحق لهول هذا اليوم وناهيك به يوم الفراق:

بكينا خديوينا العزيز وإنما   بكى كل مصرى أميرا ووالدا
ولو أن فى الأقدار ما يبلغ المنى   تمنى بنوها أن يكونوا له الفدا

يعز على الأقلام التى كانت تستمد الخبر من آثار حكمته أن تبتلى بصب دموع المداد يوم رحلته رحيل مدهش وسفر بعيد وأوب غير منتظر إلى يوم موعود رسم وداع لكن إلى الأبد موكب حافل لكنه مأتم سيار وحزن قهار وقلوب فى نار وعقول فى انبهار ودهشة محرقة وموقف عظيم « الوداع الوداع» أيها المولى المنعم البر بالأمة الرحيم بالملة المشفق بكل الذى لا نشكو منه إلا يوم هذا الفراق الأليم فالوداع الوداع يا من سهر لياليه لتنام الرعية فى مهد أمانة وأجهد أيامه ليرغد عيش الأمة تحت ظلال فضله وإحسانه لقد قضيت عمرك العزيز وحياتك الشريفة وأوقاتك الناضرة وشبيبتك الوضاء فى توخى الصوالح الوطنية والمصالح الجدية والمنافع العمومية لم تلهك الدنيا بزهرتها ولم تلفتك جلالة الملك عن التماس رضا الخالق بالإحسان إلى الخلائق فلم يسوءهم منك إلا حزنهم عليك وبعدك عنهم وهم فى حاجة إليك «الوداع الوداع» يا من لم نر من حكمه غير الحكمة ولا من سيرته غير الرحمة فكنت القريب من الضعيف الرفيق بالبائس العافى عن المسئ المتفضل على المحسن المعزز لأبناء الوطن المحب لخير البلاد المعين على السراء والضراء فلنعم سيرتك الجميلة وسريرتك الطاهرة وأخلاقك الكريمة ونفسك الراضيةووجهتك المرضية :

شيم ينقضى الزمان وتبقى وثناء تبلى الليالى ويتلى

ومحاسن كلما ذكرناها بكيناها وفواصل كلما تأثرناها تأثرنا بها فعليك الرحمة والرضوان وغاية الحديث فى عالم الإمكان كان وسبحان من يبقى كل شىء فإن نودعك يا خديوينا العزيز بقلوب واجفة وعيون واكفة وأفكار مضطربة مضطرمة وأذهان مستوحشة مندهشة ونسأل الله العظيم أن يجعل لك الفردوس مقرا والنعيم المقيم مقاما والرضا الإلهى قرينا إنه هو الرؤوف الرحيم إلى آخر ما قال.

وقال صاحب الفلاح :

إنا لله وإنا إليه راجعون من مصاب ألم وخطب أعم داهمنا مساء هذا اليوم والجريدة تحت الطبع فقصف منا الضلوع وأهمى منا الدموع وأجمد الدم فى العروق وابتلانا بالصدوع وأجج فينا نار حزن لا يطفئها ماء جفن ماطر وأنزل فى صدر كل سامع رزأ للقلوب فاطر لا ينشرح معه خاطر وذلك بينما كانت الآمال مستبشرة بزوال ما مازج ولى النعم من الاعتلال، والأخبار تفد إلينا مباشرة بتقدم صحة سموه فى خطة الاعتدال إلى الكمال إذ فجعتنا أخبار عصر هذا اليوم بأن صحة سموه عن الاعتدال تحولت واضطربت وتغيرت فاستدعى كبار الأطباء للإسراع إلى حلوان ليتبصروا فى هذا الشأن فما ذاع هذا الخبر وكلمح البصر انتشر إلا وكنت ترى القلوب راجفة والخواطر واجفة والكل فى اندهاش وتلهف إلى أخبار ترد إلى الأرواح الانتعاش - إلى أن قال ولكن أبى الدهر الخؤن إلا أن ينفذ مطالب المنون ويحرق القلوب ويدمى العيون فإنه لم تأت الساعة السابعة وسبع عشرة دقيقة مساء الخميس إلا ونعب غراب الكهرباء بمنعاه فكان أشأم على النفوس من البسوس إذ نعى من قضى وهو حى بذكره ومضى أثره مخلد فى قطره ولى نعمتنا «محمد توفيق» الأول خديوى مصر الذى لم يماثله مماثل فى هذا العصر فياله من خبر تهون دونه الخطوب فإنه فتت الأكباد وأذاب القلوب - إلى أن قال ونعق بوم التلغرافات إلى كل الجهات للقيام بمراسيم التعزية والتأسف ولسان الحال يقول هذا المقال :

أصوت صاعقة أم نفخة الصور فالارض قد ملئت من نقر ناقور
أصاب منها الورى دهياء داهية وذاق منها البرايا صعقة الطور
تصدّعت قلل الأطواد وارتعدت كأنها قلب مرعوب ومذعور
أتى بوجه نهار لا ضياء له كأنه غارة شنت بديجور
أم ذاك نعى لتوفيق الزمان ومن قضت أوامره فى كل مأمور

معلى معالم دين الله مظهرها   فى العالمين بسعى منه مشكور
وحسن رأى إلى الخيرات منصرف   وصدق عزم على الألطاف مقصور
بآية العدل والإحسان ممتثل   بغاية القسط والإنصاف موفور
مجاهد فى سبيل الله مجتهد   مؤيد من جناب الله منصور
براية رفعت للمجد خافقة   تجرى على علم بالنصر منشور
يانفس مالك فى الدنيا مخلفة   من بعد رحلته عن هذه الدور
وكيف تمشين فوق الأرض غافلة   أليس جثمانه فيها بمقبور
حق على كل نفس أن تموت أسى   لكن ذلك أمر غير مقدور
يا نفس فاتئدى لا تهلكى أسفا   فأنت منظومة فى سلك معذور
إذ لست مأمورة بالمستحيل ولا   بما سوى بذل مجهود وميسور
سبحان من ملك جلت مفاخرة   عن البيان بمنظوم ومنثور
لا زال أحكامه بالعدل جارية   بين البرية حتى نفخة الصور

فيالها من ليلة ليلاء قضتها مصر بين التلهف والتحسر والبكاء، وتنفس الصعداء وقل ما تشاء عن حلوان التى جللها الحزن والهوان مع وفرة الناس للقيام بمراسيم احترام ساكن الجنان فأعظم به من مؤلم ملم وخطب عظيم مدلهم شقت له الجيوب بل تمزقت له القلوب فد محا سطور الصبر من الصدر وظهر به ما فى اللوح مكتوب واقشعر له الوجود إذ قيل مات توفيق مصر والجود.

فانفض يديك من الدنيا وساكنها   فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا

فأكرم به ميتا كثر إحسانه، وقلد أعناق الجود امتنانه ... إلخ

وأرسل تيكران باشا متولى نظارة الخارجية فى ثامن جمادى الآخرة وتاسع يناير الى جميع قناصل الدول يقول : إنه ليحزننى أن أنبئكم بوفاة مولاى الفخيم الجناب الخديوى محمد توفيق باشا توفى إلى رحمة الله فى مساء اليوم السابع من هذا الشهر يعنى شهر يناير بقصره الحلوانى أثر مرض لم يمهله سوى بضعة أيام وإنى بمواصلتكم بهذا المصاب الذى حل بالبلاد أتشرف بإبلاغ جنابكم أن الجناب الخديوى المعظم عباس حلمى باشا قد تبوأ الأريكة الخديوية خلفاً لساكن الجنان والده الفخيم طبقاً للفرمانات الشاهانية العلية اهـ.

وقد رثاه رحمه الله وهنأ ولده العباس بالولاية العلامة الفهامة إسماعيل صبرى باشا وكيل نظارة الحقانية حالاً فقال :

نحن لله ما لحي بقاء   وقصارى سوى الإله فناء
نحن لله راجعون فمن ما   ت ومن عاش ألف عام سواء
يفرح المرء فى الصباح وما يعـ   ـلم ماذا يكنه الإمساء
ومتاع الدنيا قليل وما يلـ   ـهو به المرء من حطام هباء
زهد الناس فى الحياة ملم   روّعتنا بهوله الزنباء
قصر حلوان كنت أنضر قصر   فيه يحلو ويستطاب الهواء
كنت ذا هيبة يحاذرها الدهـ   ـر وتكبو أمامها البأساء
كيف أصبحت مستضاماً وللخطـ   ـب إلى ركنك المنيع ارتقاء
ما كذا عهدنا بعزك ترميـ   ـه الليالي أو يعتريه انقضاء
كان بالأمس فى ذراك أبو العبـ   ـاس تحيا ببشره الأحياء
فطوت برده الخطوب وكانت   قبل تشقى ببعده وتساء
ويح من شيعوه قد أودعوا القبـ   ـر كريماً يبكى عليه العلاء
وارتضوا بالبكا وما الحزن إلا   أن تسيل القلوب والأحشاء
عاش فينا عذب البشاشة والأخـ   ـلاق تروى به النفوس الظماء
وتولى وفى الصدور من الوجـ   ـد عليه ما ليس يرويه ماء
عطلت مصر من سناه كما قد   عطلت من حليها الحسناء
كل خطب فى جنب خطبك يا مصـ   ـر يرجى للناس فيه عزاء
ما يقول الراثون فى فقد توفيـ   ـق وماذا تحاول الشعراء
والرزايا فى بعضها يطلق القو   ل وتعيا فى بعضها البلغاء
إن مولاك كان أحسن من تز   هى بأنوار وجهه البطحاء
كان للتاج فوق مفرقه ضو   ء لديه تحقر الأضواء
كان يجلو دجى الكوارث إن حلـ   ـت برأي تعنو له الآراء
كان أدرى الملا بكسب ثناء   آه لو خلد النفوس ثناء
آل توفيق الكرام البسوا الصبـ   ـر رداء فالصبر نعم الرداء
أنتم الراسخون في علم ما كا   ن فقولوا من ذا عداه الفناء

أين قوم شادوا البلاد وسادو   ها وكانت تهواهم العلياء
ملكوا الأرض حقبة ثم أمسوا   وهمو في بطونها نزلاء
سنة اللّه في البرية لم يسـ   ـتثن منها الملوك والأنبياء
لا أعزيكمو وأنّى لقولى   أن تعزى بمثله الحكماء
احمدوا اللّه في العشية والإصـ   ـباح فالبؤس قد تلاه هناء
إن يكن من سمائكم خر بدر   ما حوت شبهه بدورا سماء
فلقد أشرقت لآخر أنوا   ر بها يصدع الدجى وضياء
قد أرانا العباس بعد أبيه   كيف يلقى العظائم العظماء
فاجتليناه طود مجد وسورا   دار منه حول البلاد بناء
حبذا منه همة تترك الصعـ   ـب ذلولا وعزة قعساء
وثبات في طيه وثبات   للمعالى وحكمة وإباء
وصفات عن كنهها يعجز الوصـ   ـف وفيها يستغرق الإحصاء
دام يكسو الزمان حسنا ويسدى   أنعماً لا يشوبهن انتهاء

ورثاه العلامة البحر الفهامة حنفى بك ناصف القاضى بالمحاكم الأهلية حالاً فقال :

شقوا القلوب وغادروا الأطواقا   وذروا الدمو تقرح الآماقا
ودعوا النفوس تصبها أجفانكم   دمعا وتسكبْها دما مهراقا
ذوبوا من الأحزان لا تبقوا على   أكبادكم واستنفدوا الأرماقا
قد فارق الدنيا العزيز محمد   يا لهف نفسي من يطيق فراقا
خطب دوت في الخافقين رعوده   فزعا وطبق نعيه الآفاقا
غشى الأنام ولم يكن متوقعا   كالسحب صيفا أرسلت إبراقا
وأصمت الأسماع رنة وقعه   والحزن أولى الألسن استغلاقا
ودجا الزمان فكل نور حلكة   ونبا المكان فكل رحب ضاقا
ناشتدكم يوم ارتحال محمد   من في الرعية لم يودّ لحاقا
هل تعلمون معمراً أو ناشئاً   لم يوله نبأ الرى تصعاقا
هل تعلمون معمراً أو ناشئاً   لم يوسع الصبر الجميل طلاقا
أى امرئ لم يسقه يوم النوى   كأساً من الروع المرير دهاقا
لا كان يوم سار فيه نعاته   يلقون فى مهج الورى إحراقا
هى ساعة راش القضاء سهامه   فيها وحل بنا البلاء وحاقا
أودى فأى فريصه لم ترتعد   أم أى قلب لم يكن خفاقا

بدر عراه وهو فى استقباله   خسف وصادف في الكمال محاقا
حملته أعناق الرجال وطالما   بنوا له قدّ طوّق الأعناقا
تركوه عمداً فى الظلام ولم يكن   يرضى الشموع لبيته إشراقا
سكن القبور وكم قصور شادها   وأوى إلى غرف وحل طباقا
إن فاق فى المجد الملوك فإنه   أرب عليهم فى العلى إنفاقا
خلق كما سرت الشمال ورقة   تحكى الشمول لطافة ومذاقا
وبديهة تقف الروية دونها   والسمع يلقى عندها الأوراقا
وعبارة تشفى الغليل ومنطق   بمجامع المعنى يحيط نطاقا
وتساول بذر المعمى واضحا   وطلاقة تولى النهى اطلاقا
خفق السماح عليه حتى انه   لم يخش طالب جوده إخفاقا
لا يرهب الإقلال بعد لقائه   ءاف ولا يتهيب الاملاقا
إن قيل عفو فهو بحر زاخر   لايعرف الجانى له أعماقا
طبعت سجاياه عليه أما ترى   ى كل بادرة له مصداقا
أو قيل دين فهو حافظ عهده   كم شد منه عرى ومد رباقا
أو قيل اصلاح فذلك صنعه   فى مصر أعتق أهلها إعتاقا
لدغت أفاعى الحادثات يمينها   دهراً فكان لسمها ترياقا
زأب الصدوع بحكمة منه وقد   ملئت طباق بلاد مصر شقاقا
وأقر فيها العدل بعد تزعزع   والحق أولى أمره إحقاقا
ونفى الضلال فما تصدى باطلا   إلا وأزهق روحه إزهاقا
أولى المعارف فى البلاد عوارفا   والعلم يعد ذيوله إبراقا
مهد الطريق لمن تقلد بعده   وهدى السراء وفتح الأغلاقا
فسروا بنبراس الذكاء ليغمضوا   ممن تطلع نحوها أحداقا
ما وفق اللّه أمرأ فى أمة   إلا وكان لنفعها منساقا
تربت يمين الدهر غيب فى الثرى   هذى الخصال وتلكم الأخلاقا
سبق الكرام إلى النعيم وعهدنا   فيه لكل عظيمة سباقا
وسرى إلى الرب الرحيم ملاقيا   بين الملائكة الكرام رفاقا
عن فضله حدث فطيب حديثه   يشفى المحب ويطرب المشتاقا
يا راحلاً عنا تركت نفوسنا   تشكو الاسى وتساور الأشواقا

لم يبق منا الحزن إلا مهجة   حرّى وإلا مدمعا دفاقا
خطفتك خاطفة المنية فجأة   منا وغادرت الجسوم رقاقا
لم تنتثر شهب السماء ولم يطل   مرض ولم يبد الغراب نعاقا
ويد الردى سرقتك ليلا ليتهم   حدّوا بقطع يديهم السراقا
بحماك حراس وحولك عسكر   وصنوف أبهة فكيف أطاقا
إنا على الود الذى مكنته   منا وعنه لا نحول فواقا
لا كان من ينسى الولاء لسيد   يوما وينقض بعده الميثاقا

وقال العلامة وهبي بيك ناظر المدارس القبطية على منوال العزاء والهناء :

مهادك فى حسن العزاء ممهد   وجدك ملحوظ به الكل يشهد
وبدر علاك اليوم أسفر ضوءه   فأودى به ليل الأسى يتبدد
وعادت بك العليا إلى مصر راقيا   على الطائر الميمون والعود أحمد
ودانت لك الأقدار حتى كأنها   بأمرك تشقى من تشاء وتسعد
فوال بنى الآمال واصدع بما تشاء   فإنك فى كف الزمان مهند
وفوّض إلى اللّه الأمور فإنه   إليه تعالى فى العظائم يصمد
ومن عجب أن الحوادث جمة   ولكنّ سهم النائبات مسدّد
أساءت إلى المعروف فينا صروفها   وما الأجل المحتوم إلا محدّد
وقد كان توفيق البلاد مملكا   حديث حلاء للمكارم يسند
تحلى به جيد الفضائل ناشئا   وأوتى منها فوق ما كان يعهد
وساس شئون الملك خير سياسة   بها الفضل يحيا والفخار مؤيد
فلا غرو أن ساء الأنام فراقه   وقد أصبحت نار الجوى تتوقد
ولما رقت شوقا إلى اللّه روحه   وأنهم فينا المرجفون وأنجدوا
تلافيت أمر القطر خوف تلافه   وأنت بتوفيق الإله مؤيد
وجاءك مرسوم الخليفة مؤذنا   بأنك مشروع الوراثة أوحد
وآلت إلى علياك فى العز دولة   إذا سيّد منها خلا قام سيد
وها أنا أهديك الثناء مرحما   على الوالد المبرور وهو الممجد
وأنشد يا مولاى فيه مؤرخا   توفى توفيق العزيز محمد
سنة ١٣٠٩

رعاك إله العرش جل ثناؤه   وألهمك الصبر الذى ليس ينفد
ولا زلت مشكور العناية دائماً   وذكرك فى تاريخ مصر مخلد

وقال أحد الأدباء ولم نقف على معرفة اسمه :

من عادة الدهر بعد الحزن إيناس   وما الدهر فى أفعاله باس
يوماه يوم به للهم قد مزجت   كأس ويوم هنا تصفو به كاس
فاضرب عن الحزن صفحًا وامح سيرته   فهكذا الدهر ناس بعدهم ناس
واستقبل الأمر بالتعزيز من ملك   فى قطر مصر فأنت الروح والراس
وكن على الله فيما شئت معتمداً   تطب لعلياك بالتأييد أنفاس
بالجدّ والجدّ نلت الأمر ذا شرف   لا غرو ان أثمرت بالعز أغراس
وفى الوراثة معنًى عز مدركه   وما به بعد هذا اليوم ألباس
للّه من خلف فى القطر عن سلف   سادوا الورى وعلى هام السها داسوا
وأجمعوا الأمر فى تدبير ملكهم   والرعية بالإنصاف كم ساسوا
هذا وعذراء فكرى لا أخال معى   بل ما معى الشتداد الخطب إحساس
ولا لسان به أطرى ولا قلم   يجرى وللضيق ذرعا ضاق قرطاس
وفضل والدك المرحوم لست له   أنسى ولو ضمنى بالموت أرماس
لا زال فى كرم الرحمن مسكنه   جنات عدن بها الريحان والآس
ولا تزال لهذا القطر معتصماً   وأعين الله مهما كانت حراس
وهذه حكمة المولى مؤرخة   توفيق مات وولى اليوم عباس
سنة ١٣٠٩

قلت : ومن غريب الاتفاق أنه رحمه الله ولد فى يوم خميس وتولى الخديوية المصرية فى يوم خميس ودخل القاهرة فى موكبه بعد الفتنة العرابية فى يوم خميس وتوفى إلى رحمة الله تعالى فى يوم خميس فسبحان الله الأزلى الذى لا يموت سبحان مالك الملك والملكوت منه المبتدأ وإليه المنتهى وهو رب الآخرة والأولى وله ما سلب وما أعطى وما أخذ وما أبقى ولا شك أنا جميعاً فى هذا السبيل نسعى وأن إلى ربك الرجعى.

اللهم كما حمدتك فى المبدأ أحمدك فى الختام وأشكرك على مر الأيام اللهم كما وفقتنى للحق فارض عنى الخلق ووفقهم إلى معذرتى والتجاوز عن عثرتى فإنى أشفق أن يكون عملى هذا عملاً حابطاً أو شغلاً ساقطاً اللهم إنى معترف بأنى لست من أهل ذاك الشان ولا من خيل هذا الرهان ولكنى قد توكلت عليك سيدى فأعنتنى ولم تكلنى إلى نفسى فلم أضل وأريتنى الغى غياً فاجتنبته وأريتنى الهدى هدى فاتبعته والوقت غير مساعد والمانع غير مباعد والفراغ متعسر وجمع الخاطر غير متيسر لاسيما وقد أصبت فى خلال العمل بما غلب على التجلد والصبر وفتّ فى العضد والصدر من فقد شقيق لى كان مرجعى فى كل أمورى إليه ومعتمدى فى سائر أعمالى وآمالى عليه وحيدى الذى أورثنى فقده جزعاً وهلعاً وسقماً ووجعاً وغماً وهماً وحزناً لم تزل فى أحشائى ناره وفى صدرى أواره فعندك اللهم أحتسبه واستمنحك أحسن الصبر فلك سيدى الأمر اللهم أنت تعلم أن بغية مُرادى وغاية مَرَادى تعميم النفع بقدر اجتهادى فإن كنت قد أجريت البراعة فى هذه الغاية إلى منتهاها وبلغت النفس من هذه الأمنية مشتهاها فذلك لكى أجمع بين قديم الأيام وجديدها وأكفى المطلق مؤنة الرجوع إلى قريب الأخبار وبعيدها ليتم النفع بما ألفته منها وصنفته بعد إعمال الفكرة وإجهاد الفطرة اللهم أنت تعلم أنى فعلت ما فعلت تقرباً إلى أبناء وطنى بخير ما لدى بعد معاناة الأهوال فى طول الأحوال وما بى إطراء نفسى ولا تزكية عملى فإنى أكره المباهاة فوفقهم مولاى إلى أن يتقبلوه بالقبول والإقبال وهم فى كمال الأحوال كى أنال من عملى ما أتمناه وأفوز من أملى فى وجهك سيدى بأسناه ولا حول ولا قوة إلا بك فأنت حسبى وكفى.

دبيت للمجد والساعون قد بلغوا　　جهد النفوس وألقوا دونه الأزرا
لا تحسب المجد تمراً أنت آكله　　لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

إلى هنا تم الجزء الرابع من الكافى وبه ختام الكتاب فإذا فسح الله لى فى

الأجل ووفقنى إلى شىء من العمل وأعاننى على بلوغ الأمانى عنيت بجمع أخبار أيام صاحب الولاية الحالية والأريكة الخديوية (عباس باشا حلمى الثانى) ورتبتها كما تستحق من التنسيق والترتيب فإنها جمعت أمورا عجيبة وحوادث غريبة وشئونا تستوقف الطرف وتستدعى الإسهاب فى الوصف وكلها تشهد بأن الأمير «حرسه الله» وأناله ما يتمناه لم يقل قبل أن يعلم ولم يجب قبل أن يفهم ولم يعزم قبل أن يفكر ولم يقطع قبل أن يقدر وهو مع ذلك بين عاملين شديدين وفريقين متقاربين متباعدين فكيف به إذا قضى الله تعالى بنفاذ ما أراد وانقشعت سحب تلك المحن عن سماء هذه البلاد فزاده الله نبلاً وعزماً وفضلاً وحزماً ووقاه من شرها حتى يطويها على غرها.

وما أحسن ما قيل:

لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى   فما انقادت الآمال إلا لصابر

وقول آخر:

فاصطبر وانتظر بلوغ الأماني   فالرزايا إذا توالت تولت
وإذا أوهنت قواك وجلت   كشفت عنك جملة وتجلت

★★★

اللهم هب لى مغفرة من لدنك

وارحمنى يا أرحم الراحمين

(تم)

يقول طه بن محمد قطريه رئيس التصحيح بالمطبعة الكبرى الأميرية :

إن أحسن الحديث فى القديم والحديث بعد التيمن باسم الله تعالى حمد الله جل ثناؤه على نعم تنهل على عباده وتتوالى فالحمد لله القديم وجوده العام للخاص والعام كرمه وجوده الأول قبل كل شىء بلا بداية الآخر بعد كل شىء بغير نهاية المنزه عن أن يؤرخ بزمان أو يسئل عنه أين كان ومتى كان كيف وهو الذى خلق الزمان والمكان نحمده أن جعلنا خلفاً للأولين وقص لنا عنهم أحسن القصص فى كتابه المبين وحدثنا عمن مضى بما فيه مزدجر من الأنباء فكان لنا قدوة حسنة فيمن أحسن منهم وعبرة بينة بمن أساء ونصلى ونسلم على نبى الرحمة وهادى الأمة أول الأنبياء موجوداً وآخرهم مولوداً وعلى سائر النبيين والمرسلين ومن اقتفى أثرهم وسلك سبيل المهتدين.

أما بعد: فإن من حسن البخت وصفاء الوقت للمصريين عامة وطلاب التاريخ خاصة طبع هذا الكتاب الجليل الذى لم تسمح الأيام له فى بابه بمثيل المسمى بـ«الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث: تأليف حضرة الفاضل السرى الوجيه الكامل صاحب العزة «ميخائيل شاروبيم» مدير الأملاك الميرية بنظارة المالية حالاً بلغه الله آماله وأكثر فى فضلاء المصريين أمثاله شمر حفظه الله عن ساعد الجد والاهتمام وقام بتأليف هذا التاريخ أحسن قيام فجاء كتابا بأحوال مصر ومجرياتها حافلاً وبشرح حال ملوكها وأمرائها وعادات أهلها وما كانوا عليه محيطاً كافلاً وبسط الكلام على سياسة ملوكها فى كل زمان من عهد القدماء ثم من بعدهم دولة بعد دولة إلى الآن أعنى سنة ١٣٠٩ هجرية التى انتقل فيها إلى الدار الباقية المرحوم محمد توفيق باشا خديو مصر السابق عليه الرحمة والرضوان فلله در هذا المؤلف من همام خدم الوطن بهذا العمل الجليل والصنيع الحسن الذى قلد به الأعناق أعظم المنن فلا غرو إن افتخرت به مصر على سائر الأمصار وكانت به القاهرة قاهرة لغيرها من الديار فلقد شيد لها حفظه الله ذكراً وشرح لأبنائها صدرا ورفع لهم قدراً فما من المصريين أحد إلا وهو فى حاجة إلى تحصيله واضطرار إلى الوقوف على إجماله وتفصيله ليعرف نعمة الله عليه فى هذا القطر السعيد المغمور بهذا النهر الذى يغار منه البحر الطويل المديد هذا القطر الذى كم شدت إليه الرحال وتطاولت إليه أعناق الرجال وخيضت فيه لجج المعاطب والأهوال وأجاد فى وصفه من قال :

إن مصر لأطيب الأرض عندى ليس فى حسنها البديع التباس
وإذا قستها بأرض سواها كان بينى وبينك المقياس

ومن قال :

ما مصر إلا منزل مستحسن   فاستوطنوه مشرقاً أو مغرباً
هذا وإن كنتم على سفر به   فتيمموا منه صعيداً طيباً

وبالجملة فهو تاريخ وحيد وعقد فى فن التاريخ فريد جاء كاسمه كافياً وللداء العضال شافياً وكان لنا دليلاً قاطعاً وبرهاناً ساطعاً على فضل هذا العلم المعلوم وعظيم شأنه بين العلوم كما اتفقت عليه الكلمة وأصبح من القضايا المسلمة :

ليس بإنسان ولا عالم   من لم يع التاريخ فى صدره
ومن درى أحوال من قد مضى   أضاف أعماراً إلى عمره

قد سلك المؤلف حفظه الله فى كتابه سبيل الاحتياط والتحرى التام فجاء بالأحوال والمجريات والمقاصد السياسية فضلاً عن الأخبار من مصادر الصدق الموثوق بها وهذه هى الطريق القويم التى أفلح من تمسك من المؤرخين بسببها وتأدّب بأدبها

الصدق أوفى خليل إن ظفرت به   يغنيك عن جمع إخوان وأحلاف
ومن أراد بأنباء الذين مضوا   علما وصدق حديث يكفه الكافى

هذا وقد ضاعف المؤلف حفظه الله إحسانه فقام بطبعه على نفقته وباشر تصحيحه وإتقانه بمطبعة بولاق الأميرية فى عهد الدولة الفخيمة الخديوية العباسية أطال الله أمدها وأسبغ ظلالها وألهم العدل والإصلاح رجالها وتم طبعه المنير فى أوائل رجب سنة ١٣٢٣ من هجرة البشير النذير عليه الصلاة والسلام وعلى آله الكرام وأصحابه بدور التمام.

* * *

(ولما آذن طبعه بالتمام قرظه حضرات الأدباء الفضلاء أرباب الأقلام)
كتب فى ذلك العلامة البحر الفهامة صاحب السعادة
إسماعيل صبرى باشا وكيل نظارة الحقانية
الجليلة حالاً يخاطب حضرة المؤلف فقال :

قرأت كتاب الكافى ووقفت من تحرِّيك الوقائع المدونة فيه وإبرازك إياها لمحب التاريخ على مبلغ الأتعاب التى تجشمتها فى تأليفه فجاء وله نصيب من اسمه كافيا وافيا يخبر عن أحوال القرون الماضية بأفصح عبارة فأثنيت على واضعه مع المثنين وأعجبت به مع المعجبين كيف لا وقد اشتمل على فوائد كل الناس فى الانتفاع منها سواء وإن اختلفت منهم المشارب والأهواء يقرأ فيه الأمراء كيف تحاط الممالك ويسلك أقوم المسالك وتجد فيه قادة الملل كيف تعلو الدولات وتصح السياسات ويتعلم منه من دونهم كيف تتضافر الأمم وتتعاضد الهمم للوصول إلى السعادة ضالة كل مجتمع إنسانى. إن الشاعر إذا أجاد فى شعره قيل له أجدت والناثر إذا أحسن فى نثره قيل له أحسنت والحكيم يصيب كبد الحقيقة يهنأ بأصبت والمؤرخ يتحرى الصدق فى تحرير وقائع التاريخ يقال له صدقت أما أنا وقد اطلعت على كافيك وعرفت ما تحملته من العناء فى جمعه وتنسيقه وترصيفه فإنى أهنيك بقولى لك أجدت وأحسنت وأصبت وصدقت.

وقرظه العلامة المفضال صاحب العزة
وهبى بك ناظر المدارس القبطية قال :
بسم الله الرحمن الرحيم

ما صدحت حمائم البيان للدلالة عما فى الجنان بأوجب من حمد الله القديم ولا ترنحت عذبات البان بأطرب من صلاة الملك المنّان على كل رسول كريم فالحمد لله أجرى أعنة الأقدار بما تتضاءل عنه أفكار الحكماء ولم يعزب عن علمه وهو الفاعل المختار مثال ذرة فى الأرض ولا فى السماء.

(أما بعد) فإن التاريخ على ما بين دفتيه من خصائص حسان ألحق أدناها بأقصاها لم يغادر من شئون بنى الإنسان صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وحسبنا شاهداً على ذلك ما أودعه تاريخ مصر من آثار ملوك وخلفاء سالت بأعناق مطيها أباطح الكلام وكادت تنقلب بها رياح العفاء فى غضون الجاهلية والإسلام فلا غرو إن جاس خلال ديارها فريق من العلماء علقوا بأذيال التنقيب عن آثار القدماء فدونوا فى وصفها كما فعل عبد اللطيف البغدادى العالم الطبيب من الحوادث والأخبار ما حقه أن يتخذه اللبيب كتاب إفادة واعتبار وإن للإفرنج فى تمحيص تاريخها القديم استقراء لا يتأتى لكل محسن ولايقدره كل من أقلته الغبراء وأظلته الخضراء من أبناء هذا اللسان فأحر بنا أن نطاول كل ذى استئثار بمزايا هذا البلد الأمين وما شاده فيه السلف الصالح من الآثار الباقية فى العالمين ولقد ألمّ العالم الفاضل صاحب العزة ميخائيل بك شاروبيم فى مؤلفه هذا كل الإلمام بما رقّ وراق وتناولته يد المريد على طرف التمام من ثمرات الأوراق فهو عقد فريد اندمجت فيه الحوادث كأنها اللؤلؤ والمرجان أو جنة كثيرة الأغاريد بها من كل فاكهة زوجان فلو أنه تداولته الأيدى فى العهد الذى غبر عهد ابن خلدون لقوم ما أورده فى ديوان المبتدأ والخبر بالدون أو مثله العيان لابن خلكان لألحق وفيات الأعيان بخبر كان فللّه در مؤلفه أتحف ذوى الألباب بما تأخذ بمجامع الأفئدة حلاه واستخلص فى تاريخ مصر القشر من اللباب ومصر كنانة الله فى أرض الله فيا أيها الأريب الذى أصاب مرمى السداد وأماط اللثام عن كل غريب من مآثر الآباء والأجداد لقد سحرتنا بآياتك بعد أن ألقينا عصا الاذعان والتسليم ومحوت سيئات الزمان بحسناتك وفوق كل ذى علم عليم لازلت تستدرج فى أى غرض تتوخاه ما يهزأ بقلائد العقيان على لبات الغوانى ونصيب مؤلفك فى الاستغناء به عما سواه نصيب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى إن الله على ما يشاء قدير وبإجابة هذا الدعاء جدير.

وقرظه ايضاً الكاتب الفاضل والنحرير الكامل صاحب العزة
جرجس بك حنين أحد مديرى الأموال المقررة
بنظارة المالية حالاً مخاطباً لحضرة المؤلف فقال:

لقد طالعت يا أخا الفضل تأليفك «الكافى» فى التاريخ وأمعنت النظر فيما احتواه وجئت بهذا لأؤدى لجنابك واجب التهنئة على ما توفقت إليه من أحاسن

التأليف والتصنيف التى بها أكسبت علم التاريخ مجداً وفخراً وخلدت لاسمك السعيد على مر الدهور كرامة وذكراً. نعم تحق التهانى فكتابك يا ناصر الأدب له قيمة عظيمة ومنزلة رفيعة بين المؤلفات العربية إذ ليس هو مجرد أقاصيص وأخبار أو مجموع روايات وأسمار بل هو ميدان تمثلت فيه مشاهد العالم بأدق مظاهرها يرى الناظر فيه مشهد نشأة الخلق وأدوار تكوينه، يرى أيضاً دولاباً عظيماً جداً تديره العناية الالهية على سلاسل نظامية طبيعية ينشأ من احتكاكها تولد الحوادث العمرانية والتقلبات المدهشة العصرية من قيام الممالك والأمم والشعوب ونهوضها وارتقائها بعد الانحطاط أو ذبولها بعد الإيناع وانحلالها بعد الارتباط وغير ذلك من مجتمعات الأضداد التى بها تتمثل حقائق أحوال الأمم وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وأخلاقهم وتربيتهم وعلومهم وآدابهم ولغاتهم وصنائعهم وأنسابهم وأفرادهم ومن قام منهم من الأنبياء والأولياء والملوك والقواد والعلماء والحكماء والكتاب والخطباء والشعراء وغيرهم من أبطال العصور.

التاريخ الصادق هو أعدل شاهد على درجات العصور فى الحضارة والمدنية بل هو حياة الذكرى بل هو رسول القدم لمن يشاء الاقتداء بفضائل السلف من أمور الدِّين والدنيا وكيف لا يكون كتابك أيها السيد من أصدق التواريخ وقد عرف القاصى والدانى عن شمائلك من شهامة فى الأخلاق وطيب فى الأعراق وقلم سيّال ولسان قوّال ورجحان فى البرهان واقتدار فى البيان وسلامة فى الذوق ودقة نظر فى الترتيب وجميل وضع فى الأساليب وحسن اختيار فى الألفاظ الرقيقة ولطف صنع للمعانى الرشيقة وغير ذلك من الخصائص الغراء والشيم الشماء التى أكسبت الكتاب طلاوة فوق طلاوته وجذبت النفوس لتلاوته والاعتماد على صحة روايته. وكيف لايتخذ كتابك حجة يرجع إليه ويعوّل عليه وقد توفرت فيه شروط الاعتماد الخمسة وهى :

أولاً: اعتبار الينابيع المستمدة مواده منها. **ثانيا** : صفاؤه من شبهة الغرض وابتعاده عن هوى التعصب فى المدح أو الهجاء. **ثالثاً**: جلاء عباراته ودقتها وخلوها من التطويل الممل. **رابعاً**: تجرده عن الخرافات والترهات التى لا يحتملها العقل ولا يقبلها الذوق السليم. **خامساً**: تجرده من التمويه والتلبيس والمصانعة التى يراد بها التزلف لأصحاب المراتب السامية.

ولايقف بى القلم عند هذا الحد فى وصف هذا الكتاب الجليل الشأن لأنك قد

زدته بهجة وغلاء بما أوردته فيه من تقرير الحوادث التى عاصرتها بنفسك والمعلومات الواسعة التى لجنابك فى الوقائع السياسية أثناء الثلث الأخير من القرن التاسع عشر واعتمادك فيما عدا ذلك على أقوال صفوة المؤرخين والكتاب ـ وأخيراً فإنى أكرر لك التهنئة وأرجو الله أن ينفع البلاد بعلمك وقلمك وأن يوفقك لكل خير.

* * *